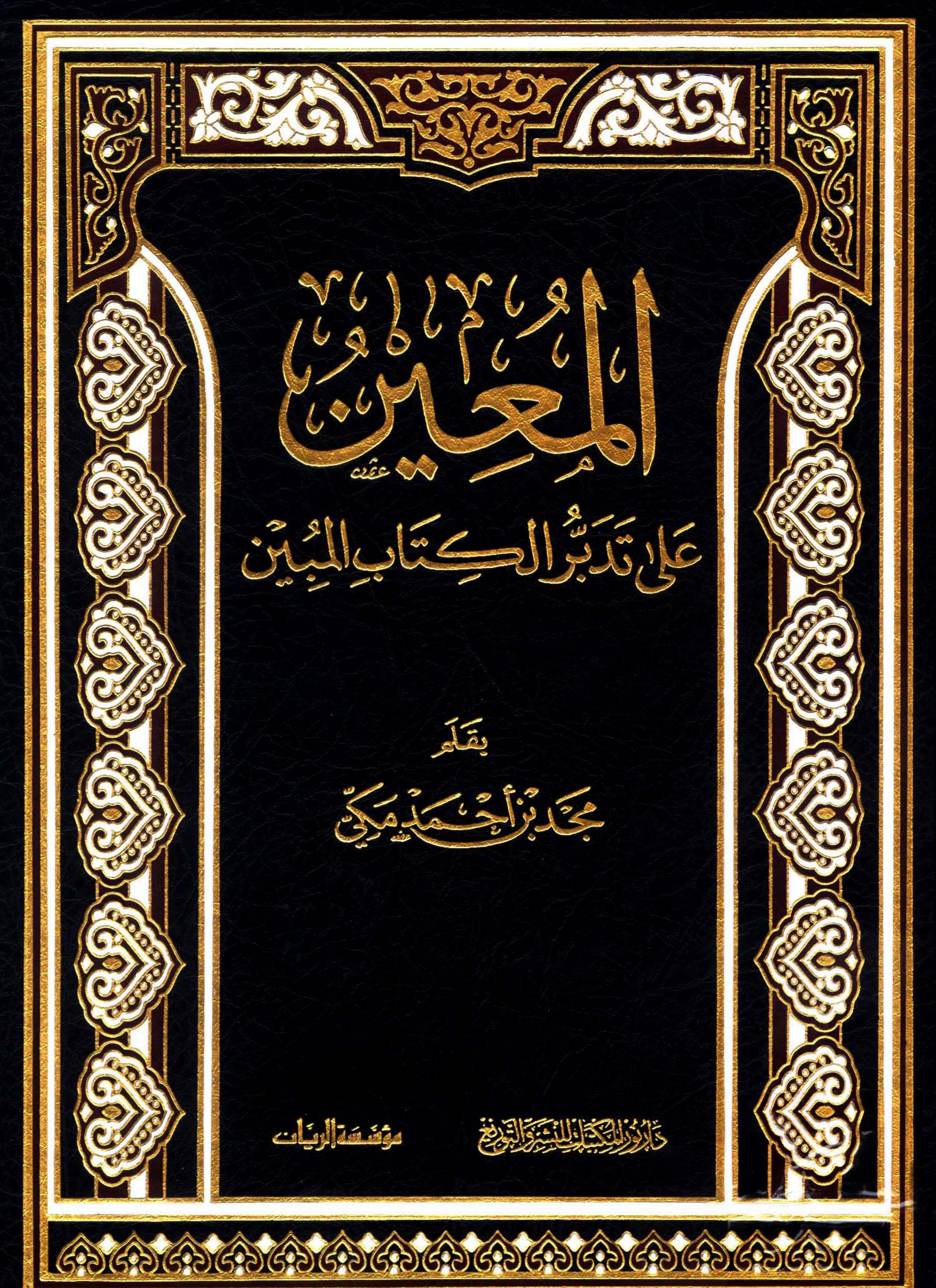

المعين
على تدبر الكتاب المبين
بقلم
مجد بن أحمد مكي
دار نور المكتبات للنشر والتوزيع
مؤسسة الريان



على تدبر الكتاب المبين

بقلم

مجد بن أحمد مكي





بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله الرحمن، علَّم القرآن، خلق الإنسان، علَّمه البيان، وصلاةُ اللَّهِ وسلامُهُ الأتمَّان الأكملان على نبيِّنا محمد الذي أنزل عليه الكتاب ولم يجعل له عوجاً، قيِّماً لينذر بأساً شديداً من لدنه، ويبشِّر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أنَّ لهم أجراً حَسَناً، ورضي الله عن آله وأصحابه والتَّابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد:

فإنَّ تدبُّر آيات الله في كتابه من أعظم العبادات، وأشرف الأعمال والطاعات.

وقد أنزل الله كتابه الكريم لنتدبَّر آياته، لا لنُعرض عنه ونهجره، وبعد الفهم والتدبُّر يكون التأثُّر والعمل بموجب العلم.

أهمية تدبُّر القرآن:

وتدبُّر القرآن أَوْلى وأوَّل ما يُشمِّر له أصحاب الهمم العالية، إذ هو مفتاح سائر علوم الإسلام، ولا يحسن بطالب العلم أن يقدِّم عليه سواه.

قال ابن القيم ـ (ت: ٧٥١) رحمه الله تعالى ـ: «فليس شيءٌ أنفع للعبد في معاشه ومعاده، وأقرب إلى نجاته من تدبُّر القرآن، وإطالة التأمل فيه، وجمع الفكر في معاني آياته»(١).

التدبُّر في اللغة والاصطلاح:

والتدبُّر لغة: مأخوذ من مادة (د ب ر) وهي آخر الشيء وخلفه، يقال: دبَّر الأمر وتدبَّره: نظر في عاقبته. واستدبره: رأى في عاقبته ما لم يَرَ في صدره. والتَّدبُّر في الأمر: التفكُّر فيه (٢).

وجاء على صيغة التَّفَعُّل، ليدلَّ على تكلُّف الفعل، وحصوله بعد جهد، والتدبُّر: حصول النظر في الأمر المُتَدبَّر مرَّة بعد مرَّة.

قال العلامة الآلوسي (ت: ١٢٧٠): «وأصْلُ التدبُّر: التأمُّل في أدْبار الأمور وعواقبها، ثمَّ استعمل في كلِّ تأمُّل سواء كان نظراً في حقيقة الشيء وأجزائه، أو سَوابِقِه وأسبابه، أو لواحقه وأعقابه»(٣).

والتدبُّر اصطلاحاً: هو تحديقُ ناظرِ القلب إلى معاني القرآن، وجَمْع الفكر على تأمُّله وتعقُّله، وهو المقصود بإنزاله لا مجرَّد تلاوته بلا فهم ولا تدبُّر (٤).

أو: هو التفكُّر الشامل الواصل إلى أواخر دلالات الألفاظ والكلمات والآيات والسور القرآنية ومراميها

---

(١) مدارج السالكين ١: ٤٧٥.
(٢) معجم مقاييس اللغة، لابن فارس ٢: ٣٢٤، ولسان العرب، لابن منظور ٤: ٢٣٧.
(٣) روح المعاني ٥: ٩٢.
(٤) مدارج السالكين، لابن القيم ١: ٤٧٥.

البعيدة[1].

ومن الكلمات التي بينها وبين التدبُّر تَقَارب وتَدَاخل في المعاني: **التفكُّر والتأمُّل**.

والتفكُّر: تصرُّف القلب في معاني الأشياء لدرك المطلوب[2]. **والتأمل**: تدقيق النظر في الآيات بغرض الاتِّعاظ والتذكُّر.

فالتدبُّر يعني النظر العقليَّ إلى عواقب الأمور، أي: إنه يتجاوز الحاضر إلى المستقبل، **والتفكُّر** جَوَلان الفكر في الأمر الذي تكون له صورة عقليَّة عن طريق الدليل، **وأما التأمُّل** فقد رُوعي فيه إدامة النظر والتثبُّت، ومن ثمَّ فلا تكون النظرة الواحدة تأملاً، وإن كان يمكن أن تكون من قبيل التفكُّر [3].

فهذه المعاني الثلاثة ـ وإن كانت متقاربة ـ إلا أنَّها ليست واحدةً، وإذا ذكر بعض أهل العلم أنها مترادفةٌ، فإنما يقصد فقط الترادف الجزئي الذي قد يوجد في بعض الأحيان دون بعضها الآخر.

الآيات التي تؤكد على أهمية تدبُّر القرآن الكريم:

١ ـ وفي التأكيد على أهميَّة التدبُّر أنزل الله على رسوله ﷺ في مكة قوله في سورة (ص): ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ فهذا الكتاب العظيم، قد أنزله الله تعالى إلى رسوله محمد ﷺ، وهو مُبارك لا تَنْضَب فيوض معانيه، ولكن هذه المعاني الثرَّة لا ينتفع بها إلا الذين يتدبَّرون آياته، ويتذكَّرون معانيه، ويتَّعظون به، وهذا التذكُّر المقصود لا يتحقق به إلا أصحاب العقول الحصيفة الدرَّاكة.

ومرحلة التدبُّر تأتي بعد الفهم، إذ لا يمكن أن يُطلب منهم تدبُّر كلام لا يعقلونه، وهذا يدلُّ على أنه لا يوجد في القرآن ما لا يفهم معناه مطلقاً، وأنَّ التدبُّر يكون فيما يتعلق بالمعنى المعلوم[4].

---

(١) قواعد التدبر الأمثل، للميداني ص ١٠.

(٢) التعريفات، للجرجاني ص ٦٦.

(٣) لم يرد لفظ التأمُّل في القرآن الكريم صراحةً، ولكن أشارت إليه عديدٌ من الآيات التي تأمر بالنظر في خلق الله، والتثبُّت في رؤية عجائب الكون وآثار السابقين، وقد نعت آياتٌ كثيرةٌ على المشركين عدم تأملهم فيما تشاهده أعينهم من عجائب صنع الله، وقد اقترنت آيات كثيرة بالأفعال «يروا، ينظروا» بصيغة المضارع التي تدل على الاستمرار وإدامة الرؤية أو النَّظر.

(٤) أخرج الطبري في «تفسيره» ١: ٣٤ من طريق أبي الزِّناد عبد الله بن ذكوان، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «التفسير على أربعة أوجه: وجه تعرفه العرب من كلامها، وتفسير لا يُعْذَرُ أحد بجهالته، وتفسير يعلمه العلماء، وتفسير لا يعلمه إلا الله» انتهى. **١ ـ أما التفسير الذي تعرفه العرب من كلامها،** فهذا سبيله معرفة استعمال **العرب** للألفاظ والتراكيب. قال الطبري ١: ٤١: «إما بالشواهد من أشعارهم السائرة، وإما من منطقهم ولغاتهم المستفيضة المعروفة». وهو مشروط ـ كما قال ابن جرير الطبري أيضاً ـ بأن «لا يكون خارجاً عن أقوال السلف من الصحابة والأئمة والخلف من التابعين وعلماء الأمة». **٢ ـ وأما التفسير الذي لا يُعذر أحد بجهالته،** فالمراد به ما هو بيِّنٌ بنفسه، يفهمه التَّالي، وهذا هو الأصلُ؛ لأن أكثر القرآن يعود إليه، ولأجله جاء الأمر بالتدبُّر، كما قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [ص:٢٩]، وقال: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر:١٧]. **٣ ـ وأما التفسير الذي يعلمه العلماء،** فهو الذي يدركه أهل التدبُّر العميق، والنظر الدقيق، والبصيرة النافذة الكاشفة. ولا يقتصر على القدر الذي يفهمه المتدبِّر السطحي، بل يصل إلى ما تشتمل عليه الآيات من معانٍ عميقة، ودلالات دقيقة. **٤ ـ وأما التفسير الذي لا يعلمه إلا الله تعالى،** فيراد به متشابه القرآن، وما تؤول إليه حقيقة الشيء الذي لا تصل العقول إلى حقيقته، وذلك مثل ما أخبر الله عنه من الغيوب، وهذا النوع من المتشابه الكلِّي الذي يستوي الناس جميعاً في عدم إدراكه.

٢-ثم أنزل الله تعالى على رسوله ﷺ في مكة قوله في سورة (المؤمنون): ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾﴾.

وفي قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ﴾؟ تأنيبٌ شديد للذين أعرضوا عن القرآن، وهجروه، ولم يعبأوا به، ولا بما جاء فيه، فلم يدبِّروا القول الذي أنزله الله ليفهموا دلالاته، حتى يهتدوا بهديها، ويعملوا بما جاء فيها.

٣ ـ ثم أنزل الله سبحانه على رسوله ﷺ في المدينة قوله في سورة (النساء): ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾.

«لقد ورد هذا النص في معرض الحديث عن المنافقين، وهم الذين يتظاهرون بالإسلام، ويعلنون الطاعة، ويحضرون مجالس الرسول ﷺ، ولكن قلوبهم غير مؤمنة، وأفكارهم منصرفة معرضة عن كلِّ ما يُبيِّن لهم.

هؤلاء قد وضع الله تعالى بين أيديهم ما يدلُّهم على الحق، ويهديهم سواء السبيل، ويقنعهم، لو أرادوا لأنفسهم النجاة، والسعادة الحقَّة الأبديَّة، قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ﴾ ولم يواجههم بهذا الخطاب إعراضاً عنهم في مقابل إعراضهم عن تدبُّر كتابه، وتفهُّم آياته، وفي الاستفهام الإنكاري هذا تلويمٌ لهم على ترك التدبُّر، لعلهم يثوبون إلى رُشدهم.

إنَّ هذا التدبُّر الذي يقصد منه البحث عن الحقيقة، والمقرون بالإخلاص في الوصول إليها؛ سوف يكشف لذوي الاستعداد منهم أنَّ هذا القرآن حقٌّ كلُّه، وأنه مُنزَّل من عند الله عزَّ وجل؛ لأنه لو كان من عند غير الله لاشتمل على اختلاف كثير في الواقع والحقيقة»[(١)].

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ﴾؟! «نعم! إنهم ولا شك ـ وكل أمثالهم منذ أربعة عشر قرناً، سواء كانوا من الكفَّار الصُّرحاء، أو من المنافقين ـ لا يتدبَّرون القرآن! ولو تدبَّروه بعقول وقلوب مفتوحة، لعلموا أنه من عند الله عزَّ وجل، وأنه لا يمكن أن يكون من عند غير الله سبحانه!

إنَّ بشراً في الأرض كلها لا يتأتَّى له أن يخرج كتاباً كهذا الكتاب المعجز على جميع المستويات، وفي جميع الاتِّجاهات، والذين يتعرَّضون للتأليف هم أدرى بهذه الحقيقة، كما كان العرب العالمون بأسرار البلاغة أدرى بحقيقة الإعجاز البلاغي للقرآن.

الاختلاف أوسع من التناقض:

والآية تُقرِّر أنه لو كان القرآن من عند غير الله ـ أي: من صُنع البشر ـ لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً. وأول ما يردُ على الذهن بشأن الاختلاف هو التناقض، وواضح أنَّ القرآن لا يحتوي اختلافاً بهذا المعنى، ولكن الاختلاف في الحقيقة أوسع من التناقض، إنه يمكن أن يمتدَّ إلى جميع المستويات بلا استثناء. وهنا يتبدَّى إعجاز القرآن على ذات المستوى الذي يتبدَّى به الإعجاز البلاغي بلا اختلاف[(٢)].

---

(١) قواعد التدبُّر الأمثل، للميداني ص ١٠ ـ ١١ .
(٢) ينظر: موضوع التوازن في مبحث الإعجاز التربوي في كتاب: «لا يأتون بمثله» للأستاذ محمد قطب، ص١٠٧ ـ ١١٣ .

وجه جديد من وجوه إعجاز القرآن:

إنَّ القرآن العظيم في المقام الأول كتاب تربية وتوجيه، وهو الذي أنشأ هذه الأمة التي وصفها خالقها هذا الوصف: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وهو ـ من هذه الوجهة ـ يتناول كلَّ ميادين التربية الرئيسة في حياة «الإنسان» على مستوى واحد من توجيه الاهتمام، وعلى مستوى واحد من الإتقان والإحكام.. بلا اختلاف!

ففي تربية الروح، وفي تربية العقل، وفي تربية الجسد.. وفي التربية السياسية والاجتماعية والأخلاق.. تجد الدرجة ذاتها من الإحكام، كما تجد وحدة التوجيه نحو إنشاء «الإنسان الصالح» على نَسَق لا مثيل له في منهج البشر التي تُعنى بجانب وتُهمل جانباً آخر، وتُركِّز على جانب على حساب جانب آخر.

والقرآن ينشيء مجتمعاً متوازناً من أفراد متوازنين، بلا اختلاف في التَّوجيه بالنسبة للفرد وبالنسبة للمجتمع، لا مثيل له في كلِّ ما يصنع البشر من نُظم ومناهج، تُبرز كيان الفرد لتُفتِّت تماسك المجتمع، أو تُبرز كيان المجتمع لتسحق كيان الفرد.

والقرآن ينشيءُ فرداً وجماعة توازن بين مطالب الجسد ومطالب الروح، وبين الدنيا والآخرة بلا اختلاف! على نسق لا مثيلَ له في كلِّ الحضارات التي تُبرز عالم الجسد لتطمس عالم الروح، أو تبرز عالم الروح لتحتقر الجسد وتستقذره وتُذله.

وهكذا.. في أيِّ مجال وعلى أي مستوى تدبَّرت هذا القرآن وجدت أنه يحوي توجيهاً مُوحَّداً.. **بلا اختلاف!** وعلى درجة معجزة **في كلِّ جانب،** ثم على درجة أشد إعجازاً في اجتماع **كلِّ الجوانب**.. وبلا اختلاف فيما بين توجيه لجانب وتوجيه لجانب آخر..

وهذا الكتاب ما يملك أحد أن يتدبَّره دون أن يرى لوناً من الإعجاز فيه.. ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾»[1].

الآية الرابعة والأخيرة نزولاً في الدعوة إلى التدبُّر:

٤ ـ ثم أنزل الله سبحانه على رسوله ﷺ في معرض الحديث عن المنافقين أيضاً قوله تعالى في سورة (محمد): ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾.

فارتقى البيان بالمنافقين المعرضين عن تدبُّر القرآن من دعوتهم إلى التدبُّر، إلى توبيخهم على ترك التدبُّر، وتأنيبهم بأن قلوبهم مقفلة، فهي لا تسمح بدخول الهداية إليها.

عطاء القرآن المستمر:

والقرآن الكريم عطاؤه مُستمر لا ينفد، وبيانه مُتجدِّد لا ينقطع، ومعانيه كثيرة لا تنْضب، وقد اجتهد الكثير من العلماء في الدعوة والتذكير بضرورة تدبُّر هذا الكتاب المبين، وأكَّدوا لزوم ذلك وأهميته.

---

(١) دراسات قرآنية، للأستاذ محمد قطب ص ٤٧٦ ـ ٤٧٧.

وقام كثير من المفسرين بهذه المهمة خير قيام، وما تفسيره إلا ثمرة للتأمُّل والتدبر، وقد اختلفت مناهج المفسرين في تفسيره، فمنهم من غلبت عليه النزعة الفكرية الجدليَّة، فتوسَّع توسُّعاً كبيراً في شرح الآيات المُتَّصلة بهذه المعاني، وَغَلبت على تفسيره هذه الظاهرة، ومنهم من غلبت عليه النَّزعة اللغوية والبلاغية، فتوسَّع توسُّعاً كبيراً في هذه النواحي، ومنهم من غلبت عليه النَّزعة الفقهية، فتوسَّع فيها، ومنهم من توسَّع في القصص والأخبار، ومنهم من توسَّع في الأخلاق والمواعظ، ونحو ذلك. كذلك كان من المفسِّرين من أطال حتى أملّ، ومنهم من اختصر حتى أخلّ، ومنهم من توسَّط بين هذا وذاك.

الدعوة المتجددة إلى كتابة تفسير ملائم لأهل العصر:

وهذه الجهود الموفَّقة في تفسير القرآن يسَّرت السبل للانتفاع به، والاستضاءة بنوره، غير أنَّ كلَّ زمان له مقتضيات، وكل بيئة لها حاجات. يقول الأستاذ عبد الوهاب خلاف ـ (ت: ١٣٧٥) رحمه الله تعالى ـ في مقال له بعنوان: «واجبنا في خدمة القرآن»: «فأوَّل واجب علينا في خدمة القرآن: وضع تفسير سهل العبارة، حسن الأسلوب، يُلائم أساليب عصرنا وثقافتنا، يستبين منه المسلم معاني المفردات والمراد من الآيات، ويسترشد إلى ما في الآية من هُدًى ورحمة، ومن دروس وعبر، ليس فيه طول مُمل، ولا إيجاز مُخل، ولا نحو ولا إعراب، ولا إسرائيليات ولا اختلافات، وجملة وصف هذا التفسير: أنه تفسير يُبيِّن هداية القرآن، ويجعل القارئ والسامع مُتَّصلاً بمعانيه والمراد منه، لا مُجرَّد مُردِّد للصوت بألفاظه، وهذا التفسير موجود، ولكنه مُفرَّق ومبثوث في التفاسير، والواجب أن نستخلصه منها، ونُحسن الصياغة والترتيب. ولقد سُئل بعض العلماء: ما خير التفاسير؟ فقال: خير التفاسير مبثوث في التفاسير. وكثير ما سُئل الواحد منا: عن خير تفسير تُفهم منه الآيات بسهولة، وبدون احتمال عناء في الإعراب، والخلافيَّات والإسرائيليات، فلا نستطيع الجواب عن هذا السؤال.

إنَّ التفاسير التي بين أيدينا قيِّمة ونافعة، ولكن لا ينتفع بها إلا خاصَّة الخاصَّة؛ ولهذا تعذَّر على أكثريَّة المتعلِّمين من المسلمين أن يتَّصلوا بمعاني القرآن الكريم، وأن يتعرَّفوا على ما اشتمل عليه. والمقصود الأول من القرآن: هُداه ونوره وما جاء به»[١].

وقد اجتهد الكثير من العلماء والهيئات والمؤسَّسات العلمية في كتابة تفاسير تُحقِّق هذا الهدف المنشود، وأبلى الكثير منهم في هذا الميدان أحسنَ البلاء، ووضعوا عدداً كثيراً من التفاسير النافعة الجامعة، وكلٌّ منهم ولَّى في تفسيره الوجهة التي رأى فيها خدمة كتابِ الله تعالى، وتقريبه للمسلمين.

توجُّهي لكتابة هذا التفسير:

ومن ثَمَّ أردتُ أن أدلي بدلوي المتواضع في هذا المضمار، مُستشعراً خطورة الدخول في هذا الميدان، وذلك خشية أن تُقام علينا الحجَّة إن لم نقم بواجبنا نحو القرآن، ولشدَّة حاجتي من جهة ثانية لتدبُّر كتاب الله تعالى، وللأمل في أن أكون من أهل الله تعالى وخاصَّته، وأن ألحق بهذه القافلة المباركة التي خدمت كتاب

---

(١) مجلة «لواء الإسلام» العدد الرابع من السنة الخامسة (١٣٧٠)، ومجلة «كنوز الفرقان» العدد الأول من السنة الرابعة (١٣٧١).

الله تعالى عبر الأجيال، وأتشبه بهم، وأنضم إلى ركبهم، سائلاً المولى سبحانه الإخلاص والتوفيق، والهداية إلى أقوم طريق.

وهذا العمل الذي شرَّفني الله تعالى به، كان أمنيةً قديمة في نفسي، ورغبةً حقَّقها الله لي.

وكثيراً ما كنت أُسائِلُ نفسي عند تلاوة القرآن عن معنى كلمة، أو مرجع ضمير، أو دلالة جملة، وأرغب أن أقف أثناء التلاوة على هذا المعنى بوضوح، ورأيت أنَّ الكثير ممن أسهموا في تفسير كتاب الله تعالى؛ لإعانة القارئ، اقتصروا على معاني بعض الكلمات، أو اكتفوا باختصار بعض العبارات.

وعلى كثرة ما كُتب في عصرنا هذا من تفاسير مُوجَزة مختصرة مُيسَّرة لا تخلو من ثغرة ونقص، كما هو شأن الأعمال البشريَّة، ولا أدَّعي لنفسي العصمة من الزَّلل، ولا السلامة من الخطأ، ولكنِّي سدَّدت وقاربتُ، وبذلتُ جهدي في تقديم المعاني الموجزة التي تُقرِّب المعنى، وتحقِّق الفهم للآيات بأيسر طريق، وأدق عبارة.

بداية العمل في هذا التفسير:

وقد بدأتُ هذا العمل في أول شروعي فيه بالاعتماد على تفسير الإمام الخازن علي بن محمد ـ (ت: ٧٤١) رحمه الله تعالى ـ **«لباب التأويل في معاني التَّنزيل»**، وهو من أفضل التفاسير وأوضحها وأدقها عبارة، وصاحبهُ فقيه محدِّث، وتفسيره ـ مظلوم ـ بتُهمة الإكثار من الإسرائيليات، مع أنه يُنبِّه إلى كثير من ذلك، ويُحرِّر المسائل العلمية، وقد انتهيتُ من اختصاره في فترة وجيزة، وقدَّمت الكتاب للطباعة، وانتهيتُ من تصحيحه، ليكون عملي مُقَارباً لمن اختصر تفسير الطبري (ت: ٣١٠)، أو ابن كثير (ت: ٧٧٤)، أو الشوكاني (ت: ١٢٥٠)، أو القاسمي (ت: ١٣٣٢)... ممَّا هو منتشر بين أيدي الناس.

ولكنِّي رأيت أن اختصار تفسير الخازن ـ على نفعه ـ لا يُحقِّق الغاية المرجوَّة التي أطمح إليها، ولا سيما فيما يحتاج إليه القارئ المعاصر من معاني جديدة، وترجيحات سديدة، وتوجيهات مفيدة، ولغة تناسب العصر .

الإشادة بتفسير العلامة الميداني وصلتي به:

وكنتُ أتابع أثناء عملي في «التفسير» ما يُصدره شيخنا العلامة الجليل عبدالرحمن حبنكة الميداني ـ (ت: ١٤٢٥) رحمه الله تعالى ـ من تفسيره التدبُّري العميق «معارج التفكُّر ودقائق التدبُّر»، وأُراجعه فيما يكتب، وقد أُعجبت بمنهجه، وبما فتح الله عليه من فهم عميق، وتدبُّر دقيق لكتاب الله، فأخذتُ أعيد النظر فيما كتبت، مُستفيداً مرحلةً بعد مرحلةٍ مما كان يكتبه في تفسيره الذي أصدره تباعاً وَفْقَ مراحل النزول، حتى انتهى من التنزيل المكي[1].

ولشيخنا رحمه الله تعالى منهج متميِّز في التدبُّر، أوضح ملامحه، وذكر قواعده في كتابه النفيس

---

(١) انتهى الشيخ رحمه الله تعالى من تفسير القسم المكي حسب النزول، وصدر في (١٥) مجلداً، ثم شرع في تدبُّر سورة البقرة من أول التنزيل المدني، وتكلَّم عن موضوع السورة، ودروسها، وحال الأجل دون تحقيق الأمل، وقد كتبت كلمات في التعريف بتفسيره التدبُّري في مجلة «هدى القرآن» التي تصدرها الهيئة العالمية لتحفيظ القرآن بجدة في العدد الثاني، سنة (١٤٢٥)، ثم صدر سنة (١٤٢٧) عن دار القلم بدمشق بعنوان: «التعريف بكتاب معارج التفكُّر».

«قواعد التدبُّر الأمثل» الذي اشتمل على أربعين قاعدة، ويُعدُّ الشيخ ـ بحق ـ من روَّاد علم التدبُّر في عصرنا هذا، وذلك فضل الله سبحانه يُؤتيه مَنْ يشاء من عباده.

ونظراً لطول الكتاب، وكثرة مباحثه، وسَعَةِ موضوعاته أولاً، ولاقتصاره على مرحلة التنزيل المكي ثانياً، أحببتُ أن أقدِّم للقارئ المعاصر خلاصة وافية مركَّزة لما كتبه الشيخ في «تفسيره التدبُّري» ليكون مُعيناً لمن أراد التعمُّق في التدبُّر بالرجوع إلى تفسيره، واستجلاء المعاني الدقيقة منه، وقد التمست خطى الشيخ فيما كتبه في تدبُّر السور المدنيَّة، مُستنيراً ببعض «قواعد التدبُّر الأمثل»، ومُستفيداً ممَّا دوَّنه في بعض كتبه الأخرى مثل: «ظاهرة النفاق»، و«فقه الدعوة»، و«أمثال القرآن»، و«الأخلاق الإسلامية»... وكلُّها تدور حول التفسير الموضوعي الذي يُتابع مراحل النزول، ويجمع الآيات في موضوع واحد بتناسق وترابط.

أهم مصادري في هذا التفسير:

ورجعتُ في تفسيري هذا إلى مصادر كثيرة أُخرى سوى ما ذكرت على سبيل الاستئناس والاسترشاد، كالتَّسهيل لابن جُزي (ت: ٧٤١)، وتفسير النسفي (ت: ٧١٠)، وابن كثير (ت: ٧٧٤)، و «الجواهر الحسان في تفسير القرآن» لعبد الرحمن الثعالبي (ت:٨٧٦)، و«تفسير الجلالين»: المحلي (ت:٨٦٤)، والسيوطي (ت:٩١١)، و «السراج المنير» للخطيب الشربيني (ت: ٩٧٧).

ومن تفاسير المعاصرين: «صفوة البيان» للعلامة حسنين محمد مخلوف (ت: ١٤٠٢) رحمه الله تعالى، و «المنتخب في تفسير القرآن» الذي أصدره المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بمصر، و «التفسير الميسَّر» الذي أصدره مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف في المدينة المنورة. كما استفدت في تفسير السور المدنية من الأجزاء العشرة الأولى، ممَّا كتبه العلامة الفقيه المفسِّر محمد أبو زهرة (ت: ١٣٩٤) رحمه الله تعالى في تفسيره النافع «زهرة التفاسير»، إلى غير ذلك من المصادر المتنوِّعة الكثيرة، والقراءات المتعدِّدة المستمرَّة المتَّصلة بكتاب الله عز وجل.

المستفيدون من هذا التفسير:

وقد حرصتُ أن يكون هذا التفسير مُخاطباً لعموم المثقفين، ولا سيما خرِّيجي الجامعات العلمية، مُحاولاً أن أُقرِّب إليهم الكثير من معاني الآيات الكريمة، لتكون خطوة نحو فهم عميق، وتدبُّر دقيق للكتاب الكريم.

وقد يجد المتخصِّصون من طلبة العلم الشرعيِّ في هذا التفسير ما يروقُ لهم، ويسرُّهم مما وفَّقني الله سبحانه إلى دقة فهمه وحُسن اختياره.

ولكن لا بدَّ للاستفادة من هذا الكتاب من إعمال الفكر، ومُعاودة النظر، وبذل الجهد، إذ لم يكن عملي مجرَّد اختصار، وإعادة ترتيب، بل فيه من دقائق النظر، وبدائع الفِكر ما يدعو إلى بذل الجهد، لا الاقتصار على القراءة العابرة السطحيَّة.

دقة هذا العمل ومشقته:

ولا يخفى عليك ـ أخي القارئ ـ دقَّة هذا العمل وصعوبته ومسؤوليته، وكنت أُعيد النظر في كلِّ كلمة

وجملة مرّات مُتعدِّدات، وزاد مشقَّة هذا العمل الالتزام بمقدار معيَّن مُحدَّد في حاشية المصحف الشريف. فكنتُ في كثير من الأحيان أعدُّ الكلمات، وأقيس الصفحة، لتأتي الآيات في مكانها المحدَّد، ولو كان المكان مُتَّسعاً لجرى القلم بيُسْر وسهولة. والله -سبحانه ـ وحده يعلم قدر ما بذلته من جهد، فكم كتبت وشطبت! وكم أنعمت وفكرت! وكم تأملت ونظرت! وكم قدمت وأخَّرت!

لا يعرف **البحث** إلا من يكابده ... ولا **الكتابة** إلا من يعانيها

اعتذار ورجاء:

ولا يخلو عملي ـ على ما بذلتُ من جهد ـ من قصورٍ، كيف وهو يحاول أن يسمو لتدبُّر كلام الله سبحانه وتعالى. وإذا كان الكاتب في مختلف مجالات العلوم، يزيد وينقص، ويؤخِّر ويقدِّم، كما يقول القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني (ت: ٥٩٦) فيما كتبه إلى نائبه في وزارة الكتابة الأديب المؤرخ الشهير العماد الأصفهاني (ت: ٥٩٧) رحمهما الله تعالى: «إني رأيتُ أنه لا يكتب إنسانٌ كتاباً في يومه، ونظر فيه في غدِهِ إلا قال: لو غُيِّر هذا لكان أحسن، ولو زيد هذا لكان يُستحسن، ولو قُدِّم هذا لكان أفضل، ولو تُرِك هذا لكان أجمل، وهذا من أعظم العبر، وهو دليلٌ على استيلاء النقص على جُملة البشر»[(١)].

فكيف إذا كانت الكتابة تتعلَّق بكلام الله وتدبُّره في وقتٍ معدود، ومكان محدود. فرجائي من القارئ المنصف البصير أن يتجاوز عن الهفوات، والهَنَات الهيِّنات، فجلَّ من لا يسهو، وسبحان من لا ينسى، وتبارك اسم من تفرَّد بالكمال .

وأرجو أن يكون هذا العمل باكورةً لأعمال أخرى تتعلَّق بكتاب الله عز وجل وعلومه، وأن يتقبَّل مني هذا الجهد، ويُثيبني عليه، ويكرمني بكرامته ورضوانه .

أهم القواعد التي التزمت بها في هذا التفسير:

وقد اجتهدت خلال كتابتي لهذا التفسير التدبُّري الموجز على الاهتداء بجملة قواعد هادية تعين على تدبر كلام الله سبحانه بطريقة مُثلى، وصورة فُضلى، ومن تلك القواعد التي اجتهدت في الالتزام بها، وإيرادها في هذا التفسير التدبري:

١ ـ الاستفادة مما صحَّ من التفسير المأثور، والنظر فيما ورد من أقوال المفسرين المعتمدين، واعتماد ما هو راجح.

٢ ـ النظر فيما ورد من أسباب النُّزول، مما صحَّ سنده مع مراعاة قاعدة: «العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب»، ومراعاة دلالة السياق والقرائن التي تدلُّ على تخصيص العام.

٣ ـ اخترتُ من معاني الكلمات القرآنية المعنى المراد الذي يُلائم دلالة النصِّ القرآني بوجهٍ عام، وكما هي في كلام العرب في عصر نزول القرآن، وابتعدت عن المعاني الاصطلاحيَّة المتأخِّرة

---

(١) شرح الإحياء ١: ٣ للإمام المرتضى الزبيدي رحمه الله تعالى.

عن عصر التنزيل، مع النظر فيما قاله أهل التفسير في معنى الكلمة، للاهتداء إلى فهم المعنى المراد بتوفيق الله تعالى.

٤ ـ حَمْل النص على كلِّ المعاني إذا كانت الكلمات أو الجمل القرآنية تدل على أكثر من معنى، وعدم قصر النصِّ على واحد منها دون غيره، تمشِّياً مع عطاء القرآن الثَّر، الذي لا تنقضي عجائبه، ولا تَنْضَب معانيه.

٥ ـ اسْتِبْعَاد احتمال التكرير لمجرَّد التأكيد ما أمكن؛ لتكامل النصوص القرآنيَّة، ولأن التأسيس في كلِّ نصٍّ منها مُقدَّم على التأكيد.

٦ ـ ملاحظة قواعد اللغة العربية، وتوجيه الآيات التي يُخالف إعرابها مقتضى الظاهر من خلال التفسير، كما في تفسير الآية (١٧٧) من سورة البقرة، والآية (١٦٢) من سورة النساء، والآية (٦٩) من سورة المائدة، وغير ذلك كثير.

٧ ـ استجلاء الغرض الفكري من الوجوه البلاغيَّة التي اشتملت عليها نصوص القرآن، مع الإيجاز الشديد والاقتصاد في العبارة، والتنبيه على أغراض الاختلاف في أسلوب التعبير في النصوص القرآنية.

٨ ـ محاولة فهم الآية القرآنية وفق ترتيب نظمها.

٩ ـ بيان بعض ما يشتمل عليه النص القرآني من أوجه، وما يهدف إليه من أغراض تربويَّة وتعليمية.

١٠ ـ عُنيت بخواتم الآيات ومراميها، وما تشتمل عليه من قضايا كليَّة ترتبط بما جاء قبلها بمضمون الآية.

١١ ـ اعتنيتُ بما جاء في الآيات القرآنية من قَسَم؛ بذكر المناسبة بين المُقْسَم به والمُقْسَم عليه، وبيان الغرض من القسم، والتنبيه على ما فيه من دلائل وعبر، وأوضحت الحكمة من القسم المسبوق بحرف النفي (لا) الوارد في القرآن في سبع سور بصيغة: (لا أقسم) في الواقعة (٧٥ ـ ٨٠)، والحاقة (٣٨ ـ ٤٣)، والمعارج (٤٠ ـ ٤١)، والقيامة (١ ـ ٤)، والتكوير (١٥ ـ ٢١)، والانشقاق (١٦ ـ ١٩)، والبلد (١ ـ ٤).

١٢ ـ ملاحظة العمق القرآني، والتنبيه إلى كثيرٍ من المعاني العميقة والدلالات الدقيقة التي لم يرد في النص ألفاظ صريحة تدل عليها دلالة واضحة، كالمحاذيف التي تُحذف للإيجاز، ويقتضيها معنى النص، واللوازم الفكرية، والكنايات البعيدة، وقد أنعمتُ النظر في استنباط المضامين الفكرية التي تُستفاد من النَّص عن طريق اللزوم الفكري، أو الإشارات الضمنيَّة للكلام، بما فيها من تلويح، أو تلميح، أو تعريض، أو كناية، أو غير ذلك؛ إذ أنَّ الكثير من المعاني تُستفاد من النص لزوماً أو يقتضيها النصُّ اقتضاءً، كسؤالٍ ذُكر جوابه دون أن يُذكر، وجوابٍ ذكر سؤاله دون أن يذكر، واعتراض ردَّ النص عليه دون أن يُذكر في اللفظ، لكنه مُلاحظٌ ذهناً، وتتمَّات يستدعيها اللزوم العقلي، وقد سَكَتَ النصُّ عنها، كما راعيتُ ظاهرة التَّضمين، وهو أن تُذكر كلمة ذات معنى، وتُضمَّن مع معناها كلمة أخرى، ثم يُبنى عليها كلامٌ على أساس معنى الكلمة الأخرى.

١٣ - النظر في توجيه الخطاب الرباني، فالنصوص المصدَّرة بخطاب الناس **(يا أيها الناس)** تشتمل على معنى يضم الناس جميعاً، وقد تكررت نداءات الله تعالى للناس سبع مرات في كتاب الله تعالى، والنصوص القرآنية المصدرة بخطاب المؤمنين **(يا أيها الذين آمنوا)** تشتمل على معان تخصُّ الذين آمنوا، وما يؤمرون به، وما يُنهون عنه، وما يُحذَّرون منه، وما يُوجَّهون له، وقد تكرَّرت نداءات الله للذين آمنوا (٨٩) مرة في كتاب الله، وخطاب الله عز وجل للرسول ﷺ في القرآن شامل للمؤمنين ما لم يكن فيه دلالة صريحة على الخصوصيَّة، وكذلك كلُّ تربيةٍ موجَّهةٍ للرسول ﷺ هي موجَّهة تبعاً لأمته. وخطاب المفرد هو خطاب لكلِّ فرد يصلح له الخطاب، وخطاب الذكور خطاب للإناث ما لم تأت قرينة صارفة، وهو أسلوب من أساليب التعميم الذي هو بمثابة النصِّ على العموم وتأكيده.

١٤ - التدبُّر في إسناد الفعل أو ما في معناه إلى ما يُسند إليه، إذ لا يشترط لصحة الإسناد أن يكون المسند إليه فاعلاً للشيء الذي تضمَّنه الفعل أو ما في معناه، أو موصوفاً به. ويقع كثيرٌ من مفسِّري الآيات القرآنية بأغاليط ناشئةٍ عن عدم ملاحظة العلاقات الإسنادية المختلفة، وعدم تدبُّر النصوص استهداءً بقرائنها السابقة واللاحقة. ومن هذه الأغاليط ما وقع به الجبريون لدى تفسير النصوص القرآنية المتعلقة بموضوع القضاء والقدر، تصوراً منهم أن إسناد الفعل أو ما في معناه إلى المُسْنَد إليه لا يُفهم منه إلا معنى القيام مباشرةً بالفعل. مع أن المسنَد إليه قد يكون هو الدال أو الداعي للقيام بما تضمنه الفعل، كما في الآية (٦١) من سورة الأنعام، والآية (٨٥) من سورة طه، والآية (٣) من سورة الإنسان، وغير ذلك كثير.

كما يُنسب إلى المسنَد إليه ما تضمَّنه الفعل أو ما في معناه إلى فاعله، أو من قام به، كقولنا: برَّأته إذا نسبته إلى البراءة، وذكرت أنه بريء، ومثل ذلك: صوَّبته، وخطَّأته . .

ومن الإسناد القرآني في حدود هذه العلاقة الكثير من الآيات، كما في الآية (٤٩) و(٨٨) من سورة النساء، والآية (٢٧) من سورة إبراهيم، إلى عشرات الآيات التي لا يُفهم من إسنادها إلى الله عزَّ وجل أنه هو المُجْبِر، مما يُسقط في المفاهيم الجبرية المفسدة لمعنى القضاء والقدر الذي دلت عليه النصوص الصريحة [١].

أهم الضوابط التي راعيتها في كتابة هذا التفسير:

كما راعيتُ أموراً أخرى سوى ما قدَّمته من قواعد منهجية التزمتُ بها، وهي أمورٌ تُحقِّق الهدف من إصدار هذا التفسير وتقريبه للقارئ، من أهمها ما يأتي:

١ - تفسير كل آية على حدة، وعدم إعادة ألفاظ النص القرآني في التفسير إلا نادراً.

٢ - الإشارة إلى رقم الآية في بداية تفسيرها.

٣ - تجنَّبت ذكر القراءات ومسائل النحو والإعراب.

---

(١) تنظر هذه القاعدة المهمة في كتاب «قواعد التدبر الأمثل» القاعدة السابعة والثلاثون ص ٦٦٥ ـ ٦٨١.

٤ ـ التزمت رواية حفص عن عاصم، وهي الرواية التي طُبع التفسير في حاشيتها.

٥ ـ حرصت على أن يكون التفسير بالقدر الذي تتَّسع له حاشية «مصحف المدينة النبوية» المنورة، ليشترك اللسان والعقل والقلب في تلاوة القرآن حق تلاوته. فحظُّ اللسان: تصحيح الحروف بالترتيل، وحظُّ العقل: تفسير المعاني، وحظُّ القلب: الاتِّعاظ والتأثُّر، فاللسان يرتِّل، والعقل يترجم، والقلب يتَّعظ.

٦ ـ سهولة البحث وتسهيل الفهم والتدبُّر، فكونه في مجلد واحد يساعد في الوقوف على معنى الآية أثناء التلاوة دون البحث في عدَّة مجلدات، وكذلك سهولة حمله واقتنائه.

٧ ـ اخترت أن يكون أسلوب كتابتي لهذا التفسير صالحاً لجميع القراء على اختلاف مستوياتهم الثقافية وَفق الأسلوب السهل الممتنع، فالعالم المتخصِّص في التفسير والعلوم الشرعيَّة يجد فيه معانٍ جديدةً يستفيدها، والمثقف الجامعي في العلوم المختلفة يجد فيه ما يحقق مقصده لفهم آيات كتاب الله المجيد، والمثقف المتوسط لا يجد فيه صعوبةً، تجعله يسأم من متابعة قراءته؛ لسهولة فهم كثير من معانيه، ودلالات عباراته، لأنني حرصت على كتابته بأسلوب عصريٍّ سهل ميسر واضح العبارة، وجيز لا يُخل ولا يُمل، حتى يكون قريباً من القارئ، ويكون كذلك صالحاً لترجمته إلى اللغات الأجنبيَّة ترجمةً دقيقةً صحيحة.

شكر ودعاء:

وبعد، فهذه بعض القواعد التي التزمتُ بها، والضوابط التي راعيتها، وقد تمَّ ـ بفضل الله وعونه ـ إنجاز هذا التفسير التدبُّري المعين، أسأل الله سبحانه أن يتقبله مني، ويجعله في ميزان حسناتي، وأن يكون مُعيناً للقراء على تدبر كتابه الكريم، وأن ينفعني بدعواتهم وإرشاداتهم.

وجزى الله عني خيراً كلَّ من أعانني في تأليف هذا الكتاب، وساعدني على التفرُّغ لإنجازه، وصبر على تأخري في إصداره، أو راجع بعض تجاربه، أو أبدى ملاحظاته، وأُجَزِّي بالخير الإخوة العاملين في مؤسسة الريان ببيروت، الذين قاموا بطباعته، وحُسْن ترتيبه، وجودة إخراجه، وصابروا على كثرة تعديلاتي وتنقيحاتي المتتابعة، حتى ظهر الكتاب في هذه الحلة الزاهية القشيبة، وجزى الله خيراً جميع أسرتي: زوجتي وأبنائي وبناتي خير الجزاء، الذين آزروني، وصبروا عن انشغالي عنهم، وانهماكي في كتابة هذا التفسير، لأُخَلِّف لهم أكرم ميراث يتدبَّرون به كتاب ربِّهم سبحانه في رحلة امتحانهم في دنياهم، ويتزوَّدون منه لآخرتهم، وهو سبحانه يتولاهم بما يتولَّى به عباده الصَّالحين.

ربِّ ألهمني الصواب، وسدِّدني، وافتح لي فتحاً مبيناً، واجعل عملي خالصاً لوجهك، وارفعني به عندك، وانفع به عبادك، وأتمم عليَّ نعمك، إنك أنت الوهاب، ولا حول ولا قوة إلا بك.

﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأحقاف: ٤٦].

ونسألُ اللَّهَ المُبْتدِئَ لنا بِنِعَمِهِ قَبْلَ اسْتحقاقِها، المُدِيمَهَا علينا، مع تقْصيرنا في الإتْيان على ما أوْجَبَ

به منْ شكره بها، الْجَاعِلَنَا في خير أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ للنَّاس: أنْ يرزُقَنا فهماً في كتابه، ثمَّ في سُنَّة نبيِّه، وقَوْلاً وعملاً يؤدِّي بها عنَّا حقَّه، ويُوجِبُ لَنَا نَافِلَةَ مَزِيدِهِ»[1].

«اللهم فلا تعذِّب لساناً يخبر عنك، ولا عيناً تنظر إلى علوم تدلُّ عليك، ولا قدماً تمشي إلى خدمتك، ولا يداً تكتب حديث رسولك ﷺ؛ فبعزَّتك: لا تدخلني النار، فقد ظننت في نفسي: أني أدافع عن دينك»[2]. ويرحم الله من قال: آمين.

والحمد لله أولاً وآخراً، وصلى الله وسلم وبارك على خاتم النبيين وإمام المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وكتبه:

مجد مكي

الاثنين ٢٦ من شوال ١٤٢٦

---

(١) اقْتباس من «الرسالة»: ص١٩ ـ ٢٠، للإمام الشافعي (ت: ٢٠٤) رحمه الله تعالى.

(٢) هذا الدعاء للعلامة ابن الجوزي أبي الفرج عبد الرحمن بن علي (ت: ٥٩٧) رحمه الله تعالى.

من أجل قراءة مؤثِّرة للقرآن الكريم

أولاً: استحضر عظمة الكلام الذي تتلوه، وجلالة قدره، وعلو منزلته، وتهيَّأ لتلاوته بالوجل والخوف، والرجاء والفرح به، ولاحظ فضل الله سبحانه ولطفه في إيصال معاني كلامه إلى فهمك.

ثانياً: استحضر عَظَمَة المتكلِّم سبحانه، وجلاله وهيبته، وأنَّ ما تتلوه ليس من كلام البشر، فإذا عظُم المتكلِّم في قلبك، وكبُر في نفسك، أطلت الفكر في خطابه، وأنعمت تدبُّر كلامه، وجدَّدت تذكره عند كلِّ مناسبةٍ تستدعي ذكره؛ لأنَّ القرآن ذكرٌ يجب علينا أن نفهمه أولاً، ونذكر ما فيه دواماً.

ثالثاً: استعذ باللّه عزَّ وجل من الشيطان الرجيم، واستحضر طلب العون من الله تعالى من كيد الشيطان، الذي يسعى جهده لصدِّك عن تلاوة كلام الله وتدبره، ويحول بينك وبين الانتفاع بالقرآن.

رابعاً: اقرأ قراءةً صحيحةً مُرتَّلة بتُؤَدَة واطمئنان؛ ليكون ذلك أدنى إلى فهم المعاني، وليكن همك عرض المعاني على قلبك عسى أن تتأثَّر وتخشع، ولا يكن همك متى تختم السورة.

قال ابن مسعود ـ (ت: ٣٢) رضي الله عنه ـ: (لا تهذُّوا القرآن هذَّ الشعر ـ أي: تسرعوا في قراءته كقراءة الشعر، ـ ولا تنثروه نثر الدَّقَل ـ وهو أردأ التمر ـ قفوا عند عجائبه، وحرِّكوا به القلوب)[١].

وقال الحسن البصري ـ (ت: ١١٠) رحمه الله تعالى ـ: (يا ابن آدم: كيف يرقُّ قلبُك، وإنما همَّتك آخر السورة).

خامساً: تدرَّج في التلاوة التأمُّلية التدبُّرية ما بين خمس آيات إلى عشر آيات، لترسخ معاني الآيات في عقلك وقلبك، وتتحوَّل بعد الفهم إلى العمل بمقتضاها والتطبيق لها.

قال ابن مسعود رضي الله عنه: (كان الرجل منا إذا تعلَّم عشر آيات لم يُجاوزهنَّ، حتى يعرف معانيهنَّ، والعمل بهنَّ)[٢].

سادساً: كرِّر القراءة للآية مراراً، وردِّدها لتقف على معانيها ومراميها.

عن أبي ذر رضي الله عنه قال: (قام النبي ﷺ بآية يُردِّدها)، وهي: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[٣].

سابعاً: تجاوب مع الآيات التي تتلوها بفهمها وتدبُّر معانيها، وأورد ما يُناسبها من الأدعية والأذكار،

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة (٣٠٧٨٢)، ومختصر قيام الليل، للمروزي ص ١١٦ و ١٣٥.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» ١: ٨٠ (٨٢)، والحاكم في المستدرك ١: ٥٥٧.

(٣) رواه أحمد في «المسند» ٥:١٤٩ (٢١٣٢٨)، والنسائي في «الكبرى» (١٠٨٤)، وابن ماجه في «السنن» (١٣٥٠) وقال البوصيري: إسناده صحيح ورجاله ثقات. وقد بوَّب الإمام أبو عُبيد القاسم بن سلام في كتابه «فضائل القرآن» باب ما يُستحبُّ لقارىء القرآن من تكرار الآية وتردادها، ثم ساق هذا الحديث (١١٨)، وأورد غيره من الأحاديث والآثار.

فإذا مَرَرت بآية تسبيح سبِّح وكبِّر، وإذا مررت بآية دعاء واستغفار ادعُ واستغفر، وإن مررت بمرجوٍّ اسأل، وإن مررت بمخوف استعذ، وافعل ذلك بلسانك وقلبك.

ثامناً: استوضح من معنى كلِّ آية ما يليق بها؛ إذ القرآن يشتمل على ذكر صفات الله عزَّ وجل، وذكر أفعاله، وذكر أحوال الأنبياء عليهم السلام، وذكر أحوال المكذِّبين لهم، وذكر أوامره وزواجره، وذكر الجنة والنار.

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: (من أراد خبر الأوَّلين والآخرين، فَلْيثوِّر القرآن، فإن فيه خبر الأولين والآخرين)[1] أي: ليُنقِّر عنه، ويفكِّر في معانيه وتفسيره.

قال مالك بن دينار ـ (ت: ١٣١) رحمه الله تعالى ـ: (يا حملة القرآن ما زرع القرآن في قلوبكم، فإن القرآن ربيع المؤمنين كما أن الغيث ربيع الأرض) [2].

تاسعاً: اجتنب موانع التدبُّر والفهم لمعاني القرآن، وهذه الموانع كثيرة، منها:

١ ـ أن يكون همُّك مُنصرفاً إلى تحقيق الحروف بإخراجها من مَخَارجها، فيكون تأمُّلك مَقصُوراً على مَخَارج الحروف، ويُثبِّطك عن المهم، وهو الوصول إلى فهم المعاني. فمثل من يفعل ذلك مثل من اشتغل بالوسائل، وأعرض عن المقاصد.

٢ ـ أن تكون مُقلِّداً لمذهبٍ سمعته بالتَّقليد وجَمَدت عليه، وثَبَت في نفسك التعصُّب له بمجرَّد الاتِّباع للمسموع من غير وصولٍ إليه ببصيرةٍ نيِّرةٍ، وبُرهان ساطع، فيكون مثلك كمثل شخص قيَّدَهُ معتقده من أن يجاوزه، فصار نظره موقوفاً على مسموعه، فإن بَدَا له معنى من المعاني التي تُباين مسموعه حَمَلَ عليه شيطان التقليد حَملةً منكرة، وقال: كيف هذا يخطر ببالك، وهو خلاف معتقد آبائك؟! فيرى أنَّ ذلك الذي فُتح له فهمٌ في ذلك المعنى الذي بَدَا له غُرور الشيطان، ويعدُّه من تلبيساته، فَيَتَباعدُ عنه، ويتحرَّز عن الوقوع في مثله.

٣ ـ أن تكون مُصِرّاً على ذنب، أو مُتَّصفاً بِكِبْرٍ وعُجب [3]، أو مُبتلًى في الجملة بهَوًى في الدنيا يُطاع بما تميل إليه نفسك، فإنَّ ذلك سبب ظُلمة القلب وصدأه.

وكُلَّما كانت الشَّهوات أشدَّ تراكماً، وأكْثَرَ تَوَارداً، كانت معاني الكلام أشدَّ احتجاباً، وأكثر استِتاراً، وكلَّما خَفَّت عن القلب أثقالُ الدنيا، قَرُب تجلِّي المعنى فيه، فالقلب مثل المرآة

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٠٦٤١)، وابن المبارك في «الزهد» (٨١٤)، والطبراني في «الكبير» (٨٦٦٤)، وأورده الهيثمي في «المجمع» ٧: ١٦٥ بلفظ: «من أراد العلم فَلْيثوِّر القرآن، فإن فيه علم الأوَّلين والآخرين»، ثم قال: رواه الطبراني بأسانيد، ورجال أحدها رجال الصحيح، وقال مسروق بن الأجدع الكوفي (ت: ٦٢): «من سرَّه أن يعلم علم الأوَّلين والآخرين، فليقرأ سورة الواقعة» كما في «سير أعلام النبلاء» ٤: ٦٨ للذهبي. وقال: «هذا ما قاله مسروق على المبالغة، لِعظَمِ ما في السورة من جُمَل أمور الدارين، ومعنى قوله: فَلْيقرأ الواقعة. أي: يقرؤها بتدبُّر وتفكُّر وحضور».

(٢) مختصر قيام الليل، ص١٦٠.

(٣) ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٦] قال سفيان بن عُيينة: «أنزع عنهم فهم القرآن» كما في تفسير الطبري ١٣: ١١٢.

المجلوَّة، والشَّهوات عليه مثل الصَّدأ على المرآة، ومعاني القرآن مثلُ الصُّورة التي تتراءى في المرآة، فما دام صدأ الشَّهوات عليها لا تتجلَّى الصُّور على حقيقتها.

وقد شرط الله تعالى الإنابة في الفهم والتذكُر، فقال تعالى: ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ [غافر: ١٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ٩]، والذي آثر غُرور الدنيا على نعيم الآخرة فليس من ذوي الألباب، فلذلك لا تنكشف له أسرار الكتاب، ولا يُفتح له في تدبُّرها باب.

٤ ـ أن تكون قد قرأت تفسيراً ظاهراً، فاعتقدت أنه لا معنى لكلمات القرآن، إلا ما تناوله النقل عن بعض السَّلف، وأنَّ ما وراء ذلك تفسيرٌ بالرأي، وأنَّ من فسَّر القرآن برأيه فقد تبوَّأ مقعده من النار، فلا طريق لفهم القرآن وتدبُّره إلا بما نُقل عن هؤلاء الأئمة، فهذا أيضاً من الحُجُبِ المانعة عن فهم القلب للمعاني [١].

عاشراً: قدِّر نفسك أنك المقصود بكلِّ خطاب جاء في القرآن، فإن سمعت أمراً أو نهياً قدِّر أنك المنهيُّ والمأمور، وتبرأ من حولك وقوتك، ولا تلتفت إلى نفسك بعين الرِّضا والتزكية، فإذا تلوت آيات الوعد والمدح للصالحين، فلا تشهد نفسك عند ذلك، بل اشهد الموقنين والصِّديقين. وإذا تلوت آيات المقت وذم العصاة والمقصّرين شهدت نفسك هناك، وقدَّرت أنك المخاطب خوفاً وإشفاقاً.

حادي عشر: ترقَّ في تلاوة كلام الله بأن تُقدِّر أنك تقرؤه على الله عزَّ وجل واقفاً بين يديه، وهو ناظر إليك، ومستمع منك، ويكون حالك: السؤال والتملُّق والتضرُّع والابتهال، ثم تترقَّى إلى درجة ثانية، وهي أن تشهد بقلبك؛ كأن الله عز وجل يُخاطبك بألفاظه، ويناجيك بإنعامه وإحسانه، فمقامك: الحياء والتعظيم، والإصغاء والفهم، ثم تترقى إلى درجة ثالثة، وهي أن ترى في الكلام أوصاف المتكلِّم، فتكون مقصور الهم على المتكلِّم، موقوف الفكر عليه كأنك تشاهده[٢]. «فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

ثاني عشر: أحسن صُحبة كتاب الله عزَّ وجل بحمل رسالته، وتحقيق أهدافه ومقاصده، واعلم أنَّ هذا القرآن الحبيب لا يفتح كنوزه إلا لمن يعمل به، ويتحرَّك به حركةً عمليّةً واقعيّةً، ويتزوَّد بالزاد العلميِّ الذي يملأ وقته، ويستولي على أحاسيسه ومشاعره.. أما الذي يقرأ القرآن ـ ولو على القراءات العشر ـ ويحفظ

---

(١) قال الغزاليُّ في «الإحياء» ١: ٢٩٠: «وليس معنى فهم القرآن: حفظُ تفسيره، فإنَّ في معاني القرآن مُتَّسعاً بالغاً، ومجالاً رحْباً لأرباب الفهم، وإنَّ المنقول من ظاهر التفسير ليس مُنتهى الإدراك فيه»، ثم وجَّه معنى النهي عن تفسير القرآن بالرأي بأنه يُنزَّل على أحد وجهين: **أحدهما**: أن يكون له في الشيء غرض، وإليه مَيل من طبعه وهواه، فيتأوَّل القرآن على وَفْق رأيه وهواه، ليحتجَّ به على تصحيح غرضه، فيكون المراد بالرأي: الرأي الفاسد الموافق للهوى دون الاجتهاد الصحيح. **والوجه الثاني**: أن يُسارع إلى تفسير القرآن بظاهر العربية من غير استظهار بالسَّماع والنَّقل فيما يتعلَّق بغرائب القرآن، وما فيها من الألفاظ المبهمة والمجملة والمُبدَلة، وما فيها من الإيجاز والاختصار، والحذف والإضمار، والتقديم والتأخير، وغير ذلك.
فَمن لم يُحكِم ظاهرَ التفسير، وبادر إلى استنباط المعاني بمجرَّد فهم العربية كثُر غَلَطُهُ، ودَخَل في زُمْرة من يفسِّر القرآن بالرأي وهوى النفس» انتهى. وقد نقل هذا التوجيه لأحاديث النهي عن التفسير بالرأي ابن الأثير في «جامع الأصول» ٢: ٤، والقرطبي في مقدمة «تفسيره» ص٩٢ ـ ٩٣ دون أن يعزواهُ إلى الغزالي.

(٢) الإحياء ١: ٢٨٧، والبرهان ١: ٤٥٢.

أجزاءَهُ الثلاثين، ويُطالع معظم تفاسيره، ويبحث عن بيانه وأسلوبه وبلاغته، وهو (قاعدٌ) عن اهتماماته وحركته ودعوته، فإنَّه لا يمكن أن يتعرَّف على القرآن، ولا أن يُحسن صُحبته، ولا أن يتعامل معه!!

فعليك أن تدعو النَّاس إلى القرآن، وتُربِّيهم عليه، وتعقد حلقات ودورات التلاوة والحفظ، والتدبُّر والفهم، ومجالس التَّزكية والتَّربية.. ولتواجه الأعداء بالقرآن، وتجاهدهم به، وتُحصِّن شباب الأمَّة بالقرآن.. وعليك أن تُعطي القرآن أفضل أوقاتك، وأبرك ساعاتك، وهي ما تكون وقت السحر لمناجاة الله، وبعد الفجر للتلاوة والحفظ والتدبُّر، وفي النهار للدعوة والتَّوجيه والتَّزكية.

ولا تنسَ هذه القاعدة الصَّادقة: **إنَّ القرآن لا يُعطيك بعضه إلا إذا أعطَيْتَه كلك.** ومعنى أن تُعطي القرآن (كلك): أن تَقْصُر هدفك وغايتك عليه، وتُوجِّه همَّك واهتمامك له، وتملأ أوقاتك به، وتعيش مع القرآن في حياتك.

* * *

الاستعاذة
أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

أمر الله تعالىٰ رسوله ﷺ أن يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم إذا أراد أن يقرأ القرآن، قال الله سبحانه: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨]. والأمر بالتعوُّذ يعمُّ جميع الأمة، وهو أمرٌ للنَّدْب لا للوجوب.

والحكمة في مشروعيَّة التعوُّذ عند إرادة القراءة هي: أنَّ قراءة القرآن الكريم عبادة عظمىٰ، تتطلَّب الإخلاص لله تعالى، وإحضار القلب؛ ليعظم الأجر، وتتحقَّق الفائدة. وإنَّ من شأن الشيطان أن يوسوس للإنسان إذا دخل في عبادة، ليشغل قلبه عن الحضور، فجاء الأمر الإلهي بالتعوُّذ عند إرادة قراءة القرآن الكريم، ليكون القارىء في عياذٍ منيع، وحِرْز حصين، وبذلك يحضر القلب، وينشرح للتلاوة.

فالاستعاذةُ ـ إذن ـ تُطهِّرُ القلبَ عن كلِّ شيء يشغله عن الله تعالى.

وفيها: إقرار العبد بالعجز والضعف، واعترافه بقدرة البارىء سبحانه، وأنه هو الغنيُّ القادر على دفع جميع المضرَّات والآفات. **وفيها**: اعترافٌ من العبد أيضاً بأنَّ الشيطان عدوٌّ مبين.

ومعنى «**أعوذ بالله**»: ألتجىءُ إليه وأمتنعُ به؛ لأجل أن يحفظني من شرِّ الشيطان ووساوسه، ومِنْ إفساده عليَّ أمرَ ديني ودنياي، فإنه لا يحفظ العبد ولا يُجيره من الشيطان إلا الله تعالى.

و«**الشيطان**»: كلُّ عاتٍ مُتمرِّدٍ مُتَباعدٍ عمَّا يُرضي الله تعالى من الجنِّ والإنس، وإبليس إمام الشياطين ورئيسهم.

و«**الرجيم**»: المطرود عن رحمة الله تعالى. وكلُّ من اتَّخذ إبليس إماماً له، وصار مُغْوياً مُضلاً لعباد الله، فهو شيطان رجيم.

واتفق جمهور العلماء على أن الاستعاذة سنَّةٌ في الصلاة، ويُستحبُّ لقارىء القرآن خارج الصلاة أن يتعوَّذ أيضاً قبل قراءة القرآن.

وأجمع العلماء على أنَّ الاستعاذة ليست من القرآن الكريم؛ ولهذا لم تُكتب في المصاحف.

* * *

سُورَةُ الفَاتِحَة

سُمِّيت هذه السُّورة بالفاتحة؛ لأنه بها افتُتح القرآن، وبها تُفتتح كتابة المصاحف، وبها تُفتتح الصَّلاة. وتُسمَّى سورةَ الحمد؛ لافتتاحها بالحمد لله، وأمَّ القرآن، وأمَّ الكتاب؛ لاشتمالها على أهمّ موضوعات القرآن، وتُسمَّى أيضاً السَّبعَ المثاني؛ لأنَّ بين جملها مَطْويَّات من المعاني جامعة لكليَّات كبرى للدين، جاء بيانها التفصيلي في سائر سور القرآن، ولها أسماء أُخر. وهي أعظم سورة في القرآن العظيم.

سُورَةُ الفَاتِحَة

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ١ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٣ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ٤ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ٥ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ٧

وآياتها سبع

١ - باسم الله أقرأ، و﴿ٱللَّهِ﴾ اسمُ عَلَمٍ، دالٌّ على ذات الله تعالى، الإله المعبود بحق، المتَّصف بجميع الكمالات، المُنزَّه عن جميع الآفات، وهو اسم تفرَّد به الباري سبحانه، لا يشركه فيه أحد، ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ العظيم الرحمة، الذي تجلَّت آثار رحمته، وبدت مظاهرها في كلِّ أنحاء الوجود، ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ الدائم الرحمة. وتقديم الرحمن على الرحيم من باب تقديم الدليل على النتيجة، فإنَّ ظهور آثار الرحمة على كثرة واتِّساع، دليلٌ على دوام الرحمة ورسوخها.

٢ - ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ المُسْتَحقُّ للحَمْد هو الله تعالى، لكمالاته الذاتيَّة المطلقة، ولأنه المُحسن المُتفضِّل على كافة الخلق، ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ مالكهم، وخالقهم، ورازقهم، ومُربِّيهم وَفْق نظام التربية المتدرِّج حالاً بعد حال، ومصلحهم، وسيِّدهم المطلق. و﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ جمع عالَم، وهو اسمٌ لكلِّ موجود سوى الله تعالى.

٣ - ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ الذي وَسِعَتْ رحمته الإنسانيَّة جميعها، بنعمة الوجود والحياة والرزق، ونعمة الهداية الفطريَّة، ونعمة الهداية السماويَّة بإرسال الرسل إلى كلِّ الأمم، ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ الذي يخصُّ برحمته وفيوضات إنعامه وإكرامه المؤمنين، بالاصْطفاء والاجْتباء، والقيادة والإمامة، والتوفيق والرَّشاد، والمزيد من الفضل. وعلى هاتين الرحمتين يقوم ركنُ النبوَّات، فهو رحمةٌ عامَّة للمُرسَل إليهم، ورحمةٌ خاصَّة للمرسلين، ومن اهتدى بهديهم.

٤ - وهو سبحانه صاحب ذلك اليوم الذي يكون فيه الحساب والجزاء. وخَصَّ يوم الدين بالذكر مع كونه سبحانه مالكاً للأيام كلِّها؛ لأنَّ ملك الأملاك يومئذ زائل، فلا مُلك ولا أمر يومئذ إلا لله تعالى. وقد انتظمت في هذه الآيات: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٣ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ٤﴾ أركان العقيدة القرآنيَّة الثلاثة في ترتيبٍ بالغ الغاية في الإبْداع والإحكام: التوحيد، فالنبوَّة، فالجزاء.

٥ - إيَّاك نخصُّ بغاية التذلُّل ونهاية التعظيم، ونوحِّدك ونطيعك، ومنك وحدك نطلب المعونة على عبادتك وعلى جميع أمورنا. وباجتماع هاتين الكلمتين: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ٥﴾ بَطَل الشِّرك كلُّه: شرك العبادة لغير الله، وشرك الاستعانة بما لم يأذن به الله. وبَطَلت العقائد المنحرفة كلُّها: بطلت عقيدة الجَبْر المحض، الذي يُنكر قدرتنا ومسؤوليَّتنا، وبطلت عقيدة الاختيار المحض، الذي يدَّعي الاستغناء عن معونة ربِّنا، فنحن نعبد ونستعين، ونعمل ونتوكل.

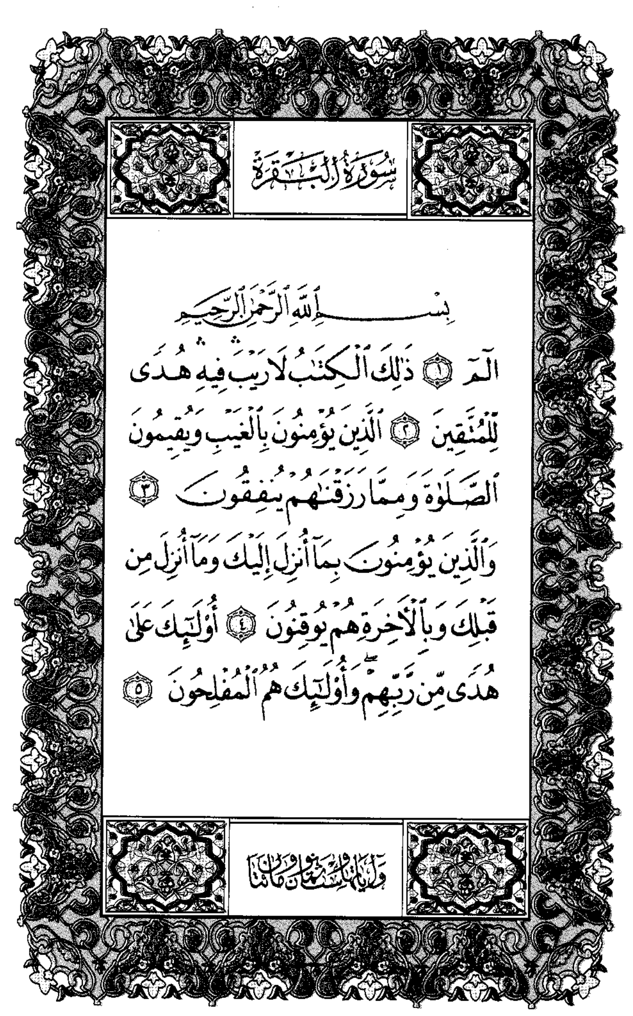
٦ - أعلمنا وأرشدنا ووفِّقنا إلى الطريق الواضح الجليِّ المستقيم الذي لا عِوَج فيه ولا انحراف عن الحقِّ والخير، وهو دين الإسلام، وثبِّتنا عليه حتى نلقاك.

٧ - طريق الذين أنعمتَ عليهم بالهداية والتوفيق من النبيِّين والصِّدِّيقين والشُّهداء والصَّالحين، واحفظنا من المَيْل والانحراف عن السَّيْر على الطريق المستقيم حتى لا نسلك طريق الذين غَضِبْتَ عليهم ممَّن عَرَفوا الحقَّ ولم يعملوا به، بسبب كفرهم وعنادهم وإصرارهم على الباطل، وهم اليهود، ومَن اتَّبع سُنَّتهم، ولا طريق الضَّالِّين عن طريق الهُدى المستقيم، بسبب جهلهم وضياعهم في متاهات الأهواء والشبهات والشهوات، وهم النصارى، ومَنْ كان على شاكلتهم.

ويُسَنُّ للقارىء بعد فراغه من الفاتحة أن يقول: (آمين) مفصولاً عنها بسكتة.

ومعنى آمين: اللهم اسمع واستجب، وليست آية من سورة الفاتحة باتِّفاق العلماء، ولهذا أجمعوا على عدم كتابتها في المصاحف.

سُورَةُ البَقَرَة



١ ـ ﴿الٓمٓ﴾ افتتح الله بعض أوائل السُّور القرآنية بحروف التهجّي التي تتركّب منها الكلمات لحكم كثيرة، **منها**: التحدّي بها، وإعلام الفصحاء والبلغاء بأنّ هذا القرآن مركّب من مثل هذه الحروف، فإن كنتم تَرَوْنَ أن هذا القرآن من جنس كلام البشر، فتعالوا ألِّفوا وركِّبوا من هذه الحروف مثل هذا القرآن، فإن لم تفعلوا ذلك وعجزتم، فاعلمُوا أنَّ هذا القرآن هو كلام ربِّ العالمين. **والحكمة الثانية**: إثارةُ انتباهِهم إلى ما يُراد إلقاؤه عليهم، إذ أنَّ حروف التهجّي هي أول ما يتعلّمه المتعلِّمون من القراءة والكتابة، وفي هذا إشارة إلى أنهم بعيدون عن آفاق العلم والمعرفة، وعليهم أن يسيروا في طريق العلم من نقطة البدء بتعلُّم حروف التهجّي، حتى يُحسنوا الكتابة والقراءة، ثم ليرتقوا صاعدين في تدبُّر كلام الله والتعرُّف على أسراره. **والحكمة الثالثة**: إقامة الحُجّة والشهادة بأنَّ محمداً رسول الله، الذي علَّمه الله تلاوة هذه الأحرف بأسمائها، مع أنه أميٌّ لم يقرأ كتاباً ولم يأخذ من معلِّم. **والحكمة الرابعة**: أنَّ هذه الحروف المقطَّعة مأخوذة من كلمات على طريقة العرب في ذكر حرف من كلمة، وهم يريدونها. فكلُّ حرف من تلك الحروف يشير إلى اسم من أسماء الله تعالى، أو اسم من أسماء النبيِّ ﷺ حسب المناسبةَ لما وراءها من الآيات الكريمة، وذلك من باب إطلاق الحرف من الكلمة، وإرادة الكلمة. والعرب الذين عاصروا الرسالة، ونَزَل القرآن بلغتهم ـ وفيهم المعارضون المعاندون ـ لم يجدوا في هذه الحروف المُقطَّعة ما به ينتقدون أو يُشهِّرون، الأمر الذي يدلُّ على أنَّ افتتاح الكلام بأمثالها لا ينْبو عن أساليبهم وأصول لغتهم. فكلُّ حرف من هذه الحروف هو مقصودٌ بذاته، يدلُّ على معنى، ولله تعالى به مراد، الله أعلم بمراده منها.

٢ ـ ذلك الكتاب الكامل في الهداية والحكمة، لا شكَّ في أنّه من عند الله، وأنّه الحقُّ والصِّدق، وهو هُدىً للمتَّقين الذين يجعلون أنفسهم في وقايةٍ ممَّا يُخاف، بامتثال أوامر الله، واجتناب نواهيه. وخصَّ الله سبحانه المتَّقين بالذكر تشريفاً لهم؛ لأنهم هم المنتفعون بالقرآن الكريم.

٣ ـ هؤلاء المتَّقون هم مؤمنو العَرب من المهاجرين والأنصار الذين يُصَدِّقون بالغيب، الذي لا تراه عيونهم، ولا تُدركه حواسُّهم وعقولهم، مثل الملائكة، والجنَّة، والنَّار، والصِّراط، والميزان، وغير ذلك ممَّا أخبر الله به أو أخبر به رسوله. وهم يداومون على الصَّلاة في أوقاتها بحدودها وإتمام أركانها وحفظها من أن يقع فيها خَلَل، ويتصدَّقون من بعض ما أعطاهم الله من الرزق في وجوه البرِّ التي حثَّ الله على البذل في سبيلها. والإنفاق في وجوه البرِّ، يكون واجباً، كالزّكاة والنّذر ومَنْ تجب نفقته، ويكون تطوُّعاً كالصَّدقات العامة.

٤ ـ والمؤمنون من أهل الكتاب الذين يُصَدِّقون بالقرآن المُنزَّل عليك من الله، وبالكتب المُنزَّلة على الأنبياء من قبل كالتوراة والإنجيل والزَّبور، ويُصَدِّقون بالدار الآخرة وما فيها من بعث وحساب، وثواب وعقاب، كأنه رأيَ العَيْن.

٥ ـ أولئك المتَّصفونَ بهذه الأوصاف الستة من مؤمني العرب ومؤمني أهل الكتاب، ومن اتَّصف بأوصافهم، وسلك سبيلهم مُتمكِّنون من تحقيق الهدى الذي جاءهم من عند ربِّهم، سائرون على رَشَادٍ ونورٍ، وأولئك رفيعو المنزلة هم ـ دون غيرهم ـ الظافرون بكلِّ خير في الدنيا، الفائزون بالجنَّة والنَّاجون من النار في الآخرة.

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَـٰرِهِمْ غِشَـٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَـٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَـٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَـٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَـٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾

٦ - إنَّ الذين أحدثوا الكفر في أنفسهم عن إرادةٍ وتصميم بعد معرفة الحقِّ الذي جاء به الرسول ﷺ، مُتَساوٍ لديهم تخويفهم وتحذيرهم وعدمه، فهم لا يُصَدِّقون في أيِّ حال. والمراد بهؤلاء الكفار: أحبار اليهود وزعماؤهم الذين جَحَدوا نبوَّة محمد ﷺ مع علمهم بها، ومعرفتهم بأنه رسول الله إليهم وإلى الناس كافة.

٧ - طَبَعَ الله على قلوبهم فلا تَعِي خيراً ولا تفهمه، وخَتَمَ على موضع سمعهم فلا يسمعون الحقَّ ولا ينتفعون به؛ بسبب كفرهم وعنادهم. وجَعَل على أبصارهم غطاء فلا يَرَوْنَ الحقَّ، ويتعامَوْن عن آياتِ الله ودلائلِ توحيده، ولهم في الآخرة عذابٌ كبير دائمٌ مُؤلم.

٨ - والمنافقون من اليهود الذين أظهروا كلمة الإسلام وأسرُّوا الكفر واعتقدوه، يقولون بأفواههم: آمنَّا بالله، وآمنَّا باليوم الآخر، وما هم في حقيقة أمرهم بمؤمنين، لأنهم يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم.

٩ - والباعثُ المباشر لهم على إعلانهم الكذب هو مبالغتهم وبَذْل غاية جهدهم في مُخَادَعة الله والَّذين آمنوا، فيُظهرون ما يُوهم الصِّدق والسلامة والسَّداد، ويُبْطِنونَ خلاف ذلك، وإنَّهم إذ يُخادعون الذين آمنوا مع أنَّ الله معهم ووليُّهم، إنما يُخادعون معهم الله ربَّهم، الذي يتولَّاهم بتأييده ونصره، ويحميهم من مكر المنافقين وكيْدهم، لذلك فهم بغفلتهم عن هذه الحقيقة أو بجحودهم لها لا يخدعون إلا أنْفُسَهُم، إذ أنهم هم الواقعون في شرِّ أعمالهم، وما يعلمون أدنى علم أنَّ خديعتهم مردودة عليهم، وكيدهم منقلب إليهم.

١٠ - في قلوبهم شكٌّ ونفاق، فزادهم الله عذاباً وألماً نفسياً، كلَّما تطاول أمدهم في النفاق، ولهم بعد العقوبات المُعجَّلات في الدنيا عذابٌ مؤجَّل مُؤلمٌ في يوم الدين؛ بسبب ما قد سَبَق في أيام حياة ابتلائهم من تجدُّد كَذِبهم حيناً بعد حين في دعوىٰ الإيمان، إذْ قالوا: آمنَّا، وهم غير مؤمنين.

١١، ١٢ - وإذا قال المؤمنون للمنافقين: لا تُفسدوا في الأرض بالكفر وموالاة أهله، ونَقْل أخبار المؤمنين لأعدائهم، وتوهين قوى المسلمين وتخذيلهم، وتعويق الناس عن الإيمان بمحمد ﷺ وبالقرآن، قالوا كذباً: ما نحن إلا مصلحون. تنبَّهوا وتحقَّقوا - أيها المؤمنون - إنَّهم هم شرُّ المفسدين في الأرض، لا أنتم الذين يتَّهمكم المنافقون بإفساد وحدة جماعة قومهم بدينكم الجديد، ولكن لا يعلمون أدنى علم بما يصدر عنهم من الفساد؛ لأنَّهم يظنُّون أنَّ ما هم عليه من النفاق صلاحٌ، وهو أشدُّ الفساد.

١٣ - وإذا قيل للمنافقين: آمنوا كما آمَنَ المهاجرونَ والأنصار، وأخلصوا في إيمانكم كما أخلصَ هؤلاء في إيمانهم، قالوا: أنؤمن كما آمن ضِعَاف العقل والرأي؟ تنبَّهوا وتحقَّقوا إنهم هم ناقصو العقل، قليلو التفكير، ولكن لا يعلمون أنَّهم كذلك.

١٤ - هؤلاء المنافقون إذا لَقُوا المؤمنين قالوا: آمنّا كإيمانكم، وإذا خَلَوْا من جماعة المؤمنين، ورَجَعوا إلى رؤسائهم من اليهود، قالوا لهم: إنا على دينكم، ولم نفارقكم بهذا القول، ما نحن إلاَّ ساخرون ومُسْتَخِفُّون بمحمدٍ وأصحابه، بما نُظهر لهم من الإسلام؛ لِنَأْمَن شرَّهم ونقفَ على سرِّهم.

١٥ - الله سبحانه يُجازيهم على استهزائهم بالمؤمنين، وَيَمدُّهم بالقوى والطاقات ضمن سُننه الثابتة لاستكمال ابتلائهم في الحياة الدنيا، ويتركهم ويُمهلهم في ضلالهم وإسرافهم في كفرهم يعمَوْن عن الرُّشد، ويتردَّدون بين البقاء على الكفر وتركه إلى الإيمان، لا يدرون على أيِّ منهج يسيرون.

١٦ - أولئك البُعداء عن رحمة الله، المتَّصفون بهذه الأوصاف من كفار اليهود ومنافقيهم، الذين أجْرَوْا تبادلاً في صفقة، امتلكوا فيها الضلالة، وبذلوا من جانبهم الهدى، فأبطنوا الكفر، وسلكوا سبل النفاق المظلمة، وهم يتصوَّرون أنهم بهذه المبادلة القائمة على النفاق يربحون ما عند المسلمين من أمن وغنائم، ومصالح ومنافع، فما ربحوا في تجارتهم الرِّبحَ الذي يقصدونه من الدنيا، ولا الثواب في الآخرة عند الله، وما كانوا مهتدين في الحقيقة، بل بذلوا هدىً ظاهرياً غير حقيقي، لذلك فهم سَيُعذَّبون في النار، بسبب كفرهم واختيارهم سبل الضلال.

مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾

١٧ ـ صفة هؤلاء الأحبار من يهود المدينة الذين قال الله فيهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ﴾ والذين كانوا يترقَّبون بعثة النبيِّ ﷺ؛ ليؤمنوا به ويسترشدوا بهدايته، وينتصروا به على المشركين، ثم كفرهم وجحودهم لنبوَّته، وإعراضهم عن هُدَاه، كوصف رجلٍ اسْتوقد ناراً عظيمة في مفازة مُظلمة مُوحِشَة؛ لينتفع بها، فلمَّا أضاءت النار حَوْلَ المُسْتوقِد، ورأى طريقه، وعرف سبيل هدايته، ووجد أنه على غير ما يهْوَىٰ ويشتهي، اتَّخذ وسيلة أبعَدَ عنها شعاع الضوء رافضاً الاهتداء بالنور، فوقع عليه قانون ذهاب النور الذي تسبَّب هو في إذهابه، فبقي في ظُلمات الشكِّ والكفر والنفاق حائراً مُتخوِّفاً، وكذلك حالُ المنافقين من أحبار اليهود مرُّوا بمرحلة رؤية نور الإسلام، والاستضاءة به، ثمَّ أعرضوا عن هذا النور، فلم ينتفعوا به، وآثروا عليه الظلام الذي كانوا يعيشون فيه.

١٨ ـ إنَّهم صُمٌّ عن سماع الحقِّ، خُرسٌ عن النُّطق به، لا بَصَائر لهم يُميِّزون بها بين الحقِّ والباطل، فهم لا يرجعون عن ضلالهم ونفاقهم؛ لأنهم اتَّخذوا باختيارهم الحر الوسائل إلى ذلك؛ بإصرارهم على الكفر بعد معرفتهم دلائل الإيمان، ورؤيتهم أضواء آيات الله، وبيانات الرسول ﷺ.

١٩ ـ وَصفة فريق آخر من المنافقين المتذبذبين بين الإيمان والكفر، وهم إلى الكفر أقرب، كأصحاب مطر غزير نزل من السماء فيه الخير والخصب، والذي هو كتعاليم الدين التي تتنزَّل من السماء بخير الناس وسعادتهم، فيه ظلماتٌ ـ وهو حال مَنْ يغمض عينيه عن هدى الله ونور كتابه ـ، ورعدٌ ـ وهو مثال آيات الإنذار والوعيد ـ، وبرق ـ وهو مثال لمحاتٍ من نور ما يُنزِّل الله على رسوله، حين يفتح هؤلاء عيونهم للرؤية ـ، يجعلون رؤوس أصابعهم في آذانهم، ويبالغون بضغط أصابعهم على آذانهم، ولو كان الواقع يسمح بدخولها كلِّها لفَعَلُوا؛ لحَجْب صوت الصَّواعق مَخَافَةَ الهلاك من الصوت العظيم ـ وهو مثال العقوبات التي يتخوَّفون أن تنزل بهم ـ، والله عالمٌ بحال الكافرين الساترين لدلائل الحق.

٢٠ ـ يَقْرُب البرقُ أن يختَلِسَ أبصارهم ويعميها من شِدَّتِه، ومتى جاء البرقُ مَشَوْا في إضاءته على قدر ما يكشف لهم وميضُه ـ وهو حالهم حينما يفتحون أعينهم على ما جاء به رسول الله ـ، وإذا انتهت ومضاته السريعاتُ الخاطفات وَقَفوا متحيِّرين ـ وهو حالهم حينما يغمضون أعينهم، وهي الحال الغالبة عليهم ـ، فهذا الصنف من المنافقين لم تنطمس بصيرتهم انطماساً تاماً، بل يتلامع لهم نور الحق أحياناً، فيرونه، فيسيرون قليلاً فيه، ثم يعودون إلى حالتهم الأولى، ولو شاء اللَّهُ لأذهَبَ بصوتِ الرعد سمعَهم، وبوميض البرق أبصارَهم، فصاروا صُمّاً بكماً عمياً، كما فعل بأصحاب الصنف الأول من أحبار اليهود؛ إنَّ الله على كلِّ شيء يشاءُ خلقه عظيم القدرة، لا يُعجزه شيء أراده.

٢١ ـ يا أيُّها المُكلَّفون جميعاً: وحِّدوا ربَّكم ولا تشركوا في عبادته أحداً، لأنه ربكم الذي ابْتَدَع خلقكم على غيرِ مثالٍ سَبَق، وخَلَقَ الذين من قبلكم، ويُمدّكم دواماً بعطاءاته، وبيده نفعكم وضركم، رغبة أن تختاروا بإرادتكم الحُرَّة عبادة الله التي فُرضت عليكم، فتتَّقون بذلك عقاب الله، وتنجون من عذابه.

٢٢ ـ الذي خَلَقَ لكم الأرض بساطاً ووطاءً مُذلَّلةً، صالحةً للسُّكنى والسَّعي والإنبات، وَجَعَل السماءَ سَقْفاً مرفوعاً، تشرق عليكم شمسها، وتضيء كواكبها، وأنزل من السَّحاب مَطَراً، فأخرج بذلك المطر من ألوان الثمرات وأصناف النباتات رزقاً لكم، وإذ قد تبيَّنتم دلائل التوحيد القائمة في أنفسكم، والمحيطة بكم في الأرض والسماء، فلا تجعلوا لله أمثالاً ونُظراءَ تعبدونها كعبادته، وأنتم تعلمون أنَّ هذه الأصنام والأوثان لاَ يَصِحُّ عبادتها، وأنَّه سبحانه خالق لجميع الأشياء، وأنَّه لا مِثْل له ولا ضدَّ.

٢٣ ـ وإن كنتم في شكٍّ ممَّا نزَّلنا على عبدِنا محمد ﷺ الكامل في عبوديَّته لنا، فأتوا بسورةٍ من مثل القرآن في سُموِّ الرُّتبة، وعُلُوِّ الطبقة في النَّظم البديع، والأسلوب البليغ، واسْتَعِينوا بآلهتكم التي تعبدونها من دون الله، إنْ كنتم صادقين أنَّ القرآن من كلام البشر، وأنَّ محمداً ﷺ يقوله من تلقاء نفسه.

٢٤ ـ فإنْ لم تأتوا بسورة من مثله فيما مَضَى ـ بعد أن تتضافروا وتتعاونوا، وتدعوا من استطعتم أن تدعوه ـ، ولن تأتوا بسورة من مثله فيما يأتي، وتبيَّن لكم أنَّ أحداً لا يستطيع معارضة القرآن، فدعوا عنادكم، وصدِّقوا بالحقِّ الذي جاءكم، وبذلك تتَّقون النَّارَ التي حَطَبها الناس المكذِّبون بالقرآن الكريم، والأصنامُ المصنوعة من الحجارة التي تعبدونها وتعتقدون نفعَها وشفاعَتَها، هذه النار هُيِّئت للكافرين بالله ورسله. وفي الآية دليل على أن النار مخلوقة الآن.

وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًاۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًاۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِۦ كَثِيرًاۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾

٢٥ ـ وأخبر ـ يا رسول الله ويا كُلَّ داعٍ إلى الله من أُمَّته ـ الذين آمنوا بالأركان الإيمانيَّة الستَّة إيماناً صحيحاً صادقاً، وعَملوا الصَّالحات التي تُعبِّر عملياً عن صحَّة الإيمان الإراديِّ الاعتقادي، بالخبر السَّارِّ بأنَّ لهم بساتين فيها أشجارٌ مُلتفَّة متكاثفة مثمرةٌ تجري من تحت أشجارها وقصورها الأنهار. كلَّما أُطْعِمُوا من الجنَّة طعاماً من غير جهد يبذلونه، ولا عمل يعملونه، وإنما يجيء بفضل الله وإنعامه، قالوا متعجِّبين: هذا الذي رُزِقْنا من قبلُ في حُسْن المنظر، ولذَّة الطَّعم، وأُتوا بالرِّزقِ مُتَشَابهاً في اللون والاسم، مختلفاً في اللذة والطَّعم؛ ليأنسوا به، ويُقدموا على أكله؛ لأنَّ النفس للمألوف أميَل، ولهم في الجنَّات أزواجٌ مُطَهَّرةٌ من البَوْلِ والغائطَ والحيْض وَسَائرِ الأَقْذار ومساوىء الأخلاق، وهم في الجنَّات باقون مطمئنونَ، لا يَخرجون منها ولا يموتون.

٢٦ ـ إنَّ الله سبحانه لا يمنعه الحياء من ضَرب المثل بالبعوضة وما هو أكبر منها في الحجم، كالذباب والعنكبوت، والكلب والحمار، لأنَّ الله تعالى خَلَق جميع الكائنات الحيَّة منْ أدناها إلى أرقاها، وجعل من كلِّ نوع منها أدلة كثيرة على كمال قدرته وعلمه وحكمته، ووجَّه أنظار الناس إليها ليتفكَّروا في خلقها، ويتأمَّلوا في إتقان صُنعها، حتى تكون طريقاً لمعرفة خالقهم وخالق كل شيء. فهل استحيا سبحانه من خلقها، ووَضعها أمام أسماع الناس وأبصارهم حتى يستحيي من ذكرها والتمثيل بها؟ فالمؤمنونَ يعلمون أنَّ ضربَ المثل حقٌّ وصدقٌ ثابتٌ، لا سبيل إلى إنكاره، أو الاعتراض عليه؛ لأنَّه من ربِّهم وخالقهم، وأنَّ له حكماً وفوائد يتفهَّمونها ويستفيدون منها، وأما الكفَّار فيقولون بأسلوب الإنكار والاعتراض والاستغراب بسبب ضلال اعتقادهم في أوثانهم، وغطرستهم وعنادهم: ما الذي أرادَ اللَّهُ بهذا المثـل؟ واللَّهُ سبحانه بعدلِه وحكمته يحكم بضلال المنكرين؛ لأنَّهم يُكذِّبونه فيزدادون به ضلالاً، ويحكم بهداية المؤمنين؛ لأنهم يُصَدِّقون ويعلمون أنه حقٌّ من عند ربِّهم، وما يحكم الله إلا بضلال الخارجين عن الإيمان إلى دَرَكات الكفر.

٢٧ ـ من أوصاف الفاسقين الخارجين عن الإيمان: أنَّهم ينكثون بتجدُّد واستمرار دين الله تعالى وشريعته من بعد عَقْده وتوكيده، ويَقْطعون ما أمر اللَّهُ به أن يوصَل من الإيمان بمحمد ﷺ وجميع الرسل، ويقطعونَ كذلك الأرحام التي أَمَرَ الله بصلتها، ويفسدون في الأرض بهدم عقائد الإيمان الصحيح، وبإثارة الفتن وإيقاد الحروب، ونشر الفسوق والفجور، وأنواع الفواحش، والمجاهرة الوقحة بمعصية الله ورسوله، أولئك الموصوفون بهذه الأوصاف الثلاثة القبيحة، البعداء المنحطُّون إلى جهة الدرك الأسفل من النار هم الخاسرون في الدنيا والآخرة.

٢٨ ـ كيف تنكرون ـ أيُّها المشركون ـ وحدانية الله تعالى، وتشرِّكون به غيره في العبادة، وكنتم أمواتاً يوم استقراركم نُطَفاً في أصلاب آبائكم، فنفخ فيكم الأرواح، وأصبحتم في طوْر إحساسٍ وحركة وتفكير وبيان، ثمَّ بعد انتهاء حياة الابتلاء في الحياة الدنيا يميتكم بقبض أرواحكم عند انقضاء آجالكم المُقدَّرة لكم، ثمَّ بَعد مدَّة البرزخ في الفاصل بين الموت والبعث يُحييكم ببعثكم من قبوركم، ثمَّ إليه وحده دون سواه بعد الموت وبعد البعث تردُّون في الآخرة، للحساب، وفصل القضاء، وتنفيذ الجزاء. فكفركم مع هذه الأدلة الداعية إلى الإيمان أمرٌ مُستغرب يُتعجَّب منه؟

٢٩ ـ كيف تكفرون بالله؟ وقد خلق لكم ما في الأرض جميعاً؛ لتنتفعوا به وتحسنوا استعمال ما خلقه لكم وملَّككم التصرُّف فيه، فإنه ما مِنْ شيءٍ في الوجود إلا يمكن استعماله في طريق الخير، واستعماله في طريق الشر، وقد وَضَعَ الله هذه الوسائل الكونيَّة والمُسخَّرات تحت أيديكم ليبتليَكم فيها، هل تستعملونها في الخير أم تستعملونها في الشرِّ؟!، ثم قَصَدَ سبحانه وأقبل إلى خلق السَّموات، فَخَلَقَهُنَّ سَبْعَ سَمَوات مُستويات لا صَدع فيها ولا فطور، وهو سبحانه بكلِّ شيء عليم، لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، يعلم الجُزئيَّات كما يعلم الكليَّات. وفي الآية دليل على أنَّ الأصل في الأشياء الإباحة إلاَّ ما وَرَدَ الشَّرع بتحريمه.

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾

٣٠ ـ وضع في ذاكرتك ـ أيها المُتلقِّي لبياننا ـ حين قال ربُّك للملائكة: إني خالقٌ خليفةً، وهو آدمُ عليه السلام وذرِّيَّتُهُ، يخلفُ بعضهم بعضاً في عمارة الأرض، فسأل الملائكة ربَّهم: ما صفة هذا المخلوق؟ وما خصائصه؟ فأبان لهم صفاته، ومنها أنه يكون ذا إرادة حُرَّة، وذا صفات نفسيّة ينتج عنها الإفساد في الأرض، وسفك الدماء. قالوا له على سبيل التعجُّب: أتجعلُ في الأرض من يُفْسِد فيها بالمعاصي، ويُريق الدماء بغير حق؟ ونحن نُنزِّهُك عمَّا لا يليق بعظمتك تنزيهاً مقترناً بحمدك والثناء عليك، ونُطهِّركَ عن النقائص وكلِّ سوء، ونَصِفُكَ بما يليقُ بعزِّكَ وجلالك. فقال سبحانه للملائكة: إني أعلمُ ما لا تعلمون. وفي هذه الآية دليل على أن حكمة الله تخفى على أقرب الخلْق إليه، كما خَفِيَتْ حكمة استخلاف آدم في الأرض على الملائكة، حتى اشتاقوا إلى معرفة الحكمة في هذا الاختيار.

٣١ ـ ولمَّا خَلَق اللّهُ آدم وَتَمَّ خلقُه، علَّمه صفات الأشياء كلها وخصائصها الدالَّة عليها، والمُميِّزة لها، فأظْهَرَ اللّهُ فَضْل آدم عليهم بالعلم، ثمَّ عَرَض تلك المُسمَّيات على الملائكة، فقال تعجيزاً لهم: أخبروني بأسماء تلك الأشياء إن كنتم صادقين أني لم أخلق خلقاً إلا كنتم أفْضَلَ منه وأعلم؟ وفي هذه الآية الكريمة دلالة واضحة على نبوة آدم عليه السلام، فقد علمه سبحانه أسماء المسمَّيات بدون واسطة، وأمره أن يُنبىء بها الملائكة عليهم السلام.

٣٢ ـ قالت الملائكة: تَنْزيهاً لك عن أن يكون فعلك لغير حكمة، لا نُحيطُ بشيءٍ من علمك إلا ما علَّمتنا، إنَّك أنتَ العليمُ بخلقِكَ، الحكيمُ في أمرك.

٣٣ ـ قال الله تعالى لمَّا ظهر عَجْزُ الملائكة: يا آدمُ أنبئهم بأسمائهم، فسمَّى كلَّ شيءٍ باسمِهِ، وذكر وجْهَ الحكمةِ التي خُلق لها، فلمَّا أنبأهم بأسمائهم قال الله تعالى: ألم أقل لكم ـ يا ملائكتي ـ إنِّي أعلمُ ما خفيَ عنكم في السموات والأرض، ممَّا كان وما سيكون، وأعلمُ ما تُظهرون وما تُسِرُّون. وفي هذه الآية مزيَّة العلم وفضله على العبادة، وأنه شرط في الخلافة في الأرض وعمارتها، بل هو عُمدتها وأساسها.

٣٤ ـ وضع في ذاكرتك ـ أيها المُتلقِّي لبياننا ـ هذا الحَدَث الذي جرى وقت قال ربُّك للملائكة: اسْجُدوا لآدم، فَسَجَد الملائكةُ لآدمَ سجودَ تحيَّةٍ وتكريم لا سجودَ عبادةٍ، إلا إبليسَ الذي كان مُندسّاً فيهم، كواحد منهم، امتنع وتكبَّر وتعظَّم عن السجود لآدم، وكان في علم اللّهِ تعالى من الكافرين.

٣٥ ـ وقال الله تعالى: يا آدمُ اسْكُنْ أنتَ وزوجُك حواء الجنَّةَ، واتَّخِذاها مأوىً ومنزلاً، وكُلاَ من ثمارها أكلاً واسِعاً هنيئاً من غير انقطاع كيف شئتما ومَتى شئتما وأينَ شئتما، ولا تَقْربا هذه الشجرةَ للأكل، فإنْ أكَلْتُما من هذه الشجرة ظلمْتُما أنفُسَكما بمخالفة أمري ومعصيتي، إذ تُسبِّب لكما معصيتكما الإخراجَ من الجنَّة، والإهباط إلى الأرض، وتحمُّل الكدح والعناء والمتاعب فيها. وفي هذه الآية دلالة ثابتة على نبوَّة آدم عليه السلام، فقد أباح الله له وحرَّم عليه بدون واسطة، والخطاب مُوجَّه لآدم عليه السلام، وحواء تابعة له، وبواسطته توجَّه الخطاب لها. وفيها دلالة على أن الجنة مخلوقة الآن.

٣٦ ـ وسْوَسَ الشيطان لآدم وحواء، ودَعَاهُما إلى الخطيئة، وجعلهما يزلاَّن ويزلَقان حتى سقطا في وَحْل المخالفة لما نهى الله عنه، فأخرجهما ممَّا كانا فيه من النعيم والعيش الكريم، وقال الله لآدم وحواء ولِمَنْ أودع فيهما من ذرِّياتٍ سَتَتَناسلُ منهما حتى آخر إنسانٍ في الأرض: انزلوا من مكان الجنة العالي إلى الأرض، والحال أنه سيكون بعضكم عدواً لبعض؛ بسبب اختلاف مصالحكم وأهوائكم وشهواتكم، وما يكون بينكم من تحاسد، فتظهر العدوات بين الأفراد والأسر، والأقوام والأمم، حتى تصل إلى مكايد كثيرة بينهم، وخصومات شديدة، وحروب كبرى، ولكم في الأرض مكانُ استقرار مُؤَقَّت، مقدَّر بإحكام لسُكّانه، ومتاعٌ ينتفع به إلى زمنٍ محدَّد، بقضاء الله وقدره، لكلِّ فرد في الحياة الدنيا، وللحياة الدنيا كلِّها.

٣٧ ـ فاستقبل آدمُ بالأخذ والقبول من ربِّه كلماتٍ كانت سببَ توبته، وهي قوله: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ فأتمَّهُنَّ وعمل بما جاء في مضمونهنَّ، فَتَجاوَزَ عنه وغَفَرَ له، إنَّه هو الرجَّاع على عباده بقَبول التوبة، الدائم الرحمة بالمؤمنين. وفي هذه الآية دليل على أنَّ الإنسان ـ وإنْ سَمَتْ منزلتُه وعَظُمت رتبتُه ـ لا يَخْلو من هفوة تقع منه، لنسيانٍ يعرض له، أو تأويـلٍ يراه، كما وقع لآدم عليه السلام، حيث أكل من الشجرة ناسياً. وفيها دليـلٌ على أنَّ وقـوع المخالفة من العبد تُجبر بالتوبة إلى اللّـه، فإنَّ آدم حين اعترف وتاب، تاب الله عليه واجْتَبَاه وهَدَاه.

سُورَةُ البَقَرَةِ

قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّـٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ ۖ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّـٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَـٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَـٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَـٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَـٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾

٣٨ ـ قال الله لآدم وزوجه وذرِّيَّاتهما في ظهر آدم: انزلوا من مكان الجنَّة العالي جميعاً، وقد أنعمتُ عليكم بهدايتي التي تؤدِّيكم إلى الجنة مرةً أخرى، فإمَّا يأتينَّكم مني تعليماتٌ مُنَزَّلات تُبيِّن لكم ديني، وفيها هدايتكم فاتَّبعوها، واعملوا بما تشتمل عليه من أوامر ونواهي، وإرشادات ونصائح، فمن تَبِعَ هداي، للارتقاء في درجات البرِّ والإحسان، فلا خوفٌ مُسلَّطٌ عليهم تَضْطرب به نفوسهم وقلوبهم، بسبب ترقُّب حدوث مكروه، أو توقُّع فوات محبوب، ولا هم يحزنون بسبب مكروهٍ نزل فعلاً بهم، أو من أجْل محبوب فاتهم الحصول عليه، وهذا يكون لهم في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فلأنَّ إيمانهم يجعلهم راضون عن الله تمامَ الرِّضا بكلِّ مقاديره، مطمئنين لحكمته، واثقين بثوابه، وأما في الآخرة، فإنهم لا يخافون من عقاب الله، لأنَّ رحمة الله ستشملهُم، ولا يحزنون على ما فاتهم في الدنيا، لأنهم سينالون من النعيم فوق ما يتمنون، وسيُعطَوْن من كلِّ ما يطلبون ويشتهون.

٣٩ ـ والذين جَحَدوا وكذَّبوا بآياتنا الكونيَّة والبيانيَّة المنزَّلة والإعجازيَّة والجزائيَّة العقابيَّة أولئكَ البعداء عن رحمة الله أصحاب النارِ الملازمون لها، المخالطون لألوان عذابها، لا يخرجونَ منها ولا يموتونَ فيها.

٤٠ ـ يا أولاد العبد الصالح يعقوب: كونوا مثل أبيكم في اتِّباع الحق، واشكروا نعميَ الكثيرة عليكم، وامتثلوا أمري، وأدُّوه وافياً، فإنْ فَعَلتُم ذلك أُوفِ بما عاهدتكم عليه من طيب الحياة في الدنيا، وحُسْنِ الثواب في الآخرة. وإيَّاي ـ وحدي ـ فخافوني في نقضكم العهدَ، وفي جميع ما تأتون وتذرون، ولا تخافوا غيري من الشركاء.

٤١ ـ وآمِنُوا ـ يا ذريَّة يعقوب ـ بالقرآن المُنزَّل من عند الله، المُوافِقِ لما في التوراةِ من التوحيد والنبوَّة وصفةِ النبيِّ ﷺ، ممَّا بقي معكم من غير تحريف ولا تبديل، ولا تكونوا ـ يا معشر اليهود ـ أوَّلَ مَنْ كفر به، بل يجب أن تكونوا أوَّل مَنْ آمن به لأنكم تعرفون صفته، ولا تستبدلوا بآياتي الواضحة الدالَّة على صدق محمد، ولا تبيعوها بثمن دنيويٍّ قليل من حطام الدنيا، وإيَّايَ ـ وحدي ـ فاتبَّعوا أمري، واجتنبوا معصيتي، ولا تتَّقوا غيري من الشُّركاء.

٤٢ ـ ولا تكتبوا في التوراة ما ليسَ منها، فيختلط الحقُّ المُنزَّل بالباطل الذي كتبتم، ولا تكتموا الحقَّ بإخفائه وطَمْس معالمه، ومن ذلك: صفات النبيِّ محمد ﷺ التي صرَّح بها أنبياؤكم، وجاء ذكرها في الكتب المُنزَّلة عليهم، وأنتم تعلمون أنَّ محمداً ﷺ نبيٌّ مُرسَلٌ من عند الله عزَّ وجلَّ.

٤٣ ـ وأقيموا الصَّلوات الخمس بمواقيتها وحدودها وجميع أركانها، وأدُّوا الزكاة المفروضة عليكم في أموالكم، طيِّبة بها نفوسكم، ابتغاء وجه الله، وصلُّوا مع المصلِّين من أمة محمد ﷺ.

٤٤ ـ يا أحبار اليهود: ما أقْبَح حالكم حين تأمرون الناس بالتوسُّع في أعمال الخير والطاعات فوق الواجبات، وتتركون أنفسكم، فلا تأمرونها كما تأمرون الناس، مع أنكم مكلَّفون بما تأمرون الناس به، وأنتم تقرؤون التوراة وتدرسونها، وفيها نعتُ محمدٍ ﷺ، والحثُّ على الأفعال الحسنة، والإعراض عن الأفعال القبيحة، أفليس لديكم عقلٌ إراديٌّ تستطيعون به عقل نفوسكم عن اتِّباع أهوائها وشهواتها، واتِّباع خطوات الشيطان إلى ما فيه هلاككم وعذابكم عند ربِّكم؟!

٤٥، ٤٦ ـ واطلبوا المعونة ـ يا أحبار اليهود ـ على أمر الإيمان بمحمدٍ ﷺ والتزام شريعته، وتركِ الرياسة وحُبِّ الجاه والمال، بحبس النفس عن الشهوات والمحرَّمات، وإنْ ضَمَمْتم إلى ذلك الصَّلاة هان عليكم ترك مَا أنتم عليه، وإنَّ هذه النقلة من اليهودية والأنانيَّة إلى الإسلام لثقيلةٌ شاقة إلا على الخائفين المتواضعين المُحبِّين للطاعة، الَّذين يتوقَّعون لقاء الله تعالى، ويرجون ثوابه في الآخرة، وأنَّهم إليه سبحانه وحده راجعون، والظنُّ بملاقاة الله يوم الدين كافٍ لقبول هذا التغيير، فكيف باليقين؟! فأنتم ـ يا أحبار اليهود ـ لم تصلوا إلى مُستوى الظنِّ فضلاً عن اليقين. ولو بلغتم إلى ذلك المستوى لتركتم ما أنتم عليه من أنانيَّة بغيضة، واستكبار مقيت.

٤٧ ـ يا ذُرِّيَّة يعقوب: تذكَّروا نعمي الكثيرة التي أنعمتُ بها عليكم دون غيركم من الناس، واشكُروا لي عليها، وتذكَّروا أني فضَّلتكم على عَالَمي زمانكم عندما كنتم تقيمون التوراة.

٤٨ ـ واحذَروا عذابَ يوم لا تَقْضي فيه نفسٌ عن نفسٍ حَقاً لزمها، ولا تردُّ عنها شيئاً ممَّا أصابها، ولا تُقبل في ذلك اليوم الشفاعة في نفس كافرة، ولا يُؤْخذ مِنْ أحد فديةٌ وبَدَل عن كفره بالغاً البدل ما بَلغ، ولا يجدون مَنْ يعينهم ويمنعهم من عذاب الله.

وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾

٤٩ ـ وضعوا في ذاكرتكم ـ أيها اليهود المعاصرون ـ نعمتنا عليكم حين خلَّصنا أسْلافكم وأجدادكم الذين تُفاخرون بهم، من أتباع فرعون ونُصرائه وأعوانه الذين كانوا يُكلِّفونكم ويُحمِّلونكم أشدَّ العذاب وأسْوَأه وأكثره مشقَّةً وظلماً؛ يُذبِّحون أبناءكم الذكور؛ لئلا يكثُر رجالُكم فيكونوا خطراً على قوة آل فرعون العسكريَّة، ويستبقُون مواليدكم البنات أحياء اللواتي سيكون مصيرهنَّ نساءً؛ للخدمة والامتهان. وفي ذلكم الذي كان يجري لأجدادكم في مصرَ امتحانٌ لكم عظيمٌ من ربِّكم، الذي كافأكم على الصبْر عليه بأن فضَّلكم على أهل تلك القرون، وأنجاكم بالمعجزة الخارقة.

٥٠ ـ واذكروا نعمتَنا عليكم، حين فَصَلنا لأجلكم البحرَ بعضه عن بعض، وجعلنا فيه طرقاً يابسة، فعبرتم إلى البرِّ سالمين، فأنقذناكم من فرعون وجنودِهِ، وأغرقنا آلَ فرعونَ، وأنتم تنظرون إلى هلاكهم.

٥١ ـ واذكروا نعمتَنا عليكم حين واعدنا موسى أربعينَ ليلةً لإنزال التوارة عليه هدايةً لكم ونوراً، ثمَّ اتَّخذتم العجلَ الذهبيَّ الذي صَاغه لكم السَّامريُّ إلهاً من بعد ذهاب موسى إلى موضع المناجاة عند جبل الطُّور، وأنتم ظالمون لأنفسكم أعظم أنواع الظلم بالشرك بالله تعالى، حيث وَضعتم العبادة في غير موضعها.

٥٢ ـ ثمَّ بعد مدَّةٍ متراخيةٍ من الزمنَ تَجاوزنا عنكم، ومَحَوْنا ذنوبَكم من بعد عباداتكم العجل؛ رغبة أن تشكروا عفوي عنكم، وحُسْنَ صنيعي إليكم.

٥٣ ـ واذكروا نعمتَنا عليكم حين أعطيْنا موسى التَّوراةَ والشرائع والأحكام الفارقة بين الحلال والحرام، والمعجزات الفارقة بين دعوى الصَّادق والكاذب؛ لكي تهتدوا من الضلالة.

٥٤ ـ واذكروا ـ يا بني إسرائيل ـ نعمتَنا عليكم، حين قال موسى للذين عَبَدوا العجل من قومه: إنَّكم عرَّضْتُم أنفسكم لعقاب الله الشديد المُرتَّب على الشِّرك به، باتِّخاذكم العِجْلَ إلهاً تعبدونَه، وإذا كنتم قد ضللتم هذا الضلال، وظلمتم أنفسكم ذلك الظلم، فارجعوا إلى خالقكم الذي خلقكم خَلْقاً مُبرَّءاً عن التفاوت والنقص، في ذروة الكمال للغاية التي أُعددتم لها، بالتوبةِ من ذنبكم العظيم، الذي ارتكبتموه، ومِنْ توبتكم أن تنفِّذوا الحدَّ الذي أوْجَبَه الله عليكم، بأن يقوم الذين لم يعبدوا العجل بقتل الذين عبدوه، في ساحة واحدة مشتركة. توبتُكم إلى ربِّكم ذات المكانة الرفيعة، وقتلكم لأنفسكم طاعة له خيرٌ لكم عند خالقكم من الخلود الأبديِّ في النار، ففعلتم ما أُمرتم به، فتجاوز عنكم، ورفع تنفيذ حدِّ القتل عمَّن لم يُقتل بعد منكم؛ إنَّه هو وحده الرجَّاعُ بالمغفرة، القابلُ للتوبة، كثير الرحمة بخلقه.

٥٥ ـ واذكروا وقت أن قال آباؤكم: يا موسى لن نؤمن بما تدعونا للإيمان به منقادين لك، حتى نَرىٰ الله عِياناً بلا حاجز، فنزلت عليكم نار من السماء أحرقتكم، أو صيحة سماوية صعقتكم؛ بسبب جُرأتكم على الله تعالى، وأنتم ينظر بعضكم إلى بعض كيف يأخذه الموت. وسؤالهم هذا سؤال تعنُّت وعناد، وليس سؤال استرشاد، إذ أجرى الله تعالى على يدي موسى كثيراً من المعجزات الدالة على صدقه، وإنزالُ الصاعقة عليهم ليس لمجرَّد الطلب، ولكن لما انضمَّ إليه من التعنُّت وفَرْط العِناد.

٥٦ ـ ثمَّ أحييناكم من بعد موتكم؛ لتستوفوا بقيَّة آجالكم وأرزاقكم المقدَّرة لكم؛ لكي تشكروني على نعمتي عليكم بإحيائكم.

٥٧ ـ واذكروا نعمتَنا عليكم حين كنتم في التِّيه في الصَّحراء بين مصر والشام، بعد أن خذلتم نبيَّكم موسى عليه السلام، ورفضتم الجهاد معه لدخول الأرض المُقدَّسة، فحرَّمنا عليكم دخولها أربعين سنة، وجعلنا الغمام الأبيض الرقيق يقيكم حرَّ الشمس، ويسَّرنا لكم في فترة التِّيه الحصول على الطعام، وأغنيناكم عن عَنَاء طلبه، والبحث عنه في الصحراء، وأنزلنا عليكم المنَّ ـ وهو رزق يسقُط لهم على وجه الأرض، يتجمَّع كالجليد، طعمه كرقاقِ خبزٍ بعسل ـ والسَّلوى ـ وهو طيرٌ بريٌّ لذيذ اللحم، سهل الصَّيْد، يمسكونه بأيديهم يشبه السُّمَانَى ـ، وقلنا لكم: كُلوا من هذا الطعام اللذيذ الحلال النافع، الذي يسَّرناه لكم بدون عناء ولا تعب، ولا تدَّخروا لغدٍ، فخالفتم وادَّخرتم فَفسد. وما ظلمونا بكفرهم وفجورهم، لأنه لا يضرُّني ظلم الظالمين، كما لا تنفعني طاعة المطيعين، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون المرَّة بعد الأخرى؛ إذْ يُعرِّضونها لعذابٍ أبديٍّ في جهنَّم مع ما ينزل بهم من عذابٍ واضطهاد وذلٍّ ومهانة في الدنيا.

وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (٥٨) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٥٩) ۞ وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ ۖ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٦٠) وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ۚ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ (٦١)

٥٨ - واذكروا نعمتَنا عليكم حين قلنا لآبائكم بعد خروجهم من التِّيه: ادخلوا هذه القرية، مُقاتلين في سبيل الله، فكلُوا من طعام القرية وثمارها عَقِبَ دخولكم فاتحين، وقبل أن تستقرُّوا فيها ساكنين، من أيِّ مكانٍ شئتم أكلاً طيِّباً كثيراً واسعاً بلا عناء، وادخلوا الباب منحنين خُضَّعاً متواضعين، شكراً لله على ما أنعم به عليكم من إخراجكم من التِّيه، والمقام ببلدة تعيشون فيها عيشة ناعمة، وقولوا: حُطَّ عنا - يا ربَّنا - خطايانا وذنوبنا، ولا تُحاسبنا عليها، نسْتُر لكم ذنوبكم ومعاصيكم، فلا نكشفها لمحاسبتكم عليها، وسنزيد المحسنين الذين أحسنوا في عبادتهم وطاعتهم، واستشعروا برقابة الله عليهم، على ما يستحقُّون من الثواب تفضُّلاً منا.

٥٩ - فغيَّر الظالمون من بني إسرائيل قولَ الله الذي أمرهم به، فقالوا قولاً غير ما قِيلَ لهم، وبَدَل أن يتوجَّهوا إلى الله تعالى بالضَّراعة توجَّهوا إليه بطلب المادة، وذلك أنَّهم بدَّلوا قولَ الحطَّة بالحِنْطة، استخفافاً بأمرِ الله تعالى، وعدولاً عن إرضائه سبحانه إلى طلب ما يُرضي أهواءَهم، ويُشبع بطونهم، ودَخلوا زَحْفاً على أستاههم، فخالفوا في الفعل كما خالفوا في القول. فتفرَّع على فسقهم عن طاعة الله بتبديل القول الذي قيل لهم، معاقبتهم بإنزال عذابٍ انْصبَّ عليهم من السماء؛ بسببِ خروجهم عن أمرِ اللّه المرَّة بعد الأخرى.

٦٠ - واذكروا نعمتَنا عليكم - وأنتم عِطاشٌ في التِّيه بعد خروجكم من مصر - حين طَلَبَ موسى السُّقيا لكم، فأوحينا إليه: اضْرب بعصاك الحجر الذي أعلمناك به، فَضَرَبَهُ، فانشقَّت من الحجر المُعيَّن اثنتا عَشْرة عيناً، وانصبَّت مياهُها بشدَّة وتدفُّق على عَدَدِ قبائل بني إسرائيل، لكلِّ قبيلة عينٌ تجري بالماء تشرب منها، وأعلمنا كلَّ قبيلة بموضع شربهم وزمانه؛ لكيلا يتزاحموا على الماء، فينالُ الماءَ القويُّ، ويضيعُ الضعيف، وقلنا لهم: كُلوا من المنِّ والسَّلوى، واشْرَبوا من الماء المتفجِّر من الحَجَر، فهذا كلُّه من رزْقِ الله أتاكم بلا مَشَقَّة ولا كُلفَة، ولا تَتَمادَوْا في الفسادِ حال إفسادكم في الأرض التي خلقها مالككم لتنتفعوا بها، وتعملوا عليها صالحاً، ولكنهم لم يطيعوا الله فيما نهاهم من أن يفسدوا في الأرض إفساداً شديداً، بل انطلقوا بعد ذلك في الأرض، يفسدون العقائد، والأخلاق، والنُّظم، وسلوك الناس في الحياة الدنيا، ويُجنِّدون الشياطين الأشرار لتدمير كلِّ القيم الإنسانيَّة، ومَحْو كلِّ الوصايا والتعليمات الربَّانيَّة.

٦١ - واذكروا حين سَئِمْتُم من المنِّ والسَّلْوى، فأصابكم الضيق والملل، فقلتم: يا موسى لن نحبسَ أنفسنا على طعام واحد متكرِّر ومستمر، لا يتبدَّل ولا يَخْتلف، فاسأل لنا ربَّك يُظْهِر لنا مما تُنْبت الأرض من الخضر ممَّا يأكله الناس والأنعام، كالنَّعناع والكراث والكرفس، وخيارها، وثُومها، وعَدَسها، وبَصَلها. قال موسى تعجُّباً واستنكاراً: أتَسْتَبدلون الذي هو أقلُّ شأناً بالذي هو أفضَل وأهنأ؟ وإنْ أَبَيْتم إلاَّ ذلك، فانزلوا من علياء الضيافة الربَّانيَّة، والعزَّة الإلهيَّة، فَأْتوا مِصراً من الأمصار، ففيها تَجدون ما تُشبعون بطونكم، وتُرضون أهواءكم، وجُعِلت الذلَّة والفاقة والخضوع والاستسلام للوهن والضعف محيطة بهم مشتملة عليهم لا يخرجون من دائرتها؛ مُجازاةً لهم على كفرانهم، ورَجعوا بغضبٍ من الله مُستحقِّين له؛ ذلك الوقوع في الذلَّة والمسكنة ونزول الغضب عليهم بسبب أنهم كانوا يكفرون بآياتِ الله الإعجازيَّة والبيانيَّة التي أنزلها في التوراة والإنجيل والقرآن، ويقتلون الأنبياء عُدْواناً وظلماً، وهم يعلمون أنَّهم على باطل، فليس لهم عذرٌ في هذا الاعتداء، بل أقدموا عليه وقد استهانوا بمقام النبوَّة، فكان فعلهم إجراماً في باعثه، وفي حقيقته، وموضوعه، وقد جرَّأهم على ذلك الكفر والقتل ما ركب في نفوسهم من التمرُّد والعصيان الوقح لأوامر الله ونواهيه، ومجاوزة الحدِّ في المعاصي، والاعتداء على حدود الله وحقوق الناس.

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ
مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ
عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ وَإِذْ
أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم
بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ
بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ
ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْاْ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ
فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا
بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾ وَإِذْ قَالَ
مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُواْ بَقَرَةً قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا
هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُواْ
ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ
وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ فَٱفْعَلُواْ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾
قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ
إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾

٦٢ - إنَّ المؤمنين من هذه الأمَّة الذين آمنوا إيماناً صحيحاً صادقاً وعملوا بشرعه، والذين كانوا على دينِ موسى عليه السلام ولم يُبدِّلوا، والنَّصارى الذين كانوا على دين عيسى عليه السلام ولم يُغيِّروا، والصَّابئين في زمنِ استقامة أمرهم - وهم قوم حنفاء مُوحِّدون باقون على فطرتهم، وليست لهم شريعة يعملون بها - هؤلاء جميعاً إذا آمنوا باللَّهِ إيماناً خالصاً، وبالبعث والحساب يوم القيامة، وعملوا عملاً صالحاً، فلهم جزاءُ أعمالهم وثوابهم عند ربِّهم، ولا خوفٌ مُسلَّطٌ عليهم من أهوال يوم القيامة، ولا هم يحزنون على ما فاتهم في الدنيا؛ لأن ما أعدَّ الله لهم في آخرتهم أعظم وأجلُّ من كلِّ ما في الدنيا من متاع وزينة. وهذا الأجر عند الله لأهل الملل الثلاثة إنما هو خاصٌّ بالسابقين لمجيء الإسلام، أما بعد مجيء الإسلام فلا يُقبل من أهل هذه الملل إلا الدخول فيه؛ لأنه يُعتبر ناسخاً لما جاء قبله، وبخاصَّة أنَّ الملل السابقة له دخلها التحريف والتبديل.

٦٣ - واذكروا - يا معشر اليهود - حين أخذنا عهدكم المؤكَّد منكم بقبول ما في التوراة، ورفعنا فوق رؤوسكم «الطور» الجبلَ العظيم في «سيناء»، إخافةً لكم، وإنذاراً بحلول عقاب الله وغضبه عليكم إذا لم تستجيبوا للأمر، وقلنا لكم: خذوا ما أعطيناكم من أوامر ونواهي بقوَّة إرادةٍ وعزيمةٍ، وضعوا في ذاكرتكم ما جاء في الكتاب من وصايا؛ ليكون تذكُّركم لها باعثاً للعمل بمُقتضاها، فعلاً فيما يجب فعله، وتركاً فيما يجب تركه.

٦٤ - ثمّ بعد مُدَّةٍ من الزمنَ انصرفتم مُبتعدين عن الوفاء بالعهد من بعد ما قَبِلتُم التوراة، فتركتم العمل بها، وحرَّفتم الكلم عن مواضعه، وقتلتم الأنبياء، بعد أن كفرتم بهم، وعَصَيْتم أمرهم، فلولا أن وفقكم الله للتوبة، وعَفَا عن زلاتكم، لكنتم من الهالكين في العذاب.

٦٥ - ونقسم مُؤكِّدين أنكم علمتم العذاب الذي أنزلناه بالذين جاوزوا الحدَّ في يوم السبت، وهو اليوم الذي أمرناهم أن يتفرَّغوا فيه لطاعتنا، وحرَّمنا عليهم الاشتغال بأيِّ عمل دنيوي، فخالف بعضكم أمرنا، وضعفوا أمام الكسْب المادي الذي لاح لهم في هذا اليوم، فكانت الأسماك تأتي إلى شواطىء بلدهم في يوم السبت، وتغيب مبتعدة في أعماق البحر في الأيام الأخرى، فَنصَبوا الشِّبَاك، واصطَادُوا الحيتان، فقال الله عزَّ وجلَّ لهم: كُونوا قردةً أذلاَّء صاغرين مُبْعدين مَطْرودين عن رحمة الله، فكانوا كما قال الله سبحانه، وتحوَّلوا إلى قردة من غير امتناع ولا تأخير.

٦٦ - فجعلنا عقوبتهم بالمسخ في القرية التي كانت حاضرة البحر، عقوبةً رادعةً لأمم معاصرة تقع بين يديها في قُراها، حتى لا تتمادى في غيِّها وعصيانها، وتحذيراً للأمم التي ستأتي مُستقبلاً من أمم بني إسرائيل، ونُصحاً مقروناً بما يثير الرغبة والرَّهبة في النفس، ودافعاً للالتزام بأوامر الله واجْتناب نواهيه، بالنسبة إلى الذين يتَّقون عقاب الله في سلوكهم؛ لئلا يفعلوا مثل فعلهم.

٦٧ - واذكروا - يا بني إسرائيل - حين اشْتَبَه عليكم أمرُ القتيل، فَسَألتم موسى أن يدعُوَ الله ليبيِّن لكم ما أشْكَلَ عليكم، فَسَأل موسى ربَّه، فأمرهم الله بذبح بقرة، وأن يضربوا القتيلَ ببعضها؛ ليحيا فيخبرهم بقاتله، ولتكون حياته دليلاً على البعث بعد الموت، فلم يستجيبوا لأمر الله تعالى، فأخذوا يُراوغون بكثرة الأسئلة، وإثارة الجدل. قالوا: أتجعلنا موضعاً للسخرية والاستهزاء عندما تطلب منا هذا الطلب؟ وما هي الصِّلة بين ذبح البقرة وبين الكشف عن هُويَّة القاتل؟ فَردَّ عليهم موسى بقوله: أستجير بالله أن أكون الآن ومستقبلاً من الجاهلين؛ لأن الاستهزاء في موضع الجدِّ وبيان أمر الله تعالى ضربٌ من الجَهْل والسَّفَه.

٦٨ - فلما علموا أنَّ ذبح البقرة عَزْمٌ من الله تعالى، استوصفوه إيَّاها، ولو أنهم عَمَدوا إلى أيِّ بقرة كانت فذبحوها لأجْزأت عنهم، ولكن شدَّدوا على أنفسهم فشدَّد الله عليهم. قالوا: ادع لنا ربَّك الذي أمرنا بهذا الأمر يُبيِّن لنا ما صفة هذه البقرة؟ قال موسى: إنَّ الله عزَّ وجلّ يقول: إنَّها بقرةٌ لا كبيرةٌ مُسِنَّة، ولا صغيرة فتيَّة، نصفٌ بين السِّنَّيْن، ووسط في العمر بين العُمْرَين، فافعلوا ما تُؤمرون من ذبح البقرة، بلا لجاجة ولا مُرَاوَغة، ولا مُحاولة الإفلات من أمر الله تعالى.

٦٩ - فَعادوا إلى سؤال موسى - عليه السلام - مرةً ثانية، واستمرُّوا في لجاجتهم ومراوغتهم، قالوا: ادعُ لنا ربَّك يُوَضِّح لنا ما لونها؟ قال موسى: إنَّ الله يقول: إنَّها بقرةٌ صفراءُ شديدةُ الصُّفرة، يُعجب الناظرين حُسْنُها وصفاءُ لونها. وهذا تشديدٌ من الله عليهم، عقوبةً لهم، لأنَّ البقر الأصفر قليل، والأصفر الفاقع نادر الوجود، ولن يبيعها أهلها - إنْ وُجدَتْ - إلا بثمنٍ مرتفع.

قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَْٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾ ۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾

٧٠ ـ كرّر بنو إسرائيل السؤال لموسى عليه السلام مرةً ثالثة، وقالوا: ادعُ لنا ربَّك يُوضِّح لنا حالة هذه البقرة: أسائمةٌ هي أو عاملةٌ؟ إنَّ البقر الموصوف بكونه وَسَطاً في العمر بين العجوز المُسِنَّة، والصغيرة الفتيَّة، وبالصُّفرة الفاقعة، كثيرٌ قد الْتبَس واشْتَبَه علينا، وإنا إنْ شاءَ الله إلى وَصْف البقرة المأمورين بذبحها لمُهتدون.

٧١ ـ قال لهم موسى عليه السلام: إنَّ الله يقول: إنَّها بقرةٌ لها أوصاف يُشترط وجودها، ليكون ذبحها سائغاً جائزاً، **الوصف الأول**: أنها ليست مُذَلَّلة للعمل في حراثة الأرض للزراعة، **والوصف الثاني**: أنها غيرُ مُعَدَّة لسَقْي الزرع، **والوصف الثالث**: أنها بريئة من العيوب والنقائص والآفات، **والوصف الرابع**: أنه لا لونَ فيها يُخالفُ لونَ سائر جلدها. وهذه الأوصاف في البقرة سببها أنهم شدَّدوا فشدَّد الله عليهم، ودينُ الله يُسْر، والتعمُّق في سؤال الأنبِياء مذموم. قالوا: هذا الوقت جئتَ بالبيان التامّ الذي لا إشكالَ فيه، وعثروا على صفات هذه البقرة المجهولة لهم في بقرة خاصّة ليتيم فقير، كان أبوه رجلاً صالحاً لم يُخلِّف له غير هذه البقرة، فاشترَوْهاَ بثمن كبير، كان من حظّ هذا اليتيم الفقير، فذبحوها وما قاربوا أن يفعلوا ما أُمروا به؛ لكثرة شكوكهم وتردُّداتهم، ولعُسْر تحصيل البقرة الجامعة للأوصاف السابقة من جهة السنّ واللون وكونها من السوائم لا العوامل.

٧٢ ـ واذكروا حين قتلتم نفساً، فاختَصمتم في شأن هذه النفس التي قُتلت، فألقى كلٌّ منكم تُهمة القتل على الآخر، والله مُظْهِرٌ ما كتمتم من أمر القتيل.

٧٣ ـ فقلنا: اضْربوا القتيلَ بجزء من البقرة المذبوحة؛ ليحيا المَضْروب، فَضَربوه ببعضها، فصار القتيل حيًّا وقام بإذن الله، وأخبر عن قاتله، مثل إحياء ذلك القتيل بعد موته يُحيي الله عزَّ وجل سائر الموتى؛ للحساب والجزاء وفصل القضاء يوم القيامة، ويُريكم معجزاته الدالَّة على كمال قدرته؛ رغبة أن تعقلوا عقلاً علمياً، فتؤمنوا بقدرة الله على البعث، وتعقلوا عقلاً إرادياً، فتمنعوا أنفسكم عن المعاصي.

٧٤ ـ ثمَّ بعد مدة من الزمن غلُظت واشتدَّت قلوبكم من بعد ظهور الدلالات التي جاءَ بها موسى، فهذه القلوبُ في الغِلَظِ والشِّدَّة كالحجارة الصَّمَّاء، بل هيَ أشدُّ قسوةً؛ لأنَّ من الحجارة ما يتَّسع وينفرج حتى تنصبَّ منه المياه صبّاً، فتصير أنهاراً جاريةً، ومن الحجارة ما يتصدَّع فينشق، فتخرج منه العيون الصِّغار التي هي دون الأنهار، ومن الحجارة ما ينزل من أعالي الجبال انقياداً لأمر الله، وقلوبكم ـ يا معشر اليهود ـ قاسية تماثل قسوة الحجارة الصَّلدة، بل هي أشدّ قسوة، لا تتفجَّر بعطاء الخير مطلقاً، ولا ترشح ـ ولو بصعوبة وكلفة ـ بشيء قليل، وهي قلوب متعالية مستكبرة لا تخضع لجلال الله، ولا تسجد له، ولا تخرُّ من خشيته، وإنَّ الله بالمرصاد لهؤلاء القاسية قلوبهم، وحافظٌ لأعمالهم حتى يُجازيهم بها في الآخرة.

٧٥ ـ أفتتَعلَّق نفوسكم ـ أيُّها المسلمون ـ تعلُّقاً قوياً أن يُصدِّقكم اليهود بما تُخبرونهم مُتَّبعين لكم؟ وقد كان علماؤهم يسمعون التوراة ويعقلونها، ثمَّ يُغيِّرون كلام الله بتبديل ألفاظٍ بألفاظٍ أخرى، وبالزيادة أو النقص على النصِّ المُنزَّل، لتُعطي دلالات توافق ما يريدون، على خلاف المعنى المُراد منها في التنزيل الربَّانيِّ، وبتأويلها التأويلات الباطلة، والتفسيرات الفاسدة، بحسب أهوائهم وشهواتهم من بعدما علموا صحَّة كلام الله ومراده فيه، وهم يعلمون فسادَ مخالفته، ويعلمون أنَّهم مُبْطلون كاذبون.

٧٦ ـ وإذا لقيَ هؤلاء اليهود الذين آمنوا، قالوا بلسانهم: آمنا بالذي آمنتم به، وإنَّ صاحبكم صادق، وإنا نجد نعتَهُ في التوراة، وإذا اجتمع مُنافقو اليهود إلى رؤسائهم منفردين بهم، مائلين إليهم، لاَمَهُم الرؤساء على ذلك، وقالوا: أتُحدِّثون المؤمنين بما فتح الله عليكم من فهم معاني نصوص توراتكم في صفة محمد ﷺ وأنَّه حقٌّ وصِدْقٌ؛ ليخاصِمَكُم أصحابُ محمدٍ ﷺ ويحتجُّوا عليكم بقولكم، وتكونَ لهم الحُجَّة عليكم عند ربِّكم يوم القيامة، أليست لكم عقول تمنعكم من أن تُحدِّثوهم بما يكون لهم فيه حُجَّة عليكم؟!!

أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾

٧٧ ـ أيلومونهم على تحديث المؤمنين بما في التوراة مخافة المُحاجَّة، ولا يعلم اليهود أنَّ الله يعلم ما يُخفون وما يُظهرون، فيُظهر للمؤمنين ما يُخفونه بواسطة الوحي إلى نبيِّه ﷺ فتحصل المُحاجَّة ويقع التبكيت، فأيُّ فائدة لهم في اللوم والعتاب؟!

٧٨ ـ ويوجد فريقٌ من أحبار اليهود منافقون نفاق مكْر وكيْد، ومنهم أُمِّيُّون جَهلَةٌ، لا يُحسنون الكتابةَ ولا القراءةَ، جاهلون بالدين، وبدلالات نصوص كتبهم، لا يعلمون كتاب التوراة إلا أكاذيبَ مُخْتَلقة سمعوها من علمائهم، فتقبَّلوها على التقليد والتعصُّب الأعمى، وإنهم لفرط جهلهم لا يعلمون إلا ما يكون فيه إرضاءٌ لأمانيهم، وتحقيقاً لرغباتهم، ولا يُدركون التكليفات والأحكام، ولا يعلمون المواثيق التي أُخذت عليهم، وما هم إلا يظنُّون ظناً مُتجدِّداً مُستمراً من غير أن يصلوا إلى مرتبة العلم، فأنَّى يُرجى منهم الإيمانُ المُؤسَّس على قواعد اليقين؟! فطمعكم ـ أيها المؤمنون ـ في إيمان جمهور اليهود، لأجل دعوتكم وحرصكم على هدايتهم في غير محله، لأنَّ الظاهرات الاجتماعية تدلُّ على أنَّ هداية جمهورهم أمر مَيْؤوس منه، ولا مَطْمَعَ فيه، فوَجِّهوا جُهودكم الدعويّة لمُجتمعات أخرى يكون بذل المجهود فيها أنفع وأجدى.

٧٩ ـ وإذا كان الأمر كذلك، فهلاكٌ عظيم وعذابٌ جسيم، وفضيحةٌ وخزيٌ لأحبار السُّوء من اليهود الذين يكتبون الكتاب بأيديهم، تبعاً لأهوائهم لإثبات ما يريدون إثباته، ومحو ما يريدون محوه، ثم يقولون لأتباعهم الأُميِّين: هذا من عند الله؛ ليأخذوا ثمناً قليلاً من مالٍ أو منافعَ أو مصالح دنيويَّة، مقابل هذا الذي يُقدِّمونه ويبذلونه من مكتوبات أيديهم المُفْتريات على الله، فلهم عذاب أليم وفضيحة وحسرة بسببِ كتابتهم هذا الباطل بأيديهم، ولهم عذابٌ أليم وفضيحة وحسرة بسبب ما يكسبون من ثمرات افترائهم على الله.

وفي الآية تحذير من التبديل والتغيير والزيادة في الشَّرع، فكلُّ من بدَّل وغيَّر، أو ابتدع في دين الله ما ليس منه، فهو داخل تحت هذا الوعيد الشديد، والعذاب الأليم.

٨٠ ـ وقال الذين يكتبون الكتاب بأيديهم من اليهود: لَنْ تمسَّنا النارُ في الآخرة مسّاً خفيفاً إلا أياماً قليلة العدد، ثم يزول عنا العذاب. قُل يا رسول الله منكراً على اليهود تلك الدعوىٰ المزعومة: أتَّخذتم عِنَد الله مَوْثِقاً أن لا يُعَذِّبكم في النار إلا هذه المدَّة المُحدَّدة القليلة، فلن يُخْلِفَ اللَّهُ وعدَهُ؟ وقد ثبت أنه لا دليل لكم، بل إنكم تقولون على الله ما لا تعلمون، فكيف تفترون مثل هذا الافتراء على الله؟

٨١ ـ ليس الأمر كما تقولون وتتمنَّون، فهي أماني خادعة، وستمسُّكم النَّار مُخلَّدين فيها أبداً، فمن ارتكب الآثام حتى صارت حالاً ثابتةً قائمة، وأحدقت به خطيئاته الاعتقاديَّة والسُّلوكيَّة من جميع جوانبه فأسقطته في الكفر، وسَدَّت عليه مَسالكَ النجاة، فأولئك البُعَداء عن مَجالاتِ الرحمة بسبب كفرهم، هم أصحاب النار الملازمون لها ملازمةً دائمةً لا تنقطع.

٨٢ ـ والَّذينَ آمنوا إيماناً صحيحاً صادقاً، وعبَّروا عن صحَّة إيمانهم الإراديِّ الاعتقاديِّ بالأعمال الصالحة، أولئكَ الفضلاء رفيعو الدرجة يُلازمونَ الجنَّة في الآخرة ملازمةً دائمة لا تنقطع.

٨٣ ـ واذكروا ـ يا بني إسرائيل ـ حين أخذنا عليكم عهداً شديداً في التوراة، يشتمل على ثمانية أمور: **أولها**: لا تعبدوا غير الله، وذلك بالإيمان به وبرسله، والعمل بما أنزل في كتبه، **والأمر الثاني**: أحسنُوا إلى الوالدَيْن، بمعاشرتهما بالمعروف، والتواضع لهما، والقيام بما أَوجَبْتُه لهما من حقوق، لما لهما من فضل الولادة والعطف والتربية، **والأمر الثالث**: أحسنوا إلى القرابة بالقيام بما يحتاجون إليه بقدر الاستطاعة، **والأمر الرابع**: أحسنوا إلى الأيتام الذين ماتَ آباؤهم في الصِّغَر دونَ سنِّ البلوغ؛ لقصور أيديهم وضعفها عن الكسب، **والأمر الخامس**: أحسنوا إلى المساكين الذين يكشفون بالمسْكَنة الظاهرة حالة فقرهم، بإطعامهم، وإعطائهم حقَّهم، وسدِّ حاجاتهم، **والأمر السادس**: قلنا لهم في الميثاق: وقولوا للناس قولاً حَسَناً طيباً، **والأمر السابع**: واظبوا على أداء الصلاة المفروضة بشروطها وأركانها وسُننها وآدابها مع الخشوع والمراقبة لله، فإنَّ إقامتها وجعلها مستقيمة لا يتمُّ إلا بذلك، **والأمر الثامن**: أعطوا الزكاة المفروضة طيِّبة بها نفوسكُم، ابْتغاءَ وَجْه الله. ولمَّا أمرهم الله تعالى بهذه التكاليف الثمانية أخْبَر عنهم أنَّهم ما وفوا بذلك، وتولَّوا عن العهد إلا قليلاً من الذين آمنوا منهم، وهم قومٌ عادتهم الإعراض وعدم الوفاء بالعهود والمواثيق، وتركها جملة وتفصيلاً من غير أن يقبلوا منها شيئاً.

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾

٨٤ ـ واذكروا ـ يا بني إسرائيل ـ حينَ أخذنا عليكم عهداً مُؤكَّداً: لا يَسْفكُ بعضُكم دماءَ بعضٍ، ولا يُخرج بعضكم بعضاً من مساكنهم، ولا يؤذي جارٌ جاره حتى يُلجئه إلى الخروج من داره تخلُّصاً من شرِّه؛ لأنكم أمة متواصلة متآزرة، بحيث يُعَدُّ قتل الرجل لغيره قتلٌ لنفسه، وإخراجُه من منزله إخراجٌ لنفسه، ثمَّ اعترفتم على أنفسكم بهذا العهد، وأنه حقٌّ، وأنتم ـ يا معشر اليهود ـ تشهدون على صحّة هذا الإقرار الذي صَدَرَ عن أجدادكم وأسلافكم، وتؤمنون بصدقه.

٨٥ ـ ثمَّ أنتم ـ يا هؤلاء اليهود ـ بعد إقراركم بالميثاق الذي أخذته عليكم، وبعد شهادتكم على أنفسكم، يقتلُ بعضكم بعضاً، ويُخرجُ بعضكم بعضاً من ديارهم، وتتعاونون على إجلائهم بحُلفائكم من العرب بالمعصية وتجاوز الحد في الظلم، وإذا وجدتم الذين أخرجتموهم من ديارهم أسارى في يد الأعداء تَسْعَوْن لفكهم، وتبذلون فديةً لإطلاقهم، والشأن أنه مُحرَّم عليكم إخراجهم من ديارهم، أفتؤمنون ببعض أحكام التوراة، فتُحرِّموا ترك الأسرى في أيدي عدوِّكم، وتجحدون وتنكرون أحكاماً أخرى، فتستبيحوا القتل، والإخراج من الديار، والتعاون مع الأعداء؟ فما جَزَاء مَنْ يفعل ذلك منكم ـ يا معشر اليهود ـ إلا عذابٌ وهَوَانٌ وفضيحة في الدنيا، ويومَ القيامة يصيرون إلى عَذَابٍ أشدّ وأبقى، وهو عذاب النار، وما اللَّهُ بغَافِلٍ عمَّا تعملون.

لقد أعرضَ اليهودُ عن العهود الأربعة التي أخذها الله عليهم، وهي: ترك القتل، وترك الإخراج، وترك المُظاهرة مع أعدائهم، وفك أسراهم، فأعرضوا عن الكلِّ إلا الفداء، فذمَّهم الله على مناقضة أفعالهم، وجمعهم بين الكفر والإيمان؛ إذ كفروا ببعض الأحكام، وآمنوا ببعضها، وهم في عصيانهم أمر الله بالقتل والإخراج والمظاهرة مع أعدائهم، يعتقدون أنَّ الحكمة والصواب فيما يفعلون دون أن يكون في قلوبهم أثرٌ من الحَرَج، أو الندم والحزن. وفي هذه الآية دليل واضح على أنَّ عناصر الإيمان لا تقبل التفريق، فالإيمان وحدةٌ متماسكة متى انفكَّت عروة من عراها، انحلَّت سائرها، وانفرط عِقْدها.

٨٦ ـ أولئك البعداء عن رحمة الله الذين أخذوا مطامعهم من الحياة والدنيا وزينتها، وتركوا مقابل ذلك الآخرة وما فيها من نعيم مقيم عند الله، وقد كانت في أيديهم بمقتضى إيمانهم بموسى وأنبياء بني إسرائيل، وما أنزل الله عليهم في كتبهم، لكنهم آمنوا ببعض الكتاب، وكفروا ببعضه، والإيمان لا يقبل التجزئة والتبعيض، فمن كفر ببعض ما أنزل الله فقد كفر كفراً مُخلَّداً في عذاب النار، فلا يُهوَّن عليهم العذاب يوم الدين، ولا يجدون ناصراً ينصرهم من عذاب الله.

٨٧ ـ ونقسم مُؤكِّدين لكم أننا أعطيْنا موسىٰ التَّوراةَ، وأتبعنا من بعده بالرسل من بني إسرائيل رسولاً بعد رسول، وكانوا يحكمون بشريعة موسى إلى أن بعث الله تعالى عيسى عليه السلام، فجاءهم بشريعةٍ جديدة، وغيَّر بعض أحكام التوراة، وآتينا عيسى ابن مريم الدلالات الواضحات والمعجزات الظاهرات، وقوَّيناه بالروح الطاهر جبريل عليه السلام، ومع ذلك فقد أنكر اليهود الحق الذي جاء به عيسى عليه السلام، وتآمروا عليه، وحاولوا التخلُّص منه لولا أن نجَّاه الله فرفعه إليه، كما فعلوا ببعض أسلافه من بني إسرائيل؛ وذلك بسبب الحسد القبيح مع الحرص على اتِّباع الهوى. أفكلَّما جاءكم ـ يا معشر اليهود ـ رسولٌ لا يوافق ما تميل إليه نفوسكم من مطالب وحاجات، أو متع ولذَّات وشهوات، تعاظمتم عن الإيمان به، واستكبرتم عن إجابة دعوته، فبادرتم فريقاً من الرسل بالتكذيب فقط حيث لا تقدرون على قتلهم، وأقبلتم على فريق منهم بالقتل حيث تقدرون على قتلهم؟!!

٨٨ ـ وقال اليهود لنبيِّ الله ورسولِهِ محمدٍ ﷺ: لسنا بحاجة إلى العلوم والمعارف الدينيَّة التي عندك؛ إذ عندنا من العلوم الدينيَّة ما ملأ قلوبنا، حتى صارت لا مُتَّسع فيها لوارداتٍ جديدة، وحتى صارت مُغلَّفة كما تُغلَّف السِّلع والأمتعة والبضائع ويختم عليها لتسفيرها، فهي غير قابلة لإضافةٍ جديدة إليها، فهي صمَّاء عن سماع ما تقول، وليس الأمر كما يقولون، بل طَرَدَهُمُ اللَّهُ وأبْعَدَهم من كلِّ خيرٍ بسببِ كفرهم وجُحودهم نبوَّة محمدٍ ﷺ، فلم يؤمن منهم إلا قليل.

فإصرارهم على الكفر وعنادهم هو الذي سبَّب لهم اللعنة، وهذه اللعنة جعلت قلوبهم غُلفاً صمَّاء لا تقبل المعرفة، ولا تستجيب لدعوة الهداية، ففي هذا إقرارٌ بأنَّ قلوبهم غُلْف، ولكن لا على معنى امتلائها بالمعرفة الدينيَّة كما زعموا، وإنما على معنى إصابتها باللعنة والطرد من رحمة الله؛ بسبب إصرارهم على الكفر وعنادهم.

وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ ۞ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾

٨٩ ـ وحين جاءهم القرآنُ من عند الله عزّ وجل، مُصَدِّقٌ لما معهم من التوراة من الأوامر والنّواهي والمواثيق التي أخذت عليهم، وبصحّة نبوّة محمد ﷺ الذي كانوا ينتظرون بعثته، ويتوقّعون مجيئه، جَحَدوه وأنكروا نبوّته، بدل أن يذعنوا للحقّ الذي عرفوه، وكان اليهود قبل مَبْعثِ النبيّ ﷺ يطلبون من الله النصرَ على مُشركي العرب بالنبيّ العربيّ المبعوث في آخر الزمان، ويقولون: سنتّبعه ونقاتلكم معه. فلمّا جاءهم محمدٌ ﷺ الذي عَرَفوا صفته معرفةً تامّةً، كفروا برسالته ﷺ، وأعرضوا عن دعوته بغياً وحَسَداً؛ لأنه لم يأت من بني إسرائيل، بل جاء من العرب أولاد عمِّهم إسماعيل، وهم يعلمون صدقَ رسالته، بشهادة صفاته المُنوَّه بها في كتبهم، وإذا كانوا قد كفروا بما علموا علماً جازماً مطابقاً للواقع، فإبعاداً وطرداً من مواقع رحمة الله وخيراته الباقية مُنْصَبّاً على الكافرين.

٩٠ ـ بئس الشيءُ الذي أخذوه وبذلوا مقابله أنفسهم، فدفعوها لنقمة الله وغضبه عليهم وعذابه، إذ استَبْدَلُوا الكُفرَ بالإيمان ظلماً وحَسَداً تجاوزوا به الحدَّ، إلى الكفر الذي يجعلهم خالدين في عذاب الله؛ لأجل تنزيل الله من فضْله القرآنَ على محمد ﷺ، واختياره للرسالة الخاتمة الخالدة، وهو من العرب من ولد إسماعيل، لا من ولد إسحاق، كما كانوا يُحبُّون أنانيَّةً عرقيَّة، فرجعوا بغضبٍ من الله عليهم محمولٍ على غضب آخر، بتضييعهم التوراة، وكفرهم بمحمد ﷺ، وشناعاتهم الكثيرة التي كانت ملازمة لكثير منهم قبل البعثة المحمديَّة. وللجاحدين نبوّة محمد ﷺ من الناس كلهم عذابٌ مُذِل يُهانون فيه؛ جزاء كفرهم وكِبْرهم واستعلائهم الكاذب.

٩١ ـ وإذا قال بعض المسلمين لهؤلاء اليهود: آمنوا بالقرآن الذي أنزله الله على رسوله الخاتم محمد ﷺ. قالوا: نحن نؤمنُ بالتوراة، وما أُنزل على أنبيائنا، فوحيُ الله حكرٌ علينا، ويكفرون بما بعده من الكتب، والقرآنُ حقٌّ ثابتٌ أنزله الله مُصدِّقاً لما معهم في التوراة. فلو كانوا يؤمنون بما أنزل الله على أنبيائهم حقاً لآمنوا بالقرآن الذي صدَّقها فيما اشتملت عليه من البشارة بمحمد ﷺ.

قل لهم يا رسولَ الله: إن كنتم مؤمنين بما أنزل الله عليكم، وتتعصَّبون لأنبيائكم، وتؤمنون بهم وحدهم، فلأيِّ شيءٍ تقتلون الأنبياء الذين بعثهم الله إليكم قبلَ محمدٍ ﷺ المرَّة بعد المرَّة مع ادِّعائكم الإيمان بالتوراة، وقد نُهيتم فيها عن قتل الأنبياء؟ فما كان منهم في ماضيهم وحاضرهم يتنافى مع ادِّعائهم الإيمان، وفي ذلك تنديدٌ بهم، وبيان أنهم لم يؤمنوا بالكتاب الذي جاء مُصدِّقاً لما معهم، كما أنهم لم يؤمنوا بما عندهم.

٩٢ ـ ونقسم مؤكِّدين لكم أنَّ موسى جاءكم بالدلالات الواضحات، والمعجزات الباهرات، ثم بعد مدَّة اتّخذتم العِجْلَ الذي صنعه لكم السّامري إلهاً تعبدونه، من بعد خروج موسى عليه السلام إلى الميقات، وأنتم ظالمون بوضع العبادة في غير موضعها.

٩٣ ـ واذكروا ـ يا معشر اليهود ـ حين أخذنا عليكم عهداً مؤكَّداً على العمل بالتوراة، وَرَفَعنا جَبَلَ الطُّور فَوْقَ رؤوسكم، وإخافةً لكم، وإنذاراً بحلول عقاب الله وغضبه عليكم إذا لم تستجيبوا للأمر، وقلنا لكم: اعملوا بالتوراة بجدّ وعزم واجتهاد، واستجيبوا وأطيعوا فيما أمرتم به، وإلا أسقطنا الجبلَ عليكم. قالوا: سمعنا قولَكَ وعَصَيْنا أمرك، فقلوبكم جافية مُعرضة، تنطق بحالكم من الإصرار على المعصية، واختلط حبُّ عبادة العجل حتى خلص إلى قلوبهم ورسخ فيها وتشرَّبته، وخالطته مخالطة تامَّة، كما يتشرَّب الثوب الصبغ، ويتلوَّن بلونه، ويخالط أجزاءه؛ بسبب كفرهم بالله تعالى، المُسْتكِنّ في قلوبهم، فحبُّهم البالغ للعجل ناشىء من كفر سابق، فهو كفر على كفر. قل لهم يا رسول الله: بئسَ الشيء الذي يدعوكم إليه إيمانكم، قتلُ الأنبياء، وعبادة العجل، إن كنتم مُصدِّقين كما زعمتم بالتوراة، والواقع أن التوراة لا تسيغ شيئاً مما أتيتم به، فما أنتم بمؤمنين.

قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾

٩٤ - قل - يا رسول الله - لليهود الذين يدَّعون أنَّ الجنةَ خاصَّةٌ بهم سالمةٌ لهم؛ لزعمهم أنَّهم أبناءُ الله وأحبَّاؤه: إنْ كانت لكم الجنَّة مُختصَّة بكم في حكم الله، سالمةً لكم من دون الناس؛ لأنكم - كما تزعمون - في منزلة والناس دونكم لا يبلغون منزلتكم، بل أنتم وحدكم الذين تنالونها، فاطْلبوا الموت الذي هو الطريق الوحيد إليها، وأسألوه بألسنتكم، إن كنتم صادقين في قولكم ودعواكم. فامتنعت اليهود عن إجابة النبيِّ ﷺ إلى طلب الموت وسؤاله لعلمها أنها إن تمنَّت الموت هلكت، فذهبتْ دنياها، وصارت إلى خزي الأبد في آخرتها.

٩٥ - ولن يتمنَّى اليهودُ الموتَ أبداً، ولو بألسنتهم، لعلمهم أنَّهم كاذبون في دعواهم أنهم أبناء الله وأحبَّاؤه، وأنَّ النار لن تمسَّهم إلا أياماً معدودة؛ بسبب ما أسلفوا من الأعمال السَّيِّئة المُؤدِّية إلى حرمانهم من الجنة ودخول النار، والله سبحانه عليمٌ باليهود المتعدِّين حدود الله، والمُدَّعين اختصاصهم بالجنة، وانفرادهم بها دون الناس، وهم معاقبون بهذا الظلم الذي أصبح سجيَّة لهم.

٩٦ - واللّهِ لَتَجِدَنَّ - يا رسول الله - اليهودَ أشدَّ الناس طَلَباً لحياةٍ مُتطاولة، مهما كانت صورتها، سواء كانت حياة ذل أم كانت حياة عز، وسواء كانت حياة استعباد أم كانت حياة حرية، فهم يحرصون على الحياة ذاتها، خوفاً من ملاقاة عذاب الله، واعتقاداً أن كلَّ نصيبهم من الحياة منحصرٌ في الحياة الدنيا، ولتجدنَّهم - وهم الذين يعترفون بالحساب وفصل القضاء وتنفيذ الجزاء - أحرصَ على الحياة من المُشركين الذين لا يرجون بعثاً بعد الموت، ولا يؤمنون بالمعاد. يتمنَّى اليهودي تعميرَ ألفِ سنةٍ، ولا يُبْعِدُهُ - ولو بمعاناة ومعالجة - هذا العمرُ الطويلُ من عذابِ النَّار، واللّهُ عالم بأعمالهم، محيط بما يسرُّون وما يعلنون، لا تَخفَى عليه خافيةٌ من أحوالهم، فهو مُجازيهم عليها.

٩٧ - قل - يا رسولَ اللّهِ - لليهود حين قالوا: إنَّ جبريل هو عدوُّنا من الملائكة؛ لأنه مَلَكٌ يأتي بالشدَّة، وينزل بالعذاب والهلاك، ويسفك الدماء، ولولا نزوله عليك لاتَّبعناك: من كان عَدواً لجبريل، فإنَّهُ نَزل بالقرآن على قلبك بأمر الله موافقاً لما قبله من الكتب السماوية في الدلالة على التوحيد وأصول الدين. وفي القرآن هدايةٌ للمؤمنين إلى الأعمال الصَّالحة، وبُشرى لهم بثوابها إذا أَتَوْا بها. فجبريل لم ينزل بالقرآن من تلقاء نفسه، وإنما جاء به بأمره تعالى، والله سبحانه اختاره رسولاً أميناً لنزول القرآن، فهو من حيث إنه مأمورٌ وَجَبَ أن يكون معذوراً، ومن حيث إتيانه بالهداية والبشارة وَجَبَ أن يكون مشكوراً؛ وعداوة مَنْ هذا سبيله عداوةٌ لله تعالى.

٩٨ - مَنْ كان عدوّاً لِلّهِ بكفره به ومخالفته لأوامره عناداً، وعدواً لملائكته في إنكار فضلهم، ووصفهم بما يُنافي عصمتهم، ورفعة منزلتهم عند الله، وعدواً لرسل الله بتكذيبهم وإلحاق الأذى بهم، وبخاصَّةِ المَلَكان الكريمان: جبريلُ وميكائيلُ، فإنَّ عداوة كلِّ واحد من هؤلاء كفر، ومن كفر فقد باء بعداوة الله، ومَنْ باء بعداوة الله فجزاؤه الخزي وعذاب الحريق.

خُصَّ جبريل بالذكر مع أنه داخلٌ في عموم الملائكة، تحذيراً لليهود من معاداتهم له، وضُمَّ إليه ميكائيل لقيامه بوظيفة أرزاق العباد التي بها حياة الأجساد، مقابل قيام جبريل بوظيفة الوحي الذي به حياة القلوب والنفوس.

٩٩ - ونؤكِّد مقسمين أننا أنزلنا إليكَ - يا رسول الله - آياتٍ واضحاتٍ مُفَصَّلات دالأت على صدق نبوَّتك، وما يَجحَدُ بهذه الآيات البيانيَّة المتلوَّة إلا المُتمرِّدون على الكفر، المُتمرِّسون على الفجور ونقض العهود.

١٠٠ - أكفروا بالآيات البيِّنات؟ وكلَّما أعطى اليهود عهداً مؤكَّداً بالإيمان بمحمدٍ ﷺ، طَرَحَ العهدَ فريقٌ منهم، ونَقضُوه المرَّة بعد الأخرىٰ؛ استخفافاً واستهانة به كما يُنْبَذُ الشيء التافه الحقير، بل أكثرهم لا يؤمنون بالتوراةِ، وليسوا من الدين في شيء. وقد أثبت الله عليهم خُلق نقض العهود والمواثيق بدلالة الصيغة المُقْتَضِيَة معنًى تكرار ذلك منهم، وهذا الفريق الذي ينبذ عهده فيهم هو الفريق الأكثر.

١٠١ - ولمَّا جاءَ اليهودَ رسولٌ بالغ أقصى درجات الفضل، من عند الله سبحانه الذي أنعم عليهم بالنعم المتوالية، مُصَدِّقٌ لما معهم من التكليفات الكثيرة التي جاءت في المواثيق التي أخذها الله عليهم، وجاء على الوصف الذي ينطبق على صفة الرسول المُبشَّر به في التوراة، طَرَحَ علماءُ اليهود الذين كانوا في زمن النبيِّ ﷺ التوراة، ورفضوها عن علم ومعرفةٍ، وأصرُّوا على إنكار نبوَّته ﷺ مكابرةً وجحـوداً؛ كأنَّ ذلك الفريق المُدبر عن كتاب الله لا يعلمون أنَّه كتاب الله تعالى، وأنه صِدقٌ وحقٌّ.

وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ ۖ وَمَا كَفَرَ
سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ
السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ۚ
وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ
فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ۚ
وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ
مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ
مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ
أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا
وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ
﴿١٠٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا
انظُرْنَا وَاسْمَعُوا ۗ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾
مَّا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ
أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ
بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾

١٠٢ ـ لقد نَبَذَ اليهود التوراة كما نَبَذوا القرآن، وأعرضوا عن جميع الشرائع التي أنزلها الله، واتَّبعوا كُتبَ السَّحرة والشَّعوذَة التي كانت تَقْرؤها الشَّياطين على عهدِ مُلك سُليمان بن داود وفي زمانِهِ، وقد سخَّر الله له مَرَدة الجنِّ والشياطين، يأتمرون بأمره، ويعملون له ما يشاء من الأعمال الكبيرة، والمنشآت الضخمة الهائلة، معجزةً له عليه السلام، وبرهاناً على صحَّة نبوَّته، وصدْقِ رسالته، وبعد موته عليه السلام أشاع الشياطين بين الناس أنه كان ساحراً، وأنه ما أخضعهم إلا بقوَّة السحر، وانتشرت هذه الشائعات بين اليهود، وَمَا كفَرَ سُلَيمانُ ـ كما زعمت الشياطين ـ بالسِّحرِ وَلَم يعملْ به. ولكنَّ الشياطينَ الذين اتَّخذوا السِّحرَ لأنفسهم هم الذين كفروا؛ وسببُ كفرهم: أنَّهم يُعلِّمون الناسَ السِّحر قاصدينَ إغواءَهم وإضْلالهم، ويُعلِّمون ما أُلهم وعُلِّم المَلَكان «هاروتَ وماروتَ» بأرض «بابل» في العراق، من وصف السحر وماهيَّتِهِ وكيفيَّة الاحتيال به، ليُعرِّفاه الناس فيجتنبوه، وما يُعَلِّمُ المَلَكانِ «هاروت وماروت» أحداً حتى يَنْصَحَاه ويقولا له: ما نحنُ إلا ابتلاءٌ ومحنةٌ، لتمييز المطيع من العاصي، وما نصفه لك من السحر إنما الغرض منه تمييز السحر من المعجزة، والتعريف بالذين يدَّعون النبوَّة كذباً، فلا تعمل بما تتعلَّمه من السِّحر فتكفر، فيتعلَّمون من المَلَكَيْن علمَ السِّحر الذي يكون سَبباً في التفريق بين المرءِ وزوجه، بإزالة الإلفة بينهما، وإحداث البغضاء، وما السَّحَرَةُ بضارِّين بالسِّحر أحداً في جسمه أو نفسه إلا بعلم الله وقُدْرتِهِ ومشيئتِهِ، ويتعلَّمونَ السِّحر الذي يضرُّهم، ويفسد عقولهم، ولا ينفعهم بأيِّ صورة من صور النفع، وليس لعاقلٍ أن يقوم بعملٍ مؤكَّد الضرر، ولا نفع فيه، ولقد عَلِمَ اليهودُ الذين نبذوا كتابَ الله، واستبْدلوا به اتِّباع السحر أنَّ من استبدل السِّحرَ بكتاب الله مَا لَهُ من نَصيبٍ في الجنَّة، وَلَبِئْسَ ما باعوا بِهِ حظَّ أنفسهم، حيث اختاروا السِّحرَ والكفر على الدين الحقِّ، لو كانوا يعلمون ما في ترك العمل بكتاب الله والاشتغال بالسِّحر من العقاب.

١٠٣ ـ ولو أنَّ اليهودَ الذين يتعلَّمون السِّحر ويعملون به آمنوا بمحمدٍ ﷺ والقرآن، واتَّقوا غَضَبَ الله تعالى، فتركوا ما هم عليه من نَبْذِ كتاب الله واتِّباع كتبِ الشَّياطين، لكان ثوابُ الله الدائم المستمر خيراً لهم من السِّحر وممَّا اكتسبوه به، لو كانوا يعلمون ثوابَ الله وجزاءَهُ على طاعته.

١٠٤ ـ يا أيُّها الذين صدَّقوا بأركان الإيمان، وعملوا بشريعة الإسلام: لا تقولوا للرسول ﷺ: راعنا، أي: راع أحوالنا، ودبِّر أمورنا، وراقبنا وأمهلنا حتى نتمكَّن من حفظ ما تُلقيه علينا؛ لكي لايجد اليهود بذلك سبيلاً إلى شتْم رسول الله ﷺ، ونسبته إلى الرُّعونة ﷺ، وقولوا ـ أيها المؤمنون ـ بدلاً منها: انظرنا، أي: انظر إلينا، وتأنَّ بنا، وأقبلوا على الرسول ﷺ بقلوبكم حتى تحفظوا ما يُلقيه عليكم، ولا يفوتكم منه شيء، واسمعوا ما تُؤمَرون به سماع قبول وانقياد وإجابة، لا سماع عناد وجحود، كما فعل اليهود مع نبيِّهم موسى عندما قالوا له: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾. ولليهود الذين سبُّوا رسولَ الله ﷺ واتَّخذوا كلمة «راعنا» وسيلة إلى إيذائه، عذابٌ مُؤلم موجع يوم القيامة.

نُهي المؤمنون عن مخاطبته ﷺ بهذه اللفظة؛ قطعاً لألسنة اليهود حتى لا يتَّخذوها ذريعةً إلى سبِّه ﷺ وإيذائه. وهذه الآية أصلٌ في سدِّ الذرائع؛ إذْ أنَّ الذرائع أو الوسائل تأخذ حكم ما تؤدِّي إليه، فما يؤدِّي إلى المطلوب يكون مطلوباً، وما يؤدي إلى الممنوع يكون ممنوعاً. وهذا النداء الإلهيُّ هو النداء الأول من جملة أحد عشر نداءً لجماعة المؤمنين في هذه السورة.

١٠٥ ـ ما يحبُّ اليهودُ والنَّصارى ولا عَبَدَةُ الأوثانِ أن يُنزِّل الله عليكم شيئاً من الخير مهما كان قليلاً، وأعظم خير يُنزِّله الله على المسلمين هو القرآن الكريم لما فيه من حكمة رائعة، وحجة بالغة، وبلاغة باهرة، وهم يكرهون أن يصيبكم ـ أيها المؤمنون ـ خيراً، سواء أكان خيراً مادياً، أو معنوياً؛ وذلك لأن كفرهم قائم على الأنانيَّة والحسد، وكراهية الحق، والتعصُّب الأعمى للعقائد الموروثة، وهذه العوامل تجعلهم يكرهون الخير للمؤمنين الذين يخالفونهم في عقيدتهم ومنهج حياتهم، وأما المؤمنون فيحبُّون الخير للناس أجمعين، وأول ما يحبُّون لهم النجاة والسعادة بالإيمان والإسلام، وطاعة الله ورسوله، واللَّهُ تعالى يختصُّ بحَمْل نبوَّته ورسالتِهِ مَنْ يشاء من عباده، ويتفضَّل بالإيمان والهداية على من أحبَّ من خلقِهِ رحمةً منه لهم، وهو أعلم حيث يجعل رسالته، وحيث يجعل هدايته أيضاً، واللَّهُ سبحانه صاحب العطاءِ الواسع الكثير على خلقه، وليس لأحد سابقةُ استحقاق عليه سبحانه، فالفضل له أولاً وآخراً، فإحسانه على بعض عباده من محض فضله، وحرمان بعضهم لمشيئته وحكمته.



۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾ وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾

١٠٦ - ما نزيل من آية برفع حكمها، أو نَمْحُها من القلوب، نأتِ بدلها بما هو أنفعُ لكم وأسهلُ عليكم، وأكثر لأجوركم، أو بمثلها في المنفعة والثواب، ولله سبحانه أن يُكلِّف عباده بما شاء من تكاليف، سواءٌ أكانت أفعالاً يؤدُّونها، أو أفعالاً يتركونها، والغرض منها امتحان طاعتهم، مع ما قد يكون فيها من منافع ومصالح لهم. ألم تعلم - يا رسول الله - أني عظيم القدرة على تعويضك ممَّا نسختُ من أحكامي وغيَّرتُهُ من فرائضي التي كنتُ افترضتُها عليك، ما أشاء ممَّا هو خيرٌ لك ولعبادي المؤمنين، وأنفع لك ولهم عاجلاً وآجلاً.

١٠٧ - ألم تعلم - يا رسول الله - أنَّ الله تعالى هو المُتصرِّف في السَّموات والأرض، يحكم فيهما بما شاء من أمرٍ ونهي ونسخ وتبديل، وما لكم - يا معشر اليهود المنكرين للنسخ والجاحدين لنبوةِ محمد ﷺ - عند نزول العذابِ ممَّا سوى الله من قريبٍ يعينكم، ولا ناصرٍ يمنعكم من العذاب.

١٠٨ - بل أتريدون - أيها المُخاطَبون المُكلَّفون بالإيمان بالرسالة الخاتمة - أن تسألوا رسولكم محمداً ﷺ أسئلة تعنُّتيَّة يُوجِّهها إليكم اليهود، لصدِّ مَنْ لم يُسلم بعدُ من مشركي العرب عن الدخول في الإسلام، وفتنة ضعفاء المسلمين عن دينهم، مثلما سأل موسى قومُه في زمن مضى، فقالوا: أَرِنَا الله جهرةً، ومَنْ يجعل الإيمان في مقابل الكفر، فقد أخطأ قصْدَ الطريق الذي يكون السائر فيه بمأمنٍ من أن يتيه عن الغاية المنشودة.

١٠٩ - تمنَّى كثيرٌ من اليهود أن ترجعوا - يا معشرَ المؤمنين - إلى ما كنتم عليه من الكفر، من بعد إيمانكم الراسخ الذي يمنعكم من تحقيق ما تمنَّوه، يحسدونكم حسداً نابعاً من أعماقِ أنفسهم، ويتمنَّون زوال النعمة عنكم، ولا يريدون الخير لكم، وهذا الحسد راسخٌ في طبائعهم، من بعد علمهم في التوراة أنَّ محمداً ﷺ رسول الله، ودينَه حقٌّ، ويتَّخذون الوسائل المختلفة ليردُّوكم عن إيمانكم فتكونوا كافرين؛ وهذه هي خطتهم الإجراميَّة التي يسيرون عليها في إفساد العالم، وإخراج الناس من الإيمان إلى الكفر، فَتَجاوزوا عمَّا كان منهم من إساءةٍ وحسدٍ، واتركوا مؤاخذتهم وتأنيبهم حتى يأتي الله بأمره بقتالهم ونفيهم، إنَّ الله سبحانه قادر على الانتقام منهم، ونصركم عليهم، لا يُعجزه شيء.

١١٠ - ولا يَعُوقكم حَسَدُ أهل الكتاب لكم وحقدهم عليكم، عن طاعة ربكم وعبادته، فدعوا قلوبهم تحترق بنار الحسد والغمّ، وأدُّوا الصَّلاة كاملةَ الأركانِ والشروط، وادفعوا الزَّكاةَ المفروضةَ للمُستحقِّين، طيِّبةٌ بها نفوسكم، واستكثروا من فعل الخيرات والطاعات، وما تُقدِّموا لأنفسكم من طاعةٍ وعملٍ صالح تجدوا ثوابَه وأجْرَهُ عند اللهِ، إنَّ اللَّه لا يَخفى عليه شيءٌ من قليل الأعمال وكثيرها، فلا يضيعُ عنده عملُ عاملٍ، ولا ينقصُ منه شيئاً، بل يزيده سبحانه بفضله وكرمه.

١١١ - وقالت اليهودُ: لن يَدْخُلَ الجنَّةَ إلا من كان يهودياً، وقالت النَّصارى: لن يدخُلَ الجنَّةَ إلا من كان نصرانياً، تلك دعاواهم الباطلة التي تمنَّوها على اللَّهِ بغير حق. قل لهم - يا رسول الله ويا كلَّ داعٍ إلى الله -: أحضروا دليلكم القاطع الملزم على دعواكم أنَّ الجنَّة لا يدخلها إلا من كان يهودياً أو نصرانياً، إن كنتم صادقين فيما تدَّعون.

١١٢ - ليس الأمر كما تزعمون، ولكن من أخلصَ دينَه وعبادته لله وحده، وانقاد في رحلة امتحانه في الحياة الدنيا لأوامر الله ونواهيه انقياداً تاماً، والحال أنه مُحسنٌ عبادتَهُ وطاعتَه لربِّه، من أهل مرتبة الإحسان، الذين يعبدون الله كأنهم يَرَوْنه، والذين أحسنوا معاملتهم مع الناس، فَلَهُ ثوابُ عمله، وأجره الملائم بفضْل الله، ولا خَوْفٌ مُسَلَّطٌ عليهم تضْطرب به نفوسهم وقلوبهم في الآخرة، بسبب ترقُّب مكروه من عذاب الله، ولا هم يحزنون بسبب مكروهٍ نزل بهم، أو من أجل محبوب فاتهم الحصول عليه؛ لأن ما أعدَّ الله لهم في آخرتهم أعظم وأجل من كلِّ ما في الدنيا من متاع وزينة ومحابِّ نفوسهم.

وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾

١١٣ ـ أدى التعصُّب المَمْقُوت بالمُنْتَسبين إلى المللِ الإلهيَّة ذات الأصل الواحد، إلى الاختلاف والاقْتِتَال، وإنكار كلِّ فريقٍ ما عند الآخر، وجحْد نبوَّة ورسالة أنبياء آخرين، وقالت اليهود: ليست النَّصارى على شيءٍ من الدين الصحيح، وكذلك قالت النَّصارى في اليهود، وكلا الفريقين يقرؤون التوراة والإنجيل، وكلُّ واحد من الكتابَيْن مُصَدِّق للآخر. كحال أهل الكتاب الذين قالوا لمَنْ خالفهم: لستم على شيءٍ من الدين، قال مشركو العرب الذين لا يعلمون من الكتب الربّانية شيئاً، في محمد وأصحابه: إنهم ليسوا على شيء من الدين، وزعموا أنَّ ما هم عليه من عبادة الأصنام والأوثان بجوار بيته الحرام هو الحق، ومنعوا المسلمين المُوَحِّدين من عبادة الله فيه، وآذوهم واضطهدوهم، فالله يقْضي بين المُحقِّ والمُبْطل فيما اختلفوا فيه من أمر الدين، ويُجازي كلاً بعمله يوم القيامة.

١١٤ ـ لا أحدَ أكفرُ وأبغى ممَّن مَنَعَ مساجد الله كراهةَ أن يُعبدَ ويُصلَّى له فيها، ويُذكر بالدعاء والاستغفار والتَّسبيح، وجدَّ في خرابها بالهدم، أو الإغلاق، أو بمنع المؤمنين منها، أولئكَ البعداء عن رحمة الله، الذين منعوا مَساجد الله تعالى أن يُذكر فيها اسمه ما كان يسوغ لهم أن يدخلوا مساجدَ الله إلا خائفين من المؤمنين أن يَبْطشوا بهم، فَضْلاً عن أن يستولوا عليها ويمنعوا المؤمنين منها. لَهُمْ صَغَارٌ وذلٌ ومهانة في الحياة الدنيا، جزاء استكبارهم، ولهم في الآخرة عذابٌ شديدٌ في النار.

١١٥ ـ إنَّ لله المشرقَ والمغرب وما بينهما خلقاً ومُلكاً، فأيُّ جهةٍ توجَّهتم إليها في الصلاة فهنالك قِبلة الله التي وَجَّهكم إليها، فالأصل في الجهات والأمكنة أنها سواءٌ بالنسبة إلى الله تبارك وتعالى، وكلها صالحةٌ لعبادة الله، لكن اقتضت حكمة توحيد جهة المؤمنين تحديد مكان قبلتهم، واقتضت الحكمة في بعض المناسك تحديد أمكنة وأزمنة لها، فاختصَّت بامتيازات خاصَّة اقتضتها مصالح العبادات أنفسها، والأغراض الدينية التي تهدف إليها منها. إنَّ الله عظيم الصفات، لا حدَّ لكمالها تنتهي إليه، واسعُ المغفرة والعلم والعطاء الذي عمَّت نعمه، وشملت رحمته كل بَرٍّ وفاجر، عليمٌ بأعمالكم لا يخفى عليه منها شيء.

١١٦ ـ وقالت اليهود والنصارى والمشركون: اتَّخذَ الله لنفسه ولداً، تنزَّهَ اللَّهُ وتقدَّسَتْ ذاته العليَّة عن اتِّخاذ الولد، وعن قولهم وافترائهم عليه، بل كلُّ مَنْ في السَّمواتِ والأرض مُلْكُهُ وعبيدُهُ، فلا حاجة له إلى اتِّخاذ الولد، إذ الولد إنما يسعى إليه الوالد أو يرغب فيه ليعتزَّ به، أو ليحيي ذكره، أو ليستعين به على القيام بأعمال الحياة، والله مُنزَّه عن أمثال هذه الأغراض، كما أن الحكمة من التوالد بقاء النوع محفوظاً بتوارد أمثال الوالد حيث لا سبيل إلى بقائه بعينه، أما الخالق فهو الواحد في ذاته وصفاته، الباقي على الدوام، وجميعُ أهل السَّموات والأرض مطيعون خاضعون، مُذلَّلون مُسَخَّرون لما خُلقوا له، لا يستعصي منهم شيء على مشيئته وتكوينه، شاهدون بلسان الحال والمقال بوحدانيَّته.

١١٧ ـ اللَّهُ خالق السموات والأرض ومُنْشئهما على غير مثال سَبَق، ودون إرشادٍ من أحد، وإذا قدَّر أمراً وأراد خلقه فإنما يقول له بأمره التكوينيِّ القدريِّ: «كن» فيكون ذلك الأمر على ما أرادَ الله تعالى وجودَهُ من غير امتناع ولا مُهْله.

١١٨ ـ وقال الجَهَلة من أهل الكتاب والمشركين لرسول الله محمد ﷺ بإلحاح: هَلاَّ يكلِّمنا الله عَياناً بأنَّك رسوله، أو تأتينا دلالة وعلامة كبرى على صِدقِكَ كما آتى الله موسى وعيسى. ومثلُ ذلك القول قالته كفار الأمم الخالية، تَشَابَهَتْ قلوبُ المكذِّبين في الكفر والقَسْوة والعَمىٰ مع تباعد عصورهم، فعوامل الكبْر والحسد والرغبة بالفجور التي وصلت إلى عُمْق قلوب الآخرين، كما وصلت إلى عُمق قلوب الأوَّلين من أهل الكفر، لها ظواهر في سلوك هؤلاء وأولئك متشابهة، بسبب التشابه الذي حصل في قلوبهم، وإنَّ آياتِ القرآن وما جاء به محمدٌ ﷺ من المعجزات الباهرات كافيةٌ لقوم يريدون أن يصلوا إلى يقينٍ من أمر شريعة الله لعباده.

١١٩ ـ إنَّا بعظمة ربوبيَّتنا أرسلناك ـ يا رسولَ الله ـ بالحقِّ الثابت المطابق للواقع، المؤيَّد بالبراهين القاطعة، بشيراً لمن آمن بالسعادة الأبديَّة في جنات النعيم يوم الدين، مع أنواع ثواب مُعجَّل في الدنيا، ونذيراً لمن كفر وأعرض عن الاستجابة لدعوتك بالشقاء الأبديِّ بعذاب في نار جهنم يوم الدين، مع أنواع عقاب في الدنيا، وَلَسْتَ مُكلَّفاً ـ بعد البلاغ ـ تحويلَ الناس من الكفر إلى الإيمان بالإكراه، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات، فأنت غير مسؤول عن أصحاب النار المُتأجِّجة المُلازمين لها، الذين لا يُرجى رجوعهم عن طريق إراداتهم الحُرَّة من الكفر والعناد والتعنُّت إلى الإيمان والإسلام والطاعة.

وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَـٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾ ۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾

١٢٠ ـ وَلَن ترضى عَنكَ ـ يا رسولَ الله ويا كلَّ داعٍ إلى الله ـ اليهودُ ولا النَّصارى إلا باتّباع دينهم وطريقتهم. قُل ـ يا رسولَ الله ـ إنَّ دين اللَّهِ الذي هو الإسلام هو الهدىٰ كلّه وليس وراءه هدى، ونؤكِّد لك ـ يا رسولَ الله ـ أنَّك إن اتَّبعت أهواء اليهود والنَّصارى في أمور عقيدتهم وشريعتهم المنحرفة عن الحق، الصَّادرة عن شهوات أنفسهم، بعد الذي جاءك من العلم في الكتاب المُنزَّل عليك، بأنَّ الدِّين هو الإسلام الذي رَضِيَهُ الله لعباده، ما لكَ عندَ اللَّهِ من وليّ ينفعك، ولا نصير ينصرك. فإذا كان الرسول ﷺ غير مُستثنىً من قانون العقاب والجزاء الربَّاني، لو اتَّبع أهواء اليهود والنصارى، وهو لا يفعل ذلك حتماً، فكيف يكون حالكم؟!

١٢١ ـ الذين أعطيْناهُمُ الكتابَ من اليهود والنَّصارى، وتقبّلوا العطاء بنفسٍ شاكرة، وقلب مؤمن، وعقل مدرك، يَقرؤُون الكتاب قراءةً حقَّةً كما أُنزل لا يُغيِّرونه ولا يُحرِّفونه، ولا يُبدِّلون ما فيه من نعتِ رسولِ الله ﷺ، ويتعرَّفون معناه، ويتَّعظون بعظاته، ويتَّبعونه حقَّ الاتِّباع، أولئكَ الذين يَتْلونه حقَّ تلاوتِهِ، يُصدِّقونَ به تصديقاً لا يُرتاب فيه، ويذعنون لما يأمر به وينهى عنه، ويعملون بمُوجبه، دون المعاندين المحرِّفين لكلمه عن مواضعه، ومَنْ يكفر بالكتاب بتحريفه، وينكر ما فيه من فرائض اللَّهِ ونبوَّةِ محمدٍ ﷺ، فأولئكَ المنحطُّون البعيدون عن مواطن تنزُّل رحمات الله هم الذينَ خَسروا أنفسَهُم حيث استَبْدلوا الكفرَ بالإيمان، فَفَاتهم ما أعدَّه الله للمؤمنين من نعيم دائم ومقام كريم، ويخلدون بعد هذا الحرمان في عذاب مهين.

١٢٢ ـ يا ذُرِّيَّة يعقوب: اذكروا نعميَ الكثيرة التي أنعمتُ بها عليكم، دون غيركم من الناس، واذكروا تفضيلي لكم في أيام موسى وهارون وداود وسليمان وبعض أزمان أخرى على العالمين لحَمْل رسالة الله إلى الناس.

١٢٣ ـ وقُوا أنفسكم عذابَ يوم لا تَجزي فيه نفسٌ عن نفسٍ شيئاً، ولا يُقْبل منها فِديةٌ، ولا يَشْفَعُ لها شافعٌ إذا وَجَبَ عليها العذابُ، ولم تستحقَّ سواه، ولا ناصرَ لهم ينصرهم من الله إذا انتقم منهم.

١٢٤ ـ وضع في ذاكرتك ـ أيُّها المُتلقِّي لكلام ربِّك ـ حين اختبرَ اللَّهُ إبراهيم بكلمات تكليفيَّة، وأوامرَ ونواهيَ، لا ينهض بها إلا ذو عزم يتلقَّى أوامر ربِّه بحُسن الطاعة، فقام بهنَّ حقَّ القيام، وَعَمِلَ بَهنَّ على وَفْق ما طُلِب منه، ولم يَنْتَقِص منهنَّ شيئاً. قال الله له: إني مُصَيِّرُكَ بإتمامك الكلمات، ووفائك لها قدوةً يقتدي النَّاسُ بك في الخير. قال إبراهيم: وهل يكون من بعض ذُرِّيَّتي أئمة يُقتدى بهم؟ قال الله تعالى له: سيكون من ذرِّيَّتك أئمة، ولكن لا يُصيبُ ما عَهِدتُ إليك من النبوَّة والإمامة من كان ظالماً منهم، لأنهم غير مُؤهَّلين للإمامة.

١٢٥ ـ وضع في ذاكرتك ـ أيُّها المُتلقِّي لبياننا ـ حين صيَّرنا البيتَ الحرام مَرْجعاً للناس، يرجعون إليه من كلِّ جانب، ويتردَّدون إليه في كلِّ عام، لعبادتنا بالطواف والصلاة والاعتكاف، ويُثابون بحجِّه واعتماره، ومَوْضعاً ذا أمنٍ يأمنون فيه من الحوادث الكونيَّة المُدمِّرة، كالزلازل والبراكين، وجعلنا فيه الأمن بالأحكام التكليفيَّة الشرعيَّة، وقلنا لهم: اتَّخذُوا من الحجَرِ الذي قامَ إبراهيم عليه عند بناء البيت مكاناً للصلاة وراءه أو في مكان تشاهدونه فيه؛ لتتذكَّروا بعد الطواف شيخ المرسلين، وإمامَ الصَّالحين من بعده، وتقتدوا به في صالحات أعماله، وأمرنا إبراهيم وابنَه إسماعيل: أنْ طَهِّرا الكعبة المُشرَّفة بمكة المكرمة من النجاسات المادية، والمعنويّة، كالأوثان والصُّور والتماثيل والمعاصي والآثام، وصيانته عن كلِّ ما لا يليق به؛ ليكون طاهراً للدائرين حَوْلَ البيت الذين يتقرَّبون إلى الله بالطواف حول الكعبة، ممَّن يأتون لحج وعمرة ثم ينصرفون، وللمقيمين به، المُلازمين له بقصد الإكثار من العبادة في المسجد الحرام، والمُصَلِّين الذين يتقرَّبون إلى الله بالصَّلوات فرائض ونوافل، ويخضعون لله راكعين ساجدين.

١٢٦ ـ وضع في ذاكرتك ـ يا أيها المُتلقِّي لكلامنا ـ حين قال إبراهيم داعياً: ربِّ اجعل مكةَ بلداً ذا أمنٍ يأمنُ فيه أهله، وارزُق المؤمنين بالله واليوم الآخر إيماناً صحيحاً صادقاً من أهله من أنواع الثمرات. قال الله تعالى لإبراهيم عليه السلام: سأرزُقُ الكافرَ أيضاً في الدنيا وأمتِّعه تمتيعاً قليلاً إلى مُنتهى أجله، استدراجاً له، ثم أُلجئُه وأدفعهُ بعد متاعه القليل المنقطع مَسُوقاً بالإكراه إلى عذابِ النَّار، وَبِئْسَ المرجع الذي يصير إليه الكافر، النار. ولو خصَّ الله المؤمنين بالتوسعة في الرزق، وحرم منها الكافرين، لكان هذا التَّخصيص سائقاً للكافرين إلى الإيمان على وَجْهٍ يشبه الإلجاء، وقد قَضَتْ حكمته أن يكون الإيمان اختيارياً حتى ينساق إليه الإنسان عن طريق إرادته الحرة.

وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾

١٢٧ - وضع في ذاكرتك - أيُّها المُتَلقِّي لكلامنا - كأنك تشاهد الرسولَيْن الكريمَيْن إبراهيم وإسماعيل حين يرفعان أُسس الكعبة المُشرَّفة على الأسس القديمة، التي كانت مبنيَّة عليها قبل اندثارها، ومع قيامهما ببناء الكعبة كانا يَدعوان الله تعالى: رَبَّنا تقبَّل طاعتنا إيَّاك وعبادتَنا لك، بالرضا والإثابة؛ إنَّك أنت وحدَكَ السميعُ دواماً لدعائِنا، العليمُ بنيَّاتِنا.

١٢٨ - ربَّنا واجْعَلنا بتوفيقك لنا وهدايتنا مُخْلِصَيْن مُطِيعَيْن خاضِعَيْن لكَ، ربَّنا واجْعَل بعضَ أولادنا بحكمتك وتوفيقك جماعةً خاضعة منقادةً لك، ربَّنا وعلِّمنا وبصِّرنا شرائعَ ديننا وأعمال حجِّنا، والأماكن الخاصَّة التي جعلتها لعبادتك، وتجاوَزْ عنا بالعفو والغفران، وتقبَّل منا توبتنا، وارحمنا إنَّك أنت كثير القبول لتوبة التائبين من عبادِك، الدائم الرحمة بهم.

١٢٩ - ربَّنا وابْعثْ في الأمَّة المسلمة رسولاً عظيماً كريماً من العرب، وهو محمَّد ﷺ، يعرفون نشأته الطيِّبة، وسيرته النقيَّة، يقرأ عليهم القرآن الذي ستنزِّله عليه؛ ليحفظوه ويُحسنوا أداءه، وليكتبوه ولينقله جيلٌ إلى جيلٍ من بعده، ويُعلِّمهم معانيه وحقائقه، ويعلِّمهم كلَّ ما دلت عليه السُّنة النبويَّة من قول وفعل وخلق، ويُرشدهم إلى وَضْع الأشياء في مواضعها عملاً، أو فكراً، أو معرفة، أو اعتقاداً، ويُطهِّرهم من الشِّرك وسائر الأرجاس، ويزيدهم في الخير والفضائل على اختلاف أنواعها: النفسيَّة والفكريَّة والاعتقاديَّة والسُّلوكيَّة، إنَّك أنتَ القويُّ الغالبُ الذي لا يُغْلَب، الذي يختار أفضلَ الأشياء وأحسنها، ويضعُ كُلاً منها في أحسن المواضع المُلائمة.

١٣٠ - ولا يترك دينَ إبراهيم وشريعتَه زاهداً فيها، أو كارهاً لها، إلا من امْتَهنَ نفسَه واستخفَّ بها، وحَملَها على السفاهة والطيش، وعنده طرق المعرفة، وأسبابها، ويتركها حمقاً ورعونة، ولقد اخترنا إبراهيم في الدنيا للنبوَّة والرسالة، وإنَّه في الآخرة لمن الكاملين في الصَّلاح، المشهود لهم بالاستقامة على الطريقة المثلى.

١٣١ - وضع في ذاكرتك - أيُّها المُتلقِّي لبياننا - حين قال الله تعالى لإبراهيم: اسْتقم على الإسلام واثْبُت عليه. قال إبراهيم مُستجيباً للتكليف الرباني: خَضَعْتُ بالطاعة، وأخلصتُ العبادة لِمَالِكِ الخلائقِ ومُدبِّرها ورازِقِها، ومُرَبِّيها وَفْق نظام التربية المتدرِّج، ومُمِدِّها برعايته وحفظه. فأسلموا لله ربِّ العالمين مُنقادين خاضعين مطيعين لأوامره التي يُبلِّغكم إيَّاها محمد خاتم رسله الذي هو من ذُرِّيَّة إبراهيم، يا مَنْ تفاخرون بأنكم من ذُرِّيَّته، وتعتزُّون بأنكم على ملَّتِهِ.

١٣٢ - ووصَّى إبراهيمُ بنيه إسماعيل وإسحاق ويعقوب بكلمةِ الإخلاص والملَّة الحنيفيَّة والاستسلام الكامل لربِّ العاملين، ، ووصَّى يعقوبُ بنيه - وكانوا اثنا عشر ولداً، أحدهم يوسف عليه السلام - بمثل ما وصَّى به إبراهيم، وكلٌّ من إبراهيم ويعقوب عليهما السلام قال لبنيه في وصيَّتِهِ لهم: يا أبنائي إنَّ الله اختار لكم عقائد الدين وشرائعه وأحكامه، فاستخلص لكم أحسنها، وكلَّفكم أن تأخذوا بها، وتعملوا بمقْتضاها، وأمركم أن تكونوا مُسْلمي قيادتكم في مسيرة حياتكم إليه جلَّ جلاله، تطيعونه فيما أمركم به فتؤدُّونه، وتطيعونه فيما نهاكهم عنه فتجْتنبونه، فالتزموا بإسلامكم له كلَّ أزمان حياتكم، حتى إذا جاءكم الموت الذي لا تعلمون وقت نزوله بكم، عند انتهاء آجالكم في هذه الحياة الدنيا التي أنتم فيها مُمْتَحَنون، جاءكم وأنتم مسلمون مُستسلمون منقادون مطيعون ربكم، فيما أمركم به، وفيما نهاكم عنه؛ لتكونوا من الناجين والفائزين بالمنازل الرفيعة في جنات النعيم.

١٣٣ - بل ما كنتم - يا معشر اليهود - حاضرينَ حِينَ احْتُضِرَ يعقوب وقَرُبَ من الموت، فلا تدَّعُوا - يا معشر اليهود - على أنبيائي ورسلي الأباطيل، وتنسبوهم إلى اليهودية، واذكروا وقت قال لأبنائه الاثني عشر: أيُّ شيءٍ تعبدون من بعدي؟ قالوا له: نعبدُ إلَهَكَ وإلَهَ آبائِكَ إبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحاقَ، معبوداً واحداً لا شريك له، ونحن له مُستسلمون مخلصون في العبودية.

١٣٤ - تلك الجماعة الفاضلة المجتمعة على دين الإسلام، قد مَضَتْ لسبيلها، لها جزاء ما كَسَبت من العمل، ولكم - يا معشرَ اليهود والنصارى - جزاء ما كَسَبْتم من العمل، إن عملتم مثل عملهم، واتبَّعتم هديهم، وأخذتم بوصيَّتهم، فلا تتركوا طاعة الله، أو تتباطؤوا في القيام بما أمركم، اتِّكالاً على انتسابكم لآباء كانوا أنبياء أو صالحين، وكلُّ فريق يُسْأل عن عمله لا عن عملِ غيره، فلا مجال في العدل الربَّاني لتصوُّر خطيئة موروثة، ولا لأخذ البريء بخطيئة المذنب، والمسؤولية عن السلوك مسؤولية شخصيَّة لا تحمل مواريث لأصول الأوَّلين، ولا تتحمَّل نصيباً من سلوك الأهل والأقارب والعشيرة المعاصرين، ولا تورِّث تبعاتها للذراري القادمين.

وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴿١٣٨﴾ قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾

١٣٥ - وقال اليهود الحاقدون الكافرون بأنعُم الله التي توالتْ عليهم لأمّة محمد ﷺ: كونوا يهوداً تهتدوا، وقال النَّصارى المُثلِّثون الضَّالُّون: كُونوا نصارى تهتدوا. قل لهم - يا رسول الله ويا كلَّ داعٍ إلى الله من أمته -: لا أتَّبِع ملَّة اليهود، ولا ملَّة النصارى المُحرَّفتَيْن، بل الهداية أن نتَّبعَ جميعاً مِلَّة إبراهيم، حالة كوْنِهِ مائلاً عن كلِّ دينٍ باطلٍ إلى دين الحق الذي أوحى الله به إليه، وما كانَ إبراهيم من المشركين، كاليهود والنصارى الذين يدَّعون اتِّباع مِلَّته.

١٣٦ - قولوا - أيُّها المؤمنون - لهؤلاء اليهود والنَّصارى: صدَّقنا بالله وحده، وما اختصَّ به من صفات الكمال على وَجْه الجزم واليقين، وبالقرآن الذي أوْحَاه الله إلى نبيِّه محمدٍ ﷺ، وآمنَّا بما أُنزلَ من الصُّحف إلى إبراهيم، وابنَيْه إسماعيل وإسحاق، وإلى يعقوب، وأنبياء الأسباط المُنحدرين من أولاد يعقوب الاثني عَشَر الذين كانوا في قبائل بني إسرائيل، وما أُعطي موسى من التوراة، وعيسى من الإنجيل، وما أُنزل على غيرهم من الأنبياء، وصدَّقنا أنَّ الجميعَ من عند الله، وأنَّ جميع ما ذكر الله من أنبيائه كانوا على هُدىً وحق، لا نُفرِّق بين جماعة من النبيين فنؤْمنُ ببعض الأنبياء ونكفرُ ببعضٍ، كما فعل اليهود إذ كفروا بعيسى ومحمد، وكما فعل النصارى إذ كفروا بمحمد ﷺ، بل نؤمن بهم جميعاً، ونحنُ للّهِ تعالى خاضِعونَ بالطَّاعة مُذْعنونَ له بالعبوديَّة.

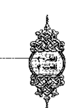
١٣٧ - فإنْ آمنَ اليهودُ والنَّصارى بنفس ما آمنتُم به، فقد اهْتَدوا إلى الحق؛ إذ اختاروا لأنفسهم الإيمان الصحيح الصَّادق، وإنْ أدبروا مُنْصرفين عن الإيمان الذي تدعوهم إليه فما هُم إلا في مخالفة لله تعالىٰ ومُعاداةٍ لك وللمؤمنين، فسيكفيكَ اللّهُ - يا رسول الله - شرَّ اليهود والنَّصارى، وينصرك عليهم، وهو السَّميعُ لأقوالهم وما يَتَنَاجَوْن به من الإثم، العليم بأحوالهم وبما يُبيِّتونه لكم من كيْد، فلا يتركهم دون أن يكفَّ عنكم بأسهم، ويقطع دابرهم. وقد أوفى الله بعهده، فأظهره عليهم، ومنعه منهم، بتفريق كلمتهم، وقَتْل من لا بدَّ من قتله، وإجلاء مَنْ يكفي في السلامة من شرِّه الإجلاء.

١٣٨ - وقولوا - أيُّها المؤمنون - لليهود والنصارى: صَبَغَنا اللّهُ بالإيمان صِبغته، وطهَّر به نفوسنا، وفطرنا على عبادته، ولا دينَ أحسن من دينه، ونحنُ له خاضعون مطيعون. وإنما سُمّي الإيمان صِبْغةً باعتبار تمكُّنه في قلب المؤمن، وتخلُّله في جميع أجزائه، وكما أنَّ للصِّبغ أثراً في حلية المصبوغ، كذلك القلب إذا صُبغ بالإيمان، فإنَّ له زينةً وحُسناً ونوراً وبهاءً.

١٣٩ - قل - يا رسول الله ويا كلَّ داعٍ إلى الله - لليهودِ والنَّصارى: أتُخاصمونَنَا وتجادلونَنَا في توحيد الله والإخلاص له، وتدَّعون أنَّ لكم مكانةً خاصَّة عنده، والحال أنه رَبُّنا وربكم سواء، ونحن جميعاً عبادُه، ولكلِّ فريقٍ منا أعمالٌ يختصُّ بما يترتَّب عليها من ثواب أو عقاب، فكما أنَّا نتساوى في العبوديَّة له تعالى، نتساوى في استحقاق الجزاء على الأعمال الصَّادرة منا، ونحن مُخلصون في أعمالنا لله وحده، ولم نخلطها بشيء من الشرك كما فعل غيرنا.

١٤٠ - أتزعمون - يا معشر اليهود والنَّصارى - أنَّ إبراهيمَ وبَنِيهِ: إسماعيلَ، وإسحاق، ويعقوب بن إسحاق، والأنبياء الذين كانوا في قبائل بني إسرائيل الاثنَتي عشرة من ولد يعقوب، كانوا على دينكم ومِلَّتكم؟ وإنَّما حَدَثت اليهوديَّةُ والنصرانيَّةُ بعدُ، فَثَبَت كذِبكم على إبراهيم وبنيه. قل لهم - يا رسول الله -: أأَنْتُم أعلم بدينهم أم الله أعلم بذلك؟ ولا أحدَ أظلمُ ممَّن أخفى شهادة جاءَتْه من عند الله، بأنَّ إبراهيم وبنيه كانوا مسلمين، وأنَّ محمداً حقٌّ بصفته التي بشَّرت به التوراة والإنجيل، وما اللّهُ بغافلٍ عن شيءٍ من عملكم، بل هو مُحصيه عليكم، فترقَّبوا عقابه الشديد على ظلمكم الذي هو أظلم الظلم.

١٤١ - تلكَ جماعةٌ من أسلافكم قد مَضَت لسبيلها، لها جزاءُ ما كَسَبَتْ من العمل، ولكم جَزاءُ ما كَسَبْتُم من العمل، فلا يُؤْخذ البريء بخطيئة المذنب، ولا يتحمَّل أحدٌ خطيئةً موروثة لا شأن له بها، وكلُّ إنسان يُسْأَل يوم القيامة عن عملِهِ لا عن عَملِ غيرِهِ ولو كان أقرب الأقربين إليه. فلا تَتَّكِلُوا - يا معشر اليهود - على شرف الآباء وفضلهم.



۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ
عَلَيْهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُۚ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ
مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ
شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًاۗ وَمَا
جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ
مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ
هَدَى ٱللَّهُۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ
لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِۖ
فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَاۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ
ٱلْحَرَامِۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ
أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ
عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ
ءَايَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْۚ وَمَا بَعْضُهُم
بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ
مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾

١٤٢ ـ سيقولُ ضعاف العقول، الطاعنون في تحويل القبلة إلى الكعبة من مشركي العرب وأحبار اليهود والمنافقين: أيُّ شيءٍ صَرَفهم عن بيتِ المقْدس؟ قل لهم ـ يا رسول الله ـ: للَّهِ المَشْرق والمغرب وما بينهما، وجميع الأمكنة مملوكة له، وهي بالنسبة إليه متساوية، وله أن يخصَّ بعضها بحكم دون بعض، وما على الناس إلا أن يمتثلوا أمره، وهو الذي يهدي مَنْ يشاء من عباده إلى طريق مستقيم وشرع قويم، إذ يتَّجه إلى جهة الكعبة وقِبلة إبراهيم عليه السلام التي أمره بالتوجُّه إليها.

١٤٣ ـ وكما هَدَيْناكم إلى الإسلام وإلى قِبْلة إبراهيم، وجعلنا القِبلة في مكان وسطٍ من الأرض، جَعَلناكم أُمَّةً عُدولاً خِياراً تُبلِّغون دينَ الله للناس كما تلقيتموه من الرسول ﷺ؛ لتكونوا إذا بلَّغتم ودعوتم إلى سبيل ربكم كما دعا الرسول ﷺ، شهداء على الأمم يومَ القيامة أنَّ الرسل قد بلَّغتهم رسالاتِ ربِّهم، وأنكم بلَّغتم الناس الرسالة، وأدَّيتم إليهم الأمانة، ويكونَ الرسولُ في الآخرة مُزكِّياً لكم، شاهداً بصدقكم. وما جَعَلنا ـ يا رسولَ الله ـ قِبْلة «بيت المقدس» التي أمرناك بالتوجُّه إليها حيناً من الدهر، ثمَّ صرفناك عنها إلى الكعبة بـ«مكة» إلا امتحاناً للمسلمين؛ ليظهرَ من يُطيع الرسولَ في أمر القِبلة وتحويلها، ممَّن يخرج عن الإسلام ويرجع إلى ما كان عليه من الكفر سائراً على مؤخَّر قدميه إلى الوراء سَيْراً مُضْطرباً، بعد أن سار بضع خطوات إلى الأمام في طريق الهداية. وقد كانت تَوْلية القِبلةِ من بيت المقْدس إلى الكعبة ثقيلةً وشاقةً على النفوس إلا على الذين هدى اللَّهُ قلوبهم إلى اتِّباعك، والإيمان بك، والعلم بأنَّ لِلَّهِ تعالى أن يُكلِّف عباده بما شاء، وينسخ ما يشاء، وله الحكمة البالغة في ذلك، وما كان الله مُريداً ليضيعَ صَلاتَكم الماضية التي صلَّيتموها لله متوجِّهين فيها إلى بَيْتِ المَقْدس، والله لا يضيع أجر الإيمان الصَّادق، الذي دلَّت عليه مظاهر الأعمال، إنَّ اللَّهَ بالنَّاسِ لشديد الرحمة بهم، ينعم عليهم بجلائل النعم ودقائقها، ويدفع عنهم المكروه، ويتعهَّدهم بعنايته وجوده وإحسانه وعفوه وغفرانه، دائم الرحمة بهم. وقد أطلق الله سبحانه على الصلاة اسم الإيمان؛ لأن الصلاة مظهر من مظاهر الإيمان بالله، مهما كانت الجهة التي أمر الله بالتوجُّه إليها واتِّخاذها قبلة في الصلاة.

١٤٤ ـ قد نَرىٰ تردُّدَ وَجْهك وتَصرُّفَ نظرك ـ يا رسولَ الله ـ إلى جِهَةِ السماء، انتظاراً لنزول الوحي إليك، واستعطافاً صامتاً في تحويل المسلمين إلى قبلتهم الأولى، فَوَالله لنُمكِّنُ لك، ونصرفك عن «بيتِ المقدس» إلى قِبْلةٍ تحبُّها وتميلُ إليها. فولِّ وَجْهَكَ ـ يا رسول الله ـ جهة الكعبة، وفي أيِّ مكانٍ كنتم ـ أيُّها المسلمون ـ وأردتُم الصَّلاة، فَوَجِّهوا وجُوهَكُم جهة البيت الحرام، وإنَّ اليهود والنصارى يعلمون أنَّ أمر القبلة وتحويلها إلى الكعبة هو الحقُّ الثابت من ربِّهم الذي خلقهم وربَّاهم، والذي له مشارق الأرض ومغاربها، فهو أعلم حيث تكون القبلة التي يختارها، كما أنه أعلم حيث يجعل رسالته، وما الله بساهٍ عمَّا يفعل هؤلاء المعترضون، فسيُجازيهم على ذلك، ويعاقبهم على جُحودهم للحقِّ وإنكارهم له، وإثارتهم للرِّيْب، وبثهم للشك.

١٤٥ ـ والذي نُقْسم به، إنْ جئتَ ـ يا رسول الله ـ اليهودَ والنَّصارى بكل حُجَّةٍ وبرهان على أنَّ توجُّهَكَ إلى الكعبة في الصلاة هو الحقُّ من عند الله، ما تَبِعوا قِبْلَتَك عناداً واستكباراً، وما أنت ـ يا رسول الله ـ بتابع قبلتهم مرةً أخرى، وما اليهود بتابعين قِبْلَةَ النصارى، ولا النَّصارى بتابعين قِبْلَةَ اليهود، فهم في تعصُّب وعناد مستمر، وكلُّ فريق منهم مُلازمٌ ملَّته، لا يفارق قبلته، حتى يفارق ملَّته، فاثبتوا على قبلتكم، ودعوهم وشأنهم، ولا تقيموا لمشاغبتهم وزناً؛ وأقسم: لئن رَجَعت ـ يا رسول الله ـ إلى قبلتهم من بعدما وَصَل إليك من العلم عن طريق الوحي بأنَّ اليهود والنصارى مقيمونَ على باطل، واتَّبعت أهواءهم التي تتعلَّق بأمور العقيدة والشريعة، في شتَّى أحكامها وتعاليمها، إنك إذاً من فئة الناس الذين يضعون الأشياء في غير موضعها، بمخالفة أمر الله.

فالآية وعيدٌ وتحذيرٌ من اتِّباع أهواء أهل الكتاب، وتوجُّه الوعيد في صورة الخطاب للرسول الأكرم ﷺ الذي لا يتوقَّع منه أن يتَّبع أهواء أهل الكتاب، تأكيداً وتحذيراً لمن كان دونه في الفضل وعُلوِّ المنزلة إذا اتَّبع أهواء المبطلين؛ إذْ من شأن أصحاب الأهواء محاولة التلاعب بشرائع الله حَسْب أهوائهم، فإذا أطاعهم في ذلك أو تلاين معهم، فَسَدت مفاهيم الحق والدين، واختلطت الأمور، وضاع الخير في خضمِّ الشرور.

ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ وَلِكُلّٖ وِجۡهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَاۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ أَيۡنَ مَا تَكُونُواْ يَأۡتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿١٤٨﴾ وَمِنۡ حَيۡثُ خَرَجۡتَ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۖ وَإِنَّهُۥ لَلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنۡ حَيۡثُ خَرَجۡتَ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيۡكُمۡ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِي وَلِأُتِمَّ نِعۡمَتِي عَلَيۡكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿١٥٠﴾ كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾

١٤٦ ـ الذينَ أعطيناهم التَّوراةَ والإنجيلَ من علماء اليهود والنَّصارى يعرفونَ محمداً ﷺ معرفة جليَّةً بالوصف المُعيَّن الذي يجدونه عندهم، لا يَشتبه عليهم كما لا تشتبه عليهم أبناؤهم من أبناء غيرهم، وإنَّ فريقاً من علماء أهلِ الكتاب ليخفون صفةَ محمدٍ ﷺ حَسَداً وعناداً، وهم يعلمون أنَّ صفةَ محمد ﷺ مكتوبة عندهم في التوراة والإنجيل، والتي من جملتها أنه ﷺ يُصلِّي إلى القبلتين، ويعلمون أن كتمانهم إثم، ويعلمون نتائج ذلك الإثم، ولكنهم في غيٍّ دائم، وضلالٍ مستمر.

١٤٧ ـ الذي يكتمونه هو الحقُّ من ربِّك المنعِم عليك، فلا تكوننَّ من الشاكِّين المتردِّدين في أنَّهم علِموا صِحَّة نبوَّتِكَ.

والنهيُ مُوجَّه للأمة في صورة الخطاب له ﷺ، إذ في الأمة حديثو عهد بكفر، يُخشى عليهم أن يفتنوا بزُخرفٍ من القول يُروِّج به أهل الكتاب شبهاً تعلق بأذهان من لم يرسخ الإيمان في قلوبهم.

١٤٨ ـ ولكلِّ أهلِ ملَّةٍ قِبْلَةٌ يتَّجهون إليها، وعقيدة اختاروها، فَبَادِروا بالطاعات، وابذلوا جهدكم في السَّبقْ إليها، أينما تكونوا أنتم ـ أيها المؤمنون ـ المُسارعون إلى ما اختاره لكم من الأعمال التي من جملتها التوجُّه إلى الكعبة للصلاة، وفي أيِّ موضع كنتم ـ يا أهل الكتاب، الذين يكتمون الحقَّ وهم يعلمون، ويُولُّون وجوههم غير المسجد الحرام ـ يَأْتِ بكم اللَّهُ جميعاً يومَ القيامة، إنَّ الله على الإعادة بعد الموت، والإثابة لأهلِ الطاعة، والعقاب لمُستحقي العقوبة عظيم القدرة لا يعجزه شيء أراده.

١٤٩ ـ وَمِنْ أيِّ موضع خَرَجْتَ ـ يا رسول الله ـ وأردتَ الصَّلاة، فوجِّه وَجْهَكَ نحوَ المسْجِدِ الحرام، فتوجُّهك للكعبة كتوجُّه الأمة، لا يختصُّ ببقعة دون بقعة، ولا بزمان دون زمان، ولا بحضر دون سفر، وإنَّ التوجُّه إلى المسجد الحرام هو الحقُّ الثابت الذي لا شكَّ فيه، وليس الله بِسَاهٍ عن أعمالكم، ولكنَّه مُحصيها لكم وعليكم، فَيُجازيكم بها يومَ القيامة.

١٥٠ ـ وَمِنْ أيِّ موضع خَرَجْتَ، فَوَلِّ وجْهَكَ ـ يا رسولَ الله ـ نحوَ المسجدِ الحرام، وفي أيِّ مكانٍ كنتم ـ أيُّها المسلمون ـ وأردتُم الصَّلاة فولُّوا وجوهَكم نحوَ المسجد الحرام؛ لكي لا يكونَ للنَّاس المُخالفين لكم احتجاجٌ عليكم بعدم العلم في تحويل القبلة إلى الكعبة، لكن الذين ظلموا من مُشركي قريش واليهود، فإنَّهم يتعلَّقون بالشبه ويُجادلونكم بالباطل، فيقول اليهود: ما تحوَّل إلى الكعبة إلا مَيْلاً لدين قومه، وحُباً لبلده. ويقول المشركون: بَدَا لهُ فرجع إلى قبلة آبائه، ويُوشك أن يرجع إلى دينهم، فلا تخافوا أولئك المعاندين، ولا تقيموا لما يُشاغبون به في أمر القِبلة وغيره وزناً، فإني أكفيكم بأسهم، وأردُّ عنكم كيْدهم، واحذروا عقابي إنْ أنتم عَدَلتم عمَّا فَرَضْتُهُ عليكم، وحافظوا على التوجُّه في صلواتكم إلى البيت الحرام لكي أُتِمَّ نعمتي عليكم بهدايتي إيَّاكم إلى أكمل الشرائع، ورغبةً أن تهتدوا من الضَّلالة إلى الحقِّ والصَّواب.

١٥١ ـ كما أنعمنا عليكم باستقبال الكعبة، أرسلنا فيكم ـ يا معشرَ العرب ـ رسولاً منكم إجابةً لدعوة إبراهيم وإسماعيل، تعرفون نشأته الطيِّبة، وسيرته النقيَّة، يَتْلُو عليكم القرآن، ويُطهِّركم من دَنَس الشِّرك والذنوب، ورذائل الأخلاق وأعمال الجاهلية، ويزيدكم في الخير والفضائل على اختلاف أنواعها: النفسيَّة، والفكريَّة، والاعتقاديَّة، والسلوكيَّة، ويُعلِّمكم معاني الكتاب وحقائقه، ويعلِّمكم كلَّ ما دَلَّت عليه السنَّة النبويَّة من قول وفعل وخُلق، ويُرشدكم إلى وضع الأشياء في مواضعها اعتقاداً، أو فكراً، أو سلوكاً، ويُعلِّمكم من أخبار الأمم الماضية، والقرون الخالية، والحوادِثِ المُسْتَقْبَلَة ممَّا لم تكونوا تعلمون قَبْلَ بعثةِ رسول الله ﷺ.

١٥٢ ـ فاذكروني باللسان والقلب والجوارح أذْكُرْكُم بالثواب والرِّضا عنكم، واشكروا لي ما أنعمت به عليكم، بعبادتي واتِّباع رسولي، والاستسلام لأحكام شريعتي، ولا تجْحَدوا نعمي عليكم كما فعل المُعاندون الجاحدون من أهل الكتاب الذين أنعمت عليهم، فقابلوا نعمي بالجُحود والكفران.

١٥٣ ـ يا أيُّها الذين صدَّقوا الله واتَّبعوا رسوله: اطلُبوا العَوْنَ من اللَّه في القيام بما كلَّفكم به من الجهاد والدعوة إلى الحق؛ بَحبْس النفس على تحمُّل المشاقِّ في الطاعات، وتجنُّب الجَزَع عند نزول المصائب التي تجري بها الأقدار، وترك المعاصي والمحظورات، وبالصَّلاة الخاشعة التي يُستعان بها على القيام بالطاعات، ومُخالفة الأهواء والشهوات، والاطمئنان عند مفاجأة المصائب، إنَّ الله مع الصَّابرين بالعَوْنِ والنَّصر والوقاية من شرِّ الأعداء. وهذا النداء الإلهيُّ هو النداء الثاني للمؤمنين في هذه السورة.

وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ۞ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾

١٥٤ - ولا تقولوا - أيُّها المؤمنون - لِمَنْ يُقْتَلُ في سبيل الله إنَّهم بمنزلةِ غيرهم من الأموات، بل هم أحياءٌ عند ربِّهم، حياةٌ تلائم الفاصل البرزخيَّ بين انتهاء الحياة الدنيا، وبَدْء الحياة الأخرى بالبعث، ولكن لا تعلمون أدنى علم حقيقة تلك الحياة، وما خصَّهم الله سبحانه من مزيد النِّعم، وَرَزَقهم من مطاعم الجنة ومآكلها.

١٥٥ - وَلَنَختبِرَنَّكُم - أيُّها المسلمون - بشيءٍ قليلٍ من الغمِّ الذي تَضْطرب به نفوسكم من توقُّع مكروه، ومن المجاعة العامة بعدم كفاية ما تنبته الأرض لسدِّ حاجاتكم، وبنقصٍ من الأموال؛ بالهلاكِ والخسران أو تعسُّر الحصول عليها، ونقصٍ من الأنفس؛ بالموتِ أو القتل، ونقص من الثمرات؛ بالجوائح أو موت الأولاد؛ ليكون من ثمرة الصبر والثبات على طاعتي الثواب العظيم. وبشِّر - يا رسولَ الله - الصَّابرين على امتحاني عند نزول البلاء بالسكينة والتسليم لقضاء الله، بما يَسُرُّهم ويُفرحُهُم من حُسْنِ العاقبة في الدنيا والآخرة.

١٥٦ - صفةُ هؤلاء الصَّابرين أنَّهم إذا أصابهم بلاءٌ، وسُلبتْ منهم نعمة سبق أنْ أنعم الله بها، أو حُرموا من النِّعم التي أنعم الله بمثلها على عباده، تذكَّروا أن الله هو مالك كل شيء، وأنَّ نفوسَهم مَمْلوكة لله، وأنَّ جميع الخلائق مَمْلوكون لله، وهم عباده، ومصيرُ العباد كلهم أن يرجعوا إلى مالكهم، ومصير الأشياء كلها أن تعود إلى مالكها، فعلامَ الحزن والأسى؟ ولِمَ الاعتراضُ والتسخُّط؟! وحينما يتذكَّر المؤمنون الصابرون هذه الحقيقة يقولون: إنا عبيدٌ ومُلْكٌ لله، وإنا إليه وحده صائرون يوم القيامة، فيُجازينا على ما دعانا إليه من الصبر والتسليم إلى قضائه عند نزول المصائب التي ليس في استطاعتنا دفعها.

١٥٧ - أولئك الصَّابرون لهم أنواعٌ من رحمة الله وغفرانه، لصبرهم ابتغاء مرضاة الله، ولهم نوع آخر خاصٌّ من رحمة الله، مضافاً إلى أنواع الرحمات السابقات لرضاهم عن الله، وتسليمهم لما تجري به مقاديره، وأولئك الفضلاء رفيعو المنزلة هم وحدهم المهتدون إلى سبيل سعادتهم، وهم السالكون لطريق الحقِّ والصَّواب.

١٥٨ - إنَّ الصَّفا والمروة - وهما الجَبَلان المعروفان في طَرَفي المَسْعى قُرب الكعبة - من أعلام دينه وعلامات طاعته، حيث يُسعى بينهما؛ فَمَنْ قَصَدَ البيتَ وزارَهُ للحجِّ أو العُمرة، فلا إثم عليه أن يسعى بينهما، إذ كانوا في الجَاهلية يُحْرمون لِمَنَاة، ثم يسعون بين الصفا والمروة من أجل صنمين هما: «أساف» و«نائلة»، فلما جاء الإسلام تحرَّجوا من السعي بينهما؛ فدفعت الآية الحرج الذي كان يتردَّد في صدورهم. ومن فَعَل فعلاً زائداً على ما افتُرِضَ عليه من جميع أنواع الطاعات، فإنَّ الله مُجَازيه على الطاعة بالثوابِ، عليمٌ بكلِّ ما يصدر عن عباده من الأعمال، فلا يضيع عنده أجر المحسنين.

١٥٩ - إنَّ الذين يُخْفون ما أنزل الله من الآيات الدالاَّت على نُبوَّةِ محمد ﷺ، والعلم النافع المُسْتَمد من الآيات البيِّنات عن طريق الاستنباط والاجتهاد القائم على الأصول المُحكمة، وذلك بإخفاء النصوص وعدم ذكرها للناس، أو إزالتها ووضع شيء آخر مكانها، أو تأويلها التأويل الفاسد عن المعنى الصحيح جَرْياً مع الأهواء، من بعدما أوْضَحناه للناس في جميع الكتب المنزَّلة، أولئكَ البُعداء المنحطُّون في الدركات يُبعدهم الله من رحمته، ويدعو عليهم باللعنة جميع الخلائق.

١٦٠ - ولا يُستثنى من هؤلاء الملعونين إلاَّ الذين أقلعوا عن الذنب، ونَدِموا على ما صَدَر منهم من كتمان، وعزموا عزماً مؤكَّداً ألا يعودوا إليه، وأصلحوا ما أفسدوه، وأظهروا ما كتموا من العلم، فأولئك أرجع عليهم بالقبول والجزاء، وأنا كثير قَبول التوبة، دائم الرحمة بعبادي بعد إقبالهم عليَّ ورجوعهم إليَّ.

١٦١، ١٦٢ - إنَّ الذين ستروا دلائل التوحيد من المشركين والكتابيين، وكتموا الحقَّ ولم يتوبوا، واستمرُّوا على ذلك حتى ماتوا، أولئكَ البُعداء عن رحمة الله عليهم لعنةُ الله والملائكةِ والناسِ أجمعين، باقين في اللعنة وفي النار إلى غير نهاية، لا يُخفَّف عنهم مقدار العذاب الذي استحقُّوه، ولا يُمْهلون ويُؤَخَّرون عن العذاب ساعة، بل يلاقيهم العذاب حال مفارقة الحياة.

١٦٣ - وإلهكم - أيُّها الناس - الذي يستحقُّ العبادة إلهٌ واحدٌ في ذاتِهِ وأسمائِهِ وصفاتِهِ وأفعالِهِ، لا معبودَ بحقٍّ إلا هو، العظيم الرحمة الذي تعمُّ رحمته الوجود كلَّه في السموات والأرض، والدنيا والآخرة، وهو دائم الرحمة بعباده يغفر لهم، ويتوب عليهم، ويشرع لهم من الشرائع ما يكون خيراً لهم في معاشهم ومعادهم.

إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِي ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾

١٦٤ ـ إنَّ في هذه الآيات الكونيَّة لدلائل واضحات على ربوبيَّته وإلهيَّته سبحانه: **الآية الأولى**: آيةُ خلقِ السَّموات بارتفاعها بغير عَمَد وما فيها من الشَّمس والقمر والنجوم، وفي مدِّ الأرض وَبَسْطها وما فيها من الجبال والبحار والأنهار والأشجار، **والآية الثانية**: تعاقبِ الليلِ والنهار على محيط الأرض في المجيء والذهاب، والظلمة والنور بنظام مُحكم دقيق، **والآية الثالثة**: السُّفـن التي تجري على وَجْـه المـاء مُوقَّرَةً بالأثقال، وتنقُّلها من بلد إلى آخر، بما ينفع الناس في تجاراتهم ومنافعهم، **والآية الرابعة**: الدورة المائيَّة ونظام تحلية الماء بالتبخُّر والاجتماع في السحاب، ثم هطوله مطراً على ما يشاء الله، ولمن يشاء، وآية دورة الحياة النباتيّة، **والآية الخامسة**: ما فرَّق الله في الأرض من أنواع الدوابِّ كلِّها على اختلاف أحجامها وأشكالها وألوانها وأصواتها، ومدد حملها، وكيفيَّة تناسلها، ووجوه الانتفاع بها، **والآية السادسة**: تَقليب الله الرياحَ وتنويعها في جهاتها شرقاً وغرباً، وشمالاً وجنوباً، وفي أحوالها حارةً وباردةً، وعاصفةً وليِّنةً، وملقِّحة للنبات وعقيماً، **والآية السابعة**: الغيم المُذلَّل المُسَيَّر وَفْق مقادير الله وأوامره الحكيمة بين السماء والأرض، ففي هذه الآيات الكونية السبع دلائلُ على وحدانيَّته، وعجائب دالَّة على عَظَمة قدرة الله، وكمال إرادته، وواسع علمه، وجليل حكمته وإتقانه وإبداعه لمخلوقاته، وعنايته بعباده، لقوم يعقلون عقلاً علميّاً، فيعلمون أنَّ لهذه الأشياء خالقاً ومُدبِّراً قادراً على ما يريد.

١٦٥ ـ ومع هذه البراهين الواضحة، يتَّخِذُ فريقٌ من المشركين أصناماً يزعمون أنَّها أمثالٌ لله، يطيعونهم في أمر التحليل والتحريم، ويعتقدون أنها تُوصل النفع وتلحق الضرر بمَنْ تشاء، ويُعطونهم من المحبَّة والتعظيم البالغ والعبادة، ما لا يليق إلا بالله وحده، والَّذينَ آمنوا أعظم حباً لله من حُبِّ المشركين للأنداد؛ لأنهم يعتقدون كمال الله فوق كلِّ كمال، والكمالُ الثابت بيقين يستميل القلوب بأشد مما يستميلها الكمال الذي تُصوِّره الأوهام، ولو يعلم الَّذين ظلموا أنفسهم باتِّخاذ أندادٍ من دون الله في الحياة الدنيا، حين يُعاينون العذاب المُعدّ لهم يوم القيامة، أنَّ القدرة كلها لله وحده، وأنَّ عذاب الله شديد، لرأَوْا ما لا يُوصَف من الأهوال والشدائد.

١٦٦ ـ حينَ يرى الَّذين ظَلَموا العذابَ يَوْمَ القيامة، يَتنزَّهُ ويتباعدُ أئمة الضلال المتبوعون من أتباعهم الذين يتلقَّون جميع أقوالهم بالتقليد والطاعة، وتتقطَّع بسبب كفرهم الصِّلاتُ التي كانوا يرجون بها النجاة في الدنيا من قَرابةٍ وَصَداقة ورياسة وتبعيَّة، فلا يمكن وصل تلك الصِّلات التي ارتبطوا بها في الدنيا بحال من الأحوال.

١٦٧ ـ وقال الأتباع: لو ثبت أنَّ لنا رَجْعَةً إلى الدنيا، حياة الابتلاء، فنتبرأَ من زعمائنا ورؤسائنا الذين كنا نسيرُ وراءهم في الدنيا، كما تبرَّؤوا منا في هذا اليوم العصيب. كذلك الشأن الذي يَرَوْن فيه اتِّباعهم لأئمتهم وقادتهم في الكفر حَسَراتٍ عليهم، يُريهم الله سائر أعمالهم التي عملوها باختيارهم في الدنيا نَداماتٍ تتوالى عليهم حَسْرةً بعد حَسْرة، تملأ صدورهم، وتحرق قلوبهم، إذ كفروا بالله، فأضاعوا في الدنيا أعمارهم، فهم يتحسَّرون على ما أضاعوا، ويتمنون العودة إلى الدنيا؛ ليُصلحوا أعمالهم، فلا يُستجاب لهم، وما هُمْ بخارجينَ من النار، بل هم فيها دائمون يتعذَّبون بنار الحسرة والندم التي تحرق قلوبهم، ونار جهنم التي تشوي أجسادهم وجلودهم.

١٦٨ ـ يا أيُّها الناس يُباح لكم أن تأكلوا من كلِّ ما تحويه الأرض من المطعومات حال كون ما تأكلون منه مأذوناً من الشرع في تناوله، طيِّباً تقبل عليه النفوس الطاهرة لطهارته، وخُلوِّه من القَذارة، وعدم إيقاعه في الضَّرر، واحذروا أنْ تتعدوا ما أحلَّ اللهُ لكم إلى ما حرَّم عليكم، أو تُحرِّموا على أنفسكم ما لم يُحرِّمه الله، كما فعل أهل الجاهليَّة ، متَّبعين في ذلك خُطوات الشيطان في الإضلال والإغواء، التي ينقل بها فريسَتَه دَرَكَةً فدركةً، حتى يوصِله إن استطاع إلى أسفلِ سافلين؛ إنَّه لكم عدوٌّ ظاهرُ العداوة مُظْهِرٌ لها، لا تخفى عليكم عداوته.

١٦٩ ـ إنَّما يُوسوس لكم الشيطان لطاعته فيما يأمر به من فعل السُّوء، بَدءاً من صغائر الذنوب والمعاصي إلى أشدِّها وكبائرها، ولطاعته فيما يأمر به من الكبائر المُتعلِّقة بالفروج، ولطاعته فيما يأمر به من تقوُّل على الله في دينه، وتحريف في أحكام شريعته لعباده، سواءٌ أكان ذلك في الحقائق العلميَّة الاعتقاديَّة، أو في الأحكام السُّلوكيَّة. فالشيطان بخطواته المُتنازلات يبدأ بأهون الذنوب وأصغرها، وينتقل بمن يُغْويهم ويخدعهم شيئاً فشيئاً إلى المعاصي الأشدِّ فالأشدّ، التي تمتدُّ بقعة انتشارها، وآثارها الفاسدة والمُفْسِدَة، حتى يُوصلهم إلى الشِّرك، فما هو أقبحُ وأخسُّ من الشِّرك، كالإلحاد بإنكار وجود الخالق، وكالنفاق.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ ۚ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾

١٧٠ ـ وإذا قال المؤمنون للمشركين المُقلِّدين لآبائهم تقليداً أعمى: اتَّبعوا ما أنزل الله على رسوله من حقائق إيمانيةٍ، وشرائعَ وأحكامَ سلوكٍ نافع في الحياة، ومُسْعَدٍ لكم بعد الممات. قالوا: لا نتَّبع ما تدعوننا إليه، لأننا لا نؤمن به، بل نتَّبعُ ما وَجَدنا عليه آباءَنا من عبادةِ الأصنام. أيعاندون مُصرِّين على اتِّباع آبائهم، ولو كانَ آباؤهم الذين يتّبعونَهم لا يعلمونَ شيئاً من أمرِ الدين وحقائق العلم، ولا يعقلون بإرادتهم أنفسهم عن اتِّباع أهوائهم الجانحة، وشهواتهم الجامحة، ولا يهتدون إلى سبيل نجاتهم وسعادتهم؟ إذ كلُّ همِّهِمْ مُنْصرفٌ إلى إرضاء غرائزهم وأهوائهم وشهواتهم.

١٧١ ـ وصفه الكفار الذين استوى لديهم الإنذارُ وعدمُهُ، والداعي لهم إلى الإيمان حين يدعوهم فيُعرضون عن دعوته وينصرفون عن تفهُّمها كصِفَةِ الراعي الذي يصيح بالغنم، وهي لا تسمع إلا صَوْتاً وألفاظاً لا تعقل لها معنى، وكذلك الكفار يسمعون صوتَ الداعي إلى الله، ولكن لا ينتفعون به، ولا يدركون دلالاته، ونفس الداعية الذي يخطب فيهم تتمزَّق بمشاعر الخيبة وعدم جدوى عمله. هؤلاء الكفار صُمٌّ عن سَمَاع الحق، خُرسٌ عن النُّطق به، عُمْيٌ عن طريق الهُدى، فهم لا يفقهون الموعظة. فهذا مَثَلٌ لصنف من الكافرين رفضوا أن يستجيبوا لدعوة الإيمان؛ لأنهم صمَّموا على أن لا يؤمنوا، واختاروا بكمال إرادتهم سُبُل الكفر على سبيل الإيمان، وفي هذا المثل إلماح للدعاة بأن لا يُوَجِّهوا اهتمامهم لهذا الصنف الميؤوس من إيمانه، إذا استوى عنده الإنذار وعدمه.

١٧٢ ـ يا أيُّها الذين آمنوا كُلوا من الحلال المُسْتَلَذِّ من المطاعم الذي أنعم الله به عليكم، وأباحه لكم، ولا تأكلوا ما حرَّمه الله، وما هو خبيث مُسْتَقْذَر ضار، واشكروا اللّهَ الذي رزقكم هذه النِّعم بقلوبكم وألسنتكم وجوارحكم، إنْ كنتم حقاً تخصُّونه بالعبادة، وتقرُّون أنّه إلهٌ واحدٌ. وهذا النداء هو النداء الإلهيُّ الثالث للمؤمنين في هذه السورة.

١٧٣ ـ ما حرَّم اللّهُ عليكم الأكلَ من أجساد الأحياء غير الإنسانية والتي تأكلون منها، إلا أربعة مُحرَّمات: **الأول**: المَيْتة، وهي كلُّ ما فارَقَتْه روحُه من غير ذكاةٍ ممَّا يُذبحُ، **والمُحرَّم الثاني**: الدم الجَاري، **والمُحرَّم الثالث**: الخنزير بجميع أجزائه، **والمُحرَّم الرابع**: ما أعلن ذابحه أنّه يُقدِّمه قُرباناً لغير الله تعالى. فمن ألجىء بإكراه أو جوع مُهْلك إلى أكل شيء من هذه المُحرَّمات الأربع، فأكل غيرَ طالب للشيء المُحرَّم ذاته، ولا مُتعدٍّ مقدار الحاجة وسدّ الجَوْعة، فلا حَرَج في أكلها، درءاً لأشدِّ الضررين بارتكاب أخفِّهما؛ لأن مضرَّة موت الإنسان من الجوع أشدّ من المضرَّة التي تحصل بأكل ما يدفع به ضرورته من هذه المُحرَّمات؛ إنَّ الله كثير السَّتر للمضطر الذي يأكل أكثر مما يدفع به ضرورته؛ لأنه يعسُرُ عليه ضبْط مقدار ما يدفع به ضرورته، دائم الرحمة بعباده إذ أباح لهم الأكل من هذه المُحرَّمات عند الضرورة.

١٧٤ ـ إنَّ الذين يُخفُون ما أنزلَ الله في الكتابِ، ويبذلون من أنفسهم معصيةَ كتمان ما يريدون كِتمانه ممَّا أنزل الله من الكتاب، مقابل ما يحصلون عليه من عوض يسير من متاع الحياة الدنيا، أولئكَ البُعداء عن رحمة الله المقيمون في عذاب جهنَّم، ما يأكلونَ بأفواههم، ويهضمون في بطونهم الجائعة الطالبة للطعام إلا طعاماً حاراً كالجَمْر من النار، ولا يُكلِّمهم اللّهُ كلاماً برفق وتكريم، أو بمواجهة وخطاب، بل يحاسبهم كخطاب الغائب إعراضاً عنهم؛ لأنهم كتموا كلامه المنزل، فهو يجازيهم بمثل عملهم، ولا يُطَهِّرهُم من دَنَس الكفر والذنوب، ولهم عذابٌ وجيعٌ يصل ألمُهُ إلى قلوبهم.

١٧٥، ١٧٦ ـ أولئكَ البُعداء عن رحمة الله، في دركات العذاب في جهنَّم، الذين أجْرَوْا تبادلاً في صَفَقَة تشبه الصفقات التجاريَّة، فامتلكوا فيها الضلالة بكتمانهم ما أنزل الله، وبذلوا من جانبهم الهدى الذي كانوا عليه، وهو علمهم بما أنزل الله، وبواجب تبليغه والعمل به، وامتلكوا فيها العذاب النازل بهم، وبذلوا من جانبهم ما كان في ملكهم بفضل الله، وهو مغفرة الله لذنوبهم التي لا تصل إلى الكفر، ولا إلى كتمان ما أنزل الله. فما اشدَّ جرأتهم على ارتكاب الكبائر العظمى التي تُفْضي بهم إلى عذاب النار التي يحتاجون فيها إلى صبرٍ شديد طويل؟!! ذلك العذابُ الأليم الواقع على الكاتمين للحقّ بسبب أنَّ الله نزَّل كتاب التوراة مصحوباً ببيان الحق، فكفروا به وأنكروه، وإنَّ أهل الكتاب الذين خالف بعضهم بعضاً في الكتاب، فآمنوا ببعضٍ وكفروا ببعض، وتناولوا بعضه بالتحريف، أو التأويل على غير ما يُراد منه، لفي خلافٍ ونزاع بعيدٍ عن الحقّ والصواب.



﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ۖ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ۗ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى ۖ الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَىٰ بِالْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَن بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾

١٧٧ - ليس الخيرُ فيما زَعَم أهلُ الكتاب في توجُّه النَّصارى قِبَلَ مَشْرِقِ بيتِ المَقْدس، وتوجُّه اليهود قِبَلَ مغربه، ولكن البرَّ الجامعَ لأعمال الخير المُقرِّبَةِ إلى الله والمؤدِّيةِ إلى جَنَّته برُّ من تحقَّق بمرتبة التقوى أولاً، بأن يكون قد آمَنَ إيماناً صحيحاً كاملاً باللَّهِ، وبيوم البعث والجزاء، وآمنَ بالملائكةِ، وبجميع الكتبُ المنزَّلة، وبجميع النَّبيين من غير تفريق، وأعطى المال على شَدَّة حبِّه له الفقراءَ من أهلِ قرابته، واليَتامى الذين تُوفي آباؤهم ولم يبلغوا الحُلُم، والمساكين الَّذين يدلُّ ظاهرهم على أنهم ذو حاجة، والمسافر المنقطع عن أهله، والطالبين المُسْتَطْعِمِينَ، وأعطى المال في مُعاوَنَة المُكاتَبين حتى يفكُّوا رقابَهم أو في فكِّ الأسرى من أيدي العدوِّ بفدائهم، وأقام الصَّلاة المفروضة في أوقاتها مُسْتوفيةً لأركانها وآدابها، وآتى الزكاة الواجبة لمُستحقِّيها، طيِّبَة بها نفسه، ابتغاء وَجْه الله، والموفون بعهدهم إذا عاهدوا الله أو الناس، وأخُصُّ بالمدح الصَّابرين في الفقر والجوع، والمصائب في الأموال والأنفس، وحين شدَّة القتال في سبيل الله، الذين ارتقوا بصبرهم إلى مرتبة البر، أولئك المُتَّصفون بهذه الأوصاف هم الذين صَدَقوا في إيمانهم، وأعمالهم وأخلاقهم، وأولئكَ هم الذين اتَّقوا عقابَ الله فتجنَّبوا معاصيه.

وهذه الآية هي أجمع الآيات في تحديد معنى البر، وتُرشد إلى أنَّ البرَّ أنواع ثلاثة جامعة لكل خير: برٌّ في العقيدة، وبرٌّ في العمل، وبرٌّ في الخُلق. أما البرُّ في العقيدة، فهو الإيمان بالأركان الإيمانية الخمسة، وأما البرُّ في العمل، فهو بذل المال المُسْتحب للأصناف الستة التي يجب سدُّ عِوَزها، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة المفروضة، وأما البر في الخُلق فهو يشمل: الوفاء بالعهود، والصبر في مجالاته الثلاثة.

١٧٨ - يا أيُّها الذين صدَّقوا الله ورسوله وعملوا بشرعه: فُرِضَ عليكم اعتبار المُسَاواةِ والمُمَاثلة بين القتلى، يُقْتَلُ الحرُّ بمثلِهِ، والعبدُ بمثلِهِ، والأنثى بمثلِها، إذا كان القتل على وجه العمْد والعدوان، وطالبَ به أولياء القتيل، فمن تُرِك له وصُفح عنه في قتل العمْد، من وليِّ المقتول، ورَضي بالدِّية أو العفوِ عنها، فليتَّبعِ الوليُّ القاتلَ بالمعروفِ فلا يأخذ أكثرَ من حقِّهِ ولا يُرهقه، وعلى القاتلِ أداءُ الدِّية إلى وَليِّ الدم من غير مُماطَلةٍ ولا نقص. ذلك الذي ذكر من الحكم بشرع القِصَاص والعفو عن القِصاص وأخذ الدِّية تَوْسِعَةٌ عليكم، وتيسيرٌ من ربكم، ورحمةٌ بكم، فمن اعتدى بعد هذا العفو برفع القصاص عنه من أولياء القتيل، وتكررت الجريمة منه، ممّا يُشعر بأن العفو من الاقتصاص منه قد شجَّعه على تكرار الجريمة، وقوَّى فيه دوافع الإجرام الخبيثة، فاعتداؤه للمرة الثانية يُوجب له العذاب الأليم، وكذلك من اعتدى من أولياء القتيل على القاتل الذي أعلن توبته وندمه، وعَزْمه على الاستقامة، فَقَتَل الجاني بعد العفوِ عنه أو قَبول الدِّية منه، فلهُ عذابٌ أليم بقتله قِصاصاً في الدنيا، أو بالنار في الآخرة. وهذا النداءُ الإلهيُّ هو النداء الرابع للمؤمنين في هذه السورة.

١٧٩ - ولكم في تشريع القِصاص في القتل العَمْد والقطع والجروح وسَائر الجنايات مما يتعلَّق بذوات الأحياء، أنفسِهم فما دون ذلك، حياة آمنةٌ يا ذوي العقول الخالصة من شوائب الأوهام، المُتدبِّرةَ عواقب الأمور، المُتبصِّرة حِكَم التشريع؛ لتنتهوا عن القتل خوفَ القصاص، وذلك لأنَّ مَنْ تُحدِّثُه نفسُه بالعدوان على فردٍ أو أكثر من أفراد المجتمع في كلِّ النفس، أو في بعض أعضاء الجسد، فإنَّ خوفه من القصاص يُروِّعُه، فيكف عن ارتكاب الجريمة، وبهذا تقلُّ جرائم القتل والقطع والجروح في المجتمع إلى أدنى الحدود، فيعيش أفراد المجتمع حياةً آمنةً مطمئنةً، كما أنَّ القِصَاص لا يتجاوز الجاني إلى غيره، فيكون سبباً لحماية نفوس كثيرة من غائلة الإسراف في الانتقام.

١٨٠ - فَرضَ الله عليكم إذا قَرُبَ أحدكم من الموت، وَظَهرت عليه آثاره - إنْ ترك مالاً حلالاً كثيراً - الوصيَّةُ بجزءٍ من ماله للوالدين والأقربين الذين تدنو قرابتهم أكثر من غيرهم، بالمعروف الذي لا تستنكره العقول، وتعرفه وتُقرُّ بِهِ، ولا يُستنكر في العرف والعادات، الذي يضع الأمور في مواضعها، ويزنها بميزان الحق، فلا يزيد على الثلث، ولا يُوصي للغنيِّ ويدع الفقير، حقَّ الله الوصيَّة حقاً ثابتاً على المؤمنين الذين يتَّقون الشِّرك والمعاصي. وكان فرض الإيصاء في بدء الإسلام للوالدين والأقربين - وارثين أو غير وارثين - ثم نُسخ بآية المواريث، وبحديث: «لا وصية لوارث» وهو مذهب جمهور الأئمة.

١٨١ - فمن غيَّر قولَ الميِّت وما أَوْصى به بزيادةٍ في المُوصَى به، أو نقص، أو تغيير صفته، من بعد ما سمعه من المُوصي وتحقَّقه، فإنَّما إثمُ ذُلك التبْديل لا يعودُ إلا على المُبَدِّل. والمُوصِي والمُوصَىٰ له بريئانِ منه، إنَّ الله سميعٌ لما أَوْصَى به المُوصِي، عليمٌ بتبديل المُبَدِّل.

فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾

١٨٢ ـ فَمن اضْطربت نفسه مُتوقّعاً من مُوص مَيْلاً عن الحقِّ على وجْه الخطأ في الوصيّة، أو تعمُّداً للظلم، فأصلح بين المُوصَى لهم، بردِّهم إلى الوجْه المشروع، فلا حَرَج عليه في تغيير الوصية بالإصلاح، لأنه غيَّر الباطل بحق، إنَّ الله واسع السَّتْر دائم الرحمة لِمَن يقصد بعمله الإصلاح، ولو اعتمد على ظنٍّ غالب، أو أخطأ وَجْهَ الصواب فيه. وفي الآية دليل على أنَّ من وقف على جوْر في الوصيَّة ـ من جهة العمْد أو الخطأ ـ سواء كان وصياً أو حاكماً أو وارثاً أن يردَّها إلى العدل. وفيها الدلالة على جواز الاجتهاد والعمل بغالب الظن، لأن الخوف من الميْل يكون في غالب ظنِّ الخائف.

١٨٣ ـ يا أيُّها الَّذين صدَّقوا الله ورسوله وعملوا بشرعه، فَرَض الله عليكم الصِّيام، بالإمساك عن الأكل والشُّرب والجماع من طلوع الفجر إلى غروب الشمس مع النيَّة، كما فُرِضَ الصِّيام على الذين من قبلكم من الأنبياء والأمم؛ رغبةَ أن تختاروا بإراداتكم الحرة العمل بهذه العبادة، فتتقون بذلك عقاب الله على المخالفة، وتنتظمون في زُمْرة المتَّقين. وهذا النداء الإلهيُّ هو النداء الخامس للمؤمنين في هذه السورة.

١٨٤ ـ فَرَضَ الله عليكم أن تصوموا أيَّاماً مُقَدَّرات قليلات، ولم يفرض عليكم صياماً شاقاً مُضْنياً، يأخذ قسطاً كبيراً من عمركم، فمن كان منكم مريضاً أو على سفر، فأفطر، فالواجب عليه متى برىء من مرضه أو انقطع من سفره، صيام أيام بعدد ما أفطر فيه من أيام رمضان، وعلى الذين يتكلَّفون الصيام ويَشقُّ عليهم مشقّة غير مُحتملة كالشيخ الكبير السِّنّ، والمريض الذي لا يُرْجى شفاؤه، فدية عن كل يوم يفطره، وهي طعام مسكين، فمن أطعم أكثر من مسكين، أو زاد على قَدْر الواجب فهو خيرٌ له، وصيامُكُم ـ ولو تحمَّلْتُم في الصيام مشقَّةً كبيرة غير ضارة بصحتكم ـ خيرٌ لكم من الإفطار والفدية، إن كنتم تعلمون ما أعدَّ الله من أجر عظيم للصائمين.

١٨٥ ـ وَقْتُ صيامكم شهرُ رمضان، وسببُ تخصيصه بهذه العبادة العظيمة: نزول القرآن فيه على محمد ﷺ، أنزل من اللوح المحفوظ جملةً واحدة إلى بيت العزَّة في السماء الدنيا، ليلة القدر، ثم نزل مُنجَّماً مُفرَّقاً خلال ثلاث وعشرين سنة حسب الحاجة والوقائع. ومن صفة هذا القرآن أنه هُدى للناس إلى الحق وطريق نجاتهم وسعادتهم، وهذا الهدى جاء في آيات واضحاتٍ كاشفاتٍ وجه الحقِّ وسبيل الرشاد، وهذا الهدى فارق بين الحق والباطل والخير والشرِّ، يزيل الالتباس، ويُميِّز بين المختلطات فمن لم يعرف الحقَّ والباطلَ، والخير والشر، ولم يُفرِّق بينهما وقع في الالتباس، وتَداخلتْ عليه الأمور، واختلطت عليه المتشابهات المتقاربة. فمن كان حَاضِراً مقيماً فأدْركه الشَّهر بظهور هلال أول يوم منه، فَلْيَصُمْ في أيامه، ومن كان مريضاً مَرَضاً يؤدِّي إلى ضررٍ في النفس أو زيادةِ علَّةٍ واشتداد وجع، أو كان مسافراً سفراً مباحاً مسافة قصر الصلاة (٨٩ كلم) أو أكثر، ويُجْهده الصوم، فأفطر فعليه عِدَّةٌ من أيام أُخر، يريدُ الله بكم التسهيل في جميع التكاليف الدينية، ولا يُريدُ بِكُم العُسْر، ومنها: الصوم، وقد حقَّق الله مراده، فأنزل أحكام التيسير بإباحة الفطر للمسافر والمريض، وشرع لكم فريضة الصيام لتكملوا عدَّة أيام الصيام المفروض فلا تنقصوا منها شيئاً، ولتكملوا أيضاً عَدَدَ الأيام التي أفطرتم فيها بعذرِ السفر والمرض، ولتكبِّروا الله وتُعظِّموه في نفوسكم وقلوبكم على ما أرشدكم إلى طاعته، ووفَّقكم للقيام بهذه العبادة، وما منحكم من عفوه ومغفرته، ولكي تقدِّموا بالصيام الذي تصومونه إيماناً واحتساباً بعض الشكر لله تعالى، على جلائل نعمه، وعظيم فضله عليكم.

١٨٦ ـ وإذا سألك ـ يا رسول الله ـ عبادي عن ذاتي أو صفاتي أو أفعالي، فقل لهم: إني قريبٌ بالعلم والحفظ لا يخفىٰ عليَّ شيءٌ، أسمعُ دعاءَ عبدي إذا دعاني، وألبِّي دعوة الداعي، وأُسعف السائل إذا التجأ إليَّ، فَلْيستجيبوا لي بعبادتي وطاعتي، ولْيؤمنوا بي الإيمان الصحيح الواجب عليهم، بالثبات والدوام عليه؛ رغبة أنْ يهتدوا إلى مصالح دينهم ودنياهم، ويسيروا في طريق الرَّشاد الذي لا عوج فيه، فيَصلحون ويُصلحون.

أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ
لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ
أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ
وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ
ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ
إِلَى ٱلَّيْلِ ۚ وَلَا تُبَـٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَـٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَـٰجِدِ ۗ
تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ
لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم
بِٱلْبَـٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ
أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ
عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ
بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ
وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ
تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾ وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ
وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾



١٨٧ - أُبيحَ لكم لياليِ الصِّيام الجماع ومُقدِّماته، مُفْضِينَ به إلى نسائكم، هُنَّ كاللباس السَّاتر لكم، وأنتم كاللباس السَّاتر لهنَّ؛ لما يكون بينكما - أيها الزوجان - من مباشرة الجسد بالجسد، وتلاصقهما، وتداخلهما، وإحاطةِ كلٍّ منكما بصاحبه، وطول ملازمته له، مع ما في كلٍّ منكما لصاحبه من سَتْر ودفءٍ وحفظ، عَلِمَ اللَّهُ أنكم كنتم تتحمَّلون ارتكاب الخيانة لأنفسكم بالمُجَامَعَة بعد العشاء، وأنتم كارهون، إذ كنتم في صراع شديد بين مُقْتضيات الواجب، وعنف حاجة النفس، فعاد الله عليكم برحمته، فخفَّف ثقل التكليف، وتجاوزَ عنكم، ومَحَا ذنوبكم، فالآن جامعوهُنَّ فهو حلالٌ لكم في ليالي الصوم، واطْلبوا ما قضىٰ اللَّهُ لكم في اللوح المحفوظ من الولد، حفظاً للنسل، وعمارةً للكون، ولا يكن همُّكم مُجرَّد الوطء، والاستمتاع، وكُلوا واشْرَبوا في ليالي الصوم حتى يتبيَّن لكم أول النهار الذي يشبه الخيط الأبيض من آخر الليل الذي يشبه الخيط الأسود، من الفجر الصادق المُستطير المُنتشر في الأفق، فإذا طَلَع الفجر الصَّادق حَرُمَ على الصائم الطعام والشراب والجماع إلى غروب الشمس، فإذا دَخَلَ الليل حَصَلَ الفِطر. ولا تُجامعوا نساءكم وأنتم مقيمون في المسجد بنيَّة العبادة، فالجماعُ يحرم على المعتكف في النهار والليل حتى يخرج من اعتكافه، تلك الأحكام التي ذكرت في الصيام والاعتكاف هي المعالم الفاصلة بين الحلال والحرام ذات المقادير المُحَدَّدة فلا تقربوها حتى لا تقعوا في الحرام؛ لأن من اقْترب من الحدِّ الفاصل أوْشَكَ أن يقع فيه. وكما بيَّن الله لكم ما أمركم به ونهاكم عنه، كذلك يُبيِّن معالم دينه وأحكام شريعته للناس؛ رغبة أن يتَّقوا ما حُرِّم عليهم، فينجوا من العذاب.

١٨٨ - ولا يأكل بعضُكم مالَ بعض دون وَجْهٍ من الحق، كاليمين الكاذبة، والغصب، والسَّرقة، والغش، والتغرير، والربا، ونحو ذلك فلا يستحل أحدكم مال أخيه إلا بوجه من الوجوه التي شرعها الله كالميراث والهبة، والعقد الصحيح المبيح للملك، ولا ينازع أحدكم أخاه في المال وهو مبْطل، ويرفع إلى الحاكم أو القاضي ليحكم له، وينتزع من أخيه ماله بشهادةٍ باطلة، أو بيِّنةٍ كاذبة، أو رشوة خبيثة، وأنتم تعلمون تحريم ذلك عليكم، فإذا كان الطعام والشراب مُحرَّماً في نهار رمضان فإنَّ أكل أموال الناس بالباطل مُحرَّم في كلِّ زمان ومكان، فمن امتثل أمر الله في اجتناب الطعام والشراب في نهار صومه، فليمتثل أمره في اجْتناب أكل الأموال بالباطل، فإنَّه محرَّم بكلِّ حالٍ لا يباح في وقتٍ من الأوقات.

١٨٩ - يسألونك - يا رسول الله - عن سبب الظاهرة الكونيَّة في الأهِلَّة، لماذا يبدو الهلال دقيقاً مثل الخيط، ثم يزيد حتى يمتلىء ويستوي، ثم لا يزال ينقص حتى يعود كما بدأ، ولا يكون على حال واحدة كالشمس؟ قُل - يا رسول الله -: إنَّ لتكرار هذه الأهلَّة واختلاف نموِّها حِكَماً ومصالح دينية ودنيويَّة، فهي علامات مُبيِّنات للمواقيت التي تُحسب بالأيام والأشهر؛ ليعلمَ النَّاسُ أوقات تواريخهم، ومعاملاتهم، وعباداتهم، كالصيام، ومرور الحَوْل لأداء الزكاة، وأشهر العِدَّة، وغير ذلك من الأحكام المتعلِّقة بالأهلَّة، ولا سِيَّما الحج، إذ دَخَل فيه التحريف الجاهلي بالنسيء الذي كانوا يصنعونه، ولو استقرَّ الهلال على حاله كالشمس، ما استقام لكم توقيت معاشكم وحجكم الذي هو من أركان دينكم، وأما سبب هذه الظاهرة الكونيَّة، فهي إحدى أنظمة الكون التي يمكن بالبحث العلميِّ أن يكتشفها الناس مُستقبلاً، وليس بيانها من الأغراض التي بُعث الرسول لبيانها. وفَتحُ أبواب السؤال عنها والإجابة عليها يُحوِّل مهمَّة الرسول ﷺ من رسالة دينية إلى رسالةِ عالمٍ من علماء أنظمة الله في كونه. وليس البرُّ بتحرُّجكم من دخولِ أبواب البيوت وأنتم مُحرمون بالحجِّ أو العمرة، ولكنَّ البرَّ المقبول عند الله هو برُّ من اتَّقى ما حَرَّم الله، أما من لم يُحقِّق في نفسه أصل التقوى فإنه لا يقبل منه عمل البر، وأْتُوا البيوتَ من أبوَابها في حالِ الإحرام وغيرِه، وباشروا الأمور من وُجوهها التي يجبُ أن تباشر بها، واتَّقُوا الله فيما أمركم ونهاكم؛ لتفوزوا بكلِّ ما تحبُّون من الحياة المطمئنة في الدنيا، والنعيم الخالد في الآخرة.

١٩٠ - وقاتلوا - أيها المؤمنون - في طاعة الله الذين أخرجوكم من دياركم وأموالكم، ويقاتلونكم، ويفتنون المؤمنين منكم في دينهم، ليردُّوهم كفاراً بعد إيمانهم، واجعلوا قتالكم في سبيل الله ورفع كلمته، ولا تجعلوه للعدوان، ولا تقتلوا النِّساء والصبيان والشيوخ والرُّهبان ولا من ألقى إليكم السَّلام، ولا تعتدوا بظلم غيركم في حقٍّ من حقوقه الماديَّة أو المعنويَّة، أو بفعل ما نهى الله عن فعله، وترك ما أمر الله بفعله، أو بتحريم ما أحلَّ الله، أو تحليل ما حرَّم، إنَّ الله سبحانه لا يُحبُّ الذين يُجاوزونَ حدوده، فيستحلُّون ما حرَّم اللَّهُ ورسولُهُ، ومَنْ جَعَل نفسه بإرادته في زمرة الذين لا يحبُّهم الله، فقد جعلها عُرضة لنقمته وعذابه الشديد.

وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٩٣﴾ الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾

١٩١ ـ واقتلوا الذين يُقاتلونكم من المشركين حيثُ وَجَدتموهم في الحِلِّ والحَرَم؛ لأنهم يقاتلونكم، وما زالوا مُخرجين لكم، ويفتنون مَنْ يفتنون منكم في الدين، وأخرِجُوهُم من ديارهم كما أخرجوكم من دياركم حتى ينتهوا عن القتالِ، والإخراج، والفتنةِ في الدين، وإنَّ فتنتهم للمؤمنين بالتخويف والإيذاء، والإلجاء إلى مفارقة الأهل والوطن أعظمُ من قتلكم إيَّاهم في الحَرم والإحرام، ولا تَبْدؤوهم بالقتال عند المسجد الحرام حتى يبدؤوكم بالقتال فيه، فإنْ قاتلوكم في المسجد الحرام فاجتمعوا على قتلهم قَتْلَ إبادة، مثل ذلك الجزاء الرادع بمقاتلة هؤلاء الَّذين قاتلوكم وأخرجوكم من دياركم، يكون جزاء الكافرين الذين يعملون مثل أعمالهم.

١٩٢ ـ فإن كفُّوا عن المُقاتلة والإخراج، فدعُوهم وتوقَّفوا عن مقاتلتهم وإخراجهم، فإنَّ الله كثير السِّتْر لما سَلَف، واسع الرحمة بعباده.

١٩٣ ـ وَقَاتِلوا المُشركين حتى لا تكون قوىً طاغية ظالمة، لا تقيم العدل في شعوبها، ولا تعطيهم الحرية في اعتناق الحقِّ الذي يرغبون في اعتناقه، ويكون الخضوع والاستسلام لأحكام الله تعالى، إما بالدخول في الإسلام، أو بالرضا بحكم الإسلام والعيش بين المسلمين في ظلِّ سماحة الإسلام وعدله، فليس لأحدٍ حقُّ الفتنة في الدين، ولا الإكراه لقَبول دين ما أو تركه، فإن انْتَهوا عن فتنتهم للمؤمنين في دينهم فكفُّوا عنهم؛ فالعقوبة لا تكون إلا على المُسْتمرّين على عدوانهم واضطهادهم للمؤمنين.

١٩٤ ـ هذا الشهرُ الحرام الذي تؤدُّون فيه ـ أيها المؤمنون ـ عمرة القضاء، بالشَّهر الحرام الذي صُدِدْتُم فيه عن البيت، ومثل الشهر الحرام الحرمات كلُّها، فهي قِصاصٌ يُقابل العدوان فيها بمثلها، فمن اعتدى عليكم بانتهاك حُرمة من حرمات دولتكم، أو إلحاق أذى بجماعتكم، بحرب شنَّها عليكم، أو مُصادرةٍ لتجارتكم، أو تَرَصُّد في الطريق التي تسلكها قوافلكم، فاعتدوا عليهم بعقوبةٍ مُماثلةٍ لعدوانهم، واتَّقوا اللَّهَ بالوقوف عند حدوده، والتزام أحكام شريعته في أثناء القتال، فلا تعتدوا إلى ما لا يَحِلُّ لكم، ولا تُسايروا خصومكم في أذاهم، فتقتلوا الذراري أو الشيوخ أو الرهبان الملازمين لعبادتهم، والعمَّال الذين لا يُعينون في حرب، إذ أن الرأفة بعباد الله تُدني من النصر، واعلمُوا أنَّ الله مع المتَّقين بالنصر والمعونة والتأييد.

١٩٥ ـ وأعِدُّوا العدة للقتال بإنفاق المال في الجهاد في سبيل الله، فإذا دخلتم الحرب دون إعداد ما يلزم لقتال أعدائكم من أعتدة وخطط حربية، وإعداد القوة اللازمة، كان ذلك ارتماءً إلى التهلكة، ولا تُلْقُوا أنفسكم فيما فيه هلاككم في دين أو دنيا، بترك الجهاد وعدم الاستعداد والتدريب على فنون القتال، والإمساك عن الإنفاق في سبيل الله، وأحسِنوا العمل مع الله تعالى بالقيام بما أمركم به مع الإخلاص وصدق النية، وأحسنوا العمل مع خلق الله بالبرِّ والعفو والإنفاق على مَنْ تلزمكم نفقته، وأحسنوا الإعداد لخَوْض المعركة، بالتدريب واتِّخاذ الأسباب الكافية، والإتقان الذي يرتقي بكم إلى درجة الإحسان؛ إنَّ الله يحبُّ المحسنين ويثيبُهُم على إحسانهم، ويُدخلهم جنات النعيم، لأنَّ من أحبَّه الله أكرمه، وأدخله في رحمته.

١٩٦ ـ وأدُّوا مناسِكَ الحجِّ والعُمْرة بعد الشروع بهما تامَّيْن، بحدودهما وسننهما، لوجْه الله، فإنْ منعكم مانعٌ من مرض أو عدوٍّ دونَ تَمام الحجِّ والعُمرة، وحال بينكم وبين الوصول إلى الحرم، فحللتم، فعليكم ذبح ما تيسَّر لكم من الإبل أو البقر أو الغنم، يُهدى إلى بيت الله تقرُّباً إلى الله، ولا تخرجوا من إحرامكم بحَلْق رؤوسكم حتى يَبْلُغَ الهديُ مكانه الذي يجب أن يُذْبَح فيه، وهو الحرم أو موضع الإحصار، حِلاًّ كان أو حرماً، فمن كان منكم به مرضٌ أو به أذىً من رأسه من قمل أو صداع فَحَلَقَ رأسه، فعليه فِديةٌ من صوم ثلاثة أيام، أو إطعام ستة مساكين، أو ذبيحة أعلاها بَدَنة وأوسطها بقرة وأدناها شاة، وهذه الفديةُ على التَّخيير إنْ شاء ذَبَح أو صام أو تصدَّق لمساكين الحرم. فإذا أمنتم من الإحصار، وزال عنكم الخوف، وأصبحتم في حال سَعَة وأمن، فمن استمتع بالعمرة في أشهر الحج وأقام بمكة حَلالاً حتى أنْشأ منها الحج، فحجَّ من عامِه هذا، فعليه ما اسْتَيْسَر من الهدي، وهو شَاةٌ يذبحها يوم النَّحر، فمن لم يجد الهَديَ فعليه صيامُ ثلاثة أيام في وَقْت اشتغاله بالحج، وصومُوا سَبْعَةَ أيام إذا رجعتم إلى أوطانكم وأهليكم، تلك عشرةٌ كاملة في الثواب والأجر، وفي قيامها مَقَام الهدي. ذلك التمتُّع بالعمرة في أشهر الحج، لِمَنْ لم يكن أهله مقيمين في مكة وما حولها، فإن أولئك يفردون ولا يجمعون؛ لأنَّ العمرة في إمكانهم في طوال العام، أو الحكم المذكور وهو: الهديُ أو بدلُه لغير الساكنين في الحرم وحوله ضمن حدود المواقيت، فأما المكيُّ إذا تمتَّع وَقَرن فلا هَديَ عليه. واتَّقُوا الله فيما فَرضَه اللَّهُ عليكم ونهاكم عنه في الحجِّ وفي غيره، واعلموا أنَّ الله شديدُ العقاب لمَنْ خالف أمره، وتهاونَ بحدوده، فاحرصوا على أداء المناسكُ كما شُرِعت، وحافظوا على حُرمة الإحرام والحرم.

ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾

١٩٧ - وقتُ الحج أشهرٌ معلوماتٌ، وهي: شوال، وذو القَعْدة، وعشرٌ من ذي الحِجَّة، لأن أركان الحج تُستوفي فيها، وتُؤخذ الأهبة له فيها، ويُحرم به فيها، فمن أَلزمَ نفسَه وأَوْجَبَ عليها في الأشهر المعلومات الحجَّ بالإحرام، فيحرم عليه الجماع ومقدِّماته القوليَّة والفعليَّة، وتحرم عليه المعاصي، والمِراء والمُخاصَمة، وإذا كنتم قد تنزَّهتم في حجكم عن كل شرٍّ، فاعلموا أنكم اجتمعتم لعمل الخير، فتنافسوا فيه، وتبادلوا النفع، واعملوا على ما يقوِّي جمعكم، ويزيل الضرَّ عنكم، ويدفع عنكم كيد الكائدين، وما تفعلوا من خير يعلمه الله، فلا يَخفى عليه شيءٌ من أعمالكم، وهو الذي يُثيبكم عليها يوم القيامة. وتزوَّدوا ما تَتَبَلَّغونَ به في سفركم، وتكفُّون به وجوهكم عن النَّاس، وتزوَّدوا بالتقوى لمعادكم، عندما ترحلون عن الدنيا بالموت، فإنَّ أفضل زاد يتزوَّد الإنسان به إلى دار الآخرة هو تقوى الله تعالى، بالتزام أحكام شريعته، والعمل بطاعته الذي يُوصل إلى النعيم المقيم في الجنة، وخافوا عقابي، والتزموا بشريعتي، واشتغلوا بعبادتي، يا ذوي العقول الواعية الدرّاكة التي تعقل المعارف فتُمْسك بها، وتعقل النفوس عن اتِّباع الهوى والشهوات.

١٩٨ - لَيْسَ عليكم حَرَجٌ في أن تطلبوا في مواسم الحج رِزْقاً وربحاً حلالاً في التجارة، على أن تكونوا في طلبكم وأخذكم بالأسباب معتمدين على خالقكم ومالككم الذي أنشأكم وربَّاكم ونمَّاكم، فإذا دفعتم بكثرة بعد غروب شمس اليوم التاسع من ذي الحجة راجعين من «عرفات»، فاذكروا الله بالتسبيح والتلبية والدعاء عند «المزدلفة»، التي تقع بين «عرفات» و«مِنى»، واذكروا الله تعالى بالتوحيد والتعظيم كما ذكركم بالهداية، فهداكم لدينه ومناسك حجِّه، وقد كنتم من قبل هدايته لكم لا تعرفون كيف تذكرونه وتعبدونه. فاعرفوا فضل الله عليكم بإنزال القرآن الكريم، وبعثه الرسول عليه أفضل الصلاة والتسليم.

١٩٩ - ولْتكن إفاضتكم في «عرفات» - يا معشر قريش - من حيثُ أفاض الناس، لا من «مُزْدلفة» حيث كنتم تتعاظمون أن تقفوا مع سائر الناس بعرفات، لأنها خارج حدود الحرم، واستغفروا اللّه من مخالفتِكم في الموقف ولجميع ذنوبكم، إنَّ الله هو الساترُ لذنوبِ عباده، دائم الرحمة بهم.

٢٠٠ - فإذا فَرَغْتُم من حجِّكم وعبادتكم، وذبحتم ذبائحكم بعد رَمْي جمرة العَقَبة والاستقرار بمنى، فاذكروا الله بالتحميد والتمجيد والتهليل والتكبير والثناء عليه مثل ذكركم مَفَاخر آبائكم في الجاهليَّة، بل أكثر ذكراً؛ لأنَّه هو المُستحقُّ للذكر والحمدِ مُطلقاً. فمن الناس فريقٌ مشركٌ كانوا يَسْألون الله في حَجِّهم الدنيا ونعيمَها، ولم يطلبوا نعيمَ الآخرة، فغاية همِّهم الحياة الدنيا، يكدحون من أجلها فقط، ولا يطلبون نصيباً من الآخرة؛ لأنَّهم ينكرون البعث، ويدعون قائلين: ربَّنا آتنا في الدنيا مالاً، وأولاداً، ومكانةً، وجاهاً، وهؤلاء ليس لهم في الآخرة من حظٍّ ولا نصيب؛ لأنهم لم يطلبوها ولم يَسْعَوا إليها.

٢٠١ - ومن النَّاسِ فريقٌ مؤمنٌ لهم مطلبان: مطلب عاجل، ومطلب آجل، أما المطلب العاجل، فهو زادٌ حَسَنٌ يجتازون به طريق الحياة الدنيا، ويتبلَّغون به إلى نهايته وَفْق الأجل المُحدَّد لهم، وأما المطلب الآجل، فهو الذي يطمحون إليه، وتتعلَّق غاية همَّتهم به وبمراتبه التي لا تتناهى سُمُوّاً وارتقاء، يقولون في دعائهم: ربنا آتنا في الدنيا ما يحسُنُ به حالنا، وفي الآخرة الجنة، واصرف عنا عذاب النار، فهم جَمَعوا في الدعاء بين حَسَنةِ الدنيا، كالصحة والأمن والكفاية والتوفيق إلى الخير والولدِ الصَّالح والزَّوْجة الصَّالحة، وحَسَنةِ الآخرة بالمغفرة والرحمة والثواب. وهذا الدعاء من أجمع الأدعية، ولهذا كان أكثر دعاء النبيِّ ﷺ.

٢٠٢ - أولئك المؤمنونَ الطالبون للمطلبَيْن العاجل والآجل، الداعُونَ بالحَسَنَتَيْن، في الدنيا والآخرة لهم حَظٌّ من الخير والجزاء على الدعاء، وثوابٌ عظيم بسبب ما كسبوه من الأعمال الصَّالحة، واللَّهُ المحيط بكلِّ شيءٍ علماً سريعُ الحساب، لا يَشْغله شأنٌ عن شأنٍ، فهو قديرٌ على أن يُحاسبهم جميعاً في ساعةٍ واحدةٍ، دون أن يُنقص أحداً شيئاً من حقِّه، فاستكثروا من فعل الخيرات، والتوجُّه إلى الله تعالى بالدعاء وسؤاله خير الدنيا والآخرة.

﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٠٣) وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ (٢٠٤) وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ (٢٠٥) وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ (٢٠٦) وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ (٢٠٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٢٠٨) فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٠٩) هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٢١٠)﴾

٢٠٣ ـ واذكروا الله بالتوحيد والتعظيم والتكبير في أدبار الصَّلوات وعند رَمْي الجمرات، وعند ذبح الهدايا والأضاحي، في أيام التشريق المعدودات، وهي ثلاثة أيام بعد يوم النَّحر: الحادي عشر، والثاني عشر، والثالث عشر، من شهر ذي الحجة، فمن تعجَّل النَّفر الأول من «منى»، بعد أن مكَثَ فيها يومين فقط، وهما: الحادي عشر والثاني عشر من ذي الحجة فلا ذنب عليه، ومن تأخَّر إلى النَّفر الثاني، ومكث في «منى» إلى اليوم الثالث عشر من ذي الحجة فلا ذنب عليه، لمن اتَّقى الله في حجِّه، وابتعد فيه عن الرفث والفسوق، فإنَّ آثامه تسقط عنه، ويرجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه، سواءٌ نَفر في اليوم الأوَّل من يومي النَّفر مُتعجِّلاً أو تأخَّر إلى اليوم الثاني، واتَّقوا الله ـ أيها المؤمنون ـ في المستقبل، بامْتثال أوامره، واجتناب نواهيه، واعلموا أنَّكم إليه وحده تُجْمعون حين يبعثكم من قبوركم، فيجازيكم على أعمالكم.

٢٠٤ ـ وبعض الناس من المنافقين مَنْ تستحسنُ ـ أيها السامع ـ كلامه فيما يتعلَّق بأمر الدنيا وشؤونها، ويستولي على جلسائه في المجلس بزُخرف القول، والكلام المُنمَّق المُجَوَّد، الذي يُوهم أنه صدق، ويحلف ويقول مؤكِّداً دعاواه العريضة: الله شاهدٌ عليَّ أني صادق، وأنَّ سريرتي مطابقة لعلانيتي، وهو أشدُّ الخصومة بالباطل، وأكثر المخاصمين جَدَلاً، وأغلبُهم لأقرانه بغير حق.

٢٠٥ ـ وإذا تولَّى مُدْبراً منصرفاً إلى شؤونه وأعماله، مشئ في الأرض بهمَّة ونشاط واجتهاد؛ ليُحقِّق ما يهوى ويشتهي، وما يطلب لنفسه من مطالب الحياة الدنيا، كالمال والنساء والجاه والسلطان والعُلوّ في الأرض، فإذا اعترضَتْه عَقَبات في سُبُله لا تُجتاز إلا بالإفساد بالأرض، بتضليل الناس، وصدِّهم عن صراط الله المستقيم، ونشر الفاحشة فيهم، وإهلاك الثروة النباتية، والثروة الحيوانية التي تتكاثر عن طريق التناسل، أو بإهلاك الناس بقتل الرجال، وذبح الذراري، وتعقيم النساء، فعل ذلك طاغياً باغياً، دون تحسُّسٍ بعاطفة إنسانية. والله لا يُحبُّ الفساد.

٢٠٦ ـ وإذا قيل لهذا المنافق المفسد: اتَّق عقابَ الله على إفسادك في الأرض، وإهلاك الزرع والنَّسل، حملته القوَّة الغالبة وحميَّة الجاهلية على فعل الإثم، غير مكترث بما يجنيه من إفسادٍ في الأرض، وغير عابىء بالعواقب الوخيمة التي أُعدت للآثمين، وإذا أخذته عزَّته الحمقاء بعيداً عن المواطن الواقية له من عذاب الله، مُكبَّلاً بسلاسل الإثم، أخذته العزَّة الحقيقيَّة التي هي للَّهِ، فألقته في جهنم بجريرة الإثم الذي ارتكبه، فكافيةٌ له جهنم جزاءً وعذاباً، ولبئس المكان المُمهَّد الموطَّأ.

٢٠٧ ـ وفريقٌ من المؤمنين ذوي تفوُّق في أعمال البرِّ والإحسان يبيع نفسه ببذلها في طاعة الله من جهاد، وأمر بمعروف ونهي عن منكر، وإصلاح الفساد المنتشر في المجتمع الإسلامي، بسبب مُتسلِّطين ظلمةٍ طغاة، طلباً لثواب الله في الدار الآخرة، واللَّهُ شديد الرحمة بعباده، لا يُكلِّفهم إلزاماً بذل أنفسهم رأفةً بهم، وشفقةً عليهم، لكن يندبهم إلى ذلك أحياناً لنصرة دينه، فينتدب فريقٌ منهم باذلاً نفسه ابتغاء مرضاة الله.

٢٠٨ ـ يا أيها الذين آمنوا بالله رباً، وبمحمد نبياً ورسولاً، وبالإسلام ديناً: ادخلوا في أحكام الإسلام وشرائعه جميعاً، وقُوموا بها كلها، مجتمعين غير متفرِّقين ولا مُتنابذين، وَحَقِّقوا السِّلم في مجتمعكم، بالعمل على إصلاح الفساد بالطرق السِّلميَّة، فالدواعي القائمة ربما تجعل القتال لإصلاح الفساد مأذوناً به في أول الأمر، إلا أنَّ الشيطان يستغلُّه، ويستهوي بخطواته الماكرات إلى أن يتحوَّل التقاتل بين المسلمين إلى ما هو أشدُّ شراً وفساداً من الفساد الذي قام المصلحون لمحاربة ناشريه الطغاة المفسدين، فلا تتَّبعوا خطوات الشيطان المُتنازلات الماكرات؛ لئلا تقعوا فريسةً له؛ إنَّه لكم عدوٌّ ظاهر العداوة مُظهر لها. وهذا النداء الإلهيُّ هو النداء السادس للمؤمنين في هذه السورة.

٢٠٩ ـ فإنْ مِلْتم عن طريق الحقِّ انتصاراً للنفس والهوى ـ من بعدما جاءتكم الدلالات الواضحات من القرآن والسنة ـ فاعلموا أنَّ الله قويٌّ غالبٌ في نقمته ممَّن خالفه، لا يفوته أحدٌ من خلقه، حكيم في أمره ونهيه، يضع الأشياء في مواضعها على أحسن وجهٍ وأكمله.

٢١٠ ـ إن أولئك المشركين قد كفروا مع أنَّ الحُجَّة قاطعةٌ، والبيِّناتِ دامغةٌ، وإذا كانوا قد كفروا مع تلك البيِّنات، فهل ينتظرون إلا أن يأتيهم الله هو وملائكته في ظُلل من السَّحاب الأبيض، لكي يؤمنوا برسالة محمد بعد أن يَرَوْا الله وملائكته جَهْرةً، وَوَجَبَ العذاب عند مُعاينة الحقائق التي أنكروها، ولم تعد لديهم فرصة للتوبة، وإلى حساب الله سبحانه وحده، وفصل قضائه، تصير أمور العباد في الآخرة، فيُجازيهم على أعمالهم.

سَلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ ۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢١١﴾ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾

٢١١ - أسأل - يا رسول الله - اليهودَ تقْريعاً وتوبيخاً لهم: كم آتاهم الله من دلالات واضحات كثيرات على نبوّة موسى عليه السلام؟ فكفروا بالآيات الواضحات كلها، وأعرضوا عنها، وحرَّفوها عن مواضعها، ومن يُغيِّر آياتِ الله من بعدما عرفها، ويستعمل نعمة الله في معصيته، بَدَلَ أن يستعملها في شكره وطاعته، فإنَّ الله شديد العقاب لمن بدَّل دين الله ونعمته، فاحذروا أن تُعرِّضوا أنفسكم لعقابه الشديد، واشكروه على نعمه، وتمسَّكوا بدينه وشريعته، وانقادوا لحكمه وأمره، ولا تغترُّوا بزينة الحياة الدنيا وزخارفها.

٢١٢ - جَعَل الله الدنيا دارَ ابتلاء وامتحان، وأظهر للكافرين زهرةَ الدنيا، فأعجبهم حُسْنها، وانخدعوا بحلاوة مظهرها، فأحبُّوها وفُتنوا بها، وتصوَّروا أنَّ ما ظهر لهم من طلاءات وزخارف وأصباغ خادعةٍ عنوان ما بَطنَ وخَفِيَ منها، فأعطوا للباطن حكم ما بدا لهم في الظاهر، ولم يعلموا أن الحياة الدنيا زينة ظاهرة لا تحتوي على جوهر حقيقيٍّ ثابت. فالكفار مع أنهم مخدوعون بزينة الحياة الدنيا، وساقطون في الغرور، يتصوّرون المؤمنين مُضيِّعين لذَّات حياتهم، ومُتعلِّقين بالأوهام وبرؤيا خيالية عن الدار الآخرة، ويستهزؤون من المؤمنين بسبب إعراضهم عن الدنيا وعدم انهماكهم بها. والذين اتَّقوا ربَّهم فوق الكفار يوم القيامة لأنهم في علّيّين، والله يوسِّع لمن يشاء من عباده بلا حصر ولا عدّ لما يعطيه.

٢١٣ - كان النَّاسُ جماعةً واحدة يجمعهم الإيمان بالله والتزام شريعته، التي تلقَّوها من أبيهم آدم، وظلَّ أمرهم كذلك حتى اختلفوا وتفرَّقوا في عقائدهم وشرائعهم، ودخلت فيهم أنواع الضلالات الاعتقاديَّة والعمليَّة، فبعث الله النبيِّين رُسُلاً مُبشِّرين بالثواب لمَنْ آمن وأطاع، ومُخَوِّفين بالعقاب لمن كفر وعصى، لردِّ الناس عن ضلالاتهم، وأنواع اختلافاتهم، وأنزل مع كلِّ واحدٍ من النبيين الكتابَ بالعدل والصِّدق؛ ليحكم الله بالكتاب الذي أنزله في الحَقّ الذي اختلفوا فيه من بعدما كانوا متَّفقين عليه، ثمَّ بعد حين دبَّ إلى الذين أُوتوا الكتاب وآمنوا به الاختلاف في الكتاب الربَّانيِّ نفسه، من بعدما جاءتهم البيانات الواضحات؛ والتي كان من مُقتضاها أن لا يختلفوا مع وجودها. وكان السبب في هذا الاختلاف وجود البغي بينهم، إذ ظهر فيهم التحاسد، والفجور، واتِّباع الهوى، والخروج عن طاعة الله، فأخذوا يتلاعبون بالكتاب بالتحريف والتبديل والتأويلات الباطلات، مع بقاء ظاهر الانتماء إليه، وإلى الرسول الذي بلَّغهم إيَّاه عن ربِّه، ثم بعث الله سبحانه خاتم النبيِّين محمداً ﷺ وأنزل عليه القرآن، بيَّنا واضحَ الدلالة على أصول الإيمان، فهدى الله بتوفيقه ومعونته الَّذين آمنوا بالرسول وبما أنزل الله عليه إلى الاستمساك بالحقِّ الذي جاء به في القرآن. فأحقَّ أئمة الاجتهاد منهم الحقَّ، وأوْضحوا للنَّاس صراط الله في العقائد والعبادات والأخلاق بالأدلة الجليَّة، بحثاً واستنباطاً من نصوص الكتاب وبيانات الرسول ﷺ، وكان هذا بمعونة من الله لهم، إذْ علم أنهم مُخلصون في تحرِّي الحق، واللَّه يهدي بمقتضى علمه وحكمته مَنْ يشاء مِن عباده إلى صراط مستقيم، هدايةَ دلالة ومعونة وتوفيق، ومشيئةُ الله سبحانه في كلِّ مقاديره لا تُفارق حكمته.

٢١٤ - بل أظننتم - أيها المؤمنون - أن تدخلوا الجنَّة، ولمَّا يأتكم نموذجٌ يُقاس عليه من سُنن الله في خلقه فيما أصاب مَنْ كان قبلكم من النبيين وأتباعهم من الشدائد والمحن: أصابهم الفقر، والمرض، وضروب الخوف، وحُرِّكوا بأنواع البلايا والرزايا، واضطربت قلوبهم من كثرة الشدائد وأنواع المحن، حتى إذا بلغ بهم الجهد والشدَّة الغاية القصوى، واستبْطؤوا النصر، وقال الرسول والذين آمنوا معه: متى يأتينا النصر الموعود به من الله تعالى؟ قيل لهم: تحقَّقوا وتأكَّدوا إنَّ نصر الله قريب. فكونوا - يا معشر المؤمنين - كذلك، وتحمَّلوا الأذى والشدَّة والمشقَّة إلى أن يأتيكم نصرُ الله عزَّ وجلّ.

٢١٥ - يسألك أصحابُك - يا رسول الله -: ماذا ينفقون في سبيل الله من أموالهم؟ قل لهم: ما تفعلوا من إنفاق شيء من المال الحلال الطيِّب قلَّ أو كَثُر، فأنفقوه في هذه الوجوه الخمسة، **الأول**: الوالدان لما لهما من فضل الولادة والعطف والتربية، **والثاني**: الأقربون من أهلكم وذوي أرحامكم، **والثالث**: اليَتَامى الذين مات آباؤهم في الصِّغر دون سنِّ البلوغ، **والرابع**: المساكين المُتعرِّضون للعطاء، الذين يسألون الصَّدقة، **والخامس**: المسافر المنقطع عن بلده، وليس له ما يقطع به مسافة سفره، وما تفعلوا - أيها المؤمنون - من خيرٍ قلَّ أو كَثُرَ مع هؤلاء أو غيرهم طلباً لوجه الله ورضْوانه، فإنَّ الله سبحانه به عليمٌ، فيُجازيكم عليه.

سأل الصحابة رضي الله عنهم عن الشيء الذي ينفقونه، فعلَّم اللَّهُ رسولَه ﷺ أن يُجيبهم عن الذين يَنْبغي أن تُوجَّه لهم النفقة، إشارة إلى أنه كان ينبغي أن يسألوا عن ذلك.

كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾

٢١٦ - فُرِضَ عليكم جهادُ الكفار، والقتالُ شاقٌّ عليكم من حيث نفورُ الطبع منه لما فيه من بذل المال، والمخاطرة بالروح، وعسى أن تكرهوا شيئاً ممَّا تَرَوْن فيه لأنفسكم سوءاً أو ضرّاً أو أذى، وقد يكون في حقيقة حاله خيراً لكم، وعسى أن تحبُّوا شيئاً مما ترَوْن فيه لأنفسكم نعمة أو منفعة أو لذّة، وقد يكون في حقيقة حاله شراً أو سبباً لوقوع الشر أو السوء به. فلماذا تكرهون الغزو وفيه إحدى الحُسْنَيَيْن: إمّا الظفر والغنيمة، وإما الشهادة والجنة؟ ولماذا تحبُّون القعود عن الغزو وهو شرٌّ لكم لما فيه من فَوْت الأجر والغنيمة وطمع العدوّ فيكم، لأنه إذا علم مَيْلكم إلى الراحة والدَّعة قَصَد بلادكم وقاتلكم، وإذا علم فيكم شهامة وجلادة على القتال كفَّ عنكم، والله يعلم ما في الجهاد من الغنيمة والأجر والخير، وأنتم لا تعلمون ذلك. وعلمه سبحانه علمُ إحاطةٍ للماضي والحاضر والمستقبل، والظاهر والباطن وأنتم لا تعلمون من هذا العلم إلا قليلاً جداً.

٢١٧ - يسألك المشركون - يا رسول الله - عن القتال في الشهر الحرام؟ قل لهم - يا رسول الله -: قتال فيه عظيم مُسْتَنكر. وصدُّكم - أيها المشركون - المسلمين عن الحج، وصدُّكم عن الإسلام مَنْ يريده، وكفركم بالله تعالى، وصدُّكم عن المسجد الحرام، وإخراجُ رسول الله ﷺ والمؤمنين من المسجد الحرام، أعظم وِزْراً عند الله تعالى من القتال في الشهر الحرام. وامتحان المسلمين بأنواع التعذيب والأذى والبلايا لصرفهم عن دينهم، وردُّهم إلى الشِّرك، أعظم وزراً من القتل في الشهر الحرام، ولا يزال مشركو مكة يقاتلونكم - يا معشر المؤمنين - حتى يردُّوكم عن دينكم إلى الكفر إن قدروا على تحقيق ذلك، ومن يُطاوعهم منكم - أيها المسلمون - فيرجع إلى دينهم، فيمت على ردته قبل أن يتوب، فأولئك بَطَلَت أعمالهم الصالحة التي كانوا قد عملوها في الحياة الدنيا مهما عظمت وكثرت، وأصبحت لا تنتج إلاّ شراً لصاحبها، كالدابّة التي تأكل شرَّ الثمار حتى تنتفخ بطنها من سوء ما تأكل، فلا تُحقّق لهم أعمالهم في الدنيا ما يرجون، وكذلك بَطَلت أعمالهم التي عملوها يريدون منها تحقيق منافع أخرويَّة، فلا يقبلها اللَّهُ منهم؛ لأنَّ شرط قبول الأعمال عند الله سبحانه أن تكون في طاعته وابتغاء مرضاته، وطلب ثوابه، وأولئك البُعداء عن رحمة الله الذين ماتوا على الردَّة والكفر هم أصحاب النار المُلازمون لها، المخالطون لألوان عذابها، هم فيها دائمو البقاء، لا يخرجون منها أبداً ولا يموتون؛ لأنهم صمَّموا في الدنيا على أن يظلُّوا جاحدين لله، كافرين به، منكرين لرسالاته.

٢١٨ - إنَّ الذين اتَّصفوا بهذه الأوصاف الثلاثة: **الأولى**: آمنوا إيماناً صحيحاً صادقاً، **والثانية**: فارقوا مساكنهم وعشائرهم وأموالهم طلباً لإعزاز الدين، بدل البقاء في الذلة والرضا بحياة المستضعفين، **والثالثة**: جاهدوا المشركين بأموالهم وأنفسهم في طاعة الله، أولئك المتَّصفون بهذه الأوصاف الثلاثة يطمعون في نَيْل رحمة الله وثوابه وفضله، واللَّهُ سبحانه كثير السَّتْر لذنوب عباده، دائم الرحمة بهم.

٢١٩ - يسألكُ المسلمون - يا رسول الله - عن حكم تعاطي الخمر شُرباً وبيعاً وشراءً، والخمر كلُّ مسكر خامر العقل وَسَتَره وغطّاه مشروباً كان أو مأكولاً، ويسألونك عن حكم القمار - وهو أخْذُ المال أو إعطاؤه بالمقامرة، وهي المغالبات التي فيها عوض من الطرفين -. قل لهم: في الخمر والمَيْسر وِزْرٌ عظيم، وضرر كبير، فمرتكبهما مرتكب إثم كبير، فالخمرُ عدوُّ العقل، فإذا غلب على العقل ارتكب كلَّ قبيح، والمَيْسر أكل المال بالباطل، وما يجري بين متعاطيهما من الشتم والمُخاصَمَة والمعاداة، وتضييع الطاقات، وإهدار الأوقات. وفي الخمر والمَيْسر منافع للناس من جهة أنهم كانوا يربحون في بيع الخمر، ويأخذون المال بغير كدّ ولا تعب في المَيْسر، ويتركونه للمحتاجين والفقراء. وضررهما الذي يجلبانِهِ لمُرتكبهما أكبر من نفعهما المقتضي إباحتهما؛ لأنهما يَصُدَّان عن ذكر الله وعن الصَّلاة، ويُوقعان العداوة والبغضاء بين الناس. وكان هذا تمهيداً لتحريمهما؛ لأنَّ ما زاد ضره على نفعه يبتعد عنه أهل الفكر الثاقب، والرأي الحصيف.

ويسألونك - يا رسول الله - عن القدر الذي ينفقونه من أموالهم في صدقة التطوُّع؟ قل لهم: أنفقوا ما تيسَّر وسهُل عليكم دفعه، أو ما زاد عن قدر الحاجة لأنفسكم ولمن تَعُولون. مثل ذلك البيان الواضح يُبيِّن الله لكم العلامات التي تستدلون بها على أحكام الحظْر، فحين يكون إثم الشيء أكبر من نفعه، فإنَّ عليكم أن تمتنعوا عنه، ويُبيِّن لكم من الآيات سوى ذلك؛ لتقيسوا عليها قياساً مُسْتنداً إلى إعمال الفكر بتكرار ورويَّة وعُمْق؛ لاستنباط أحكام المُسْتجدَّات وما لا تجدون له نصّاً صريحاً.

فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾ وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾ وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾

٢٢٠ - مثل هذا التبيين الواضح يُبيِّن الله لكم سائر الآيات؛ رغبةَ أن تتفكروا بتكرار ورويَّة وعمق فيما ينفعكم في الدنيا والآخرة، وتعملون لما يصلحكم فيهما.

ويسألونك - يا رسول الله - عن تصرُّفهم في أموال اليتامى؟ قل لهم: إصلاحُ أموال اليتامى من غير أخذ أجرةٍ ولا عوض خيرٌ لكم وأعظم أجراً، وإن تشاركوهم في أموالهم وتخلطوها بأموالكم فتصيبوا من أموالهم عِوَضاً عن قيامكم بأمورهم، فهم إخوانكم يعينُ بعضكم بعضاً، ويصيب بعضكم من مال بعض على وجه الإصلاح والرِّضا، والله يعلم المفسدَ لِمَالِ اليتيم والمصلح له، فيُجازي المفسد على إفساده، ويُثيب المصلح على إصلاحه. ولو أراد الله لضيَّق عليكم، وما أباح لكم مخالطتهم، ولكنه وسَّع عليكم وخفَّف عنكم، فأباح لكم مخالطتهم بالتي هي أحسن، إنَّ الله قويٌّ غالبٌ يقدر أن يشقَّ على عباده، ولكنه حكيم لا يُكلِّف عباده إلا ما تتَّسع فيه مقدرتهم، مع بقاء فضل من جهدهم بحيث لا يستغرق أقصى قدرتهم.

٢٢١ - ولا تتزوَّجوا - أيها المؤمنون - المشركات الوثنيات، حتى يُصَدِّقْن بالله ورسوله، بالإقرار بالشهادتين، والتزام أحكام الإسلام، ولأمةٌ مملوكةٌ مؤمنة - مع ما فيها من ذل العبوديَّة والرق - أنفع وأصلح وأفضل من مشركة حُرَّةٍ ولو أعجبكم جمالها ومالها ونسبها.

ولا تُزَوِّجوا - أيها المؤمنون - نساءكم المؤمناتِ - إماء أو حرائر - لأيِّ صنف من أصناف المشركين حتى يؤمنوا بالله ورسوله، واعلموا أنَّ عبداً مؤمناً، خيرٌ من مشرك حر، ولو أعجبكم بحُسنه وماله ومركزه الاجتماعي، وغير ذلك، أولئك البعداء عن رحمة الله المتَّصفون بالشرك رجالاً ونساءً يدعون إلى الشِّرك الذي يؤدِّي إلى النار يوم القيامة، والله تعالى بيَّن هذه الأحكام، فاعملوا بما أمركم به، وانتهوا عما نهاكم عنه، فإنَّه من عمل بذلك استحقَّ الجنَّة وسَتْر الذنوب والتجاوز عنها بتَيْسير الله وإرادته وتوفيقه، فلا غنى لأيِّ إنسانٍ عن معونة الله وهدايته، والله يوضِّح أدلته وحُجَجَهُ في أوامره ونواهيه وأحكامه للناس؛ رغبة في أن يضعوها في ذاكرتهم، فتكون دافعاً لهم إلى العمل بما جاء فيها من أوامر، أو نواهي، أو وصايا.

٢٢٢ - ويسألك المسلمون عن الحيض - وهو الدم الذي يسيل من رحم المرأة البالغة جِبلَّةً في أوقات مخصوصة إذا كانت غير حامل، ولم تبلغ سنَّ اليأس -؟ قل لهم - يا رسول الله -: هذا الدم الذي يلفظه الرحم شيءٌ مُؤْذٍ قذر، فاجْتنبوا مُجامعة النساء، ولا تقربوهنَّ بالوطء حتى يزول عنهنَّ الدم، فإذا انقطع الدم، واغتسلن من حيضهنَّ، فجامعوهنَّ في المكان الذي أمركم الله باجتنابه لعارض الأذىٰ، وهو الفرج، ولا تعَدُّوه إلى غيره، إنَّ الله يحبُّ كثيري التوبة من الذنوب، والمتطهِّرين من الأحداث وسائر النجاسات، الذين جمعوا بين التطهُّر المعنوي والماديّ، بالتخلُّص من المعاصي والآثام، وبازالة النجاسات، وبالطهارة من الأحداث الصغرى والكبرى بالوضوء والاغتسال، ويُثيبهم على توبتهم وتطهُّرهم، ويُدخلهم جنات النعيم؛ لأنَّ من أحبَّه الله أكرمه، وأدخله في رحمته.

٢٢٣ - نساؤكم موضع زرع لكم، تضعون النطفة في أرحامهنَّ، كالأرض التي تتقبَّل البذر وتحمله وتنمِّيه، فَجَامِعُوهُنَّ كيف شئتم: قائماتٍ قاعدات مُسْتلقيات، إذا كان في الفرج. وفي الآية دليل على تحريم إتيان النساء في أدبارهن؛ لأنَّ محل الحرث والزرع هو القُبل لا الدبر. وقدِّموا لأنفسكم ما تستطيعون من الخير والعمل الصالح، واجعلوا بينكم وبين معصية الله وقاية، واحذروا أن تأتوا شيئاً ممَّا نهاكم الله عنه، واعلموا أنكم صائرون إليه في الآخرة، فيجزيكم بأعمالكم، وبشِّر - يا رسول الله - المؤمنين بما يسرُّهم ويفرحهم من حُسْن الجزاء يوم القيامة إذا ما اتَّقوا ربهم، وتمسَّكوا بأحكام شريعتهم.

٢٢٤ - ولا تجعلوا - أيُّها المسلمون - الحَلِف بالله وأسمائه وصفاته سبباً مانعاً لكم من البِرِّ والتقوى والإصلاح بين الناس؛ بأن تُدْعَوا إلى بِرٍّ أوْ صِلَةِ رَحِمٍ، فتحتَجُّوا بأنكم قد حلفتم بالله في ترك البرِّ والإصلاح بين الناس، بل على الحالف أن يعدل عن حلفه، ويفعل أعمال البر، ويكفِّر عن يمينه، والله سميع لحلفكم، عليم بنيَّاتكم.

والنهيُ عن جعل الله عُرضةً للأيْمان بحاجة أو بغير حاجة يتضمَّن التوجيه للاقتصاد الشديد في الأيْمان، وجعلها بقدر الضرورة أو الحاجة الماسَّة، وعند الجزم بتحقيق الغاية منها.

لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ۖ فَإِن فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ ۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا ۚ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾ الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ ۖ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ ۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَن يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ ۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يَتَرَاجَعَا إِن ظَنَّا أَن يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ ۗ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾

٢٢٥ ـ لا يعاقبكم الله بلغْو اليمين في الدنيا بالكفارة ولا في الآخرة بالعقوبة، وهو: أن يحلف أحدكم على شيء يرى أنه صادق فيه، ثم يتبيَّن له خلاف ذلك، أو ما يجري على اللسان بلا قصد الحلف بالله، ولكن يُعاقبكم بما حَلَفتم من أيْمان ناتجة عن كسْب قلوبكم، بتوجُّه إرادتكم، لفعل أمر أو امتناع عن أمر، أو تعمَّدتم بما حلفتم الكذب، وهو: أن يحلف أحدكم على شيء ماض كذباً، ويُسمَّى اليمين الغموس، وإنَّ اليمين الكاذبة الفاجرة لا كفارة لها شرعاً، وليس لصاحبها من سبيل إلا باب التوبة، وردّ الحقوق إلى أصحابها إن ترتَّب على يمينه ضياع حق أو حكم بباطل، والله كثير السَّتر لعباده فيما لَغَوْا من أيْمَانهم، حليمٌ في ترك مُعَاجلة أهل العصيان بالعقوبة.

٢٢٦ ـ للأزواج الذين يحلفون بالله أيْماناً تفيد امتناعهم عن المباشرة الجنسيَّة مع زوجاتهم، انتظار مدة أربعة أشهر، فإن رَجَعوا عمَّا حَلَفوا عليه من ترك جِمَاعِهنَّ بالوطء قبل فوات الأشهر الأربعة، فإنَّ الله كثير السَّتر للزوج إذا تاب من إضراره بامرأته، دائم الرحمة بكلِّ التائبين.

٢٢٧ ـ وإنْ تحقَّقوا إيقاع الطلاق، باستمرارهم في اليمين، وترك الجماع، فإنَّ الله سميعٌ لأقوالهم، عليمٌ بنيَّاتهم.

٢٢٨ ـ وعُدَّة المُطلَّقات الحرائر ذوات الحَيْض أن ينتظرنَ بعد الطلاق ويحملن أنفسهنَّ على الصبر فلا يتزوَّجْنَ مدَّة ثلاثة أطهار أو ثلاث حَيْضات، ولا يحلُّ للمرأة كتمان ما خَلَق الله في رحمها من الحيْض أو الحَمْل؛ لِتُبْطلَ بذلك الكِتْمان حقَّ الزوْج من الرَّجعة والولد، وهُنَّ لا يفعلن ذلك، إنْ كُنَّ يُصَدِّقن بالله واليوم الآخر إيماناً قوياً مُؤثراً حاضراً في تصوُّرهنَّ، وأزواج المُطلَّقات في الطلاق الرَّجعي أوْلى برجْعَتهنَّ وَرَدِّهنَّ إليهم في حَالِ العدَّة، إنْ أراد الزَّوج بالرَّجْعة الإصلاحَ وحُسْن العشرة لا الإضْرار بهنَّ، بتطويل العدة. وللنساء حقوق على الأزواج من المهر والنفقة وحُسْن المعاشرة، مِثْلُ الذي عليهنَّ من طاعة الزوج، وحُسْن القيام على شؤون الأسرة بالوجْه الذي لا يُنكر في الشَّرع، وللرجالِ على النساء منزلةٌ ورفعة، بالقِوامة، وحُسْن الصُّحبة، والعِشرة بالمعروف، والتغاضي عن الأخطاء والهفوات. وهذه الدرجة التي جعلها الله، تجعل له حقوقاً، وتجعل عليه واجبات أكثر. واللَّهُ سبحانه قويٌّ غالب لا يمتنع عليه شيء، حكيمٌ في جميع أفعاله وأحكامه، يضع كل شيء في موضعه المناسب.

٢٢٩ ـ إنَّ عدد الطلاق الذي لكم فيه رَجْعةٌ على أزواجكم إذا كُنَّ مدخولاً بهنّ: تطليقتان، وإذا راجعها بعد التطليقة الثانية، فعليه أن يُمْسكها بالمعروف بحُسْن الصُّحبة وأداء حقوق النكاح، أو يتركها بعد الطلاق فلا يُراجعها حتى تنقضيَ عدتها من غير مضارَّة. ولا يحلُّ لكم ـ أيُّها الأزواج ـ أن تأخذوا ممَّا أعطيتموهنَّ شيئاً من مهرٍ أو غيره، إلا أن يعلم الزوجان من أنفسهما أن لا يقيما بينهما ما تُقتضيه الزوجيَّة من حقوق والتزامات ماديَّة وأدبيَّة، على الوجْه المشروع، فإن خشيتُم ـ أيها الأولياء ـ أن لا يقيما ما أوجب الله على كلٍّ واحدٍ من الزوجين من حُسْن الصحبة والمعاشرة بالمعروف، فلا حرج على المرأة فيما أعطت للزوج من المال، ولا على الزوج فيما أخذ من المال إذا أعطته المرأة طائعة راضية، مقابل طلاقها. هذه الأحكام المتعلّقة بالطلاق والرجعة والخُلع أوامر الله ونواهيه، فلا تُجاوزوها، ومَنْ يُجاوزها ويمسُّ منطقة الحرام، فأولئك هم الظالمون أنفسهم بتعريضها لعذاب الله تعالى.

٢٣٠ ـ فإن طلَّق الرجلُ زوجته الطلقة الثالثة، بعد الطلقتين اللتين له الرجعة فيهما أثناء العدة، أو بعقد زواج بعد انتهائهما، فلا تَحِلُّ له رجعتها بعد الثلاث حتى تتزوَّج زوجاً آخر غير المطلِّقْ ويُجامِعُهَا فيه، ويكون الزواج عن رغبة لا بنيَّة تحليل المرأة لزوجها الأول، فإنْ طلَّقها الزوج الثاني بعد وَطْئها أو مات عنها، وانقضت عدَّتها، فلا إثْمَ على المرأةِ المطلَّقة والزوج الأول أن يرجعا إلى حياتهما الزوجيَّة السابقة بعقد جديد، ومهر جديد، إن ظنّا ظنّاً راجحاً مقبولاً أن يُقيما أحكامَ الله التي شرعها للزوجين في حياتهما الزوجيَّة الجديدة. والظنون الراجحة يصحُّ الاعتماد عليها عقلاً وشرعاً، في الحكم والقضاء، واستنْباط الأحكام، وتسْيير أعمال الحياة، لأنه لا سبيل إلى اليقين التامِّ في كل مسألة، وتلك أحكام الله المُحدَّدة المُتعلِّقة بأحكام المُعاشَرة الزوجيَّة، وواجبات كلٍّ من الزوجين نحو الآخر، يُبيِّنها الله سبحانه لقومٍ يعلمون ما أمرهم به ونهاهم عنه، وينتفعون بعلمهم، فيعملون بأوامره، وينتهون عن نواهيه.

وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ
سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا وَمَن يَفْعَلْ
ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَاذْكُرُوا
نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ
يَعِظُكُم بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾
وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ
أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ
مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ
يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ
حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ
وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ
وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ
فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ
أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّا
آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾

٢٣١ - وإذا طلقتم النساء طلاقاً رجعياً مرَّةً أو مرَّتين، فَقَارَبْنَ انقضاء عدتهنَّ، وشارفت العلاقة الزوجيَّة على الانقطاع التام، فراجعوهُنَّ بنيَّة القيام بحقوقهنَّ على الوجه المُسْتَحسَن شرعاً وعرفاً، وذلك بأن تُشهدوا على رجعتهنَّ، وتراجعوهنَّ بالقول لا بالوطء، أو اتركوهنَّ حتى تنقضيَ عدتهنَّ فيملكن أنفسهنَّ من غير مشاحنة ولا مُعاندة ولا إيذاء، والتسريحُ بالمعروف يقتضي أن يؤدِّي لها كلَّ حقوقها، وأن يعاونها إن كانت في حاجة إلى معاونته، وألا يذكرها إلاّ بخير. ولا تقصدوا باستئناف الحياة الزوجيَّة الضِّرر والأذى بأن تكون أسباب النُّفرة قائمة مُستحكمة، أو أن يكون إمساك الزوجة مكايدةً ومبالغةً في الظلم؛ لتكون عاقبة الرجعة الاعتداء والظلم بمجاوزتكم في أمورهنَّ حدود الله التي بيَّنها لكم. ومَنْ يُرجع مُطلَّقته إضراراً فقد ظلم نفسه ظلماً مُؤكَّداً بمخالفة أمر الله وتعريضها لعذابه، ولأنَّه جَعَل البيت الذي هو مَثَابة الراحة والقرار، مكان نكد واضطراب، يستبدل فيه المودَّة بالبغضاء. ولا تتَّخذوا ما بيَّن الله لكم من حلاله وحرامه في وحيه وتنزيله سُخرية بالتهاون في المحافظة عليها، واذكروا نعمةَ الله عليكم بالإيمان والإسلام وتفصيل الأحكام، واذكروا ما أنزله عليكم - فيما بلَّغه الرسول ﷺ - من القرآن والسنة، واشكروا له على هذه النعم الجليلة، ينصحكم الله بالكتاب الذي أنزله على نبيِّه ﷺ نصحاً مقروناً بما يثير الرَّغبة والرَّهبة في النفس، للانتفاع بالنصح، واتِّباع ما هدى الله إليه، واجْعَلوا بينكم وبين غضب الله سبحانه وعذابه وقاية، وذلك باتِّباع أوامره واجتناب نواهيه، واعلموا أنَّ الله تعالى يعلم ما أخفيتم من طاعةٍ ومعصيةٍ في سرٍّ وعَلَن، لا يَخفى عليه شيءٌ من ذلك، وسيُجازي كلاً بما يستحق.

٢٣٢ - وإذا طلَّقتم نساءكم طلاقاً رجعياً دون الثلاث، وانقضت عِدَّتهنَّ من غير مراجعةٍ لهنَّ، فلا تُضيِّقوا - أيُّها الأولياء - على المُطلَّقات فتمنعوهُنَّ من مراجعة الذين كانوا أزواجهنَّ سابقاً بنكاح جديد، إذا رضيَ كلٌّ منهما بالآخر، بما وافق الشرع من عقدٍ حلالٍ ومهر جائز، ذلك النهيُ عن المنع والتضييق يُنصح به نصحاً مقروناً بما يثير الرغبة والرهبة في النفس، من كان منكم يؤمن بتجدد واستمرار بالله واليوم الآخر إيماناً صحيحاً صادقاً، فهو الذي ينتفع بالنُّصح دون غيره، ويتَّبع ما هدى الله إليه.

إنَّ تَركَ التضييق عليهن، وتمكينَ الأزواج من نكاح زوجاتِهم أكثر نماءً لكم بما يهب لكم من بركات الخير، وأطهر لقلوبكم ونفوسكم وأعمالكم، والله يعلمُ ما فيه صلاحكم وسعادتكم، وأنتم لا تعلمون ذلك، بسبب قصوركم وعجزكم وتغلُّب الأهواء عليكم.

٢٣٣ - والأمهات - سواءٌ أكنَّ أزواجاً لآباء الأولاد، أم كنَّ مُطلَّقات منهنَّ - يُرضِعنَ أولادهُنَّ في حكم الله الذي نَدَب إليه أربعةً وعشرين شهراً لِمَن أراد إتمام الرَّضاعة، فليس من شأن الوالدات ذوات الحنان والشفقة على أطفالهنَّ، وهُنَّ مؤمنات بربِّهنَّ أن يتركنَ إرضاع أولادهنَّ دون ضرورة أو حاجة شديدة، وعلى الآباء الذين يُنسب الولد إليهم أن يكفُلوا للمرضعات المُطلَّقات طعامهنَّ ولباسهنَّ، على الوجه المُسْتحسن شرعاً وعرفاً، من غير إسراف ولا تقتير، لا يُكلَّف أبو الولد في الإنفاق عليه وعلى أمِّه إلا قَدر ما تتَّسع به مقدرته، مع بقاء فضل من جهده، بحيث لا يستغرق أقصى قدرته. لا يُنْزَع الولد من أمِّه بعد أن رضيَت بإرضاعه ولا يُدفع إلى غيرها، ولا يُكرهها عليه إذا أبتْه، ولا يمنعها شيئاً ممَّا وَجَبَ لها عليه، وكذلك لا تُلقي المرأة الولدَ إلى أبيه وقد ألفها، تضارُّه بذلك، ولا تطلب منه ما ليس حقاً لها، ولا تشغل قلبه بالتفريط في شأن الولد، ويجب على وارث أبي الولد إذا مات مثل ما كان يجب على الوالد قبل موته من النفقة والكسوة.

فإنْ أراد الوالدان فطامَ الولد قبل انتهاء السنتين على اتِّفاق منهما، وإرادةٍ حُرَّةٍ صريحةٍ واضحة، صادرة عن تَرَاضٍ صحيح ليس فيه شائبة إكراه، وعن تداولٍ في الرأي بينهما، أو مع أهل الخبرة؛ ليصلا إلى ما فيه مصلحة المولود، من حيثُ قوَّتُه وقدرتُه على الاستغناء عن لبن الأم، وسلامة جسمه ونموِّه، فلا حَرَج ولا إثم على الوالدَيْن في الفطام قبل الحَوْلَيْن إذا لم يضُرَّ بالولد.

وإنْ أردتم أن تسترضعوا لأولادكم مراضع غير أمهاتهم إذا أَبَتْ أمَّهاتُهم إرضاعَهم وتعذَّر ذلك، فلا إثمَ عليكم إذا سلَّمتم إلى المراضع ما آتيتم لهُنَّ من أجرة الرضاع بالإحسان والإجمال من غير مُمَانعة ولا مُماكسة، بل بالمعروف الذي لا يستنكره الناس، وتقرُّه العقول والأخلاق القويمة. وخافوا الله فيما فرضَ عليكم من الحقوق، وفيما أوجب عليكم لأولادكم، واعلموا أنَّ الله لا يخفى عليه خافية من جميع أعمالكم سرِّها وعلانيتها؛ فإنه تعالى يراها ويعلمها، وسيُجازيكم على ذلك.

وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَن تَقُولُوا قَوْلًا مَّعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾ لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾

٢٣٤ ـ والذين يموتون منكم ـ يا معشر الأزواج ـ ويتركون زوجاتٍ بعدهم، ينتظرنَ بأنفسهنَّ في العدَّة مدَّة أربعة أشهر قمريَّة وعشر ليال من وفاة الزوج، لا يخرجْنَ من منزل الزوجيَّة، ولا يتزيَّنَّ، ولا يتزوَّجن، فإذا انقضت عدتهنَّ المذكورة فلا إثم عليكم ـ أيُّها الأولياء ـ فيما فعلن في أنفسهنَّ ممّا كان مُحرَّماً عليهنَّ أثناء العدّة بالوجه الذي يعرفه الشرع ولا ينكره، وتُقرُّه العقول، وتُدركه الأفهام، وتعرفه أهل المدارك السليمة، كالتزيُّن، والتطيُّب، والنُّقلة من المسكن الذي كانت مُعتدَّة فيه، ونكاح مَنْ يجوز لها نكاحه، والله تعالى خبيرٌ بأعمالكم، على سبيل الحضور والشهود المُصَاحِبِ لكلِّ أجزاء العمل، ظواهره وبواطنه، لا يخفى عليه خافية.

وعدَّة الوفاة أربعة أشهر قمريَّة وعشر ليال بأيامها خاصَّة بغير الحوامل، أما عدَّة الحامل فتكون بوضع الحمل، عملاً بآية الحمل ﴿وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ٤] وتشمل حال الوفاة والطلاق كما هو مذهب جمهور الفقهاء.

٢٣٥ ـ ولا حَرَجَ عليكم ـ أيُّها الرجال ـ فيما لوَّحتم وأشرتم به من طلب النِّكاح والتماسه من النساء المعتدّات في عدتهنَّ من غير تصريح، ولا إثم عليكم أيضاً فيما أضْمَرتُم في أنفسكم من الرَّغبة في نكاحهنَّ بعد انتهاء عدتهنَّ، عَلِمَ الله أنَّكم ستذكرون النساء المُعتدَّات بقلوبكم؛ لأنَّ الخواطر والأماني لا يمكن دفعها، ولكن لا تُواعدوهُنَّ وعداً سريّاً؛ ولا تندفعوا وراء رغباتكم فتلتقوا بهنَّ سراً، وتقولوا لهنَّ ما تستحيون من قوله جهراً، لكنَّ المباح لكم أن تقولوا لهم قولاً معروفاً لا تستنكره العقول، وتقرُّه الأخلاق، ولا يقبح إعلانه، وذلك بالتعريض بالخطبة، ولا تُحقِّقوا العَزْم على عَقْد عُقدة النكاح في زمن العدّة حتى تنقضي مدَّتها، واعلموا أنَّ الله يعلمُ ما في خلجات قلوبكم وخطرات نفوسكم فخافوه، واعلموا أنَّ الله كثير السَّتر لِمَنْ تاب من ذنوبه، حليم لا يُعجِّل بالعقوبة على مَنْ جاهَرَ بالمعصية، بل يَسْتُر عليه. وفي الآية مشروعية الخطبة، وإباحة التعريض بها في العِدَّة، وتحريم التصريح فيها، وتحريم العقد في العِدَّة.

٢٣٦ ـ لا تَبِعةَ عليكم ـ أيُّها الأزواج ـ من مهر إذا طلقتُم النساء بعد العقد عليهنَّ، وقبل أن تجامعوهنَّ، أو تقدِّروا لهنَّ مهراً محدَّداً، وأعطوهنَّ من مالكم ما يتمتَّعنَ بهِ جبْراً لهنَّ، ودَفْعاً لوحشة الطلاق، وإزالةً للأحقاد. وهذه المتعة تجب بحسب حال الرجل المطلِّق: على الغنيِّ قدر إمكانه وسَعَة رزقه، وعلى الفقير الضَيِّق الحال قدْر ما يملكه، متِّعوهنَّ تمتيعاً على الوجه المُسْتحسن المعروف شرعاً وعرفاً، من غير ظلم ولا حَيْف، وذلك التمتُّع حقٌ واجبٌ ثابتٌ على المُحسنين إلى أنفسهم بطاعة الله، والذين يُحسنون إلى النساء المُطلَّقات.

٢٣٧ ـ وإنْ طلَّقتم النساء بعد العقد عليهنَّ، من قبل أن تجامعوهنَّ، وقد سمَّيْتُم لهُنَّ مهراً مُحدّداً، ألزمتم أنفسكم به، فيجب عليكم أن تعطوهنَّ نصف المهر المُسمَّى، ولا متعة لهنّ، إلا أن تترك المرأة نصيبَها من الصَّداق، وتتنازل عن حقِّها، فتترك نصف المهر المستحقّ لها، فَتَهَبُه للزوج، فيعود جميع الصَّداق إلى الزوج، أو يعفوَ الزوج، ويترك حقَّه في النصف الثاني من المَهر، فيُعطي المرأة الصَّداق كاملاً، وعفوُ بعضكم على بعض ـ أيُّها الرجال والنساء ـ أقرب إلى حصول التقوى، ولا تنسوا الفضل بينكم، باتِّخاذ الوسائل المُذكِّرة، وطرد عوامل النسيان عن الفكر، وإنَّ ما فضَّل الله به الرجال على النساء يقتضي من الرجال أن يتنازلوا عن حقِّهم، فلا يُطالبوا بنصف المهر الذي بذلوه لمُطلَّقاتهم قبل الدخول بهنَّ، بل يُعطوا المهر كاملاً، وليتفضَّل بعضكم على بعض، لتبقى العلاقات الأسريَّة قائمةً على الإحسان ومكارم الأخلاق، ولا يبقى في القلوب أحقادٌ؛ إنَّ الله بما تعملون من عَفْوِ بعضكم لبعض بما وَجَبَ عليه من حقٍّ بصيرٌ، لا يخفى عليه شيءٌ من ذلك، فيُجازي المحسنين على إحسانهم، وأصحاب الفضل على فضلهم.

حَـٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَـٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِى مَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾ وَلِلْمُطَلَّقَـٰتِ مَتَـٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ وَقَـٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَـٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾

٢٣٨ - دَاوِموا على الصَّلوات الخَمْسِ المكتوبات بجميع شروطها وحدودِها وإتمام أركانها، وفعلها في أوقاتها المُختصَّة بها، وحافظوا على الصَّلاة الفُضْلى بين الصَّلوات، وهي صلاة العصر، وقوموا في صلاتكم مطيعين لله، خاشعين خاضعين. والصلاةُ الوسْطى - وهي في أظهر الأقوال صلاةُ العصر أو الفجر - داخلة في عموم لفظ «الصلوات»، لكن خُصَّت بالذكر، وعُطِفت على عموم الصَّلوات اهتماماً بشأنها، وتوجيهاً لتخصيصها بعناية فائقة خاصة.

٢٣٩ - فإنْ خفتم من عدوٍّ أو حيوانٍ مفترس، ولم يُمكنكم أن تُصلُّوا قانتين موفين حقوقَ الصلاة، فصلُّوا مُشاةً على أرجلكم، أو ركباناً على دوابكم وغيرها من وسائل السفر، مُستقبلي القِبلة وغير مستقبليها، فإذا زالت أسباب الخوف، فصلُّوا للّهِ الصَّلوات الخمس تامَّةً بأركانها وسُننها، واذكروا الله فيها، واشكروا له، كما أنعم الله تعالى عليكم بالعلم والهداية، ولولا هدايته وتعليمه إيَّاكم لم تعلموا شيئاً، فله الحمد على ذلك.

٢٤٠ - والذين يموتون منكم - يا معشر الرجال - ويتركون زوجات، فَلْيُوصوا وصيَّةً لأزواجهم قبل أن يُحتَضروا بأن تُمتَّع أزواجهم بعدهم، سنة تامة بالنفقة عليهنَّ من تركتهم، ولا يُخرَجْنَ من مَسْكنهنَّ الذي كُنَّ يَسْكُنَّ فيه في حياة أزواجهنَّ، فإن خَرجت الزوجات مختارات راضيات راغبات غير مُخْرَجات قبل انْقضاءِ السنة، فلا إثْمَ عليكم - يا معشر أولياء الميت - فيما فعلنَ من أمور تتعلَّق بأنفسهنَّ بالمعروف الذي تقرُّه الشريعة، ويعرفه العقل، فإن وجدَت مصلحتها أن تنتفع بحقِّ البقاء سنةً كاملة بعد وفاة زوجها، فإنها تبقى، وإنْ رأت مصلحتها أن تأوي إلى بيت ذويها، أو عرض لها أن تتزوَّج بعد انتهاء عدتها، وهي: أربعة أشهر وعشرة أيام، فإن لها ذلك، والله قويٌّ غالبٌ في انتقامه ممَّن خالف أمره ونهيه، حكيمٌ فيما شَرَع من الشَّرائع وبيَّن من الأحكام.

٢٤١ - وللمُطلَّقات عموماً المدخول بهنَّ وغير المدخول بهنَّ انتفاعٌ ممتد الوقت من كسوة ونفقةٍ على الوجْهِ المعروفِ المُستَحسَنِ شرعاً وعقلاً، حقاً ثابتاً للمُطلَّقات على المؤمنين الذين يخافون الله في أمره ونهيه.

٢٤٢ - كما عرفتكم أحكامي والحقَّ الذي يجب لبعضكم على بعض في هذه الآيات، كذلك أُبيِّن لكم سائر أحكامي في آياتي التي أنزلتها على محمد ﷺ في هذا الكتاب؛ رغبة أن تعقلوا عقلاً علمياً ما بيَّنتُ لكم من الفرائض والأحكام، وما فيه صَلاحكم وصلاح دينكم، وتعقلوا عقلاً إرادياً شهواتكم وأهواء نفوسكم.

٢٤٣ - ألم تر - أيها الرائي - عن طريق العلم اليقينيِّ الخبري، المُماثل للرؤية البصرية ناظراً إلى الذين خرجوا من ديارهم، وهم ألوف مؤلَّفة، وكثرة كاثرة، وهم مُؤتلفون مجتمعون؛ والباعث على خروجهم: حذرهم من الموت، وحرصهم على الحياة مهما كان نوع الحياة، فقال لهم الله بأمره التكوينيِّ: موتوا، فماتوا عن آخرهم، ثمَّ أعادهم الله سبحانه بقدرته إلى الحياة بعد موتهم؛ ليستوفوا آجالهم، وليتّعظوا ويتوبوا، وكان في إحيائهم عبرة ودليل قاطع على أن الله تعالى قادر على إعادة الأموات بلا ريب؛ إنَّ الله تعالى مُتفضِّلٌ على كافة الخلق في الدنيا؛ لأنه خلقهم وأمدَّهم بأسباب الوجود، وأنعم عليهم بنعمه الكثيرة، ويخصُّ المُؤمنين بفضله يوم القيامة، ولكنَّ أكثر مَنْ أنعم الله عليهم لا يشكرون فضل الله عليهم، بل يكفرون ويجحدون.

٢٤٤ - وقاتلوا - أيها المؤمنون - في سبيل الله - واثبتوا ولا تهربوا من الموت كما هَرَب هؤلاء، فلم ينفعهم ذلك، واعلموا أنَّ الله سميعٌ لكلِّ أقوالكم التي تنطقون بها، سواء أكانت تلك الأقوال تدلُّ على رغبة في الجهاد وطلب للاستشهاد، أم كانت هذه الأقوال مُخذِّلة للمجاهدين الأبرار، وهو عليم بخواطركم والدوافع التي تدفعكم إلى القتال، أهي فخار ورغْبة في الدنيا، أم لتكون كلمة الله هي العليا، وسيجازي كل واحد بقوله ونيَّتِهِ، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

٢٤٥ - مَنْ ذا الذي يُقدِّم لنفسه إلى الله ما يرجو ثوابه عنده، بالإنفاق في سبيل الله؛ لإعداد العدة، وأخذ الأُهبة، مُحتسباً طيِّبة به نفسه، ولا يكون فيه رياء ولا سمعة؟ فيضاعف الله له ثوابَ ما أنفق أمثالاً كثيرة بما لا يعلمه إلا الله تعالى، فارغبوا في هذا الثواب العظيم، فأنفقوا في سبيل الله، والله يقبضُ عن بعض عباده من أرزاقهم، ويُضيِّقه عليهم، ويقبض مشاعر النفس من حواشيها حتى أعماقها حيث الفؤاد، ويَبْسط لهم الرزق ويُوسِّعه عليهم، ويبسط مشاعر المسرَّة النفسيَّة حتى عُمْقِ الأحاسيس القلبيَّة، وإلى الله - وحده - تُردُّون بالبعث بعد مماتكم؛ للحساب وفصل القضاء، وتنفيذ الجزاء، وستتركون في الدنيا كلَّ ما تجْمعون منها، فلا ينفعكم لآخرتكم إلا ما بذلتموه في سبيل الله، وابتغاء مرضاته.

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾

٢٤٦ ـ ألم تر ـ أيها الرائي ـ عن طريق العلم اليقينيّ الخبريّ، المُماثل للرؤية البصريّة ناظراً إلى أشرافِ القوم وسادتهم المقدَّمين فيهم الذين يملؤون العيون رواء ومنظراً، والنفوس بهاءً وجلالاً؛ من بني إسرائيل الذين عاشوا بعد عهد موسى عليه السلام، حين طلبوا من نبيِّهم أن يُولِّي عليهم مَلِكاً يقاتلون معه في سبيل الله، ويقودهم إلى العزّ والنصر، بعد أن وجد بنو إسرائيل من أنفسهم القدرة على مواجهة أعدائهم، بتوفُّر الشروط الكافية لتحقيق الانتصار، ضمن سنَّة الله الكونيّة المؤيِّدة ـ بمعونة الله المعتادة ـ للمؤمنين. قال لهم نبيُّهم: هل توقَّعتم إنْ فُرِضَ عليكم القتال في سبيل الله مع ذلك المَلِك أن لا تفوا بما قلتم، وتجبنوا عن القتال معه كما أتوقعه منكم؟ وهذا القول من نبيِّهم يدلُّ على أنه كان عالماً بصفاتهم، خبيراً بطبائعهم، مُطَّلعاً على تمكُّن صفات الجُبْن والتراجع، ونقض العهد، والتولِّي عن القتال، والقعود عن الواجب منهم، وهذه النقائص مُتأصِّلة في طبيعة اليهود ونفوسهم، وأخلاقهم وتصرُّفاتهم.

قالوا لنبيِّهم: وما سوَّغ لنا ألاَّ نُقاتل في سبيل الله، والحال أننا قد أخرجنا من ديارنا باستيلاء العدوِّ عليها، وأُخرجنا من أبنائنا بسبْيهم وفصلهم عنا، وجَعْل قوّتهم لأعدائنا، وليست لنا، فبواعث القتال قد توافرت، فحقَّ علينا أن نقاتل.

فسأل الله تعالى ذلكَ النبيُّ، فبعث لهم مَلِكاً، وفُرِضَ عليهم القتال، فلما فُرض جَبُنوا عن الجهاد، وضيَّعوا أمر الله إلا قليلاً منهم لم يتولَّوا عن الجهاد، وثبتوا بفضل الله، والله عليم بالظالمين أنفسهم بمعصيته، المتولِّين عن تنفيذ أمره.

٢٤٧ ـ وقال لهم نبيُّهم: إنَّ الله سبحانه قد أرسلَ لكم «طَالُوتَ» من سبط «بنيامين»، وجعله مَلِكاً عليكم، وفي مصلحتكم، واختاره من صفوفكم، يقودكم لقتال عدوِّكم.

قال كبراء بني إسرائيل: من أين يكون له الملكُ وكيف يستحقُّه؟ لأنَّه ليس من سِبْط الملوك، ولا من بيت النبوَّة، ولم يُعط كثرة في الأموال ليستعين بها في ملكه، فنحن أحقُّ بالملك منه؛ لأننا من سِبْط الملوك وبيت النبوَّة.

تمرَّد بنو إسرائيل على نبيِّهم، واعترضوا عليه بعد أن فوَّضوا الأمر إليه، فناقضوا أنفسهم، وبنوا الاعتراض على أسباب جعلوها مناط الملك، وليست هي السبب للرئاسة الصالحة، فظنُّوا أنَّ سبب الملك أحد أمرين: إما ثروة طائلة، وإما سلالة ملكيَّة متوارثة، وكذلك يكون تفكير الجماعات التي سيطرت عليها الأهواء، وغُلبت على أمرها، تتَّجه إلى الماديَّات فتُحكِّمها، وتفقد تقدير المعنويَّات، وبذلك تختل مقاييس التقدير والاختيار للأعمال والمناصب.

قال لهم نبيُّهم: إنَّ الله اختاره عليكم، وخصَّه بالملك دونكم، وزاده فضيلة وسَعَة في العلم، وقوة في الجسم، واللَّهُ تعالى لا اعتراض لأحدٍ عليه في فعله، فيخصُّ بملكه مَنْ يشاء من عباده، فإنكم إن طعنتم في طالوت بكونه فقيراً، فاللَّهُ واسع الفَضل والرزق، وسعَ كلَّ شيءٍ برحمته وقدرته، فإذا فوَّض إليه الملك فَتَحَ عليه أبواب الرزق والمال من فَضْله وسَعَتِهِ، والله تعالى مع قدرته على إغنائِهِ عالمٌ بما يحتاج إليه في تدبير نفسه وملكه، لا يخفى عليه شيء.

٢٤٨ ـ خضع بنو إسرائيل لقول نبيِّهم، ولحكم الله باختيار «طالوت» متولياً لقيادتهم، ولكنه خضوع القلق المُضْطرب الذي لم يُصب السكون قلبه، فسألوا عن دليلٍ ربَّانيٍّ يدلُّهم على أنَّ الله ملَّكه عليهم، فقال لهم نبيُّهم: إنَّ علامة ملكه التي تدلُّ على أنَّ الله اختاره ملكاً عليكم، أن يأتيكم الصندوق الذي فيه التوراة ـ وكان أعداؤهم قد انتزعوه منهم ـ فيه طمأنينةٌ من ربكم تَرَوْن في عودته بشرى بالسُّلطان والعزَّة والتمكين، وفيه أيضاً بعض الأشياء المتوارثة ممَّا ترك آل موسى وآل هارون، مثل العصا وشيء من ألواح التوراة، هي سبب عزكم وتيمُّنكم، والصِّلة بين حاضركم وماضيكم، تأتيكم به الملائكة حاملين له، إنَّ في مجيء التابوت تحمله الملائكة علامة ودلالة على صدقي فيما أخبرتكم: أنَّ الله قد بعث لكم «طالوت» ملكاً؛ إن كنتم مُصدِّقين بذلك.

وأعطاهم نبيُّهم موعداً لمجيء التابوت تحمله الملائكة، فخرجوا لاستقباله، فلما وجدوا «تابوت العهد» قد جيءَ به حسب الموعد، أذعنوا لملك «طالوت»، فكان أوَّل ملوك بني إسرائيل.

فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ۚ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ۚ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾

٢٤٩ ـ فلمَّا خرج «طالوت» بجنوده من بيت المقدس لقتال العمالقة، رأى أنَّ أكثرهم ليسوا مُستعدِّين للقتال حقاً، وأن وجود هؤلاء في جيشه مُثبِّط لهم، وربَّما يُسبِّبُ الهزيمة لكلِّ الجيش إذا انهزموا أو اضطربوا، فأراد أن يختبرهم ويصطفي منهم من يمكن أن يصدق في القتال حقاً، إذا حصلت المواجهة القتاليَّة بينهم وبين جالوت الجبار، وجنودِهِ الأشدّاء، فما أن اتَّجه بهم شطر عدوِّهم، ومضى بهم في الطريق، حتى علم أنهم قد اشتدَّ بهم الظمأ، فقال طالوت لهم: إنَّ الله مُختبركم ـ وهو أعلم بأمركم ـ بنهر أمامكم تعبرونه؛ ليتميَّز المؤمن من المنافق، فمن شرب منكم من ماء النهر فليس من جنودي، ولن يقاتل معي، فالذي لا يصبر على العطش لا يصبر في أرض المعركة، ولا يثبت في وجه العدو، ومن لم يذق الماء فإنَّه من جنودي، وسيقاتل معي، إلا من ترخَّص واغترف غُرْفةً واحدةً بيده، يبلُّ بها عطشه، وينقع غلته، ويدفع حاجته العاجلة إلى الماء، فلا لَوْم عليه، فسقط أكثرهم في هذا الامتحان الذي هو أقلُّ من مواجهة العدوِّ بالقتال، ولم يطيعوا قائدهم الحكيم، فشربوا من النهر إلاَّ عَدَداً قليلاً منهم صبروا على العطش والحر، واكتفوا بغُرفة اليد، وهم ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً، فلم يأخذ معه إلى الحرب إلاَّ الذين نجحوا في هذا الامتحان، وكانوا بالنسبة إلى عدوِّهم عدداً قليلاً.

فلمَّا جاوز «طالوت» النهر مع القليل الذين آمنوا معه، وصبروا على العطش والتعب، ولم ينالوا من الماء إلا ما يدفع العطش المميت، قال فريقٌ منهم لمَّا رأوا العدوَّ وكثرته، وجبنوا عن مواجهته خوفاً من الموت: لا قدرة لنا اليوم بجالوت قائد جيش العدو وجنودِهِ، ولو بتحمُّل أقصى المشقَّة، فأجابهم إخوانهم الذين دفعوا بأنفسهم إلى أوائل الصفوف، وكانوا عُرضة للقتل، يظنّون أن مناياهم قد اقتربت عن طريق الشهادة، فهم ملاقو ربِّهم وشيكاً، وهم مُتشوّقون إلى هذا اللقاء، ومُتحمِّسون له، فقالوا لإخوانهم مطمئنين: كم من جماعةٍ قليلةٍ مؤمنة صابرة، متعاونة مُتساندة، يفيء بعضها إلى بعض، غَلَبت جماعةً كثيرةً كافرة باغية بقضاءِ اللهِ وإرادته؟ واللَّهُ مع الصَّابرين بالنصر والمعونة.

لقد تمَّت تصفية بني إسرائيل الذين خرجوا مع طالوت ثلاث مرات: فقد سقط كثير من الجنود في المرحلة الأولى، وضعفوا أمام الامتحان الأول، وشربوا من النهر، وهذا القليل لم يثبت إلى النهاية، فأمام كثرة الأعداء وقوتهم، تهاوت العزائم، وزلزلت القلوب، وأمام هذا التخاذل ثبتت القلة القليلة المختارة واعتصمت بالله، فخلاصة خلاصة الخلاصة، هم الذين صدقوا الله في الجهاد، فصدقهم الله وعده، وأنزل عليهم نصره.

٢٥٠ ـ ولمَّا ظهر طالوت وجنوده المؤمنون لجالوت وجنودِهِ الكافرين، قالوا: ربنا اصْبُب علينا صبراً، يعمُّ ظاهرنا، ويتسرَّب إلى باطننا، فيُلقي في القلوب برداً وسلاماً، وأمناً وطمأنينة، وقوِّ قلوبَنا؛ لتثبُت أقدامنا، وانصرنا بعونك وتأييدك على القوم الكافرين.

٢٥١ ـ فاستجاب الله دعاءَ المؤمنين ونصرهم على القوم الكافرين، فكسروهم وردُّوهم بقضاء الله وإرادته، وقتل «داود» ـ عليه السلام ـ «جالوتَ» قائدَ الجبابرة، الذي كان يفرض أهواءه وشهواته عليهم، فيجعل منهم جنداً طائعين له، يسيرون مع رغبته، فليست لهم إرادة غير إرادته، ولا روح جماعيَّة تجعل لهم كياناً مستقلاً، بل الطاغية «جالوت» هو المُسلَّط عليهم، فلما قتل داود عليه السلام ذلك الطاغية، تفرَّق الجمع، وكان ظهور «داود» من وسط الجيش المجاهد، في ميدان المعركة، وترقّى في طريق القيادة والملك والحكمة، وأعطاه اللَّهُ عزَّ وجل الملكَ والتدبير المُحكم على وَفْق العلم، والعقل المدرك النافذ البصير الذي يرى بواطن الأمور، ويتغلغل في أعماقها، ويضع الأمور في مواضعها، وعلَّمَه ما يشاء من الزبور، والصوت الطيِّب، ومنطق الطير، وصنعة الدروع، وسياسة الملك وضبطه، ومعرفة أحوال الناس، ومنازع النفوس، وأحوال البلدان، ولولا أنَّ الله يدفع بأهل الإيمان والطاعة أهلَ الكفر والمعصية، ويُسلِّط الكفار بعضهم على بعض، لسَادَ الباطل، وتمادى الطغاة في طغيانهم، وفشى الظلم والاستبداد والانحلال الخلقي، وصنوف الانحراف في الأرض، ولكنَّ الله جعل من سُنَّته تدافع الخير والشر، الذي ينتهي بغلبة الخير والقضاء على الشر، والله يمنُّ على عباده بأن جعل من سنته أن يُوجَد في الأرض أهل إيمان وصلاح وحقٍّ يدفع بهم أهلَ الباطل، فيزهق الباطل، وينتصر الحق، وينحسر الفساد.

٢٥٢ ـ تلك القصص التي قصَّها الله سبحانه: من حديث الألوف وإماتتهم وإحيائهم، وتمليك «طالوت» وإظهاره، وإهلاك الجبابرة على يد داود عليه السلام، نقرؤها عليك متتابعة مُفسَّرة واضحة، تَتَابع فيها الألفاظ، وتتَّصل فيها المعاني باليقين الثابت المطابق للواقع الذي لا يشك فيه أهل الكتاب لأنه في كتبهم، وإنَّك تُخبر بهذهِ الأخبار العجيبة والقصص القديمة من غير أن تُعرف بقراءة كتاب ولا سماع أخبار، فدلَّ ذلك على أنَّك من المرسلين، وأن ما تُخبِر به وحيٌ من الله عزَّ وجل، وأنَّ إرسالك من قبل ربِّ العالمين أمر ثابت معروف عند أهل العلم، فلم تكن رسالتك بدعاً، ولا أمراً غير مألوف أو معروف، فلا يُماري في رسالتك إلا جهول أو جحود.



﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَٰكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٥٤﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾

٢٥٣ ـ جماعةُ الرُّسُل الذين تقدَّم ذكرهم في هذه السُّورة، وإن كانوا جميعاً مبعوثين من ربِّ العالمين، ليسوا بدرجة واحدة، فقد فضَّلَ الله بعضهم على بعض، ومن الرسل مَنْ كلَّمهُ الله، وهو موسى عليه السلام، ورفع الله بَعضهم دَرَجاتٍ، بالمنزلة الرفيعة السامية، وكبير التفاوت بينه وبين غيره، وهو محمدٌ ﷺ؛ لعموم رسالته، وخَتْم النبوَّة به، وتفضيلِهِ بالآيات البيِّنات والمعجزات الباهرات، وأعطينا عيسى ابن مريم الحُجَجَ والأدلة الباهرة والمعجزات الظاهرة على نبوَّته، كإبْراء الأكْمَه والأبرص، وإحياء الموتى، وقوَّيناه بالرُّوح المُقدَّس المُطهَّر جبريل عليه السلام، يحفظه ويصونه من خصومه وأعدائه الذين يتربَّصون به الدوائر، من رومان ووثنيين ويهود؛ وقد أنقذه منهم لما بسطوا أيديهم لقتله، ورفعه إليه سبحانه. ولو أراد الله لَسَلَب الناس إراداتهم الحُرَّة، فجعلهم مَجْبورين على طاعته غير مُخيَّرين، على طبيعة الملائكة عليهم السلام، لا يتنازعون ولا يتقاتلون، وبما أنَّ الله سبحانه جعلهم ذوي إرادات حرة، فإنهم لا يزالون مختلفين، ومن مظاهر اختلافهم: الاقتتال الذي وقع بين الأتباع الذين جاؤوا من بعد هؤلاء الرسل، من بعدما جاءتهم الدلالات الواضحات من الله، ولكن أراد الله أن يضعهم موضع الامتحان، ومنحهم إرادات حُرَّة، ونتيجة لامتحانهم اختلفوا، بعد تبيُّن الحق، ووضوح معالمه، فمنهم مَن ثَبَت على إيمانه بالله ورسوله بفضل الله، ومنهم من تعمَّد الكفرَ وجَحد وعانَدَ بعد قيام الحُجَّة وبعثةِ الرسل، ولو أراد الله أن يحجزَهم عن الاقتتال والاختلاف لَحَجَزَهُم عن ذلك؛ لأنَّ مشيئته نافذة لا محالة، وكلُّ ما يريده الله يفعله، لا اعتراض عليه في مُلكه وفعله.

٢٥٤ ـ يا أيُّها الذين صدَّقوا الله واتَّبعوا رسوله: أدُّوا الزكاة الواجبةَ وصدقةَ التطوُّع، من بعض ما أعطاكم الله، وقدِّموا لأنفسكم اليوم من أموالكم من قبل أن يأتيَ يومٌ لا تجارة فيه ليكسبَ الإنسان ما يفتدي به من العذاب، ولا مودَّة تنفع، ولا شفاعة لأحد إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى، فلا تتَّكلوا على غيركم، وأدُّوا ما كلَّفكم به ربكم، واحذروا أن تظلموا أنفسكم بمعصيته، والكافرون هم الظالمون؛ لأنهم وضعوا العبادة في غير موضعها، فلا تكونوا مثلهم، تَجْحَدون فَضْله عليكم، وتستعملون نعمته في غير ما كلَّفكم به. وهذا النداء الإلهي هو النداء السابع للمؤمنين في هذه السورة.

٢٥٥ ـ اللَّهُ الذي لا يستحقُّ الإلهيَّة إلا هو، ذو الحياة الكاملة، الباقي على الأبد، الدائم بلا زوال، القائم بنفسه الذي لا يحتاج إلى شيء، والمقيم لغيره، إذ هو القائم بتدبير خلقه في إيجادهم وأرزاقهم وجميع ما يحتاجون إليه، لا يأخذه سبحانه نعاس يتقدَّم النوم، فضلاً عن أن يأخذه نوم مُزيلٌ للقوَّة والعلم؛ لأنه سبحانه مُنزَّه عن النقائص والآفات والتغيُّر، وهو مالك السموات والأرض بغير شريكٍ ولا مُنازع، ومن كمال سلطانه، وشمول إرادته أنه لا يشفع عنده أحدٌ إلا بأمره وإرادته، كشفاعة الأنبياء، والملائكة، والمؤمنين بعضهم لبعض. وهو سبحانه يعلم كلَّ ما قدَّم عباده في الدنيا من اعتقادات ونيَّات وأعمال ظاهرةٍ وباطنة، ويعلم سبحانه كلَّ ما سيأتي في مستقبل أمرهم يوم الدين، فهو الذي يكون خلفهم؛ لأنهم يجهلونه، لا يخفى عليه شيءٌ مِن أحوال جميع خلقه، ولا أحد يحيط بمعلومات الله تعالى علم إحاطة واستغراق إلا ما أطلع الله عليه الأنبياء والرسل ليكون دليلاً على نبوَّتهم، وَسِعَ كرسيُّه السموات والأرض، والكرسيُّ مخلوقٌ عظيم بين يدي العرش، وهو أعظم من السَّموات والأرض، نفوِّض علم حقيقته إليه تعالى، ولا يُثقله سبحانه ولا يشقُّ عليه حفظ السَّموات والأرض، وكلاءتُهما؛ لأن ذاته مُنزَّهة عن التعب، فكلُّ شيء في الكون في حفظ الله وحياطته، فالسماء بأفلاكها وطبقاتها وكواكبها، والأرض وما عليها ومَنْ عليها، وما فيها ظاهراً وباطناً، كل ذلك يسير على نظام مُحكَم محفوظ خاضع لقوانينه التي سنَّها في خلقه، وهو المتعالي عن الأشباه والأنداد والأمثال الذي ليس فوقه شيءٌ، ذو العظمة والكبرياء الذي لا شيء أعظم منه. وهذه الآية أعظم آية في القرآن، وتُسمَّى: آية الكرسي.

٢٥٦ ـ ليس في دين الإسلام ـ وهو عَقْدٌ في القلب وإذعانٌ في النفس ـ إكراهٌ وإجبارٌ، بل مَبْناه على التَّصديق الإراديِّ والاختيار، فالقلوب التي هي مراكز الإيمان لا يمكن إكراهها إلا بالجَبْر الربّاني الذي يسلبها معه حريّة إرادتها، وهذا مناقضٌ لوضعها موضع الامتحان، والوسائل الإكراهيَّة التي يملكها الناس تصنعُ منافقين، لا مؤمنين، والمنافقون أسوأ حالاً من الكافرين الصُّرحاء. قد ظهر وتميَّز الحقُّ من الباطل، والإيمان من الكفر، والهُدى من الضلال بكثرة الآيات والبراهين الدالَّة على صحَّته، فمَنْ رأى الحق بيِّناً فقد أدرك السبيل، وعليه أن يسير فيها، وليس لأحد أن يحمله حَمْلاً، وليس على الداعي إلى الحق إلا بيان الرشد من الغي، وليس مُكلَّفاً أن يُكره الناس على الهداية، فمن يكفر بكلِّ ما عُبِدَ مِن دون الله، كالشيطان وأعوانه ودعاة الكفر ورؤساء الضلال، الذين يفتنون الناس عن دين الحق، ويُكرهونهم على اعتناق الباطل، ويُصدِّق بالله أنَّه ربُّه ومعبودُه من دونِ كلِّ شيءٍ كان يعبُدُهُ، فقد تمسَّك واعتصم بقوة وشدَّة بالعقد الوثيق المحكم، لا انقطاع له حتى يؤديه إلى الجنة، والله سميع لأقوال عباده، عليم بأفعالهم ونيَّاتهم، وَسَيُجازيهم على ذلك.

ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ أَنۡ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ إِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ أَوۡ كَٱلَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرۡيَةٖ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحۡيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٖ ثُمَّ بَعَثَهُۥۖ قَالَ كَمۡ لَبِثۡتَۖ قَالَ لَبِثۡتُ يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۖ قَالَ بَل لَّبِثۡتَ مِاْئَةَ عَامٖ فَٱنظُرۡ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمۡ يَتَسَنَّهۡۖ وَٱنظُرۡ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجۡعَلَكَ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِۖ وَٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡعِظَامِ كَيۡفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكۡسُوهَا لَحۡمٗاۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعۡلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٢٥٩﴾

٢٥٧ - اللَّهُ سبحانه ناصرُ المؤمنين ومعينُهم ومُتَولِّي أمورهم، يُخرجهم من الكفر والجهل بحقائق الإيمان ومفاهيم الإسلام وشرائعه وأحكامه إلى الإيمان والعلم بحقائق الإيمان ومفاهيم الإسلام وشرائعه وأحكامه عن طريق إراداتهم الحُرَّة، بوسائل دعوتهم إلى الحق وتعليمهم وهدايتهم وتربيتهم، والذين كفروا عن إرادة وتصميم أنصارُهم الأنداد والأوثان والجبابرة المتحكِّمون، والكبراء المضلُّون، يُخرجونهم من الإيمان والعلم بحقائق الإيمان ومفاهيم الإسلام وشرائعه وأحكامه إلى الكفر والجهل بحقائق الإيمان ومفاهيم الإسلام وشرائعه وأحكامه، عن طريق إراداتهم الحُرَّة، بوسائل دعوتهم إلى الباطل وتزيينه. أولئك الكفار البُعَداء عن رحمة الله أصحابُ النار الملازمونَ لها، المخالطون لألوان عذابها، هم فيها دائمو البقاء بقاءً أبدياً، لا يَخْرجون منها ولا يموتون؛ لأنهم صَمَّموا في الدنيا على أن يظلُّوا أبداً جاحدين لله، كافرين بصفاته، منكرين لرسالاته.

٢٥٨ - ألم تَرَ - أيها الرائي - رؤية تفكريَّة ناظراً بها نَظَرَ مُتعجِّب إلى «نمرود» ملك بابل الجبَّار المُراوغ المُغَالط الذي خاصَمَ إبراهيمَ وجادَلَه في وجود ربِّه ووحدانيَّته وقُدرته؛ لأنَّ الله آتاه نعمة المُلك والسلطان الدنيوي فطَغَى وتجبَّر بسببه، وكان الواجب عليه أن يشكر نعمة الله عليه، فيؤمن. قال نمرود لإبراهيم: مَنْ ربُّك؟ قال إبراهيم: ربي الذي يُحيي ويميت بدوام واستمرار، أي: أنه يخلق نفساً من مادةٍ لا حياة لها، فينفخ فيها الرُّوح، فتكون بخلق الله نفساً ذات حياةٍ، وهو الذي يُميت الأحياء عند انتهاء آجالهم، بنَزْع الروح من أجسادهم التي كانوا بها أحياء، فما من أحد غير الرب الخالق يستطيع أن يُوجد حياةً في مادةٍ غير حيَّة، وما من حيٍّ يستطيع أن يُحافظ على حياته بوسيلةٍ ما من الوسائل، فيمنع عنـها الموت الذي قضاه الربُّ على كل الكائنات الحيَّة. قال نمرود: أنا أُحيي وأُميت؛ أقتل مَنْ أردتُ قتله، وأستبْقي من أردتُ بقاءَهُ. واستدلَّ على ادِّعائه بأن أحضر رجلين من السجن، فقتل أحدهما، وعفا عن الآخر. ولم يشأ إبراهيم أن يدخل في جدالٍ يكشف فيه المغالطة التي صنعها النمرود، إذ جعل القتل إماتةً، والعفو لمن يستحقُّ الموت إحياءً، وهما غير مُرادَيْن في أصل دليل إبراهيم، إذ هو يريد خلق الحياة في المادة غير الحيَّة، وسَلْب هذه الحياة سَلْباً حقيقياً، لا سَلباً عن طريق اتِّخاذ الأسباب التي جعلها الله أسباباً لحدوث الموت الذي يتمُّ بخلق الله وبقدرته، وهو أمرٌ مُتَاحٌ للنمرود ولغيره. قال إبراهيم: فإنَّ الله يأتي بالشمس صباحاً من جهة الشرق، فهل تستطيع يا نمرود - إن كنت رباً - أن تغيِّر هذه السنَّة الإلهيَّة بأن تجعلها تُشرق صباحاً من المغرب بَدَل أن تبْزغ صباحاً من المشرق؟ فتحيَّر نمرود ودَهِشَ وغُلِب، وانقطعت حُجَّتُه، وعجز عن تقديم شاهدٍ عمليٍّ يُثْبت قدرته على أن يأتي بالشمس من المغرب، والله لا يُرشد الظالمين إلى حُجَّةٍ يدحضون بها حُجَجَ أهل الحق عند المُحَاجَّة والمُخاصَمَة.

٢٥٩ - أوْ هل رأيتَ - أيها الرائي - رؤية تفكريَّة ناظراً بها نَظر مُتعَجِّب إلى مَثَل الذي مرَّ على قريةٍ، وهي خالية من سكانها، مُتهدِّمة جدرانها، ساقطة حيطانها على سُقُوفِها التي سقطت، فقال ذلك المارُّ استعظاماً للأمر، وتفخيماً وتَعَجُّباً من عظمة قدرة الله تعالى: كيف يُحيي اللَّهُ هذه القرية بعد موتها؟ فأماته الله مائة عام، ثمَّ أحياه بعد موته. قال الله تعالى له لإظهار عجزه عن الإحاطة بشؤون الله تعالى وعظيم قدرته: كم قَدرُ الزمان الذي مكثتَ فيه ميِّتاً قبل أن أبعثَكَ من مَكَانِكَ حياً؟ قال ذلك المبعوث بعد مَمَاته: بقيت - بحسب تصوُّري - في نومي هذا يوماً أو بعض يوم؛ لأنني كنتُ فاقدَ الإحساس بمرور الزمن، قال الله تعالى له: بل لبثتَ مائة عام، فانْظر إلى طَعَامِكَ الذي كان معكَ قبل مَوْتك وشرابك لم تُغَيِّره السُّنون التي أتتْ عليه، ولم تصل إليه عفونة، ولم يتطرَّق إليه فساد؛ وذلك بسبب حفظ الله له، وانْظُر إلى إحياء حمارك الذي تفرَّقت أعضاؤه، وبليت عظامه، وفعلنا ما فَعَلْنا من الإماتةِ والإحياء؛ لنجعلَكَ عبرةً ودلالةً للناس على قدرة الله على البعث بعد الموت. وانظر إلى عظام الحمار البالي، المتفرِّقة أوصاله وعظامه كيف نرفعها من أماكنها من الأرض، ونردُّها إلى مكانها من الجسد، ونُركِّب بعضها على بعض، ثمَّ بعد رفعها إلى مواضعها، نسْتر العظام بعد الالتئام لحماً كما نسْتر الجسد باللباس. فلمَّا اتَّضح له اتِّضاحاً تامّاً، ورأى إعادة الحياة وشاهدها عِياناً، قال مخبراً عن نفسه: أعلمُ علماً مُستمرّاً مُتجدِّداً أنَّ الله على كلِّ شيءٍ يشاؤه عظيم القدرة، وذلك علم رؤية وعيان فوق ما كنتُ عليه من اليقين والإيمان.

وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾

٢٦٠ - وضع في ذاكرتك - أيُّها المُتلقِّي لكلام ربِّك - حين طَلَبَ إبراهيم من ربِّه أن يُرِيَه بمشاهدة حسيَّة كيفيَّة البعث؛ ليكون إيمانه الراسخ مُسْتنداً إلى عين اليقين، فيشاهد بعينيه حَدَثاً واقعياً يكون فيه إحياءٌ للموتى، قال: ربِّ أرني كيف تحيي الموتى بعد أن تتمزَّق أجسادها وتتفتَّت؛ فقال الله تعالى لإبراهيم: ألم تعلم علماً كافياً للإيمان، وألمْ تؤمن بأني أُحيي الموتى؟ قال إبراهيم: بلىٰ يا رب، قد آمنتُ وصدَّقت، وعلمتُ علماً من مرتبة علم اليقين، وأريد أن أرتقي إلى مرتبة عين اليقين؛ ليزداد إيماني، ويصل إلى الطمأنينة. قال الله تعالى: إذا كنت راغباً أن ترتقي من مرتبة علم اليقين إلى مرتبة عين اليقين فخذ أربعةً من الطير مختلفة الأنواع، فاجْمعهنَّ واضْمُمْهُنَّ إليك؛ لتتأملهنّ وتعرف أشكالهنّ وهيئاتهنّ؛ كيلا تلتبس عليك بعد الإحياء، ثم اذبحهُنَّ وقطِّعهُنَّ أجزاءً واخلط لحمهنَّ وريشهنَّ، واجعَل جُزءاً على كلِّ جبلٍ من تلك الأشلاء المتقطعة، ثم نادِهِنَّ يأتينك مُسْرعاتٍ، كلُّ طيرٍ منها يأتيك بكامل وصفه الذي كان عليه قبل أن تذبحه وتُجزِّئه وتَخلِطَهُ مع أجزاء الطيور الأخرى، واعلم أنَّه تعالى غالبٌ قويٌّ على جميع الأشياء، لا يُعجزه شيءٌ يريدُهُ، حكيمٌ في جميع أموره، يَضَعُ الأشياء في مواضعها.

٢٦١ - مَثَلُ صَدَقاتِ الذين يُنفقون أموالهم في الجهاد وأبواب الخير ووجوه البرِّ كَمَثَل زارع حَبَّةٍ في أرض طيِّبة معطاء، أخرجت تلك الحبَّةُ عوداً مستوياً قائماً تتعلَّق به سبعُ سنابل، في كلِّ سُنبلة مائة حبة، فتعطي الحبة الواحدة سبعمائة حبة، والله تعالى يُضاعفُ هذه المضاعفة لمن يشاء، والله واسعُ الغنى والقدرة، عليم بنيَّة من ينفق في سبيله.

٢٦٢ - الذين يُعينون المجاهدين في سبيل الله بالإنفاق عليهم في حوائجهم ومُؤْنتهم، ثمَّ لا يُتبعون نفقتهم التي أنفقوها عليهم بالمنِّ عليهم بالعطاء وإظهار المعروف، ولا أذى بقول أو فعلٍ يُشعر بالتطاول والتفاخر على المُنْعَم عليهم، ولكنهم ينفقون احتساباً وابتغاء ثواب الله، وطلب مرضاته، ويستمرُّون على نزعة الخير، ولا يفسدون نيَّتهم، لهم جزاؤهم العظيم مكافأة لهم على أعمالهم عند ربِّهم في الآخرة، ولا خوفٌ مُسلَّطٌ عليهم من مُرْهِباتٍ قادماتٍ مُستقبلات؛ لأنَّ الله جعل لهم الأمن منذ لحظة موتهم، يوم القيامة، ولا هم يحزنون على ما خلَّفوا من الدنيا، لأنَّ ما أعدَّ الله لهم في آخرتهم أعظم وأجلُّ من كلِّ ما في الدنيا من متاع وزينةٍ وَمَحابِّ نفوس.

٢٦٣ - كلامٌ حَسَنٌ وردٌّ جميلٌ على الفقير السائل للعطاء، وسَتْرٌ لفقره، وتَجاوزٌ عنه إذا أغلظ وجفا، أو أثقل في السؤال، وألحف في المسألة، وعفوٌ عمَّا يفرُط منه عند الردِّ وعدم الإعطاء، خيرٌ وأفضل من الصَّدقة التي تدفعها إلى الفقير تَمنُّ عليه بها أو تُعيِّره بقولٍ أو تؤذيه بفعل، والله مُستغنٍ عن صدقة العباد وطاعاتهم، حليمٌ لا يُعجِّل بالعقوبة على من يمنُّ على عباده، ويؤذي بصدقته.

٢٦٤ - يا أيُّها الذين صَدَّقوا بالله واليوم الآخر، لا تُبطلوا أجورَ صَدَقاتِكم بالمنِّ والأذى على السائل والفقير، فلا تعدُّوا إحسانكم على مَنْ أحسنتم إليه، ولا يصدر عنكم ما يؤلم من يأخذ، كأن يقول له: ألا تعمل؟ أو يتجهَّم في وجهه عند العطاء، فهذا شبيهٌ بالمنافق الذي يُنفق مالَه مُراآةً للناس وسمعةً ليَرَوْا نفقتَه، وليقولوا: إنَّه سَخِيٌّ كريمٌ، فوصْفُ هذا المرائي بصدقته وسائر أعماله كَوَصْف زارع على حَجَرٍ أَمْلَسَ صُلْب، فوق ذلك الحجر الأملس تراب، يُرجىٰ أن يكون مُنتجاً مُنْبتاً للزرع، فأصابه مطرٌ شديد عظيم القَطْر - وهوَ مَثَلُ رحمةِ الله وَجوده الشامل للباذلين - فترك المطرُ ذلك الحجر أجرد أملس لا شيء عليه من ذلك التراب. وكذلك قلب المرائي ونفسُهُ ليس فيهما قابليَّة لامتصاص رحمة الله وثوابه، وليس فيهما لينٌ من رحمة، ولا رقَّة من إيمان، فينجرف عنها غيث رحمة الله، كما ينجرف المطر عن الصَّخرة الملساء القاسية، وكذلك حال المرائين يوم القيامة تبطل أعمالهم وَتَضْمحلُّ؛ لأنَّها لم تكن لله، كما أذهب المطرُ الغزيرُ ما على الحجر الأملس من التراب، لا يجدون ثوابَ شيءٍ مما عملوا في الدنيا، ولا ينتفعون بشيءٍ من طاعاتهم وعباداتهم، وقد كان من شأن إنفاقهم - لو كان ابتغاء وجْه الله - أن يكون كسباً للثواب، بمقتضى ما وعد الله به عباده المخلصين، وهؤلاء المراؤون الذين يُتبْعون ما أنفقوا منّاً وأذى، ليس عندهم قدرة على شيءٍ من المال الذي كسبوه، إنمَّا القدرة من الله سبحانه، فهو بقدرته مكَّنهم منه، وسلَّطهم عليه، واللَّهُ لا يحكم بهداية القوم الذين اختاروا لأنفسهم الكفر بإراداتهم الحرَّة، وأصرُّوا على الكفر والجحود. وهذا النداء الإلهيُّ هو النداء الثامن للمؤمنين في هذه السورة. وقد شدَّد سبحانه في النهي عن المنِّ والأذى، وكرَّرهُ في ثلاث آيات متواليات، لأنَّ المنَّ والأذى ينشأ عن استطالة الغني بفضل غناه، والمباهاة بثروته وقدرته، ممَّا يشعر الفقير بصغاره بسبب الفقر، وتألمه من مرارته باعتزاز الغنيِّ عليه، وإشعاره بذل الحاجة، وإن ذلك يدفع إلى تمرُّد النفوس، وتفكيك الروابط، وذهاب الوحدة الجامعة التي تجمع بين المؤمنين.

وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾

٢٦٥ ـ وَمَثَلُ الذين ينفقون أموالهم طلبَ رضا الله الدائم المستمر، وتصديقاً راسخاً بوعد الله وثوابه، وتوطيناً لأنفسهم على حفظ هذه الطاعة وترك ما يفسدها من الرياء والمنّ والأذى، كمثل بستان كثير الأشجار في أرض جيّدة طيبة مرتفعة، لا تغمرها السيول فتفسدها، أصابها مطر كثير شديد، فأعطت بتوافر الأسباب التي خلقها الله سبحانه فيها، إنتاجاً مضاعفاً عما كانت تُعطي في كلّ موسم، فإن لم يكن أصابها مطر غزير فمطر خفيف ليّن، يكفيها لمضاعفة إنتاجها، وكما أنّ هذه الجنّة تُضاعف ثمرها وتزكو في كلّ حال سواء كان المطر قليلاً أو كثيراً، فكذلك يُضاعف الله صدقةَ المؤمن المخلص سواء قلّت نفقته أو كَثُرت، والله تعالى بصير بظاهر عملكم وباطنه، وبمقاصدكم منه، يُعامل كلّ باذلٍ على قدر عمله وإخلاصه، فمن الباذلين من يستحقُّ فَيْضاً مَنْ رحمة الله ومضاعفة الأجر يُماثله الوابل من المطر، ومن الباذلين مَنْ يستحقّ عطاءً يماثله الطلّ مَنْ المطر.

٢٦٦ ـ أيُحِبُّ أحدُكم أن يكون له بستانٌ كثير الأشجار، تغطّي الأشجار الأرض وتسترها، فيه أفضل أنواع الفاكهة وأكثرها نفعاً وغذاء، من نخيلٍ وأعناب، تَجْري من تحت أشجاره الأنهار، فتمدُّها بالخصب، كما تسرُّ الناظرين، وله فيه من كلّ أنواع الثمرات غير النخيل والعنب، وأصاب صاحبَ البستان كبر الشيخوخة، ولم يكن له كسب غيره، وهو في غايةِ الاحتياج إليه، وله أولادٌ صِغَارٌ ضِعَاف يريد أن يكونوا من بعده أغنياء بما يُوَرِّثهم من هذه الجنة ذات الشجر الكثير، والثمر الوفير، حتى إذا كان وضعه كذلك أصابَ ذلك البستان ريحٌ عاصفة ترتفعُ من الأرض إلى السماء وتستدير على نفسها، في الريح العاصفة نارٌ محرقة فاحترقت الجنة بنار الإعصار الذي أصابها؟ كذلك حال من أتى يوم القيامة بأعمال حسنة ولم يقْصد بها وَجْهَ الله تعالى، فَيُبْطلها اللّهُ تعالى وهو في غايةِ الحاجة إليها. كما بيّن الله لكم أمر النفقة المقبولة وغير المقبولة، كذلك يُبيِّن الله لكم من الآياتِ سوى ذلك؛ لتقيسوا عليها قياساً مُسْتنداً إلى إعمال الفكر بتكرار ورويّة وعُمْق؛ لاستنباط أحكام المُسْتجدّات وما لا تجدون له نصاً صريحاً.

وفي هذا التشبيه فوائد كثيرة **أولها**: أنّ الرياء والاستطالة بعمل الخير، تذهب به بل تُحرقه، كما يحرق الإعصار الحديقة الغنّاء. **وثانيها**: أنّ عمل الخير يربو وينمو ويُنتج، كالحديقة الغنّاء التي تُؤتي أكلها بإذن ربها، فهي في نماء مُستمر. **وثالثها**: الإشارة إلى أنّ هذه الحياة الدنيا مهما طالت فهي متاعٌ قليل، وعلى المؤمن أن ينتفع في كلّ لحظة بعمل الخير، يحتسبُهُ عند ربّه، كالرجل الذي يكون في شيخوخةٍ فانية، فعليه أن يتوقّع الموت دائماً، وعليه أن يعمل الخير عمل من يخشى الفوت، وقد قَرُب منه الموت.

٢٦٧ ـ يا أيُّها الذين صدَّقوا بالله واتّبعوا رسوله: أنفقوا النفقة الواجبة عليكم من خيار ما كسبْتُم وجيّده، الذي تَسْتطيبُه النفس وتطلبه، وممّا أخرجنا لكم من الأرض من الحبّ والثمر والمعادن وغيرها، ولا تقْصدوا الرديء من أموالكم فتخصّوه بأن تنفقوا منه، لا من غيره، والحال أنكم لستم بآخذي ذلك الشيء الخبيث الرديء ـ لو كنتم أنتم الفقراء ـ إلا في حالة إغماض أعينكم عن رؤيته كراهيةً له، فاليد تأخذ للحاجة، والعين تغمض للكراهية، فكيف ترضون لغيركم ما لا ترضونه لأنفسكم؟ أما إذا كان مُختلطاً ضمن الطيّب الجيّد، فلا مانع من الإنفاق منه، لأنّ الأشياء غالباً ما يختلط فيها الجيّد والرديء، ولأن الخبيث لم يقصد بالذات. واعلموا أنّ الله غنيٌّ عن صدقاتكم، كثير الحمد والثناء للذين ينفقون من طيّب أموالهم، محمودٌ على عظيم صفاته، وجليل نعمه. وهذا النداء الإلهيُّ هو النداء التاسع للمؤمنين في هذه السورة.

٢٦٨ ـ الشيطان ينهاكم عن الإنفاق في سبيل الله؛ إذ يُخوّفكم بالفقر، ويُحَسّنُ لكم البخلَ ومنع الزكاة والصّدقة، ويأمركم بالفحشاء ولو اقتضتْ منكم إسرافاً في البذل وتبذيراً، والله ينهاكم عن الفحشاء وعن التبذير، ويأمركم بالبذل في سبيله في وجوه الخير، ويَعِدُكُم ـ إذا عَصَيْتُم واستغفرتم ـ مغفرةً لذنوبكم وسَتْراً لكم في الآخرة، وإذا أنفقتم في سبيله أن يعطيكم ويُخلف عليكم، ويزيدكم فضلاً منه، والله غنيٌّ قادرٌ على إغنائكم، عليمٌ بما تنفقونه، لا تخفى عليه خافية.

٢٦٩ ـ يُؤْتي الله العلم وإصابة الحقّ في القول والعمل، ووضع الأشياء في مواضعها مَنْ يشاء من عباده، ومَنْ يُؤْتِهِ الله ذلك فقد أُوتي خيراً كثيراً، وما يتّعظ بما وعظه الله إلا أصحاب العقول العميقة المتدبِّرة الواعية الذين عَقَلوا عن الله أمرَه ونهيَه. والله سبحانه يرشدكم إلى الحكمة في أمر الإنفاق، وذلك بأن تنفقوا كلّما كان الإنفاق يَجْلب لكم ثمراتٍ طيّبات، وبأن تُمسكوا عن الإنفاق، كلّما كان الإنفاقُ إسرافاً وتبذيراً، وجالباً لكم شرّاً وإثماً، بخلاف دعوة الشيطان فهي دعوة إلى ركوب الحماقة، إذ يأمر بوضع الأشياء في غير موضعها، فيدعو إلى التبذير فيما يجب الإمساك فيه، وإلى الإمساك فيما يجب البذل فيه.

وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ۗ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾ إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَـٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾ ۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَـٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾



٢٧٠ ـ وما أعطيتم من عطاءٍ عاجل، كثيرٍ أو قليل في بابٍ من أبواب البر، وأدّيتموه ابتغاء مرضاة الله، أو أَوْجبتموه على أنفسكم في طاعةِ اللّهِ، وعاهدتم الله على الوفاء به من مالٍ أو غيره، فإنَّ الله يعلمُ ما أنفقتم أَقُصِدَ به ابتغاء مرضاة الله، أم قصد به رياء الناس، أو كان من الطيِّب الذي يقبله الله، أم من الخبيث؟ ويعلم سبحانه أَوَفَّى الناذر بنذره أم نكث عهده، وأبطل ما أَوْجب على نفسه؟ وما للظالمينَ الذين يمنعون الصَّدَقات، أو يضعُونها في غير موضعها من أعوانٍ ينصرونهم ويدفعونَ عنهم عذابَ الله.

٢٧١ ـ إنْ تُظهروا الصَّدَقات، وتعطوها الفقراء في العلن، فَنِعْمَتِ الخَصلة هي، وإنْ تُسرُّوا الصَّدقة، وتُعطوها الفقراء في السرِّ فهو أفضل لكم؛ لأنَّه أبعد عن الرياء، وأكثر دلالة على الإخلاص، ولأنَّ في إخفاء الصَّدقة سَتْراً لحال آخذي الصَّدقة الذين يُؤلمهم جداً أن يعلم الناس بفقرهم وحاجتهم إلى أخذ الصَّدقات، وأنتم مدعوون لضرورة التحرِّي عن الفقراء حقيقة؛ لئلا يأخذها الأغنياء من مستوري الحال، وهم يزعمون سرّاً أنهم فقراء، وكلٌّ مِنْ بذْل الصَّدقة بصفة علنيَّة وبصفة سريَّة مقبول عند الله إذا كانت النيَّة صادقةً، ويستر ويُغطِّي سيِّئاتكم، واللّهُ بما تعملونَ من إظهار الصَّدقات وإخفائها عليم علماً كاملاً شاملاً، لكلِّ ظَواهر الأشياء، وبواطنها، علمَ حضورٍ وشهودٍ.

٢٧٢ ـ ليس عليك ـ يا رسول الله ويا كلَّ داعٍ إلى الله من أمَّته ـ هداية كلِّ المسلمين هداية عمليَّة، وتحويلهم إلى مُتخلِّقين جميعاً بخُلق حُبِّ العطاء، منفقين في سبيل الله، ومسؤوليتك مسؤولية تبليغ وإرشاد وتربية، وهم المسؤولون عن سلوك سبيل الهداية بإراداتهم الحرَّة، أما القدرة على التحويل الفعلي إلى الهداية فهي من صفات الله عزَّ وجلَّ، الذي بيده الخلق والأمر، وهذا لم يَختره الله لنفسه بعد أن اختار للمكلَّفين من عباده أن يمتحن إراداتهم الحرَّة. وما تُنفقوا من مال قلَّ أو كثر فلأنفسكم فائدته وثمراته، ولكن هذا إنما يكون لكم في حال كون إنفاقكم طَلَباً لمرضاة الله، وما تُنفقوا من مال يُوفَّر لكم جزاؤه مُضاعَفاً، وأنتم لا تُنْقَصُون شيئاً من ثواب أعمالكم.

٢٧٣ ـ اجعلوا ما تنفقون للفقراء الذين اتَّصفوا بهذه الأوصاف الخمسة: **الوصف الأول**: حَبَسُوا أنفسهم على الجهاد في سَبِيل الله والدعوة إلى الله، والتفرُّغ لطلب العلم الواجب. **الوصف الثاني**: لا يستطيعون سَيْراً في البلاد وتقلُّباً فيها، ولا يتفرَّغون للتجارة وطلب المعاش والكسب؛ لاشتغالهم بالجهاد والدعوة إلى الله وطلب العلم. **الوصف الثالث**: يظنُّهم مَنْ لم يعرف حالهم أغنياء؛ لإظهارهم التجمُّل، وتركهم المسألة. **الوصف الرابع**: تعرفهم بأثَر الجهد من الحاجة والفقر. **الوصف الخامس**: ليس يصدرُ منهم سؤال حتى يقع فيه إلحاح، فهم لا يسألون الناس ألبتة، وإنْ سألوا اضطراراً لم يُلحُوا في السؤال، وطلبِ الصَّدقة من الناس، فعلى المسلمين أن يبحثوا عن أحوال الفقراء المُتعفِّفين من العلامات التي تظهر عليهم، في الطعام، والملبس، والمسكن، وحالة الجسم، وموارد الرزق، وغير ذلك من علامات، فيمدُّوهم بحقوقهم التي فرضها الله في أموال الأغنياء، والله تعالى يعلم مقاديرَ إنفاقكم، ويُجازيكم عليها أفضل الجزاء يوم القيامة.

٢٧٤ ـ الذين ينفقون أموالهم مرضاةً لله، في جميع الأوقات والأحوال ليلاً أو نهاراً، خِفْيَةً أو جَهَاراً، ويعمُّون بها أصحابَ الحاجاتِ والفاقات، فلهم جزاء أعمالهم عند ربِّهم، ولا خوفٌ مُسَلَّط عليهم تضْطَرب به نفوسهم وقلوبهم بسبب ترقُّب حدوثِ مكروهٍ، أو توقُّع فواتِ محبوب؛ ولا هم يحزنون بسبب مكروه نزل فعلاً بهم، أو من أجل فوات محبوب فاتهم الحصول عليه، وهذا يكون لهم في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا، فلأنَّ إيمانهم يجعلهم راضين عن الله تمام الرضا بكلِّ مقاديره، مطمئنين لحكمته، واثقين بثوابه، وأما في الآخرة، فإنهم لا يخافون من عقاب الله؛ لأنَّ رحمة الله ستشملهم بالعفو والغفران، ولا يحزنون من أجل محبوب فاتهم في الدنيا، لأنهم سينالون من النعيم فوق ما يتمنَّون، وسيُعطون من كلِّ ما يطلبون ويشتهون.

ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾

٢٧٥ - الذين يتعاملون بالربا أخذاً وإعطاء، فلا يُقلعون عنه، ولا يتوبون إلى بارئهم منه، ويَرَوْنَ مع ذلك أنَّهم لا يفعلون شيئاً منكراً، ويرفضون حكم الله في تحريمه، حالهم وهم يأكلون الربا - إذْ يسلب الإثراء بغير حقٍّ عاطفتهم الإنسانيَّة، ويجعل أفكارهم ونفوسَهُم مُضْطربةً دائمةَ التطلُّع لمضاعفة رؤوس أموالهم من جَهْد الآخرين، واستغلال ضروراتهم - كالمجنون ذي الحركات المُضْطربة، يمشي ويتعثَّر، ويصطدم بالأشياء، وتأتيه الخبْطات من كلِّ جانب، وهو لا يرى الشخص المسؤول عن الضربات التي تتهاوى عليه من كلِّ جهة، فكأنما يتخبَّطه شيطانٌ خبيث عديم الرحمة، خفيٌّ لا تراه أعين الناس؛ ذلك الذي نَزَل بهم من العذاب لرفضهم حكم الله في تحريم الربا، واعتراضهم عليه بقولهم: إنَّما البيعُ مثلُ الربا، فكما أن البيع يؤدِّي إلى الربح وهو حلال، فكذلك الربا يؤدِّي إلى الربح وهو حلال في نظرهم أيضاً، مع أنَّ الحقيقة تُثبت أن البيع ليس مثل الربا، فالربا ظلم واستغلال بغير حق، ووسيلة لمنع التعاطف والتعاون الاجتماعي عن طريق القرض الحسن، وهو كذلك ربح لا يُقابله جهد ولا ضمان خسارة، وربح البيع يُقابله ضمان الخسارة المُحتملة، فكيف يكون البيع مثل الربا؟! وأحلَّ الله لكم الأرباح في التجارة بالبيع والشراء، لما فيها من نفع للأفراد والجماعات، وحرَّم الربا الذي هو زيادة في المال لأجل تأخير الأجل، لما فيه من استغلال وضياع وهلاك. فمن جاءَهُ نصحٌ مقرونٌ بما يُثير الرَّغبة والرهبة من ربِّه، فانتهى عن أكل الربا، فلا يُؤَاخَذ على ما مضى من ذنبه قبل نزول التحريم، وأمرُهُ إلى الله، فيما يستقبل من زمانه، فإن استمرَّ على توبته فالله لا يضيع أجره، ومَنْ عاد إلى أكل الربا بعد التحريم مُسْتَحلاً له، فأولئك البُعداء عن رحمة الله أصحاب النار الملازمون لها، المخالطون لألوان عذابها، هم فيها دائمو البقاء، لا يخرجون منها ولا يموتون فيها.

٢٧٦ - يُنْقِصُ اللَّهُ الربا ويُهلكه ويُذهِبُ بركته، ويزيد الصَّدقات ويُبارك فيها في الدنيا، ويُضاعف أجرها في الآخرة، واللَّه لا يُحبُّ كلَّ مُصِرٍّ على كفره مقيم عليه، مُسْتَحِلٍّ لأكل الربا، مُتمادٍ في الإثم، ومَنْ جعل نفسه بإرادته الحرة في زمرة الذين لا يحبُّهم الله، فقد جَعَلها عُرضة لنقمته وعذابه الشديد.

٢٧٧ - إنَّ الذين صدَّقوا تصديقاً إرادياً قلبيّاً بكلِّ ما أوْجَبَ الله عليهم أن يؤمنوا به من الأركان الإيمانيَّة الستة، وعبَّروا بسلوكهم الإراديّ في أعمال ظاهرةٍ وباطنةٍ عن صحَّة إيمانهم وصدقهم فيه، وأقاموا الصَّلاة المفروضة بأركانها وحدودها في أوقاتها، وآتوا الزَّكاة المفروضة عليهم في أموالهم طيِّبة بها نفوسهم، ابتغاء مرضاة الله، لهم ثوابُ أعمالهم، ولا خوفٌ مُسلَّط عليهم يوم القيامة؛ لأنَّ رحمة الله ستشملهم بالعفو والغفران، ولا هم يحزنون على شيءٍ فاتهم؛ لأنهم سينالون من النعيم فوق ما يتمنَّون، وسيُعطوْن من كلِّ ما يطلبون ويشتهون.

٢٧٨ - يا أيها الذين صَدَّقوا باللَّهِ واليوم الآخر، واتَّبعوا رسوله: خافوا الله فيما أمركم به، وانتهوا عمَّا نهاكم عنه، واتركوا طلبَ ما بقيَ لكم ممَّا فضل على رؤوس أموالكم التي كانت لكم قبل تحريم الربا، إن كنتم مُحقِّقين لإيمانكم قولاً وفعلاً. وهذا النداء الإلهيُّ هو النداء العاشر للمؤمنين في هذه السورة.

٢٧٩ - فإنْ لم تتركوا ما بقيَ من الربا بعد تحريمه، وتنقادوا لحكم الله، وتستجيبوا لأمره، فاعلموا وأيقنوا بحربٍ عظيمة مُسْتمرّة من الله ورسوله، في أموالكم، وأجسامكم، وقلوبكم، وعقولكم، وفي مجتمعاتكم، لا تعلمون وقتها، ولا كيفيَّتَها، ولا وسائلها، حتى تَسْتسلموا لأحكام الله، وتتوبوا إليه، وإن تركتم أكل الربا ورجعتم عنه، فلكم الحقُّ بمطالبة المُسْتقرضين برؤوس أموالكم التي دفعتموها لهم، لا تَظْلمون أنتم الغريم بطلب زيادةٍ على رأس المال، ولا تُظلمون أنتم بنقصان رأس المال.

٢٨٠ - وإن كان المَدينُ الذي عليه الحقُّ من غرمائكُم مُعْسراً ليس عنده ما يفي به دَيْنه، فعليكم تأخيرُه وإمهالُه إلى زمن اليَسَار، أو مسامحته والتجاوز عنه، وإنْ تتركوا رأس المال كلَّه، وتتصدَّقوا على المُعسر بالتجاوز والمسامحة بما عليه من الدَّيْن، خيرٌ لكم إن كنتم تعلمون أنَّ التصدُّقَ أكثر ثواباً لكم من الإنظار والإمهال؛ لأن فيه الثناء الجميل في الدنيا، والثواب الجزيل في الآخرة.

٢٨١ - وخافوا - أيها الناس - يوماً تُردُّون فيه إلى حساب الله، وفَصْل قضائه، بعد انتهاء زمن ابتلائكم في الحياة الدنيا، ثمَّ تُعطى كلُّ نفس جزاءَ ما كسبت من خيرٍ أو شر وافياً، وهم لا ينقصون شيئاً من ثواب ما عملوا، ولا يعاقبون على ما لم يعملوا. وهذه الآية هي آخر آية نزلت على رسول الله ﷺ.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى
فَاكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ
كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ
الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا ۚ
فَإِن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ
أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ ۚ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ
مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ
مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ
إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ ۚ وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا ۚ وَلَا تَسْأَمُوا
أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ
عِندَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا ۖ إِلَّا أَن تَكُونَ
تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ
أَلَّا تَكْتُبُوهَا ۗ وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ ۚ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ
وَلَا شَهِيدٌ ۚ وَإِن تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ ۗ وَاتَّقُوا
اللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾

٢٨٢ ـ يا أيها الذين صَدَّقوا بالله واليوم الآخر إذا داينَ بعضُكم بعضاً إلى مُدَّةٍ مُسمَّاةٍ معلومةِ الأوَّل والآخر مثل السنة والشهر، فاكتبوا الدَّيْن الذي تداينْتُم به بيعاً كان ذلك أو سَلَماً أو قرضاً؛ حفظاً للحقوق، ومنعاً للجهالة، ودفعاً للنزاع. وليكتب الدَّين بين الدائن والمَدين شخصٌ ماهرٌ في الكتابة، يكون على علم بشروط العقود وتوثيقها، وتكون كتابته بالعدل، فلا يزيد ولا ينقص في الدَّين الذي يكتبه، ولا يُقيِّد أحد العاقدَيْن بشروط شديدة، ويُحل الآخر من كلِّ القيود والشروط. فلا بدَّ أن يكون الكاتب عارفاً بالعدل، معروفاً بالعدل، لأنه إذا لم يكن عارفاً بالعدل لم يتمكَّن منه، وإذا لم يكن مُعتبراً عدلاً عند الناس رضيّاً، لم تكن كتابته مُعتَبرة، ولا يحصل بها المقصود، وهو حفظ الحقوق. ولا يمتنع كاتبٌ أن يكتب كما علمه الله الكتابة ويسَّرها له، وجعله أهل خبرة، فمن تمام شكره لنعمة الله أن يقوم بالكتابة لغيره كما شَرَعَ الله وأمر به، وليُقِرَّ المدينُ الذي عليه الحقُّ على نفسه بلسانه ليعلمَ ما عليه من الحق، فيذكر قدره وجنسه وصفة الأجل، وليتَّقِ المُملي اللَّهَ سبحانه، الذي هو خالقه ومالكه ومربِّيه، ولا ينقص من الحقِّ الذي وَجَبَ عليه شيئاً في الإملاء على الكاتب، فلا ينقصه في قدره، ولا في وصفه، ولا في شرطٍ من شروطه، أو قَيْدٍ من قيوده، بل عليه أن يعترف بكلِّ ما عليه من مُتعلِّقات الحق، كما يجبُ ذلك إذا كان الحقُّ على غيره له، فمَنْ لم يفعل ذلك، فهو من المُطفِّفين الباخسين. فإنْ كان المَدينُ الذي عليه الحقُّ جاهلاً بالإملاء والعقود والتصرُّفات، أو مُبَذِّراً مِتْلافاً لا يُحسن إدارة أمواله، أو كان ضعيفاً لصغرٍ أو شيخوخة أو مرض، أو لا يستطيع الإملاء لخرسٍ أو عِيٍّ أو حبس أو غيبة، فلا بدَّ أن يقومَ غيرهم مقامهم، فَلْيَتولَّ وليُّ كلِّ واحد من هؤلاء الثلاثة المحجور عليهم الإملاء بالعدل، فلا يبْخس صاحب الحق ولا يُنقصه، ولا يُمالئه، ولا يذكر شرطاً أو التزاماً يخالف الشَّرع. وأَشْهِدوا على حقوقكم شاهدَيْن عدلَيْن من أهل مِلَّتكم من المسلمين الأحرار، ويشترط في كلِّ شاهد أن تتوافر فيه العدالة والضبط، وانتفاء التُّهمة، فإنْ لم يكن الشَّاهدان رَجُلَيْن، فَلْيَشْهَد رَجُلٌ وامرأتان ممَّن كان مرضياً عندكم في دينه وأمانته؛ مخافة أن تنسى إحدى المرأتين الشهادة، فتذكِّر كلٌّ واحدة تضلُّ الأخرىٰ، فهما يتبادلان الخطأ، ويتبادلان التذكير؛ لأنَّ المرأة لقوَّة عاطفتها، وشدَّة انفعالها، قد تتوهَّم ما لم تر، فلا بدَّ أن يكون مع المرأة أخرى، يتذاكران الحق فيما بينهما. ولا يمتنع الشهداءُ الذين اشتهروا بالعدالة، ووَثِق الناس بهم، واطمأنوا إليهم عن الإجابة إذا ما دُعوا لأداء الشهادة التي تحمَّلوها، سواء كانت الدعوة للحضور وتحمُّل الشهادة، كالشهادة في توثيق الدَّين بالكتابة، أم كانت الدعوة لأداء الشهادة عند الإنكار في مجالس القضاء. ولا تَمَلُّوا ولا تَضْجَروا أن تكتبوا الحقَّ أو الدَّيْن قليلاً كان أو كثيراً، إلى وقته المعلوم؛ فلا يذهب بكم احتقار الدَّيْن الصغير إلى إهماله وعدم كتابته؛ لأن الصِّغر والكبر لا حدود لهما، فقد يكون صغيراً في نظر غنيٍّ مليءٍ، ويكون كبيراً خطيراً عند غيره، ولأن إهمال الصغير يؤدِّي إلى جُحوده، وعندئذ تذهب الثقة، ويسودُ التناحر والتنازع؛ ولأنَّ التهاون في الصغير قد يؤدِّي إلى التهاون في الكبير. ذلكم الكتابة للأمور الكبيرة والصغيرة المتعلِّقة بعقود المُداينات ونحوها، أكثر التزاماً بالقسط، وأعدل في شرع الله وأحفظ؛ لأن ذكر جميع التفصيلات يُحدِّد الحقيقة تماماً، ويُبعد عن الخلاف في المستقبل، وأثبت للشهادة، وأكثر تقويماً وتعديلاً لشهادة الشهود عند التحمُّل، وأعظم عوناً على تذكُّر الشهود عند دعوتهم لأداء الشهادة إذا دعت الحاجة إلى ذلك، وأحرىٰ وأقرب أن لا تشكُّوا في الشهادة؛ لأن كتابة كلِّ صغيرة وكبيرة في العقود والصُّكوك من شأنها أن تصرف عنكم الشكوك في المستقبل، وذلك لأن الإنسان كثير النسيان، فإذا لم يُسجِّل الحقوق، ويكتب التفصيلات، دخل الشكُّ إلى قلبه، إلا أن تقع تجارةٌ حاضرة، يجري فيها التقابض في المجلس يداً بيد، فلا ضَرر عليكم ولا إثم ألا تكتبوا التجارة الحاضرة، وأشهدوا إذا تبايعتم فيما جَرَت العادة بالإشهاد فيه، منعاً للنزاع والشقاق. ولا يُلحِقُ الكاتبُ والشَّاهد الضَّررَ بأحد المتعاملين، بأن يبخسَ الكاتب أحدهما، أو يشهدَ الشاهد بغير الحق، كما لا ينبغي الإضرار بالكاتب أو الشاهد لحملهما على كتابة غير الحق أو قول غير الحق، لأنهما أمينان، وإضرار الأمناء يحملهم على الخيانة، وفي ذلك ضياع للأمانة، وذهاب للثقة، وإنْ تفعلوا ما نُهيتم عنه من الضِّرار، فإنه معصية وخروجٌ عن الأمر من مستوى ظلم عباد الله في حقوقهم، وخافوا الله واحذروه فيما نهاكم عنه، ويُعلِّمكم الله ما يكون إرشاداً لكم في أمر الدين والدنيا، والله تعالى عليمٌ بجميع مصالح عباده، لا يخفى عليه شيءٌ من أمورهم، وسيُجازيهم على ذلك. وهذا النداء الإلٰهيُّ للمؤمنين هو النداء الحادي عشر في هذه السورة، وهو آخر ما نَزَل من النداءات الإلٰهيَّة للمؤمنين. ونداءاتُ الله سبحانه للذين آمنوا بلغت (٨٩) نداءً، وجميعها مدنية، أوائلها ما جاء في هذه السُّورة في الآية (١٠٤)، وآخرها هذه الآية التي نزلت في حَجَّة الوداع.

﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ ۖ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ ۗ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾ لِّلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ۚ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ۖ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ۚ أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾

٢٨٣ ـ وإن كنتم مسافرين وتعاملتم بالدَّيْن ولم تجدوا كاتباً يكتبه لكم، فارتهنوا ممَّن تديِّنونه رهوناً مقبوضة؛ بأن يدفع لكم المدين شيئاً يكون عندكم، ضماناً لحقِّكم إلى أن يردَّ المدينُ ما عليه من دَيْن، فإنْ كان الذي عليه الحقُّ أميناً عند صاحب الحق ولم يرتهن منه شيئاً لحُسْن ظنِّه، فليؤدِّ المدين الذي عليه الحقُّ حقَّه الذي ائتمنه عليه الدائن ولم يرتهن منه عليه شيئاً، وليتَّق المدينُ اللّهَ سبحانه في أداء الحقِّ عند حلول الأجل من غير مُماطلةٍ ولا جحود. ولا تكتُموا الشهادة ـ أيُّها الشُّهود ـ إذا دُعِيتُم إلى إقامتها وأدائها، بأن تمتنعوا عن الذهاب إلى مجلس القضاء، أو لا تقولوا ما عاينتم، أو تقولوا بعض ما علمتم، ومَنْ يكتم الشَّهادة فإنَّه صاحب قلب آثم فاجر؛ لأنه يعلم حقيقةً يجب أن يشهد بها، ثم يكتمها، واللّهُ بما تعملون عليم من بيان الشهادة وكتمانها، محيط علمه بكلِّ ما تعملون، وسيُحاسبكم على ذلك.

٢٨٤ ـ للّهِ عزَّ وجلَّ ما في السَّموات وما في الأرض خلقاً وملكاً وتدبيراً، وأهلُها له عبيد، وهو مالكهم، وإن تُظهروا ما استقرَّ في أنفسكم أو تُخفوه من حديثِ النفس والخواطر الفاسدة التي تَرِدُ على القلب يُجازكم به الله، فيغفرُ لمن يشاء الذنبَ العظيم بفضله ورحمته، ويُعذِّب من يشاء بعدله، ومشيئتُهُ سبحانه لا تُفارق حكمته، واللّهُ تعالى على كلِّ شيء يشاؤهُ من المُمْكنات العقليَّة، عظيم القدرة، لا يعجزه شيءٌ أراده، إنما أمره إذا أراد أن يقول له كن فيكون.

ومقتضىٰ الآية المحاسبة على حديث النفس والخواطر المخفيَّة، وقد تفضَّل الله على عباده المؤمنين بعد ذلك، فعفا عن حديث النفس والخواطر الفاسدة التي تردُ على القلب؛ إذ ليس في الوسع الخلوُّ عنها. أما العزم على المعصية والتصميم عليها فمُؤاخَذٌ عليه.

٢٨٥ ـ صدَّق الرسولُ محمد ﷺ أنَّ هذا القرآن وجملة ما فيه من الشرائع والأحكام مُنزَّل من عند الله عزَّ وجل، وصدَّق المؤمنون بذلك أيضاً، كلُّ واحدٍ من المؤمنين صدَّق تصديقاً جازماً بهذه الأركان الإيمانيَّة الخمسة: **الأول**: الإيمان بالله تعالى، وأنه واحد لا شريك له، وأنه سبحانه متَّصف بكلِّ كمال، مُنزَّه عن كلِّ نقص، وأنه هو المُستحقُّ لأنْ نعبده ونطيعه، **والثاني**: الإيمان بالملائكة الكرام، الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، **والثالث**: الإيمان بالكتب المنزَّلة على رسله، المشتملة على هداية العباد، وبيان ما فيه صلاحهم في دنياهم وآخرتهم، والتي ذكر سبحانه منها: صحف إبراهيم، والتوراة، والإنجيل، والزبور، والقرآن الكريم، **والرابع**: الإيمان بالرسل الذين اصطفاهم الله من البشر، واختصَّهم بالوحي، وأمرهم بتبليغه، من لدن آدم إلى خاتمهم محمد عليهم الصلاة والسلام، وقال المؤمنون: لا نُفرِّق بين أحدٍ من رسله في إثبات النبوَّة، فنؤمنُ ببعضٍ ونكفر ببعض كما فعلت اليهود والنَّصارىٰ، بل نؤمنُ بجميع رسله، وقال المؤمنون: سمعنا قولَ ربِّنا فيما أمرنا به، وأطعناه فيما ألزمنا من فرائضه، نسألك أن تستر ـ بفضلك ذُنوبَنا، فأنت خالقُنا وربُّنا ومُمِدُّنا بالنِّعم، وإلى حكمك وحدك، وفصل قضائك، وتنفيذ جزائك، وإلى المكان الذي تقضي فيه، مرجع جميع الخلائق في الآخرة. والإيمان باليوم الآخر هو **الركن الإيماني الخامس** الذي يُصدِّق به المؤمنون تصديقاً جازماً.

٢٨٦ ـ لا يُكلِّف الله نفساً توافرت لديها شروط التكليف إلا ما يكون في إمكانها، وحدود استطاعتها، من غير حَرَج ولا ضيق، بحيث لا تستطيع الأمر إلا بمشقَّة وجهد، فعلى مقدار الهبة تكون درجة التكليف والمسؤولية، وتتفاوت درجات مسؤوليات المُكلَّفين بحسب هبات الله لهم؛ لتحقيق كمال العدل الربَّاني. للنفس أجرُ وثوابُ ما عملت من الخير، وقَصَدت من الطاعة، وعليها وِزْر وعقابُ ما اكتسبت بتكلُّف من الشَّر؛ إذ أنَّ كَسْب الخيرات يتمشَّى مع فطرة الإنسان، ولا يحتاج منه إلى زيادة تعمُّل وتكلُّف ليخرج عن طبعه، كما أن فعل الحسنات ثروة يدَّخرها الإنسان لآخرته، وأما السيِّئات والمعاصي والآثام فهي أوزار وأحمالٌ ثقيلة تأتيه بأنواعٍ من العذاب في دنياه وأخراه، وإن جَلَبت له لذَّة عاجلة.

قولوا: **ربَّنا** لا تعاقبنا إن نسينا نسياناً ناشئاً عن حالةٍ من أحوالنا الطبيعيَّة الغالبة لإرادتنا، والتي لا نملك دفعها ولا نستطيعه، وما كان بسبب تهاوننا وإهمالنا وتقصيرنا، أو أخطأنا بإتيان ما نهيتنا عنه بقَصْد وإرادة، أو جهلٍ وظن. **ربَّنا** ولا تحمل علينا عهداً ثقيلاً وميثاقاً غليظاً، لا نستطيع القيام به، فتعذِّبنا بنقضه وتركه، كما حملته على الأمم من قَبْلنا، فلمْ يقوموا به فعذَّبتهم. **ربَّنا** ولا تُكلِّفنا من الأعمال ما لا نطيق القيام به؛ لِثِقَلِ حَمْله علينا، وتَجَاوَزْ عن ذنوبنا وامْحُها عنا، واسْتُر علينا خطايانا ولا تفضحنا، وتغمَّدنا برحمةٍ تُنجينا بها من عقابك، فإنه ليس بناجٍ من عِقابك إلا مَنْ رحمته، ونحن نرجوك وندعوك يا ربنا بهذه الأمور، لأنها بيدك، ونحن تحت سلطانك وتدبيرك، فأنت ناصرُنا وحافظُنا ومُتولِّي أمورنا، فانصرنا على القوم الجاحدين الذين جحدوا وحدانيَّتك، وعبدوا غيرك، وكذَّبوا نبيَّك محمداً ﷺ، ولا نصر لنا على القوم الكافرين إلا بتأييدك ومعونتك.

سورة آل عمران

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٥﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٩﴾

سورة آل عمران

١ ـ ﴿الٓمٓ﴾، سبق الكلام على الحروف المُقطَّعة في أول سورة البقرة.

٢ ـ هو الله الذي لا يستحقُّ العبادة سواه؛ لأنه الواحد الأحد ليس معه إله ولا له ولد؛ الحيُّ الدائم الباقي الذي له الحياة الدائمة التي لا فناء لها. لم تحدث له الحياة بعد موتٍ، ولا يعتريه الموتُ بعد الحياة، القائم بذاته والدائم القيامِ بتدبير الخلق ومصالحهم فيما يحتاجون إليه في معاشهم ومعادهم.

٣، ٤ ـ نزَّل عليك القرآن مصحوباً بالحقِّ الثابت ومشتملاً عليه، ومُبيِّناً له، وداعياً إليه، مُصدِّقاً لما قبله من الكتب الإلهيَّة في التوحيد والنبوَّات والأخبار وبعض الشرائع، وأنزل التوراة على موسى، والإنجيل على عيسى من قبل نزول القرآن هدىً للناس، وأنزل القرآن الفارق بين الحقِّ والباطل، والمُبيِّن للصادق من الكاذب من الكتب السابقة.

إنَّ الذين كفروا بآيات الله الكونيَّة، والبيانيَّة المُنزَّلة، والإعجازيَّة، والجزائيَّة العقابيَّة لهم عذابٌ شديد، والله قويٌّ غالبٌ لا يُغلب، ذو عقوبة شديدة ممَّن كفر به.

٥ ـ إنَّ الله عليمٌ بكلِّ شيء، لا يخفى عليه شيءٌ في الأرض ولا في السماء، يعلمُ القلوب وما تُخفيه، وما تكنُّه السرائر، فهو سبحانه يعلم البواعث على الكفر، وأنها ليست نقصاً في الدليل، ولكنها مآرب الدنيا، ورَغبات الفجور، واتِّباع الهوى، والتقليد الأعمى، والعصبيَّة الجنسيَّة والمذهبيَّة، فليس الذين ينكرون ما جاء به محمد مخلصين في إنكارهم، بل هي لجاجة العِناد، وجحود المُستيقن.

٦ ـ والدليل على علم الله المحيط بكلِّ شيءٍ عامة، وعلمه بالإنسان خاصَّة أنه سبحانه الذي يُصوِّركم في ظلمات الأرحام صُوَراً مختلفة في الشكل والطبع واللون، ويُنميكم ويُكوِّنكم، بإرادته ومشيئته، لا معبود بحقٍّ سواه، القويُّ الغالب الذي لا يُغالَب، الحكيم في أمره وتدبيره.

٧ ـ هو الله سبحانه المتَّصف بتلك الصفات الذي أنزل عليك الكتاب الذي يجب تدوينه بالكتابة، وجَعْله بين الناس كتاباً محميّاً من التحريف والتغيير بالزيادة أو النقص أو التبديل، منه آيات مُبيِّنات مُفصَّلات واضحات الدلالة، أُحكمت عبارتها من احتمال التأويل والاشتباه، هُنَّ أصلِ الكتاب الذي يُعوَّل عليه في الأحكام، ويُعمل به في الحلال والحرام، ويُردُّ إليه ما تشابه من آياته، وأشكل من معانيها، ومنه آياتٌ أُخرُ لفظها يشبه لفظ غيرها، ومعناها يُخالف معناها، ولا يتعيَّن المراد منها إلا بضمِّها إلى المُحكم. فأمَّا الذين في قلوبهم مَيْلٌ عن الاستقامة، وانحراف عن الحقِّ من المبتدعة، فيُحيلون المُحكم على المتشابه، والمتشابه على المُحْكم؛ طلبَ أن يفتنوا الناس عن دينهم ويُضلُّوهم، وطلبَ أن يؤولوا التأويل الذي يشتهونه، والتحريف السقيم الذي يقصدونه. وما يعلم تأويلَ المتشابه الذي تؤول إليه حقيقة الأشياء إلا الله تعالى ممَّا استأثر بعلمه من كيفيَّاتٍ ووقتٍ وقوع ما أخبر عنه في كتابه من أخبار القيامة وأشراطها أو غيرها من المغيَّبات. والثابتون المتمكِّنون في العلم يقولون: آمنا بهذا القرآن، مُحكمه ومُتشابهه، وما علمنا منه وما لم نعلم، فنؤمن بالمتشابه ونَكِلُ معرفته إلى الله، ونؤمن بالمُحكم ونعمل بمقتضاه، وما يتذكَّر مُستدعياً ما يَعرفُ من أصول يقينيَّة عن الله وصفاتِهِ ودلالات المُحكمات من آياته، ليحمل ما تشابه على ما هو مُحكمٌ غير متشابه، إلاَّ أصحاب العقول السليمة الواعية المُدْركة.

أما إذا كان التأويل بمعنى التفسير، فإنَّ المتشابه يتعلَّق بأمر يمكن أن يعلمه الناس، وهو المعنىٰ، فإذا خَفِيَ على بعضهم شيءٌ من معناه، فهو بالنسبة إليهم متشابه، ويكون من باب **المتشابه النِّسبي** الذي يعلمه قوم دون قوم، بخلاف التأويل بمعنى: ما تؤول إليه حقائق الأشياء التي ذكرها الله في كتابه، ممَّا يتعلَّق بالغيبيَّات، فهذا النوع هو **المتشابه الكُلِّي**، الذي يستوي الناس جميعاً في عدم إدراكه.

٨ ـ ويقول الراسخون في العلم: ربَّنا لا تُمِلْ قلوبَنا عن الحقِّ والهدى بعد أن وفقتنا لدينك والإيمان بالمُحكم والمتشابه من كتابك، وأعطنا من محض فضلك الواسع توفيقاً وتثبيتاً للذي نحن عليه من الإيمان والهدى، إنَّك أنت كثيرُ الفضل والعطاء.

٩ ـ ويقول الراسخون في العلم أيضاً: يا ربَّنا إنا نعلم أنَّك جامع الناس للحساب، وفصل القضاء، وتنفيذ الجزاء في يوم القيامة، لا شك فيه أنه كائن؛ إنَّ الله لا يترك ولا يُهمل تنجيز ما وَعَدَ به إذا حان الوقت المُحدَّد الذي قرَّر حصول موعده فيه.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَٰئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ ﴿١٠﴾ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١١﴾ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿١٣﴾ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴿١٤﴾ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾

الحزب

١٠ - إنَّ الذين كفروا برسول الله ﷺ، وجحدوا الحقَّ وأنكروه، لن تدفعَ عنهم أموالهم ولا أولادهم من عذاب الله شيئاً، إن وقع بهم في الدنيا، ولن تدفعه عنهم في الآخرة، وأولئك البعداء المنحطون إلى جهة الدرك الأسفل من النار، هم حَطَبُ جهنم تشتعل بهم يوم القيامة.

١١ - إنَّ عادة هؤلاء الكفار في تكذيب رسول الله ﷺ وجحود الحقّ واستحقاق العذاب كعادة آل فرعون، والذين سبقوا فرعون من كفّار الأمم الماضية، مثل عاد وثمود وغيرهم، كذَّبوا بآياتنا الكونيّة والبيانيّة والإعجازيّة والجزائيّة العقابيّة، فأخذهم الله بسبب تكذيبهم أَخْذَ إهلاك شاملٍ مقْرونٍ بعذابٍ شديد، والله شديد العقاب لمن جَحَدَ الحقَّ وأنكره، وكذَّب رسلَه.

١٢ - قل - يا رسول الله - لليهود الذين دعوتهم إلى الإسلام، فتمرَّدوا عليك بنقض العهد، ومُمَالأة قريش عليك: ستُغلبون في معارك القتال الدنيويَّة بيننا وبينكم كما غُلب المشركون يوم بدر، وستُجمعون في الآخرة وتُساقون إلى نار جهنم؛ لتكون فراشاً لكم، وبئس ما مَهَّدتموه لأنفسكم في النار.

١٣ - قد كان لكم عبرةٌ ودلالةٌ على صدق ما أقولُ أنكم ستُغلبون، في فرقَتَيْن التقتا يوم بدر مُتقاتلَتَيْن: فرقة مؤمنة تُقاتل لإعلاء كلمة الله وطلب مرضاته، وهم رسول الله وأصحابه، وفرقة أخرى كافرة تُقاتل في سبيل الطاغوت، وهم مشركو مكة، يَرَوْنَ المسلمينَ مِثْلَيهم قرابة ألفين، رؤيا حسِّيَّة حقيقيَّة بصريّة؛ ليجبنوا، فيكون ذلك سببَ خذلانهم، وليؤيِّد الفئة المؤمنة بنصره، والله يُقوِّي بنصره من يشاء، فاعتبروا؛ إنَّ في مشاهدة هذه الحادثة التي كانت في غزوة بدر، وما كان من نصر الله للمؤمنين، وهم الفئة القليلة عدداً وعُدَّة، على المشركين وهم الفئة الكثيرة عَدَداً وعُدَّة، عبرة يعتبر ويتَّعظ بها أصحاب العقول والبصائر.

١٤ - جَعَل الله تعالى الدنيا دار ابتلاء وامتحان، وَحَسَّن للنَّاس حُبَّ الشَّهوات المختلفات المتباينات من هذه الأصناف الستة: **الصنف الأول**: حبُ النساء، فحبُهنَّ فطريٌ في الطبيعة الإنسانيَّة مُسْتَكِنٌّ فيها، **والصنف الثاني**: حُبُ البنين؛ لأنهم يَرَوْن في كثرتهم نصراً وفخاراً، **والصنف الثالث**: حبُّ الأموال الكثيرة من الذهب والفضة؛ لأنَّ المال الكثير هو السبيل إلى طلب ملاذِّ الحياة الدنيا وإشْباعِ الحاجاتِ منها، **والصنف الرابع**: حبُّ الخيل الراعية في المروج، المُعَلَّمة بعلامة تجعلها حسنة المنظر، ويدخل في الخيل المسوَّمة كلُّ ما يُقتنى للمباهاة والزينة، أو لأغراض القوة على إطلاقها، ومنه السيَّارات والطيَّارات، **والصنف الخامس**: حبُّ الأنعام من الإبل والبقر والغنم، يتَّخذ منها مَطْعماً ومركباً وزينة، ويدخل في الأنعام كلُّ ما يُقتنى للتجارة والكسب، **والصنف السادس**: حبُّ الزرع والغراس، واستثمار الأرض، ويدخل في حبِّ الحرث كل ما يُقتنى للاعتمار والإيجار، ومنه: المصانع والمعامل، ذلك الذي ذكر من هذه الأصناف الستَّة التي حُبِّبت إلى النفوس هي مَتاعٌ يُسْتَمْتَعُ به في الحياة الدنيا، وهي زائلةٌ فانيةٌ، مَشُوبة بالمنغِّصات، واللَّهُ عنده حُسْنُ رجوعٍ إليه، ومكانٌ حسن، ويومٌ حسن، تَنْقلبون وترجعون إليه في الجنة، فهي الأحقُّ بالرغبة فيها لبقائها دون المتَع الفانية.

دلَّت هذه الآية على أنَّ حُبَّ هذه الشهوات متى كان سبباً في الحرص عليها، والإكثار منها، فهو خطأ وضرر مُحقَّق، فإذا زُيِّن ذلك للإنسان، كان أشدَّ ضرراً، والغرضُ من الآية: تجاوز الحدِّ المعقول من شهوات الدنيا، فإنَّ تجاوزَهُ يجعل الدنيا هي الغاية مع أنها وسيلة فقط. وهذه الشهوات في صورتها الطبيعيَّة الملتزمة بحدود الله، هي مُزيَّنة من عند الله، وفي صُورتها الفاحشة، غير الملتزمة بحدود الله، هي مُزيَّنة من عند الشيطان. والإشارة في الآية إلى هذا المجال الذي يعمل فيه الشيطان، بتزيين هذه الشهوات بقدر زائد عن الحد، وتخذيل الضوابط الفطريَّة عن العمل وتخديرها أمام دوافع الشهوات القويَّة، حتى تخفَّ قبضتها، فيتسنَّى للشهوات أن تنطلق بلا ضابط.

١٥ - قل - يا رسول الله ويا كلَّ داعٍ إلى الله من أمَّته -: أَأُخبركم بخير من الذي ذُكِر من متاع الدنيا الزائل؟ لمن راقب الله وخاف عقابه، وامتثل أوامره، واجْتنب نواهيه؛ جَنَّاتٌ كثيرات عظيمات تجري من تحت قصورها وأشجارها الأنهار، خالدين فيها، ولهم فيها أزواج مُطهَّرات من كلِّ أنواع الدنس الحسِّيِّ كالبول والحيض، والمعنوي كالكذب وسوء الخُلُق، ولهم أعظم من ذلك: رضوانٌ عظيم من الله، لا سخط بعده أبداً، وأيُّ نعيم أكبر من ذلك الرضوان؟ والله سبحانه عليمٌ بأحوال العباد علمَ مَنْ يُبصر ويرى، فهو يعلم دقائق أحوالهم، وخفيَّ أمورهم، وخلجات قلوبهم، وسيجزي المحسن الذي يُؤْثر ما عند الله على شهوات الدنيا إحساناً، ويجزي المسيء الذي يُؤْثر الدنيا على ما عند الله خُسراناً.

ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّۦنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾

١٦ ـ هؤلاء العبادُ المتَّقون الذين استحقُّوا ذلك الجزاء الكريم من ربِّ العالمين، يقولون: ربَّنا إنَّنا صدَّقنا بك، واتَّبعنا رسولك محمداً ﷺ، فاسْتُر علينا ذنوبَنا، وتجاوز عنا، ونجِّنا من عذاب النار.

١٧ ـ هؤلاء المُتَّقون هم الذين اتَّصفوا بهذه الأوصاف الخمسة: **الوصف الأول:** الصَّبر على أداء الواجبات، وعن المُحرَّمات والمنهيات، وعلى ما يصيبهم من أقدار الله المُؤلمة، **والوصف الثاني**: الصِّدق في أقوالهم وأفعالهم ونيَّاتهم، **والوصف الثالث**: دوام الطاعة والمواظبة عليها، والإذعان المطلق للّهِ سبحانه دون تَمَلْمُل ولا تبرُّم، **والوصف الرابع**: إنفاق أموالهم في طاعة الله سراً وعلانية، **والوصف الخامس**: الدعاء والاستغفار آخر الليل قبل طلوع الفجر؛ لأن الدعاء في هذا الوقت أقرب إلى الإجابة؛ إذ العبادة حينئذ أشقُّ، والنفس أصفى، والقلب أجمع.

١٨ ـ بيَّن الله تعالى وأظهر أن لا معبود بحقٍّ إلا هو، بما بيَّن من عجائب مصنوعاته وغرائب مُبْتَدَعاته، وأقرَّ الملائكةُ وأهلُ العلم من الأنبياء والمؤمنين المتحقِّقين بعلم ظواهر الحياة الدنيا وبواطنها ودلالاتها على الربِّ الخالق، وعظيم صفاته، حال كونه قائماً بتدبير خلقه بالعدل، لا معبود بحقٍّ إلا هو، القويُّ الغالب الذي لا يُقْهَر، الحكيم في جميع أفعاله.

١٩ ـ إنَّ الدينَ المَرضيَّ عند الله تعالى الذي اصْطَفَاه للناس، والذي يقبله الله سبحانه ولا يقبل غيره هو الإسلام، وهو الاستسلام والانقياد إليه، والدخول في طاعته سبحانه، والإخلاص له، واتِّباع الرسل فيما بعثهم الله به في كل حين، حتى ختمهم بمحمد ﷺ، وما اختلف الذين أُوتوا الكتاب من اليهود والنصارى في نبوَّة محمد ﷺ إلا من بعد جاءهم بيانُ نعتِهِ وصفتِهِ في كتبهم؛ حَسَداً وطلباً للملك والرئاسة، ومن يُصِرُّ على كفره من اليهود والنَّصارى، ويَجْحَدُ نبوَّة محمد ﷺ، فإنَّ الله مُحاسبه ومعاقبه، والله سريعُ الحساب لا يحتاج في إصدار أحكامه إلى أناةٍ ورويَّةٍ، حتى يُحصي أجزاء ما يحكم به، لا يخفى عليه شيء من أعمال عباده، وسيجزيهم بما كانوا يعملون.

٢٠ ـ فإنْ خاصَمَك ـ يا رسول الله ـ أهل الكتاب ومَنْ لفَّ لفَّهم، وسَلَك مَسْلكهم في الدِّين، فقل لهم: أخلصت عبادتي لله وحده، وانقدت له سبحانه بقلبي ولساني وجميع جوارحي، وكذلك من اتَّبعني من المؤمنين وأسلمَ كما أسلمتُ، وقل لليهود والنصارى ومشركي العرب: أسْلِموا؟ فإن أسلموا فقد سلكوا طريق الحقِّ، واهتدوا إلى الفوز والنجاة في الآخرة، وإن تولَّوا مدبرين عن الإيمان والإسلام فما عليك إلا تبليغ الرسالة والدعوة إلى الله، وليست وظيفتك تحويل الناس إلى الهداية، فإنهم هم المسؤولون عن أنفسهم، وعن سلوك سبيل الهداية، والله تعالى عالمٌ علمَ مَنْ يبصر بمن يُؤمن وبمن لا يُؤمن، لا يخفى عليه من أمر عبادة شيء.

وهذه الآية من أصرح الأدلة على عموم بعثته ﷺ للخلق كافةً، وقد نطقت بذلك الآيات الكثيرة والأحاديث الصحيحة.

٢١ ـ إنَّ الذين يَجْحدون بآيات الله البيانيَّة والكونيَّة والجزائيَّة والإعجازيَّة، ويقتلون أنبياء الله ظلماً بغير حقٍّ ثابتٍ أو موهوم، فليس لهم عذر في هذا الاعتداء، بل أقدموا عليه وقد استهانوا بمقام النبوَّة، ويعلمون أنهم على باطل، فكان فعلهم إجراماً في باعثه، وفي حقيقته، وموضوعه، ويقتلون دعاة الحق الذين يأمرون بالعدل من أتباع الأنبياء؛ لأنهم يكرهون الحق، ويصمُّون آذانهم عن سماعه، ويتبرَّمون من أهله، فبشِّرهم ـ يا رسول الله ـ متهكِّماً بهم بعذاب مُؤلم يوم القيامة.

٢٢ ـ أولئك البعداء عن رحمة الله المنحطُّون في الدَّركات الذين بَطَلت أعمالهم، وأصبحت لا تُنتج إلا شراً لصاحبها، كالدابَّة التي تأكل شرَّ الثمار حتى تنتفخ بطنها من سوء ما تأكل، فلا تُحقِّق لهم أعمالهم في الدنيا ما يرجون من انتصار على رسل الله والذين آمنوا معهم، وكذلك بطلت أعمالهم التي عملوها يريدون منها تحقيق منافع أخرويَّة، فلا يقبلها الله منهم؛ لأن شرط قبول الأعمال عند الله أن تكون في طاعته وابتغاء مرضاته، وما لهم حين يقضي الله بتنفيذ عقابه عليهم من ناصرين يحمونهم وينصرونهم، فيكشفون عنهم عذاب ربِّهم.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾ لَّا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾ قُلْ إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾

٢٣ ـ ألم تر ـ أيُها الرائي ـ رُؤيةً فكريةً شبيهةً بالمُشاهَدَة البصريَّة ناظراً إلى اليهود الذين آتاهم الله حظاً من التوراة، يُدعَوْنَ إلى ما جاء في القرآن ليقضيَ بينهم فيما اختلفوا فيه، ثم يتولَّى الرؤساء والعلماء منهم عن حكم الله، لأنه لا يُوافق أهواءهم وشهواتهم، وهم مُعرضون عن الحقِّ بصفة مستمرة.

٢٤ ـ ذلك التولِّي والإنصراف عن الحقّ من اليهود إنما حَصَل بسبب أنهم قالوا: لن تصيبنا النار إلا أياماً قليلة، ثم صدقوا فرية أنفسهم، واتَّخذوها عقيدة من عقائدهم، وغرَّهم في دينهم ما استمرُّوا على افترائه من أكاذيب على ربِّهم جيلاً بعد جيل.

٢٥ ـ فكيف يكون حالهم إذا جمعناهم في يوم عظيم لا شكَّ فيه أنه كائن وواقع، وهو يوم القيامة، وأُعطيت كلُّ نفس جزاء ما كسبت وافياً، ولا ينقص من حسناتهم إن كان لهم حسنة، ولا يُزاد على سيئاتهم.

٢٦ ـ قل ـ يا رسول الله، ويا كلَّ مؤمن ـ: يا الله، يا مالكَ العباد وما مَلَكوا، الذي تنفذ مشيئتُك في مُلْكِك كيف تشاء، لا مَردَّ لقضائِك، لك كمال القدرة، والعزَّة والغنى، تُؤتي الملك والحكم والتمكين في الأرض مَنْ تشاء مِنْ خلقك، وتَسْلب بقوَّةِ الملكَ والحكم والتمكين في الأرض ممَّن تشاء، وتمنحُ العزَّة والقوَّة الغالبة في الدنيا مَنْ تشاء، وتجعل الذلَّة والمهانة على مَنْ تشاء، فما من عزٍّ يناله الإنسان إلا بإعزاز الله له، وما من ذلٍّ ينحدر إليه الإنسان إلا بإذلال الله له. وأعلى أنواع العز: عزُّ الطاعة والقُرب من الله، وشرُّ أنواع الذل: ذلُّ المعصية والبُعْد عن الله. بيدك وحدك كل الخيرات والنعم الدنيويَّة التي تبتلي بها عبادك بمحض مشيئتك، إنَّك على كلِّ شيء تشاؤه عظيم القدرة، لا يعجزك شيء أردته.

٢٧ ـ ومن مظاهرة القدرة وتمام الملك والعظمة أنك تُدخل ظلمة الليل في ضوء النهار، بالتتابع شيئاً فشيئاً، فيتتابعُ ذهاب الليل عند تَتَابُع حالات الشروق، وتُدخل ضوء النهار في ظلمة الليل، بالتتابع شيئاً فشيئاً، فيتتابع ذهاب النهار عند تَتَابع حالات الغروب، وتُخرج الحيَّ من ذات الميّت، فتجعلُ الميّت حياً بإدخال الرُّوح في النفس بأمرك التكوينيِّ مباشرة، وتُخرج الميِّت من ذات الحيِّ، فتجعل الحيَّ ميِّتاً بفَصْل الرُّوح عن النفس، وترزقُ من تشاء، رزقاً كثيراً من غير تضْييق ولا تقْتير، ولا عدد وإحصاء.

٢٨ ـ لا يتَّخذ المؤمنون الكافرين أنصاراً وأعواناً من دون إرادة وموافقة سائر المؤمنين، أما حينما يحصل إجماع من المؤمنين على شيء من ذلك لضرورةٍ ألجأت إليه، أو ترى القيادة الإسلامية ـ بعد المشاورة ـ ذلك، فإنَّ الأمر يجوز بمقدار الحاجة إلى المناصرة، ومَنْ يُوالِ الكفار ويُحبُّهم ويَودُّهم، فليسَ هو من ولاية الله في شيء؛ لأن الله إنما يتولى أولياءَه، فمن اتَّخذ أعداء الله أولياء له، فقد أدخل نفسه في مواقع أعداء الله، وأخرجها من مواقع أولياء الله الذين يتولاهم الله بنصره وتأييده، إلا أن تخافوا منهم مخافةً، أو تخافوا من جهتهم أمراً يجب اتِّقاؤه، من الضرر في النفس أو المال أو العرض، وذلك إذا كان الكفار غالبين ظاهرين، أو كنتم في قوم كفار، فيُرخَّص لكم في موالاتهم الظاهرة بحدود الضرورة التي اسْتدعتها، على ألاَّ تنطوي قلوبكم على شيء من مودَّتهم، بل تدارونهم وأنتم لهم كارهون، دفعاً عن نفوسكم من غير أن تستحلُّوا دماً حراماً أو مالاً حراماً أو غير ذلك من المُحرَّمات. ويُخوِّفكم الله أن تعصوه بأن ترتكبوا المنهيَّ أو تُخالفوا المأمور به، أو تُوالوا الكفار فتستحقُّوا عقابه على ذلك، وإلى حكم الله وحده، وفصل قضائه، وتنفيذ جزائه، وإلى المكان الذي يقضي فيه مصير جميع الخلائق في الآخرة.

٢٩ ـ قل ـ يا رسول الله ويا كُلَّ داعٍ إلى الله من أمَّتِهِ ـ للمؤمنين: إنْ تكتُموا ما استقرَّ في قلوبكم من مُوالاة الكفار ومودَّتهم، أو تُظهروا مودَّة الكفار قولاً وفعلاً، يحْفظْه الله عليكم ويُجازِكُم به، وإذا كان تعالى لا يخفى عليه شيءٌ في السموات ولا في الأرض، فكيف يخفى عليه حالكم وموالاتكم الكفار، ومَيْلكم إليهم بقلوبكم؟ والله على كلِّ شيء يشاء إيجادُه أو إعدامه من المُمْكنات العقليَّة عظيم القدرة، ومَنْ يكون بهذه الصفة فهو الحقيقُ بأن يُتَّخذ ولياً، ومن لا يكون بهذه الصفة فليس بوليٍّ.

يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ
مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ
ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ
فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ
﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ
ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ
وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ
سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ
مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا
وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ
وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ
وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ
حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا
زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ
قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾

٣٠ ـ خافوا الله واحذروه، واخشَوْا حسابَهُ وعقابَهُ، وارجُوا ثوابه يومَ تجدُ كلُّ نفس جزاء ما عملت يومَ القيامة من خير مُشاهَداً في الصُّحف ظاهراً، لم ينقص منه شيء، فتُسَرُّ به، وما عملت من سوءٍ ظاهراً ثابتاً واضحاً، وتتمنّى لو أن بينها وبين ما عملت من السوء زماناً بعيداً، ويُخوِّفكم الله نفسَه، فخافوا الله واحذروه، واخشوا حسابه وعقابه، وارجوا ثوابه، والله شديد الرحمة بعباده لا يُعجِّل بعقوبته؛ رغبةً في أن يتوبوا.

٣١ ـ قل ـ يا رسول الله ـ: إن كنتم صادقين في ادِّعاء محبة الله، فاتَّبعوني وأطيعوني، وإن اتَّبعتموني وأطعمتوني يُحبِبْكُم الله، ويسْتُر لكم ذنوبَكم، فاتِّباع الرسول ﷺ لازم من لوازم محبة الله، واتِّباعه شرطُ جزاؤه الظفر بمحبة الله لعبده، ويوجد جزاء آخر لهذا الاتِّباع، وهو غفران الذنوب، وبهذا الغفران تصفو المحبة من مُنغِّصات الخطيئة والمعصية، واللّهُ كثير السَّتْر لذنوب عباده، دائم الرحمة بهم.

٣٢ ـ قل ـ يا رسول الله ـ: أطيعوا الله باتِّباع كتابه، وأطيعوا الرسول باتِّباع سنَّته، فإنْ تولَّوا مدبرين عن طاعة الله ورسوله، فأولئك البُعداء عن رحمة الله هم الكافرون، والله لا يحبُّهم؛ لأنه لا يُحبُّ الكافرين؛ إذْ هم بتولِّيهم وإدبارهم يُبعدون أنفسهم عن مواقع محبة الله، ويقذفون أنفسهم في مواقع سخطه وغضبه وطرده، فلا نصيب لهم من فضله، بل يكون نصيبهم من عدله هو الخلود في عذاب النار خلوداً أبدياً لا نهاية له.

٣٣ ـ إنَّ الله سبحانه اختار وانتقى أبا البشر **آدم**، ومن سلالته عدداً من الأنبياء والمرسلين، منهم شيث وإدريس، واختار **نوحاً**، ومن سلالته عدداً من الأنبياء والمرسلين، منهم هود وصالح، واختار **إبراهيم**، ويلحق بهم آله ومنهم: إسماعيل وإسحاق ويعقوب ومحمد ﷺ، واختار موسى ومعه هارون، ومن ذُرِّيَّة أبيهما **عمران** كلُّ أنبياء بني إسرائيل من بعده، اختارهم سبحانه وفضَّلهم ـ لعلمه بهم ـ على الناس أجمعين.

٣٤ ـ اصْطَفى الله هؤلاء الأنبياء والرُّسل ذُرِّيَّةً بعضُها من ولد بعض، والله سميعٌ لأقوال العباد، عليمٌ بنيَّاتهم. فالله اختار هؤلاء لأداء رسالته، وهي الإسلام، وأنتم ـ يا معشر اليهود ـ على غير دين الإسلام، إذ أمركم باتِّباعه فخالفتم، وأرسل إليكم رسولاً بشَّر به موسى وعيسى، وهو من بيت النبوَّة، ومن ذريَّة إبراهيم، كموسى وعيسى، وقد اصْطفاه الله كما اصطفى مَنْ قبله، فلمَ كفرتم به؟!

٣٥ ـ ضع في ذاكرتك ـ أيُّها المتلقِّي للقرآن ـ ما كان من دعاء امرأة عمران ـ رئيس الربّانيين، وكاهنهم الأكبر ـ حين حَمَلت، فقالت: يا ربِّ إني جعلتُ الحَمْلَ الذي في بَطْني حال كونه نَذْراً خالصاً مُفرَّغاً لعبادتك وخدمة «بيت المقدس»، مُعتقاً من أمر الدنيا، فتقبَّل نَذْري؛ إنَّك أنت وحدك السميعُ لتضرُّعي ودعائي، العليم بنيَّتي وما في ضميري.

٣٦ ـ فلما ولدت حَمْلها قالت مُتحسِّرة حزينة: ربِّ إني وضعتُها أُنثى لا تصلح للخدمة في «بيت المقْدس» ـ والله تعالى أعلمُ بالشيء الذي وَضَعَتْ ـ وليسَ الذَّكَرُ الذي كنت أتوقُّعه كالأنثى التي وَهَبْتَها لي، وهي ليس من وظائفها أن تكون إمامةً مثل أبيها، من الأئمة الربّانيِّين، ومن علماء الدين في الهيكل؛ وإني سمَّيْتُها مريم، وإني أمنعها وأُجيرها بك وذُرِّيتَها من الشَّيطان اللعين الطريد من رحمة الله.

٣٧ ـ فتقبَّل الله تعالى مريم قَبولاً حسناً، وأجرى الأسباب المعروفة عند بني إسرائيل لقَبولها في خدمة الهيكل، وأنبتها ربُّها إنباتاً حَسَناً، فَنَبتت نباتاً حَسَناً، وضمَّها الله تعالىٰ إلى زكريا، وجعله كافلاً لها، ومسؤولاً عن تربيتها ورعايتها، وضامناً لمصالحها، بالقُرعة التي أجروها حينما اختلفوا فيمن يكفلها، وأسكنها في مكان عبادته، وكان كلَّما دخل عليها زكريا مكان عبادتها، وَجَدَ عندها رزقاً هنيئاً مُعَدّاً، وفاكهةً في غير وقتها. قال زكريا عليه السلام: يا مريمُ من أين لك هذا الرزق الطيِّب؟ قالت مريم: هو رزقٌ من عندِ الله، ليس من عند أحدٍ من البشر، إنَّ الله تعالى يرزقُ من يشاء رزقاً كثيراً بغير عدد ولا إحصاء.

هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾

٣٨ - في ذلك المكان الذي جرى فيه هذا الحَدَث الخارق للعادة الذي أكرم الله به مريم، تحرّكت الرَّغبة الشديدة في قلب زكريا إلى الذُّريَّة، وإلى الفيض الإلهيِّ الذي يفيض بالخير والعطاء، ودخل محرابه وسأل ربَّه قائلاً: يا ربِّ أعطني من محض فضْلك الواسع، وقدرتك الباهرة نسْلاً طاهراً مباركاً تقياً صالحاً، إنَّك سميع الدعاء ومُجيبه، لا يخفى عليك دعاءٌ مهما كان خفياً.

٣٩ - فنادته عَقِبَ دُعائه من غير تراخٍ جماعةٌ من الملائكة وهو قائمٌ يُصلِّي في المحراب: بأنَّ الله يخبركَ بخبر يسرُّك، وهو أنك سترزق بولد اسمه يحيى، له أربعة أوصاف: **الوصف الأول**: يُصدِّق بعيسى ابن مريم وبرسالته، **والوصف الثاني**: أنه سيِّد للمؤمنين في الدين والعلم والخُلق، له المنزلة والمكانة العالية، والاستغناء عما في أيدي الناس، **والوصف الثالث**: أنه حصور مُمْتنع عن الوطء مع القُدرة عليه، ترفُّعاً عن الشهوات، وضبطاً لغرائزه بإرادة حازمة، **والوصف الرابع**: أنه نبيٌّ من أولاد الأنبياء الكاملين في الصَّلاح.

٤٠ - قال زكريا مُسْتَعلماً: يا ربِّ كيف يكون لي غلام، وقد وصل إليَّ الكبر، وأدركني الضعف، وامرأتي عقيم لا تلد لكبر سنِّها؟ فأجابه الرسول من الملائكة بقوله: نعم أنت وزوْجك كما ذكرت، هي عاقر لا تُنْجب، وأنت شيخ كبير تعجز عن معاشرة النساء، وجواباً على استفهامك: الله تعالىٰ قادرٌ على هبة الولد على الكبر، يفعل ما يشاء لا يُعجزه شيء، ومشيئتُهُ نافذةٌ لا مَحالة.

٤١ - قال زكريا: ربِّ اجعل لي علامةً أعلم بها وقتَ حَمْل امرأتي؛ فأزيد في العبادة والشكر لك. قال الله تعالى: علامتك على الذي طلبت معرفة علمه أن لا تقدر على تكليم الناس مدَّة ثلاثة أيام بلياليها إلا إشارة إليهم، مع صحَّة الجسم وسلامة الجوارح، واذكر ربَّك كثيراً فإنك لا تمنع من ذلك ولا يُحال بينك وبينه، وعظِّم ربَّك ونزِّهه عن النقائص في المساء ما بين زوال الشمس إلى غروبها، وفي الصباح ما بين طلوع الفجر إلى الضحى.

٤٢ - وضع في ذاكرتك - أيها المُتلقِّي لآيات كتاب ربِّك - قصَّةَ هذا الحَدَث الذي أجراه الله تعالى لمريم عليها السلام، وهو يُنشِّئها تنشئةً تقيةً بارَّةً في «بيت المقدس»، ويحيطها بالعناية والحفظ والعصمة، حين قالت الملائكة: يا مريم إنَّ الله فضَّلك واختارك لسدانة «بيت المقدس»، وطهَّرك من كلِّ رجس فكريٍّ في العقيدة، أو نفسيٍّ في الأخلاق، أو سلوكيٍّ في الأعمال الظاهرة والباطنة، واختارك على نساء العالمين لتكوني أماً لمَنْ لا أب له.

٤٣ - يا مريمُ أخلصي لربِّك العبادة، وأديمي له الطاعة، وأطيلي القيام والسجود في صلاتك منفردة، واركعي مع الراكعين في الجماعة، وانظمي نفسك في جملة المُصلِّين المنقطعين للعبادة والعلم في الهيكل.

٤٤ - ذلك الذي ذكرتُ لك - يا رسول الله - من حديث زكريا ويحيى وعيسى عليهم السلام من أخبار الغيب نُلقيه إليك - يا رسول الله - لأنه لا يمكنك أن تعلم أخبار الأمم الماضية إلا بوحيٍ منا إليك، وما كنتَ - يا رسول الله - هنالك عندهم وقتَ يرمون أقلامهم في الماء الجاري لأجل الاقتراع: أيُّهم يُربِّي مريم ويقوم بمصالحها؟ وما كنتَ هنالك عندهم وقت تنافسهم الشديد على كفالتها وتربيتها. وفي الآية دليل على جواز استعمال القُرعة عند التنازع.

٤٥ - وما كنتَ - يا رسول الله - هناك حين قالت الملائكة وفي مُقدِّمتهم جبريل: يا مريمُ إنَّ الله يُخبركِ بما يسرُّك، بكلمة من كلماته التكوينيَّة التي يتحقَّق بها ما سبق به قَدَرُهُ، كائنةٍ مبتدأة من الله من غير توسُّط الأسباب العادية، وهو ولد يولد لك من غير زوج يقول له: كن فيكون، وذلك الولد اسمه: المسيح عيسى ابن مريم، حالة كونه شريفاً رفيعاً ذا جاهٍ وقَدرٍ في الدنيا والآخرة، وهو من زمرة المقرَّبين عند الله، السابقين في فعل الخيرات والطاعات وأعمال البر والإحسان.

وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّيٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ ۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾



٤٦ ـ وَيُكَلِّمُ النَّاس صغيراً قبل أوان الكلام، وهو في المهد مُبشِّراً بنبوَّته ورسالته القادمة، ومُثبتاً براءة أمِّه وطهارتها، ويُكلِّمُ الناس في حال الكهولة التي يستحكم فيها العقل، ويستنبأ فيها الأنبياء، من غير تفاوت بين حال الطفولة، وحال الكهولة، وإنَّه من العباد الصَّالحين المواظبين على النَّهج الأصلَح والطريق الأكمل في جميع أقواله وأفعاله.

٤٧ ـ قالت مريم مُتعجِّبةً من هذا الأمر: من أين يكون لي ولد، ولم يُصبني رجل؟ قال لها جبريل: أنت كذلك، لم يمْسَسْك بشرٌ لا بزواج ولا بغيره، يخلق الله منك ولداً على غير نظام الأسباب التي وضعها سبحانه، فيجعله آية للناس وعبرة، يخلق ما يشاء ويصنع ما يريد، إذا أراد شيئاً فإنما يُوجدُه بأمر التكوين، ويقول له: كن فيكون موجوداً ضمن الموجودات، ويحدث فوراً بلا مهلة.

٤٨ ـ ويُعلِّمه سبحانه أربعة أمور: **الأول**: الكتابة والخط باليد، والعلم وأحكام الشرائع، **والثاني**: الإصابة في القول والعمل، ووضع الأشياء في مواضعها، سواءٌ أكانت في المعرفة الفكريَّة، أم في السلوك الظاهر والباطن، **والثالث**: يعلِّمه التوراة التي أُنزلت على موسى عليه السلام، **والرابع**: يُنزِّل عليه ويُعلِّمه الإنجيل.

٤٩ ـ ونبعثه رسولاً إلى بني إسرائيل الضالِّين، فلما بُعِثَ إليهم قال: إني قد جئتكم بعلامة من ربِّكم تدلُّ على صدق قولي، وهذه المعجزة الخارقة للعادة لها خمس ظواهر: **الأولى**: أني أُصوِّر وأُقدِّر لأجل تصديقكم بي من الطين كصورة الطير، فأنفخ في الطين المُهيَّأ المُصوَّر فيكون طيراً بتكوين الله وتخليقه، **والثانية**: أني أشفي الأكْمَهَ الذي وُلِدَ أعمى، **والثالثة**: أني أشفي الأبرصَ الذي به وَضَح، **والرابعة**: أني أحيي الموتى بإذن الله، **والخامسة**: أني أخبركم الخبر العظيم بما تأكلون ممَّا لم أعاينه، وما ترفعونه فتخبِّئونه في بيوتكم لتأكلوه فيما بعد ذلك. إنَّ في ذلك الذي تقدَّم ذكره من خلق الطير من الطين بإذن الله، وإبْراء الأكمَه والأبرص، وإحياء الموتى، والإخبار عن المُغيَّبات بإعلام الله إيَّاي، لعلامةً برهانيَّةً لكم، تشهدونها فتدلكم على صدق نبوَّتي إن كنتم مُستعدِّين مُستَقبلاً لأن تؤمنوا بما جئتكم به من عند الله ربِّكم.

٥٠ ـ وجئتُكم مُصَدِّقاً لما أنزل الله قبلي من التوراة الصحيحة غير المحرَّفة، ولأُحِلَّ لكم بوحي من الله بعضَ الذي حُرِّم عليكم في شريعة موسى بسبب ظلمكم وقسوتكم تخفيفاً ورحمة، وجئتكم بآيةٍ بيانيةٍ من ربِّكم، وهي الإنْجيل الذي آتاني إيَّاه، لِتَتَّبعوه مؤمنين به، ولتنتفعوا بما جاء فيه من حكم ومواعظ، ووصايا وبيانات نافعات، فاتَّقُوا عقاب الله ـ يامعشرَ بني إسرائيل ـ فآمنوا بي، ولا تكفروا بما جئتكم به، وأطيعونِ فيما أدعوكم إليه؛ لتكونوا من الفائزين بالخلود في جنات النعيم.

٥١ ـ إنَّ الله الذي أرسلني هو ربِّي وربكم الذي خلقني وخلقكم، وأمدَّنا دواماً بعطاءاته، فاعبدوه، فأنا وأنتم سواء في العبوديَّة والخضوع له، هذا الذي آمرُكم به من اتِّقاء عذاب الله، وطاعتي، وعبادة ربكم بالإيمان والعمل بما أُبلِّغكم به هو الطريق الذي لا اعوجاج فيه عن الحقِّ والخير والفضيلة، الذي يُوصلكم إلى رضوان الله والخلود في جناته.

٥٢ ـ فلمَّا علم عيسى علماً يقيناً وتحقَّق منهم إصرارهم على الكفر، وعَزمهم على قتله، قال عيسى عليه السلام: من الذين ينصُرونني، ساعين إلى بلوغ مرضاة الله، بالجهاد الدعويِّ في سبيله، مُبلِّغين دينه مهما تلقَّوا من أذىً واضطهاد؟

قال أصفياء عيسى عليه السلام وخاصَّتُه: نحن أنصار دين الله بصدق وإخلاص وتضحية، صدَّقنا بأنَّ الله ربُّنا وربُّ كلِّ شيء، وأسلمنا له، واعلم ـ يا عيسى ـ علماً مُنبعثاً من المُعاينة والمُشاهَدة بأنا مُسْتَسْلمون لأمر الله، منقادون لما تريد من نصرك والدفاع عنك.

رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾

٥٣ ـ قال أصفياء عيسى وخاصَّته: ربَّنا آمنا بكتابك الذي أنزلته على عيسى، واتَّبعنا رسولك، مطيعين لأوامره ونواهيه، وقمنا بالدعوة إلى دين الله، فَأَمِدَّنا بالعون والتوفيق للقيام بهذه الوظيفة التبليغيَّة، حتى تكتبنا مع الشَّاهدين، الذين يشهدون على الناس يوم الدين، بأنَّهم بلَّغوهم دينك، والتعليمات التي جاء بها رسولك، فأثبت أسماءنا مع أسمائهم، واجعلنا في عدادهم ومعهم فيما تكرمهم به.

٥٤ ـ وسعىٰ كفار بني إسرائيل بالفساد في الخِفْيةِ، ودبَّروا قتل عيسى غيلةً، فأحبط الله تعالى تدبيرهم، بإلقاء الشَّبَه على صاحبهم الذي دلَّهم على عيسى حين أرادوا قتله، ورفعه إلى محلِّ كرامته، والله خيرُ الماكرين، وأفْضَلُ المُجازين، وأقْدرهم على العقاب من حيث لا يشعر المُعَاقَب.

٥٥ ـ وضع في ذاكرتك ـ أيها المُتلقِّي لبياننا ـ حين قال الله لعيسىٰ: إني فاصلٌ بين رُوحك المُمِدَّة لك بالحياة، وبين نَفْسك بالنوم العميق الذي تنفصل فيه الرُّوح انفصالاً جزئياً تنعدم به الحركة الإراديَّة، ورافعُك من الأرض إلى السَّماء بروحك وجَسَدك، ومُطهِّرك من أرجاس أيدي الذين كفروا ونفوسهم القذرة، وعاصمك من أن يقتلوك، أو يُعذِّبوك، وجاعل الذين اتَّبعُوك مؤمنين بك إيماناً صحيحاً، وعاملين بأحكام الشريعة التي أوصَيْت بالعمل بها، فوق الذين كفروا بك سعادة وقلباً مطمئناً، وذِكْراً حسناً، ومنزلةً في القلوب إلى يوم القيامة. وينطبق هذا على الذين كانوا على التوحيد من الذين قالوا: إنا نصارى قبل بعثة محمد ﷺ، أما بعد بعثته فمتَّبعُو عيسى هم الذين آمنوا بمحمد ﷺ الذي بشَّر به عيسى واتَّبعوه، ثم بعد انتهاء زمن ابتلائكم في الحياة الدنيا، تموتون؛ ثم تبعثون؛ لتلاقوا حسابَ ربكم، وفصلَ قضائه، وفيه يكون مرجع الفريقين في الآخرة: الذين اتَّبعوا عيسى وصدَّقوا به، والذين كفروا به، فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون من الحقِّ في أمر عيسى عليه السلام.

٥٦ ـ فأمَّا الذين جحدوا نبوَّة عيسى وخالفوا مِلَّته، وقالوا فيه ما قالوا من الباطل، ووصفوه بما لا ينبغي من سائر اليهود والنصارى، فأُعذِّبهم عذاباً شديداً في الدنيا بالقتل والسَّبْي والذلَّة وأَخْذِ الجِزْية منهم، وأُعذِّبهم في الآخرة بالنار، وما لهم حين يقضي الله بتنفيذ عقابه عليهم من مانعين يمنعونهم من عذابنا.

٥٧ ـ وأمَّا الذين آمنوا بعيسى وصدَّقوا بنبوَّته، وأنَّه عبدُ الله ورسولُه وكلمتُه ألقاها إلى مريم وروحٌ منه، وعملوا بما فَرضْت عليهم وشَرَعتُ لهم، فيعطيهم الله جزاءَ أعمالهم كاملاً لا ينقص منه شيءٌ، واللَّهُ لا يُحبُّ الظالمين الذين يضعون العبادة في غير موضعها، ومَنْ جَعَل نفسه بإرادته في زُمْرة الذين لا يحبُّهم الله، فقد جعلها عُرضةً لنقمته وعذابه الشديد.

٥٨ ـ ذلك الذي ذكرتُه لك من أخبار عيسى وأمِّه مريم والحواريين نُخبرك به ـ يا رسول الله ـ على لسان جبريل، من العلامات الدالاَّت على صحَّة نبوَّتك، وصحَّة القرآن المُحكم في لفظه ومعانيه، وفيما اشتمل عليه من أخبار نُوحيها إليك.

٥٩ ـ إنَّ شأن خلقِ عِيسى عند الله في كونه خلقه من غير أب، كشأن آدم في كونه خلقه من غير أبوين؛ بل شأن آدَمَ أعجبُ حيث خلقه من ترابٍ، وقدَّره سبحانه جَسَداً من طين، ثمَّ أنشأه خلقاً بكلمة كن فيكون. فمن آمن بقدرته تعالى في خلقه آدم من تراب، كيف لا يؤمن بها في خلقه عيسى ابن مريم من غير أب! وإذا ادَّعى النَّصارى أن عيسى عليه السلام هو الله، أو ابن الله، أو ثالث ثلاثة، لشبهة أنه ولد من أم بلا أب، فإن آدم أحرى بذلك منه، فقد خلقه الله من التراب مباشرة من غير أبٍ ولا أم، وإذ يوافق النصارى على أن هذا في آدم باطلٌ، فحُجَّتهم في عيسى أشدُّ بطلاناً؛ لأنَّ وجودها في عيسى أضعف من وجودها في آدم.

٦٠، ٦١ ـ الذي أخبرتُك به في أمر خلق عيسى من غير أب، وخلق آدم من طين، وكون هذا التكوين بإرادة مختارة، لا قَيْد يُقيِّدُها، هو الحقُّ الثابت من ربِّك، فلا تكن من الشَّاكِّين الذين يدفعهم الشك إلى المراء والمُجادلة المبنيَّة على الأوهام، واثبُت على يقينك وطُمأنينتك. فَمَنْ جَادَلَكَ ـ يا رسول الله ـ في عيسى عليه السلام وكوْنه إلهاً أو ابن إله وغير ذلك من التُّرهات الباطلة، من بعدما جاءك من العلم بأنَّه عبدُ الله ورسولُه، فقل: هلمُّوا يَدْعُ كلُّ واحدٍ منا ومنكم أبناءه ونساءه ونفسه، ويتلاقى جَمْعُنا وجَمْعُكم، ثم نجتهد ونبالغ في الدعاء مُتَّجهين إليه سبحانه بقلوبنا، فنجعل لعنةَ الله وطرده من رحمته مُسلَّطاً ومُنْصباً على الكاذبين منا ومنكم في أمر عيسى، المُصرِّين على عنادهم، المنحرفين في اعتقادهم.

إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾ وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾

٦٢ ـ إنَّ هذا الذي قُصَّ عليك ـ يا رسول الله ـ من خبر عيسى عليه السلام لهو وحده القصص الثابت الذي لا مجال فيه لإنكار منكر، ولا لتشكيك مُتشكِّك، وما من معبود يستحقُّ العبادةَ إلا الله وحده، وأنَّ الله لهو القويُّ الغالب المنتقم ممَّن عَصَاه وخالف أمره، وادَّعى معه إلهاً آخر، الحكيم في تدبيره.

٦٣ ـ فإن تولَّوا منصرفين عن الإيمان ولم يقبلوه، فهم المفسدون الذين يعبدون غير الله، ويدعون الناس إلى عبادة غيره، والله عليمٌ بهم لا يتركهم يعيثون في الأرض فساداً، بل سَيُعاقبهم ويجازيهم على فسادهم.

٦٤ ـ قل ـ يا رسول الله ـ لأهل الكتاب عامَّةً من اليهود والنصارى: يا أهل الكتاب الذين حرفتم في كتابكم الكلم عن مواضعه، وانحرفتم عن مبادئه، وفرَّقتم أحكامه، وتفرَّقتم في فهمه: هلمُّوا إلى كلمة فيها إنصاف وعدل نلتقي فيها معكم، مُستوية بيننا وبينكم، لا يَختلف فيها التوراة والإنجيل والقرآن، وهي: أنْ نَخُصَّ الله وحده بالعبادة، ولا نتَّخذ أيَّ شريك معه في ربوبيَّته ولا في إلهيَّته، ولا نطيع أحبارنا ورهباننا فيما أحدثوا من التحريم والتحليل، فإن تولَّوا مدبرين عمَّا أمرتهم به، فقولوا ـ أيها المؤمنون ـ لهؤلاء: اشهدوا بأنا مخلصون بالتوحيد لله والعبادة له.

٦٥ ـ يا أهلَ الكتاب من اليهود والنصارى: لِمَ تُجادلون في إبراهيم، مُقدِّمين في جدالكم الحُجَجَ الباطلة؛ إذْ يزعُمُ اليهود منكم أنه كان يهودياً، ويزعُمُ النَّصارى منكم أنه كان نصرانياً؟ والحال أنَّ التوراة التي يعتبرها اليهود مصدر اليهودية، والإنجيل الذي هو المصدر الأول للنصرانيَّة، لم ينزلهما الله إلا من بعد إبراهيم بزمانٍ طويل، أَفَتُصِرُّونَ ـ يا معشر اليهود والنصارى ـ على البُهتان المبين المفضوح، فلا تعقلون عقلاً علمياً حقيقة ما تفترونه، ولا تعقلون نفوسَكم عقلاً إرادياً عن اتِّباع الهوى والمُكابرة في الباطل بعنادٍ ووقاحةٍ وسفاهة؟

٦٦ ـ ها أنتم ـ يا معشر اليهود والنصارى ـ جادلتم جدالاً باطلاً فيما لكم به أصلُ علم يُسوِّغ لكم أن تُجادلوا بشأنه، مُتَّخذين ذرائع تُمكِّنكم من أن تُراوغوا بها، مُتأوِّلين بها نصوصَ التوراة والإنجيل كما يحلو لكم، ويُحقِّق لكم ما تريدون من مَتَاعاتِ الحياة الدنيا، فلم تتَّخذون الجدال وتقديم الحُجج الباطلة دَيْدَنَكُم، حتى في القضايا التي تجهلونها، وليس لكم بها علمٌ مطلقاً؟! والله يعلمُ كلَّ شيء، فيعَلَمُ ما تُضْمِرُهُ نفوسُكُم، وما تَسْتَخفونَ به عن أعين النَّاس، وما تقْصدونه من جدليَّاتكم بالباطل، وأنتم لا تعلمون مقْدار ما أخفاه لكم من عذابٍ أليم، يُنزله بكم يومَ الدين جزاءَ كفركم.

٦٧ ـ لم يكن إبراهيم عليه السلام يهودياً ـ كما يزعم اليهود ـ، ولا نصرانياً ـ كما يزعم النصارى ـ، ولكنه كان مائلاً عن الأديان الباطلة كلِّها إلى الدين المستقيم وهو الإسلام، مُوحِّداً مُنقاداً لطاعته سبحانه، وما كان من المشركين أيَّ شرك في ربوبيَّته وإلٰهيَّته.

٦٨ ـ إنَّ أخصَّ النَّاس بإبراهيم وأَقْرَبَهم منه وأحقَّهم بالانتماء إليه وموالاته ومناصرة ملَّته التي كان عليها، للَّذين اتَّبعوه من الرُّسل والأنبياء، كإسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسُف عليهم السلام، وكالمؤمنين الصادقين من بني إسرائيل، وإنَّ أَوْلى الناس بولاية إبراهيم بعد بعثةِ محمدٍ ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين، هذا النبيُّ محمد ﷺ، والذين آمنوا من هذه الأمة المسلمة، والله سبحانه وليُّ المؤمنين الصَّادقين بالنصر والمعونَة.

٦٩ ـ تمنَّتْ جماعةٌ من اليهود لو يخرجونكم ـ أيها المؤمنون ـ عن دينكم ويردُّونكم إلى الكفر، وما يُضلُّون إلا أنفسهم، لأنَّ المؤمنين لا يقبلون قولهم، ولا تُؤثِّر فيهم وسائلهم المُضلَّة، فيحصل عليهم الإثم بتمنِّيهم إضْلال المؤمنين المهتدين، وما يشعرون أنَّ وبال الإضلال يعود عليهم؛ لأن العذاب يُضاعف لهم بسبب ضلالهم وتمنِّي إضلال المسلمين.

٧٠ ـ يا أهلَ التوراة والإنجيل: لِمَ تَجْحَدون آيات الله الواردة في التوراة والإنجيل من نعت محمد ﷺ وصفته، وأنتم تعلمون صدق الرسول علماً يقينياً كعلم المُشاهَدَة والعيان، بما أخبر به كتابكم وتشهدون كذلك كل يوم الدلائل الصَّادقة التي تُثبت الرسالة المحمديَّة؟

يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٧١﴾ وَقَالَت طَّآئِفَةٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجۡهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكۡفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤۡمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمۡ قُلۡ إِنَّ ٱلۡهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤۡتَىٰٓ أَحَدٞ مِّثۡلَ مَآ أُوتِيتُمۡ أَوۡ يُحَآجُّوكُمۡ عِندَ رَبِّكُمۡۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ﴿٧٣﴾ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ۞ وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مَنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِقِنطَارٖ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ وَمِنۡهُم مَّنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِدِينَارٖ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ إِلَّا مَا دُمۡتَ عَلَيۡهِ قَآئِمٗاۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لَيۡسَ عَلَيۡنَا فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٞ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿٧٥﴾ بَلَىٰۚ مَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٧٧﴾

٧١ - يا أهل التوراة والإنجيل: لِمَ تُحرِّفون التوراة والإنجيل، فتخلطون المحرَّف الذي كتبتموهُ بأيديكم بالحقِّ المنزَّل، وتكتمون نعت محمد ﷺ وصفته في التوراة، وأنتم تعلمون أنه رسول من عند الله حقاً وصدقاً؟

٧٢ - وقالت جماعةٌ من اليهود: ادخلوا في دين محمد وأظهروا الإسلام أوَّل النهار باللسان دون اعتقاد بالقلب، حتى تتمَّ الثقة بكم والاطمئنان إليكم، ثمَّ اكفروا آخر النهار، بعد أمدٍ قصير، وإنا إذا ألقينا هذه الشبهة لعلَّ أصحاب محمد يشكُّون في دينهم، ويقولوا: إنما ردّهم إلى دينهم اطلاعُهم على نقيصةٍ وعيب في دين الإسلام، فيرجعوا إلى الكفر بعد الإيمان.

٧٣ - وقال قادتهم من أحبارهم وعلمائهم لمَن وجَّهوهم للقيام بمكيدة النفاق: ولا تُصدِّقوا منقادين حقاً، مسلمين صدقاً إلا لِمَن وافَقَ ملَّتكم التي أنتم عليها، وهي اليهودية مُتَّبعاً لكم. قل لهم - يا رسول الله -: إن الهدى هدى الله، فليس هُدى موسى أو أحدٍ من بني إسرائيل حتى تتعصَّبوا له تعصُّباً قومياً، والله يصطفي لتبليغ هداه مَنْ يشاء، أترفضون هدى الله الذي أنزله على رسوله محمد حسداً من عند أنفسكم، وكراهية أن يُؤتى أحدٌ من خلق الله مثلما أُوتيتم من اصْطفاء رسل منكم، وإنزال هدى الله عليهم؟ أتكتمون الحقَّ الذي عندكم عن المسلمين وأنتم تعلمونه؛ خشية أن يُحاجُّوكم عند ربكم، أليس اللَّهُ عليماً بكلِّ ما تُعلنون وما تُسرُّون؟ قل - يا رسول اللَّه - : إنَّ التوفيق للإيمان والهداية للإسلام، والاختصاص بالنبوَّة بيد الله، يُؤتي الفضل مَنْ يشاء من عباده، ويُوفِّق مَنْ أراد من خلقه، والله ذو سَعَةٍ يتفضَّل على مَنْ يشاء، عليمٌ بمن يتفضَّل عليه وهو للفَضل أهلٌ.

٧٤ - يختصُّ بنبوَّته ورسالته مَنْ يشاء من خلقه بمقتضى علمه وحكمته، والله ذو الفَضْل العظيم. فإذا كان بنو إسرائيل وأشباههم قد ضنُّوا على بني إسماعيل أن تكون فيهم النبوَّة الكبرى الخاتمة للنبوَّات، فذلك ممَّا اختصَّ الله به سبحانه بعض عباده بالرحمة، وليس لأحد أن يعترض على الله، فإنَّ فضله على من اختصَّه عظيم، وفضله على مَنْ لم يمنحه هذا النوع من الرحمة عميم، فلا عظمةَ تساوي عظمة فضل الله تعالى على خلقه، فالاختصاص النوعيُّ لبعض الرحمات لا يُعارضه عموم الفضل على خلقه.

٧٥ - وفريقٌ مِنْ أهل الكتاب من اليهود مَنْ يُؤدِّي الأمانة وإن كثُرت، وفريقٌ منهم من لا يُؤدِّيها وإن قلَّت، إلا أن تقوم عليه وتطالبه بالإلحاح والخصومة والملازمة، وسببُ ذلك الاستحلال والخيانة من اليهود أنهم يقولون: ليس علينا في خيانة غير اليهود من الأمم الأخرى، وفي أكل أموالهم بالباطل حَرَج، ولا تتوجَّه علينا سبيل من سُبل المُؤاخذة أو العتاب، ويقول اليهود على الله الكذب، وهم يعلمون أنهم كاذبون على الله في هذا. فالإدانة بالكذب إنما تكون مع علم المتكلِّم بأنَّ ما يقوله كلام كذبٌ مُخالف للواقع أو لما يعتقد.

٧٦ - ليس الأمر كما زعمتم، بل عليكم في الأميين سبيل، وأنتم مُعذَّبون فيما تُجرمون بشأنهم، ومُثابون إنْ أوفيتم بعهدهم، فمن أوْفى بعهد الله الذي عهد إليه في التوراة من الإيمان بمحمد ﷺ، وبالقرآن الذي أُنزل عليه، وبأداء الأمانة إلى من ائتمنه عليها، واتقى الكفرَ والخيانةَ ونقضَ العهد، فإنَّ الله يحبُّ المتقين المُمْتَثلين لأوامره، والمُجْتنبين لنواهيه، ويُثيبهم على تقواهم، ويُدخلهم جنَّات النعيم؛ لأنَّ من أحبَّه اللَّهُ أكرمه، وأدخله في رحمته.

٧٧ - إنَّ الذين يبذلون عَهْد الله وأيْمانهم كاذبين مقابل ثمنٍ قليل من مَتَاع الحياة الدنيا يحصلون عليه، أولئك البُعَداء عن رحمة الله لا نصيبَ لهم في الآخرة، ولا حظَّ لهم في نعيمها، ولا يُواجِهُهم الله بالخطاب عند الحساب، بل يحاسبهم كخطاب الغائب إعراضاً عنهم؛ ولا ينظر إليهم يوم القيامة نظر رحمة؛ لأنهم لا يستحقون ذلك، لعظم جريمتهم، إذْ كفروا برسول الله وبما أنزل عليه، وهم يعلمون أنَّ ما كفروا به حقٌّ وصدق، ولا يُطَهِّرهم من دنس الذنوب، ولا يُثني عليهم بجميل، ولهم عذابٌ مُؤلم في الآخرة جزاءَ كفرهم وعدم وفائهم بعهد الله، وجزاء استهانتهم بالأيْمان التي حلفوها، ووثَّقوا بها العهود التي أعطَوْها للَّهِ عزَّ وجلَّ على أن يؤمنوا بالرسول الخاتم ويتَّبعوه.

وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ ۚ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ۖ قَالُوا أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٨٢﴾ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾

٧٨ ـ وإنَّ من اليهود لجَمَاعةً يُميلون ألسنتهم بالكتاب بالتحريف والتغيير والتبديل، فيخلطون المدسوس الذي هو من افترائهم بالأصل الصحيح؛ لتظنُّوا أنَّ الذي حرَّفوه وبدَّلوه من الكتاب الذي أنزله الله على أنبيائه، وما هو منها في شيء، ويقولون: هذا من عند الله أوحاه الله إلى نبيِّه موسى، وما هذا الذي يقولونه ويُغيِّرونه من عند الله، ويقولون على الله الكذب، وهم يعلمون ذلك من أنفسهم. فهؤلاء اليهود يقولون كلاماً كذباً، وهم يعلمون أنه كذب، فهم كاذبون مُدانون بالافتراء.

٧٩ ـ ما ينبغي لبشرٍ أن يُؤْتِيَه الله الكتابَ، ويجعله حكماً بين خلقه، ويختاره نبيّاً، ثم يقول للناس ـ مع ما آتاه الله ـ: كونوا عباداً لي من دون الله، وكيف يدعو الناس إلى عبادة نفسه من دون الله، وعبادة غير الله، واتِّخاذ أرباب مع الله، وقد آتاه الله ما آتاه، واصْطفاه ليأمر الناس بالإيمان لا بالكفر؟ ولكن يقول لهم: كونوا علماء فقهاء حُكماء مُعلِّمين للناس الخير، ومواظبين على طاعة الله وعبادته، بما كنتم تُعلِّمونه غيركم من وحي الله، وما كنتم تدرسون من كتاب الله قراءةً وحفظاً وفقهاً، وهي تدعوكم أن تُتْبعوا العلم بالعمل والتطبيق، لا أن تستغلُّوا العلم للتلاعب بالدين، وتحريف نصوصه حسب أهوائكم.

٨٠ ـ وما كان لبشر اصْطفاه الله فآتاه الكتاب والحكم والنبوَّة أن يأمركم بعبادة الملائكة وعبادة النبيين من دون الله، أيأمركم بالكفر بعد إذْ أنتم مسلمون؟ فإنه لا يقول هذا ولا يفعله.

٨١ ـ وضع في ذاكرتك ـ أيُّها المُتلقِّي لكلام ربِّك ـ حين أخَذَ الله العهدَ المُؤكَّد على جميع الأنبياء؛ أنْ يُصدِّق بعضهم بعضاً، ويؤمن كلُّ نبيٍّ بمَن يأتي بعده من الأنبياء، وينصره إنْ أدركه، فإن لم يُدركه يأمر قومه بنصرته؛ مهما آتيتكم من كتاب وشريعَة حاكمة، ثمَّ جاءكم محمد ﷺ مُطابقٌ وصْفُهُ وأحوالُهُ لما في كتبكم المُنزَّلة، لتؤمنُنَّ به، ولتنصرنَّه. قال الله تعالى للنبيين: أأقررتم بالإيمان به والنصر له، وأخذتم على ذلك عهدي المُوثَّق؟ قال النبيُّون: أقْررنا بما ألزمتنا من الإيمان برسولك. قال اللَّهُ عزَّ وجلّ للنبيِّين: فاشْهَدوا على أنفسكم وعلى أممكم بالتزام هذا العهد، وأنا معكم ـ يا معشر الأنبياء ـ من الشَّاهدين عليكم وعلى أتباعكم.

وفي الآية دليل على وحدة الرسالات الإلهيّة في مقْصدها وغايتها، وأنَّ كلَّ نبيٍّ مُتمِّمٌ لما بدأ به النبيُّ الذي سبقه، حتى ختم الله أنبياءه بمحمد ﷺ. وإذا كان حقاً على النبيِّ المبعوث أن يؤمن بمَنْ سبقه، ومَنْ يجيئون بعده ممَّن أخبر الله بمجيئهم، فإنه بلا ريب حقٌّ على الذين يتَّبعونه أن يُصدِّقوا ذلك النبيَّ الذي يجيء بعده، فحقٌّ على اليهود والنصارى بمقتضى هذا العهد، وبمقتضى إيمان هؤلاء النبيين أن يؤمنوا بالنبيِّ محمد ﷺ، وإلا ما كانوا متَّبعين لموسى وعيسى عليهما السلام، إنما يكونون متَّبعين لأهوائهم وشهواتهم.

٨٢ ـ فَمَنْ تولَّى مدبراً عن الإيمان بمحمد ﷺ ونُصرته بعد ذلك العهد المؤكَّد الذي أخذه الله على أنبيائه وأممهم، فأولئك البعداء عن رحمة الله هم الخارجون عن الإيمان والطاعة.

٨٣ ـ أفبعدَ أخذ الميثاق والعهد عليهم ووضوح الدلائل لهم يطلبون غير دين الإسلام؟ وله سبحانه وحده خضع وانقاد كلُّ من في السموات والأرض، من الملائكة والإنس والجن، طائعين وكارهين، فالكلُّ تحت قهره وسلطانه، وفي قبضة قدرته وتسخير إرادته، فمن لم يستسلم لأمره التكليفيِّ، انقاد وخضع لأمره التكوينيِّ القَدَري، وإليه وحده مرجعُ الخلق كلهم يوم القيامة، فيحاسب كلاً على ما صنع من خير وشر.

قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾

٨٤ - قل لهم - يا رسول الله، ويا كُلَّ مؤمن به، وبما أنزل الله عليه -: صدَّقنا بالله أنه ربُّنا وإلٰهنا لا إله لنا غيره ولا ربَّ سواه، وصدَّقنا أيضاً بما أُنزل علينا من نصوص بيانيَّةٍ مشتملة على تكاليف ربانيَّة، وما أنزل على إبراهيم خليل الله، وابنَيْه: إسماعيل وإسحاق، وابن ابنه يعقوب بن إسحاق، والذي أنزله على الأنبياء الذين كانوا في قبائل بني إسرائيل الاثنتي عشرة من ولد يعقوب، وما أُوتي موسى وعيسى من التوراة والإنجيل، وما أُوتي النبيُّون من ربِّهم، لا نفرِّق بين أحدٍ وغيرهِ منهم، فنؤمن ببعض ونكفر ببعض، بل نؤمن بجميع الأنبياء، وما أنزله الله عليهم، ونحن له مُوَحِّدون مُخْلصون، لا نجعل له شريكاً في عبادتنا.

٨٥ - إنَّ الدين المقبول عند الله هو دينُ الإسلام، الذي هو الاستسلام لله بالتوحيد والطاعة والعبوديَّة، ولرسوله النبيِّ الخاتم محمد ﷺ بالإيمان به ومتابعته ومحبته، وإنَّ كل دين سواه غير مقبول عنده؛ لأنَّ الدين الصحيح ما يأمر الله به ويرضى عن فاعله ويُثيبُه عليه، ومَنْ يطلب بعد مَبْعثه ﷺ ديناً غير دين الإسلام، وشريعة غير شريعته، فَلَنْ يُقْبل منه ذلك، وهو في الآخرة من الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة؛ إذ صاروا إلى عذاب النار الأبديّ في جهنم.

٨٦ - كيف يحكم الله بالهداية لقوم جَحدوا نبوَّة محمد ﷺ بعد تصديقهم إيَّاه، وإقْرارهم به، وبما جاء به من عند ربِّه، وبعد أن أقرُّوا وشهدوا أنَّ محمداً رسول الله إلى خلقه، وأنَّ ما جاء به حقٌّ وصِدْقٌ، وجاءهم بالحُجَج والبراهين من عند الله الدالَّة على صِحَّة نبوَّتِهِ؟ واللهُ لا يحكم بالهداية للقوم الظالمين الذين عدلوا عن الحقِّ إلى الباطل، فاختاروا بإراداتهم الحُرَّة الكفر على الإيمان.

٨٧ - أولئك الظالمون الذين كفروا بعد إيمانهم، جزاؤهم أنَّ عليهم سخط الله وغضبه، والملائكة، والناس أجمعين من المؤمنين في الحياة الدنيا والآخرة، وكذلك تكون اللعنة عليهم من غير المؤمنين يوم القيامة حينما يكفر بعض الظالمين ببعض، ويلعنُ بعض الكافرين بعضاً، وهذه اللعنة التي يُنزلها يوم القيامة بعضُ الكافرين ببعض، تُضاف إلى اللعنة التي تحلُّ بهم كفاء كفرهم من الله تعالى، ومن الملائكة، ومن مُؤمني الجنِّ والإنس، فهم مطرودون من رحمة الله، مشمولون بلعنته من كلِّ جانب؛ بسبب كتمانهم للحقِّ، وجحودهم له مع معرفتهم به.

٨٨ - خالدين في اللعنة، لا تُزايلهم ولا تنفصل عنهم أبداً، وإذا كان سخط الله دائماً فعذابُه دائمٌ لا يقْبل التخفيف، فلا يرفع عنهم العذاب قليلاً ليستريحوا، ولا يُؤَخَّرون عن وقت العذاب لمعذرةٍ يعتذرون بها، أو ليتمكَّنوا من إصلاح خطئهم، بل يُلاقيهم العذاب حال مفارقتهم للحياة الدنيا.

٨٩ - إلاَّ الذين رجعوا إلى ربِّهم بالتوبة النصوح من بعد ارتدادهم وكفرهم، وضمُّوا إلى التوبة الأعمال الصالحة، فإنَّ الله يقبلها، فهو كثير السَّتر لذنوبهم، دائم الرحمة بهم، يتفضَّل عليهم بالعفو وإعطاء الثواب العظيم في الآخرة.

٩٠ - إنَّ الذين كفروا بالله وسَتَروا دلائل وجوده ووحدانيَّته بعد إقرارهم بأنَّ الله خالقهم، ثم ازدادوا انحطاطاً وتسفُّلاً في دَرَكات الكفر، بزيادة الجُحود والإنكار والمُعَانَدة، وكثرة الطغيان وعمل الشر، واستمرُّوا على كفرهم إلى المَمَات، لن تُقْبل توبتهم حين يحضرهم الموت، وأولئك البُعداء عن رحمة الله هم الذين ضلُّوا عن سبيل الحق، وأخطؤوا طريق الهدى المستقيم، بسبب جهلهم وضياعهم في متاهات الأهواء والشبهات والشهوات.

٩١ - إنَّ الذين كفروا وماتوا على الكفر باللَّهِ ورسوله، فلن يُقْبل من أحدهم قَدر ما يملأ الأرض ذهباً، وكذلك لو افتدى نفسه من العذاب بملء الأرض ذهباً لم ينفعه ذلك، أولئك البُعداء المنحطُّون إلى جهة الدرك الأسفل من النار، الذين ماتوا على الكفر، لهم عذاب مُؤْلم مُوجع، وما لهم من مانعين يمنعونهم من العذاب.

لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ ﴿٩٢﴾ ۞كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلّٗا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ مِن قَبۡلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوۡرَىٰةُۚ قُلۡ فَأۡتُواْ بِٱلتَّوۡرَىٰةِ فَٱتۡلُوهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾ قُلۡ صَدَقَ ٱللَّهُۗ فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكٗا وَهُدٗى لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗاۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعۡمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ تَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَأَنتُمۡ شُهَدَآءُۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٩٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾

٩٢ ـ لن تصلوا إلى مرتبة البرّ في الإنفاق في مرضاة الله حتى تنفقوا من بعض ما تحبُّون من جيِّد أموالكم وأنفَسِها عندكم، وما تُنفقوا من أيِّ شيء كان من طيِّب تحبُّونه أو من خبيثٍ تكرهونه، فإنَّ الله يعلمه ويُجازيكم عليه، فاختاروا لأنفسكم، إذا كنتم تريدون أن تكونوا من الأبرار، وترجون أحسن ما عند الله، فقدِّموا لأنفسكم أحسن ما عندكم.

٩٣ ـ كلُّ الأطعمة الطيِّبة قبل نزول التوراة كانت حَلالاً لأبناء يعقوب، وليس الأمر كما تدَّعي اليهود من تحريم لحوم الإبل على إبراهيم، بل كان ذلك حلالاً، وإنما حرَّم يعقوب على نفسه لحوم الإبل وألبانها لمرضٍ نزل به، وذلك من قبل أن تُنَزَّل التوراة، أما بعد نزول التوراة فقد حرَّم الله تعالى عليهم أشياء كثيرة من أنواع الطعام بسبب ظلمهم وبغيهم. قل لهم ـ يا رسول الله ـ: إذا كانت دعواكم تحريم الإبل في شريعة إبراهيم، فأحضروا التوراة واقرؤوها بإمعان عقب إحضارها حتى يتبيَّن أنَّ الأمر كما قلتم، إن كنتم صادقين فيما ادَّعيتم. وإنكم لو جئتم بالتوراة، وأمعنتم في تفهُّمها، لكذَّبتكم، ولأثبتت افتراءكم على الله سبحانه.

٩٤ ـ إذا كنتم مُصرِّين على قولكم فأنتم ظالمون لأنفسكم وللناس، فمن تعمَّد الكذبَ على الله من بعد قراءة التوراة، وظهور الحُجَّة بأنَّ التحريم إنما كان من جهة يعقوب ولم يكن مُحرَّماً قبله، فأولئك البُعداء عن رحمة الله هم الكافرون المُستحقُّون للعذاب؛ لأنَّ كفرهم ظلم منهم لأنفسهم ولمن أضلُّوه عن الدين من بعدهم.

٩٥ ـ قل لهم ـ يا رسول الله ويا كلَّ داعٍ إلى الله من أمَّته ـ : صَدَقَ الله فيما أخبر أنَّ ذلك النوع من الطعام صار حراماً على يعقوب وأولاده بعد أن كان حلالاً لهم، وأنتم كاذبون يا معشرَ اليهود، فاتَّبعوا ما يدعوكم إليه محمد ﷺ من ملَّة إبراهيم مائلاً عن سائر الأديان الباطلة إلى الدين الحق، ولم يدعُ مع اللّهِ إلهاً آخر، ولا عَبَدَ سواه، فهوبريءٌ من مُشركي قريش براءته من اليهود، فليس لأحد الفريقَيْن أن يتمسَّح به، وأن يدَّعي أنه يسير على ملَّته، وهو لا يخلص في عبادة الله، ولا يتَّبع شريعته.

٩٦ ـ مِنْ أعظم شعائر مِلَّة إبراهيم: الحجُ إلى الكعبة، وهي أوَّلُ بيتٍ وضعه الله موضعاً يشترك فيه جميع الناس للعبادات، وقِبلَةً للصلاة، ومكاناً للحجِّ والطواف، الذي في مكة، وهو مباركٌ فائض الخيرات، تتضاعف فيه الحسنات، كثير الثمرات الماديَّة والمعنويَّة، وهو موضع مَبْعث محمد ﷺ، ومنازل وحيه، يتَّجه الناس إليه في كلِّ بقاع الأرض، وهو مصدر هداية للناس أجمعين.

٩٧ ـ في هذا البيت دِلالات واضحاتٌ على حُرمته ومزيد فضله، ومنها: الحَجَرُ الذي كان يقوم عليه إبراهيم عند بناء البيت، وَمَنْ دَخَلَ الحَرَمَ أمِنَ على نفسه فلا يمسُّه أحدٌ بسوء، ولِلَّهِ على الناس فرض الحجِّ لمن استطاع من أهل التكليف، وَوَجَد السبيل إلى حجِّ البيت الحرام، بتوفُّر الاستطاعة الجسديَّة والماليَّة، وقدرة الإنسان على حماية نفسه من مخاوف الطريق إذا كانت فيه مخاوف، ومَنْ جَحَدَ ما ألزمه الله به من فرض حجِّ بيته وكفر به، فإنَّ الله غنيٌّ عنه وعن حجِّه، وعن جميع خلقه.

٩٨ ـ قل ـ يا رسول الله، ويا كُلَّ داعٍ إلى الله من أمته ـ لأهل الكتاب من اليهود والنصارى: لِمَ تكفرون بالآيات الدالاَّت على نبوَّةِ محمد ﷺ؟ واللّهُ شهيدٌ حاضرٌ مُطَّلع على أعمالكم، فيُجازيكم عليها.

٩٩ ـ قل ـ يا رسول الله، وياكلَّ داعٍ إلى الله من أمته ـ لليهود والنصارى: لِمَ تَصْرفون عن دين الله مَنْ آمن بإلقاء الشُّبَه والشُّكوك، وإنكار صفة محمد ﷺ، تطلبون لدِين الله زَيْغاً ومَيْلاً عن الحق؟ وتطلبون لأهلها طريقاً معوجَّة، وذلك بالتحريش والإغراء بينهم؛ لتختلف كلمتهم، ويختلَّ أمرهم!! والحال أنكم عالمون علمَ مَنْ يُعاين ويشاهد أنَّ نعتَ محمد ﷺ وصفَتَه مكتوبٌ في التوراة، وأنَّ دين الله الذي لا يُقبل غيره هو الإسلام، وما الله بغافل عما تعملون من الصَّدِّ عن سبيله، وسوف يُجازيكم على ذلك.

١٠٠ ـ يا من آمنتم بالله واتَّبعتم رسوله، إنْ تُطيعوا ـ على سبيل الاحتمال الذي لا نريده لكم ـ جماعةً من اليهود في إثارة الإِحَن التي كانت بينكم في الجاهلية، وتهييج الفتن؛ كراهةً لما أنتم عليه بعد الإسلام من التآخي والتراحم، يُصيِّروكم بتأثيرهم وتسلُّطهم عليكم بعد إيمانكم كافرين. وهذا النداء الإلهيُّ هو الأول من النداءات الإلهية السبعة للمؤمنين في هذه السورة.

وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾

١٠١ ـ وكيف تكفرون ـ أيُّها المؤمنون ـ وأنتم تُتْلىٰ عليكم آياتُ القرآن حالاً بعد حال، ورسولُ الله ﷺ فيكم يُرشدكم إلى مصالحكم؟ وذلك يمنع من وقوع الكفر منكم، ومَنْ يَحْتَم بالله سبحانه مُلْتَجِئاً إليه ومُمْتَنِعاً به، بالإيمان به، والإسلام له، وعبادته وحده، فقد هُدِيَ إلى طريقٍ واضح، وهو طريق الحقِّ المُؤدِّي إلى الجنة. دلَّت هذه الآية على أن الله عزَّ وجلَّ أضاء مَشْعَلين لهداية المسلمين، لا ينطفئان إلى يوم القيامة، أما **الأول**: فهو آيات الله عزَّ وجلَّ، وأما **الثاني**: فهو وجود الرسول ﷺ أيام حياته، وسنَّته الشريفة بعد مماته.

١٠٢ ـ يا أيُّها الذين صدَّقوا الله، واتَّبعوا رسوله، اتَّقُوا الله اتّقاءً واجباً ثابتاً، وذلك بأنْ يُطاع فلا يُعصى، ويُشكر فلا يُكفر، ويُذكَر فلا يُنْسى، واثبتوا على الإسلام إلى الموت، حتى تلقوا الله وأنتم مسلمون مُذعنون للحق. وهذا النداء الإلهيُّ هو النداء الثاني في هذه السورة لجماعة المؤمنين.

١٠٣ ـ والجؤوا إلى ما يعصم من الهلاك والضُّرِّ والأذى وتَسلُّط أعدائكم عليكم، واجتماعهم ضدَّكم، بالتمسُّك بشريعة الله المُحكمة، واقبضوا عليها بشدَّة حتى تظفروا بالعصمة المنجية من الهلاك، حال كونكم مجتمعين، ولا تأخذوا بجزء منها دون جزء، فإنها كلٌّ لا تقبل التجزئة، ولا تتفرَّقوا كما تفرَّقت اليهود والنصارى، وابتعِدوا عن كلِّ أسباب الفرقة والخلاف والشقاق، واذكروا ـ يا معشر العرب ـ نعمةَ الله عليكم بالإسلام إذ كنتم قبل الإسلام أعداء مُتفرِّقين، فألَّف بالإسلام وبنبيِّه ﷺ بين قلوبكم، فَصِرتُم برحمته وبدينه إخواناً مُتحابِّين، وكنتم ـ يا معشر الأوس والخزرج ـ على طَرَف حُفْرةٍ من النار بشرككم وظلمكم وفسقكم وعدوانكم، ليس بينكم وبين الوقوع فيها، إلا أن تموتوا على كفركم، فخلَّصكم بالإيمان الصحيح وتعاليم الإسلام وشرائعه من الوقوع في النار. وما كان سبب إنقاذكم من قبل، وسبب وحدتكم وقوتكم هو السبب الذي سيظلُّ أبدَ الدهر لإنقاذكم ووحدتكم وقوتكم؛ مثل ذلك البيان البليغ يُبيِّنُ الله لكم آيات القرآن؛ رغبةَ أن تهتدوا إلى الحقِّ والصَّواب، وتُقارنوا بين ما كنتم عليه في جاهليتكم قبل الإسلام، وما تحوَّلتم إليه بالإسلام الذي كان نعمةً سِيقَتْ من الله سبحانه إليكم.

١٠٤ ـ ولتكن منكم ـ أيُّها المؤمنون ـ جماعةٌ دعاةٌ إلى ما فيه صلاح الناس جميعاً في دينهم ودنياهم، وتأمر بكلِّ فعل حَسَنٍ يُسْتَحْسَن في الشَّرع والعقل، وتنهى عن كلِّ ما عُرِفَ في الشرع والعقل قبحه، داخل جماعات المسلمين الذين عرفوا أوامر الدين، وعرفوا حُسْنَها، وعرفوا نواهي الدين، وعرفوا قُبْحَها، وأولئك ذوو المنزلة الرفيعة عند الله الذين قاموا بوظيفَتَيْ الدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هم الفائزون بكلِّ مطلوب، الظافرون بالنعيم المقيم والسعادة الخالدة.

١٠٥ ـ ولا تكونوا ـ يا معشر المؤمنين ـ كأهل الكتاب من اليهود والنصارى الذين تفرَّقوا بسبب العداوة واتِّباع الهوى، واختلفوا في دين الله وأمره ونهيه من بعد ما جاءتهم الحُجَجُ الواضحات، فعلموها ثمَّ خالفوها، ولهؤلاء الذين تفرَّقوا واختلفوا عذابٌ عظيم في الآخرة.

١٠٦ ـ اذكروا يوم تَبْيَضُّ وجوهُ المؤمنين من شدَّة الفرح والسُّرور، وتَسْوَدُّ وجوهُ الكافرين من شدّة الغمِّ والحزن، فأمَّا الكفار أهل الشقاوة الذين اسودَّتْ وجوههم، فيقال لهم توبيخاً وتقريعاً: أكفرتم بعد أخذ الميثاق عليكم بالإيمان، وظهور الأدلة التي توجب الإيمان؟ فاخترتم الكفر، وجحدتم الحقَّ وأنكرتموه؟ فادخلوا جهنَّم، وذوقوا مرارة العذاب بسبب استمراركم على الكفر، وموتكم عليه.

١٠٧ ـ وأمَّا المؤمنون أهل السعادة الذين ابيضَّتْ وجوهُهم بنضْرة النعيم، وما بُشِّروا به من الخير، ففي جنَّة الله يدخلونها برحمته، وهم في الجنة باقون دائمون.

١٠٨ ـ تلك آياتُ القرآن الرفيعة الرتبة، العالية المنزلة، نُنزِّلها عليك ـ يا رسول الله ـ مَتْلوَّةً مَقْروءةً واضحةً، مُتلبِّسة بالحقِّ الثابت الذي لا شكَّ فيه، وما الله بظالمٍ أحداً من خلقه، ولا يُعاقب أحداً بغير جرم واستحقاقٍ للعقوبة؛ لأنه الحاكم العدل الذي لا يجور.

وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًىۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾ ۞ لَيْسُوا۟ سَوَآءًۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾

١٠٩ ـ ولله ما في السَّموات وما في الأرض، وجميع ما فيهما مُلكه، وأهلُهما عبيدُه، وإلى الله وحده مصير جميع الخلائق: المؤمن والكافر، والطائع والعاصي، فيُجَازي الكلَّ على قدر استحقاقهم، ولا يظلم أحداً منهم.

١١٠ ـ أنتم ـ يا أمَّة محمد ﷺ ـ خيرُ أمَّة، أُظهرت للنَّاس، وحُمِّلت وظيفة الخروج لتبليغ الناس دينَ الله لهم، وهذه الخيريَّة قد علمها الله فيكم قبل أن يُخرجكم؛ لأنَّ علمه يشمل ما كان، وما هو كائن، وما سيكون، وسببُ بقاء تلك الخيريَّة فيكم إلى أن تقوم الساعة أنَّكم ستظلُّون تأمرونَ داخل مجتمعكم الإسلامي بما عُرف في الشرع والعقل حُسْنه، وتنهون عن كلِّ ما عُرف بالشرع والعقل قُبْحه، فتحمُون مجتمعكم بهذا من الانحراف الخطير والانهيار إلى الحضيض الذي بلغته الأمم قبلكم، وأنكم ستظلُّون تُصَدِّقون بالله وتخلصون له التوحيد والعبادة مهما اشتدَّت عليكم النكبات من الأمم الأخرى بغيةَ إخراجكم من الإيمان إلى الكفر، ولو آمنَ اليهودُ والنَّصارى بمحمد ﷺ وبالدين الذي جاء به لكان خيراً لهم ممَّا هم عليه من اليهودية والنصرانية. لكن القليل من أهل الكتاب استجابوا لدعوة هذا الدين فآمنوا وأكثرهم لم يؤمنوا؛ إذ منعهم فسقهم من الإيمان حتى لا يلتزموا بشرائع الإسلام وأحكامه، فيمتنعوا عما هم فيه من فسق وعصيان وكبائر فاجرة.

١١١ ـ لن يَضُرُّكم ـ أيُّها المؤمنون ـ هؤلاء الفاسقون من أهل الكتاب ضرراً يُبقي أثراً في جماعتكم، ويُؤثِّر في قوتكم إلا ضرراً يسيراً باللسان بطعنهم في دينكم أو إلقاء الشُّبه والشكوك في القلوب، وإن يقاتلوكم يهربوا مُوَلِّين الأدبار منهزمين مخذولين، ثمَّ لا يكون لهم النصر عليكم، بل تُنصرون عليهم.

١١٢ ـ جُعِلَت الذِّلَّةُ مُلصقة باليهود أينما ذهبوا وحيثما وُجدوا، فالذلَّة المضروبة عليهم تُلاحقهم، لأنهم لا يستطيعون بحسب مواريثهم، وتكوينهم الاجتماعي إلا أن يعملوا أعمالاً أنانية شائنة غائظة، تُثير الأمم عليهم بالغضب والحقد فتذلهم، ولا تُرفع الذلة المضروبة عليهم إلا بحبل من الله يمدُّهم فيه إمداداً ضعيفاً، وحبل من الناس يُقوِّيهم ويعزهم، ويجعلهم غالبين لفترة مؤقَّتة، ويكون ذلك لحكمة، كأنْ يعاقب الله بهم أمَّةً خرجت عن منهج الحق، ثمَّ يعيدهم إلى موقع الذِّلة المضروبة عليهم المحيطة بهم، ورَجَعوا بغضب من الله واسْتَوْجَبُوه، وأُثبتت عليهم المسْكَنة بشدَّة وإلزام ـ وهي شعورهم النفسي بالفقر وإنْ كانوا مُوسرين، وتظاهرهم بالفقر والحاجة ليستدرُّوا عطف الناس عليهم ـ ؛ ذلك الذلُّ الذي نزل بهم، والمَسْكنة التي أحاطت بهم، والغضب الذي حلُّوا فيه؛ بسبب أنهم كانوا يكفرون بآيات الله البيانيَّة والإعجازيَّة والجزائيَّة، ويقتلون الأنبياء ظلماً وعدواناً بدون شبهة حق،، وما جرَّأهم على هذا إلا ارتكابهم المعاصي وتجاوزهم حدود الله واعتداؤهم على حقوق الناس.

١١٣ ـ ليس كلُّ أهل الكتاب مُتساوين في الاتِّصاف بما ذُكر من القبائح، بل منهم جماعة سَلِمَتْ منها، واتَّصفت بالخير، فَمِنْ أهل الكتاب جماعة مستقيمة ثابتة على طاعة الله، كانوا قبل بعثة محمد ﷺ، يقرؤون بخشوع آيات الله من التوراة في ساعات من الليل، وهم يُصَلُّون ويخضعون ويخشعون لربهم.

١١٤ ـ يؤمنون بالله، واليوم الآخر إيماناً صادقاً، ويعملون بمقْتضى إيمانهم، ويأمرون بتوحيد الله والإيمان بمحمد ﷺ والخير كلِّه، وينهَوْن عن الشِّرك والشرِّ كلِّه، ويبادرون إلى فعل الخيرات الجديدة التي تُعرض عليهم، فيؤمنون برسالة محمد، استجابةً لأمر الله، ويطرحون عصبيَّاتهم وأنانيَّاتهم، وأولئك الموصوفون بتلك الأوصاف الثمانية من جملة الصَّالحين الذين صَلَحَت أحوالهم عند الله عزَّ وجل، ورضيَ عنهم، واستحقُّوا ثناءه عليهم.

١١٥ ـ وما يفعلوه من أعمال الخير قلَّ أو كَثُر، فَلَنْ يعدموا ثوابه، بل يشكره الله لهم، ويُجَازيهم عليه بفضله، وَمَنْ كان صادقاً في تقواه فإنَّ الله عليمٌ به؛ لأنه سبحانه عليمٌ بما في الصدور.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا ۖ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۚ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١٦﴾ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَا أَنتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ۗ إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾

١١٦ - إنَّ الذين كفروا لن تدفع عنهم أموالهم التي يبذلونها في إعداد العدَّة لمُحاربة دين الله، ولن تكفي عنهم أولادهم الذين يُعينونهم في ذلك، من بأس الله شيئاً، إذا أراد الله إنزال بأسه وعقابه فيهم، وأولئك المنحطُّون السَّافلون البُعَداء جداً عن رحمة الله أصحاب النار المُلازمون لها، المُخالطون لأنواع عذابها، وهم فيها دائمو البقاء، لا يخرجون منها ولا يموتون.

١١٧ - صفة ما ينفق الكافرون في هذه الحياة الدنيا، لتدعيم قضايا الكفر، وتهديم قضايا الإيمان، كوصف قوم حرثوا أرضاً وزرعوها، فأنبتت لهم نباتاً حسناً، ولم يبْقَ عليهم إلا أن يجمعوا نتاجها، فأرسل الله عليها ريحاً فيها بردٌ شديد أو سمومٌ حارة مُهلكة، أصابت تلك الريحُ زرعَ قوم ظلموا أنفسهم بالكفر ومحاربة دين الله وأوليائه، فأهلكت الريحُ الزرعَ فلم ينتفع أصحابه منه بشيء، وكذلك تكون خيبة أعمال الكافرين في الدنيا، وعاقبة ما ينفقون إذا أراد الله إفساد أعمالهم، وإنزال بأسه فيهم، ونُصْرة أوليائه الصَّادقين، وما ظلمهم الله، ولكنهم عصوا الله فاستحقُّوا عقابه الدنيويَّ المُعجَّل، فأبطل أعمالهم، وأهلك حَرثَهم.

١١٨ - يا أيُّها الذين صدَّقوا الله، واتَّبعوا رسولَهُ: لا تتَّخذوا أخلاء وأصفياء لكم من غير أهل ملَّتكم، تُصافونهم وتُطلعونهم على أسراركم، ويُقدِّمون إليكم نصائحهم ومشوراتهم؛ للأسباب التالية: **الأول:** أنهم لا يُقصِّرون في إفسادكم، وتدبير المكايد ضدَّكم، وتوهين قواكم، وتمزيق صفوفكم، **الثاني:** تمنَّوا ما يشقُّ عليكم من الضُّرر والشرِّ والهلاك، ويتَّخذون الوسائل لتحقيق ما يتمنَّون، **الثالث:** قد ظهرت العداوةُ الشديدة وأمارات البغض الثابت من أفواههم، رغم تكتُّمهم وتصنُّعهم، **الرابع:** ما يَطْوون في صدورهم من العداوة والغيظ أشد وأفظع ممَّا يظهر على ألسنتهم، أو يَبْدو في أعمالهم. قد أوضحنا لكم العلامات الدالأت على وجوب الإخلاص في الدين من موالاة المؤمنين ومُعاداة الكافرين، فأنتم تتَبيَّنُون دلالاتها، وتعملون بمقتضاها إن كنتم تعقلون عقلاً علمياً تذكرون فيه ما بيَّنْتُهُ لكم، وتعقلون عقلاً إرادياً تضْبطون به نفوسكم، وشهواتها وأهواءها. وهذا النداء الإلهيُّ هو النداء الثالث في هذه السورة للمؤمنين.

١١٩ - ها أنتم - أيُّها المؤمنون الصادقون - تُحِبُّون هؤلاء اليهود الذين نهيتُكم عن اتِّخاذهم أخلاء مُداخلين، تُطلعونهم على الخفايا والأسرار الباطنة، وتريدون لهم الإسلام، ولا يحبُّونكم لما بينكم وبينهم من المخالفة في الدين، ويريدون لكم الكفر، والحال أنكم تؤمنون بالكتب المنزَّلة كلِّها ومنها كتابهم، وهم لا يؤمنون بشيء من كتابكم، وإذا لقوكم - أيُّها المؤمنون - قالوا نِفاقاً: صدَّقنا كتصديقكم، ونحن نحبُّكم ونودُّكم، وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا: لم نؤمن، بل نحن على ديننا، وأظهروا العداوة وشدَّة الغيظ منكم، وعبَّروا عن ذلك بوضع أناملهم في أفواههم، وعضُّوا عليها غيظاً وحنقاً، وهم يُشدِّدون عضَّهم على أناملهم، لأنهم يتوهَّمون أنهم يعضُّونها وأنتم فيها، رغبةً في إيلامكم، وهم في الواقع يُؤلمون أنفسهم. قل لهم - يا رسول الله -: ابقوا إلى الممات بغيظكم، وليشتدَّ غيظكم حتى يكون سبباً قاتلاً لكم، إنَّ الله عليمٌ بالأسرار والنيَّات والرَّغَبات المُصاحبات للصدور، فضْلاً عما هو دون ذلك في الخفاء، مما يُبيِّتونه ضدَّ المؤمنين.

١٢٠ - ومن علامات نفاقهم: إنْ تَمْسَسْكم - أيها المؤمنون - حَسَنةٌ - ولو مسَّاً رفيقاً بأقل مقدار - من منافع الدنيا، تُحزنهم وتغمُّهم، وإنْ وقع بكم مَسَاءةٌ - ولو كانت إصابة بالغة شديدة - يفرحوا بما أصابكم من ذلك المكروه، ويكيدونكم بمختلف الوسائل، فاصبروا، وخافوا ربكم، واحذروا مكايدهم، وإن تصبروا على أذاهم، وتخافوا ربَّكم، وتتَّقوا كَيْدَهم، وتُراقبوا تحرُّكاتهم، لا يضرُّكم عداوتهم ومكرهم شيئاً؛ لأنكم في عناية الله وحفظه، إنَّ الله عالمٌ بما يعملون من عداوتكم وأذاكم، لا تخفى عليه خافية من كيدهم، وسيُحبط كلَّ ما يُدبِّرون، وسيعاقبهم عليه.

١٢١ - واذكر لهم - يا رسول الله - حين خرجتَ مُبكِّراً إلى غَزْوة أُحد من منزل عائشة لابساً عُدَّة الحرب، تُنْزِل المؤمنين، وتُهيِّىء لهم بالتنظيم والترتيب مواقعَ للقتال للقاء المشركين في غزوة «أُحد»، والله سميعٌ لدعائك، عليمٌ بأحوال المؤمنين وأحوال عدوِّهم.

إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾

١٢٢ - وضع في ذاكرتك - أيها المُتلقِّي لبياننا - ما كان من أمر بني سَلِمة وبني حارثة حين تحرّكت أنفسهم لتنفيذ ما اتّجهت رغبتهم إليه بالرجوع مع زعيمهم عبد الله بن أُبي، خوفاً من لقاء المشركين، فعصمهم الله، فثبتوا ومضوا مع رسول الله ﷺ، والله ناصرُهُما وحافظهما ومُتولِّي أمرهما، وعلى الله وحده فلْيعتمد المؤمنون، فلا يتوكَّلوا إلا عليه، ولا يُفوِّضوا أمرهم إلا إليه، مع قيامهم بالأسباب التي دعا سبحانه إلى اتِّخاذها.

١٢٣ - ونؤكِّد لكم - أيها المؤمنون - أن الله نصركم يوم «بدر»، وأنتم ضعفاء؛ لقلة العدد والسلاح والمال، فاجعلوا بينكم وبين عذاب الله وقاية، بفعل أوامره، واجتناب نواهيه؛ رغبة أن تشكروا بتقواكم ما أنعم الله به عليكم من النصر.

١٢٤ - واذكر - يا رسول الله - ما كان من الوهْن الذي أصاب بعض المؤمنين يوم أُحد، فَأَوْحينا إليك أن تقول لهم: ألن تكفيكم معونة الله بأن يُمدَّكم بثلاثة آلاف من الملائكة مُساوياً لعدد المشركين يوم أُحد، مُنْزَلين من السماء إلى أرض المعركة؛ لتقوىٰ قلوبكم، وتثقوا بنصر الله؟

١٢٥ - بلى يكفيكم الإمداد بهم، وإنْ تصبروا على لقاء عدوِّكم، وتتَّقوا معصيةَ الله ومخالفة نبيِّه ﷺ، ويأت المشركون من ساعتهم غضباً لقتلاهم يوم بدر، يُمْدِدْكُم ربُّكم بخمسة آلاف من الملائكة مع الثلاثة آلاف المُتقدِّمة، مُعَلِّمين أنفسهم وخيولهم بعلاماتٍ مخصوصة.

١٢٦ - وما جَعَلَ اللَّهُ هذا الوعدَ والمدَد إلا بِشارة لكم بأنكم تُنصرون، ولْتسكن قلوبكم به، فلا تَجزعوا من كثرة عدوِّكم وقِلَّة عددكم، وما النصرُ إلا من عند الله القويِّ الغالب الذي لا يُغالب، الحكيم في تدبيره وفعله. فبعزَّته ينصر، وبحكمته يقضي بنصره للمؤمنين الصابرين الصادقين على الكافرين المُصرِّين المُعاندين الصَّادِّين عن سبيل الله.

١٢٧ - وما النصر إلا كائن من عند الله؛ ليُهلك طائفةً من الذين كفروا، فينقص من عددهم بالقَتْل والأَسْر، ومن أرضهم بالفتح، ومن سلطانهم بالقهر، أو يصرفهم مهزومين أذلاء مقهورين، فيرجعوا بالخَيْبة والألم النفسي لم ينالوا شيئاً من الذي أمَّلوه من الظفر بكم، والنصر عليكم.

١٢٨ - ليس لك - يا رسول الله - من أمر مصالح عبادي شيءٌ إلا ما أُوحي إليك، فإنَّ الله تعالى هو مالك أمرهم، وأنت عبدٌ مأمورٌ بدعوتهم، فإمَّا أن يتوبَ عليهم إنْ أسلموا ورجعوا فتفرح بتوبتهم، أو يُعذِّبهم في الدنيا بالقتل والأسر إذا أصرُّوا على كفرهم، فترى آية الله فيهم، وصدقَ وعده لأنبيائه. وسببُ تعذيبهم أنهم ظالمون؛ لأنهم اعتدوا على النبيِّ والمؤمنين.

١٢٩ - إنَّما الأمر يكون لِمَنْ له ما في السموات وما في الأرض، وليس ذلك إلا للَّهِ تعالىٰ، وليس لأحدٍ معه أمر، يغفر لمن يشاء بفضله ورحمته، ويعذِّب من يشاء بعدله، ومشيئته لا تفارق حكمته، والله كثير السَّتْر لذنوب عباده، دائم الرحمة بهم.

١٣٠ - يا أيها الذين صدَّقوا الله واتَّبعوا رسوله: لا تأخذوا في القرض زيادة على رؤوس أموالكم، وإن قلَّتْ، فكيف إذا كانت هذه الزيادة تتضاعف أضعافاً مضاعفة عند حلول الدَّيْن وتأخير الأجل؟ واجعلوا بينكم وبين غضب الله وقاية، فأطيعوهُ في أوامره ونواهيه لأجل أن تظفروا بالنجاة والسعادة العظيمة في الدنيا والآخرة. وهذا النداء الإلهيُّ للمؤمنين هو النداء الرابع في هذه السورة.

١٣١ - واجعلوا - أيها المؤمنون - بينكم وبين النار التي أعدَّها الله للكافرين وقاية، فلا تستَحِلُّوا شيئاً ممَّا حرَّم الله، فإنَّ من استحلَّ شيئاً ممَّا حرَّم الله فهو كافرٌ يستحقُّ النار.

١٣٢ - وأطيعوا الله - أيها المؤمنون - فيما أمركم به من الطاعات، أو نهاكم عنه من أكل الربا وغيره من المحرمات، وأطيعوا الرسول أيضاً؛ لأنَّ طاعته ﷺ طاعةٌ للَّهِ سبحانه؛ رغبة أن تُرحموا ولا تُعذَّبوا إذا أطعتم الله ورسوله، فإنَّ طاعة الله مع معصية رسوله، ليست بطاعة مقبولة.



۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُمۡ سُنَنٞ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٞ لِّلنَّاسِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمۡسَسۡكُمۡ قَرۡحٞ فَقَدۡ مَسَّ ٱلۡقَوۡمَ قَرۡحٞ مِّثۡلُهُۥۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمۡ شُهَدَآءَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾

١٣٣ - وَبَادروا وَسَابقوا إلى مَا يُوجب المغفرة من ربِّكم، وهي الأعمال الصالحة المأمور بفعلها، وسارعوا إلى جنَّة واسعة عرضها كعرض السموات والأرض، فإذا كانت هذه صفة عرضها فكيف بطولها؟ هُيِّئت الجنَّةُ للمتَّقين الممْتثلين لأوامره، والمُجْتَنبين لنواهيه.

١٣٤ - ومن صفات المتقين: أنهم يُنفقون أموالهم بدوام واستمرار في اليُسْر والسَّعة في الرزق، والعُسْر والشدَّة والضيق، فلا يتركون الإنفاق في كلتا الحالتَيْن، لا تُبْطرهم السَّعة، فَيَنسَوْا ما فرض الله عليهم في أموالهم، ولا تفسد نفوسهم الشدّة والضيق والمصائب في الأموال أو الأنفس، فيُمْسكوا ويشحُّوا ويمنعوا ما فرض الله عليهم في أموالهم، وأمدح المُمْسكين الغيظ عند امتلاء نفوسهم منه، فلا يُظهرونه بقول ولا فعل، وأمدح العافين عمَّن ظلمهم وأساء إليهم، وأمنحهم محبَّةً مني، إذ ارتَقَوْا إلى مرتبة المحسنين، واللَّهُ يحبُّ المُحسِنِين الذين أحسنوا العمل مع الله تعالى، فقاموا بما أمرهم به مع الإخلاص له، وصُدق التوجُّه، والإقبال عليه مشاهِدين أو مراقبين، وأحسنوا العمل مع خلق الله، ويُثيبُهم على إحسانهم، ويُدخلهم جنَّات النعيم؛ لأنَّ منْ أحبَّه الله أكرمه، وأدخله في رحمته.

١٣٥ - ومن صفات المتقين: أنهم إذا فعلوا فعلةً بالغةً في القبح كالزنى، أو ظلموا أنفسهم بارتكاب أيّ ذنب، ذكروا الله فتجلَّت لهم صفات عدله وصفات رحمته، فوجدوا أنفسهم بين الخوف الذي يُحذِّرهم من عقاب الله، والرجاء الذي يُطْمعهم بعفو الله، فلجؤوا إلى الله في طلب العفو والسَّتْر لأجل ذنوبهم فتابوا منها، وأقْلعوا عنها نادمينَ على فعلها، عازمينَ على أن لا يعودوا إليها، - ولا أحد يَسْترُ الذنوب إلا الله، فلا مَفْزَعَ للمُذنبين إلا إلى فَضْل الله وكرمه وإحسانه وعفوه ورحمته - ولم يقيموا على الذنوب ولم يثبتوا عليها، وهم يعلمون أنها معصية، وأنَّ لهم رباً يسترها، وأنه سبحانه لا يتعاظمه العفو عن الذنوب وإنْ كَثُرت. وفي الآية تطييبٌ لنفوس العباد، وتنشيط للتوبة، وبعثٌ عليها، وردع عن اليأس والقنوط، وبيان لسَعَة رحمته، وقُرب مغفرته من التائب، وإشعارٌ بأنَّ الذنوب وإن جلَّت فإنَّ عفوه أجل، وكرمَهُ أعظم.

١٣٦ - أولئك الموصوفون بتلك الأوصاف الخمسة العظيمة جزاؤهم الأمن من العقاب بِسَتر ذنوبهم، وإيصال الثواب بدخولهم جنَّاتٍ تجري من تحت قصورها الأنهار، خالدين في الجنات، وَنِعْمَ ثواب المطيعِين الجنَّة.

١٣٧ - قد انقضت من قبلكم وقائع الله في الأمم المُكذِّبة، أجراها الله حسب عادته بالهلاك والاستئصال؛ لأنَّهم خالفوا الرسل، فلم يَبْقَ منهم أحدٌ، وإذا كانت سنة الله في خلقه أنَّ العاقبة للمتَّقين، فسيروا - أيها المؤمنون - في الأرض، وتعرَّفوا سنن الله في خلقه، فانظروا كيف كان آخر أمر المكذِّبين من الهلاك، فلا تحزنوا لغلبتهم فإنما أُمهلهم لوقتهم المُقدَّر لإهلاكهم.

١٣٨ - هذا القرآنُ بيانٌ للنَّاس عامة، وإرشادٌ إلى طريق الحقّ، وتذكيرٌ ونصحٌ مقْرونٌ بما يُثير الرَّغبة والرَّهْبة في النَّفس ينتفع بالنُّصح، ويتَّبع ما هَدَى إليه المتَّقون المُمْتثلون لأوامر الله عزَّ وجلّ، والمُنتهون عن نواهيه.

١٣٩ - ولا تسترسلوا في الهمّ وألم النفس ممَّا نالَكُم من عدوِّكم يوم «أحد»، ولا تضعفوا عن الجهاد، ولا تحزنوا على مَنْ قُتِلَ منكم؛ لأنهم في الجنة، وأنتم الأعلون عقيدةً ومنهجاً وشأناً ونصراً وغلبة على الكافرين، والعاقبة لكم إذا كنتم مؤمنين حقاً.

١٤٠ - إن يُصِبْكم - أيُّها المؤمنون - جِرَاحٌ أو قتلٌ في غزوة «أحد»، فقد أصابَ الكفارَ جراحٌ وقتلٌ مثلُه يوم «بدر». فلا نصر يدوم، ولا هزيمة تدوم، وتلك الأيام نجعلها إقْبالاً وإدباراً، ونعمةً ومصيبةً، ونصراً وهزيمة، فحكمة امتحان الناس تقْتضي ذلك، ولو كانت قوانين الجزاء المُعَجَّل حتميَّة كقوانين طبائع الأشياء، لما كانت للإرادات الحرَّة خيار في الإيمان والكفر، والطاعة والمعصية، ولكن الله سبحانه سَتَر جزاءه بالتداول بين الناس، كما سَتَر مقاديره بالأسباب؛ لتكون الاستقامة ثمرة الإيمان بالغيب، وليعلم الله الذين آمنوا فصدقوا جهاداً وصبراً، وليعلم أيضاً ضعفاء الإيمان والمنافقين، وليُكرم قوماً منكم بالشَّهادة ممَّن أراد أن يُكرمهم بها، واللَّهُ لا يحبُّ من لا يكون ثابتاً على الإيمان، صابراً على الجهاد، ومَنْ جعل نفسه بإرادتِهِ في زمرة الذين لا يحبُّهم الله، فقد جعَلها عُرضة لنقمته وعذابه الشديد.

وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمۡحَقَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدۡ كُنتُمۡ تَمَنَّوۡنَ ٱلۡمَوۡتَ مِن قَبۡلِ أَن تَلۡقَوۡهُ فَقَدۡ رَأَيۡتُمُوهُ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوۡ قُتِلَ ٱنقَلَبۡتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡۚ وَمَن يَنقَلِبۡ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۗ وَسَيَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ كِتَٰبٗا مُّؤَجَّلٗاۗ وَمَن يُرِدۡ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَن يُرِدۡ ثَوَابَ ٱلۡأٓخِرَةِ نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَاۚ وَسَنَجۡزِي ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيّٖ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٞ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوۡلَهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا وَحُسۡنَ ثَوَابِ ٱلۡأٓخِرَةِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٤٨﴾

١٤١ ـ وَلْيُطهِّر الله الذين آمنوا ويُصفِّهم من الذنوب، وممَّا كان يشوبُ قلوبهم من أعراض الدنيا، ويُخَلِّصهم ممَّن كانوا يُخالطونهم من ضعاف الإيمان والمنافقين، وينقص الكافرين ويُهلكهم شيئاً فشيئاً.

١٤٢ ـ بل أظنَنْتُم ـ أيُّها المؤمنون ـ أن تدخلوا الجنَّة، وتنالوا كرامتي وثوابي، ولمَّا يستَبين لكم أمركم، ويَظهر علم الله الواقع فيكم واقعاً مُحَسّاً، بعد أن كان خفيّاً عنكم؟ فالابتلاء الشديد أظهر المجاهدين الثابتين الذين يُجالدون عدوَّهم ولا يفرُّون، وفشَلَ فريقٍ من إخوانهم، وأظهر الصَّابرين الذين لم يذهب تفكيرهم، ولم يَضِع رُشدهم، وجَزَعَ فريقٍ منهم. فالطريق إلى الجنَّة محفوف بالشدائد والمَكاره، لا يصلُ إلى غايته إلا الذين قاتلوا وقُتلوا وبَذلوا مُهَجَهُم لربِّهم عزَّ وجل، وصبروا على ما نالهم في ذات الله من جراح وألم ومكروه، وثبتوا أمام عَدُوِّهم.

١٤٣ ـ وأُقسم مُؤكِّداً لكم أنكم كنتم ـ أيها المؤمنون ـ تطلبون أسبابَ الموت بالقتال والجهاد من قبل أن تلقَوْا العدوَّ يوم «أُحد»، وإذا كنتم تمنَّيتم الموت، فقد رأيتم بأعينكم ما كنتم تتمنَّون، شاهدين قَتْلَ مَنْ قُتِل من إخوانكم بين أيديكم، وأنتم تنظرون ما تمنَّيتم فَلِمَ انهزمتم؟

١٤٤ ـ وما مُحمَّدٌ إلا رسولٌ مُرسل من عند الله، قد مَضَتْ من قبله الرُّسل، فسيمضي مُحمَّدٌ ﷺ كما مَضَت الرسل من قبله، فكما أنَّ أتباعهم بقوا مُتمسِّكين بدينهم بعد مُضيِّ أنبيائهم، فعليكم أنتم أن تتمسَّكوا بدينه بعد مُضيِّه. وموتُه ﷺ أو قتلُه لا يُوجبُ ضعفاً في الدين ولا رجوعاً عنه. أإذا مات وقد علمتم أنَّ موته حقٌّ لا شكَّ فيه، أو قُتل في مَيْدان المعركة كما أشاع الأعداء، عُدتم كفاراً بعد أن آمنتم، وضُلَّالاً بعد أن اهتديتم!! ومَنْ يرتدَّ عن دينه ويرجع إلى الكفر بعد وفاة النبيِّ ﷺ، فلن يَضُرَّ الله شيئاً بارتداده؛ لأنه سبحانه غنيٌّ عن العالمين، وإنما يضرُّ المرتدُّ نفسه، وسيُثيب الله الثابتين على دينهم الذين لم ينقلبوا عنه؛ لأنهم احتملوا البلاء، وثَبَتوا على الإسلام، وتَجاوَزوا حدَّ الصبر إلى حدِّ الشكر على هذه الكريهة من غير تَمَلْمُل وتضجُّر.

١٤٥ ـ وما تحقَّق وما ثَبَتَ لنفس أن تموتَ إلا بأمر الله وقضائه وقدره وعلمه، واللَّهُ كتبَ لكلِّ نفس أجلاً مؤقَّتاً بوقت معلوم لا يقدر أحدٌ على تقديمه أو تأخيره، فاحرصوا ـ أيها المؤمنون ـ على الجهاد، وتشجَّعوا على لقاء الأعداء، فإنَّ الحذر والحرص على الحياة لا يمنعان ما قدَّر الله، ومَنْ يطلب بعمله عَرَض الدنيا كالمال، والمجْد، والثناء، والمناصب والمراتب، نعطه ما قسمنا له من رزق، ولا حظَّ له في الآخرة، ومَنْ يطلب بعمله الآخرة، ويقصد وجهَ الله تعالى، نُؤْته ثوابه فيها، بالجزاء العظيم، والنعيم المقيم، في جنَّات خالدات، وسنجزي المؤمنين الطائعين الذين لم يشغلهم شيءٌ عن الجهاد، ولم يريدوا بأعمالهم إلا وجْهَ الله والدار الآخرة.

١٤٦ ـ وكثيرٌ من الأنبياء قاتلَ معهم لإعلاء كلمة الله وإعزاز دينه، علماءُ أتقياءُ كثيرون، فأصابهم من عدوِّهم قروحٌ وجراحات، فما جَبُنُوا عن الجهاد في سبيل الله لما نزل بهم من جروح أو قتل، وما ضَعُفوا عن مُجاهدة عدوِّهم، وما خَضَعوا لهم، بل استمرُّوا على جهاد عدوِّهم، لأنَّ الذي أصابهم إنما هو في سبيل الله وإقامة دينه، فكان ينبغي لكم أن تفعلوا مثل ذلك ـ يا أمة محمد ﷺ ـ، والله سبحانه يُحبُّ الصَّابرين في الجهاد، ويُثيبهم على صبرهم، ويُدخلهم جنَّات النعيم؛ لأنَّ من أحبَّه الله أكرمه، وأدخله في رحمته.

١٤٧ ـ وما كان قولَ هؤلاء الصَّابرين إلا أن قالوا: ربَّنا اغفر لنا تقصيرنا في حقِّك، وتجاوزنا أمرك، وثبِّت أقْدامنا؛ لكي لا تزل عند لقاء العدو، وانصُرنا على القوم الذين جَحَدوا وحدانيَّتك ونبوَّة أنبيائك.

١٤٨ ـ فأعطى الله أولئك الصَّابرين ثوابَ الدنيا بالنصر والغنيمة وقهر الأعداء والثناء الجميل وغفران الذنوب، والثواب الحسن في الآخرة، وهي الجنة وما فيها من النعيم المقيم، والله يحبُّ المحسنين الذين راقبوا الله في أعمالهم، وأتقنوا العمل في جهادهم، وصبروا على الشدائد والمكاره، ويثيبُهم على إحسانهم، ويُدخلهم جنَّات النعيم؛ لأنَّ من أحبَّه الله أكرمه، وأدخله في رحمته.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَـٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّـٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَـٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ ۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَـٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَـٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾

١٤٩ ـ يا أيُّها الذين صدَّقوا الله، واتَّبعوا رسولَهُ، إن تطيعوا الذين كفروا من اليهود والنصارى والمنافقين فيما يأمرونكم به وينهونكم عنه، يُرجعوكم إلى الكفر بالله بعد الإيمان به، فتعودوا مغبونين في الدنيا بطاعة الكفار والتذلُّل لهم، مَغْبُونين في الآخرة بدخول النار وحرمان دار القرار. وهذا هو مطلب الكافرين أن يردُّوكم عن دينكم، ويُرجعوكم إلى موضع الذلَّة، فإنْ أطعتموهم فقد حقَّقتُم لهم مَقْصدهم، وأصبحت زمام أموركم بأيديهم. وهذا النداء الإلهيُّ للمؤمنين هو النداء الخامس في هذه السورة.

١٥٠ ـ إنكم إنَّما تُطيعون الكفار لينصروكم ويعينوكم، وهم عاجزون عن نصر أنفسهم فضلاً عن غيرهم، فاطلبوا النَّصر من الله تعالى، فهو ناصركم وحافظكم، وهو سبحانه خيرُ الناصرين، ومن كان الله ناصره، فإنه لا مَحالة غالب.

١٥١ ـ سنقذف في قلوب الذين كفروا أشدَّ الفزع والخوف منكم، حتى تقهروهم ويظهر دينكم على سائر الأديان، وسبب إلقاء الرعب في قلوبهم: إشراكهم بالله دون دليل شرعيٍّ مُنزَّل من عند الله، مُثبت لما يدَّعون، ولن يستطيعوا الإتيان به، لأن الله لم ينزل شيئاً من ذلك. ومسكنهم في الآخرة النار، وبئسَ المسكن الذي يستقرُّون به ويقيمون فيه؛ وفاقاً لظلمهم أنفسهم، وفتنة المؤمنين عن دينهم.

١٥٢ ـ وأُقسم مُؤَكِّداً لكم أنَّ الله حقَّق لكم وعده بالنصر والظفر في «أُحد»، حين كنتم تقتلون الكفار قتلاً ذريعاً مُتتابعاً، وتزيحونهم عن مواقعهم، ومحطِّ رحالهم بعلم الله وأمره، وتأييده وتثبيته، فلولا أنَّ الله سبحانه أذن لكم بذلك إذناً دينياً، وإذناً قدريًّا بالتمكين، وتيسير الأسباب، ما استطعتم أن تتسلَّطوا عليهم بسيوفكم، وتُجْلوهم عن موقعهم، واستمرَّ ظهوركم على عدوِّكم، وانتصاركم عليهم، إلى أن كان منكم الضعف والفزع والجبن عندما هَجَم العدوُّ عليكم من وراء ظهوركم، فاختلَّ نظامكم، ووقع الخلاف بينكم حول متابعة القتال والثبات في المواقع، وتفرَّق صفكم، وترك معظم الرماة مواقعهم، طمعاً في حيازة الغنائم، فالسبب المباشر للفشل هو التنازع في الأمر، وسبب التنازع الذي حَصَل في «أُحد» هو معصيةُ مَنْ عصى من المسلمين أمر الرسول، ومخالفتهم لإخوانهم، وتمزيقهم للصف، فمنعكم الله النصر، من بعد ما أراكم ما تُحبُّون ـ يا معشر المسلمين ـ من النصر والظفر والغنيمة، وكان السبب الداخلي في النفوس الذي جرَّ إلى المعصية والتنازع والفشل هو إرادة مطامع الدنيا من العصاة، منكم ـ أيها المحاربون ـ الذين تركوا المركز وأقبلوا على الغنيمة، ومنكم الذين ثبتوا مع أميرهم عبد الله بن جُبَيْر حتى قُتلوا، ثمَّ ردَّكم ـ يا معشر المسلمين ـ عن المشركين، وحوَّلكم عن التسلُّط عليهم بالقتل؛ ليختبرَ صِدقَ إيمانكم وثباتكم على الحقِّ، ويكشف أحوالَ مُريدي الدنيا ومريدي الآخرة، ولقد عَفَا الله عنكم، ومحا أثر ذنبكم ـ أيُّها المُخالِفون أمرَ رسولِ الله ﷺ ـ حيث ندمتم على ما فَرَط منكم، والله صاحب فضْلٍ على عباده المؤمنين؛ لأنه نصرهم أولاً، ثم عفا عن المذنبين ثانياً.

١٥٣ ـ اذكروا عند كل قتال لعدوِّكم حالكم في غزوة «أُحد»، حين ذهبتم في الأرض وأبعدتم فيها، هائمين منطلقين، منهزمين هاربين من أعدائكم في كلِّ اتِّجاه، ولا تلتفتون على أحد من شدّة الهرب وخوف العدوِّ، كلُّ واحد منكم يطلب النجاة لنفسه. والرسولُ ﷺ ثابت في موقف البأس الشديد يناديكم في آخر الجيش ومن ورائكم قائلاً: إليَّ عباد الله، وأنتم لا تسمعون ولا تنظرون، فجازاكم بفراركم عن نبيِّكم ﷺ، وضعفكم عن عدوِّكم جزاء تأديبٍ وتربيةٍ، فأنزل بكم ألماً وضيقاً وغمّاً مُتَّصلاً بألم وضيق وغمٍّ؛ لتمرنوا على تجرُّع الغموم، فلا تحزنوا على ما فاتكم من نصرٍ وغنيمة، ولا ما أصابكم من قتل وهزيمة، فالإيمانُ الصَّادق يستلزم أن تُسلِّموا لحكمة الله دائماً فيما تجري به مقاديره، سواءٌ نزل بكم ما تُحبُّون أو تكرهون، ومتى رَسَخت في قلوبكم هذه الحقيقة لم تحزنوا على ما فاتكم ممَّا تُحبُّون. وتصاريفه سبحانه في نصره وعدم نصره، مظاهر لحكمته المُسْتندة إلى علمه وخبرته، والله عليم بجميع أعمالكم خيرِها وشرِّها، علماً كاملاً شاملاً، علمَ حضور وشهود وتدبير، فإذا كان ما تعملون يقتضي بحسب حكمته أن ينصركم نَصَرَكُم، أو أن يصرفكم عن عدوِّكم صَرَفَكُم، أو أن يُنزل الغمَّ فيكم أنزله، فارجعوا إلى نفوسكم فلوموها، وسلِّموا لله سبحانه في قضائه وقدره، واعلموا أنَّ الله عزَّ وجلَّ لا يقضي إلا ما فيه الحكمة والخير.

ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾

١٥٤ ـ ثمَّ كان من رحمة الله بكم أن أنزل عليكم ـ يا معشر المسلمين ـ من بعد الكرب الذي أصابكم أمناً، كان مظهره نعاساً اطمأنَّت فيه النفوس، واسْتَرخت الأعضاء، يُغطِّي النعاسُ ويستر طائفةً من المؤمنين، فيصرف الأذهان عن التفكُّر فيما نزل بهم من مصيبة، وعن الوساوس المُزعجة، ويصرف النفوس عن الخوف والقلق والاضطراب، وعن الاهتمام بذواتهم وأهليهم، وأما المنافقون وضعفاء الإيمان فلم يُلق عليهم النعاس، لا يهمُّهم إلا همُّ أنفسهم وخلاصها لا همَّ الدين، ولا همَّ رسول الله ﷺ والمسلمين، يظنُّون بالله ظناً غيرَ الظنِّ الحقِّ الذي يجب أن يُظنَّ به كظنِّ أهل الجاهلية. يقول المنافقون مُكرِّرين مقالتهم: لم يكن لنا من الأمر أقلُّ شيء، ولم يكن لرأينا اعتبار، ونحن أهل العقل والرأي والحكمة؟ قل ـ يا رسول الله ـ لهؤلاء المنافقين: ليس الأمر لي ولا لكم، ولا للفريق الآخر الذي كان مُتحمِّساً للخروج، بل إن الأمر كلَّه لله وبيده، يُصرِّفه كيف يشاء، ويُدبِّره كيف يُحب، ومن منهاجه: العمل بالشورى، والأخذ برأي الأكثريَّة المؤمنة، ما لم ينزل من لدنه أمرٌ خاصٌ، وقد اقْتضت حكمتُه فوق ذلك أن يمتحن جماعة المسلمين في هذه المعركة. يُخْفُونَ في أنفسهم من الكفر والشكِّ في وعد الله عزَّ وجلّ ما لا يُظْهرون لك. يقولون: لَوْ كان لنا عقول لم نخرج مع محمد إلى القتال، ولم تُقتل رؤساؤنا؟
قل ـ يا رسول الله ـ لهؤلاء المنافقين: لو لم تخرجوا إلى قتال المشركين في «أُحد» وبقيتم في بيوتكم في «المدينة»، مختبئين من عدوِّكم، لخرج منها الذين كُتب عليهم القتل بعلم الله وقضائه وقدره إلى مصارعهم التي يُصرعون بها، فكانت مدافنُهم مَضاجِعَهُم المُريحة لهم؛ لأنهم مؤمنون، حتى ساعة يُبعثون. ونزل بكم ما نزل من امتحانات وتجارب قاسيات، ومن أشدِّها مصائب الحرب، ونكبات المعارك القتالية؛ لتتعوَّدوا تحمُّل الشَّدائد والمحن، وليكشف الله ما في صدوركم من الإيمان والنفاق، ونوازع الأهواء والشهوات، وليُنقِّي ما في قلوبكم من شوائب الشَّكِّ والارتياب، ونزعات الإثم والخطيئة، والله عليمٌ بالأسرار والضمائر الموجودة في الصدور.

١٥٥ ـ إنَّ الذين انهزموا منكم ـ يا معشر المسلمين ـ عن القتال يوم التقى جَمْع محمد ﷺ وجَمْع المشركين في غزوة «أُحد»، ما أوقعهم في الزَّلل الذي وقعوا فيه إلا الشيطان الذي أطمعهم بالغنائم، ووَسْوَس في قلوبهم: أن يخالفوا أمر رسول الله ﷺ لهم بالثبات في مواقفهم التي عيَّنها لهم، فأطاعوه فحُرموا التأييد ببعض ما عملوا من الذنوب، ونؤكِّد لكم أنَّ الله سبحانه تجاوز عن الذين تولوا منكم فلم يعاقبهم بذلك؛ لندمهم عمَّا فرط منهم، ولتوبتهم النصوح؛ إنَّ الله كثير السَّتْر لمن تاب وأناب، حليمٌ لا يُعجِّل بالعقوبة، ولا يستأصلهم بالقتل.

١٥٦ ـ يا أيها الذين صدَّقوا الله، واتَّبعوا رسوله، لا تكونوا كالمنافقين الذين قالوا لأجل إخوانهم في النفاق والكفر إذا سافروا في الأرض لتجارة وغيرها، فماتوا بحادث مُهْلك في أسفارهم، أو كانوا غُزاة فقتلوا في معارك حربيَّة: لو كانوا مقيمين عندنا ما مات منهم من مات بحادث مُهلك، وهو مسافرٌ يضرب في الأرض للتجارة أو السياحة أو غير ذلك، وما قُتِل منهم من قُتل في معركة قتال غازياً؛ ليجعل الله قولهم وظنَّهم غمَّاً وتأسُّفاً في قلوبهم، والله يُحيي الأحياء بنفخ الرُّوح فيها، ويُميتها بنزْع ما به تكون حياتها، وهي الروح التي هي من أمره التكوينيِّ، وليس للأسباب تأثيرات حقيقيَّة فيها، وإنْ كان لها تأثيرات صُوريَّة، فحين لا يكون لله عزَّ وجلَّ قضاء وقدر بحياة أو موت، لم تفعل الأسباب شيئاً إنْ وجدت، أو تتدخَّل المقادير الربَّانيَّة بصرف الأسباب، أو إقامة الحواجز دونها، والله تعالى مُطَّلعٌ على ما تعملون من خير أو شر، فيُجازيكم به. وهذا النداء الإلهيُّ للمؤمنين هو النداء السادس في هذه السورة.

١٥٧ ـ وأُقسم لئن تمَّ عليكم ما تخافونه ـ أيها المؤمنون ـ من القتل في سبيل الله أو الهلاك بالموت، فإنَّ ما تنالونه من المغفرة الساترة لسوابق الذنوب والآثام، والرحمة الواسعة من الله عزَّ وجلَّ في دار رحمته؛ جنَّاتِ النعيم، خيرٌ من كلِّ ما يجمعه أهل الدنيا.

وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ ۗ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَن بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾

١٥٨ ـ وأُقسم لئن انقضت آجالكم في هذه الحياة الدنيا، أو قُتلتم في ساحة القتال، لإلى الله الرحيم الواسع الرحمة والمغفرة، المُثيب العظيم الثواب، تُجمعون في الآخرة، فيُجازيكم بأعمالكم. فالجزاء الربّانيُّ الأوفى على الصّالحات، التي يُقدِّمها المؤمنون الصادقون، إنما يكون بعد هذه الحياة الدنيا، يوم يُحشر الناس إلى ربِّهم.
وجاء تقديم القتل على الموت في الآية السابقة، وتقديم الموت على القتل في هذه الآية، إشعاراً بأنَّ من خرج في سبيل الله، فإنَّ له مغفرةً من الله ورحمةً، سواءٌ قُتِلَ مجاهداً، أو مات بحادث في خروجه، فالأمران متساويان ما دام الخروج في سبيل الله وابتغاء مرضاته.

١٥٩ ـ فَبسبب رحمةٍ عظيمةٍ من الله وفَّقك الله للرفق والتلطُّف بأصحابك، وألقى في قلبك داعية الرحمة والعطف، فَسَهُلت لهم أخلاقك، ولِنْتَ لمن اتَّبعك في أقوالك وأعمالك، فاجتمعوا عليك، ولو كنت جافياً متجهِّم الوجه، سَيِّءَ الخُلق، قليل الاحتمال، قاسي القلب، خالياً من عاطفة الرحمة، لنفروا عنك وتفرَّقوا حتى لا يبقى أحدٌ منهم عندك، فتجاوز عن زلاّتهم، واسأل الله السَّتْر لذنوبهم، واستخرجْ آراءَهم، واعلم ما عندهم فيما لم ينزل فيه وحيٌ، تطييباً لقلوبهم، فإذا وَصَلت إرادتك إلى مستوى العزم على الأمر بعد الشُّورى واستعراض مختلف الآراء، وترجيح الرأي الأكثر نفعاً وسداداً لعامة المسلمين، فاعمل على تنفيذ ما عزمت عليه متوكِّلاً على الله وحده، والله سيمدُّك بمعونته وتسديده، ويدفع عنك الأعراض والموانع، ويُحقِّقُ لك النتائج التي ترجوها؛ لأنه يحبُّ المتوكلين عليه، مع قيامهم بكلِّ ما تقْتضيه حاجات التنفيذ من أسبابٍ ربط الله بها النتائج في نظام كونه.

١٦٠ ـ إنْ يُعِنْكُم الله بنصره، ويمنعكم من عدوِّكم فلا قاهرَ لكم من الناس؛ لأنَّ الله تعالى هو المتولِّي نَصْرَكم، وإنْ يخذلكم ويَكِلْكُم إلى أنفسكم فَمَنْ ذا الذي ينصركم من بعد خُذْلانِهِ؟ وعلى الله وحده فليتوكَّل المؤمنون في تدبير أمورهم، وتحقيق ما يرجون، مع القيام بالأسباب المُستطاعة الماديَّة والمعنويَّة، طاعةً لأمره.

١٦١ ـ وما سَاغَ وما صَحَّ لنبيٍّ أن يَخُون أصحابه بأن يأخذ شيئاً من الغنيمة غير ما اختصَّه الله به، لأن النبوَّة والخيانة نقيضان لا يجتمعان، فمنصب النبوَّة أعظم المناصب وأشرفها، والخيانة نهاية الدناءة والخِسَّة، ومَنْ يَخُن في الغنائم يأتِ بالشيء الذي خانه بعينه يحمله على ظهره يوم القيامة؛ ليزداد فضيحة، ثم تُعطى كلُّ نفس جزاءَ ما كسبت من خيرٍ أو شر، وافياً غيرَ منقوص.

١٦٢ ـ لا يستوي عند الله الأمين والخائن، أفمن اتَّبع رضا الله بطاعته، فَحَفِظَ ما اؤْتمن عليه، كَمَنْ رَجَع مُتَلبِّساً بغضبٍ من الله؛ بسببِ غِلِّه وخيانته التي تجْلب عليه أبلغ الغضب، وأشدَّ العقاب، والمستقرُّ الذي يستقرُّ فيه وينتهي إليه؛ جهنَّم، وبئْسَ ذلك المصير الذي صار إليه.

١٦٣ ـ أصحابُ الجنَّة المتَّبعون لما يُرضي الله، متفاوتون في المنازل حسب أعمالهم، وأصحاب النار الراجعون بسخطه سبحانه، متفاوتون في الدركات، والله بصيرٌ بأعمال الفريقين، لا يخفى عليه منها شيء.

١٦٤ ـ لقد أنعم الله على المؤمنين النعمةَ العظيمة؛ إذ بعث فيهم رسولاً عربياً مثلهم، وُلِدَ ببلدهم، ونشأ بينهم، يعرفون نسبَهُ وصدقَهُ وأمانتَهُ، يقرأ عليهم آيات القرآن الذي أُنزل عليه، ويُطهِّرهم من دَنَس الكفر ونجاسة المُحرَّمات والخَبَائث، ويزيدهم في الخير والفضائل على اختلاف أنواعها: النفسيَّة والفكريَّة والاعتقاديَّة والسلوكيَّة، ويُعلِّمهم معاني القرآن وحقائقه، والسنة التي سَنَّها لهم على لسان نبيِّه ﷺ، والإصابة في القول والعمل، ووضْعَ الأشياء في مواضعها، وإنْ كانوا من قبلِ بعثته ﷺ لفي جهالةٍ وحَيْرةٍ عن الهُدى، فهداهم الله عزَّ وجلَّ بنبيِّه محمد ﷺ.

١٦٥ ـ أَوَ حين أصابتكم ـ أيُّها المؤمنون ـ مصيبة يوم «أُحد» إذ قُتل منكم سبعون، قد نلتم مِثْلَيْها من المشركين ببدر، فقتلتم منهم سبعين، وأسرتم سبعين كان في مقدوركم أن تقتلوهم، لمَّا حصل هذا قلتم مُتعجِّبين من الأمر، ظانِّين أنَّ من حقِّكم على الله أن ينصركم ولوْ لم تحقِّقوا في أنفسكم شروط النصر: من أين لنا هذا القتل والهزيمة؟! قل لهم ـ يا رسول اللّه ـ: إنَّما وقعتم فيما وقعتم فيه بشؤْم ذنوبكم، ومخالفتكم أمر رسول الله ﷺ، وليس ما جرى لكم من مصيبة على أيدي أعدائكم عجزاً في قدرة الله عن نُصرتكم، فالله قادرٌ على نُصرتكم دواماً مع ما كان منكم، لكن هذا يتنافى مع حكمته التي قضت تأديبكم وتربيتكم، وتمييز المؤمنين الصادقين من غيرهم، وابتلاء ما في صدوركم، إنَّ الله قادرٌ على نصركم، وقادرٌ على مُجازاتكم بالغمِّ الذي نزل بكم، وقادرٌ على تمكين أعدائكم من الظهور عليكم، فعليكم أن تبحثوا عن حكمة ربِّكم فيما أذن بأن ينزلَ بكم من مصيبة في غزوة «أحد»، وكذلك في كلِّ مصيبةٍ تنزل بكم مستقبلاً.

وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ وَقَعَدُواْ لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾ وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَيَسۡتَبۡشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسۡتَبۡشِرُونَ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٧١﴾ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡقَرۡحُۚ لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ مِنۡهُمۡ وَٱتَّقَوۡاْ أَجۡرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾



١٦٦ ـ والذي أصابكم من القتل والجراح والهزيمة يوم التقى جَمْع المؤمنين وجَمْع المشركين في «أحد»، فبعلم الله وتمكينه تمكيناً قدرياً، وتسخيره الأسباب والمُسبَّبات؛ إذ مكَّن أعداءكم منكم؛ لتربيتكم وتأديبكم، وَلِيعلَمَ اللَّهُ سبحانه وقوعَ ما قدَّره في علمه الأزلي، فيعلم المؤمنين الثابتين الأقوياء الصابرين على ما نالهم بحسب مراتبهم ودرجات إيمانهم.

١٦٧ ـ وَلِيَعلَمَ وقوعَ ما قدّره الله في علمه الأزليّ، فيعلم نفاقَ المنافقين بقلّة صَبْرهم عَلى ما نَزَلَ بهم، حين قال المؤمنون لهم قبل المعركة: تعالوا قاتلوا لأجلِ دينِ الله وطاعته، أو ادفعوا عن أموالكم وأرضكم وأهليكم. فقال المنافقون: لو نعلم ما يصحُّ أن يُسمَّى قتالاً لاتَّبعناكم ولدافعنا عنكم، وَلَمَا خذلناكم، ولكننا نرى أنه لن يكون قتال. هم ـ في تعلُّلهم بهذا القول ـ للْكفر الصَّريح أقرب منهم إلى ادِّعاء الإيمان، يملؤون أفواههم مُتشدِّقين بكلام يُفخِّمونه على قدر تجاويفها، حين يزعمون أنهم حريصون على مشاركة المؤمنين في القتال، ويكتمون في قلوبهم عدم الرغبة بنُصرة الرسول والمؤمنين معه، والله أعلم منهم بما يكتمون من النفاق في قلوبهم.

١٦٨ ـ هؤلاء المنافقون الذين قالوا بعد معركة «أحد» لأجل إخوانهم في النفاق، وقعدوا عن الجهاد: لو أطاعنا هؤلاء الذين خرجوا مع رسول الله ﷺ في الانصراف عنه، ما قُتلوا يومئذٍ. قل لهم ـ يا رسول الله ـ: إذا كنتم تظنُّون أنكم دفعتم عن أنفسكم الموت بامتناعكم عن الخروج إلى الميدان، وقعودكم في الديار، فادفعوا عن أنفسكم الموت إذا نزل بكم، إن كنتم صادقين في زعمكم أن تفادي أسباب الموت يمنع حدوثه ويدفعه!!.

١٦٩ ـ ولا تَظُنَّنَّ ـ يا رسول الله ويا كلَّ مؤمنٍ من أمَّته ـ أنَّ الذين قُتِلوا في سبيل الله أمواتاً كغيرهم ممَّن لم يُقتل في سبيل الله، بل هم أحياءٌ عند ربِّهم في محل كرامته وفضله، يُرزقون ويأكلون ويتنعَّمون من ثمار الجنة وتُحفها.

١٧٠ ـ إنهم في هذه الحياة التي يَحيَوْنها يشعرون بسعادة عظيمة بما أعطاهم اللَّهُ من الثواب والكرامة والرضا في دار النعيم، وهم يفرحونَ بإخوانهم الذين تركوهم أحياء في الدنيا على منهج الإيمان والجهاد، لعلمهم بأنهم إذا استشهدوا في سبيل الله مخلصين له، لحقوا بهم، ونالوا من الكرامة مثل الذي نالوه، وأنهم لا خوف مُسلَّط عليهم فيما يستقبلون من أمور الآخرة، ولا يحزنون على ما فاتهم من الدنيا.

١٧١ ـ يطلبون البُشْرى بنعمة جزيلة كريمة صادرة من الله، مانح النِّعم لهذا الوجود كلِّه، ومُسْديها لكلِّ حيٍّ، بما ينالُه المسلمون من نعمة النصر، وما يتفضَّل به عليهم من عزَّة وتمكين، وكما أنه تعالى لا يُضيع أجر المجاهدين والشهداء، كذلك لا يضيع أجر المؤمنين من بعدهم، بالنصر والتمكين في الدنيا، والنعيم المقيم في الآخرة.

١٧٢ ـ الذين أجابوا الله والرسول ﷺ، وخرجوا في أعقاب المشركين إلى «حمراء الأسد» من بعدما نالهم من ألم الجراح في غزوة «أُحد»، للَّذين أجادوا الخطّة في القتال، وأحسنوا بطاعة الله سبحانه والرسول ﷺ وأجابوه إلى الغزوة، واتَّقوا معصيته والتخلُّف عنه، ثوابٌ جزيل، وهو الجنة.

١٧٣ ـ هؤلاء الذين لبَّوا نداءَ اللَّهِ ورسولِهِ، قال لهم بعض المشركين يُثبِّطونهم عن الجهاد، ويُلقون الرُّعب في قلوبهم: إنَّ أبا سفيان وأصحابه قد جمعوا لكم الجُمُوعَ الكثيرة لاستئصالكم، فخافوهم واحذروهم، فإنَّه لا طاقة لكم بهم، فزاد المسلمين ذلك التخويف تصديقاً ويقيناً وقوَّةً في دينهم، وفوَّضوا أمورهم إلى الله تعالى، وقالوا: يكفينا الله عن أعدادهم التي يستكثرون بها، وقوَّاتهم التي يحشدونها، وهو نعم النَّصير الكفيل المعاون الذي تُوكل إليه الأمور كلها، الذي يقوم بأمور عباده، وتحقيق ما يحتاجون إليه، مَنْ توكَّل عليه كفاه، ومن استغنى به أغناه عمَّا سواه. وفي الآية: استحباب هذه الكلمة: ﴿حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ﴾ عند الغمِّ والأمور العظيمة.

فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِۚ إِنَّهُمۡ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجۡعَلَ لَهُمۡ حَظّٗا فِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡكُفۡرَ بِٱلۡإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٧٧﴾ وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ خَيۡرٞ لِّأَنفُسِهِمۡۚ إِنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِثۡمٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿١٧٨﴾ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطۡلِعَكُمۡ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجۡتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ وَإِن تُؤۡمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمۡ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴿١٧٩﴾ وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ هُوَ خَيۡرٗا لَّهُمۖ بَلۡ هُوَ شَرّٞ لَّهُمۡۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴿١٨٠﴾

١٧٤ ـ فعادوا من «حمراء الأسد» إلى «المدينة» مصحوبين بأربعة أمور: **أولها**: نعمة الله العظيمة عليهم، إذ خذل أعداءهم وثبّطهم، وألقى الرُّعب في قلوبهم، **وثانيها**: فضل معنويٌّ وربح مالي، **وثالثها**: عادوا سالمين لم يصبهم أذى ولا مكروه من قتل وجراح، **ورابعها**: اتَّبعوا أمر الله، وساروا في الطريق الذي يكون فيه رضوانه، والله سبحانه صاحب فضل عظيم، فيما أسبغه عليهم من نِعَم، وما وفقهم له من طلب رضوانه، وما نصرهم به من نصر مُؤَزَّر.

١٧٥ ـ إنَّما ذلكم القول المدسوس المُفزع الذي حَملته رسلُ أبي سفيان هو من عمل الشيطان وتدبيره، وهو يُخوِّف به نُصراءَهُ وأتباعه الذين هم موضع ثقته ووسوسته، فيجعلهم جبناء؛ لأنَّهم لا يهمهُم إلا الحياة الدنيا، فلا تخافوا المشركين أولياء الشيطان، ولا تقعدوا عن قتالهم، ولا تجبنوا عنهم، وخافوني فجاهدوا في سبيلي مع رسولي، فإني وليُّكم وناصركم، إن كنتم مُصدِّقين بوعدي أني مُتكفِّل لكم بالنصر والظفر.

١٧٦ ـ لا تحزن ـ يا رسول الله ـ من أجل الدين وحرصك على ظهوره وانتصاره، فهو مُؤيَّد بتأييد الله، ولا يكن في نفسك ـ يا رسول الله ـ حَسْرة على المنافقين المُتظاهرين بالإسلام، الذين يُسرعون بهمّة ونشاط في السُّبل المُوصلة إلى الكفر، ويُدبِّرون التدبير الخبيث والمكر السيء، إنَّهم بسلوكهم مسالك النفاق، ومسارعتهم في طرق الكفر، لن يضرُّوا الله شيئاً لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في قوانين كونه، ولا في سُننه الثابتة، ولن يُؤثِّروا على مسيرة الحق وانتشاره، إنَّما يَضُرُّون أنفسهم بذلك. يريدُ الله ألاَّ يجعل لهم نصيباً من نعيم الجنة في الآخرة؛ لأنهم انصرفوا عن دعوة الحقِّ، ولهم عذابٌ عظيمٌ في النار.

١٧٧ ـ إنَّ المنافقين الذين استبدلوا الكفرَ بالإيمان، فأخذوا الكفر وتركوا الإيمان، لن يضرُّوا الله شيئاً باستبدالهم الكفرَ بالإيمان، وإنما ضرُّوا أنفسهم بذلك، ولهم عذابٌ مُؤلم شديد الإيلام في الآخرة.

١٧٨ ـ ولا يظننَّ الذين استقرُّوا في الكفر في الباطن، مع اتِّخاذ تقيَّة النفاق في الظاهر، أنَّ إمهالَنا لهم بإطالة أعمارهم، وتمكينهم من التمتُّع بطيِّبات الدنيا وزينتها ـ على ما هم عليه من الكفر والطغيان ـ خيرٌ لأنفسهم، بل هو إذا لم يتوبوا إلى ربِّهم، ويرجعوا إلى مواقع الإيمان والتقوى، شرٌّ لهم؛ إنَّما نُمهلهم ونُؤخِّر في آجالهم؛ ليزدادوا إثماً، وبازدياد آثامهم مع وضوح الحقِّ لهم تنقطع يوم القيامة أعذارهم، فلا يبقى لهم عذرٌ يعتذرون به، ويستحقُّون دخول جهنم يوم الدين، ولهم فيها عذابٌ مُذلٌّ مقابل كبْرهم وتطاولهم على مقام الخالق جلَّ وعلا.

١٧٩ ـ ليس من شأنه سبحانه ولا من سُنَّته أن يترك المؤمنين على مثل ما أنتم عليه من اختلاط المنافقين بالمؤمنين المُخلصين، حتى يفصل المنافق من المؤمن الخالص بالامتحان الشديد، وليس من شأنه سبحانه ولا من سنَّته، أن يُغيِّر نظام حِكمته في خلقه، فيختصَّكم ـ أيها المؤمنون ـ بإطْلاعكم على الغيب، حتى تكتشفوا المنافقين، فتُميِّزوهم وتنبذوهم من صفوفكم، ولكنَّ الله يختار من رسله من يشاء، فيُطلعه على بعض غيبه، ومن ذلك: نفاق المنافقين وإخلاص المؤمنين؛ فقضيَّةُ الإطْلاع على الغيب ممَّا يختصُّ الله به رُسُلَه الذين يختارهم، ولا يجعله أمراً عاماً لكلِّ المؤمنين، وإذا علمتم أن الله تعالى لا يُطلع على غيبه أحداً إلاّ من ارتضى من رسول، فآمنوا بالله إيماناً كاملاً نقياً من الشكوك، وآمنوا برسله وبصدقهم فيما يُبلِّغون عن ربِّهم، وإن تؤمنوا هذا الإيمان الكامل، وتتَّقوا الله في أعمالكم الباطنة والظاهرة، فلكم بهذا الإيمان وهذه التقوى أجرٌ عظيم عند ربِّكم في عاجل أمركم وآجله.

١٨٠ ـ ولا يظننَّ الذين يبخلون بما أنعم الله عليهم من مال وعطاء أنَّ هذا البخل خيرٌ لهم، بل هو شرٌّ لهم في الدنيا والآخرة، وذلك لأنَّ البخل يدفع إلى الحقد في الدنيا، والنزاع بين الأفراد، والخراب والدمار للمجتمعات، سيُجعل ما بخلوا به من المال الواجب عليهم أداؤه طوْقاً من نار في أعناقهم يوم القيامة؛ لأنهم لمَّا جعلوا أيديهم مغلولة إلى أعناقهم، عُوقبوا بعقاب من جنس عملهم، والله سبحانه الباقي الدائم بعد فناء جميع خلقه وزوال أملاكهم، فيَبْقى المُلك لله تعالى، ويَبْطل ملك جميع المالكين، والله بما تعملون خبير على سبيل الشهود والحضور المُصَاحِب لكلِّ أجزاء العمل، ظواهره وبواطنه، فيُجَازيكم على أعمالكم.

لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ ۞ لَتُبْلَوُنَّ فِيٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾

١٨١ ـ لقد سمع الله قولَ اليهود الذين قالوا: إنَّ الله فقيرٌ يطلب منا أن نُقرضه أموالاً، ونحن أغنياء. سنكتبُ قولهم، وتجرؤهم عليه سبحانه، ونكتب عليهم أيضاً رضاهم بقتل آبائهم الأنبياء ظلماً وعدواناً، بدون شبهة حق، مُستهينين بمقام النبوَّة، وهم يعلمون أنهم على باطل، وسنلقيهم في جهنَّم، ونُخاطبهم وهم يصْلَوْنَ نارها: أحسُّوا بعذاب تلك النار الملتهبة وآلامها.

١٨٢ ـ ذلك العذاب المُحرق الشَّديد؛ بسبب ما كسبتم بكلِّ جوارحكم الظاهرة والباطنة، حيث وصفتم الله بالفقر، وأقدمتم على قتل الأنبياء، وهذا الذي جرى لكم هو بسبب صفة العدل الربَّاني، ومظاهرها من الجزاء بالعقاب، والله سبحانه لا يظلم أحداً شيئاً، وليس بظلاَّم لجميع عباده، بأدنى ظلم لكلِّ واحد منهم، أولعددٍ كبير منهم، بل هم الظالمون لأنفسهمَ، إذ ارتكبوا السّيئات وهم يعلمون أنهم مُعاقبون عليها، ضمن قانون الجزاء الربَّاني.

١٨٣ ـ قد سمع الله قولَ الذين قالوا من اليهود حين دُعوا إلى الإسلام: إنَّ الله أمرنا وأوصانا في التوراة أن لا نؤمن منقادين لرسول يزعم أنه جاء من عند الله حتى يأتينا بقُربان يُتقرَّب به إلى الله من نَعَم وغيرها، فتنزل نار من السماء فتحرقها، فيكون ذلك دليلاً على صِدقه. قل ـ يا رسول الله ـ لهؤلاء اليهود المتعنّتين: قد جاءكم رسلٌ من قبلي بالدلالات الواضحات على صدقهم، وبالذي طلبتم من القُربان الذي تأكله النار، فقد جاءكم هذا ولم تؤمنوا، بل كذبتم وجحدتم حتى بلغ بكم الأمر والاستهانة بالأنبياء أنْ قتلتموهم، فَلِمَ قتلتم الأنبياء الذين أتوا بما طلبتم منهم، مثل زكريا ويحيى، إنْ كنتم صادقين في دعواكم؟! وهذا الذي كان من أسلافكم من التكذيب والقتل قائمٌ فيكم، وأنتم راضون عن أعمالهم، وتحملون وصف الإجرام الذي وقع من الماضين حتى تتخلَّصوا من الانتساب إلى تلك الأمة الخاسرة، وتدخلوا في أمة الإيمان والإسلام.

١٨٤ ـ فإنْ كذَّبك ـ يا رسول الله ـ هؤلاء اليهود، فلا يهُولنَّك، فقد كُذِّبت رسلٌ كثيرون من قبلك، مثل نوح وهود وصالح وغيرهم من الرسل، جاؤوا أقوامهم بالدلالات الواضحات والمعجزات الباهرات، التي تدلُّ على صدق نبوَّتهم، والكتب الداعية إلى الحق الزاجرة عن الباطل، والكتاب الواضح المضيء الذي يشتمل على آيات بيانيَّة كالمصابيح، تكشف الحقَّ والخير، للعقول والقلوب والنفوس، فالله سبحانه أيَّد رسله بمعجزات خارقات تُثبت أنهم صادقون في رسالتهم، وأنزل على بعض الرسل صُحفاً دون أن تبلغ كتباً كبرى، وأنزل على بعض الرسل كتباً عظيمة منيرة، كالتوراة والإنجيل والقرآن، وهو أكملها وأجمعها وأعظمها.

١٨٥ ـ كلُّ نفسٍ مخلوقة ذائقةٌ طعم الموت، بالفصل الكُلّي بين الرُّوح المُمِدَّة بالحياة، وبين النَّفس التي تجتمع فيها خصائص الكائن القابل للحياة، وسيكون المذاق إما مُرّاً حنظلاً يتْبعه العقاب، وإما أن يكون حُلواً هنيئاً يتْبعه النعيم المقيم، وإنما تُوَفَّونَ جزاءَ أعمالكم يومَ القيامة، إنْ كان خيراً فخير، وإنْ كان شراً فشرّ، فَمَنْ نَجَا وأُبعد عن النار، وغالَبَ شهواته، وجاهد أهواءه، وتوقى الأسباب الموصلة إليها، وأُدخل الجنَّة بفضل الله ورحمته، واتَّخذ الوسائل المُوصِلة إليها، فقد ظفر بالنجاة، ونَجَا من الخوف، ونال غاية ما يطلب، وما العيشُ في هذه الدار الفانية إلا متاع زائل يغرُّ الإنسان بما فيه من طول البقاء، وسينقطع عن قريب.

١٨٦ ـ والله لَتُختَبَرُنَّ ـ أيُّها المؤمنون ـ فتقع عليكم المحن في الأموال بالنقصان منها، وبالجوائح تنزل بها، وفي الأنفس بالمصائب والأمراض والقتل وفقد الأقارب والأحباب؛ وذلك حتى يتميَّز الصادق من غيره، وَلَتَسْمَعُنَّ من اليهود والنصارىٰ والمشركين ما يُؤذي أسماعكم من ألفاظ الشِّرك والافتراء والتهكُّم والطعن في دينكم. وإن تصبروا ـ أيها المؤمنون ـ على أذاهم، وتضْبطوا أنفسكم وتحبسُوها عن الجَزَع، وتحبسُوها أيضاً مع أهل الإيمان، وتتَّخذوا الوقاية لطلب رضا الله، وامتثال أوامره، واجْتناب نواهيه، وتدفعوا الاعتداء بالحقِّ، وتعملوا على الخروج من المحنة، فإنَّ ذلك الصبر والتقوى من الأمور التي تحتاج إلى إرادة جادَّةٍ قويةٍ قادرة على متابعة الأمور الشديدة الصعبة على النفوس بالتنفيذ.

وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾

١٨٧ ـ وضعوا في ذاكرتكم ـ أيها المؤمنون ـ وقتَ أخذ الله العهد المؤكَّد من اليهود والنَّصارى: يجب عليكم وجوباً مؤكَّداً أن تبيِّنوا للناس ما في التوراة والإنجيل من الدلائلِ الدالَّة على نبوَّة محمدٍ ﷺ، ولا تكتموا منه شيئاً، فَطَرحوا الكتاب وراء ظهورهم استخفافاً واستهانةً به كما يُنبَذُ الشيء الحقير، وتركوا العمل به وأهملوه، وأخذوا ثمناً بَخْساً من متاع الحياة الدنيا مقابل كتمانهم الحق وتحريفهم الكتاب، فَبِئْس ثمناً الذي يأخذونه بدلاً عن عدم وفائهم بالميثاق الذي أخذه الله عليهم، وعن طرحهم كتاب الله مع الاستهانة به، حتى كان فيهم بمثابة النوى الذي يُنْبذ وراء الظهور.

١٨٨ ـ لا تَتَوهمَّن ـ أيها المُخاطَب ـ الذين يفرحون بما فعلوا، ويُحبُّون أن يَحمدَهمُ الناس على شيءٍ لم يفعلوه موفَّقين مُهتدين، وإذا كانوا بهذا الوصف، فلا تَظُنَّنَّهُمْ بِمَنْجاةٍ من العذاب الذي أعدَّه الله لهم في الدنيا، ولهم عذابٌ مُؤلم أشدَّ الإيلام في الآخرة. وفي الآية تحذير شديد من الإعجاب بما يصدر عن النفس من السُّوء، ومن مُفاخرة الإنسان بما لم يعمل؛ ليُثنِيَ الناس عليه الثناء الكاذب.

١٨٩ ـ ولِلَّهِ سبحانه ـ وحدَه ـ مُلْكُ السَّموات والأرض وما فيهما خلقاً وتدبيراً، يتصرَّفُ في ملكه كيف يشاء، واللَّهُ على كل شيءٍ يشاؤه عظيمُ القدرة، إذا أراد شيئاً كان أسرع ما يكون.

١٩٠ ـ تفكَّروا ـ أيُّها الناس ـ واعتبروا فيما خلقتُهُ وأنشأته من السموات والأرض لمعاشكم وأرزاقكم، وفيما عقَّبت بين الليل والنهار واختلافهما في الطول والقصر، فجعلتهما يختلفان ويعتقبان عليكم؛ لكي تتصرَّفوا فيهما لمعاشكم، تطلبون أرزاقكم في النهار، وتسكنون في الليل لراحة أجسادكم، فاعتبروا وتفكروا يا ذوي العقول الخالصة المدركة الصافية عن شوائب الوهم التي تنفذ إلى لُبِّ الأشياء، ولا تكتفي بظواهرها.

١٩١ ـ أصحاب العقول السليمة المُدركة هم الذين يُداومون على ذكر الله، ويستحضرون عظمته وجَلالَه، ويسْتشعرون نعمه وفضله في غالب أحوالهم: قياماً، وقعوداً، ونائمين على جنوبهم، ويتفكَّرون في خلق السموات والأرض وما أبْدع الله فيهما من عجائب مصنوعاته وغرائب مبتدعاته، ليدلهم ذلك على كمال قدرة الصانع سبحانه وتعالى، ويعلمون أنَّ لهما خالقاً قادراً مُدبِّراً حكيماً. وبعد تأمُّلهم العميق في خلق السموات والأرض، وتعرُّفهم من جمال الصَّنْعة على جلال الصَّانع، ومن تدبُّر خلق الكون ونواميسه على عظمة الخالق المبدع سبحانه يدعون ربَّهم من أعماق قلوبهم بهذه الأدعية الخمسة: **الدعاء الأول**: ربَّنا ما خَلَقْتَ هذا عَبَثاً وَهَزْلاً، عارياً عن الحكمة، خالياً عن المصلحة، بل خلقته دليلاً على وحدانيَّتك، وكمال قدرتك، مشتملاً على حكم جليلة، منتظماً لمصالح عظيمة، تنزيهاً لك عن أن تخلُق شيئاً عبثاً لغير حكمة، فاصْرِف عنا عذاب النار، واجعل بيننا وبينها وِقاية، بأن تُوفِّقنا لاجْتناب ما لا يُرضيك، وأن تغفر لنا ما فرَّطنا في جَنْبك.

١٩٢ ـ **الدعاء الثاني**: يا ربَّنا بفضلك ورحمتك نجِّنا من النَّار، فإنَّك من تُدخل النَّارَ فقد أهنته وأذللته بدخوله فيها وتعذيبه بها، وما للمشركين الذين يضعون العبادةَ في غير موضعها من أنصارٍ ينصرونهم يوم القيامة، ويمنعونهم من العذاب.

١٩٣ ـ **الدعاء الثالث**: يا ربَّنا إننا سمعنا نبيَّك محمداً ﷺ ينادي الناس للتصديق بك، والإقرار بوحدانيَّتك، والعمل بشرعك، فأَجَبْنا دعوتَه، وصدَّقنا رسالتَه. **والدعاء الرابع**: ربَّنا فاسْتر لنا كبائرَ ذنوبنا، وأزل عنا صغائرها، وتوفَّنا على مثل أعمال الصَّالحين المتوسِّعين في نوافل الطاعات بعد أداء الواجبات واجتناب المنهيات، حتى نكون في زمرتهم ودرجتهم يوم القيامة.

١٩٤ ـ **الدعاء الخامس**: يا ربَّنا أعطنا الذي وعدتنا على ألسنة رُسُلِكَ الأكرمين من نصر وتمكين وتوفيق وهداية، ولا تفضحنا بذنوبنا يوم القيامة، إنَّك لا تترك ولا تُهمل وعداً وَعَدْتَ به عبادك إذا حان الوقت المُحدَّد الذي قرَّرت حصول موعدك فيه.

فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ﴿١٩٦﴾ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَٰكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾

سُورَةُ النِّسَاءِ

١٩٥ ـ فأجاب خالقُهم ومُربِّيهم والمُنعم عليهم دعاءهم، وأعطاهم ما سألوه عقب تضرُّعهم، قائلاً: إني لا أُحبط عملكم ـ أيها المؤمنون ـ ذكراً كان أو أنثى، بل أُثيبكم عليه، وأجزيكم الجزاء الأوفى، بعضُكم من بعض في الدين والنُّصرة والموالاة، والثواب على الطاعة والجزاء عليها، فالذين تحقَّقوا بهذه الأوصاف الخمسة: **الوصف الأول**: المهاجرون الذين هَجَروا أوطانهم وأهليهم رغبةً في رضا الله تعالى، **والوصف الثاني**: الذين أُخرجوا من ديارهم مُلْجَئين مُكْرَهين، **والوصف الثالث**: الذين ألحق المشركون بهم الضُّرَّ بسبب إسلامهم، وأُوذوا في طاعتي وديني وابتغاء مرضاتي، **والوصف الرابع**: الذين قاتلوا العدوَّ في سبيل الله، **والوصف الخامس**: الذين استُشهدوا في جهاد الكفار، لأمْحُوَنَّ عن هؤلاء الفضلاء المتحققين بهذه الأوصاف الخمسة ذنوبهم ولأسترنَّها لهم، ولأُدخلنَّهم جنَّاتٍ عظيمات تجري من تحت قصورها وأشجارها الأنهار، ثواباً من فضل الله وإحسانه، والله عنده حُسْنُ الجزاء.

١٩٦ ـ لا يصح أن يُخدع أحدٌ بما عليه هؤلاء الكفار من تصرُّفهم في البلاد حاكمين مسيطرين أقوياء، يتنقلون أحراراً من بلد إلى بلد، وما هم عليه من قوّة وسَطْوة ومتاع دنيوي.

١٩٧ ـ ذلك التصرُّف في شؤون البلاد، وما هم عليه من قوة وسطوة، متاعٌ قليل زائل، وانتفاع عاجل، ثمَّ مكانهم الذي يصيرون إليه في الآخرة جهنَّم، وبئس ما مهَّدوا لأنفسهم فراشاً من اللظى في جهنم؛ بسبب كفرهم.

١٩٨ ـ لكن الذين اتَّقوا ربَّهم بالعمل فيما أمرهم به، واجْتناب ما نهاهم عنه، لهم جنَّاتٌ عظيمات تجري من تحت قصورها وأشجارها الأنهار، خالدين فيها ضيافةً وإكراماً من فضْل الله وكرمه وإحسانه، وما عند الله من ثواب زائد على الجنَّات التي تجري من تحتها الأنهار هو خير وأفضل، وهو مُعَدٌّ للأبرار، الذين تحققوا بمرتبة التقوى، وزادوا عليها من نوافل القُربات حتى كانوا بها من الأبرار.

١٩٩ ـ ونُؤكِّد لكم أنَّ بعضاً من اليهود والنصارى لَمَنْ يتَّصف بخمسة أوصاف: **الوصف الأول**: يؤمنُ بتجدُّد واستمرار بالله الواحد الأحد المُنزَّه عن الشريك والصاحبة والولد، **والوصف الثاني**: يؤمن بالقرآن الذي أُنزل إليكم ـ أيها المؤمنون ـ، **والوصف الثالث**: يؤمن بالكتب المنزَّلة عليهم مثل التوراة والإنجيل والزبور قبل طروء التحريف والتبديل عليها، **الوصف الرابع**: الخشوع لله، والخوف منه خوْفَ إجلالٍ وتعظيم، والضراعة إليه، وطلب رضاه دون سواه، **الوصف الخامس**: الثبات على الحق، فلا يُغيِّرون كتبهم ولا يُحرِّفونها، ولا يكتمون صفة محمد ﷺ لأجل الرئاسة والمآكل كما يفعله غيرهم من الأحبار والقُسس، أولئك الفضلاء رفيعو المنزلة المتَّصفون بتلك الأوصاف الخمسة لهم ثوابُ أعمالهم التي عملوها، إنَّ الله عالم بجميع المعلومات، لا يخفى عليه شيءٌ من أعمال عباده، فيُجَازي كل أحد على قدر عمله، لأنه سريع الحساب، لا يشْغله شأنٌ عن شأنٍ، فهو قديرٌ على محاسبتهم جميعاً في ساعة واحدة، دون أن يُنقص أحداً شيئاً من حقِّه.

٢٠٠ ـ يا أيُّها الذين صدَّقوا الله ورسوله وعملوا بشرعه تحقَّقوا بهذه الأمور الأربعة: **الأول**: احبسوا أنفسكم بمنْعها عن أهوائها، وقمْعها عن شهواتها، والقيام بالطاعات على وجهها، وتحمُّل المكاره وآثار الهزيمة، وأذى الأعداء وسُخريَّتهم، والعمل على النهوض بعد الكبوة، **والثاني**: صابروا الكفار، وغالبوا الأعداء في الصبر على شدائد الحرب، واكسروا بصبركم صلابة صبرهم، ولا تكونوا أضعف منهم فيكونوا أشدَّ منكم صبراً، **والثالث**: أقيموا في الثغور، مُترصِّدين للغزو، ومُسْتعدِّين له أكثر من أعدائكم، وداوموا على جهاد المشركين واثْبتُوا عليه، **والرابع**: اتَّقُوا الله بامتثال جميع أوامره، واجتناب نواهيه؛ لأجل أن تفوزوا بحياةٍ طيِّبة في الدنيا، وسعادةٍ عظيمةٍ في الآخرة. وهذا النداء للمؤمنين هو النداء الإلهيُّ السابع والأخير في هذه السُّورة.

سُورَةُ النِّسَاءِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ﴿٣﴾ وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا ﴿٤﴾ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٥﴾ وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾

١ - يا أيُّها الناس احذروا أمر ربّكم أن تُخالفوه فيما أمركم به ونهاكم عنه، الذي خلق السُّلالة الإنسانيّة كلّها مُشتقَّة من نفسٍ واحدةٍ، وهو آدم أبو البشر عليه السلام، وخلق من آدم زوجه حواء، ونَشَر مِنْ ظَهر آدم وحواء بالتناسل رجالاً كثيراً ونساء كثيرات، واتّقُوا الله الذي يَسْأل به بعضكم بعضاً، واتّقُوا الأرحام أن تقطعوها فلا تصلوها، إنَّ الله كان عليكم حافظاً لا يغيب عليه شيءٌ من أمركم، مُطّلعاً عليكم، فهو جديرٌ بأن يُخاف ويُتّقى.

٢ - وأنفقوا - أيُها الأولياء - أموال اليتامى الذين فقدوا آباءَهم قبل بلوغ الحُلُم، في شؤونهم ومصالحهم، وأعطوهم أموالهم التي في تصرُّفكم كاملةً غير منقوصة ولا مُبدَّلة بتمليكهم إيّاها، وحفظها لهم نيابةً عنهم، إلى أن يستحقُّوا تسلُّمها، والتصرُّف فيها بأنفسهم، ولا تَسْتبدلوا الجيِّد من أموالهم بالرديء من أموالكم، ولا تتركوا مالكم الحلال الطيِّب، وتمدُّوا أيديكم إلى مال اليتيم وتصرفوا منه في شؤونكم، ولا تخلطوا أموالهم بأموالكم؛ لتحتالوا بذلك على أكل أموالهم، إنَّ الذي ذُكر من استبْدالكم الخبيث بالطيِّب، والانتفاع بأموال اليتامى مضمومةً إلى أموالكم، كان إثماً عظيماً؛ لأنه اعتداءٌ على ضعيف عاجز عن الدفاع عن ماله والمحافظة عليه، من الشخص الذي عُهِدَ إليه أن يدفع عنه الاعتداء، ويُحافظ على ماله، وليس أعظم ذنباً من عدوان مَنْ أقيم لدفع العدوان، وتضييع المال ممّن عُهد إليه أن يحفظه.

٣ - وإنْ خِفتُم - يا أولياء اليتامى - أن لا تَعدِلوا فيهنَّ إذا نكحتُموهنَّ، فانكحوا غيرهنَّ مِمّا حلَّ لكم من النِّساء: اثنتين أو ثلاثاً أو أربعاً، فإن خشيتم ألا تعدلوا بين الأزواج الأربع في القَسْم والنفقة وحقوق الزوجيّة، فانكحوا واحدة، أو ما ملكتم من السَّراري؛ لأنه لا يلزم فيهنَّ من الحقوق مثل ما يلزم في الحرائر، ذلك الذي شرعتُه لكم من الاقتصار على واحدة أو ملك اليمين، أدنى ألاَّ تتحمَّلوا مسؤولية النفقة على عيال كثيرين، وأقرب إلى عدم المَيْل والجَوْر لأنفسكم، ولا لزوجاتكم، ولا لمَن تعولونهم ممَّن تجب عليكم نفقتهم والقيام بحقوقهم.

٤ - وأعطوا - أيُّها الأزواج - النساء مُهورهنَّ فريضةً مُسمَّاة عن طيب نفْسٍ منكم، فإنْ طابت نفوسهنَّ عن شيءٍ من ذلك الصَّداق المُعيَّن، فوهَبْنَ ذلك لكم، فكُلوا ما وَهَبْنه لكم أكلاً طيِّباً سائغاً.

وفي الآية دليلٌ على إباحة هبة المرأة صداقَها، وأنها تملكه، ولا حقَّ للوليِّ فيه.

٥ - ولا تُؤْتُوا - أيها الأولياء - ناقصي العقل والتدبير من الرجال والنساء والصِّبْيان أموالهم التي تحت أيديكم التي جعلها الله سبباً للقيام بمعايشكم، وصلاح أموركم؛ خشية إساءة التصرُّف فيها، وإتلافها فيما لا خير فيه، ولا مصلحة من ورائه؛ لأنَّ صيانة أموال الأفراد صيانة للثروة الجماعيّة، وليكن من عقلائكم أولياء عليهم يقومون بشؤونهم، ويستثمرون أموالهم بأيِّ طريق مشروع لتكون النفقة من ربحها لا من أصلها، وأطعموا واكْسُوا مَنْ يجب عليكم رزقه وكسوته منهم، وقولوا لهم قولاً معروفاً يقتضيه المقام، ويناسب الحال التي يقال فيها، بنصحهم وبيان عاقبة السَّفه وخطره، وقيمة المال وحُسْن التصرُّف فيه.

٦ - واختبروا - أيها الأولياء - اليتامى في عقولهم وأديانهم وحُسْن تصرُّفهم في أموالهم، وهم في سنِّ التمييز قبيل بلوغهم الحلم، حتى إذا بلغوا مَبْلَغ الرجال والنساء، فإنْ أبصرتم وعرفتم منهم عقلاً وصلاحاً في الدِّين، وحفظاً للمال وعلماً بما يصلحه، فسلِّموا لهم أموالهم؛ ليتولَّوا هم بأنفسهم شؤونهم المالية، ولا تأكلوا - يا معشر الأولياء - أموالَ اليتامى مُسْرفينَ فيها، ومُسارعين في صرفها؛ حَذَرَ أن يكبَروا ويُطالبوا بها، وتُلزموا بدفعها إليهم، ومن كان منكم غنياً - أيها الأولياء - فلْيعفَّ عن أن يأكل شيئاً من مال اليتيم أجراً على ولايته، ولا يرزأه قليلاً ولا كثيراً، ومَنْ كان فقيراً محتاجاً إلى أخذ شيءٍ من مال اليتيم في مقابل صرفه بعض وقته في شؤون ولايته وتدبير ماله، فيُباح له أن يأكل من مال اليتيم بالمُتَعارف الذي لا يستنكره أهل الخبرة بالأعمال، وهوأن يأخذ أجر مثل عمله في إدارة شؤون اليتيم لا يزيد على ذلك، فإذا دفعتم إلى اليتامى أموالهم بعد البلوغ، فأشهدوا على دفع المال إليهم؛ لتزول التُّهمة، وتنقطع الخصومة، وتظهر أمانة الوصي. وكفى بالله كافياً لمن توكَّل عليه، ومُحَاسباً وَمُجازياً لكم، وشَاهِداً عليكم، فلا تخالفوا ما أُمرتم به.

لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ۚ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾ وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُو۟لُوا۟ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ۖ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ ۚ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ ۚ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ ۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۗ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ۚ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾

٧ - للذكور من أولاد الميِّت وعُصبته حظٌّ ممَّا ترك الوالدان والأقربون من الميراث، وللإناث من أولاد الميِّت حظٌّ ممَّا ترك الوالدان والأقربون ممَّا قلَّ من المال المخلَّف عن الميِّت أو كَثُر، جعله الله حقاً ثابتاً، ونصيباً معلوماً لا بدَّ من إعطائه كاملاً غير منقوص.

٨ - وإذا حضر قسمة الميراث القرابة الذين ليس لهم نصيب مفروض من الميراث، أو حضرها مَنْ مات آباؤهم وهم صغار، أو مَنْ لا مال لهم، فأعطوهم من المال قبل القسمة، على سبيل الترضية وجَبْر الخاطر، ولا تتبرَّموا وتتضايقوا إذا حَضَر من ليس له في المال نصيب مفروض، ولا تسيئوا إليهم بقول، أو تجرحوا عزَّتهم بكلمة، وقولوا لهم قولاً حسناً، ولا تُتْبعوا العطيَّة بالمنِّ والأذى. وفي تحقيق هذه الوصيَّة ترابط اجتماعيٌّ عظيم، وتوثيق لوشائج المودَّة والمحبة بين أعضاء الأسرة، وتعميق لخُلق الرحمة بالضعفاء في نفوس المسلمين.

٩ - ولْيَخفِ الله الذين لو ماتوا وتركوا خلفهم أبناء صغاراً ضِعَافاً، خافوا عليهم الظلم والضياع من بعدهم، فلْيتَّقوا الله فيمن تحت أيديهم من اليتامى، بالإحسان إليهم، وحفظ أموالهم، وفِعل ما يُحبُّ أن يفعل بأولادهم من بعدهم، وليقولوا قولاً عدلاً وصواباً يُصيب موقعه الملائم له، فيكلِّموا اليتامى كما يُكلِّمون أولادهم، ولا يُؤذوهم بقول ولا فعل.

١٠ - إنَّ الذين يعتدون على أموال اليتامى بسائر أنواع التصرُّفات الرديئة المُتلفة للمال حراماً بغير حق، سيأكلون في بطونهم يومَ القيامة ناراً، تحرق بطونهم، وتشوي أحشاءهم، وسيدخلون ناراً هائلة مُشتعلة، يحترقون فيها جزاء أكلهم أموال اليتامى ظلماً.

١١ - يعهد الله إليكم ويفرض عليكم في شأن ميراث أولادكم لصُلبكم الذين ولدوا لكم، ونُسبوا إليكم، أو أولاد أبنائكم عند عدم وجود أولادكم لصُلبكم: إذا تُوفي الأب عن أولاده، أو توفيت الأم عن أولادها: ذكوراً وإناثاً، للولد الذكر من الميراث مثل نصيب الأنثَيين، إذا لم يكن هناك وارثٌ غيرهم. فإن كنَّ المتروكات من الأولاد بنتين فصاعداً، فلهنَّ ثُلثا ما ترك، كالأختين المذكور حكمهما في الآية الأخيرة من السورة، وإن كانت البنتُ واحدة فقط، فلها النصف فرضاً لها؛ لانفرادها عن ابن يعصبها، أوبنت أخرى تُشاركها. ولأبوي الميِّت لكلِّ واحدٍ منهما سُدُس الميراث إن كان له ولد: ذكراً كان أو أنثى، واحداً أو أكثر، فإن لم يكن للميِّت ولد، وَوَرِثه أبواه، وليس له وارثٌ سواهما، فلأمِّه الثلث بالفرض، ويأخذ الأب باقي المال بالفرض والتعصيب، فإن كان للميِّت إخوة اثنان فأكثر، ذكوراً كانوا أو إناثاً، وسواء أكانوا لأبوين أولأب أو لأم أو خليطاً، فلأمِّ الميت سُدُس التركة إذا كان معها أب، وللأب الباقي، ولا شيء للإخوة لحَجْبهم بالأب، فالأب إذا كان لولده المتوفَّى ولدٌ يرث سُدس ما تركه،وإن لم يكن له ولدٌ يرثُ الباقي من تركتِهِ بعد فرض ذوي الفروض، والأم إذا كان لولدها المتوفَّى ولد أو إخوة ترثُ سُدس ما تَرَك، وإن لم يكن له ولد ولا إخوة ترث ثلث ما ترك. وهذه السِّهام إنما تُقسَّم وتُعطى لأصحابها بعد قضاء الدَّيْن، وإنفاذ وصيَّة الميِّت في ثلثه، وهما يتقدَّمان على حقِّ الورثة.

آباؤكم وأبناؤكم الذين ترثونهم لا تعلمون أيُّهم أنفع لكم في الدين والدنيا، فلا يدري أحدكم: هل الأقرب له نفعاً أبوه الذي نشَّأه من صغره وربَّاه، وأنفق عليه وكفله، أو ابنه الذي يخلفه ويحفظ اسمه، ويقوم بواجبه في كبره، والذي يعلم الأقرب نفعاً هو الله، وهو الذي قسم الإرث بناءً على علمه، فلا ينبغي لمن لا يعلم أن يعترض على مَنْ يعلم، ولو وكل الأمر إليكم لأعطيتم مَنْ لا يستحق ما لا يستحق من الميراث، وتمنعون مَنْ يستحق الميراث، هذا الذي قدَّره الله من المواريث لأهلها فريضةٌ واجبة من عند الله، إنَّ الله كان عليماً بالأشياء قبل خلقها، حكيماً فيما قدَّر من الفرائض وَفَرَض من الأحكام، فالتزموا بشرعه، وتمسَّكوا بحكمه.



﴿ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ فَإِن كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾

١٢ ـ ولكم ـ أيها الأزواج ـ نصفُ ما ترك أزواجكم بعد وفاتهنّ، إنْ لم يكن لهنّ ولد ذكراً كان أو أنثى، سواء أكان منكم أو من غيركم، فإن كان لهُنَّ ولدٌ منكم أو من زوج آخر، فلكم الرُّبع ممَّا تركن من المال، تَرِثونه من بعد إنفاذ وَصِيَّتِهِنّ الجائزة، أو ما يكون عليهنّ من دَيْن لمُستحقّيه.

وللزوجات الربع ممَّا تركتم ـ أيها الرجال ـ إن لم يكن لكم ولد أو ولد ابن أو ولد بنت، سواء كان من الزوجة أو من غيرها، فإن كان لكم ولد منها أو من غيرها فلهُنَّ الثمن ممَّا تركتم، فالواحدة من النساء لها الرُّبُع أو الثُّمن، وكذلك لو كُنّ أربع زوجات فإنهنّ يشتركن في الرُّبُع أو الثمن، من بعد إنفاذ وصيَّتكم الجائزة، أو قضاء ما عليكم من دَيْن، سواء أكان دَيْناً لله كَدَين زكاة أو نَذْر، أم دَيْناً للعباد كدَيْن قرض، أو ثمنٍ مُشْترى، أو أجرة مُستأجر.

وقدَّم في الآية لفظ الوصيَّة على لفظ الدَّيْن لحثّ الورثة على الاهتمام بما هو مظنَّة إهمالِهِم؛ لأنَّ الوصيَّة تبرُّع، قد يَضِنُّ بها الورثة، وأما الدَّيْن فهو حقٌّ للدائن في مُقابل بدل، فليس تبرُّعاً، وليس مظنَّة للشُّح به.

ولا يُعرف خلاف بين العلماء في أنّ أول ما يبدأ به من تركة المتوفَّى بعد تجهيزه هو أن تُؤدَّى ديونه، ثم يقسم الباقي من تركته بعد ديونهِ ووصيَّتِهِ على وَرَثته كما فصَّل الله سبحانه.

وإنْ كان الميِّتُ رجلاً أو امرأة ولا ولد له ولا والد، وترك أخاً لأم، أو أختاً لأم، فلكُلٍّ واحد منهما السُّدس ذكراً كان أو أنثى، وإذا كان الإخوة لأم اثنين فصاعداً، سواء كانوا ذكوراً فقط أو إناثاً فقط، أوخليطاً من الإخوة والأخوات، فإنهم يشتركون في الثلُث، يُقسم بينهم بالسويَّة لا فرق بين الذكر والأنثى. فكما تَساوى الأخ والأخت عند الانفراد فلِكُلٍّ منهما السُّدُس، يتساويان عند الاجتماع في قسْمة الثلث.

وهذا الذي فرضه الله للإخوة والأخوات لأم يأخذونه ميراثاً لهم، من بعد قضاء الدَّيْن، وإنفاذ الوصيَّة الجائزة، غير مُدخلِ الضَّرر على الورثة بوصيّة أو دَيْن، كمُجَاوَزة الثلث في الوصيَّة، أو الإقرار بدَيْن ليس عليه. فكما يجب على الورثة أنْ يُخلِّصوا ذمَّة مُورِّثهم بقَضاء ما عليه من دَيْن، وتنفيذ ما أوصى به، فكذلك على المُوَرِّث أن لا يكون مُضاراً بوصيَّته أو دَينه، بأن لا يحرمهم من التَّرِكَة أو مِنْ أكثرها من طريق الوصيَّة أو الدَّيْن، فلا تُنفَّذ وصيَّتُه في أكثر من ثُلث تركته إلا برضاهُم، ولا يُؤَدَّى دَيْنُه إذا كان مُتَّهماً في إقْراره به، وبهذا تتحقّق مصلحة الوَرَثة ومصلحة المُورِّث.

يعهد الله عهداً إليكم فيما يجب لكم مَنْ ميراث مَنْ مات منكم، والله عليمٌ بمصالح عباده ومَضارِّهم، وبما يفرض عليهم من أحكام، ذو حِلم وأناة لا يُعجِّل بالعقوبة حتى يرجعوا ويتوبوا.

١٣ ـ تلك الأحكام التي تقدَّم ذكرها في هذه السُّورة في شأن مال اليتامى، والوصايا، والأنكحة، والمواريث، فرائضُ الله، فلا يجوزُ لكم أن تَتَجاوزوها، ومَنْ يُطع اللَّهَ ورسولَه في قسمة المواريث وفي غيرها من الأوامر والنواهي، يُدخله جنَّاتٍ عظيمات تجري من تحت أشجارها وقصورها الأنهار، خالدين فيها، وذلك الفوز العظيم.

١٤ ـ ومَنْ يعصِ الله ورسولَهُ بردِّ حكم الله في قِسْمة المواريث، وعدم الرضا بقسمة اللَّهِ ورسولِهِ له، ويتجاوز ما أمر الله تعالى به استحلالاً، ويُعطِّل العمل بما شَرَع الله لعباده، ويُغيِّر أحكام الله، يُدخله ناراً متأجِّجة خالداً فيها، وله فيها عذابٌ يُخزيه ويُهينه، لهوانه على الله تعالى.

وَٱلَّٰتِي يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُوا۟
عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ ۖ فَإِن شَهِدُوا۟ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى
ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا
﴿١٥﴾ وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا ۖ فَإِن تَابَا
وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا
﴿١٦﴾ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ
ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ
ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ
يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ
قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ
أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا ۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ
لِتَذْهَبُوا۟ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ
مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ
أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾

١٥ ـ والزوجات اللاتي يرتكبن فاحشة الزنى من نسائكم، فاطلبوا ـ أيُّها الأزواج ـ أربعةً من الشُّهود المسلمين ليشهدوا عليهنَّ، فإنْ شهد الشهود عليهنّ بالزنى، فاحبسوهنَّ في البيوت، فلا يخرجن منها، حتى تتوفاهنَّ ملائكة الموت عند انقضاء آجالهنَّ، أو يجعل الله لهنَّ مَخْرجاً من هذه العقوبة.

١٦ ـ والزاني والزانية البِكران اللذان يقعان في فاحشة الزنى من رجالكم ونسائكم، فعيِّروهما بالقول باللسان، فإنْ تابا من الفاحشة، وأصلحا العمل فيما يأتي، فاتركوهما ولا تُؤْذُوهما، إنَّ الله كان توّاباً رحيماً يعود على عباده بفضله ومغفرته ورحمته إذا تابوا إليه.

وهذا الحكم كان في ابتداء الإسلام، فلمَّا نزلت الحدود، وثبتت الأحكام نُسخ ذلك الإيذاء بالآية التي في سورة النور: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ﴾، فَثَبَت الجَلْدُ على البكر بنصِّ الكتاب، وثَبَت الرَّجم على الثيِّب المُحصَن بسُنَّة رسول الله ﷺ.

١٧ ـ إنَّما التوبة التي يقبلها الله سبحانه: هي توبة الذين يرتكبون الذنوب والمعاصي مُتلبِّسين بجهالةٍ من الجهالات النفسيَّة، التي تضعف معها إرادتهم، ثُمَّ يتوبون بعد الإقلاع عن الذنب بزمان قريب قبل مُعَاينة الموت، فأولئك يقبل الله سبحانه توبتهم بفضله ورحمته، وكان الله عليماً بما في قلوب عباده المؤمنين، حكيماً بالتوبة لمن تاب عن معاصيه، وأَنَاب عن الذنب بزمان قريب.

١٨ ـ وليس قَبول التوبة للَّذين يُصرُّون على ارتكاب المعاصي، ويُسَوِّفون توبتهم إلى أن يزول حال التكليف، حتى إذا وَقَع في النَّزْع، وعاين ملائكة الموت قال: إني تبتُ الآن، فإنَّ توبة هؤلاء غير مقبولة؛ لأنَّها حال اضطرار لا حالة اختيار، كما لا تُقبل توبة الكفار إذا ماتوا على كفرهم. أولئك البُعداء عن رحمة الله، المُصِرُّون على المعاصي إلى أن ماتوا، والجاحدون الذين يموتون وهم كفار، هيَّأنا لهم عذاباً مُؤلماً وجيعاً. وفي هذه الآية: بيان الوقت الذي تُقبل فيه التوبة، وهو ما لم يصل الإنسان إلى الغَرغَرة ومُشَاهَدة مَلَك الموت، ومقدِّمات وسائل العذاب، فإذا وَصَل إلى ذلك، لم تقبل له توبة، ولا يصح منه إيمان.

١٩ ـ يا أيُّها الذين صدَّقوا بالله، واتَّبعوا رسوله لا يَحلُّ لكم أن تأخذوا النساء بعد موت أزواجهنَّ، على سبيل الإرث، كما يُؤْخَذ المال الموروث، تتصرَّفون فيهنَّ بالزواج منهنَّ، أو المنع لهنَّ، أو تزويجهنَّ للآخرين، وهُنَّ كارهات لذلك، ولا تُمْسكوهنّ من غير حاجة لكم إليهنَّ، مُضارَّة ومضايقة؛ لتضجرَ فتفتديَ ببعض مالها، إلا أن يأتين بفاحشةٍ مبيِّنة أخلاقهنّ وكاشفةٍ عن أحوالهنَّ بالترفُّع على الزوج، وسوء الخلق، وإيذاء الزوج وأهله بالبَذاء وفُحش القول، فحينئذٍ يحلُّ لكم إضْرارهن ليفتدينَ منكم بالخُلْع، لوجود السبب من جهتهنّ، وعاشروهنَّ بالمعروف، معاملةً تليقُ بأمثالهنَّ من غير أن يكون منكم ما يُستنكر عقلاً أوشرعاً، وذلك بإعطائهنَّ حقوق الزوجيَّة، والإحسان إليهنّ، والتلطُّف معهنّ، والإنفاق عليهنَّ، والصبر على عوجهنَّ، وعدم إيذائهنَّ ومكارهتهنَّ حتى يطلبن الطلاق بأنفسهنَّ، مقابل تنازلهنَّ عن حقوقهنَّ، فإنْ كرهتم عِشْرتهنَّ وصُحبتهنَّ، وآثرتم فراقهنَّ، فاصبروا عليهنَّ مع الكراهة، فعسى أن تكرهوا شيئاً، ويجعل الله في ذلك الشيء المكروه خيراً كثيراً. فكم من امرأة لم تأت على مزاج الرجل وذوقه، وليس فيها سوء خلق، أو ضعف دين، أو قلة أمانة، فصَبَر عليها زوجها، وعاشرها بالمعروف، وتغاضى عن الجوانب التي لا تميل إليها نفسه فيها، فجعل الله منها خيراً كثيراً، فكانت مُعينةً له، وحافظةً له ولماله ولولده، وأنجبت له ذريّة صالحة يسعد بها.

والخيرُ الكثير يتكشَّف للرجل في الأمر المكروه بإحدى حالَيْن: إما بالنظر الثاقب الذي يتغلَّب فيه العقل على الهوى، وإما بعد فوات الوقت، فيعرف الخير الذي فاته بفعله، فلا يمكن التدارك، ويكون الندم المرير.

وهذه الآية: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾﴾ لا تخصُّ الحياة الزوجيَّة وحدها، بل تشير إلى معنى عام، وهو ألا يُبتَّ في الأمور تحت تأثير الكراهة، فإنها عارضٌ وجدانيٌّ قد يزول، وقد يكون في المكروه الخير الكثير.

وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾ وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَـٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّـٰتُكُمْ وَخَـٰلَـٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَـٰتُكُمُ ٱلَّـٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَـٰعَةِ وَأُمَّهَـٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَـٰٓئِبُكُمُ ٱلَّـٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّـٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَـٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَـٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾

٢٠ ـ وإنْ أردتم ـ يا معشر الرجال ـ طلاقَ زوجة واستبْدال زوجة أخرى مكانها، وكان صَداق مَنْ تريدون طلاقها مالاً كثيراً، فلا يحلُّ لكم أن تأخذوا منه شيئاً، إنْ لم يكن مَنْ قِبَلها نشوزٌ وسوءُ عِشْرةٍ، أتأخذونه مُفْترين فاعلين فعلاً تتحيَّر العقول في سببه، آثمين بفعله إثماً واضحاً مُعلَن الوضوح، مُسْتَنكر الوقوع، فلا تفعلوا هذا الفعل مع ظهور قُبْحِهِ في الشَّرع والعقل.

٢١ ـ ولأيِّ وجه تفعلون مثل هذا الفعل، وكيف يليق بالعاقل أن يستردَّ شيئاً بذله لزوجته عن طِيب نفس، وقد وَصَل بعضكم إلى بعض بالجماع، أو الخلوة، وأخذنَ منكم عهداً شديداً مُؤكَّداً، وهي كلمةُ النكاح التي تُستحلُّ بها فروج النساء؟!

دلَّت هذه الآية على أنَّ الرجل إذا افترق عن زوجه، لا يحلُّ له ديناً أن يأخذ منها شيئاً إذا كان النُّشوز من جانبه، ولا يحلُّ أن يأخذ أكثر ممَّا أعطى إذا كان النُّشوز من جانبها.

٢٢ ـ ولا تتزوَّجوا مَنْ تزوَّجه آباؤكم من النِّساء إلا ما مضىٰ في الجاهليَّة قبل نزول التحريم، فإنه معفوٌّ عنه، ولا تُؤاخذون عليه؛ لأنَّ الزواج من زوجة الأب وهي في منزلة الأم أمرٌ مُستقبح غاية القبح، ويُورث أشدَّ الغضب من الله، وبئس الزواج بزوجات الآباء طريقاً يسلكه الأبناء لقضاء الشهوات؛ لأنَّه يؤدِّي إلى مَقْت الله.

وعقد النكاح ذاته سبب التحريم، فإذا عَقَدَ الأب أو الجد على زوجةٍ، فإنَّها تكون حراماً على الأبناء والأحفاد، ولو لم يدخل بها؛ لأنَّ ذلك ما يقْتضيه الإحسان إلى الوالدين.

وفي النصِّ إشارة إلى أنه لا عقوبات من غير نصٍّ مُحرِّم، وهؤلاء كانوا يرتكبون ما يرتكبون مُستحلِّين، فلما جاء النصُّ القاطع المُحرِّم كان العقاب، ولا عقاب قبل النص.

٢٣ ـ حَرَّم الله عليكم نكاح هذه المُحرَّمات السبع بسبب القرابة القريبة: **الأول**: نكاح الأمَّهات، ويدخل في حُكمهنَّ جميع الجدَّات من جهة الأب أو جهة الأم، وإن عَلَوْنَ، **والثاني**: نكاح البنات، ويشمل بنت البنت، وبنت الابن وإنْ نَزَلن، **والثالث**: الأخوات الشقيقات، أو لأب أو لأم، **والرابع**: العمَّات؛ أخوات الأب وأخوات الأجداد وإنْ عَلَوْن، **والخامس**: الخالات؛ أخوات الأمهات وأخوات الجدَّات وإن عَلَوْن، **والسادس والسابع**: بنات الأخ، وبنات الأخت؛ ويدخل في ذلك أولادهنَّ، فهذه الأصناف السبعة مُحرَّمه بسبب النسب، وحرمتهنَّ مُؤبَّدة لا تحلُّ بوجه من الوجوه.

والصنف الثاني: **المُحرَّمات بالسبب**، وهُنَّ سبع أيضاً: **الأول والثاني**: نكاح الأمَّهات، والأخوات من الرَّضاعة ـ وقد حرَّم رسول الله ﷺ من الرَّضاع ما يحرم من النَّسب، فتحرم البنات، والعمَّات، والخالات، وبناتُ الأخ والأخت من الرضاعة، وإن نزلت درجاتهنَّ في القرابة ـ، **والثالث**: نكاح أمَّهات زوجاتكم، سواء أكُنَّ أمَّهات صُلْبيات أم جدَّات، وسواء دخلتم بزوجاتكم، أو لم تدخلوا بهنَّ، **والرابع**: نكاح بنات زوجاتكم من زوج آخر اللاتي يتربَّينَ غالباً في بيوتكم، وتحت رعايتكم، وهُنَّ مُحرَّمات وإن لم يكنَّ في حُجورکم، ولكن حرمة بنات الزوجة وبناتِ أولادها بعد الدخول بالزوجة لا بمجرَّد العَقْد، فلو فارقتم زوجاتكم قبل الدخول، أو ماتت قبل دخولكم جَازَ لكم أن تتزوَّجوا ابنتها، **والخامس**: نكاح زوجات أبنائكم وأبناء أبنائكم من النَّسب والرضاع وإن سفلوا، وذلك بنفس العقد، دخل الابن بها أم لم يدخل، بشرط أن يكونوا من ظهوركم، أما زوجة المُتبنَّى فلا تحرم على الرجل الذي تبنَّاه، **والسادس**: الجَمْع بين الأختين في نكاح واحد، سواء كانت الأخوة بينهما أخوة نَسَب أو رضاع، لكن ما قد مضى وسلف منكم في الجاهليَّة قبل ذلك التحريم فإنَّه معفوٌّ عنه، ولا يجوز كذلك الجَمْع بين المرأة وعمَّتها أو خالتها كما جاء في السنة، إنَّ الله كان كثير السَّتْر للمذنبين إذا تابوا، دائم الرحمة بالمؤمنين.

﴿ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُم بِهِ مِن بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (٢٤) وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُم بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنكُمْ وَأَن تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٥) يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٢٦) ﴾

٢٤ ـ **والمحرَّم السابع**: نكاح ذواتِ الأزواج من النّساء قبل مفارقة أزواجهنَّ، لكن المَسْبِيّات اللاتي سُبينَ في الجهاد، ولهُنَّ أزواجٌ في دار الحرب، فيحلُّ لمالكهنَّ وَطْؤهنَّ بعد الاستبراء بحيضة، كتبَ الله عليكم تحريم نكاح هذه المُحرَّمات المذكورات كتاباً، وفرضه فريضة، وأحلَّ الله لكم نكاح ما سوىٰ ذلكم الذي ذُكر من المُحرَّمات، أن تطلبوا الزواج أشدَّ الطلب، وترغبوا فيه أشدَّ الرغبة، مُتقدِّمين في ذلك بأموالكم بصَدَاق؛ لإعزاز المرأة وتكريمها، ولتستعين فيما تتأهَّل به للزواج، حالة أنكم في طلبكم الزواج تُحصِّنون به أنفسكم ونُطفكم، وتحفظون به أولادكم، واضعين للنطفة الإنسانيّة في حَرْثها الذي أعدَّه الله تعالى لها، غير زانين مُلْقينَ لها على تراب الرذيلة، فما انتفعتم به وتلذَّذتم بالجماع من النساء بنكاح صحيح، فأعطوهنَّ مُهورهنَّ، فريضةً لازمة وواجبة. ولا حَرَج عَليكم فيما تراضَيْتُم به من بعد المهر الذي سمَّيتموهُ وفرضتموهُ على أنفسكم بزيادته أو نقصه عن طيب نفس من الزوجة؛ إنَّ الله كان عليماً بما يُصلحكم - أيُّها الناس - في مناكحكم وغيرها من سائر أموركم، حكيماً فيما يأمركم به وينهاكم عنه، يضع كلَّ شيء في موضعه.

٢٥ ـ ومَنْ لم يقدر على مهر الحرائر المؤمنات، فَلْيتزوَّج الأَمة المؤمنة والفتيات الجواري المَمْلوكات، والله تعالى أعلم بحقيقة إيمانكم، وهو أعلم منكم بأنفسكم، كلُّكم من نفس واحدة، فلا تستنكفوا من نكاح الأَمَة عند الضرورة، ولا يَسْتعلي حرٌّ على عبد، ولا حُرَّة على أمة، فجميعكم تضمُّكم إنسانيَّةٌ واحدة، فاخطبوا الإماء إلى ساداتهنَّ، واعقدوا عليهنَّ عَقْد الزواج بإذن أهلهنَّ، وأعطوهُنَّ مُهورهنَّ بالقدر الذي لا يستنكرهُ العُرف، من غير مَطْل ولا إضْرار، فانكحوهنَّ حال كونهنَّ عفائفَ غير زانيات علانية، ولا مُتَّخذات أخلاء للزِّنى في السِّر، فإذا تزوَّجْن وأتيْنَ بفاحشةِ الزنى، - على سبيل الشكِّ الذي لا يتوقع حصوله من زوجة حرة أو غير حرة - فعلى الإماء اللاتي زَنَيْنَ نصفُ ما على الحرائر الأبكار إذا زَنَيْنَ من الجَلْد؛ لأنَّ الجريمة تهون بهوان مُرتكبها، وتعلو بعُلوِّ مرتكبها، فإذا عَلَت الجريمة عَلَت معها العقوبة، وإذا نقصت، نقصت معها العقوبة، وهذا دليلٌ على عدل الشريعة.
ذلك الذي أُبيح من نكاح الإماء لمن خاف أن تحمله شدَّة الشهوة على الزنى، وشقَّ عليه الصبر عن الجماع. فأباح الله نكاح الأمة بثلاثة شروط: **الأول**: عدم القدرة على نكاح الحُرَّة، **والثاني**: خوف الإثم بسبب غلبة الشهوة، **والثالث**: كون الأَمَة مؤمنة.
وأن تصبروا عن نكاح الإماء مُتعفِّفين حتى يُيسِّر الله لكم نكاحَ الحرائر خيرٌ لكم؛ كيلا يكون الولد عبداً رقيقاً، وفي ذلك تكثير للرقِّ، ولأنها لا يتحقَّق مع بقائها على رقِّها بيت زوجيَّة صالح، إذ ستكون مُطالبةً بخدمة وليِّها، ولهذا يكون السبيل للزواج بهنَّ شراءهنَّ وإعتاقهنَّ، وبذلك يقلُّ الرقيق، ويكثر الأحرار، والله كثير السَّتْر لكم، دائم الرحمة بكم، حيث أباح لكم ما أنتم محتاجون إليه.

٢٦ ـ يريد الله بإنزال هذه الآيات وتفصيل هذه الشَّريعات لكم في كتابه، أن يُبيِّن لكم معالم دينه القويم، ويُوضِّح لكم شرعه الحكيم، ويُرشدكم شرائع من قبلكم، من الأحكام الباقية على ما كانت في الأمم السابقة، كتحريم الزِّنى، وتحريم الأمهات والبنات والأخوات الشقيقات، ويتجاوز عنكم ما أصبتم من نكاح زوجات آبائكم قبل أن يُبيِّن لكم، ويرجع بكم عن المعصية التي كنتم عليها إلى طاعته، واللهُ عليمٌ بمصالح عباده في أمر دينهم ودنياهم، حكيمٌ فيما دبَّر من أمورهم، يضع كلَّ شيءٍ في موضعه.

وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمٗا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمۡۚ وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا ﴿٢٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡۚ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ عُدۡوَٰنٗا وَظُلۡمٗا فَسَوۡفَ نُصۡلِيهِ نَارٗاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَنُدۡخِلۡكُم مُّدۡخَلٗا كَرِيمٗا ﴿٣١﴾ وَلَا تَتَمَنَّوۡاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبُواْۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبۡنَۚ وَسۡـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا ﴿٣٢﴾ وَلِكُلّٖ جَعَلۡنَا مَوَٰلِيَ مِمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ وَٱلۡأَقۡرَبُونَۚ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ فَـَٔاتُوهُمۡ نَصِيبَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾

٢٧ - واللَّهُ يريدُ أن يرجع عليكم بما هو خيرٌ لكم ولأسركم بتحريم العمَّات والخالات والأخت لأب ونحو ذلك، ممَّا لم يكن مُحرَّماً على الأمم السابقة، ويريدُ الذين يتَّبعون الشهوات الذين يحكمون بإباحتها من الأمم السابقة أنْ تنحرفوا عن الحقّ انحرافاً عظيماً بإتيانكم ما حرَّم الله عليكم.

٢٨ - يُريد الله ليُسهِّل عليكم في تكاليف الشريعة إحساناً وتفضُّلاً منه، بالإذن لغير ذي القدرة المالية على نكاح الحرَّة بأن ينكح أمة مؤمنة، وخُلِقَ الإنسان ضعيف الإرادة أمام شهوته الثائرة إلى النساء.

وقد راعى الإسلام واقع حال الضعف البشري الذي قد ينزلق به إلى الوقوع في الخطيئة، فأذِن بالتزوُّج من الإماء عند عدم القدرة على التزوُّج من الحرائر، وفتح له أبواب التوبة والاستغفار، وأطمَعَهُ بالعفو والغفران، ليتابع مسيرته في الحياة سالكاً سواء السبيل، حتى يظفر بالنجاح حينما تنتهي فترة ابتلائه في هذه الحياة الدنيا.

٢٩ - يا أيُّها الذين صدَّقوا بالله، واتَّبعوا رسوله لا يأخذ بعضُكم مال بعض بالحرام الذي لا يحلُّ في الشرع، كالربا والقمار والغصب والسرقة وشهادة الزور، وجميع التصرُّفات الواقعة على وجه الباطل والعقود الفاسدة، لكن يحلُّ لكم أخذ المال بالتجارة الناشئة عن تراضٍ بطيبة نفس كلِّ واحد منكم، فالتراضي أساس العقود عامة، وأساس المبادلات الماليَّة خاصَّة، فلا بيع ولا شراء، ولا إجارة ولا شركة ولا غيرها من عقود التجارة ما لم يتحقَّق الرضا.

ولا يَقْتل الإنسان نفسه، ولا يَقْتُل بعضكم بعضاً؛ لأنَّ المؤمنين كنفس واحدة، وقَتْلُ واحد منكم للآخر قتْل لأنفسكم؛ إنَّ الله تعالى كان بكم رحيماً، ولرحمته بكم نبَّهكم على ما فيه صيانة أموالكم، وحفظ أبدانكم، ونهاكم عن كل ما يُسَبِّب لكم مشقَّةً أو محنة.

٣٠ - ومَنْ يفعلْ ما سبق ذكرُه من قتل النفس المُحرَّمة، وأكل المال بالباطل مُتَجاوزاً الحدَّ المشروع قصداً، وواضعاً الشيء في غير موضعه، فسوف نُدْخله في الآخرة ناراً شديدة العذاب، ونحرقه بها، وكان ذلك على الله هيِّناً؛ لأنَّه تعالى قادرٌ على كلِّ شيء، فعَّالٌ لما يريد.

٣١ - إنْ تَتَباعدوا - أيُّها المؤمنون - عمَّا كَبُر وعَظُم من الذنوب، كالإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وقَتْل النفس بغير الحق، وغير ذلك، فتكونوا في جانب، والكبائر في جانب آخر، نستر عليكم ما دون الكبائر من الصغائر، ونُدْخلكم مكاناً حسناً شريفاً، تُكرمون فيه، وهو الجنَّة.

٣٢ - ولا تَتَمَنَّوا ما فضَّل الله به بعضكم على بعض، في قسمه الميراث، للرجال نصيب مُقَدَّر في تشريع المواريث تابع لطبيعة أعمالهم التي يكتسبونها بحسب مسؤولياتهم، وللنساء نصيبٌ مُقَدَّر في تشريع المواريث تابع أيضاً لطبيعة أعمالهنّ التي يكتسبنها بحسب مسؤولياتهنَّ، فالتفضيل في أنصبة المواريث بين الذكور والإناث تابعٌ للتفضيل في أصل الخصائص التكوينيَّة، وفي طبيعة نظام الحياة الاجتماعيَّة، فتمنِّي النساء ما فضَّل الله به الرجال عليهنّ في الميراث هو من قبيل تمنِّي الأشياء التي لا يمكن اكتسابها بالسعي والعمل، وهو من الحسد المنهي عنه، واطْلبوا من فَضْل الله ما يكون سبباً لصلاح دينكم ودنياكم وآخرتكم، واقطعوا نظركم عمَّا في أيدي الناس من نِعم فضَّلهم الله بها لِحكم هو بها عليم، إنَّ الله كان من الأزل إلى الأبد بكل شيء عليماً علماً كاملاً شاملاً.

٣٣ - وَلكــلِّ واحدٍ ممَّنْ يتركون الحياة الدنيا جَعَلنا خُلفاء له في ماله من أقرب النَّاس له، وأكثرهم نُصرة، ويكون لكلٍّ من هؤلاء الأولياء حظٌّ من ماله يأخذه، لا يستبدُّ به قريبٌ دون قريب إذا اتَّحدت درجة القرابة وقوَّتها، والذين تحالفتم معهم بالأَيمان المؤكَّدة على النُّصرة والإرث والدِّية، فأعطوهم حظَّهم من الميراث، إنَّ الله يُخبِرُ عن كلِّ شيء في الكون إخباراً مطابقاً لما هو عليه في الواقع، فهو سبحانه حاضرٌ مُعَاينٌ لما يُخبِرُ به، لا تخفى عليه في الوجود خافية، يعلم جميع الأشياء علمَ شهودٍ وحضور، ويُخبر الخلق يوم القيامة بكلِّ ما عملوه.

والميراث بالولاء لا يتعارض مع الميراث بالقرابة، لأنه يكون إذا لم يكن للشخص أحدٌ من الأقارب قط، وبذلك لا يكون للولاء قوَّة القرابة، ولكن تكون له قوة الوصيَّة التي تتأخَّر عن القرابة والزوجيَّة، وعقْد الولاء يُقدَّم على بيت المال؛ لأن النُّصرة الخاصَّة مُقدَّمة على النُّصرة العامة؛ إذ عَقْدُ الولاء سببٌ للنُّصرة الخاصَّة.

ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِي ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًاۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾ ۞ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔاۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾

٣٤ ـ الرجالُ قائمونَ على توجيه النساء ورعايتهنّ وحفظهنّ، لسببين: **الأول**: بسبب ما فضَّل الله الرجال على النساء، من خصائص نفسيَّة وجسديَّة، **والسبب الثاني**: بما أعطوا من مهور النساء والنفقة عليهنَّ، فالنساء المُحسنات العاملات بالخير، المستقيمات في خلقهنّ ودينهن، مطيعات لله تعالى ولأزواجهنَّ، حافظات للأمور المغيَّبة المُستترة، فلا يفشينَ ما يكون بينهنَّ وأزواجهن، ولا يكتمن ما خلق الله في أرحامهن، ولا يعتدين عليه، ولا يَضَعْن في الوديعة التي أودعها الله إليهنَّ ما لا يجوز أن يكون فيها، بحفظ الله وتوفيقه، وبما حفظهنَّ الله حين أوصى بهنَّ الأزواج وأمرهم بأداء المهر والنفقة عليهنّ. والزوجات اللاتي تعلمون دلالات ترفُّعهنَّ على أزواجهنَّ بالقول أو الفعل، فإذا ظَهر منهنّ بوادر العصيان، فانصحوهُنَّ نصحاً مقروناً بما يثير الرغبة في دوام الحياة الزوجيَّة، والتخويف من نتائج الترفُّع والإعراض والعصيان، فإنْ لم يَنْزَعنَ عن ذلك بالقول المؤثِّر، فاهْجُروهنَّ في الفراش، ولا تقْربُوهنَّ، فإنْ لَمَ يَنْزَعنَ بالهُجران، فاضربوهنَّ ضرباً غير مُبَرِّح ولا شائن، فإنْ رَجَعن عن تمرُّدهنَّ واستعصائهنَّ إلى طاعتكم عند هذا التأديب، فلا تَطْلبوا بعد طاعتهنَّ لكم طريقاً مُسْتعلياً عليهنَّ، يكون لكم به عليهنّ تسلُّط بغير حقّ؛ لأن هذا ظلمٌ، واستعمالٌ لسُلطة القوامة في غير ما أذن الله به، إنَّ الله كان من الأزل إلى الأبد علياً كبيراً، له كمال العُلوّ وكل غاياته، والكبير الذي ليس في الوجود كلّه مثل وصفه بالكبر، فهو سبحانه أعلى منكم سلطاناً، وأكبر قدرة، فإذا تجاوزتم حدودكم فيمن جعل الله تحت أيديكم، فإن الله أقدر على عقوبتكم، وسلطانه أعلى من سلطانكم.

٣٥ ـ وإنْ عَلمتم ـ أيُّها المؤمنون ـ شقاقاً ومخالفةً بين الزَّوجين، يؤدِّي إلى الفراق، فأرسلوا إليهما حَكَماً عدلاً من أهل الزوج، وحَكَماً عدلاً من أهل الزوجة؛ لينظرا في أمرهما، ويحكما بما يريانه مصلحةً من الجمع أو التفريق، إنْ يُرِدِ الزوجان إصلاحاً يُوفِّق الله بينهما، فيجعل كل قلب يلتقي مع الآخر؛ إنَّ الله كان من الأزل إلى الأبد عليماً علماً كاملاً شاملاً، خبيراً بظواهر الأشياء وبواطنها، علمَ حضور وشهود وتدبير.

٣٦ ـ أوصيكم بهذه الوصايا العشر: **الأولى**: وحِّدوا اللَّهَ وأطيعوه وأخلصوا له العبادة، ولا تجعلوا له في الربوبيَّة والإلهيَّة شريكاً، **والوصية الثانية**: أحسنوا إلى الوالدين براً بهما، وعطفاً عليهما بالقيام بخدمتهما، وتحصيل مُرادهما، والإنفاق عليهما بقَدْر القدرة، **والوصية الثالثة**: أحسنوا إلى ذي القرابة من الإخوة والأخوات، والأعمام والعمَّات، والأخوال والخالات، وأبنائهم وبناتهم، وغيرهم من أولي الأرحام، لصلتهم وسدِّ حاجتهم وإحسان صحبتهم، **والوصية الرابعة**: أحسنوا إلى اليتامى الذين مات آباؤهم وهم دون بلوغ الحُلُم، بإيوائهم والعطف عليهم، **والوصية الخامسة**: أحسنوا إلى المساكين الذين يتعرَّضون للعطاء، ويسألون الصدقة، بكفالتهم وسدّ حاجتهم، **والوصية السادسة**: أحسنوا إلى الجار الذي بينكم وبينه قرابة رَحِم، أو الذي تكونُ دارُه قريبة من داركم، **والوصية السابعة**: أحسنوا إلى الجار الذي ليس بينكم وبينه قرابة رَحِم، أو الذي تكون داره مُجانبة ليست بملاصقة، **والوصية الثامنة**: أحسنوا إلى الرَّفيق في أمرٍ حَسَن؛ كتعلُّم وتجارةٍ وصناعة وسفر، يصحبك في ذلك، ويكون في جَنْبك وجوارك بصفة دائمة أو مؤقَّتة، ويدخل في ذلك المرأة مع زوجها، والزوج مع امرأته، **والوصية التاسعة**: أحسنوا إلى المسافر المحتاج الذي انقطع عن أهله وماله، أو الضيف الذي يمرُّ بك فتكرمه وتُساعده وتحسن إليه، **والوصية العاشرة**: أحسنوا إلى المماليك من فتيانكم وفتياتكم، فلا تكلِّفوهم ما لا يطيقون، ولا تُؤذُوهم بالكلام الخَشِن، وأعطوهم من الطعام والكسوة ما يحتاجون إليه بقَدر الكفاية. والإحسانُ إلى مِلْك اليمين، وإنْ كان ينصرف إلى الرقيق، فهو بعموم لفظه يشمل كل ما تحت يد الإنسان من حيوانات ومن أجهزة وآلات وأشياء، فهو مأمور بالإحسان إليها، وذلك بأن يُحافظ عليها، ويصونها، ويرعاها، ولا يُبدِّدها؛ لأنه مُؤتَمَنٌ عليها، مُسْتَخْلَفٌ فيها؛ إنَّ الله لا يحبُّ من كان مُتكبِّراً مُعجَباً بنفسه، يتخيَّل لنفسه من الصِّفات والسَّجايا والأفعال ما ليس فيه، فخوراً على الناس يعدُّ مناقبه تكبُّراً وتطاولاً، ويُحبُّ أن يُحمد بما لم يفعل. ومن لا يحبُّه الله، فإنَّه يُعرِّض نفسه لنقمته وعذابه الشديد.

٣٧ ـ من صفات المختالين الفخورين: أنهم يَبْخلون بكتمان العلم، ومنع المال، ويأمرون غيرهم بالبخل، ويُشجِّعون عليه؛ لأنهم يكرهون السخاء، ويمقتون الجود والكرم، ويكتمون ما أنعم الله عليهم من العلم أو الغنى أو الجاه، ويتظاهرون بالفقر، ويُخفون فضل الله وعطاءه، لهم وعيدٌ شديد، وَهَيَّأنا للجاحدين وحدانيَّة الله تعالى، ورسالة محمد ﷺ، وسائر نِعَم الله عليهم عذاباً مُخْزياً يُهانون به في الآخرة، فإذا كانوا قد استكبروا وطغوا واستعلوا واختالوا في الدنيا، وهي متاعٌ قليل، فالذلُّ الدائم، والهوانُ المُستمرُّ مُلازمٌ لهم في الآخرة.

وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ
بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ ۗ وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ
قَرِينًا ﴿٣٨﴾ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنفَقُوا
مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ
مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ
أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ
وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ
كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ
اللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ
وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي
سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ
أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً
فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ إِنَّ
اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ
الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ ﴿٤٤﴾

٣٨ ـ وهيّأنا هذا العذاب كذلك للّذين ينفقون أموالهم من أجل الشهرة والسُّمعة بين الناس، ولا يريدون بما أنفقوا وَجْهَ الله تعالى، ولا يُصَدِّقون بتوحيد الله ولا بالمعاد الذي فيه جزاء الأعمال، وقد دفع هؤلاء إلى الرياء في إنفاقهم وإلى البخل والكتمان، قُرناء السُّوء من شياطين الإنس والجن، ومن يكن الشيطانُ صاحباً مُلازماً له، قد اختلط به، ومازج نفسه، فَبِئْسَ الصَّاحب والخليل.

٣٩ ـ وأيُّ ضرر يلحقهم لو أنهم آمنوا بالله عزّ وجلّ حقّ الإيمان، وباليوم الآخر الذي سيكون فيه الحساب، وفصل القضاء، وتنفيذ الجزاء، وأنفقوا من بعض ما رزقهم الله في سبيله وابْتغاء مرضاته؛ إن الله كان من الأزل إلى الأبد بهم عليماً علماً كاملاً شاملاً، لا يخفى عليه شيءٌ من أعمال هؤلاء الذين ينفقون أموالهم لأجل الرياء والسمعة، وسيجازيهم بأعمالهم.

٤٠ ـ إنَّ الله لا يَبْخَسُ أحداً شيئاً من ثواب عمله، ولو وزن ذرَّة، وإن تكن زنَةُ الذرَّة حسنةً، فإنه سبحانه يُضاعِفُها إلى عشر أمثالها إلى أضعاف مضاعفة، ويُعطِ من محض فضله الواسع ثواباً عظيماً، لا يحيط بمقداره إلاّ الله عزّ وجل. وفي الآية دليل على دخول كل مؤمن الجنة.

٤١ ـ فكيف يكون حال الناس يوم القيامة، إذا جئنا من كلِّ أمةٍ بشهيد من النبيّين أو من غير النبيّين من الدعاة إلى الله، يشهد على أُمّته بأنه قد بلّغها ما أمر الله بتبليغهم إيَّاه، وجئنا بك ـ يا رسول الله ـ شهيداً على أمّتك الذين بلّغتهم رسالة ربِّك، وأدّيت لهم الأمانة، وشهيداً على الرُّسل أنهم بلّغوا أممهم رسالاتِ ربِّهم؟

٤٢ ـ يوم القيامة، يتمنّى الذين جَحدوا وحدانيَّة الله تعالى، وعَصَوْا الرسول فيما أمرهم به من توحيد الله، لو يدفنون، فتُسوّى عليهم الأرض كما تُسوّى على الموتى، وهم لا يقْدِرون على كتمانِ اللهِ شيئاً ممَّا في أنفسهم؛ لأنَّ جوارحهم تشهد عليهم.

٤٣ ـ يا أيُّها الذين صدَّقوا بالله، واتَّبعوا رسوله لا تقْربوا الصلاة ولا تقوموا إليها في حالة السُّكر، حتى تصحُوا من سُكْركم تماماً، وتعلموا ما تَتْلون في صلاتكم، فلا تخلطوا في تلاوتكم. وهذا النهيُ عن قُربان الصَّلاة في حالة السُّكر كان قبل تحريم الخمر، فكانوا يشربونها في غير أوقات الصلاة، وذلك من قبيل التدرُّج، حتى يألفوا اجتناب الخمر، ثم نزل تحريم الخمر تحريماً قاطعاً بعد ذلك في سورة المائدة.

ولا تقْربوا الصلاة وأنتم جُنُب، ولا تقْربوا مواضعها وهي المساجد جُنُباً، إلا مُجْتازين فيها إما للخروج منها أو للدخول فيها، إلى أن تغتسلوا بتعميم الجسم كلّه بالماء. وإنْ كنتم مرضى مرضاً يضرُّ معه إمْساس الماء، أو كنتم مسافرين سفراً طويلاً أو قصيراً، وكان الماء قليلاً، وأصابتكم جنابة، أو ما ينقض الوضوء، أو جاء أحدٌ منكم المطمئنَّ من الأرض، لقضاء الحاجة، أو جامعتم النساء، فلم تجدوا ماءً في حال السلامة والإقامة، فاقْصِدوا تراباً طاهراً، فامْسَحُوا بوجوهكم وأيديكم إلى المِرْفَقَيْن بِضَرْبَتَيْن منه؛ إنَّ الله كان من الأزل إلى الأبد عفوّاً بتجاوزه عن ذنوب عباده، لا يختار لهم، إلا السهل اليسير الذي يسهل عليهم أداؤه من غير مشقّة مُرهقة، ويعفو عن التقصير في الواجبات الأصليَّة للأعذار، ويفتح باب الرُّخص، ويجعل كل ما هو شاقٌ مُرهق في مرتبة العفو دائماً، وهو كثيرُ السَّتْر عمَّن يتوب إليه.

٤٤ ـ ألم تَرَ ـ أيها الرائي المتفكِّر ـ رؤيةً علميَّة فكريَّة حين نظرت متفكِّراً في أحوال هؤلاء اليهود الذين أُعطوا مقداراً من علم التوراة، وهم فوق ذلك لم يعملوا بأحكام ما وصل إليهم، وحرَّفوه وأوَّلوه على غير معناه، وذلك أنَّهم عرفوا نبوَّة موسى من التوراة، وأنكروا نبوَّة محمد ﷺ منها، حالة كونهم يبحثون عن الضلالة، ويشترونها بأموالهم، اتِّباعاً لأهوائهم وشهواتهم، إذ يكفرون بالرسول محمد وبما أُنزل الله عليه، فيأخذون الضلالة، ويبذلون الهُدى الذي يَعْلَمونه من كتبهم، ولا يكتفون بأن يختاروا لأنفسهم الضلالة، بل يريدُ اليهود أن تنحرفوا ـ أيها المؤمنون ـ عن الطريق المستقيم الذي اصطفاه الله لعباده، وهو دين الإسلام، فتخرجوا عنه، وتنطلقوا تائهين في سُبُل الضلال والغَوَاية، ويتَّخذون الوسائل لتحقيق مرادهم في إضلالكم.

وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِأَعۡدَآئِكُمۡۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيّٗا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرٗا ﴿٤٥﴾ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا وَٱسۡمَعۡ غَيۡرَ مُسۡمَعٖ وَرَٰعِنَا لَيَّۢا بِأَلۡسِنَتِهِمۡ وَطَعۡنٗا فِي ٱلدِّينِۚ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَا وَٱسۡمَعۡ وَٱنظُرۡنَا لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَقۡوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُونَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٤٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلۡنَا مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبۡلِ أَن نَّطۡمِسَ وُجُوهٗا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدۡبَارِهَآ أَوۡ نَلۡعَنَهُمۡ كَمَا لَعَنَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلسَّبۡتِۚ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولًا ﴿٤٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ ٱنظُرۡ كَيۡفَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثۡمٗا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡجِبۡتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهۡدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ﴿٥١﴾

٤٥ ـ والله سبحانه أعلم بكُنْه ما في قلوب اليهود من العداوة والبغضاء لكم ـ يا معشر المؤمنين ـ فلا تستَنْصحوهم فإنَّهم أعداؤكم، ومن شأن العدوِّ أن يكيد ويمكر، فإذا آمنتم بالله وأطعتم أوامره، وتوكلتم عليه، واستنصرتم به، كان لكم ولياً، وكان لكم نصيراً، وكفى بالله متولياً أمركم، وكفى به نصيراً ينصركم عليهم، فثقوا بولايته ونصره. وفي هذه الآية تطمين لقلوب المؤمنين تجاه أعداء لم يظهروا بعدُ على ساحة المواجهة، بأن الله سينصرهم عليهم بوسائله التي لا تُحصى.

٤٦ ـ من اليهود فريقٌ يتلاعبون بالألفاظ، في محادثاتهم ومخاطباتهم، فيأتون بألفاظ يُقارب نطقُها نطقَ ألفاظ أخرى ذات معانٍ فيها سَبٌّ، أو طعن، أو دعاء بسوء، ويقولون لرسول الله ﷺ إصراراً على الكفر، ومكابرةً على الباطل: سمعنا قولك وعَصَيْنا أمرك، واسمَعْ منا ولا نسمع منك، ويقولون: راعنا. يريدون نسبته ﷺ إلى الرعونة والخفَّة والطيْش، ويُوهمون أنهم يقصدون بأنْ يُراعيَ أمرهم بعناية خاصَّة على اعتبار أنهم أهل كتاب، يُحرِّفون الكلم إيهاماً بأنه من لهجاتهم في لغتهم، وغرضُهم من ذلك: سبُّ الرسول، والاستهزاء به، ويقولون: لو كان نبياً لعرف ذلك، ولو أنهم قالوا: سمعنا وأطعنا، بدل سمعنا وعصينا، واسْمَعْ بدل قولهم: لا سمعت، وانظرنا بدل قولهم: راعنا، لكان خيراً لهم عند الله وأعدل وأصوب، ولكن طردهم الله وأبعدهم عن رحمته؛ بسبب إصرارهم على الكفر، وإيغالهم فيه بإرادتهم الحرة، فغلقت عليهم أبواب الحق، وطمس الله على بصائرهم، فلا يؤمنُ من اليهود إلا نفرٌ قليل.

٤٧ ـ يا أيُّها الذين أُوتوا الكتاب آمنوا بالقرآن الذي نزَّلناه مُصدِّقاً لما معكم من قبل أن نطْمس وجوهكم بضربة عليها تمحو ملامحها، وتُلغي كلَّ حواسِّها، ونُرجع ما فيها من خَلْق بارز إلى الوراء، فنجعلها في أكره منظر، أو نطردهم من الرحمة، وننزل بهم العذاب، ونمسخهم قِرَدةً وخنازير، كما فَعَلنا بأوائلهم من أصحاب السبت الذين نُهوا عن الصَّيْد فيه فلم ينتهوا، فغضب الله عليهم وطردهم من رحمته، وكان أمر الله واقعاً لا مَحَالة، لا يمتنع عليه شيءٌ يريد أن يفعله.

٤٨ ـ إنَّ الله لا يغفر لمشركٍ مات على شركه، ولا تشمله رحمة الله بنجاته من الخلود في عذاب النار، ويغفر الله سبحانه ما دون الشرك لمن يشاء من أصحاب الذنوب والآثام برحمتهِ على وَفق حكمته، وبحسب علمه بأحوال عبده، ومَنْ يَجعل مع الله شريكاً في ربوبيَّته أو إلهيَّته، فقد اختَلَق ذنباً عظيماً غير مغفور إنْ مات عليه. أما من تاب من الكفر بمختلف أنواعه بالإيمان الصَّادق الصحيح ضمن مدَّة امتحانه في الحياة الدنيا، تجاوز الله عن كلِّ ما كان منه وهو في الكفر، وغفر ذلك له. وفي هذه الآية ردٌّ على مَنْ قال: إنَّ الكبائر لا تُغفر، وعلى من قال: إن أصحاب الكبائر من المسلمين لا يُعذَّبون.

٤٩ ـ ألم ينته عِلمُكَ ـ يا رسول الله ـ إلى اليهود الذين يمدحون أنفسهم بالصَّلاح والدين والأفعال الحسنة، وينسبونها إلى الطهارة من الشرك والمعصية، وهم كافرون فاسقون عصاة؟ بل الله وحده يحكم بعلمه بزكاة مَنْ يشاء، وينسب إليه الطهارة من الكفر والفسوق والعصيان، وإنَّ الذين زكَّاهم الله لا يُنْقصون من ثواب الله شيئاً مقْدار الخيط الذي يكون في شقِّ النواة.

٥٠ ـ انظر ـ يا رسول الله ويا كلَّ مؤمن من أمته ـ نظر تعجُّب إلى هؤلاء اليهود، كيف يفْترون على الله الكذب بتزكيتهم أنفسهم، ودعواهم: إنهم لا ذنوب لهم، وأنهم محبوبون من الله، وأنه يغفر لهم كل ما يفعلون؟ وكفى بذلك الكذب ذنباً بيِّناً واضحاً يستحقُّون عليه أشدّ العقوبات وأعظمها.

٥١ ـ ألم ترَ ـ أيها الرائي ـ أمراً عَجَباً ناظراً إلى أمر أولئك اليهود الجاهلين الذين أُعطوا حظاً من الكتاب، ككعب بن الأشرف وأصحابه، يُوجِّهون إراداتهم للإيمان بالباطل، من السحر والكهانة، ويُصدِّقون بكلِّ ما يُعبد من دون الله من الأصنام والشياطين ورؤوس الضلالة، ويقولون لكفار قريش: أنتم ـ يا هؤلاء في شرككم وعبادة الأوثان ـ أهدى من الذين آمنوا طريقاً، وأقْوم ديناً. وفي الآية: ذمُّ السحر والساحر، والكهانة والكاهن، ومُصدِّقهما، وأنه ملعون.

أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَمَن يَلۡعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمۡ لَهُمۡ نَصِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُلۡكِ فَإِذٗا لَّا يُؤۡتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمۡ يَحۡسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۖ فَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ ءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَءَاتَيۡنَٰهُم مُّلۡكًا عَظِيمٗا ﴿٥٤﴾ فَمِنۡهُم مَّنۡ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن صَدَّ عَنۡهُۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمٗا ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ لَّهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَنُدۡخِلُهُمۡ ظِلّٗا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾ ۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ﴿٥٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴿٥٩﴾

٥٢ ـ أولئكَ البُعداء المنحطُّون إلى جهة الدَّرك الأسفل من النار الذينَ أبعدهم الله عن رحمته، ومن يَطْرده من رحمته فلن تجدَ له نَصيراً ينصُره في الدنيا والآخرة.

٥٣ ـ ليس لهؤلاء اليهود نصيبٌ من الملك ألبتة؛ لأنَّهم كانوا يقولون: نحن أَوْلَى بالملك والنبوَّة فكيف نَتَّبع العرب؟ ولئن كان لليهود البخلاء نصيبٌ وحظٌ من الملك فهم من شدة الحرص والبخل بحيث لو أُوتوا شيئاً منه لما أعطوا الناس منه أقلَّ القليل، ولو كان مقْدار النقطة التي تكون على ظهر النَّواة.

٥٤ ـ بل أيحسُد بنو إسرائيل العربَ أبناء عمِّهم إسماعيل عليه السلام؛ لأنَّ الله تعالى بعث منهم الرسول الخاتم للأنبياء والمرسلين، وأنزل عليه الكتاب المجيد، أعظم كتبِهِ؟! فقد آتينا آل إبراهيم من فرع إسحاق ويعقوب الكتاب الشَّامل للتوراة والزَّبور والإنجيل، وآتيناهم علماً وهدايةً وحقائق زائدة على ما أُنزل في التوراة والزَّبور والإنجيل، وآتينا داود وسليمان ملكاً عظيماً، فلم يشغلهم الملك عن أمر النبوَّة.

٥٥ ـ فمن اليهود من آمنَ بالنبيِّ ﷺ وما أُنزل إليه، ومنهم من أعرض عنه ونأىٰ، وأدبر وتولى حسداً وجُحوداً، وهؤلاء لهم يوم الدين عذاب في جهنَّم، وكفى بجهنَّم ناراً موقَدة إيقاداً شديداً لتعذيب الكافرين، دون أن يكون لهم عذرٌ في كفرهم.

٥٦ ـ إنَّ الذين جَحَدوا ما أنزلت على رسولي محمد ﷺ من آياتي الدالة على توحيدي وصدق رسالته ﷺ، سوف نُدخلهم ناراً هائلة شديدة اللهب نشويهم فيها، كلَّما احترقت جلودُهم، وانقطع إحساسها، بدَّلناهم جلوداً غيرَ الجلود المحترقة، وإنَّما فعلنا بهم ذلك ليجدوا ألَمَ العذاب المتجدِّد. إنَّ الله كان قويّاً غالباً في انتقامه لا يغلبه شيء، ولا يمتنع عليه أحدٌ، حكيماً في تَدْبيره وقضائه ولا يفعل إلا ما هو الصواب.

٥٧ ـ والذين آمنوا بالأركان الإيمانيَّة الستة إيماناً صحيحاً صادقاً، وعملوا الصَّالحات التي تُعبِّر عملياً عن صحَّة الإيمان الإراديِّ الاعتقاديِّ سوفَ نُدخلهم يوم القيامة جنَّاتٍ تجري من تحت قصورها وأشجارها الأنهار، باقين فيها أبداً بغير نهاية ولا انقطاع، ولهم في الجنَّات أزواجٌ مُطهَّرات من جميع الأدناس الحسيّة والمعنوية، وندخلُهم ظلاً وارفاً لا يصيب صاحبَه حرٌّ ولا سموم، دائماً لا تنسخُهُ الشمس.

٥٨ ـ إنَّ الله يأمركم أن تُؤدُّوا جميع ما ائتُمنتم عليه من الحقوق إلى أصحابها ومستحقِّيها، سواءٌ أكانت للّه تعالى أم للعباد، فعليَّةً أم قوليَّةً أم اعتقاديَّة، ويأمركم أن تحكموا بين الناس بالعدل بإيصال الحقِّ إلى مُستحقِّه، دون تمييز بين عناصرهم وطبقاتهم وبُعَدائهم وذوي قراباتهم، إنَّ أداء الأمانات والحكمَ بالعدل نِعْمَ الشيءُ الذي ينصحكم الله به نُصحاً مقروناً بما يثير الرَّغبة والرهبة في النفس؛ للانتفاع بالنُّصح، واتِّباع ما هدى الله إليه؛ إنَّ الله سميعٌ لشكاوى المظلومين الذين لا يُعامَلون بالعدل، بصير بأعمال الظالمين الجائرين، وسيجازيهم على ظلمهم وجَوْرهم.

٥٩ ـ يا أيُّها الذين صَدَقوا في إيمانهم امتثلوا أمر الله فيما أمر، وانقادوا لأمر رسوله ﷺ، وأطيعوا الفقهاء العلماء المجتهدين الموثوقين الذين يُعلِّمونكم معالم دينكم، وأمراء الحقِّ، وولاة العدل من المسلمين، وأهل الحلِّ والعقد ضمن حدود اختصاصاتهم، في غير معصية الله، فإن اختلفتم في شيء من أمر دينكم، وفي طلب الحق في سائر شؤونكم، وَجَذَب كلُّ واحد من المختلفين الحجة إلى جانبه، فردُّوا ذلك الأمر الذي تنازعتم فيه إلى كتاب الله عزَّ وجل، وإلى سنة رسوله ﷺ، وذلك بالتماس ما يكون من الأحكام متَّفقاً مع المقاصد والغايات التي جاء بها الكتاب والسنة، بالقياس والنظر إلى المقاصد العامة للشريعة، إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر الذي يكون فيه الحساب، وفصل القضاء، وتنفيذ الجزاء؛ ذلك الردُّ إلى كتاب الله وسنة رسوله أحمدُ عاقبةً، وأحسن إرجاعاً يؤول أمركم إليه ـ أيها المؤمنون ـ من أن تردُّوا ما تنازعتم يه من أمرٍ إلى حكم آخر، كتحكيم العقل، أو العرف، أو القوانين الوضعيَّة، أو غير ذلك.

والذين يتولَّون ردَّ الأمر المُختلف فيه، يجب أن يكونوا على علم بالكتاب والسنة ومقاصد الشريعة وغاياتها، وهم علماء الإسلام المتفقِّهون في أحكامه، ولذلك يجب أن يكون مع أهل الحلِّ والعقد، رجال من الفقهاء المخلصين الصادقين، الذين لا يغلب عليهم الهوى، ولا يخضعون لهوى الحكام، ولا يُحرِّفون الكلم عن مواضعه.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾

٦٠ ـ ألم تر ـ يا رسولَ الله ـ أمراً عَجَباً وسلوكاً متناقضاً ناظراً إلى المنافقين من اليهود الذين يدَّعون بألسنتهم ادّعاءً كاذباً، أنهم آمنوا بالقرآن، وبما أُنزل إلى الرسل من قبلك، يريدون دواماً أن يتحاكموا إلى غير ما شرع الله من الباطل، وقد أُمروا أن يكفروا بكلّ رأس في الضلال، وكلِّ ما عُبِدَ من دون الله، ويُريد الشيطان أن يُضلَّهم عن طريق الهدى والحقِّ ضلالاً بعيداً.

دلَّت هذه الآية على أنَّ التحاكم إلى غير شريعة الله لا يتَّفق مع الإيمان الصَّادق، وأن من يرفض حكم القرآن يخضع لحكم الشيطان، يُضَلُّ به ضلالاً كلما أوغل فيه بَعُدَ عن الحق المبين، والصراط المستقيم.

٦١ ـ وإذا قيل للمنافقين: هلمُّوا إلى حكم الله الذي أنزله في كتابه فاعملوا به، وتعالَوْا إلى الرسول ليحكم بينكم، رأيت المنافقين يُعرضون عنك وعن حكمك إعراضاً وأيَّ إعراض. أما غير المنافقين فإنهم يتَّعظون، وتلين قلوبهم، ويتغلَّبون على أهوائهم بمقدار نسبة ما لديهم من إيمان.

٦٢ ـ فكيف تكون حالُ هؤلاء المنافقين، إذا أصابتهم مصيبةٌ يعجزون عنها، تُصيبهم بسبب التحاكم إلى غير شرع الله، ورضاهم بحكم الطاغوت؟ إنهم سيُصابون بالهَلَع والخوف الشديد، فيفكرون في انتحال الأعذار التي تُخرجهم من مواقع الإدانة، فالعقاب، ثم جاؤوك يَسْعَوْن إليك ـ يا رسول الله ـ مذعورين، يحلفون بالله: ما أردنا بتحاكمنا إلى غيرك إلا إحساناً لك ـ يا رسول الله ـ بإبعادك عن مواطن الاتِّهامات والشبهات، وإصلاحاً بين الخَصْمَيْن لا مخالفة لك في حكمك؟!

٦٣ ـ أولئك البُعداء عن الإيمان، النافرون عن حكم الله الذين يعلم الله ما يستكنُّ في قلوبهم من النفاق، فأعرض عن عقوبتهم ومُؤاخذتهم على ما بَدَر منهم، وانصحهم نصحاً مقروناً بالتحذير من مَغَبَّة تحاكمهم إلى غير حكم الله ورسوله، وبالإطماع بثواب الذين يُحكِّمون كتاب الله وسنة رسوله، وقل لهم خالياً بهم في سرِّهم، وفي شأن حقيقة أنفسهم قولاً بالغاً عُمْق وجدانهم، يُؤثِّر في قلوبهم، ويكشف حقيقة نفاقهم الذي يكتمونه، وأعمالهم التي يخفونها.

٦٤ ـ وما أرسلنا من رسول من رسلنا لأمةٍ من الأمم إلا لِيُطاع فيما يأمرهم به، أو ينهاهم عنه بأمر الله، وإنما وَجَبَتْ طاعة الرسول لأنَّ الله أمر بذلك، فمن أطاع الرسول فقد أطاع الله، ومن عصاه فقد عصى الله، ولو أنَّ الذين ظلموا أنفسهم بالتحاكم إلى الطاغوت، جاؤوك ـ يا رسول الله ـ تائبينَ من النفاقِ والتحاكم إلى غير ما شَرَع الله من الباطل، مُتنصِّلين ممَّا ارتكبوا من المخالفة، فاستغفروا الله من ذلك الذنب بإخلاصٍ، وبالغوا في الاعتذار إليك من ردِّهم حكمك والتحاكم إلى غيرك، واستغفَرَ لهم الرسولُ ﷺ من مخالفته والتحاكم إلى غيره، لعلموا أنَّ الله يتوبُ عليهم، ويتجاوز عنهم ويرحمهم، ويغفر لهم ذنوبهم، ويزيدهم من فضله.

٦٥ ـ ليس الأمر كما يزعمون أنَّهم آمنوا بما أنزل إليك وهم يُخالفون حكمك، وربِّك ـ يا رسول الله ـ لا يكونون مؤمنين صادقي الإيمان، حتى يُحَكِّموك فيما اختلفوا فيه من الأمور، وأشكل عليهم حكمه، ثمَّ لا يجدوا في داخل أنفسهم ضيقاً وعدم ارتياح ممَّا قَضَيْتَ، بل يرضوا بقضائك، وينقادوا لأمرك انقياداً كاملاً لا شائبة فيه بظاهرهم وباطنهم، ولا يعارضونك في شيءٍ من أمرك. فأوَّلُ مَظْهر من مظاهر الإيمان: تحكيم شريعة الله، ولكنَّ التحكيم وحده ليس كافياً، بل لا بدَّ له من أمرين آخرين: **أولاهما**: أن يكون عن رضا وطيب نفس من غير حَرَجٍ ولا ضيقٍ ولا تمَلْمُل، **وثانيهما**: التَّسليم والخضوع لحكم الشرع والانقياد له ظاهراً وباطناً.

فتحكيم الرسول ﷺ بعد وفاته يتحقَّق بالتحاكم إلى كتاب الله تعالى، وسنة رسوله ﷺ، وهو من ظواهر صدق الإيمان به، وبما أُنزل عليه من حقٍّ وعدل. ورفضُ تحكيمه يتضمَّن معنى عدم الإسلام لله ورسوله، أو اتِّهام أحكام الرسول بالخروج عن الحقِّ والعدل.

والأول: كفرٌ من نوعِ كفر مَنْ آمن ولم يُسلم، **والثاني**: ناقضٌ لأصل الإيمان؛ لأنه يتنافى معه.

وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن
دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ
بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن
لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾
وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم
مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ۚ وَحَسُنَ
أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ
بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ
فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا ﴿٧١﴾ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ
فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ
شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن
لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ
فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾ ۞ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ
يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَاتِلْ فِي
سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾



٦٦ ـ ٦٨ ـ ما فرضنا على المنافقين إلا طاعة الرسول ﷺ والرضا بحكمه، ولو أنا فَرَضْنا وأوْجبنا على المنافقين؛ ليكفُروا عن ذنبهم الذي ارتكبوه بتحاكمهم إلى الطاغوت؛ أن يقتل بعضهم بعضاً، أو أن يخرجوا من ديارهم، كما كتبنا على بني إسرائيل القتل والخروج من مصر، لم يفعله إلا عددٌ قليل منهم. فهؤلاء المنافقون من اليهود أسوأ حالاً من أسلافهم اليهود مع ما كانوا عليه من قسوة قلب، وفسق، وسوء حال. ولو أنَّهم فعلوا ما يُنصحون به من طاعةِ الرسول والرِّضا بحكمه، لكانَ العطاء الربَّاني لهم يتكوَّن من أربع ثمرات: **الثمرة الأولى**: لنالوا بفعلهم ما يُوعظون به خيراً ممَّا يفوتُهم من دنياهم بسببه، إذْ يُعوِّض الله عليهم من فضله ما هو أفضل وأحسن، كسَعَةٍ في الرزق، وطمأنينةٍ في النفس، **والثمرة الثانية**: تثبيت الإيمان في نفوسهم، ممَّا يصرف عنهم قلق النفس، الذي يجلبه النفاق، والخوف من انكشاف حالهم للمسلمين، ويجعل لهم تمكيناً راسخاً بين صفوف المسلمين، **والثمرة الثالثة**: لآتيناهم في الآخرة يوم الدين أجراً عظيماً جداً في جنَّات النعيم، ليس من نوع ما سَبَق من العطاءات، **والثمرة الرابعة**: لأرشدناهم ووفَّقناهم إلى دين الإسلام القويم، وأمددناهم بمعونتنا وتوفيقنا، لمعرفة الحقِّ في الأمور، وإدراك وجه الخير، ومعرفة الأنفع والأقوم والأصلح.

٦٩ ـ ومن يُطع الله دواماً في أداءِ الفرائض واجْتناب النواهي، ويُطع الرسولَ في السُّنن التي سنَّها، فأولئك الفضلاء ذوو المنزلة الرفيعة، المطيعون للّه ورسوله في صُحبةِ الذين أنعم الله عليهم بالهداية والتوفيق في الدنيا، وبدخول الجنة في الآخرة في منازل الفردوس الأعلى من **النبيّين** الذين أنبأهم الله، واختارهم ليُخبروا عنه سبحانه، ويبلِّغوا شرعه، ومع **كثيري الصِّدق** في إيمانهم وأقوالهم وأعمالهم من أتباع الرسل الذين صدَّقوا بكلِّ الدين، **والشهداء** الذين شهدوا الحقَّ وعلموه كعلم المُعايَنَة والمُشَاهَدة، واستُشهدوا في سبيل الله، وبذلوا أرواحهم لإعلاء كلمة الله، **والصَّالحين** الذين صَلُحت أحوالهم وحَسُنَت أعمالهم، ونعمتِ الصُّحبةُ صُحْبةُ أولئك النَّبيِّين والصِّدِّيقين والشهداء والصَّالحين في منازل الفردوس الأعلى من جنات النعيم.

٧٠ ـ ذلك الأجر العظيم والمقام الرفيع الذي أعطى الله الذين أنعم عليهم، هو زيادة عطاء من الله يتفضَّل به عليهم، وأغنى الله حال كونه عليماً بكلِّ ما يفعل عباده، وما يُضْمرون في قلوبهم، وهو سبحانه يضع الناس في الدرجات والمراتب بحسب ما يعلم من أحوال قلوبهم وسرائرهم، لا بحسب ظاهر أعمالهم المخالفة لما في دخائل نفوسهم.

٧١ ـ يا أيُّها الذين أذعنوا للحقِّ، واستجابوا لله ولرسوله، خُذوا أهبتكم، واحترزوا من عدوِّكم، وتيقَّظوا له، ولا تُمكِّنوه من أنفسكم، فاخرُجوا لدفع عدوِّكم حالة كونكم جماعات متفرِّقة مُنْبثَّة في كلِّ جهة، أو اخرجوا حالة كونكم مجتمعين إلى جهاد عدوِّكم، حَسْبَ مُقْتضيات المصلحة، لصدِّ مطامع العدوِّ ومُواجهة مكايده وهَجَماته بما هو أقوى منها.

٧٢ ـ وإنَّ من جمعكم المُشْتمل على المؤمنين الصَّادقين، وضعفاء الإيمان، والمنافقين لفريقاً تعدُّونهم منكم بحسب ظاهر انتمائهم، ليتأخرنَّ ويتثاقلنَّ عن الخروج إلى الجهاد، ويُبَطِّئنَّ غيره من الجُبناء وضعفاء الإيمان، فإنْ أصابكم قتلٌ وهزيمةٌ على أيدي عدوِّكم بإذن الله وتمكينه، على مقْتضى حكمته في التربية والتأديب والامتحان، قال هذا الفريق المتباطىء المتخلِّف عن الجهاد: قد أنْعَمَ الله عليَّ بالقعود حين لم أكن مع المؤمنين حاضراً المعركة، فيصيبني ما أصابهم.

٧٣ ـ وأقسم لئن أصابكم نعمةٌ من فضل الله عليكم بالنصر والغنيمة بمقتضى حكمته، ليقولنَّ هذا المنافق ـ كأنَّه غريب عنكم ليس بينكم وبينه مودَّة في قلبه تحمله على مُشاركتكم في الجهاد والبلاء ـ: يا ليتني كنتُ معهم في تلك الغزوة التي غَنِمَ فيها المؤمنون، فآخذ حظّاً وافراً من الغنيمة.

٧٤ ـ فَلْيُقاتِل المؤمنون المخلصون في سبيل الله، الذين يبيعون متاعَ الحياة في الدنيا بثواب الآخرة، وما وعد الله فيها أهل الإيمان والطاعة، ومن يُقاتل في سبيل الله صادقاً مُحتسباً أجره عند الله، فيُسْتَشْهَد، أو يظفر بعدوِّه من الكفار، فسوف نُؤْتيه في كلا الحالتين: الشهادة أو الظفر ثواباً وافراً لا يحدُّه تعيين، ولا يبيِّنه تعريف.

وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ ۖ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ۖ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾

٧٥ ـ وأيُّ شيءٍ من الأعذار ثابت لكم ـ أيُّها المؤمنون ـ حال كونكم لا تقاتلون في سبيل الله، وفي سبيل نُصْرة وإنقاذ إخوانكم المؤمنين المُضطهدين بسبب ضعفهم عن المقاومة والهجرة، من الرجال والنساء والصغار الذين اعتدى عليهم الكفار، ومنعوهم من الهجرة، وقد بلغ حالهم ما بَلَغَ من الضعف والأذى، يدعون ربَّهم قائلين: أَخْرِجنا من مكة الظالم أهلُها أنفسهم بالشِّرك والعدوان على المستضعفين، واجعل لنا من لدنْك وليّاً يتولى أمْرَنا، واجْعَل لنا من لدنك نصيراً ينصُرُنا ويُنقذنا ويمنُعنا من العدو، ويرفع عنا الظلم والاضطهاد.

٧٦ ـ الذين آمنوا إيماناً صحيحاً صادقاً، يُقاتلون في طاعةِ الله وإعلاءِ كلمته وابْتغاءِ مرضاته، والذين كفروا بالله واليوم الآخر يقاتلون في سبيل الطاغوت من أشخاص أو مبادىء باطلة، أو شياطين، ونحو ذلك، وهم بذلك يكونون أولياء الشيطان، فقاتلوا ـ أيُّها المؤمنون ـ أتباع الشَّيطان وجنوده الكفار، ولا تخافوا مكرهم وكيدهم؛ إنَّ سعيَ الشَّيطان واحتياله بتخويف المؤمنين كان ضعيفاً أمام معونة الله للمؤمنين؛ إذْ ينصرهم ويُحبط مكايد أعدائهم، ما اتَّخذوا الوسائل والأعمال السببيَّة التي أوصاهم باتِّخاذها.

٧٧ ـ ألم تر ـ أيها الرائي ـ أمراً عَجَباً ناظراً إلى الذين قيل لهم قبل فرض الجهاد: امنعوا أيديكم عن قتال المشركين الذين يضطهدونكم من أجلِ دينكم، وأدُّوا ما افترض الله عليكم مَن الصلاة والزكاة، فحين فُرِضَ عليهم جهاد المشركين إذا جماعة من الذين سألوا أن يُفرض عليهم الجهاد، يخافون مُشركي مكة كخوفِ لقاء الله يوم الحساب أو أشدَّ خوفاً، وقالوا مُتذمِّرين منزعجين من إلزامهم بالقتال: ربَّنا لِمَ فَرَضْتَ علينا الجهاد؟ هلاَّ تركتنا مدةً يسيرةً ولم تفرض علينا القتال، حتى نتمكَّن أكثر تمكّناً، وتزداد قوتنا أكثر مما وصلنا إليه؟

قل لهم ـ يا رسول الله ـ : متاعُ الدنيا ولذاتها قليل زائل مهما كبرت في نظركم، وكثيرها قليل إذا كانت في ذلة، ولا يبقى الانتفاع بها إذا تحكَّم فيكم الأعداء، وثوابُ الآخرة بما فيها من نعيم مقيم خيرٌ لمن اتَّقى الشِّرك ومعصيةَ الرسول ﷺ، ولا تُنْقَصون يوم الدين أدنى شيء من أجوركم على الجهاد، ولو كان مقْدار الخيط االدقيق الذي يكون في شقِّ النواة. فإذا كان حرصكم على الدنيا ومتاعها هو الذي جعلكم تَخْشَوْن القتال وتُرجئونه، فإنه يجب أن يكون حرصكم كبيراً على ما هو أغلى وأعظم، وما هو مؤكَّد لا احتمال فيه.

٧٨ ـ إن كنتم تريدون بقعودكم عن الجهاد أن تُؤخِّروا الموت أو تُطيلوا الحياة، فقد أخطأتم، فإنه حيثما تكونوا ينزل بكم الموت، ويطلبكم ويتَّبعكم، فلا نجاة لكم منه ولو كنتم في قلاع مرفوعة مُحكمة البناء، محميةٍ بالأسوار، فأنتم صائرون إلى الموت لا مَحَالة، ولا يُنجي حَذَرٌ من قدر، فما بالكم تَجْبنون عن القتال؛ وكلُّ إنسان يموت بأجله، سواءٌ قاتل أو لم يقاتل!! وإن يحصل للمنافقين في المعارك القتالية وبعد انتهاء المعركة، ما يسرُّ، كالنصر والغنيمة يقولوا: هذه من قِبَل الله، ولم يكن لحكمة الرسول في إدارته وسياسته وقيادته تسبُّبٌ في إكرام الله لنا بالنَّصر والغنيمة، وإنْ يحصل لهم ما هو مكروه، كالقتل والجرح والخسارة والهزيمة، يقولوا: هذه من شُؤْم محمد، وبسبب إدارته، وقيادته، وأمره بالخروج إلى قتال العدو. قل لهم: ـ يا رسول الله ـ كلٌّ من النِّعمة والبليَّة، والغنيمة والهزيمة، من عند الله، خلقاً وإيجاداً، وتقديراً نافذاً في البرِّ والفاجر، والمؤمن والكافر، جارياً على مُقتضى الحكمة والمشيئة، فما شأنُ هؤلاء القوم المنافقين واليهود الذين قالوا ما قالوا، لا يُقاربون فهمَ حديثٍ ما، وإنَّ الأشياء كلها، خيرها وشرها من عند الله؟

٧٩ ـ ما أَصابَكَ ـ أيُّها الإنسان ـ من خيرٍ ونعمةٍ، فمن فَضْل الله عليك يتفضَّل به إحساناً منه إليك ليس لك تسبُّبٌ فيها، وما أصابَكَ من شدَّةٍ ومكروه ومشقَّةٍ وأذى، فهي بسببٍ أو داعٍ من نفسك، للامتحان والابتلاء، أو التربية والتأديب، أو للجزاء. وإن كانت النِّعم والمصائب كلها من عند الله خلقاً وتقْديراً، وإنَّا ـ أيها النبيُّ ـ قد شرَّفناك برسالتنا، فأرسلناك للناس رسولاً، تُبلِّغ رسالة ربِّك، ولا تتكفَّل بالأرزاق، ولا تهب النصر، ولا تُمسك مقاليد الكون، إنما أنت مُكلَّف بالتبليغ، فإنْ بلَّغت فما عليك شيء، وإن اتَّخذت الأسباب في الحروب للظفر، وتوكَّلت على الله، فإنَّ الله مانحك النصر، ومُعطيك الغلب، وإنْ خالف مَنْ معك ما سَنَنْت لهم من منهاج للظفر، فإنَّ الهزيمة واقعة بهم، ولست مسؤولاً عمَّا يصيبهم، ولئن كذَّبك أو شكَّ فيك هؤلاء القلَّة من المنافقين وأهل الرَّيْب، فأنت لست رسولاً لهم فقط، ولا رسولاً للعرب فقط، بل أرسلناك ـ يا رسول الله ـ إلى كافَّة الناس رسولاً، وأغنى الله حالةَ كونهِ شهيداً حاضراً مُعايناً على أنَّك رسول الله حقاً وصدقاً، عن طريق معجزة القرآن، والمعجزات الأخرى التي أمدَّك بها، وما آتاك من تأييد ونصرٍ مبين.

مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا۟ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ ۖ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ۖ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَـٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾ فَقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ۚ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٨٤﴾ مَّن يَشْفَعْ شَفَـٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَـٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾

٨٠ - مَنْ يُطع الرسولَ فيما أمر به ونهى عنه، فقد أطاع الله؛ لأنَّ الله هو الذي أمر بطاعة الرسول، ومن أدبر وانصرف عن طاعته فما أرسلناك - يا رسول الله - مسؤولاً عن إلزامهم بالاتّباع والطاعة، ولست حافظاً ورقيباً تحفظ أعمالهم عليهم، وتُجازيهم عليها. بل كِلْ أمرَهُم إلى الله تعالى، ولا تَهتمّ بمن تولّى منهم، ولا تشغل بالك بهم.

٨١ - ويقول المنافقون بألسنتهم لرسول الله ﷺ إذا كلّفهم بأمر أو نهي: أمرُنا وشأننا طاعة، فإذا خرجوا من عندك إلى المكان الذي يأمنون فيه، مطمئنين إلى أنهم غير واقعين تحت أعين الرقباء الذين يرصدون ما يُدبّرون، دبَّر جماعةٌ من المنافقين أمراً بالليل غير الذي عهدت إليهم، والله يُثْبِتُ ويحفظ عليهم ما يُدبِّرون، فلا تُعاقبهم - يا رسول الله - ولا تُحدِّث نفسك بالانتقام منهم، فإني سأنتقم منهم، وسأحبط ما يُبيِّتون، فأعطهم عارضك وَجَانِبَكَ غير مكترث لمكرهم وكَيْدهم، وفوِّض أمرك إلى الله في شأنهم، واتَّخذ الأسباب المأمور بها، دون تهاون ولا كسل ولا تفريط، فإنَّ الله يكفيك أمرهم، وينتقم لك منهم، وأغنى الله حالة كونه حافظاً لك، مُوكَّلاً بأمرك، ومن كان الله تعالى وكيله والموكّل بأموره، فلن يضيع أبداً.

٨٢ - أفلا يتأمّل هؤلاء معاني القرآن، ويتبصَّرون ما فيه من الحُجج الدالّة على صحّة نبوَّة محمد ﷺ، وذلك بفصاحته، وإخباره عن الغيوب، وسلامته من الاختلاف والتناقض. ولو كان من عند غير الله - كما يزعم الكفار والجاحدون - لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً بينه وبين الواقع والحق، وبين بعض نصوصه وبعضها الآخر، وتفاوتاً وتناقضاً من حيث الفصاحة والبلاغة، وإخباره عن الغيب بما يكون وبما قد كان، فهو من عند قادرٍ على ما لا يقْدر عليه غيره، عالم بما لا يعلمه سواه.

٨٣ - وإذا جاء المنافقين أو ضعفاءَ الإيمان خبرٌ مظنون غير معلوم صحّته، من أمور السِّلم أو أمور الحرب، أفشَوْا ذلك الخبر، وأشاعوه بين الناس قبل التثبُّت من صحَّته، ولو رَدُّوا الأمر الذي تحدَّثوا به إلى رسول الله ﷺ في حياته وتحت قيادته لكفى المسلمين ما أهمَّهم منه، بالوحي، أو بِحُسْنِ إدارته وسياسته، ولو ردُّوهُ بعد الرسول، إلى ذوي العقول والبصيرة بالأمور منهم، لعلموا حقيقة ذلك منهم، واستخرجوا علمه من جهتهم، فهم أَوْلى بالبحث عنه، وأعلم بما ينبغي أن يُشاع أو يكتم، ولولا فضل الله عليكم بحفظكم من التأثُّر بدسائس المنافقين، ورحمته بالعفو والمغفرة، لكان للمنافقين تأثيرٌ كبير على جمهور المؤمنين، إلا قليلاً منهم، فاتَّبعوا بهذا التأثير الشيطان، فنزل بالمؤمنين بلاءٌ عظيم، وخطر جسيم، وتمكَّن أعداؤهم منهم؛ بسبب المنافقين، الذين يجعلونهم بوساوسهم ودسائسهم يتَّبعون الشيطان.

٨٤ - لا تَدَع - يا رسول الله ويا كلَّ إمام من أئمة المسلمين من بعده - جهاد العدو والانتصار للمُسْتضعفين من المؤمنين، حينما تتوافر الدواعي للقتال، وتتهيّأ أسبابه وشروطه، لا تُكلَّف إلزام غيرك، بل جاهد في سبيل الله ولو وحدك، فإنَّ الله ناصرك، وحُضَّ المؤمنين على الجهاد، وشجِّعهم عليه، ورغِّبهم في الثواب، لعلَّ الله أن يمنع بأس الكفار، وشدَّتهم، إذا قاتلتموهم في سبيل الله، بإحباط أساليبهم القتالية، وتوهين قواهم، وإفساد خططهم، وإلقاء الرُّعب في قلوبهم، واللّهُ تعالى أعظم قوةً من كلِّ ذي قوة، وأشدُّ عقاباً رادعاً من كلِّ ذي عقاب رادع.

٨٥ - مَنْ يَسْعَ لإيصال الخير لغيره، ليجْلب له بشفاعته نفعاً أو يُخلِّصه من بلاء نزل به، يكن له حظٌّ وافر من أجر شفاعته، وهو ثواب الله وكرامته، ومن يَسْعَ لإيصال الشرِّ إلى غيره، يكن له نصيبٌ من الوِزْر والإثم، وكان الله على كلِّ شيء مُقْتدراً وحفيظاً، يخلق الأقوات كلها، ويُوصلها إلى مُقْتاتيها.

٨٦ - وإذا سلَّم عليكم المُسلِّم وَدَعا لكم بالحياة والسلامة من الآفات، فأجيبوه بأحسَنَ ممَّا سَلَّم عليكم، أو ردُّوا عليه كما سلَّم عليكم؛ إنَّ الله تعالى كان دوماً على كلِّ شيءٍ مُحاسباً ومجازياً، يُحاسب على كلِّ صغيرة وكبيرة، كافياً لمن توكَّل عليه.

ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۗ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا ﴿٨٧﴾ ۞ فَمَا لَكُمۡ فِي ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيۡنِ وَٱللَّهُ أَرۡكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهۡدُواْ مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلٗا ﴿٨٨﴾ وَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءٗۖ فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ أَوۡلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَخُذُوهُمۡ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡۖ وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوۡ جَآءُوكُمۡ حَصِرَتۡ صُدُورُهُمۡ أَن يُقَٰتِلُوكُمۡ أَوۡ يُقَٰتِلُواْ قَوۡمَهُمۡۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمۡ عَلَيۡكُمۡ فَلَقَٰتَلُوكُمۡۚ فَإِنِ ٱعۡتَزَلُوكُمۡ فَلَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سَبِيلٗا ﴿٩٠﴾ سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأۡمَنُوكُمۡ وَيَأۡمَنُواْ قَوۡمَهُمۡ كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ إِلَى ٱلۡفِتۡنَةِ أُرۡكِسُواْ فِيهَاۚ فَإِن لَّمۡ يَعۡتَزِلُوكُمۡ وَيُلۡقُوٓاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فَخُذُوهُمۡ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡۚ وَأُوْلَٰٓئِكُمۡ جَعَلۡنَا لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينٗا ﴿٩١﴾



٨٧ ـ اللَّهُ الواحد الأحد الذي لا معبودَ بحق إلا هو، ليجمعنَّكم مَسُوقين إلى يوم القيامة، الذي لا شك فيه؛ ولا أحد أصدق من الله حديثاً فيما أخبر به.

٨٨ ـ أيُّ شيءٍ حَصَلَ لكم ـ يا معشر المؤمنين ـ في شأن المنافقين الذين تخلَّفوا عن الهجرة، وظاهروا المشركين بمكة سرّاً، وصرتم في أمرهم فرقتين: فرقة منخدعة بظواهرهم، تُحسنُ الظنَّ بهم، وتذبُّ عنهم، وفرقة عارفة بصيرة، تُباينهم وتُعاديهم، وتحكم عليهم بالردّة والخروج من صفوف أهلِ الإيمان بعد الذي ظهر منهم من علائم الكفر ودلائله؟ والله سبحانه نكَّسهم وأذلَّهم في كفرهم وارتدادهم، وردَّهم إلى أحكام الكفار؛ بسبب ما اكتسبوا من أعمالهم الخبيثة. أتريدون ـ أيُّها المؤمنون المنخدعون بهم ـ بتقديم الأعذار لهؤلاء المنافقين، وتحسين الظنِّ بهم أن تنسبوهم إلى الهداية، مع أنَّ الله قد أثبت لهم الضلال، ومكَّنكم من الحكم عليهم بذلك، استدلالاً بأقوالهم وأفعالهم التي تكشف عن حقيقة كفرهم؟ ومن يحكم الله عليه بالضلال حكماً مُستنداً إلى علمه وحكمته وعدله، فلن تجد له ـ أيها الراغب في تبرئته والحكم عليه بالهداية ـ سبيلاً لتبرئته ممَّا هو عليه من الكفر المُحقَّق الذي بَدَت دلائله في أقواله وأفعاله.

٨٩ ـ تمنَّى أولئكَ الذين رَجَعوا عن الإيمان إلى الكفر، لو تكفرون أنتم ـ يا معشرَ المؤمنين ـ كما كفروا، فتكونون متساوين معهم في الكفر. فلا تتَّخذوا ـ أيها المؤمنون ـ منهم جماعةً تُصافونهم، وتتبادلون معهم الودّ والتعاون، حتى ينتقلوا من دار الكفر التي يُحارب أهلُها المسلمين إلى دار الإسلام، ويخرجوا مع رسول الله ﷺ في سبيل الله مسلمين مخلصين، فإنْ أدبروا وابتعدوا عن الإسلام والهجرة من دار الكفر، واختاروا الإقامة على الكفر، فخذوهم ـ أيُّها المؤمنون ـ واقْتُلوهم حيث وجدتموهم، ولا تتَّخذوا منهم وليّاً يتولَّى أيّ أمر من أموركم، ولا نصيراً ينصركم على أعدائكم.

٩٠ ـ لكن الذين ينتسبون إلى قوم بينكم وبينهم عهد، ويدخلون معهم بالحلف والجوار، فلا تقاتلوهم، وكذلك الذين أتوا إليكم، وقد ضاقت صدورهم عن قتالكم مع قومهِم، أو قتال قومهم معكم، فلم يكونوا معكم ولا مع قومهم، فلا تقاتلوهم، ولو شاءَ اللَّهُ لجَعَلَ في قلوبهم قدراً من الحميّة والشجاعة، وبذلك يكونون محاربين للمسلمين مع قومهم المحاربين لهم، ولكن قذف في قلوبهم الرُّعب، وكفَّهم عنكم، فإن اعتزلوا عن قتالكم، فلم يقاتلوكم مع قومهم وانقادوا واسْتَسْلموا، وأعلنوا حِيَادَهم التام، فما جعل الله لكم ـ أيها المؤمنون ـ سبيلاً مُستعلياً عليهم بالقتل والقتال.

٩١ ـ ستجدون قوماً آخرين من المنافقين يريدون بالتظاهر بالإسلام أن يأمنوكم، فلا تتعرَّضوا لهم، ويُريدون بإظهار الكفر أن يأمنوا قومهم، فلا يتعرَّضوا لهم، كُلَّما ردُّوا إلى اختبار صدق إسلامهم الذي أعلنوه، بما يُخالف رغباتهم وما يَهْوَوْن، رَجَعُوا منكوسين على رؤوسهم في الكفر، فهؤلاء الذين سلكوا هذا المَسْلك السيِّىء إن لم ينصرفوا عن قتالكم، وينقادوا لكم بطلب الصُّلح والاستسلام التام، ولم يُمسكوا عن قتالكم، فخذوهم أسرى، واقتلوهم حيث وجدتموهم وتمكَّنتم منهم، وأولئك الأخباث البُعداء عن رحمة الله، الذين اتَّصفوا بهذه الأوصاف، جعلنا لكم ـ أيها المؤمنون ـ عليهم حُجَّة ظاهرة على قتالهم وأَسْرِهم.

قسَّمت الآيات المنافقين الذين لم يلحقوا بالمؤمنين إلى دار الهجرة إلى أربعة أقسام: **القسم الأول:** أولئك الذين يدعون الإسلام ولم يهاجروا مع أنه ليس بهم عجز عن الهجرة، ولا يَحُول بينهم وبينها شيءٌ، فهؤلاء لا تُقْبل منهم دعوىٰ الإيمان، ولا يُعاملون إلا معاملة المشركين، **والقسم الثاني:** فريق استثنتهم الآيات من هؤلاء الذين لم يهاجروا إلى المدينة مع المؤمنين، وهم الذين لم يبقوا في مكة مع المشركين، ولكن انحازوا إلى قوم بينهم وبين المسلمين عهدٌ، فأصبحوا بذلك بعيدين عن أن يشتركوا في إيذاء المؤمنين والتَّدبير لكيْدهم، **والقسم الثالث:** فريق آثروا أن يقفوا مَوقف الحياد بينهم وبين المشركين بسبب أنهم مُحرجون، ضاقتْ صدورهم بأن يُقاتلوا المسلمين ـ وهم لا يستحقُّون في نظرهم قتالاً ـ أو يُقاتلوا قومهم ـ وفيهم أقرباؤهم ومصالحهم ـ فالآيات تستثني هؤلاء أيضاً من حكم الأخذ والقتل الذي حكمت به على الأوَّلين، وتأمر بقبول حيادهم وعدم التعرُّض لهم كالقسم الثاني. وقد جعلت الآية على هؤلاء وأولئك ـ وهم الذين استثنوا من الأولين ـ شرطين: **الأول:** أن يعتزلوا المسلمين فلا يقاتلوهم، **والثاني:** أن يخضعوا لحكمهم مسالمين. **القسم الرابع:** فريق يريدون أن يجمعوا بين إرضاء المؤمنين ليأمنوهم، وإرضاء الكافرين ليأمنوهم، فهم ليسوا حياديين، فهم في الحقيقة أعداء، وإنْ حاولوا أن يظهروا بمظهر الأصدقاء. والسياسة مع هؤلاء أن يُعطوا الأمن كالفريق الذين جاؤوا مُستسلمين معلنين حيادهم بشروط ثلاث: **الأول:** أن يعتزلوا صفوف المسلمين الصادقين، **والثاني:** أن يلقوا للمسلمين الاستسلام، **الثالث:** أن يكفُّوا أيديهم عن المسلمين، فإن اخلُّوا بشرط من هذه الشروط انطبقت عليهم قاعدة: ﴿فَخُذُوهُمۡ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡۖ﴾.

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُوا۟ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَـٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾

٩٢ - وما ساغَ ولا جازَ لمؤمنٍ أن يقْتل مؤمناً ألبتة، فإنَّ ذلك أمر مُحرَّم تحريماً قاطعاً، لكن إن وقع خطأ من غير قصد وتعمُّد، مثل أن يرمي هدفاً فتنحرف الرمية، فيصيب إنساناً معصوم الدم، أو أن يقصد هدفاً معيَّناً، على أنه حيوان مفترس مثلاً، فيتبيَّن أنه إنسان معصوم الدم، أو أن يقتل إنساناً على أنه من الأعداء، فيتبيَّن أنه معصوم الدم، فإنَّ ذلك يُعَدُّ معذرة، وتجبُ عليه كفارة القتلِ الخطأ لتركه التحرُّز، وعدم مبالغته في التثبُّت، فكفارةُ خطئه: إعتاقُ رقبة مؤمنة بتحريرها من الرق، وعليه دِيَةٌ كاملةٌ مقدارها مائة من الإبل، ومَنْ لا يجد مائة من الإبل تكون عليه قيمتها من الذهب أو الفضة، تجب على عَصَبة القاتل، وتُسلَّم إلى أهلِ القتيلِ الذين يرثونه، يقْتسمونها بينهم قسمة الميراث، إلا أن يتصدَّق أهلُ القتيل عن القاتل بترك أخذ الدية، ويعفُوا عنه.

فإن كان المقتول خطأً مسلماً في دار الحرب، وهو منفردٌ مع قوم كفار محاربين لكم، فَقَتَله مَنْ لم يعلم بإسلامه، فلا دِيَةَ عليه، وعليه الكفارة، بإعتاق رقبةٍ مؤمنةٍ؛ لأن إرسال الدية إلى قومه تقويةٌ لهم على المؤمنين، فلا تُعوَّض أسرة القتيل، ولكن تُعوَّض الجماعة الإسلامية بالحرية التي تُمنح لواحدٍ منها، تعويضاً عما فقدت.

وإذا كان المقتول خطأً كافراً؛ مُعاهِداً أو ذميّاً من قوم بينكم وبينهم عهدٌ، فحكمه حكم المسلم، فتجب فيه الدية لأهلِ المقتول، ولو كانوا غير مسلمين، وتجب الكفارة بإعتاق رقبةٍ مؤمنةٍ، فمن لم يجد رقبةً مؤمنةً يعتقها؛ بسبب إعسار، أو تعذُّر الحصول عليها، فالواجب عليه، صيامُ شهرين مُتتابعَيْن مُتَّصلين في أيامهما، لا يُفرِّق بينهما فطر بدلاً عن إعتاق الرقبة المؤمنة، شرع الله سبحانه الكفَّارة والدية توبةً منه تعالى لقاتل الخطأ، وكان الله تعالى عليماً بمن قتل خطأ، حكيماً فيما حكم عليه من الدية والكفارة. وإنما رفع الله عن القاتل خطأً القصاصَ رعايةً لاحتمال براءة النيَّة من إرادة الجريمة مع وجود القرائن التي تفيد ذلك، وألزم القاتل بالكفَّارة، لتشتدَّ حيطة الناس في هذا الأمر الجسيم، ليُبالغوا في البُعدِ عن كلِّ مظانِّ الخطأ الذي قد يُفضي إلى قتل البرآء. وألزم بالدية صيانةً لحقِّ أولياء القتيل، ومُراعاةً لاحتمال أن يكون ادِّعاء الخطأ ادِّعاءً كاذباً، مهما كانت القرائن مُؤيِّدة صدق الادِّعاء؛ لأنَّ التعمُّد الحقيقي عملٌ من أعمال القلوب، فربما يوجَد دون أن تدلَّ عليه أمارة ظاهرة، ورفقاً بحال القاتل خطأً جعل الإسلام الدية تكليفاً تعاونياً يُلزم به أقرباءُ القاتل خطأً.

٩٣ - ومَنْ يقْتُل مؤمناً قاصِداً مُسْتَحِلاً لقتله، سواء أكان بآلةٍ من شأنها أن تقتل كالرصاصة أو السيف أو السكين، أم كان بآلةٍ ليس من شأنها أن تقتل، ولكن قُصِدَ بها القتل، وكان الضرب في مَقْتَل، فجزاؤه جهنَّم خالداً فيها، وغَضِبَ الله عليه بسبب ارتكابه جرماً عظيماً، وهو العدوان على الحياة الإنسانية، وقتلِهِ المؤمن متعمِّداً، وطَرَدَه عن رحمته، وأعدَّ له عذاباً عظيماً.

وحَمَلَ العلماء هذا الوعيد الشديد على خلود القاتل المتعمِّد في النار، على سبيل التغليظ في الزَّجر، ويجوز في حقِّه سبحانه أن يُخْلف الوعيد، ويمتنع في حقِّه أن يخلف الوعد، أو أن هذه الآية في القاتل المُسْتحل. وفي هذه الآية دليل على حرص الشريعة على حماية حقِّ الإنسان في الحياة.

٩٤ - يا أيُّها الذين صدَّقوا الله واتَّبعوا رسوله إذا سافرتم للجهاد في سبيل الله، فاطلبوا بيان الأمر في كلِّ ما تفعلون وتتركون، حتى تعرفوا المؤمن من الكافر، وتعرفوا حقيقة الأمر الذي تُقْدمون عليه، ولا تقولوا لمن حيَّاكم بتحيَّة الإسلام واستسلم وانقاد: لستَ من أهل الإيمان، وإنَّما قُلتَ ذلك تعوُّذاً، ولكن كفُّوا عنه، واقْبلوا منه ما أظهر لكم، فلا تقْتلوه طالبينَ منافعَ الدنيا ومتاعَها الزائل، فعند الله مغانم وخيرات كثيرة يغنيكم بها عن قتل مَنْ يُظهر الإسلام، وكما كان هذا الذي ألقى إليكم السلام، واستسلم وانقاد إليكم، مُستخفياً بدينه عن قومه حذراً على نفسه منهم، فقلتم له: لستَ مؤمناً فقتلتموه، كنتم أنتم في بدء الإسلام تَسْتَخفُون بدينكم عن قومكم المشركين من قبلِ أن يُعِزَّ الله دينَه، فأنعم الله عليكم بنعمة الإيمان العُظمى، وإعلان إسلامكم، فإذا كنتم كذلك فتبيَّنوا حال الذين تقاتلونهم، عسى أن يكونوا قد هدى الله بعضهم كما هداكم، فلا تستكثروا على مشرك أن يؤمن، ولو كان ذلك في حوْمة الوغى، فلا تتهاونوا في القتل، ولا تَعْجلوا بقتل مؤمن، وكونوا مُتحرِّزين من ذلك، محتاطين فيه؛ إنَّ الله كان دواماً من الأزل إلى الأبد بما تعملون خبيراً على سبيل الشهود والحضور المُصاحِب لكلِّ أجزاء العمل، ظواهرِهِ وبواطنِهِ.

لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ ۚ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ۚ فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُولَٰئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ ۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾

٩٥ ـ لا يتساوى المُتخلِّفون عن الجهاد في سبيل الله من المؤمنين ـ غيرُ أصحاب الأمراض والعِلل التي لا سبيل معها إلى الجهاد، من نحو عمىً أو شللٍ أو عَرج أو ضعفِ بدنٍ ـ والمجاهدون في سبيل الله، بأموالهم وأنفسهم، فإنهم يُساوون المجاهدين؛ لأنَّ العذر أقعدهم عن الجهاد. فضَّل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين أُولي الضَّرر درجةً ومنزلةً في الآخرة، وكُلاً من المجاهدين بأموالهم وأنفسهم والقاعدين من أهل الأعذار وَعَدَ الله الجنة، وفضَّل الله تعالى المجاهدين في سبيل الله على القاعدين الذين لا عذرَ لهم ولا ضرر فيهم ثواباً جزيلاً.

٩٦ ـ ذلك الأجر العظيم، فضَّل الله به المجاهدين على القاعدين من غير ضرر ولا عذر، فُضِّلوا عليهم بثلاثة أمور: **الأول**: بدرجاتٍ كثيرات منه سبحانه في الجنة، **والثاني**: سترٍ لذنوبهم، وتَجاوزٍ عنها، وعدم مُؤاخذة عليها، **والثالث**: رحمة واسعةٍ يُنعَّمون فيها، وكان الله منَ الأزل إلى الأبد كثيرَ السَّتْر لذنوب عباده المؤمنين، دائم الرحمة بأهل طاعته، المجاهدين في سبيله.

٩٧ ـ إنَّ الذين تَقْبض أرواحهم ملائكة الموت عند حلول آجالهم، وهم في حال ظلمهم أنفسهم؛ بسبب رضاهم بالذلِّ والهوان، واستمرار إقامتهم في أرض لا يستطيعون إقامة دينهم فيها، وعدم انضمامهم إلى أهل الإسلام؛ ليكثر بهم المسلمون، ويعظم جهادهم، تقول لهم الملائكة توبيخاً وتقريعاً: في أيِّ الفريقين كنتم، أفي فريق المسلمين أم في فريق المشركين؟ فاعتذروا بالضعف عن مقاومة المشركين، وقالوا: كنّا ضعفاء في أرضنا، مقْهورين عاجزين عن دفع الظلم والقهر عن أنفسنا. فتقول لهم الملائكة توبيخاً: ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا من أرضكم إلى أرضٍ أخرى، وتخرجوا من بين أظهر المشركين؟ فأولئك البُعداء عن رحمة الله الذين رضوا بالذلّ، وظلموا أنفسهم، منزلهم وموضع إقامتهم جهنَّم، وبئس المصير مصيرهم إلى جهنم.

٩٨ ـ ويُعذر من ذلك المصير الذين اسْتَثْناهم الله ممَّن علم ضعفه من أهل الأعذار من الأصناف الثلاثة: **أولهم**: ضعفاء الرجال من الشيوخ الفانين، والمرضى وذوي العاهات، **والصنف الثاني**: النساء اللائي لا يَسْتطعن الخروج، إما لثقلهنَّ بالأولاد، وإما لفقد أمن الطريق، وإما لعدم وجود زوج يصحبها، ولا ذي رَحِم محرم يكون معها في الطريق، **والصنف الثالث**: الأطفال الصغار، الذين لا يَقْدرون على حيلة ولا نفقة، ولا قُوَّة لهم على الخروج من بلادهم التي عَتَا فيها الكافرون، وأخذوا يفتنون الناس عن دينهم، ويُكرهونهم على الكفر بطريق مباشر أو غير مباشر، ولا يعرفون طريقاً يَسْلكونه من البلد الذي تضطرهم إقامتهم فيه إلى مخالفة أوامر الله، والوقوع في معاصيه، إلى البلد الذي يستطيعون فيه أن يقيموا شرائع الإسلام وواجباته.

٩٩ ـ فأولئك المُسْتَضْعَفون وأهل الأعذار الذين لا يستطيعون الهجرة هم الذين يُرجى لهم من الله تعالى أن يَتَجاوز عنهم بِفَضْله وإحسانه، وكان الله من الأزل إلى الأبد عَفُواً يمحو أثر الذنوب ويزيلها، ويترك المُؤاخَذَة عليها، كثير السَّتْر لذنوب عباده، فضلاً منه وكرماً.

١٠٠ ـ ومن يُهاجر في سبيل الله من وطنه ومسكنه ومالِهِ يجدْ في الأرض مكاناً يتحوَّل إليه، ويقيم فيه عوضاً من موطنه الذي منع فيه من أن يكون حرّاً في دينه، وطريقاً يفارق فيه قومه مُذِلاً لهم ومُهيناً، ويَجد سَعَةً في الرزق والصَّدر، ومن يَخْرُج من بيته قاصداً نصرة دين الله ورسوله، ثمَّ يُدركه الموت قبل بلوغه إلى مهاجره، فقد ثَبَتَ أجرُ هجرته على الله، تفضُّلاً وكرماً منه سبحانه، وكان الله من الأزل إلى الأبد كثير السَّتْر لذنوب عباده، دائم الرحمة بهم.

١٠١ ـ وإذا سافرتم ـ أيُّها المؤمنون ـ في نواحي الأرض، في برِّها وبحرها وجوِّها، فليس عليكم حَرَجٌ ولا إثم أن تَقْصُروا الصلاة من أربع ركعات إلى ركعتين، وذلك في صلاة الظهر والعصر والعشاء، إنْ خفتم أن يتعرَّض لكم الأعداء في الصلاة بقتل أو جرح أو أسر، كما هو غالب أسفار النبي ﷺ وإن كان الحكم ثابتاً في حال الأمن والخَوْف، إنَّ الكافرين كانوا على الدوام والاستمرار ظاهري العداوة لكم، يطلبون لكم الشر، ويترصَّدون مواقع غفلتكم؛ لينقضُّوا عليكم، فلعلمي بهذا رخَّصتُ لكم قَصْرَ الصلاة؛ لئلا يجدوا إلى قتلكم سبيلاً.

وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾ فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾ وَلَا تَهِنُواْ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾

١٠٢ ـ وإذا كنتَ ـ يا رسول الله ـ في أصحابك، وشهدتَ معهم القتال، وحان وقت الصلاة، وأقمتها، فاجْعَل أصحابك فرقتين: فلتقف فرقة منهم معك، فتصلِّي بهم، ولْيأخذوا أسلحتهم الخفيفة في الصلاة حتى يكونوا على أهبة القتال دائماً، فإذا سجد هؤلاء فلْتكن الجماعة الأخرى من خلفكم في مواجهة عدوِّكم، وتُتمُّ الجماعة الأولى ركعتهم الثانية ويُسلِّمون، ولْينصرفوا إلى المكان الذي هو في وَجْه العدو للحراسة، ولتأتِ الجماعة الأخرى الحارسة التي كانت في وَجْه العدو، فَلْيُصلُّوا معك الركعة الثانية التي بقيت عليك، ويتمُّوا بقية صلاتهم، ولْيتيقظوا ويَتحرَّزوا من الكفار مع أخذ الأسلحة. تمنَّى الكفار لو وجدوكم غافلين عن أسلحتكم التي بها شوكتكم وقوَّتكم، وعن حوائجكم التي بها بلاغكم في أسفاركم، وفيها زادكم وبها تستمرُّون على القتال من غير أن يُصيبكم عُريٌ أو جوع، فيقْصدونكم ويحملون عليكم حَمْلةً واحدة مُباغتةً، ويثقلون الوطْأة عليكم، وأنتم مشتغلون بصلاتكم، فيصيبون منكم غِرَّةً فيقتلونكم، ويضربونكم الضربة المستأصلة القاصمة.

ولا إثمَ ولا حَرَجَ عليكم في وَضْع السلاح في حال المطر وحال المرض، وراقبوا عدوَّكم، ولا تغفُلوا عنه؛ لئلا يتجرأ عليكم، إنَّ الله أعدَّ للكافرين عذاباً مُذلاً لهم في الدنيا والآخرة، ففي الدنيا بالغلب عليهم، وإذهاب صَوْلتهم ودولتهم، وذلك يكون بأخذ الأهبة والحذر والاعتماد على الله تعالى، وأعدَّ لهم في الآخرة عذاباً معنوياً مهيناً يُهانون به، لا يقلُّ إيلاماً عن العذاب الماديِّ الحسِّي.

١٠٣ ـ فإذا فَرَغتم من صلاة الخوف، فداوموا على ذكر الله بالتسبيح والتحميد والتهليل والتكبير، وأثنوا على الله في جميع أحوالكم قائمين، أو قاعدين مستريحين، أو نائمين على جنوبكم، حتى في حال المقارعة والالتحام، فإذا زالت أسباب الخوف وسكنت قلوبكم، وصرتم مقيمين في أوطانكم، فأقيموا الصَّلاة أربعاً من غير قَصْر بإتمام ركوعها وسجودها، إنَّ الصلاة كانت على المؤمنين فرضاً مكتوباً مقدَّراً في أوقاتٍ محدَّدة معلومة في الشرع.

١٠٤ ـ ولا تضعفوا ولا تَتَوانَوْا في طَلَب عَدوِّكم وقتاله، حتى لا تبقى لهم قوةٌ تُهدِّدكم، إنْ تكونوا تتألَّمون من القتال وآثاره، فأعداؤكم كذلك يتألَّمون منه أشدَّ الألم، فحصولُ الألم قَدرٌ مُشْتَركٌ بينكم وبينهم، وليس ما تكابدون من الوجع وألم الجراح مُختصّاً بكم، بل هم كذلك، فإذا لم يكن الألم مانعاً لهم عن قتالكم، فكيف يكون مانعاً لكم عن قتالهم؟ وكيف لا تصبرون مثل صبرهم مع أنكم أوْلى بالصبر منهم؛ لأنكم مُقرُّون بالحشر والحساب والثواب والعقاب، وتتوقعون ثواب الله طامعين راغبين فيه، وتخشون وتخافون عقابه في الآخرة، والمشركون لا يقرُّون بذلك، وكان الله من الأزل إلى الأبد عليماً بكلِّ أحوالكم، حكيماً في تدبيره وأمره، فلا يأمركم بشيء إلا وهو يعلم أنه مصلحة لكم.

١٠٥ ـ إنا بعظمة العلم الشامل، والحكمة الكاملة أنزلنا إليك ـ يا رسول الله ـ القرآن مُتَّصفاً بالحقِّ الثابت، وأصول الحكم، وقواعد العدل بين الخصوم؛ لتحكم بين الناس بما علَّمك الله علماً بيِّناً لا غموض فيه، حتى كأنه مرئيٌّ بالحسِّ البصريِّ دون غَبَش، فاحكم بين الناس بما أراك الله، مُستنداً إلى مبادىء الحق وقواعد العدل التي أنزلها الله في الكتاب، مُتتبِّعاً وَجْهَ الحقِّ في القضايا المطروحة بين يديك بالاستناد إلى الأدلة والبيانات والأمارات، ولا تكن ـ يا رسول الله ـ لأجل الخائنين لحقوق الآخرين من الناس، ولتبرئتهم مُجادلاً ومحامياً عنهم بما أبدوه لك من القول المخالف للحقيقة.

وفي هذه الآية نهيٌ لكلِّ مؤمنٍ أن يُدافع عن الخائنين، سواءٌ أكان قاضياً، أو شفيعاً، أو وكيلاً، أو محامياً، أو شاهداً، فالدفاع عن الخائن معصية من الكبائر؛ لأنها تُساعد على إبطال الحق، وإحقاق الباطل، وأنه يجب على القاضي ألاَّ يتأثر بعاطفة ما، فينحازَ إلى أحد الخصمَيْن، ويجادل عنه ظاناً أنه صاحب حقّ، وألا يتسرَّع في حكمه أو إبداء رأيه في إدانةِ أو تبرئةِ أحد الخَصْمَيْن قبل استكمال أصول وقواعد الحكم بين الناس بالحقِّ والعدل.

وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾

١٠٦ - واستغفر اللَّهَ ممَّا هَمَمْت به، مما يُعدُّ بالنسبة لمنصبك الرفيع ذنباً، يَغْفِر اللَّهُ لك؛ إنَّ الله كان كثير السَّتر لذنوب عباده، دائم الرحمة بعباده المؤمنين. والأمر في ظاهره للنبيِّ ﷺ وهو في عمومه لكلِّ أمته، ولكلِّ قاضٍ يفصل بين الناس.

١٠٧ - ولا تُجادل - يا رسول الله - عن الذين يقْصدون خيانة أنفسهم ويتحرَّوْنها، ويُحكمون إخفاء المستور من جرائمهم، ويظلمون أنفسهم بالخيانة، فيما لِلّهِ عليهم من تكاليف وأمور تعبديَّة، فيعرِّضون أنفسهم للعقوبة الإلهيَّة؛ إنَّ الله لا يحبُّ من كان مُفرطاً في الخيانة، رَكوب المآثم والمعاصي، صارت الخيانة وارتكاب الإثم عادةً لازمةً له. ومن أخرج نفسه بخياناته وآثامه من محبة الله، صار محلاً لسخطه عليه ونقمته، وابتعد عن مجالات مغفرة الله ورحمته.

١٠٨ - يحاولون جُهدَهم اتّخاذ وسائل الاسْتتار عن أعين الناس ومراقبتهم لارتكاب جرائمهم وآثامهم في الخَفَاء، ولا يَسْتَتِرون من الله السميع البصير، ولا يَسْتحيون منه سبحانه، وهو أحقُّ أن يُستحيا منه، ويُخشى عقابه، والله معهم بعلمه وقدرته، لا يخفى عليه شيء من حالهم، وقت إضمارهم وتدبيرهم بالليل فيما بينهم ما لا يرضى من القول الذي يجعلونه متضمناً خطط الخيانة التي سيعملون بمقتضاها، والله تعالى لا يخفى عليه شيء من أسرار عباده، وهو مُطّلعٌ عليهم ومُحيط بهم، وسيُحبط كيدهم، ولن يفلتوا من عقابه.

١٠٩ - ها أنتم - يا أيُّها المؤمنون - جادلتم عن هؤلاء الخائنين في الحياة الدنيا؛ بغيةَ تبرئتهم وإبعاد تُهمة السَّرقة عنهم، فَمَنْ يُجادِلُ اللَّهَ عنهم يومَ القيامة إذا أخذهم الله بعذابه، بل من يكون يوم القيامة وكيلاً على الخائنين، يتولّى حمايتهم، ويَقيهم من بأس الله إذا نزل بهم؟!

١١٠ - ومَنْ يعمل عملاً سيِّئاً من الصَّغائر أو الكبائر، يُدرك الناس قُبحه، ويسؤوهم أن يرتكبه، أو يظلم نفسه بارتكاب المعاصي فيما يختصُّ به، ثمَّ يستغفر الله من ذنوبه وظلم نفسه بمعصية ربِّه، مع الندم والعزم على الاستقامة، يجد الله كثير السَّتر له، دائم الرحمة به، يعفو عن جميع الذنوب الكبائر والصغائر.

١١١ - ومَنْ يضمُّ إلى نفسه ذنباً يأثم به، من جميع المعاصي التي نهى الله عنها، كبائرها، ومتوسِّطاتها، وصغائرها، ما هو ظاهرٌ منها، وما هو باطنٌ منها في السرِّ، فإنَّما يعود وبال كسبه ومضرَّة ذنبه عليه، وإنْ بَدَا في عاجل أمره أنه لمنفعته ولذَّته؛ لأنَّ العبرة بعواقب الأمور، لا بأوائلها التي تغرُّ المتعجِّلين، وكان الله من الأزل إلى الأبد عليماً يحاسبه على عمله بعلمه الشامل، حكيماً يجازيه بالعدل إن لم تقتض حكمة الله أن يشمله بمغفرته والتجاوز عن معاصيه.

١١٢ - ومَنْ يرتكب ذنباً عظيماً بأن يتحرّاه، وتتدرَّن به نفسه، حتى إنه يصدر عنه من غير تكلُّف ولا معاناة، أو يعمل إثماً يستحقُّ عليه العقوبة، ثم يقذف بما جَنَاهُ من إثم وخطيئة إنساناً بريئاً منه، مُتَّهماً إيّاه به؛ ليبعد التُّهمة عن نفسه، فقد احتمل من الجرائم حملاً ثقيلاً لا يستطيع حمله إلا بتكلُّف ومشقة، وهذا الحمل يشتمل على جريمَتَيْن كبيرتَيْن: **الجريمة الأولى:** افتراء الكذب، واتِّهام البريء بما لم يفعل، ومواجهته بذلك بطريقة يُبهت فيها، محتاراً كيف يدفع الكذب الصُّراح عن نفسه، **والجريمة الأخرى:** الذنب الواضح الجلي، وهو ما كان منه من قذف للبريء، بما يجرُّ عليه العقوبة، وهو ظلمٌ عظيم، من الكبائر الكبرى.

١١٣ - ولولا فَضْل الله عليك - يا رسول الله - بالبصيرة والحفظ، ورحمته بما أوحى إليك، لتوجَّهت نفوس جماعة من أهل الكيد والنفاق، أن يُضلُّوك عن القضاء بالحقِّ، وتوخّي طريق العدل، لكنهم ما استطاعوا أن يصلوا إلى مستوى الهمِّ الذي هو دون مستوى الإرادة الجازمة التي تدفع إلى التنفيذ، بسبب فضل الله عليك ورحمته، ولو أنهم حاولوا أن يُضلُّوك فإنهم لا يُضلُّون إلا أنفسهم، فَوَبال ذلك يرجع إليهم، وما يضرُّونك من شيء في المستقبل لدوام عصمة الله لك، وأَنْزَل الله عليك القرآنَ، والإصابة في القول والعمل، ووضْع الأشياء في مواضعها، وما دلَّت عليه السنة النبويَّة من قول أو فعل أو خُلُق أو إقرار، وعلَّمك فوق ذلك ما لم تكن تعلم من علم الغيب وأحوال المنافقين وأحكام الشرع وأمور الدين، ولم يزل فضل الله عليك - يا رسول الله - عظيماً، فاشكره على ما أَوْلاَكَ من إحسانه، وما حَبَاك من ألطافه، وما شملك من فضله؛ لتقوم بواجب حقِّه سبحانه.

﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ اللَّهُ ۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾

١١٤ ـ لا خَيْرَ في كثيرٍ من الأحاديث السريَّة التي تكون داخل المجتمعات، بعيداً عن علم ومراقبة القيادة المؤمنة المسلمة، إلاَّ في نجوى الذين يأمرون بالصَّدقة لذي حاجة مُتعفّف يكره أن تفتضح حاجته، محافظةً على مكانته الاجتماعيَّة، أو مجلس تكون فيه نجوى قائمةٌ على أمرٍ بمعروف، أو نهي عن منكر لشخص بعينه، أو أشخاص بأعيانهم، فواجب النصيحة في مثل هذه الحالة أن تكون سرّاً، لا حديثاً مُعلَناً، وإلا كان فضيحة لا نصيحة، وربما جرَّأته الفضيحة على التَّمادي في الغيّ، والمُجاهَرة بالإثم مع المُكابَرة والعناد، أو مجلس تكون فيه نجوى قائمة على محاولة الإصلاح بين المتخاصِمَيْن ليتراجعا إلى ما كانا عليه من الإلفة والاجتماع، ومَنْ يفعل تلك الأمور طلباً لمرضاة الله وخالصاً لوجهه، فسوف نُؤتيه في الآخرة أجراً عظيماً لا يعلم قدره إلا الله.

١١٥ ـ وَمَنْ يُخالف الرسول ﷺ ويُعاديه ويكون في جانبٍ، والرسول والمؤمنون في جانبٍ آخر بإيمانهم وولائهم لله تعالى، وذلك كله من بعد ما وَضَح له الحق الذي أنزله الله على رسوله، ويسير في غير طريق المؤمنين، ومنه: التناجي في السرّ بالإثم والعدوان ومعصية الرسول، نُمكّنه من أن يتولّى ما اختار لنفسه من الضلال في رحلة امتحانه في الحياة الدنيا، ونُدخله جهنَّم، ونُذقه عذاب الحريق، ونجعله خالداً في النار، إذ تكون هي مصيره الأخير، وساء ذلك المصير.

١١٦ ـ إنَّ الله لا يغفر لمشرك مات على شركه، ولا تشمله رحمة الله بنجاته من الخلود في عذاب النار، ويغفرُ الله سبحانه ما دون الشِّرك من كلِّ المعاصي، كبائرها وصغائرها لِمَنْ يشاء من أهل التوحيد. ومَنْ يُشْرك بالله غيره، فيَدّعي أنَّ له شريكاً في الخلق والتكوين أو في الوجود ممَّا يُماثله ذاتاً أو صفاتٍ، أو يدَّعي أنه يستحقُّ العبادةَ معه، فقد ذَهَبَ عن طريق الهُدى، وحُرِمَ الخير كلَّه إذا مات على شركه. فعقوبة الإشراك بالله في ربوبيَّته أو إلهيَّتِهِ وسائر دَرَكات الكفر، الخلود الأبديُ في عذاب النار يوم الدين، وهذا من العدل، لأنَّ الكافر لو جعله الله عزَّ وجلّ خالداً في الحياة الدنيا لبقي كافراً أبداً، فاستحقَّ بالعدل الخلودَ في العذاب، وعقوبة المعاصي من دون الإشراك بالله تكون على مقاديرها كمّاً وكيفاً، ويغفر الله ما يشاء منها برحمته على وَفْق حكمته، وبحسب علمه بأحوال عباده.

١١٧ ـ ما يعبدُ المشركون من دون الله إلا أصناماً سمَّوْها بأسماء الإناث؛ كاللات والعُزّى ومناة، وهي جمادات لا تعقل ولا تسمع ولا تُبصر، وما يعبدونَ بعبادة هذه الأصنام والالتجاء إليها لإنقاذهم من الهلاك أو المرض أو الكوارث إلا شيطاناً عاتياً خارجاً عن الطاعة، أغراهم بعبادتها فأطاعوه، فكانوا له عابدين.

١١٨، ١١٩ ـ أَبعَدَهُ اللَّهُ وطَرَدَهُ من رحمته، وأخرجه من جنَّته؛ بسبب تكبُّره وجراءته على مخالفة أمره، وقال إبْليس مُقسماً ومؤكّداً بلسان المقال والفعال: لأتَّخِذَنَّ من عبادك حظّاً مُقدَّراً معلوماً؛ فأسيطر على نفوسهم، وأجعلهم في طاعتي، بدل أن يتَّجهوا إلى طاعتك، وَلأُبعِدَّن من تَبِعَني منهم عن طريق الحقّ بالتزيين والوسْوَسة، ولأُلقِيَنَّ في قلوبهم الأماني الباطلة والمواعيد الكاذبة من طول الأعمار، وبلوغ الآمال، ولأحمِلَنَّهم على أن يُقطِّعوا آذان الأنعام، ويتركوا الحمْل عليها، تقرُّباً للأوثان، ولأدعُوَنَّهم إلى تغيير دين الله، بتحليل الحرام، وتحريم الحلال، وتغيير هيئة ما عليه الخَلْق، بتغيير صورة الأعضاء السَّويَّة، إلى ما يظنُّون أنها أحسن من الصُّورة التي كانت عليها، كالوشْم في الجلد، ونشر الأسنان، والنمص لإزالة الحواجب، ومن يتَّخِذِ الشَّيطانَ ناصراً له من دون الله، يطيعُه فيما يأمُرُه به، فقد خَسِرَ خُسراناً ظاهراً واضحاً؛ لأنَّ طاعة الشيطان تُوصله إلى نار جهنَّم، وهي غاية الخُسران.

١٢٠، ١٢١ ـ يَعِدُ الشيطانُ حزْبَهُ وأولياءَه بالوعود الكاذبة، ويُغْريهم بالأماني الباطلة الخادعة، وما يَعِدُهُم الشَّيطان إلا وعداً غروراً، مخادعةً وإطماعاً بالباطل. أولئك البُعداء المنحطُّون إلى جهة الدرك الأسفل من النار الذين اتَّخذوا الشيطانَ ولياً، مرجعهم ومستقرُّهم جهنَّم، ولا يجدون عنها ملجأً يلجؤون إليه، ولا مفرّاً ومَهْرَباً يهربون عنها إلى غيرها.

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا ﴿١٢٢﴾ لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدۡ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ نَقِيرٗا ﴿١٢٤﴾ وَمَنۡ أَحۡسَنُ دِينٗا مِّمَّنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا ﴿١٢٥﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطٗا ﴿١٢٦﴾ وَيَسۡتَفۡتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِيهِنَّ وَمَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤۡتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرۡغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلۡوِلۡدَٰنِ وَأَن تَقُومُواْ لِلۡيَتَٰمَىٰ بِٱلۡقِسۡطِۚ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمٗا ﴿١٢٧﴾

١٢٢ - والذين آمنوا بالأركان الإيمانية الستة إيماناً صحيحاً صادقاً، وعملوا الصَّالحات التي تُعبِّر عملياً عن صحَّة الإيمان الإراديِّ الاعتقاديِّ، سَنُدخِلُهم في الآخرة جنَّاتٍ تجري من تحت قصورها وأشجارها الأنهار، خالدين في الجنَّات خلوداً أبدياً بلا انتهاء ولا غاية، وَعَدَ الله ذلك الذي ذكر وعداً حقاً، وليس أحدٌ أصدق من الله قولاً؛ لأنه سبحانه يستحيل عليه الكذب، وهو سبحانه قادر دائماً على تنفيذ ما يريد، وعلمه المحيط بكلِّ شيء لا يتخلَّف، وحكمته العظيمة لا تنقض ولا تتبدَّل.

١٢٣ - ليس ما وعد الله به من الثواب ودخول الجنة، والظفر بمراتبها العليَّة، ولا النجاة من النار، ومن دركاتها الدنيَّة، بالأماني الحاصلة في نفوسكم التي تريدون وقوعها - أيُّها المسلمون -، ولا بأماني أهل الكتاب من اليهود والنصارى، وإنَّما الأمر بالإيمان والسَّعي والجِدِّ في فعل الصالحات، وترك السيِّئات، وبذل الطاقة ارتقاءً في مراتب الكمال، وترفُّعاً عن دَرَكات النقصان، ولكن من يرتكب معصيةً، مؤمناً كان أو كافراً، يُجازه الله بها، عاجلاً أو آجلاً، ولا يجد له من دون الله ولياً ما يرحمه، فيحميه ويُؤْويه، ولا نصيراً ينصره، فيمنع عنه نزول عذاب الله الذي يستحقُّه بالعدل.

١٢٤ - ومَنْ يعمل بعض الصَّالحات من ذكر أو أنثى، وهو مؤمنٌ حقَّ الإيمان، فأولئك الفضلاء رفيعو المنزلة يدخلون الجنة، ولا يُنقَصُون من ثواب أعمالهم شيئاً ما، مهما كان هذا الشيء صغيراً، ولو قدر النُّقْرة في ظهر النَّواة.

١٢٥ - لا يوجدَ أحسنُ ديناً ممَّن انقاد في رحلة امتحانه في الحياة الدنيا لأوامر الله ونواهيه انقياداً تاماً، وخَضَع له في سرِّه وعلانيته، وأخلصَ طاعته له، والحال أنه مُحسنٌ في عمله وعبادته وسلوكه وأخلاقه لله عزَّ وجلّ، من أهل مرتبة الإحسان، وهم الذين يعبدون الله كأنهم يَرَوْنه، وهي أعلى مراتب المؤمنين، واتَّبع دينَ إبراهيم عليه السلام مُسلماً مخلصاً مائلاً عن سائر الأديان الزائغة إلى الإسلام، واتَّخذ الله إبراهيم - عليه السلام - صفيّاً، أحبَّه سبحانه محبةً كاملة؛ لإخلاصه في عبادته، واجتهاده فيما يرضي الله، ولحُبِّهِ لله سبحانه محبَّةً تُخالل كيانه كله، وتُهيمنُ على كلِّ مشاعره.

١٢٦ - وَللَّهِ عزَّ وجلَّ ما في السمَّوات وما في الأرض، خلقاً ومِلْكاً وتَصرُّفاً وتدبيراً، وكان الله عالماً علمَ إحاطةٍ وقدرةٍ بكلِّ شيء، فهو المُستحقُّ وحده للعبادة، وإسلام الوجه والطاعة له سبحانه وتعالى.

١٢٧ - ويطلبون منك - يا رسول الله - تبيين المُشْكل من الأحكام في شأن النِّساء وميراثهنَّ، وصداقهنَّ، ومعاملتهنَّ. قل لهم - يا رسول الله - : اللَّهُ تعالى يفتيكم في شأن النِّساء مُبيِّناً أمرهُنَّ وما يجبُ لهنَّ، ويفتيكم ما أنزل في كتابه عليكم في شأن اليتامى أولاد النساء اللاتي لا تُعطونهنَّ ما فرض الله لهنّ من المهر والميراث وغير ذلك من الحقوق، وتميل نفوسكم إلى نكاحهنَّ لمالهنَّ وجمالهنَّ بأقلِّ من صَداقهنَّ، ويُفتيكم أيضاً في شأن المُسْتَضْعَفين من الصغار الذين هم في حال يستضعفهم غيرهم، ولا يعطيهم حقوقهم، وهم ضعفاء في ذات أنفسهم، أن تُعطوهم حقَّهم من الميراث كاملاً غير منقوص، ويبيِّن الله لكم أيضاً في شأن اليتامى - ذكوراً كانوا أو أناثاً - أن تقوموا لأجلهم ومصلحتهم بالعدل في ميراثهم وسائر أموالهم وأحوالهم، وأن تتعهَّدوهم بالعطف والمحبة والإكرام والتربية والتهذيب؛ لأنهم قوة للأمة إن صلحوا، أما إذا لم تقوموا لمصلحتهم وتعتنوا بحالهم فإنهم ينشؤون وبينهم وبين الناس عداوات مُستمرَّة ونفور مُستحكم يدفعهم إلى أن يكونوا عناصر فساد وتخريب في مجتمعهم؛ بسبب حرمانهم من المودَّة والرحمة في طفولتهم، وما تفعلوا من خيرٍ لأنفسكم ولجماعتكم، فإنَّ الله كان به عليماً علماً دقيقاً، لا يخفى عليه منه شيء، فيجازيكم عليه.

وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ۗ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ۚ وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾

١٢٨ - وإنْ توقَّعت امرأةٌ منْ زوجها ترفُّعاً عليها أو تجافياً عنها بأن يمنعها نفسَه ونفقته ومودّته، ويُؤذيها بسبٍّ أو ضرب، أو انصرافاً عنها بأن يُقلِّل مُحادثتها ومؤانستها، فلا حَرَج على الزوج والمرأة أن يُصلحا بينهما صُلحاً بتسامح كلٍّ منهما عن بعض حقِّه، لينال خيراً مما تسامح فيه، ويكون هذا الصُّلح صلحاً نفسياً تتلاقى فيه القلوب، وتصفو النفوس. والصلح في ذاته خيرٌ يعمُّ الطرفين، وإقامةُ الزوجة بعد تخيير زوجها لها، والمُصالحةُ على ترك بعض حقِّها من القَسْم والنفقة أوْلى وأفضل من الفرقة، وطُبعت النفوس على أشدِّ البخل، وأُحضر في داخلِ الأنفس بالتكوين الفطريِّ لها، فكأنّه حاضرها لا ينفكُّ عنها، فكلُّ واحدٍ من الزَّوجين يحرص على منع الخير عن الآخر، ويلتزم موقفه متمسِّكاً بحقوقه الشكليَّة، وإنْ تُحسنوا - أيها الأزواج - الصُّحبةَ والعِشْرةَ، وتتَّقوا الله في حقِّ المرأة، فلا تظلموها ولا تجُوروا عليها، فإنَّ الله كان من الأزل إلى الأبد بما تعملون عليماً علماً تامّاً شاملاً، لكلِّ ظواهر الأشياء وبواطنها، علمَ حضور وشهود وتدبير، فيُجازيكم عليه.

١٢٩ - ولن تَقْدروا - أيها الرجال - أن تُسوُّوا بين النساء في الحبِّ وَمَيْل القلب، لأنَّ ذلك خارج عن قدرتكم ووسعكم، ولو حرصتم في تحرِّي ذلك أتمَّ الحرص، ولذلك لم يُكلِّفكم الله به، إذ التكليف الشَّرعي يكون بما في الوسع والطاقة، فقاربوا واجتهدوا ألاّ تميلوا كلَّ المَيْل إلى التي تُحبونها في القَسْم والنفقة، فَتَدَعُوا الأخرى التي لا تَميلون إليها، كالمرأة التي ليست بذات زوج تنال الحقوق الزوجيَّة أو بعضها، ولا هي خالية الأزواج، كالشيء المُعلَّق لا هو في السماء ولا على الأرض، وإنْ تُصلحوا بالعدل في القَسْم، وتتَّقُوا الجَوْر، وتراقبوا الله تعالى وتخشوه في زوجاتكم، فإنَّ الله كان كثير السِّتر لما حَصَل من المَيْل إلى بعضهنَّ دون بعض، دائم الرحمة بكم حيثُ لم يُكلفكم ما لا تَقْدرون عليه.

١٣٠ - وإنْ لم يَصْطلحا، وتَعَذَّر عليهما التلاؤم، وأرادا الفرقة، يُغني الله كُلاً من فَضْله وغناه ورزقه، وكان الله من الأزل إلى الأبد واسعَ الفَضْل والرحمة، حكيماً فيما أمر به ونهى عنه. وتشريعُ الطلاق في مثل هذه الحالة، عندما يتعذَّر إزالة الخلاف بين الزوجين تشريع حكيم، فيه درءٌ لمفاسد كثيرة وخطيرة، تترتَّب على إجبار الزَّوجيْن المتنازعَين أن يعيشا مع بعضهما، وهما في تنافر وخصام مُستمرَّيْن، فإنَّ هذا يؤثِّر على الأولاد، ويمتدُّ فساده إلى المجتمع المحيط بالأسرة.

١٣١ - ولِلَّه عزَّ وجلّ وحده ما في السموات وما في الأرض خلقاً ومُلْكاً وتصرُّفاً، ونُقسم مُؤكِّدين لكم أننا طلبنا من الذين أُوتوا الكتاب من قبلكم من اليهود والنصارى طلباً مُؤكَّداً، وعهدنا إليكم - يا أهل القرآن - في كتابكم بأن تتَّقوا الله فتوحِّدوه وتُطيعوه وتحذروه ولا تُخالفوا أمره، وإنْ تَجْحَدوا ما وصَّاكم به، فإنَّ لله ما في السموات وما في الأرض، فهو غنيٌّ عنكم وعن عبادتكم وطاعتكم وتقواكم، وكان الله سبحانه من الأزل إلى الأبد غنياً عن جميع خلقه غير محتاج إليهم ولا إلى طاعتهم، حامداً أهل طاعته، مُثْنياً عليهم بما فعلوا من خير، محموداً على عظيم صفاته، وجليل نعمه عليهم، لا يضيره كفر الكافر، ولا ينقص من سلطانه فجور الفاجر؛ لأن الجميع في قبضة يده، وتحت سلطانه.

١٣٢، ١٣٣ - ولِلَّهِ عزَّ وجلّ وحده ما في السَّموات وما في الأرض، خلقاً ومِلْكاً وتصرُّفاً، وأغنى الله حال كونه قائماً بشؤون خلقه، كفيلاً بأمورهم، مُعتَمَداً عليه، فاتَّخِذُوه وكيلاً ولا تَتَّكِلُوا على غيره. إنْ يَشَأْ الله يُهلككم - أيُها الناس - ويَأْتِ بغيركم، هم خيرٌ منكم وأطوَعُ له، فإنه سبحانه وتعالى قادر على ذلك قدرة مطلقة، وكان الله على ذلك الإهلاك وإيجاد غيركم، عظيم القدرة، لا يمتنع عليه شيء أراده.

١٣٤ - من كان يُريد منكم - أيها الناس - عَرَضاً من الدنيا، ويطلبون بأعمالهم وجهادهم متاع الدنيا وما ينالونه من الغنيمة، فهم مخطؤون في قصدهم؛ لأنَّ الله عنده ثواب الدنيا وثواب الآخرة، يُؤْتيه من الدنيا ما قُدِّر له، ويجزيه في الآخرة خير الجزاء، وكان الله بالكينونة الأزليَّة الأبديَّة سميعاً لأقوالهم، بصيراً بنيَّاتهم وما في نفوسهم، وسيُجازيهم على ذلك. وفي هذه الآية ترغيبٌ للمؤمنين في أن يبتغوا بأعمالهم الصَّالحة ثواب الآخرة، ولو كانت مطامع نفوسهم متعلِّقة بثواب الدنيا، فإنَّ الله عزَّ وجلّ ذو فضل، إذا طلبوا ثوابَ الآخرة لم يحرمهم من ثواب الدنيا، بل يجمعُهُما لهم.



﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا ﴿١٣٧﴾ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾﴾

١٣٥ ـ يا أيُّها الذين صدَّقوا الله، واتَّبعوا رسوله، كونوا قائمين بالعدل، بأن يكون العدل خُلقاً ثابتاً من أخلاقكم، كثيري الحرص على تنفيذ شريعة الله التي تأمر بإقامة العدل، تبْتغون مرضاة الله، باتِّباع أوامره، واجتناب نواهيه في قوامتكم، فلا تجُوروا في أحكامكم وأقضيتكم لمن تحت أيديكم، ولو مع قوم تغلي قلوبهم بغضاً لكم من أعداء الدين، مُؤدِّين شهادتكم بالعدل لِوَجْه الله تعالى، ولو كانت الشهادة على أنفسكم بالإقرار عليها بما ارتكبت، أو كانت على الوالدين أو الأقارب، فأقيموا الشهادة عليهم لله تعالى، ولا تدفعكم دوافع الحب والشفقة والعصبيَّة، على مُجَانَبَة سبيل العدل، فلا تُحابوا غنياً لغناه، ولا ترحموا فقيراً لفقره، إن يكن المشهودُ عليه غنياً أو فقيراً، فاللَّهُ أولى بهما منكم، فكِلُوا أمرهم إلى الله تعالى، فهو أعلم بهم وبحالهم، فلا تتَّبعوا هوى أنفسكم مُتجاوزين ما يجب عليكم من العدل، زاعمين أنكم تفعلون خيراً، وإنْ تُحرِّفوا الشهادة بألسنتكم إلى غير الحق، أو تُعرضوا عنها بترك أدائها أو كتمانها، فإنَّ الله كان دواماً من الأزل إلى الأبد بما تعملون خبيراً، على سبيل الشُّهود والحضور المُصاحِبِ لكلِّ أجزاء العمل، ظواهرِهِ وبواطنِهِ، فيُجازي المُحسنَ بإحسانه، والمسيءَ بإساءته.

١٣٦ ـ يا أيُّها الذين صدَّقوا الله واتَّبعوا رسوله، دُوموا على إيمانكم بالله، واثْبُتوا عليه، ومدُّوه دواماً بما يُغذّيه ويُجدِّده، ويجعله حياً يَقِظاً، وآمنوا بصدق رسوله محمد عليه الصلاة والسلام، وآمنوا بالقرآن العظيم وبجميع الكتب الربَّانيَّة التي أنزلها الله على أنبيائه قبل القرآن، ومَنْ يكفر بالله وملائكته وكتبِهِ ورسلِهِ واليوم الآخر، بعد إيمانه، ويفعل كما يفعل المنافقون المذبذبون، فقد بَعُدَ بُعداً كبيراً عن طريق الحق، وسلك مسالك الضياع.

١٣٧ ـ إنَّ المنافقين الذين آمنوا، ثمَّ كفروا بعد الإيمان، ثمَّ آمنوا بألسنتهم بإظهارهم الإيمان لتجري عليهم أحكام المؤمنين، ثمَّ ازدادوا كفراً باستهزائهم وتلاعبهم بالدين وموتهم على الكفر، لم يكن اللَّهُ ليغفِرَ لهم ما أقاموا على الكفر وماتوا عليه، ولا ليهديهم طريقاً إلى نجاتهم وَخلاصهم ممَّا هم فيه، بل يتركهم وشأنهم وما اختاروا لأنفسهم، تطبيقاً لسنَّته العامَّة في امتحان عباده ضمن ظروف اختيارهم الحر.

١٣٨ ـ بَشِّر ـ يا رسول الله ويا كُلَّ مؤمن من أمته ـ المنافقينَ الذينَ يُظهرون الإيمان ويُبطنون الكفر، ويحرصون على المنافع الدنيويَّة والمصالح الماديَّة بأنَّ لهم عذاباً مُؤلماً أشدَّ الإيلام، فهو الذي يُرضي مطامعهم، وينتظرهم جزاء كفرهم.

١٣٩ ـ من صفات المنافقين أنهم يعملون مجتهدين لجعل اليهود أولياء وأنصاراً يُوادُّونهم، ويتعاونون معهم من غير المؤمنين الذين هم دون المؤمنين عند الله؛ لأنهم سافلون عقيدةً وسلوكاً، ومنزلةً وموْضعاً في دار العذاب يوم الدين. أيطلبون من اليهود القوَّة الغالبة والمعونة والظهور على محمد ﷺ وأصحابه؟! فإن كانوا يبتغون عند الكافرين العزَّة، فإنَّ القوة والقُدرة والغَلَبة لِلَّهِ جميعاً، وهو الذي يُعِزُّ أولياءَه وأهلَ طاعته، ولن يحصل المنافقون على العزَّة من الكافرين.

١٤٠ ـ وقد نزَّل عليكم ـ يا معشر المسلمين ـ في القرآن في العهد المكي في سورة الأنعام (الآية ٦٨) أنَّه إذا سمعتم الكفار يخوضون بألسنتهم في القرآن بالطعن، ويستهزؤون به في مجالسهم، فلا تَقْعدوا معهم حتى يأخذوا في حديث آخر. إنكم إذا جالستموهم وقعدتم معهم، وهم يخوضون في آيات الله كفراً واستهزاءً بها، فإنكم تكونون في تلك الحالة مثلَهُم في ارتكاب الإثم العظيم، وإذا رضيتم بذلك فأنتم وهم في الكفر سواء. إنَّ الله جامعُ المنافقين والكافرين في عذاب جهنَّم يوم القيامة، يلقون فيها سوء العذاب، كما اجتمعوا في الدنيا على مجالس الكفر، والاستهزاء بآيات الله.

ويؤخذ من الآية النَّهيُ عن مجالسة أهل العقائد الباطلة عامَّةً عند خوضهم في باطلهم؛ كالمبْتدعة والفسَّاق والملاحدة. وأنَّ من رضي بالكفر فهو كافر، ومَنْ رضي بمنكر أو خالط أهله، كان بالإثم بمنزلتهم، إذا رضيَ به وإن لم يباشره.

ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمۡ فَإِن كَانَ لَكُمۡ فَتۡحٞ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡ وَإِن كَانَ لِلۡكَٰفِرِينَ نَصِيبٞ قَالُوٓاْ أَلَمۡ نَسۡتَحۡوِذۡ عَلَيۡكُمۡ وَنَمۡنَعۡكُم مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبۡذَبِينَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلٗا ﴿١٤٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمۡ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَٱعۡتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخۡلَصُواْ دِينَهُمۡ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَسَوۡفَ يُؤۡتِ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿١٤٦﴾ مَّا يَفۡعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمۡ إِن شَكَرۡتُمۡ وَءَامَنتُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمٗا ﴿١٤٧﴾

١٤١ - من صفات المنافقين أنهم ينتظرون بترقُّب يَقِظ ما يحدث لكم - أيها المؤمنون - من خيرٍ أو شرٍ، وينتهزون الفرص، فإنْ كان لكم نصرٌ من الله تعالى على عدوِّكم وغنيمةٌ تنالونها منهم، قال المنافقون لكم: ألم نكن معكم في الموقعة والفتح؟! فاجْعَلوا لنا نصيباً من الغنيمة، كما تقسمون لسائر المقاتلين المجاهدين، وإن كان للكافرين نصيبٌ ممَّا كسبوا بأسبابهم، ضمن سُنَّة الله عزَّ وجل، وبمقتضى حكمته التربويَّة أو الجزائيَّة، قال المنافقون للكفار: ألم نُحط بكم إحاطة حماية ومعونة ونُصرة؟ ودفعنا المؤمنين بتخذيلهم عنكم، ومُراسلتنا إيَّاكم بأخبارهم وأسرارهم؟ فأعطونا نصيباً ممَّا أصبتم منهم، فالله يَحكم بين الفريقين: فريق المؤمنين، وفريق المنافقين يوم القيامة، ولن يجعلَ الله للكافرين على المؤمنين طريقاً بالانتصارات الحاسمة، والغَلَبة الدائمة، والسيطرة المستمرَّة، بل يساعد المؤمنين إذا عملوا بما أمرهم من إعداد المُستطاع من القوة، حتى يتفوَّقوا على أعدائهم، ويكونوا هم المنصورين الغالبين.

١٤٢ - إنَّ المنافقين يتَّصفون بخمس صفات سلوكيَّة: **الصفة الأولى**: أنهم يُظهرون ما يُوهم الإيمان والصِّدق والسَّلامة، ويُبْطنون خلاف ذلك، ويبالغون جداً في الاستخفاء والتَّواري، ويُمْعِنُونَ في إيقاع المؤمنين فيما يكرهون غاية جهدهم، وهم حين يخادعون الذين آمنوا مع أنَّ الله معهم، وهو وليُّهم، إنما يخادعون معهم الله ربهم، الذي يتولَّاهم بتأييده، ويحميهم من مكر المنافقين ومكايدهم، والمنافقون بسبب غفلتهم عن هذه الحقيقة، لا يخدعون إلا أنفسهم، والله مُجازيهم بمثل عملهم، إذْ يستدرجهم من حيث لا يشعرون، حتى يوقعهم بشرِّ عملهم الذي يمكرون به، **والصفة الثانية**: إذا قام المنافقون إلى الصَّلاة قاموا مُتثاقلين؛ لأنهم غير مؤمنين باطناً، فهم لا يؤمنون بجدوى الصلاة، ولا يتذوَّقون حلاوتها، ولا يشعرون بلذَّة مناجاة الله فيها، **والصفة الثالثة**: أنهم يَقْصدون بصلاتهم وسائر أعمالهم الدينيَّة الرياءَ والسُّمْعَة، ويُظهرون للناس أنَّهم أهلُ خيرٍ وصلاح، فإذا خَلَوْا إلى أنفسهم لم يُؤدُّوا هذه الأعمال التي يتظاهرون بها أمام الناس، **والصفة الرابعة**: أنهم لا يذكرون اللَّهَ تعالى إلاَّ ذكراً قليلاً؛ لأنهم من قسم المنافقين المتردِّدين، إذْ هم في نوْبة اتِّجاه قلوبهم إلى الإيمان قد يذكرون الله عزَّ وجلّ، لكنهم سرعان ما يرتدُّون إلى الطرف الآخر، أما المنافقون الذين استقرُّوا في الكفر دواماً، وانتهت لديهم حالة التردُّد، فإنَّ ذكرهم القليل من قبيل ذكر المشركين وسائر الكافرين الصُّرحاء الذين يؤمنون بربوبيَّة الله، ولكنهم لا يؤمنون بإلهيَّته، ولا برسوله، وإذا ذكروا الله فإنهم يذكرونه لدنياهم لا لآخرتهم.

١٤٣ - **الصفة الخامسة**: أنهم مُتحيِّرون مُتردِّدون في ولائهم، وفي سلوكهم، لا هُويَّة لهم ولا مبدأ، فلا هم مُنتمون حقيقةً إلى المؤمنين، ولا هم منتمون إلى هؤلاء الكفار، ويظلُّون في حياتهم قلقين لا ثبات لهم، ومَنْ يحكم الله عليه بالضلال بمقتضى قانون العدل، فليس له مَنْ ينجيه من عذاب الله على ضلاله.

١٤٤ - يا أيُّها الذين صدَّقوا الله واتَّبعوا رسوله، لا تُوَالُوا الكفَّار من دون أهل مِلَّتكم ودينكم، أتريدون - أيُّها المُتَّخِذونَ الكفار أولياء - أن تجعلوا للَّهِ عليكم حُجَّةً ظاهرة جليَّة، وهي تقتضي أن يرفع عنكم ولايته، وينزل بكم عقوبته؟!

١٤٥ - إنَّ المنافقين الذين يموتون على النفاق في الطبقة السُّفلى من طبقات دار العذاب، يذوقون فيها عذاباً خالداً، ولن تَجِدَ - أيها المخاطَب - لهؤلاء المنافقين ناصراً ينصرهم فيرفع عنهم من عذاب الله إذا نزل بهم.

١٤٦ - لكن الذين رجعوا عن النفاق إلى الإيمان الصَّادق الصحيح، وأصلحوا الفساد الذي كان في نفوسهم وأعمالهم، فعملوا بما أمر الله به، وانتهوا عما نهاهم عنه، وتمسَّكوا بعهد الله، وانضمُّوا إلى جماعة المسلمين الصادقين، وأخلصوا طاعتهم وأعمالهم التي عملوها لله عزَّ وجلّ، لا يبتغون مراءاة الناس أو مغانم الدنيا ومنافعها. فأولئك المتَّصفون بهذه الأوصاف الأربعة مع المؤمنين في الجنة، وسوف يُؤْتِ الله المؤمنين أجراً عظيماً في الآخرة.

١٤٧ - لا يفعلُ الله تعالى بعذابكم على آثامكم وجرائمكم شيئاً لنفسه، مِنْ جَلْب نفع أو دفع ضر. إنْ شكرتم نِعَمَ الله عليكم التي تنتهي بكم إلى معرفة المنعم والإيمان به، آتاكم أجراً عظيماً، ولا يُنقص ذلك العطاء من ملكه شيئاً، ولا يزيد شكركم وإيمانكم في ملكه شيئاً، وكان الله دواماً من الأزل إلى الأبد مُثيباً عباده المؤمنين الشاكرين، مُوَفِّياً أجورهم، عليماً بأعمال عباده جميعاً، مَنْ يستحقُّ منهم الثواب، ومَنْ يستحقُّ منهم العقاب.

﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾ إِن تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَن سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾ يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَآتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾﴾

١٤٨ ـ لا يُحِبُّ اللَّهُ النُّطق بالسُّوءِ من القول القبيح في إعلانٍ لا خَفاء فيه، كالقذف والسِّباب، وإعلان المعاصي والجرائم، وتفصيل القول فيها من غير حاجة إلى بيانها؛ لأنَّ إعلان الآثام والمفاسد يُسَهِّل ارتكابها، ويُزيل استنكارها من القلوب، لكن مَنْ ظُلم، فلهُ أن يجهر بالسُّوء لدفع الظلم عنه؛ لأنَّ دفع الظلم واجب، وما لا يُتوصَّل إلى الواجب إلا به فو واجب، فللمظلوم أن يجهر بما ارتكب خصمُهُ من مآثم في حقِّه أمام القاضي، وأن يدعو على ظالمه جهراً، وأن يذكره في مجالسه من غير كذب ولا بُهتان، وكان الله سميعاً لدعاءِ المظلوم، وما يجهر به، عليماً بما في قلبه، فلْيتَّق الله ولا يقل إلا الحق.

١٤٩ ـ إن تُبْدوا خَيراً من أعمال البِرِّ والنفع الإنسانيِّ العام، للدعوة إليه، فإلى الخير تدعون، أو تُخْفوا الخير فلم تُظهروه اتِّقاء لله، ومنعاً للرياء، وسَتْراً على من تُعطون، فنعمَّا تفعلون، أو تعفُوا عن مَظْلمة، وتتركوا التشهير بالظالم والانتقام منه، فإنَّ الله تعالى لم يزل ذا عفوٍ عن أصحاب المعاصي والآثام مع قدرته على الانتقام، فاعفُوا أنتم عمَّن ظلمكم، واقْتَدوا بِسُنَّة الله عزَّ وجلّ يعفُ عنكم يوم القيامة. فالانتقام من الظالم عدلٌ، والعفوُ عليه عند المقدرة عليه فضلٌ وإحسان.

١٥٠ ـ إنَّ الذين يكفرون بالله ورسله من اليهود والنصارى، ويريدون أن يُفرِّقوا بين الإيمان بالله والإيمان برسله، بأنْ يؤمنوا بالله ويكذِّبوا رسله الذين أرسلهم الله إلى خلقه، أو يعترفوا بصدق بعض الرسل دون بعض، ويريدون أن يتَّخذوا من الإيمان بالله دون الإيمان برسله، أو الإيمان ببعض الرسل دون بعض مَذْهباً يذهبون إليه، وديناً يدينون به.

١٥١ ـ أولئك البُعداء عن رحمة الله، المفرِّقون بين الله ورسله في الإيمان هم الكافرون كفراً ثابتاً لا شكَّ فيه، وهَيَّأنا للكافرين عذاباً يُهانون فيه؛ جزاء استكبارهم في الدنيا. وفي هذه الآية دليل واضح على أن العقيدة الإسلامية لا تقبل التفريق في الإيمان بين أركان الإيمان، أو بين عناصر الركن الواحد، والإيمان غير قابل للتجزئة والتفريق، بأن يؤمن ببعض العناصر الإيمانيّة ويكفر ببعضها، وَمَنْ فعل ذلك كان كافراً غير مؤمن.

١٥٢ ـ والَّذين صَدَّقوا بوحدانية الله، ونُبوَّة جميع أنبيائه، وأنَّ جميع ما جاؤوا به من عند الله حقٌّ وصدقٌ، ولم يُفرِّقوا بين أحدٍ من الرسل، بل آمنوا بجميعهم إيماناً كاملاً، أولئكَ رفيعو المنزلة الموصوفون بالأوصاف السابقة سَوْفَ يُؤْتيهم الله سبحانه في الجنة أجرهم وثوابهم جزاء إيمانهم بالله وبجميع كتبه ورسله، وكان الله كثير السَّتْر يتجاوز عن سَيِّئاتهم، واسع الرحمة بهم.

١٥٣ ـ يسألُكَ ـ يا رسول الله ـ أحبار اليهود أن تُنَزِّل عليهم كتاباً من السماء جملةً كما نزلت التوراة على موسى مكتوبة، حتى يؤمنوا بك، فلا تَعجب ـ يا رسول الله ـ فقد سألوا موسى أعظم من الذي سألوك ـ يا رسول الله ـ فقالوا: أَرِنَا اللَّهَ عياناً بالبصر، فأخذتهم نار من السماء بسبب ظُلمهم وسؤالهم الرؤية، وبعد أن أحياهم الله بعد الصَّعق؛ لِيَسْتَوفُوا بقيَّة آجالهم، اتَّخذوا العجل الذهبيَّ الذي صاغه لهم السامريُّ إلهاً، من بعد ما جاءتهم الدلالات الواضحات والمعجزات الباهرات على صِدق موسى، فتَجاوَزْنا عن ذلك الذنب العظيم، فلم نَسْتأصل عَبَدة العجل، تفضُّلاً منا وإحساناً، وآتَيْنا موسى حُجَّةً واضحةً تدلُّ على صِدقِ نبوَّته.

١٥٤ ـ ورفعنا فوق رؤوسهم الجبل المُسمَّى بالطُّور تهديداً لهم حين امتنعوا عن الالتزام بالعهد المُؤكَّد الذي أعطوه على العمل بأحكام التوراة؛ وقلنا لهم والطُّور يُظلُّهم: ادخلوا الباب مُنحنين خاضعين لله، فدخلوا يزحفون على أستاههم، وقلنا لهم: لا تُجاوزوا في يوم السبت ما أبيح لكم إلى ما حُرِّم عليكم من الاصطياد فيه، فاعتدَوْا وصادوا، وأخذنا منهم عهداً مُؤكَّداً شديداً بأن يعملوا بما أمرهم الله به، وأن يَنْتهوا عمَّا نهاهم الله عنه، فعصَوْا ونقضوا العهد. فهؤلاء اليهود في ماضيهم، لا يتَّجهون إلى الحقِّ اتِّجاه المؤمن المُذْعن، ولكن يُحملون عليه حَمْل المُلْجَأ، فلا تنتظروا ـ أيها المؤمنون ـ أن يستجيبوا لكم؛ لأنَّ ذلك لم يكن من طبعهم، فهم في ماضيهم لم يُنفِّذوا أحكام التوراة، مع أنهم حُملوا على العمل بها حَمْلاً، وهُدِّدوا تهديداً حسياً بأنَّ العذاب واقعٌ بهم لا محالة.

فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ
بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ
فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ
بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ
رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ
ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ
وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا
﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ
ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟
حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ
كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ
بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ لَّٰكِنِ
ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ
أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ
وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أُو۟لَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾

١٥٥ - طردناهم من رحمتنا وسَخطنا عليهم، وفعلنا بهم ما فعلنا؛ بسبب نقْضهم للعهود، وبسبب جحودهم بآيات الله الدالَّة على صدق أنبيائه، وقتْلهم الأنبياء بعد قيام الحُجَّة على صِحَّة نبوّتهم بغير استحقاق لذلك القتل، فليس لهم عُذْر في هذا الاعتداء، بل أقدموا عليه مُستهينين بمقام النبوَّة، وهم يعلمون أنهم على باطل. وبسبب قولهم: قلوبنا مليئة بالمعارف الدينيَّة التي أنزلت علينا، مغلَّفة كما تغلَّف السِّلع والأمتعة حتى صارت لا متَّسع فيها لواردات جديدة، فلسنا بحاجة إلى العلوم والمعارف الدينية التي عندك، ولن نقبل شيئاً مما تدعوننا إليه يا محمد، وليس الأمر كما يزعمون، بل ختم الله على قلوبهم فَحَجَبها عن العلم بسبب كفرهم، فلا يؤمنون إلا بموسى والتوراة، ويكفرون بما سواه من الأنبياء والكتب.

١٥٦ - وكذلك لعنَّاهم بسبب إنكارهم قدرة الله على خلق الولد من غير أب، وقولهم على مريم كذباً وباطلاً فاحشاً حين رموها بالزنى، مع ظهور المعجزات الدالَّة على براءتها.

١٥٧ - وبسبب ادِّعائهم الكاذب وقولهم: إنا قتلنا عيسى ابن مريم عليه السلام، رسولَ الله وصلبناه. وقولُهم هذا يُؤذن بمُنتهى الجُرأة على الباطل، وارتكاب أفظع الجرائم، وهم ما وصفوه بأنه «رسول الله» إلا على سبيل التهكُّم والاستهزاء به. والحال أنهم ما قتلوه كما زعموا تبجُّحاً بالجريمة، وما صَلَبوه كما ادعوا وشاع بين الناس، ولكن ألقى الله شَبَه عيسى على غيره حتى قُتِل وصُلب، وإنَّ اليهود الذين اختلفوا في قتل عيسى لفي تردُّدٍ وحيْرة من قتله، ولم يعرفوا حقيقة ذلك المقتول، ما لهم دليلٌ إلا اتِّباع الظنّ، وما قَتَلوه متيقّنين أنه هو، فلم يكن علمهم بقتل عيسى علماً تاماً كاملاً، بل كانوا في ذلك شاكِّين متوهِّمين.

١٥٨ - إنَّهم لم يقتلوا عيسى ولم يَصْلبوه، ولكنَّ الله عزَّ وجلَّ رفعه إليه ببدنه وروحِهِ، وخلَّصه ممَّن أراده بسوء، فهو حيٌّ في السماء، وسينزل قبيل قيام الساعة، فيقتل الدجَّال، ويكسر الصليب، وكان الله من الأزل إلى الأبد قوياً غالباً في اقْتداره على مَنْ يشاء من عباده، حكيماً في إنجاء عيسى عليه السلام وتخليصه من اليهود.

١٥٩ - وما من أحدٍ من اليهود والنصارى بعد نزول عيسى عليه السلام من السماء قُبيل الساعة إلا لَيُؤْمِنَنَّ به عليه السلام إيماناً صحيحاً، وذلك بأن يؤمنوا أنَّه عبدُ الله ورسوله، وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم، وهذا الإيمان سيكون قبل موته عليه السلام، لأنه رُفع إلى السلام حياً، وسينزل إلى الأرض؛ ليقيمَ أحكام الشريعة الإسلامية التي أنزلها الله على محمد ﷺ، ويومَ القيامة يكون عيسى عليه السلام شاهداً على اليهود أنهم كذَّبوه وطعنوا فيه، وعلى النصارى أنهم اتَّخذوه ربّاً وأشركوا به، ويشهد على تصديق مَنْ صدَّقه منهم وآمن به.

١٦٠ - فَبِسَبَبِ ظلم اليهود ظلماً من دركة الكفر، حرَّمنا عليهم بعض الطَّيِّبات التي كانت حلالاً لهم، تهذيباً لهم، وفطماً لنفوسهم عن الشهوات، وبسبب صدِّهم أنفسهم وغيرهم عن دين الله الحق.

١٦١ - وبسبب أكلهم الربا مُستحلِّين له مع أنهم قد نُهوا عنه في الكتب المنَّزلة على أنبيائهم، بسبب عدوانهم على أموال الناس وأكلهم لها بالطرق المحرَّمة، كالرِّشوة والقمار والغصب والاحتكار والغش وسائر الوجوه المحرَّمة ظلماً وعدواناً، وهو مُحرَّمٌ في كلِّ الشرائع. وهَيَّأنا للكافرين من هؤلاء اليهود عذاباً أليماً في الآخرة، دون مَنْ آمن منهم فإنهم آمنون من العذاب.

١٦٢ - لكن الثابتون في العلم بأحكام الله من اليهود، المُتقنون له، الذين تعمَّقوا في دراسة التوراة، وعرفوا ما أخبرت به من صفات محمد ﷺ، والمؤمنون بدين موسىٰ عليه السلام، يؤمنون بما أُنزل إليك - يا رسول الله - من القرآن، وبما أُنزل من قبلك من الكتب على الرسل السابقين، مع المسلمين المقيمين الصلاة، يصلُّون صلاتهم، ويركعون ركوعهم، والمُؤدُّون الزكاة المفروضة عليهم، طيِّبةً بها نفوسهم، والمُصدِّقون بوحدانية الله، وبالبعث بعد الموت، والحساب، وفصل القضاء، وتنفيذ الجزاء، أولئك الفضلاء رفيعو المنزلة سنُؤتيهم في الآخرة يوم الدين أجراً عظيماً، في جنَّات النعيم.

﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَـٰرُونَ وَسُلَيْمَـٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا (١٦٣) وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَـٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا (١٦٤) رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٦٥) لَّـٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا (١٦٦) إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّوا۟ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا (١٦٧) إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَظَلَمُوا۟ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا (١٦٨) إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا (١٦٩) يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١٧٠)﴾

١٦٣ - إنَّا أَوْحينا إليك - يا رسولَ الله - كما أَوْحينا إلى نوح، وهو أوّل نبيٍّ بُعثَ بشريعة، وأوّل نذير على الشِّرك، وأوحينا إلىٰ النبيين من بعد نوح إلى عهد إبراهيم عليهما السلام، وأوْحينا بعد هذه الفترة الـزمَنـيَّة إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ابنا إبراهيم، ويعقوب بن إسحاق، وأنبياء الأسباط المنحدرين من أولاد يعقوب الاثني عشر الذين كانوا في قبائل بني إسرائيل، وعيسى ابن مريم وأيُّوب ويونُس وهارون وسليمان بن داود. وآتينا داود صحفاً مكتوبة فيها حِكَمٌ ومواعظ ونصائح، ومناجاة لله وتضرُّع ودعاء، وتمجيد وتقديس له وثناء. ولم يُذكر موسى في هذه الآية؛ لأنَّ الله أنزل عليه التوراة جملةً واحدة.

والمقصود بذكر مَنْ ذُكر من الأنبياء في الآية أنه لم ينزل على أحد منهم كتاباً جملة واحدة، فلمَّا لم يكن عدم إنزال الكتاب جملة واحدة قادحاً في نبوَّتهم، فكذلك لم يكن إنزال القرآن على محمد ﷺ مُفرَّقاً قادحاً في نُبوَّته، بل قد أُنزل عليه كما أنزل عليهم.

١٦٤ - وأرسلنا رُسُلاً إلى أمم قد سَمَّيْناهم في القرآن، وعرَّفناك أخبارهم من قبل هذه الآية، وأرسلنا رُسُلاً لم نُسَمِّهم لك، ولم نُعَرِّفك أخبارهم، وخاطب الله موسى مخاطبةً من وراء حجاب، وأسمعه كلامه من غير واسطة. فليس الوحي إلى محمد حَدَثاً غريباً لا سابقة له في تاريخ الناس، حتى يستنكره اليهود المعاصرون للرسول ﷺ، بل هو الأمر المعتاد المُتكرِّر، وهذه حُجَّةٌ دامغةٌ لهم، لأن كثيراً ممَّن ذكروا من الأنبياء والرسل ممَّن يؤمنون بنبوَّته والوحي إليه.

١٦٥ - أرسَلْتُ رُسُلاً إلى خلقي مُبَشِّرين مَنْ أطاعني، واتَّبع أمري، وصدَّق رُسلي بالثواب الجزيل في الجنَّة، ومُنْذِرِينَ مَنْ عَصاني، وخالفَ أمري، وكذَّب رسلي بالعذاب الأليم في النار؛ لئلاّ يحتجَّ الناسُ بعد إرسالِ الرُّسل وإنزالِ الكتب على الله في ترك التوحيد والطاعة، بالجهل، أو بالغفلة، أو بمواريث البيئة، وكان الله دواماً قوياً غالباً في انتقامه ممَّن خالف أمره وعَصَى رُسُلَهُ، حكيماً في إرساله الرُّسل، وإنزاله الكتب.

١٦٦ - إنْ جَحَدَكَ هؤلاء اليهود، وكفروا بما أَوْحينا إليك، فإنَّ الله يشهدُ لك بالنبوَّة، ويشهدُ بما أَنزل إليك من كتابه ووحيه، أنزلَهُ عليك بعلم تام وحكمة بالغة، والملائكةُ يشهدون أيضاً بأنَّ الله أنزله عليك، وحَسْبُكَ - يا رسول الله - أنَّ الله يشهد لك، وأغنى الله حالة كونه شهيداً عالماً علم شهود وحضور وإنْ لم يشهد معه أحدٌ غيره.

١٦٧ - إنَّ اليهود الذين جَحَدوا نبوَّة محمد ﷺ، لم يكتفوا بانصرافهم عن الإيمان والإذعان، بل يمنعون غيرهم عن الإيمان به، بكتمان صفته، وإلقاء الشبهات في قلوب الناس، قد ضلُّوا عن طريق الهدى ضلالاً بعيداً.

١٦٨، ١٦٩ - إنَّ الذين كفروا بالله وبرسوله، وظلموا أنفسهم بالضلال البعيد، والاستمرار على الكفر، وظلموا محمداً ﷺ بكتمان صفته، وإنكار رسالته، وظلموا غيرهم بالصدِّ عن سبيل الله، فازدادوا بذلك كفراً، وأصرُّوا عليه إلى الممات، لم يكن الله لِيَسْتُرَ عليهم قبائح أفعالهم، ولا ليهديهم طريقاً ينجون فيه من النار؛ لكنه تعالى يهديهم إلى طريق يؤدِّي بهم إلىٰ جهنَّم، خالدين فيها أبداً؛ بسبب سوء اختيارهم، وجحودهم وإصرارهم على ظلمهم، وكان ذلك العذاب الذي يستحقُّونه على الله سبحانه هيِّناً يسيراً، فلا يُعجزه شيء.

١٧٠ - يا أيُّها الناس قد جاءكم الرسول الخاتم محمد ﷺ، بدين الإسلام من عند ربِّكم، وإذا كان ذلك الرسول هو الكامل في رسالته التي جاءت مقرونةً بالحقِّ، مُصاحبةً له، وفيها مصلحة لكم، فآمنوا بما جاءكم به محمد ﷺ، يكن الإيمان خيراً لكم في الدنيا والآخرة من الكفر الذي أنتم عليه، وإن تَجْحَدوا رسالةَ محمدٍ ﷺ وتُكذِّبوا بما جاءكم به من الحقِّ من ربِّكم، فإنَّ الله غنيٌّ عن إيمانكم؛ لأنَّ له ما في السموات والأرض ملكاً وعبيداً، وكان الله من الأزل إلى الأبد عليماً بما يكون منكم، لا يخفى عليه شيءٌ من أعمالكم، فَيَجْزي كلَّ واحد منكم بعمله، حكيماً في تكليفكم مع علمه بما يكون منكم. وفي هذه الآية دليل على عموم رسالة محمد ﷺ.

يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴿١٧١﴾ لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَۚ وَمَن يَسۡتَنكِفۡ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيَسۡتَكۡبِرۡ فَسَيَحۡشُرُهُمۡ إِلَيۡهِ جَمِيعٗا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡتَنكَفُواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ﴿١٧٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعۡتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدۡخِلُهُمۡ فِي رَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَفَضۡلٖ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَيۡهِ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ﴿١٧٥﴾

١٧١ ـ يا أهلَ الكتاب من اليهود والنصارى: لا تُجاوزوا الحدَّ في أمر عيسى عليه السلام، فلا تحطُّوه عن منزلته، ولا ترفعوه فوق قَدْره، ولا تقولوا مُفْترين على الله إلا القولَ الحقَّ الثابت القائم على الدليل المُقْنِع، لا على الوهم البعيد. ما المسيحُ عيسى ابنُ مريم إلا رسولُ الله أرسله الله بالحق، وخلقه بالكلمة التي أرسل بها جبريل إلى مريم، بقوله: «كُنْ»، فكان بشراً من غير أبٍ ولا واسطة أوْصَلَها إلى مريم، وروحٌ بتخليقه وتكوينه من غير توسيط سُلالة بشريَّة، ونطفة تتشكَّل إنساناً، وإذا كان الحقُّ في عيسى عليه السلام، أنه رسول الله، وأنه سبحانه خلقه من غير طريق الأسباب المعتادة، فصدِّقوا ـ يا أهل الكتاب ـ بوحدانيَّة الله، وصدِّقوا رسله الذين سبقوا عيسى، والرسول الذي جاء من بعده، ولا تكفروا بأحد منهم، ولا تجعلوا عيسى وأمَّه مع الله شريكَيْن، انتهوا عن هذا القول الفاسد الباطل، يكن الانتهاءُ خيراً لكم؛ لأنكم تخرجون من حَيْرة الأوهام إلى تفكير العقول، وتدركون الحقَّ وتذعنون له، وتكونون مؤمنين بالمسيح حقاً وصدقاً، ما الله سبحانه إلا إلهٌ واحدٌ، تَنَزَّه أن يكون له ولد، له تعالى ملك السموات والأرض، وَمَنْ فيهما وما فيهما عبيدُهُ ومُلكه، فكيف يكون له منهم صاحبةٌ أو ولد؟ وكَفَى باللَّهِ وكيلاً قائماً بأمور عباده، وبتحصيل ما يحتاجون إليه، مَنْ توكَّل عليه كفاه، ومن استغنى به أغناه عمَّا سواه.

وفي الآية تحذيرٌ من الغلوِّ في الدين، وهو تَجاوز الحدود الشرعيَّة؛ لأن الغُلوَّ يُوقع صاحبه في مخالفة الشَّرع، وهو يحسب أنه يُحسن صنعاً، وقد يوقع الغلو صاحبه في الكفر كما حصل لليهود والنصارى في عيسى عليه السلام. فاليهود تجاوزوا الحدود الشرعيّة في عيسىٰ وأمه، فأنزلوهما دون منزلتهما التي أنزلهما الله فيها، فكذَّبوا عيسىٰ، واتَّهموا أمه بالفاحشة، والنصارى تجاوزوا الحدود الشرعيَّة غُلوّاً منهم بعيسى، فجعلوه وأمَّه إلهَيْن مع الله عزَّ وجل.

١٧٢ ـ لن يستكبرَ ويمتنعَ المسيحُ الذي تعبدونه من دون الله أن يكونَ عبداً لِلَّهِ؛ لأنه رسولٌ مُجتبىٰ، فليس هو ثالث ثلاثة، وليس هو ابناً لله، وليس هو الله، ولم يأمر أحداً بعبادته، وكان هو من العابدين لله، وكذلك لن يستكبر ويمتنع الملائكةُ المُقرَّبون، كجبريل وإسرافيل وميكائيل وحَمَلة العرش أن يكونوا عبيداً لله؛ لأنَّهم في ملكه ومن جُملة خلقه، وَمَنْ يتعظَّم عن عبادة الله، ويَأنف من التذلُّلِ والخضوع له، ويترفَّع عن مشاركة الضعفاء الفقراء من المؤمنين في عبادة الله سبحانه، فسيجمعهم يوم القيامة لموعدهم الذي وعدهم، حيث لا يملكون لأنفسهم شيئاً، ويفصل بينهم بحكمه العادل، ويُجازي كلاً بما يستحق.

١٧٣ ـ فأمَّا الذين آمنوا بالأركان الإيمانيَّة الستة إيماناً صحيحاً صادقاً، وعملوا الصَّالحات التي تُعبِّر عملياً عن صحَّة الإيمان الإراديِّ الاعتقاديِّ، فيعطيهم الله جزاءَ أعمالهم الصَّالحة كاملاً، ويزيدهم على ما أعطاهم من الثواب زياداتٍ لا تخطر على بالهم، ولا تقع في تصوُّراتهم. وأمَّا الذين ترَفعوا عن اتِّباع النبيين، وتكبَّروا عن أن يكونوا في صفٍّ واحد مع الضعفاء والفقراء في عبادة الله تعالى والتذلل له، فيُعذِّبهم عذاباً أليماً، ولا يجدونَ لهم من دون الله لأنفسهم وليّاً يُنجيهم من عذابه، ولا ناصراً يَنْصُرهم منه، ويدفع عنهم عقوبته.

١٧٤ ـ يا أيُّها الناس قد جاءكم دليلٌ قاطعٌ من رَبِّكم، مُثبتٌ لرسالة الرسول ﷺ بما أيَّده من الآيات البيِّنات، والمعجزات الباهرات، وأنْزلنا إليكم القرآن نوراً ظاهراً واضحاً، ومُظهراً مُبيِناً، تتبيَّن به الأحكام، وبه يدخل نور الإيمان في القلب.

١٧٥ ـ فأمَّا الذين صدَّقوا بوحدانيَّة الله، وبما أرسل من رسول، وأنزل من كتاب، واحتموا بالله مُلتجئين إليه، ومُمتنعين به سبحانه؛ بعبادته بصدق وإخلاص، وبالعملِ بمراضيه، وباللجوء إليه وحده، فَسَيُدْخِلُهُم في رحمته، فيغفر لهم ذنوبهم، ويُكفِّر عنهم سيِّئاتهم، ويجعلهم مشمولين بفضل منه؛ إذْ يعصمهم عن الوقوع فيما يُسخطه، ويتولاَّهم بحمايةٍ منه، مع ما يمنحهُم في الحياة الدنيا من راحة ضمير، وسعادة نفس، وتيسير للأمور، ودفع للمكاره، ويُسدِّدهم لسُلوك منهج مَنْ أنعم عليهم من أهل طاعته، ويهديهم طريقاً مستقيماً واضحاً فيما بقي لهم من مسيرتهم في حياتهم، وهو صراط الله الذي يبلغون به رضوان الله في جنَّته، ويتفضَّل عليهم بعد إدْخالهم الجنَّة، بما لا عَيْنٌ رَأت ولا أُذُنٌ سمعت ولا خَطَر على قلب بشر، ويهديهم في الجنَّة إلى الصِّراط الذي يُوصلهم إلى حيث يَرَوْن ربَّهم، فيفيض عليهم من عطاءاته وإحسانه.

يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِن كَانُوا إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٧٦﴾

سُورَةُ المَائِدَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢﴾

١٧٦ - يطلبون منك - يا رسول الله - الإجابةَ عن حكم ميراث الكَلالَة، وهو مَنْ مات وليس له ولدٌ ولا والد؟ قل: إنَّ الله يخبركم عمَّا سألتم عنه من أمر الكَلالَة: إنْ مات امْرؤٌ ليس له ولدٌ ولا والد، ولذلك الهالك أختٌ شقيقةٌ من أبيه وأمِّه، أو من أبيه فقط، فلأختِ الميِّت نصفُ تركَتِهِ، وإذا ماتت الأُخت ولم يكن لها ولد ولا والد، وتركت أخاً شقيقاً من الأب والأم، أو من الأب، فإنه يَسْتغرق جميعَ ميراث الأخت إذا انفرد، وإنْ مات وترك أختين أو أخوات فلهنَّ الثُّلُثان ممَّا ترك الميِّت، وإنْ كان المتروكون من الإخوة رجالاً ونساءً، فَلِلْذَكر منهم نصيبُ اثنتين من أخواته الإناث، يُبيِّن الله لكم هذه الفرائض والأحكام، وقسمة المواريث، وحكم الكلالة؛ خشيةَ أن تضِلُّوا عن الحقِّ في أمر المواريث، فتهملوا الميراث جملةً بألاَّ تُعطوا أحداً من الورَثَة شيئاً، أو تفرِّقوا المال من غير قيْد، فتتركوا وَرَثَتكم ضياعاً، أو تَحرموا مَنْ تشاؤوا، وتعطوا مَنْ تشاؤوا، فتثيروا العداوة والبغضاء بينهم، واللَّهُ بكلِّ شيءٍ عليم علماً كاملاً شاملاً لجميع المعلومات، ومحيطاً بها، وسابقاً على وجودها، لا تخفى عليه خافية، ولا يعزب عن علمه شيء في الأرض ولا في السماء. وفي هذا إشارة إلى أنَّ شرعه أحكم شرع، لأنه شرع مَنْ يعلم العدل على أتمِّ وجوهه، والمصلحة المستقرّة الثابتة التي لا تعبث بها الأهواء، ثم هو عليم بمَنْ يُخالفه ويعصيه، ومَنْ يُطيعه ويرضى حكمه.

سُورَةُ المَائِدَةِ

١ - يا أيها الذين صدَّقوا الله واتَّبعوا رسوله، نفِّذوا ارتباطاتكم التي عقدتموها مع ربِّكم بسبب إيمانكم، والعقود التي عقدتموها مع أنفسكم بسبب حلفكم ونذركم على أن تفعلوا فعلاً، أو تكفُّوا عن فعل، والعقود التي عَقَدها بعضكم مع بعض بإرادته واختياره من بيع وإجارة ورَهْن وشركة ومُضارَبة وزواج ونحوها، والعقود التي تعقدها الدولة المسلمة مع غيرها من الدول في السِّلم والحرب. وقد أحلَّ الله لكم بهيمةَ الأنعام؛ ذكورها وإناثها، وهي: الإبل والبقر والغنم، إلا ما يُتْلى عليكم في القرآن تحريمُه من تحريم المَيْتة والدم وغير ذلك، غيرَ مُجَوِّزِين للاصطياد أو الانتفاع بالمصيد من حيوان البرِّ وأنتم مُحرمون بحجٍّ أو عُمْرة، سواء أكنتم في الحِلِّ أم في الحرم، فإذا تحلَّلتم من الإحرام حلَّ لكم ذلك؛ إنَّ الله يقضي في خلقه ما يشاء من تحليل ما أراد تحليلَهُ، ومن تحريم ما أراد تحريمَهُ، فما يريده الله عزَّ وجلّ من مُرادٍ يُتْقنه، ويُنْجزه خالياً من الخلل والفساد، ومنها الشرائع والتكاليف والأحكام.

٢ - يا أيُّها الذين صدَّقوا بأركان الإيمان، وعملوا بشريعة الإسلام، لا تنتهكوا شيئاً من فرائضه التي افترض عليكم، واجْتَنبوا نواهيه التي نهى عنها، ولا تُحلُّوا الأشهر الحُرُم الأربعة ببَدْء القتال فيها، وهي: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب، ولا تُحلُّوا حُرمَة ما يُهدى إلى البيت الحرام من الأنعام تقرُّباً إلى الله بالتعرُّض له، بنحو غصب أو سرقة أو حبس عن بلوغه موضعه الذي يحلّ فيه إراقة دمه، ولا تُحلُّوا بشكل خاصٍّ من الهدي ذوات القلائد، بالتعرُّض لها - وهي ضفائر من صوف أو وبر تُوضع في رقاب البُدن علامة على أن البهيمة هَدْيٌ وأنَّ مالكها يريد الحج -، ولا تَسْتحلُّوا قتالَ القاصدين إلى البيت الحرام لأداء الحجِّ أو العمرة يطلبون الثواب من الله تعالى، ويطلبون فوق الثواب رضا الله عنهم. وإذا خرجتم من إحرامكم بالحج أو العمرة فقد أُبيح لكم الصَّيد، ولا يحملنَّكم بُغض قوم وعداوتهم؛ من أجل أن منعوكم عن المسجد الحرام يومَ «الحديبية» أن تعتدوا عليهم بالقتل وأخذ المال. وتعاونوا - أيُّها المؤمنون - على فعل الخيرات التي هي من مرتبة البر، وتعاونوا على القيام بمقْتضيات مرتبة التقوى التي تتحقَّق لكم بفعل الواجبات وترك المحرَّمات، ولا يُعِنْ بعضكم بعضاً على ترك ما أمر الله بفعله، وفعل ما أمر بتركه، ومُجاوزة حدود الله، واتَّقوا الله، واحذروا أن تتركوا ما أمركم به، أو ترتكبوا ما نهاكم عنه؛ إنَّ الله شديدُ العقاب لمن خالفَ أمره.

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ
بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ
السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا
بِالْأَزْلَامِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ
فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ
عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي
مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣﴾
يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ
مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ
عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ
﴿٤﴾ الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ
لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ
مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ
مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ
بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٥﴾

٣ - حُرِّم عليكم أكل هذه المحرَّمات العشر من أجساد الأحياء غير الإنسانية: **المحرَّم الأول**: المَيْتَةُ، وهي كلُّ ما فارقته الرُّوح ممَّا يُذبح بغير ذكاة، **والمحرَّم الثاني**: الدمُ المسفوح الجاري، **والمحرَّم الثالث**: لحم الخنزير وسائر أجزائه وأعضائه، **والمحرَّم الرابع**: ما أعلن ذابحه أنَّه يُقدِّمه قُرباناً لغير الله تعالى، **والمحرَّم الخامس**: المُنْخَنِقة التي حُبِسَ نَفَسُها حتى ماتت، **والمحرَّم السادس**: البهيمة المَقْتولة بالعَصَا أو الحجر، **والمحرَّم السابع**: البهيمة المُتَرَدِّيَةُ التي سقطت من مكانٍ عالٍ أو هَوَتْ في بئر فماتت، **والمحرَّم الثامن**: النَّطيحة التي تَنْطحها شاةٌ أخرى حتى تموت، **والمحرَّم التاسع**: البهيمة التي أكلها حيوان له نابٌ يفترس به، كالأسد والنمر والفهد. فلا يحلُّ أكل ما بقيَ ممَّا حرَّمه من المُنْخنقة وما بعدها، إلا ما أدركتموه، وقد بَقِيت فيه حياة مُسْتَقِرَّةٌ فقطعتم أَوْداجه وأَنهرتُم دمَهُ فإنه يحل. **والمُحرَّم العاشر عليكم**: ما ذُبح على النُّصُب، وهي أحجار تُنصب حول الكعبة، كان أهل الجاهلية يعبدونها ويعظِّمونها، ويلطخونها بالدماء.

وحُرِّم عليكم أن تطلبوا علْمَ ما قُسِمَ لكم أو لم يُقْسم بالأزلام، وهي قطعٌ من الخشب تشبه السِّهام، وذلك أنهم كانوا إذا أرادوا سفراً أو غزواً أو زواجاً أو بيعاً وتَرَدَّدُوا فيما يريدون: أخيرٌ هو فيُقدمون عليه أو شرٌ فيحجمون عنه؟ عَمَدوا إلى هذه الأزلام فأجالوها في الأقداح، فإنْ خرج لهم السهم المكتوب عليه: «أمرني ربي» أمضوْا ما أرادوا مُسْتبشرين، وإن خرج المكتوب عليه: «نهاني ربِّي» أمسكوا عما يريدون، وإنْ خرج السهم الغفْل الذي لا كتابة عليه أعادوا حتى يخرج أحد السهمَيْن الآخرين. ولا ريب أن الاعتماد على مثل هذا في معرفة ما يكون في مستقبل الإنسان، وهو غيبٌ لا يعلمه إلا الله، اعتماد على وهم يأباه الدين والعقل. ويلحق بهذا النوع ما يشبهه من وسائل الاستقسام التي يعتادها الناس اليوم، كالطرق بالحصا، وضرب الرمل، ونحو ذلك.

ذلكم المذكور من هذه المُحرَّمات - إذا ارتكبت - خروجٌ عن أمر الله وطاعته إلى معصيته. اليوم الذي هو يوم عرفة في حجَّة الوداع انقطع أمل الكفار من القضاء على دينكم، أو تغيير حقائقه، أو أن تَرجعوا عن دينكم إلى دينهم، وإذا كان المشركون قد يئسوا من السيطرة عليكم، ووهنت قواهم، فلا تخافُوهم - أيُّها المؤمنون -، وخافوا مُخالفةَ أمري، وأَخْلصوا الخشيةَ لي.

اليومَ أكملتُ لكم بيان شرائع دينكم ببيان الفرائض والأحكام والحلال والحرام، وأَتْمَمْتُ عليكم نعمتي بإخراجكم من ظلمات الجاهلية إلى نور الإيمان، وهدايتكم إلى أكملِ الشرائع، وبفتح مكة، وإزالة دولة الأوثان، واخْترتُ لكم الإسلام ديناً من بين الأديان، فالزموه ولا تفارقوه. فَمَنْ أُجْهِدَ وأُصيب بالضُّر الذي لا يمكنه معه الامتناع من أكل المَيْتة في مجاعة شديدة تُورث ضُمور البطن، فَلْيأكل غيرَ مائلٍ قصداً إلى إثْمٍ أو منحرف إليه بأن يأكل فوق الشبع، فإنَّ الله لمن أكل من الميْتة في حال الجوع والاضطرار كثير السَّتر له، دائم الرحمة.

٤ - يَسْأَلُكَ أصحابُكَ - يا رسول الله - قائلين: ما الذي أُحِلَّ لهم أكله من المآكل؟ قل لهم - يا رسول الله - : أُحِلَّ لكم ما أذن الشارع في أكله ممَّا يُسْتَلذُّ ويُسْتَطاب من غير ما ورد بتحريمه نصٌ من كتاب أو سُنَّة، وأُحِلَّ لكم صَيْدُ ما دَرَّبتم على الصَّيْد من سباع البهائم؛ كالفهود والكلاب، وسباع الطير؛ كالصُّقور ونحوها مما يقبل التعليم والتدريب، مُؤدِّبين ومُعَوِّدين لها على الصَّيْد، تُعلِّمون الجوارح طلبَ الصَّيد لكم من بعض العلم الذي علَّمكم الله، فَكُلوا ممَّا أَمْسَكْنَه محبوساً عليكم، واذكروا اسمَ الله على ما علَّمتم من الجوارح عند إرسالها للصَّيد، واحذروا مخالفةَ الله فيما أحلَّ لكم وحرَّم عليكم؛ إنَّ الله سريع الحساب لا يشغله شأنٌ، فهو قديرٌ على أن يُحاسبكم جميعاً في ساعةٍ واحدة، دون أن ينقص أحداً شيئاً من حقِّه.

٥ - كما أكمل الله لكم الدين، وأتمَّ النعمة، فكذلك أتمَّ النِّعمة بإحلال الطيِّبات، وأُحلَّ لكم ذبائح اليهود والنصارى، وذبائحكم حلالٌ لهم، فيحلُّ لكم - أيُّها المؤمنون - أن تُطعموهم من طعامكم، وأُحلَّ لكم - أيُّها المؤمنون - زواج الحرائر العفائف من المؤمنات، وكذلك نكاح الحرائر العفيفات من اليهود والنصارى إذا أعطيتموهنَّ مُهورَهُنَّ، متعفِّفين بالزواج، وكنتم أعفَّاء غير مرتكبين للزنى، ولا مُنْفردين باتِّخاذ صديقة يُفْجر بها، ومن يَجْحَد ما أمر اللَّهُ من توحيده ونبوَّة محمد ﷺ وما جاء به من عند الله، فقد بَطَلَ ثوابُ عمله الذي كان عمله في الدنيا، وهو في الآخرة من الخاسرين إذا مات على ذلك.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٦﴾ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِي وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذۡ قُلۡتُمۡ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿٨﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴿٩﴾

٦ ـ يا أيُّها الذين صدَّقوا بالله ورسوله، إذا أردتُم القيامَ إلى الصَّلاة، وتهيَّأتم واستعددتم لها، وأنتم مُحدثون حَدَثاً أصغر، فاغْسِلوا وجوهَكم من منابت شعر الرأس إلى مُنْتهى الذقن طولاً، ومن الأذن إلى الأذن عرضاً، واغسلوا أيديكم مع المرافق (والمِرفق: أعلى الذراع وأسفل العَضُد)، وامْسحوا برؤوسكم بإمرار اليد المبلَّلة بالماء عليها، واغسلوا أرجلكم مع الكعبين، (وهما العظمان الناتئان عند ملتقى الساق بالقدم)، وإنْ أصابكم الحَدَث الأكبر فاغْتَسلوا بصبِّ الماء وتعميمه على سائر البدن، وإنْ كُنتم مرضى، أو على سفر في حال الصحة، لا يمكن معهما استعمال الماء بِيُسْر وسهولة، أو قضى أحدكم حاجتَه، أو جامع زوجته، فلم تجدوا ماءً، فاضْربوا بأيديكم وجْهَ الأرض، وامْسحوا وجوهكم وأيديكم إلى الرُّسغين أو المرفقين منه.

ما يُريد الله ليجعلَ عليكم من ضيق بما فرض عليكم من الوضوء والغسل والتيمُّم عند عدم الماء، ولكن يُريد إلزامكُم بهذه الأحكام لِيُطَهِّركم من الأحداث والأرجاس، والذنوب والخطايا، ويريد إنزال الأحكام عليكم بالتتابع التدريجيِّ لِيُتِمَّ نعمتَهُ عليكم في الدنيا والآخرة ببيان جميع الشرائع والأحكام؛ رغبة أن تشكروا نعمةَ الله عليكم بالقيام بما نكلِّفكم إيَّاه، لنجزيكم الجزاءَ الأوفى على شكركم، ولنزيدكم من الفضل والنعمة.

وإنَّما شُرِع التيمُّم بالصَّعيد الطيِّب بَدلَ الماء، لقصْد إقرار الطهارة للصلاة في النفس، وغرس ملكة المواظبة، والحرص على تنفيذ الأوامر والاستمرار عليها؛ لأن الترك في أوقات الأعذار للطهارة الأصليّة ـ وقد تمتد تلك الأوقات أو تكثر ـ لسبيلٌ بحسب العادة إلى التهاون بها في غير أوقات الأعذار، ولا يخفى ما تخلّفه المواظبة من مَلكة الاحتفاظ بأصل المطلوب. ومن حكمة الله تعالى أنه لم يجعل البدل شيئاً يعزُّ وجوده، أو يصعب استعماله على أحد من خلقه. ومن رحمته: أنه اقتصر منه على ما يحقِّق الرمز والوجود الشبهي، وكان مظهر ذلك في الاقتصار على مَسْح بعض أعضاء الوضوء، وهو الوجه والأيدي فقط، والاكتفاء بالوجود الشبهيِّ على صورة واحدة في حالة الحدث الأصغر الذي طهارته الوضوء، والحدث الأكبر الذي طهارته الغسل، ذلك أنَّ الرمز لا يقصد منه تمام مشاكلة البدل للأصل، وإنما يقصد منه الاحتفاظ بتعوُّد الأصل والمواظبة عليه.

٧ ـ واذكروا ما أنعمَ اللّهُ به عليكم من النِّعم كلِّها العامَّة التي تعمُّ الناس جميعاً، مُشركهم ومؤمنهم، كنعمة الوجود، وتسخير الكون، ونعمه الخاصَّة؛ إذ كنتم ضالّين فهداكم، وكنتم قليلين فكثَّركم، وكنتم مُتفرِّقين فجمعكم، وكنتم أذلاء فأعزَّكم، وكنتم فقراء فأغناكم، وكنتم مُستضعفين في الأرض فمكَّن لكم فيها بمنِّه سبحانه وفضله، واذكروا عهد الإيمان والطاعة والامتثال الذي عاهدكم به، وتبادل معكم ـ أيُّها المؤمنون ـ توثيقه وتأكيده، في الوقت الذي التزمتم فيه بالسمع والطاعة فيما أحببتم أو كرهتم، واتَّقوا الله فيما أخذه عليكم من الميثاق فلا تَنْقضوه، إنَّ الله تعالى عليمٌ بالنيّات والسَّرائر صاحبة الاستقرار في الصُّدور داخل النفوس.

٨ ـ يا أيُّها الذين صدَّقوا بأركان الإيمان، وعملوا بشريعة الإسلام كونوا كثيري الحِرص على القيام بما يُرضي الله في كلِّ ما يلزمكم القيام به، بالعمل بطاعته واجْتناب نواهيه، وأن يكون قيامكم لله لا لأنفسكم وأهوائكم ومصالحكم الدنيويَّة الخاصَّة، شهداء بالعدل، كلَّما كان تثبيت الحقوق متوقِّفاً على شهادة تشهدون بها، فلا تُقدِّموا شهادات كاذبات، تهضمون بها حقَّ ذي حق، ولا يَحملنَّكم حمْلاً آثماً شدَّة بغض قوم على ترك العدل فيهم، وارتكاب جريمة الظلم لهم، أو الاعتداء على حقوقهم في قول أو فعل أو حكم وقضاء. اعدلوا مع أعداء الإسلام، العدلُ أقْرب للتحقّق بأصل التقوى، مهما لاحظتم أنَّ ظلم أعداء الإسلام لا يتنافى مع التقوى باعتبارهم مُعَادين لدين الله، فالعدل معهم أقرب للتقوى؛ لأن العدل مع أعداء الإسلام يُقدِّم صورة عمليَّة عن المسلمين، تدعو إلى الإسلام، واتَّقوا الله بامتثال أوامره، واجْتناب نواهيه في كلِّ أحوالكم وشؤونكم؛ إنَّ الله خبيرٌ بجميع أعمالكم مُطَّلِعٌ عليها على سبيل الشهود والحضور، المُصَاحِب لكلِّ أجزاء العمل، ظواهرِه وبواطنِه، وسيُجازيكم على أعمالكم.

٩ ـ وَعَدَ الله الذين آمنوا بالأركان الإيمانية الستة إيماناً صحيحاً صادقاً، وعملوا بما واثقهم اللّهُ عليه، وأوفوا بالعهود التي عاهدهم الله عليها، لهم سَتْرٌ كبير لذنوبهم، وثوابٌ عظيمٌ في الجنة، جزاء أعمالهم الصَّالحة، وذلك من الله عزَّ وجلَّ تكرُّماً وفضلاً، وهو سبحانه ذو الفضل العظيم.

وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ ۞ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًاۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةًۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾



١٠ - والذين جَحَدوا وحدانيَّة الله، ونَقَضُوا عهودَه ومواثيقَه، وكذَّبوا بآياتنا الكونيَّة والبيانيَّة والإعجازيَّة والجزائيَّة، أولئك البُعداء عن رحمة الله المنحطُّون في الدَّركات أصحاب النار المُتَأجِّجة الشديدة اللهب المُلازمون لها، المُخالطون لألوان عذابها، لا يخرجون منها ولا يموتون، كما أنهم صمَّموا في الدنيا على أن يظلُّوا جاحدين لله، كافرين بصفاته، مُكذِّبين بآياته، منكرين لرسالاته.

١١ - يا أيُّها الذين صدَّقوا الله واتَّبعوا رسوله اذكروا ما أنعم الله به عليكم من نعمة الأمن، ودفع غدر اليهود عنكم الذين نَزَعتْ نفوسهم أن يَبْطِشوا بكم بالقتل والإهلاك، فمنعهم الله من تنفيذ ما توجَّهت نفوسهم إليه، واتَّقُوا الله فيما أمركم به ونهاكم عنه، وعلى الله وحده فَلْيتوكل المؤمنون في جميع أمورهم الدينيَّة والدنيويَّة مع القيام بالأسباب المُسْتطاعة الماديَّة والمعنويَّة، طاعةً لأمره سبحانه ونهيه.

١٢ - ونُقْسم مؤكِّدين أنّ الله أخذ العهدَ المُؤكَّد على بني إسرائيل أن يعبدوه ولا يُشركوا به شيئاً، وأن يعملوا بما جاء في التوراة من الأحكام والتكاليف، وأمر الله موسى أن يجعل عليهم اثني عشر نقيباً ينقِّب عن أحوال القوم، ويفتِّش عنها، بعدد فروعهم، يأخذون عليهم العهد بالسمع والطاعة لله ولرسوله ولكتابه، وقال الله تعالى لبني إسرائيل: إني معكم بعلمي، أعلم حالكم من طاعةٍ أو عصيان عِلْمَ مُصَاحبٍ لكم، لا يخفى عليَّ أمركم، وإني مُصاحبٌ لكم بحفظي ونصري، إذا وفَّيتم بأركان الميثاق الخمسة: **الأول**: والله لَئِن أقمتم الصَّلاة المكتوبة، **والثاني**: آتيتُم الزكاة المفروضة لمُستحقِّيها، **والثالث**: آمنتُم بجميع رسلي، **والرابع**: نصرتموهم مع تعظيمهم وطاعتهم، **والخامس**: أخرجتم الصَّدقات المندوبة من حلال، عن طيب نفس، دون منّ ولا أذى، إذا فعلتم سائر ما أمرتكم به من أركان الميثاق الخمسة، لأَمْحُوَنَّ عنكم سَيِّئاتكم وأسترها لكم، ولأُدخِلَنَّكم جنَّاتٍ تجري من تحت قصورها وأشجارها الأنهار، فَمَن كفر بعد أخذ العهد الأكيد والميثاق الغليظ فقد أخطأ الطريق المستقيم، وعَدَل عن طريق الحقِّ والهدى إلى طريق الباطل والضلال.

١٣ - فبسبب نقْض بني إسرائيل عهدَ الله المُؤكَّد، عاقبناهم بعقوبتين: **الأولى**: أبعدناهم وطردناهم من رحمتنا، **والثانية**: جعلنا قلوبهم غليظة يابسةً، منزوعة منها الرأفة والرحمة، مَشُوبة بالكفر والنفاق؛ لأنَّ من طال عليه الأمد في العصيان، وارتكاب الفسوق والفجور والعدوان، قسا قلبُه، وجفَّت منابع الرحمة والعطاء، وهي نتيجة طبيعيَّة تنتهي إليها هذه القلوب، ضمن سنن الله السببيَّة والجزائيَّة، ومن مظاهر قسوة قلوبهم، مظهران: **المظهر الأول**: يُغيِّرون حدود التوراة وأحكامها، بتبديل ألفاظ بألفاظٍ أخرى، وبالزيادة أو النقص على النصِّ المنزَّل، لتُعطي دلالات توافق ما يريدون، على خلاف المعنى المراد منها في التنزيل الربَّاني، وبتأويلها التأويلات الباطلة، والتفسيرات الفاسدة، بحسب أهوائهم وشهواتهم، وإرضاءً لقادتهم وكبرائهم، **والمظهر الثاني من مظاهر قسوة قلوبهم**: أنهم تركوا نصيباً كبيراً ممَّا ذُكِّروا به من تعاليم موسى وتعاليم الأنبياء من قبله، فلم يعملوا بها، ومن ذلك: تركهم ما أُمروا به من الإيمان بمحمد ﷺ، وبيان نعته وصفته.

ولا تزال - يا رسول الله - تَطَّلعُ على خيانتهم التي ظهرت من نقض العهد، ومُظاهرة المشركين، وهمِّهم بقتلك، فهم على منهج أسلافهم، ورثوا عاداتهم وأخلاقهم، إلا قليلاً منهم لم يخونوا ولم ينقضوا العهد، كعبد الله بن سلام وأصحابه الذين أسلموا، فاعفُ عن زلاَّتهم - يا رسول الله - بعدم مقابلة إساءتهم بمثلها، واصْفَح عن جُرمهم ومُؤَاخَذتهم ما دام العفو والصفح مظنَّةً لإصلاحهم، أو تخفيف شرورهم، أو إزالة ما في قلوبهم من غيظ وحَسَد وعصبيَّة، أو مظنّة لتحقيق مثل ذلك في غيرهم من أهليهم وأقوامهم، ليجذبهم لتقبُّل الإسلام والدخول في جماعة المسلمين؛ إنَّ الله يحب المحسنين الذين أحسنوا العمل مع الله تعالى، فقاموا بما أمرهم به مع الإخلاص له، وصدْق التوجُّه إليه، والإقبال عليه مُشاهدين أو مراقبين، وأحسنوا العمل مع خلق الله، وَيُثيبُهم على إحسانهم، ويُدخلهم جنَّات النعيم، لأنَّ من أحبَّه الله أكرمه، وأدخله في رحمته.

وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَسَوۡفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ﴿١٤﴾ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ﴿١٥﴾ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿١٦﴾ لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۚ قُلۡ فَمَن يَمۡلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا إِنۡ أَرَادَ أَن يُهۡلِكَ ٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗاۗ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿١٧﴾

١٤ ـ وأخذنا على الذين سمُّوا أنفسهم نصارى، وادَّعوا الانتساب إلى المسيح، العهدَ المؤكّد في الإنجيل: بأن يؤمنوا بمحمدٍ ﷺ وما جاء به من بيان وحدانية الله تعالى، فتركوا نصيباً كبيراً ممَّا أُمروا به من التوحيد والإيمان بمحمدٍ ﷺ، وغفلوا عن كثير من وصايا عيسى عليه السلام، وما دعاهم إليه من تسامح وحبٍّ للسلام، كما صنع اليهود من قبلهم، فألزمنا وألصقنا بين فرق النصارى ـ بسبب نسيان كتبهم، واختلاط الباطل بالحقِّ في مصدر دينهم ـ العداوة الظاهرة بالجدل والمحاربة والاضطهاد، والكراهية المُسْتكنّة في النفوس، فكلُّ فرقة تكفِّر الأخرى وتُعاديها وتضْطهدها وترميها بالكفر، أو تبغضها أشدَّ البغض، وسيستمرون في رَيْبهم يتردَّدون، وفي عداوتهم يلجُّون حتى يوم القيامة، وسوف يُخبرهم الله تعالى في الآخرة بأعمالهم التي عملوها في الدنيا، وسيُعاقبهم عليها.

١٥ ـ يا أهل الكتاب من اليهود والنصارى، قد جاءكم رسُولنا محمدٌ ﷺ يُظهر لكم كثيراً ممَّا كنتم تكتمون من حكم التوراة التي أنزلت على موسى، والإنجيل الذي نزل على عيسى، كالبشائر بالنبيِّ محمد ﷺ، وبما يكون بعد الموت من بعث ونشور وحساب وثواب وعقاب، ممَّا ليس له ذكر في توراتكم، وما أخفَيْتُموه كذلك من تكليفات دينية لا تختصُّ بقوم دون قوم، كتحريم الربا وأكله، والقصاص العادل، والعقوبات الزاجرة. ويترك كثيراً، ممَّا تكتمونه فلا يتعرَّض له ولا يُؤَاخِذكم به، قد جاءكم من الله رسولنا محمد السِّراج المنير، وقرآنٌ واضح مُبيِّن للشرع، ولما أخفاه أهل الكتاب وطمسوه من معاني الوحدانية الخالصة والشرائع المحكمة.

١٦ ـ يهدي اللّهُ بالكتاب المبين من اتَّبع دينَه مُخلصاً في طلب الحقِّ، طُرُقَ السَّلامة والنجاة في أمور دنياهم وآخرتهم، فإذا سَلَكوها حَمَوْا أنفسهم من الشرور والمصائب التي تكسبها أيدي الناس، ودفعوا شرور أعدائهم عنهم، وانتهت بهم إلى الوصول إلى دار السلام، ويُخرجهم القرآن من ظُلمات الكفر والجهل والضلال إلى نور الإيمان والمعرفة والهدى، بتوفيقه وهدايته، ويهديهم هداية دلالة وتعليم في مسيرتهم في حياتهم إلى طريق واضح جليٍّ مستقيم لا عِوَج فيه ولا انحراف عن الحقِّ والخير، وهو دين الإسلام، الموصول من سلكه إلى جنَّات النعيم.

١٧ ـ لقد كَفَرَ النَّصارى القائلون بأنَّ الله عزَّ وجلَّ قد حَلَّ في بدنِ عيسى عليه السلام. قل ـ يا رسول الله ويا كلَّ داعٍ إلى الله من أمَّته ـ لهؤلاء النصارى الذين يقولون هذه المقالة: ألم يكن عيسى عليه السلام يأكل ويشرب، وتجري عليه الأحوال التي تجري على سائر البشر، ومنها الهلاك بالموت المعتاد أو بغيره، فمن يَقْدر أن يدفَع من أمر الله شيئاً ولو كان ضئيلاً، إنْ أراد أن يُهلك المسيح ابن مريم بالموت المعتاد أو بغيره، أو أن يهلك أمَّه ومَنْ في الأرض جميعاً؟ فلو كان إلهاً ـ كما يزعمون ـ لقدر على دفع أمر الله إذا أراد إهلاكه وإهلاك أمه. فالذي يستحقُّ العبادة هو الذي له القدرة على الإنشاء والإفناء من غير قيد يُقيِّدها، ولا مانع يمنعها، فإذا كان المسيح لا يملك أن يدفع عن نفسه الإعدام، فهو أوْلى بألاّ يستطيع الإنشاء ولا الإفناء. ولله ملك السموات والأرض وما بينهما من الأشياء، فإنها مُلكه، وأهلها عبيده، وعيسى وأمه من جملة عبيده، له سبحانه الملكيَّة التامَّة المطلقة، في التصرُّف في السموات والأرض، والإرادة التامّة المطلقة في خلق الأشياء، يَخْلق ما يشاء من غير اعتراض عليه فيما يخلق، ومن غير قيد يُقيِّد إرادته المطلقة في طريقة الخَلْق والتكوين، فيخلقُ الناس من أبٍ وأم، ويخلق آدم من غير أب ولا أم، ويخلق عيسى من أم من غير أب، والله سبحانه عظيم القدرة على إيجاد كلِّ شيءٍ يشاء إيجادَهُ، وعلى إعدام كلِّ شيءٍ يشاء إعدامه، ومشيئتُهُ سبحانه في الإيجاد والإعدام لا تتعلَّق إلا بالجائزات العقليَّة، فلا تتعلَّق بالواجبات العقلية، وهي ذاتُه وصفاتُه، ولا بالمُستحيلات العقليَّة، كإيجادِ ربٍّ مُمَاثِلٍ له سبحانه، أو ابنٍ له، تعالى الله عن ذلك عُلوّاً كبيراً.

وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۖ فَقَدْ جَاءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾

١٨ ـ وقالت اليهودُ والنَّصارى: نحن أبناءُ الله وأحبَّاؤه، فلا يُدخلنا يوم القيامة في جهنَّم مهما ارتكبنا من ذنوب وجرائم في الحياة الدنيا. قل لهم ـ يا رسول الله ويا كلَّ داعٍ إلى الله من أمته ـ : إذا كان الأمر كما تزعمون فَلِمَ يُعَذِّبُكم بسَبَب ذُنوبكم، في الحياة الدنيا، كما هو مُشَاهَدٌ من تعرُّضكم لبعض العقوبات الدنيوية؟ فلو كنتم أبناء الله وأحباءه لما تعرَّضتم لهذه العقوبات في الحياة الدنيا!! وقل لهم: بل أنتم ـ يا معشر اليهود والنصارى ـ خَلْقٌ كسائر بني آدم مَجْزيُّون بالإساءة والإحسان، إن أحسنتم جُوزيتم بإحسانكم خيراً، وإن أسأتم جُوزيتم بإساءتكم شراً، فالله يَغْفِرُ لِمَنْ يشاء إذا اقتضت حكمته أن يغفر له، وهو لا يغفر لِمَنْ مات على كفره، ويُعذِّب من يشاء إذا اقتضت حكمته أن يُعذِّبه، وليس مخلوقٌ في الوجود كلِّه ابناً لله، بل كلُّ ما سوى الله مِلْكٌ له سبحانه، وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّموات والأرض وما بينهما، لا شريكَ له يُعارضه في ذلك، وإلى الله وحده مَرْجِعُ العباد في الآخرة، فَيُجازيهم بأعمالهم.

١٩ ـ يا أهلَ الكتاب من اليهود والنَّصارى قد جاءكم رسولُنا محمَّدٌ ﷺ يُبيِّن لكم أحكام الدين والشرائع على انقطاع من الرُّسل، وطموس من السُّبل، وتغيُّر الأديان، وكثرة عبادة الأوثان؛ لِئَلاَّ تقولوا: ما جَاءَنَا من بشيرٍ يُبشِّر بالخير على الطاعة، ولا نذير يُنذرنا بالعذاب على الكفر والمعاصي، لا عذر لكم، وقد قطع السبيل عليكم، فقد جاءكم محمدٌ ﷺ بشيرٌ للمؤمنين، ونذيرٌ للكافرين بعذاب أليم بعد دعوتكم وإقناعكم وإقامة الحُجَّة عليكم، واللَّهُ تعالى قادرٌ على بعثه الرسل في وقت الحاجة إليهم، وهو الذي يختارهم، ويختار معجزاتهم، وهو القادر على تنفيذ ما أمر به رسوله من تبشير وإنذار، فيُثيب الطائع، ويُعذِّب العاصي.

٢٠ ـ وضع في ذاكرتك ـ أيها المُتلقِّي لبياننا ـ حين قال موسى عليه السلام لقومِهِ: يا بني إسرائيل اذكُروا نعمةَ الله عليكم، إذْ فضَّلكم بأنْ جَعَلَ فيكم أنبياء كثيرين، وجَعَلكم أحراراً تملكون أنفسكم بعد أن كنتم عبيداً في أيدي القِبْط، وآتاكم من صنوف النِّعم ما لم يُؤْتِ أحداً من عَالَمي زمانكم، حيث أعطاكم التمكين والنصر، وأنجاكم من فرعون وجنوده، وأهلك أعداءكم الكافرين. ولقد فضَّل الله بني إسرائيل على أولئك الحاكمين في زمانهم لا لجنسهم ولا لأصلهم، بل لإيمانهم، إذْ كانوا هم المؤمنين وسط أقوام من الكافرين، أما بعد تلك الفترة، فقد أزال الله عنهم ذلك التفضيل، بسبب كفرهم وبغيهم وإفسادهم، وبعث الله محمداً ﷺ، وجعل رسالته للعالمين، وكان المسلمون خير أمةٍ أخرجت للناس.

٢١ ـ يا قوم ادخُلوا الأرضَ المُطهَّرة ـ وهي «بيت المقدس» وما حَوْلها ـ التي كَتَبَ الله بأن تكون لكم بشرط التزام شريعته المنزَّلة، ولا ترجعوا عن قتال الجبَّارين مُرتَدِّين على أعقابكم، فَتَرجعوا خائبين؛ لأنكم رَدَدتم أمرَ الله، فتخسروا خير الدنيا والآخرة، والذين كتب الله لهم الأرض المُقدَّسة هم بنو إسرائيل الذين آمنوا بموسى، وخرجوا معه من مصر، وهم الذين جاؤوا بعد موسى، واتَّبعوا أنبياءهم وآمنوا بهم، وبعد ذلك تغيَّر اليهود، وكذَّبوا الرسول ﷺ، وكفروا بالدين الحقِّ الذي جاء به، ففقدوا أيَّ حقٍ لهم في الأرض المقدَّسة؛ إذ انتزعها الله منهم، وجعلها لعباده الصالحين المؤمنين.

٢٢ ـ قال قوم موسى: يا موسى، إنَّ في الأرض المُقدَّسة قوماً أقوياء شديدي البطش، لا طاقَةَ لنا بهم، ولا قوة لنا بقتالهم؛ لِشِدَّة بَطْشهم، وَعِظَم خلقهم، وإنَّا لنْ ندخلَ أرض الجبَّارين حتى يخرجوا منها، فإنْ يخرجوا من الأرض المقدَّسة، فإنا داخلون إليها.

٢٣ ـ قال رجلان من بني إسرائيل من الذين يخافون الله ويُراقبونه، أنعم الله عليهما بالهداية، والوفاء بالعهد والشجاعة والجرأة والثبات: ادخلوا ـ يا بني إسرائيل ـ على هؤلاء الجبَّارين باب مدينتهم، مُفاجئين لهم، فإذا دخلتم فاتحين عليهم الباب فإنَّكم غالبون؛ لأنهم عندئذ يصيبهم الذعر، وتأخذهم الفجاءة، ويتحيَّرون، وعلى الله وحده فتوكَّلوا، ولا تعتمدوا على أحدٍ سواه، ولا ترجوا النصر إلا منه سبحانه، فإنه معكم وناصركم، إن كنتم مُصدِّقين رسوله فيما بلَّغكم، عاملين بشرعه.

قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ۞ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَىٰ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴿٣١﴾

٢٤ ـ قال الجمع الخائف الجبان من بني إسرائيل لموسىٰ بعد تشجيع الرجلين القويّين على الحرب الهجوميّة، وغزو عدوِّهم: إنا لن ندخل مدينة الجبّارين مُدَّة حياتنا، ما داموا مقيمين في الأرض المُقدَّسة، فاذْهَبْ أنت وربُّكَ فقاتلاهم، أما نحن فقاعدون ههنا، ولن نقاتلهم.

إنَّ جُبن اليهود وخوفهم هو الذي كرَّه إليهم الجهاد والقتال، ورغَّبهم في القعود والاستسلام، وهذا الجُبن والخوف والوهن هو أساس الداء عند أية أمَّةٍ تسلك ما سلكه أولئك اليهود، حيث ترفض طريق القتال والجهاد والاستشهاد، وتؤثر عليه طريق الذل والضعف والاستسلام، والآية تدلُّ على جبن اليهود ووقاحتهم وإساءة الأدب مع موسى عليه السلام، وتخليهم عنه.

٢٥ ـ قال موسى عليه السلام بعد ما سمع من قومه الجُبناء التأكيد القاطع بعدم القتال: يا ربِّ إني لا أَمْلِكُ إلا نفسي، ونفس أخي، هارون، فافصِل بحكمك بَيْنَنَا وبين القوم الخارجين عن طاعتك، المتمرِّدين عن أوامرك.

٢٦ ـ أجاب الله دعاء موسى عليه السلام فقال: إنهم إذا كانت حالهم كذلك من الخور، وضعف العزيمة، والخوف من أعدائهم، فإنَّ الأرض المُقدَّسة مُحَرَّمةٌ على هؤلاء دخولها أربعينَ سنة، يتحيَّرون في أرض «سيناء» هائمين على وجوههم، يضْطرب عيشهم وحياتهم، ولا يستقرُّ مقامهم، عقوبةً لهم على تفريطهم في أمر الله تعالى، فلا تحزن ـ يا موسى ـ على القوم الخارجين عن طاعة الله. وقد قدَّر الله سبحانه مُدَّة التِّيه في أرض «سيناء» بأربعين سنة، لينتهي ذلك الجيل الجبان من بني إسرائيل الذي لم تنفع معه الحوافز والبواعث للجهاد. وقد اختار الله صحراء «سيناء» ذات البيئة القاسية والطبيعة الشاقة مكاناً للجيل الجديد من بني إسرائيل، ليُعدَّ فيها الإعداد الخاص الذي يُؤهِّله لدخول الأرض المُقدَّسة وتحريرها من الجبّارين.

٢٧ ـ واذكر ـ يا رسول الله ـ لبني إسرائيل الذين بَسَطوا إليك أيديهم بالأذى، ونقضوا المواثيق، وزعموا أنهم شعب الله المختار، بسبب الحسد الكمين في نفوسهم، وأخبرهم بعنايةٍ خبر ابْنَيْ آدم: قابيل وهابيل، وهو خبر عظيم ذو شأن مُتلبِّس بالحقِّ الثابت، حين قرَّب كلُّ واحدٍ منهما نُسُكاً إلى اللهِ عزَّ وجل، فتُقبِّل من هابيل تقبُّلاً حسناً؛ لأنه كان تقياً، ولم يُتقبَّل من قابيل؛ لسوء نيته، ولأنه قَصَد الخبيث من ماله، وأراد التقرُّب به، ولأنه قصد المباهاة والفخر، ولم يقصد وَجْه الله، فغضب قابيل، وحسد أخاه إذ لم يتقبَّل قُربانه، وأراد أن يتخلَّص منه بالقتل، وواجهه بالأمر، فقال له: والله لأقْتُلنَّك. قال هابيل لأخيه مُترفِّقاً: ولِمَ تقتلني، وأيُّ ذنب لي وجناية تُوجِبُ لك أن تقتلني إلا أني اتَّقيت الله تعالى؟ ما يتقبَّلُ الله إلاّ من المتَّقين الذين يلتزمون أوامره، ويجتنبون نواهيه.

٢٨ ـ وقال هابيل واعظاً أخاه: واللّهِ، لَئِنْ مَدَدْتَ إليَّ يَدَكَ ـ لِتَقْتُلَني ظلماً، ما أنا بِمُنْتَصِر لنفسي، بل أسْتَسْلم لأمر الله، وأصبر وأحتسب، ولا أقابل صنيعَكَ الفاسد بمثله، وأكون أنا وأنت سواءً في الخطيئة، إنّي أخافُ الله ربَّ الخلائق أجمعين، الذي يتعهَّدهم برزقه وتربيته.

٢٩ ـ إنّي أُريد أن ترجع بإثم قتلي إلى إثم معاصيك التي عملتها من قبل، والتي عوَّقت صَدَقتك عن أن تقبل، فترتكبُ إثمين، وتضيف إلى ذنبك الأصليِّ ذنباً آخر، فتكون من أصحاب النار الملازمين لها، وذلك جزاءُ الظالمين.

٣٠ ـ فَزَيَّنت له نفسُهُ الشريرة قَتْلَ أخيه، بعد معركة في داخل نفسه بين الخير والشر، وبين الإقْدام على الجريمة والإحجام عنها، حتى انتصرت نفسه الأمَّارة بالسُّوء، فَقَتل قابيلُ هابيلَ فأصبح من الخاسرين، خَسِرَ نفسه فأوْرَدَها موارد الهلاك، وخسر أخاه ففقد الناصر والمعين، وخسر دنياه فما تهنأ للقاتل حياة، وخسر آخرته، فباء بإثمه الأول والأخير، فكان قابيل أول من سنَّ القتل في تاريخ البشريَّة، ولا تُقتل نفس ظلماً إلا كان عليه نصيب إثم إهراق دمها ظلماً وعدواناً.

٣١ ـ لمَّا قتل قابيلُ أخاه لم يدر ما يَصنع به، وكيف يُواري جثَّته، وجعل ينتقل بها من مكان إلى آخر، ويخشى افتضاح أمره، فأرسل الله غُراباً، فوقف بالقرب منه، وجعل الغراب يحفر في الأرض وينثر ترابها، ليدفن فيها غُراباً آخر ميّتاً؛ ليُريَ قابيل كيف يستر جُثمان أخيه، فلمّا رأى ذلك من فعل الغراب، قال مُتحسِّراً معترفاً على نفسه باستحقاق العذاب: يا فضيحتي وهلاكي أقْبلي فهذا وقْتُك؛ لأنّي قد نزلت بي أسبابك!! أَعَجزتُ عن أن أكون مثل هذا الغراب الذي وارى الغرابَ الآخر، فأسْتُرَ عورة أخي عن الأعين؟ فدفن قابيلُ أخاه، فأصبح من النادمين على الخسارة الشديدة التي نالته بفَقْد أخيه الذي كانت أخوَّته تُوجبُ المودَّة والمحبَّة بدل الحقد والحسد، وقد كانت حَسْرته للفعل الذي ارتكبه، وللعجز الذي لحقه، ولصغر نفسه أمامَ الطائر، والندمُ الذي وقع فيه هو خيبة الأمل فيما يرجوه، وليس ندمه كندم التائب الذي يرجع إلى الله، وإنما ندمه كندم المغيظ المُحنق الذي كان يتوقع أمراً فتبيَّن له غيره.

وإنَّ سبب هذه الجريمة الكبرى التي فتحت باب القتل والقتال هو الحسد، وإنَّ أكثر جرائم هذا الوجود الإنساني هو الحسد، فكفر اليهود بالنبيِّين، وخصوصاً نبيَّنا محمداً ﷺ كان سببه الحسد.

مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ
نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ
ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ
جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا
مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾ إِنَّمَا
جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ
فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ
وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ
لَهُمْ خِزْيٌ فِي ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ
﴿٣٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ ۖ فَٱعْلَمُوٓاْ
أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ
لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ
لَهُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ مِنْ
عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾

٣٢ - من جرَّاءِ هذه الجناية التي ارتكبها أحد ابْنَيْ آدم، ودلالتها على تَغَلْغُل الشرِّ في نفوس بعض الناس واستعدادهم لأن تكون منهم الجريمة في كلِّ وقت وحين، فَرَضْنا وأوْجَبنا على بني إسرائيل القصاص، وكتبنا في التوراة تعظيم القتل العمْد، وشدَّدنا عليهم فيه، لشيوعه فيهم، وإسرافهم في قتل الأبرياء ودعاة الحق، حتى إنهم تجرَّؤوا على قتل الأنبياء، وكتبنا عليهم أنَّه من قتل نفساً ظلماً بغير قتل نفس أو بغير فسادٍ في الأرض، فكأنَّما قتلَ الناس جميعاً؛ إذ يكون قد تعدَّى على الناس جميعاً بالقتل، فالاعتداء على حرمة إنسان واحد اعتداء على حُرمات الناس كلِّهم، وذلك لأنَّ القاتل مُسْتَعِدٌّ من الناحية النفسيَّة لأن يكون قاتلاً للناس جميعاً، متى تهيَّأت له الفرصة، وتعلَّقت مصلحة نفسه بذلك، ومَنْ أحيا نفساً بتحريم قتلها على نفسه، والامتناع عن انتهاك حُرمتها، عندما تُساوره قوَّة الشرِّ دافعةً حاملةً له على ذلك الفعل الأثيم، أو أنقذ إنساناً كان مُشرفاً على الهلاك، أو أحيا نفساً قد قُتلت بالتمكين من استيفاء القصاص ممَّن اعتدى عليها وقَتَلها، فكأنَّما نجَّىٰ جميع الناس؛ فالحفاظ على حُرمة إنسان واحد حفاظٌ على حُرمات الناس كلِّهم، واستيفاء القصاص يُوجد الرَّدع العام عن القتل والاعتداء، فتحيا النفوس، وينقمع الأشرار.

وأقسم مُؤكِّداً أنه جاءت بني إسرائيل رُسُلُنا ببيان الأحكام والشرائع والدلالات الواضحات، ثُمَّ إنَّ كثيراً منهم بعد مجيء الرسل، وبعدما كَتَبْنا عليهم من تحريم القتل في الأرض لمُجاوزون الحدَّ بالقتل بغير حق لا يَنْتهون عنه. فاليهود هم الذين نشروا الفساد في العالم، وقتلوا دعاة الحقِّ المُخلصين، ونشروا الربا والمجون والفجور، وقى الله المسلمين شرَّهم، وألبسهم لباس الذلِّ والخوف إلى يوم القيامة.

٣٣ - ما جزاءُ الَّذين يُخالفون أمر الله ورسوله بمحاربة أوليائه، ويَسْعَون في الأرض فساداً بحَمْل السِّلاح، وقتل النفس، وأخذ الأموال، وقطع الطريق، إلاَّ أن يُقتلوا قتلاً شديداً، مهما كان عددهم، ويقتل معهم مَنْ يُعاونهم ويتَّفق معهم على جريمتهم، ويُصلبوا على مكان مرتفع يُرَوْنَ فيه بعد القتل، وذلك إذا قَتَلوا وأخذوا المال، وأن يُقتَّلوا إذا قَتَلوا ولم يأخذوا المال، وأن تُقطع يد المحارب اليُمنى ورجله اليُسرى إذا أخذوا المال ولم يَقتُلوا، وأن يُبعدوا من الأرض أو يُسجنوا إذا أخافوا السَّبيل ولم يقْتلوا ولم يأخذوا مالاً، ذلك الذي ذكر في هذه الآية من الحدود للمُحاربين عذابٌ وهوانٌ وفضيحةٌ في الدنيا، ولهم في الآخرة عذابٌ عظيم إنْ لم يتوبوا. والمراد بهؤلاء الذين يحاربون شرعَ الله ورسوله: قطَّاع الطرق وأهل الحرابة، وهم الذين يخرجون لارتكاب جرائم السَّلب والنَّهب والقتل، وسائر المُوبقات، بلا تأويل يتأوَّلونه، بل يرتكبون ما يرتكبون إثماً وعدواناً مقْصوداً، كالعصابات الإجراميَّة التي تُزعج الآمنين بقوة إرهابيَّة.

٣٤ - لكن الذين تابوا من حربهم للَّهِ ورسوله، ومن السَّعي في الأرض بالفساد، من قبل أن تَقْدروا عليهم من غير حصار ولا مُطارَدَة، وجاؤوا طائعين نادمين، فإنه يسقط عنهم ما كان لله عزَّ وجلّ، فاعلموا - أيها المؤمنون - أنَّ الله كثير السَّتْر لمَنْ تاب من الإفساد في الأرض، دائم الرحمة لمن رَجَع عما يُسْخِطُ اللَّهَ عزَّ وجل.

٣٥ - يا أيُّها الذين صدَّقوا الله واتَّبعوا رسوله، اتقوا الله بترك المَنْهيَّات، وفعل المأمورات، واتَّخذوا الوسيلة الواقية من عقابه ونقمته، واطلبوا برغبة صادقة إليه سبحانه القُرب بطاعته والعمل بما يرضيه، وجاهدوا أنفسكم بكبحها عن أهوائها وشهواتها، وبإلزامها أن تتحمَّل المشقَّات، وتجتاز العقبات اقتحاماً، رَغْبَةَ أن تسعدوا بالخلود في جنَّته.

٣٦ - إنَّ الذين جَحَدوا وحدانيَّة الله وشريعته، لو أنهم ملكوا الدنيا، ودنيا أخرى مثلها معها، ثمَّ أرادوا أن يُخلِّصوا أنفسهم من العذاب يوم القيامة ببذل جميع ما ملكوا، لم يُقْبل منهم ذلك الفداء تخليصاً لأنفسهم، ولهم في الآخرة عذابٌ أليمٌ موجع مُستمر لا سبيل إلى الخلاص منه.

يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾  يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا ۛ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا ۚ وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ ۖ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾

٣٧ ـ يريد هؤلاء الكافرون الخروجَ من النار وعذابها الشديد، ويطلبونه راغبين مُلحفين، وليس من شأنهم أن يخرجوا، ولا يصح أن نثبت لهم وصف الخروج؛ لأنّ العذاب هو الجزاء الحق الوفاق لما ارتكبوا، ولهم عذابٌ دائمٌ ثابتٌ، لا يزول عنهم، ولا ينتقل أبداً.

٣٨ ـ والسَّارق والسَّارقة الذين يأخذون المال المحرز المصُون على سبيل الاستخفاء، فاقْطعوا ـ يا ولاة الأمر ـ أيديهما، بقطع يمين السارق من رؤوس الأصابع إلى الرُّسْغ، ذلك القطعُ مُجازاة لهما على أخذهما أموال الناس بغير حق، عقوبةً من الله، يمنع بها غيرهما أن يصنع مثل صنيعهما، والله قويٌّ غالب في انتقامه ممَّن عصاه، حكيمٌ فيما أوْجَبَهُ من قطع يد السارق.

وقد اتفق الفقهاء على أنّ السرقة أخذ المال على سبيل الاستخفاء، وأن يكون المال مُحرزاً مصُوناً مَعنيّاً بحفظه العناية التي تليق، ويجب أن يكون المسروق مالاً متقوّماً لا شبهة فيه، ولا قُصور في ماليّته، بأن يتموّله الناس، ويعدُّونه لأغراضهم المختلفة، ويتنافسون في طلبه، كما اتّفقوا على أنَّ اليد لا تقطع إلا إذا بلغ المسروق قدراً من المال، مقداره ربع دينار أو عشرة دراهم.

٣٩ ـ إذا كان قطع اليد هو العقوبة الرادعة، فمَنْ تابَ من بعد ما ظلم نفسَه بالسرقة وارتكاب الذنوب عامةً، توبةً صادقةً نصوحاً، وأصلح نفسه بالاستقامة والإقلاع عن الذنب، وعدم الإصرار عليه والتعلّق به، وأصلح سلوكه في المستقبل، فإنَّ الله يعود عليه بفضله ورحمته وفيوض عطاءاته، ويقبل توبته، ويتجاوز عنه؛ إنَّ الله كثير السَّتر لمن تابَ، واسع الرحمة به. وقد اتّفق الفقهاء على أنَّ التوبة قبل الترافع إلى الحاكم إذا صحبها ردُّ المسروق إلى مالكه تمنع إقامة الحد. أما إذا كان بعد الترافع وإثبات السرقة، فقد ذهب بعض الفقهاء إلى أنها لا تُسقط الحد؛ لأن الأمر بالقطع عام يشمل التائب وغير التائب، والتوبة المنصوص عليها في هذه الآية هي ما يكون بعد إقامة الحد وقطع اليد. وقال بعض الفقهاء: التوبة تمنع إقامة الحد.

٤٠ ـ ألم تفكّر ـ أيها المُخاطب ببياننا ـ حتى ترىٰ رُؤيةً علميَّة أنَّ الله له مُلْكُ السَّموات والأرض يُدبِّرهما ويُصَرِّفُهُما، لا يمتنع عليه شيء ممَّا أراد فيهما، يُعذِّب مَنْ يشاء على معصيته، ويغفر لمن يشاء بالتوبة، ومشيئتُه سبحانه لا تُفارق حكمته. والله سبحانه على كلِّ شيءٍ يشاؤه عظيم القدرة، وكلُّ ما في الوجود خاضع لإرادته وقدرته وسلطانه، لا يخرج عنه شيء، ولا يعجز عن شيء.

٤١ ـ يا أيُّها الرسول لا تهتمّ بمُسارعة منافقي اليهود السَّيْرَ في سُبل الكفر وموالاة الكفار، فإني ناصرك عليهم وكافيك شرَّهم، من الذين قالوا: آمنا بسَعَة أفواههم تَنَطُّعاً وتشدُّقاً، ولم تؤمن قلوبهم، فهم من الكافرين، ولا يحزنك مُسارعة طائفة من اليهود في جحود نبوَّتك، سمَّاعون بغية تلقّي أحكام مُفتراة على الله؛ لينقلوها لقوم آخرين لم يأتوا معهم لسؤال رسول الله، وهم أولياء الزانيَيْن، يُغيِّرون حدودَ الله التي أوْجَبَها عليهم في التوراة، وذلك أنهم بدَّلوا الرَّجْم بالجَلْد والتحميم، من بعد أن وضَعَه الله مواضعه، وفرضَ حدوده. يقول اليهود: إنْ أفتاكم محمد بالجَلْد والتَّحميم، فاقْبلوا منه، وإنْ لم يُفْتِكُم بذلك وأفتاكم بالرَّجْم، فاحذروا أن تَقْبلوه، ومن يُرِدِ اللَّهُ امتحانه واختباره في ظروف هذه الحياة الدنيا من خلال ما أعطاه من إرادة حرة، لكشف ما في نفسه من خيرٍ وطاعةٍ، أو شرٍّ ومعصية، فلن تملك له من الله شيئاً تجعله به مَجْبوراً على الهداية، أولئك البُعداء عن رحمة الله الذين ارتكست نفوسهم في الشرِّ والضلال، حتى صار النفاق دأبهم، وتحريف القول بعد استقْرار مواضعه طريقهم، واستمراؤهم للكذب يستمعون إليه وصفهم، قومٌ لم يُرِدِ الله أن يُطَهِّر قلوبهم من الشَّك والشِّرك؛ لأنَّ الله امتحنهم، فكشفوا عمَّا في قلوبهم من أدناس، فمن العدل أن لا يُطَهِّر الله قلوبهم بالمغفرة، وأن لا يريد ذلك؛ لأن إرادته تتبع حكمته، وحكمة الله تقضي بأن لا يحكم ببراءة المجرمين بجريمة الكفر.

للمنافقين واليهود عقابان: مُعَجّل ومؤجّل، **فالعقابُ المُعَجّل**: فضيحةٌ في الدنيا، وذلٌّ دائم مقيم مهما يكن لهم من مظاهر القوة والعزّة، **والعقاب المؤجّل**: عذابٌ عظيم في الآخرة، إذ موقعهم الدَّرْك الأسفل من النار.

سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحۡتِۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُمۡ أَوۡ أَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡۖ وَإِن تُعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيۡـٔٗاۖ وَإِنۡ حَكَمۡتَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ﴿٤٢﴾ وَكَيۡفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوۡرَىٰةُ فِيهَا حُكۡمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوۡنَ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٤٣﴾ إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَۚ فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخۡشَوۡنِ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗاۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ وَكَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفۡسَ بِٱلنَّفۡسِ وَٱلۡعَيۡنَ بِٱلۡعَيۡنِ وَٱلۡأَنفَ بِٱلۡأَنفِ وَٱلۡأُذُنَ بِٱلۡأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلۡجُرُوحَ قِصَاصٞۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٞ لَّهُۥۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾

٤٢ ـ حُكَّام اليهود كثيرو السَّماع للكذب، كثيرو الأكل للمال الحرام، كالرِّبا والرِّشوة، يسمعون الكذب ممَّن رشاهم ويقْضون له، فإنْ جاءك اليهود ـ يا رسول الله ـ مُتردِّدين في التحاكم إليك، فأنت مُخيَّرٌ في الحكم بينهم أو الإعراض عنهم، لتتعرَّف أمرهم، فإن كانوا يريدون الحقَّ ويطلبونه ويُذعنون له استجبتَ للأمر وحكمت، وإن علمتَ أنهم جاؤوا مُعْرضين، لا ينفِّذون إلاَّ ما يتَّفق مع أهوائهم أعرضت عنهم؛ وإن لم تحكم بينهم لأنهم يريدون أن يُطوِّعوا الأحكام لأهوائهم، أو يتأوَّلوها بغير المقصود منها، فلن يقدروا على أن يضرُّوك بشيء، وإنْ اخترت أن تحكم بينهم رجاء أن يُنَفِّذوا الحكم ويُذعنوا له، فاحكم بينهم بالعدل، وهو ما جاء به الإسلام من الأحكام. فالحاكم المسلم مُكلَّف أن يحكم بين غير المسلمين إذا ترافعوا في قضاياهم إليه، بأحكام الشريعة الإسلامية، إذا شاء أن يحكم بينهم، وعلم أنهم يريدون الحق ويذعنون له، ولا يحكم بينهم بمقتضى قوانينهم وأنظمتهم؛ لأنها أحكام مرفوضة لا يتبنَّاها حاكم مسلم؛ إنَّ الله يُحبُّ العادلين فيما وَلُوا وحكموا فيه، ويثيبهم على عدلهم، ويدخلهم جنَّات النعيم؛ لأنَّ مَنْ أحبَّه الله أكرمه، وأدخله في رحمته.

٤٣ ـ وكيف يجعلونك ـ يا رسول الله ـ حَكَماً بينهم، ويرضون بحكمك، وهم لا يؤمنون بك، ولا بكتابك، وعندهم التوراة التي يؤمنون بها، وفيها حكم الله بالرَّجْم الذي تحاكموا إليك من أجله، ثمَّ يبتعدون مدبرين عن حكمك المُوافق لما في كتابهم؟! وما أولئك اليهود بالمؤمنين بكتابهم كما يزعمون.

٤٤ ـ إنَّا أنزلنا التوراة فيها البيانُ والنُّور الكاشف للشُّبهات، المُوضِح للمشكلات، يحكم بالتوراة لليهود النبيُّون الذين بُعثوا بعد موسى عليه السلام، وانقادوا لأمر الله تعالى وأطاعوه بإقامتها وتنفيذ أحكامها، وكذلك يحكم بالتوراة لليهود العُبَّاد والفقهاء؛ بسبب ما اسْتُودِعُوا من كتاب الله بحفظه في صدورهم وتدريسه، وعدم تضييع أحكامه وإهمال شرائعه، وكان هؤلاء النبيُّون والعُبَّاد والفقهاء رقباء يحافظون على نصوص التوراة كاملة، ورقباء أيضاً على تنفيذه، ويشهدون بصدق ما نزل من عند الله، ويعلمون أنه حقٌّ وصدق، وإذا كان الكتاب قائماً وثابتاً، ونفَّذه السلف والخلف إلى ما بعد عصر النبيين، فلا تَخْشَوا أحداً من الناس ـ يا حُكَّام اليهود ـ في إظهار صفة محمد ﷺ والعمل بالرَّجم، واخْشَوْن وحدي في كتمان ذلك، وكما نهيتكم عن تغيير الأحكام لأجل خوف الناس، كذلك أنهاكم عن التغيير والتبْديل لأجل الطمع في المال وأخذ الرِّشوة، فلا تأخذوا بترك الحكم بما أنزلت عِوَضاً يسيراً، فإنَّ كلَّ متاع الدنيا قليل، ومَنْ لم يحكم بما أنزل الله، فأولئك البُعداء عن رحمة الله هم الكافرون. **والكفر بمستوياته المختلفات** من إنكار وجودِ الله، أو اليوم الآخر، أو رفض طاعة الله، أو الشكِّ في حكم من أحكامه، **هو الباعث الأول** الذي يدفع فرداً أو جماعة من الناس إلى عدم تطبيق شريعة الله لعباده. ويلحق بذلك وضع القوانين العامَّة المخالفة لأحكام الله في شريعته، ما لم يكن بتأثير ضغوط تضعِفُ إرادةُ العصاة معها، فإنْ كان بتأثير ضغوط، خوفاً على المصالح الخاصَّة، أو خوفاً على المناصب، مع عدم وجود أيِّ ناقض من نواقض الإيمان، فهو من المعاصي الكبرى الواقعة على حافة هاوية التكفير.

٤٥ ـ وَفَرَضْنَا على بني إسرائيل في التوراة أنَّ نفس القاتل بنفس المقتول وفاقاً، فيُقْتَل به، والعينَ بالعين تُفْقأ بها، والأنفَ بالأنفِ يُجْدَع به، والأُذُنَ بالأُذُنِ تُقْطع بها، والسِّنَّ بالسِّنِّ تُقْلَع بها، وكذلك سائر الأطراف التي يجري فيها القصاص كاليد والرجل والإصبع. والجُروحَ قِصَاصٌ فيما يمكن أن يُقتصَّ منه، وذلك بالمساواة بين الجريمة وعقوبتها على أن تكون من جنسها وفي الموضع الذي كان فيه الجرح، فإنْ تعذَّر التَّساوي فإنه يكون الأرش (أي: دية الجراحات) عوضاً عن الكسر أو الجرح، فمَنْ تصدَّق من أصحاب الحقِّ بالقِصَاص فلم يقتصَّ من الجاني، فهو كفارةٌ سائرة لذنوب المجروح ووليِّ المقتول. ومن لم يحكم بما أنزل الله، فأولئك هم المتجاوزون حدود الله، الظالمون لعباد الله، **والظلم هو الباعث الثاني** الذي يدفع بعضَ الناس إلى عدم تطبيق شريعة الله لعباده، ما يُفضي بهم إلى ظلم الآخرين من عباد الله؛ كرغبتهم في الحصول على ما ليس لهم به حقٌّ من حقوق الآخرين، أو رغبتهم في الانتصار لفريق ضدَّ فريق بدافع المصلحة الماديَّة ظلماً وعدواناً. وهذه الآيات وإن نزلت في أهل التوراة والإنجيل، كما تدلُّ على ذلك أسباب النزول، والسياق نفسُه، ولكن خواتيم الآيات: ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم ..﴾ جاءت بصيغة العموم، فالعبرة بعموم اللفظ، ولا يجوز قَصْر أحكامها على غير المسلمين من أهل الكتاب.

﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾

٤٦ ـ وأتبعنا على آثار أنبياء بني إسرائيل بعيسى ابن مريم، فأرسلناه بعدهم مؤمناً بأنَّ التوراة مُنزَّلةٌ من عند الله عزَّ وجل، عاملاً بما فيها ممَّا لم ينسخه كتابه، وآتيْناهُ الإنجيل فيه هُدىً من الضلالة، ونورٌ من عَمى البصيرة، وحال كونه شاهداً على صدق التوراة بما اشتمل عليه من أحكامها، وهُدىً يتضمَّن البِشارة بمحمد ﷺ، ونُصحاً مقروناً بما يثير الرغبة والرهبة، وتذكيراً بليغاً للمتَّقين المُنْتفعين بمواعظه وزواجره وأمثاله.

٤٧ ـ وآتيناه الإنجيل وقلنا: ليحكم أهلُ الإنجيل الذين أُرسِل إليهم عيسى بما أنزل اللّهُ فيه من الأحكام، والإيمان بمحمد ﷺ، والتَّصديق بنبوَّته، ومن لم يحكم بما أنزل الله، فأولئك هم الخارجون عن طاعة اللّه عزَّ وجل. **والفسق** ـ بعد الكفر والظلم ـ **هو الباعث الثالث** الذي يَدفع إلى عدم تطبيق شريعة الله، وينطبق على الذين يتَّبعون هَوىً أو شهوةً، أو نزغةً نفسيَّة، أو نزْغة من نزَغات الشيطان، في أمرٍ لا ظلم فيه لأحدٍ من خلق الله، ولم يقترن به ناقضٌ من نواقض الإيمان.

٤٨ ـ وأنْزلنا إليك ـ يا رسولَ الله ـ القرآنَ بالحقِّ الذي لا تشوبُه شائبةٌ من الباطل، مُصَدِّقاً لجميع الكتب الربَّانية التي أنزلها الله، ورقيباً على ما سبقه من الكتب السماويّة، حيث يشهدُ لما صحَّ نقلُه منها بالصحة وموافقة الحق، ويُقرِّر أصول شرائعها، وما شُرع مؤبّداً من فروعها، وما نُسخ منها، ويكشف ما دخل إليها من تحريف وتبديل، ويشهد عليه بالبطلان والفساد، فاحكم ـ يا رسول الله ـ بين أهل الكتاب إذا ترافعوا إليك بالقرآن الذي أنزله الله إليك، ولا تتَّبع أهواءهم مُنصرفاً عمَّا جاءك من الحق، لك شرعتك ومنهاجك اللذين أوْحينا بهما إليك، ولكلٍّ منهم جعلنا شريعةً (وهي المبادىء والأسس الاعتقادية التي يستقون منها مفاهيمهم وعقائدهم)، وطريقاً واضحاً (وهي الأحكام التفصيليَّة المُسْتَندة إلى المبادىء والأسس الاعتقادية)، فسُنَّة الله في المجتمع البشريِّ أنَّ مناهج الناس في الحياة تتبع مشاربهم وشرائعهم، فالمؤمنون شرعتهم ابتغاء مرضاة الله، ومنهاجهم أحكام دينه لعباده، والكافرون شرائعهم أهواؤهم وضلالات الشياطين، ومناهجهُم ما يُرضي شهواتهم، ويرسمه لهم شيطانهم، ولو شاء الله أن يجعلكم أمَّةً واحدة لسَلَبكم إرادتكم الحُرَّة، فكنتم مَجْبورين على طاعته، وعندئذ يجعلكم أمة واحدة مهديين جميعاً، كالملائكة، ولكن شاء أن يجعلكم ذوي إرادات حُرَّة، وزوَّدكم بكلِّ شروط الامتحان؛ ليبْلُوكم فيما آتاكم من هبات، واستودعكم من أمانات، وكلَّفكم من تكاليف، وإذا كنتم مُمْتحنين فيما آتاكم ربكم، فاستبقوا الخيرات، لتنالوا عند الله ثواب أعمالكم، فإنكم بعد رحلة امتحانكم يكون رجوعكم جميعاً إلى الله وحده، فيخبركم في الآخرة بما كُنتم فيه تختلفون من عقائد ومفاهيم ومذاهب وأعمال وغير ذلك، ويومئذ يظهر للجميع أنَّ الحقَّ هو شرعة الله ومنهاجه، اللذيْن أوحى بهما إلى رسله، وأمَّا شرائع الناس ومناهجهم المختلفة، فهي بواطل وزيوف، ويومئذ تحقُّ كلمة الرحمة والتكريم لمن استقى من شِرعته الطاهرة النقيَّة، وسلك المنهاج الواضح البيِّن، وتحقُّ كلمة العذاب والإهانة لمن كفر بالله، واتَّخذ لنفسه شرعة شيطانية مُنْتنة، وسَلَك في حياته منهاجاً واضح البطلان والفساد.

٤٩ ـ وأنزلنا إليك: أن ٱحكُمْ ـ يا رسول الله ـ بين اليهود بالحُكم الذي أنزله الله في القرآن، واثْبُت عليه في كلِّ الأحوال، ولا تَتَّبع أهواءَهُم فيما أمروك به، على سبيل المُداراة لهم، لجَلْبهم إلى الإسلام، أو لتأليف قلوبهم، واحذَر ـ يا رسول الله ـ هؤلاء اليهود الذين جاؤوا إليك أن يَصرفوك بمكرهم وكَيْدهم على ترك العمل ببعض ما أنزل الله إليك في كتابه، ولو كان أقلَّ قليل، بتصوير الباطل بصورة الحق، أو بالكذب على التوراة بإنكار بعض أحكامها، فإنْ انصرفوا مُبْتعدين عن الإيمان بك والرضا بحكمك، فاعلم ـ يا رسول الله ـ أنَّ الله يريدُ أن يُعَجِّل لهم العقوبة في الدنيا ببعض ذنوبهم، وإنَّ كثيراً من الناس خارجون عن طاعة الله إلى دَرَكات الكفر؛ لأنَّهم ردُّوا حكمَ الله تعالى.

٥٠ ـ أينصرف هؤلاء اليهود عن قَبول حُكمك بما أنزل الله، ويُعرِضون عنه، فيطلبون بشدَّةٍ حكم الجاهليَّة؟! وأيُّ حكم أحسَنُ من حكم الله لقوم يتدبَّرون الأمور، ويتحقَّقون الأشياء بأنظارهم، فيعلمون أنْ لا أحسن حكماً من الله عزَّ وجل؟



﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ ۚ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ۚ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ ﴿٥٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٥٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾

٥١ ـ يا أيُّها الذين صدَّقوا الله واتَّبعوا رسوله: لا تجعلوا اليهودَ والنَّصارى أنصاراً وأعواناً، تُحالفونهم وتناصرونهم وتُطلعونهم على أسرار المسلمين، وتستنصرون بهم ضدَّ إخوانكم المؤمنين، فاليهود أنصارٌ لبعضٍ على المؤمنين، وكذلك النصارى، فهم يدٌ واحدةٌ عليكم، يشتركان في خطط المكر والكيد ضدَّكم، على الرُّغم من العداء الشديد الذي يحمله كلُّ فريقٍ منهما للآخر، ومن يَتولَّ اليهودَ والنَّصارى موالاةَ تعاونٍ وتناصرٍ، ضدَّ شيءٍ من مصالح المسلمين الدينيَّة أو الدنيويَّة ممَّن هو منكم ـ ولو بالانتماء الظاهر إليكم ـ، فينصرهم على المؤمنين، فهو من أهل دينهم وملَّتهم، وحكمُه حكمُهم؛ إنَّ الله لا يحكم بالهداية لمَنْ وَضع الولاية في غير موضعها، فتولَّى اليهود والنصارى.

٥٢ ـ فَتَرَىٰ ـ يا رسول الله ويا كُلَّ داعٍ إلى الله من أُمَّته ـ الذين في قلوبهم ضغينة وحَسَد من منافقي اليهود الذين أسلموا ظاهراً، يُسارعون في مودَّة اليهود وموالاتهم ومُناصحتهم، فهم منغمرون فيهم دائماً، لا يخرجون عن دائرتهم، يقولُ المنافقون: إنَّما نُخالطُ اليهود؛ لأنا نخشى أن يَدُورَ علينا الدهرُ بمكروهٍ، فمن المرجوِّ أن يأتيَ الله بالتوسعة، والفصل بين الحقِّ والباطل، والنَّصر والظفر لرسولِه محمد ﷺ على أعدائه، أو يُهيِّىء من الأمور ما تذهب به قوَّة اليهود والنصارى، وعند الفتح أو الأمر الذي يُزيل سلطان مَنْ يستنصر بهم مرضى القلوب، يفرح المؤمنون بنصر الله، ويصبح المنافقون الذين أسرُّوا في أنفسهم خذلان المؤمنين، ورجاء ما عند غيرهم، نادمين على ما حدَّثوا به أنفسهم؛ إذ قالوا: نخشى أن تصيبنا داهية بشر وسوء تُحيط بنا من كلِّ جانب، فلا نجد لأنفسنا نجاةً منها، فإذا كانت لنا يد مُصانعة مع اليهود والنصارى أمكن أن نجد لأنفسنا وأهلنا مَخارجَ سلامة. والنَّدم هو الظنُّ الفاسد الذي وقعوا فيه، وخَيْبة الأمل فيما يَرجُونه، فليس ندمهم كندم التائب الذي يرجع إلى الله، وإنما ندمهم كندم المغيظ المُحنق الذي كان يتوقَّع أمراً فتبيَّن له غيره.

٥٣ ـ ويقولُ الذين آمنوا في وقتِ إظهار الله تعالى نفاق المنافقين مُتعجِّبين من حالهم: أهؤلاء المنافقون الذين أقْسَمُوا لكم الأَيْمانَ المُغلَّظة، مجتهدين غايةَ الاجتهاد في توكيد أَيْمانهم: إنَّهم لمعكم ومن أنصاركم؟ ضاعتْ أعمالهم التي عملوها؛ لأجل ما أظهروا من النفاق ومُوالاة اليهود، فخسروا الدنيا بافتضاحهم، وخسروا في الآخرة بإبطال ثواب أعمالهم.

٥٤ ـ يا أيُّها الذين صدَّقوا الله واتَّبعوا رسوله: مَنْ يرجع منكم عن دينه الحق الذي هو عليه، فيبدِّله ويُغيِّره بدخوله في الكفر بعد الإيمان، أو يُوالي أعداء الإسلام من اليهود والنصارى ويستنصر بهم على المؤمنين، فسوف يأتي الله بقوم خيرٍ منهم، يتَّصفون بخمس صفات: **الصفة الأولى:** يُحِبُّهم الله، فينالون من محبَّته سبحانه: المغفرة والنعيم المقيم والرضوان العَظيم، **والصفة الثانية:** يحبُّونه سبحانه وتعالى، فيشعرون بأنه ملء نفوسهم وقلوبهم، ولا يدخل في قلبهم شيء غير عظمته عزَّ وجلَّ، فيُسارعون إلى طاعته، **والصفة الثالثة:** متذلِّلين متواضعين عطفاً على إخوانهم المؤمنين، فهو تذلُّل عطف ورحمة وحُنوٍّ مُتبادَل بينهم، مع عزَّة نفس واستغناء بالله، لا تذلُّل مَهَانةٍ وَضَعَةٍ وحقارةِ نفسٍ وطمع بمنافع دنيوية، **والصفة الرابعة:** أشدَّاء أقوياء بعزَّة الله وقوَّته على أعدائهم الكافرين، الذين يعتزُّون ويستكبرون بقواهم المادية، وبشياطينهم ودهاتهم، **الصفة الخامسة:** يُجاهدون بقوة في سبيل الله، ولا يخافون من أيِّ ضغط اجتماعيٍّ يأتي على صورة تلويم وتثريب في نصرهم دين الله من أيِّ لائم كائناً من كان. ذلك الذي خصَّهم الله به من محبَّته سبحانه وتعالى لهم ورضوانه عليهم، ومحبَّتهم له سبحانه ومسارعتهم إلى طاعته، وتعاطفهم وتراحمهم فيما بينهم، وشدَّتهم على أعدائهم، وجهادهم في سبيله، واطِّراح لوم اللائمين، وعدم الالتفات إليهم من فَضْل الله تعالى تفضَّل به عليهم، واللَّهُ تعالى كثير الفَضْل والجُود، عليمٌ بمواضع الفضل وبمن يَستحقُّه.

٥٥، ٥٦ ـ ما ناصركم ـ أيُّها المؤمنون ـ إلا اللَّهُ ورسولُه، والمؤمنون الذين يتَّصفون بهذه الأوصاف الثلاثة: **الأولى:** يُحافظون على الصَّلاة المفروضة، كاملة لا اعوجاج فيها، **والوصف الثاني:** يُؤدُّون زكاة أموالهم إذا وَجَبَتْ عليهم طيِّبة بها نفوسهم، ابْتغاء وجه الله، **والوصف الثالث:** هم منقادون خاضعونَ لأوامر الله ونواهيه. وَمَنْ يجعَلِ اللَّهَ ورسولَهُ والذين آمنوا أولياءَه، يُؤيِّدهم وينصرهم ويُجاهد جهادهم، فهو من حزب الله وأنصار دينه، وإنَّ أنصارَ دينِ الله هم الغالبونَ؛ لأنَّ الله ناصرهم على عدوِّهم.

٥٧ ـ يا أيُّها الذين صدَّقوا الله واتَّبعوا رسوله: لا تتَّخذوا الذين اتَّخذوا دينَكم موضعَ استهزاء ومزح، وموضع لعب وعَبَث، يسخرون من الدين، ويستهزئون بأهله، ويتعابثون به، ويلعبون بحقائقه، ويقصدون به مجرَّد إزْجاء الفراغ والتسلية، من اليهود والنصارى، وعَبَدَةِ الأصنام قوماً تتبادلون معهم التوادَّ والتعاون والتناصر والتأييد، والإمداد بالأخبار والقوى، فإذا اتَّخذتم منهم أولياء، عرَّضتم أنفسكم لعقاب الله، واتَّقُوا الله بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه إنْ كنتم مؤمنين إيماناً صحيحاً صادقاً.

وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾

٥٨ ـ ومن مظاهر اتخاذهم دين الإسلام هُزواً ولعباً: أنه إذا أذَّن مُؤذِّنكم ـ أيُّها المؤمنون ـ بالصَّلاة، قاموا إلى الصلاة مُسْتهزئين بمن يؤدِّيها من المؤمنين، ومشاركين في أدائها مُشاركة اللاعب بالحركات، وسبب اتِّخاذهم دين الله هزواً ولعباً: أنهم قومٌ لا يعقلون عقلاً إرادياً يمنعهم من التورُّط في قبيحة الاستهزاء بمن يعبدون الله متّجهين له، ولا يعقلون عقلاً علمياً يدركون به أهميَّة الصَّلاة، وما سيلاقون من مصير عند ربِّهم يوم القيامة جزاء استهزائهم ولعبهم.

٥٩ ـ قُل ـ يا رسول الله ويا كلَّ داعٍ إلى سبيل ربِّه من بعده ـ لهؤلاء اليهود والنَّصارى الذين اتَّخذوا دِيْنَك هُزُواً ولعباً من المجاهرين بكفرهم، أو منافقين مندسّين في صفوف المؤمنين: هل تكرهون منا أو تَعيبون علينا إلا واحداً من أمور ثلاثة: الإيمان بالله، وبما أنزل إلينا، وبما أنزل على جميع الأنبياء من قبل؟ وإنَّما كرهتم إيماننا ونقمتم علينا ديننَا، واتِّباعنا لرسولنا النبيِّ العربي الذي ليس من بني إسرائيل، مع علمكم بأنا على الحق؛ بسبب أن أكثركم خارجون عن الإيمان بالله إلى دَرَكات الكفر.

٦٠ ـ قُل ـ يا رسول الله ويا كلَّ داعٍ إلى الله ـ لهؤلاء اليهود الذين قالوا: ما نعرف ديناً شرّاً من دينكم: هل أخبركم بشرٍّ من ذلك الذي ذكرتم ونقمتم علينا حسب ظنِّكم واعتقادكم؟ مَنْ طَرَدَهُ اللَّهُ عن رحمته، وانتقم منه من أسلافكم، وَجَعَل منهم قِرَدةً وخنازير فمسخهم حقيقة، وهلكوا دون أن يكون لهم ذريَّة، أو مسخ قلوبهم، فصاروا في نَزَواتهم وعبثهم بكلِّ القيم الخلقيَّة كالقردة، كما صاروا في قذارات نفوسهم، وتطلبهم للقذر من المكاسب كالخنازير، إذ يطلبون القذارات يأكلونها، وتنمو أجسامهم عليها، وجَعَلَ منهم مَنْ أطاع الشَّيطان فيما سَوَّل له، فهم يعبدون الطغيان دائماً، يعبدون الحاكم الطاغي، ويكونون أدواته، ويعبدون المال الطاغي المأخوذ من غير حِلِّه، أولئك الملعونون والمغضوب عليهم والمَمْسوخون من أسلافكم شرٌّ مكاناً من غيرهم، وأكثر ضلالاً وبُعداً عن قَصْدِ طريق الحق السويِّ المستقيم.

٦١ ـ وإذا جاءَكم ـ أيُّها المؤمنون ـ منافقُو اليهود، قالوا: آمنّا، وقد دخلوا في صفوفكم متظاهرين بالإسلام، وهم متلبِّسون بالكفر، وهم قد خرجوا من حقيقة الإسلام بالكفر نفسه الذي دخلوا به، لم يتعلَّق بقلوبهم شيءٌ من الإيمان، فهم كافرون في حالتَي الدخول والخروج، واللَّهُ أعلم بما كانوا يكتمون من الكفر الذي في قلوبهم.

٦٢ ـ وترى ـ أيها الرائي المُتتبِّع لأحوالهم المُراقب لسلوكهم ـ كثيراً من اليهود يُبادرون دون تردُّد إلى ارتكاب المعاصي والمنهيَّات، ومُجاوزة الحدِّ في العصيان والظلم، وأكل الرِّبا والرِّشوة والغش والتزوير الذي يسْتأصل التعامل فيه كل علاقة اجتماعية تربط الناس بعضهم ببعض، وتفسد أمورهم، لَبِئْسَ العملِ كان هؤلاء اليهود يعملون في الماضي والحاضر والمستقبل.

٦٣ ـ هَلاَّ ينهاهم العُبّاد والفقهاء الذين كان يتّبعهم اليهود، ويستجيبون لهم عن قولهم الكذب بإعلانهم الإسلام وإبطانهم الكفر، وأكلهم أموال الناس بالباطل، لَبِئْسَ ما كان عُبَّادهم وعلماؤهم يصنعون؛ إذ لم يَنْهَوا غيرهم عن المعاصي، فكانوا بمنزلة المرتكبين لها، بل صاروا أشد جرماً، لأنَّ عملهم سمَّاه الله تعالى صناعة، وهي تكون بمهارةٍ وتدبير وتعرُّف للغايات والنتائج، فصار جرمهم مُسْتقراً في نفوسهم، راسخاً في قلوبهم، متمكِّناً في سلوكهم.

٦٤ ـ وقالت اليهود: يدُ الله محبوسةٌ مقبوضةٌ عن الرِّزق والعطاء، أُمْسِكت أيديهم عن كلِّ خير، وأصيبوا بالشُّحِّ المرير الذي يجعلهم مُبغضِين للناس، منحرفين عن طريقهم، مطرودين من مجتمعاتهم، وقُبضت أيديهم الباطشة فلا يَقْوَوا على غيرهم، ويعيشوا كالأسارى في ذلِّ وهَوَان، وعُذِّبوا في جهنَّم بالأغلال، وطُردوا عن رحمة الله بسبب ما قالوه، ولكن يداه سبحانه مَبْسوطَتان بالجود والعطاء الذي لا نهاية له، فهو سبحانه يرزقُ كما يريد ويختار، فيوسِّع على مَنْ يشاء، ويُقَتِّر على من يشاء، ومشيئته تعالى مشمولة بحكمته، وكلَّما نزلت عليك ـ يا رسول الله ـ آيةٌ من القرآن كفروا بها، فازدادوا شدَّةً في كفرهم، وطغياناً على طغيانهم، وألقَيْنا العداوةَ المعلنة، والكراهية المُسْتكنَّة في القلوب بين طوائف اليهود، فجعلناهم مختلفين متعادين إلى يوم القيامة، كلَّما أفسد اليهود، وأثاروا الفتن، وأشعلوا نار الحرب، ردَّ الله كيدهم، ولا يزال اليهود يجتهدون في محاربة الإسلام بالمكر والكيْد، ويسْعَوْن في نشر الفساد الفكريِّ والسُّلوكيِّ والنفسيِّ، واللَّهُ لا يحبُّ المفسدين، فهم أبْغَضُ خلق الله إليه، ومَنْ جعل نفسه بإرادته في زمرة الذين لا يحبُّهم الله، فقد جعلها عُرضة لنقمته وعذابه الشديد.

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ
سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا
التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ
فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ
سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾ ۞ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ
مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ
مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٦٧﴾ قُلْ يَا أَهْلَ
الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ
وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ
إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ
﴿٦٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَىٰ
مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ
عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي
إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا
لَا تَهْوَىٰ أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾

٦٥ ـ ولو أنَّ اليهود والنصارى آمنوا بالله وحده، وصدَّقوا رسوله ﷺ فيما جاء به من عند الله، وجَعَلوا بينهم وبين الباطل وقاية، واجتنبوا ما حَرَّمه الله، وخافوا عقاب الله تعالى، لَمَحَوْنا عنهم ذنوبهم التي عملوها قبل الإسلام؛ لأنَّ الإسلام يَجُبُّ ما قبله، ولأدخلناهم جنَّاتِ النعيم مع المسلمين يوم القيامة.

٦٦ ـ ولو أنَّ اليهود والنَّصارى أقاموا أحكامَ التوراة والإنجيل، وعملوا بما فيهما من الوفاء بالعهود، والتصديق بمحمدٍ ﷺ واتِّباع شريعته، ولم يُحرِّفوا الكلم عن مواضعه، وأقاموا ما أُنزل إليهم من ربِّهم، وهو القرآن الكريم، لو فعلوا ذلك، وقاموا بما خُوطبوا به حقَّ القيام، لوسَّع الله عليهم الرزق، وأنْزل عليهم المطر، وأخرج لهم النبات. من أهل الكتاب جماعة معتدلةٌ لم تغْلُ ولم تُقصِّر، وهم مَنْ آمنَ منهم، وكثيرٌ من أهل الكتاب أقاموا على كفرهم، ويكون حالهم ما يُثير العَجَب من عظم ما هُم فيه من سوء.

٦٧ ـ يا أيُّها الرسول بلِّغ جميعَ ما أُنزل إليك من ربِّك مُجاهراً به، على الوجه الذي أمركَ الله به، دون تغيير أو تبديل أو كتمان أو زيادة أو نقصان، ، وإنْ لم تُبلِّغ كلَّ ما أنزل عليك من ربِّك فما بلَّغتَ رسالته؛ ذلك أن بعضها ليس بأوْلى بالأداء من بعض، وإذا لم تُؤَدِّ بعضها فكأنك أغفلت أداءَها جميعاً، كما أنَّ من لم يُؤمن ببعضها كان كأن لم يُؤمن بكلِّها، والله يحفظُكَ ـ يا رسول الله ـ ويمنَعُكَ من الكفَّار أن يعتدوا عليك بالقتل، أو يُمكِّنوا من دعوتك بإعاقة طريق انتشارها أو القضاء عليها؛ إنَّ الله لا يحكم بهداية من كذَّبك وأعرضَ عنك، وجَحَدَ ما جئتَ به.

٦٨ ـ قُل ـ يا رسول الله ـ لهؤلاء اليهود والنَّصارى: لَسْتُم على شيءٍ من الدين الحقِّ المُرْتَضَى عند الله، حتى تعملوا بما في التوراة والإنجيل، بالتصديق بمحمد ﷺ، وتعملوا بما جاءكم به محمدٌ ﷺ في القرآن، وإنَّ كثيراً من أهل الكتاب لا يزيدهم إنزال القرآن إليك إلا تَمادياً في الجُحود وكفراً بآيات الله؛ بسبب حقدهم وحَسَدهم، فلا تحزن ـ يا رسول الله ـ ولا تتأسَّف على هؤلاء الذين أصرُّوا على كفرهم، وجَحَدوا نبوَّتك، فإنما يعود ضرر ذلك الكفر عليهم.

٦٩ ـ إنَّ الذين آمنوا من أمة محمد ﷺ إيماناً حقاً، فلا خوفٌ مُسلَّط عليهم تضْطربُ به نفوسهم وقلوبهم، بسبب توقُّع حدوث مكروه، أو توقُّع فوات محبوب، ولا هم يحزنون بسبب مكروه نَزَلَ فعلاً بهم، أو من أجل محبوب فاتهم الحصول عليه.

واليهودُ، والصَّابئون ـ وهم قوم حنفاء مُوَحِّدون باقون على فطرتهم، وليست لهم شريعة يعملون بها ـ، والنصارى الذين آمنوا بالله واليوم الآخر إيماناً صحيحاً صادقاً، ودخلوا في الإسلام، وصدَّقوا ما جاء في كتابه، وعملوا بشريعته، فلا خوف مُسلَّط عليهم أيضاً من مُرْهبات قادمات مُستَقْبَلات؛ لأنَّ الله جعل لهم الأمن منذ لحظة موتهم، ولا هم يحزنون كذلك على شيءٍ فاتهم من حظوظ الدنيا، لأن الله قد اختار لهم ما هو خيرٌ لهم، وأفضل جزاءً؛ نتيجة إيمانهم الصَّحيح الصادق، واستقامتهم على صراط الله المستقيم.

ففي الآية إغراءٌ لأهل الطوائف الثلاث: (اليهود والصَّابئين والنصارى) بالدخول في الإسلام، والاستجابة لدعوة الرسول ﷺ، والعمل بشريعته، وإشعارٌ لهم بأنَّ ما هم عليه من دين وشريعة لم يعد مقبولاً بعد أن جاء الإسلام.

٧٠ ـ ونؤكِّد تأكيداً مُشدَّداً أننا أخذنا على بني إسرائيل في التوراة العهد الموثَّقَ المُشدَّد فيه بأن يُحافظوا على الإيمان بعناصر القاعدة الإيمانيَّة كلِّها، وبأن يسيروا على منهاج الدين الذي اصْطفاه الله لعباده، ثم انحرفوا ونقضوا عهودهم ومواثيقهم، واتَّبعوا أهواءهم، فأرسلنا إليهم رُسلاً يذكِّرونهم بمواثيقهم وعهودهم، ويُعلِّمونهم ما نَسَوْه من أمور دينهم، كُلَّما جاءهم رسولٌ يُخالف أهواءهم، ويضادُّ شهواتهم، ناصَبوه العداء وقاوموه، ففريقاً من هؤلاء الرُّسل كذَّبوهم فقط دون أن يقتلوهم، وفريقاً آخرين كذَّبوهم ولاحقوهم بالتنكيل والتعذيب حتى قتلوهم أخيراً، كزكريا ويحيىٰ عليهما السلام، وهم على استعدادٍ نفسيٍّ لأن يقتلوا خاتم النبيين، وقد همُّوا ولم ينالوا.

وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُواْ وَصَمُّواْ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾

٧١ ـ وتوهَّم باطلاً هؤلاء الذين كذَّبوا الرُّسل، وقَتَلوا الأنبياء أنْ لا يُعذِّبهم الله ولا يَبْتَلِيَهُمْ بذلك الفعل الذي فعلوه، وبسبب ذلك انطلقوا وراء أهوائهم وشهواتهم، فَعمُوا عن الحقِّ ولم يُبْصروه، وصمُّوا عن استماعه فلم ينفذ إلى قلوبهم، ثمَّ عاقبهم الله، فأنزل بهم عذابه الذي لم يكن ماحقاً مُستأصلاً شأفتهم، فتابوا إلى ربِّهم فتاب اللَّهُ عليهم، ثمَّ عادوا إلى انحرافهم، فطغَوا وظلموا وفجروا، وأحاطت بالمراكز الداخليَّة لأبصارهم وسمعهم حُجُبَ أهوائهم وشهواتهم، فعَمُوا وصَمُّوا بالنسبة إلى قضايا الدين، وحقوق الله على عباده، وما يرتبط بذلك من جزاء، واللَّهُ بصيرٌ دواماً بما يعملون جيلاً بعد جيل، فتجري فيهم سنَّته الإمهاليَّة والجزائيَّة وَفْق حكمته سبحانه.

٧٢ ـ نؤكِّد تأكيداً مُشدَّداً أنه كَفَر الذين قالوا: إنَّ الله هو المسيحُ ابنُ مريم، حيث زعموا أنه ابن الله قد حَلَّت فيه الإلهيَّة، وقال المسيح عند مَبْعثه: يا بني إسرائيل اعبدُوا اللَّهَ وحدَهُ لا شريك، فهو سبحانه ربِّي الذي خلقني ورزقني وربَّاني، وهو ربُّكم الذي خلقكم ورزقكم وربَّاكم بنعمه، فأنا وأنتم في العبوديَّة لخالقنا ومالكنا ورازقنا ومُمدِّنا بعطاءات ربوبيّته سواء، إنَّه من يَجْعل لِلَّهِ شريكاً في ربوبيَّته أو إلٰهيَّته، فقد حَرَّم اللَّهُ عليه الجنَّة إذا مات على شِركه، ويصيرُ إلى النار في الآخرة؛ بسبب كفره وظلمه الكبير، وما للمُشْركين الذين ظلموا أنفسهم بالشِّرك من أنصارٍ ينصرونهم ويمنعونهم من العذاب يوم القيامة.

٧٣ ـ نؤكِّد تأكيداً مُشدَّداً أنه كَفَر النَّصارى الذين قالوا: إنَّ الله مجموع ثلاثة أشياء، هي: الأب، والابن، وروح القدس، والإلهيَّة مُشْتَركةٌ بينهم. أما علم هؤلاء النصارى أنه ليس في الوجودِ إلا إلٰهٌ واحدٌ موصوفٌ بالوحدانيَّة في ذاته وصفاته وأفعاله، لا ثاني له ولا شريك ولا ولد له ولا صاحبة، وأُقسم لئِنْ لم ينْتَهِ النَّصارى عن هذه المقالة الخبيثة التي يقولونها دون أن تكون عقيدة يعتقدونها؛ لأنها لا تتَّفق مع العقل السّويِّ السليم، ليَمسَّن الَّذين كفروا منهم في مواضع الإحساس فيهم عذابٌ مُؤلم مُوجع في الآخرة؛ بسبب كفرهم بالله وافترائهم وكذبهم عليه.

٧٤ ـ أيستمرُّون على حالهم من الإفك، والإصْرار على الباطل فلا يَتُوبونَ إلى الله من قولهم بالتثْليث، ويطلبون مغفرته من هذا الذنب العظيم؟ والله تعالى كثير السَّتر لمن استغفره، متجاوز عن ذنوب التائبين، دائم الرحمة لهم.

٧٥ ـ ما المسيحُ ابن مريم عليه السلام إلا رسولٌ من اللَّهِ عزَّ وجل، وعبدٌ من أصفياء عباده، اختاره للرسالة؛ كسائر الرسل الذين مَضَوْا قبله، وسيمضي كما مَضَوْا؛ فكيف يكون إلهاً أو جزءَ إله؟! وما أمُّه إلاَّ أَمَةٌ من إماءِ الله صدَّقت تصديقاً جازماً بآيات ربِّها وكتبه، كانت وابنها يأكلان الطعام، ويعيشان به كسائر بني آدم، ولا يكون إلهاً مَنْ يحتاج إلى الطعام ليعيش، فكيف تنسبون إليهما ما نسبتم من الباطل المحال!! انْظُر ـ يا رسول الله، ويا كلَّ صالح للخطاب ـ كيف نُبيِّن لهم الآياتِ الدالَّة على بُطْلان قولهم، ثمَّ انْظُر كيف يُصْرَفون عن استماع الحقِّ وقَبوله مع ما بيّنا من دلائله؟!

٧٦ ـ قُل ـ يا رسول الله ويا كُلَّ داعٍ إلى الله من أمَّته ـ لهؤلاء النَّصارى: أتعبدون من دون الله من لا يستطيع أن يضرَّكم، ولا يقدر أن ينفعكم؟ فإنَّ الضارَّ والنافعَ هوَ الله تعالى لا مَنْ تعبدون من دونه، واللَّهُ تعالى هو وحده السميع لأقوالكم، العليم بما في ضمائركم، فكيف تتركونَ عبادةَ الله تعالى وحده، وهو السميع لأقوال عباده، العالم بكلِّ شيء، الذي لا يغيب عن علمه شيء في الأرض ولا في السماء، إلى عبادة ما لا يسمع ولا يعلم، ولا ينفع ولا يضر؟!

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ
وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا
كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ لُعِنَ الَّذِينَ
كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى
ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾
كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ
مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ
يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ
أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿٨٠﴾
وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ
مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ
﴿٨١﴾ ۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ
وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ
آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ
قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾



٧٧ - قُل - يا رسول الله ويا كُلَّ داعٍ إلى الله من أمتّه - لليهود والنصارى: لا تُجاوزوا الحدَّ، وتتشدّدوا في دينكم غلوّاً غير الحق، فلا تتشدّدوا في أداء ما يُطلب منكم، ولا تتجاوزوا الحقَّ فيما تعتقدونه من أمر المسيح، فترفعوهُ عن رُتبة الرسالة، وأُمَّهُ عن رتبة الصِّديقيّة إلى ما انتحلتموه في حقّهما غلواً باطلاً، وكلا الفريقين من اليهود والنصارى غَلَوْا في عيسى عليه السلام، فاليهودُ قصّروا في حقِّه حتى نسبوه إلى غير رشدة، والنّصارى جاوزوا الحدَّ في حقِّه حتى جَعَلوه إلهاً، ولا تَتَّبعوا ما ابْتَدَعه أسلافكم من الضلالة بما تدعو إليه شهوات نفوسهم، وقد أضلُّوا من اتَّبعهم على ضلالهم وأهوائهم خلقاً كثيراً، وأخطؤوا عن قصْدِ طريق الحق الذي هو الإسلام؛ بسبب حسدهم وبَغْيهم، وتكذيبهم الرسول ﷺ، وتركهم سبيل المؤمنينَ.

٧٨ - طُرِد من رحمة الله الذين كفروا من بني إسرائيل في الكتاب الذي أنزله الله على داود عليه السلام - وهو الزّبور -، وفي الكتاب الذي أنزله الله عيسى عليه السلام - وهو الإنجيل -، ذلك الطرد من رحمته سبحانه؛ بسبب عِصْيانهم أوامر الله، وكانوا في الماضي والحاضر والمستقبل يعتدون على حُرمات الله، وعلى خَلْق الله تعالى.

ونُسب العصيان والاعتداء إليهم جميعاً، وإن كان وقع من بعضهم، لأنَّ سائرهم أقرَّه وسكت عنه، فكان منهم وقوعاً ورضاً.

٧٩ - كان هؤلاء اليهودُ يُجاهرونَ بالمعاصي، ولا ينهى بعضُهم بعضاً عن أيِّ منكرٍ فعلوه، بل يُصِرُّون عليه، ويستمرُّون على فعلهم، فلا يتوبون ولا يرجعون، لَبِئْسَ ما كانوا يَفعلون دواماً من ارتكاب المعاصي والعدوان.

٨٠ - ترى - يا رسول الله - كثيراً من اليهود، يُوالون المشركين من أهل مكة ويُصافونهم؛ لعداوتهم لرسول الله ﷺ، ويتواطئون معهم على مُحاربته، بِئْسَ ما قدَّموا من العمل لِمَعادهم في الآخرة أنْ غضب اللّهُ عليهم بما فعلوا من موالاة الكفار، وفي العذاب هم خالدون في جهنّم.

٨١ - ولو كان هؤلاء اليهود الذين يُناصرون المشركين، يُؤمنون بالله حقَّ الإيمان، ويُصدِّقون بمحمد ﷺ، ويؤمنون بالقرآن الذي أُنزِل إليه من ربِّه إيماناً صحيحاً صادقاً، ما اتَّخذوا الكفار أنصاراً وأعواناً من دون المؤمنين، ولكنَّ أكثرهم خارجون عن طاعة الله وأمره، مُتمرِّدون عن الحقِّ بسبب ما في قلوبهم من حقد وحسد. ونرى في الآية إنصاف القرآن بيِّناً واضحاً إذْ لم يَرمهم جميعاً بالفسوق عن أمره، ولكن وصف أكثرهم، وأكّد فسقهم بالوصف المُسْتمرِّ فيهم.

٨٢ - واللّهِ - يا رسول الله ويا كُلَّ مؤمن من أمته - إنّك لَتجِدَنَّ أشدَّ الكفار عداوةً للّذين آمنوا بك وصدَّقوك واتَّبعوك: اليهودَ، وعَبَدة الأصنام الذين أشركوا مع الله غيره؛ بسبب حسدهم للمؤمنين، وعنادهم، وجحودهم، وغَمْطهم الحق.

وَلَتجِدَنَّ أقربهم مودَّة للمسلمين، وأسْهَلهم قَبولاً للحق الذين قالوا: إنا نصارى؛ والسبب في قُرب المودَّة الذي كان بين المؤمنين والنصارى أنَّ منهم علماء بأحكام دينهم، وعُبّاداً مُتبتِّلين منقطعين للعبادة، وأنّهم متواضعون لا يتعاظمون عن الإيمان والإذْعان للحق؛ فالسبب في قرب مودَّتهم للمسلمين أنهم لا يستكبرون، بخلاف اليهود والمشركين، فاليهود يحسبون أنهم أبناء الله وأحباؤه، وأنهم من صنف فوق الناس، وأنّ الجميع دونهم، والمشركون ما كفروا بما جاء به النبيُّ ﷺ إلا أنهم رأوا العبيد والفقراء والضعفاء هم الذين يتَّبعونه، فذهب بهم كِبْرهُم واعتزازهم بالباطل ألاَّ يؤمنوا به ويتبَّعوه.

وهذه الآية نزلت فيمن آمن من النصارى، وقبلوا رسالة محمد ﷺ، مثل النجاشيِّ وأصحابه، ولم يُرد بها كلُّ النصارى، فإنَّ معظم النصارى في عداوة المسلمين كاليهود.

وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾

٨٣ ـ ومما يدلُّ على قُرب مودّتهم للمسلمين أنَّ فريقاً منهم، وهم وَفْدُ الحبشة، لمَّا سمعوا القُرآن الذي أُنزل إلى الرسول محمد ﷺ ترى الدمع يسيل من عيونهم فائضاً عمَّا تمتلىء به؛ لأجل أنَّهم عرفوا الحقَّ الذي نَزَل على محمد ﷺ، وفرحوا به، يقول القسِّيسون والرُّهبان: ربَّنا آمنا بالقرآن، وبرسالة النبي ﷺ، وشهدنا أنَّه حقٌّ وصِدْق، فاكتبنا مع أمَّة محمد ﷺ الذين يشهدون بالحق، وينالون شرف الشَّهادة على الأمم يوم القيامة.

٨٤ ـ ويقولون: ما لنا لا نؤمنُ بوحدانيَّة الله، وما جاءنا من الحقِّ من عنده على لسان رسوله محمد ﷺ، ونرجو بذلك الإيمان أن يُدخلنا ربُّنا الجنة يوم القيامة، مع أمَّة محمد ﷺ؟

٨٥ ـ فجزاهم الله الجزاء الأوْفى بالتوحيد الذي قالوه: جنَّاتٍ تجري من تحت أشجارها وقصورها الأنهار، خالدين في الجنَّات لا يخرجون منها، ولا يُحوَّلون عنها، وذلك جزاء المؤمنين المُوحِّدين المُخلصين الذين ارتقَوْا إلى أعلى مراتب الإيمان، وهي: الإحسان. وهذه الآيات نزلت في الثناء على موقف النجاشيِّ ومن معه، الذين تأثَّرُوا بسماع آيات القرآن، وعَرَفوا أنَّ محمَّداً هو رسول الله ﷺ، وتنطبق هذه الآيات على مَنْ يقفون هذا الموقف من النصارى في أيِّ زمان ومكان، فيؤمنون أنَّ عيسى عبد الله ورسوله، ثم يؤمنون أنَّ محمداً هو عبد الله ورسوله ﷺ، ويدخلون في الإسلام، ويكونون مؤمنين صادقين.

٨٦ ـ والَّذين جَحَدوا وحدانيَّة الله وقدرته، وكذَّبوا بآياته المُنَزَّلة على رُسله، أولئك البُعداء عن رحمة الله، المنحطُّون في الدَّركات، هم أصحاب النَّار المتأجِّجة التي لا تنطفىء، المُلازمونَ لها، المخالطون لألوان عذابها.

٨٧ ـ يا أيُّها الذين صدَّقوا الله واتَّبعوا رسوله: لا تعتقدوا تحريمَ اللذيذات المُباحات التي تَشْتهيها الأنفس، وتميل إليها القلوب من المطاعم الطيِّبة والمَشَارب اللذيذة التي أحلَّها الله لكم، فتُضيِّقوا ما وسَّع الله عليكم؛ ولا تتجاوزوا حُدودَ ما حرَّم الله، بالإسراف في البذخ والتعالي والتفاخر، أو بتناول المُحرَّم، أو الاعتداء على حقوق الناس؛ إنَّ الله لا يُحبُّ المعتدين المُجاوزين حدودَ ما شرعه الله تعالى إلى ما لم يشرعه، ومن أخرج نفسه من محبَّة الله صار محلاً لسخطه عليه ونقمته، وابتعد عن مجالات مغفرته ورحمته.

٨٨ ـ وكُلُوا ـ أيُها المؤمنون ـ من رزقِ اللَّهِ الذي رَزَقكم وأحلَّه لكم من المطاعم والمَشَارب، واتَّقُوا الله الذي أنتم به مؤمنون؛ بأداء حقِّ الله تعالى الذي رزقكم وأنعَمَ عليكم، وبشكره سبحانه، وأن يكون طريق كسبكم طيِّباً لا خُبْثَ فيه، وبأداء حقِّ الناس فيما تتناولون من طيِّبات، وألاَّ يدفعكم ذلك إلى الغرور والتعالي، والتفاخر والاستطالة على الناس.

٨٩ ـ لا يُعاقبكم اللَّهُ ـ أيها المسلمون ـ بلغوِ اليمين في الدنيا بالكفارة، ولا في الآخرة بالعقوبة، **ولغوُ اليمين:** أن يحلف على شيء يرى أنه صادق فيه، ثم يتبيَّن له خلاف ذلك، أو ما يجري على اللسان بلا قصد، مثل قول بعضكم: لا والله، وبلى والله، ولكن يُؤَاخذكم بما ربطتم إرادةَ قلوبكم بما حلفتم عليه بألسنتكم، وقَصَدْتم به اليمين ووثَّقتموه على أن تفعلوا شيئاً، أو تتركوا شيئاً، ثم لم تفُوا به، فإزالة أثر أَيمانكم التي رَبَطتم إرادةَ قلوبكم بما حَلَفتم عليه بألسنتكم، إذا لم تفُوا بها، واحد من أمور ثلاثة: **الأول:** إطْعَامُ عشرة مساكين من خَيْرِ ما تُطْعمونَ به أهليكم وأفْضَله، **الثاني:** كسْوة عشرة مساكين، لكلِّ مسكين ما يكفي في الكسوة، **الثالث:** تحرير إنسان من الرقِّ. فالحالف الذي لم يَفِ بيمينه مُخيَّر بين هذه الأمور الثلاثة، فإذا عَجَز مَنْ لزمته كفَّارةُ اليمين عن الإطْعام أو الكِسْوة أو العِتْق، فعليه صيامُ ثلاثة أيَّام، وكل واحد من هذه الأمور يُغفر به ذنب الحلف الموثَّق بالنيَّة إذا نقضه الحالف، وصُونوا ـ أيها المسلمون ـ أَيمانَكُم: بترك الحَلِف، أو الوفاءِ إنْ حلفتم، أو فعلِ ما يُسْتر خطيئتكم إذا لم تفوا بأيمانكم. وكما بيَّن الله لكم كفَّارة أَيمانكم إذا لم تفُوا بها، كذلك يُبيِّن الله لكم جميع ما تحتاجونَ إليه في أمر دينكم؛ لتشكروا له سبحانه على هدايته إيَّاكم إلى الطريق المستقيم، وتكون دافعاً لكم للعمل بما جاء في كتاب الله من أحكام وأوامر ووصايا.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴿٩١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٩٢﴾ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٩٥﴾

٩٠ - يا أيُّها الذين صدَّقوا الله واتَّبعوا رسوله، إنَّما الخمر، وهي: كلُّ ما خامر العقل وغطَّاه مشروباً كان أو مأكولاً، والمَيْسر، وهو: القمار، ويشمل كل كسب بطريق الحظِّ المبنيِّ على المُصادَفَة من كلِّ الوجوه، والأنصاب، وهي: الحجارة التي كانوا يَنْصبونها للعبادة، ويذبحون عندها تقرُّباً للأصنام، والأزلام، وهي: الأقداح التي كانوا يسْتقسمون بها قبل الإقدام على الشيء، أو الإحجام عنه، إنَّ ذلك كلَّه نَجَسٌ معنويٌّ في السُّلوك أو الاعتقاد من دَرَكة كبائر الإثم، أو من دَرَكة الإشراك بالله، وهي من تزيين الشَّيطان وإغوائه، وإذا كان تناول هذه المحرَّمات رجْساً، ومن عمل الشيطان، فكونوا على جانب منها بالابتعاد الكُلِّي عن مواقعها؛ رغبة أن تكونوا من الناجين من النار، الفائزين بالجنَّة.

٩١ - إنَّما يُزيِّن لكم الشَّيطان شربَ الخمر ولعب القمار؛ إرادةَ أن يُوقعَ بينكم العداوةَ المُعلَنة والبغضاءَ المُستكنَّة في القلوب؛ بسبب شُرب الخمر والقمار، ويَشغلكم عن ذكر الله، وعن فعل الصَّلاة، وإذا كنتم قد علمتم ما في الخمر والميسر من مضار، وما يُؤدِّيان إليه من شحناء وبغضاء، وما يفسدان به المجتمعات، أفأنتم بعد ذلك منتهون عنهما تاركون لهما، أم أنكم مازلتم في غيِّكم تعمهون، سادرين عن أمر الله تعالى؟! فانتهوا عما أنتم فيه.

٩٢ - وأطيعوا اللَّهَ سبحانه وأطيعوا الرَّسول ﷺ فيما أمركم به ونهاكم عنه، واحذَروا مخالفةَ الله تعالى ومخالفَةَ رسوله ﷺ، فإنْ انصرفتُم مبتعدين عمَّا أمركم به ونهاكم عنه، فاعلموا أنَّكم لن تَضرُّوا بتولِّيكم عن الرسول؛ لأنَّه ما كُلِّف إلاَّ البلاغُ الواضح الظاهر، والمُظْهر المُوضِّح لقضايا الإيمان، ولشرائع الله وأحكامه، وليس مأموراً بالقيام بوسيلةٍ من وسائل الإكراه والإلزام لإجباركم على الإيمان، وتحويلكم عن الكفر.

٩٣ - لا حَرجَ ولا إثمَ على الذين آمنوا وعملوا الصَّالحات فيما شربوا من الخمر، وأكلوا من مال القمار في وقت الإباحة قبل التحريم، إذا ما اتَّقَوْا الشِّرك، وآمنوا بالله ورسوله إيماناً صحيحاً صادقاً، وازدادوا من عمل الصالحات التي تُعبِّر عملياً عن صدق الإيمان الإراديِّ الاعتقاديّ، ثمَّ اتَّقَوا الخمرَ والمَيْسر بعد التحريم وآمنوا بتحريمهما وازدادوا بذلك مراقبةً لله عزَّ وجلَّ وإيماناً به، ثم اتَّقَوْا ما حُرِّم عليهم في المستقبل وأحسنوا العمل مع الله تعالى، فقاموا بما أمرهم به مع الإخلاص له، وصدق التوجُّه إليه، والإقبال عليه مُشاهدين أو مُراقبين، وأحسنوا العمل مع خلق الله تعالى، واللَّهُ يُحبُّ المحسنين الذين تقرَّبوا إليه بالإيمان والأعمال الصالحة، وتحققوا بمرتبة التقوى ثم البر، ثم ارتقَوْا إلى أعلى درجات الإيمان، وهي الإحسان، ويُثيبهُم على إحسانهم، ويُدخلهم جنَّات النعيم؛ لأنَّ من أحبَّهُ الله أكرمه، وأدخله في رحمته.

٩٤ - يا أيُّها الذين صدَّقوا الله واتَّبعوا رسوله: لَيَخْتَبِرنَّ اللَّهُ طاعتكم من معصيتكم، وليعاملنَّكم معاملة المختبر الكاشف لحقيقة نفوسكم وإراداتكم بشيءٍ قليل من بعض صَيْد البرِّ في حالة الإحرام، وهذا الصَّيْد قريبٌ منكم يُغري النفس ويُحرِّضها على فعل المنهيِّ عنه؛ إذ أن أيديكم تستطيع تناوله إذا كان قريباً صغيراً، وتستطيع رماحكم تناوله إذا كان كبيراً أو بعيداً؛ ليتميَّز من يخاف الله وهو لم يره، ممَّن لا يخافه، فَمَنْ تجاوز الحدَّ وخالف أمر الله بعد إعلامه بأنه اختبار من الله له، فَصادَ في حالةِ الإحرام بعد النهي، فله عذابٌ أليمٌ؛ لاعتدائه وعدم مبالاته بطاعة ربه، ومن لم يتعوَّد كَبْح نفسه، وطاعة ربِّه في الهيِّن من هذه الابتلاءات لا يكاد يكبحها عن العظائم والمزالق. وهذا سرٌّ من أسرار الابتلاء.

٩٥ - يا أيُّها الذين صدَّقوا الله واتَّبعوا رسوله: لا تَقْتلوا صَيْدَ البرِّ، وأنتم مُحرِمون بالحجِّ أو العمرة، أو داخل الحرم وأنتم حلالٌ، ومن تعمَّد قتلَ الصَّيْد منكم فعليه جزاءٌ من بهيمة الأنعام: الإبل أو البقر أو الغنم، مُماثِلٌ لما قتل في الخِلقة أو القيمة، يحكم بالجزاء في قتل الصَّيْد رجلان صالحان عَدلان من أهل دينكم ومِلَّتكم، تُساقُ كفَّارة الهَدْي إلى الحرم، فيذبح الهدي بمكة تعويضاً عن الصيد، أو يقوِّم قاتلُ الصيد المثلَ دراهم، والدراهم طعاماً، ثم يتصدَّق به على مساكين الحرم، لكلِّ مسكين مُدٌّ (وهو مِكيال يُقدَّر بـ٥١٠ غراماً)، وإنْ شاء صام عن كل مُدِّ من الطعام يوماً، فَرَضَ الله عليه هذا العقاب؛ ليدركَ عاقبة الأمر الذي وقع فيه إدراكَ من يحسُّه ويذوقه، عفا الله عمَّا سلف قبل التحريم، فهو في موضع عفوٍ لا يُحاسب الله تعالى عليه في الدنيا ولا في الآخرة، ومَنْ عادَ إلى قتل الصَّيْد مرة ثانية فيبالغ الله في عقوبته في الآخرة؛ لأن تكرار قَتل الصَّيد يدلُّ على الاستهانة بأمر الله ونهيه، واللَّهُ قويٌّ غالبٌ، ذو انتقام ممَّن عَصَاه.



أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِّلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾ مَّا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾ قُل لَّا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ ﴿١٠٢﴾ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾

٩٦ ـ أحلَّ الله لكم ـ أيُّها المسلمون ـ في حال إحرامكم الانتفاع بجميع ما صِيدَ من البحر ممَّا يُؤكل وممَّا لا يُؤكل، وَأحلَّ لكم أكل ما يُطْعم من صَيْده، ينتفع به المقيمون والمسافرون. وحُرِّم عليكم ما صِيدَ في البرِّ وأنتم مُحرمون، واتَّقُوا اللَّهَ فلا تستحلُّوا الصَّيْد في حال الإحرام ولا في الحَرَم، وسَتُحشرون إليه في الآخرة، فَيُجازيكم بأعمالكم.

٩٧ ـ صَيَّرَ الله الكعبةَ البيتَ الحرامَ، وهو جميع الحَرَم، لتكون صلاحاً للناس في أمر دينهم، فإنَّه به تَتِمُّ مناسك الحج، وفي أمر دنياهم، فإنَّه تُجبى إليه ثمراتُ كلِّ شيء، وجعله مثابةً وأمناً، ومجمعاً للتجارات والتعارف والتشاور، وفي أمر آخرتهم في تكفير الخطيئات وعُلوِّ الدرجات، وجعلَ الله الأشهر الحرم الأربعة، وهي: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرَّم، ورجب الفرد سبباً لإصلاح أمورهم، يأمنون فيها من القتلِ والقتال، وكذلك جعل الله ما يُهدى من الأنعام إلى الكعبة، وما يقلَّد به الهديُ علامةً له، سبباً لقيام مصالح الناس، وذلك أنَّهم كانوا يأمنونَ بِسَوْق الهَدي إلى البيت الحرام على أنفسهم، وكذلك كانوا يأمنون إذا قلَّدوا أنفسهم من لِحَاء شجر الحرم، فلا يتعرَّض لهم أحدٌ؛ ذلك لأنَّه تعالى يعلم مصالحَ العباد كما يعلم ما في السموات وما في الأرض، وأنَّ الله يعلم جميع المعلومات الكُلِّيَّات والجزئيَّات، لا تخفى عليه خافية.

٩٨ ـ اعلموا ـ أيُّها الناس ـ أنَّ الله شديدُ العقاب لمن انتهك محارمه، وأنَّ الله كثير السِّتر، دائم الرحمة لمن تاب وآمن.

٩٩ ـ ليس على رسولنا الذي أرسلناه إليكم إلا تبليغ ما أرسل به، وقد فَرَغ ممَّا وَجَب عليه، وقامت الحُجَّة عليكم، ولزمتكم الطاعة، فلا عُذْر في التفريط، واللَّهُ تعالى لا يخفى عليه شيءٌ من أحوالكم ظاهراً وباطناً.

١٠٠ ـ قل ـ يا رسول الله ـ: لا يستوي الحلال والحرام، ولا الرديء والجيِّد، ولا المسلم والكافر في الدرجة والرُّتْبة، ولو أعجبك ـ أيها الإنسان ـ كثرةُ الخبيث؛ لأنَّ عاقبته عاقبة سوء، فاعملوا ـ يا أصحاب العقول الواعية الدرَّاكة ـ الأعمال الطيِّبة الصالحة، واتركوا الأعمال الخبيثة السيِّئة، راجينَ أن تحقِّقوا لأنفسكم النجاة من عذاب الله، والظفر بجنات النعيم.

١٠١، ١٠٢ ـ يا أيُّها الذين صدَّقوا الله واتَّبعوا رسوله: لا تَسْألوا عن حكم أشياء في حياة الرسول، لم يتعرَّض لها البيان القرآنيُّ ولا النبويُّ، إنْ تَظْهَر لكم تَسُؤْكُم إنْ أُمِرتم بالعمل بها؛ لكون التكليف بها شاقاً عليكم، أو لكونها مستورة وفي إظهارها فضيحة للسائل، وإنْ صبرتم حتى يُنَزَّل القرآن بحكم، وليس في ظاهره شرح ما تحتاجون إليه، ومسَّت حاجتكم إليه، فإذا سألتم عنه فحينئذ يُبْدى لكم. تجاوز الله عن بيان أحكام ممَّا يشقُّ تطبيقه رحمةً بعباده، وتخفيفاً عنهم، واللَّهُ كثير السِّتْر لمَنْ تاب منكم، حليمٌ يُقدِّر لكلِّ وقت ما يقْتضيه، وللناس ما يُصلحهم في معاشهم ومعادهم. قد سأل السابقون أنبياءَهم عن أمثال تلك المسائل، فأجابوهم ببيان أحكامها، ولمَّا أُمروا بها جَحَدوها، فاحذروا أن تكونوا مثلهم. وهذا النهيُ عن السؤال عن حكم أمور لم يتعرَّض لها البيان القرآني ولا النبوي في عهد التنزيل، أما بعد عصر التنزيل، فإنَّ السؤال عن أحكام الأشياء التي لم يأت بيانٌ صريحٌ حولها في القرآن أو في السنة أمر مطلوب؛ لأن أهل الاجتهاد من فقهاء المسلمين يستخرجون أحكامها من مصادر التشريع.

١٠٣ ـ ما أنزل الله ولا شَرَع ما ابْتَدعه المشركون في بهيمة الأنعام من ترك الانتفاع بها، وجَعْلِها للأصنام، وهي: **البَحيرةُ** التي تُقْطع أذنها إذا ولدت خمسة أبطن أو عشرة، **والسائبة** المُخلاَّة التي لا تحبس عن رعي ولا ماء، ولا يركبها أحد، **والوَصيلة**، وهي التي تتَّصل ولادتها بأنثى بعد أنثى، **والحامي**، وهو الذكر من الإبل يُحمىٰ ظهرُه فلا يُركب، ولكن الكفار يَفْترون على الله الكذب، ويتجرَّؤون على تحريم ما لم يُحرِّمه الله، وأكثرُهُم لا يعقلون عقلاً علمياً يُميِّزون فيه بين الحقِّ والباطل، ويدركون أنَّ هذا كذبٌ وافتراءٌ من الرؤساء على الله، ولا يعقلون عقلاً إرادياً يمنعهم من الانسياق وراء أهوائهم وشهواتهم، وما ابْتَدَعه لهم رؤساؤهم.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ شَهَـٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَأَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ ۚ تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِى بِهِۦ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۙ وَلَا نَكْتُمُ شَهَـٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْـَٔاثِمِينَ ﴿١٠٦﴾ فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَـٰنِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَـٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَـٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٧﴾ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَـٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَـٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿١٠٨﴾

١٠٤ - وإذا قيلَ لهؤلاء المشركين: تعالَوْا إلى ما أنزل الله في كتابه، وإلى حكم رسوله ﷺ. قالوا: قد اكتفَيْنا بما أخذنا عن آبائنا من الدين، ونحنُ لهم تَبَعٌ. أيُصرُّون على اتِّباع ما وجدوا عليه آباءهم، ولو كان آباؤهم لا يعرفون شيئاً من الدين، ولا من الحلال والحرام، ولا يهتدون إذا بُيِّن لهم الطريق وأرشدوا إليه؟ فالاقتداء إنما يصحُّ بالعالم المهتدي الذي يَبْني قولَه على الحُجَّة والدليل، وآباؤهم لم يكونوا كذلك؛ فكيف يصحُّ اقتداؤهم بهم؟!

١٠٥ - يا أيُّها الذين صدقتم بأركان الإيمان، وعملتم بشرائع الإسلام، احفظوا أنفسكم من مُلابَسة الذنوب، والإصرار على المعاصي، لا يضرُّكم - بعد قيامكم بمسؤولية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والأخذ على أيدي الظالمين - ضلال من ضلَّ، إذا كنتم مهتدين، وأطعتم الله عزَّ وجلَّ فيما أمركم به ونهاكم عنه، إلى حساب الله وحده، وفصل قضائه، وتنفيذ جزائه رجوعكم جميعاً، ومكان رجوعكم، وزمانه، فيخبركم بأعمالكم، ويُجازيكم عليها.

١٠٦ - يا أيُّها الذين صدَّقوا الله واتَّبعوا رسوله: إذا قارب أحدكم وقْتُ حضور الموت، فلْيُشْهد على وصيَّته: اثنين أمينَيْن صادقَيْن من أهل دينكم وملَّتكم - يا معشر المؤمنين -، أو آخرَيْن من غير أهل دينكم وملَّتكم عند الحاجة، وعدم وجود غيرهما من المسلمين، تُشْهدونهما، إنْ أنتم سافرتم في الأرض، ونزلت بكم أسبابُ الموت، فأوْصَيْتم إليهما، ودفعتم أموالكم إليهما، فإن اتَّهَمْتُمَا بعضُ الوَرَثَة وادَّعوا عليهما خيانةً، فالحكم أن تُوقفوهما من بعد صلاة العَصْر، فيحلفان بالله، ويقولان: لا نبيع عهدَ الله بشيءٍ من الدنيا، ولانحلف بالله كاذبَيْن؛ لأجل عوض نأخذه أو حقٍّ نَجْحده، ولو كان المشهود له ذا قرابةٍ قريبة، ولا نَكتُم شهادةَ الله، إنا إذاً لمن الآثمين إنْ كتمنا الشهادة أو خُنَّا فيها.

١٠٧ - فإن اطَّلع وظَهَر لأولياء الميِّت الذي مات في سفر، ولا طريق للعلم بوصيَّته إلا عن طريق هذين الشَّاهدين اللذين لهما مع الشهادة صفة الوصيَّة، فإن ظهر أنهما خانا الأمانة، فلم يقوما بحقِّ الوصاية، وكذَبا في الشهادة، فلم يصدقا، وحَلَفا يميناً غموساً تغمس صاحبها في النار، وذلك بالاطِّلاع على شيءٍ من مالِهِ عندهما لم يكن قد جرى ذكرُه على لسانهما، ومعروفٌ عند وَرَثته أنه كان يملكه، أو يظهر عليهما يَسَارٌ مُفاجىء، ويتبيَّن من قرائن الأحوال أنه من ماله، أو يظهر من كتبٍ أرسلها المتوفَّى قُبيل وفاته تدلُّ على ما كان يملكه عند الوفاة، ولم يذكراهُ في شهادتهما، ممَّا فيه ضياع حقوق الورثة، وذهاب أموالهم، فلْيقم مقامَ الوصيَّيْن في الشهادة آخران من أولياء الميِّت وأقربائه في إظهار الحقيقة، وبيان ما خَفِيَ من إرادة المتوفَّى وأمواله، وما لَهُ من حقوق، وما عليه من واجبات، والآخران اللذان يقومان مقـام الأَوْلَيَيْن من الوَرَثة الذين حقَّت عليهم مغبَّة الإثم ونتائجه، وإذا كانا يتقدَّمان لإحقاق الحقِّ فلا بدَّ أن يُقسما بالله على أمرين: **أولهما**: أنَّ شهادتهما الصَّادقة أحقُّ بالقبول من شهادة الآخرَيْن الكاذبة، **وثانيهما**: أن يُقسما على أنَّهما ما اعتديا، بأخذِ ما ليس بحقِّهما، وما اتَّهما الشاهدين زوراً، ويقولان: إنَّا إن اعتدينا وشهدنا بغير الحقِّ لمن الظالمين المتجاوزين حدودَ الله، المستحقين عقاب مَنْ يظلم غيره.

١٠٨ - ذلك الذي حكمنا به من ردِّ اليمين على أولياء الميِّت بعد أيمانهم أجدرُ وأحرىٰ إلى أن يأتي الوصيَّان وسائر الناس بالشهادة على حقيقتها، وأقرب أن يخاف الوصيَّان أن تُردَّ الأيْمان على أولياء الميِّت، فيحلفوا على خيانتهما وكذبهما، فيفتضحا ويغرما، وخافوا اللَّهَ - أيُّها الناس - وراقبوه أن تحلفوا أيْمَاناً كاذبة، أو تخونوا أمانةً، أو تقتطعوا بأيْمانكم مالاً حراماً، واسمعوا ما تُوعَظُون به سماعَ إجابةٍ، واللَّهُ لا يحكم بهدايةِ القوم الخارجينَ عن طاعته. وكيفيَّة الشَّهادة على الوصيَّة في حالة السفر الذي جاء في هذه الآيات، التي افْتُتِحت بهذا النداء: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ شَهَـٰدَةُ بَيْنِكُمْ...﴾ يُبيِّن بعض أحكام المعاملات الماليَّة في المجتمع الإسلامي، فالمال أحد الضروريات الخمس التي قرَّرها الإسلام للإنسان، وشَرَعَ ما يُؤمِّنها، وهي: الدين، والنفس، والعقل، والعرض، والمال. وهذا النداء الإلهيُّ للمؤمنين في الآية (١٠٦) هو النداء السادس عشر والأخير في هذه السُّورة، وقد تقدَّمت هذه النداءات الإلهيَّة للمؤمنين في الآيات: ١ و٢ و٦ و٧ و١١ و٣٥ و٥١ و٥٤ و٥٧ و٨٧ و٩٠ و٩٤ و٩٥ و١٠١ و١٠٦. والجدير بالذكر أنَّ الله تعالى لم يذكر في أيِّ سُورة من سُور القرآن الكريم مثل هذا العدد من الآيات الكريمة المصدَّرة بهذا النداء: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ كسُورة البقرة، وهي أطول سُوَر القرآن الكريم فيها إحدى عشرة آية فقط مُفْتَتَحة بهذا النداء. ويُعتبر كلُّ نداءٍ من هذه النداءات الموجَّهة للمؤمنين في هذه السُّورة قانوناً يُنظِّم ناحية من نواحي الحياة عند المسلمين فيما يختصُّ بأنفسهم، وفيما يختصُّ بعلاقتهم مع أهل الكتاب.

﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿١١٠﴾ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿١١٣﴾﴾

١٠٩ - اذكروا - أيها الناس - يوم يجمع الله الرُّسُلَ عليهم السلام يومَ القيامة، فيقول الله تبارك وتعالى للرسل: ماذا أجابتكم أممكم حين دَعَوْتُموهُم إلى توحيدي وطاعتي؟ قال الرسل: لا علم لنا بإخلاصهم وعاقبة أمرهم؛ إنَّك أنت وحدك العالم علماً ليس فوقه علم بكلِّ ما يغيب عن إدراك المخلوقات، لا تخفى عليك خافية.

١١٠ - ضع في ذاكرتك - أيها المُتلقِّي لبياننا - حين قال الله يوم القيامة: يا عيسى ابن مريم، اذكر نعمتي عليك في خلقي إيَّاك من أم بلا ذكر، وجَعْلي إيَّاك آيةً ودلالةً قاطعةً على قدرتي، واذكر نِعْمتي على والدتك، حيث أنبتُّها نباتاً حسناً، واصْطَفَيْتُها على نساء العالمين، وبرّأتها مما نُسب إليها. ومن نعمي عليك: أني قوَّيتُك وأمددتك بالرُّوح الطاهرة «جبريل» عليه السلام، تُكلِّم الناس طفلاً في زمن الرضاعة قبل أوان الكلام، وفي حال اكتمال القوة بعد نزولك من السماء، فتدعو إلى الله في صغرك وكبرك، وتُكلِّمهم في هاتين الحالتين من غير أن يتفاوت كلامك في زمن الطفولة وزمن الكهولة، وعلَّمتك الكتابة والفهم والاطِّلاع على أسرار العلوم، وقوَّة الفهم والإدراك، وحُسْن تدبير الأمور، وَوَضْع الأشياء في مواضعها، وعلَّمْتُك التوراة التي أنزلتُها على موسى عليه السلام، والإنجيل الذي أنزلته عليك هداية لبني إسرائيل، واذكر - يا عيسى - هذه المعجزات الأربع: **المعجزة الأولى**: تُقَدِّر وتُصَوِّر من الطين كصورةِ الطير بإذني، فتنفخ في تلك الهيئة، فتكون طيْراً ذا روح بإذني، **والمعجزة الثانية**: تمسح على الأعمى المَطْموس البصر، الذي لم يَرَ النور منذ ولادته، فيُعيد الله له بصره، ويُزيل عنه عَمَاه، **والمعجزة الثالثة**: تمسح على الأبرص الذي يكون في مواضع متفرِّقة من جسمه بياض مُنفِّر، فيعود جلده سليماً بإذني، **والمعجزة الرابعة**: تُخرج الموتى من قبورهم أحياء بإذني، واذكر نعمتي عليك وقت صَرَفتُ عنك اليهود حين أرادوا قتلك عندما جئتهم بالدلالات الواضحات والمعجزات الباهرات، فقال الذين استمرُّوا على كفرهم من اليهود ولم يؤمنوا بهذه المعجزات: ما جاءهم به عيسى عليه السلام من تصوير الطير والنفخ فيه بالحياة، وإبراء الأكمه والأبرص، وإحياء الموتى إلا سحرٌ ظاهرٌ تنخدع به الأبصار، دون أن يكون له في الواقع حقيقة!! مع أنها أمور واقعة محسوسة، وليست تمويهاً باطلاً خادعاً ولا تخييلاً، مما يدل على أنَّ المُتعنِّت لا تزيده الحُجَّة إلا طغياناً وكفراً، وكُلَّما قويت الحُجَّة تحرَّكت في نفسه عوامل الحسد والحقد، فأوجدت ضغناً، فيطمس الله تعالى على بصيرته، فلا يدرك الحق ولا يذعن له.

١١١ - واذكر - يا عيسى ابن مريم - نعمتي عليك حين ألهمتُ أصحابَك وخَواصَّك، وألقيت في قلوبهم أنْ آمنوا بي وصدِّقوا بوحدانيَّتي، وبنبوَّة رسولي عيسى. قالوا: صدَّقنا يا ربَّنا، واشْهَد بأنَّا مُنْقادون لأمرك وخاضعون لك.

١١٢ - واذكروا حين طَلَب أصفياء عيسى وخاصَّته وأنصاره من عيسى عليه السلام آيةً عظيمة تُورثهم مزيدَ الطمأنينة، فقالوا: يا عيسى ابن مريم، آمنَّا أنَّ الله قادرٌ على إحياء الموتى، وإبراء الأكمة والأبرص، فهل يستجيب ربُّك لك دعاءك إنْ سألتَهُ أن يُنَزِّل علينا مائدةً من السماء، تعمُّ كلَّ الذين آمنوا بك، وتكونُ عيداً لأوَّلنا وآخرنا؟! قال عيسى مُجيباً للحواريِّين: اتَّقُوا غضب الله، وكثرة السؤال، فإنكم لا تدرون ما يحلُّ بكم عند اقتراح الآيات، إن كنتم مؤمنين بالله، وبما جئت به، فقد جاءكم من الآيات ما فيه غنى.

١١٣ - قال الحواريُّون مجيبين لعيسى عليه السلام: إنَّما نطلب نزول المائدة علينا، لأربعة أمور: **الأول**: لكي نأكل منها جميعاً، وننال بركتها، في يوم جامع نجعله عيداً سنوياً نبتهج فيه بذكرى هذه المائدة السماوية المعجزة، **والثاني**: تسكن قلوبنا، فلا يبقى فيها نزعة تساؤل أو قَلَق بعدَ أن نأكل منها، ونزداد يقيناً وطمأنينةً بأنَّ الله معنا، يكرمنا وينعم علينا، **والثالث**: نعلم علم مُشاهدة أنْ قد صدقتنا في نبوَّتك وآياتك ومعجزاتك وفي كلِّ ما قلت لنا، **والرابع**: نكون على هذه المعجزة الكبيرة من الشاهدين عند الذين لم يَرَوْها من قومنا؛ ليؤمن كافرهم، ويزدادَ الذين آمنوا إيماناً.

قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌۢ ﴿١٢٠﴾

١١٤ - أجاب عيسى ابن مريم طلبَ الحواريين، فَدَعا ربَّه عزّ وجلّ قائلاً: يا الله، يا ربَّنا أنزل علينا مائدةَ طعام من السَّماء، نتَّخذُ يوم نزولها عيداً لنا، نعبدُ الله فيه، كما يعبدُ الناسُ ربَّهم في أعيادهم، وهذا العيد يكون عيداً للأحياء منّا وقت نزولها، ولِمَن يأتي بعدنا، وتكونُ المائدة دلالةً على كمال قدرتك ووحدانيَّتك، وحجَّةً يُصدِّقون بها رسولك، وارزُقنا ذلك من عندك، أنت الرازق لنا، وأنتَ خيرُ من تفضَّل ورزق، لا يشوب عطاءَك نقصٌ ولا نكَد.

١١٥ - قال اللَّهُ عزَّ وجل: إني سأُنزل عليكم المائدة، بناءً على طلبكم، وسأُطعمكم إيَّاها، وعليكم أن تُقابلوا هذا بذكري وشكري والثناء عليَّ، وزيادة إيمانكم بي، فإذا لم تفعلوا، وقابلتم ذلك بالكفر، فإني سأعذِّب الكافر منكم عذاباً لا أُعذِّبه أحداً من عالمي زمانهم. وقد أجرى الله سبحانه هذه الآية الباهرة، والمعجزة الخارقة، فبينما كان الحواريُّون جالسينَ مع عيسى عليه السلام، وبعدما دَعَا عيسى ربَّه، أنزل اللَّهُ عليهم المائدة مَن السماء، فرفع القومُ أبصارهم، وإذا بهذه المائدة تنزل من السماء، وعليها مُختلف أصنافِ الطعام الشهيِّ، واستمرَّت في نزولها المُتدرِّج حتى استقرَّت أمامهم على الأرض، فَمَدُّوا أيديَهم، وأكلوا منها، وحَمَدوا الله وشكروه على هذه النعمة الغامرة.

١١٦ - وَضَعْ في ذاكرتك - أيها المُتلقِّي لبياننا - حين قال الله تعالى لعيسى عليه السلام يومَ القيامة توبيخاً لقومه على رؤوس الأشهاد: أَأَنتَ قلتَ للناس اجعلوني وأُمِّيَ مَعبُودَيْن من دونِ الله؟ كما زعمت النصارى؟!

قال عيسى عليه السلام: تنزيهاً لك عن النقائص، وبراءةً لك من العيوب، ليس من شأني أن أقول مثلَ هذا القول، ولا يمكن أن يصدر عني؛ لأنه ليس بحقٍّ، ولستُ أستحق العبادة حتى أدعو الناس إليها. إنْ كنت قلت هذا فقد علمتَهُ، تعلمُ ما تُضْمره نفسي، ولا أعلمُ أنا ما في نفسك، إنَّك أنت وحدك العالم علماً ليس فوقه علم بجميع ما غاب عن حواسِّ وإدراك المخلوقات، لا تخفى عليك خافية في الأرض ولا في السماء.

١١٧ - قال عيسى عليه السلام: يا ربِّ ما قلتُ لهم إلا قولاً أوحيْتَهُ إليَّ، وأمرتني بتبليغه، أن اعبدُوا الله وَوَحِّدوه ولا تُشركوا به شيئاً، فهو المُستحقُّ للعبادة وحده؛ لأنه هوالذي خلقني، فأنا مخلوق، فكيف أكون إلهاً، وهو الذي خلقكم وحده فكيف تعبدون غيره؟ وكنتُ مُشاهِداً لهم، رقيباً عليهم، وما تركتُ تنبيهَهُم إلى التوحيد مدَّة بقائي فيهم، فلمَّا أخذتني وافياً بالرفع إلى السماء حياً، كنتَ أنتَ وحدك الحفيظَ عليهم، المُراقب لأعمالهم وأقوالهم، المُطَّلع على سرائرهم، وأنت الحاضر المُعَاين الشهيد على كلِّ شيء، لا تخفى عليك في الوجود خافية.

١١٨ - قال عيسى عليه السلام: إنْ تُعذِّب بعدلك هؤلاء الذين قالوا هذه المقالة، فإنَّهم عبادُك لا يقْدرون على دفع ضُرٍّ نزل بهم، ولا جَلْبِ نفع لأنفسهم، وإنْ تغفر برحمتك لمَنْ تابَ مِنْ كُفره منهم، وتستر سيِّئاتهم، فإنَّك أنتَ القويُّ الغالب في انتقامك لا يمتنع عليك ما تريد، الحكيم في أفعالك كلِّها.

١١٩ - قال الله تعالى لعيسىٰ عليه السلام يوم القيامة: هذا يومُ الجزاء الذي ينفع الصَّادقين في إيمانهم وأعمالهم وأقوالهم في الدنيا، صدقهم في الآخرة، لهم جنَّاتٌ تجري من تحت قصورها وأشجارها الأنهار، خالدين فيها أبداً، رضيَ الله عنهم بطاعتهم له، وقَبول حسناتهم، ورَضُوا عنه بما أعطاهم من ثواب عظيم ورضوان كبير، ذلك الجزاء والرضا منه هو الفوز العظيم.

١٢٠ - لِلَّهِ وحدَه لا شريك له، مُلْكُ السمواتِ والأرض وما فيهنَّ، ومن كان له مُلك السموات والأرض ومن فيهما، كان الناس في الأرض عبيده؛ إذ هو مالكهم، وهو ذو السُّلطان الكامل عليهم، وهو سبحانه الذي يستحقُّ الإلهيَّة، وهو على كلِّ شيءٍ يشاؤه من المُمْكنات العقليَّة قدير، إيجاداً أو إعداماً، أو تغييراً، أو تحويلاً، لا يُعجزُه شيءٌ مهما عظم، ولا يصعب عليه شيء مهما كبر.

سورة الأنعام — ترتيبها ٦ — آياتها ١٦٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ۖ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ ۖ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ ۖ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٦﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾

١ ـ الثناءُ الحَسَنُ كلُّه لله عزَّ وجل؛ لأنه مُتَّصف بكلِّ صفات الكمال، ومُنزَّهٌ عن كلِّ صفات النقص، ومن آثار صفاته التي استغرقت كلَّ الحمد والثناء الجميل أنه خلق السموات والأرض، على ما هُما عليه من بديع الصُّنع والإحكام، وجَعَل الظُّلمات والنُّور، آياتٍ للمتفكرين، ودلائلَ على وحدانيَّته وقدرته وتدبيره، ثمَّ الذين كفروا ـ مع قيام هذه الدلائل ـ يُشركون ويجعلون له عديلاً في خلقه، ويميلون عنه، وينصرفون إلى غيره فيعبدون ما لا يستحقُّ العبادة. وفي هذه الآية ردٌّ على ثلاثة ملل: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ فيه ردٌّ على الدهريَّة، الذين ينكرون الخالق والبعث والإعادة، ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ ردٌّ على المجوس الذين زعموا أنَّ الظُّلمة والنُّور هما المُدبِّران، ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ فيه ردٌّ على مُشركي العرب، ومَنْ دَعَا من دون الله إلهاً.

٢ ـ الله تعالى الذي خلق أباكم آدم من ماء وترابٍ وأنتم من نسلِهِ، مخلوقون من طين تَبَعاً له، كما أن جَسَد كلِّ مخلوق من طين تحوَّل بخلق الله إلى غذاءٍ، فدماء، فنُطَف، فأجِنَّة، ثم أنهى بالموت أجلاً كان قدَّره وأمضاه لحياة كلِّ إنسان، وأجلٌ مُحدَّد مُعيَّن بزمنه لكلِّ ما قدَّره الله وقَضَاه، ثم أنتم ـ أيها المشركون ـ مع ظهور هذه الحقائق تشكُّون في البعث، وتجادلون فيه، فالذي خلقكم من طين، وقدَّر آجالكم، قادرٌ على إعادة خلقكم وبعثكم بعد الموت.

٣ ـ وهو سبحانه إلهُ السَّموات وإلهُ الأرض المعبود فيهما، يعلمُ ما تُخفونَه في ضمائركم، وما تُظْهرون من أعمال الجوارح، لا تخفى عليه خافيةٌ في السَّموات ولا في الأرض، ويعلم ما تكسبون بإراداتكم الحُرَّة من خير أو شر، وما تستحقونه من ثواب أو عقاب.

٤ ـ وما تأتي هؤلاء العُتاة المُصرِّين على كفرهم آيةٌ ما من آيات ربِّهم البيانيَّة أو الإعجازيَّة، إلا أعرضوا عنها، ولم يعبؤوا بها.

٥ ـ فبسبب تكذيبهم العِنادي السابق، تحقَّق تكذيبهم بمحمد ﷺ وما أتى به من القرآن والمعجزات لمَّا جاءهم من عند ربِّهم، فسوف يأتيهم يومَ الدين تحقيقُ الأنباء التي كانوا في الدنيا يستهزؤون بها.

٦ ـ ألم يَرَ هؤلاء المُكذِّبون بآياتي أنا أهلكنا قَبْلهم أعداداً كثيرةً من الأمم الماضية المُقْترنة في زمنٍ واحد، أعطيْناهم في أرضهم من القوَّة والبَسْطة في الأجسام والأموال ما لم نُعطكم يا أهلَ مكة، وأرسَلنا المطر عليهم غزيراً مُتَتابعاً كثيراً في أوقات الحاجة؛ رحمةً منا وإنعاماً، وأجرَيْنا لهم المياه العَذْبة في الأنهار بعد إنزالها من السماء، تجري في مجاريها تحت مستوى سطح الأرض، فعاشوا في خصْب وسَعَة، ومع ذلك التمكين وهذه القوة أهلكناهم بسبب ذنوبهم وكفرهم، وأنشأنا بسُنَّة التكامل المُتدرِّج من بعد هلاكهم قوماً آخرين بدلاً منهم، أفلا يعتبر أهل مكة بذلك فلا يستمرُّوا في كفرهم وعنادهم!

٧ ـ ولو نزَّلنا عليك ـ يا رسول الله ـ من عندنا مكتوباً في صحيفة كما طلبوا، فرأوْهُ بأعينهم ولَمَسُوهُ بأيديهم، لما آمنوا به، ولقالوا إمْعاناً منهم في الجُحود والعناد: ما هذا الكتاب الذي نزل من السماء في قرطاس إلا سحرٌ واضحٌ ظاهر، تنخدع به الأبصار، دون أن يكون له في الواقع حقيقة. فالله سبحانه عليمٌ بما في نفوسهم من عنادٍ ومكابرةٍ وإصرار على الباطل، وإنهم لن يستجيبوا لدعوتك ولو جئتهم بما يطلبون من آيات خوارق، ما زالوا يُلحُون بطلبها على سبيل التَّشهِّي والتعنُّت.

٨ ـ وقال أئمة الكفر المُعاندون المُصرُّون على باطلهم: هلاَّ أُنزل على محمد مَلَكٌ نراه عياناً، ويخبرنا أنه رسولٌ من عند ربه؛ لنُصدِّقه فيما جاء به من النبوَّة، ولو أنزلنا عليه مَلَكاً من السماء في صورته الحقيقية، وشاهدوه بأعينهم، لَفَرَغَ الأمر ولَوَجَبَ العذاب، ثمَّ لا يُمْهَلون ولا يُؤخَّرون طَرفَة عين بعد إنزاله ومشاهدتهم له، بل يُعَجَّل لهم العذاب، كما هي سنَّته تعالى في الأمم المكذِّبة.

وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُل لِّلَّهِ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ ۞ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾

٩ - ولو أرسلنا إليهم مَلَكاً، لجَعَلناه مُتَشكِّلاً في صورة رجل من الناس؛ ليتسنّى لهم مشاهدته، بحسب استعدادهم البشري، وعندئذ يلتبس عليهم الأمر، فلا يعرفون: هل هو مَلَكٌ حقيقة، أو رجلٌ من الناس؟! إذ تلتبس الصُّور المتشابهة على أبصار الناظرين، وعندئذ يقولون: هذا أيضاً بشرٌ من البشر، وليس ملكاً، فيكذّبون، فيستحقُّون الإهلاك.

١٠ - وأقسم مؤكِّداً لك - يا رسول الله - أنه استُهْزِئ برسلٍ من قبلك كما استُهزِىء بك، فأحاط بالذين سخروا من الرسل العذابُ الذي كانوا يهزؤون به، وينكرون وقوعه. فلستَ - يا رسول الله - أول من طُلب منه إنزال المَلَك عليه على سبيل الاستهزاء، بل قد وقع من الكفار السَّابقين مع أنبيائهم.

١١ - قل - يا رسول الله - لهؤلاء المُسْتهزئين: سيروا في الأرض مُعتبرين مُتفكِّرين، فابحثوا في الآثار ونقّبوا، ثمَّ انظروا بأعينكم بعد البحث والتنقيب في آثارهم المَطْمورة: كيف كان جزاء المُكذِّبين؟ وكيف أورثهم الكفر والتكذيب العقابَ الربانيَّ الشامل.

١٢ - قل - يا رسول الله - لهؤلاء المُكذِّبين: لمَنْ ملك ما في السموات والأرض؟ قل: لله. أوجَبَ وقَضَى على نفسه باختياره الرحمة، وكتب هذا في اللوح المحفوظ، فلا يُعجِّل بالعقوبة، بل يقبل التوبة ممَّن تاب، فأقْبلوا عليه ولا تتولَّوا عنه، واللَّهِ ليجمعنَّكم بعد البعث مَسُوقينَ إلى موقف الحساب وفَصْلِ القضاء يومَ القيامة لا شكَّ فيه أنَّه آتٍ؛ فلا يغرنّكم هذا الإمهال. الَّذين خَسِروا أنفسهم؛ باختيَارهم الشِّرك في الحياة الدنيا، وانقطعت بينهم وبين الإيمان كل الأسباب، فهم لا يؤمنون مهما دَمَغَتْهم الحُجَج، ووُجِّهت لهم المواعظ والإنذارات، فعرَّضوا أنفسهم لسخط الله وأليم عقابه.

١٣ - وَللَّه وحده ما سَكَنَ وما تَحرَّك في الليل والنَّهار؛ لأنَّ كلَّ ساكنٍ في الوجود هو ذو حركةٍ ما، فجميعُ الموجودات ملكٌ لله تعالى لا لغيرِه، وهو السميعُ لأقوالهم وأصواتهم، العليمُ بسرائرهم وأحوالهم.

١٤ - قل لهم - يا رسول الله - : أغيرَ الله أَتّخِذُ ناصراً ومُعيناً، أستنصره وأستعين به على النوائب، وهو مُبْدع السموات والأرض على غير مثالٍ سَبَق، وهو غنيٌّ عن الخلق، والخلقُ جميعاً محتاجون إليه، يُطعِم مخلوقاته، ويمدُّهم بأسباب الحياة والنماء، ولا يُطعِمُهُ أحد؟ قل - يا رسول الله - : إني أُمِرت بأن أكون أوّلَ من اسْتَسْلَم لأمرالله، وانقاد إلى طاعته من هذه الأمة، وقيل لي: لا تكوننَّ - يا رسول الله - من المشركين.

١٥ - قل - يا رسول الله - لهؤلاء المشركين الذين دَعَوك إلى عبادة غيري: إني أخاف إنْ عَصَيْتُ ربي، فخالفتُ أمره، وأشركت معه غيرَه في عبادته، أن ينزل بي عذابٌ عظيم يوم القيامة.

١٦ - من يُصْرَف عن العذاب يومَ القيامة، فقد رحمه الله وأناله الثواب، وإنَّ النجاة من العذاب وحصول الرحمة هو الظفر الواضح الظاهر.

١٧ - وإنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ - أيُّها الإنسان - مسَّاً خفيفاً بشيء تكرهه وتراه ضُرّاً، فلا يوجد أحدٌ في الكون يستطيع أن يكشفَهُ عنك إلا الله، فكيف لو كان إصابةً داخلةً إلى العُمق؟ وإن يَمْسَسْكَ اللَّهُ مسّاً خفيفاً بما تحبُّ من الدنيا وتراه خيراً لك فلا مُزيل له إلا هو، فكيف لو كانت إصابةً داخلةً إلى العمق؟ وهو سبحانه على كلِّ شيء يشاؤه من دفع الضُّرِّ وجَلْب الخير، عظيم القدرة، لا يعجزه شيء أراده، فلا تتَّخذ ولياً سوى الله.

١٨ - والله سبحانه هو الآخذ الغالبُ لعباده، المُقْتدر عليهم، الذي لا يُعجزه شيءٌ أراده، فهم تحت تسخيره وتذليله، وهو الحكيمُ في أمره وتدبيره عباده، يَضَعُ الأشياء في مواضعها، ويختارُ أفضلَ الأشياء وأتقنَها وأحسنَها في الأمور المختلفة لما يُعطي أحسنَ النتائج، الخبيرُ بأعمالهم وما يُصلحهم على سبيل الشهود والحضور المُصَاحِبِ لكلِّ أجزاء العمل، ظواهره وبواطنه.

قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ۘ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢١﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ ۖ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾

١٩ - قل - يا رسول الله - لهؤلاء المشركين الذين يُكذّبونك: أيُّ شيءٍ أعظمُ شهادة يشهد لي بأني رسول الله؟ فإنْ هم أجابوك، وإلا فقل أنت - يا رسول الله -: اللَّهُ حاضرٌ مُعاينٌ شهيدٌ بيني وبينكم، يشهد لي بالحقِّ فيما جئتكم به، ويَشْهدُ عليكم بالباطل الذي تقولونه؛ لأنه أوحى إليَّ هذا القرآن، وهو أكبر معجزةٍ وأصدق دليل، وقد أُوحيَ إليَّ هذا القرآن من أجل أن أُخوِّفكم بعقابٍ عاجلٍ أو آجل، ولأنذر بما جاء في القرآن من إنذارات وعقابات، مَنْ بَلَغَتْه دعوتي، وَبَلَغهُ ما جاء في القرآن ممَّن يأتي بعدي إلى يوم القيامة.

قل - يا رسول الله - لهؤلاء المشركين الذين اتَّخذوا آلهةً غيري: أإنَّكم أيُّها المشركون لتشهدونَ أنَّ مع الله الأصنامَ التي تعبدونها!؟

قل - يا رسول الله - لهؤلاء المشركين: لا أشهد بما تَشهدون به.

قل لهم: ما المعبود الحقُّ إلا إلهٌ واحدٌ، لا شريكَ له، وبذلك أشهد، وأؤكِّد لكم بصراحة وقوة أنَّني بريءٌ من كلِّ شيء تعبدونه سوى الله.

٢٠ - الذين آتَيْناهم التوراةَ والإنجيل من علماء اليهود والنصارى، يعرفون رسولَ الله ﷺ بصفاته المكتوبة عندهم كما يعرفون أبناءهم، فكما أنَّ أبناءَهم لا يشتبهون أمامهم بغيرهم، فكذلك محمد ﷺ لا يشتبه بغيره لدقَّة وصفه في كتبهم، ولكنَّهم جَحَدوا نبوَّته، وأنكروا معرفته، واتَّبعوا أهواءَهم، فأهلكوا أنفسهم وأبقوها في نار جهنم بإنكارهم نبوَّة محمد ﷺ، فهم لا يؤمنون به ﷺ.

٢١ - لا يوجد أعظمُ كفراً وأشدُّ عناداً من هذين الفريقين: **الفريق الأول**: الذي اخْتَلَق على الله كذباً، فزعَمَ أنَّ له شريكاً من خلقه، **الفريق الثاني**: كذَّبَ بآياتِ القرآن الذي أنزله على محمد ﷺ؟ إنَّه لا يفوز بمطلوبهم الظالمون من دَرَكة الكفر، القائلون على الله الكذب، والمُفْترونَ على الله الباطل.

٢٢ - وَضَع في ذاكرتك - أيُّها المُتَلقِّي لبياننا - يومَ نجمع العابدين والمعبودين يوم القيامة، ثمَّ نقول للذين أشركوا: أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون أنهم يشفعون لكم يوم القيامة؟!!

٢٣ - ثمَّ لم تكن نتيجة محنتهم الشديدة في هذا الموقف إلا أن تبرَّؤوا من الأصنام، بغية الاعتذار والتهرُّب من الإدانة بشركهم الذي كان منهم في الحياة الدنيا، وقالوا: واللَّهِ ربِّنا ما كنَّا مشركين مع الله غيره، متوهِّمين أنَّ الأيمان الكاذبة تنجيهم من جريمة الشِّرك بالله، ويغفلون عن أن الله عليمٌ بما في قلوبهم، فعرَّضوا أنفسهم لعذابٍ أليم على أيْمانهم الفاجرة، قبل إلقائهم في جهنَّم؛ لينالوا العذاب الدائم على كفرهم.

٢٤ - انظر - أيها المُتلقِّي - نظر تفكُّر واعتبار، كيف تبرَّؤوا في موقف الحساب بين يدي ربِّهم من الأصنام والشِّرك الذي كانوا عليه بالكذب والاعتذار بالباطل؟ وزال عنهم وذهب عن ذاكرتهم الذي كانوا يفترونه على ربِّهم من شركاء، ويصطنعونه من ادِّعاءات هم فيها كاذبون.

٢٥ - وبعض أئمة الكفر في مكة مَنْ يستمع إلى قراءتك وكلامك - يا رسول الله -، وجعلنا على قلوبهم حُجُباً كثيفة مانعةً لهم من أن يفهموه فهماً عميقاً، وجعلنا في آذانهم صَمَماً وثقلاً يمنعهم من استماع القرآن على وجه القَبول، وإن يَرَوْا كلَّ معجزة من المعجزات الدالَّة على صِدق نبوَّتك لا يُصدِّقوا بها، حتى إذا جاؤوك - يا رسول الله - بعدَمَا رأوْا الآيات واستمعوا القرآن، جاؤوا لِيُجادلوك ويخاصِموك، يقول الذين كفروا: ما هذا القرآن إلا أكاذيب الأوَّلين ومكتوباتهم ومسطوراتهم.

٢٦ - وهؤلاء المشركون يَنْهَونَ الناس عن اتِّباع محمد ﷺ، والاستماع إليه، ويتباعدون عنه بأنفسهم، وما يُهلكون بأعمالهم الإجراميَّة إلا أنفسهم، ولا يرجع وبال كفرهم إلا عليهم، وما يشعرون بذلك.

٢٧ - ولو ترى - أيها الرائي - أئمة الكفر والشِّرك حين يُحبَسون على المكان المشرف على هاوية النار، عند أبوابها، ويشاهدون ما فيها من السلاسل والأغلال، لرأيتهم ينادون: يا ليتنا نُعادُ إلى الحياة الدنيا مرَّةً أخرى، فنصدِّقَ بآيات الله، ونكون من المؤمنين.

بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٥﴾

٢٨ - ليس الأمر كما يقولون، بل بدا لهم أن يُعلنوا على رؤوس الأشهاد نَدَمَهُم وحَسْرَتهم، بعد أن عاينوا بأبصارهم، وهم مشرفون على هاوية جهنم، مواقعَهُم فيها، فاشتدَّ ذعرهم وخوفهم، وكانت لواعج الندم والاسْتجداء أموراً يُخفونها في مواقفهم السابقة، واستمرُّوا في إخفائها حتى عاينوا مباشرة مصيرهم، ولو ردُّوا إلى حياة الامتحان في الدنيا بعد وقوفهم على النار، لعادوا لما نُهوا عنه من الكفر والتكذيب، وإنَّهم لكاذبون في ادِّعائهم أنهم إذا أُعيدوا إلى حياة الامتحان، فسيكونون مؤمنين يعملون الصَّالحات.

٢٩ - وقال الكفار: ما حياتنا التي لنا في الوجود كلّه إلا حياتنا الدنيا؛ وما نحن بمبْعوثين لحياةٍ أخرى بعد الموت.

٣٠ - ولو ترى - أيها الرائي - مُنكري البعث، حين وُقفوا على موقف محاكمة ربِّهم لهم، لرأيتَ ذلّتهم واعترافهم بأنَّ ما كانوا يُكذِّبون به في الدنيا حقٌ. قال الله تعالى لهم يوم القيامة: أليس هذا الذي أنتم فيه تحسُّونه وتعيشون فيه بعد بعثكم إلى الحياة الأخرى بالواقع الحق، وهو الأمر الذي كنتم تُنكرونه في الدنيا؟ فاعترفوا بما أنكروه. وقالوا: بلى واللّهِ إنّه لحقٌّ. قال الله تعالى لهم: ادخلوا النار، فذُوقوا العذاب بسببِ كفركم وجحودكم البعث بعد الموت استكباراً واتِّباعاً للهوى.

٣١ - قد خَسِرَ الذين كذَّبوا بالبعث بعد الموت أنفُسَهُمْ، وفاتهم الثوابُ العظيم في دار النعيم المقيم، حتى إذا جاءت ساعة موت كلِّ واحد منهم، وساعة إنهاء ظروف الحياة فَجْأة، قالوا: يا نَدَامَتَنا على ما قصَّرنا وضيَّعنا في الحياة الدنيا ممَّا هو سبب نجاتنا وسعادتنا الأبديَّة، والحال أنهم يحملون آثامهم وخطاياهم الثقيلة على ظهورهم، كما تحمل البغال والحمير الأحمال الثقيلة على ظهرها. تنبَّهوا وتحقَّقوا بئْسَ ما يحملون من آثام وجرائم على ظهورهم.

٣٢ - وما هذه الحياةُ الدنيا إلا لَعِبٌ باطلٌ لا ثمرة له سوى التعب، ولهوٌ شاغلٌ عمَّا يعني ويَهُمُّ، والجنةُ خيرٌ للذين يطيعون أوامر الله، ويتَّقون العقاب على معاصيه. أفقدتُم ما وهبناكم من عقلٍ علميٍّ يُميِّز بين الحقِّ والباطل، والخير والشر، وما وهبناكم من عقلٍ إراديٍّ يضبط أهواءَكم وشهواتكم، فأنتم بسبب ذلك لا تعقلونَ؟!

٣٣ - نؤكِّد لك - يا رسول الله - تحقُّقَ حُصولِ علمنا بكلِّ ما يُحزنك حيناً بعد حينٍ مما يقولُ الكافرون لك، فإنَّهم في حقيقة الأمر لا يُكذِّبونك؛ لأنَّهم يعتقدون صدقك فيما تُبلِّغ عن ربِّك، ولكنَّ الكافرين لظلمهم يُكذِّبون بالبراهين الدالّة على نُبوَّتك، فلا تعبأ بهم ولا تهتمَّ لأقوالهم.

٣٤ - وأؤكِّد لك توكيداً مُشَدَّداً - يا رسول الله - أنَّ رسلاً من قبلك كُذِّبوا وأُوذوا كما كذَّبك قومُك وآذَوْك، فَصَبَرَ الرُّسُلُ عليهم السلام على تكذيب قومهم إيَّاهم وأذاهم، حتى أتاهم نَصْرُنا بإهلاك مَنْ كذَّبهم، فاصبر كما صبروا، فَسيأتيكَ نصرنا لك وللمؤمنين معك، ولا مُبدِّل لكلمات الله التكوينيَّة والتكليفيَّة والجزائيَّة؛ **ومنها**: سُننه في ابتلاء رسله بتكذيب الكافرين وإيذائهم لهم؛ لاختبار مقْدار صبرهم، **ومنها**: أنَّ الله لا يُجري خوارق آياتِهِ الإعجازيَّة، على خلاف سُننه التكوينيَّة، إذا كان إجراؤها عَبَثاً، لقوم جاحدين، **ومنها**: أنَّ الله لا يُعجِّل عقابَ الذين لم يستجيبوا لدعوة رسله، بل يُمْهلهم حتى آخر زمن، ليتراجعوا باختيارهم الحر عن عنادهم وإصرارهم على الباطل، ولقد جاءك - يا رسول الله - في بياناتنا السابقات بعض نبأ المرسلين الذين كذَّبتهم أممهم، فليس ما جَرَى لك - يا رسول الله - من قومك على خلاف ما جرى للرسل السابقين مع أممهم وأقوامهم.

٣٥ - وإن كان عَظُمَ عليك، وشقَّ على نفسك - يا رسول الله - الهمُّ والحزن بسبب إعراضِ هؤلاء المشركين عن الإيمان بك، وعدم إجابتهم إلى ما اقترحوا، وأحببْتَ أن تأتيَهم بآيةٍ خارقةٍ معجزة، تلبية لطلباتهم المُلِحَّة، فإن استطعتَ أن تطلب وتتَّخذ سَرَباً في أعماق الأرض تخلص منه إلى مكان آخر، أو تتَّخذ مَصْعَداً تصعدُ به إلى السماء، فتأتيَهُم بآيةٍ خارقةٍ ممَّا اقترحوا عليك تجعلهم يتَّبعونك ولا يعرضون عنك فافعل، ولن تستطيع ذلك، لأن الآيات لا يجريها ربك إلا وَفق حكمته، ولو شاء الله أن يجمعهم على الهُدى لَجَمَعَهم، ولسَلَبهم إراداتهم الحُرَّة، ولكن لم يُرد ذلك، بل أرادَ أن يمتحنهم عن طريق اختيارهم الحُرِّ، فلا يشتدَّ تحسُّرك على تكذيبهم إيَّاك، ولا تَجْزَع من إعراضهم عنك، فيقارب حالك حال الجاهلين الذين لا صَبْرَ لهم.

إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ۚ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يُنَزِّلَ آيَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ ۗ مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾

٣٦ ـ لا يستجيبُ لدعوة الحقِّ إلاَّ المؤمنون الذين لديهم استعداد لأن يسمعوا سماعاً واعياً واصلاً إلى مداركهم. والكفار الذين لا يسمعون ولا يستجيبون، يبعثهم الله يومَ القيامة من قبورهم، ثُمَّ إليه يُرجعون لا إلى غيره؛ فيجزيهم على جحودهم.

٣٧ ـ وقال رؤساء كفار قريش: هَلاَّ نُزِّل على محمَّد معجزة من ربِّه؟ قل لهم ـ يا رسول الله ـ: إنَّ الله قادرٌ على إيجاد ما طلبوه، وإنزال ما اقْترحوه من الآيات، ولكنَّ أكثرهم لا يعلمون ماذا عليهم في إنزالها من العذاب إنْ لم يؤمنوا بها.

٣٨ ـ وما من حيوانٍ يدبُّ على الأرض، أو طائرٍ يطير في السماء بجناحَيْه إلا جماعات مختلفة أشباهكم في الخَلْق والموت، والحاجةِ إلينا في الرزق والتدبير في جميع أمورها، والدلالةِ على كمال القدرة وبديع الصَّنعة في تسخيرها وتصريفها؛ فكيف تظنُّون عدم قدرتنا على إنزال ما اقْترحتم من الآيات! إنَّ ذلك جهل منكم عظيم! وما نُنزِّل الآيات، وما نتركُ إنزالها إلا على حسب ما تقتضيه الحكمةُ والمشيئة، ما ضيَّعنا في كتاب تسجيلِ أعمال الأحياء شيئاً، وما نقصنا منها شيئاً، ثُمَّ تُحشر الدوابُّ والطيور مسُوقين إلى ربِّهم يومَ القيامة، لإقامة العدل الربَّاني بينها، فَيُنصف بعضها من بعض.

٣٩ ـ والذين كذَّبوا بإراداتهم الحرة بما تدلُّ عليه آياتنا التكوينيَّة، والإعجازيَّة، والبيانيَّة، تُصيبهم بسبب تكذيبهم الإرادي ضمن مقادير الله وقوانينه السببيَّة النتائج الثلاث التالية: **النتيجة الأولى**: أن يكونوا صُمّاً عن استماع دعوة الحق، مهما كانت جليَّة واضحة، وذات أدلة برهانية دامغة، **النتيجة الثانية**: أن يكونوا بُكماً عن الإقرار بالحق والنطق به؛ لأن ألسنتهم مُوَجَّهة من قِبَلِ أهوائهم وشهواتهم ومصالحهم من الدنيا، ومن قِبَلِ شياطين الإنس والجنِّ الضالين المضلين، **النتيجة الثالثة**: أن يكونوا في الظلمات من معتقدات باطلات، وأعمال فاجرة، وقوانين جائرة، وشتات في ظلمات دامسات بمثابة العُمْي، مَنْ يَشَأ اللَّهُ الحكم عليه بالضلال، لأنه قد ضلَّ بإرادته، يحكم عليه بالضلال، ومَنْ يشأ اللَّهُ الحكمَ له بالهداية، لأنه اهتدى بإرادته، يحكم الله له بالهداية والسَّيْر في حياته على طريق مستقيم.

٤٠ ـ قل ـ يا رسول الله ـ لهؤلاء الكفار: أرأيتم أنفسَكُم إنْ أتاكم عذابُ الله قَبْلَ الموت مثل ما نَزل بالأمم الماضية الكافرة، أو أَتَتْكُم مُقدِّمات ساعة موتكم: أغيرَ الله تَدْعون في كشف العذاب عنكم، إنْ كنتم صادقين في أنَّ الأصنام تنفعكم وتكشف عنكم ضركم؟

٤١ ـ فإن قالوا: «ندعوا آلهتنا»، فقل لهم: لا تكذبوا، بل تَدعون الله، ولا تدعون غيره في كشف ما نَزل بكم؛ لأنكم تعلمون أنَّ آلهتكم لا تُغيثكم ولا تنجيكم، بل الله هو وحده الذي يُغيثكم وينجيكم، فيزيلُ ما تدعونه إلى كشفه عنكم إنْ شاء سبحانه، وتتركون دعاءَ الأصنام التي تعبدونها؛ لعلمكم بأنها لا تضرُّ ولا تنفع.

٤٢ ـ وأقسم لك مُؤكِّداً ـ يا رسول الله ـ أننا أرسلنا رسلاً إلى أمم من قبلك، فكذَّبوهم ولم يستجيبوا لدعوتهم، فانتقمنا منهم بالفقر والجوع، والأمراض والأوجاع، رغبةً أن يتذلَّلوا لربِّهم، ويخضعوا له وحده بالعبادة.

٤٣ ـ فهلاَّ تذلَّلوا لنا حين جاءهم عذابنا التأديبي الجُزئي، ولكن غَلُظت قلوبهم فلم يخشعوا ويتذلَّلوا، وأقاموا على كفرهم وتكذيبهم، وحَسَّنَ لهم الشَّيطان ما كانوا يعملون من الكفر والتكذيب والإصرار على معاصي الله.

٤٤ ـ فلمَّا تركوا ما ذُكِّروا به بمذكِّر من البأساء والضرَّاء، وما كانوا ذُكِّروا به من قبل رسل ربهم تذكيراً بيانياً بالنُّصح والإرشاد والإقناع بالحق، ولم يكترثوا بكلِّ ذلك، ولم يعبؤوا به، وسَّعنا لهم في الحياة الدنيا، وبدَّلنا مكان البأساء الرخاءَ والسَّعة في الرزق، ومكان الضَّرَّاء الصحةَ والسلامةَ في الأبدان؛ إلزاماً للحجَّة، واستدراجاً لهم، حتى إذا بطروا واستكبروا بما أُوتوا من السَّعَة والرخاء في المعيشة، قبضنا عليهم قَبْض تعذيبٍ وإهلاكٍ باستئصال شاملٍ مُباغتين لهم من حيث لا يشعرون، فإذا هم مكتئبون متحسِّرون، ساكتون منقطعو الحُجَّة، آيسون من كلِّ خير.

فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۖ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾

٤٥ ـ فاستُؤْصِلَ هؤلاء القوم الذين ظلموا بالعذاب فلم يَبْقَ منهم بقيَّةٌ. والثناءُ الكامل والشكرُ الدائم لِلَّهِ ربِّ العالمين الذي لا ربَّ لهم سواه، وهو الخالق لكلِّ الموجودات الكونيَّة، والممدُّ لها بعطاءات ربوبيَّته، فكُلُّ الثناء مُوَجَّه له على إنعامه على رسلِهِ وأهلِ طاعته بإظهار حُجَّتهم على مَنْ خالفهم، وإهلاك أعدائهم واستئصالهم بالعذاب.

٤٦ ـ قُل ـ يا رسول الله ويا كلَّ داعٍ إلى الله ـ لهؤلاء المشركين: أتفكَّرتم تفكيراً سديداً بأناةٍ وتعمُّق حتى أدركتم إدراكاً علمياً يشبه الرؤية البصريَّة، إنْ أَخَذَ اللَّهُ سمعَكم، فأصمَّكم حتى لا تسمعوا شيئاً، وأخذ أبصاركم فأعماكم حتى لا تُبْصروا شيئاً، وخَتَمَ على قلوبكم حتى لا تفقهوا شيئاً، مَنْ إلهٌ ممَّن تعبدون غيرُ الله، يأتيكم بما أخذ الله من أسماعكم وأبصاركم وقلوبكم؟ انظر ـ يا رسول الله ـ كيف نُنوِّع لهم آياتنا البيانية، ونَعْرِضُها من وجوه مُتعدِّدة، ونكرِّرها على أنحاء مختلفة، ثمَّ هم يُعرضون عنها مكذِّبين بها؟!

٤٧ ـ قُل ـ يا رسول الله ـ لهؤلاء المشركين: أرأيتم أنفسكم إنْ أتاكم عذابُ الله فَجأةً بدون توقُّع، أو أتاكم ظاهراً غير مُسْتَتر، بل مسبوقاً بمُقدِّمات دالاَّتٍ على أنه عذابٌ آتٍ من الله عزَّ وجلَّ، فلا إله غيرُ الله يصرف عنكم ما أتاكم من وسائل تعذيبكم، لا يُهْلك إهلاكاً جماعياً شاملاً بعقوبةٍ دنيويَّةٍ مُعَجَّلةٍ بمُقتضى سنَّة الله في عباده إلا القومُ الذين ظلموا أنفسهم بالشرك؟

٤٨ ـ وما نُرسل المُرسلين إلا مُبَشِّرين لمَنْ آمن بالثواب، ومُنذرين لِمَنْ أقام على كفره بالعقاب، فَمَنْ آمنَ إيماناً صحيحاً صادقاً، وأتى بما هو عملٌ صالح نافع، وأصلح من نفسه وسلوكه الفاسد، فلا خوفٌ مُسلَّطٌ عليهم عند لقاء ربِّهم، ولا هم يحزنون على شيءٍ فاتهم من حظوظ الدنيا.

٤٩ ـ والذين كذَّبوا بآياتنا الإعجازيَّة والبيانيَّة المُنزَّلة، يُصيبهم العذابُ؛ بسبب ما كانوا في حياة امتحانهم في الدنيا يخرجون عن الإيمان إلى دَرَكات الكفر والجحود.

٥٠ ـ قل ـ يا رسول الله ـ لهؤلاء المشركين: لستُ أدَّعي أنَّ عندي مفاتيح خزائن الله، فأعطيكم منها ما تريدون، وأتصرَّف فيها كما أشاء، ولا أدَّعي أنَّ الله أعطاني علم غَيْبِ السموات والأرض، فهذا العلمُ من خصائص الله، ولا أقول لكم: إنّي مَلَكٌ أَقْدِرُ على ما لا يقدر عليه البشر، ما أنا إلاَّ عبدٌ لِلَّهِ، يتَّبع ما أوحاه اللَّهُ إليه؛ فكيف تقترحون عليَّ ما لا شأن لي به! قل ـ يا رسول الله ـ : هل يستوي الجاهل بحقائق الدين الربَّانيَّة، والعالم بحقائق الدين الربَّانيَّة، أفقدتم ما وهبناكم من عقل فلا تتفكرون أنهما لا يَسْتويان!؟

٥١ ـ وخوِّفْ ـ يا رسول الله ـ بما جاء في القرآن من إنذارات بالعقاب الربَّاني، المُؤَجَّل والمُعَجَّل، الذين يخافون أن يُجمعوا ويُساقوا إلى محكمة ربِّهم يوم القيامة؛ لمحاسبتهم وفصل القضاء بشأنهم على ما قدَّموا في رحلة امتحانهم في الحياة الدنيا، حالة كونهم ليس لهم من دون الله قريبٌ ينفعهم، ولا شفيعٌ يشفع لهم، حتى يأذن الله في الشفاعة؛ رغبةَ أن يتَّقوا عقاب ربِّهم؛ ليفوزوا يوم الدين بالنعيم المقيم.

٥٢ ـ ولا تَطرد ـ يا رسول الله ـ هؤلاء الضعفاء عنك، الذين سارعوا إلى الإيمان بك، ولا تُبعدهم عن مجلسك؛ أملاً في إسلام رؤساء المشركين وسادتهم الذين استنكفوا منهم؛ لأجل ضعفهم وفقرهم، الذين يواظبون على عبادة ربِّهم لا سيما صَلاَتي الصُّبح والعصر، يطلبون بعبادتهم رضا الله عزَّ وجلَّ عنهم، ما عليك ـ يا رسول الله ـ من حساب الناس من شيءٍ إذا كفروا، بل كلُّ واحد يُحاسَب عن نفسه، فلا تَطْرُد الفقراء والضعفاء طمعاً بإيمان الكُبراء الأغنياء؛ لتتخلَّص من مسؤولية محاسبتك على عدم إيمانهم، إذ لا تتحمَّل من حسابهم شيئاً، وأنت مسؤولٌ عن تبليغ دين الله لجميع طبقات الناس على سواء، فقرائهم وأغنيائهم، ضعفائهم وساداتهم، فإذا طردتَ الفقراءَ والضعفاءَ استجابةً لطلب الأغنياء، والكبراء، فإنك تُعرِّض نفسك للمحاسبة على إبعادهم عن مجالس العلم الدينيِّ، وإنَّ أغنياء المشركين وكبراءهم الذين تريد إرضاءَهُم ليُسلموا، لا يحملون عنك من مسؤولية الحساب شيئاً، بل ستُدان وحدك بطرد الفقراء الضعفاء، وعدم تزكيتهم وتعليمهم، فطرد الفقراء والضعفاء عن مجالس العلم، ومواطن الهداية ظُلمٌ، فإذا طردتهم كنتَ من الظالمين، الذين يضعون الشيءَ في غير موضعه.

وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ ۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَكَذَّبْتُم بِهِۦ ۚ مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾

٥٣ ـ وكذلك الامتحان الذي امتحنَّا فيه بعض الناس ببعض، إذ امتحنَّا الأغنياء بالفقراء، والفقراءَ بالأغنياء، وامتحنَّا الأقوياءَ بالضعفاء، والضعفاءَ بالأقوياء، امتحنَّا كبراءَ مشركي مكة بضعفاء المؤمنين وفقرائهم، لكشف كِبْرِهم الذي دفعهم ليقولوا: أهؤلاء الفقراء مَنَّ الله عليهم من بيننا بالإسلام ومتابعة الرسول ﷺ؟ أليس الله سبحانه بأعلم بخلقه وبأحوالهم، وأعلم بالشاكرين من الكافرين؟! بلى، الله أعلم بالشاكرين له بالإيمان والإسلام والطاعة، من كلِّ ذي علم؛ لأنه محيط بكلِّ ما في نفوسهم وقلوبهم وأعمالهم.

٥٤ ـ وإذا جاءك ـ يا رسول الله ويا كُلَّ حامل رسالتِهِ من أُمَّته ـ الذين يُؤْمنون بآياتنا المُنزَّلات في القرآن، فقل لهم: سلَّمكم الله في دينكم وأنفسكم، فَرَضَ ربُّكم على نفسه الرحمة تفضُّلاً منه وكرماً، وكتب ذلك في اللوح المحفوظ، أنَّ الشأن ذا الخطر، مَنْ عمل منكم ـ أيها المؤمنون ـ سُوءاً بجهالةٍ من الجهالات النفسيَّة، التي تضعف معها إرادته، ثمَّ تاب من بعد ارتكابه ذلك السُّوء، ورَجَعَ إلى طاعة ربِّه نادماً، وأَصْلَح العملَ في المستقبل، واستقام على الطريقة التي شرعها الله لعباده، فإنَّ الله يغفر له ويرحمه؛ لأنَّه كثير السَّتر لمن تاب من ذنوبه، دائم الرحمة بعباده.

٥٥ ـ ومِثْلَ ذلك التفصيل الذي فصَّلناه في الآيات السابقات، نُفصِّلُ الآياتِ في سُور القرآن، ونجوم التنزيل التي نُنْزِلُها، بتمييز بعضها عن بعض؛ ليظهر لك ـ يا رسول الله ـ طريق الحق المستقيم، ولتَظْهَر ولتَتَّضح لك طريقُ هؤلاء المجرمين، الذين سوف يكونون يوم القيامة خالدين في عذاب الجحيم.

٥٦ ـ قل ـ يا رسول الله ـ لهؤلاء المشركين: إني نُهيتُ عن أن أعبدَ الأصْنام التي تعبدونها أنتم من دون الله. قُل ـ يا رسول الله ـ لهؤلاء المشركين أيضاً: لا أتَّبع أهواءَكم المُضِلَّة، فإني إنْ عَبَدْتُ ما تعبدون من دون الله، واتَّبعت أهواءكم، أكون قد ضَلَلْتُ إذن، وما أنا من المُهْتدين.

٥٧ ـ قل ـ يا رسول الله ـ للَّذين لم يستجيبوا لدعوتك: إنَّ ما أدعوكم إليه هو حقٌّ من ربِّكم، وإني أملكُ مِلْك تمكُّن واستعلاء، بيِّنةً برهانيَّةً من ربي تُثبت أنَّ ما أدعوكم إليه هو الحقُّ والصِّدق، وأنتم كذَّبتم به دون أن تملكوا دليلاً مَّا تُعذرون به، فاعلموا أنَّ عذاب الله سيحلُّ بكم، وقل لهم: ليس في مَقْدرتي إنزال ما تستعجلون به من العذاب الذي سَبَق أن أنذرتكم به، بلاغاً عن ربي، والله سبحانه لا يُجري إنذاراته إلا في آجالها الحكيمة، ما الحكم المُطْلقُ في الكون إلا لِلَّه، الذي يفْصلُ بين المُختلفين، يَتَتَبَّعُ الحقَّ الذي يكون اختيارُهُ هو الأحكم، فيُنهيه بقضائه المُبْرَم حُكماً، ثم يُنفِّذه في أجله، وهو جلَّ جلاله خيرُ من بيَّن وفَصَل بين المُحِقِّ والمُبْطل؛ لأنَّه لا يقع في حُكمِهِ وقضائِهِ جَوْرٌ ولا حَيْفٌ على أحدٍ من خلقه.

٥٨ ـ قُل ـ يا رسول الله ـ لهؤلاء المشركين المُسْتعجلينَ لنزول العذاب: لو أنَّ ربِّي مَلَّكني القدرة على إنزال ما تستعجلونَ به من عذاب، وأعطاني التفويض بذلك، لاخْتَرتُ أن أُلبِّي طلبَكُم، ولأنزلتُ عليكم العذاب المُهلك، رغبةً في التخلُّص من شروركم، ولكنَّ الله لم يعطني هذه القدرة، ولم يمنحني هذا التفويضَ باختيار تعذيبكم وهلاككم؛ فالأمر يجب أن يكون متروكاً لله، واللَّهُ أعلمُ بالظالمين الذين تجاوزوا حدَّهم فأشركوا معه غيره، وأعلم بما يستحقُّون من العذاب، والوقت الذي يستحقُّونه فيه.

٥٩ ـ وعند الله وحده لا شريك له جميع مفاتيح كلِّ الغيب التي يُتَوصَّل بها إلى معرفة حقائق عالم الغيب، لا يعلم مفاتح الغيب كلَّه إلا هو سبحانه وتعالى، ويعلمُ كلَّ ما في البرِّ والبحر من أشياء وأحياء، حتى بواطن الذرّات، ويعلم عدد ما يسقط من الورق وما بقي على الشجر، ويعلم كم انقلبت ظهراً لبطن إلى أن تسقط على الأرض، ولا توجد من حبةٍ تكون في بطْن الأرض قبل أن تنبت، ولا كائن من رَطْبٍ لين ولا يابسٍ جامد، مهما كان صغيراً أم كبيراً، إلا هو معلومٌ للَّهِ عزَّ وجلّ، ومُثْبَتٌ في اللوح المحفوظ عنده بكلِّ صفاته وتحرُّكاته.

وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾

٦٠ - والله وحده الذي يتوفّاكم إذا نمتم بالليل، بالفصل الجُزئيّ بين أرواحكم ونفوسكم، ويعلم ما كَسَبْتُم بجوارحكم من الخير والشرّ في النّهار، ثـمَّ بعد نـوم يطولُ أو يقْصُرُ يُوقظكم في النهار بإعادة الاتّصال بين الروح والنَّفْس؛ لاستيفاء آجالكم المُحدَّدة في الدنيا، ثمّ يميتكم وتعود أجسادكم تراباً، ثمّ يبعثكم من موتكم بعد مُدَّة البرزخ الفاصل بين الموت والبعث، ويردُّ أرواحكم إلى نفوسكم، ثمّ إليه سبحانه وحده بعد البعث يكون رجوعكم، وإليه سبحانه تعيين زمان رجوعكم، وتهيئة مكانه؛ لتُلاقوا حسابكم، وفصل قضائه في كلِّ واحدٍ منكم، ثم في محكمته يُنَبِّئُكم بما كنتم في حياة ابتلائكم تعملون.

٦١ - والله وحده المُقْتَدر على عباده، الغَالبُ لهم، الذي لا يُعجزه شيء أراده، ولا يستطيع أحدٌ أن يَخْرج عن تدبيره وتقديره، ومِنْ جُملة قهره لعباده: إرسالُ الحَفَظَة الملائكة الذين يحفظون أعمال بني آدم من الخير والشّر، ويحفظونهم من المخاطر والمُؤذيات، حتى إذا انتهت مُدَّة حياة أحدكم، ونزل به الموت، تَوَفَّتْهُ الملائكة المُوكّلون بِقَبْض أرواح البشر، بفصل روحه عن نَفْسِهِ فصلاً كُليّاً وهم لا يُقَصِّرون فيما أُمروا به ولا يتوانَوْن.

٦٢ - ثم رُدَّ العبادُ بالبعث بعد الموتِ إلى مُلاقاة اللّه مالِكِهم وسيِّدهم الحقِّ الثابت الذي لا شكَّ فيه، تنبَّهوا وتحقَّقوا، له القضاءُ في كلِّ شيء، وهو أَسْرَعُ مَنْ يتولّى الحساب والجزاء بين الخلائق.

٦٣ - قل - يا رسول الله - لهؤلاء الكفار: مَنْ ذا الذي يُنَجِّيكم من شدائد وأهوال تحيط بكم في ظلمات البرّ والبحر؟ فترجعون إلى الله وتخلصون له في الدعاء تذلُّلاً وسرّاً قائلين في حال الدعاء: نُقْسم لَئِن أنْجَانَا ربُّنا من هذه الكربة العظيمة، وخَلَّصنا من الهلاك، لنكوننَّ لك على هذه النعمة من الشّاكرين، بالإيمان الصادق الصحيح، والأعمال الصالحة الخالصة.

٦٤ - قل لهم - يا رسول الله -: اللّهُ سبحانه يُخلِّصكم من الظُّلمات والشَّدائد، ومن كلِّ غمٍّ شديد، ثمَّ أنتم بعد إقراركم بأنَّه سبحانه الذي أنجاكم من هذه الشدائد، تُشركون معه الأصنام التي لا تضرُّ ولا تنفع.

٦٥ - قل - يا رسول الله - لقومك: إنَّ الله هو القادر على أن يَبْعَثَ عليكم وسائل تعذيب لكم، تُصبُّ عليكم من فوقكم كالرَّجْم والطُّوفان، أو من تحت أرجلكم كالخَسْفِ والرَّجفة، أو يَخلِطكم فيجعلكم فِرَقاً مختلفين، وبذلك يذوق بعضكم بأس بعض، بالتسلُّط بالحروب المُدمِّرة للأفراد والأُسر والجماعات. انظُر - أيها الناظر المتفكر - كيف نُنوِّع دلائلنا وحُجَجنا لهؤلاء المُكذِّبين، ونكرِّرها بأساليب مختلفة؛ رغبةً منا أن يفهموا حقائق الأمور، فيرجعوا عمَّا هم عليه من الكفر والتكذيب.

٦٦ - ومع هذا التنويع في بيان الآيات، كذَّب بالقرآن قومُك، وهو الحقُّ الثابت الذي قام الدليل عليه، وشهدت له البيِّنات. قل - يا رسول الله - لهؤلاء المُكذِّبين: أنا لا أقيكم ولا أحميكم من عذاب ربِّكم الذي تستحقُّونه بِشِرككم، لأنني لست مُتكفِّلاً بأموركم، إنما أنا رسولٌ مُبلِّغٌ عن ربِّي ما يأمرني بتبليغه.

٦٧ - لكلِّ خبرٍ عظيم جاء الإخبارُ به في القرآن من الأنباء المُستقبَلَة حقيقةٌ ومُنتهى ينتهي إليه في زمانٍ ومكانٍ معلومَيْن مُحَدَّدَيْن، إمَّا في الدنيا وإمَّا في الآخرة، وسوف تعلمون - أيُّها المُكذِّبون - صِحَّة هذا الخبر حينما تشاهدون تحقّقه في الواقع إمَّا في الدنيا وإمَّا في الآخرة.

٦٨ - وإذا كنت - يا رسول الله ويا كلَّ مؤمن - قاعداً مع كافرين، تدعوهم إلى الله، ورأيتهم يتحدَّثون، وسمعتهم يطعنون في آياتنا، ويسخرون منها، مُعلنين كفرهم بها، فَأدِرْ عارضَ وجْهك عنهم، ولا تُجالسهم حتى يكون خَوْضهم في غير الحديث الذي كانوا يخوضون فيه كفراً بآياتِ الله واستهزاءً بها، وإنْ أنساكَ الشّيطان هذا الأمر نسياناً مُؤكّداً، فَقَعدْتَ معهم، ولم تُعلن كراهيتك لحديثهم بصورة عمليَّةٍ، فَقُمْ عنهم، ولا تقْعد بعد تذكُّرك مع القوم الظالمين الذين يكفرون بآيات الله، ويستهزؤون بها. وفي هذه الآية وجوب اجتناب مجالس الملحدين وأهل المعاصي والأهواء. واستدلَّ بهذه الآية على أن الناسي غير مكلَّف لسقوط الإثم عنه، وأنه إذا ذُكِّر عاد إليه التكليف، فيقلع عما ارتكبه في حال نسيانه.

وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾

٦٩ ـ وما على المؤمنين المستضعفين الذين يتَّقونَ الله في قلوبهم، ويتَّقون شرَّ الكافرين أعداء الله في ظاهرهم، من حساب المشركين ولا آثامهم من شيء، إذا جالسوهم؛ لأنهم منكرون في قلوبهم، غير موافقين ولا راضين، ويخشون من مفارقة مجالس الخائضين أن يتعرّضوا للأذى والاضطهاد، ولكن عليهم أن يُذكّروهم؛ لعلَّ تلك الذكرى تمنعهم من الخَوْض والاستهزاء في آيات الله.

٧٠ ـ واترك ـ يا رسول الله ويا كُلَّ داعٍ إلى الله ـ هؤلاء المشركين الذين اتَّخذوا دينهم الذي أُمروا به وَدُعوا إليه، شيئاً يلعبون به، ويَلْهون؛ لأنهم يتصوَّرون أنَّ صرف شيءٍ من طاقاتهم للعبادة ضربٌ من اللعب الذي لا يَجْلب نفعاً، ومن اللهو الذي يصرفهم عمَّا ينبغي أن يُوجِّهوا طاقاتهم له، من متاع الدنيا، وسبب اتِّخاذهم دين الله لهواً ولعباً، هو أنهم خدعتهم الحياة الدنيا، فحسبوا أنها كل شيءٍ في وجودهم، وأنه ليس وراءها حياةٌ أخرى يكون فيها الحساب والجزاء، فلا تعبأ بهؤلاء ولا تشغل نفسك بدعوتهم، وذكِّر بالقرآن مَنْ لم يصل إلى دَرَكةٍ ميؤوسٍ منه وهُوَ فيها؛ مُحَذِّراً من أن تُحبس نفسٌ وتُرتَهن في جهنَّم، وتُحرم من الثواب في الآخرة؛ بسبب ما كَسَبَتْ من الآثام في الدنيا، ليس لتلك النفس التي هَلَكَتْ من دون الله قريبٌ يلي أمرها، ولا شفيعٌ يشفع لها في الآخرة. وإنْ تَفْتَدِ تلك النفسُ الآثمة مُقدِّمةً كلَّ فداء للنجاة من العذاب، لا يُؤْخذ ذلك الفداء منها، ولا يُقبل ما تفتدي به، على أنها لن تجد ما تُقدِّمه فداءً، ولا تملك إلا ما قدَّمت من عملٍ صالحٍ في الحياة الدنيا. أولئك الكَفَرةُ البُعداء المنحطُّون في اتِّجاه الدَّرْك الأسفل، هم الذين حُبسوا مُعَذَّبين في جهنم يوم الدين؛ بسبب ما اكتسبوا من الأعمال القبيحة في الحياة الدنيا، لهم في النار شرابٌ شديد الحرارة، وعقاب مُؤلم لهم إيلاماً شديداً، بسبب كفرهم الذي اكتسبوه في رحلة امتحانهم في الحياة الدنيا.

٧١ ـ قل ـ أيها الداعي إلى الله ـ للمشركين الذين توجَّهوا لدعوتكم إلى عبادة آلهتهم: أنعبدُ الأصنام التي لا تنفع مَنْ عَبَدَها، ولا تَضُرُّ من ترك عبادتها، ونرجع منقلبين على أعقابنا من الارتقاء إلى الانتكاس في هاويةٍ سحيقة، بعد وقت هداية الله لنا، دعوةً عن طريق رسوله، وتوفيقاً بتحبيب الإيمان لنا، وشرح صدورنا للإسلام وتطبيقه في سلوكنا؟ كالذي اسْتَمَالَتْهُ شياطين الإنس والجنِّ بِزُخرف أقوالها، فألْقَتْهُ في هاويةٍ سحيقة من الأرض، تائهاً ضالاًّ، لا يدري ما يصنع، لهذا المُتحيِّر أصحابٌ مؤمنون مسلمون كان معهم على الطريق المستقيم قبل أن تستَميله الشياطين إلى مَسَالكها، يدعونه إلى الهُدى، يقولون له ناصحين مُرشدين: ائْتِنا؛ فلا يجيبهم.

قل ـ يا رسول الله ويا كلَّ داعٍ إلى سبيل ربِّه من أمته ـ: إنَّ طريق الله الذي أوضحه لعباده، ودينه الذي شرعه لهم هو وحده الهدى والنور، وكل ما هو مُضادٌّ له باطل، وقل لهم أيضاً: أُمِرنا جميعاً بالتكاليف والشرائع الدينية؛ لأجل أن نُسْلِمَ ونُخْلص العبادة لربِّ العالمين؛ المهيمن علينا وعلى جميع العالمين بصفات ربوبيَّته، الشاملة للعطاء والمنع، والضر والنفع، وبهذا الإسلام نحقِّق عبوديَّتنا لخالقنا ومالكنا ومُمدِّنا دواماً بعطاءاته.

٧٢ ـ وبعد أن أعلنَّا لكم ما اخترناه لنفوسنا، ندعوكم إلى توحيد الله، وإخلاص العبادة لربِّ العالمين، وبأن داوموا على أداء الصلاة في أوقاتها، على الوجه الشَّرعيِّ المطلوب، واجعلوا بينكم وبين عذابِ معصية الله وقايةً، وهو وحده الذي إليه تُحشرون يوم القيامة، فيجزيكم بأعمالكم.

٧٣ ـ والذي إليه تحشرون هو الذي خلق السَّموات والأرض خلقاً مُتَّصِفاً بأنَّه حقٌّ ثابت، فَمَنْ زَعَم أنه ليس بعد هذه الحياة الدنيا حساب ولا جزاء، لزمه أن يدَّعي أن الله سبحانه قد خلق هذا الخلق باطلاً وعبثاً، تنزَّه الله تعالى عن ذلك. واذكر ـ يا رسول الله ـ يوم القيامة إذ يقول الله سبحانه لكلِّ شيء تمَّ به قضاؤه: «كن» فيكون بمقتضى أمر التكوين. قولُ الله تبارك وتعالى هو الحقُّ الكامل الذي لا باطل فيه، واستقرَّ المُلك لله تعالى وحده في ذلك اليوم، لا يدَّعيه يومئذٍ أحدٌ ممَّن كان يدَّعيه في الدنيا، يَنْفُخ المَلَكُ إسْرافيل في «القرن» النفخة الثانية التي تكون بها عودة الأرواح إلى الأجسام؛ إنَّه تعالى يعلمُ ما غاب عن عباده وما يشاهدونه، فلا يغيب عن علمه شيءٌ، وهو الحكيم في جميع أفعاله وتدبير خلقه، الخبير بكلِّ ما يفعلونه من خيرٍ أو شرٍ على سبيل الشهود والحضور المُصَاحِبِ لكلِّ أجزاء العمل، ظواهره وبواطنه.



﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾﴾

٧٤ ـ وضع في ذاكرتك ـ أيها المُتلقِّي لآيات القرآن ـ قولَ إبراهيم عليه السلام لأبيه آزر: أتصنع بيديك أصناماً مُتَّخذاً إيَّاها آلهة تعبدها من دون الله الذي خَلَقَكَ وَرَزَقَكَ؟ وهي لا تضرُّ ولا تنفع، ولا تستحقُّ الإلهيّة؛ بل هي مما تصنعون بأيديكم! إني أراكَ وقومَكَ الذين يعبدون الأصنام معك في ضلال وضَيَاع ظاهر عن طريق الحق.

٧٥ ـ وكذلك الفهم الذي فهَّمناه إبراهيم بشأن بطلان عبادة الأصنام، وأنَّ عابديها في ضلال مبين، كنَّا نُري بتَتَابع مُتجدِّد إبراهيم مِلْكنا العظيم للسموات والأرض، وسلطاننا وعزَّتنا وقدرتنا على التصرُّف في كلِّ شيءٍ فيهما، رؤية فكريَّة عقلية، مُستندةً إلى إدراكات حسيَّة؛ ليكون ذا حُجَج برهانيَّة يُثبتُ بها، أنَّه لا ربوبيَّة في الكون إلا لنا، ولا إلهيَّة بحقٍّ في الكون إلا لنا، وليكون هو في ذاته من الراسخين في الإيمان العالمين علماً لا يخالطه شكٌّ.

٧٦ ـ فحينما أظلمَ على إبراهيم عليه السلام الليلُ وسَتَرَهُ بسَوَاده، رأى كوكباً في السماء، كان يعبده قومُه، فأراد أن يستدرج قومه ويُعرِّفهم جهلهم وخطأهم في تعظيم النجوم وعبادتها، قال على سبيل الطَّرح الاحتمالي، لا على سبيل الاعتقاد الجازم: هذا ربي المهيمن بصفات ربوبيَّته عليَّ وعلى سائر الكون، فإذا ثبتت ربوبيَّته، وَجَبَتْ عليَّ عبادته، فحينما غاب النجم الذي طَرَح احتمال كونه رباً، قال: لا أُحِبُّ رباً يغيبُ ويَطْلع؛ لأنَّ أماراتِ الحدوث فيه ظاهرة؛ وإنما أحبُّ عبادة ربِّي الحق، الذي لا تعرض له عوارض الحدوث.

٧٧ ـ فلمَّا رأى القمر طالعاً مُنْتَشرَ الضَّوء، قال لقومه ـ على سبيل الفرض وإرخاء العِنان، مُجاراةً مع عُبَّاد الكواكب، ليثبت أن الربَّ لا يجوز عليه التغيُّر والانتقال ـ : هذا ربي، فحينما غاب القمر قال: لَئِنْ لم يُثبِّتني ربِّي على الهُدى، لأكُونَنَّ من القوم الضَّالِّين الضائعين عن إدراك الحق بشأن الربِّ الذي يجب عليَّ أن أؤمن به، وأن أعبده، ولا أشركَ به شيئاً.

٧٨ ـ فحينما رأى الشَّمس طالعةً قال لقومه: هذا أكبر من الكوكب والقمر، فلما غربت الشمس آفلةً آخر النهار، قال: يا قوم إني بريءٌ ممَّا تُشركون من عبادَةِ النُّجوم والأصنام التي تعبدونها من دون الله.

٧٩ ـ إني جعلت وجهي، وصَرَفْتُ عبادتي، وَقَصرتُ توحيدي لِلَّذي خَلَق السَّموات والأرض وأوجدهما على نظام الفطْر والشقِّ والفلْق من نقطة العدم بأمره التكويني، حالة كوني مائلاً عن عبادةِ كلِّ شيءٍ سوى اللَّهِ، وما أنا من المشركين باللَّهِ شيئاً من خلقه.

٨٠ ـ وجادَلَهُ قومُهُ في توحيد الله، فقال إبراهيم: أَتُجَادِلونني في الله الذي تؤمنون أنتم به، ولكنَّكم تُشركون به ما لم يُنزِّل به حُجَّةً مُلزمةً، وقد هداني بالدليل البرهانيِّ إلى أنه لا شريك له في ربوبيَّته ولا في إلهيَّته؟! ومهما خوَّفتموني بضُرٍّ يأتيني مِنْ آلهتكم، فإنَّني لا أخاف أن يأتيني ضُرٌّ أو أذىً من جهتها، فإنَّها جَمَاداتٌ لا تضرُّ ولا تنفع، ولكن الخوف ممَّن يقدر على النفع والضُّر، إنْ يَشَأْ ربي شيئاً كان ما يشاء، ومشيئتُه لا تفارق حكمَتَهُ، وقد أحاط علمُهُ بكلِّ شيء، فلا يخرج شيءٌ عن علمه، أتصرُّون على باطلكم، فلا يُؤثِّر فيكم هذا التذكير لكم بالحقِّ الموجود في أعماق قلوبكم عن اللَّهِ ربِّكم، فيدفعَكُم إلى نَبْذ ما أنتم فيه من شرك، وإلى البُعد عن كلِّ مجادلةٍ بالباطل.

٨١ ـ وفي أيَّةِ حالٍ من الأحوال أخافُ ضراً أو أذىً يَنزل بي من قبل الأصنام التي جعلتموها شركاء للَّهِ زُوراً وكذباً، وهي لا تضرُّ ولا تنفع، وأنتم لا تخافون من الله، وقد أشركتم بعبادته، ما ليس لكم فيه حُجَّةٌ وبرهانٌ؟ أخبروني يا قوم: أيُّ الفريقَيْن أَوْلى بالأمنِ من عذاب الله يوم القيامة: المُوحِّد الذي عَبَد مَنْ بيده النفع والضُّر، أم المشرك الذي عبد ما لا يضرُّ ولا ينفع بلا دليل ولا برهان؟ إنْ كنتم تعلمون من الأحقُّ بالأمن فاتَّبعوه.

﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾﴾

٨٢ ـ الذين يستحقُّون الأمنَ يوم القيامة هُم الذين آمنوا بالله وحده إيماناً صحيحاً صادقاً، ولم يَخلطوا إيمانهم بِشرك في ربوبيَّته أو إلهيَّته، أولئك الذين هم رفيعو المكانة عند ربِّهم، لهم الأمنُ يوم القيامة من مخاوف عذاب النار، بتسليم الله لهم، وحفظهم ورعايتهم، والعفو عن ذنوبهم، وزحزحتهم عن النَّار، وإدخالهم الجنة، وأولئك هم مهتدون إلى سبيل الرشاد.

٨٣ ـ وتلك الحُجَّة التي احتجَّ بها إبراهيم على قومه، واستدلَّ على حدوث الكواكب بالأُفول، هي حُجَّتُنا التي وفَّقناه إليها حتى انقطعت حُجَّتهم. نرفع بحكمنا المبنيِّ على علمنا الشامل مَنْ نشاء من عبادنا مراتب في الدنيا وفي الآخرة، إنَّ ربَّك حكيمٌ في جميع أفعاله، عليمٌ بجميع أحوال خلقه.

٨٤ ـ وَوَهَبْنا لإبراهيمَ إسحاقَ ابناً لصُلْبه، ويعقوب بن إسحاق ولد ولدِهِ، هَدَيْنا كلَّ واحدٍ من هؤلاء الثلاثة إلى سبيل الرشاد، ومن قبل إبراهيم أرشدنا نوحاً ووفَّقناه للحقِّ والصَّواب، وَمَنَنَّا عليه بالهداية، وكذلك وفَّقنا للحقِّ من ذُرِّيَّة إبراهيم: داودَ، وابنه سليمان، وأيوبَ، ويوسُف بن يعقوب، وموسى، وهارون، ومثلَ ذلك الجزاء الذي مَنَنَّا به على هؤلاء المذكورين من الرسل، نَجْزي سائر المحسنين على إحسانهم.

٨٥ ـ وكذلك هَدَيْنا زكريا، ويحيى بن زكريا، وعيسى ابن مريم، وإلياس، كلٌّ مَنْ ذكرنا وسمَّينا من الصَّالحين الكاملين في الصلاح.

٨٦ ـ وَهَدَيْنا كذلك إسماعيل بن إبراهيم، والْيَسَع، ويونُس، ولوطاً، وكل هؤلاء الرُسُل فضَّلنا على عالَمي زمانهم؛ إذ وجدناهم مُستحقِّين لهذا التفضيل.

٨٧ ـ ومن بعض آباء الذين سَمَّيْناهم من الرسل، ومن بعض ذُرِّيَّاتهم، ومن بعض إخوانهم، كانوا محسنين، وكانوا من الصَّالحين، واخْتَرناهم واصطَفَيْناهم للنبوَّة، وأرشَدناهم إلى دين الحق، بما أنزلنا عليهم من شرائع وأحكام، وكلَّفناهم أن يُبلِّغوها لأُممهم وأقوامهم.

٨٨ ـ ذلك الهُدى العظيم الذي اشتملت عليه الرِّسالات التي أنزلناها على رُسلنا، هو هُدى الله، يهدي به الله مَنْ يشاء من عباده، إذْ يصطفيهم فيجعلُهُم رسلاً يَتلقَّوْن عنه هُداه، ويُبلِّغونه إلى أممهم، ولو أشرك هؤلاء المُصْطَفَوْن بالنبوَّة الذين سَمَّيناهم، لَبَطَلَ وذَهَبَ عنهم ما كانوا يعملون من الطاعات، ولَسَلَبهم الله ما فضَّلهم به، ولعاقبهم على شركهم، لكنهم ما أشركوا، بل كانوا جميعاً مُؤهَّلين لما اجْتباهم الله له.

٨٩ ـ أولئك الرسل رفيعو المكانة، الذين سَمَّيْنَاهم، أعطَيْناهم الكتبَ التي أنزلناها عليهم، وآتيناهم العلم والفهم والإصابة في القول والعمل، وشرَّفناهم بالنبوَّة، فَإِنْ يكْفُر برسالتك ـ يا رسول الله ـ كُبراء قومك في مكة، الذين ترغب في أن يحملوا رسالتَك، ويكونوا وكلاءَك في تبليغها للناس، فقد وكَّلنا عنك بتبليغها للناس، قوماً ليسوا بها بكافرين، بل هم مؤمنون مسلمون دعاة إلى الله، وهم الذين آمنوا وأسلموا من أصحاب محمد، والذين علم أنهم سيُؤمنون ويُسلمون، ويقومون بتبليغ رسالةِ الرسول محمدٍ ﷺ إلى الناس أجمعين.

٩٠ ـ أولئك النَّبيُّون الذين تقدَّم ذكرهم، والذين لم نذكر بالتفصيل أسماءَهم، بل أجملناهم بعبارة: ﴿وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ﴾ هم المخصوصون بالهداية، فاتَّبع ـ يا رسول الله ـ هُداهُم، واسْلُك سبيلَهم.

قل ـ يا رسول الله ـ للمشركين: لا أَطْلب منكم على تبليغ الرسالة، وعلى ما أقوم به من أجل سعادتكم ونجاتكم عِوَضاً من الدنيا، ما القرآن الذي جئتكم به من عند ربِّكم إلا تذكيرٌ لجميع العالمين من الجنِّ والإنس، وليس لكم وحدَكم، فإنْ آمنتم وأسلمتم فهو لخيركم، وإن كفرتم فقد أعْتَدَ ربُّكم لكم عذاباً أليماً في الجحيم يوم الدين.

وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ وَهَـٰذَا كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَـٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَـٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَـٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَـٰٓؤُا۟ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾

٩١ - وما عظَّم كُبراءُ مُشركي مكة اللَّهَ حقَّ عَظَمتِهِ، ولا عَرَفوه حقَّ معرفته عندما قالوا مُردِّدين مَقُولة أحبار اليهود: ما أنزلَ اللَّهُ على بشرٍ من شيء. فاتَّهموه سبحانه بالعجز عن إنزال الكتب الربَّانيَّة، واستهانوا بعقاب الله على تكذيب رسله فيما يُبلِّغون عن ربِّهم، وهم مُؤيَّدون منه بالمعجزات الباهرات، ولو أنَّهم قدروا الله حقَّ قدره لعلموا أنه قديرٌ على ما يشاء، ولعلموا أنَّه يعاقب من كذَّب رسله الصَّادقين بالخلود في عذاب النار يوم الدين. قل - يا رسول الله - لهؤلاء اليهود الذين أوْحَوا إلى كفار قريش هذه المقولة الافترائيَّة: مَنْ أنزل التوراة على موسى نوراً للناس من ظلمة الضَّلالة، وهادياً إلى الحقِّ وطريق السعادة؟ تجعلون كتاب التوراة أوراقاً مكتوبة مُفرَّقة؛ لتَتَمكَّنوا من إبداء ما تريدون إبداءه منها، وإخفاء الكثير منها، بحَسَب أهوائكم؛ لئلا تكونَ حُجَّةً عليكم، وإنَّكم - يا معشر اليهود - عُلِّمتم في هذا القرآن الذي تجْحدونه ولا تؤمنون به ما لم تعلموا قبل إنزاله أنتم ولا آباؤكم من قبلكم.

قل - يا رسول الله - : الله تعالىٰ الذي أنزل الكتابَ الذي جاء به موسى، ثمَّ دعهم فيما هم فيه من باطلهم وكفرهم يُضيِّعون أعمارهم وطاقاتهم في أعمال باطلة لا خيْرَ فيها، كَمَنْ يخوض في الماء فيعكِّرهُ بالطين الراسب في القاع، فيفسد صفاء الماء، فهم في خوْضهم على غير هُدى، فلا يعملون أعمالاً لها نتائج نافعة، بل نتائجها ضارَّة لهم، ثمَّ يلاقون مصيرهم عذاباً في جهنَّم خالدين فيها.

٩٢ - وهذا القرآنُ كتابٌ أنزلناهُ من عندنا عليك - يا رسول الله - كثير الخير والبركة، دائم النفع، لا تنضب فيوض معانيه، موافقٌ لما في التوراة والإنجيل وسائر الكتب الإلهيَّة المُنزَّلة قبله في أصولها الصحيحة قبلَ التحريف، ولتُنْذِرَ - يا رسول الله - بما جاء في القرآن من إنذارات أهلَ مكة وجميعَ البلاد التي حولها امتداداً في الأرض حتى آخرِ ساكنٍ فيها؛ لعمُوم بعثتك للناس كافَّة، ويقوم معك بالإنذار الدعاة من أمَّتك على تتابع الأجيال. والذين يُصَدِّقون بالآخرة التي تكون بعدَ البعث، ويؤمنون بما فيها من حساب، وفصل قضاء، وتنفيذ جزاء، ، يُصَدِّقون بهذا الكتاب، وأنَّه مُنَزَّلٌ من عند الله عزَّ وجل، ويُداوِمون على صَلاتهم في أوقاتها، مُسْتَوفيةَ الشروط والأركان والواجبات.

٩٣ - لا أحدَ أعظمُ خطأً وأجهلُ فعلاً ممَّن وقع في واحد من هذه القضايا الكفريَّة التي هي من أظلم الظلم: **القضيَّة الأولى**: اخْتَلَقَ على الله كَذِباً، فادَّعى أنَّ الله قال كذا، أو حَكَم بكذا، أو أنزل كذا، وهو لم يقل ولم يحكم ولم يُنزل ما ادَّعاه المُفْتري، **والقضية الثانية**: ادَّعى كذباً أنَّ الله أَوْحى إليه ولم يُوحِ إليه شيئاً، **والقضيَّة الثالثة**: مَنْ قال: سَأُنْزِلُ مثلَ ما أنزل الله من القرآن؛ ليُوهم بأنَّ ما يُبلِّغه محمدٌ عن ربِّه وضعٌ بشريٌّ، وليس مُنَزَّلاً من عند الله عزَّ وجلَّ.

ولو ترى - أيها الرائي - حالَ هؤلاء الظالمين في سَكَرات الموت وشدائدِهِ، لرأيتَ شدَّةَ ما هم فيه من عذاب عظيم. والحال أنَّ الملائكةُ باسطوا أيديهم لقبْض أرواحهم، يقولون لهم: خلِّصوا أنفسكم من العذاب. اليوم تُهانون غاية الهوان والذُّل؛ بسبب ما كُنتم تقولون كاذبين على الله غيرَ الحق؛ وبسبب ما كنتم تَسْتَكبرون في أنفسكم مُمتنعين عن اتِّباع آيات الله.

٩٤ - ونقْسم مُؤكِّدين أنكم جِئْتُمونا للحساب والجزاء وفصل القضاء يوم القيامة وحداناً حُفاةً عراةً غُرلاً - غير مختونين -، كما خلقناكم أوَّل مرَّةٍ، لا يملك أحدٌ أن ينصر أحداً، أو أن يسْتنصر بأحد، وتركتم الذي أعطيْناكم وَملَّكناكم من الأموال والأولاد والخدم وراءَ ظهوركم في الدنيا، غير قادرين على أن تَجْلبوا معكم منه شيئاً، وما نرى معكم في الآخرة الأصنام التي زعمتم أنَّها تشفع لكم، وتدَّعون أنَّها شركاء لِلَّهِ في العبادة، لقد تقطَّع الاتِّصال الذي كان بينكم وبين آلهتكم في الدنيا واضْمَحلَّ، فلا أنتم اليومَ تعبدونَهم، ولا هم يملكون أن يشفعوا لكم، وضاع مُبتعداً عنكم بُعداً سحيقاً ما كنتم تزعمون بشأن شركائكم ومعتقداتكم الباطلة.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾﴾

٩٥ - إنَّ الذي يستحقُّ العبادة دون غيره هو اللَّهُ الذي يُنَبِّهكم على هذه الآيات الكونيّة: **الآية الكونيّة الأولى**: يشقُّ الحبّةَ اليابسةَ، فيخرج منها النبات الأخضر النامي، ويشقُّ النَّواةَ، فيُخرج منها الشَّجر، **الآية الكونيّة الثانية**: يُخرج الحَيَّ من ذات الميّت، فيجعل الميّتَ حيّاً بنفخ الروح في النَّفس بأمره التكوينيِّ مباشرةً، ويُخرج الميِّت من ذات الحي، فيجعل الحيَّ ميّتاً بنزْع الروح عن النفس، ذلكم العظيم الجليل هو اللَّهُ المُدبِّر الخالقُ لهذه الأشياء، فكيف تُصْرفون عن عبادته، وتُشركون به ما لا يقدر على شيء من فعله؟!

٩٦ - **الآية الكونيّة الثالثة**: اللَّهُ سبحانه شاقُّ ظلمةَ الإصباح - وهي الغَبش في آخر الليل - عن بياض النهار، فيمتدُّ ضياءُ الشمس على الأرض، ويضمحل الظلام شيئاً فشيئاً، **والآية الكونيّة الرابعة**: جَعَل الليل زماناً تسكن إليه النفوس، وتجد فيه راحةً وأنساً وطمأنينةً، **والآية الكونيّة الخامسة**: قدَّر حركةَ الشمس والقمر في الفَلكِ بحساب مُقدَّر معلوم لا يتغيَّر ولا يضطرب حتى ينتهيا إلى أقْصى منازلهما، بحيث تتمُّ الشمس دَوْرَتها في سنة، ويتمُّ القمر دَوْرته في شهر؛ وبذلك تنتظم المصالح المتعلِّقة بالفصول الأربعة وغيرها، ذلك الأمرُ العظيم تقديرُ القوي الغالب، العليم علماً محيطاً شاملاً بمصالح عباده وتدبير شؤونهم.

٩٧ - **والآية الكونيّة السادسة**: اللَّهُ تعالى وحدَهُ الذي خَلَق لكم - أيُّها الناس - هذه النجوم؛ لتهتدوا بها إذا ضَلَلْتُم الطريق، وتحيَّرتم فيه في ظلمات الليل بالبرِّ والبحر، قد بيَّنا الآياتِ الدالَّةِ على توحيدنا وكمال قُدرتنا، لقوم يتابعون تعلُّم ما يُنبَّهون عليه من آيات الله الكونيّة.

٩٨ - **والآية الكونيّة السابعة**: اللَّهُ سبحانه وحده هو الذي خلقكم - أيُّها الناس - وِفْقَ خطَّة الإنشاء المُتدرِّج من آدمَ عليه السلام؛ إذ خلقه من طين، ثم كنتم نسْلاً وسلالةً منه، فتنقَّلْتُم في أطوارٍ مختلفة، كلُّ طور لكم فيه مكان استقرار وثبوت، وهذه المُستقرَّات هي مُستودعات تكونوا وديعةً فيها حتى يحين وقت نقلكم إلى مُسْتودَع آخر تكونون فيها مُسْتقرِّين، فخرجْتُم من ظهور آبائكم وأرحام أُمّهاتكم، لتعيشوا في حياة الابتلاء في الأرض، فكانت الأرض لكم مُستقرّاً ومستودعاً حتى انتهاء آجالكم، فكان لأجسادكم في باطن الأرض مُسْتَقَرٌّ ومُسْتَوْدَع حتى ساعة القيامة، فكان لكم في أرضِ المحشر مُسْتقَرٌّ ومُسْتَوْدَع، فمَنْ قضى الله له بالخلود في الجنة، فالجنة هي دار القرار، ومَنْ قضى الله عليه بالخلود في دار العذاب، فهي مُسْتقرُّه الأبديُّ، قد بيَّنا هذه الحقائق المتعلِّقة بصفات الربِّ لقومٍ يتابعون البحث في بواطن الأمور وخفاياها ودقائقها.

٩٩ - **والآية الكونيّة الثامنة**: اللَّهُ وحده هو الذي أنزل المطر من السحاب، فأخرَجنا به كل شيء ينبت وينمو من جميع أصناف النباتات، فأخرجنا من النبات زرعاً غضّاً أخضر، نُخرج من الخَضِر سَنابلَ فيها الحبُّ يركب بعضها فوق بعض. مثل: القمح والشعير وسائر الحبوب، ونخرج من طَلْع النخل - وهو أوَّل ما يبدو ويخرج من ثمر النخلِ - عذوقاً قريبة التناول، وأخرجنا من ذلك الخضر بساتين من أشجار أعنابٍ، وأخرجنا شَجَر الزيتونِ وشجَرَ الرمَّان وثمارهما، وما في ذلك من مختلفات مشتبهة الصفات والخصائص والطعوم والألوان، وهذا في أصناف النوع الواحد، كأصناف الزيتون والرُّمان، ومختلفات أخرى غير متشابهة في خصائصها وطعومها وألوانها. انظروا - أيها الناس - نَظَر استدلالٍ واستبْصار إلى ثمره، أول ما يخرج ضعيفاً لا منفعة فيه، وانظروا إلى حال نُضجه وإدراكه، كيف يعود شيئاً قوياً بعد الضَّعف، جامعاً لمنافع شتّى، إنَّ في ذلك الذي نبَّه إليه سبحانه من آياته الكونية الثمان لعلامات جليّات لقوم لديهم الاستعداد لأن يؤمنوا، ويُسلموا.

١٠٠ - وجعل هؤلاء المشركون - بعد أنِ منَّ الله عليهم بالإيجاد، وبما يحتاجون إليه في المعاش - الجنَّ شُركاءَ للَّهِ تعالى في العبادة، وأطاعوهم فيما أمروهم به من عبادة الأصنام، وقد خلقهم اللَّهُ تعالى وما يعبدون من العدَم، فهو المُسْتقلُّ بالخلق وحده، فيجب أن يستقل بالعبادة وحده لا شريك له، وكذب هؤلاء المشركون على الله تعالى حين نَسَبوا إليه سبحانه البنينَ والبناتِ؛ جاهلين بما قالوا، تنزَّه الله جلَّ وعلا عن كلِّ ما لا يليق بجلاله، وعن كلِّ اعتقادٍ باطل وقولٍ فاسد.

١٠١ - واللَّهُ سبحانه وتعالى هو الذي أوجد السَّموات والأرضَ وما فيهنَّ على غير مثالٍ سبق، من أين يكون له ولد، ولم تكن له صاحبة؟ واللَّهُ تعالى خلَق كلَّ شيء من العَدَم، وهو عالمٌ بجميع خلقه، وعلمُهُ محيطٌ بكلِّ شيء.

ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾ ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾

١٠٢ - ذلكم العظيم الجليل هو اللَّهُ الذي خَلَقَ السَّموات والأرض، هو ربُّكم الذي يستحقُّ العبادة لا من تَدعونَ من دونه من الأصنام، لا معبود بحقٍّ إلا هو، خالقُ كلِّ شيء، فاعبدوه وأطيعوه، وهو على كلِّ شيءٍ رقيبٌ وحفيظٌ، يدبِّر أمور خلقه.

١٠٣ - لا تحيطُ الأبصار بكُنْهِ الخالق سبحانه وحقيقته، وإنْ كانت تراه الأبصار يوم القيامة، وهو سبحانه يرى جميع المرئيَّات ويُبْصِر جميع المُبْصَرات، لا يخفىٰ عليه شيءٌ منها، وهو اللطيفُ الذي ينفذ بصفاته إلى أعماق كلِّ موجود خلقاً وإمداداً، وعلماً، وتصاريف، الخبيرُ بظواهر الأشياء وخفيَّاتها على سبيل الشهود والحضور المُصاحب لكلِّ أجزاء العمل.

١٠٤ - قد جاءكم القرآن من ربِّكم، فيه البيان والحُجج التي تُبصرون بها الهُدىٰ من الضلالة، فَمَن فهم الآيات واهتدى بها إلى الحقِّ فلمَصْلحة نفسه ونجاته قد أبْصَر، ومَنْ جَهل ولم يعرف الآيات ولم يستدل بها، وأعرض عنها، فعلى نفسه جنى؛ إذ دفع بها إلى الخلود يوم الدين في عذاب السعير، وما أنا عليكم برقيب أحصي عليكم أعمالكم وأفعالكم، واللَّهُ هو الحفيظُ عليكم لا يخفى عليه شيءٌ من أعمالكم وأحوالكم.

١٠٥ - وكما نوَّعنا الآيات الدالَّة على التوحيد في هذه السُورة تنويعاً بديعاً مُحكماً، نُنَوِّع الآياتِ ونعرضها من وجوهٍ مُتعدِّدة، لنكشف عنادهم وتكذيبهم لك - يا رسول الله -، وليقولوا: قرأتَ الكتب على أهل الكتاب، ثمَّ جئتنا تزعم أنه من عند الله، وَلِنُبيِّن آياتِ القرآنَ تَبْييناً جليّاً لقوم لديهم الاستعداد لأن يعلموا الحقَّ بأدلَّته وبراهينه.

١٠٦، ١٠٧ - اتَّبع - يا رسول الله - ما أمرك به ربُّك، فاعمَلْ به وَبَلِّغه للناس، ولا تعبأ باتِّهام مُكذِّبيك لك، ولا تضعف عزيمتك عن متابعة تأدية رسالاتِ ربِّك، لا معبودَ بحقٍّ إلا هو سبحانه، وإذا كان كذلك فإنَّه تجبُ طاعته ولا يجوز تركها بسبب جهل الجاهلين وزَيْغ الزائغين، وأعرض عن المشركين المُعاندين المُصرِّين على باطلهم، ولا تعتدَّ بأقوالهم الباطلة، ولا تُبالِ بها. ولو شاءَ اللَّهُ أن لا يشركوا لَسَلَبهم إراداتهم الحُرَّة، ولجعلهم مَجْبورين، ولكن الله منحهم الإرادة الحُرَّة التي يختارون بها ما يشاؤون من خير أو شر؛ ليتمَّ ابتلاؤهم، وما جَعلناكَ - يا رسولَ الله - على هؤلاء المشركين مُسلَّطاً عليهم تجبرهم على سلوك صراط الله المستقيم، وتحميهم مِن شرور أنفسهم، وما أنت عليهم بوكيل مسؤول عن كفرهم، لأنهم ذوو إرادات حرة، وهم في ظروف الحياة الدنيا مُمْتحنون، وأنت تُبلِّغهم مطلوب ربِّهم منهم، وتبشِّرهم وتنذرهم، فلا تحمل في قلبك همَّ تحويلهم من الكفر إلى الإيمان، ومن الضلال إلى الهداية.

١٠٨ - ولا تشتموا - أيُّها المؤمنون - الأصنامَ التي يعبدُها المشركون، فيشتموا الله اعتداءً وظلماً باندفاع غضبيٍّ، مُقَابَلَةً لكم على ما فعلتم، وكذلك التزيين الذي حَصَل للمشركين، إذ زيَّنا لهم أعمالهم الباطلة، ضمن نظامنا التكوينيِّ العام. زيَّنا لكلِّ أمةٍ أعمالهم المتفرِّعة عمَّا يعتقدونه بإراداتهم الحرَّة، وبهذا يتحقَّق كمالُ الحكمة في حياة الابتلاء، ثمَّ إلى حساب ربِّهم بعد البعث يكون رجوعهم جميعاً، وإليه سبحانه تعيين زمان الرجوع، وتهيئة مكانه، فَيُنَبِّئُهم في محكمته يوم الدين بما كانوا يعملون في الدنيا، ويجازيهم على ذلك. والنهي عن سبِّ آلهة المشركين في هذه الآية قاعدةٌ لسدِّ الذرائع، فما هو سببٌ لارتكاب مُحرَّم هو حرامٌ أيضاً، وإن كان في ذاته مباحاً. ويستدلُّ بهذه الآية على سقوط وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إذا خيف من ذلك مفسدة أقوى، وكذا كل فعل مطلوب ترتَّب على فعله مفسدة أقوى من مفسَدة تركه.

١٠٩ - وأقْسم هؤلاء المشركون بالله بأوْكَد ما قَدِرُوا عليه من الأيْمَان: لَئِنْ جاءتْهم آيةٌ خارقة كما جاءت الأممُ من قبلهم لَيُصَدِّقُنَّ بها. قل لهم - يا رسول الله - : إنَّ مرجع الآيات كلها إلى الله تعالى، يقضي فيها حسب مشيئته المبنية على الحكمة البالغة، لا قدرة لأحدٍ عليها، فكيف أتصدّى لاستدعاء إنزالها، وما يدريكم - أيُّها المؤمنون - أنَّ الآيات إذا جاءت هؤلاء المشركين لا يؤمنون بها، فما لكم تتمنَّوْن مجيئَها؟

١١٠ - ونُقلِّب مراكز التفكير والفهم لديهم؛ ليُدركوا بها الأدلة العقليَّة والبراهين الصَّادقة على ما جاء به محمَّدٌ ﷺ عن ربِّه، ونُقلِّب أبصارهم في آفاق السماء والأرض؛ لِيَرَوْا بها عَجَائِبَ قدرتنا، ولكنهم - مع كلِّ ذلك - لا يؤمنون، بل يستمرُّون على كفرهم العِنادي، كما لم يؤمنوا بالحقِّ أوَّل مرةٍ، وَنَذَرُهُم حينئذٍ في تجاوزهم الحد يتردَّدون مُتحيِّرين، مُنْطَمِسي البصيرة.

﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا ۚ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾ فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾

١١١ ـ ولو أننا آتيناهم ما اقترحوا، فنزّلنا إليهم الملائكة حتى يشهدوا لك بالرسالة، وكلَّمهم الموتى كما سألوا، وجمعنا مُرسِلينَ عليهم كلَّ شيءٍ ممَّا طلبوه من خوارق وآيات حالة كونه مُواجهاً لهم، ومُعَايَناً بأعينهم، فشهدوا لك بصحة ما تقول، ما كانوا لِيُؤمنوا إلا أن يشاء الله الإيمان منهم، فإنَّه يسلبهم حينئذٍ إراداتهم الحُرَّة، ويجعلهم مَجْبورين غير مُخيَّرين، ولكن يُلغىٰ حينئذٍ وضعهم موضع الامتحان؛ لأنَّ الجَبْر ينافي الابتلاء، ولكنَّ أكثر هؤلاء الكفار يجهلون الحقَّ الذي جئت به من عند الله.

١١٢ ـ كما جَعَلنا لِمَن قَبْلك ـ يا رسول الله ـ من الأنبياء أعداء، كذلك جعلنا لك أعداء، شياطينَ من الإنس وشياطينَ من الجنِّ، يُوحي بعضهم إلى بعض وحياً القولَ المزخرفَ المُزيَّن لأجل التَّغرير بمن يُصْغي إلى زُخرف القول، **وهذه هي الخطوة الشيطانية الأولى** للخداع والإطماع بالباطل

ولو شاء ربُّك ـ يا رسول الله ـ ما مكَّنهم من إلقاء حبائلهم في الإغواء، واتِّخاذ وسائلهم في الغرور، لكن حكمة ابتلاء المُكلَّفين في الحياة الدنيا تقضي بتمكين هؤلاء من الإغواء والتضليل، فيغتر بأقوالهم وزخارف حُججهم الجَهَلة والمُغفَّلون، فَخَلِّهِمْ ـ يا رسول الله ـ وما يختَلقون من كذب وزور.

١١٣ ـ **والخطوة الشيطانية الثانية** بعد اصطناع زُخْرف القول لترويج باطلهم وضلالاتهم؛ لتميلَ إلى قول الشياطين المُزخرف المُزيَّن المُموَّه أعماق قلوبِ الكفار الذين لا يؤمنون بالآخرة وما فيها من حساب وجزاء، **والخطوة الشيطانية الثالثة**؛ ليرضوا بمضمون زُخرف القول، لموافقته لأهوائهم وشهواتهم **والخطوة الشيطانية الرابعة**؛ ليكتسبوا من الأعمال الخبيثة التي حلَّت من أفئدتهم محلَّ الاستحسان والرِّضا؛ ما هم مُكتسبون.

١١٤ ـ قل ـ يا رسول الله ـ لهؤلاء المشركين: أَفَغيْرَ اللّهِ أطلُبُ حَكَماً قاضياً يقضي بيني وبينكم، وهُوَ الذي أَنْزلَ إليكم القرآنَ المجيدَ، مشتملاً على أسس أحكام المعاملات القائمة على الحقِّ والعدل، وفيه الحكم بيني وبينكم؟ وعلماءُ اليهود والنَّصارى يشهدون أنَّ هذا القرآن مُنزَّلٌ من ربِّك حالة كونِهِ مُتَّصفاً بالحقِّ. فلا تكونَنَّ من الشَّاكِّين أنَّ علماء أهل الكتاب يعلمون أنَّ هذا القرآن مُنزَّل من عند ربِّك بالحقِّ.

١١٥ ـ وَتَمَّتْ كلماتُ ربِّك الخبريَّة والتكوينيَّة والتشريعيَّة والجَزائيَّة صِدقاً مُطابقاً للحقِّ والواقع، وَعَدلاً فيما قدَّر من مقادير الكائنات، وفيما حكم من الأمر والنهي والحلال والحرام، وسائر الأحكام، لا مُغَيِّرَ لكلماته الخبريَّة والتكوينيَّة والتشريعيَّة والجزائيَّة، ولا مبدِّل لها من ذاته ولا من غيره، ولا رادَّ لحكمه، ولا خُلْفَ لمواعيده، وهو السميعُ لكلِّ ما هو قابلٌ أن يُسمعَ المحيط بكل شيءٍ علماً.

١١٦ ـ وإنْ تَنْقَد وتَسْتَجب وتَتَّبع ـ أيُّها الحريص على أن تكون مهتدياً في دنياك سعيداً في آخرتك ـ أكْثَرَ مَنْ في الأرض من الإنس والجنِّ، يُضِلُّوك عن طريق الحق ونهج الصِّدق. وهذه القاعدة من قواعد الاجتماع البشريِّ لها سببان رئيسان: **السبب الأول**: ما يتَّبع هؤلاء الكفار في آرائهم التي يَجْزمون بها إلا الظنَّ الضعيف ولا يكلفون أنفسهم البحث والتفكير والتأمُّل، **والسبب الثاني**: ما هم إلا يكذبون لترويج آرائهم ومذاهبهم، ويرجمون بالخرص التخيُّلي والتوهميِّ، ويبنون على ذلك عقائدهم وأعمالهم.

١١٧ ـ إنَّ ربَّك هو أعلمُ من كلِّ عليم، أيُّ الناس يَضِلُّ عن سبيله، ويزداد إيغالاً في الضلال، وهو أعلم بمن كان على هُدىً واستقامةٍ، لا يخفى عليه شيءٌ من أحوال خلقه.

١١٨ ـ إن كنتم قد نُهيتُم عن اتِّباع المشركين في تحليلهم وتحريمهم، فكُلوا ـ أيُّها المؤمنون ـ من ذبائح الحيوانات المأذون بذبحها، ومن الصَّيد المأذون بصَيْده، ذاكرين اسْمَ الله عليه، ولا تتَّبعوا افتراءات المُفْترين الذين يأكلون الموتى من الحيوانات، ويذبحون ذبائحهم باسم آلهتهم من الأوثان، وإنيِّ أوجِّه لكم هذا الحكم من أحكام الدين، إنْ كنتم بآياتِ اللّهِ البيانيَّة في كتابه مُصَدِّقين، فاعملوا بمقتضى إيمانكم، واسْتَسْلموا لأحكام ربِّكم.

وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾ وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ ۘ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ۗ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾

١١٩ ـ وما يمنعكُم ـ أيها المسلمون ـ من أن تذبحوا أو تَصيدوا ما أذن الله لكم؟ وما الدافع الذي يدفعكم إلى أن لا تأكلوا مِمَّا ذُكر اسمُ الله عليه، وقد بَيَّن الله سبحانه لكم في هذه السُّورة ما حَرَّم عليكم أكله من الحيوانات؟ إلاَّ أن تدعوكم الضرورة إلى الأكل ممَّا حُرِّم عليكم؛ بسبب شِدَّة المَجاعة، فلكم أن تأكلوا منه بمقدار الضرورة، وإنَّ كثيراً من الذين يُجادلونكم يتَّبعون أهواءهم؛ لِيُضِلُّوا أنفسهم وأتباعهم جهلاً منهم بغير علم. إنَّ ربَّك ـ يا رسول الله ـ هو أعلم بمَنْ تعدَّى حدودَهُ، فأحلَّ ما حرَّم الله، وحرَّم ما أحلَّ الله، فهو يُجازيهم على سُوء صَنيعِهِم.

١٢٠ ـ واتركوا ـ أيُّها الناس ـ ما أعلنتُم به وما أسْرَرتُم من الذنوب كلِّها، كبائِرها وصغائِرها، ما كان منها بالجوارح، وما كان منها بالقلوب، كالنفاق، والرياء، والحسد، والنيَّات الفاسدة، إنَّ الذين يكسبون الإثمَ بفعل ما نُهوا عن فعله نهيَ تحريم، وتركِ ما أُمروا بفعله أمر إيجاب، سَيُجْزَوْنَ في الآخرة؛ بسبب ما كانوا يكسِبون في الدنيا من الآثام والأعمال الخبيثة.

١٢١ ـ ولا تأْكلُوا ـ أيُّها المسلمون ـ من الذبائح ما أعلن ذابحُهُ أنَّه يذبحه قُرباناً لغير الله، وإنَّ أكله لخروجٌ عن طاعة الله تعالى؛ لأنه غير مُذكًّى ذكاةً شرعيَّةً، فهو بحكم الميْتة، وإنَّ شياطين الجنِّ يُوَسْوِسُون إلى أوْليائهم من شياطين الإنس؛ ليُجَادِلوكم ـ أيُّها المؤمنون ـ بإلقاء الشُّبهات حول تحريم أكل الميتة، فيأمرونهم أن يقولوا للمسلمين في جدالهم معهم: إنكم بعدم أكلكم الميتة لا تأكلون ما قتله الله، بينما تأكلون ما تذبحونه، فلا تنقادوا لهم في شيءٍ من ذلك، ولا تَتَأثَّروا بجدليَّاتهم، وإنْ أطعتموهُم ـ أيُّها المسلمون ـ مُنقادين لهم، ومُتأثِّرين بضلالاتهم، أخرجوكم عن طاعة ربِّكم إلى طاعةِ إبليس، وعندئذ يتحقَّق فيكم أنكم مشركون، اتَّخذتم الشيطان معبوداً لكم، وجعلتموه شريكاً لله في إلٰهيَّته.

١٢٢ ـ أوَمَنْ كان مَيْتاً بالكفر فأحيَيْناه بالإيمان، وَجعلنا له نوراً عظيماً يستضيءُ به في الناس، ويهتدي به إلى قَصد السبيل، أهذا الحيُّ الرشيد ذو النور كَمَنْ وَصْفُه أنه في ظُلمة الكفر وظُلمة الجهالة وظُلمة عَمَى البصيرة، ليس بخارج من تلك الظلمات المُتراكمات؟ لا يسْتويان. وكذلك التَّزيين الذي حَصَل للمشركين؛ إذْ زُيِّنت لهم أعمالهم الباطلة، فيفعلونها بقُوَّةٍ وجُرأة ومفاخرة، ضمن نظامنا التكوينيِّ العام، كذلك زُيِّن لسائر الكافرين السَّابقين ما كانوا يعملون من الأهواء والشهوات المُتفرِّعة عمَّا يعتقدونه بإراداتهم الحُرَّة، وبهذا يتحقَّق كمال الحكمة في حياة الابتلاء.

١٢٣ ـ وكما جعلنا في «مكة» رؤساء دعاةً إلى الكفر وإلى عداوتك والصَّدِّ عن دين الله تعالى، جَعَلنا في كلِّ قريةٍ من قرى الرسل من قبلك رؤساء من المجرمين مثلهم؛ ليمكُروا فيها بالخديعة والحيلةِ والغَدْر والكذب والصدِّ عن دين الله، وما يحيق هذا المكرُ إلا بهم، وما يشعرون أنَّ وبال ذلك المكر يعودُ عليهم ويضرُّهم.

١٢٤ ـ وإذا جاءَت هؤلاء المشركين من أهل «مكة» حُجَّةٌ بيِّنةٌ ودلالةٌ واضحةٌ على صِدْق محمد ﷺ، قال رؤساء الكفر مُؤكِّدين النفي: لن نُصدِّق بنبوَّته حتى يُعطينا اللَّهُ من النبوَّة والمعجزات مثلَ ما أعطى رسلَه السابقين. فردَّ الله عليهم بقوله: اللَّهُ أعلم من كلِّ عليم مَنْ يستحقُّ الرسالة فيشرِّفُهُ بها، ويعلم مَنْ لا يستحقُّها ومن ليس بأهل لها، وأنتم لستم لها بأهل، سَيُصيبُ الذين أجرموا من كفار مكة، وسائر المُكذِّبين المُعاندين في المستقبل القريب ذِلَّةٌ وَهَوَانٌ من عند الله، وعذابٌ شديدٌ في نار جهنَّم؛ بسبب مكرهم السيء وحسدهم، وطلبهم ما لا يستحقُّون.

فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ ۞ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾

١٢٥ ـ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أن يهديَه هداية توفيقٍ ومعونة؛ لأنه اتَّجهت إرادتُه الجازمة الصَّادقة إلى الإيمان، يفتح صَدرَهُ ويوسِّعه لتطبيق الإسلام في سلوكه، على مقْدار قوّة إيمانه، ومن يُرِدِ اللَّهُ أن يُيسِّر له سُبُلِ الضلال؛ لأنه كفر بإرادته الحُرَّة بما يجب أن يؤمنَ به، يَجْعَلْ صَدْرَهُ شديد الضِّيق لا يطيق الخضوع والطاعة لله، كحال من يصعدُ في طبقات الجوِّ العليا، فيصابُ بضيقٍ شديدٍ في التنفُّس، لتناقص أكسجين الهواء، وكما جعلنا صدورَهُم ضَيِّقَةً حَرِجَةً، كذلك الضِّيقُ والحرجُ في الصَّدر الذي يجعله الله في صدر مَنْ يريد أن يُضله، يجعله أيضاً رجْساً مُتراكباً على كلِّ الذين لا يُؤْمنون مهما تواترت عليهم أدلَّة الإيمان وبراهينه. فالإنسان هو الذي يختار بإرادته الحرَّة سبيل الإيمان، أو يختارُ سبيل الكفر، فإن اختار سبيل الإيمان انشرح صدره لتطبيقات الإسلام، وإن اختار سبيل الكفر، انقبضت نفسه، وضاق صدره، وهذا من سُنن الله وقوانينه في نفوس عباده.

١٢٦ ـ وهذا الذي بيَّنا لك ـ يا رسولَ الله ـ دينُ الله الواضح الجليُّ الذي شرَعه لعباده، وجَعَله مُستقيماً لا اعوجاج فيه، قد بيَّنَّا وأوضحنا الآيات المُشْتملات على العقائد والشرائع والأحكام، والوصايا الربَّانيَّة، لقوم يضعون حقائق دين الله في ذاكرتهم، ويستدعون منها عند كلِّ مناسبةٍ ما يتعلَّق بها. وما يُحدثه هذا التذكُّر من أثرٍ نفسيّ وقلبيّ وسلوكيّ.

١٢٧ ـ للمؤمنين المُتذكِّرين دارُ السلامة والعافية الدائمة، والبراءة والأمن من كلِّ آفةٍ وكَدَرٍ، والخلوُّ من كلِّ مكروه وأذى، وهذه الجنة مُعَدَّةٌ مُهيَّأةٌ عند ربِّهم حتى يُوصِلَهُم إليها، وهو سبحانه يَتولَّى أمرهم ويحميهم ويعينهم بسبب أعمالهم الصَّالحة التي كانوا يتقرَّبون بها إليه في الدنيا.

١٢٨ ـ واذكر ـ أيها المُتلقِّي لبياننا ـ يومَ يحشرُ ربُّك الإنْسَ والجنَّ جميعاً يوم القيامة، ونقول لشياطين الجنِّ بشأن أوليائهم من شياطين الإنس: يا جماعة الجنِّ، قد استكثرتُم من الدعاء إلى إضْلال الإنس وإغوائهم، وقال أولياؤهم من كفَّار الإنس: ربَّنا انتفع بعضنا ببعض، حيث دلُّونا على المفاسد وما يوصِّل إليها، وأطعناهم وانقدنا إليهم، وكان ذلك الاستمتاع إلى أجلٍ مُعيَّن، ووقتٍ محدود، ثمَّ ذهب وبقيتِ الحَسْرة والندامة. قال الله تعالى لهؤلاء الذين استمتع بعضهم ببعض من الجنِّ والإنس: النَّارُ هي مقامُكم ومقرُّكُم فيها، ومصيركم إليها، مقيمين في نار جهنَّم أبداً، لا ينتفي في وقت مّا إلاّ وقت مشيئته تعالى، وهو تعالى لا يشاء ذلك، فقد أخبر أنهم لا يخرجون من النار أبداً، فمردُّ الأمور كلِّها إلى مشيئته تعالى، وخلودهم إنما كان بمحض المشيئة، ولو شاء الله عَدَمه لم يُخلَّدوا، إنَّ ربَّك حكيمٌ في تدبير خلقه، عليمٌ بعواقب أمورهم وما هم إليه صائرون.

١٢٩ ـ وكذلك الذي ذكرنا، من اتِّخاذ شياطين الجنِّ أولياءَ لهم من شياطين الإنس، نُوَلِّي ضمن النظام العام للمجتمع البشريِّ بعضَ الظالمين بعضاً من كلِّ قوم؛ بسبب أعمالهم الخبيثة التي اكتسبوها. وهذه سنة عامة من سنن الاجتماع البشريِّ.

١٣٠ ـ يا جماعةَ الجنِّ والإنس: ألم يأتكم رسلٌ منكم، يُخبرونكم بما أُوحي إليهم من آياتي البيانيَّة الدالَّة على توحيدي وتصديق رسلي، ويُحذِّرونكم إذا كفرتم لقاء عذابي في يومكم هذا، وهو يوم القيامة؟ قال كفار الجنِّ والإنس بعدما شهد عليهم الشهود العدول: أقررنا على أنفسنا بما كان منا في رحلة امتحاننا، واعترفنا بأنَّ رسلك قد بلَّغونا آياتك، فكذَّبناهم ولم نؤمن بهم، وخدعت هؤلاء المشركين الحياةُ الدنيا ببهرجها، وشهدوا على أنفسهم أنَّهم كانوا في الحياة الدنيا جاحدين لله تعالى ولرسله عليهم السلام.

١٣١ ـ ذلك الأمر الذي تقدَّم ذكره من بعثة الرسل وإنذارهم؛ لأنه لم يكن ربُّك ـ يا رسول الله ـ مُهلك أهل المُجمَّعات السكنيَّة بسبب ظلمهم من دركة الكفر، والحال أنهم غافلون عن عقائد الدين وشرائعه وأحكامه، بل يُرسل إليهم رُسُلاً يُبيِّنون لهم، ويُوقظونهم من غَفَلاتهم، فإذا عاندوا وكفروا يُهلكهم إهلاكاً عاماً مُستأصلاً.

وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَاۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا۟ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْۖ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾

١٣٢ - ولكلِّ عاملٍ بطاعة الله أو معصيته من الجنِّ والإنس، منازل يبلغها بعمله إن كانَ خيراً فخيرٌ، وإنْ كان شراً فشرٌ. وما ربُّك - أيُّها المُتلقِّي لبياننا - بغافـلٍ عمَّا يعمل عباده، فهو عالمٌ بأعمالهم، ويَجْزي كلَّ عامل على قَدْر عمله، وما يليق به من ثوابٍ أو عقاب. وفي الآية دليل على أن الجنَّ كبني آدم، يستحقُّون الثواب على الطاعة، والعقاب على المعصية.

١٣٣ - وخالقُك ومُربِّيك الذي تولاك بربوبيَّته، الغنيُّ عن خلقه وعبادتهم، لا غنيَّ في الوجود سواه، وجميعُ الخَلْق فقراءُ إليه، وهو سبحانه ذو الرحمة الواسعة بخلقه، إنْ يَشَأْ يُهلكْكُم إهلاكاً جماعياً، ويُنشيءْ ويخْلقْ من بعد إهلاككم خلقاً غيركم أمْثَلَ وأطْوَعَ منكم يخلفونكم في سُكنى الأرض، ويعملون بطاعته، كما أوجدكم أنتم من ذُرِّيَّةِ قوم آخرين، قضوا آجالهم في الحياة الدنيا، وكنتم خلفاءهم. وفي هذه الآية تهديدٌ ربَّانيٌّ بتحويل الاستخلاف، حينما يُسيء المُسْتَخْلَفون، ويتعدَّون الحدود التي حدَّها لهم من استخلفهم.

١٣٤ - إنَّ الذي تُوعَدُون به - أيها الناس - من مجيء الساعة والبعث بعد الموت والحشر للحساب يوم القيامة كائنٌ قريب، وما أنتم بقادرين على الإفلاتِ من عذابِ ربِّكم حيثما كنتم.

١٣٥ - قُل - يا رسول الله ويا كلَّ حاملٍ لرسالته من أُمَّته - للَّذين مَرَدوا على الكفر، وصاروا مَيْؤوساً من استجابتهم عن طريق إراداتهم الحرة: يا قومي الذين تربطني بكم رابطة النَّسب، اعملوا ما شئتم من الأعمال التي يقْتضيها كفركم، واثْبُتوا على ما أنتم عليه من الكفر والعداوة إنْ رضيتم لأنفسكم العذابَ الدائم، فإني عاملٌ وَفْقَ ما يقْتضيه منِّي إيماني وإسلامي لربِّي، ثابتٌ على الإسلام والمُصَابرة، ولن تُزحزحوني عن مَقامي مهما اتَّخذتم من وسائل، فَسَوْفَ تعلمون غداً في القيامة لمَنْ تكون له العاقبة الحسنة في الجنَّة؟ إنَّ الشأن العظيم أنه لا يَسْعَدُ ويفوز بنعيم الجنة ورضوان الله من ظلم وتجاوز حدَّه، وصَرَفَ العبادة لغير الله عزَّ وجل.

١٣٦ - وجَعَلَ المشركون من أحكامهم وأعمالهم الشركيَّة التعبُّديَّة، بعضَ ما خلق الله لهم من الزُّروع والثمراتِ، ومن الأنعام، وهي: الإبل والبقر والغنم، قِسْماً وجُزءاً، يَبْذلونه في وجوه الخير التي يُتقرَّب بها إلى الله عزَّ وجل، كالإنفاق على الفقراء والمساكين والأيتام والضعفاء والمحرومين، بدعواهم واعتقادهم الباطل، وجعلوا مقْداراً آخر يبذلونه لشركائهم من الأوثان والأنصاب، فما جعلوه لشركائهم من الزرع والأنعام أنفقوه على الأوثان وسَدَنتها، ولا يُعطونه المساكين، ولا ينفقونه في وجوه الخير، وما جعلوه لِلَّهِ عزَّ وجل، يُقَرِّبونه لأصنامهم؛ لتمنَحَهم عطاءاتها، وتُيَسِّر لهم ما يطلبون من شؤون دنياهم، فهم مشركون ويُؤْثرون عبادة آلهتهم على عبادةِ الله، ساء ما يحكمون حكمُهم، وساء ما يفعلون فعلُهم؛ إذ افْترَوْا على ربِّهم، فجَعَلوا لله شركاء في إلٰهيَّته، وجعلوا له شركاء في بعض ربوبيَّته.

١٣٧ - وكما حَسَّنَ الشيطان للمشركين أن يجعلوا لِلَّهِ سبحانه نصيباً من أموالهم، ولشُركائهم نصيباً، جَهْلاً منهم بمعرفة الخالق المنعم، حسَّن آلهة المشركين الذين اتَّخذوهم شركاء لله لكثير من المشركين إقْدامهم على وَأْد البنات الصغار أحياء؛ خشية الفقر أو العار؛ ليُسقطوهم في أودية الآثام والجرائم حتى ينالوا سخطَ الله وعقابَه، والخلودَ في عذاب النار، وليخلِطُوا عليهم ما كانوا عليه من دين إسماعيل عليه السلام بأوهام فاسدة حتى زلُّوا إلى الشِّرك.

ولو شاء الله - جلَّ جلاله - أن لا يفعل الشياطينُ الشركاءُ ما زيَّنوه، وأن لا يفعل المشركون ما زُيِّن لهم من قتل أولادهم، لَسَلبهم إراداتهم الحرَّة، ولجعلهم مَجْبُورين، ولكن تنعدم بهذا الحكمة من وضعهم في الحياة الدنيا مَوْضعَ الامتحان، فاتركهم - يا رسول الله ويا حامل رسالته من أمته - وما يَخْتَلِقُون من الكذب على الله، ويصطنعونه عن عَمْد، ويعتدون على حقِّ الله عزَّ وجلّ في ربوبيَّته وفي إلٰهيَّته.

وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُواْ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾



١٣٨ ـ وقال المشركون: هذه إبلٌ وزروعٌ ممنوعة مُحرَّمة، لا يأكلُها إلا خُدَّام الأصنام والرجال دون النساء، بافترائهم وظنِّهم الفاسد، وهذه إبلٌ حُرِّمت ظهورها عن الركوب، فلا يحلُّ ركوبها والحمْل عليها في حالٍ من الأحوال، وهذه إبلٌ لا يذكرونَ اسمَ الله تعالى عليها عند الذبح، ويذكرون أسماء أصنامهم، فعلوا ذلك كذباً منهم على اللّهِ عزَّ وجل، سَيَجْزيهم أشدَّ الجزاء، جزاءً وفاقاً بسبب افترائهم على الله الكذب.

١٣٩ ـ وقال المشركون: ما في بطون الأنعام من أَجِنَّةٍ إذا ولد حيّاً، فهي خالصة الحِلّ للذكور، ومُحَرَّم على نسائنا، وما وُلد منها ميتاً أَكَله الرجال والنساء جميعاً، سَيَجزيهم الله جزاءً عقابياً بسبب ما كانوا يفترون على الله في أحكام التحليل والتحريم، التي هي حقُّ ربُوبيَّتِهِ وإلٰهيَّتِهِ؛ إنَّه حكيمٌ يضع الجَزاء بالعدل في الموضع الملائم لوضعه، محيط بكلِّ شيءٍ علماً، لا يظلم أحداً في أحكامه، ولا فيما يجازيه به.

وهذه الآية تدلُّ على أنَّ كلَّ تحريمٍ في المآكل والمشارب والألبسة والمساكن دون إذن شرعيٍّ، وليسَ للمُحرِّم فيه برهانٌ من الله، هو افتراءٌ على الله، وافتئاتٌ في الدين.

١٤٠ ـ قد خَسِرَ الذين قَتَلوا أولادهم، ومن فعل ذلك خسر في الدنيا لأنه سعى في نقْص عدده وإزالة ما أنعم الله به عليه، وخسر في الآخرة لأنه استحقَّ بذلك العذابَ العظيم، لقد فعلوا ذلك خِفَّةً وجهالة مذمومةً، وكذلك خسر الذين حرَّموا ما رَزَقَهُمُ الله من الزروع وبعض ما في بطون الأنعام، فعلوا هذه الأفعال المذمومة ونسبوها إلى الله افتراءً وكذباً، قد ضلُّوا في فعلهم عن طريق الحقِّ والرَّشاد، وما كان لديهم الاستعداد لأن يهتدوا مُستقبلاً إلى طريقِ الحقِّ والصَّواب، إذ رفضوا الحقَّ معاندين.

١٤١ ـ واللَّهُ سبحانه وتعالى وحده هو الذي خَلَق ضمن نظام الإنشاء المُتدرِّج تنامياً، بساتين ذوات أشجار مرفوعاتٍ على دعائم، كالأعناب، وغير مرفوعاتٍ، وهو ما قام على ساق، واستغنى باستوائه وقوّة ساقه عن التعريش، كالنَّخل والشجر. وأنشأ النَّخل والزَّرع، وهو جميع الحبوب التي تُقْتات وتُدَّخر، حالة كون كلٍّ منهما مختلفاً ثمره الذي يُؤكل منه، شكلاً ولوناً وطعماً وخصائص. وأنشأ سبحانه وتعالى شجر الزيتون وشجر الرُّمان وثمارهما، مُتقارب الصِّفات دون تطابق، وغير متقارب الصِّفات، فلا يلتبس على الناظر الافتراقُ في الصفات، ولو كان من نوع واحد.

كُلوا ـ أيها الناس ـ من ثمر كلِّ واحدٍ إذا أثمر، واعلموا أنَّ عليكم فيما آتاكم من الأشجار والزُّروع التي أنشأها لكم، حقاً للمساكين والفقراء، ولذوي الحاجات، وللمجتمع الإسلامي، فآتوا هذا الحقَّ، يومَ قطافه وقطعِهِ، ولا تُجاوزوا الحدَّ بإنفاق المال وأكل الطعام ونحو ذلك؛ إنَّه سبحانه لا يُحبُّ المسرفين المتجاوزين الحدَّ في كلِّ شيءٍ؛ لأنَّ الإسراف يوصل إلى الوقوع في المضارِّ والمهالك، أو الظلم والتحريف في الدين، ومن لا يحبُّه الله يُبْعدهُ عن مواطن القُرب منه، ومواضع تنزُّلات عناياته بعباده المحبوبين لديه.

وفي هذه الآية دليل على وجوب الزكاة في كل زرع وثمر. وأن الزكاة المفروضة لا يجب أداؤها قبل الحصاد.

١٤٢ ـ وخلق لكم ضمن نظام الإنشاء المُتدرِّج تنامياً من الأنعام ما يصلح للعَمَل والحَمْل، وهي الكبار الصَّالحة، كالإبل والبقر، وما لا يصلح للحمل والعمل لصغرهِ وقُربه من الأرض، كالضَّأن والمَعْز، كُلوا ممَّا أحلَّه الله لكم من هذه الأنعام والزروع، ولا تسلكوا طرقَ الشيطان وآثارَه في تحريم ما لم يحرِّمه من الأنعام والزروع، كما فعل أهل الجاهلية الذين حرَّموا من الأنعام والحرث ما لم ينزِّل به تحريماً، فالشيطان له خطوات في الإضلال والإغواء، وهو ينقل بها فريسته دَرَكةً فَدَرَكة، حتى يهوي به إن استطاع إلى أسفل سافلين؛ إنَّ الشيطانَ لكم عَدوٌّ ظاهر العداوة.

ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾ قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾

١٤٣ ـ وخَلَقَ الله من الأنعام التي رزقها عباده ثمانية أصناف: أربعة منها من الغنم ذوات الصوف: الذكر والأنثى، ومن المعز ذوات الشعر: الذكر والأنثى. قُلْ يا رسول الله لهؤلاء الجَهَلَة: هل حرَّم الله عليكم الكبش والجدي أم النَّعجة والمعزة؟ فإنْ كان حَرَّم الذَّكَرَيْن معاً منهما فكلُّ ذكورها حرام، وأنتم لا تُحرِّمون كلَّ ذكر من الضَّأن والمَعْز، وإنْ كان حرَّم الأُنْثَيَيْن معاً منهما فكلُّ إناثها حرام، وأنتم لا تُحرِّمون كل أنثى من ولد الضَّأن والمَعْز، وقل لهم: هل حرَّم الله ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين من الضأن والمَعز من الحَمْل؟ فإنَّها لا تشتمل إلا على ذكر أو أنثى. فإن قالوا: نعم، فقل لهم: قد كذبتم أيضاً؛ لأنكم لا تُحرِّمون كلَّ حَمْل من ذلك، إنكم لا تملكون دليلاً عقلياً ولا شرعياً يُثبتُ شيئاً من أحكامكم الجاهليَّة. نبِّؤوني نبأً مُؤيَّداً بعلم، إن كنتم صادقين بأنَّ الله حرَّم شيئاً من ذلك عليكم.

١٤٤ ـ وبقيةُ الثمانية: هذه الأصناف الأربعة: من الإبل: الذكر والأنثى، ومن البقر: الذكر والأنثى. قُل ـ يا رسول الله ـ لأولئك المشركين: أحرَّم الله الفحل من الإبل والثور من البقر أم الأُنْثَيَيْن من الأربعة، فحرَّم الناقة من الإبل، والبقرة من البقر؟ أم حرَّم الله ما اشْتَمَلت عليه أرحام الأُنْثَيَيْن ذكوراً وإناثاً؟ بَلْ أكنتم شهداء حاضرين، تنقلون عن الله مباشرةً، حين وصَّى الله بهذه الأحكام التي زعمتم أنها أحكام ربانيَّةٌ تلتزمون بها، وإذا كنتم قد كذبتم على الله، وادَّعيتم أنَّ الله حرَّمها، فأنتم ظالمون مُفْترون، ولا يُوجد أشدُّ ظلماً من الذي يكذِبُ على الله، ويضيف تحريمَ ما لم يُحرِّمه الله إلى الله؛ لِيُضِلَّ الناسَ بذلك، وَيَصُدَّهُم عن سبيل الله جهلاً منه؛ إنَّ اللَّهَ لا يثبت الهداية لمن كَذَبَ عليه، وأضاف إليه ما لم يَشْرَعهُ لعباده. وكيف يحكم لهم بالهداية، وقد ظلموا ظلماً كبيراً، وافتروا على الله كذباً؟

١٤٥ ـ قل ـ يا رسول الله ـ لهؤلاء المشركين الجاهلين الذين يُحَلِّلونَ ويُحَرِّمون من عند أنفسهم: لا أجدُ في كلِّ ما أُوحِيَ إليَّ شيئاً مُحرَّماً على آكلٍ يأكله ممَّا تذكرون أنه حُرِّم من الأنعام، إلاَّ هذه المحرمات الآتية: **الأول**: أن يكون مَيْتَةً لم تُذَكَّ بالذَّبح وإنهار الدَّم، كالمُنْخنقة، والموقوذة التي وُقذت بالحجارة حتى ماتت، والمتردية التي تَرَدَّت في حفرة أو بئر، والنطيحة التي نُطحت من أخرى حتى ماتت، **المحرم الثاني**: الدم السائل المسفوح، **المحرم الثالث**: لحم الخِنْزير فإنَّه نَجِسٌ خبيث قذر، **المحرم الرابع**: ما أعلن ذابحُهُ أنه يُقدِّمه قُرباناً لغير الله تعالى، فمن دَعَتْهُ الضرورة إلى أكل شيءٍ من هذه المُحَرَّمات بسبب الجوع الشديد، حالة كونه غير خارج على السلطة الإدارية المسلمة بغير حق؛ ولا متجاوز فيما يأكل حدَّ الضرورة؛ إذ أنه لا يُباح له أن يأكل عند الضرورة من المُحرَّمات من المطاعم؛ لأنه عاصٍ في خروجه الذي أفضى به إلى ضرورته، ومَنْ يُباح له أن يأكل عند الضرورة من المطاعم المُحرَّمة ليس له أن يستزيد من الأكْل أكثر ممَّا يدفع به الضرورة، إنَّ ربَّك كثير السَّتر للمُضْطر الذي قد يستزيد ممَّا يأكل أكثر ممَّا يدفع به ضرورته، لأنه يعسر عليه ضبط مقدار ما يدفع به ضرورته؛ دائم الرحمة بعباده، إذْ أباح لهم الأكل عند الضرورة.

وقد ثبت في السُّنة بعد نزول هذه الآية تحريم غير هذه المطاعم الأربعة، مثل لحوم الحمر الأهلية، وكلِّ ذي ناب من السباع وَمِخلَب من الطير.

١٤٦ ـ هذا ما حرَّمناه عليكم، وحرَّمنا على اليهود خاصّة دون غيرهم من الأمم ذواتِ الأظفار ممَّا له أصبع من بهيمة أو طير، ممَّا يفترس بظفره، وما لا يفترس، وقد اختصَّ الله اليهود بتحريم ذي الظفر الذي يدخل فيه نوعان هُما: ذواتُ الأظفار التي لا تَعدو على غيرها، وذوات المَخالب التي تعدُو على غيرها. وأما المسلمون فقد أحلَّ الله لهم منها ما كان طيِّباً كالإبل والنعام، والبط والإوز، وحرَّم عليهم ما كان خبيثاً، كذوات المخالب التي تعدو على غيرها، وحرَّمنا على اليهود أيضاً من شحوم البقر والغنم شحم الكُليتين، والشحمَ الذي على الكَرِش، وأحللنا لهم ما عَلِق من الشحم بالظهر والجَنْب من داخل بطونهما، أو الشحم المُلتصق بالمباعر والمَصَارين، أو ما اختلط بعظم من شحم الألْيَة المتَّصل بالعُصْعُص في الضأن، ذلك التحريم المُشدَّد عليهم جَزَيْناهم به؛ عقوبةً لهم بسبب بغيهم وظلمهم، وإنَّا لصادقون في الإخبار عن بغيهم، وتخصيصهم بهذا التحريم.

فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا فَإِن شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾

١٤٧ ـ فإنْ كذَّبك المشركون واليهود ـ يا رسول الله ـ فيما أخبرناك، فقُل: ربُّكم ذو رحمة واسعة بتأخير العقوبة عنكم، والمجرمون يُعذِّبهم عذاباً شديداً إذا قضى تعذيبهم، ولا يُرَدُّ عذابُه ونِقْمَتُهُ إذا جاء وقْتُهما المُقدَّر في علمه سبحانه عن القوم المجرمين المتضافرين على الشر، والمتعاونين على الإثم والعدوان.

١٤٨ ـ سيقولُ أئمة الشرك مُسوِّغين إقامتهم على الكفر والشِّرك: لو شاء الله أن لا نُشرك ما أشركنا، ولا أشركَ آباؤنا من قبل، ولو شاء الله ما حرَّمنا من شيء، بل شاء أن نكون مشركين نحن وآباؤنا، وشاء أن نُحرِّم ما حرَّمنا، وفطرنا على هذا بالخَلْق الجَبْري، فلا مسؤولية علينا، فيما نحن عليه من ربِّنا، فقال الله عزَّ وجلّ ردّاً وتكذيباً لهم: كذلك الكذب الذي سيقوله المشركون، كذَّب الذين من قبلهم من كفَّار الأمم الخالية، وقالوا مثلَ قول هؤلاء، حتى أنزلنا عليهم العذابَ الشديد، فلو كان زعمهم صحيحاً مرضياً عند الله، لما أذاق أسلافهم المُكذِّبين الذين قالوا لرسلهم مثلَ قولهم، عذابَه ونقمته. قل ـ يا رسول الله ويا كلَّ داعٍ إلى الله من أمته ـ لهؤلاء المشركين: هل عندكم بدعواكم ما تدعُون من برهان عقليّ وتجريبيّ يُوجبُ اليقين من العلم، ويُثبت أنكم مَجْبورون في رحلة امتحانكم، فتُظهروا ذلك العلم لنا؟ بل البرهان العقلي والتجريبيّ يُثبت أنكم ذوو إرادات حرة تريدون بها ما تشاؤون من كلِّ ما يخضع لتصرُّفاتكم الإرادية، وأنتم مسؤولون عمَّا تفعلون بإراداتكم الحُرَّة، وقل لهم بعد أن تقيم الحجَّة القاطعة لجدلهم القائم على المغالطة: أنتم بين حالتين: **الأولى**: ما تتَّبعونَ إلا الظنَّ التوهُّمي فيما أنتم عليه من تسويغ الشِّرك وتحريم ما لم يُحرِّمه الله عليكم، **الثانية**: وما أنتُم في ذلك كلِّه إلا تتأثَّرون بأوهامكم، وتندفعون وراءها كأنها حقائق.

١٤٩ ـ قل ـ يا رسول الله ـ لهؤلاء المشركين حين عجزوا عن إظهار حُجَّة لهم: فَلِلَّهِ الحُجَّةُ التامَّةُ على خلقه بإنزال الكتب، وإرسال الرسل، فلو شاءَ الله سبحانه لَسَلَبكم إراداتكم الحُرَّة، ولَجَعَلَكُم مجْبورين لا اختيار لكم، وتكونوا جميعاً مهديين كالملائكة، ولكن ذلك يُلغي حكمة ابتلائكم في ظروف الحياة الدنيا، فلا تزعموا أنكم مَجْبورون، أما الهداية بالدلالة على الحقِّ، وبيان الصراط المستقيم، فقد بعث الله بها رسله، وأنزل بها كتبه.

١٥٠ ـ قُل ـ يا رسول الله ـ لهم: هاتُوا وأحضروا شهداءَكُم الذين يشهدون لكم أنَّ الله حرَّم ما حرَّمتم من الزرع والأنعام، فإن شَهِدوا ـ كذباً وزوراً ـ فلا تشهد أنتَ ـ يا رسول الله ـ معهم؛ لأنهم في شهادتهم كاذبون، وإنْ وَقَع منهم شهادةٌ فإنَّما هي باتِّباع الهوى، فلا تَتَّبع أنت ـ يا رسول الله ـ أهواءَ الذين كذَّبوا بآياتنا من المشركين واليهود والنصارى، ولكن اتَّبع ما أُوحي إليك، ولا تَتَّبع أهواءَ الذين لا يُؤمنون بالآخرة، وهم بربِّهم يُشركون، فهم لا يَخافون عذابَ الله، فيعبدون ما لا يستحقُّ العبادة، وينصرفون إلى غيره من خلقه.

١٥١ ـ قُل ـ يا رسول الله ـ لهؤلاء المشركين الذين زعموا أنَّ الله أمرهم بتحريم ما حرَّموه على أنفسهم: هَلُمّوا ـ أيُّها القوم ـ أخبركم ما حرَّم عليكم ربُّكم فعلَهُ أو تركه حقاً يقيناً لا ظناً ولا كذباً كما زعمتم: **المُحرَّم الأول**: الشرك بالله: فلا تشركوا بالله شيئاً في ربوبيَّته وإلهيَّته، **والمُحرَّم الثاني**: عقوق الوالدين، بعدم القيام بطاعتهما والإحسان إليهما، فأحسنوا بالوالدين إحساناً، **والمُحرَّم الثالث**: قتل الأولاد، فلا تقْتُلوا أولادكم تَخلُّصاً من أزمة الفقر الواقع، فإنِّي رازقكم وإيَّاهُم، **والمُحرَّم الرابع**: الاقتراب من كبائر المعاصي والآثام المُتعلِّقة بشهوات الفروج ما كان ظاهراً منها وما كان خفياً، والنهي عن الاقتراب أشد من النهي عن الفعل، والاقتراب من الفواحش يكون بالخلوة، وبالملامسة، وبالمعانقة، ونحو ذلك، **والمُحرَّم الخامس**: قتل النفس التي حَرَّم الله قتلها في عموم الأحوال، إلا حالة كون قتلها مُتَّصفاً بالحق، وهي التي أُبيح قتلها من ردة، أو قصاص، أو زنىً بعد إحصان، ذلكم المذكور من الأوامر والنَّواهي، أمركم الله به أمراً مُؤكَّداً، ونهاكم عنه نهياً مُؤكَّداً؛ رغبةً في أن تعقلوا عقلاً علمياً، وعقلاً إرادياً بضبط النفس عن اتِّباع الأهواء والشهوات، والجُنوح عن صراط الله المستقيم.

وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾

١٥٢ - **والمُحرَّم السادس**: الاقتراب من مال اليتيم الذي مات أبوه قبل الحُلُم، فلا تَقْربوا مال اليتيم الذي أنتم أولياء أو أوصياء عليه، إلا بالخصلة التي هي أحسن، بالمحافظة على الأموال الثابتة كالأرضين والدُّور والأغراس، وتثمير المنقول وتحصيل الرِّبح فيه، فاحْفَظُوا مالَ اليتيم إلى أن يبلغ الحُلُمَ مع إيناس الرُّشد، فإذا بلغ ذلك فادفعوا إليه ماله، **والمُحرَّم السابع**: عدم إيفاء الكَيْل والمكْيال، والوزن والميزان بالعدل، فاجعلوا الكَيْل في المكيلات والوزن في الموزونات تاماً من غير بخسٍ أيِّ مقدار مهما قلَّ. لا نُكلِّف نفساً إلا ما يَسَعُها ولا يشقُّ عليها في إيفاء الكَيْل والوزن وإتمامه، فما عَجَزتم عن تحقيقه، فلا مسؤوليَّة عليكم فيه، **المُحرَّم الثامن**: عدم العدل بالقول، في حكم أو شهادة أو رواية ونحو ذلك، فإذا قلتم قولاً فاصدقوا فيه، وقولوا الحقَّ، ولو كان المحكوم عليه، وكذا المشهود عليه - الذين تريدون مُحاباتِهِ بقولٍ مائلٍ عن الحق - ذا قرابة، **المُحرَّم التاسع**: عدم الوفاء بعهد الله، ممَّا أَمر الله به أو نهى نه، فأوفوا بأوامر الله ونواهيه، وبما يكون بينكم وبين العباد من مواثيق وثقتموها بالحَلِف باسم من أسماء الله تعالى، ذلكم المذكور في هذه الآيات وصَّاكم بالعمَل به، رغبةً في أن تضعوا ذلك في ذاكرتكم، ويظهر أثر ذلك التذكُّر في نفوسكم وقلوبكم وسلوككم.

١٥٣ - **المُحرَّم العاشر**: عدمُ اتِّباع صراط الله المستقيم، واتِّباع السُّبُل العديدة المتفرِّقة، فاتَّبعوا طريقي وديني الذي ارتَضَيْتُه لعبادي قويماً لا اعوِجَاج فيه، فاعملوا به، ولا تَتَّبعوا الطرق المُختلفة، والأهواء المُضلَّة والبدعَ المُردية، فتميل بكم هذه الطرق المختلفة المُضِلَّة، عن دينه وطريقه الذي ارتضاه لعباده، ذلكم وصَّاكم به باتِّباع دينه وصراطه الذي لا اعوِجاج فيه؛ رغبةً في أن تعملوا بهذه الوصايا، فَتَتَّقوا الطُّرقَ المُختلفة والسُّبُل المُضِلَّة.

١٥٤ - ثمَّ بعدَمَا أنزلنا في الرِّسالات السَّابقات أحكاماً وشرائع هي من الدين الذي اصْطَفَيْناه للناس، وهي كافيات للأقوام التي كُلِّفت أن تعمل بها، آتيْنا موسى كتاب التَّوراةِ حالة كونه تماماً كاملاً في أحكامه وشرائعه، محمولاً بتمامه على الذي أحسنَ من قومِهِ، وتبْييناً لكلِّ شيءٍ يُحتاج إليه من شرائع الدين وأحكامه، وهُدىً إلى الحقِّ والخير، ورحمةً مني عليهم؛ رغبةً في أن يؤمن بنو إسرائيل بالبعث بعد الموت، ويُصَدِّقوا بالثواب والعقاب، وفصل القضاء والجزاء، ويعملوا لذلك.

١٥٥ - وهذا القرآن كتابٌ أنزلناه على نَبيِّنا محمد ﷺ، كثيرُ الخير والنفع والعطاء العلمي والمعرفي، والهداية والتأثيرات القلبيَّة والنفسيَّة، فآمنوا به، واعملوا بما جاء فيه من الأوامر والنواهي والأحكام، واتَّقوا عذابَ ربِّكم، راجين أن يرحمكُم ربُّكم، فيغفرَ لكم بالإيمان والإسلام واتِّباع كتابه سوابق كفركم بالحقِّ الذي جاءكم به رسول ربِّكم.

١٥٦ - نُوَجِّه لكم - أيها المشركون العرب - هذا الأمر باتِّباع القرآن الكتاب العربيِّ المبين، مَنْعَ أن تقولوا مُعتذرين عن كفركم يوم الدين: ما أُنزل التوراة والإنجيل إلا على اليهود والنصارى، وقد كنَّا عن قراءتهم غافلين لا علم لنا بما فيها؛ لأنها ليست بلغتنا.

١٥٧ - أو مَنْعَ أن تقولوا - أيُّها المشركون -: لو أنا أُنْزِلَ علينا كتابٌ من السماء كما أُنزل على اليهود والنصارى، لكنَّا خيراً منهم وأهدى، فقد جاءكم هذا القرآنُ فيه بيانٌ وحُجَّةٌ واضحةٌ تعرفونها، وهُدىً من الضلالة، وهو رحمةٌ ونعمةٌ أنعم الله بها عليكم، فلا يوجد أكثر ظلماً من الذي كذَّب بآيات الله البيانيَّة المُنزَّلة على رسوله، وأعرض عنها، وَصَرَف الناس عنها، سَنَجْزي الذين يُعرضون مائلين عن آياتنا المُنزَّلات على رسولنا، والذين يصرفون الناس عنها، أسوأَ العذاب وأشدَّه؛ بسبب إعراضهم وتكذيبهم بآياتنا، وصدِّهم عن سبيلنا.

هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ انتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ۚ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٥﴾

١٥٨ ـ هل ينتظرُ هؤلاء بعد تكذيبهم الرُّسُل، وإنكارهم القُرآن، إلا إحدى هذه الأمور الثلاث: **الأمر الأول:** أن تأتيهم الملائكة لِقَبْض أرواحهم. **الأمر الثاني:** أن يأتيَ ربُّك للحكم وفَصل القضاء بين الخلق يوم القيامة. **الأمر الثالث:** أن يأتي بعضُ أشراط الساعة، وهي طلوع الشمس من مغربها، فحين ظهور هذه الآية العظيمة التي تَضْطرهم إلى الإيمان والتوبة، لا ينفعُ مَنْ كان مشركاً إيمانُه، إن لم يكن آمَنَ من قبل، ولا يُقبل من فاسق توبتُه إن لم يكن عمل قبل ظهور هذه الآية خيراً يُعبِّر به عن صحَّة الإيمان وصدقه؛ لأنَّ هذه الآية العظيمة تَضْطرهم إلى الإيمان والتوبة. قل لهم ـ يا رسول الله ـ: انتظِروا تحقيق آمالكم بموتي والتخلُّص منِّي، أو بحدوث حَدَثٍ يُوقف مسيرة دعوتي، فأنا والذين آمنوا بي منتظرون نصرَ الله لنا، ومنتظرون ما وَعَدكم ربُّكم من العذاب يوم القيامة أو قبله في الدنيا.

١٥٩ ـ إنَّ الذين فرَّقوا دينَهم، واختلفوا فيه، وصاروا أحزاباً مُتفرِّقة في الضلالة، من المشركين واليهود والنَّصارى، وأهل الأهواء والبدع، بعد ما كانوا مجتمعين على توحيد الله والعمل بشرعه، لستَ ـ يا رسول الله ـ في شيءٍ من دينهم، ولستَ مسؤولاً عنهم، فلا تحمل همَّ أحدٍ منهم، إنَّما أمرهم إلى الله، وهو الذي سَيُحبط كَيْدَهُم، ويُظهر دينه، وسينصرك عليهم، وستأتيهم آجالهم دون تحقيق آمالهم، وينالون نصيباً من عذابهم عند موتهم، وفي مدَّة البرزخ، ثمَّ يبعثون؛ للحساب، وفصل القضاء، وتنفيذ الجزاء، وحين يُسائلهم ربُهم، يُنَبِّئُهم بما كانوا يفعلون في الحياة الدنيا.

١٦٠ ـ مَنْ جاء بالحسنة فَلَهُ عشرُ حسناتٍ أمثالها، ومَنْ جاء بالسيِّئة فلا يُجزى إلا مثلَها في مُقابلها، ولا يُنْقَصُ من ثواب الطائع، ولا يُزادُ على عذاب العاصي.

١٦١ ـ قل ـ يا رسول الله ـ لهؤلاء المشركين: إنني أرشدني ربِّي إلى طريق الإسلام القويم، لا عِوَج فيه ولا التواء، حالة كونه ديناً ذا مبادىء عظيمة تُقوِّم بها العقائدُ وأنواعُ السُّلوك الإنساني، وهداني دينَ إبراهيم في أصوله وعقائده وكليَّاته السلوكيّة، حالة كون إبراهيم عليه السلام مائلاً عن كلِّ عِوجٍ في مِلَلِ النَّاس ومذاهبهم إلى الاستقامة، وما كان إبراهيم عليه السلام ـ يا معشر قريش ـ من المشركين، وأنتم تعبدون الأصنام وتزعُمون أنكم على دينه!!

١٦٢، ١٦٣ ـ قل ـ يا رسول الله ـ: إنَّ صلاتي، وعبادتي وتقرُّبي إلى الله سبحانه، وحياتي وموتي، كلها خالصةٌ لوجه الله عزَّ وجلَّ، الخالق لكلِّ الموجودات الكونيَّة، والمُمِدِّ لها دواماً بعطاءات ربوبيَّته، فهو المُستحقُّ أن يُعبد وحده. لا شريكَ له في ربوبيَّته وفي إلٰهيَّته. وبهذا التوحيد أُمرتُ، وأنا أوَّلُ الذين يُعلنون إسلامهم، وأول المُنفِّذين لأحكام الإسلام في سُلوكي النفسيِّ والجسديِّ من هذه الأمة.

١٦٤ ـ قل ـ يا رسول الله ـ لهؤلاء الكفار من قومك: أغيرَ الله أطلُبُ لنفسي رباً، وهو ـ جلَّ جلاله ـ سيِّدُ كلِّ شيء ومالكُهُ لا يُشاركه فيه أحدٌ؟ ولا تجْني نفسٌ بما تكسب من آثام، إلا عُقوباتٍ مُسلَّطاتٍ عليها، لا يُشاركها فيها أحد، ولا تحمل نفسٌ آثمةٌ ولا غيرُ آثمةٍ إثمَ نفس أخرى، حتى تُخلِّص هذه الثانيةَ من إثمها، إنما تحملُ الآثمةُ إثمَ ذنبها الذي فعلته بالمباشرة أو التسبُّب فتُعاقب هي عليه، ثمَّ بعد رحلة امتحانكم ـ أيها الناس ـ تموتون، ثم تبعثون، وترجعون إلى ملاقاة ربِّكم في محكمة يوم الدين، فَيُنَبِّئُكم بكلِّ ما كنتم فيه تختلفون.

١٦٥ ـ واللّٰهُ هو الذي صيَّركم أجيالاً يعقب بعضكم بعضاً في الأرض، تَخْلُفُونَ مَنْ قبلكم، ويَخْلُفُكم مَنْ بعدَكم، وجَعَلَكم ربُّكم مُتفاضِلينَ في هِبَاتِهِ وعطاياه لكم في ذواتكم، وفيما ملَّككم إيّاه، ومكَّنكم أن تتصرَّفوا فيه؛ ليمْتَحِنَ كُلَّ واحدٍ منكم فيما آتاه، إنَّ ربَّك سريعُ العقاب لأعدائه بإهلاكهم في الدنيا، يُنزله عليهم سريعاً بعد تفاقم شرِّهم، وهم غير مُترقِّبين إنزاله فيهم، وإنَّه لكثير السَّتر لذنوبِ أوْليائه، وأهلِ طاعته، واسع الرحمة ودائمُها لمَنْ آمن منهم.

سُورَةُ الأَعْرَافِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓصٓ ﴿١﴾ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴿٤﴾ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٥﴾ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾

سُورَةُ الأَعْرَافِ

١ - ﴿الٓمٓصٓ﴾ سَبَق الكلام على معاني الحروف المُقطَّعة في أول سورة البقرة.

٢ - هذا القرآن كتابٌ أنزلته إليك - يا رسول الله - ، فلا يكن في صدرك ضيقٌ من مسؤولياتك، وما يجب عليك تُجاه ما أُنزل إليك، فلستَ مسؤولاً عن تحويل الناس من الكفر إلى الإيمان، واتِّخاذ الوسائل الإكراهيَّة التي تجعلهم يتَّبعونه؛ أنْزلنا إليك القرآن لتُنْذِر به مَنْ أمرتك بإنْذارِهِ بعد التبليغ والبيان واتِّخاذ كل وسائل الإقناع، وليكون ذكرى للمؤمنين، يذكَّرون به، ويتذكَّرُونه كلما تَلَوْه، أو قرؤوه، أو سمعوه.

٣ - قل - يا رسول الله - لقومك: اتَّخذوا ربَّكم وليّاً لكم، فاتَّبِعوا - أيُّها النَّاس - القرآنَ وما أتى به النبيّ ﷺ، ولا تتَّخذوا الذين يَدعونكم إلى الكفر أولياء، تتَّبعون ما يأمرونكم به وما ينهونكم عنه، ما تتذكَّرون إلا قليلاً باكتساب المعرفة الدينية، والمحافظة عليها في مخازن الذاكرة، واستدعائها إلى ساحة التذكُر عند المناسبات الداعيات، ليكون هذا التذكُر مُوَجِّهاً لإرادتكم، ومُحَرِّكاً لسلوككم.

٤ - وكثيرٌ مِنْ أهل المُجمَّعات السكنيَّة الذين أصرُّوا على الكفر أردنا إهلاكهم، فقضيناه، فجاء أهلَها عذابُنا الشديدُ ليلاً قبل أن يُصبحوا كقوم لوط، أوْ هُم نائمون في نصف النهار كقوم شعيب؛ وإنزال العذاب في هذين الوقتين، وهما وقت الدَّعة والغفلة: أقسى وأفظع.

٥ - فما كان دعاءُ أهلِ القرية التي جاءَها عذابُنا إلا أن اعترفوا بالذنوب حين لا ينفع الاعتراف ولا الدعاء ولا الرجاء.

٦ - أقسم لَنَسْأَلَنَّ يومَ القيامة الأمَمَ الذين أُرسلت إليهم الرُّسل: ماذا عملتم فيما جاءتكم به الرسل؟ وأقسم لَنَسْأَلَنَّ الرسل الذين أرسلناهم إلى الأمم: هل بلَّغتم رسالاتنا؟

٧ - فَلَنُخْبِرنَّ الرُّسلَ، ومَنْ أُرسلوا إليهم بعلم ويقين بما عملوا في الدنيا، وما كنَّا غائبين عنهم وعن أفعالهم، وعن الرُّسُل فيما بلَّغوا، وعن الأمم فيما أجابوا، بل كنا حاضرينَ شاهدين كلَّ شيء.

٨ - والوزنُ يومَ سؤال الأمم والرُّسل، وهو يومُ القيامة: العــدلُ. فَمَنْ ثَقُلَتْ مقادير أعماله الموزونة؛ بأن رَجَحَتْ حَسَناتُه على سيِّئاته، فأولئكَ رفيعوا المنزلة هم النَّاجُونَ غداً، والفائزونَ بثواب الله وجزائه.

٩ - ومَنْ خَفَّتْ مقادير أعماله الموزونة بأن رَجَحَتْ سيِّئاتُه على حَسَناته، وهم الكفَّار، فأولئكَ البعداء عن رحمة الله الذين غَبَنُوا أنفسهم حظوظها من جزيل ثواب اللَّهِ وكرامته؛ بسبب ما كانوا في الحياة الدنيا يظلمون بتركهم اتِّباع آياتنا المُنزَّلات التي أمرناهم باتِّباعها.

١٠ - وأُقسم مُؤكِّداً لكم أننا جعلنا لكم - أيُّها الناس - في الأرض تمكيناً تقدرون به على التصرُّف بالمُسخَّرات لكم فيها، وجعلنا لكم فيها جميعَ وجوه المنافع، ومع هذا فإنكم قليلاً ما تشكرون ما صنعتُ إليكم، وأنعمتُ به عليكم.

١١ - وأُقسم مُؤكِّداً لكم أننا قدَّرنا تكوينكم - أيها الناس - وأنتم في ظهر أبيكم آدم، ثم بعد الخلق التقديريّ الإبداعيّ صوَّرناكم، ثمَّ قلنا لملائكة الملأ الأعلى - ومن كان مُندسّاً فيهم، ومُلتحقاً بهم، وهو إبليس - : اسْجُدوا لآدم، فَسَجد الملائكة لآدم، إلا إبليس لم يكن من ضمن الساجدين؛ حسداً له على هذا التكريم العظيم.

قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾

١٢ ـ قال اللَّهُ تعالىٰ لإبليس: أيُّ شيء مَنَعك عن السجود لآدم حاملاً لك على ألاّ تسجد وقت أمري إيَّاك مع مَنْ أمرتُ من ملائكة الملأ الأعلى الذين دخلتَ فيهم، واعتبرتَ نفسك واحداً منهم؟ قال إبليس: أنا أشدُّ منه قوةً وأفضل منه أصلاً؛ لأنَّك خلقتني من نارٍ، وخلقته من طين.

١٣ ـ قال اللَّهُ تعالى لإبليس: كذبتَ، فلستَ خيراً منه، بل أنت مستكبر بغير حق، جاحدٌ إلهيَّة ربك، فاهبط من الجنَّة، فليسَ لك أن تسْتكبر في الجنَّة عن أمري وطاعتي، فاخرُج إنَّك من الأذلاَّء المُهَانين.

١٤ ـ قال إبليس عند ذلك: أَخِّرني ولا تُمِتْني إلى يوم يُبْعثون من قبورهم، وهو وقت النفخة الثانية عند قيام الساعة.

١٥ ـ قال اللَّهُ تعالى له: إنَّك من المُؤَخَّرين المُمْهَلين، إلى الوقْت المعلوم، وهو وقت النفخة الأولى حين يموت الخلقُ كلُّهم.

١٦ ـ قال إبليس: فَبِسَبَبِ ما حكمتَ عليَّ بالغَواية، لرفضي طاعة أمرك بالسُّجود لآدم، أقسم لأَقْعُدَنَّ لإغوائهم مُلازماً طريقك المستقيم الذي يُوصل سالكه إلى جنَّات النعيم، حتى يسلكوا سُبُلاً منحدرةً بسالكيها إلى دركات الجحيم.

١٧ ـ ثمَّ لآتِيَنَّهم من الجِهَاتِ الأربع، بالصَّدِّ من الأمام، والمنع والجَذْب من الخلف، والتحويل ذات اليمين، أو ذات الشمال، في السُّبُل المُتفرِّقة والمَتَاهات، ولا تجد بعد قيامي أنا وذرِّيتي وجنودي بإغواء بني آدم أكثرهم شاكرين، بل تجد أكثرهم كفورين يستحقُّون الخلود في النار.

١٨ ـ قال الله تعالى لإبليس: اخرُج من الجنَّة مَعيباً، مَطروداً، مدفوعاً بعنف وإهانة وإذلال، لأَمْلأنَّ جهنَّم ممَّن تَبِعَكَ من بني آدم، وإبْليس وذرِّيته.

١٩ ـ وقلنا: يا آدمُ اسكُنْ أنتَ وزَوْجُك حواء الجنَّةَ، فَكُلا من ثمار الجنَّة من أيِّ مكانٍ شئتُما، ولا تَقْربا هذه الشجرة للأكل، فإنْ أكلتما من هذه الشجرة ظَلَمْتُما أنفُسَكما، إذ تُسبِّب لكما معصيتكما الإخراج من الجنة، والإهباط إلى الأرض، وتحمُّل الكدْح والكدِّ والعناء فيها.

٢٠ ـ فألقى الشَّيطانُ في قلبَي آدمَ وحواء كلاماً خفيَّاً مكرَّراً، مُسَوِّلاً لهما الأكل من الشجرة بِطُرقٍ كثيرة؛ لِيُظهِرَ لهما ما سُتِر وأُخفي عنهما من عوراتهما، وقال إبليس لآدم وحواء: ما نهاكُما ربُّكما عن الأكل من هذه الشجرة؛ إلا مَنْعَ أن تكونا مَلَكَيْن من الملائكة، أو تكونا من الخالدين الذين لا يموتون؛ بسبب ما في هذه الشجرة من عناصر تُسبِّب الخلود.

٢١ ـ وأَقْسَمَ لهما بالله تعالى كاذباً: إني لكما لَمِن النَّاصحين بالأكل من الشجرة، ليستجيبا لنصحِهِ الكاذِب فيها، فيأكلا من الشجرة المحرَّمة.

٢٢ ـ غرَّ إبليسُ آدمَ عليه السلام وزوجه حواء باليمين الكاذبة، فحطَّهما من منزلة الطاعة إلى مَهْواةِ المعصية بخداعه شيئاً فشيئاً، فحين طعما من ثمرة الشجرة، ظهرت لهما عوراتهما بسقوط الأكسية الساترة لهما، وجَعلا يُرقِّعان ويُلْصقان على جلود سَوْآتهما من وَرَق أشجار الجنة، ونادى الله تعالى آدم وحواء وخاطبهما، فقال: أَلَم أنْهَكُما عن أكل ثمرة هذه الشَّجرة المُحرَّمة، وأَقُلْ لكما: إنَّ الشيطان قد بانَتْ عداوتُه لكما بترك السجود حَسَداً وبغياً؟! وفي هذه الآية دليلٌ على أنَّ كشف العورة من المحرَّمات، وأنه كان ولم يزل مُسْتَقْبحاً في العقول، مُسْتهجناً في الطِّباع. وأنَّ من أعظم مسالك الشيطان في إشاعة الفحشاء: التكشُّف والتَّعرِّي، ولبس القصير من الثياب.

قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾

٢٣ - قال آدم وحواء: ربَّنا ظلمنا أَنْفُسَنَا بمخالفة أمرك وطاعةِ عدوِّنا وعدوِّك، وأنتَ يا ربَّنا إنْ لم تَسْتُر علينا ذَنْبَنا، وتَتَفَضَّل علينا برحمتك، لَنكونَنَّ من ضمن جماعات الخاسرين.

٢٤ - قال الله تعالى لآدم وحواء وذرِّيَّاتهما فيهما: اهبطوا من السماء إلى الأرض، والحال أنه سيكون بعضكم عدوّاً لبعض، بسبب اختلاف مصالحكم وأهوائكم وشهواتكم، وما سيكون بينكم من تحاسد، وخصومات شديدة، وحروب كبرى، ولكم في الأرض موضعُ استقرار مؤقَّت، ولكم فيها متاعٌ تستمتعون به إلى انقضاء آجالكم.

٢٥ - قال الله عزَّ وجلّ لآدم وحواء وذُرِّيَّاتهما: في الأرض تعيشون أيَّام حياتكم، وفيها وفاتكم وموضع قبوركم، ومن الأرض يُخرِجُكم ربُّكم، ويجمعكم للحساب يوم القيامة.

٢٦ - يا بني آدم قد خَلَقنا لكم لباساً مادياً تَسْتُرون به عوراتكم، ولباساً لزينتكم وتجمُّلكم وتأثيث منازلكم، ولباساً معنوياً من تعليمات الله وأوامره لكم يقيكم إذا عملتم بها واتَّبعتموها شقاءَ الحياة الدنيا، وعذابَ الله يوم الدين، ولباسُ تقوى الله بفعل الأوامر واجْتناب النواهي خيرٌ لصاحبه من لباس التجمُّل وزينة الدنيا؛ لأن صاحبه يتَّقي به من النار. ذلك الذي أنزلناه عليكم - يا بني آدم - من نِعَم الحياة الدنيا لمَعَاشكم، وإنزال تعليمات الدين التي هي هُدىً لكم من آياتِ الله العظيمات الدالاَّت على عظيم رحمته ونعمته وحكمته؛ رغبة أن يضعوها في ذاكرتهم، وأن يعملوا بما تهديهم إليه، ممَّا يُحقِّق سعادتهم في عاجل أمرهم وآجله.

٢٧ - يا بني آدم لا يَخْدَعنَّكم الشيطانُ بِغُروره، ولا يُضِلَّنَّكم فَيُزَيِّنُ لكم كشفَ عوراتِكم، فيخرجكم عن صراط الله إلى المعصية، فتستحقون الحرمان من دخول الجنة، فإنَّ من قَدَرَ على إخراج أبيكم وأمكم من الجنة بوسوسته وشدَّة عداوته يَقْدِرُ على فتنتكم بطريق أَوْلى، يزيل عنهما بوسوسته وغروره لباسَهُما؛ ليرىٰ آدمُ عورةَ حواء، وترى حواءُ عورةَ آدم، إنَّ إبليس يراكم - يا بني آدم - هو وجماعتُه من الجنّ من أمكنة يكونون معكم فيها، وأنتم لا تَرَوْنهم. إنَّا جعلنا - بما وضعنا في طبائع الأشياء والنفوس من أنظمة وقوانين سببيَّة - الشياطين أعواناً وقُرَناء للَّذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر، وتتولى بوساوسها توجيهه وتسييره في الحياة الدنيا، وتنتهي به إلى أن يكون في الجحيم يوم الدين.

٢٨ - وإذا فعل الكفَّار فعلاً قبيحاً يتعلَّق بشهوات الفروج، فنُهوا عنه، احتجُّوا عن هذه الأفعالِ بِعُذْرَيْن: **أحدهما:** التقليد لآبائهم، **والعذر الثاني:** ادعاؤهم أنَّ الله أمرهم بهذا. قل - يا رسول الله - لهم: إنَّ الله لا يأمرُ بالأفعال القبيحة المنكرة، إنما يأمر بمحاسن الأعمال، ومكارم الأخلاق والخصال، أتقولون كذباً على الله - أيُّها المشركون - ما لا تعلمون علماً يقيناً أنه قاله جَلَّ جلاله؟!

٢٩ - قل - يا رسول الله - لهؤلاء الذين يقولون على الله ما لا يعلمون: أَمَرَ ربِّي بخمس من قضايا الدين الكبرى منذ عهد آدم: **القضية الأولى:** أمر بالعدل، وذلك بإعطاء كلِّ ذي حقٍّ حقَّه، أو ما يساويه، وبمعاقبة المعتدي بما يُعادل ما كان منه من عدوان وظلم على صاحب الحق، **والقضية الثانية:** أمر بالصَّلاة، وقال لبني آدم: اقْصِدُوا عبادته مستقيمين إليها عند كلِّ صلاة، وزمان، ومكان تسجدون لله فيه، بتوجيه الاهتمام والعناية التامّة لعبادة الله، استقبالاً للقبلة، وتركيزاً للحواسِّ الظاهرة والباطنة لعبادة الله عزَّ وجل، **والقضية الثالثة:** أمر الله عزَّ وجلّ بأن تتوجَّهوا له بالدعاء مُخلصينَ له العبادة والطاعة، **القضية الرابعة:** الإيمان باليوم الآخر كما بدأ الله خلقكم فكنتم بشراً أحياء، فإنه يُعيدكم إلى الحياة بعد أن يميتكم، ويجمعكم إلى يوم الحساب، وفصل القضاء.

٣٠ - **القضية الخامسة:** جعل الله عباده يوم القيامة بعد الحساب وفصل القضاء فريقين: **الفريق الأول:** حكم الله لهم بالهداية، إذ كانوا اختاروا لأنفسهم في الحياة الدنيا طريق الهداية، **والفريق الثاني:** ثبت عليهم أنهم كانوا قد اختاروا لأنفسهم في الحياة الدنيا طريق الضلالة؛ إنَّهم اتَّخذوا في الحياة الدنيا الشَّياطين أنصاراً وأعواناً، أطاعوهم فيما أمروهم به من الكفر، ويظنُّون أنَّهم مع ضلالتهم على هدايةٍ وحق.

﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾ يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾

٣١ ـ يا بني آدم البسوا الثيابَ التي تسترِ عوراتكم عند كلِّ صلاة، وعند كلِّ زمانِ صلاةٍ تؤدُّونها، وعند كلِّ مكان صلاةٍ تُصلون فيه، فستْر العورات في الصَّلوات والطواف والمساجد من أصول الدين الثابتة في كلِّ الرِّسالات الربَّانيَّة للناس، وكُلوا واشْربوا ما أحلَّ الله لكم، ولا تُسرفوا بتجاوز الحدِّ في الأكل والشرب إلى ما يُؤذي أو يضر؛ إنَّ الله تعالى لا يُحبُّ مَنْ أسرف في المأكول والمشروب والملبوس، وغير ذلك؛ لأنَّ الإسراف يُوصل إلى الوقوع في المضارِّ والمهالك، أو الظلم والتحريف في الدين، ومن جعل نفسه بإرادته في زُمْرة الَّذين لا يُحبُّهم الله، فقد جَعَلها عُرضة لنقمته وعذابه الشديد.

٣٢ ـ قل ـ يا رسول الله ـ لهؤلاء الجَهَلة من العرب الذين يطوفون بالبيتِ عُراة: مَنْ حرَّم عليكم زينة الله التي خلقها لعباده أن تتزيَّنوا بها وتلبسوها في الطواف وغيره؟ ومن حرَّم الطيِّبات من الرزق التي أخرجها الله لعباده، وخلقها لهم؟ قل ـ يا رسول الله ـ: إنَّ زينة الله التي أخرج لعباده، والطيِّبات من رزقه قد خلقها الله لينتفع بها الذين آمنوا وغيرهم، في الحياة الدنيا، حال كونها خالصةً للمؤمنين يوم القيامة، لا يُشركهم فيها أحد، كذلك التعليم والبيان حول الأخبار والشرائع والأحكام، سَنُفَصِّل في الآيات القرآنية التي سننزلها، لقوم يتابعون مصادر العلم الحقِّ، لاكتساب ما يهمُّهم ممَّا كانوا يَجْهلون.

٣٣ ـ قل ـ يا رسول الله ـ لهؤلاء المشركين الملتزمين بجاهلياتهم في أحكام ما أنزل الله بها من سلطان: ما حَرَّم ربي إلا هذه المحرَّمات الخمس في كل الرسالات الربَّانيَّة: **المحرَّم الأول**: كبائر المعاصي من شهوات الفروج، المُعلنة في بيوت الزنى والطرقات، ونحو ذلك، والتي تكون في السرِّ مع الخليلات والصَّديقات والأخْدان، ونحوهنَّ، **الثاني**: وحرَّم المعاصي كلَّها، كبائرها وصغائرها، وما بينهما، **الثالث**: وحرَّم الظلمَ والعدوان على حقوق الجماعات والأفراد، والاستطالة على الناس، ومجاوزةَ الحدِّ بغير الحق، **الرابع**: وحرَّم أن تُشركوا بالله في ربوبيَّته وإلٰهيَّته ما لم يُنزِّل به حُجَّةً وبرهاناً، **الخامس**: وحرَّم عليكم أن تفتروا الكذبَ على الله تعالى، بتحريم الحلال، وتحليلِ الحرام، وغير ذلك مما تتقوَّلونه على الله عزَّ وجلَّ.

٣٤ ـ ولِكُلِّ جماعةٍ مُكذِّبة كافرة قضى الله بحكمته أن يُهلكها إهلاكاً عاماً شاملاً وقتَ معيَّنٍ وأجلٍ مُسَمَّى، أمْهلهم الله إلى ذلك الوقت، فإذا قَرُب مجيءُ وقت عذابهم فلا يُؤَخَّرونَ ولا يتقدَّمون زمناً ما، مهما قلَّ.

٣٥ ـ يا بني آدم إمَّا يأتينَّكم رسلٌ من جنسكم، يقرؤون عليكم بتتبُّع كامل آياتي وشرائعي التي شَرَعت لعبادي، فمن اتَّقى بإيمانه وإسلامه الخلودَ في عذاب النار، وأصلح نفسه وعمله، فلا خوفٌ مُسَلَّطٌ عليهم حين يخافُ غيرهم يوم القيامة من العذاب، ولا هم يحزنون على ما فاتهم من دنياهم التي تركوها.

٣٦ ـ والذين كذَّبوا بآياتنا الكونيَّة والبيانيَّة والإعجازيَّة، واستكبروا في أنفسهم، وامتنعوا عن الإيمان بها، أولئك البُعداء عن رحمة الله تعالى، أصحاب النار الملازمون لها، المخالطون لألوان عذابها، هم فيها خالدون، لا يخرجون منها أبداً.

٣٧ ـ لا يوجد أحدٌ أشدّ ظلماً ممَّن يقول على الله ما لم يقله، أو كذَّب بالقرآن الذي أنزله الله على عبده ورسوله محمد ﷺ، أولئك يصل إليهم حظُّهم في الدنيا ممَّا قُدِّر لهم من الأعمار والأرزاق والأعمال، فهم مع ظلمهم وافترائهم لا يُحرمون منها إلى انقضاء آجالهم، تفضُّلاً منه تعالى؛ رجاء أن يَصْلُحوا ويتوبوا، حتى إذا جاءت ـ هؤلاء الذين يفترون على الله الكذب ـ ملائكةُ الموت لقبض أرواحهم عند استكمال أعمارهم وأرزاقهم. قال الملائكة للكفار: أين الذين كنتم تعبدونهم من دون الله؟ ادعوهم ليدفعوا عنكم العذابَ النازل بكم. قال الكفار مجيبين للملائكة: ذهبوا عنا وتركونا عند حاجتنا إليهم فلم ينفعونا، وشَهِدَ هؤلاء الكفار عند مُعَايَنَةِ العذابِ أنَّهم كانوا في حياتهم الدنيا جاحدين وحدانيَّة الله، واعترفوا على أنفسهم بذلك.

قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِۖ كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعٗا قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِۖ قَالَ لِكُلّٖ ضِعۡفٞ وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتۡ أُولَىٰهُمۡ لِأُخۡرَىٰهُمۡ فَمَا كَانَ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلٖ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٞ وَمِن فَوۡقِهِمۡ غَوَاشٖۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلّٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُۖ لَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّۖ وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٤٣﴾

٣٨ ـ قال الله تعالى يوم القيامة لمن افترى عليه الكذب، وجَعَل له شريكاً في خلقه: ادخلوا في جملة جماعة قد مَضَتْ من قبلكم من الجنّ والإنس في النّار التي هي مُستقرُّكم ومَأْواكم، كلّما دخلت جماعةٌ النار لعَنَتْ أختَها من أهل مِلّتها في الدين، حتى إذا تلاحَقُوا واجتمعوا في النار جميعاً، ولَحِقَ آخرُهم أوّلَهم، قالت آخر الأمم دخولاً النار ـ وهم الأتباع ـ عن أوّلهم دخولاً النار ـ وهم القادة ـ: ربّنا هؤلاء القادة والرؤساء أضلُّونا عن الهُدى بدعوتهم إيّانا إلى الضلال، فآتِهم عَذَاباً مضاعفاً من عذاب النار. قال الله تعالى: للتابع والمَتْبوع مِثْلُ جرمه، ولكن لا تعلمون ما أعدّ الله لكلٍّ فريقٍ من العذاب.

٣٩ ـ وقال القادة لأتباعهم: قد ضَلَلْتم كَمَا ضَلَلْنا، وكفرتم كما كفرنا، نحنُ وأنتم متساوون في العذاب، ليس لكم علينا أي فضل يُخفِّف عنكم العذاب، أو يُوجب أن يثقل العذاب علينا فوق عذابكم، فأنتم ضللتم كما ضللنا، وإذا كنا قد أضللناكم واتبعتمونا في ضلالنا، فقد أضللتم غيركم، واتّبعوكم في ضلالكم كما اتّبعتمونا. قال الله تعالى للجميع: ادخلوا في النار ذائقين لها، محسِّين بآلامها؛ بسبب ما كنتم تكسبون من الكفر والأعمال الخبيثة.

٤٠ ـ إنَّ الذين كذّبوا رسلنا الذين بلّغوهم آياتنا، وتكبّروا ممتنعين عن الإيمان بها، والانقياد لها، لهم جزاءان: **الجزاء الأول**: لا تُفتّحُ لأرواحهم إذا خرجت من أجسادهم أبواب السماء، ولا يصعد لهم إلى الله عزَّ وجلّ في وقت حياتهم قولٌ ولا عملٌ، **والجزاء الثاني**: لا يدخلون الجنة حتى يدخل الجمل في ثَقْب الإبرة، فكما أنَّ ولوجَ الجمل مع عِظَم جسمه في ثَقْب الإبرة الضيّق محالٌ، فكذلك دخول الكفار الجنّة محالٌ، وكذلك الجزاء الذي نجزيه الذين كذّبوا بآياتنا واستكبروا عنها، نجزي سائر الكافرين كفراً إرادياً مع علمهم بالحقّ الذي جاء به المرسلون. فكلُّ المجرمين لا تُفتّح لأرواحهم أبواب السماء بعد قبضها؛ ولا يدخلون الجنة يوم الدين أمراً من عند الله مُبْرماً مقطوعاً.

٤١ ـ لهم من نارِ جهنّم فِراشٌ من تحتهم شديد الإيلام، ومن فوقهم ظلمات دخانيّة حارّةٌ تعمُّ سماء جهنّم، وتُجلّلهم بالعذاب والكرب، وكذلك الجزاء الذي نجزيه الذين كذّبوا بآياتنا واستكبروا عنها، نجزي جميع الظالمين ظلماً من دَرَكَة الكفر.

٤٢ ـ والذين صدَّقوا باللّهِ ورسولِهِ، وعملوا بما أمرهم الله وأطاعوه ضمن وُسْعِهِم ـ لا نُكلّف نفساً إلا ما يَسَعُها من الأعمال، وما يَسْهُل عليها، ويدخل في قدرتها، وما لا حَرَجَ فيه عليها ولا ضيق ـ أولئك ذوو المنازل الرفيعة بحسْب مقادير إيمانهم وأعمالهم الصالحة، أصحابُ الجنّة الملازمون لها، المخالطون لألوان نعيمها، هم فيها باقون بقاءً أبدياً.

٤٣ ـ وأزلنا ما في صدور المؤمنين من غشٍ وحَسَدٍ وحقدٍ وعداوةٍ كانت بينهم في الدنيا، تجري من تحتهم الأنهار المُسْتجمعة لكلّ صفات الحُسْن والكمال، وهم على سُررهم في قصورهم، يتنعّمون بمشاهدة جريانها، وبما فيها من شراب مختلف الأنواع والأصناف، وقال المؤمنون إذا دخلوا الجنّة: الحمدُ لله الذي وفّقنا وأرشدنا في الحياة الدنيا إلى الصراط المستقيم الذي سلكناه، فأوصلنا إلى هذا النعيم العظيم، وتَفضّل علينا به رحمةً منه وإحساناً، وما كنّا لنتوصّل بعقولنا وتجاربنا إلى معرفة الصراط المستقيم لولا أن أرشدنا الله إليه، وأرسل رُسُلَه، وأنزل معهم كتبه، المشتملة على بياناتٍ كلّها حق. لقد جاءت رسل ربّنا بالحق الثابت تبليغاً عن ربّهم سبحانه، ونادى مُنادٍ: يا أهل الجنة، أنْ تلكم الجنة الرفيعة المنزلة، الجليلة القدر، منحكم الله إيّاها بتوفيقه لكم للأعمال الصّالحة التي عملتموها في دار الدنيا، ترثون فيها المنازل التي كانت مُعَدَّةً للكافرين، لو أنهم كانوا قد آمنوا وأسلموا في رحلة امتحانهم في الحياة الدنيا.

وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾ وَبَيۡنَهُمَا حِجَابٞۚ وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٞ يَعۡرِفُونَ كُلَّۢا بِسِيمَىٰهُمۡۚ وَنَادَوۡاْ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۚ لَمۡ يَدۡخُلُوهَا وَهُمۡ يَطۡمَعُونَ ﴿٤٦﴾ ۞ وَإِذَا صُرِفَتۡ أَبۡصَٰرُهُمۡ تِلۡقَآءَ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمۡ قَالُواْ مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ﴿٤٩﴾ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ﴿٥١﴾

٤٤ ـ ونادى أهلُ الجنة أهلَ النار: يا أهلَ النار قد وجدنا كلَّ ما وعدنا ربُّنا في الحياة الدنيا على ألسنة رسله من الثواب على الإيمان به وبرسله وطاعته، حقاً. فهل وجدتم كلَّ ما وعد ربكم من العذاب على الكفر حقّاً؟ قال أهل النار مجيبين لأهل الجنة: نعم وجدنا ذلك حقّاً. فنادى منادٍ بين الفريقين: لعنةُ الله على الظالمين الذين كذَّبوا بآيات الله، واستكبروا عن اتِّباعها.

٤٥ ـ هؤلاء الظالمون هم الذين اتصفوا بهذه الأوصاف الثلاثة: **أولها**: يهجرون سبيلَ الله الموصل إلى الحق، ويبتعدون عنه، ويمنعون الناسَ عن الدخول في دين الإسلام، **والوصف الثاني**: يُحاولونَ بشدَّة أن يُغيِّروا دينَ الله وطريقته التي شَرَع لعباده، حتى لا يَتَبَيَّنها أحد، **والوصف الثالث**: هم لا يؤمنون بيوم الدين، فلا يخافون من العقوبات الربَّانيَّة المُقرَّرات على الظالمين.

٤٦ ـ وبين أصحابِ الجنة وأصحابِ النار في أرض المحشر سُورٌ عظيمٌ فاصلٌ بين الفريقين، وعلى الأعالي المشرفة التي تكون فوق السُّور المرتفع رجالٌ يعرفون أهلَ الجنة بعلاماتهم ببياض الوجوه، ونَضْرة النعيم، ويعرفون أهل النار بسواد وجوههم. ونادى أصحابُ الأعراف أصحابَ الجنَّة: سَلِمتم من الآفات، وَحَصَل لكم الأمن والسلامة، وأهلُ الجنة ما زالوا في موقف الانتظار لم يدخلوا الجنّة بعد، وهم يَطْمَعون طمعاً مُتجدِّداً بصُدور الأمر التنفيذي في دخولها؛ لأنهم يعلمون بأنهم قد صدرت بشأنهم الأحكام الربَّانيَّة بأنهم من أصحاب الجنّة.

٤٧ ـ وإذا حُوِّلت أبْصارُ أصحابِ الأعراف اتِّجاهَ أصحاب النار، على غير رغبةٍ منهم، فنظروا إلى سواد وجوههم، وما هم فيه من العنت والمشقة والعذاب، دَعَوْا ربَّهم فوراً قائلين: ربَّنا لا تجعلنا مع القوم الذين ظلموا أنفسهم بالشِّرك.

٤٨ ـ ونادى أصحابُ الأعراف وهم على شُرفاتهم رجالاً كانوا عظماءَ في الدنيا، يعرفونهم بعلامات أهل النار، فيقولون لهم مثيرين فيهم الندم والتحسُّر: ما أغنى عنكم ما كنتم تجمعون من الأموال والرجال والقوىٰ في الحياة الدنيا، وما أغنى عنكم ما كنتم تستكبرون به عن اتِّباع الآيات المُنزَّلات التي بلَّغكم إيَّاها رسلُ ربِّكم؟

٤٩ ـ وعندما ينظر أصحابُ الأعراف إلى الجنّة، فَيرَوْن فيها الفقراء والضعفاء ممَّن كان يستهزىء بهم العظماء، يقول أصحاب الأعراف لأولئك الكفار: أهؤلاء الضعفاء الذين أقسمتم في الحياة الدنيا أنهم لا يدخلون الجنّة، ولا يصيرون إليها؟ ثمَّ يقول الله تعالى لأصحاب الجنّة الذين يترقّبون صدور الأمر التكريميِّ لهم بأن يدخلوا الجنّة: ادخلوا الجنَّة بفضلي ورحمتي، لا خوف عليكم بسبب ترقُّبُ مكروه من عذاب الله، ولا أنتم تحزنون بسبب مكروه نزل بكم، أو من أجل محبوبٍ فاتكم الحصول عليه.

٥٠ ـ يستغيث أهل النار بأهل الجنة إذا استقرُّوا فيها، يقولون لهم بذلة وانكسار: يا أهلَ الجنَّة صُبُّوا علينا شيئاً من الماء الفائض عن حاجاتكم، أو أطْعمونا ممَّا رزقكم الله من الطعام والفاكهة. فيجيبُهم أهل الجنّة بقولهم: إنَّ الله حرَّم الشَّرابَ والطعام على الكافرين أصحاب النار.

٥١ ـ هؤلاء الكفار هم الذين جعلوا الدين الذي كُلِّفوا أن يؤمنوا به ويتَّبعوه، شيئاً يَلْهون به ويلعبون، لأنهم يتصوَّرون أنَّ صرف شيء من طاقاتهم للعبادة ضربٌ من اللهو الذي يصرفهم عمَّا ينبغي أن يُوجِّهوا طاقاتهم له، من متاع الدنيا، ومن اللعب الذي لا يَجْلب نفعاً، وسببُ اتِّخاذهم دين الله لهواً ولعباً، هو أنهم خَدَعتهم الحياة الدنيا، فحسبوا أنها كل شيء في وجودهم، وأنه ليس وراءها حياةٌ أخرى يكون فيها الحساب والجزاء، فيوم القيامة نتركهم مُهْمَلين مَنْسيين في العذاب المهين جياعاً عطاشاً تَركاً مُشابهاً لتركهم الإيمان بيوم الدين، وترك العمل والاستعدادِ له في الحياة الدنيا، ومثلما كانوا يتابعون جحودهم بآياتنا التي نُنزِّلها تباعاً، مع أن أنفسهم كانت مُسْتيقنةً لها.

وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾

٥٢ - ونقسم مُؤكِّدين أننا جئنا هؤلاء الكفار بالقرآنِ الذي أنزلناه عليك - يا رسول الله - لهداية الناس، بيَّناه بياناً دقيقاً قائماً على علم منا بما نُفصِّله ونُبيِّنه، وجعلنا القرآنَ هادياً مُوصلاً إلى المطلوب، ذا رحمة من الله لقوم يؤمنون بكلِّ ما جاء فيه.

٥٣ - هل ينتظر هؤلاء الكفار الذين كذَّبوا بآياتنا وجحدوها ولم يؤمنوا بها، إلا تحقُّق ما تؤول إليه الأخبار التي اشتمل عليها من أنباء يوم الدين، إذ تتحقَّق هذه الأنباء في الواقع، ويجدون أنفسهم في عذاب جهنم؟ يوم يأتي تحقُّق نُذُر العذاب يوم الدين يقول الكافرون الذين تركوا العمل بالقرآن ولم يؤمنوا به في الحياة الدنيا عند مُعاينة العذاب: إنَّ الذي جاءت به الرسل حقٌّ وصدقٌ، وليس لنا طريقٌ إلى الخلاص ممَّا نحن فيه من العذاب إلا أن يشفع لنا شفيع عند ربِّنا، فيقبل الله شفاعته، فيُخلِّصنا من هذا العذاب، أو نردّ إلى الدنيا فنعملَ عملاً صالحاً نُرضي به ربَّنا غير العمل السيء الذي كنا نعمل فيها؟ قد خسر الكفار أنفسهم بدخولهم النار وخلودهم فيها، وذهب عنهم ما كانوا يختلقون من أكاذيب يفترونها على الله.

٥٤ - إنَّ سيِّدكُم ومالكَكُم ومُصْلحَ أموركم هو اللَّهُ الذي أبْدَع السَّموات والأرض، وأنشأ خلقهما على غير مثالٍ سَبَق، وقدَّر أحوالهما في مقْدار ستة أيام، ثمَّ استوى سبحانه على العرش الذي هو أعظم ما خلق في الكون، استواءً يليق بجلاله وعظمته، فهو سبحانه قائمٌ بذاته، مُباينٌ لما خَلَق، يجعل الله النهار يغطِّي الليل، فيستر سوادَهُ بضيائه، حال كون النهار يطلب الليل طلباً مُسرعاً جاداً في حركة دائرية دائبة، وخَلَقَ الشَّمسَ والقمرَ والنجومَ مُذَلَّلاتٍ بأمره، للقيام بوظائفها في الكون، تنبَّهوا وتحقَّقوا، له وحده لا شريك مُلْك جميع المخلوقات، إذْ هو خالقها، والمُتصرِّف فيها، والمُدبِّر لأمرها، وبما أنه سبحانه مالكُ كلِّ ما في الوجود سواه، فله وحده أمر التكوين وأمر التكليف، وعلى عباده أنْ يطيعوه في أوامره ونواهيه، ويُحقِّقوا عبوديَّتهم لله بإراداتهم الحرة، لينالوا ثوابه في جنَّات النعيم، تعالى الله وتعظَّم في صفات كماله، وتنزَّه عن كلِّ نقص، وكثُر خيرُه وإحسانه، وثبت ودام، ربُّ الخلق أجمعين ومالكهم ورازقهم ومُربِّيهم ومُصلحهم.

٥٥ - سَلُوا ربَّكم حوائجكم تذلُّلاً واستكانة، وسِرّاً في أنفسكم؛ ليكون أكثر إخلاصاً وصدقاً، ولا تعتدوا؛ بظلم غيركم في حقٍّ من حقوقه الماديَّة أو المعنويَّة، أو بفعل مانهى الله عن فعله، وتركِ ما أمر الله بفعله، أو بتحريم ما أحلَّ الله، أو تحليل ما حرَّم، وتجاوز حدود الله، إنَّ الله سبحانه لا يحبُّ المعتدين المتجاوزين حدود الله سبحانه، ومَنْ جعَل نفسه بإرادته في زمْرة الذين لا يُحبُّهم الله، فقد جعلها عُرضةً لنقمته وعذابه الشديد.

٥٦ - ولا تفسدوا - أيُّها الناس - في الأرض بهدم عقائد الإيمان الصَّحيح، ونشر الفسوق والفجور وأنواع الفواحش، والمجاهرة الوقحة بمعصية الله ورسوله، بعد إصلاح الله إيَّاها ببعثة الرسل وبيان الشرائع، وأصلحوا في الأرض بكلِّ عمل يؤدِّي إلى نفع العباد في أمور دنياهم وآخرتهم، وادعوه سبحانه خوفاً منه ومن عقابه، وطمعاً فيما عنده من جزيل ثوابه، وإذا تحقَّق المؤمن بعبادة ربه بالدعاء دواماً في حالتي الخوف والطمع، مُلتزماً آداب الدعاء كان من المرتقين إلى مرتبة الإحسان التي هي أعلى المراتب التي يرتقي إليها الصالحون المؤمنون؛ إنَّ رحمة الله وإفضاله وإنعامه على عباده قريبٌ ثوابها من المحسنين.

٥٧ - وإنَّ ربَّكم اللَّهُ الذي خلق السموات والأرض، هو الذي يُرسل الرياح الطيِّبة التي تُبشِّر بالمطر، قبل مجيء آثار رحمته، وفيوض عطاءاته، بنزول المطر الذي هو سببٌ لحياة الأرض الميِّتة، حتى إذا حملت هذه الرياح في الجوِّ سحاباً ثقالاً بالماء المتبخِّر، سُقْنا الماء الذي يحمله السَّحاب إلى بلد مُجْدب لا نباتَ فيه ولا ماء، فأنزلنا بالبلد الميِّت الماءَ من السحاب، فأخرجنا بذلك الماء من أصناف الزروع والثمار، كذلك الإخراج الذي نُخرج به النباتات، سوف نخرج الموتى من الأرض؛ ونبعثهم أحياءً من قبورهم؛ أعلمناكم بهذه الحقيقة راغبين في أن تتفهَّموها وتحفظوها وتتذكَّروها دواماً، وتعلموا أنَّ من فعل ذلك كان هو الذي يعيد ويُحيي.

وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾

٥٨ ـ والأرضُ الطيِّبة التربة، السَّهلة السَّمحة إذا أصابها المطر تُخرج نباتاً هيِّناً سهلاً صالحاً بإذن الله تعالى، والبلدُ الذي خَبُثَ أرضه لا يخرج نباته إلا عَسراً شحيحاً قليلَ النفع والعطاء. فَجَوْدة خروج النبات من الأرض لا ترجع إلى سببٍ واحد، وهو إنزال الماء من السماء عليها، واختلاط هذا الماء بها، بل هناك سبب آخر هو كون الأرض طيِّبةً صالحةً لخروج النبات الجيد، أما إذا كانت الأرض خبيثةً، فإنَّ إنزال الماء الطهور عليها لا يُغيِّر من طبيعتها، فلا يخرج نباتها إلا عَسراً قليل النفع. وفي هذه الآية بيان لسنة من سنن الله في كونه، وهو: أن السبب قد يكون شرطاً لازماً لتحقيق المُسبَّب، ولكنه شرط غير كاف، بل لا بدَّ من وجود سببٍ آخر أو عدة أسباب حتى يتحقَّق المطلوب، مثل ذلك التنويع في أنواع الأرض، نُنوِّع في كلِّ الآيات الكونيَّة المُنبثَّة في كلِّ الكون؛ لتكون دالاَّت على العناية بهم، أما المؤمنون الذين لديهم الاستعداد لشكر الله على نعمه، فهم الذين يستفيدون من هذه الآيات، ويَسْعون لأداء واجب شكر الله على نعمه، وفضله على عباده.

٥٩ ـ نقسم مؤكِّدين أننا أرسلنا نوحاً إلى قومه نبياً ورسولاً، فقال: يا قوم اعبدوا اللَّهَ وحده لا شريك له، ما لكم في الوجود من إلهٍ يُعبد بحقٍّ غير الله سبحانه؛ فإنه هو الذي يستحقُّ العبادة، فإنْ لم تقبلوا ما آمركم به، من عبادةِ الله واتِّباع أمره، أخاف عليكم عذاب يوم عظيم، في دار العذاب المُعدَّة للكافرين المكذِّبين.

٦٠ ـ قال كبراء قومه: إنَّا لنراكَ ـ يا نوح ـ في ذهابٍ عن الحقِّ والصَّواب بيِّنٌ واضح لا يحتاج إلى إقامة دليل عليه.

٦١ ـ قال نوح: يا قوم ليس بي وصف ضلالةٍ ما، ولكنِّي رسولٌ مبعوثٌ من ربِّ كلِّ موجود سوى الله تبارك وتعالى، وهو خالقكم ومالككم، ومدبِّر أموركم، والمتصرِّف بمقاديركم.

٦٢ ـ أُبلِّغكم تباعاً جميعَ تكاليف الله وشرائعه، وأُرشدكم إلى الوجه الأصلح والأصوب لكم، وما فيه خيركم وسعادتكم، خالصاً من الغشِّ والشوائب، وما أبيِّنه لكم، وأبلِّغكم إياه، وأنصحكم به، مُسْتَندٌ إلى علم يقينيٍّ علَّمني الله إيَّاه، وليس من عندي، وأعلم أنكم إنْ عصيْتُم أمر الله، وكذبتموني عاقبكم بالطُّوفان في الدنيا، ويُعذِّبكم في الآخرة عذاباً عظيماً.

٦٣ ـ أكرهتم تركَ ما أنتم عليه، واتِّباع ما جئتكم به، وعجبتم أنْ جاءكم ذكرٌ من ربِّكم، وهي حقائق مَغْروزةٌ في نفوسكم وعقولكم، يُطلب منكم أن تتعهَّدوها بالتذكُّر، وهذه التعليمات مُنَزَّلةٌ على رجلٍ منكم تعرفونه وتعرفون نسبه، جاءكم لأجل أنْ يُنذركم بعقاب الله المُعجَّل والمُؤجَّل إذا لم تؤمنوا وتتَّبعوا ما أُنزل إليكم من ربِّكم، ولأجل أن تتَّقوا سخطه بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، وليتحقَّق رجاؤكم بالظفر برحمة الله، فيُدخلكم جنات النعيم يوم الدين.

٦٤ ـ فكذَّبوا نوحاً، فأنجيناه والذين آمنوا معه من الطُّوفان والغرقَ، ومن مكايد قومه المكذِّبين، وكانت نجاتهم بإركاب نوح ومن آمن معه من قومه في السفينة، وأغرقنا الذين كذَّبوا بآياتنا الكونيَّة والبيانيَّة المُنزَّلة والإعجازيَّة والجزائيَّة؛ إنَّهم كانوا قوماً عُمْيَ البصائر عن رؤية الحقِّ، والاهتداء بآيات الله ودلائله.

٦٥ ـ ولقد أرسلنا إلى قبيلة «عادٍ» أخاهم في النَّسب هُوداً نبياً ورسولاً، قال: يا قوم اعبدوا الله وحده، ولا تجعلوا معه إلهاً آخر، ما لكم من معبودٍ هو ربٌّ يستحقُّ أن يُعْبَدَ غيرُ الله، أفلا تخافونَ عقابه باجْتناب الشِّرك، وطاعته فيما يأمركم به، وينهاكم عنه، فتؤدُّون ما فرض عليكم، وتتركون ما حرَّم عليكم.

٦٦ ـ قال الكبراء وذوو الوجاهة الذين كفروا من قومه: إنا نعتقد اعتقاداً جازماً مُسْتنداً إلى رؤيةٍ فكريَّةٍ، أنَّك ـ يا هودُ ـ مُنْغمس في حُمْق وجَهالة وضلالة عن الحقِّ والصواب، وإنا لَنَظُنُّكَ من الكاذبين في ادِّعائك أنَّك رسولٌ من عند الله.

٦٧ ـ قال هود عليه السلام لقومه الذين شتموه: يا قوم ليس الأمر كما تدَّعون أنَّ بي حُمْق ونقص عقل، ولكني رسولٌ مبعوثٌ إليكم من ربِّ كلِّ موجود سوى الله عزَّ وجلّ، وهو خالقكم ومالككم ورازقكم، ومُدبِّر أموركم، فعليكم أن تُصْغُوا إلى ما أُبلِّغكم به عن ربِّكم، وتتفكَّروا فيه.

أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾

٦٨ - أُؤدّي إليكم تباعاً ما أرسلني به ربّي من أوامره ونواهيه وتشريعاته التي فيها صلاحكم في الدنيا والآخرة، وأنا لكم - فيما آمركم من عبادة الله عزَّ وجل، وترك عبادة ما سواه، والعمل بشريعته - ناصحٌ أريد الخير لكم، أمينٌ على تبليغ الرسالة دون زيادةٍ عليها، ولا نقص منها، لا أغشكم ولا أخدعكم، بل أدعوكم إلى سواء السبيل.

٦٩ - أكرهتم ترك ما أنتم عليه من شرك، واتّباع ما جئتكم به، وعجبتم أنْ جاءتكم بيانات ربانيّة من ربكم، وهي حقائق مَغروزة في نفوسكم وعقولكم، يُطلب منكم أن تتعهّدوها بالتذكُّر، وهذه التعليمات مُنزّلة على رجل تعرفون نسبه وصدقه؛ جاءكم لأجل أن ينذركم بعقاب الله المُعَجَّل والمُؤَجَّل إذا لم تؤمنوا بعد قيامه بدعوتكم، واتّخاذ الوسائل الإقناعية، وتبشيركم بالعواقب السّارة لمن آمن وأطاع؟! واذكروا نعمةَ الله عليكم إذ أهلك قوم نوح، وجعلكم تخلفونهم في الأرض، وزادكم في الخلق طولاً وقوة، وهذه النعمة تستدعي منكم أن تشكروا ربكم فتؤمنوا برسوله، وتتبعوا ما أُنزل إليكم منه، وإذ زادكم في خلقه لأجسادكم قوة وسعة، وآتاكم نعماً كثيرة، فاذكروا دواماً أفعال الله العجيبة، ونعمه الكثيرة عليكم، واعملوا عملاً يليق بذلك الإنعام، وهو أن تؤمنوا به وحده، وتتركوا ما أنتم عليه من عبادة الأصنام، وتطيعوه بفعل ما أمركم به، وترك ما نهاكم عنه؛ راجين بالإيمان والطاعة أن تظفروا بالنجاة والسعادة العظيمة في الآخرة.

٧٠ - قال قوم هود مستهزئين بما يدعوهم إليه: أجئتنا - يا هود - لنعبد الله وحده، ونترك ما كان يعبد آباؤنا من الأصنام؟ فَأتنا بما تَعِدُنا من العذاب العامّ المُعَجّل في الدنيا، إنْ كُنتَ من الصّادقين في قولك إنّك رسول الله.

٧١ - قال هودٌ عليه السلام لقومه ثلاث مقالات، بعد تحدِّيهم له بأن يأتيَهُم بما كان ينذرهم به من إهلاكٍ شاملٍ معجَّل في الحياة الدنيا: **المقالة الأولى**: قد نَزَل وَوَجَب عليكم من ربِّكم عذابٌ وَسَخَط، مُوجبٌ إهلاككم إهلاكاً عاماً شاملاً بعد أن قدَّر ذلك بمقتضى علمه وحكمته، **المقالة الثانية**: أتخاصمونني في أسماء أصنام وَضَعتُم لها أسماء من عند أنفسكم أنتم وآباؤكم دون أن يكون لها في الواقع حقيقة ذات أثرٍ ما في نفع أو ضَر؟ ما نَزَّل الله بعبادتها من حُجَّةٍ مُلزِمة وبرهانٍ قاطع، **المقالة الثالثة**: فانتظروا نزول العذاب عليكم، إنّي معكم من المنتظرين لهذا الأمر العظيم الذي يُهلك الله به الكافرين، ويُنجي رسوله والذين آمنوا معه.

٧٢ - فأنجينا هوداً عند نزول العذاب بقومه، وأنْجَيْنا أتباعه الذين آمنوا به وصدّقوه؛ بسبب رحمةٍ عظيمةٍ منا، وأهلكنا الذين كذَّبوا بآياتنا الكونيّة، والإعجازيّة، والبيانيّة المنزّلة، واستأصلناهم عن آخرهم بالريح العقيم، وما كانوا مُستعدّين لأن يؤمنوا بالله ولا برسوله هود عليه السلام مهما أمهلهم الله، وأطال مدّة اختبارهم في الحياة الدنيا، فحالتهم النفسيّة حالة مَيْؤوسٌ منها، إذ وَصَلوا إلى دركة التعنُّت والإصرار على الكفر، رغم وضوح الأدلة والبراهين التي دَمَغَتْهم، واستيقنتها قلوبهم، فكان من الحكمة إنزالُ عقاب الله السّاحق الماحق بهم.

٧٣ - ولقد أرسلنا إلى قبيلة «ثمود» أخاهم في النَّسب صالحاً عليه السلام نبياً ورسولاً. قال صالح لهم: يا قوم اعبدوا الله وحده، ولا تُشركوا به شيئاً، فما لكم من إلهٍ يستحقُّ أن يُعبَدَ سواه، قد جاءتكم حُجّة واضحة من ربكم وبرهانٌ على صدق ما أقول وأدعو إليه من عبادة الله، وإني رسولُ الله إليكم، هذه ناقةُ الله أُخرجها لكم كما طلبتم، من الصَّخرة التي عيَّنتم، حالة كونها معجزةً خارقة، وعلامةٌ على صدقي. فاتركوا الناقة تأكل في أرض الله من المراعي كما تشاء، ولا تقربوها بشيءٍ من أنواع الأذى، ولو ضايقتكم في طعامها أو شرابها، فإذا مَسَسْتموها بسوءٍ، فإنه يقبض عليكم عذابٌ شديدٌ قبْضاً مؤلماً لكم بعنف وشدّة.

وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾

٧٤ ـ وضعوا في ذاكرتكم دَوَاماً أنَّ الله عزَّ وجلَّ أهلك عاداً أسلافكم، وجعلكم تخلفونهم في الأرض، وتعمرونها، وهيَّأ لكم في الأرض منازل تسكنونها، ومكَّن لكم فيها، حتى صرتم تتَّخذون من سهولها قصوراً، فتقطعون الصُّخور من الجبال، وتبْنون بها القصور الفخمة، وصرتم تنْحتون الجبال، فَتُجوِّفون غرفاً في باطنها، حتى تكونَ الجبال لكم بيوتاً، تحتمون بها من مُداهَمَات أعدائكم، فاذكروا أفعال الله العجيبة، ونعمه الكثيرة عليكم، واشكروه عليها، ولا تفسدوا في الأرض إفساداً شديداً منكراً حالة كونكم قاصدين الإفساد، وباغين الإضرار، وفاعلين لهما.

٧٥ ـ قال كبراء القوم من ثمود وذوو الوجاهة فيهم، الذين تعظَّموا عن الإيمان بصالح عليه السلام للمستضعفين من قومهم الذين آمنوا بصالح: أتعلمون أنَّ الله أرسل صالحاً إلينا وإليكم، وهل لديكم أدلة قويَّة تُثبت أن صالحاً مُرسَلٌ من ربِّه حقاً؟ قال الضعفاء الذين آمنوا: لا تُجادلونا في شخصِ النبيِّ الرسول صالح، ولكن نحن مُستعدُّون لمجادلتكم حَوْل ما أُرسل به، فما جاء به كافٍ لإثبات أنه نبيٌّ مُرسل من ربِّه، إنَّا بما أرسل الله به صالحاً من الدين والهُدى والحقِّ مُصَدِّقون.

٧٦ ـ قال الذين استكْبروا عن أمر الله والإيمان به وبرسوله بإصرار وعناد: إنَّا بالذي آمنتم به من نبوَّة صالح وما يدعو إليه جاحدون منكرون.

٧٧ ـ فَنَحَرَتْ ثمودُ النَّاقة، وتكبَّروا مُبْتعدين عنْ أمر ربِّهم، وتَجاوزوا حدودَ المعاصي المعتادة في الناس، وتمادوا في الإفساد في الأرض، وكذَّبوا نبيَّهم صالحاً، وقالوا على سبيل الاستهزاء واستبعاد العذاب: يا صالحُ ائْتِنَا بما تَعِدُنا من العذاب العام الشامل، إنْ كنتَ كما تزعم أنَّك رسول الله.

٧٨ ـ فأَهلكتهم الصَّيْحة المصحوبة بالزلزلة الشَّديدة من تحتهم، فأصبحوا في موضعهم موتى لا يتحرَّكون، لاصقين بالأرض على رُكبهم ووجوههم، لم يفلت منهم أحد.

٧٩ ـ فانصرف عنهم صالح عليه السلام عقب هلاكهم، وقال لهم وهم هَلكىٰ مُوبِّخاً ومُقرِّعاً: يا قوم، لقد أدَّيْتُ الأمانة التي كلَّفني ربي أن أُبلِّغكم إيّاها، وقمت بواجبي تُجاهكم، ونَصَحْتُ لكم، وبذلت من أجلكم كل ما أستطيع، ولكن لا تُحبُّون الآمرين بالهدى النَّاصحين لكم، الذين تَرَوْنَ في نُصحهم أنهم يُبعدونكم عن أهوائكم وشهواتكم، واستكباركم وفسادكم.

٨٠ ـ وضع في ذاكرتك ـ أيها المتلقِّي ـ لوطاً عليه السلام حين قال لقومه: أتفعلون الفِعلة الخسيسة التي هي غايةٌ في القبح بإتيان الذكران في أدبارهم؟ ما سبقكم ـ أيُّها القوم ـ بهذه الفِعلة الفاحشة الشاذة أحدٌ من الناس، فأنتم أكثر وأفحش في مُمَارسة هذه الفاحشة ممنْ مضى من فُسَّاق الأقوام والشعوب.

٨١ ـ إنَّكم لتأتونَ الرجالَ في أدبارهم، لأجل الشهوة، حالة كون إتيان الرجال لأجل الشهوة هو دون إتيان النساء، إذ النساء أطهر، ولهنَّ المكان الصالح للحرث والبذر، أما الأدبار فبؤرة جرثوميّة قذرة، جالبة للأمراض والأوجاع، بل أنتم في مُمَارسة هذه الفاحشة القبيحة قومٌ مسرفون في البهيميَّة؛ إذْ أتيتم ما لا تَرضى به البهائم، ومُسْرفون في التفحُّش إذْ خرجتم عن سنّة الإنسانيَّة، ومُجاوزون الحلال إلى الحرام في هذه العادة الشاذة؛ لأنَّ الله تعالى جعل النِّساء محلاً للشهوة وموضع النَّسْل، فإذا تركتموهنَّ وعدلتم عنهنَّ إلى غيرهنَّ من الرجال، فقد أسرفتم وجاوزتم واعتديتم، ووضعتم الشيء في غير محله وموضعه الذي خُلق له.

وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ فَٱصْبِرُواْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾

٨٢ ـ فاستهان كبراء قومه بنصائحه ولَوْمه على فواحشهم الشاذّة، وما كان جوابَ قوم لوطٍ للوطٍ عليه السلام حين وبّخهم على فعلهم القبيح، إلا أنْ وَجَّهوا الأمر لعامتهم وأتباعهم قائلين: أَخْرِجوا لوطاً وأتباعه وأهلَ دينه من بلدكم، إنَّهم أناسٌ يَتنزَّهون عن فعلكم، ويتشدّدون في البُعد عن مواطن القذارات التي تجدون لذّاتكم فيها، فهم على خلاف طريقتكم، ووجودُهم بينكم مع إنكارهم عليكم، ينغِّصُ عليكم عيشكم، ويُعكِّرُ عليكم صَفْوَكم.

٨٣ ـ فأنجَيْنا لوطاً ومَنْ آمنَ به واتَّبعه من العذاب، إلا زوجته كانت من الهالكين الباقين مع قومها في أرض الدمار، الذاهبين الماضين الذين لَمْ يبْق لهم وجود؛ لأنها كانت كافرة.

٨٤ ـ وأمطرنا عليهم حجارة مثل حبّاتِ المطر الكبرى، من طين مُتحجِّر شديد صُلْب، بتواتر وتتابع، وعموم وشمول لكلِّ أرض قوم لوط، فانظر ـ أيها المُخاطَب ـ نظر تفكُّر واعتبار: كيف كان عاقبة هؤلاء الذين كذَّبوا بالله ورسوله، وعملوا الفواحش؟! لقد أمطر الله عليهم مطر العذاب، وقَلبَ بلادهم عاليَها سافلَها.

٨٥ ـ ولقد أرسلنا إلى قبيلةِ «مَديَن» أخاهم في النَّسب شُعيباً عليه السلام، وكان قومه أهل كفر وبَخْس في الميزان والمكيال. قال شعيب: يا قوم اعبدوا الله وحده، بطاعته في تأدية ما أمر به، واجتناب ما نهى عنه، وبدعائه والتقرُّب إليه، ولا تشركوا به شيئاً، ما لكم في الوجود كلِّه من معبودٍ يستحق العبادة غيره، لا شريك له، قد جاءتكم حُجَّة وبرهان من ربِّكم بحقيَّة ما أقول، وصِدق ما أدَّعي من النُّبوَّة والرسالة إليكم، فأتمُّوا الكيلَ والمكيالَ، والوزنَ والميزان بالعدل، ولا تظلموا الناسَ حقوقَهم، ولا تنقصوهم إيَّاها، ولا تُفسدوا في الأرض ـ بإفساد البر والبحر والجو بالأوبئة، وإفساد الأحياء والنباتات، وإفساد أخلاق الناس وسلوكهم وأفكارهم ومفاهيمهم ـ بعد أن أصلحها الله تعالى ببعثة الرسلِ وإقامة العدل، ذلكم الذي ذكرتُ لكم وأمرتكم به من الإيمان بالله، ووفاء الكيْل والميزان، وترك الظلم، خيرٌ لكم في دنياكم وأُخراكم ممَّا أنتم عليه من الكفر وظلمِ الناس، إنْ كنتم سَتُؤمنون بي، وبما أُنزل إليَّ من ربِّكم، فتعملون بما آمركم به، وتجْتنبون ما أنهاكم عنه.

٨٦ ـ ولا تقْعدوا بكلِّ طريق عامة واسعة حالة كونكم تتهدَّدون وتتوعَّدون المارِّين من المُجْتازين والمسافرين، بسَلْب أموالهم، وأخذ المكوس منهم، وتمنعون وتصرفون عن طريق الله الواضح الجليِّ المستقيم مَنْ آمن بسبيل الله، وتطلبون لسبيل الله اعوجاجاً عن الحق، وميْلاً عن الاستقامة، وَفْق أهوائكم وشهواتكم، وتريدون زيْغَ أهل الحقِّ عنها بالتحريش والإغراء بينهم؛ لتختلف كلمتهم ويختلَّ أمر دينهم. واذكروا حين كنتم قليلين فكثَّر عددكم بعد القلَّة، وكثَّركم بالغنى بعد الفقر، وبالقوَّة بعد الضعف، فاشكروا نعمة الله عليكم وآمنوا به، وانظروا نَظَرَ اعتبار ما نَزَلَ بمن كان قبلكم من الأُمم السالفة والقرون الخالية ـ حين عَتَوْا على ربِّهم، وعَصَوْا رُسُلَه ـ وما حلَّ بهم من العذاب والهلاك؟!

٨٧ ـ وإن اختلفتم في رسالتي فصِرتُم فرقتين: فرقة آمنت بي وصدَّقت برسالتي، وفرقة كذَّبت وجحدت رسالتي، وأوقفت انتشار دعوتي بالقوَّة، وواجهت مَنْ آمن بي واتَّبعني بالقمْع والاضطهاد، بذريعة الانتصار للدين الموروث عن آبائها، فاصبروا حتى يقضيَ الله ويفصل بيننا. والله ـ جلَّ وعلا ـ خيرُ الحاكمين، فإنْ كنا نحن على الحقِّ الذي يرضاه حكم لنا فنصرنا وأيَّدنا، وإن كنتم أنتم على الحقِّ نصركم وأيَّدكم.



۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾

٨٨ ـ قال الجماعة من أشراف قومه الذين تكبَّروا عن الإيمان بالله وبرسوله، وتعظَّموا عن اتِّباع شُعيب عليه السلام: لا بدَّ من أحد أمرين: إمَّا إخراجك ومن تَبِعَك على دينك من بلدنا، أو لترجعُنَّ عن دينكم الجديد، ولتدخُلُنَّ في ديننا وملَّتنا وما نحنُ عليه.
قال شُعيب منكراً ومتعجِّباً من قولهم: أتكرهوننا على الرجوع عن مِلَّتنا، والدخول في ملَّتكم، ولو كنا كارهين تَرْك ديننا، والدخولَ في دينكم؟ فإنَّ قضايا العقيدة لا يعقل أن تكون مع الكراهية والإجبار، وإنما تكون بالرغبة الذاتيَّة والاختيار الحر.
٨٩ ـ قد اخْتَلَقْنا على الله كَذِباً إنْ نحن رَجَعنا عن ديننا إلى مِلَّتكم، وقد علمنا فسادَ ما أنتم عليه، وقد أنقذنا الله وخلَّصنا منها، وبصَّرنا خَطَأَها، وما يكونُ لنا أن نرجعَ عن دين ربِّنا إلى مِلَّتكم، ونتركَ الحقَّ الذي نحن عليه إلاَّ أنْ يشاء الله ربُّنا أن نُظهر لكم بألسنتنا وبعض تصرُّفاتنا ما يُرضيكم، لحمايتنا منكم مُؤقَّتاً، أما قلوبنا فستظلُّ مطمئنةً بالإيمان، وأما أعمالنا في السرِّ فستبقى على وَفْق دين الله الحق، وَسِعَ علم الله فاستوعَبَ كلَّ شيء، فهو تعالى عالمٌ بكلِّ الأشياء منذ الأزل، على الله وحده نعتمدُ، وإليه نستندُ في أمورنا كلِّها، لا على غيره، يا ربَّنا اقْضِ وافْصِل واحكُم بيننا وبين قومنا الذين هدَّدونا بالإخراج، قضاءً بالعدل الذي لا جَوْرَ فيه ولا ظلم ولا حَيْف، أنت الحاكم والناصر لنا، وأنت خيرُ الحاكمين والناصرين.
٩٠ ـ وقال جماعةٌ من أشراف قوم شُعيب ممَّن كفر به لآخرين منهم آمنوا به، واتَّبعوه: نُقسم، لئن اتَّبعتُم شُعَيباً على دينه، وتركتم دينكم وملَّتكم، إنَّكم إذاً لتكونون خاسرين، إذ سنُسلِّط عليكم مَنْ يُعذِّبكم ويقتلكم، فتخسرون أهليكم وأولادكم بالتعذيب والتشريد والقتل.
٩١ ـ فأخَذَتْ قوم شعيب الزَّلزلةُ الشديدة، فأصبحوا في دارهم هامدين صرعىٰ لا حراك بهم، لاصقين بالأرض على ركبهم ووجوههم.
٩٢ ـ الذين كذَّبوا شُعيباً كأنهم لم يقيموا في ديارهم، ولم يعيشوا فيها مُتنعِّمين مُسْتَغنين، وكان المكذِّبون بشعيب هم وحدهم الخاسرين، قد خَسِروا أنفسَهُم بهلاكهم واستئصالهم، وخسروا آخرتهم؛ لأن مصيرهم الخلود في عذاب الحريق في جهنم.
٩٣ ـ فانصرفَ عنهم شعيب حين أتاهم العذاب، وناداهم وهم هالكون قائلاً لهم: يا قوم، لقد أبْلغتكم رسالات ربي، وقدَّمت لكم ما فيه خيركم وسعادتكم، لكنكم لم تستجيبوا لي مع شدّة حرصي على نجاتكم، فكيفَ أحزن على هلاك قومٍ كافرين، أهلكوا أنفسهم بإصرارهم على الكفر؟
٩٤ ـ وما أرسلنا في مُجمَّع سَكنيٍّ من المُجمَّعات السكنيَّة الصغيرة والكبيرة المُهْلَكَة من نبيٍّ يدعوهم إلى عبادة الله، وينهاهم عما هم فيه من الشِّرك، فكذَّبه أهلها، إلا أَخذناهم بالجوع والمشقة وضيق العيش، والشدَّة وكلِّ حالةٍ تضرُّ في الأموال والأنفس؛ رغبةً في أن يتذكَّروا ربهم، فيستكينوا إليه، داعين مُتذلِّلين معترفين بذنوبهم.
٩٥ ـ ثمَّ لمّا لم يفعلوا ذلك، واستمرُّوا في كفرهم وعنادهم، امتحنَّاهم بضدِّ تلك المِحَن اسْتدراجاً لهم؛ فأعطيناهم مكانَ البأساء والضَّراء النعمةَ والسَّعَةَ والخِصْبَ والصحةَ في الأبدان، حتى كَثُرت أموالهم وأولادهم، وزاد الخير فيهم، وقالوا بعدما صاروا إلى الرَّخاء والسَّعَة: قد مسَّ آباءَنا الشِّدَّة والرخاء كما مسَّنا، وهكذا عادةُ الدهر قديماً وحديثاً لنا ولآبائنا، ولم يكن ما مسَّنا من الشِّدَّة والضَّرَّاء عقوبةً لنا من الله، وإنما هي ظاهرات طبيعيَّة ليس من ورائها قصْدُ تأديب أو تذكير، واستمرُّوا على ما هم فيه من كفر، وانطلاق فاجر في كبائر الإثم والظلم والعدوان، فأخذناهم بالعذاب فَجْأة؛ ليكون ذلك أعظم لحسرتهم، والحال أنهم لا يعلمون أدنى مراتب العلم بنزول العذاب المُباغِت بهم.

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا ۚ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا ۖ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾

٩٦ ـ ولو أنَّ أهل تلك المُجَمَّعات السكنيَّة المُهْلَكَة آمنوا إيماناً صحيحاً صادقاً، واتَّقَوْا عقاب الله بأداء الواجبات، وترك المحرَّمات، لفتحنا عليهم أبوابَ بركاتٍ كثيراتٍ، وزيادة خيرات معنويَّة وماديَّة تأتيهم من جهة السّماء، وتأتيهم من جهة الأرض، بالمطر والنبات والخيرات والأرزاق والسَّلامة من الآفات، ولكن كذَّبوا الرسل، فأخذناهم بأنواع العذاب؛ بسبب ما كانوا يفعلون من الأعمال الخبيثة.

٩٧ ـ ألدى أهل المجمَّعات السكنيَّة الكافرين علمٌ بأنَّ الله لَنْ يُنزل بهم عذابَه على ما يكسبون من آثام، فأَمِنُوا واطْمأنوا ولم يخافوا، أن يأتيَهم عذابنا ليلاً وهم في غفلةٍ نائمون؟

٩٨ ـ أوَ أمن أهل المجمَّعات السكنيَّة فاطمأنوا ولم يخافوا أن يأتيَهُم عذابُنا أول النهار، وهم غارقون في أعمالهم غافلون عمَّا يمكن أن يفاجئهم من عذاب ربّهم؟

٩٩ ـ أَفأَمِنوا تدبيرَ الله الخفيَّ بإمهاله إيَّاهم بما أنعم عليهم من عطاءات النعم الوفيرة في الدنيا؟ فلا يأمن أن يكون ما أعطاهم الله من النعمة مع كفرهم استدراجاً لهم إلا من خَسِر في أُخراه، وهلك مع الهالكين.

١٠٠ ـ أو لم يَتَبيَّن للَّذين سكنوا الأرض من بعد هلاك أهلِها الذين كانوا من قبلهم، فورثوها عنهم وخلفوهم فيها، سُنَّةَ الله الثابتة، أن لو نشاء ـ إذا اقتضت حكمتنا ـ أخذناهم وعاقبناهم بسببِ كفرهم، كما جرى للأمم المُهْلَكَة السَّابقة، ونطبع على قلوبهم، إذا تَمادَوْا في غيِّهم وظلمهم وكفرهم، فهم بعد الطبع على قلوبهم وإقفالها إقفالاً تاماً لا يسمعون موعظةً، ولا يقبلون الإيمان نتيجةً لما كسبوه بإرادتهم الحُرَّة من الكفر والتكذيب.

١٠١ ـ تلك المُجَمَّعات السكنيَّة التي ذكرنا لك ـ يا رسول الله ـ أمرَها وأمرَ أهلها، وهي مُجمَّعاتُ سكنِ قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب، نقصُّ بأحاديث تتبعيَّة بعض أنبائها، فيما أنزلنا عليك، وفيما سننزل في نجوم التنزيل، ليكون ما نقصُّه عليك عظةً وعبرةً، لمن يتّعظ ويعتبر بما جرى للأمم السابقة، ونؤكّد أن أهلَ تلك المُجمَّعات السكنيَّة لم نعذِّبهم عذاباً مهلكاً لهم إهلاكاً شاملاً، إلا من بعد ما جاءتهم رُسُلُهم بالمعجزات الواضحات الجليَّات، والآيات البيِّنات المنزَّلات، فما كان هؤلاء المشركون الذين أهلكناهم إهلاكاً شاملاً ليؤمنوا عند إرسالنا إليهم رسلَهم بما كذَّبوا به من قبل إهلاكهم، مهما أُمهلوا. فقد وصلوا إلى حالةٍ ميؤوس منها، فطبع الله على قلوبهم، كما طَبَع الله على قلوب كفار الأمم الخالية وأهلكهم؛ بسبب كفرهم الذي حَجَبَ قلوبَهم عن كلِّ أنوار الهداية، كذلك الطبع الذي طُبع على قلوب المُهْلَكين السابقين يَطبع اللَّهُ بقانونه القدريِّ العام على قلوب سائر الكافرين الذين تصل أحوالهم إلى مِثل أحوال المُعَذَّبين السابقين.

١٠٢ ـ وما وَجدنا لأكثر الفريق الذين أَنْجَيناهم من العذاب والإهلاك الذي شَمل أقوامهم؛ لأنهم آمنوا برسل ربِّهم، وعاهدوا على الإسلام والطاعة، من وفاءٍ والتزام بعهدهم الذي عاهدوا الله عليه، ونؤكّد أننا وَجدنا أكثرهم فاسقين خارجين عن طاعتنا.

١٠٣ ـ ثمّ بعثنا بعد الأنبياء الذين تَقَدَّم ذكرهم، وهم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب عليهم السلام، موسى عليه السلام مصحوباً بآياتنا البيانيَّة المنزَّلة والإعجازيَّة، إلى فرعون وأشراف قومه، فظلموا كافرين بها، وظلموا أنفسهم بتكذيبها، وظلموا الناس بسبب صدِّهم عن الإيمان، فانظر ـ أيها المخاطب ـ بعين العقل والبصيرة كيف فعلنا بهم، وكيف أهلكناهم بالإغراق بسبب إفسادهم في الأرض؟

١٠٤ ـ وقال موسى لمَّا دخل على فرعون منادياً له بنداء البعد تكريماً له: يا فرعون إني مُرسَلٌ إليك وإلى قومك من ربِّ العالمين الذي خَلَقَ كلَّ الموجودات الكونيَّة، وأمدَّها بعطاءات ربوبيَّته، فليست رسالتي من ملكٍ من ملوك الأرض، ولا سُلطانٍ من ذوي السُّلطان فيها، وإنما هي رسالةٌ من ربِّ كل موجود سوىٰ الله عزَّ وجلّ، وهو خالقكم ومالككم وسيِّدكم المطلق.

حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا۟ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾

١٠٥ - إني رسولٌ من الله، مُلزمٌ إلزاماً لا خيار لي فيه، على أن لا أقول على الله إلا الحقَّ في وصفه وتنزيهه، إذ أنني معصوم بعصمة الله من أن أفتريَ عليه، قد جئتكم ببرهانٍ على صدقي، وهي معجزةُ العصا واليد البيضاء، وإن كنت قد أُرسلت إليك ومَلَئِك من ربِّ العالمين، فأرسل معي بني إسرائيل، وأطلقهم من أسْرِكَ، وخَلِّ سبيلهم لعبادة الله.

١٠٦ - قال فرعون لموسى: إنْ كُنتَ جئتَ من عند مَنْ أرسلَكَ بمعجزةٍ خارقة للعادة تدلُّ على صِدقِكَ، فأتني بها وأحضرها عندي؛ لتصحَّ دعواك ويثبتَ صدقك.

١٠٧ - فأسرع موسى فألقى عصاهُ على الأرض، فإذا هي حيَّةٌ عظيمة ضخمة في الجثّة، ظاهر أمرها لا يُشكُّ فيها، تتميَّز عما عملته السَّحرة من التمْويه والتخييل.

١٠٨ - وأسرع فأدخل يدَه السَّمْراء في جَيْب قميصه، فنزعها بشدَّة، فإذا هي قد فاجأتهم بأن تحوَّلت بيضاء بياضاً عجيباً خارقاً للعادة؛ إذ كان لها شعاعٌ يغلبُ ضوء الشمس، وكان موسى عليه السلام آدم اللون، فإذا ردَّها عادت إلى لونها الأول، كسائر بدنه.

١٠٩ - قال الكبراء والمستشارون من قوم فرعون الحاضرون في مجلسه حين قدم موسى آيتَيْه: إنَّ موسى كثير العلم بالسِّحر، يأخذ بأعين الناس، ويُري الشيء بخلاف ما هو عليه.

١١٠ - يريد موسىٰ أن يُخرجكم - أيُّها القِبْط - من أرض مِصر. قال فرعون: فأيَّ شيء تشيرون أن نفعل به تُجاه هذا الساحر العليم؟

١١١ - قالوا: اجعل لموسى وأخيه هارون، أجلاً نُقيم فيه مباراة بين موسى وبين سَحَرة مصر، تشهدها الجماهير في مكان جامع، وأرسل مبعوثين من قبلك للبحث في المدائن المصريَّة، يجمعون ويسوقون إليك مَنْ فيها من السَّحرة.

١١٢ - يأتوك من أقاصي البلاد بكلِّ ساحرٍ ماهرٍ بصناعة السِّحر.

١١٣ - ولما اجتمعَ السَّحرة جاؤوا إلى فرعون، فعرض عليهم المُهمَّة التي جمعهم من أجلها؛ وهي إجراء مباراة بينهم وبين ساحر كبير من بني إسرائيل، فقبلوا أن يدخلوا المباراة على شرط أن يجعل لهم فرعون أجراً كبيراً إنْ كانوا هم الغالبين، قالوا: إنَّ لنا لعطاءً تُكرمنا به إنْ كنا نحن الغالبين لموسىٰ؟

١١٤ - قال لهم فرعون: لكم الأجرُ والعطاء، ولكم المنزلة الرفيعة عندي.

١١٥ - ووقف الفريقان للمباراة، قال السَّحرة لموسى على سبيل التكبُّر وعدم المبالاة: يا موسى اخْتر أحد الأمرين: إمَّا أن تُلْقيَ عَصاك أولاً، وإمَّا أن نكون نحن المُلْقين أدوات سحرنا أولاً.

١١٦ - قال لهم موسى: ألقوا أنتم، فلما ألقُوا حبالَهم وعصِيَّهم، صَرَفوا أعين الناس عن إدراك حقيقة ما فعلوه من التمويه والتخييل، وخوَّفوهم بما فعلوه من السِّحر تخويفاً شديداً، وجاء السَّحرةُ بسحرٍ عظيم.

١١٧ - وأوْحينَا إلى موسى أن ألقِ عَصَاك، فألقاها، فانقلبت حيَّةً رهيبةً عظيمة، وفاجأت الجماهير المحتشدة لشهود المباراة، بأنها صارت تَبْتلع وتلْقَم بسرعة عجيبة كلَّ أدوات السَّحرة، التي يتابعون تقديمها، ويكذبُونَ بها على الحقيقة، إذ كانوا يُرون أعين الناس أَخْيلةَ حيَّاتٍ وثعابينَ تسعى، وهي في الحقيقة حبالٌ وعصيٌّ تتحرك ولكن لا حياة فيها، بخلاف عصا موسى عليه السلام، فقد انقلبت حيَّةً عظيمة بخلْق الله سبحانه.

١١٨ - فثبت الحقُّ الذي جاء به موسى عليه السلام، وظهر بطلان ما كانوا يعملون من السِّحر، وتبيَّن أنه كان إيهاماً وخداعاً للأعين.

١١٩ - فَغُلب السَّحرَةُ في ذلك المكان الذي جَرَتْ فيه المباراة، ورجعوا ذليلين مقهورين.

١٢٠ - ولما عاينَ السَّحَرةُ من عظيم قدرةِ الله تعالى، وعلموا أنه ليس بسحر، خرُّوا لله ربِّ العالمين ساجدين على وجوههم.

قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرۡعَوۡنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكۡرٞ مَّكَرۡتُمُوهُ فِي ٱلۡمَدِينَةِ لِتُخۡرِجُواْ مِنۡهَآ أَهۡلَهَاۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتۡنَاۚ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوۡمَهُۥ لِيُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَنَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡ وَإِنَّا فَوۡقَهُمۡ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصۡبِرُوٓاْۖ إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ وَلَقَدۡ أَخَذۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾

١٢١ - قال السَّحَرة: آمنَّا بخالقِ العالمين ورازقهم ومُربِّيهم ومُصلحهم وسيِّدهم المُطْلق.

١٢٢ - فقال فرعون: إيَّاي تعنون، فقالوا: بل آمنا بربِّ موسى وهارون.

١٢٣ - قال فرعونُ للسَّحرة: آآمنتم بموسى وصدَّقتموه قبل أنْ آمركم وآذَنَ لكم فيه، كيف تفعلون هذا وتعصُونني؟! إنَّ هذا لتدبير أمر في خفاء دبَّرتُموه أنتم وموسى في مدينة «مصر» قبل خروجكم إلى هذا المكان المختار للمباراة؛ لتُخرجوا أهل مدينتكم منها إلى الصحراء، وتستولوا عليها أنتم، فسوف تعلمون - أيها السَّحرة - بعد إمهالكم مُدَّةً، ما أُنزل بكم من عقاب إذا لم ترجعوا إلى ملَّتي وطاعتي.

١٢٤ - لأُقطِّعنَّ أيديَكُم وأرجُلَكُم من خلافٍ: بقطع اليد اليُمنى والرِّجل اليُسرى، أو بقطع اليد اليُسرى والرِّجْل اليُمنى، ثمَّ بعد مدّة أدعكم تتعذَّبون فيها، أُقسم لأصلبنَّكم أجمعين على جُذوع النخل؛ لتكونوا عبرةً لكلِّ مَنْ تُحدِّثه نفسُه بمخالفة ديني ونظام حكمي.

١٢٥ - قال السَّحرة لفرعون حين هَدَّدهم بالقتل: إنَّا إلى ربِّنا راجعون، وإليه صائرون في الآخرة، وسيكون لنا النعيم الخالد، وهو يُعوِّضنا من أذاك.

١٢٦ - وما تكرهُ منَّا وتعيب علينا - يا فرعون - إلا أنْ آمنا بآياتِ ربِّنا لمَّا جاءتنا، ربَّنا املأْ لنا مكيالاً من الصبر بمقدار ما نحتاج لتحمُّل العذاب، واصْبُبْه كلَّه علينا، حتى لا نتراجع عن الإيمان الذي هَدَيْتَنا إليه، ونسألك أن تتوفَّانا حالةَ كوننا مُسلمين لك، مُسْتسلمين لأوامرك، ومطيعين لك فيها.

١٢٧ - وقال جماعةٌ من أشراف قوم فرعون لفرعون: أتَدَعُ موسى وقومَهُ من بني إسرائيل؛ حتى تكون عاقبة أمرهم الإفساد في أرض «مصر» بتأليب الناس عليك، والانقضاض على حكمك، وَلِيَنْبذَكَ مُوسىٰ مع آلهتك معزولين، فلا تجدون مطيعين عابدين لكم، ولا أنصاراً ينصرونكم.

قال فرعون لما استثير غضبه: سَنُقَتِّل أبناء بني إسرائيل الذكور، لإيقاف القدرات القتاليَّة لديهم، ونترك مواليدهم من البنات اللواتي سيكون مصيرهنَّ نساءً أحياءً للخدمة والاستمتاع، وإنا فوقهم قاهرون بالغَلَبَة والقُدرة عليهم.

١٢٨ - قال موسى لقومه - من بني إسرائيل - لما شَكَوْا إليه: اطلبوا العَوْن من الله ربِّكم في كلِّ أموركم، فإنَّ الله هو الكافي لكم، واصبروا على ما نالكم من المَكَارِهِ في أنفسكم وأبنائكم، إنَّ الأرض كُلَّها مُلكٌ لله الذي خلقها، يُورثها مَنْ يشاءُ من عباده، فيهلك فرعون وقومه، ويملِّك أرضهم وبلادهم بعد إهلاكهم مَنْ يشاء من عباده، والنَّصر والظَّفَر للمتَّقين على عدوِّهم.

١٢٩ - قال قومُ موسى - من بني إسرائيل - لموسى: آذانا فرعون وقومه من القبط قبل أن تأتينا نبياً رسولاً، وما زالوا مِنْ بعد ما جئتنا بالرسالة يؤذوننا، فزادت الشِّدَّة والمشقَّة علينا، فمتى يكون من ما وعدتنا به من زوال ما نحن فيه؟

قال موسى مُجيباً لهم: أرجو مُتوقِّعاً أن يُهلك ربُّكم فرعونَ وقومَه، وأرجو مُتوقِّعاً أن يستخلفكم الله في الأرض المقدَّسة في فلسطين، فيجعلكم خلفاء ملوكها القائمين، ولكن لا يستخلفكم لمجرَّد تكريمكم بأن يمنحكُم إيَّاها لكونكم من ذُرِّيَّة إبراهيم، إنما يستخلفكم فيها ليبلوكم في هذا الاستخلاف، فينظر كيف تعملون، فيحاسبكم بحَسَب أعمالكم.

١٣٠ - ونقسم مؤكِّدين أننا قبضنا على آل فرعونَ قبضةً مُوجعةً، بالقحط والجَدب والجُوع سنةً بعد سنةٍ، وإتلاف الغلاَّت والآفات؛ رغبةً منا أن يتذكَّروا، فيتضرَّعوا ويستغفروا، ويتوبوا إلى ربِّهم.

فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾

١٣١ ـ فإذا جاء فرعونَ وقومَه الغيثُ والخِصب والسَّعة والعافية ـ كما هي سنة الله تعالى في إمداد الناس بالحسنات في الحياة الدنيا، ولو كانوا كفاراً مجرمين ـ قالوا: نحن مُستحقُّون لها، ونحن أهلها على العادة التي جَرَت لنا في سَعَة الأرزاق وصحَّة الأبدان، ولم يَرْوا ذلك من فَضْل الله عليهم، فيشكروه على إنعامه، وإن يُصِبْهم ـ ولو نادراً ـ قحطٌ وجَدبٌ ومرضٌ، ورأوا ما يكرهون في أنفسهم قالوا: ما أصابنا بلاء إلا بشؤم موسى وقومه. تنبَّهوا وتحقَّقوا إنَّ عملهم الذي عملوه، انطلق طائراً لا يستطيعون ردَّه، والله الذي يُحاسب ويُجازي عليه، وهو الذي سبَّب لهم ما نزل بهم، وَفْق حكمته، ولكنَّ أكثرهم لا يعلمون أسرار حِكَم الله فيما تجري به مقاديره، وأنَّ ما أصابهم ممَّا يكرهون من الله تعالى؛ بسبب أعمالهم الإجراميّة التي يُعاندون بها الحقَّ الذي جاء به موسى وهارون.

١٣٢ ـ وقال قوم فرعون لموسى عليه السلام: مهما تأتنا من آيةٍ من عند ربِّك مهما بلغت في دلالتها البرهانية، فنحن لا نعتبرها إلا عملاً سحرياً، لِتَصْرِفنا بهذه الآيات عمَّا نحنُ عليه من الدين، فما نحنُ لك بُمصدِّقين.

١٣٣ ـ فأرسلنا عليهم خمس علامات كُبريات مُتتابعات: **الآية الأولى**: المطر من السماء فأغرق زروعهم وثمارهم. **الآية الثانية**: وأرسلنا الجراد، فأكل عامَّة زرعهم والأبواب وسقوف البيوت والأمتعة. **الآية الثالثة**: وأرسلنا القُمَّل، فَتَتَبَّع ما بقي من حروثهم وزروعهم فأكلها كلها. **الآية الرابعة**: وأرسلنا عليهم الضفادع، فامتلأت منها بيوتهم وأطعمتهم وآنيتهم ومضاجعهم، ونغَّصت عليهم معيشتَهم. **الآية الخامسة**: وأرسلنا عليهم الدم، فصارت أنهارهم ومياههم دماً، أرسلنا كلَّ هذه العلامات الكُبْرَيات المُبيِّنات الظاهرات، يَتْبع بعضها بعضاً، فاستكبروا عن الإيمان، وعاندوا آيات الله المُذكِّرات، فلم يتضرَّعوا إلى الله، ولم يتوبوا من كفرهم، ولم يؤمنوا برسولِ ربِّهم، وكان آلُ فرعون قوماً مجرمين طَوال مدة ابتلائهم بأنواع من البأساء والضراء.

١٣٤ ـ ولما نَزَل بهم العذاب الشديد بعد الأمور الخمسة التي أرسلها الله عليهم، بمثابة عصا غليظة عقابيَّة وتأديبيَّة، قالوا: يا موسى ادعُ لنا ربَّك بالدعاء الذي علَّمك إياه ربُّك، وخصَّك به فجعله عندك، إذا دعوتَ به أجابك. نقسم لك لئن أزلت عنا بدعائك ربَّك العذاب الذي وقع علينا، لَنُصدِّقَنَّ بما جئتَ به مُتَّبعين لك، ولنُخلِيَنَّ بني إسرائيل حتى يذهبوا معك إلى الأرض المقدَّسة.

١٣٥ ـ فلمَّا أزلنا عنهم العذاب الذي أوقعناه عليهم بدعاء موسىٰ عليه السلام إلى الوقت الذي أُجِّل لهم، وهو وقت إهلاكهم بالغرق، إذا هم ينقضون العهدَ الذي التزموه فلم يفُوا به.

١٣٦ ـ فَسَلَبْناهم النعمةَ عقوبةً لهم، فأهلكناهم بالغرق في البحر؛ بسبب أنهم كذَّبوا بآياتنا الإعجازيَّة والبيانيَّة والجزائيَّة الدالَّة على وحدانيَّتنا وصدق نبيِّنا، وكانوا عن دلالات هذه المعجزات غافلين؛ فأعرضوا عنها بإراداتهم الحرَّة، ولم يستفيدوا منها، ولم يعملوا بمقتضى دلالاتها؛ لأنهم كانوا مشغولين بأسباب قوَّتهم وسلطانهم واستعلائهم في الأرض.

١٣٧ ـ وملَّكنا بني إسرائيل الذين كانوا يُقهرون ويُغلبون من فرعون وقومه، مشارق أرض الشام ومغاربَهَا التي باركنا فيها، إذْ زدنا في خيراتها الماديَّة والمعنويَّة، وتمَّت كلمة الله القدريَّة الحُسنى تفضُّلاً على بني إسرائيل، بالنصر على عدوِّهم، والتمكين لهم في الأرض التي باركنا فيها، بسبب صَبْرهم على أذى فرعون وقومِهِ، وأهلكنا ما كان يصنعُ فرعونُ وقومُهُ في أرض مصر من أدوات القهر والتسلُّط، وما كانوا يرفعون من الأبنية والقصور، ويجعلون لها العروش من الثمار والأعناب.

وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٞ مَّا هُمۡ فِيهِ وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِيكُمۡ إِلَٰهٗا وَهُوَ فَضَّلَكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ﴿١٤١﴾ ۞ وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي وَأَصۡلِحۡ وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٤٣﴾



١٣٨ ـ وَسِرْنا بالعناية والحفظ والمعونةِ مُصَاحبين بني إسرائيل الطريقَ اليَبَسَ الذي فَلَقْنا البحرَ عنه، حتى قطعناه بهم، وأخرجناهم منه إلى البرِّ، وأوصلناهم إليه آمنين، فَأَتَوْا بعد عبور البحر على قوم يلازمونَ ملازمة المقيم على عبادة أصنام لهم.

قال بنو إسرائيل لموسى: يا موسى اجْعل لنا صنماً واحداً نعبده ونعظِّمه، كما لهم أصنامٌ متعدِّدة يعبدونها ويعظِّمونها. فردَّ عليهم موسى بقوله: إنَّكم قومٌ تَجْهلونَ عَظَمةَ الله، وأنَّه لا يستحقُّ أن يُعبد سواه.

١٣٩ ـ إنَّ هؤلاء القوم المقيمين على هذه الأصنام مُكسَّرٌ مُهْلَكٌ ما هم فيه من الشِّرك، ومدمَّر وباطل ما كانوا يعملون من عبادتهم لتلك الأصنام، ولا ينتفعوا منها بشيء؛ لأنها لا تجلب لهم نفعاً، ولا تدفع عنهم ضَرّاً.

١٤٠ ـ قال موسى لقومه: أغيرَ الله أطلب لكم إلهاً معبوداً، وهو جلّ جلاله الذي فضَّلكم بعقيدة التوحيد على العالمين من أهل زمانكم الذين عبدوا غير الله؟! فهو الذي يستحقُّ أن يُعبدَ ويُطاع.

١٤١ ـ واذكروا ـ يا بني إسرائيل ـ نعمنا عليكم؛ إذْ أنقذنا أسلافكم وأجْدادكم من فرعون وجنوده، الذين كانوا يُكلِّفونكم ويُحمِّلونكم أشدَّ العذاب وأسْوَأه، يُذبِّحون مواليدكم من الذكور؛ لئلا يكثر رجالكم فيكونوا خطراً على قوة آل فرعون العسكريَّة، ويستبْقون مواليدكم من البنات أحياء اللواتي سيكون مصيرهنَّ أن يكُنَّ نساءً، فلا يقتلونهنَّ؛ لاستعبادهنَّ وتكليفهنَّ الخدمات، وفي ذلكم الذي كان يجري لأجدادكم في مصر امتحانٌ لكم عظيمٌ من ربكم، الذي كافأكم على الصبر عليه بأن فضَّلكم على أهل تلك القرون، وأنجاكم بالمعجزة الخارقة، فكيف يليق بكم عبادة غيره، وهو الذي أنعم عليكم بهذه النعم العظيمة؟!

١٤٢ ـ وواعدنا موسى عليه السلام لمناجاتنا ثلاثين ليلةً، وهي: ذو القَعدة، وأتمَمْنا الثلاثين بعشر ذي الحجة. فتمَّ الوقت الذي قدَّره الله لصوم موسى وعبادته أربعين ليلة، وقال موسى لأخيه هارون ـ حين أراد المُضيَّ لمناجاة ربِّه ـ ثلاث جمل تتضمَّن مرسومَ تعيين من ثلاث مواد: **المادة الأولى:** كُنْ أنت خليفتي في قومي مدّة غيابي عنهم حتى أرجع إليك، **المادة الثانية:** وأصلح أمورَ بني إسرائيل، واحملهم على عبادةِ اللّهِ عزَّ وجلَّ وطاعته، **المادة الثالثة:** ولا تَسْلُك طريقَ المفسدين في الأرض، مهما كانت كثرتهم، فاحْزِمْ أمرك، ولا تتَّبعهم مُدارياً لهم، ولا تَلِنْ لهم، ولا تُسايرهم، بل اقطع عليهم الطَريق، ولا تمكِّنهم من فسادهم.

١٤٣ ـ وحين جاء موسى لأجل مقابلتنا في ميقاتنا المكانيّ والزَمانيّ الذي وقَّتنا له أن يأتي فيه لمناجاتنا، وكلَّم اللّهُ عزَّ وجلّ موسى عليه السلام، فاستحلى كلامَ ربِّه سبحانه، واشتاق لرؤيته، قال: ربِّ اجعلني مُتمكِّناً من رؤيتك، وارفع ما بيني وبين ذاتك العليَّة الحجاب حتى أنظر إليك.

قال الله تعالى لموسى عليه السلام: ليس لبشر أن يراني في الدنيا، ولكن انظر إلى الجبل، فإن استَقَرَّ مكانه، ولم يفتّته التجلّي، فَسَوْفَ تراني إذا تجلَّيتُ لك، فحين ظهر نور ربِّه للجبل على الوجه اللائق بجلاله، جعله مدقوقاً مُفتَّتاً مُستوياً بالأرض، وسَقَطَ موسى مَغْشيّاً عليه؛ لِعِظَم ما رأى من النور الربَّانيِّ الذي حَصَل به التجلِّي، فحين أفاق موسى من غَشْيتِهِ قال يخاطب ربَّه عزَّ وجل: تنزيهاً لك ـ يا رب ـ من النقائص كلِّها، إني تُبْتُ إليك من مَسْألتي إيَّاك الرؤية في هذه الحياة الدنيا بغير إذنك، وأنا أول المؤمنين بك من قومي، ولو لم أشهد ذاتَكَ بعيني.

قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡعِظَةٗ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَاۚ سَأُوْرِيكُمۡ دَارَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡۚ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٤٧﴾ وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٌۚ أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمۡ وَلَا يَهۡدِيهِمۡ سَبِيلًاۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ وَرَأَوۡاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ يَرۡحَمۡنَا رَبُّنَا وَيَغۡفِرۡ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾

١٤٤ - قال الله تعالى لموسى عليه السلام: يا موسى إني اخْتَرْتُك وفَضَّلْتُك برسالاتي وبكلامي - من غير واسطة - على الناس من أهل زمانك، فارغ - يا موسى - حقوق هذا الاصطفاء، فَخُذْ ما فَضَّلْتُك وأكرمتُك به، وكُنْ من الشَّاكرين على إنعامي.

١٤٥ - وكتبنا لموسى في ألواح التَّوراة من كلِّ شيء يُحتاج إليه من مطلوبات الدين، تذكيراً ونصحاً مقْروناً بما يثير الرَّغبة والرَّهبة في النفس، للانتفاع بالنصح، واتِّباع ما هدى إليه، وتَبْييناً مفصَّل العناصر بعضها عن بعضِ لكلِّ شيء من الحلال والحرام، والحدود والأحكام، والقصص والأخبار والمُغيَّبات، وقلنا لموسى: خُذ الألواح بجدٍّ واجتهاد، واستمسك بما جاء فيها من تكاليف وبيانات وتعليمات، وَأْمُر - يا موسى - قومَكَ أمْر إلزام وإيجابٍ ليأخذوا بأحسن ما كتبنا لك في الألواح، من الفرائض التي ألزمناهم بفعلها، والمُحرَّمات التي ألزمناهم بتركها، سأريكم أرض الشام، إذ كانت يومئذ دار الفاسقين، وسأمكنكم من طردهم، ولن تستقرُّوا فيها طويلاً، إذْ ستنزل في أجيالكم عقوبة الله بسبب انحرافهم عن دين الله، وإفسادهم في الأرض.

١٤٦ - سأحوِّل وأردُّ عن قَبول آياتي البيانيَّة والكونيَّة والإعجازيَّة، والتَّصديق بها، الذين يَرَون أنَّهم أفضل الخلق، وأنَّ لهم من الحقِّ ما ليس لغيرهم، وإن يَرَ هؤلاء المتكبِّرين كلَّ آيةٍ من آيات الله التي تُرى؛ الإعجازيَّة أو التكوينيَّة الكبرى لا يُؤْمنوا بها، وإنْ يَرَوْا - على سبيل النُّدرة - طريقَ الحقِّ والهُدى والسَّداد لا يختاروه لأنفسهم طريقاً يَسْلكونه إلى الهداية؛ لأنه مُباينٌ لسُبُل أهوائهم وشهواتهم وتكبُّرهم في الأرض بغير الحق، وإنْ يَرَوْا طريقَ الضَّلال والفساد يتَّخذوهُ طريقاً وديناً؛ لأنه يُحقِّق لهم رَغَبات أهوائهم وشهواتهم، ذلكَ الذي اختاروهُ لأنفسهم من ترك الرُّشد واتِّباع الغيِّ؛ بسبب أنَّهم كذَّبوا بآيات الله الدالَّة على توحيده، وكانوا عن التفكير فيها، والاتِّعاظ بها، وإدراك دلالاتها غافلين.

١٤٧ - والذين كذَّبوا بآياتِ الله الكلاميَّة المُنزَّلة، والإعجازيَّة والجزائيَّة، والكونيَّة، وكذَّبوا بلقاء الله في الدار الآخرة التي فيها الثواب والعقاب، بَطَلَت أعمالُهم الصَّالحة التي عملوها في الدنيا من البرِّ والإحسان والخير؛ فلا ثواب لهم عليها مهما كَثُرت وعَظُمَت، فصارت كأنْ لم تكن، إذْ لم تكن غايتُهم ثواب الآخرة، لأنهم لا يؤمنون بآيات الله، ولا بلقائه، هل يُجْزَوْنَ في الآخرة إلاَّ جَزاءَ العمل الذي كانوا يعملونه في الدنيا؟

١٤٨ - واتَّخذ أكثر قوم موسى بتصنُّع وتكلُّف من بعد ذهاب موسى إلى الجبل لمناجاة ربِّه عزَّ وجل، وَتَلَقِّي ما كُتب له في الألواح، إلهاً معبوداً من مَصُوغات الذهب والفضة على صورة العِجْل المعروف، صَاغَهُ لهم السَّامريُّ، له صوتٌ كصوت البقر. ألم يَرَ الذين عَبَدوا العِجْل الذهبي وصنعوه بأيديهم رؤيةً عقليَّةً فكريَّة أنَّه لا يمكنه أن يتكلَّم بصواب، ولا يهدي إلى رُشد، ولا يقْدر على ذلك، فكيف يصلح أن يُعبد؟ اتَّخذوا هذا العجل إلهاً معبوداً، مع كونه مصنوعاً بأيديهم، وكانوا قبل اتِّخاذه ظالمين في أعماق نفوسهم، لأنهم لم يكونوا قد تحرَّروا من مفهومات الشرك والتعلُّق بالأوثان، على الرُّغم من كلِّ ما شهدوه من معجزات، وعلى الرُّغم من نهي موسى المُشدَّد لهم عن اتِّخاذ آلهة من الأصنام.

١٤٩ - ولمَّا رأوا موسى عليه السلام قادماً إليهم من بعيد، أخذت المخاوفُ من سَطْوته تدبُّ إلى قلوبهم، وأدركوا أنَّهم قد أجرموا باتِّخاذهم العجْلَ، عندئذٍ انحلَّت قواهم من الرُّعب، وارتَخَتْ أعصابهم، وَوَهَنَتْ عزائمهم، كأنَّ أغلالاً ثقيلة من حديد قد أُسقطت بعنف في أيديهم، فهي لا تستطيع حراكاً، ورأوا رُؤْيةً علميَّة أنهم قد ضلُّوا باتِّخاذهم العجل الذهبي إلهاً يعبدونه. قالوا: واللَّهِ لَئِن لم يَرْحَمْنَا ربُّنا، ويستر ذنوبنا، ويتجاوز عنَّا، لنكونَنَّ من الخاسرين الذين خَسِروا أنفسهم بوضعهم العبادة في غير موضعها.

وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾

١٥٠ ـ وحين وصل موسى عليه السلام إلى منازل قومه، حالة كونه غضبان حزيناً أشدَّ الحزن ممَّا حَدَثَ منهم؛ لأنَّ الله تعالى أخبره أنَّه قد فُتن قومه، وأنَّ السَّامريَّ أضلَّهم. قال موسى لقومه: بئست خلافةً خَلَفْتُمونيها من بعد فراقي لكم لمناجاة ربِّي خلافتُكم، أسبقتم بعبادة العجل ما أمركم به ربُّكم؟! وهو انتظاري حافظين لعهدي، وما وصَّيتكم به من التوحيد وإخلاص العبادة لله، حتى آتيكم بكتاب الله، فغيَّرتم وعبدتم العجل! وألقى موسى الألواحَ التي فيها التوراة، وأَخَذَ بشعر رأس أخيه ولحيته يجرُّه إليه من شدَّة غضبه، متَّهماً إياه بالتقصير والتهاون.

قال هارون لموسى مدافعاً عن نفسه: يا ابنَ أُمِّي إنَّ القومَ الذين عبدوا العِجلَ وجدوني ضعيفاً لا أملك قوةً أغلبهم عليها، وقاربُوا أن يقْتُلوني حين نهيتُهم عن عبادة العجل، فلا تُفْرِح الأعداء بما تنال مني من مكروه، ولا تَجْعَلني في الإثم والعقوبة مع القوم الظالمين الذين عَبَدوا العجل.

١٥١ ـ لمَّا تبيَّن لموسى عُذْرَ أخيه قال: ربِّ اغفر لي بما أظهرت من غضب، واغفر لأخي هارون ما سَبَق بينه وبين بني إسرائيل، وأدخلنا جميعاً في سَعَةِ رحمتك، أنت خير الغافرين، وأنت أرحم الراحمين.

١٥٢ ـ إنَّ الذين اتَّخذُوا العِجْل إلهاً عَبَدوه من دون الله، سيصلهم حتى يُمسك بهم غضبٌ من ربِّهم، وضعف وهوان في عاجل الحياة الدنيا، وهو القتل الذي أمرهم الله به، وكما جَزَيْنا هؤلاء الذين اتَّخذوا العِجْل إلهاً، سنجزي كلَّ المُفْترين على الله في أصول الدين وأحكامه، وسينالهم في الحياة الدنيا غضبٌ من ربِّهم وذلَّة.

١٥٣ ـ والَّذين عملوا الأعمال السَّيِّئة، ولو كانت كفراً وإشراكاً بالله، ثمَّ بعد مدَّةٍ رجعوا إلى الله من بعد أعمالهم السَّيِّئة، وآمنوا الإيمان الصحيح الخالي من الشِّرك، إنَّ ربَّك ـ أيها المخاطب ـ من بعد تَوبتهم لكثير السِّتر يستر الذنوب، دائم الرحمة يرحم التائبين.

١٥٤ ـ وحين هدأت نفس موسى، وذهبت عنها ثورةُ الغضب الشديد، أخذ الألواحَ التي ألقاها على الأرض، وفي المكتوب فيها هُدىً من الضلالة، ورحمةٌ من العذاب للخائفين من عذاب ربِّهم.

١٥٥ ـ وانتقى موسى من قومه سبعين رجلاً ممَّن لم يعبدوا العِجْل، وخرج بهم إلى «طور سيناء» للميقات الزمانيِّ والمكانيِّ الذي واعده الله أن يلقاه فيه بهم، للتوبة والاعتذار ممَّا كان من سفهاء بني إسرائيل من عبادة العجل، فلما أتوا ذلك المكان، وسألوا الله أن يكشف عنهم البلاء، ويتوب على مَنْ عبد العجل، أخذتهم الزلزلة والاضْطراب الشَّديد، من أجل أنهم لم ينهوهم عن المنكر، ولم يأمروهم بالمعروف، ولم يأخذوا على أيدي عَبَدة العجل بالقوة.

قال موسى: يا ربِّ لو شئتَ أهلكتَهُم على تقصيرهم في الأخذ على أيدي سفهاء بني إسرائيل، لكنت أهلكتهم من قبل خروجهم إلى الميقات معتذرين شافعين للَّذين أجرموا، ولكنتَ أهلكتني معهم، فكان بنو إسرائيل يُعاينون ذلك ولا يتَّهموني، أتُهلكنا بسبب ما فعل السُّفهاء منَّا؟ إنَّ تلك الفتنة التي وقع فيها السُّفهاء بعبادة العجل، لم تكن إلا اختباراً منك وابتلاءً، تحكم بالضلال على مَنْ تشاء، بعدلِكَ بالنظر إلى نتائج ابتلائك واختبارك لعبادك، وتحكم بالهداية لِمَنْ تشاء بالنظر أيضاً إلى نتائج ابتلائك واختبارك لعبادك، لا مُعقِّب لحكمك، أنت يا ربِّ ناصرنا وحافظنا والمتولِّي لكلِّ أمورنا، فاستُر ذنوبنا، وزدنا بعد المغفرة من عطايا رحمتك، التي وسعَتْ كلَّ شيء، أنت أرحم الراحمين، وأنت خير الغافرين.

﴿ وَٱكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾

١٥٦ - واجعَلنا ممَّن كتبتَ لهم من آثار رحمتك في هذه الدنيا: حسنةً معجَّلة، بتوفيقك ونصرك وعافيتك، وفي الآخرة حسنة مُؤَجَّلة، بالنجاة من عذابك، والظفر بجنَّتك ورضوانك، إنا رجعنا إليك طائعين مُسْتَسْلمين. قال اللّهُ عزَّ وجلّ لموسى عليه السلام: عقابي أُصيبُ به منْ أشاءُ من خَلقي، ورحمتي عَمَّتْ خلقي كلَّهم، فَسأَكْتُبُ مقادير من آثار رحمتي للَّذين يتَّقون عقابي وعذابي بامتثال أوامري، واجتناب زواجري، ويُؤْتون الزَّكاة، والَّذين هم يؤمنون، بكلِّ ما ننزِّل من آياتٍ على رسلنا، فلا يفرِّقون بين أحد منهم، ولا يتعصَّبون لسابقٍ ضدَّ لاحق.

١٥٧ - من أوصاف المتَّقين الذين كتب الله لهم رحمته أنهم يَتَّبعونَ الرسولَ محمداً إذا بعثه الله في زمانهم، ومن أوصافه التي بشَّرَ بها هذه الصفات العشر: **الصفتان الأولى والثانية**: أنه رسولٌ مُبلِّغ عن الله، ونبيٌّ اصْطفاه الله بالنبوَّة، وأوحى إليه كما أوحى إلى سائر النبيين، **والصفة الثالثة**: أنه أميٌّ من غير بني إسرائيل، لا يَقرأُ ولا يكتب، **والصفتان الرابعة والخامسة**: أنهم يجدون صفاته المُميِّزة له تمييزاً تاماً، والإعلامَ ببعثته مكتوباً عندهم في التوراة وفي الإنْجيل أيضاً، وهو أمر معلوم لبني إسرائيل منذ عهد موسى وعيسى، **والصفتان السادسة والسابعة**: يأمرُهُم بالإيمان بالله وتوحيده وكلِّ ما عُرِف حُسْنه، وينهاهم عن الشِّرك بالله وكلِّ ما عُرفَ قُبْحه، **والصفة الثامنة**: أنه يُحلُّ لهم ما كان مُحرَّماً عليهم في التَّوراة من الطيِّبات؛ عقوبةً لهم بسبب ظلم منهم ارتكبوه، **والصفة التاسعة**: أنه يُحرِّم عليهم الخبائث الضارَّة التي يستخبثها الطبع وتَسْتقْذرها النفسُ، **والصفة العاشرة**: أنه يُخَفِّف عنهم ما أُلزموا العملَ به من العهد المُؤكَّد الثقيل، والتكاليف الشاقَّة والعقوبات الشديدة في التوراة؛ كقطع موضع النجاسة من الثوب، وإحراق الغنائم، وتحريم السَّبت، وتعيُّن القصاص في القتل مطلقاً دون شرع الدية، ونحو ذلك. فالذين آمنوا بمحمد الرسول النبيِّ الأميِّ ﷺ ووَقَّروه وعظَّموه، وأيَّدوه ونصروهُ على أعدائه، واتَّبعوا القُرآنَ الذي أُنزل عليه، فهو نورٌ معه يُتلوه ويُبلِّغه للناس، ويهدي به العقول، ويزيل الظلمات، أولئك وحدهم بعد بعثة محمد ﷺ هم النَّاجُون الفائزون بالهداية، والظافرون بجنَّات النعيم في الآخرة، وأما الذين لا يتَّبعونه من أهل الكتاب، فإنَّ الله لا يكتب لهم من رحمته، ولا يدخلهم جنَّته، لأنهم كفروا بما أوجب عليهم أنْ يؤمنوا به، وعَصَوا أمر الله لهم باتِّباعه.

١٥٨ - قُل - يا رسول الله - لجميع الناس: إني رسولُ الله إليكم جميعاً لا إلى بعضكم دون بعض، إنَّ الله الذي له مُلْكُ السموات والأرض وما فيهما، هو الذي أرسلني إليكم جميعاً، لا معبود بحقٍّ إلا هو، يُحيي الأحياء على اختلاف أنواعها، ويميتها بنزع الروح منها، فآمنوا - أيُّها الناس - باللّهِ ورسولِهِ النبيِّ الأمي الذي يؤمنُ بالله وجميع كلماتِهِ المنزَّلات عليه وعلى النبيِّين من قبله، واقْتَدُوا بهذا الرسول، فيما يأمركم به وينهاكم عنه، راغبين أن تهتدوا وترشُدوا وتُصيبوا الحقَّ في متابعتكم إيَّاه. وفي الآية تبكيتٌ لليهود، وإعلامٌ بعموم رسالته ﷺ إلى الناس كافَّةً، وردٌّ على زعمهم أنه مُرسَلٌ للعرب خاصَّة.

١٥٩ - ومن قوم موسى الذين آمنوا به واتَّبعوه من بني إسرائيل جماعةٌ يهتدونَ بالحقِّ، ويستقيمون عليه، ويعملون به، ويُرشدون إليه، وبالحقِّ يعدلون إذا حكموا بين الناس.

وهذه شهادةٌ من الله عزَّ وجلَّ لهذا الفريق من قوم موسى، الذين تصحُّ نسبتهم إليه، بأنهم يهدون بالحقِّ، ويعدلون بالحقِّ، أما الذين بَقُوا على يهوديَّتهم من بني إسرائيل بعد بعثة عيسى، فلم يؤمنوا به، ولم يتَّبعوا ما أُنزل عليه من ربِّه، فليس فيهم أُمَّةٌ يهدون بالحق وبه يعدلون؛ لأنهم قد أخرجوا أنفسهم من قوم موسى بالكفر بعيسى، وكذلك الذين لم يؤمنوا بمحمدٍ بعد بعثته، من بني إسرائيل الذين آمنوا بعيسى واتَّبعوه، ليس فيهم أمَّة يهدون بالحق وبه يعدلون، بسبب كفرهم بما يجب عليهم أن يؤمنوا به، وبسبب عدم اتِّباعهم ما أنزل إليهم من ربِّهم على رسوله محمد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين.

وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾

١٦٠ ـ وقسَّمنا بتنظيم إداريّ بني إسرائيل، وهم في سيناء بقيادة موسى عليه السلام اثنتي عَشْرَة قبيلةً بعدد أولاد يعقوب، وصيَّرناهم جماعات، وأوْحينا إلى موسى إذ طلب قومُه منه السُّقْيا في التِّيه، فقلنا: اضرِب بعصاكَ الحجر الذي أعلمناك به، فضرب موسى بعصاه الحجر الذي عيَّنه الله له، فانشقَّتْ من الحجر اثنتا عَشْرَة عيناً، يخرج من كلِّ عين منها الماء. قد علمتْ كلُّ قبيلة من القبائل الاثنتي عشرة مَوْضع شُربهم الخاص بهم، لا تدخل قبيلة على أخرى، وظلَّلناهم جاعلين عليهم الغَمام مُظلِّلاً لهم في التِّيه، تقيهم حرَّ الشمس المُؤْذية، وأنزلنا عليهم المنَّ ـ وهو رزق يسقط لهم على وَجْه الأرض، يتجمَّع كالجليد، طعمُه شهيٌّ يشبه الصَّمْغ كرقاقِ خبزٍ بعَسَل ـ، والسَّلوى ـ وهو طائر بريٌّ لذيذ اللحم، سهل الصيد، يمسكونه بأيديهم، يُشبه السُّمانىٰ ـ. وقلنا لهم: كلوا من بعض طيِّبات ما رزقناكم، فهو رزقٌ وفير يزيد عن حاجاتكم اليوميَّة، فلا داعي لأن تدَّخروا منه شيئاً، ولا تُفسدوا في الأرض إفساداً شديداً منكراً، ولكنهم لم يطيعوا الله فيما نهاهم عنه، فأفسدوا وطغَوْا وبَغَوْا، وعصوا بارئهم، وظلموا ظلماً شنيعاً فاحشاً، حتى صاروا شرَّ الناس إفساداً في الأرض، إذ يفسدون العقائد، والأخلاق، والنُّظم، وسلوك الناس، ويجنِّدون الشياطين الأشرار، لتدمير كلِّ القيم الإنسانية، ومَحْو كلِّ الوصايا والتعليمات الربَّانيَّة، وما ظلمونا بكفرهم وفجورهم وإفسادهم في الأرض، ولكن كانوا يظلمون أنفسهم، بتعريضها للعقاب، والعذابِ الشديد الأبديّ في جهنم، مع ما ينزل بهم من عذاب واضطهاد وذلٍّ ومهانة في الدنيا.

١٦١ ـ وضع في ذاكرتك ـ أيُّها المُتلقِّي لهذا البيان من ربِّك ـ للاعتبار والاتِّعاظ، قصةً من قصص بني إسرائيل بعد موسى، حين قيل لهم: ادخلوا هذه القرية مُقاتلين في سبيل الله، واسكنوها بدل أهلها الذين سننصركم عليهم، وكُلُوا من ثمار القرية وزروعها في أيِّ مكان شئتم مأكولاً صالحاً تجدونه، وقولوا: حُطَّ عنا ذنوبَنا، ولا تُحاسبنا عليها، وادخلوا الباب مُنْحَنِينَ متواضعين، نَسْتر لكم ذنوبَكم، فلا نُؤاخذكم عليها، سنزيدُ المحسنين ثواباً وأجراً عظيماً.

١٦٢ ـ فغيَّر الذين ظلموا أنفسهم بمخالفة أمرنا من بني إسرائيل، فحرَّفوا دين الله، وعَصَوا أوامره، فأخذوا الغلول في الغنائم، وهدموا القرى التي يفتحها الله عليهم وأحرقوها، وتعاظموا بقوَّتهم وتفاخروا، ولم يدخلوها كما أمرهم الله مطأطئي رؤوسهم، متواضعين لربِّهم، ولكنهم تحايلوا وزحفوا على أستاههم؛ لئلا يحنوا ظهورهم خضوعاً لله تعالى، وبدل أن يقولوا: حِطة كما أمرهم الله، قالوا: حِنْطة في شعيرة، سخريةً من الأمر المُوجَّه إليهم، وعدم إيمانٍ بفائدته، فبعثنا عليهم عذاباً نازلاً من السماء أهلكهم؛ بسبب ظلمهم ومخالفتهم أمر الله تعالى.

١٦٣ ـ سَلْ ـ يا رسول الله ـ هؤلاء اليهود عن حال أهل القرية التي كانت قريبةً من «البحر الأحمر»، حين كان أهلها يتجاوزون حدودَ الله في انتهاك حرمة يوم السبت، الذي حرَّم الله عليهم فيه الأعمال الدنيويَّة، فخالفوا أوامر الله، وصادوا فيه، حين كانت تأتيهم حيتانهم يوم سَبْتهم ظاهرةً على وَجْه الماء كثيرةً، وحين يكونون في يوم آخر غير يوم السبت تذهب الحيتان في البحر، ولا يَرَوْن منها شيئاً، فكانوا يحتالون على حبْسها يوم السبت في حفائر، ويصطادونها بعده.
مثل هذا الاختبار الشَّديد، بإظهار السَّمك على وجه الماء في اليوم المُحرَّم عليهم صَيْدُه فيه، وإخفائه عليهم في اليوم المُحلَّل لهم فيه صَيْدُه، كذلك نختبرهم ونُشدِّد عليهم؛ بسبب ما كانوا يفسقون دواماً، فيخرجون عن طاعة الله إلى أوحال المعصية والطغيان باستكبار وعناد، فيستحقُّون العقابَ الشَّديد الذي يناسب استكبارهم وعنادهم وإصرارهم على معصية الله.

وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٦٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لَّا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ ۗ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾

١٦٤ ـ وضع في ذاكرتك ـ أيها المُتلقِّي لبياننا ـ حين قالت جماعةٌ صالحةٌ من أهل القرية التي كانت قريبة من البحر، أمْسكت عن الصَّيْد، وسكتت عن موعظة المعتدين، ليأسهم من استجابتهم، قالوا للمُستمرِّين في متابعة النُّصح المقرون بالترهيب من عذاب الله: لِمَ تنصحون جماعةً، اللَّهُ منزِّلٌ بهم عذاباً يُميتهم ويستأصلهم في الدنيا، أو مُعاقبهم عقاباً شديداً دون إماتة واستئصال؟ فقالت الفرقة الناهية للّذين لامُوهم: نعظُهم لأجل أن نرفع اللوم عن أنفسنا عند ربِّنا، بأننا لم نُقصِّر بواجب النُّصح والوعظ والنَّهي عن المنكر، وجائزٌ عندنا أن ينتفعوا بالموعظة، فيتَّقُوا الله، ويتركوا ما هم فيه من الصَّيْد.

١٦٥ ـ فلمَّا تركت الطائفة التي اعتدت يوم السَّبْت ما ذُكِّرت به، واستمرَّت على اعتدائها فيه، ولم تستجب لما وَعَظَتْها به الفرقة الناهية، أنْجيْنا من العقاب الذين كانوا يَنْهون عن السُّوء، وهم الفريقان: الذين اجتهدوا فرأوا أنَّ القوم ميؤوس من استجابتهم، والذين اجتهدوا فرأوا أنَّ القوم لم يصلوا إلى مرحلة ميؤوس منها، وأخذنا الفرقةَ المُعتديةَ العاصيةَ بعذابٍ شديد وجيع؛ بسبب مواظبتهم المُتكرِّرة على مخالفة أوامر الله، وخروجهم عن طاعته.

١٦٦ ـ فلمَّا تجاوزوا حدودَ المعاصي مُستنكفينَ عن طاعة الله بترك ما نُهُوا عنه، من العدوان على حُرمة يوم السبت، قلنا لهم: كونوا قِرَدةً أذلاّء مَطْرودين مُبْعَدينَ عن كلِّ خير. فَمَسَخ الله صُوَر أجسادهم، فجعلها على صور أجساد القرود.

١٦٧ ـ وضع في ذاكرتك ـ أيها المُتلقِّي ـ حين أعلمَ ربُّك أسلاف اليهود مُؤكِّداً مُقْسماً: لَيَبْعَثَنَّ عليهم إلى يوم القيامة من يُحمِّلهم ويُكلِّفهم أشدَّ العذاب كلَّما كَثُر ظلمهم وإفسادهم، وانتشرت خبائثهم، ويعيدُهم إلى وضعهم الذي قضى عليهم فيه، بأن يكونوا في حالة ذلةٍ ومَسْكنة، إنَّ ربَّك سريعُ العقاب، يُنزله عليهم سريعاً بعد تفاقم شرِّهم وهم غير مترقِّبين إنزاله فيهم، وإنَّه لواسع المغفرة، كثير الرحمة لمن آمنَ منهم، ورَجَع عن الكفر واليهودية، ودخل في دين الإسلام.

١٦٨ ـ وفرَّقنا بني إسرائيل في الأرض جماعاتٍ متفرِّقة، في بلدان من الأرض كثيرة، عقوبةً لهم؛ لأنهم لم يرعَوْا منحةَ الاستخلاف في الأرض المقدَّسة، منهم صالحون آمنوا بالله ورسوله، وثَبَتوا على دينهم قبل مَبْعثِ عيسى عليه السلام، ومنهم الذين كفروا وبدَّلوا وغيَّروا، واختبرناهم جميعاً بالخِصب والعافية، والجدب والشدَّة؛ رغبةً في أن يرجعوا إلى طاعة ربِّهم ويتوبوا إليه.

١٦٩ ـ فجاء بعدهم من سلالاتهم الذين حلُّوا محلَّهم، وورثوا مُمتلكاتهم، ذرِّيَّةٌ فاسدون، لا خير فيهم، انتقلت إليهم التوراة عن آبائهم، وعلموا ما فيها، وضيَّعوا العمل بما فيها وتركوه، يأخذون عِوَضاً عن قول الحقِّ، متاعَ هذه الحياة الدنيا، وهو الرشوة في الأحكام، ويعلمون أنَّها حرامٌ، ثم إنَّهم مع إقْدامهم على هذا الذنب العظيم يُصرُّون عليه، ويقولون: سَيُغفر لنا، فيتمنَّون على الله الأماني الباطلة الكاذبة. وإنْ وجدوا من متاع الدنيا في الغد مثله أخذوه؛ لِشِدَّة حرصهم على الدنيا، وإصرارهم على الذنوب، ألم يُؤْخَذ على هؤلاء المُرتشين في أحكامهم، العهودَ والمواثيقَ في التوراة أن يقولوا الحقَّ؟ فخالفوا أمرَ الله وقالوا الباطل، والحال أنهم قرؤوا ما في التوراة وتدبَّروه مراراً، وضيَّعوا العمل بها، وما في الدار الآخرة ممَّا أعدَّ الله لأوليائه خيرٌ للذين يتَّقون الله ويخافون عقابه، من متاع الحياة الدنيا، أفقدتم ما وهبناكم من عقلٍ علميٍّ يُميِّز بين الحقِّ والباطل، وما وهبناكم من عقلٍ إراديٍّ بضبط أهوائكم وشهواتكم، فأنتم بسبب ذلك لا تعقلون.

١٧٠ ـ ومن جماهير الخلف الفاسدين من ذرِّيات بني إسرائيل طائفة صالحة محافظة على العمل بتعاليم كتاب ربِّهم، دون تحريف ولا تبديل، ويدعون غيرهم للتمسُّك به، وآمنوا بكلِّ رسول ونبيٍّ جاء بعد موسى وهارون، وأقاموا الصلاة المفروضة عليهم، إنا لا نضيع أجر الذين يعملون الأعمال الصالحة، ويسعون في إصلاح الناس ودعوتهم لفعل الصالحات.



۞ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٧٨﴾

١٧١ - وضع في ذاكرتك - أيها المُتلقِّي - قصّة بني إسرائيل حين رفعنا فوقهم جبل الطُّور، فصار كأنّه سَحابةٌ تُظِلُّهم، وظنُّوا ظنّاً قوياً أنّ الجبل واقعٌ عليهم، ومختلط عند وقوعه بأجسادهم. وقلنا لهم: خذوا ما آتيناكم من أوامر ونواهي بقوّةِ إرادةٍ وعزيمة، وَضَعُوا في ذاكرتكم ما جاء في الكتاب من وصايا، ليكون تذكُّركم لها باعثاً للعمل بمقتضاها فعلاً فيما يجب فعله، وتركاً فيما يجب تركه.

١٧٢ - وضع في ذاكرتك - أيُها الصالح لتلقِّي هذا النبأ - حين استخرَجَ ربُّك من ظهر كلِّ واحدٍ من بني آدم ذرِّيَّته المُقدَّر إيجادها في أزمانها المُحدَّدة لظهورها في حياة الابتلاء على الأرض حتى آخر نَسَمةٍ تُولد قبل قيام الساعة، في الزمن الذي كان آدم فيه حياً، وهم في عالم الذرِّ، قبل أن ينتقلوا من مُستقرِّ صُلْبه إلى مُستودع رحم أمِّهم حواء، وقرّرهم بتوحيده بما أوْدَعَهُ في فِطَرهم من أنَّه ربُّهم وخالقهم، وأخذ عليهم الميثاقَ بذلك، فأقرُّوا له بالربوبيّة، واعترفوا على أنفسهم بالعبوديّة، أخبرتكم بهذا الحَدَث؛ مَنْعَ أن تقولوا - أيُّها الذرِّيّة - يوم القيامة معتذرين: إنَّا كنَّا عن هذا الميثاق الذي جَرَى لنا في عالم الذرِّ غافلين مُنصرفي الأذهان؛ لأننا أبقينا آثارَ هذا الحَدَث في عقولكم أدلَّةً تدلُّكم على أنَّ ربّكم هو الله الذي لا شريك له، وأبقينا في نفوسكم وقلوبكم فطرةً تنزع بكم إلى هذه الحقيقة، ممَّا يجعل حالكم أقرب إلى الغافل الساهي منه إلى الناسي.

١٧٣ - ونُخبركم بهذا الحَدَث الذي جَرَى لكم وأنتم في مرحلة الذرِّ، وأبقينا آثاره في فِطَرِ عقولكم ونفوسكم وقلوبكم منعَ أن تقولوا إن أتتكم بوادرُ الإهلاك في الدنيا: إنَّما أشرك آباؤنا من قبل، وكنّا أتباعاً لهم، فورثنا عنهم عقائدهم الشركيّة بتأثير البيئة، أفتُعذِّبُنا بما فعل الذين أبطلوا أعمالهم، فأشركوا مع الله؟

١٧٤ - ومثل ذلك التفصيل البليغ الذي أجريناه في الآيات السابقات من السُّورة، نُفَصِّل الآياتِ في القرآن كلِّه لقوم أخرجتهم أهواؤهم عن الصِّراط المستقيم، بجَهلهم وغَفَلاتهم، لكنهم غير ميؤوسٍ من رجوعهم، فهؤلاء نفصِّل لهم الآيات بتمييزِ بعضها عن بعض، رغبةً في أن يعلموا، وأن يرجعوا إلى جذور الفطرة في نفوسهم.

١٧٥ - واقرأ على قومك - يا رسول الله ويا كلَّ داعٍ إلى الله من أُمَّته - خبرَ رجلٍ من بني إسرائيل أعطيناه حُجَجنا وأدلَّتنا، فخرج من الآيات التي آتاه اللَّهُ إيَّاها وبَعُدَ عنها، وتبرَّأ منها كما تنسلخ الحيَّةُ من جلدها، فلحقه الشَّيطان، وأدركه، وصار قريناً له، فكان باستجابته لوساوس الشيطان وتسويلاته من الهالكين الضَّالِّين الفاسدين.

١٧٦ - ولو شِئْنا لرفعنا درجتَه ومنزلتَه إلى منازل الأبرار بتلك الآيات التي أُوتيَها، ولكنه سَكَن إلى الدنيا ومالَ إليها ورضيَ بها، واتَّبع بإرادته الحُرَّة أهواءَه وشهواتِهِ، فَخَسِرَ دنياه وآخرتَه، ووقع في هاوية الرَّدى والهَلاك. فوصف هذا الرجل الذي اتَّبع هواه وآثر دنياه، كوصف الكلب الذي يظلُّ لاهثاً دواماً، إنْ شَدَدْتَ عليه وأَهَجْتَه يندلع لسانُه، وإن تركتَه على حاله يخرج لسانُه، فكذلك حالُ الحريص على الدنيا، يستمرُّ في كلِّ أحواله كادّاً لاهثاً، من جَرْيه وراء مطالب نفسه التي تَتَجَدَّدُ دائماً، دون أن يظفر من دنياه بطائل، أكثر من متاع زائل، ويستمرُّ الظمأ النفسيُّ المتواصل. ذلك الوصف المنحطُّ السافل الذي ضربناه للَّذي آتيْناه آياتِنَا فانسلخ منها، هو أيضاً وصف القوم الذين كذَّبوا بآيات الله وجحدوها ابتداءً، دون أن يؤمنوا بها، فتحيطَ بهم كجلودهم؛ لأنَّ ما وصل إليه ذلك المُنْسَلخ عن آياتنا، يُماثل ما ابتدأ به هؤلاء الذين كذبوا بآياتنا. فحدِّث بأخبار الأولين، راجياً ممَّن تُحدِّثُهم أن يؤثِّر فيهم حديثك، فيجعَلَهم يتفكَّرون، ويكون دافعاً لهم على الاستقامة على طريق الحق.

١٧٧ - قَبُحَ مثلاً مَثَلُ القوم الذين كذَّبوا بآياتنا، وكانوا يظلمون بتكذيبهم بآيات الله، ولكنهم ما كانوا يظلمون إلا أنفسهم؛ لأنَّ تكذيبهم لم يضرَّ الله شيئاً، وإنما عرَّضهم لعقوبةِ الله في عذابٍ خالدٍ يوم الدين.

١٧٨ - من يحكم الله له بالهداية فهو المهتدي، ومن يحكم الله عليهم بالضلالة؛ لأنهم كانوا في الحياة الدنيا ضالِّين باختيارهم الحر، فأولئك البُعداء عن رحمة الله، هم الخاسرون الذين خسروا أنفسهم؛ إذ حرموها من نعيم الجنة.

وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا ۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾

١٧٩ ـ ونقسم مؤكِّدين لكم أننا خلقنا وَفْق نظام التناسل كثيراً من ذَراري الجنّ والإنس صائرين لجهنَّم؛ لهم قلوبٌ لا يتوصَّلون بها للعلم ببواطن الأمور وخفاياها؛ لأنهم وجَّهوا كلَّ قواهم التفكُّرية لخدمة أهوائهم وشهواتهم من متاع الحياة الدنيا، ولهم أعينٌ لا يُبْصرون بها طريقَ الحقّ والهدى، ولا ينظرون بها في آيات الله ودلائل توحيده، ولهم آذانٌ لا يسمعون بها آيات القرآن ومواعظه فيعتبرون بها. أولئك الذين ضلُّوا بإرادتهم الحرة، فاستحبُّوا العَمَى على البصر، كالأنعام التي لا تفهم ولا تعقل، بل إنَّ الكفار أضلُّ من الأنعام؛ لأنهم عطلوا ما آتاهم ربُّهم من تفضيل وتكريم ليصلوا به إلى جنّات النعيم، وأنزلوا أنفسهم بإراداتهم الحرة إلى أسفل سافلين، أولئك البُعداء في التسفُّل في الدركات الذين ردُّوا أنفسهم بكفرهم حتى صاروا أضلَّ من الأنعام هم الغافلون عن الله، وعن مصيرهم يوم الدين، بسبب انشغالهم بمتاع الحياة الدنيا.

١٨٠ ـ وتختصُّ بالله الأسماءُ الحُسْنى؛ لأنَّ له تعالى أكملَ الذات، وأكملَ الصفات، فادعُوا الله بأسمائه التي سمَّى بها نفسه، أو سمَّاه بها رسوله، واتركوا طرائق الذين يميلون عن الحقّ والصَّواب في أسماء الله تعالى، فَيُطلقونَ أسماءَ اللّهِ عزَّ وجلَّ على غيره، أو ينكرون بعضَ أسمائه الدالّة على بعض صفاته، أو يسمُّونه بما لا يليق بجلاله، سَيُجْزَىٰ الذين كانوا في الدنيا يُلحدون في أسماء الله الحُسْنَىٰ، عقابَ ما كانوا يعملون في نار جهنم.

١٨١ ـ ومنْ أمَّة محمدٍ ﷺ خَلَقْنا جماعةً يهتدون بالحقّ، ويدعون إليه، ويُرغِّبون فيه، وبالحقّ وحده يَقْضون ويُنصفون الناس، وبالعدل يأخذون ويعطون ويتَّصفون.

١٨٢ ـ والذين كذَّبوا من أمّة دعوة محمَّدٍ ﷺ العامَّة لكلِّ الناس بعد بعثته، بآياتنا البيانيّة، والإعجازيّة، والجزائيّة، والكونيّة، سنفتحُ عليهم من متاع الحياة الدنيا ما يركنون إليه، ونتركهم على حريّاتهم يتابعون مسيرتهم إلى ما يُهلكهم، ويُضاعف عقابهم من حيث لا يعلمون ما يُراد بهم.

١٨٣ ـ وأُمهِلُهُم، وأُطيل مدّة أعمارهم؛ ليتَمادوْا في الكفر والمعاصي، ولا أُعاجلُهم بالعقوبة، ثُمَّ أنزل بهم عقابي بتدبير مُحكم قويّ، وبوسائل شديدة قوية، لأنَّ كيدي متين.

١٨٤ ـ ألم يتفكَّر هؤلاء الكفار، بآياتنا التي يُبلِّغهم إيّاها رسولُنا محمد، ليعلموا أنه كامل العقل والفِطْنة، أولم يتفكّروا بشخصيَّة صاحبهم محمد الذي يعرفونه قبل النبوَّة وبعدها؛ ليعلموا انتفاء أيّ صورة من صُور الجنون عنه، ما صاحبكم محمد ﷺ بالنسبة إليكم وإلى سائر الذين كذَّبوه إلا نذير مُظْهِرٌ موضِّح لما يدعوا إليه.

١٨٥ ـ أولم ينْظروا نظرَ اعتبارٍ واستدلالٍ في مُلك الله العظيم في السَّموات والأرض، وكلُّ شيء خلقه الله سبحانه وتعالى، فيه دليلٌ على وحدانيَّته وآثار قدرته، أولم يقع في تقديرهم أنَّ مدّة إمهالهم قد اقتربت من الانتهاء، وأنَّ أجل إنزال العقاب بهم قد صار متوقَّعاً. فإذا لم يؤمنوا بهذا الحديث المنطقيِّ الهادىء فلا يوجد بعده حديثٌ آخر يجعلهم يؤمنون؟!

١٨٦ ـ مَنْ يحكم اللّهُ عليه بالضَّلال، فلا يُوجد أحدٌ يستطيع أن يحكم له بالهداية من دون الله، ويتركهم في ضلالهم وتماديهم في الكفر يتردَّدون مُتَحيِّرين في ظلمات أهوائهم وشهواتهم وضلالاتهم.

١٨٧ ـ يَسْألُك ـ يا رسول الله ـ كفار مكة عن الوقت الذي يُبعث الناس من أجداثهم إلى الحياة الآخرة، وتنتهي فيه مسيرة هذه الحياة الدنيا، بتصاريفها المتتابعة، وتغيُّراتها المستمرة، كما تتوقف السفينة في الميناء، وتُلقي مراسيها، وتثبت وتستقرُّ عنده. قل ـ يا رسول الله ـ : لا يعلم الوقت الذي تقوم فيه الساعة إلا الله، لا يُظهرها في وقتها المُعيَّن إلا الله، ولا يقدر على ذلك غيره، ثَقُلَ أمرُها وخَفِيَ علمُها على أهل السَّموات والأرض، لا تأتيكم إلا فجأة على حين غفلةٍ من الخلق. يسألك قومُك عن أحوال الساعة كأنَّك عالمٌ علمَ استقصاء بها، وتمنعهم الإخبار عنها. قل ـ يا رسول الله ـ: ما علمُها إلا عند الله، ولكنَّ أكثرَ النَّاس لا يعلمون ما ينفعهم وما يضرُّهم، ويشغلون أنفسهم بما لا يفيدهم من العلم، ويتَّخذون عدم إعلامهم بوقت قيام الساعة ذريعةً لجحودها.

قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ
أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ
أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١٨٨) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ
مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا
تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا
اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (١٨٩)
فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى
اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٩٠) أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ
(١٩١) وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ (١٩٢)
وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ
أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ (١٩٣) إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ
عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ
كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٩٤) أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ
يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ
يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظِرُونِ (١٩٥)

١٨٨ - قُل - يا رسول الله - للمُلْحِفينَ عليك في السؤال عن وقت قيام الساعة، ولسائر الناس: لا أَقْدِرُ على اجْتلاب نفع لنفسي، ولا دفع ضَرّ يحلُّ بها، إلاَّ ما شاء الله أنْ أقدر عليه، ولو كنتُ أعلمُ الغيبَ ممَّا سيحدث مُستقبلاً، لاستكثرتُ من تحصيل الخير، واحترزتُ من الشر، وما مَسَّني الضُّرُّ، ما أنا بالنسبة إلى مَنْ بلَّغتُهم، واتَّخذت كلَّ وسيلةٍ لاقناعهم ونُصحهم وإرشادهم إلا مُنْذِرٌ أُنذركم وأُخوِّفكم عقابَهُ إنْ لم تؤمنوا، وأُبشِّر بثوابه العظيم يوم الدين، لقوم لديهم الاستعداد لأن يؤمنوا.

١٨٩ - هُوَ الذي خلقكم - أيُّها الناس - من نفس واحدةٍ، وهي آدم عليه السلام، وجعل من نوع هذه النفس الواحدة زوجَها، تُشاركه في الخصائص والطبائع البشرية؛ ليأنَس بها ويأوي إليها، فلمَّا واقعها وجامعها - والمراد به: جنس الزوجين من ذُرِّيَّة آدم - حَمَلت النطفة، وهي خفيفة عليها، فاستمرَّت بذلك الحمل، فقامت وقعدت بهذا الحَمْل وهو يَتَنامى شيئاً فشيئاً، فلمَّا صارت إلى حال الثِّقَل، وكَبُر ذلك الجنين في بطنها، وَدَنَتْ مُدَّةُ ولادتها، دَعَا الزوجان ربَّهما مُقسمَيْن: نُقسم يا ربَّنا، لَئِنْ أعطَيْتنا بَشَراً سَوِيّاً سالماً من العيوب، لنكوننَّ من الشَّاكرين لك على إنعامك علينا.

١٩٠ - فلمَّا أعطى الله الزَّوْجين ما طَلَباهُ من الولد الصَّالح السَّويِّ، جَعَلا لله شركاء في ذلك الولد الذي انفرد اللَّهُ بخلقه، فاتَّخذا أعمالاً شركيَّة لحماية ولدهما، فتنزَّه اللَّهُ وترفَّع وتسامى عن إشراك المشركين.

١٩١ - أَيُشْرِكُ هؤلاء المشركون في عبادة الله ما لا يخلق شيئاً، وهؤلاء الشركاء الذين اتُّخذوا آلهة مع الله يُخلقون خلقاً من بعد خَلْق، ما داموا في الوجود.

١٩٢ - ولا تَقْدرُ الأصنام على نصرِ مَنْ أطاعها وعَبَدها، ولا يَقْدرون على أن يدفعوا عن أنفسهم مكروهاً. فإذا كانت لا تخلق شيئاً، بل هي مخلوقة، ولا تستطيع أن تدفع المكروه عمَّن يعبدها، ولا عن نفسها، فكيف تُتَّخذ مع الله آلهةً؟!

١٩٣ - وإنْ تدعوا - أيُّها المشركون - هذه الأصنام التي عبدتُموها من دون الله إلى القيام بعملٍ صالح فيه هُدىً، لا تسمع دعاءكم، ولا فرق بين دعائكم للأصنام أو سكوتكم عنها، فإنَّها عاجزةٌ في كلِّ حال.

١٩٤ - إنَّ هذه الأصنام التي تعبدونها - أيُّها المشركون - من دون الله، وتعتقدون فيها النفع والضر، إنَّما هي مَمْلوكةٌ لله أمثالكم، مُسَخَّرةٌ مُذَلَّلةٌ لقُدرته، فهم لا يستحقُّون أن يُعبدوا، وعبادتهم ظلمٌ لحقِّ الله على عباده جميعاً، فإن كنتم - كما تزعمون - صادقين في أنها تستحقُّ من العبادة شيئاً، فادعوهم فَلْيَسْتجيبوا لكم، فإن استجابوا لكم وحصِّلوا مطلوبكم، وإلا تبيَّن أنكم كاذبون مفترون على الله.

١٩٥ - ألهذه الأصنام أَرجُلٌ يمشون بها لنُصْرتكم؟ أم لهم أيدٍ يَبْطشون بها للدفاع عنكم؟ أم لهم أعينٌ يُبْصرون بها حتى يعرفوا أحوالكم؟ أم لهم آذانٌ يسمعون بها أصوات دعائكم؟

إنَّ قدرة الإنسان المخلوق إنَّما تكون بهذه الجوارح الأربعة، والأصنام ليس لها من هذه الأعضاء والجوارح شيء، فهم مُفضَّلون على هذه الأصنام العاجزة بكثير، فكيف يليق بالإنسان العاقل الأفضل أن يشتغل بعبادة الأخسِّ الأدوَن الذي لا يضرُّ ولا ينفع؟

قل - يا رسول الله ويا كُلَّ داعٍ إلى سبيل ربِّه - لهؤلاء المشركين من عَبَدَة الأوثان: ادْعُوا هذه الأصنام التي تعبدونها حتى يتبيَّن عجزها، ثمَّ حاربوني أنتم وشركاؤكم بما لديكم من وسائل، فلا تُمْهِلوني ساعةً بعد تدبير كيدكم مستعينين بشركائكم، فإنِّي لا أبالي بكم، ولن تصلوا إلى ضري؛ لأنَّ الله يدفع عني.

إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي ٱلْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّي هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾

١٩٦ ـ إنَّ الذي يتولّى حفظي وينصرُني عليكم، هو اللّهُ الذي نَزّل عليَّ القرآن، وكما أيّدني بإنزال القرآن عليَّ كذلك يتولّى نصرتي على كلِّ من يكيدونني ويريدون بي شرّاً، وهو يتولّى الصّالحين بنصرِه وحفظه، فلا تضرُّهم عداوة مَنْ عاداهم من المشركين وغيرهم ممّن أرادهم بسوء.

١٩٧ ـ والذين تَدعون ـ أيُّها المشركون ـ من دونِ الله من شركائكم، لا يستطيعون نصركم، ولا يقْدرون على نصرة أنفسهم.

١٩٨ ـ وإن تَدعوا ـ أيُّها المشركون ـ هذه الأصنام إلى القيام بعمل فيه هُدىً وخير لا يسمعوا دعاءكم، وترى ـ يا كلَّ مشركٍ ـ هذه الأصنام التي صنعتم لها عيوناً تُشبهُ عيون الكائنات الحيَّة، كأنهم يُشبهون النّاظرين إليك، وهم لا يُبصرون؛ لأنهم فاقدون لحاسّة العين الناقلة للرؤية، ولمركز الإدراك البصريِّ في رؤوسهم الحجريَّة.

١٩٩ ـ خُذْ ـ يا رسول الله ويا كلَّ داعٍ إلى سبيل الله من أُمّته ـ العفوَ عمَّن أساء إليك، ولا تأخذ التشفّيَ لنفسك بالانتقام، ومُعاقبة المسيء على إساءته، وليكن همُّك أن تأمر بالعطاء ومساعدة ذوي الحاجات، وفعل الخير مع كلِّ الناس، وقابل الذين يَجْهلون عليك ويتسافهون بالسِّباب والشتائم وقبائح الأقوال والأفعال، بعد العفو عن إساءاتهم إذا تَمادَوْا في السَّفاهة بمجرَّد الإعراض عنهم، بإعطاء جانب وجْهك وجسمك دون إدارة الظهر لهم، أو مواجهتهم.

٢٠٠ ـ وإمّا يُصيبنَّك ـ أيها الداعي إلى الله ـ ويعرض لك من الشيطان وسوسة، لمقابلة جهل الجاهل السفيه بمثل عمله، فاستَجِر بالله، والجأ إليه في دفعه عنك، إنَّه سميعٌ لدعائك، عليمٌ بحالك.

٢٠١ ـ إنَّ الذين اتَّقوا ربَّهم وخافوا أن يقعوا فيما نهى الله عنه، إذا مسَّهم بالوساوس والدسائس طائفٌ من الشيطان، يطوف بها على نفوسهم، تذكَّروا الله فاستعاذوا، فإذا هم يُبْصرون مواقعَ الخطأ بالتذكُّر والتفكُّر، ويتصرَّفون بتقوى وعقل وحكمة.

٢٠٢ ـ وإخوانُ الشَّياطين المصاحبون المتابعون لهم في مسالك الضلال والغيِّ، يمُدُّهم الشَّياطين من الجنِّ والإنس في الضَّلالة بالوسوسة والإغراء بالمعاصي، ثمَّ لا يكُفُّون عن متابعة الإغراء والإغواء حتى إبلاغهم قعر شقائهم في الدَّرك الأسفل من النار يوم الدين.

٢٠٣ ـ وإذا لم تأتِ المشركين ـ يا رسول الله ـ بآيةٍ جديدةٍ من القرآن تأخَّر نزولها عليك لحكمة ربّانيَّة، قال المشركون تَهَكُّماً: هلاَّ افتعلتَها وأنشأتها من قِبَل نفسك؟ قل ـ يا رسول الله ـ لهؤلاء المشركين الذين سألوا نزول نَجْم جديد عليك، ولو آية واحدة: ما أتَّبعُ فيما أوحيَ إليَّ من القرآنَ إلاّ الذي أُنزل عليَّ، وليس لي أن أتصرَّف بشيءٍ من عندي، هذا القرآن الذي يُنزِّله عليَّ تباعاً حُجَجٌ بيِّنة وبراهين نيِّرة من ربِّكم، وهو رَشَادٌ ودلالة يوصل إلى المطلوب، وهو أثرٌ من آثار رحمة الله بعباده، ومظهرٌ من مظاهر عطاءاته لقومٍ يؤمنون بكلِّ ما ينزل تباعاً من نجوم القرآن.

٢٠٤ ـ وإذا قُرِئَ عليكم ـ أيُّها المؤمنون ـ القرآن، فأَصْغُوا إليه بأسماعكم؛ لتفهموا معانيه وتتدبَّروا مواعظه، واسكتوا عند سماعه؛ راجين أن تُرْحموا برحمته الواسعة في الدنيا، وبإدخالكم في جنَّته التي هي أعظم مظاهر رحمته.

٢٠٥ ـ واذكر ـ يا رسول الله ويا كلَّ مؤمن ـ ربَّك سِرّاً في نفسك، واستحضِر عظمتَه في قلبك، مُتذلِّلاً له وخائفاً منه، واذكره سبحانه باللسان ذكراً متوسِّطاً بين الجهر والمُخافَتة في وقتين مُفَضَّلَيْن: في أوَّل النهار ما بين طلوع الفجر وطلوع الشمس، وآخره من العصر إلى الغروب، ولا تكن من الغافلين عن ذكره والتفكر في خلقه وتصاريفه في كونه.

٢٠٦ ـ إنَّ الملائكة المُقرَّبين عند ربِّك مع علوِّ مرتبتهم وعظيم شرفهم، لا يستكبرون عن عبادته وطاعتِهِ، بل ينقادون لأوامره، ويُنزِّهونه عن كلِّ ما لا يليق بجلاله على أبلغ وجْهٍ وأكملِهِ، وله وحده لا شريك له يتابعون السُّجود، والسموات ملأىٰ بالساجدين من الملائكة المُقرَّبين.



سُورَةُ الأَنفَالِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴿٥﴾ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٦﴾ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾

سُورَةُ الأَنفَالِ

١ - يسألُك أصحابُك - يا رسول الله - عن حكم الغنائم المأخوذة من الكفار يوم «بدر»، عطيةً من الله تعالى، تفضَّل بها على الأمة المسلمة دون غيرها من الأمم، وزيادةً على ما يحصل للمجاهد من ثواب الجهاد؟ قل لهم يا رسول الله: إنَّ الأموال المأخوذة من الكفار حكمُها للَّهِ ورسوله يَقْسِمَانها كيف شاءَآ، فاتَّقُوا الله بطاعته واجتناب مُخالفته، فإذا امتلأت القلوب بالتقوى لم يكن للشيطان مَنْفَذ، ولم يكن لِلْخلاف موضع، وأصلحوا الحالَ فيما بينكم بترك المُنَازعة والمُخَاصَمة في حكم الغنائم، وأطيعوا الله ورسوله فيما يأمرانكم به وَيَنْهيانكم عنه، إنْ كنتم مؤمنين إيماناً صحيحاً صادقاً، فأنتم مُطالبون بالتحقُّق بمقتضى إيمانكم هذا في تحقيق التقوى، وإصلاح ذات البين، وطاعة الله ورسوله.

٢ - ليس المؤمنون الذين يخالفون الله ورسوله، إنَّما المؤمنون الصَّادقون في إيمانهم الذين يَتَّصفون بالصفات الخمس الآتية: **الصفة الأولى**: إذا ذُكر الله خافت ورقَّت قلوبهم؛ استعظاماً لجلاله، وحذراً من عقابه، **والصفة الثانية**: إذا قُرئت عليهم آياتُ القرآن زادتهم تصديقاً ويقيناً، لأنها تزيدهم علماً ومعرفةً بحكمته وعلمه، **والصفة الثالثة**: على ربِّهم وحده يعتمدون، فيفوِّضون تدبير جميع أمورهم إليه تعالى، ولا يرجون غيره، ولا يخافون سواه، مع قيامهم بالأسباب المستطاعة الماديَّة والمعنويَّة، طاعةً لأمره سبحانه ونهيه.

٣ - **الصفة الرابعة**: الذينَ يُقيمون الصَّلاة المفروضة بحدودها وأركانها في أوقاتها، كاملة الخشوع والخضوع، **الصفة الخامسة**: يتصدَّقون من بعض ما أعطاهم الله من الرزق في وجوه البرِّ التي حثَّ الله على البذل في سبيلها، ممَّا هو واجب كالزكاة والنَّذر، ومَنْ تجب نفقته، وممَّا هو تطوُّعٌ كالصدقات العامة.

٤ - أولئك الفضلاء الموصوفونَ بتلك الأوصاف الخمسة، الجامعون بين الإيمان والعمل، هم المؤمنونَ إيماناً صادقاً ثابتاً، لهم ثلاثة وعود حسنة: **الوعد الأول**: مراتب بعضها أعلى من بعض؛ لتفاوتِ أحوالهم في التحقُّق بتلك الأوصاف، **والوعد الثاني**: سَتْر عظيمٌ لذنوبهم، **والوعد الثالث**: رزقٌ كريم أعدَّه الله لهم في الجنَّة.

٥ - امْضِ لأمر ربِّك في تقسيم الغنائم بالسَّويَّة وإنْ كَرِهَ شُبَّان أهل بدر؛ لأنهم هم الذين باشروا القتال دون الشيوخ الذين كانوا معهم في الغزوة، مع أنهم كانوا ردءاً لهم، كما مَضَيْتَ لأمر ربِّك في الخروج من بيتك إلى بدر لطلب العير، وهم كارهون قتالَ قريش، بعد نجاة العير؛ لقلَّة عددهم وسلاحهم، وكثرة عدوِّهم فكان في الأمر بالقسمة بالسويَّة خيرٌ للمؤمنين، إذ أصلح الله بينهم، وردَّهم إلى حالة الرضا والصفاء. كما كان القتال الذي أُمروا به عزّة الإسلام وخَضْد شوكة الكفر والطغيان.

٦ - يُجادِلُكَ - يا رسولَ الله - فريقٌ من المؤمنين في أمر القتال، بعدما أعلمتهم أنَّ الله وعدهم إحدى الطائفتين؛ العير أو النفير، وقد فاتتهم العير، فلا بد إذن أن يظفروا بأعدائهم وينتصروا عليهم، وهم يعلمون صدق الرسول ﷺ فيما أخبرهم به؛ كأنَّما يُساقون - لشدَّة كراهتهم القتال - إلى الموت، وهم ينظرون إليه عياناً.

٧، ٨ - واذكروا - أيُّها المُجَادلون - وعْدَ الله لكم بالظَّفَر بإحدى الفِرْقتين: **الأولى**: الإبل الحاملة لأموال المشركين الآتية من الشام إلى مكة. **الثانية**: النَّفير، وهو قتال الأعداء والانتصار عليهم، وتريدون وتتمنَّون أنَّ العيرَ التي ليس فيها قتال ولا سلاح تكون لكم، ويريدُ الله أن يُظهر الحقَّ ويُعليه بكلماته التكوينيَّة والتكليفيَّة، ويستأْصِل الكافرين من بلاد العرب حتى لا يبقى منهم أحد؛ لتكون عاقبة القتال أن يثبُتَ الحقّ ثبوتاً دائماً مُستمراً، وَيُقَوِّيَ الإسلام، ويُعزَّ أهله، ويُذهبَ الشرك وجنده، ولو كَرِهَ المشركون الذين يكرهون إحقاق الحقّ، وإبطال الباطل؛ لأنَّ ذلك يضرُّ بمنافعهم وامتيازاتهم وزعاماتهم القائمة على الباطل، فهم يُحبُّون ظهور الباطل حرصاً عليها، ويكرهون ظهور الحقِّ خوفاً من فواتها. وقد هلك في هذه الغزوة صناديدُ قريش وعصابة المستهزئين، وهم أئمة الكفر في مكة.

إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ۚ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ﴿١٤﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦﴾

٩ - اذكروا - أيها المؤمنون - نعمة الله عليكم يوم «بدر» إذْ تستجيرون ربَّكم من عدوِّكم، وتطلبون منه الغَوْثَ والنصر، فأجابَ دعاءكم: بأنّي مُرسلٌ إليكم مَدَداً ورِدْءاً بألفٍ من الملائكة من السماء، يَتْبع بعضُهم بعضاً.

١٠ - وما جَعَلَ الله الإمدَادَ بالملائكة إلا بُشرى لكم بالنَّصر، فإنَّ ذلك يشدُّ من عزيمتكم، ويرفع معنوياتكم، ويزيدكم ثباتاً وإقداماً، ولتسكنَ بهذا الإمْداد قلوبكم، فيزول ما كان بها من خوف وقلق بسبب قِلَّةِ عددكم، وكثرة عدوِّكم، وما النَّصْرُ إلا من عند الله، فثِقُوا بنصره - أيُّها المؤمنون - ولا تَتَّكلوا على قُوَّتكم وشدَّة بأسكم، إنَّ الله قويٌ منيعٌ لا يقْهَرُه شيءٌ، ولا يغلبُهُ غالبٌ، حكيمٌ في تدبيره ونصره، ينصرُ من يشاء، ويخذل من يشاء.

١١ - اذكروا - أيها المؤمنون - فضل الله عليكم حين يُلقي عليكم النومَ الخفيفَ لأجل أن يكون أمناً منه تعالى لكم، يُزيل به عن قلوبكم الرُّعب، ويُقوِّيكم بالاستراحة به على القتال في الغد، ويُنزِّلُ عليكم المطر لأربع فوائد: **الأولى**: لِيُطهِّركم به من الأحداثِ والجَنابة، **والثانية**: يُذهبَ عنكم وَسْوَسة الشيطان لكم، التي تجُول في خواطركم: كيف تصلُّون وأنتم على أحداث ونجاسات لم تتطهَّروا منها؟ وكيف تُعرِّضون أنفسكم للقتل وأنتم كذلك؟ **والفائدة الثالثة**: ليشدَّ ويقوِّي إرادتكم، ويمدَّكم بالشجاعة القتالية بالربط على قلوبكم؛ بشعوركم بأنَّ الله معكم يمدُّكم بعونه، ولذلك أنزل عليكم الماء من السماء، ومن شأن هذا الشعور أنْ يُذهب عن قلوبكم القلق والاضطراب، **والفائدة الرابعة**: يثبِّت بذلك المطر الأقدام في المعركة بتلبيد الأرض الرمليَّة، حتى لا تنزلقَ فيها الأقدام.

١٢ - واذكر - يا رسول الله ومَن مَعَك من المؤمنين - وحيَ ربِّك المستمرِ المُتجدِّد إلى الملائكة الذين أمدَّكم بهم في غزوة «بدر»: أني معكم - أيها الملائكة - بالنصر والمعُونة، فقوُّوا قلوبَ المؤمنين، سَأُلقي في قلوب الذين كفروا الخوفَ الشديد والذلة والصَّغار، فاضْربوا - أيُّها المؤمنون - رؤوسَ الكفار، واضربوا منهم أطرافَ الأصابع التي يحملون بها السيوف.

١٣ - ذلك الرعب الذي ألقاه الله في قلوب الكفار والأمر بضربهم على رقابهم ورؤوس أصابعهم يومَ بدرٍ؛ بسبب أنَّهم خالفوا الله ورسولَه، وناصبوهما العداء، فصاروا في شقِّ المضادِّ المحارِبِ لهما، والله ورسوله في شقٍّ آخر، ومَنْ يُخالف أمرَ الله ورسوله ويناصبهما العداء، ويقف في شقِّ المضادِّ المحارب لهما، فإنَّ الله شديدُ العقاب له في الدنيا والآخرة.

١٤ - ذلكم الأسر والقتلُ الذي نَزَل بكم - أيها الكفار - فذوقوا آلامه وتحسَّسوه عاجلاً في الدنيا، لأنَّ ذلك يسيرٌ بالإضافة إلى العذاب المُؤجَّل الذي أعدَّه الله لكم في الآخرة.

١٥ - يا أيُّها الذين صَدَّقوا اللَّهَ واتَّبعوا رُسُلَهُ، إذا قابلتم الذين كفروا مجتمعين، يزحفون زحفاً لقتالكم، فلا تُديروا لهم ظهوركم منهزمين منهم، ولو كانوا أكثر عدداً وعُدَّة. وهذا النداء الإلهيُّ للمؤمنين هو النداء الأول في هذه السورة من مجموع ستة نداءات.

١٦ - ومن يَنهزم ويدير لهم ظهره يومَ الحرب والقتال، إلا في حالتين: **الحالة الأولى**: أن يكون في تولِّيه مُنْعَطِفاً إلى القتال، يُري عدوَّه من نفسه الانهزام، وقصدُهُ طلب الكرَّة على العدو والعَوْد إليه، **والحالة الثانية**: أن يكون مُنْضَمّاً وصائراً إلى جماعةٍ من المؤمنين يريدون العَوْدَ إلى القتال، فمن انهزم من المسلمين وَقْت الحرب إلا في هاتين الحالتين، فقد رَجَع مُتلبِّساً بغضبٍ من الله، مُسْتحقّاً له، ومأواه الذي يأوي إليه جهنَّم، وبئْسَ المصير والمَرْجع.

فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾ إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ۖ وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَعُودُوا۟ نَعُدْ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾



١٧ - إذا كنتم - أيُّها المؤمنون - قد انتصرتم عليهم، وقتلتم مَنْ قتلتم منهم، فإنكم لم تقتلوا الكفار بقوَّتكم وحَوْلكم مع كثرة عددهم وقلّة عددكم، ولكنَّ الله قتلهم بنصره إيَّاكم، وتقْويتكم عليهم، وإلقاء الرُّعب في قلوبهم، وما رَمَيْتَ - يا رسول الله - الكفارَ بكفٍّ من الحَصباء في وجوه القوم، حين رمَيْت فلم يَبْقَ مشركٌ إلا ودخل في عينه وفمه ومنخره من ذلك التراب شيءٌ فانهزموا، ولكنَّ الله رمى، فبفعله أصابت الحصباءُ القومَ. وليعاملَ اللّهُ سُبحانه المؤمنينَ معاملةَ المختبر لهم اختباراً نتيجته حَسنة دائماً، وذلك بأن يُكلِّفهم بالجهاد، وأن يتَّخذوا هم الأسباب للنصر، وأن تكون كلمة الله على أيديهم هي العليا، إنَّ الله سميع لدعائكم، عليم بأحوالكم.

١٨ - ذلكم البلاء الحَسَن الذي تحقَّق لكم بعده الظفر بأعدائكم والنصر المؤزَّر عليهم، نعمة أنعمنا بها عليكم، واعلموا أنَّ الله مع ذلك مُضعِفُ ومُبْطل مكر الكافرين وكيدهم، مهما كانت مكايدهم كثيرة وخطيرة.

١٩ - إن تطلبوا - أيُّها المشركون - من اللّهِ الحُكمَ على أقْطع الفريقين للرَّحم، وأظلم الفئتين، فينصر المظلوم على الظالم، فقد جاءكم حكمُ الله بنصره المظلومَ على الظالم، والمُحقَّ على المُبْطل، وإنْ تَنْتَهوا - أيها المشركون - عن الكفر بالله ورسوله، وقتال نبيِّه محمد ﷺ وتكذيبه، فهو خيرٌ لكم في دنياكم وأخراكم، وإنْ تعودُوا لقتاله ﷺ نَعُد؛ بتسليطه ونصره عليكم، ولن تُغنيَ عنكم جماعتكم المُؤتلفة على الإثم شيئاً، كما لم تُغنِ عنكم يوم «بدر» مع كثرة عددكم وعُدَّتكم وقلَّةِ عدد المؤمنين وعُدَّتهم، وأنَّ الله مع المؤمنين بنصره وتأييده.

٢٠ - يا أيُّها الذين صدَّقوا بالله رباً، وبمحمَّد نبياً ورسولاً، وبالإسلام ديناً: أطيعُوا اللّهَ ورسولَه في أمر الجهاد وبذلِ المالِ والنفس، ولا تَنْأوا وتبتعدوا عن سماع نصوص الأوامر والنواهي، وتدبُّر معانيها، والعمل بمقتضاها، والحال أنكم تسمعون بآذانكم هذه النصوص سماعاً لا يصل إلى مراكز السمع المُدركة الواعية. وهذا النداء الإلهيُّ هو النداء الثاني للمؤمنين في هذه السورة.

٢١ - ولا تكونوا - أيها المؤمنون - كالمنافقين الذين قالوا بألسنتهم: سمعنا دعوتك وأوامرك ونواهيك، وهم لا يَتَّعظون ولا ينتفعون بما سمعوا من القرآن والمواعظ؛ لأنهم لم يسمعوا سماعاً حقيقيّاً فيما سبق، ولا يسمعون دواماً؛ لأنهم غير مؤمنين باطناً، فنفوسهم منصرفة عن الحقِّ والخير.

٢٢ - إنَّ شرَّ مَنْ دبَّ على وجه الأرض مِن خلق الله عند الله: الصُّمُّ عن سَماع الحق، البُكْمُ عن قول الخير والاعتراف بالحق، الذين لا يفهمون عن الله أمره ونهيه، ولا يقْبلونه، ولا يعقلون نفوسهم عن أهوائها الجانحة، وبذلك كانوا كافرين بالله واليوم الآخر؛ لأنهم عطَّلوا أدوات المعرفة التي وهبهم الله إيَّاها، واستخدموها في حدود ظواهر الحياة الدنيا، ولم ينتقلوا إلى معرفة خالقهم، فلا يؤمنون به، ولا يعبدونه ولا يشكرونه.

٢٣ - ولو علم الله بعلمه الأزليِّ في هؤلاء خيراً من إيمان أو إرادةٍ للخير لأسمعهم سماعَ تفهُّم وانتفاع وقَبولٍ للحقِّ، ولو أسمعهم سماع الانتفاع والخضوع والانقياد بعد أنْ عَلم أنَّه لا خير فيهم، لتولَّوا عن سَماع الحقِّ، وهم مُعرِضون عنه؛ لعنادهم وجحودهم الحقَّ بعد ظهوره.

٢٤ - يا أيُّها الذين صدَّقوا اللّهَ ورسولَهُ: اسْتَجيبوا للّهِ في كلِّ ما دعاكم ويدعوكم إليه، واستجيبوا للرسولِ بالطاعة والانقياد، إذا دَعاكم إلى ما فيه صلاح حياتكم في الدنيا والآخرة، واعلموا - أيها المؤمنون - أنَّ علمَ اللّهِ نافذ إلى أعماق القلوب، يتلقَّى ما يصدرُ عنها مباشرةً قبل أن تصل إلى مراكز وعي الإنسان، فلا يصدر عن القلوب شيءٌ دون أن يمرَّ على رقابةِ علم الله، كما لا يصلُ شيءٌ من مستويات دائرة النفس من نزْغ الشيطان ووساوسه، وحركات النفوس المتعلِّقة بالشهوات والأهواء والغضب والحب إلى القلب إلا بإذن الله وعلمه، ولا يخرج شيءٌ من القلب إلى مستويات دائرة النفس إلا بإذن الله وعلمه، وَفق سنَّته في عباده، وحكمته في ابتلائهم، واعلموا أيضاً أنكم إلى حساب ربِّكم، وفصل قضائه، وتنفيذ جزائه وحده تجمعون في الآخرة. وهذا النداء الإلهيُّ هو النداء الثالث للمؤمنين في هذه السورة.

٢٥ - واحذروا - أيها المؤمنون - عقاباً مُؤلماً لكم، لا يَقْتَصِرُ على إصابة الظالمين منكم فقط، بل يعُمُّ الظالمين وغيرهم، فيكون للظالمين عقاباً، ويكون لغير الظالمين امتحاناً واختباراً، أو تربية وتأديباً، واعلموا علماً جازماً أنَّ الله شديد العقاب.

وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ ۖ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا ۙ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾

٢٦ ـ واذكروا ـ يا معشر المؤمنين المهاجرين ـ : إذْ أنتم قليلٌ في العدد، مُسْتَضْعفون في أرض مكة في ابتداء الإسلام، تخافون أن يأخذكم الكفار بسرعة من غير تلبُّث، فآواكم إلى «المدينة»، وجعل لكم فيها إخواناً يُؤْوونكم وينصرونكم، وأيَّدكم بنصره، وجعل لكم الغلب والقوّة في غزوة «بدر» المظفَّرة التي انتصر فيها جيش المؤمنين القليل على جيش الكافرين الكثير، ورزقكم من الطيِّبات في دار هجرتكم، ومن الغنائم التي أحلَّها لكم، ولم تحلَّ لأحدٍ قبلكم؛ رغبة أن تشكروا اللّه على نعمه عليكم.

٢٧ ـ يا أيُّها الذين صدَّقوا الله واتَّبعوا رسوله، لا تخونوا الله بترك فرائضه، والإخلال بحقوق ما استأمنكم عليه، وأعطيتم فيه عهد الأمانة منذ أعلنتم الإسلام والتزمتم به، ولا تخونوا الرسولَ؛ لأن حقوقه تابعةٌ لحقوق الله، ومن حقوقه على المؤمنين برسالته: اتِّباعُ شريعته، وعدم معصيته فيما أمر به أو نهى عنه، ولا تخونوا أماناتكم التي ائْتمنكم الله عليها، وأنتم تعلمون أنَّها أمانة يجب الوفاء بها.

والنهيُ عن خيانة الأمانات كلِّها، يشمل ما يتعلَّق بحقوق كلِّ ذي حق، فخيانة حقوق خَلْقِ الله هي خيانةٌ لهم، وخيانةٌ للّهِ تعالى أيضاً، وذلك لأنَّ من حقِّ الله علينا أن لا نخون أحداً من خلقه.

وهذا النداء الإلهيُّ هو النداء الرابع للمؤمنين في هذه السورة.

٢٨ ـ إنَّ من أسباب خيانة الأمانة: حبَّ المال والولد، فحاربوا نوازع الخيانة في نفوسكم، وعالجوا منابع الفساد فيها، واعلموا ـ أيُّها المؤمنون ـ أنَّما أموالكم وأولادكم من عناصر امتحانكم وابتلائكم في ظروف الحياة الدنيا، فإذا التزمتم بطاعة الله عزَّ وجلَّ، ولم تُغلِّبوا محبة المال والولد على محبَّة الله، كان لكم عنده أجرٌ عظيم.

٢٩ ـ يا أيُّها الذين صدَّقوا بالحقِّ وأذعنوا له: إن تَتَّقُوا الله بامْتِثال أوامره واجْتِناب نواهيه، يمنحكم ثلاثة أمور: **الأمر الأول**: يجعل لكم نوراً وبصيرة في قلوبكم، تُفرِّقون بها بين الحقِّ والباطل، **والأمر الثاني**: يَمْحُ عنكم ما سلف من ذنوبكم، ويُزيل آثارها من نفوسكم، ويَجْلو صدأ قلوبكم، **والأمر الثالث**: يستر عليكم سيِّئاتكم بأن لا يفضحكم في الدنيا ولا في الآخرة، ولا يؤاخذكم عليها، والله سبحانه ذو الفَضْل العظيم على عباده. وهذا النداء الإلهيُّ هو النداء الخامس للمؤمنين في هذه السورة.

٣٠ ـ واذكر ـ يا رسول الله ـ حين يكيد بك مشركو مكة، ويُدبِّرون أمراً سيِّئاً في خَفاء عنك؛ ليحقِّقوا إحدى هذه الأمور الثلاثة: **الأول**: ليحبسوك ويُوثِقوك. **الثاني**: يَقْتلوك ويضيع دمك بين القبائل. **الثالث**: يُخْرجوك من مكة، ويحتالون ويُدبِّرون تدبيراً مذموماً في خفاء، ويُدبِّر الله سبحانه تدبيراً محموداً في خفاء، يعصم فيه نبيَّه منهم، ويُهيىء له ما يُقَوِّي شوكَتَهُ، حتى يعود فاتحاً منتصراً، بعد خروجه في خِفْيةٍ مهاجراً، والله سبحانه خيرُ المُدبِّرين، يُحبط تدبيرَ الكافرين، ويصرفهم عمَّا يريدون، حيث نجَّى رسوله ﷺ منهم.

٣١ ـ وإذا تُتْلى على هؤلاء الكفَّار آياتُ القرآن الكريم بتجدُّد آيةً تلو آيةٍ، قالوا من فرْط جهلهم وعنادهم: قد سمعنا مثلَ هذا الذي جاء به محمد، لو نشاء أن نقول مثل هذا الكلام لقلناهُ، ولكنَّا لم نُرده، ما هذا الكلام إلا أخبار الماضين سطَّروه في كتبهم من الأحاديث المكذوبة، والقصص المتخيَّلة.

٣٢ ـ واذكُر ـ يا رسول الله ـ قولَ المشركين من قَوْمك: اللهمَّ إنْ كان ما جاء به محمد هو الأمر الثابت من عندك، ولا حقَّ سواه، فَأَمْطر علينا حجارةً من السماء، تنصبُّ على رؤوسنا انصباباً، كانصباب الماء، أو ائْتِنَا بعذابٍ أليم مُوجِع.

٣٣ ـ وما كان اللّهُ مُريداً لتعذيب هؤلاء المشركين عذابَ استئصال، وأنت تقيمُ فيهم بين أظهرهم بمكَّة، فإقامتك بينهم بركة عليهم، ورحمة من الله تعالى بهم، وما كان الله مُعَذِّب هؤلاء الكافرين عذاباً شاملاً، ويُوجَد فيهم مَنْ يتوب إلى الإسلام، مستغفراً ممَّا كان فيه من شرك وكفر.

وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٣٧﴾ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٤٠﴾

٣٤ - وأيُّ شيءٍ يمنعهم من أن يُعذِّبهم الله بعد خروجك من بين أظهرهم، والحال أنهم يمنعون المؤمنين عن الطواف بالبيت والصلاة في المسجد الحرام؟ وليسوا حُمَاة المسجد الحرام، وما استمرَّت لهم هذه الولاية؛ لأنهم دنَّسوه بالوثنيَّة، وإنمَّا نُصراؤه وحُماته الحقيقيُّون هم المؤمنون المُتَّقون الذين يتَّقون الشِّرك؛ وذلك لأنَّ ولايتهم إنما هي بالخلافة عن إبراهيم بانيهِ ورافع قواعده، وما كان مُشركاً، وإنهم إذْ أشركوا، وصدُّوا الناس عن المسجد الحرام، ومنعوا غير العرايا عن الطواف فيه، فقدوا صفة الخلافة عن إبراهيم الذي جاء بالملة الحنيفيَّة، ولكنَّ أكثر المشركين لا يعلمون ذلك.

٣٥ - وما كان دعاؤهم وتضرُّعهم عند المسجد الحرام إلا صفيراً وتصفيقاً بالأيدي، وكانوا يطوفون بالبيت عُراة، وإذا سمعوا الرسول ﷺ يصلي ويتلو القرآن صفَّروا وصفَّقوا؛ ليخلطوا عليه قراءته، ويشغلوا عنه مَنْ يسمعه. وإذا كانت تلك حالكم وفسادكم، فذوقُوا عذابَ الأسْر والقتل في الدنيا، وتحسَّسوا آلامه؛ بسبب كفركم المتجدِّد المستمر.

٣٦ - إنَّ هؤلاء الذين جَحدوا بالآيات وأشركوا بالله، يُنفقونَ أموالهم بتجدُّد واستمرار؛ لِيَصرفوا الناس عن الإيمان باللّهِ ورسولِه، فسيُنفِقُون أموالهم في ذلك الوجْه، ثمَّ تكون عاقبة إنفاقها نَدَماً وأسفاً؛ لفواتها من غير ثمرة، ثمَّ يُغلبون آخر الأمر، ولا يظفرون بما يُؤمِّلون، والذين كفروا - بعد استكمال رحلة الحياة الدنيا، فالموت، فالبرزخ، فالبعث والنشور - إلى جهة جهنم يجمعون يوم القيامة في أرض المحشر تباعاً، وفي المقابل يُجمع المؤمنون إلى جهة الجنَّة.

٣٧ - يُحشر أولئك الكافرون في جهة جهنم دون غيرها؛ لِيَفصل الله ويَفْرز بين فريق الكفار الخبيث، وبين فريق المؤمنين الطيِّب، وبعد إصدار الحكم عليهم بالكفر، وبأنهم من أهل جهنَّم، يُساقون إلى محبس خاص بهم، لا يختلطون فيه مع الطيِّبين، ويجعل الله الفريقَ الخبيثَ بعضَه ضاغطاً على بعض، فيلقي بعضه على بعض، دون أية عناية بشأنه، كركام القُمامات القذرات النجسات، فيجعلهم في جهنَّم عقب استكمال فرزهم وركْمهم من دون إبطاءٍ ولا تراخٍ زمنيٍّ، أولئك البُعداء عن رحمة الله هم الخاسرون لكلِّ شيء الذين خَسِروا الدنيا والآخرة؛ لأنهم اشتروا بأموالهم عقاب الآخِرة.

٣٨ - ومع هذا الترهيب فإنَّ باب الرجاء مفتوح، فقل - يا رسول الله - لهؤلاء الجاحدين: إنْ يَنتهوا عما هم فيه من كفر ومشاقَّة للمؤمنين ومحاربة للحق، يُغْفَر لهم ما قد مضى من كفرهم وجرائمهم قبل الإسلام، وإنْ يرجعوا إلى الكفر بعد الإيمان ويصرُّون على جحودهم، فقد تقرَّرت عادة الله في الأمم السابقة، بإهلاك أعدائه ونصر أنبيائه وأوليائه. فليقيسوا أحوالهم على أحوال مَنْ سبقهم من الكافرين وأعمالهم، وليعلموا أنَّ سنة الله لها صفة الثبات، وأنَّ عقاب الله سينزل بهم، كما نزل بالذين من قبلهم إذا استمرُّوا على ما هم عليه من كفر ومقاومةٍ لدعوة الحق.

٣٩ - وقاتلوا - أيُّها المؤمنون - المشركين حتى لا يفتتن مؤمنٌ عن دينه، ويُمنع من الدعوة إلى الحقِّ، ويستمر القتال إلى أن يزول سببه، بانتهاء إيذاء المؤمنين ومنعهم من اعتقاد ما يَرَوْنه من الحق، ويكونَ الخضوع والاستسلام لأحكام الله تعالى، إما بالدخول في الإسلام، أو بالرضا بحكم الإسلام والعيش بين المسلمين في ظلِّ سماحة الإسلام وعدله، فإن انتهوا عن إيذاء المؤمنين، فإنَّ الله بما يعملون بصير، لا يخفى عليه شيءٌ من أعمال العباد ونيَّاتهم.

٤٠ - وإنْ انصرفوا عن الإيمان وأصرُّوا على الكفر، وعادوا إلى قتال المؤمنين وإيذائهم، فاعلموا - أيُّها المؤمنون - أنَّ الله معينكم وناصركم عليهم وحافظكم، وَمَنْ كان في حفظ الله ونصره وكفايته، فهو نِعمَ المعين والنَّاصر، وولايته سبحانه أحب ولاية وأقواها، ونصرته أقوى نصرة وأعظمها.

﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤٤﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾

٤١ ـ واعلموا ـ أيُّها المؤمنون ـ أنَّ الذي ظفرتم به من أموال الكفار بقهرٍ وغَلَبة، من أيِّ شيء كان من الغنيمة، قليلاً أو كثيراً، فقد ثبت وتقرَّر أنَّ أربعة أخماسه للمقاتلين الذين حضروا المعركة، وأحرزوا أموال الكفار، والخُمُس الباقي يُجزَّأ لخمسة أصناف: **الأول**: للَّهِ وللرسول، فيُجعل في مَصَالح المسلمين، **والثاني**: لأقارب رسول الله ﷺ، وهم بنو هاشم، وبنو المطَّلب، **والثالث**: لأطفال المسلمين الذين مات آباؤهم وهم فقراء، **والرابع**: للمساكين المُتعرِّضين للعطاء، الَّذين يسألون الصَّدقة، **والخامس**: للمسافر سفراً مباحاً، وليس له ما يقطع به مسافة سفره، واعلموا ـ أيُّها المؤمنون ـ أنَّ خمس الغنيمة مصروفٌ إلى تلك الأصناف، فاقْطعوا عنها أطماعكم، واقنعوا بأربعة أخماس الغنيمة، إنْ كُنتم آمنتم بالله وصدَّقْتُم بوحدانيَّته، وآمنتم بالمُنزَّل على عبدنا محمد ﷺ يوم «بدر» الذي فرَّق اللَّهُ عزَّ وجلَّ فيه بين الحقِّ والباطل، يوم التقى جَمْعُ المؤمنين، وجَمْعُ الكافرين، واللَّهُ على نصركم ـ أيُّها المؤمنون ـ قديرٌ مع قلَّتكم وكثرة أعدائكم.

٤٢ ـ اذكروا نعمةَ الله عليكم ـ يا معشر المسلمين ـ حينما كنتم بجانب الوادي الأقرب إلى المدينة، والمشركون بجانب الوادي الأبْعَد من المدينة ممَّا يلي مكة، وعيرُ قريش وأصحابها في مكان أسفل من موضع المؤمنين إلى ساحل البحر، ولو تواعدتم أنتم والمشركون على القتال، ثم علمتم حالكم وحالهم، لتخلَّفتم عن لقائهم في الميعاد؛ هيبةً منهم ويأساً من الظفر بهم؛ لقلَّتكم وكثرتهم، وضعفكم وقوَّتهم، ولكنَّ اللَّهَ جمعكم على غير ميعاد؛ لِيَقْضيَ اللَّهُ أمراً كان مفعولاً من نصر أوليائه وإعزاز دينه، وإهلاك أعدائه وأعداء دينه؛ لتكون نتيجة ذلك اللقاء أنْ يستمرَّ في الكفر من استمرَّ على بصيرة من أمره أنه مُبْطِل، وعن حجَّةٍ قامت عليه، وقطعت عذره، ويُؤمن مَنْ آمن عن بيِّنةٍ رآها، وعبرةٍ شاهدها، وحُجَّةٍ قامت عليه، فلا يبقى مجال للتعلُّل بالأعذار، وإنَّ الله لسميعٌ يسمع دعاءكم، عليمٌ يعلم نيَّاتكم، ولا تخفى عليه خافية.

٤٣ ـ واذكر ـ يا رسول الله ـ نعمة الله عليك، حينما أراك المشركين في نومك عدداً قليلاً، فأخبرت المؤمنين بذلك، فَقَويَتْ قلوبكم، واجترأتم على محاربتهم، واثقين بنصر الله لكم، ولو أراك الله المشركين عدداً كثيراً، فذكرتَ ذلك لأصحابك، لَجَبُنْتُم وعَجَزتم، واضْطرب أمركم، واختلفت كلمتكم، ولكنَّ الله سبحانه بلطفه ورحمته سلَّمكم من التنازع والمُخَالفة؛ إنَّه تعالى يعلمُ ما يحصل في الصُّدور من الجراءة والجُبن، والصَّبر والجزع.

٤٤ ـ واذكروا نعمةَ الله عليكم ـ أيُّها المؤمنون ـ حينما قلَّل عدد المشركين في أعينكم يوم بدر لما التقيتم في ساحة القتال، ليتأكَّد في اليقظة ما رآه النبيُّ ﷺ في منامه، وأخبر به أصحابه، ولتتقوَّى بذلك قلوبكم، ولا تجْبنوا عند قتالهم، ويُقلِّلُكم ـ يا معشر المؤمنين ـ في أعين المشركين حين الالتقاء قبل الالتحام؛ لئلاً يبالغوا في الاستعداد والتأهُّب لقتالكم؛ ليُحقِّق الله بقضائه المحتوم أمراً كائناً من إعلاء كلمة الإسلام ونصر أهله، وإذلال كلمة الشرك وخذلان أهله، وإلى الله وحده تُرجع الأمور في الآخرة، فيُجازي كلَّ عامل على قَدر عمله.

٤٥ ـ يا أيُّها الذين صدَّقوا الله واتَّبعوا رسوله، إذا لقيتُم جماعةً كافرةً في معركة من معارك القتال، فاثبتُوا لقتالهم، ولا تفِرُّوا، واذكروا الله ذكراً كثيراً عند لقاء عدوِّكم بقلوبكم وألسنتكم، فإنَّ ذكر الله تعالى يذهب فزع القلوب، ويُساعد على الثبات، وكونوا على رجاء الفلاح والنصر والظفر. وهذا النداء الإلهيُّ هو النداء السادس للمؤمنين في هذه السورة. وقد تقدَّمت تلك النداءات في الآيات ١٥ و٢٠ و٢٤ و٢٧ و٢٩.

وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٥٢﴾

٤٦ ـ وأطيعوا الله ورسولَه في التزام ما شرعه سبحانه في أمر الجهاد والثبات عند لقاء العدو وفي سائر أحوالكم، ولا تختلفوا فإنَّ الاختلاف يؤدِّي إلى عجزكم وضَعفكم وجُبْنكم، وذهاب قوَّتكم ودَوْلتكم، واصبروا عند لقاء عدوِّكم، ولا تنهزموا عنهم؛ إنَّ الله مع الصَّابرين بالنصر والمعونة وحُسن الجزاء.

٤٧ ـ ولا تكونوا مثل المشركين الذين خرجوا إلى «بدر» من ديارهم، لأجل الفخر والخُيلاء، والظهور أمام الناس؛ ليحمدوا لهم شجاعتهم وقوَّتهم، ويمنعون الناس من الدخول في دين الله، ويعوقون انتشاره بينهم، فلا تكونوا ـ أيُّها المؤمنون ـ مثلهم، ولكن أخلصوا لله عزَّ وجلَّ النيَّة، وقاتلوا حُسْبةً في نصر دينكم، ومُؤازرة نبيِّكم، واللَّهُ عالمٌ بجميع أحوال الكفار وأعمالهم ونيَّاتهم لا يغيب عنه شيء.

٤٨ ـ واذكروا ـ أيُّها المؤمنون ـ حين حَسَّن إبليس للمشركين أعمالهم الخبيثة بوسوسته، وقال لهم: لا غالبَ لكم اليوم من الناس؛ بسبب قوَّتكم وكثرة عَدَدكم وعُدَدكم، وإني مُجيرٌ وناصرٌ لكم، أُجيركم من أيِّ ضَيْم ينزل بكم، فلمَّا التقى الجمعان: المشركون ومعهم الشيطان، والمؤمنون ومعهم الملائكة، علم عدوُّ الله إبليس أنَّه لا طاقةَ له بهم، رجع القَهْقَرى وولَّى مُدبراً هارباً على قَفَاه، وقال للمشركين: إني بريءٌ منكم، إني أرى ما لا تَرَوْن من الملائكة الذين جاؤوا مَدَداً للمسلمين، إني أخاف اللَّهَ، واللَّهُ شديد العقاب لِمَنْ عصاه وكفر به.

٤٩ ـ واذكروا حين يقول المنافقون من أهل المدينة، واليهود الذين في قلوبهم ضغينة وحَسَد قبل أن تنتصر القلَّة المؤمنة في بدر على الكثرة الكافرة: خدعهم وأطمعهم وورَّطهم في التهلكة ما آمنوا به من هذا الدين الذي لا أساس له من الحقيقة، وحملهم على قتل أنفسهم. ومن يُفوِّض أمره إلى الله، ويثِقْ بفضله، ويُعوِّل على إحسانه، فإنَّ الله حافظه وناصره؛ لأنَّه قويٌّ غالب لا يغلبه شيءٌ، حكيمٌ في تدبيره وصنعه وتصاريفه، يضع النصر بحكمته في الجهة التي تستحقُّ النصر على ما يعلم من بواطن الأمور وغاياتها.

٥٠ ـ ولو عايَنْتَ ـ أيها الرائي ـ وشاهدتَ حين تقبض الملائكة أرواح الذين كفروا عند الموت، وهم يضربون وجوههم وأدبارهم إهانةً لهم وإذلالاً وتعذيباً. وتقول لهم الملائكة عند الموت: ذوقوا هذا العذاب، وذوقوا عذاب الحريق أيضاً، وتحسَّسوا آلامه الدائمة، لو عاينت الذين كفروا في ذلك الوقت لرأيت أمراً عظيماً، ومنظراً فظيعاً، وعذاباً شديداً لا تدركه عقول أهل الدنيا، ولا تحيط به أفهامهم.

٥١ ـ ذلك الذي نَزَل بكم ـ أيُّها الكفار ـ من العذاب الشديد والحريق الأليم؛ بسبب ما كسبت أيديكم من الكفر والمعاصي، وهذا الذي جرىٰ لكم هو بسبب صفة العدل الربَّانيِّ، ومظاهرِها من الجزاء بالعقاب. والله سبحانه لا يظلم أحداً شيئاً، وليس بظلاَّم لجميع عباده، بأدنى ظلم لكلِّ واحدٍ منهم، أو لعددٍ كبير منهم، بل هم الظالمون لأنفسهم؛ إذ ارتكبوا السيئات وهم يعلمون أنهم معاقبون عليها، ضمن قانون الجزاء الرَّبَّاني.

٥٢ ـ عادة الله وسنَّته في معالجة ومعاقبة كفَّار قريش، واستحقاقهم العذاب الجزئي، دون الإهلاك العام الشامل، كعادةِ الله في عقاب آل فرعون، وكفار الأمم الماضية من قبل آل فرعون، كفروا بآياتِ الله الكونيَّة، والبيانيَّة، والإعجازيَّة، والجزائيَّة، مع إدراكهم لدلائلها، فأخذهم الله من مواقع النِّعم، ونقلهم إلى مواقع المصائب والآلام؛ بسبب كفرهم وذنوبهم، التي رتَّب الله عليها أنواعاً من العقاب المُعجَّل في الدنيا؛ إنَّ الله قويٌّ في أخذه وانتقامه، شديد العقاب لِمَن كفر به وكذَّب رسله.

فَنَصْرُ الله المؤمنين عليهم في غزوة بدر، وقتْلُ بعض قادتهم وسادتهم، وأَسْرُ فريق منهم، وجَعْلُ ما ساقوا من أموالٍ وسلاح غنيمةً للمسلمين، هو من صُور العقاب الجزئي التأديبي لهم. كما عاقب الله سبحانه قوم فرعون بعقوبات جُزئية، كالطوفان، والجراد، والقُمَّل، والضفادع، والدم، والسنين، ونقص الثمرات، وكان لكلِّ أمة أجرمت عقوباتٍ تلائم جرائمها.

ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٥٣) كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَٰلِمِينَ (٥٤) إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَابِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٥٥) ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ (٥٦) فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (٥٧) وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ (٥٨) وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوٓا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ (٥٩) وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ (٦٠) ۞ وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ (٦١)

٥٣ ـ ذلك العذابُ والانتقام الجزئي على الأعمال السَّيِّئة عدلٌ إلهيٌّ، فقد جرت سنَّته تعالى في خلقه، واقتضت حكمته ألاّ يُبدِّل نعمتَه على قوم حتى يُغيِّروا حالهم الطيِّبة إلى حالٍ سيِّئة، فيسلبهم الله النِّعمة إلى مصَائب في الأموال والأنفس، ومُؤلمات العقاب دون الإهلاك العام الشامل؛ وأنَّ الله سميعٌ لأقوال خلقه، لا يخفى عليه شيء من كلامهم، عليم بما في صدورهم من خيرٍ وشرٍ، فيُجازي كلَّ واحد على عمله.

٥٤ ـ سنةُ الله وعادته في معالجة ومعاقبة كفار قريش كسنَّة الله وعادته في عقاب آلِ فرعون والذين من قبل آل فرعون، عُوقبوا بالعقابات الجزئيَّة فلم يرتدعوا بها، وكذَّبوا بآيات ربِّهم وفسّروها بأنها ظواهر طبيعية من ظواهر أحداث الكون، وأنها تجرى دون قصد وإرادة، وإذ قد وصلوا إلى هذه الحالة الميئوس منها، فإنَّ أمر إهلاكهم العام هو ما تقتضيه الحكمة، فأهلكنا بعضهم بالرَّجفة، وبعضهم بالخَسْف، وبعضهم بالحجارة، وبعضهم بالريح، وبعضهم بالمَسْخ، وأغرقنا آل فرعون بالبحر، وكلٌّ من الأمم المكذِّبة كانوا ظالمين أنفسهم بالكفر والمعاصي.

٥٥ ـ إنَّ شرَّ ما دبَّ على الأرض من الإنس، في علم الله وحكمه: الكفار المُصرُّون على الكفر، فهم لا يُؤمنون في المستقبل مهما عُولجوا بالوسائل المُؤثِّرة، فمن الخير إهلاكهم إهلاكاً عاماً شاملاً، تخليصاً للمجتمع الإنساني منهم.

٥٦ ـ من أولئك الأشرار يهود بني قُرَيْظَة الذين دخلوا معك في المعاهدات بأن لا يُحاربوك، ولا يُظاهروا عليك أحداً، ثمَّ ينقضون عهدهم في كلِّ معاهدة، وهم لا يخافون الله في نقْض العهد، فمن جمع بين الكفر ونقض العهد فهو من شرِّ الدواب.

٥٧ ـ فإن تأكَّدت من وجود هؤلاء الذين نقضوا العهد وظفرت بهم في الحرب، وقدرت عليهم، فأنزل بهم من القتل والتنكيل ما تُفرِّق به جَمْعَ كلِّ ناقض للعهد؛ حتى يخافك مَنْ وَرَاءهم من الكفار، وتنخلع قلوبهم ذعراً، فيشردوا ويفرُّوا من وجوه المقاتلين المسلمين، لعلَّ ذلك النَّكال، وشدَّة البأس في القتال، يمنعهم من نقض العهد، ويدفعهم إلى التذكُّر الذي يُغيِّر من سلوكهم.

٥٨ ـ وإن خفت خوفاً مؤكَّداً ـ يا رسول الله ـ من قوم معاهدين، وظهرت لك منهم آثار الغدر وبوادر الخيانة كما ظهر من بني قُريظة والنَّضير، فاطرح إليهم عهدهم، وارم به على طريق ظَاهر مُستو، بأن تُعلمهم بِنَبْذك عهدهم قبل أن تُحاربهم، حتى تكونَ أنت وهم في العلم بنقض العهد سواء، فلا يتوهَّم أحدٌ فيك الغدر، أما إذاً ظهر نقضهم العهد ظهوراً مقطوعاً به، كما غدر المشركون في صلح الحديبيَّة، فلا حاجة إلى إعلامهم بالنَّبذ؛ إنَّ الله لا يُحبُّ الخائنين الناقضين للعهود، ومَنْ أخرج نفسه من محبة الله، صار محلاً لسخطه عليه ونقمته، وابتعد عن مجالات مغفرته ورحمته.

٥٩ ـ ولا يَظُنَّنَّ الكفار أنهم قد سبقوا المؤمنين بعددهم وعُدَّتهم، فإنهم لا يُعجزون المؤمنين الصَّادقين، فالسَّبْق الحالي للأعداء ليس من شأنه أن يقعد المؤمنين، أو يعجزهم، فالزمن طويل، والمعركة مستمرة، وإنَّ السابق الآن ليس من المُسْتَبْعد أن يصير مسبوقاً بعد حين، وإنَّ المسبوق الآن ليس من المُسْتَبْعَد أن يصير سابقاً بعد حين، ولكن على المؤمنين أن يقوموا بما أوجب الله عليهم، وأن يُحقِّقوا في أنفسهم الشروط التي يستحقُّون بها تأييد الله لهم، وأن يبدؤوا الإعداد منذ الآن حتى يكون لهم السَّبق بهذه الوسائل.

٦٠ ـ وأعِدُّوا ـ يا معشر المؤمنين ـ لقتال الكفار: ما استطعتم من جميع أنواع الأسلحة والآلات التي تكون لكم قوة في الحرب على قتال عدوِّكم، وأعدُّوا ما تستطيعون من الخيل المربوطة المُجَهَّزة للهجوم والانقضاض على العدوِّ بعد إثخانه وتدميره بقوة الرمي، تُخَوِّفون بتلك القوَّة المُرْهبة وذلك الرباط عدوَّ الله وعدوَّكم من الكفار، وتُرهبون آخرين من غير الأعداء الظاهرين، وهم المنافقون، لا تظهر لكم عداوتهم الآن، لكن الله يعلمهم، وإعداد القوة العسكرية لا يتم إلا بالإنفاق المالي، فأنفقوا في سبيل الله، وما تنفقوا من شيءٍ في سبيل الله يُوَفَّ إليكم أجره في الآخرة، ويُعَجِّل لكم عوضه في الدنيا، بركةً في رزقكم، ونماءً في أموالكم، وأنتم لا تنقصون من ثواب أعمالكم شيئاً.

٦١ ـ وإن مالَ الأعداء المحاربون إلى المُصالحة، فَمِلْ إليها ـ يا رسول الله ـ واقْبل منهم الصُّلح، ما دام فيه خير وصلاحٌ بيِّنٌ للإسلام وأهله، وفوِّض أمرك إلى الله فيما عَقَدْته معهم؛ ليكون عَوْناً لك في جميع أحوالك، إنَّه هو السميع لأقوالهم، العليم بما يُدبِّرون ويأتمرون، فلا يخفى عليه شيءٌ منهم.

وَإِن يُرِيدُوٓا۟ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ
بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ
مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ
ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ
ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ
ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ
يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ
ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ
ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ
صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ
بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ
لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا
وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ
ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا
غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾

٦٢ ـ وإنْ يُريدوا بإظهار الصُّلح أن يغدروا بك؛ لتكفَّ عنهم، وليستعدّوا، فصالحهم في ذلك إذا كان فيه مصلحة ظاهرة للإسلام وأهله، ولا تخشَ منهم؛ فإنَّ الله كافيك بنصره ومعونتِهِ، وعاصمك من الناس بقوَّته وقدرته، وهو وحده سبحانه الذي قوَّاك وأعانَكَ بنصره يوم «بدر»، وفي سائر أيَّامك، وأيَّدك بالمؤمنين من المهاجرين والأنصار.

٦٣ ـ وجمع الله بين قلوبهم بالمودَّة والتراحم والمحبَّة في الله، وكانوا قبل ذلك أهل حميَّة وعصبيَّة وضغينةٍ، فلمَّا بُعث رسول الله ﷺ فيهم وآمنوا به واتَّبعوه انقلبت تلك الحالة، فائتلفت قلوبُهم، وصاروا أنصاراً لرسول الله ﷺ وأعواناً، يقاتلون عنه ويحمونه، لو أنفقتَ ـ يا رسول الله ـ جميع ما في الأرض من الأموال والمنافع، في سبيل هذا التأليف، لما أمكنك أن تصل إليه، لأنَّ القلوب بيد الله، ولكنَّ الله ألَّف بينهم، بهدايتهم إلى الإيمان والمحبَّة والإخاء، بعد التفرُّق والتعادي؛ إنه سبحانه قويٌّ غالب، يُدبِّر أمور العباد على وجه الحكمة والصواب.

فوحدةُ الأمة وإلْفَتُها تدفع عنها مكر أعدائها وكيدهم، وتجعلها في مأمن من جميع مؤامراتهم ودسائسهم، وما نَجَحَ أعداء الإسلام في تآمرهم على المسلمين، وكيْدهم لهم، إلا بسبب تفرُّق المسلمين وتخاذلهم وتدابرهم.

٦٤ ـ يا أيُّها النبيُّ إنَّ الله كافيك وعاصمك وحاميك، وكافي وعاصم من اتَّبعَكَ من المؤمنين من المهاجرين والأنصار شرَّ أعدائكم؛ وإن كثُر عددُهم، وقلَّ عددُكم.

٦٥ ـ يا أيُّها النبيُّ بالغ في حَثِّ المؤمنين على قتال عدوِّهم بصبر وجَلَد، إن يكن منكم عشرون رجلاً صابرون عند اللقاء يغلبوا مائتين من عدوِّهم، وإن يكن منكم مائةٌ صابرة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا، فيجب ثبات الواحد من المؤمنين في مقابلة العشرة من الكفار، ذلك بأنَّ المشركين ليس لهم غاية يفقهونها، فترفع قواهم المعنوية في القتال، ولا أمل لهم فيما بعد الحياة الدنيا، ولا يقاتلون لطلبِ ثوابٍ وخوفِ عقاب، إنَّما يقاتلون حميَّة، فإذا صَدَقْتموهم في القتال فإنَّهم لا يثبتون أمامكم.

٦٦ ـ الآن خَفَّفَ الله عنكم ـ أيُّها المؤمنون ـ وعلم أنَّ فيكم ضَعفاً في قتال الواحد للعشرة، فإن تكن منكم مائةٌ صابرةٌ مُحتسبةٌ يغلبوا مائتين، وإن يكن منكم ألفٌ يغلبوا ألفين بعلم الله وتمكينه القدري، واللَّهُ مع الصَّابرين بالنَّصر والمعونة.

فدلَّت هاتان النِّسبتان على أنَّ مستوى الإيمان الأعلى يغلب معه المؤمنون عشرة أمثالهم من الكافرين، وأنه لا يصح أن تقلَّ نسبة الإيمان والإسلام في المجموع عمَّا يُؤهِّل لانتصار المؤمنين على مِثْلَيْهم وغَلَبتهم لهم. فإذا لم يظفروا بالغلب، فذلك يرجع إمَّا إلى ضعفٍ في إيمانهم أو إلى إخلال منهم بشروط النصر التي أمرهم الله بتحقيقها.

٦٧ ـ ما ساغ لنبيٍّ أمره الله بالجهاد أن يكون له أسرىً من أعدائه يحتجزهم، أو يأخذ منهم الفداء، أو يمنّ عليهم بالعفو عنهم، حتى يبالغَ في قتال المشركين؛ إذلالاً للكفر، وإعزازاً لدين الله، فإذا وجَّه كلَّ قوَّته لضرب العدوّ وإضعافه، وأنزل أكبر الخسائر في صفوفه، فلهُ أن يُقْدم على الأَسْر، تُريدونَ ـ أيُّها المؤمنون ـ حطام الدنيا العارض الزائل بأخذكم الفداء من المشركين، واللَّهُ سبحانه يريد لكم ثوابَ الآخرة؛ بقهركم المشركين ونصركم الدين، ومَنْعِ أخذ الأسرى حتى تكون لكم الغَلَبة المُستقرَّة في الأرض، واللَّهُ قويٌّ غالبٌ لا يُقْهر ولا يُغلَب، حكيمٌ في تدبير مصالح عباده.

٦٨ ـ لولا قضاءٌ من الله سَبق في اللوح المحفوظ بإباحة الغنائم، وفداء الأسرى، لأصابكم بسبب ما أخذتم من الفداء قبل أن تُؤْمَروا به عذابٌ عظيم.

٦٩ ـ أُحِلَّت لكم ـ أيُّها المؤمنون ـ الغنائم وأخذ الفداء من الأسرى، فكلوا ممَّا غنمتم حلالاً طَيِّباً، وخافوا الله أن تعودوا، وأن تفعلوا شيئاً من قِبَل أنفسكم قبل أن تُؤمروا به، واعلموا أنَّ الله قد غفر لكم ما أقدمتم عليه من هذا الذنب ورحمكم؛ لأنه سبحانه كثير السَّتْر لذنوب عباده المؤمنين، دائم الرحمة بهم.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمْ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٧٥﴾

٧٠ ـ يا أيُّها النبيُّ قل لمَنْ في أيديكم من الأسرى الذين أَسَرتموهم في «بدر»، وأخذتم منهم الفداء: لا تأسوا على الفداء الذي أُخذ منكم، إن يعلم الله في قلوبكم نيّةً طيبة صالحة، وعزماً على الإيمان والإسلام، يُؤْتِكم خيراً ممَّا أخذ منكم من الفداء، ويغفر لكم ما سَلَف منكم قبل الإيمان، واللَّهُ كثير السَّتْر لمن آمنَ وتاب من كفره ومعاصيه، دائم الرحمة بأهل طاعته.

٧١ ـ وإن يُرِد الأسارى الذين أُطْلِقَت سراحهم ـ يا رسول الله ـ من الأسر، أن يغدروا بك مَرَّةً أخرى فلا تَبْتَئِس، فقد خانوا الله من قبل وحاربوك، فأمكن الله المؤمنين منهم ببدرٍ حتى قتلوا منهم وأسروا منهم، فإن عادوا إلى الخيانة فسَيُمكِّنكَ الله منهم ويُقدرك عليهم، واللَّهُ عليمٌ بما في ضمائرهم من إيمانٍ وتصديقٍ أو خيانة ونقض عهد، حكيمٌ في تدبير شؤون عباده، يجازي كلاً بعمله.

٧٢ ـ إنَّ المتَّصفين بهذه الأوصاف الخمسة: **الوصف الأول**: الذين آمنوا بالله ورسوله محمد ﷺ، وصدَّقوا بما جاءهم به تصديقاً جازماً، واتَّبعوا شريعته، **والوصف الثاني**: الذين هجروا ديارهم وقومهم في ذات الله عزَّ وجلّ وابتغاء رضوانه، **والوصف الثالث**: الذين بذلوا أموالهم وأنفسهم في الجهاد في سبيل الله وطاعته ورضوانه، **والوصف الرابع**: الذين آووْا رسولَ الله ﷺ ومَنْ معه من أصحابه من المهاجرين، وأسكنوهم منازلهم، **والوصف الخامس**: الذين نصروا رسول الله ﷺ، يقاتلون مَنْ قاتله، ويُعادونَ مَنْ عاداه، أولئك المهاجرون والأنصار الموجودون في دار الإسلام، كتلة واحدة، مُتآخون، مُتناصرون، مُتعاونون، بعضهم أولياء بعض في التآخي والتعاون والتناصر والتكافل على تأمين مطالب الحياة. والذين آمنوا ولم يهاجروا في سبيل الله إلى دار الإسلام، بل بقوا في دار الكفر، فهؤلاء ليس بينهم وبين أهلِ دار الإسلام من المهاجرين والأنصارِ موالاة، لانقطاع الصِّلة، وتعذُّر قيام موالاة بينهما؛ إذ لا يملك كلُّ من الفريقين أن يمدَّ الفريق الآخر بالمناصرة الدائمة، والمعونة والمساعدة في إخاءٍ جماعيٍّ، لكنَّ هذا الفريق الذي آمن ولم يهاجر، إذا أُوذي في الله من أجل دينه، وضغط عليه الكافرون في بلد إقامته، وطلب النُّصرة منكم ـ يا جماعة المسلمين أهل دار الإسلام ـ، فعليكم نصرهم وإعانتهم، إلا أن يكون النَّصر الذي تنصرونهم فيه على قومٍ بينكم وبينهم عهدٌ مؤكَّد لم ينقضوه، فلا تنصروهم عليهم، والله بما تعملون بصير لا يخفى عليه شيء.

٧٣ ـ والذين كفروا بعضهم أولياء بعض، فهم متناصرون على الباطل، متعاونون في عداوتكم، ولا موالاة بين الذين آمنوا والذين كفروا، وإن لم تتعاونوا وتتناصروا ـ أيُّها المؤمنون ـ فيما بينكم تكن فتنة في الأرض؛ إذ يرى الكافرون تفرُّق المؤمنين، وعدم موالاة بعضهم لبعض، فيتسلَّطون على أجزاء منهم، فيفتنونهم في دينهم، فلا يناصرهم إخوانهم المؤمنون، ولا يؤونهم، فيضعف المفتونون عن المقاومة، فيتأثَّرون بالضغوط، فيكفرون، فيحصل فساد كبير في الأرض.

٧٤ ـ والمتَّصفون بهذه الأوصاف الخمسة: **الأول**: الذين آمنوا بالله ورسوله إيماناً صحيحاً صادقاً، **والوصف الثاني**: الذين تركوا ديارهم قاصدين أهل الإسلام ودولتهم، **والوصف الثالث**: الذين بَذَلوا أنفسهم في سبيل الله، **والوصف الرابع**: الذين آوَوْا رسول الله ﷺ وأصحابه من المهاجرين وأنزلوهم في دورهم وواسوهم بأموالهم، **والوصف الخامس**: الذين نصروهم على أعدائهم، أولئك الفضلاء رفيعو المنزلة هم المؤمنون إيماناً ثابتاً صادقاً؛ لأنهم حقَّقوا إيمانهم بالهجرة والجهاد ونُصرة دين الله، لهم وعدان كريمان: **الوعد الأول**: سَتْرٌ عظيمٌ لذنوبهم، **والوعد الثاني**: رزقٌ كريم في الجنة. وإنما لم يذكر في ختام السورة الدَّرجات كما جاء في الآية (٤) في أوَّل السورة؛ لأن الآيات جاءت في أولها تحثُّ على الاتِّصاف بصفات المؤمنين، وتشجِّع على الازدياد من هذه الأعمال الصَّالحة، وكلما ازداد الإنسان عملاً بها، رَفَع الله درجته في الجنة. وأما في خاتمة السورة فلم تذكر الدرجات، لأنَّ الآيات جاءت في سياق الثناء على السابقين من المهاجرين والأنصار، فكأنهم رضي الله عنهم بلغوا الغاية في علوِّ الدرجات، وتسنَّموا أرفع المنازل.

٧٥ ـ والذين آمنوا من بعد هؤلاء المهاجرين والأنصار، وهاجروا إلى دار الإسلام، وجاهدوا معكم، فأولئك مثلكم في النُّصرة والتآخي والتعاون، وذوو الأرحام من المؤمنين لهم الأولويَّة في المُوالاة، لحقِّ الإسلام وحقِّ الرَّحم، وأحكام الموالاة العامّة بين المؤمنين، لا تتعارض مع أولويَّة الموالاة بين أولي الأرحام من المؤمنين، فأصحاب القَرابات بعضهم أولىٰ ببعض في كتاب الله، ومنها أحكام التوارث، فالأحكام العامَّة لا تتعارض مع الأحكام الخاصَّة، ما دام الخاصُّ داخلاً في العام، إنَّ الله عالمٌ بكلِّ شيءٍ، لا تخفى عليه خافية.

سُورَةُ التَّوبَةِ — ترتيبها ٩ — آياتها ١٢٩

بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢﴾ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾

سُورَةُ التَّوبَةِ

١ - هذه براءةٌ واصلةٌ من الله عزَّ وجل، ومن رسوله ﷺ، وإعذارٌ وإنذار بانقطاع العهود التي كانت بين المسلمين والمشركين؛ بسبب خيانتهم بنقض العهود. وهذه الآية تقرِّر البراءة والتخلُّص ورفع العصمة عن المشركين، وجواز نبذ العهود لمن كان بينهم وبين المسلمين عهد متى رأى الإمام مصلحة الأمة في ذلك، كأن خيف منهم خيانة، أو نقضوا شيئاً من شروط المعاهدة. كما يؤخذ من هذه الآية أيضاً: أن عقد المعاهدات إنما هو حقٌّ للجماعة، يوافق عليه أصحاب الرأي والاختصاص في موضوع المعاهدة وما هو في مصلحة الجماعة، ثم يباشرها الإمام بعد ذلك.

٢ - فسيروا - أيُّها المشركون - في الأرض مُقْبِلين ومُدبرين، آمنينَ غيرِ خائفينِ من القتلِ والقتال مدَّة أربعة أشهر، من يوم قراءتها على الكفار وتبليغها إليهم (من عاشر ذي الحجة، إلى انقضاء عشر من شهر ربيع الآخر)، واعلموا أنَّ هذا الإمْهال ليس لعجزٍ عنكم، ولكن لمصلحةٍ ولطفٍ بكم؛ لتتفكروا وتحتاطوا، وتعلموا أنْ ليس لكم بعدها إلا الإسلامُ أو السيف. وأنَّ اللَّهَ مُذِلُّ الكافرين بالقتل والأسْر في الدنيا، والعذابِ في الآخرة.

٣ - وإعلامٌ صادرٌ من الله تعالى ورسوله ﷺ إلى الناس عامة يوم النحر، بأنَّ الله بريءٌ من المشركين، ورسولُه بريءٌ منهم كذلك، فإنْ رجعتم عن شرككم وغدركم، فهو خيرٌ لكم في الدنيا والآخرة، وإنْ ابتعدتم مُدبرين عن الإيمان والتوبة، وبقيتم على ما أنتم عليه من الشِّرك، فاعلموا أنَّ الله قادرٌ على إنزال العذاب بكم، لأنكم في قبضة قدرته سبحانه، وتحت قهر مشيئته في كلِّ زمان ومكان. وبشِّر - يا رسول الله - الذين كفروا مُتهكِّماً ومُسْتهزئاً بهم بعذابٍ شديد الإيلام في جهنم.

٤ - لكنِ الذينَ لم ينكثوا العهد من المشركين، ثمَّ لم ينقصوكم شيئاً من شروط المعاهَدة التي عاهدتموهم عليها، ولم يُعاونوا عليكم أحداً من عدوِّكم، كما عاونت قريشٌ بني بكر على خزاعة التي كانت في عهد رسول الله ﷺ، فأتمُّوا إليهم عهدَهم، ولا تُجْروهم مَجرى الناكثين، ولا تَجْعَلوا الوفيَّ كالغادر، إنَّ الله يحبُّ المتقين الذين يوفون بعهودهم ولا يبدؤون بنقض العهد مع المسلمين أو مع غيرهم، ويُثيبهم على تقواهم، ويُدخلهم جنّاته؛ لأنَّ من أحبَّه الله أكرمه، وأدخله في رحمته.

٥ - فإذا مَضَت المُدَّة المَضروبة التي يكون معها انسلاخ الأشهر الأربعة التي أمَّنتم فيها المشركين، فاقْتُلوا أعداء الله الناكثين للعهد في أيِّ وقتٍ وأيِّ مكانٍ وجدتموهم، وَأْسِرُوهُم، واضربوا الحصار عليهم بسدِّ الطرق، وامنعوهم من التقلُّب في البلاد، واقْعُدوا لهم على كلِّ ممر مترصِّدين لهم حتى تقتلوهم أو تأخذوهم من أيِّ وجهٍ توجَّهوا ومن أي طريق سلكوا، فإن تابوا من الشِّرك ورجعوا إلى الإيمان، والتزموا شرائع الإسلام، وواظبوا على أداء الصلاة المفروضة، وأعطوا الزكاة الواجبة عليهم، طيبةً بها نفوسهم، فكُفُّوا عنهم، وافتحوا الطريقَ أمامهم، ولا تُزْهِقوهم بقتلٍ ولا أسر، ولا منع من البيت؛ إنَّ الله كثير السَّتر لمَنْ تاب ورجع من الشِّرك إلى الإيمان، ومن المعصية إلى الطاعة، دائم الرحمة بأوليائه وأهلِ طاعته.

٦ - وإنْ طلبَ جِوَارك وحمايتك - يا رسول الله - أحدٌ من المشركين الذين أُمرت بقتالهم وقتْلهم بعد انسلاخ الأشهر الأربعة، وانقضاء مدَّة الأمان؛ ليسمع كلام الله الذي أُنزل عليك، ويطَّلع على حقيقة الإسلام، فأمِّنه حتى يسمعَ كلام الله سماع فهم وتدبُّر، ويطَّلع على حقيقة الإسلام ودعوته، ويعرف ما له من الثواب إنْ آمن، وما عليه من العقاب إنْ أصرَّ على الكفر، ثمَّ أبْلغه الموضع الذي يأمَنُ فيه إنْ لم يُسلم، وإنْ قاتلك بعد، وقدرت عليه فاقْتُله، ذلك الأمر بالإجارة؛ بسبب أنهم قوم لا يعلمون حقيقة الإسلام، فهم يحتاجون إلى سَماع كلام اللَّهِ عزَّ وجلّ وتدبُّره؛ لئلا يبقى لهم عذر.

فتعريف الناس بحقيقةِ الإسلام أمرٌ ضروريٌّ، يجب على المسلمين القيام به، إذ أصبحت نفوس كثير من الناس مُستعدَّةً لقَبول الإسلام بعد أن فَشِلَت العقائد المحرَّفة والنظم الأرضيّة في إسعادهم وحلِّ مشكلاتهم.

كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨﴾ ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾

٧ - على أيِّ حال يكون لهؤلاء المشركين، الناقضين للعهود مراراً، عهد محترم عند الله وعند رسوله؟ فلا تأخذوا بعهودهم، إلا الذين عاهدتم منهم عند المسجد الحرام في «صلح الحديبية»، ولم يظهر منهم نكث، فما استقاموا لكم على العهد، فاستقيموا لهم على الوفاء، إنَّ الله يحبُّ المتَّقين الذين يُوفونَ بالعهد إذا عاهدوا، ويتَّقون نَقْضَه، ويُثيبهم على تقواهم، ويُدخلهم جنَّاته؛ لأنَّ من أحبَّه الله ضاعف له الثواب على أعماله، وزاده منه قرباً، وغمَره بفيوض عطاءاته وإحسانه.

٨ - كيف يكون للمشركين الناكثين ثباتٌ على العهد، وهم قومٌ - إنْ يتمكَّنوا منكم، وتكون لهم الغَلَبة عليكم - فلن يدَّخروا جهداً في القضاء عليكم، غير مُراعين فيكم قرابةً ولا عهداً، فلا يَغُرَّنكم منهم ما يُعاملونكم به وقت الخوف منكم، فإنهم يخدعونكم بكلامهم المعسول، وقلوبهم منطوية على كراهتكم، وسرائرهُمْ تغاير علانيتهم، وأكثرُهم خارجون عن الحق، نقضوا العهد، وبالغوا في العداوة، ويوجد عند قليل منهم تمسُّكٌ جُزئي بالقيم، ومراعاة لبعض الأخلاق والمبادىء.

٩ - والباعث الذي يجعل أكثرهم يخرجون على المبادىء والقيم والأخلاق، أنهم استبْدلوا بآياتِ القرآن والإيمان بها، عَرَضاً قليلاً من متاع الدنيا، فمنعوا الناس عن الدخول في دين الله، وامتنعوا عن الاستجابة لدينه سبحانه؛ لأنه يتعارض مع مصالحهم وشهواتهم؛ إنَّهم ساءَ ما كانوا يعملون من الشِّرك، ونقضهم العهد، ومنعهم الناس عن الدخول في دين الإسلام.

١٠ - إنَّ هؤلاء المشركين لشدَّة حقدهم على المؤمنين، وبغضهم لهم، لا يُراعون في مؤمنٍ قرابة ولا عهداً، إذا قدروا عليه قتلوه، فلا تُبقوا أنتم عليهم كما لَم يُبقوا عليكم إذا ظهروا عليكم، وأولئك البعداء عن رحمة الله هم المعتدون في نقض العهد، المتجاوزون لحدود كلِّ القيم والمبادىء والأخلاق. فلا يصح لمؤمن يريد للحقِّ أن يستقرَّ في قلوب الناس، وأن تسطع أنواره في الأرض أن يفكِّر بأيِّ وجه من الوجوه في التعاهد مع أمثال هؤلاء، فنبْذ عهودهم هو الحكمة والواجب. وفي عناية الله سبحانه بتوجيه هذا التشريع، وبيان حكمته إعلام بأنَّ من تمام قيام الحجَّة على الناس فيما يُفرض عليهم من تشريع، أن يقدَّم إليهم مصحوباً ببيان حكمته والدواعي التي تقتضيه وتدعو إليه، أو الثمرات التي تُرجى منه، ويكون التشريع وسيلة إليها.

١١ - فإنْ رجَعوا عن الشِّرك إلى الإيمان، وعن نقض العهد إلى الوفاء به، ومدُّوا أيديهم للحقِّ، وفتحوا قلوبهم للدعوة، واندمجوا في جماعة المؤمنين، وأقاموا الصَّلاة المفروضة عليهم بجميع حدودها وأركانها، وبذلوا الزكاة المفروضة عليهم، طيِّبة بها أنفسهم، فإذا فعلوا ذلك فقد دخلوا في الإسلام، وصاروا إخوانكم في الدين، لهم ما لكُمْ من الحقوق، وعليهم ما عليكم من الواجبات، ونُبيِّنُ حُجَجَ أدلَّتنا، ونُوضِّح بيان آياتنا لقوم لديهم الاستعداد أن يعلموا الحقائق، ويدركوا مراميها.

١٢ - وإنْ نَقَضَ كفار قريشٍ عهودهم من بعد ما عاهدوكم على أن لا يقاتلوكم، ولا يُظاهروا عليكم أحداً من أعدائكم، وعابوا دينكم الذي أنتم عليه، وانتقصوه وانتقدوه، فقاتلوا رؤوسَ المشركين وقادتهم؛ إنَّهم لا عهد لهم، حتى ينتهوا عن الطعن في دينكم، ويرجعوا عن الكفر إلى الإيمان.

١٣ - هلاَّ تسارعون - أيها المؤمنون - إلى قتال جماعة من المشركين تحقَّقت فيهم أوصافٌ تُوجب المبادرة إلى قتالهم: **الوصف الأول:** أنهم نقضوا عهودَهُم مراراً، **والوصف الثاني:** أنهم همُّوا بإخراج الرسول ﷺ من مكة، وتوجَّهت نفوسهم لتنفيذ ما أرادوا، ولم يتحقَّق لهم ذلك؛ إذ كان خروجه ﷺ في الليلة التي حاول فيها فريقٌ من مشركي مكة تدبير مكيدة قتله، **والوصف الثالث:** هم بدؤوكم بالمُنَابَذة والمُحارَبة والاعتداء أوَّل الأمر. أتخافونهم - أيُّها المؤمنون - فتتركون قتالهم؟! لا تخافوهم ولا تتركوا قتالهم، فاللَّهُ أحقُّ أن تخافوه خوْف تعظيم وحبٍّ وإجلال، إن كنتم مؤمنين حقاً.

قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ ۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾

١٤ - قاتلوا - يا معشر المؤمنين - أعداء الله الذين نَقَضُوا العهد، وطعنوا في دينكم، وبدؤوكم بالقتال، يُحقِّق الله لكم ستَّة وعود: **الوعد الأول**: يُعذِّبهم اللَّهُ عزَّ وجلّ بأيديكم، **والوعد الثاني**: يُذلُّهم بالقهر والأسْر والتتبُّع في الأرض، وذهاب سطوتهم وقوتهم، وانخلاع العرب من ربقتهم، **والوعد الثالث**: ينصرُكُم عليهم بأن يُظفركم بهم، ويُعلي كلمته، **والوعد الرابع**: يُبْرِئُ بالقتال صدور المؤمنين ممَّا كانوا ينالونه من الأذى من كيْد هؤلاء المشركين.

١٥ - **والوعد الخامس**: يذهب الله عن قلوب المؤمنين غَضَبَها وَوَجْدَها الشديد، فتمتلئ بالسرور والفرح بعد أن كانت مُمْتلئة بالغمّ والحزن، ويهدي الله من يشاء من هؤلاء المعاندين إلى الإسلام، ويقْبل توبته، واللَّهُ عليمٌ بسرائر عباده، حكيمٌ في جميع أفعاله.

١٦ - بل أظننتم - أيُّها المؤمنون - أن تُتركوا، فلا تُؤمروا بالجهاد، ولا تُمْتَحَنوا؛ ليظهرَ الصَّادقُ من الكاذب، ويتميّز المؤمن من المنافق، وَلَمَّا يعلم الله الذين جاهدُوا منكم في سبيل الله مع الإخلاص فيه ممَّن جاهدوا بدونه، علماً ظاهراً تقوم به الحُجَّة عليكم، ولم يتَّخذوا من دون الله ولا رسوله بِطانةً من المشركين، يناصرونهم ويُصاحبونهم، ويُفْشون إليهم أسرارهم، ويُداخلونهم في أمورهم، واللَّهُ خبيرٌ بما تعملون على سبيل الشهود والحضور المُصَاحِبِ لكلِّ أجزاء العمل، ظواهره وبواطنه من موالاة المشركين وإخلاص العَمَل لله وحده.

١٧ - ما ينبغي للمشركين أن يَعمُروا مَسَاجِدَ الله ببنائها ودخولها والقعود فيها، حال كونهم مُقرّين على أنفسهم بالكفر مُعلنين له، قد نصبوا أصنامهم حَوْل البيت، أولئك البُعداء عن رحمة الله بَطُلت أعمالهم الصَّالحة التي كانوا قد عملوها في الحياة الدنيا، مهما عظُمت وكَثُرت؛ لأنهم لم يعملوها ابْتغاء مَرْضاة الله، وطلباً لثواب الآخرة، بل عملوها لتحقيق مصالح لهم في الحياة الدنيا، وللكسب والشُّهرة، والمدح والثناء بين الناس، فهي أعمال باطلة لا قيمة لها، لأنها غير قائمة على أساس من القاعدة الإيمانية، ومصيرهم النار هم فيها دائمو البقاء، لا يخرجون منها ولا يموتون، كما أنهم صمَّموا في الدنيا على أن يظلوا جاحدين لله، كافرين بصفاته، منكرين لرسالاته.

١٨ - لا يعمر مساجد الله عمارةً معنويَّةً بعبادة الله فيها، والدعوة، والتعليم، وعمارةً ماديَّة ببنائها، وترميمها، وتنظيفها إلاَّ من اتصَّف بهذه الأوصاف الأربعة الجامعة لخيري الدنيا والآخرة: **الأول**: مَنْ آمن بالله وحده، وباليوم الآخر وما فيه من بعث وحشْر وحساب وجنَّة ونار إيماناً صحيحاً، **والثاني**: أقام الصلاة في أوقاتها بحدودها، وإتمام أركانها وواجباتها وآدابها، **والثالث**: آتى الزكاة الواجبة لمسْتحقِّيها طيِّبةً بها نفسه، ابتغاء مرضاة الله، **والرابع**: لم يَخَف في الدين غير الله، ولم يترك أمر الله لخشية الناس، وأولئك الفضلاء رفيعو المنزلة هم - دون غيرهم - المهتدون المتمسِّكون بطاعة الله التي تُؤدِّي إلى الجنَّة.

١٩ - أحَكَمْتُم بحسب تصوُّركم الباطل - أيُّها القوم - ما تقومون به من سَقْي الحُجَّاج وبناء المسجد الحرام وتشْييده، وأنتم على الشِّرك، كإيمان مَنْ آمنَ بالله واليوم الآخر، وكجهاد مَنْ جاهدَ في سبيل الله بالنفس والمال!؟ لا يستوي حال هؤلاء الذين آمنوا بالله، وأخلصوا له العبادة، وجاهدوا في سبيله، بحال مَنْ سَقَى الحاجَّ وعَمَّر المسجدَ الحرام، وهو مقيمٌ على شركه وكفره، واللَّهُ لا يحكم بهداية القوم الظالمين لأنفسهم بالكفر.

٢٠ - إنَّ الموصوفين بهذه الأوصاف الثلاثة: **الأول**: الذين آمنوا إيماناً صحيحاً صادقاً، **والثاني**: الذين تركوا دار الكفر قاصدين دار الإسلام، **والثالث**: الذين بذلوا أموالهم وأنفسهم في الجهاد لإعلاء كلمة الله، هؤلاء أعظمُ منزلةً وأعلى رتبةً، وأكثر كرامةً عند الله ممَّن افتخر بالسِّقاية وعمارة المسجد الحرام، ولم تجتمع فيه هذه الصفات، وأولئك الفضلاء الموصوفون بتلك الأوصاف هم - دون غيرهم - النَّاجُون من النار، الفائزون بسعادة الدنيا والآخرة.

يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾

٢١ - يخبر الله هؤلاء المؤمنين المهاجرين المُجاهدين الخبرَ السَّار، برحمةٍ واسعة منه، ورضوانٍ كبير لا سخط بعده، أعظم من كلِّ ثواب ماديّ، وجنّاتٍ لهم فيها نعيمٌ دائمٌ غيرُ منقطع أبداً.

٢٢ - خالدين في الجنان وفي النعيم أبداً لا انقطاع لمكْثهم وتنعمهم؛ إنَّ الله تعالى عنده أجرٌ عظيم لمن عمل بطاعته، وجاهد في سبيله.

٢٣ - يا أيُّها الذين صدَّقوا بأركان الإيمان، واتَّبعوا شريعة الإسلام، لا تتَّخذوا أقرباءكم - من الآباء والإخوان وغيرهم - أصدقاء، إن اختارو الكفر وأقاموا عليه، وتركوا الإيمان بالله ورسوله، ومن يتَّخذ الكافرين أولياء، فأولئك هم الظالمون؛ لأنهم وضعوا ولاءهم ونُصرتهم ومحبتهم في غير موضعها. وهذا النداء الإلهيُّ هو النداء الأول للمؤمنين في هذه السورة، من جملة ستة نداءات.

هذا الخطاب تأكيد على إقامة الحدود الفاصلة بين المؤمنين والكافرين، ولو كانوا من أقرب أقربائهم، فالإسلام لا يعرف مُداهَنةً ولا مُصَانعةً على حساب العقيدة، أو على حساب جماعة المسلمين، ولا يقرُّ مبدأ المساومة في أيِّ أمر من أمور الدين؛ لأنَّ موالاة أعداء الله - ولو كانوا مُنحدرين من السُّلالات الإسلامية - خيانة للكيان الإسلامي، والأمةِ جميعها، ودونها بنسبة كبيرة بعض كبائر المعاصي الفردية؛ لأنَّ هذه الموالاة لأعداء الله فرع من فروع النفاق.

٢٤ - قل - يا رسول الله - لهؤلاء المؤمنين: إنْ كانت هذه المحبوبات الدنيوية الثمانية: **الأول**: آباؤكم الذين تُوقِّرونهم وتعتزُّون بالانتساب إليهم، **والثاني**: أبناؤكم، وهم أقرب وأحب الناس إليكم، **والثالث**: إخوانكم الذين تجمعكم بهم رابطة النسب، **والرابع**: أزواجكم الذين تجمعكم بهم رابطة الزوجيَّة، **والخامس**: أقاربكم الذين تعيشون بينهم وتعاشرونهم، **والسادس**: أموالٌ اكتسبتموها مقتطعين لها، وبذلتم الجهد في تحصيلها، **والسابع**: تجارةٌ ثمينة تخافون بوارها بفوات وقت رواجها، **والثامن**: مساكن تستوطنونها راضينَ بسُكْناها، إذا كانت هذه المصالح الدنيوية الثمانية أَوْلى عندكم من طاعة الله ورسوله، ومن المُجاهَدة في سبيل الله، فانتظروا حتى يأتيَ الله بعقوبته، واللّهُ لا يحكم بهداية القوم الخارجين عن طاعته الذين يُؤْثرون مصالحهم الدنيوية على محبة الله ورسوله والجهاد في سبيل الله عزَّ وجلَّ. وفي هذه الآية تهديدٌ وتخويفٌ لِمَنْ آثر محبة مَنْ ذكر على محبَّةَ الله تعالى ورسوله ﷺ، وفيها دليلٌ على أنه إذا تعارضت مصلحةٌ من مصالح الدين مع مُهمَّات الدنيا، وَجَب على المسلم ترجيح جانب الدين على الدنيا؛ ليبقى دين المسلم سليماً.

٢٥ - لقد نصركم الله - أيها المؤمنون - على أعدائكم في أماكن كثيرة في غزوات الرسول ﷺ وسراياه، عندما توكَّلتم على الله وأخذتم بالأسباب، واذكروا يومَ «حُنَين» حين قلتم: لن نُغلَب اليوم من قلَّةٍ، فلم تدفع عنكم كَثْرَتُكم شيئاً، وظهر عليكم العدوُّ، وضاقَتْ عليكم الأرض مع سَعَتها وفضائها، ثمَّ ولَّيْتُم منهزمين، وتركتم رسول الله مع قلَّة من المؤمنين.

٢٦ - ثُمَّ أنزل الله الطُّمأنينة والأمَنَة على رسوله، وعلى المؤمنين الذين رَجَعوا إلى قتال عدوِّهم بعد الهزيمة، ورسولُ الله ﷺ ثابتٌ لهم لم يَفِر، وأنزل الملائكة لتثبيت المؤمنين وتشجيعهم، وتخذيل المشركين وتَجْبينهم، وعذَّب الذين كفروا بالأسْرِ والقتل وسَبْي العيال والأموال، وذلك جزاءُ الكافرين في الدنيا، ثمَّ إذا أفضوا إلى الآخرة كان لهم عذابٌ أشدُّ من ذلك العذاب وأعظم.

وقد أصاب الله المؤمنين يوم «حُنين» بما أصابهم أولاً ليؤدِّبهم ويُربِّيهم، حتى لا يغترُّوا بأنفسهم، وحتى لا ينقطعوا عن الاعتماد على الله والثقة به والتوكُّل عليه، - وإن كَثُر عددُهم وعَظُمت عُدَّتهم - ثمَّ تدارك القلَّة الباقية منهم بنصره المبين، ليُثبت للمؤمنين أنَّ النصر من عنده سبحانه، وأنَّ الاعتماد على الله - مع ملاحظة أوامره ببذل قُصارى الجَهْد لنيْل تأييده ونصره - من شأنه أن يُضاعف القوَّة، ويزيد من قدرات القتال في نفوس المؤمنين. أما الاغترار بالنفس، فإنه يُفْضي إلى الاستهانة بقوَّة العدو، ومع الاستهانة يحصل التهاون والتباطؤ والتواكل، وهذه من أبرز عوامل الخذلان ومُسَبِّباتِه.

ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٢٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَاۚ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ عَيۡلَةٗ فَسَوۡفَ يُغۡنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦٓ إِن شَآءَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٢٨﴾ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ ذَٰلِكَ قَوۡلُهُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٣١﴾

٢٧ - ثمَّ يتوبُ الله من بعد ذلك على مَنْ يشاء، ممَّن رجع عن الكفر إلى الإسلام، واللَّهُ كثير السَّتْر لمن تاب، من عباده المؤمنين، دائم الرحمة بهم.

٢٨ - يا أيُّها الذين صدَّقوا بأركان الإيمان، واتَّبعوا شريعة الإسلام إنَّما المشركون شيءٌ قَذِرٌ خبيثٌ؛ وذلك بسبب أن الشِّرك الذي يعتقدونه ويعملون بمقْتضاه نجاسة معنويَّة مُغلَّظة في العقيدة والسلوك، وحاملُ النجاسة المُغلَّظة المختلطة بمفاهيمه وإرادته وأنواع سلوكه يكون بها نَجِساً نجاسةً مغلَّظةً في ذات نفسه، فلا تُمكِّنوا المشركين من أن يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا، وهو سنة تسع من الهجرة؛ لحماية الحرم المكي والنُّسك فيه من كلِّ شرك وكفر بالله عزَّ وجل، وإنْ خفتم فقراً وفاقة لانقطاع تجارتهم عنكم؛ بسبب منعهم من دخول أرض الحرم، فسوف يُغنيكم الله من فَضْله إنْ شاء، فاقْطعوا أملكم من كلِّ أحد إلا من الله عزَّ وجل، إنَّ الله عليمٌ بما يُصلحكم، حكيمٌ فيما يُعطي ويمنع، ويُحرِّم ويُشرِّع لا يفعل شيئاً إلا عن حكمة وصواب. وقد أغناهم الله سبحانه، إذ انتشر الإسلام في أرض العرب، ودخل الناس في دين الله أفواجاً، كما أغناهم سبحانه بما فتح عليهم من الفتوح، حتى غنموا كنوز كسرى وقيْصر. وهذا النداء الإلهيُّ هو النداء الثاني للمؤمنين في هذه السورة.

٢٩ - قاتلوا - أيُّها المؤمنون - القومَ الذين اتَّصفوا بهذه الأوصاف الأربعة: **الأول**: أنهم لا يؤمنون بالله عزَّ وجلَّ إيماناً صحيحاً صادقاً، **والثاني**: أنهم لا يؤمنون باليوم الآخر، وما يكون فيه من بعث وحسابٍ وفصل قضاء، وتنفيذ جزاء، **والثالث**: لا يُحرِّمون ما حرَّم الله في القرآن، ولا ما حرَّم رسوله في السُّنَّة، **والرابع**: لا يعتقدون صحَّة الإسلام الذي هو الدين الحق الذي ارتضاه الله لعباده، من اليهود والنصارى، حتى يُعطوا الخَراج المَضْروبَ على رقابهم، عن يدٍ مُواتية طائعة راضية، غير ممتنعة، وهم أذلاَّء مَقْهورون غير متمرِّدين.

والجزية مقْدارٌ من المال يُؤدِّيه المستطيعون منهم إلى بيت مال المسلمين، كدليل ماديٍّ يدلُّ على انقيادهم لحكم الإسلام، ورضاهم بالعيش تحت سُلطانه، وفي مقابل ذلك يأمنون على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم، ولا يُكْرَهون على الدخول في الإسلام، ولا يُمنعون من مُمارسة طقوسهم وعبادتهم، وما يعتقدونه أنه حلال في ملَّتهم.

والجزية بإجماع الفقهاء تُفرض على اليهود والنصارى لنصِّ هذه الآية، ولا تُفرض بالإجماع على مشركي العرب؛ لأنهم يُخيَّرون بين القتل والإسلام، حتى لا يكون في بلاد العرب دينان.

٣٠ - اليهود والنصارى لا يَدينون دينَ الحقِّ؛ لأنهُم أثبتوا لله سبحانه ولداً، فقد أشرك اليهود بالله عندما زعموا أنَّ عُزَيراً ابن الله، وأشرك النصارى بالله عندما ادَّعوا أنَّ المسيح ابن الله. إنَّهم يقولون ذلك القول بسَعَة أفواههم تنطُّعاً وتشدُّقاً، ولا يُدركون له حقيقة يتصوَّرونها، وهم يُشابهون في هذه الأقوال الشنيعة قولَ المشركين من قبل، الذين قالوا: الملائكة بنات الله؛ أبعدهم الله من رحمته إبعاداً أبدياً، كيف يُصرفون عن الحقِّ إلى الباطل بعد وضوح الدليل وإقامة الحُجَّة على استحالة أن يكون له تعالى ولد؟!

٣١ - اتَّخَذَ اليهودُ والنَّصارى علماءهم وعُبَّادهم آلهةً من دون الله، حيث أطاعوهم في تحليل ما حرَّم الله، وتحريم ما أحلَّ الله، كما يُطاع الأرباب في أوامرهم ونواهيهم، واتَّخذوا المسيحَ ابنَ مريم إلهاً، ومنحوه من الربوبيَّة أكثر ممَّا منحوه لعلمائهم وَعُبَّادهم، وذلك لِمَا اعتقدوا فيه من البُنوَّة والحُلول، والحال أنهم ما أُمروا بأيِّ أمر في الكتب المنزَّلة على أنبيائهم إلا ليعبدوا - فيما أُمروا به - إلهاً واحداً؛ لأنَّه سبحانه وتعالى المُسْتَحقُّ للعبادة لا غيره، لا معبودَ بحقٍّ إلا هو، تعالى وتنزَّه عن أن يكون له شريك في التشريع والأحكام، وأن يكون له شريك في الإلهيَّة يستحقُّ التعظيم والإجلال.

يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ۚ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾

٣٢ - يريد الكفار، ولا سيما اليهود والنَّصارى إبطالَ دينِ الله الذي جاء به محمَّدٌ ﷺ، والدلائل الدالَّة على صحَّة نبوته ﷺ، بأقوالهم المُضلِّلة، ومزاعمهم الباطلة، بعد أن أعدُّوا الوسائل، وانتهوا من مرحلة الاشتغال بتهيئتها، فالوسائل بحسب تصوُّرهم قد صارت جاهزة، وما عليهم إلا التنفيذ، ويأبى الله إلا أن يُحبط مخططاتهم وتدبيراتهم، ويُعليَ دينَه، ويُظهرَ كلمتَه، ويُتمَّ الحقَّ الذي بَعث به رسولَه محمداً ﷺ، ولو كَرِهَ ذلك الكافرون، وتميَّزوا منه غيظاً، وإنما يكره الكافرون أن يمتدَّ نور الإسلام ويعمّ؛ لأنهم يريدون أن تظلَّ الجماهير مُسخَّرة لأهوائهم، خاضعة لزعاماتهم الباطلة، ومتى تمَّ ظهور نور الحق وعمَّ انتشاره، تيقَّظت الجماهير المُسخَّرة لهم من غفلتها، وألقتْ عن ظهورها أوزار المُتحكِّمين بهم، والمُتسلِّطين عليهم من المجرمين الظالمين لعباد الله.

٣٣ - إنَّ الله الذي لا يريد إلاَّ أن يُتمَّ نورَه، هُوَ الذي أرسل رسولَه محمداً ﷺ بالقرآن، ودينِ الإسلام؛ لِيُعليَهُ على سائر الأديان، ولو كَرِهَ الكافرون الجاحدون دينَ الإسلام وظهوره على الأديان.

٣٤ - يا أيُّها الذين صدَّقوا الله واتَّبعوا رسوله، إنَّ كثيراً من أحبار اليهود، وعُبَّاد النصارى، يأخذون أموال الناس من أجل أكلها بالباطل، بأخذ الرِّشا وتحريف الكتاب وتبْديله، ويمنعون الناسَ عن الإيمان بمحمد ﷺ، والدخول في دين الإسلام، والَّذين يجمعون المال، ويجعلون بعضه فوق بعض، ويمنعون الحقوق الواجبة فيه من أهل الكتاب أو من المسلمين، ولا يؤدُّون زكاة المال المكنوز، فبشِّرهم - على سبيل التهكُّم بهم - بعذابٍ أليم، وذلك لأنهم ينتظرون من كنْزهم في الدنيا بشاراتٍ سارَّةٍ تأتيهم، ممَّا يُمتِّعهم أو يُضاعف ثرواتهم، فجاءت البشارة لفظاً فقط، وهي في الحقيقة إنذار، وتعذيبٌ نفسيٌّ لهم، في مقابل فرحهم في الدنيا بما كنزوا ومنعوا حقوق ذوي الحقوق. وهذا النداء الإلهيُّ هو النداء الثالث للمؤمنين في هذه السُّورة.

٣٥ - يوم القيامة تُوضع قطع الذهب والفضة في نار جهنَّم، فإذا اشتدَّت حرارتها أُحرقت بها جباهُ كانزيها، وجنوبُهم وظهورُهم، ويُقال لهم يوم القيامة توبيخاً: هذا مالكم الذي أمسكتموه ومنعتم منه حقوق الله وحقوق العباد، فذوقوا العذاب الموجع وأحسُّوا بآلامه؛ بسبب ما كنزتم في الدنيا من الأموال، ومنعتم حقَّ الله منها، وحقَّ عباده.

٣٦ - إنَّ عدَّة شهور السنة في علم الله وحُكمِهِ: اثنا عَشَرَ شهراً، فيما أثبته في اللوح المحفوظ، حَكَمَ به وَقَضاه يومَ خلق السموات والأرض، وهي عدَّة شهور سنة المسلمين التي يعتدُّون بها، مَبْنيَّةٌ على منازل القمر وسَيْرِهِ، من الشهور أربعةٌ حرم، وهي: (رجبٌ فرد، وذو القعدة، وذو الحِجَّة، والمُحَرَّم) ثلاثةٌ متوالية، ذلك هو دين الله المستقيم، الذي لا تبديل فيه ولا تغيير، فلا تظلموا في الأشهر الحرم أنفسكم باستحلال القتال فيها، أو امتناعكم عن القتال وردِّ الاعتداء إذا أغار عليكم الأعداء فيها، ولا تظلموا أنفسكم كذلك بفعل المعاصي وترك الطاعات؛ لمزيد فضلها، ولتتركوا الظلم والمعاصي في غيرها من الأشهر، وقاتلوا المشركين بأجمعكم مُجتمعين على قتالهم، كما إنَّهم يقاتلونكم على هذه الصِّفة، واعلموا أنَّ الله مع المتَّقين بالنصر والمعونة على أعدائهم.

وعُظِّمت الأشهرُ الحُرُم في الإسلام، وجُعلت المعصيةُ فيها أعظم وِزْراً منها في غيرها؛ كارتكابها في الحَرَم وفي حال الإحرام، ولِلَّهِ تعالى أن يُميِّز بعضَ الأزمنة على بعض بالفضل والتعظيم. وتحريمُ القتال في هذه الأشهر فرض هدنة شرعيَّة تحمل الناس على ألا يرفعوا السلاح ولا يقاتلوا، ولأنَّ هذه الأشهر هي أشهر الحج، يأمنون فيها في ذهابهم وأوبتهم حتى تُؤدَّى فرائض الله، إلا أن القتال فيها لردِّ اعتداء المبتدئين بالقتال المنتهكين لحرمة الأشهر الحرم غيرُ مُحرَّم في الإسلام، ولذا قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾ فكان حقاً على المؤمنين أن يجتمعوا كافَّة لهم، ولا يتخاذلوا أمامهم، وإن قاتلوا المؤمنين بكافَّتهم في الأشهر الحرم، وَجَب أن يجتمعوا كافَّة لمقاتلتهم، ولا يتوانوا ويتَّاقلوا.

إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ ۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ ۚ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَـٰلِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾

٣٧ - إنَّ تأخير شهرٍ حرام إلى شهر آخر الذي كانت تفعله العرب في جاهليّتهم، زيادةُ كفر على كفرهم، لأنهم أمروا بإيقاع كلِّ فعلٍ في وقته من الأشهر الحُرُم، ثمّ إنَّهم أخَّروه إلى وقتٍ آخر، فأوقعوهُ في غير وقته من الأشهر الحُـرم، فكان ذلك الفعل زيادةً في كفرهـم، إنَّ شهواتهم في الغارات والقتل، وتحكُّم الشيطان في نفوسهم يُضلُّهم، يُحِلُّون الشهر المحرَّم عاماً فيجعلونه حلالاً، ويُحَرِّمونه عاماً فيجعلونه مُحرَّماً فلا يُغيِّرون فيه، إنّهم ما أحلُّوا شهراً من المحرَّم إلا حرَّموا شهراً مكانه من الحلال، ولم يُحرِّموا شهراً من الحلال إلا أحلُّوا مكانه شهراً من الحرام؛ لأجل أن يكون عددُ الأشهر الحرم أربعة كما حرَّم الله، وإن لم تكن عَيْنَ الأشهر المُحَرَّمة في دين إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، فيكون ذلك موافقة في العدد لا في الحكم، فيُحِلُّوا ما حرَّم الله، حَسَّنَ لهم الشَّيطانُ هذا العمل، وحسَّنت لهم أهواؤهم أعمالهم السيئة، والله سبحانه لا يحكم بهداية القوم المصرِّين على كفرهم.

٣٨ - يا أيُّها الذين صدَّقوا الله واتَّبعوا رسوله، ما لكم إذا قال لكم رسول الله ﷺ أو أي داعٍ من أمّته: اخرجوا إلى الجهاد في سبيل الله مسرعين بجدٍّ ونشاط، تثاقلتم وتباطأتم عن الخروج، مائلين إلى الإقامة بأرضكم ومساكنكم؟ عَجَباً لكم!! أرضيتُم بسَعَة العيش وزهرة الدنيا ودَعَتها بَدَلَ نعيم الآخرة؟ إذا كنتم رضيتم ذلك، فما متاع الحياة الدنيا في جنْب الآخرة وبالقياس عليها إلا متاعٌ قليل تافه، لا يسْتبدله العقلاء، ولا يستحق أن يكون محلَّ إيثار وتفضيل؛ إذ أنَّ لذاتِ الدنيا ومتاعها فانٍ زائلٌ يَنْفَدُ عن قليل، ونعيمُ الآخرة باقٍ على الأبد. وهذا الخطاب الإلهيُّ هو الرابع في هذه السورة، ويدلُّ توجيهُ هذا الخطاب إلى المؤمنين عامة على أن الجيش في الإسلام هو كل الأمة، ولا يعفى من الجندية سوى الضعفاء لعجز أو شيخوخة، أو مرض، وهذا الإنكار على جماعة المؤمنين في إخلادهم إلى الأرض حين دعوتهم إلى الجهاد، تعليم عامٌ، وإرشاد شامل لجميع المسلمين في كلِّ مكان وفي كلِّ عصر، في وجوب مسارعتهم لدعوة الجهاد، وعدم الإخلاد إلى الأرض. على أن خطاب المؤمنين في ذلك الوقت، وفيهم من لبَّى الدعوة، وبذل المال دون أن يتثاقل، دليل واضح على التضامن الذي يجب أن يكون بين المؤمنين، وعلى أن تثاقل نفر منهم محسوبٌ على الجميع، وأنَّ جماعتهم مسؤولة عن أفرادهم، وهذا هو الشأن العام في التكاليف الإلهية. ومُقْتضى هذا وجوب تعهُّد الجماعة لمن يَبْدو عليه من أفرادها شيءٌ من أمارات الضعف والتَّخاذل بما يُقوِّيه ويرفع من معنوياته.

٣٩ - إنْ لم تخرجوا - أيُّها المؤمنون - للجهاد في سبيل الله، يُعذِّبكم نتيجة جبنكم وعدم القيام في وجه عدوكم، عذاباً أليما بالذلة والهوان، ويَسْتَبْدِل بكم ربُّكم قوماً غيركم خيراً منكم وأطوع، يحملون رسالة الإسلام ويتحمَّلون تَبِعَاته الجسَام، يُقاتلون في سبيل الله غير متثاقلين ولا متباطئين ولا متكاسلين، ولا تضرُّوا الله بهذا التخلُّف شيئاً من الضرر قليلاً كان أو كثيراً؛ لأنه سبحانه غنيٌّ عن العالمين، وإنما تضرُّون أنفسكم بترككم الجهادَ، فتنزل بكم الذلَّة، وتركبكم المهانة، وتلحقكم الهزيمة، واللَّهُ عظيم القدرة على كلِّ شيء، فهو ينصر دينَه، ويعزُّ نبيَّه. وإنَّ الإنذار الذي اشتملت عليه هذه الآية عام خالد، يشمل العصور كلَّها، فمن يوم أن اثَّاقلت الأمة الإسلامية عن الجهاد، وتركته، ضُربت عليها الذلَّة، وتفرَّق المسلمون، وصار بَأسهم بينهم شديداً، وتوزَّعتهم الأمم، ونزل بهم العذاب الأليم في الدنيا.

٤٠ - إنْ لا تَنصروا رسولَ الله محمَّداً ﷺ - أيُّها المؤمنون - وتلبُّوا دعوته إلى الجهاد، فقد نصره الله في الوقت الذي أخرجه فيه كفار قريش من بلده «مكة»، حين مكروا به وأرادوا قتله، حالة كونه بعيداً عنكم، وليس معتمداً عليكم، وإنما كان أحد اثنين لا ثالث لهما، (وهما: رسول الله ﷺ وأبو بكر الصديق رضي الله عنه)، في ذلك الوقت الذي ضمَّه هو ومَنْ معه غار جبل ثور بمكة مُختفين من المشركين الذين يتعقبونهما، وقد بلغ الكفار إلى الغار بحثاً عنه، حتى إنَّ أحدهم لو نظر إلى موطىء قدمه لرأى مَنْ في الغار، إذ يقول رسول الله ﷺ لأبي بكر الصدِّيق مُطمئناً: لا تحزنْ إنَّ الله معنا بالنصر والمعونة، فأنزل الله الطمأنينة والسكون على رسوله محمدٍ ﷺ، وأيَّد النبيَّ ﷺ بإنزال الملائكة؛ ليَصرفوا وجُوهَ الكفار وأبصارهم عن رُؤْيته، وجَعَلَ كلمة الشِّرك مغلوبة سُفْلىٰ، وكلمة التوحيد: (لا إله إلا الله) غالبة ظاهرة عالية إلى يوم القيامة، واللَّهُ قويٌّ غالبٌ لا يغلب حقَّه باطل، حكيم يُدبِّر الأمر، ويرتِّب المقدِّمات والأسباب، ويصل إلى النتائج، ويردُّ كيْد العادين.

ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٤٢﴾ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ ۞ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾

٤١ - إذا أُمرتم - أيُّها المؤمنون - أن تخرجوا من مكان إقامتكم للجهاد في سبيل الله، فاخرجوا بهمَّة ونشاط على الصِّفة التي يخفُّ عليكم الجهادُ فيها، كأن يكون خروجكم دعوةً إلى دين الله، أو استطلاعاً لأخبار العدو، أو مناوشة خفيفة تعتمد على الكرّ والفرّ، واخرجوا بهمَّة ونشاط على الصفة التي يثقل عليكم الجهاد فيها، كأن يكون النافر ثقيلاً بعتادٍ وأسلحة ومؤونة، وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله، ذلكم الخروج من مكان الإقامة، والجهادُ بالأموال والأنفس، أكثر نفعاً وفائدةً لكم من القعود والإمساك وإيثار السلامة، إنْ كنتم تعلمون ما يُعطيكم الله من خير عاجل وآجل عِلْمَ يقين، علمتم أنَّ النَّفر والجهاد طاعةٌ للرسول أو لأميركم من بعده أكثر نفعاً وفائدة لكم، فَلَمْ تُقَصِّروا بالقيام بهذا الواجب الجهادي.

٤٢ - لو كان ما تدعوا إليه المنافقين المتخلِّفين عن غزوة «تبوك» غنيمة سهلة قريبةَ التناول، وسفراً متوسِّطاً بين القُرب والبعد لا مشقّة فيه، لخرجوا معك - يا رسول الله - طمعاً في تلك المنافع، التي تحصل لهم، ولكن بَعُدَتْ عليهم المسافةُ التي يشُقُّ اجتيازها، فلم يتَّبعوك، وسيحلف المنافقون - الذين تخلَّفوا عن غزوة «تبوك»، واستأذنوا في القعود عنها بأعذار كاذبة - بالله إذا رَجَعَ النبيُّ ﷺ من هذا الجهاد: لو استطعنا لخرجنا معكم في هذه الغزوة، يُهلكون أنفسَهُم بسبب هذه الأَيمان الكاذبة؛ لأنهم يُعرِّضونها لعقاب الله المُعجَّل والمُؤجَّل، واللَّهُ يعلمُ إنَّهم لكاذبون في أيمانهم وقولهم: لو استطعنا لخرجنا معكم، لأنهم كانوا مستطيعين الخروج.

٤٣ - مَحَا الله عنك - يا رسول الله - أثَرَ ما كان منك في إذْنك لهؤلاء المنافقين الذين استأذنوك في ترك الخروج معك إلى تبوك، ولا مُؤاخَذَة عليك في اجتهادك؛ لأنك مأذون فيه، وكان الأَوْلى أن لا تأذن لهم حتى يَتَبيَّن لك الذين صَدَقوا في اعتذارهم، وتعلم الكاذبين فيما يعتذرون به.

٤٤ - ليس من عادةِ المؤمنين بالله واليوم الآخر إيماناً صادقاً مُتجدِّداً حياً في قلوبهم وتصوُّراتهم، أن يستأذنوك - يا رسولَ الله - في التخلُّف عن الجهاد بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، دون عذر حقيقي، واللَّهُ عليمٌ بالمتَّقين الذين تَضطرهم أعذارٌ حقيقيَّة للاستئذان أو التخلُّف.

٤٥ - ما يَستأذِنُك في التخلُّف عن الجهاد معك - يا رسولَ الله - من غير عذر إلا المنافقون الذين لا يُجدِّدون إيمانهم بالله واليوم الآخِر، حتى يكون حياً فاعلاً ماثلاً في تصوُّرهم، وبسبب عدم تجديد إيمانهم تعرَّضوا للشكوك، فأثَّر توارُدُها على تصوُّراتهم حتى شكَّت قلوبهم في الإيمان، فهم في شكّهم الذي حلَّ بقلوبهم يتردَّدون بين دواعي الإيمان، ونوازع الشكوك.

٤٦ - ولو أراد المنافقون الخُروجَ إلى غزوة «تبوك» معكم، لتهيَّؤوا له بإعداد عدَّةٍ ما، ولو كانت عُدَّةً ضعيفةً لا تفي بالمطلوب لهذه الغزوة، ولكن ما أرادوا الخروج، بل كرهوا مشاركة المؤمنين الجهاد في سبيل الله، فكَرِهَ اللَّهُ خروجَهم إلى الغزو معكم، فيسَّر لهم الأسباب التي تُحقِّق لهم ما يريدون، بإقامة العوائق الماديَّة والنفسيَّة التي تمنعهم عن الخروج مع الرسول في غزوة «تبوك»، وقيل للمنافقين - على سبيل التحقير والإهانة - لما استأذنوا رسول الله في القعود: اقْعُدوا مع النِّساء والصِّبيان والمرضى وأهلِ الأعذار.

٤٧ - من الخير لكم أن لا يخرج هؤلاء المنافقون معكم في هذه الغزوة ولا في غيرها، وذلك لثلاثة أسباب: **السبب الأول**: لو خرجوا معكم مختلطين فيكم، ما زادوكم بخروجهم إلا شرّاً وفساداً؛ لأنهم جبناء مُخذِّلون، **والسبب الثاني**: لأسرعوا فيكم، وساروا في أماكن الفُرَج التي يجدونها بين صفوفكم - أيها المؤمنون - مفسدين ذات بينكم، بإلقاء النميمة والأحاديث الكاذبة وإثارة الشكوك والشبهات، يَطْلبون لكم ما تُفتَنون به من تمزيق وحدتكم، وإضعاف قوتكم، وتهويل أمر العدوّ عليكم، وإلقاء الرُّعب في قلوبكم، **والسبب الثالث**: فيكم - أيُّها المؤمنون - من ليست لديهم حصانة فكريَّة ونفسيَّة ضدَّ وساوسهم ودسائسهم، فهم يُحَسِّنون الظنَّ بهم، ويتأثَّرون بأقوالهم وأفعالهم، وقد يندفعون معهم بحُسن ظنٍّ، واللَّهُ عليمٌ بالمنافقين الذين يلقون الفتن والدسائس والشكوك والشبهات بين المؤمنين.

وعلى المسلمين أن يعملوا بهذه النصيحة حتى آخر الدهر، فيستبعدوا في المواقف الحاسمة الرهيبة المنافقين والمرجفين والمتخاذلين وضعفاء الإيمان، لأن وجودهم سيكون له تأثير عكسيٌّ عليهم، فلا يزيد وجودهم عدداً ولا مَدَداً، ولكن يزيد المسلمين ضعفاً ووهناً وتخاذلاً وتفرُّقاً.

لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي ۚ أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٤٩﴾ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ۖ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٥٤﴾

٤٨ - لقد طلب هؤلاء المنافقون صَدَّ أصحابك - يا رسول الله - عن الدِّين، وردَّهم إلى الكفر، وتخذيل الناس عنكم قبل غزوة «تبوك»، وأجالوا الرأيَ فيك وفي أمرك وفي إبطال دينك، ودبَّروا لك الحيل والمكايد، وظلُّوا كذلك يبْغون الفتنةَ، ويُجَرِّبون أنواع مكرهم وكَيْدهم وحيلتهم، حتى أدركوا أنهم مُنهزمون خائبون في كلِّ تصرُّفاتهم، وذلك حين جاءَ الحقُّ بفتح مكة، وزَهَقَ الباطل، وظهر أمرُ الإسلام على الشرك والمشركين، وسائر الكافرين في الحجاز، وهم كارهون؛ لأنهم كانوا يترقَّبون أن ينتصر العرب المشركون في آخر الأمر.

٤٩ - وبعض المنافقين مَنْ يقول لك - يا رسول الله -: ائْذَن لي في التخلُّف عن الجهاد والقعود في المدينة، ولا تُوقعني في المعصية والإثم بما يعرض لي في حالة الخروج من الفتنة ببنات بني الأصفر، من الرُّوم. تنبَّهوا وتحقَّقوا إنَّهم وقعوا في الفتنة العظيمة وهي النفاق، ومخالفة رسول الله ﷺ والقعود عنه، وفي استحقاق التعذيب بالإحراق في نار جهنَّم، وإنَّ جهنَّم لمحيطةٌ بالكافرين يوم القيامة، تُحيط بهم، وتجمعهم فيها، ولا يجدون لأنفسهم مَخْرَجاً ينجيهم من عذاب الحريق فيها.

٥٠ - إنْ تنزل بك - يا رسول الله - نعمة سَارّة لك من نصر أو غنيمة، تجعَلُهم يشعرون بالألم والكراهية، وإن تنزل بك مُصيبةٌ من هزيمةٍ أو شدَّة، يقول المنافقون: قد أخذنا أمرنا بالجِدِّ والحزم في القعود عن الغزو من قبل أن تقع هذه المصيبة، إذ لم نُعرِّض أنفسَنا لأسباب حدوثها بالعقل والرويَّة والحكمة، ويبتعدوا عن مجالس المؤمنين، وهم مسرورون لما نالك من المصيبة وسلامتهم منها.

٥١ - قُل - يا رسول الله ويا كُلَّ مؤمن من أمته - لهؤلاء المنافقين الذين يفرحون بما يُصيبكم من المصائب والمكروه: لن يُصيبَنا من حسنة تسرُّنا، أو مصيبة تُؤلمنا إلا ما قدَّره الله لنا، وكلُّ ما قضاه الله ممَّا يَسُرُّنا أو يَسُوؤنا فهو لخيرنا ومصلحتنا، إنَّ الله سبحانه هو ناصرُنا وحافظُنا وأوْلى بنا من أنفسنا، وعلى الله وحده فَلْيتوكَّل المؤمنون في جميع أمورهم مع قيامهم بالأسباب الماديَّة والمعنويَّة التي دَعَا إلى اتِّخاذها.

٥٢ - قل - يا رسول الله ويا كُلَّ مؤمن - لهؤلاء المنافقين: ما تنتظرون بنا - أيُّها المنافقون - في الواقع وحقيقة الأمر إلا أن يحلَّ بنا إحدى العاقبتين الحَميدتَيْن اللتيْن كلٌّ منهما أحسن من جميع العواقب: **العُقْبى الأولى الحميدة**: هي أن ينصرنا الله على عدوِّنا، وفيه الأجر والمَغْنم والسلامة!؟ **العُقْبى الثانية الحميدة**: قَتْلُ العدوِّ لنا، وفيه الشهادة والمغفرة والفوز بالجنة والنجاة من النار!؟ وكلاهما ممَّا نُحبُّ ولا نكره. ونحن ننتظر أن تحلَّ بكم من ربِّكم إحدى النقمتَيْن المُعَجَّلتين في الحياة الدنيا: **النِّقْمة الأولى**: أن يُصيبكم اللَّهُ بعذابٍ مُعجَّلٍ من عنده، فيُهلككم كما أهلك مَنْ كان قبلكم من الأمم الخالية، **النِّقْمة الثانية**: أن يُسلِّطنا الله عليكم، فيأذن لنا بقتالكم، وأَخْذِكم حيث وجدناكم، واستئصالكم، حتى لا يكون بين صفوفنا ومجتمعنا الإسلامي منافقون، فانتظروا إنَّا معكم منتظرون وعدَ الله، وما يُحقِّقه لنا من خير، وما يُحقِّقه لكم من عذابٍ ونقمة.

٥٣ - قل - يا رسول الله - للمنافقين الذين يريدون أن يستروا نفاقهم بإنفاق المال في الجهاد وغيره: أنْفقوا طائعين مُختارين من قِبَلِ أنفسكم، أو مُكرَهين مَجْبورين على الإنفاق. لن يُتقبَّل منكم هذا الإنفاق عند الله يوم الدين؛ لأنكم كنتم قوماً خارجين عن دين الله وطاعته.

٥٤ - وما أقام المانعَ بينهم وبين أن تُقبل نفقاتهم، إلاّ كفرهم الباطن بالله سبحانه وبرسوله محمد ﷺ، والذي ترتَّب عليه في سلوكهم أنهم لا يأتون الصَّلاة حين إتيانهم من بيوتهم أو مواقع وجودهم لأدائها مع المصلين إلا وهم متثاقلون في الإتْيان إليها، كارهون لأدائها؛ لأنهم يُراؤون الناس، ولا يرجون على فعلها ثواباً، ولا يخافون بتركها عقاباً، ولا ينفقون أية نفقة إلا في حال أنهم كارهون أن يُنفقوا؛ لأنَّهم يعدُّون الإنفاق مَغْرماً.

فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾

٥٥ - إذا نظرت - أيها المؤمن - إلى بعض المنافقين فوجدتهم محظوظين بكثرة الأموال والأولاد، فلا تُعجبك أموالهُم ولا أولادهم، إعجابَ مُسْتَغْرِب من إمْداد الله لهم بذلك، وهم كَفَرة منافقون، فإنَّ الله لا يريد إكرامهم وإسعادهم بها، إنَّما يريد الله بإمدادهم بها؛ لتكون أسباب شقائهم في الحياة الدنيا، بما تُسبِّبه لهم من متاعب وهموم وغموم ومشكلات، ولتزول أنفسهم بخروج أرواحهم وانفصالها عنهم بشدّة وصعوبة، مفتونين بما يُحبُّون ويَهْوَوْن من أموال وأولاد، ويموتون على الكفر، فتكون عاقبتهم بعد عذاب الدنيا عذاب الآخرة.

٥٦ - ويحلف هؤلاءِ المنافقون باللّهِ لكم - أيُّها المؤمنون - إنَّهم على دينكم، وما هم صادقون فيما يحلفون باللّهِ عليه، والسبب الذي يجعلهم يحلفون بالله كاذبين، أنهم يخافون خوفاً شديداً أن تَظْهَروا على ما هم عليه من النفاق، وأن ينزل بهم ما نزل بالمشركين من القتل والسَّبي.

٥٧ - لو يجد هؤلاء المنافقون - حين يكتشف المؤمنون أمارات كفرهم في الباطن - حصْناً يلجؤون إليه، ويتحصَّنون فيه، أو كهوفاً في الجبال يستخفون فيها، أو سرباً في الأرض يدخلون فيه، لو يجدون على تَتَابع أزمانهم أحد هذه المخابيء الثلاثة ذات المستويات المختلفات في نسبة حماياتها وإخفائها مَنْ يختبيء بها. فأحصنها: الملجأ كقلعة أو حِصْن، ثم المغارات التي تكون في الجبال، ثم المُدّخل الذي يشبه المغارة، لكنه دونها إخفاءً وحماية، لو أنهم يجدون ذلك، لأدبروا عن المؤمنين، وأسرعوا إلى أحد هذه المخابيء بعنف؛ إسْراع الجموح المسْتعصي الذي يعاند الحقَّ وسبيلَ الهدى.

٥٨ - وبعض المنافقين مَنْ يَعيبك - يا رسول الله - في قَسْم الصَّدقات وفي تفريقها على مُسْتحقِّيها، ويطعنُ عليك في أمرها، فإنْ أُعطوا من الصَّدقات ولو لم يكونوا من أهل الاستحقاق، رضوا عنك في قسمتها، وإن لم تُعطهم منها وهم غير مُسْتحقّين لها، فاجؤوا بالتسخُّط والتذمُّر واللمْز طعناً وعَيْباً.

٥٩ - ولو أنَّ هؤلاء المنافقين، الذين عابُوا عليك قسمةَ الصَّدقات، طاعنين لك بأنَّك لا تقسم بالعدل، أخذوا بهذه الوصايا الأربع، واتَّبعوها لنالوا خيراً عظيماً: **الوصيَّة الأولى**: رضَوا بما قَسَم الله لهم، وقنعوا بما آتاهم الله ورسولُه، وطابت نفوسهم به، **والوصيَّة الثانية**: قالوا: يكفينا الله بعطائه، فهو المعطي الذي بيده الأمر كلُّه، **والوصية الثالثة**: قالوا: إذا سَأَلْنا اللَّهَ وتوكَّلنا عليه، فسَيُؤْتينا اللَّهُ من فَضْلِه ورسولُهُ ما نحتاج إليه، **والوصيَّة الرابعة**: قالوا داعين ربَّهم: إنَّا إلى الله مُبْتهلون مُتضرِّعون في أن يُوسِّع علينا من فَضْله، فيُغْنينا عن الصَّدقة وغيرها من أموال الناس، لو أنَّهم فعلوا ذلك لكان خيراً لهم وأعوَد نفعاً عليهم.

٦٠ - إنَّما المُسْتَحقُّون للصَّدقات الواجبة هؤلاء الأصناف الثمانية: **فالصنف الأول**: الفقراء مستورو الحال أصحاب الحاجة الحقيقية، **والثاني**: المساكين، وهم المُتعرِّضون للعطاء، الذين يسألون الصَّدقة، **والثالث**: السُّعاةُ الذين يَتولَّوْن جِبَاية الصَّدقات، **والرابع**: المؤلَّفة قلوبهم من المسلمين وهم الذين يرى إمامُ المسلمين، أنه إذا أعطاهُمْ استمالهم لنُصْرةِ الإسلام ونشره وتثْبيته ونُصرة المسلمين، **والخامس**: في فكِّ رقاب الأرقَّاء والمُكاتَبين، **والسادس**: المَديونون لأنفسهم في غير معصية، أو في المعروف وإصلاح ذات البَيْن، **والسابع**: في الجهاد في سبيل الله، وهم الغُزاة والدعاة إلى الله، **والثامن**: المسافر سفراً مباحاً، وليس له ما يقطع به مسافةَ سفره، إنَّ هذه الأحكام المذكورة في هذه الآية فريضةٌ واجبةٌ وقسمة مُحدّدة من الله، واللَّهُ عليمٌ بمصالح عباده، حكيمٌ فيما فرض لهم.

٦١ - ومن المنافقين قومٌ يُؤْذُونَ النبيَّ ﷺ، ويقولون عنه: هو أُذن، سريع الاغترار بكلِّ ما يسمع، يقبل كل ما يقال له ويُصَدِّقه دون تفكير. قل لهم - أيها المؤمن - : إنه بحُسْن التلقِّي بأذنه ما يُتلىٰ عليه من الوحي، وضبط تبليغه لما تلقّى عن ربِّه، قد جَلَبَ لكم خيراً عظيماً، يضمنُ لكم خير العاجلة والآجلة، يؤمن بالله عزَّ وجلّ إيماناً كاملاً، وبكلِّ ما يوحيه إليه سبحانه، ويُصدِّق بالأنباء الصادقة التي يأتيه بها المؤمنون، لأجل أنهم عدول لا يكذبون فيما يخبرون به، وهو ﷺ رحمةٌ للمؤمنين المُخلصين لا للمنافقين الذين يزعمون أنَّهم مؤمنون، والمنافقون الذين يؤذون رسول الله، الذي اصطفاه لتبليغ رسالاته للناس، لهم عذابٌ مؤلم دائم شديد في الآخرة.

يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَٰلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾

٦٢ ـ يحلف لكم ـ أيها المؤمنون ـ هؤلاء المنافقون الأيمانَ الكاذبة؛ ليُطفئوا حرارة الغضب الذي توهّج في قلوبكم ضدّهم، فتسكن ثائرتكم، فلا تنتقموا منهم، وإن كانوا مؤمنين حقاً علموا بأنَّ الله أحقُّ أن يُرضُوه من محاولتهم إرضاء المؤمنين بالأيمَانِ الكاذبة، وعلموا بأنَّ الرسول أحقُّ بأن يُرضوه كذلك، ليَدْرؤوا عن أنفسهم العقاب الشديد، فهو عقابٌ لا تحمي منه الأيمان الكاذبة، بل تزيد منه.

٦٣ ـ ألم يَعلَمْ هؤلاء المنافقون من شرائع الدين التي علّمهم إيّاها رسولنا: أنَّ من يحارب اللَّهَ ورسولَه، باتّخاذ حدٍّ مناقض لدين الله، فجزاؤه أنَّ له نار جهنّم حالة كونه خالداً فيها على الدوام؟ ذلك العذاب في نار جهنَّم مع الخلود فيها هو الذلُّ الشديد والهوان العظيم. قد علموا ذلك، فلْيُعدُّوا أنفسهم لتحمُّل العذاب في نار جهنم خالدين فيها، ما لم يتوبوا إلى الله، ويؤمنوا، ويتخلّصوا من خسّة النفاق، ويُقْلعوا عن مُحادّةِ الله ورسوله.

٦٤ ـ يخشىٰ المنافقون أنْ تُنزَّل عليهم ـ بتبليغ الرسول لهم ـ سورة كاشفة أشخاصهم بالأوصاف المُعيّنة، تُواجهُهم بالخطاب، وتُنبِّئهم بما في قلوبهم من الكفر والكَيْد والحَسَد والعداوة للمؤمنين.

قل لهم ـ يا رسول الله ـ مُهدِّداً: استمرُّوا على ما أنتم عليه من الاستهزاء بالله ورسوله والمؤمنين بتظاهركم بالإسلام مخادعة وكذباً، فإنَّ الأمر لن يطول بكم كثيراً، إنَّ الله مُظهِر ما كنتم تَسْتُرونه وتُخْفُونه عن رسوله والمؤمنين.

٦٥ ـ وأقسم لئِنْ سألتَ ـ يا رسول الله ـ هؤلاء المنافقين عمَّا كانوا يقولون فيما بينهم؟ ليقولُنَّ: إنَّما كنا نتحدَّث ونخوض في الكلام على سبيل المُزاح والمداعبة، وبقصد الترويح عن النفس. قل ـ يا رسول الله ـ لهؤلاء المنافقين: كيف تُقْدمون على إيقاع الاستهزاء بفرائض الله وحدوده وأحكامه، وبكتابه، وبرسوله محمد ﷺ وأنتم تدَّعون أنكم مسلمون؟! وفي هذه الآية دلالة على أنَّ اللاعب والجادَّ سواء في إظهار كلمة الكفر، وأنَّ الاستهزاء بآيات الله تعالى كفر.

٦٦ ـ قل لهؤلاء المنافقين: قد انكشف أمركم، وظهر جُرمكم، لا تنتحلوا الأعذار الكاذبة، لتُخلِّصوا أنفسكم من جريمة المقالات التي تدينكم بالكفر، فالاستهزاء بالله كفرٌ، والإقدام عليه يُوجِب الردَّة، قد أظهرتم الكفر بالاستهزاء بعد ما كنتم أظهرتم الإيمان، إنْ نَعفُ عن طائفةٍ منكم بسبب توبتهم وإخلاصهم الإيمانَ بعد النفاق، نُعذِّب طائفة بسبب أنهم كانوا مُصِرِّين على النفاق غير تائبين منه.

٦٧ ـ المنافقون والمنافقات بعضهم من جنس بعضهم الآخر، إذْ هم متشابهون في ظواهرهم السُلوكيّة، وصفاتهم النفسيّة، ومن ظواهرهم السلوكيّة ظاهرتان: **الظاهرة الأولى**: أنهم يأمرون بما نهى الدين عنه، وينهون عمَّا أمر الدين به، **والظاهرة الثانية**: أنهم بخلاء شحيحون يقْبضون أيديهم عن الإنفاق في سبيل الله، ومن صفاتهم النفسيّة: أنهم تركوا أمر الله، وشغلتهم عن ذكره ومراقبته والتفكُّر في آياته معاصيهم وآثامهم وأهواؤهم وشهواتهم، ومحاولاتهم الدائمة لتغطية نفاقهم، فَضَرب صَفْحاً عن العناية بهم، ورعاية شؤونهم، فتركهم يتخبَّطون في ظلمات الحَيْرة والتردُّد والضَّلالة، ويتقلَّبون في أوْحَال الخوف والقلق والآلام النفسيّة، إنَّ المنافقين هم الخارجون عن طريق الهدى والدين القويم قد استنفذوا بآثامهم كلَّ عناصر الفسق حتى لم يبقوا منها لغيرهم شيئاً.

٦٨ ـ وَعَدَ اللَّهُ المنافقين والمنافقات والكفار ثلاثة وعود: **الوعد الأول**: أن يدخلوا نارَ جهنَّم مقيمين فيها، لا يخرجون منها، هي كافيتُهم جزاءً وعقاباً على كفرهم ونفاقهم، لا يحتاجون إلى زيادة على عذابها، **والوعد الثاني**: أبْعَدَهم الله وطردهم من مواطن تنزُّلات رحمته، **والوعد الثالث**: لهم عذابٌ دائم في داخل أنفسهم، فهو لا يرحل عنهم، وهذا العذاب مُلازم لنفاقهم وكفرهم، يتعاقب عليهم في الدنيا، ويرافقهم بعنف بعد الموت في البرزخ، ويُلقي فيهم ثقله الشديد يوم القيامة.

كَالَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمۡ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرَ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا فَٱسۡتَمۡتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمۡ فَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِخَلَٰقِكُمۡ كَمَا ٱسۡتَمۡتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُم بِخَلَٰقِهِمۡ وَخُضۡتُمۡ كَٱلَّذِي خَاضُوٓاْۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمۡ يَأۡتِهِمۡ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَقَوۡمِ إِبۡرَٰهِيمَ وَأَصۡحَٰبِ مَدۡيَنَ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتِۚ أَتَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿٧٠﴾ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٧١﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٧٢﴾

٦٩ ـ فعلتم ـ معشر المنافقين ـ كأفعال الكفَّار والمنافقين الذين كانوا من قبلكم، كانوا أشدَّ منكم ـ أيُّها المنافقون ـ بَطشاً وَمَنَعةً، وأكثر أموالاً وأولاداً، فتمتَّعوا مدَّة من الزمن بنصيبهم الذي قُدِّر لهم من ملاذ الدنيا، ورضُوا بها عوَضاً عن الآخرة، فتمتّعتم ـ أيُّها المنافقون والكافرون ـ مُدَّة من الزمن بنصيبكم المُقدَّر من متاع الحياة الدنيا كما استمتع الكفار الذين من قبلكم بنصيبهم، وسلكتُم في فعلكم مثل ما سَلَكوا في اتِّباع الباطل، والكذب على الله، وتكذيب رسله، والاستهزاء بالمؤمنين، أولئك بَطَلَتْ أعمالهم في الدنيا وذهبت دون أن تُحقِّق لهم ما يرجون من انتصارهم على رسل الله والذين آمنوا بهم، فقد نَصَرَ الله رسلَهُ والذين آمنوا معهم، وأهلك الكافرين والمنافقين، وكذلك بطلت أعمالهم التي عملوها يريدون منها تحقيق منافع أخرويَّة، فلا يقبلها الله منهم؛ لأنَّ شرط قبول الأعمال عند الله، أن تكون في طاعته، وابتغاء مرضاته، وأولئك البُعداء عن رحمة الله هم الخاسرون، وكما بَطَلَت أعمال الكفار الماضين وخَسِروا تَبْطل أعمالكم ـ أيُّها المنافقون ـ وتخسرون، لأنَّ سنة الله في عبادة واحدة.

٧٠ ـ ألم يَصِل إلى هؤلاء المنافقين والكفار نبأ الأمم الماضية الذين خَلَوْا من قبلهم، كيف أهلكناهم حين خالفوا أمرنا، وعَصَوْا رسلَنا؟ قوم نوح أُهلكوا بالطوفان، وعاد قوم هود عليه السلام أُهلكوا بالريح العقيم، وثمود قوم صالح عليه السلام أُهلكوا بالصَّيْحة، وقوم إبراهيم أُهلكوا بسَلْب النعمة، ومدين قوم شعيب أُهلكوا بعذاب يوم الظُّلَّة، ومدائن قوم لوط المُنقلبات التي جعل الله عاليَها سافلَها، أَتَتْهُم رسلهم بالمعجزات الباهرات، والحُجَج الواضحات الدالاّت على صِدقهم، فكذَّبوهم وأصرُّوا على كفرهم، ومقاومة رسل ربّهم، كما فعلتم ـ أيُّها المنافقون والكفار ـ فاحذروا أن يُصيبَكم مثل ما أصابهم، فنعجِّل لكم النقمة كما عُجِّلت لهم، فما كان اللَّهُ لِيَظْلِمَهُم بتعجيل العقوبة لهم، ولكن الذي استحقُّوه من العقوبة بسبب مُباشرتهم الأسباب المُهلكة بمقْتضى سُنن الله في الأسباب والمُسبَّبات.

وذكر الله تعالى هذه الطوائف الست؛ قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وشعيب ولوط؛ لأنَّ آثارهم باقيةٌ، وبلادهم بالشام والعراق واليمن، وكلها قريبة من أرض العرب، فكانوا يمرُّون عليها في أسفارهم، ويعرفون الكثير من أخبارهم.

٧١ ـ وفي مقابل صنف المنافقين والمنافقات، يوجد صنف مُتميِّزٌ في صفاته النفسيَّة وظواهره السلوكيَّة، وهم المؤمنونَ والمؤمناتُ، بعضهم أحباء ونصراء بعض في الدين والعَوْن والنُّصْرة والمحبة، يأمرون داخل المجتمع المسلم بكلِّ ما عُرف في الشرع من خير وبِرٍ وطاعة، وينهَوْن عن كلِّ ما ينكره الشَّرع وينفر منه الطبع، وقيامهم بهذه الوظيفة يحمي المجتمع الإسلامي من الانحراف والفَساد، ومن تغلُّب عوامل الشر فيه على عوامل الخير، ويقيمون الصَّلاة المفروضة في أوقاتها، ويُتمُّون أركانها وحدودها، ويُؤْتون الزكاة الواجبة عليهم لمُستحقِّيها، ويُجدِّدون طاعتهم لله ورسوله، مع كلِّ عملٍ للَّهِ فيه أو لرسوله أمرٌ أو نهيٌ، أولئك المؤمنون والمؤمنات الموصوفون بهذه الصفات سيرحمهم الله؛ إنَّ الله قويٌ غالب لا يمتنع عليه شيء أراده، قادرٌ على إيصال الرحمة لمَنْ أراد، وإيصال العقوبة لمَن أراد، حكيمٌ يُدبِّر عباده على ما يقتضيه العدل والإنصاف.

٧٢ ـ وَعَدَ الله المؤمنين والمؤمنات ثلاثة وعود حسنةٍ كريمةٍ: **الوعد الأول:** أن يدخلهم جنَّات مختلفة الأصناف والأوصاف تجري من تحت قصورها وأشجارها الأنهار ماكثين فيها أبداً، لا يزول عنهم نعيمها، **والوعد الثاني:** أن يسكنهم قصوراً عظيمة في درجات مرتفعات في جنَّات ثبات واستقرار دائم، **والوعد الثالث:** رضوانُ الله الذي يُنَزِّلُه عليهم، يمنح المؤمنين في الجنة سعادة أكبر من السعادة التي يمنحها النعيم وأنواع اللذات الماديَّة والمعنويَّة المختلفة، ذلك الجزاء الرفيع النفيس الذي يناله المؤمنون والمؤمنات يوم الدين، هو الظفر والربح العظيم.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ
وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ
مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ
وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ ۚ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ
مِن فَضْلِهِۦ ۚ فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ
ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ
مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾ ۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ
ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾
فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ
﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟
ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟
أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ
ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ
ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا
جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ ۙ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾



٧٣ ـ يا أيُّها النبيُّ ويا كُلَّ مؤمن من أتباعه، ابْذل ما تملك من جَهْد، أو طاقة، أو مالٍ، أو علم، أو دعوة لمقاومة الكفار والمنافقين، وكن شديداً عليهم، فعاملهم بقسوةٍ وتعنيف، فقد تمادَوْا فيما هم فيه، ولم تُجْدِ معهم سياسة التغاضي، ومنزلهم الذي سيصيرون إليه، ويقيمون فيه دواماً جهنم دار العذاب يوم الدين.

٧٤ ـ للمنافقين خمس ظواهر سلوكيَّة يسترون فيها كفرهم: **الظاهرة الأولى**: يحلفون بالله كاذبين على أنَّهم ما قالوا شيئاً يُسيء إلى الرسول وإلى المسلمين، **والظاهرة الثانية**: أنهم قالوا كلاماً مكفِّراً يدلُّ على أنهم كافرون، **والظاهرة الثالثة**: وصول بعضهم بعد الصبر الطويل على كتم ما في قلوبهم، إلى أن يتفجَّر ما في باطنهم، فيُعلنوا في بعض مجالسهم الخاصَّة أمام بعض المسلمين الصَّادقين كُفْرَهُم، بعد أن كانوا أعلنوا إسلامَهُم واسْتسلامهم، **والظاهرة الرابعة**: توجَّهت نفوسهم دون أن تصل إلى مستوى الإرادة الجازمة للفتك بالنبيِّ ﷺ حينما كان راجعاً إلى المدينة من تبوك، بما لم يحصلوا عليه، إذْ أفسَدَ الله خططهم وخيَّبهم، **والظاهرة الخامسة**: أنهم ناقمون من الإسلام والرسول والمسلمين، على الرُّغم من كلِّ الخيرات التي استغْنَوا بها بسبب الإسلام، ولا يُوجد في الواقع أمر يقتضي نقْمتهم من الله ورسوله إلا أن الله تعالى تفضَّل عليهم، فأغناهم بما فتح على نبيِّه ﷺ من العطاء والخير، فإن يتوبوا إلى الله من كفرهم ونفاقهم، يَكُن ذلك خيراً لهم في العاجل والآجل، بتوبة الله عليهم، وبالظفر بالجنة مع أهل الإيمان، وإن يُدبروا ويبتعدوا عن الإيمان والتوبة، ويُصرُّوا على النفاق والكفر، يُعذِّبهم اللَّهُ عذابين: عذاباً أليماً معجَّلاً بالخزي والإذلال في الدنيا، وعذاباً أليماً مؤجَّلاً بالنار في الآخرة، وليس لهم أحدٌ يمنعهم من عذاب الله، أو ينصرهم في الدنيا والآخرة.

٧٥ ـ ومن فقراء المنافقين مَنْ أعطى الله عهداً: واللَّهِ لَئِن آتانا الله مالاً وفيراً من زيادات إحسانه، لنُخرِجَنَّ من ذلك المال صدقته، ولنعملنَّ في ذلك المال ما يعمله أهل الصَّلاح بأموالهم من وجوه البرِّ والخير.

٧٦ ـ فلمَّا استجاب الله دعاءهم، وآتاهم ما طلبوا من أموال، لم يفعلوا من أعمال البرِّ شيئاً، وابتعدوا عمَّا عاهدوا اللَّهَ عليه، والحال أنهم يعطون للتكاليف الربانيّة جانبهم؛ لأنهم في ظاهر أمرهم مسلمون لا يستطيعون أن يُدبروا، ويُظهروا بإدبارهم كفرَهُمُ الذي يُبْطنونه.

٧٧ ـ فجازاهم الله عَقِبَ نقضهم ما عاهدوا الله عليه، نفاقاً ثابتاً مُتَغَلْغِلاً في أعماق قلوبهم، لا يشفون منه، حتى نهاية آجالهم في الحياة الدنيا، ولقائهم ربَّهم منذ دخولهم عَتَبة الآخرة بالموت؛ وذلك بسبب أمريْن: **الأمر الأول**: بسبب إخلافهم ما عاهدوا الله عليه من الصَّدقة والإنفاق في سبيله، **والأمر الثاني**: بسبب كذبهم الذي كانوا يكذبونه في إعطائهم وعودَهُم، وفي ادِّعائهم أنهم مؤمنون صادقون.

٧٨ ـ ألَم يعلم هؤلاء المنافقون ممَّا سبق لهم في تجاربهم الكثيرة التي كشف الله ما يُسرُّون في قلوبهم، وما يُسارُّون به إخوانَهُم، أنَّ الله يعلم ما تنطوي عليه صدورهم من النفاق، ويعلم ما يفاوض به بعضهم بعضاً فيما بينهم، وأنَّ الله عالمٌ علماً ليس فوقه علم بجميع أفراد ما غاب عن حواسِّ وإدراك المخلوقات، لا يخفى عليه شيءٌ منها، فكيف تخفى عليه أحوالهم؟

٧٩ ـ الذين يعيبون المتبرِّعين من المؤمنين ذوي اليَسَار في بذلهم الصَّدقات بأنَّهم مُراؤون، إذا كانوا من المكثرين من صدقاتهم، ويعيبونَ الفقراء من المؤمنين الذين لا يجدون إلا الشيءَ القليل الذي يستطيعون بذله، وهو ما في طاقتهم أن يبذلوه؛ رجاء ما عند الله، يعيبونهم بأنهم يريدون التذكيرَ بأنفسهم، والإشعار بأنهم فقراء؛ لتُبْذَل لهم الصَّدقات، إنَّ المنافقين يستهزؤون بالمؤمنين في إنفاقهم المال القليل والكثير، سَخِرَ الله من هؤلاء المنافقين، وجازاهم على سُخريتهم بما كشف من فضائحهم، وجَعْلهم سخرية للناس أجمعين، ولهم عذابٌ أليمٌ في الآخرة ما لم يتوبوا من كفرهم ونفاقهم.

ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾

٨٠ ـ اسْتَغْفرتَ ـ يا رسول الله ويا كلَّ مؤمن من أتباعه ـ لهؤلاء المنافقين، أوْلم تستغفر لهم، فلن يغفر الله لهم، مهما كَثُر استغفارك لهم وتكرَّر؛ بسبب أنهم اختاروا الكفر على الإيمان بالله ورسوله، والله سبحانه لا يحكم للكافر الخارج عن طاعة الله خروجاً كلياً بأنه ذو هداية، ولو غَفَرَ لهم وهم كافرون فاسقون، لكان ذلك مساواةً لهم بالمؤمنين المَهْديين، وهو خلاف واقع حالهم، وهو سبحانه لا يحكم إلا بالحقِّ.

٨١ ـ سُرَّ المؤخَّرون في منازلهم وراء الخارجين إلى الجهاد في غزوة «تبوك» بقعودهم، وفرحوا بمكان قعودهم الذي وجدوا فيه الظلَّ والأنسَ والأمن، وفرحوا بزمان قعودهم، بعد رسول الله ﷺ، مخالفين له في قوله وعمله، وكرهوا الجهاد بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله؛ لأنهم لا يؤمنون بجدْوى هذا الجهاد لكفرهم بالرسول ﷺ ويوم الدين، وقالوا: لا تنْفِروا في شدَّة الحرِّ. قل ـ يا رسول الله ـ لهؤلاء الذين اختاروا الراحة والدَّعَة والقعود عن الجهاد في الحر: إنَّ نارَ جهنَّم التي هي موعدهم في الآخرة أشدُّ حراً من حرِّ الصَّيف الذي أُمروا أن يخرجوا مجاهدين فيه، لو كانوا يفهمون ذلك، لما كفروا ونافقوا.

٨٢ ـ فَلْيَضْحك هؤلاء الذين تخلَّفوا عن رسول الله ﷺ فرحين، ضَحِكاً قليلاً في الدنيا الفانية، وليبكوا يوم الدين بكاءً كثيراً ممَّا يذيقهم من عذابٍ في الآخرة، جزاءً بما كانوا يكسبون في الحياة الدنيا من شرٍّ وإثم وكفر ونفاق.

٨٣ ـ فإنْ رَدَّكَ الله ـ يا رسول الله ـ من غزوتك هذه إلى جماعةٍ من المُتخلِّفين عنك من المنافقين، فاسْتَأذنوك للخروج معك إلى غزوة أخرى، فقل ـ يا رسول الله ـ لهؤلاء الذين طلبوا الخروج، وهم مقيمون على نفاقهم: لن تَخرجوا معيَ مجاهدين مقاتلين في سبيل الله أبداً، ولن أسْمَحَ لكم بأن تقاتلوا معيَ عدواً أبداً، ولو داهم العدوُّ مواقعنا دون أن نخرج إليه غزاة؛ لأنكم رَضيتم بالقعود عن الخروج للقتال مع الرسول في أول مرة وجّه فيها إليكم أمراً إلزامياً بالخروج معه، بعد أن كانت الدعوات السابقة للخروج معه على سبيل الندب والتحريض، لا على سبيل التكليف الإلزاميّ، وبما أنكم رضيتم بالقعود خلاف رسول الله، عند أوَّل إلزام لكم بالخروج معه مجاهدين، وفرحتم بمقعدكم، وكرهتم أن تجاهدوا بأموالكم وأنفسكم، فاقْعُدوا مع العُصاة الكثيري الخلاف، ومع الفاسدين من الناس الذين لا خير فيهم.

٨٤ ـ ولا تُصَلِّ ـ يا رسول الله ويا كلَّ مؤمن من أتباعه ـ على أحدٍ من المنافقين ماتَ أبداً، ولا تقف على قبره، للدفن أو للزيارة والدعاء له، أو المكث عنده طويلاً؛ لأنَّهم كفروا بالله ورسوله، واستمرُّوا على ذلك طَوال حياتهم حتى ماتوا وهم فاسقون فسقاً من دَرَكَة الكفر. وفي الآية: تحريم الصلاة على الكافر، والوقوف على قبره، وأن دفنه جائز، ومفهومُهُ: وجوب الصلاة على المسلم ودفنه، ومشروعية الوقوف على قبره، والدعاء له والاستغفار.

٨٥ ـ ولا تُعجبك ـ أيها المؤمن ـ أموالُ هؤلاء المنافقين وأولادُهم، فإنَّ الله لا يُريد إكرامهم وإسعادهم بها، إنَّما يريد الله تعذيبهم بها في الدنيا، بما يحصل لهم من المتاعب والمشاقِّ في تحصيلهما، وحفظهما، والمصائب الواقعة فيهما، غير مثابين على ذلك، لأنَّهم لا يؤمنون بالآخرة، وتزول أنفسهم بخروج أرواحهم وانفصالها عنهم بشدَّةٍ وصعوبة، مفتونين بما يُحبُّون ويَهْوَوْن من أموال وأولاد، وهم كافرون، وبعد ذلك يَلقَون عذابهم الأكبر على كفرهم ونفاقهم.

٨٦ ـ وإذا أُنزلت سورةٌ من ربِّك تأمرهم أمراً مباشراً صريحاً، بأنْ أخلصوا الإيمانَ بالله، وتخلَّصوا مما أنتم فيه من نفاق، وجاهِدُوا مع رسوله ﷺ بأموالكم وأنفسكم، جاءك ـ يا رسول الله ـ أهلُ الغنى والثروة، والقدرة على الجهاد، وذوو المكانة العالية، من المنافقين، وطلبوا أن تأذن لهم في التخلُّف عن الجهاد، وتذرَّعوا بذرائع باطلة، واعتذروا بأعذارٍ كاذبة، وقالوا: اتركنا بسبب هذه الأعذار الباطنة التي لا تظهر للناس نكُن مع أصحاب الأعذار الظاهرة التي يراها الجميع، كالعُمْي والعُرْج والمرضى، ونحوهم.

رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ۞ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾



٨٧ ـ رضيَ هؤلاء المنافقون بما يُلفِّقون من أعذار كاذبة أن يكونوا في تخلُّفهم عن الجهاد كالنّساء الخوالفِ للرجال في البيوت، فهم رجالٌ في الصُّورة، لكنهم في الحقيقة بحكم النساء جبناً، وتهرُّباً من الواجبات التي يتحمَّل أعباءَها الرجال. وكان من نتيجة كفرهم وتولّيهم عن آيات الله البيّنات، أن جَرَت فيهم سنَّة الله، فأُقفلت قلوبُهم إقفالاً كاملاً، وطُبع على هذه الأقفال إيذاناً بأنّها غير مُستعدّةٍ لأن تفتح، فهم لا يفهمون فهماً دقيقاً حقائق الأمور، ويفسِّرون الأمور تفسيراتٍ سطحيَّةً بعيدةً عن حقائقها الخفيَّة عليهم؛ بسبب أنهم لم يؤمنوا بالله ورسوله إيماناً صادقاً صحيحاً، فتوقَّفت أفهامهم عند الظواهر السببيَّة، فلا يعلمون إلا ظاهراً من الحياة الدنيا.

٨٨ ـ إنْ تَخلَّفَ هؤلاء المنافقون ولم يُجاهدوا، فقد جاهَدَ مَنْ هو خيرٌ منهم؛ الرسول والذين آمنوا معه إيماناً صادقاً، جاهدوا فيما سبق بأموالهم وأنفسهم، ولم يَتوانَوْا ولم يتخلّفوا، وسيُجاهدون فيما يأتي طاعةً لله، وأولئك لهم وحدهم: النصر والغنيمة في الدنيا، والجنة والكرامة في الآخرة، وأولئك الفضلاء رفيعو المنزلة هم وحدهم الفائزون بما يحبّون.

٨٩ ـ أعدَّ الله لهم جنَّاتٍ تجري من تحت أشجارها وقصورها الأنهار، خالدين فيها أبداً، ذلك الظفر الكبير والربح العظيم.

٩٠ ـ وجاء المُعتذرون من سُكان البوادي إلى رسول الله ﷺ، يعتذرون إليه في التخلُّف عن الغزو معه بأعذارٍ كاذبة، وقعَدَ الذين كذَبُوا اللَّهَ ورسوله في ادّعائهم الإيمان عن المجيء للاعتذار، وهم منافقو الأعراب الذين ما جاؤوا، وما اعتذروا، سيُصيبُ الذين كفروا منهم عذابٌ أليم في دار العذاب يوم الدين.

٩١ ـ إنَّ الذين يُقبل عذرهم في التخلُّف عن الجهاد هم هؤلاء الأصناف الثلاثة: **الصنف الأول**: الضعفاء العاجزون الذين لا قُدرة لهم على القتال، ومعاناة الأعمال الشاقَّة، ومقاومة الأحداث الجسام التي يقاومها الرجال الأصحَّاء، كالشيوخ والنساء والصبيان، وأصحاب العاهات الدائمة والأمراض المُقْعدة، كأهل العَمَى والعرَج، **الصنف الثاني**: أصحاب الأمراض العارضة الطارئة، **الصنف الثالث**: الفُقراء العاجزون عن أُهبة الغزو والجهاد، الذين لا يجدون الزاد والراحلة والسلاح، ليس على هؤلاء الأصناف الثلاثة إثمٌ في التخلُّف عن القتال في سبيل الله المأمور به أمْرَ إلزام، إذا أخلصوا الإيمان لله، وتابعوا الرسولَ ﷺ، وسَعَوْا في إيصال الخير إلى أهل المجاهدين الذين خَرجوا إلى الغزو، ليس على مَنْ أحسنَ من أصحاب الأعذار، وأراد أن يتحمَّل المشاقّ، ويخرج مُجاهداً في سبيل الله، طريق يَقْتضي مُؤاخذتهم إذا لم يقوموا بهذه الأعمال؛ لأنهم غير مأمورين بها أمر إيجاب وإلزام، بل يُدعون إليها على سبيل النَّدب والترغيب، فإذا فعلوها كانوا من المحسنين أعلى مراتب المؤمنين، واللَّهُ كثير السَّتْر لمن تخلَّف عن الجهاد بعُذْرٍ ظاهر أباحه الشرع، دائم الرحمة بعباده المحسنين.

٩٢ ـ وكذلك لا حَرَجَ ولا إثمَ في التخلُّف عنك، على الذين إذا أَتَوْكَ ـ يا رسول الله ـ يسألونك أن تحملهم ليبلغوا إلى قتال عدوِّك والجهاد معك. قلتَ لهم: لا أجدُ ما تحتاجون إليه لتخرُجوا مع المقاتلين، فانصرفوا عنك، حالة كون أعينهم قد امتلأت دمعاً، فجعلت تسيل من أعينهم على وجوههم؛ لأجل الحزن الذي في قلوبهم ونفوسهم على ما فاتهم من شَرَفِ الجهاد في سبيل الله؛ لأنّهم لم يجدوا ما ينفقون على أنفسهم في الجهاد.

٩٣ ـ ما طريق المُؤاخَذة الشرعيَّة إلا على الذين يَسْتأذنونك ـ يا رسول الله ـ في التخلُّف عنك والجهاد معك، وهم قادرون بأجسادهم وأموالهم على الخروج معك، رضُوا بالدناءة والانتظام في جُملة القواعد من النساء، الخوالف للرجال في البيوت، وطبع الله على قلوبهم، وضُرب عليها بالأقفال، وبلغت مبلغاً من القسوة والجفاف، فهي لا تتأثَّر ببيان، ولا تستجيب لموعظة، وسبب هذا الطبع: نفاقهم وتماديهم في المعاصي والذنوب، فهم لا يفهمون فهماً دقيقاً حقائق الأمور، ويفسِّرون الأمور تفسيراتٍ سطحيَّةً بعيدةً عن حقائقها الخفيَّة عليهم.

يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٩٦﴾ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾

٩٤ ـ يعتذرُ المنافقون من الأعراب الذين قَعَدوا مُتخلِّفين عن غزوة «تبوك» إليكم ـ أيها المؤمنون المجاهدون ـ بالأعذار الباطلة الكاذبة، إذا رجعتم إليهم من سفركم. قل لهم ـ يا رسول الله ويا كلَّ مؤمن ـ: لا تُلفِّقوا الأعذار الكاذبة، لن نُصدِّق أقوالكم فيما اعتذرتم به، ولن نطمئنَّ لكم، قد أخبرنا الله فيما سَلَف من أخباركم، وأنكم تخلَّفتُم عن غزوة «تبوك» بغير عذر، والدافع لكم على تخلُّفكم نفاقكم، وأمامكم فرصةٌ للتوبة في المستقبل، وللاستقامة والعمل الصالح، وسَيرى اللهُ عملَكُم ما ظَهر منه وما بَطَن، وسيرى رسوله في تجارب المستقبل عملكم إن أطعتم وإن عَصَيْتُم، فإن تُبتُم واستقمتُم قَبِلَ الله توبتَكم، وصَفَحَ رسوله عنكم، وإنْ أصررتم على ما أنتم عليه عرَّضتم أنفسكم للمُؤاخذة والعقاب، ثمَّ ترجعون بعد مماتكم إلى الله الذي هو عالم الغيب ممَّا غاب عن ذوي الإدراك من خلقه، وعالم الشهادة من الأكوان الظاهرة التي تُدرك بالحواس، فيخبركم في موقف الحساب وفصل القضاء بكلِّ ما كنتم تعملون من أعمال باطنة وظاهرة؛ لأنَّه هو المُطَّلع على ما في ضمائركم من الخيانة والكذب وإخلاف الوعد.

٩٥ ـ سَيَحلِفُ لكم المتخلِّفون بالمدينة من الأعراب الذين قعدوا متخلِّفين عن غزوة «تبوك»، إذا رجعتم من سفركم إليهم، لتصفحوا عنهم ولا تؤنِّبوهم بسبب تخلُّفهم، فَدَعُوهم وما اختاروا لأنفسهم من النفاق، وليكن إعراضكم عنهم إعراضَ ساخطٍ عليهم، كارهٍ لأكاذيبهم وألاعيبهم، إنَّهم نجسون نجاسة معنويةً مُغلَّظة، لأنهم جمعوا نجاسة الكفر، ونجاسة النفاق، فتحوَّلت ذاتهم الداخليَّة إلى نجاسة، وظهرت آثار نجاستهم الفكرية والاعتقادية والخلقية في سلوكهم، ولا يصلح لتطهيرهم من نجاستهم إلا النار، ومَسْكنُهم في الآخرة جهنَّم يصيرون إليها جزاءً بما كانوا يكسبون من الكفر والنفاق والأعمال الخبيثة في الدنيا.

٩٦ ـ يحلِفُ لكم هؤلاء المنافقون كذباً؛ لتُعرضوا عن مُؤَاخَذتهم، ولِتَرضَوْا عنهم، فإنْ رضيتُم عنهم ـ أيُّها المؤمنون ـ بما حَلَفوا لكم، وقَبِلْتُم عُذرهم، وهو أمرٌ مُستبعدٌ وقوعه منكم، فإنَّ الله يعلمُ ما في قلوبهم من الشَّكِّ والنفاق، فلا يَرضى عنهم أبداً.

٩٧ ـ أهل البادية إذا ما كفروا ونافقوا أشدُّ كفراً ونفاقاً من أهل الحَضَر الكفار والمنافقين؛ لما في طبائعهم المكتسبة من البيئة من نفور، وعدم استسلام، واعتيادٍ على عدم الطاعة والانقياد، ودُربةٍ على المُصَانَعة والمُداهَنَة والمُخادَعة، وهم أكثر قابليَّةً للجهل بأمور الدين، وأحرى بأن لا يعلموا الفرائض والسُّنن والأحكام، لبُعدهم عن مراكز التوجيه والتعليم، ونشأتهم في معزل عن مجالسة العلماء بالدين، والله عليمٌ بتأثير البيئة البدويَّة على الأعراب، حكيمٌ في اختيار الأفضل لعباده، ممَّا يوجب على المسلمين تهيئة بيئةٍ صالحة للأعراب، تُساعدهم على اكتساب العلم النافع، وفضائل الأخلاق، وأنواع السلوك الحضاري الراقي.

٩٨ ـ ومن ظواهر نفاق سكَّان البادية: ظاهرتان ناتجتان عن كفرهم بالله واليوم الآخر باطناً، **الظاهرة الأولى**: أنّ منهم من لا يرجُو على إنفاقه ثواباً، ولا يخاف على إمساكه عقاباً، ويعتقد أنَّ الذي يُنفقه في سبيل الله غرامة وخسارة؛ لأنَّه لا ينفق ذلك إلا خوفاً من المسلمين، أو مُراآةً لهم، **والظاهرة الثانية**: انتظارهم أن ينزل بالرسول وبكم شراً، للتخلُّص منكم، بل يتقلَّب عليهم وحدهم الزمان، ويدور السوء والبلاء بهم، ولا يَرَوْنَ في محمدٍ ﷺ وأصحابه ودينه إلا ما يسوؤهم، واللَّهُ سميعٌ لأقوالهم، عليمٌ بما يُخفون في ضمائرهم من النفاق والغش وإرادة السوء للمؤمنين.

٩٩ ـ ويوجد في مجتمع المسلمين إبَّان غزوة «تبوك» **خمسة أقسام رئيسيَّة**: من المؤمنين: الصَّادقين المُستوفين لحدود مرتبة التقوى، والمؤمنين الصَّادقين السابقين في فعل الخيرات، ومن المنافقين، ومن العُصاة التائبين المستغفرين، والعُصاة المسرفين:

القسم الأول: يوجد من سكان البادية مَنْ يؤمنُ بالله واليوم الآخر إيماناً صحيحاً صادقاً، ويطلب بما ينفق القُربة إلى الله تعالى، ويرغبون في دعاء النبيِّ ﷺ واستغفاره. تنبَّهوا وتحقَّقوا إنَّ نفقَتَهم التي ينفقونها طاعةً لله وتقرُّباً إليه، واستدعاءً لدعاء الرسول لهم بالرحمة، هي لهم قُربَةٌ مقبولةٌ عند الله، سَيُدخلهم الله في رحمته الواسعة الشاملة لغفرانه وعفوه وجنَّته، إنَّ الله كثير السِّتر للمؤمنين المنفقين في سبيله، دائم الرحمة بهم.

وَالسَّٰبِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَٰجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ وَءَاخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾

١٠٠ - **والقسم الثاني**: المؤمنون الصادقون السَّابقون في فعل الخيرات وأعمال البرِّ والإحسان، زيادةً على واجبات مرتبة التقوى، الأوَّلون من أتباع محمد ﷺ الذين سَبَقوا إلى الهجرة والنُّصْرة، ففارقوا الوطنَ والعشيرة، ونصروا رسول الله ﷺ على أعدائه، وآووْهُ وَواسَوْهُ، والذين اتَّبعوهم بإحسان من بقيَّة المهاجرين والأنصار سوى السابقين الأوَّلين، وممَّن اقتدى بهم ممَّن سيأتي بعدهم إلى أن تقوم الساعة، رضيَ الله عنهم بسبب ما قدَّموا من أعمال صالحة ابتغاء مرضاته، ورضُوا عنه في مقاديره في الدنيا، وأعطاهم ممَّا يُرضيهم فوق ما يخطر على بالهم، وهيَّأ لهم جنَّاتٍ تجري تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً، ذلك الثواب الرفيع هو الربح والظفر العظيم.

١٠١ - **والقسم الثالث**: بعضُ مَنْ حولكم من سكان البادية منافقون منازلهم حول المدينة، وبعض أهل المدينة من الأوْس والخزرج منافقون مَرَنوا على النفاق، وصارت لهم به ممارسة مستديمة، وخبرة طويلة، وبلغوا في النفاق إلى حيث أنك لا تعلمهم - يا رسول الله - علماً مُستغرقاً لكلِّ أفرادهم، لكن نحن نعلمهم؛ لشمول علمنا بواطن الأمور وأسرار قلوب العباد، سنعذِّبهم مرَّتين: **المرَّة الأولى**: الفضيحة في الدنيا، **والمرَّة الثانية**: عذاب القبر بعد الموت، ثمَّ يُرَدُّون إلى عذاب النار في الآخرة.

١٠٢ - **والقسم الرابع**: العصاة التائبون المستغفرون، وهم قسم آخرون ممَّن حَوْلكم من الأعراب، ومن أهل المدينة من المؤمنين، تخلَّفُوا عن رسول الله ﷺ في غزوة «تبوك»، ثم ندموا على ما فعلوا، وأقرُّوا بذنبهم، ولم يعتذروا عن تخلُّفهم بأعذار باطلة، جمعوا جمعاً مختلطاً أعمالاً مختلفة، عملاً صالحاً، وآخرَ سيِّئاً، فتعادلت حسناتهم وسيئاتهم، يرجون أن يتوب الله عليهم، ويُعفيهم من العقاب عن سيئاتهم، لاعترافهم بذنوبهم، وصدق توبتهم؛ إنَّ الله كثير السَّتْر لعباده، دائم الرحمة بهم.

١٠٣ - خُذْ - يا رسول الله - من هؤلاء التائبين الذين خَلَطوا أعمالهم بعضها ببعض، عملاً صالحاً وآخر سيِّئاً، ما يبذلون من أموالهم صَدَقةً تُطَهِّرهم بأخذها من دَنَس الآثام، وترفعُ منازلهم عن منازل المنافقين إلى منازل المُخلصين، وتنمّي بها حسناتهم وأموالهم، وادعُ لهم واستغفر لهم؛ إنَّ دعاءك واستغفارك طمأنينةٌ لقلوبهم ورحمة لهم، تسكن به قلوبهم ونفوسهم من القلق والاضطراب الذي نزل بها؛ بسبب ما أصابوه من الذنوب، والله سميعٌ لدعائك، عليم بأعمالهم ونيَّاتهم.

١٠٤ - قد سبق أن علم هؤلاء الذين تابوا أنَّ الله يقبلُ التوبةَ الصَّادقة مُتجاوزاً عن سيِّئات عباده، ويقْبلُ الصَّدقات الخالصة، ويُثيبُ عليها، فلا داعي لقلقهم واضْطرابهم ممَّا فعلوا من ذنب، بعد أن تابوا واستغفروا وتصدَّقوا، وأنَّ الله هو الذي يتوب على عباده كثيراً، وهو دائم الرحمة بهم.

١٠٥ - وقل - يا رسول الله - لهؤلاء التائبين: قد تداركتم ما وقعتم فيه من ذنب فيما مضى بالتوبة والاستغفار، وبذل الصدقات، فتاب الله عليكم، فأروا الله ورسوله والمؤمنين في المستقبل أعمالاً صالحات، واستقامة على الطاعات، وبُعداً عن ارتكاب السيِّئات، فسيرى الله أعمالكم ويُجَازيكم عليها، ويرى رسولُ الله ﷺ بإطلاع الله إيَّاه على أعمالكم، ويرى المؤمنون أعمالكم، فيشهدون لكم بما يَرَوْنَ منكم، ويُعاملونكم بمقتضى ما تحوّلتم إليه من خير وصلاح واستقامة، وبعد ذلك ستموتون، وستُرجعون يوم القيامة إلى مَنْ يعلم سرَّكم وعلانيتكم، ولا يخفى عليه شيءٌ من بواطنكم وظواهركم، فيُخبركم بما كنتم تعملون في الدنيا من خيرٍ أو شرٍ، ويُحاسبكم على أعمالكم الظاهرة والباطنة، ويُجازيكم بحكمته وَفْق مُقتضى عدله أو فضله.

١٠٦ - **والقسم الخامس**: من هؤلاء المُتخلِّفين عنكم - أيُّها المؤمنون - في غزوة «تبوك»: عُصَاةٌ مُسرفون على أنفسهم، مستغرقون في معاصيهم، مُؤَخَّرون لحكم الله فيهم، لم يُسارعوا إلى التوبة، أَمْرُهُم إلى الله تعالى، إنْ شاءَ عذَّبهم بسبب تخلُّفهم، وإنْ شاءَ غَفَر لهم وعَفَا عنهم، واللَّهُ عليمٌ بما في قلوبهم، حكيمٌ بما يقضي عليهم، وهو بحكمته يضع كُلاًّ من عفوه أو عقابه في الموضع المُلائم، لا يظلم أحداً مثقال ذرة.

وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا وَكُفۡرٗا وَتَفۡرِيقَۢا بَيۡنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَإِرۡصَادٗا لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبۡلُۚ وَلَيَحۡلِفُنَّ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمۡ فِيهِ أَبَدٗاۚ لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ فِيهِ رِجَالٞ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنۡ أَسَّسَ بُنۡيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقۡوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٍ خَيۡرٌ أَم مَّنۡ أَسَّسَ بُنۡيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٖ فَٱنۡهَارَ بِهِۦ فِي نَارِ جَهَنَّمَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنۡيَٰنُهُمُ ٱلَّذِي بَنَوۡاْ رِيبَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾ ۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١١١﴾

١٠٧ - وأخصُّ بالذكر من المنافقين الذين بنَوْا مَسجداً؛ لأجل المخالفة للمؤمنين وإنزال الضرر بهم، وتقويةً للكفر الذي يضمرونه في قلوبهم، وتفريقاً بين المؤمنين من أهل «قُباء»، حَسَداً لهم على اجتماعهم، وطمعاً في اختلاف كلمتهم، وانتظاراً وإعداداً لمن حارب اللَّهَ ورسولَهُ من قبل بناء هذا المسجد - وهو أبو عامر الراهب الفاسق - وذلك بإعداد العُدَّة اللازمة لقتال المسلمين، وبانتظار الوقت الملائم لتنفيذ مؤامرة الانقضاض على المسلمين في المدينة، حينما يأتي «أبو عامر» ومعه جندٌ من قيصر، وَلَيحلِفُنَّ هؤلاء المنافقون الذين بَنَوا المسجدَ الأيْمانَ الكاذبة حين يذهب مبعوثو الرسول لهدم مسجدهم وتحريقه: ما أردنا ببنائه إلا الغاية الحُسْنى، وهي الرفق بالمسلمين، والتوسعةُ على الضعفاء العاجزين عن السَّيْر إلى مسجد «قباء»، واللَّهُ يشهدُ إنَّهم لكاذبون في قولهم وَحَلِفِهِم.

١٠٨ - لا تستجبْ - يا رسول الله - لدعوة الذين بَنَوْه في أن تصلِّيَ لهم فيه، بل لا تدخل ولا تَقُمْ فيه أبداً؛ لأنه وكرٌ لتآمر المنافقين فيجب هدمه ومحو أثره، وكذلك كل ما كان على شاكلته، ممَّا ظاهره الخير وباطنه الشر. لَمَسْجِدٌ آخر - غير مسجد الضرار الذي نَهينا عن القيام فيه - موصوف بأنه أُسِّس على تقوى الله عزَّ وجلَّ من أوَّل يوم بُني، وهو مسجد الرسول ﷺ، ومسجد «قباء»، أكثر استحقاقاً أن تمكث فيه زمناً ما للعبادة بالصلاة أو غيرها، فيه رجالٌ يحبُّون أن يتطهَّروا: طهارة الباطن من الكفر والنفاق والمعاصي، وطهارةَ الظاهر من الأحداث والنجاسات بالماء؛ لأنهم مؤمنون صادقو الإيمان، وحريصون على أن يظفروا بمحبَّة الله لهم، والله يُحبُّ المُتطهِّرين، ومَنْ أحبَّه الله ضاعف له الثواب على أعماله، وزاده منه قُرباً، وغمره بفيوض إحسانه.

١٠٩ - أفمن عمل أعمالاً صالحةً في مظهرها وحقيقتها، ومثلُها كبناء حسّيٍ من الأبنية الماديَّة، وهذه الأعمال ترتكز على قاعدتين عظيمتين: **الأولى:** قاعدة اتِّقاء عذاب الله بأداء فرائضه واجتناب نواهيه، **والثانية:** قاعدة رضوان الله بالتوسُّع في أعمال البرِّ والإحسان، وهاتان القاعدتان المعنويتان تشبهان أرضاً صُلبةً راسخة ثابتة، أفصاحب هذا البناء خيرٌ أم صاحب البناء الذي أسَّسه على أعمال صالحة في مظهرها، إجراميَّة في حقيقتها، ومثلها كبناء حسّيٍ من الأبنية الماديَّة، وهذه الأعمال ترتكز على النفاق، وهذا النفاق يشبه طرف حفرة متداعية للسقوط، فلا يلبث البناء أن يرتفع قليلاً حتى ينهار في الوادي، وكذلك ينهار البناء المعنوي الذي يُؤسِّسه المنافق، في نار جهنم؟! والله لا يحكم بالهداية للقوم الظالمين المُستجمعين لعناصر الظلم التي يكفر بها مرتكبها.

١١٠ - لا يزال بنيانُ المنافقين الذين بنوه مُضارَّة لمسجد «قُباء» شكاً ونفاقاً مُتمكِّناً في قلوبهم؛ لأنهم بنوه لتفريق كلمة المؤمنين، وليدبِّروا فيه الكَيْد للمسلمين، وحين هُدم رسخ ما في قلوبهم من الشكِّ والنفاق، وهذه الريبة باقيةٌ في قلوبهم إلى أن يموتوا عليها، واللَّهُ عليمٌ بأحوالهم، حكيمٌ فيما حكم به عليهم.

١١١ - إنَّ الله اشترى شراءً جازماً من المؤمنين أنفسهم التي خَلقها، وأموالهم التي رزقهم إيَّاها، بأن يَبْذلوا طائعين مختارين، المالَ لإعداد وسائل الجهاد، ونشر الإسلام في الأرض، ويَبْذلوا النفوسَ للقتال في سبيل الله وقمْع الكفرة المحاربين للإسلام والمسلمين، مُقابل ثمنٍ يدفعه لهم جَزْماً هو الجنة، يُقاتلون في سبيل الله؛ لإعلاء كلمته وإظهار دينه، فَيَقْتُلونَ أعداءَ الله، ويُستشهدون في سبيله، ذلك الوعد الذي وَعَدَهُ الله تعالى للمجاهدين في سبيله قد أثْبَتَه الله في التوراة المُنزَّلة على موسى عليه السلام، والإنجيل المُنزَّل على عيسى عليه السلام، كما أثبته في القرآن المُنزَّل على محمد ﷺ، ولا أحدٌ أوْفىٰ بالعهد من الله لمَنْ وفَّى بما عاهد الله عليه. فافرحوا - أيُّها المؤمنون المبايعون - واستمتعوا بالسُّرور الذي ينزل بكم، بسبب النعيم المقيم في الجنَّة الذي تنالونه عوضاً عمَّا تبذلونه ببيعكم الذي بايعتم به ربَّكُم، وذلك العوض الرفيع المنزلة، وهو وحده الرِّبح الكبير والظفر العظيم الذي لا يساويه ولا يفوقه فوز آخر.

التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۚ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١١٧﴾

١١٢ ـ هذا الوعد بالجنَّة للمجاهدين الموصوفين بهذه الأوصاف الثمانية: **الصفة الأولى**: التائبون الذين تابوا من الشِّرك وبرؤوا من النفاق ومن جميع المعاصي، **الصفة الثانية**: المطيعون لله الخاضعون له المخلصون في عبادته، **الصفة الثالثة**: المحافظون على الثناء على الله بما هو أهله من صفات الكمال، وبما هو مُنزَّه عنه من صفات النقص، الذين يحمدون الله تعالى على كلِّ حال في السَّرَّاء والضَّرَّاء، **الصفة الرابعة**: المجاهدون في سبيل الله، ولنشر دعوة الإسلام في الأرض، **الصفة الخامسة**: الذين يقيمون الصَّلاة ويُحافظون عليها، الراكعون السَّاجدون فيها، **الصفة السادسة**: المواظبون على القيام بوظيفة الأمر بالمعروف داخل المجتمع المسلم، وهو ما جاء تحسينه والأمر به في الإسلام حتى صار معروفاً، **والصفة السابعة**: المواظبون على القيام بوظيفة النهي عن المنكر داخل المجتمع الإسلامي، وهو ما جاء تقبيحه والنهي عنه في الإسلام، حتى صار أمراً مُسْتَقْبَحاً يستنكرونه ويعيبون من يفعله، **والصفة الثامنة**: الحافظون لأوامر الله ونواهيه، بعدم الاقتراب منها، وذلك في مستوى الحذر والورع والكمال الإيمانيِّ، والبُعد عن مزالق الخطر، وبعدم تجاوزها، فإنَّ من دَخَل الحدَّ تجاوزه حتماً؛ لأنه لا يدخل فيه إلاَّ بأن يمسَّ منطقة الحرام، وبشِّر ـ يا رسول الله ويا كُلَّ داعٍ إلى الله من أمَّته ـ جميعَ المؤمنين المُتَّصفين بهذه الأوصاف برضوانِ الله وجنَّته.

١١٣ ـ ما جعل الله بتقديره وقضائه الحكيم للنبيِّ والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين؛ لأن الاستغفار للمشرك يتضمَّن سؤال الله أن يُغيِّر قانونه العام بشأن المشركين، وهو: أن الله لا يغفر لهم، وفي هذا تَجاوزٌ لحدود أدب الدعاء، وهو شبيهٌ بطلب تغيير واقع حال المُستحيلات العقلية، فالاستغفار للمشركين عَمَلٌ لم يأذن الله به في شريعته لعباده، ولو كان المشركون أصحابَ قَرابةٍ لهم، من بعد ما ظهر لهم إصرارهم العنيد على الكفر، أو موتهم وهم كافرون. فمن أظهر عِناده وإصراره على الكفر بعد كلِّ وسائل الإقناع، ومات على كفره، فقد تبيَّن أنه كافرٌ من أصحاب النَّار المُتأجِّجة الملازمين لها، المخالطين لألوان عذابها.

١١٤ ـ وما كان طلبُ إبراهيم عليه السلام لأبيه المغفرةَ من الله إلا من أجل موعدةٍ وَعَدَها إيَّاه، أنْ يستغفر له رجاءَ إسلامه، فلمَّا تبيَّن لإبراهيم أنَّ أباه عدوٌّ لله، تبرَّأ منه، ولم يكن عليه السلام مُخالفاً فيما فعل حكماً شرعياً كان قد تبلَّغهُ عن طريق الوحي، وما فعله كان اجتهاداً منه لم يُوافِق فيه وَجْهَ الصواب؛ إنَّ إبراهيم كثيرُ الحُزن والتوجُّع من أجل أبيه وقومه الكافرين، إذ كان حريصاً على نجاتهم بالإيمان من الخُلود في عذاب الجحيم، صبورٌ على الأذى، بطيء الغضب، صفوحٌ عمَّن أتاه بمكروه، يُقابله بالإحسان واللطف.

١١٥ ـ وما كان اللَّهُ ليحكم على قوم بالضلال، بسبب استغفارهم لموتاهم المشركين دون علم منهم بالنهي عن ذلك، بعد إذْ حكم الله لهم بالهداية، بسبب ما كسبوه من إيمان وعمل صالح، حتى يُبيِّن لهم المُحرَّمات التي يجب عليهم أن يتَّقوها، ويبتعدوا عن اقترافها، فإن ارتكبوها بعد أن يبيِّنها الله لهم، حكم عليهم بالضلالة لمخالفتهم حكم الله؛ إنَّه سبحانه عليمٌ بما خالط نفوسكم من الخوف عندما نهاكم عن الاستغفار للمشركين، ويعلم ما يُبيِّن لكم من أوامره ونواهيه.

١١٦ ـ إنَّ الله سبحانه له مُلك السموات والأرض، وما فيهما عبيدُه مَملوكون له، يحكم فيهم بما يشاء وَفْق حكمته، وهو المستحقُّ للطاعة والعبادة، يُحيي الأحياء على اختلاف أنواعها ورُتَبها في سُلَّم الحياة، ويُميتها بنزع ما به تكون حياتها، وهي الرُّوح التي هي من أمره التكوينيِّ، إنَّه سبحانه وليُّكم وناصرُكم، ليس لكم غيره يمنعكم من عدوِّكم، وينصركم عليهم.

١١٧ ـ نؤكِّد تأكيداً مشدَّداً أنَّ الله سبحانه تجاوز وَصَفَح عن النبيِّ ﷺ بتركه الأفضل بإذنه للمنافقين بالتخلُّف عن غزوة «تبوك»، زيادةً له في القُرب، وارتقاءً في دَرَجات المرتبة العليا، وتابَ على المهاجرين والأنصار؛ لأجل ما وقع في قلوبهم من المَيْل إلى القعود عن غزوةِ «تبوك». وسبب توبته عليهم وضمِّ ذكر النبيِّ ﷺ إلى ذكرهم تنويهاً بفضلهم: أنهم اتَّبعوا رسولَ الله ﷺ في تلك الغزوة في وقت الشِّدَّة والضيق، من بعد ما قَرُب أن تميلَ قلوبُ بعضهم عن الحقِّ من أجل المشقَّة والشِّدة التي نالتهم، إنَّه سبحانه عَلِمَ إخلاصَ نيَّتهم، وصدقَ توبتهم، فرزقهم الإنابَةَ والتوبةَ، فقبل توبتهم وعَفَا عنهم؛ إنَّه سبحانه شديد الرحمة بهم، ومن آثار رأفته: صَفْحُه عنهم، وجُودُهُ وإحسانُه، وعفوُه وغفرانُه، وهو سبحانه واسع الرحمة بهم، ومن آثار رحمته: إزالة المشقَّة والبؤس عنهم، وإمدادهم بما يَسُرُّهم من خير.

وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾ ۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾

١١٨ ـ وتاب أيضاً على الرجال الثلاثة من الأنصار، وهم: (كعب بن مالك، وهلال بن أميَّة، ومرارة بن الربيع) الذين تخلَّفوا عن غزوة «تبوك»، ولم يخرجوا مع رسول الله ﷺ فيها، واعترفوا بذنبهم، وبيَّنوا أنهم لم يكن لهم عذر في التخلُّف، فأعلن الرسول مقاطعتهم، وأمر المسلمين بذلك، حتى إذا ضاقَتْ عليهم الأرض بما اتَّسعت، وضاقَتْ عليهم أنفسُهم من شدَّة الغمِّ والحزن ومُجانبة الناس إيَّاهم، وترك كلامهم، وظنُّوا أنَّ الله معاقبهم على تخلُّفهم، وإذا تحقَّق ظنهم، وقضى عليهم بالعقاب فلا مَفْزَعَ ولا مفرَّ من الله إلاَّ إليه، ولا عاصمَ من عذابه إلا هو، فرحمهم بقبول توبتهم، ثمَّ من بعد قبول توبتهم الأولى تاب الله عليهم، وأقبل عليهم بفيض عطائه، وأمدَّهم بلطائف أنواره، ليتوبوا إليه توبة أسمى من توبتهم الأولى، وليرجعوا إليه سبحانه بمزيدٍ من الأعمال الصَّالحات، ومزيد من المراقبة والإخلاص، حتى يكونوا من المحسنين، إنَّ الله هو كثير القبول لتوبة التائبين، دائم الرحمة بهم.

١١٩ ـ يا أيُّها الذين صدَّقوا بأركان الإيمان، واتَّبعوا شريعة الإسلام، التزموا طاعة الله ورسوله، ولا تعصوا بترك الواجبات وفعل المحرَّمات؛ لتتَّقوا عقاب الله العاجلَ والآجل، وكونوا مع الصَّادقين الذين صَدَقوا في إيمانهم، وإسلامهم، وأقوالهم، وأعمالهم، التي تُعبِّر عن إيمانهم تعبيراً صادقاً لا رياء فيه ولا سمعة، وكونوا مع مَنْ صَدَق النبيَّ ﷺ وأصحابه في الغزوات، ولا تكونُوا مع المُتخلِّفين من المنافقين الذين قعدوا في البيوت، وتركوا الغزو. وهذا الخطابُ الإلهيُّ للمؤمنين هو الخامس في هذه السورة.

١٢٠ ـ ما كان ينبغي لساكني «المدينة» من المهاجرين والأنصار، ومَنْ حَوْلهم من سكَّان البوادي من الأعراب أن يتخلَّفوا في أهلهم ودُورهم عن رسول الله ﷺ إذا دعاهم إلى الخروج معه مقاتلين في سبيل الله، على مثل دعوته إيَّاهم الخروج لغزوة «تبوك»، وما كان لهم أن يختاروا لأنفسهم الراحة والدَّعَة، ويتركوا مُصَاحبته والجهاد معه في حالِ الشدَّة والمشقَّة؛ والسبب الداعي إلى أن يحرص المسلمون على أن لا يتخلَّفوا عن رسول الله إذا خرج مقاتلاً في سبيله، ودعاهم إلى الخروج معه، وأن لا يتخلَّفوا عن أمير المؤمنين من بعده إذا دعاهم إلى ذلك؛ أنَّهم لا يُصيبهم في سفرهم وغزواتهم عطشٌ بسبب نفاد الماء، وانعدام مصادره في طريقهم، ولا تعبٌ أو إعياء مهما كان قليلاً، ولا مَجاعةٌ شديدةٌ في سبيل الله، ناشئة عن خلوِّ البطن من الغذاء، ولا يضعون قَدَماً على الأرض أو تَضعُها دوابُّهم أو مراكبهم، يكون سبباً لغيظ الكفار وغمِّهم وحزنهم، ولا يصيبون من عدوٍّ أسْراً أو قتلاً أو هزيمةً أو غنيمةً أو نحو ذلك قليلاً كان أو كثيراً، إلا كَتَب الله لهم بذلك ثوابَ عمل صالح قد ارتضاه لهم وَقَبِلَهُ منهم، إنَّ الله لا يضيع أجر المحسنين الذين يحققون أعلى مراتب المؤمنين.

١٢١ ـ ولا يُنفقون في خروجهم مجاهدين سبيل الله نفقةً صغيرةً ولا كبيرةً، طيِّبةً بها نفوسُهم، ولا يُجاوزون في رحلتهم الجهادية وادياً منفرجاً بين الجبال أو التلال، مُقْبلين أو مُدبرين فيه، إلا كَتَبَ الله لهم آثارهم وخُطاهم ونفقاتِهم؛ ليكافئهم الله ويُثيبهم فيعطيَهم في الجنة أجر أحسن ما كانوا يعملون في الدنيا من أعمال صالحة من الواجبات والقُربات والمباحات المقْرونات بنيَّات صالحات، فيثيبهم على كلِّ أعمالهم الصالحة؛ لأنها هي الأحسن من سائر أعمالهم المباحة والسيِّئة، ويعطيهم أكثر مما عملوا ضمن قانون المكافآت: الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمئة إلى أضعاف كثيرة.

١٢٢ ـ ليس من شأن المؤمنين العاملين بوصايا الله أن يخرجوا جميعاً إلى الجهاد؛ لئلا يتعرَّضوا لاحتمال الاستئصال إذا هُزموا، فهلاَّ خرج للقتال إذا دعا داعي القتال من كلِّ فرقة جماعةٌ مُحدَّدةٌ بعددها وتخصُّصاتها؛ ليتفقَّهوا عن طريق التجارب والمُمارسات العمليَّة في أمور القتال وفنون الحرب، وليُنْذروا قومَهُم إذا رَجَعوا إليهم من الغزو بما اكتسبوا من معلومات يُعتبر الجهل بها ثُغرة خطرٍ على الإسلام والأمَّة الإسلاميَّة؛ رجاء أن يحذروا مواطنَ الخطر، فيتَّخذوا الأسباب والوسائل الواقية والكفيلة بإحباط وسائل الأعداء، والأسباب والوسائل التي يُرجى منها تحقيق النصر مما يباغتون الأعداء به.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُواْ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾

سُورَةُ يُونُسَ — آياتها ١٠٩ — رتيبها ١٠

١٢٣ ـ يا أيُّها الذين صدَّقوا بأركان الإيمان، واتَّبعوا شريعة الإسلام ابْدؤوا بقتال الأقْرب فالأقْرب إلى دار الإسلام، ولا تنتقلوا في عمليات قتال الأعداء من الكفار إلى قتال الكفار البعداء حتى تنتهوا من تصفية مشكلاتكم مع الأعداء الأقربين إليكم، المجاورين حدود أرضكم وبلادكم؛ لسهولة التغلُّب عليهم، ولإلقاء الرُّعب في قلوب الآخرين، ممَّن هم أشدّ قوةً، وأعظم بأساً، وأكثر عدداً ومَدَداً، ولْيَجِد الكفار في قتالكم لهم شدَّةً وقوةً وشجاعةً، واتقوا الله دواماً في السِّلم والحرب، واعلموا أنَّ الله مع المتَّقين بالعون والنصر. وهذا الخطاب الإلهيُّ هو السادس والأخير للمؤمنين في هذه السورة، وقد تقدَّم في الآيات: ٢٣ و٢٨ و٣٤ و٣٨ و١١٩.

١٢٤ ـ وإذا أنزل الله عزَّ وجلّ سورةً جديدةً من سُوَر القرآن على رسوله، يقول بعض المنافقين لبعض على سبيل الاستهزاء: أيُّكم زادتْه هذه السُّورة تصديقاً ويقيناً بأنَّ محمداً رسول الله، وأن هذا الكلام مُنزَّل من عند الله حقاً وصدقاً؟ فأمَّا الذين آمنوا، فزادهم نزول السُّورة تصديقاً ويقيناً يُضاف إلى مقْدار إيمانهم السابق، والحال أنهم فرحون مسرورن بنزول القرآن شيئاً بعد شيء؛ لأنهم كلَّما نزل شيءٌ منه ازدادوا إيماناً وعلماً وهداية.

١٢٥ ـ وأمَّا الذين في قلوبهم شكٌّ ونفاقٌ، فزادتهم السُّورة من القرآن شكّاً ونفاقاً وكفراً مضموماً إلى كفرهم ونفاقهم؛ لأنهم كلَّما جَحَدوا سورةً أو استهزؤوا بها، ازدادوا كفراً وإصراراً وكراهية للدين مع كفرهم الأوَّل، لما في التنزيل الجديد من تكاليف يكرهونها، ويضيقون بمسايرة المؤمنين في تطبيقها، ولمَا تشتمل عليه من فضح لنفاقهم، ومات هؤلاء المنافقون وهم جاحدون بما أنزل الله عزَّ وجلّ على رسوله ﷺ.

١٢٦ ـ ألا يُفكِّر المنافقون من خلال الأحداث التي تمرُّ عليهم أنهم يُبْتَلون في كلِّ عام مرَّةً أو مرَّتين بامتحانات كبيرة تكون لهم فيها مواقف تدلُّ على كفرهم ونفاقهم، ثمَّ ينزل القرآن بكشف هذه المواقف، وفضحهم فيها، ثمَّ لا يتوبون من كفرهم ونفاقهم، ولا يرجعون إلى الله، ولا هم يُثبِّتون في ذاكرتهم المعاني التي دلَّت عليها هذه التجارب، ولا يُوجِّهون أفكارهم لدلالات هذه التجارب حتى يحفظوها في ذاكرتهم، ويتذكَّروها من حين لآخر، حتى يكون تذكُّرها سبباً في إقناعهم وتحويلهم عن طريق إراداتهم الحُرَّة من الكفر إلى الإيمان، ولو على سبيل التدرُّج شيئاً فشيئاً.

١٢٧ ـ وإذا ما أُنزلت سورةٌ فيها عَيْبُ المنافقين وتوبيخهم، نَظَرَ بعضهم إلى بعض، يريدون الهرب، يقول بعضهم لبعض عن طريق التخاطب الإشاري بحركات العيون: هل يراكم أحدٌ من المؤمنين إنْ قمتم من مجلسكم؟ وبعد المُحادثة فيما بينهم عن طريق حركات العيون التي ينظر بها بعضهم إلى بعض، لا ينصرفون بسرعةٍ، بل يتريَّثون؛ لئلا يكتشف الفطناء أمرهم، فإذا اطْمأنوا وشعروا بأنَّ أحداً لم يفطن إليهم، انصرفوا؛ كراهية أن يسمعوا السُّورة النازلة. صَرَفَ الله قلوبهم عن الإيمان مُجازاةً لهم على فعلهم؛ بسبب أنَّهم قومٌ لا يفهمون فهماً دقيقاً حقائق الأمور، ويُفسِّرون الأمور تفسيراتٍ بعيدة عن حقائقها الخفيَّة عليهم.

١٢٨ ـ نؤكِّد لكم تأكيداً مُشدَّداً أنه جاءكم ـ أيُّها العرب ـ رسولٌ من نوع أنفسكم تعرفون نَسَبَهُ وحَسَبَهُ وصدقَه وأمانتَه، شديدٌ عليه وشاقٌّ على نفسه كلُّ ما هو شديدٌ وشاقٌّ على نفوسكم، غالبٌ على صبره مشقَّتكم الشديدة، وهلاككم وضرَرَكم وأذاكم، لما في قلبه نحوكم من رأفةٍ شديدة، وذلك لأنَّ الألم الذي ينزل به حينما يراكم في مشقَّة شديدة أقوى من احتمال صبره فهو يغلبه، حريصٌ على إيمانكم وصلاح شأنكم، يبذل غايةَ جهده في نُصحكم، وإيصال الخير إليكم، ودفع الضُّر والأذى عنكم من كلِّ ما يُؤْذيكم ويضرُّكم في دنياكم وآخرتكم، وهو ﷺ شديد الرأفة بالمؤمنين، عظيم الرحمة بهم.

١٢٩ ـ فإنْ أدبر هؤلاء الكفار والمنافقون عن الإيمان بك ـ يا رسول الله ـ وناصبوكَ العداء، فقل لهم: يكفيني اللَّهُ بمعونته وتأييده، وينصرني عليكم، لا معبودَ بحقٍّ في الوجود كلِّه إلا هو، عليه وحده توكَّلت في أمري كلِّه لا على غيره، وبه وَثِقْتُ، وهو وحده ربُّ العرش العظيم الذي هو أعظم المخلوقات، المحيط بالسموات والأرض وما فيهنَّ.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًاۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّاۚ إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾

سُورَةُ يُونُس

١ ـ ﴿الٓرۚ﴾ تقدَّم الكلام في معنى الحروف المقطَّعة في أول سورة البقرة.

تلك الآيات المُنزَّلات من عند الله هي آيات الكتاب الذي يجب تدوينه بالكتابة، وجعله بين الناس كتاباً محمياً من التحريف والتغيير بالزيادة أو النقص أو التبديل، المُحْكَم في لفظه ومعانيه، وفيما اشتمل عليه من الحلال والحرام، والحدود والأحكام الذي نوحي به إلى نبيِّنا محمد ﷺ.

٢ ـ أكان أمراً عَجَباً لأهل مكة إنزالنا الوحيَ على محمدٍ ﷺ، وهم يعرفون نسبَهُ وصدقَهُ وأمانتَهُ، بأنْ خوِّفهم ـ بعد تذكيرهم ونصحهم وإرشادهم ـ بعقاب الله تعالى إنْ أصرُّوا على الكفر والمخالفة، وبشِّر الذين آمنوا بالله ورسله أنَّ لهم أجراً حَسَناً ودرجةً عاليةً بما قدَّموا من صالح الأعمال. فلمَّا جاءهم بالوحي وأنذرهم، قال الكافرون: إنَّ محمداً ساحر، وما جاء به من الوحي الذي يتلوه على الناس سحرٌ ظاهرُ البطلان.

٣ ـ إنَّ خالقَكم ومالِكَكُم ومُصلح أموركم الذي لا ربَّ لكم غيره، هو الله الذي أوجد السمواتِ والأرض، وأنْشأ خلقهما على غير مثال سابق، وقدَّر أحوالهما في مقْدار ستَّة أيام، ثمَّ بعد فاصل زمنيٍّ مُتراخ اسْتوى سبحانه على العرش استواءً يليقُ بجلاله وعظمته، يُدبِّر أمورَ خلقه على وَفْق الحكمة والوجه الأكمل، التي تكفُلُ أحسن العواقب في أواخر الأمور وأدبارها، لا يَشْفَع عنده شافعٌ يوم القيامة إلا من بعد أن يأذن له في الشفاعة، ذلكُم اللّهُ العظيم الجليل الذي خَلَق هذه الأشياء ودبَّرها هو ربُّكم وسيِّدكم لا ربَّ لكم سواه، فاجْعلوا عبادتكم له لا لغيره؛ لأنَّه المستحقُّ للعبادة بما أنعم عليكم من النِّعم العظيمة، أفلا تضعون هذه الدلائل والآيات التي تدلُّ على وحدانيَّته سبحانه وتعالى في مواقع تَذَكُّرِكُم الواعي؛ حتى تكون باعثةً لكم على شكر الله وعبادته؟!

٤ ـ إلى ربِّكم وحده يكون رجوعكم جميعاً ـ أيُّها الناس ـ بعد البعث، وإليه سبحانه تعيين زمان الرجوع، وتهيئة مكان الرجوع، وعدَكم الله بالبعث والرجوع إليه وعداً حقاً، إنَّه يُحييكم ابتداءً، ثمَّ يُميتكم، ثمَّ يُحييكم؛ ليجزيَ الذين صدَّقوا تصديقاً إرادياً قلبياً جازماً بكلِّ ما أوْجَبَ الله عليهم أن يؤمنوا به، من الأركان الإيمانية الستة، وعبَّروا بسلوكهم الإراديِّ في أعمال باطنةٍ وظاهرةٍ عن صحَّة إيمانهم وصدقهم فيه، وهذا الجزاء يكون بالعدل، لا يُنْقِصُ من أجورهم شيئاً، ويفي لهم ما وعدهم به من الجزاء العظيم. والذين كفروا لهم في جهنم شرابٌ من ماءٍ حارٍّ قد انتهى حرُّه، ولهم عقابٌ مُؤلم بسبب كفرهم وضلالهم.

٥ ـ ربُّكم الذي جَعَل الشَّمس كتلة نارية ملتهبة تشعُّ الضوء، وجعل القمرَ جُرماً يبعث النور، بعكسه لضياء الشمس التي تصل إلى سطحه، وقدَّرَ سَيْر القمر في منازله الثمانية والعشرين في كل شهر، تقديراً بديعاً محكماً؛ لتعلموا ـ أيها الناس ـ ابتداء الشهور والسنين وانتهاءَها، ولتعلموا حسابَ الشهور والأيَّام والساعات ونقصانها وزيادتها، وبذلك تنتظم مصالحكم في العبادات والمعاملات وسائر الشؤون المعاشية. ما خَلَقَ اللّهُ ذلك إلا متَّصفاً بالحقِّ الثابت؛ لإظهار قدرته ودلائل وحدانيَّته، ولم يخلق ذلك عَبَثاً ولا باطلاً؛ يُبيِّن دلائل التوحيد بالبراهين القاطعة لقوم يستدلُّون بها على قُدرة الله ووحدانيَّته، ويستجيبون لما يقتضيه العلم.

٦ ـ إنَّ في تعاقب الليل والنهار في المجيء والذهاب، والظُّلمة والضياء، والطول والقِصَر، وفي كلِّ ما خلق الله في السموات والأرض من عجائب الخَلْق، لعلاماتٍ دالاَّت على عظيم قدرة الله لقوم يَخْشَونَ عقابَ الله وسَخَطَه وعذابَه.

إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ ۞ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ۙ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

٧ - إنَّ الذين لا يتوقَّعون لقاء ربِّهم يومَ القيامة للحساب، وفصل القضاء، وتنفيذ الجزاء بالثواب أو بالعقاب، فلا يأمُلون ثوابنا، ولا يخشون عقابنا، واختاروا الحياةَ الدنيا، واكتفوا بمتاعها، وسكنوا إليها مطمئنين فيها، والذين هم عن إدراك آياتنا الكونيَّة، والإعجازيَّة، والجزائيَّة، والبيانيَّة التي أنزلناها في كتابنا غافلون غفلة تامَّة.

٨ - أولئك البُعداء عن رحمة الله مَقرُّهم نارُ جهنَّم في الآخرة؛ بسبب ما كانوا يكسبون في دنياهم من الكفر والتكذيب والأعمال الخبيثة.

٩ - إنَّ الذين آمنوا إيماناً صحيحاً صادقاً، وعبَّروا عن إيمانهم الصحيح الصَّادق بأعمالٍ إراديَّةٍ صالحةٍ في السُّلوك النفسيِّ والجسديِّ، يحكم لهم ربُّهم يوم الدين في محكمة الحساب، وفصل القضاء بأنهم كانوا في الحياة الدنيا مهديين بإراداتهم الحُرَّة؛ بسبب إيمانهم وأعمالهم الصَّالحة، تجري من تحت قصورهم أنواع الأنهار، ينظرون إليها من أعالي أَسِرَّتهم وقصورهم، ذلك لهم في جنَّات النعيم.

١٠ - دعاؤهم وكلامهم في الجنَّة: سُبحانك اللهمَّ، نُنَزِّهُك عن كلِّ سوء ونقيصة، ويُقابَلُون بالتحيَّة من الله تعالى، ومن الملائكة بالسلامة من كلِّ مكروه، ويُحيِّي بعضُهم بعضاً بالسَّلام، وآخرُ دعائهم الذي يدعونه ربَّهم، أن يقولوا: «الحمدُ لله ربِّ العالمين» له الثناء الكامل، والشكر الدائم، وهو المستحقُّ للحمد لكمالاته الذاتيَّة المطلقة، ولأنه المحسن المتفضِّل على كافَّة الخلق، فهو مالكهم، وخالقهم، ورازقهم، ومُربِّيهم بنعمه، والمتصرِّف فيهم بحكمته، والمهيْمن عليهم بصفات ربوبيَّته.

١١ - ولو يُعَجِّل الله للناس كلَّ ما يسألون ربَّهم من متاع الحياة الدنيا، مُستعجلين ما هو شرٌّ لهم في حقيقة الأمر، وهم يحسبون أنه خيرٌ لهم، لطغَوا وبغَوْا في الأرض، ولأفسدوا إفساداً عريضاً، وعندئذٍ تقتضي الحكمة الربَّانيَّة أن يهلكهم الله إهلاكاً شاملاً عاماً، قبل أن ينتهيَ أجل كلِّ واحد منهم، ولكنَّه تعالى لا يُعجِّل للناس كلَّ ما يطلبون من متاع الحياة الدنيا، بل يستجيب من مطالبهم على وَفْق حكمته وعلمه، أما من يُعجِّل الله لهم مطالبهم من متاع الحياة الدنيا؛ استدراجاً لهم، فندعُ الذين لا يتوقَّعون لقاءنا، ولا يؤمنون بالبعث بعد الموت في تمرُّدهم وفسادهم بما آتيناهم من متاع الحياة الدنيا وزينتها، يتردَّدون ويتحيَّرون.

١٢ - وإذا أصاب الإنسانَ المُسْرِفَ على نفسه بارتكاب المعاصي، الجَهْدُ وسوء الحال - ولو قليلاً - سألنا مُتذلِّلاً لكشفه في جميع حالاته: على جَنْبه مُضْطَجِعاً، أو قاعداً، أو قائماً، فحين أَزَلْنا عنه ما نَزَل به من الضُّرِّ ورفعناه عنه، استمرَّ على حالته الأولى قبل أن يمسَّه الضُّر، كأنَّه لم يَدعُنا إلى كشفه، ونسيَ ما كان فيه من الجَهْد والبلاء والضيق والفقر. كما زُيِّن لهذا الكافر استغراقه في ارتكاب المعاصي والآثام، كذلك زَيَّن الله للمجاوزين الحدَّ في الكفر ما كانوا يعملون من الكفر والمعاصي.

١٣ - ونُقْسِم مؤكِّدين لكم أننا بعظمة ربوبيَّتنا أهلكنا إهلاكاً عامّاً شاملاً الأمم الماضية من قبلكم لمَّا ظلموا، وأصرُّوا على ظلمهم بالكفر وتكذيب الرسل، وقد جاءتهم رسلهم من عند الله مصحوبين بالمعجزات الجليّات فكذَّبوهم، وما كانت هذه الأمم ليُصَدِّقوا برسلهم وبما جاؤوا به من عند الله، مهما أُمهلوا؛ لانطماس بصائرهم بسبب تعلُّقهم بزينة الحياة الدنيا، وأهوائهم وشهواتهم، كما أهلكنا الأمم الخالية الذين كذَّبوا رسلهم، كذلك نُهلككم - أيُّها المشركون - بتكذيبكم محمَّداً ﷺ. فَسُنَّة الله في عباده واحدة، فما أجراه للمجرمين السابقين من إهلاك شامل، سيجري نظيره لكلِّ المجرمين الذين يتتابعون في كلِّ العصور.

١٤ - ثمَّ بعد حينٍ من الزمن جَعَلناكم - أيُّها النَّاس - خُلفاءَ في الأرض بعد إهلاك القرون الذين ظلموا من قبلكم، خلفتم فيها من سبقكم، ويَخلُفُ فيها بعضكم بعضاً؛ لننظر كيف تعملون: خيراً أو شراً، فنعاملكم على حَسْب أعمالكم.

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾

١٥ - وإذا قُرِىءَ على هؤلاء المشركين آيات كتابنا الذي أنزلناه إليك - يا رسول الله - حالة كونها واضحات جليّات، هاديات إلى الحق والخير والرُّشد، قال هؤلاء المشركون الذين لا يتوقَّعون لقاءنا، فلا يخافون عذابنا ولا يرجون ثوابنا: ائتِ بقرآنٍ آخر، أو بدِّل بعض آياته التي تسوؤنا بغيرها. قل - يا رسول الله - لهؤلاء: إنَّ هذا القرآن من كلام ربِّي، وليس من تأليفي ولا صنعي، وما ينبغي أنْ أُغيِّره من قِبَل نفسي، وليس باستطاعتي؛ لأنَّ ربِّي لا يُمكِّنني من ذلك، وما أتَّبِعُ في كلٍّ ما آمركم به وأنهاكم عنه إلا ما يُخبرني الله به، ولو حاولت تبديل شيءٍ مما يوحي إليَّ أكون عاصياً له سبحانه؛ لأنّه لم يأذن لي بذلك، إني أخشى من الله - إنْ خالفتُ أمره، أو غيَّرتُ أحكام كتابه - أنْ يُعذِّبني عذابَ يوم عظيم.

١٦ - قل - يا رسول الله - لهؤلاء المشركين الذين طلبوا منك تغييرَ القرآن وتبديله: لو شاء الله لم يُنزِّل عليَّ هذا القرآن، ولم يأمرني بقراءته عليكم، ولا أعلَمكم الله به، فاعلموا أنه الحقُّ من ربِّكم، فإنكم تعلمون أنني مَكَثْتُ فيكم قبل أن يُوحَى إليَّ هذا القرآن مُدَّة أربعينَ سنة لم آتكم بشيءٍ، ثمَّ جئتكم بهذا الكتاب العظيم، أفلا تُدركون بعقولكم إدراكاً علمياً أنه لا يمكن لإنسان موهوبٍ قدراتٍ بيانيَّة بفطرته أن يعيش شبابه وكهولته حتى شيخوخته دونَ أن يصدر عنه ما يُعبِّر به عن أفكاره ومشاعره ببيانٍ يُعجب أهل البيان، وأفلا تعقلون أهواءكم عن الجنوح الذي جعلكم تكذِّبون بكتاب الله المعجز، الذي يُوحى إلى عبدٍ من عباده، كان الواجب عليكم أن تؤمنوا بنبوَّته ورسالته استدلالاً بما يتلوه عليكم من كتاب ربكم.

١٧ - وإذا كان القرآن بمشيئته تعالى وأمره، فَمَن اخْتَلَقَ من تلقاء نفسه كلاماً وقال: هو من عند الله، أو بدَّل بعض آياته ببعض، كما يُجوِّزون ذلك في شأني، أو جَحَد أنَّ القرآن من عند الله، وأنكر دلائل التوحيد كما يفعلون، فهو أظلم من كلِّ ظالم، إنه لا يفوز المكذِّبون بأنبياء الله ورسله، المنْبعثون في فجورهم بما يريدون ولا يظفرون بجنات النعيم.

١٨ - ويعبدُ هؤلاء المشركون معبودات هي بطبيعتها تقع دون الله عزَّ وجل، في مقابل اتِّصافه بالفوقيَّة المطلقة، فهو سبحانه العليُّ الأعلى، وهذه المعبودات لا تضرُّهم شيئاً إنْ عَصَوها وتركوا عبادتها، ولا تنفعهم شيئاً إنْ عبدوها، ويقولون: إنْ كان بعثٌ كما تزعمون، فهؤلاء الأصنام شفعاؤنا عند الله. قل لهم - يا رسول الله -: أتُخبرون الله العَليمَ بكلِّ شيء بخبر مهم بارز، ظاهر البطلان: أنَّ لَه شريكاً، ولا يعلم الله لنفسه شريكاً في السَّموات ولا في الأرض، تنزَّه الله عن الشُّركاء والأضْداد والأنداد، وتعالى أن يكون له شريكٌ في السموات والأرض.

١٩ - وما كان الناس جميعاً إلاَّ أمةً واحدةً على الدين الحقِّ، وهو دينُ الإسلام، فتفرَّقوا إلى مؤمن وكافر، ولولا كلمةٌ قضائيَّة سبقت من ربِّك أتمَّ بها قضاءَه وقدَره بتأجيل الحساب وتنفيذ الجزاء على الكفر والخروج عن منهج الله إلى يوم الدين، لَقُضيَ بينهم في الحياة الدنيا بنزول العذاب وتعجيل العقوبة للمكذِّبين، وكان ذلك فصلاً بينهم فيما فيه يختلفون.

وهذه الآية فيها إثبات أن العقائد الشركية طارئة على الناس، ولم تكن موجودة في أجيال البشريَّة الأولى، فقد كان المجتمع البشريُّ مجتمعاً موحِّداً للّٰهِ في ربوبيَّته وفي إلهيَّته، ومسلماً إسلاماً صحيحاً بما تلقَّوا من تعليمات دين الله الحق، الذي أملاه عليهم آدم عليهم السلام، ثم دخل بعد ذلك فيهم الشرك، فاختلفوا؛ إذْ ثَبَتَ فريقٌ منهم على إيمانه، ودخلت على آخرين عقائد شركيَّة باطلة مختلفة.

٢٠ - ويقول أئمة مشركي مكة بتكرار وتجدُّد: هَلاً أُنزل على محمدٍ من ربِّه ما نقترحه عليه من الآيات الحسيَّة، نعلم بها أنه على حقٍّ فيما يقول، فقل لهم يا رسول الله: إنَّ الذي سألتموه هو من الغيب، وإنَّما الغيبُ كلُّه لِلّٰه، لا يعلم أحدٌ متى نزول الآية إلا هو، فانتظروا - أيها القوم - نزولها إنِّي معكم من المُنْتظرين، لما يفعل الله بكم لعنادكم وجحودكم.

وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾

٢١ - وإذا أذقْنا الكفَّار رخاءً ونعمة من بعد شدَّةٍ وبلاء وضيق في العيش أصابهم، عادوا إلى جُحودهم، وعلَّلوا النجاة بالأسباب الماديَّة والمصادفات، وأخذوا يستخدمون ما وهبهم الله من خيرات في تدبير المكايد، ضدَّ آيات الله. قل لهم - يا رسول الله -: اللَّهُ أعجلُ عقوبةً، وأشدُّ أخذاً، وأقْدر على الجزاء؛ إنَّ الملائكة الحَفَظة الكرام الكاتبين يكتبون ويحفظون عليكم الأعمال القبيحة السَّيِّئة إلى يوم القيامة، حتى تفتضحوا بها وتُجزَوْن على تدبيركم السيء بالخفاء، ومخططاتكم المُضلَّة لمَنْ لديه استعداد للإيمان بآيات الله.

٢٢ - هو اللَّهُ وحده المُهَيِّىءُ لكم أسبابَ السَّيْر في البرِّ والبحر والجوِّ، حتى إذا كنتم في السُّفن، كان حالكم مثل حال أمثالٍ لكم سلفوا، ركبوا في السُّفن، وَجَرَت السُّفُن بركَّابها بريح لَيِّنةِ الهبوب في بحر هادىء ساكن، وفرح ركاب تلك السُّفن بتلك الريح الطَّيِّبة، جاءت سُفُنَهُمْ هذه الريحُ العاصفة التي تضرب وجه البحر، وتحرِّك السفن في كلِّ اتجاه، صعوداً وهبوطاً، وتَقَاذفاً ذات اليمين وذات الشمال، وجاء رُكبانَ السفينة أمواجُ البحر ثائرة مضطربة من كلِّ مكانٍ محيطٍ بهم، عن أيْمانهم وشمائلهم، ومن أمامهم وخلفهم، ومن تحتهم وفوقهم، واتَّخذوا كلَّ ما يملكون من وسيلة وحيلة، فما دفعت عنهم شيئاً من المخاطر الآتية بالمهلكات، وظنُّوا ظنّاً راجحاً أنَّ الهلاك قد أحاط بهم وأحدق، أخلصوا في الدعاء لله عزَّ وجل، ولم يَدْعُوا أحداً سواه من آلهتهم قائلين: والله، لَئِن أَنْجَيْتَنا يا ربَّنا من هذه الشدائد المُهلكة التي نحن فيها، لنكُونَنَّ من المؤمنين المطيعينَ الحامدينَ الشَّاكرينَ لك على إنْعامك علينا بخلاصنا ممَّا نحن فيه من هذه الشِّدَّة. واستجاب الله دعاءهم رحمةً بهم، وليقدِّم لهم البرهان التجريبيَّ على وجوده ورحمته وقدرته، واستجابتِهِ دعاءَ المضطر إذا دعاه مخلصاً له الدين.

٢٣ - فلمَّا أنجى الله تعالى هؤلاء الذين أحاطَتْ بهم الشدائد، إذا هم ينْقُضون عهودهم، ويَسْتَعلُون في الأرض بغير الحق.
يا أيُّها الناس البغاة الكافرون بأنْعُم الله عليكم، الناقضون لما عاهدتم ربكم عليه: ما وبالُ تجاوزكم الحدَّ بغير حقٍّ إلاَّ راجعٌ على أنفسكم؛ إذ تجْنون عليها جنايةً عظيمةً تَجلب لكم عذاباً أليماً عند ربِّكم، ويكون ما تصيبونه من مُرضيات أهوائكم وشهواتكم متاعاً قليلاً زائلاً من أنواع متاع الحياة الدنيا، وستمرُّون في رحلة امتحانكم إلى غايتها، وتنتهي آجالكم وتموتون، ثمَّ بعد مدَّة البرزخ الفاصل بين الموت والبعث إلينا وحدنا رجوعكم، وتعيين زمان رجوعكم، وتهيئة مكانه، فنحاسبكم على أعمالكم التي عملتموها في الدنيا، ولدى محاسبتكم ننبِّئكم بكلِّ ما كنتم تعملون في الدنيا من البغي والمعاصي، فنُجازيكم عليها.

٢٤ - ما صفة الحياة الدنيا في فنائها وزوالها، بعد كثرتها والاغترار بها؛ إلاَّ كالمطر الذي اختلط به نباتُ الأرض، فنبت بالماء من كلِّ نوع من النبات، مختلط بعضها ببعض، ممَّا يأكل الناس من الحبوب والثمار، وممَّا تأكل الأنعام من الحشيش ونحوه، حتى إذا استكملت الأرض حُسْنَها ونضارتها، وأظهرت ألوان زَهْرها، وتزيَّنت بأصناف النباتات المختلفة، وظنَّ أهلُ تلك الأرض ظناً راجحاً أنهم قادرون على حَصَادها وقطافها، أتاها قضاؤنا بهلاكها وإبادة كلِّ ما نَبَتَ فيها في الليل أو النهار، فجعلناها محصودةً مقطوعةً، كأنْ لم تكن تلك الأشجار والنبات والزروع قائمةً على ظهر الأرض في الماضي القريب، كما بيَّنا لكم - أيها الناس - مَثَل الحياة الدنيا في سرعة تقضِّيها، وانقطاع ملاذِّها، بعد إقبالها واغترار الناس بها، كذلك نُبيِّن لكم حُجَجنا وأدلَّتنا لمن تفكَّر واعتبر.

٢٥ - والله يدعوكم إلى الجنَّة دار السلام التي تَسْلمون فيها من الموت والمرض والمصائب، ويُسلِّم الله عليكم، وتُسلِّم الملائكة، ويُسلِّم بعضكم على بعض، والله يهدي هداية توفيق ومعونة بمشيئته التي لا تُفارق حكمتَهُ وعلمه بما في نفوس عباده من خيرٍ إلى دين الإسلام الموصِلِ إلى دار السلام.

لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٦) وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٧) وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ ۚ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ۖ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ (٢٨) فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ (٢٩) هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ ۚ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٣٠) قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٣١) فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ (٣٢) كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٣)

٢٦ - للمؤمنين الذين أحسنوا عبادةَ الله وأطاعوه، المثوبَةُ الحُسْنى، وهي: الجنة، وزيادةٌ عليها، وهي: النظرُ إلى وَجْه الله الكريم في الجنة، والمغفرة والرضوان، ولا يغشى وجوهَ أهلِ الجنَّة غبارٌ ولا هوانٌ، كما يلحق وجوه أهل النار. أولئك الفُضلاء المتَّصفون بهذه الصفات هُمْ أصحابُ الجنَّة الملازمون لها، المخالطون لألوان نعيمها، وهم فيها دائمو البقاء لا يخرجون منها أبداً ولا يموتون.

٢٧ - والَّذين عملوا الكفر والمعاصي في الدنيا، فلهم جزاءُ السَّيِّئة التي عملوها بمثلها من عقاب الله في الآخرة، وتغشى وجوهَهُم ذلَّةٌ وهَوَانٌ، لعقابِ الله إيَّاهم، ما لهم مانعٌ يمنعهم من عذاب الله إذا نَزَل بهم، كأنَّما أُلبِسَتْ وجوهُهُم سَوَاداً من الليل المُظلم، أولئك البُعداء عن رحمة الله أصحابُ النار المُلازمون لها، المُخالطون لألوان عذابها، وهم فيها دائمو البقاء، لا يخرجون منها ولا يموتون، كما أنهم صمّموا في الدنيا على أن يظلُّوا أبداً جاحدين لله، كافرين بصفاته، منكرين لرسالاته.

٢٨ - وضع في ذاكرتك - أيها المُتلقِّي لآياتنا - حينَ نجمعُ الخلائقَ جميعاً لموقف الحساب، وبعد مدَّةٍ متراخية من حشرهم نقول للذين أشركوا: الزموا مكانكم في الموقف واثبُتوا فيه أنتم وشركاؤكم، حتى تُسألوا أنتم أيُّها المشركون والأصنام التي كنتم تعبدونها من دون الله، وتنظروا ما يُفعل بكم وبهم، ففَرَّقْنَا بين العابدين والمعبودين، وميَّزنا بينهم، وانقطع ما كان بينهم من التواصل في الدنيا، وقالت الأصنام التي كانوا يعبدونها من دون الله: ما كنتم إيَّانا تعبدون في الدنيا، بل كنتم تعبدون أهواءكم وشهواتكم، وتعبدون الشيطان بطاعته فيما يأمركم به من الكفر، وفيما ينهاكم عنه من الإيمان.

٢٩ - فإن كنتم - أيها المشركون - لا تُصدِّقوننا، فالله يشهدُ لنا أننا لم نَدْعُكم إلى عبادتنا، ولم نطلب منكم أن تتَّخدونا آلهةً شركاء لله من دونه، وأغنى الله حالة كونه شهيداً حاضراً بيننا وبينكم، يشهد لنا أننا لم ندعُكم إلى عبادتنا، وما علمنا أنكم كنتم تعبدوننا من دون الله، وما كنَّا عن عبادتكم إيَّانا إلاَّ غافلين، ما نشعر بذلك.

٣٠ - في ذلك الموقف الدَّحض الزَّلِق تُخْبَرُ وتُعلَمُ كلُّ نفس ما قدَّمت من خيرٍ أو شر في رحلة امتحانهم في الحياة الدنيا، ورُدُّوا جميعاً إلى الله الذي يتولَّى حسابَهم وثوابَهم بالعدل، وبَطَل وذَهَب عنهم ما كانوا يكذبون فيه في الدنيا، وهو قولهم: أنَّ هذه الأصنام تشفع لهم.

٣١ - قل - يا رسول الله - لهؤلاء المشركين: مَنْ يرزقكم من السماء بالمطر، ومن الأرض بالنبات؟ بحسب أنظمة الكون السببيَّة؟ بل مَنْ يملك السمع والأسماع، والبصر والأبصار، بإيجادها ابتداءً، وإمدادها بالبقاء إلى آجالها؟ ومَنْ يُخرِجُ الحيَّ من الميِّت التي تَرَوْنها في ظواهر الكون الكثيرة في الحياة النباتيَّة من البزور التي لا حياة فيها، وفي الحياة الحيوانيَّة من الأغذية التي لا حياة فيها، بِخَلْق الله لها في الأجساد الحيَّة تكون منها نُطَف، تحتوي على كائنات حيَّة، تنعقد من بعضها الأجنَّة، فكلُّ حيٍّ في الوجود أخرجه الله من ميِّت لا حياةَ فيه؟ ومَنْ يخرج الميِّت من الحيِّ التي تَرَوْنها في ظواهر الكون الكثيرة في بلايين الخلايا التي تموت كل دقيقة داخل جسم الإنسان الحي، وفي المشاهدات الدائمة التي تشاهدونها بأبصاركم؛ يُخرج اللبن من الحيوانات الإناث اللبون، ويُخرج المسك الذي لا حياة فيه من غدَّة من غدد الغزال، ويُخرجُ العنبر من حوت العنبر؟ ومَنْ يُدبِّر أمر السموات والأرض وما فيهنَّ؟ إنَّهم سيعترفون بعد حوار جَدَليٍّ أنَّ فاعلَ هذه الأشياء هو الله تعالى، وإذا كانوا يُقِرُّون بذلك، فقل لهم - يا رسول الله -: أفتُصرُّون على موقفكم الباطل، فلا تجعلون بينكم وبين عذاب ربِّكم وقاية تقيكم، بنبذ عقائدكم الشركيَّة، والإيمان بالله وحده لا شريك له؟

٣٢ - فذلكم العظيمُ الجليل الذي يفعل هذه الأشياء، ويقْدِر عليها هو اللَّهُ ربُّكم الحقُّ، الثابتة ربوبيَّته بالبرهان ثبوتاً لا رَيْب فيه، الذي يستحقُّ العبادة لا هذه الأصنام، فما الذي يكون بعد الحقِّ إلا الضَّياع والباطل المُبَاين له، فكيف تُصرفون عن هذا الحقِّ الجليِّ الواضح ببراهينه إلى الضلال بتأثير الأهواء والشهوات، وشياطين الإنس والجن؟!

٣٣ - كذلك الحقُّ الذي دلَّتْ عليه آياتُ الله في كونه، من أنه لا ربَّ في الوجود إلاَّ الله، وَجَبَتْ وثبتت كلمةُ ربِّك بمقتضى سنَّته التكوينيَّة على الذين تَمرَّدوا في كفرهم، وخرجوا إلى الحدِّ الأقصى فيه، أنَّهم لا يؤمنون مُستقبلاً مهما أُمهلوا، وقُدِّمت لهم الأدلة والبراهين.

قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾ وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾

٣٤ - قل - يا رسول الله - لهؤلاء المشركين: هل بعض هذه الأصنام التي تزعمون أنها آلهة، مَنْ يَقْدر على أن يُنْشيء الخلق من العدم، ثمَّ يعيده بعد الموت؟ قل يا رسول الله -: اللَّهُ تعالى وحده هوَ القادرُ على ابتداء الخلق وإعادته، فكيف تُصْرفون عن طريق الحقّ إلى الباطل؟

٣٥ - قل - يا رسول الله - : هل بعض هذه الأصنام التي جعلتموها شركاء لله مَنْ يقْدر على أن يُرشد إلى الحق؟ فإذا قالوا: لا، ولا بدَّ لهم من ذلك. قل لهم أنت - يا رسول الله -: الله وحده يهدي للحقّ، وإذا كان شركاؤكم لا يهدون إلى الحقّ فأنا أسألكم: أيُهما أحقُّ بالاتّباع؛ مَنْ يهدي وحده إلى الحقِّ أم هذه الأصنام التي لا تهتدي إلا أن تُهدى؟ فما لكم كيف تحكمون بالباطل حيث تزعمون أنهم أندادٌ لله؟

٣٦ - وما يتَّبع أكثر هؤلاء المشركين إلا ما لا علم لهم بحقيقته وصحَّته، بل هم في شكٍ منه وريبة، إنَّ الظنَّ الضعيف التوهُّمي لا يُغني عن اليقين شيئاً ولا يقوم مقامه، إنَّ الله عليمٌ بما يفعلون من اتِّباعهم الظنَّ وتكذيبهم الحق، وسيحاسبهم على كفرهم.

٣٧ - وما كان ينبغي لهذا القرآن بصفاته الإعجازية أن يُخْتَلَق ويُنْسب إلى مَنْ هم من دون الله، من إنس أو جن؛ لأنه لا يقدر على ذلك أحدٌ من الخلـق، ولكن كان القرآن مُصـدِّقاً بما جاء من بشائر في الكتب التي أُنزلت من قبله، وفي هذا القرآن تبيينُ وتوضيح ما جاء في الكتب السابقة من مُجْملات ونصوص غامضة الدلالات، إنَّ هذا القرآن لا شكَّ فيه أنَّه مُنزَّل ومُوحىً به من ربِّ كلِّ موجود سوى الله تبارك وتعالى، وأنَّه ليس مُفترىً على الله، ولا يقدرُ أحدٌ من البشر على الإتيان بمثله.

٣٨ - بل. أيقول هؤلاء المشركون: افترى محمدٌ هذا القرآن واخْتَلَقه من قِبَل نفسه؟ قل لهم - يا رسول الله -: إنْ كان الأمر كما تقولون: فأتوا بسورةٍ شبيهة به في الفصاحة والبلاغة وحُسْن النَّظْم، وادعوا للاستعانة على ذلك من استطعتم من خلقه إن كنتم صادقين في ادِّعاء أن البشر قادرون على الإتيان بمثله، وأنَّ محمداً افتراه من عنده، ولم يُوحَ به إليه، فحيث عجزتم عن ذلك دلَّ على أنه ليس من كلام البشر.

٣٩ - فما أجابوا وما قَدروا، بل سارعوا إلى التكذيب بالقرآن، قبل أن يتدبَّروا آياته، ويقفوا على ما في تضاعيفه من الأدلة على صدقه، وكفروا بما لم يحيطوا به من المعاني التي تَدلُّ على أنه تنزيلٌ من ربِّ العالمين، واقْترب تصييرُ ما أُنذروا به من عقوبات مُعَجَّلات في الدنيا أمراً واقعاً متحقّقاً، فَلْيحذروا وقوعَ ما أُنذروا به. كما كذَّب هؤلاء بالقرآن، كذلك كذَّبت الأمم الماضية أنبياءهم فيما وعدوهم به، فأنزل الله بهم عقوباتٍ ساحقاتٍ ماحقاتٍ. فانْظُر - أيُها المُخاطَب المُؤهَّل للنظر التفكُّري في آثار المُهْلَكين السابقين - كيف كان آخر أمر الظالمين من الأمم السابقة المُهْلَكةِ بالعقاب الربَّاني الشامل؟!

٤٠ - ومنْ قومك - يا رسول الله - من سَيُؤمن بالقرآن مستقبلاً، ومنهم من لا يؤمن به حتى يموت على ذلك، وربُّك أعلم من كلِّ ذي علم بالمفسدين الذين لا يؤمنون. أبان الله عزَّ وجلّ في هذه الآية حكمتَه في عدم إنزال العقاب المعجَّل بالكفار المكذِّبين بالقرآن، وهي أنه قد علم أن في نفوس بعضهم استعداداً لأنْ يؤمنوا به مستقبلاً، وعلم أنَّ آخرين منهم قد وصلوا إلى حالة مَيْؤوس منها، وهؤلاء يستحقُّون أن تنزل بهم عقوبات فرديَّة، ومُهْلكات خاصَّة.

٤١ - وإن كذَّبك قومك - يا رسول الله - فقل لهم: لي أَثَرُ عملي خيراً كان أم شراً، ولكم أثر عملكم خيراً كان أم شراً، فإن كنت كاذباً أفتري على الله، فأنا وحدي أنال عقاب افترائي عليه، وأنتم بريئون من مسؤولية ما أعمل، وإذا كذبتم بآيات الله فستنالون عقابَ تكذيبكم، وأنا بريءٌ من مسؤولية كفركم والجزاء عليه.

٤٢ - ومن هؤلاء المشركين مَنْ يستمع إليك - يا رسول الله - بأسماعهم الظاهرة، ولكنَّه لا يسمعك بمراكز السمع في دماغه. أفأنت تَقْدر على إسماع الصُّمِّ صَمَماً داخلياً، الذين لا يعقلون في مراكز السمع في أدمغتهم، ما تنقله من مسموعاتٍ أجهزةُ نقل الأصوات في آذانهم؛ بسبب الصَّوارف والحُجُب؟! إنَّ القادر على إسماعهم سمعاً ينتفعون به هو الله الرب الخالق، بسلطة الإجبار التكويني، لكنه سبحانه لم يشأه، لمنافاته لمشيئة التخيير التي شاءها لعباده.

وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَٰكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ۚ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ ۖ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۚ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنتُم بِهِ ۚ آلْآنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ ۖ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾

٤٣ ـ ومن هؤلاء المشركين مَنْ ينظرُ إليك ـ يا رسول الله ـ بأبصارهم الظاهرة، أفأنتَ تهدي العُمْي عمىً داخلياً يمنعُ مراكز البصر في أدمغتهم من أن تُبصر ما تنقله من مرئيات أجهزة نقل المرئيات في أعينهم؟ إنك لا تستطيع ذلك، لأننا لم نعطك سلطة الإجبار التكويني، بعد أن منحنا الناس حرية الاختيار بإراداتهم، لابتلائهم في ظروف الحياة.

٤٤ ـ إنَّ الله لا يَظْلم الناس شيئاً بزيادةٍ في سَيِّئاتهم، أو نقْصٍ من حسناتهم، ولكنَّ الناسَ لا يَظْلمون إلاَّ أنفسَهم، بالكفر والمعصية ومخالفةِ أمر الله ونهيه.

٤٥ ـ وضع في ذاكرتك ـ أيها المتلقّي لآياتنا ـ يومَ يجمع الله هؤلاء المشركين بعد البعث في موقف الحساب، كأنَّهم لم يُقيموا في قبورهم طوال مدة البرزخ بين الموت والبعث إلا مِقْدار ساعة من النهار الذي كانوا يعهدونه في الحياة الدنيا، يعرفُ بعضهم بعضاً إذا خرجوا من قبورهم كما كانوا يتعارفون في الدنيا، ثمَّ تنقطع المعرفة بينهم إذا عاينوا أهوالَ يوم القيامة. قد خَسِرَ من باع آخرته الباقية بدنياه الفانية، وكذَّبوا بلقاء الله للحساب وفصل القضاء، وما كانوا في الدنيا مُهتدين إلى ما يُصلحهم وينجيهم من هذا الخسار.

٤٦ ـ وإمَّا نُرينَّك ـ يا رسول الله ـ بعضَ ما نَعِدُهم به من العذاب المعجَّل عقاباً لإصرارهم على الكفر والتكذيب، أو نَتَوَفَّيَنَّك قبل أن نُريَك بعض الذي نعدُهم في الدنيا، فإلينا وحدنا مرجعُهم في الآخرة، وسترى ـ يا رسول الله ـ ما أعدَّ الله لهم من العذاب بسبب كفرهم وتكذيبهم، والله حاضرٌ مُراقب يعلم كلَّ صغيرة وكبيرة بكلِّ ما يعملون في الحياة الدنيا مع توالي الوحدات الزمنيَّة، ثم هو سبحانه شهيد عليهم يوم الدين، يخبرهم عند مُحاسَبَتهم بجرائمهم التي كانوا قد اكتسبوها في الحياة الدنيا، ويُجازيهم عليها يومَ القيامة.

٤٧ ـ ولكلِّ أمَّةٍ تقدَّمت قبلكم ـ أيها الناس ـ رسولٌ يدعوهم إلى الإيمان بالله وطاعته، فإذا جاءهم رسولهم وبلَّغهم ما أُرسِلَ به إليهم، فكذَّبه قومٌ وصدَّقه آخرون، حَكَم الله بينهم بالعدل، وهم لا يُظلمون من جزاء أعمالهم شيئاً، ولكن يُجازي كلَّ أحدٍ على قدر عمله.

٤٨ ـ ويقول هؤلاء الكفار: متى زمن تحقيق هذا الموعود به من عذابنا؟ إنْ كنتم صادقين فيما تعدونا به؟

٤٩ ـ قل لهم ـ يا رسول الله ـ: إنِّي لا أمْلك لنفسي دفعَ ضرٍّ أو جَلْب نفع، ولا أقْدِرُ على ذلك إلاَّ ما شاء الله أنْ أقدر عليه، لكلِّ أمَّةٍ أنذرها الله بعقابٍ مُعَجَّل وقْتٌ مُعيَّن في علمه تعالى لا يتغيَّر ولا يتبدَّل، فإذا جاء وقت إنزال عقابه فيهم، فلا يتأخَّرونَ عن ذلك الأجل الذي أُجِّل لهم لحظةً من الزمن، ولا يتقدَّمون عليه لحظة.

٥٠ ـ قل ـ يا رسول الله ـ لهؤلاء المشركين: أتفكَّرتم تفكيراً سديداً بأناةٍ وتعمُّق، حتى أدركتم إدراكاً علميّاً يشبه الرؤية البصريَّة، إنْ أتاكم عذاب ربِّكم الذي تستعجلون في الليل أو في النهار، فماذا يكون تصرُّفكم؟ أتستقبلونه بمسرَّة وتَرحاب؟ أم بخوف وهلع وإيمان وندم على ما سلف منكم. ما الذي يستعجل من عذابنا هؤلاء الكفرة المكذِّبون؟

٥١ ـ أبعدَ إمهالٍ لكم مدَّةً من الزمن، إذا وقع العذابُ وحلَّ بكم ـ أيها المشركون ـ آمنتم بالله، وقْت لا ينفعكم فيه التصديق، فقد انتهى زمن امتحانكم، وجاء زمن محاسبتكم، ويقال لكم: أَآلآنَ تؤمنون حين وقع العذاب، وقد كنتم به تستعجلون تكذيباً واستهزاءً؟

٥٢ ـ ثمَّ بعد البعث والحساب، وفصل القضاء، وتنفيذ الجزاء بإدخال الظالمين جهنم دار العذاب، إذا سألوا تخفيف يوم من العذاب عنهم، قيل لهم: ذوقوا عذاب الله الدائم. لا تُجزَوْن إلا بسبب ما كنتم تكسبون في الدنيا من الشِّرك والتكذيب والجرائم والآثام؟

٥٣ ـ ويَستخبرك هؤلاء المشركون ـ يا رسول الله ـ: أحقٌّ ما تعِدُنا به من نزول العذاب المُعجَّل؟ قل لهم ـ يا رسول الله ـ: نعم وربِّي، إنَّ وعدَ الله لكم بالعذاب المُعجَّل وعدٌ حقٌّ لا شكَّ فيه، وما أنتم بقادرين على الإفلات من عذاب ربكم، إذا شاء إنزاله بكم.

وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ ۗ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ ۖ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ۖ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾

٥٤ - ولو أنَّ لكلِّ نفسٍ أشركتْ ما في الأرض من شيءٍ، لبذلت ما تنجو به من عذاب يومَ القيامة، إلا أنه لا ينفعها الفداء ولا يُقبل منها، وأخفَوْا آثار الغمّ والأسف يوم القيامة على ما فعلوا من الظلم، حين رأوا بَوادر وسائل العذاب الربّاني لهم جزاء ظلمهم، وكان إسرارهم الندامة؛ لأنهم كبراء قومهم، لا يريدون أن يفتضحوا أمام أتباعهم، إذ ما زال الكبْر يعمل في صدورهم أعماله، وحَكَم الله عزَّ وجلّ بينهم بحسب جرائمهم بالعدل، وهم لا يُظلمون في الحكم؛ لأنَّ الله تعالى لا يُعاقب أحداً إلا بذنبه.

٥٥ - تنبَّهوا وتحقَّقوا إنَّ كلَّ شيءٍ في السموات والأرض ملكٌ للَّه تعالى، لا يشركه فيه غيره، فليس للكافر شيءٌ يفتدي به من عذاب الله يوم القيامة، تنبَّهوا وتحقَّقوا إنَّ كلَّ ما وَعَد الله به على لسان نبيِّه ﷺ من ثواب الطائع وعقاب العاصي هو صدقٌ مطابقٌ لما قدّره في المستقبل، وسيقع حتماً، ولكنَّ أكثرهم لا يعلمون حقيقةَ ذلك.

٥٦ - الذي يملك السَّموات والأرض هو وحده القادرُ على الإحياء والإماتة، يُدخل الرُّوحَ في الجسد، فيكون الجسد حيّاً، ويفصل الرُّوح عن الجسد، فيكونُ الجسد ميِّتاً، وإلى حساب ربِّكم وحده، وفَصْل قضائه، وتنفيذ جزائه - أيها الناس - ترجعون بعد بعثكم من قبوركم.

٥٧ - يا أيُّها النَّاس جميعاً قد جاءتكم في آيات القرآن المجيد، موعظةٌ من ربِّكم تُثير الرَّغْبة والرَّهْبة في نفوسكم، وتذكِّركم بما يُليِّن قلوبكم، وجاءكم في آيات القرآن شفاء لما في الصدور من أمراض العقائد الفاسدة والأخلاق الذميمة والجهالات المُهلكة، مما فيه صلاحكم وصلاح مجتمعاتكم، وهو هُدىً من الضلالة، يُرشدكم إلى ما فيه سعادتكم في دنياكم وآخرتكم، وأثر من آثار رحمة الله على المؤمنين؛ لأنَّهم هم الذين انتفعوا بالقرآن واتبعوا ما يهدي إليه دون غيرهم.

٥٨ - قل - يا رسول الله ويا كلَّ داعٍ إلى الله من أمته - للناس مُبيِّناً ومُقْنعاً: استمسكوا بإفضال الله عليكم، ورحمته العظيمة بكم، وما آتاكم في كتابه المجيد من المواعظ وشفاء الصدور، فبذلك الذي جاءكم من ربِّكم، والحرص على الاستمساك به واتِّباعه فليفرحوا، واعلموا أنَّ ما أعدَّ الله لكم - فيما لو استمسكتُم به، واتَّبعتم وصاياه - هو خيرٌ لكم من كلِّ ما يجمعون من متاع الدنيا ولذَّاتها الفانية. وفي هذه الآية دعوةٌ إقناعيَّة بشأن القرآن وما جاء فيه من موعظة وشفاءٍ وهُدىً ورحمة، رغبةً في استجابة غير المسْتجيبين بعدُ من الناس، وتثبيتاً للمستجيبين، وإعلاماً لهم بما يُخفِّف تعلُّقهم في الدنيا، ويربط قلوبهم بفَضْل الله المدَّخر للمؤمنين.

٥٩ - قل - يا رسول الله - لكفَّار مكة: أتفكَّرتم تفكيراً سديداً بأناةٍ وتعمُّق حتى أدركتم إدراكاً علمياً يشبه الرؤية البصريَّة، ما خلقه الله لأجل نفعكم من بركات السماء من زرع وضَرع وغيرهما، فجعلتم من ذلك الرزق حراماً كالبحيرة والسائبة، وحلالاً كالميتة؟ قل لهم - يا رسول الله - : آللَّهُ أذن لكم بأن تصدروا أحكام تحريم وتحليل، وهو صاحب الحقِّ دون غيره في أحكام التحريم والتحليل التعبُّديَّة؟ بل أنتم تكذبون على الله في نسبة ذلك إليه، وادِّعائكم: أنَّ الله أمركم بهذا.

٦٠ - أيُّ شيءٍ يظنُّ هؤلاء الذين يفترون على الله الكذب أنَّ اللَّهَ فاعلٌ بهم؟ أيحسب هؤلاء إذا لقُوه يومَ القيامة، أنَّه سيعفيهم من المسؤولية ولا يعاقبهم على افتراءاتهم في التحليل والتحريم دون إذنٍ منه، ومن غير دليل يستندون إليه؟ إنَّ الله لذو فَضْل على الناس ببعثة الرسل، وإنزال الكتب، وإمهال المكذِّبين رغبةً في إيمانهم، فلا يعجِّل لهم العقوبة، ولكنَّ أكثرهم كافرون، لا يشكرون الله على ذلك الفَضْل والإحسان.

٦١ - وما تكونُ - يا رسول الله أنت وأصحابك والدَّاعين بدعوتك - في أمر من الأمور، وما تَتْلو شيئاً من كتاب ربِّك من مقروء، ولا تعملون - أيها المؤمنون - من عمل صالح تدعون فيه إلى ربكم، وتتحمَّلون أذى أعدائكم، إلا كنَّا حاضرين مراقبين لأعمالكم، حين تندفعون بهمَّة ونشاط مجاهدين في نُصرة دينكم، وما يبْعُدُ عن علم ربِّك - يا رسول الله - ولا يخفىٰ عليه من مقدار وزنِ ذرَّة في الأرض ولا في السماء، ولا أصغر من مِثل وزن ذرة حتى أقلِّ شيءٍ في الوجود غير قابل للانقسام، ولا أكبر منها حتى أعظم مقْدار في الوجود، ولا شيء في الوجود كلِّه من الذوات والصفات والأحداث إلا هو مُسجَّل في كتاب واضحٍ جليٍّ لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها.

أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾

٦٢ ـ تنبَّهوا وتحقَّقوا، إنَّ أولياء الله الذين نصروه وأحبُّوه وتحققوا بعبوديَّته لا خوفٌ عليهم تَضْطرب به نفوسهم وقلوبهم يوم الدين، بسبب ترقُّب مكروهٍ من عذاب الله، ولا هُمْ يحزنون على شيءٍ فاتهم من نعيم الدنيا ولذَّاتها؛ لأن رحمة الله ستشملهم بالعفو والغفران، ولأن ما سينالون من النعيم في الجنة فوق ما يتمنون ويشتهون.

٦٣ ـ وصفةُ أولياء الله: أنهم آمنوا إيماناً صحيحاً صادقاً راسخاً مُستوفياً كلَّ عناصر الإيمان، وكانوا يتَّقون عقوبات الله بامتثال ما أمر الله به، واجتناب ما نهى الله عنه، ولاقوا ربَّهم على ذلك.

٦٤ ـ لهؤلاء الأولياء الخبر السارُّ المفرح من الله سبحانه في الحياة الدنيا؛ بالرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو تُرى له، والثناء الحَسَن، والتأييد والنصر والتمكين في الأرض، ولهم البُشْرى من الملائكة بالمغفرة والرحمة قُبَيْل قبض أرواحهم وهم يُحتَضرون، وبعد الموت، وفي موقف الحشر، وبعد الحساب، وبمشاهدة منازلهم في الجنة، لا خُلْف لوعد الله الذي وَعَدَ به أولياءَهُ وأهل طاعته في كتابه وعلى ألسنة رسله، ذلك الذي وعدهم الله به في الآخرة هو الظفر العظيم الرفيع المنزلة.

٦٥ ـ ولا يَحزُنْكَ ـ يا رسول الله ـ قولُ هؤلاء المشركين لك، ولا يغمَّك تخويفُهم إيَّاك، إنَّ القوة الغالبة كُلَّها لله جميعاً، هو المُنْفرد بها دون غيره، وهو ناصرك عليهم، والمنتقم لك منهم، فلا يحزنك ما يقولون فيك وفي القرآن، وما يدبِّرونه في أمرك، هو السميعُ لأقوالهم، العليمُ بأحوالهم وبما يدبِّرون من مكايد، وما يُعدُّون من قوى وخطط لمنع دين الله من الظهور.

٦٦ ـ انتبهوا واعلموا مُتحقِّقين، إنَّه لا مُلك لأحدٍ في السموات ولا في الأرض إلا للَّهِ عزَّ وجل، فهو يملك مَنْ في السموات من ملائكة، ومنْ في الأرض من ملائكة وإنس وجن، وأيُّ شيءٍ يتَّبع الذين يَدعون من دون الله ويعبدونهم على أنهم شُركاء لله؟ ما يتَّبعون في عبادتهم لآلهتهم إلا الظنّ التوهُّمي بأنَّها تشفع لهم، وتُقرِّبهم إلى الله، وما هم إلا يكْذِبون على الحقيقة بالتوهُّم الكاذب، والظنِّ الضعيف الذي لا قيمة له في تحصيل المعارف.

٦٧ ـ هو اللَّهُ ربُّكم ـ أيها الناس ـ الذي خَلَق لكم الليلَ لتسكنوا فيه عن حركة العمل والكدح لكسب أرزاقكم، ولتستريحوا فيه من التعب، وخلق النَّهارَ مُبْصراً لكم بضيائه، كاشفاً لكم الأشياء التي تريدون إبصارها بأعينكم؛ لتهتدوا فيه لحوائجكم وأسباب معايشكم، إنَّ في ذلك لآياتٍ لقوم يسمعون سَمْعَ اعتبار وتدبُّر، فيعلمون أنَّ الذي خلق هذه الأشياء كلها هو الإله المعبود المُنفرد بالوحدانيَّة.

٦٨ ـ قالت طائفة من المشركين: إنَّ الملائكة بناتُ الله، تنزَّه الله وتقدَّس عن اتِّخاذ الولد، هو الغنيُّ بذاته وصفاته عن جميع خلقه، فكيف يليقُ بجلاله اتِّخاذ الولد؟ له مُلْكُ ما في السموات وما في الأرض، وكلُّهم عبيدُه وفي قَبْضَته وتصرُّفه وهو خالقُهم، فكيف يكون له ولد ممَّن خلق وكلُّ شيءٍ مملوك له؟! ما عندكم حُجَّة وبرهان على ما زعمتم من اتِّخاذه تعالى ولداً، أتقولون على الله قولاً لا تعلمون حقيقته وصحَّته بغير حُجَّة ولا برهان؟

٦٩ ـ قل ـ يا رسول الله ـ لهؤلاء الذين يقولون على الله الباطل ويزعمون أنَّ له ولداً: إنَّ الذين يختلقون الكذب من عند أنفسهم، فيصفون الله بما يستحيل أن يتَّصف به، أو يتقوَّلون عليه أقوالاً لم يقلها، لا ينجحون في سعيهم، ولا يفوزون بمطلوبهم في الدنيا ولا في الآخرة.

٧٠ ـ ما يتقلَّبون فيه مما يلذُّ ويطيب لهم هو متاع قليلٌ ضئيلٌ زائلٌ يتمتَّعون به في الدنيا مدَّة أعمارهم وانقضاء آجالهم، ثمَّ إلينا وحدنا بعد مُدَّة البرزخ الفاصل بين الحياة الأولى والحياة الأخرى رجوعهم، إذْ نحاسبهم ونفصل القضاء بينهم، ونحكم عليهم يومئذ بأنهم كانوا كافرين، ثم نُنفِّذ فيهم ما حكمنا عليهم به من العذاب الشديد؛ بسبب ما كانوا يكفرون كفراً إرادياً بما أوجبنا عليهم أن يؤمنوا به دون أن يكون لهم عذرٌ ما بكفرهم.



وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةٗ ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَمَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ خَلَٰٓئِفَ وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوۡمِهِمۡ فَجَآءُوهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبۡلُۚ كَذَٰلِكَ نَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿٧٤﴾ ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمۡۖ أَسِحۡرٌ هَٰذَا وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا عَمَّا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا نَحۡنُ لَكُمَا بِمُؤۡمِنِينَ ﴿٧٨﴾

٧١ ـ واقرأ على قومك ـ يا رسول الله ـ المُعتزِّين بقوَّتهم، المستهزئين بالمؤمنين، خبرَ نوح ذا الشأن العظيم حين قال لقومه الذين توعَّدوه بأن يقتلوهُ رجْماً بالحجارة إنْ لم ينته عن دعوتهم ومقاومة شركهم: يا قوم إنْ كان ثَقُل عليكم طول مَقامي فيكم، وَوَعظي إيَّاكم بآياتِ الله وحُجَجِهِ وبيِّناتِهِ، وعزمْتُم على قتلي وطردي، فعلى الله وحده توكَّلت في أن يحبط ما تكيدون وتدبِّرون، فهو حَسْبي وثقتي، فأحكِمُوا كلَّ أمركم، واعزمُوا على إهلاكي، وادعوا آلهتكم فاستعينوا بها على مطلوبكم، ثمَّ لا يكن أمركم الذي تُجمعون عليه للتخلُّص مني، وتعدُّون له ما تستطيعون من قوى تدبيراً خَفِيَّاً مُبْهماً، ولكن ليكن أمركم ظاهراً منكشفاً، ثمَّ بعد أن تجمعوا كلَّ قواكم، وتدبِّروا كلَّ مكايدكم، أدُّوا إليَّ بما في أنفسكم من مكروه، وما توعدونني به من قتل وطرد، ولا تُمهلوني لحظة واحدة، بل عجِّلوا أشدَّ ما تقدرون عليه.

٧٢ ـ فإنْ أدبرتم مبتعدين عن الاستجابة لدعوتي، فما سألتكم من عِوَض على تبليغ الرسالة، حتى أكون مُتَّهماً في نفوسكم بأني أدعوكم لمصلحة دنيوية لي عندكم، ما ثوابي وجزائي على قيامي بوظائف رسالتي إلاَّ على الله الذي أرسلني لأبلِّغكم رسالاته، وأدعوكم إلى الإيمان به، وعبادته وحده، وأنا مثلكم مأمور بالشيء الذي أدعوكم إليه، قد أمرني ربِّي أن أكون واحداً من المسلمين، المؤمنين بربِّهم، المطيعين لأوامره ونواهيه.

٧٣ ـ فكذَّب نوحاً قومُه تكذيباً غير مطموع في رجوعهم عنه، فكان من الحكمة إهلاكهم، فأمرنا نوحاً بأن يصنع السفينة ويركب فيها هو والذين آمنوا به واتَّبعوه، فخلَّصناه هو ومَنْ معه، وهم راكبون في السفينة، من شرور الكفار، ومن الطُّوفان، وجعلنا الذين نجَّيْناهم سكان الأرض يخلُفون مَنْ هلكوا بالطُّوفان، ويخلف بعضهم بعضاً، وأغرقْنا بالطُّوفان الشامل الذين كذَّبوا بآياتنا الإعجازيَّة والبيانيَّة والكونيَّة، فانظر ـ أيها المتفكِّر المتدبِّر المعتبر بتصاريفنا في عبادنا، الحريص على نجاته وسعادته ـ كيف كان آخر أمر الذين أنذرهم نوح بعقابنا الشديد المعجَّل، فلم يؤمنوا ولم يقبلوا ذلك؟

٧٤ ـ ثمَّ بعد مدَّةٍ من الزمن بعثنا من بعد نوح رسلاً إلى قومهم، فجاؤوهم بالدلالات الواضحات، والمعجزات الباهرات التي تدلُّ على صدقهم، فبلَّغوهم رسالة ربِّهم، وصبروا عليهم، فكذَّبوهم، وأصرُّوا على كفرهم، واسْتَحْجَرت قلوبهم، فما كان لديهم أيُّ استعداد لأن يؤمنوا عن طريق إراداتهم الحرَّة، بسبب مَا كذَّبوا به من قبل طَوال مسيرة رسلهم بينهم داعين مبلِّغين، مثل ذلك الطَّبع الذي وصلت إليه أقوام الرسل السابقين، الذين استحقُّوا بتكذيبهم رسلَ ربِّهم الإهلاك الشامل، يطبع الله على قلوب كلِّ الكافرين في كلِّ عصر، وفي كلِّ أمة.

٧٥ ـ وبعد مدَّة متراخية من الزمن بعثنا من بعد أولئك الرسل، موسى وهارون عليهما السلام إلى فرعونَ ملك مصر وأشراف قومه، ومجلس مستشاريه، وكبار أركان ملكه بالمعجزات الدالأَّت على صدقهما، فاستكبروا عن الاستجابة لدعوة الحقِّ الربَّانيَّة، وكانوا قوماً كفاراً مكتسبين للإثم مُنْبَعثين في الفُجور.

٧٦ ـ فحين جاء فرعونَ وقومَه الحقُّ الذي جاء به موسى من عند الله، كابروا وعاندوا وقالوا: إنَّ هذا الذي جاء به موسى من آيتي العصا واليد سحرٌ ظاهرٌ واضحٌ يعرفه كل أحد.

٧٧ ـ قال لهم موسى مُتعجِّباً من كلامهم: أتقولون للحقِّ لما جاءكم: هو سحرٌ، وهو حقٌّ جليٌّ واضح!! أسحرٌ هذا؟ إنَّه ليس بسحرٍ، وصاحبُ السحر لا يظفر أبداً مهما اتَّخذ من وسائل، ومهما أحكم من أسباب؛ لأنَّ السحر تخييلٌ وتمويه.

٧٨ ـ قال قومُ فرعون لموسى: أَجِئْتَنَا ومعك العجائب السحريَّة؛ لِتَصرِفَنا وتلْوِيَنا عمَّا وَجدنا عليه آباءنا من الدين، ولتكون لك ولأخيك هارون، الاستعلاء والتعاظم في أرض «مصر»؟ وما نحن لكما بِمُصدِّقين فيما جئتما به.

وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾

٧٩ ـ وقال فرعون: جيئوني بكلِّ ساحرٍ مُتْقنٍ للسحر، لأُظهر أنَّ ما أتى به موسى سحرٌ.

٨٠ ـ فحين جاء السَّحرةُ من الأقاليم المصريَّة، واجتمع بهم فرعون، وعرض عليهم الأمر الذي دعاهم إليه، ووعدهم بالأجر المادي الكبير، وأعدُّوا عُدَّتهم، وحضروا مكان المباراة، وقال السَّحرة: إمَّا أن تلقي، وإما أن نكون أوَّل من ألقى؟ قال لهم موسى عليه السلام: ألْقُوا على الأرض ما معكم من الحبال والعصي.

٨١ ـ فلمَّا ألقَوْا ما معَهم من الحبال والعصي، وسحَرَوا أعينَ الناس واسترهبوهم، قال لهم موسى عليه السلام واثقاً بنُصرة الله له: الذي جئتم به وألقيتموه هو السحر الباطل، الذي يُخيِّل لأعين الناس تخييلاً، ولا يقلب حقائق الأشياء، إنَّ الله سيُهلكه، ويُظهر فضيحة صاحبه، إنكم بسحركم مفسدون في الأرض، مع سيِّدكم فرعون وجنوده؛ إنَّ الله لا يُصلح عمل المفسدين، بتخريب العمران، وقتل الأبرياء، وظلم الناس في أنفسهم أو أموالهم أو أعراضهم.

٨٢ ـ ويُظهِرُ اللّهُ الحقَّ الذي جئتكم به ويُقوِّيه ويُعليه على باطلكم بكلماته التكوينيَّة التي يقول فيها للشيء الذي أراده: كن فيكون فوراً على مُراده جلَّ جلاله، ولو كَرِهَ المجرمون المنبعثون في المعاصي من آل فرعون.

٨٣ ـ فما صدَّق بموسى عليه السلام مسلماً له مع ما أتى به من المعجزات العظيمة الباهرة، إلا ذُرِّيَّةٌ من قومه من بني إسرائيل، على خوفٍ من فرعون وأشراف قومهم من بني إسرائيل، أن ينتقم منهم مُعذِّباً لهم، وإنَّ فرعون لعاتٍ قهَّار مُتكبِّر في الأرض، وإنه لمن المُجَاوزين الحدَّ في كثرة القتل والتعذيب لبني إسرائيل.

٨٤ ـ وقال موسى للذُّرِّيَّة الذين آمنوا له من بني إسرائيل: يا قومي إنْ كنتم آمنتم بالله إيماناً صحيحاً صادقاً، وأسلمتم له، فعليه وحده تَوَكَّلُوا، ولأمره فسلِّموا، فإنه ناصر أوليائه، ومهلك أعدائه، إنْ كنتم مسلمين، فإنَّ صِدقَ التوكُّل على الله يمدُّكم بالقوة والهِمَّة، والصَّبْر والثبات.

٨٥ ـ فقال قوم موسى مُجيبينَ له: على الله وحده اعتمدنا لا على غيره، وإليه سبحانه فوَّضنا أمرنا، ربَّنا لا تُظْهر علينا القومَ الظالمين، ولا تُسلِّطهم علينا، ولا تُمكِّنهم من فتنتنا في ديننا بإغراءاتهم وتضليلاتهم، وتعذيبهم لنا، فإنَّنا إن فُتنَّا في ديننا صِرْنا وسيلة فتنة للآخرين، إذ يتأثَّرون بِفِتْنَتِنَا عن ديننا فيتابعوننا، فنكون نحن بذلك فتنةً لهم.

٨٦ ـ وَخَلِّصنا برحمتك من أيدي قوم فرعون الكافرين؛ الذين يَسْتعبدوننا ويستعملوننا في الأعمال الشَّاقَّة.

٨٧ ـ وَأَوْحَيْنا إلى موسى وأخيه هارون: أن اختارا وهيِّئا لكما ولقومكما بمصر بيوتاً لعبادتي فيها بالصَّلاة والذكر، واجعلوا بُيوتكم هذه ذات قبلة متَّجهة إلى بيت المقدس، وأقيموا الصَّلاة بالمواظبة عليها في أوقاتها، وأدائها على الوجه الشرعيِّ المطلوب، وبشِّر ـ يا موسى ـ المؤمنين الذين يقيمون الصلاة بالعاقبة الحسنة السارَّة في الدنيا وفي الآخرة.

٨٨ ـ وقال موسى: ربَّنا إنَّك آتَيْتَ فرعونَ ووزراءَه ومستشاريه وأعيان مملكته، المناصرين له، والمؤيِّدين لجبروته من زخرف الدنيا ومباهجها وحُلِيِّها زينةً يتزيَّنون بها، وأموالاً من الذهب والفضة والجواهر يكنزونها في الحياة الدنيا التي تبتلي فيها عبادك، ربَّنا لقد امتحنتهم وأمهلتهم إمْهالاً طويلاً؛ لتكشف لهم ولغيرهم أنَّ إرادتهم الحرَّة التي منحتهم إيَّاها لاختبارهم لا تعزم إلا على أن يُضلوا عن سبيلك، وصار صلاحهم وإيمانهم أمراً ميْؤوساً منه، ربَّنا اطْمس على أموالهم بالمحو والإزالة، وغيِّرها عن هيئتها، فلا ينتفعوا بها، وشدَّ على قلوبهم بالمكاره والمؤلمات المُوجعاتِ؛ لِإلانَتِها للحقِّ، فلن يُؤمنوا إلى أن يَرَوْا بأعينهم مُقدِّمات العذاب الشديد المُؤلم.



قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُواْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾

٨٩ ـ قال الله تعالى لموسى وهارون: قد أُجيبتْ دعوتُكما في فرعون وأشراف قومه، وأموالهم، فَسَنُعذِّبهم ونُهلكهم مع جنودهم، فاسْتقيما في سُلوككما وفي قيادتكما لبني إسرائيل على صراط ربِّكما، وامْضِيا لأمري إلى أن يأتيَهم العذاب، ولا تَسْلُكَا طريقَ الجَهلة الذين لا يعلمون صراطَ الحقِّ من قومكما بني إسرائيل.

٩٠ ـ وَسِرْنا بالعناية والحفظ مُصاحبين بني إسرائيل، الطريقَ اليَبس الذي فلقْنا البحرَ عنه حتى عَبَروه، وخرجوا منه إلى البرِّ آمنين، فلحقهم فرعونُ هو وجنودُه ظلماً وتجاوزاً للحقِّ، وجرى وراءهم هو وجنوده جرياً سريعاً لِيُدركهم، فلمَّا أدركَ فرعونَ الغرقُ، وعايَنَ الملائكة والعذاب، قال: صدَّقت أنه لا إله إلا الذي صدَّقت به بنو إسرائيل، وأنا من المسلمين الخاضعين لله بالانقياد والطاعة.

٩١ ـ أآلآن تتوبُ يا فرعون، وتُقرُّ لله بالعبوديَّة، حين يئسْتَ من الحياة، وأيقنت الموتَ!؟ وقد عصيْتَ الله قبل نزول عذابه فيك، وأضعت التوبة في وقتها، وآثرتَ دنياك الفانية على آخرتك الباقية، وكنت من الملوك الطغاة المفسدين الضَّالِّين المُضلِّين عن الإيمان!!

٩٢ ـ فاليوم نُنجِّيك من أن تأكُلَكَ حيتان البحر، ونُلقيك على مُرتفع من الأرض ببدنك، وأنت جَسَدٌ لا روحَ فيك، في نهاية الخسَّة والذلَّة؛ لتصير بِرَمْي جَسَدِكَ على مُرتفع من الأرض ميِّتاً حقيراً، لِمَن يأتي وراءَك من الناس عبرةً يعتبرون بك، وإنَّ كثيراً من الناس عن حُجَجِنَا ودلائل قُدْرتنا لغافلون، لا يتفكَّرون فيها ولا يعتبرون.

٩٣ ـ ونؤكِّد لكم أننا أسكنَّا بني إسرائيل وأنزلناهم مَنْزِلاً محموداً، ومكاناً صالحاً مرضيّاً في أرض فلسطين وبلاد الشام بعد وفاة هارون وموسى عليهما السلام، وظهور ملك طالوت وداود وسليمان، ورزقناهم من الرزق الحلال الطيِّب من خيرات الأرض المباركة، فجاءهم العلم الدينيُّ الربَّانيُّ ببلاغات موسى وهارون والأنبياء والرسل من بعدهما، واتَّبع أحكامَ دين الله بعضُهم، وخالفهم آخرون، إذْ جاء بعد صالحيهم خَلْفٌ فاسدٌ، ورثوا الكتاب الربَّاني ولم يعملوا بأحكامه، وحرَّفوا في دين الله، فغيَّروا وبدَّلوا افتراءً على الله، فَسَلَبهم الله ما أنزلهم وأسكنهم من منازل حَسنة في بلاد الشام، بسبب فسادهم وإفسادهم، وظلمهم وعدوانهم، ولا يقتصر الجزاء على ما عاقبناهم به في الحياة الدنيا، فإنَّ ربَّك ـ أيُّها المتلقِّي لآياتنا ـ يقْضي يوم القيامة بين بني إسرائيل في كلِّ ما كانوا يختلفون فيه، وبعد قضائه بينهم يُجازي المحسنين منهم بفضله، والمسيئين بعدله.

٩٤، ٩٥ ـ فإنْ كنتَ ـ يا رسول الله ـ في ظنٍّ ضعيف مُوقع في حَيْرةٍ وتردُّد ممَّا أنزلنا إليك من قرآن بشأن موسى وبني إسرائيل، وفرعون وقومِهِ، فاسأل أحبار اليهود وعلماءهم، الذين يقرَؤون في كتبهم ما هو مكتوب فيها عن موسى وبني إسرائيل، وفرعون وقومه، ليُطلعوك ـ إذا صدقوا ـ عمَّا كتب فيها من قصص تتَّفق مع ما أنزلنا إليك، لقد جاءك الخبرُ الصَّادقُ الحقُّ المُطابق للواقع تماماً من ربِّك، فلا تكونَنَّ من الشاكِّين، ولا تكونَنَّ ـ أيُّها المتلقِّي للبيان القرآني الذي تعتلجُ في نفسك تساؤلات ممَّا سبق بيانه ـ من الذين كذَّبوا بآيات الله البيانيَّة المنزَّلة في القرآن، فتكون من الخاسرين الذين سخط الله عليهم ونالوا عقابه.

والمقصود بهذا الخطاب: توجيه بعض حديثي الإسلام من المدينة؛ ممَّن لهم صلةٌ بيهود المدينة لمسح الخواطر التشكيكيَّة، والأحاديث النفسيَّة التي تدور في نفوسهم بشأن أخبار موسى وبني إسرائيل، وفرعون وقومه، فالرسول ﷺ لم يشك ولم يسأل، وهو على كمال اليقين بكلِّ ما أنزل الله عزَّ وجلَّ عليه.

٩٦، ٩٧ ـ إنَّ الذين ثَبَت عليهم حكمُ ربِّك ـ يا رسول الله ـ بتعذيبهم وإهلاكهم إهلاكَ استئْصال، أو تعذيبهم عذاباً أبدياً في نار جهنم، لا يُوجَد لديهم استعدادٌ ما لأن يؤمنوا مستقبلاً، مهما أُمهلوا وذُكِّروا، ولو جاءتهم كُلُّ آيةٍ بيانيَّة، أو كونيَّة، أو إعجازيَّة، فإنَّهم لا يؤمنون بها، حتى يَرَوْا بأعينهم العذاب الأليم في نار جهنَّم، أو مُقدِّمات عذاب استئصالهم في الدنيا، فحينئذ لا ينفعهم الإيمان.

فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي ٱلْأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِهِمْ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾

٩٨ ـ فَهلَّا كانت قريةٌ من القُرى التي أُهلكت هلاكَ الاستئصال، آمنتْ قبلَ مُعاينة العذاب، ولم تُؤخِّر إيمانها إلى حين معاينته، فنفعَها إيمانُها!! بأن يقبله الله منها، ويكشفَ عنها العذابَ بسببه؛ لكنَّ قومَ يونس لم يجْرُوا على سُنَّة أسلافهم، بل بادروا إلى الإيمان قبل نزول العذاب حين رأوا أماراته، فقبل الله إيمانهم، وكشف عنهم عذاب الذلِّ والهوان في الحياة الدنيا، ومتَّعهم إلى وقتِ انقضاء آجالهم.

٩٩ ـ ولو شاء ربُّك ـ يا رسول الله ويا كُلَّ داعٍ إلى الله من بعده ـ إكراهَ النَّاس على الإيمان، لَسَلبَهُم حُرِّيَّاتهم، فجعَلَهُم مَجْبورين، فأكْرَهَهم، فآمن بكَ وصَدَّقك مَنْ في الأرض كلُّهم جميعاً، ولكن هذا ينافي حكمة الابتلاء، وترك الناس لاختيارهم الحر، فبعضهم يختار بإرادته الحرة سبيل الهداية، وبعضهم يختار بإرادته الحرة سبيل الضلال. أفأنت ـ يا رسول الله ويا أيها الداعي إلى الله من بعده ـ تُكْرِهُ الناس حتى يكونوا مؤمنين، وهو أمرٌ لم يَخْترهُ الله لنفسه، مع قدرته التامَّة عليه.

١٠٠ ـ وما كان لنفس ذات إرادة حرَّة، مُمَكَّنة من الإيمان والكفر بحريَّة تامَّة، أن تؤمن أو تكفر إلا هي مصحوبة فيما تختار بإذنٍ وتمكينٍ من الله ربِّ العالمين، دون أن تكون مجبورةً على إيمان أو كفر، فلا تُجْهِد نفسك على إيمانهم فإنَّ أمرهم إلى الله، ويجعلُ الله رجس الحكم بالكفر على الكافرين الذين لا يفهمون عن الله أمره ونهيه، ولا يعقلون بإرادتهم الحرَّة أهواءهم وشهواتهم ورغباتهم في الفجور.

١٠١ ـ قُل ـ يا رسول الله ـ لهؤلاء المشركين الذين يسألونك الآيات: انظروا بقلوبكم نظرَ اعتبار وتفكُّر وتدبُّر، ما الذي في السموات والأرض من الآيات التكوينيّة الدالَّة على وحدانيَّته، فإذا نظرتم هذا النظر التدبُّري تحقَّقتم من صدق رسولكم فيما جاءكم به عن ربِّكم، ولا تُغني الآيات الكونيَّة الدالأَت على علم الله وقدرته، والأحداث التي جرت للمكذِّبين المُهْلَكين من الأمم السابقة، عن قومٍ ليس لهم استعدادٌ لأن يؤمنوا مهما أُمهلوا وعُولجوا، حتى لا يمنعهم الإيمان عن الانطلاق وراء أهوائهم وشهواتهم الجامحة.

١٠٢ ـ لا ينتظر هؤلاء المشركون من قومك ـ يا رسول الله ـ إلاَّ يوماً يُعاينون فيه العذاب، مثلَ أيام الذين مَضَوا من قبلهم؛ قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب، أهلكناهم جميعاً. قل لهم ـ يا رسول الله ـ: إنْ لم تؤمنوا، فانتظروا أن لا يتحقَّق لكم ما تنتظرونه من التخلُّص مني ومن دعوتي، فانتظروا إنِّي معكم من المنتظرين أن ينصُرني ربِّي، ويخذلكم ويُحبط كلَّ مكايدكم.

١٠٣ ـ ثُمَّ بعد الانتظار نُنزل بهم العقاب، ونُنَجِّي رُسُلَنا والذين آمنوا بهم واتَّبعوهم من شرور الكافرين ومكايدهم، وكما أنْجَيْنا رُسُلنا والذين آمنوا معهم من شرور الكافرين ومكايدهم، كذلك نُنَجِّيك ـ يا رسول الله ـ والذين آمنوا معك وصدَّقوك إنجاءً حقّاً ثابتاً علينا، فاطمئنوا لنصر الله أيها المؤمنون.

١٠٤ ـ قُل ـ يا رسول الله ـ لهؤلاء الذين أرسلْتُكَ إليهم، فشكُّوا في أمرك ولم يؤمنوا بك: إنْ كنتم في شك من ديني الذي أدعوكم إليه، فلا ينبغي أن تشكُّوا فيه؛ لأنَّه دينُ إبراهيم عليه السلام، وأنتم من ذُرِّيَّته وتعرفونه ولا تشكُّون فيه، وإنما ينبغي لكم أن تشكُّوا في عبادتكم لهذه الأصنام، فإنْ أصرَرتُم على ما أنتم عليه، فلا أعبد هذه الأوثان التي تعبدون من دون الله، ولكن أعبدُ اللَّهَ الذي هو قادرٌ على إهلاككم ونصري عليكم، وأمرني ربِّي أنْ أكونَ من المُصدِّقين.

١٠٥ ـ وأمرني ربِّي بأن اجْعَلْ اتِّجاه حركة حياتك مُلازماً لأداء واجبات الدين ونشره والدعوة إليه، مُستقيماً عليه غير معوجٍّ عنه إلى دين آخر، ولا تكونَنَّ مُشركاً بربوبيَّةِ الله ولا بإلٰهيَّته من فئة المشركين.

١٠٦ ـ ولا تعبد ـ يا رسول الله ـ مِنْ دون الله بالدعاء أو بغيره من العبادات، إلٰهاً لا ينفعك إنْ عَبَدْتَهُ ودَعَوْتَه، ولا يضُرُّكَ إنْ تركتَ عبادته، فإنْ فعلتَ ما نهيتُك عنه فعبدتَ غيري، فإنَّك تصير من الظالمين ظلماً من دركة الشرك؛ لأنك وضعت العبادة في غير موضعها، فتستحقُّ العقابَ الأبديَّ الذي يستحقُّه المشركون.

وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَـٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾

سُورَةُ هُودٍ

ترتيبها ١١ — آياتها ١٢٣

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓر ۚ كِتَـٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَـٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَـٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ ۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٥﴾

١٠٧ - وَإنْ يَمْسَسْكَ الله - يا رسول الله - بشدَّةٍ وبلاء لحكمةٍ من حكمه، فآلمك هذا الضُرُّ، وطلبت إزالتَهُ، فلا مُزيل لذلك الضُر الذي أنزله بك إلا هو سبحانه، لا غيره، وإنْ يُردْكَ ربُّك مُمتَّعاً بسَعَةٍ ورخاء فلا مانع ولا صارف لفضله، يُصيبُ الله بالخير العظيم مَنْ يشاء إصابته من عباده، وهو الكثير السَّتر لذنوب عباده، الدائم الرحمة بهم.

١٠٨ - قل - يا رسول الله - : يا أيُّها الناس قد جاءكم الدين الذي هو الأمر الثابت الذي لا شكَّ فيه من الله عزَّ وجل، فمن اهتدى بإرادته الحرَّة فإنَّما ينفع نفسه؛ ومن ضلَّ بإرادته الحرَّة فإنما يَضِلُّ جانياً على نفسه؛ لأنَّ وبال ضلاله راجعٌ إليه، وما أنا عليكم بحفيظ أحفظ عليكم أعمالكم، وأجازيكم عليها، ولست مُجْبِراً لكم أن تستجيبوا لما أدعوكم إليه؛ ما أنا إلاَّ بشيرٌ ونذير.

١٠٩ - واتَّبع - يا رسول الله - الأمر الذي يُوحيه الله إليك، واصبِر على أذى مَنْ خالفك من قومك، واستمرَّ مُتحلِّياً بالصبر، حتى يحكم الله بشأن المصرِّين على كفرهم، وهو سبحانه خيرُ الحاكمين، فلا تسأل ربَّك التعجيلَ بإهلاكهم، فإنَّهم إن أصرُّوا على كفرهم وعنادهم، فسينزل بهم عقابه، وينصرك وينصر الذين آمنوا معك.

سُورَةُ هُودٍ

١ - ﴿الر﴾ سَبَق الكلام على الحروف المقطَّعة في أوَّل سورة البقرة.

هذا القرآن كتابٌ نُظمت آياته تنظيماً محكماً متقناً، لا يقع فيه تناقضٌ ولا خَلَل، بوضع كلِّ شيء في موضعه، وجعل آياته مطابقة للمعنى المراد، فهي لا تحتمل إلا المعنى الذي أريدت به، ثم بُيِّنت بالأمر والنهي، وبيان الحلال والحرام، والتَّشبيهات، والاستعارات، والمحاذيف والمطويات، وضرب الأمثال، وهو مُنزَّلٌ من عند حكيم يضع الأشياء في مواضعها، ويختار أفضلَ الأشياء وأتقنَها وأحسنَها في الأمور المختلفة لما يُعطي أحسن النتائج، خبيرٍ بالغِ غاية العلم بأحوال عباده وما يُصلحهم على سبيل الشهود والحضور المصاحب لكلِّ أجزاء العمل، ظواهره وبواطنه.

٢ - أعِد - يا رسول الله - على مَسَامع المطموع في استجابتهم بياناً دعوياً: أنْ لا تجعلوا أيَّ عبادةٍ من عباداتكم موجَّهةً لغير الله؛ إنَّني لكم من عند الله نذيرٌ أُنذركم عقابه بالخلود في عذاب النار إن اخترتم الكفر وأصررتم عليه، بشيرٌ أُبشِّر بالثواب الجزيل في جنات النعيم لمن آمن بالله ورسوله، وأطاع وأخلص العملَ للَّهِ وحده.

٣ - واطلبوا من ربِّكم السَّتر لسالف ذنوبكم، ثمَّ ارجعوا إليه بالطاعة في المستقبل، إنَّكم إذا فعلتم ما أُمرتم به من الاستغفار والتوبة وأخلصتم العبادة لله سبحانه، بَسَط عليكم من الدنيا وأسباب الرزق ما تعيشون به في أمنٍ وسَعَة وخير إلى حين الموت ووقت انقضاء آجالكم، ويُعطي كلَّ ذي زيادة من إيمانٍ وعملٍ صالح في الدنيا أجرَه وثوابه في الآخرة، وإن تديروا ظهوركم كافرين غير مُستجيبين لما أدعوكم إليه من الهُدى، فقل لهم - يا رسول الله - : إنِّي أخافُ عليكم عذابَ النَّار في الآخرة.

٤ - إلى حساب الله وحده، وفصل قضائه، وتنفيذ جزائه، رجوعكم، ومكان رجوعكم، وزمانه في الآخرة، فَيُثيب المُحسنَ على إحسانه، ويعاقبُ المُسيءَ على إساءته، وهو سبحانه على كلِّ شيءٍ يشاؤه من إيصال الرزق إليكم في الدنيا، وثوابكم وعقابكم في الآخرة، عظيم القدرة، لا يعجزه شيء.

٥ - تنبَّهوا وتحقَّقوا إنَّ هؤلاء المشركين يعطفون صدورهم ويلوونها؛ ليَسْتَتِروا ويتوارَوْا من رسول الله ﷺ، تنبَّهوا وتحقَّقوا إنهم حين يغطُّون رؤوسهم بثيابهم؛ لئلا يرى رسول الله ﷺ إعراضهم عن دعوته، يعلم الله ربهم العليم كلَّ ما يُسِرُّون وما يعلنون، لا يخفى عليه حالهم؛ إنَّه سبحانه عليمٌ بالنيَّات والسرائر صاحبة الاستقرار في الصُّدور، وداخل النفوس.

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ٦ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۗ وَلَئِن قُلۡتَ إِنَّكُم مَّبۡعُوثُونَ مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡمَوۡتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ٧ وَلَئِنۡ أَخَّرۡنَا عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٖ مَّعۡدُودَةٖ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحۡبِسُهُۥٓۗ أَلَا يَوۡمَ يَأۡتِيهِمۡ لَيۡسَ مَصۡرُوفًا عَنۡهُمۡ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٨ وَلَئِنۡ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ ثُمَّ نَزَعۡنَٰهَا مِنۡهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٞ كَفُورٞ ٩ وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ نَعۡمَآءَ بَعۡدَ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٞ فَخُورٌ ١٠ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ١١ فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ ١٢﴾

٦ ـ وما من دابّةٍ ذي حياةٍ تمشي بهدوء رويداً رويداً في الأرض من أكبر حيوان يدبُّ فيها حتى أصغر حيوانٍ، كالفيروسات، إلاَّ أوْجب الله على نفسه أن يرزقها، بوسيلة من وسائله التي يختارها، ويعلم سبحانه استقرارها، ومكان استقرارها وزمانه في أصلاب الأصول الذكور، ويعلمُ استيداعَها، ومكان استيداعها وزمانه في أرحام الأمّهات، كلُّ ذلك مُثْبتٌ ومُسَجَّلٌ في اللوح المحفوظ.

٧ ـ والله الذي خَلَقَ السّموات والأرض وما فيهما في ستّة أيام، وكان عرشُهُ على الماء قبلَ خلق السموات والأرض؛ ليختبركم ـ أيها الناس ـ أيُّكم أحسنُ عملاً بطاعة الله، وأيُّكم أسوأ عملاً؛ فيُجازيكم على أعمالكم. ونؤكِّد لك ـ يا رسول الله ـ أنَّك إن قلت لهؤلاء الكفار من قومك: إنكم مَبْعوثون من بعد الموت للحساب والجزاء، لَيَقُولَنَّ الذين كفروا: ما هذا القرآن إلا سحرٌ واضح ظاهر، وإنَّ محمداً قد أثَّر السحر على تصوُّراته وقواه الإدراكيّة، فصار يقول دون وعيٍ أقوالاً تخريفيَّة هي من الأباطيل.

٨ ـ ونقسم مؤكِّدين لكم: لَئِن أخّرنا عن المشركين العذابَ الذي يستحقُّونه في الدنيا إلى طائفة من الأيام والساعات معدودة الأجزاءِ الزمنيَّة، لَيَقُولُنَّ استعجالاً بالعذاب واستهزاءً: أيُّ شيء يحبس العذاب عنا؟ تنبَّه وتحقَّق ـ أيها المتلقِّي هذا الخطاب ـ أن عذاب الله إذا صدر أمره بإنزاله عليهم، فإنه يومَ يأتيهم لا يَصرِفُه عنهم شيءٌ، وأحاط بهم العذابُ الذي كانوا يستعجلونه استهزاءً.

٩ ـ ونقسم مرة ثانية مؤكّدين لكم: لَئِنْ أذقْنا الإنسان ـ الذي لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر ـ منّا رخاءً وسَعَةً في الرزق والعيش، وبَسطْنا عليه من الدنيا، ومرَّت عليه مُدَّة، وهو يستمتع بمتاعات الحياة الدنيا، ثمَّ سَلَبناه ذلك كله، وأصابته المصائب، فاجْتاحته وذهبت به، يظلُّ قانطاً من رحمة الله، شديد اليأس من كلِّ خير، جَحُوداً لنعمتنا التي أنعمنا بها عليه، لا يتضرَّع إلى ربِّه متذلِّلاً داعياً، مؤمناً بأنه هو الواهب والمانع، وهو على كلِّ شيء يشاؤه عظيم القدرة، لا يعجزه شيء أراده.

١٠ ـ ونقسم مرةً ثالثةً مؤكّدين لكم: لئن أنعمنا على هذا الإنسان، وبَسَطنا عليه من العيش، ووسَّعنا عليه في الرزق، بعد نائبة ونكبة أصابته، ليقولَنَّ الذي أصابه الخيرُ والسَّعَة: ذَهَب العُسْر والضِّيق عني وزالت الشّدائد إلى غير رجعة، إنَّه أَشِرٌ بَطِرٌ بالنعمة مُغْتَرٌّ بها، شديد الفخر والتَّعالي على الناس بنفسه، وبما أُوتي من قوّة، أو مالٍ، أو جاه.

١١ ـ لكن الذين آمنوا وأسلموا واتَّقَوْا وصبروا على المكاره، وعلى الطاعات، وعن المعاصي، وعملوا الصَّالحات ابتغاء مرضاته؛ لا يصابون بآفات اليأس والكفر بنعمة الله، أو الاستكبار والفخر، ، فإنَّهم إن نالتهم شِدَّةٌ صبروا، وإنْ نالتهم نعمةٌ شكروا الله عليها، أولئك الذين هذه صفتهم لهم سَتْرٌ عظيم لذنوبهم، وأجرٌ كبيرٌ في الآخرة.

١٢ ـ فلعلَّك ـ يا رسول الله ـ تاركٌ تبليغَ بعضِ ما يُوحي إليك ربُّك، وضائقٌ بتبليغه صدرُك؛ حرصاً على مُداراة كبراء قومك، رجاء أن يؤمنوا؛ لينقذوا أنفسهم من عذاب النار؛ ولئلا يروِّجوا ضدَّك مقولتهم الإعلاميَّة التي تتأثَّر بها جماهيرهم: هلاَّ أُنزل عليه كنزٌ يستغني به وينفقه! أو جاء معه ملَكٌ يصدِّقه ويشهد له بالنبوّة! فدُمْ على التبليغ ولا تَضِيق بأمرهم ذرعاً، ما أنت ـ يا رسول الله ـ بالنسبة إلى هؤلاء الذين يهمُّك أمرهم إلاَّمُنْذرٌ لهم بعذاب ربِّهم، لأنَّهم قد بلغوا دركة مَيْؤوساً معها من أن يستجيبوا لدعوتك بإراداتهم الحرة، إذ هم مُسْتَيْقنون جاحدون، ولست وكيلاً عليهم، مطالباً بتحويلهم من الكفر إلى الإيمان، واللَّهُ سبحانه قادرٌ على تحويلهم من الكفر بسلب إراداتهم الحُرَّة، وجعلهم مَجْبورين على الإيمان، حافظٌ يحفظُ أقوالهم وأعمالهم، فيُجازيهم عليها يوم القيامة.

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿١٩﴾

١٣ - بل أيقول كفار مكة: اخْتَلَقَ محمَّدٌ ما أُوحيَ إليه من القرآن؟! قُل لهم - يا رسول الله - : فَأْتوا أنتم بعشر سورٍ مثلِ هذا الكلام في الفصاحة والبلاغة مُخْتَلَقَةً من عند أنفسكم إنْ صحَّ أنّي اختلقْتُه من عند نفسي! فإنكم عرب فصحاء بلغاء، وادعوا من استطعتم من دون الله حتى يُعينوكم على صناعة عشر سورٍ مثلِهِ تفترونها على الله، إنْ كنتم صادقين في قولكم أن القرآن قول البشر.

١٤ - وقل لهم: فإن عجزتم، ولم يستجب لكم - أيُّها الكفَّار - من تدعونهم مَنْ دون الله، للإتيان بعشر سورٍ مثل القرآن مُفتريات، فاعلموا أنَّما أُنزل القرآن مُحاطاً بعلم الله، ألفاظاً، ومضامين، ووسيلة تنزيل، وتبليغاً للرسول محمد ﷺ، فهو كلامُ الله حقاً أنزله على رسوله ﷺ، والذي أنزل القرآن هو الله الذي لا إله يُعبد بحقٍّ إلا هو، لا مَنْ تدعونَ من دونه، فأسلموا وأخلصوا العبادةَ لِلَّه.

١٥ - من كان يريدُ الحياةَ الدنيا وزينتَها كافراً بالآخرة، واجتهد في كسب مطالبه من الدنيا بالأسباب التي جعلها الله في كونه، نُعطهم نتائجَ أعمالهم السببيَّة وافيةً تامَّةً، وهم فيها لا يُنْقصون من نتائج أسبابهم شيئاً، فإذا قدَّموا أسبابهم وافيةً أعطاهم الله سبحانه النتائج وافيةً، وإذا نقصوا منها أعطاهم الله بحسب ما قدَّموه من أسباب.

١٦ - أولئك البعيدون عن رحمتنا بسبب كفرهم، الذين ليس لهم في الآخرة إلا عذاب النَّار، يُقاسون حرَّها؛ جزاءً على كفرهم، وذهب عنهم يوم الدين نَفْع ما عملوا في الدنيا من أعمال البرِّ، فلا ينالون عليها ثواباً؛ لأنهم لم يعملوها ابْتغاء مرضاة الله، ولا طلباً لما في الدار الآخرة من نعيم مقيم، وبَطَلَ ما كانوا يعملون في الدنيا من أعمال كيديَّة ضدَّ الرسول والمؤمنين.

١٧ - أَفَمَنْ هو مُسْتَقرٌّ ثابتٌ على حُجَّةٍ واضحةٍ وبُرهانٍ جليّ من ربِّه، وهي قضايا الإيمان التي فَطَر الله العقول والنفوس عليها، ويتبَعُهُ شاهدٌ من ربِّه، يشهد له بصحةِ الحقائق البيِّنة الظاهرة التي توصِّل إليها بحُجَج العقل وبراهينه، وهذا الشاهد هو القرآن الذي يبلِّغه رسولٌ مؤيَّد بالمعجزات، ومن قبل نزول القرآن وإرسال محمد ﷺ نزل شاهدٌ آخر، وهو: كتابُ موسى عليه السلام، كتاباً مُؤْتمَّاً به في معرفة الحقائق الإيمانية الكبرى، ونعمةً عظيمة على المُنزَّلِ عليهم، كَمَن يتخبَّط في الضلالات والمتاهات الفكرية؟! لا يستويان. أولئك رفيعو المنزلة الذين على بَيِّنَةٍ من ربِّهم، يؤمنون بالقرآن وبمحمد ﷺ المنزَّل عليه، ومن يكفُر بالقرآن وبالرسول ﷺ من جميع الكفار وأصحاب الأديان المختلِفَة، فالنَّارُ موعدُه في الآخرة. فلا تكن - أيها المؤمن - في شكٍّ من كونِ القرآن نازلاً من عند الله، ولا تكن في شك من أن المبلِّغ له عن ربِّه نبيُّ الله حقاً وصدقاً، إنَّه الحقُّ الثابتُ من ربِّك، ولكنَّ أكثر الناس لا يُصدِّقون، اتِّباعاً لأهوائهم وشهواتهم، وانسياقاً وراء الشياطين وضلالاتهم وشبهاتهم.

١٨ - ولا يوجد أشدُّ ظلماً من الذي اخْتَلَقَ على اللَّهِ كذباً فكذَب عليه، وَزَعم أنَّ له شريكاً وولداً، أولئكَ المُفْترون على الله الكذبَ، البُعداء المنحطُّون إلى أسفل سافلين، يُعرَضون على ربِّهم يوم القيامة، فيسألهم عن أعمالهم في الدنيا، ويقولُ الشهود الذين يُسْتَدعون لتقديم شهاداتهم على الأئمة المضلِّين وأعوانهم المشاركين لهم في الكذب وإفساد عقائد الناس: هؤلاء الذين كَذَبوا على ربِّهم في الدنيا، ويحكم الله عليهم بأنهم ظالمون من أخسِّ دركات الظلم، تنبَّهوا وتحقَّقوا؛ لعنةُ الله وطرده من رحمته، ونزول عذابه مُنصبٌّ على الظالمين الكاذبين على ربِّهم.

١٩ - الذين يمنعون ويصرفون النَّاس عن سبيل الله المستقيمة التي تخالف أهواءهم، ويطلبون لملَّة الإسلام اعوجَاجاً وَمَيْلاً عن القَصْد والاستقامة، وهم مع ذلك يَجْحَدون البعث بعد الموت وينكرونه، ويحصرون كلَّ همِّهم وإرادتهم بمطالبهم من الحياة الدنيا ولذَّاتهم وشهواتهم منها.

أُولَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾

٢٠ - أولئك الذين كانوا يفترون على الله الكذب في الدنيا، لم يكونوا قادرين على أن يفلَتوا من عذاب ربِّهم إذا أرادهم بالعذاب، وما كان لهؤلاء المشركين في الحياة الدنيا من أنصارٍ يمنعونهم من عذاب الله لو شاء إنزالَ عذابهِ المُعجَّلِ فيهم، يُزاد عذابهم في الآخرة، بسبب ضلالهم وإنكارهم البعث بعد الموت، وإضلال غيرهم من الناس بمختلف وسائل الإضلال والإفساد، إنَّهم صمُّوا عن سماع الحق، وعمُوا عن رُؤْية آياتِ الله في كونه.

٢١ - أولئك البعداء عن رحمة الله الذين خسروا أنفسهم، وبَطَل كذبُهم وإفكهم وافتراؤهم على الله، وادّعاؤهم أنَّ الملائكة والأصنام تشفع لهم.

٢٢ - حقَّ وثبت كونهم في الآخرة هم أكثر الخاسرين خسراناً؛ لأنَّهم باعوا منازلهم في الجنة، واشتروا عِوَضها منازل في النار، وهذا هو الخُسران المبين.

٢٣ - إنَّ الذين آمنوا إيماناً صحيحاً صادقاً، وعملوا الصَّالحات المعبِّرة عن صدق إيمانهم، وتواضعوا وخشعوا لربِّهم، وسَكَنت إليه قلوبُهم ونفوسُهم، واطْمَأنُّوا إلى صدقِ وعد الله بالثواب والجزاء على تلك الأعمال، أولئكَ رفيعو المنزلة أصحابُ الجنَّة هم فيها خالدون لا انقطاع لنعيمها ولا زوال.

٢٤ - وضرب الله مثلاً لفريقين من الناس: **الفريق الأول:** الذين كفروا وصدُّوا عن سبيل الله، **والفريق الثاني:** الذين آمنوا وعملوا الصالحات وخشعوا لربهم، فوصف الفريق الأول: كالأعمى الذي لا يرى شيئاً، والأصمّ الذي لا يسمع شيئاً، فهو مُنْطمسُ أدواتِ الإدراك الحسّي، وبانطماسها تُحجب عنه المعرفة. ووصف الفريق الثاني: كالبصير شديد البصر، حادِّه، الذي يبصر الأشياء على حقيقتها، والسميع قويِّ السمع مُرهَفِهِ، الذي يسمع الأصوات ويجيب الداعي، فهو مُدْرك لما يجري حوله، قادرٌ على اكتساب المعارف. فالفريقانَ لا يستويان مثلاً، إذ حقيقتهما متفاوتتان، وهما على طرفي نقيض، وهل يستوي العمى والبصر الحديد؟ وهل يستوي الصَّمم والسمع المرهف الشديد؟ أفلا تَّتعظون وتنتفعون بحُسْن التذكُّر لحقائق الأمور، بعد معرفتها، واستدعائها من الذاكرة عند المناسبات الداعيات؟!!

٢٥، ٢٦ - ونؤكِّد لكم - أيُّها المكذِّبون برسالة محمد - أن محمداً ليس بِدْعاً في تاريخ الناس، فقد أرسلنا نوحاً في القرون الأولى إلى قومه، فقال لهم ثلاث مقولات: **المقولة الأولى:** إنِّي لكم - أيُّها القومُ - نذيرٌ واضح في رسالتي مبيِّن لها، **المقولة الثانية:** أدعوكم إلى أن لا تعبدوا إلا الله، **المقولة الثالثة:** إنِّي أخافُ عليكم - إنْ عبدتم غيره - عذابَ يوم مُؤْلم مُوجع.

٢٧ - فاعلن الرؤساء والأشراف من قوم نوح رفض دعوته، معلِّلين ذلك بأمور ثلاثة: **الأول:** ما نراكَ يا نوح إلا إنساناً مُماثلاً لنا، فلو كُنتَ رسولاً لما كنت بشراً، **والأمر الثاني:** ما نراك اتَّبعك إلا ناقصو المكانة الاجتماعية، الَّذين هم أسافلُنا في أوَّل الرأي من غير تثبُّت وتفكُّر في أمرك، ولو تبصَّروا ببواطن الأمور، وتَعمَّقوا في الفكر ما اتَّبعوك، فإن أردت أن نتبِّعك فاطرد هؤلاء الأراذل عن مجالسك، **والأمر الثالث:** ما نرى لكم علينا من زيادةٍ في المال والشَّرف والجاه تُؤهِّلكم لاتِّباعنا لكم، فلو كان الله راضياً عليكم بهذا الإيمان الذي تدعون إليه لفضَّلكم بكثرة الخيرات المادية علينا، وما نظنُّكم واهمين، بل نظنُّك - يا نوح - ومَنْ آمن معك كاذبين عن إرادة وتصميم.

٢٨ - قال نوح: يا قوم، أتفكَّرتم تفكيراً سديداً بأناةٍ وتعمُّق، حتى أدركتم إدراكاً علمياً يشبه الرؤية البصريَّة، إنْ كنتُ مُتمكِّناً من حُجَّة قاطعة، ومعجزة باهرة من ربِّي، تشهد لي بأني صادق فيما أبلِّغكم عنه؟! وآتاني مع هذه البيِّنة تعليمات وبيانات أوحاها إليَّ من عنده، تتضمَّن بيان سبيل سعادتكم ونجاتكم، وفي ذلك رحمةٌ عظمى لكم، فالتبس عليكم أمرها عقوبةً لكم، أَنُلْزِمُكُم - أيُّها القوم - قَبول هذه الرحمة العظيمة، التي هي دين الله الذي اختاره لكم؟ إنِّي لا أقدر على ذلك، وليس لي أن أضْطركم وأنتم لها كارهون لا تريدونها.

وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ
أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ
قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ
أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ
أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ
أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا
لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ
جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ
إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ
نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ
هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ
قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾
وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ
فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا
وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾

٢٩ - وقال نوح لقومه: يا قوم لا أطلب منكم على تبليغ الرسالة مالاً، ولكن ثواب نُصحي لكم على الله وحدَه، ولا يجوز لي أنْ أطرُدَ الذين اتَّبعوني، ووصفتموهم بأنَّهم أراذل وأخسّاء، كما طلبتم مني ذلك أَنَفَةً من مجالستهم، واستكباراً عن الانتظام في سِلكهم! إنَّهم مُلاقو ربِّهم يوم القيامة؛ ليحاسبهم ويُجازيهم على ما قدَّموا في الحياة الدنيا من إيمان وعمل صالح، ولكنّي أراكم على طول العهد بكم، وكثرة تعليمي وتذكيري قوماً تتابعون إضافةَ جهلٍ إلى جهلٍ، بإضافة معلومات باطلات جديدات، إلى مفهومات باطلات سابقات.

٣٠ - ويا قوم مَنْ يمنعُني من عذاب الله إنْ طَرَدتُهم عنّي؛ لأنَّهم مؤمنون مُخلصون، أفلا تضعون ما سبق أن بيَّنتُه لكم من حقائق الدين في ذاكرتكم، لتكون دافعاً لكم إلى الإيمان بالحقّ الذي جاءكم من ربِّكم.

٣١ - ولا أقول لكم: عندي خزائنُ الله التي لا يُفنيها شيءٌ، فأدعوكم إلى اتّباعي لأُعطيكم منها، بل أقول لكم: إني رسول الله، أُبلِّغ رسالاته، ولا أدَّعي علمَ الغيب كلّه حتى أطَّلع على ما في نفوس أتباعي وضمائر قلوبهم، بل أعلم منه ما يُعلِّمني الله سبحانه، ولا أدَّعي أنّي من الملائكة، بل أنا بَشَرٌ مثلكم أدعوكم إلى الله، وأُبلِّغكم ما أُرسِلتُ به إليكم، ولا أقول عن الذين تحتقر وتستصغر أعينكم من ضعفاء المؤمنين: لن يُؤْتِيَهم اللَّهُ توفيقاً وهداية وأجراً. اللَّهُ أعلم بما في أنفسهم من الخير والشّر، إنّي لو ادَّعيت أن عندي خزائن الله أعطيكم منها إذا آمنتم بي، أو ادَّعيت أني أعلم الغيب، أو ادَّعيت أني مَلَكٌ كما تتوهَّمون في الرسل، أو زعمت كما تشتهون أنَّ الفقراء ليسوا أهلاً للكرامة الإيمانية والجزاء على الإيمان والعمل الصالح بالخير العظيم عند الله، فطردتهم؛ إني إذاً لواحدٌ من الظالمين الذين يستحقُّون عقاب الله.

٣٢ - قالوا: يا نوحُ قد ناظرتنا وحاورتنا، فأكثرتَ مُناظرتنا وحوارنا، فأْتِنَا بما تَعِدُنا من الإهلاك الشامل إنْ كُنتَ من الصَّادقين في دَعواك أنَّك رسولٌ من اللَّهِ إلينا.

٣٣ - قال نوحٌ لقومِهِ: إنَّ إنزالَ العذاب ليس إليَّ، إنَّما هو إلى الله يُنزله متى شاء، وعلى مَنْ يشاء، وما أنتم بقادرين على الإفلات من عذاب الله إنْ أراد الله أن يُنزله بكم.

٣٤ - ولو حاولت حينئذ أن أتَّخذ أية وسيلة أدفع بها عنكم عذاب الله، فإن ذلك لا ينفعكم، إن كان الله يريد أن يحكم عليكم بالغَواية، وأن يُنزل بكم عقاباً معجَّلاً على ضلالكم، وحين يقضي الله عليكم بالعذاب، بعد أن يحكم عليكم بالغَواية، فإنّي لا أستطيع أن أدفع عنكم عذاب ربِّي، هو سبحانه ربُّكم يملككم فلا تَقْدرون على الخروج عنْ سلطانه، وإلى حساب ربكم وحده، وفصل قضائه، وتنفيذ جزائه ترجعون في الآخرة، فيُجازيكم بأعمالكم.

٣٥ - بل أيقول كبراء مشركي مكة عن القرآن: إنَّ محمداً افْتَراه على الله، وجاءَ به من عند نفسه، ونسبه إلى الله تعالى؟ قل لهم: إنْ كنتُ افْتَرَيْتُ هذا القرآن على ربي، فإني أكون مجرماً، وعليَّ وحدي ينزل عقاب إجرامي، وإذا كنتم أنتم تكذّبون بالحق عناداً وجحوداً، فإنكم مجرمون، وتستحقُّون عقاب الله، ويقع عليكم وحدكم عقاب تكذيبكم بالقرآن، ولا أتحمَّل من مسؤوليته شيئاً بعد أن أبلغتكم، وأنا بريءٌ ممَّا تنبعثون فيه بوقاحة من الكفر والتكذيب.

٣٦ - وأُوْحِيَ الله سبحانه إلى نوح: أنَّه لن يؤمنَ من قومِكَ إلا مَنْ قد آمن من قبل، فلا تحزن ولا تكن في غمّ وضيق، بسبب ما كانوا يفعلون في هذه المدَّة الطويلة، من التكذيب والاستهزاء والإيذاء، فإنّي ناصرك عليهم ومُهلكهم بسبب مضايقاتهم وإيذاءاتهم.

٣٧ - واصنَع السفينةَ بمرأى منَّا محفوظاً بكلاءتنا وعنايتنا، وبوحينا في خطة العمل، وبناء السفينة، وطريقة التنفيذ، ولا تُخاطبني طالباً إمْهال الذين ظلموا من قومك، فإني قد حكمتُ بإغراقهم قضاءً مُبرماً لا مَردَّ له.

وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴿٤٥﴾

٣٨ ـ فنفَّذ نوحٌ أمر ربِّه، وصار يصنع السفينة البحريَّة هو ومَنْ معه ممَّن يُعينُه من المؤمنين، وكلَّما مَرَّ عليه جماعةٌ من كُبراء قومه، مُسْتعلين عليه بأوضاعهم الاجتماعية، استهزؤوا به؛ لصنعه السفينة. قال نوح لقومه بعد صبر طويل على سُخْريتهم منه: إنْ تسخَروا منا بسبب جهلكم بما نصنع، وجهلكم بالغاية منه، فإنَّا الآن نسخر منكم مقابلةً لمثل عملكم؛ لعلمنا بأنكم هالكون غرقاً.

٣٩ ـ فسوف تعلمون يوم القيامة مَنْ يأتيه عقابٌ من الله يُهينُه إذلالاً وافتضاحاً، أمام الخلائق قبل دخول النار دار العذاب، ومَنْ ينزل عليه حالاً على كلِّ جزء منه عذاب النار الثابت المستقر، الذي لا انقطاع له في الآخرة؟

٤٠ ـ وانتهى نوح من صنع السفينة، حتى إذا جاء وقت توجيه الأمر بإهلاكهم، وفار التنُّور الذي يُختبز فيه بدار نوح بالماء، علامةً على مجيء العذاب، قلنا لنوح: احمل في السفينة من كلِّ نوعٍ من أنواع البهائم في بيئتك زَوْجين اثنين ذكرٍ وأنثى، واحمل أهلَكَ من زوجةٍ وولد وأقارب وعشيرة ذات قرابة، وأزواجهم وذرِّياتهم، إلا مَنْ سَبَق عليه القول الربَّاني بأنه من المُغرقين، لأنه لم يؤمن، وبقي على دين قومه، واحمل معك كلَّ مَنْ آمنَ بك من قومك، وما آمن مع نوح عليه السلام إلا قليلٌ من قومه مع طول المدة والمقام فيهم.

٤١ ـ فحمل نوح عليه السلام من كلِّ زَوْجين اثنين، وحمل الأرزاق التموينيَّة، وقال نوحٌ لأهله والمؤمنين: اركبوا في داخل السفينة، بسم الله يكون جَريُها على وجه الماء، وبسم الله يكون منتهى سيْرِها وإرساؤها؛ إنَّ ربِّي لكثير السَّتْر لذنوب من آمَنَ منكم، دائم الرحمة بكم، حيث خلَّصكم من العذاب، وكتب لكم السلامة والنجاة. واستُدلَّ بهذه الآية: ﴿بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ على استحباب هذا الذكر عند ركوب السفينة.

٤٢ ـ والسفينةُ تجري وهم فيها في موج كالجبال في عِظَمِه وارتفاعه، ونادى نوحٌ ابنَه ـ وكان في مكان منفرد عن أبيه وقومه ـ فقال له: يا بُنيَّ اركب معنا في السفينة، ولا تكن مع الكافرين فتهلك معهم، ولم يكن نوح يعلم أن ابنه هذا كان كافراً؛ إذ كان في معزل عنه، يكتم كفره، ولا يتظاهر به.

٤٣ ـ قال ابنُ نوح: سألجأ إلى جبلٍ عالٍ يمنعني من الغرق بالماء. قال له نوح: لا عاصم اليوم من عذاب الله بالطُّوفان العام الشامل، إلا عاصمَ مَنْ رَحِمَهُ الله، فَجَعل له في السفينة وسيلة النجاة الوحيدة، فآمِنْ واركب في السفينة معنا، وحال الموج المرتفع بين نوح وابنه، ولم يستطع الابن أن يُسرع إلى جبل شاهق، فقد داهمه الماء، فكان من المُغرقين الهالكين؛ لأنه كان من الكافرين، وقد سبق عليه القول الربَّانيُّ المبْرم بأن يهلك بالإغراق مع كفار قوم نوح عليه السلام.

٤٤ ـ وقال اللَّهُ للأرض بعدما تَناهى الطُّوفان، وأغرق اللَّهُ قومَ نوح: يا أرض اشْربي ماءَك، فتوقَّفت فوراً عن تفجُّر عيونها، وأخذت تبلع ماءَها، ويا سماءُ كُفِّي وأمسكي عن إرسال المطر، فكفَّت السماء، وأمسكت فوراً عن الإمطار، وانقشعت الغيوم، وصارت صَحْواً، ونقص الماءُ عن وَجْه الأرض، فوق الذي حصل بابتلاع الأرض ماءَها، وفُرغ من الأمر بهلاك قوم نوح، وتوقَّفت السفينة عن الجَرْي، واستقرَّت استقراراً مُستوياً على جبل الجُوديِّ، وقيل: طرداً وهلاكاً جماعياً للقوم الظالمين في الحياة الدنيا، وإبعاداً لهم عن رحمة الله.

٤٥ ـ ونادى نوحٌ ربَّه نداء استغاثة وتضرُّع وتذلُّل فقال: يا ربِّ إنَّ ابني من أهلي، وقد وعدتني أن تُنجيني وأهلي من الغرق والهلاك، وإنَّ وعدك الصِّدق الذي لا خُلف فيه، إن كنت أنجيتَهُ بوسيلة أخرى، أو كنت أهلكته مع المغرقين، فأنت أحكم الحاكمين وأعدلهم، لا تحكم إلا بما هو حقٌّ؛ لأنك عليمٌ بعبادك، لا تخفى عليك منهم خافية.

قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٤٨﴾ تِلۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهَآ إِلَيۡكَۖ مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ مِن قَبۡلِ هَٰذَاۖ فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۖ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا مُفۡتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِيٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ وَمَا نَحۡنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوۡلِكَ وَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴿٥٣﴾

٤٦ ـ قال الله تعالى: يا نوحُ إنَّ هذا الابن الذي سألتني نجاتَه ليس من أهلِكَ الذين وَعَدتُك أن أنجيهم؛ إنَّ ابنَك صاحب عمل غير صالح، فلا تَسْألني مُستقبلاً عما يجري في تصاريفي من أمورٍ تجهل بواطنها، إنِّي أعظك ناهياً لك عن أن تكونَ في المستقبل من الجاهلين، فتسألني سؤالاً تُطالبني فيه بأمرٍ على خلاف مُقْتضى علمي وحكمتي وعدلي، وكن على ثقةٍ بأن ربّك عليمٌ حكيمٌ، وأنّ تصاريفه تجري على وَفْق علمه وحكمته.

وفي هذا النصِّ تعليمٌ لنا أن لا نسأل الله تعالى تغيير أحكامه العادلة، فيمن حكم عليهم بالعقاب، ولو كنَّا لا نعلم السبب الحقيقيّ لما حكم عليهم به، فهو سبحانه عليمٌ بعباده، ولا يظلم أحداً، ودعاؤنا في أمرٍ من هذا القبيل يُشعر بالاعتراض على حكمه، أو هو جهالة لا تليق بالمؤمن الذي يعلم أنه أحكم الحاكمين، وأعدل العادلين.

٤٧ ـ قال نوح عليه السلام: ربِّ إنِّي ألجأ إليك من أن أندفع في المستقبل مع عواطفي فأسألك سؤال مُتسرِّع في أيِّ أمر ليس لي به علم، وإن لم تغفر لي جهلي وإقدامي على سؤال ما ليس لي به علم، وترحمني برحمتك التي وَسِعَت كلَّ شيء، أكن من الخاسرين الذين يخسرون بعض منازل رفيعة يستحقُّها أهل الرفيق الأعلى من المرسلين أولي العزم.

٤٨ ـ قال الله تعالى: يا نوحُ انزل من أعلى السفينة إلى الأرض، أنت ومَنْ معك، وما معك من البهائم، مصحوبَيْن بأمنٍ وسلامةٍ منا عليك، ومصحوبَيْن ببركاتٍ متنوّعات، وخيراتٍ ونعم ثابتات منَّا عليك، وعلى ذُرِّيَّةِ أممٍ ممَّن كانوا معك في السفينة تجيءُ من بعدك من المؤمنين، وهناكَ أممٌ كافرة هم سلالاتٌ ممَّن معك يجيئون بعدك، سنمتّعهم متاعاً قليلاً معجَّلاً في الدنيا إلى مُنتهى آجالهم، ثمَّ بعد هذا المتاع القليل الضئيل تأتيهم مناياهم، ثمَّ يلاقون حسابهم، وبعد حسابهم ينفّذ عقابهم على كفرهم وشرورهم، ويمسُّهم منا عذابٌ أليمٌ في الآخرة.

٤٩ ـ إنَّ قصة نوح وقومه التي أخبرناك بها ـ يا رسول الله ـ من أخبار الغيب ذات الأهمية نُوحيها إليك، ما كنتَ تعلمها أنت ولا قومُك من قبل نزول القرآن عليك، فاصبر ـ يا رسول الله ـ على أذى مُشركي قومِكَ كما صبر نوحٌ على أذى قومه، إنَّ النَّصر والظَّفَرَ على الأعداء، والفوز بالسعادة الأخرويَّة للمؤمنين المتَّقين.

٥٠ ـ ولقد أرسلنا إلى «عادٍ» أخاهم في النَّسب «هوداً» نبياً ورسولاً. قال: يا قوم وَحِّدوا اللَّهَ، ولا تُشركوا معه شيئاً في العبادة، إنَّه تعالى هو إلهكم لا هذه الأصنام التي تعبدونها، فإنَّها حجارةٌ لا تضرُّ ولا تنفع، ما أنتم إلا تكذبون، إذ تتَّخذون مع الله آلهةً تعبدونها من دونه.

٥١ ـ يا قومِ: لا أسألُكم على تبليغ الرسالة أجراً آخُذُهُ منكم حتى تتَّهموني بالسَّعي إلى مصالح شخصيَّة دنيويَّة، ما أجريَ على ما أقوم به من تبليغكم رسالاتِ ربي إلاَّ على الذي أوجدني من العدم وخلقني، فإنَّه هو الذي يرزقني في الدنيا، ويُثيبني في الآخرة، أفلا تعقلون الحقائق بأدوات التفكير لديكم عقلاً علمياً، وتعقلون نفوسكم عن اتّباع الأهواء والشهوات عقلاً إرادياً؟

٥٢ ـ ويا قومِ: استغفروا ربَّكم ممَّا سلف منكم من الشِّرك والفجور والظلم والعدوان، ثمَّ ارجعوا إلى ربكم إليه بتجديد الإيمان الصحيح، ومتابعة الأعمال الصالحة، فإن استغفرتم ربكم من سابق كفركم وذنوبكم، وواظبتم بعد ذلك على طاعته، فإن الله عزَّ وجلّ ينزل المطر عليكم كثيراً مُتَتَابعاً مرَّةً بعد مرَّةٍ، في أوقات الحاجة إليه، لإنبات زروعكم، ولإكثار أنواع الثمرات المختلفات الأصناف، ويَزِدكم شِدَّةً مُضَافةً إلى شِدَّتكم، بكثرة ذُرِّيَّاتكم وأموالكم، وتَتَابع النِّعم عليكم، ولا تبتعدوا وتُدبروا عن قَبول قولي ونُصحي حال كونكم بتولِّيكم عن دعوة رسول ربِّكم كافرين مكتسبين للإثم، مُنْبَعثين في الفجور.

٥٣ ـ قالوا: يا هودُ ما جِئْتَنا بآيةٍ خارقةٍ واضحةٍ ممَّا طلبنا منك دليلاً على صِحَّة ما تقول، وما نترك عبادة آلهتنا من الأوثان تركاً صادراً عن تأثُّرنا بقولك، وما نحن بمُصدِّقين بك نبياً ورسولاً، وما نحن بمنقادين لك، مهما حاولت واجتهدت في دعوتنا وإقناعنا.

إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖۗ قَالَ إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ
وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي
جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا
مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ
﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَيَسۡتَخۡلِفُ
رَبِّي قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ
﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا هُودٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ
مِّنَّا وَنَجَّيۡنَٰهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٖ ﴿٥٨﴾ وَتِلۡكَ عَادٞۖ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ
رَبِّهِمۡ وَعَصَوۡاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ ﴿٥٩﴾ وَأُتۡبِعُواْ
فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ عَادٗا كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ أَلَا
بُعۡدٗا لِّعَادٖ قَوۡمِ هُودٖ ﴿٦٠﴾ ۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ قَالَ
يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ
وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا فَٱسۡتَغۡفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٞ مُّجِيبٞ
﴿٦١﴾ قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدۡ كُنتَ فِينَا مَرۡجُوّٗا قَبۡلَ هَٰذَآۖ أَتَنۡهَىٰنَآ أَن
نَّعۡبُدَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ ﴿٦٢﴾

٥٤، ٥٥ ـ إنَّك يا هودُ لستَ تتعاطى ما تتعاطاه من مخالفتنا وسبِّ آلهتنا إلا أنَّ بعضَ آلهتنا أصابَكَ بخَبَلٍ وجنون؛ لأنَّك سَبَبْتَهم، فانتقموا منك بذلك. قال هود مُجيباً لهم: إني أسأل الله أن يشهد لي، واعلموا أنتم علم حضور وشهود، إذا استدعيتُم للشهادة عند ربي، فاشهدوا لي، أنِّي بعيدٌ كلَّ البعد، طاهرٌ غاية الطهارة من رِجْس هذه الأصنام التي تعبدونها من دون الله، وأنا أتحدَّاكم أنتم وآلهتكم جميعاً أن تكيدوني لإهلاكي، أو الإضرار بي، فاحتالوا في كَيْدي وضري أنتم وأصنامكم التي تعتقدون أنها تضرُّ وتنفع، ثمَّ لا تُمهلوني بكيدكم، بل عاجلوني بالعقوبة.

٥٦ ـ إني فوَّضْتُ أمري إلى الله، واعتمدتُ عليه، فهو الذي يحبط كيدكم وينصرني عليكم، ما مِن دابَّةٍ تدبُّ على الأرض، ولها قدرة بحركتها على ضُرٍّ أو نفع، إلا هو سبحانه مالكُها والقادرُ عليها، وهو يقْهرها، فلا أُبالي بكيدكم وكيْد آلهتكم، وإنِّي على ثقةٍ بأنَّ ربِّي لا يمكن أن ينصر أعداءَه على أوليائه؛ لأنه سبحانه في تدبيره لكونه وتصاريفه لشؤون عباده على طريق واضح مُمَهَّد مستقيم، وهو طريق الحقِّ والعدل والحكمة واختيار أفضلِ الأمور وأحسنها.

٥٧ ـ فإنْ تتولَّوا مبتعدين عنِ الإيمان بما أُرسلت به إليكم، فإنِّي لم يقع مني تقصيرٌ في تبليغ ما أرسلت به إليكم، إنَّما التقصير منكم في قَبول ذلك، وإنكم إن أدبرتم عن الاستجابة لدعوتي، وأصررتم على الكفر عناداً واستكباراً وجحوداً، فإن ربي سيعذِّبكم ويهلككم، ويستخلف في الأرض قوماً غيركم أطْوَعَ منكم يُوحِّدونه ويعبدونه، فيجعلهم خلفاء لكم، واعلموا أنكم بكفركم، ومعصيتكم أوامر ربِّكم، وظلمكم وعدوانكم لا تضرُّونه شيئاً، إنَّما تضرُّون أنفسكم بذلك، بتعريضها لعذاب الله، إنَّ ربي رقيبٌ حافظٌ لكلِّ شيء، فيحفظني من أن تنالوني بسوء.

٥٨ ـ وحين جاء وقت توجيه أمْرِنا التكويني التنفيذي بإهلاكهم وعذابهم، نَجَّيْنا هوداً عليه السلام، والذين آمنوا معه مَصْحوبينَ برحمةٍ منَّا وفَضْلٍ وكرم في الدنيا، وكما أنجاهم الله تعالى من عذابِ الدنيا، كذلك ينجيهم من عذابٍ شديدٍ مُضاعف في الآخرة، ولا عذاب أغلظ منه.

٥٩ ـ وتلك آثارُ قبيلةِ عادٍ وقبورهم، فانظُروا إليها واعتبروا، إنَّهم أنكروا آيات ربهم الإعجازيَّة والكونيَّة والجزائيَّة والبيانيَّة، مع علمهم واستيقانهم بأنَّها حقٌّ، وعَصَوْا رسولَ ربِّهم هوداً، ورسلاً أرسلهم الله من قبله إليهم، وأطاعوا أمرَ كلِّ مُتمرِّد على الله، مُتسلِّط على الناس بالقوة والعنف، مُعانِد لا يقبل الحقَّ ولا يتَّبعه.

٦٠ ـ واتَّبعوا الباطل والشرَّ والإثم، فأُتبِعوا في هذه الدنيا لعنةً تَتْبَعُهم وتلحقُهم، وفي يوم القيامة تَتْبَعُهم اللعنة كما تَتْبَعُهم في الدنيا، والسبب الذي استحقُّوا به توالي اللعنات عليهم، الطاردة لهم من كلِّ مواقع آثار رحمة الله في الدنيا وفي الآخرة، أنَّهم كفروا بربِّهم، ألاَ بُعداً لعادٍ قوم هود إلى الدرك الأسفل من الجحيم.

٦١ ـ ولقد أرسلنا إلى قبيلة «ثمودَ» أخاهم في النَّسب «صالحاً» نبياً ورسولاً. قال: يا قوم وحِّدوا الله، وخُصُّوه وحدَهُ بالعبادة، إنَّه هو إلهكم المُستحقُّ للعبادة لا هذه الأصنام، هو ابْتدأ خَلقكم من الأرض، وجعلكم عُمَّارَها وسُكَّانَها، فإذا آمنتم بالله ربِّكم، وأنه هو المعبود الحقُّ الذي لا إله إلاَّ هو، وعلمتم أنه هو الذي يُمدُّكم دواماً بعطاءات ربوبيَّته في الأرض التي جعلكم تقيمون فيها، وتنتفعون من خيراتها، فاسألوه أن يغفر لكم ذنوبكم من شرك وظلم وآثام، ثمَّ بعد الاستغفار ارجعوا إلى ربِّكم بتجديد إيمانكم، وتأدية الأعمال الصَّالحة، وبهذه التوبة الصادقة إليه تكونون من عباد الله المؤمنين المتَّقين، إنَّ ربي قريبٌ بعلمه وقدرته من المؤمنين، مُجيبٌ لدعائهم.

٦٢ ـ قالوا: يا صالح قد كنت فينا قبل بعثتك بالرسالة مرجوّاً لكلِّ رأي سديد وعمل رشيد، أتنهانا عن أن نعبد الأوثان التي يعبدها آباؤنا الذين هم قدوتنا في حياتنا، وهم أهل العقل والرُّشد فينا؟! وإننا لفي شكٍّ ممَّا تدعونا إليه من عبادة الله وحده، مُوقع في اتِّهامك بالكذب والافتراء على الله.

قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾

٦٣ ـ قال صالحٌ عليه السلام لقومه: يا قوم تفكَّروا لتروا بعقولكم واقع أمري مع ربي، إنْ كنتُ على يقينٍ وبرهان من ربِّي بأني نبيٌّ ورسولٌ مُكلَّف منه أن أُبلِّغ رسالته، وآتاني من فضله رحمةً عظيمةً، وهي النبوَّة والرسالة، وأنا مأمورٌ بدعوتكم وتبليغكم، وإن لم أقم بما فرض الله عليَّ، فإني أكون عاصياً لربِّي، أستحقُّ العذاب الشديد، وعندئذ فَمَنْ يمنعني من عذاب الله إنْ خالفتُ أمره؟ فإن عصيتُ ربِّي مُستجيباً لمطالبكم بالكفِّ عن دعوتكم، فما تزيدونني غير أن تجعلوني خاسراً هالكاً بإبطال أعمالي، والتعرُّض لعذاب الله وسخطه.

٦٤ ـ ويا قوم هذه ناقةٌ أخرجها الله عزَّ وجلَّ كما طلبتم ووصفتم وعيَّنتم، جَعَلَها لكم معجزةً دالَّةً على صدقي في الرسالة، فاتركوها تأكل من العشب والنبات في أرض الله كما تشاء، فليس عليكم مُؤْنَتُها، ولا تمسُّوها بسوءٍ ما يُؤْذيها، فإذا مَسَسْتموها بسوء قبض عليكم من ربِّكم عذابٌ في الدنيا قريب، لا تأخير فيه ولا تأجيل.

٦٥ ـ فخالفوا أمر ربِّهم، وتآمر بعضهم على عَقْرها، ورضيَ بهذا سائرهم، فنحروا الناقة، فقال لهم صالح: انتفعوا في داركم بما فيها من أمنٍ ورخاء ثلاثةَ أيَّام بلياليها، ثمَّ في اليوم الرابع تهلكون هلاكاً شاملاً. ذلك العذاب الأليم العظيم المُهلك الذي أوعدتكم به بعد ثلاثة أيام، وعدٌ صادقٌ غيرُ موعود وعداً كَذِباً.

٦٦ ـ فحين جاء وقت تنفيذ أمرنا الذي قضيناه بهلاك ثمود، خلَّصنا صالحاً والذين آمنوا معه، بوسيلة هي من آثار رحمتنا، وخلَّصناهم من عذاب ذلك اليوم وهوانه، إنَّ ربَّك ـ يا رسول الله ـ ذو القوة العظيمة الكبرى، لا يمسُّه نَصَب، ولا يلحقه ضَعْف، ذو العزَّة الكاملة الغالب الذي لا يغلبه شيءٌ.

٦٧ ـ وقَبَضَتْ على الذين ظلمُوا أنفسَهُم بالكفر الصَّيْحةُ العظيمةُ الطاغيةُ التي أهلكتهم، فدخلوا في صباح اليوم المقرَّر أن يُهلكهم الله فيه، في قراهم وأماكن تجمُّعهم صَرعىٰ لاصقين بالأرض على رُكبهم ووجوههم، مُلازمين أمكنتهم لا حِراك بهم.

٦٨ ـ كأنَّهم في سرعة هلاكهم لم يقيموا في تلك الديار، ولم يسكنوها مُدَّةً من الدهر في نعمةٍ ورَغَد، تنبَّهوا وتحقَّقوا إنَّ ثمودَ جَحَدوا بآياتِ ربِّهم، وستروا أدلَّة رُبُوبيَّتِهِ، أَلاَ بُعداً وطَرداً لكفار ثمود من مواقع نزول آثار الرحمة الربانية.

٦٩ ـ ونُقسم مؤكِّدين لكم أنه جاءت رسلنا الذين أرسلناهم من الملائكة إبراهيمَ مصحوبين بالبِشَارة بإسحاق، ويعقوبَ من بعده. قالوا: نُسَلِّم عليك سلاماً، قال لهم إبراهيم: تحيَّتي لكم سَلامٌ، فذهب بخفَّة وسرعةٍ لضيافتهم، وهو يجهل كونَهُم ملائكة، فما أبطأ عن مجيئه بعجلٍ سمين مَشويٍّ على الحجارة المُحمَّاة في حفرةٍ من الأرض.

وفي هذه الآية مشروعية الضيافة والمبادَرَة إليها، واستحباب مبادرة الضيف بالأكل منها.

٧٠ ـ فلمَّا رأى إبراهيم عليه السلام أيدي أضيافه لا تَصِلُ إلى العِجْل السَّمين المشويِّ الذي قرَّبه إليهم، استنكر تَصَرُّفَهُم ونَفَر منهم؛ لامتناعهم من الطعام، ووقع في قلبه خوفٌ منهم، وظنَّهم أعداءً يريدون به كيْداً، ولم يعرف أنَّهم ملائكة لا يأكلون الطعام؛ إذ كان مظهرهم لا يُشْعر بذلك، فلمَّا رأت الملائكةُ خَوْفَ إبراهيم قالوا له: لا تَخَفْ إنَّا ملائكة الله أرسلنا إلى إهلاك قوم لوط.

٧١ ـ وزوجةُ إبراهيم «سَارَة» قائمةٌ من وراء حجاب في خدمة الرسل تسمع كلامهم، واجمة من الحذر لأنهمَ لا يأكلون، فلما علمت حالهم، ضحكت سروراً بانجلاء سحابة الخوف عن إبراهيم وعنها، فبشَّرناها على ألسنة الملائكة بأنها سَتَلِدُ من زوجها إبراهيم ولداً يُسمَّى إسحاق، وسيعيشُ ولدها، وسيكون لها من بعد إسحاق ولد الولد، يعقوب.

قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾

٧٢ ـ قالت «سَارَة» لما بُشِّرت بإسحاق مُتعجِّبَة: يا عَجَباً عظيماً أَأَلِدُ وأنا امرأة عجوزٌ كبيرة السِّنِّ هَرِمَةٌ، وهذا زوجي إبراهيم حال كونه شيخاً؟!! إنَّ إنجاب الولد من شيخٍ كبير وعجوزٍ كبيرة لشيءٌ عجيب لم يُشاهَد له نظيرٌ في الناس.

٧٣ ـ قال الرسل من الملائكة لِسَارة: لا تعجبي من أمر الله؛ فإنَّ الله سبحانه قادرٌ على كلِّ شيء، رحمةُ الله وخيراته الكثيرة ونعمه الثابتة عليكم يا أهل بيت إبراهيم عليه السلام، إنَّه سبحانه المحمودُ الذي يُحمد على صفات ذاته وأفعاله، كثيرُ الحمد لأهل طاعته والتقرُّبِ إليه بمحابِّه، الواسع الكرم والعطاء، كثير الخير والإحسان.

٧٤ ـ فلمَّا ذهب عن إبراهيمَ الفَزَعُ والخوفُ الذي حَصَلَ له عند امتناع الملائكة من الأكل؛ وجاءته البُشرى هو وزوجته «سارة» بإسحاق، ومن وراء إسحاق يعقوب، وتلقَّى نبأ إهلاك قوم لوط وتعذيبهم، وهدأت نفسه واطمأنت، أخذ يُجادِلُ رُسُلَنا في قومِ لوطٍ، لرفع العذاب عنهم، وعدم تنفيذ إهلاكهم ولو إلى حين.

٧٥ ـ إنَّ إبراهيم لصبور كثير الأناة، غير عجول، صَفُوحٌ عمَّن أتاهُ بمكروهٍ، يقابِلُهُ بالإحسان واللطف، كثير الحزن، رقيق القلب، كثير التضرُّع إلى الله، تائبٌ يرجع إلى الله دوماً بالتوبة والطاعة الكاملة.

٧٦ ـ قال الرسُل من الملائكة لإبراهيم عليه السلام: يا إبراهيم أعطِ لهذا الأمر الذي توجَّهت نفسك له، شفقةً على قوم لوط جانبَ وجهك، فشفاعتك فيهم غيرُ مقبولة، ونؤكِّد لك أنَّ ربَّك قد حكم بعذابهم، فهو نازِلٌ بهم لا محالة، وإنَّ العذاب الذي نَزَلَ بهم غيرُ مصروفٍ ولا مدفوع عنهم، إذ لا رادَّ لقضاء الله المُبْرَم.

٧٧ ـ ولمَّا جاءت الملائكةُ لوطاً، وكانوا على صورةِ غُلمان مُردِ حسان الوجوه، ساءه وأحزنه حضورهم؛ لاعتقاده أنهم أناس، وأشفق عليهم من قومه أن يقصدوهم بمكروه، وهو عاجزٌ عن مدافعتهم، ونفِدَ طاقةً وَوسعاً بسببهم، فلم يجد من ذلك المكروه مخلصاً، وقال لوط: هذا يومٌ شديد شرُّه، عظيم بلاؤه.

٧٨ ـ وجاء كبراء قومِ لوط يمشون في سرعة واضطراب، يسوق بعضهم بعضاً إليه من شدّة فرحهم، رغبةً في فعل الفاحشة الشاذَّة بهم، ومن قبل مجيءِ الملائكة إليهم كانوا يعملون الفعلات الخبيثات، فلمَّا بلغهُم نبأُ ضيوف لوط الحسان، تركوا ما هم فيه من سيئات كانوا يعملونها على عاداتهم، سعياً للحصول على لذة مُمارسة الفاحشة في شباب مُرْدٍ حِسَانٍ، هي أحبُّ إليهم من السيِّئات التي كانوا يعملونها. قال لوط لقومه حين قَصَدوا أضيافَه، وظنُّوا أنَّهم غلمان من بني آدم: يا قَوْمِ هؤلاءِ نساء قومي، أزوِّجكم إيَّاهُنَّ، هُنَّ أطْهَرُ لكم، فخافوا الله أن يُنزل بكم عقابه، إذا أصررتم على دخول داري عَنْوَةً، وفعلَ ما تطلبون في ضيوفي، ولا تسوؤوني في أضْيافي، ولا تفضحوني معهم، أليس منكم رجلٌ واحد فيه رُشْدٌ وعقلٌ، يمنعكم عمَّا تجمَّعتُم عليَّ من أجله؟

٧٩ ـ قال قومُ لوط له: إنَّك تعرض علينا أمراً تعلم أنَّنا لا نقبله في تقاليدنا؛ لأننا لا نأتي نساءنا إلا بحقِّ الزواج، ولكنَّنا نأتي الذكور على سبيل الشُّيوع دون عُقود ولا ضوابط، وإنَّك لتعلم الشيء الذي نُريده من إتيان الرجال في أدبارهم.

٨٠ ـ قال لوط عليه السلام: أتمنَّى لو أنَّ لي بصدِّكم ودفعِكم عن ضيفي قوةً؛ لقاتلتكم حمايةً لضيفي، أو أنضم إلى عشيرةٍ قويَّة تمنعني منكم؛ لانْضَمَمْتُ إليهم.

٨١ ـ قالت الملائكة لما رأَوْا ما وصل إليه لوط عليه السلام من الشدَّة والقلق والاضطراب: يا لوط، إننا رُسُلُ ربِّك، لن يَصِلُوا إليك بمكروه، فسِرْ فوراً بأهلك ببقيَّةٍ من الليل، مُبتعداً بهم عن أرض «سدوم» التي سينزل بها العذاب المهلك، ولا يلتفت منكم أحدٌ إلى ورائه، لينظر ما سيحلُّ بهم؛ إلاَّ امرأتَك دعها في أرض قومها، ولا تَسْرِ بها؛ إنه سيصيبها ما أصاب قومها من رجز وعذاب، فقال لوط: متى يكون هذا العذاب؟ قالوا: إنَّ موعد إهلاكهم هو وقت الصُّبح، أليس الصُّبح بقريب؟



فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾ ۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾

٨٢، ٨٣ ـ فلمَّا جاء وقت تنفيذ أمْرنا بتعذيب قوم لوط وإهلاكهم، رفعنا أرضهم التي عليها قُراهُم في الجوّ، وقلبناها حتى صار أعلاها أسْفَلَها، وصار أسفلُها أعلاها، وأمْطَرنا على شُذَّاذها ـ بعد قَلْب قُراهم ـ حجارةً من طين مُتَصلِّب منضمٍّ بعضه إلى بعض باتِّساق وتراصُف مُنْتَظِم. حالة كونها مُعَلَّمةً عند ربِّك بعلامةٍ معروفة، تخصُّ مُجرمي قوم لوطٍ، وما تلك الحجارة التي أمطرها الله على قوم لوط من كلِّ الظالمين الذين يستحقُّون الإهلاك بها بمكانٍ بعيد عنهم.

٨٤ ـ ولقد أرسلنا إلى أهل «مَدْيَن» أخاهم في النَّسب واللغة والموطن شُعيباً عليه السلام. قال: يا قوم وَحِّدوا الله، ولا تعبدوا معه غيره؛ لأنه ما لكم في الواقع والحقيقةَ من معبودٍ حقٍّ يصحُّ أن يُعبَدُ سواه، ولا تكيلوا وتزنوا للغير ناقصاً، وتَسْتوفوا الكيلَ والوزن لأنفسكم زائداً، إنِّي أراكُم في نعمةٍ وسَعَة تُغنيكم عن التطفيف، وإنِّي أخافُ عليكم عذاب يوم محيط، يُدرك كلَّ واحدٍ منكم بالعذاب، فيُهلكَكُم جميعاً في الدنيا، ثم في الآخرة، بعد البعث للحساب، وفصلِ القضاء، وتحقيق الجزاء.

٨٥ ـ ويا قوم أتمُّوا المكيال والميزان وافيَيْن بالعدل، ولا تُطفِّفوا فيهما، ولا تَنْقُصوا النَّاس ممَّا استحقُّوه شيئاً، ولا تَتمادَوْا في الأرض مُفسدين بأعمالكم الإجراميَّة الظالمة، ومنع الناس حقوقهم، وقطع الطريق على المسافرين.

٨٦ ـ ما يُبْقيه الله لكم من ربحٍ أذن لكم به في تجارتكم وبيعكم وشرائكم، وسائر مجالات اكتِساب أرزاقكم، وما يُبْقيه لكم من ثواب جزيل على طاعتكم لربِّكم، والتزامكم صراطه المستقيم، خيرٌ لكم في الدنيا والآخرة ممَّا تأخذونه بالحرام، بوسائل التطفيف في المكاييل والموازين، وبخْس الناس أشياءهم، إن كنتم ستؤمنون بما قلتُ لكم وأمرتكم به ونهيتكم عنه، وتعملون بما يُوجبُهُ عليكم إيمانكم، وما أنا مُرسلٌ إليكم لأكون مُسَيْطراً عليكم، أحفظكم بسلطان الجَبْر والإكراه، من عذاب ربكم العاجلِ والآجل، إنما أنا مُبلِّغ فقط رسالة ربي إليكم. وإنني مهما كنت حريصاً على دفع الضرِّ عنكم، فإنني لا أستطيع أن أكون حفيظاً عليكم أقيكم من عذاب الله، إذا أراد الله عزَّ وجلَّ بحكمته وعدله أن يُعاقبكم، وينزل بكم نقمته وعذابه، إنما يقيكم من عذاب الله إيمانكم وطاعتكم لربِّكم.

٨٧ ـ قالوا: يا شُعيبُ أهذه الصَّلاةُ تأمرك أن نتركَ الأصنام التي يعبدها آباؤنا الذين هم قدوتنا في حياتنا، وهم أهل العقل والرُّشد، أَوَ صلاتك تأمُرك أن تنهانا عن أن نفعَلَ في أموالنا ما نشاء، معتمدين على مهاراتنا في خداع الناس والاحتيال عليهم؟! أليس هذا أمراً عَجَباً يتنافى مع مُقتضيات صلواتك التي تُصليها لربِّك؟! أإنَّك لأنتَ الحليم الرشيد في قومنا؟ فما الذي جَرَى لك حتى صِرت تتصرَّف تصرُّفاتٍ ليس فيها حلمٌ ولا رُشْد؟!

٨٨ ـ قال لهم شُعَيب: يا قوم أتفكَّرتم تفكيراً سديداً بأناةٍ وتعمُّق، حتى أدركتم إدراكاً علمياً يشبه الرؤية البصريَّة، إنْ كنتُ على بصيرةٍ وهدايةٍ وبُرهانٍ جليٍّ واضح من ربِّي، ورزقني الله منه رزقاً حلالاً لا معصية لله فيه، ولا عدوان فيه على أحد، وآتاني العلمَ والهداية والنبوَّة، فهل يسعني مع هذه النِّعم الكثيرة أنْ أُخالف أمره ونهيه! وما أُريد الآن ولا مستقبلاً أنْ أقصد الشيءَ الذي أدعوكم إلى اجتنابه فأفعَلَهُ، إنَّما أختار لكم ما أختاره لنفسي، ما أُريدُ فيما آمركم به وأنهاكم عنه إلا الإصلاح ما استطعت إلى ذلك سبيلاً عن طريق الإقناع والموعظة الحسنة، ولا أستطيع إجباركم على الطاعة، وما تسديدي في خُطوات سعيي لتبليغ رسالةِ ربي، وإصابتي الرُّشد في قولي وعملي، إلا بمعونة الله وعطائه وتسديده، على الله وحده اعتمدتُ، وإليه أرجع بقلبي ونفسي وفكري في كلِّ أموري لا إلى غيره.

وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ ﴿٨٩﴾ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ ﴿٩٠﴾ قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗاۖ وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَهۡطِيٓ أَعَزُّ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّاۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ﴿٩٢﴾ وَيَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَٰمِلٞۖ سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَمَنۡ هُوَ كَٰذِبٞۖ وَٱرۡتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمۡ رَقِيبٞ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا شُعَيۡبٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّمَدۡيَنَ كَمَا بَعِدَتۡ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ فِرۡعَوۡنَۖ وَمَآ أَمۡرُ فِرۡعَوۡنَ بِرَشِيدٖ ﴿٩٧﴾

٨٩ - ويا قوم لا يحملَنَّكم خلافُكُم وعداؤكم لي على الإصرار على الباطل والظُّلم والعدوان، التي تجعلكم تستحقُّون الإهلاكَ الشَّامل، الذي استحقَّه الأقوام المهلكة قبلكم، فاحذروا مثل الغرق الذي أصاب قومَ نوح، أو الريح التي أهلكت قومَ هود، أو الصَّيْحَة التي أصابت قومَ صالح حتى هلكوا جميعاً، أو أن يصيبكم مثلُ ما أصاب القوم القريبين منكم زماناً ومكاناً، الذين أهلكهم الله بحجارة من سجِّيل، وبصيحةٍ، وقَلْبَ قُراهم، فَجَعَلَ عاليها سافلها، وما ديار قوم لوط ببعيدة منكم، وأنتم حديثو عهدٍ بهلاكهم.

٩٠ - وادعوا ربَّكم طالبين منه أن يغفرَ لكم ما سبق أن ارتكبتم من شرك وآثام، ثم بعد الاستغفار الصادق، ارجعوا إلى ربكم، بالقيام بالأعمال الصالحة، وبترك الأعمال السيئة، ولا تقنطوا من رحمة الله مهما أسرفتم على نفوسكم، إنَّ ربي واسع الرحمة بعبادِهِ إذا استغفروا وتابوا، مُحِبٌّ لعباده المؤمنين.

٩١ - قالوا: يا شُعَيبُ ما نفهم كثيراً ممَّا تدعونا إليه، فاقطع كلامك معنا، ونؤكِّد لك - يا شعيب - أننا نعلم أنك ضعيف فينا، فلا قوَّة لك تستطيع بها مواجهة قوانا، إذا أردنا قتلك رجماً بالحجارة؛ لنتخلَّص منك ومن دعوتك، ولولا جماعتك وعشيرتك الأقربون لقتلناك رجماً بالحجارة، وما أنتَ علينا بذي كرامة تستحقُّها علينا حتى نكرمَكَ عن الرَّجم من أجلها، بل قومك وقبيلتك الذين هم على ملَّتنا هم الأعزَّة علينا.

٩٢ - قال شعيب: يا قوم أجَماعتي وعشيرتي الأقربون أهْيَبُ عندكم من الله وأمنع حتى تركتمَ قتلي لمكان قومي عندكم؟ ونبذتم أمر الله وراء ظهوركم، وتركتموه كالشيء المُلْقَى الذي لا يُلتفتُ إليه، إنَّ ربي عالمٌ بأحوالكم جميعاً، لا يخفى عليه منها شيءٌ، فيُجَازيكم بها يوم القيامة.

٩٣ - ويا قوم اعملوا على المكان الاعتقاديِّ الذي اخترتموه لأنفسكم على غاية تمكُّنكم من أمركم، وأقصى استطاعتكم، إنِّي عاملٌ على المكانَ الاعتقاديِّ الذي اخترتُه، لا أتوقَّف عن دعوتي على الرُّغم من كلِّ تهديداتكم وتدبيراتكم الكيديَّة، سوفَ تعلمون مَنْ يأتيه عذابٌ يفضحه بسبب عمله السَّيِّيء، وسوف تعلمون حينما ينزل عليكم عذاب الله المُخْزي المُهين، مَنْ هو كاذبٌ فيما يدَّعيه، وانتظروا عاقبةَ أمري وأمركم، إنِّي معكم منتظر لأحداث المستقبل، وسينصرني الله عليكم، ويخزيكم بالعذاب الأليم المهين.

٩٤ - ولمَّا جاء وقت تنفيذ أمرنا الذي قَضَيْناه بإهلاك قوم شُعيب بسبب ظلمهم، خلَّصنا شُعَيباً والذين آمنوا معه، بوسيلة هي من آثار رحمتنا، وقبضت الصَّيْحَةُ العظيمة المُميتة، على الذين ظلموا أنفسهم بالشِّرك والبَخْس، فدخلوا في صباح اليوم المقرَّر أن يُهلكهم الله فيه، في قراهم وأماكن تجمعهم لاصقينَ بالأرض على رُكبهم ووجوههم، مُلازمين أمكنتهم لا يتحرَّكون.

٩٥ - فصارت حالتُهُم بعد أن نزل بهم من عذاب الله ما نزل، تُشبه حالة الذين لم يُقيموا بديارهم مُدَّةً من الدهر في نعمةٍ ورَغَد، ألاَ طرداً لكفار «مَدْيَنَ» من كلِّ مواقع نزول آثار الرحمة الربَّانيَّة كما طُردت «ثمود» من قبل.

٩٦ - ونقسم مؤكِّدين لكم أننا أرسلنا موسى مصحوباً بآياتنا الإعجازيَّة والبيانيَّة والجزائيَّة العظيمة، وآتيناهُ حُجَّة دامغة وقوة قاهرة ظاهرة دالَّة على صدقه وصحَّة رسالته، تنقاد لها قلوب المؤمنين، وتقوم بها الحجة على المعاندين. كالعصا واليد وغيرهما.

٩٧ - أرسلنا موسى إلى فرعونَ ملك مصر، ووزرائه ومستشاريه وأعيان مملكته، فاتَّبعوا شأن سيِّدهم الملك فرعون اتِّباعاً تقليدياً، وخضعوا له خضوعاً كاملاً، وما شأن فرعون في دينه وأنواع سلوكه بسديد ولا حميد العاقبة، وما أمره التكليفيّ بأمرٍ موافق للصواب والهدى.

يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾



٩٨ - كما كان فرعون قدوةَ قومِهِ في الضَّلال والكفر في الدنيا، فكذلك هو قُدوتهم وإمامُهم في النَّار، يتقدَّمهم ويقودهم إلى النار، فأدخلهم فيها بكفره وكفرهم، وَبِئْسَ المَدخل المدخول فيه، الذي سيدخلونه حتماً يومِ الدين، عقوبةً لهم على كفرهم وجرائمهم.

٩٩ - وأُتبعَ فرعونُ وقومُهُ الكافرون في هذه الحياة الدنيا طرداً وبُعداً عن الرحمة، جعلتهم يذوقون العذاب وهم يغرقون في البحر أذلاَّء مهانين خزايا، وأُتبِعُوا لعنةً أخرى يوم القيامة مع اللعنة التي حَصَلت لهم في الدنيا، وبئس العطاءُ المُعطىٰ لهم تلك اللعنة المُضاعَفة، ذلك أنَّه ترادف عليهم لعنتان: لعنة في الدنيا، ولعنة في الآخرة.

١٠٠ - ذلك الذي ذكرناه لك - يا رسول الله - في هذه السورة من قصص نوح، وهود، وصالح، وإبراهيم، ولوط، وشعيب، وموسى عليهم السلام، والأقوام الذين أرسلوا إليهم، بعضٌ من أنباء المُجمَّعات السكنيَّة والأمم السالفة التي أهلك الله كفَّارها، نُخبرك به - يا رسول الله - لتُخْبِرَ قومك أخبارهم؛ لعلَّهم يعتبرون بها، فيرجعوا عن كفرهم. من مباني تلك المُجمَّعات السكنيَّة التي أهلكناها ما له آثارٌ باقية، كالزرع القائم على سُوقه، ومنها ما عَفَا أثره، كالزرع الساقط على الأرض، المحصود بالمناجل.

١٠١ - وما ظلمناهُم بالعذاب والإهلاك، ولكن ظلموا أنفسهم بالكفر والمعاصي، فما كفتهم صارفةً عنهم آلهتُهُم التي يَعبدُون من دون الله، من شيءٍ ممَّا يكرهون، حين جاء وقت تنفيذ أمر ربِّك بعذابهم، وما زادهم مَنْ كانوا يعبدونهم من دون الله غيرَ تَخْسير وتدمير.

١٠٢ - ومِثْل ذلك الأخذ التَّعذيبي الإهلاكي، الذي أخذ الله به أهل القرى الظالمين، يكون أخْذُ ربِّك إذا أخذ القرى وأهلها ظالمون، إنَّ أخذه بالعقوبة للكفرة المجرمين أَخْذٌ مُؤلمٌ لهم، شديدٌ صعبٌ عليهم.

١٠٣ - إنَّ في ذلك الذي قصَّه الله عزَّ وجلَّ من عذاب الأمم الخالية وإهلاكهم لعبرةً وموعظةً لِمَنْ كان يخشىٰ اللّٰهَ ويخاف عذابه في الآخرة، ذلك اليومُ تُجْمَع فيه الخلائق من الأوَّلين والآخرين؛ للحساب، وفصل القضاء، وتنفيذ الجزاء.

١٠٤ - وما نُؤَخِّرُ ذلك اليومَ المشهودَ الذي يُجمع الناس فيه للحساب، وفصل القضاء، وتنفيذ الجزاء، إلاَّ إلى وقتٍ معلومٍ محدود، وذلك الوقت لا يعلمه أحدٌ إلا الله تعالى.

١٠٥ - حين يأْتي في ذلك اليوم جميعُ الخلائق، لا يتكلَّم فيه أحدٌ إلاَّ بإذن الله تعالى، فبعض المجموعين للحساب من أهل الموقف: شقيٌّ مُعَذَّب، تُظهر محكمةُ العدل الربانيَّة أنَّه محكومٌ عليه بالشقاء الأبديّ، لأنَّ ما قدَّمه في رحلة امتحانه من كفريات وجرائم بإرادته الحرَّة، يستحقُّ عليه الخلود في عذاب النار، وبعض المجموعين للحساب من أهل الموقف: سعيدٌ مُنَعَّم، تُظهر محكمة العدل والفضل الربَّانيَّة أنه محكومٌ له بالسعادة الأبديَّة؛ لأنَّ ما قدَّمه في رحلة امتحانه في الدنيا من إيمان وعمل صالح، يستحقُّ مع فضل الله عليه أن يكون سعيداً في جنات النعيم، خالداً فيها أبداً.

١٠٦ - فأمَّا الكفار الذين شَقُوا في الدنيا، فالنَّار مُسْتَقَرُّهم، لهم فيها من العذاب والهوان زفيرٌ يدفعون به أنفاسهم الحارَّة من رئاتهم حتى آخر ما فيها، وشهيقٌ يجذبون به السَّموم الحارَّة إلى أعماق رئاتهم، ولا هواء في النار إلا السَّموم الحار.

١٠٧ - لابثين في النار أبداً بقضاءِ من ربِّك مُبْرَم، ما دام الكون موجوداً؛ إذ الكون الماديُّ لا يخلو من أرض تكون مكاناً في النار للمعذَّبين، ولا يخلو من سماوات فوق هذه الأرض، فلا ينقطع عذابهم ولا ينتهي، إلاَّ ما شاء ربُّك أن يستثنيَهُ بحكمته من عموم القضاء المُبْرَم بالخلود، فيما لو يشاء أن يقدِّره ويقضيه مستقبلاً، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، لا حقَّ لأحدٍ عليه، ولا يجبُ عليه شيء؛ إن ربَّك - يا رسول الله - فعَّال لما يُريد.

١٠٨ - وأمَّا المؤمنون الذين سُعِدوا بفضل الله ورحمته، فالجنَّةُ مُستَقَرُّهم، لابثين مقيمين فيها أبداً بقضاء مُبرَم، ما دام الكون موجوداً، إذ الكون الماديُّ لا يخلو من أرضٍ تكون مكاناً في الجنة للمنعَّمين، ولا يخلو من سماوات فوق هذه الأرض؛ إلا ما شاء ربُّك أن يستثنيَهُ بحكمته من عموم القضاء المُبْرَم بالخلود، فيما لو يشاء أن يقدِّره ويقضيَهُ مستقبلاً، ويُعطي الله هؤلاء السُّعداء من أسباب النعيم المُسْعد عطاءً غير مقطوع عنهم. وفائدة الاستثناء: إرشاد العباد إلى تفويض جميع الأمور إليه جلَّ شأنه، وإعلامهم بأنها منوطةٌ بمشيئته.

فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَاؤُهُم مِّن قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾ فَٱسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَنُوٓا إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾

١٠٩ - فلا تكن في شكٍّ - أيُّها المخاطَب - ممَّا يعبُدُ هؤلاء المشركون من آلهةٍ، مُتوهِّماً أنها آلهةٌ تنفَعُ أو تضُرُّ، ليس لهم في عبادة هذه الأصنام مُستَنَدٌ إلا أنَّهم رأوا آباءَهم يعبدونها فعَبَدوها مثلهم، وإنَّا مع عبادتهم هذه الأصنام لمُعطوهم حُظوظَهُم التي سبق أن قدَّرناها لهم من متاعاتِ الحياة الدنيا وافياً من غير نقص فيه، فإذا جاء وقت الجزاء جازَيْناهم بما يستحقُّون من العدل.

١١٠ - ونُؤكِّد لكم أننا آتَيْنا موسى كتاب التوراة، فاخْتَلَفَ فيه بنو إسرائيل: فمنهم مُصَدِّقٌ، ومنهم مُكذِّبٌ كما اختلف قومك بالقرآن، ولم نَقْض بين مؤمنهم وكافرهم في الحياة الدنيا، بل أخَّرنا ذلك ليوم القيامة، تنفيذاً لكلمتنا التي سبقت بهذا الأمر، وكذلك الحال تكون معاملتُنا للمكذِّبين الكافرين بالقرآن من قومك، ولولا كلمةٌ سَبَقَتْ من ربِّك بتأخير العذاب عن المُكَذِّبين بالقرآن إلى يوم القيامة، لعُذِّبوا في الحال، وفُرغ من عذابهم وإهلاكهم إهلاك إبادة في الدنيا، وإنَّ هؤلاء المكذِّبين من قومك لفي شكٍّ من كون القرآن مُنزَّلاً من لدُنَّا عليك - يا رسول الله -، وهذا الشكُّ أوقعهم في الرَّيْب بشأن صدق الرسول ﷺ واتِّهامه بأنه ذو غايةٍ دنيويَّة من دعوته، وهذا الشكُّ يوقع في تهمتهم بأنهم عالمون بالحقِّ وجاحدون به عناداً؛ لضعف شكِّهم، وقوَّة حجج ما هم شاكُّون فيه.

١١١ - وإنَّ كلاً من الفريقين المُختَلِفَيْن المُصدِّق والمُكذِّب، لَيُوَفِّيَنَّهم اللَّهُ جزاءَ أعمالهم، فيُجازي المُصَدِّقَ على تصديقه الجنَّة، والمكذِّبَ على تكذيبه النَّار، إنَّه سبحانه بما يعملون خبيرٌ، على سبيل الشُّهود والحضور المُصَاحِبِ لكلِّ أجزاء العمل، ظواهره وبواطنه.

١١٢ - فالْزَم - يا رسول الله - النَّهج المستقيم المتوسِّط بين طَرَفَي الإفراط والتفريط، واثبت على دين رَبِّك والعمل به والدعاء إليه كما أمرك ربُّك، أنت ومَنْ آمنَ معك من أمَّتك، ولا تُجاوزوا ما حُدِّد لكم بإفراط وتفريط، إنَّه سبحانه بصيرٌ دواماً بكلِّ ما تعملون في حياتكم، وسيعاقب المتجاوزين حدوده بعدله.

١١٣ - ولا تميلوا إلى بعض إغراءات وتَضْليلات الَّذين ظلموا أنفسهم بكفرهم وفجورهم، ساكنين إليهم، ومعتمدين عليهم، فتمسَّكم النَّارُ بحرِّها، ولن تجدوا أحداً ممَّن ركنتم إليهم أو من غيرهم يناصركم ويتولاكم، ثمَّ لا تجدون لكم من يدفع عنكم ويُخلِّصكم من عقاب الله غداً في القيامة. وفي الآية: النهي عن الركون إلى الظالمين، ومجالستهم، ومداهنتهم، ومؤانستهم.

١١٤ - وأدِّ الصَّلاة المكتوبة على تمامها - يا رسول الله، ويا كلَّ مسلم مكلَّف - غُدوَّ النَّهار في الفجر، وعَشيَّهُ في الظهر والعصر، وأقم الصَّلاة في ساعات من الليل، وهي صلاتا المغرب والعشاء، إنَّ الأعمال الحسنة - كالصلاة والصدقة والاستغفار ونحوها من أعمال البر - يكفِّرنَ الذنوب الصغائر ويُذْهِبْنَ المؤاخذة عليها. ذلك الذي تقدَّم ذكره من الاستقامة، والمحافظة على الصَّلوات الخمس المفروضة، وإتباع السيِّئة الحسنةَ، تذكرة للمؤمنين الحريصين على تذكُّر مطلوب الله منهم، فيفعلون ما أمر الله به، ويتركون ما نهى عنه.

١١٥ - واصبر - يا رسول الله وكلَّ داعٍ إلى الله - على أوامر الله وتحمُّل المشقَّات النفسيَّة والجسديَّة؛ فإنَّه سبحانه لا يضيع أجر المحسنين، بل يعطيهم هذا الأجر العظيم في الدنيا نصراً ومَجْداً، ويعطيهم إيَّاه في الآخرة منازل رفيعة في جنَّات النعيم.

١١٦ - فهلاَّ كان من الأمم الماضية التي أهلكناهم من قبلكم - يا أمَّة محمد - ذوو خَصْلة باقية من خير وعقل، يقومون بالنهي عن الفساد في الأرض، حتى لا نحكم عليهم بالإهلاك الشامل، ولكن لم يكن فيهم مَنْ فيه خيرٌ ينهىٰ عن الفساد، فلذلك أهلكناهم، إلا نزراً قليلاً ممَّن آمنَ من الأمم الماضية الذين كانوا ينهون عن الفساد، واتَّبع المُهلكون الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والمعاصي ما مُتِّعوا فيه من الشهوات العاجلة، فَبَطروا النعمة، وكفروا بالله، وكانوا مجرمين، مُنْبَعثين في الفجور، فَوَجَبَ عليهم العذاب. فاحرصوا - أيها المؤمنون - أن تكون منكم أمةٌ يدعون إلى الخير، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ولا تكونوا كأهل القرون السابقة التي استحقَّت الإهلاك بسبب أنهم لم يبق فيهم بقيةٌ صالحةٌ إلا أفراداً قليلين لم يكن لهم تأثيرٌ على مجتمعهم.

١١٧ - وما كان ربُّك - يا رسول الله - لِيُهْلِكَ أهل القرى بعذاب الاستئصال بالدنيا بسبب ظلمهم الكبير، والحال أنَّ لدى كثير من أفرادهم الاستعداد لأن يتحوَّلوا عن طريق إراداتهم الحرَّة إلى الصَّلاح، بإصلاحٍ منهم لما هم فيه من فساد وإفساد.

وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾

سُورَةُ يُوسُفَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٣﴾ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴿٤﴾

١١٨ ـ ولو شاء ربُّك ـ أيها المتلقِّي لبيان ربِّك ـ لسَلَبَ الناس إراداتهم الحُرَّة، فجعلهم مَجْبورين، وحينئذ يجعلهم أمَّةً واحدة مفطورة على الهداية، لا يُوجد فيهم كافر واحد. وبما أنَّ الله سبحانه جعل الناس ذوي إراداتٍ حرَّة، فإنهم لا يزالون مختلفين.

١١٩ ـ ومن مظاهر اختلافهم: أن يختارَ بعضُهم الإيمان، وأن يريدَ بعضُهم الكفر، لكن من يختار الإيمانَ بصدق وإرادة جازمة، يَشْرح ربُّك صَدْرَه للإسلام برحمته وتوفيقه ومعونتِهِ له، وخلقهم ربُّك ذوي إرادات حُرَّة ليكشِفَ بالامتحان اختلافهم في مراداتهم وأعمالهم، من الإيمان والكفر، والطاعة والعصيان؛ ليجزيَهم يومَ الدين، على ما قدَّموا في رحلة امتحانهم في الحياة الدنيا من صالحات وسَيِّئات، وإذْ علم ربُّك أنَّ أكثر الجنِّ والإنس، سيُريدون بإراداتهم الحرَّة الكفر والعصيان، فقد تمَّت كلمتُه في الحكم على العباد بأن يملأ جهنَّم من مُجرمي الجنِّ والنَّاس أجمعين.

١٢٠ ـ وتدبَّرْ كلَّ نبأ نَقُصُّ عليك ـ يا رسول الله ـ من أنباء الرُّسل وما جَرَى لهم مع أقوامهم، ما نُقوِّي به قلبكَ؛ لتصبِرَ على أذى قومِكَ، وتتأسَّى بالرُّسل الذين خَلَوْا من قبلك، وَجَاءَكَ ـ يا رسول الله ـ في هذه السورة من أنباء الرسل مع أقوامهم، الحقُّ الثابت المتضمِّن ما يَثْبُتُ به قلبُك، ونصحٌ مقْرون بما يثير الرَّغْبة والرَّهبة، وهو أيضاً موعظة لمن يشاء أن يتَّعظ من غير المؤمنين، بما عاقب الله به مُجرمي القرون الماضية، وذكرى للمؤمنين تُبصِّرهم بتأييدِ الله ونصرِهِ لأوليائه، وخِذْلانه لأعدائه.

١٢١، ١٢٢ ـ وقُل ـ يا رسول الله ـ للَّذين ليس لديهم استعدادٌ، لأن يؤمنوا بك، وممَّا جئتهم به عن ربِّهم: اعملوا ما شئتم أن تعملوه، من مكايد وتدبيرات، حالة كونكم ثابتين على مكانتكم الكفريَّة الإجراميَّة، إنَّا عاملون بما يُرضي ربَّنا، ثابتون على مواقع إيماننا وإسلامنا، وجهادنا وصبرنا، وانتظروا نتائج أعمالكم الكفريَّة الإجراميَّة، إنَّا مُنتظرون ما يَحِلُّ بكم من نقْمَةِ الله وعذابِهِ، إمَّا في الدنيا وإمَّا في الآخرة، ومنتظرون تأييدَ الله ونصرَه لنا، وما يمنحنا من عزَّة ومَجْد ورزْق حَسَن في الدنيا، ثم ما يتفضَّل به علينا من نعيم مقيم في الجنة.

١٢٣ ـ ولِلَّهِ وحده علمُ ما غابَ عن العباد في السَّموات والأرض، لا يخفىٰ عليه شيءٌ فيهما، وإلى الله وحده يرجعُ أمرُ الخلق كلهم في الدنيا والآخرة. فاعبده ولا تشتغل بعبادة غيره، وسلِّم كلَّ أمورك بقلبك إليه مع قيامك بالأسباب المُسْتَطاعة، وما ربُّك بغافلٍ عمَّا تعملون، فهو سبحانه عليم بكلِّ أعمال عباده، لا يخفى عليه منها شيءٌ، فيُجَازي المُحسنَ بإحسانه، والمُسيءَ بإساءته.

سُورَةُ يُوسُفَ

١ ـ ﴿الر﴾ سَبَق الكلام على الحروف المقطَّعة في أوَّل سورة البقرة. تلك آيات الكتاب الذي يجب تدوينه بالكتابة، الظاهر الواضح الدلالات، المُوضح المُظْهر ببياناته ما أراد الله عزَّ وجلَّ أن يبيِّنه لعباده.

٢ ـ إنَّا أنزلنا هذا الكتاب حالة كونه قرآناً يُكتب ويُقرأ المكتوب منه محمياً من التحريف والتغيير. وأنزلناه عربيّاً بلغتكم التي هي أفصح اللغات، وأكثرها بياناً للمعاني؛ رغبة أن تعلموا ـ أيُّها العرب ـ معانيه، وتفهموا ما فيه، وتعملوا بأحكامه، وتبلِّغوه للناس أجمعين.

٣ ـ نحن نقصُّ عليك ـ يا رسول الله ـ أحسن القصص الذي ننتقي منه أنفعَ الأنباء، ونختار له أفصح البيان، وأفضل وسائل التأثير بإيحائنا إليك ـ يا رسول الله ـ هذا القرآنَ، وقد كنتَ من قبل وحينا إليك لَمِنَ الغافلين عن هذه القصَّة وما فيها من العجائب.

٤ ـ تدبَّر وَضَعْ في ذاكرتك، قولَ يوسُف لأبيه يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم: يا أَبَتِ إنِّي رأيتُ في المنام حُلماً، أَحَدَ عَشَرَ كَوْكباً من كواكب السماء، والشَّمسَ والقمر رأيتُهم لي ساجدين على شكل سجود البشر لعظيمٍ من عظماء الناس.

قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعۡقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيۡكَ مِن قَبۡلُ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٦﴾ ۞ لَّقَدۡ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخۡوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٞ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾ إِذۡ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ٱقۡتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطۡرَحُوهُ أَرۡضٗا يَخۡلُ لَكُمۡ وَجۡهُ أَبِيكُمۡ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ قَوۡمٗا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ لَا تَقۡتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلۡقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّ يَلۡتَقِطۡهُ بَعۡضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأۡمَ۬نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرۡسِلۡهُ مَعَنَا غَدٗا يَرۡتَعۡ وَيَلۡعَبۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّي لَيَحۡزُنُنِيٓ أَن تَذۡهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأۡكُلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَأَنتُمۡ عَنۡهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ لَئِنۡ أَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّآ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾

٥ ـ قال يعقوبُ لابنه يوسُف: يا بنيَّ لا تُخبر إخوتَك برؤْياك، فإنَّهم يعرفون تأويلَها، فيُدبِّروا في الخَفَاء كَيْداً شديداً، يُسدِّدون به لك سهم مُصيبةٍ لِلتخلُّص منك؛ إنَّ الشيطان للإنسان عدوٌّ ظاهر العداوة ومُظْهِرُها.

ومن هذه الوصيَّة نستفيد استحسان كتمان دلائل النعمة القادمة، والمبشِّرات بها؛ لئلا تثير حَسَدَ الحاسدين، وتُحرِّضهم على فعل الشرور، وتدبير المكايد.

٦ ـ سيُعطيك الله ـ يا بُنيَّ ـ مَجْداً يجعلك ذا رئاسة عظيمة، يخضع لك بها الناس حتى إخوتُك وأبوك، وكذلك الذي سيمنُّ به عليك يَصْطَفيك ربُّك فيجعلك نبيّاً ورسولاً، ويعلِّمُك بعض تعبير رؤيا النَّاس فيما يَرَوْنه في منامهم، وَسَيُتمُّ نعمته عليك وعلى آل أبيك يعقوب بهباتِهِ من خَيْري الدنيا والآخرة إتماماً مثل إتمامِه نعمتَه على أبَويك من قبل إبراهيم وإسحاق، إذْ وَهَبهما من خَيْري الدنيا والآخرة؛ إنَّ ربَّك عليمٌ بمصالح خلقه، لا يفعل شيئاً إلا بحكمة.

٧ ـ نؤكِّد لك ـ أيُّها المتلقي لآيات هذه السورة ـ أنه يوجد في قصة يوسُف وإخوته التي نُحدِّثك بها علاماتٌ دالأتٌ على معارفَ مفيدةٍ للمتدبِّرين الباحثين عن المعرفة، الذين يتتبَّعون سائلين بألسنتهم، أو بأعمالهم عن طريق الوسائل الكونيَّة الكواشف، أو عن طريق التجارب، بغيةَ الوصول إلى الأجوبة الصحيحة النافعة.

٨ ـ ضع في ذاكرتك ـ أيها المتلقِّي لكلامنا ـ حين إذْ قال إخوةُ يوسُفَ من أبيه فيما بينهم: واللهِ لَيُوسُف وأخوه الشَّقيقُ «بنْيامين» أحبُّ إلى أبينا منَّا، ونحن جماعةٌ ننفعه ونقوم بمصالحه، فنحن أحقُّ بأن يحبنا أبونا أكثر منهما؛ إنَّ أبانا لفي خطأ ظاهر بإيثارهما علينا بالمحبة، مع فضلنا عليهما.

دلَّت هذه الآية على وقوع الحسد بين الأقارب، وأنه يحمل صاحبه على الكذب وقطيعة الرحم، وعقوق الوالد، وهذا ما حصل لإخوة يوسف: حملهم الحسد على الكذب، وعلى التفكير جدياً في إبعاد يوسف عن أبيه ولو بقتله أو تغييبه عنه، وفعلهم من أقبح صور قطيعة الرحم، وعقوق الوالد.

٩ ـ قال إخوة يوسُف: اقْتُلوا يوسُف، أو ألْقوه في أرضٍ بعيدة عن أبيه، فإذا فعلتم ذلك بيوسُف أقبل يعقوب بوجْهِهِ إليكم، وَصَرَفَ محبَّتَه لكم، دون أن يُشاركَكم فيها أحد؛ وتصيروا من بعد قتل يوسُف أو إبعاده عن أبيه قوماً صالحين بالاستغفار والتوبة.

١٠ ـ قال قائلٌ من إخوة يوسُف: لا تقْتُلوا يوسُف، وارموه في قعر الجُبِّ وظلمته حيث يغيب خبره، يعثر عليه بعضُ المارَّة من المسافرين، فيذهب به إلى ناحية أخرى فتستريحوا منه، دون أن ترتكبوا جريمة القتل ظلماً وعدواناً، إنْ كنتم عازمين على التخلُّص منه. وقد وافق الجميع على هذا الاقتراح.

١١ ـ قال إخوة يوسُف ليعقوب: يا أبانا أيُّ عذر باعث لك حال كونك لا ترانا أُمناء على يوسُف إذا أرسلتَهُ معنا، وقد طلبنا منك أن يخرج معنا إلى المراعي عدَّة مرات، وإنا لنريد له الخير والنفع، ولا نُضْمر له غِشّاً.

١٢ ـ أرسله مُصاحباً لنا غداً إلى الصَّحراء يتَّسع في الملاذِّ وخِصْبِ الأكل، ويمارس رياضة نافعةً في المراعي والهواء الطَّلق، والأرض الواسعة، وإنا نجتهد في حفظه غايةَ الاجتهاد حتى نردَّه إليك سالماً.

١٣ ـ قال يعقوب لأبنائه: إنَّه لَيُؤلم قلبي ذهابُكُمْ به وغيابه عن ناظريَّ، فأنا شديد المحبة له، لا صبر لي على مفارقته، وأخافُ أنْ يأكُله الذئب، وأنتم عنه غافلون برعيكم ولعبكم.

١٤ ـ قال إخوة يوسُف لوالدهم: نقسم لك يا أبانا؛ لَئِنْ أَكَلَهُ الذئبُ الذي تخاف منه، ونحنُ جماعةٌ قويَّةٌ، إنا حين يأكله الذئب لَعَجزةٌ ضعفاء لا خير فينا، ولا نفع يُرجى منا.

فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾

١٥ - فاستجاب يعقوب لطلب أولاده، وأرسَلَهُ معهم، فلمَّا ذهب الإخوة العشرة بأخيهم الغلام الصغير، وعَزَموا على أن يُلقوه في قَعر الجُبِّ وظلمته، نفَّذوا مكيدتهم التي أجمعوا عليها، وأوْحَيْنا إلى يُوسُف: لَنُنَجِّيَنَّك، ولَنَمُنَّنَّ عليك بالوصول إلى مَجْدٍ عظيم، وليأتينَّ إليك إخوتك خاضعين طالبين عطفك عليهم، ولَتُنَبِّئَنَّهُم بأمرهم هذا الذي فعلوه فيك، وهم لا يدركون أدنى إدراك بأنك أخوهم يوسف؛ لرفعة شأنك وعلوِّ سلطانك حينئذ.

١٦ - وبعد أن ارتكب إخوةُ يوسُف جريمتهم البشعة، جاؤوا إلى أبيهم وقتَ العِشاء، يبكون بكاءً مُصطنعاً؛ لِيُخْفُوا به جريمتهم ضدَّ أخيهم. وفي هذه الآية درس للحكام والقضاة، بأن لا يتأثَّروا بالمظاهر التي يفتعلها بعض المُتخاصمين.

١٧ - وحين سألهم أبوهم يعقوب عن سبب بكائهم؟ قالوا له صارخين: يا أبانا إنا ذهبنا نتسابق في الجَرْيِ على الأقدام ورَمْي السِّهام، وتركنا يوسُف عند طعامنا وشرابنا وفُرُشنا وأدواتنا، فأكله الذئبُ في حال استباقنا وغفلتنا عنه، وما أنتَ بمُصَدِّقٍ لنا، ولو كنا صادقين في قولنا؛ لشدَّة محبَّتك ليوسُف، فلا فائدة من محاولة إقناعك بصدقنا.

١٨ - وجاؤُوا مُمَوِّهين على قميصِ يوسُف الذي نزعوه عنه قبل أن يلقوه في الجبِّ بدمٍ كَذِبٍ، يدَّعون ادِّعاءً عملياً مُخالفاً للحقيقة والواقع، ونسوا أن يَخرقوا قميص يُوسُف الذي لطَّخوه بدم تَيْسٍ ذبحوه، فكان علامة كذبهم المفضوح. قال لهم أبوهم يعقوب: ما الأمر كما تقولون، بل زَيَّنت لكم أنفسُكُم الحاسدة لأخيكم أمراً كيدياً عظيماً فَعَلتموه، فشأني صَبْرٌ جميلٌ لا شكوى فيه ولا جَزَع، مع الرضا بقضاء الله وقدره، واللّهُ وحده المُستعانُ على ما تصفون من القول الكذب.

وفي الآية دليلٌ على مشروعية الأخذ بالقرائن والأمارات؛ لأنَّ يعقوب عليه السلام استدلَّ على كذبهم بسلامة القميص من التخريق.

١٩ - وجاءتْ جماعةٌ من المسافرين محتاجة لاستقاء الماء من الجُبِّ، فأرسلوا مَنْ يطلبُ لهم الماء، فلمَّا أرسل دَلْوَه إلى الجُبِّ ليستخرج الماء منه، تعلَّق يوسُف بالحبال، فلمَّا خرج يوسف، فرح الوارد، وقال لأصحابه: أبْشروا هذا غلامٌ، نسْتَرِقُّه، وأخفاه أصحابُ القافلة حتى لا يكتشفُهُ أهله في تلك الأرض فيطالبوا به، واعتبروه بضاعةً من البضائع التي يحملونها للاتِّجار بها، واللّهُ عليمٌ بما يعملونه بيوسف.

٢٠ - وباعه رجال القافلة في «مصر» بثمنٍ ناقص عن القيمة نقصاً ظاهراً، دراهِمَ قليلة، وكانوا زاهدين في يوسف، غير راغبين في الاحتفاظ به، وغير مُقدِّرين لقيمته التي يُشْترى مثلُهُ بمثلها.

٢١ - وقال عزيز مصر الذي اشترى يوسف لزوجته: اجعلي مكان إقامته مكاناً كريماً، فإذا أكرمت منزله ومقامه، فإننا نرجو أن ينفعنا منافعَ حسنةً بما وهبه الله من أمارات النَّجابة، أو نتبنَّاه ونقيمه مقام الولد، وكما مننَّا على يُوسف بأن أنْقذناه من القتل وأخرجناه من الجُبِّ، كذلك مكنَّاه في أرض «مصر»، فجعلناه على خزائنها، ولنعلِّمه بسبب التمكين الذي مكنَّا له في «مصر» بعضاً من تعبير الرُّؤيا وتفسيرها، واللّهُ غالبٌ كلَّ مُغالِبٍ لمقاديره، قديرٌ على تنفيذ ما قدَّره الله وقَضَاه، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، لا دافع لأمره، ولا رادَّ لقضائه، وهو سبحانه غالب على أمر يوسف يُدبِّره ويَحوطُه ولا يتركه إلى غيره حتى لا يصل إليه كيد كائد، فقد أُريد به من الفتنة والشرِّ ما أُريد أكثر من مرَّة، فلم يحصل له إلا ما أراد الله له من العاقبة الحميدة، ولكنَّ أكثر الناس لا يعلمون لطائف صنعه، وخفايا لطفه بعباده، وأنَّ الأمر كله بيد الله.

٢٢ - وحين بلغ مُنتهى شبابه وشدَّةَ قوَّته، آتينا يوسُف فقهاً في الأمور يُمكِّنه من إصدار الأحكام العلميَّة والقضائيَّة، وآتيناه علماً واسعاً جزاء إحسانه في طاعة ربِّه، وكما أنعمنا على يوسُف بهذه النِّعم كلِّها، وكذلك الجزاء المُعجَّل الذي جَزيناه إيَّاه نجزي كلَّ المحسنين على إحسانهم.

وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِۚ قَالَتۡ مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٖ فَصَدَقَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ فَكَذَبَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَاۚ وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلۡخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾ ۞ وَقَالَ نِسۡوَةٞ فِي ٱلۡمَدِينَةِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفۡسِهِۦۖ قَدۡ شَغَفَهَا حُبًّاۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٣٠﴾

٢٣ ـ وطلبت امرأةُ العزيز ـ برفق ولين ومهلة وإعمال حيلة ـ من يوسُف الذي هو في بيتها الفعلَ القبيح، وَدَعَتْهُ مُخادعةً له عن نفسه لِيُواقِعَها، وأطبقت الأبواب، وضَرَبَتْ عليه الحصار، وطوَّقَتْه بكلِّ ما عند المرأة الغنيَّة المُترفة من أطواق الإغراء والفتنة، وقالت: تهيَّأت لك وتزيَّنت، فكل ما ترى أمامك لك وحدك، هَلُمَّ إلى الاتصال وأقْبِل إلى الوصال. قال يوسُف: أعوذُ بالله مَعَاذاً ممَّا تريدين مني! وأعتصمُ به وألتجىء إليه التجاءً في دفع ذلك عني، إنَّه ربِّي الله الَّذي أحسن إقامتي في بيت عزيز مصر، وإنه سيِّدي العزيز أكرم منزلتي فلا أخونُه في أهله، وإنْ فعلتُ هذا الفعل فأنا ظالمٌ، ولا يظفر ولا يفوز الظالمون بمطلوبهم.

وفي الآية يُعلِّمنا الله عزَّ وجلَّ أن نلجأ إليه، ونستعيذَ به من أن نَنْزلق إلى الانغماس في كبائر الإثم، عند المواقف التي قد تضعُفُ فيها مقاومة إرادتنا الرشيدة، وتبدأ فيها غشاوات الشهوات العارمات تتوارد على ساحة بصائرنا الإيمانيَّة.

٢٤ ـ ولقد توجَّهَت نفس امرأة العزيز دون مستوى الإرادة الجازمة لضربه؛ ثأراً لكرامتها، وتوجَّهت نفس يوسُف لضربها دون مستوى الإرادة الجازمة؛ ليمنعَ عن نفسه محاولاتها الإلزاميَّة، لولا أن رأى برهاناً جليّاً من ربِّه، مَنَعَهُ من ضربها لَضَرَبها، مِثْلُ ذلك الذي كان منه من عِفَّةٍ عن الفحشاء، وإمساك نفسه عن مقاومة امرأة العزيز بما يُؤذيها ضرباً ودفعاً، كان منَّا له عَوْنٌ وتثبيتٌ وتقويةٌ لعزيمته، لنصرفَ عنه الوقوعَ بالسُّوء الذي يُدانُ به فيما لو ضَرَبها، أو دَفَعها بعنف قد يُؤذيها به، فيكون دليلاً ضدَّه، ولنصرفَ عنه الوقوع بفاحشة الزِّنى التي هي من كبائر الإثم، إنَّه من عبادنا الذين صفَّيْناهم من الشَّوائب، واخترناهم للنبوَّة والرسالة.

٢٥ ـ وقامَ يوسُف هارباً مُبادراً إلى الباب، مبتعداً عن مواطن التُّهمة والرِّيبة، ومُجْتنباً مواضع الفتنة، وتَبِعَتْهُ المرأة تُحاولُ الإمساكَ به، لتمنعه من أن يفتح الباب ويفرَّ، فتعلَّقت بقميصه من خلفه وَجَذَبَتْه إليها حتى لا يخرج، وشقَّت قميصه طولاً من جهة ظهره، فغلبها يوسُف، فخرج وخرجت خلفه، فلمَّا خرجا وَجَدَا زوج المرأة (العزيز) عند الباب. فلما رآها العزيز قالت له: ما جَزاءُ مَنْ أراد بامرأتك ضرباً وإيذاءً، إلا أن يُحبسَ في السجن، ويُمنع من التصرُّف، أو يُعذَّب العذابَ المُوجع المؤلم؟ أرادت الانتقام من يوسف لكبريائها، وتبرئة نفسها، واستفزاز مشاعر زوجها، وإثارة غضبه وغيرته، فينتقم من يوسف قبل أن يتحقَّق من الأمر، ويكشف الحقيقة.

٢٦ ـ قال يُوسف لزوجها بتأنٍّ ورويَّة: أنا لم أرد إيذاءها بضربٍ ولا غيره، ولكن هي التي طلبت منِّي الفحشاء، ودعتني إلى الفعل القبيح مُخَادِعةً لي عن نفسي لأواقعها، فَأَبَيْتُ وَفَرَرْتُ إلى جهة الباب، فلحقتني وجَذَبتني لإكراهي على الرجوع. فكذَّبته وزعمت أنه لحقها ليضربها، وأنها هربت إلى جهة الباب، وشهد شاهدٌ من أهل المرأة بأنه رآه هارباً منها، وأنها هي التي لحقته وجذَبته من ثوبه، فكذَّبت الشَّاهد، فقال: إنْ كان قميصُهُ قُطِعَ طولاً من جهة صدره، إذْ تدفعه عن نفسها، فَصَدَقت في اتِّهامها له، وهو من الكاذبين.

٢٧ ـ وإنْ كان قميصُهُ شُقَّ طولاً من جهة ظهره، إذْ أسرع في الخروج فراراً منها، فكذبت في اتِّهامها له، وهومن الصَّادقين.

٢٨ ـ فلمَّا رأى زوجُ المرأة قميصَ يوسُف شُقَّ من جهة ظهره لا من جهة صدره، أدرك صحَّة شهادة الشَّاهد، وعَرَفَ خيانة امرأته، وبراءة يوسُف، فوجَّه كلامه لزوجته قائلاً: إنَّ هذا الصنيع من حِيَلِكُنَّ ومكركُنَّ السُّوء في خَفَاء؛ إنَّ مكركُنَّ ـ أيَّتُها النساء ـ عظيم.

٢٩ ـ قال عزيز مصر: يا يوسُف اترك هذا الحديث، فلا تذكره لأحدٍ حتى لا يفشو ويشيع، ثمَّ التفت إلى المرأة فقال لها: واطلبي سَتْر الذنب من الله، إنَّك كُنتِ من المتعمِّدين للذنب حين خُنْت زوْجَك، ورمَيْت يوسُف بالتُّهمة، وهو بريء منها.

٣٠ ـ وقال جماعةٌ من النساء لما شاع خبر يُوسُف والمرأة في مدينة «مصر»: امرأة العزيز تطلب من عبدها الشاب الحديث السِّنِّ الفاحشة، وهو يمتنع منها، قد أصاب حبُّها إيَّاه سويداءَ قلبها، إنَّا لنراها في خطأٍ واضح ظاهرٍ، حيث تركت ما يجبُ على أمثالها من العفاف والسِّتر، وأحبَّت فتاها الخاضع لسلطتها في قصرها.

فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾

٣١ - فحين سمعت امرأةُ العزيز بسوء مقالتهنّ فيها، وقصدهنّ رُؤيته، أرسلت إليهنّ تدعوهُنّ لزيارتها، وهيَّأت لهنّ في مجلسها نَمارق ومسانيد يَتَّكِئْن عليها، وأحضَرت لهنّ طعاماً يقطع بالسكّين عند أكله، وأعطَتْ كلّ واحدةٍ من النساء سكّيناً، وقالت ليوسف: اُخْرُج على النِّسوة، فلمَّا رَأَيْنَهُ أعظَمْنَهُ، ودُهِشْنَ عند رؤيته من فَرط جماله، وجعلنَ يُقَطِّعْنَ أيديَهُنَّ بالسكاكين، وسالت دماء جراحاتهنّ، ولم يَجِدْنَ الألم لدهشتهنّ بما رَأين، وشَغْلِ قلوبهنّ بيوسُف، وقُلْنَ مُتعجِّبات: نَبرأ إلى الله من قدرتنا على مقاومة هذا الجمال دون أن نتأثر به، ولجوءاً إليه ليعيذنا من تأثير هذا الحُسْن الذي لم نشهد نظيره، ليس هذا بشراً، ما هذا إلا مَلَكٌ كريمٌ جامع لأكمل صفات الحُسن وأسناها!!

٣٢ - قالت امرأة العزيز للنِّسوة وهي تشير إلى يوسف بإشارة التفخيم: فَذَلِكُنَّ الذي لُمْتُنَّني في محبَّته، أقسم مؤكِّدة أنني طلبتُهُ برفق ولين وحيلة، وحاولتُ إغراءَه مُخادعةً له عن نفسه، فامتنع عن ذلك الفعل الذي طلبتُه منه امتناعاً شديداً، وتحفّظ تحفُّظاً بليغاً، وأُقسم إنْ لم يُطاوعني فيما دعوتُه إليه، لَيُعَاقَبَنَّ بالسِّجن، وليكونَنَّ من الأذلاَّء المُهانين.

٣٣ - قال يوسُف حين توعَّدتهُ المرأة بذلك: يا ربِّ السِّجنُ أحبُّ إليَّ ممَّا يَدعونني إليه من الوقوع في كبيرة الزِّنى، وإنْ لم تدفع عني تدبيرهنّ الخفي، أمِلْ بسبب ضعفي وطبعي إليهنّ، فأقع في معصيتك، وأكُن من الجاهلين، الذين تشتدُّ فيهم حرارة الشهوة، فيقعون في الإثم.

اختار يوسف عليه السلام أخفَّ الضَّررين، وأهونَ الشَّرّين، فالسجنُ فيه إضرار ببدنه ونفسه، وما يدعونه إليه فيه إضرارٌ بدينه وخلقه، وهو أشدُّ ضرراً وأعظم خطراً.

٣٤ - فأجابَ اللَّهُ دعاءَ يوسُف، فَصَرَف عنه كَيْدَ امرأةِ العزيز وَصُوَيْحباتها اللائي حاولن بوسائلهنَّ الضَّغط عليه، ليُلبِّي طَلَبَ امرأة العزيز: إنَّ الله هو وحده السميعُ لدعاء يوسُف ولكلِّ دعاء، العليمُ بحاله وبكلِّ شيء.

٣٥ - ثمَّ بعد مدةٍ بدا للعزيز وأصحابه - من بعد ما رَأَوْا الآيات الدالَّة على صدقِ يوسُف وبراءته - أن يسجنوه دون إدانة ولا محاكمة، وأقسموا ليحبسُنَّ يوسُفَ في السِّجن إلى مُدَّة يَرَوْنَ رأيَهُم فيها؛ حتى تنقطع مقالة الناس، فسجنوه.

٣٦ - ودخل السِّجنَ مع يوسف غلامان، أحدهما: خبَّاز الملك وصاحبُ طعامه، والآخرُ: ساقيه وصاحبُ شرابه. قال صاحب شراب الملك: إني رأيتُ في المنام أني أعصرُ عِنَباً ليصير خمراً أسقيه الملك، وقال صاحب الطعام: إني رأيت في المنام أني أحمل فوق رأسي خبزاً تأكل الطَّير منه، أخبرنا - يا يوسف - بتفسير ما رأينا، وما يؤول إليه أمر هذه الرُّؤيا، إنَّا نراك من الذين يُحسنون في أقوالهم وأفعالهم، ومن الذين يُحسنون في تعبير الرؤى.

٣٧ - قال لهما يُوسف مغتنماً الفرصة لدعوتهما إلى الله تعالى قبل أن يُجيبهما إلى ما طلباه من تأويل رُؤياهما: لا يأتيكُما طعامٌ من منازلكما، تُطعَمانه وتأكلانه إلاَّ أخبرتكما بَقدْره ولونه والوقت الذي يَصِلُ إليكم فيه، قبل أن يَصِل إليكما، إنَّ هذا الذي أخبرتكما به طَوال هذه المُدَّة التي مَرَّت، هو بعضُ ما علَّمني ربِّي، إني تركتُ دينَ العزيز وقومِهِ الَّذين لا يؤمنون بالله، وهم بالآخرة هم جاحدون منكرون للمعاد، وسيلقَوْن مصيرهم في عذاب جهنَّم؛ لأنهم كذَّبوا رُسل ربِّهم، ولم يستجيبوا لدعوتهم.

لم يشغل السجن وضيقُه يوسُفَ عن الدعوة إلى الله تعالى، وهكذا يجب أن يكون الداعي مهتماً بدعوته، لا يفكر إلا بها، ولا يبخل عليها بشيء من وقته وجهده، ولا يشغله عنها شاغل حتى في أحرج الساعات، وأضيق الحالات، وحتى عند ابتلائه بالمصائب والنكبات.

وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ ۚ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾ وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾

٣٨ ـ تركتُ دين قومكم، واتَّبعتُ دينَ آبائي إبراهيمَ وإسحاقَ ويعقوبَ، ما كان ينبغي لنا أن نُشركَ بالله أي شيء، وقد اختارنا لنبوَّته، واصْطَفَانا لرسالته، ذلك التوحيد وعدمُ الإشراك والعلم الذي رزقنا فَضْلُ الله علينا وعلى الناس جميعاً، إذ نَصَبَ لهم الأدلة الدالَّة على وحدانيَّته، وبعث رُسلَه لكلِّ الأمم، لدعوتهم إلى توحيد الله وعبادته، ولكنَّ أكثرَ النَّاس لا يشكرون الله على هذه النِّعم التي أنعم بها عليهم، بل هم يكفرون ويتَّخذون شُركاء لله في ربوبيَّته أو في إلٰهيَّته.

٣٩ ـ يا صَاحِبَيْن في السِّجْن لي، اللَّذيْن أَنِسْتُ في السِّجنِ المُوحِش بصحبتهما وبمحادثتهما: أيُّهما خيرٌ لكم وأفضل وأكرم: أن تكونوا عبيداً لأربابٍ مُتعدِّدين، يَتَشاكسون فيما بينهم، ويتنازعون في ربوبيَّتهم لكم، أم أن تكونوا عبيدَ ربٍّ واحدٍ عظيم هو المُتصرِّف الأوحد بالكون كلِّه، الغالبُ الذي لا يُوجد شيءٌ في الكون إلا هو واقعٌ تحت سلطان قهره؟

٤٠ ـ إنَّ هذه الأصنام التي تعبدونَها ذليلة مَقْهورة عاجزة، ما تعبدون ـ أيُّها المشركون ـ من دون الله الواحد القهَّار إلا أسماءً سَمَّيْتُموها آلهةً وأرباباً أنتم وآباؤكم من قبلكم، وهي جماداتٌ لا ربوبيَّة لها فلا إلٰهيَّة لها، لا حُجَّة لكم بتسمية الأصنام آلهةً ولا برهان، ولا أَذِنَ لكم بعبادتها، ما الحكمُ والقضاءُ والأمرُ والنهيُ إلاَّ للَّهِ تعالى، لا شريكَ له في ذلك، أمرَ ألاَّ تعبدوا إلاَّ إيَّاه؛ لأنَّه المستحقُّ للعبادة، ذلك الذي حدَّثتكما عنه من توحيد الله، وأن الحكم له وحده، وأنه أمر بعبادته وحده، هو الدين المستقيم الذي لا عِوَج فيه، ولكنَّ أكثر الناس لا يعلمون ذلك.

تدلُّ هذه الآية على أن توحيد الله في الحاكميَّة هي عقيدة الأنبياء والرسل، وهي متَّصلة اتِّصالاً مباشراً بكون الله هو الربُّ الخالق المالك للكائنات كلِّها، ومن كان المالك للكائنات، فهو الحاكم المطلق في كلِّ ما يملك تصرُّفاً بالإيجاد والإعدام، والحياة والموت، وتصرُّفاً بالأمر والنهي والتكليف.

٤١ ـ يا صاحِبَيْن لي في السِّجن، اللَّذيْن أَنِسْتُ بصحبتهما، إليكما تعبيرُ رُؤْياكما: أمَّا صاحب شراب الملك، الذي رأى أنه يعصر العنب، فسيخرج من السجن، ويعود إلى عمله في قصر فرعون، ويسقي سيده المَلِكُ خمراً كما كان يَسْقيه أوَّلاً، وأما صاحب طعام الملك الذي رأى أنه يحمل على رأسه خبزاً، فإنه يُصْلب، ويُترك مصلوباً حتى تأتيَ الطَّيرُ فتأكل لحماً من رأسه، فُرِغَ من الأمر الذي سألتما عنه.

٤٢ ـ وقال يوسُف عليه السلام للسَّاقي الذي ظنَّ ظناً راجحاً أنه سيخرج من السجن، ويعود إلى عمله في قصر فرعون: اذكرني عند سيِّدك الملك، وأخبره أني محبوسٌ مظلومٌ، فأنسى الشَّيطانُ السَّاقيَ أن يذكر يوسُف عند الملك، فمكث يوسُف في السجن بعد خروج صاحبَيْه منه عدَّة سنوات. لم يترك يوسف عليه السلام الأخذ بأسباب السلامة والخروج من السجن، مع توكُّله على الله تعالى وتفويض أمره إليه.

٤٣ ـ وقال مَلِكُ مصر: إنِّي رأيتُ في منامي سبعَ بقراتٍ سمانٍ، وسبعَ بقراتٍ في غاية الهزال، فابتلعت العجافُ السِّمان، ودخلنَ في بطونهنَّ، ولم يُرَ منهُنَّ شيءٌ، ولم يتبيَّن على الهزيلات منها شيءٌ، ورأيت سَبْع سُنْبلاتٍ خُضْر قد انعقد حبُّها، وسبع سنبلات أُخَر يابسات قد اسْتُحصِدت، فالتَوتْ اليابسات على الخضر حتى عَلَوْنَ عليها، ولم يَبْقَ من خُضْرتها شيء. يا أيُّها السادة والكبراء: أخبروني بتأويل رؤْياي الخطيرة، وعبِّروها لي، واذكروا بُعدها الواقعي، إن كنتم تُحسنون علم العبارة وتفسير رموز الأحلام.

قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٖۖ وَمَا نَحۡنُ بِتَأۡوِيلِ ٱلۡأَحۡلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِي نَجَا مِنۡهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعۡدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأۡوِيلِهِۦ فَأَرۡسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفۡتِنَا فِي سَبۡعِ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖ لَّعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزۡرَعُونَ سَبۡعَ سِنِينَ دَأَبٗا فَمَا حَصَدتُّمۡ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تَأۡكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ سَبۡعٞ شِدَادٞ يَأۡكُلۡنَ مَا قَدَّمۡتُمۡ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تُحۡصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَامٞ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعۡصِرُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطۡبُكُنَّ إِذۡ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفۡسِهِۦۚ قُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمۡنَا عَلَيۡهِ مِن سُوٓءٖۚ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾

٤٤ ـ قال السَّحرة والكَهَنة والمُعبِّرون مُجيبين الملك: رُؤياك هذه أخلاطٌ مُشْتَبِهة، ومنامات متداخلة باطلة، وما نحن بتفسير المنامات بعالمين.

٤٥ ـ وقال السَّاقي الذي نَجَا من القتل بعد هلاك صاحبه الخبَّاز، وتذكَّر قولَ يوسف بعد مدَّة طويلة من الزمن: ـ اذكرني عند ربِّك ـ أنا أخبركم بتأويل هذه الرُّؤيا، إذْ أستفتي فيها السَّجينَ العِبْرانيَّ الذي كنت مُصاحباً له في سجن رئيس الشُّرطة، فأرسلني أيُّها الملك إلى السِّجن، ففيه رجلٌ عالمٌ يُعبِّر الرؤيا، فأرسَلَه فأتى السجن.

٤٦ ـ فلما وصل إليه قال له: يا يوسُف أيُّها العظيمُ الصِّدق في كلامك، وتأويلك، وسلوكك، وتصرُّفاتك، وصُحبتك: فسِّر لنا رُؤيا مَنْ رأى سَبْعَ بقرات سِمَان، يأكلهنَّ سبع بقرات هزيلات، ورأى سبع سُنبلات خُضْر وأُخَرَ يابسات، فإنَّ الملك رأى هذه الرُّؤيا؛ لعلِّي أرجع بتأويل هذه الرؤيا إلى الملك وجماعته؛ ليعلموا تأويل ما سألتك عنه، وليعلموا مكانتك وفضْلك.

٤٧ ـ قال يوسُف مُعبِّراً لتلك الرُّؤيا التي تشير إلى الوضع الزراعي والاقتصادي والمالي خلال الخمس عشر سنة القادمة بما فيها من رخاء، ثم قحط، ثم غوث: ازْرَعوا سَبْعَ سنين بجدٍّ واجتهاد من غير فتور على عادتكم المستمرَّة في الزراعة، فما حَصَدتُم من الحنطة فاتركوه في سُنْبله؛ لئلاً يفسد ويقع فيه السُّوس، واحفظوا أكثره لوقت الحاجة، إلاَّ قليلاً ممَّا تأكلونه من الحبوب.

٤٨ ـ ثمَّ يأتي من بعد الدأب في زراعة الأقوات وادِّخارها طوال السنين السبع المُخْصِبَة سبعُ سنين مُجدِبةٍ مُمْحِلَةٍ شديدةٍ على الناس، يأكل الناس وتأكل مواشيهم فيها ما زرعتم وادَّخرتم لهنَّ من الطعام في سنوات الخِصب، إلاَّ قليلاً ممَّا تحفظونه وتدَّخرونه، احتياطاً للطوارىء المُلْجِئة التي قد يُسمح فيها بالأخذ من الاحتياطيِّ بمقادير الضرورة.

٤٩ ـ ثمَّ يأتي من بعد هذه السنين المُجْدِبَة عامٌ ترجع فيها تَصاريف الكون إلى مثل ما كانت عليه قبل أربع عشرة سنة، وفيه تنزل الأمطار النافعة التي يُنبتُ الله بها الزروع، وفيه يَعْصِرون ما شأنه أن يُعصَرَ من نحو العنب والزيتون والقَصَب، وتكثُر النِّعَمُ على الناس. لم يكتف يُوسُف عليه السلام بتعبير الرؤيا، بل بادر فوضع لهم خطة عملٍ لمواجهة سنوات القحط والجفاف، وهي خطة اقتصاديَّة تتناول الحياة الزراعيَّة والتموينيَّة للأمَّة خلال خمس عشرة سنة مُستقبلة.

وهذه الرؤيا هي الثالثة والأخيرة في قصَّة يوسُف عليه السلام: رُؤياه سجود الأحد عشر كوكباً والشمس والقمر له ساجدين، ورؤيا السجينَيْن في السجن، ورُؤْيا الملك حول البقرات والسُّنبلات.

٥٠ ـ وقال المَلِكُ ـ لمَّا سمع بتعبير رُؤْياه، وما أشار به من تدبير اقتصادي لحماية الشعب من الجوع ـ لأعوانه: أخرجوا الرجل المعبِّر للرؤيا من السجن، وأحضروه لي، فلمَّا جاءه رسولُ الملك يدعوه أبى أن يخرج معه، وقال يوسُف للرسول: ارجع إلى سيِّدك الملك، فاسأله ما شأن النِّسوة اللاتي قطَّعنَ أيدِيَهُنَّ؟ إنَّ ربِّي عالمٌ بصنيعهنَّ وما احتَلْنَ في هذه الواقعة من الحِيَل العظيمة.

٥١ ـ ولما أخبر الرسولُ الملك بذلك جمعهنَّ، وباشر التحقيق بنفسه، وسألهنَّ سؤال المتَّهم لهنَّ: ما شأنُكُنَّ حينَ طلبتم برفق وتَمَهُّل مُخادعين يوسُف عن نفسه؟ هل وجدتنَّ منه مَيْلاً إليكنَّ؟ قالت النِّسوة جميعاً مجيبات للملك: معاذَ الله أن يعمل سوءاً، ونبرأ إلى الله من اتِّهامه، ما علمنا عليه من خيانةٍ في شيءٍ من الأشياء. قالت امرأة العزيز: الآن ظهر وتبيَّن الحق بعد خفاء، فأنا التي حاولتُ فتنته بمخادعته عن نفسه، فامتنع، وإنَّه لمن الصَّادقين في قوله: هي راودتني عن نفسي.

٥٢ ـ عندئذٍ قال يُوسُف عليه السلام لمَّا بلغته نتيجةُ تحقيق الملك مع النِّسوة، وأنَّ براءته ظهرت: ذلك البقاء في السجن، ومُطالبتي بالتحقيق في قضيَّة اتِّهامي؛ ليعلم عزيز مصر الذي استأمنني على قصره وأهله أنني لم أخنْه بشيءٍ وهو غائب، ويعلم أنَّ الله لا بدَّ أن يكشف كيْدَ الخائنين، فلو كنت خائناً ما نصرني ربِّي، وأظهر براءتي؛ لأنَّه سبحانه لا يدع كَيْد الخائنين ساتراً لخياناتهم ومُلْصِقاً التُّهمة بالبريئين.

وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٥٣﴾ وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُۚ نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾ وَجَآءَ إِخۡوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَعَرَفَهُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ قَالَ ٱئۡتُونِي بِأَخٖ لَّكُم مِّنۡ أَبِيكُمۡۚ أَلَا تَرَوۡنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلۡكَيۡلَ وَأَنَا۠ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمۡ تَأۡتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيۡلَ لَكُمۡ عِندِي وَلَا تَقۡرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنۡهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتۡيَٰنِهِ ٱجۡعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ فِي رِحَالِهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَعۡرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿٦٢﴾ فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمۡ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلۡكَيۡلُ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَآ أَخَانَا نَكۡتَلۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾

٥٣ ـ وما أردتُ تزكية نفسي، بل أردتُ إظهار ما أنعم الله عليَّ به من العصمة والتوفيق، إنَّ النفس كثيرةُ الأمر لصاحبها بعمل المعاصي، داعيةٌ إلى شهواتها مائلةٌ إليها، إلا نفساً رحمها ربّي، فعَصمها أن تأمر صاحبها بالسُّوء، إنَّ ربي كثير السَّتر لذنوب مَنْ تاب من عباده، دائم الرحمة بهم.

٥٤ ـ وقال المَلك بعدما تبيَّن له براءة يوسف وأمانته وعلمه: ائْتوني به، أجعلهُ خالصاً لنفسي، فلا يشاركني فيه أحد، فجاؤوا به، فلمَّا كلَّم الملكُ يوسف، وعرف منزلته وأمانته وعفَّته وذكاءه النادر، وعقله الرَّصين الراجح، قال ليوسف: إنَّك اليوم عندنا صاحب مكانة ومنزلة وجاه، ومؤْتمن على كلِّ شيء. وبهذا انتهت محنة يوسف، وانتقل من ظلمة السجن إلى نور الحرية، فعلا نجمُهُ، وذاع صيته، بينما أفل نجم العزيز وزوجته، فلم يعد لهما أيُّ ذكر، وعلم الناس فضل العفة والأمانة والصدق، وقبح الفاحشة والخيانة والكذب.

٥٥ ـ قال يوسُف للملك: اجْعلني على خزائنِ الطعام والأموال بأرض «مصر»، إني كثير الحفظ للأقوات، كثير العلم بأسباب تهيئتها، ووجوه مصالحها، مُؤَهَّل للقيام بهذ المنصب الخطير. وإنما قال يوسف ذلك لعلمه بقدرته على ما يتولاَّه، ولما فيه من المصالح للناس، فيجوز للمسلم أن يفعل ذلك، فيمدح نفسه بذكر صفاته وكفاءاتِه على العمل الذي يطلب الولاية عليه إذا وجد في ذلك مصلحةً شرعية، وكان واثقاً من القيام بحقوق هذه الولاية ومُتطلَّباتها.

٥٦ ـ وكذلك المنصب الخطير الذي مَنَنَّا عليه، إذْ جعلناه صاحب السُّلطة العامَّة على خزائن أرض «مصر»، كذلك مكنَّا ليوسُف في أرض «مصر»، ينزل ويقيم إقامة طويلة وقصيرة، في أيِّ مكان يشاء، بحسب مُقْتضيات إدارته لعموم المملكة، نعطي من آثار رحمتنا مَنْ نشاء من عبادنا، ولا نُضيع أجْرَ المحسنين لأمَّتهم التي ولأَّهم الله أمرها، فلا يغرَّنَّهم سلطان، ولا يستبد بهم طمع؛ لأن قلوبهم متوجِّهة إلى الآخرة.

٥٧ ـ عجَّلنا ليوسف بعض الثواب في الدنيا؛ لأنه في اختياراته وأعماله الباطنة والظاهرة من المحسنين، وما نمنحه بعضَ عبادنا من أجر مُعجَّل في الحياة الدنيا، لا يُؤثِّر على أجر الآخرة، وَلأجْرُ الآخرةِ عند الله أفْضلُ من أجرِ الحياة الدنيا، للَّذين آمنوا وكانوا يتَّقون دواماً ما نَهىٰ اللَّهُ عنه. وإذا كان هذا الأجر العظيم لأهل مرتبة التقوى على درجاتها، فكيف يكون حال أهلِ مرتبة البر، وأهل مرتبةِ الإحسان، ومنهم يُوسف عليه السلام!؟

٥٨ ـ وَقَدِمَ إخوةُ يوسُف إلى «مصر»، ليجلبوا منها الطعام ـ بعد أن اشتدَّ القحط وعظُم البلاء حتى وَصَل إلى بلاد الشام ـ، فدخلوا على يُوسُف، فَعَرَفَهم، وهم لم يعرفوا أنه أخوهم؛ لطول المدّة، وتغيُّر هيئته.

٥٩ ـ ولمَّا أعطاهم يوسُف كلَّ ما يحتاجون إليه في سفرهم، وحَمَل لكلِّ واحدٍ منهم بعيراً من الطعام، قال لهم ـ وكانوا قد أخبروه أنَّ لهم أخاً من أبيهم لم يُحضروه معهم ـ: ائْتوني بأخ لكم من أبيكم خلَّفتموه عنده، ألا تَرَوْن أني أتمُّ الكَيْل ولا أبْخس منه شيئاً، وأزيدكم حملَ بعير آخر لأجل أخيكم أكرمكم به، وأنا خيرُ المُضيفين؟!.

٦٠ ـ ثمَّ قال يوسف: فإنْ لم تأتوني بأخيكم من أبيكم الذي ذكرتموه لي، ظهر لي أنكم كاذبون، فعندئذ لا أكيل لكم طعاماً، ولا ترجعوا إليَّ، ولا تَقربوا بلادي.

٦١ ـ قال إخوةُ يوسف: سنحاول إقناع أبيه بمختلف الوسائل ليوافق على طلب إرساله معنا، وإنَّا لفاعلون ما أمرتنا به، ولن نقصِّر في ذلك.

٦٢ ـ وقال يوسُف لغلمانه: اجعلوا ثمنَ الطعام الذي أعطوني في أوعيتهم التي يحملون فيها الطعام؛ لعلَّهم يعرفون أنها هي نقودهم التي اشترَوْا بها إذا رجعوا إلى أهلهم، ويقدِّروا إكرامنا لهم؛ لتحملهم معرفتهم إيَّاها على الرجوع إلينا طمعاً في إعطائنا.

٦٣ ـ فلمَّا رجعوا إلى أبيهم «يعقوب» بالطعام، وأخبروه بإكرام العزيز لهم، قالوا: سيُمنع منَّا الكيل في المستقبل، إنْ لم نحمل معنا أخانا، فأرسل معنا أخانا نَكْتَل جميعاً، ونتعهَّد لك بحفظه، ونردُّه إليك.

قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُوا۟ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾

٦٤ ـ قال يعقوب: أنتم لستم أمناء على أخيكم، وهل آمنكم على ولدي «بنيامين» إلا كما أمنتكم على أخيه الشقيق «يوسُف» من قبل. إنَّ ما جرى منكم ليوسُف يجعلني لا آمنكم على «بنيامين»، ولكن ماذا أفعل إذا كانت الضرورة مُلجئة، فأنتم تقولون: لن يكون لكم كيْلٌ ما لم تأخذوا «بنيامين» معكم، وإذا أرسلته معكم فإنني أسأل الله أن يحفظه، إنَّ حفظ الله خيرٌ من حفظكم له، هو الذي يرحمنا، وهو أرحم الراحمين.

٦٥ ـ ولمَّا فَتَحوا أوعيةَ الطعام التي حملوها من «مصر»، وجدوا ثمنَ الطعام الذي كانوا قد أعطوه ليوسُف قد رُدَّ عليهم. قالوا: يا أبانا أيَّ شيء نطلب من إحسان الملك الذي وصفناه لك بعد هذا الإحسان والإكرام؟ أوْفىٰ لنا الكيل، وردَّ علينا الثمن؛ لنُسرع العودة إليه مصحوبين بأخينا الصغير حتى يزيد إكرامنا، فكن مُطمئناً على أخينا، وأرسله معنا، نشتري لأهلنا الطعام ونحمله إليهم، ونحفظ أخانا «بنيامين» ممَّا تخاف عليه حتى نردَّه إليك، ونزداد لأجل أخينا على أحمالنا حِمْلَ بعيرٍ من الطعام؛ إنَّ ذلك الكيل الذي نزداد من الطعام هيِّن على الملك؛ لأنَّه قد أحسن إلينا وأكرمنا بأكثر من ذلك.

٦٦ ـ قال لهم يعقوب: لَنْ أُرسل معكم «بنيامين» حتى تُؤْتوني عهدَ الله المُؤكَّد باليمين أن تردُّوه إليَّ، إلا أن تهلكوا جميعاً، فلا تَقْدروا على الرجوع، فلمَّا أعطوه عهدهم، وحَلَفوا له. قال أبوهم يعقوب: اللَّهُ شاهدٌ مطَّلع قريب على ما نقول، فأنا أفوِّض أمري إليه تسليماً كاملاً.

٦٧ ـ وقال يعقوبُ لأولاده جميعاً حين عزموا على الرحيل إلى مصر، لجلب أقواتهم منها: يا أبنائي لا تدخلوا من بابٍ واحد، وادخُلوا من أبواب متفرِّقة، حتى لا تُصيبَكم أعين الحاسدين، وما أدفع عنكم بوصيَّتي لكم أن تدخلوا من أبواب متفرِّقة من أمر الله من شيء، إنْ كان قضىٰ عليكم بقضاء فهو يُصيبكم مجتمعين أو متفرِّقين، وما الحكمُ الذي يتمُّ به تنفيذ قضاء الله وقدره إلا للَّه وحده لا شريكَ له فيه، ولا يدفع قضاءه شيءٌ إلا أن يكون شيء قد قدَّره الله تعالى سبباً لمنع شيءٍ آخر، وما الأسباب إلا أمور عادية يخلق الله عندها ما يريد، أو يمنع عندها ما يريد منعه، ومع مطالبتي باتِّخاذ الأسباب، وإيماني بأنها لا تصرف من تقدير الله وحُكمه شيئاً، فإنني عليه اعتمدتُ في أموري كلِّها لا على غيره، وعليه وحده فلْيتوكَّل المُتوكِّلون. وهذه الآية تدلُّ على أنَّ المؤمن مأمور باتِّخاذ الأسباب فيما جعل الله له سبباً كونياً، لتحقيق مطلوبٍ يحتاج إليه، أو لدفع مكروه يخشى من حصوله، كما يجب على المؤمن ـ بعد اتِّخاذه الأسباب ـ أن يؤمن إيماناً قلبياً جازماً أنَّ حكمَ الله في قضائه المبرم نافذٌ لا مَحالة، سواء أكان مُسايراً للأسباب المتَّخذة، أم كان مُخالفاً.

٦٨ ـ ورحل إخوة يوسُف ومعهم «بنيامين»، ولمَّا دخلوا من الأبواب المُتفرِّقة كما أمرهم أبوهم، ما كان ذلك ليدفعَ قضاء الله عنهم، ولكن شفقة يعقوب وخوفه عليهم من العين حملته على وصيَّتهم باتِّخاذ الأسباب العمليَّة، وهو يعلم أنَّ ذلك لا تأثير له إلا بإذن الله، وإنَّ يعقوب لصاحبُ علم لتعليمنا إيَّاه بالحقائق الإيمانية الكبرى، ومنها: أنه لا يوجد شيء أو يُعدم إلا بتقدير الله وقضائه، وأن على المؤمن أن يتَّخذ الأسباب، وأن يتوكَّل على الله في أموره كلها. ولكنَّ أكثر الناس لا يعلمون حقائق القضايا الدينية، إذ وجَّهوا أدوات المعرفة لديهم لمعرفة ما يرغبون من متاعات الدنيا وشهواتهم وأهوائهم منها.

٦٩ ـ ولمَّا دَخَل إخوةُ يوسُف على يوسُفَ وهو في مجلسه السُّلطاني: ضمَّ إليه شقيقه «بنْيامين» وأنزله معه في منزله، وقال له سِرّاً: إني أنا أخوك يوسُف، فلا تكْتئب وتحزن بما كان إخوتنا من أبينا يعملون بنا، حسداً لنا، فإنَّ الله قد أحسن إلينا، ونجَّانا من الهلاك، وجمع بيننا على خير.

فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ ۞ قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾

٧٠ ـ فلمَّا أمر يوسُف خدَّامه وعبيده بتهيئة جهاز إخوته، وحمَّل إبلهم بالطعام، جَعَلَ الإناء الذي كان يكيل الملك به الطعام للمُمْتارين في وعاء طعام أخيه «بنيامين» من حيث لا يشعر أحد، ولمَّا انطلقوا راجعينَ إلى بلادهم، تَبِعَهم جنودُ الملك، ونادى منادي الجنود قائلاً: يا أصحابَ الإبل التي عليها الأحمال، إنَّكم لسارقون، فقفوا.

٧١ ـ قال أولاد يعقوب عن بُعد، وأقبلوا على الجند المنادين الذين يتَّهمونهم بأنهم سارقون: ما الذي تفقِدون؟

٧٢ ـ قال المُنادي وأصحابه: نفقد الإناء الذي يكيل الملكُ به، ولِمَنْ جاء به مكافأةٌ هي مِقْدار حِمْل بعيرٍ من الطعام إذا جاء به قبل التفتيش، وقال رئيس الرَّهط من الجند: وأنا كفيلٌ بمنحه هذه الجائزة. وهذه الآية أصل في الجِعَالَة، وهو الأجر الذي يُجعل على العمل، وأصل كذلك في الضمان والكفالة.

٧٣ ـ قال إخوةُ يوسُف مُقْسمين على أمرَيْن: واللَّهِ لقد علمتم من رحلتنا السابقة أننا ما جِئْنا أرض «مصر» لأجل الفساد فيها، وما كنا في حياتنا كلِّها منذ نشأتنا سارقين.

٧٤ ـ قال المُنادي وأصحابُه لإخوة يوسف: فما جَزَاء السَّارق عندكم، إنْ ظهر بتفتيش أوعيتكم وجودُ صُواع الملك في واحد منها، وبهذا يظهر أنكم كاذبون في ادِّعائكم أنكم جميعاً لستم بسارقين؟!

٧٥ ـ قال إخوة يوسُف: جزاءُ السَّارق في نظام بلدنا: من وُجِدَ المسروق في رَحله يجب أن يُسلِّم برقبته إلى المسروق منه، فيسترقَّه مدَّةً من الزمن، جزاءً له على جُرمه وسرقته، مِثْلُ هذا الجزاء في شريعتنا ـ وهو الاسترقاق ـ نجزي الظالمين بالسَّرقة.

٧٦ ـ فردُّوهم إلى يُوسُف، فَبَدأ بتفتيش أوْعيتهم قَبْل وعاءِ شقيقه لإزالة التُّهمة، حتى لم يَبْقَ إلا رَحل «بنيامين»، فلمَّا فتح متاعَه وجَد الإناء فيه، فاستخرجه منه. كما ألهمنا يوسف تدبيرَ مكيدةِ صُوَاع الملك، وَدَسِّهِ في بعض أوعية «بَنْيامين» ليحتفظ به، كِدنا لتحقيق مُراد يوسُفُ كيداً آخَرَ أتممنا به تحقيق مُراده، فألهمنا إخوته أن يذكروا نظامهم في عقوبة السَّارق، وهي استرقاقُهُ مُدَّةً من الزمن، على خلاف نظام الدولة المصرية الفرعونيَّة، وهي أن يُضرب السارق ويُغرَّم ضعف ما سرق، ما كان يوسف مسموحاً له في النظام العامِّ الذي يقضي به الملك، أن يسترق السارق، لكن له أن يعامل رعايا دولةٍ أخرى بحسب الأنظمة المرعيّة لديها، فأجرى اللهُ له التدبير الذي يمكِّنه من الاحتفاظ بأخيه، إلا أن يشاء الله تدبيراً آخر، فإنه قديرٌ على أن يفعل ما يشاء، نرفعُ بالعلم النافع درجاتٍ من نشاء رفعه، كما رفعنا درجة يوسُف على إخوته بما منحناه من حقائق العلم الكبرى التي يُدرك بها عظيم صفات الله، وعظيم آثارها في كونه، وفوق كلِّ عالمٍ عالِمٌ إلى أن ينتهي العلم إلى الله تعالى، فهو فوق كلِّ عالم.

٧٧ ـ لما أُخرج الصواع من رَحْل «بنيامين»، قال إخوةُ يوسُف: إنَّ هذا الأمر ليس بغريب منه، إنْ يسرق «بنيامين» الإناء، فقد سَرَق شقيقه يوسف من قبل، فنحن لسنا على طريقته ولا على سيرته، فهو وأخوه مختصَّان بهذه الطريقة، لأنهما من أم أخرى، فأخفى يوسف في نفسه مقولتهم الظالمة بشأنه، ولم يُبْد لهم أنه هو الذي يعنونه بها، لأنه لم يكشف لهم بعد بأنه أخوهم يوسف، ولم يسألهم عن اتِّهامهم أخاهم الغائب بالسرقة، وكيف كانت سرقته؟ وقال لهم في نفسه دون أن يسمعهم: أنتم أنزل وأحطُّ مكاناً من «بنْيامين»، ومن أخيه الغائب الذي ذكرتم أنه سرق من قبل، واللَّهُ أعلم من كلِّ عليم بحقيقة ما تصفون به أخاكم الغائب عنكم بأنه قد سرق، وتذكرونه بغَيْبته بما يجرح أمانته، وليس لكم بيِّنةٌ تُثْبتون بها إدانته.

٧٨ ـ عندئذ لجأ إخوة يوسف إلى الاستعطاف ليفرِّج عن «بنيامين» ونادوه نداء المتلهِّف المستغيث: يا أيُّها السيِّد الذي يَمْلك في مصر القوَّة الغالبة من بعد المَلِك، إنَّ لأخينا «بنيامين» أباً شيخاً كبيراً في السنِّ والقدر، يُحبُّه حباً شديداً، ولا يطيق بُعدَه، ولا يصبر على فراقه، وإذا كان لا بُدَّ من العقاب فَخُذْ أحدَنا مكانه بدلاً عنه، إنا نراك من المحسنين في أفعالك كلِّها، فأتمِم إحسانك إلينا، بأن تجيب طلبنا والتماسنا.

قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾

٧٩ ـ قال يوسُفُ: عياذاً بالله، ولجوءاً إليه، واعتصاماً به، لحمايتنا ووقايتنا أن نأخذ أحداً غير الذي وجدنا المكيال عنده ـ كما حكمتم أنتم ـ، فإنْ أخَذْنا بريئاً بذنب غيره، إنا نكون حينئذٍ من الظالمين.

٨٠ ـ فلمَّا يَئِسوا من يوسُف أن يُجيبهم لِمَا سألوه يأساً كاملاً، خَلاَ بعضُهم ببعض يتناجَوْن ويتشاوَرُون سرّاً فيما يقولونه لأبيهم في شأن «بنيامين»، قال أكبرهم سناً وأحسنهم رأياً: ألم تعلموا أنَّ أباكم يعقوب قد أخذ عليكم عهداً موثَّقاً بالأيْمان المُغَلَّظة المُشَدَّدة، لَتَرُدُّنَّ أخاكم إلا أن تُغلبوا، وعلمتم تفريطكم في «يوسُف» من قبلُ هذا حتى ضيَّعتموه، ولم تحفظوا عَهدَ أبيكم فيه، فلن أخرج من أرض «مصر»، ولن أفارقها على هذه الصُّورة، حتى يأذَنَ لي أبي في الخروج منها، فيدْعوني إليه، أو يَقْضي الله لي بردِّ أخي عليَّ، والله خيرُ القاضين بالأمر الحكيم؛ لأنَّه يحكم بالحقِّ والعدل والإنصاف.

٨١ ـ قال الأخُ الكبير لإخوته الباقين: ارجعوا أنتم إلى أبيكم يعقوب، وأخبروه بما جرىٰ، فقولوا له: يا أبانا إنَّ ابنك «بنيامين» سَرَق، فاحتفظ به عزيز مصر عقوبةً له على سرقته، ولم نقل ذلك إلا بعد أنْ رأينا إخراجَ المِكيال من مَتَاعه، وما كنَّا نعلمُ ـ حين أعطيناك الميثاق ـ أنَّ ابنك يسرق، ويصير أمرنا إلى هذا.

٨٢ ـ واسأل ـ يا أبانا ـ أهلَ القرية التي كنَّا فيها، حين نادانا جنود العزيز متَّهمين لنا بالسرقة، واسأل أصحابَ القوافل الراجعة معنا من «مصر» التي أقبلنا قافلين ونحن ضمنها، فالأمر كان مُعلناً على الأشهاد، ونؤكِّد لك ـ يا أبانا ـ إنَّا لصادقون في كلِّ ما أخبرناك به.

٨٣ ـ فرجعوا إلى أبيهم باستثناء أكبر الأخوة، فقد بقي في مصر، وباستثناء «بَنْيامين» الذي أمسك به العزيز بتُهمة السرقة، ولما وصلوا إلى أبيهم أخبروه بما جَرَى لهم، وبما قال كبيرهم، فعند ذلك قال يعقوب عليه السلام لأبنائه: أنتم لستم صادقين، بل زيَّنت وحسَّنت لكم أنفسُكم أمراً تخلَّصتم به من «بنيامين» كما تخلَّصتم قبلُ من يوسُف، فصبري على المصيبة التي نزلت صبرٌ جميل، لا شكوَى معه لغير الله تعالى، ولا أعمل عملاً لا يَرضىٰ عنه ربي، عَسَىٰ الله أن يأتِيَني بيوسُف، وبنيامين، والأخ الثالث الذي أقام بمصر، إنَّه هو العليمُ بحزني وَوَجْدي عليهم، الحكيم فيما يدبِّره ويقْضيه.

٨٤ ـ وابتعد يعقوبُ عليه السلام عن بنيه، واشتدَّ بلاؤه، وتجدَّد حزنُه على يوسُف، وقال: يا حُزني الشديد على يوسُف دُمْ، وصار يبكي بكاءً كثيراً، وانقلب سواد عينيه بياضاً، وضعُف بصرُهُ من شدَّة الحُزن وكثرة البكاء على يوسُف، فهو مُمتلىءٌ من الحزن، مُمْسِكٌ عليه داخل نفسه لا يَبُثُّه. ولا يتنافى هذا الحزن مع الرِّضا بقضاء الله وقَدَره؛ لأنَّه ألَمٌ نفسيٌّ غير إراديّ لا يملك الإنسان دفعَهُ ولا رفعَهُ، لكن يملك أن لا يعمل أو يقول ما لا يرضي الله عزَّ وجل، فهو مُطالب بما يملك، ولا يؤاخذ على شيء غير خاضع لإرادته.

٨٥ ـ قال إخوةُ يوسُف لأبيهم يعقوب عليه السلام: تالله لا تزال تذكُرُ يوسُف تفجُّعاً، ولا تفتُر عن حبِّه، ويشتدُّ حزنك عليه حتى تكون شديد المرض مُشرفاً على الهلاك، فلا تنتفع بنفسك، أو تكون من الأموات؛ بسبب شدَّة الحزن والهمِّ والأسف.

٨٦ ـ قال يعقوب مُجيباً لأبنائه: ما أشكو ما انطوت عليه نفسي من الضعف والمرض والغمِّ والحزن إلاَّ إلى الله تعالى، لا إليكم، فهو وحده كاشف الضرِّ والبلاء، وإن كنتم تلومونني على شكواي لربِّي على حالي التي لا أملك التغيير فيها، وعلى حزني الذي لا أملك صرفه، فإنِّي أعلمُ من رحمة الله وإحسانه وفرجِهِ ما لا تعلمونه أنتم وسيأتيني بالفرج القريب من حيث لا أحتسب.

وفي الآية دليل على جواز الشكوى إلى الله عزَّ وجل، لأنها تتضمَّن دعاء الشاكي ربَّه، وطلبه منه أن يكشف عنه الغمَّ الذي هو فيه، ودعاء العبد ربَّه، وطلبه منه من الأمور المشروعة المطلوبة. أما الشكوى إلى غير الله، يُريدُ بشكْواه التفجُّع والتضجُّر أو السخط من قدر الله تعالى. فهذا حرام وخطيئة.

يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِي ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِي قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ٱذْهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾

٨٧ ـ قال يعقوبُ: يا أبنائي اذهَبُوا فَتَتَبَّعوا بكلِّ حواسِّكم مُلتقطين من أخبار «يوسُف» وأخيه «بَنيامين» ما يكشف لكم أموراً يقضي الله بها الفرج الذي أطمع فيه، ولا تَقْنطوا من فرج من رحمة الله؛ إنَّه لا يقطع الرجاء من رحمة الله إلا القوم الكافِرون، أما المؤمنون فإنهم يعلمون أنَّ الله رحيمٌ بعباده، وأنه على كلِّ شيء قدير، فإذا لجؤوا إليه، وتوكَّلوا عليه، رحمهم وأغاثهم وأسعفهم بالفرج من لدنه، وكشف الضرَّ عنهم، وسهَّل الشدائد عليهم.

٨٨ ـ وذهب إخوة يوسف التسعة إلى «مصر» استجابةً لطلب أبيهم، فلمَّا دخلوا على يوسف قالوا: يا أيُّها السيِّد الذي يملك في مصر القوة الغالبة من بعد الملك، أصابنا ومَنْ وراءنا من العيال الشِّدَّة والفقر والجُوع، وجئنا ببضَاعة رديئةٍ كاسدة، فأعطنا ما كنتَ تعطينا من قبل كَيْلاً وافياً لا نقص فيه، وأعطنا فوق إيفاء الكَيْل صَدَقَةً زائدةً من عندك، إنَّ الله تعالى يَجزي المُتصدِّقين أحسن الجزاء وأكمَلَهُ.

وفي الآية دليل على جواز شكوى الحاجة لمن يُرجى منه إزالتها.

٨٩ ـ فلمَّا سمع يوسُف مقالتهم، رقَّ لهم، وعرَّفهم بنفسه، وقال لإخوته: قد علمتم قُبح ما فعلتم بيوسف وأخيه «بَنيامين» للتخلُّص منهما، وإبعادهما عن أبيكم، والحال أنتم غاضبون ثائرون بدافع الحسد؟

٩٠ ـ قالوا وقد فاجأتهم الحقيقة وأدهشتهم: أإنَّك لأنتَ يوسُف؟ قال: نعم أنا يوسُف المظلوم الذي ظلمتموني، وقَصَدتم قتلي، وهذا أخي المظلوم كما ظلمتموني، قد أنعم اللّهُ علينا بنعمة عظيمة، وجَمَعَ بيننا بعد الفرقة؛ بسبب التزامنا بتقوى الله، وإحساننا بالصَّبر على ما نالنا من أذى؛ إنَّه من يتَّقِ الله في جميع أموره، ويَصبِر على الضرَّاء، وعن المعاصي، فإنَّ الله لا يُذهب ثوابَ المُحسنين.

لقد امتُحن يوسف بإلقائه في الجبِّ، ثم بيعه كعبد رقيق ـ وهو الحرُّ الأصيل ـ وامتُحن عليه السلام بامرأة العزيز، ثم بالسجن، ولكن العاقبة دائماً للمُتَّقين الصابرين، فقد أخرج الله يوسف من الجبِّ، وعَصَمَه من مُراودة المرأة له، ثم أخرجه من السجن، ثمَّ جعله متصرِّفاً في أقْوات مصر. وكلُّ ذلك من بعض آثار الإحسان القائم على الصبر وتقوى الله تعالى.

٩١ ـ قال إخوة يوسُف معتذرين إليه عمَّا صَدَر منهم في حقِّه ومعترفين له بالفضل عليهم: تاللّه لقد اختارك الله وفضَّلك علينا بالعلم والعقل والملك والحكم، ولقد كنَّا في صُنعنا بك لمذنبين متعمِّدين الخطأ.

٩٢ ـ قال يُوسف عليه السلام: لا تعيير ولا لَوْمَ يقتضي إنزال عقابٍ عليكم اليوم، يَغْفِرُ الله لكم، وهو أرحمُ الراحمين.

٩٣ ـ ولمَّا سألهم عن أبيه أخبروه بذهاب بصره من كثرة البكاء عليه، فأعطاهم قميصه، وقال: اذهبوا بقميصي هذا، فاطرحوه على وَجْه أبي، يصبح بصيراً، ثم أحضروا إليَّ أهلكم أجمعين.

عادت آيات السورة للمرة الثالثة إلى قميص يوسف، وهو في هذه المرة لا يحمل دماً كذباً، ولا دليل براءته، وإنما حمل في هذه المرة الدواء والشفاء لعيني أبيه يعقوب اللتين ابْيضَّتا من الحزن على فراقه.

٩٤ ـ ولمَّا خرجت القافلة من أرض «مصر»، منفصلةً عن حدود المدينة، ومعهم القميص قاصدةً مكان يعقوب قُربَ بيتِ المقدس، قال يعقوب لأولاد أولاده ومَنْ حضره من ذوي قرابته: إنِّي لأشمُّ ريحَ يوسُف، لولا أن تُجَهِّلوني وتقولوا: شيخٌ كبير قد خرف وذهب عقله! لقلت لكم: إنَّ يوسف قادمٌ إليَّ.

٩٥ ـ قال أولاد أولاده الذين تربوا على الجَفاء وقلَّة الأدب مع جدّهم أخذاً من آبائهم: تاللّهِ إنَّك لا تزال في خَطَئِك القديم بتفضيل يوسُف على سائر أبنائك، والإفراط في حُبِّه وذكره، وعدمِ نسيانه، وتوقُّع لقائه.

فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي ۖ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ ۞ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾

٩٦ - فلمَّا أن جاء المُبشِّر بما يَسُرُّ يعقوب، ألقى قميصَ يوسُف على وجه يعقوب، فرجع بصيراً بعد أن صار كليلاً بسبب الماء الأبيض الذي نزل على عَيْنيه من أثر الحزن على فراق «يوسف» وأخيه «بنيامين»، وعادت إليه قوّته بعد الضعف، وسروره بعد الحُزن. عندئذ قال: ألم أقل لكم إنّي أعلم من الله ما لا تعلمون من حياة يوسف، وأنَّ الله يجمع بيننا؟

٩٧ - ولمَّا وصل أبناؤه العشرة الذين فعلوا ما فعلوا للتخلُّص من يوسُف، ودخلوا إليه قالوا معتذرين: يا أبانا اطلب لنا سَتْر ذنوبنا التي ارتكبناها فيما مضى من عمرنا، إنَّا كنا مذنبين عن عمد في صنيعنا بيوسُف وشقيقه.

وتدلُّ الآية على استحباب طلب الدعاء بالمغفرة من أهل الصلاح والتقوى.

٩٨ - فأجابهم يعقوب: سوف أسأل ربِّي أن يغفر لكم بعد أن يجمعني بيوسُف وأخيه «بَنيامين»، وأجد فيكم الاستقامة والصَّلاح والتخلُّص من داء الحسد، إنَّه هو الكثير السَّتر لذنوب عباده، الواسع الرحمة بجميع خلقه.

٩٩ - وخَرَجَ يعقوبُ وأهلُه من أرض كنعان إلى «مصر»، قاصدين يوسُف، فلمَّا دخلوا على يوسف وهو في قصره، أنزل أبويه عنده في قصره الخاص به، وضمَّهما إليه واعتنقهما وأحاطهما بعنايته، وقال لإخوته وأبنائهم وجميع أهلهم: ادخلوا «مصر» بمشيئة الله مُستوطنين فيها، حالة كونكم آمنين على أنفسكم وأموالكم لا تخافون أن تتعرَّضوا لسوء من أحد فيها.

١٠٠ - ورفع يوسُف أبويه على السَّرير الذي كان يجلس عليه، وحيَّاه أبواه وإخوته الأحد عشر بالسجود تحيَّة وتواضعاً له، وكان ذلك جائزاً في شريعتهم، وقد حُرِّم في شريعتنا. وقال يوسُف عندما رأى ذلك: يا أَبَت هذا السجود تصديقُ الرُّؤيا التي رأيتها في حال الصِّغَر، قد جعلها ربِّي حقّاً في اليقظة، وقد أنعم عليَّ حين أخرجني من السجن، وجاء بكم من البادية التي كنتم تقيمون فيها بأطراف بلاد الشام الجنوبية، إلى المراكز الحضريَّة في «مصر»، وهيَّأ لكم وسائل العيش الرَّغد من بعد الأحداث غير السَّارَّة التي كان سببها إفساد الشَّيطانُ ما بيننا بسبب الحسد، إنَّ ربي ذو لطف بعباده، يلطف بهم من حيث لا يشعرون، عالمٌ بدقائق الأمور وخفيَّاتها، إنَّه هو المحيطُ بكلِّ شيء علماً، الذي يضع الأشياء بموضعها، ويختار أفضل الأشياء لما يعطي أحسن النتائج.

١٠١ - ثمَّ دعا يوسُف ربَّه قائلاً: أحمدك ربِّ على ما قد آتيْتَني من ملك مصر، وأحمدك ربِّ على ما علَّمتني من تعبير الرؤيا، يا خالق السموات والأرض ومُبْدِعَهُما على غير مثالٍ سَبَق، أنت مُعيني ومُتولِّي أمري في الدنيا والآخرة، اقْبُضْني إليك عند انتهاء أجلي في الحياة الدنيا مؤمناً مُسلماً، وألحقني ربِّ بدرجةِ آبائي الصَّالحين الذين توفيتهم قبلي إبراهيم وإسحاق، واجعل منزلتي في الفردوس الأعلى مثل منازلهم.

١٠٢ - ذلك الذي ذكرنا لك - يا رسول الله - من قصَّة يوسف، وما جرى له مع إخوته هو بعض أنباء الغيب أَوْحَيْنَاهُ إليك؛ لنشهد لك به أنك رسول الله حقاً، وأن القرآن مُنزَّلٌ من عند ربّك. وما كنتَ - يا رسول الله - حاضراً عند أولاد يعقوب ولا مُشاهداً لهم حين اتفقوا مجتمعين على إلقاء يوسف عليه السلام في الجُبّ، ودبَّروا ما دبَّروا من الأمر، ولكنَّا أعلمناك به وحياً إليك.

١٠٣ - وما أكثرُ النَّاس - يا رسول الله - ولو جهدت كلَّ الجهد على إيمانهم وهدايتهم بمؤمنين، فلا تحمل همَّ إيمان الناس جميعاً؛ لأنهم متروكون لاختياراتهم الحرَّة، ولا سبيل إلى إكراههم.

وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾ وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾

١٠٤ - وما تَسْألهم - يا رسول الله - على تبليغ القرآن وتعليمهم ومجاهدتهم به، لهدايتهم ونجاتهم أجراً ما على ذلك، واعلموا أنَّ القرآن ليس هو ذكراً للعرب فقط، ما هو إلاَّ ذكرٌ لجميع العالمين جميعاً الموضوعين في الحياة الدنيا موضع الامتحان، فيه هدايتهم ونجاتهم، ويُطلب منهم أن يتدبَّروا معانيه، ويذكروا حقائقه وعلومه وأحكامه.

١٠٥ - وآياتٌ كثيراتٌ دالاَّتٌ على توحيده سبحانه وعظيم صفاته مُنبثَّات في السَّموات والأرض يمرُّون عليها، والحال أنهم معرضون، لا يتفكَّرون فيها، ولا يعتبرون بها؛ لانصرافهم إلى شهواتهم وأهوائهم. فليس إعراضهم عن هذه الآيات الظاهرة بأعجب من إعراضهم عنك يا رسول الله.

١٠٦ - وما يُصدِّق أكثرُهم بالله - حين تَقْرَعُهم الحُجَجُ، وتُلجئهم الآيات البيِّنات إلى الإقرار بوجود الإله، وبأنه خالق كلِّ شيء - إلا وهم مشركون بعبادته غيره، فلا تطمع باستجابة هؤلاء المعاندين الجاحدين لدعوتك، إذا سمعت منهم أقوالاً تُشعر بأنهم يؤمنون بالله، لأنَّ أكثرهم لا يؤمنون باللهِ إيماناً صحيحاً، بل إيمانهم مَشُوبٌ بشرك لا ينفكُّون عنه، وهم مُصِرُّون على التمسُّك به.

١٠٧ - أفحاصلٌ لديهم أمنٌ فهُم لا يخافون أن تأتيهم عقوبةٌ في الدنيا تغشاهُم وتُجلِّلهُم، فلا يستطيعون فراراً منها، أو تأتيهم الساعة التي يُنْهي اللهُ بها نظام الحياة الدنيا فَجْأة، وهم لا يدركون أدنى إدراكٍ علميٍّ بمقدِّماتها.

١٠٨ - قل - يا رسول الله - لمن تدعوهم للاستجابة لدعوتك: هٰذه طريقي التي أدعو إليها، وهي توحيد الله ودين الإسلام على علم جليٍّ واضح لا شبهة فيه، وحُجج برهانيَّة قاطعة، أنا ومَنْ آمن بي وصدَّق بما جئتُ به فنحن متمكِّنون من العلم الواضح الجليِّ الذي هو في القلب والفكر بمثابة البصر بالنسبة إلى المرئيَّات الحسيَّة، فلسنا مُجْبِرين ولا مُكرِهين أحداً على الإيمان، إنما نحن دعاة فقط، ولا ننصر الحقَّ الربَّانيَّ بالباطلِ والأكاذيب، وأُنزِّهُ الله تعالى عمَّا لا يليق به من جميع العيوب والنقائص.

وقل - يا رسول الله -: وما أنا ولا كلُّ من اتَّبعني اتِّباعاً صحيحاً من المشركين الذين أشركوا بالله غيره في ربوبيَّته أو إلٰهيَّته.

١٠٩ - وما أرسلنا رسلاً من قبلك - يا رسول الله - إلاَّ رجالاً مثلك، نُوحي إليهم من أهل الأمصار والمدن لا من أهل البوادي، فلمَّا كذَّبتهم أقوامهم نَصَر الله رسله والذين آمنوا بهم، وأنزل بأسه بالمكذِّبين المجرمين. أبقوا في بلدهم فَلَم يَمْشِ هؤلاء المشركون المُكذِّبون في الأرض، فينظروا كيف كان عاقبةُ مُكذِّبي رسل ربِّهم من قبلهم؟ فَلْيَعْتَبِر هؤلاء بهم، وما حَلَّ بهم من عذابنا، وأَنْجَيْنا أولياءَنا وأهلَ طاعتنا عند نزول العذاب بالأمم المُكذِّبة، وما في الدار الآخرة خيرٌ للذين اتَّقوا في الحياة الدنيا عقابَ الله وعذابه، فآمنوا وأَسْلَموا، واتَّبعوا ما أنزل الله إليهم. أليس لديكم عقل يجعلكم تَضْبطون نفوسكم عن اتِّباع الأهواء والشهوات، ناظرين إلى الآخرة وما فيها من النعيم المقيم في جنات النعيم، وما فيها من عذاب أليم في الجحيم.

١١٠ - وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً، فتراخى نصرهم، حتى إذا صار الرسل واجمين حَيَارى، كاليائسين من إيمان قومهم، وأمهل الله الكَفَرة المُكذِّبين إمهالاً طويلاً، وظنَّ بعض أتباعهم من ضعفاء الإيمان أنَّ الرسل قد كذَبوهم فيما أخبروهم به من نصر الله إيَّاهم، وإهلاك أعدائهم، جاء نصرُ الله النبيِّين والذين آمنوا بهم، فَنُجِّيَ من العذاب مَنْ نشاء من عبادنا المؤمنين، عند نزول العذاب بالكافرين، ولا يُرَدُّ عذابُنا عن القوم المُنْبعثين في الفجور والكفر.

١١١ - ونؤكِّد لكم أنه يوجد في خبر يُوسُف وإخوته موعظةٌ يتَّعِظُ بها أصحاب العقول الواعية المُدركة، إذ يقيسون أحداث المُستقبل على أحداث الماضي، ثقةً منهم بأنَّ سنَّة الله في عباده واحدة، ما كان هذا القرآن حديثاً يُخْتَلق، ولكن أنزله الله حالة كونه تصديقَ الذي سبقه من الكتب الإلهيَّة، وإنَّ في هذا القرآن المُنزَّل عليك - يا رسول الله - تَبْيين كلِّ شيء من قضايا العقائد الإيمانيَّة، وأمهات قضايا السلوك الإنساني التي هي مطلوب الله من عباده، في رحلة امتحانهم في الحياة الدنيا، وأنزلناه هدىً إلى كلِّ خير، ورحمةً لقومٍ يؤمنون؛ لأنَّهم هم الذين ينتفعون به، فيعملون بما فيه من الأوامر والنواهي.

سُورَةُ الرَّعْدِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ ۞ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٥﴾

سُورَةُ الرَّعْدِ

١ - ﴿الٓمٓر﴾ سبق الكلام على الحروف المُقطَّعة في أوَّل سورة البقرة.

تلك آيات السورة الكاملة العجيبة، وجميع ما أُنزل إليك - يا رسول الله - من ربِّك هو الحقُّ المُطابق لما ينبغي أن يكون عليه الناس من اعتقاد أو قول أو فعل، وما يناقضه فهو باطل، ولكنَّ أكثر الناس لا يُصدِّقون بهذا الحقِّ الذي أنزل إليك؛ ممَّا يستدعي إقامة الأدلة والبراهين إلزاماً لهم بالحجة، حتى لا يكون لهم عذر.

٢ - اللَّهُ الذي خلق السَّموات العظيمات المرفوعات بغير دعائم من تحتها، تراها العيون، لكنها جاذبيَّاتٌ هي بمثابة دعائم، ذات قدرات تُحدِّدُ مواقعَ السَّموات السَّبع وكلِّ شيءٍ فيها، فلا تتحرَّك إلا بنظام ربَّاني يمنعها من التَّصادم ما لم يقض الله بشيءٍ من ذلك، ثمَّ بعد أن رفع السموات، استوى على العرش استواءً يليق به، وذلَّلَ الشَّمسَ والقمر لمنافع خلقه، كلٌّ من الشمس والقمر يجري لمدَّة معلومة محدَّدة في علم الله تعالى، إنَّه سبحانه يُدَبِّر أمر العالم العُلْوي والسُّفلي، ويُصرِّفه بمشيئته وحكمته على أكمل الأحوال، يُبيِّن الآياتِ الدالأت على وحدانيَّته وكمال قدرته؛ رغبة أن تهتدوا فتؤمنوا بقدرته، وصدقِ وعدِهِ، فتُصَدِّقوا تصديقاً جازماً تامّاً مع طمأنينة القلب بلقائِهِ والمصيرِ إليه بعد الموت، لمحاسبتكم على أعمالكم، ومُجازاتكم عليها.

٣ - وهو سبحانه وحده الذي بَسَطَ الأرضَ بحكمته وإتقانه طولاً وعرضاً إلى ما لا يُدرك البصر منتهاه، ومدَّها بالخيرات والمعادن ومواد الخِصْب؛ لإمكان الاستقرار عليها، وجَعَلَ في الأرض جبالاً ثوابت راسخات تُمسكها عن الاضطراب، وأنهاراً جاريةً لمنافع الخلق، وهو وحده سبحانه الذي جعل في الأرضِ من كلِّ الثمرات صنفين من اثنين، كالذكر والأنثى في الأحياء، والموجب والسَّالب في الكهرباء، وهكذا إلى سائر الأزواج في الأشياء وفي النبات، والحيوان، وعالم الذرَّات، يجعل الله ضياءَ الشمس في النهار يُغطِّي الليل، فيستر سواده بضيائه، وكلَّما ذهب غطاء الضياء وجدت الظلمة في الأشياء، لأنها هي الأصل فيها، إنَّ فيما تقدَّم ذكرُه من عجائب صنعته، وغرائب قدرته الدالَّة على وحدانيَّته، دلالات لقوم يتفكَّرون تفكيراً عميقاً، ويتأمَّلون تأمُّلاً دقيقاً في تكوين الجبال والأنهار، وفي نظام الزوجيَّة، ونظام الليل والنهار، وخصائص النُّور والظلمة.

٤ - وفي الأرض بقاعٌ مُتَقاربات مُتلاصقات، مختلفة الطبائع والصِّفات، وفيها بساتين من أعناب، وفيها زرعٌ مختلف الأصناف والطعوم والخصائص، ونخلاتٌ يجْتمعن من أصلٍ واحدٍ، ونخلات منفردات بأصلها، تُسقى أشجار البساتين وزروعها بماءٍ واحد، ونُفَضِّل بعضها على بعض في الطَّعم والفائدة وكميَّة الغذاء؛ إنَّ في ذلك لعلاماتٍ لقومٍ يستعملون عقولهم التي وهبهم الله إيَّاها، في التأمُّل والبحث عن حقائق الأمور.

٥ - وإنْ تَعْجَب - يا رسول الله - من تكذيبهم إيَّاك بعد هذه الأدلة، فالعجبُ الأشدُّ هو: إنكارهم البعث بعد الموت، وقولهم: أإذا كنَّا تراباً بعد الموت إنَّا نُعاد خلقاً جديداً؟ أولئك البُعداء عن إدراك الحقِّ، المنكرون للبعث بعد الموت هم الكافرون بربِّهم، وأولئك الأغلال النفسيَّة الصَّارفة لهم عن الإيمان قد طوَّقت أعناقهم، فضيَّقت عليها، فحَجَبتهم عن الاعتراف بالحق، وأولئك أطواقُ الحديد تُجعل في أعناقهم يوم القيامة، لسحبهم إلى دَرَكات تعذيبهم، إذلالاً وإهانة لهم، جزاءً لما طوَّقوا به أنفسهم في الدنيا، وأولئك الكفرة المُكذِّبون أصحاب النَّار الملازمون لها، المخالطون لألوان عذابها، هم فيها دائمو البقاء، لا يخرجون منها ولا يموتون، كما أنهم صمَّموا في الدنيا على أن يظلُّوا أبداً جاحدين لله، كافرين بصفاته، منكرين لرسالاته.

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٦﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ ﴿١١﴾ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ ﴿١٣﴾

٦ ـ ويَسْتعجِلُكَ المُشركون بالنوازل والعقوبات السيِّئة، إذْ يطلبون التعجيلَ بها في الدنيا قبل أن يستكملوا نصيبهم من النِّعم الحسنة التي قدَّر الله منحهم إيَّاها لابتلائهم بها في الدنيا. ما لهم يستعجلون العقوبات، وقد مَضَت في الأمم المُكذِّبة العقوبات المُنَكِّلات الفاضحات، فجعلتهم مثالاً يرتدع به غيرهم؟ بسبب تكذيبهم رسلهم؟ لكن أمر الله غير مرتبط بنزواتهم، ولا بمظاهر طيشهم، وإنَّ ربَّك ـ يا رسول الله ـ لذو تَجاوزٍ عن المشركين مع ظلمهم أنفسهم، فيمهلهم ويترك لهم فرصة التأمُّل، رغبة أن يثوبوا إلى رشدهم، فمن آمن منهم قبل حلول أجله، عفا عنه وغفر له، وإنَّ ربَّك لشديدُ العقاب للمُصِرِّين على الشِّرك إذا ماتوا عليه.

٧ ـ ويقولُ الذين كفروا من أهل مكة: هَلاَّ أُنْزِلَ على محمد ﷺ معجزة من ربِّه تشبه معجزات موسى وعيسى؟ ما أنت ـ يا رسول الله ـ بالنسبة إلى هؤلاء المعاندين المصرِّين إلاَّ مُنْذِرٌ، ليس عليك إلا الإنذار والتخويف، بعد أن قدَّمت لهم مختلف وسائل الهداية، بالدعوة، وإقامة الحجج العقليَّة، والجدال بالتي هي أحسن، ووظيفتك كوظيفة سائر الرسل من قبلك، ولكلِّ أمَّةٍ نبيٌّ يُرشدهم إلى الله تعالى.

٨ ـ الله يعلمُ ما تحملُ كلُّ أنثى من البشر، ومن دوابِّ الأرض، ومن الطير والحشرات مِنْ ذكرٍ أو أنثى، سويِّ الخَلْق أو ناقص الخَلق، سعيد أو شقي، وغير ذلك، ويعلم سبحانه كل ما يحصل في أرحام الإناث من نقْص وزيادة، وما يتجدَّد من تطوُّراتها وتطوُّرات ما فيها من أجنَّة ومرافقاتها باستمرار، وكلُّ شيء تتعلَّق مشيئة الله بإيجاده فهو عنده مقدَّر بمقدار محدَّد يعلمه، لا يُجاوزه ولا ينقص منه.

٩ ـ إنَّه سبحانه يعلمُ ما غابَ عن خلقِه، ممَّا لا تصل إليه حواسهم وعقولهم، وما يُشاهدونه، العظيمُ المُسْتَحِقُّ لصفات الكمال، المُنزَّهُ عن صفات النَّقْص، المُتعالي على كلِّ شيءٍ في ذاته وصفاته وأفعاله.

١٠ ـ استوىٰ في علم الله تعالى مَنْ أخفى القولَ منكم ومَنْ أظهره، ومَنْ هو مُسْتَتِرٌ بأعماله في ظلمة الليل، ومَنْ هو ظاهرٌ في أعماله، وذاهبٌ في طريقه بوضح النهار، فإنَّه يستوي في علمه تعالى السرُّ والجهر، والخفيُّ والظاهر.

١١ ـ للإنسان ملائكةٌ يعقب بعضهم بعضاً بالليل والنهار؛ لحفظه وكلاءته، ولكتابة أقواله وأعماله، فإذا صَعِدَت ملائكةُ الليل عقبتها ملائكة النهار، يحفظون العبد من المخاطر الظاهرة والخفية من جميع الجهات، من بين يديه ومن وراء ظهره، وليس حفظهم له مبتدئاً من أمرهم، وإنما هو من الله وإذنه، ما لم يَجِيءْ القَدَر، فإذا جاء القدر خَلَوْا عنه، إنَّ الله لا يُغيِّر ما بقوم من حال إلى حالٍ أخرى مناقضة للأولى حتى يُغيِّروا ما بأنفسهم، فإن غيَّروا ما بأنفسهم من سيء إلى حسن، غيَّر الله أحوالهم مِنْ سيء إلى حسن، وإن غيَّروا ما بأنفسهم من حسن إلى قبيح غيَّرَ الله أحوالهم، وأحلَّ بهم نقمته، وإذا أراد الله أن يُنزل بقوم بلاءً فلا مفرَّ منه، وليس لهم من دون الله من وليٍّ ناصر يتولَّى أمرهم، ويمنع العذاب عنهم.

١٢ ـ اللَّهُ وحده الذي يُريكم ـ أيُّها الناس ـ البرقَ اللامع من خلال السَّحاب، فتخافون أن تنزل عليكم منه الصَّواعق المُحرقة، وتَطْمَعون بنزول المطر، ويُنشيءُ سبحانه بقدرته على سبيل التدرُّج في مراحل متتابعة من ذرَّات الأبخرة المتصاعدة في الجوِّ والمتجمِّعة شيئاً فشيئاً الغيمَ المُنْسَحِبَ في الهواء، المُحمَّل بالمطر لمنافعكم.

١٣ ـ ويُنَزِّه الرَّعدُ اللَّهَ عمَّا لا يليق بجلاله، تنزيهاً مقْترناً بحمده والثناء عليه، وتُسبِّح الملائكة من خيفة الله وهَيْبَته وخَشْيته، ويُرسلُ اللَّهُ الكتل الناريَّة المُلتهبة التي يرافقها صوت عنيف، تهبط من السحاب على الأرض، فيصيبُ بها مَنْ يشاءُ الله هلاكه، وعلى الرُّغم من كلِّ هذه الأدلة المُنْبِئَة في الكون، يُجادل الكفارُ في وجود الله ووحدانيَّته وعظيم صفاته، وقدرته على البعث، وحينما تضيق بهم الحجة يبيِّتون ألوان الكَيْد والمكر للرسول ولدعوته وللمسلمين، وهو سبحانه شديدُ القوة والتدبير في ردِّ كيدهم، والانتقام منهم، فيمدُّ الله لهم، ثم يوقعهم بشرِّ مكرهم وكيدهم.

لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ۩ ﴿١٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾

١٤ - للَّهِ تعالى الدعوة المُنتسبة إلى الحق، فهي صاعدةٌ إليه سبحانه يعلمها ويستجيب لمن دعا بها على مُقْتضى حكمته، والأصنامُ التي يدعونها من دونِ الله لا يُجيبونهم بشيءٍ يريدونه من جلب نفع أو دفع ضر، إنْ دَعَوْهُم، إلا استجابةً كاستجابة الماء الذي لا يعقل ولا يحس إنساناً شديد الظمأ، متلهِّفاً باسطاً كفَّيه إليه، يطلب منه أن يبلغ فاه؛ ليشرب منه، ولا يشعر ببسط كفَّيه ولا بعطشه، ولا بدعوته له لكونه جماداً، فكذلك حال الذين يرجون تحقيق مطالب حياتهم من هذه الأصنام، وهي جمادات لا تحسُّ بدعائهم، ولا تستطيع إجابتهم بشيء، ولا تجلب لهم نفعاً، ولا تدفع عنهم ضَرّاً، وما سؤال الكافرين أصنامَهم إلا في ضَياع وبُعدٍ عن الصَّواب؛ إذ تنتهي قصة حياتهم بالخيبة، ويثبتون على أنفسهم أنهم خسروا أنفسهم بحماقاتهم، كما فعل ذلك الأبله الظامىء إذ بسط كفيه إلى الماء داعياً ليبلغ فاه، دون أن يتخذ الوسائل الحقيقية التي تنفعه، وتحقِّق مطلبه.

١٥ - وللَّهِ وحدَهُ يخضعُ كلُّ مَنْ في السموات والأرض، من الملائكة والإنس والجن، فالجميع خاضعون لعظمته، منقادون لأحكامه إيجاداً وإعداماً، شاؤوا أو أبَوْا، يستوي في ذلك مؤمنهُم وكافرهُم، إلا أنَّ المؤمن خاضعٌ بذاته وبظاهره، والكافر خاضعٌ بذاته متمرِّد بظاهره، وتَنْقاد لأمره سبحانه، وتخضعُ لإرادته ظلال مَنْ له منهم ظِلٌّ، في الامتداد والتقلُّص، والفيء والزوال في أوَّل النهار من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، والعشي ما بين العصر وغروب الشمس.

١٦ - قُل - يا رسول الله - لهؤلاء المشركين: مَنْ مالك السَّموات والأرض ومُدبِّرهُما ومُمِدُّهما بنعمته وتربيته على الدوام؟ قل لهم: الله ربُّ السَّموات والأرض، وأنتم تقرُّون بذلك. قل لهم - يا رسول الله -: كيف تولَّيتم غير الله، واتَّخذتم الأصنام أرباباً ونُصراء، وهم لا يملكون لأنفسهم أن يجلبوا لها نفعاً، أو يدفعوا عنها ضراً، فكيف لغيرهم؟ قل لهم - يا رسول الله - : هل يستوي الكافر الذي لا يهتدي سبيلاً والمؤمنُ البصير؟ وقل لهم: هل تستوي ظلمات الشِّرك ونور الإيمان؟ بل أجَعَلوا لِله أرباباً اشتركوا مع الله في صفة الخلق والإبداع من العدم، فخلقوا خلقاً مثلَ خلقه، فتماثل خلق الشركاء بخلق الله عندهم؟ قل - يا رسول الله - لهؤلاء المشركين: اللَّهُ وحدَهُ هو المُنْفَرد بخلق سائر الأشياء، وهو الواحدُ في ذاته المنفرد بالخلق والربوبيَّة، الذي له القدرة الغالبة على كلِّ شيء، وليس لأحد مشاركة لله فيما يقضي به أو يأمر أو يخلق.

١٧ - أنزلَ الله من السحاب مطراً غزيراً، فسالت المياه في الأوْدية بمقدار سعتها لاستيعاب الماء، كلٌّ بحسبه، فالكبير بمقدار كبره، والصغير بمقدار صغره، فاحتمل بتكلُّف ومُغالبة الماء السائل في الأودية زَبَداً عالياً طافياً عليه، ينتفخ مظهره، وينفيه الماء عن جوهره، ويقْتلعه من مَجْراه، ويَقْذفه على شاطئيه. وَضَرب مَثَلاً آخر: من بعض ما يوقد الناس عليه في النار من المعادن وأشباهها حتى تنصهر، ابتغاء صُنع حِلْية يُتزيَّنُ بها من مَصَاغ الذهب والفضة، أو طلبَ صُنع ما ينتفع به على أيِّ وجهٍ من وجوه الانتفاع من المعادن، فيخرج منها عند صَهْرها خبثها ممَّا لا فائدة فيه مثلَ زَبَد الماء. بمثل هذا يَضْرب الله المثلَ للصراع بين الحقِّ والباطل؛ فأمَّا الباطل - وإنْ عَلاَ في وقتٍ - فإنَّه يَضْمَحلُّ ويذهب كغثاء السَّيْل، وزبد المعادن المنصهرة، فإنه يذهب مرمياً به مطروحاً، لا منفعة فيه ولا بقاء له، وأمَّا الماء الصافي والجَوْهر النقي الذي ينفع الناس، فَيَثْبُتُ ويَبْقى ولا يذهب. مثل ذلك الذي أورده الله في المثلَيْن السابقَيْن، يَضْربُ الله الأمثال للصراع الفكريّ بين أنصار الحق القائم على الجدال بالتي هي أحسن، وأنصار الباطل القائم على المغالطات وزخرف القول، وللصراع الحربيِّ القتاليِّ بين أنصار الحقِّ الملتزمين بسُنن الله السببيَّة، وأنصار الباطل في معركة مُسْتعرةٍ تمسُّ بلَذَعاتها وآلامها الفريقين المتقاتلَيْن، فأنصار الباطل كالشوائب المختلطة بالمعادن، وهم أهل خفة وطيْش، ليس بين أفرادهم تماسكٌ حقيقيّ، وأنصار الحقِّ كالمعدن الصافي ذي الوزن الثقيل، والنفع الكثير.

١٨ - للمؤمنين الذين أجابُوا دعوةَ ربِّهم المثوبة الحُسْنى، المعجَّلة في الدنيا، والمؤجَّلة إلى ما بعد الموت في البرزخ، وموقف العرض والحساب، والقسم الأخير الأكمل يكون في الجنَّة. والكفار الذين استمرُّوا على كفرهم، واستنكفوا عن أن يجيبوا دعوة ربِّهم إلى الإيمان وصالح العمل، المثوبة السيِّئة، ولو كانوا يملكون جميع ما في الأرض ومثله معه، لبذلوا ذلك كله فداءً لأنفسهم مما تستحقُّ من عذاب الله يوم القيامة، أولئك البعداء عن رحمة الله لهم الحساب السيء العسير بالمناقشة والتدقيق على كلِّ صغيرة وكبيرة، والمكانُ الذي يأوون إليه بعد المحاسبة جهنَّم، وبئس الفراش الذي مهَّدوه لأنفسهم في النار.

أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ اللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ الْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَالْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٤﴾ وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ اللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰٓئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ الدَّارِ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾

١٩ ـ أَفَمَنْ يعلمُ أنَّما أُنزِلَ إليك ـ يا رسول الله ـ من ربِّك الحقُّ، وهو المؤمن المستجيب لدعوة ربِّه الذي يعمل بمقتضى علمه، كَمَنْ هو أعمى البصيرة؟ وهو الكافر غير المستجيب لربِّه، الذي عطَّل ما وهبه الله من عقل!! ما يتذكَّر تذكُّراً مؤدِّياً إلى العظة الكاملة إلا أصحاب العقول الواعية المدركة، الذين يعرضون كل أمر على ما أودع الله في عقولهم من أصول ثابتة تعرف بها حقائق الأشياء، فيميِّزون بها بين الحقِّ والباطل، والخير والشر.

٢٠ ـ أصحاب العقول الكاملة لهم تسع صفات: **الأولى**: الذين يُوفُونَ بعهد الله الذي عاهدهم عليه، فيتمُّون فعل ما أوصاهم به من أوامر، وما نهاهم عنه من نواهٍ، **والصفة الثانية**: لا ينقضون أيَّ عهدٍ مُؤكَّدٍ يُعطونه لأحد، سواء أكان مع الله أو مع عباده.

٢١ ـ **والصفة الثالثة**: الذين لا يجدون منقطعاً أَمَرَ الله بأن يوصل إلا وصلوه، كَصِلَة الرَّحم، والإخوان في الله، وصلة كلِّ مسلم، وكلِّ ذي روح، **الصفة الرابعة**: يُعظِّمون ربَّهم ويحبُّونه ويرهبون جانب عدله، **والصفة الخامسة**: يخافون أن يُحاسَبوا يوم القيامة على ذنوبهم كلِّها حساباً عسيراً، فهم يخافون من الأعمال التي تؤدِّي بهم إلى سوء الحساب، فيبتعدون عنها ويجتنبونها.

٢٢ ـ **والصفة السادسة**: الذين صَبَروا على جميع المصائب والمأمورات، وتركوا جميع المنهيات؛ تعظيماً لله، وطلباً لمرضاته، **والصفة السابعة**: واظبوا على الصَّلاة بإتمام أركانها وسننها وآدابها، **والصفة الثامنة**: أدَّوْا زكاتهم المفروضة ونفقاتهم المُسْتَحبَّة في السِّرِّ والعَلَن، **والصفة التاسعة**: يدفعون بفعل الخَصْلة الحَسَنة أثر الخَصْلة السيِّئة، بالمبادرة إلى التوبة وفعل الطاعات إذا بَدَر منهم معصية، وبدفع السيئة التي يَخْشَوْنها من الناس بالحلم والعفو، وبدفع السيِّئة التي يخشونها من الشياطين ومن شرِّ كلِّ ذي شرٍّ بالالتجاء إلى الله والاتكال عليه، وبدفع المنكر الذي يشاهدونه بالنهي عنه بالحكمة والمَوْعظة الحسنة، أولئك الذين أَتَوا بهذه الأعمال الصَّالحة، وتحقَّقوا بهذه الأوصاف عاقبتُهم وجزاؤهم في الجنَّة دار الثواب.

٢٣، ٢٤ ـ تلك العاقبة: جنَّات استقرار وخلود، ذات أقسام ومراتب عالية، يَدْخلونها، ويدخلها معهم من صَدَّق من آبائهم وأمهاتهم وأزواجهم وذُرِّيَّاتهم بما صدّقوا به، وإن لم يعملوا بأعمالهم ليأنسوا بلقائهم، ويكملَ نعيمهم، والملائكةُ يدخلون عليهم من كلِّ بابٍ من أبواب الجنة. تقول الملائكة لهم: سَلَّمَكُمُ اللَّهُ من الآفاتِ التي كنتم تخافونها، وأَدْخَلكم بسبب صبركم الجنَّة، فَنِعمَ العاقبة: الجنة التي نلتموها، وفزتم بها.

٢٥ ـ وأما الأشقياء الذين عطَّلوا عقولهم عن التفكير، ولم تعقلهم عن الفساد والشر، فهم يَسْتَجْمعون ثلاثة أصول من خصال السُّوء: **الأول**: الذين يُخالفون أوامر الله، ولا يَفُون بعهده من بعد ما أَوْثقوه على أنفسهم، **والثاني**: يَقْطعون ما أمر اللَّهُ به أن يُوصَل من صِلَة الأرحام وغيرها، **والثالث**: يُفسدون في الأرض بالكفر ونشر الفسوق والفجور وأنواع الفواحش، والمجاهرة الوقحة بمعصية الله، والإضرار بالآخرين، والعدوان عليهم، أولئكَ المُسْتَجْمعُون لهذه الأصول الثلاثة القبيحة، لهم الطَّردُ من رحمة الله عزَّ وجلَّ، ولهم العاقبة السيئة، وهي: النَّار، دار العذاب التي ينقلبون إليها.

٢٦ ـ اللهُ يُوَسِّع الرِّزقَ لِمَنْ يشاءُ من عباده، فيُغنيه من فَضْلِه، ويُضَيِّق على مَنْ يشاء مِنْ عباده، فيُفْقِرُه ويُقتِّر عليه، وَفرِحَ مُشركو مكة بما بَسطَ اللَّهُ عليهم من رزق في الحياة الدنيا، وخدعتهم مفاتنها، وأخذوا يتسابقون في تحصيلها، وما الحياة الدنيا بالنسبة إلى الآخرة إلا متاعٌ قليل ذاهب زائل.

٢٧ ـ ويقول الذين كفروا من أهل مكة: هلاَّ أُنزل على محمدٍ معجزة محسوسة من ربِّه، مثل معجزة موسى في فَلْق البحر، ومعجزة عيسىٰ في إحياء الموتى. قُل لهم ـ يا رسول الله ـ: إنَّ الله يُسهِّل لعبده سلوك سُبل الضلالة ويمدُّ له فيها، وذلك بعد أن تتَّجه إرادته الحرَّة إلى سلوك سبل الضلالة، فلا ينفعه نزول الآيات وكثرة المعجزات، ويوفِّق إلى سلوك سبيل الهداية إلى دينه والإيمان به مَنْ أناب إليه سبحانه بقلبه، ورجع إليه بكُلِّيَّتِهِ.

٢٨ ـ يهدي إليه سبحانه الذين تَسْكن قلوبهم وتخشع، فلا يبقى فيها قَلَقٌ ولا اضطراب، ويَقْوى يقينهم بذكر الله، ويتفكَّرون ويتدبَّرون في صفات رحمة الله وعفوه وغفرانه، وما أَعدَّ للمؤمنين من أجر عظيم. تنبَّهوا وتحقَّقوا، بذكر الله تَسْكنُ قلوب المؤمنين، ويستقرُّ اليقين فيها، وتشعر بالراحة والسعادة، والرِّضا بقضاء الله وقدره.

ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾ كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَا۟يْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾

٢٩ - الذين آمنوا وعملوا الصَّالحات سيكون لهم يوم القيامة عَيْشٌ طيِّبٌ عظيم، وحُسْنُ رجوعٍ إلى الله، ومكان حَسَن، ويوم حَسَن، ينقلبون ويرجعون إليه في الآخرة، وهي الجنة.

٣٠ - مثل ذلك الإرسال الذي اضْطلع بمهامِّه الرسل السابقون، إذْ أرسلناهم قبلك إلى أُمم كثيرة قد مَضَتْ، أرسلناك - يا رسول الله - إلى هذه الأمَّة؛ لِتُتابع لهم تبليغ الذي أوْحَيْنا إليك من القرآن وشرائع الدين، والحال أنهم يكفرونَ بالرَّحمن، متجاهلين صفة رحمته الغامرة لهم بالنِّعم التي لا تُحصى. قل لهم - يا رسول الله - : إنَّ الرحمن الذي أنكرتم معرفته هو وحده خالقي الذي يمدُّني بالتربية الدائمة، لا معبودَ بحقٍّ سواه، عليه وحده اعتمدتُ في أموري كلِّها، وإليه - وحده - توبتي ورجوعي في كلِّ أمر من أموري، فهو الذي يُحاسبني ويجازيني، لذلك فلا أنظر إلى رضا غيره، ولا أبتغي بعملي سواه.

٣١ - وتمادى كفار قريش في ضلالهم، وغَلَوْا في كفرهم حتى اقْترحوا على الرسول ﷺ أن يُسيِّر لهم جبال مكة ليتفسَّحوا في أرضها، ويفجِّر لهم الأنهار والعيون ليزرعوها، ويتَّخذوا فيها البساتين، ويُحيي لهم الموتى ليخبروهم بصدقه، والله قادرٌ على الإتيان بما اقترحوا من الآيات، ولكنّ إرادته لم تتعلَّق بذلك، لعلمه بعتوِّهم ونفورهم من الحق، فردَّ على طلبهم: ولو أنَّ قرآناً سُيِّرتْ به الجبالُ، فأُزيلت عن أماكنها، أو شُقِّقت به الأرض، فجُعلت أنهاراً وعُيوناً، أو خُوطب به الموتى فأحياها الله به، لما آمنوا بالقرآن، ولما تغيَّر من حال هؤلاء المشركين شيء، لأنهم مكابرون معاندون، بل لِلَّهِ الأمر جميعاً في هذه المعجزات وفي غيرها، يقضي بحكمته ما يشاء، أفلم يَيْأس الذين آمنوا من أمر هداية الناس جميعاً، إذْ لو يشاءُ اللَّهُ لهدى النَّاسَ جميعاً، فجعلهم مُجْبرين على سلوك سبيل الهداية، وسَلَبهم إراداتهم الحُرَّة، ولكن هذا ينافي حكمة الابتلاء، بعد أن تمَّت مشيئة الله تعالى أن يهبهم الإرادات الحُرَّة التي يختارون بها ما يشاؤون من خيرٍ أو شر؛ لِيَبْلُوَهُم أَيُّهم أحسَنُ عملاً. ولا يزالُ الذين كفروا تُصيبُهم بما صنعوا من الكفر والأعمال الخبيثة بليةٌ وداهيةٌ شديده تَقْرعهم، أوتنزل تلك المصيبة قريباً من دارهم، مُنْذرة لهم بقُرب حلول عقاب الله فيهم، حتىٰ يحين وقت إنجاز وعد الله بنصر المؤمنين وخذل الكافرين وعقابهم، إنَّ الله لا يترك ولا يهمل تنجيز ما وعد به إذا حان الوقت المحدَّد الذي قرَّر حصول موعده فيه.

٣٢ - وإذا أحزنك - يا رسول الله - استهزاءُ الكافرين بك، فقد جاء مِنْ قبلك رُسلٌ كثيرون، قد استهزأ بهم الكافرون من أقوامهم، فأمْهلْتُ الذين كفروا، ولم أعجِّل لهم العقاب، وبعد زمن مُتَراخٍ أخذتهم بالإهلاك العام والتدمير الشامل، لقمع بُؤْرَة الشرِّ التي لم تُجْدِ فيها كل وسائل الإصلاح، وليكون هذا العقاب عبرةً لغيرهم؛ كي يرتدعوا عن كفرهم وطغيانهم وتماديهم في الفساد، فكيف رأيت ما كان من عقابي لهم؟ ألم يكن عقاباً شديداً؟!

٣٣ - أَفَمَنْ هو رقيبٌ على كلِّ نفسٍ، حفيظ عليها، عالمٌ بما عملت، ويُجازيها بما كَسَبت من خيرٍ أو شرٍ كَمَنْ ليس كذلك؟ بل هو عاجزٌ عن نفسه، ومَنْ كان عاجزاً عن نفسه، فهو عن غيره أعجز، وجَعَل المشركون للَّهِ القائم علىٰ كلِّ نفس بالمراقبة والعلم والقهر والغَلَبة، شركاء من خلقه يعبدونهم. قل لهم - يا رسول الله -: صِفُوهم بما يستحقُّون، وقدِّموا الأدلة الدالّة على كونهم آلهة، ثمَّ انظروا: هل هي أهلٌ لأنْ تُعْبَدَ، أم أنتم تُخبرون الله بما لا يعلم أنَّ لنفسه شريكاً من خلقه في أرضه، أم تُخبرون الله بظاهرٍ من القول مسموع لا حقيقة له في قلوبكم، وأنتم لا تؤمنون بذلك وإنما تكذبون؟ بل حَسَّن الشيطان للكفار تدبيرهم الخفيَّ السيء في نفوسهم المنحرفة، وصُرفوا عن سبيل الرُّشد والهداية، ومن يُثبت الله ضلاله بحكمه العادل فما لَهُ من هادٍ يُثبت له الهداية، ومَنْ حكم الله عليه بالضلالة، فلا واقي له من عقاب الله.

٣٤ - لهؤلاء الكفار عذابٌ في الحياة الدنيا بالقتل والأسْر والخذلان والآلام الجسديَّة والنفسيَّة والروحيَّة، ولَعَذَابُ الحياة الآخرةِ أشدُّ إيلاماً من عذاب الدنيا في كميَّته وكيفيَّته، وأقوى وأكثر أنواعاً ودواماً، وما لهم من عذابِ الله من مانعٍ يمنعهم ويدفع عنهم الأذى والضر.

مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوا ۖ وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ ۚ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ ﴿٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَمَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿٣٩﴾ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤١﴾ وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٤٢﴾

٣٥ - صِفَةُ الجنَّة التي وُعِدَ بها المتَّقون، تَجْري من تحت قصورها وأشجارها الأنهار، ثمرُ أشجارها دائمٌ لا ينقطع أبداً، وظِلُّها دائم لا يزول أبداً، تلك الجنة الرفيعة المقام هي عاقبةُ الذين اتَّقوا ربَّهم، وعاقبة الكافرين بربِّهم وجزاؤهم: النَّارُ في الآخرة.

٣٦ - والذين أعطيناهُمُ التَّوراة والإنجيل ممَّن أسلم من اليهود والنصارى، يفرحون بالقرآن المُنزَّل إليك؛ لأنهم قد جمعوا بين الحُسْنَيَيْن، فانتقلوا من الدين المنسوخ إلى الدين الناسخ، ومن كلِّ حزبٍ من أحزاب اليهود والنصارى مَنْ ينكر بعض ما أُنزل إليك، لما فيه من كشف تحريفاتهم في دينهم، وبيان فساد عقائدهم، لذلك فهم يُساومون الرسول على دينه، ليحذف من القرآن الآيات التي تكشف باطلهم، وتهاجم معتقداتهم المُحرَّفة. قل لهم - يا رسول الله - : ليست مهمَّتي استرضاءكم، ما أمرت مِنْ قِبَل ربِّي وربِّكم إلاَّ بأنْ أعبدَ اللَّهَ وحدَهُ، ولا أُشرك به شيئاً، لذلك فأنا إليه وحده أدعو لا إلى غيره، كما أمرني، دون أن أكتم منه شيئاً، أو أحرِّف فيه وأبدِّل، وإليه وحده مرجعي في كلِّ أمر من أموري، كما أنَّ إليه مرجعي يوم القيامة.

٣٧ - ومثل ذلك الكتاب الشَّاملِ للكتب المنزَّلة على بني إسرائيل بلسانهم، أنزلنا القرآن قولاً فصلاً مُبيِّناً للحقِّ عربياً، وأقسم لئن اتَّبعت أهواء أهل الكتاب، فقبلت مساوماتهم على دينك، بالإقرار بواقعهم وعدم اعتبارهم كافرين، أو بحذف ما في القرآن من مهاجمة لعقائدهم، من بعد ما جاءك العلم الربّاني والحكم الإلهي، مَالَكَ من الله من وليٍّ يتولاَّك وينصرك، ولا واقٍ يقيك من عذابه.

٣٨ - ونؤكِّد لك أننا لقد أرسلنا رُسُلاً من قبلك - يا رسول الله - من البشر، وجعلنا لهم أزواجاً وذُرِّيَّة، فليس أمرك بدعاً في الرسلِ، وما كان لرسول أن يأتيَ بمعجزةٍ ماديَّةٍ إلا بمشيئةِ الله سبحانه، لكلِّ وقتٍ محدَّد من أوقات المستقبل قضاه الله وقدَّره، كتابٌ مُسَجَّل فيه ما تمَّ به القضاء والقدر، ولكلِّ مُدَّةٍ حدَّدها الله عزَّ وجلَّ لانتهاء أيِّ شيء، أو بَدْء أيِّ شيء، كتابٌ مُسجَّل فيه مرادُ الله، ووقتٌ يقع فيه، لا يتقدَّم ولا يتأخَّر، فتأخُّر نزول العذاب بهم إنما هو لعدم حلول وقته المقدَّر له، فلماذا يستعجل المشركون نزول العذاب عليهم؟

٣٩ - يمحو اللَّهُ ما يشاء مَحْوَه، ويُثْبِتُ ما يَشَاءُ إثباتَهُ، في صُحُف الملائكة من الرزق والأجل والسعادة والشقاء، حسبما تَقْتَضيه المشيئة والحكمة الإلهية، وعنده أصلُ الكتاب، وهو اللوحُ المحفوظ الذي لا يتعرَّض للمحو والتغيير، لأنه قد كُتب فيه علمُ الله.

٤٠ - وإمَّا نُرينَّك - يا رسول الله - بعضَ الذي نَعِدُ المشركين في الدنيا من العذاب المُعَجَّل، أو نوفيك أجلك في الحياة الدنيا، وترحل إلى ربِّك قبل أن نُريَك ذلك، فليس عليك إلا تبليغ الرسالة، ولستَ مسؤولاً عن هدايتهم ولا عن محاسبتهم، وعلينا حسابهم يوم القيامة، فنُجازيهم بأعمالهم.

٤١ - أعطَّلوا عقولهم ولم يَرَوْا رؤيةً فكرية تُشبه الرؤية العلمية، أنَّا نأتي الأرضَ، التي تقع تحت سلطان المشركين، فننقص من أشرافهم ورجالهم بالقتلِ أو بالأسر، ونقلِّص من نفوذ المشركين على نواحٍ من الأرض، ونبسط نفوذ المسلمين عليها أرضاً بعد أرض، واللَّهُ يقضي ويفصل في كلِّ أمر بالحقِّ، لا رادَّ لحكمه، ولا ناقضَ لقضائِهِ، لأنَّ أحكامه حق، وقضاءه عدلٌ، فهي مُسْتَنِدة إلى علمه المحيط بكلِّ شيء، وهو سبحانه سريع الحساب لا يحتاج في إصدار أحكامه إلى أناةٍ ورويَّة، حتى يُحصي أجزاء ما يحكم به، لا يخفى عليه من أعمال عباده شيء.

٤٢ - قد دبَّر الذين من قبل مُشركي مكة من الأُمم الماضية التدبير السيء لرسلهم، كما فعل هؤلاء معك، والله سبحانه مطَّلع على تدبير الكافرين، لا تخفى عليه من أفعالهم ومخطَّطاتهم خافية، وقد دبَّر لهم من الأمر ما ليس في حُسبانهم، فهو سبحانه يفسد خططهم، ولا يحقِّق لهم أغراضهم، فالتدبير الخفيُّ كلُّه لله عزَّ وجل، لأنَّ تدبير الكافرين السيء ليس هو في الحقيقة وواقع الأمر مكراً، لأنه معلوم لله، يعرِّضهم إلى عقابه، فلم يبق إلا مكره سبحانه بالحقِّ والعدل والخير، يعلم جميع ما تكسب كل نفس سواء أكان كسباً ظاهراً أو باطناً، وسيعلم الكفار لِمَنْ تكون العاقبة الحميدة في الدار الآخرة، حين يدخل المؤمنون الجنَّة؟ ولهم العاقبةُ الذميمة حين يدخلون النار.

وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴿٤٣﴾

سُورَةُ إِبْرَاهِيمَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿١﴾ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿٣﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾

٤٣ - ويقولُ الذين كفروا: لَسْتَ مُرسلاً من عند الله. قل - يا رسول الله - لهؤلاء الكفار الذين أنكروا نبوّتك، لأنك لم تأتهم بالمعجزات التي طلبوها، ولم تستعجل من ربِّك العقاب لهم: حَسْبي شهادتان: **الشهادة الأولى:** أن يشهد الله على نبوّتي بما أظهر على يدي من المعجزات الباهرات غير التي تَعَنَّتُم بطلبها، وفي مقدمتها معجزة القرآن، **والشهادة الثانية:** أن يشهد لي مَنْ عنده علمٌ بالكتاب من المؤمنين الذين ظهر لهم من إعجاز القرآن ما دلّهم على أنه كلام الله حقّاً، فعرفوا من ذلك أنّي رسول الله حقّاً، أو المؤمنون من أهل الكتاب الذين عرفوا من صفاتي في كتبهم ما أثبت لهم أنّي رسولُ الله حقّاً.

سُورَةُ إِبْرَاهِيمَ

١، ٢ - ﴿الٓر﴾ سَبَق الكلامُ على الحروف المُقَطَّعة في أوّل سورة البقرة.

هذا كتابٌ أنزلناه إليك - يا رسول الله - لِتُخرجَ النَّاس بهذا القرآن، من ظلماتِ الكفر والضلالة والجهل بمفاهيم الإسلام وشرائعه وأحكامه إلى نور الإيمان والهداية والعلم بمفاهيم الإسلام وشرائعه وأحكامه، عن طريق إراداتهم الحُرَّة، بوسائل دعوتهم إلى الحقّ وتعليمهم وتربيتهم، بتمكين ربِّهم في اتِّخاذ الأسباب وتحقّق مُسبَّباتها بلا جَبْر ولا إكراهٍ للإرادات، ولا منع للأسباب من أن تجري ضمن أنظمتها حتى يتمَّ بها تحقيقُ مُسبَّباتها، وهذا النور هو طريقُ الله القوي الغالب الذي لا يغلبه غالب، المحمودِ على عظيم صفاته، وجليل نعمه، المُسْتحقّ لجميع المحامد، كثير الحمد لأهل طاعته والتقرُّب إليه، اللّهِ الذي له كلُّ ما في السموات وما في الأرض، خَلْقاً ومُلكاً وتصرُّفاً، وهلاكٌ للكافرين من عذابٍ شديدٍ مُعَدٍّ لهم في الآخرة.

٣ - هؤلاء الكفار المُنْذَرون بعذاب شديد، لهم ثلاث صفات: **الأولى:** أنهم يختارون الحياةَ الدنيا الفانية، ويُؤْثرون لذائذها على الآخرة ونعيمها، **والصفة الثانية:** أنهم يمنعون من يستجيب لهم عن قَبول دين الله، ويصرفونه عن الاقتراب منه بدعاياتهم ووسائلهم التضليليَّة، **والصفة الثالثة:** أنهم يطلبون لملّة الإسلام وأتباعها زَيْغاً وميْلاً عن الاستقامة، بالتحريش والإغراء بينهم؛ لتختلف كلمتهم، ويختلَّ أمر دينهم، أولئك البُعداء عن رحمة الله في ذهابٍ وضياعٍ بعيدٍ عن الحق.

٤ - وما أرسلنا في تاريخ البشريَّة من رسول قبلك - يا رسول الله - إلا بِلُغة قومه؛ ليفهموا عنه ما يدعوهم إليه، وليس من مهمته أن يجبرهم على الإيمان، فالله يحكم بالضلالة لمَنْ يشاء بمشيئته الحكيمة، ويحكم بالهداية لمن يشاء بمشيئته الحكيمة، نتيجة امتحان إراداتهم الحرّة، وليس على الرسول إلا البلاغ والتبيين، واللّهُ هو القويُّ الغالبُ الذي لا يُغلَب، الحكيم في جميع أفعاله.

٥ - ونؤكّد لكم - أيها المتلقُّون لبياننا - أننا بحكمنا وسلطان ربوبيّتنا أرسلنا موسى مؤيّداً بالمعجزات العظيمة الباهرة الدالّة على صدقه، وأمرناه أن أَخْرج قومَك بالدعوة إلى الله من ظلمات الكفر والجهل بعناصر القاعدة الإيمانية، ومفاهيم الدين وشرائعه وأحكامه إلى نور الإيمان والعلم بعناصر القاعدة الإيمانية، ومفاهيم الدين وشرائعه وأحكامه ومنهاجه، بوسائل دعوتهم إلى الحقّ وتعليمهم وتربيتهم، وذكِّرهم بالأحداث والوقائع المشتملة على النِّعم التي سَبَق أن أكرم الله بها بني إسرائيل في عهد يوسف عليه السلام، والأيام العظمى التي أهلك الله بها الجبابرة والكفرة المجرمين، وأنجى فيها رُسُلَه وَمَنْ معهم من المؤمنين، ومن هذه الأيام: فَلْقُ البحر لموسى ومعه بنو إسرائيل، وإغراق فرعون ومَنْ معه، إنَّ في أيام الله العظمى السابقة لآياتٍ دالاّتٍ على أنَّ الله عزَّ وجلّ يُمْهِل المجرمين، ثم ينتقم منهم، ويأخذهم أخذَ عزيز مُقْتَدر، وأنه يُجازي أولياءَه المؤمنين بالعزِّ والنصر والتمكين في الأرض، ويُمِدُّهم بخيراتٍ كثيرات ونعم جليلات، ينتفع من دلالات هذه الآيات الهاديات كلُّ كثير الصبر على طاعة الله سبحانه، كثير الشكر بالعمل الصالح لأنْعُم الله تعالىٰ عليه.

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾

٦ - وضع في ذاكرتك - أيها المُتلقِّي لآياتنا - حين امْتَثَل موسى أمرَ اللّه عزَّ وجل، فقال لقومه بني إسرائيل يُذكِّرهم نعم الله عليهم: اذكروا نعمةَ الله العظيمة عليكم في ذلك الوقت الذي أنجاكم فيه من ظلم أتباع فرعون لكم، بإخراجكم من مصر، وفلْق البحر لكم حتى عبرتم على اليابسة، وقد كان آل فرعون في مصر يُحمِّلونكم ويُكلِّفونكم أشدَّ العذاب، ويُذَبِّحون أبناءكم الذكور، حتى لا يأتي منهم مَنْ يستولي على مُلك فرعون، ويتركون مواليدكم من البنات اللواتي سيكون مصيرهنَّ أن يكُنَّ نساءً، أحياءً ذليلات كالإماء؛ ليستخدموهنَّ، وفي ذلكم الذي جرى لكم في مصر امتحانٌ لكم عظيمٌ من ربِّكم، الذي كافأكم على الصَّبْر عليه، بأن أنجاكم بخارقةٍ عظيمةٍ، وبأنْ فضَّلكم على أهلِ زمانكم.

٧ - وقال لهم موسى عليه السلام: واذكروا حين أعلمكم ربُّكم إعلاماً بليغاً، فقال: أقسم لكم: لَئِنْ شكرتم - يا بني إسرائيل - ما أعطيناكم من نِعَم بالإيمان والعمل الصالح، لأزيدنَّكم نعمةً إلى نعمةٍ، ولأضاعفنَّ لكم ما آتيتكم، وأُقسم لكم: لَئِنْ جَحَدتم نعمتي ووحدانيتي في رُبوبيَّتي وإلهيَّتي، لأُعذبنَّكم ضمن أحكام العدل التي قَضَيْتُها في مُجازاتي لعبادي، إنَّ عذابي - لمن كفر نعمتي ولم يشكرها - لشديدٌ.

٨ - وقال موسى لقومه: إنْ تكفروا - يا بني إسرائيل - أنتم، والنَّاسُ كلُّهم جميعاً، فإنَّ ضَرَرَ ذلك يعود على أنفسكم بحرمانها الخير كله؛ فإنَّ الله لغنيٌّ بذاته وصفاته عن جميع خلقه، كثير الحمد لأهلِ طاعته والتقرُّب إليه، محمودٌ في ذاته وصفاته وجميع أفعاله، مُسْتحقٌّ للحمد والثناء.

٩ - أَلَمْ يأْتكم - أيها الكفار - نبأُ إهلاك الكافرين الَّذين من قبلكم من القرون الماضية والأمم الخالية؛ قوم نوح، وعادٍ قوم هود، وثمود قوم صالح، والذين من بعد هؤلاء الأمم الثلاثة، لا يعلم حقيقةَ مقاديرهم وعددهم إلا الله، جاءتهم رسلهم المرسلون إليهم من ربِّهم مُؤيَّدين بالآيات البيِّنات الواضحات من خوارق العادات، ومن قضايا العقيدة وبراهينها، وقضايا العبادة والأخلاق وحقوق الناس، وضوابط التعامل فيما بينهم، فلم يستجيبوا لرسل ربِّهم، بل أسكتوهم رادِّين أيديهم التي يشيرون بها عند الحديث، وجاعلينها في أفواههم، إسكاتاً لهم، ورفضاً لاستماع دعوة رسل ربِّهم، وقالوا مؤكِّدين لرسلهم: إنا كفرنا بما زعمتم أنَّ الله أرسلكم به، وإنَّا لفي شَكٍّ ممَّا تَدعُونَنا إليه من الإيمان والتوحيد، مُوقِع في اتِّهامكم بالكذب والافتراء على الله.

١٠ - قالت رُسلهم مجيبين أقوامهم حول القضية الأولى من قضايا دعوتهم: أفي وجود الربِّ الخالق البارىء شكٌّ عند ذي فكر يُشاهد في نفسه وفي الكون من حوله آثار صفاته العظيمة الجليلة؟ وهو مُخْرج السموات والأرض من باطن العدم إلى الوجود، يدعوكم إلى الإيمان بالحقِّ وإلى الإسلام له، وإلى سائر قضايا الدين الذي اصْطفاه الله لعباده؛ ليغفرَ لكم من ذنوبكم الماضية ما يتعلق بحقوقه عليكم، فإذا غفرها لكم حَكَمَ لكم بالهداية، فصرتم من مُستحقِّي دخولِ جنَّته يوم الدين، أما الذنوب التي تتعلّق بحقوق غير الله عليكم، فيُطبِّق عليكم فيها قانون العدل الربَّاني، وهو القِصَاصُ أو مسامحة أصحاب الحقوق، وبسبب إيمانكم وإسلامكم، يرفع عنكم ما تستحقُّون من تعذيبٍ وإهلاكٍ مُسْتأصل، ويُؤخِّركم إلى حينِ انقضاء آجالكم، التي قدَّرها لكم في الحياة الدنيا، وينذركم بعقابه يوم الدين، وبهلاكٍ مُعجَّل عام، إذا أَصْرَرْتُم على كفركم، فإذا نزل بكم هذا الهلاك العام المُعجَّل في ظروف الحياة الدنيا، لم يُؤخِّركم ربكم إلى أجلكم المقدَّر لكم في خطة الخَلْق.

قالت الأمم مُجيبين للرسل: ما أنتم إلا بشرٌ مثلنا، وليس لكم امتياز تكوينيٌّ يُؤَهِّلكم للاتِّصال بالله، وتلقِّي الوحي عنه، تُريدون بقولكم هذا صَدَّنا عن آلهتنا التي كان آباؤنا يعبدونها، وأن نتَّبعكم؛ لتحتلوا فينا مركز الزعامة والرياسة والقيادة، وإن كنتم رسلاً حقاً مبعوثين من عند الله، فأْتُوا بحُجَّةٍ ظاهرة وآية خارقة على صحَّة دعواكم، تتسلَّط بقوَّتها على نفوسنا، وتجذبها إلى اليقين.

قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾ مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿١٨﴾

١١ - قالت الرسل للكفّار الذين قالوا لهم: ما أنتم إلا بشرٌ مثلنا؛ إنَّ الأمر كما قلتم وَوَصَفْتُم، فنحن بشرٌ مثلكم لا ننكر ذلك، ولكنَّ الله يُنْعم النِّعم العظيمة بالتفضيل بالنبوّة والرسالة على مَنْ يشاء من عباده، ومشيئتُه سبحانه لا تفارق حكمتَهُ، فَيَصْطفي مَنْ يشاء من عباده لهذا المنصب العظيم الشريف، ولا يستطيع أحد أن يفرض على الربِّ الخالق أن يُسوِّي بين خلقه في نعمه وعطاياه. وليس لنا - مع ما خصَّنا الله به من النبوّة، وشرَّفنا به من الرسالة - أنْ نأتيكم بآيةٍ وبرهان ومعجزةٍ تدلُّ على صدقنا إلا بإذن الله لنا في ذلك، وعلى الله وحده فَلْيتوكَّل المؤمنون في دفع شرور أعدائهم عنهم مع القيام بالأسباب المُسْتطاعة الماديَّة والمعنويَّة، طاعةً لأمره ونهْيِه.

١٢ - وأيُّ شيء يكون لنا من عقلٍ وفهم وبصيرةٍ في أن لا نتوكَّل على الله، والحال أنه قد عرَّفنا طريقَ النَّجاة من ظلم الكافرين، وبيَّن لنا طُرق تحقيق هذه النَّجاة؟ ووالله لَنَصبِرَنَّ على ما آذيْتُمُونا من قولٍ أو فعل، ولا نُقابلكم بمثله، ولو ملكنا القوّة على مُعاقبتكم بالعدل؛ لأنَّ حِرصنا على إيمانكم ونجاتكم من الخلود في عذاب النار، أشدُّ من رَغَبات نفوسنا بالتشفِّي منكم؛ إذْ كان إيذاؤكم لنا عدواناً بغير حقٍّ، وعلى الله وحده فَلْيَثْبُت المتوكِّلون على توكُّلهم؛ ليصرف عنهم أذى أعدائهم، وينجيهم من مكرهم ومكايدهم.

١٣ - وقال الذين كفروا لرسلهم بعدما انهزموا أمام مناظراتهم وبياناتهم هزائم فكريَّة منكرة، فلجؤوا إلى قرار استعمال القوة، للتخيير بين ترك الدين الجديد، والعودة إلى ملّة قومهم، وبين النفي والإبعاد من البلاد: لَنُخرجنَّكم والذين آمنوا معكم من بلادنا وأرضنا، أو لتعودُنَّ عن دينكم الجديد الذي آمنتم به، ولتدخلنَّ في مِلَّتنا، فأوْحى الله تعالى إلى رسله مُقسماً مؤكِّداً: لَنُهْلِكَنَّ الظالمين الجَاحدين الذين كفروا بالله ورسله.

١٤ - وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأرضَ من بعد هلاكهم مستقرّين آمنين، ذلك الذي وعدنا به الرُسل من إهلاك الظالمين من أقوامهم، وإسكانهم الأرض من بعدهم، ومعهم الذين آمنوا بهم واتَّبعوهم، هو سُنَّةٌ من سُنني، لِمَنْ خافَ قيامي عليه ومراقبتي له، ومقامه بين يديَّ يوم القيامة، وخافَ إنذاري بالعقاب على الكفر والعصيان.

١٥ - وسأل الرُسلُ ربَّهم أن ينصرهم على أعدائهم لمَّا أَيِسُوا من إيمان قومهم، ودعوا عليهم بالعذاب، فاستجاب الله دعاء رسله، فنصرهم والذين آمنوا معهم، وأنزل بالذين كفروا من أقوامهم الهلاكَ، وخَسِرَ كلُّ مُتعاظِمٍ في نفسه، مُتسلِّط بقوّته، شديد الإصرار على رأيه واعتقاده، وإن ظهر له بطلانه.

١٦ - سوف يكون مصير هذا الكافر يوم القيامة جهنَّم، وهي غيبٌ بالنسبة لهم، ويُسقى في جهنَّم القَيْح الذي يَسيلُ من أجساد أهل النار.

١٧ - يتحسَّاه ويتكلَّف بلعَه جَرعَةً بعد جَرعَةٍ؛ لمرارته وحرارته وكراهته ونتْنِهِ، ولا يَقْدرُ على ابتلاعه، ويجدُ الكافر ألَمَ الموت وشدَّتَه من كلِّ نوع، ومن كلِّ عضو من جسده، وما هو بميِّت فيستريح، ويأتيه بعد هذا العذاب في مستقبل بقائه في جهنم، عذابٌ آخر شديد مؤلم.

١٨ - صفةُ أعمال الذين كفروا بربِّهم في مقاومة رسل الله، ومحاربة دينه، تُجاه نصر الله لرسله وأوليائه إذا شاء، كرمادٍ مجتمع لا تماسك بين ذَرَّاته، وهو خفيف لا وزن له، فاشتدَّت به الريح العاتية في يوم شديد الهبوب، فنسفته وبدَّدته تبديداً، ولم تُبْقِ منه شيئاً، فهل يقْدِرُ صاحبُ الرماد أن يجمع ذرَّات رمادِهِ بعد أن بدَّدته أيدي الرِّياح العاتيات؟!! وكذلك أعمال الكفار التي أعدُّوها لمحاربة رُسُل الله ودينه، أمام سلطان نصر الله، تَبْطُل وتذهب حتى لا يبقى منها شيء، لا يقْدرون ممَّا كسبوا في الدنيا على شيءٍ من تلك الأعمال، ذلك السَّعيُ والعمل لمحاربة دين الله هو الخُسْران البعيد.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ
يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ
﴿٢٠﴾ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟
إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ
مِن شَىْءٍ ۚ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ
أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ
لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ
فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ
فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠
بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ
أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ
﴿٢٢﴾ وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ
تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ۖ تَحِيَّتُهُمْ
فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً
كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾

١٩ ـ ألم تَرَ بفكرك ـ أيُّها الرائي المتفكِّر في خلق الله ـ أنَّ الله خلق السَّموات والأرض متَّصفاً خَلْقُه لهما بالحقِّ الثابت، لم يخلقهما عَبَثاً وباطلاً، إنَّما خلقهما لأمرٍ عظيم وغاية حكيمةٍ، إنْ يَشَأْ يُذْهبكم ـ أيُّها الناس ـ ويأْت بخلقٍ جديد سواكم أطوع لله منكم.

٢٠ ـ وما إهلاككم وإيجاد خلقٍ آخر سواكم بمُمْتنع على الله؛ لأنَّ الأشياء كلَّها سهلةٌ على الله سبحانه، وإنْ جلَّت وعَظُمت.

٢١ ـ وَخَرجت الخلائقُ من قبورهم يوم القيامة، وظهر الذين كانوا موضوعين في الحياةِ الدنيا موضع الامتحان جميعاً في موقف جامع على أرض المحشر، لِلَّه عزَّ وجل؛ ليُحاسِبَهم ويُجَازِيَهم على قَدر أعمالهم، فقال الأتباع الضعفاء للقادة الرؤساء: إنَّا كنَّا لكم في الدنيا أتباعاً في الدين والاعتقاد، نسير في أثركم، ونتَّبع أوامركم وخُطواتكم، فهل تقدرون في هذا اليوم أن تدفعوا عنا بعضَ عذاب الله الذي حَلَّ بنا؟ قال الرؤساء والقادةُ للأتباع: لو حكم الله لنا بالهداية إلى الإيمان في الدنيا لَهَدَيْناكم، ولكننا اخترنا بإراداتنا الحُرَّة طريق الضلال، فضللنا وأضللناكم، مُسْتوٍ علينا وعليكم الضعف عن حمل ما نزل بنا، أم الصبرُ على ما نزل بنا، ما لنا من مكانٍ نحيد ونهرب إليه، ولا مَنْجاة ممَّا نحن فيه من العذاب.

٢٢ ـ وقال إبليس ـ لمَّا فُرِغ من الأمر، وأدخل أهلُ الجنَّةِ الجنَّةَ، وأهلُ النَّارِ النَّارَ ـ: إنَّ الله وعدكم الوعدَ الحقَّ فَصَدَق في وعده، ووعدتكم وعداً باطلاً، فأخلفتكم الوعد، وما كان لي عليكم من قوة أقهركم بها على اتِّباعي، أو حُجَّةٍ أقنعكم بها، إلا أن دعوتكم إلى الكفر والضَّلال، وألقيتُ إليكم الوسوسة، فاستجبتم لي باختياركم الحُر، دون إكراهٍ ولا إجبار، وقد رأيتم دلائل الله، وجاءتكم الرسل، فكان من الواجب عليكم ألاَّ تلتفتوا إليَّ، ولا تسمَعوا قولي، فلمَّا رجَّحتم قولي على الدلائل الظاهرة من غير حُجَّة ولا دليل، وجَنَيْتُم على أنفسكم باختياركم الحر، كان اللوم بكم أَوْلىٰ، ما أنا بمُغيثكم ولا مُنقذكم ممَّا أنتم فيه من العذاب، وما أنتم بمغيثيَّ ولا مُنْقذيّ ممَّا أنا فيه من العذاب، إني كفرتُ بجعلكم إيَّاي شريكاً لله في عبادته في الدنيا، وتبرَّأت من ذلك، إنَّ الظالمين الذين وضعوا العبادة في غير موضعها، لهم عذابٌ مُؤْلم مُوجع.

٢٣ ـ وفي مقابل إدخال أهل النَّار في النَّار؛ ليذوقوا جزاءهم عذاباً أليماً، أُدخِل الَّذين آمنوا إيماناً صحيحاً صادقاً، وعملوا الصَّالحات المُرْضيات ربَّهم عنهم، جنَّاتٍ تجري من تحت قصورها وأشجارها الأنهار، حالة كونهم دائمين في التنعُّم بأنواع نعيمها، لا يخرجون منها أبداً ـ بإذْن ربِّهم وفضله وإنعامه ـ يُحَيِّي بعضهُم بعضاً بالسَّلام، والملائكة تُحيِّيهم، والربُّ سبحانه يُحيِّيهم.

٢٤ ـ انظر ـ أيها الناظر ـ نَظر تفكُّر عميق، وتدبُّر دقيق، كيفَ ضَرَبَ الله شَبَهاً لكلمةِ التوحيد الطيِّبة (لا إله إلا الله)، وما يتفرَّع عن هذه الكلمة، مثل: كلمة الدعوة إلى الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والكلمة التعليميَّة والتربويَّة الرشيدة التي ينصح بها المسلم أخاه، كشجرة طَيِّبَةٍ مزروعة في أرض طيِّبة، وهي النَّخلة، جذرها ثابتٌ ضاربٌ بعروقه في عمق الأرض، يمتصُّ الغذاء للشجرة من الماء والتراب، فيصعد في قنواتٍ من الجذور إلى السَّاق، فإلى الفروع الصَّاعدة في الجوِّ، فإلى الأوراق والأفنان والثمرات.

وفي هذه الآية التنبيه إلى عَظَمة هذا المثل ورَوْعته الذي تُصوِّر فيه المعقولات والمعلومات بصور المشهودات والمرئيَّات. ووُصِفتْ كلمة (لا إله إلا الله) بأنها طيِّبة؛ لأنَّ مدلولها وموضوعَها هو الله سبحانه، المتَّصف بما لا يتناهى من الكمالات، المنزَّهُ عن العيوب والنقائص والآفات، فهذه الكلمة طيِّبةٌ بذاتها، مُطيِّبةٌ للقلب الذي اعتقدها، ومُطهِّرة له من نَجَس الشِّرك والكفر. وفي هذا المثل العظيم الذي ضربه الله تعالى لعباده تنبيهٌ إلى أنَّ الشجرة لا تبقى فيها حياة النموِّ إلاَّ بمادَّةٍ تَسْقيها وتُنمِّيها، فإذا انقطع عنها السَّقي جفَّتْ ويبستْ، وهكذا شجرة الإيمان في القلب: إن لم يتعاهدْها صاحبها بالسُّقيا، أوشك أن تيْبسَ وتموت. والغيْث الذي يُحيي الله تعالى به شجرة الإيمان في القلب ويُنمِّيها ويُقوِّيها هو ماءُ الوحي الإلهيِّ القرآني والنبويِّ؛ كتاب الله تعالى، وسنة رسوله ﷺ.

وفي هذا المثل أيضاً: تذكير بتعاهُد شجرة الإيمان في القلب، بالمحافظة عليها من الأهواء الضالَّة، والشهوات الضارَّة، فإنَّ شجرة الإيمان تضعف وتنقص ثمراتها، إذا لم يتعاهدها صاحبها ويحافظ عليها ممَّا يضعفها ويفسدها.

وفي هذا المثل: تنبيهٌ إلى أنَّ فروع شجرة الإيمان في القلب وثمراتها على حسب ثبوت أصلها في القلب، فكلَّما ثبت أصلها ورسخ، كلما علا فرعها، ونما ثمرها وكثُر.

تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾ قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾



٢٥ - تُؤتي ثَمَرها كلَّ وقتٍ بأمر ربِّها، وكذلك الكلمةُ الطيِّبة التي تدلُّ على حقٍّ مؤيَّد بالبرهان، أو تهدي إلى خير وعمل صالح، وفي رأس الكلمات الطيِّبات كلمة (لا إله إلا الله)، فهي شديدةُ الثبوت في عمق قلب المؤمن، وفروع هذه الكلمة: التطبيقات الإسلامية في سلوك المؤمن، وهي يانعة باستمرار، مثمرة في كل حين. أما ثبات أصلها فإيمان صاحبها وإخلاصُه، وأما فروعها المُمْتدة إلى السماء فبلوغها مستوى القَبول عند الله، وأما ثمرها فما تقدِّمه من أجر بفضل الله لباذلها وزارعها. ويَضْربُ الله الأمثال للناس زيادةً في الإفهام، وتصوير المعاني، وتقريب الحقائق، رغبة أن يتذكَّروا هذه الأمثال عند المناسبات، ويكون لهذا التذكُّر أثره النفسي والقلبي والسلوكي.

٢٦ - ومَثَلُ كلمةِ الشِّرك الخبيثة؛ كشجرة الحَنْظل الخبيثة، اسْتُؤْصِلَت وقُطِعَت من فوق الأرض؛ لقُرب عروقها من سطح الأرض، ما لهذه الشجرة من ثباتٍ؛ لأنها ليس لها جذر ثابت في الأرض، ولا فرعٌ صاعدٌ إلى السماء بل لها فروع شائكة، وممرَّات سامَّات ضارَّات ساقطات على الأرض في الأوحال، لأنها مُباينة ومناقضةٌ للحقِّ، وليس لها أصل ثابت في نفس الكافر وقلبه، لأنها لا تعتمد على حُجّة صحيحة، وفروع هذه الكلمة هي أنواع السلوك الفاسق الفاجر المُنحرف عن صراط الله، وهي فروعٌ هابطة إلى مواطن القذارات، تدلُّ على هبوط مستوى قائلها، وخُبث نفسه، كذلك الكافر لا ثَبَاتَ له، ولا خَيْر فيه، ولا يصعد له قولٌ طيِّبٌ، ولا عملٌ صالح.

٢٧ - يُثَبِّتُ الله الَّذين آمنوا إيماناً صحيحاً صادقاً في كلِّ الأحوال التي يحتاجون فيها إلى تثبيت، وهم في الحياة الدنيا، كتثبيتهم على الإيمان كلما تعرَّضوا لهزَّات مُزلزلات للقلوب، وتثبيتهم على الإيمان قبل نزع أرواحهم عند اقتراب آجالهم، لتكون وفاتهم على إيمان كامل، أما في الآخرة فيكون تثبيتُهم في القبر عند سؤال الملكَيْن بهدايتهم إلى الجواب الصحيح، وفي موقف الصراط والحساب والميزان، ويحكم الله على الظالمين من دَرَكَات الكفر بالضلال والبُعد عن الهدى والرشاد في دنياهم وآخرتهم، بسبب كفرهم، بعد أن منحهم إراداتٍ حرَّة يختارون بها طريق الهُدى وطريق الضلال، ويفعلُ الله ما يشاء من تثبيتٍ على الهداية، أو مدٍّ في الضلالة، وَفْق علمه وعدله وحكمته.

٢٨، ٢٩ - ألم تَنْظر - أيُّها المُخَاطَب بفكرك المُتأمِّل المتدبِّر - إلى كفَّار قريش الذين أنعم الله عليهم بمحمد ﷺ فأرسله إليهم، وأنزل عليه كتابه؛ ليُخرجَهُم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان، فاختاروا الكفرَ على الإيمان، وغيَّروا نعمة الله عليهم، وأحلُّوا مَنْ تَبِعَهُم على كفرهم دارَ الهلاك، وهي جهنَّم، يدخلونها ويقاسون حرَّها، وساءَ سوءاً لا يوجدُ أشدُّ منه، مكان إقامتهم واستقرارهم الأبديِّ فيها.

٣٠ - وَجَعَلَ هؤلاء الكفَّار لِلَّهِ أمثالاً وأشباهاً من الأصنام في التسمية والعبادة؛ لِيُضلُّوا من يستجيب لهم ويتَّبعهم عن طريق الهدى ودين الحق. قُل - يا أيها الداعي إلى سبيل ربِّك - لهؤلاء الكفار: تمتَّعوا في الحياة الدنيا أياماً قلائلَ، فإنَّ مصيركم إلى النَّار في الآخرة.

٣١ - قل - يا رسول الله ويا كلَّ حاملٍ لرسالته من أمَّته - لعباديَ الذين آمنوا: لِيُقيموا الصَّلاة الواجبة في أوقاتها الخمس بإتمام أركانها، وينفقوا بعض ما آتيناهم من أموال طيِّبةً بها نفوسهم في جميع وجوه الخير في حال السرِّ وحال العلانية ابتغاء مرضاة الله، من قبل أن يأتيَ يوم القيامة الذي لا فداءَ فيه من عذاب الله، ولا صداقة بين الناس تنفع في تدارك ما فات.

٣٢ - اللَّهُ تعالى الذي خلق السَّموات والأرض، وأنْزَلَ من السَّحاب ماءً، فأخرج بذلك الماء المختلط بتراب الأرض من الثمرات رزقاً لكم، وذلَّل لكم السُّفُن الجارية على الماء وَفْق نظام الطَّفْو الذي قدَّره الله في كونه، لأجل الانتفاع بها في جَلْب الرزق من بلدٍ لآخر، وذلَّل لكم الأنهار تشربون منها، وتسقون زرعكم وأشجاركم وأنعامكم ودوابكم، ولكم فيها منافع كثيرة أخرى.

٣٣ - وذلَّل الله لكم الشمس والقمر يَجْريان دائماً فيما يعود إلى مصالح العباد، لا يَفْتُران عن حركتهما إلى انقضاء عمر الدنيا وذهابها، وذلَّل لكم الليلَ والنَّهارَ يتعاقبان في الظُّلمة والضياء، والنقصان والزيادة؛ لتسكنوا في الليل وتستريحوا، ولتبتغوا من فضله في النهار، وتدبِّروا معايشكم.

وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾

٣٤ ـ وأعطاكم من كلِّ ما سألتموه شيئاً، واستجاب دعاءكم، فما منكم من أحد إلا سأل الله ربَّه أمراً من أمور دنياه في مالٍ أو صحةٍ أو عافيةٍ، أو أمنٍ، أو خلاصٍ من مكروه، إلا استجاب الله بعض دعائه له؛ ليُبيِّن له أنه ربٌّ موجود، يجيب دعاءَ المُضطر إذا دعاه، وإنْ تَعُدُّوا نعمةَ الله لا تَقْدروا على حَصرها ولا عدِّها جملةً وتفصيلاً؛ لكثرتها وتنوُّعها وعدم تناهيها؛ إنَّ الإنسان لكثيرُ الظلم لنفسه ولغيره، ولكثيرُ الجحود بنعمة ربِّه عليه، فبظلمه لنفسه يرتكب الكبائر الكبرى، فيعرِّض نفسه لعقاب الله الشديد له، وبكثرة كفرهِ جُحوداً لِنعم الله عليه يخرج عن صراط الله المستقيم، فيعرِّض نفسه للحِرمان من زيادة نِعَم الله تعالى عليه.

٣٥ ـ وضع في ذاكرتك ـ أيها المُتلقِّي لآياتنا ـ حينَ قال إبراهيم داعياً ربه ـ بعد أن أسكن ابنه إسماعيل وأمه «مكة» ـ : ربِّ اجْعل «مكة» بلداً ذا أمن، يأمن كلُّ مَنْ فيها، وأبْعِدني وأبعد بَنِيَّ عن عبادة الأصنام.

٣٦ ـ ربِّ إنَّ الأصنام أضْلَلْنَ كثيراً من النَّاس، فافْتُتنوا بعبادتها، توهُّماً منهم أنَّ عبادتها تنفعهم في مطالب دنياهم، أو تدفع عنهم ضُرّاً، ربِّ فَمَنْ تَبِعَني على التوحيد والإيمان الصحيح، والأعمال الصَّالحة التي ترضيك، فإنَّه من جماعتي، ومن أمَّتي المُستجيبين لدعوتي، ومَنْ خالفني فيما دون الشِّرك، فإنَّك كثير السَّتْر لذنوب المذنبين، دائم الرحمة لهم، تعفو عمن تشاء منهم بفضلك ورحمتك.

٣٧ ـ ربَّنا إنِّي أسكنتُ بعضَ ذُرِّيَّتي، وهم إسماعيل وأولاده بوادٍ في «مكة» ليس فيه زرعٌ ولا ماء، بجوار بيتك ذي الحرمة والمكانة الرفيعة، والممنوع ممَّن يُريدُ به شرّاً؛ ربَّنا إنني فعلت ذلك بأمرك لأجل أن يقيموا الصَّلاة بأركانها، وعلى أتمِّ وجوهها، عند بيتك المكرَّم، وليكونوا القدوةَ للناس في إقامة الصلاةِ، وعبادتك على الوجْه الذي يُرضيك، فاجْعَل عُمْق قلوبِ جماعةٍ من النَّاس تحنُّ وتشتاقُ لزيارة بيتك، وتُسرع إليهم شوقاً ووداداً، وارزقهم بأن تَجْلُبَ إلى بلدهم الذي لا زرع فيه، من أنواع الثمرات؛ رغبة أن يشكروا هذه النعم التي أنعمتَ بها عليهِمْ بالإيمان والإسلام والأعمال الصالحة التي تُرضيك عنهم.

٣٨ ـ ربَّنا إنَّك تعلم السِّرَّ كما تعلم العَلَن علماً لا تفاوت فيه، وأنت أرحم بنا منَّا، فلا حاجة بنا إلى الدعاء والطَّلب، وإنَّما ندعوك إظهاراً للعبوديَّة لك، وتخشُّعاً لعظمتك، وتذلُّلاً لِعزَّتك، وما يخفىٰ على الله عالم الغيب من شيءٍ في كلِّ مكان وزمان.

٣٩ ـ الحمدُ لِلَّه الذي وَهَب لي مع الكبر في سنِّ اليأس من الولد: إسماعيلَ مِنْ «هاجَر»، وإسحاق مِنْ «سارة»، بعد دعائي أن يَهَبَ لي من الصَّالحين؛ إنَّ ربِّي لَمُجيبُ الدعاء ممَّن دعاه، فإذا شاء بحكمته أن يجيب دعوة مَنْ دعاه أجابه، وقد أجاب الله دعائي، ولم يُخيِّب رجائي.

٤٠ ـ ربِّ اجعلني ممَّن يُقيم الصَّلاة بأركانها، ويُحافظ عليها في أوقاتها، واجْعَل من ذُرِّيَّتي المؤمنين المسلمين من يقيمُ الصَّلاة على أتمِّ وجوهها، ربَّنا واسْتجب دعائي بفضْلك وكرمك، واجعله مقبولاً عندك.

٤١ ـ ربَّنا اغفِر لي ولوالديَّ (وإنَّما قال ذلك قبل أن يتبيَّن له أنَّ أباه من أصحاب الجحيم)، واغفِر للمؤمنين كلِّهم يوم يقوم الناس للحساب، وفصْلِ القضاء، وتنفيذ الجزاء.

٤٢ ـ ولا تتوهَمَنَّ ـ أيُّها السامع ـ أنَّ الله يُعاملُ الظالمين معاملةَ الغافلِ عنهم، المُنْصرف عن ملاحظتهم ومراقبتهم، ولكن يُعاملهم معاملةَ الرقيب الحفيظ عليهم، فهو سبحانه يُمْهل ولا يُهمل، ما يُؤَخِّر عقابهم الشديد إلاَّ ليوم القيامة؛ إذ ترتفع فيه أبصار أهل الموقف، وتبقى أعينهم مفتوحة حَيْرةً ودهشةً، وخوفاً وذُعراً؛ من هَوْلِ ما تَراه.

مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴿٤٣﴾ وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَاغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٥٢﴾

٤٣ ـ يوم يقومُ الظالمون من قبورهم مُسْرِعينَ إلى إجابة الداعي بذلَّةٍ واستكانةٍ، مُطَأطِئي رؤوسهم، مع إمالة خضوع وانكسار، لا يرجع جَفْنُ كُلِّ واحد منهم إلى الانطباق، من شدَّة شخوص أبصارهم، وقلوبُهم خاليةٌ فارغةٌ عن الفهم، لا تعي شيئاً، ولا تعقل من شدَّة هَوْل الموقف الذي هم فيه.

٤٤ ـ وخوِّف النَّاسَ ـ يا رسول الله ـ بعذابٍ مؤجَّلٍ إلى يوم الدين، مع احتمال إنزال عذاب مُعَجَّل فيهم في الدنيا، يكونُ به هلاكُهم إلى حدِّ الاستئصال، يوم يَرَوْن نُذُر العذاب النازل بهم، ومقدِّمات ما يكون به تعذيبهم وإهلاكهم من وسائل؛ فيقولُ الذين ظلموا أنفسهم بالشِّرك والمعاصي: ربَّنا أخِّرْ تعذيبَنا وإهلاكَنا، وأمهلنا مُدَّةً يسيرةً، نُؤْمِنْ بك، ونتَّبع رُسُلَك باتِّباع خاتِمِهم محمَّد ﷺ؛ إذ أنَّ اتِّباعَهُ هو اتِّباعٌ لكُلِّ رُسُل الله السابقين، فيُجابوا توبيخاً على ألسنة الملائكة المأمورين بتعذيبهم: ألم تكذِّبوا رُسُلَ ربِّكم حين أنذروكم بعذابه المُعجَّل والمُؤجَّل، وأقسمتم على أنكم ستدومون على ما أنتم عليه من نعمةٍ حتى تأتيكم آجالكم، وليس للنِّعم التي أنتم عليها من زوالٍ؛ بعقابٍ من الله لكم على كفركم، ومقاومتكم لدينه، ومعاداتكم لرسله.

٤٥ ـ وتقول لهم الملائكة أيضاً: وسكنتم في مساكنِ المُهْلَكين إهلاكاً جماعياً، بسبب أنَّهم ظلموا أنفسهم بالكفر والمعاصي، وقد تحقَّقْتُم كيف كانت عقوبتنا إيَّاهم، بمُشاهَدَة آثار إهلاكهم وتدميرهم، وضَرَبنا لكم الأمثال من أحوال الظالمين الأوَّلين، وما جَرَى لهم، وكيف أهلكوا إهلاكاً جماعياً؛ لتعتبروا بها، وتقيسوا أنفسكم عليهم، وأعمالكم على أعمالهم، وتعلموا أنه سيحلُّ عليكم مِثْلُ الذي حلَّ على الذين من قبلكم متى انتهت مدّة إمهالكم، وبقيتم على كفركم ومقاومتكم لدعوة الحق.

٤٦ ـ وقد دبَّر هؤلاء الذين سكنوا في مساكن الذين ظلموا أنفسهم تدبيرهم السَّيِّىء في الخفاء؛ لقمع دعوة رسل ربِّهم، وللتخلُّص منهم، ومن الذين آمنوا بهم واتَّبعوهم، وعند الله علم تدبيرهم السَّيِّىء بكلِّ تفصيلاته ومراحله وجزئيَّاته، وقد كان مكرهم ـ من شدَّته ـ لِتَزولَ منه الجبال.

٤٧ ـ فلا تَظُنَّنَّ ـ أيُّها المخاطب ـ أنَّ الله مُخْلِفُ ما وَعَد به رُسُلَه من النَّصر وإعلاء الكلمة وإظهار الدين، فإنَّه ناصرٌ رُسلَه وأولياءه، ومُهْلِكٌ أعداءه؛ إنَّ الله غالبٌ قويٌّ لا يمنعه أحدٌ عما يريد، ذو انتقام من أعدائه.

٤٨ ـ ضع في ذاكرتك ـ أيُّها المتلقِّي لكلام ربِّك ـ يوم القيامة حين تُبدَّل صفةُ الأرض وهيئتها، فتزول جبالها، وتُسوَّى وِهادُها، وتذهب أشجارها وجميع ما عليها، ولا يبقى على وجهها شيءٌ إلاَّ ذهب، وتُبدَّل صفةُ السماء، فتنتثر كواكبها، وتُطمس شمسُها وقمرها ويكوَّران، وتخرج الخلائق من قبورهم في موقف جامعٍ على أرض المحشر لحكم الله الواحد الذي لا شريك له في ربوبيَّته ولا في إلهيَّته، الغالب الذي يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد.

٤٩، ٥٠ ـ وتُبْصر ـ أيُّها الرائي ـ المجرمين يوم القيامة مَشْدودين بعضهم إلى بعض في القيود، قد قُرِنَتْ أيديهم وأرجلهم إلى رقابهم بالسلاسل، وهم في ذِلَّةٍ وهوان، تُطلى جلودهم بالقَطران، وهو دهنٌ كالزِّفت حارٌّ شديد الاشتعال بالنَّار، حتى يكون الطِّلاء بمثابة ثياب لهم؛ ليجتمع لهم لَذْعُ القَطران، وكراهية لونه، ونَتْن ريحه، وإسراع النار في جلودهم. وتعلو وجوهَهُم وتغطيها وتحيط بها النار التي تُسَعَّر بأجسادهم المُسَربلة بالقَطران.

٥١ ـ تقام محكمة العدل الربَّانية للعباد الذين لم يصلوا إلى دَرَكة المجرمين؛ ليجزيَ اللَّهُ كلَّ نفس جزاءً مُساوياً ما كَسَبَت في الدنيا، ضمن قانون العدل بالنسبة إلى السيِّئات المقرونِ بعفوٍ عن كثير عنها، وضمن عطاءات الفضل بالنسبة إلى الحسنات التي يُضاعفها لعباده المؤمنين بجوده وكرمه، وتأخيرُ مَنْ لم يصلوا إلى دَرَكة المجرمين في الحساب، وفصل القضاء، عن المجرمين، لا يُؤثِّر في نفوسهم شيئاً؛ لأنَّ الله سريع الحساب، لا يشغله شأنٌ عن شأنٍ، فهو قديرٌ على أن يُحاسبهم جميعاً في ساعةٍ واحدةٍ، دون أن ينقص أحداً شيئاً من حقِّه.

٥٢ ـ هذا البيان الذي جاء في هذه السورة تبليغ يتضمَّن قضايا دينيَّة موجَّهةً للناس، لكي يعلموها ويعملوا بها، وليُخوَّفوا بما جاء في هذا البلاغ من إنذارات بعقاب الله المعجَّل والمؤجَّل إلى يوم القيامة، وليَستدلُّوا بهذه الآيات على وحدانيَّته سبحانه، وأنه هو الذي يستحق أن يُعبد، فمن اتَّخذ إلهاً من دونه يعبده كان مشركاً بربِّه، يستحقُّ الخلود في عذاب النار يوم الدين، وليكون في أنفس أصحاب العقول الواعية والأفهام الصحيحة الأثر النافع من حضور المعلومة في الذاكرة العاملة الدافعةِ للسلوك الدينيِّ المُلائم لها، والمطلوب منها.

سُورَةُ الحِجْر (مكية ١٥) (آياتها ٩٩)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ رُّبَمَا يَوَدُّ
ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟
وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا
مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤﴾ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ
أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٥﴾ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ
ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ
مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟
إِذًا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾
وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن
رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى
قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ
﴿١٣﴾ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ
﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾



سُورَةُ الحِجْر

١ ـ ﴿الٓر﴾ سَبَق الكلام على الحروف المُقطَّعة في أول سورة البقرة.

تلك آياتُ الكتاب الدالأت على كونها مُنزَّلات من عند الله، وأنَّ محمداً نبيُّ الله حقّاً وصدقاً، وهي آيات قرآنٍ عظيم الشأن، جليّ واضح في حِكَمِهِ وأحكامه، وفي هدايته وإعجازه؛ فأقبلوا عليها، ولا تقابلوها بالتكذيب والإعراض.

٢ ـ سيأتي زمان ليس بالبعيد يرغب بشدَّةٍ هؤلاء الكافرون المعاندون المُصرُّون على باطلهم، عندما يُحقّق الله النصر العظيم في غزوة بدر، لو كانوا قبل ذلك الزمن مسلمين من أتباع محمد المناصرين لدعوته؛ ليحموا أنفسهم من الهزيمة الشنيعة التي أنزلها الله بهم.

٣ ـ دَع ـ يا رسول الله ـ هؤلاء الكفّار يأكلوا في دنياهم، ويتمتَّعوا بلذَّاتها، ويشغلهم طول الأمل عن الإيمان والإسلام، ولا تُضع جُهدَك وَوَقْتك معهم، فسوفَ يعلمون سُوءَ عُقْباهم إذا وَرَدُوا القيامة، وذاقوا وبال ما صَنَعوا.

٤ ـ وما أهلكنا من أهلِ قريةٍ هَلاكَ استئصال شاملٍ، إلا في حال كوْن إهلاكهم مسجَّلاً في كتاب معلوم لله عزَّ وجلَّ، يشمل على بيان زمن الإهلاك، وكلِّ جزئية من جزئياته.

٥ ـ ما من أمة يسبق تعذيبُها وإهلاكُها الوقتَ المحدَّد لها، وما من أمة تستطيع بكلِّ وسائلها أن تستأخر تعذيبَها وإهلاكَها عن الوقت المحدَّد لها. فلا رادَّ لقضاء الله وحكمه في أيِّ أمر من الأمور، لا بالسَّبْق ولا بالتأخير عن أجله، ولا بالتغيير والتبديل في شيءٍ منه.

٦ ـ وقال مشركو مكة لرسولنا محمد ﷺ استهزاءً: يا أيُّها الذي نُزِّل عليه الذِّكر لكلِّ العالَمين؛ إنَّك لمجنون.

٧ ـ هَلاَّ تأتينا بالملائكة يشهدون لكَ بأنَّك رسولٌ من عند الله، إن كنتَ حقاً من الصَّادقين في قولك وادِّعائك الرسالة.

٨ ـ ما نُنزِّل الملائكة إلا تنزيلاً ملتبساً بالحقِّ، بما تقتضيه الحكمة والمصلحة، ولا مصلحة لكم في تنزُّلها إليكم كما اقترحتم، بل في ذلك مَضَرَّة بكم؛ لأنه لا يكون مع ذلك إلا استئصالكم في الحال إنْ لم تؤمنوا وتصدِّقوا، كما جَرَت بذلك سنَّةُ اللَّهِ في القرون الخالية، وما كانوا حين تنزُّل الملائكة بالعذاب مؤخَّرين مُمْهَلين.

٩ ـ إنَّا نحن لا غيرُنا نزَّلنا هذا الكتاب الذي جعلناه ذكراً للعالمين، والذي يجب عليهم أن يؤمنوا به، ويتفهَّموا معانيه، ويضعُوا ما هو مطلوبٌ منهم فيه في ذاكرتهم، ويتذكَّروه عند كلِّ مناسبة داعية للتذكُّر، وإنَّا للقرآن الذي أنزلناه عليك ـ يا رسول الله ـ لمتكفِّلون بحفظه من الزيادة والنُّقصان، والتغيير والتبديل والتَّحريف، ما دام في الأرض بشرٌ، مهما تتابعت الأجيال، وتوالت القرون والأحقاب.

١٠، ١١ ـ ونؤكِّد تأكيداً شديداً أننا أرسلنا رُسُلاً من قبْلك ـ يا رسول الله ـ في جماعات الكفر من أهل القرون السَّالفة، يدعونهم إلى ما تدعو إليه، وما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يَسْتهزؤون، فهذه عادة الكفار مع أنبيائهم، ولستَ بِدْعاً من الرسل، فلك ـ يا رسول الله ـ بجميع الأنبياء أسوةٌ في الصبر على أذى قومك، فاصبر كما صبروا، ولا تكترث لاستهزائهم بك، ولا تعبأ به.

١٢، ١٣ ـ كما أدخلنا بمقتضى سُنَّتنا التكوينيَّة الكفر والتكذيب والاستهزاء بالرسل في قلوب فِرَق الأوَّلين، كذلك نُدخله في قلوب مشركي مكة؛ لكونهم جميعاً اختاروا بإراداتهم الحرة الكفر والتكذيب والاستهزاء بالرسل. لا يؤمنونَ بمحمدٍ ﷺ مهما قدَّم لهم من آيات صدقه، وقد مَضَتْ سُنَّة الله وعادتُه بإهلاك من كذَّب الرسل من الأمم الماضية، فاحذروا ـ يا أهل مكة ـ أن يصيبَكم مثل ما أصابهم من العذاب.

١٤، ١٥ ـ ولو فتحنا لكفار مكة المعاندين باباً من أبواب معارج العروج في السماء، فاستمرَّ المشركون طَوال نهارهم في ذلك الباب يصعدون، فينظرون في ملكوت السموات وما فيها من الملائكة، لَمَا آمنوا، ولقالوا لفَرط عِنادهم وجحودهم: إنَّما سُدَّت أبصارنا ومُنعت من الإبصار، وما نرى إلا تخييلاً لا حقيقةَ له، بل ما نراه من أشياء عجيبة عظيمة هو أثرٌ من آثار السحر الذي سَحَرنا به محمد، وليس آيةً حقيقيَّةً مُعجزةً تشهد له بأنه رسول الله حقاً وصدقاً.

وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣١﴾

١٦ - ونؤكِّد لكم أننا خلقنا في السماء الدنيا، منازلَ وطرقاً تسير فيها الكواكب، وزيَّنَّا السَّماءَ الدنيا بالشمس والقمر والنجوم للمُعْتَبرين المُسْتَدلِّين بها على وحدانية خالقها وصانعها.

١٧ ، ١٨ - وحفظنا السَّماءَ من كلِّ شيطان ملعون مَطْرود من رحمة الله. لكن من اسْتَرَقَ السَّمع، وخطف الخطفة اليسيرة من كلام أهل الملأ الأعلى، فلحقه وتبعه بسرعة وقوةٍ شُعلة من نار ساطع ظاهر للمُبْصرين، يحولُ بينه وبين خَطْف المسموع من الملأ الأعلى.

١٩ - والأرضَ بسطناها للاستقرار عليها، ومددناها بالخيرات والمعادن والعناصر النافعة للعباد، ووضعنا فيها جبالاً ثوابت تُثَبّت قِشْرتها حتى لا تتحرَّك وتضطرب، وأنْبَتنا في الأرض من أنواع النبات ما هو مقدَّر بمقدار معيَّن حسبما تقتضيه الحكمة.

٢٠ - وجَعَلنا لكم في الأرض ما تعيشون به مدَّة حياتكم في الدنيا من المطاعم والمشارب والملابِس، وما تتوصَّلون به إلى ذلك من المكاسب والتجارات، وجعلنا لكم في الأرض من تحبُّون أن يكونوا لكم مملوكين، أو تابعين من أولاد، أو أزواج، أو خدم، تجب عليكم النفقة عليهم، إلا أنكم لستم لهم برازقين، وإنما المُتكفِّل برزقهم خالقُهم ربُّ العالمين، فلا تتصوَّروا أنكم بإنفاقكم عليهم ترزقونهم، بل إننا نحن نرزقهم عن طريقكم؛ لنمتحنكم فيما آتيناكم.

٢١ - وما من شيءٍ ينتفعُ به العباد إلا ونحن قادرون على إيجاده وتكوينه والإنعام به، وما نُوجد شيئاً من تلك المَقْدورات إلا بمقدار معيَّن تَقْتضيه الحكمة، وتَسْتدعيه المشيئة.

٢٢ - وأرسلنا الرياح لواقحَ للسَّحاب، بما تحمل من جُسَيْمات، تكون بمثابة التلقيح لبخار الماء في السَّحاب، إذ تتكوَّن حولها حبَّات المطر أو الثلج أو البرَد، فثقُلت بالتكاثف، فَقَويت جاذبية الأرض على اجتذابها إليها، فنزلت ماءَ عَذْباً سائغاً للشاربين من الإنسان والحيوان والنبات، وجرت به السيول والأنهار، وخزنَّا الكثير منه في باطن الأرض وتجويفاتها، وما أنتم - أيُّها الناس - بخازنين له في مخازنه في الأرض.

٢٣ - وإنّا لنحن لا أحدٌ غيْرُنا في الوجود كلِّه نُحيي من نشاء أن نجعلَهُ ذا حياةٍ، ونميت مَنْ نشاء أن نميتَهُ من الأحياء، وإنا لنحن نُملِّك ذا الحياة ما ينتفع به في حياته، فإذا أمتناه لم تبْق له مِلكيَّة لشيء، ونحن الوارثون؛ لزوال مُلْك كلِّ مالكٍ عمَّا مَلَّكناه، وبقاء جميع ذلك لنا.

٢٤ - ونقسم مؤكِّدين لكم أننا علمنا المُسْتَقْدِمين الذين تقدَّموا إلى الآخرة بالموت، وَمَنْ هم أحياء، ومَنْ لم يأتوا إلى ظروف الحياة الدنيا بعد، وسيأتون إليها بمقتضى تقدير الله وقضائه السَّابق إلى آخر حياة الناس في الأرض.

٢٥ - وإنَّ ربَّك يُميتُ الكُلَّ، ثمَّ بعد ذلك يحشرُ الأوَّلين والآخرين على ما ماتوا عليه؛ للحساب والجزاء على ما قدَّموا في الحياة الدنيا من خير أو شر، إنَّه سبحانه حكيمٌ في تدبيره، عليمٌ لا يخفى عليه شيء.

٢٦ - ونؤكِّد لكم أننا خلقنا آدم عليه السلام من طينٍ يابسٍ إذا نُقِر عليه سُمِعَ له صوت، وهذا الطين اليابس من ترابٍ مُفرَّق الأجزاء، بُلَّ بالماء حتى اسْوَدَّ وتغيَّر ريحه، ثم صُوِّر فيه تمثالُ إنسان أجوف.

٢٧ - وخلقنا أبا الجنِّ، وإبليس من ذرِّيَّته من قَبْل خلق آدم عليه السلام من ريح حارَّةٍ لا دخان لها، تنفذ في مَسَامِّ البدن.

٢٨ - وضع في ذاكرتك - أيُّها المتلقِّي - حين قال ربُّك للملائكة، ولمن كان مُندسّاً فيهم ولاحقاً بهم، وهو إبليس: إني سأخلق بشراً من طين يابس إذا نُقِر عليه سُمع له صوت، وهذا الطين اليابس من طين أسود متغيِّر مُصَوَّر.

٢٩ - فإذا عَدَلْتُ خَلْقَه وأتْمَمْتُ تقويمَهُ، ونَفَخْتُ فيه روحاً من جنس الرُّوح الذي هو خلقٌ من خلقي، ومِلْكٌ من مِلكي، فَقَعُوا لآدم ساجدين، سجودَ تحيَّة وتكريم، لا سجودَ عبادة.

٣٠ ، ٣١ - فسجد الملائكةُ الذين أُمروا بالسُّجود لآدم كلهم أجمعون دفعةً واحدة، لكن إبليس الذي كان من الجنِّ، مُنْدسّاً بينهم، مُتَسَتِّراً بأعمال المنافقين، مُبتغياً العلوَّ في صفوف الملائكة، امتنع تكبُّراً أن يكون مع الملائكة الذين أُمِروا بالسجود لآدم، فسجدوا.

قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمۡ أَكُن لِّأَسۡجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقۡتَهُۥ مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسۡتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوۡعِدُهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبۡعَةُ أَبۡوَٰبٖ لِّكُلِّ بَابٖ مِّنۡهُمۡ جُزۡءٞ مَّقۡسُومٌ ﴿٤٤﴾ إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ إِخۡوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمۡ فِيهَا نَصَبٞ وَمَا هُم مِّنۡهَا بِمُخۡرَجِينَ ﴿٤٨﴾ ۞ نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ وَنَبِّئۡهُمۡ عَن ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾

٣٢ - قال الله تعالى لإبليس مُترفِّقاً بمساءلتِهِ: يا إبليس أيُّ عُذْر لك حمَلَك على أن لا تكون ساجداً مع الساجدين من ملائكة الملأ الأعلى؟

٣٣ - قال إبليس في كِبْر ووقاحة: لم أكن لأَسْجُدَ لبشرٍ خلقته من طين يابس كان طيناً أسود متغيِّراً مُصوَّراً.

٣٤، ٣٥ - قال الله تعالى له: فاخْرُج من الجنّة، فإنّك مطرود من منازل الملأ الأعلى، وإنَّ عليك اللعنة والبُعْد من رحمتي إلى يوم القيامة، ثمّ تزداد معها بعد ذلك عذاباً مستمرّاً لا انقطاع له.

٣٦ - قال إبليس مُعترفاً للّه عزَّ وجلَّ بربوبيّته: ربِّ إنَّك حكمتَ عليَّ بالإخراج والرَّجْم واللعنة إلى يوم الدين، فأمْهِلني حَيّاً إلى يوم يُبعثون.

٣٧، ٣٨ - فأجابه الله سبحانه إلى بعض طلبه، وقال له: فإنّك من الأحياء المُؤخَّرين إلى الوقتِ الذي يموت فيه جميعُ الخلائق، بعد النفخةِ الأولى، وذلك الإمْهال زيادةٌ له في بلائه وشقائه وعذابه.

٣٩، ٤٠ - قال إبليس: ربِّ بسببِ ما حكمتَ عليَّ من الغَواية بعد ابتلائي بأمر السجود ومعصيتي؛ لأُحسِّنَنَّ لهم في الأرض حُبَّ الدنيا ومعاصيك، ولَأُضِلَّنَّهُم أجمعين بإلقاء الوسوسة في قلوبهم، إلا عبادك المؤمنين الذين أخلَصْتَهُم واصْطَفَيْتَهُم بتوفيقك لتوحيدك وعبادتك، فهؤلاء لا أستطيع أن أُغويَهُم وأُبعدهم عن صراط الحقّ والهدى.

٤١ - قال الله تبارك وتعالى لإبليس اللعين: إنّي قدَّرتُ وقضيتُ لمن أضعهُم في الحياة الدنيا موضع امتحان، صراطاً اعتقادياً وعملياً، آمرهم أن يسلكوه في رحلة امتحانهم، يُؤدِّي بهم إلى كرامتي ورضواني، وهذا الصِّراط عليَّ بيانُهُ لكلِّ الذين أضعهم موضعَ الامتحان في ظروف الحياة الدنيا، وعليَّ المكافأة على الالتزام بسلوكه.

٤٢ - وقال الله عزَّ وجلّ لإبليس: إنَّ عبادي ليسَ لك عليهم تَسَلُّطٌ وقُدرةٌ على الإغواء، تُؤثِّر عليهم به تأثيراً جَبْرياً، تُلغي به إراداتهم الحُرَّة، فهم محميُّون منك ومن جنودك بحمايتي لهم، إلا من انقاد لك بإراداتهم الحُرَّة من الضَّالِّين والمشركين.

٤٣، ٤٤ - وإنَّ جهنَّم لموعدُ إبليس وأشياعه وأتباعه أجمعين، لجهنَّم سبعةُ أبواب، بحسب أنواع الجرائم التي ارتكبوها في الحياة الدنيا، فلكلِّ بابٍ من أبواب جهنَّم جُزءٌ منهم مَقْسوم له، وكلُّ جزء منهم يدخل من الباب المُخَصَّص له من أبوابها السَّبعة.

٤٥ - إنَّ الذين اتَّقوا الشِّرك والمعاصي بالإيمان الصَّحيح والعمل الصالح في بساتين متعدِّدة، تحتوي على أشجار وثمار وزروع وقصور، وعيونٍ تجري أنهاراً عظمى في الجنّات.

٤٦ - تقول لهم الملائكة عند استقبالهم: ادْخُلوا الجنَّة مصحوبين بسلام تحيَّةٍ تكريميَّةٍ لكم، وحالةَ كونكم آمنين دواماً من الموت ومن جميع الآفات.

٤٧ - وجذَبنا واقتلعنا ما في صُدورهم من حقْدٍ وحَسَدٍ وبغضاء، حالة كونهم إخواناً مُتَوادِّين مُتَحابِّين في الجنة، على مجالس رفيعةٍ عالية مُهيَّأة للسرور، يقابِلُ بعضُهم بعضاً، ويتحادثون بما يَسُرُّهم ويزيد من نعيمهم.

٤٨ - لا يَمَسُّهُم في الجنّة تَعَبٌ؛ لأنهم لا يكدحون للحصول على مطالبهم، بل تأتيهم عَفْواً صَفْواً، وهم خالدون مُنعَّمُون في الجنّة أبداً بلا نهاية، وما هم منها بِمُخْرَجين.

٤٩، ٥٠ - أخبِر وأعلم - يا رسول الله ويا كُلَّ داعٍ إلى الله - الخبر الهام جميعَ عبادي: أنّي أنا كثير السَّتر لذنوب المؤمنين التائبين، الدائم الرحمة لهم، وأنَّ عذابي هو العذاب المؤلمَ الموجع لغير المؤمنين التائبين.

٥١ - وأخبر - يا رسول الله - الخبر الهام مُشركي مكة المتعنِّتين عن قصة ضَيْف إبراهيم، من الملائكة الذين نَزلوا عنده ضيوفاً بصُورٍ آدميَّة، وبشَّروه بالولد، وبهلاك قوم لوط.

إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴿٥٦﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَٰلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٧٠﴾

٥٢ - وأخبرهم - يا رسول الله - الخبر الهام، وقتَ دخول الملائكة على إبراهيم عليه السلام، فقالوا له: نُسلِّم سلاماً. قال إبراهيم: إنَّا منكم خائفون؛ لأنَّهم لم يأكلوا العجل السَّمين، الذي قرَّبه إليهم، ولم يخطر بباله أنهم ملائكة لا يأكلون الطعام، إذ كان مظهرهم لا يُشعِر بذلك.

٥٣ - قال الرسل من الملائكة لإبراهيم عليه السلام، وهو يتصوَّر أنَّهم ضيف من البشر: لا تَخفْ مِنَّا، إنَّا نُبَشِّرك بولدٍ ذكرٍ غلام في صغره، عليم في كبره، سيأتيك من زوجك «سارة»، وهو إسحاق عليه السلام، فنحن ملائكة رسُلٌ مرسلون من ربِّك، لنُقدِّم لك هذه البِشارة.

٥٤ - فلمَّا بَشَّروه بالولد عَجِبَ إبراهيم من كبره وكبر امرأته. قال: أبشَّرتُموني بالولد مع مسِّ الكبر لي والشيخوخة المُضْعِفَة عادةً عن الإنجاب، فبأيِّ سببٍ لديَّ أملكه، يكون من آثاره أن أنجب ولداً فأنتم تُبشِّرونني به؟!

٥٥ - قالت الملائكة لإبراهيم: بَشَّرناك بالحقِّ الثابت الذي قضاهُ الله، بأن يخرج منك ولداً ذكراً تكثر ذُرِّيَّته، وهو إسحاق، فلا تكن من الآيسين من الخير.

٥٦ - قال إبراهيم: لا أحَدَ يَيْأَس من رحمةِ ربِّه إلا الضَّالُّون الجاهلون بقدرة الله على ما يشاء، وخَلْق ما يشاء.

٥٧ - قال إبراهيم عليه السلام للرسل من الملائكة: فما شأنكُمْ، وما الأمر الذي جئتم به - أيُّها المرسلون - سوى ما بشَّرتموني من الولد؟

٥٨ - قالت الملائكة: إنَّا أُرسلنا من ربِّنا إلى إهلاك قومٍ مجرمين، يستحقُّون الإهلاك الشامل.

٥٩ - إلا لوطاً وأتباعه من أهل دينه، فإننا لا نُهلكهم، بل نُنَجِّيهم أجمعين من الهلاك الذي نُنْزِلُه بقومه المجرمين.

٦٠ - إلا امرأةَ لوطٍ قَضَيْنَا إنَّها لَمِنَ الباقين في العذاب المُهْلَكِين مع قومها، فذهبت من الحياة الدنيا مع الذاهبين.

٦١، ٦٢ - فلمَّا دخلت الملائكة على لوط على صُوَر شباب مُرْدٍ حسان. قال لهم لوط عليه السلام: إنَّكم قومٌ مُنكَرون لا أعرفكم، ولا لأيِّ غرض دخلتم عليَّ؟

٦٣ - قالت الملائكة: لا تَخَفْ، بل جِئْنَاك بالعذاب الذي كان قومك يشكُّون أنه نازلٌ بهم.

٦٤ - وأَتَيْنَاك باليقين الذي لا شكَّ فيه، وإنَّا لَصادِقونَ فيما أخبرناك به من هلاكهم.

٦٥ - فَسِرْ بأهلك المؤمنين في آخر الليل، مُبْتَعداً بهم عن أرض «سدوم»، واتَّبع آثار أهلك، وَسِرْ خلفَهم، لتطَّلع عليهم وعلى أحوالهم، وأَسْرِعوا في السَّيْر، ولا تهتمُّوا بما خلفكم، ولا يلتفت منكم أحدٌ لينظر ما سيحلُّ بأرض «سدوم»، وامْضُوا إلى حيث أمركم الله؛ لتكونوا في مكان أمين.

٦٦ - وأمْضَيْنا وأنهَيْنا إلى لوطٍ عن طريق الوحي إليه ذلك الأمرَ المهول الخطير الذي حَكَمنا به على قومه وفرغنا منه، أنَّ هؤلاء القوم يُسْتَأْصلون عن آخرهم بالعذاب حالة كونهم داخلين في وقت الصُّبح.

٦٧ - وجاءَ أهلُ مدينة «سدوم» يُبَشِّر بعضهم بعضاً بوجود شُبَّان مُرْدٍ حسانٍ في دار لوط، ويتجدَّد لهم الفرح والسرور بهذه الغنيمة السهلة، سعياً للَّذة الشاذة الفاجرة.

٦٨ - ولما وصل أهل المدينة إلى دار لوط، واجتمعوا حولها، وألحُّوا عليه أن يُمكِّنهم من ضيوفه، فاسْتعصم عليه السلام، وأبى أن يُمَكِّنهم من ضيوفه، وقال لهم: إنَّ هؤلاء ضيفي، وهم في حمايتي، فلا تَفْضَحوني بين الناس، إذْ يُشاع أنَّ لوطاً مكَّن كبراء فسَّاق «سدوم» من فعل الفاحشة في ضيوفه المُرْد الحسان.

٦٩ - وقال لهم: خافوا الله في أمرهم، ولا تُذِلُّوني بالتعرُّض بالسُّوءِ لهم.

٧٠ - قال قوم لوط الذين جاؤوا إليه: أو لم نَنْهَكَ عن أن تُضَيِّفَ أحداً من العالمين؟ فكيف تستقبل في دارك ضيوفاً غرباء؟

قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمۡرُكَ إِنَّهُمۡ لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُشۡرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٖ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٧٧﴾ وَإِن كَانَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٖ مُّبِينٖ ﴿٧٩﴾ وَلَقَدۡ كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡحِجۡرِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيۡنَٰهُمۡ ءَايَٰتِنَا فَكَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُواْ يَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُصۡبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞۖ فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلۡ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَى ٱلۡمُقۡتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾

٧١ - قال لوط عليه السلام مُستعطفاً قومه الذين قَصَدُوا أضيافه مُحرجاً لهم بعرض بناته عليهم: هؤلاء بناتي، إنْ كنتم فاعلين ما أعرضه عليكم. وكان يعلم من عاداتهم أنهم لا يعتدون على نساءٍ لا حقَّ لهم بمعاشرتهنّ إلا عن طريق الزواج، حفاظاً على أنسابهم. فأعرضوا عن عرضه كما سبق في الآية (٧٩) من سورة هود.

٧٢ - وَحَيَاتِك - يا رسول الله -: إنَّ قومَ لوطٍ في شهوتهم العارمة، وشدّة غُلْمتهم التي أزالت عقولهم وتمييزهم يتردَّدون ويتحيَّرون مُنطمسي البصائر.

٧٣، ٧٤ - فقبضت الصَّيْحَةُ العُظمى المُهلكة المُميتة عليهم قبضة شديدة بعد إشراق الشَّمس، فقَلَبنا قُراهم، فَجعلنا عاليَها سافلَها، وسافلها عاليها، وأمطرنا عليهم حِجَارةً من طينٍ مُتصلِّب.

٧٥، ٧٦ - إنَّ في ذلك العذاب الباقيةِ آثاره في أرضهم لعلاماتٍ مُتعدِّدات للمتفكِّرين بتعمُّق، استدلالاً بسماتِ الأشياء وذوات الدلالات على ما وَرَاءَها من خفايا، وإنَّ قُرى قوم لوط المُهْلَكة التي غَمرَها البحر الميِّت، وآثارَ ما أنزل الله بهم من عذابه وغضبه لفي طريقٍ واضح مقيم ثابت، يراها المسافرون المارُّون بها.

٧٧ - إنَّ في ذلك الحَدَث العظيم الذي جرى لقوم لوط ولقُراهم، لآيةً من آياتِ الله الجزائيَّة العقابيَّة، ينتفع بدلالتها المؤمنون بما أنزل الله على رسوله ﷺ.

٧٨ - وقد كان أصحابُ المدينة المُلْتفَّة الشَّجر - وهم قوم شُعَيْب - لظالمين بكفرهم وجرائمهم الكبرى، استحقُّوا الإهلاكَ بسبب ظلمهم الشنيع.

٧٩ - فانتقمنا من قوم شُعيب بالعذاب، بسَحَابة كالظُلَّة التجؤوا إليها، فبعث الله عليهم ناراً أحرقتهم جميعاً. وإنَّ قرى قوم لوط، ومساكن قوم شعيب لَبِطَريقٍ واضح مُسْتبين لِمَنْ مرَّ بهما.

٨٠ - ٨٤ - ونقسم مؤكِّدين لكم أنه كذَّب أصْحابُ «وادي الحِجر» - الذي كانت تسكنه قبيلة ثمود بين الشام والحجاز - المرسلين؛ فقد جاءهم عدَّة رسل، كان صالح آخرهم إرسالاً إليهم، وآتيْناهم آياتنا البيانيَّة لتعريفهم بواجباتهم تجاه ربِّهم، وآياتنا الإعجازيَّة لإثبات صدق الرُّسل في رسالاتهم، فكانوا عن آياتنا البيانيَّة والإعجازيَّة مُعرضين غير مُلتفتين، وكانوا يَنْحِتُون صخوراً من الجبال، فيتَّخذونَ منها بُيوتاً ليسكنوها آمنين من أن تنهدم، فقبضت الصَّيْحةُ العظيمة المُهْلكَة عليهم قبضةً شديدةً وَقْتَ الصُّبح، فما كفاهم فصرف عنهم عذاب الله الذي نَزَل بهم: ما كانوا يكسبون من أموال، ويتحصَّنون به من حصون، ووسائل قوَّةٍ ودفاع وأمن.

٨٥ - وما خَلَقْنا السَّمواتِ والأرضَ وما بينهما عبثاً، بل خلقنا كلَّ ذلك متَّصفاً بالحقِّ الذي لا باطل فيه، وإنَّ الساعة التي يكون بعدها يوم الدين لآتيةٌ لا مَحَالة؛ ليُجازى المُحسنُ بإحسانه، والمُسيءُ بإساءته، فأعرِضْ - يا رسول الله - عن المشركين، وتجاوز عما يفعلونه، ولا تقابل الأذيَّة بمثلها، ولا تظهر علامات الغضب على وجهك أو كلامك.

٨٦ - إنَّ ربَّك الذي اصطفاك بالنبوَّة هو الخلاّق لكلِّ شيء، المحيط بكلِّ شيء علماً.

٨٧ - ونقسم مؤكِّدين لك أننا آتيناك - يا رسول الله - فاتحة الكتاب، وهي سبع آيات، جامعةٌ في طيَّاتها لكليَّات الدين الكبرى، هي بمثابة عنوانات عامات للدين الذي اصْطَفَاه الله لعباده، جاء بيانها التفصيليُّ في سائر سور القرآن، وآتيناكَ القُرآنَ العظيم.

٨٨ - لا تَنْظر نَظَرَ تَشَهٍّ - يا رسول الله - إلى ما متَّعنا به أصنافاً من الكفّار من متاع الدنيا وزينتها؛ لامتحانهم واختبارهم بها، فإنه مُسْتحقَر بالنسبة لما آتيناك من عندنا، ولا تحزن على كفرهم، بسبب تعريضهم أنفسَهُم لعذاب جهنَّم خالدين فيها إذا لم يُؤمنوا، وتواضع وألِنْ جانبَكَ للمؤمنين، وارفُق بهم، وأحِطْهم بالحنان والرحمة والرعاية والحفظ.

٨٩، ٩٠ - وقل - يا رسول الله - للمُعاندين المُصرِّين على باطلهم الذين سبق أن دعوتهم وعالجتهم بوسائل الإقناع: إنّي أنا النذيرُ بالعقاب لِمَنْ عَصَاني، الموضِّح لكم ما أُنذركم به، بجلاء، أُنذركم بعذاب الله يوم الدين في نار جهنم إنذاراً مُمَاثلاً لما أنزل من إنذارٍ على المُقْتسمين، من اليهود والنصارى، الذين جزَّؤوا كتابه، فقبلوا منه ما وافق أهواءهم، وحذفوا أو أخفَوْا منه ما خالف أهواءهم.

ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ
أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ
عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ
يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ
أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن
مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾

سُورَةُ ٱلنَّحْلِ

مكية — آياتها ١٢٨ — ترتيبها ١٦

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ
﴿١﴾ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ
أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ
ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾ وَٱلْأَنْعَٰمَ
خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ
﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾

٩١ - وهم الذين جَعَلوا القُرآن أجزاءَ وأعضاءَ مُفرَّقة، فجعلوا ما يُوافق كتابهم حقاً، وما يخالفه باطلاً.

٩٢، ٩٣ - فَوَرَبِّكَ - يا رسول الله - لَنَسْأَلَنَّ في موقف الحساب يوم القيامة هؤلاء المُقْتَسمين الذين جزَّؤوا القرآن أجزاءً، فآمنوا ببعض، وكفروا ببعض، عمَّا كانوا يقولونه في القرآن، ويعملون من الكفر والمعاصي.

٩٤ - فأعلن - يا رسول الله - الدَّعوة إعلاناً عاماً، وارفعَ صَوْتَكَ بما تُؤْمر بتبليغه، وإن شقَّ ذلك على بعض القلوب فانصَدَعَتْ، وأَعطِ عارِضَ وَجْهِكَ للمُشْركين المُعاندين المكابرين، ولا تَلتَفِتْ إليهم، وَوَجِّه عنايتك لآخرين غير مَيْؤوسٍ من استجابتهم.

٩٥، ٩٦ - لا تَخَفْ أحداً غيري، فأنا كافيكَ وحافظُكَ ممَّن عَادَاكَ، فإنَّا تولَّينا إهلاكَ المُستهزئين من رؤساء كفار قريش، الَّذين يجعلون مع الله إلهاً آخر، افتراءً عليه، فَسَوْفَ يعلمون إذا نَزَل العذاب بهم صدق إنذارات الرسول لهم.

٩٧، ٩٨ - وَنُؤكِّد لك - يا رسول الله - أننا نعلمُ أنَّك يضيقُ صَدْرُك، بسبب ما يقولون من الهُزْء والقول الفاحش، فافْزَعْ إلى الله تعالى فيما نابك من ضيق الصَّدر بتنزيهه سبحانه عمَّا لا يليق بجلاله، والثناء عليه بصفات كماله، وكُن من السَّاجدين الخاضعين المُتذلِّلين؛ يَكْفِك إيذاءات الكفرة، ويكشف الغمَّ عنك.

٩٩ - وتابع عبادتك لربِّك - يا رسول الله - في جميع أوقاتك ومُدَّة حياتك، ومنها قيامك بوظائف رسالتك التي حمَّلك ربُّك أعباءَها، واصْطَفَاك لها من دون سائر خلقه، حتى يأتيَكَ الموتُ الذي هو يقينٌ لا شكَّ فيه، وأنتَ في عبادةِ ربِّك.

سُورَةُ النَّحْلِ

١ - قدَّر الله وقضىٰ وحدَّد وقتاً قريباً لعقابكم - أيها الكفار - على كفركم ومعاندتكم لرسول ربِّكم، فلا تُكذِّبوا به، ولا تطلبوا تعجيله قبل أوانه، فإنه واقعٌ لا مَحَالة. تنزَّه اللَّهُ وَتَعاظَمَ بذاته المُقدَّسة وصفاته الحميدةِ عن الشِّرك، وعمّا يجعل المشركون به من شركاء له.

٢ - يُنَزِّلُ اللَّهُ الملائكةَ مصحُوبةً بجبريل عليه السلام بتعاليم الدين من أمرِهِ على مَنْ يَصْطَفيه من عباده للنبوَّة والرسالة، ومضمون الرسالة: أن بلِّغوا أقوامكم أنه لا إله إلا الله، فاعبدوه وحده، ولا تشركوا بعبادته شيئاً، وأنذروهم بعذاب خالدٍ يوم القيامة في جهنم إذا اتَّخذوا من دونه شريكاً، ومروهم ناصحين لهم بأن يتَّقوا عذاب ربِّهم بطاعته.

٣ - خَلَق الله السموات والأرض وما فيهما وما بينهما من أشياء وأحياء متَّصفاً بالحقِّ الثابت، ولم يخلقهما باطلاً ولا عبثاً، يدلُّ خلقه لهما على أنه لا ربَّ في الوجود غيرُهُ، تنزَّه سبحانه وتعالى عُلُوّاً كبيراً عمَّا يُشرك المشركون بربوبيَّته وإلٰهيَّته، فيعبدون من دونه آلهةً اتَّخذوها افتراءً عليه.

٤ - خَلَق الله سبحانه الإنسانَ من نطفة مهينة حقيرة، ومرَّ في أطوار خلقه طَوْراً بعد طَوْر، فلمّا اكتمل فاجأ الناظر إليه المتفكِّر بخلقه بأنه مُخاصمٌ ومجادلٌ بالباطل، مبينٌ في التعبير عن حُجَجِهِ الخصاميّة.

٥ - والأموال الراعية من الإبل والبقر والغنم خَلَقها لمصالحكم وحاجاتكم. لكم فيها - أيها الناس - ما تَسْتَدفئون به من اللباس المُتَّخذة من الأصواف والأوبار والأشعار، ولكم في الأنعام منافعُ أخرى في النَّسل ودرِّ اللبن والركوب والحَمْل عليها، ومن لحومها وشحومها ودهنها، ومُشتقَّات ألبانها تأكلون.

٦ - ولكم في الأنعام زينةٌ تدخل السرور عليكم حين تستريحون من تعب الرعي، وحين تدخلون في وقت الرَّواح، من زوال الشمس إلى الليل، وتردُّون أنعامكم بالعَشيِّ مَلأىٰ البطون، حافلةَ الضُّروع إلى مَرَاحِها حيث تأوي إليه بالليل، وحين تُخرجون الأنعام في الصباح إلى المرعى.

وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿٧﴾ وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٨﴾ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنۡهَا جَآئِرٞۚ وَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٩﴾ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗۖ لَّكُم مِّنۡهُ شَرَابٞ وَمِنۡهُ شَجَرٞ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلۡبَحۡرَ لِتَأۡكُلُواْ مِنۡهُ لَحۡمٗا طَرِيّٗا وَتَسۡتَخۡرِجُواْ مِنۡهُ حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَاۖ وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿١٤﴾

٧ ـ ومن نِعَم الله عليكم ـ أيها الناس ـ أن جعل بعض الأنعام مُسَخَّرة لحملَ الأحمال الثقيلة ومتاع السَّفر وما تحتاجون إليه إلى بلد غير بلدكم، لم تكونوا بالغي ذلك البلد الذي تَقْصدونه إلا بمشقَّة الأنفس وتعبها الشديد، إنَّ ربَّكم لشديد الرحمة بكم دائم الرحمة لكم، ومن آثار رأفته ورحمته بعباده: إنعامُهُ عليهم بجلائل النِّعم ودقائقها، وتعهُّدهم بعنايته وجوده، وتسخير المسخَّرات والمكتشفات والمركَّبات الأرضيَّة والجويَّة والبحريَّة.

٨ ـ وخلق الله سبحانه لكم ـ أيها الناس ـ الخيلَ والبغالَ والحميرَ؛ لأجل أن تركبوها، وجعلها زينةً مع المنافع التي فيها، ويخلق لكم مستقبلاً من وسائل الركوب في البرِّ والبحر والجوّ ممَّا لا علم لكم به قبل أن يخلقه لكم ويُلهمكم تعلُّمه؛ لتزدادوا إيماناً به وشكراً له.

٩ ـ وعلى الله بيانُ طريق الهدى المستقيم الذي لا اعوجاج فيه، وهو الإسلام، بنصب الدلائل عليه، وإرسال الرسل، وإنزال الكتب، ومن النفوس مَنْ يلتزم بمطلوب الله من عباده، ومنها نفوس جائرة ظالمة لا تلتزم بمطلوب الله منها، ولو شاء الله ـ أيها الموضوعون في الامتحان في الحياة الدنيا ـ لسلبكم إراداتِكم الحرَّة، ولَجَعَلكم مَجْبورين لا اختيار لكم، مَهْديين كالملائكة، ولكنَّ سلبَكم إراداتِكم الحُرَّة يُلغي حكمة ابتلائكم في الحياة الدنيا، فلا تزعموا أنكم مجْبورون، ولا تطلبوا من الله أن يهدي بالجَبْر الضَّالِّين الكافرين.

١٠ ـ واللَّهُ الذي خَلَقَ جميع الأشياء هو الذي أنزل من السحاب ماءً حُلواً طهوراً نافعاً، لكم من ذلك الماء شراب تشربونه، ولكم ـ أيها الناس ـ من ذلك الماء شجرٌ يكون الماء سبباً في نباته ونمائه، فأنتم فيه تُطلقون أنعامكم سائمة ترعى من أشجار الأرض ونباتها.

١١ ـ يُنْبِتُ الله لكم بذلك الماء الحبَّ الذي يُقْتاتُ به، والزيتونَ، والنخيلَ، والأعنابَ، ومن سائر الثمرات. إنَّ في ظاهرة المطر، وما فيه من شراب للناس، وإنبات أنواع الثمار لعلامة دالَّة على قدرتنا وشمول علمنا، وعظيم حكمتنا لقوم يتفكرون بدلائل قدرتنا، وعظيم نعمنا على عبادنا.

١٢ ـ وذلَّل لكم الليل لراحتكم، والنَّهار لمعاشكم، وذلَّل لكم الشَّمس ضياءً، والقمرَ نوراً، ولمعرفة السنين والحساب، وغير ذلك من المنافع. والنجومُ في السماء مقهوراتٌ مُذلَّلات بأمر ربِّها التكوينيّ، يُصَرِّفها كيف يشاء ويختار، إنَّ في ذلك التسخير للَّيل والنهار والشمس والقمر والنجوم، لعدداً من الآيات الدالات على صفات جليلات من صفات الله وأسمائه، يتوصَّل لها الذين يعقلون عقلاً علمياً وإرادياً، فيدركون دلالات هذه الآيات، ويُوجِّهون إراداتهم للعمل بما تقْتضيه هذه المعارف التي توصَّلوا إليها.

١٣ ـ وما خلق لكم في الأرض، ونشر فيها عن طريق الذرِّيَّة، وسخَّر لأجلكم من الدوابِّ والأنعام والأشجار والثمار مختلفاً ألوانه وخصائصه وأصنافه وأنواعه في الخِلقة والهيئة والكيفية، إنَّ في اختلاف أنواع المخلوقات وألوانها مع كثرتها لآيةً جليلةً دافعةً لقومٍ يتذكَّرون منكم، بأن يعملوا مع كلِّ تذكُّر لِلَونٍ من ألوان نِعَم الله على عباده ما يقْتضيه من واجب شكر الله على نعمه، وواجبَ طاعته في أوامره ونواهيه.

١٤ ـ والله الذي ذلَّل لكم البحر؛ لتأكلوا ممَّا تصْطادون من سمكه لحماً غضّاً ليِّناً، وتستخرجون منه زينةً تَلْبسونها ويلبسها إناثكم كاللؤلؤ والمرجان، وترى ـ أيها الرائي ـ السُّفُن جَواري في البحر، تشقُّ الماء شقّاً، وتركبونها لتَبْتغوا من فضل الله الأرباح بالتجارة في البحر، ورغبةً منا في أن تشكروا إنْعامَ الله عليكم؛ لتنجوا من عذاب الكافرين الجاحدين، ولتنالوا ثوابَ الشاكرين في جنات النعيم يوم الدين.

وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾

١٥ ـ وألقى في أعماق الأرض جبالاً ثوابت راسيات تُثَبِّت قشرة الأرض؛ مَنْعَ أن تميلَ بكم الأرض وتَضْطرب بسبب الضغوط الغازية بباطن الأرض، وشقّ في الأرض أنهاراً، وجعل لكم في سطح الأرض طُرقاً مختَلفة تَسْلكونها في أسفاركم، وتصرُّفكم في حوائجكم، رغبةً في أن تَصِلُوا بسلوك تلك الطرق إلى ما تريدون الوصول إليه فلا تضلّون.

١٦ ـ وجعل لكم في الأرض علاماتٍ نُميِّز بعضها عن بعض، تهتدون بها في أسفاركم، وجعلنا في نجوم السماء علامات توصِّل إلى معرفتها أولو النظر العلمي، فهم يهتدون بها في ظلمات البر والبحر، لتحديد اتِّجاهاتهم، والطرق التي يسلكونها. وهذه الآية أصل لمراعاة النجوم لمعرفة الأوقات والقِبلة والطُرق.

١٧ ـ أفمن يَخْلُقُ هذه المخلوقات البديعة المرئيَّة بالعَيان، وهو الله تعالى، كهذه الأصنام العاجزة التي لا تقدر على شيء؟ أفلا تضعون هذه الحقيقة في مواضع تذكُّركم الواعي، فتعرفون فسادَ ما أنتم عليه، فتتركوا عبادة هذه الجمادات التي لا تخلق شيئاً، وتصرفوا العبادة لله سبحانه خالق هذه الأشياء كلها.

١٨ ـ وإنْ تحاولوا عدَّ مفردات نِعَم الله عليكم لا تستطيعون إحصاءها، لخفاء مُعظمها عليكـــم، ولكثرتها كثرةً تفوق استطاعتكم على الإحصاء؛ إنَّ الله كثير السَّتْر لتقصيركم في القيام بشكر نعمته كما يجب عليكم، واسع الرحمة بكم حيث وسَّع عليكم النِّعم، ولم يقطعها عنكم بسبب التقصير والمعاصي.

١٩ ـ واللَّهُ سبحانه يعلم كلَّ أعمالكم، سواء ما تُخفونه منها في نفوسكم وما تظهرونه لغيركم، لا تخفى عليه خافية، وإنْ دقَّت وخَفِيَتْ.

٢٠ ـ والذين يُعبَدُون من دون الله كانوا أحياءً فماتوا، ما كانوا يخلقون شيئاً، بل هم يُخلقون خلقاً من بعد خلق مع توالي أزمان بقائهم في الحياة.

٢١ ـ لو كانت هذه المعبودات من دون الله آلهةً ـ كما تزعمون ـ لكانت أحياء غير جائز عليها الموت، لأنَّ الإله الذي يستحقُّ أن يُعبد هو الحيُّ الذي لا يموت، وهذه جماداتٌ ميِّتة لا حياة فيها، فلا تستحقُّ العبادة، وما يشعرون متى يُبعثون ليوم الحساب، وفصل القضاء، وتنفيذ الجزاء.

٢٢ ـ إنَّ الذي يستحقُّ العبادة إلهٌ واحدٌ لا شريك له، فالَّذين لا يؤمنون بالآخرة ـ على الرُّغم من كلِّ الحجج البرهانية ـ قلوبهم جاحدةٌ وحدانيَّتَهُ سبحانه، لا تتقبَّل الأنباء الصادقة التي تُحدِّثهم عن يوم الجزاء الأكبر، فلا يخافون عقاب الله، وهم مستكبرون عن اتِّباع الحق، وعبادة الله الواحد.

٢٣ ـ حقاً أنَّ الله يعلمُ ما يُخفون وما يُظْهرون، وسيُجازيهم على ذلك؛ إنَّه عزَّ وجلّ لا يُحبُّ المستكبرين عن اتِّباع الحق، ومَن جَعَل نفسه بإرادته الحرة في زمْرة الذين لا يحبُّهم الله سبحانه، فقد جعلها عُرضةً لنقمته وعذابه الشديد.

٢٤، ٢٥ ـ وإذا قيل لهؤلاء الذين لا يؤمنون بالآخرة: ماذا أنزل ربُّكم على رسوله محمَّد ﷺ؟ قالوا كذباً وزوراً: أباطيل الأوَّلين وأحاديثهم؛ يضلُّون بقولهم هذا من يتأثَّر بهم من أتباعهم؛ لتكون عاقبتهم يوم القيامة أن يحملوا آثام ضلالهم كاملةً يوم القيامة، ويحملوا معها آثام الأتباع الجاهلين المقلِّدين الذين يُضلُّونهم، جهلاً من المضلِّين بما يستحقُّونه من العذاب الشديد على ذلك الإضْلال، ألا بِئْسَ ما يحملون من آثام ضلالهم وإضلالهم.

٢٦ ـ قد دبَّر الكفارُ الذين من قبلِ كفار قريش مكايدَ الشرِّ لرسلهم، وأهلِ الحق من عباده، فأتىٰ الله بنيانَهم من أساسه وقواعده، فزلزل الله أبنيتهم، فَسَقَطَ متفكِّكاً من أثر الزلزال سقف كل بناء عليهم، فأهلكهم وماتوا جميعاً تحته، ولم يستطع أحد منهم الإفلات، وأتاهم العذاب في مَأمنهم، من أمكنةٍ لم يكونوا يتوقَّعون بأنها ستأتيهم منها.

ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾ ۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا۟ خَيْرًا ۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٤﴾

٢٧ - ثمّ بعد مدّة البرزخ وبعثهم للحساب وفصل القضاء، يُهينهم الله بالعذاب يومَ القيامة، ويقول لهم: أين شُركائي في زعمكم واعتقادكم الذين كنتم تخالفون المؤمنين وتخاصمونهم في شأنهم، وتزعمون أنهم شركاءُ حقاً؟ ما لهم لا يحضرون معكم ليدفعوا عنكم ما نَزَل بكم من العذاب والهوَان؟ قال الذين أوتوا العلم من إنس وجنٍّ مؤمنين وملائكةٍ: إنَّ الهوان في يوم القيامة والعذاب على الذين كانوا في حياة الابتلاء كافرين.

٢٨ - الذين يَقْبض مَلَكُ الموت وأعوانُه أرواحَهم في آجالهم بعد رحلة الابتلاء في الحياة الدنيا، حالة كونهم ظالمين أنفسهم بالكفر، فاسْتَسْلموا لأمر الله الذي نَزَل بهم، وانقادوا حين رأَوْا عذاب الآخرة، وجَحَدوا ما كان منهم في الدنيا، وقالوا كاذبين: ما كنا نعمل شيئاً من الشِّرك والمعاصي. فيقال لهم: بلى، كنتم كفرةً، وكانت أعمالكم سيِّئةً مُلائمة لكفركم، إنَّ الله عليمٌ بما كنتم تعملون، لا تخفى عليه خافية مهما كانت سراً في نفوسكم، فلا فائدةَ لكم في إنكاركم.

٢٩ - ويُقال لهم: ادخُلوا بحسب دَرَكاتكم أبواب جهنَّم خالدين فيها، لا تخرجون منها، فَلَبِئْس مقرُّ المتعاظمين عن الإيمان بالله وعن عبادته وحده وطاعته.

٣٠ - وقيل للذين اتَّقوا بعد أن تتوفَّاهم الملائكة طيِّبين: ماذا أنزل ربُّكم من بياناتِ دينه لعباده على النَّبيِّ ﷺ؟ قالوا: أنزل ربُّنا خيراً عظيماً وآمنّا به. للَّذين أتَوْا بالأعمال الصَّالحة من درجات مرتبة الإحسان، ثوابُ إحسانهم في هذه الدنيا من النصر والفتح والرزق الحسن، وما أعدَّ الله لهم في الجنة خيرٌ ممَّا يحصل لهم في الدنيا، ومَدْحٌ عظيمٌ فائق لدار المؤمنين المتَّقين، كاملي التقوى، بفعل كلِّ الواجبات، وترك كلِّ المُحرَّمات.

٣١ - جنَّات ثبات واستقرار دائم يَدْخُلونها، تجري من تحت قصورهم ومساكنهم الأنهار، لهم في الجنَّات ما تشتهي الأنفسُ وتلذُّ الأعين، ومثل جزاء المتّقين من أمّة محمد ﷺ يجزي الله كاملي التقوى، من كلِّ أمةٍ ربَّانيَّة من أتباع الرسل قبل بعثة محمد ﷺ، ووصول رسالته الخاتمة للموضوعين في الحياة الدنيا موضع الامتحان.

٣٢ - الذين تَقْبضُ الملائكةُ أرواحَهُم في آجالهم بعد رحلة الابتلاء في الحياة الدنيا، حالة كونهم مؤمنين طاهرين من دَنَس الشِّرك والمعاصي، تقول الملائكة لهم: سَلامٌ عليكم، ادخُلوا الجنَّة بسبب ما كنتم تعملون في الدُّنيا من الأعمال الصَّالحة التي كانت سبباً في تحقيق وعد الله بأن يتفضَّل عليكم بدخول الجنة مُنعَّمين خالدين؛ لأنَّ العمل الصالح مهما بلغ لا يُكافيء ما تفضَّل الله به عليكم في الحياة الدنيا، من نعمه الكثيرة.

٣٣ - هل ينظرُ هؤلاء الذين أشركوا بالله وجَحَدوا نبوَّتَكَ - يا رسول الله - إلاّ أن تأتيَهم الملائكة؛ لقبض أرواحهم، فيعذِّبوهم بضرب وجوههم وأدبارهم عند موتهم، أو يأتي أمرُ ربِّك بعذابِ الاستئصال في الدنيا، كذلك الفعل الذي يفعله أئمة الشرك في مكة فَعَلَ أئمة الشرك الذين من قبلهم، فأهلكهم الله إهلاكاً شاملاً مقروناً بعذاب أليم، وما ظلمهم الله حين أنزل بهم العذاب المُهْلك المُدمِّر، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون بإصرارهم على الكفر والمعاصي.

٣٤ - فأصابهم عقابُ سيِّئات ما اكتسبوا من الأعمال الخبيثة، وأحاط بهم ولزمهم الإنذار الذي كانوا يسخرون به، قبل أن يستأصلهم الله سبحانه استئصالاً مقترناً بعذابه الأليم.

وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن
شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ
فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ
﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ
وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ
حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ
كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ
فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾
وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ
وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾
لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ
كَانُواْ كَٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ
لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ
لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ ٱلْأٓخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ
يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾

٣٥ - وقال مشركو مكة: لو شاء الله ما عَبَدنا من دون جَبْره لنا من شيء، لا نحن ولا آباؤنا من قبلنا، ولا حرَّمنا من دون جَبْره لنا شيئاً لم يُحرِّمه، فما ارتكبنا من الشِّرك وتحريم ما حرَّمنا واقع بإجباره، بمثل هذا الاحتجاج الباطل احتجَّ الذين من قبلهم من كفار الأمم الماضية، وهم كاذبون، فإنَّ الله أمرهم ونهاهم، وجعل لهم مشيئةً تصدر عنها أفعالهم، فاحتجاجهم بالقضاء والقدر على كفرهم وتحريمهم الحلال من أبطل الباطل، من بعد إنذار الرسل لهم، فليس على الرسل، وفي خاتمهم محمدٌ ﷺ إلا البلاغ الواضح الظاهر الذي يعرف به المدعوُّون قضايا دينهم، وليس عليهم إجْبار الناس على الإيمان، وتحويلهم من الكفر.

٣٦ - ونؤكِّد لكم أننا بعثنا في كلِّ أمم الأرض رسولاً، كما بعثنا محمداً ﷺ رسولاً للناس جميعاً، يأمرونهم بأن يعبدوا الله وحده، وَيَجْتَنبوا عبادة كلِّ كثير الطغيان، وكُلِّ رأس في الضلال، وكلِّ ما عُبد من دون الله، فمن الأمم الذين جاءتهم الرسل من استجاب لدعوة الحقِّ، فآمن باللَّهِ وبرسوله، وعبد اللَّه وحده ولم يُشرك به أحداً، فحكم الله له بالهداية، ومن الأمم مَنْ لم يسْتَجب لدعوة الحق، فلم يؤمن بالله ورسوله، بل استمرَّ على ما كان عليه من كفر واتِّباع للطاغوت، فحكم الله عليه بالضلالة، فثبتت عليه عقوبة ضلالته باختياره الحر، فكان مع المُكذِّبين المُهْلَكين إهلاكاً عاماً شاملاً، فسيروا في الأرض، فانظروا بأعينكم مُعتبرين مُتفكِّرين آثار ديارهم وبلادهم، لتعرفوا مآلَ من كذَّب الرسل، ولتعرفوا أنَّ العذاب نازلٌ بكم، إنْ أصررتم على الكفر والتكذيب كما نَزَل بهم.

٣٧ - إنْ تَحرِص - يا رسول الله - وتجتهد كل الاجتهاد على هُدى هؤلاء وإيمانهم لن تقدر عليه، فإنَّ الله خلقهم ذوي إرادات حرة؛ لِيَبْلوَهم فيما آتاهم، ولا تستطيع أن تكون مُجْبراً لهم، وإنَّ ربَّك لا يحكم بهداية من حكم عليهم بالضلالة، لأنه في واقع حاله ضالٌّ، وما لهم حين يقضي ربك بتنفيذ عقابه عليهم من مانعين يمنعونهم من العذاب.

٣٨ - وأقسم هؤلاء المشركون بالله أَقْصى أيْمانهم، وكل ما يجتهدون بالقسم به قائلين: لا يبعث اللَّهُ مَنْ يموت، دون أن يكون لهم أي مُسْتند عقلي أو علمي أو خبري يُبرِّر ادِّعاءَهم. فردَّ الله تعالى عليهم وكذَّبهم فقال: بلى، يبْعَثُهم الله بعد الموت، فالذي خلق الإنسان وأوْجَدَه من العدم قادرٌ على إيجاده بعد إعدامه؛ لأنَّ النشأة الثانية أهون من الأولى، إنَّ الذي وَعَدَ به من البعث بعد الموت، وعدٌ حقٌّ على الله، وهو سبحانه لا يُخلف وعده، ولكنَّ أكثر الناس لا يعلمون كيف تكون تلك الإعادة، والله سبحانه قادرٌ على كلِّ شيء.

٣٩ - يبعثُ الله جميعَ العباد؛ لِيُبَيِّن لهم الذي يختلفون فيه من عقائد حول أصول الدين وشرائعه وأحكامه، ويظهر لهم الحقَّ الذي لا خُلْفَ فيه، وليعلم الذين كفروا أنَّهم كانوا في الحياة الدنيا كاذبين في قولهم: لا بعثَ بعد الموت.

٤٠ - إننا إذا أردنا أن نُحيي الموتى ونبعثهم للحساب والجزاء، فلا تعب علينا في إحيائهم وبعثهم، إنَّما نقول لشيء أردناه: كن فيكونُ على ما أردناه.

٤١ - والذين هاجروا في سبيل الله وابتغاء مرضاته، تاركين أهلهم وبلدهم ومساكنهم وأموالهم - من بعد ما أُوذوا وعُذِّبوا ولم يجدوا وسيلة يكفُّون بها عن أنفسهم ظلم الطغاة المتجبِّرين من أئمة الكفر -، لَنُسْكِنَنَّهُمْ في الدنيا داراً حسنة، ولَأَجْرُ الله الذي يفيضه عليهم في الآخرة أعظمُ وأفْضَلُ ممَّا أعطاهم في الدنيا، لو كانوا يعلمون ما أعدَّ لهم في الآخرة لزادوا في الجِدِّ والاجتهاد والصبر على ما أصابهم من أذى المشركين.

٤٢ - هؤلاء المهاجرون في سبيل الله هم الذين صَبَروا على العذاب ومفارقة الوطن، وعلى الجهاد وبذل الأنفس والأموال في سبيل الله، وعلى ربِّهم وحده يتوكَّلون في أمورهم كلِّها، مع القيام بالأسباب المُسْتَطاعَةِ الماديَّة والمعنويَّة طاعةً لأمر الله ونهيه.

وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾ ۞ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٥١﴾ وَلَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا ۚ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾

٤٣، ٤٤ - وما أرسلنا من قَبْلك - يا رسول الله - إلا رجالاً مثلك نُوحي إليهم، فهذه سُنَّتُنا الجارية أننا لم نبعث رسولاً إلا من البشر، وإنْ أنكرتم ذلك - يا مُشركي مكة - مع أنكم تؤمنون بأن الله أرسل رُسُلاً بشراً من قبل محمد، ومنهم إبراهيم وإسماعيل وموسى وعيسى، فاسْألوا أهل الكتاب من اليهود والنصارى، فَسيُخبرونكم بأنَّ الرسل الذين أرسلوا إليهم كانوا بشراً، إن كنتم - يا أهل مكة - لا تعلمون هذه الحقيقة. أرسلنا الرسل مَصْحُوبين بالمعجزات الباهرات الدالات على صِدْقهم، والكتب المُنَزَّلة عليهم من الله لبيان الشرائع والتكاليف، وأنزلنا عليك - يا رسول الله - القرآن الذي هو ذكر الأمة الخاتمة للأمم؛ لِتُبَيِّن للنَّاس ما أجمل من الأحكام والشرائع بياناً وافياً شافياً، ورغبةً في أن يستنبط المتفكرون فيما تضمّنه القرآن من علوم ومعارف أخرى.

٤٥ - ٤٧ - أَمَلَكَ كفَّارُ قريش الذين دبَّروا المكايد السيِّئات برسول الله ﷺ وبأصحابه، وبالغوا في أَذِيَّتهم، تصاريف الكون، أو كان لديهم علمٌ ممَّن بيده ملك كل شيء، بأنهم سالمون من أحداث الكون المهلكة؟! فأَمِنُوا أن يُغَيِّبَهم اللَّهُ في الأرض ويطمرهم في باطنها، **أو** يَأْتِيَهُمُ العذابُ فجأة فَيُهلكهم من مكان لا يشعرون بأنه سيأتيهم، كأنْ يأتيهم بالأمراض التي تنتشر داخل أجسادهم، أو من أقرب الناس وأحبِّهم إليهم، **أو** يصيبهم العذاب في تصرُّفهم وتنقُّلهم، لقضاء مصالحهم وحاجاتهم في أوطانهم وأسفارهم آمنين، فما هم بفائتين من عذاب الله بالهرب، **أو** يقبض عليهم قبض إهلاك مع تعذيب حالة كونهم يتخوَّفون من مصائب وبلايا تحدثُ قليلاً قليلاً في الأموال والأنفس والثمرات إلى أن يأتي الهلاك على آخرهم، إنَّ ربَّكم لشديد الرحمة بخلقه، وواسع الرحمة بهم لا يُعَجِّل بالعقوبة والعذاب، رغبةً في أن يتوبوا ويؤمنوا ويُقْلعوا عن مكرهم السيِّئات.

٤٨ - ٥٠ - أعَمُوا وَلَمْ يَرَوْا بأبصارهم إلى كلِّ ما خَلَق الله من الأشياء والأحياء ذوات الكثافة الحاجبة للضوء، كالجبال والأشجار والناس، يكون لها ظلٌّ ساقط على الأرض، ففي الصباح يكون ظلُّه ممتداً على الأرض إلى جهة الغرب، وبعد الزوال يفيء ظله فيمتدُّ على الأرض شيئاً فشيئاً إلى جهة الشرق، تبعاً لحركة ضياء الشمس منذ إشراقها حتى غروبها. والإنسان حيث اتَّجه وَجَد ظلَّه وظلَّ الأشياء من حوله يتفيأ متدرّجاً، فإذا التفت إلى جهة يمينه وأَيْمانه، وإلى شماله وشمائله وَجَد هذا السجود لظلِّه ولظلِّ الأشياء من حوله، كلُّ هذه الأشياء والأحياء خاضعة لله، مُسْتَسْلمة لأمره، جارية على ما أراده لها من امتداد وتقلُّص، غير ممتنعةٍ عليه سبحانه فيما سخَّرها له، وهذه الأشياء والأحياء ذوات الظلال منبطحة على الأرض تدوسُها الأقدام، وهم أذلاَّء صاغرون. ولو شاء الله لجعل أجساد الناس غير حاجبة للضياء، وحينئذ لا يكون لها ظلال، ولكنه جلَّ جلاله جعلها ذات ظلال، ليُشعرهم أنَّ ظلالهم ساجدةٌ على الأرض له بالقهر والجَبْر، كما أنَّ أجسادهم خاضعة لسلطانه إيجاداً وعدماً وتصرُّفاً بالقهر والجَبْر، فمن الخير للإنسان أن يكون في حركته الإرادية ساجداً مع الساجدين، وأن يجعل ما هو فيه مختارٌ مثل ما هو فيه مَجْبور. ولله وحده سبحانه يسجدُ سجودَ طاعةٍ وعبادة، وسجودَ انقيادٍ وخضوع كل ما في السموات وما في الأرض ممَّا يدبُّ عليها، والملائكة يسجدون لله جميعاً خاضعين لعظمته، وهم لا يستكبرون عن عبادته. يخافُ الملائكةُ ربَّهم العالي عليهم بتذليله إيَّاهم، ويفعلونَ ما يأمرهم ربُّهم فلا يعصونه في شيء صغير أو كبير، قليل أو كثير، فمن الحكمة والانسجام مع الكون كلِّه أن لا يشذَّ الذين كفروا، فيستكبروا عن السجود لله ربِّهم خضوعاً له وذلاً.

٥١، ٥٢ - وقال الله سبحانه لعباده: لا تعبدوا إلهَين اثنَين، كمجوس الفرس، ومن اتَّبع دينهم من قبائل العرب، الذين يثبتون إلٰهين اثنين: إلهاً للخير، وهو النور، وإلهاً للشرّ، وهو الظلمة، لا يجوز أن يكون في الوجود إلهان اثنان، إنَّما الإله الحقُّ هو إلهٌ واحدٌ لا شريك له، فإيَّايَ فَخَافونِ، فلا تخافوا إلاَّ منّي، ولا ترغبوا إلاَّ إليَّ. وله سبحانه كلُّ ما في السَّمواتِ والأرضِ خَلْقاً ومِلْكاً وتَصَرُّفاً، ولهُ العبادةُ والطاعةُ والانقياد، وإخلاصُ العمل دائماً وواجباً لازماً، أفبعد هذا البيان الجليِّ تتقون عقاب إله الشرِّ الذي جعلتموه إلٰهاً كذباً دون أن يكون لكم دليلٌ يثبت إلٰهيَّته، ويثبت صحة تخوُّفكم منه؟

٥٣، ٥٤ - وما بكم من نعمةٍ فكلُّ ذلك من الله، وليس شيء منها من إلٰه الخير الذي تؤمنون به دون أن يكون له وجودٌ إلا في أوهامكم، ثمَّ إذا مسَّكم المرض والشدَّة، فإليه سبحانه وحده ترفعون أصواتكم بالدعاء؛ ليكشفَ عنكم ما نزل بكم من الضَّراء والشدَّة، ثم إذا أزال الشدَّة والبلاء عنكم، فاجأ جماعة منكم، فأعلنوا شركهم بربِّهم المُنْعِم عليهم، فجعلوا يضيفون كشف الضُّرِّ عنهم إلى الإلٰه الباطل الذي يؤمنون به، أو إلى أسباب يجعلونها منفصلة عن إرادة الله.

لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾

٥٥ - إنهم أشركوا بالله؛ لِيَجْحَدوا نِعَمَهُ عليهم في كشفِ الضُّرِّ، حتى لا يلتزموا بما يجب عليهم من شكر الله ربّهم، والقيام بطاعته، فعيشوا في اللذة التي أنتم فيها إلى المدّة التي ضربها الله لكم، فسوف تعلمون يوم الدين عند نزول العذاب عاقبةَ أمركم.

٥٦ - ويجعلُ المشركون للأصنام التي ليس من شأنها العلمُ، لكونها جمادات لا تحسُّ ولا تشعر، نصيباً من زروعهم وأنعامهم وأموالهم التي رزقهم الله. واللّهِ لَتُسْأَلُنَّ - أيُّها المشركون - يوم القيامة في محكمة العدل الربانيّة عمَّا كنتم تكذِّبون في الدنيا في قولكم: إنَّ هذه الأصنام آلهة، وإنَّ لها نصيباً من أموالكم.

٥٧ - ويجعلُ المشركون بالافتراء القوليّ والاعتقاديّ لِلّه ربِّهم الذي لم يلد ولم يولد البناتِ، فيقولون: الملائكةُ بناتُ الله - تَنَزَّهَ اللّهُ عن الولد والبنات - ويجعلُ المشركون لأنفسهم ما يحبُّون من البنين.

٥٨ - إنَّ هؤلاء المشركين لا يرضى أحدهم بالبنت الأنثى أن تُنْسَب إليه، فكيف يرضى أن ينسبها إلى الله؟ وإذا بُشِّر أحدُهم بأنه ولدت له من زوجته مولودة أنثى، صار وَجْهُهُ مُسْوَدّاً من كراهية ما بُشِّر به، وظلَّ طوال نهاره كئيباً، وهو مُمْتَلِئٌ غمّاً وحزناً.

٥٩ - يتخفَّى من قومه، من سُوء ما بُشِّر به، ولا يَظهر أمامَ الناس، حتى لا تظهر قَسَمات وجهه الكالحة الدالة على ما في نفسه من كراهية للمولودة، تُحدِّثه نفسه: أيُمْسك ما بُشِّر به على هَوَان وذل؟! أم يُخفي ذلك الذي بُشِّر به في التراب، ويدفنه حيّاً حتى يموت؟!

تنبَّهوا وتحققوا، قبُح قبحاً شنيعاً ما يصنعون ويَقْضون، من أحكام جاهلية لا عقل فيها ولا رُشْد، ولا عدل ولا حكمة.

٦٠ - للّذين لا يؤمنون بالآخرة صفةُ السُّوء من احتياجهم إلى الولد الذكر، وكراهتهم الإناث وقتلهنَّ خوفَ الفقر والعار، وللّهِ جميعُ صفاتِ الكمال والجَلال، في ذاته وصفاته وأفعاله الحكيمة، وأسمائه الحسنى، وهو القويُّ الغالب المُمْتَنع في كبريائه وجلاله، الحكيمُ فيما يشاء ويختار، وقد تقتضي حكمته إمهال العصاة المجرمين، فيؤخِّر عقابهم؛ ليؤمنوا ويتوبوا.

٦١ - ولو يُتابع اللّهُ عزَّ وجلّ مُؤَاخَذَة النَّاس بالعقاب بسبب ظلمهم، الذي يستحقُّون به التعذيب والإهلاك، ما ترك على وجه الأرض من دابّةٍ تدبُّ عليها، ولأهلَكَ جميع الأحياء التي لم توضع في الحياة الدنيا موضع امتحان، لأنها مخلوقة لأجل الناس، فإذا أهلك الناس لم يكن لهذه الأحياء غاية حكيمة يبقون بسببها في الوجود في الحياة الدنيا، ولكن يُمهلهم الله بفَضْله وكرمِهِ وحلمه إلى أجلٍ مُحدَّدٍ مُسمّىً عنده، فإذا اقترب أجل مؤاخذتهم بمقتضى حكمته، فإنهم لا يستطيعون تأخير نزول عذاب الله وعقابه لحظة واحدة، وإذا كان في الأجل مهلةٌ فإنهم لا يستطيعون تعجيل إنزال عقاب الله وعذابه لحظة واحدة.

٦٢ - ويجعلون بالادِّعاء الكاذب المُفْتري، لِلّهِ ما يكرهون نظيرَه لأنفسهم من الشريك، ويتقرَّبون إليه من القربات ما يكرهون نظيره لأنفسهم، وتصف ألسنتهم الوصْفَ الكذب: أنَّ لهم عند الله المنزلة الحُسنى في الجنّة، إن كان محمد صادقاً في البعث بعد الموت. حقَّ وثَبَتَ أنَّ لهم النار في الآخرة يعذَّبون فيها، وأنهم مُقدَّمون على غيرهم في دخول النار، لفرط غُلوِّهم في الكفر الجُحوديِّ العنادي.

٦٣ - تاللّهِ كما أرسلناك إلى هذه الأمة، نؤكِّد أننا أرسلنا إلى أمم من قبلك، وفي مقدِّمتهم اليهود والنصارى والصَّابئون، فحسَّن لهم الشيطان بإلقاء الوسوسة، أعمالهم الخبيثة من الكفر والتكذيب، فانساقوا مع الشيطان في تزييناته حتى خرجوا عن صراطنا المستقيم، فمن لم يستجب لدعوتك منهم بعد بعثتك، فالشيطان ناصرُهم اليوم في الحياة الدنيا، ومَنْ كان الشيطان ناصرَه ووليَّه فهو مخذولٌ مغلوب، ولهم يوم الدين عذابٌ أليم موجع في الجحيم.

٦٤ - وما أنزلنا عليك الكتابَ - يا رسول الله - إلا لِتُبيِّن للمُنْتمين للملل السابقة التي حرَّفها أتباعها عن أصولها، الذي اخْتلفوا فيه عن الحقِّ المنزَّل من عند الله، وأن يكون القرآن بياناً ورُشْداً عظيماً يهدي إلى طريق الحق، ورحمة لقوم لديهم الاستعداد النفسي والقلبي لأن يؤمنوا بالحقِّ الذي اشتمل عليه كتاب الله، ويعملوا به.

وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ ۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ ۚ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾

٦٥ ـ واللَّهُ أنزل من السَّحاب مطراً، فأحيا به الأرض بالنباتِ والزروع بعد يَبْسها وجَدبها، إنَّ في ذلك لدلالةً واضحةً لقومٍ يسمعون، فهي دلالة قريبة يكفي لإدراكها التذكير بالقول، حتى يدرك السامعون ما تحتوي عليه من أدلة كونية تدل على قدرة الخالق العظيم وحكمتِهِ.

٦٦ ـ وإنَّ لكم ـ أيها الناس ـ في الأنعام ـ وهي الإبل والبقر والغنم ـ لأمراً عجباً، إذا تفكَّرتُم فيها عرفتم كمال قدرتنا، نسقيكم من ضروعها لبناً خارجاً ـ من بين فَرْث ـ وهو الأشياء المأكولة المنهضمة بعض الانهضام في الكَرِش ـ وبين دم، نقياً خالصاً من كلِّ الشوائب، جارياً في حُلوق الشَّاربين سَهْلاً لذيـذاً هَنيئاً مَريئاً.

٦٧ ـ ولكم أيضاً عبرةٌ فيما نسقيكم ونرزُقكم من ثمراتِ النخيل والأعناب، ما تتَّخذون منه خمراً مُسْكِراً غير حَسَن ـ وهذا قبل تحريمها ـ ورزقاً حسناً يُنتفع به من ثمر النخيل وأشجار العنب، وهو نحو الزبيب والتمر والدِّبس والخل، إنَّ فيما ذكرنا من إنعامنا على عبادنا لدلالةً وحُجَّةً واضحةً لقوم يعقلون عقلاً علمياً يدركون عظمة إتقان الصُّنع الربّاني، وعقلاً إرادياً يكفُّون به نفوسَهم عمَّا يضرُّهم، وهو غير حسن لمآكلهم ومشاربهم ولو كانت تتطلَّبه شهواتهم وأهواؤهم.

٦٨، ٦٩ ـ وألهم اللَّهُ النَّحلَ القيامَ بالأعمال العجيبة، بأن اتَّخذي بُيوتاً في كهوف الجبال، وفي متجوّف الأشجار، وفيما يَبْني النَّاسُ من الخلايا ويَسْقفون. ثمَّ بعد أن تبني بيوتك، كُلي من كلِّ الثمرات التي تَشْتهيها، فاسْلُكي الطُّرقَ التي ألهمَك الله أن تَسْلكيها وتدخلي فيها لأجل طلب الثمرات، مُذلَّلةً لك الطُّرق، مُسَهَّلة لك مسالكها، يَخْرُجُ من بطون النحل بخلق الله، وإتقان صنعه، شراب هو «عَسَلٌ» مختلف ألوانُه بسبب اختلاف خصائص مركباتها ما بين أبيض وأحمر وأصفر، في كلِّ صنف من أصناف العسل الذي يخرج من بطون النحل شفاءٌ للناس لصنف من أصناف الأوجاع والأمراض التي دواؤها فيه، إنَّ فيما يصنعه النَّحْل ـ من بيوت دقيقة محكمة بديعة، وفي غدوِّها لاقتطاف الأزهار والثمار، ورواحها إلى خلاياها من مسافات بعيدة دون أن تخطئها، ودأبها على عملها بنظام دقيق مع صغر حجمها وضعف بنيتها ـ لآيةً لقوم يتفكّرون ويستدلُّون بما ذكرنا على وحدانيَّتنا وكمال قُدْرتنا.

٧٠ ـ واللَّهُ أَوْجَدكم من العَدَم، وأخرجكم إلى الوجود، ولم تكونوا شيئاً، ثمَّ يتوفاكم عند انقضاء آجالكم، وبعضكم يُعمَّر حتى يُنكَّس في الخلق، ويُرَدَّ إلى أردأ العُمُر وأضعفِهِ، وهو وقت الهَرَم الذي تُنتقص فيه القُوى وتضعف؛ لكي يرجع إلى حالةِ الطفوليَّة بنسيان ما كان علم بسبب الكِبَر، فلا يتعاظمنَّ أحدٌ بقدرته، ولا يتفاخرنَّ أحدٌ بواسع علمه، فقدرتُهُ وعلمُهُ عطاءٌ من الله، ومن أعطى وَوَهب، قادرٌ على سلب ما وَهَب، إنَّ الله عليمٌ لا يتعرَّض علمه للنقص، قديرٌ لا تتعرَّض قدرته للعجز، وبقدرته المقرونة بعلمه يفعل في كونه وعباده ما يشاء.

٧١ ـ واللَّهُ سبحانه بَسَطَ الرِّزق على بعضكم، وضيَّقه على بعضكم بما اقْتَضَتْهُ الحكمة الإلهيَّة والقُدرة الربانيَّة، فما الذين فُضِّلوا بالرزق برادِّي رِزْقهم على العبيد حتى يستووا فيه هم وعبيدهم، ويكونون في الرِّزق سواءً، فإذا كانوا لا يقبلون هذا لأنفسهم فكيف جعلوا الأصنام شركاءَ لله في ربوبيَّته أو في إلٰهيَّته؟ أيزعمون أنهم يكسبون أرزاقهم بمهاراتهم، أو أنَّ لآلهتهم تأثيراتٍ غيبيَّةً في أرزاقهم، فيَجْحَدوا نعمة ربِّهم عليهم؟!

٧٢ ـ واللَّهُ جعل لكم من جنسكم أزواجاً، وجَعَل لكم ضمن نظام التناسل من أزواجكم أولاداً وبنات، ومن نسلهنَّ أولادَ أولادٍ، ورزقكم من المآكل والمشارب والملابس والمساكن والمناكح وسائر ما يطيب ويلذُّ. أنْطَمَست بصائرهم عن إدراك الحقيقة الجليَّة في الوجود، فهم بالباطل يؤمنون، فيجعلون لله شريكاً، وبنعمة الله الدائمة عليهم يكفرون، فيضيفون ما أنعم به عليهم إلى غيره؟

وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾ ۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾

٧٣ - ويعبد المشركون من دون الله معبودات، لا تملك لعابديها رزقاً؛ شيئاً قليلاً كان أو كثيراً، لا من السموات ولا من الأرض، ولا يَقْدرون على إيصال خير أو دفع ضر.

٧٤ - فلا تُشَبِّهوا اللَّهَ بخلقه، ولا تجعلوا له مِثْلاً ولا شبيهاً، فإنَّه لا مِثْل له ولا شبيه ولا شريكَ من خلقه، إنَّ الله يعلمُ حقيقة ذاته وصفاته، وأنتم لا تعلمون خطأ ما تَضْربون له من الأمثال، فاطرحوا عن تصوُّراتكم ومُخيِّلاتكم كلَّ ما تَتوهَّمون عن الله ربِّ العالمين.

٧٥ - مَثَلُكم في إشراككم بالله الأوثان كَمَنْ سوَّى بين عبدٍ مملوكٍ عاجز عن التصرُّف، ولا يملك شيئاً ينفق منه، وبين حُرٍّ كريم مالكٍ قادرٍ، قد رزقه الله مالاً كثيراً طيِّباً، فهو يتصرَّفُ فيه، وينفقُ كيف يشاء سرّاً وجهراً، فكما لا يجوز التَّسْوية بينهما مع استوائهما في الخِلْقة والصُّورة البشريَّة، فكيف تُسوُّون - أيها المشركون - بين الله عزَّ وجلَّ الخالق الرازق وبين الأصنام التي لا تملك ولا تَقْدِرُ على شيءٍ؟ الحمدُ الكاملُ لله المُسْتَحقُّ لجميع المَحامد، المُتفضِّل بجميع النِّعم، بل أكثر الكفار غير مُستعدِّين أن يعلموا الحقَّ، لأنهم لا يريدون أن يتَّبعوه، ويعملوا بمقتضاه، مُخالفين أهواءَهم وشهواتهم وولاءاتهم العمياء.

٧٦ - وضَرَبَ اللَّهُ مثلاً آخر لبطلان الشِّرك: رجلين، أحدهما: وُلد أخرس، لا يَفْهَم ولا يُفْهِم، وعاجزٌ لا يقدر أن يعمل شيئاً، وهو ثقيلٌ على مَنْ يلي أمرَه ويعولُه، حيثما يُرسله ويُصرِّفه في طلب حاجة أو كفاية مُهمّ لا يأتِ بنُجح؛ لأنه أخرس عاجز، هل يستوي صاحبُ هذه الصِّفات المذمومة ومَنْ هو سليم الحواس ذو رُشْد ورأي، يأمر الناس بالعدل والخير، وهو في نفسه على سيرةٍ صالحة ودين قويم؟ هل يستوي هذان الرجلان في مفاهيمكم - أيها المشركون -؟ فكيف تسوُّون في الإلٰهيَّة بين أوثانكم الجامدة التي لا يُرجى خيرٌ منها، ولا يُخشى ضُرٌّ منها، وبين ربِّ العالمين خالق الكون، والمُتصرِّف بكلِّ شيء فيه، والمحيط بكلِّ شيء علماً.

٧٧ - ولِلَّهِ وحده علمُ كلِّ ما غاب عن العباد في السَّموات والأرض، ممَّا لا تصل إليه حواسُّهم وعقولهم، لا يخفى عليه شيء فيهما، وما أمر وجود الساعة بعد أمر التكوين الربَّاني، سواءٌ أكانت ساعةَ إنهاء نظام الحياة الدنيا، أم كانت ساعةَ إيجاد نظام اليوم الآخر، وبعث الأحياء بعد الموت إلا كانطباق جَفن العين وفتحه في السُّرعة، بل هو أسرع من ذلك؛ إنَّ الله على كلِّ شيءٍ يشاؤه عظيم القدرة، إذا أراد شيئاً كان أسرع ما يكون.

٧٨ - واللَّهُ أخرجكم من بطون أُمَّهاتكم بعد مُدَّة الحمل، لا تُدركون شيئاً ممَّا حولكم، وأعطاكم الله وسائل الإدراك وأدوات اكتساب المعرفة، وخلق لكم جهاز السمع الذي تصل إليه المسموعات، ومراكز الإدراك للمرئيَّات في داخل الدماغ، ومراكز فهم الأمور والقضايا؛ لاستنباط الأحكام، والتمييز والتحليل والتركيب، وربط العلل بمعلولاتها، والأسباب بمسبَّباتها؛ رغبةً في أن تشكروا بالإيمان والإسلام والعمل الصالح، حتى تكونوا من أهل جنَّات النعيم يوم الدين. استُدلَّ بهذه الآية على أنَّ الأصل في الناس الجهل، فلا يجوز استفتاء رجل غير مشهور بالعلم حتى يُبحث عن علمه، ومن ادَّعى جهل شيءٍ كان القولُ قولَهُ لموافقته للأصل.

٧٩ - ألم يَرَ الغافلون عن آياتِ الله في كونه بأعينهم إلى أنواع الطيور مُذَلَّلات في الفضاء الواسع بين السماء والأرض، ما يُمْسِكُهنَّ في حال قبض أجنحتها وبسطها في الهواء إلا الله، إنَّ في الطيور وطيرانها والجوِّ الذي تطير فيه لآيات كثيرات للمؤمنين؛ لأنهم هم الذين يعتبرون بالآيات ويتفكَّرون بها، وينتفعون بها دون غيرهم. ويدخل في عموم هذه الآية طائرات الركوب، لأنها تدخل لغة في عموم الطير، ولوصفها بأنها مُسخَّرات للإنسان في جوِّ السماء.

وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتٗا تَسۡتَخِفُّونَهَا يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا وَأَوۡبَارِهَا وَأَشۡعَارِهَآ أَثَٰثٗا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ ﴿٨٠﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡجِبَالِ أَكۡنَٰنٗا وَجَعَلَ لَكُمۡ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأۡسَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡلِمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾ وَيَوۡمَ نَبۡعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدٗا ثُمَّ لَا يُؤۡذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلۡعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمۡ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ شُرَكَآءَهُمۡ قَالُواْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدۡعُواْ مِن دُونِكَۖ فَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلَ إِنَّكُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَى ٱللَّهِ يَوۡمَئِذٍ ٱلسَّلَمَۖ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿٨٧﴾

٨٠ ـ واللَّه سبحانه جَعَل لكم من بُيوتكم التي هي من الحجر راحةً واستقراراً ومسكناً تسكنونه، وأنتم مقيمون في الحضر، وجَعَل لكم من جُلود الأنعام، وهي: الإبل والبقر والغنم خياماً يخفُّ عليكم حَمْلها في يوم سَيْركم ورحيلكم في أسفاركم، وتخفُّ عليكم أيضاً في إقامتكم وحضركم، فلا تثقل عليكم في الحالَيْن، وتتَّخذون من أصواف الضأن وأوبار الإبل وأشعار المعز أثاثاً لبيوتكم من الفرش والأكْسية ونحو ذلك، وبلاغاً تتمتَّعون به إلى حين الموت.

استُدلَّ بهذه الآية على طهارة جلود الأنعام التي حُلَّ أكلها، وأصوافها وأوبارها وأشعارها إذا جُزَّ في الحياة، وكذلك جلد الميتة من الأنعام إذا دُبغ.

٨١ ـ واللَّهُ جعل لكم من ظلال الأبنية والجُدران والأشجار ما تَسْتَظلُّون به من شدَّة الحرِّ والبرد، وجعل لكم من الجبال ما تستكنُّون فيه من شدِّة الحرِّ والبرد، كالأسرابِ والمغارات والكهوف ونحوها، وجعل لكم قُمُصاً وثياباً من القطن والصوف والكتّان ونحو ذلك، تمنعكم من شدَّة الحرِّ والبرد، ودروعاً تقيكم في الحرب بأس بعضكم لبعض، فلا تصل السيوف والرماح إلى جسد من يُضرب بشيءٍ منها. كذلك الذي جعله الله لكم فيما مضى، سيتمُّ نعمته عليكم، فيمكّنكم من صنع أشياء لا حَصْر لها في العصور القادمة بعد عصر التنزيل، ممَّا توصَّل إليه الناس من صناعات مذهلة بإلهام الله لهم، رغبةً في أن تؤمنوا بالحقِّ الذي أنزله الله لكم في كتابه، وفي أن تُسلموا منقادين له في شرائعه وأحكامه.

٨٢ ـ فإنْ أدبر وابتعد عن الإيمان بك وتصديقك ـ يا رسول الله ـ الذين تُبلِّغهم ما أُمرت بتبليغه، وآثروا ما هم فيه من الكفر واللذات الدنيوية، فلا تحزن عليهم، فإنما وبالُ ذلك يعود عليهم، وليس عليك في ذلك عَتْبٌ ولا سمة تقصير، ما عليك إلا البلاغ الواضح الظاهر، والمُظهر المُوضِّح لقضايا الإيمان، ولشرائع الله وأحكامه.

٨٣ ـ يعرف هؤلاء المشركون نعمةَ الله عليهم بتأمُّلاتهم الفكريَّة، وبما أنزلنا عليك في القرآن، ونُمهلهم كثيراً رغبةً في أن يستجيبوا لدعوة الحق؛ ليُنقذوا أنفسهم من النار، ثم إنَّهم بعد الإمهال الطويل، ينكرون نِعَم الله عليهم، وينسبون بعضها إلى الأسباب الماديَّة الكونيَّة، وإلى شركائهم.

٨٤ ـ وضع في ذاكرتك ـ أيها المُتلقِّي لبياننا ـ يومَ نبعث في موقف الحساب يوم القيامة من كلِّ أُمَّةٍ شهيداً من النبيِّين أو من غير النبيِّين من الدعاة إلى الله أتباع المرسلين؛ ليشهدوا على الناس بأنَّهم بلَّغوهم رسالات ربِّهم، ثمَّ بعد الحكم على الذين كفروا بالكفر واستحقاق الخلود في النار، لا يُؤذَنُ لهم به في الاعتذار، ولا يرجعون إلى الدنيا فيتوبوا ويُرضوا ربَّهم، إذ الدار الآخرة دارُ جَزاءٍ لا دار عملٍ وتكليف.

٨٥ ـ وإذا رأى الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والمعاصي مكان عذابهم في جهنَّم، ووسائل العذاب المُرْهِبَة للقلوب، فلا يُخَفَّف عنهم العذاب، إذا طلبوا تخفيفه، ولا هم يُؤخَّرون ولا يُمهلون، إذا طلبوا تأخير وقت إلقائهم في جهنم.

٨٦ ـ وإذا رأى الذين أشركوا معبوداتهم التي كانوا يعبدونها في الدنيا، قالوا: ربَّنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنَّا نعبُدهم من دونك؛ بسبب ما فتنونا به من وسائل الإضلال، فاجعل عذاب كفرنا عليهم، إذْ هم السبب في إضلالنا. فأسرع شُركاؤهم لدفع تهمة إضلال عابديهم عن أنفسهم، فألقوا إليهم القول بعنف إلقاء الحجر على رؤوسهم لدمغهم قائلين لهم: إنكم ـ أيها المشركون ـ لكاذبون، نحن ما أضللناكم، ولكن كنتم قوماً ضالين.

٨٧ ـ واسْتَسْلم المشركون لله، وانْقَادوا لحكمه فيهم، ولم تُغنِ عنهم آلهتهم شيئاً، وزال عن المشركين ما كانوا يكذِّبون في الدنيا من وجود آلهة تشفع لهم، وما هي إلا أوهام باطلة، وأسماءٌ سمَّوها لا حقيقة لها.

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾

٨٨ ـ الذين كفروا وضمُّوا مع كفرهم العِنادِيّ الجُحُوديّ أنّهم منعوا النّاس عن الإيمان بالله ورسوله، زِدْناهم عذاباً على صدِّهم غيرَهم عن سبيل الله فوق العذاب الذي استحقُّوه بكفرهم، وبسبب ما كانوا يفسدون به أفكار الناس وعقولهم ونفوسهم.

٨٩ ـ واذكر ـ يا رسول الله ـ يومَ نَبْعَثُ في كلِّ أمةٍ رسولاً شاهداً على أُمَّته من أنفسهم نسباً ولغةً، ليشهدَ عليهم بما فعلوا من كفر وإيمان، وطاعة وعصيان، وجئنا بك ـ يا رسول الله ـ يومَ الحساب شهيداً على قومك وأمَّتِك الذين بلَّغتهم رسالة ربِّك، وأدَّيْت لهم الأمانة. ونزَّلنا عليك ـ يا رسول الله ـ الكتاب متَّصفاً بأربع صفات: **الأولى**: تِبْياناً لكلِّ شيءٍ من قضايا الدين الكبرى، **والصفة الثانية**: هُدىً عظيماً يدلُّهم على طريق سعادتهم في دنياهم وآخرتهم، **والصفة الثالثة**: رحمةً لِمَنْ آمن به وصدَّقه، **والصفة الرابعة**: بُشرى للمسلمين المنقادين لأوامر الله ونواهيه، يُبشِّرهم برضوان الله عليهم، وبالسعادة الأبديَّة الخالدة في الجنة يوم الدين.

٩٠ ـ إنَّ الله سبحانه يأمر عباده بثلاثة أنواع من أنواع السُّلوك الفاضل الحسن: **الأول**: العدل بين العبد وربِّه سبحانه بتوحيده وعدم الإشراك به، وامتثال أوامره واجتناب منهياته، والعدل بين العبد ونفسه؛ بمنعها ممَّا فيه هلاكها وفسادها، والعدل مع الخلق، بإعطاء كلِّ ذي حقٍّ حقَّه، **الثاني**: الإحسان مع الله سبحانه في أداء فرائضه، وعبادته كأنَّك تراه، ومع الخلق بأن تُحسن إلى مَنْ أساء إليك، وبإتقان العمل وإكماله، **الثالث**: صلة الرَّحم، وهم القرابة الأدنون والأبعدون منك، فتُستحبُّ صِلَتُهم بما فَضُلَ من الرزق، فإن لم يكن فدعاء وتودُّد، وينهى عن ثلاثة أنواع من الرذائل والقبائح: **الأول**: ارتكاب الكبائر المتعلِّقة بالفروج، **الثاني**: ما أنكره الشَّرع، ونهى عنه نهيَ تحريم، **الثالث**: العدوان على حقوق الناس بالقوة والقهر، ينصحكم الله سبحانه ـ بالالتزام بتلك الأوامر والانتهاء عن المناهي ـ نُصحاً مَقْروناً بما يُثير الرَّغْبَةَ والرَّهْبَةَ؛ لكي تتذكَّروا أوامر الله ونواهيَه، فتعملوا بما فيه رضا الله تعالى، وتنتهوا عمَّا يُسخطه عليكم.

٩١ ـ وأوْفُوا بجميع العهود التي عاهدتم اللَّهَ عزَّ وجلَّ عليها، والتي عاهدتم الناس عليها، ولا تَنْقُضوا الأَيْمان بعدم تحقيق ما عزمتم على فعله أو تركه، وأكَّدتم عزمكم بالحلف بالله أو باسم من أسمائه، وقد جعلتم اللَّهَ عليكم شاهداً وضامناً بالوفاء بالعهد، إذ أقسمتم به، وعرَّضتم أنفسكم لعقوبته الشديدة إذا لم تفُوا بمَا عاهدتم عليه، إنَّ اللَّهَ يعلم ما تفعلون من وفاء العهد ونَقْضِه.

٩٢ ـ ولا تكونوا في نَقْضِ العهد والأَيْمان بعد توكيدها، كَمَثَل امرأةٍ حمقاء غَزَلَتْ غَزْلاً وأحكمته، ثم نَقَضَتْهُ فجعلته خيوطاً محلولة غير مُبْرمة، فهي لم تكُفَّ عن العمل ولا عن النقض، وكذلك حال مَنْ نقض العهد: لا تركه، ولا حين عاهدَ وفَّى به، أتتَّخذون أَيْمانكم الكاذبة وسيلة غش وخديعة؛ لتخدَعوا بها الناس وتغشُّوهم، حتى يُصدِّقوكم في عهودكم ووعودكم؛ لتكون أمتكم أكثر وأقوى من أمة عدوِّكم، إن الله يُحرِّم هذه الوسيلة وأمثالها، ولو كان الغرض منها تقوية أمة الإسلام. إنَّ تكوين الأمم متفاضلين ممَّا ابتلاكم الله به، وإنكم ـ أيها المؤمنون ـ في موضع الامتحان، وهو يتطلب منكم التزامَ حدود الله، ولو مع أعداء الله، وليُبيِّنَنَّ الله لكم يومَ القيامة عند الحساب، كلَّ ما كنتم تختلفون فيه في الحياة الدنيا من نيَّات وعقائد وأعمال، فيُثيب الطائع، ويُعاقب المسيء.

٩٣ ـ إنكم ـ يا أيُّها المؤمنون ـ لم تُكلَّفوا أن تُحوِّلوا الناس للإيمان حتى تتَّخذوا لذلك أية وسيلة، كالإكراه، والمخادعة بالعهود والأَيْمان، ولو شاء اللَّهُ لَجَعَلكم أمَّةً واحدةً مؤمنةً مسلمةً، فسلبكم إراداتكم الحُرَّة، وجعلكم مُجْبَرين غير مُخيَّرين، ولكن أراد أن يضعكم موضع الامتحان، فمنحكم إراداتٍ حرَّة، ونتيجةً لامتحانكم سيكون فيكم ضالُّون، وآخرون مهتدون، أما الضَّالُّون فيحكم الله عليهم بالضلالة بمشيئته الحكيمة، وأما المهتدون فيحكم الله لهم بالهداية بمشيئته الحكيمة، وأُوَكِّد لكم أنكم لتُسْئَلَنَّ عمَّا كنتم تعملون في رحلة امتحانكم في الحياة الدنيا، لإقامة الحجَّة عليكم، وإصدار أحكام العدل بينكم، وتنفيذ الجزاء بالثواب وبالعقاب.

وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلَكُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًاۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمۡ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٖۗ وَلَنَجۡزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٩٦﴾ مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٩٧﴾ فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا بَدَّلۡنَآ ءَايَةٗ مَّكَانَ ءَايَةٖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفۡتَرِۭۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ﴿١٠٢﴾

٩٤ ـ ولا تتَّخذوا أَيمانَكم ـ أيها الداخلون في الإسلام والمبايعون عليه ـ أيمانَ خديعةٍ وغشٍ داخلٍ في ثنايا أعمالكم ومقاصدكم منها، فتكون سهلة النقض إذا اقتضت مصالحكم نقضها، فتزلق قدمٌ ما من أقدامكم في مزالق الكفر والردة، فتجرَّ معها كل جسد صاحبها بعد ثبوتها على صراط الحقِّ والهدى، وتذوقوا العذاب بسبب ما أعرضتم وانصرفتم عن سبيل الله الموصل إلى جنات النعيم، ولكم عذابٌ عظيم تُعذَّبون به في الجحيم، عقاباً لكم على ردَّتكم إلى الكفر.

٩٥ ـ ولا تستجيبوا لمن يُضلُّكم من أئمة الكفر، فتوافقوهم على نقض عهد الله والارتداد عن الإسلام، مُقابل ثمنٍ قليل من عاجل الدنيا، إنَّ الذي هو عند الله مُعَدٌّ للثابتين على إيمانهم وإسلامهم الذي عاهدوا الله عليه، هو خيرٌ من كلِّ ثمنٍ يُبذل لكم من متاعات الحياة الدنيا، مقابل ارتدادكم إن ارتدَدْتم، إنْ كنتم تعلمون حقيقة ما ادَّخره الله للمحافظين على عهودهم، ما نقض أحد منكم عهد الله مهما تعرَّض لبلاءٍ أو لإغراء.

٩٦ ـ ما عندكم ـ أيها الناس ـ من متاع الدنيا ولذَّاتها يفنىٰ ويذهب، وما عند الله من ثوابِ الآخرة ونعيم الجنة باقٍ لا يزول ولا يفنى، وأقسم: لأُعطينَّ الذين ثَبَتُوا على الإيمان والإسلام، وصبروا على عدم التأثُّر بالمُغْريات والمُرهبات والمُؤذيات من قِبَل أئمة الكفر، أجرَهم على صَبْرهم ثواباً يُكافئ أحسن ما كانوا يعملون من عمل صالح من الواجبات والقربات والمباحات المقرونات بنيّات صالحات.

٩٧ ـ مَنْ عَمل صالحاً ابتغاء مرضاة الله ذكراً كان أو أنثى، وهو مؤمنٌ إيماناً صحيحاً صادقاً، فَلَنُحْيِيَنَّهُ في الدنيا حياةً طيِّبةً بالقناعة، وحلاوة الطاعة، والرزق الحلال، والرِّضا بما قدَّره الله له، ولنجزينَّهم في الجنة أَجْرَهُم بأحسنِ ما كانوا يعملون في الدنيا من عمل صالح من الواجبات والقُرُبات والمباحات المقْرونات بنيَّات صالحات، أما المباحات بدون نيَّات صالحات والخطايا فلا يُؤجرون عليها، ويعفو الله برحمته عمَّا يشاء العفوَ عنه منها.

٩٨ ـ فإذا أردتَ ـ أيُّها المؤمن ـ قراءةَ القرآن، فاسأل الله أن يعصمك من وساوس إبليس البعيد عن الله، المَطْرودِ عن رحمته؛ حتى لا يصرف قلبك عن التأمُّل فيه، ولا يُلقي فيه الشُّبه والشكوك، ولا يُزيِّن لك الانصراف عنه.

٩٩ ـ إنَّ إبليس ليس له سلطان قوَّةٍ وولايةٍ، ولا سلطان حُجَّةٍ وبرهان على الذين آمنوا إيماناً صحيحاً صادقاً، بما يجب الإيمان به، وعلى ربِّهم وحده لا شريك له يفوِّضون تدبير أمورهم وتحقيق ما يرجون، مع القيام بالأسباب المستطاعة الماديّة والمعنويّة طاعةً لأمر الله ونهيه.

١٠٠ ـ ما سلطانه المُؤثِّر بالولاية إلا على الذين يُطيعونه، ويستنصرون به، ويتآخَوْن معه، ويلتمسون لديه العون، كالسَّحرة والكهنة، والذين هم بسبب طاعته وعبادته مشركون بالله، كالذين يعبدون الشياطين.

١٠١ ـ وإذا نَسَخنا حكمَ آية، فأبْدَلنا مكانَه حكماً آخر ـ واللَّهُ أعلم بما يُنَزِّل من الناسخ وبما هو أصلَحُ لخلقه، وبما يُغيِّر ويبدِّل من أحكامه ـ قال أئمة الكفر والضلال للرسول ﷺ: إنما تَخْتَلِقُهُ ـ يا محمد ـ من تلقاء نفسك. إنك ـ يا رسول الله ـ لست بمُفْترٍ على ربِّك، بل أكثر الكافرين جاهلون، لا يعلمون ما هو الحقُّ والأحسن والأفضل، ولا يرغبون في أن يعلموا ذلك؛ بسبب اتِّباعهم أهواءهم وشهواتهم، وتأثُّرهم بوساوس الشياطين وتسويلاتهم.

١٠٢ ـ قل لهم ـ يا رسول الله ـ : نزَّل القرآنَ عليَّ الرُّوحُ المُقدَّسُ المُطَهَّر جبريل من لدن الله ربِّي مُتَّصفاً بالحق؛ لِيُثَبِّتَ ـ بتنزيل القرآن مُنجَّماً، قابلاً لتبديل آية اقتضت الحكمة جعلها مكان آية ـ قلوبَ المؤمنين، إذ يشعرون أنَّ الوحي الربّاني على صلة مُتجدِّدة مع الرسول، فيزدادوا إيماناً ويقيناً، وليكون القرآن هدىً تعليمياً مُتَتابِعاً، وبُشرى للمسلمين بما يتضمَّن من بشرياتٍ بالنصر على أعدائهم، مع النجوم المتتابعة التنزيل.

وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِي ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾

١٠٣ ـ ونؤكِّد تأكيداً شديداً أننا نعلم أنَّ المشركين يتَّهمونك ـ يا رسول الله ـ ويقولون: إنَّما يتعلَّم هذا القرآن من غيره، ثم يزعم أنه يُوحى إليه. كَذَبُوا؛ لسانُ الذي يميلون ويشيرون إليه زاعمين أنه يعلِّم محمداً القرآن لسانٌ أعجميٌ لا يُفصح في كلامه، وهذا القرآن عربيٌ بيِّنُ الفصاحة والبلاغة، أعجَزَكُم بفصاحته وبلاغته، وأنتم أهل اللَّسَن والبيان، فكيف يقدر مَنْ هو أعجميٌ على مثله! وأين فصاحة القرآن من عُجمته؟!

١٠٤ ـ إنَّ الذين لا يُصَدِّقون بآياتِ الله أنَّها من عند الله، ويُشكِّكون في آيات القرآن المجيد المعجز بتعِلاَّت ساقطات ليس لها قيمة، لا يحكم لهم بالهداية، إذا أصرُّوا على ما هم فيه من باطل، ولهم عذابٌ أليمٌ في نار جهنم خالدين.

١٠٥ ـ ما يُقْدِم على فِرية الكذب على الله بوضع أقوالٍ من عنده وادِّعاء أنها من كلام الله إلاَّ مَنْ لا يُؤمن بآياتِ الله الكونيَّة والبيانيَّة والإعجازيَّة، وأولئك البعداء عن رحمة الله هم وحدهم الكاذبون أخسَّ الكذب في قولهم: إنَّما يعلِّمه بشرٌ، أما محمَّدٌ الصادق الأمين ﷺ فَمُحَالٌ أن يكذب على الله، ويقول عليه ما لم يَقُلْهُ.

١٠٦ ـ مَنْ نطق بكلمة الكفر، وارتدَّ من بعد إيمانه بقلبه، وإعلانه الدخول في الإسلام، فعليهم غضبٌ من ربِّهم، إلا مَنْ أُكره على أن يتلفَّظ بكلمة الكفر بعذابٍ لا طاقة له به، بشرط طمأنينة القلب بالإيمان، وعدم الاعتقاد بما يقوله من كلمة الكفر، ولكنْ من اختار الكفر ورضيَ به، ولم يستمرَّ على طمأنينته، وأثَّرت عليه مُغْريات الدنيا ولذاتها، فعليهم غضبٌ شديد من الله، ولهم عذابٌ عظيمٌ في جهنم خالدين فيها.

دلَّت هذه الآية على أنَّ المكره غير مكلَّف، وأن الإكراه يبيح التلفُّظ بكلمة الكفر بشرط طمأنينة القلب على الإيمان.

١٠٧ ـ ذلك الإقْدام على الارتداد إلى الكفر؛ لأجل أنَّهم آثروا وأحبُّوا متاعات الحياة الدنيا حباً شديداً، جعلهم يتعلَّقون بها ويؤْثرونها على الآخرة، وذلك الغضبُ من الله عليهم والعذاب العظيم لهم يوم القيامة بسبب أنه سبحانه لا يحكم بهداية القوم الكافرين الذين آثروا الدنيا على الآخرة، وختموا حياة امتحانهم بالكفر والإصرار عليه، بعد معرفتهم عناصر الإيمان، وتذوُّقهم شيئاً من حلاوته، وأنه دين الله الحق.

١٠٨ ـ أولئك البعداء عن رحمة الله الذين خَتَم الله على قلوبهم بحَجْبها عن إدراك ما يهديها إلى حقائق الإيمان، وأصمَّ سمعهم عن إدراك الآيات الربانيَّة المنزَّلة في كتابه، وأعمى أبصارهم بحَجْبها عن رؤية آيات الله في كونه الهادية إلى الإيمان والإسلام، وذلك الطبع نتيجة ما يكسبون بإراداتهم الحرة من أعمال ظاهرة وباطنة، يتولَّد عنها الطبع بمقتضى سنة الله في قوانين الأسباب والمسبَّبات، وأولئكَ البعداء عن تنزُّلات رحمة الله هم وحدهم الغافلون عمَّا هو سبب سعادتهم، وشقائهم في حياة الخلود.

١٠٩ ـ حقَّ وثَبَتَ كونُهم في الآخرة هم الخاسرون؛ لأنَّهم ضيَّعوا بإراداتهم الحُرَّة رأسَ مالهم وهو الإيمان؛ تعلُّقاً بمتاعات الحياة الدنيا وزينتها، ومن ضيَّع رأس ماله فقد بانَ خُسرانه، وظهر غبنه.

١١٠ ـ ثمَّ إنَّ ربَّك للَّذين هاجروا إلى «الحبشة» من بعدِ ما عذَّبهم المشركون؛ لأجل أن يرتدُّوا عن الإسلام، حتى وافقوهم على ما هم عليه ظاهراً، وقلوبهم مطمئنة بالإيمان، ثمَّ جاهدوا في سبيل الله، من بعد هجرتهم إلى «المدينة»، وصَبَروا على الإيمان والهجرة والجهاد، إنَّ ربَّك ـ من بعد الفتنة التي فُتنوها ـ لغفور كثير السَّتر لهم، دائم الرحمة بهم.

وهذه الآية تُؤخذ على عمومها، ولا تقتصر على خصوص السبب، فكلُّ من هاجر في سبيل الله بعدما فُتنَ في دينه في وطنه من قِبَل كَفَرةٍ باغين ظالمين، ثم جاهد وصبر، ولم تُغيِّر أحداث الهجرة شيئاً في قلبه وإيمانه غفر الله له، وأحاطه برحمته.

۞ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١١٣﴾ فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ۖ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ۖ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾

١١١ ـ وضع في ذاكرتك ـ أيها المتلقِّي لبيانات ربِّك ـ يومَ تأتي كلُّ نفس كانت موضوعة في الحياة الدنيا موضعَ الامتحان إلى موقف الحساب في المحكمة الربانيَّة، تُخاصم وتحتجُّ دفاعاً عن نفسها، وتعطى كلُّ نفس جزاءَ ما عملت في الدنيا من خيرٍ أو شرٍ وافياً غير منقوص، وهم لا يظلمون من جزاء أعمالهم شيئاً سيِّئوهم ومُحسنوهم، فالمسيئون منهم يحكم الله عليهم بالعدل، ولا يُظلَمون مثقالَ ذرَّة، والمحسنون منهم يحكم الله لهم بالفضل، ويُضاعف لهم أعداد حسناتهم، ويُضاعف أجورهم عليها إلى سبعمئة ضعف إلى أضعاف كثيرة، فكيف بعد هذا يُتصوَّر أنهم يُظلمون؟!

١١٢ ـ وَضَعَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ في تدابير تقديره وقضائه لمُجازاة عباده مُجازاةً تأديبيةً تحذيريَّةً، مَثَلاً واقعياً قريباً، هذا المثل ما أنزله بأهل مكة الذين لم يستجيبوا لدعوة رسول ربِّهم، بل آذَوْه وقاوموا دعوته كِبْراً وعِناداً، وكانت مكة ذات أمن لا يُهاج أهلها، ولا يُغار عليهم، قارَّةً بسكانها لا يحتاجون للانتقال عنها، يأتيها رِزقُها واسعاً من كلِّ جهة، فكفر أهل هذه القرية بسائر النِّعم التي أنعم اللَّهُ بها عليهم، وقابلوا نعمَهُ بالجحود والكفر، وكذَّبوا رسوله، وكذَّبوا بالكتاب الذي أُنزل عليه، فبعث الله عليهم جوعاً عاماً، وخوفاً شاملاً كانا عليها كاللباس الشامل لجسد كلِّ واحد منهم، وهذا التعذيب بالمصائب الدنيويَّة بسبب ما كانوا يصنعون من كفريات وجرائم بتعذيب المؤمنين.

١١٣ ـ وأُؤَكِّد لكم أنه جاء أهلَ «مكة» رسولٌ منهم، نسباً ولغةً ونشأة، وهو النبيُّ محمدٌ ﷺ يعرفونه قبل النبوَّة وبعدها، وقد علموا من صفاته وسلوكه أنه رسول الله حقاً، فكذَّبوه جُحوداً واستكباراً، وبالغوا في إيذائه، وأرادوا قتله، فأخذهم من ربِّهم عذابُ الجوع والخوف، وهم ظالمون لأنفسهم ظلماً عظيماً بالشِّرك والصَّدِّ عن سبيل الله.

١١٤ ـ فلا تكونوا أمثال أصحاب القرية الظالمين، بل كُلُوا ـ يا معشر المؤمنين ـ ممَّا رزقكم الله حسب اختياراتكم، حالة كون ما تختارونَه حلالاً طيِّباً، ولا تأكلوا ما حرَّمه الله من مطاعم، وما هو خبيث مُستقذر ضارٌّ، واشكروا نعمة الله التي أنعم بها عليكم بالإيمان والإسلام والطاعة، إن كنتم تؤمنون به، وتعبدونه وحده لا تشركون بعبادته شيئاً.

١١٥ ـ ما حَرَّم الله فيما سبق عليكم الأكلَ من أجساد الأحياء غير الإنسانية والتي تأكلون منها إلا أربعة محرَّمات: **المُحرَّم الأول**: المَيْتة، وهي كلُّ ما فارقته روحه من غير ذكاةٍ ممَّا يُذبح، **والمُحرَّم الثاني**: الدم الجاري، **والمُحرَّم الثالث**: الخنزير بجميع أجزائه، **والمحرَّم الرابع**: ما أعلن ذابحه أنه يُقدِّمه قُرباناً لغير الله تعالى، فمن ألجىء إلى أكل شيءٍ من هذه المُحرَّمات، فأكل غير طالبٍ للشيء المُحرَّم ذاته، ولا مُتَعَدٍّ مِقْدار الحاجة، فلا حَرج في أكلها، درءاً لأشدِّ الضَّرَرَيْن بارتكاب أخفِّهما؛ إنَّ الله كثير السَّتر للمُضْطر الذي يأكل أكثر ممَّا يدفع به ضرورته، لأنه يَعْسُرُ عليه ضبْط مقدار ما يدفع به ضرورتَه، دائم الرحمة بعباده إذْ أباح لهم الأكل من هذه المحرَّمات عند الضرورة.

١١٦ ـ ولا تقولوا ـ أيُّها المشركون ـ لما تَصِفُ ألسنتكم الوصفَ الكَذِب من أحكام هي من خصائص ربوبيَّة الله وإلٰهيَّته: هذا الشيء حلالٌ، وهذا الشيء حرامٌ؛ ليكون من نتيجة وصفكم افتراؤكم الكذبَ على الله. إنَّ الذين يفترون على الله الكذبَ، لا ينجون من العذاب، ولا يفوزون بخير في الدنيا ولا في الآخرة.

١١٧ ـ تَدَخُّلُهم في أحكام التَّحليل والتَّحريم التي هي من خصائص الربِّ جلَّ جلاله، قد يستفيدون منه شيئاً من مَتَاع الحياة الدنيا، ولكنه متاعٌ قليل القيمة والمقدار لا بقاء له، ولهم عذابٌ أليم مُعَدٌّ لهم يُعذَّبونه يوم القيامة.

١١٨ ـ وعلى اليهود حرَّمنا عليهم ما أخبرناك به ـ يا رسول الله ـ من قبل في سورة الأنعام، وهو كلُّ ذي ظُفُر، وشحوم البقر والغنم، إلا ما حملته ظهورها أو أمعاؤها أو كان مختلطاً بعظم، وما ظلمنا اليهود بتشديد أحكام التحريم عليهم، ولكن حرَّمنا عليهم ما حرَّمنا بسبب بغيهم وظلمهم أنفسَهم.

ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾

١١٩ - ثمَّ بعد البيانات السابقات المُرهبات نُطمع التائبين المصلحين الذين سبق أن عملوا سائر المعاصي بسبب اندفاع نفسيّ غير رشيد، كشهوة أو غضب أو رغبةٍ جامحة جانحة تُغشي على البصيرة، ثمَّ تابوا من بعد عمل ذلك السُّوء، وأصلحوا العمل في المستقبل، واستقاموا على التوبة، إنَّ ربَّك - من بعد توبتهم وإصلاحهم - لكثير الغفران لمَنْ تابَ وآمن، واسع الرحمة بهم.

١٢٠ - إنَّ إبراهيم كان إماماً في الخير يُؤْتمُّ به، مطيعاً لله، خاضعاً له، ملازماً عبادته، مائلاً عن كلِّ الأديان الباطلة إلى الدين الحقِّ، مُوَحِّداً لله غير مشرك به أرباباً ولا آلهةً ولا أسباباً منذ نشأته.

١٢١ - شاكراً لله على أنعمه التي أنعم بها عليه، اختاره الله لنبوَّته، واصطَفاهُ لِخلَّتِهِ، وهداهُ إلى دين الإسلام القويم.

١٢٢ - وآتيْناهُ في الحياة الدنيا عطايا حسنةً من الرسالة والخلَّة، ولسان الصِّدق، والثناء الحسن، والقبول العام في جميع الأمم، وإنَّه في الآخرة في أعلى مقامات الصَّالحين.

١٢٣ - ثمَّ بعد إبراهيم وعصره، وبعد أهل الكتاب أتباع موسى وعيسى، أوْحَينا إليك - يا رسول الله - أن اتَّبع دينَ إبراهيم، وما كان عليه من التوحيد، مائلاً عن كلِّ الملل الباطلة، مُستقيماً على الدين الحقِّ الذي هديناه إليه، وما كان إبراهيم من المشركين، بل كان من الموحِّدين المخلصين.

١٢٤ - لم يكن اليومُ الأسبوعيّ في ملَّة إبراهيم يوم السبت، بل كان يوم الجمعة، وهو اليوم الذي أتمَّ الله فيه خلق السموات والأرض، فعدل اليهود عنه ابتداعاً منهم إلى يوم السبت، وزعماً منهم أنه اليوم الذي ارتاح الله فيه من بعد أيام التعب التي خلق فيها الخلق، وجعلوا يوم السبت هو اليوم الذي يرتاحون فيه من أعمال الدنيا، وما جعل السبت وأحكامه المُشدَّدة إلاَّ على اليهود الذين اختلفوا فيه بابتداعهم، وإنَّ ربَّك - يا رسول الله - ليحكمُ بينهم يومَ القيامة في كلِّ ما كانوا فيه يختلفون، فيُجازي المُحقِّين بالثواب، والمُبْطلين بالعقاب.

١٢٥ - ادعُ - يا رسولَ الله - أنت ومن اتَّبعك إلى دينِ الإسلام بالحكمة، وهي: وضع كل شيء في موضعه الذي يوجبه العقل، وتكشفه التجربة، وتتحقَّق به الغاية المقْصودة، وبالنصح المقْرون بما يثير الرغبة أو الرهبة، للانتفاع بالنُّصح واتِّباع ما هدى إليه فعلاً أو تركاً، وجادلهم بالطريقةِ التي هي أحسن أدباً وتهذيباً وقولاً وفكراً، وتابع دعوة مَنْ لم تُثبت التجربة الطويلة أنهم مَيْؤوسٌ من استجابتهم، إنَّ ربَّك هو وحده أعلم بمَنْ ضلَّ عن سبيله ضلالاً غيْرَ مُقْترن باستعداد من عُمْق نفسه للاستجابة لدعوة الحق بعد حين، وهو وحده أعلم بمن لديه استعدادٌ لأن يكون مُستقْبلاً من المهتدين، ولو بعد حين.

١٢٦ - ومع ترغيبنا لكم بالصبر والتجاوز، إن عاقبتم - على سبيل الاحتمال الذي نُفضِّل لكم استبْعاده - فعاقبوا بمثل ما عُوقبتم به من الذين تدعونهم، الذين يَرَوْن ما يُنزلونه بكم من أذىً وتعذيب، عقاباً لكم على مُخالفتهم ما هم عليه من عقيدةٍ أو نُظم أو قوانين معمولٍ بها، وأقسم لكم: لئن صَبَرتم على الأذى، فتجاوزتم عنهم، ولم تعاقبوهم مع قدرتكم على المعاقبة، لهو خيرٌ لكم بسبب صبركم.

١٢٧ - واصْبر - يا رسول الله ويا كُلَّ داعٍ إلى الله من أمته - على الأذى وعدم اللجوء إلى المعاقبة بالعدل، وما صَبْرك إلا بتوفيق الله ومعونته، ولا تحزن على مَنْ يرفض دعوَتك، ويختار لنفسه سُبُل الضَّلال والشرِّ، ولو كانوا أقربَ الأقْربين، ولا تكن في كربٍ وألمٍ نفسيٍّ ضاغط عليها، ممَّا يُدبِّرون في الخفاء ضدَّك وضدَّ المؤمنين، فإنَّ الله كافيك وناصِرُكَ عليهم، ومفسد خططهم ومكرهم.

١٢٨ - إنَّ الله سبحانه بعونه وتوفيقه ونصره مع المتَّقين الذين يعاقبون بمثل ما عُوقبوا به، والذين هم مُحسنون بالعفو عن الجاني.

سورة الإسراء

بسم الله الرحمن الرحيم

سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١﴾ وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾ وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ﴿٧﴾

سُورَةُ الإِسْرَاءِ

١ ـ تَنَزَّه اللَّهُ سبحانه تنزيهاً عن كلِّ ما لا يليق بجلاله، وعظيم سلطانه، وكمال صفاته وأسمائه الحسنى، وكمال أفعاله وتصرُّفاته، فهو الذي أسْرى بعبده محمدٍ ﷺ الكامل في عبوديَّته لربِّه في جزءٍ قليل من الليل بجسده وروحه، يقظَةً لا مناماً، من المسجد الحرام بـ «مكة» الذي جَعَلَ الله عزَّ وجل مكانه آمناً ممنوعاً بالأمر التكوينيِّ والتكليفيِّ، إلى المسجد الأبعد بـ «بيت المقدس» الذي جعلنا فيه وحَوْلَه بركات ماديَّة من خيرات الأرض، ومعنويَّة من عطاءاتنا، وجَعَلناه مَقرَّ الأنبياء ومهبط الوحي؛ وعَرَجنا برسولنا محمد ﷺ إلى السَّموات حتى سدرة المنتهى؛ لنريَهُ بأداة بصره، ونسمعه بأداة سمعه بعض عجائب قدرتنا، وآياتنا العظام، إنَّه هو السميعُ البصيرُ، وقد سمع ورأى من آياتنا العُظمى. والآية تدلُّ بصدرها على الإسراء من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، وتدلُّ بآخرها: ﴿لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ على المعراج الذي جاء تفصيل بعض أحداثه في سورة النجم في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾.

٢ ـ أسْرَيْنا بمحمَّدٍ ﷺ ورفعناه إلى السماء، وكلَّمناه عند سدرة المنتهى، وفضَّلناه بمشاهدات جليلات، وأعطيناه القرآن الذي يهدي للتي هي أقوم، وأعطينا موسى عليه السلام الذي كلَّمناه بجانب الطُّور كتابَ التوراة، وجَعلنا الكتابَ هادياً ومُرشداً لبني إسرائيل، وقلنا لهم: لا تتَّخذوا من دوني ربّاً تَكِلُونَ إليه أموركم وتفوِّضونها إليه.

٣ ـ يا ذُرِّيَّة مَنْ حَمَلنا مع نوح في السفينة؛ إنَّ نوحاً كان عبداً متحقِّقاً بعبوديَّته لربِّه، كثير الشُّكر لله تعالى على نعمه. وأنتم ـ يا بني إسرائيل ـ ذُرِّيَّة مَنْ آمَنَ به وحُمِلَ معه، فاجعلوه أُسوتكم، ولا تُعرِّضوا أنفسكم لنقمة الله عليكم، وإنزال عقابه بكم.

٤ ـ وأنهينا إلى بني إسرائيل وأخبرناهم فيما آتيناهم من التوراة: أُقسم لتُفسِدُنَّ في أرض الشام وبيت المقدس إفساداً عريضاً منتشراً مرَّتين كُبْرَيَيْن، وأُقْسم ليكوننَّ لكم عُلُوٌّ كبيرٌ وسلطانٌ وقوَّةٌ وكلمة نافذة. وقد تحقَّق لهم العلوُّ الكبير في عهد داود وسليمان عليهما السلام، واستمرَّ هذا العلوُّ قليلاً بعد سليمان، ثم فسد بنو إسرائيل، وعبدوا الأوثان، واتَّبعوا الشهوات، فسلَّط الله عليهم «بختنصَّر» ملك «بابل وآشور»، فقتل منهم وسَبىٰ، ثم عادوا إلى الإفساد والعلو في واقعهم المعاصر الآن، فأفسدوا إفساداً عريضاً في كلِّ الدنيا، بنشر المذاهب الفكريَّة المنحرفة، وإقامة مؤسسات الربا، ودُور الزنى، والمنظمات العلنيَّة والسريَّة التي تعمل لهدم الدين والأخلاق، وعَلَوْا في الأرض عُلُوّاً لم تبلغه أمَّةٌ من الأمم، ولا شعبٌ من الشعوب.

٥ ـ فإذا جاء وَقتُ وعدِ عقابنا لكم على إفسادكم في المرَّة الأولى، بعثنا عليكم عباداً لنا، ذوي بطش وقوة في الحرب، فتردَّدوا بين الديار ذاهبين وآيبين، بحثاً وتفتيشاً يطلبونكم ليقتلوكم، وكان قضاءً كائناً لازماً لا خُلْف فيه. وأثبت التاريخ أنَّ الله عزَّ وجلّ سلَّط عليهم «بختنصَّر»، فقتل وأسَرَ وغَنِم، وساق بقاياهم أسرى إلى بلاده، قبل المسيح عليه السلام.

٦ ـ وبعد مدَّة من الزمن رَدَدنا لكم الدَّوْلة والغَلَبة على الذين بُعثوا عليكم، حين تُبْتُم من ذنوبكم، ورجعتم عن الفساد، وأمْدَدناكم بأموال وبنين، وجَعَلناكم أكثر رجالاً قادرين على الخروج إلى القتال ممَّا كنتم عليه قبل السَّبي.

٧ ـ إنْ فعلتم حُسْناً يرضاهُ الله، فإحسانكم مُختصٌّ بأنفسكم، لها ثوابُها وجزاءُ إحسانها، وإنْ فعلتم ما هو مسيء قبيح لا يرضاه الله، فعليها إساءتها، فإذا جاء وَعْدُ تحقيق عقوبتكم على إفسادكم العريض في المرَّة الآخرة، جئنا بكم من مواقع تفرُّقكم في الدنيا إلى فلسطين، مجتمعين من أخلاط شتَّى، وبعد ذلك نبعث عليكم عباداً لنا؛ لِيُحزنوكم ويجعلوا آثارَ المَسَاءَةِ والكآبة بادية على وجوهكم، ولِيَدخُلوا المسجد الأقصى منتصرين، ومعظِّمين له ومقدِّسين، كما دخلوه كذلك أول مرة، ولِيُهلكوا ما غلَبوا عليه من منشآت ومؤسَّسات اليهود في فلسطين، حتى يتحوَّل ما بنَوْه من بناءٍ عظيم شاهق إلى تلَّةٍ من رمل وحصى.

عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾ وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ ۖ وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾ وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ مَّنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿١٧﴾

٨ ـ بعد معاقبة الله لكم ـ يا بني إسرائيل ـ بأيدي عبادٍ لنا مسلمين، يُبقي ربُّكم لكم الرجاء بأنْ يرحَمَكم ويتوب عليكم، إذا آمنتم وأسلمتم، وإنْ عُدتُم إلى مثل ما كنتم عليه من إفسادٍ عريض في الأرض، وعُلوٍّ كبير، عُدنا إلى اتِّخاذ التدبيرات التي تُرجعكم إلى وضعكم الذي ضُرِبَ عليكم من الذلَّة والمَسْكنة، والإقامة الدائمة بموقع غضب الله، وجعلنا جهنَّم يوم القيامة للكافرين سجناً ومحبساً دائماً.

٩، ١٠ ـ إنَّ هذا القرآنَ القريب منكم الذي يُتْلى عليكم، له ثلاث وظائف كبرى: **الأولى**: يدلُّ ويرشد إلى الطريقة التي هي أقرب إلى الاعتدال الكامل في كلِّ سلوك بشريّ، **والوظيفة الثانية**: يبشِّرُ القرآنُ المؤمنين إيماناً صحيحاً صادقاً الذين يعملون الصَّالحات بأنَّ لهم أجراً كبيراً ينالونه في الجنَّة، **والوظيفة الثالثة**: ينذر الذين لا يُؤمنون بالآخرة بأننا هيَّأنا لهم عذاباً مُؤلماً في النار.

١١ ـ ويدعو الإنسانُ بالشرِّ في حقيقة الأمر الخافيةِ عليه، دُعاءَهُ بالخير الذي يتهيَّأ له بتعجُّله وقِصَر نظره وعدم شمول معرفته. وكان الإنسان عجولاً، يتَّبع أهواءَهُ وشهواتِهِ، يحبُّ الدنيا العَاجلة، ويُعرض عن الآخرة.

١٢ ـ وجعلنا الليلَ والنهارَ علامتين دالَّتَيْن على وَحدانيَّتنا وقُدرتنا، وعلى عنايتنا بعبادنا، بهيئاتهما وتعاقبهما بإتقان بالغ عجيب، مرتبطٍ بحركة الأرض، حَوْل نفسها باتِّجاه الشمس، ضمن بُعْدٍ محكم التدبير، فجعلنا آية الليل محواً للمرئيَّات عن أن تُرى بالأبصار، بسبب انعدام الكاشف لها من ضياء أو نور، وجعلنا آية النهار مُسبِّبة لإبصار أصحاب العيون السليمة لها، تُرىٰ فيه الأشياء رؤيةً بيِّنة؛ لِتَتَوصَّلوا بضياء النهار إلى اسْتِبانة أعمالكم، والتصرُّف في معايشكم، ولتعلموا باختلاف الليل والنهار عَدَد السنين القمريّة والشمسيَّة، وما تحتاجون إليه من حساب أوقات الشهور والأيام والساعات. وكلُّ شيءٍ من خلق الله في كونه فصَّلناه تفصيلاً دقيقاً مُحكماً، حتى لا تطغى ذرَّةٌ على ذرَّة، ولا خليةٌ على خلية، ولا كوكب على كوكب، وكذلك كلُّ ما تحتاجون إليه من أمر دينكم وهدايتكم إلى النجاة والفلاح يوم المعاد قد بيَّناه في القرآن المنزَّل هدىً للعالمين بياناً شافياً واضحاً.

١٣ ـ وألزمنا كلَّ إنسان مُكلَّف عَمَله الصَّادرَ منه باختياره في عُنقه، لزوم القِلادَة أو الغِل، فهو ملازمُهُ أينما كان، لا يفارقه حتى يُحاسبَ به، ونُخرج له يوم القيامة كتاباً سُجِّلت فيه حسناتُه وسيِّئاتُه، يراهُ مبسوطاً أمام عينيه، مفتوحاً غيرَ مَطْويّ.

١٤ ـ ونقول له: اقْرأ كتابَك، وحاسب نفسك على ما كسبْتَ بإرادتك الحُرَّة في الحياة الدنيا، كفى بنفسِكَ اليومَ عليك مُحاسباً بشأن ما قدَّمت في رحلة امتحانك.

١٥ ـ من اختار لنفسه بإرادته الحرَّة أن يهتدي، واتَّبع ما أنزل الله، فإنه لا يهتدي إلا لمصلحة نفسه ونجاتها وسعادتها، ومن اختار لنفسه بإرادته الحرَّة أن يضل بعيداً عن صراط الله، واتَّبع أهواءَهُ وشهواتِه، فإنه لا يضلُّ إلا جانياً على نفسه، جالباً لها الخسران والشقاء، ومُسَلِّطاً عليها نقمة الله، ولا تَحمِلُ نفسٌ حاملةٌ ثِقل نفس أخرى من الآثام، ولا يُؤَاخَذُ أحدٌ بذنب أحدٍ، بل كلُّ أحد مُختَصٌّ بذنبه، وما كُنَّا مُعذِّبين أحداً من الموضوعين في الحياة الدنيا مَوْضعَ الامتحان، على عصيانهم لأوامرنا ونواهينا، إلا بعد إقامة الحجَّة وقطع العذر ببعثة الرسل وإنزال الكتب.

١٦ ـ وإذا دنا وقتُ تحقُّقِ إرادتنا بإهلاك أهل قرية بعذاب الاستئصال لما اقْترفوه من الظلم والمعاصي، أمرنا مُنَعَّميها وجبَّاريها وقادتَها بالإيمان والطاعة، فخرجوا عمَّا أمرهم الله به حتى صار المجتمع ميؤوساً من إصلاحه، فَوَجَبَ عليها العقاب، فأهلكناها هلاكَ استِئْصال عام شامل.

١٧ ـ وعدداً كثيراً من الأمم المكذِّبة المقترنة في زمن واحد أهلكنا من بعد إهلاك قوم نوح، كعاد وثمود وغيرهما من الأمم الخالية، ولا تحمل ـ أيها الداعي إلى الله ـ همَّ كثرة الكافرين، ودعاة الضلالة، ولا تستعجل في طلب إهلاكهم، فالله خبير على سبيل الشهود والحضور بتدابيرهم وكَيْدهم، بصيرٌ بكلِّ ما يعملون، فتوكَّل عليه، وسلِّم أمرك إليه، فإنه يكفي أولياءه شرورَ أعدائه.

مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعَاجِلَةَ عَجَّلۡنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلۡنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصۡلَىٰهَا مَذۡمُومٗا مَّدۡحُورٗا ﴿١٨﴾ وَمَنۡ أَرَادَ ٱلۡأٓخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعۡيَهَا وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعۡيُهُم مَّشۡكُورٗا ﴿١٩﴾ كُلّٗا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنۡ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرۡ كَيۡفَ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ وَلَلۡأٓخِرَةُ أَكۡبَرُ دَرَجَٰتٖ وَأَكۡبَرُ تَفۡضِيلٗا ﴿٢١﴾ لَّا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقۡعُدَ مَذۡمُومٗا مَّخۡذُولٗا ﴿٢٢﴾ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ إِمَّا يَبۡلُغَنَّ عِندَكَ ٱلۡكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوۡ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوۡلٗا كَرِيمٗا ﴿٢٣﴾ وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمۡۚ إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلۡأَوَّٰبِينَ غَفُورٗا ﴿٢٥﴾ وَءَاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرۡ تَبۡذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلۡمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخۡوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِۖ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورٗا ﴿٢٧﴾

١٨ ـ مَنْ كان من الموضوعين في الحياة الدنيا موضع الامتحان يريدُ باستمرار وتجدُّد الحياة العاجلة في الدنيا، كافراً بالآخرة، ولا يسعى للنعيم فيها سعياً ما، عجَّلنا له فيها ما نشاءُ من متاع الحياة الدنيا ولذَّاتها، لِمَنْ نُريد أن نفعل به ذلك من عبادنا بحكمتنا وعلمنا، ثمَّ جعلنا له في الآخرة جهنَّم يَدخلها ويحترق بنارها، حال كونه مَلُوماً على ما جَنَى من إثم عظيم، مَطْروداً مُبْعَداً من رحمة الله مع إهانةٍ وإذلال.

١٩ ـ ومَنْ أرادَ ثواب الآخرة في جنات النعيم، وسعى للآخرة بطاعة الله والتزام شريعته، وهو مؤمنٌ إيماناً صحيحاً صادقاً، ومات على ذلك، فأولئك رفيعو المنزلة كان سعيُهم عند ربِّهم مَقْبولاً مُثْنِيّاً عليه.

٢٠ ـ نَزيدُ كِلاَ الفريقين: مَنْ يُريد الدنيا، ومَنْ يُريد الآخرة، بِرِزْقهما جميعاً من عطاء ربِّك، وما كان عطاءُ رَبِّكَ في الدنيا التي جعلها الله لابتلاء عباده ممنوعاً عن أحدٍ ممَّن يريد إعطاءه، مؤمناً كان أو كافراً، وَفْقَ حكمته وعلمه.

٢١ ـ انْظُر وتفكَّر ـ أيها المخاطَب ـ كيف فضَّلنا بعضَهُم على بعض في عطاءاتنا من متاع الدنيا وزينتها، وَلَلآخرة أكبر درجاتٍ مُتفاضلاتٍ في جنَّات النعيم، وأكبر تفضيلاً بعطاءات النعيم ووسائله فيها، ويُقابل هذا تفاوت المعذَّبين في النار، بتنازل الدَّركات وانحطاطها حتى الدَّرْك الأسفل منها، وبتزايد مقادير العذاب؛ بِحَسَب مقادير ذنوبهم وجرائمهم التي اكتسبوها بإرادتهم الحرة في الحياة الدنيا.

٢٢ ـ لا تعبد ـ أيُّها الإنسان ـ مع اللَّهِ معبوداً آخر غير الله، فَتَقْعُدَ مَذْموماً من غير حمْدٍ، مخذولاً بغير ناصر.

٢٣ ـ وأنهى ربُّك إرادته التكليفيَّة بقضاء مُبْرَم في وصايا مُوجَّهة للرسول ﷺ، ولكلِّ فرد من أمته: **الوصيَّة الأولى**: تفسيرها أن لا تعبدوا إلا إيَّاه، فاجعلوا كلَّ عباداتكم محصورة به، ومقْصورة عليه، **الوصيَّة الثانية**: وأَمَرَ بالوالدين برّاً بهما وعَطْفاً عليهما وإحساناً إليهما، إمَّا يَبْلُغان إلى حالة الضَّعف والعَجْز، فيصيران عندك في آخر العُمر كما كنت عندهما في أوَّل العمر، فلا تَقُل لهما كلمةَ تَضَجُّرٍ وكراهِيَةٍ، مثل كلمة «أفّ»، فضلاً عما هو أشدُّ منها، ولا تَزْجُرْهُما عمَّا يَتَعاطَيانِهِ ممَّا لا يُعجِبُك، وقل لهما قَوْلاً حَسَناً جميلاً ليِّناً فيه تكريم لهما، وتعظيمٌ لفضلهما.

٢٤ ـ وَأَلِنْ جانبَكَ واخْفِضْهُ مُتَذلِّلاً لهُما، تذلُّلاً ناشئاً عن خُلُق الرحمة المُتَغَلْغِل في قلبك، وتذلّل لهما تذلُّل الراحم لا تذلُّل الضعيف المهين، حتى لا تمتنع عن القيام بكلِّ صور العطف والإحسان، من خدمة ومساعدة، وعطاء وتكريم واحترام، وسهر وصبر، وبذل وتضحية، وتواضع وتحبُّب. وقل: ربِّ ارحَمْهما برحمتك الباقية؛ لأجل أنهما ربَّياني حالة كوني صغيراً، لا أستطيع أن أقوم بشؤوني لنفسي.

٢٥ ـ ربُّكم أعلمُ بما في نفوسكم من برِّ الوالدين واعتقاد ما يجبُ لهما من التوقير وعدم عقوقهما، إنْ تكونوا أبْراراً مطيعين بعد تقصيرٍ كان منكم في القيام بما ألزمكم من حقِّ الوالدين، ثمَّ أنبْتُم إلى الله واستغفرتُم ممَّا فَرَط منكم، فإنَّه كان للرجَّاعين إليه تعالى ممَّا فرط منهم كثير الستر، يمنحهم من غفرانه قدراً كبيراً، إذا رجعوا إليه بالاستغفار والتوبة، وَعَلِمَ صدق قلوبهم.

٢٦ ـ **الوصيَّة الثالثة**: وأعطِ أصحاب القرابة منك حقَّهم من صِلَة الرَّحِم، والمودَّة والزيارة، وحُسْن المُعاشرة، وإن كانوا محاويج وأنت موسرٌ فأنفق عليهم، وأعطِ المسكينَ الذي يبدو من ظاهر حاله الفقر، والمسافر المنقطع عن أهله وماله، **الوصيَّة الرابعة**: ولا تنفق مالك في المعصية، أو على وجه الإسراف والعبث إنفاقاً في غير حقِّه، يحكم عليه أهل العقل والرُّشد بأنه من التبذير.

٢٧ ـ إنَّ المنفقين أموالهم في معاصي الله كانوا أولياء الشياطين وأصدقاءهم؛ لأنَّهم يطيعونهم فيما يأمرونهم به من الإسراف، وفيما يَسْتدرجونهم من المباحات إلى المكروهات، فإلى المحرَّمات الصغرى، فإلى الكبائر الكبرىٰ، ثم إلى الكفر والعياذ بالله، وكان الشيطانُ شديدَ الجُحود لنعمة ربِّه، فما ينبغي أن يُطاع لأنَّه يدعو إلى مثل عمله.

وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ ۖ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ ۖ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ۚ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ ۖ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ۚ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾

٢٨ - وإنْ تُعرِض عن هؤلاء الذين أُمرتَ أن تُؤتيَهم، انتظارَ رزقٍ من الله ترجوه أنْ يأتيَك، وتتوقَّع حصوله راغباً فيه، فقل لهم قولاً ليِّناً جميلاً، وَعِدهمُ وَعداً تطيبُ به قلوبُهم.

٢٩، ٣٠ - **الوصيَّة الخامسة**: ولا تُمسك يَدَك عن النفقة في الحقِّ والخير، كالمغلولة يده لا يقدر على مدِّها، ولا تَبْسُطها بالعطاء كلَّ البَسْط، فتُعطي جميعَ ما عندك، فتقعدَ مَلُوماً عند أصحابك من سوء تصرُّفك؛ بسبب إمْسَاكك شُحّاً وبخلاً، منقطعاً عاجزاً عن تحقيق مطلوباتك؛ بسبب بَسْطِكَ يدك تبذيراً وإسرافاً؛ إنَّ ربَّك الذي يُمدُّك بعطاءات ربوبيَّته دَوَاماً - يا أيها الإنسان الموضوع في الحياة الدنيا موضع الامتحان - يُوَسِّعُ الرزقَ ويكثِّره في الحياة الدنيا لمَنْ يشاء، ويُضيِّق ويُقتِّر؛ ليتمَّ امتحان الناس في المجالات التي يُطلب فيها الشكر بالبذل والعطاء، ويُطلب فيها تزكية النفس من داء الشحِّ والبخل، ويُطلب فيها الصبر والرِّضا عن الله، والقناعة والتسليم لمقاديره الحكيمة، إنَّه سبحانه كان من الأزل إلى الأبد عليماً بأحوال جميع عباده، وما يصلحهم، علمَ حضور وشهود وتدبير، بصيراً بخفايا نفوسهم، لا يغيب عن علمه شيء من أحوالهم.

٣١ - **الوصيَّة السادسة**: ولا تقْتلوا أولادكم؛ لتتخلَّصوا من النفقة عليهم خوفَ حدوثِ فقْرٍ في المستقبل، نحن نتكفَّل برزق الأولاد، ورزق آبائهم المنفقين عليهم، إنَّ قتل الأولاد كان إثماً عظيماً، وذنباً كبيراً.

٣٢ - **الوصيَّة السابعة**: ولا تَقْربوا الزِّنى، إنَّه كان قبيحةً وبِئْسَ الزِّنى طريقاً إلى تحقيق شهوات الفروج. والنهيُ عن اقتراب الزِّنى أبلغُ من النهي عنه؛ لأنه نهيٌ عن الاقتراب من مُقدِّماته التي قد تُفضي إليه، كالنظر والملامسة والتقبيل، ونحو ذلك.

٣٣ - **الوصيَّة الثامنة**: ولا تَقْتلوا النَّفسَ التي حَرَّمَ اللَّهُ قَتْلَها إلا بالحقِّ الشَّرعي الذي أذِنَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ فيه بالقتل، كالثيِّب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارقِ للجماعة، ومن قُتِلَ مظلوماً عَمْداً وعُدواناً، فقد جعلنا لوليِّ أمرِهِ من وارث أو حاكم، قوَّةً وولايةً على القاتل بالقتل أو أخذ الدِّيَة، فلا يُسْرف الوليُّ بالقتل، فيقتل غيرَ القاتل، أو يقتل به جماعة، إنَّ وليَّ القاتل كان منصوراً على القاتل باستيفاء القِصاص منه، أو الدِّية.

٣٤ - **الوصيَّة التاسعة**: ولا تَقْربوا مالَ الولد الصغير الذي مات أبوه، وهو دون سنِّ الحُلُم، إلا اقتراباً ومباشرة بالطَّريقة التي هي أحسَن بتنميةِ ماله وحفظِهِ، حتى يَبْلُغَ اليتيمُ كمالَ عقلهِ ورُشْدِه، ويُمكنه القيامُ بمصالح ماله، **الوصيَّة العاشرة**: وأوْفُوا بأوامر الله ونواهيه، وما بينكم وبين العباد من مواثيق اتَّفقتم عليها بلا نقضٍ ولا إخلاف ولا نقص؛ إنَّ معطي العهد كان مسؤولاً يوم القيامة عند الله عن حفظه والوفاء به.

٣٥ - **الوصيَّة الحادية عشرة**: وأتمُّوا الكَيْلَ ولا تَنْقصُوه إذا كلْتُم لغيركم، وزِنُوا بالعدل المستقيم، ذلك خيرٌ من الطمع بزيادةٍ على حقِّكم، أو نقْصٍ من حقِّ الشخص الذي يتعامل معكم، وأحسنُ مآلاً وعاقبةً يوم الدين.

٣٦ - **الوصيَّة الثانية عشرة**: ولا تَتْبع - أيها الإنسان - في أيِّ أمرٍ من أمور حياتك شيئاً لا تعلم أنه حقٌّ وصواب من قولٍ أو فعلٍ؛ فإن لديك من أدوات المعرفة ما تستطيع به التبصُّر في الأمور، فإذا أنت اتَّبعت ما ليس لك به علم فقد عطَّلت أدوات المعرفة التي لديك؛ إنَّ الإنسان مسؤولٌ عمَّا استعمل فيه سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، وعُمق قلبه الذي هو أداة الإدراك في الإنسان، ومركز استقرار العلوم والمعارف، والذي تنطلق منه الإرادات.

٣٧ - **الوصيَّة الثالثة عشرة**: ولا تمْشِ - أيُّها المؤمن - في الأرض بَطَراً وَكِبْراً وخُيَلاء، إنَّك حين تضرب الأرض برجْلك، وتتطاول مُستعلياً بقامتك على الناس، لن تقطعَ الأرض حتى تبلغَ آخرها، ولا تقْدِر أن تُطاولَ الجبال وتُساويها بقامتك، فالأرض التي تمشي عليها - أيها المستكبر - أصلبُ من قوتك، والصخور الجامدة المُكدَّسة جبالاً أطول من قامتك، فلا تزعمنَّ أن شدَّة الوطْء، أو تطاول الجسم، يمنحانك عِظَماً حقيقياً.

٣٨ - كلُّ ما ذُكِرَ من الوصايا السابقة، كان الجانب السَّيِّء المنهيُّ عنه، عند ربِّك مكروهاً غير محبوب بصفةٍ ثابتةٍ دواماً.

ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾ أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾

٣٩ ـ ذلك الذي بَيَّناه من الأوامر والنَّواهي في هذه الآيات التي تتناول كثيراً من جزئيَّات السلوك الإنساني ممَّا أوحَيْناهُ إليك ـ يا رسول الله ـ من حُسْن التصرُّف في الأمور، ووضع الأشياء في مواضعها المُلائمة، والتي يرتقي بها الإنسان في سُلَّم الكمال الإنساني، وهي شرائع مُحكمة واجبة الرعاية في جميع الرسالات، ولا تَجعل ـ أيُّها الإنسان ـ مع الله إلٰهاً آخر، فتُلقى يوم الدين في نار جهنَّم موصوفاً بالذنب والإثم، مَطروداً مُبْعَداً عن كلِّ خير.

٤٠ ـ أتنازل ربُّكم عن وحدانيَّته، فَخَصَّكم واخْتاركم ـ يا مُشركي مكة ـ بأفضل الأولاد وهم البنون، واتَّخذ لنفسه من الملائكة إناثاً، كما تزعمون؟ إنَّكم لتقولونَ قولاً عظيماً شنيعاً بإضافة البنات إليه، وبتفضيلِ أنفسكم عليه، حيث تجعلون له ما تكرهون لأنفسكم.

٤١ ـ ونؤكِّد لكم أننا بيَّنا وأوضحنا ونوَّعنا في هذا القرآن الطرق الحكيمة للوصول إلى الإقناع الفكري، وفي سائر وسائل الهداية وأساليبها، بالتحويل فيها من وَجْه إلى وَجْه آخر، بحسب مُقتضيات أحوال المخاطبين الفكريَّة والنفسيَّة؛ ليكون الحقُّ الربَّاني في ذاكرتهم وليَتَّعظُوا ويعتبروا بما فيه من أساليب البيان والدعوة والجدال، وما يزيدُهُم تصريفُنا وتذكيرُنا إلا تَباعُداً عن الحقِّ، كحالة المذعور الشارد.

٤٢ ـ قل ـ يا أيها الداعي إلى الله ـ لهؤلاء المشركين: لو كان مَعَ الله آلهةٌ تحكم في الكون وتتصرَّف كما يقولونَ، إذاً لطلب هؤلاء الآلهةُ الأرباب إلى صاحب العرش الذي يعترفون به رباً خالقاً له، طريقاً بالمُغالَبة والقَهْرِ؛ لأن الإلٰهيَّة المتضمِّنة كمال التصرُّف وكمال القدرة لا تقبل الخضوع والاستسلام لربٍّ هو إلٰه معبودٌ فوقها، أمَّا وإنها لم تتَّخذ هذا السبيل لربِّ العرش، ورضيت بضعفها وإلٰهيَّتها المزعومة في نطاق الأرض، فإنَّ ضعفها هذا من الأدلة القاطعة على أنها مخلوقة كسائر المخلوقات، وقد انتُحِلَت لها الإلٰهيَّة انتحالاً باطلاً، لا يُصاحبه دليل تقبله العقول السليمة.

٤٣ ـ تَنَزَّه الله سبحانه وتقدَّس عمَّا يصِفُه به المشركون، وتعالىٰ عُلوّاً كبيراً لا حدود ولا نهاية له.

٤٤ ـ تُنَزِّه للَّهِ عزَّ وجلّ السَّمواتُ السَّبْع والأرضُ ومَنْ فيهنَّ من الملائكة والإنس والجنّ، وما من شيء في هذا الوجود كلّه إلاّ يُنَزِّهُ الله تعالى تنزيهاً مقروناً بالثناء عليه سبحانه، ولكن لا تفهمون تسبيحَهُم ما عدا من يُسبحُ بلغتكم ولسانكم، إنَّه كان دواماً كثير الحِلْم بعباده، لا يُعجِّل بمعاقبة المشركين المُصرّين على كفرهم، رغبةً في أن يتوبوا، فإذا استجابوا لربِّهم غَفَر لهم؛ لأنه كثير المغفرة لعباده.

٤٥ ـ وإذا قرأتَ القُرآنَ فسمعه هؤلاء المشركون، جَعَلنا بَيْنَك وبين استماع الذين لا يؤمنون بالآخرة لقراءتك القرآنَ، حِجَاباً يحجبُ قلوبهم عن فهمه والانتفاع به؛ بسبب تعلُّقهم بشهواتهم وأهوائهم.

٤٦ ـ وَجَعَلنا على قلوبهم أغطيةً؛ لئلاً يفهموه، وفي آذانهم صمماً وثِقَلاً شديداً؛ لئلاً يسمعوه؛ بسبب انصرافهم عن الآخرة، وتعلُّقهم بالدنيا، وإذا حضروا مجلس استماع القرآن، وسمعوا آياتٍ دالات على وحدانيَّته، وفهموا منها الدلالة على بطلان ما يعبدون من آلهة، انصرفوا مُبتعدين، جاعلين ما كرهوا استماعه مطروحةً على أدبارهم غير عابئين بها، حالة كونهم مبتعدين كحالة المذعور الشارد.

٤٧ ـ نحنُ أعلم بالطريقة التي يستمع بها كفارُ قريش القرآن، حين يستمعون إليك ـ يا رسول الله ـ وأنت تقْرأ القرآن استماع عازم على الرفض، وتصيُّد ما يتَّخذونه ذريعةً للتشهير بك، والطعن فيما تتلو عليهم، ونحن أعلم حين يُسرُّون الحديث في أمرك، حين يقول المشركون: ما تتَّبعونَ إلا رجلاً قد خبله السحر فاختلط عقله.

٤٨ ـ انظر ـ يا رسول الله ـ بفكرك مُتعجِّباً مستنكراً، كيف اصْطَنعوا كاذبين لك أوصافاً تنافي صفاتك العظيمة التي تتحلّى بها، فقالوا: ساحر، شاعر، كاهن، مجنون، فَضَلُّوا في متاهات الباطل، وحارُوا فلا يستطيعون وصولاً إلى طريق الحق.

٤٩ ـ وقال المشركون مُستَبْعدين الإعادة بعد الموت: أإذا كنَّا عظاماً نَخِرة وأجزاءً مُتفتِّتة أئنَّا لمبعوثون يومَ القيامة خَلْقاً جديداً؟!

۞ قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ۚ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّۦنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾

٥٠ - قل لهم - يا رسول الله - على جهةِ التعجيز: كونوا حجارةً في الشدَّة، أو حديداً في القوَّة.

٥١ - أو كونوا خلقاً ممَّا ترونه كبيراً في صدوركم، كالسماء والأرض والجبال، فسيقولون: مَنْ يبعثنا بعد الموت؟ قل لهم - يا رسولَ الله -: الذي خلقكم أوَّل مرة هو الذي يعيدكم إلى الحياة مرة ثانية، فمن قَدَرَ على الإنشاء قَدَرَ على الإعادة، فَسَيُحَرِّكون رؤوسهم إذا قلتَ لهم ذلك، مُستهزئين بما تقول، ويقولون: متى زمن البعث والقيامة؟ قل: أتوقَّع أن يكون موتكم قريباً، فعندها تنكشف لكم حقائق الآخرة التي لا تؤمنون بها، وأتوقع قرب الساعة التي يكون بها إنهاء ظروف الحياة الدنيا.

٥٢ - بعثكم لليوم الآخر، يكون يوم يدعوكم خالقكم من قبوركم إلى موقف القيامة، فَتَسْتَجيبونَ مباشرةً لأمره، استجابةً مقترنةً بالحمد والثناء، إذْ تعلمون يومئذ قدرته على البعث، فتنطلق ألسنتكم بحمده، وتظنُّون عند البعث أنكم ما لبثتم في البرزخ بين الموت والبعث إلاّ زمناً قليلاً.

٥٣ - وقل - يا رسول الله - لعبادي المؤمنين يقولوا دواماً الكلمةَ التي هي أحسَن في كلِّ ما ينطقون به؛ إنَّ الشيطان يفسد ويُلقي العداوة بينهم بوساوسه وتسويلاته؛ إنَّ الشيطان كان للإنسان عَدُوّاً ظاهر العداوة. وفي الآية: الأمر بحُسن العشرة بين المؤمنين، وخفض الجناح، ولين الجانب.

٥٤ - ربُّكم - أيها الناس - أعلم من كلِّ عليم بكم، إنْ يَشَأْ يرحمكم، فيغفر ذنوبكم بمقتضىٰ حكمته، أو إنْ يَشَأْ يعذِّبكم عقوبةً لكم على كفركم ومعاصيكم، وما أرسلناك - يا رسول الله - عليهم حفيظاً وكفيلاً، ولست مطالباً بتحويل الناس من الكفر إلى الإيمان، ومن العصيان إلى الطاعة، بل كلُّ واحد مسؤول عما اختاره لنفسه مسؤولية تامَّة.

٥٥ - وربُّك - يا رسول الله - أعلمُ من كلِّ ذي علم بمَنْ في السَّموات والأرض، وبعلمنا بكلٍّ من في السموات والأرض، فَضَّلناك عليهم جميعاً، إذ آتيناك ما لم نُؤتِ أحداً منهم من تكريم وتشريف، ولقد فضَّلنا بعض النَّبيين على بعض، كما فضَّلناك على جميع مَنْ خلقنا في السموات والأرض، وآتَيْنا داودَ كتاباً فيه تحميد وتمجيد ومواعظ، فضَّلناه به على كثير من أنبياء بني إسرائيل الذين لم نؤتهم كتباً.

٥٦ - قل - يا رسول الله ويا كلَّ داعٍ إلى الله من أمته - للمشركين: ادعُوا الذين زعمتم أنَّهم آلهة من دون الله إذا نزل عليكم الضرُّ، فلا يملكون كشفَ الضُّرِّ عنكم، ولاَ يملكون نَقْله إلى غيركم ممَّن لم يعبدهم، ولا يُحوِّلون حالكم من العُسْر إلى اليُسْر.

٥٧ - أولئك الفضلاء رفيعو المنزلة الذين اتَّخذهم الكفار آلهة كالملائكة وبعض الإنس والجنِّ، يطلبون إلى ربِّهم المنزلة والدرجة العليا، ويتقرَّبون إليه بالعمل الصَّالح، ويتسابقون بنوافل الطاعات، يتفاضلون فيما بينهم في القُرب، أيُّهم أقْرب فهو أسرعُ استجابةً، وأكثر قبولاً عند ربِّه، ويتوقَّعون آناً بعد آن عطاءَهُ ومعونته وتوفيقه ودخول جنّته، ويخافونَ عذابه، فيفعلون ما أمر الله به، ويجتنبون ما نهى الله عنه؛ إنَّ عذاب ربِّك الذي أعدَّهُ للكافرين العصاة كان حقيقاً بأن يَحذَرَهُ كلُّ أحدٍ من مَلَكٍ مقرَّب أو نبيٍّ مرسل، فَضْلاً عن غيرهم من الخلائق.

٥٨ - وما مِنْ مُجمَّعات سكنيَّةٍ بشرية صغيرة أم كبيرة، حتى أعظم المدن وأكبرها، إلا نحن مُهلكوها هلاك استئصال في ظروف امتحانهم في الحياة الدنيا قَبْل يوم القيامة بسبب كفر أهلها وطغيانهم، أو مُعَذِّبوها عذاباً شديداً دون عذاب الاستئصال الشامل، بسبب كثرة ذنوب أهلها ومعاصيهم، كان بيانُ ذلك الإهلاك أو العذاب الشديد في اللوح المحفوظ مكتوباً مُثْبَتاً قبل أن يخلق الله الناس، ويمتحنهم في الحياة الدنيا.

وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ ۚ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾

٥٩ ـ وما كان سبب تركنا إرسال الآيات الحسيَّة الخارقة للسُّنن الثابتة التي سَألها كفَّارُ قومك، إلا أنْ كذَّب بها الأوَّلون بعد إرسالها استجابةً لمطالبهم، فأهلكناهم إهلاكاً عاماً، فإنْ لم يُؤمن قومُك بعد إرسال الآيات أهلكناهم، وآتَيْنا «ثمودَ» الناقة معجزةً بيِّنةً واضحة، على وَفْق ما اقترحوا على رسولهم «صالح»، فظلموا جاحدين بها، وظلموا بعقرها، فعاجَلناهم بالعذاب المُسْتأصِل، وما نُرسِلُ بالآياتِ المُقْتَرَحة إلا تخويفاً من نزول العذاب، فإنْ لم يخافوا وَقَعَ عليهم.

٦٠ ـ واذكر ـ يا رسول الله ـ حين قلنا لك: إنَّ ربَّك أحاطَ بالناس، فهم في قَبْضته وقدرته، لا يقدرون على الخروج من مشيئته، وهو حافظك ومانعك منهم، فلا تَهَبْهُم وامْضِ لما أمرك من التبليغ للرسالة، فهو ينصُرُكَ ويُقَوِّيك على ذلك، وما جَعَلنا العجائبَ والآياتِ التي أرَيْناك ببصرك يقظةً ليلةَ المعراج إلا اختباراً للناس؛ ليتميَّز كافرهم من مؤمنهم، وما جَعَلنا شجرةَ الزَّقوم التي جاء القرآن بلعن آكليها إلا عذاباً للظالمين في دار العذاب يوم الدين، ونُخَوِّف أئمة مشركي مكة بالمُخوِّفات من البأساء والضرَّاء، فما يزيدُهم تخويفُنا إلا تَجاوزاً للحدِّ في كفرهم وتمرُّداً عظيماً.

٦١ ـ وضع في ذاكرتك ـ أيُّها المُتلقِّي لكلامنا ـ قولَنا للملائكة: اسْجُدوا لآدم، فَسَجَدوا جميعاً إلاَّ إبليس، استكبر وقال: أأَسْجُدُ وأنا المخلوق من نار لِمَنْ خَلَقْتَهُ من تراب وماء؟

٦٢ ـ قال إبليس: أرأيت نفسَكَ وما فعلتَ؛ إذْ كرَّمت عليَّ منْ لا يستحقُّ التكريم، وفضَّلتَهُ عليَّ!؟ أقسم لَئِن أبقيتني حياً إلى يوم القيامة، لأجْعَلَنَّ ذُرِّيَّة آدم كالدواب التي تُطوَّعُ بوضع اللُّجم في أحناكها، وَلأُسيِّرَنَّهم في هذه الحياة الدنيا عصاةً لك، ولأنقلنَّهم خطوة فخطوة، حتى أوصلَ مَنْ يستجيب لي منهم إلى دركة الكافرين المجرمين الذين يستحقُّون العذاب الأبديَّ في الجحيم، إلا قليلاً من المعصومين الذين لا يتأثَّرون بوساوسي وتَسْويلاتي، من عبادك المخلصين.

٦٣ ـ قال الله تعالى لإبليس: امْضِ لِشَأنك، فأنت مُمكَّن ممَّا أعددتَ نفسك للقيام به من إغراءٍ وإغواء، دون أن يكون لك عليهم سلطان يُلغي إراداتهم الحرة، فَمَنْ تَبِعَكَ في كفرك وتمرُّدك من ذُرِّيَّة آدم، فإنَّ عذابَ جهنَّم جزاؤك وجزاءُ أتْباعك جزاءً وافراً كاملاً.

٦٤ ـ واعمل بوسائلك الصوتيَّة الإعلاميَّة؛ لتسْتخفَّ من استطعت من ذُرِّيَّة آدم، فتنهضهم من مكان استقرارهم بدعائك إيّاهم إلى معصية الله بكلِّ وسائل الإعلام المسموعة والمقروءة والمُشاهَدة، واجْمَع عليهم مُتقوِّياً بفُرسانك الذين يقاتلون على الخيول، وبالجنود المُشاة على أرجُلهم، لتحقيق ما عَزَمْتَ عليه من إغراء وإغواء، وشاركهم في الأموال بإغرائهم بأكل الأموال بالباطل عن طريق البنوك الربويَّة، والمعاملات المالية المحرَّمة، وشاركهم في الأولاد بإغرائهم عن صراط الله المستقيم، بتزيين حبِّ الشهوات المحرمة، واستيلاد الأولاد بغير ما شرع الله، وزيِّن لهم الوعود الكاذبة، وَمَنِّهم الأمانيّ الباطلة، وما يَعِدُهُمُ الشَّيطانُ إلا وعوداً خادعةً يُزيِّنُ فيها الباطل بما يُظَنُّ أنه حقٌّ.

٦٥ ـ إنَّ عبادي المؤمنين الصَّالحين ليس لك عليهم سلطان تؤثِّر به عليهم، تُلغي به إراداتهم الحرَّة، ولا يكون منك لهم أكثر من اتِّخاذ الأسباب الإغوائيَّة غير الإكراهيَّة ولا الجبريَّة، ولن تؤثر فيهم إغراءاتك ووساوسك وتسويلاتك؛ لأنهم يؤمنون بي، ويستعيذون بي، ويتوكلون عليَّ، فأكفيهم بحفظي وعزَّتي، وكفى بربِّك حافظاً، يدفع عنهم كَيْدَ الشَّيطان وَوَساوِسَهُ، ويعصمهم عن إغْوائه وإضْلالِهِ.

٦٦ ـ ربُّكم ـ أيُّها الناس ـ الذي يَسُوقُ ويُجري لكم السُّفُنَ برفقٍ في البحر، ضمن ما سخَّر لكم من أنظمة وقوانين ثابتة في كونه؛ لِتطلُبوا من رزقه بالأرباح في التجارة وغيرها؛ إنَّه كان بكم رحيماً، حيث يَسَّر لكم هذه المنافع والمصالح، وسهَّلها عليكم.

وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾ وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾

٦٧ - وإذا وَصَل الضرُّ - وهو ما تكرهون من المُؤلمات - حدَّ المسّ، ولكن لم يصل حدَّ العذاب الأليم المهلك، أو الإصابة القاتلة، ذهب عن أوهامكم وخواطركم كلُّ ما تدعون في حوائجكم من الأصنام وغيرها، إلاَّ الله وحده، فإنَّكم لا تذكرون سواه، ولا يخطر ببالكم غيره؛ لأنَّه القادر على إعانتكم ونجاتكم، فلمَّا دعوتم الله ربَّكم، واستجاب دعاءكم، وأنجاكم من هَوْل البحر وشدَّته، وأوصلكم إلى البرّ، وشعرتم بالأمن والطمأنينة، أعرضتُم عن الإيمان والإخلاص والطاعة، وكفرتم النعمة، وكان الإنسان كثير الجُحُود لنعم الله عليه، لا يؤدِّي واجبَ الشكر.

٦٨ - أملكتم بقدراتكم جانبَ البرّ، فَأَمِنْتُم بعد إنْجائكم أن تنهارَ بكم الأرض، فتغيَّبون تحت الثَّرى؟ أو ملكتُم بقُدراتكم الرياحَ وإرسالها، فأمنتم أن يرسل عليكم ربكم ريحاً تحمل حجارةً من السماء؟ ثمَّ بعد أن يخسف الله بكم جانب البر، أو بعد أن يرسل عليكم حاصباً لا تجدوا لكم وكيلاً يتوكَّل أمر دفع عذاب الله عنكم، أو يُسائل الله ويقاضيه عما أنزل بكم؛ إذ هو الفعَّال لما يشاء، وأفعاله كلُّها حكيمة.

٦٩ - بل أمنتم أن يعيدكم في البحر مرَّة أخرى، ظانِّين أنَّ البحر هادىء، وأنَّ الرياح مُواتية، فَيُرسِلَ عليكم ريحاً شديدة تَقْصف لشدَّتها ما مرَّت به، فَنُغرِقَكُم بكفرانكم النِّعمة وإعراضكم حين أنْجَيْناكم، ثمَّ لا تجدون لكم بعد أن نُغرقكم مُطالباً يطالبُنا بما فعلنا انتصاراً لكم.

٧٠ - ونقسم مؤكِّدين أننا كرَّمنا بني آدم بالعقل والنُّطق والتمييز واعتدال القامة وحُسْن الصُّورة، وبتسخير جميع ما في الأرض لهم، وحَمَلناهم في البرِّ على الدوابِّ، والمراكب التي هديناهم إلى صُنعها، وفي البحر على السُّفن، ورزقناهم في الحياة الدنيا من لذيذ المطاعم والمَشَارب والمناكح، ومُمْتِعَات السمع والبصر وسائر الحواس، وفضَّلناهم على كثيرٍ من المخلوقات تفضيلاً عظيماً.

٧١ - وضَعْ في ذاكرتك - أيها المُتلقِّي لبياننا - يومَ البعث حين نُقسِّم الناس إلى زُمَر، بحسب أئمَّتهم في الدنيا، وندعو كلَّ زمرةٍ منهم معرَّفِين بإمامهم الذي كانوا يتَّبعونه في الدنيا، وتكون هذه الدعوة بعد أن يكون أهل الموقف قد تسلَّموا كتب أعمالهم، فَمَنْ أُوتي من هؤلاء المدعوين كتاب أعماله بيمينه، فأولئك ذوو المنزلة العالية عند ربِّهم، يقرؤون كتاب حسَنَاتهم أحسَنَ قراءة وأبينَهَا، فرحينَ بما تفضَّل الله عليهم به من مضاعفات للحسنات، وتجاوز عن السيِّئات، ولا يُنْقَصُون من ثوابِ أعمالهم أدنى شيء، وإن كان مقدار الخيط الذي يكون في شقِّ النواة.

٧٢ - ومَنْ كان في هذه الحياة الدنيا كافراً ضالاً بكفره عن سبيل سعادته العاجِلَةِ والآجِلَةِ، فهو في الآخرة محكوم عليه بأنه أعمى مفروز مع زمرة الكافرين، وهو يومئذ أكثر ضلالاً عن سبيلٍ ينجيه من عذاب الله، إذ لا يجد لنفسه طريقاً يسلكهُ إلا طريق جهنم التي يكون فيها خالداً أبداً.

٧٣ - وقد قارب المشركون لِيُغروك - يا رسول الله - بمعسول القول، والمواعيد الكاذبة، صارفينَ إيَّاك عن تلاوة أو تطبيق بعض الذي أَوْحَيْنا إليك مما يسوؤهم سماعُه أو تطبيقُهُ؛ لِتَخْتَلِقَ وتتقوَّل علينا ما لم نَقُله، ولتغيِّر في سلوكك سلوكاً آخر يرضي كبراء قومك، ولو فعلتَ ما دَعَوْكَ إليه، إذن لاتَّخذوك حبيباً خالصاً، تخلَّلت مودته في قلوبهم.

٧٤ - ولولا أن ثَبَّتْناك على الحقِّ بعصمتنا، وشَدَدنا عزيمتك على عدم الاستجابة لإغراءاتهم، لقاربتَ أن تميلَ إليهم بحديث النفس شيئاً قليلاً. ولكن الله ثبَّتك تثبيتاً، فمنعك بالعصمة من أن تُقارب المَيْل، فضلاً عن المَيْل.

٧٥ - لو ركنتَ إليهم شيئاً قليلاً، وأنت الأسوة الحسنة للمؤمنين، لأذقناك ضِعْف ذنبك في الحياة مِثْلَيْن فأكثر، وضعف عذاب الممات في البرزخ بين الموت والبعث، ثمَّ إذا أنزلنا بك العذاب على هذه المعصية الكبيرة لا تجدُ لك نصيراً ينصرك علينا، فيرفع عنك من عذابنا، لكنك لم تفعل شيئاً من ذلك، وتوكَّلت علينا فثبّتناك وعَصَمناك.

وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَـٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَـٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَـٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾

٧٦ - ولقد قارَبَ المشركون أن يستخفُّوك بالمثيرات المزعجات ليُخْرجوك من «مكة»، لكنك لم تتأثر بما فعلوا، فلم تهاجر من مكة حينئذ، لأن الحكمة لم تقتض خروجك، فلم يأذن لك ربُّك بالهجرة، وإنْ أخرجوك بالاستفزاز أو بالإكراه لا يبْقَوْن بعد إخراجك من «مكة» إلا زماناً قليلاً، حتى يَهْلِكوا. وهذا ما حَصَل فعلاً إذ اضْطروه إلى الخروج حين هاجر بعد مدة من الزمن، فدبَّر الله عزَّ وجلّ استدراجهم إلى مصارعهم في «بدر»، في السنة الثانية من الهجرة.

٧٧ - حالة كوْن هذا العقاب لمُخْرجي رسولهم طريقتنا المتَّبعة في كلّ قوم أخرجوا رسولهم من بين أظهرهم، وأنْ لا يُعذِّبهم ما دام نبيُّهم بينهم، ولا تجد - يا رسول الله - لِسُنَّة الله تبديلاً ولا تحويلاً عن مَجْراها.

٧٨ - أَقِم الصَّلاة من بعد زَوال الشَّمس عن وسط السماء، بمَيْلها وسَط السماء لجهة الغرب، ويدخل في هذا صلاة الظهر والعصر، وبعد غروب الشمس إلى آخر ظلمة الليل، وهذا يتناول المغرب والعشاء، وأقم صلاة الفجر، إنَّ صلاة الفجر تشهدها ملائكة الليل وملائكة النهار.

٧٩ - وَقُمْ - يا رسول الله - بعد نومك، وصَلِّ بعض الليل، لتكونَ صلاةُ الليل زيادةً لك في علوِّ قَدرِكَ ورفْع دَرَجاتِكَ، راجياً مترقّباً أن يَبْعَثَك ربُّك شافعاً للنَّاس يوم القيامة من أهوال الموقف، ويقيمك مَقاماً يحمَدُكَ عليه الأوَّلون والآخرون.

٨٠ - وقل: ربِّ أدخلني مُدخَل صِدق في «المدينة»، وأخرجني مُخْرَج صدق من «مكة»، واجْعَل لي من محض فضلك الواسع، وقدرتك الباهرة حُجَّةً بيِّنةً، وعزّاً ظاهراً، وقوةً قاهرة تنصرني بها على من يكيدني ويقاوم دعوة الحق.

٨١ - وقل - يا رسول الله - للمشركين: جاء الأمر الثابت الذي لا شكَّ فيه، المطابق للواقع، وذهب واضْمَحَلَّ الباطل الذي لا ثبات له لمخالفته للواقع؛ إنَّ الباطل كان مُضْمَحلاً سريع الذهاب والزوال، ولو ظهر له زَبَدٌ خادعٌ يحسبُهُ الجاهل المتسرِّع ذا قيمة حقيقية، مع أنه فارغٌ لا وزن له.

٨٢ - وَنُنَزِّلُ من آيات القرآن ما هو سبب بُرءٍ من الاعتقادات الباطلة، والأخلاق المذمومة، ومن الأمراض الجسمانية، وهذا القرآن بما فيه من علم وحقٍّ وهداية رحمةٌ للذين يؤمنون بما أنزل الله فيه، ويدفعهم إيمانهم إلى تطبيق شريعة الله لعباده، ولا يزيد هذا القرآن الكفار عند سماعه إلاّ نقصاً بالحرمان من السعادة يوم الدين، والهبوط في دَرَكات العذاب؛ لتكذيبهم وكفرهم به.

٨٣ - وإذا أنعمنا على الإنسان بالصِّحة والسَّعَة والعطاء من متاع الحياة الدنيا، أعرض عن ربِّه المنعِم عليه، وابتعد بجانبه عن ذِكْرنا، وتكبَّر وتعظَّم عن عبادتنا وطاعتنا، كأنْ لم تَنَلْه نعمةٌ منّا، وإذا مسَّتْهُ الشِّدَّة والضُّرُّ مسّاً خفيفاً كان شديدَ اليأس من رحمتنا، منقطعَ الأمل، ظاناً أنه لا خلاصَ له من الشرّ الذي جاءت بدايتهُ مسّاً.

٨٤ - قل - يا أيها الناصح الداعي إلى الله - للَّذين إذا أنعم الله عليهم أعرضوا وبعدوا بجوانبهم، وإذ مسَّهم الشرُّ كانوا يؤوسين: كلُّ واحدٍ من المُعرض والمُقْبل يعمل على طريقته ومذهبه الذي يُشابه حاله في الضلال والهدى، فربُّكم أعلمُ من كلِّ ذي علمٍ بمن هو أوضح طريقاً، وأحسَنُ مذهباً، واتِّباعاً للحق.

٨٥ - ويسألُك الكفار عن حقيقة الرُّوح؟ قل لهم: إنَّ الرُّوح مخلوق بأمر التكوين الربَّانِّي مباشرة، وحقيقة الروح من علم ربي الذي اسْتَأثر به، وما أُوتيتم أنتم وجميع الناس من العلم إلا شيئاً قليلاً في جَنْب علم الله عزَّ وجل.

٨٦ - لستَ أنت - يا رسول الله - الذي تَتْلو القرآن استخراجاً من قدراتك، بل نحن الذين أوْحينا به إليك، ونحن الذين نثبِّتُهُ في ذاكرتك فنجعلك لا تنساه، وإنْ شئنا ذهبنا بالقرآن ومَحَوْناه من ذاكرتك، فلا تستطيع أن تتلو منه آية أو كلمة، ثمَّ لا تجد بعد الذهاب به من يتوكَّل علينا باسترداده عليك، وإعادته محفوظاً مسطوراً. والمراد بالخطاب: تيئيس الكافرين الذين يطالبون الرسول ﷺ تغيير بعض ما في القرآن ممَّا يكرهون.

إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾

٨٧ - لكنْ ثبّتناك فلم تَركن إلى الذين كفروا، وتركنا ما أوحينا إليك محفوظاً في صدرك، إنَّ فضل الله كان دواماً عليك - يا رسول الله - كبيراً، بسبب بقاء العلم وتتابع نِعَم اللّهِ عليك، وجَعلِك سيِّدَ ولد آدم، وإنزال القرآن عليك، وخَتْمَ النبيِّين بك، وإعطائِك المقامَ المحمود، وغير ذلك من الخصائصِ والفضائل.

٨٨ - قل - يا رسول الله - لأئمة المشركين الذين توهَّموا أنَّ القرآن من صنعك، وحاولوا إغراءك بتبديل ما كرهوا من القرآن: أقسم لكم لئن اجْتمعت الإنسُ والجنُّ، واتَّفقوا على أن يأتوا بمثْل هذا القرآن في إعجازه البيانيّ، والعلميّ، والتشريعيّ، وفي سائر وجوه إعجازه، لا يقْدرون على ذلك، ولو كان بعضُهم لبعضٍ مُعيناً. فلا تزعموا أنَّ القرآن من وضعي وتأليفي، إنَّما أنا مُبلِّغ وشَارح ما أنزل الله فيه للناس.

٨٩ - ونؤكِّد تأكيداً شديداً أننا بيَّنا وكرَّرنا ونوَّعنا للناس في هذا القرآن من كلِّ نموذج يُقاس عليه لكلِّ نوع أو عملٍ أو تشريعٍ أو سنَّةٍ من سنن الله في كونه، ممَّا تقتضيه هَداية الله لعباده فَي رحلة امتحانهم في الحياة الدنيا، فأبى أكثر النَّاس إلا جُحوداً للحقِّ وإصراراً على الباطل.

٩٠ - وقال كبراء مُشركي قريش: لن نؤمنَ بك منقادين لك - يا رسول الله - حتى تأتينا بستَّة خوارق: **الخارق الأول:** أن تُخرج لنا من أرض «مكة» عيناً لا يَنْضب ماؤها ولا يغور.

٩١ - **الخارق الثاني:** أن تكونَ لك حديقةٌ فيها نخيلٌ وعِنَب، وتجعلَ الأنهار تجري في وسطها بغزارة.

٩٢ - **الخارق الثالث:** أن تُسْقِطَ السَّماء علينا قِطَعاً تُهلكنا كما زعمت، **الخارق الرابع:** أن تأتيَ بالله والملائكة مجتمعين، نراهم مُقَابلة وعَيَاناً؛ ليشهدوا بأنك رسول صادق مبلِّغ عن الله آياتِهِ المنزَّلات.

٩٣ - **الخارق الخامس:** أن يكونَ لك بيتٌ من ذهب، **الخارق السادس:** أن تَصعَدَ في السماء، ولن نُؤمنَ لأجل صعودك، لو صعدت، حتى تُنَزِّل علينا كتاباً من السماء نقرأ فيه أمرنا باتِّباعك.

قل - يا رسول الله - لهؤلاء المشركين: عَجَباً لكم - أيها المتعنِّتون على ربكم الذي يجب أن تنزِّهوه عما لا يليق به، ومنه خرقُ نظام كونه استجابةً لمطالبكم التعنتيَّة -: هل كنتُ إلاَّ بشراً رسولاً كسائر الرُّسل، لا يأتون قومهم إلا بما يُظْهِره الله عليهم من الآيات، فليس أمر الآيات إليهم إنَّما هو إلى الله تعالى.

٩٤ - وما مَنَعَ الناس من أهل الكفر عن الإيمان بالقرآن وبنبوَّة محمد ﷺ إلا أن قالوا جهلاً منهم: أَبَعَثَ الله بَشَراً رسولاً؛ ليبلِّغ من الله مطلوباته من عباده، وقضايا دينه؟! فمن يدَّعي من البشر أنه رسول الله هو مُدَّعٍ كذَّابٌ، له غاياتٌ ومصالحُ دنيويَّة.

٩٥ - قل - يا رسول الله - لهؤلاء المشركين المنكرين أن يُرسلَ الله رسلاً من البَشر: لو كان في الأرض ملائكةٌ مُسْتوطنين مقيمين فيها، وكانوا موضوعين مَوْضعَ الامتحان كالإنس، لنَزَّلنا عليهم من السَّماء مَلَكاً رسولاً من جنسهم؛ لأنَّ الجنس إلى الجنس أَمْيَل. وكذلك حال البشر، تقتضي الحكمة أن يكون الرسولُ إليهم بشراً، يُبلِّغهم تعليمات الدين، ومَطَالب ربِّ العالمين.

٩٦ - قل - يا رسول الله - لِمُكذِّبي أنك رسول ربِّك: إنَّ الله يشهد لي بأني رسوله، وأغنى الله طالبَ تثبُّتٍ من صدق رسالتي حالة كونه شهيداً بيني وبينكم على أني رسوله إليكم، بما أظهر من معجزة القرآن المجيد، والآيات الخوارق التي آتاني الله إيَّاها؛ إنَّه سبحانه كان بعباده من الأزل إلى الأبد عليماً علماً تامّاً، مُصاحباً لكلِّ أجزاء العمل، ظواهره وبواطنه، بصيراً بكلِّ خفايا نفوسهم وأعماق سرائرهم، فمن يعلم أنه بحاجةٍ إلى التوثُّق من كَوْن محمدٍ رسولَ الله، يُهيىء له ما يُوصِلُهُ إلى الاستيقان بأنَّ محمداً رسول الله، ومن يعلم أنه جاحدٌ معاند، يعامله الله بحسب ما في نفسه، على وَفْق مُقْتضى حكمتِهِ. وبناءً على علم الله بعباده عِلْمَ خبرةٍ ورؤيةٍ نافذةٍ إلى أعماق السرائر، فإنه جلَّ جلاله يحكم بهداية من اهتدى باختياره الحرّ، ويحكم بضلال من ضلَّ باختياره الحر.

وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ ۞ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾



٩٧ ـ وَمَنْ يحكم الله له بالهداية بناءً على إيمانه وعمله الصالح، فهوَ المُهتدي حقاً؛ لأنه كان مهتدياً باختياره الحُر في فترة امتحانه في الحياة الدنيا، ومن يحكم الله عليه بالضلالة بناءً على كفره وما قدَّم من سيئات، نتيجة اختياره الحُر في فترة امتحانه في الحياة الدنيا، نالَ عقوبة ضلالِهِ بحَسَب دركته في الإثم والجرم، ومهما اجتهدت بمختلف الوسائل، فلن تجدَ لهؤلاء الذين حكم الله عليهم بالضلال أولياءَ من دون الله ينصرونهم، ويدفعون عنهم عذاب الله، لأنهم كانوا ضالِّين باختيارهم الحر في الحياة الدنيا، ونحشُرُهم يومَ القيامة يمشون على وجوههم، إهانةً لهم وتعذيباً، لا يُبصرون، ولا ينطقون، ولا يسمعون، منزلهم ومكانهم الذي يسكنونه إلى نار جهنَّم، كلَّما سَكَنَ لهيبُها، زِدناهم ناراً مُتأجِّجة مُلتهبة؛ لئلا تقل نسبة عذاب المعذَّبين المجرمين فيها.

٩٨ ـ ذلك العذابُ جزاؤهم بسبب كفرهم بآياتنا الكونيَّة والبيانيَّة والإعجازيَّة، وقولهم استنكاراً للبعث: أإذا مِتْنا وكنَّا عظاماً باليةً وأجزاءً مُتفتِّتةً، نُبعثُ بعدَ ذلك خلقاً جديداً؟!!

٩٩ ـ أنطَمَست بصائرهم، ولم يَرَوْا أنَّ الله الذي خَلَق السَّمواتِ والأرضَ في عِظَمِهما وشدَّتهما، قادرٌ على أن يخلقَ مثلهم في صغرهم وضعفهم؟ وجعل الله لهؤلاء المشركين في الحياة الدنيا أجلاً تنتهي عنده حياتهم بالموت، لا شكَّ في مجيئه، ومع وضوح الحقِّ ودلائله أبىٰ الجاحدون المُعاندون إلا جُحوداً وعِناداً.

١٠٠ ـ قل لهم ـ يا رسول الله ـ: لو كنتم تملكون خزائن نِعَم الله ورزقه، التي لا نهاية لها، إذاً لَبَخِلتُم بها، فلم تعطوا منها غيركم؛ خشيةَ الفقر والنَّفاد، وكان الإنسانُ بفطرته مُمْسِكاً بخيلاً شحيحاً مع سَعَة ما يملك.

١٠١ ـ ونؤكِّد أننا آتينا موسى تِسْعَ معجزاتٍ واضحاتٍ خارقات للنُّظُم الكونيَّة، شاهدات على صدق نبوَّته، وهي: العَصَا، واليد، والطُّوفان، والجراد، والقُمَّل، والضفادع، والدم، وآية الرِّجز، وهو عذاب أنزله الله بفرعون وملئه كأمراضٍ وأوجاع لا عهد لهم بمثلها، وآية السِّنين المُجْدبات والنقص في الثمرات، وإذا كنت ـ أيها المتعنِّت ـ شاكاً في خبرنا، فاسأل يهود المدينة وأحبارها عن هذا النبأ في وقت أنْ جاء موسى فرعونَ وقومَه بآياتنا التِّسع البيِّنات، فقال له فرعون مُستكبراً معانداً جاحداً: إنِّي لأظُنُّك ـ يا موسى ـ مسحوراً. وإنَّ حال كبراء مشركي مكة الذين ألحُّوا بمطالبهم التعنُّتيَّة لآياتٍ خارقاتٍ، وهم غير مستعدِّين للإيمان كحالِ فرعون وجنودِهِ الذين أهلكهم الله بالغرق.

١٠٢ ـ قال موسىٰ: أؤكِّد لك ـ يا فرعون ـ أنك قد علمت أنه ما أنزلَ هؤلاء الآيات التِّسع إلا ربُّ السَّموات والأرض؛ تُبصِّر مَنْ يشهدها بصدقي، وإني لأظنُّ ظنّاً راجحاً، معتمداً على دلائل سُنن الله الدائمة، أنك ـ يا فرعونُ ـ مُهْلَكاً؛ بسبب طغيانك وكفرك.

١٠٣ ـ فأراد فرعون أن يُخرج موسىٰ وبني إسرائيل من أرضِ «مصرَ» التي كانوا يسكنونها، ويستخفَّهم بالمُزعجات والمخيفات حتى يتوزَّعوا مفرَّقين أذلاَّءَ مُهانين في أرض «مصر»، حتى لا يكون لهم تجمُّع في مكان واحد، فأغرقنا بعظمة ربوبيَّتنا وبحكمتنا وعدلنا، فرعونَ وجنودَه، ونجَّينا موسى وقوْمَه.

١٠٤ ـ وقلنا من بعد هلاك فرعون لبني إسرائيل: اسْكُنُوا الأرض مُشتَّتين فيها خَارجَ أرض «فلسطين»، التي أسكنَّاكم فيها لتقيموا الدين، فَعَلَوْتُم فيها مُستكبرين ومفسدين، فإذا جاء وعد المرَّة الآخرة من إفسادكم، جئنا بكم منْ أشْتَات الأرض مجتمعين من أخلاط شتّى، إلى «فلسطين»، لتنالوا عقوبة ربِّكم بأيدي عبادٍ لنا مسلمين، يَسُوؤن وجوهَكُم، ويُحطِّمون ما عَلَوْا من منشآتكم تحطيماً، ويدخلون المسجد الأقصىٰ مُعظِّمين له، كما قدَّرنا أن يدخلوه أوَّل مرة في عهد خلافة عمر.

وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾

سُورَةُ الْكَهْفِ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾

١٠٥ - وما أنزلنا القرآنَ إلا مُتَّصفاً بالحقّ المطابق للواقع، وحَمَله أمينُ الوحي جبريل عليه السلام، وبلَّغه الرَّسُولَ محمداً ﷺ كما تلقَّاهُ عن ربِّه، لم يُغيِّر منه حرفاً واحداً، فنزل مُتَّصفاً بالحقّ، ووصل إلى الرسول محمد ﷺ مُتَّصفاً بالحق، وما أرسلناك - يا رسول الله - بعد قيامك بالتبليغ والتعليم واتِّخاذ كل الوسائل لاستجابتهم عن طريق اختيارهم الحر، إلا مُبَشِّراً بالجنَّة للمطيعين، ومُخَوِّفاً بعذاب الله وإنزال نقمته بالكافرين المصرِّين على عنادهم وجحودهم.

١٠٦ - وأنزلنا إليك - يا رسول الله - قُرآناً فصَّلناه وبيَّناه وجزَّأناه نجوماً في مراحل زمنية متباعدة ولم نُنْزله مرَّةً واحدة؛ لتَقْرأَهُ على الناس على تُؤَدَةٍ وتأنٍّ وتمهُّل في ثلاث وعشرين سنة، ونزَّلناه تنزيلاً بأناةٍ وتمهُّلٍ على حَسَب الحوادث والمصالح.

١٠٧ - قُل - يا رسول الله - لهؤلاء المكذِّبين مُتوعِّداً ومُهَدِّداً: آمنوا بالقرآن أو لا تؤمنوا به، إنَّ الذين أُوتوا العلم من قبل القرآن من مُؤمني أهل الكتاب، إذا يُتْلى عليهم القرآن يقعون للأذقان أسفل وجوههم ساجدين تعظيماً لله تعالى، وشُكراً لوعده، لإنجاز وعده ببعثتك.

١٠٨ - ويقولون في سجودهم: تنزَّه ربُّنا عن إخلاف وعده في الكتب المُنَزَّلة من بعثة الرسول الخاتم محمد ﷺ، ما كان وعد ربِّنا إلا كائناً واقعاً بإرسال محمد وإنزال القرآن المجيد عليه.

١٠٩ - ويقع هؤلاء للأذقان بوضع جباههم على الأرض، يبكون، ويزيدهم سَمَاعُ القرآن والتفكُّر في معانيه ودلالاته خضوعاً، وسكوناً، وخشية من الله تعالى وطمأنينة لوعده الكريم بجنَّات النعيم.

١١٠ - قُل - يا رسول الله - لمُشْركي قومك الذين أنكروا عليك الدعاء بقولك: يا ألله، يارحمن: إنَّهما اسمان لله تعالى، فسمُّوه بهذا الاسم أو بهذا الاسم، أيّاً من اسْمَي الله والرحمن، وكذا سائر أسماء الله سَمَّيْتُم أو ذكرتم، فلَهُ الأسماءُ الحُسنىٰ المُشْتملة على معاني التقديس والتعظيم والتمجيد، فإذا حَسُنت أسماؤه كلُّها فهذان الاسمان منها. ولا ترفع صوتك عند تلاوتك القرآن في صلاتك، فيسمعك المشركون فيسبُّوا القرآن ومُنْزِلَهُ، ولا تخْفِض صَوْتَك في صلاتك إلى مستوى الإسرار والإخفاء عن أصحابك فلا تُسمعهم، واطلب بين الجَهْر بالصوت في الصلاة وبين المُخَافتة فيها، طريقاً وسطاً.

١١١ - وقل - يا رسول الله ويا كلَّ مؤمن مسلم -: الحمدُ للهِ المُسْتحقّ لجميع المَحامد الذي تنزَّه عن إنجاب الولد أو تبنِّيه، لاستغنائه بذاته عن كلِّ شيء، ولم يكن له شريكٌ في الملك؛ لأنَّ كلَّ ما سواه في الوجود خلْقٌ من خلقه، وخالق الشيء من العدم هو مالكه، ولا يُشاركه في ملكه أحدٌ سواه، ولم يذلَّ ويضعف فيحتاج إلى ناصرٍ يَتَعزَّز به، وعظِّمهُ تعظيماً كثيراً عن أن يكون له ولدٌ، أو شَريك، أو وليٌّ، أو ناصرٌ معين.

سُورَةُ الْكَهْفِ

١ - الثناءُ الجميلُ كلُّه للَّهِ تَعالى، الذي أنعَمَ على عبده محمَّدٍ ﷺ المُشرَّف بعبوديَّته الكاملة لربِّه، بإنزال الكتابِ الخاتم لكتبِ الله للناس، ولم يجعل لشيءٍ فيه صفة العِوَج عن الحقِّ والصَّواب، فلا اختلاف ولا تناقض في معانيه.

٢، ٣ - جعله الله كتاباً مستقيماً معتدلاً، لا إفراط فيما اشتمل عليه من التكاليف حتى يشقّ على العباد، ولا تفريط بإهمال ما هم في حاجة إليه، متكفِّلاً بمصالح العباد وبيانها لهم؛ لِيُنْذِرَ عن طريق كتابه وبلاغات رسوله، الذين كفروا عذاباً شديداً يوم الدين، ويُبَشِّر المؤمنين الذين يعملون الصَّالحات بأن لهم ثواباً جزيلاً هو الجنَّة، خالدين في هذا النعيم لا يفارقونه أبداً.

٤ - ويُنْذِرَ إنذاراً خاصّاً غير إنذار عموم الكافرين، مُرتكبي عظيمةٍ من عظيمات الكفر، وهم الذين قالوا: اتَّخذ اللَّهُ وَلَداً من نسله أو بالتبنِّي ممَّا خلق، وهم النصارى لقولهم في عيسى إنه ابن الله، وبعض اليهود، وبعض مشركي العرب الذين زعموا أن الملائكةَ بناتُ الله، تعالى الله عمَّا يقولون عُلوّاً كبيراً.

مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾

٥ ـ ما لهؤلاء المشركين باتّخاذ الولد مِنْ علم، ولا لأسلافهم من قبلهم الذين ورثوا عنهم مقولتَهم، فقولُهم صَدَر عن جهل مُفْرط، عَظُمَت في الشناعة والقبح تلك الكلمة التي تفوَّهوا بها دون تعقُّل وفهم، ما يقولون بكلمتهم الكبيرة الشنيعة التي يكرِّرون وصف الله بها إلا قولاً كذباً. فالعلمُ المبنيُّ على تعاليم الوحي يُوصل إلى القيم الثابتة، والنتائج الصَّحيحة. وأما الجهل فهو يؤدِّي إلى التشبُّث بالتقاليد والعادات الموروثة، ويحمل صاحبه على قبول مفترياتٍ لا أصل لها على الإطلاق.

٦ ـ قد أدّيت وظيفتك ـ يا رسول الله ـ على الوجْه المطلوب منك بالنسبة إلى مُعَاندي قومك، فلعلَّك قاتلٌ نفسك حُزناً وغضباً، إنْ لم يؤمنوا بهذا القرآن، وكأنَّهم من فرط إدبارهم قد بَعُدوا، فأنت تتبع آثارهم وتلاحقهم للتأثير عليهم.

٧، ٨ ـ إنَّا جعلنا بحكمتنا السامية كلَّ ما على وَجْهِ الأرض ممَّا تحبُّ النفوسُ امتلاكَه، أو الانتفاع به، أو التفاخُر به، زينةً لها ولأهلها، لِنَخْتبرَ الموضوعين في الحياة الدنيا موضعَ الامتحان أيُّهم أتْبع لأمرنا ونهينا، وأعملُ بطاعتنا، وأبْعَد عن الاغترار بزينة الدنيا، وإنَّا بعظمة قدرتنا سنجعل مُستقبلاً كلَّ ما على وَجْه الأرض من الزينة مُسْتأصَلاً استئصالاً تاماً، مثلَ أرض جرداء لا نبات فيها بعد أن كانت خضراء مُعْشِبَة. فلا تبْتئس ـ إذَنْ ـ ولا تذهب نفسك حزناً وأسفاً على من كشف الابتلاء معدنهم الخبيث، وطبيعتهم الفاسدة، فتلك هي سنة الله سبحانه في الابتلاء.

٩ ـ بل أظَنَنْتَ ـ أيُّها المتلقِّي لآياتنا ـ ظنّاً توهُّمياً ضعيفاً أنَّ أصحاب النَّقْب المتَّسع في الجبل، واللوح المكتوب فيه أسماؤهم، كانوا أعجب آياتنا؟ فإنَّ ما خَلقْنا مِنَ السَّموات والأرض وما فيهنَّ من العجائب أعجب منهم وأعظم.

١٠ ـ وضع في ذاكرتك ـ يا أيُّها المتلقِّي ـ حين التجأ الشُّبَّان إلى الكهف، وجعلوه مَأْواهم، يعبدون الله فيه، فراراً بدينهم الحق، من طغيان الكفرة ذوي البأس والسُّلطان الذين توعّدوهم بالتعذيب والقتل، إذا لم يعودوا إلى دينهم الوثني، فقالوا: يا ربَّنا آتِنَا من محض فضلك الواسع أثَرَ رحمةٍ عظيمة، تَحمينا بها من أعداء دينك، واجعلِ لنا من أمْرنا الذي نحن عليه من مُهَاجَرَة الكفار، والثبات على الإيمان والطاعة اهتداءً إلى الطريق الحق، وسَداداً إلى العمل الذي تُحب.

١١ ـ وعقب دخولهم إلى الكهف ودعائهم، واضْطجاعهم للراحة بعد سَيْرهم الطويل إليه، ضربنا على آذانهم حجاباً مانعاً من السماع، وألْقينا عليهم النَّومَ العميق في الكهف سنينَ كثيرة.

١٢ ـ ثمَّ بعد السنين الكثيرة التي جَعلناهم فيها رُقوداً، أيقظناهم من نومهم؛ لِنعلم أيُّ الطائفتين المُتَنَازعتَيْن في مُدَّة لبثهم أعرف بمقدار الزمن الذي مكثوه في كهفهم، بعد عثور الناس عليهم، مطابق لما سبق عِلْمُنا به.

١٣ ـ نحن بعظمة ربوبيَّتنا وشمول علمنا نَقْرأ عليك ـ يا رسول الله ـ خبرَ أصحاب الكهف ذا الشأن، متَّصفاً بأنه حقٌّ ثابت. إنهم شُبَّانٌ آمنوا بربِّهم، وَزِدناهم بمعونتنا وتوفيقنا إيماناً وبصيرة. وفي الآية دليل على أنَّ الفتيان الشباب أسرع استجابةً لنداء الحقِّ، وأشدُّ عزْماً وتضحيةً في سبيله.

١٤ ـ وقوَّينا قلوبهم بالإيمان، وثبَّتناها، وطردنا عنها عوامل اليأس والوهن، حين وقفوا بين يَدَي المَلك الجبّار موقف صدقٍ وعزم، ورسوخ واطمئنان، عندما عاتبهم على ترك عبادة الأوثان، فقالوا له: ربُّنا الذي نعبده هو ربُّ السموات والأرض، الذي خلقهما وأبدع تكوينهما، وأوْدعهما أسرارَه وآياتِه، لن نعبدَ من دون ربِّنا إلهاً، لقد قلنا إنْ دعونا غيره تعالى قولاً جائراً بعيداً عن الحق والصواب.

١٥ ـ ثم قال بعضهم لبعض وهم ينظرون إلى ما حولهم بنور البصيرة إلى هذا الظلام والجهل والغيِّ المخيِّم على قومهم: هؤلاء قومُنا السُّفهاء اتَّخذوا من دون الله أصناماً يعبدونها، هَلاَّ يأْتون على صحّة عبادة الأصنام بحُجَّةٍ برهانية واضحة، حتى يكونوا معذورين عند ربِّهم، وإذْ لا سلطان لهم على شركهم، فهم ظالمون من أخسِّ دَرَكات الظلم، ولا أحدَ أشدُّ ظلماً من الذي اخْتلق على الله الكذبَ، وزعَمَ أنَّ له شريكاً أو ولداً. وفي الآية دليلٌ على قيمة الحجة والبرهان، فمن المعلوم أنه لا حجَّة على الشرك، ولا دليل عليه، ولكن الله سبحانه يُطالب المشركين بالبرهان، ويحاكمهم إلى الحجَّة، ويطلب منهم أن يأتوا على ما يقولون بسُلطان مبين، يتسلَّط على القلوب والعقول، ويؤثِّر فيها بما يجعلها خاضعة مذعنة.



وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾ وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾

١٦ - وحين ابتعدتم وتنحَّيْتُم عن قومكم بقلوبكم وأبدانكم، وتقطَّعت بينكم وبينهم صلة العقيدة، وتركتم جميع ما يعبدون من الآلهة، إلاَّ عبادة الله، فإنَّكم لم تعتزلوا عبادته، فما مقامكم فيهم، وما قراركم في محيطهم الظالم وبيئتهم الفاسدة؟ فالجؤوا إلى الكهف لعبادة ربِّكم، يَبْسُط لكم ربُّكم من آثار رحمته ما يحفظكم ويحميكم، ويُسهِّل لكم من أمركم ما تنتفعون به في حياتكم من أسباب العيش. وفي الآية دليل على أهمية الهجرة لسلامة الدين، وقُبح المقام في دار الكفر، أو في بلد لا يستطيع المسلم أن يعبد الله فيه، فالعزلة لسلامة الدين أمر واجب في الإسلام، في مثل هذه الظروف، وأرض الله واسعة، ووطن المسلم حيث يستطيع أن يعبد الله عزَّ وجل.

١٧ - فأوى الفتية إلى الكهف، ومكثوا فيه، وألقى الله النوم عليهم، وترى - أيُّها المشاهد لهم - الشَّمسَ إذا طَلَعَت من المشرق تميل وتنحرف عن كهفهم إلى جهة يمين الداخل فيه، وإذا غربتْ تتركهُم وتعدل عنهم إلى جهة يسار الداخل فيه، منقطعةً انقطاعاً دون تدرُّج، فالشمس تميل عنهم طالعةً وغاربةً، لا تبلغهم لتؤذيهم بحرِّها، وتغيِّر ألوانهم، وهم في موضع مُتَّسع من الكهف، فليسوا قرب بابه، ولا مُجاورين لحيطانه، بل في وسطه، بحيث يصلهم الهواء، ولا يؤذيهم كرب الغار، ولا حرُّ الشمس، ذلك الذي حصل لهؤلاء الفتية من إيوائهم إلى الكهف، وصرف أشعة الشمس عنهم، وإلقاء النوم الطويل عليهم، وحمايتهم من كبراء قومهم، هو من عجائب صُنْع الله ودلالات قُدرته.

مَنْ يحكم الله له بالهداية؛ لأنه اهتدى باختياره الحر مثل أصحاب الكهف، فهو المهتدي، الذي يعتني الله به، ويحميه، ويثيبه ثواباً عظيماً يرضيه، ومَنْ يحكم الله عليه بالضلالة؛ لأنه ضلَّ باختياره الحر، فلن تجدَ له في الوجود كلِّه ناصراً ينصره، فيحكم له بالهداية، ويوفِّقه حتى يكون رشيداً في مسيرته في حياته.

١٨ - وتظنُّ - أيُّها الناظر - أهلَ الكهف أيقاظاً مُنْتَبهين؛ لأنَّ أعينهم مفتَّحة، وهم في الواقع نيام، ونُقلِّبهم حالَ نومهم مرَّةً للجَنْب الأيمن، ومرَّةً للجَنْب الأيسر؛ لئلا تتعرَّض أجسادهم للفساد، فتظهر فيها القروح، وتتكاثر في قروحها الجراثيم. وكلبُهُم الذي صاحَبَهم مادٌّ ذراعيه في مدخل الكهف، لو اطَّلعت عليهم - أيُّها المُطَّلع - لابتعدت عنهم، وهربت منهم فراراً، وَلَمُلِئْتْ نفسُك منهم خوفاً وفزعاً.

١٩ - وكذلك الفعل العجيب الذي كان منَّا، حين أنمناهم في الكهف، وحفظنا أجسامهم سنين عديدة؛ أيقظناهم من النَّوْمة التي تُشبه الموتَ؛ لِيَسْأل بعضُهم بعضاً. قال قائلٌ من أهل الكهف: كم أقمتم في الكهف منذ أَوَيْتُم إليه؟ قالوا: لبثنا يوماً، ثمَّ نظروا فوجدوا الشَّمس قد بقي منها بقية، فقالوا: أو بعض يوم. وقال آخرون: فوِّضوا علم ذلك لله، فربُّكم أعلم بالمدَّة التي لبثتموها في الكهف نائمين، فخُذوا في شيء آخر يهمُّكم، فابْعثوا أحدكم بنقودكم الفضيَّة إلى المدينة المعهودة التي عشتم فيها، وخرجتم منها، فَلْيَنْظُر: أيّ أطعمة المدينة أكثر نماءً وزيادة غذاء، يصلح للارتفاق به، وللادِّخار أطول مدة من الزمن؟ فَلْيأتكم بقوتٍ وطعام تأكلونه، وليتكلَّف اللُّطف وحُسْن التأنِّي واللباقة في الاستخفاء دخولاً وخروجاً، وليكن في ستر وكتمان، ولا يُعلِمَنَّ أدنى علم بكم، ولا بمكان اختفائكم أحداً من الناس. وهذا يدلُّ على أنَّ الفتية كانوا حَذرينَ خائفينَ أن ينكشف أمرهم، ولم يعلموا أنَّ الأعوام قد كرَّتْ، وأنَّ أجيالاً قد تعاقبت، وأنَّ معالم المدينة قد تغيَّرت، وأنَّ دَوْلة الظالمين التي كانوا يخافونها قد دالت.

٢٠ - إنَّ قومكم إنْ يعلموا بمكانكم، ويظفروا بكم يرجموكم بالحجارة، فيقْتلوكم شرَّ قِتلة، أو يُلزموكم بأن تعودوا عن دينكم الحق الذي آمنتم به، وتدخلوا في ملَّتهم الوثنيَّة، فإن استجبتم لهم فلن تفوزوا بمطلوبكم - إن دخلتم في دينهم - أبداً. تدلُّ الآية على أنَّ إشفاق أهل الكهف وخوفهم، كان مُوزَّعاً بين أمرين: **الأول**: أمر حياتهم وما هي مُهدَّدة به من الضَّياع على أيدي الطُّغاة الظالمين بأفظع صورة، **والثاني**: أمر دينهم وما هو مُهدَّد به من الفتنة على أيدي أهل الشِّرك والجحود، وفي كلام أهل الكهف ما يدلُّ على إيثار الإيمان على الحياة، ذلك أنهم ذكروا الرَّجم في قولهم: «يرجموكم» فلم يُعلِّقوا عليه بشيء، وذكروا الإعادة إلى ملَّة الكفر في قولهم: «أو يعيدوكم في ملَّتهم» فعلَّقوا عليها بأهمِّ شيء، وهو قولهم: «ولن تفلحوا إذاً أبداً»، فكأنَّهم لا يهتمُّون بالرجْم يُصيبهم، كما يهتمُّون بالارتداد إلى ملَّة الكفر، والقهر بالعودة إليها، التي ليس لهم بعدها فلاح أبد الآبدين.

وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَا۟ىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾ وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾

٢١ ـ وكذلك الفعل العجيب الذي أنمنا به أهل الكهف سنين عديدة، وكذلك الفعل العجيب الذي أيقظناهم به، أطلعنا أهل مدينتهم عليهم، وانطلقوا لمقابلتهم في كهفهم، ووصلوا إليهم وشهدوهم أحياءً أيقاظاً، وعلموا منهم قصَّة فرارهم بدينهم، ثم أماتهم الله بعد أن علم القوم بقصَّتهم، وشاع خبرهم؛ ليعلم الذين أطلعناهم على حالهم أنَّ البعثَ بعد الموت وفناء الأجساد حقٌّ، وأنَّ القيامة آتيةٌ لا شكَّ فيها، فمن قَدر على حفظ أجسام أصحاب الكهف مدة ثلاثة قرون متوالية من التعفُّن والتحلُّل مع حاجتهم إلى الطعام والشراب، قادرٌ على إعادة الأجساد بعد موتها، وتفرُّق أجزائها، حين يتنازع كبراء أهل مدينتهم فيما بينهم: هل يبنون على مدخل كهفهم بنياناً، ويتركونهم داخل كهفهم موتى، فربُّهم أعلم بحالهم. قال الذين غلبوا بقية المتنازعين على أمرهم، وانتهى الأمر إلى ترجيح قولهم، والأخذ برأيهم: لنتخذنّ عليهم مسجداً، تكريماً لهم، وتذكيراً بقصَّتهم، وبمكان كهفهم، واتَّفق الجميع بعد ذلك على هذا الرأي.

٢٢ ـ سيقولُ بعض الخائضين في شأنهم من أهل الكتاب: هم ثلاثة، رابعهم كلبهم، ويقول فريق آخر: هم خمسة، سادسهم كلبهم، وهم يقولون هذه الأقوال دون دليلٍ ما يدلُّ على صحتها، إنهم يقذفون أقوالهم كمن يحاول أن يرجمَ هدفاً في ظلمات دامسات لا يرى فيها شيئاً، ولا يعلم أين يكون هدفه فيها، ويقول المسلمون: هم سبعة وثامنُهم كلبهم. قل ـ يا رسول الله ـ: ربِّي هو الأعلم بعددهم، وما يعلم عددهم إلا قليلٌ من خلقه، وإذ قد عرفتَ جهلَ الجاهلين، وتخبُّط المتخبطين، فلا تُجَادل في عدد أهل الكهف وشأنهم أحداً منهم إلا بظاهر ما قَصصناه عليك من شأنهم، فَقِفْ عنده ولا تزد عليه، ولا تسأل في أصحاب الكهف من أهل الكتاب أحداً، ولا ترجع إلى قول أحدٍ منهم بعد أن أخبرناك قِصَّتهم. فعلى المؤمن أن يحذر الاعتماد على الظنون والرَّجْم بالغيب دون تحقيق، ولا يركن إلا إلى علم صحيح يأتيه من طريق صحيح، وأن يُعرض عن المُمَاراة والمُجَادلة فيما لا ينفع إلا جدالاً هيِّناً يسيراً لا يُوغر صدراً، ولا تَترتَّب عليه عداوة، ولا يضيع وقتاً. وَدَلَّ النهيُ عن استفتاء غير المسلمين في شأن أصحاب الكهف وما في معناه، ألاَّ يلجأ المؤمن في معرفة الحقائق والمعارف إلى مصدر غير موثوق به، وذلك أن المعارف التي يصلح عليها حال المؤمنين مكفولة بكتاب الله عزَّ وجل، وسنة نبيِّه ﷺ ففيهما ما يغنيهم عمَّن سواهم، والمسائل النظرية التي أعرض عنها ولم يذكرها لا طائل تحتها، ولا فائدة فيها.

٢٣، ٢٤ ـ ولا تقولنَّ ـ أيها المؤمن ـ: إني سأفعل ذلك الفعل غداً، مُؤكِّداً عزمك بمؤكِّدات إلا مقروناً قولك بأن يشاء الله، وإذا نسيتَ تعليق القول على مشيئة الله، ثم تنبَّهت بعد ذلك، فتداركها بذكر ربِّك، وحين يفوتك ما عزمت على فعله إذا لم يأذن الله بفعله، وكنتَ حريصاً على تحقيقه، فارض عن الله بما تمَّ تقديرُه، وفوِّض أمرك إليه، وقل: عَسىٰ أن يهديَني ربِّي لتحقيق أمرٍ آخر أقْرب رشداً من هذا الأمر الذي كنت حريصاً عليه، وأكثر تحقيقاً لما يُرضيني ويسُرُّني.

٢٥ ـ ومكَثَ الشُّبَّان نياماً في كهفهم ثلاثمائة سنة بحسب مقْدار السنة الشمسيَّة، وازدادوا تسع سنين بحسب مقدار السنة القمريَّة.

٢٦ ـ قل ـ يا رسول الله ـ إنْ نازَعَكَ أهلُ الكتاب في مُدَّة لبثهم في الكهف: الله أعلم منكم بالزمن الذي لبثوا في كهفهم، وقد أخبر أنه ثلاثمائة سنة وتسع سنين قمرية، فهو الحقُّ الصحيح الذي لا شكَّ فيه، لله سبحانه وحده علم كلِّ ما غاب عن العباد في السَّموات والأرض، لا يخفى عليه شيءٌ من أحوال أهلها، فكيف يخفى عليه حال أصحاب الكهف. ما أبْصَرَ الله بكلِّ موجود، وأسْمَعَه بكلِّ مسموع، لا يغيب عن سمعه وبصره شيءٌ، يُدرك البواطن كما يُدرك الظواهر، ما لهؤلاء الذين يتَّخذون من دون الله أولياء وليٌّ ما يَجْلب لهم نفعاً، أو يدفع عنهم ضراً، وهو سبحانه متفرِّد في كلِّ تصاريفه، ولا يُشْرك في علم غيبه وقضائه وتشريعه أحداً من خلقه.

٢٧ ـ واقرأ ـ يا رسول الله ـ القرآنَ، واتَّبع ما فيه واعمل به، لا يَقْدر أحدٌ على أن يُبدِّل كلمات ربِّك في أوامره ونواهيه وتكاليفه تبديلاً ذا أثر في واقع الكون، ولا يستطيع أحدٌ في الوجود أن يُبدِّل كلمات الله المبيِّنات لما قدَّره وقضاه، فهي نافذةٌ لا محالة، ولن تجدَ من دونِ الله ـ إن لم تتَّبع القرآنَ ـ ملجأً تلجأ إليه، ولا معاذاً تعوذ به.

وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُولَٰئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾ ۞ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾



٢٨ - واحبس - يا رسول الله ويا كلَّ داع إلى الله - نفسك صابراً على تحمُّل مشقَّات التعليم والتربية والتزكية مُصاحباً وملازماً الذين يعبدون ربَّهم من فقراء المسلمين بالغداة ما بين صلاة الفجر وطلوع الشمس، وبالعشيِّ ما بين صلاة العصر وغروب الشمس، يريدون بعبادتهم وَجْهَ الله لا يريدون عرض الدنيا، ولا تَصرف عيناك عنهم إلى غيرهم، تَطلب مجالسة الأغنياء والأشراف وصحبة أهل الدنيا، ولا تُطِعْ - مُثبِّطاً لك عن عملك، أو مُستدرجاً إيَّاك إلى مزالق الأهواء والشهوات - مَنْ وَجَدنا قلبه غافلاً عن ذكرنا، واتَّبع في طلب الشَّهوات هواه، وكان أمره متفلِّتاً على غير هدى، فكانت حياته وطاقاته مُبدَّدة ذاهبة سَرَفاً وتضييعاً. في هذه الآية نهيٌ عن الاستجابة لمطالب زعماء المشركين بطرد فقراء المسلمين؛ ليبقى لأصحاب الجاه والمكانة الاجتماعية، أو الثروة الماديَّة مزايا خاصَّة على غيرهم. وقد مرَّت فكرة المُساومات بمراحل: **المرحلة الأولى**: محاولة كبْت الدعوة والقضاء عليها، بمحاولة ثَنْيِه ﷺ عن الاستمرار في دعوته مقابل مالٍ أو جاهٍ أو مغريات أخرى. **والمرحلة الثانية**: المُساومة على المتاركة والمداهَنة في التعامل بأن يكفَّ كلُّ فريق عن التعرُّض لمعتقدات الفريق الآخر، **والمرحلة الثالثة**: المُساومة على الشروط بطرد الفقراء عن مجالسهم، وهذه المرحلة هي التي لجأ إليها المشركون عندما ظهرت دعوة الحق، وتعرَّضت مصالحهم لخطر وشيك.

٢٩ - وقل - يا رسول الله ويا كلَّ داع إلى الله - لهؤلاء الغافلين عن ذكر الله، السادرين في ملذَّاتهم وشهواتهم: ما جئتكم به هو الحقُّ من ربِّكم وليس من عند نفسي، ولست بطاردِ المؤمنين لهواكم، وأنتم ذوو إراداتٍ حرةٍ مُخيَّرون لا مُجْبرون، فإنْ شئتم فآمنوا، وإنْ شئتم فاكفروا، وتحمَّلوا نتيجة اختياركم، إنا هيَّأنا للظالمين أنفسهم باختيارهم الكفر بإراداتهم الحرة، ناراً شديدة نُدخلهم فيها، فلا يستطيعون الخروج منها، فقد أحاط بهم سُورُها العظيم المانع من الخروج منها لمَنْ هو في داخلها، وإنْ يستغيثوا من شدَّة العطش، يُغاثوا بماءٍ غليظ قذر منتن قاتم كالزيت العكر، شديد الحرارة، يشوي بخاره الحار وجوهَهُم التي تقترب منه، بئْسَ الشرابُ الماءُ الذي يُغاثون به؛ لأنَّه لا يروي الظمأ، ولا يطفىء اللهب، وساءت النارُ موضعاً لاجتماع الرفقاء، إذ هم فيها يختصمون، ويتلاومون، وينادون بالويل والثبور، وساءت النار كذلك مكاناً للارتفاق والانتفاع بشيءٍ مّا منها؛ في كلِّ أمر من مطالب الجسد أو النفس.

٣٠ - إنَّ الذين آمنوا إيماناً صحيحاً صادقاً، وعملوا الصَّالحات على اختلاف أنواعها في الحياة الدنيا، وكانوا ممَّن لهم بعض أعمال هي من درجة المحسنين، لهم أجر عظيم عندنا؛ لأننا لا نهمل أجر من عمل عملاً حسناً طاعة لنا، وابتغاء مرضاتنا، وطلباً للثواب الذي وعدنا به.

٣١ - أولئك المؤمنون الذين عَملوا الصَّالحات، أصحابُ المنزلة العالية الرفيعة عندنا، لهم جنَّات إقامة واستقرار دائم وثبات، تجري من تحت شُرفات قصورهم الأنهار، يُحَلَّوْن فيها من أساورَ من ذهب، ويلبسونَ من نوع من الثياب الرقيقة الناعمة المنسوجة من الحرير، ومن نوع من الثياب الغليظة المنسوجة من الحرير أيضاً، حالة كونهم مُتَّكئينَ في جنَّات عدن على السُّرُر، نِعمَ الجزاء جزاؤهم، وحَسُنَت جنات عدنٍ موضعاً لاجتماع الرفقاء الصالحين، وحسُنت كذلك مكاناً للارتفاق والانتفاع بأيِّ شيء منها، في كلِّ أمر من مطالب الجسد أو النفس.

٣٢ - واضرِب - يا رسول الله - للمؤمنين الذين يدعون ربَّهم في الصباح والمساء مع مُكابدة مَشاقِّ الفقر، وللكافرين المستكبرين على الله مع تقلُّبهم في نعمه تعالى، قصَّة رجُلَيْن من الأمم السابقة: **أحدهما**: مؤمن فقير داع إلى الله، **والآخر**: كافر غنيٌّ، جَعَلنا للكافر بُسْتَانَيْنْ من أشجار العِنَب ذوات العروق والفروع المُمَدَّدة على عروش مرتفعةٍ عن الأرض بأعمدة، وجَعَلنا أشجار النخل محيطاً بالبُسْتَانَيْن، وجعلنا في المساحات الفارغات بين النخل والأعناب زروعاً أرضيَّةً نافعةً لأكل الناس والأنعام.

٣٣ - وأعطت كلُّ واحدة من الجنَّتين ما يُؤكل من ثمر النخل والكرم وصُنوف الزرع، ولم تُنْقص من أُكلها شيئاً، بل جاء وافياً وافراً، وشَقَقْنا وأجْرَيْنا وَسَطَهُما نهراً لسقيهما بسهولة ويسر.

٣٤ - وكان لصاحب البُسْتَانَيْن أموال كثيرة غيرهما، يستثمرها في التجارة والمجالات الأخرى، فقال لصاحبه المؤمن، وهو يُخاطبه ويدعوه إلى أنْ يَسْلُك مثل طريقته، ويلومه على إيمانه: أنا أكثرُ منك مالاً، وأقوى عشيرةً وأعواناً، مع أني لا أؤمن بما تدعوني إلى الإيمان به، فلو كان ما تدعوني إليه حقاً لأغناك ربُّك، وأعزَّك بالأولاد والخدم، ولَسَلَبني ما أنا فيه من مالٍ وعزٍّ.

وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾

٣٥ ـ ودَخَل الكافرُ حديقَتَه، آخذاً بيد صاحبه المؤمن يطوف بها ويريه إيّاها، وهو ظالمٌ لنفسه بإنكاره ليوم الدين، وبشركه؛ لأنه جعل الأسباب هي الفاعلَ الحقيقيَّ، جاحداً أنَّ الله هو الذي يخلق من خلالها، قال: ما أظنُّ أن تهلِكَ هذه الحديقة أبداً، ما دمت أتَّخذ الأسباب التي تجعلها مُستمرَّة البقاء والإنتاج الوفير، فهي مُحصَّنةٌ بالأسوار، ومُحَاطةٌ من الرياح الباردة بأشجار النخيل.

٣٦ ـ وما أظنُّ الساعة كائنةً، وأقسم مؤكِّداً لئن أرجعتُ إلى الحياة بعد الموت ليُحاسبني ربِّي ـ على ما تزعم أيُّها المؤمن ـ لأجِدَنَّ هناك خيراً من جنَّتي في الدنيا مرجعاً أرجع إليه؛ لأنَّه لم يُعطني الجنَّة في الدنيا إلا ليعطيني في الآخرة أفْضَلَ منها، فما جاءني هذا الغنى إلا لأنني صاحب مواهب خاصَّة، وطاقات نادرة، ومزايا ذاتيَّة.

٣٧ ـ قال له صاحبه المؤمن وهو يُحاوِرُه: أكفرتَ بالذي أجرى أسباب خلقك بدءاً من تراب، ثم من نُطفةٍ مَهينة، ثم سوَّاك رجلاً مكتملاً، فهل أنت نظرت إلى أطوار وجودك على أنها أسبابٌ فاعلةٌ بذاتها، غيرُ مُسيَّرةٍ بخَلْق ربٍّ خالق؟! فالله هو الذي يخلق المسبَّبات كما هو خالقٌ للأسباب، ولولا خلقه سبحانه لم يوجد شيء منها.

٣٨ ـ لكن أنا لست على مذهبك الفاسد، فأنا مؤمنٌ بالله ربي الذي يخلق كل شيءٍ بصفات ربوبيَّته، ولا أُشركُ بربِّي أحداً ممَّن لهم حياة وإرادة وعلم وقدرة، فضلاً عن أن أشرك به أسباباً لا حياة لها ولا إرادةَ ولا علماً ولا قدرة.

٣٩، ٤٠ ـ وهلاَّ قلتَ حين دخلت جنَّتك: هذا ما شاءَهُ الله، ولم يكن بعلمي وقدرتي وبأسبابي دون تقدير الله وخلقه، لا قوة لأحد في الوجود كلِّه إلا بالله، إنْ تَرنِ أنا أقلَّ منك مالاً وأولاداً، وقوة وأنصاراً، فأنا أتوقَّع أنْ يُعطيَني ربِّي خيراً من جنَّتك، ويرسل على جنَّتك صواعق من السماء فتُحرقها، وتأتي على الأخضر واليابس فيها، أو رياحاً عاتية تكسر الشجر وتُتْلف الثمر وتجرف الجنة من أصولها، فتُصبح أرضاً جرداء مَلْساء لا تثبت عليها قدم، ولا ينبت فيها زرع.

٤١ ـ أو يُصبحَ ماء حديقتك غائراً ذاهباً في أعماق الأرض، لا تستطيع الوصول إليه ولا استخراجه بوسيلة من الوسائل. وأحد السببين كافٍ للقضاء عليها، فإذا اجتمع السببان فاتت المنفعة منها تماماً.

٤٢ ـ وأحاط العذاب بثمرِ جنَّته، وأرسل الله عليها ناراً من السماء، أو لفحات من الريح الشديدة البرودة، فأهلكتها، وغار ماؤها، فأصبح صاحبها الكافر يُقلِّب كفَّيه بضرب العُليا منهما على السُّفلى تأسُّفاً وتحسُّراً على ما أنفق في عمارتها، والحالُ أنَّ جنته خالية من ثمارها، ومتساقطة الأغصان، ولم يبق فيها إلا عيدان مُنْبسطة على عروشها، ويقول مُتذكِّراً موعظةَ أخيه حين لا ينفعه التذكُّر والندم: يا ليْتني لم أُشرك بربي أحداً.

٤٣ ـ ولم تكن له حينما نزل به العقاب التأديبيُّ جماعةٌ يحمونه من نزول عذاب الله، وما كان مُمْتَنعاً يقدر على الانتصار لنفسه بوسائله وأسبابه. ومن آيات الله التي يجب أن تكون موضع العبرة للعقلاء: أنَّ الأغنياء والأقوياء في عنفوان قوَّتهم يُحاطون بالذين يزعمون لهم أنهم أولياء ومناصرون، وهم في الحقيقة محتالون خبثاء، يعملون لأنفسهم، ويتَّجرون بزُلفاهُم وتقرُّبهم، ويزيِّنون الباطل للمبطل، والفساد للمفسد، حتى إذا زلَّت به إلى الحضيض قدمه لم يجد أحداً منهم يقبل عليه، أو ينهضه من عثاره، أو يواسيه على بأسائه، ولكنهم جميعاً ينصرفون عنه، ويتنكَّرون له.

٤٤ ـ هنالك يوم القيامة المُلكُ التامُّ للَّهِ الثابت ذي الوجود الأزليِّ الأبدي الذي يستحيل في العقل عَدَمُهُ، هو سبحانه خيرُ عطاءِ ثوابٍ لمن قدَّم إيماناً صحيحاً صادقاً وعملاً صالحاً، من كلِّ ما في الدنيا من متاعٍ، وما يُعْقبه لهم خيرُ عاقبة؛ لأنَّ ثوابه باقٍ خالد لا ينقطع، ولأن عقباه هي دار كرامته ورضوانه.

٤٥ ـ واذكر ـ يا رسول الله ـ لقومك صفة الحياة الدنيا التي اغترُّوا بها في بهجتها وسرعة زوالها، كأرض صالحة للإنبات، فيها بزورُ نباتات مُنْبِتات في تربتها، أنزل الربّ عليها من السَّحاب ماء، فصار تراب الأرض مبلَّلاً بالماء، فامتصَّت منه ومن عناصر تراب الأرض، البزور المنبِّتة في الأرض، فأنبتها الله نباتات مختلفات الأجناس والأنواع، فأصبح النبات متفتِّتاً يابساً بعد البهجة والنَّضارة، تنسفه الرياح وتفرِّقه ذات اليمين وذات الشمال، ليس له تماسك ولا قوة، وكان الله من الأزل إلى الأبد على فعل وخلق وإيجاد وإعدام كلِّ شيء يشاؤهُ عظيمَ القُدرة، له القدرة الكاملة.

الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ۚ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ ۚ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ ۞ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾

٤٦ ـ المال الكثير الوفير، والبنون الكثيرون زينةُ هذه الدنيا الفانية، والأقوال والأعمال الصالحات المُرضيات لله عزَّ وجلّ، ذات الآثار الباقيات المُسْعدات لفاعليها، هي خيرٌ عند ربِّك ثواباً من كلِّ ما في الدنيا ممَّا هو زينةٌ لها، وهي خيرٌ أملاً لتحقيق مرغوبٍ فيه.

٤٧ ـ وضع في ذاكرتك ـ أيها المتلقِّي ـ يومَ نزيل الجبال عن مواضعها من الأرض، زمن قيام الساعة، ونجعلها هَباءً منثوراً، وترى الأرضَ ظاهرةً للأعين، ليس عليها شيء يسترها من شجر أو جبل أو بناء، وجمعنا الخلائق إلى موقف الحساب من كلِّ صَوْب، فلم نترك منهم أحداً لم نجمعه وَنَسُقْهُ للعرض علينا.

٤٨ ـ وعُرِضَ مَنْ حشرناهم بعد البعث على ربِّك ـ أيُّها المتلقِّي ـ حالة كونهم مصفوفين صفّاً مُنْتَظَماً، يقول لهم رَبُّ العالمين: لقد بعثناكم، وخلقناكم خلقاً جديداً، وأحضرناكم، فجئتم إلى موقف العرض فُرادى حفاةً عراةً غير مختونين، كما خلقناكم أوَّل مرة، بل زعمتم أن لن نحاسبكم على ما قدَّمتم في موعدٍ زمانيٍّ ومكانيٍّ نُحدِّدُهُ لكم.

٤٩ ـ وَوُضِعَ الكتابُ العامُّ الشامل لتاريخ حياة المجرمين، أمامهم ليشاهدوه، فترى ـ أيُّها المتلقِّي ـ رؤيا عين، المجرمين خائفين وجلين ممَّا فيه من الأعمال الإجراميَّة، ويقولون إذا رأوها: يا مصيبَتَنا العظيمة بالعذاب الأليم الخالد الذي سنلقاه في جهنّم! ما لهذا الكتاب الربَّاني العجيب، لا يترك صغيرةً ولا كبيرةً من ذنوبنا إلا عدَّها وسجّلها بإحصاء شاملٍ للظاهر والباطن؟! ووجدوا كلَّ ما عملوا في الدنيا حاضراً أمامهم، مشهوداً لهم بكلِّ تفاصيله، لم يَغِب منه شيء، ولم يُنْس منه شيء، ولا يظلم ربُّك أحداً مثقال ذرةٍ، ولا أصغر من ذلك، في تقرير عقابٍ عليه لا يستحقُّه، أو بحرمانه من أجر هو له، بحسب وعده الصَّادق.

٥٠ ـ وضعُوا في ذاكرتكم أحداث هذه القصة حين قلنا للملائكة: اسْجُدوا لآدم، وأمرنا إبليس معهم بالسجود إذ كان مندسّاً فيهم، فسجد الملائكة جميعاً، لكن إبليس الذي كان من الجنّ خرج عن طاعة ربِّه خروجاً من مستوى الكفر، ولم يسجد كبْراً وحسداً، واتَّهم الربَّ في حكمته، أَفَتَتَّخِذونَ إبليس ـ يا بني آدم ـ وذُرِّيَّته بعد أن حذَّرتكم منهم، أولياء من دوني، بطاعتهم في معصية الله والكفر به، وهم لكم أعداء؟ بِئْس إبليسُ وذُرِّيَّتُهُ للظالمين الذين يتَّبعونهم ويجعلونهم أولياء، بدلاً عن ولاية الله لهم.

٥١ ـ ما أشهدت هؤلاء الذين زعموا أني اتَّخذت ولداً، والذين زعموا أنَّ لي شركاء في ربوبيَّتي، خلقَ السَّموات والأرض، ولا أشهدتهم خَلْقَ أنفسهم، وبحضورهم رأوا ولداً لي يساعدني في أعمال ربوبيَّتي؟ أو رأوا شركاء يساعدونني في أعمال خلقي؟ لكن الواقع الذي يعترفون به، يُثبت أني ما أشهدتهم خلق السموات والأرض، ولا خلْق أنفسهم، وأني ما كنتُ مُتَّخذاً إيَّاهم أعواناً في شأن من شؤوني.

٥٢ ـ وضع في ذاكرتك ـ أيُّها المتلقِّي ـ هذا المشهد من مشاهد يوم القيامة، حين يقول الله تعالى للمشركين: نادوا الشُّركاء الذين زعمتم أنَّهم شركائي في ربوبيَّتي وإلهيَّتي؛ ليمنعوكم اليوم من عذابي، أو يخفِّفوا عنكم ولو شيئاً يسيراً من هَوْل هذا الموقف الرهيب، ادعوهم فقد كنتم تدينون لهم في الدنيا بالتعظيم والإجلال، وتسيرون وراءهم صماً بكماً عُمياً، فاستغاثوا بهم؛ ليدفعوا عنهم عذاب ربِّهم، فلم يُجيبوهم ولم ينصروهم، وأقمنا بين المشركين والذين اتَّخذوهم شُركاء لله، حاجزاً لقطع التخاصم بين الفريقَيْن. فكلُّ الولاءات والصِّلات والأنساب والقرابات مبتورة مقطوعة إلا ما كان موصولاً بالإيمان بالله ورسوله وشرائعه.

٥٣ ـ ورأى المشركون النار، فظنُّوا ظنّاً راجحاً أنهم داخلوها وواقعون فيها، مع بقاء أملٍ ضعيف لديهم بأنْ يستجيب الله طلبهم، في أن يُعيدهم إلى الحياة الدنيا؛ ليستأنفوا رحلة الابتلاء، فيعملوا عملاً صالحاً يستحقُّون به النجاة من النار، ولكن بعد محاكمتهم وإصدار أحكام الله فيهم، لم يجدوا مكاناً ينصرفون إليه عن مُواقَعَة النار؛ لأنها أحاطت بهم من كلِّ جانب.

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ ۖ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا ﴿٥٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾

٥٤ ـ ونؤكّد تأكيداً شديداً أننا بيّنا وكرّرنا ونوّعنا في هذا القرآنِ لِلنَّاس من كُلِّ مثلٍ يُقاسُ عليه لكلِّ نوعٍ أو عملٍ أو تشريعٍ أو سنَّة من سنن الله في كونه، ممـا تقتضيه هدايـةُ اللَّهِ لعباده في رحلة امتحانهم في الحياة الدنيا. والحكمة الداعيةُ إلى أن نُصرِّف في هذا القرآن من كل حجة مُماثلة أن الإنسانَ أكثرُ جَدلاً في الكمّ والكَيْف من كلِّ مُجادل في الوجود، والسبب في كون الإنسان أكثر شيءٍ جدلاً ما منحه الله من قدرات فكريَّة، وقدرات النطق التي يستطيع عن طريقها عرض الحجة الواحدة بعدد وفير من أساليب القول.

٥٥ ـ وما مَنَعَ كفار مكة من الإيمان بالله ونَبْذ الشرك، إذ جاءهم الهدى في كتاب ربِّهم وعلى لسان رسوله، ومن أن يستغفروا ربَّهم طالبين منه أن يستر ما سَلَف من ذنوبهم ويتجاوز عنها، إلا تأخُّر أن تأتيهم سُنَّتُنا في إهلاك الأوَّلين من كفار الأمم السابقة بعذاب الاستئصال إن لم يؤمنوا، أو أن يأتِيَهُم العذاب غير المستأصل ضروباً وأنواعاً يتلو بعضه بعضاً.

٥٦ ـ وما نُرسل المرسلين إلا مُبشِّرين مَنْ آمَنَ وأسلَمَ بجنَّات النعيم، ومُنذرين مَنْ كفر ولم يستجب لدعوة الحق بالخلود في عذاب النار يوم الدين، فلا إكراه ولا جَبْر في دين الله عند جميع رسل الله، ومع وضوح الحقّ يُجادل الذين كفروا رسلَهم بالباطل من المذاهب والأفكار والأكاذيب وزخرف الأقوال؛ لِيُزْلِقوا الحقَّ في مزالق الشبهات والتلبيسات، فَيُزيلوه عن مواقع ثباته في قلوب المؤمنين، واتَّخذوا آياتي البيانيَّة المشتملة على براهين الحقّ وأدلته، شيئاً يُستهزأ به، إذ لم يستطيعوا أن يقابلوا ما فيها من حجج وبراهين بما يكافئها، فستروا عجزهم بأنَّها لشدَّة ضعفها لا تستحق أكثر من أن يُستهزأ بها، وجعلوا ما أُنذروه من عقاب الله المعجَّل في الدنيا، والمؤجَّل إلى يوم الدين شيئاً يُستهزأ به أيضاً، تعبيراً عن تكذيبهم بما أُنذروه من عقاب.

٥٧ ـ ولا يوجد أحدٌ أظلم من الذي ذُكِّر بآياتِ ربِّه، فأعطى عارض وجْهه لها استهانةً بها، وتركها ولم يُؤمن بها، بعد إدراكه لما اشتملت عليه من حقائق، ومَحَىٰ من ذاكرته مع طول الترك ما سبق أن اكتسب من كفرٍ وجرائم، لأنه لم يخش الوعيد الذي اشتملت عليه آيات ربه؛ إذ لم يؤمن بها. إنَّا جعلنا على قلوب المُعرضين عن آياتنا أغطيةً، تمنع من وصول ما دلَّت عليه من هدىً إلى عُمقها، وتحجبها صارفةً لها عن فقهها وفهمها فهماً سديداً؛ بسبب انصراف كلِّ مشاعرهم بإرادتهم لمطالب أجسادهم ودنياهم، وجعلنا في آذانهم ثِقَلاً وصمَماً؛ فهي لا تسمع ما تُذكَّر به من آياتنا؛ لأن الاستماع إلى القول إنما يكون عند إرادة فهم المُراد به، ومن لا يريد ذلك انصرف سمعه عنه، فهو لا يسمع إلا صَوْتاً لا معنى له. وإنْ تدعُهم ـ أيها الداعي إلى الله ـ إلى هدى الله المنزَّل في كتابه، واتَّخذت معهم كل وسائل الإقناع، فلن يهتدوا مُستجيبين لدعوتك حينئذٍ أبداً؛ لأن قلوبهم محجوبة في أكِنَّةٍ، ولأنَّ آذانهم مصابة بداء الصَّمم، نتيجة كسبهم الإراديّ الخاضع لسنةٍ من سنن الله عزَّ وجلّ في كونه.

٥٨ ـ وربُّك ـ أيُّها المتلقي لآياتنا ـ العظيمُ المغفرة لعباده الذين يتوبون ويؤمنون ويسلمون، الموصوف بالرحمة العظيمة بالمجرمين، فهو برحمته يُمهلهم؛ رغبة أن يتوبوا وينقذوا أنفسهم من الهلاك المُعجَّل في الدنيا، والمُؤجَّل إلى يوم الدين، لو يُعاقبُ الكفار بسبب ما كسبوا من كفريات وجرائم دون أن يمهلهم، لَعَجَّل لهم العذابَ في الدنيا، بل لهم ـ بعد الإمهال الذي تنقطع فيه كلُّ أعذارهم ـ موعدٌ يُجازون فيه بأعمالهم، وحين يقترب هذا الموعد، ويجدون وسائل التعذيب مُقْبلة إليهم، لن يجدوا من دون وصول العذاب إليهم ملجأً يلجؤون إليه، ولا مرجعاً يرجعون إليه، ليحميهم منه، إذ يكون العذاب محيطاً بهم.

٥٩ ـ وتلك أمم القرى الكافرة المجرمة، كقوم نوح وعادٍ وثمود ولوط وغيرهم، أهلكناهم لمَّا ظلموا بكفرهم وجرائمهم، وجعلنا لإهلاكهم، ولمكان وزمان هلاكهم، موعداً مُعيَّناً، لا يستأخرون عنه ساعة ولا يستقدمون.

٦٠ ـ واذكر حين قال موسى بن عمران عليه السلام لخادمه يُوشع بن نُون: لا أزال أسير حتى أصل إلى مُلتقى البحرين، وهو مكان التقاء البحر الأحمر بخليج العقبة، أو أسير متابعاً سفري زمناً طويلاً حتى أصل إلى العبد الصالح؛ لأتعلَّم منه ما ليس عندي من العلم. وفي هذا معنى العزم والتصميم وقوة الإرادة، حيث يجعل الإنسان لنفسه مقصداً، ثم يسير إليه، لا يعوقه عنه عائق، ولا يهتم بتعب ولا نصب، وتلك أخلاق الرجولة، وعزيمة أهل الإيمان.

٦١ ـ وجدَّ موسىٰ وفتاه «يوشع» في السَّيْر، فلما وصلا مَجْمع التقاء البحرين، جلسا عند صخرة، ونسِيا حوتَهما الذي أُمر موسى بأخذه معه قوتاً لهما، وحمله «يوشع» في مِكتَل، فإذا الحوت يُصبح حيّاً، وينحدر في البحر، ويتَّخذ له فيه نفقاً غير نافذ؛ ليحبسه.

فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا
هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ
ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ
فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا
قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ
عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ
عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ
مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ
سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ
فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا
﴿٧٠﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا
لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ
لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا
تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ
قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾

٦٢ ـ فلمَّا فارق موسىٰ وفتاه ذلك الموضع الذي نَسيَا فيه الحوت، وهو مَجْمَع البحرين، ألقى الله على موسى الجوع بعدما جاوز الصخرة. قال موسى لفتاه: آتِنَا طعام الغُدْوة، أؤكِّد لك أننا لقينا من سفرنا هذا الذي تابعنا فيه السَّيْر تعباً وشدَّة.

٦٣ ـ قال له خادمه «يوشَع»: أرأيت المكان الذي نزلنا فيه عند الصَّخرة التي استرحنا عندها؟ فإني تركتُ الحوتَ وفقدته، وما أنساني أن أذكُرَ لك أمرَ الحوت إلا الشَّيطان، فإنَّ الحوتَ الميِّت دَبَّتْ فيه الحياة، واتَّخذ له طريقاً في البحر اتِّخاذاً عجباً. وفي نسبة النسيان إلى الشيطان أدبٌ قرآنيٌّ رفيع، وهو تنزيه الله سبحانه وتعالى عن إسناد فعل المكروهات والمحقَّرات وغير ذلك إليه، علماً أنَّ الفاعل الحقيقي لكلِّ ذلك هو الله سبحانه وتعالى، ولا خالق ولا فاعل على الحقيقة سواه.

٦٤ ـ قال موسى لفتاه: ذلك الذي ذكرت من أمر الحوت هو الذي كنَّا نطلبه ونلتمسه، فإنَّه علامة لي على مكان العبد الصالح، فرجَعَا في طريقهما الذي سَلَكاهُ يتَّبعان آثارَ مشيهما اتِّباعاً؛ لئلا يخطئا طريقهما، فيفوتهما مكان الخضر مرةً أخرى، حتى انتهيا إلى الصخرة.

٦٥ ـ فلمَّا وَصَلا إلى المكان الذي فقدا فيه الحوت، وجدا عنده عبداً صالحاً من عبادنا المتحقِّقين بعبوديَّتهم لنا هو الخَضِر عليه السلام، آتيناه نبوَّةً من عندنا، وعلَّمناه من لدنَّا علماً خاصّاً لم يُؤْت منه موسى، وهو العلم ببعض تصاريف الله في عباده ممَّا ظاهره شرٌّ مكروه، وحقيقته خيرٌ محبوب.

٦٦ ـ قال له موسى ملاطفاً متواضعاً: أتَأْذَنُ لي أن أتَّبعك؛ لتعلِّمني من بعض العلم الذي عَلَّمك الله علماً موافقاً للحقِّ والصواب، أُصيب به الخير في ديني؟

وفي حرص موسى على لقاء الخضر والتلقِّي منه ما عنده من علم دليلٌ على أهمية الاستزادة من العلم، والرحلة لتحصيل ذلك، واحتمال المشقة، والتواضع في طلب العلم، وعدم إرهاق الأستاذ ومطالبته بكلِّ ما عنده، وإنما يكتفي ببعض ما عنده.

٦٧، ٦٨ ـ قال الخَضِر: إنَّك لن تستطيع معي صبراً ـ يا موسى ـ إني على علم من الله علَّمنيه لا تعلمه أنت، وأنت على علمٍ من الله علَّمك الله، لا أعلمُهُ. وكيف تصبر على ما لم يُحط علمك بالأسباب الخفيَّةَ الداعية إليه؟!

٦٩ ـ قال له موسى: ستجدني ـ إن شاء الله ـ صابراً على ما أراه منك، ولا أخالفُك فيما تأمرني به.

٧٠ ـ قال الخَضِر لموسى: أوافق على أن تتَّبعني متعلِّماً، فإنْ صَحِبْتَني فلا تَسْألني عن شيء أعمله ممَّا تنكره، ولا تعترض عليه، حتى أُحدث أنا لك منه ذكراً بقولٍ أبيِّن لك فيه سبب فعلي ما فعلتُ، ممَّا هو خارج عن حدود علمك.

٧١ ـ فذهب موسى والخضر مُسْرِعَيْن بهمَّة ونشاط يمشيان على الساحل، يطلبان سفينة يركبانها، فوجدا سفينة، فركباها بغير أجر، فقلع الخَضِر لوحاً من ألواح السفينة فخرقها، فقال له موسى: أخَرَقْتَ السفينة؛ لِتُغرق أهلها، وقد حملونا بغير أجر؟ أؤكِّد أنك جئت بخرقك السفينة شيئاً عظيماً منكراً لا يتَّفق مع أحكام الشريعة.

٧٢ ـ قال له الخَضِر: ألم أقل إنَّك ـ يا موسى ـ لن تستطيع معيَ صبراً. إنَّ خرق السفينة فعلته قصداً، وهو من الأمور التي اشترطت معك أن لا تنكر عليَّ فيها؛ لأنك لم تحط بها خبراً، إذ لها سرٌّ لا تعلمه أنت.

٧٣ ـ قال موسى معتذراً: لا تُجازني على سؤالي هذا بسبب نسياني عهدي معك، ولا تُكلِّفني مشقَّة في تعلُّمي منك، ولا تُعَسِّر عليَّ متابعتك بشدَّة المحاسبة، ويسِّرها بالإغضاء وترك المناقشة، فقَبِل الخَضِر عذره.

٧٤ ـ فانطلق موسى والخضر بعد نزولهما من السفينة يمشيان على الساحل، إذْ أبصرا غلاماً يلعب مع الغلمان، فقتله الخَضِر، فأنكر موسى عليه، وقال: كيف تقتل نفساً طاهرة من الذنوب، إذ لم تبلغ مبلغ التكليف، ولم تقتل نفساً، حتى يجب عليها القتل؟ أؤكِّد لك أنك جئت شيئاً منكراً عظيماً أنكر من الأول؛ لأن قتل النفس البريئة وسفك الدم الحرام لا يجوز في أيِّ شريعة، ولا تحتمله العقول السليمة، وهو من الإفساد في الأرض، لا أستطيع الصبر عليه.

﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَـٰحِبْنِى قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَـٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَـٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا الْغُلَـٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَـٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَـٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَـٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾



٧٥ ـ قال الخَضِر لموسى مُعَاتِباً ومؤكِّداً: إنّي كنت وجَّهتُ الخطابَ لك بأنّك لن تستطيع معي صَبْراً على ما سأفعله من أمور تخفى عليك مما علَّمنيه الله تعالى؟

٧٦ ـ قال موسى له: سامحني بهذه التي لم تكن نسياناً، وإنْ سألتُكَ عن شيءٍ بعد هذه المرَّة الثانية، ففارقني ولا تصاحبني، قد بلغت إلى الغاية التي تُعذر بسببها في فراقي؛ حيث احتملتني مرّتين مع قُرب المُدّة.

٧٧ ـ فانطلق موسى والخَضِر يمشيان حتى أَتَيا أهلَ قرية، طلبا منهم طعاماً على سبيل الضيافة، فامتنع أهل القرية البخلاء عن ضيافتهما، فوَجَدا فيها جداراً مائلاً يريد ـ كعجوز من الناس هَرِم ـ أن ينهدم ويسقط إلى الأرض ـ كانقضاض الطائر ـ فسوَّاه الخضر بيده، فلمَّا أقام الجدار لم يتمالك موسى ـ لما رأى من الحرمان ومساس الحاجة ـ أن قال للخَضِر: قومٌ أتيناهم، فلم يُطعمونا، ولم يضيِّفونا؛ لو شئتَ لاتَّخذت على إصلاح الجدار أجراً، لنسدَّ بالأجر جوعَنا، فقد بلغ الجوعُ منا مبلغاً مُضْنياً.

٧٨ ـ قال الخَضِر لموسى: هذا السؤال الثالث وقتُ فِراق وَصْلي مع وَصْلك؛ لأنك شرطت على نفسك بعد حادثة قتل الغلام: أنك إن سألتني عن شيء بعده، فإني لا أصاحبك وأكون في حِلٍّ من فراقك، سأخبرك بمآل وعاقبة ما أنكرت عليَّ من أفعالي التي فعلتها، والتي لم تستطع صبراً على ترك السؤال عنها.

٧٩ ـ أما السفينة التي ركبناها وخرقتها بقلع لوح من ألواحها، فهي لمساكينَ في البحر يؤجرونها ويكتسبون بها، فأردتُ أن أجعل فيها عيباً، لأحميهَا وأحمي أصحابها من مَلكٍ غاصبٍ جبَّار، وكان وراء نهاية مَدِّ بصرهم ملكٌ ظالم يأخذ كلَّ سفينةٍ غير معيبة استلاباً بغير حق، فقمت بإحداثِ عَيْب في سفينتهم لا يُسبِّب إغراقاً لها ولأهلها، حتى لا يأخذها الملِك الغاصب من أصحابها. وفي خرق السفينة من قبل الخضِر دليل على العمل بالمصلحة الراجحة، وإن استلزمت مفسدة مرجوحة، وأنه إذا تعارضت مفسدتان وجب ارتكاب أخفهما لدفع أشدِّهما.

٨٠ ـ وأمَّا الغلامُ الذي قَتَلتُه، فكان مطبوعاً على الكفر، وكان أبوه وأمه مُؤمِنَيْن، فخفنا ـ لو بقي الغلام حيّاً ـ أن يُكلِّفهما طغياناً وكفراً، فيحملهما حبُّه على أن يتَّبعاه على دينه.

٨١ ـ فأردنا أن يُبْدِلَهُما ربُّهما غلاماً آخر خيراً من الغلام المقتول طهارة وبراءة من الكفر والإثم والعصيان، وأقربَ لوالديه رحمةً وشفقةً وعطفاً.

٨٢ ـ وأما الجدارُ الذي عَدَّلتُ مَيْلَهُ حتى صار مستوياً، فهو مِلْكُ غُلامَيْن يتيمَيْن في المدينة، وكان تحت الجدار مالٌ مدفونٌ مُخبَّأٌ لهما، وكان أبوهما رجلاً صالحاً من الأتقياء، فأراد ربُّك ـ بسبب صلاح والدهما ـ أن يبلغا قوَّتهما وكمال عقلهما، ويستخرجا كنزهما إذا بَلَغا وعقلا وقويا، رحمةً وعطاءً من ربِّك لهما، فأوحى إليَّ بأن أقيم الجدار، فأقمته طاعةً لأمره.

وهذا الذي فعلته في أصحاب السفينة، ووالدَيْ الغلام، وَوَلَدَي الرجل الصالح إنما هو رحمة من الله بهم، وما فعلتُ ـ يا موسى ـ جميع الذي رأيتني فعلته باختياري ورأيي، بل فعلته بأمر الله وإلهامه إيَّاي، ذلك الذي بَيَّنْتُ لك أسبابه هو عاقبة الأمور التي لم تُطِق أن تصبرَ على ترك السؤال عنها، والإنكار عليَّ فيها.

٨٣ ـ ويسألك ـ يا رسول الله ـ المشركون من قومك على جهة الامتحان عن خبر ذي القرنَيْن، الملك الصَّالح العادل الذي بلغ أقصىٰ المَشْرق والمغرب والشمال والجنوب من القَدر المعمور من الأرض، وأعطاه الله العلم والحكمة والسلطان. قل ـ يا رسول الله ـ لهم: سأتلو عليكم ممَّا سيُنزل عليَّ ربي في كتابه من بعض أخباره بياناً نافعاً، يصلح أن يكون ذكراً تتذكَّرونه، عند المناسبات الداعيات لتذكُّره، ليكون هادياً لكم للاستقامة على صراط الله المستقيم، ولتعرفوا ميزة الملك الصالح المصلح العادل، المؤيَّد بتأييدِ من ربه سبحانه.

إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِن كُلِّ شَيۡءٖ سَبَبٗا ﴿٨٤﴾ فَأَتۡبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغۡرِبَ ٱلشَّمۡسِ وَجَدَهَا تَغۡرُبُ فِي عَيۡنٍ حَمِئَةٖ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوۡمٗاۖ قُلۡنَا يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمۡ حُسۡنٗا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوۡفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا نُّكۡرٗا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنۡ أَمۡرِنَا يُسۡرٗا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتۡبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطۡلِعَ ٱلشَّمۡسِ وَجَدَهَا تَطۡلُعُ عَلَىٰ قَوۡمٖ لَّمۡ نَجۡعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتۡرٗا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَۖ وَقَدۡ أَحَطۡنَا بِمَا لَدَيۡهِ خُبۡرٗا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتۡبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيۡنَ ٱلسَّدَّيۡنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوۡمٗا لَّا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ قَوۡلٗا ﴿٩٣﴾ قَالُواْ يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ إِنَّ يَأۡجُوجَ وَمَأۡجُوجَ مُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَهَلۡ نَجۡعَلُ لَكَ خَرۡجًا عَلَىٰٓ أَن تَجۡعَلَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَهُمۡ سَدّٗا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيۡرٞ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجۡعَلۡ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُمۡ رَدۡمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلۡحَدِيدِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيۡنَ ٱلصَّدَفَيۡنِ قَالَ ٱنفُخُواْۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارٗا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرٗا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسۡطَٰعُوٓاْ أَن يَظۡهَرُوهُ وَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقۡبٗا ﴿٩٧﴾

٨٤ ـ إنَّا جعلنا مُلكه قوياً ثابتاً، وأقدرناهُ على التصرُّف في الأرض، وآتيْناه بتقديرنا وخلقنا من كلِّ شيء يحتاجه لتثبيت ملكه، وتحقيق طموحاته في فتح المدن ومحاربة الأعداء، وإقامة الحقّ والعدل، سبباً يتوصَّل به إلى ما يريد.

٨٥، ٨٦ ـ فَسَلَكَ طريقاً مُوصلاً إلى أغراضه ومقاصده بجدٍّ واجتهاد، حتى إذا وَصَل ذو القرنين إلى منتهى الأرض المعمورة في زمنه من جهة مغرب الشمس، رآها رأيَ العين كأنها تغربُ في عينٍ ذات طينة سوداء، وتوقفت عند هذه العين، إذ وجدها آخرَ ما يستطيع جيشه أن يعبره من الأرض، وهذه العين يأتي بعدها بحر عظيم، فإذا غربت الشمس ظهر للناظرين أنها تنغمس في هذا البحر العظيم، ووجد عند العين الحمئة قوماً كفاراً. قلنا: ياذا القرنين إمَّا أن تعذِّب الكافر المُعاند منهم، بعد دعوته إلى دين الله الحق، وإقناعه به، وإمَّا أن تتَّخذ فيهم أمراً ذا حُسْنٍ، بأن تُمهل من ترى إمهاله منهم، وتتلطَّف به، وتصبر على معالجته بحسب ما ترى من استعداده لأن يؤمن مستقبلاً ويعمل صالحاً.

٨٧ ـ قال ذو القرنين: أمَّا من ظلم بالكفر وارتكاب الجرائم بعد دعوته إلى دين الحق، فسوفَ نُعذِّبه في الدنيا، ثم يرجع إلى ربِّه في الآخرة، فيعذِّبه في جهنَّم عذاباً شديداً منكراً.

٨٨ ـ وأمَّا مَنْ آمن وبرهن على صحة إيمانه بعمل صالح، فَلَهُ عند ربِّه الجنة الحُسنى، حالة كونها جزاءً عظيماً له، وسنقول له من أمرنا الموصول بالتنفيذ، ما فيه يُسرٌ وتيسير، وتكون أوامرنا له ذات يُسر لا مشقَّة فيها.

٨٩، ٩٠ ـ ثُمَّ بعد مدّة سَلَكَ طريقاً ومنازل مُتَّجهاً إلى المَشْرق، واستمرَّ يتَّخذ أسبابه، ويتَّبعها بجيشه العظيم، حتى إذا وَصَل إلى منتهى الأرض المعمورة في زمنه من جهة مَطلع الشمس، وجدها تَطلُع على قوم يعيشون في أرض مكشوفة ليس بينهم وبين الشمس سترٌ من جبل ولا شجر ولا بناء، ولم يستروا أجسادهم بالجلود أو المنسوجات من الثياب.

٩١ ـ كذلك حكم ذو القرنين في القوم الذين هم عند مَطلَع الشمس كما حكم في القوم الذين عند مغربها، وقد علمنا بما عنده ومَنْ معه من الجند والعُدَّة وآلات الحرب علماً شاملاً.

٩٢، ٩٣ ـ ثمَّ بعد مدّة سَلَكَ ذو القرنين طريقاً موصلاً إلى أهدافه، حتى إذا وَصَل إلى ما بين الجبلين الحاجزَيْن لما وَرَاءَهما، وَجَدَ أمام الجبلين قوماً، لا يفهمون كلامَ غيرهم، ولا يفهم الناسُ كلامَهم إلا بالإشارة ونحوها.

٩٤ ـ قالوا يا ذا القرنين: إنَّ «يأجوج ومأجوج» ـ وهما أمَّتان عظيمتان من بني آدم ـ مفسدون في الأرض بالقتل والظلم وسائر وجوه الشر، فهل نجعل لك ـ أيها الملك الصالح العادل ـ أجراً عظيماً من الأموال، على أن تجعل بيننا وبينهم حاجزاً يمنعهم من الوصول إلينا، والإفساد في أرضنا.

٩٥ ـ قال لهم ذو القرنين: ما آتاني الله ربِّي من تمكينٍ في الأرض، خيرٌ ممَّا تجمعون لي من أجر على إقامة هذا السدّ لكم، لا أريدُ منكم المال ولا حاجة لي به، بل أعينوني بما لديكم من قوى نحتاج إليها، أجعل بينكم وبينهم حاجزاً حصيناً وجداراً متيناً، مانعاً لمن يغيرُ عليكم من «يأجوج ومأجوج». وفي الآية دليل على وجوب مساعدة المظلومين من قبل القادرين بلا أجر على هذه المساعدة.

٩٦ ـ أعطوني ما عندكم من قِطَعَ الحديد العظيمة، فأَتَوْه بها، فجعل الحَطَب على الحديد، والحديد على الحطب، حتى إذا ساوى بين طَرَفي الجَبَلين، قال: انْفُخوا بالمنافيخ لإيقاد النَّار، حتى إذا جعل قطع الحديد حمراء كالجمر، قال: آتوني أَصُبُّ عليه نحاساً مُذاباً، فإذا بَرَد كان الجميع كتلة واحدة، وأتمَّ ذو القرنين السدَّ بجدارَيْه ورَدَم ما بينهما.

٩٧ ـ ولما اكتمل بناء السَّدِّ وارتفع ارتفاعاً كافياً ليكون حاجزاً مانعاً لغارات «يأجوج ومأجوج» المداهِمَة، أقبل الغزاة الأشرار ليدخلوا كعادتهم من الفراغ بين الجبلين، فما اسْطاعوا أن يَعلوا على السَّدّ ويَرقَوْا عليه؛ لِعُلُوِّه ومَلاَسته، وما استطاعوا أن يخرقوه من أسفله؛ لِشدَّته وصَلاَبَتِهِ.

قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي ۖ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾ ۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ۖ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ ۚ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾ قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾

٩٨ ـ قال ذو القرنين: هذا السدُّ الحصين الذي بنيتُه حاجزاً عن فساد يأجوج ومأجوج من نعمةِ ربي، فإذا جاء وعدُ ربِّي يومَ القيامة جَعَله أرضاً مَلْساء مستوية، وكان وعدُ ربي حقاً.

وفي الآية دليل على دفع الشرِّ بأيسر ما يندفع به، وتذكُّر فضل الله عزَّ وجلّ عند القيام بالعمل الصالح، فذو القرنين لم يأخذه البطرُ والغرور، ولم يضِف هذا الإنجاز إلى نفسه وعلمه، وإنما ذكر ربَّه، واستحضر فضله العظيم عليه، وأن ما حصل على يده هو محض فضل من الله ورحمة منه لأولئك المستضعفين، لحمايتهم من الاعتداءات، ورحمة بالمعتدين المفسدين أيضاً بمنعهم من الاعتداء والإفساد.

٩٩ ـ وتركنا جميع الناس عند فتح السَّد وقُرب الساعة، يختلط بعضهم في بعض في أحداثٍ متكرِّرة مُتجدِّدة كحركة أمواج البحر التي يختلط فيها الماء بعضه ببعض، ونُفِخ في «القرن» النفخة الثانية للبعث، فجمعنا الخلق جميعاً بعد إحيائهم جَمْعاً شاملاً، لم نترك منهم أحداً.

١٠٠ ـ وَأبرزنا جهنَّم يومئذٍ للكافرين، لِيُشاهدوها عِياناً.

١٠١ ـ الذين كانت أعينهم في الدنيا داخلةً في غشاءٍ غليظ وسَتْرٍ كثيف عن مشاهدة آياتي في كوني، الدالاَّت على عظيم قدرتي، وجليل حكمتي، فهم لا يرونها، فلا يذكرونني ولا يؤمنون بي، وكانت آذانهم مصابةً بالصَّمم، لا يستطيعون سماعَ ما يُتلىٰ عليهم من آياتي وبيِّناتي سماعَ قَبول وانتفاع؛ لتولِّيهم عن الحقِّ، وتعلّقهم بالحياة الدنيا وأهوائهم وشهواتهم.

١٠٢ ـ أنطَمَست بصائر الذين كفروا فظنُّوا أنْ يَتَّخذوا عبادي الذين عُبِدُوا من دوني ـ كعيسى والملائكة ـ أرباباً يعبدونهم وهم لا ربوبيَّة لهم، وهم لا يستطيعون نصرهم وإنقاذهم من عذابي؟ إنَّا هيَّأنا جهنَّم للكافرين منزلاً لضيافتهم!!

١٠٣ ـ قل ـ يا رسول الله ويا كلَّ مَنْ يحمل رسالة الدعوة إلى الله من أُمَّته ـ لمن لم يستجيبوا لدعوة الحق الربَّانيَّة: هل نُخبركم بالأخسرين أعمالاً يوم القيامة؟

١٠٤ ـ الذين وجدوا أنَّ سعيهم الذي كانوا قد سَعَوْه في الحياة الدنيا، لتحقيق ما كانوا يطمحون له من سعادات، قد ضاع ضياعاً تاماً، فلم يظهر له أثرٌ نافع يوم الدين.

١٠٥ ـ أولئك الأخسرون أعمالاً، الذين كفروا بآيات ربِّهم الكونيَّة، والبيانيَّة، والإعجازيَّة، والجزائيَّة، وكفروا بالبعث واليوم الآخر، والثواب والعقاب، فَبَطَلَتْ أعمالُهم، ولم يبق في صحائفهم إلا السيئات، فلا نُقيمُ لهم يومَ القيامة ميزاناً نزن به حسناتهم، إذ يأتون يوم القيامة ليس لهم حسنات تُوزن في كفَّة الحسنات.

١٠٦ ـ ذلك منزلُهم يوم القيامة عذابٌ في نارِ جهنَّم؛ بسبب كفرهم واتِّخاذهم آياتي البيانيَّة المنزَّلات على رُسلي مهزوءاً بها ومسخوراً منها.

١٠٧، ١٠٨ ـ إنَّ الذين آمنوا إيماناً صحيحاً صادقاً، وعملوا الصَّالحات المعبِّرة عن صدق إيمانهم، كانت لهم أعلى الجنة وأفضلها منزلاً مُعدّاً لضيافتهم، حالة كونهم خالدين فيها أبداً، لا يطلبون عنها تحوُّلاً وانتقالاً إلى غيرها؛ لكونها أطيب المنازل وأعلاها.

١٠٩ ـ قل ـ يا رسول الله ـ: لو كان ماءُ البحر حبراً للأقلام التي يُكتب بها كلام الله الذي يدلُّ على علمه المحيط بكلِّ شيء، لنفدت هذه البحور دون أن تستوعب الكتابة كلماتِ الله الدالاَّت على علمه الشامل، ولو جئنا بمثل ماء البحر في كثرته ماءً وزيادة، وذلك لأن البحر مُتَنَاهٍ، وعلم الله غير مُتَنَاه.

١١٠ ـ قل ـ يا رسول الله ـ لهؤلاء المشركين: ما أنا بالنسبة إلى تكوين خلقي إلا بشرٌ مثلكم، ولكني خُصِصْتُ بالوحي وأكرمني الله بالنبوَّة والرسالة، وقد أوحى إليَّ أنَّما إلهكم إلهٌ واحدٌ لا شريك له، فمن كان يتوقَّع أنَّه سوف يلقى ربَّه يوم القيامة ليحاسبه، وينفِّذ فيه جزاءه بالفضل أو بالعدل، في الجنة دار النعيم، أو النار دار العذاب، فليعمل عملاً صالحاً خالصاً لربِّه موافقاً لشرعه، ولا يشرك بعبادته أحداً من خلقه.

سورة مريم — ترتيبها ١٩ — آياتها ٩٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

كهيعص ﴿١﴾ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴿٩﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾

١ - ﴿كهيعص﴾ سَبَق الكلام على الحروف المُقطَّعة في أوَّل سورة البقرة.

٢ - هذا الذي نتلو عليك - يا رسول الله - ذِكْرُ رحمةِ ربِّك عبده زكريا الذي شرَّفه بعبوديَّته له، وجعله أهلاً لرحمته بإجابة دعائه، وتلبية طلبه، وجَعل امرأته العاقر تلدُ له ولداً رضياً، ونبياً رسولاً.

٣ - اذكر رحمةَ ربِّك عبدَهُ زكريا باستجابته لدعائه حين نادى ربَّه مُتوجِّهاً بقلبه في دعائه في المحراب سرّاً في جوف الليل؛ ليكون أكمل إخلاصاً لله، وأرجى للإجابة.

٤ - قال زكريا عليه السلام في ندائه لربِّه نداء خفياً مُعبراً عن شدَّة تَوَجُّهِهِ بقلبه ونفسه: ربِّ إني رقَّ وضَعُفَ كلُّ العظم من جسدي، واشتعل الشَّعر اشتعالاً من نوع الشَّيب، وانتشر فيه بسرعة، كما ينتشر لهب النار في الهشيم، حتى استوعب كلَّ أجزائه، ولم أكن بسبب دعائي إيَّاك - يا ربِّي - فيما مضى من عمري حتى بلوغي سنَّ الشيخوخة محروماً خائباً، بل كانت حياتي كلُّها هنيَّة رضيَّة.

وفي الآية توجيهٌ إلى أثر التزام الدعاء والمداومة عليه في الظفر بحياة رضيَّة لا شقاء فيها، واستحباب الإسرار والخضوع في الدعاء، وإظهار الذلِّ والمسْكنة والضعف.

٥ - وإني خِفْتُ أقاربي وعَصَبَتي ألاَّ يُحسنوا خلافتي من بعد موتي، فيُفسدوا في مراكز السُّلطة الدينيَّة، ولا أجدُ فيهم رجلاً صالحاً مُؤَهَّلاً لأن يكون وارثاً مُحافظاً على شرائع الدين وتعليماته، وكانت امرأتي فيما مضى من عمرها عاقراً لا تلد، فأعطني من محض فضلك الواسع، وقدرتك الباهرة وارثاً من ذرِّيَّتي، ومعيناً يتولاَّني.

٦ - يَرِثُ العلم والقيام بأمور الدين من بعدي، ويرثُ من بعض آل يعقوب - من أنبياء بني إسرائيل - النبوَّة والعلم، واجْعَله ربِّ بَرّاً تقياً كثير الرضا عنك فيما تجري به مقاديرك، مرضياً عندك قولاً وفعلاً.

٧ - فاسْتجاب الله دعاءَهُ فقال: يا زكريا إنَّا - بعظيم ربوبيَّتنا - نُبَشِّرُك بولدٍ ذكر اسمه يحيى، لم يُسَمَّ أحدٌ قبله باسمه، ولم نجعل له شبيهاً في صفاته وأحواله. ومن جملة الخصائص التي تميَّز بها أنه حصورٌ، يَعِفُّ عفَّةً تامَّةً عن النساء، فلا يشتهيهنَّ بإرادةٍ قويَّة حازمةٍ منه.

٨ - قال زكريا مُتعجِّباً: يا ربِّ من أين يكون لي غلام، وهناك سببان يمنعان بحسب العادة من إنجاب الأولاد: **السبب الأول**: كانت امرأتي عاقراً في شبابها، وفي السنِّ التي تُنجب النساء عادةً، فكيف بها، وقد بلغت سنَّ اليأس؟ **السبب الثاني**: أنني بلغت النهاية من الكبر، ونحل جسمي، ودقَّت عظامي، وجفَّت مفاصلي؟ ووصلت إلى طوْر أعجز فيه عن معاشرة النساء معاشرة زوجيَّة.

٩ - قال المَلَك مُجيباً زكريا عمَّا تعجَّب منه: الأمر كما تقول من كَوْن امرأتك عاقراً، وبلوغك الكبر عتيّاً، ولكنَّ ربَّك قال: خَلْقُ يحيى مع بلوغك الكِبَر، وعُقْر امرأتك أمرٌ على الله يسير، وليس صعباً عليَّ أن أُصلح امرأتك فأجْعَلُها صالحةً لأنْ تُنجب، وأمنحكَ القوَّة، فتكون قادراً على مباشرة امرأتك، كما كنت أيام قُدرتك، وقد خلقتُك - يا زكريا - من قبل يحيى، ولم تكُ شيئاً مذكوراً، فما بَشَّرتكَ به أهون من خلقك، فلا تَسْأل ولا تعجب، إنَّ ربَّك على كلِّ شيء قدير.

١٠ - قال زكريا زيادةً في طمأنينته: رَبِّ اجعَل لي علامةً على حَمْل امرأتي؛ لأشكرك. قال: علامتك التي نجعلُها دالَّةً على دخول البشرى مرحلة التنفيذ والتحقيق في الواقع، ألاَّ تستطيع تكليم الناس بلسانك مدَّة ثلاثَ ليالٍ مع أيامهنَّ، حالة كونك صحيحاً سليماً لم تُصَب بعاهةٍ في نُطقك.

١١ - فخَرَج زكريا على قومه من الموضع الذي كان يُصَلِّي فيه، في صبيحة الليلة التي حملت فيها امرأته، فأوْمَأ وأشار إليهم إشاراتٍ حركيَّة باليدين وبغيرهما من أعضاء الجسم: أن نَزِّهوا الله تعالى عمَّا لا يليق بجلاله، شكراً له، أوَّل النهار عند الفجر إلى طلوع الشمس، ونصف النهار الثاني حتى غروب الشمس؛ لأنَّ الأمر الذي أُبشِّركم به، أمرٌ عظيم، يقْتضي منكم أن تشكروا الله عليه بالتَّسبيح، وذلك لأنَّ منَّةَ الله عليَّ بوارثِ نبوَّةٍ وعلمٍ من ذُرِّيَّتي هي منَّةٌ على أصحابي، وأوليائي، وأنصاري من قومي.

يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا ﴿١٢﴾ وَحَنَانٗا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةٗۖ وَكَانَ تَقِيّٗا ﴿١٣﴾ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَيۡهِ وَلَمۡ يَكُن جَبَّارًا عَصِيّٗا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا ﴿١٥﴾ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا ﴿١٧﴾ قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا ﴿١٩﴾ قَالَتۡ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞۖ وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ وَرَحۡمَةٗ مِّنَّاۚ وَكَانَ أَمۡرٗا مَّقۡضِيّٗا ﴿٢١﴾ ۞ فَحَمَلَتۡهُ فَٱنتَبَذَتۡ بِهِۦ مَكَانٗا قَصِيّٗا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلۡمَخَاضُ إِلَىٰ جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ قَالَتۡ يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ أَلَّا تَحۡزَنِي قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ﴿٢٥﴾

١٢ ـ وَهَبْنا لزكريا يحيى، وقلنا له: يا يَحيى خُذ كتاب التَّوراة بِجِدٍّ واجتهاد، وذلك بحُسْن حفظه وفهمه وتدبُّره، وحُسْن العمل بشرائعه وأحكامه، وحُسْن تعليمه ونشره، وأعطيناه الحكمة وسَداد الرأي وحُسْنَ الفهم والبصيرة، وتصريف الأمور، والفصل بين الأقضية والخصومات، وهو صبيٌّ صغير.

١٣ ـ وأعطيناه رحمةً عظيمةً من محض فضلنا الواسع، وحنَّناه على العباد؛ ليدعوهم إلى طاعة ربِّهم، وآتيناه من لدنا طهارةً قلبية، ونفسيّة، وسلوكية، وتنامياً في المراتب الحميدة، وكان عليه السلام مطيعاً للّه تعالى في كلِّ حياته، لم يعمل معصيةً قط.

١٤ ـ وكان عليه السلام باراً بوالديه مُحسِناً إليهما، وكان متواضعاً ليِّن الجانب، ولم يكن متكبِّراً متعالياً ذا عصيان ومخالفةٍ لربِّه.

١٥ ـ وأمانٌ له من الله يوم وُلد من أن يناله الشَّيطان، وأمانٌ له يوم يموت من عذاب القبر، ويوم يُبعث حيّاً من عذابِ يوم القيامة حتى بلوغه الفردوس الأعلى. وهذه التحيَّة الربَّانيَّة تتضمَّن قضاءً من الله له بالأمن والسلامة، وتوجيهاً للملائكة والصالحين من عباد الله بأن يُحيُّوه ويدعوا له بالسلام.

١٦ ـ وضع في ذاكرتك ـ أيُّها المُتلقِّي لآيات كتاب ربِّك ـ خبرَ مريم المُنزَّل في هذا القرآن، حين تَنَحَّت من أمكنة قومها إلى ناحيةٍ بعيدةٍ تعزلها عنهم، فاتَّخذت لها مكاناً في مساكن أهلها من الجهة الشرقية من بيت المقدس.

١٧ ـ فَضَربت من دون أهلها سِتْراً يَسْتُرُها عنهم وعن الناس؛ عفَّةً وطهارةً، وبُعداً عن الرياء، وحِرصاً على الإخلاص لله عزَّ وجلّ، فأرسلنا عقب اعتزالها، واتِّخاذها الحجاب، إليها روحنا الذي هو جبريل؛ ليبشِّرها بالغُلام ولينفخ فيها، فظهر لها الرُّوح جبريل عليه السلام مُتشكِّلاً في صورة إنسانٍ معتدل الخَلْق كامل البِنْية؛ لتستأنس بكلامه ولا تنفر منه.

١٨ ـ فلمَّا رأت مريمُ جبريلَ عليه السلام إنساناً مُعتدلاً تامَّ الخَلْق يقصد نحوها في مكان عزلتها، بادرته من بعيد. قالت: إني أستجير بالرحمٰن منك أن تنالني بسوء، إن كنت مؤمناً مطيعاً لله، فينبغي أن يكون تَقْواك مانعاً لك من الفجور.

١٩ ـ قال لها جبريل عليه السلام: ما أنا إلا رسولُ ربِّك، بعثني إليك؛ لِأَهَبَ لك ولداً صالحاً طاهراً مُطَهَّراً من الذنوب، نامياً بالخيرات والصالحات، والكمالات البشرية.

٢٠ ـ قالت مريم لجبريل: من أين يكون لي غلام؟ ولم يقربني زوجٌ بنكاح حلال، ولم أكُن فاجرةً تبغي الرجالَ، أو يبغيها الرجالُ للفجور بها؛ لأن الولد إنما يكون من نكاح أو سفاح ولم يقع واحد منهما؟

٢١ ـ قال لها جبريل عليه السلام: هكذا الأمر كما تقولين، لم يَمْسَسْك بشرٌ بزواج ولا بغيره، ولكنَّ ربَّك قال جواباً على استفهامك التعجُّبي: خَلْق ولدك بلا أب أمرٌ هيِّنٌ يسيرٌ، وليكون الغلام الذي نَهَبه لك علامةً للناس على عظمة ربوبيَّتنا ودلالةً على كمال قدرتنا، ولنجعله رحمةً منا لعبادنا، بما نُحمِّله من رسالة، يهتدي بها من اتَّبعه، وكان خَلْقُ عيسى على هذه الحالة أمراً مُقدَّراً مفروغاً منه لا يُردُّ ولا يُبدَّل، فلا تعترضي على أمر الله وقضائه.

٢٢ ـ فنفخ جبريلُ في جَيْب قميصها، فَوَصَلَت النفخة إلى بطنها، فحملت مريم بعيسىٰ في الحال، فاعتزلت بجنينها الذي حملته حَالَّةً مكاناً بعيداً عن مساكن قومها وبلدهم.

٢٣ ـ فألجأها وَجَعُ الطَّلْق وجاء بها إلى ساق النخلة الموجودة في المكان الذي أوت إليه، فقالت: يا ليتني مِتُّ قبل هذا الأمر، وكنتُ شيئاً حقيراً متروكاً لم يذكر ولم يُعرف لحقارته.

٢٤ ـ فناداها عيسى عليه السلام مِنْ تحتها: أن لا تحزني بسبب آلام الوضع، وما تتوقَّعين من اتِّهام قومك لك بالفاحشة، فعناية الله مصاحبةٌ لك في كلِّ أحوالك، قد جَعَل ربُّك تحتك نهراً صغيراً يسري فيه الماء، تشربين منه وتتطهَّرين.

٢٥ ـ وحرِّكي إليك بساق النَّخلة الصغيرة التي لا يكون فيها ثمر عادة، تُساقط عليك رُطَباً طريّاً في أوان اجْتنائه.

وفي الآية دليل على أن الأخذ بالأسباب مطلوب، ولا يناقض التوكل، فعلى المسلم أن يأخذ بالأسباب المشروعة، ويبقى اعتماده وتوكله على الله تعالى، لا على ما باشره من أسباب.

فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾

٢٦ ـ فَكُلي ـ يا مريم ـ من الرُّطَب الجنيِّ، واشربي من ماء النهر، وطيبي نفساً بالولد، وكوني سعيدةً به مسرورة، واحملي ولدك واذهبي إلى قومك، فإنْ رأيتِ من الناس أحداً، فسألك عن ولدك، فقولي: إني أَوْجَبْتُ علي نفسي للرحمن صوماً عن الطعام والشراب ومكالمة الناس، فلن أُكلِّم اليوم أحداً من الناس.

وقد أمر الله تعالى مريم بالصمت عن الكلام، كراهة مجادلة السفهاء، والآية تدلُّ على الإغضاء عن السُّفهاء، وترك مقابلتهم بالسَّفه والجدال.

٢٧ ـ فأتَتْ مريم بعيسىٰ قومها تحمله بشجاعةٍ وثبات، فلمّا دخلت على أهلها قالوا: يا مريمُ لقد فعلتِ شيئاً عجيباً مُسْتغرباً، وأمراً عظيماً منكراً غير مُتوقَّع من مثلك!!

٢٨ ـ يا أختَ الرجل الصَّالح هارون ـ وكان رجلاً صالحاً في بني إسرائيل شُبِّهت به في عفَّتها وصلاحها ـ: ما كان أبوك «عمران» رجل سَوْء يفعل القبائح والمنكرات، وما كانت أُمُّك «حنة» زانية، فمن أين لك هذا الولد؟

٢٩ ـ فلاذت بالصَّمت، وأشارت مريم إلى عيسى أنْ كلِّمهم، ولما أشارت إليه غضبوا وتعجَّبوا، وقالوا مستنكرين ومتعجِّبين: كيف نُكلِّم من لا يزال في مَهدِه طفلاً رضيعاً؟

٣٠ ـ قال عيسى عليه السلام وهو في مهده: إنِّي عبدُ الله، فأنا خَلْق من خَلْقه، وعبد كسائر عبيده، سَبَق في قضائه بأن يُؤتيني الإنجيل، وبأن يجعلني نبيّاً من جملة الأنبياء الذين اختصَّهم الله بالوحي.

٣١ ـ وجعلني عظيم الخير والنفع أيْنما توجَّهت، وأمرني بالصَّلاة والزكاة وكلَّفني فعلهما ما دمتُ حياً. وقد ظهرت بركته عليه السلام، فيما آتاه الله من علم وحكمة، وآيات بيِّنات، فقد كان يُبرىء الأكْمَهَ والأبرص بإذن الله، ويُحيي الموتى بإذن الله، ويخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله. وأمرُ الله تعالى له بالصلاة والزكاة يدلُّ على أنهما من أسس شرائع الرسالات الربَّانيَّة.

٣٢ ـ وجعلني بارّاً بوالدتي مُحسناً مُكرماً لها، ولم يَجْعلني مُتَسلِّطاً قاسياً مُتكبِّراً على الخَلْق، ولا تَعِساً ضالاً عاصياً لربي. وفي الآية بيانٌ لحقِّ الأمِّ على ولدها، وإشعارٌ بأنَّه وليدُ أمٍّ فقط، بخارقةٍ ربَّانيَّةٍ، وليس وليد أم وأب. وفي الآية أيضاً: إعلانُ براءتها وطهارتها وعفَّتها، وأنَّها كانت محل عناية الربِّ تبارك وتعالى، إذ اصْطفاها لحمْل هذا الوليد المبارك. وفي قول عيسى عليه السلام: أنَّ الله لم يجعله جبَّاراً شقياً، إعلانٌ بأنَّه ليس هو الشخص الذي يتمنَّى اليهود أن يُوجَدَ فيهم، فيقيم لهم مُلكاً على ما يشتهون، وهم لا يرضونه مُخلِّصاً رسولاً، ولكنَّهم يطلبونه ملكاً جبَّاراً، يُعطي اليهود في الأرض سلطاناً بغير هدى، وجَبَروتاً بالباطل.

٣٣ ـ والسَّلامة والأمان من كلِّ مكروه عليَّ يومَ وُلدت من طعن الشيطان، وعند الموت من الشِّرك، ويوم أُبعث حياً من أهوال يوم القيامة. وفي هذا تكريمٌ من الله له بالتحيَّة، وحفظٌ له من أعدائه الذين يريدون به كيْداً، فهو مُنْذ ميلاده حتى موته محفوفٌ بالسلام من الله، وهو محفوظ من الله بالسلام يوم يبعث فلا يمسه سوءٌ يوم القيامة.

٣٤ ـ ذلك القول الذي نطق به عيسى وهو صبيٌّ في المَهْد هو وصف عيسى، حالة كونه قولَ الحقِّ الذي فيه يشكُّ اليهود والنصارى ويختلفون.

٣٥ ـ ما كان لِلَّه تعالى اتِّخاذ الولد، ولا ينبغي له ذلك، تنزيهاً لله عن الولد، وعن كلِّ ما لا يليق بجلاله وعظيم صفاته، إذا أراد أن يُحدِثَ أمراً فلا يتعذَّر عليه اتِّخاذه على الوجه الذي أراده، إنما يقول له: «كن» فيكون.

٣٦ ـ وقال عيسى عليه السلام لقومه: وإنَّ الله ربِّي وربُّكُم فاعبدوه وحده لا شريك له، هذا الذي أخبرتكم به أنَّ الله أمرني به، هو الطريق المستقيم الذي يُؤدِّي إلى الجنَّة.

٣٧ ـ فاختلف النَّصارى فيما بينهم في أمر عيسى عليه السلام، فقائلٌ يقول: هو ابنُ الله، وقائلٌ يقول: الله، وقائلٌ يقول: ثالث ثلاثة، فهلاكٌ وعذابٌ شديد للذين كفروا من أهل الكتاب من شهود وحضور يوم عظيم الهول، وهو يوم القيامة.

٣٨ ـ ما أشدَّ سَمْعَ الكافرين وما أشدَّ بَصَرهُم، حين لا ينفعهم السَّمع والبصر، يوم يأتوننا للحساب، وفصل القضاء، وتنفيذ الجزاء، لكنِ الظالمون اليوم في هذه الحياة الدنيا في خطأ بيِّن عن الحقِّ، صمٌّ بكمٌ عُمْيٌ، إذ هم منطمسو الحواس عن إدراك الحقائق ذات الصِّلة بيوم الدين، وإن شاهدوا وعلموا كثيراً من ظواهر الحياة الدنيا. وسبب انطماس حواسهم أنَّهم ظالمون، متجاوزون لحدود الحقِّ والخير بإراداتهم الحرة.

وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾

٣٩ ـ وأنذرهم ـ يا رسول الله ويا كلَّ داعٍ إلى الله من أمته ـ عذابَ يوم النَّدامة الشديدة على ما فات، حين فُرِغ من الحساب، وأُدخل أهل الجنةِ الجنَّةَ، وأهلُ النَّار النَّارَ، وهم اليوم في هذه الدنيا في غَفْلةٍ، قد حُجبت أسماعهم عن سماع بيانات الهدى، وحُجبت أبصارهم عن رؤية آيات الله بغشاوات أهوائهم وشهواتهم، وهم لا يؤمنون مستقبلاً، بسبب استغراقهم في غفلاتهم.

٤٠ ـ إنَّا نحن نميتُ سكّانَ الأرض جميعاً، وننفرد بالملك والبقاء، وإلينا وحدنا يُرجَعُون؛ لمحاسبتهم على ما قدَّموا وأخَّروا، فَنَجزيهم بأعمالهم.

٤١ ـ وضع في ذاكرتك ـ أيُّها المُتلقِّي لآياتِ كتاب ربِّك ـ خبر إبراهيم عليه السلام المُنزَّل في هذا القرآن، فاحْفَظه وتدبَّره، واسْتذكره عند المناسبات الداعيات لتنتفع بما يشتمل عليه من إرشاداتٍ وتوجيهات؛ إنَّه كان عظيم الصِّدق في أقواله وأعماله، وكثير التَّصديق عن الله عزَّ وجل، نبياً عالي الرُّتبة والمنزلة اصطفاه اللَّهُ عزَّ وجلَّ بالوحي إليه.

٤٢ ـ وضع في ذاكرتك ـ أيها المُتلقِّي ـ حين قال إبراهيم لأبيه آزر مُتعجِّباً مُستنكراً: يا أبتِ لِمَ تعبد ما لا يسمع صوتاً، ولا يُبصر شيئاً، ولا يدفع عنك شيئاً تكرهه؟

٤٣ ـ يا أبَتِ، إنِّي قد جاءني من العلم بالله والمعرفة ما لم يأتِكَ، فاتَّبعني على ديني أُرشِدُك طريقاً مستقيماً لا اعوجاج فيه، وفيه النجاة لك من غضب الله ونقمته.

٤٤ ـ يا أبَتِ، لا تُطع الشَّيطان فيما يُزيِّن لك من عبادة الأوثان؛ إنَّ الشيطان كان للرحمٰن كثير العصيان، شديد التمرُّد على أوامره ونواهيه.

٤٥ ـ يا أبَتِ، إني أخافُ من طول إصرارك على الشِّرك، أن يمسَّك في حياتك الدنيا عذابٌ من الرحمن، فتكونَ بذلك من أولياء الشيطانَ وحزبه، الذين يمسُّهم في الدنيا قبل الآخرة عذابٌ عقابيٌّ مُعجَّل.

٤٦ ـ قال له أبوه عندما وجد نفسه مغلوباً مهزوماً فكرياً ونفسياً: أتاركٌ أنتَ آلهتي وتاركٌ عبادتها يا إبراهيم، وأنت البارُّ الحريصُ على برِّي؟ أُقسمُ لَئِن لم ترجع وتسكُت عن عَيْبك آلهتنا وشَتْمِكَ إيَّاها، لأرمينَّك بالحجارة، واجْتَنِبْني مُبْتَعِداً عنِّي دهراً طويلاً.

٤٧ ـ قال إبراهيم لأبيه: أعلن مفارقتي لك استجابةً لأمرك، فأقول: سلامٌ عليك مُكرَّماً مُبجَّلاً، سأسألُ اللَّهَ أن يرزقك التوحيد ويغفر لك، إنَّ ربِّي كان بي بَرّاً لطيفاً مُكرِماً لي، ذا عنايةٍ خاصَّة بتحقيق مطالبي والإحسان إليَّ، يستجيب لي إذا دعوتُه طالباً منه أن يغفر لك. وقد وفَّى إبراهيم عليه السلام بوعده لأبيه، فسأل ربَّه أن يغفر له، إذ كان يرجو أن يؤمن بالدين الحقِّ، وينبذ الشرك، فلمَّا تبيَّن له أن أباهُ مقيمٌ على كفره بإصرار وعناد، وأنه عدوٌّ للَّهِ تبرَّأ منه، إذ لا يجوز لمؤمن باللَّه أن يستغفر لمشرك، ولو كان ذا قُربى.

٤٨ ـ وأبتعد عنكم وأفارقُ ما تعبدون من أشياء غير الله، وأُهاجر إلى الأرض المُقدَّسة، وأعبدُ ربِّي الذي خلقني وأنْعَم عليَّ، وأدعو إلى دينه الحقِّ، وأرجو أن لا أشقى بدعاء ربِّي وعبادته كما تشقون أنتم بعبادة الأصنام.

٤٩ ـ فلمَّا ذهب مُهاجراً، وفارقهم وآلهتهم التي يعبدونها من دون الله، وَهَبْنا له بعد الهجرة إلى الشام إسحاق من زوجته «سارة»، ويعقوب بن إسحاق، وأنعمنا عليهما بالنبوَّة.

٥٠ ـ ومع ما وهبنا لهم من النُّبوَّة والرسالة، وهَبْنا لهم من رحمتنا خيراً كثيراً، وعطاءً عظيماً، وجعلنا لهم أيضاً ثناءً حَسَناً رفيعاً في أهل كلِّ دين، حتى ادَّعاهم أهل الأديان كلهم، فهم يتولَّونهم ويثنون عليهم، كما جعلنا ألسنتهم تَجْهَرُ بالحقِّ والصِّدق في الدعوة إلى الله عزَّ وجل.

٥١ ـ وضع في ذاكرتك ـ أيُّها المتلقِّي لآيات كتاب ربِّك ـ في هذا القرآن قصَّة نبيِّ الله ورسوله موسى ـ عليه السلام ـ إنه كان مُختاراً اختاره الله تعالى للنبوَّة، وكان مُخلِصاً لله في أعماله، يبتغي مرضاة ربِّه، وكان رسولاً مُرسلاً من الله لتبليغ رسالات ربِّه، نبياً من أُولي العزم من الرسل.

وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ مِن
رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ
صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ
وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ
إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ
أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ
وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ
آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴿٥٨﴾ ۞ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ
خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا
﴿٥٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ
وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا ﴿٦٠﴾ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُ
بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا
وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ
عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ
أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾

سجدة

٥٢ - وناديْنا موسى حين أقْبل من «مَدْيَن» ورأى النار، من ناحيةِ جبل الطُّور اليمني من موسى، وقرَّبناه إلى جهة النداء، وشرَّفناه بإسماعه كلامنا سراً.

٥٣ - وأجَبْنا دعوته، وَوَهبنا لموسى من رحمتنا أخاه هارون نبياً، يُؤيِّده ويُؤازره.

٥٤ - وضع في ذاكرتك - أيُّها المُتلقي - خبر إسماعيل بن إبراهيم، المنزَّل في القرآن، واحفظه وتدبَّره، واستذكره عند المناسبات الداعيات، إنه كان صادقَ الوعد، لم يَعِد شيئاً إلا وفَّى به، وكان رسولاً حاملاً لوظائف رسالة ربانيَّة، نبيّاً مُخْبراً عن الله تعالى.

٥٥ - وكان يأمر أهله الأقربين، قبل أن يأمر غيرهم بالصَّلاة والزكاة؛ ليجعلهم قدوةً لِمَنْ سواهم، وكان قائماً لله بطاعته، فائزاً في كلِّ طاعة بأعلى الدرجات.

٥٦ - وضع في ذاكرتك - أيُّها المُتلقِّي لكلامنا - خبر إدريس عليه السلام، المُنزَّل في القرآن، إنَّه كان عظيم الصِّدق في أقواله وأعماله، كثير التصديق عن الله عزَّ وجل، نبيَّاً يُوحىٰ إليه.

٥٧ - ورفعناه بعلوِّ المرتبة في الدنيا، ورفعه المَلكُ الذي أمره الله برفعه إلى السماء الرابعة.

٥٨ - أولئك المذكورون في هذه السُّورة بدءاً من زكريا، وحتى إدريس قد أنعم الله عليهم بالنبوَّة وغيرها من النِّعم العظيمة الخاصَّة، من بعض النبيِّين مِنْ ذُرِّيَّة آدم، وهم: إدريسُ ونوحٌ، ومن ذُرِّيَّة مَنْ حملنا مع نوح في السفينة، وهو: إبراهيم، ومن ذُرِّيَّة إبراهيم، وهم: إسحاقُ وإسماعيل ويعقوب، ومن ذُرِّيَّة يعقوب، وهم: موسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى صلوات الله وسلامه عليهم، وممَّن هدَينا إلى الإسلام، واصْطَفَيْنا واخترنا للرسالة والوحي، إذا تُتْلى عليهم آياتُ الرَّحمن هَوَوْا بدون توقُّف ساجدين لله عابدين خاضعين، وباكين خوفاً وخشوعاً، وتعظيماً وتمجيداً.

٥٩ - فَخَلَفَ من بعد النَّبيِّين المذكورين قَوْمُ سَوْء من ذُرِّيَّاتهم، تَركوا الصَّلاة المفروضة، وعَصَوا الله في أوامره ونواهيه، وآثروا شهواتِ أنفسهم على طاعة الله تعالى، فَسَوْف يستقبلون ويواجهون في يوم الدين جزاء ضلالهم وفسادهم، وهو وادٍ في جهنَّم.

٦٠ - لكنْ مَنْ تحقَّقت فيه ثلاث صفات: **الصفة الأولى**: تاب من ترك الصَّلوات وارتكاب المعاصي، **والصفة الثانية**: آمن بربِّه إيماناً صحيحاً صادقاً، وبكلِّ ما جاء عن الله سبحانه على لسان رسله الصادقين، **والصفة الثالثة**: عمل عملاً صالحاً يُعبِّر فيه عن صدق إيمانه، فأولئك الفضلاء، مرتفعو المنزلة، يقبل الله توبتهم، ويدخلون الجنة مع المؤمنين، ولا ينقصون شيئاً من أجورهم بسبب ما كان منهم من كفر وسيئات وكبائر قَبْلَ توبتهم وإيمانهم الصادق الصحيح، وأعمالهم الصالحة المقبولة.

٦١ - جنَّاتِ ثباتٍ واستقرار دائم ذات مراتب ودرجات التي وَعَدَ الرحمٰن بها عباده فيما أنزل من كتبه، حالة كونها موجودةً في عوالم الغيب عن الموعودين بها، فآمنوا بها وهي غائبةٌ عنهم وهم غائبون عنها، إنَّ وعد الله بالجنة كان آتياً لا محالة.

٦٢ - لا يسمع أهلُ الجنَّةِ في الجنَّةِ فضولاً من الكلام ولا باطلاً وفُحشاً، لكن يسمعون فيها سلاماً يُسَلِّم الله عليهم، والملائكةُ، ويُسَلِّم بعضُهُم على بعض، ولهم رزقُهم في الجنَّة من الغذاء والقوت في وقتَيْن مُتميزين: وقت مُشابه لأوَّل النهار حتى طلوع الشمس، ووقت آخر مناظر له من نصف النهار الثاني إلى غروب الشمس، إذ لا ليل ولا نهار، بل هم في نور وظلٍّ دائم.

٦٣ - تلك الجنَّة الموصوفة بتلك الصفات، هي التي نَهَبُ بفضلٍ منا المُتَّقين من عبادنا، الذين ارتقوا الدرجات العاليات في مرتبة التقوى؛ إذ ورثوا الحِصَص التي كانت مُعَدَّة في الجنة لسائر العبَاد لو آمنوا وعملوا صالحاً، فلما كفر الأكثرون، واستحقُّوا دخول النار، أخذ المتقون حِصَصَهُم، ويأخذ أهل الجنة من هذا الميراثِ العظيم كلٌّ منهم بحَسَب مرتبته ودرجته.

٦٤ - قل - يا جبريل - لمحمد ﷺ: وما نَتَنزَّل - نحن الملائكة - من مواقعنا من السماء لأمرٍ من الأمور إلا بأمر ربِّك لنا، لِلَّهِ جلَّ جلاله علمُ ما بين أيدينا ممَّا يستقبل من أمر الآخرة، وما خلفنا ممَّا مَضَى من الدنيا، وما بين الدنيا والآخرة، فهو المُدبِّر لنا في كلِّ الأوقات؛ وما نَسِيَكَ ربُّك - يا رسول الله - وما تركَك.

رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا ﴿٦٥﴾ وَيَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوۡفَ أُخۡرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذۡكُرُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ يَكُ شَيۡـٔٗا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحۡشُرَنَّهُمۡ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحۡضِرَنَّهُمۡ حَوۡلَ جَهَنَّمَ جِثِيّٗا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمۡ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ عِتِيّٗا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحۡنُ أَعۡلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمۡ أَوۡلَىٰ بِهَا صِلِيّٗا ﴿٧٠﴾ وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَاۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتۡمٗا مَّقۡضِيّٗا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيّٗا ﴿٧٢﴾ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ خَيۡرٞ مَّقَامٗا وَأَحۡسَنُ نَدِيّٗا ﴿٧٣﴾ وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ هُمۡ أَحۡسَنُ أَثَٰثٗا وَرِءۡيٗا ﴿٧٤﴾ قُلۡ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَدًّاۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوۡاْ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلۡعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعۡلَمُونَ مَنۡ هُوَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضۡعَفُ جُندٗا ﴿٧٥﴾ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ هُدٗىۗ وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٞ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾

٦٥ ـ ربُّك ربُّ السَّموات والأرض وما بينهما، يُدَبِّرُ أحوالهما كلها، فاثبت على عبادته وحده، واسْتَسْلم لمقاديره ومَجاري حكمته، وكلِّف نفسك غاية ما تستطيع من صبر بالغاً لعبادته عبادةً من درجة الكمال التي تليق بك، هل تعلم له شبيهاً أو نظيراً يستحقُّ العبادة لربوبيَّته وإلهيَّته، وكمال تنزُّهه عن النقائص، واتِّصافه بكمال الصِّفات؟!

٦٦ ـ ويقول الإنسانُ الكافر المنكر للبعث استهزاءً وتكذيباً: أإذا ما مِتُّ لَسَوْفَ أُخرجُ من قبري حيّاً حياةً أخرى غير الحياة الأولى؟!

٦٧ ـ ألا يعلم الإنسان أنَّ الله الذي خلقه قديرٌ على خَلْق ما يريد خلقه؟! أو لا يتذكَّر ويتفكَّر منكر البعث في بَدء خلقه، فيستدلُّ به على الإعادة ثانياً. فالخالق الذي خلقه بعد أن لم يكن شيئاً، قادرٌ على أن يبعثه إلى الحياة بعد أن يميته ويُفنيه.

٦٨ ـ فَوَربِّك ـ يا رسول الله ـ لَنَجْمَعَنَّ المشركين المنكرين للبعث مع الشَّياطين، وبعد زمنٍ مُتراخٍ لنسوقنَّهُم قهراً حَوْل أبواب جهنَّم ذليلين خاسئين باركين على رُكبهم؛ لما دَهَمَهم من شدَّة الأمور التي لا يطيقون معها القيام على أرجلهم.

٦٩ ـ وبعد زمنٍ مُتراخٍ عن إحضارهم حول أبواب جهنم، حالة كونهم جاثين على رُكبهم، لنجْذبَنَّ بشدَّةٍ وعنفٍ من كلِّ طائفة تشايعت على الكفر والباطل مَنْ كان منهم في الحياة الدنيا أشدَّ كفراً وأكبرَ جرماً من قادة أحزاب الكفر، وأياديهم المنفِّذة لجرائمهم، فنقدِّمه في إدخال النار، ومُقاساة شدَّة العذاب.

٧٠ ـ وبعد زمنٍ مُتراخٍ يمضي على نَزْع أئمة الكفر، ووضعهم على مقربة من أبواب جهنَّم، لنحنُ أعلم بالأشد كفراً، الذين هم أَوْلى بدخول النار، ومقاساة حرِّها.

٧١ ـ وما منكم ـ أيُّها الناس ـ أحدٌ إلا واردُ جهنم، دخولاً فيها، أو عبوراً على الصِّراط المنصوب على متن جهنم، فيمرُّ عليه البَرُّ والفاجر، كلٌّ حسب عمله، كان هذا الورود على جهنّم قضاءً لازماً مُبرَماً قَضَاهُ الله عليكم وأَوْجَبَه.

٧٢ ـ وبعد مدة مُتراخية نُنَجِّي من الاستمرار في دار العذاب الذين اتَّقوا الشِّرك، ونترك الظالمين المتجاوزين الحدَّ الذين لم يوجد في قلوبهم مثقال ذرَّة من إيمان في النَّار، باركين على ركبهم أذلاء مُهانين.

٧٣ ـ وإذا تُتْلى عليهم آياتٌ من القرآن حالة كونها دلائلَ واضحات، قال كفار قريش للَّذين آمنوا من فقراء أصحاب رسول الله ﷺ: أيُّ فريقَيْنا خيرٌ إقامةً ومسكناً، وأحسن مجلساً ومجتمعاً؟ يفتخرون بتفوُّقهم المادي على فريق المؤمنين، ويعتبرون هذا بمثابة دليل على صحة طريقتهم.

٧٤ ـ وعدداً كثيراً أهلكنا قبل كفار مكة إهلاكَ تعذيب وإبادة جماعية من أهل زمانٍ واحد؛ هم أَحْسَنُ منهم مَتَاعاً وأموالاً، وأجمل منظراً وأعظم مكانة اجتماعية؟

٧٥ ـ قل ـ يا رسول الله ـ لكفار قومك: مَنْ كان مُنْغمساً في الضَّلالة، فلْيَدَعْهُ ربُّه في طغيانه ولْيُمْهِلْه في كفره، ولْيُطل له في عمره؛ ليزداد طغياناً وضلالاً، حتى إذا رَأَوا مُقدِّمات ما يُوعَدونه من جزاء: إما العذاب المُعَجَّل احتمالاً في الحياة الدنيا قبل موتهم، وإما العذاب المؤجَّل المقطوع به إلى ما بعد ساعة موتهم، فيلقون عذاب القبر، وإلى ما بعد ساعة بعثهم إلى الحياة الأخرى، فيلقون العذاب الأكبر يوم الدين، فسيعلمون عند رؤية العذاب المُعجَّل في الدنيا، والعذاب المؤجَّل لهم بعد الموت، مَنْ هو شرٌّ منزلاً وأقلُّ ناصراً؟ أهم أم المؤمنون؟

٧٦ ـ وفي مقابل إمهال الله للكافرين، وإمدادهم بوسائل مُتعهم ورفاهيَّتهم من زينة الحياة الدنيا، يزيدُ الله الذين اهتدَوْا إيماناً وإيقاناً على يقينهم، فيغفر ذنوبهم، ويضاعف أجورهم. والأعمالُ الصَّالحة والأذكار التي تبقى لصاحبها خيرٌ من كلِّ ما في الدنيا عند ربِّك ثواباً، وخيرٌ عاقبةً ومرجعاً.

أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَـٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَـٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَـٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَـٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَـٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾

٧٧ ـ أَنَظرتَ نظراً تفكُّرياً ـ يا أيُّها المُخاطَب العاقل الرشيد ـ فرأيت رؤيةً علميةً، الذي كفر بآياتنا الكونيَّة والتنزيليَّة، وهو «العاص بن وائل» وأمثاله، وقال مُستهزئاً بنبأ البعث ومُقسماً: لأُعطَيَنَّ في الآخرة ـ على فرض البعث ـ أموالاً وأولاداً كما أُوتيتُ في هذه الحياة الدنيا.

٧٨ ـ أعلمَ الغيبَ المُستقبليَّ الذي سيكون يومَ الدين، حتى يعلم أهو في الجنة أم لا؟ بل أجعل عند ربِّه الرحمن عهداً أن يُدخله الجنة في الآخرة، وأن يكون له مالٌ وولد في الدنيا؟

٧٩ ـ فلْيرتدع عن افتراءاته واستهزاءاته، سنحفظ عليه ما يقوله، فنُجازيه به في الآخرة، ونزيده عذاباً فوق العذاب.

٨٠ ـ ونرثُ ما عنده من المال والولد بإهلاكنا إيَّاه، ويأتينا يوم القيامة فرداً بلا مال ولا ولد.

٨١ ـ وجعل مُشركو قريش بصُنع مُتكلِّف منهم آلهة معبودة بغير حق، هي بطبيعتها من دون الله المتَّصف بالفوقيَّة المطلقة؛ ليكونوا لهم قوةً غالبةً تنصرهم على أعدائهم.

٨٢ ـ لن تكون آلهتُهُم التي اتَّخذوها من دون الله قوةً غالبةً لهم، وحين ينصر الله أولياءَهُ المؤمنين به، ويُذلُّ أعداءَهم المشركين، ويجعلُهُم هم المغلوبين المنهزمين في المعارك القتاليَّة، سيكفر المشركون بعبادة آلهتهم، وسيكونون عليهم ضدّاً، فيُحطِّمون الأوثان التي كانوا يعبدونها، ويُشاركون المؤمنين في معاداتها وتكسيرها.

٨٣ ـ ألم تعلم ـ أيها المُتلقِّي لخطابنا ـ علماً واضحاً جليّاً مشابهاً للرؤية البصريّة، أنَّا أرسلنا الشياطينَ مُسلَّطين على الكافرين تُغريهم، وتُهيِّجهم، وتؤجِّج نار أفئدتهم، لمقاومة دعوة الحقّ، واضطهاد أنصارها.

٨٤ ـ فلا تَعجَل ـ يا رسول الله ـ بالدعاء عليهم، للإسراع في إهلاكهم، وبتدبير الخطط لمقاومتهم وقمْع شرورهم، إنَّما نُحصي لهم أعمارهم وأعمالهم في الدنيا إحصاءً دقيقاً، حتى إذا انتهى وقت الإمهال، وحلَّ الأجل الذي أُجِّل لعذابهم، أنزلنا بهم العقاب الذي يستحقُّونه، وتقتضيه الحكمة.

٨٥، ٨٦ ـ اذكر لهم ـ يا رسول الله ـ اليومَ الذي نجمع فيه المتَّقين على اختلاف درجاتهم مَسُوقينَ إلى الرحمٰن جماعات ركباناً مُعزَّزين مُكرَّمين، ونسوقُ الكافرين سَوْق إهانةٍ وإذلال إلى جهنَّم مشاةً عِطاشاً أشقياء.

٨٧ ـ لا يملك أحدٌ من فريقَي المتَّقين والمجرمين أن يشفعَ له شافعٌ، إلاَّ مَنْ كان في الحياة الدنيا ممَّن مات على إيمان صحيح مقبول عند الله، فاتَّخذ بما كسب في حياته الدنيا من عمل صالح عهداً عند الله بأن يكون ممَّن يأذن الله للشفعاء بأن يشفعوا له.

٨٨، ٨٩ ـ وقال اليهود والنَّصارى ومَنْ زعم أنَّ الملائكة بنات الله من العرب: جعل الرحمٰن لنفسه ولداً مُشتقّاً من ذاته، أو بالتبنّي له، وهو خَلْقٌ من خلقه!! لقد جئتم ـ أيُّها القائلون بهذه المقالة الشنيعة ـ شيئاً فظيعاً منكراً.

٩٠، ٩١ ـ تَقْرُبُ السَّموات يَتَشقَّقْنَ من عِظَم هذا القول قِطَعاً، وتَتَصدَّع الأرض، وتسقط الجبال سقوطاً وتنطبق عليهم؛ من أجل أن نَسَبوا للرحمنِ ولداً، تعالى اللَّهُ عن ذلك علواً كبيراً.

٩٢ ـ وما يليقُ بالرحمن سبحانه اتِّخاد الولد؛ لأنَّ اتِّخاذ الولد يكون لأغراض لا تصحُّ لله تعالى، من استعانه وسرور به، وذكر جميل بعده، وكلُّ ذلك لا يليق بالله تعالى.

٩٣ ـ ما كلُّ مَنْ في السموات من الملائكة، ومَنْ في الأرض من الإنس والجن، إلا سوف يأتي الرحمٰن يوم القيامة عبداً ذليلاً خاضعاً.

٩٤ ـ لقد عدَّ أنفاسهم وأيامهم وآثارهم عدّاً تفصيلياً شاملاً، فلا يخفى عليه شيءٌ من أمورهم.

٩٥ ـ وكلُّ واحد من عباده سوف يأتي ربَّه يومَ القيامة وحيداً، ليس معه من أحوال الدنيا شيء.

إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿٩٨﴾

سورة طه

آياتها ١٣٥ — ترتيبها ٢٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

طه ﴿١﴾ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَٰوَٰتِ الْعُلَى ﴿٤﴾ الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ ﴿٦﴾ وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوٓا إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّيٓ أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾

٩٦ ـ إنَّ الذين آمنوا إيماناً صحيحاً، وعملوا الصَّالحات الدالَّة على صدق الإيمان الإراديِّ الاعتقاديِّ، سَيَجْعَلُ لهم الرحمنُ مَودَّةً ومحبَّةً ثابتةً في القلوب؛ لإيمانهم وعملهم الصالح، يُحبُّهم اللَّهُ تعالى، ويُحَبِّبُهُم إلى عباده المؤمنين.

٩٧ ـ فإنَّما سَهَّلنا القرآنَ بلسانكَ العربيِّ المبين ـ يا رسول الله ـ للحفظ والذكر والفهم؛ لِتُبشِّرَ به المتَّقين على اختلاف درجاتهم ومراتبهم، وتُنذِرَ به قوماً شديدي المكابرة والعناد والخصومة والجدال بالباطل.

٩٨ ـ وعدداً كثيراً أهلكنا من الأُمم الماضية قبل قومك ـ يا رسول الله ـ إهلاكاً شاملاً؛ بسبب إصرارهم على الكفر وتكذيبهم الرسل، هل ترى منهم أحداً، أو تسمع لهم صوتاً خفياً؟ فكذلك الكفار من قومك، نُهلكهم كما أهلكنا السَّابقين من قبلهم.

سورة طه

١ ـ ﴿طه﴾ سَبَق الكلام على الحروف المقطَّعة في أوَّل سورة البقرة.

٢ ـ ما أنزلنا عليك القرآن ـ يا رسول الله ـ لِتَتعَنَّى وتَتْعَب من فرط تأسُّفك على كفر قومك به.

٣ ـ لكن أنْزلناه لتقوم بتبليغه، ومتابعة تذكير من تجد لديه استعداداً لأن يخشى الله ويتأثَّر بالإنذار، فليست وظيفتك تحويلهم من الكفر إلى الإيمان، حتى تُشقي نفسك في السَّعي وراءهم، والحسرة عليهم.

٤ ـ هذا القرآنُ نُزِّل تنزيلاً بأناةٍ وتمهُّل من الله الذي خَلَقَ الأرضَ والسَّمواتِ المرتفعة العظيمة. فالذي خلق الأرض والسموات العُلا، هو الذي أنزل القرآن على رسوله محمد ﷺ، فلا بدَّ أن تكون عظمة القرآن مُتناسبةً مع عَظَمةِ مُنْزِلِه، خالق الأرض بكلِّ ما فيها من منافع وعجائب، وخالق السموات السبع، ويُلحق بها الكرسيُّ والعرش.

٥ ـ الرَّحمَٰنُ على العرش استوىٰ استواءً يليقُ بجلاله وعظمته. والعرش كائن عظيم فوق السموات السبع، وفوق الكرسي.

٦ ـ لله الرحمٰن مِلْك كلِّ ما في السموات وما في الأرض، وما بين السماء والأرض من أشياء وأحياء، وما تحتَ التراب النَّدي، مما هو داخل الأرض من كنوز إنباتيَّة، بسبب النَّدى والماء الذي يَبُلُّ التراب فيكون صالحاً لظهور النبات ونموِّه، وكل ما في الأرض من كنوز أخرى، كالمعادن والنفط وغير ذلك مما أودعه الله عزَّ وجلّ في باطن الأرض، وإذا كان كلُّ ما في السموات والأرض، وما بينهما وما في باطن الأرض، داخلاً في مِلْك الله عزَّ وجلَّ، فلا بدَّ أن يكون خاضعاً لسلطان مُلكه في كلِّ التصاريف والتدبيرات.

٧ ـ وإنْ تُعلن ـ يا رسول الله ـ ببعض دعائك، من شدَّة ما أصابك من ضيق، بسبب عدم استجابة كُبراء قومك لك، فإنَّه يعلمُ ما تُحدِّث به غيرك، وتستكتمه إيَّاه، وما تُحدِّث به نفسك دون أن تنطق به، كالخواطر وأحاديث النفس.

٨ ـ الله الذي لا معبودَ بحقٍّ إلا هو جلَّ جلاله، له وحده الأسماء، التي فُضِّلت على سائر الأسماء، فادعوه بها.

٩ ـ وقد أتاك ـ يا رسول الله ـ قصَّة موسى عليه السلام؛ لتتأسَّى به في تحمُّل أعباء النبوَّة وتكاليف الرسالة، والصَّبر على مقاساة الشدائد.

١٠ ـ حين أبصر في ليلةٍ شاتية شديدة البرد، وهو قادمٌ من «مَدْيَن» إلى مصر ناراً من بعيد عن يسار الطريق من جانب الطُّور، فقال لامرأته: أقيموا هنا، وانتظروا وتمهَّلوا إني أبْصَرت ناراً، أتوقَّع دون جزم أن آتيكم منها بشعلة من نار في طَرَف عود، أو أجد على المشرفين على إيقاد النار هادياً يدلُّني على الطريق الموصل إلى مصر.

١١، ١٢ ـ فحين أتى موسى إلى قُرب موقع النَّار، ناداهُ اللَّهُ تعالى: يا موسىٰ، إنِّي أنا الذي أُكلِّمك من وراء حجاب خالقُك ومُمِدُّك بعطاءات ربوبيَّتي دائماً، فاخْلَع ما تلْبَسُ بقدَمَيْك، ، وقفْ موقفَ الخضوع والتواضع والأدب الجمّ؛ إنَّك بالوادي المُطَهَّر من الأرجاس المادية والمعنويَّة «طوى» المتَّصل بحبل «الطُّور»، وألْصق قدميك حافيتَيْن بترابه ورماله، فَخَلَع موسى نعليه، وألقاهما من وراء الوادي استعداداً لمناجاة ربِّه.

وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ﴿١٣﴾ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴿١٤﴾ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَارُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ ﴿٣٧﴾

١٣ - وأنا اصْطَفَيتُكَ - يا موسى - برسالاتي وبكلامي، لقد جاءك أمرٌ عظيم، فتأهَّب له، واسمع بإصغاءٍ كامل، ووعيٍ تامٍّ لما يُوحىٰ إليك مِنِّي.

١٤ - اعلم بتأكيد شديد - يا موسى - إنَّني أنا اللَّهُ الأزليُّ الأبديُّ، خالق الأكوان والمُتصرِّف فيها، لا معبود بحقٍ في الوجود كلِّه إلا أنا، فاعبدني، ولا تعبد غيري، وَأَقم الصَّلاةَ بإتمام حقوقها، والمواظبة على أدائها في أوقاتها؛ لتذكرني فيها.

١٥ - إنَّ الساعة التي يُبعث فيها الناس للحياة الأخرى آتيةٌ لا محالة، أقرُب أن أزيل خفاءها، وأكشف غطاءها، وأظهر علاماتها وأشراطها الكبرى، فكونوا على حذرٍ منها كل وقت؛ إنها آتية لتُجزىٰ يوم الدين كل نفس موضوعة للاختبار في الحياة الدنيا بما تعمل من خير أو شر على تَتَابع الزمن في هذه الحياة الدنيا.

١٦ - فلا يَصرفَنَّك - يا موسى - عن السَّعي للظفر بأعظم الجزاء في جنَّات النعيم يوم الدين بعد قيام الساعة، مَنْ لا يُؤمِنُ بالجزاء الربَّاني، واتَّبع ما تميل إليه نفسه، وخالف أمر الله، فَتَسْقُطَ في أودية الآثام والجرائم، إن أنت انصرفت عن ذكرها ومراقبتها والتأهُّب لها.

١٧ - وما تلك بيدك اليمنى - يا موسى -؟

١٨ - قال موسى عليه السلام: هي عَصَايَ أعتمدُ عليها إذا مشيت، وإذا عييت، وأهزُّ بها الشجر؛ ليسقط ورقها على غنمي، فتأكل منه، ولي فيها حاجاتٌ ومنافعُ أخرى. والذي دعا موسى عليه السلام إلى بسْط الكلام، وإطالة الحديث، رغبةُ التشرُّف والاستئناس والتلذُّذ بطول المحادثة مع الربِّ عزَّ وجلّ.

١٩، ٢٠ - قال الله تعالى لموسى عليه السلام: أَلْقِ عَصَاك. فطرحها موسى على وَجْهِ الأرض، ثمَّ حانت منه نظرة، فإذا هي حيَّةٌ من أعظم ما تكون من الحيَّات، تمشي بسرعة على بطنها، فولَّى موسىٰ مُدبراً وهرب.

٢١ - قال الله تعالى لموسى: خُذ الحيَّة بيمينك كما لو كانت عَصَا، ولا تَخف، سنُرجعها بعد أن تُمسكَ بها وهي حيَّة إلى هيئتها السابقة التي كانت عليها؛ عَصَا لا حياة فيها ولا حَرَكة.

٢٢ - واضْمُمْ يَدَكَ اليمنى إلى إبْطك وأخرجها، تخرج بيضاء حسناء نيِّرةً مُشرقةً من غير بَرَص، حالة كون هذه التحويلة في اليد دلالةً أخرى على صِدْقك، غيرَ آيَةِ العصا وتحويلها إلى حيَّةٍ تسعى.

٢٣ - فعلنا ذلك؛ لكي نُرِيَك - يا موسى - بعض آياتنا الكبرى، الدالَّة على عظيم قُدرتنا، وصحَّة نُبُوَّتِك.

٢٤ - اذْهَب - يا موسى - إلى فرعون إنَّه جاوز الحدَّ في العصيان والتمرُّد على ربِّه حتى ادَّعى الربوبيَّة.

٢٥ - ٣٥ - قال موسى: ربِّ وَسِّع لي صَدري؛ ليكون قادراً على تحمُّل المزعجات والمكاره، بصبر وحِلْم، دون اندفاع بغضب سريع، وسَهِّل لي ما أمرتني به من تبليغ الرسالة إلى فرعون، واحْلُل عقدةً تحبس من نطقي، فإذا حَلَلْتها بقُدرتك وحكمتك، صرتُ قادراً على إفهام الذين أبلِّغهم رسالاتك دقائق المعاني التي أقيم بها عليهم البراهين والحُجَج، واجعل لي مُعيناً من أهلي، هارون أخي، قوِّ به ظهري، واجْعله شريكي في أمر النبوَّة وتبليغ الرسالة التي كلَّفتني بها، من أجل أن نَتساعد ونتساند على تنزيهك عمَّا لا يليق بجلالك وعظيم صفاتك، تنزيهاً كثيراً، ونذكرك ونُثني عليك بما أَوْلَيْتَنَا من جميل نعمك، ذكراً كثيراً، إنَّك كنت وما زلت ولن تزال بنا بصيراً.

٣٦ - قال الله تعالى: قد أُعطيتَ جميعَ ما سألته - يا موسىٰ -.

٣٧ - ونؤكِّد لك - يا موسى - تأكيداً بليغاً أننا أنعمنا عليك قبل هذه النعمة الكبرى بمكالمتك، نعمةً عظيمة أخرى بحمايتك من الذَّبح حين كنت رضيعاً.

إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾

٣٨، ٣٩ ـ وضَع في ذاكرتك ـ يا موسى ـ أننا ألهمنا أمَّك: أن ضَعي ابْنك موسىٰ بعد ولادته في الصندوق الذي تُعدِّينَهُ إعداداً حسناً ليطفوَ على الماء دون أن يتعرَّض للغرق، فألقيه واطرحيه بسرعة في نهر النِّيل، فسوفَ يُلقيه النِّيل على شاطىء البحر، فيأخذُهُ فرعون عَدوِّي وعدوٌّ لموسى، وأنزلت بإلقاءٍ سريع عليك محبَّةً مني، فأحبَبْتُك وَحَبَّبْتُك إلى الخَلْق، وَلِتُربَّى ويُحسَنَ إليك، وأنا مُراعيك ومراقبك بمرأى مني.

٤٠ ـ وَضَع في ذاكرتك الأحداث التي كانت حين تمشي أختُك مُتعَرِّفةً خبرك، ولما علمت أنك وَصَلت إلى القصر الفرعونيّ، جعلت تقترب إلى الطرق المؤدِّية إلى القصر، فتقول لِمَن يطلبون لك مرضعة: هل أدلُّكم على امرأة تُرضعه وتضمُّه إليها؟ فَحضَرتْ أُمُّك إلى القصر، لِيَرَوْا هل تقبل ثديها أم تَرفضه، كما رَفَضْت أثداء المرضعات الأخريات، فألْقَمَتْكَ ثديها، فقَبِلْتَهُ، وأخذتَ تَرضع منه اللبن، فَرَدَدناكَ إلى أُمِّكَ، وقدّرنا أن تكون سالماً من الآفات والعاهات من أجل أن تكون راضيةً مسرورة بلقائك وإرضاعك، ولكيلا تحزن من أجلك إنْ أصابك مكروه بعد ذلك. وقتلتَ قِبْطياً، فَخلّصناك من الكرب الذي نزل بك بسبب خوفك من عقوبة القتل الذي ائْتمر به ملأ فرعون، عقوبةً لك على قتلك القبطي، واختبرناك اختباراً شديداً صعباً، فيما مضى من عمرك بالمكاره والشهوات فنجحتَ في اختبارك، إذ كنت صبُوراً محافظاً على حدود الله تقياً، فكنتَ أهلاً لتحمُّل أعباء الرسالة، التي نكلِّفك فيها أموراً ثقيلة جداً، تتطلَّب رجلاً قوياً من أولي العزم، فأوْصلناك ـ يا موسى ـ بألطافنا الخفيَّة إلى «مَدْيَن»، وهيَّأنا لك فيها رزقاً وزوجةً صالحةً، فمكثتَ آمناً مطمئناً مرزوقاً أكثر من عشر سنين فيهم، ثمَّ جئتَ على وَفْق الوقت الذي قَدَّرتُ أن تجيء فيه لتكليمك واستنبائك بلا تقدُّم ولا تأخُّر عنه.

٤١ ـ واخْتَرْتُكَ ـ يا موسى ـ واصطَفَيْتُك لوحيي وتبليغ رسالتي، وإقامة حُجَّتي.

٤٢ ـ اذهب أنت ـ يا موسى ـ وأخوكَ هارون مَصْحُوبَيْن بآياتي البيانيَّة والإعجازيَّة والجزائيَّة، الدالَّة على ربوبيَّتي وإلهيَّتي، وكمال قدرتي، ولا تضْعُفَا، ولا تُقصِّرا في الدعوة إلى الإيمان بي، ولاَ تَفْتُرا أيضاً في ذكري في أنفسكما وقلوبكما وألسنتكما، وفي عبادتكما لي؛ لتكونا على صلةٍ دائمة بي.

٤٣ ـ اذهبا معاً إلى فرعونَ؛ إنّه قد جاوز الحدَّ في الكفر والظلم والفساد.

٤٤ ـ فَدَارِيَاهُ وارفُقا به، ولا تُعنِّفاه في قولكما؛ حالة كونكما راجِيَيْن وطامِعَيْن أنْ يتأثَّر بدعوَتِكما، أو أنْ يخاف من عقاب الله وعذابه؛ إذ لو ذهبتما إليه وأنتما يائسان من استجابته، لم تندفع أنفسكما للقيام بمهمة رسالتكما على الوجْه الأمثل المطلوب منكما.

٤٥ ـ قال موسى وهارون: ربَّنا إنَّنا نخافُ أن يَعْجَلَ علينا بطردنا وعقوبتنا، ولا يصبر إلى إتمام الدعوة وإظهار المعجزة، أو أن يُجاوز الحدَّ في الإساءة والظلم حتى القتل.

٤٦ ـ قال الله تعالى لموسى وهارون مُطمئناً لهما: لا تخافا؛ إنَّني مَعَكما أسمعُ دعاءَكُما، وأرى ما يُراد بكما، لست بغافلٍ عنكما، وسأحميكما وأحفظكما إنْ أراد فرعون بكما سوءاً.

٤٧ ـ فاذهبا إلى فرعون وقولا له ست مقولات: **الأولى:** إنَّا أرسلنا إليك ربُّك، **الثانية:** فأرسل معنا بني إسرائيل، **الثالثة:** وخلِّ عنهم وأطلقهم من أعمالك الشّاقَّة، وارفع عنهم عذابَ التسخير والإذلال والاستعباد، **الرابعة:** قد جئْناك بمعجزةٍ وبُرهانٍ من ربِّك يدلُّ على صدقنا في دعوتنا. **المقولة الخامسة:** والأمنُ والسَّلامةُ من عذاب الله تعالى لِمَنْ أسلم واتَّبع هُداه؛ إذ يُسلِّمه الله في الدنيا من عذابه، ويُسلِّمه في الآخرة بدخوله جنته دار السلام.

٤٨ ـ **المقولة السادسة:** إنا قد أُوحيَ إلينا أنَّ عذابَ الله مُنْصَبٌّ على مَنْ كذَّب بما جئنا به، وأدار ظهره، ولم يتَّبع هدى الله.

٤٩ ـ قال فرعون لهما: فَمَنْ ربُّكما الذي أرسلكما يا موسى؟

٥٠ ـ قال له موسى: ربُّنا الذي أعطى كلَّ شيءٍ مُخطَّطَ صفاته الذاتيّة من ماديَّات ومعنويَّات ونفسيَّات، فهي كامنةٌ مُستقرَّة في أعماقه، ثم هدى كلَّ عنصر صغير أو كبير للنماء والتحرُّك على وَفق ما قدَّر الله له في خصائصه.

٥١ ـ قال فرعون: فما حال القرون الماضية والأمم الخالية، التي ماتت وتفتَّتت ذرَّات أجسادها في تراب الأرض؟

قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾
ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ
مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟
وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِي ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ۞ مِنْهَا
خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ وَلَقَدْ
أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا
مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ
فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا
سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى
﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم
مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ
وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟
ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم
مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا۟
كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾

٥٢ - قال موسى لفرعون: إنَّ علم القرون الأولى من البشر، وما يتعلَّق بإنشائها الأول، وما يتعلَّق بذواتها وصفاتها، وما قدَّمت من أعمال، مُسَجَّل مُدَوَّن عند ربّي في كتابٍ لا يُغادر صغيرةً ولا كبيرةً، أحاط علمه بكلِّ ذلك، لا يتعرَّض علمه للضلال عن الواقع والبُعد عنه، ولا يتعرَّض لنسيان المعلومات كما تتعرَّض الخلائق لذلك، وهو محيطٌ بكلِّ شيءٍ علماً.

٥٣ - وربُّكم هو الذي جَعَل لكم الأرض بمثابة السرير المُمَهَّد المبسوط، صالحةً لتجدوا عليها راحتكم إقامةً، وجلوساً، واضطجاعاً، ومناماً، وجعل لكم في الأرض طرقاً صالحةً لأن تسلكوها في تنقُّلاتكم وأسفاركم، وبهذه السُّبل تُحقِّقون منافع كثيرةً لكم، وأنزل من السحاب ماءً، فأخرجنا بذلك الماء الذي أنزلناه من السحاب، أصنافاً كثيرةً من نباتٍ مختلف الألوان والطعوم والمنافع.

٥٤ - كُلوا - يا أيها الناس - ممَّا أخرجنا لكم من الأرض، ممَّا هو صالحٌ لأنْ يُؤكل، واجْعَلوا أنعامَكم التي خلقناها لكم ترعى من نبات الأرض، إنَّ في ذلك الذي ذكر لآيات جليلات لذوي العقول الواعية الدرَّاكة، يدركون أنَّ ذلك الخلق العظيم والنظام البديع لا يكون إلا من ربٍّ قادر حكيم.

٥٥ - من تراب الأرض ومائها خلقنا أجسادكم - أيُّها الناس -، وفيها نُعيدكم عند الموت والدَّفن، ومنها نُخرجكم مرةً أخرى يوم القيامة للبعث والحساب، وفصل القضاء، وتحقيق الجزاء.

٥٦ - ونؤكِّد أننا أرَيْنا فرعونَ الآيات التِّسعَ كلَّها، التي آتيْناها موسىٰ، فكذَّبَ فرعون وزعم أنها سحرٌ، وامتنع عن الإيمان والطاعة.

٥٧ - قال فرعون لموسى: أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا من أرض مصر، بسحرِكَ، فيكون لك المُلك وتُخرجنا منها؟

٥٨ - فَلَنَأْتِيَنَّكَ بسحرٍ مثلِ سحرك، فحدِّد بوعدٍ منك مكان المباراة التي سنُجريها بينك وبين سَحَرتنا، وحدِّد زمانها، لا نُجَاوِزُه نحن ولا أنت، واخْتر مكاناً عَدلاً وسَطاً يكون فيه فريقا المباراة متعادلين في كلِّ شيءٍ.

٥٩ - قال موسى: زمان إجراء المباراة ومكانه يومُ العيد الذي تخرجون فيه من مساكنكم مُتزيِّنين، وتلتقون في مكانٍ واسعٍ جامع، وأن يُجمع الناسُ في ذلك المكان وقْتَ الضُّحوة نهاراً جَهاراً.

٦٠ - فانصرف فرعونُ عن موسى مُدبراً، وجَمَعَ مكرَهُ وَحِيلَه وسحرَهُ، ثمَّ أتى بعد زمنٍ مُتراخٍ لحضور المباراة في الزمان والمكان اللَّذين تمَّ التواعُدُ لإجراء المباراة فيهما.

٦١ - قال موسى للسَّحَرَة الذين جمعهم فرعون قُبَيْل المباراة: عذاباً شديداً لكم؛ بسبب ما تُعدُّون أنفسَكم له، فلا تَخْتلقوا على الله الكذب بأعمال السِّحر التي تخدعون بها أعين الناس، فيهلككم ويَسْتأصلكم بعذاب عظيم، وقد خَسِرَ من ادَّعى مع الله إلهاً آخر، وكَذَب على الله.

٦٢ - فتنازع السَّحَرَة الكلام بينهم، وخالف بعضهم بعضاً الرأي في أمر موسى، وبالغوا في إخفاء ما يتسارُّون به عن موسى وأخيه.

٦٣ - قال السَّحرةُ بعضهم لبعض سرّاً: إنَّ موسى وهارون ساحران يُريدان أن يُخرجاكم من أرضكم «مصر» بسحرهما، ويذهبا بمذهبكم الاعتقادي، ونظامكم الإداري، ويُحلاَّن محلَّهما مذهَبَهما الديني، ونظاماً إدارياً مُنْبثقاً عنه.

٦٤ - فأحكموا أمرَكُم، وأعدُّوا وسائلكم بتدبير خفيّ، ثمَّ بعد تمهُّل، وأناةٍ، وإتقان وإحكام في الإعداد، ائتُوا لمباراة موسى حالة كونكم صفاً واحداً غير متفرِّقين؛ ليكون أشدَّ لِهَيْبتكم، ونحقِّق ونؤكِّد أنَّ من كان هو الغالب اليومَ في المباراة، ظفر وفاز بما يريد.
وانفضَّ مجلسهم الذي أسرُّوا فيه النَّجوىٰ على هذا القرار الأخير، وأخذوا أدواتهم السحريَّة، وذهبوا إلى حيث يكون الاجتماعُ الحاشدُ الجامع، الذي كان يومَ الزينة، ودخلوا السَّاحة المخصَّصة للمباراة بينهم وبين موسى وأخيه هارون عليهما السلام.

قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَلۡقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلۡ أَلۡقُواْۖ فَإِذَا حِبَالُهُمۡ وَعِصِيُّهُمۡ يُخَيَّلُ إِلَيۡهِ مِن سِحۡرِهِمۡ أَنَّهَا تَسۡعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوۡجَسَ فِي نَفۡسِهِۦ خِيفَةٗ مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلۡنَا لَا تَخَفۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلۡقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلۡقَفۡ مَا صَنَعُوٓاْۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيۡدُ سَٰحِرٖۖ وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيۡثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدٗا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ وَلَتَعۡلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابٗا وَأَبۡقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُواْ لَن نُّؤۡثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِي فَطَرَنَاۖ فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقۡضِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغۡفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكۡرَهۡتَنَا عَلَيۡهِ مِنَ ٱلسِّحۡرِۗ وَٱللَّهُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأۡتِ رَبَّهُۥ مُجۡرِمٗا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأۡتِهِۦ مُؤۡمِنٗا قَدۡ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلۡعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾

٦٥ ـ قال السَّحَرة بلسان كبيرهم المتحدِّث عنهم لموسى عليه السلام: يا موسى، اخْتَر أحَدَ الأمرين: إمَّا أن تطرح ما عندك في ساحة المباراة قبلنا، وإمَّا أن نكون نحن أوَّل من ألقى ما معنا.

٦٦ ـ قال لهم موسى: بل ألقُوا أنتم أولاً، وأنا مُستهين بما عندكم من كَيْد سحري، فألْقوا حبالَهم وعصيَّهم في ساحة المباراة، فإذا حبالُهم وعِصِيُّهُم يُخَيَّل إلى موسى من سحرهم أنها ثعابين تمشي بسرعة، مع أنها في الحقيقة ما زالت حبالاً وعصيّاً، لم يتغيَّر شيء من حقيقتها.

٦٧ ـ فأضْمَرَ موسى في نفسه الخوفَ، وظنَّ أنها تَقْصده.

٦٨ ـ قال الله تعالى لموسى عليه السلام: لا تَخَفْ من أعمالهم السحريَّة، إنَّك أنت الغالبُ عليهم، وستكونُ لك الغلبة والظَّفَر.

٦٩ ـ وألْقِ عَصاكَ التي في يمينك، تتحوَّل فوراً حيَّةً عظيمة، تَلْتقم وتَبْتلع بسرعة حبالهم وعصيَّهم، ما صنعوا بأعمالهم إلا كَيْداً سحريّاً تَخْييلياً بإيهامها كذباً وافتراءً على الحقيقة أنها ثعابين حقيقيَّة، ولا يظفر السَّاحر في أيِّ مكان يأتيه، ويعمل فيه أعمالَهُ السحريّة، إذ يجعله الله خائباً خاسراً.

٧٠ ـ فألقىٰ موسىٰ عَصاهُ، فانقلبت حيَّةً حقيقيَّة عظيمة تسعى بسرعة مُخيفة في ساحة المباراة، فبلَعَتْ ما صَنَع السَّحرة، فخرُّوا علىٰ الأرض سَاجدين دون تلكُّؤ ولا تريُّث، وقالوا: آمنَّا بربِّ العالمين، ربِّ هارون وموسى.

٧١ ـ قال فرعون للسَّحَرة متوعِّداً لهم: آمنتم بما دعاكم للإيمان به موسى منقادين له قبل أنْ آذنَ لكم بذلك؟ إنَّ موسىٰ لرئيسكم ومُعلِّمكم صناعةَ السحر، فلذلك تابعتموه، فَلأُقطِّعَنَّ في الحال دون تأجيل أو تسويف أيديَكم وأرجُلَكم مُخالفاً بينهما، يداً من جهةٍ، ورِجْلاً من جهةٍ أخرى، وَلأُصَلِّبَنَّكم بتسمير أطرافكم بمسامير حديديَّة في جذوع النَّخل؛ فتموتون تعذيباً وصبْراً، وتكون مواقعُ تصليبكم أماكن تُعرضون فيها لمشاهدة الناس، تشهيراً بكم، وعبرةً لمن تحدِّثه نفسُه بأن يسْلك طريقتكم من القبط، ولتعلمنَّ في العاجل الحاضر ـ أيُّها السَّحَرة ـ أيُّنا أشدُّ عذاباً في إيلامه، وأبقى في دوامه: أنا، أو ربُّ موسى؟

٧٢ ـ قال السَّحَرة لفرعون: لَنْ نُؤْثر حُجَجَك الواهية الضعيفة، ونظام حُكمك المُستبد الظالم، على ما جاءنا به موسى من البراهين العقليَّة، والآيات الإعجازية الدالة على صدقه، ولن نختارك ونُفضِّلك ـ يا فرعون ـ على الله الذي خلقنا وأبدع إيجادنا على نظام الفطر، من العُمق الباطن الذي يحتوي خريطة وجودنا وصفاتنا، إلى الظاهر المطابق تماماً لما في الخريطة المستقرَّة في العُمْق، فأمْضِ بأمْرك ما أنت قاضيهِ علينا، ما أمرك وسلطانُك إلاَّ في هذه الحياة الدنيا، وسيزول عن قريب.

٧٣ ـ واعلم ـ يا فرعون ـ إننا آمنَّا بربنا؛ ليغفرَ لنا بإيماننا ما سلف من خطايانا، وليغفر لنا أيضاً ما أكْرَهْتَنَا عليه من تعلُّم السحر وعمله، إذ جَلَبْتنا بالقسْر من مختلف المدائن المصريَّة، وَفَرضْتَ علينا أن نعدَّ وسائلنا السحريَّة لمباراة موسى، وأن نمارس كفريَّات وشركيَّات لاستخدام كفرة الجنِّ ومردتهم لمساعدتنا في أعمالنا السحريَّة، وإذا كنت ـ يا فرعون ـ تُطمعنا بخيراتك إذا عُدنا إلى دينك، وتُهدِّدنا بعذابك الشديد الباقي، إذا أصررنا على موقفنا، فعطاء الله خيرٌ من عطائك وأبقى، وعذابه أشدُّ من عذابك وأبقى.

٧٤ ـ إنَّ الشأن العظيم المُرْهب المُخيف: مَنْ يَأْت ربَّهُ كافراً، فإنَّ له بالاستحقاق المؤكَّد الذي لا مفرَّ منه، نارَ جهنَّم، لا يموتُ فيها فيستريح من العذاب، ولا يحيا حياةً مريحة ينتفع بها، بل يكون في عذاب دائم مُتجدِّد مهما امتدَّ الزمن.

٧٥ ـ ومن يأتِ ربَّه بعد موته مؤمناً به، صادقاً في إسلامه، قد عمل الصَّالحات، فأولئك الفضلاء لهم الدرجات الرفيعة العليَّة.

٧٦ ـ هذه الدرجاتُ الرفيعة، جنَّاتُ إقامة دائمة، تجري من تحت قصورها وأشجارها الأنهار، ماكثين فيها أبداً، وذلك الجزاء المقرَّر لمَنْ يأتِ ربَّه مؤمناً قد عمل الصَّالحات، ويكون أيضاً جزاء مَنْ تطهَّر بالإيمان والتوبة من دنس الشِّرك والذنوب.

وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ ۞ وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُو۟لَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٧﴾

٧٧ - ونقسم مؤكِّدين أننا أبلغنا موسى عن طريق الوحي أَمرنا: أن سِر ببني إسرائيل ليلاً من أرض مصرَ إلى خليج السُّويس، فاجْعَل لهم بالضَّرب بالعَصَا طريقاً في البحر يابساً ليس فيه ماءٌ ولا طين، لا تخاف أن يُدرِكَك فرعونُ وجنودُه مِنْ ورائك، ولا تخشى أن يغرقك البحر أمامك.

٧٨ - فلحقهم فرعونُ مصحوباً بجنوده، فَغَمَرهم من الماء ما لا يعلم كُنهه إلا الله، فغرق فرعونُ وجنودُه، ونجا موسى وقومه.

٧٩ - وأضلَّ فرعونُ قومه، إذ قال لهم: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾ فاتْبعُوهم، تَغْلبوهم، وتَسْتَعبدوهم، وأضلَّهم بقوله لملئه: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾.

٨٠ - يا بني إسرائيل قد مَنَنَّا عليكم بثلاثِ مِنَن: **المنة الأولى:** أنجيناكم من فرعون وجنوده، بفَلْق البحر لكم حتى عَبَرتُم إلى الشَّاطئ الآخر سالمين، وخلَّصناكم من متابعة فرعون وجنوده لكم، وأغرقناهم أجمعين، **والمنَّة الثانية:** وعدناكم وعداً مُؤكَّداً أن نكلّم رسولنا موسى وأنتم حضور في الجهة اليمنى من الوادي الواقع بجانب جبل الطور؛ لإنزال التوراة التي بها قِوام دينكم وشريعتكم، **والمنَّة الثالثة:** نزَّلنا عليكم في التِّيه المنَّ الذي يشبه العسل، والطير الذي يشبه السُّمَّانى.

٨١ - قال الله لهم: كُلوا من طَيِّبات ما رزقناكم، ولا تَتَعَدَّوْا حدودي فيما رزقناكم، فلا تدَّخروا من المنِّ إلى صباح اليوم التالي شيئاً، باستثناء اليوم السادس الذي يعقبُه السبت وهو يومٌ لا عملَ فيه، فإنكم تجمعون فيه ما يكفي حاجتكم ليومين فقط، وسأحفظه لكم من الفساد، ومَنْ طغىٰ بتجاوز الحدّ الذي حدّدتُه فادَّخر ما لم آذن بادّخاره، نَزَل عليه حالاً به غضبي، وَمَنْ يَنْزِل عليه حالاً به غضبي فقد هَلَك وسقط في النار سقوطاً مخيفاً جدّاً.

٨٢ - وإنِّي لكثير المغفرة لمَنْ تابَ عن الشِّرك، وجدَّد الإيمان بما يجب الإيمان به من عقائد وشرائع، وعمل الصَّالحات التي تدلُّ على صدق إيمانه، وصار من أهل الاستقامة والطاعة، ثمَّ لزم الإسلام طائعاً لربِّه، دون انحراف وخروج عنه، حتى مات عليه.

٨٣ - وما هو السبب الذي جَعَلَكَ تعجَل منفصلاً عن قومك - يا موسىٰ -، فَسَبَقْتَهم إلى ميقاتنا جانب الطُّور الأيمن، وخلَّفتهم وراءك؟

٨٤ - قال: إني أمرتُهم بأن يلحقوا بي، لشهود ما يجري في هذا الميعاد، ولم أقصِّر في واجب تبليغهم، وقد ولَّيْتُ عليهم أخي هارون، فهم سائرون على مواطىء الطريق التي سرت عليها. وأسرعتُ مُقْبلاً إلى مكان مُناجاتك ربِّ؛ لأظفر برضاك.

٨٥ - قال الله سبحانه لموسىٰ عليه السلام: فإنَّا قد ابْتَلَينا قومَك الذين خلَّفتهم مع هارون، فافْتُتنوا بالعِجْل من بعد انطلاقك إلى الجبل، ودعاهم السَّامريُّ، وصرفهم إلى عبادة العجل، وأوقعهم في الضلال.

٨٦ - فلما انتهت مُدَّة الميعاد، وهي أربعون ليلة، رَجَع موسى إلى قومه حالة كونه غَضْبانَ عليهم، حزيناً جَزِعاً، قال مُنكِراً عليهم: يا قوم ألم يَعِدكم ربُّكم وعداً حَسَناً لكم بأن تشهدوا معي مكالمتَهُ لي بجانب الطُّور؟ فلم تحضُروا، وعصَيْتُم أمري لكم، بأن تسيروا على أثري، وعصَيْتم أمرَ أخي هارون، وتمرَّدتم عليه؟ أَتظرتم زمناً طويلاً عودتي، فطال عليكم مدَّة مفارقتي إيَّاكم، في عشر ليالٍ مدَّها ربي لامتحان صدق إيمانكم، ووضوح معرفتكم لربكم؟ إنَّ زيادة عشرِ ليالٍ في الميعاد ليس من شأنها أن تُفسد عقيدة صحيحة راسخة، لو كانت موجودةً فعلاً في قلوبكم، وواضحة في أذهانكم!! بل أَأَردْتُم أن تفعلوا فعلاً ينزل عليكم الغضب من ربِّكم بسببه، فأخلفتم ما وعدتموني من اللحاق بي، والسَّيْر على أثري إلى الوادي المقدس بجانب الطُّور.

٨٧ - قالوا: ما أَخْلَفنا مَوْعِدَنا إيَّاك الذي وعدنـاك فيه أن نسير في أَثَرِكَ إلى جانب الطُّور، ونحن نملك من أنفسنا جرأةً للحضور معك، وربُّك يكلِّمك، إذ كنَّا خائفين من أن ينتقم منا ربُّنا؛ لأننا كنا مرتكبين لذنب عظيم، حُمِّلنا به أثقالاً من الإثم، إذ كنا أخذنا من المصريين حُلياً على سبيل الاستعارة، ونحن نقصد سَلْبهم إيّاها، لأننا خارجون من مصر خروجاً نهائياً، والمصريون لا يعلمون بذلك، فإذا كانت هذه الحُليُّ معنا كانت شاهدةً علينا بإثمنا الكبير، فاجتمع رأينا على أن نتخلَّص منها، فألقَيْناها في حُفْرة فيها نار بأمر السَّامري، فكما ألقينا كذلك ألقى السَّامريُّ ما كان معه من تُربة حافرِ فرسِ جبريل عليه السلام.

فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِىُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾

٨٨ ـ فأخرج السَّامريُّ لبني إسرائيل من الذهب عِجْلاً جَسَداً لا حياة له، يخورُ كما يخور البقر؛ لامتحان جمهور بني إسرائيل: هل تخلَّصوا من الوثنية، أم ما زالت أفكارهم ونفوسهم مُتشبِّثةً بها، فقال السَّامريُّ ومَنْ تابعه ممَّن افتُتِن به: هذا إلهكم وإلهُ موسى، حلَّ في جَسَد العجل، نَسِيَه وتركه ههنا، وذهب يطلبه. وسجدوا له، وقرَّبوا له القرابين، وصاروا يعكُفون عليه.

٨٩ ـ أفقد الذين عَبَدوا العجلَ الذهبيَّ عقولهم، فهم لا يَرَوْن أنَّه جَماد، لا يَرُدُّ لهم جواباً ما على ما يسألونه أو يخاطبونه، ولا يستطيع أن يدفع عنهم ضَرّاً، أو يجْلُب لهم نفعاً.

٩٠ ـ ونُقسم مؤكِّدين أنَّ هارون قال لبني إسرائيل من قبل رجوع موسى إليهم: يا قوم، أُؤكِّد لكم بأنه ليس في خُوار العِجْل إلاَّ امتحانكم؛ لكشف صحَّة إيمانكم بربِّكم، وقال لهم: يا قوم إنَّ ربَّكم الرحمن الذي يُوليكم برحمته النِّعَمَ الظاهرة والباطنة، فاتَّبعوني على ديني في عبادة الله وحده، وأطيعوا أمري في ترك عبادة العجل.

٩١ ـ قال عُبَّاد العجل لهارون: لن نزال على عبادة العجل مقيمين، ولن نستجيب لك يا هارون حتى يرجع إلينا موسى، فَنَنْظُرَ: هل يعبده كما عَبَدناه، وهل صدق السَّامريُّ أم لا؟

٩٢، ٩٣ ـ قال موسى لأخيه هارون يلومه بشدَّة على معصية أمره: يا هارون ما مَنَعَك حين رأيتَهم ضلُّوا عن اتِّباعي، وما حَمَلك على أن لا تتَّبع أمري ووصيَّتي، أَٱستَهَنْتَ بي، فَعَصَيْتَ أمري الذي أمرتُكَ به، إذ استَخلفتُك على بني إسرائيل؟!

٩٤ ـ ثمَّ أخذ موسى بشعر رأس أخيه ولحيته يجرُّه إليه غضباً وإنكاراً، فقال له هارون مُستَعطفاً: يا ابنَ أُمِّي، لا تُمسك بلحيتي ولا بشعر رأسي، إني خَشيتُ إذا اتَّبعتُك مع الذين استجابوا لي، أن تقول لي: فرَّقت بين بني إسرائيل، فبقيتُ فيهم منتظراً عودتك، وخشيتُ أن تقول لي أيضاً: لم تجعل قولي تحت مراقبتك الدائمة، حين قلت لي: اخلفني في قومي، وأصلح وارفق بهم، ولا تَتَّبِع سبيل المفسدين. فقد اجتهدت أن أصلح بقدر استطاعتي، ولم أتَّبِع سبيل المفسدين.

٩٥ ـ أقبل موسى على السَّامريِّ، عقب محاكمته لهارون، فقال: ما أمرك وشأنك العظيم الذي حَمَلك على أن تقوم بهذه الفتنة التي أفسدتَ بها جمهور بني إسرائيل، حتى جعلتهم يعبدون وثناً ذهبياً على صورة عجل؟

٩٦ ـ قال السَّامريُّ: رأيتُ ما لم يَرَوْه ـ وهو جبريل عليه السلام ـ على فرس، وقت خروجهم من البحر وغرق فرعون وجنوده، فَقَبَضْتُ بكفي قبضةً من تراب حافر فرس جبريل، فطرحتُ هذه القبضة بسرعة وخفة في جَوْف الذهب المسبوك على صورة عجل، فصار له خوارٌ كخُوار البقر. وكذلك الذي فعلته زَيَّنَتْ لي نفسي، وحسَّنت لي صُنعه.

٩٧ ـ قال موسى للسَّامريِّ: فاذْهَب من بيننا، فإنَّ لك في الدنيا ما دمتَ حياً، أن تعيش منبوذاً لا تُخالط أحداً، ولا يخالطك أحدٌ، وهو عقابٌ بعزلةٍ جبريَّة عن كل الناس، فإذا اقترب منك أحدٌ اشتدَّت بك أوجاع وآلام لا تُطيقها، وإنَّ لك ـ يا سامريُّ ـ موعداً لعذابك في الآخرة، لن يُخلفكَ اللَّهُ إيَّاه، بل يُكافئُكَ على فعلك، وانظُر إلى عِجْلك الذهبيِّ الذي اتَّخذته إلٰهاً، وأقمت عنده ملازماً عبادته، ودعوتَ بني إسرائيل إلى عبادته، لنُوقدَنَّ عليه النارَ حتى ينصهر، ثم بعد أن نُجزِّئه إلى أجزاء صغرى كذرَّات الرَّمل، لننسفَنَّه مُتفرِّق الذرَّات في البحر حتى لا يبقى منه عينٌ ولا أثر.

٩٨ ـ إنَّما إلٰهُكم ـ يا بني إسرائيل ـ المُستَحِقُّ للعبادة والتعظيم هو الله الذي لا معبود بحقٍّ إلا هو، وَسِعَ علمُهُ كلَّ شيء، وهو مُطَّلِعٌ على ما في قلوبكم من إيمان أو شرك، وعليمٌ بأعمالكم ونيَّاتكم، وخواطر نفوسكم، وسيُجازيكم بحكمته وعدله وفضله.

كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ ۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾



٩٩ - مثلَ ذلك القصص الذي قَصَصْنَاهُ عليك - يا رسول الله - بشأن موسى وهارون وفرعون وبني إسرائيل، نقصُّ عليك بعض أنباء ما قد سَبَق من أحداث في التاريخ الإنساني، وقد أعطيناك - يا رسول الله - من عندنا كتاباً ربانياً يجب على المكلّفين أن يتفهّموا معانيه، ويتذكّروا ما يُطلب منهم؛ ليكون دافعاً إلى الانتفاع به في علم أو عمل.

١٠٠، ١٠١ - من أعرضَ عن هذا الكتاب الذي هو ذكرٌ للعالمين، ولم يُؤمن به، ولم يعمل به، فإنّه يأتي يوم القيامة حاملاً حملاً ثقيلاً من الإثم عقوبةً على إعراضه، حالة كونهم مقيمين في العذاب الذي قضى الله به على الكافرين، وساء الوِزْر الذي يحمله مَنْ يُعرض عن كتاب الله، حِمْلاً يوم القيامة؛ إذ هو حِمْلٌ ينتهي به إلى عذاب جهنم.

١٠٢ - يوم يَنْفُخُ الملَك إسرافيل في «القرن» لصيحة البعث النفخة الثانية، يُدعى بها الناس للحشر، ونجمعُ الكافرين المُستحقّين للخلود في دار العذاب، حالة كونهم زُرقاً، يتميّزون عن المؤمنين باللون الأزرق، من أثر الضَّربات التي تقع عليهم من ملائكة العذاب.

١٠٣ - يتسارُّون بينهم، ويتكلّمون خِفْيةً: ما مكثتم في رقدتكم التي رقدتموها في قبوركم في مدَّة البرزخ الفاصل بين الموت والبعث إلا عشر ليالٍ.

١٠٤ - نحن أعلم بما يتداولونه من أقوال فيما بينهم، بشأن المدَّة الزمنيَّة التي لبثوها في قبورهم، حين يقول أوفاهم عقلاً وأعدلهم قولاً في تصوُّرهم: ما لبثتم إلاّ يوماً واحداً.

١٠٥ - ١٠٧ - ويسألونك - يا رسول الله - عن الجبال، كيف يكون حالها يوم القيامة؟ فقل: يَقْلَعُها ربِّي من أصولها ويسحقها، ويُذْريها، ويجعلها هباءً منثوراً، فيترك الأرض التي كانت عليها الجبال بعد نسفها أرضاً مُستويةً مَلْساء لا نبات فيها ولا بناء عليها، لا ترى، فيها - أيُّها الناظر - انخفاضاً ولا ارتفاعاً، ولا وادياً ولا رابيةً.

١٠٨ - في ذلك اليوم يتّبعون صوتَ الدّاعي من الملائكة الذي يدعوهم إلى مَوْقفِ يوم القيامة، لا عِوَج للداعي في تصرُّفاته، ولا عِوَج في اتّباعهم له، فهم لا يزيغون عنه يميناً ولا شمالاً، بل يتّبعونه سِرَاعاً، وَسَكَنت الأصواتُ وخَضَعت للرَّحمن، فلا تسمعُ إلا صَوْتاً خفياً.

١٠٩ - يوم تخشع جميع الأصوات للرحمٰن لا تنفع الشفاعةُ لأحدٍ من الناس إلا بشرطيْن: **الشرط الأول:** من أَذِنَ له الرحمن أن يشفع، **والشرط الثاني:** أن يَرضىٰ الله سبحانه قولَ الشافع، وما تضمّنته شفاعته للمشفوع له.

١١٠ - يعلم الله سبحانه كلَّ ما قدَّم عباده في حياة امتحانهم من اعتقادات، ونيّات، وأعمال ظاهرة وباطنة، ويعلم سبحانه كلَّ ما سيأتي في مستقبل أمرهم يوم الدين، فهو الذي يكون خلفهم، لأنهم يجهلونه، ولا يحيط العبادُ بذات الله ولا بكمال صفاته علماً.

١١١ - وذلّت وخَضَعَتْ وجوهُ الخلائق للحيِّ الذي لا يموت، القائم على تدبير شؤون خلقه، وقد خسر كلَّ شيءٍ مَنْ جاء يوم القيامة حاملاً أوزار ظلم من دَرَكة الكفر، إذ يكون قد خسر نفسَهُ، وتسبَّب لها بالعذاب الأبديّ بسبب كفره.

١١٢ - ومَنْ يعملْ بعض الصَّالحات، والحال أنه مؤمنٌ صحيحُ الإيمان وصادقُه، فإنَّه يوم الدين لا يخاف أن يُحكم عليه أو يعذّب بذنب لم يرتكبه، ولا يخاف أن يُقلِّل الله عزَّ وجلَّ من ثوابه.

١١٣ - ومثْل ذلك الذين قَصَصْناه عليك في القرآن من أنباء ما قد سبق في التاريخ الإنسانيّ، أنزلنا القرآن عليك - يا رسول الله - بلسان العرب؛ ليفهموه ويقفوا على إعجازه وحُسْنِ نظمه وخروجه عن كلام البشر، وكرَّرنا وفصَّلنا ونوّعنا القولَ في آيات القرآن تصريفاً من الإنذار بالعاقبة السيِّئة المُؤلمة، جزاءً على فعل العمل السيء الذي نهى الله عنه، أو على ترك العمل الصالح الذي أمر الله به؛ راغبين أن يتّقوا عذاب الله بالإيمان والعمل الصالح، أو يُحدِثُ لهم القرآن معرفة تتسرَّب داخل نفوسهم، تُستَدعىٰ هذه المعرفة فيكون لها أثر حَسَنٌ في نفوسهم، يدفعهم إلى العمل الصالح.

فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۗ وَلَا تَعۡجَلۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مِن قَبۡلِ أَن يُقۡضَىٰٓ إِلَيۡكَ وَحۡيُهُۥۖ وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا ﴿١١٤﴾ وَلَقَدۡ عَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبۡلُ فَنَسِيَ وَلَمۡ نَجِدۡ لَهُۥ عَزۡمٗا ﴿١١٥﴾ وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوّٞ لَّكَ وَلِزَوۡجِكَ فَلَا يُخۡرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلۡجَنَّةِ فَتَشۡقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعۡرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظۡمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضۡحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسۡوَسَ إِلَيۡهِ ٱلشَّيۡطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ وَمُلۡكٖ لَّا يَبۡلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنۡهَا فَبَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيۡهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢاۖ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ وَقَدۡ كُنتُ بَصِيرٗا ﴿١٢٥﴾

١١٤ - فَتَسامى وجلّ وعَظُمَ الله الملِكُ الحقُّ، المالك لكلِّ شيء في الوجود، ذو الوجود الثابت الواجب الذي لا شك فيه، وتعالى عمَّا يقوله المشركون والجاحدون، ولا تُسرع - يا رسول الله - بمبادرة أمين الوحي جبريل بقراءة آيات القرآن معه، قبل أن يفرغ جبريل من إبلاغه إليك، وتأنَّ بتلقِّيه وحفظه على رويَّة، وقل - يا رسول الله -: ربِّ زدني علماً إلى ما علمت، فإنَّ لك في كلِّ شيء علماً وحكمة.

١١٥ - ونقسم مؤكِّدين أننا أمرنا وأَوْحَيْنا إلى آدم أن لا يأكلَ من الشَّجرة من قبلِ كلِّ مَنْ عَهِدَ الله إليه من البشر، فترك ما عَهِدْنا إليه من الاحتراز عن أكل هذه الشجرة؛ إذ استجاب لوساوس إبليس، وانخدع بإغراءاته وتسويلاته، فأكل منها، ولم نجد له إرادةً قويَّةً لا تستجيب لأشدِّ المُغريات، ولا تضعف أمام المصائب الكبرى التي تحتاج إلى صبر عظيم. ولم يكن آدم حين معصيته نبياً معصوماً، وقد اعترف هو وزوجه بمعصيتهما، واستغفرا من ذنبهما، وتابا إلى ربهما.

١١٦ - وضَع في ذاكرتك - أيها المُتلقِّي لبياننا - هذا الحدث الذي جَرى وقت قولنا للملائكة ومَنْ كان مندسّاً فيهم: اسْجُدوا لآدم، سجودَ احترام وتكريم، لا سجودَ عبادة، فَسَجَد الملائكة كلُّهم أجمعون إلا إبليس الذي كان مندسّاً فيهم كواحدٍ منهم امتنع عن السجود استكباراً.

١١٧ - فقلنا عقب إباء إبليس وإصراره بعنادٍ شديد أن يطيع الله في السجود لآدم: يا آدمُ إنَّ إبليسَ عدوٌّ لك ولِزَوْجك حوَّاء، فلا يُخرِجَنَّكُما إبليس بوسوسته من الجنَّة، وعندئذ تتعرَّض يا آدم لتحمُّلِ المكاره والشدائد؛ لأنك ستضْطر لأن تكون الأكثر تحمُّلاً لعناء الكدِّ والكدح في العمل، لاكتساب رزقك، ورزق أسرتك.

١١٨ - إنَّ لك - يا آدم - في الجنَّة المطالب الأساسيَّة الأربعة للعيش السعيد الرغيد: **المطلب الأول**: أن لا تجوعَ فيها، فالطعام في الجنة وفير لا ينفد، مع ما فيها من فاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة، **المطلب الثاني**: لا تَتعرَّض لمكروه العُري وأذاه. فلباس الجنَّة فاخرٌ فاره من سندس وإستبرق.

١١٩ - **المطلب الثالث**: لا تعطشُ فيها، فالماء وأنواع الشراب اللذيذ الأخرى لا تنقطع ولا تنفد، **المطلب الرابع**: لا تبْرزُ للشمس فَيُؤذيكَ حرُّها؛ إذ الجنَّة ظلٌّ ظليلٌ دائم. ونفي التأذِّي بحرارة أشعة الشمس يدلُّ على نفي التأذِّي بالبرد، فأهل الجنَّة لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً.

١٢٠ - فَوَسْوَسَ الشيطانُ بتزيين فعل الإثم بأسلوبٍ غير مباشر حتى تصل إلى مراكز التأثير في نفس آدم، قال له: هل أدلك على الشَّجرة التي إنْ أكلت منها بقيت مُخلَّداً في الجنة خلوداً أبدياً، ومَلَكت ملكاً لا يَبيد ولا يفنى؟

١٢١ - فأكل آدم وحوَّاء من الشَّجرة المحرَّم عليهما أن يأكلا منها، فَعَرِيا من الثياب، التي كانت عليهما، حتى بَدَتْ فروجُهما، وظهرت عوراتهما، عَقِبَ أن ذاقا من الشجرة مباشرةً، وشَرَعا يُلصِقان على سَوْآتِهما مِنْ وَرَق أشجار الجنَّة للتستُّر، وخالف آدمُ نَهْيَ ربِّه لَهُ عن الأكل من الشَّجرة، وترك سبيل الرُّشد، اتِّباعاً لما تعلَّقت به نفسه مما ظنَّه خيراً له.

١٢٢ - وبعد مدَّةٍ من الزمن اختاره ربُّه واصْطَفاه للنبوَّة والرسالة، فعادَ عليه بالعفوِ والمغفرة، وهَداهُ لرُشْده. فكان آدم عليه السلام أول نبيٍّ للمجتمع البشريِّ من ذُرِّيته.

١٢٣ - قال الله تعالى لآدم وحواء: انزلا من مكان الجنَّة العالي إلى الأرض جميعاً، بعضكم - يا ذُريَّة آدم - لبعض عدوٌّ بالتحاسد في الدنيا، والاختلاف في الدين، فإمَّا يأتينَّكم منِّي تعليماتٌ مُنزَّلاتٌ تُبيِّن لكم ديني، وفيها هداياتكم، فاتَّبعوها واعملوا بما تشتمل عليه من أوامر ونواهي وإرشادات ونصائح، فمن اتَّبع هُدايَ بقوةٍ وعناية، فلا يضيع في شتَّى المسالك والمَتَاهات بعيداً عما هو سببُ سعادته، ولا يُعرِّض نفسه للمتاعب والمشقَّات؛ لأنَّ الله سبحانه يمنح قلبه ونفسه الطمأنينة والرِّضا في حياته، ولو تعرَّض للمكاره.

١٢٤ - ومَنْ أعرض عن الذكر الربَّانيِّ المُنزَّل فلم يعمل به ولم يتَّبعه، فإنَّ له في الدنيا عقابَين مُرَتَّبَين على إعراضه عن الذكر بعد أن آمن بما جاء فيه من هدى: **العقاب الأول**: أن نجعل له معيشةً ضَيِّقةً شاقَّة بضيقٍ في نفسه، أو من أهله وأسرته، أو من وسائل رزقه وكسبه، **والعقاب الثاني**: نحشُرُه يوم القيامة بعد البعث أعمى كالكافرين، لمشابهته لهم في أعمالهم.

١٢٥ - قال المُعرض عن ذكر الله: ربِّ لِمَ حَشَرْتني أعمى كالكافرين، وقد كنتُ في الحياة الدنيا بصيراً ذا إيمان؟

قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا۟ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾

١٢٦ - قال الله تعالى له: فعلنا بك مثل ذلك الذي كان منك في الحياة الدنيا، إذْ أنَّك - مع كونك مؤمناً بي - لم تتَّبع هُداي الذي أمرتك بأن تتَّبعه، وتركتَ العمل بآياتي المُنزَّلات، فصرت في حياتك مثلَ الكافرين في السلوك، فأنت الآن تستحقُّ أن تكون أعمى مثلهم، ومثلَ تركك في الدنيا العملَ بآياتنا المُنزَّلات تُترك في موقف الحشر، فلا يُعتنىٰ بك، وتُعامل معاملة الكافرين الذين يُحشرون عُمْياً.

١٢٧ - ومثْل ذلك الجزاء الذي نُعاقب به مَنْ أعرض عن ذكرنا، نَجْزي أيضاً مَنْ أسرف إسرافاً بالغاً، ولم يُؤمن بآياتنا، ولعذابُ الآخرة بالحريق في نار جهنَّم أشدّ كمّاً وكيْفاً، وأكثر بقاءً مع تَتابع الزمان من عذاب الضَّنْك في الدنيا، ومن عذاب العَمىٰ بالمحشر.

١٢٨ - أما زالوا على جهلهم، فلم يَهْدِ لهم تاريخُ الأمم السابقة مُبيِّناً سُنَّةَ الله في الانتقام من الكفرة المكذِّبين بالإهلاك الجماعي، أهلكنا كثيراً من أهل زمان واحد، وصلوا إلى حالة ميؤوس منها، يمشي هؤلاء الكافرون في مساكن المُهْلَكين السَّابقين؛ إنَّ في ذلك الإهلاك الشامل لمُكذِّبي القرون السَّابقة، لعلاماتٍ ذواتِ دلالات لأصحاب العقول الواعية.

١٢٩ - ولولا كلمةٌ تمَّ بها قضاء الله وقدره سَبَقت في خطَّة التكوين، بتأجيل الحساب إلى يوم الدين، ولولا أجلٌ مُعيَّن عند ربِّ العالمين، للحساب وفصل القضاء وتنفيذ الجزاء، لكان إنزال الجزاء الأوفىٰ بهم أمراً مُلازماً لهم، لأنهم قد استحقُّوه بتكذيبهم وكفرهم.

١٣٠ - فاصبر - يا رسول الله ويا كلَّ داعٍ إلى الله - على ما يقوله المُكذِّبون، ونزِّه ربَّك عمَّا لا يليق بذاته وصفاته تنزيهاً مُقْترناً بحمده في صلاة الفجر قبل طلوع الشمس، وصلاة العصر قبل غروبها، وصلِّ المغرب والعشاء من ساعات الليل، وصلِّ الظهر عند الزوال وقت انتهاء طَرَف النِّصف الأول، وابْتداء النِّصف الآخر؛ رغبةً أن تنال ثوابَ اللّهِ في المَعَاد.

١٣١ - ولا تَنظُرنَّ - أيُّها المؤمن - نَظَرَ اسْتِحْسَانٍ وإعجابٍ وتَمَنٍّ إلى ما أعطينا من متاع الحياة الدنيا، أصنافاً وجماعات من الناس، حالة كون ما متَّعناهم به زهرة الحياة الدنيا، ذات المنظر الجميل، والرائحة الزكيَّة، إلا أنها قصيرة العمر، سريعة الذبول والفناء كزهر الأشجار؛ لِنَبْتَلِيَهُم ونختبر إراداتهم، وليس تشريفاً وتكريماً لهم، ورزقُ ربِّك في الحياة الدنيا المقرون بالطمأنينة والرِّضا، والذي سَيُفيضُه عليك في جنات النعيم خيرٌ من كلِّ ما في هذه الحياة من متاع وزينة؛ وأبقى أنواعاً وأصنافاً وأفراداً؛ لأن دار النعيم هي دار البقاء، أما الحياة الدنيا فهي دار الفناء والأكدار.

١٣٢ - وَأْمُر - يا رسول الله وكلَّ حاملٍ لرسالته من أُمَّته - أهلَكَ بالمحافظة على الصَّلاة، واصْبِر صَبْراً كثيراً على أدائها، وعلى الاستكثار من الصَّلوات النوافل، ولا سيما في جَوْف الليل، لا نُكلِّفُكَ أن ترزُقَ أحداً من خلقنا، ولا أن ترزُقَ نفسَكَ، بل نحن نُهيِّىءُ لك رزْقَكَ الذي يكفيك ويكفي أسرتك، لتتفرَّغ للقيام بوظائف رسالة ربِّك، والعاقبةُ الحسنة المحمودة في الدنيا والآخرة لأهل التقوى.

١٣٣ - وقال المشركون: هلاَّ يأتينا محمد بآيةٍ خارقة، فإذا جاء بمثل هذه الآية المُقْتَرحَة من ربِّه آمنَّا به، أَجهلوا ولم يكفهم اشتمالُ القرآن على بيان ما في الكتب الإلهيَّة؟ فلو أنصفوا لعلموا أن القرآن وحده بيِّنة كافية، ولعلموا أنَّ الرسول محمد ﷺ بيِّنة واضحة بصفاته الممتازة، وخُلُقه العظيم، وبما جاء بشأنه من بشائر في الصُّحف الأولى.

١٣٤ - ولو أنا أهلكنا هؤلاء المُكذِّبين بسبب كفرهم وجرائمهم بعذابٍ، من قبل أن نُرسل إليهم رسولاً، ونُنَزِّل عليهم كتاباً، لقالوا يوم القيامة: يا ربَّنا هلاَّ أرسلت إلينا رسولاً يدعونا، فَنَتَّبِعَ آياتِكَ من قَبْل أن ينزل بنا الهوان، ونقع في الشَّرِّ والعذاب الأليم.

١٣٥ - قل - يا رسول الله - لهؤلاء المشركين: كُلٌّ منَّا ومنكم مُنْتَظِرٌ، أنتم منتظرون موتي بحادثٍ من حوادث الدهر، ونحن ننتظر أن يُعِزَّنا ربُّنا ويُؤيِّدنا ويَنْصُرُنا عليكم، فستعلمونَ بعد زمنٍ غير بعيدٍ، مَنْ هم أصحابُ الطريق المستقيم الذين اهتَدَوْا في مسيرتهم في حياتهم لسلوكه، ومن الذين ساروا في سُبُل الضلالة ومتاهاتها، نحن أم أنتم؟!

سُورَةُ الأنبياء

سُورَةُ الأنبياء

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٤﴾ بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾ مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِيٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾

١ ـ اقْتَرَبَ لكبُراء مُشركي مكة المعاندين المُصرِّين على جحودهم وقتُ حسابهم المُعَجَّل، وإنزال العقاب بهم، وهم منغمسون في غفلةٍ تامَّة، مُعرضون غير مبالين ولا مكترثين.

٢ ـ ما يأْتيهم من بيانٍ قرآني مُنَزَّلٍ على النبيِّ ﷺ شيئاً فشيئاً، يُتلى عليهم مُجدِّداً التذكير، إلاَّ استمعوه مُدركين الدلالات العامة لآياته، إلا أنهم يُظهرون انصراف أذهانهم باللعب في شؤون دنياهم.

٣ ـ استمعوه وهم يلعبون حالة كون قلوبهم لاهيةً عن التأثُّر بما جاء فيه، لا تتأمَّل في آياته، ولا تتفكَّر في حِكَمه، ساهيةً غافلةً عن ذكر الله، مشغولةً عن الآيات الكريمة بشهوات الدنيا وزخرفها، والذين ظلموا أنفسهم ظلماً من دركة الكفر بالغوا في إخفاءِ تناجيهم، حتى لا يفتضحوا بين جماهيرهم بالتآمر على دعوة الرسول، وقالوا فيما بينهم: هل هذا الذي يدّعي أنه رسول ربِّ العالمين إلا بشرٌ مثلكم، فكيف تُصدِّقونه في دعوىٰ الرسالة؟! والرسولُ لا يكون إلا مَلَكاً!؟ أفقدتم عقولكم وتقديركم للأمور حقَّ قدرها، فأنتم تأتون محمداً لتسمعوا منه ما يسحركم به من كلام، وأنتم تبصرون أنه بشرٌ مثلكم؟!

٤ ـ قال رسول الله ﷺ: سواءٌ أسْرَرتم نَجواكم لصُنع المكيدة الدعائية بغية الصَّدِّ عن دين الله الحق، أم أعلنتم أقوالكم الكيديَّة، فإنَّ ربِّي الذي أرسلني يعلم قولَ كلِّ قائلٍ في السماء والأرض، لا يخفىٰ عليه شيءٌ، وهو السميع لكلِّ ما يُسمع، العليم بكلِّ شيء.

٥ ـ بل جَحَدَ الكفار القرآن، وقالوا: أباطيل وأهاويل لا حقيقة لها، وأفكار مختلطة لا نظام لها، ولا ترابط بينها، كالأحلام المُختلطة التي لا تتبيَّن حقائقها، بل اخْتَلَقه محمد من تلقاء نفسِه، وادّعى كذباً أنَّ الله يُنزِّله عليه وحياً، بل هو شاعرٌ وما جاءكم به كلامٌ يُخيِّل للسامع معاني لا حقيقة لها، فلْيأْتِنا بآيةٍ ماديَّةٍ، كعصا موسى، وناقة صالح، إنْ كان صادقاً، كما أُرسل الرسل الأوَّلون مؤيَّدين بالآيات الحسيَّة.

انتقل الكفار عن قولهم هو سحر إلى أنه تخاليط أحلام، ثم إلى أنه كلام يفترى، ثم إلى أنه قول شاعر، وهكذا الباطل لَجْلَج، والمبْطل مُتحيِّر، غير ثابت على قول واحد.

٦ ـ ما آمنت قبلَ مشركي مكة من أهلِ قريةٍ كافرة، أَتَتْهُم الآيات كما طلبوا، بل كذَّبوا، فأهلكناهم إهلاك استئصالَ، أفيؤمن كفار مكة إنْ جاءتهم الآيات التي طلبوها؟

٧ ـ إنَّا لم نُرْسِل الملائكةَ إلى الأوَّلين، ولم ننزل الرسالة الربانيَّة على مَلَك لا يأكل الطعام، ولا يمشي في الأسواق، ولا يتزوَّج النساء، إنَّما أرسلنا رجالاً نُوحي إليهم مثلك ـ يا رسول الله ـ، وإن أنكرتم ذلك، فاسألوا ـ يا كفّار مكة ـ علماء أهل الكتاب الحافظين لتواريخ الأنبياء والرسل السابقين، إنْ كنتم لا تعلمون هذه الحقيقة، فإنَّهم لا ينكرون أنَّ الرسل كانوا بشراً، وإنْ أنكروا نبوَّة محمد ﷺ.

٨ ـ وما جَعَلنا الرُّسل السابقين الذين أرسلناهم قبلك ذوي جَسَدٍ لا يأكلون الطعام، بل جعلناهم مثلك بشراً يأكلون الطعام، وما كانوا خالدين في الحياة الدنيا، بل يموتون كغيرهم.

٩ ـ وبعد مُدَّةِ إمهالٍ كافيةٍ للكافرين المسرفين صَدَقْنا رسلنا الوعدَ الذي وعدناهم بإهلاك أعدائهم، فأنْجَيْناهم من كيْد أعدائهم، وأنْجينا مَنْ نشاء من المؤمنين الذين صدَّقوهم، وأهلكنا المُسْرفين على أنفسهم المُجَاوزين الحدَّ بالكفر.

١٠ ـ ونؤكِّد لكم ـ يا معشر قريش ـ أننا أنزلنا إليكم هذا القرآن، فيه شرفُكُم وفخرُكم في الدنيا والآخرة إن آمنتم وعملتم به، وفيه من الحقائق والهداية إلى سعادتكم ما يوجب عليكم أن تتدبَّروه، وتحفظوا معانيه في ذاكرتكم، وتستدعوا منها عند كلِّ مناسبةٍ ما يلائمها، للعمل به، والاهتداء بهديه. أَغَلَبَتْكُم أهواؤكم، ودوافع كِبْركم، فلا تعقلون عقلاً علمياً حقائق هذا الدين، ولا تعقلون نفوسكم عَقْلاً إراديّاً عن إتيانِ أهوائها وشهواتها وكِبْرها؟!

وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ ﴿١٥﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾

١١ - وعدداً كثيراً أهلكنا من مُجمَّعات سكنيَّة كان أهلها ظالمين بكفرهم، فأهلكناهم بعذاب شامل استأصلَهم جميعاً، وخلقنا ضمن نظام الإنشاء المُتدرِّج بعد هلاكهم وقطع دابرهم بالكليَّة قوماً آخرين.

١٢ - فلمَّا عَلِمَ المُهْلَكُون عذابَنا الشَّديد عِلْمَ حِسٍّ ومُشاهَدَة، ورأَوْا مقدِّماته، إذا هم من مُجمَّعاتهم السكنيَّة يُسرعون هاربين طلباً للنجاة.

١٣ - فقالت الملائكة لهم استهزاءً: لا تركضوا هَرَباً من عذاب ربِّكم، فأنتم هالكون لا مَحالة، وارجِعُوا إلى ما نُعِّمْتُم فيه من العيش الهنيء، والنِّعم الوافرة التي كانت سببَ بطركم وطغيانكم، فذلك هو الذي جعل الله يُسلِّط عليكم عقابه، وارجعوا إلى مساكنكم التي شيَّدتموها وزخرفتموها، لعلَّكم تُسألون غداً عمَّا جَرى عليكم ونزل بكم من أنواع العذاب؟ ولن تسألوا عن سبب ما نزل بكم من تعذيب لكم، وتدمير لمساكنكم، لأنكم واقعون في قَبْضةِ الإهلاك، فلا تُسألون عن شيءٍ، ولا تجيبون على شيءٍ.

١٤، ١٥ - فلمَّا عاينوا العذاب، أقرُّوا بجرائمهم حين لم ينفعهم الندم، قالوا: يا هلاكنا، إنَّا كنَّا ظالمين لأنفسنا ظلماً شديداً من دَرَكَة الكفر العنيد. فما زالتْ تلك المقالة - وهي الدعاء على أنفسهم بالهلاك، والاعتراف بالظلم - دَعْوَتَهُم يُرَدِّدونها، يستعطفون ربَّهم أن يرفع عنهم ما أنزل بهم، حتى جعلناهم في الهلاك والاستئصال مثل الزرع المحصود، خامدين لا حياة فيهم كخمود النار إذا طفئت.

١٦ - وما خلقنا السماء والأرض، وما بينهما من المخلوقات البديعة الصُّنع، المُحكمة التدبير، لاعبين دون هدفٍ نقصده، بل خلقناهم للتفكُّر في خلقهما، وما فيهما من العجائب والمنافع التي لا تُحصى.

١٧ - لو أردنا بعظمتنا وجلالنا أن نَتَّخذَ لهواً ما نُلهى به، لما اتخذناه من عبادٍ يفرحون ويحزنون، ويتألمون ويُسَرُّون، إلى سائر المشاعر المُتضادَّة، بل لو شئنا لاتَّخذناه من مخلوقات لا أحاسيس لها ولا مشاعر ولا حياة، فكيف تغفلون عن هذه الحقيقة؟ إن كنَّا فاعلين على سبيل الافتراض الاحتماليِّ الذي نتنزَّه عنه، ولا نفعله.

١٨ - دَع ذلك الذي قالوه فإنَّه كَذِبٌ وباطل، ومن سُنَّتنا أن نرمي بالحقِّ الفكري، ونُوجِّه أدلَّته ضدَّ الباطل الفكريِّ الذي يجادل به المبْطلون، فيصيب دماغه، فيمْحَقه ويُهلكه، فإذا الباطل ذاهبٌ هالكٌ بسرعة دون أن يكون له ثبات أو قدرة على المقاومة، ولكم - يا معشر الكفار - الهلاك والعذاب من أجل ما تصفون الله تعالى بما لا يليق به من الصَّاحبة والولد.

١٩، ٢٠ - ولله سبحانه كلُّ مَنْ في السموات من الملائكة، ومنْ في الأرض من الإنس والجن، والملائكةُ المقرَّبون منه، لا يتكبَّرون ممتنعين عن عبادته، ولا يتعبون ولا يملُّون. يذكرون الله ويُنزِّهونه دائماً، لا يَضْعفُون، ولا يسكن نشاطهم بفتورٍ يعرض لهم عن تنزيه الله تعالى وتعظيمه وطاعته.

٢١ - إضراباً عن مقالات المشركين السابقة، وعن مواقفهم الضالَّة من القرآن والرسول؛ أَتَّخَذَ المشركون أصناماً من أجزاء الأرض؟ أهم يَبعثون الأموات من قبورهم؟ لا، ولا يكون إلهاً إلاَّ مَنْ يُحيي الموتى.

٢٢ - لو كان في السموات والأرض آلهةٌ حقيقية غير الله، تُدبِّر شؤونهما، لخَرَجتا عن نظامهما، ولاختلَّ تماسكهما، وهَلَك مَنْ فيهما؛ لأنَّ الإراداتِ الحرَّة إذا توجَّهت شَطْرَ مخلوق، فلا بدَّ أن تَتَعارض، ومتى تعارَضَت تَنَازعت، ومتى تنازَعَت فَسَدَ نظام المخلوق، والكونُ كلُّه مخلوقٌ مترابطٌ بوحدةِ نظام وتسْيير كما هو مُشاهَد، فلو كان فيه آلهةٌ أرباب غير الله لفسد نظامُهُ، واختلَّ بقاؤه، فتنزَّهَ الله خالق العرش؛ أعظم المخلوقات وأكبرها عمَّا يصفه به المشركون من الشَّريك والولد وكلِّ نقص.

٢٣ - لا أحد يَسْألُ الله ربَّ العرش عمَّا يفعله ويقْضيه في خلقه مُحاسباً له على أفعاله واختياراته، لأنه الربُّ المالك المُتصرِّف، وكلُّ أفعاله حكيمة مطابقة للعدل أو الفضل، وكلُّ ذوي الإرادات الحُرَّة يُسألون عن أعمالهم، ويُحاسبون عليها.

٢٤ - إضراباً عن اتِّخاذ المشركين آلهةً أرباباً، أتَّخذُوا من دون الله آلهةً تنفع وتضرُّ وتُحيي وتميت؟ قل - يا رسول الله - لهؤلاء المشركين: هاتُوا برهَانَكم، على أنَّ الله أمركم بعبادة آلهتكم في كتابٍ مُنزَّل أو أذِنَ لكم به، هذا القرآنُ فيه خبرُ مَنْ معي من المؤمنين، ومن يتَّبعني إلى يوم القيامة، وخبرُ من قبلي من الأمم السَّالفة وما فعلَ الله بهم في الدنيا، وما يفعل بهم في الآخرة، فهل في كتابٍ من كتب الله الصحيحة النسبة إلى الله ما يدلُّ على أنَّ الله أمر أو أذن بعبادة آلهةٍ من دونه؟! بل أكثَرُهُم لا يحبُّون أن يعلموا الحقَّ، فهم مُعرضونَ لا يريدون استماعَ براهينِ الحقِّ.

وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ
إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٢٥﴾ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۚ
بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم
بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ
وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ
﴿٢٨﴾ ۞ وَمَن يَقُلۡ مِنۡهُمۡ إِنِّيٓ إِلَٰهٞ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجۡزِيهِ
جَهَنَّمَۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ أَوَلَمۡ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ
أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ كَانَتَا رَتۡقٗا فَفَتَقۡنَٰهُمَاۖ وَجَعَلۡنَا
مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّۚ أَفَلَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ
رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمۡ وَجَعَلۡنَا فِيهَا فِجَاجٗا سُبُلٗا لَّعَلَّهُمۡ
يَهۡتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ سَقۡفٗا مَّحۡفُوظٗاۖ وَهُمۡ عَنۡ
ءَايَٰتِهَا مُعۡرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ
وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا جَعَلۡنَا لِبَشَرٖ مِّن قَبۡلِكَ
ٱلۡخُلۡدَۖ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلۡخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ
ٱلۡمَوۡتِۗ وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ وَإِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ﴿٣٥﴾

٢٥ - وما أرسلنا من قبلك - يا رسول الله - من رسول إلا نُوحي إليه أنَّه لا معبود يُعبدُ بحقٍّ إلا أنا، فوحِّدوني وأخلصوا العبادةَ لي.

٢٦ - وقال المشركون: اتَّخذ الرحمٰن ولداً بزعمهم أنَّ الملائكة بناتُ الله، تنزَّه الله سبحانه عمَّا قالوا، بل الملائكة عبادٌ من عباد الله مُنزَّهون بما فطرهم الله عليه عن المعاصي وعن مخالفة أوامر الله ونواهيه، ولهم مراتب ومنازل رفيعة عند الله.

٢٧ - لا يَتقدَّمونه بالقول، فلا يتكلَّمون إلا بما يأمرهم به ربُّهم، وهم بأمره يعملون، لا يُخالفونه قولاً ولا عملاً.

٢٨ - يعلم سبحانه كلَّ شيء سَبَق أن عملوه، وهو الذي بين أيديهم، ويعلمُ كلَّ شيء سيعملونه في المستقبل، وهو الذي خلفهم لا يعلمونه، ولا يَشْفعون إلا بإذنه لمن ارتضى الله أن يشفعوا له، وهم من شدَّة شعورهم بعظمته وجلاله وقدرته يخشونه خشيةَ المُجلِّ المُعظِّم المُحبِّ الخاضع الذليل، وهم مُشْفِقُون من سَطْوته وبطشه، فلا يحيدون عن طاعتِهِ مقدارَ شعرة.

٢٩ - ومن يَقُل من الملائكة: إنِّي إلهٌ من دون الله، فذلك المنحطُّ في دَرَكات الإثم، نَجْزيه عذاباً في جهنَّم خالداً فيها، كذلك الجزاء الأليم نجزي كُلَّ الظالمين الواضعين الإلهيَّة والعبادة في غير موضعها.

٣٠ - أعَمِيَ الذين كفروا من علماء الكونيَّات ولم يَرَوْا رؤيةً فكريَّةً تشبه الرؤية البصريَّة، أنَّ السمواتِ والأرضَ كانتا كتلةً واحدةً مجتمعةً، ليس بينهما انفصال، فقسمناهما إلى سبع سموات ومجرَّات كثيرات فيها بلايين النجوم والكواكب، ومنها الأرض، وأنزلنا المطر من السماء، وأخرجنا النباتَ من الأرض، وأحيَيْنَا بالماء النازل من السماء والنابع من الأرض كلَّ شيءٍ من الحيوان والنبات، أفلا يُصَدِّقون بما يُشاهدون؟

٣١ - وجعلنا في الأرض جبالاً ثوابتَ؛ مَنْعَ أن تتحرَّك بهم، وجعلنا في الأرض طُرقاً ومَسَالك واسعة بين الجبال؛ رغبة أن يهتدوا إلى مقاصدهم.

٣٢ - وجعلنا الغلاف الغازي حول الأرض سقْفاً محفوظاً ممَّا يُفسده ويُغيِّر نظامه، وهو حافظ للأرض من أشعَّةٍ ضارَّةٍ تأتي من الشمس وغيرها من النجوم، وحافظٌ لها من الأجرام التي تنجذب إليها، إذ تتجزَّأ وتتلاشى، والذين كفروا مُعرضون عن الاستفادة من آيات الله في السماء، لا يتفكَّرون ولا يعتبرون.

٣٣ - واللَّهُ الذي خَلق الليل؛ لتسكنوا فيه، والنهار؛ لتتصرَّفوا فيه، وخلق الشَّمسَ والقمر، كلٌّ منهما يجري في مداره، ويسير بسرعة كالسابح في الماء، دون أن يتعرَّضا لخللٍ يُخرجهما عن النظام المُقدَّر لهما.

٣٤ - وما جَعَلنا لبشرٍ من قبلك - يا رسول الله - الدوام والبقاء في الحياة الدنيا، أفإن مِتَّ أنت عقب انتهاء أجلك المقدَّر لك، أفيبقى في الدنيا هؤلاء الشامتون بموتك؟

٣٥ - كلُّ نفسٍ مخلوقة ذائقةُ طعْمَ الموت بالفَصْل الكُلِّي بين الرُّوح المُمدَّة بالحياة، وبين النفس التي تجتمع فيها خصائص الكائن القابل للحياة، ونختبركم بالمصائب والمُؤلمات الدنيويَّة، والنِّعم والأمور السارَّة الدنيويَّة؛ لنمتحن إراداتكم في هذه الحياة الدنيا، فمن اجْتاز الابتلاء بنجاح كانت المصائب والمُؤلمات الدنيويَّة سببَ خير كبير له في الآخرة، ومَنْ تجاوز حدود الله، وآثر الحياة الدنيا لم تنفعه النِّعم والخيرات الكثيرات التي تمتَّع بها في دنياه، بل تكون عليه وَبالاً يوم القيامة، وإلينا وحدنا تُرجعون للحساب، وفصل القضاء، وتنفيذ الجزاء.

وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا
أَهَٰذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ
هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٦﴾ خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ ۚ سَأُرِيكُمْ
آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ
إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ
لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا
هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا
يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ
بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ
يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ
الرَّحْمَٰنِ ۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ
لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ
أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰؤُلَاءِ
وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي
الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾

٣٦ ـ وإذا رآك ـ يا رسول الله ـ أئمة الكفر، ما يتَّخذونك إلا سُخْرِيّاً، قائلين لأتباعهم: هذا الذي يعيبُ آلهتكم التي تعبدونها بتقْبيحها وعيْبها وبيان عجزها وضعفها؟ والحال أنهم بالذِّكر المنزَّل من الرحمن هم جاحدون لا يُصَدِّقون.

٣٧ ـ خُلِقَ الإنسان مجبولاً مطبوعاً على العَجَلة والتسرُّع وقلة التأنِّي والتثبُّت، يستعجل الأشياء قبل وقتها، وقد تكون مُضِرَّة به، ومن ذلك: استعجال المشركين العذاب الذي أُوعدوا به، سأريكم ـ أيُّها المشركون ـ آياتي الجزائيَّة: المُعجَّل منها في الدنيا، والمُؤجَّل منها إلى يوم الدين، فلا تطلبوا العذاب قبل وقته.

٣٨ ـ ويقول المشركون غُلوّاً في تكذيبهم للرسول وللمؤمنين: في أيِّ زمنٍ يتحقَّق هذا الوعد إنْ كان ما تخبرون به خبراً صادقاً؟ أخبرونا إن كنتم صادقين؟!

٣٩ ـ لو يعلم الذين كفروا ما سوف يحصل لهم يوم الدين، حين يُلقَوْن في النار، فلا يستطيعون أن يدفعوا عن وجوههم لهب النَّار، ولا عن ظهورهم السِّياط، ولا يجدون ناصراً ينصرهم من عذاب الله. لو علموا ما يلاقونه لما أقاموا على كفرهم، ولما استعجلوا بالعذاب، وقالوا: متى هذا الوعد إن كنتم صادقين؟

٤٠ ـ بل تأتيهم الساعة الموعودون بها وبعذابها فجأة من غير شعور بمجيئها، فتُحيِّرهم وتدهشهم، فلا يستطيعون صَرفَها ودفعها عنهم، ولا هم يُمهلون للتوبة والمعذرة.

٤١ ـ ونؤكِّد لك تأكيداً شديداً أنه استُهزِىء برسلٍ كثيرين من قبلك ـ يا رسول الله ـ كما اسْتَهزأ بك قومُك، فَنَزَلَ وأحاط بالمستهزئين عقوبةَ استهزائهم الأليم المُهلك، فكذلك يحيق بهؤلاء المستهزئين وبالُ استهزائهم، ويكفيك شرهم وكيدهم.

٤٢ ـ قل ـ يا رسول الله ـ لهؤلاء المُستعجلين بالعذاب: مَنْ يحفظُكُم ويحرسكم بالليل إذا نمتم، وبالنهار إذا انصرفتم في معايشكم، ومَنْ يمنعكم من عذاب الرَّحمٰن إنْ أتاكم ليلاً أو نهاراً؟ لكنهم لا يبالون بأن يجيبوا عن هذا السؤال، بل هم عن ذكر خالقهم ورازقهم ومُمدِّهم بعطاءات ربوبيَّته مُعرضون دواماً لا يتأمَّلون في شيءٍ من آيات القرآن.

٤٣ ـ إضْراباً عن إعراض المشركين عن آيات القرآن الذي فيه شرفُهم وعزُّهم، والذي يجبُ أن يكون ذكراً يتفهَّمون معانيه ويتدبَّرونه؛ أَلِلْمُشركين المُسْتعجلين بالعذاب آلهةٌ من دون ربوبيَّتنا المُهَيْمنة على كلِّ شيءٍ تمنعهم من عذابنا؟ إنَّ آلهتهم المزعومة لا يَقْدرون على نصر أنفسهم منا، فكيف يَنْصُرون مَنْ عَبَدَهُم؟ ولا هم منا بمصحوبين بالنَّصر والتأييد، فهم في غاية العجز.

٤٤ ـ بل متَّعنا هؤلاء الكفار وآباءَهم بما أنعمنا عليهم في الحياة الدنيا، حتى امتدَّ بهم الزمن، فاغترُّوا بما أنعمنا عليهم، واستمرُّوا على كفرهم، وظنُّوا أنهم سيستمرُّون في عافيةٍ، وسيبقى لهم واقعُ التفوُّق على الرسول وعلى المؤمنين في الأموال والقوَّة القتاليَّة.
أما زال المؤهَّلون لإدراك حكمتنا في الإمهال، وإطالة الآجال غارقين في غَفَلاتهم، فلا يَرَوْن أنا نأتي الأرض اليابسة من أطرافها المُلاصقة للبحار، فنضربها بأمواج البحار، وحركة المدِّ والجزر في أزمان طويلة، فننقصُ الأرضَ اليابسةَ من أطرافها.
أفبعد هذا التقدير المَقْضيِّ منَّا يتصوَّر الكفرة المشركون أن يكونوا هم الغالبين لرسولنا وللمسلمين؟! إنهم واهمون مغرورون جاهلون بسُنَّتنا في كوننا.

قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴿٤٧﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾ ۞ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾

٤٥ ـ قل لهم ـ يا رسول الله ـ: ما أُخَوِّفكم إلاَّ بالوحي الذي يوحيه الله إليَّ، لا من قِبَل نفسي، ولا يسمعُ نداءك ودعاءك الكفَّارُ المصابون بداء الصَّمم إذا ما يُخَوَّفون بعذاب الله؛ إذ هم مفتونون بمتاعات الدنيا وزينتها.

٤٦ ـ وأقسم لئن مسَّ الكفار نفحةٌ خفيفةٌ من عذاب ربِّك الذي كانوا يستعجلونه استهزاءً، ليقولُنَّ عندما يمسُّهم أقلُّ شيء من العذاب في الحياة الدنيا: يا هلاكنا إنا كنَّا ظالمين بالإشراك وتكذيب محمد، فيعترفون حين لا ينفعهم الاعتراف.

٤٧ ـ ونُحضِرُ الموازينَ العادلة لأهل يوم القيامة، فتُوزن بها أعمال العباد الذين كانوا موضوعين موضع الامتحان في الدنيا، فلا تُبْخَس نفسٌ ممَّا لها وما عليها من خيرٍ وشرٍ شيئاً، فلا يُنقص من إحسان المحسن شيءٌ ما، ولا يُزاد في إساءة المسيء شيءٌ ما، وإنْ كان هذا العمل مقدار حبَّةٍ من خردل أحضرناها لنُجازي بها، وكفى بنا عادِّين ومُحْصين، ومُقدِّرين لكلِّ شيءٍ كبيراً كان أم صغيراً.

٤٨ ـ وأقسم مُؤكِّداً لكم أننا آتَيْنا موسى وهارون كتاب التوراة المُفرِّق بين الحقّ والباطل، وضياءً يُستضاء به في ظلمات الجهل والغَواية، ويُتَوصَّل به إلى سبيل النجاة، وذكراً للمُتَّقين الذين يجعلون بينهم وبين عذاب الله وقايةً، ويتفهَّمون معاني الكتاب ويتدبَّرونها، للعمل بها طاعةً لله، وسعياً لنيْل رضوانه.

٤٩ ـ المتَّقون هم الذين يخافون عقاب ربِّهم، وهو غيبٌ بالنسبة إلى حواسِّهم، وخوفُهم من عذاب ربِّهم ممزوجٌ بإجلاله وإعظامه وحبِّه، وهم من أهوال يوم القيامة خائفون حَذِرُون.

٥٠ ـ كما آتينا موسى التوراة، فكذلك أنزلنا القرآن على رسولنا محمد ذكراً يجب أن تتفهَّموا معانيه، وتتذكَّروا منها في كلِّ مناسبة ما يُلائمها للعمل بها طاعةً لنا، وسعياً لنيْل رضواننا، وهو ذو بركة زائدة على ما اشتمل عليه كتاب التوراة، ذو خيرات كثيرات جداً فكريَّة ونفسيَّة وشفائيَّة، أما زلتم ـ أيها الكفرة ـ على ضلالكم القديم، فأنتم تنكرون القرآن، وتكذِّبون الرسولَ المُبلِّغ له؟!

٥١ ـ وأقسمُ مُؤكِّداً لكم أننا آتينا إبراهيم هدايته الكاملة إلى وجوهِ الصَّلاح في الدين والدنيا من قبل إرسال محمدٍ وإنزال القرآن عليه، وكنَّا به عالمين أنَّه من أهل الهداية والنبوَّة.

٥٢ ـ حين قال لأبيه وقومه: ما حقيقة هذه الأصنام التي أنتم مُلازمون لها مقيمون على عبادتها، وأنتم قد صنعتموها بأيديكم؟

٥٣ ـ قالوا: نحن نعبدها تقليداً لآبائنا، إذْ وَجَدناهم لها عابدين.

٥٤ ـ قال لهم إبراهيم: لقد كنتم أنتم وآباؤكم بعبادتكم إيَّاها في خطأ ظاهر وضَيَاعٍ عن الحقِّ واضحٍ جليٍّ.

٥٥ ـ قالوا: أجئتنا بالحقِّ في قولك هذا، أم أنت لاعب مازحٌ فيما تقول؟

٥٦ ـ قال لهم إبراهيم: أنا لست من اللاعبين، بل خالقكم ورازقكم المُستحقُّ للعبادة الذي يجب أن تدعوه وتعبدوه وحده هو ربُّ السموات والأرض الذي خلقهنَّ ابتداءً، وأبدعهنَّ على غير مثال سبق، وأنا على الذي قلتُه من الشَّاهدين شهوداً فكرياً مقروناً بالحُجج البرهانيَّة، ومن المؤمنين به الذين يعلنون شهادتهم به، شهادةً باللسان مُطابقة لما في الفؤاد من إيمان راسخ الأركان، ثابت البنيان.

٥٧ ـ وأقْسَمَ بينه وبين نفسه دون أن يُسمعهم ما عَزَم عليه: تاللَّهِ، لأُدبِّرنَّ التدبير الذي فيه مكروه بأصنامكم بعدَ ذهابكم عنها مُنْطلقين إلى عيدكم، وكان لهم عيدٌ في كلِّ سنة يجتمعون فيه، فَدَعَوْهُ إلى الخروج معهم، فلم يخرج قائلاً: «إني سقيم».

فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴿٧٢﴾

٥٨ ـ فحطَّم إبراهيمُ الأصنامَ بعد ذهابهم إلى مجتمعهم في يوم عيدٍ لهم، وجَعَلَهم كِسَراً وقطَعاً، إلا صنماً كبيراً لهم تركه ولم يكسره، ووضع الفأس في عنقه؛ رغبةً في أن يرجعوا إلى إبراهيم وما يدعوهم إليه إذا علموا ضعفَ الآلهة وعجزها.

٥٩ ـ فلمَّا رجع القوم من عيدهم إلى بيت آلهتهم، رأوا أصنامهم مُكسَّرة مُحطَّمة، إلا صنماً كبيراً فيها، قالوا: مَنْ فعل هذا بآلهتنا؟ إنَّه في تكسيرها واجترائه عليها لمن المتجاوزين حدود الحق الذي يؤمن قومنا به.

٦٠ ـ قال بعضهم لبعض: سمعنا شاباً فتىً يَعيبُهم ويَسبُّهم، يقال له: إبراهيم، نظنُّ أنه صَنَع هذا.

٦١ ـ قال رؤساؤهم: فأتوا به ظاهراً بمَرأى من الناس؛ ليشهدوا مُساءلتنا له، وما نحكم به عليه، إذا ثبت أنه هو الذي حطَّم أصنامنا.

٦٢ ـ فلمَّا أَتوا بإبراهيم، وأحضروه أمام جمع حاشد في معبد أصنامهم، قالوا له: أأَنتَ فعلت هذا التحطيمَ والتكسير بآلهتنا من الأصنام يا إبراهيم؟!

٦٣ ـ قال إبراهيم مُتهكِّماً بهم؛ ليُلْزِمهم بالحُجَّة العمليَّة، ويُظهر لهم أنَّ أصنامهم لا تستطيع أن تنتصر لنفسها، فضلاً عن أن تنصرهم: لم أفعله أنا، بل فعله كبيرُهم هذا، فقد غضب إذْ تعبدون معه هذه الأصنام الصِّغار، وهو أكبر منها، فَكَسَرَهُنَّ، فاسْألوا آلهتكم المزعومة حتى يُخبروا بمن فعل ذلك بهم، إن كانوا يتكلمون.

٦٤ ـ فرجعوا إلى عُمق أنفسهم يُحاكمونها، فقالوا: ما نراه إلا كما قال، إنكم أنتم الظالمون بعبادتكم هذه الأوثان القابلة للتحطيم والتكسير دون أن تستطيع الدفاع عن نفسها.

٦٥ ـ لكنهم بعد ذلك رجعت إليهم عوامل كِبْرهم، وحميَّتهم الجاهلية القائمة على الولاء للآباء والأجداد، فانقلبت مفاهيمهم، فنكسوا على رؤوسهم؛ إذ صار أعلاهم وهو موضع جهاز العلم فيهم في موضع أقدامهم، فأخذوا في المجَادلة بالباطل، وقالوا لإبراهيم: لقد علمتَ ما هؤلاء ينطقون، فكيف تطلب منا أن نسألهم عمَّن حطَّمهم؟!

٦٦، ٦٧ ـ قال لهم إبراهيم: أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً إنْ عبدتموه، ولا يَضُرُّكم شيئاً إن تركتم عبادته؟ «أفّ» أُوَجِّهُهَا لكم ولما تعبدون من دون الله، فقد أَضْجَرتموني من قَذَارة أعمالكم، وحَقَارة أصنامكم التي تعبدونها من دون الله، أَنْطَمَسَت بصائركم، وذهبت عقولكم، فأنتم لا تعقلون، لا عقلاً علمياً، ولا عقلاً إرادياً؟

٦٨ ـ فلمَّا لزمتهم الحُجَّة وعَجَزوا عن الجواب، وبلغ الغضبُ من قومه مَبْلَغَهُ الأقصى، قال بعضهم لبعض: حَرِّقوا إبراهيم، وانْصُروا آلِهَتكم التي حطَّمها ظلماً وعدواناً، إن كنتم عازمين على أن تعاقبوه معاقبةً رادعةً لكلِّ مَنْ يخالف دينكم، وتُسوِّل له نفسُه أن يفعل مثلما فعل إبراهيم.

٦٩، ٧٠ ـ فأشعلوا ناراً عظيمةً، فألقوه فيها، فقال اللَّهُ عزَّ وجلّ للنَّار: كُوني بَرداً وسلاماً على إبراهيم، فَنَزَع الله عنها طبعها الذي طبعها عليه من الحرِّ والإحراق، ولم يَنَلْه منها أذى. وأراد كبراء قومه أن يُنزلوا به كَيْداً، فأبطل الله كَيْدَهم، ولم يحصل لهم مرادُهُم، وجعلنا الذين دبَّروا له كَيْد الحريق هم الأخسرين، إذ أخذت مشاعر جماهير قومه تعتقد بطلان الشرك، وفساد عبادة الأوثان.

٧١ ـ وَنَجَّيْنا إبراهيم وابنَ أخيه لوطاً من نمرود وقومه في العراق، وأخرجْناهما إلى أرض الشَّام التي باركنا فيها بكثرة الأنبياء، وزيادة الخيرات الماديَّة والمعنويَّة.

٧٢ ـ وَوَهَبْنا لإبراهيم، بعد إسماعيل من الأمَة المصرية «هاجر»، ابنَهُ إسحاق من زوجته «سارة» العجوز العقيم بخارقةٍ ربَّانيَّةٍ استجابةً لدعائه، وزِدناه على ما سأل ولد الولد: يعقوب بن إسحاق، عطيَّةً من عطائنا، وجعلنا كلاً من إبراهيم وإسحاق ويعقوب أنبياء في أعلى درجات الصالحيِّن.

وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾

٧٣ ـ وجعلنا إبراهيمَ وإسحاق ويعقوب قُدوةً يُهتدى بهم في الخير والصلاح، وأئمةً يُؤتَمُّ بهم؛ إذ جعلناهم رسلاً يدعون الناسَ إلى عبادتنا وطاعتنا بأمرنا، وأوْحَيْنا إليهم فعل الأعمال الصالحة التي يُحبُّ الله من عباده أن يعملوها، وأوحينا إليهم أيضاً المُحافَظَةَ على الصَّلاة وإقامتها على وجهها، وإيتاء الزكاة، فامتثلوا أمرنا، وكانوا لعظيم ربوبيَّتنا وإلهيَّتنا مُوحِّدين مطيعين.

٧٤ ـ وآتينا لوطاً النبوَّة وفَصْل القضاء بين الخُصوم، وفقهاً في الدين، ونجَّيْناه من قرية «سدوم» التي كان أهلها يعملون النَّجِسَات القَذِرات التي فيها ضررٌ لهم في أجسادهم ونفوسهم ودينهم، ويأْتون الذكور في أدبارهم، إنهم كانوا قوم فسادٍ وفعلٍ مكروه، خارجين عن طاعة الله عزَّ وجلَّ بكفرهم وخبائثهم.

٧٥ ـ وأدخلناه في رحمتنا، فهو مشمولٌ بها، ومن آثار رحمتنا: إنْجاؤه ممَّا حلَّ بقومه في الدنيا، وإدخاله جنَّتنا في الآخرة؛ إنَّه من الكاملين في الصلاح.

٧٦ ـ وضع في ذاكرتك ـ أيها المُتلقِّي لبياننا ـ نوحاً حين نادىٰ ربَّه من قبل إبراهيم ولوط، فأَجَبْنا دعاءَهُ، فنَجَّيْناهُ وأهلَه المؤمنين به من الغمِّ العظيم.

٧٧ ـ ونصرناه مُنتقمين من كفار قومه الَّذين كذَّبوا بآياتِنا المنزَّلة عليه، الدالَّة على صدقه، إنَّهم كانوا قومَ فساد وشرٍّ وإثم وطغيان، فأغرقناهم بالطُّوفان أجمعين.

٧٨ ـ وضع في ذاكرتك ـ أيُّها المُتَلقِّي ـ قصَّة نبيِّ الله داود وابنه سليمان، التي كانت وقت حُكمهما في زرع حين دخلت فيه غنم قوم، وانتشرت فيه لَيْلاً دون راع، فأتلفت الزرع، وأفسدته على أصحابه، فحكم داود بأنْ تكون الغنم لصاحب الزرع ملكاً له بقيمةِ الزَّرع الذي أَتْلَفَتْهُ، وكُنَّا لحكم داودَ وسليمان على علمٍ ومرأىً منّا، لم يغب عنا.

٧٩ ـ فَفَهَّمنا سليمانَ وألهمناه حكم القضيَّة الأقرب لكمال العدل، فحكم على صاحب الغنم بإصلاح الزَّرع التالف في فترةٍ يستفيد منها صاحب الزرع بمنافع الغنم من لبنٍ وصوف، ثمَّ تعود الغنم إلى صاحبها، والزرعُ إلى صاحبه؛ لمساواةِ قيمة ما تلف من الزرع لمنفعة الغنم، وكلاً من داود وسليمان آتينا حكماً وعلماً بوجوهِ الاجتهادِ وطُرقِ الأحكام وحُسْن الإدارة، وذلَّلنا وَفْق قانون التكوين الجبْري، مع داود الجبالَ يُسَبِّحنَ معه إذا سبَّح، وكذلك تُسبِّح الطير، وكُنَّا قادرين على تنفيذ ما سبق أن قدَّرناه وقضَيْناه بالأمر التكويني، فتحقَّق في الواقع على وَفْق سابق التقدير والقضاء.

وفي هذه القصَّة بيَّن الله تعالى لنا احتمال تعرُّض قضيَّةٍ لصورتَيْن من وسائل تحقيق الحقّ، إلا أنَّ إحداهما أحسَنُ من الأخرىٰ، وقد آتى الله تعالى سليمان بن داود عليهما السلام فهماً أكثر دقَّة، وفتح عليه بأنْ يقْضي بحكم أحسن من حكم أبيه.

لقد نظر سليمان عليه السلام إلى صاحب الغنم، فرأى أنه سَيَخْسَرُ كلَّ ماله، ولا يبْقىٰ لديه شيءٌ، مع أنَّ بالإمكان تكليفه تسديدَ الحقّ، مع الرِّفق به في أن تبقى غنمه له متى سدَّد الحقَّ الذي عليه. فكان اجتهاده أن تُسلَّم الغنم لصاحب الأرض يستفيد من ألبانها وأصوافها، وأنْ تُسلَّم الأرض لصاحب الغنم كي يَزْرعَها ويُصْلحها، فإذا بلغ الزرع مثلَ ما كان عليه عند الإتْلاف تَسَلَّم صاحب الأرض أرضَهُ، وتَسلَّم صاحبُ الغنم غَنَمَهُ. إنَّ الحكمَيْن كليهما يقعان ضمن احتمالات صور تسديد الحق، لكنَّ حكم سليمان على حَدَاثة سنِّه، وقلة تجربته كان أحسن في هذه القضية من حكم أبيه داود عليهما السلام.

٨٠ ـ وعلَّمنا داودَ عليه السلام صَنْعة الدروع التي تُلبَسُ في الحرب كالثوب، يعملها حلقاً متشابكةً، تُسهِّل حركة الجسم؛ لتقيَكُم من شرور حروبكم، ولتحميَ أجسادكم من ضربات سيوف ورماح وسهام بعضكم لبعض في الحرب، وابتغاء سلامَتِكُم، فهل أنتم شاكرون نعمة الله عليكم بهدايتكم إلى وسائل سلامتكم؟ فاشكروا الله على ذلك. وفي الآية دليل على تعلُّم أهل العلم الصنائع، وأنَّها لا تنقص من مناصبهم، بل ذلك زيادة في فضلهم، إذ يحصل لهم التواضع في أنفسهم، والاستغناء عن غيرهم.

٨١ ـ وَسَخَّرنا لسليمانَ الريحَ، حالة كونها شديدةَ الهبوب، وخفيفة بحسب إرادته، تجري بأمره إلى «بيت المقدس» بأرض الشام التي باركنا فيها بكثرة الخيرات الماديَّة والمعنويَّة، وقد أحاط علمنا بكلِّ شيء، فتجري الأشياء كلها على ما يقتضيه علمنا.



وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعۡمَلُونَ عَمَلٗا دُونَ ذَٰلِكَۖ وَكُنَّا لَهُمۡ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾ ۞ وَأَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَكَشَفۡنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرّٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِدۡرِيسَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدۡخَلۡنَٰهُمۡ فِي رَحۡمَتِنَآۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَزَكَرِيَّآ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾

٨٢ - وسخَّرنا لسُليمانَ من الشَّياطين مَنْ يدخلون تحت الماء، فيُخرجون له من قعر البحر الجواهر واللآلىء وما يشاء استخراجه منها، ويعملون عملاً دون الغَوْص، من اختراع الصنائع العجيبة، وبناء المحاريب والتماثيل والقصور، ونحو ذلك من أعمالٍ هي أقلُّ مشقةً من الغوص في البحار، وكُنَّا بسُلطاننا وقوَّتنا حافظين لهم من الزَّيغ حتى لا يخرجوا عن أمرِه، فَمَن أراد منهم أن يميل عن أمره نذقه من عذاب السعير.

٨٣ - وضع في ذاكرتك - أيها المُتلقِّي لبياننا - ما دَعَا به أيّوب ربَّه ليرفع عنه الضُّرَّ الذي مسَّه وطال أمدُهُ فيه حين قال في دعائه لربِّه مُتوجِّهاً إليه بقلبه ونفسه: أنِّي مسَّني الضُّررُ، فاكشفه عنّي، وأنتَ أرحمُ الراحمين.

٨٤ - فأَجَبْنا دعاءَهُ، فأزلنا ما به من سوء الحال في جسده، ورفعنا عنه البلاءَ، وردَدنا عليه ما فَقَدَه من أهله وأولاده، وأعطيناه مثلهم معهم، فَعَلنا به ذلك رحمةً عظيمةً من عندنا، وليكون قدوةً لكلِّ صابرٍ على البلاء، راجٍ رحمةَ ربِّه، مُنقادٍ له سبحانه بالعبوديَّة والتذلُّل.

٨٥ - وضع في ذاكرتك - أيها المُتلقِّي لبياننا - إسماعيلَ وإدريسَ وذا الكفْل، كلٌّ هؤلاء الأنبياء صَبَروا على طاعة الله سبحانه وتعالى، وعن معاصيه، وعلى المحن والشدائد، فاستحقوا الذكر بالثناء الجميل.

٨٦ - وأدخلناهم في رحمتنا العظيمة، إنَّهم من زمرة الصَّالحين الكاملين في الصلاح. الذين صَلَحت بواطنُهم وظواهرهُم، وأطاعوا الله سبحانه وعملوا بما أمرهم به.

٨٧ - وضع في ذاكرتك - أيُّها المُتلقِّي لكلام ربِّك - «قصَّة يونس ابن مَتَّى» عليه السلام، صاحب الحوت، حين انصرف عن قومه، مُغاضباً لهم من أجل دين ربِّه، ضائقاً صدره بعصيانهم، دون أن نأمره بفراقهم، وظنَّ باجتهادٍ منه أن لن نُضَيِّق عليه، عقاباً له على ترك قومه من غير أمرنا، فابتلاه الله بشدَّة الضيق والحبْس، والتقمَهُ الحوت في البحر، فنادىٰ ربَّه في الظلمات؛ ظلمة الليل، وظلمة البحر، وظلمة جوف فم الحوت تائباً معترفاً بذنبه؛ لتركه الصبر على قومه، قائلاً: لا إله معبود بحقٍّ في الوجود كلِّه إلا أنت، تنزَّهْتَ عن كلِّ شريك، وعن كلِّ ما لا يليق بربوبيَّتكَ وإلٰهيَّتك، أُؤكِّد اعترافي بذنبي، إذ ذهبتُ مُغاضباً قومي الذين لم يستجيبوا لي، قبل أن تأذن لي بانصرافي عنهم.

٨٨ - فاستَجَبْنا له دعاءَهُ، وخلَّصناه من تلك الظُّلمات، وقدَّرنا أن يلفظَهُ الحوت على اليابسة قريباً من شاطىء البحر، ففعل، ومثلُ هذا التخليص من الغَمِّ نُخَلِّصُ سائر المؤمنين الصَّادقين كاملي الإيمان من الكروب ضمن سُنَّتنا في تصاريفنا بعبادنا إذا دَعَونا واستغاثوا بنا.

٨٩ - وضع في ذاكرتك - أيُّها المُتلقِّي لكلام ربِّك - قصَّة زكريا حين نادى ربَّه مُتَوجِّهاً بقلبه في دعائه، أن يرزقه الذرِّيَّة لما كبرت سنُّه قائلاً: ربِّ لا تتركني وحيداً منقطعاً لا ولد لي يساعدني، فارزُقني وارثاً يرث النبوَّة والعلم الديني من بعدي، وأنت الأزليُّ الأبديُّ الباقي بعد فناء الخَلْق، وخير من تَرْجِعُ كلُّ الأشياء والأحياء إلى محض ملكه.

٩٠ - فاسْتَجَبْنا له دعاءَهُ، وَوَهَبْنا له على الكبر من محض فضلنا الواسع، وقُدرتنا الباهرة ولداً ذكراً سمَّيناه يحيى، وجَعَلنا زوجه ولوداً بعد ما كانت عقيمة؛ إنَّهم كانوا أهل بيت يُسَارِعون في السَّير في طريق فعل الخيرات من الأقوال والأفعال والنيَّات، وَيدعوننا دواماً راغبين وراهبين، طمعاً في ثوابنا العظيم، وخوفاً من عقابنا الأليم، وكانوا لنا خائفين مُتذلِّلين متواضعين لربِّهم، ساكنين في عباداتهم وصلواتهم.

وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩١﴾ إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ ﴿٩٣﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ ﴿٩٤﴾ وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾ حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٩٧﴾ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰؤُلَاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾

٩١ ـ وضع في ذاكرتك ـ أيها المُتلقِّي ـ لكلام ربِّك قصَّة مريم ابنة عمران التي حفظت فرجَها من النكاح الحلال والحرام، فأمرنا جبريل أن ينفخَ في جَيْب قميصها، فأخذت النفخةُ طريقها، فدخلت فرجها، فخلقنا بذلك النَّفْخ، المسيحَ في بطنها، وجعلناها بولادتها عيسى من غير أب، وجعلنا ابنها عيسى الذي كلَّم الناس وهو صبيٌّ في المهد، وأجرينا له معجزات باهرات، آيةً عظيمةً للعالمين تدل على كمال قُدْرتنا، وآيةً على أنَّ عيسى عبد الله ورسوله حقاً.

٩٢ ـ إنَّ هذه أمَّتكم ـ أيُّها الأنبياء منْ لدن آدم حتى خاتمهم محمد ﷺ ـ هي أمَّةٌ ربَّانية واحدةٌ، وليس كلُّ واحدٍ منكم رسولاً لأمَّةٍ خاصَّة، مُنْفَصلة عن سائر الأمم؛ فالدين عند الله الإسلام، وكُلُّ مكلَّف مطلوبٌ منه أن يكون واحداً من هذه الأمَّة الربانيَّة الواحدة، وعلى كلِّ قوم جاءهم رسولٌ أن يؤمنوا بجميع أنبياء الله ورسله، دون تفريقٍ بين أحدٍ منهم، وهم مطالبون بعبادته مُسْتسلمين لما يأمرهم به، أو ينهاهم عنه.

٩٣ ـ واختلف المعاندون الجاحدون في الدِّين، وتركوا الاتِّباع الحقَّ للأنبياء، وهَجَروا دين الله، وجعلوا لأنفسهم ولاءاتٍ لأديانهم المُحرَّفة، وتفاصلوا فيما بينهم، فصاروا فِرَقاً شتَّى وأحزاباً متقطِّعة، وكان لكلٍّ منهم أمرٌ منقطع لا صلة بينه وبين أمر الفريق الآخر، واتَّسعت شقة الخلاف والتفرُّق، حتى لَعَنَ بعضُهم بعضاً، وتبرَّأ بعضهم من بعض، إنَّ هذه الفرق المختلفة راجعون إلينا، فنجزيهم بأعمالهم.

٩٤ ـ فَمَنْ يَعمَل في الحياة الدنيا من الصَّالحات شيئاً، وهو مؤمنٌ بما يجب الإيمان به، فلا نُبْطل سَعيَه، بل نشكره ونثيبُهُ عليه، وإنَّا لعمله كاتبون وحافظون، تكتبُهُ الحَفَظة في صحيفة عمله، ونُجازيه عليه يوم القيامة أحسنَ الجزاء.

٩٥ ـ ومُمْتنعٌ على أهل قريةٍ أهلكناهم بسبب كفرهم وجحودهم الميؤوسِ معه أن يستجيبوا لدعوة الحق، أن لا نُهلكَهُم ضمن سُنَّتنا في تصاريفنا بعبادنا، بسبب أنَّهم لا يرجعون إلى مستوى المطموع في استجابتهم عن طريق إراداتهم الحُرَّة، فحقَّ أن نُهلكهم.

٩٦ ـ حتى إذا فُتِحَ سدُّ يأجوج ومأجوج، وهم من كلِّ مرتفع من الأرض يُسْرعون النزول، وينْصبُّون انصباباً كالسَّيل المتدفِّق؛ للسَّلب والنَّهب، والقتل والإفساد.

٩٧ ـ وَدَنا يوم القيامة، وَبَدَتْ أهوالُه، فإذا أبْصار الكفار مفتوحةٌ، لا تكاد تَطرِف من هَوْل ذلك اليوم، يقولون مُتحسِّرين خائفين من مصيرهم: يا هلاكنا قد كنَّا في الدنيا غارقين في غفلةٍ، نافرين من أحاديث الساعة وقيامها، غير مُصدِّقين أخبار المرسلين، بل كنَّا ظالمين في وضعنا العبادة في غير موضعها، وتكذيبنا الرسل.

٩٨ ـ إنَّكم ـ أيُّها المشركون ـ والأصنام التي تعبدونها من دون الله حَطَبُ جهنَّم ووقودها، أنتم فيها داخلون.

٩٩ ـ لو كان هؤلاء الأصنام آلهةً حقاً كما زعمتم ما دخلوا نار جهنَّم معكم، وكلٌّ من المشركين وأصنامهم في نار جهنَّم خالدون.

١٠٠ ـ للمشركين عُبَّاد الأصنام في نار جهنَّم من العذاب والهوان زفيرٌ يدفعون به أنفاسهم الحارَّة من رئاتهم حتى آخر ما فيها، وشهيقٌ يجذبون به السَّموم الحارَّة إلى أعماق رئاتهم، وهم في النار لا يسمعون ما يُمْتِعُ ويَسُرُّ من الأصوات، بل يسمعون العويل والصراخ الذي يزيد من عذابهم.

١٠١ ـ إنَّ المؤمنين الذين عملوا الصالحات وجاءتهم البُشْرى الحُسْنى عند موتهم، بأنَّهم ناجون من العذاب قبل الحساب يوم الدين، أولئك الفضلاء رفيعو المنزلة عن جهنَّم مُبْعدون، وفي جنات النعيم يُنعَّمُون.

لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَا ۚ إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٠٤﴾ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ۖ وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ ۗ وَرَبُّنَا الرَّحْمَٰنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾

سُورَةُ الحَجِّ

١٠٢ - حين يكونون في جنّات الخُلد يُنعَّمون، لا يطرق سمعهم صوت لهيب جهنم، واحتراقِ أجساد المُعذَّبين فيها؛ لئلا يتكدَّروا لسماع هذه الأصوات المُزعِجَة، وهم فيما اشتهت أنفسُهم من النعيم والكرامة خالدون خلوداً أبديّاً.

١٠٣ - لا يحزُنهم الخوف الأكبر، حين يُطبَق على جهنَّم بعد أن يُخرج الله منها مَنْ يُريد أن يُخرجَه، وتستقبلهم الملائكة على أبواب الجنة، يقولون لهم بحفاوةٍ وتكريم: هذا يومكم العظيم الذي كنتم تُوعدون في الدنيا.

١٠٤ - لا يحزُنُهم الهَوْلُ العظيم في ذلك اليوم، يومَ نطوي السماءَ بما فيها من بلايين المجرّات طَيّاً مثلَ طيِّ الصَّحيفة على ما كُتِبَ فيها، فَيَضُمُّ بعضَها على بعض، ونُنْهي نظامها القائم الآن، كما بدأناهم في بطون أمّهاتهم عُرَاةً غُرلاً - غير مختونين -، كذلك نُعيدهم يومَ القيامة، فمن كان قادراً على الخَلْق الأول، فإنه قادرٌ على أن يُعيد الخلق بعد موت الأحياء، وفناء أجسادهم، فالبدء والإعادة بالنسبة إلى قدرته العظيمة سواء، وَعَدْنا بذلك وعداً حقاً كائناً لا مَحالة، إنَّا كنا فاعلين الإعادة والبعث بعد الموت، وكلَّ ما نَعِدُ به.

١٠٥ - وأقسم مُؤَكِّداً أننا كتبنا في كتاب الزَّبور الذي آتيناه داود عليه السلام من بعد التوراة التي كتبنا فيها هذا النبأ الخبريَّ المُستقبليَّ أنَّ الأرض المُقدَّسة حول المسجد الأقصى التي كنَّا قد وعدنا بها بني إسرائيل، ولما فسدوا سَلَبْناها منهم، وأورثناها عبادنا الصَّالحين المؤمنين من هذه الأمة الربَّانيَّة الخاتمة الذين يعملون بأحكام شريعة الله، ويعبدونه لا يشركون بعبادته شيئاً.

١٠٦ - إنَّ في هذا البيان بشأن وارثي الأرض المُقَدَّسة في بلاد الشام، لَبَلاغاً ينتفع بدلالته قومٌ مسلمون مؤمنون حريصون على أن يكونوا عابدين لربِّهم، وعندئذ يكونون مُؤهَّلين لأن يُورثهم الله الأرض المقدَّسة في بلاد الشام.

١٠٧ - وما اصطفيناك نبيّاً يُوحى إليك، وما اخترناك - يارسول الله - رسولاً للإنس والجنّ، وخاتماً للأنبياء والمرسلين إلا رحمةً للعالمين، الإنس والجن؛ بسبب حرصك الشديد على إنقاذهم من شقاء الدنيا، وعذاب الله يوم الدين، وعلى أن يظفروا بالنعيم الأبديِّ الخالد في جنَّات النعيم، وهو ﷺ رحمةٌ لهم لأنه يحمل لهم ويُبلِّغهم أعظمَ دين، إذا اتَّبعوه وعملوا بما فيه ينجيهم من شقاء الدنيا وعذاب الآخرة، ويظفرهم بالسعادة الأبديَّة في جنات النعيم.

١٠٨ - قُل - يا رسول الله - لمن تُبلِّغهم دين الله: إنَّ الذي يُوحى إليَّ من ربِّي الذي بعثني رسولاً للعالمين: ما إلهكم الذي يستحقُّ العبادة إلاّ إلهٌ واحدٌ، وأنتم جميعاً مدعوون إلى الإسلام، فهل أنتم منقادون لما يُوحى إليَّ، بإخلاصِ التوحيد، والاسْتِسْلام لِلَّه سبحانه، فتعبدونه وحده ولا تشركون بعبادته شيئاً.

١٠٩ - فإنْ أدار أئمة الكفر والشرك في مكة لدعوتك ظهورهم، ولم يستجيبوا لك، فقل لهم - يا رسول الله -: لم يكن منكم بعد العلاج الطويل إلا الإدبار والمُشاقَّة، لهذا أعلمتكم بشدّة أننا وإياكم على أمرٍ مُسْتوٍ بيننا وبينكم من المقاطعة والمفاصلة، فلا تلاقي بيننا وبينكم، وما أدري أقريبٌ أم بعيدٌ ما تُنذَرُونَهُ من وعيد مُعجَّل بعقاب الله لكم في الدين، ولست أنا المنذر لكم بالعقاب، وإنما المنذر لكم خالقكم، فلا تسألوني عن وقت تنفيذ هذا العقاب.

١١٠ - وقل لهم - يا رسول الله -: إنَّ الله ربَّكم يعلم القول الذي تجهرون به، فترفعون به أصواتكم، ويعلم القول الذي تكتمونه في نفوسكم، في تساؤلكم عن عدم تنفيذ ما أنذركم به.

١١١ - وما أدري لعلَّ إمهالَ الله لكم وتأخيرَ تنفيذ عقابه اختبارٌ لكم؛ ليرىٰ اللَّهُ صنيعَكم، وهو أعلمُ بكم، وما أدري لعلَّ عدم علمكم بوقت ما أنذرتكم به من العذاب مَتَاعٌ تتمتَّعون به في الحياة الدنيا إلى حين انقضاء آجالكم.

١١٢ - قال النبيُّ ﷺ: ربِّ اقْضِ بيني وبين أئمة الكفر والشرك بالحق؛ لترتفع راية الإسلام، وتعلو كلمة الإيمان، وربُّنا الرحمنُ المُسْتَعان على محو وإبطال ما تصفونَ اللَّهَ ربَّكم - أيُّها الكفار - من صفاتٍ باطلاتٍ لا دليل عليها من العقل، ولا من تنزيل ربَّانيّ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾

سورة الحج

١ - يا أيُّها النَّاس جميعاً احذرُوا عقابَ الله، واعملوا بطاعته، فهو مالككم ومُربِّيكم، فلا يأمركم إلا بما يُصلحكم ويُسعدكم، ولا ينهاكم إلا عمّا يُؤذيكم ويشقيكم؛ إنَّ ما يحدث في الأرض في آخر الدنيا، قبل بعث الناس من قبورهم، من حركة شديدة، شيءٌ عظيم الأهوال، ولا نجاة لكم من أهوال الساعة وأفزاعها إلا بتقوى الله تعالى، فهو طريق النجاة .

٢ - يوم تَرَوْنَ قيام السَّاعة، تُشْغَلُ كلُّ امرأةٍ معها ولدٌ تُرضعه عن رضيعها الذي ألقمته ثديها، من شدَّة كربها ودهشتها، وتُسْقِط من شدّة هَوْل ذلك اليوم كلُّ ذات جنين جنينها قبل تمام حملها، وترىٰ النَّاس - أيها الناظر - كالسُّكارى من شِدَّة الهَول والفَزَع، وما هم بِسُكارى على التحقيق، ولكن ما أصابهم من خوفِ عذاب الله هو الذي أذهب عقولهم، وأزال تمييزهم.

٣ - وبعض الناس الذين كفروا بسبب التقليد الأعمى لغيرهم مَنْ ينازع في وحدانيَّة الله تعالى، ويُخاصم في قُدرته على البعث، ويتَّبِعُ في جداله كلَّ شيطانٍ عاتٍ مُفْسد شديد الإقدام على الإغواء والإضلال.

٤ - قضىٰ الله على هذا الشَّيطان أنَّه من اتَّخذه وليّاً وتَبعه، فإنَّ الشيطان يغويه ويُوسوس له، ويدعوه إلى الضَّلال، ويصوِّر له الباطل بصورة الحقِّ، ويُزيِّنه له بالشهوات والأهواء، حتى يُوصله بسبب ما يوسوس له، ليكون من أهل عذاب النار الملتهبة. وهذا **الصنف الأول** من الكفار، هم المقلِّدون الذين ينكرون قدرة الله سبحانه على إعادة الحياة إلى الناس بعد موتهم، وبعثهم من قبورهم ليوم القيامة.

٥ - يا أيُّها الناس إن كنتم في شكٍ من البعث بعد الموت، فانظروا إلى مبدأ خلقكم، فإنَّا خلقنا أباكم آدم الذي هو أصل النَّسْل من تراب، ثمَّ خلقنا ذُرِّيَّته من نطفةٍ، كما أنَّ جسد كل مخلوق من تُراب تحوَّل بخَلْق الله إلى غذاءٍ، فدماء، فنُطف، ثمَّ من دم جامد غليظ، يتعلَّق بجدار الرحم، ثمَّ من قطعة لحم صغيرة قَدر ما يُمْضَغ، تتألف المُضْغة من جزء مُخلَّق ظاهر التقسيمات للأعضاء، تعرفه إذا أخرج لك من الداخل على أنه بشرٌ سويٌّ، ومن قُرصٍ لحميٍّ أحمر، ليس عليه تصوير ولا تَخلُّق ولا أعضاء، هو المشيمة، وهما مرتبطان معاً؛ لِنُبَيِّن لكم كمالَ قُدرتنا على تطوير خلق الإنسان حالاً بعد حال، وطوْراً بعد طوْر، وبعد أن يتمّ تخليق الجنين، وتنفخ فيه الرُّوح يبقى في رحم أمِّه إلى الوقت الذي قدَّره الله لولادته، وتقدير الأجل المُسمَّى لولادة الجنين يتعلَّق بنموِّه بحيث يستطيع التلاؤم مع الظروف خارج الرَّحم، وحين تصبح أقطار حجم رأسه قد بلغت أقل من أقطار حوض أمه بقليل، ثمَّ نُخرجكم وقتَ الولادة من بطون أمَّهاتكم أطفالاً صغاراً، بحيث تتمُّ الولادة ببطء ولطف، فلا يمرُّ فجأة فيؤذي ويتأذَّى، ولا يتأخَّر أكثر ممَّا يلزم، ثمَّ لتبلغوا كمالَ القوَّة والعقل والتمييز، ومنكم من يُتوفَّى قبل بلوغ وقت الشباب والقوة واكتمال العقل، وبعضكم من يُرَدُّ إلى الهَرَم والخَرَف وضعف العقل، فيبلغ السِّنَّ الذي يتغيَّر به عقله، فلا يعقل هذا المعمَّر شيئاً ممَّا كان يعلمه قبل ذلك، فيصير كما كان في أوَّل طفولته ضعيف البُنْية، قليل الإدراك.

وتَرَى - أيها الناظر المُتأمِّل - بدوام وتجدُّد الأرضَ يابسةً ميِّتةً لا نبات فيها، فإذا أنزلنا عليها المطر، تحرَّك ترابها لأجل خروج النبات، وانتفخت بسبب نموِّ النبات وتداخل الماء، وأنبتت من كلِّ صِنْفٍ حَسَنٍ جميل المنظر.

إنَّ جفاف الزرع وانقطاع تغذيته من الأرض وحصاده يشبه حالة الموت في الأحياء، ثم إنَّ السنَّة الكونية الدائمة الظاهرة المُشاهَدَة في انشقاق الحبوب في بطن الأرض، ونباتها بعد ما سبق من حالتها التي تشبه حالة الموت، وعودتها إلى الحياة والنضرة كرَّةً أخرى، وذلك عند وجودها في البيئة الملائمة من ماء مُمْتزج بالتراب الصالح، لتُعطي دليلاً حِسيّاً مُشاهَداً باستمرار لصورة بعث الأحياء بعد موتها، وتفرُّق أجزائها في تراب الأرض.

ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ ﴿٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ﴿٨﴾ ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ لَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ﴿٩﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴿١٠﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١١﴾ يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدۡعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦۚ لَبِئۡسَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَلَبِئۡسَ ٱلۡعَشِيرُ ﴿١٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لۡيَقۡطَعۡ فَلۡيَنظُرۡ هَلۡ يُذۡهِبَنَّ كَيۡدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾

٦ ـ ذلك المذكور من أطوار خَلْق الإنسان وإحياءِ النبات؛ لتعلموا بأنَّ الله هو الحقُّ الثابتُ الأزليُّ الأبديُّ، في ذاته وصفاته وأفعاله، وأنّه سبحانه يُحيي الموتى كما بدأ خلقهم أول مرّةٍ، بنفخ الرُوح التي تكون بها النفوس حيَّةً، فمن لم يُستبعد منه إيجاد هذه المخلوقات من العَدَم، فكيف يُستبعَد منه إعادة الأموات، وَمَنْ كان كذلك كان عظيم القدرة على جميع المُمْكنات؛ إذا أراد شيئاً كان أسرع ما يكون.

٧ ـ وذكرنا تلك الدلائل؛ لتعلموا أنَّ ساعة إنهاء نظام الحياة الدنيا آتيةٌ لا شكَّ فيها، وأنَّ الله يبعث الموتى من قبورهم للحساب، وفصل القضاء، وتنفيذ الجزاء.

٨ ـ ويوجد صنف آخر من النَّاس كفّار بربِّهم على الرُّغم من كلِّ البراهين والأدلة العقليَّة والآياتِ الكونيَّة الدالأت على ربوبيَّة الله ووحدانيَّته، وهؤلاء الكفرة المُتكبِّرون يُجادلون في الله بغير علم جليٍّ وبرهانٍ عقليٍّ مُسْتَنِدٍ إلى مُقدِّماتٍ عقليَّة ذوات دلالات قطعيّة، ولا علم تجريبيٍّ ناتج عن تجارب مُتكرِّرة، ولا علمٍ خبريٍّ آتٍ عن طريق كتابٍ منير الدلالات صحيح الثبوت.

٩ ـ حال كون هذا المُجادل لاوياً جانبه وعنقه، مُتَبَخْتِراً، مُعرِضاً عمَّا يُدعى إليه من الحقِّ مُتكبِّراً؛ لِيُضِلَّ عن دين الله، فلا يكتفي بضلاله، بل يسعى لضلال غيره، وهذا الصنف المُتكبِّر من الكفار لا ينفع معه بيان الدليل والبرهان، له في الدنيا عذابٌ وهوَان، وذِلَّةٌ وصَغَار يُحطِّم كبرياءه الزائفة، وينكسها ولو بعد حين، ونذيقُه يوم القيامة عذابَ الإحراق يتحسَّس آلامه في نار جهنم.

١٠ ـ يُقال له تقريعاً وتوبيخاً: ذلك العذاب في نار جهنَّم نتيجة عملك السيء الذي عملته بكَسْبك واختيارك، وأنَّ الله لا يظلم أحداً من عباده، فيعذِّب أحداً منهم بغير جرم، بل هو عادل يُثيب المطيع ويُعذِّب العاصي، وهم الظالمون لنفوسهم؛ إذ ارتكبوا السَّيِّئات وهم يعلمون أنَّهم مُعاقبون عليها، ضمن قانون الجزاء الربَّاني. وهذا **الصنف الثاني** من الكفار، هم المتكبِّرون رؤوس الكفر، ودعاة الضلالة.

١١ ـ ويوجد صنف ثالث من الناس من يعبدُ اللَّهَ على شكٍّ وقَلَق واضْطراب في أمر دينه، لا ثبات له ولا استقرار، فإنْ أصابه خيرٌ دنيويٌّ من صحةٍ في جسمه، وسَعَة في معيشته رضيَ به وسَكَن إليه، وإنْ أصابَهُ بلاءٌ في جسمه، وضيقٌ في معيشته؛ لاختباره وابتلائه، ارتدَّ ورجع على عقبه إلى الوجْه الذي كان عليه من الكفر، خَسِرَ في الدنيا العزَّة والكرامة، وخَسِرَ في الآخرة نفسه وأهله بالخلود في النار، ذلك الخُسْران للدارَيْن هو الخُسْرانُ الظاهر الواضح الذي لا عِوَضَ عنه، ولا تلافي له. وهذا **الصنف الثالث** من الكفار هم الماديون النفعيُّون، طلاب الدنيا.

١٢ ـ يعبدُ ذلك الكافر النفعيُّ الماديُّ الذي يزن عقيدته بميزان الربح والخسارة، ويبيع دينه بعَرَض من الدنيا قليل، من دون الله تعالى ما لا يضرُّه إنْ عَصَاه، وما لا ينفعه إن أطاعه وعبده، ذلك الدعاء وعبادة وطاعة ما لا يملك نفعاً ولا ضراً هو الضَّلال البعيد عن الحقِّ والرُّشد والهُدى.

١٣ ـ يدعو ذلك الخاسر مَنْ ضَرَرُ عبادته أقْربُ من نفعه؛ لأنه يجلب له في الدنيا الخزي والذلَّة والعار، ويُوصلهُ في الآخرة إلى العذاب الأليم في النار، قَبُحَ ذلك المعبود ناصراً، وقَبُح صَاحِباً.

١٤ ـ إنَّ الله يُدخل الذين آمنوا إيماناً صحيحاً صادقاً، وعملوا الصالحات المُعبِّرة عن صحَّة الإيمان الاعتقاديِّ الإراديِّ جنَّاتٍ تجري من تحت قصورها وأشجارها الأنهار؛ إنَّ الله يفعل ما يريد بأوليائه وأهلِ طاعته من الكرامة، وبأهل معصيته من الهوان، فله سبحانه الإرادة المطلقة والمشيئة التامَّة النافذة في كلِّ ذرَّةٍ من ذرَّات الوجود.

١٥ ـ من كان يظنُّ من الكفار أن لن ينصرَ اللَّهُ نبيَّه محمداً ﷺ في الدنيا بإعلاء كلمته وإظهار دينه، وفي الآخرة بإعلاء درجته والانتقام ممَّن كذَّبه، فَلْيَمْدُدْ بحبلٍ إلى سقف البيت، ليخنق به نفسه، ثمَّ ليقطع الحبل بعد الاختناق، فلينظر: هل يُذهبنَّ صنيعه وحيلته الذي يغيظه من النصر والتمكين للنبيِّ ﷺ ودينه الذي ارتضاه لعباده؟ فليختنق غيظاً، فإنَّ الله تعالى ناصرُ نبيِّه محمداً ﷺ، ومُؤيدٌ أتباعه الصَّادقين.

وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴿١٨﴾ ۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾

١٦ ـ وكما أقمنا الحجّة من دلائل قدرتنا على الكافرين بالبعث، أنزلنا القرآن حالة كونه آياتٍ واضحات مُوضِّحات، وأنَّ الله يوفِّق مَنْ يريد من عباده إلى سلوك سبيل الهداية، بعد أن تصدُق إرادة العبد في أن يكون من أهلها.

١٧ ـ إنَّ الذين آمنوا بالله ورسوله محمد، واليهود، والصَّابئين (وهم: قوم موحِّدون ليست لهم شريعة يعملون بها)، والنَّصارى، والمجوس (وهم: عَبَدة النار)، والذين أشركوا (وهم: عَبَدة الأوثان)، إنَّ الله يحكم بينهم يوم القيامة، إنَّ الله عالمٌ بما يَستحقُّه كلُّ واحد منهم، مُعَاينٌ له، يخبر عن كلِّ شيء في الكون إخباراً مُطابقاً لما هو عليه في الواقع، فهو سبحانه شهيد على أفعال جميع المخلوقات، عليم بسرائرهم، وما تكنُّ ضمائرهم، لا تخفى عليه في الوجود خافية.

١٨ ـ ألم تعلم ـ أيها العاقل البصير ـ علماً واضحاً جليّاً مُشابهاً للرؤية البصريّة أنَّ الله سبحانه يَسْجُدُ له خاضعاً مُنقاداً مَنْ في السموات من الملائكة ومن في الأرض من الإنس والجنِّ سُجوداً إرادياً مُلبِّين فيه دواعي فطرتهم، وسجوداً غير إراديٍّ بخضوع ذواتهم لما يُجريه الله فيها بسُلطان الجبْر. والشَّمسُ والقمرُ والنجومُ والجبالُ والشَّجرُ والدَّوابُّ كلُّها ساجدةٌ لِلَّه، وخاضعةٌ خضوعاً تامّاً بسُلطان الجبْر؟ وكثيرٌ من النَّاس ساجدون سجوداً اختيارياً، حقَّ لهم الثواب، وهم المؤمنون المنقادون لله تعالى ظاهراً وباطناً، وكثيرٌ من النَّاس غير ساجدين لِلَّهِ سجوداً اختيارياً، حقَّ عليهم العذاب بكفرهم وتركهم السجود، وما أعزَّ أحدٌ نفسه بمثل سجوده لله تعالى وطاعته له، وما أذلَّ أحد نفسه بمثل إعراضه عن طاعة الله وعبادته، ومن يحكم الله عليهم بالذلَّة والهوان بسبب كفرهم وتمرُّدهم عن طاعة الله نتيجة اختيارهم الحر في ظروف امتحانهم في الحياة الدنيا، فلا يستطيع أحدٌ أن يحكم لهم بالكرامة، إنَّ الله يفعل في خلقه ما يشاء وَفْق حكمته.

١٩ ـ وتمام مشيئة الله تعالى وإرادته لا يعني أنَّ الإنسان لا مشيئة له ولا إرادة، فقد شاء الله أن يكون للإنسان المكلَّف مشيئة وإرادة، فله اختيار في إيمانه وكفره، وطاعته لله وإعراضه عنه، والدليل على ذلك أن كثيراً من الناس اختاروا الكفر بالله وإعراضه عن عبادته، وصار الناس نتيجة ذلك فريقين: فريق مؤمن، وفريق كافر، وحَدَث بينهم ما هو مُشَاهَد من الخصام والاختلاف والاقتتال، فالذين جادلوا في وحدانية الله وقدرته، قُطِّعَتْ لهم في الآخرة ثيابٌ من نُحاس مُذاب، تُحيط بهم كإحاطة الثياب، يُصَبُّ مِنْ فوق رؤوسهم الماء الحار الذي انتهت حرارته.

٢٠ ـ يُذابُ بالحميم الذي يُصَبُّ من فوق رؤوسهم ما في بطونهم من الشُّحوم والأحشاء، والجلود.

٢١ ـ ولهم مطارق من حديد مُختصَّة بهم تَضرب بها خزنة النار رؤوسَهم إذا أرادوا الخروج منها.

٢٢ ـ كلَّما حاولوا الخُروجَ من النَّار لما يلحقهم من الغمِّ والكَرب الذي يأخذ بأنفاسهم، رُدُّوا إلى أماكنهم بمطارق الحديد، فلا خروج لهم من النار أبداً، وتقولُ لهم خَزَنة جهنَّم تبْكيتاً: ذوقوا عذاب النَّار المُحرِق.

٢٣ ـ إنَّ الله تعالى يُدخل الذين آمنوا إيماناً صحيحاً صادقاً، وعملوا الصَّالحات المعبِّرات عن صدق الإيمان الإراديِّ الاعتقاديِّ، جنَّاتٍ تجري من تحت قصورها وأشجارها الأنهار، يُحَلَّوْنَ فيها من أَساوِرَ من ذهبٍ، ويُحلَّوْنَ لؤلؤاً أيضاً، وثيابهم في الجنَّة الحرير، فما أعظم الفرق بين ثياب النار، وثياب الحرير، وبين مصير الخصْمَيْن المُتنازعَيْن في وحدانية الله وصفاته، من المؤمنين والكافرين.

وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ ﴿٢٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ ٱلَّذِي جَعَلۡنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلۡعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلۡبَادِۚ وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۭ بِظُلۡمٖ نُّذِقۡهُ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٢٥﴾ وَإِذۡ بَوَّأۡنَا لِإِبۡرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلۡبَيۡتِ أَن لَّا تُشۡرِكۡ بِي شَيۡـٔٗا وَطَهِّرۡ بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ ﴿٢٧﴾ لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ وَيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۖ فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡبَآئِسَ ٱلۡفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لۡيَقۡضُواْ تَفَثَهُمۡ وَلۡيُوفُواْ نُذُورَهُمۡ وَلۡيَطَّوَّفُواْ بِٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَۖ وَمَن يُعَظِّمۡ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦۗ وَأُحِلَّتۡ لَكُمُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡۖ فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾

٢٤ - وأُرشِدَ هؤلاء إلى طريق الجنة الذي يحمدون فيه ربَّهم على إحسانه وإنعامه، الذي يحمدهم سبحانه على إيمانهم وعملهم الصَّالح، كما هُدوا في الدنيا إلى طيِّب القول: من كلمة التوحيد والتسبيح والتحميد، وأُرشدوا إلى طريق الله الحميد الذي يحمد عباده المؤمنين، ويثني عليهم بما فعلوا من خير، والذي هو محمودٌ على عظيم صفاته، وجليل نعمه.

٢٥ - إنَّ الذين كفروا بماجاء به محمدٌ ﷺ، ويَصُدُّون باستمرار ودوام عن سبيل الله بالمنع من الهجرة والجهاد والإسلام، ويصدُّون رسولَ الله ﷺ والمؤمنينَ في عام «الحديبية» عن المسجد الحرام، الذي جعلناه قِبلةً للناس في صلاتهم، ومَنْسكاً ومُتعَبَّداً، سواءٌ في تعظيم حرمته وقضاء النُّسك به: المَكّيُّ المقيمُ فيه، والطارىء القادم إليه من غيره، ومن يُرِدْ في المسجد الحرام المَيْلَ عن الحقّ ظلماً، فَيَعْصِ الله فيه، نُذِقْهُ من عذابٍ أليم مُوجع في الآخرة.

وفي الآية دليل على أن السيئة في الحرم أعظم منها في غيره، فإنها تُضاعف فيه، والهم بالسيئة في الحرم مُؤَاخَذٌ به.

٢٦ - وضع في ذاكرتك - أيها المُتلقّي لبياننا - حين هيَّأنا لإبراهيم مكانَ البيت وأعلمناهُ به، وبحدوده من كلِّ جهاته، وهو الكعبة المشرفة، بيت الله الحرام، وأنزلناه فيه ليؤسِّس في مكة أمَّةً مؤمنةً، تعبدُ ربَّها ولا تشرك به شيئاً، وأوْحَيْنا إليه بعد ذلك حين أمرناه برفع قواعد البيت مع ولده إسماعيل، وقلنا له: لا تُشرك بي شيئاً، وطَهِّر بيتيَ من كلِّ رجْسٍ ماديٍّ أو معنويٍّ، للطائفين الذي يطوفون حَوْل بيتي، والذين يعبدونني بالصَّلاة فيه أو عنده، القائمين والراكعين السَّاجدين.

٢٧ - وقف - يا إبراهيم - رافعاً صوتك مُنادياً النَّاسَ الموجودين في زمن ندائك، والذين سيتَتابعون أجيالاً بعد جيل إلى أن تقوم الساعة، بوجوب الحجِّ عليهم، فإنَّ ربَّك سَيُوصلُ أثر ندائك إلى قلوب المؤمنين، فيُحرِّكها إلى تلبية النداء، يأْتكَ فريقٌ من المُلبِّين مُشاةً على أرجُلهم، ويَأْتِكَ فريقٌ آخر من المُلبِّين رُكْباناً على الإبل المهزولة من بُعد الشقّة وكَثْرة السَّيْر، يأْتِينَ من كلِّ طريقٍ بعيد إلى البلد الحرام.

٢٨ - ليشهدَ الحُجَّاج منافعَ لهم كثيرة، دينيَّة ودنيويَّة من: ثواب أداء نسكهم وطاعتهم، ومغفرةِ ذنوبهم، ووحدة كلمتهم، والتشاور في أمورهم، وتكسُّبهم في تجارتهم، وغير ذلك، ولْيذكروا اسمَ الله بالحمد والثناء والتكبير على ذَبح ما يتقرَّبون به من الإبل والبقر والغنم في أيام معلومات، وهي: يومُ النحر عاشر ذي الحجة وأيام التشريق الثلاثة بعده، شُكراً للَّه على ما رزقهم من الإبل والبقر والضأن والمَعْز، فكُلُوا من لحوم الهدايا والضحايا، وأطعِمُوا البائسين الذين أصابهم بؤس وشدة، المستورين الذين لا شيء لهم ولا يتعرَّضون للصَّدقات.

٢٩ - ثمَّ ليزيلوا عنهم أدرانَهم وأوساخَهُم، ويخرجوا عن الإحرام بالحَلْق أو القصّ، وقَلْم الأظفار والاستحداد، ولبس الثياب، وَلْيُوفوا بما أَوْجَبوه على أنفسهم من الحجِّ والعمرة والهدايا، ولْيَطوَّفوا بعد الوقوف بعرفة ورَمْي جَمْرة العقبة طوافَ الواجب، وهو الإفاضة، بالبيت العتيق القديم، لأنه أول بيت وضع لعبادة الله تعالى وحده، ولأنَّ الله يعتق بفضله ورحمته رقابَ المذنبين إذا أتَوْا تائبين مستغفرين، كما أنه سبحانه أعتقه من أيدي الجبابرة أن يَصِلُوا إليه.

٣٠ - ذلك الذي أمر الله به من إزالة الأوساخ والخروج من الإحرام، والوفاء بالنُّذور، والطَّواف بالبيت، هو ما أَوْجبه الله عليكم، فاجتنبوا جميع حُرماته، ومَنْ يجتنب جميع ما نهى الله عنه من معاصيه بترك مُلابستها، وعدم انتهاكها، وحفظ حُرمتها، ولا سيما مُقارفة حُرمات الله في أرض الحرم، وأثناء القيام بمناسك الحج، فثوابُ تعظيم الحُرُمات خيرٌ له عند الله في الآخرة. وأحلَّ الله تعالى لكم الأنعام من الإبل والبقر والغنم أن تنتفعوا بسائر وجوه الانتفاع الموجودة فيها، كالانتفاع من أصوافها وأوبارها وجلودها وألبانها ولحومها، إلا ما يُتْلى عليكم تحريمه في القرآن لعارضٍ، كالميتة والدم المسفوح، وما ذُبح على غير اسم الله تعالى، فاجتنبوا وابتعدوا عن الأوثان القَذِرَة التي تعبدونها من دون الله، والتي هي رأس الزور والباطل، واجْتَنبوا قول الباطل كله، وشهادة الزور والكذب القبيح.

حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾

٣١ - اجتنبوا الشِّرك وقول الباطل حال كونكم مُخْلصينَ له تعالى، عادلين عن كلِّ دينٍ سوى دينه، غير مُشْركينَ به أحداً في عبادته، ومن يُشْرك باللَّهِ فَكأنَّما سَقَطَ من السَّماء إلى الأرض، فَتَسْتلِبُه جوارح الطَّير وتذهبُ به بسرعة، وتُقطِّعه وتُمزِّقه بمخالبها، أو تميلُ وتذهبُ به الرِّيحُ فَتَقْذفه في مكانٍ بعيد مُهْلك، وكذلك المشرك في ضلاله وهلاكه وحَيْرته يهوي به شِركه من أوْج الإيمان إلى مهاوي الضلالة، وحضيض الكفر، ويعيش قلقاً، مُضْطرب النفس، مُشتَّت الفكر.

٣٢ - ذلك الذي أمر الله به من توحيده وإخلاص العبادة له، واجْتناب الأوثان وقول الزور، ومن يَقُم بمراعاة معالم الدِّين، من الأوامر والنواهي والواجبات والمُسْتحبَّات، وأماكن العبادات والطاعات، ويحفظ حُرمتها، ومنها البُدْن التي يسوقها الحجّاج هدياً بالغ الكعبة، وذلك باختيار أعظمها وأجودها، لأنها من مَعَالم الحج، فإنَّ تعظيمَ معالم الدين، وأداء أعمال المناسك على الوجه المشروع من أفعال أصحاب القلوب المُتَّصفة بتقوى الله وخشيته.

٣٣ - لكم في تلك الشعائر منافع بالأجر والثواب الحاصل بتعظيمها إلى انقضاء أيام الحج، ولكم منافع بدرّها ونَسْلها وصوفها ووبَرها وركوب ظهرها إلى أن تنحروها، ثم منحرها عند أرض الحرم، ومَحِلُّ الناس من إحرامهم مُنْتهٍ إلى البيت العتيق الذي جعله الله أول بيت وضع لعبادته، بطواف الزيارة بعد أداء تلك الشعائر.

٣٤ - وَشَرَعنا لكلِّ جماعةٍ مؤمنةٍ سَلَفَتْ قبلكم مناسك من ذبح القرابين وإراقة الدماء؛ ليذكروا اسمَ الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام عند ذبحها ونحرها، فسمُّوا على الذَّبح اسمَ الله وحدَه، فإنَّ إلهَكم المُستحقّ للعبادة إلهٌ واحدٌ، فله أخْلِصُوا وانْقَادوا وأطيعوا، وَبَشِّر - يا رسول الله - المتواضعين الخاشعين المطمئنين الراضين بقضاء الله، بخَيري الدنيا والآخرة.

٣٥ - هؤلاء المتواضعون الخاشعون الراضُون بقضاء الله من صفاتهم: أنَّهم إذا ذُكر الله وحده خافت قلوبُهم من عقابه، وبشِّر الصَّابرين على ما أصابهم من البلاء والمرض والمصائب، وبشِّر المقيمي الصلاة تامَّة كاملة مستقيمة في أوقاتها مُحافظين عليها، وهم ينفقون من بعض ما رزقهم الله تعالى ابتغاء مرضاته، طيِّبةً به نفوسهم في وجوه الخير ومساعدة المحتاجين.

٣٦ - وَجَعَلنا لكم نَحرَ الإبلِ الصِّحاح الأجْسامِ والبقر المُهْداة إلى البيت المُعظَّم من أعلام دين الله في الحج، لكم فيها - أيُّها المتقرِّبون - نفعٌ في الدنيا وثوابٌ في الاخرة، فاذكُروا اسمَ الله عليها عند نحرها، فانحروها قائمةً على ثلاث قوائم قد صُفَّت رِجْليها ويدها اليمنى، والأخرى معقولة، فإذا سَقَطت بعد النَّحر، ووقع جَنْبُها على الأرض، فكُلُوا منها، وأطعموا الفقير المُتعفِّف الذي يقنع بما يُعطىٰ ولا يسأل، والمُعترَّ الذي يَسأل لحاجته. مِثْلَ ما وَصَفْنا لكم من نحرها قياماً، ذلَّلناها لكم؛ مع قوتها وضخامة أجسامها؛ لِتَتَمكَّنوا من نحرها، فلا تستعصي عليكم، بل تقودونها وتعقلونها صافَّةً قوائمها، ثم تطعنون في لبَّاتها؛ رغبة أن تشكروا الله تعالى على فضله وإحسانه.

٣٧ - لن تُرفع إلى الله لحوم هذه الذبائح ولا دماؤها، فهو سبحانه غنيٌّ عنكم وعن عبادتكم، ولم يأمركم أن تتقرَّبوا إليه بذبحها لحاجته سبحانه إلى لحومها ودمائها، ولكن تُرفع إليه الأعمال الصَّالحة، وما أُريدَ به وجْهُ الله عزَّ وجل، كذلك ذلَّلنا لكم البُدنَ؛ لِتُكبِّروا اللَّهَ على ما هَدَاكم وأرشَدَكم لمَعَالم دينه، ومناسكِ حجِّه، وبشِّر - يا رسول الله - المُحسنين بعبادة الله وحده، وتطبيق شريعته، الذين ارتقوا إلى أعلى مراتب الإيمان.

٣٨ - إنَّ الله يدفع عن المؤمنين عدوان الكافرين، ويمنعهم منهم، وينصرُهُم عليهم؛ إنَّ الله لا يُحِبُّ كلَّ كثير الخيانة للأمانات، شديد الجحود لنعمته. ومن رحمته سبحانه بعباده المؤمنين أنه أخبرهم قبل أن يُكلِّفهم بالجهاد وقتال أعداء الإسلام أنّه سبحانه يدافع عنهم، ويؤيِّدهم وينصرهم على أعدائهم، فدفاعه سبحانه عنهم - إذا تحقَّقوا بالإيمان الصادق الكامل - مُستمرٌّ لا ينقطع؛ لأنه سبحانه يعلم أن عدوان الكفار على المؤمنين مستمرٌّ لا ينقطع.

أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾

٣٩ ـ أَذِنَ الله للمسلمين الذين يُقاتلهم المشركون بالجهاد، بسبب ما وَقَع عليهم من الظلم والعدوان من أجل إيمانهم بربِّهم، وإنَّ الله على نصر المؤمنين وإذلال عدوِّهم لعظيمُ القدرة. فطريق دفاع الله عن المؤمنين إنما هو إذنه لهم في قتال عدوهم ودفعه بسلاحهم بعد أن كانوا ممنوعين من الدفاع عن أنفسهم بالمقاتَلَة، مأمورين بالصبر واحتمال الأذى مدة إقامتهم بمكة، والله سبحانه قادر على أن ينصر دينه، ويُعلي كلمته بدون قتال، ولكن حكمته اقْتَضَتْ أن يبتليَ المؤمنين بقتال الكافرين ومجاهدتهم.

٤٠ ـ الذين أُلجئوا إلى الخروج من ديارهم في مكة بغير مُوجِبٍ سوى التوحيد، الذي ينبغي أن يكون مُوجب الإقرار والتعظيم والتمكين لا مُوجب النفي والإبعاد، ولولا سُنّة الله أن يدفع بأهل الإيمان والطاعة أهل الكفر والمعصية، وأن يُسلِّط الأشرار بعضهم على بعض، لساد الباطل، وتمادى الطغاة في طغيانهم، وهُدِّمت أماكن العبادة، من مَعَابد الرهبان المتَّخذة في الصحراء، ومعابد النصارى في البلد، وكنائس اليهود، ومساجد المسلمين، التي يُصَلُّون فيها، ويذكرون اسمَ الله فيها كثيراً، وقد أخذ اللَّهُ العهد الأكيد على نفسه أن ينصرَ من يَنصُرُ دينَه ونبيَّه؛ إنَّ الله لقويٌّ على نصر مَنْ ينصر دينه، عزيزٌ لا يغلبه غالب، ولا يُمنع ممَّا يريد.

٤١ ـ الذين وعدناهم بنصرنا هُمُ المُهاجرون الذين أُخرجوا من ديارهم بغير حقّ، إنْ نصرناهم على عدوِّهم حتى تمكَّنوا من البلاد، أقاموا الصَّلاة بأدائها في أوقاتها، وإتمام أركانها وسننها وآدابها، وأعطوا الزكاة إلى أهلها، طيِّبةً بها نفوسهم، ابتغاء مرضاة الله، وأمرُوا بكلِّ فعل حَسَن يُسْتَحسَنُ في الشرع والعقل، ونَهَوْا عن كلِّ ما عُرِف في الشرع والعقل قُبحه، ولله وحدَه مصيرُ الخلق وعاقبةُ أمورهم.

٤٢ ـ ٤٤ ـ وإن يُكذِّبْكَ ـ يا رسول الله ـ قومُك، فقد سبقهم في تكذيب رسلهم قومُ نوح، وعاد قوم هود، وثمود قوم صالح، وقومُ إبراهيم، وقومُ لوط، وأصحابُ «مَديَن» الذين كذَّبوا شعيباً عليه السلام، وكذَّب فرعونُ وقومُه موسىٰ عليه السلام مع وضوح آياته وعِظَم معجزاته، فأمْهَلتُ الكافرين وأخَّرتُ العقوبة عنهم؛ ليتوبوا ويُصْلحوا، ثمَّ بعد إمهالهم أخذتُهم بالعذاب والإهلاك العام الشامل، فكيف كان إنكاري الذي نتج عنه عقابي؟ ألم يكن عقاباً شديداً مُؤلماً مهلكاً إهلاكاً عاماً شاملاً. فإن اسْتمرَّ مشركو مكة على تكذيب الرسول ﷺ ومعاداته ومقاتلته، فسيكون مصيرهم مثل مصير المُكذبين الظالمين المجرمين من قبلهم.

٤٥ ـ فعدداً كثيراً من مُجمَّعات سكنيَّة أهلكناها بعذاب شامل اسْتأصلهم جميعاً، وأهلُها ظالمون بكفرهم وتكذيبهم، فهي فارغةٌ لا ساكن فيها، ساقطة جدرانها على سقوفها، وكم من بئرٍ متروكةٍ لا يَسْتَقي منها الواردون لهلاك أهلها، وكم قَصرٍ رفيع طويلٍ عالٍ أخليناه من ساكنيه بإهلاكهم؟

٤٦ ـ أَلْزِمَ مكذِّبوك ـ يا رسول الله ـ مواطن إقامتهم، فلم يسيروا في الأرض، فينظروا إلى مَصَارع المُكذِّبين، وآثار السابقين من الأمم الخالية، فتكونَ لهم قلوبٌ يعقلون بها أهواءَهم وشهواتهم، ويحجزونها في دائرة الحق والخير، أو آذانٌ يسمعون بها ما يُذكر لهم من أخبار القرون الماضية فيعتبرون بها؟ أو تكون لهم أبصارٌ يَرَوْن بها آياتِ الله رؤية باحثين مُتدبِّرين لا رؤية مُستمتعين بالظواهر، غافلينَ عن البواطن ودلالاتها، فإنَّها لا تَعمىٰ الأبصار عن إدراك بواطن الآيات وحقائقها، لأنها لا تملك هذه القُدرات الإدراكيَّة، ولكن تعمى عن إدراك دلالات آيات الله في كونه، مراكز التفكير التي في عُمْق المراكز الإدراكيَّة، إذ تملك القُدرات التفكيريَّة الإدراكيَّة في أصل فطرتها الربَّانيَّة، ولكنَّ الأهواء والشهوات تغشى عليها، فتُعميها.

والقلب أُطلق في القرآن على القوَّة المدركة للمعارف، وأُطلق على مواطن الإرادة والعواطف، أو مراكز التأثُّر بها. فالقوَّة المُدركة للمعارف هي في الدماغ، وهو في الرأس، أما مواطن ظهور الرَّغبات، والعواطف والانفعالات، ومراكز حركة عواطف الإيمان والكفر، وحركة الإرادات للأعمال، فهي في القلوب التي في الصُّدور. وهذه القلوب التي في الصدور قد يحصل لديها عَمَىً، فتُخالف ما أدركته الأذهان من الحقِّ، لانطماس بصيرتها بالأهواء والشهوات، فيكون من أثر ذلك كفرٌ وحركة إرادة نحو الشرِّ، وهذا هو العَمَى الحقيقي الذي يُصاب به أهل الكفر والضلال.

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٥١﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾

٤٧ ـ ويَسْتَعجِلُك ـ يا رسول الله ـ الذين كفروا بك وبما جئتَ به عن ربِّك بالعذاب المُعَجَّل والمُؤَجَّل الذي أنذرتهم به توهُّماً منهم أنك غير صادقٍ فيما تُبلِّغهم عني، ولن يُخلِفَ اللَّهُ ما وعدهم به من العذاب، فلا بدَّ من وقوعه، وقد عُجِّل لهم في الدنيا في يوم «بدر»، وإنَّ يوماً من أيام عذابهم في الآخرة كألفِ سنةٍ ممَّا تعدُّون من سنيِّ الدنيا، فكيف يستعجلونه؟

٤٨ ـ وكثيرٌ من المُجمَّعات السكنيَّة أمْهَلْتُها مع استمرار أهلها على الظلم، وإصرارهم على الكفر، ثمَّ بعد ذلك قبضت عليها بيد العذابِ الشديد في الدنيا، وإليَّ وحدي مصيرهم في الآخرة، فأعذِّبهم بما يستحقُّون.

٤٩ ـ ٥٠ ـ قُل ـ يا رسول الله ـ : يا أيُّها النَّاس ما أنا لكم إلا مُرسل من الله، نذيرٌ واضح مبيِّن في إنذاري وكلِّ دعوتي، بعد تأدية الوظائف السابقة من تبليغ وبيان وإقناع وتبشير، فالَّذين آمنوا إيماناً صحيحاً صادقاً، وعملوا الصَّالحات الدالات على صدق إيمانهم الإراديِّ الاعتقاديِّ، لهم سَتْرٌ لذنوبهم، ورزقٌ كريم في الجنة لا ينقطع أبداً.

٥١ ـ والذين عملوا بهمَّة ونشاط، وبذلوا جهدهم في إبْطال آياتنا الكونيَّة والبيانيَّة والإعجازيَّة، حال كونهم معاندين مشاقِّين، ظانِّين ومُقَدِّرين أنَّهم يُعجزوننا ويفوتوننا، فلا نقدر عليهم، أولئك المنحطُّون في الدركات أصحاب النار الموقدة المُلازمون لها، المخالطون لألوان عذابها.

٥٢ ـ وما أرسلنا ـ يا رسول الله ـ من قَبْلك من رسول بُعثَ بشرع جديد، ولا نبيٍّ بُعث لتقرير شرع مَنْ قبله إلا إذا أحبَّ وودَّ أن يهتديَ قومُه ويؤمنوا بما جاء به من الحقِّ، ألقى الشيطان في قلوب بعض السامعين ما يحول دون تحقيق أُمنيَّته من شُبهات باطلة، وإشكالات فاسدة؛ ليصرف قلوبهم عن الاستجابة والإيجاب بما جاءهم به رسولهم أو نبيُّهم، فيبْطل اللَّهُ ما يُلقي الشيطان في قلوب السامعين، ويُزيل شبهاته ووساوسه، ويمحق أثرها، ثم يُثَبِّت تلك الآيات ويُمكِّنها في قلوب المؤمنين، بأن يُتابع بعدها آيات وآيات فيها إبطالٌ لتلك الشُّبهات والضلالات والشكوك التي ألقاها الشيطان، ويزيلها بالأدلة القرآنية القاطعة، واللَّهُ عليم بما كان ويكون، لا تخفى عليه خافية، حكيم يضع الأشياء في مواضعها، ويختار أفضل الأشياء لما يُعطي أفضل النتائج. وقد انتهت أمنية الرسول ﷺ في إيمان قومه واهتدائهم بانتصار دينه، والتمكين لأتباعه، وإيمان مَنْ تبقَّى من الكافرين بعدما هَزَمَ الله المعاندين وأهلكهم في غزوات بدرٍ وأُحد والخندق وحُنين وغيرها. وهذه هي سنة الله في الصِّراع بين الحقِّ الذي يقوده الأنبياء والرُّسُل، وبين الباطل الذي يقوده الشيطان، على مدار التاريخ الإنساني.

٥٣ ـ ذلك المجيء بالآيات مُحكمة مُثْبتة لا تقْبل الرد؛ لَيَجْعَلَ اللَّهُ ما يُلقيه الشَّيطان من تلك الوساوس والشُّبهات محنةً وابتلاءً للَّذين في قلوبهم حقد وحسد من مُنافقي اليهود، وللمشركين الجافيةِ قلوبهم عن قبول الحقّ، فكلا الفريقين من الكفار يحمل في قلبه علَّةً تجعله يتقبل نَزْغ الشيطان ووسوسته، فالعلّة في قلوب الفريق الأول: الحسد والحقد والنفاق والشك، والعلة في قلوب الفريق الثاني: قسوة القلب، وإنَّ الظالمين من المنافقين والمشركين لفي عداوةٍ شديدة لله ولرسوله، وخلافٍ للحقِّ بعيد عن الصواب.

٥٤ ـ وليعلمَ الذين أُوتوا العلم الراسخ القائم على الأدلة الساطعة والبراهين القاطعة، أنَّ ما جاء به الرسول هو الحقُّ النَّازل من ربِّك، لا شبهة فيه، ولا سبيل للشيطان إليه، فيثبِّت الله بذلك إيمانهم ويزيدهم منه، فتطمئنَّ وتسكنَ إليه قلوبهم، وإنَّ الله لهادي الذين آمنوا به وبرسوله إلى طريق الحق الذي يَدْحض الباطل ويدفعه، وهو: الإسلام، مُكافأةً لهم على خضوعهم وخشوعهم لكلامه سبحانه، فيتولاهم برحمته وعنايته، ويُثبِّتهم على الصراط المستقيم، فلا يضلُّون ولا يزلُّون، ويحفظهم من فتن الشيطان وشُبهاته وضلالاته بهدايتهم إلى ما يردُّها ويُبْطلها.

٥٥ ـ ولا يزالُ الذين كفروا في شكٍّ وقَلَق وحَيْرة من القرآن، إلى أن تأتِيَهُم ساعةُ إنهاء نظام الحياة الدنيا فَجْأَةً، وهم مُصرُّون على تكذيبهم، فيصيروا إلى العذاب الدائم، أو يأتِيَهُم عذابُ يومٍ لا خير فيه، وهو يوم القيامة.

ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوۡ مَاتُواْ لَيَرۡزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدۡخِلَنَّهُم مُّدۡخَلٗا يَرۡضَوۡنَهُۥۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٞ ﴿٥٩﴾ ۞ ذَٰلِكَۖ وَمَنۡ عَاقَبَ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيۡهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٞ ﴿٦٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ﴿٦٢﴾ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَتُصۡبِحُ ٱلۡأَرۡضُ مُخۡضَرَّةًۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ﴿٦٣﴾ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴿٦٤﴾

٥٦ ـ المُلك يومَ القيامة للّهِ وحدَهُ من غير مُنَازع ولا مُشارك فيه، يفْصِلُ بين المؤمنين والكافرين. فالَّذين آمنوا إيماناً صحيحاً صادقاً، وعملوا الصَّالحات الدالات على صدق الإيمان الإراديِّ الاعتقاديِّ في جنَّات النعيم.

٥٧ ـ والذين جَحَدوا وحدانيَّة الله، وكذَّبوا بآياتنا الكونيَّة والبيانيَّة والإعجازيَّة، فأولئك البُعداء عن رحمة الله المنحطُّون في الدركات، لهم عذابٌ مُذِلٌ في جهنَّم.

٥٨ ـ والَّذين فارقوا أوطانهم وعَشَائرهم في طاعة الله وطَلَب رضَاه، ثمَّ قُتلوا في الجهاد، أو ماتوا من غير قتال، لَيَرزُقَنَّهُمُ الله في الجنَّة رزقاً حَسَناً لا ينقطع أبداً، وإنَّ الله ـ وحده ـ لهو خيرُ الرازقين، يُعطي من الرزق ما لا يقْدر عليه غيره، وكلُّ رزق من سواه، فهو من رزق الله أجراه الله على يديه، وهو الرزَّاق الحقيقي الذي لا رازق سواه، فاطلبوا الرزق منه وحده، وخذوا بالأسباب التي أمركم بها.

٥٩ ـ لَيُدْخِلَنَّهم اللَّهُ الجنَّة، ويسكنهم مسكناً يختارونه؛ إذ فيه رضاهم، وإنَّ الله لعليمٌ بنيَّاتهم، حليمٌ بالعفو عنهم.

٦٠ ـ ذلك الأمرُ الذي قَصَصنا عليك بإدخال الكفار النَّار، وبإدخال المهاجرين والمجاهدين الجنَّة، ونحن لا ندع نُصرتهم في الدنيا على مَنْ بغىٰ عليهم، وَمَنْ قاتَل المشركين كما قاتلوه، وجازى الظالم بمثل ظلمه، فقد أذن له أن يقابل الجاني بمثل فعلته، ولا حَرَج عليه، ثم إذا عاد الجاني إلى إيذائه وتجاوز الحدَّ في ظلمه، فإنَّ الله ينصر المظلوم المُعْتَدَىٰ عليه على مَنْ بغى عليه وظَلَمه؛ إنَّ الله لعفوٌ عن المُذنبين فلا يُعاجلهم بالعقوبة، يزيل أثر الذنوب من صحائف أعمالهم، ويترك مُؤاخذتهم عليها، كثير السَّتْر لذنوبهم يتجاوز عنها، بعد استغفارهم وتوبتهم، فضلاً منه وكرماً.

٦١ ـ ذلك النصر للمظلوم بسبب أنَّ الله قادرٌ على كلِّ شيء، ومِنْ آيات قُدرته: أنَّه يدخل ظلمة الليل في ضوء النهار، بالتتابُع شيئاً فشيئاً، فَيَتَتَابَعُ ذهاب الليل عند تَتَابُع حالات الإشراق، ويُدخل ضوء النهار في ظلمة الليل، بالتتابع شيئاً فشيئاً، فيتتابع ذهاب النهار عند تتابع حالات الغروب، ولا يخفى عليه ما يجري فيهما على أيدي عباده من الخير والشر، والبغي والإنصاف، وإنَّ الله سميعٌ لما يقولون، لا يشغله سمعٌ عن سمع، وإن اختلفت في النهار الأصوات بمختلف اللغات، بصير بما يفعلون، لا يستتر عنه شيء بشيء في الليالي، وإن اختلفت الظلمات.

٦٢ ـ ذلك الوصف بخلقه الليل والنهار، وإحاطته بما يجري فيها، وإدراكه قولهم وفعلهم، بسبب أنَّ الله هو الحقُّ الثابت الأزليُّ الأبدي في ذاته وصفاته وأفعاله، قوله حقٌّ، ودينهُ حقٌّ، وعبادتُه حقٌّ، ووعده بنصر المؤمنين حقٌّ، وأنَّ ما يدعو المشركون من الأصنام هو الباطل، الذي لا يستحقُّ العبادة، وأنَّ الله هو العالي على كلِّ شيء، المتعالي عن الأشباه والأنداد، العظيم في قدرته وسلطانه الذي لا شيء أعلى منه شأناً، وأكبر سلطاناً.

٦٣ ـ ألم تَرَ ـ أيها العاقل البصير الرشيد ـ ناظراً إلى آثار صُنع ربِّك؛ أنَّ الله أنزلَ من السَّحاب ماءً، على أرض صالحة للإنبات، فيها بزورُ نباتات مُنبِتَّات في تربتها، فامتصَّت البزور المُنبِتَّة في الأرض من الماء ومن عناصر تراب الأرض، فَتُصبح الأرضُ إثر نزول المطر مُخْضَرَّةً بالنبات المختلف الأنواع والأجناس؟ إنَّ اللَّهَ لطيفٌ باستخراج النبات من الأرضِ رزقاً للعباد والحيوان، ينفذ بصفاتِهِ إلى أعماق كلِّ موجود، خلقاً وإمداداً، وعلماً، وتصاريف، خبيرٌ على سبيل الشهود والحضور بما في قلوب العباد إذا تأخَّر المطر عنهم.

٦٤ ـ له كلُّ ما في السَّموات وما في الأرض خَلْقاً ومِلكاً وتدبيراً، وإنَّ الله لهو الغنيُّ عن عبادِهِ، المحمود بعظيم صفاته، الذي يحمده عباده المؤمنون، الحامد الذي يحمد أهلَ طاعته من عباده، ويثني عليهم، تكريماً لأعمالهم الحسنة الصالحة.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾ وَإِن جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾

٦٥ - ألم تر - أيها العاقل البصير - ناظراً إلى آثار صنع ربِّك الذي أتقن كلَّ شيء، أنَّ الله ذَلَّل لكم ما في الأرض، كالأحجار والمعادن والنار والحيوان، وكل ما يمكن أن ينتفع به الإنسان، وذلَّل لكم السُّفُنَ الجارية على الماء وَفْق نظام الطَّفْو الذي قدَّره الله في كونه، لمنافعكم ومصالحكم، فما يكون لها من سلامةٍ إلا بأمره، وما يكون لها من توفيق وبلوغ إلى غايات أهلها إلا بأمره، وما يكون لها من حركة الرياح عبر الأمواج إلا بأمره، ويُمْسِكُ السماء؛ مَنْعَ أن تسقط على الأرض، إلا بأمره ومشيئته، إنَّ الله شديد الرحمة بخلقه، يدفع عنهم المكاره، واسع الرحمة بهم. ومن آثار رأفته ورحمته بعباده: تسخير كلِّ ما في الأرض، وتسْيير السفن في البحر، وإمْساك السموات بدْءاً من الغلاف الغازي، فأجْرام السَّماء المشعّ منها لذاته، مثل النجوم والمجرات، وغير المشع لذاته كالأقمار والكواكب والمذنَّبات والنيازك، فجميع هذه العوالم تحتفظ بكيانها وتماسكها بقانون الجاذبيَّة، والقوى الناشئة عن الحركة. ومن رأفة الله ورحمته بالعباد: أن هيَّأ للأرض غلافاً غازياً يحمي سكان الأرض من الإشعاعات الكونيَّة، وأسراب الشُّهب والكواكب التي تحترق في جوِّها العلوي قبل أن تصل إلى الأرض.

٦٦ - وهو اللَّهُ تعالى الذي أنْشَأكم ولم تكونوا شيئاً؛ ليبتليَكُم في ظروف هذه الحياة الدنيا، والمطلوب في هذه الابتلاء أن تشكروا نعمة الله عليكم، وذلك بطاعته وعبادته، ثمَّ يُميتكم عند انقضاء آجالكم، ثمَّ يُحييكم يوم البعث للثواب والعقاب، إنَّ الإنسانَ لكثير الجحُود لِنِعَم اللَّهِ عزَّ وجلَّ مع ظهورها وكَثْرتها.

٦٧ - لِكُلِّ أهل ملَّة وشرع جَعَلنا شريعةً هم عاملون بها، ومكاناً مُعيَّناً وزماناً مُحدَّداً لأداء الطاعات، فلا يُنَازِعُنَّك - يا رسول الله - أهل الأديان الأخرى في شريعتك، وليحذروا من مُخالفتك وعصيانك، وادعُ جميع النَّاس إلى عِبَادةِ ربِّك وتوحيده والتزام شريعته، إنَّك لَعَلَىٰ دين واضح قويم، لا اعوجاج فيه.

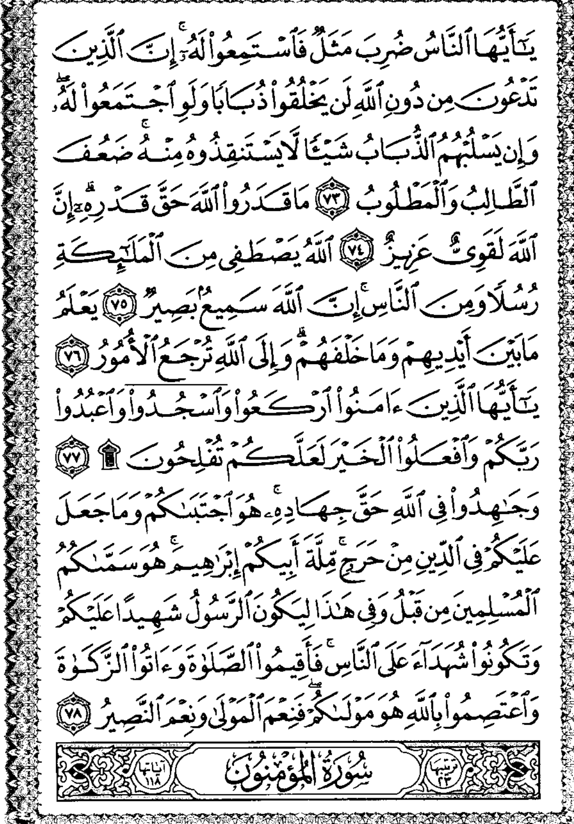
٦٨ - وإنْ خَاصَمُوكَ فيما تدعوهم إليه مِراءً وتعنُّتاً فلا تُجَادلهم، بل قُل لهم: اللَّهُ أَعلم بما تعملونه من الكفر والتكذيب، والعِناد والمكابرة، وما تستحقُّون على تلك الأعمال من الجَزاء بالعدل.

٦٩ - اللَّهُ تعالى يَفْصِلُ بينكم - أيُّها المؤمنون والكافرون - يوم القيامة، فيما كنتم فيه تختلفون من أمر الدين، فتعلمون حينئذٍ الحقَّ من الباطل.

٧٠ - ألم تعلَم - أيُّها المتفكِّر في ظاهرات الكون - أنَّ الله المهيمن على كلِّ شيء، والمُتصرِّف في كلِّ شيء، يعلمُ كلَّ شيء مهما كان صغيراً غايةً في الصِّغر، ومُستخفياً غاية الاستخفاء، في السَّماء الشاملة لكلِّ مرتفع عن الأرض عُلويّ، حتى آخر ذي وجود، وفي الأرض حتى آخر طبقة من طبقاتها، اعْلَم بأنَّ ذلك العلم الربَّاني مُسَجَّل في اللوح المحفوظ، واعلم بأنَّ ذلك العلم العظيم، وتسجيل ذلك في كتاب مبين على الله جلَّ جلاله هَيِّنٌ يسيرٌ. وكلُّ شيءٍ على الله يسير، لأنه إذا أراد شيئاً فإنما يقول له: كن فهو يكون بأمر التكوين.

٧١ - ويعبدُ المشركون من دون الله ما لم يُنَزِّل به حُجَّةً وبرهاناً من دليلٍ عقليٍّ يُثبت أنَّ لله شريكاً في ربوبيَّته أو إلٰهيَّته، وما ليس لهم به علم من خبر صحيح صادق عن رسول من رُسُل الله، يُثبت بيقينٍ أنَّ لله شريكاً، إنَّهم فعلوا ما فعلوه عن جهلٍ لا عن علم ولا دليل، وظلموا أنفسهم بوضع العبادة في غير موضعها، واستحقُّوا أن يكونوا في جهنَّم دار العذاب يوم الدين، وما لِلْمُشْركين من مانع يمنعهم من العذاب المهين.

٧٢ - وإذا تُتْلى على هؤلاء المشركين آياتُ القرآن حال كونها واضحات مُوضِّحات، تتبيَّن في وجوه الذين كفروا علامات الإنكار والكراهة، يكادون يبطشون بالمؤمنين الذين يتلون عليهم آياتنا من القرآن لشدّة كراهيتهم سماعه. قُلْ لهم - يا رسول الله -: أفلا أُخبركم بشرٍّ لكم وأكره من سَماع الحقِّ ورؤية الداعينَ إليه، وما هو شرٌّ مما أنتم عليه من الغضب والرغبة في البطش والانتقام؟ هي النَّارُ وعدها الله الذين كفروا في الآخرة، وما فيها من عذاب ونكال أشد من غيظكم وحقدكم على المؤمنين الذين يتلون عليكم آيات الله تعالى، وبئس المكان الذي يصيرون إليه النار.



٧٣ - يا أيُّها النَّاس ضُرِبَ مَثَلٌ فتدَبَّروه حَقَّ تَدَبُّرِهِ: إنَّ الأصنام التي يعبدُها المشركون لن يَخْلقوا ذباباً واحداً في صِغَره وضعفه وقلَّته؛ لأنها لا تقدر على ذلك، ولو اجتمعت هذه الأصنام لم يقدروا على خلق ذبابة على ضعفها وصِغَرها، فكيف يليقُ بالعاقل جعلها معبوداً له؟ وإنْ يأخذ الذُّبابُ شيئاً ممَّا يَطْلونَ به الأصنام من الطِّيب والزعفران والعسل لا يَسْتَخلصوه منه، ضَعُفَ الطالبُ، وهو الصنم المعبودُ من دون الله أن يستنقِذَ ما أخذه الذباب منه، وضعف المطلوب الذي هو الذباب. فكيف تُتَّخذ هذه الأصنام آلهة، وهي بهذا الضعف والهوان؟!

٧٤ - ما عظَّموا الله حَقَّ عظمته، وما عَرَفوه حقَّ معرفته، ولا وَصَفوه حقَّ وصْفه، حيث أشركوا به العاجزين عن خلق الذبابة، وما لا يقدرون على الانتصاف منها إذا سَلَبَتْهم شيئاً ما، إنَّ الله لقويٌّ غالبٌ لا يُقهر.

٧٥ - اللَّهُ تعالى يختار من الملائكة رُسلاً يحملون رسالته إلى أنبيائه عليهم السلام، ويختارُ الله من الناس رُسلاً لتبليغ رسالاته إلى الخَلْق، إنَّ الله سميعٌ لأقوالهم، بصيرٌ بأفعالهم، لا تخفى عليه خافية، أحاط سمعه وبصره بالأشياء كلها.

٧٦ - يعلمُ سبحانه كلَّ شيء سَبَق أن عملوه، وهو الذي بين أيديهم، ويعلم سبحانه كل ما سيأتي في مستقبل أمرهم يوم الدين، فهو الذي يكون خلفهم لا يعلمونه، وإلى الله وحده تُرجع أمورهم في الآخرة.

٧٧ - يا أيُّها الذين صدَّقوا الله ورسوله: اركعوا واسْجُدُوا في صلاتكم، واعبُدوا ربَّكم وحدَه لا شريكَ له، واكسبوا بإراداتكم كلَّ عمل قلبيٍّ أو جَسَديٍّ يُحقِّق لكم عند الله خيراً باقياً، وسعادةً خالدة، وثواباً حسناً، ولو كان ذلك العمل شاقاً أو مُضْنياً أو مُؤلماً، رغبةً منا في أن تَسعدوا وتفوزوا بالجنَّة.

٧٨ - وجاهدوا في سبيل الله الجهادَ الحقَّ، الذي لا نفاق فيه، ولا رياء، ولا تقْصير، واستَفرغوا الطاقة فيه بنيَّةٍ صادقة خالصةٍ لله؛ لتكونَ كلمةُ الله هي العُليا، هو الله الذي اختاركم - أيها المؤمنون - من دون سائر الأمم السابقة لحَمْل الرسالة الخاتمة، وحمَّلكم وظيفة تبليغ الدين الخاتم للنَّاس أجمعين، وإذا كان التبليغ جزءاً من هذا الدين، فإنه لم يَجْعل عليكم من حَرَج في هذا التبليغ، فلم يُحمِّلكم مسؤوليةَ تحويل الناس من الكفر إلى الإيمان، ولا من العصيان إلى الطاعة، وما جَعَل عليكم أيضاً في الدين الذي تعبّدكم به ضيقاً لا مَخْرج لكم ممَّا ابتليتم به، بل وسَّع عليكم، فجعل التوبة في بعض مَخرجاً، والكفارة في بعض مَخرجاً، والقِصاص كذلك، وشرع اليُسر في كلِّ شيء، وسَّع دينكم توْسعةَ ملَّةِ أبيكم إبراهيم، اللَّهُ سبحانه سَمَّاكم المسلمين في الكتب القديمة من قبل بعثة النبي محمد ﷺ ونزول القرآن، وفي هذا القرآن سمَّاكم المسلمين، فاعرفوا قدر أنفسكم، ومقدار التَّبعات الجِسَام الملقاة على عاتقكم، وقد اختصَّكم الله بهذا الاختيار، وكلَّفكم بواجب البلاغ على الوجه المطلوب منكم؛ ليكون الرسولُ شهيداً عليكم يوم القيامة أنْ قد بلَّغكم رسالاتِ ربِّه، وتكونوا شهداء على النَّاس إذا قمتم بواجبكم، فبلَّغتم رسالاتِ ربِّكم للناس، وتشهدون يومَ القيامة على الأمم أنَّ رسلَهم قد بلَّغتهم، فأقيموا الصَّلاة المفروضة ولا تُضيِّعوها ولا تتهاونوا بشيء منها، وآتوا الزكاة الواجبة طيِّبةً بها نفوسكم ابتغاء مرضاة الله، فلا تمنعوا شيئاً ممَّا أوْجَبَ الله عليكم في أموالكم، واعتصموا مُحْتَمين بالله الذي له القوَّة الغالبة، مجتمعين غير متفرِّقين، ولا مُتنازعين، ولا متَّبعين أهواء مصالح دنيويَّة، هُوَ سبحانه مُتولِّي أموركم وحافظُكم وناصرُكم ومُمدُّكم بعطاءاته، ومُزيل العَقَبات من طريق انسياحكم في الأرض مُبلِّغين، فَنِعْمَ المولى، ونِعْم النَّاصر لكم، ومَنْ يتولاه الله لم يضِع، ومَنْ نَصَره لم يُخذل، فثقوا بالله تعالى في جميع أموركم، ولا تطلبوا الإعانة والنصرة إلا منه سبحانه.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡفِرۡدَوۡسَ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلۡنَٰهُ نُطۡفَةٗ فِي قَرَارٖ مَّكِينٖ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقۡنَا ٱلنُّطۡفَةَ عَلَقَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡعَلَقَةَ مُضۡغَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡمُضۡغَةَ عِظَٰمٗا فَكَسَوۡنَا ٱلۡعِظَٰمَ لَحۡمٗا ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تُبۡعَثُونَ ﴿١٦﴾ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا فَوۡقَكُمۡ سَبۡعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلۡخَلۡقِ غَٰفِلِينَ ﴿١٧﴾

سورة المؤمنون

١ ـ قد فاز المُصدِّقون بالله وبرسوله، العاملون بشرعه، بما يريدون، وظفروا بنعيم الآخرة الأبدي، وهم الموصوفون بالأوصاف السِّتة الآتية:

٢ ـ **الصفة الأولى:** الذين هم في صلاتهم مُتذلِّلون خاضعون، جمعوا بين أفعال القلب؛ كالخَوْف والرهبة، وأفعال الجوارح؛ كالسكون وترك الالتفات.

٣ ـ **والصفة الثانية:** الذين هم عن كلِّ باطل وما لا يُعْتدُّ به من الأقوال والأفعال مُعرِضون.

٤ ـ **والصفة الثالثة:** الذين هم لأجل تزكية نفوسهم فاعلون الخيرَ، وللزكاة الواجبة من أموالهم مُؤَدُّون، يُطهِّرون نفوسهم وأموالهم بأداء زكاة أموالهم على اختلاف أجناسها للفقراء، والمساكين وذوي الحاجات.

٥، ٦ ـ **والصفة الرابعة:** الذين هم لفروجهم مُمْسكون، من إتيان أحدٍ أنثى أو ذكرٍ شهوةً، إلا قَصْراً على أزواجهم الحرائر، أو ما مَلَكَت أيمانهم من الإماء والجواري، فإنَّهم إذا عاشروا زوجاتهم أو إماءهم على الوجْه الذي أذن فيه الشَّرع، فإنهم غير ملومين، أما الإتيان في غير المأتىٰ، وفي حال الحيض والنفاس فإنه محظور، وفاعله ملوم.

٧ ـ فمن التمس وطلب سوىٰ الأزواج والجواري المملوكة، فأولئك البُعداء العُصاة هم المعتدون المُجاوزون الحدَّ من الحلال إلى الحرام. ويدخل في ذلك الزنى واللواط والسِّحاق ومواقعة البهائم.

٨ ـ **والصفة الخامسة:** الذين هم قائمونَ بحفظِ كلِّ ما أؤْتُمِنُوا عليه، مُوفونَ بما عاقدوا الله تعالى والناسَ عليه؛ كالتكاليف الشرعيَّة، والأموال المُودَعة، والأيْمان والنذور والعقود ونحوها.

٩ ـ **والصفة السادسة:** الذين هم على صَلَواتهم الخمس المفروضة في كلِّ يوم وليلة يُداوِمون ويُراعُونَ أوقاتَها، ويتمُّون ركوعها وسجودها وسائر شروطها وأركانها، ولا يُخلُّون بشيءٍ من واجباتها وسُننها وآدابها.

١٠ ـ أولئك الفضلاء المُتَّصفون بتلك الأوصاف هم الوارثون الجنَّة، هبةً من الله من غير عوض؛ لأنَّ ما يُقدِّمه المؤمنون مهما عَظُمَ لا يُكافىء نعمة حاسَّةٍ واحدةٍ من حواسِّهم التي أنعم الله بها عليهم.

١١ ـ الذين يَرِثونَ أعلى الجنَّات وأفضلها، هم فيها خالدون لا يخرجون منها ولا يموتون، ولا ينقطع نعيمهم ولا يزول.

١٢ ـ ونؤكِّد لكم أننا خَلَقنا آدم من خُلاصةٍ سُلَّت واستُخرجت من ماء مختلط بتراب الأرض.

١٣ ـ ثمَّ خلقنا السلالات الإنسانيَّة بعد خلق آدم وزوجه مُتَناسلين من نطفة تستقرُّ في الرَّحِم في مُسْتقرٍّ مُتمكِّن إلى وقت الولادة.

١٤ ـ ثم صَيَّرنا النُّطفة قطعةً دم جامد، متعلقة بالرحم، فجعلنا الدم الجامد قطعة لحم صغيرة بقدر ما يُمضغ، فخلقنا المُضْغَة عظاماً، فسَتَرنا العظام بالعضلات والأغشية التي تغطي العظام، ثمَّ أنشأناه خلقاً آخر مُبَايناً للخلق الأول، بنفخ الرُّوح فيه وتصويره وتسويته بعد هذه الأطوار، فصار إنساناً ذا قوىً وحواسَّ، فتعاظم وتقدَّس الله أحسنُ المُصوِّرين والمُقدِّرين، وكثُر خيره وإحسانه.

١٥ ـ ثمَّ إنكم ـ أيها النَّاس ـ بعدما ذُكر من تَمَام الخَلْق لَمَيِّتون عند انقضاء آجالكم.

١٦ ـ ثم إنَّكم بعد الموت ومرور المُدَّة المُقدَّرة في البرزخ بين الموت والبعث، تُبعثون من قبوركم للحساب، وفصل القضاء، وتنفيذ الجزاء يوم القيامة.

١٧ ـ ونؤكِّد لكم أننا خلقنا فوقكم سَبْعَ سموات بعضهنَّ فوق بعض، وما كنَّا عمَّا خلقنا من هذا الخلق العظيم بكلِّ ما فيه غافلين، بل نتابع تسْييره من أصغر ذرَّة إلى أكبر مجرَّةٍ بعلمنا وقدرتنا.

وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِ جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾

١٨ - وأنزلنا من السحاب ماءً بمقدار مُحدَّدٍ، وتدبير حكيم، بحسب حاجة الخلائق إليه ومصالحهم، فأسكنّاه في تجاويف الأرض وعلى سطحها في بحيرات عظيمات وأنهار كبيرة، وكما قَدَرنا على إنزاله، نَقْدِر على إذهابه، فلا يستطيع الناس له طلباً مع شدّة حاجتهم إليه.

١٩ - فَخَلقنا لكم بالماء ضمن نظام الإنشاء المتدرِّج تنامياً بساتينَ من نخيل وأعناب مُتعدِّد الأجناس والألوان، لكم في البساتين فواكهُ كثيرة الأنواع والأشكال سوى النخيل والأعناب، ومنها تأكلون شتاءً وصيفاً.

٢٠ - وأنشأنا لكم - أيها النَّاس - بهذا الماء أيضاً شجرةَ الزيتون التي كانت في أصل إنشائها تخرج من أرض طور سيناء المبارك، تَنْبتُ مُلْتبسةً بالدُّهن ومصحوبةً به، الذي تدهنون به شعوركم وأجسادكم لما فيه من منافع لها، والذي تأكلون منه بمقدار صَبْغ خبْزكم، وصَبْغ كثيرٍ من أطعمتكم، ولا تأكلون منه كما تأكلون الخبز وغيره من أطعمتكم التي تُؤكل وتمضغ.

٢١ - وإنَّ لكم - أيها النَّاس - في الأموال الرَّاعية، وهي: الإبل والبقر والغنم، لأمراً عَجَباً إذا تفكَّرتم فيها عرفتم كمال قدرتنا، نُخرج لكم من بطونها حليباً نقياً خالصاً من كلِّ الشوائب، جارياً في حُلوق الشاربين سهلاً لذيذاً، ولكم في الأنعام منافع أخرى كثيرة في اللباس المُتَّخذ من أصوافها وأوبارها وأشعارها، ومن النَّسل، والركوب عليها، وكما تَنْتفعون بها وهي حيَّةٌ، فكذلك تنتفعون بها بعد الذبح بأكل لحومها وشحومها ودهنها.

٢٢ - وعلى بعض الأنعام تُحملون في البرِّ، إذْ ذلَّلها الله لكم، وهي الإبل والبقر حين تجرُّ مراكب تركبونها، وعلى السُّفن تُحملون في البحر. ويقاس على الإبل والسفن ما توصَّل النَّاس إليه بإلهام الله سبحانه وتسخيره من مراكب بريَّة وبحريَّة وجويَّة.

٢٣ - وأُؤكِّد لكم أننا أرسلنا نُوحاً إلى قومه فقال: يا قوم اعبُدوا الله وحده لا شريك له، ما لكم معبودٌ سواه، أفلا تخافون عقابَه إذا عبدتم غيره؟

٢٤ - فقال السادة والكبراء الذين كفروا من قومه لجماهيرهم ست مقولات بُغْيَةَ صَدِّهم عن الإيمان بنوح واتِّباعه: **المقولة الأولى**: ما هذا الذي يدَّعي أنه نبيٌّ يُوحى إليه إلا آدميٌّ مثلكم، مُشارك لكم في جميع الأمور، **المقولة الثانية**: يريد أن يطلب الفضْل والسيادة عليكم بصفةٍ لا تملكون نظيرها، فيصير متبوعاً وأنتم له تبَعَ، **المقولة الثالثة**: ولو شاء الله أن يُرسل رسلاً إلى النَّاس يبلِّغون عنه دينه لأنزلَ ملائكةً، ولم يُرسل رُسُلاً بشراً، **المقولة الرابعة**: ما سمعنا بهذا الذي يدعونا إليه نوح في آبائنا الأولين!! واحتجاجهم بعدم سماع الأخبار لا يقتضي أنَّ الأمر الذي لم يسمع خبره غير موجود في الواقع والحقيقة، فاحتجاجهم ساقط، لا يقبل به عاقل، لكنَّ ملأ قوم نوح حاولوا به إقناع جماهيرهم تضليلاً وإيهاماً وتمويهاً، ويغلب في الأتباع قبول أقوال سادتهم وكبرائهم دون أن يعرضوها على مقاييس الفكر الصحيح، وموازين المنطق السليم.

٢٥ - **المقولة الخامسة**: ما هو إلا رجلٌ به نوع من أنواع الجنون، فهو طالب زعامة وسيادة، مفتون بحبِّها، اتَّخذ للوصول إليها وسيلة ادِّعاء أنه رسولٌ، فهو يصرُّ على ذلك، ولن يصل إلى ما يحب، فإصراره على موقفه إصرارٌ مدفوع بدافع من الجنون، **المقولة السادسة**: فانتظروا واصبروا عليه إلى أن يموت، فتستريحوا منه ومن دعوته.

٢٦ - قال نوحٌ عليه السلام في آخر مسيرته الدعويَّة لقومه بعد أن يئس من إيمانهم واستجابتهم لدعوته: ربِّ أعنِّي على قومي بإهلاكهم؛ بسبب تكذيبهم إيَّاي فيما بلَّغتهم من رسالتك.

٢٧ - فاستجبنا دعاءه، وقدَّرنا نصره وقضيناه، فأوْحَينا إلى نوح أن اصْنَع السفينةَ بمرأىً منا وحفظنا ومراقبتنا الدائمة، وتعليمنا إيَّاك صنعها بمهارة صناعية رفيعة، وخبرةٍ عالية، فإذا جاءت مُقدِّمات تنفيذ أمرنا بعذاب قومك، ورأيتَ الماء يفورُ من التنُّور الذي يُخبَز فيه، فأدْخِل في السفينة بانتظام وإحكام من كلِّ نوعٍ من الأحياء التي يهمُّك حَمْلُهُ زوجَيْن ذكراً وأنثى؛ ليستمر النَّسل، وأدخل سائر مَنْ آمنَ بك، إلاَّ مَنْ وَجَبَ عليه العذاب من الكفار، ولا تسألني - يا نوح - في رفع العقاب عنهم، فأمْرُ إهلاكهم جميعاً صار قضاءً مُبْرماً، إغراقاً بالماء مع أنهم في برٍّ آمنٍ من الغرق بحسب العادة.

فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً ۚ فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ ﴿٤٢﴾

٢٨ ـ فإذا حَصَل لك ولِمَنْ معك الاستقرار الملائم المستوي في السفينة، فاذكر الله بالثناء عليه، واحمده قائلاً: الحمدُ لله الذي خلَّصنا وأنقذنا بتدبيره وعنايته من القوم الظالمين.

٢٩ ـ وقل: ربِّ أنْزِلني ـ أنا ومن معي ـ مكاناً مُباركاً، وإنزالاً مباركاً، بإنجائنا من الغرق وكثرة النَّسل وتتابع الخيرات بعد الإنجاء، أنت المُنْزِلُ لنا، وأنت خيرُ المُنْزِلين؛ لأنَّك تحفظُ مَنْ أنزلته وتكلؤه في سائر أحواله، وتدفع عنه المَكاره.

٣٠ ـ إنَّ في ذلك الذي ذكر من أمر نوح والسفينة، وإهلاك أعداء الله لَدلالات واضحات على قُدرتنا وحكمتنا في امتحان عبادنا، ومُجازاتهم بالعدل وبالفضل، وما كُنَّا إلا مُختبرين إيَّاهم بإرسال نوح ووعظِهِ وتذكيرِهِ؛ لِنَنْظُرَ ما هم عاملون.

٣١ ـ ثمَّ خلقنا ضمن نظام الإنشاء المُتدرِّج من بعد إهلاك قوم نوح ومرور مدَّةٍ زمنية مُتراخية، جيلاً آخر، وهم عادٌ قوم النبي هود عليه السلام.

٣٢ ـ فأرسلنا فيهم رسولاً منهم نسباً ولغةً وإقامةً، وهو هُودٌ عليه السلام، فقال لهم: اعبدُوا الله وحده لا شريك له، ما لكم من إلهٍ يَستحِقُّ أن تعبدوه إلا هو، واعلموا أنَّكم إذا عَبَدتم غيره أسخطتم عليكم الله ربَّكم، فأنزل بكم عذابَهُ، ألا تعقلونَ فتتَّقُونَ عذابَ ربِّكم يوم الدين، مع ما قد يُعجِّلُ لكم من عقاب في الدنيا إذا عاندتم وكنتم مفسدين مجرمين؟!

٣٣ ـ وقال الأشراف والوجهاء من قومه، الذين كفروا بالله وبرسالة هود عليه السلام، وكذَّبوا بلقاء الحياة الآخرة بعد البعث، ونعَّمناهم ووسَّعنا عليهم من متاع الحياة الدنيا حتى بطروا: ما هذا الذي يدَّعي أنه رسولٌ من ربِّكم إلاَّ بشَرٌ مثلكُم، يأكل ممَّا تأكلون منه من طعام، ويشربُ ممَّا تشربون منه من شراب، فهو لا يصلح لأنْ يكون رسولاً من الله.

٣٤ ـ ونُقسم لكم بأنكم ـ أيها الجماهير ـ إن أَطَعْتُم بشراً مِثلكم فيما يأمركم به وينهاكم عنه، إنكم حينئذٍ لخاسرون بترككم آلهتكم، واتِّباعكم إيَّاه.

٣٥ ـ أَيَعِدُكُم هود وعداً عجيباً مُسْتَغْرَباً، فيذكر لكم أنكم إذا مِتُّم، وكُنتم تُراباً وعظاماً نَخِرةً بالية، أنَّكم مُخْرَجون من قبوركم أحياء؟!

٣٦ ـ بعيدٌ بعيدٌ لما تُوعدون به ـ أيُّها القوم ـ من البعث بعد الموت والحياة الأخرى!!

٣٧ ـ ما حياتُنا إلاَّ في هذه الدنيا، يموتُ مَنْ يموت فيها، ويحيا مَنْ يحيا فيها فقط، وما نحن بمبعوثين بعد الموت إلى حياةٍ أخرى.

٣٨ ـ وما هودٌ إلا رجلٌ اخْتَلَقَ على اللهِ كَذِباً في ادِّعائه أنه رسول الله، وما نحن بمؤمنين به، ولا بمسلمين له.

٣٩ ـ قال هود عليه السلام في آخر مسيرته الدعويَّة لقومه، بعد أن يئس من إيمانهم واستجابتهم لدعوته: ربِّ انْصُرني عليهم بإهلاكهم؛ بسبب تكذيبهم إيَّايَ.

٤٠ ـ قال الله تعالى مُجيباً دعوته: بعد زمنٍ قريب أُؤكِّد لك، سيصيرُ هؤلاء المُكذِّبون نادمينَ على كفرهم وتكذيبهم، إذ يأتيهم عذابنا في الصباح.

٤١ ـ ونزل بهم عقاب الله في الوقت المُقدَّر لإهلاكهم، فأخذتْهُم مع الرياح التي أرسلها الله على أرضهم صَيْحةُ العذاب العُظمى بالعدل من الله، فَصَيَّرناهم هَلكى هامدين، فَيَبِسُوا يُبْسَ ما بَليَ واسْوَدَّ من نبات الأرض، فَهلاكاً وطرداً من مواقع تنزُّلات رحمة الله للقوم الظالمين.

٤٢ ـ وبعد مرور مُدَّةٍ زمنيَّةٍ مُتراخية خلقنا ضمن نظام الإنشاء المتدرِّج من بعد قوم هود، أقواماً آخرين، كأقوام صالح ولوط وشعيب، وغيرهم.

مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا
كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ
أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ
هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ
فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا
وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ
﴿٤٨﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ وَجَعَلْنَا
ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ
﴿٥٠﴾ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا
تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ
فَاتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ
فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا
نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ
﴿٥٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ
بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾

٤٣ - ما من أمةٍ يسبقُ تعذيبُها وإهلاكُها الأجلَ المُقدَّر لها، وما من أمَّةٍ تستطيع بكلِّ وسائلها أن تسْتأخر تعذيبَها وإهلاكَها عن الأجل المقدَّر لها.

٤٤ - وبعد مدَّة متراخية من الزمن، الذي أهلكنا به قروناً كذَّبت رسل ربهم، أنشأنا أمماً مُتعدِّدة، وأرْسَلنا إليهم رُسُلَنا مُتتابعين يَتْبَعُ بعضهم بعضاً، كلَّما جاء أمةَ رسولُها كذَّبوه، فأَتْبَعْنَا بعضَهم بعضاً بالإهلاك، وجعلنا الأمم المكذِّبة قصصاً وسَمَراً يتحدَّث بها الناس تعجُّباً وتلهياً، فهلاكاً وطرداً من رحمة الله مُوجَّهاً لقوم ليس لديهم استعدادٌ لأن يؤمنـوا ويستجيبـوا لدعوة الحق، مهمَا أمهلوا، إذ بلغوا إلى دركة ميؤوس منها أن يؤمنوا عن طريق إراداتهم الحرَّة.

٤٥، ٤٦ - وبعد مدَّةٍ متراخيةٍ من الزمن أرسلنا موسى وأخاه هارون مَصْحوبَيْن بآياتنا الإعجازيَّة والبيانيَّة والجزائيَّة العظيمة، وبحجَّةٍ بَيِّنة دامغة، ومعجزة ظاهرة، كالعَصَا واليد وغيرهما إلى فرعون ملك مصر وأشراف قومه، فاستكبروا عن الإيمان، وكانوا قوماً متطاولين على الناس، قاهرين لهم بالظلم.

٤٧ - فقال فرعون وقومه: أنؤْمنُ بما دعا إليه موسى وهارون، منقادين لهما، وقومُهما بنو إسرائيل لنا مطيعون مُتَذَلِّلون مُسخَّرون لخدمتنا؟

٤٨ - فكذَّبوهُما استكباراً وعناداً، فكانوا من المُهْلَكِينَ بالغرق.

٤٩ - ونقسم لكم مُؤكِّدين - أيها النَّاس - أننا آتَيْنا موسىٰ التَّوراةَ؛ رغبةً في أن يهتدي بنو إسرائيل بها إلى الحق.

٥٠ - وجعلنا عيسى ابنَ مريم وأمَّه دلالةً على قدرتنا، وجعلناهما بألطاف مقاديرنا يأويان إلى مكانٍ مرتفع مُسْتوٍ واسع، ذات موضع صالح للسكن والطمأنينة والاستقرار، وذات ماءٍ جارٍ مُتجدِّد، تراهُ العيونُ، ويسهل تناولُه.

٥١ - يا أيُّها الرُّسل كُلُوا من الطيِّبات التي أحللتها لكم، واستقيموا على ما يُوجِبُه الشَّرع، واحذَرُوا مُخالفةَ أمري، فإنِّي بكلِّ ما تعملونَ عليمٌ، لا يخفى عليَّ شيءٌ من أعمالكم.

٥٢ - وإنَّ هذه أمَّتكم - يا معشر الأنبياء - من عهد آدم حتى بعثة آخر المرسلين محمد ﷺ هي أمَّةٌ ربَّانيَّةٌ واحدةٌ، وليس كلُّ واحدٍ منكم رسولاً لأمَّةٍ خاصَّةٍ منفصلةٍ عن سائر الأمم، فالدين عند الله الإسلام، وكلُّ مكلَّف مطلوبٌ منه أن يكون واحداً من هذه الأمَّة الربَّانيَّة الواحدة، وعلى كلِّ قوم جاءهم رسولٌ أن يؤمنوا بجميع أنبياء الله ورسله، دون تفريقٍ بين أحدٍ منهم، وأنا ربُّكم جميعاً لا شريك لي في الربوبيَّة والإلهيَّة، فاعبدوني متَّقين في عبادتكم سخطي وعقابي، وما يمكن أن تجنوه لأنفسكم من شرٍّ وضُرٍّ في الحياة الدنيا بسبب معصيتي وترك عبادتي.

٥٣ - فقطَّعوا أمر دينهم قطعاً متفرِّقةً خارجةً عن صراط الأمة الربانيَّة، وجعلوه أدياناً مختلفة، عقب بعثات الرسل عليهم الصلاة والسلام، فلم يطل أمر اجتماعهم، على ما جمعهم عليه رسلهم، فصاروا يهوداً ونَصَارى ومجوساً، وغير ذلك من الأديان المختلفة، والأحزاب المتعادية، كلُّ حزب بما لديهم من باطل مسرورون، مُعْجَبون بما عندهم من مبادىء ومنهاج حياة.

٥٤ - فاتركهم - يا رسول الله - في جهالتهم وضلالتهم الغامرة لهم من كلِّ جوانبهم إلى أن ينزل العذاب بهم، ولا تُضع جهدك ووقْتك معهم، ولا تشغل نفسك بدعوتهم، لأنهم وصلوا إلى حالةٍ ميؤوس منها.

٥٥، ٥٦ - أيظنُّ هؤلاء الكفار أنَّ ما نُعطيهم، ونجعلُه لهم مَدَداً من المال والبنين في الدنيا، نُعَجِّل في منحهم ما يحبُّون من الخيرات، ونُقدِّمه ثواباً لأعمالهم لمرضاتنا عنهم؟ لا نسارع لهم به فيما فيه خيرهم وإكرامهم، بل لا يشعرون أنَّ ذلك استدراج لهم عاقبتُه الهلاك.

٥٧ - إنَّ المؤمنين بما هم عليه من خوفٍ مصحوب بتعظيم وإجلال لله عزَّ وجل، حَذِرون خائفونَ دواماً من عقابه.

٥٨، ٥٩ - والَّذين هم بآيات ربِّهم البيانية في القرآن الكريم يُصَدِّقون، ويعملون بها، والَّذين هم يخلصون العبادة لله وحده، ولا يشركون به غيره.

وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾
أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴿٦١﴾ وَلَا نُكَلِّفُ
نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾
بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا
عَامِلُونَ ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ
﴿٦٤﴾ لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدْ كَانَتْ آيَاتِي
تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ
بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ
آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ
﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ
كَارِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ
وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن
ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ
وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾
وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ ﴿٧٤﴾

٦٠ ـ والذين يُعطُونَ ما أَعْطَوا من الزكاة والصَّدَقات، ويعملون ما عملوا من أعمال البرّ، والحال أنَّ قلوبَهم خائفةٌ من التقصيرات في أداء الواجبات، وترك المُحرَّمات، ومن عدم الإخلاص المطلوب فيما يفعلون وفيما يتركون، ويضعون نُصْب أعينهم أنهم إلى ربِّهم وحده راجعون يوم القيامة، فيُجازي كلَّ إنسان بما عمل.

٦١ ـ أولئك الفضلاء ذوو المنزلة والمكانة الرفيعة يُبادرون إلى الأعمال الصَّالحة، وهم لصالحات الأعمال الزائدة على فعل الواجبات، وترك المُحرَّمات سابقونَ إليها، ولأجلها سابقون غيرهم في درجات القُرب من الله عزَّ وجلّ.

٦٢ ـ ولا نُكَلِّف نفساً إلا ما يسع قدرتها على العمل، بحيث لا يستغرق العمل أقصى قدرتها، وقد أثبتنا عملَ كلِّ عامل في كتابِ عملِهِ الذي يكتبه الحَفَظَة، فهو ينطق بالصِّدق ويُبَيِّنه، ولا يُنقص من حسناتهم، ولا يُزاد على سيِّئاتهم.

٦٣ ـ بل قلوبُ هؤلاء الكفرة المعاندين مغمورةٌ في متاع الحياة الدنيا وزينتها، فلا حركة لها إلا فيما هي مشغولةٌ مغمورةٌ فيه، لا تعي ما يردُ عليها من الخارج من مواعظ ومذكِّرات من هذا القرآن، ولهم مع شركهم أعمالٌ خبيثة من المعاصي والخطايا، هم لتلك الأعمال الخبيثة عاملون، وعليها مقيمون، لا يتركونها حتى يأخذهم الله بالعذاب.

٦٤ ـ حتى إذا عاقبنا أهل النعمة والبَطَر منهم بالعذاب المُهين في الآخرة، يفاجئون بأن يرفعوا أصواتهم مستغيثين داعينَ أن يرفع الله عنهم العذاب.

٦٥ ـ فيقال لهم: لا ترفعوا أصواتكم مُستغيثين لكشف العذاب عنكم، إنَّكم لا ينالكم منا نصرةٌ تنجيكم ممَّا أنتم فيه، ولا ينفعكم تضرُّعكم.

٦٦ ـ قد كانت آياتُ القرآن تُتْلىٰ عليكم، فكنتم ترجعون وراءكم، مُوَلِّين عن سماع الآيات، كفراً بها، وتكذيباً لرسولي الذي بلَّغها.

٦٧ ـ مُتكبِّرين على الرسول ومستهزئين به، وكنتم تستمتعون في مجالسِ سَمَرِكم بالطعن بالقرآن والرسول بالأقوال القبيحة والسيئة.

٦٨ ـ أَنَطَمَست بصائرهم وعقولهم بغشاوات من أهوائهم وشهواتهم، فلم يَتَدبَّروا ما جاءهم من القرآن، فيعتبروا بما فيه من الدلالات الواضحات على صِدْق محمد ﷺ، بل: أجاءَهم من دين ربِّ العالمين ما لم يأتِ آباءهم الأوَّلين، إنهم إذا ادَّعوا هذا فهم كاذبون، فقد سَبَقَ أن جاءهم رسولان كريمان هما: إبراهيم وابنه إسماعيل، واستمرَّ دين الله هو السائد في مكة، حتى غيَّروا وعبدوا الأوثان؟

٦٩ ـ بل: ألم يعرفوا رسولهم محمداً ﷺ صغيراً وكبيراً، وعرفوا نسبه وصدقه وأمانته وحُسْن أخلاقه؟ لقد عرفوه بهذه الصفات والكمالات، فهم له مُنكرون بَغْياً وحَسَداً؟!

٧٠ ـ بل: أيقولون به جنون؟ وقد كانوا يعرفون أنه أرجح الناس عقلاً، وأثقبهم رأياً. ليس الأمر كما زعموا في حقِّ القرآن والرسول، بل جاءهم بالصِّدق الثابت الذي لا مَحيدَ عنه، والقول الذي لا تخفى صحَّته وحُسْنه على عاقل، وأكثَرُهُم للحقِّ كارهون؛ لأنه يصادم أهواءَهم وشهواتهم ومصالحهم الخاصَّة.

٧١ ـ ولو اتَّبعَ اللَّهُ الحقُّ مُرادَهم فيما يفعل، لَفَسَدت السموات والأرض ومن فيهنَّ، من ملائكةٍ وإنس وجن، لكنَّ الله الحقَّ لا يمكن أن يتَّبع أهواء النَّاس، بل يختار بحكمته لكلِّ شيء ما يُحقِّق صلاحه، ويمنع عنه الفساد، وكذلك فيما يختاره من أحكام الدين وشرائعه، بل أتيْناهم بالقرآن الذي فيه شرفُهم وفخرُهُم. فهم عن القرآن ذي الشرف والشأن العظيم، الذي يجب أن يكون ذكراً في ألسنتهم وقلوبهم وعقولهم معرضون لا يبالون به، ولا ينتفعون بما فيه سعادتهم في دنياهم وآخرتهم.

٧٢ ـ بل أتسألهم ـ يا رسول الله ـ على تبليغ الرسالة وتعليمهم وهدايتهم أجراً؟ إنك لم تسألهم مالاً تفرضه عليهم؛ لأنك على يقين بعطاء ربِّك الذي أعدَّه لك، خيرٌ من كلِّ مال يجمعه الجامعون، وأما رزقك الذي تحتاج إليه في الحياة الدنيا، فالله هو الذي يرزقك، وهو خير مَنْ يعطي ويرزق، وهو الرَّازق الحقيقي الذي لا رازق سواه، فإيّاه فاسأل، ومنه فاطلب، واستعن بطاعته على نَيْل ما عنده من خيرَي الدنيا والآخرة.

٧٣، ٧٤ ـ وإنَّك لَتَدْعُوهم ـ يا رسول الله ـ إلى دين الإسلام، وإنَّ الذين لا يُصَدِّقون بالبعث والجزاء والثواب والعقاب، عن دين الحقّ لمائلون إلى غيره من سُبُل الأهواء والشهوات والضلالات التي ينزلق فيها سالكوها إلى عذاب النار.

۞ وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾

٧٥ - ولو رَحِمْناهم فأزلنا عنهم ما يُعانونَ من قَحطٍ وجُوع، لما تابوا إلى بارئهم، بل لثبتوا مُلازمين كفرهم وعنادهم، ولاستمرُّوا يتردَّدون متحيِّرين، مُنْطمسي البصيرة.

٧٦ - ونؤكِّد لكم أننا أخذنا كفَّار قريش بالقحط والجُوع، فما ذلُّوا ولا خَضَعُوا لربِّهم، وانقادوا له وأطاعوه، وما يتذلَّلون داعين أن يزيل الله عنهم ما أنزل بهم من عذاب، بل مضوا على تمرُّدهم.

٧٧ - حتى إذا فَتَحنا عليهم باباً من أبواب العذاب الشديد، إذا هم فيه آيسون من كلِّ خير، ساكتون من شدَّة الحيرة.

٧٨ - والله الذي خلق لكم من العدم وَفْقَ نظام الإنشاء المُتَدرِّج، مراكز السَّمع لِتَسْمعوا، ومراكز إدراك المرئيات لِتُبْصِروا، ومراكز فهم الأمور والقضايا؛ لتتفكَّروا وتتأمَّلوا وتستنتجوا، وهذه الأجهزة تتطلَّب منكم أن تشكروا بارئكم عليها بالإيمان به، وبفعل ما يأمركم. قليلاً جداً ما تشكرون؛ لأنكم تُؤْثِرون تلبية أهوائكم وشهواتكم من الحياة الدنيا.

٧٩ - والله سبحانه الذي خلقكم عن طريق الذرِّيَّة وبثَّكم بالتناسل في الأرض. وإلى حسابه، وفصل قضائه، وتحقيق جزائه وحده، تُجْمعون يوم القيامة بعد تفرُّقكم.

٨٠ - والله وحده الذي يُحيي ويُميت، بفصْل الرُّوح عن ذي الحياة، وله وحده كلُّ ما يجري من مُختلفات في الليل والنهار تقديراً وخلقاً وفعلاً، أَسُلِبَتْ منكم عقولكم فأنتم لا تعقلون حقائق الأمور، وضعفت إرادتكم فأنتم لا تملكون أن تعقلوا نفوسكم عن أهوائها وشهواتها؟

٨١ - بل أصرَّ كفَّار مكة على موقفهم العناديِّ الجُحوديِّ في إنكار يوم الدين. ومقالتُهم بشأن التكذيب بيوم الدين مُماثلةٌ لمقالة كفَّار الأوَّلين الذين أهلكهم الله، إذْ لم يجد هؤلاء ولا أولئك ذريعةً فكريَّةً يتَّكئون عليها، فلجؤوا إلى توجيه الاستفهام التعجُّبي الاستغرابي الاستبْعادي، الذي عبَّروا به عن إنكارهم وتكذيبهم بأنباء يوم الدين.

٨٢ - قالوا: أَإذا مِتْنا وكُنَّا تراباً وعظاماً أإنا لمُخرجون إلى الحياة مرةً أخرى؟! إنَّ هذا الأمر مُستنكَرٌ جداً، ولا يمكن أن يُصَدَّق.

٨٣ - نؤكِّد أننا وُعِدنا هذا الوعد، وَوَعَدَ آباءَنا قومٌ ذكروا أنَّهم رسل الله، وقد مرَّت القرون العديدة والمديدة، دون أن يأتي يوم البعث هذا. ما نبأ الحياة بعد الموت للحساب، وفَصْل القضاء، وتنفيذ الجزاء إلاَّ أكاذيب وأباطيل الأوَّلين.

٨٤ - قل لهم - يا رسول الله ويا كُلَّ داعٍ إلى الله - إلزاماً للحُجَّة على أنه سبحانه قادرٌ على البعث، وأنه الذي يستحِقُّ أن يُعبد وحده: لِمَن الأرض ومَنْ فيها خلقاً وتدبيراً وعناية وإمداداً بعطاءات ربوبيَّته، إنْ كنتم تعلمون خالقها ومالكها ومُدبِّرها؟

٨٥ - فسيقولون لمُناظرهم مُستقبلاً بعد إسقاط ذرائعهم وإقامة الحُجَّة عليهم: لِلَّه الأرض ومَنْ فيها، وليس لأحد سواه مِلْكٌ في شيء منها، ولا تصرُّف فيه. قُل لهم - يا رسول الله ويا كلَّ داعٍ إلى الله - إذا أقرُّوا بذلك: أفلا تضعون في ذاكرتكم هذه الحقيقة، فيدفعكم هذا التذكير إلى نَبْذ الشِّرك دواماً، وعبادة الله وحده؟

٨٦، ٨٧ - قل لهم - يا رسول الله ويا كُلَّ داعٍ إلى الله - : مَنْ الذي له أمر متابعة التدبير والتصريف للمُتغيِّرات المُستمرَّة في السَّمواتِ السَّبع وفي العرش العظيم الذي هو أعظم المَخلوقات وأعلاها، ولِمَنْ يرجع مِلْكُهما؟ سيقولون مستقبلاً بعد إقامة الحُجَج والبراهين عليهم: لله ربوبيَّة السموات السبع والعرش العظيم، وهو مالكهما. قل لهم - يا رسول الله - : أفتصرُّون على موقفكم الباطل، فلا تجعلون بينكم وبين عذاب ربِّكم وقايةً تقيكم، بنبْذ عقائدكم الشركيَّة، والإيمان بالله وحده لا شريك له؟!

٨٨، ٨٩ - قل لهم - يا رسول الله ويا كُلَّ داعٍ إلى الله -: لمن تنسبون التصرُّف بمُلْك شاملٍ لكلِّ شيءٍ في الكون، فله العزَّة والسلطان دون منازع ولا ندٍّ ولا مشارك، وهو الذي له القدرة الكاملة على حماية من احتمى به، من استجار به فأجاره كفاه وحماه، ومن أراد به سوءاً فإنه لا يجد بعد الله أحداً يُؤَمِّنه فيكفيه أو يحميه أو يدفع عنه، إن كنتم تعلمون حقيقة هذا السؤال فأجيبوا؟ سيقول مَنْ لديه استعداد للإيمان بالحقِّ منهم بعد إقامة الحُجج والأدلة البرهانيَّة: لِلَّه عزَّ وجلَّ وحده ملكوت كل شيء، ولا تملك الآلهة التي اتَّخذناها من دون الله التصرُّف في أحداث الكون، وليس لها أيّ حكم أو سلطان. قل لهم - يا رسول الله ويا كلَّ داعٍ إلى الله - : فكيف تخضعون لتأثير سحر الشياطين لكم بالأوهام والوساوس وحِيَل الأفكار الباطلة، فتتَّبعونهم، فتعبدون مع الله آلهةً من دون الله، وتؤمنون بأنها شركاء لله في بعض خصائص ربوبيَّته وحكمه وسلطانه؟!

بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾ قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ ﴿٩٥﴾ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴿١٠٤﴾

٩٠ - إنَّ الأمر ليس كما يدَّعي المشركون، بل أَتَيْنَاهُم فيما بعثنا به الرسول ﷺ بالحقّ الثابت، وإنَّ هؤلاء المُنكرين لكاذبون فيما يدَّعون من الشَّريك والولد.

٩١ - ما اتَّخذ اللَّهُ من ولدٍ كما يزعم الذين كفروا، وما كان مَعَهُ من معبود بحقّ، ولا يكون أبداً، فلو كان معه إلهٌ ما، له حقُّ العبادة من دون الله، لكان له مُشاركةٌ لله في ربوبيَّته في الكون، ولو كانت لأحد من هذه الآلهة المزعومة مشاركة لله في ربوبيَّتِهِ، إذاً لانْفَرَد كلُّ واحد من الآلهة بخلقه الذي خَلَقه، ولم يَرضَ أن يُضافَ خلقه وإنعامُه إلى غيره، ومَنَع كلُّ إلهٍ الآخر عن الاستيلاء على ما خلقه هو، ولَطَلَب بعضهم مغالبة بعض، فيختلُّ نظام الكون، لكنَّ شيئاً من ذلك لم يحدث، بل الكون كلُّه خاضعٌ لنظام واحد، وسلطان واحد، فلا ربَّ إلا الله، ولا سُلطان إلا لله، تنزَّه الله عمَّا يصف المشركون من إثبات الولد والشريك.

٩٢ - الله سبحانه عالم الغيب ممَّا غاب عن ذوي الإدراك من خلقه، وعالم الشهادة من الأكوان الظاهرة التي تُدرك بالحواس، فلا يغيب عن علمه شيء، تعالى وترفَّع وتسامى من أن يُوصَف بما لا يليقُ به، وعمَّا يشرك به المشركون جميعاً.

٩٣، ٩٤ - قل - يا رسول الله - : يا ربِّ إنْ تكرمني فتجعلني أرى ما أكَّدت لي أن تُريني إيَّاه من إنزال نقْمَتِكَ بمَنْ عاداني، واضطهد الذين آمنوا بي، فأخرجني قبل ذلك من مجتمعهم، فلا تنزل عقابك عليهم وأنا موجودٌ فيهم.

٩٥ - اطمئنَّ - يا رسول الله - فسترى هزيمتهم وخزيهم، وإنَّنا لقادرون على أن نُرِيَكَ - يا رسول الله - ما نَعِدُهُم من العذاب.

٩٦ - ادفع - يا رسول الله ويا كلَّ داعٍ إلى الله - مَنْ يريد مقاومة دعوتك بما يُضِرُّك أو يُؤذيك، ويُقبل عَليك بشرٍّ، بالخَصْلة التي هي أحسن، من خُلق أو قول أو عمل، نحن أعلم بما يصفونك به في شتائمهم واتِّهاماتهم الباطلات، ونُدبِّر بحكمتنا ما يلزم لنصرك على أعدائك.

٩٧، ٩٨ - وقل - يا رسول الله ويا كلَّ داعٍ إلى الله - بحضور قلب وهمَّة نفسيَّة صادقة: يا ربِّ أمتنعُ وأعتصمُ بك أن تحميني وتحفظني من وساوس الشياطين وخطراتهمُ التي يخطرونها بالقلب، ممَّا يُغري بالمعاصي والشُّرور، وأمتنعُ وأعتصم بك - يا ربِّ - أن يَحْضُروني في أيِّ شيءٍ من أموري.

٩٩، ١٠٠ - حتى إذا جاء أحد هؤلاء الكفار الذين ينكرون البعث، مُقدِّمات الموت، وبعضُ ملائكة العذاب، قال مُستجدياً مُتذلِّلاً: يا ربِّ رُدُّوني إلى الدنيا، لَعَلِّي أعملُ صالحاً يرضيك فيما تركت في الحياة الدنيا. كلاَّ لا يرجع إلى الدنيا، فقد فات الأوان، وانتهى زمن الامتحان؛ إنَّ مسألته الرَّجعة كلمةٌ هوَ قائلُها لا ينالُها، ومِنْ وراء الموتى ومشاهداتهم التي يشهدونها عند المَوْت وعقبه، حاجز يستمرُّ زمنه إلى يوم يبعثون؛ ليلاقوا أحداث يوم الجزاء الأكبر.

١٠١ - فإذا نَفخ إسرافيلُ في «القرن» نفخة البعث بعد انتهاء البرزخ الفاصل بين الموت والبعث، خرج الناس من قبورهم، فلا يتفاخرون بالأنساب بينهم يومئذ، ولا تنفعهم أنسابهم شيئاً؛ لعِظَم الهَوْل واشتغال كلٍّ بنفسه، ولا يسأل بعضهم بعضاً أن يُعينَهُ، أو يدفع عنه شيئاً.

١٠٢، ١٠٣ - فمن ثَقُلَتْ مقاديرُ أعماله الموزونة بأن رَجَحَتْ حَسَناتُه على سيِّئاته، فأولئك الفُضلاء رفيعو المنزلة، هم الفائزون بالجنة المُنعَّمون فيها، ومَنْ خَفَّتْ مقادير أعماله الموزونة بأن رجَحَتْ سيِّئاته على حَسَناته، وأعظمها الشرك، فأولئك البُعداء عن رحمة الله الذين خسروا أنفسهم في جهنَّم خالدون، يُعذَّبون فيها بأنواع العذاب، وأشدها عذاب الحريق.

١٠٤ - تَمسُّ النارُ وجوهَهم، وسائر أجسادهم، فتُحرقها إحراقاً غير مُنْضج للحومها وعظامها، وهم في جهنَّم عابسون، وقد بَدَتْ أسنانهم، وتقلَّصت شفاههم.

أَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُواْ
رَبَّنَا غَلَبَتۡ عَلَيۡنَا شِقۡوَتُنَا وَكُنَّا قَوۡمٗا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ
أَخۡرِجۡنَا مِنۡهَا فَإِنۡ عُدۡنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا
وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَآ
ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذۡتُمُوهُمۡ
سِخۡرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوۡكُمۡ ذِكۡرِي وَكُنتُم مِّنۡهُمۡ تَضۡحَكُونَ ﴿١١٠﴾
إِنِّي جَزَيۡتُهُمُ ٱلۡيَوۡمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾ قَٰلَ
كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ
يَوۡمٖ فَسۡـَٔلِ ٱلۡعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ لَّوۡ أَنَّكُمۡ
كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١١٤﴾ أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ
إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا
هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ وَمَن يَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا
ءَاخَرَ لَا بُرۡهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ
ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُل رَّبِّ ٱغۡفِرۡ وَٱرۡحَمۡ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾

سورة النور

ترتيبها ٢٤ — آياتها ٦٤

١٠٥ ـ يقول الله تعالى للكفَّار وهم يعذَّبون في النار: ألم تكن آياتي البيانيَّة المنزَّلة تُتلىٰ عليكم من قِبَل رسولي، أو من قِبَل مبلِّغي رسالته، فكنتم يومئذ تُكذِّبون بها؟

١٠٦ ـ قالوا: ربَّنا غلبت على إرادتنا ضلالتُنا التي اتَّبعنا بها أهواءَنا وشهواتنا، وكنَّا في حياة الامتحان قوماً ضالِّين عن الهُدى.

١٠٧ ـ ربَّنا أَخْرِجنا من النَّار، وأرجعنا إلى الدنيا؛ لنستأنف رحلةَ امتحاننا في الدنيا، ونعملَ صالحاً، فإنْ عُدْنا إلى الكفر والتكذيب فإنَّا ظالمون لأنفسنا ظلماً من أخسِّ الدركات، ونستحقُّ الخلود في عذاب جهنَّم.

١٠٨ ـ قال اللَّهُ عزَّ وجلّ لهم: كونوا صاغرين أذلاَّء مُبْعَدين من واسع رحمتي، تُعذَّبون في جهنَّم، ولا تُكلِّموني في رفع العذاب عنكم، فإنِّي لا أرفعه عنكم.

١٠٩ ـ إنَّه كان فريقٌ من عبادي المؤمنين الذين وضعتهم في الحياة الدنيا موضع الامتحان، يقولون: ربَّنا آمنا بما أَوْجَبْت علينا أن نؤمن به، إيماناً صحيحاً صادقاً، ولكنَّنا ارتكبنا خطايا، فاسْتُر ذنوبَنا، وارحَمنا برحمتك الواسعة، وأنتَ خيرُ الراحمين.

١١٠ ـ فاتَّخذتُموهم ـ أيُّها الجهنميُّون ـ وأنتم في حياة الابتلاء مَسْخوراً منهم، لتردُّوهم إلى الكفر، حتى أنساكم انشغالكم بالاستهزاء بهم ذكري، وكنتم منهم تَضْحكون استهزاءً بهم.

١١١ ـ إنِّي بعفوي ورحمتي، جَزَيْتُهُم اليومَ الفوزَ بالجنَّة؛ بسبب صَبْرهم على آذاكم واستهزائكم بهم في الدنيا.

١١٢ ـ قال الله تعالى للكفَّار يوم البعث: كم لبثتم في الأرض عَددَ سنين بين الموت والبعث؟

١١٣ ـ قالوا: أقمنا بحسب تصوُّرنا، يوماً أو بعضَ يوم؛ لأننا كنَّا فاقدين الإحساس بمرور الزمن، فاسْأل الملائكة الذين يحفظون أعمال بني آدم ويُحصونها عليهم.

١١٤ ـ قال الله تعالى: ما لبثتم مهما طالَ زمن مُكثكم موتى في باطن الأرض، إلا زمناً قليلاً في جَنْبِ ما تمكثون في الآخرة، وأنتم كنتم قادرين على إدراك هذه الحقيقة في حياة الامتحان، لو أنَّكم كنتم تعلمون بأنكم مبعوثون ومُجازَوْن جزاءً خالداً في أزمان لا نهاية لها.

١١٥ ـ أفقدتم قدرات التفكير التي خلقتُها فيكم، وحكَّمتم أهواءَكم وشهواتكم، فتوهَّمْتم أنَّما خلقناكم لعباً وباطلاً دون حكمةٍ، وتوهَّمْتم أنكم إلينا لا تُرجعون في الدار الآخرة للحساب، وفصل القضاء، وتنفيذ الجزاء؟!

١١٦ ـ فتعالى اللَّهُ وارتفع بعظمته وتنزَّه عن أن يخلُق عَبثاً، هو الملك للوجود كلِّه، الحقُّ الثابت الذي لا معبودَ بحقٍّ إلا هو، ربُّ العرش الكريم؛ أعظم المخلوقات وأعلاها، الجامع لكلِّ صفات الكمال المُلائمة لخلقه فوق السموات السبع، ومحيطاً بها.

١١٧ ـ ومَنْ يعبد مع الله إلٰهاً آخر، لا حُجَّة له يثبت به ربوبيَّته وإلهيَّته، إذْ لا يمكن إقامة برهان ولا دليل على ربوبيَّة وإلهيَّة غير الله، فإنَّما جزاء الجاحد المُكذِّب يوم الدين، عند ربِّه، إنه لا يسعد ولا ينجو من عذاب يوم القيامة. فقوله سبحانه: ﴿لَا بُرۡهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ قيْد يؤكِّد ضمناً عدم وجود شريك لِلَّه عزَّ وجلَّ في إلٰهيَّته. وفي هذا تكريمٌ للفكر الإنساني أن يبحث كلَّ أُصول الإيمان، وقضاياه الكبرى بالبراهين العقليَّة، ولا يأخذها بمجرَّد التسليم للخبر، فلن يستطيع أن يأتي ببرهانٍ على أنَّ لله شريكاً في ربوبيَّته، أو في إلٰهيَّته. على أنَّ في التعبير معنى التحدِّي بأنْ يأتي المشركون ببرهان يُثْبتون به ما يعتقدونه من شركٍ، وهذا التحدِّي يتضمَّن تأكيد نفي وجود بُرهان يُثْبت ادِّعاءَهم في وجودِ أيِّ شريكٍ لله عزَّ وجلّ.

١١٨ ـ وقل ـ يا رسول الله ويا كلَّ مؤمن ـ: ربِّ اغفِر لي ذنوبي، وارحمني برحمتك الواسعة، وأنتَ خيرُ الراحمين، لأنَّ رحمتك إذا أدْركت أحداً أغْنَتْهُ عن رحمة غيرك، ورحمةُ غيرك لا تُغني عن رحمَتِك.

بسم الله الرحمن الرحيم

سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٦﴾ وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٨﴾ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾

سورة النور

١ ـ هذه سورةٌ ذات مرتبةٍ رفيعة ومنزلةٍ عاليةٍ، وبدايةٍ ونهايةٍ مَعلُومَتَيْن، أنزلناها عليك ـ يا رسول الله ـ، وأوْجَبنا ما فيها من الأحكام، وألزمناكم العملَ بها ـ أيها المؤمنون ـ، وأنزلنا فيها آياتٍ واضحاتٍ؛ رغبةَ أن تتذكَّروا ما فيها من الأحكام، وتعملوا بها.

٢ ـ الزَّانيةُ والزَّاني ـ وهما: المرأة المكلَّفة والرجل المكلَّف العالمان بتحريم الإسلام للزنى وأقدما على ارتكابه حقيقة باختيارهما ـ، فاضربوا ـ أيُّها الحكّام ـ كلَّ واحد منهما مائةَ جَلْدَة بالسَّوط تباشر أجسادهم، ولا تأخذكم بهما رقَّةٌ ورحمة في شرع الله وحكمه، فتُعطِّلوا الحُدودَ ولا تُقيموها، أو تُخفِّفوا الضرب، بل أوْجعُوهما ضرباً إنْ كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر حقيقةً لا ادِّعاء، ولْيَحْضر مَشْهَدَ التعذيب والتأديب لأولئك الزُّناة والزَّواني جَمْعٌ من أهل الإيمان والإسلام رجالاً ونساءً؛ تشهيراً بهما، وزيادةً في افتضاحهما؛ ليكون الخزيُ والعار أبلغ في حقِّهما، وهذا في حد الزاني غير المُحْصَن، وأما المُحْصَن ـ وهو من وطىء في زواج شرعيٍّ صحيح ـ فحدُّه الرجم بالحجارة حتى يموت، كما ثبت في السنة.

٣ ـ الزاني الفاجرُ الخبيث لا ينتظر منه أن تَتَّجه رغبته ومَيْله إلى نكاح الصَّالحة من النساء، وإنَّما يرغب في نكاح فاسقةٍ خبيثةٍ مثله أو مشركة، فهي الأليق بحاله والأنسب به. والفاسقةُ الخبيثةُ الفاجرة لا يليق بها نكاح الصُّلحاء من الرجال، وإنَّما ترغب في نكاح فاسقٍ خبيثٍ مثلها أو مُشرك، وحُرِّم نكاح الزانية حتى تتوب، وكذلك يحرم إنكاح الزاني حتى يتوب. فلا يجوز إنشاء علاقة زوجيَّة بين الأعفَّاء من المسلمين وبين الزُّناة والزواني منهم إلا بعد التوبة، وانقضاء عدَّة الزنى، لضرورة براءة الأرحام، ولمنع الاختلاط بين الأنساب.

٤ ـ والذين يَقْذفون الحرائر العفيفات بالزِّنى، ثمَّ لم يأتوا بأربعة رجال عدول يشهدون على الزِّنى، فاجْلدوا كلَّ واحد منهم بالسَّوط ثمانين جلدة، ولا تَرضَوْا منهم بأيِّ شهادةٍ يُدلون بها في أيِّ قضيَّةٍ مدَّة حياتهم، وأولئك البُعداء الذين ظلموا عباد الله في حقوقهم هم الخارجون عن طاعة الله. وإذا كان هذا في الرمي بالزِّنى والاتِّهام به، فكيف يكون حال مُقترف هذا الجرم الفاحش الشنيع!!

٥ ـ لكن الذين تابوا من بعد أن تحقَّقت الأحكام الثلاثة: (الجلد، ورد الشهادة، والتفسيق)، وأصْلحوا عملهم، وأصلحوا ذات البيْن التي أفسدوها، باستحلالهم ممَّن قذفوه حتى يسامحهم ويصفو لهم، فإنَّ الله كثير السَّتر لهم، دائم الرحمة بهم.

وقد اشترط الإسلام الشهداء الأربعة في خبر الاتِّهام بالزنى نظراً لأهمية موضوع الخبر، ولأنَّ النفوس يتجسَّم لديها الظنُّ به، حتى يصل إلى مرتبة التحقُّق فتشهد به، دون أدلةٍ ماديَّة، ونظراً لما يترتَّب عليه أيضاً من هدم الأسر، والخزي والفضيحة لمن تثبت عليه التهمة.

٦، ٧ ـ والذين يقْذفون أزواجهم بالزِّنى، ولم يكن لهم شهداء يشهدون على صحَّة ما قالوا إلاّ شهادة أنفسهم، فعلى كلِّ واحد منهم أن يشهد أمام القاضي أربع مرَّات بقوله: أشهد بالله أني صادق فيما رَمَيْتُها به من الزِّنى، والشهادةُ الخامسةُ: أن يدعوَ على نفسه باستحقاق لعنة الله والبُعد عن رحمته، إنْ كان من الكاذبين فيما قذف به زوجته من الزِّنى. وحينئذ تترتَّب عقوبة الزنى على الزوجة.

٨، ٩ ـ ويُدفعُ عن الزوجة عذاب الحدِّ أن تشهد أمام القاضي أربعَ شهادات بالله: أنَّ زوجها لَمِنَ الكاذبين فيما رماها به من الزِّنى، وتشهدُ الشهادةَ الخامسةَ: أنَّ غضب الله عليها وسخطه ومَقْته وعذابه إنْ كان زوجها من الصَّادقين فيما رماها به من الزِّنى. وحينئذ يُفرَّق بينهما.

١٠ ـ ولولا فَضْل الله عليكم ومزيد إحسانه، ورحمته بكم ـ أيها المؤمنون ـ لأَحَلَّ بالكاذب من المُتَلاعنَيْن ما دعا به على نفسه، ولعاجلكم بالعقوبة، ولكنه سَتَر عليكم، ودفعَ عنكم الحدَّ باللعان، وتفضَّل عليكم بتشريع هذا الحكم، وأنَّ الله توَّابٌ يعود على مَنْ يرجع عن المعاصي بالرحمة، حكيم فيما فرضه من الحدود.

وإذ تيقَّنت الزوجة المسلمة العفيفة أن زوجها يقْترف الزنى، فإنَّ الشرع يفرِّق بينهما بسبب الإضرار بالزوجة، لما في زنى الزوج من أذىً نفسيٍّ ومعنويٍّ، وما فيه من ضرر دينيٍّ يلحقها، ويسْلك القضاء نظام التحكيم بينهما، وللمرأة أن تطلب الطلاق أو الخُلع منه، فإن تعذَّر ذلك فلْتعلن نشوزها وتكون حينئذ معذورة ديانة. وإنما لم يشرع للزوجة سبيل اللعان كما شُرع للزوج، لأن اللعان شبيه بتشريع الطلاق، وهو من خصائص الأزواج.

إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ بَلۡ هُوَ
خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُم مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِۚ وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ
كِبۡرَهُۥ مِنۡهُمۡ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿١١﴾ لَّوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ ظَنَّ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ
وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمۡ خَيۡرٗا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفۡكٞ مُّبِينٞ ﴿١٢﴾ لَّوۡلَا
جَآءُو عَلَيۡهِ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَۚ فَإِذۡ لَمۡ يَأۡتُواْ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُوْلَٰٓئِكَ
عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ
فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ لَمَسَّكُمۡ فِي مَآ أَفَضۡتُمۡ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾
إِذۡ تَلَقَّوۡنَهُۥ بِأَلۡسِنَتِكُمۡ وَتَقُولُونَ بِأَفۡوَاهِكُم مَّا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ
وَتَحۡسَبُونَهُۥ هَيِّنٗا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٞ ﴿١٥﴾ وَلَوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ
قُلۡتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبۡحَٰنَكَ هَٰذَا بُهۡتَٰنٌ عَظِيمٞ
﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثۡلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٧﴾
وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ
يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلۡفَٰحِشَةُ فِي ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ
فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوۡلَا
فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿٢٠﴾

١١ ـ إنَّ الذين قصدوا واهتمُّوا بأسْوأ الكذبِ والافتراء باتِّهام أمِّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها بالفاحشة، جماعةٌ معدودة منكم، ومنسوبة إليكم، لا يقعْ في توهُّمكم ـ أيها المؤمنون ـ وجود ظاهرة الإفك في مجتمعكم الإسلامي الأمثل، والرسول فيكم، قولهم شرّاً لكم، بل هو خيرٌ لكم؛ لأنَّ الحدث ـ على الرغم من مرارته ـ كان خيراً في آثاره ونتائجه، إذ كانت الحادثة سبباً في الكشف عن الكائدين للإسلام في شخص رسول الله ﷺ وأهل بيته، وكانت سبباً لتعظيم شأن رسول الله ﷺ وبراءة زوجه أمِّ المؤمنين، لكلِّ امرىءٍ من العُصْبة الكاذبة جزاء ما اجْترح من الذنب على قَدْر ما خاض فيه، والذي تحمَّل مُعظمه، وبدأ بالخوض فيه، وقام بإشاعته والترويج له، من أفراد هذه العصبة، وهو رأس المنافقين عبدُ الله بن أبي بن سلول، له على وجه الخصوص عذابٌ عظيم في الدنيا والآخرة؛ إذ وُسم في الدنيا بمِيْسم الذل، وظهر نفاقه على رؤوس الأشهاد، وصار مَنْبوذاً محتقراً، وأما في الآخرة فهو في الدرك الأسفل من النار.

١٢ ـ هلاَّ إذْ سمعتم ـ أيُّها المؤمنون ـ قولَ أهل الإفك، ظنَّ المؤمنون والمُؤمناتُ السَّلامة ممَّا رُمي به إخوانهم النازلين منزلة أنفسهم، وقالوا مُستنكرين مقالتهم بلسان الحال والمقال: هذا كَذِبٌ بيِّنٌ لا حقيقةَ له.

١٣ ـ هَلاَّ جاؤوا على ما زعموا بأربعة رجال عدول يشهدون على دعواهم، فإذْ لم يَأْتوا بالشُّهداء، فأولئك الخائضون في الإفك البُعداء عن رحمة الله في علم الله وفي الواقع هم الكاذبون الذين جمعوا كلَّ أنواع الكذب، واستكملوا عناصره، فهم أخسُّ الكذابين، فلا يشاركهم في دَرَكة هذه الخسَّة أحد، وكان عليكم أن تعرفوا كَذِبهم، ولا تنخدعوا بقولهم، لأنهم لم يأتوا بالشهداء.

١٤ ـ لولا أني قَضَيْتُ أن أتفضَّل عليكم في الدنيا بضروب النِّعم، وزيادة الجُود والكرم، التي من جملتها الإمهال للتوبة، والإرشاد لطرق الخير، وعدم المعاجَلة بالعقوبة، وأنْ أتفضَّل عليكم في الآخرة وأرحمكم بقبول توبة التائبين، وإثابتهم على امتثال أوامري، لعاجلتكم بالعقاب العظيم بسببِ ما خُضْتُم فيه من حديث الإفك.

١٥ ـ حين يروي حديث الإفك بعضكم عن بعض، وتقولون بأفواهكم من غير رويَّة ولا تفكُّر، وتظنُّون أنَّ قذف أُمِّ المؤمنين شيءٌ سهلٌ لا تَبِعَةَ فيه، والحال أنه عند الله أمرٌ عظيمُ الوِزْر.

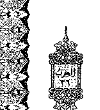
١٦ ـ وهلاَّ قُلتم ـ أيها المؤمنون ـ عند سماعِ حديث الإفك تكذيباً وزجْراً للخائضين فيه والمُفترين له: ما ينبغي لنا أن نتكلَّم بهذا، فَضْلاً عن الإفاضة فيه، وتلقِّيه بألسنتنا بحثاً عنه وجرياً وراءه، تنزيهاً لك ـ يا ربنا ـ عن أن ترضى لأكرم الخلق عليك بحلول هذه النقيصة بألصق الناس به، أو أن ترضى عن طغيان الأفَّاكين، هذا كَذِبٌ يبهتُ ويُحيِّر سامعَه لفظاعته، لا يُقْدَرُ قدره لعظمة المبهوت عليه.

١٧ ـ يُذكِّركم الله وينصحكم نصحاً مقْروناً بالترغيب والترهيب حتى لا تقعوا في ما وقعتم فيه بلا تبصُّر، ويُحرِّمُ اللَّهُ عليكم أن تعودوا لمثلِ هذا الاتِّهام الكاذب ما دمتم أحياء، إن كنتم مؤمنين؛ لأن ذلك مقتضى الإيمان وثمرته، فإنْ لم تنتفعوا بهذا النُّصح المؤثِّر، فإن الإيمان لم يملك قلوبكم، ولم يؤت ثماره في نفوسكم.

١٨ ـ ويُنزِّل الله لكم الآيات الدالَّة على الأحكام واضحة جليَّة؛ لتتدبَّروا في أحكامه وحكمه، واللَّهُ واسع العلم لا يغيب عنه شيء من أعمالكم، حكيم يضع الأشياء في مواضعها، ويختار أفضل الأشياء وأتْقَنَها في الأمور المختلفة لما يُعطي أحسن النتائج.

١٩ ـ إنَّ الذين يُحبُّون أن يظهر الزِّنى واللواط وقذف المحصنات ويذيع في جميع المؤمنين، لهم عذابٌ أليم في الدنيا، بالعقوبات التأديبيَّة التي تستأصل أسباب إشاعة الفاحشة وعوامل الإفساد الأخلاقي، وبالعقوبات القضائية من الجلْد والرجم، وحد القذف، وإسقاط الشهادة، والوسْم بالفسق، ولهم في الآخرة عذاب النار إن لم يتوبوا؛ لأنَّ في إشاعة السُّوء عن المؤمنين إيذاءً لهم وإضرار بهم، وتهوينٌ من أمر فعل الفاحشة، وتشجيع على ارتكابها، ولا سيما إذا كان من أُشيع عنه من أهل السَّتر والصيانة بين الناس. والله ـ وحده ـ يعلم كذبهم وبراءة عائشة، وما خاضوا فيه من سخط الله، وأنتم لا تعلمون، فلا تتركوا علمه الحق إلى أوهامكم الباطلة.

٢٠ ـ ولولا إنعامه عليكم ورحمته بكم لما بيَّن لكم هذه الأحكام، ولعاجلكم بالعقوبة، وأنَّ الله سبحانه شديد الرحمة بعباده، لم يُحمِّلهم ما لا يطيقون، واسع الرحمة بهم. ومن آثار رأفته ورحمته: تجاوزه عن ذنب الخائضين في حادثة الإفك بعد توبتهم وإظهاره براءة عائشة رضي الله عنها.



يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿٢١﴾ وَلَا يَأۡتَلِ أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ مِنكُمۡ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤۡتُوٓاْ أُوْلِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٢٣﴾ يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوۡمَئِذٖ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلۡحَقَّ وَيَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ ٱلۡمُبِينُ ﴿٢٥﴾ ٱلۡخَبِيثَٰتُ لِلۡخَبِيثِينَ وَٱلۡخَبِيثُونَ لِلۡخَبِيثَٰتِۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَۖ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾

٢١ - يا أيها الذين صدَّقوا الله واتَّبعوا رسوله لا تَتَّبِعُوا خطوات الشَّيطان المتنازلات الماكرات ومسالِكه ووساوسه، ومن يَسْلُك طُرقَ الشيطان وخطواته المتنازلات الماكرات فإنَّه يأمر بالكبائر المتعلِّقة بالفروج، وبالقبائح من الأقوال والأفعال، وكل ما يكرهه الله عزّ وجل. ولولا فَضْل الله عليكم بالحفظ والعصمة من المعاصي، ورحمته لكم بالعفو والغفران ما طَهُرَ ولا صَلَحَ منكم من أدناس ذنوبه ومعاصيه أبداً، ولكنَّ الله يُطَهِّر مَنْ يشاء من الذنب بالرحمة والمغفرة، واللَّهُ سميعٌ لأقوالكم، عليمٌ بما في قلوبكم.

٢٢ - ولا يحلِف أهلُ الزيادة في الخير والسَّعة في المال منكم؛ كراهةَ أن يُؤتوا النفقة الأقرباء والمحتاجين السائلين والمهاجرين في سبيل الله ممَّا لديهم من فضْل وسَعَة رزق، بسبب ذنبٍ فعلوه، وَلْيتجاوزوا عن إساءتهم، وليُعرضوا عن عقوبتهم، ولا تكن الإساءة الشخصيَّة مانعة من فعل الخير مع المسيء؛ لأن فعل الخير إنما يُبْتغى به وجْه الله ومرضاته، لا مرضاة الذين يُقدَّم لهم الإحسان، فمن كان حريصاً على أن يغفر الله له، فلْيعف عمَّن يسيء إليه، وليترك لوْمه، ألاَ تُحبُّون أن يغفرَ الله لكم سيِّئاتكم التي تفعلونها في جَنْبه، إذا أنتم عَفَوْتم عن إخوانكم وصفحتم عنهم؟ واللَّهُ كثير السَّتر، دائم الرحمة. وفي الآية أهمية صلة الرحم والتجاوز عن خطئه، والوصيَّة بأخلاق الإسلام في الرضا والغضب، وعدم الانصياع لردود الفعل، ولا سيما مع أهل السابقة في الدين، وذوي الحاجة، وذوي القربى، كمسطح بن أثاثة ابن خالة أبي بكر الصدِّيق، الذي خاض في الإفك مع الخائضين، ولكنه تاب وندم، وقد حَلَفَ أبو بكر الصِّدِّيق أن لا يُنفق عليه بسبب خوْضه في حديث الإفك. وقد عاد أبو بكر إلى برِّه وإحسانه، وقال: بلى، والله إنا نحبُّ أن تغفر لنا يا ربنا.

٢٣ - إنَّ الذين يرمون بالزِّنى المتَّصفات بهذه الأوصاف الثلاثة: **الصفة الأولى**: العفائفُ المصُونات، **والصفة الثانية**: الغافلات المنصرفات الذهن عن التفكير في هذه الفواحش، فلا تتَّجه إليهنَّ نفس منهنَّ بتفكير فضلاً عن التوجّه إليها برغبة، **والصفة الثالثة**: المُؤمنات الإيمانَ الصحيح الصادق، المُذْعنات لله سبحانه بالطاعة، فالذين يقذفونهم بالزِّنى طُردوا من رحمة الله في الدنيا والآخرة؛ ولهم عذاب مُؤلم في نار جهنم يوم القيامة.

٢٤ - ذلك العذابُ العظيم يوم القيامة، يومَ تَشْهَدُ عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم، وتنطق بما كانوا يعملون في الدنيا.

٢٥ - في هذا اليوم الذي تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بأعمالهم القبيحة يعطيهم اللَّهُ جزاءَ أعمالهم الثابت عليهم، وافياً تامّاً، ويعلمونَ في ذلك الموقف العظيم علماً ضرورياً أنَّ الله هو الحقُّ فيما أنزل على رسله من أمرٍ ونهي، المُحقُّ فيما حكم، المبيِّن لما شرع، العادل فيما رتَّب عليهم من جزاء.

٢٦ - الخبيثات من النساء مُختصَّاتٌ بالخبيثين من الرجال، والخبيثون منهم مُختصُّون بالخبيثات منهنَّ، والطيِّبات من النساء مختصَّات بالطيِّبين من الرجال، والطيِّبون منهم مختصُّون بالطيِّبات منهن، وإذا كان رسول الله ﷺ أطيبَ الطيِّبين تبيَّن كون الصِّدِّيقة من أطيب الطيِّبات، لما جرت به سنة الله بين الناس من إلْف الشكل لشكله، وانجذاب كلِّ قبيلٍ إلى قبيله، وإنَّ الخبيثَ من القول لا يليقُ إلا بالخبيث من النَّاس، والطيِّب من القول لا يليق إلا بالطيِّب من النَّاس، وعائشةُ لا يليق بها الخبيثُ من القول، لأنها طيِّبةٌ، فيضاف إليها طيِّب القول من الثناء والمدح وما يليق بها. أولئك الفضلاء رفيعو الدرجة، الطيِّبون والطيِّبات من أهل بيت النبوَّة رجالاً ونساءً، مُنزَّهون ممَّا يقوله أصحابُ الإفك في حقِّهم من الأكاذيب الباطلة، لهم سَتْرٌ كبير لذنوبهم، ورزقٌ كريم دائم في الجنة.

٢٧ - يا أيُّها الذين صدَّقوا الله ورسوله وعملوا بشريعته لا تَدْخلوا بُيوتاً لستم تملكونها ولا تسكنوها حتى تسْتَعلموا وتَسْتكشفوا هل يُراد دخولكم أو لا، وتُسلِّموا عليهم. وصيغة ذلك من السنة: السلام عليكم أأَدْخُل؟ ذلك الاستعلام والسلام قبل دخول بيوت ليست تحت تصرُّفكم خيرٌ لكم وأوْلى بكم من التهجُّم بغير إذن؛ رغبة أن تذكروا هذه الآداب التي أُمرتم بها فتعملوا بها.

فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾

٢٨ - فإنْ لم تجدوا في بيوت الآخرين شخصاً مؤهَّلاً شرعاً ليأذن لكم في الدخول إليها، فلا تدخلوها إلى أن يُؤْذَنَ لكم في الدخول. وإذا كان في البيت قومٌ وكرهوا دخولكم عليهم، فقالوا لكم - أيها المسْتأنسون -: ارجعُوا، فارجعُوا، ولا تقفوا على الباب مُلازمين. فالرجوع أطْهر لنفوسكم من دَنَس الريبة والدناءة، وأنفع لدينكم، وأكمل لآدابكم، واللَّهُ بما تعملون عليمٌ، فيُجازي كلَّ عاملٍ بعمله.

٢٩ - ليس عليكم إثمٌ في أن تدخلوا بغير إذن بيوتاً غير مُعَدَّة لسُكنى طائفة مخصوصة، بل مُعدّة لينتفع بها من يحتاج إليها من غير أن يتَّخذها مسكناً، كحوانيت التجار في الأسواق، والحمامات، والفنادق، والمستشفيات وتوابعها، والمكتبات وقاعات المطالعة، والمدارس وأماكن تدريس العلوم المأذون فيها شرعاً، والدوائر الحكومية في أثناء الدوام الرسمي، وغيرها، فيها حقٌّ تمتُّع لكم؛ كالاستكنان من الحرِّ والبرد، وإيواء الأمتعة، والبيع والشراء، ونحو ذلك، والله يعلمُ ما تُظْهِرون وما تُسِرُّون. فاحذروا من تجاوز ما شرع الله لكم، فلا تدخلوا بيوتاً مسكونةً من غيركم أو ليست تحت تصرُّفكم دون استئذان مَصْحوبٍ بالاسْتئناس، ولا تدخلوا كذلك بيوتاً غير مسكونة فيها متاع لكم بقصْد التجسُّس على قُطّانها، أو أذيَّتهم، أو سَرِقة أمتعتهم.

٣٠ - قُل - يا رسول الله - للمؤمنين يكفُّوا من نظرهم إلى ما لا يَحِلُّ النَّظر إليه، ويحفظوا فروجهم عمّا لا يحل لهم من الزِّنى واللواطة والكشف والإبداء، إنَّ كفَّ البصر وحفظ الفرج أطْهَرُ لهم من دنس الريبة والدناءة، وأنفع لهم في الدنيا والآخرة، إنَّ الله خبيرٌ بأحوالهم وأفعالهم، وكيف يُجيلون أبْصَارهم، وكيف يَصْنعون بسائر حواسِّهم وجوارحهم.

٣١ - وقُل للمؤمنات يَكفُفْنَ من أبْصَارِهنَّ إلى ما لا يَحِلُّ لهنَّ النظرُ إليه، ويحفَظْن فروجهنَّ عمّا لا يحلُّ لهنَّ من الزِّنى والسِّحاق والإبداء، ولا يُظْهِرن زينَتَهُنَّ الخفيَّة للرجال، مثل: الخَلْخَال والخضَاب في الرِّجْل، والسِّوار في المَعْصَم، والقُرْط في الأذن، والقلائد في العُنُق، ونحو ذلك، فلا يجوز للمرأة إظهارها حال مُلابستها لمواضعها، ولا يجوز للأجنبيِّ النظر إلى مواضع الزينة في البدن، إلا ما ظهر من الزينة، وهو: الوَجْه والكفَّان الخاليان من الزينة المكتسبة. فما كان من الزينة الظاهرة يجوزُ للرجل الأجنبي النظر إليه إذا لم يخف فتنةً وشهوة. فإنْ خاف شيئاً من ذلك غضَّ البصر، وإنما رُخِّص في هذا القَدْر للمرأة أن تُبْديه من بدنها؛ لأنه ليس بعورة وتُؤْمَر بكشفه في الصَّلاة والحج، وسائرُ بدنها عورة. ولْيُلْقينَ بأغطية رؤوسهنَّ على فتحات صُدورهنَّ؛ لِيَسْتُرْنَ بذلك شُعورَهُنَّ وأعناقَهُنَّ ونحورَهُنَّ وصدورَهُنَّ بخُمُرهنَّ عن الأجانب؛ لئلا يُرى منهنَّ شيءٌ من ذلك، ولا يُبْدين مواضعَ زينتهنَّ الخفيَّة لكلِّ أحد؛ إلا من استُثْني فيها، وهم اثنا عشر نوعاً: **الأول**: الأزواج، لأنهم المقصودون بالزِّينة، فيجوز للزوج أن ينظر إلى جميع بدن زوجته. **الثاني**: وأحلَّ الله النظر إلى الزِّينة الباطنة ما عدا ما بين السُّرَّة والركبة لآبائهنَّ، **الثالث**: آباء أزواجهنَّ، **الرابع**: أبنائهنَّ، **الخامس**: أبناء أزواجهنَّ، **السادس**: إخوانهنَّ، **السابع**: أبناء إخوانهنَّ، **الثامن**: أبناء أخواتهنَّ، فيجوز إبداء مواضع الزينة لهؤلاء المَحَارم السبعة؛ لاحتياج النساء لمخالطتهم، وأمنِ الفتنة من قِبَلهم، لما تَرَكَّزَ في الطباع من النُّفرة من مُمَاسَّة القرائب، ويُلحق بهم الأعمامُ والأخوالُ والمَحَارم من الرضاع. **التاسع**: نسائهنَّ الكريمات الأخلاق المختصَّات بهنَّ، سواء كنَّ مسلمات أو غير مسلمات، وأما الفاسقات اللاتي لا حياء عندهن، ولا يعتمد على أخلاقهن، فلا يجوز للمرأة المسلمة الصالحة أن تظهر زينتها أمامهن ولو كنَّ من المسلمات، **العاشر**: ما مَلَكن من الإماء، **الحادي عشر**: التَّابعون من الرجال الذين لا حاجة لهم في النِّساء، ولا يعرفون شيئاً من أمورهنَّ بحيث لا تُحدِّثهم أنفسُهم بفاحشة، ولا يصفونهنَّ للأجانب، **الثاني عشر**: الأطفال الصِّغار الذين لم يعرفوا ما العورة، ولم يُميِّزوا بينها وبين غيرها، أو الذين لم يبْلغوا حدَّ الشهوة والقُدرة على الجِماع.
ولا يضرب النساءُ عند سَيْرهنَّ بأرجلهنَّ في الأرض، لِيَسْمَعَ صوتَ خلاخلهنَّ مَنْ يسمعه من الرجال؛ فيدعوه ذلك إلى التطلُّع والمَيْل إليهنَّ، وذلك سداً لذريعة الفساد، وفي حكم الضرب بأرجلهنَّ لِيُسْمعَ صوتُ خلاخلهنَّ؛ إبْداء ما يُخفين من زينتهنَّ بأيِّ وسيلة كانت.
وتوبُوا إلى الله جميعاً - أيُّها المؤمنون - من التَّقصير الواقع في أمره ونهيه، وراجعوا طاعتَه فيما أمركم ونهاكم عنه من الآداب المذكورة في هذه السُّورة؛ رغبة أن تفوزوا بِخَيْرَي الدنيا والآخرة.

وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۗ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾ ۞ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ۖ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾

٣٢، ٣٣ ـ وزوِّجوا ـ أيُّها المؤمنون ـ مَنْ لا زوجَ له من رجالكم ونسائكم، وزوِّجوا ـ أيُّها الأولياء ـ مَنْ كان فيه صلاحٌ وخيرٌ من عبيدكم وجواريكم، بالمعاونة والتوسُّط في النكاح والتمكين منه، إنْ يكونوا فقراء من المال يُوسِّعُ الله عليهم من فَضْلِه وجوده، والله ذو الإفضال والجُود لا نفاد لنعمته، ولا حدَّ لقدرته، عليمٌ بما يُصلح خلقه من الرزق. ولْيَلْزم جانب العفَّة بضبط النفس، وحفظ الجوارح عن الاسترسال في طريق الشهوات الذين لا يجدون وسائل النكاح الموصلة إليه من الصَّداق والنفقة إلى أن يُوسِّع الله عليهم من رزقه، فإذا التزموا جانب العفَّة، ولم يفعلوا ما لم يأذن الله به، أغناهم الله من فضله، وهيَّأ لهم القدرة الماليَّة على الزواج.

والذين يَطْلبون المُكاتَبة من عبيدكم وإمائكم على مالٍ معلوم يُؤدُّونه إليكم؛ ليتحرَّروا من الرق، فيندب لكم مكاتبتُهم كما طلبوا؛ مسارعةً إلى تحريرهم، إنْ علمتم فيهم قوةً على الكسب وقدرة على أداء ما كاتبتموهم عليه، وصدقاً وأمانة، وحُطُّوا عنهم شيئاً من مال الكتابة، ولا تكرهوا إماءَكم على الزنى بقهرهنَّ عليه، وحملهنَّ على فعله بالقوة، كما كنتم تفعلون بالجاهليَّة؛ لِتَطْلبوا من أموال الدنيا بكسبهنَّ وبيع أولادهنَّ، وكيف يقع منكم إكراههنَّ على الزِّنى، وهنَّ إماءٌ يُردْنَ العفَّة عن الزِّنى؟ ومَنْ يُكْرِهْهُنَّ على الزِّنى؛ فعليه إثم إكراههنَّ، وهُنَّ لا يقام عليهنَّ حدُّ زنى الإماء، لأنهنَّ أردن تحصُّناً بطاعة الله، ولم يفعلن ما فعلن بإرادتهنَّ، والله من بعد إكراه أوليائهنَّ لهنَّ على الزنى كثير السَّتْر لهنَّ، دائم الرحمة بهنَّ.

٣٤ ـ وأؤكِّد لكم أننا أنزلنا إليكم ـ أيُّها الناس ـ آياتٍ من القرآن المجيد تنقسم إلى ثلاثة أقسام: **الأول**: آيات مشتملات على بيان القضايا التي ترتبط بها هدايتكم مُوضِّحات لكلِّ قضايا الهداية في الدين، **والثاني**: شَبَهٌ من كلِّ حالةٍ من أحوال الأمم الذين مَضَوْا في الأزمنة السابقة عليكم ممّا فيه عبرةٌ وأسوةٌ حسنةٌ لكم، **والثالث**: نصيحة مقْرونة بما يُثير الرَّغبةَ والرَّهْبةَ للانتفاع بالنُّصح، واتِّباع ما تضمَّنهُ فعلاً أو تركاً، ينتفع بها المتَّقون الذين يخافون الحساب والعقاب يوم الدين.

٣٥ ـ اللَّهُ سبحانه صاحبُ كلِّ نورِ السَّموات والأرض، فلا نورَ في السَّموات والأرض إلا منه سبحانه مصدراً، وإمْداداً، وتسخيراً، مَثَلُ نورِهِ العظيم الذي تَسْتهدون به كفجوة في حائط، فيها مصباحٌ شديد التوهج، المصباح في زجاجةٍ شفَّافةٍ صُلْبةٍ، الزجاجةُ تبثُّ نورَ المصباح كبثِّ الكوكب في السماء لنورهِ، وكلون الدرِّ في صَفَائه وهدوئه، يُوقد هذا المصباح من شجرةٍ مباركةٍ كثيرةِ الخير، وافرةِ العطاء، هي من نوع شجر الزيتون، مغروسةٍ في موقع لا شرقيٍّ يحجبُها عن الشمس صباحاً الجبلُ الشرقيُّ، ولا غربيٍّ يحجبُها عن الشَّمس مساءً الجبلُ الغربي، بل تأخذ حظَّها من ضوء الشَّمس طوال النهار، يكاد زيتُها يُضيء فينشر النُّور، ولو لم تَمْسَسْه نار، من شدَّةِ صفائه، وانكسار الأشعَّة عليه، حتى كأنه على وشك أن يلتهب ويُضيء، نور مُتراكبٌ بعضه فوق بعض تراكباً يزيد من قوَّته وشدَّته، فقد اجتمع صفاءُ الزيت، ونورُ المصباح، ونقاءُ الزجاجة المشعَّة مع لونها الدريِّ، التي تزيد النور وتضاعفه بانعكاسها. وكذلك نور القرآن في ألفاظه وجُمله وأساليبه يضيفُ إلى معانيه التي تهدي المؤمن في حياته نوراً، فيكون منهما نوران مجتمعان، يهدي الله لنور كتابه المنزَّل من يشاء أن يهديَه من عباده، بحسب استعداده، وصدق طلبه وتوجُّهه. ويضرب الله الأمثال للناس مراراً وتكراراً في كتابه لتقريب المعاني المرادة إلى أفهامهم، والله بكلِّ شيء عليم.

٣٦ ـ مكان المشكاة التي فيها المصباح، بيوتُ الله التي أذن الله برفع بنيانها؛ ليكون إعلاؤها معالم بارزة لبلدان الأمَّة الإسلاميَّة، ولجذب الناس إليها، وتأليف قلوبهم عليها، وأمر بأن يُذكر فيها اسمه، يُنَزِّهُه سبحانه ويذكره في بيوته المضافة إليه **بالغُدْوة**: ما بين الفجر وطلوع الشمس، **والآصال**: حين تصفرُّ الشمس مساء حتى الغروب.

رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾

٣٧ - رجالٌ لا تصرف أذهانهم ويستأثر باهتمامهم تجارة ولا بيع، عن ذكر الله، وإقام الصلاة في وقتها، وإيتاء الزكاة المفروضة لمستحقّيها، وسائر الواجبات الدينيّة، وحقوق الأسرة والمجتمع. يخافون من الجزاء والعقاب يوم الدين الذي تتحرّك فيه القلوب بمشاعر الخوف والرجاء والطمع، وتتحرّك فيه الأبصار ترقُّباً للأحداث.

٣٨ - إنهم يعملون بطاعته سبحانه، ليجْزيهم عن أعمالهم التي عملوها في الدنيا ثواباً يُكافىء أحسنَ ما عملوا من أعمال حسنةٍ مقبولةٍ عنده، ويزيدُهم من فَضْله عطاءً فوق مُجازاتهم على أعمالهم ثواباً مُكافئاً أحسنَ ما عملوا، والله يرزق من فيض عطائه بغير محاسبةٍ على مقادير الأعمال، ومُضاعفات جزائها مَنْ يشاء. وهم السابقون المقرَّبون أهل مرتبة الإحسان.

٣٩ - والذين رفضوا الإيمان بالله ورسوله، وتولَّوْا عن آيات الله، ولم يهتدوا بنورها قسمان: **القسم الأول:** كلُّ أعمالهم مهما كدُّوا وتعبوا من أجل تحقيق ما يتمنَّوْنه من سعادة، كَسَراب مُلاصِقٍ لما استوى من الأرض، يظنُّه الظمآن الذي لا ماء معه، ماءً يَترقْرق على سطح الأرض المنبسطة في امتداد بصره، وإنما هي انعكاسات أشعة الشمس، حتى إذا وَصَل إلى موضع السَّراب، لا يجده شيئاً، ويموتُ وهو ظمْآن خائب المسْعى. وكذلك حال الكافر الذي يتَّخذ الأسباب التي يحسب أنها تُوصلُه إلى مَطامحه وآماله، يكدُّ لاهثاً حتى تخْترمه المنيَّة دون أن يصل إلى ما يصبو إليه، وظهر للكافر عند الموت الحقيقة، ونالَ جزاءَهُ وافياً يوم الدين عما قدَّم في دنياه، واللَّهُ سريع الحساب، يُجري حسابه بالسرعة الملائمةِ لكمال صفاته، وبالدقَّة التامَّة التي لا يكون فيها زيادة ولا نقصان.

٤٠ - **والقسم الثاني من الذين كفروا:** أعمالهم تخبُّطات عَمْياء، في ظلمات فكريَّة ونفسيَّة وقلبيَّة، كظلماتٍ في بحرٍ عظيم عميق، يعلوهُ موجٌ، من فوق الموج الذي هو فوق الظلمات موجٌ آخر، من فوق الموج السطحيِّ سحاب، يحجب الأضواء والأنوار، ظلماتُ الأمواج في العُمْق، والتي في السَّطح، والسُّحب المتراكبة فوق البحر قد أحدثت مقادير من الظلمة حَجبت الأنوار العلويَّة ذات الأشعَّة المُمْتدة إلى الأرض، إذا أخرج هذا المتخبِّط في ظلمات أعماق البحر يَدَه من مكان وضعها الطبيعي وأدناها من عينَيْه إدناءً كثيراً لم يقْرب مِن رؤْيتها، فضْلاً عن أنْ يراها من شدَّة ما هو فيه من الظّلمات. والسببُ الذي ولَّد هذه الظلمات هو أنهم رفضُوا الإيمان، وألقوا بينهم وبين نور الله حُجُباً كثيفةً، منها ما هو في أعماق ذَوَاتهم من أمواج الشَّهوات، ومنها ما هو فوقها على سطح نفوسهم من أمواج الأهواء، ومنها ما هو مُظلّل لهم ومُضلّل من تقاليد وأفكار وعقائد، فكان من نتائج اختيارهم الحر، أنَّ الله تعالى ضمن قوانينه التكوينيَّة لم يجعل لهم نوراً، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور.

٤١ - ألم تَرَ ناظراً ببصرك - أيها العاقل الرشيد - حتى ترى رؤية علميَّةً أنَّ جميع الكائنات من العقلاء وغيرهم، تُنزِّهُ الله سبحانه بلسان حالها ومقالها في ذاته وصفاته وأفعاله، عن كلِّ ما لا يليق بشأنه العظيم. والطَّيرُ باسطاتٍ أجنحتهنَّ في الهواء تُسبِّح ربَّها، كلُّ مُصَلٍّ ومُسَبِّح علمَ اللَّهُ صلاتَه وتسبيحَهُ، واللَّهُ عليمٌ بما يفعلون، لا يَعْزُبُ عن علمه شيء. وفي الآية تقريعٌ للكفار حيث جَعَلوا من الجمادات التي من شأنها التسبيحُ لله شركاء لله تعالى يعبدونها كعبادته سبحانه.

٤٢ - ولله وحده كلُّ ما في السموات والأرض ملكاً وخلقاً وتصرُّفاً، وإلى حكم الله وحده، وفصل قضائه، وتنفيذ جزائه، وإلى المكان الذي يقضي فيه مرجع جميع الخلائق.

٤٣ - ألم تَرَ - أيُّها العاقل البصير - ناظراً إلى آثار صنع ربِّك الذي أتقن كلَّ شيء، أنَّ الله يَسُوقُ سَحَاباً سَوْقاً رفيقاً بأمره حيث يشاء، ثمَّ يجمع بين قطع السَّحاب المُتفرِّقة بعضها إلى بعض، ثمَّ يجعلُه مُتراكماً بعضه فوق بعض، فترى المطر ينْفُذُ من خلال السحاب، واللَّهُ يُنَزِّل من مجموعات السُّحب المتكاثفة التي تُشبه الجبال في عظمتها برداً كالحَصَى، فَيُصيبُ الله سبحانه بالبَرَدِ المنزَّل من السحاب من يشاء من عباده، فيهلكه وأمواله، ويَصْرِفُه عمَّن يشاء منهم، فلا يضرُّه، يقْرب ضوءُ برقِ السَّحاب ولمعانه الحادث من اصْطكاك السُّحب، يذهبُ بالأبصار من شدَّة ضوئه وبريقه.

يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ۖ قُل لَّا تُقْسِمُوا۟ ۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾

٤٤ ـ يُغيِّر الله أحوال الليل والنهار بالطول والقصر، والابتداء والانتهاء، بسبب حركة الأرض حول نفسها، وحول الشمس، إنَّ في ذلك لدلالة لأهل العقول والبصائر على قدرة الله ووحدانيَّته.

٤٥ ـ واللَّهُ خلق كلَّ حيوانٍ يُشاهد في الدنيا من إنسان وأنعام ووحوش وزواحف وطيور وأسماك وغيرها، من نطفة، فمنهم من يمشي على بطنه بدون آلة مشي، كالحيَّات والحيتان والديدان ونحو ذلك، ومنهم من يمشي على رِجلَيْن، مثل بني آدم والطير ونحوهما، ومنهم من يمشي على أربع، كالبهائم والسباع، ومنهم من يمشي على أكثر من أربع، يخلق الله ما يشاء من خلقه على أية كيفية تكون؛ إنَّ الله هو البالغ القدرة، لا يعجزه شيء أراده.

٤٦ ـ لقد أنزلنا في القرآن آيات واضحات ظاهرات، وعلامات مُرشدات، تُبيِّن الحقَّ من الباطل، والرُّشد من الغيِّ، إلا أنَّ وضوح الآيات في نفسها وتبيينها السُّبل تبييناً وافياً لا يغني عن توفيق الله للهدى، واللَّهُ يهدي ويوفق من يشاء من عباده إلى دين الإسلام الذي هو دين الله وطريقه إلى جنَّته.

٤٧ ـ ومع وضوح هذه الآيات يقول المنافقون بألسنتهم من غير اعتقاد: آمنَّا بالله وبالرسول وخضعنا واتَّبعنا منقادين بحسب ما يُطلب منا، ثمَّ يبتعد فريق منهم منصرفاً عن طاعة الله ورسوله من بعد أن اعترفوا بالإيمان، وأعطوا العهد على الطاعة، وَوَضحت لهم الآيات البيِّنات، وما أولئك البُعداء عن رحمة الله بالمؤمنين.

٤٨ ـ وإذا دُعوا إلى اللَّهِ ورسولِهِ؛ لِيَحكُمَ بينهم وبين خصومهم بحكم الله، فاجأ الداعي إعراضَ فريقٍ منهم عن حكم الله ورسوله وهم مُصمِّمون على الإعراض، مُصرُّون عليه.

٤٩ ـ وإنْ علموا أنَّ الحقَّ بيدهم، والحكمَ لهم على غيرهم، وقليلاً ما يكون ذلك، أسرعوا إلى حكم النبيِّ ﷺ مُطيعينَ مُنْقادينَ، مُسْرعين مُبادرين؛ لثقتهم بأنه لا يحكم إلا بالحق، وأنَّه كما يحكم عليهم يحكم لهم أيضاً.

٥٠ ـ أفي قلوبهم مرضُ حقد وحَسَد؟ أم شكُّوا في أمر محمد ﷺ فلا يدرون أيوفَّق في حكمه أم لا؟ أم يخافون أن يكون حكمُ الله ورسوله جائراً؟ ليس شيءٌ من أسباب إعراضهم عن حكمه ﷺ مُبرَّراً، بل أولئك البُعداء إلى جهة السُّفل هم الظالمون لأنفسهم بإعراضهم عن الحق ومخالفتهم لمقتضيات الإيمان.

٥١ ـ ما كان قولَ المؤمنين الصَّادقين إذا دُعوا إلى كتاب الله وحكم رسوله إلاَّ أن يقولوا: سمعنا قوله وأطعنا أمره، فنحن نقبل بما يصدر من حكم ولو كان علينا، وضدَّ هوانا؛ لأننا نؤمن أن الحكم بكتاب الله وسنة رسوله يَضْمَنُ الحقَّ لأهله، ولا يجور عليهم، وأولئكَ الملتزمُون بالسمع والطاعة، المُحقِّقون بالتطبيق العملي مضمون قولهم: «سمعنا وأطعنا»، هم الناجون الظافرون بالخير.

٥٢ ـ ومن يُطِعِ اللَّهَ ورسولَهُ فيما ساءَهُ وسرَّهُ، ويخاف الله خوفاً مُتدفقاً من منابع الإيمان في قلبه، مصحوباً بإجلالٍ وتعظيم وحبٍ، ويتَّقي الله فيما يستقبل، فأولئك الطائعون لله ورسوله، الخائفون المتَّقون رفيعو الدرجة هم النَّاجون الظافرون بخيري الدنيا والآخرة.
فهذه الآية تشتمل على شرط وجزاء. **أما الشرط** فيها فقد جمع ثلاثة عناصر: **الأول:** طاعة الله ورسوله، وهو عنصر سلوكيٌّ في المؤمن، **والثاني:** خشية الله عزَّ وجلّ، وهو عنصر قلبيٌّ ونفسيٌّ، **والثالث:** تقوى الله، وهو العنصر الوسيط بين الخشية القلبية النفسيَّة، وبين سلوك الطاعة. فعن الخشية تتحرك الإرادة لاتِّخاذ الوقاية من عذاب الله، وأثر التقوى في السلوك يكون بطاعة الله ورسوله. فالنصُّ أبان أولاً الأثر الظاهر، وبعده أبان الباعث من الداخل، وأخيراً أبان الواسطة بينهما، وفي هذا إتقان في الترتيب عجيب. وأما **الجزاء** ولمن تحقَّقت فيهم هذه الشروط، فهو الظَّفر والنَّجاة من الشرِّ والربح العظيم، فهم الذين انحصر فيهم كمال الفوز يوم الدين.

٥٣ ـ وأقْسَم المنافقون بالله أقْصى وسعهم في الأَيْمَان المُغَلَّظة: لَئِن أمرتهم ـ يا رسول الله ـ بالخروج للجهاد معك لَيَخْرُجُنَّ. قل لهم ـ يا رسول الله ويا كلَّ قائد للمسلمين من بعده ـ : لا تحلفوا كذباً؛ فطاعتكم طاعةٌ معروفةٌ حقيقتها، لا تتجاوز اللسان والشَّفتين، ولا يخفى من أمركم من شيء، إنَّ الله خبيرٌ بما تعملون على سبيل الشهود والحضور، المُصَاحِب لكلِّ أجزاء العمل، ظواهره وبواطنه، وسيُحبط أعمالكم التي تعملونها ضدَّ دينه، وسيُجازيكم على كفركم ونفاقكم ومعاصيكم.

قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا ۚ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٥٤﴾ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ۚ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾

٥٤ - قل - يا رسول الله - لهؤلاء المنافقين المتظاهرين ساعة الأمن والرخاء بإعلان حماسهم الشّديد بالخروج للقتال باذلين نفوسهم وأموالهم: أطيعُوا اللّهَ وأطيعُوا الرسول بقلوبكم وصدق نيّاتكم، فإنْ تتولّوا مبتعدين عن طاعة الله ورسوله، فما على الرّسول من مسؤوليّة تُجاه ربِّه إلاّ ما كُلّف وأُمِرَ به من تبليغ الرِّسالة، وقد أدّاه، وما عليكم من مسؤوليّةٍ تُجاه ربِّكم إلا ما كُلِّفتم من الإجابة والطاعة والانقياد، فانظروا لأنفسكم، ولا عذر لكم فيما تنكصون، فقد بيَّن لكم طريق الرّشاد والهدى، وذلك في طاعته واتِّباع أمره، وإنْ تُطيعوا رسولَنا تُصيبوا الحقَّ والرُّشْد، ولن يضرَّهُ تأخُّركم عن إجابته، ولا يحيق سوءُ عملكم إلا بكم، وأما هو ﷺ فما بعثناه عليكم وكيلاً، وما على الرسول إلا التبليغ الواضح الظاهر، والمُظْهر الموضِّح لقضايا الإيمان، ولشرائع الله وأحكامه، وليس مسؤولاً عن تحويلِ قومه من الكفر إلى الإيمان، ومن المعصية إلى الطاعة، وليس مُطالباً بأن يُكره الناس على سلوك الصراط المستقيم إذا أبَوْا ورفضوا سلوكه، ولم يستجيبوا لدعوته، إذ خطة الامتحان الربّاني قائمة على اختبار الناس في أن يؤمنوا ويسلكوا صراط الله المستقيم، عن طريق إرادتهم الحرة، لا بالإلزام والإجبار.

٥٥ - وَعَدَ الله الذين آمنوا إيماناً صحيحاً صادقاً، وعملوا الصّالحات التي أُمروا أن يقوموا بها، كإقامة العدل، ونشر الأمن، والأخذ بالأسباب، وإعداد القوة المُرْهبة للكفار، بثلاثة وعود: **الوعد الأول**: لَيُوْرِثَنَّهم أرضَ الكفار من العرب والعجم، فيجعلهم خلفاً لملوكها وحكامها، ذوي القوى الماديّة والعسكريّة التي لا تدانيها قوى الذين آمنوا، كما اسْتَخْلَفَ المؤمنين من قبلهم بالحكم والسلطان في الأرض، **والوعد الثاني**: لَيُمَكِّنَنَّ لهم دينَهم الذي اختاره لهم، ويُظْهِرَه على سائر الأديان، **والوعد الثالث**: لَيُبَدِّلَنَّهم من بعد خَوْفهم أمناً، يَعْبُدونَني آمنين لا يُشركون بي شيئاً. وقد أنجز الله وعده، وأظهر دينه، ونصر أولياءه، ومن كفر نعمة الله بعد الاستخلاف المستقر الثابت، وفسد وانحرف، وتخلّى عن الصفات التي تؤهِّلهم للتمكين، فأولئك البُعداء عن رحمة الله هم الخارجون عن طاعة الله الذين يسلبهم الله نعمة الاستخلاف، كشأن غيرهم من الأمم. وهذه الآيةُ شاهد عدلٍ وصدقٍ على هذه الأمة، فما من مرَّةٍ سارت هذه الأمة على نهج الله وحكَّمت شريعته في حياتها إلا وتحقَّق لها وعد الله بالتمكين والاستخلاف، وما من مرة حادت هذه الأمة عن نهج الله الذي ارتضاه لها إلا تخلَّفت في ذَيْل القافلة وذلَّت، وطُردت من الهيمنة على البشريَّة، واستبدَّ بها الخوف، وتخطَّفها الأعداء. ووعد الله قائم، وشرطه معروف، فمن شاء الوعد، فلْيقُم بالشرط، ومن أوفى بعهده من الله؟!

٥٦ - وأقيموا الصَّلاة بالمواظبة عليها في أوقاتها، وإتمام أركانها، وآتوا الزَّكاةَ لمُستحقِّيها، طيِّبةً بها نفوسكم، ابتغاءَ وَجْه الله، وأطيعوا الرسولَ في كلِّ أوامره ونواهيه التشريعيَّة، والقياديَّة السياسية، والعسكرية؛ رغبة أن تُرحموا.

٥٧ - لا تَظُنَّنَّ الذين كفروا فائتين عنَّا، أو خارجين عن قُدرتنا، فأين يُعجزوننا وهم مهما ذهبوا في الأرض، فهم واقعون في قبضتنا، ذائقون في هذه الحياة مُرَّ النَّكال منَّا، ومَأْواهم في الحياة الأخرى النار، وَلَبِئْسَ المرجع النار.

٥٨ - يا أيُّها الذين صدَّقوا اللَّهَ ورسولَهُ وعملوا بشريعته مُرُوا عبيدَكُم وإمَاءَكم، والأطفال الأحرار في سنِّ التمييز، وهم الذين عرفوا أمر النساء ولم يبلغوا الحُلُم، أن يَسْتأذنوا في ثلاثة أوقات في اليوم والليلة، هي تلك الأوقات التي يحتاج المرء أن يستريح فيها، ويملك في نفسه حريّة التصرُّف، فيختار الوضع الذي يروقه، والهيئة التي توافقه، وهو آمنٌ من اطِّلاع غيره عليه، **الوقت الأول**: من قبلِ صلاةِ الفجر حين يستيقظ من نومه، ويهبُّ من فراشه، ويطرح ثياب النوم، ويلبس ثياب اليقظة، **والوقت الثاني**: حين تخلعون ثيابكم وتطرحونها وقت شدَّة الحر، **والوقت الثالث**: من بعد صلاة العشاء حيث يكون قد فَرَغ من عمله، وانتهى من عبادته، وركنت نفسُه إلى أن يأوي لفراشه، فيخلع ثياب اليقظة، ويلبس ثياب النوم، وربما كان يميلُ إلى الأُنس بأهله؛ هذه الأوقات ثلاث عورات، يكره الإنسان أن يطَّلع عليها غيره، شُرعت لمصلحتكم ورحمة بكم، ليس عليكم ولا على العبيد والخدم والصبيان أيُّ حَرَج بعد هذه الأوقات الثلاثة في الدخول عليكم بغير استئذان، هم كثيرو التردُّد والمقابلة لكم، والمخالطة معكم في شؤون الحياة، يتردَّدون ويدخلون ويخرجون في أشغالكم بغير إذن، لا يستغني كلاً منكم عن مخالطة صاحبه، كما بيَّن لكم حكم الاستئذان بياناً شافياً يملأ القلب رَوْعةً وجلالاً، مثل هذا البيان يُبيِّن لكم غيره من الآيات التي احتجتم إلى بيانها، واللّهُ عليمٌ بمصالح عباده، حكيمٌ في تدبير أمورهم.

وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾

٥٩ ـ وإذا بلغ الأطفالُ الأحرارُ ذكوراً كانوا أو إناثاً سنَّ الاحتلام، وحدَّ البلوغ، فَلْيَسْتأذنوا في جميع الأوقات في الدخول عليكم كما استأذن الذين بلغوا الحُلُم من قبلهم من الأحرار الكبار، ولا تتسامحوا في دخولهم ومُخالطتهم على سابق عادتهم قبل بلوغهم، بحُجَّة أنَّهم اعتادوا ذلك منذ صغرهم، مثل هذا البيان يكون دائماً تبيين آياته التي تُتلى عليكم، لتخضعوا لأمره تعالى وإن خالف عاداتكم، فهو أعلمُ بما فيه مصلحتكم، واللّهُ عليمٌ بأمور خلقه شامل العلم لكلِّ ما يصلح، وبما كان ويكون، يضع لكم من الأحكام ما يناسبكم، ويكفل لكم سعادتكم.

٦٠ ـ والنِّساءُ العجائز اللاتي قَعَدن عن الحيض والولد وعن الاستمتاع بهنَّ؛ لكبرهنَّ، اللاتي لا يَطْمعنَ في الزواج ولا يُردن الأزواج؛ ليأسهنَّ من أن يُتطلَّع إليهن، فليس عليهنَّ حَرَجٌ أو إثم أن ينزعن عنهن ثيابهنَّ الظاهرة التي لا يُفضي نزعها إلى كشف العورة، كالجلباب والرداء الذي فوق الثياب، غير مُظْهراتٍ زينةً ممَّا أُمِرنَ بإخفائها، وغير قاصداتٍ بوضع الجلباب والرداء إظهار زينتهنَّ ومحاسنهنَّ للرجال، وأن يَسْتَعْفِفْنَ فلا يُلقينَ الجلباب ولا الرداء، ويبقين كاسيات بثيابهنَّ الخارجية الفضفاضة خيرٌ لهنَّ، واللّه سميعٌ لما يَقُلْنَ، عليمٌ بما يَقْصدن.

٦١ ـ ليسَ على الأعمى والأعرج والمريض من أصحاب الأعذار وذوي العَاهَات ضيقٌ وإثم في مُؤَاكَلَة الأصحَّاء، وليس عليهم إثمٌ في أن يأكلوا من بيوت غيرهم حيث أباحوا لهم ذلك في غَيْبَتهم، ولا يتحرَّج الأصحَّاء من مخالطة أولئك الطوائف في الطعام، ولا على أنفسكم ضيقٌ وإثم من أن تأكلوا من هذه البيوت الإحدى عشرة: **البيت الأول**: بيوتكم الشخصيَّة وبُيوت أولادكم وبيوت أزواجكم؛ لأنهم أقرب الناس اتِّصالاً بكم، **البيت الثاني**: بيوت آبائكم، **البيت الثالث**: بيوت أمهاتكم، **البيت الرابع**: بيوت إخوانكم، **البيت الخامس**: بيوت أخواتكم، **البيت السادس**: بيوت أعمامكم، **البيت السابع**: بيوت عمَّاتكم، **البيت الثامن**: بيوت أخوالكم، **البيت التاسع**: بيوت خالاتكم، **البيت العاشر**: البيوت التي تملكون التصرُّف فيها بإذن أربابها؛ كما إذا كنتم وكلاء عنهم أو خازنين عندهم، **البيت الحادي عشر**: بيوت أصدقائكم وإن لم يكن بينكم وبينهم قرابة، فليس عليكم حرج أو إثم أن تأكلوا من بيوت الأحد عشر صنفاً المذكورة إذا دخلتموها، وإنْ لم يحضروا، إذا عُلِمَ رضاهم به بصريح اللفظ، أو القرينة من غير أن تتزوَّدوا وتحملوا.

وليس عليكم من ضيق في كيفية الاجتماع على الطعام بعدما أباح لكم تناوله أن تأكلوا مجتمعين أو مُتفرِّقين. وقد كان من عادات بعضهم في الجاهلية أن لا يأكل طعاماً على انفراد، فإنْ لم يجد من يُؤَاكله عافَ الطعام، فرفع الله تعالى هذا الحرج المتكلَّف، وردَّ الأمر إلى اليُسْر بلا تعقيد، وأباح لهم أن يأكلوا أفراداً أو جماعات. كما كان من عاداتهم في الجاهلية أن يتحرَّج الغني من الأكل من طعام الفقير من ذوي قرابته أو صداقته، فأبطل الإسلام هذه العادة، وأباح الأكل، وإن اختلفت أحوال الآكلين.

فإذا دخلتم بيوتاً من هذه البيوت التي رُخِّصَ لكم في دخولها، فَلْيُسَلِّم بعضُكم على بعض بتحيَّة الإسلام، وهي: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فهم منكم وأنتم منهم، وهم في المودَّة ولُحمة القرابة بمنزلة أنفسكم، فكأنكم تُسلِّمون على أنفسكم، وإذا لم يكن في البيت أحدٌ، فقولوا: السَّلام علينا وعلى عباد الله الصَّالحين، حيُّوهم تحيَّةً مشروعةً من لدنه تعالى، ثابتةً بأمره وإرشاده، مباركةً كثيرة الخير والنفع، طيبةً تطيب بها نفوسهم وتطمئنُّ إليها، من جملة الكلم الطيِّب المضمون قبوله وصعوده إلى الله تعالى، بمثل هذا التبيْين الذي تقدَّم في هذه السورة يُبَيِّن الله لكم سائر الآيات التي تحتاجون إلى بيانها؛ رغبة أن تعقلوا عقلاً علمياً أحكام شريعة الله سبحانه، وتعقلوا بإرادة حازمة شهواتكم وأهواء نفوسكم. وفي هذه الآية ذِكْرُ آداب الضيافة والمخالطة داخل بيوت المسلمين، وتحديد البيوت التي يجوز للمسلم أن يأكل منها، وفيها بيان منزلة الصَّديق حيث ألحقته الآية بالقرابة النسبيَّة؛ بسبب المحبَّة واحتكام الإلفة ورفع الكلفة. وفيها الدعوة إلى التعاون والإيثار، إذْ يجوز للمسلم أن يدخل إلى ملك أخيه المسلم، وأن ينتفع بأدواته، ونحو ذلك من التصرُّف الذي لا يشقُّ على صاحبه، ولا يشكُّ برضاه وسماحته ومحبته التي هي مُوجب الصداقة. وفي هذه الآية الكريمة ما يدلُّ على أن دين الإسلام جاء بحُسْن المعاشرة، وبالسماحة وسخاوة النفس، وبتواضع العباد بعضهم لبعض، دون ترفُّع بالحال أو بالمال على الغير، وبالانسجام مع كل مؤمن، غنياً أو فقيراً، كبيراً أو صغيراً، صحيحاً أو مريضاً، كما أن الآية تردُّ على كلِّ مُتنطِّع ومُتشدِّد في معاملاته ومعاشرته ومُؤاكلته، وأشارت الآية إلى أدب التحيَّة عند الدخول إلى البيوت المتقدِّم ذكرها؛ لئلا يجعلوا القرابة والصداقة والمخالطة مُبيحَةً لإسقاط الآداب، فإنَّ واجب المرء أن يُلازم الآداب مع القريب والبعيد.

إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٦٤﴾

سُورَةُ ٱلْفُرْقَانِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾



٦٢ ـ ما المؤمنونَ الصَّادقون العاملون بمقتضى إيمانهم إلاَّ الذين آمنوا بالله ورسوله إيماناً صحيحاً صادقاً، وإذا كانوا مع رسول الله ﷺ على أمر عام مهمٍّ دينيّ أو دنيويّ، مَدْعاة للاجتماع للتعاون أو التشاور من استعداد لدفع الطوارىء، أو حربٍ، أو صلاة حَضرت، أو جمعة أو جماعة أو عيد، وما يماثل ذلك من مهمَّات الأمور، لم يتفرَّقوا عن رسول الله ﷺ ، ولم ينصرفوا عمَّا اجتمعوا له، حتى يَسْتأذنوه ويأذن لهم إذا شاء. فإذا استأذنوه ولم يأذن لهم لم يكن لهم أن يذهبوا؛ فليس الخروج من العُهْدة بمجرَّد طلب الإذن، ولو لم يصدر لهم الإذن، وإلا لم يكن للاستئذان معنى. إنَّ الذين يَستأذنونك ـ يا رسول الله ـ أولئك الذين يؤمنون بدوام وتجدُّد بالله ورسوله إيماناً صحيحاً صادقاً، فإذا استأذنوك لبعض شؤونهم الضروريَّة المهمَّة، فَأْذَنْ لِمَنْ شئتَ منهم بالانصراف، وإنْ شئت لا تأذن، وذلك بتمييز من يستحق الإذن ومن لا يستحقه، عن رأي ورويَّة، وتقدير مصلحة، والأَوْلى والأحسن بالمؤمنين أن يتحاشوا عن الانصراف، ولو بإذن، ولو في الشؤون الشخصيَّة المهمَّة، فالمصلحةُ العامَّة للمؤمنين، والأمر الجامع أحقُّ بأن يتفرَّغ له، وأن يُقدَّم على الشؤون الخاصَّة، واطلب ـ يا رسول الله ـ من الله أن يغفر لهم استئذانهم، وتقديم مصالحهم الخاصَّة على المصالح العامة، وأمورِ الجماعة، إنَّ الله كثيرَ السَّتر لذنوب عباده واسع الرحمة عظيمها.

٦٣ ـ لا تجعلوا دعاء الرسول إيَّاكم ـ أيُّها المؤمنون ـ لتتشاوروا أو تتعاونوا أو تقوموا بأيِّ غرض مهمّ من أغراض الدنيا أو الدين، كدعاء بعضكم بعضاً في الشؤون التافهة المبنيَّة على التسامح من الجانبَيْن، فلا يُبالي الداعي أجيب أم لم يُجَب، ولا على المدعوِّ في أن يجيب أو لم يُجِب، نؤكِّد تحقُّق حصول علم الله مع كلِّ اللحظات المتجدِّدات بالمنافقين الذين يخرجون من مجلس النبيِّ ﷺ إلى أهليهم بغير علم من رسول الله ﷺ ولا إذن منه، يَسْتَتر بعضُهم ببعض، ويرُوغون في خِفْية، فَلْيَحذرِ الذين يُعرضون ويصدُّون عن أمره، ويَنْصرفونَ عنه بغير إذنه أن ينزل بهم بلاءٌ ومحنة في الدنيا، أو يصيبهم في الآخرة عذابٌ مُؤلِّم وجيع.

٦٤ ـ تنبَّهوا وتحقَّقوا إنَّ لِلَّه ما في السَّموات والأرض خَلقاً ومِلكاً وتصرُّفاً، وإنكم مع شمول القدرة بكم من جميع نواحيكم، فإنه لا تخفىٰ عليه أحوالكم، تأكَّدوا وكونوا على يقين بأنَّ الله يعلمُ لحظة بعد لحظة ما أنتم عليه من كلِّ ذواتكم وصفاتكم وأحوالكم من خير أو شر، ومن صالح عمل أو سيِّئه، ويومَ يُرجعون إليه يوم القيامة فَيُنَبِّئُهم بما عملوا، حتى تقوم الحجَّة، ويعترفوا بذنبهم، ويعلموا أنَّ الله قد أحصى عليهم كلَّ صغيرة وكبيرة، ويُجازي كلَّ عامل بما عمل، واللَّهُ بكلِّ شيءٍ عليمٌ، لا تخفى عليه أعمالهم وأحوالهم.

سُورَةُ الفُرْقَانِ

١ ـ كَثُرتْ خيراتُ الله، وعَظُمَتْ بركاته، وكَمُلَتْ أوصافه، وتنامَتْ وتزايدَتْ عن كلِّ ما يصفه به الواصفون من كمالات، الذي نزَّل القرآن الفارق بين الحقِّ والباطل، والخير والشر، والهدى والضلال، على عبده محمد ﷺ الذي تحقَّق بعبوديَّته الكاملة لله عزَّ وجل؛ ليكون للعالمين نبيّاً رسولاً، وليكون الفرقان الذي أنزل عليه بلاغاً عاماً للعالمين، إنسهم وجنِّهم. فالبلاغ القرآني عامٌّ للعالمين، والرسول المبلِّغ له رسولٌ للعالمين جميعاً، وكلٌّ منهما نذيرٌ لمن لم يؤمن ويستجب.

٢ ـ وتبارك الذي له وحده مُلك السموات والأرض، يتصرَّف فيهما كيف يشاء، وهو الفرد في وحدانيَّته، لم يجعل سبحانه لنفسه ممَّا خلق من عباده ولداً، وهو المنفرد في الإلٰهيَّة، وما كان له شريك في ملك السموات والأرض أزلاً وأبداً؛ لأنه هو الخالق المالك لكلِّ شيء، وأوجد كل شيء من العدم فقدَّر بالإيجاد الفعليِّ التنفيذيِّ، ما قدَّر بعلمه وقضى بإرادته أنْ يُوجده، تقديراً دقيقاً مُحكماً دالاً على عظمته وجلاله وبديع صنعه.

وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾ وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾

٣ ـ وجَعَل عَبَدَةُ الأوثان بصنع منهم، آلهةً لأنفسهم من أشياء من غيره هي بطبيعتها تقع دونه، لا تستطيع خَلْقَ شيءٍ ما، وهم يُخْلَقون ما تَجَدَّد بقاؤهم في الوجود خلقاً من بعد خلق، فهم مفتقرون في أصل وجودهم إلى الخالق سبحانه، ومفتقرون في بقاء وجودهم إلى خلق البارىء لهم، مُمْسكاً لهم في البقاء، ولا يملك هؤلاء الشركاء المعبودون لأنفسهم فَضْلاً عن غيرهم دفعَ ضرٍّ ولا جَلْبَ نفع، ولا يملكون لأنفسهم ولا لغيرهم إماتةً ولا إحياءً ولا بعثاً بعد الموت.

٤ ـ وقال الذين كفروا: ما هذا القرآن إلا كذبٌ اخْتَلَقه محمَّد ﷺ عن عمد من تلقاء نفسه على ربِّه، وأعانه على افترائه أناسٌ آخرون. فقد جاء قائلو هذه المقالة بظلم عظيم، وكذب فظيع، انحرفوا به عن جادَّة الحقِّ والإنصاف.

٥ ـ وقال الكافرون عن هذا القرآن: هو أكاذيبُ المُتقدِّمين وأباطيلهم التي سطَّروها في كتبهم، أمَرَ مُحمَّدٌ غيره بكتابتها له، فهي تُلقى عليه بعد اكتتابها أوَّل النهار إلى طلوع الشمس، وحين تصفَّر الشمس لمغربها، فهو يتسلَّل في هذين الوقتين بعيداً عن الرقباء؛ ليحفظها.

٦ ـ قل ـ يا رسول الله ـ: أنزل القرآن الذي يعلم كلَّ السِّر في السَّموات والأرض، إنّه كان كثير السَّتر لذنوب عباده، عظيم الرحمة بهم، إذا استغفروا وآمنوا، واتَّبعوا الرسول.

٧، ٨ ـ وقال المشركون مُتعجِّبين: أيُّ شيء اختصَّ به محمد حتى استطاع بسببه أن يكون رسولاً، والحال أنه: يأكل الطعام كما نأكل نحن، ويمشي في الأسواق كما نمشي يلتمس المعاش؟ هلاَّ أنزل الله عليه مَلَكاً يُصدِّقُهُ ويشهد له، فيكون هذا الملك معه مُبلِّغاً ومُبشِّراً ونذيراً، أو يُلقى إليه بعطاء من الله كنزٌ من السماء ينفقه، فلا يحتاج إلى التصرُّف في طلب المَعَاش، فإن لم يكن له كنزٌ، فلا أقلَّ أن تكون له حديقة عظيمة يأكل منها، وقال الظالمون: ما تَتَّبعونَ ـ أيُّها المؤمنون ـ إلا رَجُلاً مغلوباً على عقله بالسحر، يتصرَّف بغير إرادة واعية منه.

٩ ـ انظر ـ يا رسول الله ـ بفكرك متعجِّباً مُستنكراً: كيف اصْطَنعوا كذباً وافتراءً لك أوصافاً يكشف الفكر القريبُ بطلانها، لمنافاتها لصفاتك العظيمة، فقالوا: مُفْترٍ كذاب، ورجل مسحور، وشاعر، ومجنون، فضلُّوا عن الحقِّ، فلا يستطيعون سبيلاً إلى الهُدى، ومَخْرَجاً عن الضلالة.

١٠ ـ كَثُرَتْ خيراتُ الله، وعظُمت أوصافه فوق كلِّ وصف كمال يصفه به الواصفون، الذي إنْ شاء وَهَبَ لك ـ يا رسول الله ـ خيراً ممَّا اقترحوه لك من ثراء واسع في الدنيا، بساتين تجري من تحت قصورها وأشجارها الأنهار، ويجعل لك قصوراً تتجدَّد دائماً، مباني وأثاثاً ورياشاً وزينة، لكن الله لم يشأ ذلك لأنه سبحانه قضت حكمته أن لا يجعل نبيَّه ذا ثراء واسع وجنَّات وقصور في الدنيا، كما اقترح الذين كفروا؛ ليكون أسوةً للناس أجمعين، ولتكون الاستجابة لما يدعو إليه استجابةً من أجل مضمون دعوته الحق التي يدعو إليها، لا من أجل ملكه وسلطانه وغناه؛ ولئلا تكون تطلُّعات المؤمنين من بعده لزينة الحياة الدنيا، والتكاثر من أموالها وما فيها من متاع.

١١ ـ ليس ما يُقدِّمونه من اعتراضات واقتراحات هو للتثبُّت من صحة الرسالة، بل مشكلتهم وباعثهم الداخلي تكذيبهم بالبعث بعد الموت، وأعددنا لكلِّ من كذَّب بالقيامة ناراً عظيمةً شديدة الاشتعال.

إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴿١٦﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾

١٢ ـ إذا رأت النار المُلْتَهبة المُوقَدَة هؤلاء الكفار من مكانٍ بعيد سمعوا صوتَ غليانها وتفجُراتها وفوران المُنْصَهرات فيها، وسمعوا أصوات الأنفاس والرياح والسَّموم التي تدفع بها عند الزفير، من شدَّة غضبها عليهم.

١٣ ـ وإذا أُلقوا من النَّار إلقاءً بإهانةٍ وإذلالٍ في مكانٍ ضيّق حالةَ كونهم مشدودينَ بالحبال والسَّلاسل، مجموعين مع نظرائهم، يُسحبون إلى عذاب السعير، نادوا هنالك بأعلى أصواتهم طالبين خلاصهم بالهلاك العام الشامل.

١٤ ـ فيقال لهم تَيْئيساً: لا تدعوا اليوم هَلاَكاً واحداً، وادعوا هلاكاً كثيراً، فكرِّروا دعاءكم كثيراً مع الأزمان وأنواع العذاب، ولاحظَّ لكم في الهلاك الذي تدعونه؛ لأن الله قضى بأن لا موت بعد البعث يوم الدين.

١٥ ـ قل لهم ـ يا رسول الله ويا كلَّ داعٍ إلى الله ـ: أذلك الذي ذكرت من صفة النار وأهلها خيرٌ أم جنَّةُ البقاء الدائم التي وُعِدَها المُتَّقون الخائفون من عذاب ربِّهم، كانت لهم ثواباً على ما قدَّموا من عمل صالح، وعاقبة ومنزلاً طيباً يرجعون إليه في الآخرة.

١٦ ـ يمتلك المتَّقون في الجنَّة جميعَ المُرادات من أنواع النعيم، خالدينَ في نعيم الجنَّة، كان هذا الجزاء في الجنة حقّاً على ربِّك ـ يا رسول الله ـ أوْجَبَه على نفسه، وعداً مطلوباً جديراً بأنْ يُسأل ويُطلب لِعِظَم شأنه، يسأله عباد الله المتَّقون، ويُحقِّق الله لهم مسألتهم.

١٧ ـ ويوم القيامة يحشرُ الله المشركين وما يعبدون من كائن ما غير الله، كالملائكة، وعيسى، وأمِّه، والرجال الصالحين الذين اتَّخذ لهم قومهم من بعدهم أوثاناً على صورهم، فعبدوهم. فيقول الله للمعبودين: أأنْتُم أضْلَلْتُم عبادي هؤلاء بمختلف الوسائل القولية أو العمليّة أم هُمْ أخطؤوا الطريق باختيارهم الانطلاق في متاهات الضلال الاعتقادي والعملي؟

١٨ ـ قال المعبودون من دون الله: نُنَزِّهك ـ يا ربنا ـ من أن يكون معك شركاء في ربوبيَّتك أو إلهيَّتك، ما استقام لنا ونحن عبادك المطيعون لك، أن نتَّخذ أتباعاً يعبدوننا من دونك، ولكن جعلتهم يستمتعون بأنواع من مَتَاع الحياة الدنيا مُدَّةً مُتطاولة، حتى تهاونوا في القيام بما أمرتهم به ونهيتهم عنه، في الذكر الذي أنزلته عليهم، وبلَّغهم إيَّاه رُسُلهم، ثمَّ أعرضوا عنه إعراضاً تامّاً، وكانوا قوماً فاسدين لا خيرَ فيهم، وفسادهم يُفضي بهم إلى أن يكونوا هالكين، تحلُّ عليهم نقمة الله وعذابه في الدنيا، وأن يكونوا من الخالدين في العذاب يوم الدين.

١٩ ـ فقد كذَّبتكُمْ ـ أيُها المشركون ـ آلهتكم الذين تعبدونهم من دون الله بما تقولون، وبعد إصدار الحكم عليكم ما تستطيعون ـ أيُها الكفار ـ دفع العذاب عنكم، ولا نصر أنفسكم. ومَنْ يُشْرك بالله منكم فيظلم نفسه ويعبد غير الله، ويمت على ذلك، ننزل به عذاباً كبيراً يحسّ بآلامه في توالي الأوقات.

٢٠ ـ وما أرسلنا قبلك ـ يا رسول الله ـ أحداً من المرسلين إلا إنَّهم ليأكلون الطعام، ويمشون في الأسواق طلباً لمعاشهم واكتساب أرزاقهم بالبيع والشراء، وهذه سنة الله في جميع المرسلين السابقين، وما أنا إلا رسول، وما كنت بِدْعاً من الرسل، وهم كانوا بشراً مثلي يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق. وجعلنا بخلقنا بعضَكم ـ أيُها الناس ـ لبعض ابتلاءً واختباراً في هذه الحياة الدنيا، هلاَّ صبرتم على هذا الابتلاء، وضبطتم أنفسكم على تحمُّل المكاره، حتى تظفروا بالنجاح في الامتحان الربَّاني لكم، وتقوموا بما أوجبه الله عليكم، وتشكروا له؟ وكان ربُّك ـ يا رسول الله ـ بصيراً بمن صَبَر على أذى الكافرين، وهو لأوليائه المؤمنين المجاهدين في سبيله نصير.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي ۗ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾

٢١ ـ وقال الذين لا يؤمِّلون لقاءنا، فلا يرغبون في ثوابنا، ولا يخافون من عقابنا، هَلاَّ أُنزل علينا الملائكة لِتُبلِّغَنا مباشرةً وحيَ الله، أو نرى ربَّنا رؤيةً بصرية، فيكلِّمنا مباشرة، دون وساطة رسول من البشر أو الملائكة، لقد عظم الكِبْر واشتدَّ وقويَ في أنفسهم، وجاوزوا الحدَّ في الطغيان والكفر تجاوزاً بالغاً.

٢٢ ـ يوم يرى الكفار الملائكةَ عند المَوْت، وفي البرزخ، وحينما يبعثون ويُساقون إلى موقف الحساب، وحينما يكبُّون في النار على وجوههم، ويستقرّون فيها، لا بُشرى في كلِّ هذه المراحل التي يرون فيها الملائكة، بل لهم أحزان ومخاوف وآلام، ويقولون مستعيذين عندما يشاهدون ما يثير الهلع في قلوبهم: منعاً ممنوعاً.

٢٣ ـ وعَمَدنا إلى ما عَمِل الكفَّار من أعمال البرِّ والخير التي عملوها في حال الكفر، كصلة رحم، وإغاثة ملهوف، وقِرى ضيف، فجعلناه يوم القيامة باطلاً لا ثوابَ له؛ مثل الذي يخرج من الكوَّة مع ضوء الشمس شبيهاً بالغبار، مُتفرِّقاً ذاهباً كلَّ مذهب، لا يتأتّى جمعه.

٢٤ ـ أصحاب الجنَّةِ يومَ يَرَوْن الملائكة خيرٌ إقامةً ومكاناً في جنات النعيم من هؤلاء المشركين المُسْتكبرين، وأحسنُ مكان نوم وراحة في مُدَّة البرزخ بين الموت والبعث، حيث تبقى نفوسهم في حالةٍ تُشبه حالة النائم في قيلولته.

٢٥ ـ وحين تتشقَّق في يوم القيامة السماء، وتخرجُ من الشُّقوق سُحبٌ بيضاء رقيقة، هابطةٌ من السماء إلى الأرض، ومنها أفواج الملائكة تتتابع.

٢٦ ـ المُلْكُ الذي هو المُلْك حقاً مُلك الرحمن يوم القيامة، وكان يوماً على كلِّ الكافرين صعباً شديداً. وفيه دليل على أنَّه يكون على المؤمنين يسيراً.

٢٧ ـ وضع في ذاكرتك ـ أيها المُتلقِّي ـ حين يَعَضُّ الظالم لنفسه على يديه تحسُّراً وندامة. يقول كلُّ ظالم: يا ليتني اتَّبعتُ الرسولَ محمداً ﷺ، واتَّخذت معه في الدنيا طريقاً إلى الهداية والنجاة.

٢٨ ـ ويتحسَّر ويتوجَّع من الخوف الذي نزلَ به، ومن ترقُّب العذاب الأليم الصَّائر إليه، ويدعو على نفسه بالهلاك، ويقول: يا ويلتا ليتني لم أتَّخذ الكافر فلاناً صديقاً تخلَّلت مودَّته قلبي.

٢٩ ـ لقد أضلَّني في طرق الغَواية مُبعداً إيّاي عن كتاب الله الذي يجب أن يكون ذكراً دواماً للعمل بما جاء فيه، بعد زمن مجيئه إليَّ على لسان الرسول ﷺ، وكان الشيطان المُتمرِّد من الجنِّ والإنس كثير الخذلان للإنسان، يتركه ويتبرَّأ منه عند نزول البلاء والعذاب.

٣٠ ـ وقال الرسول محمد ﷺ يشكو كفار قومه إلى الله عزَّ وجل: يا ربِّ إنَّ كبراء قومي وأتباعهم جعلوا هذا القرآنَ متروكاً مُتَباعداً عنه، فلم يُؤمنوا به، ولم يعملوا بما فيه، واتَّخذوني ومَنْ آمن بي عدوّاً، وبدؤوا يعدُّون العُدَّة لحربي ومقاومة دعوتي.

٣١ ـ ومثلُ ذلك الذي وجدته من قومك ـ يا رسول الله ـ جعلنا في تاريخ البشريّة بمقتضى السُّنن التكوينيّة لكلِّ نبيٍّ عدواً من المجرمين، فلا يكبرنَّ عليك ذلك، فإنَّ الأنبياء قبلك قد لقوا هذا من قومهم فصبروا، فاصْبِر أنت كما صبروا، واتَّخذ الأسباب لمنع عدوِّك من تحقيق أهدافه، فإني هاديك إلى سُبُل السلامة منهم، وتوكَّل على الله وثق بنصره، فإني ناصرك عليهم، وكفى بربِّك ـ يا رسول الله ـ هادياً ونصيراً.

٣٢ ـ وقال الذين كفروا: هَلاَّ أُنزل القرآنُ على محمد دفعةً واحدةً مجتمع الآيات والسور، كما أُنزلت التوراة على موسى، والإنجيل على عيسى، والزَّبور على داود! قال الله تعالى: أنزلنا ما نزل من القرآن منجَّماً، وسننزِّل ما بقي من القرآن منجَّماً كذلك التنزيل الذي اعترضوا عليه، واقترحوا خلافه لثلاث حكم: **الحكمة الأولى**: لِنُقوِّي به قلبك بالسكينة والطمأنينة، لتؤدِّي رسالتك، وتقوم بجلائل الأمور، مهما تألَّب عليك كفار قومك، وأرادوا منعَك من تأدية رسالتك، **والحكمة الثانية**: لنرتِّله ترتيلاً، بتمهُّل وأناة، في دروس تعليميَّة مُتَتابعة، ولنتابع أقوال أهل الباطل ببيان الحقِّ، وبيان ما هو أحسن تفسيراً.

وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾

٣٣ - **الحكمة الثالثة:** ولا يأتيك - يا رسول الله - هؤلاء المشركون بنماذج مقترحة يصطنعونها بآرائهم، ويقترحونها ويرون أنها هي الصُّور الأفضل التي ينبغي أن يكون عليها الرسول، أو القرآن، أو أحكام الشريعة، إلا جئناك في نجوم التنزيل اللاحق ما يكشف وجه الحق، وجئناك بما هو أحسن بياناً وتفصيلاً ممّا اقترحوه.

وقد تضمَّن الجواب عن اعتراض المشركين على نزول القرآن جملةً واحدةً ثلاث حكم: **الحكمة الأولى:** تثبيت فؤاد النبيِّ ﷺ بما يُورثه السكينة والطُّمأنينة تُجاهَ ما يُمكن أن يُقْلِقَهُ ويُزعجه من أحداثٍ غير سارَّة، **والحكمة الثانية:** التمهُّل والتأنِّي في الكلام، لبناء المعرفة، في دروس تعليميَّة قِسْماً بعد قسْم، مع الاستفادة من الأحداث والمناسبات، **والحكمة الثالثة:** متابعة جدليَّات الكافرين فيما يقدِّمونه من أمثلةٍ يقترحونها، لكشف وجه الحقِّ، واختيار ما هو أفضل وأحكم.

٣٤ - لا تهتمَّ - يا رسول الله - لموقف الذين كفروا منك وممَّن اتَّبعك اليوم، ولا تكترث لنظرات الاحتقار والاستضعاف التي ينظرون بها إليكم. هؤلاء المشركون هم الذين يُساقون ويُجرُّون على وجوههم إلى جهنَّم يوم الدين، أولئك البعداء عن رحمة الله بسبب كفرهم العِنادي شرٌّ منزلاً ومصيراً، وأخطأ طريقاً، لا يجدون سبيلاً إلى نجاتهم.

٣٥ - وأؤكِّد لكم أننا آتَيْنا موسى التَّوارة، وجعلنا معه أخاه هارون مُعيناً وظهيراً.

٣٦ - فقلنا لهما: اذْهبا إلى فرعون وقومه الذين كذَّبوا بآياتنا، فامْتَثَلا أمرنا، وقاما بواجب الرسالة يدعوان إلى الله دهراً، ثم خرجا ببني إسرائيل سرّاً، فلحقهما فرعون وجنوده، فأهلكناهم بالغرق إهلاكاً عنيفاً شديداً.

٣٧ - وأغرقنا قومَ نوح حين كذَّبوا الرسُل الذين أُرسلوا إليهم، وكان نوح أطولهم عمراً، والمُقدَّم فيهم. وجعلنا إهلاكهم علامةً ظاهرةً للناس على قدرتنا وعدلنا وحكمتنا في معاقبة المجرمين بالإهلاك الشامل، يعتبر بدلالاتها الذين يخشون أن يصيبهم ما أصاب الأمم مِنْ قبلهم، وهيَّأنا لكلِّ الظالمين في الآخرة عذاباً مُؤْلماً.

٣٨ - وأهلكنا عاداً قوم هود، وثمود قوم صالح، وأصحاب البئر، وأهلكنا أُمماً كثيرة بين عادٍ وثمود وأصحاب الرَّس.

٣٩ - وكلَّ قوم من هؤلاء الأقوام الذين أُهلكوا وصفنا له أحوال الأمم السابقة التي أهلكناها، ليتَّعظوا بها ويعتبروا، وَكُلاًّ منهم أهلكناهم إهلاكاً هائلاً فيه تحطيمٌ وتفتيت؛ لتماديهم في الكفر والطغيان.

٤٠ - ونقسم مُؤكِّدين أنه أتىٰ مشركو «مكة» في مَمَرِّهم إلى الشَّام على القرية التي أُمطرت بالحجارة مطراً عاماً شاملاً للضُر والعذاب، وهي قرى قوم لوط، أفلم يكونوا في رحلاتهم الكثيرة إلى بلاد الشام يَرَوْن آثار قوم لوط الذين أهلكهم الله، فيعتبروا ويتَّعظوا، بل كانوا يَرَوْنها، ولكن كانوا لا يتوقعون بعثاً من القبور للحساب، وفصل القضاء، وتحقيق الجزاء.

٤١ - وإذا رآك هؤلاء المُكَذِّبون - يا رسول الله - ما يتَّخذونك إلا مَهْزوءاً بك، يقولون: أهذا الذي بَعَثَه الله إلينا حالة كونه رسولاً، وهو لا يؤيِّده ولا ينصره؟

٤٢ - قد قارب محمدٌ ببيانه وحُجَجِه أن يُضِلَّنا عن عبادة آلهتنا، لولا أنْ صَبَرنا على عبادتها، لَصُرِفنا عنها، وسوف يعلمون حين يَرَوْنَ العذاب في الدنيا الذي يرافقه انتصار الرسول والذين آمنوا معه، والعذابَ في الآخرة: مَنْ أخطأ طريقاً، وأبعد عن سبيل الهداية والنجاة؟ إنهم الكافرون بالله ورسوله لا مَحالة.

٤٣ - أرأيتَ - يا رسول الله، ويا كلَّ داعٍ إلى الله - مَنْ جعل معبوده الذي يُوجِّه له الطاعةَ والانقياد في أموره كلِّها هواه، أفأنت تكون عليه حفيظاً تحفظه من اتِّباع الهوى، أو مسؤولاً عن ضلاله، حتى تشعر في نفسك بآلام عدم استجابته لدعوتك، كما يشعر المقصِّر في تأدية وظيفته تجاه من هو وكيلٌ عليه من القاصرين؟ فلا تحزن من أجل الذين كفروا معاندين مُصرِّين على اتِّباع أهوائهم، وسلوك سُبُل الضلالة، فإنَّك لست وكيلاً عليهم حتى تكون مسؤولاً عن إيمانهم أو محاسباً على كفرهم.

أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۚ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ ۞ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾

٤٤ ـ بل أتظنُّ أنَّ أكثر الذين تدعوهم يسمعون ما تقول سماعَ طالب الإفهام، أو يعقلون ما يعاينون من الحُجَج؟ ما هُمْ إلا كالأنعام في عَدَم انتفاعهم بالكلام، وعدم إقْدامهم على التدبُّر والتفكُّر، بل هم أضَلُّ سبيلاً؛ لأنَّ الأنعام تهتدي لمراعيها ومشاربها، وتنقاد لأربابها الذين يتعاهدونها، وهؤلاء الكفار لا يعرفون طريقَ الحقِّ، ولا يطيعون ربَّهم الذي خلقهم ورزَقهم، ولأنَّ الأنعام تسجد وتُسبِّح، والكفار لا يفعلون ذلك.

٤٥، ٤٦ ـ ألم تعلم ناظراً إلى آثار صُنع ربِّك الذي أتقن كلَّ شيء كيف مَدَّ الله الظلَّ على وَجْه الأرض، حتى ترى معه الأشياء دون انزعاج بأشعة الشمس المباشرة؟ ولو شاء الله لجَعَلَ الظلَّ دائماً ثابتاً غيرَ متحرِّك، ثمَّ بعد مدِّ الظلِّ طَوالَ ليلٍ كامل، تشرق الشمس، فتدلُّ على أنَّ الذي كان على الأرض من انكشاف المرئيَّات بدرجات متفاضلات، ونِسَبٍ مختلفات، منذ بَدء الغروب حتى الشروق، إنما كان قبل أشعة الشمس التي تنعكس أضواؤها على الأرض مُرتدَّة من جهات الأفق، ثم قبضنا الظلَّ بالتدرُّج جزءاً فجزءاً قبضاً هيِّناً ليِّناً.

٤٧ ـ والله تعالى الذي جعل لكم الليل كاللباس يُجلِّل الأشياء ويسترها بظلمته، وجعل النومَ راحةً لأبدانكم، وقطعاً لأعمالكم، وجعل النهار وقتاً مناسباً لينتشر الناس فيه من نومهم، وليتفرَّقوا فيه يَبْتغون بأعمالهم فَضْل الله من أمور دنياهم وأخراهم.

٤٨، ٤٩ ـ وهو الذي أرسل الرياح إعلاماً سارّاً بمقدم غيثٍ قبل نزوله، تسوقه أوامر الله التكوينيَّة التي هي من آثار صفة رحمته بعباده، وأنزلنا من السَّحاب ماء طاهراً يُتطهَّر به؛ لنُحيي بالمطر بلداً مَيْتاً بما نخرجه من نباتات الأرض وما فيها من نماء وخضرة، ونسقي من ذلك الماء ممَّا خلقنا أنعاماً وبشراً كثيراً.

٥٠ ـ ونقسم مؤكِّدين لكم أننا نوَّعنا في القرآن أساليب الحُجَج والبراهين والإقناعات بحسب اختلاف طبائع الناس ومستويات أفكارهم وأفهامهم واستعداداتهم؛ ليضعوا البيانات الربانيَّة في ذاكرتهم، وليعملوا بوصاياها، فأبىٰ أكثر الناس إلا سَتْراً للحقِّ وبراهينه بالجحود والعناد.

٥١، ٥٢ ـ ولو شِئْنا لبعثنا في كلِّ قريةٍ رسولاً يُنذرهم بعقاب الله المُعَجَّل والمُؤَجَّل، ولكن بعثناك ـ يا رسول الله ـ إلى الناس أجمعين، وحمَّلناك ثِقَل النِّذارة؛ لِتَسْتوجب بصَبْرك ما أعددنا لك من الكرامة والدرجة الرفيعة. فلا تُطع الكافرين فيما يدعونك من موافَقتهم ومداهنتهم، ولا تتأثَّر بمقترحاتهم وتشكيكاتهم، وجاهد الكافرين بمفاهيم القرآن وحُجَجه وبراهينه جهاداً كبيراً بالمتابعة والصَّبر ومضاعفة الجهد.

٥٣ ـ وهو الذي خَلَط عناصر الماء الحُلو، وعناصر الماء الملح، بنسبٍ صالحةٍ لمنافع الناس والحياة، وأرسلهما في الأرض، فاندفعت تؤدِّي وظائفها المُقدَّرة لها، هذا عذبٌ شديد العذوبة مُسْتَطابٌ للشاربين، وهذا ملحٌ شديد الملوحة والمرارة، وجعل بينهما حَاجزاً عظيماً بقدرته، وجعل كلَّ واحدٍ منهما مُحرَّماً على الآخر أن يفسده، فلا يختلط العَذْب بالملح ولا الملح بالعَذْب، ولا يبغي أحدُهما على الآخر، ولا يفسد الملحُ العذبَ.

٥٤ ـ وهو الذي خَلَقَ من النُّطفة بَشَراً، فجعل من جنس البشر علاقة رَحِم وقرابة، تنشأ عن طريق التناسل القائم على اشتقاق الأحياء بعضها من بعض، وجعل علاقة مصاهرة، تنشأ عن طريق التزاوج بين الذكور والإناث، وتشمل أقارب الزوج وأقارب الزوجة، وكان ربُّك قديراً دواماً من الأزل إلى الأبد.

٥٥ ـ ومع كلِّ هذه الدلائل على قُدرة الله وإنعامه على خلقه يعبدُ هؤلاء المشركون من دون الله ما لا ينفعُهم إنْ عَبَدوه، ولا يضرُّهم إنْ تركوه، وكان الكافر مُعانداً قاسياً مُستعلياً على بيانات ربِّه، مُعيناً للشيطان ضدَّ مرضاة ربِّه.

وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٥٦﴾ قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ
مِنۡ أَجۡرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا ﴿٥٧﴾ وَتَوَكَّلۡ
عَلَى ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِهِۦۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ
عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا
فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۚ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ
خَبِيرٗا ﴿٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسۡجُدُواْۤ لِلرَّحۡمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ
أَنَسۡجُدُ لِمَا تَأۡمُرُنَا وَزَادَهُمۡ نُفُورٗا۩ ﴿٦٠﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِي جَعَلَ
فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجٗا وَقَمَرٗا مُّنِيرٗا ﴿٦١﴾ وَهُوَ
ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةٗ لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ
شُكُورٗا ﴿٦٢﴾ وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ
هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ
يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمۡ سُجَّدٗا وَقِيَٰمٗا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ
رَبَّنَا ٱصۡرِفۡ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا
﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ
لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا ﴿٦٧﴾



٥٦ - وما أرسلناك - يا رسول الله - بعد قيامك بالتبليغ واتِّخاذ كلِّ الوسائل لاستجابتهم عن طريق اختيارهم الحر، إلا مُبشِّراً بالثواب على الإيمان والطاعة، ومُنْذِراً بالعقاب على الكفر والمعصية، ولست مسؤولاً عن تحويل الناس بالجَبْر والإكراه إلى الإيمان والطاعة.

٥٧ - قُل لهم - يا رسول الله -: ما أسألكم على تبليغ الوحي، وما أقدِّم لكم من هداية وخير أجراً ما قلَّ أم كَثُر، فتقولوا: إنما يطلب محمدٌ أموالنا بما يدعوننا إليه فلا نتَّبعه، لكنْ مَنْ شاء أن يتَّخِذَ بإنفاق ماله سبيلاً إلى مرضاة ربِّه وثوابه فليفعل.

٥٨ - واعتمد على الله سبحانه بقلبك اعتماداً صادقاً في جميع أمورك، مُسْتسلماً لجميع ما يختاره لك، مع قيامك باتِّخاذ الأسباب الكونيَّة والتعبُّديَّة، فإنَّه حيٌّ لا يموت، فلا ينقطع توكُّل مَنْ توكَّلَ عليه بموته ولا يضيع ألبتة، ونزِّهه تعالى عن جميع النقائص مُثنياً عليه بأوصاف الكمال، ولا تحمل همَّ ما تشاهد من ذنوب عباد الله الكثيرة، وكفى بالله تعالى حالة كونه عالماً بجميع ذنوب عباده، علماً كاملاً شاملاً، لكلِّ ظواهر الأشياء وبواطنها، علمَ حضور وشهود، فيُجازيهم عليها.

٥٩ - الرب الخالق الذي خلق السمواتِ والأرض وما بينهما في ستَّة أيام، ثمَّ استوى على العرش استواءً يليق بجلاله، هو نفسه الرحمنُ على خلاف ما يزعمه مشركو مكة من أنه لا يتَّصف بصفة الرحمة، لذلك فهم لا يلتمسون رحمته، فاَسْأَل عنه عالماً بالأمر عن تجربة ومُمارسة، ممَّن جرَّبوا في حياتهم ربَّهم عن طريق الدعاء واللجوء إليه في المُلمَّات والأزمات، فإنهم سيُخبرون بما جرى لهم في تجاربهم مع ربِّهم، ويُثبتون أنه قد رحمهم، فاستجاب لهم لمَّا التجؤوا إليه مُتضرِّعين داعين.

٦٠ - وإذا قيل للكافرين: اسْجُدوا للرحمن الذي يشملكم برحمته، ويمدُّكم بعطاءاته. قالوا: لا نسجد للرحمٰن. وما الرحمن؟ وما هي الظواهر التي تدلُّ على أنَّ الله القويَّ العزيز متَّصف بالرحمة؟ أنسْجُد لوصف لا نعرفه، تأمرنا - يا محمد - أن نسجد لله من أجله؟ وزادهم الرسول إذ قال لهم: اسجدوا للرَّحمن بُعداً عن الإيمان؛ لأنهم لا يؤمنون بأنَّ الرحمة من صفاته، ويعتقدون أنَّ آلهتهم التي يعبدونها هي التي يجلب لهم المنافع في حياتهم، وتدفع عنهم المضار.

٦١ - كَثُرتْ خيرات الله وعَظُمَتْ أوصافه وكمالاته عن كلِّ ما يصفه الواصفون من كمالات، لأنه أجلُّ وأعظم، الذي جعل في السَّماء منازل للكواكب والنجوم السيَّارة، وجَعَل في السماء شمساً تُضيءُ، وقمراً يُنير من انعكاس ضوء الشمس الذي يسقط على سطحه.

٦٢ - وهو الذي جَعَلَ الليلَ والنَّهار يتعاقبان، فيخلُفُ كلٌّ منهما الآخر، بتأثير نظام التكامل بين الشمس وحركة الأرض، لِمَن أراد أن يضع هذه الظواهر والآيات في ذاكرته، فتكون باعثة له إلى الإيمان بالله والاستجابة لدعوة الرسول، ومن أراد أن يكون شاكراً لِنِعَم ربِّه عليه، بالتفكُّر بآيات الله في كونه الدالات على رحمته بعباده وعنايته بهم، وإنعامه عليهم.

٦٣ - وعبادُ الرَّحمن المُؤهَّلون لأن يكونوا أئمة المتَّقين لهم اثنتا عشر صفة: **الصفة الأولى**: الذين يَمْشُون لقضاء شؤون حياتهم الدنيا على الأرض بالسكينة والوقار والرِّفق والرويَّة متواضعين غير بَطِرين ولا متكبِّرين، ولا يكدُّون لمطالب الدنيا بسعي يستهلك كلَّ طاقاتهم وأوقاتهم، **الصفة الثانية**: أنهم إذا خاطبهم السُّفهاء بالشتائم والألفاظ القبيحة مُسْتثيرين غَضَبهم، قالوا لهم: سلاماً، وفارقوا مجالس الجاهلين.

٦٤ - **الصفة الثالثة** من صفات عباد الرحمن: أنهم يتفرّغون في لياليهم لعبادة ربِّهم، حال كونهم سُجَّداً على وجوههم، وقياماً على أقدامهم.

٦٥، ٦٦ - **الصفة الرابعة**: أنَّهم يدعون ربَّهم: ربَّنا ردَّ عنَّا عقاب جهنَّم، وأبعده وحوِّله عنَّا؛ إنَّ عذابها كان مُلِحّاً دائماً لازماً، غير مُفَارِق من عُذِّب من الكفار؛ إنَّ جهنم ساءت مكان استقرار دائم للمشركين، وساءت مكان إقامة قليلة لعصاة المؤمنين.

٦٧ - **الصفة الخامسة**: أنَّهم إذا بذلوا أموالهم فيما أذن الله ببذله، لم يُجاوزوا الحدَّ في الإنفاق حتى يدخل حدَّ التبذير، ولم يضيِّقوا النفقة على أنفسهم، وعلى مَنْ تجب عليهم نفقتهم، وكان إنفاقهم بين التبذير والتَّقْتير وسطاً معتدلاً مستقيماً غير مائل ولا معوج.

وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾

سُورَةُ الشُّعَرَاءِ

٦٨ ـ **الصفة السادسة:** من صفات عباد الرحمن: أنهم لا يسألون لمطالب دنياهم وأخراهم مع الله إلٰهاً آخر يجعلونه شريكاً له. **والصفة السابعة:** أنهم لا يقْتلون النفس التي حَرَّم الله قتلها، إلا بالحقِّ الذي أذن الله به، كحدٍّ، أو قِصاص، أو قتال لإعلاء كلمة الله، أو دفاع عن النفس. **والصفة الثامنة:** أنهم لا يَزْنون، ومَنْ يفعل هذه الكبائر الثلاث، يَسْتقبلْ في عاقبة أمره جزاءَ إثمه.

٦٩ ـ يُضاعَفُ العذاب بإضافةِ مثلِهِ إليه لمَنْ سَقَطَ من عباد الرحمن في بعض كبائر الشِّرك والقَتْل والزِّنى؛ ويَخْلُد في العذاب ذليلاً، بسبب موته وهو مُشْرِك، ولأنه قابل تكريمَ الله بالانتكاس، بعد ارتقائه إلى مرتبة عباد الرحمن.

٧٠، ٧١ ـ لكنْ مَنْ تابَ صادقاً، وجدَّد إيمانه، وعبَّر عن صِدق توبته وإيمانه بالعمل الصالح الذي يبتغي به رضوان الله، فأولئكَ يُبدِّل الله سَيِّئاتهم التي سقطوا فيها، فيجعلها لهم حَسَنات، ومَنْ تاب وعبَّر عن توبته الصَّادقة بالعمل الصالح، وذلك بالإقلاع عن فِعلِ ما تابَ عنه من المُحرَّمات، وبالمُواظَبة على فعل ما تابَ عن تركه من الواجبات، فإنَّه يتوبُ إلى الله متاباً صادقاً نصوحاً.

٧٢ ـ **الصفة التاسعة:** أنَّهم لا يحضُرون الباطل، كمجالس أهل الشِّرك والضلال، ولا يُخبرون بالباطل والكذب، **والصفة العاشرة** من صفاتهم: أنهم إذا مرُّوا باللغو ممَّا لا يُعتدُّ به من قول أو فعل، ولا يُحصل منه على فائدة أو نفع، مرُّوا مُروراً عابراً، حالة كونهم كراماً في أنفسهم، إذْ لا يُهينونها بالهُبوط إلى السَّفاسف ومُحقَّرات الأمور، وهم يدركون قيمة الوقت، ويعلمون أنه رأس مالهم في هذه الحياة، فيخشون أن يخسروا مقادير من رأس مالهم دون تحقيق ربح وفير بعمل صالح.

٧٣ ـ **الصفة الحادية عشرة:** أنَّهم إذا ذُكِّروا بآيات الله المسموعة والمشهودة، أسرعوا فسجدوا لله واضعين جبهتهم على الأرض، غير مُستكبرين، مع حضور قلبيّ وفكريّ ونفسيّ في تدبُّر آيات الله المسموعة والمشهودة، ولم يخرُّوا غافلين ولا مُرائين ولا منافقين صُمّاً عن آيات الله المَتْلوَّة، وعُمْياً عن آيات الله المشهودة.

٧٤ ـ **الصفة الثانية عشرة:** أنهم يسألون الله تعالى أن تكون أزواجهم وذُرِّيَّاتُهم من أهل الإيمان والتَّقْوى، وبذلك تمتلئُ قلوبُهم سروراً، ويكونوا قرَّةَ أعين لهم في الدنيا وفي الآخرة، ويطْمَحُون إلى الارتقاء إلى درجات الأبرار والمحسنين، حتى يكونوا أئمَّةً يقتدي بهم أهل مرتبة التقوى.

٧٥ ـ أولئك المتَّصفون بالصِّفات الاثنتي عشرة السابقة من عباد الرحمن، يَجْزيهم الله غرفاتٍ رفيعات المنازل في الفردوس من جنَّات النعيم؛ بسبب صبرهم على فعل الطاعات، وترك المخالفات والمكروهات، ويُلقَّوْن من قِبَلِ الملائكة والحور العين والولدان المُخلَّدين تحيَّةً وأمناً وسلامة من كلِّ مكروه.

٧٦ ـ باقين في الغُرفات بقاءاً أبدياً بلا نهاية، حَسُنَتْ مُسْتقراً لأهلها يقرُّون فيه، ومقاماً لزوَّارها من أهل درجات مرتبة المتَّقين في الجنة.

٧٧ ـ قل ـ يا رسول الله ويا كُلَّ داعٍ إلى الله من أمته ـ للكفَّار المُصرِّين على مواقفهم: ما يُبالي بكم ربِّي من أجل ذاته، بل من أجلكم أنتم، رحمةً بكم، لولا دعاءُ الله إيَّاكم إلى سلوك الصراط المستقيم لسعادتكم ونجاتكم، ما كان ربِّي يعبأ بكم، ولكنكم مع هذه العناية بكم، فقد كذَّبتم ـ أيُّها الكافرون ـ الرسولَ المبعوثَ إليكم، وكذَّبتم بالقرآن، وبالجزاء يوم الدين، وأصررتم على مواقف الكفر، فسوف يكون جزاء تكذيبكم هذا عذاباً دائماً مُلازماً لكم حتى تنالوا عقابه يوم الدِّين في السَّعير دون نهاية.

سورة الشعراء

بسم الله الرحمن الرحيم

طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩﴾ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾

١ - ﴿طسٓمٓ﴾ سَبَق الكلام على الحروف المقطَّعة في أوَّل سورة البقرة.

٢ - تلك الآيات البيانيَّة الرفيعة المَنْزِلة العالية الرُّتبة، آيات القرآن المُنزَّل على رسول الله ﷺ، الظاهر الواضح لمن تدبَّره، والمُظْهِر المُوضِّح للمعاني المراد بيانُها للناس من دلائل التوحيد والأحكام، والذي يجب على المؤمنين أن يكتبوه في كتاب واحدٍ، مميَّزاً عن غيره من الكتب.

٣ - لعلك - يا رسول الله - من شدَّة حرصك على إيمان أهل مكة، مُهلِكٌ نفسَك حَسْرةً عليهم إنْ لم يؤمنوا.

٤ - إنْ نشأ أن نُنزِّل عليهم آيةً من السماء تُلجئهم إلجاءً إلى الإيمان، فدامت أعناقهم مُطأطئةً مُنحنيةً لها بسبب خوفهم من انتقام ربِّهم منهم، حالة كونهم في نفوسهم وقلوبهم خاضعين لربِّهم من هَوْل ما يشاهدون من عَظَمة الآية، ولم نأتهم بذلك لأنَّ سنَّتنا تكليف الناس دون إلجاء، كيلا تفوت الحكمة من الابتلاء، وما يترتَّب عليه من ثواب وعقاب.

٥ - أنت شديد الحزن من أجل هؤلاء المشركين المكذِّبين حالة كونهم ما يأتيهم من وعظٍ وتذكير من الرَّحمن مُحْدَثٍ إنزاله، ومُتجدِّد إنباؤهم به، إلاّ كانوا مُحوِّلين وجوهَهم عنه، غير عابئين ولا مكترثين.

٦ - فقد كذَّبوا بالقرآن، واستهزؤوا بالآيات التي تُتلى عليهم، وما فيها من إنذارٍ ووعيد لهم، فسيأتيهم تحقيق أخبار وعواقب ما كانوا به يكذِّبون ويستهزؤون.

٧ - أأصرُّوا على كفرهم وتكذيبهم، ولم ينظروا إلى عجائب الأرض الزاجرة لهم عن ذلك، والداعية إلى الإيمان بالله، كم أنبتنا فيها بعد أن لم يكن نبات من كلِّ جنس ونوع وصنف حَسَنٍ كثير المنافع ممَّا يأكل الناس والأنعام؟!

٨، ٩ - إنَّ فيما ذكر من الإنبات لآيةً عظيمةً تدلُّ على أن مُنْبتها قادرٌ على إحياء الموتى، ولكن ما وَجدنا أكثرهم ذوي قابليَّة لأن يؤمنوا مستقبلاً، وإنَّ ربَّك - يا رسول الله - لهو القويُّ الغالب المنتقم من أعدائه المكذِّبين المصرِّين على كفرهم، العظيم الرحمة للذين لديهم قابليَّة لأن يؤمنوا ويتَّبعوا الحقَّ الذي جاءهم من ربِّهم.

١٠، ١١ - واذكر - يا رسول الله - الأحداث التي جَرَت وقت نادى ربُّك موسى حين رأى الشجرة والنار: أن ائْتِ قومَ فرعون الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والمعاصي، وظلموا بني إسرائيل باستعبادهم وسَوْمهم سوءَ العذاب، وقل لهم بلين ورفق: ألا يريدون أن يقوا أنفسهم عقوبة الله بطاعته والإيمان به؟

١٢ - ١٤ - قال موسى: يا ربِّ إني أخافُ أن يُكذِّبوني، ويضيق صدري بتكذيبهم إيَّاي، ولا ينطلق لساني بالدعوة، فأرسل جبريل بالوحي إلى هارون، فاجْعله نبياً ورسولاً معي؛ ليُؤازرَني ويُعينني على تبليغ الرسالة، ولهم عليَّ دعوىٰ ذنبٍ بقتل القِبْطي الذي وكزْتُه انتصاراً للإسرائيلي قبل خروجي من مصر فارّاً إلى «مَدْيَن»، فأخاف أن يقتلوني به.

١٥ - ١٧ - قال الله تعالى لموسى: كلا لن يقتلوك، وقد أجَبْتُ دعاءك في أخيك هارون، وجعلتُه رسولاً معك، فاذهبا مَصْحُوبَيْن بالمعجزات الدالَّة على صِدْقكما، إنَّا معكم بالعلم والحفظ والنُّصرة، سامعون ما تقولون وما يُقال لكم. فأْتِيَا فرعون فقولا له: إنا رسولان، ولكننا بمثابة رسول واحد؛ لأننا متعاضدان، فما يقوله أحدنا يُعبِّر عن قولنا مُجتمعَيْن، وإنَّ ربَّك هو ربُّ كلِّ موجود سواه تبارك وتعالى، فهو الذي خلق كلَّ الموجودات الكونيَّة، وأمدَّها بعطاءات ربوبيَّته؛ أنْ اترك بني إسرائيل، وأذن لهم بالخروج معنا من مصر إلى أرض فلسطين، ولا تستعبدهم.

١٨، ١٩ - قال فرعون لموسى: ألم نُرَبِّك ضِمْن أسرتنا الملكيَّة كأحد أولادنا، منذ كنت وليداً حتى صرت رجلاً مكتملاً، أو لم تُقِمْ في رعايتنا سنين من عُمرك؟ أو لم ترتكب جريمة قتل المصريِّ انتصاراً لرجلٍ من قومك الإسرائيليين، وأنتَ من الجاحدينَ لنعمتي وحقِّ تربيتي؟!

قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾

٢٠، ٢١ ـ قال موسى لفرعون: وَكَزْتُ القِبْطي حينئذ، وأنا من الجاهلين بأنَّ ذلك يؤدِّي إلى قتله، لأنَّ فعل الوكزة على وَجْه التأديب لا على وجه القتل. فَهَرَبتُ منكم إلى «مَدْين» حين خِفْتُ أن تقتلوني بما فعلت من غير عَمْد، فَوَهَبَ لي ربي العلم والفهم، وجعلني نبياً من المرسلين.

٢٢ ـ وتلك التربية في بيتك نعمةٌ تفضَّلت بها عليَّ، أنْ اتَّخذتَ بني إسرائيل لك عبيداً، فجعلتَ تقتل الأبناء من المواليد، وتَسْتحيي البنات فلا تقتلهنَّ لتُسخرِّهنَّ في الخدمة متى صِرْن نساءً قادرات على الخدمة، ولولا رغبة أهلك في أن أنفعهم أو أن يتَّخذوني ولداً لهم لذبحتموني مع سائر مَنْ ذبحتم من مواليد بني إسرائيل، أفهذه تصلح لأن تكون نعمةً تمُنُّها عليَّ؟!!

٢٣، ٢٤ ـ قال فرعون: ما حقيقة ذات ربِّ العالمين الذي تزعم أنَّك رسوله؟ فأعرض موسى عن إجابة فرعون عن حقيقة ذاته جلَّ جلاله، وسَمَتْ عن الإدراك ذاتُه؛ لأنَّ حقيقة ذاته لا يستطيع البشر إدراكها. قال موسى: ربُّ العالمين هو خالقُ السموات والأرض وما بينهما، وممدُّها بعطاءات ربوبيَّته دواماً، إن كنتم مُسْتعدِّين لأن تفكِّروا بالحقائق التي أعرضها عليكم، فتُوقنوا بربِّ العالمين عن طريق البراهين والأدلة العقليَّة، فإذا كنتم غير مُستعدِّين لأن تفكِّروا فتوقنوا مُستقبلاً، فإنَّ بياني هذا لن يُغيِّر من جُحودكم لربِّكم شيئاً مهما قدَّمت لكم من أدلة.

٢٥ ـ قال فرعون لِمَنْ حَوْلَه من أشراف قومه: ألا تستمعون لجوابه، إني أطلب منه الماهيَّة وهو يُجيبني بأفعاله وآثاره؟

٢٦ ـ قال موسى: إنَّه خالقكم وخالقُ آبائكم الأوَّلين الذين ماتوا عند انتهاء آجالهم، فكيف تعبدون مَنْ هو مخلوقٌ مثلكم، وله آباء قد فَنَوا كآبائكم؟

٢٧ ـ قال فرعون: إنَّ رسولكُم الذي يَدَّعي الرسالة مجنون لا يفهم السؤال، فَضْلاً عن أن يجيب عنه، ويتكلَّم بكلام لا نقبله ولا نعرف صحَّته.

٢٨ ـ قال موسى: الربُّ الذي أدعوكم إليه هو المُدبِّر بصفات ربوبيَّته لمكان شروق الشمس وغروبها، ولزمان الشروق والغروب، وهو ربُّ كلِّ ما بين المشرق والمغرب من ظلمة وضياء، وأحياء وبشر، ورياح وسُحُب، وغير ذلك؛ إنْ كنتم تدركون حقيقة ربوبيَّته للمشرق والمغرب وما بينهما، وحسبكم أن تدلكم الظواهر على صفاته. وما لكم وللبحث عن ذاته؟

٢٩ ـ قال فرعون حين لزمته الحُجَّة، وانقطع عنه الجواب: أُقسم لئن اتَّخذت ـ يا موسى ـ معبوداً تعبده غيري لأجْعلَنَّك من المَسْجُونين.

٣٠ ـ قال موسى حين توعَّده بالسجن: أتأمر بسجني، ولو جئتك ـ يا فرعون ـ بآيةٍ بيِّنة يتبيَّن بها صدقي فيما دعوتُكَ إليه!؟

٣١ ـ قال فرعون: فَائْتِ بالذي يُبيِّن صِدْقَكَ، فإنا لن نسجنك حنيئذٍ؛ إن كنت من الصادقين في أنَّ لك بيِّنة.

٣٢، ٣٣ ـ فألقى موسى عَصَاهُ، فصارت حيَّةً ظاهرة، وأدخل يده السَّمراء في فتحة ثوبه عند صدره، ثمَّ أخرجها، فإذا هي بيضاء بياضاً نورانياً من غير بَرَص، لها شعاعٌ كشعاع الشمس تبهر الناظرين.

٣٤، ٣٥ ـ قال فرعونُ لأشراف قومه: إنَّ موسى لسَاحِرٌ عليمٌ بالسِّحر، يريدُ أن يُخرجَكُم بسحره من أرضكم، فما رأيكم فيه، وما الذي أعمله؟

٣٦، ٣٧ ـ قال له قومه: أَخِرهُ وأخاه هارون، ولا تُعجِّل بعقوبتهما، وأرْسِل مبعوثين من قبلك للبحث في المدائن المصريَّة، يجمعون لك أمْهَر السَّحرة، يأتوك من أقاصي البلاد بكلِّ ماهرٍ بالسِّحر، مُتفوِّق بمعرفته؛ ليقاوموه، ولا تثبت له حجة.

٣٨، ٣٩ ـ فجمع جنود فرعون السَّحرةَ لإجراء المباراة في الموعد المحدَّد مكاناً وزماناً، في وقت الضُّحى من يوم الزينة الذي يتفرَّغون فيه من أشغالهم، ويجتمعون ويتزيَّنون، وقيل لجماهير المصريين على سبيل العرض لا الإلزام: هل أنتم مجتمعون لتنظروا ماذا يفعل الفريقان، ولمن تكون الغَلَبة؟

لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ
قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ
وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ
﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ
ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ
﴿٤٥﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾
رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ
لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ
وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ إِنَّآ
إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ
أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم
مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ
لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ
﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾
كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾

٤٠ - وقال مُذيعُو نبأ المباراة: لعلَّنا نتَّبع السَّحَرَة على دينهم، ونتعلَّم السِّحر منهم، إن كانوا هم الغالبين في المباراة بينهم وبين موسى.

٤١ - فلما جاء السَّحرةُ فرعونَ وعَرَض عليهم الغرضَ الذي جمعهم من أجله، وهو إجراء مباراة بينهم وبين موسى الذي يَسْحَرُ عصاه فتصير ثعباناً مخيفاً، قالوا له: أتُعطينا أجراً يُكافِيء المالَ والجَهْد الذي نبذله لإجراء أعمالنا السحريَّة، إنْ كنَّا نحن الغالبين بسحرنا ما يأتي به موسى؟

٤٢ - فأجابهم فرعون فوراً قائلاً لهم: نعم لكم أجرٌ عندي، وتكونون مع ذلك من حاشية قصري، أمنحكم من عطائي، وأحقِّق رغباتكم، وأجيب طلباتكم.

٤٣ - قال موسى للسَّحرة: اطرحوا في ساحة المباراة ما تريدون إلقاءه من السِّحر، فأنا مُتحدِّيكم، وقابلٌ تحدِّيَكم.

٤٤ - فطرح السَّحَرَة في ساحة المباراة حِبَالَهُم وَعِصِيَّهم، وقالوا: بعظمة فرعون وقوَّته الغالبة، إنا لنحن الغالبون.

٤٥ - فألقى موسى عَصَاه، فانقلبت بأمر الله التكوينيِّ حيَّةً عظيمة، وفاجأت المشاهدين بأنها شرعت تَبْتلع بسرعةٍ في فمها ابتلاعاً حقيقياً ما يُموِّهون ويزوِّرون به من المخاييل والخِدَع الباطلة التي ليس لها حقيقة في الواقع.

٤٦ - وَعَجز السَّحَرَة عن اتِّخاذ أيِّ شيء حيال العصا المنقلبة حيَّة حقيقيَّةً، وابتلاعها أدواتهم السِّحريَّة، وأدركوا أنها آية من آيات خالق الكون، فخرُّوا لله ساجدين دون تلكؤ ولا تريُّث.

٤٧، ٤٨ - قالوا: آمنا بربِّ العالمين، وخالِقهم ومالِكهم ومُمدِّهم بعطاءات ربوبيَّته، الربِّ الذي يدعو إلى الإيمان به موسى وهارون.

٤٩ - قال فرعون للسَّحرة مستنكراً: آمنتم بموسى مسلمين له قبل أن آذَنَ لكم بذلك، إنَّه موسى لكبيركُم الذي علَّمكم السحر، وقد اتَّفقتم معه على أن تكونوا شركاء في حكم مصر بمؤامرة مُدبَّرة بينكم وبين موسى، فَلَسَوْف تعلمون وَبَالَ ما فعلتم. لأُقَطِّعَنَّ أيديكم وأرْجُلكم من خِلاف: بقطع اليد اليُمنى والرِّجل اليُسرى أو عكس ذلك، ولأُصَلِّبَنَّكم أجمعين تشهيراً بكم أمام الشعب المصري؛ لتكونوا عبرة لكلِّ مَنْ تُحدِّثه نفسه بمخالفة ديني ونظام حكمي.

٥٠ - قال السَّحَرة لفرعون: لا ضَرَر علينا فيما يلحقنا من عذاب في الدنيا، لأننا ننقلب ونصير إلى ربِّنا في الآخرة مؤمنين مُؤمِّلين غفرانه.

٥١ - وقالوا لفرعون: إنا نرجو أن يغفر لنا ربُّنا خطايانا من الشِّرك والسِّحر؛ بسبب أنْ كنا أوَّل المؤمنين من القبْط بما جاء به موسى وهارون عن ربِّ العالمين.

٥٢ - وأبلغنا موسى عليه السلام عن طريق الوحي أمرنا: أنَّ الشأن العظيم الخطير هو أمرنا لك بأن تسيرَ ليلاً بعبادي بني إسرائيل إلى البحر الأحمر، إنَّ فرعون وجنودَه مُتَّبعوكم؛ ليحولوا بينكم وبين الخروج.

٥٣ - ٥٦ - فلمَّا علمَ فرعونُ بخروج بني إسرائيل دون إذنٍ منه، أرسل الشُّرَط في المدائن المصريَّة جامعين للعساكر، لمتابعة بني إسرائيل الفارِّين بقيادة موسى، وردِّهم إلى الذلِّ والعبوديَّة. قال فرعون: إنَّ بني إسرائيل الذين فرُّوا مع موسى لَطائفةٌ قليلة العدد غير قادرين على القتال، وإنَّهم أغضبونا أشدَّ الغضب بمخالفتهم ديننا، وخروجهم من أرضنا بغير إذننا، وإنا لجميع خائفون على مُلك «مصر»، وعلى الشعب القِبْطي من خروجهم، إذ قد يُكوِّنون خارج «مصر» جيشاً قوياً، ثم يرجعون مقاتلين، لانتزاع الحكم، واستعباد الشعب القِبْطي بالقوَّة انتقاماً من استعبادنا لهم.

٥٧، ٥٨ - وكان في إغرائهم وتهييجهم منا لنفوسهم وقلوبهم، وإحداث الغضب الشديد فيها، والرغبة في متابعة بني إسرائيل، أن أخرجنا فرعون وقومه من بساتينَ مُمْتَدَّة، وعيون ماء جاريات، وأموال ظاهرة من الذهب والفضة، ومكانٍ معنويٍّ رفيع، الذي كانوا فيه أهل ولاية وحكم وسلطان في أرض «مصر».

٥٩ - كذلك الذي حَصَل لفرعون وآله وجنده من إخراجٍ لهم، حَصَل لجبَّارين آخرين كافرين، كما وقع للكنعانيين الوثنيين في أرض فلسطين، وجعلنا بني إسرائيل هم المالكين لها، بعد مـالكيها السَّابقين، عن طريق القتال والحرب والمعونة الإلهيَّة.

٦٠ - فسار جيش فرعون بقيادته، في أثر موسى وأصحابِه على الطريق الذي ساروا فيه حالة كونهم داخلين في وقت شروق الشمس.

فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾

٦١ - فلمَّا تقابل الجَمْعان بحيث يرى كلُّ فريق صاحبه، قال أصحابُ موسى الملازمون له، المقرَّبون إليه، الذين استخلصهم لصحبته: إنَّ فرعون وقومَه سَيُدركوننا، ولا طاقة لنا بهم.

٦٢ - قال موسى - لثقته بوعد الله -: كلاَّ لن يُدْركونا، فلا تَخْشَوا على أنفسكم، ولا على جمهور بني إسرائيل، فإنَّ معي ربي بالمعونة والتأييد سَيَدُلُّني على طريق النجاة.

٦٣ - فأوْحَيْنا إلى موسى عليه السلام أن اضْرِب بعصاك البحر، فَضَرَبه، فانشقَّ البحر بأمر الله التكويني إلى اثني عشر طريقاً بعدد قبائل بني إسرائيل، فكان كلُّ قسم انفرق من الماءِ مُنحازاً لإحداث طريق يعبُر منه بنو إسرائيل إلى الشاطىء الآخر، كالجبل العظيم قائماً ثابتاً لا يسيل من مائه شيء إلى الطريق اليبس الذي جعله الله عزَّ وجلَّ في قاع البحر.

٦٤ - وقرَّبنا هنالك فرعون وجنودَهُ إلى البحر، فرأوا طريقاً واسعاً منفتحاً في وسط البحر بين جبلين عظيمين من ماء مُتجمِّد، فدخل فرعون وجنوده في الطريق اليَبَس مُتابعين بني إسرائيل.

٦٥، ٦٦ - وأنْجينا موسى ومَنْ معه أجمعين من الغرق، وخرجوا إلى البر من جهة الشاطىء المقابل، ثمَّ لما وصل فرعون وجيشه إلى نحو الثلث الأخير من الطريق اليَبَس داخل البحر، انطبق عليهم، وسالت الجبال المائيَّة عليهم مُتدفِّقة بشدَّة وعنف، فأغرقتهم أجمعين.

٦٧ - إنَّ فيما حَدَثَ في البحر من انفلاقه لآيَةً من الآيات العظام الدالَّة على قُدرتنا، ومعجزةً لموسى عليه السلام. وما كان أكثر كبراء مكة مؤمنين مُستقبلاً، مهما عُولجوا وأُمهلوا.

٦٨ - وإنَّ ربَّك لهو القويُّ الغالب بالانتقام من أعدائه، الدائم الرحمة بالإنعام على أوليائه، وبعزَّته أهلك الكافرين المكذبين، وبرحمته نجَّى موسى ومن معه أجمعين.

٦٩، ٧٠ - واتْلُ - يا رسول الله - على مُشركي قريش خبر إبراهيم الهام في دعوته لقومه الوثنيين، الذين تُشابه حالهم حالَ قومك، حين قال لأبيه وقومه: ما حقيقة ذات ما تعبدون، وما هي صفاتها التي تُؤهِّلها لأن تُعبد من دون الله؟

٧١ - قالوا: نعبد أصناماً، فنداومُ على عبادتها ملازمين لها مُلازمةَ المقيم الذي أعطىٰ كلَّ نفسه وحواسّه لما هو عاكفٌ عليه.

٧٢، ٧٣ - قال إبراهيم: هل يسمعون دعاءكم حين تدعونهم لمطالب حياتكم من رزقٍ، ونصرٍ، وأمنٍ، وَذُرِّيَّةٍ، ونحو ذلك من مَطالب الحياة؟ أو ينفعونكم إنْ عبدتموها، أو يضرُّوكم إن تركتم عبادتها؟

٧٤ - قالوا: إنَّها لا تسمع قولاً، ولا تَجْلب لنا نفعاً، ولا تدفع عنا ضَرّاً، بل وَجَدنا آباءَنا يفعلون مثل ذلك، فنحن لهم مقلِّدون.

٧٥ - ٧٧ - قال إبراهيم: أتفكَّرتم تفكُّراً سليماً، فرأيتم بعقولكم وقلوبكم بطلان ما كُنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأوَّلون، فإنهم أعداء لي، لأنهم باطلٌ ليس لهم من الإلهيَّة وصفُ ما، ولكنَّ ربَّ العالمين الخالق لكلِّ الموجودات الكونيَّة، والمُمدّ لها بعطاءات ربوبيَّته، فإنَّه ربِّي وَوَليِّي الذي يستحقُّ العبادة.

٧٨، ٧٩ - من صفات ربوبيَّة اللّهِ ربِّ العالمين، ثماني ظواهر: **الأولى**: الذي ابتدعني من العَدَم، وحدَّدَ مقادير كلِّ شيء فيَّ، **والظاهرة الثانية**: الله وحدَهُ الذي يهديني في كلِّ تصرُّفاتي الإراديَّة الجسديَّة والنفسيَّة لتنفيذ الأعمال المُحقِّقة للأغراض منها، **والظاهرتان الثالثة والرابعة**: الله هو وحده الذي يرزقني ويُغذِّيني بالطعام والشراب، لا يطعمني ولا يسقيني أحدٌ سواه.

٨٠ - **والظاهرة الخامسة**: إذا أصابني مرض فهو يُبرئني ويُعافيني من المرض.

٨١، ٨٢ - **والظاهرتان السادسة والسابعة**: الذي يُميتني في الدنيا بفصل الرُّوح عن النَّفس، ثمَّ يُحيينِ في الآخرة، ويُحيي جميع الناس؛ للحساب والجزاء، **والظاهرة الثامنة**: اللّهُ وحده الذي أرجو أن يغفر لي خطيئتي يوم الجزاء والحساب، فلا غافر لذنوب مَنْ آمن وأسلم إلَّا هو جلَّ جلاله وعظُم سلطانه.

٨٣ - قال إبراهيم داعياً ربَّه: ربِّ هَبْ لي فقهاً في الأمور، ومعرفةً مطابقةً للحقِّ والخير في أحكامي العلميّة والعمليّة، وقدرةً على تقديم الحُجَج الدامغة، والبراهين القاطعة لجدليَّات المُبْطلين، ومُحَاصرتهم من كُلِّ مهرب فكريٍّ، واجعلني ألحق بالصَّالحين الكاملين في صلاحهم، من أُولي العزم من الأنبياء والمرسلين، فإذا لحقتهم سرتُ معهم سابقاً في الخيرات التي تُرضيك عني.

وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾ ۞ قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾



٨٤ ـ واجْعَل لي ثناءً صادقاً، وذكراً جميلاً، وقَبولاً في الأمم التي تجيء بعدي، باقياً إلى يوم القيامة، وذلك بكمال المُداومة على أن أكون من كاملي الصَّلاح، طوال حياتي.

٨٥ ـ واجعلني بفيض عطائك من وَرَثة جنَّة النعيم؛ لأنَّ دخول الجنة إنما هو بفضل الله لا بالأعمال مهما كانت صالحةً.

٨٦ ـ واصفح لأبي عن شركه بك، ولا تُعاقبه عليه؛ إنَّه كان من الضَّالِّين الكافرين. دَعَا إبراهيم لأبيه رجاء أن يسلم فيُغفر له، فلما تبيَّن له أنه عَدوٌّ لله تَبرَّأ منه.

٨٧ ـ ٨٩ ـ ولا تَفضَحني ولا تذلَّني بعقابك يوم يُبعث العبادُ من قبورهم؛ للحساب، وفصل القضاء، وتنفيذ الجزاء، يوم لا ينفع مالٌ أحداً كان قد جمعه في الدنيا، بالغاً ما بلغ، ولا ينفع أحداً أبناؤه الذين كانوا ينصرونه، إلاَّ مَنْ أتى الله بعد موته بقلبٍ سليم خالصٍ من الشَّكِّ والشِّرك وأمراض كبائر الذنوب والآثام. فإنه ينتفع بثواب أمواله التي جَمَعها وأنفقها فيما أذن الله به، وينتفع ببنيه، إذْ يجد في صحيفته دعاءَهُم واستغفارَهُم وثوابَ تربيتهم تربيةً إيمانية إسلامية.

٩٠، ٩١ ـ وقُرِّبت الجنَّة للمتَّقين الذين اتَّقوا عقابَ الله في الآخرة بطاعتهم إيَّاه في الدنيا، بحيث يَرَونها في مكان تجميعهم في المحشر الخاصِّ بأصحاب اليمين، الواقع إلى جهة يمين العرش، وأُظهِرت الجحيم بعد خَفَاء للضالِّين عن طريق الحق، التاركين سبيل الرُّشد؛ بحيث يَرَوْنَها في مكان تجميعهم في المحشر الخاصِّ بأصحاب الشمال، الواقع إلى جهة شمال العرش.

٩٢، ٩٣ ـ تقولُ لهم الملائكة: أين آلهتكم التي كنتم تعبدونها من دون الله في الدنيا؟ هل يمنعونكم من عذاب الله، أو ينتصرون لأنفسهم فَضْلاً عن أن ينصروكم؟

٩٤، ٩٥ ـ فجُمِعوا وأُلقوا في جهنَّم على رؤوسهم بتتابع متكرر إلى أن استقرُّوا في قَعْرها: المشركون وسائر الضالِّين المُجافين لسبيل الحقِّ والهُدى اتِّباعاً لأهوائهم وشهواتهم، وأتباعُ إبليس ومَنْ أطاعه من الإنس والجنِّ أجمعون، لا يستثنى منهم أحد.

٩٦ ـ ٩٩ ـ قال الذين كانوا يعبدون من دون الله شركاء، لِمَنْ كانوا يعبدونهم، وهم في النار يَتَخاصمون: تالله إنْ كُنَّا لفي ضَيَاع عن صراط الحقِّ ظاهر واضح؛ حين كنَّا نَعْدِلُكُم بربِّ العالمين، الخالق لما سواه، والمتصرِّف في العالمين دواماً بصفات ربوبيَّته، ونجعلكم وإيَّاه سواء في استحقاق العبادة، وأنتم أعجز الخلق. وما دَعَانا إلى الضَّلال وعبادة الأصنام من الجنِّ والإنْس إلا المجرمون، الذين ارتكبوا الجرائم الكبرى، والآثام العظمى.

١٠٠، ١٠١ ـ فما لنا من شافعين يشفعوا لنا، ولا صديق صادقٍ في المودَّة يُشفق علينا، ويدافع عنا.

١٠٢ ـ فلو أنَّ لنا رَجْعةً إلى الدنيا، فنكون من المؤمنين بالله الصَّادقين في إيماننا.

١٠٣، ١٠٤ ـ إنَّ فيما ذُكر لعبرةً لمن اعتبر، وما كان أكثرهم مؤمنين مع هذه الدلائل والآيات، وصار أكثرهم مرضى القلوب غير ذوي قابليَّة لأن يؤمنوا مُستقبلاً، وَوَصلوا إلى حالةٍ ميؤوس من إيمانهم، وصار إنزال العقاب بهم، ونصر رسوله والمؤمنين هو الأمر الحكيم، وإنَّ ربَّك لهو القويُّ الغالب المُنتقم الذي لا يُغالَب، العظيم الرحمة التي وَسِعَت كلَّ شيء.

١٠٥ ـ ١٠٧ ـ كذَّبت جماعةُ قوم نوح المرسلين؛ الذين كان آخرهم إرسالاً إليهم أو بقاءً فيهم نوح عليه السلام، إذ قال لهم أخوهم في النَّسب نوح: ألا تَخافون عقاب الله فتتركوا الكفر والمعاصي، وتؤمنوا بالله إيماناً صحيحاً صادقاً؟ إني لكم رسولٌ أمينٌ على الوحي، معروفٌ عندكم بالأمانة.

١٠٨ ـ ١١٠ ـ فاتَّقُوا عذابَ الله بطاعتِهِ وعبادته، وأطيعُوني فيما أدعوكم إليه، وما أسألكم على تبليغ الرسالة وما أُقدِّم لكم من تعليم ونصح من أجر وجزاء، ما ثوابي الذي أستحقُّه إلا على كفالة ربِّ كلِّ موجود سواه تبارك وتعالى، الذي خلق كلَّ الموجودات الكونيَّة، وأمدَّها بعطاءات ربوبيَّته، فاحذروا عقابه، وأطيعوني بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، فلست آخذ منكم أجراً.

١١١ ـ قال له قومه: أنؤمن بما تدعونا إليه منقادين لك ـ يا نوح ـ والحال أنه اتَّبعك الأخسُّون من الناس أصحاب الصناعات الدَّنيئة، والمهن الحقيرة، والأعمال التي يترفَّع عنها أهل الكرامة والشرف؟

قَالَ وَمَا عِلۡمِي بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنۡ حِسَابُهُمۡ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّيۖ لَوۡ تَشۡعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴿١١٥﴾ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمَرۡجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوۡمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفۡتَحۡ بَيۡنِي وَبَيۡنَهُمۡ فَتۡحٗا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا بَعۡدُ ٱلۡبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾ كَذَّبَتۡ عَادٌ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبۡنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةٗ تَعۡبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمۡ تَخۡلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشۡتُم بَطَشۡتُمۡ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِيٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعۡلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنۡعَٰمٖ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿١٣٥﴾ قَالُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَوَعَظۡتَ أَمۡ لَمۡ تَكُن مِّنَ ٱلۡوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾

١١٢ ـ قال نوح: إنَّ هؤلاء الذين تَرَوْنَهُم الأرذلين هم بَشَر مثلكم، مسؤولون تُجاه ربِّهم عن الإيمان والعمل الصَّالح مهما كانت طبقتهم الاجتماعيَّة في نظركم طبقة خسيسة، وإنني لست مبعوثاً لطبقة اجتماعيَّة خاصَّة دون أخرى، وما تأثير علمي بما كانوا يعملون في دعوة ربانيةٍ أمرني ربي أن أبلِّغها لجميع قومي دون استثناء.

١١٣ ـ ما حسابهم على أعمالهم إلاّ على ربِّي، وهو الذي سوف يُحاسبهم عليها يوم الدين، أتمنَّى لكم أن تدركوا هذه الحقائق.

١١٤، ١١٥ ـ وما أنا بمُبْعِد أي فرد أو جماعة دخلوا في جماعة المؤمنين مهما كان وضعهم الاجتماعي، ما أنا بالنسبة إلى غير المستجيبين لدعوتي بإصرار واستكبار إلا نذيرٌ بيِّن الإنذار.

١١٦ ـ قالوا: نقسم لَئِنْ لم تَنْتَهِ يا نوح عن متابعة الدعوة إلى دينك، لنحكُمنَّ عليك وعلى مَنْ آمن معك بالقتل رَجْماً بالحجارة.

١١٧، ١١٨ ـ قال نوح: يا ربِّ إنَّ كلَّ قومي كَذَّبون ـ باستثناء القلَّة الذين آمنوا بي واتَّبعوني ـ ومنعوني من متابعة دعوتي، وهدَّدوني بالقتل رمياً بالحجارة، فاحكُم بيني وبينهم حُكماً من عندك تُهلك به المُبْطل، وتنتقم ممَّن كفر بك، وكذَّب رسولك، ونجِّني ومَنْ معي من المؤمنين ممَّا توعَّدونا به.

١١٩ ـ فاستجبْنا دعاءه مباشرة، فأنْجَيْناه ومَنْ معه في السفينة المَمْلوءة بالناس والطير والحيوان والمتاع.

١٢٠ ـ ثمَّ أغرقنا بعد إنْجاء نوح ومَنْ معه، الباقين في الأرض من قوم نوح، الذين لم يركبوا معه في السفينة.

١٢١، ١٢٢ ـ إنَّ في إنْجاء نوح وإهلاك المُكذِّبين لعبرةً عظيمةً لِمَنْ بعدَهم، ولكن ما وَجَدنا أكثرهم ذوي قابليَّة لأن يؤمنوا مُستقبلاً، وإنَّ ربَّك لهو القويُّ الغالب المنتقم، العظيم الرحمة التي وَسِعَت كلَّ شيء.

١٢٣ ـ كذَّبت قبيلة عاد المرسلين؛ فقد جاءهم عدَّة رسل، كان هود ـ عليه السلام ـ آخرهم إرسالاً إليهم.

١٢٤، ١٢٥ ـ إذ قال لهم أخوهم في النَّسب هود: ألا تجعلون بينكم وبين عقاب الله وقاية بفعل ما أمر، وأوله الإيمان الصحيح الصادق، وترك ما نهى عنه، وأوله الكفر؟ إني لكم رسولٌ أمينٌ على رسالة ربي، أُبلِّغها لكم كما أتلقَّاها بالوحي عنه، لا أزيد فيها شيئاً من عندي، ولا أنقُص منها شيئاً، معروفٌ عندكم بالأمانة، فكيف تتَّهمونني اليوم؟!

١٢٦، ١٢٧ ـ فاتَّقوا عذاب الله بطاعته وعبادته، وأطيعوني فيما آمركم به من التوحيد، وما جئتكم به من عند الله. وما أسألكم على تبليغ الرسالة أيَّ نوع من أنواع الأجر، وما ثوابي الذي أستحقُّه إلا على كفالة ربِّ كلِّ موجود سواه تبارك وتعالى، الذي خلق كلَّ الموجودات الكونيَّة، وأمدَّها بعطاءات ربوبيَّته.

١٢٨، ١٢٩ ـ أتَبْنُونَ بكلِّ مكانٍ مُرتفع من الأرض بناءً عالياً، تعبثون ببنائها؛ إذْ لم تكونوا محتاجين إليها، وإنما بنيتموها للتفاخُر بها؟ وأنتم تتَّخذون منشآت حضارية، ومُجمَّعات سكنية وقصوراً وحصوناً وأحواض مياه، ألعلَّكم تتوهَّمون أنكم تخلَّدون في هذه الحياة الدنيا، التي تبالغون في اتِّخاذ ما يترفكم فيها، ناسين الموت والبعث ويوم الدين؟!

١٣٠ ـ ١٣٤ ـ وقد أنعم الله عزَّ وجلَّ عليكم بالقوَّة المتفوِّقة على قوىٰ كلِّ الأقوام من حولكم، حتى صرتم جبَّارين في الأرض، فإذا بطشتم بخصومكم بطشتم بقوة وعنف، حالةَ كونكم جبَّارين ظالمين، وقد كان الواجب عليكم أن تقيموا العدل والحق، فاتَّقوا عقاب الله في مخالفتي، وأطيعوني فيما آمركم به، واتَّقوا الذي أنعم عليكم وأعطاكم من الخير ما تعلمون؛ ليبْلوَكم ويمتحنكم، فانظروا إلى ما أمدَّكم به من عطائه، أمدَّكم بالأنعام، والأولاد، والبساتين المُثْمِرة، والعيون الجارية، فلا تقابلوا نِعَم الله عليكم التي أمدَّكم بها، وجعلها وافرةً كثيرةً بالكفر والجحود والعصيان.

١٣٥ ـ قال هود ـ عليه السلام ـ مُحذِّراً قومه: إنِّي أخافُ عليكم ـ إنْ عَصَيْتُموني ـ عذابَ يوم عظيم في الآخرة.

١٣٦ ـ فكان جوابهم: يستوي عندنا نصحك المقرون بالوعد والوعيد وعدمه، فكُفَّ عن نُصحك وتذكيرك، فلن نؤمنَ لك ولن نصدِّقك.

إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ
فَأَهْلَكْنَٰهُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ
رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ
لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾
فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ
إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾
فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾
وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ
﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ
وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ
إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ
هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا
بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟
نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ
أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾

١٣٧ - وقالوا: ما هذا الذي تستنكره علينا، وتعظنا بتركه إلاَّ عادة الأوَّلين من آبائنا وأجدادنا التي دَرَجُوا عليها، ونحن على آثارهم مُقْتدون، ولم يُهلك الله آباءنا، ولم ينزل بهم ما تُنذرنا به.

١٣٨ - وما نحن بمعذَّبين على ما نفعل، بالعذاب المعجَّل في الحياة الدنيا الذي حذَّرتنا منه.

١٣٩ - فكذَّبوا هوداً، فأهلكناهم بريح باردة شديدة. إنَّ في ذلك الإهلاك لعبرة لمَنْ بعدهم، ولكن ما وَجدنا أكثر الناس ذوي قابليَّةٍ لأن يُؤمنوا مُستقبلاً مع هذه الدلائل والآيات.

١٤٠ - وإنَّ ربَّك لهو القويُّ الغالب المنتقم من الكافرين، الدائم الرحمة بالمؤمنين.

١٤١ - كذبَّت قبيلةُ ثمود المرسلين، الذين كان آخرهم إرسالاً إليهم صالح عليه السلام.

١٤٢ - ١٤٥ - إذ قال لهم أخوهم في النَّسب صالح: ألا تجعَلون بينكم وبين عقاب الله وقايةً، بفعل ما أمر، وأوَّله الإيمان الصَّحيح الصَّادق، وترك ما نهى عنه، وأوَّله الكفر؟ إنِّي لكم رسولٌ أمينٌ على الوحي، معروفٌ عندكم بالأمانة، فكيف تتَّهمونني اليوم؟ فاتَّقوا عذاب الله بطاعته وعبادته، وأطيعوني فيما آمركم به من التوحيد، وفي كلِّ ما جئتكم به من عند الله، وما أسألكم على تبليغ الرسالة أيَّ نوع من أنواع الأجر، وما ثوابي الذي أستحقُّه إلا على كفالة ربِّ العالمين ممَّا سوى الله تعالى من موجوداتٍ حاضراتٍ، أو غابراتٍ، أو سَتُوجد، أو سوف تُوجد في المستقبل، وهذه الموجودات علامات دالاَّت على خالقها وصفاته الحُسْنى.

١٤٦ - ١٤٩ - أَتُتْرَكون فيما أنتم فيه من النعيم في الدنيا آمنينَ من العذاب؟ في حدائق مُثْمرةٍ، وعيونٍ جارية، وزروعٍ كثيرة مختلفة، ونخلٍ ثمرها الذي يطلع منها يانعٌ نضيج مريء سَهْلُ الهضم، وتنْحتون من الجبال بيوتاً حاذقين بنحتها.

١٥٠ - ١٥٢ - فاتَّقوا عقاب الله وعذابه، واحذروا أن يُنزل بكم نقمتِه وبأسه، ويَسْلبكم نعمه، إذا لم تؤمنوا به، وتُسلموا له، وأطيعوني فيما أُوصيكم به، ولا تُطيعوا أمر المُتجاوزين حدَّ الحكمة والحق في تصرُّفاتهم، الذين يُفسدون في الأرض بتصرُّفاتهم الآثمة الظالمة، لتقْوية سلطانهم، وتحقيق مصالحهم، وزيادة ثرواتهم.

١٥٣ - قال قوم ثمود لصالح عليه السلام: ما أنت إلا من الذين سُحروا سحراً كثيراً، حتى غلب على عقلك السِّحرُ، وجعلك مختلَّ العقل مُخبَّلاً.

١٥٤ - ما أنت إلا بشرٌ مثلُنا، وليس لك من الصفات الشخصيَّة الخارجة عن نظام البشر ما يُؤهِّلك لأن تكون نبياً، تتلقَّى الوحيَ عن اللَّهِ ربِّ العالمين؟ فَأْتِ بعلامةٍ من الخوارق المعجزة دالَّةٍ على صحَّة ما تقول، إنْ كنتَ من الصَّادقين أنك رسولٌ إلينا من ربِّ العالمين.

١٥٥ - قال لهم صالح: هذه ناقةٌ لها نصيبٌ من الماء في يوم معلوم، فلا تُزاحموها فيه، ولكم نصيبٌ منه، لا تُزاحمكم فيه.

١٥٦ - ولا تمسُّوها مسّاً بسوء، ولو ضايقتكم في طعامها وشَرابها، فيقبض عليكم عذابٌ شديدٌ قبضاً مُؤْلماً لكم بعنف وشِدَّة في يوم عظيم الأهوال.

١٥٧ - فنحروا الناقة، فأصبحوا على عَقْرها مُتحسِّرين، لمَّا رأوا إمارات نزول العذاب بهم، فلم ينفعهم ندمهم.

١٥٨ - فأخذهم العذاب بصيحةٍ مصحوبةٍ بصاعقةٍ طاغية لا تُبقي ولا تذر. إنَّ في إهلاك ثمود لَعِبرةً لمن اعتبر بهذا المصير، وما كان أكثرهم - مع هذه الدلائل والآيات - مؤمنين، وصار أكثرهم مرضى القلوب غير ذوي قابليَّة لأن يؤمنوا مستقبلاً، ووصلوا إلى حالة ميؤوسٍ من إيمانهم، وصار إنزال العقاب بهم، ونصر صالح والمؤمنين معه هو الأمر الحكيم.

١٥٩ - وإنَّ ربَّك لَهُوَ القويُّ الغالب المنتقم من أعدائه المكذِّبين، العظيم الرحمة بعباده المؤمنين.

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾ ۞ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾

١٦٠ ـ كذَّبت قومُ لوط المرسلين؛ الذين كان آخرهم إرسالاً إليهم لوط عليه السلام.

١٦١، ١٦٢ ـ حين قال لهم أخوهم في النَّسب لوط: ألا تخافونَ عقابَ الله، فتتركوا الكفر والمعاصي؟ إنِّي لكم رسولٌ أمينٌ على الوحي، معروفٌ عندكم بالأمانة.

١٦٣، ١٦٤ ـ فاجعلوا بينكم وبين عذاب الله وقايةً، بطاعته وعبادته، وأطيعوني فيما آمركم به من التوحيد، وما أسألكم على تبليغ الرسالة من أجرٍ وجزاء، ما ثوابي الذي أستحقُّه إلا على كفالة ربِّ العالمين ممَّا سوى الله تبارك وتعالى من موجودات حاضراتٍ، أو غابراتٍ، أو ستوجد، أو سوف توجد في المستقبل، وهذه الموجودات علامات دالأت على خالقها سبحانه وصفاته الحُسْنى.

١٦٥، ١٦٦ ـ أتأتون الذكور من الناس في أدبارهم، وتتركون مكان الطهارة والنَّقاء الذي خَلَقه ربُّكم في فروج أزواجكم من النساء؟ بل أنتم قومٌ مُتعدُّون في انحرافكم وشذوذكم، مُتجاوزون ما أحلَّه الله لكم من استمتاعكم بأزواجكم إلى ما حرَّمه عليكم.

١٦٧ ـ قال قومُ لوط: نُقْسم لِئَنْ لم تَنْتَهِ يا لوطُ عن إنكارك علينا وتقبيح أمرنا، لتكوننَّ ـ أنت وَمَنْ هو على دينك ـ من المُخْرَجين من قريتنا.

١٦٨ ـ قال لوط: إنِّي لِعَمَلِكُم الذي أنكرتُه عليكم من الكارهين المُبْغضين أشدَّ البغض.

١٦٩ ـ ربِّ أنقذني وأهليَ من العقاب والعذاب الذي سَيَنْزل بهم جزاءَ ما يعملون من العمل الخبيث.

١٧٠، ١٧١ ـ فاستجبنا دعاءَهُ، فَنَجَّيْناه وأهلَ بيته والمُستجيبين لدعوته أجْمَعين، إلاَّ امرأته لم تشاركهم في الإيمان، وبقيت في أرض قومها، فكانت مع الذاهبين الهالكين.

١٧٢، ١٧٣ ـ ثمَّ بعد خروج لوط وأهله من أرض «سدوم»، أهلكناهم أشدَّ هلاك، وأمطرنا عليهم حجارةً مثل حبات المطر الكبرى، من طين مُتَحَجِّر شديد صلب، بتواتر وتتابع، وعموم وشمول لكلِّ أرض قوم لوط، فقبُحَ مطر المُنْذَرين مطرهم، الذين أنذرهم لوط بعذاب الله، فلم يؤمنوا ولم يقلعوا عن فواحشهم.

١٧٤ ـ إنَّ في ذلك العقاب الذي نَزَل بقوم لوط لعبرةً وموعظةً، وما كان أكثرُهم ـ مع تلك العبر والعظات ـ مؤمنين، وصار أكثرهم مرضى القلوب غير ذوي قابليَّة لأن يؤمنوا مستقبلاً، ووصلوا إلى حالة ميؤوس من إيمانهم، وصار إنزال العقاب بهم، ونصر لوط والمؤمنين معه هو الأمر الحكيم.

١٧٥ ـ وإنَّ ربَّك لهو القويُّ الغالب المنتقم من أعدائه المكذِّبين، الدائم الرحمة بعباده المؤمنين.

١٧٦ ـ كذَّب أصحابُ الأرض ذات الشَّجر المُلْتفِّ المرسلين؛ الذين كان آخرهم إرسالاً إليهم شعيب عليه السلام.

١٧٧، ١٧٨ ـ حين قال شعيبٌ لقومه: ألا تخافون عقابَ الله، فتتركوا الكفر والمعاصي، إنِّي لكم رسولٌ أمين على الوحي، معروفٌ عندكم بالأمانة.

١٧٩، ١٨٠ ـ فاجعلوا بينكم وبين عذاب الله وقايةً بطاعته وعبادته، وأطيعوني فيما آمركم به، وأدعوكم إليه، وما أسألكم على تبليغ الرسالة من أجر وجزاء، ما ثوابي الذي أستحقُّه إلا على كفالة ربِّ كلِّ موجود سواه تبارك وتعالى الذي خلق كلَّ الموجودات الكونيَّة، وأمدَّها بعطاءات ربوبيَّته.

١٨١ ـ أتمُّوا الكَيْل والمكيال، ولا تكونوا من الناقصين لحقوق الناس في الكَيْل والوَزْن.

١٨٢ ـ وَزِنُوا بالميزان العَدل السَّويِّ الذي لا بَخْس فيه على مَنْ وزنتم له.

١٨٣ ـ ولا تنقصوا الناس شيئاً من حقوقهم في كيل أو وزن أو غير ذلك، ولا تكثروا في الأرض الفساد؛ بالشِّرك والقتل وقطع الطريق وتخويف الناس، وسائر المُمَارسات الإجراميَّة الظالمة.

وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾

١٨٤ - واحذروا عقاب ربِّكم الذي خَلَقكُم، وخلَقَ الخلائق والأُمَمَ المتقدِّمة عليكم الذين كانوا على خِلْقةٍ وطبيعة عظيمةٍ، فأخذهم الله أَخْذَ عزيزٍ مُقْتدر حين عَتَوْا عن أمره، وأنتم أضعف منهم حالاً! وأهونُ شيءٍ عليه أن يأخذكم كما أخذهم.

١٨٥ - ١٨٧ - قالوا: ما أنت - يا شُعيب - إلا من الذين سُحروا كثيراً حتى غَلَب على عقولهم السحر. وما أنت إلا بَشَرٌ مثلنا، وليس لك من الصفات الشخصيَّة الخارجة عن نظام البشر ما يُؤَهِّلك لأن تكون نبياً تتلقَّى الوحيَ من الله، ونُؤكِّد لك أننا نظنُّك كاذباً من الكاذبين فيما تدَّعيه من النبوّة والرسالة، فإنْ كُنتَ صادقاً في أنك نبيٌّ ورسولٌ أرسلك الله إلينا، فادْعُ الله أن يُسْقط علينا قِطَعَ عذاب من جهة السماء تَسْتأصلنا.

١٨٨ - قال شعيب: ربِّي أعلمُ بما تعملون من نقصانِ الكَيْل والوزن، وغير ذلك من أعمالكم الظاهرة والباطنة التي تستحقُّون بها إنزال العقاب الشامل فيكم، وهو مُجَازيكم بأعمالكم، وليس العذاب إليَّ، وما عليَّ إلا الدعوة والتبليغ.

١٨٩ - فاستمرُّوا على تكذيبهم، فَقَبضَ على جميع كفار قومه قبضاً شديداً قاهراً عذابُ حَرٍّ شديد، فكانوا يدخلون الأسْراب، فيجدونها أحرَّ من ذلك، فيخرجون، فأظلَّتهم سَحَابة، فوجدوا لها برداً ونسيماً، فاجتمعوا تحتها، فأمطرت عليهم ناراً، ورَجَفَتْ بهم الأرض، فاحترقوا جميعاً، إنَّ عذابَ يومهم الخاص بالظُّلَّة التي عمَّت أرضهم ومساكنهم، كان عذاباً عظيماً.

١٩٠، ١٩١ - إنَّ في ذلك العقاب الذي نَزَل بهم، لعبرةً وموعظةً، وما كان أكثرهم - مع تلك العبر والعظات - مؤمنين، وصار أكثرهم مرضىٰ القلوب غير ذوي قابليَّة لأن يؤمنوا مستقبلاً، وإنَّ ربَّك - يا رسول الله - لهو القويُّ الغالبُ المنتقم من أعدائه المُكذِّبين، الدائم الرحمة بعباده المؤمنين.

١٩٢ - ١٩٥ - وإنَّ هذا القرآن في سُمُوِّه وعظمةِ مَعَانيه ومبانيه لَمُنزَّل في كلِّ حروفه وألفاظه ودلالاته من ربِّ العالمين الذي لا ربَّ سواه، وهو خالقهم ومالكهم ومُربِّيهم ومصلحهم وسيِّدهم المطلق. نَزَل به جبريلُ عليه السلام المُؤْتَمن على وحي الله لأنبيائه، على قلبك - يا رسول الله - حتى تعيَهُ وتفهَمه ولا تَنْساه؛ لتكونَ - بعد قيامك بوظائف التبليغ والبيان والإقناع - من المُنْذِرين، بلسانٍ عربيّ واضح ظاهر، وموضح ومُظْهر؛ ليفهموا ما فيه.

١٩٦ - وإنَّ ما جاء في القرآن من حقائق إيمانيَّة، ومبادىء أخلاقية، وشرائع إسلامية، لَمُثْبَتٌ في الكتب الربانيَّة التي أنزلها الله على الأنبياء الأوَّلين.

١٩٧ - ألم يسألوا علماء بني إسرائيل، ولم يكن لهؤلاء المتكبِّرين علامةً ودلالةً على أنَّ القرآن كلامُ الله المُنزَّل على رسوله محمد ﷺ، أن يعلم صدقَ ما نزل في القرآن من قضايا الدين علماءُ بني إسرائيل الذين سألوهم؟!

١٩٨، ١٩٩ - ولو أنزلنا القرآنَ على رجلٍ من الأعجمين لا يقدر على التكلُّم بالعربية، ولا يتصوّر اتِّهامه باختراعه لعُجْمته؛ فقرأه على كفار قريش قراءةً صحيحة، لكفروا به، ولاستكبروا بعُنْجُهيَّتهم العربية عن اتِّباع أعجميّ، مع رفضهم لما اشتمل عليه من حقائق الدين التي تُخالف أهواءَهم وشهواتهم وتقاليدَهُم العمياء. فلا تحزن عليهم - يا رسول الله - ولا تحمل همَّ إيمانهم، لأنهم مستكبرون جُفاةٌ معاندون، وسَيَلقَوْن مصيرهم عذاباً أبدياً في جهنَّم يوم الدين.

٢٠٠ - ٢٠٣ - ومثل إدخال القرآن في قلوب كبراء كفَّار قريش المجرمين دخولَ كفرٍ به، وعداوةٍ له، نُدخله في قلوب سائر المجرمين؛ لأنهم يكرهون الحقَّ والخير، مُتَّبعين أهواءهم وشهواتهم، وهذا من سُنن الله في عباده الناتجة عن اختياراتهم الحُرَّة، لا يؤمنون بالقرآن - مهما عُولجوا وأُمهلوا - حتى يَرَوْا عذاب الله الأليم محيطاً بهم ونازلاً عليهم، فإنهم عندئذ يؤمنون، لكنّ إيمانهم بعد شهود مُقدِّمات العذاب - لا ينفعهم، فيأتيهم عذاب الله فجأة، وهم لا يشعرون بإتيانه، فيقولوا عقب أن يذوقوا أوائلَ عذاب الله لهم: هل نحن مُمْهَلون مُؤَخَّرون قليلاً؛ حتى نؤمن تائبين إلى ربِّنا؟!

٢٠٤ - ٢٠٦ - أغرَّ هؤلاء إمهالي، فيَسْتعجلون عذابنا استهانةً به؟ أفكَّرت في حال هؤلاء المُعَاندين المُكذِّبين، فرأيتَ بفكرك وعلمت، أنَّنا إنْ متَّعناهم في الدنيا عدَّة سنين، ثم جاءهم بعد هذه السنين ما كانوا يوعدون من عذاب؟!

مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾

سُورَةُ النَّمْلِ — ترتيبها ٢٧ — آياتها ٩٣

٢٠٧ - إنهم وإنْ طال تمتُّعهم بمتاع الحياة الدنيا الزائلة الفانية، فإذا أتاهم العذاب الخالد الأبديُّ في الجحيم لم يدفع عنهم طولُ التمتُّع شيئاً من عذاب يوم الدين.

٢٠٨، ٢٠٩ - وما أهلكنا من أهل قرية إهلاكاً جماعياً، إلا بعد أن أرسلنا لهم رسلاً يُنذرونهم بعذاب مُهْلك، فتمرَّدوا واستكبروا، فعُذِّبوا وأهلكوا، ونذكِّر إهلاكنا للكفرة المجرمين الأوّلين تذكيراً بسنَّتنا، فليتوقع المجرمون من الآخرين تحقيق سُنَّتنا فيهم، وما كنَّا بإهلاكنا ظالمين في تعذيبهم حيث أقمنا الحُجَّة عليهم، بل كنَّا عادلين نتصرَّف بكمال الحكمة.

٢١٠ - ٢١٢ - وما تنزَّلت بالقرآن الشياطين على محمد ﷺ، كما زعم المشركون، وما يصلح للشياطين أن ينزلوا بالقرآن، وما يستطيعون أن يؤلِّفوا القرآن من عند أنفسهم، أو أن يَسْترقوا استماعه من ملائكة السماء، إنَّهم عن السمع لمحجُوبون بالرَّمْي بالشُّهب، فلا يَصلونَ إلى استراق السمع.

٢١٣ - فلا تعبد - يا رسول الله ويا كُلَّ داع إلى الله - مع الله معبوداً آخر، فتكونَ من المُعَذَّبين. وإذا كان رسولُ الله وحبيبه المصطفى - المعصوم بعصمة الله - مُخاطَبٌ بعقائد الإيمان وشرائع الإسلام، وغير مَعفيٍّ من أن يكون مُعذَّباً من المعذَّبين لو أنه أشرك فدعا مع الله إلٰهاً آخر. فكيف يكون حال مَنْ دونه من المنهيِّين عن أن يُشركوا بالله شيئاً؟!

٢١٤، ٢١٥ - وأنْذر - يا رسول الله ويا كُلَّ داع إلى الله - الأقْربَ فالأقْربَ من قومك من الذين وَصَلوا إلى دركةٍ ميؤوس معها من إيمانهم عن طريق إراداتهم الحرَّة، وألِنْ جانبكَ وتواضع لِمَن اتَّبَعَك من المؤمنين، ولتكن في تواضعك ورحمتك كطائر يخفض جناحه لفراخه تذلُّلاً ورحمة وحُنُوّاً.

٢١٦ - فإنْ لم يستجيبوا لدعوتك ولم يؤمنوا، ولو كانوا عشيرتك الأقربين، فقل لهم بصراحة لا مداراة فيها ولا مصانعة: إني مُفَارِقٌ ومبتعدٌ ومُتَخَلٍّ عمَّا تصنعون، ولن أدفع عنكم شيئاً من عذاب الله، وقرابتي لن تنفعكُم بشيء.

٢١٧ - ٢٢٠ - وفوِّضْ أمورك إلى مَنْ يَمْلكُ الأمر، ويقْدرُ على النَّفع والضُّر، وهو الله القويُّ الغالب الذي يَقْهَر أعداءك بعزَّتِهِ، العظيم الرحمة الذي يشمل من اعتمد عليه برحمته. وهو سبحانه الذي يراك حين تقوم إلى صلاتك، ويرى تَقَلُّبَكَ قائماً وراكعاً وساجداً وجالساً مع السَّاجدين في صلاتهم معك، إنَّه سبحانه هو السميع لقولك - يا رسول الله - ودعائك، العليم بنيَّتك وعملك.

٢٢١ - ٢٢٣ - هل أُخبركم عن صفات الفئة من الناس الذين تَتَنزَّل عليهم الشياطين؟ تتنزَّل على كلِّ كذَّاب متعمِّد، كثير صرف الأشياء عن وجوهها التي ينبغي أن تكون عليها، كثير ارتكاب الإثم، كالكَهَنة والمُتنبِّئين، وأكثرُهم كاذبون فيما يخبرون عن أوليائهم من الجنِّ؛ لأنهم يخلطون به كَذباً كثيراً.

٢٢٤ - ٢٢٦ - وشعراء الكفار الذين يهجون النَّبيَّ ﷺ، ويقولون فيه الكَذبَ والباطل، ومَنْ كان على شاكلتهم من الشعراء الذين يخوضون في الباطل، ويكذبون ويُمزِّقون الأعراض، وينشرون المَثَالب، ويقدحون في الأنساب، ويُفرطون في المدح والقدح، يجتمع إليهم غواة قومهم، ويروون شعرهم، ويَسْتحسنون قبائحهم، ويُحسنون إليهم، ألم تَرَ - أيها المتفكِّر - أنَّهم في كلِّ وادٍ من أودية الضلال يذهبون على وجوههم حائرين، وعن طريق الحقِّ حائدين، وأنَّهم يكذبون في شعرهم، فيقولون في حاضرهم ومستقبلهم ما لا يفعلون؟

٢٢٧ - لكنَّ شعراءَ المسلمين الذين اتَّصفُوا بالإيمان الصَّادق، وعملوا الصَّالحات المعبِّرة عن صدق إيمانهم، وذكروا الله كثيراً، فلم يَشْغَلهم الشِّعرُ عن ذكر الله، وانتصروا لأنفسهم بالعدل، إذا ظُلموا بهجاء أو بغيره، وانتصروا لدينهم بالردِّ على هجاء المشركين، وسيعلم الذين ظلموا أنفسهم بالطعن في دين الله، أو بالطعن في رسوله والمؤمنين أيَّ مرجع يرجعون إليه؟! سينقلب حالهم من القوة والسلطان والأمن إلى الضعف والذلة والخوف والعذاب.

سُورَةُ النَّمْلِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْأَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِي ٱلْأَخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٥﴾ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨﴾ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾

١ - ﴿طسٓ﴾ سَبَقَ الكلام على الحروف المقطَّعة في أوَّل سورة البقرة.
تلك الآيات الرفيعة المنزلة، العالية الرتبة آياتُ القرآن الدالاَّت على كونها مُنزَّلات من عند الله، وأنَّ محمداً نبيُّ الله حقاً وصدقاً، وآيات كتابٍ واضح ظاهر، مُوضح مُظْهر، مطلوبٌ من المؤمنين أن يقرؤوه من صحف يكتبونها تلقياً من الرسول ﷺ، وأن يُدوِّنوه في كتاب خاصٍّ به.

٢، ٣ - هو هُدىً من الضَّلالة، وبُشْرى للمؤمنين المُصدِّقين به بالفوز بالجنة، الذين يقيمونَ الصَّلاة بشرائطها، ويواظبون على أدائها، ويُعطون الزكاة إذا وَجَبَتْ عليهم طيِّبةً بها أنفسهم، وهؤلاء الذين يعملون الصَّالحات هم المؤمنون بالآخرة وما فيها من جزاء، إيماناً جازماً لا يخالطه ولا يعتريه شكٌّ.

٤ - إنَّ الذين لا يؤمنون بالآخرة معاندين ومكابرين، جمَّلنا وحسَّنا لهم أعمالهم القبيحة بمُقْتضى سُنَّتنا التكوينيَّة التي تجري على البرِّ والفاجر، فرأوْها حسنة، جالبةً لهم لذَّات من متاع الحياة الدنيا، فانطمست بسبب كفرهم العنادي بصائرهم، فهم في سعيهم في حياتهم الدنيا يتردَّدون مُتحيِّرين متخبِّطين سائرين على غير هُدى.

٥ - أولئك البُعداء عن رحمة الله الذين لهم أشدُّ العذاب في الدنيا بالقتل والأسر، وهم في الحياة الآخرة بعد البعث أشدُّ الناس خسراناً، خسروا أنفسهم وأهليهم، وصاروا إلى عذاب النَّار.

٦ - وإنَّك - يا رسول الله - لتتلقَّى القرآنَ وحياً بعناية تامّة، حرفاً فحرفاً، وكلمةً فكلمة، وآيةً فآية، من عند الله العظيم الحكمة الذي يضع الأشياء مواضعها، الواسع العلم الذي يحيط بكلِّ شيءٍ علماً.

٧ - ضع في ذاكرتك - أيها المتلقِّي لهذا البيان - حين قال موسى وهو عائد بأهله من «مَدْين» إلى «مصر»: إنِّي أبصرت من بُعدٍ ناراً، فأنا ذاهبٌ إلى جهتها، وسائلٌ أهلها عن أخبار الطريق إلى «مصر»، وأرجو أني سآتيكم من عند أصحاب النار بخبرٍ عن الطريق الذي يُوصلنا إلى «مصر»، أو آتيكم بشعلةِ نارٍ؛ رجاءَ أنْ تَسْتدفئوا بها من البرد.

٨ - فلمَّا جاءَ موسىٰ المكان الذي رأى النارَ تشتعل فيه، ناداهُ الله تعالى بأنه ثَبَتَ واستقرَّ وكَثُرَ خَيْرُ مَنْ في مكان النار من الملائكة، وموسى والملائكة الذين حَوْل النار، وتنزَّه اللَّهُ خالق العالمين ورازقهم ومالكهم ومُربِّيهم عن كلِّ سوء ونقص ومُمَاثلةٍ للحوادث.

٩ - ١١ - يا موسىٰ إنَّ الشأن العظيم الجليل الذي أُطالبك بأن تدركه، أنْ تؤمن بأني أنا الله القويُّ الغالبُ، ذو الإرادة الحكيمة النافذة، فلا تُفارق مشيئتي المُطلقة حكمتي في تصاريفي، وادفع عَصَاكَ إلى الأرض دفعةً واحدة؛ لتعلم معجزتك فتأْنَس بها، فألقاها، فلمَّا رآها موسى عليه السلام تتحرَّكُ وتَضْطرب، كأنها في شدَّة حركتها واضطرابها مع عِظَم جثّتها: حيَّةٌ سريعة الحركة، انصرف مُبتعداً، وأدار ظهره، ولم يرجع ويلتفت. قال الله تعالى: يا موسى لا تَخَف، وكُن آمناً فلن يُصيبك مكروه من هذا الثعبان الذي يسعى ويهتزُّ بقوة ونشاط وسرعة حركة؛ إنِّي لا يخاف لديَّ المُرسلون إذا أمَّنتهم، لكن مَنْ ظلم بمخالفة أمري أو نَهْيي، فإنَّه يخاف عقابي، فإنْ تاب وجاء بعملٍ فيه حُسنٌ من بعد عملٍ فيه سوء، فإني كثير السَّتْر، واسع الرحمة بعبادي المؤمنين، أشملهم بعطاءات رحمتي دواماً.

١٢، ١٣ - وأدْخل يَدَكَ اليمنى في فتحةِ قميصك من جهة الرأس، وضعها تحت عَضُدك الأيسر، وأخرجها تخرج بيضاء تبرق مثل شعاع الشمس من غير بَرَص، خذ هاتين الآيتين: آية العصا التي تنقلب ثعباناً، وآية اليد التي تخرج بيضاء من غير سوء، في جملة تسع معجزات، قدَّرت منحك إيَّاها، دليلاً على أنك رسولي، وأنك صادق فيما تبلِّغ عني، أنت مُرسَلٌ بهنَّ إلى فرعون وقومه؛ إنَّهم كانوا قوماً خارجينَ عن الطاعة. وهذه الآيات التسع قد سبق بيانها، وهي: العَصَا، واليد، والطُّوفان، والجراد، والقُمَّل، والضَّفادعُ، والدَّم، وسنوات الجَدْب والقحط والنقص من الثمرات، وآية الرِّجز، وهو عذاب أنزله الله بفرعون وملئه كأمراض وأوجاع لا عهد لهم بمثلها. فلمَّا جاءتهم آياتُنا الخوارقُ التِّسعُ كلُّها بيِّنةً واضحةً مُضيئةً مُبصِّرةً لهم بأنَّ موسى رسولٌ من ربِّ العالمين. قالوا: هذا الذي نراه سحرٌ واضحٌ ظاهر.

وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴿١٩﴾ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾

١٤ ـ وأنكروا الآياتِ ولم يُقرُّوا أنَّها من عند الله بألسنتهم، واسْتَيْقَنُوها بقلوبهم وضمائرهم، ظلماً للآيات حيث أنزلوها عن منزلتها الرفيعة وَسَمَّوْهَا سحراً، وترفُّعاً واستكباراً عن أن يؤمنوا بما جاء به موسى. فانظر ـ أيُّها المُؤَهَّل للنظر التفكُّري في آثار المُهلكين السابقين ـ كيف كان مصير الذين دَأبوا على الفساد؟ أغرقهم الله في البحر.

١٥ ـ ونقسم مؤكِّدين أننا أعطينا داودَ وابنه سُليمان عليهما السلام علماً كثيراً بالشَّريعة والقضاء والسياسة، وقالا: الحمدُ لله الذي فضَّلنا بالنبوَّة والكتاب والمُلْك وتسخير الجنِّ والإنسِ على كثيرٍ من عباده المؤمنين ممَّن لم يُؤتَ مثلَ ما أُوتينا.

١٦ ـ وَوَرِثَ سليمانُ أباه داود في النُّبوَّة والعلم والمُلك والحكمة الإداريّة والسياسيَّة دونَ سائر إخوته، وقال سُليمان في خطبة مَلَكيَّةٍ خطبها: يا أيُّها الناس عُلِّمنا فهم لغة الطير، وآتانا الله من فضله مِن كلِّ شيءٍ ممَّا يُؤْتاه الملوك من مال وسلطان وجُندٍ في ظروف الحياة الدنيا، ومن كلِّ شيءٍ طلبناه ورغبنا فيه. إنَّ هذا الإحسان بالعطاء لَهُوَ الإحسان الواضح الجليُّ.

١٧ ـ وجُمِعَ لسُليمان جنودُه من نوع الجنِّ والإنس وأصناف الطيور من الأماكن المختلفة في مسيرٍ له، فهم لكثرتهم العظيمة يُجمَعُون في مكانٍ جامع، ويُرتَّبون صفوفاً، ويُسَوَّوْن للقيام منتظمين بما يُكلَّفونه من الأعمال.

١٨ ـ فسار سليمان بجنوده الكثيفة يجتاز أرضاً فأرضاً، حتى إذا أشرفوا على وادي النَّمل، قالت نملةٌ: يا أيُّها النَّمل ادْخُلوا مَسَاكِنَكم، لا يُكسِّرنَّكم سليمانُ وجنودُه، دون اكتراث ولا التفات، ولو لم تدخلوا وطؤوكم ولم يشعروا بذلك، فهم لشدَّة عدلهم وفضلهم لا يقتلون نملةً فما فوقها بغير وجه حقٍّ إلا إذا وقع منهم ذلك بدون قصد ولا أدنى علم. وفي كلام النملة إشعار باهتمامها بأمور جماعتها، باعتبارها واحدة من هذه الجماعة، وكان بوسعها أن تختفي في مكان أمين، وتدع بني جنسها من النمل وشأنهم، ولكنها لم تفعل ذلك، بل قامت بتحذيرهم مع بيان وجه هذا التحذير، مما يدلُّ على شعورها بالمسؤولية نحوهم، وأن الواجب عليها أن تحرص على نجاتهم ودفع الشرِّ عنهم، كما تحرص على نجاة نفسها ودفع الشرِّ عنها.

١٩ ـ فتبسَّم سُليمانُ ضاحكاً ممَّا دلَّ عليه قولُ هذه النَّملة لإدراكها وحرصها على أمتها، ولظهور رحمته ورحمة جنوده وشفقتهم، وسروره بما آتاه الله من إدراك سمعه ما قالته النملة، وقال داعياً: يا ربِّ ألهمني واجمع نفسي وقلبي وإرادتي لأنْ أشكر نِعمتَكَ التي أنعمتَ عليَّ بالنبوَّة والعلم والملك، وعلى والديَّ، التي تجري آثارها إليَّ، ووفِّقني لأنْ أعمل الأعمال الصَّالحة التي ترضاها مني، وترضى بها عنِّي، والتي تُعبِّر عن الشكر القلبي لنعمتك عليَّ، وأدخلني برحمتك في جُملة عبادك الصَّالحين، وأثبت اسمي مع أسمائهم، واحشُرني في زمرتهم.

٢٠ ـ وطلب سُليمان في إحدى مُهمَّاته في جنده ما فَقَد من الطَّير، فلم يَرَ قائدَ طيورِ الهُدهد، فقال: ما الأمر الذي حصل لي حالة كوني لا أرىٰ الهُدْهُد؟ أَهُوَ حاضرٌ بيننَا ولم يقع عليه بصري بين الطيور، أم أنه كان من الغائبين عني، فلم أره لغيبته؟ وفي الآية: عنايةُ سليمان عليه السلام برعيَّته، وتفقُّدهم وعدم إهمالهم، والذي يُعنى بتفقُّد الطير، لا يفوتُه أن يتفقَّد ما هو أهمُّ منه، وذلك استقْصاء كاملٌ في رعاية نواحي الدولة، والعناية بأمرها. وفي الآية: يقظة سُليمان العجيبة، وفطنته الحسَّاسة؛ إذْ يفطن إلى غياب هُدهُد، وَسَط هذه الألوف من الخلائق المحشورة له، وهو مَثَل أعلى في اليقظة يَنْصبه اللَّه عزَّ وجل، ليحتذيَهُ كل مَنْ وَلِيَ من أمور المسلمين شيئاً، ليكون مُتعهِّداً لشؤون رعيَّته صغيرها وكبيرها، حازماً في مُحاسبة المسؤولين، فإنْ لم يكن كذلك انحلَّت قوىٰ الدولة، وانفرط عِقْدُها.

٢١ ـ فلما علم أنَّ الهدهد غائبٌ عنه، غضب من غيابه، وقال متوعِّداً مُهَدِّداً الهدهد بإحدى عقوبتين شديدتَيْن: أقسم بالله لأعذبنَّ هذا الهُدْهُد على غَيْبته عذاباً مؤلماً شديداً، أو لأَذْبحنَّه؛ ليكون موعظةً لسائر الجند، وتأديباً وتربية لهم، أو أعفيه منهما إذا قدَّم حُجَّةً واضحة تُبيِّن عُذْره في غيابه. وفي الآية بيان أنَّ القائد الحكيم يرى لكلِّ جنديٍّ عمل لا يُؤدِّيه غيره، فإذا غاب أو أهمل، اختلَّ التناسق في العمل، وأدركه الاضطراب والخلل، ومن هنا يعظم في صدر القائد الحسَّاس، ما يقع من جرائم الغياب أو التقصير، فيكون حازماً في مؤاخَذَة أصحابها مُؤاخَذَة تحمل العذاب الشديد، وتمتدُّ إلى الإعدام. وقد اختار الله عزَّ وجلَّ لنا من يقظة سليمان هذا المثال، ليعلمنا أنَّ الذي يهتمّ بصغار الأمور هذا الاهتمام، يكون بكبارها أشدُّ رعاية واهتماماً، وأن الذي يُحاسب الحساب العسير الحازم على ما قد يبدو هيِّناً، لا يمكن أن يُفرِّط في المؤاخذة على الأخطاء الجسيمة

٢٢ ـ فلزم الهُدْهُد مكانه مُتمهِّلاً منتظراً غير بعيد عن مكان سُليمان، ثمَّ جاء إلى سليمان، فقال له: علمتُ بأمرٍ على وجْهِ الإحاطة به، =

إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّيٓ أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَيَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِيٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾

= لم تُحط أنت به، وجئتك من بلدة «سبأ» باليمن بخبرٍ ذي شأنٍ عظيم، حقٌّ لا شكَّ فيه، يَسْتَنِدُ إلى إدراكٍ حسّيٍّ.

٢٣ ـ إنّي وَجَدتُ أهل «سبأ» يخضعون لسلطان امرأةٍ ملكةٍ عليهم تحكمهم، وَأوتيَتْ من كلِّ ما تحتاج إليه الملوك من المال والقصور والخدم والجنود والقُوى، ولها سريرٌ فخمٌ عال.

٢٤ ـ وجدتُها هي وقومَها يعبدونَ الشّمس، فيسجدون لها، مُعرضين عن عبادة الله. وحَسَّنَ لهم الشيطانُ أعمالهم بالإغراء والوساوس، فصرفهم ومنعهم عن سلوك طريق الحقّ المستقيم، فهم لا يهتدون بأنفسهم إلى سلوك سبيل الله الحقّ الذي يُؤدّي بسالكه إلى خير دنياهم، وسعادة آخرتهم.

٢٥ ـ زيّن لهم الشّيطان أعمالهم؛ لأجل ألاّ يسجدوا لله الذي يُخرج الخفيَّ المُخَبَّأ في السّموات والأرض كائناً ما كان، من إنزال المطر وإنبات النبات، وخواصِّ الموجودات، التي يهدي إليها مَنْ يشاء من عباده، ويعلمُ ما تُسِرُّون ـ أيُّها الناس ـ وما تُظهرون.

٢٦ ـ لا يستحقُّ العبادة إلا مَنْ هو قادرٌ علىٰ مَنْ في السّموات والأرض، عالمٌ بجميع المعلومات، وهو الله خالق كلِّ شيء، لا معبود بحقٍّ سواه، هو ربُّ العرش العظيم، الذي هو أكبر من السموات والأرض.

٢٧ ـ لم يأخذ سليمان اعتذار الهُدهُد قضيَّةً مُسلَّمة، بل وضعها موضع التَّحقيق والتثبُّت، قال: سَنَنْظُر أصَدَقْتَ فيما أخبرتَ عن أهل سبأ وملكتهم أم كُنتَ من الكاذبين؟

٢٨ ـ احمِل كتابي هذا، واذْهَب به إلى أهل «سَبَأ»، وترقّب اجتماع ملكتهم بملئها وقادتها، فارمِهِ إليهم وهم مجتمعون، ثم تَنَحَّ عنهم، فقف قريباً من مجلسهم، فاعلم ما الذي يَرجعونه من رأيٍ أو تدبير على ما جاء في كتابي إليهم؟

٢٩ ـ ذهب الهُدهُد، وألقى الكتاب إلى الملكة، فقرأته، فجمعت أشراف قومها، وسمعها تناديهم باهتمام بالغ: يا أيُّها الأشراف وأركان المملكة ومجلس الشورى الذين أستشيرهم في المهمّات: إنّي أُلقي إليَّ كتابٌ شريفٌ مختوم، من شخص عظيم الشأن.

٣٠ ـ إنَّ هذا الكتاب من سُليمان، وإنَّه مفتتح بـ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

٣١ ـ اعلموا أنَّ الشيء العظيم الذي أوجِّهه إليكم يا أصحاب المُلْك والسُّلطان في «سَبَأ»: لا تستكبروا عن الخضوع لسلطاني، ولا تمتنعوا من إجابتي، وَأْتوني طائعينَ مُسْتَسْلمين.

٣٢ ـ قالت: يا أيُّها الأشراف وأركان المملكة الذين تملؤون عيون العامة مهابة وإجلالاً، أبينوا لي ما تَرَوْن من رأي سديد بشأن هذا الأمر الخطير، الذي فرضه علينا الملك العظيم سليمانُ، ما كنتُ مُضدرةً أمراً مُهمّاً من أمور الدولة حتى تكونوا حاضري مجلسي، وحتى تُقدِّموا ما عندكم من مشورةٍ حول الرأي الصواب الذي تَرَوْن، وبعد ذلك أُصدر ما أراه من قرارٍ فيه خير الدولة ومصلحة الشعب.

٣٣ ـ قال أهل مشورة ملكة سبأ مُجيبينَ لها: نحنُ أصحابُ قوّةٍ قادرةٍ علي الدفاع، رجالاً وسلاحاً وعَتاداً، ونحن أصحاب قتال شديد عند الحرب، والأمرُ مفوَّضٌ إليك ـ أيَّتُها الملكة ـ في القتال وتركه. فانْظُري بفكرك الثاقب، وتدبَّري بحكمتك ماذا تأمرين؟ تجدينا مطيعين لأمرك.

٣٤ ـ قالت بلقيس مُجيبة لهم: إنَّ من عادة الملوك أنهم إذا دخلوا بجيوشهم قريةً من القرى عنوةً وقهراً أفسدوها، بتخريب مبانيها ومنشآتها، وتحطيم أشجارها ومزارعها، والاستيلاء على خيراتها، وأهانوا أشرافها وكبراءَها؛ كي يستقيم لهم الأمر، وهذه عادتهم المُستمرَّة التي لا تتغيَّر في كلِّ زمان ومكان.

٣٥ ـ وإني مُرسلةٌ إلى «سُليمان» ورجال دولته بهدية نفيسة، أُصانعُهُ بها على مُلكي، وأختبره بها: أَمَلِكٌ هو أم نبيٌّ، فمترقِّبةٌ ومنتظرةٌ بأيِّ شيء يرجع المرسلون الذين أرسلهم إلى سليمان بالهدية، فإن كان مَلِكاً قَبِلَ الهدية ورجع، وإن كان نبيّاً لم يقبل الهدية ولم يرضَ منا إلا أن نتّبعه في دينه. وفي الآية: فطنة بلقيس، وتوقُّد ذكائها، في تريُّثها، واختبار حقيقة سليمان، فإنها لم تحاول أن ترشوَه بالمال، وإنما حاولت أن تختبر حقيقته، فإن كان ممن يعملون للمال فقد أسكتته الهدية، ورضي بما يدفع له من خراج، وإذا كان من أرباب الإيمان بما يدعوها إليه في خطابه، فسوف يردُّ الهدية، ولا يقبل إلا القتال. فإذا تبيَّن لها ذلك، كان حقاً عليها ـ وهي العاقلة الذكيَّة ـ أن لا تتردَّد في مبايعة هذا الحاكم المؤمن.

فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾ قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾

٣٦ ـ فلمَّا وَصَل وفدُ الملكة بالهديَّة إلى سُليمان، قال مُستنكراً ذلك متحدِّثاً بِنِعَم الله عليه: أتُمدونني بمالٍ؟ فما أعطاني الله من النبوَّة والحكمة والمُلْك أفضلُ ممَّا آتاكم، بل أنتم بهديتكم تفرحون فرح سرور، ظانِّين أنها تُرضيني، فتكفُّني عن القدوم بجندي إلى بلادكم، وضمِّها إلى ملكي.

٣٧ ـ وقال سليمان عليه السلام لأمير الوفد: ارجع إلى بلقيس وقومها بما أتيتَ به من الهدية، فوالله لنأتينَّهم بجنودٍ لا قُدرة لهم على مقاتلتها ومقاومتها، ولنُخرجنَّهم من أرض «سبأ» أذلةً، وهم مُهانون بالأسر والاستعباد. وقررت «بلقيس» أن تطيع أمر سليمان، وأن تأتي إلى عاصمة مُلكه في القدس.

٣٨ ـ وعلم سليمان بما عزمت أن تفعله «بلقيس» من طاعته والقدوم إليه، وبينما كان رَكْبها في طريقهم إليه، أراد أن يُحدث آيةً تدهش القوم، وتلين قلوبهم للإيمان، قال سليمان مخاطباً أهل مجلسه: يا أيها الأشراف، أيُّكم يأتيني بسرير مُلكها العظيم من «سبأ» في اليمن إلى قصري في بيت المقدس قبل أن يأتوني خاضعين منقادين؟

٣٩ ـ قال ماردٌ قويٌّ من الجنِّ: أنا آتيكَ بسرير مُلكها قبل أن تقومَ من مجلس قضائك، وإنِّي على حَمْله لَقويٌّ، وإني على جواهره ونفائسه لأمينٌ.

٤٠ ـ قال الذي عنده علمٌ خاصٌّ من الكتاب لسليمان: أنا آتيك بهذا العرش خلال زمن يُعادل ردَّ جَفْنيك إلى الإطباق بعد انفراجهما، فأذن له سليمان، فدعا الله، فأتى بالعرش، فلمَّا رأى سليمانُ عليه السلام العرش مُحَوَّلاً إليه من مأرب إلى الشام، ومستقراً على قوائمه، ومُهيَّأً للجلوس عليه، قال مُبيِّناً فضل الله عليه: إحضار عرش بلقيس لي، كلمح البصر، هو من فَضْل ربِّي عليَّ؛ ليمتحنني: أأشكُر نعمته عليَّ، أم أكفر فلا أشكرها، ومَنْ شَكَر فإنما يعود نفع شكره إليه؛ لأن الله عزَّ وجلَّ يُكافئه على شكره بمزيدٍ من نعمه في الحياة الدنيا، وبأجر عظيم في الآخرة، ومَنْ كفر جاحداً نِعَم ربِّه عليه، فإنَّ ربِّي غنيٌّ بذاته وصفاته عن شكره، لا يضرُّه ذلك الكفران، بل يضرُّ نفسه، جوادٌ كَريم يُمْهل عباده رغبةً في أن يتوبوا ويصلحوا، فلا يُعجِّل لهم عقوباته.

٤١ ـ قال سليمان عليه السلام لحاشيته: غيِّروا سرير مُلكها الذي تجلس عليه تغييراً يجعلُها تُنكره إذا رأته، مع المحافظة على سائر صفاته؛ نختبر ذكاءها وقوة ملاحظتها وانتباهها إذا حضرت وأريناها إيَّاه: أتهتدي إلى أنَّه عرشها مع تغيير فيه، أم تكون من الذين لا يهتدون إلىٰ معرفته؟

٤٢ ـ فلمَّا جاءت ملكة «سبأ» إلى سليمان في مجلسه، قال لها رئيس لجنة المرافقين التكريميَّة: أهذا كرسيُّ مُلكِكِ؟ فقالت لكمال التشابه: كأنَّه هو، بينه وبين عرشي تَشَابهٌ كبير إلا أنه غير مطابق له، فعرف سليمان كمال عقلها، وتوقُّد ذكائها، بحيث لم تُقر ولم تُنكر، فلم تقل: إنه هو، لأنها تركته وراءها في بلادها، والمسافة بعيدة، ولكنها في الوقت نفسه لم تقل: ليس عرشي، لأنها تراه بكثير من معالمه وصفاته. فخرجت من هذا السؤال المحرج، بهذه الإجابة الكيِّسة اللبقة، التي ما كان يصلح للموقف غيرها، ثم قالت: وسبق أن أُوتينا العلم من قبل المُشاهدة البصريَّة، بعظمة مُلك سليمان، وأنه مُؤيَّد بما لم يُؤيَّد به مَلِكٌ آخر، وكنا من قبل حضورنا إلى مملكته، ومشاهداتنا مُستسلمين منقادين خاضعين.

٤٣ ـ ودعاها رئيس لجنة استقبالها إلى الإسلام والدخول في دين سليمان، وصرفها عن الاستجابة للدعوة إلى توحيد الله وعبادته، إنَّها كانت من قومٍ يعبدون الشمس، فنشأت مشدودة إلى قومها بالعصبيَّة، والاعتزاز بهم، والانتصار لهم، ولو كانوا على باطل أو خطأ ظاهر.

٤٤ ـ قال لها رئيس لجنة التكريم: ادْخُلي قصر سليمان العظيم العالي الذاهب ارتفاعاً في السماء، فلمَّا رأت أرض ساحته الداخليَّة توهَّمت أنه ماء كثير ذو موج، وكشفت ثوبها الساتر إلى قدميها عن ساقيها؛ لئلا يبتلَّ بالماء أسفل ثوبها. قال سليمان عليه السلام: إنه صحنٌ أملس من زجاج صافٍ وليس بماء، وقالت مُعلنةً توبتها، بعد أن بلغ الدَّهش منها مبلغه الأقصى، وتفجَّر من أعماقها الرُّشد وكمال العقل: ربِّ إنِّي ظلمتُ نفسي بعبادة غيرك، وانقدتُ مع سليمان مُصاحبةً له في إسلامه لله خالق العالمين ورازقهم ومالكهم ومُربِّيهم والمُمد لهم بعطاءاته ورعايته وحفظه، مُخلصةً له سبحانه التوحيد والعبادة.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾

٤٥ ـ ونقسم مُؤكِّدين لكم، أننا أرسلنا إلى ثمودَ أخاهم في النَّسب صالحاً، بأنْ وحِّدوا الله، ولا تشركوا بعبادته شيئاً، فأدّى صالح رسالة ربِّه، ونَصَح قومَه، وبيَّن لهم الحقَّ الربَّاني، فكانت المفاجأة أن آمن به واتَّبعه فريقٌ منهم، وكذَّبه وكفر بما جاء به عن ربِّه فريقٌ، وشرَع الفريقان يختصمون، فيخاصم أفرادُ هذا الفريق المؤمن، أفرادَ ذلك الفريق المكذِّب الكافر.

٤٦ ـ قال صالح لكفَّار قومه بعد مسيرته الدعويَّة الطويلة معهم: يا قوم لِمَ تَسْتعجلون بطلب ما أنذرتكم به من عذاب ربِّكم وإهلاككم إهلاكاً مُدمّراً، قبل أن تستوفوا حظوظكم الحَسَنة التي قضى الله أن تستمتعوا بها في الحياة الدنيا؟ إنَّ ربكم يُمهلكم رغبةً في توبتكم واستغفاركم، هلاَّ تستغفرون الله بالتوبة إليه من الكفر؛ راجين أن يشملكم برحمته، فيغفرَ لكم ذنوبكم، ويرفعَ عنكم ما تستحقُّون من عقاب على ما سبق منكم من كفر وجرائم.

٤٧ ـ قال قوم صالح له: تَشَاءَمْنا بك وبمَنْ آمنَ معك، حيث توالَتْ علينا الشَّدائد منذ جئتَ بما جئتَ به.

قال لهم صالح: عملكم انطلق طائراً، فصار عند الله علماً وتسجيلاً وحساباً، وهو السببُ الذي من أجله أنزل الله بكم من البأساء والضرَّاء ما تكرهون، رغبةً في أن تتوبوا إليه؛ ليكشف عنكم ما أنزل بكم من مصائب، فلا شؤم منّي ولا من الذين آمنوا بي واتَّبعوني، بل أنتم قوم تُخْدَعون بالباطل، فتستجيبون لوساوس الشيطان وإغراءاته وتسْويلاته، فتضلّون عن إدراك الحق والاستمساك به، والعمل بما يقتضيه منكم من سلوك صراط الله المستقيم.

٤٨ ـ وكان في مدينة ثمود ـ وهي «الحِجْر» الواقعة في شمال غرب جزيرة العرب ـ تسعة رجال من أبناء أشرافهم، يفسدون في الأرض بالمعاصي، ولا يكون منهم صلاحٌ ولا إصلاحٌ ما، في كلِّ أعمالهم وتصرُّفاتهم.

٤٩ ـ قال هؤلاء الأشقياء التسعة بعضهم لبعض: ليقسم كلٌّ منَّا بالله، فأقْسموا قائلين: لنأتينَّ صالحاً بَغْتَةً في الليل، فنقتله ومعه أهله في داره، في وقتٍ لا يرانا فيه أحد، ثم لنقولنَّ لوليِّ دمه الذي يُطالب بالثأر: ما حَضَرنا مهلكَهُ ولا مَهْلك أهله، ونؤكّد صدقنا في أننا ما شهدنا مهلكهم حَدَثاً ولا زماناً ولا مكاناً.

٥٠ ـ ودبَّروا تدبيراً سيِّئاً في خَفَاء لإهلاك صالح وأهله معه ليلاً، ودبّرنا لصالح ومَنْ آمن معه تدبيراً محموداً، وجازَيْناهم على مكرهم بتعجيل العذاب، وهم لا يعلمون أقلَّ علمٍ بتدبير الله عزَّ وجل.

٥١ ـ فانظر ـ أيُّها المُتلقِّي المتفكِّر ـ نظرة اعتبار إلى عاقبة غدر هؤلاء الأشقياء التسعة بنبيِّهم صالح؟ أنا أهلكْناهم وكفَّار قومهم أجمعين إهلاكاً مصحوباً بعذاب شديد.

٥٢ ـ فتلك مساكنهم الباقية من آثارهم في مدائن صالح، حالة كونها خاليةً منهم ومن أيِّ ساكن من الناس؛ بسبب ظلمهم وكفرهم، إنَّ في ذلك الإهلاك التدميريِّ الجماعيِّ لعلامةً واضحة على عدل الله وجزائه، موجَّهة لقوم يعلمون سنَّتنا في عبادنا، وحكمتنا في تصاريفنا، وعلمهم يدفعهم إلى الالتزام بطاعتنا، واجتناب نواهينا.

٥٣ ـ وخلَّصنا من الإهلاك التَّدميريِّ الذي حَلَّ بثمود صالحاً عليه السلام، والذين آمنوا من قومه، وكانوا يتَّقون عقاب الله بفعل أوامره، واجتناب نواهيه.

٥٤ ـ واذكر ـ أيُّها المُتلقِّي لآيات الله ـ رسولنا لوطاً حين قال لقومه أهل «سدوم»: أتأتون الفعلة القبيحة، تستعلنون بها، ويبصر بعضكم بعضاً لدى ممارستها، استمتاعاً بما تشاهدون؟!

٥٥ ـ أإنَّكم لتأتون الرجال في أدبارهم للشهوة عِوَضاً عن النساء؟ بل أنتم قوم تُضيفون إلى مُمارساتكم الشاذّة، غلياناً غَضَبياً ضدَّ من ينكر عليكم، وتسافُهاً وشتائم تُوجِّهونها له، فأنتم بهذا تجهلون بتكرار آناً فآناً، وتتفاقم الجهالات الصَّادرة عنكم شدَّةً وعُنفاً.



﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾﴾

٥٦ ـ فما كان ردّ قومه في آخر مسيرة «لوط» الدعويّة إلاّ قولَ بعضهم لبعض: أَخرِجوا لوطاً وأتباعه من مُجَمَّعكم السكني؛ لأنهم أناسٌ يتنزَّهون دواماً عن مشاركتنا فيما نفعل من إتيان الذكران، ويُشدِّدون في التلويم علينا، فطريقتهم مخالفة لطريقتنا، ووجودهم بيننا ينغِّص علينا ملذَّاتنا وشهواتنا!!

٥٧ ـ فخلَّصنا لوطاً وأهله من العذاب الواقع بالقوم، إلا امرأته قَضَيْنا عليها بأنْ جَعَلناها من الباقين في أرض قومها، الذاهبين في الهلاك والعذاب؛ لأنها كانت عوناً لقومها على أفعالهم القبيحة، راضية بها.

٥٨ ـ وأمْطرنا عليهم من السماء حجارةً مثل حبَّات المطر الكبرى، من طين مُتَحجِّر شديد صلب بتواتر وتتابع وعموم وشمول لكلِّ أرض قوم لوط، فَبِئْس مطرُ المُنْذَرين الذين أنذرهم لوط بعذاب الله، فلم يَقْبلوا الإنذار ولم يقلعوا عن الفواحش.

٥٩ ـ قل ـ يا رسول الله ويا كلَّ داع إلى الله ـ: الحمدُ لله وحده على هَلاَك كفار الأمم الخالية، وقل: سلامٌ وأمنٌ وتحيَّةٌ على جميع الأنبياء والمرسلين الذين حملوا لواء الدعوة إلى التوحيد، والأمر بعبادة الله وحده، والنهي عن الإشراك به. واسأل ـ يا رسول الله ـ مُشْركي قومك: آللّهُ خيرٌ لِمَنْ عَبَدَه أم الأصنام لِمَنْ عبدها؟ فإنَّ الله خيرٌ لِمَنْ عَبَدَه وآمنَ به، لإغنائه عنه من الهلاك، والأصنامُ لن تُغْنِ شيئاً عن عابديها عند نزول العذاب.

٦٠ ـ واسألهم ـ يا أيُّها المُناظر الداعي إلى الله ـ: بل مَنْ الذي خَلَق السَّموات والأرض، وأنزل لأجلكم من السماء المطر، فأنْبَتَ بعَظمة ربوبيَّته لهم به بساتينَ ذات مَنْظَر حَسَن ونَضارة وجمال؟ لا تقدرون على إنبات شجرها؛ لأنَّ إنبات الحدائق المختلفة الأصناف والطعوم والروائح المختلفة تُسقى بماءٍ واحد، لا يَقْدر عليه إلا الله تعالى. هل مع الله معبودٌ أعانه على صنعه؟ ليس معه إلهٌ ولا شريك، بل هؤلاء المشركون يعدلون عَمْداً عن طريق الحقِّ الظاهر والهدىٰ إلى سُبُل الباطل والضلال البيّن، ويفترون على الله، فيتَّخذون له شريكاً مُعادلاً له في صفات ربوبيَّته، ويسَوُّون به غيرَهُ في العبادة والتعظيم.

٦١ ـ بل مَنْ هذا العظيم القدير الذي دحَىٰ الأرض وسوَّاها صالحةً للاستقرار عليها؟ ومَنْ هذا العظيم المُتْقِنُ الذي جعل بتدبيره خلال الأرض أنهاراً؟ ومَنْ هذا العظيم المُتْقن الحكيم المدبِّر القدير، الذي جعل للأرض جبالاً ثوابت تُمسكها من التحرُّك والاضطراب؟ ومَنْ هذا العظيم الجليل، المُتْقن الحكيم الذي جَعَل بين البحر العَذْب والبحر المالح مانعاً، يمنع من امتزاج أحدهما بالآخر؟ أمعبودٌ مع الله فَعَلَ ذلك حتى تُشركوه معه في عبادتكم؟ بل أكثر المشركين مقلِّدون لا يعلمون دلالات هذه الظواهر بما فيها من آيات على وحدانيَّة الربِّ الخالق.

٦٢ ـ بل مَنْ هذا العظيم الذي يُجيب المَكْروب المجهود إذا دعاه، ويكشف الضُّر النازل به؟ ومَنْ هذا العظيم القدير، الذي يجعلكم سكان الأرض، تتوارثون سكناها والتصرُّف فيها، والانتفاع بخيراتها جيلاً بعد جيل؟ أمعبودٌ مع الله يجيب المضطر إذا دعاهُ، ويكشف السوء، ويخلق الناسَ وَفق سنة الأجيال التي يخلف بعضها بعضاً؟ تذكُّراً قليلاً جداً يتذكَّرون، فلا يحدث التذكُّر أثراً نفسيّاً وسلوكياً.

٦٣ ـ بل مَنْ هذا العظيم الجليل القدير الذي يهديكم بالنجوم في السماء، والعلامات البارزة في الأرض، كالجبال والوديان، وكهبوب الرياح، وغير ذلك من وسائل الهداية، مثل «البُوصلة»، إذا جَنَّ عليكم الليل مسافرين في البرِّ والبحرِ والجوِّ؟ ومنْ هذا العظيم المتقن الحكيم الذي يُرسل الرياح إعلاماً ساراً بمقدم غيث تسوقه أوامر الله عزَّ وجلَّ التي هي من آثار رحمته؟ أمعبودٌ مع الله يفعل بكم شيئاً من ذلك فتدعونه من دونه؟ تسامىٰ وترفَّع اللّهُ الربُّ الخالق لكلِّ شيء عن أن يُكافئه في إلهيَّته أحدٌ، ومَنْ يجعلهم المشركون شركاء لله، يعبدونهم كعبادته هم خَلْقٌ من خلقه، لا يستحقُّون من الإلهيَّة شيئاً، فكيف إذا كان المشركون يعبدون ما لا حياةَ له ولا علمَ ولا عقل!!

أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾

٦٤ - بل مَنْ هذا العظيم الخالق القدير الذي يبدأ خلقَ المخلوقات بتكرار، ثمَّ يعيد الخَلق بعد إفنائه له؟ ومَنْ هذا العظيم القدير المُتقن الحكيم الذي يرزقكم من السماء بالمطر، ومن الأرض بالنبات؟ أمعبودٌ مع الله يبدأ خلق المخلوقات بتكرار، ثمَّ يعيدها بعد إفنائها، ويرزق سائر الأحياء من السماء والأرض بعدَّة أسباب لا يقدر على خلقها إلا الله؟ قل: هاتوا حُجَّةً عقليَّةً أو نقليَّةً على ما تدَّعون أنَّ مع الله إلهاً آخر، أو أن صانعاً يصنع صنعه إنْ كنتم صادقين.

٦٥ - قل - يا رسول الله ويا كلَّ داعٍ إلى الله للذين يعتقدون أنَّ الكُهَّان يعلمون الغيب -: إنَّ الله هو الذيَ يعلم الغيب وحده، ويعلم زمن البعث إلى الحياة الأخرى، ولا يعلم الغيبَ جميعُ من لديهم استعدادٌ لعلم ما، في السموات وفي الأرض، إلا الله عزَّ وجلَّ وحده، وما يُدركون أقلَّ درجات الإدراك بالوقت العظيم الذي يكون فيه بعثهم بعد موتهم للحساب، وفصل القضاء، وتنفيذ الجزاء بالثواب أو العقاب؟

٦٦ - بل تلاحَقَ وتتابع علم مشركي مكة في موضوع البعث إلى الحياة الآخرة، وتنفيذ الجزاء على ما يكسب الناس في رحلة الحياة الدنيا، فالتقى موروثهم من بقايا الدين الذي ورثوه عن إبراهيم وإسماعيل مع عقائد أهل الكتاب على نبأ واحد، بل هم على الرُّغم من تَتابع هذا العلم، في شكٍّ من الآخرة، بل هم لنفورهم من الآخرة، تعلُّقاً بشهواتهم وأهوائهم، عَمُون عن الحقيقة، لا يدركونها ببصائر سليمة الرؤية.

٦٧، ٦٨ - وقال مشركو مكة: أإذا متنا وفنيَتْ أجسادنا، وصرنا تراباً مختلطاً بتراب الأرض، وصار آباؤنا تراباً كذلك، أإنَّا لمبعوثون من قبورنا أحياء؟ لقد وُعدنا أننا سنُبعث بعد الموت للحساب والجزاء، وَوُعِدَ آباؤنا هذا الوعد نفسه على ألسنة الأنبياء من قبل محمد، ما نبأ الحياة بعد الموت للحساب والجزاء الذي يُنبِّئنا به محمدٌ إلا منقولٌ من أحاديث الأوَّلين وأكاذيبهم التي كتبوها.

٦٩ - قل - يا رسول الله ويا كلَّ داعٍ إلى الله من أمته - لهؤلاء المُكَذِّبين الذين لا يؤمنون بقانون الجزاء الربَّاني: سِيرُوا في الأرض، فانظروا بأبصاركم، وتفكَّروا بعقولكم على أيةِ حالٍ كانت عاقبة الكافرين الأوَّلين، وما حلَّ بهم من عقوبات ربانيَّة؟ والله فاعلٌ بكم مثلهم إن لم تؤمنوا، فسُنَّة الله في عباده واحدة.

٧٠ - ولا تحزن على مَنْ تحرص على إيمانهم لنجاتهم وإنقاذهم من الخلود في عذاب النار من كفار قومك، ولا تكن في ضيقِ صدرٍ وألمٍ في النفس من مكرهم وكيْدهم، فإنَّ الله حافظك وناصِرُك عليهم، ورادٌّ عنك كيدهم.

٧١ - ويقول كفار مكة بتكرار وتجدُّد: متى يحين موعد العذاب المُعَجَّل في الدنيا، والمُؤَجَّل إلى يوم الدين الذي تَعِدُنا به أنت وأتباعك، إن كنتم صادقين في أنَّ العذابَ نازلٌ بالمُكذِّبين؟!

٧٢ - قل لهم - يا رسول الله -: نتوقع برُجْحانٍ أن يكون دَنَا وقَرُب بعضُ ما تستعجلون به من الجزاء الربّاني، فلا يَغُرَّنَّكم إمهال الله لكم، فقد يُداهمكم عذابه وأنتم عنه غافلون.

٧٣ - وإنَّ ربَّك - يا رسولَ الله - لذو فَضْل على الكافرين المجرمين حيث لم يُعَجِّل لهم العذاب، بل ترك لهم زمناً طويلاً يراجعون فيه أنفسهم، رغبة أن يتوبوا ويرجعوا إلى الحق، ولكنَّ أكثر الناس لا يقابلون تفضُّل الله عليهم بالإمهال بالشكر، ولوْ من أدنى درجات الشكر، وهي درجة الإيمان به والإسلام له.

٧٤ - وإنَّ ربَّك - يا رسول الله - ليعلم ما تُخفي صُدور الكافرين، وما يُعلنون مِن مكرهم ضدَّ الرسول ﷺ، وكراهيتهم الشديدة للدين الذي جاءهم به، واستكبارهم عن عبادة الله وطاعته، وهو سبحانه أحاط علمه بكلِّ شيء، لا يخفى عليه ممّا يُسرُّونه ويعلنونه شيء.

٧٥ - وما مِنْ موجودة في الأكوانِ غائبةٍ عن إدراك الخلائق أو مشهودة في السماء والأرض إلاَّ وهي معلومَةٌ لِلَّهِ عزَّ وجل، مُسَجَّلة مُدوَّنة في كتاب بيِّن واضح لمن يطَّلعُ عليه، ويقرأ فيه، من الملائكة المطهَّرين.

٧٦ - إنَّ هذا القرآن يُحدِّث بني إسرائيل بحديث صحيح مُطابق لِلحقِّ أكثرَ الذي هم فيه يختلفون مع الحق، في أمور الدين، وحكاية التاريخ، فيُصحِّح باطلهم، ويكشف تحريفهم.

وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ ۞ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ۚ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾

٧٧ ـ وإنَّ هذا القرآن لَهِدايةٌ من الضلال، ورحمةٌ من اللهِ عزَّ وجلَّ لجميع مَنْ آمنَ به، فهم الذين ينتفعون به، ويعملون بأحكامه وشرائعه.

٧٨ ـ إنَّ ربَّك ـ يا رسول الله ويا كُلَّ داع إلى الله من أمَّته ـ يقضي بين أفراد أعدائك، فيكفيك فريقاً منهم بالموت، ويحبط مكايَدَ فريق منهم، ويُلقي دواعي الفرقة بينهم، فأنت ومَنْ يهمُّك أمرهم محفوظون بأحكام ربِّك القضائية المُتتابعة، وهو القويُّ الغالب القدير على حمايتك الذي لا يُردُّ له أمر، العليم بأحوال أعدائك وما يمكرونه ويُدبِّرونه ضدَّكم.

٧٩ ـ فَثِقْ بالله سبحانه، وفوِّض تدبيرَ الأمور إليه؛ إنَّك مُستقرٌّ على الحقِّ الثابت المبين الواضح الذي لا شكَّ فيه.

٨٠ ـ إنَّك ـ يا رسول الله ويا كُلَّ داع إلى الله من أمَّته ـ لا تُسمع الكفار موتىٰ القلوب، الذين وَصَلوا إلى حضيض الكفر، ولا تُسمع الصُّمَّ الذين انصرفت نفوسهم عن استماع كلِّ نداء يتعلق بقضايا الدين انصرافاً كُليّاً، إذا نفروا من دعوتك، وتولَّوا عن قبول مواجهتك، وابتعدوا مُدْبرين. فلا تنفق وقتك وطاقاتك طمعاً في هدايتهم؛ لأنهم وصلوا إلى حالة مَيْؤوسٍ من استجابتهم معها عن طريق إراداتهم الحُرَّة.

٨١ ـ وما أنت ـ يا رسول الله ـ بهَادي عُمْي القلوب صارفاً لهم عن ضلالتهم، ما تُسْمع إسماعاً نافعاً مؤثِّراً، إلا الذين لديهم استعدادٌ لأن يؤمنوا بآياتنا البيانيّة التي يتلقَّونها تباعاً، إيماناً صحيحاً صادقاً، دافعاً إلى الطاعة، فهم مُخلصون مستجيبون لما دعوتهم إليه.

٨٢ ـ وإذا ثَبَتَ وتحقَّق قول الله على الناس بإقفال باب التوبة تمهيداً لقيام الساعة، أخرجنا لهم دابَّةً من الأرض، تُكلِّمُ الناس بلغاتهم المختلفة، والسببُ في إخراج هذه الآية أن تكشفَ لكفَّارهم أنَّهم كانوا بآياتنا الكونيَّة والبيانيَّة المُنزَّلة والجزائيَّة العقابيَّة لا يُصدِّقون.

٨٣ ـ وضع في ذاكرتك ـ أيُّها المتلقِّي لآيات الله ـ يومَ نجمع فوجاً منتزعاً من كلِّ جماعة مِمَّن يُكذِّب في هذه الحياة الدنيا بآياتِنا المنزَّلات، فهم بعد الجَمْع والسَّوْق، يُجمعون في مكانٍ واحدٍ قريبٍ من جهنم، ويُرتَّبون صفوفاً بحسب دركات كفرهم وجرائمهم، ويكفّون ويمنعون من الخروج عن المواضع التي وُضعوا فيها.

٨٤ ـ حتى إذا جاؤوا المكان المُخصَّص لحَشْرهم قُرب أبواب جهنم، قال الله تعالى مُوبِّخاً لهم: أكذَّبتم رسولي بآياتي التي أنزلتها عليه؛ ليبلِّغكم إيَّاها، ولم تتفكَّروا في معاني آياتي التي أنزلتها لتتَّبعوها، وتعملوا بما جاء فيها، أم ماذا كنتم تعملون في الحياة الدنيا؟

٨٥ ـ وَوَجَبَ العذابُ عليهم بسبب ظلمهم، فهم عقب وقوع القول الربانيِّ القضائيِّ عليهم لا ينطقون بحُجَّة يدفعون بها عن أنفسهم ما حلَّ بهم من سوء العذاب.

٨٦ ـ ألم يتفكَّر هؤلاء المُكذِّبون فيعلموا علماً مشابهاً للرؤية البصريَّة، أنا خلقنا بعظمة ربوبيَّتنا الليل ليستريحوا فيه ويناموا، وخلقنا النهار بضوئه كاشفاً لهم الأشياء التي يريدون إبصارها بأعينهم؛ فهم بضوئه يبصرون. إنَّ في نعمتَي الليل والنهار لآياتٍ متعدِّداتٍ دالاَّتٍ على شُمول علم الله، وعظيم قدرته، وكمال حكمته لمَنْ لديهم الاستعداد لأن يؤمنوا بالحقّ.

٨٧ ـ وضع في ذاكرتك ـ أيُّها المتلقِّي ـ يومَ يَنفخ إسرافيل في البُوق نفْخَةَ الخوف والذُّعر، فخاف مَنْ في السَّموات ومَنْ في الأرض، إلا مَنْ شاء الله حفظه من الفَزَع، وكلُّ الذين أُحيوا بعد الموت جاؤوا أذلاء صاغرين خاضعين.

٨٨ ـ وترى الجبال ـ أيُّها الرائي ـ تظنُّها متماسكة لا حركة لذرَّاتها، ولا سَيْر لها في جملتها، وهي في واقع حالها تَمُرُّ مَرَّ السَّحاب، الذي تَتحرَّك ذرَّاته تحرُّكاً داخلياً، ويسير في جملته من موقع إلى موقع في السَّماء، وكذلك حال الجبال، وسائرِ ما في الأرض، إذ ذرَّات كلِّ شيء تتحرَّك حركاتٍ في دوائر وأقفال مُقْفلة، وجملة الأرضُ مع جبالها تمرُّ سائرة في دورةٍ يوميّة حَوْل نفسها، وفي دَوْرةٍ سنويّةٍ حول الشمس، صَنَعَ الله ذلك صُنْعاً، الذي أحكم صُنعه، وجعله مطابقاً للمقصود منه، إنَّه سبحانه خبيرٌ على سبيل الشُّهود والحضور بما تفعلون، لا يخفى عليه شيء من أفعالكم الظاهرة والباطنة.

مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا وَهُم مِّن فَزَعٖ يَوۡمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنۡ أَتۡلُوَاْ ٱلۡقُرۡءَانَۖ فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعۡرِفُونَهَاۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٩٣﴾

سُورَةُ القَصَصِ (مكية) (آياتها ٨٨) (ترتيبها ٢٨)

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتۡلُواْ عَلَيۡكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرۡعَوۡنَ بِٱلۡحَقِّ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةٗ وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾

٨٩ - كلُّ مَنْ جاء ربَّه بالإيمان الصحيح الصَّادق، والأعمال الصَّالحة يحملها في صحيفة أعماله، فله عندَ الله في الآخرة من الأجر العظيم ومضاعفة الحسنات ما هو خيرٌ من حسنته التي جاء بها، وهو الثوابُ والجنة ورضوان الله، وأصحاب هذه الحسنات آمنون من الخَوْف والذعر يوم القيامة.

٩٠ - ومَنْ جَاء بالسيِّئة الكُفريَّة العُظمى، فأُلقوا في النار على وجوههم منكوسين، وتقول لهم خَزَنة جهنَّم بعد أن يستقرُّوا في منازلهم من دَرَكات جهنم: هل تُجْزَون إلا مُعادل ما كنتم تعملون في رحلة امتحانكم في الدنيا من السيِّئة الكفريَّة والسَّيِّئات المُكْتَسبات الكثيرات معها ووراءها؟

٩١ - قل - يا رسول الله - لمن ترجو استجابتهم من مشركي مكة: ما أُمرت منْ قِبَلِ الله الذي أرسلني رسولاً للعالمين، إلا بأن أعبدَ ربَّ هذه البلدة، «مكة» أحبَّ البلاد وأكرمها عليه، الذي جعلها حَرَماً آمناً، لا يُسفك فيها دم، ولا يُظلم فيها أحد، ولا يُصاد صَيْدُها، ولا يُقطع شجرها، فلا تتعرَّضوا للرسول ولمَنْ آمنَ به بالأذى والتعذيب والاضطهاد، وأنتم تعتقدون حُرمةَ هذه البلدة، وأطيعوا ربَّ هذه البلدة التي تفتخرون بأنكم أهلها وحُماتُها، ومن طاعتكم لربِّ هذه البلدة: أن تؤمنوا بي وتتَّبعوني مُسلمين للَّهِ ربِّكم، وله سبحانه كلُّ شيء في الوجود خَلْقاً ومُلكاً وتصرُّفاً وتدبيراً، وأُمرتُ من الله ربِّي أن أكونَ كسائر الناس مسلماً من المسلمين المطيعين له.

٩٢ - وأُمِرتُ أن أَتْلُوَ القرآن في خاصَّة نفسي، وعلى الناس الذين أرسلني إليهم ربِّي، وعلى الذين آمنوا بي واتَّبعوني، من حفظي، مُتَتَبِّعاً حروفه وكلماته كما أنزله الله عزَّ وجلَّ عليَّ، فمن اهتدى فإنَّ نفع اهتدائه يرجع إليه، ومن ضلَّ عن الإيمان، وأخطأ طريقَ الهُدى، فقُل - يا رسول الله - له: بما أنك لم تَستجب لدعوتي، ورفضت بإرادتك الحرَّة الحقَّ، وانطلقت هائماً في أودية الضلال، فاعلم أنَّك مُنْذرٌ بعذاب أليم خالد يوم الدين.

٩٣ - وقل - يا رسولَ الله -: كلُّ الحمدِ والثناء لله على جميع صفاته الجليلة وكمالاته ونعمه، سَيُريكُم آياتِهِ الكونيَّة الباهرة، ودلائله القاهرة في السموات والأرض، وفي أنفسكم، وما يُحقَّق من أخبار عن أحداثٍ مُستقبليَّة، فتعرفون الآياتِ الدالأَّت على صفات ربوبيَّته وإلهيَّته، وعلى أنَّ الحمدَ كلَّه لله وحده، وما ربُّك بغافل عمَّا تعملون أيها الكافرون، وسيُجَازيكم على أعمالكم ويحبط ما تُدبِّرونه ضدَّ دينه، وسينصر رسوله والمؤمنين عليكم.

سورة القصص

١ - ﴿طسٓمٓ﴾ سَبق الكلام على الحروف المقطَّعة في أوَّل سورة البقرة.

٢ - تلك الآيات الرفيعة المنزلة العالية الرتبة آياتُ الكتاب الربَّاني المطلوب أن يُدوَّن في كتاب مُوثَّق، الواضح الدلالات لِمَنْ أحسن تدبُّره، والمُوضح للمعاني المُرادةِ من آياته.

٣ - نتابع فيما نوحي إليك - يا رسول الله - من بعض نبأ موسى وفرعون بالصِّدق المطابق للواقع؛ لقوم لديهم الاستعداد لأن يؤمنوا.

٤ - إنَّ فرعون تجبَّر وتكبَّر في أرض «مصر»، وجاوَزَ الحدَّ في العدوان حتى ادَّعى الربوبيَّة، وجعلَ أهلها فِرَقاً مُتَخالفة مُتعادية، وأحزاباً متصارعة متنافسة فيما بينها، يستضعف طائفة من بني إسرائيل، يأمر بتذبيح مواليدهم الذكور وهم في سنِّ الرضاع في بعض السنوات دون بعض؛ لئلا يكثُر رجال الإسرائيليين، ويترك المواليد الإناث أحياء؛ للانتفاع منهنَّ بالخدمة والتسخير، إنَّه كان من المفسدين بالقتل والتجبُّر والطغيان في الأرض.

٥ - ونريد بسلطان ربوبيَّتنا أن نُنْعِمَ بنعمتنا العظمىٰ على بني إسرائيل الذين اسْتَضْعَفهم فرعون في أرض «مصر»، فنخرجهم ممَّا هم فيه من ضَعْف وذلّ واستعباد، ونجعلَهم قادةً في الخير، هُداةً يُقْتدىٰ بهم، ونجعلهم الوارثين لجنَّاتٍ وعيون وملك وسلطان في الأرض بهبةٍ منَّا لهم.

وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ۖ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾

٦ ـ ونريد بتنفيذ أقضيتنا تباعاً أن نُقْدرهم على التصرُّف في أرض مصر والشام، ونُسلِّطهم عليها يتصرَّفون فيها كيف شاؤوا، ونُريَ فرعونَ، ووزيره الأول هامانَ والمعين الأكبر له على ارتكاب جرائمه، وجنودَهما المؤازرين لهما من هذه الطائفة المستضعفة ما كانوا يخافونه من ذهاب مُلكهم، وهلاكهم على يد مولود من بني إسرائيل، فأراهم الله ما كانوا يحذرونه.

٧ ـ وأعلَمَ اللَّهُ أمَّ موسى إعلاماً خفياً: أنِ استمرِّي في إرضاعه في الخفاء، بعيداً عن أعين الرقباء، فإذا خِفْت عليه أن يُعلم أمرُه، ويصلَ خبره إلى جنود السلطة الفرعونيَّة، وأن يأتوا إليك ليذبحوه، فضعيه في التابوت، وألقيه في نيل مصر، ولا تخافي عليه من الغَرَق إذا ألقيتيه، فالله حافظه وحاميه، ولا تحزني على فراقه؛ إذ هو فراقٌ في زمنٍ قليل، إنا رادُّو ولدك إليك، إذ تكونين أنت مرضعتَهُ وحاضنتَهُ، وإنا جاعلوه مستقبلاً حينما يكون أهلاً للاصْطفاء بالنبوَّة والرسالة، نبياً من الأنبياء، ورسولاً من المرسلين.

٨ ـ فَوَضَعتْهُ في صندوقٍ وألقته في النِّيل، فَعَثر عليه أعوان فرعون وأخذوه، ليتحقَّق ما قدَّره الله بأن يكون موسى رسولاً مُعادياً لهم، ومثيراً لحزنهم بنقد دينهم، والطعن على ظلمهم؛ إنَّ فرعون، ووزيره الأول هامان، وجنودهما كانوا مذنبين آثمين مُسْرفين في الطغيان والفَسَاد عن عَمْد وإصرار، اتِّباعاً للأهواء والشهوات، ومصالح الحكم والسلطان.

٩ ـ وقالت امرأة فرعون حين رأت موسى لزوجها فرعون: هذا الطفل الذي التقطناه من اليمِّ، مَبْعثُ السُّرور لي ولك، لا تُصدر أوامرك لجندك بأن يقتلوه؛ رجاء أن ينفعنا إذا كَبِرَ وَنَمَا في قصرنا، أو نتبنَّاه، والحال أنَّ فرعون وآله لا يدركون أقلَّ إدراك بما قدَّر الله في شأنه، بأن يكون هذا الصبيُّ سبباً في هلاك فرعون، وتقويض مملكته في مصر.

١٠ ـ وأصبح عُمْق قلب أمِّ موسى بعد إلقاء وليدها في تابوته في النيل خفيفاً طائشاً، غيرَ ذي وزنٍ ثقيل يُثَبِّتُه، وبخفَّته وطيْشه صار مُؤهلاً لأن يتأثَّر بآلام نفسها من أجل ولدها، فيُعطي توجيهَهُ لإرادتها، فتُصدر أوامرَها للسانها بأن يبوح بما فعلت سراً، إنَّ الشأن الخطير أنَّ أمَّ موسى، كادت لتُصرِّح بأنه ابنها من شدَّة وَجَلها، وعندئذ يفتضح أمرها، ويشيع خبرها، لولا أنْ رَبَطْنا على قلبها بالعصمة والصَّبر والتثبيت؛ لتكون بخصائصها النفسيَّة من المؤمنين الصَّابرين الثابتين المتوكلين على الله من الرجال، الذين يضْبطون بإراداتهم الحازمات تصرُّفاتهم على مُقْتضى الحكمة، بخلاف النساء فإنَّ طبائعهنَّ تَغْلِبُهُنَّ فتدفَعُهنَّ الخفَّة إلى تصرُّفاتٍ لا تُحمد عُقْباها.

١١ ـ وقالت أمُّ موسى عليه السلام ـ بعد أن ألقته في النيل ـ لأخته: اتَّبعي أثر موسى، حتى تعرفي خبره؟ فَتَتَبَّعت أثره، فعلمت به علماً صحيحاً مؤكَّداً حالة كونها مُتجاوزةً مكاناً يفْصل بينها وبين النيل بمقدارٍ هو في نظر الناس بعيد، لا يُعتَبَر الموجود فيه مراقباً لما يحدث في النهر، وهم لا يشعرون أنها أخته، وأنها ترقُبه.

١٢ ـ وحرَّمنا على موسى المراضع تحريماً قدريّاً، فمنعناه أن يرضع ثَدْياً لمُرضع، من قبل وصول أخته إلى مكان طلب مُرضع له؛ لنردَّه إلى أمِّه، وكانت أخته تَتَتَبَّع أخباره، فلمَّا وصلت إلى حيث يُطلب له مرضعٌ يقْبلُ ثديها، قالت للذين يبحثون له عن مرْضعة تُرضعه وتكفله: هل أدلكم على أهل بيتٍ يضمُّونه ويُرضعونه، ويقومون بتربيته وحضانته لأجلكم؟ وهم له ناصحون مخلصون، ليس في كفالتهم غشٌّ ولا خيانة، فأجابوها إلى ذلك.

جاءت أخت موسى عليه السلام بلفظ «بيت» نكرة، وقالت: «أهل بيت»، ولم تقل: مُرضعة، لتلاحظ مدى استجابتهم للعرض، ولتُبعد الشُّبهة عن أن تكون أمَّه في هذا البيت، خوفاً على أخيها وأمِّها، فلما استوثقت من تلهُّفهم، وصدق رغبتهم، وأنهم لم يشعروا بأنها ذات علاقةٍ ما بالطفل، دلَّتهم وأخذت بهم إلى أمِّها، فالْتقم ثدْيَها، وَشَرع يَرضَعُ برغبةٍ تامَّة.

١٣ ـ فأرجعنا الصبيَّ موسى إلى أمِّه؛ لتقوم بإرضاعه وكفالته، كي تطيبَ نفسها وتفرح بردِّ ولدها الرضيع إليها، ولئلاَّ تحزن بسبب فراقه لها، ولتعلمَ أنَّ وعد الله حقٌّ بردِّه إليها، وبجَعْله نبياً ورسولاً، ولكنَّ أكثر الناس جاهلون لا يعلمون هذه الحقيقة.

وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾

١٤ ـ ولمَّا بلغ موسى الناشىء في القصر الفرعونيِّ نهاية قوَّته ونُضجه الجسديِّ والفكريِّ والنفسيِّ، واستقامَ واعتدل، وكان في سلوكه وفي نشأته وشبابه، وفي اكتمال رجولته، من المحسنين، آتيناهُ فقهاً في الأمور، ومعرفةً للحق والباطل، والخير والشر وحدودهما، يُصدر بها أحكامه العلميَّة والعمليَّة والقضائيَّة، وآتيناه معارف دينيَّة ودنيويَّة، ومِثْلَ ذلك الإحسان الذي أحسنَّا به إلى موسى، نُكافىءُ كلَّ المُحسنين على إحسانهم.

١٥ ـ وَدَخَل موسى المدينةَ مُسْتَخفياً وقتَ غفلة أهلها، عقب غروب الشمس، عند دخول أول الليل، فوجد فيها رَجُلَيْن يَتَخاصَمان ويتضاربان تضارباً يُشبه التقاتل: هذا من بني إسرائيل من قوم موسى، وهذا من القِبْط قوم فرعون الذين يُسخِّرون الشعبَ الإسرائيلي ظلماً وعدواناً ويستعبَدونهم، فسأله الإسرائيليُّ أن يُخلِّصه من عدوِّه القبطيِّ الظالم، وينصره عليه، فتدخَّل موسى ليُصلح بينهما، فتطاول عليه المصريُّ مُعتزّاً بعنصريَّته، فغضِبَ موسى وضربه بيده مضمومةَ أصابعها في صدره، فسقط المصريُّ في الأرض قتيلاً من قوَّة الدفع، وكان موسى شديد القوة البدنيَّة، وكان المصريُّ يُهاجم ويضارب، وندم موسى على تَسرُّعه لـمّا رأى المصريَّ قتيلاً، ولم يكن قَصْده القتل. قال موسى: هذا من نَزْغ الشيطان؛ بأن هيَّج غضبي، حتى ضربت هذا القبطي، فَهَلَك؛ إنَّ الشيطان عدوٌّ مُضِلٌّ بيِّن الضَّلالة.

١٦ ـ قال موسى داعياً ربَّه: ربِّ إني عَمِلتُ عملاً منكراً من مثلي لم تأمرني به، ولم تأذن لي به، فظلمتُ نفسي بارتكابه، فاغفر لي فعلتي، فاستجاب الله دعاءه، فَغَفَر له وستره فلم يفتضح أمره؛ إنَّ الله كثير المغفرة لذنوب عباده، يسترها لهم، ولا يُؤاخذهم عليها، عظيم الرحمة بهم، يمدُّهم بعطائه ومعونته، ويسكِّن نفوسهم، ويُطَمْئن قلوبهم.

١٧ ـ قال مُوسَىٰ مُتضرِّعاً: ربِّ بالمغفرة والسَّتْر الذي أنعمتَ عَليَّ، فلم تكشف أنّي أنا الذي قتلتُ المصري، فلن أكونَ مُعاوناً لأحدٍ من المجرمين، ولو كان من قومي وشيعتي الإسرائيليين.

١٨ ـ فدخل موسى في أول النهار يسير في أسواق المدينة التي قتل فيها القبطي، حالة كونه خائفاً يترصَّد الأخبار بانتباه شديد، من جرَّاء قتله القبطي، ففوجىء مُوسى بأنَّ الإسرائيليَّ الذي طَلَب منه النُّصرة بالأمس على القبطي، يستغيثُ به من قبطيٍّ آخر بصوت مرتفع. قال موسى للإسرائيلي: إنَّك لضالٌّ بيِّن الضلالة، ظاهر البُعد عن جادَّة الحق، قاتلتُ رجلاً بالأمس فقتلتُه بسببك، وتقاتل اليوم آخر وتستغيثُني عليه. فأدرك شهود الحَدَث في السُّوق أنَّ موسى هو الذي اسْتغاث به الإسرائيلي بالأمس، فنصره، فقتل خصمه المصري، وأخذ الناس يتهامسون بهذا، ويشيعون الخبر، ووصل النبأ إلى أسماع رجال الأمن، فنقلوه بسرعة إلى رؤسائهم.

١٩ ـ أخذت موسى الغَيْرةُ والرقَّة للإسرائيلي، فَمَدَّ يده ليبطش بالقبْطي، فظنَّ الإسرائيليُّ أنَّه يريد أن يبطش به لِمَا رأىٰ من غضب موسى. قال الإسرائيليُّ: يا موسى أتريدُ أن تقتلني كما قتلتَ القبطيَّ بالأمس؟ ما تريد إلاّ أن تكون مُتعاظماً في أرض «مصر»، مُتسلِّطاً بالقوة، وما تريد أن تكون من المصلحين بين الخصماء.

٢٠ ـ ولما فَشَا أنَّ موسى قَتَل القبطيَّ، ووصل الخبر إلى رجال القصر الفرعوني، عقد وزراء القصر الفرعوني مجلس تَشَاورٍ على وجه السرعة بشأن الحدث، واتَّجهت الآراء لإصدار الأمر بقتل موسى عقوبةً له على قتله المصريّ، وسمع بذلك رجلٌ مؤمن من آل فرعون، فجاء من آخر أطراف المدينة يُسرع في مشيه، وأخبره وأنذره بما سمع. قال يا موسى: إنَّ وجوهَ القوم وكبراءَهم ووزراء فرعون ومجلس مُسْتشاريه يتشاورون في شأنك ليقْتلوك، فاخْرُج من هذه المدينة مُهاجراً، حتى لا يظفروا بك فيقتلوك، وأؤكِّدُ لك أنني من المشفقين عليك النّاصحين لك في الأمر بالخروج.

٢١ ـ فاستجاب موسى لنصح الرجل الصَّادق، فَخَرَج من المدينة حالة كونه خائفاً على نفسه من آل فرعون، يلاحظ بانتباه شديدٍ بسمعه وبصره ما يتعلَّق بالحكم عليه بالقتل، وبالقبض عليه أينما وجد، وسأل ربَّه داعياً مع أوَّل شروعه في الخروج قائلاً: يا ربِّ خَلِّصني من فرعون وجنوده الظالمين بكفرهم وأعمالهم الظالمة لعباد الله.

وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾

٢٢ ـ ولمَّا توجَّه موسى مُستقبلاً بلادَ «مَدْيَن» فاراً من مصر وجنود فرعون، قال: أرجو من ربِّي أن يُحقِّق لي بمعونته وتوفيقه وتسديده الطريق الوسط الذي فيه النجاة من القوم الظالمين في مصر، فأخرج عن حدود سلطانهم إلى أرض «مدين»، وذلك لأنه لم يكن يعرف الطريق إليها.

٢٣ ـ وحين أشرف موسى على الأرض التي فيها ماء آل مَدْين، وكانوا يسقون منها مواشيهم، وَجَد على الماء جماعةً كثيرة من الناس، يستخرجون الماءَ من البئر بالدِّلاء ويصبُّونَهُ في أجرانٍ، لتشربَ أنعامُهم ودوابُّهم، ووجد موسى من خلف الجماعة امرأتين تُبْعدان أغنامَهُما عن الماء حتى يفرغ الناس، وتخلو لهما البئر. قال موسى للمَرأتين: ما شأنكما لا تسْقيان مواشيكما مع الناس؟! قالتا: إنا امرأتان لا نزاحم الرجال أدباً واستحياءً، فإذا رجع الرُّعاة عن الماء سَقَيْنا مواشينا مِنْ فَضْل ما بقيَ من الماء، والسبب في قيامنا بوظيفة سَقْيِ مواشي أبينا، أنه ليس لنا إخوةٌ ذكورٌ للقيام بهذه الوظيفة، وأبونا شيخٌ كبير لا يَقْدر أن يسقي مواشيه.

٢٤ ـ فلمَّا سمع كلامَهما رقَّ لهما ورحمهما، وسقىٰ لهما الغنم، وبعد أن ساقت المرأتان أغنامَهُما، وابتعدتا في اتِّجاه دار أبيهما، ابتعد موسى عن مكان البئر، وأوى إلى شجرة، فجلس في ظلِّها من شدَّة الحرِّ، فسأل ربَّه قائلاً: ربِّ إني لما سَبَق أن أنزلت إليَّ من النَّجاة من الظالمين، والوصول إلى ماء «مَدْين»، والاستظلال آمناً في ظلِّ هذه الشجرة، مُفْتَقرٌ إلى ما تسوقُه إليَّ من خيرٍ ورزق تفضُّلاً منك وإنعاماً، ومن ذلك: تزويجي بزوجةٍ صالحةٍ عفيفةٍ تعفُّني وتكون لي سكناً.

٢٥ ـ وصلت المرأتان إلى أبيهما، وأخبرتاه خبرَ الرجل الغريب الذي سقى لهما، وعقب دعاءِ موسى ربَّه مباشرةً جاءت إحدى الفتاتين اللتين سقىٰ لهما تسيرُ إليه في حياءٍ، قالت: إنَّ أبي، يطلب منك أن تأتي إليه؛ ليُعطيَكَ أَجْرَ سَقْيك لنا، فلمَّا جاء موسى أباهما الشيخ الكبير، وأخبره بأمره أجمع، قال الشيخ أبو المرأتين لموسى: لا تَخَفْ من جنود السُّلطة الفرعونيَّة، فنحن في «مدين» نقع خارج سلطته ونظام حكمه، وبوصولك إلى هذه الأرض نَجَوْتَ من فرعون وقومه الظالمين.

٢٦ ـ قالت إحدى الفتاتَيْن: يا أَبَتِ اتَّخِذه أجيراً ليرعىٰ أغنامنا، ويقوم على حفظها، فهو قويُّ الجسد، استخرج الماء بالدِّلاء من البئر بقوة وهمَّة، على الرُّغم من قدومه إلى «مدين» ماشياً على قدمَيْه من مصر، وهو أمين، فقد اختار أن يمشي أمامنا إلى مسكننا، حتى لا تصف الريح جسدنا؛ إنَّ خير مَنِ استعملت مَنْ قَوِيَ على العمل وأدَّى الأمانة.

٢٧ ـ قال الشيخُ لموسىٰ: إنِّي أُريدُ أن أُزوِّجَكَ إحدى ابْنَتَيَّ هاتَيْن، على شرط أن تكون أجيراً لي في رعي ماشيتي ثمانيَ سنين، فإنْ أتْمَمْتَ العشر سنين، فذلك تَفَضُّلٌ منك، وتبرُّع ليس بواجب عليك، وما أريدُ باستئجاري لك أن أَشُقَّ عليك في العمل، ولا أُحمِّلك من التكاليف ما به مشقَّة عليك، ستجدُني إنْ شاء الله في المستقبل من الصَّالحين في حُسْن المعاملة، ولين الجانب، والوفاء بما قلتُ.

وفي هذه الآية: اختيارُ الزوج الكفء، وعَرْضُ الرجل ابنته على الرجل الصالح، وهذا دأب عقلاء الرجال، أن يختاروا هم أزواجاً أكفاء صالحين لبناتهم، وليس في مثل هذا الطلب وإبداء الرغبة مَنْقَصَةٌ لهم، بل فيها مروءةٌ وحُسْن تدبير. وفي الآية أيضاً: أنَّ المستأجِر إذا شرط شرطاً في عقد الاستئجار للقيام بعملٍ ما، فإنْ خالف المُسْأجِر، وحمَّل الأجير عملاً فيه مشقَّة بحَسَب معتاد الناس، فَلِلأجير أنْ لا يستجيب لمخالفته للشرط. وفي الآية: التعليق على مشيئة الله بالنسبة للأعمال المُستقبليَّة، وهو من مُقْتضى الأدب مع الله عزَّ وجل.

٢٨ ـ قال موسى: ذلك الذي قلته وعاهدتني عليه قائمٌ بيننا جميعاً، أيَّ المُدَّتين أتْمَمْتُ وفرغت منه، الثمانية أو العشرة أكن قد وفيْتك، فلا ظلمَ عليَّ بأنْ أطالب بأكثر منه، والله على ما نقول وكيل حافظ يراقبنا، شهيد بيني وبينك على ما تعاقدنا عليه.



۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْـَٔامِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾

٢٩ ـ رضيَ موسى عليه السلام بعرض شيخ «مدين»، وتزوّج البنت التي اختارها من ابنتيه على الشَّرط الذي عَرَضه عليه أبوها، فلمَّا أتمّ موسىٰ المُدَّة عشر سنين، وهي أكملُ المُدَّتَيْن، وقام بالخدمة على الوجه المطلوب المرضي، واستأذن أبا زوجته أن يسافر إلى «مصر»، مُسْتصحباً زوجته وولده، وأذن له، وأعدّ ما يلزم لهذا الرَّحيل، وسار مُصَاحباً أهله، مُتَّجهاً شطر مصر، حيث قومه بنو إسرائيل، أبصر من ناحية جبل الطُّور ناراً تتعالىٰ ألسنة لهبها في الجوّ، وكان البرد شديداً، وكان الطريق السويُّ إلى مصر غير واضح. قال موسى لأهله: تمهَّلوا وانتظروا، إني أبصرتُ ناراً، وإنِّي ذاهبٌ إلى المكان الذي هي فيه، أتوقَّع دون جزْم أن آتيكم من أهلها بخبر عن الطريق المُوصل إلى «مصر»، أو عودٍ من الخشب في رأسه نار، لتوقدوا منها حطباً، رجاء أن تستدفئوا بناره.

٣٠ ـ فلمَّا أتىٰ موسى عليه السلام النار التي أبصرها، ناداه الله تعالى من جانب الوادي الذي عن يمين موسى في القطعة من الأرض المتميِّزة عمَّا حولها، التي جعل اللَّهُ عزَّ وجلّ فيها الزيادة من الخير والنماء، من ناحية الشجرة: أنْ يا موسى، أؤكد لك ما أقول لك: أنا الله الذي تُؤمن به، أنت وآباؤك المؤمنون الموحِّدون، وأنا خالق الكائنات كلها، والمُتصرِّف فيها بحكمته دواماً، وبسلطان ربوبيَّته الشاملة لكلِّ ما في الكون من حوادث وتصاريف.

٣١ ـ وأن ادفع عَصَاك من يدك إلى الأرض رَمْياً، فرماها، فلمَّا رآها تتحرَّك بشدَّة واضْطراب كأنَّها في سرعة حركتها وخفَّتها كالحيَّة الصغيرة، انهزم مُبْتعداً، مُعطياً ظهره لجهة العَصَا التي انقلبت حيَّةً مخيفة تسعى، ولم يرجع من شدَّة خوفه على نفسه، فناداه ربُّه عند ذلك: يا موسىٰ أَقْبِل على النداء، وعُد إلى مكانك الذي فَرَرت منه خوفاً من الحيّة، ولا تَخَفْ أن تُؤْذيَكَ؛ إنَّك من الآمنين من كلِّ مكروه بتأمين ربِّك لك.

٣٢ ـ أدْخِل يَدَك في فتحة قميصك، وأوصلها إلى إبطك، وأخرجها بعد ذلك، تخرُجْ شديدةَ البياض متلألئةً مضيئةً من غير مَرَض ولا بَرَص، واضْمُمْ يَدَكَ اليُسرى إلى جانب صَدْركَ الأيسر، حيث قلبك، فيذهب ما نالك من أثر الخوف، فهاتان المُعجِزَتان الخارقتان العجيبتان: قلب العصا حيَّةً مخيفةً، وقلب اليد السَّمراءِ بيضاء تبرُق كالبرق، حُجَّتان بيِّنَتَان من ربِّك إلى فرعونَ وأشرافِ قومه ووزرائه ومسْتشاريه، وحاشية قصره؛ إنَّهم كانوا زمناً طويلاً عاصين، وما زالوا قوماً خارجين عن طاعة الله، تاركين لأوامره.

٣٣ ـ قال موسى عليه السلام: ربِّ إني قتلتُ من قوم فرعون نفساً، قبل خروجي من مصر إلى «مدين»، فأخاف أن يقتلوني به عقاباً على قتلي له.

٣٤ ـ وأخي هارون هو أفصَحُ مني بياناً، فأرسله معي عَوْناً وناصراً يلخِّص الدلائل، ويجيبُ عن الشُّبهات، ويُجادل الكفار، إنِّي أخاف أن يُكذِّبني فرعون وقومه.

٣٥ ـ قال الله تعالى لموسى عليه السلام: سَنُقوِّيك بأخيك هارون ونُعينُك به، ونَجْعَل لكُما حُجَّةً وبُرهاناً، وقوة غيبيَّةً معنويَّةً تحجزُ فرعونَ وجنوده عن أن يصلوا إليكما بما فيه ضرٌّ أو أذىً لكما، فلا يَصِلون إليكما وصولاً بشيءٍ يضرُّكُما أو يُؤذيكما؛ بسبب ما نعطيكما من المعجزات وما نريهم من الآيات التي تُخيفهم بها، فيحذرون أن يهلكوا إذا كادوكُما كَيْداً يُؤذي أحداً منكما. أنتما ـ يا موسى وهاورن ـ وَمَن اتَّبعكما واهتدى بكما الغالبون المُنْتَصرون على فرعون وقومه.

وقد حقَّق الله عزَّ وجلّ هذا الوعد في نهاية مسيرتهما الدعويَّة، فأغرق فرعون وملأه وجنودهم في البحر، وكانوا عبرةً لمن يعتبر.

فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٖ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّفۡتَرٗى وَمَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجۡعَل لِّي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسۡتَكۡبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ إِلَيۡنَا لَا يُرۡجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتۡبَعۡنَٰهُمۡ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلۡمَقۡبُوحِينَ ﴿٤٢﴾ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ ٱلۡأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لَّعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾

٣٦ ـ فلمَّا جاء موسى عليه السلام فرعونَ ورجال القصر الفرعوني، ومَنْ دونهم من سائر المصريين بآياتنا التِّسع، حالة كونها واضحات الدلالة على أنها من الله ربِّ العالمين، قالوا: ما هذا الذي جاء به موسى من آيات إلا ظواهر أعمال من أعمال السَّحَرة، وادِّعاؤه أنها آياتٌ يُجريها ربُّ العالمين له ادِّعاءٌ مُفْترى، وما سمعنا بهذا الذي تدعونا إليه فيمن سبقنا من آبائنا الأوَّلين الذين كانوا على مثل ديننا. والآيات التِّسع التي سَبَق بيانها هي: العصا، واليد، والطُّوفان، والجراد، والقُمَّل، والضفادعُ، والدَّم، وسنوات الجدْب والقحط والنَّقص من الثمرات، وآية الرِّجز، وهو عذابٌ أنزله الله بفرعون وملئه، كأمراض وأوجاع لا عهد لهم بمثلها.

٣٧ ـ وقال موسى لفرعون: ربِّي أعلم من كلِّ عليم بمَنْ جاء بالهدى من عنده، وبمَنْ هو كذَّابٌ يفتري عليه، وهو الذي يُجازي مَنْ أطاع هداه، ويعاقب مَنْ عصى وتمرَّد على طاعته، فَلْيرتقب كل فريق منا عاقبة أمره في الدنيا، ثم في الآخرة يوم الدين، إنَّ الشأن العظيم الذي هو من سُنن الله في عباده، أنَّ الظالمين المفترين على الله، لا يكون لهم فوزٌ ونجاة وظَفَر في الدنيا، ولا في الآخرة.

٣٨ ـ وقال فرعونُ لوزرائه ومُسْتشاريه: يا أيُّها السادة الكبراء، ما علمتُ لكم من إلهٍ غيري يستحقُّ العبادة، فاتَّخذ ـ يا وزيري هامان ـ وسائلَك؛ ليُوقدَ العمَّالُ النار على اللَّبن من الطين، حتى يشتدّ ويصير آجُرّاً، وأْمُر البنَّائين بعد تهيئة الآجُرِّ اللازم أن يَبْنوا لي قصراً عالياً أصعد فيه، لأنظر في أجواء السماء العليا إلى إله موسى، وأقف على حاله، وإني لأظنُّ موسى من الكاذبين في زعمه أنَّ للخلق إلهاً غيري، وأنَّ الله أرسله.

٣٩ ـ وتعاظَمَ فرعونُ وجنودُهُ في أرض «مصر» تعاظُماً شديداً، وامتنع عن الإيمان وقَبول الحق، ولم يقبلوا أن يؤمنوا بالبعث، وظنُّوا ظنّاً توهمياً أنَّهم إلينا بعد مماتهم لا يُرجعون للحساب، وفَصْل القضاء، وتحقيق الجزاء.

٤٠ ـ فجعلنا في نفس فرعون غيظاً يدفعه لاتِّباع موسى وقومه بني إسرائيل بجيش قويٍّ لمقاتلتهم، واستدرجناهم حتى دخلوا ملاحقين الإسرائيليين من مكان الفَلْق في البحر الذي فَلَقَهُ الله لهم، فلما اكتمل دخولهم جميعاً في الطريق الذي عَبَر منه موسى وهارون وقومهما، ضَمَمْنا على فرعون وجنوده فِلْقَتي البحر، فأغرقناهم أجمعين، فَطَرحناهم وأبعدناهم من الحياة، كما يُطرح الشيء المُحتقَر المكروه، فانظر نظراً تفكُّرياً ـ أيُّها الصالح للنظر التفكُّري ـ كيف كان عاقبة فرعون وجنوده الظالمين ظلماً من دَرَكة الكفر حين صاروا إلى الهلاك؟!

٤١ ـ وَجَعلنا ـ ضمن سُنَّتنا الكونيَّة ـ فرعونَ وقومَه قُدوةً في الضلال والكفر، يتبعهم غيرهُم فيه، فيكون عليهم وِزْرُهُم وَوِزْر أتباعهم، يدعون مَنْ يستجيب لهم بإراداتهم الحرَّة إلى الكفر والمعاصي التي يستحقُّون بها عذاب النار يوم الدين، ويوم القيامة لا يجد الأئمة الكَفَرة، ولا من اتَّبعهم مَنْ ينصرُهُم، فيدفعُ عنهم عذاب الله، أو يرفعُ عنهم شيئاً منه.

٤٢ ـ وأَتْبعنا فرعونَ وجنودَه بعد إهلاكهم بالإغراق في هذه الدنيا خِزْياً وبُعداً وعذاباً، بما هم فيه من عذابٍ نفسيٍّ ورُوحيٍّ بعد الموت حتى البعث، ويومَ القيامة هم أيضاً من المطرودين المُبْعَدين عن رحمة الله.

٤٣ ـ ونُقْسم مؤكِّدين لكم أننا آتينا موسى كتاب التوراةَ، من بعدما أهلكنا الأُمَمَ السابقة المكذِّبة، كقوم نوح، وعادٍ قوم هود، وثمود قوم صالح، وغيرهم ممَّن كانوا قبل موسى؛ حالة كون هذا الكتاب يتَّصف بصفاتٍ ثلاث: **الصفة الأولى**: كونه بصائر للناس، يشتمل على علم وحجج وبراهين، يبصرون بها ما ينفعهم وما يضرهم، **والصفة الثانية**: كونه هدى، يشتمل على ما فيه هدايتهم وسعادتهم في دنياهم وآخرتهم، **والصفة الثالثة**: كونه رحمةً، يشتمل على ما فيه رحمة لهم، بما فيه من دلالة على الحق والخير والصِّراط المستقيم، رغبةً في أن يضع الناس الذين أنزلت عليهم التوراة لهدايتهم ما اشتملت عليه في ذاكرتهم، فيتذكَّروا منها ما يهديهم إلى ما هو خير لهم في عاجل أمرهم وآجله، فتكون دافعاً لهم إلى العمل بما جاء فيها من أوامر، أو نواهي، أو وصايا.

وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلۡغَرۡبِيِّ إِذۡ قَضَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلۡأَمۡرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأۡنَا قُرُونٗا فَتَطَاوَلَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡعُمُرُۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيٗا فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ تَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذۡ نَادَيۡنَا وَلَٰكِن رَّحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوۡلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا قَالُواْ لَوۡلَآ أُوتِيَ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓۚ أَوَلَمۡ يَكۡفُرُواْ بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبۡلُۖ قَالُواْ سِحۡرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلّٖ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلۡ فَأۡتُواْ بِكِتَٰبٖ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهۡدَىٰ مِنۡهُمَآ أَتَّبِعۡهُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيۡرِ هُدٗى مِّنَ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾

٤٤ ـ وما كنتَ ـ يا رسول الله ـ موجوداً بجانب المكان الغربيّ في الوادي المقدّس «طوى» وَقْت إنهائنا إلى موسى أمر مكالمته، وإيتائه آيتي العصا واليد، وتكليفه أن يذهب بالرسالة إلى فرعون وملئِهِ، وما كنتَ من الحاضرين حتى تشاهد ما جرى من مناجاةٍ بين موسى وربِّه، فتذكره من ذات نفسك، وتُحدِّث به قومك.

٤٥ ـ والسبب في إعادة إرسال الرُّسل برسالاتٍ من لدنّا: أننا أنشأنا بعد موسى عليه السلام أمماً اقترنوا معاً في زمن واحد، بعد موسى عليه السلام، فَطَالَتْ عليهم المُدَّة، فَنَسُوا عَهْدَ الله، وتركوا أمره، فاقْتَضى هذا الواقع إرسالَ رُسُلٍ لاحقين لرسل سابقين، وكنتَ أنتَ آخرهم وخاتمهم، وما كنتَ ـ يا رسول الله ـ مقيماً في أهل «مَدْيَن» وقتَ تلاوتك على أهل مكة قصّة موسى أيام وجوده فيها، حتى تنقلها إليهم بطريق المشاهدة، ولكنّا أرسلناك رسولاً، وأنزلنا إليك كتاباً، فيه هذه الأخبار؛ لِتَتْلوَها عليهم، ولولا ذلك لمَا علمتَها أنت، ولم تُخبرهم بها.

٤٦ ـ وما كنتَ ـ يا رسولَ الله ـ بناحية جَبَل الطُّور، حين نادَيْنا موسىٰ ليلةَ المُناجاة، واصْطَفيناهُ لرسالتنا، ولم تشهد شيئاً من ذلك فتعلمه، ولكنْ جعلناك نبيّاً رسولاً، ونزّلنا عليك القرآن لتُبلّغه للناس رحمةً من ربّك بهم، لِتُنْذِرَ قوماً الإنذار الذي سَبَق أن أتاهم من قبلك، وبلّغهم إيّاه رسلٌ من قبلك؛ رغبةً في أن يضعُوا ما نُنْزل عليك من قرآن في ذاكرتهم، فيكون دافعاً لهم إلى العمل بما جاء فيه من أوامر ونواهي أو وصايا.

٤٧ ـ ولولا أن تصيبَ الكفار عقوبةٌ ونقمةٌ؛ بسبب ما قدّمت أيديهم من الكفر والمعاصي، فيقولوا عند العذاب: ربَّنا هلاّ أرسلتَ إلينا رسولاً، يتلو علينا آياتك، ويُبلِّغنا مطلوبك منا، فنتَّبع آياتك، ونكونَ من المؤمنين بك. فلولا أنهم يحتجُّون بترك الإرسال إليهم لعاجلناهم بالعقوبة قبل أن نرسل إليهم رسولنا محمداً، وقبل أن ننزِّل عليه القرآن، لأن ما هم فيه من كفر وفجور، وهم يعلمون الحق والباطل، والخير والشر، ويعلمون أن الله قد أرسل رسلاً، بلّغوا وأنذروا، كافٍ بمقْتضى الحقّ والعدل لأنْ نعاقبهم. وقطعاً لأعذارهم لم نعاقبهم على كفرهم وفجورهم، قبل إرسال رسول لهم، يتلو عليهم آياتنا، ويُبلِّغهم أوامرنا ونواهينا.

٤٨ ـ فلمّا جاءهم رسول الله ﷺ بالحقّ الثابت من عند الله، وتلا عليهم ما أنزلنا عليه من كتابنا، قال كفّار مكّة: هلاّ أُوتيَ محمدٌ من الآيات الخوارق مثلَ ما أُوتيَ موسى من قبلُ من الآيات، كالعصا التي تنقلب حَيَّة تسعى، واليد التي تنقلب بيضاء مضيئة متلألئة؟ كيف يُطالبون بأنْ يؤتى محمدٌ مثلَ ما أوتيَ موسى من قبل، وهم يكفرون بما أُوتي موسى من التوراة، ويكفرون بالآيات التي آتاه الله إيّاها مُصدِّقة أنه رسولُ ربِّ العالمين، وقال كفار مكة: إنَّ ما جاء به موسى ومحمد سحر، فهما سِحران تَعَاونا، يُقوِّي كلٌ واحد منهما الآخر، على إثبات قضيّةٍ واحدة، وهي: توحيد الله، ونفي الشركاء، وإثبات يوم الدين، وقالوا مُعلنين كفرهم ومؤكّدين قولهم: إنا بكلٍّ ما جاء به موسى، وما جاء به محمد كافرون، لا نؤمن بالتوراة والقرآن، ولا نؤمن أنهما نبيّان.

٤٩ ـ قل ـ يا رسول الله ـ لمشركي مكة الذين يزعمون أن موسى افترى التوراة من عنده على ربه، وأنك افتريت القرآن من عندك على ربِّك: فائتُوا بكتابٍ من عند الله هو أكثر هدايةً من التوراة والقرآن أتّبعه، إنْ كنتم صادقين في زعمكم أنّهما سحران مُفْتريان على الله.

٥٠ ـ فإنْ لم يطيعوك، ويحقّقوا ما طلبتَهُ منهم، من الإتيان بكتابٍ هو أهدى من التوراة والقرآن، فاعلم أنَّ ما ركبوه من الكفر لا حُجَّة لهم فيه، وإنما آثروا اتّباع ما هم عليه من الهوى وما تميل إليه نفوسهم من العصيان والكفر والفجور، ولا يوجد أحدٌ أكثر ضلالاً من الذي اتَّبع هواه بغير هُدىً من الله؛ لأنَّ من يلتزم بهدى الله يتعلَّق هواه بمراضيه ومحابّه، فيكون هواه تبعاً لما يُحبُّ الله ويرضى؛ إنَّ الله لا يحكم بالهداية لهؤلاء القوم الظالمين، ما داموا على كفرهم وطغيانهم وجحودهم للحق.

وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴿٥٥﴾ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴿٥٩﴾

٥١ ـ ونؤكِّد تأكيداً شديداً أننا جعلنا القول الذي يشتمل على مطلوبنا من عبادنا في رحلة امتحانهم، يصل إلى مراكز وعيهم وصولاً تامّاً، رغبةً منا أن يتذكَّروا من معاني القول الذي وصَّلناه لهم تذكُّراً مؤثِّراً فيهم إيماناً وإسلاماً؛ لينجوا من عذاب الجحيم، وليظفروا بجنّات النعيم.

٥٢ ـ الَّذين آتيناهُم الكتاب من قبل القرآن الذي يتنزَّل على محمد ﷺ من مؤمني أهل الكتاب، هم بمحمد ﷺ وبالقرآن يؤمنون. والمراد بهم من آمن من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام، والنجاشي، وكلُّ من هو مُسْتعدٌّ لأن يؤمن ويُسلم مستقبلاً.

٥٣ ـ وإذا يُتلى عليهم القرآن قالوا: آمنّا به، إنَّه الحقُّ من عند ربِّنا، إنَّا كنَّا من قبل تنزُّل القرآن مؤمنين بربِّنا ومسلمين له إسلاماً تاماً، ومُصَدِّقين بمحمد ﷺ أنه نبيٌّ حق.

٥٤ ـ أولئك الفضلاء رفيعو المنزلة الذين آمنوا بالقرآن، وبما أُنزل من قبله، يُؤْتَوْن ثوابَ عملهم مرَّتَيْن: على إيمانهم بالكتاب الأول، والكتاب الآخر، بسبب تحلِّيهم بأربع صفات: **الصفة الأولى**: صبرهم على دينهم، وعلى أذى أهل ملَّتهم الذين فارقوهم، **والصفة الثانية**: يتَّخذون الحسنة التي يفعلونها، دريئةً تصطدم بها السيئة التي تُوجّه لهم، فيدفعون بذلك الأذى والضُّرَّ عن أنفسهم، **والصفة الثالثة**: أنهم ينفقون في سُبُل الخير من بعض الذي رزقناهم طيِّبة بها نفوسهم ابتغاء مرضاتنا.

٥٥ ـ **والصفة الرابعة**: إذا سمعوا الطعن في الدين، والاستهزاء بالمؤمنين، والقولَ القبيح من الجاهلين، أعرضوا عنه تكرُّماً وتنزُّهاً، وقالوا لأصحاب اللغو: لنا أعمالنا، ونُحاسب عليها، ولكم أعمالكم، وتُحَاسَبون عليها، أمانٌ منا عليكم، ومفارقة لكم ولما أنتم عليه من لغو تعصُون به ربَّكم، وتظلمون به عباده المؤمنين، لا نريدُ مشاركة الجاهلين السُّفهاء في جهلهم وسَفَههم.

٥٦ ـ إنَّك ـ يا رسول الله ـ لا تستطيع أن تحكم بالهداية لمن تُحبُّ، لأنَّ الحكم بالهداية أو الضَّلالة هو لله وحده، وهو سبحانه يحكم بمشيئته المطلقة، ولكنَّ صفة مشيئته المطلقة لا تُفارق صفة حكمته، وهو أعلم بالمهتدين هداية حقيقية في باطنِ ما في نفوسهم وقلوبهم، فهو يحكم بالهداية لمن يعلم من نفسه وقلبه أنه مهتد، ويحكم بالضلالة على مَنْ يعلم من نفسه وقلبه أنه ضالٌّ.

٥٧ ـ وقال كُبراء مشركي قريش للرسول ﷺ معتذرين عن الدخول في الإسلام، مُتعلِّلين بالتخوُّف من نقمة من حولهم من المشركين: إنْ نتَّبع الحقَّ الذي جئتنا به، نُنْتزَع بسرعة من أرضنا من قبائل العرب بالقتل والأسْر ونَهْب الأموال؛ إذ نُخالف عقائدهم، ولهم في مكة نُسُك، ولهم بالأوثان حول الكعبة ارتباط عابدٍ بمعبود، ولا قِبَلَ لنا بمواجهتهم إذا اجتمعوا على قتالنا؛ أولم نَجْعَل لهم حَرَماً آمناً يأمنون فيه ـ وهم كفرة ـ على أنفسهم وأموالهم، ونُقْدرهم على التصرُّف الموصل إلى تحقيق مطلوبهم، ويُجْلب إلى الحرم ويُحمل إليه ثَمَراتُ أشياء كثيرة، رزقاً نسوقُهُ إليهم من عندنا، فكيف يستقيم أن يسلبهم الله الأمن ويُعرِّضهم للخطف إذا ضمُّوا إلى حرمة البيت الإيمان بمحمد ﷺ؟ ولكنَّ أكثر المشركين لا يعلمون قَدْر هذه النِّعم عليهم، فيشكروا مَنْ أنعم عليهم بها ويطيعوه.

٥٨ ـ وعدداً كثيراً أهلكنا من أهل المجمَّعات السكنيَّة إهلاكاً جماعياً شاملاً، أخذهم المرحُ والزَّهْو والكِبْر، فاستخفُّوا نعم الله عليهم، فتلك مساكنهم خالية لم تُسكن منْ بعدهم، لم يسكنها إلا المسافرون زمناً قليلاً، ولم يخلفهم أحدٌ بعد هلاكهم، وكنَّا نحن لا غيْرُنا الوارثين لما ملَّكنا عبادنا، ومكنَّاهم التصرُّف فيه، فانتزعناه منهم بإهلاكهم، وصار أمرهم إلى الله؛ لأنَّه الباقي بعد فناء الخلق. فلْيعلم كفار مكة الذين يستمسكون بكفرهم خوفاً من أن يتخطَّفهم الناس، أنهم يُعرِّضون أنفسهم لعقاب مُعجَّل من ربهم، وإهلاك جماعيٍّ شامل، نظير الذي أنزله بأهل القرى من قبلهم؛ بسبب كفرهم، وكِبْرهم، وفجورهم.

٥٩ ـ وليس من سنة ربِّك ـ يا رسول الله ـ أن يُهلك أهلَ المجمَّعات السكنيَّة الكافرة إهلاكاً جماعياً شاملاً، حتى يبعثَ في عاصمتها التي هي المركز الرئيسي لها رسولاً يتلو عليهم آيات الله المُنزَّلات، إلزاماً للحُجَّة وقطعاً للمعذرة، وليس من سُنَّتنا أنْ نُهلك المجمَّعات السكنيَّة إهلاكاً جماعياً شاملاً، في حالٍ من الأحوال، إلا في حالة كون أهلها ظالمين ظلماً من دَرَكة الكفر العنادي، وما يلزم عنه من بغيٍ وفجور وعدوان وفساد.

وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾

٦٠ ـ وما أُعطيتُم ـ أيُّها الناس ـ من شيءٍ من أعراض الدنيا وزينتها، فهوَ مَتاعٌ قليلٌ تتمتَّعون به أيام حياتكم، ثمَّ هو إلى فناء وانقضاء، وما عند الله ممَّا ادَّخره لأهل الإيمان والتقوى في جنّات النعيم خيرٌ وأبقى؛ لأنَّ منافع الآخرة خالصةٌ عن الشوائب والمنغِّصات، وهي دائمةٌ مُتجدِّدة غير منقطعة. انطَمَسَتْ بصائركم فلا تعقلون الفرق بين الفاني المختلط بالمُكدِّرات، وبين النعيم الخالد الخالص المُصفَّى من كلِّ الأكدار؟!

٦١ ـ أفمن وَعَدناه وعداً حسناً بالجنَّة، لأنه صدَّق وعد الله الحسن بجنَّات النعيم يوم الدين، فآمن وأسلم، فهو مُستقبلُه وصائرٌ إليه، كَمَنْ متَّعناهُ متاعَ الحياة الدنيا، فاغترَّ بما يناله فيها، ولم يُصدِّق وَعْدَ الله، ثم مات على كفره، ثمَّ هو يوم القيامة من المسُوقين قهراً حتى يحضُروا عند ربِّهم، لمُحاسبتهم، وفَصْل القضاء بشأنهم، ومُجازاتهم على كفرهم في نار جهنم.

٦٢ ـ وضع في ذاكرتك ـ أيُّها المُتلقِّي لبياننا ـ يومَ يُنادي الله عزَّ وجلَّ هؤلاء المشركين، فيقول لهم: أين شركائي، الذين كنتم تزعمون في الدنيا أنهم شركائي، فتعبدونهم من دوني؟

٦٣ ـ قال رؤوسُ الضَّلالة الذين وَجَبَ عليهم العذاب لكفرهم وإغوائهم من استجاب لهم: ربَّنا هؤلاء الأتباع الذين دَعَوْناهم إلى الغيِّ، أضْللناهم بطريق الوسوسة والتَّسويل، لا بالإكراه والإلجاء، فضلُّوا باختيارهم كما ضَلَلْنا باختيارنا، فنحن وهم في ذلك سواء، تبرَّأنا إليك منهم اليوم، وممَّا اختاروه في الدنيا من الكفر، لم يعبدونا نحن، بل عَبَدوا أهواءَهُم، وأطاعوا شهواتهم.

٦٤ ـ وقيل للكفار يومَ القيامة: ادعُوا الذين اتَّخذتموهم شُركاء لله، فعبدتموهم من دونه؛ ليخلِّصوكم اليوم من العَذَاب، فصار كلُّ مشرك ينادي معبودَه، فلم يستجيبوا لنداءات عابديهم، وحكم الله عليهم بالخلود في عذاب النار بحسب دركات كفرهم، وَرَأَوْا بأبصارهم دار العذاب، ومنازلهم فيها، والمصيرَ الذي هم إليه صائرون، فيتمنَّون قائلين: ليتَنا كنَّا في الحياة الدنيا نهتدي، استجابةً لما كان الدعاة يدعوننا إليه آناً فآناً، فننجوَ من هذا العذاب، ونظفر بجنات النعيم.

٦٥ ـ وضع في ذاكرتك ـ أيُّها المتلقِّي ـ يوم ينادي الله المشركين في موقف الحساب، وفصل القضاء، فيقول لهم: ما كان جوابكم لِمَنْ أُرسل إليكم من النَّبيِّين؟

٦٦ ـ فَخَفِيَتْ واشْتَبهت عليهم الأخبار والأعذار والحُجَج، فلم يكن لهم عذرٌ ولا حُجَّة، فهم لا يسأل بعضهم بعضاً في تشاور عن جوابٍ يُجيبون ربَّهم به، لظهور الحَيْرة والذلِّ والانكسار على وجوههم.

٦٧ ـ فأمَّا مَنْ رجع إلى ربِّه طالباً غفرانه وعَفْوَه ممَّا كان فيه من كفر، وآمنَ إيماناً صحيحاً، وعمل عملاً صالحاً يُعبِّر فيه عن صدق إيمانه، فعسىٰ أن يكون من السُّعداء النَّاجين. فينبغي على العبد أن يكون على رجاء مع خوف بعد التوبة والإيمان والعمل الصالح، وأن يستمرَّ حاله كذلك، ليتحقَّق وعد الله، وهو وعدٌ حقٌّ مقطوع به، إذا حقَّق الشروط التي رُتِّب عليها الوعدُ.

٦٨ ـ وربُّك ـ أيُّها العبد الصالح للخطاب ـ المالك المُطلق، يَخْلق ما يشاء خلقه، ويصْطفي مَنْ يشاء اصطفاءه، فيصْطَفي ممَّا يخلقه شفعاء ويختارهم للشفاعة، ويفضِّل بعض مخلوقاته على بعض بما يشاء، ما استقام لهؤلاء المشركين أن يصطفوا ما شاؤوا، ويفضِّلوا بعض مخلوقاتِهِ على بعض، فيجعلوا منها شفعاء وشركاء لله! فليس لهم إلا اتِّباع اصطفائه سبحانه، وهو سبحانه لم يَصْطفِ شركاءهم الذين اصْطَفَوهم للعبادة والشفاعة على الوجه الذي اصطفَوْهم عليه، تنزَّه الله وتعالى عن شركهم.

٦٩ ـ وربُّك ـ أيُّها الصالح للخطاب ـ يَعلمُ ما تُخفي صدورُهم من العقائد والنيَّات، وما يُظهرون من أقوال وأعمال. وسيكون حسابهم يوم الدين على ما يكسبونه بإراداتهم الحرة من عمل باطن تستره صدورهم، وعمل ظاهر بجوارحهم.

٧٠ ـ وهو الله الذي لا معبود بحقٍّ إلا هو، المُسْتحقُّ وحدَه للحمد من عباده، يحمده أولياؤه في الدنيا، ويحمدونه في الآخرة في الجنَّة، وله وحده فَصْل القضاء بين العباد يوم الدين، لا يشاركه فيه نبيٌّ مرسل، ولا مَلَكٌ مُقرَّب، وإليه سبحانه وحده تُرَدُّون بالبعث بعد مماتكم للحساب، وفصل القضاء، وتنفيذ الجزاء.

قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾ ۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾

٧١ - قل - يا رسول الله ويا كُلَّ داعٍ إلى الله من أمته -: أرأيتم - أيها الناس - رؤية فكرية هادية إلى الحَقّ في ظاهرتي الليل والنهار، اللتين تفضّل الربُّ الخالق بهما عليكم رحمةً بكم، لو أنه - سبحانه - لم يجعل هذا النظام القائم بين الأرض والشمس، إذ تدور الأرض حَوْل نفسها باتّجاه الشمس في نظام دقيق جداً، بل جعل الأرض مظلمة دواماً، لا تُشرق عليها شمسٌ، يجعل فيها نهاراً، بل كان الليل دائماً لا ينقطع إلى يوم القيامة، مَنْ إلهٌ غير اللّهِ يأتيكم بنهار تُحقّقون فيه مصالح حياتكم؟! أين آذانكم التي تسمع بيانات الحقّ، وتنقلها إلى أجهزة التفكير فيكم حتى تعقلوها، أُصُمّت فلا تسمعون سَماعَ تدبُّر واعتبار؟

٧٢ - قل - يا رسول الله - لهم: أرأيتم رؤية فكرية هادية إلى الحقّ، إنْ جَعَلَ عليكم النهار دائماً إلى يوم القيامة لا لَيْلَ فيه، مَنْ إلهٌ غيرُ الله يأتيكم بليلٍ تستريحون فيه من عمل النهار؟ أين أبصاركم التي تُبصر آياتِ الله المشهودة في كونه، وتنقلها إلى أجهزة التفكير فيكم، فتستنبطون أنه لا ربَّ في الكون إلا الله، أَعَمِيَتْ أعينكم فأنتم لا تبصرون؟!

٧٣ - ومن آثار رحمة الله بكم - أيُها الناس -: أنْ جَعَل لكم الليل والنهار يتعاقبان بالظُلمة والضياء؛ لتسكنوا في الليل، ولتبْتغوا من رزق الله ومَطَالب حياتكم بالنهار، ونرغبُ في أن تشكروا؛ لنمنحكم سعادة الدنيا والآخرة.

٧٤ - وَضَع في ذاكرتك - أيُها المُتلقِّي لبياننا - يومَ يُنادي الله هؤلاء المشركين، فيقول لهم مُقرِّعاً ومُوبِّخاً: أين شركائي الذين كنتم تزعمون في الدنيا أنّهم شركائي؟

٧٥ - وأخرجنا وجَذَبنا بسرعةٍ من كلِّ جماعةٍ رسولهم، يشهد عليهم بأنه بلّغهم رسالة ربِّهم، ونَصَح لهم، فقلنا للأمم المُكذِّبة لرسلهم: هاتُوا حُجَّتكم بأنَّ معيَ شريكاً، فعلموا أنَّ الحقَّ كلَّه لله، وليس لهم شيءٌ من الحقّ، وبحثوا عن شركائهم لينصروهم، أو ليشفعوا لهم عند ربِّهم، فلم يجدوا لهم أثراً، إذ كانوا أوهاماً وأسماءً سمَّوها لا حقيقة لها، وذَهب عنهم ما كانوا يَخْتلقونه من الكذب على الله في الدنيا.

٧٦ - إنَّ قارون كان من بني إسرائيل قوم موسى - عليه السلام - فظلم قومه الإسرائيليين، وتَجَاوَزَ حدَّه عليهم في الظلم والكِبْر والتجبُّر والفساد في الأرض؛ إذ جعل نفْسه خادماً لمصالح فرعون وآله، في إذلال بني إسرائيل واستعبادهم، وأعطيناهُ من كنوز الأموال شيئاً عظيماً، اكتنزها في مباني حصينة، ذات أبواب تُقْفل بإحكام، فلا تفتح إلا بمفاتيح خاصَّة بها، حتى إنَّ مفاتيح خزائنه ليثقل حملُها على الجماعة الأقوياء من الرجال، فإذا حملوها مالت ظهوُرهم من ثقلها عجزاً عن النهوض بها قائمين، وحين اغترَّ بنعمة الله عليه وكفر بها، نصحه عقلاء قومه مُوجِّهين له أربع نصائح: **النصيحة الأولى**: لا تَبْطَر بكثرة مالك، وتستكبر وتتعالى به على الناس، ولا يفتنك الفرح به عن شكر الله؛ إنَّ الله لا يُحب البطرين الذين لا يشكرون الله على ما أعطاهم، فكن على حذر من نقمة الله عليك وعقابه، فَمَنْ جعل نفسه بإرادته في زمرة من لا يحبُّهم الله، فقد جعلها عُرضةً لنقمته وعذابه الشديد.

٧٧ - **النصيحة الثانية**: واطلب في تصرُّفك فيما أعطاك الله من الأموال الكثيرة، قاصداً ثوابَ ربِّك الذي لا يَنْفَد في الجنة، بأن تقوم بشكر الله فيما أنعم عليك، وتنفقه في رضاه، ولا تفهم أننا ننصحك، أن تجعل كلَّ ما آتاك الله مُوَجَّهاً لتحصيل ثواب الآخرة في جنات النعيم، بل نقول لك أيضاً: لا تترك حظَّك من الطيِّبات التي أحلّها الله لك، **النصيحة الثالثة**: وأحسِن إلى فقراء قومك ومساكينهم وذوي الضرورات والحاجات فيهم، بمالٍ أو قولٍ أو عمل كما أحسن الله إليك بنعمته، **النصيحة الرابعة**: ولا تطلب وسائل الفساد في الأرض من ظلم الإسرائيليين والعُدوان عليهم في أموالهم، وإذلالهم وتسخيرهم بالإكراه، ونَشْر الفاحشة، وطَرْح الشُّبهات، وتربيةِ النفوس على الحقد والحسد والكيْد، وإفساد القِيَم في الأخلاق والمعاملات والآداب؛ إنَّ الله لا يحب المفسدين. فكن على حذر شديد من نقمة الله عليك وعقابه، فمن جَعَل نفسه بإرادته في زمْرة الذين لا يحبُّهم، فقد جَعَلها عُرضةً لنقمته وعذابه الشديد.

قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ۖ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾

٧٨ ـ ردَّ قارون على الناصحين له من قومه: لم أملك ما ملكتُه من أموال، ولم أصل إلى ما وَصَلْت إليه من مَراتب الرِّفعة والعزَّة والعُلوِّ في الأرض، بعطاءِ أعطانيه الله إحساناً، بل أوتيتُه بناءً على علمي بأسباب اكتساب الأموال وجمعها، وأسباب اكتساب المجد ومراتب الرفعة والعزَّة!! أَجَهِلَ هذا المغرور بذكائه وعلمِهِ بالأسباب، ولم يعتبر بمَنْ أهلكهم الله من قبله من كفار القرون السابقة، وقد كانوا أشدَّ منه قوَّةً، وأكثرَ جمعاً للأموال؟ فلْيُعِدَّ نفسه لمصير يكون فيه هالكاً مُعذَّباً جزاءً له على جحوده وبغيه واستكباره وعدوانه على قومه. وحين يقْضي الله عزَّ وجلّ بإهلاك المجرمين في الحياة الدنيا، فإنه يُهلكُهم ويُنهي وجودَهم فيها، دون أن يسألهم ويُحاسبهم، إذ السؤال والحساب وفَصْل القضاء إنما يكون يوم الدين، قبل تنفيذ الجزاء. أما الإهلاك في الحياة الدنيا، فالغرض منه: إيقاف شرورهم، وتطهير المجتمع البشري من وبائهم.

٧٩ ـ فخرج قارون على قومه في مظاهر الغنى الفاحش، والتَّرف الزائد؛ ليُظهر تميُّزه على سائر قومه الإسرائيليين، ولِيَرُدَّ على ناصحيه بحركة عملية في مشهد يبْهَرُ به جمهور قومه. فلما مرَّ في أحياء قومه وطرقات مساكنهم أدهش عامة قومه، وسَوَادَهم الأعظم، قال الذين غرَّتهم مظاهر الحياة الدنيا وزيناتها، وتعلَّقت بها نفوسهم، وسيطرت على مشاعرهم وتصوُّراتهم: يا لَيْتَ لنا مثلَ ما أُعطي قارون من المال والزينة والجاه؛ إنَّ قارون لذو حظٌّ عظيم من الدنيا.

٨٠ ـ وقال الذين أُوتوا العلم الحقَّ، والبصيرة الواعية، للَّذين فُتنوا بالاستعراض الضخم الذي صنعه قارون، وتمنَّوا مثلَ ما أُوتيَ من مظاهر الحياة الدنيا وزينتها: احذروا هلاكَكُم وعذابكم، ممَّا فتنتم به، إذ تمنَّيتم أن يكون لكم مثْلُ ما أُوتي قارون، ما عند الله من الثواب العظيم الذي أعدَّه لأهل طاعته، خيرٌ من هذا الذي استعرضه قارون، وهذا الثواب العظيم مُعَدٌّ لِمَنْ آمن بما أوجب الله على عباده أن يؤمنوا به، إيماناً صحيحاً صادقاً، وعبَّر عن صحة إيمانه بالعمل الصالح، ولا ينال هذه الصفة المُؤهِّلة لثواب الله العظيم إلا الصَّابرون على طاعة الله، وعن زينة الحياة الدنيا.

٨١ ـ فَأَتْبعنا استعراضَهُ الكيديَّ التَّضليليَّ، بما يمحو آثارَهُ من نفوس الجمهور الأعظم من الإسرائيليين محواً كُليّاً، فَخَسفنا بقارون وبداره الأرض، فابتلعته هو وداره بما فيها من أموال وزينة، فلم توجد له من جماعة ذات قوة وبأس يمنعونَ عنه ما نزل به من عذاب الله، وما استطاع هو أن يدفعَ عن نفسه ما نَزَل به، لقد غيَّبته الأرض، وغيِّبت داره وكنوزه في باطنها.

٨٢ ـ ودخل في صباح ليلة الخَسْف بقارون، المفتونون من جمهور بني إسرائيل الذين تمنَّوْا باليوم الذي كان قبل ليلة الخسف، ما رَزَقه الله من الأموال والزينة، يقول بعضهم لبعض متوجِّعين ومُتحسِّرين: اسمع ـ أيها المخاطب ـ تعجُّبي من نفسي، كيف كنتُ جاهلاً عن حقيقة أنَّ الله يُوسِّع الرزقَ لِمَنْ يشاء من عباده، ويُضيِّق الرزق على مَنْ يشاء من عباده، لحكم يعلَمُها، وليس بسط الرزق تكريماً، ولا تضييقه إهانة، وإنما هو امتحان وابتلاء، لولا أنْ أنعم الله علينا النعمة العظمى بالإيمان، وأبْعدنا عن بَسْط الرزق المُطْغي والمُوصل إلى ما وَصَل إليه قارون، لَخَسَف بنا الأرض كما فعل بقارون. اسمع ـ أيُها المخاطب ـ تعجُّبي من نفسي، كيف كنتُ جاهلاً عن حقيقة أنَّ الشأن العظيم من مقادير الله في كونه، وسُننه في عباده، عدمُ ظفر الكافرين الذين يَجْحَدون نِعَمَ الله عليهم، ولا يؤمنون بما أَوْجَبَ عليهم أن يؤمنوا به.

٨٣ ـ تلك الجنَّة البعيدة المكان والمكانة، والمرتفعة المنزلة، نجْعَلُ نعيمَها مستقبلاً للَّذين لا يريدون اسْتكباراً عن الإيمان، واستطالةً على الناس، لتحقيق حظوظ أنفسهم من الدنيا، ولا الذين يدعون إلى عبادة غير الله، وينشرون الفاحشة، ويطرحون الشبهات، ويفسدون الأخلاق والقيم والآداب. والعاقبةُ الحسنة المحمودة في جنَّات النعيم لِمَنْ اتَّقى عقابَ الله بأداءِ أوامره، واجْتناب نواهيه.

٨٤ ـ مَنْ أتى ربَّه يوم القيامة بالحَسَنة المقبولة عنده تعالى، مُسجَّلةً في كتاب أعماله، مما كسبه الإنسان بإرادته الحرة ابتغاء مرضاة ربِّه، من حركة نفسيَّةٍ، أو فكريَّةٍ، أو جسديَّة، فَلَهُ عند ربِّه ثوابٌ مُضاعَفٌ بسببها، ومَنْ جَاءَ بالأعمال السَّيِّئة، فلا يُجْزَى الذين عملوا السَّيِّئات على أعمالهم إلا جزاءً مطابقاً لما كانوا يعملون من سوء في الدنيا، فلا يزاد أحدٌ منهم على ذلك.

إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾

سُورَةُ العَنكَبُوت

ترتيبها ٢٩ — آياتها ٦٩

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾ مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٥﴾ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾

٨٥ ـ إنَّ ربَّك الذي أَوْجَبَ عليك ـ يا رسول الله ـ تبليغ القرآن، فقمتَ بما فرض الله عليك من التبليغ، فكان قيامك بهذا الواجب سبباً في إخراجك من مكة إلى المدينة، لَمُرْجِعُكَ مُستقبلاً إلى بلدك مكة المكرَّمة على رُغم أنوف الذين أخرجوك من مكة مهاجراً إلى المدينة. قل ـ يا رسول الله ـ للمتعجِّلين الذين لا يعلمون سُنن الله في المجتمع البشريّ: ربّي أعلم من كلِّ ذي علم مَنْ جاء بالهُدى من الله، وبلَّغه للناس، فعاداه المُضلُّون، ويعلَمُ مَنْ هو في ضلالٍ مبين، وهو بحكمته لا بدَّ أن يَنصُرَ في آخر مراحل الصِّراع مَنْ جاء بالهُدى على مَنْ هو في ذهاب واضح عن الحق.

٨٦ ـ وما كنتَ ـ يا رسول الله ـ تتوقَّع أنْ يُوحىٰ إليك القرآن، لكنَّ الله رحمك فاصْطَفَاكَ نبيّاً رسولاً، ونزَّل عليك آيات كتابه لتُبلِّغها للناس، فلا تتأثَّر بما يُردِّده الجاهلون وقصيرو النظر الذين يتوهَّمون أنَّ ربَّك تَخَلَّى عن نُصرتك، إذ مكَّن أئمة الشرك في مكة من إيذائك واضْطهاد الذين آمنوا بك، إنَّك إذا تأثَّرت بما ينشره المُضلُّون، فَضَعُفَ يقينُك بأنَّ ربَّك سينصرُك في نهاية مراحل الصِّراع مع الكافرين، فإنك بذلك تكون بهذا التأثُّر ظهيراً مُعيناً للكافرين على نفسك.

٨٧ ـ ولا يَصرفُنَّك الكافرون عن تبليغ آيات الله والعمل بها، بعد وقت إنزالها إليك، وادْعُ إلى الإيمان بربِّك واتِّباع دينه، ولا تكوننَّ من المشركين، وإذا كنتَ مأموراً بالحذر من الشِّرك وأنت الرسول المُجْتَبى المعصوم، فأَوْلىٰ بأتباعك أن يحذروا من الشِّرك مهما كان خفياً، ولا يتصوَّروا أنَّ للأسباب تأثيراً دون خلق الله لما ينتُج عنها.

٨٨ ـ ولا تدع مع الله مدعُوّاً آخر، قد يتوهَّم الجاهلون من دعائك له أنه شريك لله في إلٰهيَّته، لا معبودَ بحقٍّ في الوجود كلِّه إلا الله وحده لا شريك له، كلُّ شيءٍ فانٍ إلا وجْهَه، له فَصْلُ القضاء بين الخَلْق يوم الحساب، وإلى حساب ربِّكم، وفصلِ قضائه، تُردُّون بعد بعثكم من قبوركم، فيَجْزيكم بأعمالكم التي قدَّمتموها في رحلة امتحانكم في الحياة الدنيا.

سُورَةُ العَنكَبُوت

١ ـ ﴿الٓمٓ﴾ سبق الكلام على الحروف المُقَطَّعة في أوَّل سورة البقرة.

٢ ـ أظنَّ النَّاسُ أن يُتركوا على ما هم عليه لقولهم: آمنَّا بالله؟! وهم لا يُختَبرون ويُمتَحنون بمشاقِّ التكاليف، ووظائف الطاعات، وأنواع المصائب في الأنفس والأموال؟ كلا لنَخْتبرنَّهم؛ لِنُبيِّن المُخلصَ من المنافق، والصَّادقَ من الكاذب، والصَّابرَ من الجزوع.

٣ ـ ونؤكِّد مُقسمين أننا اختبرنا الذين من قبلهم من أتباع الأنبياء بضروب الفتن وأنواع المحن، فمنهم من نُشِرَ بالمنشار، ومنهم من قُتل، فصبروا؛ فما لهم لا يصبرون مثلهم؟ فَلَيُظْهِرَنَّ الله الصَّادقين في الإيمان من الكاذبين فيه، باختبارهم اختباراً عملياً، يكشف صدقَ الصَّادقين، وكذب الكاذبين.

٤ ـ بل أظنَّ الذين يعملون السَّيِّئات، ومنها: النفاق بإعلان الإيمان باللسان، وإبْطان الكفر أن يُعْجِزونا، بكتم ما في قلوبهم عن إظهاره، وذلك باختبارنا لهم بمختلف الوسائل، ومنها: اختبارهم بالمكاره التي تضيق صدورهم عن الصبر عليها؟ بِئْسَ حكمهم هذا الذي يحكمون به؛ إذ هم ما قدروا ربَّهم حقَّ قدره، فالله لا يُعجزه كشف ما يكتُم عبادُهُ في قلوبهم، ولا تخفى عليه خافية.

٥ ـ مَنْ كان يتوقَّع لقاء الله يوم القيامة، ليحاسبه، وينفِّذ فيه جزاءه بالفضل في الجنة دار النعيم، أو بالعدل في النار دار العذاب الأليم، فَلْيَعْمَل عملاً صالحاً، ولا يُشرك بعبادة ربِّه أحداً، وليستعدَّ لذلك اليوم، فإنَّ الوقت الذي عيَّنه الله لهذا اللقاء لآتٍ في الزمان المُحدَّد له لا مَحَالة، والله وحده هو السميعُ العليمُ، يعلَمُ ما يعمل العباد من الطاعة والمعصية، فيثيبهم بالفضل أو يعاقبهم بالعدل.

٦ ـ ومَنْ بَذَل غاية ما لديه من طاقةٍ في سبيل إعلاء كلمة الله تعالى، بالصبر والثبات، واتِّخاذ الوسائل للخَلاص من الفتنة، بالهجرة إلى دار الإسلام التي أصبحت آمنة مطمئنة للمؤمنين، فلا يُجاهد إلاَّ لمصلحة نفسه؛ إنَّ الله سبحانه لغنيٌّ عن أعمال العالمين وعبادتهم، قادرٌ على نُصرة دينه دون مجاهدة المجاهدين المؤمنين، لكن ابتلاءهم في الحياة الدنيا اقْتضى تكليفَهم بالجهاد لنُصرة دينه، وتركَ الأمر للأسباب التي وضعها للناس.

وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِى كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى الصَّٰلِحِينَ ﴿٩﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ الْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ ۖ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾

٧ - والذين آمنوا بما يجب الإيمان به إيماناً صحيحاً صادقاً، وعبَّروا عن صدق إيمانهم الإراديِّ الاعتقاديِّ بعمل الصَّالحات، لَنُذْهِبَنَّ عنهم سيِّئاتهم، ونسترها بالحَسَنات والمغفرة، وعدم المُؤاخَذَة عليها، ولَنُثيبنَّهم بكلِّ أعمالهم الصالحة التي عملوها في الحياة الدنيا؛ لأنها هي الأحسن من سائر أعمالهم المباحة والسيِّئة، ونعطيهم أكثر مما عملوا ضمن قانون المكافآت: الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمئة إلى أضعاف كثيرة.

٨ - وأمرنا الإنسانَ بوالديْهِ أن يبرّهما، ويُحسن إليهما، ويطيع أمرهما في المعروف، وإنْ اشتدَّا عليك في الطلب - أيُّها الابن المؤمن - مستخدمين وسائل الحيلة والمُلاينة للإقناع والتحويل عن الإيمان؛ لتُشرك بي شريكاً ما، لا تعلم أنه يستحقُّ العبادة، فلا تَسْتجب لهما في ذلك؛ لأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، إليَّ وحدي رجوعكم، ومكان رجوعكم، وزمانه، فأخبركم بصالح أعمالكم وسيِّئاتها، وأُجازيكم عليها.

٩ - والذين ثبتوا على إيمانهم الصحيح الصادق، وعملوا الصالحات الدالَّة على صدق إيمانهم الإراديِّ الاعتقاديِّ، لَنُدخِلَنَّهم الجنَّة في زمرة الكاملين في الصلاح من الأنبياء والصِّدِّيقين.

١٠ - وَوُجِد فريقٌ من النَّاس مَنْ يقول بلسانه: آمنَّا بالله، حمايةً لأنفسهم من جماعة المؤمنين، أو طمعاً بمغانم ينالونها مع المؤمنين، إذا نصرهم الله على أعدائهم، فإذا أصاب هذا الفريق مع المؤمنين أذىً، شكَّ في حكمة الله في ابتلاء عباده، ورأى عدم تدخُّل الله في حماية المؤمنين من أسباب الكافرين الإيذائيَّة التعذيبيَّة، يُشْبه عَذَاب الله المُباشر للمؤمنين، وأقسم مؤكِّداً: لَئِنْ جاء فتحٌ ونصرٌ من ربِّك - يا رسول الله - للمؤمنين، ليقولَنَّ هؤلاء المنافقون للمؤمنين: إنَّا كنَّا معكم على عدوِّكم، وكنَّا مسلمين، وإنما أُكرهنا حتى قلنا ما قلناه. أوليس الله بأعلَمَ من كلِّ عليم بما في صدور العالمين جميعاً من الإيمان والنفاق؟

١١ - وليعلَمَنَّ اللَّهُ - بما يتعرَّض له الناس من امتحانٍ في ظروف الحياة الدنيا - علماً بعد الوقوع الفعلي مُطابقاً لعلمه السابق قبل الوقوع الفعلي، حقيقةَ أحوال الذين آمنوا صادقين، فثبتوا على الإيمان والإسلام عند البلاء، وليعلَمَنَّ حقيقة أحوال المنافقين بالارتداد عن الإسلام عند البلاء.

١٢ - وقال الذين كفروا من أهل مكة للذين آمنوا منهم: اتَّبعوا ديننا وملَّة آبائنا، واستمتعوا بلذَّات الحياة وطيِّباتها كما نستمتع، وإن كنتم تَرَوْن أنَّ سلوك طريقنا يُحمِّلكم خطايا تجاه ربِّكم، فنحن نتعهَّد لكم مُلْزمين أنفسنا بأن نحمل عنكم هذه الخطايا، ونكون نحن المسؤولين عنها، وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء؛ إنَّهم لكاذبون بادِّعائهم هذا الإلزام لأنفسهم بتحمُّل خطاياهم عنهم. إنَّهم يوم الحساب، وفصل القضاء، وتنفيذ الجزاء، يتبرَّؤون منهم، ويتهرَّبون من تحمُّل شيءٍ من خطاياهم، وخطايا كلِّ الذين يتَّبعونهم على ضلالهم، وهذا حال كلِّ المتبوعين والقادة المُضلِّين.

١٣ - وأقسم: ليحمِلُنَّ أثقال ذنوبهم الخاصَّة التي ارتكبوها بأنفسهم، وأثقال مَنْ أضلُّوا وصَدُّوا عن سبيل الله من الأتباع مع أوزار أنفسهم، وليُسْألُنَّ يوم القيامة عمَّا كانوا يكذبون من العقائد الكفريَّة، وأحكامهم في العبادات، وشؤون الحلال والحرام، وسوف يُحاسبون عليها، ويُجازَوْن.

١٤ - ونُقسم مؤكِّدين أننا أرسلنا نوحاً رسولاً إلى قومه؛ ليُبلِّغهم ديننا، فأقام فيهم يدعوهم إلى الله وتوحيده ألفَ سنة إلا خمسين عاماً، بمختلف وسائل الدعوة الجهريَّة والسريَّة، وصبر على أذاهم صبراً كثيراً، فأخذهم الماء الكثير الذي طاف بهم وعلاهم، أَخْذَ إهلاكٍ مُسْتأصلٍ، وكان إهلاكهم غرقاً في حال أنهم ظالمون كَفَرة مجرمون.

فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾

١٥ ـ فأنْجَيْنَا نُوحاً والمؤمنينَ الذين رَكبوا معه السفينة من الغرق، وجَعَلنا السفينة عبرةً للعالمين في أزمانٍ لاحقةٍ بعد الطُّوفان، تدلُّ على أنَّ الله جلَّ جلاله قد أهلك كفار قوم نوح بالطُّوفان العظيم، رغبةً في أن يتَّعظوا فلا يكفروا ولا يُعاندوا رُسُلَ ربِّهم.

١٦ ـ وأرسلنا إبراهيمَ عليه السلام إلى قومه، فاذكر ـ أيها المتلقِّي لآيات كتاب ربِّك ـ حين دعا قومه وقال لهم: اعبدوا الله وحده لا شريك له، واتَّقوا عقاب الله على ما أنتم فيه من شرك وضلالات سلوكيَّة ونفسيَّة وجسديَّة، ذلكم الذي هو إفراد الله بالعبادة، واتِّقاء عقابه، خيرٌ لكم في دنياكم وآخرتكم، إن كنتم تعلمونَ ما يجبُ عليكم تُجاه اللهِ ربِّكم، وتعملون بمقتضى هذا العلم مؤمنين به.

١٧ ـ ما تعبدون من دون الله إلاّ أصناماً تصنعونها بأيديكم، لا تسمع ولا تُبصر، ولا تنطق، ولا تنفع ولا تضر، وتفترون بأصنامكم كذباً على الحقيقة، حيث تُسمُّونها آلهة، وتجعلونها للَّهِ شركاء، وتزعمون أنها لكم شفعاء عند الله، إنَّ الذين تعبدون من دون الله لا يقدرون أن يرزقوكم أقلَّ رزق، فاطْلُبوا عند اللهِ الرِّزقَ، فإنَّه القادرُ على ذلك، واعبدوه وحده لا شريك له بالدعاء وبغيره من أنواع العبادات التي تُرضيه، واشكروا له ما يُمِدُّكم به من نِعَم، بالعمل بمراضيه، والإيمان بأنه لا ربَّ في الوجود غيرُهُ، ولا إلٰه سواه، وستُبعثون بعد الموت إلى الحياة الأخرى، وإلى حساب الله وحده، وفصل قضائه، وتنفيذ جزائه، تردُّون، فيجازيكم على ما عملتم.

١٨ ـ وقال إبراهيم لقومه: إن تُكذِّبوني ـ أيها الناس ـ في بلاغاتي التي بلَّغتُكم إيَّاها، فلقد كذَّب أُممٌ من قبلكم رسلها فيما دعتهم إليه من الحق، مثل قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم، فأهلكهم الله، واستأصل شأفتهم بأنواع مختلفة من العذاب، وبما أني رسول لا أملك إلا التبليغ، فاعلموا أنه ما على الرسول إلا التبليغ الظاهر الواضح، والمُظْهر المُوضِّح لقضايا الإيمان، ولشرائع الله وأحكامه، وليس مأموراً بالقيام بوسيلة من وسائل الإكراه والإلزام لإجْبار الناس على الإيمان، وتحويلهم عن الكفر.

١٩ ـ أعطَّلوا عقولهم ولم يَرَوْا رؤيةً فكريةً تُشبه الرؤية البصريَّة كيف خَلَقَ الله تعالى الخَلْقَ ابتداءً من مادة ـ كالنُّطفة والتراب ـ ومن غير مادة؛ ليستدلُّوا بذلك على قدرته على الإعادة، ثمَّ هو يعيد الخَلْق بعد إفنائه كما بدأه؟ إنَّ الخَلق الأول والخَلْق الثاني على الله خلقٌ يسير، لأنه إذا أراد شيئاً فإنما يقول له: كن فهو يكون بأمر التكوين.

٢٠ ـ قل ـ يا أيُّها الداعي إلى الله ـ لهؤلاء المُكَذِّبين الَّذين لا يؤمنون بالبعث والحياة الأُخرى: سيرُوا في الأرض مُنقِّبين وباحثين، وتتبَّعوا أحوال الخلق، فانظروا كيف خلقهم ابتداءً على أطوار مُختلفة، وطبائعَ مُتغايرة، وأخلاقٍ شتّى، ولن تصلوا إلى معرفة أسبابِ تُمكِّنكم من مُضاهاة خلق الله؛ لأنَّ بدء الخلق بأمر التكوين منه سبحانه، فهو إذا أراد خلق شيءٍ قال له: كن فهو يكون، ثم إنَّ الله الذي أنشأ النَّشأة الأولى، وأوْجَدَ الخلقَ من العَدَم يُنشئهم بأسلوب التربية المتدرِّجة التكامليَّة نشأةً ثانيةً بعد الموت، فكما لم يتعذَّر عليه إنشاؤهم مُبْدِئاً، كذلك لا يتعذَّر عليه إنشاؤهم مُعيداً بعد الموت ثانياً، إنَّ الله على كلِّ شيءٍ يشاؤه قدير، لا يُعجزه شيء أراده.

٢١ ـ يُعَذِّبُ مَنْ يشاء من خلقه على ما أسلف من جرمه في أيام حياته عَدلاً منه، ويرحَمُ مَنْ يشاء منهم ممَّن تاب وآمن وعمل صالحاً تفضُّلاً، وإليه وحده بالبعث تُرَدُّون وتُرجَعون، فيُجازيكم بأعمالكم.

٢٢ ـ وما أنتم ـ أيُّها الكفرة المجرمون ـ بفائتين من عذاب الله بالهَرَب في الأرض، ولا في السماء، وإذا التمستم الحماية من إنزال عذاب الله بكم، أو إهلاككم إهلاكَ استئصال، فلن تجدوا ولياً يمنعكم منِّي، ولا نصيراً يحميكم مِنْ عذابي.

٢٣ ـ والذين كفروا بآيات الله البيانيَّة المنزَّلة، والكونيَّة، والإعجازيَّة، والجزائيَّة العقابيَّة، وأنكروا البعث ولقاء الله يوم الدين، أولئك البُعداء المُتسفِّلون في دَرَكات جهنَّم ليس لهم مَطْمَعٌ في رحمة الله وجنَّته في الآخرة، وأولئك البُعداء عن رحمة الله لهم عذابٌ شديدٌ مُؤْلم في دار العذاب المُعدَّة للمجرمين، وهذا العذاب الأليم يذوقونه يوم الدين خالدين فيه أبداً، لا يُفتَّر عنهم.

فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوْمٖ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنٗا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٖ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضٗا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾ ۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٞۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٖ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾



٢٤ - فلم يكن جوابَ قوم إبراهيم له بعد دعوتهم لتوحيد الله، إلا أن قال بعضهم لبعض: اقْتلوه وتخلَّصوا من حُججه البرهانيّة، أو حَرِّقوه بالنار التي تُوقدونها له بحضور جماهير القوم؛ ليكون عبرةً لمن يعتبر، ولئلاً يتأثَّر بعض الناس بدعوته. وبنوا البنيان العظيم، وأوقدوا فيه النار؛ لإلقائه فيها، أمام مَشْهَد من قومه، فألقوْه فيها، فأنجاه الله من النار، وجعلها عليه برداً وسَلاماً، إنَّ في إحباط كَيْدِهم وإنجائه من النّار لعلاماتٍ وأدلةً وحُجَجاً لقوم لديهم الاستعداد لأن يؤمنوا مستقبلاً بالحقّ، ويتَّبعُوا ما جاءهم به رسول ربِّهم.

٢٥ - وقال إبراهيم لقومه: ما اتَّخذتم من دون الله إلاّ آلهةً باطلةً، للتَّودُّد بينكم، والتواصل لاجتماعكم على عبادتها في الدنيا، واتِّفاقكم عليها، وللخشية من ذهاب المودّة فيما بينكم إن تركتم عبادتها، ثمَّ يومَ القيامة تتبرَّأُ الأوثان من عابديها، وتَتَبرَّأُ القادة من الأتباع، ويلعنُ الأتباعُ قادتهم الَّذين كانوا يُلزمونهم بعبادة الأوثان، ويُزيِّنون لهم عبادتها، ويومئذ يكون مأواكم الذي تأوون إليه، وتقيمون فيه، النار التي تحترقون فيها، وما لكم يوم القيامة من ناصرين يحمونكم فيكشفون عنكم عذابَ ربِّكم الذي لا كاشف له إلا هو.

٢٦ - فصدَّق لوط بعمِّه إبراهيم نبياً رسولاً، وأسلم له، وبما جاء به مُتَّبعاً مطيعاً، وقال إبراهيم بعد أن يَئِسَ من استجابة قومه لدعوته، وأذن الله له بالهجرة: إني مُهاجرٌ من العراق إلى حيث أمرني ربِّي، وتاركٌ دار قومي إلى الأرض المباركة في الشام؛ إنَّه هو القويُّ الغالب الذي لا يُغْلَب، والذي يمنعني من أعدائي، الحكيم الذي لا يأمرني إلا بما يُصلحني.

وكان مع إبراهيم امرأته سارة، ولوط ابن أخيه، فنزل إبراهيم «فلسطين»، ونزل لوط «سدوم».

٢٧ - وَوَهَبْنا لإبراهيمَ بعد بكره إسماعيل، ابنه إسحاق، وحفيده يعقوب بن إسحاق عليهم السلام، وجَعَلنا في ذُرِّيَّةِ إبراهيم الأنبياء والكتب، فسائر الأنبياء والرُّسُل الَّذين كانوا من بعده من ذُرِّيَّتِهِ، بدْءاً بإسماعيل وإسحاق إلى عيسى، ومحمد خاتم الأنبياء والمرسلين، عليهم الصلاة والسلام أجمعين، وآتيناهُ أجره في الدنيا بالثناء الحَسَنَ، والرزق الواسع، والذُّرِّيَّة الطيِّبة، والنبوَّة من نَسْله، هذا في الدنيا، وإنَّه في الآخرة في زمرة الكاملين في الصلاح.

٢٨ - وضع في ذاكرتك - أيُها المُتلقِّي لبياننا - لوطاً حين قال لقومه: إنكم لتأتونَ الفِعْلَةَ القبيحة بإتيان الرجال شهوةً من دون النساء، ما تفوَّق عليكم فيها أحدٌ قبلكم، فأنتم أكثر الناس مُمارسةً لهذه الفاحشة الشَّنيعة الشَّاذَّة، الخارجةِ عن نظام الخَلق الربَّانيِّ السَّويِّ.

٢٩ - أإنكم تَقْضُون الشَّهوة من الرجال، وتقطعون على المسافرين الطريق بالقتل وأخذ المال والإكراه على فعل الفاحشة، وتأتونَ في مجلسكم الذي تجتمعون فيه الأعمال المُنكَرة بوقاحةٍ ومجون واستخفاف بكلِّ الفضائل وأعراف الناس؟ فكان آخرُ أمرِ لوط مع قومه أن أنذرهم بإهلاك الله لهم إذا استمرُّوا على كفرهم وقبائحهم ومنكراتهم الشنيعة، فما كان جوابَ قوم لوطٍ على إنذاراتهم بعذاب اللّهِ إلا أنْ قالوا مُستهزئين مُتَحدِّين: ائْتِنا بعذاب الله، إنْ كُنت من الصَّادقين أنَّ العذابَ نازلٌ بنا.

٣٠ - سَألَ لوط عليه السلام ربَّه بعد أن منعه قومه عن متابعة رسالته مَنْعاً جبْرياً، ورأى أنهم قد وصلوا إلى حالة ميؤوس من صلاحهم معها عن طريق إراداتهم الحرة، وبعد أن تحدَّوه بأن يأتيهَم بعذاب الله إن كان من الصادقين، فسألَ ربَّه قائلاً: ربِّ انصُرني على القوم المفسدين بإنزال العذاب عليهم، فاستجاب اللَّهُ دعاءه، وأرسل ملائكته لعذابهم، وَقَلْب بلادهم. وجَعَل الله لهؤلاء الرُّسل من الملائكة وظيفتين: **الأولى**: أن يبشِّروا إبراهيم عليه السلام بولدٍ ذكر من صُلبه من زوجته «سارة»، **والثانية**: أن يذهبوا إلى أرض «سدوم» التي فيها قوم «لوط» لإخراج «لوط» وأهله منها، باستثناء زوجته التي كانت على دين قومه الكافرين المفسدين.

وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾

٣١ ـ ولمَّا جاءت رُسُلنا من الملائكة إبراهيم بالبشرى من الله تعالى، بهبته ولدٍ له هو «إسحاق»، من زوجته «سارة»، ومن وراء «إسحاق» ولده «يعقوب»، وسألهم إبراهيم عن خَطْبهم، قالت الملائكة: إنَّا مُهلكو أهلِ هذه القرية الجامعة لقرى قوم لوط، وهي «سَدُوم»؛ إنَّ أهلها كانوا حتى هذه الساعة ظالمي أنفسهم ظلماً يستحقُّون عليه الإهلاك والتعذيب.

٣٢ ـ قال إبراهيم عليه السلام للملائكة إشفاقاً على لوط: إنَّ في هذه القرية المأمورين بإهلاك أهلها «لوطاً» ابنَ أخي، وهو نبيٌّ ورسول، فكيف تُهلكونها؟ قالت الرُّسلُ من الملائكة لإبراهيم عليه السلام: نحن أعلم بمَنْ فيها منك ومن غيرك، لَنُنَجِّيَنَّهُ وأهلَهُ المؤمنين منَ الهلاك الذي سينزل بهم، إلا امرأتَهُ، فإنها على مذهب قومها وملَّتهم، فسيشملها الإهلاك، وستكون من الباقين في أرض قومها، الذاهبين الهالكين، فلا تَخْشَ على لوط والمؤمنين المسلمين معه.

٣٣ ـ ولمَّا جاءت الملائكة لوطاً، اعترَتْه المَسَاءَةُ والغمُّ، مَخافةَ أن يتعرَّض لهم قومُه بسوء، كما هي عادتهم مع الغرباء، وقد ظنَّهم من الإنس، فخافَ عليهم، واشتدَّ عليه الأمر وثَقُلَ بسبب مَقْدمهم؛ لأنهم جاؤوا على صُور شُبَّانٍ مُردٍ حسان، وكشَفَ زائروه له أنهم رُسُل اللَّهِ من الملائكة مُكلَّفون أن يُهلكوا قومه أهل «سدوم»، وقالوا له: لا تخَفْ من أجل نفسك وأهلك المؤمنين، ولا تحزن على قومك، إنَّا مُهلكوهم، ومُنَجُّوك وأهلك، إلا امرأتَك كانت بتقدير الله وقضائه من الباقين في أرض قومها، الذاهبين في الهلاك والعذاب مع الذاهبين.

٣٤ ـ إنَّا سنُنزل على أهل هذه القرية وسائلَ تعذيب خاصَّة من جهة السماء، غير وسائل الإهلاك العام؛ بسبب ما كانوا يُكرِّرون في أعمالهم الخروج عن الحق، وأوامر الله ونواهيه.

٣٥ ـ ونؤكِّد لكم أننا تركنا من قُرى قوم «لوط» المدمَّرة عبرةً ظاهرةً، وعلامةً واضحةً، وهي آثار ديارهم الخَرِبة، أفلا يعقلون عقلاً علمياً ذا دلالةٍ على حكمة الله سبحانه وعدله في عباده، ويعقلون عقلاً إرادياً يمنعهم عن الكفر بالله وبرسله، وارتكاب الجرائم والمعاصي التي تُسخطه.

٣٦ ـ وأرسلنا إلى أهلِ «مدين» أخاهم نسباً ولغةً وموطناً «شُعَيْباً» عليه السلام، فقال عَقِبَ إرساله إلى أهل «مَدْين» مباشرة: يا قومِ اعبدوا الله وحده لا شريك له، بطاعته في فعل ما أمر بفعله، وترك ما نهى عنه، وبدعائه، والتقرُّب إليه بمحابِّه، وتوقَّعوا لقاء ربِّكم يوم القيامة، للحساب، وفصل القضاء، وتنفيذ الجزاء، فأمِّلوا ثوابه، واخْشوا عقابه، ولا تفسدوا في الأرض أشدَّ الفساد، بالعدوان على عباد الله، وتطفيف المكيال والميزان، وبخس الناس أشياءهم، وإفساد أخلاق الناس وسلوكهم، وإفساد أفكارهم ومفهوماتهم، وإفساد العمران الحضاري في المدن والقرى، وإفساد النبات والجوِّ.

٣٧ ـ فكذَّب أهلُ «مدين» شُعَيْباً في بلاغاته وإنذاراته بعذاب اللَّهِ لهم إذا لم يؤمنوا ولم يطيعوا الله في أوامره ونواهيه، ولم يُقْلعوا عن إفسادهم الشديد في الأرض، فقبضت عليهم من كلِّ جوانب أفرادهم وجماعاتهم الزَّلزلةُ الشَّديدة التي رَجَفَتْ منها قلوبهم؛ بسبب صَيْحة جبريل، فأصبَحوا في دارهم لاصقين بالأرض على ركبهم ووجوههم، ملازمين أمكنتهم من شدَّة الهَوْل مَيِّتين.

٣٨ ـ وضعُوا في ذاكرتكم ـ أيُّها المُكذِّبون رسولَ ربِّكم محمداً ـ كيف أهلكنا عَاداً قوم «هود» عليه السلام، وثمودَ قوم «صالح» عليه السلامَ، وقد تَبيَّنَ لكم بوضوح ـ يا أهل مكة ـ من منازلهم بالحِجْرِ واليمن، أنَّ الله دمَّرها عليهم، وأهلكهم إهلاكاً مُقْترناً بتعذيب؛ لأنهم أصرُّوا على كفرهم، مُتأثِّرين بما زيَّن لهم الشيطان؛ إذ حسَّن لهم أعمالهم الإجراميَّة والشركيَّة المتنوِّعة، فَصَدَّهم عن سبيل الحقِّ، وصراط الله المُستقيم بالأهواء والشهوات، وكانوا عالمين بالحقِّ الذي جاءتهم به رُسُلُ ربِّهم، مُدركين له ببصرٍ فكريٍّ قويٍّ، لكنَّهم كانوا رافضين اتِّباع الحقِّ جُحوداً.

وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾

٣٩ ـ وضعوا في ذاكرتكم ـ أيُّها المشركون المُكذِّبون رسولَ ربِّكم محمداً ـ هؤلاء البُغاةُ الجبابرةُ الثلاثة: **الأول**: «قارون» الذي كان من قوم موسى، فجعل نفسه خادماً للقصر الفرعونيّ، مقابل تمكينه من تحصيل ثروةٍ عظيمة، فبغى على بني إسرائيل اعتزازاً بما آتاه الله من أموالٍ ومكانةٍ عند فرعون وملئِهِ، **والثاني**: «فرعون» الذي كان طاغيةً جبَّاراً عنيداً، مُسْتَعبِداً بني إسرائيل، **والثالث**: «هامان» الذي كان الوزير الأول في القصر الفرعونيّ، والمُنَفِّذ لرَغبات فرعون مهما كان فيها من ظلمٍ وعدوانٍ وإفسادٍ في الأرض، ونقسم مُؤكِّدين أن موسى عليه السلامُ جاءَهم بالدلالات الفكريَّة والإعجازيَّة الواضحات، فبالغوا في كِبْرهم عن اتِّباع الحق، والاستجابة لدعوة موسى البرهانيَّة، وتمادَوْا في اضطهادهم مُعتزِّين بما لديهم من قوى قتاليَّةٍ متفوّقة، وجنودٍ مُدَجَّجين بالأسلحة، في عموم أرض «مصر» التي لهم سلطانٌ عليها، وما كانت قواهم مُتفوِّقة في الواقع حين قضى الله عليهم بأن يُهلكهم.

٤٠ ـ فكلَّ فريقٍ من المُهلكين السابقين قبضنا عليه قبض إهلاك بسبب ذنبه الشنيع الذي اقْترفه، فمنهم الذين رُمُوا بالحَصَى الصِّغار، وهم قومُ لوط في أرض «سدوم»، ومنهم من عذَّبنا وأهلكناه بالصَّرخة الشَّديدة، وهم ثمود قوم صالح، ومنهم من عذَّبناه وأهلكناه بالخسف، فغاص في الأرض هو وداره وماله، كقارون وأصحابه، ومنهم مَنْ عذَّبناه وأهلكناه بالإغراق، وهم قوم نوح، وفرعون وقومه، وما كان الله من الأزل إلى الأبد ليَظْلِمَهُم بالهلاك، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون بالإشراك وارتكاب الجرائم العظمى.

٤١ ـ وَصْفُ المشركين الذين اتَّخذوا آلهةً من دون اللَّهِ؛ ليكونوا لهم أولياء يحمونَهُم وينصرونهم بقوىً غيبيَّةٍ، يتوهَّمونها لهم، كوَصف بيت العنكبوت الذي تُلغي وجودَه قشَّةٌ ضئيلة الحجم، ضعيفة القوة، فهم واهمون في اعتمادهم على حماية أوليائهم من دون الله، والقُوى التي ينسبونها إلى أوليائهم هي من صنف خيوط العنكبوت، وإنَّ أضْعَفَ البيوت التي تتَّخذها الكائنات الحيَّة هو بيت العنكبوت، لو كانوا حريصين على أن يعلموا الحقيقة، لعلموا أنَّ اعتمادهم على قوى أوليائهم لنُصرتهم وحمايتهم أو دفع الضُّرِّ عنهم، يُساوي اعتمادُهم على قوَّةٍ تُساوي قوَّة بيت العنكبوت، ولو أنَّهم علموا هذه الحقيقة لنبذوا عقائدهم الشركيَّة، نَبْذ القشور إلى رُكام القمامات.

٤٢ ـ إنَّ الله المحيطَ بكلِّ شيءٍ علماً، يعلمُ أن المشركين ما يعبدون ولا يسألون لمطالبهم من شركائهم شيئاً مّا تُؤَهِّلُهُ صفاتِهِ لجلْب نفع لهم، أو دفع ضُرٍّ عنهم، إنَّما يدعون أوهاماً اصطنعوها افتراءً على الحقيقة، وجعلوها شركاء لله، وهو ذو القوَّة الغالبة، والحكمة البالغة، الذي يضع الأشياء في مواضعها على أحسن وجْهٍ وأكمله، ويختار أفضل المختارات وأتقنها في الأمور المختلفة، لما يُعطي أحسن النتائج.

٤٣ ـ وتلك الأمثال الساميةِ في أسلوبها ودلالتها نُبيِّنها للناس، من أجل إقناعهم وهدايتهم للحقِّ، وما يعقل دلالاتها العميقة، ويتمسّك بما تُرشد إليه إلاَّ العلماء الذين يعقلونها، ويفهمون الغاية منها، أما الذين يُعطِّلون أدوات المعرفة فيهم، ويضعون الأغشية على أسماعهم وأبصارهم وعقولهم، فليسوا جديرين بأن يعقلوها، أو يفهموا الغاية منها، أو يعملوا بهديها إذا هم فهموا معانيها.

٤٤ ـ خَلَقَ الله السَّمواتِ والأرضَ خلقاً متَّصفاً بأنه حقٌّ ثابت، ولم يخلقهما عَبَثاً ولا باطلاً، يدلُّ خلقه لهما على أنه لا ربَّ في الوجود غيره، إنَّ في ذلك الأمر العظيم لآيةً عظيمة دالة على وحدانيَّة الله وعظيم قدرته، لقوم لديهم الاستعداد لأن يؤمنوا مُستقبلاً.

٤٥ ـ انْطُق بلسانك ـ يا رسول الله ـ من حفظك في ذاكرتك ما أُوحِيَ إليك من القرآن، واعمل به، ودُمْ على إقامة الصلاة على وجْهِهَا الشَّرعيِّ في أوقاتها؛ إنَّ الصلاة من شأنها إذا أُدِّيت كما أمر الله بالوقوف بين يديه بغاية الذلِّ والخضوع، ونهاية التعظيم والخشوع أن تكون مانعةً لفاعلها عمَّا قَبُح من الأعمال، ولا سيَّما الكبائر المتعلِّقة بشهوات الفروج، وما يُنكره الشَّرع وينهىٰ عنه نهْيَ تحريم، واعلم مُتأكِّداً ـ أيها المُتلقِّي لبيانات ربِّك ـ أنَّ ذكر الله تعالى بالفكر والقلب واللسان ذو أثر أكبر في النهي عن الفحشاء والمنكر، ولا سيَّما إذا كان الذكر كثير الدوام، كما أنَّ ذكر الله تعالى إيَّاكم في نفسه وفي الملأ الأعلى أكبرُ من ذكركم إيَّاه، والله يعلم ما تصنعون من خير أو شر، لا يخفى عليه شيءٌ من أمركم، وسيُجازيكم على أعمالكم.



﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ (٤٦) وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلۡكَٰفِرُونَ (٤٧) وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ (٤٨) بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ (٤٩) وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَٰتٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٌ (٥٠) أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحۡمَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ (٥١) قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ شَهِيدٗاۖ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ (٥٢) ﴾

٤٦ ـ ولا تُجادلوا ـ أيُّها المؤمنون ـ أهل الكتاب من اليهود والنصارى إلاَّ بالأساليب الفكريَّة والقوليَّة التي هي أحسنُ وأفضل، فإن سَلَكَ مُجادلوكم مَسالكَ غَيْرَ مُهذَّبة القول، فتقيَّدوا أنتم بكلِّ قولٍ مُهذَّب، وأسلوب أفضل، وكونوا في مجادلتكم على حالة أرقى وأحسَنَ باستمرار من الحال التي يكونُ عليها مَنْ يجادلكم أدباً وتهذيباً، أو قولاً وفكراً، لكن الذين ظلموا من أهل الكتاب، وحَادُوا عن الحق، وأفرطوا في الاعتداء والعِناد، ولم ينفع معهم الرِّفق، فأغلظوا عليهم، وقابلوا السيِّئة بمثلها، وقولُوا للذين أوتوا الكتاب إذا حدَّثوكم بشيءٍ ممَّا في كتبهم: آمنَّا بالذي أُنزل إلينا من القرآن، وبالذي أُنزل إليكم من التوراة والإنجيل، ممَّا لم يدخل فيه تحريفٌ ولا تبديل، وإلهُنا وإلهُكم واحد، لا شريك له في ربوبيَّته، ولا في إلهيَّته، ونحنُ له وحده خاضعون مُتذلِّلون، منقادون مطيعون.

٤٧ ـ ومثلُ ذلك الإنزال الذي أنزلناه إلى رُسُلِ أهلِ الكتاب من قبلك، أنزلنا إليك ـ يا رسول الله ـ الكتاب المُصَدِّق للكتب السابقة، فالذين آتيناهم الكتاب من مُؤمني أهل الكتاب يؤمنون بأننا سنبعثك، ونُنزِّل إليك كتاباً، وبعض هؤلاء الذين يقولون: إنهم أهل الكتاب السابق مَنْ سيؤمن به، كعبد الله بن سلام، وبعض الذين يقولون: إنهم أهل الكتاب سيجحدون بآياتنا البيانيَّة في القرآن، مع استيقانهم في قلوبهم بأنها آياتٌ مُنزَّلات من لدنا، وما يُنكر آياتنا بعد ظهورها إلاَّ الكافرون الذين يسترون الحقَّ بزيوف الأقوال الإيهاميَّة، وزُخرف الأفكار الخداعيَّة، اتِّباعاً لأهوائهم ومصالحهم الدنيوية.

٤٨ ـ وما كنتَ تَتْلُو ـ يا رسول الله ـ من قبل ما أنزلنا إليك القرآن من كتب، ولا كنتَ تكتب بيمينك، ولو كنت تتلو من قبل الوحي إليك من كتاب، أو كنت كاتباً تخطُّ بيمينك، إذاً لارتاب المشركون من أهلِ مكة، وقالوا: إنَّه يقرؤه من كتب الأوَّلين، أو ينسخه منها. وفي الآية دليل صريح على أنه ﷺ كان أُميّاً لا يقرأ ولا يكتب، وفيها ردٌّ على من زعم أنه كتب.

٤٩ ـ ليس هذا القرآن موضعَ ارتياب، بل هو آياتٌ واضحاتٌ في صدور المؤمنين الذين حملوا القرآن، فهي تؤمن أنه من عند الله، وينكشف لديها إعجازه، وما ينكر آياتنا البيِّنات الواضحات بعد معرفتها إلا الظالمون المعاندون الذين يعلمون الحقَّ ويجْحدونه.

٥٠ ـ وقال كفَّار مكة تعنُّتاً وتشهِّياً: هَلاَّ أُنزل على محمد آيات خوارق كبرىٰ من ربِّه نشاهدها، كناقة صالح، ومائدة عيسىٰ، ونحوِ ذلك. قل ـ يا رسول الله ـ لهم: ما الآياتُ إلاَّ عند الله، وهو الذي إن شاء أن يُجريها لرسوله أجراها، وقل لهم أيضاً: هو على كلِّ شيءٍ يشاؤه عظيم القدرة لا يعجزه شيء، وما أنا بالنسبة إليكم وما تتَّصفون به من جحود وعنادٍ إلا مُرسلٌ من الله، نذيرٌ واضح مبيِّنٌ في إنذاري وكلِّ دعوتي، بعد تأدية الوظائف السابقة من تبليغ وبيان، وإقناع وتبشير، وليس إنزال الآيات بيدي.

٥١ ـ أنطَمَست بصائرهم، وعُطِّلت عقولهم عن إدراك الحقِّ المنزَّل من ربِّهم، وَلَمْ يكفِ هؤلاء المشركون المُقْترحون نزولَ الآيات، أَنَّا أنزلنا عليك ـ يا رسول الله ـ القرآنَ يُقرأ عليهم؟ فالقرآنُ معجزةٌ أتمُّ من معجزة مَنْ تقدَّم من الأنبياء؛ لأنَّ معجزة القرآن تدوم على مَرِّ الدهور والزمان، ثابتة لا تَضْمَحل، إنَّ في ذلك القرآن الذي جئتكم به من عند ربِّكم لرحمةً وتذكيراً لقوم لديهم الاستعداد النفسي والقلبي لأن يؤمنوا بالحقِّ الذي اشتمل عليه كتاب الله، فهم المنتفعون به، فإن آمنتم وأسلمتم فهو لخيركم، وإنْ كفرتم فقد أعْتَدَ ربُّكم لكم عذاباً أليماً في الجحيم يوم الدين.

٥٢ ـ قل ـ يا رسول الله ـ: أغنىٰ الله بيني وبينكم حالة كونه شاهداً على صدقي أني رسوله، وعلى تكذيبكم لي وردكم الحق الذي جئت به من عند الله، يعلم ما في السموات والأرض، فلا يخفى عليه شيء منهما، والذين آمنوا بما سوى الله، وكفروا بالله ـ مع هذه الدلائل الواضحة ـ، أولئك البعداء عن رحمة الله في اتِّجاه الدرك الأسفل من النار هم الخاسرون في الدنيا والآخرة؛ إذ قذفوا بأنفسهم إلى عذابٍ أبديٍّ في نار جهنَّم.

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِالْكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾ يَٰعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَاعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾

٥٣ - ويطلب الكفرة المُعَاندون منك - يا رسول الله - على سبيل التحدِّي أنْ تُعَجِّل لهم العذاب الذي أنذرتهم به، وحذَّرتهم منه، ولولا أجلٌ قد سمَّاه الله وبيَّنه، وحدَّده بزمنه في اللوح المحفوظ، لجاءهم العذابُ عاجلاً، ونؤكِّد أنَّ العذاب المُقدَّرَ المقْضيَّ به عليهم، سيأتيهم لا مَحَالة بصورةٍ مفاجئةٍ لهم، وهم لا يعلمون بإتيانه أدنى علم.

٥٤ - يطلبون إليك تعجيلَ العذاب في الدنيا، وهو واقعٌ بهم لا مَحَالة، وإنَّ جهنَّم لمحيطةٌ بكلِّ ذرَّةٍ من ذرَّات أجسام الكافرين يوم الدين.

٥٥ - يوم يَغْمرهم عذابُ جهنَّم من فوق رؤوسهم، ومن تحت أقدامهم، ويكون من الأهوال ما لا يحيطُ به الوصف، ويقول الله عزَّ وجلَّ لهم: ذوقوا جزاءَ ما كنتم في حياة امتحانكم تعملون من كفر وجرائم وقبائح وعدوان وظلم.

٥٦ - يا عبادي الذين آمنوا: إنَّ أرضيَ واسعةٌ، فإن كنتم في ضيق من إظهار الإيمان وعبادة الله وحده، فهاجروا إلى أرض تكونون فيها آمنين، لا تتعرَّضون فيها لاضطهاد الكافرين، وإذا هاجرتم فهاجروا ابْتغاء مرضاتي، ولا تقصدوا بهجرتكم مقاصد دنيويَّة، بل اجعلوا قصدكم عبادتي وحدي، لا تشركون بعبادتي شيئاً.

٥٧ - فلا يُثَبِّطنَّكم عن الهجرة الخوف من الموت، وأنتم مهاجرون، فكلُّ نفس حَيَّة ذائقةٌ طَعْمَ الموت، عند انتهاء أجل بقائها في الحياة الدنيا، بالفصل الكُلِّي بين الرُّوح المُمِدَّة بالحياة، وبين النفس التي تجتمع فيها خصائص الكائن القابل للحياة، وسيكون المذاق إما مُرّاً حنظلاً يتبعه العقاب الأليم، وإما أن يكون حُلواً هنيئاً يتبعه النعيم المقيم، فلا تُقيموا بدار الشِّرك خَوْفاً من الموت، ثمَّ إلينا وحدنا تُرجعون قهراً إلى الحياة الآخرة، بعد انتهاء مدَّة البرزخ الفاصلة بين الحياة الأولى والحياةِ الأخرى يوم البعث؛ لتلاقوا حساب ربِّكم، وفصل قضائه، وتنفيذ جزائه.

٥٨ - والذين آمنوا إيماناً صحيحاً صادقاً، وعملوا الصَّالحات المُعبِّرة عن صدق إيمانهم، لَنُنَزِّلَنَّهم قصوراً عالية رفيعة نفيسةً من أعلى الجنة، تجري من تحت شُرفاتها الأنهار البديعة، خالدين فيها دواماً، نِعمَ جزاء العاملين لله بطاعته.

٥٩ - هؤلاء العاملون لله بطاعته استحقُّوا الأجر العظيم في جنَّات النعيم، بسبب فضيلتَيْن تَحَلَّوْا بهما: **الفضيلة الأولى**: أنهم صَبَروا على الهجرة ومُفارقة الأوطان، وعلى أذى المشركين، وعلى المِحَن والمصائب، وعلى الطاعات، وعن المعاصي والشهوات، **والفضيلة الثانية**: أنهم على ربِّهم وحده لا شريك له يُفوِّضون تدبير جميع أمورهم، وتحقيق ما يرجون، مع القيام بالأسباب المُسْتَطَاعة الماديَّة والمعنويَّة طاعةً لأمره سبحانه ونهيه.

٦٠ - انظروا - يا مَنْ تريدون الطمأنينة من أجل أرزاقكم إذا هاجرتم في سبيل الله، أنَّ دوابَّ كثيرةً جداً من حولكم لا تطيق حَمْل رزقها من مواطن إقامتها، إلى منازل سفرها في جهات الأرض، اللَّهُ يرزقها في أسفارها، وفي المنازل التي تنزل فيها، وهو سبحانه يرزقكم في بلدكم، وفي الأماكن التي تهاجرون إليها، وهو السميع لكلِّ صوت، ومنه أصواتُ أدعيتكم تسألونه أرزاقكم، العليمُ المحيط بكلِّ شيءٍ علماً، ومنه علمه بأحوالكم، وبحاجاتكم إلى الرزق في كلِّ مكانٍ تنزلون فيه.

٦١ - وأقسم مُؤكِّداً لئنْ سألتَ - يا أيُّها الداعي - المشركين: مَنْ خَلَقَ السَّموات والأرض، وذلَّل الشمسَ والقمر لمنافع الناس؟ ليقولُنَّ: خَلَقَهُنَّ وسخَّرهُنَّ الله وحدَه، فكيف يُصرفون عن عبادةِ الله، ويجعلون لآلهتهم ربوبيَّة الرِّزق والنصر والتوفيق وسائر منافعهم، مع إقرارهم بتفرُّده سبحانه في خلق السموات والأرض، وتسخير الشمس والقمر؟

٦٢ - الله تعالى هو المُتفضِّل بالرزق على الخلق، يُوسِّعه لمَنْ يشاء مَنْ خلقه، فيُغْنيه من فَضْله، ويُضيِّقه ويُقلِّلُهُ له عن كامل حاجته وحاجة عياله مراعاةً لمصلحته؛ إنَّ الله بكلِّ شيء عليم، يعلم مقاديرَ الحاجات ومقاديرَ الأرزاق. ففتحُ أبواب الرزق في الدنيا لا تعلُّق له بالكفر والإيمان، بل هو منوط بمشيئته تعالى، ومشيئتُه في جميع الأحوال لا تفارق حكمته التي يختار بها أفضل الأشياء، فقد يُضيِّق على المؤمن امتحاناً لصبره، وتكفيراً لذنوبه، ويُوسِّع على الكافر استدراجاً له.

٦٣ - وأقسم مُؤكِّداً لئنْ سألتَ - يا أيُّها الداعي - المُشركين: مَنْ نزَّلَ من السماء ماء، فأحيا به الأرض، فأنبت فيها النباتات على اختلاف أنواعها؟ ليقولُنَّ: الله. قُل لهم - أيُّها الداعي عند انقطاع حُجَّتهم -: الله وحده يجب أن يكون له الحمد والثناء، وأن لا يُعبد معه غيره، فهذه الأرزاق في الأرض من النباتات حتى اللحوم الحيوانيَّة التي تنسبونها لآلهتكم في الأرض، لولا إنزال الماء من السماء لم تكن، وأنت تُقرُّون بأنَّ إنزال الماء من السماء من أعمال الربِّ سبحانه، وليس من أعمال آلهتكم التي تعبدونها من دون الله، بل أكثرهم لا يعقلون عقلاً علمياً؛ لأنَّ مداركهم مُغشَّىً عليها بزُيوف المفاهيم الباطلة، ولا يعقلون عقلاً إرادياً؛ لأنَّ أهواءهم وشهواتهم مشدودة بقوةٍ إلى شركهم ولوازمه في السلوك مع إقرارهم ولزوم الحُجَّة عليهم.

وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾

سُورَةُ الرُّومِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾

٦٤ ـ وما هذه الحياة الدنيا في سرعة زوالها عن أهلها وتقلُّبهم فيها وموتهم عنها، إلا لهوٌ قليل القيمة يشغلُ عمَّا يجب توجيهُ الجَهْد والعمل له، ولعب باطل لا يَجْلب نفعاً، وإنَّ حياة الدار الآخرة في جنَّات النعيم هي الحياة الحقيقيَّة الدائمة الخالدة التي لا يعقبها مَوْتٌ ولا يعتريها انقضاء، لو كانوا يعلمون فناء الدنيا وبقاء الآخرة، لَمَا آثروا الفاني على الباقي.

٦٥، ٦٦ ـ فإذا ركبَ هؤلاء المشركون في السُّفن، وعلتهم الأمواج، وخافوا الغرق، تركوا الأصنام، ولجؤوا إلى الله تعالى بالدعاء، مخلصين له العبادة والطاعة، فلمَّا أسكن الله البحر، وهيَّأ لهم وسائل النجاة، ونجَّاهم إلى البرِّ آمنين، وزالت عنهم الشِّدَّة، يُفاجِئون بأنهم يعودون إلى ما كانوا عليه من الشِّرك والعناد الذي يُفضي بهم إلى البغي في الأرض بغير الحق. ودوافع الشِّرك الذي يختارونه، بعد إخلاص الدين عند الشدَّة؛ ترجع إلى أمرين: **الأمر الأول**: رغبتهم في أن يكفروا بما آتاهم ربُّهم من نعم كثيرة تَعَاليًا واستكباراً، **والأمر الثاني**: أن ينطلقوا بفجور يستمتعون بكلِّ ما يشاؤون من مَتَاعات الحياة الدنيا، دون أيَّة ضوابط أو قيود، ودون مبالاةٍ بما يرتكبون من قبائح ومنكراتٍ، وبغيٍ وظلم وطغيان، فسوف يعلمون عاقبةَ أمرهم، وما أعدَّه الله لهم من عَذاب يوم القيامة.

٦٧ ـ أغفل أهلُ مكة ولم يَرَوْا بأعينهم، ويتفكَّروا بعقولهم أنَّا جعلنا بلدهم حَرَماً آمناً من أجل بيته المُشرَّف الذي بناهُ جدُّهم إبراهيم، وابنه إسماعيل بعيداً عن مواطن الشرك والكفر حينئذ في الأرض، وقد جعل الله فيه الأمنَ من الحوادث الكونيَّة المُدمِّرة، كالزلازل والبراكين، وجعل فيه الأمن بالأحكام التكليفيَّة الشرعيَّة الموروثة عن إسماعيل عليه السلام، بينما قبائل العرب مِنْ حولهم، يُستلبون ويُؤْخَذون بسرعة من قِبَل الغُزاة، بالقتل والسَّبْي والنَّهب، وأنواع الضرِّ والأذى؟ فهل من العقل والرُّشد وحُسْن تقدير عواقب الأمور أنْ يؤمنوا بالباطل من الشِّرك وأوثانه، ويكفروا بنعمة الله عليهم، ويُعرِّضوا أنفسهم لسخط الله وعقوباته العاجلة والآجلة؟!

٦٨ ـ لا يوجد أشدُّ ظلماً من هذين الفريقين: **الفريق الأول**: من كَذَب على الله، فزعم أنَّ له ولداً أو شريكاً في ربوبيَّته، أو إلهيَّته، أو ادَّعى أنه نبيٌّ أو رسول، أو حكم بحكم في الدين زاعماً أنه من دين الله دون أن يكون لديه دليل صحيح. **والفريق الثاني**: من كذَّب بمحمد ﷺ المؤيَّد بالآيات البيِّنات والمعجزات الباهرات، حين بلغته دعوته. أليس في جهنَّم مكان إقامة واستقرار لهؤلاء الذين كذَّبوا عليَّ، وكذَّبوا بالحقِّ الذي جاء به محمد ﷺ؟

٦٩ ـ وفي مقابل الفريقَيْن السابقَيْن من الكافرين المكذِّبين يوجد فريقان من المؤمنين: **الفريق الأول**: الذين جاهدوا أنفسهم من أجلنا، بالصَّبر على الطاعات، ومخالفة الهوى، وجاهدوا المشركين بالصبر على أذاهم، واتِّخاذ السُّبل للهجرة والفرار بدينهم؛ لَنُوفِّقنَّهم إلى سُبل نَجاتهم وسلامتهم من المشركين والمتجبِّرين، وتيسير طُرق هجرة آمنة، معها تأمين رزقهم ومعاشهم، **والفريق الثاني**: المحسنون، الذين أحسنوا التصرُّف، واتَّخذوا الشروط السببيَّة المُلائمة، وإنَّ الله لَمَعَ المحسنين مُصَاحبٌ لهم بالنصر والمعونة والتأييد.

سُورَةُ الرُّومِ

١ ـ ﴿الٓمٓ﴾ سَبَق الكلام على الحروف المقطَّعة في أوَّل سورة البقرة.

٢ ـ ٥ ـ غَلَبَتْ فارسُ الرُّومَ في أقْرَب الأرض من الجزيرة العربية، وهي أطراف الشام، وهم من بعد غَلَبة الفرس لَهم سيغلبونهم في مُدَّةٍ من الزمن، لا تزيد على عشر سنوات ولا تنقص عن ثلاث، ولِلَّهِ وحده كلُّ الأمر من تصاريف الكون قبل انتصار دولة الروم على فارس، ومن بعد انتصارهم، فَمَن غلب فهو بأمر الله تعالى وقضائه، ويوم يتحقَّق انتصار الروم على فارسٍ يفرح المؤمنون بنصر الله لرسوله والمؤمنين على مشركي مكة في غزوة «بدر»، وبظهور الروم أهل الكتاب على فارس عُبَّاد النار. بيده سبحانه النَّصر، ينصُرُ مَنْ يشاء، ويَخْذل من يشاء، وهو القويُّ الغالب الذي لا يُغالَب، الدائم الرحمة بالمؤمنين. وقد حقَّق الله وعده، فانتصر الرسول ﷺ وأصحابه على مشركي قريش في غزوة بدر الكبرى، وانتصر الروم على الفرس بعد سبع سنين، فكان ذلك آيةً بيِّنة شاهدةً على صدق محمد ﷺ؛ لما فيه من الإخبار بالغيب الذي لا يعلمه إلا الله.

وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُا۟ وَكَانُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٣﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾

٦ - وَعَدَ الله المؤمنين وَعْداً بظهور الرُّوم على الفرس، وبانتصار الرسول والمؤمنين المُسْتَضْعَفين على مشركي مكة، لا يُخْلِف الله وعده، أيّاً كان ممَّا يتعلَّق بالدنيا والآخرة، ولكنَّ أكثر الناس لا يؤمنون بكمالات صفات الله، وتنزُّهه عن النقائص، فهم لا يعلمون أنَّ وعد الله حقٌّ، وأنه لا يُخلف الميعاد.

٧ - سبب جهلهم بشؤونه تعالى، أنهم يقْصُرون تفكيرهم على ما يظهر من شؤون الدنيا، وأمور معاشهم وملذَّاتهم، وكيف ينعَّمون بها ويحصلون عليها، دون أن يفكِّروا فيما وراءَها من المقاصد العليا، وهم بالتأكيد المُشدَّد غافلون عن الحياة الآخرة وما ينفعهم فيها، غفلةً تامَّة، لا يتفكَّرون فيها، ولا يعلمون بها، ولا يعملون لها.

٨ - أنْطَمَسَتْ عقولهم وبصائرهم بتعلُّقهم بمتاعات الحياة الدنيا؟ ولم يتفكَّر هؤلاء المُكذِّبون بالله ولقائه تفكيراً سديداً في أنفسهم التي هي أقْرب إليهم من غيرها من المخلوقات، فيتدبَّروا ما أوْدَعها الله من غرائب الحكمة، فيعلموا أنه تعالى ما خلق السَّمواتِ والأرضَ وما بينهما إلاَّ بالحقِّ الثابت، ولوقتٍ معلوم قدَّره الله تعالى إذا انتهت إليه فَنِيَتْ، وهو يوم القيامة؟ والتفكُّر في خلق أنفسهم، وخلق السموات والأرض وإتقان صنعهما وتسخيرهما للناس، وجعل كل شيء فيهما ذا أجل تنتهي عنده وظيفته، دليلٌ على أنَّ السموات والأرض وما فيهما ومَنْ فيهما مخلوقات لغاية، والتفكُّر في خلق الناس يدلُّ على أنهم مخلوقون للامتحان، والامتحان يَقْتضي الجزاء، ولا بدَّ من حياة أخرى يتحقَّق فيها الجزاءُ الأمثل، وإنَّ كثيراً من الناس بلقاء ربِّهم لجاحدون منكرون؛ لأنَّ الإيمان بالآخرة يجعلهم يتركون كثيراً ممَّا يُحبُّون من الدنيا، وهم مُتشبِّثون بها، لا يَسْهل على أنفسهم أن يتركوها.

٩ - أغَفِلُوا عن الآخرة، وجهلوا بأنَّ معادهم إلى الله بعد فنائهم؟ ولم يَسِر هؤلاء المُكذِّبون بالله الغافلون عن الآخرة مسافرين في الأرض، فينظروا بأعينهم إلى مَصارع الأمم قبلهم، وآثار بلادهم المُدمَّرة، فيعتبروا؟ وقد كان هؤلاء المُهْلَكون السابقون أقوى منهم أجساماً، وأعظم حضارة وعمراناً، وقَلَبوا وَجْهَ الأرض، ونقَّبوا ما فيها؛ ليستخرجوا مخزوناتها من مياهٍ وزروع ومعادن وكنوز، وعمروا الأرض أكثر ممَّا عَمَرها هؤلاء المشركون، وجاءتهم رُسُلهم بالمعجزات الواضحات، والكتب المُنزلات، فلم يؤمنوا، فأهلكهم الله بقضائه العادل، فما كان الله ليظلمهم بنقص حقوقهم، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون بكفرهم وبارتكابهم الجرائم الكبرى.

١٠ - ثمَّ كانت العقوبةُ المتناهية في السُّوء، وهي العذاب في جهنَّم، عاقبةَ الذين أساؤوا العمل؛ بسبب أنهم كذَّبوا بآيات الله الكونيَّة والبيانيَّة والإعجازيَّة والجزائيَّة العقابيَّة، وكانوا بها يستهزؤون، إنكاراً وجحوداً لها.

١١ - الله سبحانه الأزليُّ بلا بداية، الأبديُّ بلا نهاية هو الذي ينشىء المخلوقات كلها ابتداءً، ثمَّ يعيدهم بعد الموت أحياء، ثمَّ إليه وحده - أيها الناس - تُرجعون، لحسابه، وفصل قضائه، وتنفيذ جزائه.

١٢ - ويوم تقومُ ساعة البعث يَيْأَس الكافرون المُنْبعثون في المعاصي، والمعتدُون بذنوب كبيرة من كلِّ خير، ويسكتون وتنقطع حجَّتهم، وتصيبهم الحَيْرة.

١٣ - ولم يكن للمشركين في ذلك اليوم من أصنامهم التي عَبَدوها شفعاء يشفعون لهم عند الله، وكانوا بشركائهم جاحدين مُتبرِّئين، يتبرَّؤون منها، وتتبرَّأ منهم، ولكن بعد فوات الأوان، وانتهاء حياة الامتحان.

١٤ - ويوم تقومُ ساعة البعث يومئذٍ يفترق أهل الإيمان وأهل الكفر، ويتميَّز أصحاب الجنَّة من أصحاب النار.

١٥ - فأمَّا الذين آمنوا بالأركان الإيمانيَّة الستة، وعملوا الصَّالحات التي تُعبِّر عملياً عن صحَّة الإيمان الإراديِّ الاعتقاديِّ، فهم في جنَّةٍ، يتنعَّمون ويُسَرُّون ويُكرمون.

وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾

١٦ ـ وأمَّا الذين كفروا بالله، وكذَّبوا بآياتنا الكونيَّة والبيانيَّة والإعجازيَّة والجزائيَّة، وأنكروا البعث يوم القيامة، فأولئك البُعداء عن رحمة الله سوف يكونون مَسُوقين قهراً إلى دَرَكات تعذيبهم في جهنم، ومقيمين في العذاب لا يغيبون عنه، ولا يُخفَّف عنهم، جزاء ما كذَّبوا في الدنيا.

١٧ ـ فنزِّهوا الله ـ أيُّها المؤمنون ـ تنزيهاً عمَّا لا يليق به، وصِفُوه بصفات الكمال، بقلوبكم وألسنتكم وجوارحكم، وَصَلُّوا له حين تدخلون في المَسَاء، وهي: صلاة المغرب والعشاء، وحين تدخلون في الصباح، وهي: صلاة الصبح.

١٨ ـ وله سبحانه الحمد والثناء في السَّموات والأرض، يدلُّ كلُّ شيء على صفاته العُظمى، وأسمائه الحسنى، ويحمَدُهُ أهلُ السَّموات والأرض، ويُصَلُّون له، وصلُّوا لله عَشِيّاً، وهي: صلاةُ العصر، وحين تدخلون في وقت الظَّهيرة، وهي: صلاةُ الظهر.

١٩ ـ يُخْرِج اللَّهُ تعالى الحيَّ من ذاتِ الميِّت؛ فيجعل الميِّت حيّاً بإدخال الرُّوح في النَّفس بأمره التكوينيِّ المباشَر، ويُخرج الميِّت من ذاتِ الحيِّ، فيجعلُ الحيَّ ميِّتاً بفصْل الرُّوح عن النَّفس، ويُحيي الأرض بالمطر وإخراج النبات منها بعد يُبْسها وجفافها. ومثل ذلك الإخراج البديع العجيب الذي تشاهدونه من إحياء النباتات من بُزُورها، تُخرجون ـ أيها الناس ـ من القبور أحياءً يوم البعث، من بزرة صغيرةٍ محفوظةٍ في عَجْب الذَّنَب، فتنبتون كما تنبت النباتات من نَوَيات بُزُورها، ثمَّ يُنفخ في الصُّور، ويأمر الله عزَّ وجلَّ كلَّ روح أن تدخل في الجسد الذي نما على مثل صورته السابقة.

٢٠ ـ ومن آيات الله الدالَّة على عظمته وكمال قدرته: أنْ خَلَق أباكم آدم من تراب، وأنتم من نسله مخلوقون من تراب تَبَعاً له، كما أنَّ جَسَدَ كلِّ مخلوق من تراب تحوَّل بخلق الله إلى غذاء، فدماء، فَنُطَف، فأجنَّة، ثم إذا أنتم بعد تقلُّبكم في أطوار التكوين بشرٌ مكتملو الخلق، تنبسطون وتتفرَّقون في الأرض، وتتصرَّفون فيما هو قَوام معاشكم، وتتقلَّبون في أسفاركم ابتغاء رزقكم.

٢١ ـ ومن آياته الدالَّة على عظمته وكمال قُدرته: أنْ خَلَق لكم من جنسكم ـ أيُّها الرجال ـ أزواجاً، لتَميلوا إليهنَّ وتألفوهُنَّ، وتصيبوا منهنَّ متعةً ولذةً، وجَعَل بين الزَّوجين نوعاً من الحُبِّ الهادىء الثابت، وعاطفةً نفسيَّة تدفعكم إلى العطاء والمُسَاعَدَة، ومشاركة المعطوف عليه في آلامه وآماله، إنَّ في ذلك لعلامات متعدِّدات جليلات لقومٍ يتفكَّرون تفكيراً عميقاً متأنياً فيما خلق الله بين الأزواج من مودة ورحمة، وسكن نفسيٍّ.

٢٢ ـ ومن آيات الله العظيمة في كونه الدالأت على كثير من صفاته الجليلة، وأسمائه الحُسنى: خَلْقُ السَّموات مُزَيَّنةً بالكواكب للاهتداء بها في ظلمات الليل، وبالشَّمس التي سخَّر ضوءَها وحرارتها لحياة الحيوان والنبات، وبالقمر لمعرفة عدد السنين والحساب، وخَلْق الأرض التي تستوون على ظهورها، وما فيها من جبال وأنهار وبحار وخيرات عظيمة، واختلافُ ألسنتكم في اللغات واللهجات وأجناس النُّطق وأشكاله، وتَبَاين ألوانكم وصفاتكم، مع كَوْن الأصل واحداً؛ للتمايز وإمكان التعارف والتفاهم والتعبير عن مُرادات الأنفس؛ إنَّ في إدراك آيات الله في خلق السَّموات والأرض، واختلاف ألسنة الناس ولغاتهم، وألوانهم، إنما يتوصَّل إليه العالِمُونَ الذين يتابعون البحث العلميَّ التجريبيَّ لمعرفة أسرار نشأةِ وتركيب وخصائص هذه الظاهرات الكونيَّة، الدالأت على حكمة الخالق العظيم، وعلى قدرته على أن يخلق ما يشاء، وعلى إتقان صنعه لكلِّ ما خَلَقَ، جلَّ جلالُه وعَظُمَ سلطانه.

٢٣ ـ ومن دلائل القدرة: منامكم بالليل أو النهار للراحة من عَنَاء الكدِّ والكدح، وجعل ساعات يقظتكم ونشاطكم زمناً ملائماً لطلب أرزاقكم، ومطالب حياتكم، من فضل ربكم؛ إنَّ في ذلك لدلائل على كمال قدرة الله لقوم يسمعون سماعَ تدبُّر واعتبار. فنوم الناس بالليل والنهار، وعمل الناس لاكتساب الرزق وحاجتهم إليه من الأمور البدهيَّة التي يشترك في إدراكها الناس جميعاً، مهما تنازلت مُستوياتهم الفكريَّة، فلا يحتاج التبصُّر فيها إلى أكثر من لفت النظر بالقول، وذلك كافٍ بأن يشعروا بعجزهم، وبقدرة الله وحكمته.

٢٤ ـ ومن دلائل قدرته سبحانه: أن يُرِيَكمُ البرقَ من خلال السُّحب، فتخافون من الصَّواعق المُهلكة المدمِّرة، وتطمعون في الغيث، ويُنَزِّل من السَّحَاب مَطراً، فتحيا به الأرض بالنبات والريِّ للإنسان والحيوان بعد يُبْسها، إنَّ في ذلك لدلالاتٍ متعدِّدات جليلات لقومٍ يعقلون الأمور عقلاً علمياً فيفهمونها على وَجْهِها، ولقوم يعقلون بإراداتهم القويَّة نفوسَهم وأهواءَهم وشهواتهم عن ارتكاب المعاصي.

وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾

٢٥ - ومن الدلائل على كمال قدرته وحكمته: دوامُ قيام السموات والأرض، واستمساكُهما وبقاؤهما بأمره التكوينيّ وسلطانه الدائم على كل شيءٍ في كونه، ثمَّ إذا دعاكم بعد موتكم - أيها الناس - للبعث دعوةً من القبور، تُفَاجؤون بأنكم تخرجون منها أحياءً للحساب، وفصل القضاء، وتنفيذ الجزاء.

٢٦ - ولِلَّهِ سبحانه وحده كلُّ مَنْ في السموات والأرض من أحياءٍ ذوي علم، كلٌّ له خاضعون مطيعون لأمره سبحانه، إما بالاختيار، وإما بالجَبْر، فمن لم يكن مطيعاً لأمر الله التكليفيّ، كان مطيعاً وخاضعاً لأمر الله التكوينيّ بالقهر والجبر.

٢٧ - واللهُ وحدَه الذي يَبْدأ الخَلْقَ من العَدَم، ثمَّ يعيدهم إلى مثل ما كانوا عليه قبل أن يُميتهم، ويُفني أجسادهم، وهذا الخلق الثاني في مقاييسكم - أيها الناس - أهون عليه، لأنكم تَرَوْن أنَّ البدء على غير مثالٍ سَبَق أصعب من الإعادة، مع أنَّ الإعادة بالنسبة إلى الله سبحانه مثل البدء؛ لأنه إذا أراد أن يخلق شيئاً، فإنما يقول له: كن، فهو يكون فوراً، بدون فاصلٍ زمنيٍّ، وله سبحانه الوصف الأعلى في خلقه للسموات والأرض، فهذا الخلق أكبر من خلق الناس، وهو مَثَلٌ أعلى من قدرة الله عزَّ وجلَّ على الخلق، وخالق المَثَل الأعلى قادرٌ على خلق المَثَل الأدنى بَدَاهة، وهو ذو القوَّة الغالبة، الحكيم الذي يجري خلقَه وتصاريفَه على أفضل الاحتمالات وأحكمها، لما يُعطي أفضل النتائج.

٢٨ - بيَّن لكم شَبَهاً بحالكم - أيُّها المشركون - ذلك الشَّبه مُنْتَزَع من أنفسكم، لتقيسوا عليه: هل يُشاركُكم عبيدكم في أموالكم التي أعطيْناكم، فأنتم وهم مُسْتَوون في التصرُّف فيها؟ تخافون هؤلاء العبيد خيفةً كائنةً مثل خيفتكم مَنْ هو مِن نوعكم، فلا تتصرَّفون في شيءٍ ممَّا تملكون دون إذنهم، كما يخاف الحرُّ أن يستبدَّ بالتصرُّف في المال دون شريكه الحُر؟ فإذا لم تخافوا هذا من مَماليككُم، ولا تَرْضون لأنفسكم أن يُشاركوكم فيما رزقناكم من الأموال ونحوها، وهم أمثالكم في البشريَّة غير مخلوقين لكم. فكيف تشركون به سبحانه في الإلهيَّة مخلوقاته!؟ بل مصنوعَ مخلوقاته!؟ حيث تصنعونهم بأيديكم، ثمَّ تعبدونهم من دونه؟! كذلك التفصيل الذي فصَّلناه في هذا المَثَل الإقناعيِّ لإبطال الشِّرك نُفَصِّلُ الدلالات والبراهين والأمثال لقوم يعقلونها ويفهمون دلالتها، ويتبصَّرون فيها، ويعقلون عقلاً إرادياً، فيحجزون أهواءَهم ونفوسهم عن الاستمساك بالباطل واتِّباعه.

٢٩ - لا حُجَّة للَّذين أشركوا، ولكن اتَّبع الذين ظَلَموا أنفسهم بالشِّرك بالله أهواءهم الطائشة، وما تميل إليه نفوسهم؛ جهلاً منهم بغير علم، ودون تبصُّر بالعواقب، ولو أنهم كانوا على حذر من أهوائهم، وبصر بعواقب أمورهم لشدُّوا لجام أهوائهم، واستقاموا على سبيل الهدى، ولكنهم اتَّبعوا أهواءَهُم بغير علم، فكانوا من الضالِّين الظالمين لأنفسهم، وإذْ قد ضلوا بإراداتهم الحرَّة فلا بدَّ أن يُضلَّهم الله بأن يحكم عليهم بالضلالة، ومَنْ يستطيعُ أن يحكم بهداية مَنْ حكم الله عليه بالضلالة؟ لأنه انزلق إلى مواطن الظلم والكفر بإرادته الحرَّة، واتَّبع أهواء نفسه، وما لهم مَنْ ناصرين ينصرونهم فيدفعون عنهم عذابَ الله.

٣٠ - فلازم - أيها الموضوع في الدنيا موضع الامتحان - توجيهَ إرادتك باستقامةٍ على صراط الله، مائلاً عن كلِّ العقائد والمذاهب والأديان المُخالفة لدين الله الحقِّ، الزموا دين الإسلام والتوحيد، قابلين له، مُنْساقين إليه، لا تبديلَ لدينه الذي خلق الله الناس عليه، إذا خُلُّوا وأنفسَهم، دون أن تعترضهم الأهواء والوساوس، فلا تُبدِّلوا التوحيد بالشِّرك، ذلك الدِّين المأمور بإقامة الوجه له: هو الدِّين المستقيم الذي لا اعوجاج فيه، ولا انحراف عن الحقِّ بحال، وهو القيمة الحقيقية العظيمة الجليلة بين كلِّ المذاهب والأديان والاحتمالات الفكريَّة المخالفة له، ولكنَّ أكثر الناس لا يعلمون هذه الحقيقة؛ لأنهم صرفوا أذهانهم عن التبصُّر فيها، ومحاولة إدراكها؛ إذ ربطوا أنفسهم بحبِّ العاجلة، وترك الآخرة، والتولِّي عنها.

٣١ - وكونوا راجعين إلى الله بالرجوع إلى فطرتكم التي فطركم عليها، ومُقْبلين إليه سبحانه بالطاعة، واجعلوا بينكم وبين عذابه وسَخَطه وقايةً بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، وداوموا على أداء الصَّلوات الخمس في أوقاتها بحدودها وإتمام أركانها، وحفظها من أن يقع فيها خَلَلٌ، ولا تكونوا من المشركين بربوبيَّة الله، ولا بإلهيَّته، ولو كان شركاً خفياً، كتصوُّر أنَّ الأسباب ذات تأثير ذاتيٍّ بمُسبَّباتها، وكابْتغاء مُراءات العباد في الأعمال، لتحصيل منافع دنيويَّة.

٣٢ - ولا تكونوا من المنتمين إلى اليهودية والنصرانية الذين بدَّلوا دينهم، وغيَّروه، فأخذوا بعضه، وتركوا بعضه، وصاروا فرقاً مختلفة في الدين، كلُّ فرقة تُشايع إمامها الذي أضلَّها. كلُّ جماعة تشاكَلَتْ مبادئُهم وأهواؤهم، واتفقت أعمالهم بما لديهم ممَّا ابتدعوه من شركيات مسرورون راضون؛ لأنَّ هذه المُبتَدَعات تخدمُ مصالحهم ومنافعَهُم من دنياهم، ولا سيما أئمتُهم وقادتُهم.

وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوۡاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيۡهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنۡهُ رَحۡمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنۡهُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُواْ بِهِۦ يُشۡرِكُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةً فَرِحُواْ بِهَاۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ إِذَا هُمۡ يَقۡنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٣٧﴾ فَـَٔاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن رِّبٗا لِّيَرۡبُوَاْ فِيٓ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرۡبُواْ عِندَ ٱللَّهِۖ وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن زَكَوٰةٖ تُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُضۡعِفُونَ ﴿٣٩﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ ثُمَّ رَزَقَكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡۖ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفۡعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيۡءٖۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٤٠﴾ ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿٤١﴾

٣٣ ـ وإذا مسَّ النَّاسَ مسّاً خفيفاً ضُرٌّ في أنفسهم، أو أهليهم، أو أموالهم ولم يجدوا مَنْ يكشف عنهم ما مسَّهم من ضُرٍّ، دَعَوْا ربَّهم مُقْبلين إليه بقلوبهم ونفوسهم، راجعين بالتوبة وإخلاص العمل، ثمّ بعد مدّةٍ إذا أذاقهم نِعَماً هي آثار رحمةٍ منه، إذا فريقٌ منهم يعودون إلى الشِّرك، فينسبون ما أنعَمَ اللَّهُ به عليهم إلى الظواهر السببيّة التي يسَّرها الله لهم.

٣٤ ـ والباعثُ لهذا الفريق على شركهم، رغبتُهم بجُحُود ما آتاهم اللَّهُ من فضله، حتى لا يشعروا بأنهم مُلزمون بشكر الله بالعمل بمَراضيه، فتمتَّعوا ـ أيها الكفار ـ بتحقيق لذَّاتكم وما يَسُرُّكم في هذه الدنيا، فسوف تعلمون مصيرَ كفركم في الآخرة، وما تَلقَوْنه من العذاب الأليم.

٣٥ ـ بل أنزلنا على هؤلاء المشركين عن طريق رسولٍ من رُسلنا، حُجّةً وبرهاناً في كتابٍ صادقٍ من كتبنا، فهو ينطق بصحَّة ما كانوا في حياتهم الدنيا يشركون به؟ إننا لم نُنْزل كتاباً فيه آياتٌ يتكلّم تالوه بصحّة ما كانوا يشركون به.

٣٦ ـ وإذا أذقنا الناس نعماً هي من آثار رحمتنا، فرحوا وبطروا ولم يشكروا ربَّهم على نعمه، وإنْ تنزل بهم أحياناً نادرة سيِّئةٌ تُصبهم في أنفسهم، أو أهلهم، أو أموالهم؛ بسبب ما كسبت أيديهم من السَّيِّئات، يُفاجئون مُراقبهم المُتأمِّل في أحوالهم بأنهم يَيْأسون من رحمة الله.

٣٧ ـ أنْطَمَسَتْ بصائرهم، ولم يَرَوْا رؤْية علميَّة، شبيهةً بالرؤية البصريَّة، أنَّ الله يُوَسِّع الرِّزقَ لمَنْ يشاء من عباده العاصين والطائعين، ويُضيِّق الرزق ويُقلِّله على مَنْ يشاء ابتلاءً وامتحاناً، بحسب ما تقتضيه حكمته؟ ولا يدلُّ البسْط على رضا الله تعالى، ولا التضييق على سَخَطه؛ إنَّ في ذلك التوسيع والتضييق والتفضيل بين العباد لآيات متعدِّدات على حكمة الله في اختياراته، يُدركها القوم المُسْتَعِدُّون لأنْ يؤمنوا بحكم الله الجليلة، في اختياراته لعباده وما يريده لهم من بسْط وقبْض، وعطاءٍ وإمساك.

٣٨ ـ فأعطِ ـ أيُّها المؤمن ـ صاحب القرابة منك حقَّه من البرِّ والصِّلة، والمودّة والزيارة، وحُسْن المعاشرة، وإنْ كانوا محاويج وأنت مُوسرٌ فأنفق عليهم، وتَصَدَّق على المسكين الذي يتعرَّض بالسؤال، ويُعلن أنه ذو حاجة، وآتِ المسافر المنقطع عن أهله وماله، ليعود إلى بلده ودار إقامته، ذلك الإعطاء لذوي القُربى، والمسكين، وابن السبيل، خيرٌ للذين يطلبون ثوابَ الله بما كانوا يعملون، وأولئك الفضلاء بعيدو المنزلة، رفيعو المكانة هم الفائزون بثواب الله، النَّاجُون من عقابه.

٣٩ ـ وما أعطيتم قرضاً من المال بقصد الربا؛ ليزيد وينمو في أموال الناس، فيدفعوا لكم أجْرَ مرور الزمن على الأموال التي هي لكم عندهم، مُستغلِّين ضروراتهم وحاجاتهم، فلا يزيد عند الله، بل يمْحقه ويبطله. وما أعطيتم من صدقةٍ، تريدون بتلك الصَّدقة وجْهَ الله، فأولئك الفضلاء رفيعو المنزلة عند الله هم الذين يُضاعَف لهم الثواب أضعافاً كثيرة.

٤٠ ـ اللَّهُ سبحانه الذي خلقكم ـ أيُّها الناس ـ خَلْق إبداع على غير مثالٍ سبق، وخَلْق تصوير، فَجَعَلَكُم في أحسن تقويم نفسيٍّ، وأحسن صورة جسديَّة، ثم بعد أن نفخ في أجسادكم الرُّوحَ الإنسانيَّة، رزقكم بألطافه الخفيَّة من دماء أمَّهاتكم، ثم بالرَّضاع، فالطعام والشراب طَوَالَ حياتكم، ثمَّ يميتكم عند انتهاء آجالكم في الحياة الدنيا، ثمَّ يبعثكم من قبوركم للحساب والجزاء، هل بعضُ شركائكم الذين تعبدونهم من دون الله، مَنْ يخلق أو يرزق، أو يُميت أو يُحيي؟! تنزَّه الله وتسامى عن كلِّ ما يجعله المشركون شركاءَ له في ربوبيَّته أو في إلهيَّته.

٤١ ـ تدخُّل الناس في تغيير نظام الله في كونه، فظهر بسبب تدخُّلهم فسادٌ خطيرٌ في البرِّ والبحر والجوِّ الجامع لهما، ومن ذلك: تصحُّر البيئة بسبب الإسراف في قطع الأشجار، وتلوُّث الهواء والماء بسبب مُخَلَّفات الآلات الصناعيَّة المُفْسدة، وظهور الأمراض المُستعصية على العلاج، وإفساد نظام الأسرة والعلاقات بين الرجال والنساء؛ لنذيقهم بعض ما كسبت أيديهم من المكارهِ والآلام والعقوبات، رغبةً في أن يرجعوا عن تماديهم في تدخُّلاتهم المُفْسدات في نظام الله في كونه. وتحقُّق هذه الآيَة في زماننا من معجزات القرآن الخبريَّة التي تحدَّثت عن غيب المستقبل.

قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۖ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَـٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَـٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾

٤٢ - قُل - يا رسول الله ويا كلَّ داعٍ إلى الله مِن أمّته - للناس جميعاً: سيروا في نَواحي الأرض سَيْرَ اعتبارٍ وتفكُّر، حتى تَصِلوا إلى ديار المُهْلكين السابقين، فانظروا كيف كان عاقبة الأمم السابقة المُكذِّبة، وتفكَّروا كيف أهلكهم الله إهلاكاً جماعياً مُسْتَأصلاً، فسترَوْن منازلهم وقصورهم ومعابدهم الوثنيَّة خاوية؛ بسبب أنَّ أكثرهم كانوا مشركين في ربوبيَّة الله، وفي إلهيَّته، واتَّخذوا من دون الله آلهةً باطلةً، وزعموا أنها تجلُبُ لعابديها نفعاً، وتدفعُ عنهم ضُرّاً.

٤٣ - فاجعل اتّجاه حركة حياتك - أيها المُمْتَحن في هذه الحياة الدنيا - مُلازماً لأداء واجبات الدين ونشره والدعوة إليه، واسْتَمْسك به من قبل أن يأتيَ يوم القيامة، لا يقدر على ردِّه أحدٌ من الخَلْق، يوم يأتي ذلك اليوم يتفرَّقُ الناس إلى أقسام مُتعدِّدة، وزُمَر مُختلفة بحسب ما قدَّموا لآخرتهم.

٤٤ - مَنْ كَفَرَ ومات وهو كافر، فعليه وبالُ كفره، بخلوده في عذاب جهنَّم، ومَن عمل عملاً صالحاً يُعبِّر به عن صحَّة إيمانِهِ الإراديِّ الاعتقاديِّ، فلأنفسهم يُوطِّئون منازلَ في الجنة، كما يُوطِّيء الرجلُ لنفسه فراشاً؛ لئلا يصيبه في مَضْجَعه ما ينغِّص عليه رقاده أو يُؤذيه.

٤٥ - لِيُثيبَ الله الذين آمنوا إيماناً صحيحاً صادقاً، وعملوا الصَّالحات من فضله وإحسانه ثواباً أكثر من أعمالهم، أما الكفار فلا نصيبَ لهم من فَضْله، بل يكون نصيبهم من عدله، وهو الخلود في عذاب النار خلوداً لا نهاية له؛ إنَّه سبحانه لا يحبُّ الكافرين؛ لسخطه وغضبه عليهم.

٤٦ - ومن العلامات الدالات على طائفة من صفات الله وأسمائه الحُسْنى: إرساله أنواعاً من الرياح مُبَشِّرات بسُحُب ذاتِ غيثٍ، يُنْبتُ الزرع، ويفيض به الرزق على الناس وسائر الأحياء، وليذيقَكُم من آثار رحمته بإنزال المطر الذي تحيا به البلاد والعباد، ولتجْريَ السُّفُن بهذه الرياح في البحر بأمره ومشيئته، ولتطلبوا - أيها الناس - بركوب السُّفن، وبتسخيرالله إيَّاها لكم من فضله، جَلْبَ أرزاق، واستخراجَ لحم طريٍّ، ونقل بضائع تجْنُون منها أرباحاً عن طريق التجارة مع أهل بلدانٍ نائية، وغيرَ ذلك من مصالحَ ومنافعَ لكم، ورغبةً في أن تشكروا ربَّكم - أيُّها الناس - على ما تفضَّل به عليكم من نعمه.

٤٧ - ونؤكِّد توكيداً مُشدَّداً أننا أرسلنا من قبلك - يا رسول الله - رُسُلاً كثيرين إلى أقوامهم، فجاؤوهم بالدلالات الواضحات، والمعجزات الساطعات الدالاَّت على صدقهم، فكذَّب أكثرهم برسلنا، فعذَّبنا الذين كذَّبوهم، ونصرنا الرُّسل وأتباعهم المؤمنين، وكان واجباً علينا نصرُ المؤمنين على أعدائهم المجرمين، ألزمنا به أنفُسَنا فيما دبَّرناهُ وقرَّرناهُ من تصاريفنا لعبادنا.

٤٨ - الله سبحانه هو وحده الذي يُرسل الرياح على اختلاف أنواعها، وشدَّتها وضعفها، ودرجات حرارتها وبرودتها، فتنشر الرياح السَّحابَ وتُحرِّكه وتهيّجه، فيمدُّهُ الله في السماء كيف يشاء هنا وهناك في قلة أو كثرة، ويجعله قِطَعاً مُتفرِّقة، فترى - أيها الرائي - المطر يخرج من خلال السَّحاب وفُرَجه، بتقدير الله وقضائه وعلمه وحكمته، فإذا أصاب الله بالمطر مواضعَ حاجاتٍ ومطالبِ مَنْ يشاء مِنْ عباده، فاجؤوا الناظر إليهم المتفكِّر في أحوالهم بأنهم يفرحون ويُسرُّون.

٤٩ - وقد كان شأنهم من قبل أن يُنزَّل عليهم المطر - لتطاول عهدهم به واحتباسه عنهم - ساكتين من شدَّة الحزن، قد استحكم يأسهم من نزوله، لا يملكون وسيلة يجلبون بها ما يغيثهم لأنفسهم وأرضهم وبهائمهم وسائر ما يحتاجون فيه إلى الماء.

٥٠ - فانظر - أيُها الناظر المُتفكرِّ المُتدبِّر - نَظَرَ تفكُّر وتدبُّر إلى آثار رحمة الله في كونه، وتصاريف خلقه: كيف يُحيي الله الأرض، بإخراج نباتها وزروعها وأشجارها وثمراتها بالماء الذي يُنزِّله من السماء، فيختلط بتراب الأرض، ثم يختلط بالبزور والجذور، فتتنامى بخلقه، حتى تكون الزروع والأشجار على وَجْه الأرض مختلفة الأجناس والأنواع؟! إنَّ ذلك العظيمَ الجليلَ القديرَ الذي أحيا الأرض بعد موتها، لمُحيي الموتى من الأحياء جميعاً، وهو - جلَّ جلاله - عظيم القدرة على إيجاد كلِّ شيءٍ يشاء إيجاده، وعلى إعدام كلِّ شيءٍ يشاء إعدامه، ومشيئتُهُ سبحانه في الإيجاد والإعدام لا تتعلَّق إلا بالجائزات العقليَّة، فلا تتعلَّق بالواجبات العقليَّة، وهي ذاته وصفاته، ولا بالمُستحيلات العقليَّة، كإيجاد ربٍّ مُمَاثل له، وكالجمع بين النقيضَيْن.

وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَا أَنتَ بِهَٰدِ الْعُمْيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَٰلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَٰبِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾

٥١ ـ وأقسم لئن أرسلنا على زروعهم ونباتهم ريحاً مفسدة، فرأوا نباتهم قد فسد بتلك الريح، فصار من بعد خضرته مُصْفراً، لأعلنوا إيمانهم وتوبتهم، ولاستمرُّوا دواماً بعد أن يصرف الله عنهم العذاب يكفرون بالله وآياته.

٥٢ ـ فإنَّك ـ يا رسول الله ويا كلَّ داعٍ إلى الله من أمته ـ لا تُسْمع الكفار موتى القلوب، الذين فقدوا كلَّ الحواس الظاهرة والباطنة التي تستثيرها دعوة القرآن؛ وإنك لا تُسْمع الصُّمَّ الذين انصرفت نفوسهم عن استماع كلِّ ما يتعلَّق بقضايا الدين انصرافاً كُليّاً، إذا نفروا من دعوتك، وتولَّوا عن قَبول مواجهتك، وابْتعدوا مدبرين، وبانعدام الاتِّصال ينعدم التلقّي والاستجابة، لأنَّ كلَّ أجزاء أسماعهم متَّصلة بأمور شهواتهم وأهوائهم ومطالبهم من دنياهم، فلا تحزن من عنادهم وعدم استجابتهم لك، ولا تُنفق وقتك وطاقاتك طمعاً في هدايتهم، فإنَّهم كالمَوْتى والصُّمِّ لا يسمعون، ولا يشعرون ولو كانوا حاضرين، فكيف إذا فرُّوا عنك مُدبرين؟

٥٣ ـ وما أنتَ ـ يا أيُّها الداعي إلى الله ـ بهادي عُمْي القلوب، صارفاً لهم عن ضلالتهم؛ بسبب إعراضهم الإراديّ عن الحقِّ والرَّشاد، ورؤية آيات الله في كونه، ما تُسمع سماعَ فهم وقَبول إلاَّ من يُصدِّق بآياتنا البيانيَّة والكونيَّة والإعجازيَّة والجزائيَّة تصديقاً صحيحاً دافعاً إلى الطاعة، فهم خاضعون منقادون مستجيبون لما دَعَوتهم إليه.

٥٤ ـ الله تعالى هو الذي بَدَأَ خلقكم من نُطفة، وأنشأكم على ضعف حال الطفولة، ثمَّ جعل الله فيكم من بعد ضعف الطفولة، شيئاً من القوَّة النِّسبيَّة التي تتدرَّج مُتَصاعدةً حتى تبلغوا كمال قوَّتكم، وهي قوَّة الشباب، ثمَّ جعل الله بعد هذه القوَّة ضعف الكِبَر والهرم، وضعف الشيخوخة والشَّيْب، فتتناقص لديكم هذه القوة تدريجياً حتى تصل إلى تمام الضعف ونهاية الكِبَر، إذا كنتم من المُعَمَّرين، أو توافيكم مناياكم قبل ذلك، يخلق الله ما يشاء خلقه من الضعف والقوة، والشباب والشَّيْبة، وهو العليم بتدبير خلقه، القدير على ما يشاء.

٥٥ ـ ويوم تقوم ساعة البعث إلى الحياةِ الأُخرى للحساب، وفصل القضاء، وتنفيذ الجزاء، يحلف غلاة الكفرة، المُنْبعثون بارتكاب الآثام الكبرى قائلين: ما أقاموا في مدافنهم بين الموت والبعث غير فترة قصيرة من الزمن؛ لأنَّ الإحساس بالزمن ومروره، يُلغىٰ من إدراك أرواحهم ونفوسهم، وهم ميِّتون قد انفصلت أرواحهم عن أجسادهم، كذلك كانوا يُصْرَفون عن الحقِّ في الدنيا، بزعمهم أن لا يبعثوا.

٥٦، ٥٧ ـ وقال الذين أُوتوا العلم والإيمانَ من الملائكة والأنبياء والمؤمنين للمجرمين الذين كانوا في الحياة الدنيا كافرين بأنباء يوم الدين: لقد مكثْتُم في مُدَّة البرزخ زمناً مكتوباً قضاهُ الله وقدَّره وكتبه في اللوح المحفوظ، حتى بُعثتم إلى يوم الدين، فهذا اليوم الذي أنتم فيه الآن هو يوم البعث الذي كنتم تنكرونه في الحياة الدنيا، ولكنَّكم كنتم في رحلة امتحانكم في الحياة الدنيا مُكذِّبين كافرين بيوم الدين، لا تعلمون هذه الحقيقة لأنكم كنتم مصروفين عنها، للاستمتاع بأنواع فجوركم، كافرين بما جاء به رسول ربكم من حق. فيومَ تَقُومُ ساعةُ البعث، وتَحضُر محكمة العدل الربّانيَّة، لا ينفع الذين كفروا حُججُهم الكواذب التي يُقدِّمونها، لسَتْر ذنوبهم، ولا يُستجاب لطلبهم رَفْعَ الملام والعَتْب والمؤاخَذَة عنهم، مهما تذلَّلوا وخضعوا داعينَ أن يرفع الله عنهم العقاب، فقد انتهت حياة الابتلاء، وجاء يوم الجزاء.

٥٨، ٥٩ ـ ونقسم مؤكِّدين أننا بيَّنَّا للنَّاس في هذا القرآن من كلِّ قضية من القضايا الدينيَّة أشباهَ ونظائرَ يُقاس عليها؛ رغبةً في أن يتذكَّروا، وينزجروا عمَّا هم عليه من الكفر، وأقسم لئن جئت ـ يا رسول الله ويا كلَّ داعٍ إلى الله ـ هؤلاء المعاندين المُتعنِّتين بآيةٍ كونيَّة أو بيانيَّة دليلاً على ما تعرضه من قضايا الدين، ليقولَنَّ الذين كفروا منهم للرسول وللذينَ آمنوا معه بمكابرة وعناد: ما أنت وأتباعك إلا على باطل في دعواكم. لقد أصرُّوا على رفضهم وعدم استجابتهم للحقِّ، اتِّباعاً لأهوائهم وشهواتهم، وبسبب ذلك جَرَت فيهم سُنن الله السببيَّة، فأقفلت قلوبهم، وطبع على إقفالها، فهي لا تستقبلُ الحقَّ، ولا تستجيب له، كما طبع الله على قلوب كفار الأمم الخالية؛ بسبب ما كسبوه بإراداتهم الحُرَّة من الكفر والتكذيب، ومثلُ ذلك الطَّبْع يَطْبع الله على قلوب سائر الذين لا يعلمونَ حقائق الإيمان لمخالفتها لأهوائهم وشهواتهم ورغبات نفوسهم.

٦٠ ـ فاصبر ـ يا رسول الله ويا كُلَّ داعٍ إلى الله ـ على ما ينالك من أذى قومك وتكذيبهم لك، واستمرَّ مُتحلياً بالصَّبر، حتى يأتيَ وعد الله؛ إنَّ وعد الله حقٌّ في نصرك وإظْهارك على عدوِّك، ولا يحملنَّك على الخِفَّة والعَجَلة وعدم الصَّبر الذين لا يوقنون بالبعث والحساب والجزاء.

سورة لقمان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾

سورة لقمان

١ ـ ﴿الٓمٓ﴾ سَبَقَ الكلام على الحروف المقطَّعة في أوّل سورة البقرة.

٢ ـ تلك الآياتُ العظيمة الرفيعةُ المكانة السامية الرُّتْبة، آيات الكتابِ ذي الحِكْمة البالغة في ألفاظه ومعانيه، علاماتٌ دالاَّتٌ على كونها مُنزَّلاتٍ من عند الله العليم الحكيم. والذي يجب على المؤمنين تدوينه بالكتابة، وجَعْله بين الناس كتاباً مُحرَّراً يرجعون إليه، محميًّا من التحريف والتغيير، بالزيادة، أو بالنقص، أو بالتبديل.

٣ ـ هذه الآيات حال كونها هُدىً ودلالةً على الحقّ والرُّشد، ورحمةً شاملةً لأهل مرتبة الإحسان؛ لأنهم يتلونها ويتدبَّرونها ويعملون بما جاء فيها من هُدىً.

٤، ٥ ـ المحسنون هم المتَّصفون بالأوصاف الثلاثة: **الأول**: الذين يؤدُّون الصَّلاة كاملةً في أوقاتها، **والثاني**: ينفقون من أموالهم في وجوه الخير التي أمر الله بالإنفاق فيها، **والثالث**: هم بالبعث والجزاء يوقنون يقيناً كاملاً. أولئك المُتَّصفون بهذه الأوصاف الثلاثة مُتمكِّنون من الهدى الذي جاءهم من ربِّهم، وأولئك هم ـ دون غيرهم ـ الفائزون في الدنيا والآخرة.

٦ ـ وفريقٌ من الناس مَنْ يبذل مالاً ليستمتع بالحديث الذي يُلهي عن طاعة الله، ويصدُّ عن مرضاته؛ ليُضِلَّ غيره عن دين الله وسَماع القرآن، ويتّخذ لذلك وسائل شتَّى من المُلهيات والمُسليات السمعيّة والبصريّة وغيرها، فيملأ بها أوقات الذين يريد إضلالهم، ويستنفد بها طاقاتهم الفكريَّة والنفسيَّة والجسديَّة، يفعل ذلك عن جهل، ولو عقل هؤلاء لَسَعَوْا فيما فيه فائدتهم ومنفعتهم العاجلة أو الآجلة، ويتَّخذُ هذا الفريق خطةً أخرى لتبرير عدم استجابته للحق، ولصدِّ غيره عن اتّباعه، وهي خطة الهزء والسخريَّة، ويجعل سبيل الله المُوصلة إلى السعادة الأبديَّة شيئاً مَهْزوءاً به، أولئك البعداءُ المُنحدرون في اتِّجاه الدرك الأسفل لهم عذابٌ يُهينهم ويذلُّهم.

٧ ـ وإذا تُتْلى على هذا الضالِّ آيات القرآن أدبر ونأى عنها جسدياً أو نفسياً، مترفِّعاً عنها بشدَّة، لا يعبأُ بها، ولا يرفع لها رأساً، يشبه حالهُ في نفوره النفسيّ عن آيات الله حال مَنْ لم يسمعها، كأنَّ في أذنيه صمماً وثقلاً شديداً مانعاً عن السمع، فبشِّره ـ أيُّها المؤمن ـ مُتهكِّماً به بعذابٍ مُؤْلم مُوجع في النار يوم القيامة.

٨، ٩ ـ إنَّ الذين آمنوا بالأركانَ الإيمانية الستة، وعملوا الصَّالحات التي تُعبِّر عملياً عن صحَّة الإيمان الإراديِّ الاعتقادي، لهم بفضل الله ورحمته جنَّات النعيم المقيم يومَ الدين، حالة كونهم خالدين فيها خُلوداً أبدياً بلا نهاية، وَعَدَهم الله ذلك وعداً، وحقَّه حقّاً، وهو سبحانه لا يُخلف الميعاد، وهو القويُّ الغالبُ الذي لا يُغلَب، الحكيم الذي يضعُ كلَّ شيء في الموضع الملائم، ويُقدِّر ويقضي على أكمل وَجْهٍ وأحسنِهِ وأتقنِهِ.

١٠ ـ من آيات الله في كونه الدالاَّت على قدرته العظيمة، وحكمته البالغة، أربع آيات ظاهرات: **الأولى**: خلق الله السمواتِ ورَفَعها بغير عَمَدٍ تراها العيون، لكنَّها جاذبيَّات هي بمَثَابة عَمَدٍ، ذات قدراتٍ تُحدِّد مواقع السموات السَّبْع وكلِّ شيء فيها، فلا تتحرَّك إلا بنظام ربَّانيّ يمنعها من التصادم ما لم يقْضِ الله بشيءٍ من ذلك، **والآية الثانية**: ألقى الله في الأرض جبالاً ثوابت راسيات؛ مَنْعَ أن تتحرَّك بكم الأرض وتضطرب، **والآية الثالثة**: نَشَرَ في الأرض وفرَّق من كلِّ جنس، ونوع، وصنف ممَّا خلق من الدوابِّ، **والآية الرابعة**: أنزلنا من السحاب مطراً، فأنبتنا به في الأرض من كلِّ صنف من أصناف الزروع والأشجار والثمرات، كريمٍ جامعٍ للصفات النافعة المحمودة بالنسبة إلى صنفه.

١١ ـ هذا الذي ذكرت ممَّا تَرَوْن ـ أيُّها المشركون ـ من الظاهرات الكونيَّة الأربع هو من آثار خلق الله، فأروني ـ أيُّها المشركون ـ بمُشاهَدة حسيَّة، أو بدليل عقليٍّ في رؤية ذهنية فكرية: ماذا خلقت آلهتكم التي تعبدونها من دون الله؟ إنَّهم لا يستطيعون أن يُثبتوا أنَّ شيئاً مِنَ الكون مِنْ خلق آلهتهم، بل المشركون في ضلالٍ عن الحقِّ جليٍّ واضح.

وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ ۖ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴿١٩﴾

١٢ ـ ونُقسم مُؤكِّدين لكم أننا آتَيْنا لُقْمان العلم والعمل والإصابة في الأمور، وقلنا له: اشكر لله؛ ومَنْ يشكر اللَّهَ بالإيمان والحمد والطاعة والعمل بمراضيه، فإنَّما يعود نفع شكره عليه؛ لأن الله يجزيه على شكره ثواباً عظيماً، ومن لم يشكر الله بالإيمان والحمدِ والطاعة والعمل بمراضيه، يعود عليه وبالُ كفره، والله غنيٌّ بذاته غير محتاج إلى شكر الشاكرين، محمودٌ من كلِّ شيءٍ في الوجود.

١٣ ـ وضَعْ في ذاكرتك ـ أيها المُتلقِّي آيات كتاب الله ـ نصيحةَ لقمان لابنه، وهو ينصحه نُصحاً مقروناً بما يثير الرغبة والرهبة: يا بُنيَّ القريب من قلبي، والحبيب لي: لا تجعل لله في اعتقادك أو عملك شريكاً له في ربوبيَّته لكونه، أو في إلٰهيَّته؛ لأنَّ التسوية بين مَنْ يستحقُّ العبادة، وبين مَنْ لا يستحقُّها ظلمٌ عظيم، بوضع العبادة في غير موضعها.

١٤ ـ ونصحنا الإنسانَ نصحاً مؤكَّداً بعهد أن يَبَرَّ والدَيْه، ويُحْسِنَ إليهما، ويطيعَ أمرهما في المعروف، ويجعل أمَّه أوفر نصيباً، حَمَلَتْه أمُّه حَمْلَ ضعفٍ في حالتها النفسيَّة، على ضعف في قواها الجَسَديَّة، ثمَّ بعد آلام الوضع ومتاعب النِّفاس تُعاني الأمُّ من متاعب الإرضاع والتربية، ويكون فطامه عن الرضاع في مدَّة سنتين لمن أراد أن يُتِمَّ الرَّضاعة الفُضلىٰ، وقلنا له: اشكر لله على نعمه التي لا تُحصى، بعبادته والتقرُّب إليه بمَراضيه، واشكر لوالدَيْك على ما تحمَّلا وما قدَّما في تنشئتهما وتربيتهما من عطاءات كثيرة، إليَّ وحدي المرجعُ للحساب والجزاء، فأُثيب على الشكر، وأعاقب على الجحود والكفر.

١٥ ـ وإن اشتدَّا عليك بالطلب ـ أيُّها الابن المؤمن ـ مُكْرِهينَ لكَ على أن تُشْرك بي شريكاً ما، لا تعلم أنه يستحقُّ العبادة، فلا تَسْتَجب لهما في ذلك؛ لأنه لا طاعةَ لمخلوق في معصية الخالق، ورافقهما في أمور الدنيا مُصَاحَبةً حسنةً، وقدِّم لهما معروفاً، كمالٍ وتكريم وخدمة، واتَّبع في مسيرتك في حياتك سبيل المؤمنين؛ لأنهم هم الذين رجعوا إليَّ بالإيمان والعمل الصالح والتوبة من الذنوب، ثمَّ إليَّ بعد رحلة الامتحان في الدنيا، وبعد موتكم رجوعكم، ومكان رجوعكم، وزمانه، فأُخبركم بما كنتم تعملونه في الدنيا من خير أو شر؛ لأجازيكم عليه.

١٦ ـ يا بُنيَّ القريب من قلبي، والحبيب لي: إنَّ الغائبة عند الخلائق إنْ كانت في الصِّغر قَدْر حبةٍ من خَردَل، فتكن هذه الغائبة الخفيَّة مع صِغَرها في باطن صخرةٍ، أو في مكانٍ ما من السَّموات، أو في مكانٍ ما مِنْ باطن الأرض، يَأْتِ بها الله من مكانها التي هي فيه؛ لأنَّه عالمٌ بها قادرٌ على استخراجها، إنَّ الله لطيف يُجري تدابيرَه وأفعاله برفقٍ تام، ينفذ بصفاته إلى أعماق كلِّ موجود خلقاً وإمداداً، وعلماً وتصاريف، عليمٌ علماً كاملاً شاملاً، لكلِّ ظواهر الأشياء وبواطنها، علمَ حضورٍ وشهود وتدبير.

١٧ ـ يا بُنيَّ القريب من قلبي، والحبيب لي: إني أُوصيك بهذه الوصايا الثمانية بعد أن أوصيتك بعهد مؤكَّد مُشدَّد: أن لا تُشرك بالله. **الوصيَّة الأولى**: أَدِّ الصَّلاةَ تامَّةً بأركانها وشروطها وواجباتها، **الوصيَّة الثانية**: وَأْمُرْ بالمعروف الذي يعرفه الشَّرع والعقل، **الوصيَّة الثالثة**: وانْهَ عن المنكر الذي ينكره الشَّرع والعقل، **الوصيَّة الرابعة**: وسيصيبك أذىً من الذين تأمرهم بالمعروف، وتنهاهم عن المنكر، فاصْبِر على ما أَصَابَكَ؛ إنَّ ذلك الصَّبر على ما يصيب القائم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يحتاج إرادة قوية رفيعة هي من مَسْتوى العزم الذي يدفع أصحابه إلى تنفيذ ما يريدون ممَّا يرضى الله، ولو اقترن به تحمُّل أشدِّ الصعوبات، وأعظم الآلام.

١٨ ـ **الوصيَّة الخامسة**: ولا تتكبَّر فتحقر الناس، وتُعرض بوجهك عنهم إذا كلَّموك، كما يفعل أهل الكِبْر، **الوصيَّة السادسة**: ولا تَمْشِ في الأرض مُخْتالاً متبختراً في مَشْيَتِك؛ إنَّ الله لا يُحبُّ كلَّ مُخْتالٍ في مَشْيِهِ، مستكبر عليهم بإعراضه عنهم، مبالغ في الفخر على الناس بنفسه، أو بما آتاه الله من قوَّةٍ، أو مال، أو نسب، أو جاه، أو ذكاء، أو جمال وجهٍ وحُسْن طلعة، ومن لا يحبُّه الله فإنه يُعرِّض نفسه لعقابه.

١٩ ـ **الوصيَّة السابعة**: وليكن في مَشْيتك توسُّطٌ بين الإسراع والتأنِّي، في سكينة ووقار، **الوصيَّة الثامنة**: واخفِض من صوتك بقدر حاجة المستمعين؛ إنَّ رفع الصوت دون حاجةٍ إلى رفعه من صفات الحمير، فلا تكن ـ يا بنيَّ ـ مُتَّصفاً بصفة هي من صفات الحمير التي تنهقُ فترفعُ أصواتها المنكرة؛ إنَّ أقبح الأصوات وأكثرها تنفيراً للأسماع لصوت الحمير.

أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾ ۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾



٢٠ ـ ألم تَرَوْا ـ أيُّها الصالحون لمثل هذا الخطاب ـ رؤية فكريَّةً وبصريَّةً، أنَّ الله ذلَّل لكم بتقديره وقضائه جميعَ ما في السموات وما في الأرض، وأتمَّ وأكمل وَوَسَّع عليكم ـ أيها الناس ـ نعمَه الكثيرة التي لا تستطيعون إحصاءها، حالة كون هذه النعم ظاهرةً مشهودةً لكم، وباطنةً لا تشاهدونها بأبصاركم، ويوجد فريقٌ من الناس كفارٌ بربِّهم على الرُّغم من كلِّ البراهين والأدلة العقليَّة والآيات الكونيَّة الدالاَّت على ربوبيَّة الله ووحدانيَّته، وهؤلاء الكفرة يجادلون في وحدانيَّة الله، وعظيم قدرته، وسامي حكمته بغير برهان عقليٍّ مُسْتند إلى مُقدِّمات عقليَّة، ولا علم تجريبيٍّ، ناتج عن تجارب مُتكرِّرة، ولا علم خبريٍّ آتٍ عن طريق كتابٍ منيرِ الدَّلالات، صحيح الثبوت.

٢١ ـ وإذا قيلَ لهؤلاء الكفَرَة المشركين المُقلِّدين لآبائهم: اتَّبعوا ما أنزلَ الله من حقائق إيمانية، وشرائع وأحكام على نبيِّه محمد ﷺ. قالوا: لا نتَّبع ما تدعوننا إليه، بل نتَّبع ما وَجَدنا عليه آباءَنا من عقائد شركيَّة. أيعاندون مُصرِّين على اتِّباع آبائهم، ولو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب النار المُسْتعرة يوم الدين؟

٢٢ ـ ومَنْ يكن منقاداً في رحلة امتحانه لأوامر الله ونواهيه من قِبَل وجهه طائعاً مختاراً، والحال أنه مُحْسِنٌ عبادته وطاعتَه لربِّه، فقد اعتَصَم بالعهد الأوثق الذي لا يُخاف انقطاعه، ويرتقي بسببه إلى أعلى المراتب والغايات في جنَّات النعيم، وإلى الله وحده مصيرُ جميع الأمور، ويُجازي الموضوعين في الحياة الدنيا موضع الابتلاء، بفصل القضاء، وتنفيذ الجزاء يوم الدين.

٢٣ ـ ومَنْ كفر من قومك فلم يستجب لدعوتك، فلا يحزنك ـ يا رسول الله ويا كلَّ داعٍ إلى الله ـ جحودَه وإعراضه، إلينا وحدنا مرجع هؤلاء يوم القيامَة، فنخبرهم بأعمالهم الخبيثة التي عملوها في الحياة الدنيا، ثمَّ نُجازيهم عليها، ونكشف ما كانوا يضمرون ويكتمون في صدورهم من سرائر، إنَّ الله عليم بما تكنُّه صدورهم، لا يخفى عليه سرُّهم وعلانيتهم.

٢٤ ـ نعطيهم ممَّا يُحبُّون من متاعات الحياة الدنيا متاعاً قليلاً في مقداره بالنسبة إلى نعيم الآخرة، وقليلاً في زمنه بالنسبة إلى الخلود الأبديِّ يوم الدين، ثمَّ بعد البعث والحساب نُلْجئهم بالجَبْر دون أن يكون لهم اختيار، إلى عذابٍ شديدِ الإيلام في جهنم.

٢٥ ـ ونؤكِّد لك أيُّها الداعي إلى الله وإلى وحدانيَّته في ربوبيَّته وإلهيَّته، لئن سألت المشركين بالله في حوار جَدَليٍّ: مَنْ خَلَق السموات والأرض؟ ليقولُنَّ بتلقائية حاضرةٍ في أذهانهم دون إبطاء: الله هو الذي خلق السَّموات والأرض. فإذا أقرُّوا بهذه الحقيقة، فقل لهم: الله وحده يجب أن يكون له الحمد والثناء، وأن لا يُعبد معه غيره، بل أكثرهم لا يستعملون ما وهبهم ربُّهم من موازين عقليَّة وفكريَّة؛ لإدراك أنَّ الخالق الربَّ لا يمكن أن يشاركه أحدٌ في تصاريفه وهيمنته بصفات ربوبيَّته على شيءٍ مما هو خلْقُه ومِلْكُه.

٢٦ ـ بما أنكم تؤمنون بأنَّ الله عزَّ وجلَّ هو خالق السموات والأرض، فاعلموا أنَّ للَّهِ سبحانه ما في السموات والأرض خلقاً وملكاً وتدبيراً، إنَّ الله هو الغنيُّ بذاته وصفاته الأزليَّة عن أن يتَّخذ شركاء له يُعينونه في تدبير أمور كونه، وله كمالُ الصِّفات، وهو بذلك محمودٌ، ينطق بحمده كلُّ شيء في كونه، وهو سبحانه حامدٌ يحمد مَنْ يستحقُّ الحمد والثناء من عباده.

٢٧ ـ ولو أنَّ أشجار الأرض كلها قُطِّعت أقلاماً، والبحر الغامر لمعظم سطح الأرض كان مداداً لكتابة كلمات الله، وهذا البحر يمدُّه بعد نفاده سبعةُ أبحرٍ، والخلائق يكتبون بتلك الأقلام مُستمدِّين مداد أقلامهم من البحور الثمانية، لتكسَّرت تلك الأقلام، ولنفد ذلك المداد، وما نَفِدَت كلمات الله؛ لأنها لا نهاية لها، إنَّ الله قويٌّ لا يُعجزه شيءٌ، حكيمٌ في اختياراته كلِّها، ومنها: حكمته في اختيار الكلمات الدالاَّت على كلِّ معلوم له سبحانه مهما دقَّ وصَغُر، فلا تختلط معلومةٌ بأخرى، ولا تشتبه كلمةٌ بأخرى شبيهةٍ بها.

٢٨ ـ ما خَلْقكُم ـ أيُّها الناس ـ ولا بعثكم إلى الحياة بعد الموت جميعاً في وقت واحد، بالنسبة إلى قدرة الله، إلا مِثْلُ خلقِ نفسٍ واحدة وبعثها، لا يتعذَّر عليه شيء؛ إنَّ الله سميعٌ لأقوالكم، بصيرٌ بأعمالكم الظاهرة والباطنة، لا تخفى عليه خافية.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾

سورة السجدة

٢٩ ـ ألم تفكّر ـ أيُّها المُكلّف ـ حتى ترى رؤيةً علميَّة، مُشابهةً للرؤية البصرية هذه الآيات الكونية الثلاث: **الآية الكونية الأولى**: أنَّ الله يُدخل ظُلمةَ الليل في ضَوْءِ النهار بالتتابع شيئاً فشيئاً، فيتتابع ذهاب الليل عند تتابع حالات الشروق، ويُدخلُ ضوءَ النهار في ظلمة الليل بالتتابع شيئاً فشيئاً، فيتتابع ذهاب النهار عند تتابع حالات الغروب، **والآية الكونية الثانية**: ذلَّل الشمس والقمر لمنافع العباد ومصالحهم، وضروريّات حياتهم، كلٌّ من الشمس والقمر يَجْري إلى بلوغ غاية الزمن المُحَدَّد له في علم الله تعالى، إذ يتوقَّف عنده جَرَيانهما، وأنَّ الله بما تعملون وتُدبِّرون سرّاً من مكر وكيْد، ضدَّ دعوة الرسول ﷺ خبير، لا يخفى عليه شيء.

٣٠ ـ ذلك الذي ذكرناه بياناً إقناعياً برهانياً للمشركين؛ بسبب أنَّ الله هو الإله الحقُّ المُستحقُّ وحده للعبادة، وبسبب أنَّ ما يدعون من دون الله هو الباطل الذي لا يستحقُّ العبادة، وبسبب أنَّ الله هو العليُّ في صفاته، له الصفات العليا والأسماء الحُسْنىٰ، الكبير في ذاته وأسمائه وصفاته؛ الذي ليس كمثله شيء.

٣١ ـ ألم تفكّر حتى ترىٰ رؤيةً علميَّةً ـ أيُّها المتلقّي لخطاب ربِّك ـ إلى هذه **الآية الكونية الثالثة**: آية السُّفن والمراكب التي تجري في البحر مَصْحُوبةً بإحسان الله وآثار رحمته؛ لِيُرِيَكُم ـ أيُّها الناس ـ بعض عجائب آياته؟ إنَّ في ذلك الذي دلَّت عليه ظاهرة جَرْي السُّفن في البحر لدلالات كثيرات لِكُلِّ صابرٍ صَبْراً كثيراً، وشاكرٍ شكراً كثيراً، يتوصَّل من خلال التفكُّر إلى معرفة أفضل الأسباب الصناعيَّة، لتسيير الفُلْك تسييراً يغلب فيه الأمن من عَوارض الهلاك، ولا يتوصَّل إلى ذلك الهدف العلمي إلا كلُّ صبَّار في بحوثه العلميَّة، ويدرك المتفكر عظمةَ إتقان الله لكلِّ ما خلق في كونه، ووافر إنعامه على عباده، وواسع رحمته بهم، فيزيد من طاعة الله والتقرُّب إليه؛ ليكون شكوراً للّهِ سبحانه.

٣٢ ـ وإذا رَكِب الناس في السُّفن، وعَلَتْهُم الأمواجُ كالجبال والسُّحُب، ابْتهلوا إلى الله بالدعاء وترك كلِّ ما عداه، فلمَّا أسكن الله البحر، وهيَّأ لهم وسائل النجاة، ونجَّاهم من تلك الشدَّة إلى البرِّ آمنين، فقسمٌ من المؤمنين أصحاب اليمين مُقْتَصِدٌ، وهم الذين يُؤدُّون حقوق مرتبة التقوى بتأدية الواجبات، واجْتناب المُحرَّمات، ومنهم أحسن حالاً من المقْتصدين، وهم السابقون بفعل الخيرات، ومنهم أسوأ حالاً من المقتصدين، وهم الظالمون لنفوسهم بكثرة معاصيهم. وأما الفريق الثاني فهم الكافرون أصحاب الشمال، وهم على دَرَكات مُتنازلات إلى قرار الجحيم، وأخسُّ أقسامهم الغدَّار الناقض لعهده، شديد الكفر عِنَاداً وَكِبْراً وفجوراً، وما يُنكر دلالة آياتنا الكونيَّة والبيانيَّة والإعجازيَّة والجزائيَّة العقابية ـ مع العلم بها ـ إلا كلُّ غدَّار مُراوغ، شديد الكفر مُمْعن في ستره لدلائل الحق.

٣٣ ـ يا أيُّها الناس امْتَثِلوا أمرَ ربِّكم واجْتَنبوا نواهيه، وخافُوا وقائع يوم يكون فيه الحساب، وفَصْل القضاء، وتنفيذ الجزاء، لا يُغني فيه والدٌ عن ولده شيئاً، ولا مولودٌ هو مُغْنٍ عن والده شيئاً؛ إذ لا يملك أحدٌ أن يُساعد أحداً أو ينصر أحداً؛ إنَّ وعدَ الله الذي وَعَدَ عباده بالبعث، والحساب، وفصل القضاء، وتحقيق الجزاء، حقٌّ ثابت، فلا تَخْدعنَّكم زخارفُ الحياة الدنيا، ولا تُلهينَّكم بلذاتها وزينتها عن عمل الآخرة، وطلب ما عند الله، ولا تَخْدعَنَّكم وساوس الشيطان ودسائسه وتزييفاته، فتصرفكم عن الله وطاعته.

٣٤ ـ إنَّ الله عنده مفاتيح الغيب الخمسة: **الأول**: علمُ وقت انتهاء ظروف الحياة الدنيا وأحداثها فلا يَدري أحدٌ من الناس متى تنتهي ظروف الحياة الدنيا سواه، **والثاني**: يُنَزِّل باختياره الحكيم المطر الذي فيه الخير العميم، فلا يعلم أحدٌ متى ينزل الغيث الذي يرزق الله به عباده، إلا الله، **والثالث**: يعلم علماً ذاتياً كلَّ ما في أرحام الإناث من كلِّ ذي حياة، حتى البعوضة فما دونها من الكائنات الحيَّة، علماً يشمل كلَّ الدقائق ويحيط بها، **والرابع**: ما تدري نفسُ مخلوقٍ ما الشيءُ الذي تكسبه في غَدِها من خيرٍ أو شر، **والخامس**: ما يدري مخلوقٌ ما بأيِّ بقعة من الأرض سيكون موته فيها، فقد سبق في تقدير الله وقضائه، تعيين المكان الذي يكون فيه موت النفس التي قضى الله عليها الموت، مع تعيين الزمان الذي يكون موتها فيه، ولله حكم جليلة في كلِّ تصاريفه وتقاديره، إنَّ الله عليمٌ علماً كاملاً شاملاً بهذه الأشياء وبغيرها، خبيرٌ على سبيل الحضور والشهود المُصَاحِبِ لكلِّ أجزاء العمل، ظواهرِهِ وبواطنِهِ.

سورة السجدة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٠﴾ ۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾

١ - ﴿الٓمٓ﴾ سبق الكلام على الحروف المُقطَّعة في أوَّل سورة البقرة.

٢ - تنزيلُ القرآن على محمد ﷺ لا شكَّ فيه أنَّه من ربِّ كل موجود سوى الله تبارك وتعالى، الذي لا ربَّ لهم سواه، وهو خالقهم ومالكهم ورازقهم والمتصرِّف فيهم بحكمته، والمُمدُّ لهم بعطاءات ربُوبيَّته.

٣ - بل أيقول أئمة الكفر: اخْتَلَقَ محمَّدٌ هذا القرآن من تلقاء نفسه ونسبه إلى ربِّه؟ كذبوا، بل هذا القرآن هو الحقُّ الثابت المُنزَّل عليك - يا رسول الله - من ربِّك؛ لتُبلِّغ وتُعلِّم وتُنذرَ قوماً الشيء الذي سَبَق أنْ أتاهم من تعاليم الدين، وهو ما جاء به إليهم إسماعيل بن إبراهيم، واستمرَّ مُتَوارَثاً فيهم، حتى غيَّروا وبدَّلوا، رغبةً في أن يهتدوا باختيارهم الحُرِّ للحق.

٤ - الله سبحانه وحده الذي خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام، ثم بعد مدَّةٍ متراخية عن خلق السموات والأرض استوى سبحانه على العرش الذي هو أعظم المخلوقات فوق السموات السبع ومحيط بها، استواءً يليق بجلاله، ليس لكم - أيُّها الناس - من غير الله الذين هم دونه سبحانه من وليٍّ يتولَّى أموركم بنصركم وحمايتكم ورزقكم، ولا شفيع يشفع لكم عند الله، أحُرِمْتُم من الإدراك السَّويِّ، والفهم الصحيح النافع، فلا تضعون هذه الحقائق في ذاكرتكم، ثم تتذكَّرونها عند المُناسبات الداعيات، فتعملون بمقْتضاها؟!

٥ - يُحكم الأمر كُلَّه، ويُنزل القضاء والقدر بدءاً من أول السَّماء حتى غاية مركز الأرض، ثم يصعد إليه الملائكة المأمورون بتنفيذ أحداث هذا التدبير في يوم كان مقداره ألفَ سنةٍ من أيام الدنيا التي تعدُّونها.

٦ - ذلك الخالقُ المُدبِّر هو عالمُ كلِّ ما غاب عن ذوي الإدراك من خلقه ممَّا لا تصل إليه حواسُّهم وعقولهم، وعالمُ ما حَضَرَ وظَهَر لهم من الأكوان الظاهرة التي تدرك بالحواس، لا تخفى عليه خافية، القويُّ الغالب المنتقم من أعدائه، العظيمُ الرحمة بأوليائه وأهل طاعته.

٧ - الله الذي جَعَل كلَّ شيءٍ خَلَقَهُ مخلوقاً حَسَناً بالنسبة إلى الوظيفة التي أعدَّها في كونه لها، وبدأ خلق آدم أبو البشر من طين مؤلَّف من امتزاج عُنْصُرَيَ الماء والتراب.

٨ - ثمَّ جعل ذرِّية آدم - بعد ذلك - متناسلةً من ماء ضعيف حقير لا يُعبأ به ولا يُصان.

٩ - ثمَّ في أطوارِ من الخلق، جَعَله جنيناً في بطن أمِّه، ونَفَخَ فيه من روحه التي هي خَلْقٌ من خلقه بأمر التكوين المباشر الصَّادر عنه، وخلق لكم - أيها الناس - جهاز السمع الذي تصل إليه المسموعات، ومراكز الإدراك للمرئيَّات في داخل الدماغ، ومراكز فهم الأمور والقضايا، وتحليل عناصرها واستنتاجها بالتفكير والتأمُّل، وهذه الأجهزة والأدوات تتطلَّب منكم أن تشكروا ربَّكم، فتؤمنوا به، وتستجيبوا لما يدعوكم إليه، وواقع حالكم - أيها الناس - يُثبت أنكم شكراً قليلاً جداً تشكرون ربَّكم.

١٠ - وقال منكرو البعث: أإذا ضاعت ذرَّات أجسادنا في تراب الأرض الواسعة، إننا لنعود خلقاً جديداً مطابقاً لما كنَّا عليه في الحياة الأولى؟ بل هم بالبعث بعد الموت كافرون، يسترون أدلته وبراهينه بالأدلة الواهية؛ لأنهم لا يريدون أن يلقوا ربَّهم ليحاسبهم ويجازيهم على ما هم فيه من شرك وجرائم.

١١ - قل - يا رسول الله ويا أيها الداعي إلى الله من أمَّته - لهؤلاء المشركين: ينزع أرواحَكم من نفوسكم مَلَكُ الموت الذي وُكِّلَ بكم، بعد أن تستوفوا حياتكم المُقدَّرة لكلِّ واحدٍ منكم، ثمَّ بعد مُدَّة البرزخ الفاصل بين الموت والبعث ترجعون إلى ربِّكم أحياء، فيجزيكم بأعمالكم.

وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾

١٢ ـ ولو ترى ـ أيُّها الصالح لمثل هذا الخطاب ـ ما سيحدث مستقبلاً حين يكون المنكرون للبعث المُنبعثون بوقاحة في الكفر والجرائم مُطأطِؤ الرؤوس ذُلاً وانكساراً، وندماً على ما فعلوا عند ربِّهم، يقولون: ربَّنا أبصرنا أحداثاً جسيمةً عظيمةً مُخيفة ممَّا سيلقاه الجاحدون المُكذِّبون بيوم الدين، وسمعنا من زفير جهنم وشهيقها وأصواتها المُرْعبة، ما جعل قلوبنا على يقينٍ ممَّا كنَّا نكفر به، فاردُدْنا إلى الدنيا نعمل عملاً صالحاً، إننا آمنا إيماناً جازماً لا شكَّ فيه، ولكن لا ينفع ذلك الإيمان. لو أتيح لك ـ أيها المخاطب ـ أن ترى المجرمين في هذا الموقف لرأيت أمراً عظيماً، وخطباً جسيماً.

١٣ ـ ولو شئنا لَسَلَبنا كلَّ نفسٍ ذات إرادةٍ حُرَّةٍ موضوعةٍ في الحياة الدنيا مَوْضعَ الامتحان، إرادتَها الحرَّة، فجعلناها مخلوقاً مجبوراً، وحينئذٍ نختار أن نُؤْتيَ كلَّ نفس هُداها بالجَبْر، كما خلقنا الملائكة مَهْديين، ولا نختار أن نخلق نفساً مجْبورةً على الضلالة، ولكن لم نشأ أن نَسْلُبَ ذوي الإرادات الحُرَّة إراداتهم، فهذا مُخالفٌ لحكمتنا من خلقهم، ولكن حيث تمَّت الحكمة بأن تُوهب هذه الأنفس الاختيار الحر، والقُدرة على الكسب ضمن دائرة التكليف، فقد ثبت القول الصَّادر منّي: لأملأنَّ جهنم من كفَّار الجنِّ والإنس أجمعين، الذين اختاروا طريق الضلالة.

١٤ ـ فذوقوا ـ أيُّها المجرمون المُنْبعثون بوقاحة في الكفر والجرائم ـ العذابَ النفسيَّ والجسديَّ؛ بسبب غفلتكم عن الآخرة، وتركِكم الإيمان في الدنيا، إنا تركناكم بالكليَّة غيرَ مُلتفتين إليكم، وذوقوا العذاب الدائم الذي لا انقطاع له وتحسَّسوا آلامه؛ بسبب كفركم وتكذيبكم.

١٥ ـ لا يُؤمن بآياتنا المنزَّلة في كتابنا إيماناً كاملاً إلاَّ الذين يتحلَّوْن بالصفات الستِّ التاليات: **الصفة الأولى**: الذين إذا ذُكِّروا بآيات الله في كتابه، تدبَّروا معانيها، ونفَذَت إلى قلوبهم مشاعرُ الأحاسيس بعظمة الله وجلاله، أسرعوا في خفض رؤوسهم وأجسادهم لوضع جباهتهم على الأرض خضوعاً لله وذُلاً، **والصفة الثانية**: نزَّهوا ربَّهم عن كلِّ ما لا يليق به من صفاتٍ، تنزيهاً مُمتزجاً بحمده والثناء عليه، **والصفة الثالثة**: هم لا يستكبرون مُمتنعين عن عبادة الله وطاعته.

١٦ ـ **الصفة الرابعة**: ترتفع وتَنْبو جُنوبُهم عن فراش النوم، يتهجَّدون بالليل، **والصفة الخامسة**: يدعون ربَّهم حالة كونهم خائفين من النار، وحالة كونهم طامعين في الجنة، **والصفة السادسة**: أنهم ينفقون آناً فآناً من بعض ما رزقناهم في وجوه الخير ابْتغاء وجْه الله.

١٧ ـ فلا تعلم نفسٌ مقْدار ما أعدَّه الله وأخفاه لهؤلاء الأبرار والمحسنين ممَّا تقرُّ به أعينهم من سرور ونعيمٍ ورضا، فلا يلتفتون إلى غيره، جزاءً عظيماً بسبب ما كانوا يعملون من الطاعات في دار الدنيا.

١٨ ـ أَفُقِدَ العدل الربَّاني، وفُقِدت حكمة الله في الجزاء، فيستوي في جزاء الله يوم الدين مَنْ كان مؤمناً بما أمر الله بالإيمان به، ومن كان خارجاً عن الحق خروجاً من دَرَكة الكفر، فلا يؤمن بما أمر الله عزَّ وجلَّ بالإيمان به؟! لا يستوي المؤمنون، والفاسقون الكافرون في حكمة الله وعدله في الجزاء.

١٩ ـ أمَّا الذين آمنوا بما أمر الله بالإيمان به إيماناً صادقاً كاملاً، وعملوا الصَّالحات التي تُعبِّر عن صدق إيمانهم وصحته، فلهم جنَّات المأوىٰ التي يَأْوي إليها المؤمنون ويسكنون فيها سُكنى أبديَّة، عطاءً وضيافةً من عند الله؛ بسبب ما كانوا يعملون من الطاعات في دار الدنيا.

٢٠ ـ وأمَّا الذين فسقوا بالكفر بما أمر الله به، وعملوا السيِّئات الكبيرات، فَمَلْجؤهم ومنزلهم النار، كُلَّما أرادوا أن يخرجوا منها أُعيدوا إكراهاً فيها، وقال لهم خَزَنة النار ـ توبيخاً وتقريعاً ـ: ذوقوا عذاب النَّار الذي كنتم به في الحياة الدنيا تكذِّبون عناداً وإصراراً على الباطل، واتِّباعاً للشهوات والأهواء.

وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾

سُورَةُ الأَحْزَابِ

٢١ ـ ونقسم لنُذيقَنَّ هؤلاء الفاسقين المُكذِّبين بعض العذاب الأقرب الأصغر من مصائب الدنيا ومحنها وأسقامها قبل العذاب الأكبر يوم القيامة، حيث يُعذَّبون في نار جهنَّم؛ رغبةً في أن يرجعوا عن كفرهم إلى أصل فطرتهم الإيمانية.

٢٢ ـ لا يوجد أظلم من الذي ذُكِّر بآيات ربِّه، مرّات مُتكرِّرات، ونظر فيها، وأدرك دلالاتها، ثم أعطى عارض وَجْهه لها، غير مُكترثٍ بها، إنَّا من المُنْبعثين بوقاحةٍ في الكفر والجرائم منتقمون بالعذاب الأكبر يوم الدين.

٢٣ ـ وأؤكِّد لك ـ أيُها المنكر رسالةَ مُحَمَّدٍ، والمُكذِّبُ بالقرآن ـ أنّنا آتَيْنا موسى كتابَ التوراة، من قبل بعثه محمد وإنزال القرآن عليه، وجعلنا موسى والتوراة هُدىً لبني إسرائيل، فلا تكن في شكٍ من لقاء موسى يومَ القيامة، وتعلم حينئذ يقيناً أنَّا أرسلناه وأنزلنا عليه التوراة هُدىً لبني إسرائيل، كما أرسلنا محمداً وأنزلنا عليه القرآن هُدىً للعالمين.

٢٤ ـ وجَعَلنا من بني إسرائيل قادةً للخير يُقْتدىٰ بهم، يدعون الناس إلى التوحيد وعبادة الله وحده، وإنما نالوا هذه المرتبة الرفيعة لأجل أنهم صبروا على فعل الطاعات، وترك المنهيات، وعلى ما أصابهم من البلاء في سبيل الله، ولأجل أنهم كانوا بآياتنا في كتاب التوراة يُصَدِّقون تصديقاً لا يُخالطه ولا يُداخلُهُ شكٌ، فإذا آمنتم بمحمد ﷺ وبالقرآن الذي أنزل إليه، وصبرتم وأيقنتم، جعلنا منكم هداةً ودعاةً إلى الخير، يأْتمُّ الناسُ بهم.

٢٥ ـ إنَّ ربَّك ـ أيُها المُتلقِّي للخطاب ـ هو ـ وحده ـ يقْضي بينهم، مُبيِّناً حكمه على كلِّ واحدٍ منهم بمُقْتضى عدله وفضْله، فيما كانوا في الحياة الدنيا يختلفون فيه، من حقٍّ وباطل، وخير وشر، ويُجازي كلَّ واحد منهم.

٢٦ ـ أما زالوا جاهلين بسنَّة الله في عباده، ولم يُبيِّن الله لهم كَثْرةَ مَنْ أهلكنا من قبلهم من الأمم الخاليةِ المقترنين في زمنٍ واحد، يَسيرون في بلادهم ومنازلهم إذا سافروا فيشاهدونها عِياناً، كقوم هود وصالح ولوط؟! إنَّ في مواطن المُهْلَكين السابقين، وبقاء بعض آثارهم فيها لدلالاتٍ يُسْتدلُّ بها على سُنَّة الله في إهلاك الكافرين المكذِّبين، أهم صمٌّ فلا يسمعون أخبار المُهْلكين السابقين، الذين أهلكهم الله؛ بسبب عنادهم وإصرارهم على الكفر؟!

ففي العقوبات المعجَّلة، وآثارها الباقية في الأرض، آياتٌ دالات على أنَّ وراء هذا الكون المشهود قوةً قاهرةً عادلة، هي التي تُسيِّر هذا الكون وتُدبِّره، وتراقب ما فيه من أحداث، وتنفِّذ بعض أحكامها العادلة، في ظروف هذه الحياة العاجلة.

٢٧ ـ أَعَميَ المُكذِّبون بالبعث، ولم ينظروا بأعينهم، ويتفكّروا بعقولهم، أنا نسوقُ الماء إلى الأرض اليابسة الغليظة التي لا نبات فيها، فنخرج بذلك الماء زرعاً تأكل من العشب والتبن أنعامهم، ومن الحبوب والثمار أنفسهم؟! أنْطَمَسَتْ أبصارهم، فهم لا يُبْصرون دلائل قدرة الله على إحياء الموتى فيعتبروا؟!

٢٨ ـ ويقول المشركون للمؤمنين ساخرين: متى يتحقَّق النصر الذي وَعَدكم الله به علينا إن كنتم صادقين في دعواكم؟

٢٩ ـ قل لهم ـ يا رسول الله ـ: يوم تَحَقُّق النصر في المعركة، وسقوط الكافر قتيلاً لا ينفعه إيمانُه عند ربِّه، وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة، أما إذا وقع في الأسر فإنه لا ينفعه إيمانه عندئذ في إعفائه من الفدية أو الاسترقاق، إذا قرَّرت قيادة المسلمين ذلك ولم تمُنّ على الأسرى.

٣٠ ـ فأعرض ـ يا رسول الله ـ عن مواجهة هؤلاء المعرضين عن بيانات دعوتك، ولا تهتمَّ بهم، ولا تلتفت إليهم، وانتظر اليوم الذي نُحقِّق فيه نصرك ونصر أصحابك عليهم، إنهم منتظرون الفرص الملائمة للتخلُّص منكم، في حين أنهم ينتظرون في الواقع عقابنا لهم بنصركم عليهم، وقتل صناديدهم وجبابرتهم. وقد حَصَل هذا في معركة بدر.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾ ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾

سُورَةُ الأَحْزَابِ

١ - يا أيُّها النَّبيُّ الذي شرَّفناك وكرَّمناك بالنبوَّة دُمْ على تقوىٰ الله، وازْدَد منها، ودُمْ على عدم إطاعة الكافرين المظهرين للكفر من أهل مكة، والمنافقين الذين يظهرون الإسلام، ويخفون الكفر من أهل المدينة، ولا تتأثَّر بأقوالهم واتِّهاماتهم الظالمة؛ إنَّ الله كان عليماً بخلقه قبل أن يخلقهم، حكيماً فيما دبَّره لهم، لا يختار في أحكامه وأقضيته القدريَّة والتشريعيَّة إلا ما هو الأحكم والأعدل.

وهذا النداء للنبيِّ ﷺ فيه تكريم وتشريف له، لأنه ناداه بالنبوة، ونادى سائر الأنبياء بأسمائهم. وقد تكرَّر هذا النداء للنبيِّ ﷺ في هذه السورة، خمس مرات في الآيات: ١ و٢٨ و٤٥ و٥٠ و٥٩ كما تكرَّر هذا النداء أيضاً في القرآن الكريم ثلاثة عشرة مرة.

٢ - واتَّبع - يا رسول الله - ما يُوحَىٰ إليك من ربِّك في إبطال عادة التبنِّي الجاهليَّة، والتغيير العملي لهذا التقليد الجاهلي، ولا تتمهَّل أو تتريَّث في القيام بهذا التكليف، مهما أثار الكافرون والمنافقون الشُّبهات والاتِّهامات ومقالات السوء؛ إنَّ الله كان بما تعملون عليماً علماً كاملاً شاملاً، على سبيل الحضور والشهود المُصَاحِبِ لكلِّ أجزاء العمل، ظواهرِهِ وبواطنِهِ، لا يخفى عليه شيء، وسيجزيكم به.

٣ - وَثِقْ - يا رسول الله - بالله، وَكِلْ أمرَك إليه، فهو الذي يحميك ويصونك، ويجعل ما تخشى منه سبباً في كمال نزاهتك، وصدق نبوَّتك، وكفى بالله حافظاً لك، ومُتوليًا كلَّ أمورك.

٤ - وكما لم يخلق الله للإنسان قلبَيْن في جَوْفه، لم يجعل المرأة الواحدة زَوْجاً للرجل وأمّاً له، والمرءَ دعيّاً لرجل وابناً له، وما جَعَل نساءَكم اللاتي تُحرموهنَّ على أنفسكم تحريماً مؤبَّداً، وتقولون لهنَّ: أنتِ عليَّ كظهر أمي، في التحريم كأمَّهاتكم، ولكنَّه منكرٌ وزورٌ منكم، وما جَعَل الله أدْعياءكم الذين تَتَبَنَّوْنَهُم أبناءكم، جَعْلُكُم الزوجات أمَّهات، والأدعياء أبناءً، قولٌ يصدر من أفواهكم، لا يُطابق من الحقِّ شيئاً، ولا يوافق حكماً شرعياً مُنزَّلاً من عند الله، والله يقول القول الثابت المُحقَّق، وهو يُرشد إلى سبيل الحق. فدعوا قولكم، وخذوا بقوله عزَّ وجل.

٥ - انسُبوا هؤلاء الأولاد لآبائهم الحقيقيين الذين خَرَجوا من أصلابهم. نسبةُ الأبناء إلى آبائهم النَّسبيين أعدلُ عند الله من نسبتهم إلى مَنْ يعطف عليهم فيتبنَّاهم، فإنْ لم تعلموا آباءَهُم لتنسبوهم إليهم، فهم إخوانكم في الدين، ونُصراؤكم، فقولوا للواحد منهم: أخي ومولاي، وليس عليكم إثمٌ في نسبة الأبناء إلى الآباء بحسب ما ظهر لكم من الأدلة والأمارات، فلستم مُكلَّفين أن تتَّبعوا اليقين العلميَّ في هذا الأمر، والخطأ في هذا لا إثم فيه. ولكن ما تعمَّدت قلوبكم تعمُّداً إرادياً من نسبة إنسان إلى غير أبيه، فعليكم إثمٌ في هذه النسبة؛ لأنكم تشهدون شهادة كذب وزور، وكان الله كثير السَّتْر لمَن أخطأ، دائمَ الرحمة لمَنْ تاب من ذنبه.

٦ - النبيُّ أرحمُ بالمؤمنين وأشدُّ رأفةً وحناناً وشفقةً عليهم من أنفسهم، في الدنيا والآخرة، فيجبُ أن يكون أحبَّ إليهم من آبائهم وأمَّهاتهم والناس أجمعين، وهو أحقُّ بالمؤمنين من أنفسهم في نفوذ حكمه عليهم، ووجوب طاعته، فإذا دعاهم إلى أمر، ودعتهم نفوسُهُم إلى خِلافِهِ وَجَبَ أن يُؤْثروا ما دعاهم إليه على ما دعتهم أنفسهم إليه؛ لأنه ﷺ لمزيد شفقته عليهم، ونُصحه لهم لا يدعوهم إلا إلى ما فيه نجاتُهم، ونفوسُهم كثيراً ما تدعوهم إلى ما فيه هلاكهم، وأزواجُه أمَّهاتُ المؤمنين في تعظيم حرمتهنَّ، ووجوب برهن، وتحريم نكاحهنَّ على التأبيد. وذوو القرابات مطلقاً: سواء كانوا أصحاب فروض، أم عَصَبات (وهم بنوه وقرابته لأبيه)، أم ذوي أرحام، بعضُهم أحقُّ بميراث بعض - فيما أنزله الله في كتابه في آية المواريث من سورة النساء - من المؤمنين الذين آخىٰ رسول الله ﷺ بينهم، والمهاجرين الذين كانوا يتوارثون بالهجرة والنُّصرة. لكن إذا أوصيتم إلى من تواذُّونهم من هؤلاء بما أحببتم من ثُلُثِ مالكم كان ذلك جائزاً، فيكون لهم بحكم الوصيّة لا الميراث، كان ذلك الحكم في إلغاء التوارث على أساس التبنِّي، ومن أنَّ أُولي الأرحام بعضهم أولىٰ ببعض، في اللوح المحفوظ مكتوباً مُثْبتاً.

وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ لِّيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا ۚ وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴿١٥﴾

٧ - واذكر - يا رسول الله - حين أخذنا من جميع النَّبيِّين العهدَ المُؤكَّد على الوفاء بما حُمِّلوا، وأن يُبلِّغوا أممهم ما أمرهم بتبليغه، وأن يُصدِّق بعضهم بعضاً، ويُبشِّر بعضهم ببعض، وأخذنا العهدَ المُؤكَّد منك - يا رسول الله - ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم، وهم أُولو العزم من الرسل وأصحاب الكتب والشرائع، وأخذنا من هؤلاء المخصوصين بالذكر عهداً وثيقاً شديداً على الوفاء بما حُمِّلوا من تبليغ الرسالات، وإقامة الدين الحقِّ.

٨ - أَخَذَ الله ميثاقهم؛ لكي يسأل النَّبيِّين عن تبليغهم الرسالة لأقوامهم، تبكيتاً لِمَنْ أُرسلوا إليهم ولم يستجيبوا لهم، وبعد هذه الشهادة، ومحاسبة الكفار على رفضهم بلاغات رُسل ربِّهم، يصدر الحكم على الذين كفروا بأنهم أصحاب النار، وأعدَّ الله للكافرين يوم القيامة عذاباً مُؤلماً في جهنَّم.

٩ - يا أيُّها الذين صدَّقوا بالله ورسوله وعملوا بشرعه، اذكُروا بقلوبكم وألسنتكم نعمةَ الله التي أنعم بها عليكم حين حُوصرتم مع النَّبيِّ ﷺ بالمدينة أيام الخندق، حين جاءتكم جنودُ الأحزاب من قريش وغَطَفان، ويهود بني قُريظة والنَّضير، فأرسلنا عليهم ريحاً شديدة الهبوب والبرودة، شاهدتموها، فَقَلَعت خيامهم، ورَمَت قدورهم، وأطفأت نيرانهم، وأرسلنا عليهم ملائكة لم تَرَوْها، ألقوا الرُّعب في قلوب الأحزاب، وكان الله بعملكم - أيُّها المؤمنون - من التحصُّن بالخَنْدق والثبات مع رسول الله ﷺ بصيراً.

١٠ - اذكروا نعمةَ الله التي أنعم عليكم وقت جاؤوكم من فوق الوادي من قِبَل نَجْد، وهم قبائل غَطَفان، ومن أسْفَلَ منكم من بطن الوادي من قِبَلِ مكة، وهم قريشٌ وكنانة، واذكروا الحالة التي وصلتم إليها من الشدَّة حينئذ، إذْ مالت الأبصار عن مواضعها حَيْرةً ودَهْشة، شاخصة لا تلتفت إلى شيء إلا إلى عدوِّها، وزالت القلوبُ عن أماكنها في الصُّدور، حتى بَلَغت الحُلوقَ من شدَّة الهول وعِظَم الفَزَع والخوف، واضطربت الأفكار، وأقبلت واردات الأوهام، وظنَّ المؤمنون الصَّادقون بالله الظنون المُنافية لمُقْتضى إيمانهم، وهي حالة عارضة، جَلَبها اخْتلال وظائف النفس بسبب شدَّة الخوف الطارىء.

١١ - هنالك في ذلك الموقع الذي كان فيه المسلمون محاصرين، داخل المدينة من قبل أحزاب العرب، امتُحن المؤمنون ومَنْ معهم من مُدَّعي الإيمان امتحاناً قاسياً، وحُرِّكوا بالامتحان تحريكاً شديداً واصلاً إلى الأعماق، فَمَنْ لم يكن في أعماقه إيمانٌ راسخ أصابه الاضطراب والقلق، وظهرت منه تصرُّفات تكشف سرائر قلبه، أما صادق الإيمان فتزيد الزلزلة إيمانه رسوخاً وعُمقاً واستقراراً.

١٢ - وضع في ذاكرتك - أيُّها المُتلقِّي لآيات الله - ما حَدَثَ من المنافقين والذين في قلوبهم حقدٌ وحَسَد من منافقي اليهود، حين يقولون: ما وَعَدَنا اللَّهُ ورسولُه بفتح قصور الشام وفارس، وأحدُنا لا يستطيع أن يُجاوز رَحْلَه إلا وعداً باطلاً قُصِدَ به التَّغرير بنا.

١٣ - وضع في ذاكرتك - أيُّها المتلقِّي لآيات الله - حين قالت طائفةٌ من المنافقين: يا أهلَ «يثرب» مُؤثرين للاسم الجاهليِّ على الاسم الإسلامي، وهو «المدينة»؛ لارتباط نفوسهم بجاهليَّتهم وكفرهم، لا إقامة لكم هنا، فارجعوا إلى منازلكم، وتخلَّوْا عن موقع المواجهة للعدوِّ الغازي، ويَسْتأذنُ فريقٌ آخر من المنافقين النبيَّ ﷺ يقولون: إنَّ بيوتنا خاليةٌ ضائعةٌ، غير حصينة، يسهل دخولها، ويُخشى عليها السُّرَّاق، ولا بدَّ لنا من الرجوع لحراستها، وما كانت بيوتهم كما يقولون، ما يريدون باستئذانهم إلا فراراً من مواجهة العدوِّ، وهَرَباً من موقع المرابطة والقتال مع المؤمنين.

١٤ - ولو دخل هؤلاء الجيوش الذين يريدون قتالهم من نواحي «المدينة»، وهَجَموا عليهم من جميع جوانبها، ثمَّ بعد ذلك طَلب منهم المشركون الردَّة، لأعطَوْا ما يُطلب منهم من كفر، ولاستجابوا للكافرين، وأعلنوا ردَّتهم طيِّبةً بذلك نفوسهم، وما بقوا في بيوتهم في «المدينة»، إلا زمناً يسيراً؛ لأنَّ الله سَيُمكِّن المؤمنين منهم حينئذ، فيقتلونهم أو يُلْجئونهم إلى الفرار أو الجلاء عن المدينة، حتى يكونوا مُطارَدين مُشرَّدين في الأرض.

١٥ - ولقد كان هؤلاء المُنافقون عَاهَدوا الله من قبل غزوة الخندق، لا ينهزمون إن شهدوا الحرب، ولا يتأخرون إذا دُعُوا إلى الجهاد، ولكنهم خانوا عهدهم، وسيحاسبهم الله على ذلك، وكان عهد الله مسؤولاً عنه في الآخرة.

قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ ۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾

١٦ - قل - يا رسول الله - لهؤلاء المنافقين: لن ينفعَكم الفِرار من المعركة خوفاً من الموت أو القتل، الذي كُتب عليكم؛ لأنَّ من حَضر أجله مات أو قُتِل لا بدَّ من ذلك، وإنْ فررتم لا تُمتَّعون بعد الفرار بالحياة إلا مدَّةَ آجالكم، وهو زمنٌ يسيرٌ جداً بالنسبة إلى الآخرة.

١٧ - قل - يا رسول الله - لهم: مَنْ ذا الذي يمنعكم من الله إن أراد بكم عقاباً على فراركم، أو مَنْ ذا الذي يمنع عنكم رحمة الله إذا تبتم واستغفرتم وأراد بكم الرحمة؟ ولا يجد هؤلاء المنافقون لهم من دون الله ولياً يتولاهم، ولا ناصراً ينصرهم.

١٨ - إنَّ الله يعلم المُثبِّطين عن القتال، الصَّارفين النَّاس عن نُصْرة رسول الله ﷺ، والقائلين لإخوانهم الذين بقوا مع المسلمين: تعالَوْا إلى ما نحنُ فيه من الإقامة والأمن والدَّعة، ودعُوا محمداً، فلا تشهدوا معه الحرب، فإننا نخاف عليكم الهلاك، وهم مع تخذيلهم هذا لا يأتون الحربَ إلا إتياناً قليلاً حين لا يجدون منه بُدّاً، فيأتون رياءً وسمعةً لا احتساباً عند الله تعالى، ولو كان ذلك القليل لِلَّهِ لكان كثيراً.

١٩ - بخلاء عليكم - أيُّها المؤمنون - بالنفقة في سبيل الله، ونُصرةِ دينه، والمعاونة في حفر الخندق، وبكلِّ ما فيه منفعة لكم، فإذا جاءت دواعي الخوف كموقف القتال، أو الدعوة إلى الخروج لمواجهة جيش العدوِّ، تملَّكهم الخوف، وهزَّ قلوبهم، وأزعج نفوسهم، فرأيتهم ينظرون إليك - يا رسول الله - تدور أعينهم بأحداقهم يميناً وشمالاً من الخوف والجُبْن، كدَوَران عَيْنَي الذي قَرُبَ من الموت، وغشيَه أسبابه؛ لذهوله وشدّة خوفه، فإذا زال الخوف، وانتهت الحرب أسمعوكم ما تكرهون من القول مع صياح ورفع صوت، وآذوكم في الكلام ورموكم بألسنةٍ سليطةٍ قويَّةٍ جارحة للنفوس، كالسيوف والسكاكين المُحدَّدة المسنونة، شديدي البخل على الخير، فليسوا فقط أشحَّةً بالأموال والأعمال والأنفس منهم ومن غيرهم عليكم، بل هم أشحَّةٌ بكلِّ ذلك على الخير، لأنهم لا يؤمنون بفائدة البذل في سبيل مرضاة الله، أولئك البُعَداء عن رحمة الله لم يؤمنوا حقيقة الإيمان، وإنْ أظهروا الإيمان لفظاً، فأبطل الله بمقتضى عدله أعمالهم التي كانوا يأتون بها مع المسلمين؛ لأنها غير صادرة عن إيمان، وأبطل بمقتضى حكمته ونصرته لأوليائه أعمالهم التي يكيدون بها المسلمين، وكان ذلك على الله يسيراً، وكلُّ شيءٍ على الله عزَّ وجل هيِّنٌ يسيرٌ.

٢٠ - يظنُّ هؤلاء المنافقون قُريشاً وغَطَفان واليهود لم ينصرفوا عن قتال المسلمين، وقد انصرفوا عنهم، وهزمهم الله شرَّ هزيمة، وإنْ يرجع الأحزاب إليهم للقتال بعد الذهاب من «المدينة»، يتمنَّى المنافقون لو أنَّهم كانوا غائبين عن «المدينة» في بادية مع الأعراب حَذَراً من القتل؛ لشدَّة خوفهم وجُبنهم، يَسْألون من بُعدٍ عن أخباركم وما آلَ إليه أمركم، ولو كان هؤلاء المنافقون فيكم ما قاتلوا إلا قتالاً قليلاً، يقيمون به عذرهم، فيقولون: قد قاتلنا معكم.

٢١ - لقد كان لكم - أيُّها المؤمنون - في أقوال رسول الله ﷺ وأفعاله، وأخلاقه، وثقته بالله وثباته في الشدائد، وصبره على المكاره، وقتاله بنفسه، وكلِّ جزئيات سلوكه في الحياة، قدوةٌ صالحةٌ، وخَصْلةٌ حَسَنةٌ من حقِّها أن يُؤْتَسى ويُقْتدى بها، لِمَن كان يُؤمِّل مُترقِّباً ثوابَ الله، ويرجو السَّعادةَ الخالدةَ يوم الدين، وَذَكَرَ الله كثيراً في جميع المواطن بالسَّرَّاء والضَّرَّاء.

٢٢ - ولمَّا رأى المؤمنون جيش الأحزاب الذين تحزَّبوا حول «المدينة» وأحاطوا بها، قالوا تسليماً لأمر الله وتصديقاً بوعده: هذا ما وَعَدَنا اللَّهُ ورسولُه، من الابتلاء والمحنة والنصر، وصَدَقَ الله ورسولُه في جميع ما بشَّر به من فتح مكة والروم وفارس، وما زادهم ما رأوا من كثرة عدوِّهم إلا تصديقاً بأنَّ الله سبحانه سيُحقِّق لهم ما وعدهم من التأييد والنصر، ومازادهم إلا انقياداً وطاعةً لأمره وقضائه الحكيم.

مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾

٢٣ ـ من المؤمنين رجالٌ قاموا بما عاهدوا الله عليه ووفَّوا به، فبعض هؤلاء المؤمنين الصَّادقين مَنْ وفَّى بعهده مع الله، وأدَّى نذره، وَصَبرَ على الجهاد حتى اسْتُشهد في سبيل الله، ومَنْ بقيَ بعد هؤلاء من المؤمنين ينتظرون إحدى الحُسْنيَيْن: إمَّا الشهادة، أو النَّصر على الأعداء، وكلا الفريقين الذين قَضَوْا نحبهم، والذين ينتظرون قضاءه حتى غايته، ما بدَّلوا فيما عاهدوا الله عليه تبديلاً ما، بل حافظوا على عهودهم، ونفَّذوها ووفَّوا بها.

٢٤ ـ لقد كان الابتلاء بمواجهة جيش الأعداء؛ ليتحقّق به كشف أحوال المُنتسبين إلى الإسلام، وبعد الكشف يأتي تحقيق قانون الجزاء؛ ليجزيَ اللهُ المؤمنين الصَّادقين بحسب صدقهم في إيمانهم وعملهم، ويعذِّبَ المنافقين المُصرِّين على نفاقهم ـ إنْ شاء ـ أو يتوبَ عليهم إذا تابوا من نفاقهم، وصحَّحوا عقيدتهم، وقوَّموا سلوكهم؛ إنَّ الله كان كثير الغفران لمن استغفره من عباده، واسع الرحمة بخلقه.

٢٥ ـ وردَّ الله الذين كفروا من قُريش وغَطَفان عن المدينة، مُمْتلئة قلوبهم بالغيظ، لم يشفِ صدورهم بنَيْل ما أرادوا، لم ينالوا بجمعهم الأحزاب، وقدومهم لحرب المسلمين في المدينة خيراً ما صغيراً ولا كبيراً، وكفى الله المؤمنين القتال بالملائكة والريح، وكان الله دواماً قوياً في ملكه، غالباً في انتقامه.

٢٦ ـ وأنزل الذين عاونوا الأحزاب من قريشٍ وغَطَفان على رسول الله ﷺ، وعلى قتال المسلمين، ـ وهم يهود بني قريظة ـ من حصونهم المنيعة التي تحصَّنوا بها، وقَذَفَ في قلوبهم الخوف، فنزلوا من حصونهم مُسْتَسلمين، تقتلون المقاتلة من الرجال جزاء خيانتهم وغدرهم، وتأسرون النساء والذراري.

٢٧ ـ وجعل أرضَهم وديارَهُم وأموالهم ميراثاً لكم، وأورثكم بقضائه وقدره أرضاً لم تَطَؤُها أقدامكم بعدُ في الواقع، ممَّا سيُفتح عليكم في أرض العرب وغيرهامن بلاد الدنيا، وتُظلِّلها راية الإسلام إلى يوم القيامة، وكان الله دواماً على كلِّ شيء قديراً، لا يُعجزه شيء. وقد حقَّق الله سبحانه وعده بما فتح على الأمة المسلمة من فتوح، وهو سبحانه قادرٌ أيضاً على أن يفتح عليها مرةً ثانية إذا عادت إلى التمسُّك بسنَّته، والتأسِّي به ﷺ.

٢٨ ـ يا أيُّها النبيُّ الذي شرَّفناك وكرَّمناك بالنبوَّة قُل لأزواجك اللاتي سألنك شيئاً من عرض الدنيا، وطلبن منك الزيادة في النفقة: إنْ كُنتنَّ تُرِدْنَ سَعَة الحياةِ الدنيا ورفاهيتها والتنعُّم فيها، وزخارفها، فَتَعَالَيْنَ أُعطِكُنَّ مُتعةَ الطلاق، وأُطلقكُنَّ طلاقاً خالياً من الضِّرار أو من الخصومة. وهذا النداء للنبيِّ ﷺ هو النداء الثاني في هذه السُّورة

٢٩ ـ وإنْ كُنتنَّ تُرِدْنَ رضا الله ورضا رسوله، ونعيم الدار الآخرة، وترضَيْنَ بما أنتنَّ فيه من خشونة عيش، وضيق حال، فإنَّ الله أعدَّ للمُحسنات في أعمالهنَّ أجراً عظيماً لا يُقْدَر قدره. ولمَّا نزلت هذه الآية بدأ ﷺ بعائشة ـ رضي الله عنها ـ وكانت أحبهنَّ إليه، فخيَّرها، فاختارت الله ورسوله والدار الآخرة، ثم اختار جميعهنَّ اختيارَها، وكُنَّ يومئذ تسعاً: عائشة، وحفصة، وأم حبيبة، وأم سلمة، وسودة، وصفية، وميمونة، وزينب بنت جحش، وجُويرية بنت الحارث. وقد وقعت حادثة التخيير في بداية سنة تسع من الهجرة بعد غزوة حُنين التي غنم المسلمون فيها غنائم عظيمة، فلم يوزِّعها على أهله، ولم تطمح إليها نفسُه، بل وزَّعها على المسلمين لا سيَّما من ضَعُفت نفسه يتألَّفُه على الإسلام. وفي الآية مشروعيَّة التخيير، فقد أجازت الشريعة للمسلم أن يُخيِّر زوجته بين البقاء عنده، أو مفارقته، إذا طالبته بأمور لا يستطيع الوفاء بها، وهو باب من أبواب تفويض الطلاق للزوجة. وفي حادثة التخيير تطبيق رائع لمبدأ الشورى في نظام الأسرة، ولون من ألوان تكريم المرأة باستشارتها وتخييرها في أن تأخذ القرار. وفيها مبادرة أمهات المؤمنين إلى الخير. وقد اخترنَ ـ رضي الله عنهنَّ ـ اللَّهَ ورسولَه، وما أعدَّ لهنَّ في الدار الآخرة، وقد كرَّمهنَّ الله تبارك وتعالى، وكافأهنَّ على اختيارهنَّ، أحسنَ تكريم، وأعظمَ مكافأة؛ إذْ وَصَلن بهذا الاختيار إلى مرتبة الإحسان التي هي أعلى مراتب الإيمان.

٣٠ ـ يا نساءَ النَّبيِّ أنتنَّ زوجاتُ خير المرسلين وأمَّهاتُ المؤمنين، تتحمَّلن لذلك مسؤولياتٍ عظاماً، وتَبِعاتٍ جساماً: مَنْ يأتِ منكنَّ بمعصيةٍ ظاهرةِ القبح من نُشوزٍ وسُوءِ خُلُق، يُضاعَف لها العذابُ مِثْلَيْن؛ بسبب إيذاء النبيِّ ﷺ والإزراء بمنصبه الرفيع، ولشرفهنَّ ومنزلتهنَّ ورفعة مكانتهنَّ، وكان عذابُها على الله يسيراً. وكلُّ شيءٍ على الله عزَّ وجلّ هيِّنٌ يسير.



۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾

٣١ ـ ومَنْ تَخضَع وتُطع منكنَّ اللَّهَ ورسولَهُ، وتعمل صالحاً، نُؤْتها مثل أجر غيرها مرَّتين من سائر النساء، وأعددنا لها رزقاً كريماً، وهو الجنَّة. فالثواب منوطٌ بطاعة الله سبحانه، ورسوله ﷺ، والعمل الصالح، وليس منوطاً بمنزلتهنَّ العالية، فالتكليف في الإسلام لا يسقط عن أحدٍ أبداً مهما كانت منزلته رفيعة.

٣٢ ـ يا نساء النبيِّ ليس قدركُنَّ عندي مثل قدر غيركم من النِّساء الصَّالحات، فأنتُنَّ أكرمُ عليَّ، وثوابكنَّ أعظمُ لديَّ، إن اتَّقَيْتُنَّ الله فأطعتُنَّهُ، فلا تُلِنَّ القولَ عند مُخاطبة الرجال، ولا تُرَقِّقْنَهُ، فيجد الذي في قلبه حَسَد ورغبة باللذة المحرَّمة سبيلاً إلى الطمع في الزواج منكنَّ بعد وفاة الرسول ﷺ، وقُلْن قولاً جاداً حازماً، لا لغْوَ فيه ولا هَزْل، حسناً معروفاً، يُوجبه الدينُ عند الحاجة إليه، ببيانٍ بعيد عن الرِّيبة والخضوع. وهذا الأمر واجب على كلِّ امرأة تؤمن بالله واليوم الآخر.

٣٣ ـ وَالْزَمْن ـ يا أمَّهات المؤمنين ـ بيوتكُنَّ، فلا تَخْرُجْنَ لغير حاجة مشروعة، وإذا خرجتُنَّ لحاجة فيحرم أن تُبدي إحداكنَّ من زينتها ما أوجب الله عليها ستره؛ كالشعر والعُنق والذراعَيْن والسَّاقين، ممَّا شأنه أن يثير النظرُ إليه شهوةَ الرجال، ويحرم عليها أن تتكسَّر في مشيتها، كما كان يفعل نساء الجاهلية في الأزمنة السابقة قبل الإسلام، وكما يفعله كثيرٌ من النساء في هذا العصر: الكاسيات العاريات، المُتبرِّجات المتبخترات، وأدِّينَ الصَّلاةَ الواجبة كاملة في أوقاتها، وآتينَ الزَّكاة المفروضة، طيِّبةً بها نفوسكنَّ ابتغاء مرضاة الله، وأَطِعْنَ اللَّهَ ورسولَه في أمرهما ونهيهما طاعة كاملة مطلقة، ما يُريد الله بتوجيه هذه التكاليف المُشدَّدة، والوعيد المُشدَّد، والإطماع بالأجر المُضاعف، إلا العناية بكُنَّ، لتتَّقينَ الله باختياركُنَّ، فيُذهب عنكنَّ بالتزامكم العمل بمقتضى هذه التكاليف الإثمَ والسُّوءَ ـ يا أهل بيت النبيِّ ـ وليُطهِّركم تطهيراً زائداً عن تطهير أهل التَّقوى من سائر النِّساء، حتى تَكُنَّ قُدْوات لنساء المسلمين، فمن شأن المُقْتَدَى به أن يكون أعلى درجةً من المقتدي. وأهل بيت النبي ﷺ هم: أزواجه، وذرِّيته وأقاربه كالعباس وعلي، وكل من حَرُمت عليه الصدقة. ولقد شرَّف الله سبحانه أمهات المؤمنين رضي الله عنهنَّ وأكرمهنَّ بالانتماء إلى هذا البيت الكريم، عندما تشرَّفن بالزواج من النبيِّ ﷺ، فالآية نزلت بسببهنَّ، والخطاب مُوجَّه إليهنَّ، ويدخل فيه من باب أولى ذُرِّيته الطاهرة.

٣٤ ـ واذكُرْنَ ـ يا أمَّهات المؤمنين ـ ما يُتْلى في بيوتكنَّ من القرآن والسُّنَّة، بأن يثمر هذا التذكُّر عملاً وسلوكاً؛ لأنكنَّ خُصِصْتُنَّ بنزول الوحي في بيوتكنَّ دون سائر الناس، فأنتُنَّ أحقُّ بهذه الذكرى من سواكُنَّ؛ إنَّ الله كان رفيقاً رؤوفاً بأوليائه وأهل طاعته، يجري تدابيره وأفعاله برفقٍ تامٍّ، ينفذ بصفاته إلى أعماق كلِّ موجود، خَلْقاً، وإمداداً، وعلماً، وتصاريف، عليماً علماً تاماً شاملاً، لكلِّ ظواهر الأشياء وبواطنها، علمَ حضور وشهود وتدبير.

٣٥ ـ إنَّ المتَّصفين بهذه الصفات العشرة: **الأولى**: المُنقادين لأوامر الله عزَّ وجلَّ من الرجال والنِّساء، **والثانية**: المُصَدِّقين بالأركان الإيمانيَّة الستة تصديقاً جازماً، والمُصَدِّقات، **والثالثة**: الملازمين الطاعة والاستقامة والخضوع والمداومات على الطاعات في كلِّ زمان ومكان، وقول وعمل، **والرابعة**: الصَّادقينَ في أقوالهم، وفي أفعالهم في السرِّ والعلانية، وفي نيَّاتهم وعزائمهم، والصَّادقات، **والخامسة**: الصَّابرين على الطاعات، وعن المُحرَّمات، وعلى المَكاره والشَّدائد، والصَّابرات، **والسادسة**: الخائفين من الله تعالى، والخائفات خَوْفاً مقروناً بتعظيم وإجلال، **والسابعة**: المُتصدِّقين ممَّا رزقهم الله ابتغاء وَجْه الله، طيِّبةً به نفوسهم، والمُتصدِّقات، **والثامنة**: الصَّائمين في الفرض والنَّفل، والصَّائمات، **والتاسعة**: الحافظين فروجَهم عن الزِّنى ومُقدِّماته، وعن كشف العورات، والحافظات، **والعاشرة**: الذاكرين الله كثيراً بقلوبهم وألسنتهم في سائر أحوالهم، والذاكرات، أعدَّ الله لهم مغفرة واسعةً تمحو ذنوبَهم، وأجراً عظيماً بفضله ورحمته، وهو الجنَّة.

فهذه الآية أظهرت المساواة التامَّة بين الرجال والنِّساء في التكليف والجزاء، وبيَّنت أنَّ الفضائل والآداب التي أُدِّب بها أزواج النبيِّ ﷺ، يمكن لعموم المسلمات أن يتحقَّقْنَ بها، إذا ما تأسَّينَ بأمَّهات المؤمنين، واقْتَدَيْن بهنَّ، فطريقُ الفضائل والمكارم مفتوحٌ للجميع في شريعة الإسلام.

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّۦنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾

٣٦ ـ ليس من وصف المستكملين شروط مرتبة التقوى من المؤمنين والمؤمنات، إذا أمضى الله ورسوله أمراً تكليفياً إلزامياً بفعل شيءٍ أو ترك شيءٍ أن يكون لهم اختيار آخر غير ما أمضى الله ورسوله، ومَنْ يعص اللَّهَ ورسولَه دواماً فقد خرج عن صراط الاستقامة على طاعة الله، وضلاله ظاهر واضح جليٌّ كاشفٌ لما في نفسه من نقص في الإيمان، أو حُبٌّ للعاجلة وإيثار لها، أو ضعفٍ في الإرادة أمام مطالب الأهواء والشهوات.

٣٧ ـ واذكر ـ يا رسولَ الله ـ إذ تقول للَّذي أنْعَمَ الله عليه بالإسلام ـ وهو زيد بن حارثة ـ وأنْعَمْتَ عليه بالعِتق، وبالتبنِّي قبل إلغائه، وبتزويجه من «أمِّ أيمن» مولاتك، ثم بتزويجه من ابنة عمتك «زينب بنت جحش» عندما جاء يشكو إليك تَعالي «زينب» بأُسرتها وحَسَبها عليه، ورغبته في طلاقها: أَبْقِ زوجك زينب بنت جحش، وتحمَّل تعاليها عليك، واتَّقي الله في أمرها، ولا تُطلِّقها ضراراً وتعلُّلاً بحدَّتها وتكبُّرها، وتُضمر ـ يا رسول الله ـ في نفسك ما الله مُظْهِرُه من أنَّ زيداً سَيُطلِّقها، وستكون إحدى نسائك بتزويج الله إيّاها لك، وتخاف لائمة الناس، أن يقولوا: تزوَّج محمَّدٌ مُطلَّقة مُتبنَّاه، واللَّهُ تعالى وحدَهُ أحقُّ أن تخافه. فلمَّا قضى زيدٌ حاجَتَه منها، ولم يبق له فيها أرب، وطابتْ عنها نفسُه، وطلَّقها عن إرادة جازمة منه، ورغبة ذاتيَّة فيه، وانقضَتْ عُدَّتها، جَعَلناها زوجةً لك بلا عقد ومهر وشهود؛ لتكون قدوةً في إبطال عادة تحريم الزواج بزوجة المُتبنَّى بعد طلاقها، ولا يتحرَّج المسلمون بعد ذلك من الزواج بمطلَّقات أدعيائهم الذين كانوا يتبنَّوْنهم بعد انقضاء عدَّتهنَّ، بخلاف امرأة ابن الصُّلب، فإنَّها لا تحلُّ للأب، وكان قضاء الله ماضياً وحكمةُ نافذاً. وقد قضىٰ في زينب أن يتزوَّجها رسول الله ﷺ.

٣٨ ـ ليس على النَّبيِّ دواماً من إثم فيما أحلَّ الله له، وخصَّه به من تزوُّج «زينب» التي طلَّقها دَعيُّه «زيد بن حارثة»، حالة كون رفع هذا الحرج طريقة الله ومنهاجه في الأنبياء الذين مَضوْا من قبل، أن لا حَرَج عليهم في الإقدام على ما أباح الله لهم من مباحات تتطلَّبها طبيعتهم البشريَّة، ووسَّعَ عليهم في باب النكاح، فليس محمد في هذا بدعاً من الرسل، بل شأنه كشأنهم استمتاعاً باللذات المباحات في الحياة الدنيا، وكان أمر الله في التكوين والتشريع مسبوقاً دواماً بتحديدٍ دقيق لمقادير الأشياء التي حدَّدها بإرادته الحكيمة.

٣٩ ـ الذين يُبَلِّغون فرائضَ الله وسُنَنَهُ وأوامره ونواهيه بأقوالهم وأعمالهم وتقريراتهم إلى مَنْ أُرسلوا إليهم، ويخافون الله، ولا يخافون قالَةَ الناس ولائمتهم فيما أحلَّ لهم وفَرَض عليهم، وكفى بالله كافياً لِمَنْ توكَّل عليه، ومُحاسباً على عزائم القلوب وأفعال الجوارح، فلا ينبغي أن يُخشى غيره.

٤٠ ـ ما كان مُحمَّدٌ أباً لأحد من رجالكم أبوَّةً حقيقيةً، حتى يثبُتَ بينه وبينه ما يثبُت بين الأب وولده من الإرث والنفقة وحُرمة المُصَاهرة والنكاح، و«زيدٌ» من رجالهم، فليس النبيُّ أباً له، ولكن رسول الله وخاتَم النبيين والمرسلين، فلا نبوَّة معه ولا بعدَه إلى قيام الساعة، فمن زعم النبوّة بعده، فهو كذّاب أفّاك، وكافرٌ بكتاب الله وسنة رسوله، ولمّا قضى الله بِخَتْم الرسالات والنبوّات التي جعلها في سلالة إبراهيم عليه السلام من بعده، أوقف الذُّرِّيّات الذكور عند محمد بن عبد الله ﷺ في عرق النبوَّة الموصول بشطر سلالة إسماعيل بن إبراهيم، كما أوقفها في عرق النبوَّة الموصول بشطر سلالة إسحاق بن إبراهيم، عند يحيى وعيسى عليهم السلام، وخَتْمُ النبيين بمحمد هو من حكمة الله، وهو عليمٌ دواماً بكلِّ شيءٍ.

٤١، ٤٢ ـ يا أيُّها الذين آمنوا اذكروا الله بقلوبكم وألسنتكم ذكراً كثيراً في سائر الأوقات، وكل الأحوال، ولا تغفلوا عن ذكره أبداً، وينبغي أن يكون ذكركم إيَّاه على وَجْه التعظيم والتَّنزيه من كلِّ سوء أوَّل النهار وآخره، لاجتماع ملائكة الليل والنهار فيهما. وهذا النداء الإلهيُّ للمؤمنين هو الثاني في هذه السورة.

٤٣ ـ هو سبحانه الذي يرحمكم ويُثني عليكم، وتدعو لكم ملائكته وتستغفر لكم؛ ليُخرجكم برحمته وهدايته، ودعاءِ الملائكة واستغفارها لكم من ظلمات الكفر والجهل والمعاصي إلى نور الإيمان والهداية والطاعة، وكان الله بالمؤمنين دائم الرحمة.

تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٥٠﴾

٤٤ ـ تحيَّةُ المؤمنين من الله تعالى عند دخول الجنة: سلامٌ وأمانٌ لهم من جميع الآفات، ويُسلِّم بعضهم على بعض، وتسلِّم عليهم الملائكة، وأعدَّ لهم في الجنة ثواباً حَسَناً نفيساً.

٤٥، ٤٦ ـ يا أيُّها النَّبيُّ الذي شرَّفناك وكرَّمناك بالنبوَّة، إنا أرسلناك بعظمة ربوبيَّتنا مُتَّصفاً بخمسة أوصاف: **الأول**: أرسلناك مُبلِّغاً رسالةَ ربِّك وجميعَ ما أُنزل إليك، لمنْ تستطيع أن تُبلِّغهم من الناس؛ لتكون شاهداً على أمَّتك يوم القيامة بإبلاغهم الرِّسالة، **الوصف الثاني**: وأرسلناك مُبشِّراً لِمَن آمنَ وأطاعَ بفضل الله عليهم في الدنيا بالنصر والتمكين، وفي الآخرة بالمغفرة والرضوان ودخول الجنة، **الوصف الثالث**: وأرسلناك نذيراً لمَنْ كذَّب وعصى بالنار، **الوصف الرابع**: وأرسلناك داعياً إلى توحيد الله وطاعته بأمره إيَّاك بالحكمة والموعظة الحسنة، ويسَّر لك أمر الدعوة إليه مع شدَّتها وثقلها وعظيم خطرها، **الوصف الخامس**: ومُضيئاً تهدي بذاتك، ومُؤثِّراً في غيرك بضيائك، حتى يكون ذا نورٍ يهدي، كما تؤثِّر الشَّمس بضيائها في القمر فيبعث نوراً.

وهذا النداء الإلهيُّ للنبيِّ ﷺ هو الثالث في هذه السورة، فإنَّ الله سبحانه لما أبلغه بالنداء الأول ما هو مُتعلِّق بذاته، وبالنداء الثاني ما هو مُتعلِّق بأزواجه، ناداه سبحانه في هذه الآية بأوصاف أودعها سبحانه فيه؛ للتنويه بشأنه، وزيادة رِفْعة مقْداره، وبيَّن له خصائص رسالته، ومواقفه ﷺ من العالم.

٤٧ ـ وبشِّر ـ يا رسول الله ـ المؤمنين بأنَّ لهم من الله ثواباً عظيماً، زيادةً على الثواب في جنات النعيم.

٤٨ ـ ولا تُطع ـ يا رسول الله ـ أي فريق أو فردٍ من الكافرين والمنافقين، في أيِّ مُقترَح أو أيِّ أمر من الأمور التي تتنافى مع رسالتك، ودَع التفكيرَ في أذاهم المُوجَّهِ منهم لك وللمسلمين، ودع الاشتغال بدفعه؛ وتَجمَّل بالصَّبر والصَّفح، وتوكَّل على الله في كلِّ أمورك، ولا تَخْشَ أن يتَّخذوا من إعراضك عن مقابلة أذاهم بمثله أن يُصعِّدوا من العدوان عليك وعلى المسلمين تصوُّراً منهم أنَّك إنما أعرضت عن مقابلة أذاهم بأذىً مثلِه، لأنك ضعيف أنت ومَنْ معك من المؤمنين، فإنَّ الله سيتولَّى ردَّ كيْدهم والدفاع عنك، وكفى بالله حافظاً لك، متولِّياً كلَّ أمورك. فَمَنْ توكَّل على الله كفاه ما أهمَّه، وردَّ كيد أعدائه إلى نحورهم.

٤٩ ـ يا أيُّها الذين صدَّقوا بالله ورسوله، وعملوا بشرعه، إذا عقدتم على النساء، ولم تدخلوا بهنَّ، ثمَّ طلقتموهنَّ من قبل أن تُجامعوهنَّ، فما لكم عليهنَّ من عدَّةٍ تُحصونها عليهنَّ بالإقراء والأشهر، فأعطوهُنَّ من أموالكم ما يَسْتَمْتعنَ به، بحسب الوسع جَبْراً لخواطرهنَّ، وخلُّوا سبيلهنَّ بالمعروف، وأخرجوهنَّ من منازلكم لعدم وجوب العِدَّة عليهنَّ إخراجاً خالياً عن أذىً ومنع ما وجَبَ لهنَّ من حقوق. والمتعة عطيَّة يُعطيها الزوج للمرأة إذا طلَّقها، وقد جَعَل الله التَّمتيع جَبْراً لخاطر المرأة المنكسِر بالطلاق، والمتعة حقٌّ للمطلَّقة سواء سُمِّي لها صداق أم لم يُسَمّ. وهذا النداء الإلهيُّ للمؤمنين هو الثالث في هذه السورة.

٥٠ ـ يا أيُّها النبيُّ الذي شرَّفناك وكرَّمناك بالنبوَّة، إنا أبحنا لك النكاح من هذه الأصناف الأربعة: **الصنف الأول**: أزواجك اللاتي أعطيتهنَّ مُهورهنَّ، وهُنَّ النِّسوة اللاتي تزوجتهنَّ على حكم النكاح الذي يعمُّ الأمة، **الصنف الثاني**: وأبحنا لك أيضاً ما مَلَكتْ يمينك ممَّا أنعم الله به عليك من السَّبْي، كصفيَّة بنت حُييّ، من سَبْي خيبر، وجُوَيْرية بنتِ الحارث من سَبْي بني المصْطلق، **الصنف الثالث**: وأحللنا لك التزوُّج ببنات عمِّك وبنات عمَّاتك من قراباتك من جهة الأب من نساء قريش، وبنات خالك وبنات خالاتك من قراباتك من جهة الأم من نساء بني زُهْرة، اللاتي هاجرنَ معك إلى المدينة، فمَنْ لم تهاجر منهنَّ لم يَجُزْ لك نكاحها، **الصنف الرابع**: وأحْلَلْنا لك امرأةً مؤمنةً وَهَبَتْ نَفْسَها لك بغير صَداق، إنْ كنتَ تريد الزواج منها وترغبُ فيها، خَلُصَتْ لك هذه الهبة من دون المؤمنين، فلا تحلُّ لهم، قد علمنا ما أوْجَبنا على المؤمنين في أزواجهم من الأحكام، وهو أن لا يتزوَّجوا أكثر من أربع، ولا يتزوَّجوا إلا بوليٍّ وشهود ومهر، وما أوْجَبْنا عليهم من الأحكام في ملك اليمين فلا يجوز لهم الإخلال بتلك الشرائط، ولا الاقتداء بالرسول ﷺ فيما خصَّه الله به. ولكنَّا أحللنا لك ـ يا رسول الله ـ صنوفاً من النساء: صنْفاً تدفع لهنَّ المهر، وصنْفاً تتمتَّع بهنَّ بملك اليمين، وصنفاً من أقاربك، وصنفاً رابعاً تنكحه دون مهر، بعد أن تهب المرأة نفسها لك، ويتمّ قبولك، توسعَةً عليك وتكريماً لك؛ لكي لا يكون عليك أدنى ضيق في نكاح مَنْ نَكحتَ من هؤلاء الأصناف الأربعة، وكان الله من الأزل إلى الأبد كثير السَّتْر للواقع في الحرَج، دائم الرحمة بالتوسعة على عباده المؤمنين. وهذا النداء الذي خوطب به النبي ﷺ هو الرابع في هذه السورة، في شأن خاصٍّ به، هو بيان ما أَحلَّ الله له من الزوجات والسَّراري، مما بعضه تقريرٌ لتشريع له سابق، وبعضه تشريعٌ له للمستقبل، ومما بعضه يتساوى فيه النبيُّ ﷺ مع الأمة، وبعضه خاصٌّ به أكرمه الله بخصوصيَّته مما هو توسعة عليه.

۞ تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ ۖ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾ لَّا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِن بَعْدُ وَلَا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ ۖ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ إِن تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾

٥١ - تُؤَخِّرُ وتُبعد - يا رسول الله - مَنْ تشاءُ من نسائك في القَسْم في المبيت، وتضُمّ وتقرِّب إليك مَنْ تشاء منهنَّ، من غير التفات إلى نَوْبة وقَسْم، ومَنْ طَلَبْتَ أن تُضمَّ إليك من أزواجك ممَّن عزلتهنَّ عن القِسْمَة فلا إثم عليك في ذلك، والأمر مُفوَّض إلى مشيئتك. ذلك التخيير الذي خَيَّرتك في صُحبتهنَّ، وتفويض الأمر إلى مشيئتك، أقربُ إلى رضاهنَّ، وأطيبُ لأنفسهنَّ، وأقلُّ لحُزنهنَّ إذا عَلِمنَ أنَّ ذلك من الله تعالى، ويرضَيْن عن طيب نفس بما أعطيتهُنَّ وبما تصنع معهنَّ، ويذهب التنافس والغيرة، فإذا سوَّيت بينهنَّ وَجَدْن ذلك تفضُّلاً منك، وإذا رجَّحت بعضهنَّ علمنَ أنه بحكم الله تعالى وإذنه لك فيه، ولا حقَّ لهنَّ قِبَلك، فتطمئنُّ نفوسهنَّ به، والله يعلمُ ما في قلوبكم من أمر النساء والمَيْل إلى بعضهنَّ دون بعض، وكان الله عليماً بما في ضمائركم، حليماً عنكم لا يُعجِّل بالانتقام منكم، ويفسح لكم مَجالات التوبة والندم لتُصلحوا أعمالكم. وكان رسول الله ﷺ يعدل في القسمة بين نسائه، أخذاً منه بأفضل الأخلاق، مع إباحة الله له.

٥٢ - لا يُباح لك - يا رسول الله - النِّساء من بعد هؤلاء النِّسوة التسع اللاتي في عصمتك اليومَ، وهُنَّ اللاتي اختَرنك على الدنيا وزينتها، مُجازاةً لهنَّ، وشكراً على هذا الاختيار، وليس لك أن تُطلِّق أحداً من نسائك وتَنكح بدلها أخرى، ولو أعجبك جمالها، فيحرم عليك الزيادة عليهنَّ والاستبدال بهُنّ، مُكافأةً لهنَّ على اختيارك. ولكنْ أحلَّ الله لك ما مَلَكَتْ يمينُك من الإماء ما شئت، وكان الله دواماً على كلِّ شيء حفيظاً ومطَّلعاً، لا يَعْزُبُ عن علمه مثقال ذرَّةٍ في الأرض ولا في السماء.

٥٣ - يا أيُّها الذين صدَّقوا بالله ورسوله، وعملوا بشرعه، لا تدخلوا بيوت النَّبيِّ إلا وقت أن تُدْعَوا إلى طعام، فيُؤْذَن لكم، فتأكلون منه، غير منتظرين نُضْجَه ووقت تناوله، ولكن إذا دُعيتم إلى الطعام فادخلوا، فإذا أكلتم الطعام فاخرجوا من منزله وتفرَّقوا، ولا تُطيلوا الجلوس؛ ليستأنس بعضكم بحديث بعض، ويكون الرسول في حاجة أن ينصرف إلى أهله أو إلى بعض شؤونه الخاصَّة؛ إنَّ جلوسكم في بيت النبيِّ ﷺ وانتظاركم واستئناسكم يُؤذي النبيَّ ﷺ، ويضيِّق عليه وعلى أهله، فيَستحيي من إخراجكم وجرح مشاعركم، ولو كان ذلك في مقابل ما يكون منكم من عمل يؤذيه ويتعلَّق بذات نفسه ﷺ، فلا يحملنَّكم شدَّة حيائه على الإثقال عليه، واللهُ لا يستحيي من بيان الحق وإعلانه، فلا يترك تأديبكم وتربيتكم.

وفي هذه الآية تأديب للثقلاء الذين يُدخلون القلق والغمَّ على غيرهم، من جرَّاء عمل يعود نفعه إليهم، أو لعدم الشعور بما يلحق غيرهم من الحرج من جرَّاء ذلك العمل، وهو من مساوىء الأخلاق، لأنه إن كان عن عمد كان ضُراً بالناس، وسبباً للتباغض، وهوَ منْهيٌّ عنه، وإن كان إدخالهم الغم على غيرهم عن غباوة وقلة فطنة، فإنه مذمومٌ في ذاته. ومعاملة النبي ﷺ بهذا الخلق أشد بعداً عن الأدب؛ لأنَّ للنبيِّ ﷺ أوقاتاً لا تخلو ساعة منها عن الاشتغال بصلاح الأمة، ويجب أن لا يشغل أحد أوقاته إلا بإذنه، ولأنه ﷺ أعز الخلق إلى نفوسهم، وذلك يقتضي التحرُّز مما يؤذيه أدنى أذى ﷺ.

وإذا سألتم - أيُّها المؤمنون - نساء النبيِّ ﷺ حاجةً من العلم والفتيا، وطلبتم منهنَّ شيئاً يتمتّع به من الماعون وغيره، فاسألوهنَّ من وراء سِتْر بينكم وبينهنَّ؛ ذلكم السؤال من وراء حجاب، أَطْهَرُ لقلوبكم وقلوبهنَّ من الرِّيَب وخواطر السوء؛ لاحتمال تدنّس القلب عند المواجهة بمَيْلٍ غير مأذونٍ به شرعاً، وليس لكم أذى رسول الله ﷺ في شيءٍ من الأشياء نحو اللُّبث، والاستئناس فيه بالحديث الذي كنتم تفعلونه، ومكالمة نسائه دون حجاب، ولا أن تتزوَّجوا نساءَهُ من بعد فراقه أو وفاته أبداً، احتراماً له ولهنَّ؛ لأنهنَّ أمهات المؤمنين، ولا يحلُّ للأولاد نكاح الأمهات؛ إنَّ إيذاءكم رسول الله ﷺ ونكاحكم أزواجه من بعده كان عند الله ذنباً جسيماً. وهذا النداء الإلهيُّ للمؤمنين هو الرابع في هذه السورة من جملة سبعة نداءات تقدم ثلاثة منها في الآيات: ٩ و٤١ و٤٩، وستأتي ثلاثة أُخَر في الآيات: ٥٦ و٦٩ و٧٠.

٥٤ - إن تُظهروا شيئاً على ألسنتكم - أيها الناس - ممَّا يؤذيه ﷺ، أو تُخفوه في صدوركم، فإنَّ الله كان دواماً بكلِّ شيء عليماً، يعلم سِرَّكم وعلانيتكم، وسيُجازيكم على ذلك.

﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ ۗ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾ ۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾﴾

٥٥ ـ لا إثم على نساء النبيِّ ﷺ وسائر النساء في رؤية هؤلاء لهنّ وعدم احتجابهنّ منهن، وهؤلاء الأصناف هم سبعة: **الأول**: آباؤهن، **والثاني**: أبناؤهنّ، **والثالث**: إخوانهنّ، **والرابع**: أبناء إخوانهنّ، **والخامس**: أبناء أخواتهنّ، **والسادس**: النِّساء المَمْلوكات، **والسابع**: العبيد المَمْلوكون لهنّ؛ لشدَّة الحاجة إليهم في الخدمة، واتَّقينَ الله ـ أيُّها النِّساء ـ أن يَراكُنّ أحدٌ غير هؤلاء؛ إنَّ الله كان على كلِّ شيءٍ من أعمال العباد شهيداً حاضراً مُعَاينا، يُخبر عن كلِّ شيءٍ في الكون إخباراً مُطابقاً لما هو عليه في الواقع، لا تخفى عليه في الوجود خافية. ويلحق بأصناف الأقرباء: الأعمام والأخوال، لأن ذكر أبناء الإخوان، وأبناء الأخوات يقتضي اتِّحاد الحكم، فلما رُفع الحرج عنهن فيمن هنّ عمات لهن، أو خالات، كان رفع الحرج عنهن في الأعمام والأخوال كذلك.

٥٦ ـ إنَّ الله سبحانه يرحَمُ نبيَّه ﷺ، ويُثني عليه دواماً في حياته وبعد مَماته، تكريماً له، ورفعةً لدرجاته، والملائكةُ يدعون له ﷺ، ويُثْنون عليه بدوام واستمرار دون فتور ولا انقطاع، يا أيُّها الذين آمنوا، عَظِّموا شأن النبيِّ ﷺ، وادعوا له بالرحمة، وسلِّموا عليه تسليماً، تحيةً وتعظيماً له، وانقادوا لحكمه، وتمسَّكوا بسنَّته، تحقيقاً لصدق محبته، ووفاءً له ببعض حقِّه مقابل ما قدَّمه لكم وللعالمين أجمعين من هدايةٍ وإخلاص ودعاء، وما سيُقدِّمه يوم القيامة من شفاعة، واحمدوا الله سبحانه واشكروه، لأنه كلَّفكم بالصَّلاة والسلام على نبيِّه ﷺ، ففي ذلك رحمة بكم، إذْ ثواب صلاتكم عليه ﷺ يعودُ عليكم، فَضْلاً منه تعالى، وتكريماً لنبيِّه ﷺ، كما تنالون القُرب منه ﷺ يوم القيامة بالإكثار من الصلاة والسلام عليه، ويكفيكم الله همومَ الدنيا، فيشرح صدوركم، ويطمئن قلوبكم، ويغفر ذنوبكم، ويضع عنكم أثقال أوزاركم يوم القيامة.

وصفةُ الصَّلاة على النبيِّ ﷺ ثَبت في السنة على أنواع، منها: «اللهمَّ صلِّ على محمد وعلى آل محمد، كما صلَّيت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد، اللهمَّ بارك على محمد وعلى آل محمدٍ، كما باركت على آل إبراهيم إنَّك حميدٌ مجيد». وهذا النداء الإلهيُّ للمؤمنين هو الخامس في هذه السُّورة.

٥٧ ـ إنَّ الذين يُؤْذونَ الله ورسولَه بأقوالهم أو أفعالهم من اليهود والنصارى والمشركين والمنافقين، طردهم الله وأبعدهم عن رحمته في الدنيا والآخرة، وهيَّء لهم في الآخرة عذاباً يُذلُّهم ويُهينهم.

٥٨ ـ والذين يُؤذون المؤمنينَ والمؤمنات من غير عمل يُوجِبُ أذاهم، فقد كلَّفوا أنفسهم كذباً عظيماً، وإثماً ظاهراً كبيراً يحملونه على ظهورهم يوم القيامة. أُلحقت حُرمة المؤمنين في هذه الآية بحرمة الرسول ﷺ تنويهاً بشأنهم، وذكروا على حدة للإشارة إلى نزول رتبتهم عن رتبته ﷺ.

٥٩ ـ يا أيُّها النَّبيُّ الذي شرَّفناك وكرَّمناك بالنبوَّة، قل لأزواجكَ وبناتِكَ ونساءِ المؤمنينَ يُرْخينَ ويَسْدُلْنَ عليهنَّ من مَلاحفهنَّ حتى تَسْتُر أجسادهنَّ من رؤوسهنَّ إلى أقدامهنَّ، ذلك أقربُ أن يُميَّزن بالسَّتْر والصِّيانة والعفة، فلا يختلطن بالإماء، فإذا عُرِفنَ فلا يُتعرَّض لهُنَّ بمكروه أو أذى، وكان الله كثير المغفرة لما سلف، يستر ذنوب عباده، ويتجاوز عن تقصيرهم، دائم الرحمة بهم. وهذا النداء الذي خُوطب به النبيُّ ﷺ هو الخامس والأخير في هذه السورة، وقد تقدَّم في الآيات (١) و(٢٨) و(٤٥) و(٥٠).

٦٠ ـ أُقسم لئن لم يكفَّ المنافقون عن نفاقهم، والذين في قلوبهم حَسَدٌ من منافقي اليهود، والمشيعون للأخبار الكاذبة في «المدينة» عن أعمالهم العدائيَّة للإسلام والمسلمين، لَنُسَلِّطَنَّك عليهم ـ يا رسول الله ـ للانتقام منهم وطردهم حتى يخرجوا من «المدينة»، ثمَّ لا يُساكنونك فيها إلا زمناً قليلاً ريثما يُجلَوْن عنها.

٦١ ـ مَطْرودينَ من رحمة الله في أيِّ مكان وُجدوا وأُدركوا فيه، أُسِروا، وقُتِّلوا أكبر قتل وأشنعه، تطهيراً للمجتمع من شرِّهم وفسادهم.

٦٢ ـ هذه العقوبة الشديدة في معاملة المنافقين إذا استمرُّوا على مكايدهم وتصرُّفاتهم العدائيَّة، وهم داخل صفوف المسلمين كسُنَّةِ الله وطريقته في منافقي الأُمم السابقة، إذا تَمادَوْا في غيِّهم ولم ينتهوا عن إيذاء رُسلهم، أن يُؤْسَروا ويُقتَّلوا شرَّ قِتْلةٍ أينما وُجِدُوا، ذلك لأن خطرهم حينئذ يكون أشدَّ من خطر الكافرين المُجاهرين بعداوتهم، وهي سنَّة مُستمرة لا تبديل لها، ولن تجدَ ـ يا رسول الله ـ لِسُنَّةِ الله الثابتة في الشرائع الربانيَّة تغييراً.

يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ
لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ
لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا
﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ
وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا
فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ﴿٦٧﴾ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ
وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ
آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ
لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ
فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا
الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ
وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ
عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾

٦٣ ـ يسألك المشركون ـ يا رسول الله ـ عن وقت قيام السَّاعة التي يكون فيها إنهاء ظروف الحياة الدنيا، استبْعاداً واستهزاءً، ويسألك المنافقونَ إيذاءً وإرجافاً، واليهودَ امتحاناً واختباراً؟ قل لهم: إنَّ الله تعالى قد اسْتأثر به، ولم يُطلع عليه نبياً ولا مَلَكاً، وأيُّ شيء يُعلمك ـ يا رسول الله ـ متى يكون قيام الساعة، لعلَّ وقت قيامها يكون قريباً؟ عند ذلك يندمُ الجَاحدون، ويُصدِّق المُكذِّبون، ويستيقن المرتابون.

٦٤، ٦٥ ـ إنَّ الله طَرَد الكافرين من رحمته، وهيَّأ لهم ناراً شديدة الاتِّقاد، ماكثين فيها أبداً، لا يجدون ولياً يتولاَّهم ويدفع عنهم، ولا ناصراً ينصرهم، فيخرجهم من النار.

٦٦ ـ ضَعْ في ذاكرتك ـ أيُّها المتلقِّي لآياتنا ـ يومَ تتقلَّب وجوهُ الكافرين ظهراً لبطن حين يُسْحبون على النار؛ لِتُشْوى من كلِّ الجهات، فلا يبقى فيها مكان لا تلفحه النار، يقولون نادمين متحسِّرين: يا لَيْتَنا أطعنا الله، وأطعنا رسولَه في الدنيا، فنتخلَّص من هذا العذاب.

٦٧ ـ وقال الكافرون يوم القيامة: ربَّنا أطعنا طاعةَ جاهلة عمياء رؤساءَنا في الكفر، وأئمتنا في الضَّلال، الذين لقَّنونا الكفر وزيَّنوه لنا، فأبعدونا عن سبيل الحقِّ والهدى.

٦٨ ـ ربَّنا عَذِّب رؤساء الكفر وكبراء الضَّلالة ضِعْفَي عذاب غيرهم؛ عذاباً على ضلالهم في أنفسهم، وعذاباً على إضلالهم لنا، واطْرُدهم من رحمتك طرداً شديداً.

٦٩ ـ يا أيُّها الذين آمنوا لا تُؤْذُوا رسولَ الله بأيِّ نوع من الأذى، ولا تكونوا كرؤساء الضلال في بني إسرائيل الذين آذَوْا نبيَّ الله موسى، ونشروا عنه الأراجيف والأكاذيب؛ بقصد إيذائه، وتشويه سُمعته، فطهَّره الله ممَّا قالوا فيه من الكذب والزُّور، وحفظ له مكانته ووجاهته، وكان عند الله كريماً ذا جاهٍ وقدر، فلا تفعلوا هذا بنبيِّكم ﷺ فإنَّ له من الوجاهة والمكانة عند الله أعظم ممَّا لموسى عليه السلام. وهذا النداء الإلهيُّ للمؤمنين هو السادس في هذه السورة.

٧٠، ٧١ ـ يا أيُّها الذين آمنوا خافوا عقابَ الله إذا عصَيْتموه، وقولوا قولاً صواباً قاصداً إلى الحق والسَّداد، يتقبَّل الله حسناتكم، ويمْحُ ذنوبكم، ومَنْ يُطع الله ورسوله فقد ظفر بالخير العظيم بالنجاة من النار، ودخول الجنة. وهذا النداء للمؤمنين هو السابع والأخير في هذه السورة.

٧٢ ـ إنَّا عَرَضْنَا الأمانة ـ التي ائْتَمنَ اللَّهُ ـ عليها المُكلَّفين، بأن يعبروا رحلة امتحانهم في الحياة الدنيا، وهم يحملون الإرادة الحرَّة، وقُدْرات الإدراك والفهم، على أنْ تُسخَّر لهم بخَلْق الله الأشياء والقوى في ذات أنفسهم، وفي الكون من حولهم؛ ليُمتحنوا في ظروف الحياة الدنيا، بالإيمان والإسلام والعبادة، فَمَنْ كفر بالله كان مصيره إلى الخلود في النار، ومَنْ آمن وكسب في إيمانه خيراً، كان مصيره إلى الخلود في جنات النعيم، عرضنا تلك الأمانة على السَّموات والأرض والجبال، وكان العرضُ عليهنَّ تخييراً لا إلزاماً، فَأَبت السَّمواتُ والأرضُ والجبال رغم كبرها وضخامتها من حَمْل هذه الأمانة، بل خفْن من حَمْلها، بعد أنْ أعطاهنَّ الله القُدرة على إدراكها، إذ لا تملك استعداداً فطرياً لحمل الأمانة، لأنها لا تملك إرادة حرة حتى تُختبر أمانتُها وخيانتُها، وحَمَلها الإنسان؛ لأنه يحمل الاستعداد الفطريَّ الكامل لحَمْل الأمانة؛ بما منحه الله سبحانه من خصائص التفكير والعقل ومعرفة صفات الأشياء، والإرادةِ الحُرَّة، ممَّا يستطيع التصرُّف فيه بفعل الخير أو بفعل الشر، وإذْ وضع الله هذه الخصائص أمانة تحت يده، وضع له منهاجاً يسير عليه، فإذا استعمل الإنسان ما استودع الله إرادته من قوى وطاقات، في طاعة الله، وفيما أذن له به، فإنه يُثبت أنه صاحب أمانة، أما إذا استعملها فيما لا يرضي الله، أو فيما فيه ظلم أو عدوان على أحدٍ من خلق الله، فهو خائنٌ فيما اسْتأمنه الله عليه، وجعله وديعةً عنده؛ إنَّه كان ظلوماً لنفسه لكثرة خيانته للأمانة، وعدوانه على حقوقها، استجابةً لأهوائه وشهواته، ووساوس الشياطين، جهولاً بأمر ربِّه، لم يتبصَّر بعواقب ظلمه، ولم يحسب حساباً لمسؤوليَّته، ولم يَخْشَ عقابَ ربِّه، كما هو المُشَاهَدُ في وصف معظم الناس.

٧٣ ـ لتكون عاقبة حَمْل الأمانة، وثمرة هذه المسؤولية، الجزاء بالعدل والفَضْل، فيُعذِّب الله بعدله المنافقين الذين يُظهرون الإسلام ويُبْطنون الكفر، والمنافقات، والمشركين والمشركات بما خانوا الأمانة، ولم يقوموا بحقِّها، ويتوبَ الله بفَضْله ورحمته على المؤمنين والمؤمنات، ويهديهم ويرحمهم بما أدَّوا من الأمانة التي استأمنهم عليها مالكها، وأخضعها لتصرُّفهم، فيما أذن لهم به، وكان الله كثيرَ السَّتْر للتائبين، دائم الرحمة بعباده المؤمنين.

سُورَةُ سَبَإٍ

سورة سبأ — ترتيبها ٣٤ — آياتها ٥٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ ۚ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ﴿٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾ لِّيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ۚ أُولَٰئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾

سُورَةُ سَبَإٍ

١ ـ الثناءُ كلُّه حَقٌّ لله وحدَهُ، الذي له كلُّ ما في السَّموات وما في الأرض مُلْكاً وخَلْقاً، وله الثناء والشكر الكامل في الآخرة كما هو له في الدنيا؛ لأنَّ النِّعَم في الدَّارَيْن كلها منه، فكما أنَّه المحمود على نِعَم الدنيا فهو المحمود على نِعَم الآخرة، وهو الحكيم الذي يضع الأشياء في مواضعها الملائمة لَها، ويختار أفضل الأشياء وأتقَنَها وأحسَنَها في الأمور المختلفة لما يعطي أحسن النتائج، الخبير على سبيل الشهود والحضور المُصَاحِبِ لكلِّ أجزاء العمل، ظواهره وبواطنه.

٢ ـ يعلم ما يدخل في الأرض من المياه، والأحياء الكبرى والصُّغرى، حتى «البكتريات»، وما هو أصْغَر منها، ويشمل الأشعة والحرارة وأجزاءَهما حتى أصْغَرَ جزءٍ، ويشمل القوى المُختلفة، ومنها الجاذبيَّة حتى أقلِّ مقْدار منها، وما يخرج من الأرض من النبات على اختلاف أفرادها ، وأجناسها، وأنواعها، ومنه: ينابيع المياه حتى أقلِّ مقدار من الماء، ومنه: المعادن والصخور والأتربة والرمال، وقوى الجاذبيَّة، ويعلم سبحانه كلَّ ما ينزل من السماء من المطر والثلج والبرد، والشُّهب، وأشعة الشمس والأنوار، وأنواع البركات والملائكة، ويعلم كلَّ ما يعرُجُ في السماء صاعداً من الأرض، أو من إحدى السموات إلى ما فوقها، حتى آخر بُعْد من أبعاد السموات من الملائكة والأرواح والدعاء وأعمال العباد، وهو الواسع الرحمة الغفور الذي يستر ذنوب عباده، ويتجاوز عن تقصيرهم في أداء ما وَجَب عليهم من شكر نعمه.

٣ ـ وقال الكافرون المُنكرون للبعث: لا تأتينا الساعة الموعودة للبعث والنشور، ومُلاقاة الحساب، وفَصْل القضاء، وتنفيذ الجزاء. قل لهم ـ يا رسول الله ـ: مقولتكم كاذبة مرفوضة، وأقسم لكم بربِّي لتأتينَّكم ساعة البعث ليوم الدين الذي تلاقون فيه جزاءكم على ما أسلفتم في الحياة الدنيا، ولا تتصوَّروا أنَّ أعمالكم خافيةٌ على ربِّكم، بل هي معلومة له، وكيف يخفى عليه ما كسبتم وما تكسِبون من أعمال ظاهرة في الجوارح، وباطنةٍ في السرائر، وهو عالم كلِّ ما هو غيب بالنسبة إلى غيره، لا يخفى عليه شيءٌ من الخفيَّات، ولا يغيب عن علمه وزنُ ذرَّة في السَّموات ولا في الأرض، ولا أصغر من الذرَّة ولا أكبر، إلا هو مُدَوَّن في كتابٍ مُبين، واضح ظاهر، يُبيِّن ما هو مُدوَّنٌ فيه بياناً واضحاً، وهو اللوح المحفوظ.

٤ ـ لَتأتينَّكم الساعة التي فيها البعث ليوم الدين؛ ليجزيَ الذين آمنوا إيماناً صحيحاً صادقاً، وعملوا الصالحات الدالّة على صحة الإيمان الاعتقاديِّ الإراديِّ بالثواب فَضْلاً من الربِّ الجليل، أولئك رفيعو المكانة عند ربِّهم لهم ثوابان: **الثواب الأول**: مغفرة لذنوبهم، فيسْتُرها ويتجاوز عن محاسبتهم ومُجازاتهم عليها، **والثواب الثاني**: رزقٌ كريم ينالونه في جنات النعيم.

٥ ـ والذين سَعَوْا بهمَّة ونشاط مُجتهدين في الصَّدِّ عن آياتنا الكونيَّة والبيانيَّة، يحسبون أنَّهم قادرون على الإفلات والهرب من قبضتنا التي نأخذهم بها إلى العذاب الأليم المُعَدّ للكافرين، أولئك البعداء في اتِّجاه الدرك الأسفل من النار لهم عذابٌ من أسْوَأ العذاب وأشدِّه ألماً.

٦ ـ ويرى مؤمنو أهل الكتاب أنَّ القُرآنَ الذي أنزله الله إليك هو الحقُّ الثابت من عند الله، ويُرشد القرآن إلى طريق الله القويِّ الغالبِ على كلِّ شيء، الذي يحمَدُ عبادَهُ المؤمنين الذين يعملون الصَّالحات، والذي هو محمودٌ يُسبِّح بحمده كلُّ شيء.

٧ ـ وقال الكفار المُنكرون للبعث لمن يستمع إليهم قولاً مقروناً بالسُّخرية والاستهزاء: هل ندلُّكم على رجلٍ ـ يريدون محمداً ﷺ ـ يُحدِّثكم بأعجوبة من الأعاجيب، وهي: أنكم إذا مِتُّم وقُطِّعتم كلَّ تقطيع، وَفُرِّقت أجسامكم في الأرض كلَّ تفريق، وصِرْتم تُراباً، يقول: إنَّكم تُبعثون وتنشؤون خلقاً جديداً؟

أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَـٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴿٨﴾ أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَـٰبِغَـٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَـٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ وَلِسُلَيْمَـٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَـٰرِيبَ وَتَمَـٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَـٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾



٨ - أهذا الرجل الذي جاء بهذا القول العجيب المُستنكر: مُفْتَرٍ على الله كذباً فيما يُنسب إليه من ذلك، أم به جنون يُوهمه ذلك، ويلقيه على لسانه، فهو يتكلَّم بما لا يدري؟ ليس الأمر كما زعموا، بل الذين ينكرون البعث، ولا يعملون من أجله في العذاب الدائم في الآخره، والضلال البعيد عن الحقّ في الدنيا.

٩ - أَنَطمسَت أبصارُهُم وبصائرُهُم، فلم يَرَوْا بأعينهم ولا بعقولهم ناظرين إلى ما خلقه الله في كونه من السماء والأرض، مما بعضه واقعٌ بين أيديهم من مواقع أقدامهم إلى امتداد بصرهم، وبعضه واقعٌ خلفهم، فيعلموا أنَّهم حيث كانوا في أرضي، وتحت سمائي، فإنَّ أرضي وسمائي محيطةٌ بهم، لا يخرجون من أقطارها، وأنا قادرٌ عليهم؟ إنْ نَشأْ نغوِّر من تحتهم الأرض، فندفنهُم فيها، كما فعلنا بقارون، أو إنْ نَشَأْ نُسْقِطْ عليهم قِطَعاً مُهْلكةً من السماء، كما فعلنا بقوم شُعَيْب؛ لتكذيبهم الآيات وكفرهم بالرسول، إنَّ في ذلك الذي هو بين أيديهم والذي هو خلفهم من السماء والأرض، لعلامةً عظيمةً دالَّةً على قُدرتنا على البعث بعد الموت، وعلى أن نخسف الأرض بمن نشاء، وأن نسقط قطعاً مهلكةً من السماء على من نشاء، إلاَّ أن الذي يُدرك هذه الآية ويهتدي بها، كل عبدٍ لديه الرغبة في أن يرجع إلى ربِّه بقلبه ونفسه وفكره، مؤمناً مطيعاً مسلماً.

١٠ - ونُقسم مؤكِّدين أننا آتيْنا داود منا عطاءاً زائداً خَصَصْناهُ به، ومن هذا الفَضْل: ترجيع الجبال والطَّير صَدىٰ صوته الشَّجيِّ في تسابيحه، وقلنا للجبال والطَّير: رجِّعي معه تسبيحَهُ إذا سبَّح، وألَنَّا له الحديد، فكان في يده كالعجين، يعمل منه ما يشاء من غير نار ولا ضرب مطرقة.

١١ - وأمرناه أن اعمل - يا داود - دروعاً تامّات واسعاتٍ ساترات، وأحْكم مقادير حِلَق الدُّروع، ومقادير الثقوب عند مواطن اتِّصالها ببعضها، ومقادير مسامير الرَّبط بينها، حتى تؤدِّي الغرض منها أداءً حسناً، وأحكم تفصيلها على مقادير أجساد لابسيها، حتى تكون وافية الوقاية، تامَّة الصَّنْعة، واعمل - يا داود وأهلك - عملاً صالحاً مُتْقناً، إنّي بما تعملون بصير، فأُجازيكم بالثواب العظيم على العمل الصالح يوم الدينَ، فوق ما أمنحكم من ثواب مُعجَّل في الدنيا.

١٢ - وذلَّلنا لسُلَيمانَ بن داود عليهما السلام الريحَ جَرْيُها بالغَداة ما بين الفجر وطلوع الشمس مسيرةَ شهر، وجَريها بالعشيِّ من وَقْت العصر إلى الغروب كذلك، فكانت تسير به في يوم واحد مسيرة ما تجتازه قافلة المسافرين في شهرين كاملين بالسَّيْر المعتاد، وأذبنا له عين النُّحاس يجري غزيراً مُستمرّاً، وذلَّلْنا من شياطين الجنِّ مَنْ يعمل بين يديه تحت سلطانه المباشر ومراقبته، بأمر ربِّه، ومَنْ ينحرف من الجنِّ عن تنفيذ أمرنا لهم بطاعة سليمان، نُذِقْه بعض عذابٍ من النار المُسْتَعِرة المُحْرقة في الآخرة.

١٣ - يعمل الجنُّ لسُليمانَ ما يشاءُ من مساجد للعبادة، وصور مجسَّمةٍ من نحاس ورخام وزجاج، وقصاع كبار كالحياض التي يُجْبى فيها الماء، وقدور ثابتات على قواعدها لا تحرَّك ولا تنزل عن أماكنها لعظمهنَّ، وقلنا: يا آل داود اعملوا عملاً صالحاً؛ لأجل شكر الله بالعمل الصَّالح على ما تفضَّل به عليكم من نِعَم كثيرة، وقليلٌ من عبادي العامل بطاعتي، شكراً لنعمتي.

١٤ - فحين أمضَيْنا قَضَاءَنَا على سليمان بالموت، ما دلَّ الجنَّ على موته إلا الأَرَضَةُ - وهي دودة تأكل الخشب وتُعرف باسم النمل الأبيض - تأكل عَصَاه التي يتوكَّأ عليها، وهو جالسٌ على كرسيِّه، مُمْسكاً بعصاه، واضعاً جبينه على أعلاها، فلمَّا سقط سليمان على الأرض، علمت الجنُّ وأيقنت أنهم لو كانوا يعلمون الغَيْبَ، ما أقاموا هذه المدة الواقعة ما بين موته وعلمهم به، يُنفِّذون الأعمال المُذِلَّة المُخْزِية التي كان قد أمرهم بتنفيذها، وكانوا يرهبون سَطْوتَهُ، وما آتاه الله من سلطان قويٍّ عليهم. وكان سليمان إذا دخل محرابه وخلا لنفسه، واعتكف لعبادة ربِّه، لم يستطع أحدٌ أن يدخل عليه - سواء كان من أهله أو من غير أهله، وسواء كان من الإنس أو من الجن - حتى يأذن له، وذلك بما وهبه الله من هيْبة، وسلطان، وبخاصَّةٍ بعد أن استقرَّ ملكه، وكبرت سنُّه، وصار ميَّالاً للخلوات يعبد فيها ربَّه، ويتجرَّد من كلِّ علائق الدنيا.

لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾

١٥ - نؤكِّد لكم - أيُّها المصرُّون على كفركم - أنه كان لأهلِ «سَبَأ» في مسكنهم بـ«اليمن» علامة دالَّةٌ على وحدانيَّتنا وقُدرتنا وإحساننا ووجوب شكرنا هذه الآية: بُستانان عن يمينِ الوادي وشمالِه، يَنْعَمُ الناس بثمارها، ويَسْتتِرون بظلالها، وقيل لهم: كلوا من ثمار الجنَّتين، واشكروا الله على ما رزقكم من النعمة، واعملوا بطاعته، هذه بلدتكم بلدةٌ طيِّبة خالية من الأوبئة، جيِّدة الهواء، معتدلة درجات الحرارة، وافرة العطاء من الأرزاق، وربُّكم - إنْ آمنتم إيماناً صحيحاً، وأسلمتم وأطعتم وشكرتم على ما رزقكم - ربٌّ كثير السَّتر لذنوب عباده.

١٦ - فلم يستجيبوا لما دعاهم إليه داعيهم، ولم يكترثوا بإنذاره بعقاب الله لهم، فأرسلنا عليهم السَّيْلَ الجارفَ العنيف المتدفِّق بالوحل الذي لا يُطاق، فدمَّر مساكنهم، وأتلف مزارعهم، وبدَّلناهم بجنَّتيهم المُثْمِرَتَيْن جنَّتين ذواتَيْ طَعْم مُرٍّ، قليل الحَمْل، وشَجرٍ عظيم من شجر العِضَاة، كثير الأغصان، دقيق الورق، وشيءٍ قليل من شجر النَّبْق، كثير الشَّوك، ينْبت في الجبال والرمل، لا نفع فيه.

١٧ - ذلك الجزاء الذي جَزَيْنا به قومَ «سبأ» بسبب كفرهم المُوغِلِ في الخِسَّة. ونحن من سُنَّتنا في عبادنا أنَّنا لا نُجازي في هذه الحياة الدنيا مثل هذا الجزاء المعجَّل بالعقاب المهلك الشامل الذي أنزلناه بقوم «سبأ» إلا من كان مُوغِلاً في ظلمات الكفر، مُعانداً مُجرماً جاحداً للحقِّ وهو عالمٌ به. وأنتم - أيُّها المشركون - في مكة، في قرية آمنة مطمئنةٍ يأتيها رزقها رغَداً من كلِّ مكان، فلا تُسبِّبوا لأنفسكم بالكفر بما جاءكم به رسول ربِّكم أن يُنزل الله بكم نظير ما أنزل بقوم «سبأ».

١٨ - وجعلنا بين مساكن أهل «سبأ» باليمن، وبين قُرى بلاد الشام المباركة، مُجمَّعات سكنيَّة مُتواصلةً، تظهرُ الثانية من الأولى، لقُربها منها، تحطُّ رِحَالهم عندها بغيةَ الاستراحة والتزوُّد، وقدَّرنا سَيْرهم بين هذه القرى بمقدار مُعيَّن لا مشقَّة فيه، وقلنا لهم: سيروا فيها في أيِّ وقتٍ شئتم من ليل أو نهار، آمنين لا تخافونَ عدوّاً، ولا جوعاً ولا عطشاً، فبطروا النعمة، وسَئِموا الراحة، وطَغَوْا، ولم يصبروا على العافية.

١٩ - فقالوا: ربَّنا اجعل بيننا وبين قُرى بلاد الشام مسافات مُتباعدة؛ لنركب فيها الرَّواحل، ونتزوَّد الأزواد، وظلموا أنفسهم بالبطر والطغيان، وارتكاب المعاصي والجرائم، فبعد أن كانوا في «اليمن» أمَّةً مشهودةَ القوّةِ والمكانةِ، سلبناهم قوّتهم، وعزلناهم عن مكانتهم، وسلَّطنا عليهم مَنْ غلبهم، وجعلناهم عبرةً لمَنْ بعدَهم، يتحدَّثون بأمرهم وشأنهم، وجزَّأناهم غاية التجزئة في مختلف الأماكن والقرى والمنازل؛ إنَّ في ذلك الذي كان من السَّبئيين، ومن تصاريفنا الحكيمة فيهم، ومتابعتنا لهم بالعقاب، لعبراً ودلالات على سنة الله في عباده لكلِّ كثير الصبر على الابتلاء وعن المعاصي، كثير الشكر لله بالتقرُّب إليه بنوافل العبادات.

٢٠ - ونُقسم مؤكِّدين أن إبليس حقَّق ظنَّه على بني آدم بما علمه من صفاتهم، وقياساً على خبرته بواقع حال الجنِّ المخلوقين قبل الإنس، فتحقَّق في الواقع التجريبي ظنُّه، فاتَّبعوه وأطاعوه، وتأثَّروا بوساوسه وإغراءاته وإغواءاته، إلاَّ فريقاً قليلاً من المؤمنين.

٢١ - وما كان لإبليس على هؤلاء الكفار من تسليط يُلغي إراداتهم الحُرَّة، وإنما اتَّبعوه طاعةً لأهوائهم وشهواتهم، ولم يكن لإبليس إلا أنْ دعاهم بأسلوب الوسوسة والتَّسْويل، فاسْتَجابوا له، وما مكَّنَّا إبليس وجنوده من هذه الأعمال الإغوائية، إلا لنرى من يُصَدِّق بالآخرة ونَميزه ممَّن هو منها في شك، أو منكرٍ لها. وربُّك - يا رسول الله - على كلِّ شيء حفيظٌ بسلطانه وهَيْمَنَتِهِ، ومحيط علماً، ومراقب دواماً لكلِّ ما أحاط به علمه.

٢٢ - قل - يا رسول الله ويا كُلَّ داعٍ إلى الله من أمته - في حوار دعويٍّ مع المشركين: اسألوا لتحقيق منافع لكم، أو كشف ضُرٍّ عنكم، الذين جعلتموهم آلهةً تعبدونهم من غير الله، وهم من دونه خلقٌ من خلقه، خاضعون لتصاريفه، فجعلتموهم كذباً وزوراً وافتراءً شركاء للّه في إلهيَّته، وفي بعض ربوبيَّته، إنَّهم لا يملكون مِقْدار ذرَّة في السموات ولا في الأرض، وليس لآلهتكم في السموات والأرض من مشاركة للربِّ الخالق المالك في خَلْق شيء منهما، ولا في امتلاك شيء منهما، ولا في التصرُّف بشيء منهما، وليس لله سبحانه من آلهتكم الباطلة الذين تعبدونهم من دون الله من مُعينٍ له في شيء من تصاريفه في كونه.



وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾ ۞ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِىَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ ۖ كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾

٢٣ ـ ولا تنفع الشَّفاعة عند الله تعالى إلا لِمَن أذن الله له في الشَّفاعة، كالملائكة والرُّسل ونحوهم من المُستأهلين لمقام الشفاعة عنده، فلا تطمعوا ـ أيُّها المشركون ـ بأن تشفع لكم آلهتكم الذين تعبدون من دون الله، ومن عظيم قدرة الله سبحانه: أنَّه إذا تكلَّم بالوحي، فسمعه أهل السَّموات، أصاب الملائكة غشيةٌ عند سماع كلامه، حتى إذا كُشِفَ الفَزَعُ وأُزيل عن قلوبهم. قالوا: ماذا قال ربُّكم؟ قالوا: قال القولَ الحقَّ الثابت، وهو ـ وحده ـ ذو العلوِّ والكبرياء.

٢٤ ـ قل ـ يا أيُّها الداعي إلى الله ـ للمشركين: مَنْ يرزقكم المطر والنبات من السموات والأرض؟ قل لهم ـ على جهة الإلزام والإنصاف في الحجاج ـ: إنَّ رازقكم من السموات والأرض هو الله، وليس لآلهتكم ـ أيُّها المشركون ـ تأثير في شيءٍ من تصاريف الكون وأحداثه كلِّها، ومنها: أرزاق العباد، وما نحن وأنتم على أمرٍ واحد، بل نحن وإياكم في معتقداتنا وأفكارنا على طرَفي نقيض، فإما أن نكون نحن على هدى، وأنتم في ضلال مبين، وإما أن تكونوا أنتم على هُدىً، ونحن في ضلالٍ مبين، فقدِّموا ما لديكم من أدلةٍ لإثبات ما تدَّعون، ونحن نُقدِّم ما لدينا من براهين لإثبات ما نؤمن به.

وفي هذا التعليم الربَّانيِّ إلزامٌ للداعي إلى الله أن يعلن عند حواره لغير المؤمنين تجرُّده عن سوابق أفكاره حول ما يؤمن به، وأنه يقدِّم قضايا موضوعِهِ الذي يدعو إليه للبحث المُتجرِّد على مائدة سواء بين الفريقين، فعلى كلٍّ منهما أن ينظر بتجرُّد نظراً فكرياً عقلياً علمياً، ثم على كلٍّ منهما أن يقبل ما يُوصل إليه البحث العلميّ المتجرِّد، ويُذعن له، ويُؤمن به.

٢٥ ـ قل لهم ـ يا أيها الداعي إلى الله ـ متلطِّفاً معهم في العبارة: إنَّ المسؤوليَّة عند الله مسؤوليةٌ شخصيَّة فرديّة، فإن كنا قد أجرمنا في نظركم فلا تُسألون عمَّا أجرمنا، ونحن لا نُسأل عمَّا تعملون؛ إذ لا نصفكم بالإجرام ردّاً على اتِّهامكم لنا بالإجرام.

٢٦ ـ قل ـ أيُّها الداعي ـ للمشركين الذين يدَّعون أن الله سوف يعطيهم في الآخرة ـ على فرض وجودها الذي لا يؤمنون به ـ مثلما أعطاهم في الدنيا: سوف يَجْمَعُ بينَنَا ربُّنا يوم القيامة، إذ يبعثنا إلى الحياة الأخرى، للحساب، وفصل القضاء، وتنفيذ الجزاء، كما وعدنا، ثم ينفِّذ ما قضى به من جزاءٍ بالثواب في جنات النعيم، أو بالعذاب في نار الجحيم، وهو الحاكم الذي يحكم بين عباده بالحق، العليم بما يتعلَّق بحكمه من المصالح، المحيط بكلِّ شيءٍ علماً.

٢٧ ـ قل ـ أيُّها الداعي ـ للمشركين: أروني بمشاهدةٍ حسيَّة أو بدليل عقليٍّ في رؤية ذهنيَّةٍ، الأصنام التي أشركتموها مع الله في العبادة، فإن توصَّلتم إلى أنَّ لهم ربوبيَّة في الكون فأخبروني: هل يخلقون أو يرزقون؟ ارتدعوا عن زعم الشِّرك، فإنَّهم لا يَخْلقون ولا يرزقون، بل هو الله القويُّ الغالبُ على أمره، الحكيمُ في تدبير خلقه، فأنَّى يكون له شريك في ملكه؟

٢٨ ـ وما أرسلناك ـ يا رسول الله ـ في حال من الأحوال إلاَّ في حال كونك مُرسلاً للنَّاس أجمعين، حالة كونك ـ مع تبليغك رسالة ربِّك ـ بشيراً لِمَنْ آمنَ بالسعادة الأبديَّة الخالدة في جنات النعيم يوم الدين، مع أنواع ثواب مُعجّل في الدنيا، ونذيراً لِمَنْ كفر وأعرض عن الاستجابة بالشقاء الأبديّ بعذابٍ في نار جهنم يوم الدين، مع أنواع عقاب معجَّل في الدنيا، ولكنَّ أكثر الناس لا يعلمون صدقك وعموم رسالتك، وحقائق الدين الذي تدعوهم إليه؛ لئلا يصرفَهُم هذا العلم عمَّا هم فيه من تحقيق أهوائهم، وشهواتهم، ومطالبهم في الحياة الدنيا العاجلة.

٢٩ ـ ويقول هؤلاء المشركون مستهزئين: متى هذا الوعد الذي تعدوننا أن يجمعنا الله فيه، إن كنتم صادقين فيما تعدوننا به؟

٣٠ ـ قل ـ يا رسول الله ـ: لكم ـ أيها المشركون ـ وقت تحقيق الموعود في يوم معلوم، لا تستطيعون ـ مهما بذلتم من جَهْد ـ تأخير زمن وقوع ميعاد الله مهما قلَّ، ولا تستطيعون ـ مهما بذلتم من جَهْد ـ تقديم فعل شيء قبل زمنه الذي قدَّره الله له.

٣١ ـ وقال الذين كفروا: لن نُصَدِّق بهذا القرآن، ولا بالكُتب التي نزلت من قبله على الرسل السابقين، ولو ترى ـ أيها الرائي ـ في الآخرة حالَ الظالمين من دَرَكة الكفر وقت وقوفهم عند خالقهم ومالك أمرهم، في محكمة العدل الربَّانيَّة، لمحاسبتهم وفصْل القضاء بشأن كلِّ واحدٍ منهم، يُجيب المخاصَمون بما وُجِّه لهم من كلام خصومهم، كلٌّ يرفع عن نفسه المسؤولية، لرأيت حالةً فظيعةً. يقول الأتباع الذين كانوا في الدنيا مُسْتَضْعَفين للقادة والرؤساء الذين كانوا في الدنيا مُستكبرين: لولا فتنتكم لنا، وضغطكم علينا، لكنَّا مؤمنين بما جاء به رسولُ ربِّنا، ولما تعرَّضنا لحساب الله، وفصل قضائه، وتنفيذ جزائه.

قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ ۚ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾

٣٢ ـ قال الرؤساء المَتْبوعون في الكفر للمُسْتَضْعَفين ـ مُنكرين اتِّهامهم لهم بأنهم كانوا هم السببَ في ضلالهم ومنعهم عن الاستجابة لدعوة الحق الربَّانيَّة ـ: أنحن منعناكم وَصَرفْنَاكم بسُلطاننا عن اتِّباع الهدى، بعد إذ جاءكم من ربِّكم؟ بل كنتم مجرمين في دخيلة نفوسكم، فأعجبتكم مسالكُنا البعيدةُ عن طريق الهدى، ووجدتم ما يُرضي أهواءكم وشهواتكم فاتَّبعتمونا بمحض إراداتكم، ولم نكن مُكرهين لكم، فمسؤوليتكم عن ضلالكم مسؤوليَّة شخصيَّة.

٣٣ ـ وقال الأتباع المُسْتَضْعَفون لقادتهم المُجرمين: بل كان لكم تأثيرٌ علينا بالتضليل الفكري، والإغراءات النفسيَّة، وكان هذا منكم تدبيراً خفياً دبَّرتموه لنا في الليل والنهار، حين كنتم في الدنيا تطلبون منا أن نكفر بالله، ونجعل له أشباهاً ونظراءَ وأمثالاً نعبدها من دونه تعالى، وأسرَّ الأتباعُ الذين كانوا مُسْتَضعفين، والمتبوعون الذين كانوا مُسْتكبرين في الحياة الدنيا، أسَفَهم وتحسُّرهم ولوْمهم لنفوسهم على ما كانوا قد ارتكبوه من جرائم في الحياة الدنيا، حين رَأوْا العذاب واقعاً بهم، وجعلنا أطواق الحديد في أعناق الأتباع المُستكبرين والمَتْبوعين المُسْتضعفين، الذين كفروا، لا يُجْزَون بمقتضى عدل الله التامّ إلا جزاءاً مطابقاً ومُمَاثلاً لما كانوا يعملون من الكفر والجرائم والمعاصي في الحياة الدنيا؟

٣٤ ـ وما أرسلنا في أهل مُجمَّع سكنيٍّ ولو كان مدينةً عظيمةً من رسول يدعوهم إلى الحقِّ، ويقوم بوظائف رسالته المختلفة، وفي آخرها إنذار الذين يكفرون بها، بأنهم سوف يلاقون عذاب ربِّهم يوم الدين، إلا قال رؤساؤها وأغنياؤها وجَبَابرتها المتَّسعون في النِّعم فيها البطرون بها لرسُلُ ربِّهم: إنَّا بالذي جِئتُم به ـ أيُّها الرسل ـ جاحدون.

٣٥ ـ وقالوا: نحن أكثر منكم أموالاً وأولاداً، ولو لم يكن اللَّهُ راضياً بما نحن عليه لم يُعطنا هذه النعم، إنَّ الله قد أحسَنَ إلينا في الدنيا بالمال والولد، فلا يُعذِّبنا في الآخرة.

٣٦ ـ قل لهم ـ أيُّها الداعي إلى الله الناصحُ المرشد ـ: إنَّ ربِّي يوسِّع الرِّزقَ ويُكثِّره لِمَنْ يشاءُ من العَاصين والطائعين، ويُضَيِّق الرزقَ ويُقلِّله على مَنْ يشاء، ابتلاءً وامتحاناً، حسب ما تقتضيه الحكمة الإلهية، ولا يدلُّ البسط على رِضَا الله تعالى، ولا التضييق على سخَطه، ولكنَّ أكثر الناس لا يعلمون أنَّها للامتحان والابتلاء، فتغرُّهم وَفْرة ما أنعم الله به عليهم، ناسين فضل الله عليهم، فلا يفتحون مغاليق نفوسهم، لإدراك هذه الحقيقة، لأنهم لا يريدون أداء ما أوجب الله عليهم، مما يخالف أهواءهم، ويصطدم مع شحِّ نفوسهم.

٣٧ ـ وليست أموالكم ولا أولادكم بالتي تُقرِّبكم عندنا أقلَّ تقريب، فنحن الذين منحناكُمُوها؛ لنبْلُوَكُم في رحلة امتحانكم، ولكنَّ الذي يُقرِّبكم عندنا ما كان من كَسْبكم الإراديِّ ابتغاء مرضاتنا، بالتقرُّب إلينا بالإيمان والعمل الصالح، فأولئك نجزيهم جزاءً مضاعفاً على حَسَناتهم، فنجزى بالحسنة الواحدة عشراً إلى سبعمائة ضِعْف فأكثر؛ بسبب ما عملوا من صالحات في مرحلة امتحانهم في الحياة الدنيا، وهم في الغُرفات الرفيعات النفيسات في أعالي الجنَّات آمنون من كلِّ ما يكرهون.

٣٨ ـ والذين يَسْعَون بهمَّة ونشاط في جحود آياتنا، وتحريف دلالاتها، والتشكيك فيها، متوهِّمين أنهم قادرون على أن يُفلتوا من عذاب ربِّهم، أولئك المنحطُّون البُعداء عن رحمة الله في عذاب جهنَّم يوم القيامة مُحْضَرون، تُحضرهم الزبانية، فلا يخرجون منها.

٣٩ ـ قل ـ يا رسول الله ويا كلَّ داعٍ إلى الله من أمَّته ـ لهؤلاء المُغْترِّين بالأموال والأولاد: إنَّ ربِّي يُوَسِّعُ الرِّزقَ لِمَنْ يشاء من عباده، ويُضيِّق عليهم؛ لحكمة يعلمها، وما أنفقتم في سبيل الله وابتغاء مرضاته من شيءٍ مهما قلَّ أو كثُر، فاللَّهُ يُعوِّضه لكم في الدنيا لا مُعوِّضَ سواه، بالمال أو القناعة التي هي كنزٌ لا يَنْفَد، إضافةً إلى الأجر العظيم الذي ادَّخره لكم في الآخرة، وهو ـ سبحانه ـ خيرُ مَنْ يُعطي ويَرزق؛ لأنَّ كلَّ رزقٍ من سواه، فهو مِنْ رزق الله، أجْراه الله على أيدي هؤلاء، وهو الرزَّاق الحقيقي الذي لا رازق سواه، فاطلبوا الرزق منه وحده، وخذوا بالأسباب التي أمركم بها.

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ أَهَـٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَـٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَـٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ وَمَآ ءَاتَيْنَـٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَـٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾ ۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾

٤٠ - ضع في ذاكرتك - أيُّها المُتلقّي لبياننا - يومَ يحشر الله الإنسَ والجنَّ جميعاً، ويسوقهم إلى موقف الحساب، ويأتي بالشهود ومنهم الملائكة، ثم بعد وقوف المحاسبين والشهود يقول اللَّهُ تعالى للملائكة: أهؤلاء المشركون كانوا يخصُّونكم بالعبادة والطاعة بحَسَب ما يزعمون؟

٤١ - قال الملائكة: تَنْزيهاً لك عن أن يكون لك شركاء في ربوبيَّتك أو في إلهيَّتِكَ، نحن نتولاَّك ولا نتولاَّهم، نبرأ من الرضا بعبادتهم لنا، إنَّهم في الحقيقة لا يعبدوننا، ولا يطيعون أوامرنا، بل كانوا يعبدون الشياطين الذين زيَّنوا لهم عبادتنا، فأطاعوهم في ذلك، فكانت طاعتُهم للشياطين عبادةً لهم، أكثرهم بشياطينهم من الجنّ مُصدِّقون، مطيعون لهم.

٤٢ - يقول الله عزَّ وجلَّ للمشركين ولأوْليائهم من شياطين الجن: لقد استمتع بعضكم ببعض في الحياة الدنيا، حتى قضيتُم فيها آجالكم، فيومَ الحشر لا يملكُ بعضكم لبعضٍ جَلْبَ شفاعةٍ، ولا دَفْعَ عذاب، وسيَلقى كلُّ واحد منكم جزاءَهُ، ونَقول للذين ظلموا أنفسهم بالشِّرك والمعاصي إهانةً لهم: تحسَّسوا آلام عذاب النَّار التي كنتم بها في الدنيا تُكَذِّبون.

٤٣ - وإذا تُتْلىٰ على الكفار طائفةٌ من آيات القرآن حالة كونها واضحات، قال المشركون خمس مقولات كاذبات: **المقولة الكاذبة الأولى**: ما محمدٌ إلا رجلٌ يريد أن يصرفكم ويُحوِّلكم عمَّا كان يعبد آباؤكم، **المقولة الكاذبة الثانية**: وقالوا: ما هذا القرآنُ الذي يتلوه محمَّدٌ إلا كلامٌ كَذِبٌ في نفسه، مُخْتَلَق ومُصْطنعٌ عن عَمْد من حيث نسبتُه إلى الله، **المقولة الكاذبة الثالثة**: وقال الكفار عن الحقِّ الإعجازي في القرآن لمَّا جاءهم من عند الله: ما هذا التأثير الذي يكون من القرآن في النفوس عند تلاوته، إلا بسبب كونه نوعاً من أنواع السحر الظاهر، لا بسبب كونه كلاماً معجزاً مُنزَّلاً من لدن ربِّ العالمين.

٤٤ - **المقولة الكاذبة الرابعة**: وزعموا أنَّنا لم نأتهم بكُتبٍ ربَّانيَّة يدرسونها، ويُؤمنوا بما جاء من حقٍّ فيها، **المقولة الكاذبة الخامسة**: وقالوا: إنَّ الله ما أرسل إليهم قبل محمد ﷺ رسولاً مُبلِّغاً ومُعلِّماً وهادياً ومُبَشِّراً مَنْ آمن وأطاع بجنَّات النعيم، ومُنْذِراً من كَفَر وعصىٰ بعذاب النار يوم الدين. إنهم يقولون هذا القول مع افتخارهم بجدِّهم إسماعيل بن إبراهيم، وإيمانهم بأنهما رسولان، وهم يعلنون أنهم وارثو مناسك الحجِّ عنهما؟!!

٤٥ - وكذَّب هؤلاء والذين من قبلهم من الأمم السالفة، كعادٍ، وثمود، وفرعون وملئه، وما بلغ هؤلاء المشركون من أهل «مكة» عُشْر ما أعطينا الأمم الخالية من القوة، والأنصار، والأموال، وطول الأعمار، فأرسلت لأولئك المكذِّبين السابقين رُسلي، فكذَّبوهم فيما جاؤوهم به، فأهلكناهم، فكيف كان إنكاري عليهم؟ ألم يكن إنكاراً ساحقاً ماحقاً؟! فَلْيحذر كفار هذه الأمة المعاندين المُصرِّين على باطلهم مثل عذاب الأمم الماضية.

٤٦ - قل - يا رسول الله ويا كلَّ داعٍ إلى الله من أمته - للجماهير من الأتباع: ما أنصحكم إلا بنصيحة واحدة مقرونةٍ بما يثير الرغبة والرهبة في نفوسكم، للانتفاع بالنُّصح، واتِّباع ما هدى إليه؛ أن تقوموا مُتجرِّدين من الأهواء والعصبيَّات تَبْتغون الوصول إلى الحقِّ ومرضاةِ الله، اثنين فاثنين، وواحداً فواحداً، بعيدين عن الضغط الجماعيِّ الذي يحيط بكم، ويُهَيْمن عليكم به أئمتكم وقادتكم، ثمَّ تتفكَّروا في أمر محمد ﷺ ورسالته وما جاء به، فتعلموا أنه ما بصاحبكم من جنون، كما يزعم قادتكم، بل هو مَنْ تعلمونه أرجح الناس عقلاً، وأصدقهم قولاً، وأفضلهم علماً، وأحسنهم عملاً، وأجمعهم للكمالات البشريَّة، فما جاءكم به إنما هو وحيٌ يُوحىٰ إليه من الله تعالى، وما هو إلا مُبلِّغ رسالات ربِّه لكم، وناصحٌ لكم أمين، ومبشِّر من آمن وأطاع بجنَّات النعيم، ومُنْذر من كفر وعَصَى بعذاب شديد يوم الدين، وهو ينذركم قبل نزول عذاب شديد سوف تعذَّبونه إذا لم تؤمنوا وتعملوا صالحاً.

٤٧ - قل - يا رسول الله - للكفار: أنا لم أسألكم أجراً على دعوتكم إلى دين الله وتعليمكم ونصحكم، وإنْ كنتم تتوهَّمون أني أريد من دعوتي أجراً لنفسي من مطالب الحياة الدنيا، فهذا الأجر الذي أطلبه هو لكم، ما ثوابي إلا على الله، يعلم ما في نيَّتي، ويشهد لي بأني لم أطلب منكم أجراً، وهو على كلِّ شيءٍ مُطَّلِع يعلم حالي وحالكم، لا تخفى عليه خافيةٌ من أمورنا.

٤٨ - قل - يا رسول الله -: إنَّ ربِّي يرمي بالحقِّ الذي أنزله على رسوله على الباطل الذي لا قيمةَ له، فيزيله، وهو سبحانه علاَّم جميع ما غاب من حواسِّ وإدراك المخلوقات، لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء.

قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ ﴿٥٤﴾

سورة فاطر

ترتيبها ٣٥ — آياتها ٤٥

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾

٤٩ - قل - يا رسول الله -: جاء الحقُّ الربَّانيُّ المؤيَّد بالبراهين القاطعة، والحجج الساطعة، وذهبَ الباطل وزال، ولم تَبْقَ منه بقيَّة، وإنَّ الباطل لا يُبدىء في الوجود خيراً، ولا أمَّةَ مؤيَّدة بنصر الله، وإذا تداعت الأمة المَبْنيَّة على الباطل، فإنَّ الباطل لا يستطيع أن يعيدَ تلك الأمة التي جرَّبته فلم تفلح، بل كان سبب سقوطها.

٥٠ - قل لهم - يا رسول الله -: إنْ كنتُ ضَلَلْتُ بترك عبادةِ الأصنام فيما تزعمون أنتم، فإني لا أضلُّ إلا جانياً على نفسي؛ إذْ عرَّضْتها لعقاب ربِّي الحكَم العَدل، وإن كنت اهتديت فليس هذا مني، بل بسبب ما يُوحي إليَّ ربِّي من القرآن والحكمة؛ إنَّ ربي سميعٌ لأقوالكم ولما أقوله لكم، قريبٌ بعلمه مني ومنكم، يُجازيني ويُجازيكم.

٥١ - ولو ترى - أيُّها الرائي - حين خاف الكفار خَوْفاً شديداً، ممَّا هم صائرون إليه من عذاب ربِّهم، بعد البعث من قبورهم، فلا قُدرة لهم على الفَوْت والهَرَب، ولا نَجَاة لهم يومئذ من عذاب الله، وأُخِذوا إلى النار من مكانٍ قريب التناول، لرأيت أحداثاً هائلةً مُرعبةً تخلع القلوب من مواضعها.

٥٢ - وقالوا حين عَايَنُوا العذابَ: آمنَّا بالحقِّ الذي جاءنا به الرسول وبلَّغنا إيَّاه، وكيف لهم تناول ما بَعُدَ عنهم من الإيمان والتوبة من الكفر في الآخرة، وقد كان ذلك قريباً منهم في الدنيا فضيَّعوه؟! وكيف يقدرون على الظفَر به في الآخرة، وهي بعيدة من الدنيا!؟

٥٣ - وقد كفروا بالقرآن وبمحمد ﷺ وأنباء يوم الدين، وما جاء به الرسول من قبل أن يُعاينوا العذابَ وأهوال القيامة، وكانوا في الحياة يرجُمون بالظنِّ، ويدَّعونَ دعاوى كاذبات، ويُثْبتون آلهةً باطلةً، وينسبون إليها صفاتٍ وأفعالاً غيبيَّة، وهو رَجْمٌ من مكانٍ بعيدٍ جداً عن الغيب الذي يتحدَّثون عن أمورٍ هي فيه، وليس باستطاعتهم أن يصلوا إلى أيِّ موقع منه.

٥٤ - وأقيم حائل حاجز في الآخرة بين الكفار وبين ما يشتهون من الإيمان المقبول، والتوبة المُنْجية، والرجوع إلى الدنيا، كما فعل الله بنظرائهم ومَنْ كانوا على مثل حالهم من الكفار، فلم تُقبل منهم التوبة والإيمان في وقتِ اليأس، وأُدخلوا في دار العذاب كما أُدخل أشباههم من قبلهم، إنَّهم كانوا جميعاً في شكٍّ من البعث ونزول العذاب بهم، مُوجبٍ للقلق والاضطراب، يُوقع في تُهمتهم بأنهم عالمون بالحقِّ وجاحدون به عناداً؛ ودوافعهم إلى الشكِّ نابعةٌ من أهوائهم وشهواتهم، ورغبات نفوسهم من متاعات الحياة الدنيا.

سورة فاطر

١ - الثناءُ الجميل حَقٌّ لله وحده، خالقِ السموات والأرض ومُبْتدِعهما وَفْقَ نظام الفَطْر والشَّقِّ ابتداءً من العدم على غير مثال سَبَق، جاعلِ الملائكة رُسُلاً إلى الأنبياء، يُبلِّغونهم رسالاتِهِ، أصحاب أجنحةٍ عديدة، تستعملها للصعود والهبوط بين السماء والأرض، والقيامِ بوظائفها المأمورة بها، فبعضهم له جناحان، وبعضهم له ثلاثة أجنحة، وبعضهم له أربعة، وبعضهم أكثر من ذلك، يزيد بتجدُّدٍ مُستمر في خَلْق كلِّ ما يريد خلقه ما يشاء، وكذلك ينقص في الخلق ما يشاء، بمقتضى حكمته وتدبيره، إنَّ الله على كلِّ شيء ممَّا يريد خلقه عظيم القدرة، لا يعجزه شيءٌ أراده.

٢ - ما يفتح الله بالتتابع مع الزمن للناس من خير أو رزق أو أمن أو علم أو حكمة، وعطاءات متواليات، فلا يستطيع أحدٌ حَبْسها، وما يمنع ويحبِس فلا مُطْلِقَ له من بعد إمساكه، وهو القويُّ الغالب فيما أمْسَك، الحكيم فيما أرسل.

٣ - يا أيُّها الناس اذكروا بألسنتكم وقلوبكم وجوارحكم نعمة الله عليكم، واحفظوها بمعرفة حقِّها والإقرار بها، وطاعةِ مُوليها وتخصيصه بالعبادة، لا خالقَ إلا الله يرزقكم المطر من السماء، والنبات من الأرض، لا معبود بحقٍّ إلا الربُّ الخالق الرازق، تعالى وتنزَّه عن أيِّ شريك له في ربوبيَّته، وإلهيَّته، فكيف تُصرفون عن هذه الحقيقة الواضحة الجليَّة إلى الشِّرك وعبادة مَنْ لا يستحقُّ أن يُعبد بوجهٍ من الوجوه؟!

وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿٥﴾ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿٦﴾ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ ﴿٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾

٤ - وإنْ يُكذِّبك قومُك، ويَجْحدون نبوَّتك - يا رسول الله - مع العلم بصدقك، فقد كُذِّبت رُسلٌ كثيرون، وذوو مكانات رفيعات من قَبْلِكَ، فصبروا على ما كُذِّبوا وأُوذوا، فتأسَّ بهم واصْبِر كما صَبَروا، وإلى الله وحده تصير الأمور، فتوكَّل عليه، وسلِّم أمرك إليه، وسيجزيك على صبرك، ويُؤيِّدك بنصره، وسينتقم من المكذِّبين في الدنيا، وفي دار العذاب التي أعدّها للمجرمين في الآخرة.

٥ - يا أيُّها الناس إنَّ وعد الله الذي وعد عباده بالبعث والحساب وفَصْل القضاء، وتحقيق الجزاء، حقٌّ ثابتٌ، فلا تَخْدَعنَّكم الحياةُ الدنيا ولا تُلهينَّكم بلذّاتها وزينتها عن عمل الآخرة وطلب ما عند الله، ولا تغترُّوا بما يخدعكم به الشيطان بتزييناته ووساوسه، عن طريق الأفكار؛ تشكيكاً في دين الله، أو إبطالاً، أو جحوداً به، وعن طريق العواطف استثارةً لها حتى تقعوا في المعاصي والآثام، وتصير بتكرارها مقبولة مُسْتَحْسَنَة في الأفكار، فَيَستدرجكم إلى الشكِّ في أحكام الله، والكفر، وتكونوا من أصحاب السَّعير في نار جهنم.

٦ - إنَّ الشَّيطان لكم عدوٌّ، فعادوه بطاعة الله، ولا تُطيعوه فيما يأمركم به من الكفر والمعاصي، ولا تستجيبوا لإغراءاته وتزييناته. إنَّما يدعو الشَّيطان أشياعَه وأولياءَهُ؛ ليكونوا من أصحاب النَّار المُوقَدة في الآخرة.

٧ - الذين كفروا بالله ورسله كفراً إرادياً عنادياً، وانتهت حياة امتحانهم دون أن يُراجعوا أنفسهم بالتوبة والإيمان، لهم عذابٌ شديدٌ في دار العذاب، والَّذين آمنوا بالأركان الإيمانية الستة، وعملوا الصَّالحات لهم سَتْرٌ لذنوبهم التي سَلَفت منهم في رحلة امتحانهم، وأجرٌ كبير في الجنة على صالحات أعمالهم.

٨ - أَفَمَنْ شُبِّه له ومُوِّه عليه قبيح عمله، بتزيين الشيطان والنفس الأمَّارة بالسُّوء، فرأى الباطل حقاً، كَمَنْ هَدَاهُ الله، فرأى الحقَّ حقاً، والباطل باطلاً؟ لا يستويان؛ فإنَّ الله يحكُمُ في محكمة يوم الدين على مَنْ ضَلَّ بإرادته الحرَّة في الحياة الدنيا بالضلال، ولمن اهتدى في رحلة امتحانه بالهداية، بمحض مشيئته المطلقة الحكيمة القائمة على العدل والفضل، فلا تجْعل نَفْسَك تذهبُ من جسدك بالموت، بسبب توالي الحَسَرات، وشدَّة الأحزان، من أجل الذين اختاروا لأنفسهم الكفر، بل قابل حكمة الله في مقاديره وتدبيراته بالتسليم التامِّ، إنَّ الله عليمٌ بما كانوا يعملون في الدنيا من أعمال ظاهرة وباطنة، حتى مكتسبات قلوبهم وإراداتهم.

٩ - والله تعالى هو الذي أرسل الرياح بتؤَدَة وترفُّق، فتجمع السَّحاب، وتُحرِّكه وتُزعجه من مكانه، فسُقناه إلى بلدٍ بعيد ميِّت، فأحْيَيْنا بالمطر الأرض بعد يُبْسها، فتخضرُّ بالنبات مثلُ إحياء الأرض بعد موتها يحيي الله الموتى يوم القيامة.

١٠ - مَنْ كان يريدُ الشَّرفَ والمَنَعَة والقوَّة الغالبة، فلْيطلبها من عند الله بطاعته، ونصر دينه، فللَّه العزّة حالة كونها جميعاً له، لا يشاركه فيها غيره. ولا سبيل لنَيْل العزِّ الحقيقي الدائم في الدنيا والآخرة إلا بالتقرُّب إليه بما شَرَع من الأقوال والأعمال، إلى الله سبحانه وحده يَصْعَدُ الكَلِمُ الطيِّب، الذي أثمرته الكلمة الطيِّبة التي غرسها الله في قلب عبده المؤمن، وهي: «لا إله إلا الله»، ويشمل سائرَ الأذكار والدعوات، فيُقبل عنده الكَلِمُ الطيِّبُ ويكون مرضيّاً. والعملُ الصَّالحُ الصَّوابُ الخالصُ لوجْهِ الله، يرفعه الله تعالى بواسطة الملائكة عليهم السلام، ويقبلُه من المؤمنين؛ ويمنح أصحابَه العُلوَّ والعِزَّة الغالبة، والذين يُدبِّرون في الخفاء للمؤمنين المكيدات التي تسوؤهم، لهم عقابٌ شديد يوم الدين، وتدبير أولئك البعداء إلى الحضيض الذين يتوهَّمون أنَّ مكرهم يَجْلب لهم نفعاً، ويدفع عنهم ضراً، هو يهْلِكُ ويضْمَحِلُّ، ولا يحقِّق غَرَضاً، ولا يفيدهم شيئاً، وهم الخاسرون المغلوبون الخائبون.

١١ - واللهُ خَلَق آباكم آدم من تراب، وأنتم من نَسْله مخلوقون من تراب تَبَعاً له، كما أنَّ جسد كلِّ مخلوق من تراب تحوَّل بخَلْق الله إلى غذاء، فدماء، ثم تتكوَّن النطف المنويَّة، ثمَّ جَعَلَكم أصنافاً ذكراناً وإناثاً، وما تَحْمِلُ من أنثى من الناس، ولا أنثى من غير الناس في الوجود كلِّه، حتى البعوضة فما دونها، ولا تضع حَمْلها إلا بعلمه سبحانه، وإلا هو مكتوبٌ في اللوح المحفوظ بحفظه، وما يُمَدُّ في عُمُر أحدٍ، وما يُقَلَّلُ من عُمُر أحدٍ، فيجعل ناقص العُمُرِ عن نظرائه، إلا هو معلومٌ لله، ومكتوبٌ في اللوح المحفوظ بحفظ الله، إنَّ خلق الأحياء، وكتابةَ الآجال والأعمال على الله هَيِّنٌ يَسيرٌ.

وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾ ۞ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾

١٢ ـ وما يَسْتوي البحران العَذْب والمالح: هذا عَذْبٌ طيِّبٌ مُسْتَساغ، يزيل العطش، سَهْلٌ انحداره في الحَلْق، هنيءٌ مريءٌ، وهذا شديدُ المُلوحة، يحرقُ الحَلْقَ بمرارته، ومن كلٍّ من البحرين: العَذْب الفرات، والملح الأُجاج، تأكلون السَّمَك لحماً طرياً فيه لذّة وغذاء، وتستخرجون زينةً هي اللؤلؤ والمَرجان تلبسونها، وترى ـ أيُّها الرائي ـ السُّفُنَ تجري في البحرين العذب والمالح، شاقَّةً الماء بسرعتها، وقاطعة المسافات البعيدات؛ لِتَبْتَغوا ـ أيُّها الناس ـ في التنقُّل مَحْمُولين عليها، أنتم وأثقالكم وأمتعتكم، مصالح دنياكم وأرزاقكم من فضْل ربّكم عليكم، ورغبةً في أن تشكروا الله على نعمه التي أنعم بها عليكم، بالعمل بمراضيه والتزام طاعته.

١٣ ـ يُدخلُ ظلمة الليل في ضوء النهار بالتتابع شيئاً فشيئاً، فيتتابع ذهابُ الليل عند تَتابع حالات الشروق، فيظهر ضوء النهار، ويُدخل ضوء النهار في ظلمة الليل بالتتابع شيئاً فشيئاً، فيتتابع ذهاب النهار عند تتابع حالات الغروب، فيختفي ضوء النهار، وتنتشر ظلمة الليل، بسبب حركة دوران الأرض حول نفسها باتجاه الشمس ضمن نظام مُتقن عجيب. وذلَّل الشمس والقمر لمنافع الناس، وسائر الأحياء على الأرض، ويقومان بوظائفهما التي سخَّرهما الله لها طَوال المُدَّة المُحدَّدة لهما في علم الله، ذلكم الجليل العظيم الشأن، هو الله مُدبِّر أموركم، له وحده المُلْكُ فلا يشاركه فيه غيره، والذين تدعون من غيره من الأصنام ما يملكون من قشرة نواة، فما هي فائدتكم ـ أيُّها المشركون ـ من عبادة الأصنام، وكيف تعبدونهم وتدعونهم، رجاء أن يستجيبوا لكم، فيُحقِّقوا مطالبكم التي تطلبونها منهم؟

١٤ ـ إن تدعوا ـ يا أيُّها المشركون ـ هذه الأصنام التي لا حياة فيها طالبين منهم نفعاً أو معونةً أو نصراً، أو دفع ضُرٍّ أو رفعه، لا يسمعوا دعاءكم؛ لأنهم أشياء جامدة لا تسمع، فكيف تسمح عقولكم بأن تدعوهم، وهم لا يسمعون أصواتكم؟! ولو سمعوا ـ كَأنْ كان المعبودُ من الجنّ أو الملائكة ـ ما أجابوكم وما نفعوكم، وبُرهان عدم استجابة آلهتكم المزعومة: الواقع التجريبي المتكرِّر، ويوم القيامة يتبرَّؤون منكم ومن عبادتكم إيَّاها، فاسألوا مُجَرِّبي دعاء شركائهم من دون الله، هل يستطيع أحدهم إثبات استجابة شركائهم لدعائهم في تجربة متكرِّرة، ولا يُخبِّرك خبراً مُهمَّاً مُطابقاً للواقع تماماً، مثلُ خبير ذي تجرباتٍ مُتكرِّراتٍ أكسبته خبرةً تامَّة، والعليم الخبيرُ الأجلُّ الذي لا تخفى عليه خافيةٌ، هو الله جلَّ جلاله، ومِنْ دونه الخبراءُ من عباده.

١٥ ـ يا أيُّها النَّاس أنتم الفقراء المحتاجون دَوْماً إلى فَضْل الله وإحسانه وإمداده لكم بعطاءات ربوبيَّتِهِ، واللَّهُ وحده هو الغنيُّ عنْ خلقه لا يحتاج إليهم، وكلُّ شيء في الوجود محتاج إليه، وهو وحده المحمود في إحسانه إليهم، المُسْتَحِقُّ بإنعامه عليهم أن يحمَدوه، والذي يحمَدُ مَنْ آمن به وأطاعه، ويجازيهم بالثواب الجزيل يوم الدين، مع ما قد يكرمهم به من ثوابٍ معجَّل في الحياة الدنيا.

١٦ ـ إنْ يَشأ الله يُهلِكْكُم ويذهب بكم من الوجود إلى العدم، كما أَوْجَدَكم وأنشأكم من العدم ومنحكم الوجود، وإنْ يَشَأْ أن يأتيَ بخلقٍ آخَرَ جديدٍ، يأت به. وفي إعلام الكافرين بذلك، تهديدٌ لهم بإهلاكهم جميعاً إهلاكاً عاماً شاملاً، إذا استمرُّوا على كفرهم ومعاندتهم الحق.

١٧ ـ وما ذلك الإذهاب والإتيان بخلْق سواكم على الله بصعب ولا شاق ولا عسير، بل هو على الله سهلٌ يسيرٌ، إذ يتمُّ بأمر التكوين.

١٨ ـ ولا تحملُ نفسٌ مُذنبةٌ، ذنْبَ نفس أخرى، فكلُّ نفس يوم القيامة لا تحمل إلاَّ ذنبها الذي باشرته أو تسبَّبت فيه، ولا تُؤَاخَذ بذنب غيرها، وإنْ تسأل نفسٌ مُثْقَلة بذنوبها مَنْ يحمل عنها مِن خطاياها التي أثقلتها لم تجد مَنْ يحمل عنها شيئاً مهما قلَّ مقداره، ولو كان الذي سألته للمشاركة في حَمْل شيءٍ من الذنوب ذا قرابة، فإنه لا يستجيب لها؛ لأنَّ قانون الجزاء الربانيّ لا يأذن له بذلك، ولأنَّ كلَّ مدعوٍّ للحساب وفصل القضاء، مهتمٌّ يومئذ بنفسه، يطلب النجاة لها. ما ينفع إنذارك ـ يا رسول الله ـ مخوِّفاً من عذاب الله ونقمته إلا الذين يخافون عقاب ربِّهم خوفاً مصحوباً بتعظيم وإجلالٍ، حالة كونه سبحانه محجوباً عن حواسِّهم الظاهرة، ودفعهم إيمانهم به إلى إقامة الصَّلاة له، وهذه الصلاة تذكِّركم به سبحانه وبصفاته الجليلة، ومَنْ تطهَّر من دَنَس الكفر والذنوب بالإيمان والتوبة والعمل الصالح، فلا يتطهَّر إلاَّ لنفسه، وإليها يعودُ الأجر والثواب، وإلى حكم الله وحده وفصل قضائه، وتنفيذ جزائه، الرجوع ومكانه وزمانه، فيُجازي كُلاً بما يستحق يوم الدين بعد بعث الموتى إلى الحياة مرة أخرى.

وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ
﴿٢٠﴾ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ۚ
إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ ۖ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ
أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ
أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ
مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ
الْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾
أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا
أَلْوَانُهَا ۚ وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا
وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ
مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ۗ
إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ
وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً
يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ
وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ۚ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾

١٩ - ٢٣ - إنَّ قانون الجزاء الربّاني قائمٌ على العدل، ومن الظلم: التّسوية بين المتفاضلين في الدرجات، أو المتفاوتين في الدَّركات، فلا تصحُّ التّسوية بين المشرك الجاهل الأعمى، والمؤمن العالم البصير بالهدى، ولا تستوي أفراد الظلمات في مقادير ظلماتها، ولا تستوي أفراد النور في مقادير أنوارها، ولا تستوي أفراد الأشياء ذوات الظل، ولا تستوي أفراد الأشياء ذوات الحرور التي تصيبها أشعة الشمس بحرارتها، فهي مختلفة النِّسب باختلاف الأزمنة والأمكنة، وما يَسْتوي أحياء القلوب بالإيمان والعمل الصالح، ومَوْتىٰ القلوب بالكفر والمعاصي، وإنَّ من وَصَلَت حالةُ نفوسهم إلى دركة الموت، بالكفر الذي يَطْمس بصيرتهم، فإنه لا فائدة من الاشتغال بدعوتهم، وليس الداعي إلى الله مُجْبِراً ولا مُحوِّلاً لإراداتهم الحرَّة بالإكراه. أما القادر على الجَبْر، فهو الربُّ سبحانه، إنَّ الله يُسمع مَنْ يشاء إسماعه، بتغيير طبيعة تكوينه، وجَعْلِهِ مَجْبوراً لا مختاراً، لكنه - سبحانه - تمَّت مشيئته بأن يجعل عباده مُخَيَّرين؛ ليمتحنَهُم بالتكاليف من خلال اختيارهم الحر. وما أنت - يا رسول الله - بِمُسْمِع إسماعاً مؤثِّراً نافعاً مَنْ وَصَل إلى حالةٍ تُشبه حالة الميِّت المَقْبور، فلا تطمع بإسماعه، واشتغل بدعوة مَنْ لم يصلوا إلى حالة ميؤوس منها، ما أنت بالنسبة إلى هؤلاء المشركين المعاندين المُصرّين إلا نَذيرٌ بعذاب الله عزَّ وجل.

٢٤ - إنا أرسلناك - يا رسول الله - بالحقِّ الثابت المطابق للواقع، مُبشِّراً برضوان الله وجنَّته لِمَنْ آمنَ بك واتّبع ما أنزل إليك من ربِّك، ومُنْذراً بالعقاب لِمَنْ كفر، وما من جماعةٍ مَضَتْ في تاريخ الناس، إلا مضى فيها نبيٌّ يُبلِّغها ويدعوها إلى الله بالحكمة والمَوْعظة الحَسَنة، ويُبشِّرها برضوان الله وجنَّته، إذا استجابت لدعوة ربِّها، ويُنذرها بسخطه ونقمته وعذابه، إذا لم تستجب، لكنَّ معظم هذه الأمم لم تَسْتَجب لبلاغات الرسل، وكفروا وعاندوا، فأنذروهم بالإهلاك الشامل المُدمِّر.

٢٥، ٢٦ - وإنْ يُكذِّبك قومُكَ - يا رسول الله - فقد كذَّبت الأمم الماضية رُسُلَهم، وقد جاؤوهم بالمعجزات الواضحات التي تدلُّ على صدق نبوَّتهم، وبالصُّحف، وبالكتاب المنير الواضح، الحافل بالشرائع والأحكام والبراهين، كالتوراة والإنجيل والقرآن المجيد، ثمَّ بعد إمهال أَخَذْتُ الذين أصرُّوا على كفرهم من كفار القرون السابقة أخذاً شديداً، وأهلكتهم إهلاكاً شاملاً، فانظر - أيُّها المتفكِّر - كيف كان إنكاري عليهم بحلول عقوبتي بهم؟

٢٧ - ألم تَرَ أنَّ الله أنزل من السَّحاب المطر، فأخرجنا به ثمراتٍ من أزهـار وورود ونَوْر تنشقُّ عنه البراعم، مختلفاً ألوانها في الحُمرة والصُّفرة والخُضْرة وغير ذلك من بديع صنع الله؟ ومن الجبال طرقٌ وصخورٌ بيضٌ جامعةٌ لكلِّ ألوان الطَّيف الستة: (البنفسجي، فالأزرق، فالأخضر، فالأصفر، فالبرتقالي، فالأحمر)، وحُمْرٌ، وهي أطول الموجات الضوئيَّة التي يرى الناسُ ألوان طيوفها، مختلفة الدَّرجات فيما بينها، فالبيض متفاوتة الدَّرجات في البياض، والحُمْرُ متفاوتة الدَّرجات في حُمْرتها، وطرق وصخور في الجبال شديدة السواد، تراه العيون أسود قد امتصَّ كلَّ الأمواج الضوئية التي ترى أعينُ الناس طيوفَ ألوانها، فالأسود يمثِّل انعدام اللون. تتعرَّفون عن طريق اختلاف الألوان على تنوُّع الأشياء وخصائصها، مع ما تستمتعون به من جماليّات كثيرات.

٢٨ - وَمَرْئيٌّ مختلفٌ ألوانه من الناس والدوابِّ والإبل والبقر والغنم، كاختلاف الألوان في الثمرات والجبال. ما يخاف اللَّهَ تعالى مع إجلالٍ وتعظيم وحبٍّ، إلا العلماء به سبحانه، وبصفاته الجليلة، وأفعاله الحكيمة، وبشرعه، وأسرار صنعه، أما الجاهلون به تعالى فلا يخشونه ولا يخافون عقابه؛ إنَّ الله قويٌّ غالب، كثير السِّتر لذنوب عباده إذا آمنوا وتابوا واستغفروا.

٢٩ - إنَّ الذين يداومون على قراءة كتاب الله المُنزَّل على نبيِّه محمد ﷺ، ويعلمون ما فيه ويعملون به بدوام واستمرار، وثَبَتَ فيما مضى من أمرهم أنهم داوموا على الصَّلاة المفروضة في أوقاتها وأدَّوها على الوَجْه الشَّرعيِّ المطلوب منها، وثَبَتَ فيما مضى من أمرهم أنهم أنفقوا من بعض ما رزقناهم في سبيل الله من أنواع النفقات الواجبة والمُسْتَحبَّة في الخفاء عن أعين الناس بُعداً عن الرياء، وعلانية، مع الإخلاص في الإنفاق، طلباً للثواب العظيم، هؤلاء يتوقَّعون بذلك تجارةً رابحة نامية القيمة، باقية الرواج دائماً، لَنْ تكْسَد ولَنْ تخسر.

٣٠ - يتقرَّبون إلى الله سبحانه بمَحَابِّه؛ ليُعطيَهم ربُّهم ثوابَ أعمالهم كاملاً غيرَ منقوص، ويزيدُهم من فَضْله سوى الثواب ممَّا لم تَرَ عينٌ ولم تسمع أذنٌ، إنَّه سبحانه كثير المغفرة وعظيمها، يستر العظيم من ذنوبهم ولا يُحاسبهم عليها، كثير الشكر وعظيمه، يشكر اليسير من أعمالهم، ويُجازيهم على طاعاتهم أوْفى الجزاء.

وَالَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ هُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٞ ﴿٣١﴾ ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ﴿٣٣﴾ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٞ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِيٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلۡمُقَامَةِ مِن فَضۡلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٞ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٞ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي كُلَّ كَفُورٖ ﴿٣٦﴾ وَهُمۡ يَصۡطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيۡبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٣٨﴾

٣١ ـ والذي أوْحَينا إليك ـ يا رسول الله ـ من القرآن هو الحقُّ وحده، بالإضافة إلى ما ناقضه من أحاديث وأقوال وادِّعاءات، حالة كونه شاهداً لما تقدَّم من الكتب السابقة بالصِّدق، إنَّ الله بكلِّ أفراد عباده الذين خلقهم من كلِّ الأجناس والأنواع لَخبيرٌ، له شمول العلم بالعمل عند مُمَارسته على سبيل الحضور المُصَاحِب لكلِّ أجزاء العمل، ظواهره وبواطنه، بصيرٌ له غاية البصر المحيط بكلِّ ما يمكن عقلاً أن يدرك بالبصر، لا يخفى عليه شيء. وفي هذه الآية تهديدٌ وتحذيرٌ للذين كذَّبوا بما أنزل الله من القرآن، ولا سيَّما أهل الكتاب الذين بلغهم ما أُنزل من القرآن، فكذَّبوا به ولم يُصدِّقوا، وفيها إطماعٌ للمؤمنين بالأجر العظيم والثواب الجزيل.

٣٢ ـ ثمَّ أورثنا الكتابَ الربَّانيَّ الخاتم، الأمَّةَ المحمَّدية التي آمنت به واتَّبعتْه في مجموعها، التي جاءت بعد أزمان مديدة تتابعت فيها الأمم التي أنزل الله على رسلهم كتباً فيها هُدى ونور، فقسمٌ من وارثي هذا الكتاب: ظالمٌ لنفسه بالمعاصي وارتكاب الكبائر والآثام، وهم القسم الأدنى مرتبةً والأكثر عدداً، ومن وارثي الكتاب الربَّانيِّ: قسمٌ مُقْتصد متوسِّط في السلوك الديني، يحرص على فعل الواجبات، وترك المُحرَّمات، ولا يعتني بالتوسُّع في نوافل العبادات والقُربات، ومن وارثي الكتاب الربَّاني: قسمٌ سابق بالخيرات، يتقرَّبون إلى الله بالنوافل ممَّا يُحبُّه الله من عباده، فوق أدائهم للواجبات، وتركهم للمُحرَّمات. وجميع كسب العباد سواء أكانوا ظالمين لأنفسهم، أم مُقْتصدين، أم سابقين بإذن الله عزَّ وجل؛ لأنه سبحانه هو الذي يُمدُّهم بطاقاتهم التي يعملون بها أعمالهم، وهو عالمٌ باختياراتهم، ذلك الإيراث للكتاب، واصْطفاء هذه الأمة، وإدخالهم الجنة هو الفَضْل الكبير.

٣٣ ـ جنَّاتُ إقامةٍ دائمةٍ يدخلها الأصناف الثلاثة، على اختلاف أقسامها ودَرَجاتها المُتفاضلات، يتزيَّنون فيها بأساور من ذهب ولؤلؤاً، وكلُّ أنواع ألبستهم في الجنة مصنوعة من خيوط الحرير، أنفس الخيوط وأنعمها.

٣٤، ٣٥ ـ وقالوا وقد دخلوا الجنَّة واستقرُّوا فيها: الحمدُ لله الذي أذهبَ عنا ما يصيب النفس من غمّ وألم على شيءٍ فاتنا، أو على شيءٍ لم نناله فيها، ونؤكِّد أنَّ ربَّنا لكثيرُ المغفرة لعظيم الذنوب، كثيرُ الشكر للقليل من الأعمال، يجزي على العمل الصالح اليسير، بالجزاء الكثير الوفير، الذي جعلنا نَحُلُّ دار الإقامة الدائمة من فَضْله ورحمته، لا بأعمالنا وكَسْبنا، لا يمسُّنا فيها تَعَبٌ ما، ولا يَمسُّنا فيها إعياءٌ وعَجْزٌ عن متابعة العمل، بسبب القوَّة التي منحنا الله دوامها في الجنة.

٣٦ ـ والَّذين ستروا براهين الحق الذي جاء به رسول الله ﷺ بتشكيكاتهم وشبهاتهم، فأنكروا الحقَّ جُحوداً، أُعدَّت لهم نارُ جهنَّم يَصْلونها محترقين فيها، لا يُقْضى عليهم بالموت فيستريحوا ممَّا هم فيه من العذاب، ولا يُخَفَّفُ عنهم من عذاب النار شيءٌ مهما طالت مدَّة إقامتهم، وَمِثْلَ ذلك الجزاء الشديد نجْزي كلَّ مُتمادٍ في الكفر مُصِرٍّ عليه من الأمم السابقة؛ الذين كفروا برسالات ربِّهم، وكذَّبوا رسله، فسنَّة الله عزَّ وجلَّ في عباده واحدة.

٣٧ ـ وهم يَصْرَخُون بشدَّةٍ وصوت مرتفع جداً من شدَّة العذاب في نار جهنَّم، يقولون: ربَّنا أخرجنا من النار، وأعِدْ لنا رحلة امتحاننا في الدنيا، فإننا نعدك بأن نعمل صالحاً غير الذي كنَّا نعمل في الدنيا من الشِّرك والسَّيِّئات. فيقول الله تعالى توبيخاً لهم: ألم نُمهلكم في الحياة الدنيا، ونُطِلْ أعماركم زمناً كافياً، تتمكَّنون فيه من التذكُّر والاتِّعاظ، فيؤمن بربه ويُسلم له من استجاب لما دعاه إليه تذكُّره، وكلُّ منكم قد حَصَل في ذهنه هذا التذكُّر، لكنه لم يستجب لداعيه، ومع حصول تذكُّركم لما يجب عليكم تُجاه ربِّكم، فقد جاءكم النبيُّ محمدٌ ﷺ بالقرآن الذي فيه إنذار الكافرين بعذاب خالدٍ في نار جهنم؟ فلا عُذْرَ لكم تعتذرون به، ويقال لهم: فذوقوا استمراريَّة العذاب في النار، وتحسَّسُوا آلامه، فما لكم من نصير ينصركم، فيخرجكم من هذا العذاب، لأنكم من الظالمين.

٣٨ ـ إنَّ الله عالم ما غاب عن غير الله تعالى في السَّموات والأرض، لا تخفى عليه خافية، ولا يغيبُ عن علمه شيء، إنَّه عليم بالنيَّات والسَّرائر صاحبة الاستقرار في الصُّدور وداخل النفوس. فلو علم الله في صدورهم خيراً قابلاً لتغيُّر أحوالهم، إذاً أعاد امتحانهم إعادةً مُشابهةً لظروف ولشروط الامتحان الذي كانوا فيه، لاسْتَجاب لطلبهم، لكنَّهم لو رُدُّوا إلى مثل أحوالهم التي كانوا عليها في الحياة الدنيا، لعادوا إلى مثل ما كانوا عليه من كفر وجحود.

هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾

٣٩ ـ اللَّهُ الذي جعلكم ـ أيها الناس ـ خَلَفاً لِمَنْ سبقكم من الأمم، ومَخْلوفون ممَّن سيأتي بعدكم، تتعاقبون أجيالاً، جيلاً فجيلاً في عمارة الأرض، ومَلَّكَكُم منافعها، ومقاليدَ التصرُّف فيها؛ لتشكروهُ بالتوحيد والطاعة، فمن جَحَد هذه النعمة وغمطها، فعليه وبال كفره، ولا يزيد الكافرين كفرُهم عند ربِّهم إلا بُغْضاً وشقاءً وعذاباً نفسياً، ولا يزيد الكافرين كفرُهم بالله إلا خُسراناً عظيماً، يخسرون سعادتهم وراحتهم النفسيَّة في الدنيا، وفوق كلِّ ذلك يأتيهم عذابه الشديد يوم الدين، وما يلحق بهم من خسارةٍ أبديَّة.

٤٠ ـ قل ـ يا رسول الله وكُلَّ داعٍ إلى الله ـ للمشركين: أتفكَّرتم تفكيراً سديداً بأناةٍ وتعمُّقٍ حتى أدركتم إدراكاً علمياً يشبه الرؤية البصريّة، هذه الآلهة التي اتَّخذتموها شُركاء لله، الذين تسألونهم وتطلبون منهم مطالبكم، أروني بالشُّهود الحسِّي أو بالدليل العقليِّ: أيَّ شيءٍ خلقوا من الأرض، حتى استحقُّوا في نظركم أن تعبدوهم؟! بل أتعتقدون أنَّهم شركاءُ لله في خلق شيءٍ من السَّموات، أو في إجْراء تصاريفها، حتى تستحقَّ أن تُعبد؟! أم هل آتيناهم كتاباً ربَّانياً مُنزَّلاً من عند الله، يأمرهم أو يأذن لهم بعبادة آلهتهم، فهم على حُجَّة وبرهان من ذلك؟! بل ما يَعِدُ الظالمون المُشركون بعضُهُم بعضاً إلا وعداً كاذباً، يغُرُّونهم به، ويدَّعون به دعاوى كاذبة.

٤١ ـ إنَّ الله يُمْسِكُ السَّموات والأرض بقدرته إمْساكاً مُتتابعاً في الوجود بإمْدادهما بأسباب البقاء، حفظاً لهما من أن تزولا، فتتحوَّلا من الوجود إلى العدم، وكانتا جَديرَتَيْن بأن تزولا وتُهدَّا هَدّاً لِعِظَم كلمة الشِّرك، وأقسم لئن زالت السَّموات والأرض فيما لو رفع الله إمْساكَهُ لهما في الوجود بقُدرته، ما أمْسَكَهما في الوجود أحدٌ سوى الله؛ إنَّه كان حليماً يُملي للظالمين، ولا يُعاجلهم بالعقوبة، ليتركَ لهم أقْصى أمدٍ يُرجى فيه هدايتهم، وهو كثير المغفرة لعباده المذنبين، يستر العظيم من ذنوبهم إذا تابوا وآمنوا وأصلحوا.

٤٢ ـ وأقسم كفَّار مكَّة بالله أشدَّ الأَيْمَان وآكدها قبل بعثة محمد ﷺ: لَئِنْ جاءهم رسولٌ صادقٌ من عند الله يُخَوِّفهم في آخر المراحل الدعويَّة عقاب الله، ليكوننَّ أهدى ديناً من اليهود أو من النَّصارى الذين أتتْهُم رُسُلُهم فكذَّبوهم، فلمَّا جاءهم الرسول محمدٌ ﷺ المبلِّغ عن ربِّه، البشيرُ النذيرُ، وأنذرهم عذابَ الله إذا أصرُّوا على كفرهم وعنادهم وفجورهم، ما زادهم مَجيئُهُ إلا تَباعُداً عن الهُدى كحالة المذعور الخائف، أو الممتنع المتراجع بِحرانٍ.

٤٣ ـ ازدادوا نفوراً لأجل أن يُحقِّقوا لأنفسهم الاستكبار في الأرض، مُتوهِّمين أن اتِّباعهم للرسول يحرمهم من مكاناتهم الاجتماعيَّة الرفيعة، لأجل شهوات النفس وأهوائها، ومطالبها الفاجرة من زينة الحياة الدنيا، وهذه لا تتحقَّق لطلابها، إلا بالتدبير الخفيِّ السيء، ولا يصيبُ المكرُ السيء ويحيطُ ـ في آخر المراحل ـ إلا بأهله المُسْتحقِّين لهُ، فهل ينتظر المشركون المُصِرُّون على الكفر ويترقَّبون إلا سُنَّة الله التي أجراها في كفار القرون الماضية، بأن ينصر رسوله والذين اتَّبعوه عليهم، وأن يحبط مكايدهم التي يكيدونها ضدَّ الإسلام، فلن تجد لسنة الله التربويَّة والجزائيَّة الثابتة قوة قادرة على تبديلها بتنفيذ عمل آخَرَ غيرِ العملِ الذي تَقْتضيه سنَّة الله، أو تحويلها بصرف العمل الذي تقتضيه سنَّة الله عن مَجْراه المُحَدَّد له بقضاء الله وقدره، فكونوا ـ أيُّها المشركون ـ على بيِّنةٍ من أمركم، ومن أمر سنَّة الله في عباده، ولا تُعرِّضوا أنفسكم لعقاب الله.

٤٤ ـ ألم يتَّعظوا بما جاءهم من أخبار عن قوم نوح، وعادٍ، وثمود، وأهل مَدْين، وقوم لوط، وفرعون، ويسيروا في الأرض، فينظروا إلى آثار المُهْلكين الأوَّلين، وكيف كانت عاقبتهم بسبب تكذيب رسلهم، وطغيانهم وظلمهم وفجورهم، وكان هؤلاء المُهْلَكُون السابقون أكثرَ منهم أموالاً، وأعظم حضارة وعمراناً، وأشدَّ منهم قوة ومَنعةً وتمكُّناً في الأرض، فلم تحم الأوَّلين من عذاب الله وإهلاكه لهم، قوَّتُهم ولا تقدُّمهم العمراني، وما كان الله ليعجزه ويفوته من شيءٍ يريده في السَّموات ولا في الأرض، إنه كان على الدوام عليماً بكلِّ شيء، قديراً على ما يريد من إيجادٍ وإعدامٍ، لا مُعَارِض لسلطانه.

وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ﴿٤٥﴾

سُورَةُ يس

مكية ٣٦ — آياتها ٨٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يس ﴿١﴾ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾

٤٥ ـ ولو يُعاقبُ الله الناسَ في الدُّنيا بما عملوا من كفر وشرك وفسق وفجور وعصيان، ما ترك على ظهر الأرض من نَسَمة تدبُّ عليها، ولكن يُؤَخِّر كلَّ واحد منهم إلى أجله الذي قضاه له؛ لامتحانه في ظروف الحياة الدنيا، فإذا جاء أجلهم أماتهم الله، ثمَّ بعثهم، ثمَّ حاسبهم محاسبةً تعتمد على علمه الشامل بكلِّ أحوالهم الظاهرة والباطنة، فإنَّ الله كان ـ من الأزل إلى الأبد ـ بعباده بصيراً، لا يخفى عليه ممَّا كسبوا في رحلة امتحانهم شيء، ويقضي عليهم بالعدل، ويقضي لهم بالفضل بحسب أحوالهم، أما المجرمون، فيلقَوْن جزاءهم بالعدل عذاباً أليماً، خالدين في جهنَّم، وأمَّا المؤمنون الذين عملوا الصَّالحات، فيلقَوْن جزاءهم بالفضْل الربّاني مغفرةً وأجراً كبيراً في جنات النعيم.

سُورَةُ يس

١ ـ ﴿يس﴾ سبق الكلام على الحروف المقطَّعة في أوَّل سورة البقرة.

٢، ٣ ـ يُقسم الله سبحانه بالقرآن المُحكم في مبانيه ومعانيه وأغراضه ومَراميه، أنَّ محمداً ﷺ الذي أُنزل عليه هذا القرآن من لدن حكيم عليم لَمِنَ المُرسلين، فَمَنْ أنزل القرآن ـ وهو ما هو في عِظَم شأنه ـ هو الذي أرسلَ رسوله محمداً ﷺ.

٤ ـ وإنَّك ـ يا رسول الله ـ ثابتٌ على طريقٍ واضح لا اعوجاج فيه، وهو دين الإسلام.

٥ ـ أقسم أنَّ هذا القرآن حال كونه مُنزَّلاً تنزيلَ القويِّ الغالب في ملكه، الواسع الرحمة بخلقه.

٦ ـ أنزلنا عليك القرآن؛ لتُنْذِر قوماً ـ بعد تبليغهم ودعوتهم بالحكمة والموعظة الحسنة ـ الإنذارَ الذي أُنْذِرَه آباؤهم مِنْ قبلك، فهم غافلون مشغولون في أمور دنياهم، واتِّباع أهوائهم وشهواتهم، عن الاستجابة لدعوة الرسول.

٧ ـ والله لقد ثَبَتَ قولُ الله بالعذاب مُسلَّطاً على أكثر قادة وأئمة مُشركي مكة، فهم لا يؤمنون مستقبلاً بإنذارك إيَّاهم، مهما وجَّهت لهم وسائل العلاج الإقناعيِّ والتَّرغيبيِّ والتَّرهيبيِّ؛ لأنَّ من جعل نفسه باختياره الحر أسير أهوائه وشهواته، فإنه لا يؤمن بالجزاء الربَّاني، فحالة نفوسهم ميؤوس منها، فلا تطمع بإيمانهم، وَوَجِّه طاقاتِكَ ـ يا رسول الله ـ لدعوة الآخرين الذين لم تَسْتحكم في نفوسهم عُقْدة الاستكبار والعِناد والإصْرار على الباطل.

٨ ـ إنَّا جعلنا بُسنَّتنا التكوينيَّة في أسرى الشهوات والأهواء وحبِّ الاستعلاء بغير الحق، قيوداً عظيمة في أعناقهم، فهي واصلةٌ إلى الأذقان، فهم رافعوا رؤوسهم إلى الأعلى، فلا تحسبنَّ ـ أيها المتدبِّر ـ أن ما تراه من رفع رؤوس الجاحدين المستكبرين إلى الأعلى رافضين الاستجابة لدعوة الحق مُعبِّراً عن علوٍّ في أنفسهم، بل هم أسرى أهوائهم وشهواتهم، ورغباتهم في الفجور.

٩ ـ وَجَعلنا بمقتضى سُنَنِنا الكونيَّة وقوانيننا في النفوس ذوات الإرادات الحُرَّة المُبْتلاة في ظروف الحياة الدنيا، حاجزاً مِنْ أمام الكافرين، وحاجزاً منْ ورائهم، فجعلنا على بصائرهم غطاءً ساتراً، يحجب عنهم رؤية الحق وأمور الهداية الربَّانية كَيْفَما استداروا؛ لأنهم اختاروا لأنفسهم ظلمات الكفر والجحود، واتِّباع الأهواء والشهوات، فهم لا يُبْصرون رُشْداً، ولا يهتدون سبيلاً.

١٠ ـ واستوى عند هؤلاء الكفار المعاندين إنذارك لهم ـ يا رسول الله ـ بعذاب الله المُسَلَّط عليهم، والذي سينزل بهم إذا استمرُّوا على كفرهم وعنادهم، وعدم إنذارك لهم، فهم لا يؤمنون مستقبلاً.

١١ ـ ما تُخبر بوعيد الله بالعقاب إخباراً مؤثِّراً نافعاً إلا من اتَّبع بيانات الله في القرآن، بالإصْغاء والفهم وحُسْن التدبُّر، والعمل بما فيه، وخاف الرحمن حالة كونه سبحانه في عالم الغيب عن مجالات الإدراكات الحسيَّة لعباده، في الحياة الدنيا، فبشِّره ـ يا رسول الله ـ بمغفرةٍ عظيمةٍ لذنوبه التي سلفت منه، وأجرٍ كريم على إيمانه وصالحات أعماله، في جنَّات النعيم.

١٢ ـ إنا نحن نُحيي الأموات ببعثهم يوم القيامة، ونكتبُ ما قدَّموا في الحياة الدنيا لآخرتهم من الأعمال من خير أو شر، ونكتب آثار كسبهم في حياتهم وبعد مماتهم، وما سَنُّوا من سُنَّةٍ حسنةٍ أو سيِّئة، وكلَّ شيء حفظناه وعَدَدناه وأثبتناه في أصلٍ عظيمٍ يُقْتدى به، واضحٍ جليٍّ، مُظْهِرٍ لما كان وما يكون إلى يوم القيامة، وهو اللوح المحفوظ.

وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾

١٣، ١٤ ـ وَصِفْ لِمُشركي قومك ـ يا رسول الله ـ شَبَهاً مُماثلاً لحالهم من قصّة أصحاب القرية، حين جاءها رسل عيسى عليه السّلام، إذْ أرسلنا إليهم رسولَيْن اثنَيْن لدعوتهم إلى الإيمان بالله وترك عبادة غيره، فكذّبوهما، فقوّينا الرسولَيْن برسولٍ ثالث، فقال الرسل جميعاً لأهل القرية: نؤكّد لكم إنا إليكم ـ أيها القوم ـ مرسلون.

١٥ ـ قال أهل القرية للمرسلين معترضين عليهم: ما أنتم إلا بشرٌ مثلنا، وليس من شأن البشر أن يكونوا رُسُلَ ربّهم، وقالوا لهم مُفْترين: ما أنزل الرحمن على بشرٍ رسالةً ما، ما أنتم ـ أيها الرسل ـ إلا بشر تكذبون في ادِّعاء أنكم رسُلٌ تبلّغون دين الله للناس.

١٦ ـ قال المُرسلون مؤكّدين: ربُّنا الذي بَعَثَنا إليكم، يعلم إنَّا إليكم لَمُرسلون، حقاً وصدقاً.

١٧ ـ وما أوجب علينا ربُّنا إلا التبليغ الظاهر الواضح، والمُظهر المُوَضِّح لقضايا الإيمان، ولشرائع الله وأحكامه، ولسنا مأمورين بالقيام بوسيلة من وسائل الإلزام والإكراه على قبول الدين الجديد، وليس لنا مصالح ومنافع عند أصحاب القرية.

١٨ ـ قال أهل القرية للرسل الثلاثة: إننا تشاءَمْنا بكم، فما أصابنا من بلاء، وما نزل بنا من مكروه، فإنما هو بسببكم، وبسبب دعوتكم التي جئتمونا بها، فكفُّوا عن دعوتكم حتى يذهبَ عنا ما نزل بنا من مصائب، نقسم لَئِنْ لم تكفُّوا عن متابعة دعوتكم لنا، لنقتلنّكم رَمْياً بالحِجَارة، ولَيُصيبنّكم منا عذابٌ شديد الألم.

١٩ ـ قال المُرسَلون: شُؤْمُكم معكم بكفركم وتكذيبكم، وسببُه منكم لا منَّا، وهو ما لديكم من أسبابٍ استدعت تذكيركم ببعض صنوف الجزاء الدنيويّ المُعَجَّل، أإِنْ ذُكِّرْتُم من قبل ربِّكم بالمصائب التي ينزلها بكم، رغبةً في أن تتذكَّروا وتصْحُوا من غَفَلاتكم، فتتوبوا إلى ربِّكم، قبل أن يُنزل بكم هلاكاً شاملاً، جعلتم هذا التذكير الربَّاني لكم سبباً للتشاؤم منا، وتوعَّدتمونا بالعذاب الأليم وبالرَّجْم حتى الموت؟ وليست أحوالكم العدوانيّة الظالمة مثلَ أحوال أهل القرى الظالمة الأخرى، لكن أنتم قومٌ مُتجاوزون في ضلالكم وشِركِكم، مُتَمادُون في قبائحكم وجرائمكم.

٢٠ ـ وجاء مِنْ أبْعدِ مكانٍ بالمدينة رَجُلٌ مجاهدٌ يُسْرِعُ نحوَ أهل المدينة، عن حماسة وتصميم وتضحية بالنفس دفاعاً عن الحقّ الربّاني، لمَّا بلغه أنَّ قومه كذَّبوا الرُّسل، وأرادوا قتلهم. قال: يا قوم اتَّبِعوا المرسلين فيما يدعونكم إليه من توحيد الله وعبادته.

٢١ ـ اتَّبِعُوا الذين لا يطلبون منكم أجراً على نُصحكم وإرشادكم، فهم ليسوا أصحاب مصالح شخصيّة دنيويّة، وهم مُهتدون في ذواتهم وأخلاقهم ومعاملاتهم، فلا تخسرون معهم شيئاً من دنياكم، وتربحون صحّة دينكم، فيحصل لكم خير الدنيا والآخرة.

٢٢ ـ ولما دَعَا هذا الرجل المؤمن لاتِّباع الرسل، حاكمه أهل القرية، لأنه خرج عن ملَّتهم، وقالوا له: أتركت عبادة آلهتنا، وذهبت تعبد ما يدعو إليه هؤلاء الرسل؟ فأجابهم بحكمة وسداد: نعم أؤمن بما جاؤوا به، وأعبد ربي وحده لا شريك له، لأنه هو الذي خلقني، وأيُّ شيءٍ يمنعني من أنْ أعبدَ الذي خَلَقني، وإليه وحده تُرَدُّون عند البعث، فيجزيكم بأعمالكم؟

٢٣ ـ أتريدون منّي أن أتَّخذَ مُستقبلاً آلهةً من دون الله، فقد جرَّبت آلهتكم ودعوتها فيما مضى فلم تنفعني شيئاً، إنْ يُرِدْنِ الرَّحمٰن مستقبلاً بسوءٍ ومكروه، وعبدتها ودعوتُها مُسْتشفعاً بها، لا تدفع عني شفاعتها شيئاً، ولا تستطيع إنقاذي من مكروه؟

لقد وضع هذا الرجل المؤمن قومه أمام برهان مسبوق بتجارب، وهذا البرهان يدعَمُ إيمانه ويسقط مفهومات أصحاب القرية الشركيَّة، وقد آثر هذا الرجل المؤمن أن يذكر من أسماء الله اسم «الرحمن» ليُشعر قومه بأن ما يُنزل الله به من ضرٍّ في الدنيا، فإنه مَظْهَرٌ من مظاهر رحمته، لا من مظاهر غضبه ونقمته.

٢٤، ٢٥ ـ إني إذا اتَّخذت من دون الله آلهةً لفي خطأ واضح ظاهر، إني صَدَّقت بربكم، فاسْمَعوا لي، وأطيعون.

٢٦، ٢٧ ـ فلمَّا قال ذلك، وثَبَ قومه إليه وقتلوه، فبشَّرته ملائكة الموت إكراماً له بعد قتله في سبيل الله شهيداً: ادخل الجنة.

فلمَّا أفضى إلى الجنَّة، ورأى نعيمَها، ولقي ما لقيَ من كرامةٍ عظيمةٍ عند ربِّه. نادى وهو في عالم الحياة البرزخيَّة، متمنياً أن يعلم قومه الذين قتلوه، انتقاماً منه، بثوابين عظيمين ظفر بهما عند ربه: **الثواب الأول**: أن ربَّه غفر له ذنوبه، **والثواب الثاني**: أن ربَّه جعله من المكْرَمين. فقال: يا لَيْتَ قومي الذين قتلوني يعلمون بغفران ربّي لي ذنوبي، وسَتْرها عليَّ، فلم يحاسبني عليها، وجعلني من المُكرَمين، إذ أدخل روحي الجنَّة، تَسْرح في الجنة حيث شاءت، وتأكل من ثمرها؛ ليؤمنوا كما آمنت، فيدخلوا الجنة مثلي.

﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ٢٨ إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ ٢٩ يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٣٠ أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ أَنَّهُمۡ إِلَيۡهِمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ٣١ وَإِن كُلّٞ لَّمَّا جَمِيعٞ لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ ٣٢ وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلۡأَرۡضُ ٱلۡمَيۡتَةُ أَحۡيَيۡنَٰهَا وَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهَا حَبّٗا فَمِنۡهُ يَأۡكُلُونَ ٣٣ وَجَعَلۡنَا فِيهَا جَنَّٰتٖ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَٰبٖ وَفَجَّرۡنَا فِيهَا مِنَ ٱلۡعُيُونِ ٣٤ لِيَأۡكُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتۡهُ أَيۡدِيهِمۡۚ أَفَلَا يَشۡكُرُونَ ٣٥ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ وَمِنۡ أَنفُسِهِمۡ وَمِمَّا لَا يَعۡلَمُونَ ٣٦ وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ ٣٧ وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ٣٨ وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ ٣٩ لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ٤٠﴾

٢٨ ـ وما أنزلنا على قوم الرجل النَّاصح من بعد قتله لإهلاكهم ملائكةً من السماء، كما أنزلنا على غيرهم من المُهلَكين، وما كنَّا لنفعل هذا، بل الأمر في إهلاكهم أيسر مما تظنُّون.

٢٩ ـ ما كانت وسيلة إهلاكهم إلا صَيْحةً واحدة من السماء، صاح بها جبريل، فإذا هم هالكون كنار ثائرةٍ هائجةٍ خَمَدت فجأة واستحالت رماداً.

٣٠ ـ يا حَسْرةً وندامةً وتأسُّفاً على العباد المُكذِّبين المُسْتهزئين برسل ربّهم، لتحقُّق نزول العذاب فيهم، والذي يستدعي تحسُّر العقلاء الرُّحماء من أجلهم، أنه ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزؤون ويسخرون بتوجيه أعمال وأقوال فيها احتقار وازدراءٌ بهم وبدعوتهم إلى دين الله الحق.

٣١ ـ ألم يرَ أهل مكة كثيراً من أهلِ زمانٍ واحد من الأمم الخالية أهلكناهم إهلاكاً جماعياً شاملاً، أيشكُّون في سبب تعرُّض المُهْلَكين السابقين للهلاك الشامل، بسبب تكذيبهم رسل ربِّهم واستهزائهم بهم؛ لأنهم إليهم لا يرجعون، فلا يخبرون بما جرى لهم؟!

٣٢ ـ وما كلُّ مُمْتَحَن من العباد في الدنيا إلا جميعٌ عندنا مسُوقون قهراً حتى يحضروا عندنا يوم القيامة لمحاسبتهم، وفصل القضاء بينهم.

٣٣ ـ وحُجَّةٌ برهانيَّةٌ لهؤلاء المشركين تدلُّهم على كمال قُدرتنا على إحياء الموتى: هذه الأرضُ المَيْتة أحيَيْناها بالمطر، وأخرجنا من الأرض التي أحييناها حباً من مختلف الأجناس والأنواع، فمنه يأكل الناس.

٣٤ ـ وخلقنا في الأرض بساتين من نخيلٍ مُثْمرٍ وغير مُثْمر، وأعناب، وأخرجنا فيها متدفِّقاً بقوة من بعض عيون الماء ما يروي شجرها، ويُخرج ثمرها.

٣٥ ـ ليأكلوا من بعض ثمر شجر النخيل والأعناب وسائر الشجر، وليأكلوا ولينتفعوا ممَّا عملته أيديهم بالتصنيع من الغرس والسَّقي والتلقيح وغير ذلك من الأعمال، أفلا يشكرون نِعَم الله تعالى الكثيرة؟! إنّ عدم شكرهم ربهم على فيوضات نعمه عليهم لأمرٌ مُستنكر جداً، يدعو إلى اشمئزاز ذوي النفوس السَّويَّة الرشيدة.

٣٦ ـ تنزَّه الله العظيم عمَّا لا يليق به، الذي خَلَق أنواع المخلوقات وأصنافها كلَّها ممَّا تُنبت الأرض من الأشجار والثمار والحبوب، ومن أنفسهم ذكوراً وإناثاً، وفي الذرَّات، وفي القُوى الكهربائية والمغناطيسيَّة، وفي كلِّ ما توصَّلوا إلى معرفة طبيعته من شيءٍ في الكون، وممَّا غاب عنهم منه ما هو في عالم الغيب بالنسبة إليهم.

٣٧ ـ وعلامةٌ لهم تدلُّهم على كمال قُدرتنا: هذا الليلُ نَنْزع ونكشط منه ضياء النهار شيئاً فشيئاً، بمقدار نسبة حركة دوران الأرض حَوْل نفسها في مقابلة الشمس، فتظهر الظلمة شيئاً فشيئاً، كما ينسلخ جلد الذبيح من الحيوان عنه شيئاً فشيئاً، فإذا هم يُفاجئون بأنهم داخلون في الظلام المُشتمل عليهم من كلِّ جانب.

٣٨ ـ وآيةٌ كونية ترتبط بمصالحهم في الأرض: هذه الشمس تسير بانتظام مُسْرعةً إلى مُسْتَقَرٍّ لها، قدَّرهُ الله زماناً ومكاناً، ذلك الجريان المُتْقَن العجيب، المستمرُّ لبلوغ مُستقرّ يتوقف عنده جَرَيان الشمس في مكان محدَّد من الكون، وزمانٍ محدَّد من الدهر، تقديرُ القويِّ الغالب بقدرته، المحيط علماً بكلِّ شيء، الذي حدّد مقادير الأزمنة والأمكنة التي تجري فيها الشمس، ومقادير حجمها بالنسبة إلى مجموعتها، وبالنسبة إلى مجموعات النجوم الأخرى في السموات.

٣٩ ـ وقدَّرنا للقمر منازلَ ينزل في كلِّ ليلة في منزل منها لا يتعدَّاه، يبدأ هلالاً ضئيلاً حتى يكمل قمراً مُستديراً، ثم يرجع في آخر منازله ضئيلاً مثل عُود النخلة المتقوِّس اليابس المُصْفَر كما كان في أوَّل الشهر.

٤٠ ـ لا الشمس يصلح لها، ولا يتيسَّر لها أن تلحق وتبلغ القمر، فتبتلعه؛ لأنَّ ضابط العدل المتْقن بين الجاذبيات والحركات، يمنعها من أنْ تطغى متجاوزةً حدودها التي قدَّرها الله وقضاها، ولا الليلُ يسبق زمان حدوث النهار، ولا يسبق مكان حدوثه، إذ كلَّما وجد النهار في أيِّ زمان ومكان انعدم الليل، فلا يكون للَّيْل سَبْقٌ للنهار، لا في الزمان ولا في المكان، كما أنَّ الظلمة بطبيعتها لا تغلب الضوء، ولا تستطيع أن تتفوَّق عليه؛ لأنَّ وجود الليل يتوقَّف على غياب النهار، بينما يحدث النهار بمجرَّد إشراق الشمس بضوئها، ولكلِّ نجم أو كوكب فَلَكٌ خاصٌّ به، يسير على خطِّه سابحاً، لا يتعدَّى حدودَهُ، وهم جميعاً يسبحون بانتظام عجيب، دون أن تتعارض أو تتصادم.

وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾

٤١ ـ وآيةٌ كونيَّة لهم: أنَّا حَمَلنا جميع البشر الذين تناسلوا من بعد الطُّوفان في أصلاب أجدادهم الذين كانوا في سفينة نوح المَمْلوءة ركاباً وأحمالاً، وهذه الآية آيةٌ مُستمرّة لكلِّ البشر، ما داموا يستخدمون المراكب البحريَّة لركوب البحار، وعبورها، وحَمْل أثقالهم عليها، ونقلها إلى بلادٍ لم يكونوا بالغيها إلا بشقِّ الأنفس.

٤٢ ـ وخلقنا لهم من مِثْلِ سفينةِ نوح من المراكب البحريَّة والبريَّة والجويَّة، ما يركبون في البحر والبر والجوِّ، ممَّا ألهم الله عباده وأعانهم على صناعته.

٤٣، ٤٤ ـ وإنْ نَشَأْ إغراقهَمْ نُغْرِقْهُم، فلا مُغيثَ لهم، ولا يوجد مَنْ يُنقذهم من الهلاك، إلاّ أن يرحمهم الله، ويمتِّعهُم إلى انقضاءِ آجالهم المقضيَّة لهم في هذه الحياة. وكذلك يكون حالهم إن شاء الله إهلاكهم في البرِّ، أو الجوّ، أو في أيِّ موقع.

٤٥ ـ وإذا قيل للمشركين: اتَّقوا عقوبات الله التي هي أمثال ما سَلَف ومضىٰ من العقوبات التي أنزلها الله سبحانه بكفار الأمم السالفة، تطبيقاً لسنَّته الثابتة، بالإيمان والتوبة والاستغفار، واتَّقوا ما يأتي مُستقبلاً من عقوبات الله في الدنيا والآخرة، راجين أن يرحمكم ربُّكم، فيحميكم من عقابه، ويمنحكم من فَضْله، أعرضوا، ولم يُجيبوا إلى ذلك.

٤٦ ـ وما تأتي هؤلاء المشركين من آية بيانيَّة مُنزَّلة، وكونيَّة دالَّةٍ على صفات الخالق، ومعجزات خارقات للسُّنن شاهدات على صدق محمد ﷺ، إلا كانوا عنها مُعرضين، لا ينتفعون بشيء منها.

٤٧ ـ وإذا قيل للكافرين: أنفقوا ممَّا أعطاكم الله. قال الذين كفروا للذين آمنوا: أنُطْعم مَنْ لو يشاء الله إطعامَهُ أطعَمَهُ؟ ما أنتم ـ أيها المؤمنون ـ إلا في ضَيَاع واضح جَليٍّ عن طريق الحق والهدى في بذلكم أموالكم للفقراء والمساكين، وفي دعوتكم لمساعدتهم وإطعامهم. فنحن نوافق مشيئةَ الله تعالى، التي قَضَتْ أن يهينَ الفقراء بالفقر والجوع، لأنهم لا يستحقُّون إلا ذلك، ونحن لا نُغيِّر مراد الله فيهم. وهذه الذريعة الباطلة التي يتذرَّع بها الكافرون، إنَّما هي نتيجة سوء فهمهم عن الله ومقاديره في خلقه. فليس إغْناؤهم من أجل تكريمهم على مَنْ سواهم، وليس إفقار بعض عباده من أجل إهانتهم، وإنما ذلك لحكمة الابتلاء والامتحان. فالله أغناهم ليمتحن شكرهم لله بعطاء ذوي الحاجات، وأفقر أولئك ليمتحن صبرهم ورضاهم عن الله، وبعدهم عن الحسد، ولكنهم يَصْرفون عن أفكارهم تصوُّرَ هذه المعاني حرصاً على تضييق دائرة الطبقة الاجتماعيَّة التي هم منها، ومحافظةً على مواقع الاستكبار البخيل.

٤٨ ـ ويقول هؤلاء الكفار استهزاءً وتكذيباً: متى يكون يوم القيامة والبعث إنْ كُنتم صادقين فيما وعدتم؟!

٤٩، ٥٠ ـ ما ينتظرُ هؤلاء المشركون الذين يستعجلون بوعيد الله إيَّاهم، إلا نفْخَةَ الفَزَع عند قيام السَّاعة، تُهلكُهم وتُميتهم فجأة، وهم يَتَخاصمون في أمر الدنيا وتصرُّفاتها، فتأتيهم الساعة أغفلَ ما كانوا عنها، فلا يقْدر هؤلاء المشركون عند النفخ في «القرن» أن يُوصوا أحداً بشيءٍ، بل أُعجلوا عن الوصيَّة فماتوا، ولا يقدرون على الرجوع إلى أهلهم؛ ليكون موتهم بين من يُحبُّهم، بل يُهلكون بين مَنْ يخاصمونهم.

٥١ ـ ونَفَخ إسرافيل في «القَرن» نفخةَ البعث، فإذا هم من القبور يخرجون منها أحياء مُسرعين إلى حساب ربِّهم على ما أسلفُوا في رحلة امتحانهم في الحياة الأولى، وإلى فَصْل قضائه، وتنفيذ جزائه.

٥٢ ـ قالوا: يا هَلاكَنا وحزننا ممَّا سنلقى من مشقَّةٍ وعذاب أليم. مَنْ أيقظنا من نومنا، وأخرجنا من قبورنا؟ فَيُجابون: هذا البعث إلى الحياة الأخرى، وهو الأمر الذي كان وَعَدَ الرحمن عباده، وصَدَقَ المُرسَلون فيما أخبروا عنه

٥٣ ـ ما كانت دعوتهم إلى الخروج من القبور إلا نفخةً واحدةً في «القرن»، فإذا هُم جميعٌ لدى ربِّهم مُحضَرون، تسوقهم الملائكة حتى يحضروا مواقف حسابهم بين يدي ربِّهم، وفصل القضاء بينهم.

٥٤ ـ فاليومَ الذي هو يوم الحساب، وفَصْل القضاء، وتنفيذ الجزاء، لا تُظْلم نفسٌ ما شيئاً، بزيادة العذاب على ما قدَّمت من شر، أو بنقصانِ الثواب عمَّا وُعِدَت به من أجر على فعل الخير، ولا تُجْزَوْنَ جزاء عقابٍ إلاَّ جزاء ما كُنتم تعملون في الدنيا.

إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾ وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ ۖ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾

٥٥ ـ إنَّ أصحابَ الجنّة المُلازمين لها، والمنعَّمين فيها، في ذلك اليوم مشغولون بما هم فيه من نعيم، فرحون ناعمون.

٥٦ ـ هم وأزواجُهم مُتنعِّمون بالجلوس على السُّرُر المُزيَّنة، تحت تلك الظلال الوارفة، فلا تُؤذيهم أشعةُ شمس بحرارتها ووَهْجها.

٥٧ ـ لهم في الجنّة فاكهةٌ كثيرة الأصناف، والأنواع، والمقادير، ولهم فيها ما يتمنّون ويشتهون، فكلُّ ما يدعو به أهلُ الجنة يأتيهم.

٥٨ ـ سلامٌ عظيمٌ مُستمرٌّ عليكم حال كونه قولاً من ربٍّ رحيم، فتعمُّهم السعادة العظمى، ويَسْلَمون السَّلامة الأبديَّة.

٥٩ ـ ويُقال للكفّار في ذلك اليوم: اعتزلوا وانفردُوا وتنحَّوْا إلى جهةٍ خاصّةٍ بكم عن سائر مَنْ بقي مِن أهل الموقف، ممَّن لم يُحاسب بعد، ولم يُفصَل بشأنه القضاء.

٦٠ ـ ألم آمركم وأُوصيكم ـ يا بني آدم ـ أن لا تطيعوا الشيطان فيما يُوسوس ويُزيِّن لكم من الكفر بربكم ومعصيته؟ إنَّه لكم عدوٌّ ظاهر العداوة.

٦١ ـ وأنْ حقِّقوا مطلوبي منكم فأطيعوني ووَحِّدوني، هذا الذي أمرتكم به هو طريقٌ مُستقيم، يُوصلكم إلى الخلود في دار النعيم.

٦٢ ـ وأُؤكِّدُ لكم أنَّ الشيطان أضلَّ عن الحقِّ منكم خَلْقاً كثيراً؛ إذ استجابوا لدعوته، واتَّبعوا خطواته. أسُلبتم قدرات التفكير فيكم، وسُلبتم إرادتكم الضابطة لأهوائكم وشهواتكم، فلم تكونوا تعقلون؟!

٦٣، ٦٤ ـ ويقال للكفار لمّا دَنَوْا من النّار: هذه جهنَّم التي كان الله ورسُلُهُ يُنذرونكم بعذابها، وكنتم بها تُكذِّبون وتستهينون، فلا تحذرون عذاب الله فيها، ادخلوها اليوم، واحترقوا بنارها، وقاسوا حرَّها، بسبب ما كنتم في رحلة الحياة الدنيا تكفرون، حتى انتهت أعماركم فيها وأنتم توالون كفركم بالحق من ربِّكم.

٦٥ ـ اليومَ الذي هو يوم الحساب نَخْتِمُ على أفواه المشركين فلا ينطقون، وتنطق أيديهم التي كانت تُباشر العمل، وتشهدُ أرجلهم التي كانت حاضرةً بما كانوا يكسبون في الحياة الدنيا. وذلك عندما ينكر الكفار ويجْحَدون كفرهم وتكذيبهم الرسل، فتنطق جوارحهم؛ ليعلموا أنَّ أعضاءهم التي كانت عَوْناً لهم على المعاصي، صارت شاهدةً عليهم، وذلك أنَّ إقرار الجوارح أبلغ من إقرار اللسان.

٦٦ ـ ولو نشاء في كلِّ لحظة من لحظات مستقبل وجودهم في الحياة الدنيا لأعمَيْنا أعينَهم الظاهرة بحيث لا يبدو لها جَفْنٌ ولا شقٌّ، فإذا ساروا يريدون الطريق الواضح الجليَّ، جاوزوه وتركوه، فضلُّوا وساروا في المَتَاهات، وكيف يُبصرونَ وقد أعمَيْنا أعينهم؟

٦٧ ـ ولو نشاء في كلِّ لحظةٍ من لحظات مستقبل وجودهم في الحياة الدنيا أنْ نُغيِّر صُورَهم الإنسانيَّة إلى صُوَرٍ حيوانيَّة قبيحة، لفعلنا بهم، فثبتوا على الموضع الذي هم فيه، مشوَّهين قباحاً، خاسرين مكانتهم الاجتماعيَّة فلا يقْدرون مُضِيّاً إلى الأمام، ولا هم يرجعون إلى ما كانوا عليه.

٦٨ ـ ومن نُطِلْ عُمْرَهُ نجعَلْه يتنازل مائلاً إلى الأسفل ضعفاً وعَجْزاً شيئاً فشيئاً، فنبدِّله بالقوَّة ضعفاً، وبالشباب هَرماً، وبالعقل خَرَفاً، أيستمرُّون في إنكار البعث بعد الموت، فلا يعقلون عقلاً علمياً أنَّ الذي قدر على تصريف أحوال الإنسان قادرٌ على البعث بعد الموت؟ ولا يعقلون عقلاً إرادياً يضبط نفوسهم عمّا يجعلهم يوم الدين من المعذَّبين في دار عذاب المجرمين والعصاة المذنبين.

٦٩ ـ وما أعطينا رسولنا محمداً ﷺ موهبة صناعة الشِّعر، وضبْط أوزانه، وسَوْق كلامه وَفْق أساليبه وطرائقه، وما ينبغي له أن يكون شاعراً تستهويه أغراض الشُّعراء فيما يقولون من شعر، وما يَسْهل له ذلك، وما يصلح منه، بحيث لو أراد نَظْم شعر لم يتأتَّ له ذلك، كما جَعَلناه أُميّاً لا يكتب ولا يحسب؛ لتكون الحُجّة أثبت، والشُّبهة أدحض. وليس القرآن من جنس الشعر، ما الكلام الذي يتلوه محمدٌ مُبلِّغاً إيّاه عن ربِّه، ويتحدّى الناس بأن يأتوا بمثله، إلا ذكرٌ يجب على المكلَّفين أن يتفهَّمُوه ويعقلوا معانيه، ويكون لهم ذكراً للعمل بمقتضاه، وقرآنٌ مَقْروء مكتوب في المصاحف، واضحٌ في ذاته صياغةً ونطقاً، ومبيِّنٌ للمعاني التي يدلُّ عليها.

٧٠ ـ لِيُنْذِرَ الرسول والقرآن من كانت لديه بقية من حياة، إنذاراً ينتفع به؛ إذ يؤثِّر فيه، فيؤمن ويكسب في إيمانه خيراً، فيحقُّ قول الوعد بثوابه، فيكونُ من أهل الجنة. ومَنْ كان بمثابة الميِّت الذي لم تَبْقَ فيه بقية من حياة، فإنه لا ينتفع بهذا الإنذار؛ إذ لا يؤثِّر فيه، فلا يؤمن، فيحقُّ عليه قولُ الوعيد بأنه من أهل النار الخالدين فيها.

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾

سورة الصافات

٧١ - أَعَمِيَ الكافرون ولم ينظروا بأعينهم، ويتفكّروا بعقولهم أنّا خلقنا لأجلهم من بعض ما عملت أيدينا أنعاماً كثيرةً عظيمة المنافع من غير إعانة أحدٍ في إنشائها، فهم لها على وَجْه الخصوص مالكون ملكاً مُتمكّناً، قادرون على التصرُّف فيها؟

٧٢ - وأخضعناها لهم، وجعلناها مطيعة منقادة، فمن الأنعام ما يركبون، ويحملون عليها الأثقال وهي الإبل، ومن الأنعام يذبحون، ويأكلون من أجسادها لحماً، وما يطيب لهم منها.

٧٣ - ولهم فيها منافع أخرى ينتفعون من أصوافها وأوْبارها وأشعارها وجلودها ونَسْلها، ويشربون من ألبانها، ألا يتفكّرون في هذه النِّعم العظيمة التي أنعم الله بها عليهم، فهم بسبب عدم تفكُّرهم لا يشكرون ربَّهم عليها بالإيمان والإسلام والطاعة.

٧٤ - واتّخذ المشركون بتكلُّف وتصنُّع مُخالف للحقيقة والواقع، من دون الله آلهةً يعبدونهم، حالة كونهم راجينَ منهم أن ينصروهم على خصومهم وأعدائهم.

٧٥ - إنَّ هؤلاء الآلهة الذين يعبدونهم من دون الله لا تَقْدر على نصر عابديها ومَنْعِهم من العذاب، والمشركون لآلهتهم جندٌ مدافعون عنهم، مناصرون لهم، تسوقهم الشياطين بوساوسها للدفاع عنهم، والحضور لمناصرتهم.

٧٦ - فلا يَحْزُنْك - يا رسول الله - قولُ كفار مكة في تكذيبك واتّهامك بأنك شاعر، بل اصرف عن ذهنك ونفسك أقوالهم، ولا تعبأ بها، واعلم بأنَّ ربَّك النصير لك، يعلم كلَّ ما يُسرُّون في ضمائرهم من التكذيب، وكلَّ ما يعلنون بألسنتهم من الأذى، وسنُجازيهم على ذلك.

٧٧ - أجهل الإنسانُ الجاحد قُدرةَ الله على البعث ولم يَرَ: أنّا خلقناه من نطفةٍ قذرة خسيسةٍ، فلمّا صار إنساناً سَويّاً كاملاً، فاجأ بالخصومة داعيَ ربِّه، فإذا هو جَدِلٌ بالباطل مُبالغٌ في الخصومة والجدل، ظاهرٌ مجاهرٌ في إنكار البعث، مع علمه بأصل خِلْقته!

٧٨ - وَقدَّم لنا ذلك الإنسان الخصِيم المُنكرُ للبعث نموذجاً من جسد ميِّتٍ قد بليَ، ونسيَ حين ضَرَب هذا المثل: خَلْقَنا إيّاه من نطفةٍ، وتَقْليبَهُ في أطوارٍ شتّى حتى صار إنساناً سوياً، ولم يكن شيئاً مذكوراً، قال: مَنْ يُحيي العظام وهي بالية أشدّ البلى؟

٧٩ - قل له - يا رسول الله -: إنَّ الذي أنشأ العظام في المرّة الأولى، وكَسَاها لحماً، وصوَّر الإنسان في رَحم أمِّه بأحسن صورة، هو نفسُهُ القدير على إنشائها وإحيائها بعد الموت والفناء، مرةً ثانية وثالثة، إلى ما لا نهاية له من مرّات، وهو سبحانه بكلِّ خَلْقٍ يخلُقُه عليمٌ به قبل أن يخلُقَهُ؛ إذ الخلق مسبوقٌ بقضاء الله وقدره، وعليمٌ به حين خَلَقَهُ على وَفْق خريطة تكوينه، وعليمٌ به بعد أن خلقه، وعليمٌ بما كان عليه بعد أن أماته وأفناه.

٨٠ - الذي أخرجَ لكم من الشَّجَر الأخضر النَّدي الرَّطِب ناراً مُحرقةً، فإذا أنتم تستعملون منه الوقود كلَّما احتجتم إلى النّار، تنتفعون بها في حياتكم انتفاعاً عظيماً، إذْ تستمدُّون منها طاقات عظيمات، للإنضاج، والصَّهر، والصناعات المختلفات، دون أن تنتفعوا بدلالاتها، وتستدلُّوا على قدرته سبحانه على البعث، فهو القادرُ على إخراج الضِّدِّ من الضِّدِّ، ومن ذلك إخراج الموتى من قبورهم أحياء.

٨١ - أوَلَيْسَ الذي خلق السموات والأرض - مع عِظَم حجمهما - قادرٌ على إعادة خَلْق الناس مع صغرهم وضعف شأنهم؟ بلى هو القادرُ على ذلك، وهو الخلّاق الذي له غاية القدرة على خلق ما يشاء، وله العلم الشامل فيما كان، وما هو كائن، وما سيكون، وما هو مُمكن أن يكون، وما هو مستحيلٌ أن يكون، ولا يشاركه في صفاته أحد.

٨٢ - ما أمرُهُ التكويني سبحانه إذا أراد إحداثَ شيءٍ وتكوينَهُ إلا أن يقول له آمراً أمرَ تكوين: كُنْ فهو يكون، ويُوجَدُ لا مَحَالة على وَفْق مشيئته تماماً.

٨٣ - فتنزَّه الله تعالى وتقدَّس عن كلِّ ما لا يليق به من صفات النقص، الذي بيده التصرُّف الكامل التامُّ بكلِّ شيءٍ في الوجود، وإليه وحده تُردُّون بعد الموت للحساب، وفصل القضاء، وتنفيذ الجزاء.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ﴿١﴾ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ﴿٢﴾ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ﴿٣﴾ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ ﴿٤﴾ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ ﴿٥﴾ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ ﴿٧﴾ لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾ فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا ۚ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ ﴿١١﴾ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ ﴿١٨﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾ ۞ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ ﴿٢٤﴾

سورة الصافات

١ ـ ٤ ـ أقسم الله تعالى بالملائكة تصفُّ في عبادتها صُفوفاً مُتراصَّة، وبالملائكة تَزْجُر السَّحاب وتسوقه، وبالملائكة يتلونَ ذكر الله تعالى. وجوابُ القسم: إنَّ معبودكم الحق ـ أيُّها الناس ـ لَوَاحدٌ لا شريك له، فأخلِصوا له العبادة والطاعة.

٥ ـ هو ـ وحده ـ خالقُ السَّموات والأرض وما بينهما، المالك القادر المُنزَّه عن الشَّريك، وربُّ مشارق الشمس ومغاربها؛ إذ لا تُشرق الشمس من جهة، إلا غَربت في الوقت نفسِهِ عن الجهة المُقابلة لها في دورة الأرض حول نفسها. فهو سبحانه المهيمن بصفات ربوبيَّته خَلْقاً وتدبيراً وتصاريف على الشُّروق والغروب، وعلى أمكنة وأزمنة الشروق والغروب، فهو ربُّ كلِّ المشارق والمغارب.

٦ ـ إنا بعظيم ربوبيَّتنا حسَّنَّا وجمَّلنا السماء الأقرب لكم ـ أيُّها الناس ـ التي تلي الأرض بالكواكب والنجوم التي تظهر زينتها لكلِّ ذي نظرٍ يرى به السماء.

٧ ـ وحفظنا السماء حفظاً بالشُّهب من كلِّ شيطانٍ متجرِّد عن الخير بخروجه عن طاعة الله.

٨، ٩ ـ لا يستطيع الشياطين من التسمُّع إلى الكلام الذي تنزل به ملائكة الملأ الأعلى، لملائكة تنفيذ الأوامر في الأرض، ويُرْمَوْن بالشُّهب من آفاق السماء إذا حاولوا الصُّعود إليها، إبعاداً لهم بعنف وشدَّة عن مواقع التسمُّع من ملائكة الملأ الأعلى، ولهم في الآخرة عذابٌ دائم مُلازم.

١٠ ـ إلاَّ من اخْتَلَس من الشياطين الكلمةَ من كلام الملائكة، فإنه لا يستطيع أن يهرب بها لتبليغها إلى أهل الأرض، بل يلحقه بسرعةٍ وقوةٍ شهابٌ ناريٌّ شديد التوهُّج لا يُخطئه، بل يقتله ويحرقه.

١١ ـ فاسأل ـ يا رسول الله ـ كفَّار مكة المُعتزِّين بقوتهم، وجنودهم: أهُمْ أشدُّ خلقاً أم مَنْ خلقنا من الأمم الخالية؟ فهؤلاء المشركون ليسوا بأحكم خلقاً من غيرهم من الأمم، وقد أهلكناهم بذنوبهم، فما الذي يؤمِّنهم من العذاب؟ إنا خلقنا أباهم آدم من ماء مُمتَزج بتراب، متماسك لَزِج، يلتصق بعضه ببعض، وهم من ذرِّيَّته، ونحن قادرون على إعادة خلقهم وبعثهم إلى الحياة الآخرة.

١٢ ـ ١٤ ـ بل عَجِبْتَ ـ يا رسول الله ـ من تكذيبهم إيَّاك، وهم يَسْخرون من الإنذارات التي تُوجَّه لهم، وإذا ذُكِّروا بما سبق أن بلَّغتهم إيَّاه من حقائق دين الله وأحكام شريعته لا ينتفعون بتذكيرك، ولا يستجيبون لدعوتك، وإذا رَأَوْا مُعجزةً دالَّةً على نبوَّتك، يسخرون بشدَّة، ويَسْتدعي بعضهم بعضاً إلى السُّخرية.

١٥ ـ ١٧ ـ وقال الكافرون بعد انتهاء وقت جريان الآية الخارقة: ما هذا الذي جئتَ به إلا سحرٌ ظاهرٌ بيِّن. أإذا مِتْنا وكان بعض أجزائنا تراباً، وبعضها عظاماً بالية: أإنَّا لمُخْرَجون من قبورنا أحياء؟ أو يبعث آباؤنا الأوَّلون الذين ماتوا قبلنا وهلكوا؟

١٨، ١٩ ـ قل لهم ـ يا رسول الله ـ: نعم ستُبعثون جميعاً يوم القيامة، للحساب، وفصل القضاء، وتنفيذ الجزاء، وأنتم أذلاَّء صاغرون خاضعون، فإنَّما شأن بعثهم يوم القيامة هي صيحةٌ واحدة، وهي نفخة البعث، فيُفاجأ الموتى بأنهم أحياءٌ ينظرون أهوال يوم القيامة.

٢٠، ٢١ ـ وقال المشركون: يا شدَّة خوفنا من العذاب الذي سَنُلاقيه، ويا حُزننا على ما فرَّطنا في دنيانا، هذا يوم الحساب والجزاء على الأعمال. فيقال لهم: هذا يوم فصل قضاء الله بين عباده الذي كُنتم به تُكذِّبون في الحياة الدنيا.

٢٢، ٢٣ ـ يقول الله تعالى لملائكة العذاب: اجمَعُوا وسُوقوا الذين ظلموا من دَرَكة الكفر والتكذيب بيوم الدين، وأشباههم وأمثالهم من الكفار، والأصنام التي كانوا يعبدونها في الدنيا من دون الله، فدلُّوهم إلى الطريق الواسع الذي يصل بهم إلى الجحيم، دار العذاب التي يُساقون إليها عقاباً على كفرهم وظلمهم في الحياة الدنيا.

٢٤ ـ واحبسوهم قريباً من أبواب الجحيم قبل أن يُكَبُّوا فيها؛ إنهم مسؤولون عن جرائمهم التي ارتكبوها في رحلة امتحانهم في الحياة الدنيا.

مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ بَل لَّمْ تَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ ۖ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ ۖ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ ۖ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍۭ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ﴿٥١﴾

٢٥ ـ وتقول لهم خَزَنة جهنم توبيخاً لهم: ما لكم لا ينصُرُ بعضُكم بعضاً؟

٢٦ ـ إنهم لا يفكِّرون في التناصر، لعلمهم أنهم عاجزون، لا يستطيعون أن يدفعوا عن أنفسهم عذاباً ما، ولا أن يحققُوا لأنفسهم مطلوباً ما، بل هم اليوم أذلاَّء منقادون، لا حيلة لهم.

٢٧ ـ وأقبل الأتباع والقادة الذين كانوا يُضلُّونهم في الدنيا، يتلاومون ويتخاصمون.

٢٨ ـ قال الأتباع للرؤساء: إنكم كنتم تأتوننا في الحياة الدنيا صَادِّين إيّانا عن الإيمان الذي من شأنه أن يجعلنا من أصحاب اليمين.

٢٩ ـ قال الرؤساء للأتباع: لسنا الذين صَدَدْناكم عن الإيمان، بل لم تكونوا على حقٍّ حتى نُضِلَّكم عنه، ولم تكونوا مُستعدِّين لأن تؤمنوا.

٣٠ ـ وما كان لنا عليكم من قوَّةٍ قاهرةٍ تُجبركم على مُتابعتنا، بل كنتم قوماً متجاوزين للحق، فأعجبتكم مسالكُنا الكفريَّة الإجراميَّة، فاتَّبعتمونا.

٣١ ـ فوَجَبَ علينا جميعاً نحن وأنتم قولُ ربِّنا الذي أصدر به الحكمَ بعذابنا في نار جهنَّم، إنا لذائقو العذاب في النار ومُتحسِّسوا آلامه جميعاً؛ الضَّالُّ والمُضِلُّ.

٣٢ ـ فدَعوْناكم إلى الغيِّ دعوةً غير مُلجئة، بالتَّزيين والتحسين والإطْماع بالباطل؛ لتنضمُّوا إلينا، إنا كُنَّا ضالِّين من قبلكم، وكلٌّ منا يتحمَّل من الجرم على مقدار ما اكْتَسَب منه في الحياة الدنيا.

٣٣، ٣٤ ـ فإنَّ الرؤساء والأتباعَ مشتركون يوم القيامة في العذاب، بمقدار جرائمهم التي ارتكبوها في الدنيا، كما كانوا مشتركين في الغَواية في الدنيا. إننا مثل ذلك العذاب نفعل بسائر المجرمين من الإنس والجنِّ.

٣٥، ٣٦ ـ إنَّ أولئك المشركين كانوا في الحياة الدنيا، إذا قيل لهم: تعالوا إلى عبادة الله وحده، لا تشركون به شيئاً، يسْتكبرون، فلا يستجيبون لدعوة الحقِّ الربَّانيَّة، ويقولون: أإنَّا لتاركُو آلهتِنا لقولِ رجُلٍ شاعرٍ مجنون، يدَّعي أنه رسول ربِّ العالمين؟

٣٧ ـ ليس محمدٌ كما قلتم كاذبين شاتمين: هو شاعر مجنون، بل هو رسولٌ من ربِّ العالمين، جاءكم وجاء الناس جميعاً بالحقِّ من لدنا، وأتى بما أتى به المُرسلون قبله، وصدَّقهم فيما أخبروا به من الدين والتوحيد والدعوة إليه، فكيف تقولون: شاعر مجنون!!

٣٨، ٣٩ ـ إنكم ـ أيُّها المشركون ـ لذائقُون في جهنَّم العذابَ الأليم حريقاً في النار، وما تُجْزَوْنَ إلا جزاء ما كنتم تعملون في الدنيا من الشِّرك والتكذيب.

٤٠ ـ لكن عباد الله الذين أخلَصُوا للَّهِ تعالى في إيمانهم وإسلامهم وعباداتهم، فأخلصهم الله واختصَّهم برحمته، لا يقتصر ثوابهم على ما كانوا يعملون في الدنيا، بل يُضاعف الله ثوابَهم بفضله أضعافاً كثيرة جداً.

٤١ ـ أولئك الذين أخلصهم الله لطاعته لهم في الجنَّة رِزْقٌ معلوم الصِّفة من لذَّة طَعْم، وطيب رائحة، وحُسْن منظر.

٤٢ ـ ذلك الرزق فواكه كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة، تُؤكل للتلذُّذ لا للقوت، والحال أنهم مُكْرَمون بثوابِ الله تعالى.

٤٣، ٤٤ ـ مساكنهم في جنَّات النعيم، مُتَّكئين على سُرُرٍ يقابل بعضهم بعضاً، للتحدُّث السَّارِّ، والأُنس والتَنعُّم باللقاء.

٤٥ ـ ٤٧ ـ يدور عليهم في مجالسهم ولدانٌ مُخلَّدون بكؤوس من خَمْر تجري به بعض أنهار الجنة، ظاهرةٍ تراها العيون. الكؤوس وما فيها من الخمر بيضاء شفافة حَسَنة المنظر، طيِّبة الطَّعم، لذيذة للشاربين، لا تغتال عقولهم فتذهب بها، ولا هم بشربها يذهب وعيهم شيئاً فشيئاً، فلا أذى فيها، ولا مضرَّة على شاربيها في جسم أو عقل.

٤٨، ٤٩ ـ وعندهم في الجنة حُوريَّات من نساء الجنَّة اللواتي أنْشأهن الله فيها إنْشَاءً لهم، غير أزواجهم المؤمنات من نساء الحياة الدنيا، لهنّ ثلاث صفات: **الصفة الأولى:** أنهنَّ غاضَّات العيون، عفيفاتٌ قَصَرْنَ أعيُنَهُنَّ على أزواجِهِنَّ، **الصفة الثانية:** حِسَانُ الأعين عِظَامها، **الصفة الثالثة:** كأنهنَّ بَيْضُ النَّعام المَسْتور المصُون بأجنحته من الريح والغبار.

٥٠ ـ فأقبل أهل الجنة في الجنة يسأل بعضهم بعضاً عن حاله في الدنيا، وهم في مجالس أُنسهم يتنعَّمون، ويحمدون الله على أن جعلهم من أهل جنّات النعيم.

٥١ ـ قال قائل من أهل الجنة: إني كان لي في الدنيا صاحبٌ من المشركين، مُلازمٌ لي.

يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾

٥٢، ٥٣ ـ يقول مُستنكراً إيماني: أإنَّك من المُصَدِّقين بالبعث بعد الموت؟ أبعد أن نفنىٰ، ونصير تراباً وعظاماً نَخِرة، أإنَّا لمبعوثون لحياةٍ أخرى غيرِ هذه الحياة؛ لِنُحَاسَبَ ونُجَازىٰ على ما قدَّمنا في الحياة الأولى؟

٥٤ ـ قال المؤمن لإخوانه من أهل الجنة: هل أنتم راغبون في أن تطَّلعوا معي؛ لنرى مصيرَ ذلك القرين الذي كان يحاول إغوائي، لأُكذِّب بيوم الدين؟

٥٥ ـ فاطَّلع المؤمنُ على أهل النار، فرأى قرينه في وسط جهنم.

٥٦ ـ قال المؤمنُ لقرينه حينما رآه: والله، لقد قاربت بإغراءاتك وإغواءاتك لتُسقطَني معك في هاوية عذاب الجحيم.

٥٧ ـ ولولا رحمةُ ربي وإنعامُه عليَّ بتقوية إرادتي الخيِّرة الصَّادقة على مقاومة إغراءاتك، لاسْتَجَبْتُ لك فكفرت، فكنت من المسوقين قهراً حتى أكون معك حاضراً في النار.

٥٨، ٥٩ ـ يقول أهل الجنة للملائكة حين يُذبح الموت: أنحن مُخلَّدون مُنعَّمون، فما نحن بميِّتين، إلا موتَتَنا الأولى في الدنيا، وما نحن بمعذَّبين بعد دخولنا الجنة؟!

٦٠ ـ إنَّ هذا الذي أعطانا الله من الكرامة في الجنة لهو الظفر العظيم، والنجاةُ الكبرى ممَّا كنَّا نحذره في الدنيا من عقاب الله.

٦١ ـ لِمِثْلِ هذا الفوز العظيم، فَلْيعمل العاملون، إيماناً وإسلاماً وطاعةً لربهم في الدنيا؛ ليصيروا إليه في الآخرة.

٦٢ ـ أذلك النعيم المُعَدُّ لأهل الجنة خيرٌ ضيافةً وعطاءً من الله أم شجرة الزقُّوم الخبيثة المُرَّة الكريهة المُعَدَّة لأهل النار؟!

٦٣ ـ إنَّ شَجَرة الزَّقُّوم في جهنَّم شجرةٌ يُعذَّب بالأكل من ثمرها الكافرون، إنَّهم يأكلون منها من شدَّة جوعهم، ثم يكون ما أكلوه كنار لاهبةٍ تحرقهم من داخل بطونهم.

٦٤ ـ ٦٨ ـ إنها شجرةٌ تنبت في قعر النار، ثمرها الذي يُؤكل منه كأنَّه رؤوس الشياطين في قبح المنظر. فإنَّ الظالمين المجرمين لآكلون من ثمرها، ويُكرهون على أكلها حتى تمتلئَ بطونهم، ثمَّ بعد امتلاء بطونهم من ثمر شجر الزقُّوم، الذي يغلي في بطونهم كغَلْي الحميم، يشتدُّ ظَمَؤهم، فلا يجدون إلا ماءاً شديدَ الحرارة، فيشربون منهُ مُلْجَئين، لتخفيف لهيب ظمئهم، فيدخلُ هذا الماء الحميم في بطونهم، فيختلط بما أكلوا من طلع شجرة الزقُّوم، ثم إنَّ رجوعَهم ومكانَه وزمانَه إلى دَرَكاتهم في الجحيم بعد أكلهم الزقُّوم وشربهم الحميم في قاع الجحيم.

٦٩، ٧٠ ـ إنَّهم وَجَدوا آباءهم ضالِّين، فهم يُسرعون الخُطىٰ على آثارهم، ويعملون مثل عملهم من غير تفكير، مع ظهور كونهم على الباطل بأدنى تأمُّل.

٧١، ٧٢ ـ ونؤكِّد لك ـ أيُّها المُتلقِّي ـ أنه ضلَّ قبلهم أكثرُ الأمم الخالية بإراداتهم الحُرَّة، ونؤكِّد أننا أرسلنا فيهم رُسُلاً مُبلِّغين ومُبشِّرين بجنَّات النعيم مَنْ آمن وأطاع، ومنذرين مَنْ كذَّب وعصى بإهلاك شامل ماحق في الدنيا قبل يوم الحساب، وبعذابٍ خالد يوم الدين.

٧٣ ـ فما كان منهم بعد الإمهال الطويل لهم إلا الإصرار على كفرهم، فأهلكناهم إهلاكاً جماعياً شاملاً، فانظر ـ أيها المتلقِّي المتفكِّر ـ كيف كان مآل الذين أنذرتهم رسلُهم؟ لقد أهلكناهم إهلاكاً عقابياً؛ ليكونوا عبرةً لمن يأتي بعدهم من الناس.

٧٤ ـ ولكن ليس كلُّ المُنْذَرين أُهلكوا، بل كان منهم مَنْ آمن وأخلص في إيمانه وإسلامه وعبادته، فجَعَلناهم من المُخْلَصين، فأنجيناهم ولم نُهلكهم مع المُهْلكين.

٧٥، ٧٦ ـ ونقسم مؤكِّدين لكم أن نوحاً دعانا في آخر مسيرة دعوته لقومه دعاءً فيه شدّة النداء وحُرقته؛ لننصره على قومه، فاستمعنا نداءَهُ، وأجَبْنا دعاءَهُ، وفرَّجنا كربه، فَلَنِعْمَ المُجيبونَ كنَّا له، وخلصْناه، وخلَّصنا أهله المؤمنين معه ممَّا كانوا فيه من حزن وغمٍّ شديد، فإذا وصلت ـ يا رسول الله ـ مع قومك إلى حالة كرب عظيم، فادعنا نُجبْك، ونهلك أعداءك.

وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَـٰمٌ
عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ
عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٨٢﴾ ۞ وَإِنَّ مِن
شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ
لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ
﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾
فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ
فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا
بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ
﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَـٰنًا فَأَلْقُوهُ
فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾
وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ
﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَـٰهُ بِغُلَـٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ
يَـٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ
يَـٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾

٧٧ - وَجَعَلنا ذُرِّيَّة نوح هم الباقين بعد غَرق قومه فلم يُنْجب أحدٌ ذُرِّيَّةً من المؤمنين الذين ركبوا معه في السفينة، ونَجَوْا من الغرق، غير أولاده الثلاثة: «سام - وحام - ويافث».

٧٨ - وأبقينا على نوح ثناءً حَسناً وذكراً جميلاً وتحيةً طيِّبة فيمَن بعده من الأنبياء والأمم إلى يوم القيامة.

٧٩ - ٨١ - سلامٌ وتحيَّةٌ وعافية وأمن، وبراءةٌ من كل مكروه ونقْص على نوح منَّا في العَالَمين؛ إنا جَزَيْناهُ بالنجاة من الكرب العظيم، وأبقينا له ثناءً حَسَناً وتحيَّةً طيبة، لأنه كان محسناً، وإنا كذلك الجزاء نجزي سائر المحسنين، إنَّه من عبادنا المُصَدِّقين المُخلصين.

٨٢ - ثُمَّ بعد أن أنجينا نوحاً وأهله من الكرب العظيم بمدَّة متراخية، جرت فيها السفينة على الماء، أغرقنا الآخرين من كفار قومه بالطُّوفان.

٨٣ - وإنَّ ممَّن على منهاج نوح وسنَّته في التوحيد والإيمان بالله، نبيَّ الله إبراهيم عليه السلام. فالعقائد والشرائع التي جاء بها نوح عليه السلام قد بقيت منها بقايا صحيحة في القرون من بعده حتى أيام إبراهيم عليه السلام، وأنَّه اطَّلع عليها رغم انتشار الوثنية في قومه، فآمن بها واتَّبعها، إيماناً بنوح عليه السلام واتِّباعاً له، قبل أن يتَّخذه الله نبيّاً، ويبعثه إلى قومه رسولاً.

٨٤ - ضع في ذاكرتك - أيها المُتلقِّي - حين أقبلَ على ربِّه بعد رحلة الحياة الدنيا بقلبٍ مُخلصٍ من الشِّرك والشكِّ، والغلِّ والغش، والحقد والحسد.

٨٥ - ٨٧ - ضع في ذاكرتك - أيها المُتلقِّي - جهاد إبراهيم الدعويّ حين قال لأبيه وقومه مُنكراً عليهم: ما الذي تعبدون من دون الله؟ أتتَّخذون أصناماً وتجعلونها آلهةً تُعبد كذباً على الله، وتريدون بعبادتكم لها أن تَجْلب لكم نفعاً، أو تدفع عنكم ضرّاً؟ فما ظنُّكم الذي تظنُّونه بربِّ العالمين الخالق للكون، والمُمِدِّ له بعطاءات ربوبيَّته دواماً؟ فابحثوا بأفكاركم، فهل تصلون إلى ظنٍّ بأنَّ ربَّ العالمين يمكن أن يكون شيئاً من الكون، أو أن يُمثَّل بشيءٍ من الكون؟

٨٨ - فَنَظَر إبراهيم نظرةً في النجوم؛ ليُوهِمَ مَنْ حوله من قومه أنه على طريقتهم في النظر إلى حركات النجوم؛ لئلا يُنكروا عليه، وذلك أنه أراد أن يكيد أصنامهم في يوم عيدهم، فيُحطِّمُها إلا كبيرها؛ ليُلزمهم الحُجَّة أنها لا تستحق العبادة.

٨٩، ٩٠ - فقال إبراهيم: إنِّي مريض، ومرضي يمنعني من أنْ أخرج معكم في يوم عيدكم، فقبلت عشيرتُهُ عُذْرَهُ، فخرجوا نائين عن المكان الذي هو فيه، وبقي إبراهيم عليه السلام في المدينة لا يُراقبه فيها أحد.

٩١، ٩٢ - فمالَ إبراهيمُ إلى أصنامهم في خُفْيةٍ وخِفَّة حركة، فقال للأصنام استهزاءً بها: ألا تأكلون الطَّعام الذي بين أيديكم؟ ما لكم عَجَزتم عن الكلام؟

٩٣ - فَمَالَ عليهم بخفَّة ونشاط، وجَعَل يضربها ضرباً قوياً بيده اليمنى، فكسَّرها إلا صنماً كبيراً منها.

٩٤ - ٩٦ - فأقبل قومه إلى إبراهيم يُسْرِعُون بعد ما أُخبروا بصنع إبراهيم بآلهتهم. قال لهم إبراهيم مُسْتنكراً فعلهم مُسَفِّهاً عقولهم: أتعبدون ما تَنْحتون بأيديكم من الأصنام؟ واللهُ خَلَقكم وخَلَق الذي تعملون بأيديكم من الأصنام التي تعبدونها، وهو الذي يجب أن تكون العبادة له.

٩٧ - وقال عُبَّاد الأصنام لبعضٍ لمَّا قرعتهم الحُجَّة: ابنُوا لأجله بنياناً، وامْلؤوه حَطَباً، وأَوْقدوا عليه، واطرحوه في النار الشديدة التأجُّج؛ ليكون عبرةً لِمَن يعتبر، ففعلوا.

٩٨ - فأرادوا بإبراهيم شرّاً، وبدعوته ما يُلغيها ويمنع انتشارها، فَجَعَلناهم المقهورين المغلوبين، إذْ سلَّم الله إبراهيمَ، وردَّ كَيْدَهم.

٩٩ - وقال إبراهيم لعشيرته الأقربين: إنّي مُهاجرٌ إلى أرض غير أرضكم، يختارها لي ربِّي، سَيَهْديني إلى حيث أمرني بالهجرة، وهي أرض الشام.

١٠٠، ١٠١ - ربِّ هَبْ لي ولداً من ذُرِّيتي يكون صالحاً من الصَّالحين، يبلغ أوان الحُلُم، فأَجَبْنا دعوتَهُ، وبشَّرناه بابن يتحلَّى بالعقل والأناة وضَبْط النفس، وقوَّة الإرادة، فولدت «هاجر» الغلامَ الحليمَ «إسماعيل».

١٠٢ - فلمَّا بلغ إسماعيلُ السِّنَّ التي يستطيع أن يسعى فيها مع أبيه في أعماله وحاجاته، ويُعينه في دعوته وجهاده. قال له: يا بُنيَّ إني أرى في المنام رؤيا تتكرَّر عليَّ وحياً من الله أني أذبحك، فانظر ماذا ترى أنت لنفسك؟ فقال إسماعيل لأبيه: افعل ما أُمرتَ به، سَتَجِدُني - إن شاء الله - من الصَّابرين، فلا حَوْل عن معصية الله تعالى إلا بعصمته، ولا قوَّة على طاعته إلا بتوفيقه.

فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾

١٠٣ ـ فلمَّا أسلم الأب والابن أمرهما لله عزَّ وجل، طاعة له، وامتثالاً لأمره، وألقى إبراهيمُ ابنَه إسماعيل على عُنقه وخدِّه، وجَعَل أحد جانبي جبهته على الأرض؛ ليذبحه، وقبض على مِقْبض سكينه لينفِّذ الأمر الربَّانيّ، تمَّ ابتلاؤهما واجتازاه بنجاح عظيم.

١٠٤ ـ وناديْنا إبراهيم: أنْ يا إبراهيم قد حَصَلَ المقصود من تلك الرؤية، حيثُ ظَهر منك كمال الطاعة والانقياد لأمر الله.

١٠٥ ـ إنا كما عَفَوْنا عن ذبح ولده، كذلك نجزي سائر المحسنين في طاعتنا، فنُخلِّصهم من الشدائد في الدنيا والآخرة.

١٠٦ ـ إنَّ هذا الامتحان الذي امتحنَّا به إبراهيم وإسماعيل، لهو الاخْتبار الظاهر الجليُّ، الذي أبان عن صدق إيمانهما واسْتِسْلامهما لله عزَّ وجل.

١٠٧ ـ واستنقذنا إسماعيل، فجعلنا بديلاً عنه كبشاً ضخم الجثة سميناً.

١٠٨ ـ وتركنا لإبراهيم ذكراً جميلاً، وثناءً حسناً، وتحيَّةً طيبةً يدعو بها المرسلون وأتباعهم.

١٠٩ ـ سَلامٌ وتحيَّةٌ وعافية وأمن، وبراءةٌ من كلِّ مكروه ونقص على إبراهيم، وهذا السلام على إبراهيم ومن قبله نوح، ومن بعده موسى وهارون وإلياس هو ثوابٌ تكريميٌّ مُعجَّل لهم في الدنيا، إذ شرع للمؤمنين أن يُحيُّوهم بالسلام كلَّما ذكروا أسماءهم.

١١٠، ١١١ ـ كَمَا جَزَيْنا إبراهيم على طاعته لنا، وامتثاله أمرنا، مثل هذا الجزاء نجزي سائر المُحسنين من عبادنا؛ إنَّه من عبادنا المؤمنين الكاملين في إيمانهم.

١١٢ ـ وبشَّرنا إبراهيم بولده «إسحاق» يأتيه من امرأته «سارة»، يكون هذا الولد نبياً من الصَّالحين؛ جزاءً لطاعته وصبره.

١١٣ ـ وأنعمنا على إبراهيم، وعلى ولده إسحاق بخيراتٍ كثيرات، وجعلنا ممَّن تناسل من ذُرِّيَّتهما مُحسِنٌ لنفسه بالإيمان والطاعة، وظالم لنفسه بالكفر بيِّن الكفر، فأفضلهم درجة أهل درجة الإحسان، وأحطُّهم دركة أهل الكفر، وسائرهم على درجات أو دَرَكات بين درجة المُحسن، ودركة الظالم لنفسه الواضح في انحطاطه إلى أسفل سافلين.

١١٤ ـ ١١٦ ـ ونُقسم مؤكِّدين لكم أننا أنعمنا على الأخوين موسى وهارون عليهما السلام بالنُّبوَّة والرسالة والنِّعَم الجِسَام، وخلَّصناهما وقومَهما بني إسرائيل من استعباد فرعون إيَّاهم، ونصرنا موسى وهارون وقومهما، بتنْجيتهم بفَلْق البحر لهم، وبإغراق فرعون وجيشه الذي خرج معه وراء بني إسرائيل، فكانوا هم الغالبين لأعدائهم القبْط دون أن يكون من بني إسرائيل قتالٌ لأعدائهم، ولا مواجهةٌ لهم بحرب أو دفاع.

١١٧، ١١٨ ـ وآتيْنا موسى وهارونَ عليهما السلام الكتابَ الظاهر الواضح وضوحاً شديداً، وهو كتاب التوراة الذي لا غموض فيه، ولا غَبَش عليه، ودلَّلْناهما إلى الطريق المستقيم الذي لا اعوجاج فيه، وهو الإسلام.

١١٩ ـ وأبقينا ثناءً حَسَناً عليهما وتحيَّةً طيِّبةً في الآخِرينَ الذين جاؤوا مِنْ بعدهما.

١٢٠ ـ تحيةٌ لموسى وهارون من عند الله، وثناءٌ ودعاءٌ لهما بالسلامة من كلِّ آفة.

١٢١، ١٢٢ ـ كما جَزَيْناهما الجزاءَ الحَسَن، نجزي مثلَ هذا الجزاء سائر المحسنين من عبادنا. إنَّهما من عبادنا المؤمنين الكاملين في إيمانهم.

١٢٣ ـ ونؤكِّد لكم ـ أيُّها المتلقُّون لآياتنا ـ إنَّ إلياس لَمِنَ المرسلين الذين أكرمناهم بالنبوَّة، وأرسلناهم هدايةً لأقوامهم.

١٢٤ ـ وضع في ذاكرتك ـ أيُّها المتلقِّي لآياتنا ـ حين قال إلياس لقومه من بني إسرائيل ـ وكانوا يعبدون صنماً ـ: ألا تخافون الله باتِّقاء عذابه؟

١٢٥، ١٢٦ ـ أتعبدون الصنم المُسمَّى «بعلاً»، وتتركون ـ مع إعراضٍ وإهمال ـ عبادةَ الله أحسنِ الخالقين المقدِّرين، الذي يُعطي أجزاء الشيء مقاديرها المناسبة لها، وتتركون اللَّهَ ربَّكم وربَّ آبائكم الماضين من قبلكم فلا تعبدونه؟ فهو سبحانه المُتصرِّف في كلِّ أموركم، الحقيقُ بالعبادة.

فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾
وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ
نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ وَإِنَّ لُوطًا
لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا
فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم
مُصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِاللَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ
الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ
مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَا أَنَّهُ
كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾
۞ فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً
مِنْ يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾
فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾ فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ
وَلَهُمُ الْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ
شَاهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ
اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾

الحزب ٤٦

١٢٧ ـ فكذَّب قومُ إلياس نبيَّهم، فإنَّهم بسبب كفرهم وتكذيبهم لَمُحْضَرون قهراً في النار يوم القيامة.

١٢٨ ـ إلا عبادَ الله الذين أخلصوا في إيمانهم وإسلامهم وعباداتهم، فجعلهم الله من المُخلَصين عنده، فإنَّهم ناجون من العذاب.

١٢٩ ـ ١٣١ ـ وجعلنا لإلياس ذكراً حَسَناً وتحيَّةً طيِّبةً على ألسنة مَنْ جاؤوا بعده، تحيةٌ من الله وثناءٌ على إلياس، وبراءة له من كلِّ نقص ومكروه، وكما جَزَيْنا إلياس الجزاءَ الحَسَن على طاعته، نجزي مثل هذا الجزاء سائر المُحسنين من عبادنا المؤمنين.

١٣٢ ـ إنَّ الياس من عبادنا المؤمنين الكاملين في إيمانهم.

١٣٣ ـ وإنَّ لوطاً لَمِنَ المرسلين الذين أرسلناهم لتبليغ رسالتنا.

١٣٤، ١٣٥ ـ ضَعْ في ذاكرتك ـ أيُّها المُتلقِّي ـ حين نَجَّيْنا لوطاً وأهلَه أجمعين من العذاب، إلا امرأته العجوز، فقد كانت بسبب كفرها من الماكثين في أرض قومها إذ أُهلكت وهي فيها، وكانت كذلك من الماضين الذاهبينَ المُهْلكين.

١٣٦ ـ وبعد أن أنجيْنا لوطاً وأهله إلا امرأته، وأوصلناهم إلى أرض آمنةٍ، أهلكنا هلاكَ استئصال الباقين المُكَذِّبين من قومه.

١٣٧، ١٣٨ ـ وإنكم ـ يا أهل مكة ـ لتمرُّون في أسفاركم إلى أرض الشام، على منازل قوم لوط وآثارهم في الأرض المشرفة على البحر الميِّت، وقتَ الصَّباح،، وتمرُّون عليهم بالليل قبل الفجر. أفلا تعتبرون بهم، وتَضْبطوا أهواءكم وشهواتكم بإرادة حازمة عن الشرود إلى مهاوي الهلاك.

١٣٩ ـ ١٤١ ـ وإنَّ من جملة رسل الله تعالى يونس، إذ هَرَب من قومه من غير أمر ربِّه، راغباً في العودة إلى منازل أهله في فلسطين، وتوجَّه جهة ساحل البحر، وركب سفينة مملوءةً ركاباً وأمتعة، وأحاطت بها الأمواج العظيمة، وخاف أهل السفينة على أنفسهم من الغَرق، فقرَّروا أن يُجْروا قُرعة لإسقاط مَنْ تقع القُرعة عليه في البحر، فشارك في القرعة بالسِّهام، فخرجت القرعة على يونس، فكان من المُزْلَقين عن السفينة بمقتضى القُرعة التي أجْرَوْها.

١٤٢ ـ فأُلقيَ في البحر، فوضعه الحوت في جوف فمه كأنَّه لقمة من طعام، وهو آتٍ بما يُلام عليه من قبل ربِّه عزَّ وجل؛ لأنه ترك قومه دون إذن له بذلك.

١٤٣، ١٤٤ ـ فلولا أنَّ يونُس كان في جوف فم الحوت من المُنزِّهين لِلَّهِ تعالى، المُواظبين على ذكره، لأَكله الحوت وهَضَمه، وصار بطن الحوت قبراً له إلىٰ يوم القيامة.

١٤٥، ١٤٦ ـ فأمرنا الحوت بطرحه في الفضاء الواسع من الأرض، على شطِّ النهر، قُرب «نينوىٰ» من أرض المَوْصل، وهو عليلٌ، وأَنبتنا عليه شَجَرةً من القَرع، تمتدُّ على وَجْهِ الأرض، فغطَّتْهُ وظلَّلَتْهُ أوراقها، وَوَقَتْهُ غَوائلَ الجوِّ.

١٤٧، ١٤٨ ـ حتى إذا صَحَّ ممَّا أصابه، أرسلناه إرسالاً جديداً إلى مائة ألف من أهل «نينوى»، بل يزيدون، فوجد قومه قد آمنوا وأسلموا، منتظرين عودةَ رسولهم، ليأتمروا بأمره ويتَّبعوه، فلبث فيهم يُعلِّمهم ويُرشدهم إلى صراط الله المستقيم، ومتَّع الله أهل «نينوىٰ» مدَّة إقامة يونس فيهم، ومتَّعهم بعده فيها آمنين مطمئنين حتى إذا أفسدوا بعد ذلك سلَّط الله عليهم مُهلكاتٍ أهلكتهم ودمَّرت مدينتهم.

١٤٩ ـ فَسَلْ ـ يا رسول الله ـ كفارَ مكة توبيخاً لهم: أَجَعَلوا لِلهِ أولاداً انفصلوا منه، وجعلوا هؤلاء الأولاد من صنف البنات اللاتي يكرهونهُنَّ، ولأنفسهم البنين الذين يريدونهم؟

١٥٠ ـ ١٥٢ ـ واسألهم: أخلقنا الملائكة إناثاً، وهم حاضرون يُشاهدون بأعينهم خَلْقنا إيَّاهم، فرأوا أنهم إناث؟! انتبه وتحقَّق ـ أيُّها المؤمن المناظر لهؤلاء ـ إنَّهم من كذبهم على الله ليقولون: وَلَدَ اللَّهُ، وإنَّهم لكاذبون فيما زعموا.

١٥٣ ـ أختار لنفسه البنات المكروهة في زعمكم على البنين المحبوبة منكم، وهو الخالقُ للبنين والبنات، الغنيُّ بذاته عن أن يكون له أولاد؟

مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾ وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٢﴾

سُورَةُ ص

ترتيبها ٣٨ — آياتها ٨٨

١٥٤، ١٥٥ ـ أيُّ شيءٍ هو حُجَّة لكم من دليل عقليّ، يُسوِّغ لكم أن تزعموا أنَّ ربَّكم أنجبَ ولداً من نَسْله، أو تبنَّى ولداً؟! أفتستمرُّون على التزام هذا الحكم الباطل، فلا تضعون موازين الحقّ في ذاكرتكم؛ لتهديكم إلى الإيمان.

١٥٦، ١٥٧ ـ بل ألكم حُجَّةٌ واضحة، جاءت في كتاب مُنَزَّلٍ من عند الله ربِّكم، وفيها إثبات أنَّ الملائكة بناتُ الله بالنَّسب أو بالتبنّي؟ فأْتوا بكتابكم الذي لكم فيه حُجَّةٌ إنْ كنتم صادقين في هذا الادِّعاء؟

١٥٨ ـ وجَعَل المشركون بين الله تعالى وبين سادات الجنِّ قَرابةً ونَسَباً بزعمهم؛ إذ زعموا أن الله سبحانه قد تزوّج نساءً من سَرَوات الجنِّ، فأنجب منهنَّ الملائكة، فالملائكة ذوو نسب متَّصل بالله ناتج عن مُصاهرةِ الله لأشرافٍ من الجن؟! ولقد علم الجنُّ أنهم عبيدٌ لله مُمْتَحنون في الحياة الدنيا، وأنهم مُحْضَرون يوم القيامة إلى المحكمة الربَّانيَّة، فليس أحدٌ منهم ولا من ذَراريهم أولاداً لله؛ إذ لو كان بعضُ ذراريهم من نسل الله، لكان فيهم جُزءٌ من ربوبيَّة الله، ومَنْ له ربوبيَّة ما لا يخضع لحساب وجزاء.

١٥٩، ١٦٠ ـ تنزَّه الله عن كلِّ ما لا يليقُ به ممَّا يصفُه الكافرون، باستثناءِ عبادِ اللَّهِ المُخْلَصين من النبيين والملائكة والمؤمنين الذين حكم الله لهم بأنهم بريئون من وصفِ اللهِ عزَّ وجلَّ بما لا يليق به.

١٦١ ـ ١٦٣ ـ فإنَّكم ـ أيُّها المشركون ـ مع ما تعبدونَ من دون ربِّكم، ما أنتم حالة كونكم ثابتين على شرككم بمُضلِّين أحداً بإغوائكم، إضْلالَ تسلُّط وإكراه ليعتقد معتقداتكم الباطلة، لكن مَنْ استجاب لكم بإرادته الحرة، اتِّباعاً لأهوائه وشهواته، فإنه صائرٌ إلى عذاب الحريق في الجحيم.

١٦٤ ـ ١٦٦ ـ قالت الملائكة: وما منَّا ـ مَعشرَ الملائكة ـ مَلَكٌ إلا له مقامٌ في السماء معلومٌ يعبدُ ربَّه فيه، لا يتجاوزه. وإنا لنحن الصَّافُّونَ أقدامَنا في عبادةِ الله تعالى، وإنَّا لنحن المُنَزِّهونَ الله تعالى عن كلِّ ما لا يليق بذاته وصفاته وأفعاله.

١٦٧ ـ ١٦٩ ـ وقد كان كفارُ مكة ليقولون قبل بعثة النبيِّ ﷺ: لو أنَّ عندنا كتاباً ربانياً موروثاً من الرسل الأوَّلين، وبقي لدينا ذكراً نرجع إليه في عقائدنا ومناهج سلوكنا، لاتَّبعنا آياتِهِ وتعليماته، ولأخلصنا الإيمان والعبادة لله، فجعلنا عنده من المُخْلَصين.

١٧٠ ـ فلمَّا جاءهم القرآن ذكراً عظيماً للعالمين، كفروا به، وكذَّبوا رسول ربِّهم، فسوف يعلمون ما لهُم من العذاب في الآخرة.

١٧١ ـ ١٧٣ ـ ونقسم مؤكِّدين أنه سبقت كلمتنا المُعبِّرة عن تقديرنا وقضائنا، لأجل عبادنا المرسَلين، وجندِنا المؤمنين، إنَّ رُسُلَنا لهم المنصورون بنصرٍ منَّا في آخر صراعاتهم لأقوامهم، مهما نالتهم في مسيراتهم معهم من أذىً وهزائم جزئيَّةٍ مُؤَقَّتة، وإنَّ جندنا الذين يقاتلون أحزاب الكُفر صادقين، ضمن وصايانا وتعليماتنا، والتي منها أخذهم بالأسباب الماديَّة والمعنويَّة، لهم الغالبون أخيراً في معارك القتال، مهما كان بين البدايات والنهايات من فرٍّ وكرٍّ، وبعض هزائم لجند الله.

١٧٤، ١٧٥ ـ فابتعد ـ يا رسول الله ـ عمَّن عانَدَ، ولا تَشْغَل وقْتَك وطاقاتِك بمعالجتهم ليؤمنوا، حتى وقتٍ تقتضي الحكمة أن تواجههم بقتالٍ أنت ومَنْ معك من المؤمنين، ولا تكن غافلاً عنهم، بل ضعهم تحت ملاحظتك الدائمة ببصرك، لتكون على علم بما يُدبِّرون ضدَّك، وضدَّ الذين آمنوا بك واتَّبعوك، فسوف يُبْصرون في الدنيا كيف ننصرك عليهم، وسوف يُبصرون يوم القيامة عاقبتهمُ الوخيمة.

١٧٦، ١٧٧ ـ أَفَبِنُزولِ عذابِنا يستعجلون؟ فإذا نَزَل العذابُ بساحتهم، محيطاً بهم من كلِّ جهاتهم، وغامراً لهم، فَبِئْسَ صَباحُ الكافرين، المصحوبُ بعذابِ شديدِ الإيلام والخِزْي.

١٧٨، ١٧٩ ـ ولازم الموقفَ الذي أوصيناك به ـ يا رسول الله ـ، وابتعد عن أقوال أئمة الكفر الاستهزائية، ووجِّه طاقاتك لدعوة غير الميؤوس من استجابتهم حتى يأذَنَ الله بعذابهم، مع شدّة مراقبتك لهم ببصرك، فسوف يُبصرون عاقبَتَهُمُ الوَخيمة، آجلاً وعاجلاً.

١٨٠ ـ ١٨٢ ـ تنزَّه ربُّك ربُّ القوة الغالبة والقُدرة العظيمة عمَّا يَصِفه هؤلاء المُفْترون من اتِّخاذ الشُّركاء والأولاد، وممَّا لا يليق بذاته، وصفاته، وأفعاله، وتدبيراته، وقضائه وقدره، وتحيَّةُ احترام وتوقيرٍ وتكريم على المُرسلينَ الذين بَلَّغوا عن اللهِ عزَّ وجلَّ التوحيد والشرائع، ونصَحُوا أقوامهم، وجاهدوا في الله حقَّ جهاده، والثناء الكامل، والشكر الدائم للَّهِ خالقِ العالمين، ومالكهم، ورازقهم، ومُربِّيهم، ومُصلحهم، فهو سبحانه المستحقُّ للحمد لكمالاته الذاتيَّة المُطْلقة، ولأنه المحسن المُتَفَضِّل علـى كافَّة الخلق.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

صٓ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴿١﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾ وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ ﴿٧﴾ أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ ﴿٨﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُم مُّلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ ﴿١٠﴾ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الْأَحْزَابِ ﴿١١﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لْـَٔيْكَةِ ۚ أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ وَمَا يَنظُرُ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴿١٦﴾

١ - ﴿صٓ﴾ سَبَق الكلام على الحروف المقطَّعة في أوَّل سورة البقرة. يُقْسِمُ الله سبحانه بالقرآن ذي الشَّرف والشأن العظيم، المتَّصف بأنه يستحقُّ أن يكون ذِكراً للعالمين في الألسنة والقلوب والعقول في كلِّ زمان ومكان؛ ليستنبطوا معانيه، ويعملوا بأحكامه ووصاياه.

٢ - ولكنَّ الكافرين من أهل مكة السَّاترين لأدلَّة الإيمان وشواهد الحقّ التي ظهرت لهم في حميَّةٍ جاهليَّةٍ وتكبُّرٍ عن قَبول الحق، وخلافٍ وعداوةٍ لمحمد ﷺ ووقوف في شِقِّ المعادي المحارب.

٣ - كثيراً ما أهلكنا من قبلهم من كفار الأمم الخالية، مقترنين في زمن واحد، فاستغاثوا عند نزول العذاب وحلول النقمة، وليس الوقت وقت فرار وخلاص.

٤ - وَعَجِبَ كفَّار مكة أنْ جاءهم مُنذرٌ بشرٌ منهم، يُخوِّفهم عذاب الله بعد أن بلَّغهم وبيَّن لهم، وأقام لهم الحُجج والبراهين، وقال أئمة الشرك والكفر المعاندون المُصرُّون على كفرهم الساترون لأدلة الحق وبراهينه الواضحة: هذا ساحرٌ مُمَوِّهٌ شديد الكذب.

٥ - أَجَعَلَ محمدٌ الآلهةَ المُتَعَدِّدة إلهاً واحداً؟ إنَّ هذا الذي جاء به ودعا إليه لشيءٌ يُتَعَجَّب منه أشدّ العجب!!.

٦ - وذهب رؤساء القوم وكبراؤهم من مجلسهم مُسْرعين، يقولُ بعضهم لبعض: امْضُوا على طريقة آبائكم، واثبتُوا صابرين على عبادة آلهتكم المُتعدِّدة، ولا تتأثَّروا بما جاء به محمد من دعوةٍ إلى التوحيد، ونَبْذ عبادة الأصنام، إنَّ ما جاء به هذا الرسول شيءٌ مُدبَّر يَقْصِد منه الرئاسة والمُلك.

٧ - ما سمعنا بهذا الذي يقوله محمَّدٌ - من التوحيد - في ملَّة النصرانيَّة التي هي آخر الملل، ما هذا الذي جاء به محمد إلا كَذِبٌ وافتعال.

٨ - أَخُصَّ محمَّدٌ من بيننا بشرف نزول القرآن عليه، وليس بأكبرنا ولا أشرفنا؟ فلْينظروا مُتدبِّرين هذا القرآن الذي يبلِّغهم إيَّاه، بل هم في شكٍّ من بياني الذي يجب عليهم أن يذكروه، ليحقِّقوا مطلوباتي منهم في رحلة امتحاني لهم، وإنَّ ما في القرآن من إنذار بعذابي - إن لم يؤمنوا - كافٍ لإيقاظهم من غَفَلاتهم، بل هم أشد من أن يكفيهم الإنذار؛ لأنَّهم لم يذوقوا عذابي، وإن زمن إنزال العذاب فيهم قد صار وشيكاً.

٩ - بل أيملكون خزائنَ رحمة ربِّك العزيز في ملكه، الوهَّاب الذي وَهَبَ النبوَّة لمحمد ﷺ، حتى يُعطوا مفاتيح النبوَّة لِمَنْ شاؤوا ويصرفوها عمَّن شاؤوا؟

١٠ - بل ألهؤلاء المشركين مُلْكُ السَّموات والأرض وما بينهما؟ ليس لهم ذلك، فإن ادَّعوا شيئاً من ذلك، فليصعدوا في الأسباب التي تُوصلهم إلى السماء؛ ليأتوا منها بالوحي إلى من يختارون.

١١ - هؤلاء الذين يقولون هذا القول: جُنْدٌ مغلوبون في مواجهات قتاليَّة قادمة، من جملة أحزاب الكفر ذوي المذاهب المتفرِّقة، والتكتُّلات المختلفات، وقد تحقَّق فيما بعد انهزام جند كفار قريش في غزوة بدر، والأحزاب، وفتح مكة. وهذا الخبر من معجزات القرآن الخبريَّة التي أخبر الله عزَّ وجلّ عنها فيه، وتحقَّقت كما جاء في خبره.

١٢، ١٣ - كذَّبت قبل هؤلاء: قومُ نوح، وعاد، وفرعون - ذو البناء المُحكم والمُلك الشَّديد الثابت - وثمود، وقوم لوط، وأصحاب الشجر الكثير الملتف، وهم قوم شعيب. أولئك الأمم الذين تحزَّبوا على الأنبياء، ومشركو قريش حزبٌ من أولئك الأحزاب.

١٤ - ما كلُّ حزب منهم إلا هو حزب كذَّب رسوله وكذَّب سائر الرسل، فجرَّه تكذيبُه إلى قبائح وشرور وفساد في الأرض، فوَجَبَ عليهم العذاب، وصار أمراً واقعاً، لأنهم استحقُّوه، فكيف حال هؤلاء الضعفاء المساكين إذا نزلَ بهم؟

١٥ - وما ينتظر كفَّار مكة - لحلول العذاب عليهم إن بقوا على شركهم - إلا صَيْحةً واحدةً تهلكهم، ما لهذه الصيحة من مُهلة، بين انطلاقها وإهلاكهم.

١٦ - وقالوا استهزاء بما أُنذروا به من عقاب في الدنيا: ربَّنا عجِّل لنا حظَّنا ونصيبنا من العذاب في الدنيا قبل يوم الحساب.

اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ ۖ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ ﴿٢٠﴾ ۞ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٢٥﴾ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴿٢٦﴾

١٧ ـ اصبر ـ يا رسول الله ـ على ما يقول الكفار بشأنك مما تكره، واضْبُط نفسك عن مُقابلة أقوالهم بمثلها، أو بأشدَّ منها، واضبط نفسك عن إظهار الغضب والتأثُّر والانفعال منها، وعن التحرك العملي للمقاومة بوسائل القوة الماديَّة، قبل الاستعداد المكافىء لهذه المواجهات، واذكر عبدنا داودَ الذي صدق في عبوديَّته لنا، مُسْتشعراً عظمة ربوبيَّتنا، صاحب القوَّة الجسديَّة النادرة، والنفسيَّة الفائقة؛ إنه كثير الرجوع إلى مراقبة الله عزَّ وجلّ وذكره وطاعته، كلَّما ابتعد عن ذلك ولو ابتعاداً قليلاً.

١٨، ١٩ ـ إنا ذلَّلنا الجبالَ مع داود يُسَبِّحنَ الله بتسبيحه إذا سبَّح في آخر النهار من العصر إلى غروب الشمس، وبعد شروق الشمس، أول وقت الضُّحى، وسخَّرنا له الطير مجموعةً إليه، تُسبِّح معه، كلٌّ من الجبال والطير رجَّاعٌ إلى طاعته، مطيعٌ له بالتسبيح معه.

٢٠ ـ ومننَّا عليه بثلاث مِنن أخرى، غير منَّتي تسخير الجبال، وحَشْر الطير: **المنَّة الأولى**: قوَّينا مُلكه بأسباب القوة كلِّها، بمنحه الهيبةَ وقوة السلطان، والجند والأنصار، وبخَذْل أعدائه وخصومه، **والمنَّة الثانية**: آتيناهُ النبوَّة والإصابة في الأمور، وحُسن الإدارة والسياسة في ملكه، والحكم بالحق والعدل، **والمنَّة الثالثة**: آتيناهُ الكلام البليغ، الفاصل في القضايا والأحكام.

٢١ ـ وهل جاءك ـ يا رسول الله ويا كلَّ مُتَلَقٍّ لآياتِ اللّـهِ ـ خبرُ الخَصْمَيْن البارز ذو الأهمية اللَّذين تسوَّرا على داود في مكان عبادته؟

٢٢ ـ حين دخلوا على داود، فخافَ منهما حين هَجَما عليه في محرابه بغير إذنه، وهو في خَلْوته واستغراقه في عباداته ومناجاته لربِّه، ولم يكن يقتحم عليه خلوته أحد، إذ كان يمنع من ذلك، ويأمر حُرَّاسه بأن لا يأذنوا لأحد بالدخول عليه، وسَبَق إلى ظنِّه أنهم يريدون به شراً، قالوا له: لا داعيَ للخوف، فإننا لم ندخل عليك بشرٍّ أو ضُرٍّ أو أذى، نحن خَصمان تعدَّى بعضُنا على بعض، وخرج عن حدِّه، جئناك لتقضيَ بيننا، فاحكُم بيننا بالحقِّ، ولا تَتجاوز الحقَّ في حُكمك، وأرشدنا إلى طريق الحقِّ والصَّواب.

٢٣ ـ قال المُدَّعي من الخَصْمَيْن الذي يشكو خصمه: إنَّ هذا أخي على ديني وطريقتي، له تسعٌ وتسعون من النِّعاج، وليس لي إلا نعجة واحدة، فلم ينظر إلى غناه عنها، ولا إلى افتقاري إليها، فقال لي أخي هذا: اجعلها تحت كفالتي، ضمن حظيرة نعاجي، وتنازل عنها، إذ ليس لديك استعدادات لرعايتها وحمايتها، والقيام بما تحتاج إليه، أما أنا فعندي كلُّ الوسائل لذلك، وغلبني وقَهَرني في القول، فلم أملك إلا أن أوافق، وأنا مضطرٌّ مغلوب.

٢٤ ـ قال داود ـ بعد أن تثبَّت من أنَّ صاحب النعجة الواحدة هو صاحب الحق: لقد ظلمك أخوك بسؤاله نعجَتِكَ ضاماً لها إلى نعاجه، مع حاجتك الشديدة لها، وغناه هو عنها، وإنَّ كثيراً من الشُّركاء ليعتدي بعضهم على بعض، فيظلمه في حقوقه، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فإنهم لا يظلمون أحداً وهم قليل جداً. وظنَّ داود ظنّاً قوياً راجحاً أنَّما ابتلَيْناهُ وامتحنَّاه بهذه الخصومة، وأنَّ الذين دخلوا عليه هم ملائكة جاؤوا على صورة بشريَّة، وأن الله عزَّ وجلّ لم يُرسلهم إلا لتذكيره بفشوِّ التعدِّي والظلم والبغي في المجتمع، مما يستوجب دوام الجلوس إليهم، وفضِّ النزاع بينهم، والأخذ على يد الباغي، ورد المظالم إلى أهلها، لا أن يتخلَّى عن ذلك كله، ويعمد إلى محرابه يتعبَّد، ولكأن الملكَيْن يقولان له: ما دمت تعلم من حال قومك، وطبيعة الخلطاء فيهم كل ذلك، فلم تركتهم في بغيهم وظلمهم، واعتكفت عنهم؟ في الوقت الذي أعطاك الله الحكمة، وفصل الخطاب، وجعلك خليفة للناس، فاخرج إلى الناس، واحكم بينهم بالحق، فهو أحبُّ إلى الله، وهو منصبك الذي وضعك الله فيه، فسأل ربَّه الغفران، وأسرع في الهُوِيِّ للركوع دون بُطء، وَرَجع إلى ربِّه بصدق التوبة والندم، والسجود له سبحانه.

٢٥ ـ فغفرنا له ذلك الذي كان منه، من إيثاره الاعتكاف والعبادة في محرابه، واحتجابه بالحراس الأشداء عن فضِّ المنازعات وسياسة الحكم، لأن اعتكافه في محرابه قاصرٌ على نفسه، أما جلوسه للحكم فهو لرفع الظلم، وإقرار العدل، ولمصلحة الأمة، فهم أحوج ما يكونون ليوم اعتكافه بضمِّه ليوم حكومته، وإنَّ له عندنا يوم القيامة بعد المغفرة لَقُربة ومكانةً، وحُسْنَ مَرجع ومُنْقَلب في جنَّات النعيم.

٢٦ ـ يا داود إنا جعلناك حاكماً في الأرض ذا سلطان مُعَانٍ مُؤيَّد بتأييد الله، لتُدبِّر أمر الناس بأمرٍ نافذ الحكم فيهم، فاحكم بين الناس بالعدل والإنصاف، وإعطاء كلِّ ذي حق حقَّه، ولا تمل مع ما تشتهي نفسك إذا خالف أمر الله، فَيُضِلَّك ذلك عن دين الله وطريقه، إنَّ الذين يَضِلُّون عن سبيل الله، ويخرجون عن حدوده ذات اليمين وذات الشمال لهم عذابٌ شديدٌ عند ربِّهم؛ بسبب تركهم الإيمان بيوم الحساب، والعمل له. وقد دلَّت الآية الكريمة على إلزام والتزام ولاة أمور المسلمين أن يحكموا بالحقِّ بين الناس، بما أنزل الله في =

وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًاۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾ وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّيٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَيَّۖ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾

= كتابه، وبسنة نبيِّه ﷺ ولا يعدلوا عن ذلك فيضلوا عن سبيل الله، وإذا كان الله تعالى حذَّر نبيَّه داود عليه السلام من الحيْدة عن الحكم بالحقِّ، وعن اتِّباع الهوى في حكمه بين الناس وفي سياسته لهم، وتوعَّده إن فعل ذلك، فهم ـ أي ولاة الأمر ـ أوْلى بهذا التحذير من داود عليه السلام. وإن من أعظم ما تُبتلى به الأمة أن يتولى حكمها حكام جائرون، أو عن الحقِّ ناكبون، ولأهوائهم متَّبعون؛ لأن بحكم هؤلاء يعظم ضررهم وإضرارهم بالناس، ويُفضي ذلك إلى خراب البلاد، وإشاعة الفساد؛ ثم هلاك الأمة. ومن أعظم ما تسعد به الأمة أن يتولى حكمها: الحكام الصالحون الذين يحكمون بالعدل والحق.

٢٧ ـ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما من إنس وجنٍّ وملائكة وحيوان ونبات وغير ذلك باطلاً، دون قصْد حكيم، وغاية حكيمة، ولو لم يكن بعد الحياة الدنيا حياة أخرى يجري فيها الحساب والجزاء، وإقامة العدل الربّاني، لكان خلق السماء والأرض عَبَثاً، والخالق الحكيم مُنزَّهٌ عن العبث واللهو واللعب. ذلك ظنُّ الذين كفروا، أنا خلقناهم لغير شيء، وأنه لا بعثَ ولا حسابَ، فعذابٌ شديدٌ للَّذين كفروا من النار؛ لظنِّهم الباطل، وكفرهم بالله.

٢٨ ـ بل أنجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالكفرة المفسدين في الأرض، بل أنجعل الذين اتَّقوا عقاب ربِّهم، كالفُجّار المُنْبعثين في ارتكاب الجرائم والآثام؟ لا نجعل الفريقين سواء في الآخرة.

٢٩ ـ هذا القرآن أنزلناه إليك ـ يا رسول الله ـ كثيرٌ خَيْرُهُ ونفعُهُ، لا تنْضب فيوض معانيه، ليتدبَّروا آياته، ويفهموا بعُمْق ما اشتملت عليه من دلالات، وليتفكَّروا في أسراره العجيبة، ومعانيه اللطيفة، لا ليهجروه، أو يكتفوا بترديده دون فهم وعمل، وليتَّعظ ذوو العقول الحصيفة الواعية الدرَّاكة، وليعملوا بتوجيهاته ونصائحه وأوامره ونواهيه، عند كلِّ سلوك يريدونه في حياتهم.

٣٠ ـ وأعطينا لداود ابنه سليمانَ عطية خالية من الأعواض والأغراض، نِعمَ العبدُ سليمان؛ إنَّه كثير الرجوع إلى الله تعالى بالاستغفار والتوبة وذكر الله تعالى، كلَّما شغلته شواغل المُلك والسلطان، أو تعرَّض لما لا يليق بمقام نبوَّته ورسالته، ممَّا قد يُبْعده عن مقام قرب المقرَّبين المحسنين.

٣١، ٣٢ ـ نعْمَ العبدُ سُليمان حين عُرِضَ عليه بعد العصر الخيولُ الخيارُ السِّراع، القائمة على ثلاث قوائم، مقيمةً الرابعة على طرف الحافر من رِجْل أو يد، فما زالت تُعرض عليه حتى اسْتَتَر آخر أرتالها عن نظره، فقال: إني أحببْتُ اقْتناءَ الخيل، وتدريبَها، واستعراضَها حباً ناشئاً عن ذكر ربِّي، لا عن انشغال بمباهج الحياة وزينتها حتى اسْتَترت بالحجاب الساتر لها.

٣٣ ـ قال سليمان لأمراء سَاسَة الخيل: ردُّوا الخيْل عليَّ، فشرع في تواضع كريم يمسحُ بيده سُوقَها وأعناقها؛ ترفُّقاً بها وحُباً لها؛ لأنها من أعظم عُدَد الجهاد في سبيل الله.

٣٤، ٣٥ ـ ونقسم مؤكدين أننا اختبرنا سُليمان وابْتليناه، وألقينا على سرير ملكه شِقَّ ولدٍ له، حين أقسم ليطُوفَنَّ على نسائه، وكلُّهُنَّ تأتي بفارس يجاهد في سبيل الله، ولم يقل: إنْ شاء الله، فطاف عليهنَّ جميعاً، فلم تحمل منهنَّ إلا امرأة واحدة جاءت بشقِّ ولد، ثم رجع سليمان إلى ربِّه ليحافظ على كمال مرتبة المحسنين المقرَّبين، قال: ربِّ اغفِر لي ذنبي، وهَبْ لي مُلكاً عظيماً لا يكون لأحدٍ من البشر بعدي، ولا أسلبه في حياتي؛ إنَّك أنت الكثير العطاء.

٣٦ ـ فذلَّلنا لسليمان الريحَ، تجري بأمره ليِّنةً لا تزعج ولا تؤذي، حيث قَصَدَ وأراد.

٣٧، ٣٨ ـ وسخَّرنا له شياطين الجن بسُلطان جعلناه له عليهم، يبنون له ما يشاء من القصور والقلاع الحصينة، ويستخرجون اللآلىء من البحر، وسخَّرنا له آخرين، وجَعَلنا له سلطاناً على العصاة منهم، فهم مشدودون فرادى أو مجتمعين في السلاسل والأغلال، يؤدبهم بالإذلال والتعذيب. وهم من مَرَدَة الجن.

٣٩، ٤٠ ـ قال الله عزَّ وجلَّ لسليمان عليه السلام: هذا الملك العظيم والتسخير الخاص، عطاؤنا لك ـ يا سليمان ـ، فأحسن إلى مَنْ شئت، أو أمسك عمَّن شئت، لاحَرَج عليك فيما أعطيت ولا فيما أمسكت. وإنَّ لسليمان عندنا يوم القيامة لقُربةً ومكانةً، وحُسْنَ مرجع ومُنْقَلب في جنَّات النعيم.

٤١، ٤٢ ـ وضع في ذاكرتك قصة عبدنا أيوب، حين دَعَا ربَّه طالباً منه الشفاء: أنّي أصابني الشَّيطان بمشقَّةٍ وضُرٍّ، ومُؤلمات جسديّة ونفسيّة، وقد زادَتْ وساوسُ الشيطان من جرَّاء طول المرض، وضاعفت هذه الوساوس من متاعبي وآلامي، فقلنا له فوْرَ ندائه: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾: اضْرب برجْلك الأرض، تتفجَّر لك عين ماء عَذْب بارد، فاغتسِل بهذا الماء واشْرَب منه، يذهب عنك كل داء.

وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ هَٰذَا ذِكْرٌ ۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ ۞ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾ هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُواْ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُواْ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾

٤٣، ٤٤ ـ وَوَهبنا له أهلَه من زوجة وولد، وزدناه مثلهم بنين وحَفَدة، فعلنا ذلك معه على سبيل التفضُّل والرحمة، وذكرى وعبرة لذوي العقول والبصائر؛ ليعلموا أنَّ عاقبة الصبر والشكر، الفرجُ وكشف الضر، وقلنا له: خُذْ بملء كفِّك حُزْمة من عيدان الأرض الرفيعة، فاضرب بها زوجك دون أن تؤذيها، إبراراً بيمينك، وكان قد حلَف أن يضرب امرأته مائة سَوْط، فشكَرَ الله حُسْنَ صبرها معه، فأفتاه في ضربها، وسهَّل له الأمر، إنَّا وجدنا أيوب صابراً على البلاء الذي ابتليناه به، نِعمَ العبدُ أيوب؛ إنه كثير الرجوع إلى طاعة الله تعالى بالاستغفار والتوبة وذكر الله عزَّ وجلَّ.

٤٥ ـ واذكر ـ يا رسول الله ـ للتأسِّي والاتِّباع عبادنا: **إبراهيم وإسحاق ويعقوب**؛ أصحاب القوَّة والمجاهدة في طاعة الله تعالى، والإحسان إلى عباد الله، وأصحاب الأبصار الدرَّاكة الواعية النافذة لمعرفة حقيقة الحياة الدنيا، ووظيفة الإنسان فيها، وحقيقة الدار الآخرة، وواجب الإنسان نحوها.

٤٦، ٤٧ ـ إنَّا بعظمة ربوبيَّتنا نقَّيْناهم واصْطَفَيْناهم بسبب صفةٍ خالصةٍ فيهم من المُؤثِّرات الدنيويَّة التي تُخرج عن مراضي الله والعمل للدرجات الرفيعة في جنَّات النعيم، هذه الصفة الخالصة فيهم هي ذكرى الدار الآخرة دواماً، وإنَّهم عندنا لَمِنَ الذين اتَّخذناهم صفوةً لمنازل القُرب ورفيع المراتب والدرجات، وإنَّهم عندنا لَمِنَ الأخيار، الذين اكتسبوا بأعمالهم الظاهرة والباطنة الاختياريَّة خيريَّة كبرى. وهذا أعظم تقويم منحه الله عزَّ وجلَّ لزمرة من عباده المرسلين، وفيه إلماحٌ ضمنيٌّ لخاتم المرسلين أن يختار طريقة هؤلاء، لا طريقة أصحاب المُلك والغنى من متاع الحياة الدنيا، ولو كانوا مرسلين. وقد آثر ﷺ نموذج: «إبراهيم وإسحاق ويعقوب»، وجعل ذكرى الدار الآخرة أكبر همِّه، واختار ﷺ لنفسه أن يكون عبداً رسولاً.

٤٨ ـ واذكر ـ يا رسول الله ـ عبادَنا وأنبياءنا: إسماعيل الابن الأكبر لإبراهيم، واليَسَع، وذا الكِفْل عليهم السلام، اذكرهم بفضلهم وصبرهم؛ لتسلك طريقَهم، وكلُّهم من الأخيار، ولكنهم لم يرتقوا في تقويم درجتهم إلى أنهم من «المصْطَفين» من درجة صنف: «إبراهيم وإسحاق ويعقوب» عليهم السلام.

٤٩ ـ ٥١ ـ هذا القرآنُ الذي يُتْلى عليكم ذكْرٌ وشرفٌ لكم، يجب أن يكون حاضراً في ذاكرتكم، للانتفاع به، ولاستدعائه عند المناسبات الداعيات، وإنَّ للمُتَّقين لَحُسْنَ مَرجع ومُنقلب يرجعون وينقلبون إليه في الآخرة. أعدَّ لهم جنَّات إقامة وخلود، إذا جاؤوها وجدوا أبوابها مُفتَّحةً لهم من قبل وصولهم إليها، تكريماً لهم بالاستقبال الحسن، متَّكئين فيها على الأرائك والسُّرُر، يطلبون في جنات عدن ما يشتهون من الفواكه الكثيرة الأنواع والشَّراب النفيس، من كلِّ ما تشتهيه نفوسهم، وتلذُّه أعينهم.

٥٢ ـ وعندهم في الجنَّة نساءٌ عفيفات قاصراتٌ نظرهنَّ على أزواجهنَّ، فلا يَنْظُرنَ إلى غيرهم؛ لشدَّة محبتهنَّ لهم، مُتساويات في السنِّ والشباب، ومُتشابهات في الحُسْن.

٥٣، ٥٤ ـ هذا النعيم هو ما تُوعَدون به ـ أيُّها المتَّقون ـ مؤجَّلاً ليوم القيامة، إنَّ هذا لَرِزْقُنا، ما له من انقطاع وفناءٍ أبداً، بل هو دائم كُلَّما أُخذ منه شيءٌ عاد مثله في مكانه.

٥٥، ٥٦ ـ هذا الذي سَبَق وصفُه للمتَّقين، وأما المُتجاوزون الحدَّ في الكفر والمعاصي، فلهم شرُّ مرجع يرجعون إليه: جهنَّم يدخلونها، ويُقاسون حرَّها، فَبِئْسَ الفراشُ فراشهم.

٥٧ ـ ٥٩ ـ هذا العذاب ماءٌ حارٌّ، وصديدٌ يسيل من جلود أهل النار، فَلْيذوقوه مَجْبورين مُكْرَهين، وآخرُ من مثل هذا العذاب في الشِّدة والفظاعة: أصناف وأجناس. تقول خزنة جهنَّم: هذا جَمْعٌ كثير من أتباعكم في الضلال داخلٌ معكم النار كما دخلتموها أيُّها القادة، فيجيب القادة: لا نريد أن يكونوا شركاءنا في مُستقرَّات عذابنا؛ إنهم معذَّبون بعذاب الحريق في النار بأسباب من أنفسهم.

٦٠، ٦١ ـ قال فوج الأتباع للقادة: بل أنتم لا مرحباً بكم؛ لأنكم بدأتم بالكفر قبلنا، وشرعتموه لنا، فأنتم بإغوائكم وإضلالكم قدَّمتم هذا العذاب لنا، فَبِئْس القرارُ قراركم في قاع الجحيم. قال فوج الأتباع: ربَّنا مَنْ قدَّم لنا هذا العذاب بإغوائه وإضلاله وتحريضه، فَزِدهُ عذاباً مُضاعفاً في النار، عذاباً لغَوايتهم، وعذاباً لإغوائهم لنا.

وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴿٦٤﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾

٦٢ ـ وقال أهل النار: ما لنا لا نرى في النار رجالاً كنا نعدُّهم في الحياة الدنيا من الأشرار الأرذال، من الذين آمنوا واتَّبعوا الرسول؟ فلا بدَّ أن يكونوا معنا في دار العذاب.

٦٣ ـ إننا بعد البحث والتفتيش عنهم في دار العذاب لم نرهم، وعدم رؤيتنا لهم يعود لاحتمالَيْن: **الاحتمال الأول**: أننا كنا نستضعفهم في الدنيا، ونكلِّفهم حَمْل الأعباء والأعمال الشاقة، مع السُّخرية بهم، وهم لا يستحقُّون هذه الإهانة، وما كان يصحُّ اتِّخاذهم كذلك، لأنهم عند ربِّهم مُكرمون بإيمانهم. **الاحتمال الثاني**: أنَّهم موجودون في دار العذاب، إلاَّ أن الأبصار مالت عن رؤيتهم، لما في دار العذاب من سُمُوم ولهبٍ يجعل الأبصار تزيغ فلا ترى بعضَ من هم في دار العذاب.

٦٤ ـ إنَّ ذلك الذي ذكرناه من جدال أهل النار وتراشق المسؤولية وتدافعها بين الأتباع وقادتهم لَحَقٌّ لا بدَّ أن يقع.

٦٥ ـ قل ـ يا رسول الله ـ لمُشركي مكة: ما أنا بالنسبة إليكم بعد أن رفضتم بلاغاتي عن ربِّي، وبعد أن عاندتم وأصررتم على الكفر إلا مُنذرٌ لكم من عذاب الله، وقل لهم أيضاً: ما من معبودٍ بحقٍّ إلا الله الواحدُ الذي لا شريك له في ربوبيَّته، الغالبُ الذي قَهَرَ كلَّ شيء وغلبه.

٦٦ ـ خالق السموات والأرض وما بينهما، يُربِّيهم بإحسانه وكرمه، القوي الغالب الذي لا يُغلب، الكثير الستر لعباده المذنبين، وإنْ عَظُمَتْ.

٦٧، ٦٨ ـ قل ـ يا رسول الله ـ لقومك: إنَّ نبأ البعث بعد الموت؛ للحساب، وفصل القضاء، وتحقيق الجزاء، نبأ عظيم خطير، أنتم عنه مُعرضون؛ لئلا يمنعكم عن ممارساتكم الآثمة الظالمة.

٦٩، ٧٠ ـ وقل لهم: هذا النبأ العظيم ليس أمراً جديداً ولا مُستغرباً، في تاريخ الخلق، بل هو معلوم للملائكة والجن قبل خلق آدم، وله شاهد في قصة خلق آدم، وما جرى من تساؤل عن حكمة خلقه، ما كان لي من علم باختصام كبراء الملائكة وعظمائهم في شأن آدم، حين قال الله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾. إنَّما علمتُ هذه المُخاصَمة بوحي من الله تعالى إليَّ، ما يوحى إليَّ بالنسبة إليكم ـ أيهـا الكافرون المُصرُّون على كفركم ـ إلا أنمـا أنا نذير ظاهر واضح، ومُظْهِرٌ مُوضِّحٌ لما أُنذر به.

٧١، ٧٢ ـ ضع في ذاكرتك ـ أيها المُتلقِّي ـ الحدث الذي نقصُّه عليك، حين قال ربُّك للملائكة، ومَنْ كان مُندسًّا فيهم منافقاً، وهو إبليس: إني سأخلق بشراً من ماء وتراب مُختلطَيْن، فإذا أتْمَمْتُ خلقهُ، ونَفَخْتُ في داخل جسده من الرُّوح التي هي من أمري، فخرُّوا له ساجدين سجودَ تحيَّة وإكرام.

٧٣، ٧٤ ـ فَسَجَدَ الملائكةُ عن آخرهم، في وقت واحد غير متفرِّقين، إلا إبليسَ الذي كان مُندسًّا فيهم بنفاقه، تعظَّم ولم يَسْجد، وكان قبل أن يكشفه الامتحان من الكافرين بإلهيَّة ربِّه.

٧٥ ـ قال الله تعالى لإبليس: ما الذي مَنَعَك من السجود لِمَنْ تولَّيْتُ خلقَهُ بيدي، أَجَعَلْتَ نفسَكَ بغير حقٍّ في مرتبة فوق مرتبتك التي هي لك؟ أم كنت في تصوُّرك من العالين حقيقةً في المرتبة، فرأيتَ أنه لا يليق بك أن تسجد لآدم، ولو كان ذلك طاعةً لربِّك؟

٧٦ ـ قال إبليس: لو كنتُ مُساوياً له في الشَّرف، لكان يقبح أن أسجد له، فكيف وأنا خيرٌ منه، خلقتني من نارٍ، وخلقته من طين، والنَّار أشرف من الطين وأفضل. وهذه النزعة الإبليسيَّة هي أساس مزاعم التفوُّق العرقي، والتعالي العنصري، والاستكبار القومي، وهي قائمة على وهم باطلٍ لا صحَّة له.

٧٧، ٧٨ ـ قال الله تعالى لإبليس: فاخْرُج من الجنَّة، فإنَّك مَطْرودٌ من السماء، وإنَّ عليك لعنتي وطردي من رحمتي إلى يوم الدين. فإذا كان يوم القيامة زِيدَ له مع اللعنة من أسباب العذاب ما ينسىٰ بذلك اللعنة، فكأنها انقطعت عنه.

٧٩ ـ ٨١ ـ قال إبليس: يا رَبِّ فأخِّر أجلي، ولا تُمِتْني إلى يوم بعث الخلق من قبورهم. قال الله تعالى لإبليس: فإنَّك من المؤخَّرين إلى الوقت المُعيَّن لفناء الخلق، وهو وقت النفخة الأولى الذي تقوم فيه الساعة، وأُميت فيه كل الخلائق.

٨٢، ٨٣ ـ قال إبليس لربه: فَبِعِزَّتك الغالبة، لأُضِلَّنَّ البشرَ أجمعين بتزيين المعاصي لهم ، إلا عبادَكَ الذين أخْلَصْتهم لطاعتك، فلا سُلطانَ لي عليهم.

قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴿٨٨﴾

سورة الزمر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ۚ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾ لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ سُبْحَانَهُ ۖ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٤﴾ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴿٥﴾

٨٤، ٨٥ - قال الله تعالى لإبليس: اتَّخذ ما شئتَ من وسيلةٍ لإغوائهم، فالحقُّ قسمي - ولا أقولُ إلا الحَقَّ -: لأملأنَّ جهنَّم منك وممَّن تبِعَك من ذُرِّيَّة آدم أجمعين.

٨٦ - قل - يا رسول الله - لهؤلاء المشركين: ما أسألكُم على تبليغ الرسالة من أجر قَلَّ أو كثُرَ، وما أنا فيه من المتَتبِّعين لما لا يعنيهم، بل أنا مُكلَّف من قِبَل ربي أنْ أبلِّغكم وأرشدكم وأعلمكم.

٨٧ - ما هذا القرآن بمضامينه الفكريَّة المعجزة إلا تذكيرٌ وموعظةٌ للخلق أجمعين، ليس لكم وحدكم فقط، ولا للعرب فقط، بل هو بلاغ للعالمين كلِّ العالمين، وعليهم أن يتدبَّروا معانيه، وأن يكون لهم ذكراً دواماً، يذكرونه عند كلِّ مناسبةٍ داعيةٍ؛ ليعملوا بما فيه من أوامر ونواهي ووصايا.

٨٨ - ولَتعلَمُنَّ - أيُّها المشركون - صدق مضامين القرآن الخبريَّة، وما يشتمل عليه من أنباء ماضية، وما هو قائم منها في الكون، وما سيأتي منها بعد حين من الدهر، وكذلك حين يقع عليكم العذاب، وتتقطَّع عنكم الأسباب.

سورة الزمر

١ - هذا البيان الربَّاني القوليُّ، الذي يجب على المؤمنين أن يُدوِّنوه في كتاب محفوظ من التحريف والتبديل، والزيادة والنقص، تنزيلٌ من الله القويِّ الغالب الذي لا يُغلب، الحكيم الذي يضع الأشياء في مواضعها، ويختار أفضل الأشياء وأتقَنَها وأحسَنَها في الأمور المُختلفة لما يُعطي أحسن النتائج.

٢ - إنَّا أنزلنا - يا رسول الله - إليك الكتابَ مُتَّصفاً بالحقِّ الثابت الذي لا شك فيه، ولم نُنَزِّله باطلاً لغير شيء، فاعبد - أيُّها الرسول - اللَّهَ وحدَه، وأخْلِص له الطاعة والانقياد.

٣ - تنبَّهوا وتحقَّقوا - أيها النَّاس - لِلَّهِ وحدَه الدِّينُ الخالصُ من شوائب الشِّرك، والذين تكلَّفوا باصطناع منهم على خلاف الحقِّ والواقع من دون الله آلهةً يعبدونهم بعباداتٍ هي من خصائص الربِّ سبحانه، قائلين: ما نعبدُهم إلا ليُقَرِّبونا إلى الله منزلةً، لما لهم عند الله من المنزلة العظيمة، ويشفعوا لنا عنده فيما ينوبُنا من أمور الدنيا، لما لهم من شفاعة مقبولة؛ إنَّ الله يحكم بين المسلمين والمشركين يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون من أمر الدين، فيُجازيهم بحسب أحكامه فيهم ثواباً بفضله، أو عقاباً بعدله؛ إنَّ الله لا يحكم ولا يقضي بهداية من افترى على الله، وزَعم أنَّ الآلهة تشفع له؛ وهو شديد الكفر باتِّخاذه آلهةً من دون الله تعالى.

٤ - لو أراد الله أن يتَّخِذَ ولداً بالتبنِّي، لاختار لنفسه ممَّا يخلق مخلوقاً عظيماً جداً، ولم يختر لنفسه مثل هذه الأوثان الحقيرة التي لا تملك لغيرها ولا لأنفسها جلْب نفع، أو دَفْع ضر، لكنه لم يختر أحداً؛ تنزيهاً له تعالى عن اتِّخاذ الولد، هو الله الواحدُ في ملكه الذي لا شريك له ولا ولد، الغالبُ الكامل القدرة الذي تنفذ مشيئته في خلقه بالقهر والسلطان.

٥ - خَلَقَ الله السَّمواتِ والأرض خلقاً متَّصفاً بأنه حقٌّ ثابت، مشتملاً على الحِكَم والمصالح، ولم يخلقهما باطلاً، وهو سبحانه يلفُّ بتجدد واستمرار الليلَ في آخر النهار على النَّهار، فيستره شيئاً فشيئاً، فيبدو في محلِّه الليل، ويلفُّ بتجدُّد واستمرار النَّهار في آخر الليل على الليل، فيستره شيئاً فشيئاً، ويبدو في محلِّه النهار، كما تُلَفُّ خيوط الصُّوف على بعضها حتى تكون كرة ذات محيط دائريٍّ من كلِّ جهاتها؛ بسبب حركة دوران الأرض حول نفسها باتِّجاه الشمس في نظام رائع بديع، وذلَّل الشَّمسَ والقمر لمصلحة عباده، كلٌّ منهما يسير في فلكه بانتظام لأجل معيَّن باسمه المُحدَّد له في علم الله، وفي الكتاب الذي كتب الله عزَّ وجلَّ فيه كلَّ شيء قدَرَه وقضاه.

انتبهوا وتحقَّقوا - أيها المشركون - إنَّ ربَّكم الذي خلق هذه الأشياء العظيمة هو القويُّ الغالب الكامل القدرة، الساتر المتجاوز عن سيئات الذين آمنوا وأسلموا، وتابوا إلى ربِّهم.



خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾ إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾ ۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾ قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾

٦ ـ خلقكم ربُّكم ـ أيُّها الناس ـ أنسالاً من نفس أبيكم «آدم»، ثم خلق من هذه النفس بعد مُدَّة زمنية زوجها «حواء»، وأنشأ لكم ـ أيها الناس ـ من الأنعام المُذلَّلة ثمانية أصناف: ذكراً وأنثى من الإبل، والبقر، والغنم، والمعز، يخلقكم في بطون أمَّهاتكم خلقاً متتابعاً من نطفة، ثمَّ علقة، ثمَّ مضغة، في ظلمات ثلاث ذاتِ نسب بعضها أشدُّ من بعض: (غشاء السَّلَى، المحيط بالأغشية كلها، وغشاء الكوريون المشيمي، وغشاء الرحم الذي يسقط بعد الولادة أو الإجهاض)، ذلكم العظيم الجليل الذي خلق هذه الأشياء، ربُّكم المُهيمن عليكم، والمُتصرِّف فيكم، له كلُّ ما في الوجود لا يشاركه في ملكه أحد، لا خالقَ لهذا الخلق، ولا معبودَ لهم بحقٍّ، إلا الله تعالى، فكيف تُصرفون عن طريق الحقِّ، وتُبعدون عن هذه الحقيقة الجليَّة البدهيَّة التي تدلُّ عليها ظواهر الكون وبدهيَّاته؟!

٧ ـ إنْ تكفروا ـ أيُّها الناس ـ بربِّكم، فإنَّ الله غنيٌّ عنكم، لا ينفعه إيمانكم، ولا يضرُّه كفركم، ولا يرضى لعباده الذين يمنحهم شرف العبوديَّة له أن يتَّصفوا بالكفر، ولا يمدحهم ولا يثني عليهم، ولا يكون في ملكه إلا ما أراد. وإن تشكروه ـ سبحانه ـ بالإيمان والإسلام، وبفعل ما يرضى لكم من الصالحات، وباجتناب ما لا يرضى لكم من السيئات، فإنه تبارك وتعالى يرضاه لكم، ولا تحمل نفسٌ آثمةٌ ولا غير آثمة إثم نفس أخرى، قد حملت ممَّا اكتسبت أوزاراً وذنوباً حتى تُخلِّص هذه الثانيةَ من إثمها، إنما تحمل الآثمة إثم ذنبها الذي فعلته بالمباشرة أو التسبُّب فتُعاقَب هي عليه، فلا يحمل الصَّالحون المقرَّبون أوزار المجرمين، ويفتدونهم بأنفسهم عند ربهم، فالمسؤولية عن ارتكاب الذنوب التي تُشبه الحِمْل الثقيل، مسؤولية شخصيَّة، ثمَّ بعد انتهاء حياة الابتلاء في الحياة الدنيا تموتون، ثم تبعثون، لتُلاقوا حساب ربِّكم، وفيه يكون رجوعكم، ومكان رجوعكم وزمانه إلى ربِّكم، فينبئكم بما كنتم تعملون في الدنيا، ويحاسبكم على ما كَسَبَتْ قلوبكم ونفوسكم بإراداتكم من أعمال كالنيَّات السيئات، وإرادات الشر، فيجزيكم على هذه المكتسبات القلبيَّة والنفسيَّة بما تستحقُّ من جزاء بالعدل؛ إنه سبحانه عليمٌ بما تكنُّه صدور عباده، فلا يخفى عليه شيءٌ منها.

٨ ـ وإذا مسَّ الإنسانَ بلاءٌ وشدَّةٌ، دعا ربَّه راجعاً إليه، مُستغيثاً به، مُسْتَيقناً من عُمْق فؤادِهِ أنَّه لا يكشفُ الضُّرَّ إلا هو، ثم بعد مدة متراخيةٍ من الزمن، إذا أعطاه ربُّه نعمةً عظيمةً تفضُّلاً منه سبحانه، وملَّكه إيَّاها، نسيَ الضُّرَّ الذي كان يدعو ربَّه إلى كشفه عنه، وأبطرته النعمة، وَجَعَلَ لِلَّهِ أمثالاً ونظائر من الأوثان، أو الإنس، أو الجنِّ، أو الأسباب والقوانين الطبيعيَّة، يعبدُها من دون الله؛ ليردَّ غيره عن دين الله تعالى، ويجعلهم ضالِّين تائهين خارجين عن سبيلِ الله المستقيم. قل ـ يا رسول الله ويا أيها الداعي إلى الله من أمَّته ـ لهذا الكافر المُصر على جحوده وكفره: تمتَّع بكفرك بتحقيق اللذَّات، وما يَسُرُّك في الدنيا متاعاً قليلاً، إلى انقضاء أجلك، إنَّك من أهل النار الملازمين لها، المخالطين لألوان عذابها، المُخلَّدين فيها.

٩ ـ أهذا الكافر الذي جَعَل لله أمثالاً خيرٌ، أم من هو مقيمٌ على طاعة الله ساعات الليل؛ أوله وأوسطه وآخره، ساجداً وراكعاً وقائماً في الصَّلاة، يحذر عقاب الله في الآخرة على ما سَلَف في حياته من إخلال بمرتبة التقوى، ويتوقَّع طامعاً أن ينال رحمة ربِّه وثوابه العظيم؟ قل ـ أيها الناصح المرشد ـ: هل يستوي الذين يعلمون ما عند الله من الثواب والعقاب، والذين لا يعلمون ذلك؟ لا يستوون. ما يتذكَّر هذا التذكُّر المؤثِّر في القلب والنفس، والسلوك إلا أصحاب العقول الواعية الدَّرَّاكة التي تعقل المعارف، وتعقل النفس بإرادة قويَّة عن اتِّباع الهوى، والاستجابة لوساوس الشيطان. وفي الآية: مدحُ العلم ورِفْعة قدره، وذمُّ الجهل ونقصه.

١٠ ـ قل ـ يا رسول الله ويا كلَّ داعٍ إلى الله من أمته ـ: إنَّ ربَّكم الذي شرَّفكم بعبوديَّتكم له يناديكم قائلاً لكم: يا عبادي المؤمنين: اتَّقُوا عقاب ربِّكم الذي يُمدُّكم دوأماً بعطاءاتِ ربوبيَّتِهِ لكم، بالتزام حقوق مرتبة التقوى، بفعل الواجبات، وترك المحرَّمات، وكونوا أبراراً بالتقرُّب إليه بنوافل العبادات، يزدكم من فضله، وأحسنوا، للَّذين عبدوا الله كأنهم يَرَوْنه، وأحسنوا العمل في هذه الدنيا، عطايا ومنحٌ حسنةٌ في الآخرة، وهي الجنة، وحسنةٌ في الدنيا، وهي الصحة والرزق والتأييد وغير ذلك. ومن البرِّ والإحسان: الهجرة في سبيل الله، فالهجرة مُيسَّرة لكم، وأرضُ الله فسيحةٌ، فلا تقيموا في ذلّ، واصبروا على متاعب الهجرة وغيرها؛ لتنالوا الأجرَ العظيم عند ربِّكم، إنَّما يُعطى الصَّابرون على مفارقة الأوطان واحتمال الشدائد في سبيل الله، أجرهم وافياً تامَّاً يوم القيامة بالعطاء العظيم الخالد الدائم المتجدِّد، الذي لا تستطيع الخلائق حساب مقداره بالنسبة إلى ما تحمَّلوا من صبرٍ ابتغاء مرضاة الله.

قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِي ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَأُولَٰٓئِكَ هُمْ أُولُوا ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِي ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾

١١، ١٢ ـ قُل ـ يا رسول الله ـ مُعلناً للناس جميعاً: إني أُمرت أنْ أعبد الله وحده مُخلصاً له الطاعة والانقياد، جاعلاً كلَّ أعمالي التعبديَّة صافيةً مُنقَّاةً من الشِّرك والرياء، وقل لهم: أُمرت بأوامر وتكاليف زائدة على التكاليف المُوجَّهة لسائر المسلمين؛ لأجل أن أكون أوَّل المسلمين من هذه الأمة الربَّانية الخاتمة للأمم.

١٣ ـ وقل لهم ـ يا رسول الله ـ: إني أخاف إن عَصَيْتُ ربي، فعبدتُ من دونه شركاء، أو عصيْتُهُ بترك ما أمرني بفعله، أو بفعل ما أمرني بتركه عذابه الأليم الذي سيكون في يوم عظيم، فلست معفياً من المُؤاخَذَة إنْ أنا عصيتُهُ، ولكن اعلموا أني لن أُعرِّض نفسي لعقاب ربي، وقد آتاني عقلاً ورُشداً، وإرادةً قوية أضْبط بها سلوكي على وَفق ما يرضيه سبحانه.

١٤، ١٥ ـ قل ـ يا رسول الله ـ: إني أعبد الله وحده، ولا أعبد أحداً غيره، مُخلصاً له الدين من كلِّ شوائب الشِّرك والرياء، فاعبدوا أنتم ـ أيها المشركون ـ ما شئتم من دون الله، وعليكم أن تتحمَّلوا نتائج اختياراتكم. قل ـ يا رسول الله ـ: إنّكم إذا عبدتم أحداً من دون الله خسرتم أنفسكم وأهليكم، وجُوزيتُم بعذابٍ شديد يوم الدين على شرككم؛ إنَّ الخاسرين الذين خسروا أنفسهم بإلقائها في العذاب الأبديِّ الأليم، وخسروا أهليهم يوم القيامة، انتبهوا وتأكَّدوا إن خسران الإنسان نفسَه وأهله، هو الخُسران البيِّن الواضح.

١٦ ـ لهؤلاء الخاسرين يوم القيامة في جهنم من فوق رؤوسهم ظُلَلٌ من دخان أسود شديد الحرارة والظلمة، ومن تحت أرجلهم كذلك، ذلك التحذير الشديد من عذاب الله يوم الدين، بيانٌ يُخوِّف الله به عبادَهُ المؤمنين؛ لأنَّهم إذا سمعوا حالَ الكفار في الآخرة خافوا وأخلصوا التوحيد والطاعة لله عزَّ وجل. يا عبادِي، فاتقوا عذابي، ولا تتعرَّضوا لما يُوجبُ سخطي.

١٧، ١٨ ـ والذين اجْتَنبُوا كلَّ رؤوس الضلالة التي تُعبد من دون الله اجتناباً كلياً، وابتعدوا عن الاقتراب منها ومن الدعاة إلى تعظيمها وعبادتها؛ خشيةَ أن تُؤثِّر في نفوسهم، فتستدرجهم إلى التعلُّق بها تعلُّقاً تامًّا، وطاعتها طاعة كاملة، وتجعلهم عابدين لها من دون الله، ورَجَعوا إلى عبادة الله تعالى مرَّة فمرَّة، لهم البُشرى في الدنيا بالثناء عليهم بصالح أعمالهم، وعند نزول الموت، وعند الوضع في القبر. وفي الآخرة عند الخروج من القبر، وعند الوقوف للحساب، وعند جواز الصِّراط، وعند دخول الجنة، وفي الجنَّة. فَبَشِّر ـ أيها الداعي إلى الله ـ عبادي بالسعادة الخالدة في جنات النعيم، الذين يستمعون قول الله ورسوله وحَمَلة دعوته من أمته، ويستمعون زُخرف أقوال المشركين، فيوازنون بين الأقوال، فَيَنْبذون ما يظهر لهم أنه باطل، وهي الأصول التي يبني عليها الكافرون أبنيتهم الفكريَّة والتنظيميَّة لشؤون الحياة، ويتَّبعون ما يَرَوْنه هو الأحسن، فيلتزمون دينَ الله التزاماً كاملاً في أصوله التي هي الحق، وفي فروعه التي هي الأحسن، أولئك رفيعو المنزلة والمكانة العالية الذين هداهم الله إلى عبادته وتوحيده، وأولئك هم ـ دون غيرهم ـ أصحابُ العقول النيِّرة الواعية الدرَّاكة التي تعقل المعارف فتُمسك بها، وتعقل النفوس عن اتِّباع الهوى.

١٩، ٢٠ ـ أَفَمَنْ كان من الكافرين باختياره الحر، ومات على كفره مُعانداً، وَثَبَتَ وتحقَّق عليه بمقْتضى عدل الله، الذي صَدَرت به كلمة الله القضائيَّة، أن يكون من أهل النار. أتملك ـ يا مَنْ تُحبُّه أيّاً كنت ـ أن تُنقذه من عذاب ربِّه، فإنَّك لا تقدر ـ مهما كان شأنك ـ على إنقاذه من النار؛ إذ الحكم والتنفيذ للّه وحده؟ لكن الذين اتَّقوا عذاب ربِّهم بالإيمان والعمل الصالح، فحمَوا أنفسهم من عذاب النار، لهم قصورٌ عظيمة في جنَّات النعيم، وفي هذه القصور العظيمة غُرف مبنيَّة من فوقها غرف هي أرفع منها، تجري من تحت قصورها الأنهار الجميلة الرائعة التدفُّق والجَرَيان، وَعَدَ الله عباده المتَّقين تلك الغُرف والمنازل وعداً لا يُخلفه.

٢١ ـ ألم تر ـ أيها الرائي ـ أنَّ الله أنزل من السَّحاب ماءً، فأدخل ذلك الماء في مَسَارب من الأرض، وجَعَله مخزوناً في تجاويفها، وأخرجه ينابيع، منها ما يكون عيوناً، ومنها ما يجري سَواقيَ وأنهاراً، ثم يخرج بالماء زرعاً مختلفاً ألوانه، ومختلفة أجناسه وأصنافه وطعومه، ثم يَيْبَس ويصفرُّ، فتراه ـ أيها الرائي ـ بعد يُبْسه مُصْفرّاً، ثم يجعله اللَّهُ فُتاتاً مُتكسِّراً؟ إنَّ في إنزال الماء وإخراج الزرع وتنقُّله من حال إلى حال لتذكير لأصحاب العقول الواعية الدرَّاكة الحصيفة.

أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾

٢٢ - أَمَنْ كان ذا إيمان صحيح بإرادة حرَّة من قلبه، فشرح له صدره للتطبيقات الإسلامية بسبب إيمانه، فهو على نور من ربِّه يهديه، ويجعله يسير في حياته على صراطه المستقيم، كَمَنْ هو كافر يجد صدرَه ضيِّقاً حَرَجاً، ينفِرُ من التطبيقات الإسلامية، وتشمئزُّ نفسُهُ منها، بمقتضى سُنَّة الله في عباده، فهو في حياته يسيرُ في مَتَاهات سُبُلٍ مظلمة، تنتهي به إلى عذاب السعير؟ فعذابٌ شديدٌ للقاسية قلوبُهم النافرة المُشْمئِزَّة من ذكر الله، حينما يذكَّرون به، أو تُتلى عليهم آياتُهُ، أولئك الكافرون البعيدون عن مواطن تنزُّلات رحمات ربِّهم في ضلالٍ مبينٍ واضح، يدركه أصحاب العقول الحصيفة، والبصائر النافذة الدرَّاكة.

٢٣ - الله نَزَّل القرآن عن طريق الوحي إلى رسوله محمد ﷺ، أحسنَ الحديث في فصاحته وبلاغته، وفي معناه، وتنزُّهِهِ عن التناقض والاختلاف، واشتماله على أخبار الماضين، وقَصَصَ الأوَّلين، وأخبار الغيوب الكثيرة، كتاباً مصوناً من التحريف والتغيير والتبديل، متماثل الكمال، يُشبه بعضُه بعضاً في الحُسْن والجمال، والتأثير في القلوب، فيه مطويَّات بين جُمله، وبين أجزاء الجملة منه، هي محذوفات لفظاً تُدرك عن طريق الدلالات اللفظيَّة، واللوازم الفكريَّة، وذلك من الإعجاز الإيجازي في القرآن. تنفعل قلوبُهم ونفوسُهم حينما يسمعون أو يتلون آياتٍ فيها ترهيبٌ من عقاب الله، ومشاعر الخشية والوجل الذي يحدث في قلوبهم يمتدُّ إلى أعصابهم الواصلة إلى جلودهم، فترجف جلودهم التي تتركَّز فيها النهايات العصبيَّة، ثم تسكن نفوسهم وقلوبهم بمتابعة مسيرتهم الإيمانية، فيصلون إلى مرحلة الطمأنينة الكاملة، فيغلب رجاؤهم بعفو الله ومغفرته على الخوف من عقابه، ويطمئنون إلى أنَّ الله تجاوز عن سيِّئاتهم وأحاطهم برحمته ورضوانه، ذلك الأمر الحميد الذي يكون عليه الذين يخشون ربَّهم، هدى الله المقرون بالعناية الربَّانيَّة؛ إذ ارْتَقَوْا بتوفيقه سبحانه من مرتبة الخشية، إلى الخشوع، إلى الطمأنينة التي هي أعلى المراتب، ومَنْ يحكم الله عليه بالضلال لأنه ضلَّ بإرادته الحرة، فما له من حاكم يحكم له بالهداية.

٢٤ - أَفَمَنْ يتَّقي في الدنيا بوجهه الذي يُوجِّهه للذي فَطر السموات والأرض حنيفاً مسلماً، شدَّة العذاب يوم القيامة؛ بعيداً عن كلِّ شرك بربوبيَّته وإلهيَّته، كَمَنْ كان من الظالمين من دَرَكة الكفر؟ وتقول خَزَنَةُ جهنم للظالمين عند إلقائهم في جهنم: لامسوا وأحسُّوا عذابَ ما كنتم تكسبون في الدنيا من ظلم هو من دَرَكَة الكفر، تستحقُّون عليه الخلود في النار.

٢٥، ٢٦ - كذَّب كفارُ الأقوام من قبل هؤلاء المشركين رُسُلَهم، وأنذروا بعذاب ربِّهم، واستمرُّوا مصرِّين على كفرهم، فأتاهُمُ العذابُ الذي أُنذروا وهم غافلون، من مكان لم يكونوا يشعرون إلا أنهم فيه آمنون، فَجَعَلَهُمُ الله يُحِسُّون بآلام العذابِ والهوان في الحياة الدنيا، ولَعَذابُ الآخرة أكبر ممَّا نَزَلَ بهم من عذاب الدنيا، لو كانوا حريصين على أن يعلموا الحقَّ، ويعملوا به لما ألقَوْا أنفسهم بأيديهم إلى هذا المصير الوخيم.

٢٧، ٢٨ - ونقسم مؤكِّدين أننا بيَّنَّا للناس في هذا القرآن من كُلِّ قضيَّة من القضايا الدينيَّة لها أشباه ونظائر يُقاس عليها؛ رغبةً في أن يتذكَّروا، وما ينجم عن التذكُّر من سلوك دينيٍّ ونفسيٍّ وجَسَديٍّ يتحقّق به رضوان الله. حالة كون هذا القرآن قرآناً عربياً فصيحاً، أَعْجَزَ الفصحاء والبُلَغاء عن معارضته، مستقيماً على صراط الخير والحقِّ، لا لَبْس فيه ولا اختلاف، مُنزَّهاً عن التناقض؛ رغبةً في أن يُنهوا رحلة حياتهم الدنيا مؤمنين مسلمين؛ ليتقوا عذاب الله يوم الدين.

٢٩ - ضَرَبَ الله مثلاً إقناعاً للتنفير من الشِّرك: عبداً مملوكاً اشترك في مِلْكِهِ شُركاء متنازعون مختلفون، سيئة أخلاقهم، كلُّ واحد يريد أن يسْتأثر بخَدَمَاته، فهو حَيْران في إرضائهم، وعبداً خالصاً لمالكه لا شريك له فيه ولا مُنازِع، يعرف مراده وما يُرضيه، هل يستوي هذان الرجلان وصفاً؟ لا يستويان وصفاً، فكيف تجعلون نفوسكم عبيداً لآلهة مُتعدِّدين، تتوزَّع أوقاتكم لعبادتها، بينما ربُّكم الخالق لكم، هو واحدٌ لا شريك له، الحمدُ كلُّه لله وحده، دون غيره من المعبودين، بل أكثر الناس لا يعلمون أنَّ المُسْتحقَّ للعبادة هو الله تعالى وحده لا شريك له.

٣٠، ٣١ - إنَّك - يا رسول الله - ستموتُ كسائر الأحياء، وإنَّهم سيموتون، فالموت قضاء مُبْرم من الربِّ جلَّ جلاله على الأحياء جميعاً في هذه الحياة الدنيا، ثمَّ إنَّكم بعد مدَّة زمنيَّة متراخية بين الموت والبعث يومَ تقومون من نوَيَاتكم المتناثرة في الأرض أحياءً، عند ربكم تختصمون فيما بينكم من حقوق، في الأموال، أو الأنفس، أو الأعراض، وغيرها، فيحكم بينكم بالعدل والإنصاف.

﴿۞ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَـٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُولَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَـٰشِفَـٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَـٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَـٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَـٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾

٣٢ ـ لا أحدَ أشدُّ ظلماً من هذين الفريقين: **الفريق الأول**: مَنْ كَذَبَ على الله، فزعم أنَّ له ولداً أو شريكاً، أو ادَّعى أنه نبيٌّ أو رسول، أو حكم بحكم في الدين زاعماً أنه من دين الله دون أن يكون لديه دليل صحيح، **والفريق الثاني**: كَذَّب بالصِّدق الذي جاء به محمد ﷺ من غير تفكير أو اهتمام بتمييز بين حقٍّ وباطل، أليس في جهنَّم مكان إقامة واستقرار لهؤلاء الذين كذبوا عليَّ، وكذَّبوا بالصّدق الذي جاء به محمد ﷺ؟

٣٣ ـ وفي مقابل الفريقَيْن السَّابقَيْن من الكافرين المُكذِّبين، يُوجَدُ فريقان من المؤمنين المُتَّقين، **الفريق الأول**: الذي جاء النَّاسَ يُحدِّثهم بالصِّدق عن الله ودينه وأحكام شريعته، داعياً هادياً مُبلِّغاً، وهم أنبياء الله ورسله، وحَمَلة رسالته، **والفريق الثاني**: الذي صدَّق بالصِّدق الذي جاء به أنبياء الله ورسله، وأتباعهم، وهم المؤمنون، أولئك رفيعو المكانة عند الله هم المتَّقون الذين امتثلوا أوامر الله، واجْتنبوا نواهيه.

٣٤ ـ لهؤلاء المُصدِّقين المتَّقين ما يشاؤون عند ربِّهم من الجزاء والكرامة، ويجزي الله مثلَ هذا الجزاء لعموم المتَّقين، الأبرارَ والمحسنين، ذلك الذي يناله عموم المتَّقين، يناله المحسنون أيضاً، مع زياداتٍ من فضل الله؛ بسبب ارتقائهم إلى مرتبة الإحسان.

٣٥ ـ ويخصُّ الله المحسنين بجزاءٍ فوق ما يتصوَّرون، ويُخرجهم من ضمن الموضوعين للمحاسبة على أعمالهم؛ لِيَسْتُرَ اللَّهُ عليهم أسْوأ الذي عملوا في الدنيا من الأعمال فما دونه من باب أولى، وليجزيَهُم أجرَهُم على كلِّ الصالحات من أعمالهم، بجزاءٍ يُساوي الجزاء المقرَّر لأحسن الذي كانوا يعملون من أعمالٍ صالحةٍ يتقرَّبون بها إلى الله؛ لأنهم كانوا محسنين في الدنيا.

٣٦، ٣٧ ـ أليسَ الله العظيم الكبير الذي أرسل رسوله محمداً بقادر على أن يكفيَ عبدَه محمداً ﷺ شرَّ مَنْ عاداه وقَصَدَه بالسُّوء؟ فاعلموا أنَّ الله حافظٌ رسولَهُ محمداً ﷺ وحاميه من مكايدكم، مهما دبَّرتم ومكرتم. ويُخوِّفُكَ المشركون ـ يا رسول الله ـ بمضرَّة الأوثان التي اتَّخذوها آلهةً من دونه، ومَنْ يحكم الله عليه بأنه ضالٌّ؛ لأنه اجْتاز مرحلة امتحانه ضالاً باختياره الحر، فاستحقَّ العقاب، فما لَهُ من حاكم يحكم له بأنه كان مهتدياً في رحلة امتحانه، ليرفع الله عنه العقاب الذي استحقَّه، ومَنْ يحكم الله له بالهداية، فيستحق بحكم الله دخُول الجنة خالداً أبداً، فما لَهُ من حاكم يحكم عليه بالضلالة، ليحجُبَ عنه فضل ربِّه عليه. فلا يطمع المشركون بأن تصنع لهم آلهتهم شيئاً، فتدفَعَ عنهم عذاب الله إذا حكم به عليهم، أو تجلُبَ لهم منفعةً ما، إذا قضى الله أن يُمسكها عنهم. أليس الله بقويٍّ غالب، لا يمنع عن تنفيذ إرادته قوةٌ ما في الوجود كلِّه، ذي عقوبة بالعدل؟! فترقَّبوا ـ أيها المشركون ـ عقاب الله لكم.

٣٨ ـ ولئنْ سألتَ ـ يا رسول الله ـ هؤلاء المشركين: مَنْ خَلَق السموات والأرض؟ لَيَقُولُنَّ: خَلَقَهُنَّ الله، فإنكم ـ أيها المشركون ـ تؤمنون بأنَّ الله هو الذي خلق السموات والأرض، ولا تجعلون له شركاء في هذا القسم من أقسام ربوبيَّته، لكنَّكم بالنسبة إلى أحوال الناس تجعلون للَّهِ شركاء في ربوبيَّته، كقضايا الرزق، والذُّرِّيَّة، والنَّصر على الأعداء. قل لهم ـ يا رسول الله ـ: أفتفكَّرتُم تفكيراً سديداً بأناةٍ وتعمُّق، حتى أدركتم إدراكاً علمياً يشبهُ الرؤية البصريَّة: ما تعبدون من دون الله بعباداتٍ مُختلفات، وفي مُقدِّمتها الدعاء لتحقيق المطالب والرَّغبَات، فإن توصَّلتم إلى أنَّ لهم ربوبيَّةً ما في الكون فأخبروني ـ إنْ أرادني الله مُصاباً بشدَّةٍ وبلاء ـ: هل تستطيع آلهتكم أن تكشف عني ما أنزل بي من ضُرٍّ؟! أو أرادني مَمْسوساً بنعمةٍ وخير وبركةٍ: هل تستطيع آلهتكم أن تُمسك رحمةَ الله فتمنعها عني؟ قل لهم ـ يا رسول الله ـ: الله كافٍ لي عن كلِّ ما سواه في جميع أموري، من إصابة الخير، ودفع الشر، هو ثقتي، وعليه اعتمادي، عليه وحده يتوكَّل المتوكِّلون، ويُفوِّضون أمورهم إليه، ويعتمدون بقلوبهم عليه مع قيامهم بالأسباب الكونيَّة.

٣٩، ٤٠ ـ قل ـ يا رسول الله ـ لقومك المُعَانِدين: اعملوا ما تشاؤون محافظين على موقعكم الشِّركي، واجتهدوا في أنواع مكركم وكيْدكم، إني عاملٌ فيما أُمرت به من إقامة الدين، ومُلازمٌ مكاني فيه، لا أتزحزحُ عنه، فَسَوْفَ تعلمون يوم القيامة مَن يأتيه من ربِّه عذابٌ يُذلُّه في موقف الحشر وما بعده، ومَنْ يَحِلُّ عليه من ربِّه في الآخرة عذابٌ دائم؟! إنكم أنتم الذين تنالون هذا المصير الوخيم.

إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَىٰ
فَلِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم
بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي
لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ
وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ
لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ
قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾
قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ
إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ
قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن
دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ
فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا
مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾

٤١ ـ إنا أنزلنا عليك ـ يا رسول الله ـ القرآنَ؛ لتبليغه للناس؛ لأنك رسولنا للناس أجمعين، وقد أنزلناهُ متَّصفاً بالحقِّ في بياناته الخبريَّة وأحكامه، فمن استجاب لدعوة الحقِّ فترجع فائدة استجابته لنفسه وسعادتها، ومَنْ لم يستجب لدعوة الحقِّ الربَّانيَّة، فإنما يضلُّ جانياً على نفسه شقاءً أبدياً وعذاباً أليماً، وما جعلناك ـ يا رسول الله ـ قائماً على الناس، مُلزَماً بحمايتهم، وتحويلهم من الكفر إلى الإيمان، إنما أنت مُبلِّغٌ رسالةَ ربِّك، والناس ذوو إرادات حرة، مُمْتَحَنون في الحياة الدنيا، وعليهم أن يتحمَّلوا تَبِعات اختياراتهم.

٤٢ ـ اللَّهُ وحده يتوفَّى الأنفس فيمنحُها غايةَ الأجل المُقدَّر لها في الحياة الدنيا وافياً غير منقوص، ويتحقَّق هذا التوفِّي حين موتها بالفصل الكُلِّي بين الرُّوح والنفس. أما الأنفسُ التي لم ينته أجلُ بقائها في الحياة الدنيا، فالله يتوفَّاها توفِّياً جُزئياً بفصلٍ جزئيٍّ بينها وبين الرُّوح، في حالة النوم. وغَفَواتُ النوم قد ينتهي فيها الأجل المُقدَّرُ، فيُمسك الله عنها الإمداد بالحياة إمساكاً كاملاً، بالفَصْل الكُلِّي بين الروح والنفس، والتي لم ينته أجلها المُقدَّر في الحياة الدنيا، يرفع عنها الفصل الجزئيَّ، ويُرسلها من قَيْد النوم، فتصحو وتُمارس حركاتها الإراديَّة، وتستمرُّ هكذا في كلِّ حالات النوم، إلى زمن انتهاء أجل بقائها في الحياة الدنيا، وهذا الأجل مُعَيَّن مُحدَّد مُسمًّى بتقدير الله وقضائه للنفوس، فإذا بلغته توفَّاها الله توفِّياً كُليّاً بالفصل الكُلِّي بينها وبين أرواحها، إنَّ في ذلك الأمر العظيم لآياتٍ جليلاتٍ على وقوع البعث، وقدرة الربِّ وعلمه وحكمه وهَيْمنته على كلِّ شيء.

٤٣ ـ بل اتَّخَذَ هؤلاء المشركون من دونِ الله الأصنام التي يعبدونها شفعاءَ، تشفع لهم عند الله في حاجاتهم. قل ـ يا رسول الله ـ: أتعبدونهم من دون الله، وتزعمون أنَّهم يشفعون لكم عند الله، ولو كانوا لا يملكون لأنفسهم ولا لغيرهم شيئاً عند الله، ولو كانوا لا يملكون عقلاً يعقلون به معرفةً ما؟!

٤٤ ـ قل ـ يا رسول الله ـ لهؤلاء المشركين: لله وحده الشفاعة جميعاً إذناً وقَبولاً واستجابةً، لا يشفعُ أحدٌ عنده إلا بإذنه، له ملك السموات والأرض، لا مُلك لأحدٍ فيهما سواه، فالواجب أن تُطلب الشفاعة ممَّن يملكها، وأن تُخلص له العبادة، ولا تُطلب من هذه الآلهة التي لا تضرُّ ولا تنفع، ثمَّ إليه بعد الموت وبعد البعث تُرجعون في الآخرة؛ للحساب، وفصل القضاء، وتنفيذ الجزاء.

٤٥ ـ وإذا ذُكِر اللَّهُ وحدَه نفَرَت وانقبضت عن التوحيد قلوبُ الذين لا يؤمنون بالآخرة؛ إذ هم لا يطمعون في ثواب الله العظيم، ولا يخشون من عقابه الأليم، وإذا ذُكرت الأصنام التي يعبدونها من دون الله، إذا هم يفرحون، وتتهلَّل وجوههم، وتمتلئُ قلوبهم سروراً؛ لأنَّ قلوبَهم مُتعلِّقةٌ بمنافعهم، إذ هم يؤمنون بأنَّ لهم ربوبيَّة في أحوال الناس، كقضايا الرزق، والذريَّة، والأمن، والنصر على الأعداء، ونحو ذلك.

٤٦ ـ قل ـ يا رسول الله ويا كُلَّ داعٍ إلى الله ـ: اللهمَّ يا خالقَ السمَّوات والأرض على نظام الفطر والشقِّ من نقطة العدم، يا عالم كلِّ غيب مما غاب عن ذوي الإدراك من خلقك، ويا عالم كلِّ مَشهودٍ لخلائقك مما تصل إليه حواسهم وعقولهم، لا يغيب عن علمك شيء، أنت وحدك تفصل أحكامك بين عبادك يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون في الحياة الدنيا من حقٍّ وباطل، وخير وشر، وطاعة ومعصية، وبعد فصل الحكم بينهم تُجازي كلَّ واحد منهم بحسب حكمك بالفضل ثواباً، وبالعدل عقاباً.

٤٧ ـ ولو أنَّ لكلِّ واحدٍ من الظالمين من دَرَكَة الكفر ما في الأرض جميعاً، ومثلَهُ معه مُضاعَفاً، لقدَّموه افتداءً لأنفسهم من شديد العذاب، ولو بذلوه وافتدَوْا به ما قُبِلَ منهم، ولا أغنى عنهم من عذاب الله شيئاً، وظهر لهم من الله الحَكَم العدلِ المحيطِ بكلِّ شيءٍ علماً، ما لم يكونوا يظنُّون ـ ولو ظنّاً توهميّاً ضعيفاً ـ إذْ لم يكونوا يؤمنون في الدنيا بيوم الدين، وأن العذابَ نازلٌ بهم.

وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾ فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَٰؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ ﴿٥٦﴾

٤٨ ـ وَظَهَر لهؤلاء المُكذِّبين يوم القيامة، بعد الحساب والقضاء جزاءُ سيِّئاتِ أعمالهم التي اقترفوها، فنزل بهم من الذُّعر والهمِّ الشديد، مما هم صائرون إليه، وأحاط بهم ولزمهم من كلِّ جانب عذابٌ أليم؛ عقاباً لهم على استهزائهم بالعذاب الذي كانوا في الدنيا يستهزؤون به؛ إذ يُكَبُّون في النار على وجوههم، فيهوون بين وديانها، وصنوف العذاب فيها.

٤٩ ـ فإذا مسَّ الإنسانَ شدَّةٌ، دعانا أن نُفرِّج عنه، ثمَّ بعد مدَّة إذا أعطيناه على سبيل التفضُّل نعمةً صادرةً من أمرنا، وجاريةً ضمن أنظمتنا السببيَّة، قال متفاخراً بمهارته وعلمه باتِّخاذ الأسباب: ما أوتيت هذا الذي أملكه إلا بمهارتي وعلمي وحيلتي. بل لم تصل إليك النعمة بمهارتك وعلمك وحيلتك، بل نحن منحناك تلك النعمة استدراجاً منا فيما آتيناك، وامتحاناً لك: أتشكر أم تكفر؟ ولكنَّ أكثر الناس لا يعلمون أنها استدراجٌ من الله وفتنة، وأنَّ ما يستمتعون به في الحياة الدنيا من نِعَم هو من فضل الله عليهم.

٥٠ ـ قد قال هذه المقالة الدالَّة على الجُحود والكُنود والاستكبار، الكفورون الذين من قبلهم من الأُمم المكذِّبة، فما كفاهم فصرف عنهم من عذاب الله، ما كانوا يكسبون من متاع الدنيا، ويتوهَّمون أنهم أُوتوه باجتهادهم القائم على علم عندهم، وليس من إيتاء الله لهم؛ ليبلوَهُم في رحلة امتحانهم في الحياة الدنيا.

٥١ ـ فأصاب الذين قالوا هذه المقالة من الأمم الخالية جزاء سيِّئات كَسْبِهم، فعُوجلوا بالعذاب في الدنيا، والذين كفروا من مشركي قومك ـ يا رسول الله ـ سيُصيبهم في الدنيا مثلُ ما أصاب الذين من قبلهم، وما هم بقادرين على الهرب والإفلات من عقاب الله الذي سيصيبهم.

٥٢ ـ أكانوا صُمّاً عمَّا سبق بيانه، ولم يعلم هؤلاء أنَّ الله يُوسِّع الرزق ويُكثِّره لمَنْ يشاء من عباده، ويُضيِّقه على مَنْ يشاء من عباده؛ ليبْلُوَ كُلاً فيما آتاه، إنَّ في ذلك التوسيع والتضييق لعلاماتٍ على أنه لا قابضَ ولا باسطَ إلا الله. فكم من ضعيف الحيلة والذكاء قد وسَّع الله عليه رزقَهُ، وكم من واسع الحيلة والذكاء قد ضيَّق الله عليه رزقَهُ، ولكن هذه الآيات يُدركها ويتأثَّر بها الذين لديهم الاستعدادُ النفسيُّ والقلبيُّ لأن يؤمنوا باللّهِ وبحكمته، ولأن يعملوا بمقتضى إيمانهم، في امتحان الله لهم في ظروف الحياة الدنيا.

٥٣ ـ قل ـ يا رسول الله ويا كلَّ داعٍ إلى الله من أمته ـ للمذنبين الذين لم يُسلموا بعد، وتأنس فيهم قابلية لأن يستَجيبوا لدعوة الحق: الله يناديكم، فيقول لكم: يَا عبادي الذين تجاوزوا الحدَّ جانين على أنفسهم في ارتكاب المعاصي، إذ جعلوها مستحقَّة للعذاب الأليم: لا تَيْأسوا من آثار رحمة الله إذا تعرَّضتم لها بإراداتكم، إنَّ الله يستر الذنوب جميعاً، بالتجاوز عنها، وعدم المُؤاخذة عليها، إذا تُبتم وَصَحَّت توبتكم، إنَّه وحده هو الكثير الستر لذنوب عباده التائبين، الدائم الرحمة بهم.

٥٤ ـ وارجعوا إلى ربِّكم الذي فطركم على الإيمان، فآمنوا بكمال ربوبيَّته، واستسلموا وأَخْلصوا له العبادة، وتداركوا أنفسكم من قبل أن يأتيكُم العذاب في الدنيا، جزاء إصراركم على الشرك، ويكون فيه إهلاككم، ثمَّ يأتيكم يوم القيامة عذابٌ أبديٌّ لا تجدون من ينصركم، فيمنع عنكم الخلود في العذاب.

٥٥ ـ واتَّبعوا بعد أن تؤمنوا وتُسلموا، ما شَرَعه لكم ربُّكم من أحكام، فافعلوا ما فَرَضَ الله عليكم أن تفعلوه، واتركوا ما حرَّم عليكم أن تفعلوه، فهذا أحسَنُ ما أُنزل إليكم، واتَّبعوا كذلك بعد ما فرض الله عليكم أعمالاً يحسنُ فعلها، إذا اتَّبعتموها تطوُّعاً أثابكم ربُّكم، وإذا لم تتَّبعوها لم يُؤاخذكم على عدم اتِّباعها، ولكن تُحرمون ثواب اتِّباعها، فآمنوا وأسلموا، واتَّبعوا جميع أوامره، واجتنبوا جميع نواهيه، من قبل أن يأتيَكُم العذابُ فجأة ـ إن لم تؤمنوا ولم تسلموا وتلتزموا أحكام الدين ـ، وأنتم غافلون عنه، فقد طال أمد عنادكم وإصراركم على شركِكم الباطل.

٥٦ ـ أنزلنا الكتاب، وبعثنا الرسول مُبلِّغاً، وكلَّفنا الدعاة أن يبلِّغوا للأسباب الأربعة الآتية: **السبب الأول**: أن تقولَ يوم القيامة نفس كفرت وكذَّبت مُوبِّخة نفسها على ما كان منها من جرائم: يا نَدَمي ويا حُزني على ما قَصَّرت في حقِّ الله، وقد كنتُ في الدنيا لمن المُستهزئين بدين الله وبكتابه وبرسوله وبالمؤمنين، وبيوم الدين وما فيه من حساب وجزاء.

أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾

٥٧ ـ **والسبب الثاني**: مَنْعَ أن تقول يوم القيامة تلك النفس الكافرة المُكذِّبة: لو أنَّ الله أرشدني إلى دينه وطاعته، بإرسال رسول، أو إنزال كتاب، أو تكليف دعاةٍ يُبلِّغون ما جاء به الرسول، لكنتُ من المتَّقين الشِّرك والمعاصي.

٥٨ ـ **والسبب الثالث**: ردُّ وصَدُّ أن تقول نفس كفرت حين ترى العذاب يوم القيامة عياناً وهي على أبواب جهنم: لو أنَّ لي رجعة إلى الدنيا، فأكون فيها من أهل مرتبة الإحسان، أعلى مراتب المؤمنين.

٥٩ ـ **والسبب الرابع**: زجْرُ أن تقول يوم القيامة نفسٌ كَفرت في الحياة الدنيا، بادِّعاءٍ كاذب وقح: يا ربِّ لم تأتني آيات من عندك، ولو جاءتني لآمنت بها، وكنت من المتَّقين. أعذارك زائلة، وتعليلاتك باطلة، بلى قد جاءتك آياتي، وبيَّنتُ لك سبيل الحقِّ من الباطل، ومكَّنتك من اختيار الحقِّ على الباطل، ولكن تركتَ ذلك وضيَّعت، فكذَّبتَ بآياتي، وتكبَّرت عن الإيمان بها واتِّباعها، وكنتَ من الكافرين كفراً عنادياً استكبارياً، مع وضوح الحقِّ لك بأدلته.

٦٠ ـ ويوم القيامة ترى ـ أيها الرائي ـ الذين كَذَبوا على الله، وزعموا أن له ولداً وشريكاً، وجوههم مُسْوَدَّة تحقيراً لهم، وعلامةً فارقةً تُميِّزهم عن أهل الإيمان والطاعة؛ إذ يجعلها الله بيضاء مُتلألئة: أليس في جهنم مكان إقامة واستقرار للمتكبِّرين عن الإيمان؟

٦١ ـ ويُخلِّصُ الله الذين اتَّقَوْا بعفوه وغفرانه، من كلِّ مكروهٍ يتوقَّعونه على خطاياهم، بالحكم لهم بالفوز، وبإبلاغهم بالطريق التي تُؤدِّيهم إلى الجنَّة، لا يمسُّهم المكروه ولو مسّاً خفيفاً، ولا هم يحزنون على محبوبٍ أو مرغوبٍ فيه فاتهم، أو يخشَوْنَ فواتَهُ، بل هم فرحون مسرورون آمنون.

٦٢ ـ الله مُقدِّر كلِّ شيء بإحكام كامل، ومُبدع كلِّ شيء إيجاداً من العدم ممَّا هو كائنٌ أو يكون في الدنيا والآخرة، وهو على كلِّ شيء حفيظ، فالأشياء كلُّها موكولةٌ إليه، وهو القائمُ بحفظها وبالتصرُّف فيها، إيجاداً وإمداداً، وتغييراً وابتلاءً، ومُحاسبةً ومجازاة لمن منحه الله الاختيار الحر، فما من أصغر جزء من أجزاء كلِّ ذرة في الكون كلِّه إلا وهو خاضع لربوبيَّته في كونه تبارك وتعالى.

٦٣ ـ لله سبحانه وحده مفاتيحُ خزائن السموات والأرض، من الأرزاق والمعادن والقوى، فهو مالكُ أمرها وحافظها والمتصرِّف فيها، والذين جَحَدوا بآيات الله، فلم يؤمنوا بآياته الكونيَّة، والجزائيَّة العقابيَّة، والإعجازيَّة، والبيانيَّة المُنزَّلة على رسله، أولئك المنحطُّون، البُعداء عن رحمة الله هم الخاسرون؛ لأنهم خسروا أنفسهم وأهليهم بإراداتهم الحرَّة.

٦٤ ـ قل ـ يا رسول الله ـ لقادة المشركين في مكة الذين دعوك إلى عبادة آلهتهم، وطلبوا منك الكفَّ عن بيان بطلانها، ووعدوك أن يعبدوا الله معك، فيجمعوا بين عبادة الله وعبادة أصنامهم: أَفَغَيْرَ الله تأمُرونِّي أنْ أعبد أيُّها السُّفهاء الحمقى الذين تغْلوا صدوركم غيظاً من انتشار الإسلام في مكة. ما هذه الحماقة التي ترتكبونها؟ وما هذه السفاهة التي لا تخجلون منها؟!

٦٥ ـ ونؤكِّد بشدة أنه قد أُوحيَ إليك ـ يا رسول الله ـ وأُوحيَ إلى الذين من قبلك من الرسل، قائلين لكلِّ رسول ونبيٍّ: نقسم لك: لئن أشركتَ بالله غيره، ليَبْطُلَنَّ عَمَلُك الصالح الذي عملته قبل الشِّرك، ولتكوننَّ من القوم الخاسرين، وهذا خطابٌ بصريح العبارة للرسول ﷺ، وهو تعريضٌ لكلِّ من آمن به واتَّبَعَهُ أن يحذروا من الشِّرك؛ لئلا تحبط أعمالُهم، ويكونوا من الخاسرين. فإذا كان الرسول ﷺ لا يملك لنفسه عند ربِّه الحماية من أن يحبط عملُه ويكون من الخاسرين إذا أشرك، وهو ذو المكانة العالية عند ربِّه، والمخصوص بالاصطفاء، فكيف يكون حال سائر الناس الذين ليس لديهم عند ربهم مثل ذلك؟!!

٦٦ ـ لا تُجبهم ـ يا رسول الله ـ إلى ما طلبوه منك، بل اللَّهَ وحده لا شريك له فاعبُد مُخلصاً له العبادة، وكن من العاملين بما يُرضي الله عنك، والشاكرين على ما أنعم به عليك.

٦٧ ـ وما عظَّموا الله حَقَّ عَظَمتِهِ، ولم تصل تصوُّراتهم إلى إدراك مقداره الحقِّ المطابق للواقع، بل كلُّ إدراكاتهم ناقصاتٌ عمَّا هو لَهُ من مقدار، وانحطَّ المشركون انحطاطاً فاحشاً حين أشركوا به غيره، ودعوا الرسول ﷺ إلى الشِّرك، ومن عظيم قدرته سبحانه: أن الأرضَ جميعاً في قبضته يومَ القيامة، والسَّمواتُ مَضْمُومات، أو ملفوفات بعضها على بعض بيمينه، تَنَزَّه وتعاظَمَ الله وتعالى عُلُوّاً لا حدَّ له، عمَّا يفتري المشركون من شركاء لله في ربوبيَّته، أو في إلهيَّته، فيعبدونَ آلهةً من دونه.

وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾

٦٨ ـ ونُفِخَ في «القرن» النفخةُ الأولى، فمات كلُّ مَنْ في السموات ومَنْ في الأرض من شدَّة الفزع، إلا مَنْ شاء الله عَدَمَ موته، وبعد مُدَّة متراخية ـ الله أعلم بمقدارها ـ نَفخ المَلَكُ «إسرافيل» في «القرن» النفخة الثانية، مُؤْذناً بإحياء جميع الخلائق، فإذا جميع الخلائق قيامٌ من قبورهم، راجعون إلى الحياة مرة أخرى، ينظرون ماذا يفعل الله بهم؟.

٦٩ ـ وظهرت أرض المحشر مُشرقةً مضيئةً بنور ربِّها حين يتجلَّى الربُّ تبارك وتعالى لفَصْل القضاء بين خلقه، فما يُضارُّون في نوره كما لا يُضارُّون في الشمس في اليوم الصَّحو، وأُحضر كتابُ الأعمال، ونشرت الملائكة صحيفة كلِّ مكلَّف، وجيء بأمر الله بالنَّبيين وفي مقدِّمتهم الرسل عليهم السلام؛ ليكونوا شهداء على أممهم بتبليغ رسالة الله لعباده، وجيء بأُمَّةِ محمد ﷺ الذين يشهدون للرسل بتبليغ الرسالة، فتقوم الحجَّة على الأمم، وقُضِي بين العباد بالعدل التام، وهم لا يُظلمون شيئاً، فلا يُزاد في سيِّئاتهم، ولا يُنْقَص من حسناتهم.

٧٠ ـ وأُعطيت كلُّ نفس جزاء ما عَملت من خير أو شر، جزاءً وافياً غير منقوص، وهو سبحانه أعلمُ من كلِّ العالمين بما يفعل عباده، ممَّا يكسبون بإراداتهم الحرة، حتى ما يكسبون منها في داخل نفوسهم وقلوبهم، لا يحتاج إلى كاتب ولا إلى شاهد.

٧١ ـ وَسِيقَ الذين كفروا في رحلة امتحانهم في الحياة الدنيا إلى أبواب جهنَّم سَوْقاً عنيفاً، أفواجاً وجماعات، بعضهم إثْر بعض، كلُّ أمة على حِدَة، بحسب أنواع كفرهم ومستوياته، وبحسب فئاتهم في الدنيا، حتى إذا وصلوا إلى أبوابها، فُتحت أبوابها السبعة تلقائياً، وكانت قبل ذلك مُغْلَقة، وقال خزنة جهنم من الملائكة للمسوقين إلى إلقائهم من أبوابها توبيخاً وتقْريعاً: ألم يأتكم رسلٌ من أنفسكم ومن جنسكم، يتلون عليكم آياتٍ منزَّلات من الله ربِّكم، ويُحذِّرونكم لقاءَ يومكم هذا؟ قال الكافرون مُقِرِّين: بلىٰ قد جاءت رُسُلُ ربِّنا بالحقِّ، وَتَلَوا علينا آياته، وأنذرونا لقاء يومنا هذا، وعذاب ربِّنا في جهنم، ولكن استكبرنا، وكذَّبنا، وكفرنا، واتَّبعنا أهواءنا وشهواتنا، وغرَّتنا الحياة الدنيا بزيناتها، وخدعنا شياطين الإنس والجنِّ بأباطيلهم، فَثَبَتَتْ علينا وتحقَّقت كلمةُ العذاب الربَّاني السابقة بعذاب الكافرين في جهنم خالدين فيها. دلَّ هذا القول على أنَّ كلَّ الذين يُحكم عليهم بأنَّهم كانوا كافرين في الحياة الدنيا، وماتوا كافرين، قد تبلَّغوا رسالة رسولٍ منهم، من الأوَّلين والآخرين. ودلَّ أيضاً على أنَّ كلَّ رسول من رسل الله قد كان يتلو على أمته آيات مُنزَّلات من عند الله. ودلَّ كذلك على أنَّ كلَّ رسول أنبأ أُمَّته بالآخرة ويوم الدين، وأطمعهم بجنَّات النعيم إذا آمنوا واستجابوا لدعوة ربِّهم، وحذَّرهم وأنذرهم عذاب الله في جهنم خالدين، إذا رفضوا أن يستجيبوا لدعوة ربِّهم التي بلَّغهم إيَّاها رسولُهُ.

٧٢ ـ قال خَزَنة جهنم للكافرين إهانة لهم وإذلالاً: ادخلوا أبوابَ جهنم خالدين فيها أبداً، فَبِئْس مكان إقامة المتكبِّرين على ربِّهم، المُتَعالين عن قَبول الحقِّ، جهنَّم التي يستقرُّون فيها.

٧٣ ـ وَسِيقَ الذين اتَّقوا ربَّهم ـ بتوحيده والعمل بطاعته ـ إلى دار الكرامة والرضوان على مراكبهم إلى الجنة أفواجاً وجماعات، بعضهم إثْر بعض، بحسب أعمالهم ودرجاتهم، حتى إذا جاؤوها، استُقبلوا بالحفاوة والتكريم، وقد فُتحت أبواب الجنة قبل مجيئهم، مبالغةً في تكريمهم، والحفاوة بهم، فحصل لهم السرور والفرح بذلك، وقال لهم خزنتها عند دخولهم الجنة: أَبْشروا بالأمن الدائم، وبالسلامة من كلِّ الآفات، طَهُرتم من دَنَس المعاصي، وزكَوْتم وسَعِدْتم، فادخلوا الجنة حالة كونكم ستكونون خالدين فيها أبداً.

٧٤ ـ فدخلوا الجنَّة مُعزَّزين مُكرَّمين، وقالوا حين وجدوا أنفسهم على أرضها، يتنقَّلون أحراراً، منعَّمين بما فيها من نعيم عظيم: كلُّ الثناء لله؛ إذ هو مستحقُّ الحمد كله، لكمالاته الذاتيَّة المُطْلقة، وإحسانه وتفضُّله، الذي صَدَقنا وعدَهُ الذي وعدنا إيَّاه على أَلْسنة رسله، بأن يدخلنا جنَّته خالدين أبداً، وأَوْرَثَنا أرضَ الجنَّة عطاءً من فضله، وملَّكنا ما كان قد خلق للذين كفروا في رحلة امتحانهم، فيما لو كانوا آمنوا وأسلموا باختيارهم الحُر، ننزل في الجنة ونقيم حيث نريد، ونتصرَّف فيها كما نشاء، لا ينازعنا فيها منازع، فَنِعْمَ ثوابُ العاملين الذين اجتهدوا طاعة ربِّهم، الجنة التي ينعَّمون فيها، خالدين أبداً.

وَتَرَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾

سُورَةُ غَافِر

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾ مَا يُجَـٰدِلُ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿٤﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَـٰدَلُوا۟ بِٱلْبَـٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾

٧٥ ـ وترى ـ يا رسول الله ويا كلّ راءٍ مُؤهَّل لهذا التشريف الربَّانيّ ـ الملائكة مُحْدقين مُحيطين بالعرش، مُصْطفِّين بحافَّته وجوانبه، يُنزِّهون الله عن كلّ نقص، تنزيهاً مُقْتَرناً بحمد خالقهم، وأُنهيَ قضاء الله بين أهل الجنة وأهل النار بالحقّ الثابت حكماً وتنفيذاً، وقال شهود هذا الموقف من الرُّسل والنبيين والملائكة وأهل الجنة ـ شكراً حين تمّ وعدُ الله لهم ـ: الحمدُ لله ربِّ العالمين، ربِّ كل موجود سوى الله تبارك وتعالى، فهو المُسْتحقُّ للثناء الكامل والشكر الدائم، لكمالاته الذاتيَّة المُطْلقة، ولأنه سبحانه المحسن المتفضِّل على عباده.

سُورَةُ غَافِر

١ ـ ﴿حمٓ﴾ سَبَق الكلام على الحروف المُقطَّعة في أوَّل سورة البقرة.

٢ ـ تنزيلُ الكتاب المُتعبَّد بتلاوته ـ الذي يجب على المؤمنين أن يُدوِّنوه في كتاب مَصُون محفوظ عن التحريف والتغيير، والزيادة والنقص ـ على النبيِّ محمد ﷺ من عند اللّهِ القويِّ الغالبِ الذي لا يُغلب، العليم بكلِّ المعلومات.

٣ ـ ساتر الذّنب للمذنبين، وقابل التوبة من التائبين الراجعين إلى طاعته، شديد الجزاء على الذنب بجعله مكافئاً لمقدار الذنب، ذي السَّعَةِ والغنىٰ والتفضُّل والإنعام، لا معبودَ بحقٍّ إلا هو، إلى حكم الله وحده وقضائه وتنفيذ جزائه، وإلى المكان الذي يقضي فيه، مصير جميع الخلائق في الآخرة، فيُجازي كُلاً بما يستحق.

٤ ـ ما يُخَاصِمُ ويُحَاجِجُ في دفع آيات الله الكونيَّة والبيانيَّة المُنزَّلة بالتكذيب والإنكار إلا الذين كفروا، فلا يَخْدَعكَ ويصرفكَ عن البصيرة المُدركة للحق ـ أيُها المُشَاهد لإمهال الله لهم ـ تصرُّفهم في البلاد كيف شاؤوا، بما لديهم من إمكانات وقوى، ووسائل مُسخَّرة لهم؛ فإنَّ عاقبة أمرهم العذاب.

٥ ـ ليسوا أوَّل من كذَّب حتى تجهلوا عاقبة تكذيبهم، فقبلهم كذَّبتْ قومُ نوح نوحاً، والكفارُ الذين تشاكلت مبادئُهم وأهواؤهم واتَّفقت أعمالهم، بعد قوم نوح، كعاد وثمود، وقوم لوط، وقوم شعيب، وفرعون وجنوده، وهمَّت كلُّ أُمَّة من هذه الأمم المكذِّبة بتدبير المكايد، وإعداد أنواع المكر ضدَّ رسولهم، ليقبضوا عليه ويمنعوه من متابعة الدعوة، بالسجن، أو بالقتل، أو بالطرد والإخراج من الأرض، وهذا الهمُّ هو رغبة نفسيَّة لم تصل إلى مستوى الإرادة الجازمة المؤثِّرة في التنفيذ، وخاصموا في آيات الله بالباطل من الأقوال المزخرفة والحيل الفكرية؛ ليُزلقوا بجدالهم الحقَّ الذي جاءت به الرسل في مزالق الشبهات والتلبيسات والتدليسات، رغبةً في أن يُزيلوا الحقَّ عن مواقع ثباته في قلوب المؤمنين به، فقبضتُ عليهم قَبْضَ مُعَاقب، فعذَّبتهم وأهلكتهم، فتفكَّر ـ أيها المتفكِّر ـ الحالة التي كان عليها عقابي الشديد؟ كان مُهلكاً إهلاكاً جماعيّاً مُسْتأصلاً.

٦ ـ وكذلك العقاب الذي أنزله ربُّك بكفار الأُمم السابقة المُكذِّبة، ثبتت كلمة ربِّك الصادرة بشأن جزاء الكافرين الذين ماتوا على كفرهم ولم يستغفروا ولم يتوبوا؛ بأنَّهم أصحاب النار الملازمون لها أبداً لا يفارقونها، ولا يُخفَّف عنهم عذابها.

٧ ـ الذين يحملون العرش ـ وهم أشرفُ الملائكة وأفضلُهم لقُربهم من الله عزَّ وجلَّ ـ ومَنْ حَوْل العرش ممَّن يحفُّ به من سادات الملائكة، يُنزِّهون الله عن كلِّ نقص تنزيهاً مقْترناً بحمده، وإثبات الكمالات الذاتية المطلقة له، إذ يقولون: «سبحان الله وبحمده»، ويصدِّقون بأنَّه واحد لا شريك له، ولا مِثْل له ولا نظير، ويُحْيُون في نفوسهم بتكرير وتجديد، تصوُّراتهم الإيمانية، ويسألون الله تعالى دواماً وبتجدُّد المغفرة للمؤمنين، ويقولون في استغفارهم: ربَّنا وَسِعَتْ رحمتُك وعلمك كلَّ شيء، فاغفر بمقْتضى سَعَةِ رحمتك وعلمك الذنوبَ والمعاصي مغفرةً تسْتَتْبع عدم المُؤاخذة والعقاب عليها، لعبادكَ الذين تابوا راجعين إلى الإيمان بك، وإلى طاعتك، واتَّبعوا دينَك الذي أمرتهم أن يسلكوه في رحلة امتحانهم في الحياة الدنيا، وَصُنْهم واحفظهم من عذابِ الجحيم، بغفرانك وعفوك وفضلك، وبحمايتهم من الوقوع بمُسبِّبات عذاب الجحيم.

رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾

٨ ـ ربَّنا وَأَدخل المؤمنين جنَّات ثبات واستقرار دائم التي وَعَدتهم على لسان رُسُلك، وأدخل معهم في جنَّات عدن الصَّالحين من الآباء والأزواج والذُّرِّيَّة، ولو لم يكونوا يستحقُّون درجات جنات عدن بأعمالهم؛ ليكمُلَ سرورهم، ويتضاعف ابتهاجهم، ويأنسوا بأهلهم، إنَّك أنت وحدك القويُّ الغالب الذي لا يُغْلب، الحَكيم في تدبيرك وصُنْعك.

٩ ـ وصُنْهم واحفظهم ـ يا ربَّنا ـ من المُؤاخَذَة على ما ارتكبوا من سيئات، ومَنْ لم تؤاخذه يوم الدين على ما ارتكب من السَّيِّئات في الحياة الدنيا فقد رحمتَهُ برحمتك الواسعة في القيامة. وذلك العفو عن سيئات مرتكب المعاصي هو الرِّبح والظفر العظيم.

١٠ ـ إنَّ الذين كفروا تناديهم خَزَنة جهنم يوم القيامة وهم في النَّار، وقد كرهوا أنفسهم حين عُرضت عليهم سيِّئاتهم وعَايَنُوا العذاب، فيقولون لهم في النداء من بعيد: لَكَراهةُ الله وبغْضُهُ الشديد إيَّاكم في الدنيا ـ حين طُلب منكم الإيمان، فأبيتم وسترتم الحقَّ وبراهينه ـ أكبر من كراهتكم أنفسكم الآن، عند حلول العذاب بكم.

١١ ـ قال الكافرون: ربَّنا أمتَّنا مَوْتَتَيْن: حين كنَّا في بطون أُمَّهاتنا نُطَفاً قبلِ اتِّصال الرُّوح بنفوسنا، وحين انقضى أجلُنا في الحياة الدنيا، وأحْيَيْتَنا مرَّتين: في دار الدنيا، يوم اتَّصلت الروح بنفوسنا بعد مئة وعشرين يوماً في رَحم أمَّهاتنا، ويومَ بُعثنا من قبورنا، فأمتنا وأحينا حياة امتحانٍ أخرى، لنؤمن ونعمل غير الذي كنا نعمل، أمَّا ما كان منا في الحياة الأولى التي كنا فيها مُمْتَحنين فقد أقررنا بذنوبنا التي ارتكبناها من إنكار البعث وما تَبعه من كبائر الإثم، وقد مرَّت علينا مدَّة نحن فيها نُعذَّبُ في جهنَّم، فهل إلى خروج من النار، ورجوع إلى الدنيا من سبيل لنُصْلحَ أعمالنا، ونعمل بطاعَتك؟

١٢ ـ فأُجيبوا من خزنة جهنم: أن لا سبيل إلى الخروج، وذلكم العذاب والخلود في النار ـ أيها الكافرون ـ بسبب أنَّكم إذا دُعيتم لتوحيد الله كفرتم به، وإن يُجعل لله شريك تُصَدِّقوا بذلك، فالحكمُ في شأنكم لِلَّهِ العليِّ الذي لا أعلى منه، الكبير الذي لا أكبر منه.

١٣ ـ الله العليُّ الكبير الذي يُريكم ـ أيها الناس ـ دواماً آياته في الظواهر الكونيَّة المُتجدِّدة التي تدلُّ على كمال قدرته، ويُنَزِّل لكم من السُّحب ماءً تشربون منه، وتنبت به الزروع المختلفة التي فيها رزق لكم، ويُنزِّلُ من السماء أيضاً أشعة الشمس، وعناصر كثيرة تمدُّ الأرض بما تحتاج إليه، وما يستحضر المعلومات الدينية، والآيات الكونية المُنْبِئَة في هذا الكون، والنعم الكثيرة التي يفيضها الله علينا إلا الذين يرجعون آناً فآناً إلى طاعةِ ربِّهم وشكره ومراقبته وخشيته.

١٤ ـ فاعبدوا الله وحده ـ أيها المؤمنون ـ مُخْلصينَ له الدين، ولا تشركوا بعبادته شيئاً، وخصُّوه بالدعاء، وقوموا بالدعوة إلى دين الله، ولو كَرِهَ الكافرون عبادتكم وإخلاصكم وقيامكم بتبليغ دين ربكم.

١٥ ـ الله سبحانه ذو درجات رفيعات من الكمالات لا تدرك الخلائق غاياتٍ لها، المرتفعُ سبحانه بعظمتِهِ في صفات جلاله وكماله ووحدانيَّته عن كلِّ ما سواه، وذو درجات رفيعات ممَّا خلق، يرفع إلى أجزاء منها بعض عباده الذين يستحقُّون بفضله أن يرفعهم إليها، وهم متفاضلون في الدرجات التي يرفعهم إليها، خالقُ العرش ومالكهُ والمُتصرِّف فيه، وهو مخلوق عظيم، فوق السموات السبع ومحيط بها، يُنزِّل الوحيَ بقضايا الدين من عقائد وشرائع ووصايا وتعليمات فتحيا بها الأرواح، كما تحيا الأبدان بالأرواح، يُنزِّله من قضائه وأمره على الأنبياء؛ ليبلِّغوا بالوحي ما أمرهم الله بتبليغه، وليبشِّروا من آمن بجنَّات النعيم، وليُنذروا من كفر وعصى يوم القيامة الذي يلتقي فيه الأوَّلون والآخرون، بدءاً من آدم حتى آخر مخلوق من الناس.

١٦ ـ يوم هم خارجون من قبورهم، ظاهرون لا يستُرهم شيء، على أرض المحشر الواسعة الخالية من كلِّ ساتر، لا يخفى على الله شيءٌ من أعمالهم وأحوالهم، كما كانوا يتوهَّمون في الدنيا، يقول الله سبحانه في المحشر يوم القيامة: لمَن المُلْكُ اليوم؟ فيأتي الجواب من الملائكة والمتلاقين في المحشر: لِلَّهِ الواحدِ في ربوبيَّته وملكه لكلِّ شيء، المتفرِّد بأسمائه وصفاته وأفعاله، القهَّار الذي قهر جميع الخلائق بقدرته وعزَّته.

ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَـٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾ ۞ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَقَـٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ ﴿٢٥﴾

١٧ - اليومَ تُحاسب كلُّ نفس وتُجزى بما كسبت بإراداتها الحرة، فيُجْزى المحسنُ بإحسانه، والمسيءُ بإساءته، لا ظُلمَ لأحدٍ اليوم بزيادة المسيء بأكثر من إساءته، أو نقص المحسن بأقلَّ من حسناته، إنَّ الله المحيط بكلِّ شيء علماً سريعُ الحساب، لا يشغله حسابٌ عن حساب، بل يُحاسِبُ الخلق كلَّهم في وقت واحد، ولا يُظلم محسن ولا مسيء بطول انتظار.

١٨ - وأعلم - يا رسول الله - الذين كفروا ولم يستجيبوا لدعوة الحقِّ بعواقب غير سارَّة يوم القيامة القريبة، حين تزول القلوب عن أماكنها تحت قفص الصَّدر حتى ترتفع إلى الحناجر من شدَّة الخوف من هول الموقف، حالة كونهم مكروبين مُمْتلئين خوفاً وحزناً، مُمْسكين ذعرهم داخلَ صدورهم، لا يُعبِّرون عنه بصياح ولا عويل، ما للظالمين من قريبٍ ينفعهم، ولا شفيعٍ يشفع لهم، يُطاع فيهم، فيدفع عنهم تنفيذ قضاء الله بعذابهم.

١٩ - يعلم الله سبحانه مُسارَقَة الأعين للنظر إلى ما لا يَحل، ويعلم مُضْمَرات القلوب مما لا يظهره أصحابها، من الكفر الذي يخفيه المنافقون، والرياء، والكراهية، والحب، ومن النيَّات والإرادات والرَّغبات؛ فيجزي كلَّ نفس بما كَسَبت.

٢٠ - واللَّهُ يحكُمُ بالعدل، ويبتُّ قرارات الجزاء بالثواب والعقاب بين الخلائق بالحقِّ يوم القيامة، أما المحسنون فيُضاعف لهم أجورهم أضعافاً كثيرة، وأما المسيئون فيتجاوز عن كثير من سيئاتهم، فلا يُعاقبهم عليها، والذين يعبدهم المشركون من دون الله، لا يحكمون بين العباد بشيء؛ لأنها لا تعلم شيئاً، ولا تقدر على شيء، إنَّ الله هو وحده السميعُ لكلِّ ما له صوت مهما كان ضعيفاً خافتاً، حتى أصوات حركات أجزاء الذرَّة مهما صَغُرت، وهو وحده البصير بكلِّ ما له ذاتٌ يُمكن أن تُرى، ومنه حركات الإلكترونات في داخل الذرَّات، فكيف يخفى عليه شيءٌ من أصوات عباده وأعمالهم؟!

٢١ - أبقُوا في بلدهم، ولم يَسِر هؤلاء المُكذِّبون في الأرض مسافرين في رحلاتهم التجارية، فينظروا بأعينهم كيف كان مصيرُ الأمم الذين كانوا من قبلهم؟ دمَّر الله بلدانهم، وأبقى منها آثاراً يعتبرون بها. فالعاقل من اعتبر بغيره، فإنَّ الذين مضوا من الكفار كانوا أشدَّ قوةً من مشركي مكة، وأبقىٰ آثاراً عمرانية في الأرض، فلم تنفعهم قوَّتهم ومنشآتهم، من عقاب الله لهم، فقبض الله عليهم قبضَ عقاب، وأهلكهم إهلاك استئصال؛ بسبب ذنوبهم، ولم يكن لهم من حافظ وحامٍ يدفع عنهم العذاب.

٢٢ - ذلك العذابُ الذي نَزَل بالمُهْلكين السابقين، بسبب أنَّهم كانت تأتيهم رُسلُهم بالأدلةِ الواضحات من خوارق العادات، والآيات المنزَّلات على الرسل، المُبيِّنات لأصول الدين وأحكام الشريعة، فَجَحَدوها، فقبض الله عليهم قبض عقاب وإهلاك شاملٍ مقرونٍ بعذابٍ شديد، إنَّه سبحانه عظيم القوة لا يغلبه أحد، بالغ الشدَّة في العذاب.

٢٣، ٢٤ - ونؤكِّد بشدَّة أننا بعظمة ربوبيَّتنا أرسلنا موسى مصحوباً بآياتنا البيانيَّة والإعجازيَّة العظيمة، وحجَّةٍ ظاهرة وبرهان جليّ مُبيِّن للحقِّ الذي أرسلناه به إلى فرعون ملك مصر، وهامان وزيره، وقارون صاحب الأموال والكنوز، وأقوامهم، فقالوا: هو ساحرٌ بما جاء به من المعجزات، كذَّابٌ في دعواه أنه رسولٌ من ربِّه؟

٢٥ - فلمَّا جاء موسى فرعونَ وقومَه بالمعجزات الظاهرة من عندنا، ومنها: آيتا العَصَا التي تنقلب ثعباناً حقيقياً، واليد التي تصيرُ بيضاءَ متلألئةً من غير سُوء، وبدأ بعض قومِهِ الإسرائيليين يؤمنون به، وبما جاء به عن ربه. قال أركان القصر الفرعوني: أعيدوا قتلَ أبناء الذين آمنوا معه، واستبقُوا المواليد الإناث على قيد الحياة؛ للخدمة إذا صرن نساء كما فعلتم من قبل؛ ليصدُّوهم بذلك عن متابعة موسى عليه السلام ومظاهرته، خوفاً من أن يؤمن به كلُّ الإسرائيليين، ويمتدُّ إلى المصريين، وما تدبير فرعون وقومه وكيدهم الذي يكيدونه لحماية باطلهم إلا مغموساً في أوحال ضلال عن الحقِّ والهدى والرشاد، يُذهب الله كَيْدهم في نهاية الأمر، ويحيق بهم ما يريده الله بهم من ضياع وخسران.

وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ۖ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾

٢٦ ـ وقال فرعونُ لوزرائه ومجلس المُسْتشارين في أواخر دعوة موسى عليه السلام في مصر، وبعد أن أجرى الله له الآيات التسع التي آتاه إياها: اتركوني أقْتل موسى، ولْيَدعُ موسى ربَّه الذي يزعم أنه أرسله إلينا، فيمنعه منا، وينزل نقمته علينا، إني أخاف أن يُغَيِّر موسى دينكم الذي أنتم عليه، أو أنْ يُظهِرَ بدعوته وخوارقه في أرض مصر الفساد، بتحريض الشعب على التمرُّد على سلطان القصر الفرعوني.

٢٧ ـ وقال موسى لفرعون وملئه لمَّا تهدَّدوه بالقتل: إني لجأت مستعيذاً بربي وربِّكم لحمايتي وحفظي، واعتمدتُ عليه من شرِّ كلِّ مُسْتكبر عن توحيد الله وطاعته، لا يؤمن بيوم القيامة الذي يكون فيه الحساب من قِبَل ربِّ العباد.

٢٨ ـ عقد فرعون جلسة لاحقة جمع فيها وزراءه ومُسْتشاريه، وقال لأعضاء مجلس وزرائه ومُسْتشاريه: ما رأيكم فيما عرضتُ عليكم من قتل موسى؟ وعندئذ قال رجلٌ مؤمنٌ من أعضاء مجلس المُسْتشارين في القصر الفرعوني يُخفي إيمانه منكراً عليهم: أتقتلون رجلاً من أجل أنه يقول: ربِّي الله؟ في حال أنه قد جاءكم بالجليَّات الفكريَّة الصحيحة المقرونة بالمعجزات الواضحات التي تدلُّ على صدق نبوَّته من خالقكم ومُمدِّكم دواماً بعطاءات ربوبيَّته، ولا يخلو أمر موسى من أحد احتمالين: إمَّا أن يكون كاذباً، وإما أن يكون صادقاً، فإن كان كاذباً لا يضرُّكم ذلك، إنما يعودُ وَبَالُ كذبِهِ عليه، وإن كان صادقاً فكذَّبتموه، يُصبكم ـ في أضعف احتمالات النجاة ـ بعض الذي يعدُكم، مُحذِّراً ومنذراً من عقاب الله العاجل في الدنيا، والآجل إلى يوم الدين، ولو أنه كان كاذباً لما تتابعت هداية الله له، وإمداده بآياتٍ شاهدتموها، إنَّ الله لا يهدي مَنْ هو مُجَاوزٌ للحدِّ، كذَّابٌ على الله في ادِّعائه النبوَّة، فلا بدَّ أن يخيب في مسْعاه، ولا ينجح في مقاصده.

٢٩ ـ يا قومي الذين أنتم أهلي وعشيرتي: لكُم المُلْكُ اليوم غالبين بقوَّاتكم في أرض «مصر» كلَّ مخالفيكم ومُنافسيكم، فلا تتعرَّضوا لعذاب الله بالتكذيب وقتل النبي، فَمَنْ ينصرنا حامياً لنا من عذاب الله الشديد إن حلَّ بنا كما توعَّدنا موسى بسبب كفرنا بما جاء به عن الله؟ قال فرعون لمجلس وزرائه ومُستشاريه بعدما خشي أن تؤثِّر أقوال هذا الرجل على جمهور الأمراء والوزراء لما فيها من بيانات وحجج مقنعة، فأنهىٰ العرض الاسْتشاري، وحسم الأمر بقرار استبدادي: ما أُريكم من الرأي والنصيحة إلا ما أراه لنفسي صالحاً، وما أرشدكم في عرضي عليكم أن أقتل موسى إلا إلى طريق الهدى؛ لحمايتكم ممَّا يُحدثه هذا الرجل من فتنة في «مصر».

٣٠ ـ وقال الرجل المؤمنُ من آل فرعون يتابع نُصحه لفرعون ومجلس وزرائه ومُسْتشاريه: يا قومي الذين أنتم أهلي وعشيرتي، إني أخاف عليكم عذاباً مُعجَّلاً في الدنيا، وإهلاكاً شاملاً، ينزلُهُ ربُّكم بكم، مثل ما أنزل في الأيام التي أهلك فيها الجماعات الذين تشابهت مبادئُهم وأهواؤهم وصور كفرهم، وتحزَّبوا على أنبيائهم.

٣١ ـ إني أخاف عليكم إجراء سنَّة مثل سُنَّةِ الله التي أجراها الله لقوم نوح وعادٍ وثمود، ومَنْ جاءَ بعدهم في الإصرار على الكفر والتكذيب حتى أتاهم العذاب. وقد أهلك الله هؤلاء الأحزاب بعدله؛ لأنهم ظلموا بكفرهم، وبتكذيبهم رسل ربِّهم، وما الله سبحانه يريدُ ظلماً للعباد، فلا يُهلكهم إلا بعد إقامة الحُجَّة عليهم.

٣٢ ـ ويا قومي الذين أنتم أهلي وعشيرتي: إني أخافُ عليكم من عقاب الله المؤجَّل إلى يوم التَّناد، يُنادىٰ كلُّ أناس بإمامهم، وينادي بعضكم بعضاً، بالويْل والثبور، والشكوى والتحسُّر ممَّا نزل بكم من عظائم الأمور.

٣٣ ـ يوم تحاولون أن تبتعدوا مدبرين، خائفين من إلقائكم في النار، فلا تستطيعون. ما لكم من عذاب الله وعقابه النازل بكم حتماً من حافظ يحفظكم، ومانع يمنعكم من عذابه، ومَنْ يحكم الله عليه بالضلالة بناءً على ما سَلَف منه في الحياة الدنيا، فما لَهُ مِنْ حاكم يحكم له بالهداية، لِيُنْجيَهُ من عذاب الله.

وبعد أن حذَّر مؤمن آل فرعون قومه من العذاب المعجَّل في الدنيا أولاً، وحذَّرهم من عذاب الله الخالد يوم الدين ثانياً، ذكَّرهم بعد هذين التَّحذيرين بيوسُف عليه السلام الذي كان الرجل الثاني في القصر بعد فرعون ملك «مصر» في زمانه.

وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾

٣٤ ـ وأؤكّد لكم ـ أيُّها القوم ـ مُقْسماً أنَّ الله أرسل إليكم النبيَّ الكريمَ يوسُف بن يعقوب من قبل موسى بالآيات الواضحات الجليَّات من قضايا الدين عقيدةً وشريعةً وأحكاماً، مقرونةً بالآيات الخوارق الدالاّت على صدق نبوّته، فما زلتم في شكٍّ ممَّا جاءكم به مانع لكم من الإيمان به، وترك طريقتكم الباطلة؛ لتبقى لكم امتيازاتكم الظالمة التي تنالونها بقوة السلطان في «مصر»، حتى إذا مات وَخَلا لكُم الحكم، انطلقتم في «مصر» ظالمين آثمين، لا يعترض تصرُّفاتكم سلطان رسولٍ حاكم، بيده مقاليد أمور الدولة، وقلتم من غير حُجَّة ولا برهان: لنْ يبعثَ الله من بعد يوسُف رسولاً يملك مقاليد الحكم في القصر الفرعوني؛ لأننا لن نمكّن رسولاً من الوصول إلى كرسيِّ الحكم، حتى لا يمنعنا من تحقيق مُراداتنا من أهوائنا وشهواتنا، باعتبارنا الأسرة المالكة الحاكمة ذات التصرُّف المطلق، وقد انطلقتم باغينَ ظالمينَ، بعد يوسُف، ومكَّنكم الله من هذا الضلال في الدنيا، ليَدينكُم بجرائمكم يوم الدين. مثل هذا الإضْلال الذي حَصَل لآل فرعون يُمَكِّن الله مِن الضلال مَنْ أراده لنفسه ممَّن هو مُجَاوِزٌ الحدَّ في شركه وعصيانه وبغيه وجرائمه، شاكٌّ في الحقِّ الواضح الجليِّ لتحقيق أهوائه وشهواته ومُراداته الظالمة الآثمة. وهذه سنَّة الله في عباده، فمن اختار لنفسه سُبُل الضلال مكَّنه الله من سُلوكها، وأمدَّهُ بمختلف القُوى؛ ليحقِّق ما اختار لنفسه في رحلة امتحانه.

٣٥ ـ هؤلاء المسْرفون المرتابون الذين يُجَادلون في إبطال آيات الله البيانيَّة والكونيَّة والإعجازيَّة بالتكذيب بغير حُجَّة وبرهان أتاهم من علم صحيح أو خبر يقينيٍّ ثابتٍ عن الله، كَبُرَ ذلك الجدال كُرهاً عند الله وعند المؤمنين؛ لانكشاف مُراوغاتهم وحيلهم الجدليَّة. كما خَتَم بالضلال، وحَجَبَ عن الهُدى قلوبَ هؤلاء المُخاصمين نتيجة ما كسبوه بإراداتهم من أعمال ظاهرة وباطنة، يتولَّد عنها الطبع بمقتضى سنة الله في عباده، ضمن قوانين الأسباب والمسبَّبات الثابتة، كذلك يختم الله على كلِّ قلب مُتعالٍ على الحقِّ، مُتعاظم على عباد الله، مُتسلِّط بالقوة على الناس يُكرههم بالقهر على ما يريد بغير حق، فتنطمس بصيرته فلا يهتدي بالنور الذي يوضع بين يديه، بل يستمر تائهاً في ظلماته.

٣٦، ٣٧ ـ وقال فرعونُ لوزيره: يا هامانُ ابْنِ لي قصراً عالياً شامخاً؛ لعلِّي أبلغ طُرُق السموات وأبوابها العلويَّة من سماء إلى سماء، فأرى إله موسى الذي يمدُّه بالقوى العجيبة والخوارق، لأسأله: هل موسى رسوله حقاً؟ وإنِّي لأظنُّ موسى كاذباً فيما يدَّعي ويقول: أنَّ له رباً غيري. ومثل ذلك التزيين الباطل الذي جعل فرعون يُعرض عن قبول دعوة المؤمن من آله إلى الحقِّ الربَّاني، زُيِّن لفرعون أيضاً سُوءُ عمله في كلِّ حياته حتى رآه حَسَناً، ومُنع وصُرف عن سبيل الهدى؛ بتزيين الشيطان وأهواء نفسه ووساوسها وشهواتها، ودبَّر فرعون تدبيراً ظاهراً وخفياً للتخلُّص من الرجل المؤمن من آله، ومن موسى عليه السلام، ولكنَّ الله أحبط كَيْده، وأنجى موسى وهارون ومَنْ معهما، وأغرق فرعون وجيشه، وما مكرُ فرعون واحتيالُه لقمع الحقِّ ودعاته إلا في خسارةٍ وخَيْبةٍ وهلاك.

٣٨ ـ وقال الذي آمن من قوم فرعون: يا قومي الذين أنتم أهلي وعشيرتي: اتَّبعونِ فيما أدعوكم إليه، أُبيِّن وأُوضِّح لكم الطريق الموافق للحقِّ والصواب، ولما هو الأفضلُ والأحسن والأكثر نفعاً، والأبعد عن الضرِّ العاجل والآجل.

٣٩ ـ يا قومي الذين أحرصُ على نجاتهم من عذاب الله: ما هذه الحياة الدنيا إلاّ متاع حقير صغير سريع الزوال، تنتفعون بها مدَّة قليلة ثم تنقطع، ومصيرها إلى الزوال والفناء، فلا تغرنَّكم زينتها، ولا تخدعَنَّكم مظاهرها وفتنتها. وإنَّ الآخرة ـ وحدها ـ هي دار الاستقرار الدائم التي تستقرُّون فيها بسكون وطمأنينة، فاحذروا أن يكون استقراركم في الآخرة في دار العذاب، واحرصوا أن يكون استقراركم في دار النعيم التي أعدَّها الله للمؤمنين المتَّقين.

٤٠ ـ إنَّ من قانون الجزاء الربَّاني القائم على العدل: أنَّ مَنْ عمل سيئةً من مرتبة الشِّرك فما دونَهُ من الجحود والنفاق فجزاؤهُ جهنَّم خالداً فيها، ومن عمل بالمعاصي دون الشِّرك فجزاؤه العقوبة بقَدْرِها في أشدِّ درجات الجزاء عليها، إذا لم يغفر ولم يَعفُ سبحانه. ومن قانون الجزاء الربَّاني القائم على الفضل: أنَّ مَنْ عمل عملاً صالحاً من ذكر أو أنثى ـ وهو مؤمنٌ بما يجب أن يؤمن به ـ فأولئك رفيعو المنزلة يدخلون الجنَّة، يُرزقون فيها مما يحبُّون من رزقٍ ماديٍّ ومعنويٍّ رزقاً غير مقطوع ولا ممنوع، وغير مُقدَّر بحساب الحاسبين، لا تَبِعة عليهم فما يُعطون في الجنَّة من الخير.

وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ لَيۡسَ لَهُۥ دَعۡوَةٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَلَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذۡكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمۡۚ وَأُفَوِّضُ أَمۡرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٦﴾ وَإِذۡ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا نَصِيبٗا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُلّٞ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ حَكَمَ بَيۡنَ ٱلۡعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ يُخَفِّفۡ عَنَّا يَوۡمٗا مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٩﴾

٤١ ـ ويا قومي الذين أنتم أهلي وعشيرتي: أيُّ شيءٍ هو لي مُبَاينٌ للحقِّ والخير حتى رفضتم دعوتي إلى الإيمان الذي يُوجبُ النَّجاة من الخلود في عذاب النار يوم الدين، وأيُّ شيء هو لكم من دليل تقبله العقول السليمة، وأنتم تدعونني إلى الشِّرك الذي يُوجب الخلود في عذاب النار؟!

٤٢ ـ إنكم تدعونني لأكفر بالله خالق كل شيء، وتدعونني لأُشركَ به آلهتكم الباطلة، التي لا يوجد دليلٌ عقليّ يُثبت إلٰهيَّتها، ولا دليلٌ حسِّيٌّ يُثبت ربوبيَّتها، وأنا أدعوكم إلى الإيمان بالله ربِّكم، الذي لا يوجد معبود بحقٍّ إلا هو، ومن صفاته: أنه القويُّ الغالب في انتقامه ممَّن كفر، عظيم الغفران وكثيره، فهو يستر سوابق ذنوبكم، ويتجاوز عن مُؤاخذتكم عليها، إنْ آمنتم وأسلمتم وعملتم أعمالاً صالحة ترضيه.

٤٣ ـ حقاً إنَّ الإله الذي تدعونني لعبادته ليس له أثرٌ يُحقِّق صحَّة هذه الدعوة في الدنيا ولا في الآخرة، فدعوتكم كاذبة باطلة ليس لها حقيقة، مرفوضة لذوي العقول الصحيحة السليمة، فهي بمثابة الأمر المعدوم الذي يقال بشأنه: لا وجود له، وأنَّ رجوعنا، ومكان رجوعنا، وزمانه بعد الموت والبعث، إلى حساب الله، وفصل قضائه، وتنفيذ جزائه، فيُجَازي كُلًّا بما يستحقُّه، وأنَّ الغالين في ذنوبهم، ومعاصيهم، وبغيهم، وجرائمهم، وظلمهم إلى دَرَكة الكفر هم أصحاب النار الملازمون لها، لا يفارقونها، ولا يُخفَّف عنهم عذابها.

٤٤ ـ فَسَتَذكرون في الدنيا قبل الآخرة، ما أقولُ لكم بتكرار ناصحاً وهادياً، وذلك حينما ينزل بكم عذابٌ من الله يستأصلكم به مُهْلِكاً لَكُم، وأردُّ أمري إلى الله، وأجعل له التصرُّف فيه، واسأله الحماية والحفظ من مكر الأعداء وكيدهم؛ إنَّ الله بصيرٌ بالعباد لا يغيب عن بصره تدبير أعدائه، فهو قادرٌ على أن يُحبط تدابيرهم، وهو الذي يحفظ أولياءَه.

٤٥ ـ فجعل الله بين مؤمن آل فرعون وبين السيئات التي مكروها ضدَّه وقايةً، فلم يُصبه منها شيء، وأحاط العذاب السوء نازلاً بآل فرعون، بالغرق في الدنيا، والنار في البرزخ والآخرة.

٤٦ ـ النارُ يُعرضون عليها صباحاً ما بين طلوع الفجر والشمس، ومساءً من العصر إلى غروب الشمس في قبورهم إلى يوم الحساب، ويومَ تقومُ ساعةُ بعث الموتى إلى الآخرة، ويجري حساب الله، وفصلُ قضائه بآل فرعون الكافرين، يقول الله تعالى لخَزَنة جهنم: أدخلوا آل فرعون مكاناً من جهنّم فيه أشدَّ العذاب.

وهذه الآية دليلٌ على إثبات عذاب القبر، أعاذنا الله منه بمنِّه وكرمه؛ إذ أنَّ آل فرعون يُعرضون على النار ـ في مدَّة البرزخ بين الموت والبعث ـ غدواً وعشياً، قبل يوم القيامة، وإنَّ في هذا العرض على النار لعذاباً.

٤٧ ـ وضع في ذاكرتك ـ أيها المتلقِّي لبيان ربِّك ـ إذْ يختصم أهل النار في النار، فيقول الضعفاء الأتباع للمستكبرين الذين كانوا أئمتهم: إنا كنَّا لكم تابعين، وكنتم أئمتنا في الدنيا، نطيعكم فيما كنتم تأمروننا به، وصرنا الآن جميعاً مُعذَّبين للكفر الذي أمرتمونا به، وللجرائم التي أطعناكم في ارتكابها، فهل أنتم اليوم كافُّون وصارفون عنا جُزءاً من عذاب النَّار، بتحمُّلكم قسطاً من عذابنا؟

٤٨ ـ قال الرؤساء والقادة المتبوعون: إنا جميعاً في النار نحن وأنتم، وكلُّ واحدٍ منا يعذَّب بالعدل على مقدار ما قدَّم في الدنيا من كفر وجرائم وآثام، باختياره الحر، إنَّ الله قد قضى بين العباد جميعاً بالعدل والفضل، فلم يحكم عليكم بأكثر ممَّا تستحقُّون من عذاب، ولا نستطيع أن نكفَّ أو نصرف عنكم شيئاً من العذاب، والحكم له وحده لا شريك له.

٤٩ ـ وقال الذين يعذَّبون في النار بعذابٍ أبديٍّ حين اشتدَّ عليهم العذاب لِخَزَنة جهنَّم يستعطفونَهُم بتذلُّل وخضوع: ادعُوا ربَّكم يُخَفِّف عنا يوماً واحداً من العذاب بقدر يوم من أيام الدنيا؛ كي تحصل لنا بعض الراحة.

قَالُوٓاْ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ ۚ قَالُواْ فَٱدْعُواْ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٤﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾

٥٠ ـ قال خَزَنة جهنم ـ تهكُّماً بهم ـ: ألم تكن لكم أسماع وأبصار ووسائل إدراك تفرِّق بين الحقِّ والباطل، ولم تكن تأتيكم رسُلكم في الحياة الدنيا بالمعجزات الظاهرات؟ قال أهل جهنم: بلى. كانت لنا أسماع وأبصار وأجهزة إدراك تفرِّق بين الحقِّ والباطل، وجاءتنا الرسل، فبلَّغونا مطلوبَ الله منا، فكذَّبناهم. قال خَزَنة جهنم: نحن لا ندعو لكم، ولا يُخفَّفُ عنكم العذاب، فادعوا أنتم ربَّكم، ولكن هذا الدعاء لا ينفعكم؛ لأنكم كنتم في الحياة الدنيا كافرين، وما دعاء الذين كانوا كافرين بربِّهم إلا في ضَيَاع لا يُقبل، ولا يُستجاب، ولا أثر له عند الله.

٥١ ـ إنا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا والذين آمنوا إيماناً صحيحاً صادقاً في الحياة الدنيا على أعدائهم الكافرين بالغَلَبة والقهر، والحُجَّة والبرهان، وبالانتقام منهم، مهما أمهلتهم وأمليتُ لهم، وسوف ننصر رسلنا والذين آمنوا يوم القيامة، يوم تَشْهَدُ فيه الملائكة والرسل والمؤمنون على الأمم التي كذَّبت رسُلَها، وتشهد بأن الرُّسل قد بلَّغوا رسالات ربِّهم، فيحكم الله لأوليائه المؤمنين بأنهم من أهل جنات النعيم، ويحكم على الكافرين بأنهم من أصحاب دار العذاب الأليم.

٥٢ ـ يومَ لا ينفعُ الظالمين عذرهم إن اعتذروا عن كفرهم، ولا يُقبل منهم، ولهم الطَّرد الكبير الشديد من رحمة الله، ولهم سُوءُ دار الآخرة، وهو عذابها في جهنم.

٥٣، ٥٤ ـ ونقسم مؤكِّدين أننا آتينا موسى الآيات البيِّنات المُنزَّلات، والآيات الخوارق المعجزات، فكذَّب بها فرعون وجنوده، فنصرنا أولياءنا على أعدائنا، وأوْرَثنا بني إسرائيل من بعد موسى كتاب التوراة؛ إرشاداً وتذكرةً لأصحاب العقول الواعية الدرَّاكة، التي تعقل المعارف فتُمسك بها، وتعقل النفس عن اتِّباع الهوى.

٥٥ ـ فاصبر ـ يا رسول الله ـ على أذى قومك، كما صبر الذين من قبلك من الرسل؛ إنَّ وعد الله حقٌّ في إظهار دينك، وإهلاك أعدائك، واسأل ربَّك أن يغفر لك ما قد يقع منك من ذنب، في حدود التقصير فيما أوجب عليك من مراتب البرِّ والإحسان، ونزِّه ربَّك تنزيهاً عن كلِّ ما لا يليق بجلاله، واجعل هذا التنزيه مُقْتَرِناً بحمده والثناء عليه بصفاته الجليلة وأسمائه الحُسْنى بالعشيِّ: في آخر النهار من العصر إلى الغروب، والإبكار: في أوَّله من طلوع الفجر حتى طلوع الشمس.

٥٦ ـ إنَّ الذين يُخاصمون في دلالات آيات الله الكونيَّة والبيانيَّة المنزَّلة والجزائيَّة العقابيَّة والإعجازيَّة عناداً بغير برهان أتاهم من مقاييس عقلية، أو أدلة حسيَّة، أو خبر عن الله صادق، ما حملهم على المجادلة في آيات الله بالباطل إلا ما في صدورهم من الكِبْر والتعاظم والتعالي عن الحقِّ، وليس تعاليهم بمُوصلهم إلى غايتهم، فهم بين الكِبْر في نفوسهم وواقع حالهم على طَرَفي نقيض، إنَّ كبرهم يجعلهم ينتفخون في نفوسهم، وواقع حالهم يتصاغَرُ بهم حتى يضعهم في مواقعهم التي هم عليها، فاعتصم بالله من شرِّهم، ومن التأثُّر بجَدليَّاتهم وزُخرف أقوالهم الخادعة؛ إنَّه هو السميع لاستعاذتك به، البصير بأحوال نفسك، فإذا وجدك صادقاً في تضرُّعك، أعاذك وحماك ونصرك على المجادلين في آيات الله بالباطل.

٥٧ ـ لَخَلْقُ الله السموات والأرض مع عِظَمِها أكبرُ من خلق الناس وإعادتهم بعد الموت، ومع أنَّ السموات والأرضَ أكبر من خلق الناس، فهي كلُّها مُسخَّرة لله، تسير طائعةً لما يُجري الله فيها بأمره. فما للإنسان المستكبر يتعالى ويتعاظم عن طاعة الله وعبادته، ويجادل في آياته بالباطل؟! ولكنَّ أكثر الناس لا يرغبون في أن يعلموا حقائق الأمور، التي تقتضي كفَّهم عن اتِّباع أهوائهم وشهواتهم وجدالهم بالباطل.

٥٨ ـ وما يستوي الجاهل الذي ساقه الجهل إلى الكفر، والعالم الذي هداه علمُه إلى الإيمان، وكذلك لا يستوي أفراد الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ولا أفراد جنس المُسيء، فكلٌّ من الفريقين أفرادُهُما متفاضلو المُستويات؛ فلا بدَّ أن يظهر التفاوت بين الفريقين، فيما بعد الموت والبعث، ولا بدَّ أن يعاقب الكافر على كفره، وأن يُثاب المؤمن على إيمانه. كما لا بدَّ أن يُثاب كلُّ فرد من أفراد من آمن وعمل صالحاً بحسب درجته، أما المسيئون فيستحقُّون العقاب بحسب دَرَكة كلِّ واحد منهم من المعاصي والذنوب، تذكُّراً قليلاً تتذكَّرون ـ أيُّها الناس ـ فيحدث التذكُّر فيكم الأثر النفسيَّ والسلوكيَّ.

إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾ ۞ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّى وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٦﴾

٥٩ ـ إنَّ ساعة بعث الموتى وقيام الناس من قبورهم إلى ربِّهم، لساعةٌ آتية لا شكَّ في قيامها ومجيئها، ولكنَّ أكثر الناس لا يرغبون أن يُصَدِّقوا بالبعث بعد الموت، اتِّباعاً لأهوائهم وشهواتهم ومطالب نفوسهم.

٦٠ ـ وقال ربُّكم: ادعوني ـ دون غيري ـ وخصُّوني بالعبادة، ولا تشركوا بي أحداً، أستجب لكم، وأما آلهتكم فإنها لا تستجيب لكم بشيء. إنَّ الذين يَغلون في كِبْرهم، مُترَفِّعين ممتنعين عن عبادتي، وأنا ربُّهم المُمِدُّ لهم بعطاءات ربوبيَّتي، سيدخلونَ جهنَّم يوم القيامة صاغرين ذليلين، جزاء استكبارهم.

٦١ ـ الله وحده الذي جَعَل لكم الليل؛ لتحصل لكم الراحة فيه بالنوم والسكون، وجعل النهارَ مُضيئاً كاشفاً لكم الأشياء التي تريدون إبصارها بأعينكم، لتعملوا في النهار وتتصرَّفوا في حوائجكم ومُهِمَّاتكم وأمور معاشكم. إنَّ الله سبحانه لذو فضْل عظيم على الناس بنعمه الوفيرة، والواجبُ عليهم أن يشكروه على ما تفضَّل به عليهم، ولكنَّ أكثر الناس يكفرون فضل الله عليهم، ولا يشكرونه أدنى درجات الشكر بالإيمان والإسلام.

٦٢ ـ ذلكم العظيمُ الجليلُ ـ الذي خَلَقَ لكم الليل والنهار، المُميِّز بالأفعال الخاصَّة التي لا يُشاركه فيها أحد ـ هو الله ربُّكم خالقُ كلِّ شيء في السموات والأرض، من أصغر أجزاء الذرَّات، إلى أكبر الكائنات من المجرَّات، فما فوقها، حتى حركات كلِّ ذي حركة فيها، لا معبودَ بحقٍّ إلا هو، الجامع لهذه الأوصاف من الإلهيَّة والربوبيَّة وخَلْقِ الأشياء كلِّها، لا شريك له في ذلك، فكيف تُصرفون عن عبادة الله عزَّ وجلَّ إلى عبادة غيره؟!

٦٣ ـ كما صُرفتم عن الحقِّ مع قيام الدلائل الجليَّة، كذلك يُصرفُ عن الحقِّ والإيمان به الذين كانوا يُنكرون آيات الله ويجْحدونها من الأمم السالفة، فنالوا بجُحودهم ما يستحقُّون من عذاب وإهلاك، ثم ينالون خلوداً في عذاب جهنم يوم القيامة.

٦٤ ـ الله الذي امْتنَّ عليكم بأربع مننٍ: **المنَّة الأولى**: جعل لكم الأرضَ مكاناً صالحاً للاستقرار عليها والسكون والاطمئنان والإقامة الدائمة، **والمنَّة الثانية**: جَعَل السماءَ بناءً ذات أجزاء مترابطة متماسكة يمنع هذه الأجزاء من الخروج عن نظامها خروجاً مفسداً لوحدة نظام الكون، الذي لو وجدت لتساقط بعضها على بعض، ولصارت الأرض هباءً منثوراً، **والمنَّة الثالثة**: صوَّركم فأحسَنَ صوركم، فالإنسان خلقه الله في أكمل هيئة وأحسن صورة، من كلِّ ذي حياة له صورة ما، **والمنَّة الرابعة**: رزقكم من المُباحات ما يلذُّ لكم. ذلكم العظيم الجليل ـ الذي أنعم عليكم بهذه النِّعم ـ هو ربكم المهيمن عليكم بصفات ربوبيَّته، والمُمِدُّ لكم بمننه وهباته وعطاياه، فتكاثر خيرُه وفضلُه، وتزايد وتعاظم فوق كلِّ ما يصفه الواصفون، هو ربُّ العالمين ممَّا سوى الله من موجودات حاضرات، أو غابرات، أو سَتُوجَد في المستقبل، وهي علامات دالات على خالقها وصفاته الحُسنى.

٦٥ ـ هو الله تعالى وحده الحيُّ دواماً من الأزل إلى الأبد الفعَّال لما يريد، الذي له العلم التامُّ والقدرة التامَّة، ولا يُوصَف بالحياة الكاملة إلا هو، له كمال الوحدانية، لا معبودَ بحقٍّ إلا هو، فتوجَّهوا إليه بالدعاء، مُخلصين له دينكم وطاعتكم، واحمدوه سبحانه، فالثناء كلُّه حقٌّ ثابت للّهِ ربِّ الخلائق أجمعين، فهو المستحقُّ للحمد لكمالاته الذاتية المطلقة، ولأنه سبحانه المتفضِّل على عباده، والمُمِدُّ لهم برعايته وحفظه وعطاءات ربوبيَّته.

٦٦ ـ قل ـ يا رسول الله ـ لمشركي قومك الذين يدعونك إلى عبادة آلهتهم وللناس جميعاً: إني نُهيتُ أن أعبدَ الآلهة التي تعبدونها من دون الله، حين جاءتني الآيات الواضحات من عند ربِّي، وقل لهم أيضاً: أُمرت أن أُخلص توحيدي، وأنقاد بالطاعة التامَّة في كلِّ أعمالي الإرادية الظاهرة والباطنة، والجسديَّة والنفسيَّة لخالق الكائنات، والمُهَيْمن على كلِّ ما سواه بسلطان ربوبيَّته جلَّ جلالُهُ، وعَظُم سُلطانُه.

هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾

٦٧ ـ هو الله الذي خَلَق أباكم آدم من تراب وأنتم من نسله، مخلوقون من تراب، كما أنَّ جسدَ كلِّ مخلوق من تراب تحوَّل بخلق الله إلى غذاءٍ، فدماءٍ، ومن الدم تكون نطف المني، ثمَّ بعد أطوار كثيرة أوْجدكم من مَنِيٍّ، ثمَّ بعد أطوار كثيرة أوْجدكم من قطعة دم جامد، ثم بعد أطوار كثيرة يُخرجكم من بطون أُمَّهاتكم أطفالاً، ثم يمدُّ في آجالكم؛ لتبلغوا سنَّ الكمال في القوة والعقل، ثم يُطيل أعماركم؛ لتبلغوا سنَّ الشيخوخة، وبعضكم يتوفَّاه الله في أيِّ سنٍّ بعد ولادته، ومن قبل أن يصل إلى مرحلة الشيخوخة التي يتَّصل بها الهَرَم، ويُبقي الله في الحياة مَنْ لم ينتَهِ أجلُه، ويستمرُّ مُمِدّاً له في الحياة، ولتبلغوا جميعاً وقتاً محدوداً لا تُجاوزونه، ويرغب ربُّكم في أن تعقلوا عقلاً علمياً ما في هذه الأحوال العجيبة، واختلاف الأعمار المجهولة، وذلك بوضع هذه الحقيقة في ذاكرتكم، وأن تعقلوا عقلاً إرادياً بضبط حركة حياتكم بإرادةٍ جازمة عن تعريض نفوسكم لسَخَط الله وعذابه بمعصيته، وبالخروج عن صراطه المستقيم.

٦٨ ـ الله سبحانه وحده هو المُنْفَرِد بالإحياء والإماتة، يُحيي الأحياء على اختلاف أنواعها ورُتَبها في سُلَّم الحياة، فلا أحد في الوجود كلِّه يُحيي بنفخ الرُّوح التي تكون بها النفوس حيَّة غيره جلَّ جلاله، ولا أحد في الوجود كلِّه يميت بنَزْع الرُّوح التي تكون بها النفوس الحيَّة ميِّتة غيره جلَّ جلاله، فإذا أراد الله سبحانه تنفيذ أمر سبق أن قدَّره وقَضَاه، وجاء أجل التنفيذ، فلا يحتاج تنفيذه إلا أن يُوجِّه له أمر التكوين، فيقولُ له: «كن»، فهو يكون.

٦٩ ـ ألم تَرَ ـ أيها العاقل البصير ـ ناظراً إلى الذين يُجادلون في آيات الله بالباطل، كيف يُصرفون عن آيات الله الواضحة الجليَّة، المُوجبةِ للإيمان بها، إلى الجحود والتكذيب، والجدال بالباطل فيها.

٧٠ ـ ٧٢ ـ هؤلاء المجادلون في آيات الله بالباطل الذين كذَّبوا بالقرآن والكتب التي أنزلناها على رُسُلنا، وكذَّبوا بما أرسلنا به رُسلَنا من كلِّ الأمم، حتى خاتِمهم محمد، فسوف يعلمون عاقبة كذبهم، حين تُجعل أطواق الحديد في أعناقهم، والسلاسل في أرجلهم، يُجَرُّون بتلك السلاسل في الجمْر الكاوي لأجسادهم، ثمَّ بعدَ سحبهم على الجَمْر، يُوضعون في النار ليحترقوا بها، فيكونوا وَقودَها كما يُملأ التنُّور بالحطب لإحمائه.

٧٣، ٧٤ ـ ثم تقولُ لهم الخَزَنة توبيخاً: أين الآلهة التي كنتم تعبدونها من دون الله؟ فادعوهم؛ ليخلِّصوكم من العذاب الذي أنتم فيه الآن؟ قالوا: غابوا عن عيوننا، فلم نرهم، بل ضَاعتْ عبادتُنا لها، فكأنَّنا لم نكن نعبد من قبل في الحياة الدنيا شيئاً له وجودٌ في الواقع، مثلُ هذا الضلال الذي ضلَّ به المشركون الذين يجادلون في آيات الله بالباطل، يحكم الله عليهم بالضلال، ويحكم على كلِّ الكافرين بالضلال المُمَاثل لضلالهم، بمقدار نسبة ضلال كلِّ فرد منهم، فحكم الله على الناس حكمٌ إفراديٌّ، وليس حكماً جماعياً.

٧٥ ـ ويقال لهم أيضاً بعد إصدار الحكم عليهم بالعذاب الذي يستحقُّه كلُّ واحدٍ منهم: ذلك العذابُ الذي نَزلَ بكم؛ بسبب ما كنتم تفرحون في الحياة الدنيا من كفرِ بالله وتكذيب بآياته، وتحقيق ما تحبُّون وتشتهون من فسقٍ وفجور، وظلم وبغي وعدوان، وبسبب ما كنتم عليه في الحياة الدنيا من الأشَر والبَطَر والاستكبار على عباد الله.

٧٦ ـ ويقال لهم: ادخلوا أبواب جهنَّم السبعة بحسب دَرَكاتكم؛ عقوبةً لكم على كفركم بالله ومعصيتكم له، خالدين فيها، فَبِئْس مكان الإقامة الدائمة للمتكبِّرين، الذين جعلهم كبْرهم يرفضون اتِّباع ما جاءهم من عند ربِّهم.

٧٧ ـ فاصبِر ـ يا رسول الله ـ ولا تَسْتشرف نفسك إلى تعجيل الانتقام من مُكذِّبيك؛ إنَّ وعد الله حقٌّ، له وقتٌ مُحدَّدٌ عنده، وسينصرك على أعدائك، فإمَّا نُرينَّك بعض الذي نعدُهم به من عقاب مُعَجَّل في الحياة الدنيا قبل أن نتوفَّاك، أو نَتوفَّينَّك قبل أن يَحِلَّ ذلك بهم، فإلينا ـ وحدنا ـ مصيرُهم يومَ القيامة، فنُحاسبهم على ما كانوا يفعلون.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴿٨٥﴾

٧٨ ـ ونُقْسم مؤكِّدين أننا أرسلنا من قبلك ـ يا رسول الله ـ رُسلاً، منهم من قَصَصْنا عليك خبره في القرآن، ومنهم من لم نَقْصُص عليك، وليس منهم أحدٌ إلا أعطاه الله تعالى آيات ومعجزات، وقد جادله قومُه وكذَّبوه فيها، فلا تتطلَّع إلى آيةٍ إعجازيَّة كبرى تكون سبباً في هداية كُبراء قومك، وما كان لرسولٍ أن يأتيَ بمعجزةٍ إلا بأمر الله وإرادته، فإذا آتى الله رسولَه آيةً كبرى استجابةً لطلب قومه، ثم أصرَّ قومه على الكفر والعناد، قضَتْ إرادة الله الحكيمة بإهلاكهم، فإذا جاء أمر الله الحكيم بنزول العذاب على الكفار، الذين انتهى زمنُ امتحانهم، حَكَمَ الله بين الرسل ومكذِّبيهم بالعدل والحق، فأصدر أمرَهُ التكوينيَّ، فتمَّ به تنفيذ إهلاكهم على وَفق الأمر الربَّاني، وخَسِرَ هنالك في المكان الذي عُذِّب وأُهلك فيه المُبطلون الذين يُجادلون في آيات الله بغير حق.

٧٩، ٨٠ ـ الله سبحانه وحده هو الذي خَلَق لكم ـ أيها الناس ـ الإبل والبقر والضأن والمعز؛ لتركبوا بعضاً منها، وهي الإبل، ومنها تأكلون اللحوم. ولكم في ألبانها، وأصوافها، وأوبارها، وأشعارها وجلودها، وعظامها، ورَوْثها منافع كثيرة أخرى، ولتُحَمِّلوا على ظهور ما يصلُح للحَمْل منها أثقالكم، وتبعثوها إلى بلاد بعيدة، فتُحقِّقوا بذلك حاجةً تقصدون تحقيقَها في صُدوركم الحاوية لقلوبكم، الباعثة لإراداتكم، التي تُوجِّهها رغبات نفوسكم، كالتجارة، والارتحال من بلد إلى بلد. وعلى الإبل منها تُحملون في البرّ، وعلى السُّفُن تُحْملون في البحر. ويُقاسُ على الإبل والمراكب البحريَّة ما توصَّل الناس إليه بإلهامِ الله عزَّ وجلّ وتسخيره، من مراكب بريَّة وبحريَّةٍ وجويَّةٍ.

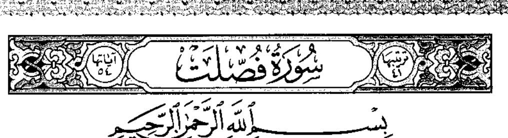
٨١ ـ ويُريكم الله سبحانه ـ أيها الناس ـ دلائلَ قُدرته الكثيرة الواضحة، في كلِّ شيء إذا استعملتم عقولكم، وتجرَّدتم من أهوائكم، وهي آيات جليلات دالآت على عظيم صفاته، وجزيل نعمِهِ على عباده، فأيَّ آيةٍ من آياتِ الله الظاهراتِ الباهراتِ تُنكرونها، ولا تعترفون بها؟

٨٢ ـ أبقوا في بلدهم، فلم يَسِر هؤلاء المُكذِّبون مسافرين في أقطار الأرض؛ أم كانوا عُمْياناً، فلم يَرَوْا بأعينهم كيف كان عاقبةُ كفار الأمم السالفة، وما حلَّ بهم من الهلاك والتدمير؟! كان مَنْ قبلهم أكثرَ منهم عدداً، وأشدَّ منهم قوةً وآثاراً عمرانية باقيةً في الأرضِ، فدمَّر الله بلادهم وعذَّبهم وأهلكهم إهلاكَ استئصال، فما صرف عنهم عقابَ الله وعذابه، ما كانوا يكسبونه من وسائل قوّةٍ وتمكن في الأرض.

٨٣ ـ كان هؤلاء المُهْلَكون السابقون خارجين عن دين الله الحقّ، فلمَّا جاءتهم رسُلُهم بالمعجزات الواضحات، والآيات المُنزَّلات المبيِّنات، لم يقبلوا العلمَ الربَّاني الذي جاءهم به رُسُل الله، فرحينَ بما عندهم من علم ينفعهم في أمور مآكلهم ومشاربهم ومساكنهم ومناكحهم، وسائر مصالحهم من دنياهم، ورفضوا الاستجابة لما يتعلَّق بأمور آخرتهم، ومصيرهم الأبديّ، واستمرُّوا كذلك حتى استحقُّوا عقاب الله بإهلاكهم إهلاكَ استئصال، وأصابهم وأحاط بهم العذابُ الذي أخبر به المرسلون، جزاء ما كانوا به يستهزؤون.

٨٤ ـ فلمَّا عاينوا في الدنيا مقدِّمات عذابنا، ووسائله، وأيقنوا أنهم مُعَذَّبون، أقرُّوا حين لا ينفع الإقرار، وقالوا: آمنَّا باللهِ وحدَه، وتبرَّأنا ممَّا كنا نعدل بالله من الأصنام التي كنا بعبادتها مشركين بالله.

٨٥ ـ فلم يكن ينفعُهُم إيمانُهُم في رفع العذاب عنهم، حين رأوا مُقدِّمات عذابنا ووسائله؛ وذلك لأنه إيمانٌ قد اضطُروا إليه بعد الشهود الحسِّي، لا إيمانَ اختيار ورغبة، إذ الإيمان الذي ينفع المؤمنين عند ربِّهم هو الإيمان بالغيب القائم على أدلة العقل وبراهينه. أجرى الله فيهم سنَّةَ مَنْ قبلهم من الأمم الخالية، بعدم قبول الإيمان عند مُعَايَنة العذاب وشهود مقدِّماته ووسائله، وخَسِرَ وقت نُزول العذاب الكافرون، ولا خسارة أشدُّ من خسارةِ أنفسهم وأمنهم وسلامتهم ونجاتهم من العذاب الأبديِّ.



بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ
ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا فَأَعۡرَضَ
أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ
مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ
فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ
أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ وَوَيۡلٞ
لِّلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ
هُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ
أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ ﴿٨﴾ ۞ قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ
ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ وَتَجۡعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾
وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوۡقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا فِيٓ
أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ
فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾



سورة فصلت

١ - ﴿حمٓ﴾ سَبَق الكلام على الحروف المُقطَّعة في أوَّل سورة البقرة.

٢ - هذا القرآن العظيم المتلوُّ على لسان الرسول محمد ﷺ تنزيلٌ من الرحمن العظيم الرحمة الذي تجلَّت آثار رحمته، وبَدَتْ مظاهرها في كلِّ أنحاء الوجود، الدائم الرحمة بعباده المؤمنين.

٣ - كتابٌ بُيِّنت آياتُه بياناً واضحاً وافياً بالمقصود، حالة كونه قرآناً عربياً مُيسَّراً فهمُه، لقوم يعلمون ما نُزِّل عليهم من الآيات المُفصَّلة المبيَّنة بلسانهم العربي.

٤ - بشيراً لأولياء الله بالثواب العاجل والآجل، ونذيراً لأعداء الله بالعقاب العاجل والآجل، فأعرضَ أكثر الناس عنه، فهم لا يُصْغُونَ إليه تكبُّراً.

٥ - وقال مشركو مكة للنبيِّ ﷺ: مراكز الإدراك والتفكير في أدمغتنا مُحَاطة في أغطية مُتكاثفة تمنع وصول ما تدعونا إليه، فلا نفْقَهُ ما تقول، وفي آذاننا صَمَمٌ، فلا نسمع ما تقول، والأرض الفاصلة بيننا وبينك - يا محمد - قد قام فيها حجاب يحجُبنا عنك، فنحن لا نراك ولا نشعر بوجودك في مجتمعنا، فاعمل ما شئت أن تعمل، فنحن ذوو القوة الغالبون، وتأكَّد إننا عاملون ضدَّك وضدَّ دعوتك، وضدَّ الذين آمنوا بك واتَّبعوك.

٦، ٧ - قل لهم - يا رسول الله -: ما أنا إلاَّ بشرٌ مثلكم من جهة التكوين الجَسَدي والنفسي، فَلَسْتُ مَلَكاً من الملائكة، وليس لي طبيعة فوق طبيعة البشر، واختار الله أن يَصْطفيَني فيجعَلَني نبياً ورسولاً، فهو يُوحي إليَّ بتتابع أنه لا إله لكم إلا إلهٌ واحد، فاسلكوا صراط الله المستقيم، ولا تميلوا عن سبيله، واستمرُّوا مستقيمين إلى الغاية التي يكون عندها حسابكم ومجازاتكم، وادعوا الله أن يغفر لكم ذنوبكم إذا خرجتم عن واجب الاستقامة، وعذابٌ شديدٌ للمشركين الذين لا يُطهِّرون أنفسهم من الشِّرك بالتوحيد، ولا يؤتون الزكاة من أموالهم، ولا يشكرون نعمَ الله عليهم، ببذل شيءٍ منها في سبيل الله، إذْ لا يتوقَّعون أنَّ الله سيكافئهم على ما يبذلونه، وهم بالبعث بعد الموت والثواب والعقاب هم كافرون.

٨ - إنَّ الذين آمنوا إيماناً صحيحاً كاملاً، وعملوا الصَّالحات الدَّالات بالتطبيق العملي على صحَّة إيمانهم، لهم عند ربِّهم يوم الدين ثوابٌ عظيم غير ناقص ولا مقطوع عنهم.

٩ - قل - يا رسول الله - لهؤلاء المشركين مُنكراً وموبِّخاً لهم: أإنَّكم لتكفرونَ بالله الذي خَلَق الأرض بتكوينها الأساسيِّ في يومين اثنين، وتجعلون له سبحانه نظراء وأمثالاً من مخلوقاته تعبدونها؟! ذلك الخالقُ للأرض هو ربُّ العالمين وخالقهم، ومالكهم، ورازقهم، والمُمدُّ لهم بمننه وعطاياه، والمهيمن على كلِّ ما سواه بسُلطان ربوبيَّته؛ المُسْتَحِقُّ للعبادة.

١٠ - وجعل سبحانه في الأرض جبالاً ثوابتَ من فوقها؛ لئلا تَضْطرب، وبارك فيها بكثرة خيراتها، وحدَّد في الأرض مقادير أرزاق جميع مَنْ يعيش على ظهرها مساوياً لحاجة السائلين الباحثين عن أقواتهم الذين يتَّخذون الأسباب الكونيَّة لتحقيق مطالبهم من خزائن الله في الأرض في تمام أربعة أيام؛ يومان خلق فيهما الأرض، ويومان جعل فيها رواسيَ وقدَّر فيها أقواتها.

١١ - ثمَّ استوى سبحانه قاصداً إلى خلق السماء، وهي مُكوَّنةٌ ممَّا يشبه الدخان، وكانت حينئذ سماءً واحدةً متَّصلةَ الغازات في الفراغ الكونيِّ، غير مقسَّمة إلى سبع سموات، فقال للسماء والأرض: احضُرا لتحديد موقع الأرض، وموقع كلِّ جزء من أجزاء السموات في موقعه من الكون الفسيح - مُختارَتَيْن أو مُجْبَرَتَيْن -، قالتا: أَتَيْنَا مُذعنين لك، ليس لنا إرادة تخالف إرادتك.

فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِيٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾

١٢ ـ فقدَّر وقضى أن يجعل السَّموات ذات الطبقات المرتفعات، سبع سموات، ولكلِّ سماء منها نظام خاصٌ بها، وفرغ من خلقهنَّ على أبدع صورة، وأحْكَم وضع في يومين آخرين، فتمَّ بذلك خلقُ السموات والأرض في ستة أيام، وأصدر بالأمر التكوينيِّ الذي وجَّهه وحياً نافذ الأثر في كلِّ سماء، كلَّ شأن من شؤونها المتعلِّقة بذوات عناصرها، وبصفاتها، وبوظائفها في الكون، وبمَنْ يحلُّ فيها من الملائكة، وغير ذلك. وزيَّنا السماء الدنيا التي تلي الأرض بكواكب تضيء كالمصابيح، وجَعَلنا الكواكب حفظاً للسماء من الشياطين الذين يَسْتَرقون السمع من الملائكة، ذلك الذي ذكر ـ من صُنعه وخلقه ـ تقدير القويِّ الغالب، العليم بكلِّ شيء، فهو يقدِّر كل شيء بالمقدار المتقن المحكم.

١٣ ـ فإنْ أعرض هؤلاء المشركون إعراضاً كليّاً شاملاً كلَّ أفرادهم عن الإيمان بعد ما بُيِّن لهم من صفات الإله العظيم، فَقُل لهم ـ يا رسول الله ـ: خوَّفتكم صاعقةً تنزل عليكم مثل صاعقة عاد قوم هود، أو صاعقة ثمود قوم صالح فتُهلككُم إهلاكاً جماعياً شاملاً. وإنما خَصَّ هاتين القبيلتين؛ لأنَّ قريشاً كانوا يمرُّون على بلادهم.

١٤ ـ أهلك الله عاداً وثمودَ إهلاكاً جماعياً شاملاً؛ لأنهم أتَتْهم الرُّسلُ، من قبل جيل المهلكين، وقبل أن يبعث الله عزَّ وجلّ هوداً لعاد، وصالحاً لثمود، ومن بعد تكوُّن جيل المهلكين، إذ جاء عاداً رسولُهم هود، وجاء ثمودَ رسولُهُم صالح، فلم يَرَوْا منهم إلا الإعراض، وقالوا لهم: لا تعبدوا إلا الله، فرفضوا دعوة الرسل، وقالوا لهم: أنتم بشرٌ مثلنا، لو شاء ربُّنا إرسال رسُل يُبلِّغوننا عنه مطلوبه، لأنزل ملائكة من السماء، ولم يُرسلكم ـ وأنتم بشرٌ مثلنا ـ، ولهذا فإنَّا كافرون بما أُرسلتم به، ولا نُصدِّقكم في قولكم لنا: لا تعبدوا إلا الله.

١٥ ـ فأمَّا عادٌ قوم هود، فَتعالَوْا في الأرض بغير حق، وقالوا عندما هَدَّدهم هود بالعذاب: مَنْ أشدُّ منا قوة؟ نحن نَقْدر على دفع العذاب عنا بفضل قوَّتنا. فردَّ الله عليهم: أعميَتْ أبصارهم ولم يَرَوْا رؤيةً فكريَّةً تشبه الرؤية البصريَّة أنَّ الله الذي خلقهم هو أشدُّ منهم قوةً وبطشاً؟ وأنه قادرٌ على تعذيبهم وإهلاكهم عقوبةً لهم على استكبارهم في الأرض بغير الحق، وكانوا بآياتنا الكونيَّة والإعجازيَّة والبيانيَّة المنزَّلة والجزائيَّة العقابية ينكرون مع علمهم بأنها حقٌّ.

١٦ ـ فأرسلنا عليهم ريحاً عاصفاً شديدَة البرودة والصَّوت في أيام نكِدات مَشْؤُومات؛ لِنُذيقهم عذابَ الذلِّ والهوان في الحياة الدنيا، وَلَعَذَابُ الآخرة الذي سوف يُلاقونه أشدُّ إهانةً وإيلاماً لأجسادهم ولنفوسهم، وهم لا يُمنعون من العذاب؛ إذ لا حكم إلا لله، ولا رادَّ لقضائه عن التنفيذ.

١٧ ـ وأمَّا ثمودُ قوم صالح، فبيَّنَّا لهم سبيلَ الهُدىٰ، ورغَّبناهم بسلوكه، وحذَّرناهم من مخالفته، فاختاروا وأحبُّوا بشدَّة طاغية على نفوسهم وقلوبهم الكفر والضلال على الإيمان؛ لأنهم رأوا أن الكفر والضلال يحقِّقان لهما ما يهوون ويشتهون من متاعات الحياة الدنيا، فأخَذَتْهم أخذَ تعذيب وإهلاك شامل، داهيةُ العذاب المهين؛ بسبب ما كانوا يعملون من الشِّرك، والجرائم والآثام والعدوان.

١٨ ـ وخلَّصنا من التعذيب والإهلاك الذين آمنوا برسول ربِّهم من القومَيْن؛ عاد وثمود، وكانوا يعبِّرون عن صحَّة إيمانهم وصدقهم فيه بسلوك يتَّقون فيه عقاب الله المقرَّر على ترك ما أمر به، وفعل ما نهىٰ عنه.

١٩، ٢٠ ـ وضع في ذاكرتك ـ أيُّها المتلقِّي لكلامنا ـ يوم يُجمع الكفار من الأوَّلين والآخرين ويُساقون إلى موقف حسابهم عند أبواب النار، فهم يُجمعون في مكان قريب من النار، ويرتَّبون صفوفاً، ويُسَوَّوْن للقيام منتظمين، حتى إذا ما جاؤوا قُربَ أبواب النار، وسُئلوا عمَّا ارتكبوا من الجرائم والآثام في الدنيا، فأنكروا، شَهِدَ عليهم سمعُهم وأبصارُهم وجلودُهم بما كانوا يعملون في الدنيا من المعاصي والآثام.

وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾

٢١ ـ وقال الكفار الذين يُجرُّون إلى النار لجلودهم مُعاتبين: لِمَ شهدتُم علينا؟ نحن ندافع عنكم لئلاّ تذوقوا عذاب ربِّكم. فأجابتهم جلودهم: أنطقنا الله الذي أنطق كلَّ شيء، فما سبق أن عملتموه بنا في الحياة الدنيا مُسجَّل في باطن خلايانا، والذي أنطق كلَّ شيء هو الذي خلقكم أوَّل مرة في الدنيا من عناصر لا حياةَ فيها ولا علم لها، ولا تنطق، فجعلكم أحياء ذوي علم تنطقون، وجعلكم في الحياة الدنيا مُمْتَحنين ومكلَّفين، وإليه ـ وحده ـ ترجعون بعد البعث، فيحاسبكم على ما قدَّمتم من عمل.

٢٢ ـ وما كنتم تستطيعون أن تسْتتروا حَذَر أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم، ولا تظنُّون أنَّها تشهد عليكم، ولكن ظننتم مُتوهِّمين أنَّ الله لا يعلم كثيراً مما تعملون، فهو لا يُحاسبكم ولا يُجازيكم على هذا الكثير.

٢٣ ـ وذلك الظنُّ التوهُّمي الباطل الذي ظَنَنْتموه بربِّكم ـ أنَّ الله لا يعلم كثيراً ممَّا تعملون ـ أسقطكم في أودية الآثام والجرائم، فأصبحتم يوم القيامة من الخاسرين الذين خسروا أنفسهم كلَّها، وقذفوا بها إلى عذاب أبديّ.

٢٤ ـ إن أعداء الله الكافرين بين أمرين: إما أن يتلقَّوا قضاء الله بشأنهم صابرين صامتين، وإما أن يُعلنوا توبتهم وندمهم، فإنْ يَصْبِروا على العذاب، ويسكتوا يائسين نادمين، فالنَّارُ مكان إقامتهم واستقرارهم الأبدي، وإن يطلبوا سائلين الله أن يرفع العتب والملام عنهم، والجزاء الذي استحقُّوه، فما هُم من المُجابين إلى رفع الملام والمُؤاخَذة.

٢٥ ـ وهيَّأنا وسبَّبنا لهؤلاء الظالمين الجاحدين من حيث لم يحتسبوا نُظَراء السُّوء من الشياطين، حتى أضلُّوهم، فحسَّنوا بزُخرف أقوالهم جرائم السابقين لهم من الأمم، الذين عَلَوْا في الأرض، وحسَّنوا لهم أن يرتكبوا جرائم عدوان وظلم في مستقبل حياتهم؛ لينالوا أعظمَ نصيبٍ من مَتَاعات الحياة الدنيا، وقد استجاب هؤلاء الكفرة للقُرناء المُضلِّين بإراداتهم الحرَّة، وماتوا وهم كفرة ضالُّون مجرمون، وَوَجَبَ عليهم القول بأنهم سوف يكونون خالدين في عذاب النار مع أمم كافرة قد مَضَتْ من قبلهم من كَفَرةِ الجنِّ والإنس المُمْتَحنين في ظروف الحياة الدنيا؛ لاختيارهم الضَّلالة على الهُدى، إنهم كانوا خاسرين نفوسهم خسراناً كاملاً؛ إذ جلبوا لها عذاباً أبديّاً لا خلاص منه. ولا يوجد خسرانٌ أشدُّ من أن يَخسَر الإنسانُ نفسَه، ويقذف بها إلى عذابٍ أليم خالد.

٢٦ ـ وقال أئمة الشرك في مكة لجماهير قومهم لما انقطعت حجتهم حول القرآن، ورأوا تأثيره العجيب على قلوب الناس: لا تسمعوا لهذا القرآن؛ لئلا تشغلوا أفكاركم بدلالات آياته، وارفَعوا أصواتكم بالصِّياح والصَّفير والتخليط على محمد، فلا يستمع لتلاوته أحدٌ، ولا يُنتفع به؛ لعلكم تغلبون بتشويشكم بيانات القرآن وتأثيره في قلوب الذين يستمعون إليه.

لجأ الكافرون في جدالهم إلى أسلوب المشاغبة رجاء أن يغلبوا الحق، وهذا الأسلوب الغوغائي أتْقنه أئمة الكفر والضلال، وأحزاب الهدم والتخريب في كل زمان، واللجوء إلى خطة المشاغبة يقدِّم الدليل ضد المُشَاغبين بأنهم قد غدوا خائبين مغلوبين، منهزمين من معركة البيان والبرهان، ومتحوِّلين إلى معركة اللغط والضجيج والغوغائية، ولما لم يكن من شأن الحق أن يقابل الجنوح بالجنوح، أو يتحول من المناظرة بالحق إلى اللغط والمشاغبة، أعرض القرآن عن مقالتهم هذه، وبيَّن سوء المصير الذي سوف يلاقونه يوم الدين.

٢٧ ـ ونؤكِّد لكم أننا سنعذِّب الذين كفروا عذاباً شديداً يوم الدين يحسُّون بألمه في كلِّ موضع من أجسادهم، ولنجزينَّهم جزاء أسوأ الذي كانوا يعملون في الدنيا، وهو الكفر، إذ لا يفتَّر عنهم العذاب.

٢٨ ـ ذلك العذابُ الشديد العادل الذي يُجزىٰ به هؤلاء الذين كفروا، جزاءُ أعداء الله النارُ، لهم في النار دار الإقامة الدائمة، لا انتقال لهم عنها؛ جزاءً بسبب ما كانوا بآياتنا الكونيَّة والإعجازيَّة والجزائيَّة والبيانيَّة المُنزَّلة ينكرون مع علمهم بأنها حقٌّ.

٢٩ ـ وقال الذين كفروا، وهم يعذَّبون في النار: يا ربَّنا أرنا الفريقيَنْ اللَّذيْن أوقعانا في الضَّلال من قُرناء الجنِّ والإنس، نجعلهما تحت أقدامنا في النار؛ ليكونا في الدَّركِ الأسفل من النار.

إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾

٣٠ ـ إنَّ الذين أعلنوا بألسنتهم مُتحدِّين الطُّغاة من أئمة الكفر: ربُّنا الله وحده لا شريك له في ربوبيَّته وإلهيَّته، ثمَّ استقاموا على سلوك صراط الله المستقيم، اعتقاداً وعملاً، ظاهراً وباطناً، نفسيّاً وجسديّاً، تتنزَّل عليهم الملائكة آناً فآناً كلَّما تعرَّضوا لمُقْلقات مُزعجات بالمخاوف والمُحزنات، فتُلقي بما يشبه حديث النفس في قلوبهم: أن لا تخافوا من مَكارة تنزل بكم، ولا تحزنوا على شيءٍ فاتكم من مَحابِّكم، لأنَّ الله ربَّكم قد اختار لكم ما هو خيرٌ لكم وأفضل؛ جزاء إيمانكم واستقامتكم، وتنزَّل عليهم عند الموت، قائلين لهم: لا تخافوا على ما تُقدمون عليه من أمر الآخرة، ولا تحزنوا على ما خلَّفتم وراءكم من أمور الدنيا، فما أعدَّ لكم عند ربِّكم خيرٌ لكم وأعظم، وأبْشروا بالجنة التي كنتم تُوعَدون في الدنيا.

٣١، ٣٢ ـ تقول لهم الملائكة عند نزولهم بالبُشرىٰ: نحن أنصاركم على أعدائكم الكَفَرة، والمحافظون عليكم، نحميكم من شرِّ كلِّ ذي شر، في الحياة الدنيا، ونحن أنصاركم وأحباؤكم في الآخرة، لا نُفارقكم حتى تدخلوا الجنة، ولكم في الجنة كُلُّ ما تشتهي أنفسكم من الكرامات واللَّذات، ولكم فيها ما تتمنَّون ضيافةً وإكراماً من ربٍّ واسع المغفرة لذنوبكم، دائم الرحمة بكم.

٣٣ ـ لا يُوجَدُ قائلٌ من الناس يقول قولاً أحسنُ من قول الذي دعا إلى الله، وعمل عملاً صالحاً مطابقاً لما يدعو إليه؛ ليدلَّ على أنه مؤمن بما يدعو إليه، وقال بلسانه معتقداً بقلبه: إنَّني واحد من أفراد المسلمين، أدعو إلى دين أؤمن به، وأنتمي إلى الأمة التي تَدينُ بالإسلام. فلا بدَّ للداعي إلى الله أن يتحقَّق بهذين الشرطين: **الأول**: أن يعمل عملاً صالحاً، **والثاني**: أن يُعلنَ صراحةً أنه واحدٌ من أفراد المسلمين. فالذي لا يعمل العملَ الصَّالح الذي يدعُو الناسَ إليه، مشكوكٌ في دعوته، إذ يقول الناس: لو كان ما يدعُو إليه حقاً، لكان أوَّلَ العاملين بما يدعُو إليه، والداعي إلى الانتماء إلى الإسلام، إذا لم يعلن أنه واحد من المسلمين، مشكوكٌ في دعوته، إذ يقول الناس: لو كان الإسلام الذي يدعو الناسَ إلى الدخول فيه ديناً صحيحاً لكان مِن السابقين إلى الدخول فيه، ولأعلنَ أنه من المسلمين، فهو إذن منافقٌ مأجور، أو ذو مصلحةٍ دنيويَّةٍ من دعوته، فدعوته مشكوكٌ فيها.

٣٤ ـ ولا تستوي في فطر النفوس البشريَّة، وقواعد التعامل الإنساني: مفردات جنس الحسنة، ومفردات جنس السيِّئة، فأفراد جنس الحسنة متفاوته، وأفراد جنس السيِّئة متفاوتة، ادفع مَنْ يريد مقاومة دعوتك بما يَضُرُّكَ أو يؤذيك، ويقبل عليك بشرٍّ، بالخصلة التي هي أحسن، من خُلق أو قول أو عمل، فإذا الذي بينك وبينه عداوةٌ كأنه صديقٌ قريبٌ مُصافٍ لك، لا يحمل عداوةً ولا كراهية، بل يحمل وداً وولاءً.

٣٥ ـ وما يُمنح تلقّياً هذه الخَصْلة الحميدة، ولا يستطيع ضبط نفسه فيدفع بالتي هي أحسن إساءات مَنْ يسيء إليه، إلا الذين صبروا على تحمُّل المكاره، وتجرُّع الشدائد، وكظم الغيظ، وترك الانتقام، وما يُعطاها عطاءً ربَّانياً من الله إلا ذو نصيب عظيم من الإيمان، والعقل، وسَعَة الصدر، وحُسْن الخلق، وذو نصيب عظيم عند الله من الأجر، ورفيع المنزلة في دار النعيم.

٣٦ ـ وإنْ صَرَفك الشَّيطانُ بوساوسه وتسويلاته، وحَرَّك نفسك للانتقام ودفع الشرِّ بمثله، ومعاقبة المسيئين بمثل إساءتهم أو بأكثر منها، فاعتصم بالله من شرِّه بلسانك وقلبك، وامْض على حِلْمك ولا تُطعه؛ إنَّه سبحانه هو وحده السميع لاستعاذتك ولكلِّ مسموع، العليم بأحوالك، والذي أحاط بكلِّ شيء علماً، يَعلم ما يوسوس به الشيطان مهما أخفى من وساوسه ونزغاته، وسيمدُّك بعونه وتأييده، ويصرف عنك وساوس الشيطان ونزغاته.

٣٧ ـ ومن دلائل قدرة الله، وعلمه المحيط بكل شيء وحكمته البالغة الدالَّة على وحدانيته: الليلُ والنَّهار، والشمسُ والقمر، لا تسجدوا للشمس ولا للقمر؛ لأنَّهما مخلوقان مُسَخَّران، واسجُدوا للَّهِ المُسْتَحقِّ وحده للسجود والتعظيم، خالق الليل والنهار، والشمس والقمر، إن كنتم تفردون الله بعبادته، ولا تُشركون به شيئاً، وتريدون نجاةَ أنفسكم من العذاب.

٣٨ ـ فإن استكبر عُبَّادُ الشمس والقمر عن السجود للهِ وحده لا شريك له، فإنهم لا يغيِّرون بسلوكهم الكفريِّ شيئاً من وحدانية الله عزَّ وجلَّ، ويكونون شاذين بعناد، وخارجين عن صفوف الملائكة المالئات للسموات، المطهَّرين من المعاصي والآثام، وهم يُسبِّحون له، ويُنزِّهونه عن كلِّ نقص بالليل والنهار، ويسجدون له ويركعون، لا يَفْتُرون عن ذلك، ولا يَملُّون عن تسبيحه وعبادته.

وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾

٣٩ - ومن دلائل وحدانيَّة الله وقدرته على البعث: أنَّك ترى الأرض يابسةً، فإذا أنزلنا عليها الماءَ من السماء تحرَّكت بالنبات، وانتفخت وزادت، وارتفعت فوق سطح الأرض، إنَّ الذي أحيا الأرض بعد موتها، قادرٌ على إحياء الخلق بعد موتهم، وفناء أجسادهم، بإنزال مطر خاصٍّ تتفجَّر نَوَياتُ أجسادهم المحفوظة في عَجَب ذَنَبِ كلِّ مَنْ كان ذا حياة من الناس وأشباههم من الأحياء، فينبتون كما تنبتُ النباتات من نَوَيات بُزُورها، ثم يُنفخ في الصُّور، ويأمر الله كلَّ رُوح أن تدخُل في الجسد الذي نما على مثل صُورته السابقة، إنَّه على كلِّ شيءٍ يشاء خلقه ضمن المُمْكنات العقليَّة عظيم القدرة، لا يعجزه شيء أراده.

٤٠ - إنَّ الذين يميلون عن الحقِّ في تفسير آياتنا الكونيَّة، والجزائيَّة، والإعجازيَّة، وآياتنا المُنزَّلات على رُسلنا، ويضعونها في غير موضعها، معلومون لنا علماً تاماً، لا يخْفَوْن علينا، وهم يعرِّضون نفوسهم لعقوباتنا بالعدل على كفرهم وتلاعبهم في تفسير الآيات، أفهذا الملحد في آيات الله الذي يُرمى في النار خيرٌ، أم المؤمن بآياتنا الذي يأتي يوم القيامة آمناً من عذاب الله؟ اعملوا - أيها الملحدون - ما شئتم، ولكن ستتحمَّلون مسؤولياتكم تجاه مشيئاتكم المخالفة لما آمركم به، وأنهاكم عنه؛ إنه سبحانه عالم بأعمالكم، وسيُجازيكم عليها.

٤١، ٤٢ - إنَّ الذين كفروا بالقرآن ذي الشَّرف والشأن العظيم الذي يجب أن تكون معانيه مخزونة في ذاكرتهم، وأن يذكروا عند كلِّ مناسبة ما يتعلَّق بها؛ ليعملوا بما يوجب القرآنُ العملَ به، حين جاءهم بلاغاً عن ربِّهم على لسان رسوله ﷺ، يُجازَوْن بكفرهم، وإنه لكتابٌ لا نظير له، قويٌّ في الحق، غالب ببيانه وحُجَجِهِ وبراهينه غير مغلوب، لا يأتيه ما يُبْطل شيئاً منه من حقائق سابقة لتنزيله، ولا ممَّا يأتي بعد تنزيله، فلا يجد الباطلُ إليه سبيلاً من جهة من الجهات، وهو أيضاً محفوظ بحفظ الله من التغيير والتبديل، والزيادة والنقص، تنزيلٌ من حكيم في جميع أفعاله، يضع الأشياء في مواضعها، ويختار أفضل الأشياء وأتقنها وأحسَنَها في الأمور المختلفة، لما يُعطي أحسنَ النتائج، محمودٍ ينطق بحمده كلُّ شيءٍ في كونه، وهو سبحانه حامد يحمد مَنْ يستحقُّ الحمد والثناء من عباده.

٤٣ - ما يقول لك - يا رسول الله - كفارُ قومك إلا مثل ما قال للرسل كفارُ قومهم من الكلمات المُؤذية، فاصبر على ما ينالك في سبيل الدعوة إليه، ولا تبتئس بما يقوله الكافرون، ولا تكترث به، وما زال بعض قومك لم يصلوا إلى دركة اليأس من توبتهم وإيمانهم؛ إنَّ ربَّك لذو مغفرةٍ لهؤلاء إذا تابوا وآمنوا بك، وأما الميؤوس من توبتهم وإيمانهم، فلهم عقاب شديد الإيلام، إن ربَّك لذو عقاب أليم لمن أصرَّ على كفره وتكذيبه.

٤٤ - ولو جَعَلنا هذا الكتاب الذي تقرؤه على الناس - يا رسول الله - قُرآناً أعجمياً بغير لغة العرب، لقال المشركون: هلاَّ بُيِّنَتْ آياتُه بالعربية حتى نفهمها! ولقالوا منكرين: أكتابٌ أعجميٌّ ومُبلِّغ به عربيٌّ لا يعرف اللغة التي يُخاطَبُ بها؟! قل - يا رسول الله -: هذا القرآن للَّذين آمنوا به هُدىً كلُّه، يهديهم إلى سعادتهم الأبديَّة عقيدةً وخلقاً وسلوكاً، وشفاء لما في القلوب من مرض الشِّرك والشكِّ، والذين لا يؤمنون بالله ورسوله يوجد في آذانهم صَمَمٌ مانعٌ من سماع القرآن وتدبُّره؛ لأن قلوبهم كافرةٌ رافضة الاستماعَ له، وفهمَ دلالاته، وهو ظلمة وشبهة مُسْتولية عليهم، فلا ينتفعون به؛ أولئك الكافرون المُوغلون في تيهِ الكفر والضلال بعيدون جداً عن الحقِّ، فلا يستجيبون لدين الله؛ كأنَّ من يُبلِّغهم آيات الله ليستمعوا إليها، يُناديهم من مكان بعيد، فهم لا يسمعون من ندائه إلا صوتاً مختلطاً، ليس فيه حروف ولا كلمات حتى يفهموا دلالاتها.

٤٥ - ونؤكِّد لكم أننا آتينا موسى كتابَ التوراة، فاختلف فيه بنو إسرائيل: فمنهم مُصدِّق، ومنهم مُكذِّب، كما اختلف قومك في كتابك - يا رسول الله -، ولم نقض بين مؤمنيهم وكافريهم في الحياة الدنيا، بل أخَّرنا ذلك ليوم القيامة، تنفيذاً لكلمتنا التي سبقت بهذا الأمر، وكذلك الحال تكون معاملتنا للمكذِّبين الكافرين بالقرآن من قومك، ولولا كلمة سبقت من ربك في تأخير العذاب عن المكذِّبين بالقرآن إلى يوم الدين، لبُتَّ الحكم بإدانة المكذبين في الدنيا، وعُجِّل إهلاكهم إهلاك إبادة، وإن كفار قومك لفي شكٍ من كتابك وصدقك، مُوجب للقلق والاضطراب، يوقع في تهمتهم بأنهم عالمون بالحقِّ وجاحدون به عناداً؛ لضعف شكِّهم، وقوَّة حُجَج ما هم شاكُّون فيه.

٤٦ - مَنْ عَمل عملاً صالحاً مبنيّاً على قاعدة إيمانيَّة صحيحة، فيعود نفعُ إيمانه وعمله لنفسه، ومَنْ عمل عملاً سيئاً باختياره الحر، فضرر إساءته يعودُ على نفسه أيضاً، وما ربُّك - يا رسول الله - يظلم أحداً منهم، بل هم الظالمون لأنفسهم؛ إذ ارتكبوا السيِّئات، وهم يعلمون أنهم معاقبون عليها، ضمن قانون الجزاء الربَّاني.



﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ (٤٧) وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَظَنُّوا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ (٤٨) لَّا يَسْأَمُ الْإِنسَانُ مِن دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ (٤٩) وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (٥٠) وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ (٥١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (٥٢) سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٥٣) أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ (٥٤)﴾

٤٧ ـ إلىٰ الله تعالى وحدَهُ يُرْجَع علمُ السَّاعة، فلا يعلم وقت قيام الساعة إلا الله، ولا سبيلَ للخلق إلى معرفة ذلك، ويرجع إليه علم ما تَخْرُجُ ثمرةٌ من أوعيتها في شجرتها أو نباتها، إلا مصحوبةً بعلم الله المحيط بكلِّ ذرَّة من ذرَّاتها، وما تحملُ أنثى من الناس والحيوان والحشرات والميكروبات حَمْلَها ولا تضعه إلا مصحوبة بعلمه المحيط بكلِّ أطوارها، يعلم عدد أيام الحمل وأحواله من الخداج والتمام، والذكورة والأنوثة، والحُسْن والقُبح، وغير ذلك. ويوم يُنادي الله تعالى المشركين بعد محاسبتهم في أرض المحشر، فيقول: أين شركائي الذين كنتم تدَّعون أنها آلهة؟ قال المشركون: أعلمناك ربَّنا بأنَّنا كنا في الحياة الدنيا ضالِّين، ندَّعي أنَّ لك شركاء دون أن تكون لنا أدلة تثبت ذلك، ما منَّا اليوم شهيدٌ يشهد أنَّ لك شريكاً.

٤٨ ـ وذهب عن هؤلاء المشركين شركاؤهم الذين كانوا يعبدونهم في الحياة الدنيا، وظنُّوا ظنّاً راجحاً أنهم ما لهم من مَهْرب من عذاب الله الذي حكم عليهم به خلوداً في جهنم، مع طمعهم بأن يرحمهم الله بالتجاوز أو بالتخفيف.

٤٩ ـ من صفات الإنسان بوجه عام خمس صفات تنطبق على النسبة الغالبة منهم: **الصفة الأولى**: لا يملُّ الإنسان من سؤال ربِّه المال والغنى والصحة وطلب الخير لنفسه، **الصفة الثانية**: وإن مسَّه الفقر والشدَّة والمرض على سبيل النُّدرة، فهو شديد اليأس من رَوْح الله، شديد القنوط من رحمته.

٥٠ ـ **الصفة الثالثة**: ونؤكِّد بالقسم لئن جعلناه بفضل منا يستمتع بآثار رحمة منا، فيحسُّ بلذَّة ما وهبناه من بعد شدَّة وبلاء أنزلناها به، ليقولنَّ: هذا الذي أصبتُه من نعمة هو لي، أستحقُّه بعملي، واكتسبته بمهارتي، ولست على يقين من البعث، وأقسم لئن كان خبر الرجوع إلى الحياة بعد الموت خبراً صحيحاً، وتحقَّق هذا الرجوع المُستبعد جداً، إنَّ لي عنده الجنَّة، كما أعطاني في الدنيا سيعطيني في الآخرة؛ لأنني أستحقُّ هذا الإنعام والإكرام، فلنخبرنَّ الذين كفروا بحقيقة ما عملوا في الحياة الدنيا من الأعمال المُوجِبة للعذاب، ولنذيقنَّهم في جهنَّم من عذابٍ شديد لا يُفتَّر عنهم.

٥١ ـ **الصفة الرابعة**: وإذا أنعمنا على الإنسان بنعمةٍ، أبطرته النعمة، وأعرض عن شكر ربِّه، ولم يقابل نعمَ الله عليه بطاعته له، والعمل بما يرضيه، بل ذهب بنفسه وتكبَّر وتعظَّم عن طاعة ربِّه، **الصفة الخامسة**: وإذا مسَّه الفقر والشدَّة والمصائب وسائر المكاره، فذو دعاءٍ مسموع على عَرض امتداده يميناً وشمالاً، يُعبِّر عن مشاعر ألمه وضجره وتذمُّره ممَّا مسَّه من شر.

٥٢ ـ قل ـ يا رسول الله ـ للكافرين بالقرآن: أتفكَّرتم تفكيراً سديداً بأناةٍ وتعمُّق، حتى أدركتم إدراكاً علمياً يشبه الرؤية البصريَّة، إنْ كان هذا القرآن من عند الله حقاً، ثمَّ بعد أن توالى عليكم إنزال سوره وآياته البليغة المعجزة، جحدتم أنَّه من عند الله؟ أفكرتم بالمصير الذي أنتم صائرون إليه؟! أما تعلمون أنه لا يوجد أحدٌ أكثر ضلالاً ممَّن هو في خلافٍ للحقِّ بعيدٍ عنه.

٥٣ ـ سَنُريهم في الحياة الدنيا قبل الآخرة، آيات وحدانيَّتنا وقدرتنا في الأبعاد العُليا المحيطة بالأرض، وفي تكوين أنفسهم وما اشتملت عليه من لطيف الحكمة وبديع الصَّنعة، حتى يتبيَّن لهم أنَّ القرآن هو الحقُّ المنزَّل من عند الله، المحيط بكلِّ شيء علماً. أو لم يكف بربِّك الذي خلق هذا الكون كلَّه أن يُخبر عن كلِّ شيء في الكون إخباراً مُطابقاً لما هو عليه في الواقع، فهو سبحانه حاضرٌ مُعَاين لما يُخبر به، لا تخفى عليه في الوجود خافية.

٥٤ ـ تنبَّهوا وتحقَّقوا إنَّ هؤلاء الكفار في شكٍّ عظيم من لقاء ربِّهم يوم الدين؛ للحساب، وفصل القضاء، وتنفيذ الجزاء، تنبَّهوا وتحقَّقوا، إنَّ الله سبحانه محيط بكلِّ شيءٍ علماً وقدرة، وسلطاناً وقضاءً وقدراً وتصاريفَ وامتحاناً وجزاء.

سُورَةُ الشُّورَى

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ عٓسٓقٓ ﴿٢﴾ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٣﴾ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٤﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّۚ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ ﴿٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَتُنذِرَ يَوۡمَ ٱلۡجَمۡعِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ فَرِيقٞ فِي ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٞ فِي ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡوَلِيُّ وَهُوَ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٩﴾ وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾

١، ٢ - ﴿حمٓ عٓسٓقٓ﴾ سَبَقَ الكلام على الحروف المقطَّعة في أوّل سورة البقرة.

٣ - مِثْلَ ما تضمَّنته هذه السورة من المعاني، قد أوحى الله إليك - يا رسول الله - مثله في غيرها من السور، وأوحاه إلى الرسل من قبلك، اللَّهُ العزيز بقدرته الغالبة، الحكيمُ في اختياراته، إذ اصطفاك نبياً ورسولاً، يُوحِئ إليك، وكذلك كان يوحي إلى الأنبياء والرسل الذين اصطفاهم من قبلك بعزّته وحكمته.

٤ - لله - وحده - كلُّ شيء في السموات والأرض خلقاً ومِلكاً وتدبيراً، وهو وحده المنفرد بعلوِّ الشأن، وعِظَم السلطان الذي لا يساويه في علوّه وعظمته، ولا يدانيه فيهما أحدٌ سواه.

٥ - تقترب السَّموات يَتَشقَّقْنَ، فيسقطن مع عظمهنَّ من أعلاهنَّ؛ غضباً لله ربِّها، من أقوال الأمم الكافرة بربِّها المُسخطة له، والملائكةُ في السموات العُلا يقومون بأداء وظيفتين: **الأولى**: أنهم يُنزِّهون ربَّهم عمَّا لا يليق بجلاله، وهذا التنزيه مُقْترن بحمده والثناء عليه بكلِّ صفات الكمال التي هي له. **والوظيفة الثانية**: أنهم يطلبون لجميع من في الأرض من الإنس والجن عفوَ الله وغفرانه، فهم يستغفرون الله لعصاة المؤمنين طمعاً في أن يغفر الله لهم، ويستغفرون الله للكفار من الأحياء؛ لئلا يعجِّل بعقابهم على كفريَّاتهم، رجاء أن يتوبوا ويؤمنوا فيغفرَ الله لهم، أما الذين ماتوا كافرين فإن الملائكة لا يسألون الله ربَّهم أن يغفر لهم؛ لأن الله لا يغفر لمن مات كافراً. انتبهوا وتأكَّدوا - أيها المُتلقون - واعلموا هذه الحقيقة إنَّ الله وحده هو الغفور الرحيم، يُعطي الرحمة التي سألوها، فيستر ذنوبهم، ولا يُعجِّل بعقابهم، ويضمُّ إليها بمنِّه وكرمه الرحمةَ العامَّة الشاملة.

٦ - والذين جَعَلوا لله شُركاء وأنداداً، اللَّهُ مُهَيْمنٌ عليهم بسلطانه الجَبْري، يحفظهم ممَّا في كونه مما يسوؤهم أو يضرُّهم إذا لم يكن له بشيءٍ منه قضاءٌ وقدر، ويحفظ ما يصدر عنهم من أعمال اختيارية بعلمه، وبما تُسجِّل الملائكة المُكلَّفون بكتابة أعمال العباد، وما أنتَ - يا رسول الله - على الذين اتَّخذوا من دون الله أولياء بوكيل مسؤول عن كفرهم، لأنهم ذوو إرادات حرَّة، وهم في الحياة الدنيا مُمْتَحَنون، وأنت تُبلِّغهم مطلوبَ ربِّهم، وتُبشِّرهم وتُنذرهم، فلا تحمل في قلبك همَّ تحويلهم من الكفر إلى الإيمان، ومن الضلال إلى الهداية.

٧ - وكما أَوْحَيْنا إلى الأنبياء والرسل من قبلكَ، أوْحَينا إليك قُرآناً عربياً؛ لتُبلِّغ وتُبيِّن وتُبشِّر، وتنذر أهل مكة، ومَنْ حولها من العرب ومن الناس أجمعين عقاباً مُعجَّلاً إذا اقْتضت حكمة ربِّك ذلك، وتُنذرهم عقاب الله المُحقَّق يوم القيامة، الذي يجمع الله تعالى فيه الأوَّلين والآخرين، وأهل السموات وأهل الأرضين، لا شكَّ في الجمع أنَّه حقٌّ، ثمَّ بعد ذلك الجمع للحساب، وفصل القضاء، وتنفيذ الجزاء يتفرَّقون، منهم فريقٌ في الجنَّة، ومنهم فريقٌ في النار.

٨ - ولو شاء الله أن يجعل الناس أمةً واحدة، لسلبهم إراداتهم الحرَّة، ولجعلهم مَجْبورين على الإيمان، ولكن شاء الله أن يمنح كلَّ مَنْ وَضَعه من عباده موضع الامتحان إرادةً حرَّةً، يريد بها لنفسه طريق الهدى أو الضلال، ويأتي بعد هذا الامتحانِ الحسابُ، وفصل القضاء، وتنفيذ الجزاء، فيُدخل في رحمته التي من آثارها النعيم المقيم في جنات الخلود مَنْ يشاء من عباده المؤمنين، وأما الكافرون فلهم عذابٌ أليمٌ، وما لهم من وَليٍّ ما يرحمهم، ولا نصيرٍ ينصرهم فيدفع عنهم عذابَ الله تعالى.

٩ - بل اتَّخذَ الكفار من دون الله أولياء يَتَولَّونهم، فاللَّهُ وحده هو الوليُّ بالحقِّ، المُتكفِّل بأمور الخلائق كلها، وهو الذي يجبُ أن يُتولَّى وحده دون سواه، وهو يُحيي الموتى يوم البعث، وهو على كلِّ شيء يشاء إيجادَه، أو إعدامَه، أو إجراءَ أيِّ تصرُّف فيه عظيم القدرة.

١٠ - وكلُّ ما اختلفتم فيه - أيها الناس - من شيء في قضايا الدين، فحكمُهُ إلى الله وحدَه يقْضي فيه، ويحكم بأنه حقٌّ أو باطل، وسوف يُحاسبكم يوم الدين بحكمه هو، فمن آمن بالحقِّ وأسلم وأطاع، نجا وفاز بالسعادة الأبدية، ومن كفر بالحقِّ خسر كل نفسه، وأدخله الله بعدله دار العذاب، ذلكم العظيم الجليل الذي يحكم بين المختلفين من قضايا الدين يوم القيامة، ويجازيكم عليه، هو الله ربي، الذي جعلني نبياً، وكلَّفني أن أُبيِّن لكم قضايا الدين، فإذا لم تستجيبوا لي، وحاولتم مقاومة دعوتي، والتخلُّص مني، فاعلموا أني عليه وحده توكَّلت في جميع أموري، فهو الكفيل بحمايتي ونصري، وإليه وحده أرجع في كلِّ المهمَّات طاعةً له، واتِّباعاً لأوامره.

فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾



١١ ـ الله سبحانه هو خالقُ السموات والأرض ومُبْدعهما على نظام الفطر، وهو الشقُّ من عُمق باطن الأشياء من نقطة العدم، جعل لكم متفضِّلاً عليكم اشتقاقاً من أنفسكم أزواجاً حلائل، تتلاقون تلاقي مودّة ورحمة وشهوة ولذة، فيخرج لكم فيه ذريَّة من أصلاب ذكوركم وبطون إناثكم، فيكثِّركم، ويجعلكم شعوباً وقبائل وأمماً، وكذلك جعل لكم من الأنعام أصنافاً ذُكراناً وإناثاً، فهو يُكثِّرها لكم بالتوالد والتناسل، فإذا كان نظام الله في الكائنات الحيَّة قائماً على التزاوج والتناسل، فإن الله الأزليَّ الأبديَّ واحدٌ أحدٌ، ليس يشبهه ولا يماثله شيءٌ من مخلوقاته، لا في ذاته ولا في أسمائه ولا في صفاته ولا في أفعاله، وهو سبحانه السميع لسائر المسموعات، البصير لسائر المُبْصَرات.

١٢ ـ لله سبحانه جميع خزائن السموات والأرض، وجميع مفاتيح هذه الخزائن، يُوَسِّع الرزق لمَنْ يشاء من عباده، ويُضيِّق ويُقلِّل الرزق على مَنْ يشاء من عباده، بحسب حكمته لعلمه بما في نفوسهم، وما هو الأحكم لهم في حياتهم، إنَّه بكلِّ شيء عليم.

١٣ ـ بيَّن الله لكم ـ أيها الناس ـ طريقاً واضحاً من الأسس الاعتقاديّة والمبادىء الأخلاقيّة والقواعد العامة، تَتَابعت على صحَّته الأنبياء، وهو كل ما أمر به نوحاً أوّل الأنبياء أصحابِ الشرائع، والذي أوْحينا إليك ـ يا رسول الله ـ من القرآن وشرائع الإسلام التي هي ختام وصايا الله لعباده من الدين الذي اصطفاه لهم، وما أمر به إبراهيم وموسى وعيسى من وصايا الدين الكبرى، وما فيها من زيادات على رسالة نوح، هي داخلة في الوصايا لخاتم المرسلين، ونُوصيكم ـ أيها الناس ـ في رسالة محمد الخاتمة للرسالات، بإقامة الدين مستقيماً، والمداومة والثبات عليه، بتوحيد الله والإيمان به وبكتبه ورسله واليوم الآخر، وطاعة الله في أوامره ونواهيه، ولا تختلفوا في الدين الذي أمرتكم به إلى طوائف وفرق، واجتمعوا مُتَّحدين على التمسُّك بأصول الدين الكبرى، في العقائد، والأخلاق، والمعاملات، عَظُمَ على المشركين وَثَقُل عليهم ما تدعوهم إليه ـ يا رسول الله ـ من التوحيد ورفض الأوثان؛ لكراهيتهم ترك ما ألفوه، من دين آبائهم وأجدادهم، وترك منافعهم الدنيوية، والتنازل عن أهوائهم وشهواتهم، الله يَصْطَفي لرسالته مُقرّباً إليه مَنْ يشاء من عباده، ويهدي بتعليمه وتوفيقه إلى سلوك السبيل الموصل إلى رضوانه مَنْ يُقبل على طاعته، ويرجع مُتقرّباً إليه آناً فآناً، بقلبه، ونفسه، وفكره، وعمله الظاهر والباطن.

١٤ ـ وما تفرَّق أهلُ الأديان المُختلفة إلاَّ من بعد ما جاءهم العلمُ الربَّانيُّ بما أنزل الله وفهموه وَوَعَوْهُ، وكان سببُ تفرُّقهم الحسد والظلم والفساد في الأرض، فلا تتَّبعوا سنن من كان قبلكم ـ يا أمة خاتم المرسلين ﷺ ـ، ولولا كلمةٌ من كلمات ربِّك المُحدَّدات قضاءه وقدره، سَبَقَتْ بتأخير العذاب عنهم إلى يوم القيامة، لقُضيَ بين مَنْ آمن وكفر، وأُنزل العذاب بالمُكذِّبين في الحياة الدنيا عقب تفرّقهم وكفرهم، ولكن الله قضى أن يُؤخِّر عقاب الكافرين إلى يوم الدين، وإنَّ اليهود والنصارى الذين أورثوا التوراة والإنجيل من بعد أنبيائهم، لمنغمسون في شكٍّ من أمر محمد ﷺ وكتابه المنزل من عند الله، وشكُّهم هذا يوقع في الرِّيب والتُّهمة بأنهم عالمون بالحقِّ وجاحدون به عناداً، ودوافعهم إلى الشَّك نابعةٌ من أهوائهم وشهواتهم، ورغبات نفوسهم من متاعات الحياة الدنيا.

١٥ ـ فَلأجل ذلك التفرُّق، وما حدَث بسببه من الاختلاف في الدين، فادعُ أنت ـ يا رسول الله ـ إلى ما وصَّى الله تعالى به الأنبياء من التوحيد والاتِّفاق على الملَّة الحنيفيَّة، واثبت على الدين الذي أُمرتَ به، ولا تتَّبع أهواءَهم المختلفة الباطلة، وقل ـ يا رسول الله ـ: آمنتُ بكلِّ ما أنزل الله على أيِّ رسول من رسله السابقين من كتاب، وأُمرتُ بإقامة شرائع الإسلام وأحكامه لأجل أن أحكم بالعدل بينكم ـ أيها الناس ـ إذا تخاصمتم إليَّ، وقل للذين لم يستجيبوا لدعوتك: اللَّهُ ربُّنا وربُّكم، لنا أعمالُنا ولكم أعمالُكم، فكلُّ أحد مخصوصٌ بعمل نفسه، وكلٌّ يُجازىٰ بعمله، لا حُجَّة بيننا وبينكم نقدِّمها لكم بعد أن رفضتم كلَّ حججنا البرهانية، ولا حجَّة بيننا وبينكم تقدِّمونها لنا إذ ليس لديكم حُجَّةٌ صحيحةٌ تقبلها العقول السليمة، فمن الخير قطع الجدال بيننا وبينكم؛ الله يجمع بيننا يوم الجمع، وإليه وحده المنتهى والعاقبة، وهو وحده الذي يحاسب عباده ويحكم بينهم، ويومئذ تعلمون علم اليقين أنكم كنتم في الحياة الدنيا مُبْطلين، تستحقُّون الخلود في دَرَكات الجحيم.

وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾ اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾ اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿١٩﴾ مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ﴿٢٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾

١٦ - والذين يُجادلون في ربوبيّة الله وإلٰهيّته، ويُقدّمون في محاولاتهم حُجَجاً، من بعدما استجاب كثيرون من عقلاء الناس لدعوته التي بلّغها رسوله، عن اقتناع ببراهين الحقّ الذي اشتملت عليه، ما يُقدّمون من تلبيسات يُوهمون أنها حُجّةٌ لهم هي ساقطةٌ تنزلق في أوحال الباطل، ولا ثبات لها على موقع صُلب عند ربِّهم، وتنزل عليهم آثار غضب من الله، ولهم عند ربِّهم عذابٌ شديدٌ في جهنّم.

١٧ - الله ربُّ العالمين هو الذي أنزل القرآن - المُشتمل على أنواع الدلائل والأحكام - متّصفاً بالحقّ الثابت الذي لا شكَّ فيه، والبيانِ المطابقِ للواقع، والإرشادِ لما ينفع ويفيد، وأنزل النظم والقواعد والوصايا والأحكام التي يوصل اتّباعها إلى تحقيق العدل، وأيُّ شيء يعلمك - أيها المتلقي - متى تقوم الساعة التي يكون فيها إنهاء ظروف الحياة الدنيا، فقد أخفى الله العلم بقيام الساعة على كلِّ عباده في السموات والأرض، ولكن ضَعْ في توقُّعِكَ احتمال أن وقت قيام الساعة قريبٌ، بالنسبة إلى ما سبق من عمر الحياة الدنيا.

١٨ - يستحثُّ طالباً تعجيل قيام الساعة الذين ليس لديهم استعداد نفسيٌّ لأن يُؤمنوا بها، استهزاءً بخبر قيامها، وتكذيباً بما أنذروا به، والذين آمنوا بأركان الإيمان، ومنها إيمانهم بالساعة والبعث والجزاء، خائفون حذرون من قيامها، ويعلمون أنها آتيةٌ لا شك فيها. تنبّهوا وتأكّدوا إنَّ الذين يُجادلون بزخرف أقوالهم في نبأ قيام الساعة ويشكُّون فيها، لفي ضياع في قَعرٍ بعيد عن مَوْقع الحق، فهم فيه مُعرَّضون لعذاب شديد وشقاءٍ مديد.

١٩ - الله تعالى رفيقٌ رؤوف، كثيرُ الإحسان إلى البرِّ والفاجر من عباده، حيث لم يُهلكهم جوعاً بمعاصيهم، يرزق مَنْ يشاء رزقه من مؤمنٍ وكافر، ممَّا ينتفع به من عطاءاته الظاهرة والباطنة، والمادية والمعنوية والنفسية، ومع كون الله تبارك وتعالى لطيفاً بعباده، يعطيهم الرزق من آثار لطفه ورحمته، هو أيضاً كامل القوّة، وكامل العزّة، لا يُشاركه في كمالهما أحدٌ، وبقوّته وعزّته يُعاقب الكافرين، ويُهلك الجبّارين الذين يستعملون ما أنعم الله به عليهم من رزق في البغي والظلم والفساد.

٢٠ - مَنْ كان يُريدُ بعمله ثواب الآخرة، مجتهداً في الأعمال التي يبتغي بها مرضاة الله، باذلاً جُهدَه للحصول على ثمرات عمله، نَزِد له في ثمرات عمله، بتوفيقه وإعانته وتسهيل سبيل الخيرات والطّاعات إليه، ومضاعفة الثواب له، ونعطيه حظَّه من الحياة الدنيا بحسب ما قسم الله له، ومن كان يُريد بعمله الدنيا وحدها، باذلاً جهده للحصول على ثمراتها، مُؤْثِراً لها على الآخرة، نُؤْتِهِ ما قُدِّر وقُسِم له منها، وما له نصيبٌ قط في الآخرة من نعيم الجنة؛ لأنه لم يعمل لها، بل له عذابٌ أليم في الجحيم.

٢١ - بل ألهؤلاء المشركين بالله آلهةٌ هي أربابٌ تستحقُّ الإلٰهيّةَ بربوبيّتها، فهم شركاء لله شَرَعوا لهم من الدين ما لم يأمر به الله، وزيّنوا لهم الشِّرك وإنكار البعث؟ ولولا كلمة الفصل التي أبرم الله بها تقديره وقضاءَه، وحكم فيها بين الخلق بتأخير العذاب عنهم إلى يوم الدين، لَفُرِغَ من عذاب الذين يُكذِّبونك في الحياة الدنيا؛ لأنهم وصلوا إلى حالةٍ ميؤوس من إصلاحهم منها عن طريق إراداتهم الحرة، وصاروا مُستحقِّين العذاب، وإنَّ الظالمين من دَرَكة الكفر لهم يوم القيامة عذابٌ شديد الإيلام في دار العذاب.

٢٢ - لو كنت من أهل حضور هذا المشهد من مشاهد يوم القيامة - أيها المُتلقِّي لبياننا - لكنت ترى الظالمين خائفين خوفاً شديداً من جزاء ما كسبوا في الدنيا من الشِّرك والأعمال الخبيثة، وجزاءُ كسبهم واقعٌ بهم لا محالة، ولكنت ترىٰ الذين آمنوا إيماناً صحيحاً صادقاً وعملوا الصالحات المُعَبِّرات عن صدق إيمانهم، يتنعَّمون في بساتين الجنات مُمَتَّعين في أطيب بقاع الجنّة وأنزهها، لهُم فيها ما يشاؤون عند ربِّهم من الكرامة ومنازل القُرب مهما بالغوا في أمانيهم، تسبق عطاياه وفيوض منّه التي لا تنقطع حتى تعجزَ خواطرُهم عن طلب أماني جديدة، ذلك الذي أعطاه الله لهم من عظمة الجزاء، وارتفاع المنزلة هو الفَضْل الكبير الذي يتفضّل الله به على عباده.

ذَٰلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ۗ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٤﴾ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ ۚ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾ ۞ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ ۚ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ ۚ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾

٢٣ ـ ذلك النعيم في الجنة والفضل الكبير هو الذي يُبشِّر الله به عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات. قل ـ يا رسول الله ـ للمشركين: لا أسألكم على تبليغ الرسالة ونصحي وحرصي على نجاتكم وسعادتكم جزاءً، ولكن أسألكم أن تعاملوني معاملة المودَّة التي تكون بين الأقرباء، ولو كانت قراباتهم بعيدة، فراعُوا هذه المودَّة، فلا تُعادوني ولا تُدبِّروا المكايد ضدِّي، وضدَّ الذين آمنوا بي واتَّبعوني، ومن يكتسب حسنةً بإرادته الحرَّة ابتغاء مرضاة ربِّه، نزد له في حسنته التي اكتسبها حُسناً، لنزيد له عليها ثواباً مضاعفاً، إنَّ الله كثير المغفرة لذنوب عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات، كثير الشكر للأعمال الصَّالحة التي يعملها عبادُهُ المؤمنون.

٢٤ ـ بل أيقول كفار مكة مُكرِّرين تكريراً إعلامياً دعائياً: اخْتَلَق محمَّدٌ الكذبَ على الله بادِّعائه النبوَّة والرسالة، وأن ما يتلوه من كلام علينا هو كلامٌ مُنزَّل عليه من ربِّه؟ فإن يشأ الله يطبع على قلبك ـ يا رسول الله ـ فلا يصل شيء إلى جهاز الإدراك والتفكير والعلم والتعبير فيه، ويمنع خروج أيِّ شيء منه، فلا يستطيع لسانك أن يقول كلاماً صحيحاً سويّاً، لو افتريتَ على الله. ويُذهبُ الله الباطلَ الذي يقولون، ويزيل أثره الضار، ويُحقُّ الحقَّ، ويجعله ثابتاً في واقع الحياة، بكلماته التكوينيَّة التي يُنفِّذ بها ما قدَّره وقضاه، وبكلماته البيانيَّة التي يهتدي بها أهل العقل والرُّشد، وقد فعل الله ذلك، فَمَحا باطلهم، وأعلى كلمة الإسلام، إنه سبحانه عليمٌ بالأعمال والنيّات والحب والكراهيَّة، والحقد والتدابير الكيديَّة صاحبة الاستقرار في الصدور، لا يخفى عليه شيء.

٢٥ ـ والله سبحانه ـ وحده ـ هو الذي يقبل التوبة من عباده الكافرين إذا تابوا فآمنوا وأسلموا، ويتجاوز عن خطاياهم السابقة التي فعلوها قبل الإسلام، ويمحو أثر سيئات عباده المؤمنين ممَّا دون الشرك مُتجاوزاً عنها إذا تابوا، ويعلم سبحانه ما تفعلون من أعمال ظاهرةٍ وباطنةٍ، جسديَّة ونفسيَّة، لا تخفى عليه منكم خافية.

٢٦ ـ ويستجيبُ الذين تابوا فآمنوا وعملوا الصالحات المُعبِّرات عن صحَّة إيمانهم، فيما دعاهم لطاعته، ويزيدهم الله من فضله، فيوفِّقهم لأداء نوافل الطاعات والقربات، ويزيدهم ثواباً بمضاعفة الأجور المقرَّرة على ثواب أعمالهم تفضُّلاً منه، والكافرون لهم عند ربِّهم عذابٌ شديد في الآخرة.

٢٧ ـ ولو وسَّع الله الرزق لعباده لطغَوْا وظلموا وأفسدوا في الأرض، ولكن يُنزِّل ما يشاء إنزاله من رزق لعباده، بمقدار مُحدَّد معلوم، وَفْق حكمته، إنَّه تعالى عليم علماً كاملاً شاملاً بأحوال عباده وبطبائعهم، وبعواقب أمورهم، وبصيرٌ بكلِّ شيء في كونه، فَيُقدِّر أرزاقهم بالمقادير التي تقتضيها مشيئته الحكيمة على وَفْق مصالحهم.

٢٨ ـ واللَّهُ وحده هو الذي يُنزِّل المطر من بعد ما يَئِسَ الناس من نزوله يأساً شديداً؛ ليكون ذلك أدعى لهم إلى الشكر والفرح بحصول النعمة بعد الشدَّة، ويَبْسُط آثار رحمته بعباده بعد إنزال الغيث، أرزاقاً وإنعامات كثيرات على مساحات واسعات من الأرض، ليستمتع بها العباد، وهو الوليُّ الذي يتولى عباده بإحسانه وفضله، المحمود حمداً كثيراً على ما يُوصل إلى الخلق من آثار رحمته.

٢٩ ـ ومن العلامات الدالأت على قدرة الله: خَلْقُ السموات والأرض على هذه الصورة العجيبة والنظام المُحكَم، وما فرَّق ونشر في السموات والأرض من كلِّ ذي حياة، وهو على جَمْع الخَلْق بعد الموت يوم القيامة إذا يشاء قدير، إنما أمره إذا أراد أن يخلق شيئاً فإنما يقول له: «كن» فهو يكون بأمره التكوينيّ.

٣٠ ـ وما أصابكم ـ أيُّها الناس ـ من مصيبةٍ مكروهة عامة، تشمل أمةً من الأمم أو قوماً من الأقوام، فبسبب ما كَسَبت أيديكم من الذنوب والمعاصي، جزاءً، أو تربيةً، أو تذكيراً بالجزاء الأكبر، ويمحو من سجِّل المُؤاخَذَة كثيراً من الذنوب.

٣١ ـ وما أنتم ـ أيُّها الناس ـ بقادرين على الإفلات في الأرض هرباً من عذاب ربكم، ولا تُعجزون الله حيثما كنتم، إذا قضت حكمتُه بأن يُنزل بكم عذابه، عقوبةً لكم على كفركم وجرائمكم، وما يوجد لكم من دون الله وليٌّ يتولَّى حمايتكم من عذاب ربكم، ولا يستطيع نصيرٌ أن ينصركم فيمنعَ نزول عذاب الله فيكم.

وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِىٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾

٣٢، ٣٣ - ومن العلامات الدالآت على قدرة الله: السُّفُن العظيمة التي تجري في البحر، كالجبال العظيمة. إن يشأ الله يُسْكن الريح التي تَجْري بها السُّفن، فَيبْقين سواكنَ ثابتات على ظهر البحر لا يجرين إلى حيث يريد ركّابها، إنَّ في طفْو هذه السُّفُن العظيمة على سطح الماء، وفي جريانها بالرياح قديماً، وبالطاقة الحرارية بعد ذلك، وقدرة الله على إسكان الرياح، وتعطيل المُحرِّكات الأخرى، لآيات كثيرات دالآت على إتقان صنع الله لكونه، وعنايته بعباده، ولا يصل إلى إدراك دقائق صنع الله وتدابيره إلا كلُّ كثير الصبر في البحث العلمي، يعمل مُجْتهداً بدأب لبلوغ معرفة النظام السببيّ الذي نَتَجت عنه ظواهر الطّفْو، وإجراء السفن، ولا ينتفع من إدراك عظيم صفات الله ورحمته بعباده إلا كلُّ كثير الشكر لربّه.

٣٤، ٣٥ - فإن لم يسكن الرياح فمن الاحتمالات أن يحطِّم السُّفن ويُهلك ركابها بإرسال الرياح العاصفة والأمواج المُغْرقة؛ بسبب ما كسب ركابها من الكفريّات والجرائم، ويَعْفُ عن كثيرٍ من ذنوبهم، فلا يعاقب عليها؛ رحمةً بهم، وحين يُنزل الله هذا العقاب بالمجرمين، فمن الأغراض أن يَعْلَم الذين يُجادلون بالباطل في آياتنا الكونيّة، أنهم ما لهم من مَهْرَب يهربون إليه، إذا أراد الله أن ينزل بهم عذابه.

٣٦ - ٣٩ - فما أُوتيتم - أيها الناس - من شيءٍ من زينة الدنيا، فهو مَتَاعٌ لكم في الحياة الدنيا، يُنتفع به مؤقّتاً، وهو سريع الزوال، وقليلِ القيمة بالنسبة إلى نعيم الآخرة، وما عند الله من الثواب خيرٌ من كلِّ متاعات الحياة الدنيا، وأكثر بقاءً، لأنه يتجدّد دواماً، أعدَّ الله هذا الثواب العظيم لعباده الذين اتّصفوا بهذه الأوصاف العشرة: **الصفة الأولى والثانية**: الذين آمنوا إيماناً صحيحاً صادقاً، وعلى ربِّهم - وحده - يعتمدون في أمورهم كلِّها، مع قيامهم بالأسباب التي دعا إلى اتخاذها، **والصفة الثالثة**: الذين يبتعدون عن كبائر ما نهى الله عنه، ممَّا تعظُمُ عقوبتُه، كالشِّرك والقتل والربا والسَّرقة وشرب الخمر وشبه ذلك، **والصفة الرابعة**: يجْتنبون كل ما عَظُم قبحه من الكبائر المتعلِّقة بشهوات الفروج، ومنها: الزنى، وعمل قوم لوط، **والصفة الخامسة**: إذا أساء إليهم مسيءٌ، واستثار غضبهم مُؤْذٍ فأغضبهم، فإنهم يسْترون إساءته وإيذاءه، ويتجاوزون عن مؤاخذته، **والصفة السادسة**: الذين أطاعوا ربَّهم فأجابوه إلى ما دعاهم إليه من فعل أو تركٍ، **والصفة السابعة**: أدَّوْا الصَّلاة المفروضة مداومين عليها في أوقاتها، على الوجْه الشرعيِّ المطلوب، **والصفة الثامنة**: يطلبون رأي أهل الحلِّ والعقد في الأمور المتروكة لتنظيماتهم وتدبيراتهم، لاتّخاذ قرار فيه، ممَّا لا حكم فيه لله ورسوله، ولا ينفردون برأيٍ ما لم يجتمعوا عليه، **والصفة التاسعة**: ينفقون بعضاً مما رزقناهم إيّاه، ابتغاء مرضاة الله، **والصفة العاشرة**: الذين إذا أصابهم الظلمُ والعُدوان هم ينتقمون من ظالمهم من غير تعدٍّ.

٤٠ - وجزاءُ سَيِّئة المعتدي الباغي عقوبة بسيِّئةٍ مثلها، تقريراً للعدل، فَمَنْ عَفَا عمَّن ظلمه ولم يقابل السيئة بمثلها، مع قدرته أن ينتصر لنفسه، وأصلح نفوسَ كثيرٍ من الذين لم يستجيبوا لدعوة الحق، بِجَعْل قلوبهم تعطف عليه، وتُكْبر خُلقه الإسلامي بعفوه عن الباغي الظالم مع قدرته على مقابلة السَّيِّئة بمثلها، وأصلح كذلك ما بينه وبين ظالمه، بوسائل الإصلاح بين الخصماء، مع عفوه عمَّا ناله من أذى، فثوابُه على الله الذي لا يعلم بقدره سواه، إنَّ الله لا يحبُّ الذين يبدؤون بالظلم. ومن لا يحبُّه الله فإنه يُعرِّض نفسَهُ لعقابه.

٤١، ٤٢ - ومن المؤكّد أن كلَّ من انتصر لنفسه بعد ظُلم الظالم إيَّاه، لا بمجرَّد التخوُّف منه، فأولئك الفضلاء المُنتصرون لنفوسهم في حدود ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ لا يوجد سبيل يُوصِلُ إلى لَوْمهم أو مؤاخذتهم على انتصارهم لأنفسهم بالعدل. ما السبيل الموصوف بالحقِّ والعدل الموصل إلى إقامة الجزاء العقابيِّ على مُسْتحقّه، إلاَّ السبيلُ المُسلَّط بسلطان الحق والعدل على الذين يَبْدؤون بالظلم، ويعتدون بغاةً في الأرض بغير الحق، ويعملون فيها المعاصي، أولئك المنحطُّون المجرمون البغاة لهم يوم القيامة عذابٌ مُؤْلِمٌ مُوجع.

٤٣ - ومن المُؤكّد أن كلَّ من صَبَر على الظلم والأذى ممَّن ظلمه وأساء إليه، وضبط نفسه عن الاندفاع بعوامل الغضب أو الطيش أو الرعونة، وغطى إساءةَ مَنْ أساء إليه، فلم ينشرها، وتجاوز عن مُجازاته بمثل سيئته، إنَّ ذلك الخلق الرفيع والسلوك البديع لمن إرادة الأمور الصعبة الشاقّة على النفوس، التي تحتاج إلى إرادة قوية جداً، هي من مستوى العزم.

٤٤ - ومن يحكم الله عليه بالضلالة، ويقضي بمعاقبته بحسب ضلالته، فما له في الوجود كلّه من وليٍّ مُحبٍّ من بعد الله، يستطيع أن يحكم له بالهداية، وأن يدفع عنه عقاب الله الذي قضى به عليه، ولو كنت - أيها المُخاطَب المُتلقِّي لبياننا - من أهل حضور هذا المشهد =

وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾

= من مشاهد يوم القيامة، لكنت ترى الظالمين حين رأوا مكان العذاب، ووسائل تعذيبهم في جهنَّم، يقولون في أنفسهم متسائلين: هل لنا من وسيلة للرجعة إلى الحياة الدنيا لاستئناف رحلة الامتحان؟

٤٥ ـ ولكُنتَ ترى ـ أيُّها الرائي ـ هؤلاء الظالمين يُعْرَضون على جهنَّم، خاضعين متضائلين منكسرين ممَّا يلحقهم من الذل، يرمون بأبصارهم إلى الأرض، وينظرون إلى مواقع عذابهم في النار من طَرْف خفيّ، خوفاً منها، وخجلاً من أهل المحشر، وقال الذين آمنوا في موقف الحشر بعد أن جاءتهم البشرى بأنهم من أصحاب الجنة، وبعد أن شاهدوا أهل النار على أبوابها أذلاء منكسرين: إنَّ الخاسرين حقاً كلَّ شيء، هم الذين خَسروا أنفسهم، وخسروا أهليهم يوم القيامة بأن صاروا إلى عذاب النار الأبديّ. تنبَّهوا وتأكَّدوا إنَّ الظالمين ـ يوم القيامة ـ في عذابٍ دائم مُستمر شديد، لا ينقطع عنهم ولا يزول.

٤٦ ـ وما كان لهؤلاء الكافرين حين محاسبتهم والحكم عليهم بالخلود في عذاب النار من نُصراء من دون الله يُنقذونهم من عذاب الله الأبديّ، ومَنْ يحكم الله عليه بالضلال والعذاب الأبديّ، فما له من طريق يُوصله إلى الخلاص والنجاة من عذاب الله.

٤٧ ـ أطيعوا ربَّكم إلى ما دعاكم إلى الإيمان به، وإلى فعله أو تركه، من قبل أن يأتيَ يومُ حسابكم وجزائكم، لا يَقْدرُ أحدٌ على دفعه ومنعه، إذ هو من أمر الله تقديراً، وقضاءً، وخلقاً، ما لكم من مَلْجأ تلجؤون إليه ليقيكم من العذاب، وما لكم من إنكارٍ لما يُنْزله الله بكم من جزاءٍ بالعدل؛ لاستحقاقكم له.

٤٨ ـ فإنْ أعرض هؤلاء المشركون عن الاستجابة لك، فما أرسلناك ـ يا رسول الله ـ عليهم حفيظاً تحفظ أعمالهم، ولست مُكلَّفاً أن تُحوِّلهم من الكفر إلى الإيمان، ولست مُجبراً ولا مُكرهاً لهم، ما يجب عليك ـ يا رسول الله ـ إلا البلاغ، بتوصيل ما أمرك ربك بإبلاغه إلى الناس، بالبيان الكلامي، والعملي، والقدوة الحسنة. وإنا إذا أذقنا الإنسان ـ بفضل منا ـ نعمةً وصحةً وسَعَةً وأمناً، بطر لأجلها، واستكبر وتفاخر وتعالى على الناس، وإنْ تُصبهم مُصيبة من مرض وفقر وقحط؛ بسبب ما قدَّمت أيديهم من الأعمال الخبيثة، فهم يؤوسون قنوطون، وذوو دعاء عريض، فمن المؤكَّد حقاً إن الإنسان بالنظر إلى غالب أفراد جنسه، كثير الجحود، ينكر الحقَّ، وهو عالمٌ بأنه حقٌّ.

٤٩، ٥٠ ـ لله تعالى ـ وحده ـ مُلْكُ السموات والأرض خلقاً وتدبيراً وتصرُّفاً، يخلق في الوجود ما يشاء أن يخلقَهُ، إيجاداً من العدم وإبداعاً، أو إيجاداً لكائناتٍ جديدات من موجودات سابقات، ومشيئتُهُ سبحانه مقْترنة بعلمه وحكمته، ومن خلقه: خلق الذُرّيَّات الإنسانيَّة، ضمن نظام التناسل، يَهَبُ لِمَنْ يشاء إناثاً، فلا يُولَد له ذكر، ويَهَبُ لمَنْ يشاء الذكور، فلا يُولد له أنثى، أو يجمع بينهما، فيولد له الذكور والإناث، ويجعل مَنْ يشاء عقيماً، لا يُولد له؛ إنه سبحانه عليمٌ بما يخلق، قديرٌ على ما يريد. فأقسام مَنْ يُولد لهم مواليد أو يُحرمون منها مع اتِّخاذهم أسباب الإنجاب، أربعة أقسام لا خامس لها، وَفْق القسمة العقليَّة والواقعيَّة، فإما أن تكون الذريَّة من الإناث، وإما أن تكون من الذكور، وإما أن تكون من الصنفين، وإما أن يكون الإنسان عقيماً لا يُنجب.

٥١ ـ وما جعل الله بتقديره وقضائه الحكيم لأحدٍ من البشر أن يُكلِّمه تكليماً مّا في الحياة الدنيا إلا بهذه الأنواع الثلاثة: **الأول**: الوحي بالإلقاء في القلب إلهاماً أو مناماً بطريقةٍ يُعلمه بيقين أنَّ هذا الكلام تنزيلٌ من ربِّ العالمين، **النوع الثاني**: أن يُسمعه كلامه بأذنيه نافذاً إلى أعماق فؤاده من وراء حجاب، **النوع الثالث**: أن يُرسلَ رسولاً من الملائكة، كما ينزل جبريل عليه السلام إلى المرسل إليه، فيُوحيَ ذلك المَلَك إلى الرسول المُختار لإيصال كلام الله إليه، بإذن ربِّه ما يشاء الله إيحاءَهُ؛ إنه سبحانه عليٌّ في ذاته وصفاته وأفعاله، له العلوُّ الذي لا يُدانيه ولا يقاربه عُلوٌّ، إذ كلُّ ما في الوجود هو من دونه، وهو مخلوقٌ ومملوكٌ له، حكيمٌ في تدبير أمور خلقه، يضعُ الأشياء في مواضعها المُلائمةِ لها، ويختارُ أفضلَ الأشياء وأحسَنَها في الأمور المختلفة لما يُحقِّق أحسن النتائج.

وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴿٥٣﴾

سُورَةُ الزُّخْرُفِ

(مكية ٤٣) (آياتها ٨٩)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حم ﴿١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴿٥﴾ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٧﴾ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾

٥٢، ٥٣ ـ وكما أَوْحَيْنا إلى سائر رسلنا، أَوْحَيْنا إليك ـ يا رسول الله ـ قرآناً من أمرنا مشتملاً على زُبْدة العلوم الربانيّة المُنزَّلة، وكُليّات الدين الكبرى، وهو كالروح الذي به حياة الأجساد، إذ هو حياة للقلوب والنفوس والأفكار، يحيي به مَنْ تلقَّاه وآمن به، وتدبَّر معانيه وتأثَّر بها، ما كُنتَ ـ يا رسول الله ـ تدري قبل الوحي إليك: ما القرآن ولا شرائع الإيمان ومعالمه وتفاصيله؟ ولكن أوحينا إليك، وعلَّمناك الإيمان وأركانه، وجعلنا القرآن نوراً هادياً للقلوب والنفوس والأفكار، نهدي به من نشاء من عبادنا، إلى سلوك صراطنا المستقيم، ونمحو به ظلمات الضلالات الفكريّة والنفسيّة والسلُوكيّة، وإنك ـ يا رسول الله ـ لَتَهدي هدايةَ دعوة وتبليغ إلى طريق ربِّك المستقيم الذي لا عِوَج له، وهذا الطريقُ الواضح الجليُّ ليس من وَضعك، بل هو اصطفاءٌ حكيمٌ من اللّهِ، الذي له كلُّ ما في السموات وما في الأرض، لا شريك له في ذلك. انتبهوا وتأكَّدوا ـ أيُّها الناس ـ إلى الله وحده لا شريك له تصيرُ كلُّ أُمور الخلائق، ويُجازي الموضوعين في الحياة الدنيا موضع الابتلاء، بفصل القضاء، وتنفيذ الجزاء، يوم الدين.

سُورَةُ الزُّخْرُفِ

١ ـ ﴿حمٓ﴾ سبق الكلام على الحروف المُقطَّعة في أوَّل سورة البقرة.

٢ ـ أقسم بالكتاب الذي يجب على المُكلَّفين أن يُدوِّنوه كتاباً مصوناً محفوظاً من التغيير والتبديل، والزيادة والنقص والتحريف والضياع.

٣ ـ إنا أنزلنا هذا الكتاب قرآناً عربياً يُقرأ بلسان عربي؛ رغبةً في أن تعقلوا عقلاً علمياً معانيه وأحكامه، وعقلاً إرادياً تضبطون به نفوسكم عن اتِّباع الأهواء والشهوات.

٤ ـ وإن كذَّبتم ـ يا أهل مكة ـ بالقرآن، فإنه مُثْبَتٌ عندنا في اللوح المحفوظ، في مكانٍ عليٍّ ذي منزلةٍ رفيعة؛ لأنَّ دلالاته تتعلَّق بكبريات الحقائق المبيِّنات لصفات الله، ومطلوباته من عباده، وهو أيضاً حكيم مشتمل على حكمة بالغة في معانيه ومبانيه، وأغراضه ومراميه، مُحكَم لا يتطرَّق إليه الفساد والبطلان ولا الاختلاف ولا التناقض.

٥ ـ أنتركُكم في غَواياتكم، فنصرف عنكم تبليغ آيات الذكر الحكيم والتذكير بها، إعراضاً عنكم، ويأساً من استجابتكم، من أجل أنكم كنتم قوماً مسرفين، ذوي غلوٍّ في المكابرة والعناد، ورفض دعوة الحق؟ إنا لا نفعل ذلك.

٦ ـ وأرسلنا كثيراً من الأنبياء في الأمم السابقة، فليس عجيباً إرسالُ رسولٍ إليكم.

٧ ـ وما يأتيهم من نبيٍّ إلا كانوا به يستهزؤون، كاستهزاء قومك بك.

٨ ـ فأهلكنا أقواماً كثيرين كانوا أقوى من هؤلاء المُسرفين سطوةً وقوَّةً، ومضى ـ فيما نزل من سور القرآن ـ ذكر وصف المُهلكين الأوَّلين، وتكذيبهم رسل ربِّهم، وعنادهم واستئصالهم، وإنَّ كفَّار قريش سلكوا في الكفر والتكذيب مَسْلك مَنْ كان قبلهم، فليحذروا أن ينزل بهم مثل ما نَزَل بالأوَّلين من الخزي والعقوبة.

٩ ـ ونؤكِّد بالقسم: لئن سألت ـ يا رسول الله ـ قومَك: مَنْ خلق السموات والأرض؟ ليقولُنَّ بتلقائيَّة وتتابع: خلقهنَّ العزيز ذو القوة الغالبة لكلِّ القوى، العليم ذو العلم الشامل لكلِّ ما خلق. ومع إقرارهم بأنَّ الله خلقهما، واعترافهم بعزَّته وعلمه، أشركوا بربوبيَّته، فجعلوا له شركاء في شؤون حياتهم، كالنصر، والرزق، والأمن، والتوفيق، ومنح الذرِّيَّة، ونحو ذلك.

١٠ ـ الذي تؤمنون بأنه هو الذي خلق السموات والأرض، لم يُشاركه في خلقهما شريكٌ ما، هو الذي جَعَل لكم الأرض مكاناً مُمَهَّداً؛ لتجدوا عليها راحتكم إقامةً، وجلوساً، واضطجاعاً، وقياماً، فوديانها وسهولها تشبه المكان الذي ينام عليه الطفل في باطن السرير، وجبالها تشبه حافتي السرير المرتفعتان عن يمين وشمال، وجَعَل لكم في الأرض طُرقاً صالحة لأن تسلكوها في تنقُّلاتكم وأسفاركم؛ رغبةً في أن تهتدوا إلى تحقيق مصالحكم في زراعتكم وصناعتكم وتجارتكم، وسبل حمايتكم، وغير ذلك.

وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم مَّا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾

١١ - وهو الذي يرزقكم، فلا ترزقكم آلهتكم التي تعبدونها من دونه، ومن مظاهر رزقه: أنه نَزَّل من السحاب ماءً بمقدار محدّد معلوم اقتضته حكمته؛ لرزق عباده وسائر الأحياء في الأرض، فأحيَيْنا بالمطر بلدةً مُجدبة، لا نباتَ فيها ولا زرع، كما أحْيَيْنا هذه البلدة المُقفرة من النبات بالمطر، كذلك تُخْرَجون - أيها الناس - من قبوركم أحياءً يوم البعث من بِزْرة صغيرة محفوظةٍ في عَجْب الذنب، فتخرجون بنماءٍ، حتى تصيروا أجساداً كاملةً، وتزوَّج تلك الأجساد بأرواحها التي كانت داخلةً فيها في الحياة الدنيا.

١٢ - والذي خلق أصنافَ المخلوقات كلها، وجعل لكلِّ فرد زوجاً من جنسه أو من نوعه، فهما يتكاملان في أداء وظيفتهما في الوجود، كالذَّكر والأُنثى في الأحياء، وكالسَّالب والمُوجب في الكهرباء، وفي الذرَّات، وفي غير ذلك، وجَعَل لكم من السُّفن والإبل ما تركبون في البحر والبر.

١٣، ١٤ - لتكونوا راكبين باعتدال واستقامةٍ على ظهور السُّفن والأنعام، ثمَّ تذكروا نعمة ربِّكم في تسخيرها لكم عند الاستقرار عليها، ولتقولوا - استعظاماً لتذليلها العجيب، واعترافاً بالعجز عن ضبطها والتسلُّط عليها -: سُبْحان الذي ذلَّل لنا هذا المركوب، وجعله منقاداً لنا، وما كنَّا له مطيقين لولا أنَّ الله طوَّعه لنا، ونسأله أن يعيدنا بعد قضاء حاجاتنا في سفرنا آمنين، وإنا إلى ربنا لراجعون بعد الموت والبعث، للحساب، وفصل القضاء، وتحقيق الجزاء.

١٥ - وحكم وأثبت المشركون لله سبحانه ممَّا خلق ولداً، زاعمين أنه جزءٌ منفصل من ذاته، قياساً على ما يعرفون من أولادهم، وأنهم أجزاء من ذواتهم، إنَّ أكثر أفراد الإنسان لَجحودٌ نِعَمَ الله تعالى عليه، ظاهرٌ جحودُه وسَتْرُه أدلة الإيمان بعد أن وَضَحت له.

١٦ - بل أتزعمون - أيُّها الجاحدون - أنَّ ربَّكم اتَّخذ لنفسه ممَّا يخلق في كونه بناتٍ، وتبنَّاهنَّ أولاداً له، وهُنَّ خَلْقٌ من خَلْقه وعبادٌ من عباده؟! وآثركم على نفسه بالبنين؟! فكيف تتصوَّرون أن الله اختار لنفسه الأدنى، وآثر الناس الأكمل.

١٧ - إنهم نسبوا إليه سبحانه البنات، حين زعموا أنَّ الملائكة بناتُ الله، مع أنهم يكرهون لأنفسهم البنات، وإذا بُشِّر أحدُهم بما صنع من عنده مثلاً زعم أنه مشابه للرحمٰن، في نسبة إنجاب ذرية البنات للّه، بقي وَجْهُهُ كالحاً طول نهاره عليه سحابات سوادٍ من سوء البشارة بالأنثى، وهو مُمْسك على ما امتلأت به نفسُهُ، من الحُزن والغيظ.

١٨ - ويقول في نفسه عن المولود من الإناث: أأُبشَّر بمَنْ لا يكسب لي رزقاً، ولا يدافع عني في قتال، ولا أفتخر به بين الناس، ومَنْ يُنشَّأ في الزينة، وهو في المخاصمة غير مبين بحُجَّة دامغة يقبلها أهل الفكر والرشد والبيان؟!

١٩ - حكم هؤلاء المشركون وأثبتوا الأنوثة للملائكة الذين هم عباد الرحمن، دون أن يكون لهم دليلٌ خبريٌّ عن الله، ودون أن يكون لهم شهودٌ حسِّيٌّ، أحضروا خَلْقَهم حين خُلِقوا، ورأوا أنهم إناث؟ سَتُكتب شهادتهم إنْ شهدوا بأنهم رأوهم إناثاً بشهود بصريٍّ، ويُسألون عن شهادتهم الكاذبة هذه يوم القيامة، ويُجازون عليها.

٢٠ - وقال هؤلاء المشركون: لو شاء الرحمنُ ما عَبَدنا أحداً من دونه، فعبادتنا للآلهة من دون الله، إنَّما هي أمرٌ جبْريٌّ سبق به تقدير الله وقضاؤه، ولا تخضع لإراداتنا، فلا مسؤولية علينا منها، ليس لهم دليلٌ علميٌّ من برهان عقليٍّ يثبت أنهم مجْبورون، بل البرهان العقلي والتجريبي يُثبت أنهم ذوو إرادات حُرَّة يريدون بها ما يشاؤون من كلِّ ما يخضع لتصرُّفاتهم الإراديَّة، وهم مسؤولون عما يفعلون بإراداتهم الحرَّة، وما هم بادِّعائهم هذا إلا يكذبون ويستندون إلى ظنون توهميَّة، إرضاءً لأهوائهم، والتزاماً بتقاليدهم العمياء لآبائهم.

٢١ - أم آتيناهم كتاباً مُنزَّلاً على رسول من قبل إنزال القرآن على محمد، وفي هذا الكتاب أمرٌ أو إذنٌ منا بأن يعبدوا غير الله، فهم بما دلَّ عليه هذا الكتاب مُسْتَمْسكون، يعملون بما فيه، ويحتجُّون به عليك يا رسول الله؟

٢٢ - بل قالوا بعد عجزهم عن الحُجَّة من العقل والنقل: إنا وجدنا آباءنا سائرين على دينٍ وملَّةٍ تُؤمُّ وتُقصد، وإنا نسير على آثار آبائنا فيما كانوا عليه، مُقْتدين بهم، ونؤمن بأنَّنا مهتدون بهذا الاقتداء.

وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾

٢٣ ـ وكذلك ما أرسلنا من قبلك ـ يا رسول الله ـ في أهل مُجَمَّع سكنيّ من رسول قام بوظائف رسالته من التبليغ والتعليم والتذكير والتبشير والإنذار في آخر الأمر، إلا قال أغنياؤها ورؤساؤها: إنَّا وجدنا آباءنا على مِلَّةٍ ودين، وإنَّا سائرون على آثار ملَّة آبائنا، ومُقْتدون بهم، ومهتدون في مسيرتنا.

٢٤ ـ قال محمد ﷺ ومَنْ سبقه من الرسل: أتقتدون بآبائكم، ولو جئتكم بأفضل هدايةٍ إلى نجاتكم وسعادتكم من الدين الذي وجدتم عليه آباءكم؟! قال المشركون المستكبرون لرسل ربِّهم: إنا بكلِّ الذي أرسلتم به من التوحيد وأنباء البعث يوم القيامة جاحدون.

٢٥ ـ فانتقمنا من المُكذِّبين لرسلهم انتقاماً شديداً بالإهلاك المُسْتأصل في الدنيا، فانظر ـ أيها المُخاطب المُؤهَّل للنظر التفكُّري في آثار المُهْلكين السابقين ـ كيف كان جزاء المُكذِّبين في أماكن مختلفة من بلدان الأمم السابقة؟

٢٦ ـ واذكروا الحَدَث الذي جرى ـ يا أبناء إسماعيل بن إبراهيم ـ حين أنكر جدُّكم إبراهيم على أبيه وقومه عبادة الأصنام، وقال: إنني بعيدٌ كلَّ البُعد ممَّا تعبدون من الآلهة الباطلة.

٢٧ ـ أنا أتبرَّأ ممَّا تعبدون، لكن الله الذي خلقني وأوجدني بعد أن لم أكن شيئاً مذكوراً، وهداني إلى الإيمان به رباً لا شريك له، فإنَّه سيُرشدني إلى أعمال العبادات التي تُرضيه، المُباينة لعبادتكم لآلهتكم التي اتخذتموها من دون الله، زوراً وبهتاناً.

٢٨ ـ وَجَعل إبراهيم الكلمة التي قالها لأبيه وقومه: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾، كلمةً باقية في ذُرِّيَّته إلى يوم القيامة، ووصَّى بها من كان حيّاً من أولاده قبل موته، وأوصاهم أن يجعلوها وصيَّته بنقلها خَلَفٌ عن سلف، راجياً بهذه الوصيَّة أن ترجع ذرِّياته إلى تذكُّرها جيلاً بعد جيل، وأن يلتزموا بمضمونها.

٢٩ ـ بل متَّعتُ ـ يا رسول الله ـ كفارَ مكة وآباءهم المشركين في الدنيا، وأمهلتهم إلى آجالهم المقدَّرة لهم، ولم أُعاجلهم بالعقوبة على كفرهم وتركِ وصيَّة إبراهيم بالمحافظة على عقيدة التوحيد، التي كان قد وصَّى بها أجدادهم، وأوصاهم أن يتوارثوها جيلاً بعد جيل، واستمرَّ إمدادي لهم بمتاعاتهم من الحياة الدنيا، حتى جاءهم القرآنُ، ورسولٌ بيَّنَ الرسالةَ وأوضَحها بما معه من الآيات والمعجزات.

٣٠، ٣١ ـ ولمَّا جاءهم الكتابُ الحقُّ من عند الله بلاغاً على لسان رسوله ﷺ، وأدهشتهم بلاغته، وعجزوا عن أن يأتوا بمثله، قالوا: هذا التأثير الذي نجده في نفوسنا وقلوبنا وعقولنا ناتجٌ عمَّا اقترن به من سحرٍ يَسْحرنا به، وليس لأنه بذاته بيانٌ من الله عظيمٌ معجز، وإنا به جاحدون؛ لأنه يشتمل على ما يُخالف تقاليدنا وأهواءنا وشهواتِنا. وقال هؤلاء المشركون: إنَّ منصب النبوَّة منصبٌ عظيم شريف، لا يليق إلا برجل كثير المال والجاه، هَلاَّ نُزِّل هذا القرآن ـ الذي يزعم محمدٌ أنه وحيٌ من عند الله ـ على رجلٍ عظيم الجاه، واسع المال، ذي مكانة رفيعة من إحدى هاتين القريتين: «مكة» أو «الطائف»؟

٣٢ ـ أبأيديهم مفاتيح الرسالة، فيضعونها حيث شاؤوا؟ نحن بحكمتنا الجليلة قَسَمنا بين الناس معيشتهم في الحياة الدنيا، فجعلنا بعضهم غنياً موسَّعاً عليه في الرزق على درجات متفاضلات، وبعضهم فقيراً مُقَتراً عليه في الرزق على درجات متنازلات، ونحن رفعنا بعض الناس فوق بعض درجات في الهبات والخصائص الماديَّة والمعنويَّة، والجسديَّة والنفسيَّة، والفكريَّة والخلقيَّة؛ ليكون بعضُ الناس مُسخَّراً لبعض بحسب خصائص كلٍّ منهم، ويحصل بهذا تبادل الخدمات، وتكامل تأدية وظائف الحياة ومعايش الناس، فإذا عجزوا عن الاعتراض على حكمنا في أحوال الدنيا مع قلَّتها وذلَّتها، فكيف يقدرون على تغيير حكمنا في تخصيص بعض عبادنا بمنصب النبوَّة والرسالة التي لا تكون إلا لمن هو مُؤهَّل لها، ورحمةُ ربِّك الخاصَّة بالاصْطفاء للنبوَّة والرسالة، هي خيرٌ وأجلُّ وأعظم من كلِّ ما يجمع الكفار من أموالٍ ومتاعاتٍ من مظاهر الحياة الدنيا.

٣٣ ـ ولولا أن يفتتن أكثر الناس بمظاهر الحياة الدنيا وزيناتها، فيكونوا جماعةً واحدةً على الكفر، إذا رأوا الكفار في سَعَة من المال والرزق، لجعلنا لبيوت الذين يكفرون بالرحمن المُمِدِّ لهم بعطاءات رحمته سُقُفاً من فضة، ولجعلنا لهم مَصَاعدَ من فضة أيضاً، على هذه المصاعد والسلالم يرقون ويصعدون.

وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾

٣٤، ٣٥ - ولجَعَلنا لبيوتهم أبواباً وسُرراً من فضة، ولجعلناهم مُرفَّهين يتَّكئون على سُررهم الوثيرة، ولجعلنا من ذلك ذهباً يستمتعون به، ويتفاخرون بحُسنه، وبما فيه من زينات سارَّات للناظرين، وما كلُّ ذلك إلا متاع الحياة الدنيا يستمتع به الإنسان قليلاً، وهو ضئيل القيمة، مصيره إلى الفناء، والآخرة العظيمة الخالدة في جنات النعيم، هي عند ربِّك - أيُّها المُتلقي بياناته - خاصَّة للمتَّقين الذين زهدوا في الدنيا.

٣٦ - ومَنْ يجعل بإرادته الحرة على بصر بصيرته غشاوةً تجعله ضعيفاً كليلاً عن الرؤية في ظلمات أهوائه، فيُعرض بسبب ذلك عن آيات الذكر الذي أنزله الرحمن، مُتَّبعاً أهواءه وشهواته ولذَّاته من دنياه، نهيِّئ له شيطاناً عاتياً مُتمرِّداً في الدنيا من الجنِّ، ونضمُّه إليه، ونُسلِّطه عليه، ضمن سُنَّتنا السببيَّة التي تأتي بأسباب من إرادات الموضوعين في الحياة الدنيا، فهو له مُصَاحبٌ مُلازمٌ لا يُفارقه، يُزيِّن له العَمَى، ويُخيِّل إليه أنه على هُدى.

٣٧ - وإنَّ القرناء من الشياطين ليمنعون قرناءَهم عن سبيل الله المُوصل إلى النجاة والفوز والخلود في جنَّات النعيم، ويظنُّ كفار بني آدم ظنّاً ضعيفاً أنهم مهتدون إلى ما يُحقِّق سعادتهم.

٣٨ - ويستمرُّ الكافر، مُصاحباً قرينه الشيطان، ويحسب أنه مُهْتدٍ باتِّباعه، حتى إذا جاءنا وحده عند انتهاء أجله في الحياة الدنيا، وانكشف له مصيره الذي هو صائرٌ إليه، قال الكافر لقرينه الشيطان: يا لَيْتَ بيني وبيْنَك بُعْدَ ما بين المَشْرق والمَغْرب، فَبِئْسَ القرينُ أنت.

٣٩ - ولن ينفعكم اليوم - أيُّها المُعرضون عن ذكر الرحمٰن، وقرناؤكم من الشياطين - لأنكم كنتم ظلمتم في الدنيا ظلماً من دَرَكة الكفر، أنكم ملتصقون بقرنائكم، وتنزل عليكم وسائل تعذيبكم نزلةً واحدةً، تكونون فيها مشتركين، بل لكلِّ واحد منكم نصيبه الخاصُّ به من العذاب.

٤٠ - أفأنت تُسْمع - يا رسول الله - مَنْ لا سَمْعَ له الذين يتولَّون عن استماع البيانات الداعيات إلى دين الحق، أو تهدي من لا بصر له الذين يُدبرون عن تفهُّم آيات الله المشهودة الدالات على وحدانيته وقدرته، وَمَنْ كان في ضلال عن الحقِّ بيِّن واضح؟ فهو مكابرٌ معاندٌ جاحدٌ، فلا تنفق وقتك في معالجة هؤلاء الميؤوس من استجابتهم عن طريق إراداتهم الحرَّة.

٤١، ٤٢ - فإمَّا نُميتك - يا رسول الله - قبل أن ننتقم من المكابرين المعاندين، فإنَّا منهم منتقمون بالعقوبة بعد موتك، أو نُرِيَنَّك في حياتك الذي وعدناهم به من العذاب، فإنَّا شديدو القدرة على الانتقام منهم، وعلى تنفيذ ما وعدناهم إيَّاه من عقوبةٍ مُؤْلمةٍ.

٤٣، ٤٤ - فأَمْسك بقوَّةٍ وشدَّةٍ - يا رسول الله - مؤمناً وعاملاً بكلّ الذي أوحي إليك من ربِّك؛ إنَّك بتمسُّكك بالذي أُوحي إليك من ربِّك، تسير في حياتك على طريق واضح جليٍّ واسع مُمَهَّد، لا عوج فيه ولا مُعْثِرات. وإنَّ هذا القرآن لَشَرفٌ عظيمٌ لك - يا رسول الله - ولقومك العرب الذين نزل القرآن بلغتهم، وهذا الشَّرف العظيم ينبغي أن يكون دافعاً لهم أن يؤمنوا بالقرآن، لا أن يكفروا به، ويكذِّبوا رسول ربِّهم، وسوف تُسألون يوم القيامة عن القيام بحقِّه، والاستمساك به، والسَّيْر على صراطه المستقيم.

٤٥ - واسْأل مَنْ أرسلنا من قبلك من رسلنا الذين أرسلتهم: أجعلنا ممَّن خلقنا من عبادنا من ملائكةٍ أو أنبياء - مهما علت منزلتهم - آلهةً يُعبدون؟! بل كلُّ الرسل كانوا يأمرون أقوامهم بعبادة الله وحده. وهذا الأمر صيغتُه عامَّة موجَّهة لكلِّ فرد من أفراد أمة دعوة الرسول ﷺ، والمقصود به من كان لديه شكٌّ أو توهُّمٌ، فإذا أراد أن يدفع شكَّه أو توهُّمه، فليسأل النصوص الصحيحة الثابتة، أما الرسول ﷺ فلا يحتاج أن يسأل الرسل السابقين؛ لأنَّ ما يُوحىٰ إليه من أعلى مراتب اليقين الذي لا يعتريه شكٌّ أو توهُّم، ولكن خُوطب الشاكُّ من أمة دعوته، من خلال خطابه ﷺ، إذ هو رأس هذه الأمة بعد بعثته إلى أن تقوم الساعة.

٤٦، ٤٧ - ونؤكِّد لكم أننا أرسلنا نبيَّنا موسى مَصْحوباً بآياتنا البيانيَّة والإعجازيَّة إلى فرعون وعِلْية قومه، فقال لهم: إني رسول ربِّ كلِّ موجود سواه تبارك وتعالى، الذي خلق كلَّ الموجودات الكونية، وأمدَّها بعطاءات ربوبيَّته، فحين جاءهم موسى عليه السلام بآياتنا البيانيَّة والإعجازيَّة، فاجؤوا موسى بالضحك ممَّا جاءهم من الآيات الواضحات.

وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا يَٰٓأَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ الْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْأٓخِرِينَ ﴿٥٦﴾ ۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓا ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾



٤٨ ـ وطلب فرعون من موسى أن يقدِّم ما يدلُّ على أنه رسولُ ربِّ العالمين، فأراه آيتي العصا واليد، فاتَّهمه بأنه ساحر، ودعاه إلى مباراة بينه وبين كبار السَّحَرة، فنصر الله موسى، وما نُري فرعون وعِلْيَة قومه من آيةٍ إعجازيَّة من بقية الآيات التسع وهي: (الطوفان، والجراد، والقُمَّل، والضفادع، والدم، وسنوات القحط، ونقص الثمرات) إلا هي أكبر من أختها السابقة لها، أخذاً بحكمة التدرُّج الارتقائي، وقبضنا عليهم قبضاً شديداً مُؤلماً بعذاب الرِّجْز، رغبةً منا في أن يرجعوا عن كفرهم إلى أصل فطرتهم الإيمانية.

٤٩ ـ وقال فرعون وعِلْيَة قومه لموسى لما عاينوا العذاب: يا أيُّها العالم الكامل الحاذق بسحره، ادع لنا ربَّك بصيغة الدعاء الذي عهد به إليك، ليجيب دعاءَكَ، وجَعَله عندك، فإذا استجاب ربُّك لك، فرفع عنا عذاب الرِّجز، فإننا نَعِدُكَ بأن نكون مهتدين، بالإيمان بك وبما جئتنا عن ربِّك.

٥٠ ـ فلمَّا أزلنا عنهم العذاب الذي أخذناهم به أخذاً شديداً مُؤلماً، إذا هم يُفاجئون موسى بنقض عهدهم، ويُصرُّون على كفرهم.

٥١ ـ ونادى فرعونُ في قومه المصريين مفتخراً بما يملك، لافتاً أنظارهم إلى عناصر التفوُّق التي يريد أن يخدعهم بها، لانتزاع إقرارهم في غوغائية بتفوُّقه على موسى: قال يا قوم أليس لي مُلك «مصر» ميراثاً عن آبائي الملوك المؤيَّدين بالقوى الغيبيَّة؟ وهذه أنهار النيل الكبار تجري من تحت قصري؟ أفلا تُبصرون عظمتي وشدَّة ملكي الذي لا حقَّ لأحدٍ أن ينازعني فيه؟

٥٢ ـ بل أنا خيرٌ من موسى الذي هو ضعيفٌ حقير، ولا يقارب أن يُفصح بكلامه، ويُعبِّر عن مراده.

٥٣ ـ فهلاَّ ـ إن كان رسولَ ربِّ العالمين كما يزعم ـ أغناه الله فجعله من ذوي الثراء العظيم، بآياتٍ باهرات؛ وألقى عليه أَسْوِرَةً من ذهب، أو جاء معه الملائكة مُتَتابعين، يقارن بعضهم بعضاً، يشهدون له بصدقه، ويُعينونه على أمره.

٥٤ ـ فعمل فرعون بحيله المُغَالطيَّة، ووسائله الإغرائيَّة، التي جعل بها قومَهُ القبط غيرَ ذوي أوزانٍ فكريَّةٍ ونفسيَّة متأنيَّةٍ، تتريّث حتى تفكر وتدرك غرض فرعون من حيلِهِ ووسائله، وحملهم على الخِفَّة والجهل، فأطاعوه طمعاً بما وعدهم به من مُغْريات؛ إنهم كانوا قوماً خارجين من دين الله، حيث أطاعوا فرعون اتِّباعاً لأهوائهم وشهواتهم، ورغباتهم من متاعات الحياة الدنيا.

٥٥ ـ فحين أغضبونا أشدَّ الغضب ـ بإفراطهم بالفساد ـ عاقبناهم على ما كان منهم من كفر وجرائم، فأغرقناهم في البحر أجمعين.

٥٦ ـ فجعلنا المُتقدِّمين الماضين الذين أغرقناهم في البحر سَلَفاً لمَنْ يعمل مثل عملهم، ممَّن يجيء بعدهم، وجعلناهم حديثاً يمثَّل به، ليقاس عليهم أمثالهم في الكفر والعِناد، وليكونوا عبرةً لمَنْ يعتبر بما أنزل الله بهم من انتقام، فسنَّة الله في عباده واحدة.

٥٧ ـ ولما ضُرب ابنُ مريم مثلاً للأنبياء السابقين، الذين طُلب سؤال أتباعهم وحَمَلة شرائعهم، عن جعل الرحمن آلهةً تُعبد من دون الله، إذا قومُكَ من هذا المثل يرتفع لهم ضجيج وصياح وفرح، وقالوا: ما يريد محمد إلا أن نتَّخذه إلهاً كما اتَّخذت النَّصارى عيسىٰ ابن مريم إلهاً.

٥٨ ـ وتمادى مشركو قريش في غيِّهم، واعتبروا عبادة النصارى لعيسى مُسوِّغاً لعبادتهم الملائكة؛ لأن الملائكة في زعمهم خيرٌ من عيسى. ما ضربوا لك ـ يا رسول الله ـ مثل عيسى الذي قُصِدَ به إقامة الحُجَّة عليهم إلا جَدَلاً لإثبات مشروعيَّة عبادتهم للملائكة؛ وزعمهم أنَّ محمداً أراد من المشركين عبادته كما عبدت النصارى عيسى، بل هم في مُحاجَّتهم إيَّاك قوم شَديدُو الخصومة بالباطل.

٥٩ ـ ما عيسى ابن مريم إلا عبدٌ أنعمنا عليه بالنبوَّة والمعجزات، وجعلناه آيةً وعبرةً لبني إسرائيل، يعرفون به قدرة الله على ما يشاء، حيث خلقه من غير أب.

٦٠ ـ ولو نشاء لأهلكناكم ـ يا أهل مكة ـ، ولجعلنا بدلاً منكم ملائكةً يكونون خَلَفاً منكم، يعمرون الأرض، ويعبدونني ويطيعونني.

وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾

٦١ ـ وإنَّ نزول عيسى عليه السلام قبل يوم القيامة لدليلٌ يدلُّ على قُربها، فلا تَشُكُّنَّ بقيام الساعة، واعلموا أنها حقٌّ وصدق، وسيروا على أثري، واقتدوا بي في اعتقادكم، وفي أقوالكم، وفي أعمالكم، وفي أخلاقكم، فأنا أسوة حسنة لكم. هذا الذي أدعوكم إليه طريقٌ واضحٌ جليٌّ، واسع مُمهَّد، لا اعوجاج فيه ولا مُعْثرات.

٦٢ ـ ولا يَصرِفنَّكم الشيطانُ بوساوسه عن دين الله الذي أمر به، إنَّ الشيطان لكم عدوٌّ ظاهر العداوة.

٦٣ ـ وحين جاء عيسى عليه السلام نبياً ورسولاً داعياً إلى الله في مجتمع بني إسرائيل، ومصحوباً بالمعجزات الواضحات الشاهدات له بأنه نبيُّ الله ورسوله، قال لقومه: قد جئتكم بالحكمة في السلوك، وفي الأخلاق، وفي الآداب، وفي كليات المعارف والمفهومات الدينية، ولأُبيِّن لكم بعض الذي تختلفون فيه من قضايا كلية كبرى من قضايا الدين التي انحرفتم فيها عن دين الله الحق، فاتَّقوا عقوبات الله على انحرافاتكم ومخالفاتكم، وأطيعوني فيما آمركم به.

٦٤ ـ إنَّ الله ـ وحده ـ هو ربي وربُّكم، فاعبدوه ـ دونَ سواه ـ، واعملوا بشرائعه وأحكام دينه، هذا الذي أدعوكم إليه طريقٌ مستقيم، واضحٌ جليٌّ، واسعٌ مُمهَّد، مُوصلٌ إلى الجنَّة.

٦٥ ـ فانقسم الناس إلى أحزاب بشأن عيسى، فمنهم من كفر به وعاداه، ومنهم مَنْ آمن به واتَّبعه، ومنهم مَنْ غلا فيه فجعله إلهاً، على أنه ابن الله، أو هو الله بطريق حُلول الله فيه، أو هو ثالث ثلاثة، فَهَلاكٌ ودَمَارٌ وعذابٌ أليم يوم القيامة للَّذين ظلموا من هؤلاء الأحزاب ظلماً من دَرَكة الكفر، من جنس عذابٍ مؤلم لهم يوم القيامة في النار.

٦٦ ـ هل ينتظر هؤلاء الكافرون بتباطُئهم عن الإيمان والإسلام، وتأخير استجابتهم لدعوة الحق إلا أن تأتيهم الساعة التي تنتهي بها آجالهم، وتنقطع بها أعمالهم في الحياة الدنيا، ثم يستقبلون بعد ذلك ساعة البعث للحياة الأخرى فجأة دون إشعار سابق، إنها ستأتيهم لا مَحَالة، وهم لا يدركون أدنى إدراك بإنهاء ظروف الحياة الدنيا، وبدء الحياة الأخرى حين يبعثون.

٦٧ ـ الأصدقاء الذين تخلَّلت المحبَّةُ قلوبهم على الكفر والمعصية في الدنيا، بعضهم لبعض عدوٌّ يوم القيامة، إلا المُوحِّدين المُتحابِّين في الله، المُجتمعين على طاعته، وذلك لينعموا ويأنسوا في دار النعيم بالأخوة التي كانت بينهم في الحياة الدنيا.

٦٨ ـ يُنادي الله عبادَهُ المتَّقين: يا عبادي، لا خوفٌ مُسلَّط عليكم اليوم من عقابي، ولا أنتم تحزنون على ما فاتكم من حظوظ الدنيا، فقد أمنتم من العذاب، وضُمِن لكم الثواب.

٦٩ ـ الذين آمنوا في الحياة الدنيا إيماناً صحيحاً صادقاً بآياتنا البيانيَّة المُنزَلة، والكونيَّة، والإعجازيَّة، وكانوا مسلمين لله منقادين له بقلوبهم وجوارحهم.

٧٠ ـ يدعوهم الله إلى دخول الجنة مكرَّمين مُحتفىً بهم، فيقول لهم: ادخلوا الجنة التي كنتم وُعدتم بدخولها أنتم وأزواجكم المؤمنات اللواتي كُنَّ في الدنيا أزواجكم، حالة كونكم تُسَرُّون وتُنعَّمون بما تلقَوْن فيها من نعيم مقيم.

٧١ ـ يدور عليهم الحور الحسناوات، والولدان المُخلَّدون في الجنة بالطعام والفاكهة في أوانٍ من ذهب، وبالشراب في أكواب من ذهب، وفي الجنَّة كلُّ ما تشتهي أنفسهم، وترغب فيه، وكلُّ ما تتلذَّذ بمشاهدته أعينهم، ويقال لهم ـ إكمالاً للسرور ـ: أنتم في هذا النعيم مُخلَّدون باقون بقاءً أبديّاً.

٧٢ ـ وتلك الجنَّة الرفيعة المنزلة، الجليلة القدر التي منحكم الله إيَّاها؛ بسبب ما وفَّقكم الله في الدنيا من الخيرات والأعمال الصالحة، ترثون فيها المنازل التي كانت مُعَدَّة للكافرين، لو أنهم كانوا قد آمنوا وأسلموا في رحلة امتحانهم في الحياة الدنيا. فدخول المؤمنين الجنة ونعيمهم فيها خالدين، محض فضلٍ من الله، وعطاء يشبه عطاء الميراث الذي يناله الإنسان دون جهد منه، بسبب ما قام به المؤمنون من أعمال يبتغون بها رضوان الله وثوابه، مع أن هذه الأعمال لا تكافىء بعض نعم الله التي أنعم بها عليهم.

٧٣ ـ لكم في الجنَّة فاكهةٌ كثيرة الأنواع والطعوم والروائح الزكيَّة، من كلِّ نوع وصنف وطَعْم، تتلذَّذون بلذات الأكل منها، ولا ينقطع الإمداد بها.

إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴿٧٨﴾ أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾

٧٤ - ٧٦ - إنَّ المجرمين الكافرين المُرتكبين للآثام الكبرى يوم الدين، مُستقرّون في عذاب جهنَّم، وهم فيها خالدون أبداً، لا يُخفَّف عنهم من شدّة العذاب، وهم في جهنَّم آيسُون من رحمة الله، ساكتون، نادمون، وما ظلمناهم بهذا الخلود في العذاب الأليم، ولكن كانوا هم الظالمين لأنفسهم بما جنوا عليها.

٧٧ - ونادى المجرمون مالكاً خازنَ النار - وهم يُعذَّبون في جهنم - يستغيثون به: ليبُتَّ ربُّك قراره الإراديَّ علينا بالموت، فنستريح ممَّا نحن فيه من العذاب. قال لهم مالك: إنكم باقون في العذاب.

٧٨ - لقد جئناكم - يا كفار قريش - بما بلَّغكم رسولنا بالحقِّ الثابت من قضايا الإيمان والسُّلوك، ودعوناكم إلى اتِّباعه، ولكنْ لم تستجيبوا لما دعوناكم إليه، والسبب في عدم استجابتكم أنَّ أكثركم يكرهون الحقَّ الذي جئناكم به؛ لأنَّه يحرمكم من تحقيق كثيرٍ من أهوائكم وشهواتكم ورغباتكم من متاعات الحياة الدنيا، وفيكم من لا يكرهون هذا الحقَّ؛ إلا أنَّهم متأثِّرون بقادتهم، مُقلِّدون لآبائهم.

٧٩ - بل أَأَحكَمَ مشركو مكة كيْداً ضدَّ الحقِّ الذي بعثنا به رسولنا محمداً ﷺ، وضدَّ الذين آمنوا به واتَّبعوه؟ فإنَّا مُحكمون كيْداً أشدَّ من كيدهم، نُحبط به كيْدَهم، ونردُّه إلى نحورهم.

٨٠ - بل أيظنُّ هؤلاء المشركون أنا لا نسمع أحاديث نفوسهم، ولا نسمع ما يَتَناجَوْن به سرَّاً فيما بينهم؟ بلىٰ نحن نسمع ذلك كله، والحَفَظَةُ من الملائكة عندهم يكتبون ما يُسِرُّون به وما يَتَناجَوْن فيه من مكر بالإسلام والمسلمين، حالاً وتباعاً؛ لإحباط أعمالهم، وردِّ مكايدهم عليهم.

٨١ - قل - يا رسول الله - لهؤلاء المشركين الذين عبدوا الملائكة، وادَّعوا أنك قصدت بذكر قصَّة عيسى أن يعبدك المشركون كما عبدت النصارى عيسى: إن كان هناك للرحمن ولد يُعبد - كما زعمتم - فلا ينطبق ذلك عليَّ؛ لأنني أول العابدين من هذه الأمة، ومَنْ كان عابداً لا يمكن أن يكون معبوداً، ولا يطلب ذلك من غيره؛ لأنهم يرونه عابداً، فكيف يتقبَّلونه معبوداً.

٨٢ - تنزَّه ربُّ السموات والأرض، ربُّ العرش العظيم عمَّا يدَّعيه المشركون والنصارى من نسبة الولد إلى الله وعبادته!! كيف يكون له ولد والسموات والأرض والعرش وكلُّ ما سواه مخلوقة له بأمر التكوين؟!

٨٣ - فاترك - يا رسول الله - هؤلاء المفترين على الله يخوضوا في باطلهم وشرورهم ومعاصيهم كَمَنْ يخوض في الماء فيُعكِّره بالطين الراسب في الماء، فيفسد صفاء الماء، ويلعبوا كما يَهْوَوْن في دنياهم، حتى ينتهي وقت إمهالهم، ويُلاقوا يوم القيامة الذي يُوعَدون فيه بالعذاب.

٨٤ - وهو الإله الذي يُعبد في السماء وفي الأرض، لا معبودَ بحقٍّ إلا هو، وهو المُتَّصف بكمال الحكمة في تدبير خَلْقه، وتصاريفه في كونه، وهو المُتَّصف بكمال العلم، أحاط بكلِّ شيءٍ علماً.

٨٥ - وعَظُم مُلك الله، وكَثُرَ خيرُه، وتنامى وتزايد فوق ما يصفه الواصفون من كمالات، الذي له - وحده - كمال التصرُّف في السموات والأرض، وما بينهما من مخلوقات، وله تدبيرُ الأمر في ذلك. وعنده - وحده - علم وقت قيام ساعة إنهاء الحياة الدنيا، وقيام ساعة البعث للحياة الأخرى، وإلى حسابِهِ، وفصل قضائه، وتنفيذ جزائه - وحده - تُرجعون يوم الدين.

٨٦ - ولا يملك آلهتُهم - الذين يعبدهم المشركون من دون الله، الشفاعةَ عند الله لمن عبدوهم، لكن من تحقَّق فيه شرطان: **الشرط الأول**: أن يكون مؤمناً، شهد بكلمة الإخلاص، شهادة صحيحة صادقة، **والشرط الثاني**: أن يكون من الذين كانوا يعلمون بقلوبهم علماً جليّاً ما شهدوا به بألسنتهم، فإنهم يشفعون للمؤمنين.

٨٧ - أُقسم لئن سألت - يا رسول الله - هؤلاء المشركين من قومك: مَنْ خلقهم؟ ليقولُنَّ مباشرة بتلقائيّة: الله خلقنا، فهم يؤمنون بأن الله هو خالقهم، ويلزم من هذا الإيمان أن يؤمنوا بأنَّ رزقَهم ونصرَهُم وسائرَ أمور حياتهم خاضعةٌ لسلطان ربوبيَّته، وأنَّه هو المُسْتَحِقُّ وحده للعبادة، فكيف يُصرف المشركون عن هذه الحقيقة، فيعبدون من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضُرُّهم؟

٨٨ - وهو سبحانه سامعُ قول الرسول محمَّد ﷺ في نفسه، شاكياً إلى ربِّه قومَه الذين كذَّبوه، متوجِّعاً قلبه من أجلهم، متلهفاً لإيمانهم ونجاتهم: يا ربِّ إنَّ هؤلاء المشركين المعاندين المصرِّين على باطلهم قومٌ ليسوا مُستعدِّين مستقبلاً أن يؤمنوا.

٨٩ - فلا تستعجل - يا رسول الله - التخلُّص من هؤلاء المكابرين المعاندين، واصْبر على أذاهم، وتجاوز عن مقابلة سيئاتهم بمثلها، وقل لهم: لكم مني سلامُ مفارقةٍ لكم، وبُعْدٍ عنكم، وعن دعوتكم، إذْ لا جدوى من مجادلتكم لإقناعكم بالحق، فقد ظهر أنكم ميؤوس من استجابتكم عن طريق إرادتكم الحُرَّة، فسوف يعلمون يوم القيامة عاقبة كفرهم وإصرارهم على باطلهم.

سورة الدخان

سورة الدخان (٤٤) — آياتها ٥٩

بسم الله الرحمن الرحيم

حمٓ ﴿١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦﴾ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٧﴾ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴿٩﴾ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى النَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَّبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّىٰ لَهُمُ الذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾ ۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾

سورة الدخان

١ - ﴿حمٓ﴾ سبق الكلام على الحروف المقطَّعة في أوَّل سورة البقرة.

٢ - أُقسم بالكتاب الظاهر الواضح الذي لا غموض في كلماته وتراكيب جمله، والمُظْهِر المُوضح للمعاني المقْصُودة من تنزيله.

٣ - ٦ - إنا ابتدأنا إنزال الكتاب المبين على محمد ﷺ في ليلةٍ كثيرةِ البركات، وفيرةِ الخيرات، هي ليلة القدر، إنَّا من شأننا أن نُنْذِرَ عبادنا عاقبة عدم استجابتهم للإيمان والإسلام، بعد تبليغهم وإقناعهم بالأدلة والحُجَج والبراهين. في تلك الليلة المباركة التي أُنزل فيها على الرسول محمد ﷺ أول ما أنزل من القرآن يُفْصَل في نظيرها من كلِّ سنةٍ كلُّ أمرٍ من قضاء الله وقدره مُحكَم مُختارٍ من بين الاحتمالات المُمكنة اختياراً حكيماً؛ إذ يُبيَّن فيها للملائكة كلُّ أمرٍ من أرزاق العباد وآجالهم، وجميع شؤونهم، من هذه الليلة إلى ليلة القدر التي تليها من السنة المقبلة. حالة كون الأمر الحكيم الذي تمَّ تحديده بالتقدير والقضاء أمراً عظيماً صادراً من عندنا، إنا من شأننا في كلِّ الأمم السابقة، وفي هذه الأمة الخاتمة للأمم أن نرسل مَنْ يحمل رسالتنا، ويُبلِّغها عنا، وأن نؤيِّده بالآيات البيِّنات والمعجزات الباهرات؛ لتشهد له بأنه رسولنا حقاً وصدقاً. بعثنا إليهم الرُّسل رحمةً من ربِّك - يا رسول الله -، لهداية الناس إلى الدين الحقِّ الموصل من اتَّبعه إلى السعادة الأبديَّة الخالدة؛ إنَّه هو السميع لأقوالهم، العليم بأحوالهم.

٧، ٨ - ربُّ السموات والأرض وما بينهما وكلِّ ما فيهما، فاعبدوه وحده، إن كنتم مُستعدِّين لأن تُوقنوا بهذه الحقيقة التي دلَّت عليها آياتُ الله في كونه، وبراهين العقل. لا معبود بحقٍّ يستحقّ أن يُعبد إلا ربُّ السموات والأرض وما بينهما، يُحيي سائر الأحياء ويُميتهم، هو ربُّكم وربُّ آبائكم الأوَّلين الذين سَلَفوا في تاريخ البشريَّة من آدم جدِّكم الأول، وأنتم وآباؤكم موضوعون في الحياة الدنيا موضعَ الامتحان، والمطلوب منكم جميعاً في رحلة امتحانكم أن تعبدوا ربَّكم بالإيمان والإسلام والطاعة والانقياد.

٩ - بل مشركو مكة منغمسون من كلِّ جوانبهم في شكٍّ من كون هذا القرآن كلامَ الله، ومن كون محمد ﷺ نبياً لله حقاً وصدقاً، وهم ينفقون أوقاتهم وطاقاتهم بما لا فائدة فيه، بل سوف يجني عليهم عذاباً أليماً يكونون خالدين فيه أبداً.

١٠، ١١ - فانتظر - يا رسول الله - انتظاراً مُقْترناً بتوقع أمرٍ سيحدث قريباً بهؤلاء المشركين يومَ يُنْزل ربُّك بكفَّار قَوْمِك المُصرِّين على عنادهم عقاباً جزئياً، يمسُّهم فيه القحط والجوع، والحرمان من الغيث، ينظرون إلى السماء فلا يَرَوْن إلاّ غباراً ودخاناً من شدَّة الجفاف، يحيط هذا الدخان بالمكذِّبين فَيَعُمُّهم ويُجَلِّلهم كالسِّتر والغطاء الكبير، فيقولون لشدَّة ما نزل بهم من قحط وجفاف وجوع: هذا عذابٌ مُؤْلم موجع.

١٢ - ويشتدُّ عليهم هذا البلاء، ويقولون سائلين رفعه عنهم: ربَّنا اكشف عنا العذاب، فإنْ كَشَفْتَه عنا، فإننا سنؤمن بك.

١٣، ١٤ - من أين تحصل لهم الذكرى التي تُؤثِّر في قلوبهم ونفوسهم، فتجعلهم يَفُون بوعدهم أن يؤمنوا، إذا كشفنا عنهم العذاب، وقد جاءهم رسولٌ ظاهرٌ في صحَّة نبوَّته ورسالته، ومُظْهِرٌ للحقِّ الذي أرسلناه لتبليغه، ثمَّ بعد سنين مُتعدِّدة، عالجهم الرسول بكلِّ وسائل الإقناع، والترغيب والترهيب، لم يكن منهم إلا إدارة ظهورهم لدعوته، والابتعاد عنه، وقالوا غُلُوّاً في كفرهم: مُعَلَّم يُعلِّمه بشر من علماء أهل الكتاب، وهو مجنون جنونَ عظمةٍ واستعلاء، يدَّعي أنه رسول ربِّ العالمين؟

١٥ - إنا سنكشف عذاب الجوع عنكم زمناً يسيراً، لكن لن تَفُوا بوعدكم؛ إنكم ستعودون إلى كفركم العنادي الجحودي.

١٦ - إنا سننتقم منكم ونعاقبكم على كفركم يومَ نبطشُ البطشة الكبرى بكم في غزوة بدر، إنا مُنتقمون منكم في ذلك اليوم.

١٧، ١٨ - ونؤكِّد لكم أننا اختبرنا وابْتَلَيْنا قبل هؤلاء المشركين قوم فرعون، وجاء المصريِّين والأقباطَ وسائر الخاضعين لسلطان فرعون، رسولٌ كريمٌ على الله، جامعٌ لأنواع الخير والشرف، والفضائل والصفات الرفيعة، وهو موسى عليه السلام، وقال لهم موسى: أدُّوا إليَّ حقَّ الله من الإيمان به، وواجب الطاعة والانقياد إليه - يا عبادَ الله -؛ إني لكم رسولٌ أمينٌ على الوحي، مُرسل من ربِّكم إليكم.

وَأَن لَّا تَعْلُوا عَلَى ٱللَّهِ إِنِّيٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَٱعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُوا بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَٰهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾

١٩ - وأن لا تتجبَّروا على الله بترك طاعته، إني آتيكم ببرهانٍ صادق على صحَّة رسالتي، يُوصلكم إلى اليقين بأنَّ ما أدعوكم إليه هو الحقُّ الذي لا شكَّ فيه.

٢٠ - وإني اعتصمتُ بربي وربِّكم، واسْتَجَرتُ به طالباً الحماية والوقايةَ من أن تقتلوني رَجْماً بالحجارة.

٢١ - وإنْ لم تؤمنوا بي وتُسلموا لي، فاعتزلوا مجلسي، ولا تسمعوا لدعوتي، فأنا لا أُكره أحداً على الإيمان.

٢٢ - فدعا موسى ربَّه شاكياً قومه: أنَّ هؤلاء قومٌ لا خير فيهم، فقد بلغوا دَرَكة الكفر الإجراميِّ العِناديِّ، ولعلَّ خير علاج لهم أن يُبْتروا من المجتمع الإنساني.

٢٣ - فأجاب الله دعاءه، فقال: فأَخْرِج - يا موسى - ليلاً عبادي بني إسرائيل الذين صدَّقوك، دون أن يحسَّ المصريّون بخروجكم، إنكم مُتَّبعون من فرعون وجنوده.

٢٤ - واترك البحر إذا قطعتَهُ أنت وأصحابك مُنفلقاً ساكناً على حَالته التي كان عليها حين سلكتَهُ، حتى يدخله فرعونُ وقومُه، واطمئنَّ بترك البحر كما هو؛ إنَّهم جُندٌ مُغْرَقون في البحر قبل أن يَصِلَ أحدٌ منهم إلى الشاطيء الآخر.

٢٥ - ٢٧ - كم تركَ فرعون وقومه بعد الغرق من بساتين كثيرة ناضرة، وعيون من الماء جارية، ومزروعات مختلفات الأصناف والأجناس، ومكان نفيس، ماديّ لمتاعات أجسادهم ولقيامهم وجلوسهم، ومعنويّ لمتاعات نفوسهم واستقرارهم، وعَيْش ليِّن رغد، كانوا في تلك الرفاهيَّة وطيب العيش مستمتعين مسرورين.

٢٨ - كذلك الذي حصل لفرعون وآله وملئه، من إهلاك لهم، وتركهم لتلك النعم، حصل لطغاة آخرين فاسقين في الأرض، ضمن سُنَّة الله الثابتة، وأورث الله ما تركوا قوماً آخرين.

٢٩ - فما بَكَت لهلاك فرعون وقومه، ولا لهلاك من أُهلكوا من مُجْرمي الأمم الأخرى السماء والأرض حزناً عليهم؛ لِهَوان شأنهم، وما كان الذين أُهلكوا من قوم فرعون وأمثالهم من الأمم الأخرى مُمْهَلين حين رأوا بوادر نزول العذاب فيهم.

٣٠ - ونؤكِّد لكم أننا نَجَّيْنا بني إسرائيل من العذاب المُذلِّ لهم، بقتل أبنائهم واستحياء نسائهم، وسننجِّي رسولنا والذين آمنوا معه من اضطهادكم لَهُم.

٣١ - نجَّيْناهم من فرعون؛ إنَّه كان مُتكبِّراً جبَّاراً من المُتجاوزين الحدَّ في العُلوّ والتكبُّر على عباد الله.

٣٢ - ونؤكِّد لكم أننا اخترنا بني إسرائيل في ذلك العهد اختياراً قائماً على علم علمناه فيهم وبسائر الناس في زمانهم لحمل الرسالة التي أنزلناها على موسى، وفضَّلناهم في ذلك الزمان على سائر العالَمين. وسنختار عبادنا المؤمنين من الأمة المحمديَّة من بعدهم، ونرفع مكانتهم فوق العالمين إلى قيام الساعة.

٣٣ - وآتيناهم من آياتِ التكاليف الدينيَّة المُنزَّلات في التوراة ما فيه اختبارٌ ظاهرٌ لطاعتهم، وامتثال أحكام ربِّهم فيما فرض عليهم، وفيما حرَّم عليهم.

٣٤ - ٣٦ - إنَّ مشركي مكة ليقولون: لا مَوْتَةَ لنا إلا هذه المَوْتة التي نموتُها في الدنيا، وما نحن بمبعوثين بعد موتتنا هذه، فأحيوا آباءنا الذين ماتوا قبل، إن كنتم صادقين أنا نُبعث أحياء بعد الموت.

٣٧ - أهؤلاء المشركون خيرٌ في الشدَّة والقوة والكثرة أم قوم تُبَّع الحِمْيَريّ، والذين من قبلهم من الأمم الكافرة؟ أهلكناهم إنهم كانوا كافرين منكرين للبعث.

٣٨، ٣٩ - وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما حالةَ كوننا لاعبين، دون بعث ولا حساب، ولا ثواب ولا عقاب!! ما خلقناهما إلا بالحقِّ الثابت، لإثابة الطائعين بالفضل، وعقاب المسيئين بالعدل، ولكنَّ أكثر هؤلاء المشركين لا يحبُّون أن يعلموا هذه الحقيقة؛ لئلا يكون علمُهُم بها دافعاً لهم إلى الإيمان بها، والعمل بمقْتضاها، على خلاف ما يحبُّون من دنياهُم.

إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾

سُورَةُ الجَاثِيَة

٤٠ ـ إنَّ يوم الفَصل الذي يَفْصل الله فيه ويُفرِّق بين المُحقِّ والمُبْطل وقتٌ مُعيَّن، ومكانٌ مُحدَّد للقضاء بين العباد الموضوعين في الحياة الدنيا موضعَ الامتحان أجمعين.

٤١، ٤٢ ـ يوم يكون الحكم لله وحده، فلا يكفي أحدٌ من دون الله أمراً لأحد، ولا يصرف أحدٌ عن أحدٍ شيئاً مما يقْضيه الله، مهما كان قريباً، أو محباً، ولا هم يُنْصَرون من عذاب الله، إلاَّ من رحم الله من المؤمنين، فقد يصرف الله عنه بعض ما يستحقُّ من عقاب على معاصيه، فيغفر له، أو يعفو عنه، أو يتجاوز عن سيئات كان قد ارتكبها في الدنيا؛ إنَّه سبحانه هو القويُّ الغالب في انتقامه من أعدائه، الرحيم بأوليائه المؤمنين، بعزَّته الغالبة يَجْزي بالعدل، وبرحمته العظيمة يَجْزي بالفضل.

٤٣، ٤٤ ـ إنَّ شجرة الزَّقُّوم طعامُ الفاجر المُسْرف الغالي في ارتكاب الذنوب والآثام.

٤٥، ٤٦ ـ ثمرة شجرة الزقوم كسائل المعدن الذي صَهَرته الحرارة، يفور من شدّة الحرارة في بطون الكفار، كَغَلْي الماء الحار إذا اشتدَّ غليانه.

٤٧ ـ يقال للزَّبانية: خذوا هذا الأثيم الفاجر، فادفعوه وسُوقوه بعُنف إلى وسط النار.

٤٨ ـ ثمَّ صُبُّوا فوق رأسه الماءَ الشَّديدَ الحرارة، زيادةً في تعذيبه وإيلامه.

٤٩ ـ يُقال لهذا الأثيم الفاجر على طريق الاستخفاف والتوبيخ: ذُقْ هذا العذاب الأليم بسبب كفرك العناديّ الجُحوديّ؛ إنَّك أنت العزيز الكريم عند قومك بزعمك.

٥٠ ـ إنَّ هذا العذاب الذي تُعَذَّبون به اليوم هو العذابُ الذي كنتم في رحلة امتحانكم في الحياة الدنيا تجادلون مُكذِّبين به، مُتوهِّمين أنكم بجدالكم تُغيِّرون من الواقع شيئاً.

٥١ ـ ٥٣ ـ إنَّ المتَّقين في مكان إقامةٍ أمينٍ، يأمنون فيه على أنفسهم من الآفات والمكاره، في جنَّاتٍ كثيراتٍ يُنعَّمُون فيها، وعيونٍ من الماء جارية تحت الأشجار والقصور، يلبسون ما رقَّ من الحرير الناعم المُلاصق للبدن، وما غَلُظَ من الثياب المنسوجة من الحرير، فوق ثيابٍ من سندس، يُقابل بعضهم بعضاً في مجالس أنس وسرور، وأحاديث تزيد في نعيمهم.

٥٤ ـ كما أكرمناهم بما وَصَفنا من الجنَّات والعيون واللباس، كذلك أكرمناهم بأنْ زوَّجناهم بحُورٍ يَحارُ الطَّرف من بياضهنَّ، وصفاء لونهنَّ، وسَعَة أعينهنَّ.

٥٥ ـ يطلبون في الجنَّات من كلِّ فاكهة أرادوها واشتهوها، حالة كونهم آمنين من انقطاعها وزوالها؛ لأنَّ فواكه الجنة لا مقطوعة ولا ممنوعة.

٥٦ ـ لا يذوقون في الجنة الموت أبداً؛ لأنها دار بقاء دائم وخلود، لا يذوقون سوى المَوْتة الأولى التي ذاقوها في الدنيا عند انفصال الروح عن النفس الإنسانيَّة بعد الأجل الذي عاشوه، وَوَقَىٰ الله هؤلاء المتَّقين على اختلاف دَرَجاتهم عذابَ الجحيم.

٥٧ ـ كلُّ ما وَصَل إليه المتَّقون على تفاضل درجاتهم من الخلاص من عذاب النار، والفوز بالجنة، إنما حَصَل لهم ذلك بفضل الله تعالى، لا بعملهم، فعَمَلُهُم لا يصلح لأن يشكروا به ربَّهم على أقلِّ نعمةٍ من نعمه عليهم، ذلك هو الظفر والربح العظيم.

٥٨ ـ ما يَسّرنا تلاوة القرآن وتبليغه إلا بلسانك العربيِّ ـ يا رسول الله ـ، وهو لسان قومك الذين كذَّبوا بالقرآن مع أنهم أَوْلى الناس بالتبصُّر فيه، وفهم دلالاته، وتدبُّر معانيه، والافتخار به، خَصَصْنا تيسيرَهُ وتسهيل فهمه بلسانك ولسان قومك رغبةً في أن يتذكَّروا بياناته عند المناسبات الداعيات، للعمل بمقْتضاها والدعوة إليها، لأنهم أقدر الناس على فهمها وتدبُّر معانيها.

٥٩ ـ فانتظر ـ يا رسول الله ـ ما سنفعلُهُ بشأن هؤلاء، وكيف نعاقبهُم، وننصرك وننصرُ المؤمنين معك عليهم، إنَّهم مُنتظرون بتدبيراتهم ومكايدهم أن يتخلَّصوا منك، ومن الذين آمنوا معك، ومُنتظرون حوادث الدهر أن تَنْزل بك؛ ليتخلَّصوا منك ومن دعوتك.

سورة الجاثية

بسم الله الرحمن الرحيم

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِي خَلۡقِكُمۡ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزۡقٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿٥﴾ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۖ فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤۡمِنُونَ ﴿٦﴾ وَيۡلٞ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ ﴿٧﴾ يَسۡمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنۡ ءَايَٰتِنَا شَيۡـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿٩﴾ مِّن وَرَآئِهِمۡ جَهَنَّمُۖ وَلَا يُغۡنِي عَنۡهُم مَّا كَسَبُواْ شَيۡـٔٗا وَلَا مَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾ هَٰذَا هُدٗىۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ لَهُمۡ عَذَابٞ مِّن رِّجۡزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡبَحۡرَ لِتَجۡرِيَ ٱلۡفُلۡكُ فِيهِ بِأَمۡرِهِۦ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾

١ ـ ﴿حمٓ﴾ سبق الكلام على الحروف المقطَّعة في أول سورة البقرة.

٢ ـ هذا البيان الربَّانيُّ القوليُّ، الذي يَجب على المؤمنين أن يُدوِّنوه في كتابٍ محفوظ من التحريف والتبديل، والزيادة والنقص، تنزيلٌ من الله القويِّ الغالب الذي لا يُغْلب، الحكيم الذي يضعُ الأشياء في مواضعها.

٣ ـ إنَّ في خلق السموات بما فيها من عجائب، وبما لها من أبعاد، والأرضِ بما فيها من بحارٍ، وجبال، وأنهار، ونباتات مختلفات الأجناسِ والأصناف، لدلالاتٍ لقوم لديهم الاستعداد لأن يؤمنوا إيماناً صحيحاً مقبولاً.

٤، ٥ ـ وفي خَلق أنفسكم من تراب، ثمَّ من نطفة إلى أن يصير إنساناً ذا عقل وتمييز، وما يُفرِّق في الأرض بإتقان عجيب من جميع الحيوانات على اختلاف أجناسها في الخَلْق والشكل والصورة، دلالات لقوم لديهم الاستعداد لأن يصلوا إلى درجة العلم الذي لا شك فيه، وفي اختلاف الليل والنهار وتعاقُبهما عليكم بنظام منضبطٍ بديع، وما أنزل الله من السماء من المطر والضياء والحرارة، فأحيا الأرض بعد يُبْسها، وأنبت الزروع والثمار وسائر الأرزاق النافعة الشاملة لكلِّ ما يحتاج الناس إليه، وفي تقليب الرياح لكم على اختلاف أنواعها ووظائفها بتقدير الله من جهة إلى أخرى، ومن حالة إلى حالة، علامات دالات لقوم لديهم الاستعداد لأن يعقلوا حقائق الأمور عقلاً دقيقاً، ولأن يعقلوا أهواءهم وشهواتهم بإرادات جازمات، تجعلهم لا يخرجون عن صراط الله المستقيم.

٦ ـ تلك آياتُ كتابِ الله، نجعل بأمرنا جبريل أمين الوحي يتابع تلقينك إيّاها ـ يا رسول الله ـ كما أنزلناها، حالة كونها متَّصفة بالحقِّ الثابت، المطابق للواقع، فإنْ لم يؤمن أئمة الكفر بحديث معجز مؤثِّر في العقول والنفوس صادرٍ عن الله ربِّ العالمين، فبأيِّ حديث يصدُرُ عن غير الله في أقوالٍ لا إعجاز فيها يؤمنون بالحقّ الذي يُدْعَوْنَ إلى الإيمان به؟!! إنَّهم لن يؤمنوا متأثِّرين بأيِّ حديث؛ لأنهم مُكابرون معاندون، يعرفون الحقَّ ويرفضون الإيمان به، اتِّباعاً لأهوائهم وشهواتهم ورغبات نفوسهم.

٧ ـ عذابٌ شديد لكُلِّ كثير الكذب والتّكذيب بالحق، وكثير الضلال والتضليل، مُسرف غالٍ في ارتكاب الذنوب من الكبائر.

٨ ـ يسمع آياتِ الله من كتابه تُتْلى عليه، فيتفهَّمها ويعلم أنَّ ما جاء فيها حقٌّ مُنزَّل من ربِّ العالمين، ثم يُصرُّ على الكفر، حالة كونه مُستكبراً عن الإيمان، متعالياً بمركزه الاجتماعي، وينْأى مُبتعداً كأنَّه لم يسمع ما تُليَ عليه من آيات الله، فبشِّر ـ أيُّها الداعي ـ هذا الأفاك الأثيم بعذاب مُؤْلم سوفَ يلقاه يوم الدين.

٩ ـ وإذا علم هذا الأفَّاك من آيات القرآن شيئاً يسُوؤه ممَّا يتعلَّق بذمِّ شركيَّاته، وتقبيح شروره سَخِرَ منها، أولئك المنحطُّون إلى جهة الدَّرك الأسفل من النار، لهم عذابٌ مُذِلٌّ مُخْزٍ لهم في الدنيا، وعند الموت، وبعده في البرزخ؛ جزاءَ استهزائهم بآيات الله.

١٠ ـ مِنْ أمام هؤلاء المستهزئين بآيات الله جهنَّم تنتظرهم، ولا يدفع عنهم ما كسبوا في الحياة الدنيا من الأموال والأولاد والأنصار شيئاً، ولا يدفع عنهم أيضاً شيئاً من عذاب الله أولياؤهم الذين عبدوهم من دون الله، ولهم يوم الدين في جهنم عذابٌ عظيم.

١١ ـ هذا القرآن الذي أنزلناه عليك ـ يا رسول الله ـ هُدىً من الضلالة، والذين كفروا بما في القرآن من الآيات الدالَّة على الوحدانية، لهم عذابٌ مُؤْلمٌ مُوجعٌ من أشدِّ أنواع العذاب.

١٢، ١٣ ـ الله سبحانه الذي ذلَّل لكم البحر، فجعله صالحاً لطفو السُّفن عليه، وجريانها فيه؛ لتسيرَ السُّفن فيه بأمر الله التكويني، ولتطلبوا أرزاقكم ومصالح حياتكم المختلفة من فضل الله، باستخدام أسبابها المتاحة لكم ضمن أنظمة الله السببيَّة في كونه، ولتعريفكم ببعض نعم الله عليكم، رغبةً في أن تشكروا الله بالإيمان، والعمل بمراضيه، وحمده بما هو أهله، وجعل لكم جميع ما في السموات وما في الأرض مسخَّراتٍ تسخيراً مترابط الوحدات، من أصغر الذرَّات حتى أكبر المجرَّات على أحسن وجه لمنافعكم، إنَّ في تسخير البحر، وتسخير جميع ما في السموات وما في الأرض لعلاماتٍ دالأَّتٍ على بعض صفاته وأسمائه، وعلى نعمه الكثيرة على عباده، ولكن الذين يدركون دَلالات هذه الآيات هم القوم الذين يستخدمون ما وَهَبَهم ربُّهم من قدراتِ التفكُّر فيما خلق في كونه.

قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغْفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمَۢا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفْسِهِۦۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَاۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلْأَمْرِۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيَۢا بَيْنَهُمْۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٖ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُواْ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـٔٗاۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٖۖ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدٗى وَرَحْمَةٞ لِّقَوْمٖ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءٗ مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسِۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾

١٤ ـ قل ـ يا رسول الله ـ للَّذين آمنوا، أن يستروا ويَصْفحوا عن الإيذاء الذي يُصيبهم من الذين لا يتوقَّعون مجيء أيام الله الجزائيَّة ووقائعه بأعدائه؛ ليجزيَ الله قوماً متَّقين بما كانوا يفعلون باختيارهم الحرِّ من خيْرات وصالحات، وليجزيَ قوماً عُصاةً بما كانوا يفعلون باختيارهم الحر من الإيذاء للمؤمنين.

١٥ ـ مَنْ عمل عملاً إرادياً صالحاً فلنفسه جَلَب ثواباً عظيماً، يجزيه الله به تفضُّلاً منه عليه، ومَنْ أساء بعمله الاختياريِّ فعلى نفسِهِ جنى، إذ استحقَّ به عقاباً ربَّانياً، ثمَّ بعد انتهاء زمن ابتلائكم في الحياة الدنيا إلى ربِّكم وحده تُرجعون للحساب والجزاء بالفضل في جنات النعيم، أو بالعدل في دار العذاب.

١٦ ـ ونؤكِّد لكم أننا آتَيْنا بني إسرائيل التَّوراةَ والإنجيل، وفقه الأمور الفاصل بين الحقِّ والباطل، والخير والشرِّ، وجعلنا فيهم أكثر الأنبياء من ذرِّيَّة إبراهيم عليه السلام، ورزقناهم من الخيرات المتنوِّعة، وفضَّلناهم على العالمين في أزمانهم.

١٧ ـ وآتَيْنا بني إسرائيل الآياتِ الواضحات المُشْتملات على أحكام الدين الصَّادر من أمر الله عزَّ وجل، من الواجبات، والمحرَّمات، والمندوبات، والمكروهات، والمباحات، ممَّا يُوجب عليهم حَمْل رسالة الله للناس، لكنهم اختلفوا ولم يحافظوا على دين الله، بل غيَّروا فيه وحرَّفوا، وأدخلوا في عقائدهم كفريَّات ووثنيَّات، فما وَقَع الخلافُ بينهم إلا من بعد ما جاءهم العلم الربَّاني المُوجبُ لزوال الخلاف، وإنما اختلفوا لعداوةٍ وحَسَد بينهم. إنَّ ربَّك ـ يا رسول الله ـ يحكم بين المختلفين من بني إسرائيل يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون في الدنيا.

١٨ ـ ثمَّ بعد أن فَسَدَ بنو إسرائيل، وصاروا غير صالحين لحَمْل رسالتنا للناس، اصْطفيناك، وبعثناك رسولاً للعالمين، وجَعَلناك ـ يا رسول الله ـ على طريقة ومنهاج واضح جليٍّ من الأمر الربَّاني الذي فيه تحديد أحكام الله، من الواجبات، والمحرَّمات، والمندوبات، والمكروهات، والمباحات، فاتَّبع شريعتَك الثابتة، فأنت أول المأمورين بالتزامها، ولا تستجب لدعوات أصحاب الأهواء الذين تتحكَّم فيهم أهواؤهم، فيدعونك لاتِّباعها، وهم لا يعلمون أحكام الله وشرائعه، ولا يريدون أن يعلموها مستقبلاً.

١٩ ـ إنَّ هؤلاء المشركين لن يدفعوا عنك ـ يا رسول الله ـ من عذاب الله شيئاً، إن اتَّبعت أهواءهم، ولا تتَّخذ أصحاب الأهواء، أولياء لك تنصرهم وينصرونك، إنَّ الظالمين فئة منعزلةٌ عن المسلمين، ينصر بعضُهم بعضاً في الحياة الدنيا، ولا وليَّ لهم في الآخرة، واللَّهُ ربُّ المتَّقين وناصرهم ومتولِّي جميع أمورهم في الدنيا والآخرة.

٢٠ ـ هذا القرآن الذي أنزلناه إليك ـ يا رسول الله ـ معالمُ للناس في الحدود والأحكام، يشتمل على حُجج وبراهين، تكشف الحق وتُثبته، وتكشف الباطل وتزهقه، وهُدىً من الضلالة، ورحمةٌ من الله لقوم لديهم الاستعداد لأن يَسْتبْصروا بما جاء في كتاب الله، ويوقنوا بالحقِّ الذي جاء فيه.

٢١ ـ بل أظنَّ الذين اكتسبوا المُكتسبات السيِّئات من الأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة، أن نجعلهم كالَّذين آمنوا وعملوا الصَّالحات، فيكونون بذلك مُتَساوين في الجزاء، بأن نجعل ظروف ما بعد الموت للموضوعين في الحياة الدنيا موضع الامتحان مُساويةً لظروفهم في الحياة الدنيا، وذلك يتنافى مع صِفَتَي عدل الله وحكمته، سَاءَ سوءاً شديداً ما يحكمون به على ربِّهم. فهذه الحياة ليست نهاية قصة الإنسان، ولكنها مرحلة قصيرة أُعدت للابتلاء، ولا بدَّ حتماً من حياة أخرى، تظهر فيها تطبيقات قواعد العدل الإلهيِّ، ويبدأ تطبيق قواعد الجزاء مع بداية مرحلة الموت، فهذه الآية تشير إلى التطبيقات الجزائية التي تكون في مدَّة الحياة البرزخية بعد الموت وقبل البعث، وهو ما يطلق عليه نعيم القبر وعذابه.

٢٢ ـ وخَلَقَ الله السموات والأرض؛ خلقاً متَّصفاً بالحق المناقض للباطل، الذي من مظاهره: العبث واللعب، وخلق ذوي الإرادات الحُرَّة من الجنِّ والإنس، الموضوعين موضع الابتلاء في الحياة الدنيا؛ لِيَجْزيَ يوم الدين كلَّ نفسٍ بما كسبت من خير أو شر، والحال أنهم في مجازاتهم لا يُنقصون شيئاً من جزاء أعمالهم.

أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾

٢٣ - أُنْظُرْ بتفكير وإمعانِ نظرٍ - يا صاحبَ الرأي والفكر - لترىٰ من اتَّخَذَ معبوده في الحياة الدنيا هواه، فهو يُوجِّه كلَّ حركات حياته لما تميل إليه نفسه، كتوجُّه العابد لمعبوده، وحكم الله عليه بالضلال حكماً مبْنياً على علم بحاله؛ إذ اختار لنفسه الضلال على الهدى، وسدَّ على منافذ سمعه وقلبه، سدّاً مانعاً من دخول الهداية إليهما؛ نتيجة اختياره الحر؛ ضمن نظام الله التكويني، وجعل على بصره غطاءً مانعاً من إدراك أثر رؤية آيات الله في كونه، نتيجة اختياره الحر أيضاً. لا يوجد أحد في الوجود كلّه يحكم له بالهداية من بعد أن حكم الله عليه بأنه ضال بإرادته الحرة. أفلا تضعون هذه الحقائق التي عرضناها عليكم في خزائنِ معارفكم، وتستدعونها إلى ذاكرتكم عند كلِّ مناسبةٍ تدعو إلى تذكُّرها، لإيقاظ الإيمان بها، والعمل بمقتضاها.

٢٤ - وقال الدَّهريُّون الذين يربطون التغيُّرات في الكون بمرور الأزمان، وتحرُّك عناصر الكون وأجزائه: ما الحياة إلا حياتنا الدنيا التي نعيش فيها، نموت ونحيا فيها، وما يُحيينا وما يُهلكنا إلا مَمَرُّ الزمان، واختلاف الليل والنهار، ليس لهم دليلٌ علميٌّ مهما كان ضعيفاً، يدلُّ على أنَّ أحداث الكون، ومنها الإحياء والإماتة، من آثار مرور الزمن الطويل، وحركة أجزاء الكون، ما هم إلا يظنُّون ظنّاً توهميّاً ضعيفاً.

٢٥ - وإذا تُتْلى على مُنكري البعث آياتُنا واضحات، مُثْبتات أنَّ البعث حقٌّ، وأنه سيكون بعد إنهاء ظروف الحياة الدنيا كلِّها، لم يكن لهم حُجَّةٌ مقبولة في مقاييس العقول السليمة إلا أن قالوا بطريقة دعائيَّة غوغائيَّة: إنْ صحَّ ذلك فأْتوا بآبائنا الذين ماتوا لِيَشْهدوا لنا بصحة البعث، إنْ كنتم صادقين في دعوىٰ وقوع البعث.

٢٦ - قل - يا رسول الله - لهؤلاء المشركين المُكَذِّبين بالبعث: اللّهُ سبحانه يُحييكم في الدنيا من العدم، ويتابع إحياءكم إلى آجالكم المُقدَّرة لموتكم، ثمَّ يُميتكم فيها عند انقضاء آجالكم، ثمَّ يجمعكم مسوقين محشورين إلى يوم القيامة، لا شكَّ في هذا الجمع، ولكنَّ أكثر الناس لا يريدون أن يعلموا هذه الحقائق عن يوم القيامة، لأن علمهم يلجمهم عن اتِّباع أهوائهم وشهواتهم، وكثيرٍ من رغباتهم من متاعات الحياة الدنيا.

٢٧ - ولِلَّهِ سبحانه - وحده - مُلك السموات والأرض خَلْقاً ومُلكاً وتدبيراً، ويوم تقوم ساعة بعث الموتى من قبورهم للوقوف بين يدي الله عزَّ وجلّ للحساب والجزاء، يومئذ يظهر خُسران الكافرين، الذين اتَّبعوا الباطل، وسلكوا سبيله.

٢٨ - وترى - أيها الرائي - يوم تقوم القيامة، كلَّ جماعة موضوعة في الحياة الدنيا موضع الامتحان - عند الحساب من هَوْل الموقف - باركين على الرُّكب على هيئة المذنب المنتظر لما يكره، أو قائمين على أطراف أصابعهم، كلُّ أمةٍ تُدْعى إلى سِجِل أعمالها الذي أمرَ الله الحَفَظَة بكتابته؛ لتُحاسب عليه، ويقال لهم: اليوم تُجْزَوْن جزاءً مُطابقاً لما كنتم تعملون من خير أو شر.

٢٩ - هذا كتابنا الذي أَمَرنا الحَفَظة بكتبه، ينطق عليكم بالحقِّ الثابت المطابق للواقع بما كان من أعمالكم في رحلة امتحانكم في الدنيا، إنَّا كُنا نأمر الملائكة بتصوير أعمالكم الظاهرة والباطنة وكتابتها وإثباتها عليكم في الصُّحف.

٣٠ - فأما الذين آمنوا إيماناً صحيحاً صادقاً، وعملوا الصَّالحات التي تدلُّ على صحة إيمانهم، فيُدخلهم ربُّهم في رحمته التي من آثارها جنَّته العظيمة، ذلك الدخول في الجنة هو - وحده - الظفر المطلوب والربح الظاهر الجليُّ الواضح.

٣١ - وأمَّا الذين كفروا، فيقال لهم تقْريعاً وتوبيخاً: أكنتم مُهْمَلين متروكين، فلم تكن آياتُ القُرآن تُتْلى عليكم، فاستكبرتم عن الإيمان بها، وكنتم قوماً مجرمين بالكفر، وبارتكاب الكبار من الآثام.

٣٢ - وكنتم إذا قيل لكم: إنَّ وعد الله بالجزاء على الأعمال بعد البعث كائنٌ، والساعةُ التي تكون فيها بعث الموتى لا شكَّ في أنها كائنة، أنكرتموها، وقلتم: ما ندري أيُّ شيء الساعة؟ ما نعلم ذلك إلا ظناً احتمالياً لا يصل إلى درجة العلم الذي يجب اعتقاده، وما نحن بمُسْتيقنين.

وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ۚ فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾

سُورَةُ الْأَحْقَافِ

ترتيبها ٤٦ — آياتها ٣٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حم ﴿١﴾ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ۖ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤﴾ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴿٥﴾

٣٣ ـ وعلموا قضاء الله بشأنهم، وعُرضت عليهم منازلهم في جهنَّم، وظهر لهؤلاء الكفار في الآخرة تَحقُّق جزاء سيِّئات ما عملوا في الدنيا، ولزمهم وأصابهم إصابةً مُحيطة بكلِّ ذرَّة من ذراتهم العذاب الذي كانوا في الحياة الدنيا يستهزؤون به.

٣٤ ـ وقيل لهؤلاء الكفار: اليومَ نترككُم تتقلَّبون في العذاب الذي قُضِيَ به عليكم، كما تركتم الإيمان والعمل للقاء هذا اليوم، ومنزلكم الذي تستقرُّون فيه دواماً دار العذاب النار، وما لكم من مانعين يمنعونكم من العذاب.

٣٥ ـ ذلكم العذابُ الشديد الذي حاقَ بكم، بسبب أنكم اتَّخذتم آياتِ الله المُنزَّلات لهدايتكم شيئاً يُستهزأ به، ويُسخر منه، وخدعتكم زينات الحياة الدنيا، وأطمعتكم بالباطل، فصرفتكم عن الإيمان بالحق، والعمل بما يُحقِّق لكم السَّعادة الأبديَّة. فاليومَ لا يُخرجون من دار العذاب النار، ولا يُرفع عنهم العَتْب والمَلام مهما دَعَوْا وتضرَّعوا وصاحوا مطالبين بالخلاص والخروج من دار العذاب، إذ هم فيها خالدون، بقضاء مُبْرم من الربِّ جلَّ جلاله، وعَظُم سلطانه.

٣٦، ٣٧ ـ فللَّهِ وحده لا شريك له الحمدُ كلُّه، على صفات ذاته وأفعاله، وتنزُّهه عمَّا لا يليق بجلاله، ربِّ السماوات، وربِّ الأرض، وربِّ كلِّ موجود سوى الله تبارك وتعالى، وله وحده الملك والعظمة والاستقلال بالحكم في السموات والأرض، وحقَّ لمثله أن يُكبَّر ويُعظَّم، وهو ـ وحده ـ الذي له القوة الغالبة لكلِّ القوى، الحكيم الذي يقدِّر تقديراته، ويقضي أقضيته، ويُجري تصاريفه في كونه بكمال الحكمة، فيختار أحكم الأشياء لكلِّ شيء.

سُورَةُ الْأَحْقَافِ

١ ـ ﴿حمٓ﴾ سبق الكلام على الحروف المقطَّعة في أوَّل سورة البقرة.

٢ ـ هذا البيانُ الربَّانيُّ القوليُّ، الذي يجب على المؤمنين أن يُدوِّنوه في كتابٍ مَصُونٍ من التغيير والتبديل، والزيادة والنقص، والتحريف والضياع، تنزيلٌ من الله القويِّ الغالب الذي لا يُغْلَب، الحكيم الذي يضعُ الأشياء في مواضعها، ويختار أفضل الأشياء، وأتقنها وأحسَنَها في الأمور المختلفة لما يُعطي أفضل النتائج.

٣ ـ ما خلقنا السَّموات والأرضَ وما بينهما من كائنات حيَّةٍ وغيرِ حيَّةٍ إلا خَلْقاً مُتَّصفاً بالحقِّ الثابت الذي تقْتضيه المشيئة الإلهيَّة، والحكمةُ الربَّانيَّة، فمَن زعم أنه ليس بعد هذه الحياة الدنيا حساب ولا جزاء، لزمه أن يدَّعي أنَّ الله سبحانه قد خلق هذا باطلاً وعبثاً، تنزَّه الله عن ذلك، وجَعَل الله عزَّ وجلَّ بقاء نظام السموات والأرض مُحدَّداً بأمدٍ مُعيَّن، فإذا انتهى أجل البقاء، وجاء أجل الإنهاء، هَدَم الله سبحانه نظام السَّمواتِ والأرض وما بينهما، بقيام الساعة المُحدَّدة بتقدير الله وقضائه. والذين كفروا بالله واليوم الآخر عمَّا خُوِّفوا به في القرآن من البعث والحساب، وفصْل القضاء، وتنفيذ الجزاء، مُعرضون غير مبالين بإنذارات الله.

٤ ـ قل ـ يا أيُّها الداعي إلى الله ـ لهؤلاء الكفار: أتفكَّرتم تفكيراً سديداً بأناةٍ وتعمُّق، حتى أدركتم إدراكاً علمياً يشبه الرؤية البصريَّة، الأصنام التي تعبدونها من دون الله، أروني بمُشاهَدة حسيَّة، أو بدليل عقليٍّ في رؤية ذهنيَّة فكريَّة: ما هو الشيء الذي خلقوه من الأرض، فكانوا به شركاء لله في ربوبيَّته، حتى يَسْتحقُّوا أن يكونوا شركاء لله في إلهيَّته في الأرض؟ بل أروني بمُشاهَدة حسيَّةٍ، أو بدليل عقليٍّ في رؤية فكرية: ماذا خلقوا من السموات، فلهم بهذا الخَلْق مشاركة لله في ربوبيَّتِهِ للسماء، حتى يستحقُّوا أن يكونوا شُركاء لِلَّهِ في الإلهيَّة؟ ائتوني بكتاب ربَّانيٍّ صحيح جاءكم من الله من قبل هذا القرآن، وفيه ما يُثبت ادِّعاءكم الكاذب، أو بقيةٍ من علم صحيح يُؤْثَر عن رسولٍ من رسل الله، إن كنتم صادقين في أنَّ لله سبحانه شريكاً.

٥ ـ لا يُوجَد أكثر ضلالاً من الذي يعبد من دون الله معبوداً بأيِّ لون من ألوان العبادة، وفي مقدِّمتها الدعاء؛ لتحقيق مرغوب، أو دفع مكروه، والمعبودُ لا يستجيبُ لعابده بشيءٍ طوال وجوده في الحياة الدنيا، وهم عن دعائهم غافلون؛ لا يستطيعون أن يَجْلبوا لهم نفعاً، أو يدفعوا عنهم ضُرّاً.

وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

٦ - وإذا جُمع الناس للحساب، وفصل القضاء يوم القيامة، كان هؤلاء المعبودون أعداءً لمن عبدوهم، يلعنونهم ويتبرَّؤون منهم، وكانوا بعبادة عابديهم كافرين، لا علم لهم بعبادتهم إيَّاهم.

٧ - وحين تُتْلى على هؤلاء المشركين آياتنا المنزَّلات من كتابنا، حالة كونها واضحات الدلالات، قال الذين كفروا للحقِّ الذي فهموه من آياتنا المَتْلوَّة عليهم: هذا القرآن سحرٌ ظاهر؛ ليصدُّوا أتباعهم عن التأثُّر به، والاستجابة لدعوة الحق الرَّبانيَّة.

٨ - بل أيقول هؤلاء الكافرون: اختلق القرآن محمدٌ من قِبَل نفسه، وزعم أنه كلام الله يتنزَّل عليه؟ قل لهم - يا رسول الله -: إن افتريته أهلكني الله ولم يُمَكِّني أن أُبلِّغكم كلمة منه، فلا تقْدرون أن تردُّوا عني شيئاً - مهما كان قليلاً - من عذاب الله، إنْ عذَّبني على افترائي؟ والله أعلم بما تندفعون فيه بهمَّة ونشاط لمقاومة دعوتي، واضطهاد الذين آمنوا بي. كفى بالله شاهداً حاضراً بيني وبينكم، يشهدُ لي بالصِّدق والبلاغ، ويشهد عليكم بالجحود والإنكار، لا تخفى عليه من أعمالنا وأعمالكم خافية، وهو الغفور لمن تاب منكم، الرحيم به.

٩ - قل - يا رسول الله - لِمُشركي قومك: ما كنتُ أوَّل مُرسل، وقد بُعث قبلي كثير من الأنبياء، فكيف صحَّ في ذهنكم أن تؤمنوا برسل سابقين، كإبراهيم وإسماعيل وموسى وهارون وعيسى وغيرهم، وتَجْحدوا رسالتي، وقد آتاني من الآيات ما يُثبت أنِّي رسولُ ربِّ العالمين حقاً وصدقاً؟! وأبلِّغكم ما أمرني ربِّي بتبليغه، ويتوقف علمي عند حدود ما علَّمني ربِّي، ولا أعلم من تلقاء نفسي ماذا يصير من أمري وأمركم، إلا إذا نبَّأني الله بشيءٍ من ذلك؟ ما أتَّبع في مسائل الدين وقضاياه إلا الذي يُوحىٰ إليَّ من ربِّي، فلا أبتدع من عندي شيئاً، وما أنا بالنسبة إليكم بعد أن دعوتكم بمختلف الوسائل إلا نذيرٌ بيِّن الإنذار، أُنذركم بالعذاب المُعجَّل في الحياة الدنيا، بعد أن وصلتم إلى حالة ميؤوس منها، وأُنذركم بالعذاب المؤجَّل الذي سوف يكون يوم القيامة.

١٠ - قل - يا رسول الله - لِمُشركي قومك: أفكَّرتم تفكيراً سديداً بعُمْقٍ وإمْعان نظر، حتى رأيتم بفكركم رؤيةً مشابهةً للرؤية البصريَّة، ماذا تقولون إن كان القرآن - الذي زعمتم أنني افتريته على ربي - هو من عند الله، والحال أنكم كفرتم به - أيها المشركون - وشَهِدَ شاهدٌ عظيم الشأن من بني إسرائيل، كعبد الله بن سَلام على مِثْل هذا القرآن، وهو ما في التوراة من المعاني المطابقة لمعاني القرآن من التوحيد، والتصديق بنبوَّة محمد ﷺ، وآمن الشاهد بما جاء في القرآن، وقد كفرتم بما أُنزل على رسولكم استكباراً وجحوداً، فما هو العذر الذي تعتذرون به، إذ رفضتم الإيمان بالكتاب الذي أنزله بلسانكم؟ أفلا يحكم الله عليكم بأنكم كنتم كافرين جحوداً واستكباراً وتستحقُّون الخلود في عذاب النار؟ إنَّ الله الحكَم العدل لا يحكم بهداية القوم الظالمين ظلماً من دركة الكفر.

١١ - وقال الذين كفروا بالقرآن وبرسالة الرسول ﷺ لضعفاء المؤمنين وفقرائهم: لو كان القرآن خيراً ما سبقنا هؤلاء الضعفاء والفقراء إلى الإيمان به، وإذ لم يهتدوا بالقرآن كما اهتدى به أهل الإيمان، فسيقولون ليُبرِّروا إعراضهم عنه، ورفضهم لاتِّباعه: هذا كذبٌ قديمٌ من أخبار الأوَّلين نقلها محمد، وادَّعى أن الله يُوحي بها إليه.

١٢ - هم يعلمون أنا أنزلنا كتباً لهداية الناس على عدد من المرسلين، من قبل هذا الكتاب الذي أنزلناه على نبيِّنا محمد ﷺ، ومنها كتاب التوراة، الذي أنزلناه على موسى إماماً لبني إسرائيل يُقتدى به في مدَّة وجوب العمل به في قضايا العقائد والأخلاق والمعاملات، وما اشتمل عليه من وصايا، وأثراً من آثار رحمة الله بعباده، وهذا القرآن كتابٌ مُصَدِّقٌ للكتب التي قبله، أنها مُنزَّلة من الله حقاً وصدقاً قبل التحريف والتغيير الذي دخل إليها، حالة كون هذا القرآن مُنزَّلاً بلسانٍ عربيٍّ؛ لينذر القرآن بما فيه من إنذارات الذين ظلموا من دركة الكفر، وليبشِّر أهل مرتبة الإحسان، أعلى مراتب المؤمنين، بالأجر العظيم، والثواب الجزيل في جنات النعيم.

١٣، ١٤ - إنَّ الذين قالوا بصدق: ربُّنا الله وحده، ثمَّ بعد إعلانهم الإيمان والإسلام بصدقٍ استقاموا على توحيد الله وشريعة محمد ﷺ، فلا يتسلَّط عليهم خوفٌ من مُرْهبات قادماتٍ مستقبَلات؛ لأنَّ الله جعل لهم الأمن منذ لحظة موتهم، ولا هم يحزنون على شيءٍ فاتهم من دنياهم؛ لأنهم يَرَوْنَ أنَّ ما أعدَّ الله لهم في آخرتهم أعظمُ وأجلُّ من كلِّ ما في الدنيا من متاع، أولئك الفضلاء ذوو المنزلة الرفيعة، أصحاب الجنة الملازمون لها بفضل ربِّهم، حالة كونهم خالدين فيها، جزاءً بسبب ما كانوا يعملون من الصَّالحات.

وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾

١٥ ـ وأمرنا الإنسان بأن يُحسن إلى والديه إحساناً عظيماً، ويَبَرَّهُمَا بصنوف البرِّ في حياتهما وبعد مماتهما؛ حملته أمُّه مُدَّة حمله حمْلاً ذا مَشَقَّةٍ، وهي راضية صابرة حريصة على سلامته، ووضعته حين ولادته وضعاً ذا مشقَّة، وهي راضيةٌ فرحةٌ به، وليداً لها، ومُدَّةُ حَمْله إلى أن ينفصل من الرَّضاع ثلاثون شهراً، وعمل الولد المؤمن الشاكر لربِّه، البارُّ بوالديه، بوصيَّة الله له، واستمرَّ شاكراً باراً، حتى إذا بلغ نهاية قوَّته، وغايةَ شبابه واستوائه، وبلغ أربعين سنة، ونضج عقلُهُ، وقوِيَ إيمانُه، وشعر بأن خطَّ حياته الصَّاعد بدأ ينحني قليلاً قليلاً، دعا ربَّه وقال: ربِّ ألهمني أنْ أشكر نعمتَك التي أنعمتَ عليَّ وعلىٰ والديَّ بالإيمان والهداية، وأعمال التقوى والبرِّ والإحسان، تقرُّباً إليكَ، وابتغاء مرضاتك، وألهمني أنْ أعمل عملاً صالحاً ترضاه، واجعل الصَّلاح سارياً في ذُرِّيَّتي، إني رَجَعتُ إلى طاعتك في كلِّ ما تُحب، وأسلمتُ لك بقلبي ولساني وجوارحي.

١٦ ـ أولئك رفيعو المكانة، الأولاد الشاكرون البَرَرة الذين نتقبَّل الصَّادرَ عنهم من فعل الواجبات والمندوبات والمُستحبَّات، وترك المحرَّمات والمكروهات، فنُثيبهم عليها، ونتجاوز عن سيِّئاتهم فلا نؤاخذهم عليها، ونجعلهم في أصحاب الجنة، مُحقِّقين وعدَ الصدق الذي وعدناهم في الدنيا على لسان الرسول ﷺ بأن نتقبَّل حسناتهم، ونتجاوز عن سيِّئاتهم.

١٧ ـ والذي قال لوالديه الحريصَيْن عليه حين دَعَوَاهُ إلى الإيمان بالله والإقْرار بالبعث بعد الموت مُتضجِّراً منهما ومُنكراً عليهما: أفٍ لكما، لقد أضْجَرتماني، أَتَعِدَانِني بالخروج من قبري حيّاً، والحال أنه قد مَضَت الأمَمُ من قبلي، وتحوَّلت أجسادهم إلى تراب، ولم يُبعث من القبور أحد إلى الحياة؟ وأَبَوَاهُ يطلبان من الله العونَ والنُّصرة على إصلاح ولدهما، ويقولان له: عذاباً لك؛ إنَّ كفرَكَ وجُحودَكَ سيجلبُ لك عذابَ الله الخالد، آمن بما يطلب الله منك أن تؤمن به، إنَّ وعد الله بالبعث بعد الموت للحساب، وفصل القضاء، وتنفيذ الجزاء حقٌّ لا رَيْبَ فيه، فيقول الولد الكافر العاقُّ لوالدَيْه: ما هذا الذي تذكران عن البعث بعد الموت، واليوم الآخر، إلا خُرافاتٌ سطَّرها الأوَّلون في كتبهم، ليس لها أساسٌ صحيحٌ، يُعتمد عليه ويُوثَّق به.

١٨ ـ أولئك البُعداء المُنحطُّون إلى جهة الدَّرك الأسفل من النار الذين ثَبَتَ عليهم القول المُبْرَم السابق بالعذاب؛ بسبب ما اختاروه لأنفسهم، وهم يدخلون جهنَّم في أمم كافرة قد مَضَتْ من قبلهم من الجنِّ والإنس، إنَّهم جميعاً بعد عبورهم رحلةَ الامتحان في الحياة الدنيا كانوا خاسرين أعظمَ خسارةٍ؛ إذ اختاروا الكُفر على الإيمان، فَخَسروا نفوسَهُم، وصاروا في العذاب خالدين.

١٩ ـ ولكلٍّ واحدٍ من الفريقين المؤمنين والكافرين من الجنِّ والإنس منازلُ ومراتبُ من بعض ما عملوا في الدنيا، وهذه المراتب يوم القيامة تكون صاعدات إلى الفردوس الأعلى بفضل الله، أو نازلات هابطات إلى الدَّرك الأسفل من النار بعدل الله؛ وليُعطى كُلّاً منهم جزاءَ أعمالهم، وافياً تاماً، وهم جميعاً لا يُظلمون بزيادة في سيِّئاتهم، ولا بنقص من حسناتهم. وفي الآية دليل على أنَّ الجنَّ يُثابون ويعاقبون كالإنس.

٢٠ ـ ويُقال للذين كفروا يومَ يُعرضون على النار، ويرون مواقعَ دَرَكاتهم فيها: بذلتم كُلَّ طاقاتكم الماديَّة والفكريَّة والمعنويَّة، للحصول على طيِّبات الحياة الدنيا من مآكلها ومشاربها ومناكحها وقصورها ومُتْرفاتها، وحَصَلت لكم لذاتٌ ضئيلاتُ القيمة، سريعاتُ الزوال، فلم يبقَ لكم بعد استيفاء حظِّكم منها شيء؟ فاليوم تُجْزون ـ أيها الكفار ـ عذاب الذلِّ والخِزْي في النار؛ بسبب جرمَيْن كانا منكم في الدنيا: **الأول**: الاستكبار والترفُّع الباطل في الأرض بغير الحق، **والثاني**: بسبب خروجكم عن طاعة الله، وارتكابكم الآثام والمعاصي من دَرَكات الكفر.



۞ وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا اللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ الصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ ۖ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾

٢١ - وضع في ذاكرتك - أيها المُتلقِّي لهذا البيان - خَبَرَ نبيِّ الله هوداً عليه السلام، أخا قبيلة عاد في النَّسب، حين أنذر قومه أن يحلَّ بهم عذاب الله، وهم مقيمون في منازلهم المعروفة بـ«الأحقاف»، وهي الرمال الكثيرة جنوب الجزيرة العربية، والحال أنَّ هوداً قد مَضَت الرُّسل الذين بُعثوا من قبل هود، والذين سيبعثون بعده، وقال لقومه مثلما الذين جاؤوا من قبله، ومن بعده: بأن لا تشركوا مع الله شيئاً في عبادتكم له، فإن لم تستجيبوا لي، وقد أقمت فيكم زمناً طويلاً أُبلِّغكم رسالات ربِّي، فإني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم، يكون فيه هلاككم هلاكاً جماعياً ساحقاً ماحقاً.

٢٢ - قال قوم هود إنكاراً عليه: أجئتنا بدعوتك؛ لتصرفنا عن عبادة آلهتنا التي ورثنا عبادتها عن آبائنا إلى عبادة ما تدعونا إليه، وتنذرنا بالعذاب الذي يُبيدُنا في يوم عظيم؟ فأْتِنا بهذا العذاب المُهلك لنا إهلاكاً جماعياً، إن كنت منَ الصَّادقين في كونك رسولاً مبعوثاً من ربِّ العالمين.

٢٣ - قال هود عليه السلام مجيباً قومه الذين وصلوا إلى طوْر العناد الشديد والتحدِّي بأن يأتيهم بالإهلاك الذي كان يُنذرهم به: ما العلم بوقت مجيء العذاب إلا عند الله عزَّ وجل، وأُبلِّغكم ما أُرسلتُ به من الوحي الذي أنزله الله تعالى عليَّ، وأمرني بتبليغه إليكم، ولكنِّي أراكم قوماً تستجيبون لانفعالات غضبكم آناً فآناً، وقد عطَّلتم موازين عقولكم.

٢٤ - فلمَّا رأوا مُقدِّمات عذابهم ووسائل إهلاكهم الذي استعجلوه؛ سحاباً مُمْتدّاً في أُفق السَّماء، مُتوجِّهاً نحو أوديتهم، حسبوه سَحَاباً قادماً بغيث، وقالوا: هذا سَحَابٌ يأتينا بالمطر والخير، فردَّ عليهم هود عليه السلام: ليس هذا بعارض غَيْثٍ ورحمةٍ كما حسبتم، بل هو ما استعجلتم به من العذاب، ريحٌ عاتيةٌ شديدةٌ فيها عذابٌ مُؤلم مُوجع.

٢٥ - تُهلك هذه الريح بشِدَّتها وقوَّة سرعتها كلَّ شيء مرَّت به بأمر ربِّها إيَّاها بإهلاكه، فأهلكهم الله سبحانه بهذه الريح العاتية، فأصبحوا لا يُرى قائماً في أرضهم إلا آثار مساكنهم الخاوية المُعطَّلة، مثل ذلك الجزاء العقابيِّ الوخيم، نَجْزي كلَّ المجرمين الكفَرة، ضمن قانون العدل الذي نجْزيهم به؛ بسبب جرمهم وطغيانهم.

٢٦ - ونقسم مؤكِّدين لكم، أننا مكنَّا عاداً من قبلكم فيما لم نُمكِّنكم فيه - يا أهل مكة - بما أمْددناهم من قوَّة الأبدان، وطول الأعمار، وكثرة الأموال، والقدرة على التصرُّف المُوصِل إلى تحقيق مطلوبهم، وجعلنا لهم سمعاً يسمعون به ما يدلُّهم على الحقّ والخير والهدى، وأبصاراً يُبصرون بها آياتنا في كوننا، وأفئدةً يدركون بها ما يُوصل إليهم سمعهم من آياتنا البيانيَّة، وبصرهم من آياتنا الكونيَّة المرئيَّة، فما نفعهم وصرف عنهم شيئاً من عذابنا، سمعُهُم ولا أبصارُهُم ولا أفئدتهُمُ التي هي أدواتُ الإدراك فيهم، ومراكز استقرار العلوم والمعارف، والتي تنطلق منها إراداتهم؛ لأنهم كانوا يكذِّبون بآيات الله، مع علمهم بأنها حقٌّ، ونَزَل وأحاط بهم العذاب الذي كانوا يستهزؤون به، حين كان ينذرهم به هود، فاحذروا أن تكونوا - يا أهل مكة - مثلهم.

٢٧ - ونؤكِّد لكم أننا أهلكنا إهلاكاً جماعياً شاملاً ما حَوْلكم - يا أهل مكة - من المُجمَّعات السكنيَّة، كقوم عاد وثمود ولوط، وقبل أن نُهلكهم، نوَّعنا عليهم الآيات البيانيَّة، والإعجازيَّة، وكرَّرناها بأساليب مختلفة؛ رغبةً منا في أن يرجعوا إلى أصل فطرتهم الإيمانيَّة، وينبذوا ما هم فيه من شرك وضلال، فلم يرجعوا، فأهلكناهم إهلاكاً جماعياً مُسْتأصلاً.

٢٨ - فهلاَّ منع هؤلاء الذين أهلكناهم من الأمم السابقة الأصنامُ التي اتَّخذوها آلهةً يتقرَّبون بعبادتها إلى الله؛ لتشفع لهم عنده، بل غابت الآلهة عنهم، فلم تنفعهم عند نزول العذاب بهم، ولم يروا لها أثراً، وذلك الذي حلَّ بهم من خذلان آلهتهم، وضياعها عنهم هو عاقبة كذبهم، الذي كانوا يُردِّدونه مُتوهِّمين أنَّ آلهتهم تنفعهم، وعاقبة ما كانوا يكذِبون على الله اصطناعاً من عند أنفسهم، ظلماً وعدواناً على حقِّ الله الذي لا ربَّ سواه.

وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ بَلَٰغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾

سُورَةُ مُحَمَّدٍ

ترتيبها ٤٧ — آياتها ٣٨

٢٩ ـ واذكر ـ يا رسول الله ـ حين وجَّهنا إليك جماعةً ذا علم وفضل من كبراء الجنِّ من مكانٍ بعيدٍ، يستمعون القرآن بعنايةٍ وقصْد، فحين حَضَروا رسولَ الله ﷺ لاستماع القرآن، قال بعضهم لبعض: اسكتوا؛ لنستمع إلى قراءته، فحين فَرَغَ من قراءته، رَجَعوا إلى قومهم من الجنِّ مُبلِّغين داعينَ إلى الإيمان، ومُبشِّرين مَنْ آمن بالنعيم المقيم، ومُنذرين أخيراً من كفر بعذابٍ أليم في الجحيم.

٣٠ ـ قالوا: يا قومَنا إنَّا سمعنا كتاباً عظيمَ الشأن، أنزل على رسولٍ من بعد موسى، مُصَدِّقاً لما قبله من الكتب الإلهيَّة المُنزَّلة على الرسل السابقين، يهدي إلى الحقِّ الثابت في العقائد الإيمانية، والأخبار الماضية، والحاضرة، والمُستقبلة، وإلى طريق سلوك ذوي الإرادات الحرة، في رحلة امتحانهم في الحياة الدنيا.

٣١ ـ يا قومَنا أطيعوا داعيَ الله محمداً ﷺ، وصدِّقوا فيما جاءكم به، يسْتُر الله لكم بعضَ ذنوبكم، وهي حقوق الله عليكم، فلا يُؤاخذكم عليها، ولا يُجازيكم بعذابٍ على اقْترافها، ويُبْقي عليكم حقوق العباد، فهذه إمَّا أن تؤدُّوها، أو تؤدُّوا تعويضاً عنها، أو يُسامحكم أصحابها، ويحمكم ـ بسبب إيمانكم، وإجابتكم داعي ربكم ـ من عذابٍ مُؤْلم مُوجع في جهنم.

٣٢ ـ ومَنْ يعص بعدم إجابته رسولَ الله إلى ما دَعَا إليه، فليس بقادر على أن يُفْلِت من عقاب الله وعذابه، مهما كانت له قدرة على الهرب، وليس له من دون الله نُصَرَاءُ ينصرونه، فيدفعون عنه عذابَ الله، أولئك الذين لم يجيبوا رسول الله، البُعداء عن تنزُّلات رحمات الله باختيارهم الحر مُنغمسون في ضلالٍ واضح عن الحق، يدركه كل ذي فكر سليم، وفهم مستقيم.

٣٣ ـ أعطَّلوا عقولهم ولم يَرَوْا رؤيةً فكريَّةً تشبه الرؤية البصريَّة أنَّ الله الذي خلق السمواتِ والأرض، ولم يعجز عن إبداعهنَّ، بقادرٍ على إحياء الموتى كما بدأ خلقهم أول مرَّةٍ، دون أن يكونوا شيئاً مذكوراً؟ بلى لقد رأوا هذه الحقيقة، ولكنَّهم جَحَدوا واتَّبعوا أهواءهم، إنَّ إعادة الخلق وإحياءه بعد الموت أهونُ عليه من إبداعه وخلقِهِ، فالكُلُّ هيِّنٌ عليه، وهو على كلِّ شيء قدير من إماتة الخلق وإحيائهم، لا يعجزه شيء.

٣٤ ـ ويقالُ للذين كفروا يوم يُعرضون على النار، ويرَوْن مواقعهم فيها: أليس هذا العذابُ الذي وعدكم به الرسل هو الحق؟ قالوا: بلى وربِّنا هو الحق، فيقال لهم: فذوقوا عذاب الحريق في جهنم؛ بسبب ما كنتم في الحياة الدنيا تكفرون بالحقِّ كفرَ جحودٍ.

٣٥ ـ فاصبر ـ يا رسول الله ـ على أذى قومك المُكذِّبين لك، كما صَبَر أصحابُ القوَّة والصبر على الشدائد والأذى في القيام بأعباء الرسالة من قبلك الذين ارتقت قوَّة إرادتهم إلى مستوى العزم الذي يستطيعون به تنفيذ ما يريدون، ـ وهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى وأنت يا رسول الله منهم ـ ولا تستعجل لمُعانِدي قومك الإهلاكَ المُعجَّل الذي يطالبونك به، أما العذاب الذي وُعدوا به يوم الدين، فإنه نازلٌ بهم لا مَحَالة، إذا ماتوا على كفرهم وجحودهم، كأنهم يوم يَرَوْن ما يُوعدون من العذاب في الآخرة، يشعرون أنهم لم يلبثوا بين الموت والبعث، إلا قَدْر ساعة من نهار ناموا فيه نوم القيلولة واستيقظوا، فهم لا يحسُّون بالزمن الذي مرَّ عليهم من لحظة موتهم حتى بعثهم إلا كما يحسُّ النائم في نهار لا يطول فيه نومه، وذلك لأنَّ الإحساس بمرور الزمن قد مُسح من أجهزة الإدراك في نفوسهم بعد موتهم.

هذا بلاغ من الله عامٌّ إليكم في سُنَّةٍ ثابتةٍ من سُنن الله في الأمم: ليس للإهلاك سبب غير الفسق الذي ينتشر فيها، ويُلازمها حتى يكون أحد صفاتها الثابتة، فهل يُهلَكُ بالعذاب الإهلاكَ الشاملَ إلا القوم الخارجون عن الإيمان بالله وطاعته، فلا تتطلَّع نفوسكم ـ أيها المؤمنون ـ لإهلاك جماعات الكافرين إهلاكاً عاماً شاملاً، قبل أن تقتضي حكمة الله تعالى في إهلاكهم.

بسم الله الرحمن الرحيم

ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ﴿٣﴾ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٨﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٩﴾ ۞ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ﴿١٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾

سورة محمد

١ ـ الذين كفروا بالله ورسوله، وامتنعوا عن الدخول في دين الله، ومنعوا غيرَهم عن الدخول في الإسلام، أَبْطَلَ الله أعمالهم، ولم يتقبلها منهم؛ بسبب كفرهم وصدِّهم عن سبيل الله، وأذهب أعمالهم التي دبّروها وقاموا بها لأجل الصَّدِّ عن سبيل الله، وإطفاء نوره، فصارت ضالة ضائعة.

٢ ـ والذين آمنوا بالله ورسوله إيماناً صحيحاً كاملاً، وعملوا الصَّالحات الدَّالة على صدق إيمانهم الإراديِّ الاعتقاديِّ، وصدَّقوا بالقرآن الذي أنزله الله على محمد ﷺ، وما جاء به من عند الله ـ وهو الحقُّ الثابت الذي لا شكَّ فيه من ربِّهم ـ سَتَر بإيمانهم وعملهم الصالح ما كان منهم من الكفر والمعاصي؛ لرجوعهم وتوبتهم منها، فغفر لهم بذلك ما كان منهم، وأصلح حالهم وشأنهم وخاطرهم بالتوفيق في أمور الدين والدنيا.

٣ ـ ذلك الأمر وهو إضلال أعمال الكفار، وتكفير سيِّئات المؤمنين وإصلاح أعمالهم كائنٌ بسبب أنَّ الذين جَحَدوا توحيد الله، اتَّبعوا الشيطان فأطاعوه، وأنَّ الذين آمنوا اتَّبعوا القرآن والرسول ﷺ، وما جاء به من الحقِّ من خالقهم ومالِكهم ومُتولِّي أمورهم، مِثلَ ذلك البيان الواضح يبيِّن الله للناس أحوال الفريقين: الكفار والمؤمنين؛ ليعتبروا بها، وهي اتِّباع المؤمنين الحقَّ وفوزهم، واتِّباع الكافرين الباطلَ وخسرانهم، فيلحق بكلِّ قوم من الأمثال والأشكال ما يناسبه.

٤ ـ فإذا لقيتم ـ أيها المؤمنون ـ الذين كفروا في ساحات الحرب، فاضْربوا رقابهم ضرباً، حتى إذا أكثرتم فيهم القتل والجراح، ومنعتموهم من النهوض والحركة، فأسُرُوهم وأحكمُوا قَيْدهم؛ حتى لا يفلتوا منكم، وبعد الأسر: إمَّا أن تمُنُّوا عليهم منّاً بإطلاقهم من غير عوض، وإما أن تُفادوهم فداءً بالمال. واستمرُّوا على ذلك حتى يضع أهل الحرب أسلحتهم، ويُمسكوا عن القتال، ذلك الذي ذكر وبُيِّن من حكم الكفار، ولو يشاء الله لأهلكهم بغير قتال، وكفاكم أمرهم، ولكن أمركم الله بالقتال؛ ليمتحنَ المؤمنين بالكافرين؛ إذ ينكشف في القتال المنهزمون، والضعفاء والمتخاذلون، والمجاهدون الصابرون، والذين قُتلوا في سبيل الله من المؤمنين فلن يُبْطل الله أعمالهم، بل يوفِّيهم ثواب أعمالهم التي عملوها لله تعالى كاملة غير منقوصة.

٥، ٦ ـ سيهديهم الله أيام حياتهم في الدنيا إلى أرشد الأمور، ويوفِّقهم إلى طاعته ومرضاته، وفي الآخرة إلى الدرجات العُلى، ويُصلح شأنهم في الدنيا والآخرة، ويرضىٰ أعمالهم ويقْبلها، ويُدخلهم الجنة، بيَّن لهم منازلهم فيها، لا يخطِئونها، كأنَّهم ساكنوها منذ خُلقوا.

٧ ـ يا أيها الذين صدَّقوا بالله واليوم الآخر، واتَّبعوا رسوله، إنْ تنصروا دين الله، بالجهاد في سبيله، والحكم بكتابه، وامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، ينصركم الله على عدوِّكم، ويثبِّتْ أقدامكم عند القتال.

٨، ٩ ـ والذين كفروا فَهَلاكاً وخيبةً لهم، وأبطل الله ثوابَ أعمالهم؛ بسبب كفرهم، كما أحبط أعمالهم التي دبّروها من أجل الصدِّ عن سبيل الله، وإطفاء نوره، فصارت ضالَّةً ضائعة؛ ذلك التَّعس والإضلال بسبب أنهم كرهوا كتاب الله المُنزَّل على نبيِّه محمد ﷺ الذي فيه الهُدى والنور؛ وإنَّما كرهوه لأنَّ فيه الأحكام والتكاليف التي تخالف أهواءهم وشهوات نفوسهم، فأبطل أعمالهم التي عملوها، ولم يتقبلها منهم.

١٠ ـ أبقوا في بلدهم فلم يَسِر هؤلاء الكفار في الأرض، فينظروا كيف كان عاقبةُ الأمم الماضية والقرون الخالية الكافرة؟ فإنَّ آثار الأمم الهالكة المُعذَّبة، تُنبىء عن أخبارهم، دَمَّر الله عليهم مساكنهم وبلادهم، وما يختصُّ بهم من أنفسهم وأموالهم وأولادهم، وللكافرين المعاصرين المُصرِّين على كفرهم، ومَنْ سيأتي بعدهم أمثال ذلك العذاب الذي حلَّ بالأمم الكافرة إن لم يؤمنوا بمحمد ﷺ، وبما جاءهم به من عند الله عزَّ وجل.

١١ ـ ذلك الإهلاكُ والهوان الذي حلَّ بالأمم الكافرة؛ بسبب أنَّ الله ناصر المؤمنين على أعدائهم، ومُتولِّي أمورهم، وأنَّ الكافرين لا ناصر لهم يدفع عنهم العذاب والعقاب.

إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُم ﴿١٤﴾ مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴿١٥﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٧﴾ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ ﴿١٨﴾ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ﴿١٩﴾

١٢ - إنَّ الله يُدخل الذين آمنوا إيماناً صحيحاً صادقاً، وعملوا الصَّالحات، في الآخرة جنَّاتٍ تجري من تحت أشجارها وقصورها الأنهار، والذين كفروا يتمتَّعون في الدنيا بشهواتها ولذاتها، ويأكلون كما تأكل الأنعام، ليس لهم همٌّ إلا بطونهم وفروجهم، وليس لهم وراء الأكل والمتعة هدف أسمى يسْعون إليه. فهم لم يستعملوا ما وهبهم الله من قلوب وعقول وأبصارٍ وأسماع في معرفة أدلة وجود الله والغاية من الخلق، بل عطَّلوها واستعملوها استعمالاً أوْدَى بهم إلى العذاب الأليم الخالد، ، ونارُ جهنَّم مكان استقرارٍ لهم.

١٣ - وكثير من أهل القرى السابقين هم أشدُّ قوةً - يا رسول الله - من أهل قريتك - مكَّة - التي أخرجك أهلها. أهلكناهم، فلا مانع يمنعهم من العذاب والهلاك الذي حلَّ بهم.

١٤ - أَفَمَنْ كان مستقراً على يقين من دينه، وبرهان واضح من ربِّه، فهو يعلم الحقَّ حقاً، والباطل باطلاً، ولم ينحرف تحت تأثير أهوائه الجانحة، واتَّبعوا كتاب الله وصراطه المستقيم، كَمَن لم يكن على يقين من دينه، وانطمست بصيرته، وحُسِّنَ له سُوءُ عمله، من الكفر والمعاصي، واتَّبعوا أهواءهم على عَمىً وجهالة من غير تبصُّر بالعواقب؟ لا يستوي الفريقان.

١٥ - صفةُ الجنة التي وعدها الله المتَّقين: فيها أنهارٌ عظيمة من ماء غير مُتغيِّر الطعم والريح، وأنهارٌ من لبن لم يتغيَّر طعمه كما تتغيَّر ألبان الدنيا، وأنهارٌ من خمْر يلتذُّ بها الشاربون ولا يكون معها ذهاب عقل وصداع وأسقام كخمر الدنيا، وأنهارٌ من عَسَل خالص صافٍ من جميع شوائب عسلِ الدنيا، ولهؤلاء المتَّقين في هذه الجنة من كلِّ الثمرات للَذَّة والتفكُّه، ولهم مع هذا النعيم مغفرةٌ عظيمة من ربِّهم. أَفَمنْ هو خالدٌ مُنَعَّمٌ في هذه الجنَّة كَمَنْ هو خالدٌ في النار لا يخرج منها أبداً، وسُقوا ماءً تناهى في شدَّة حرِّه، فإذا شربوه قطَّع أمعاءهم؟

١٦ - ومن الذين كفروا منافقون ضمن جماعة المسلمين يتصنَّعون التظاهر باستماع قولك - يا رسول الله - مُظهرين إصغاءهم إليك بإمالة رؤوسهم وتوجيه آذانهم، حتى إذا خرج هؤلاء المنافقون من عندك، وفارقوا مجلسك الذي كنت تحدث فيه وتتلو آيات الله، قالوا للذين أوتوا العلم من الصحابة: ما الذي قال محمدٌ حين كنَّا عنده في الزمن القريب؟ أولئك البُعداء عن رحمة الله، الذين اتَّخذوا من الأسباب الصَّارفة عن الهداية، ما كان نتيجته ضمن سُنن الله السببيّة أن تُقفل قلوبهم، ويُضرب الخَتْم على تلك الأقفال، فلا تقبل الحقَّ والهداية، واتَّبعوا رغبات الأنفس من زينة الحياة الدنيا، ومتاعها، وشهواتها، فَهَوَتْ بهم إلى العذاب الأليم، والشقاء الدائم.

١٧ - وفي مقابل أولئك المنافقين المندسِّين في صفوف المسلمين، المؤمنون الذين اختاروا لأنفسهم بإرادتهم الحرة الإيمان، فاهتدوا إلى الحق وصراط الله المستقيم، وانتفعوا بما يستمعون من رسول الله ﷺ، زادهم الله هُدىً مع هدايتهم، وإيماناً مع إيمانهم، ووفَّقهم للعمل بما أمرهم به، ومنحهم مَلَكة الاستقامة على طاعة الله.

١٨ - فهل ينتظر المنافقون الذين ينتظرون أن تدور الدائرة على المؤمنين إلا أن تأتيَهم الساعة التي تنتهي بها ظروف الحياة فَجْأة تفْجؤُهم، وهو الأمر الذي لم يكونوا ينتظرونه ولا يتوقَّعونه، فقد ظهرت أمارات الساعة وعلاماتها، فكيف تكون نافعةً لهم ذكراهم للساعة، وصارفةً عنهم عذابها، إذا لم تحصل لهم هذه الذكرى إلا بعد مجيئها؟ إنهم يومئذ لا يملكون أن يعملوا عملاً ينفعهم، فقد مضى زمن الابتلاء، وأقبل يوم الجزاء.

١٩ - فاعلم - يا رسول الله - أنَّه لا معبودَ بحقٍّ إلاَّ الله، ودُمْ على ما أنت عليه من العلم بهذه الحقيقة العظمى، والإيمان والتَّسليم القلبي، والطمأنينة التامَّة، واعمل بمقتضى توحيد الإلهيَّة لله عزَّ وجل، واستغفر الله لذنبك - يا رسول الله - مما يُعدُّ بالنسبة لمنصبك الرفيع ذنباً، ممَّا يقع من الفترات والغَفَلات عن الذكر الذي من شأنك الدوام عليه، بسبب انشغالك بالنظر في مصالح المسلمين، وإنْ كان في ذاته من أعظم الطاعات، وأشرف العبادات؛ لتبقى في أعلى مراتب الإيمان والإحسان، واستغفر للمؤمنين والمؤمنات من أمَّتك، والله يعلم حركتكم التي بها تتصرَّفون وتتقلَّبون في الأعمال، ويعلم مكانها وزمانها، ويعلمُ سكونكم واستقراركم ومكانهما وزمانهما، عالمٌ بجميع أحوالكم، لا يخفىٰ عليه شيء منها.

وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ۙ ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾

٢٠ ـ ويقول المؤمنون الصادقون: هلاَّ أُنزلت سورة واضحة البيان، نُؤمر فيها بالقتال أمراً صريحاً؛ لكي نقاتل الكفار، لإعلاء كلمة الله، وتأمين الدعوة، ونشر الحق والعدل في الأرض، فإذا أُنزلت سورة بيِّنة واضحة الدلالة غير متشابهة، لا تحتمل وجهاً إلا وجوب القتال، وأمر فيها بالجهاد، رأيتَ المنافقين ينظرون إليك ـ يا رسول الله ـ شَزْرا وكراهية منهم للقتال، وجُبْناً عن لقاء العدو، كما ينظر المُحتضَر الشاخص بصره عند مُعاينة الموت، فقارب هؤلاء الذين في قلوبهم مرض أن يليهم المكروه بمحاولتهم الخلاص من القتال الذي يكرهون.

٢١ ـ المطلوب من المسلم في موضوع آيات القتال أن يُعلن الطاعة والقول المعروف الذي يدلُّ على صدق إسلامه، فإذا صدر الأمر الجازم بالخروج إلى القتال، وعَزَم أولياء الأمر وقادة المسلمين على الإلزام بالخروج للقتال، جَبُنَ فريقٌ من المؤمنين الصَّادقين نتيجة الضعف البشري، فلو صَدَقوا الله في قتال الكافرين ولم يضعفوا عن القتال بسبب الجبن، لكان ذلك الصِّدق والمبادرة إلى تنفيذ أمره خيراً لهم عند ربِّهم، إذْ يكون أجرهم عنده عظيماً. ولو لم يصدقوا في القتال يوم المعركة لما كان ذلك دليلاً واضحاً على كفرهم، لاحتمال أن يكون أثر جُبن في قلوبهم، ممَّا لا يناقض الإيمان.

٢٢ ـ فلعلَّكم إنْ ابتعدتم وأدبرتم ـ أيها المنافقون ـ عن الإيمان والجهاد مع رسول الله ﷺ، أو إن كنتم أولياء الأمر وأصحاب القوَّة أن تفسدوا في الأرض بخراب العمران الحضاري في المدن والقرى، وإهلاك الحَرْث والنَّسل، والبغي وسفك الدماء، وإفساد أخلاق الناس وسلوكهم، وإفساد أفكارهم ومفهوماتهم، وتُقطِّعوا أرحامكم؛ لتحقيق أغراضكم الشخصيَّة، ومصالحكم الدنيويَّة.

٢٣ ـ أولئك المنافقون البُعداء عن مهابط الرحمة إلى جهة الدرك الأسفل من النار، الذين لعنهم الله بسبب نفاقهم، فأصمَّهم عن سَمَاع الحق، وأعمى أبصارَهم عن رؤية آيات الله البيِّنات في أنفسهم، وفي الكون من حولهم، فهم في ضلالهم يتردَّدون، وفي الظلمات يتقلَّبون، لأنهم اختاروا لأنفسهم السَّيْر في الظلمات، فَجَرَتْ فيهم سنَّة الله أن لا يسمعوا الحقَّ، وأن لا يروا شيئاً من معالم الهدى.

٢٤ ـ أفلا يتفكَّرون في القرآن وفي مواعظه وزواجره؛ ليتعرَّفوا من خلال التدبُّر على ما يدفعون به كلَّ شبهاتهم وأوهامهم في تبرير قتال الكافرين؟ إذ يتردَّد في صدورهم أنَّ الدعوة إلى القتال ينجم عنه إفسادٌ في الأرض، وخراب للعمران، وتقطيع للأرحام، الذي يتجلَّى في واقعهم إذا كانوا أولياء الأمر، وكانت الدولة القائمة لهم، بل على قلوبهم ما يحجُبها عن تدبُّر القرآن، والتفكُّر في الآيات، بسبب كفرهم ونفاقهم، فهي مُغْلَقة لا يدخلها الإيمان، ولا يخرُجُ منها الكفر.

٢٥ ـ إنَّ المنافقين الذين رَجَعوا إلى الكفر الذي كانوا فيه قبل الإسلام من بعد ما وَضَح لهم طريق الهداية، الشَّيطانُ زَيَّن لهم القبيح حتى رَأَوْهُ حَسَناً، وحبَّب إليهم الباطل والشرَّ، وسهَّله لهم، ومدَّ لهم في الأماني والآمال، وأسباب الغَواية والضلال.

٢٦ ـ ذلك التَّسويل والإمْلاء؛ بسبب أنَّ المنافقين قالوا لليهود الذين كَرِهوا ما نزَّل الله: سنتعاونُ معكم على عداوة محمد ﷺ، وترك الجهاد معه، والقعود عنه، والله تعالى يعلمُ سرَّهم، لا تخفى عليه خافية من أمرهم.

٢٧ ـ فكيف يكون حالهم إذا جاءتهم ملائكة الموت لتقبض أرواحهم عند انتهاء آجالهم، يضربون وجوههم وأدبارهم؟

٢٨ ـ ذلك الضرب الذي استحقُّوه ونالوه؛ بسبب جمعهم بين خسَّتين: **الأولى**: المعصية التطبيقية العملية، باتِّباعهم ما أسْخَط الله من معاونة الكافرين، وترك الجهاد مع رسول الله ﷺ، **والثانية**: الكراهية القلبيَّة لدين الله، فكرهوا ما فيه رضوان الله عزَّ وجل، وهو الإيمان والطاعة والجهاد مع رسول الله ﷺ، فأبطل الله أعمالهم الصَّالحة التي عملوها في مُدَّة إيمانهم قبل ردتهم، وكذلك يحبط الله أعمالهم التي يعملونها ضدَّ المؤمنين، وينصر أولياءه ضدَّ أعدائه من الكافرين والمنافقين.

٢٩ ـ بل أظنَّ هؤلاء المنافقون الذين في قلوبهم أحقاد وكيد أن لن يُعرِّضهم الله في حياتهم الدنيا لاختبارات صعبة على نفوسهم، يَضْطرون معها أن يُعبِّروا عن أحقادهم وما يُضْمرون في صدورهم من عداوة وغيظ وكيْدٍ للرسول والمؤمنين، فيُبْديها حتى يعرف المؤمنون نفاقهم؟

وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٠﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ ﴿٣٢﴾ ۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٥﴾ إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ ۚ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم ﴿٣٨﴾

٣٠ ـ لا مانع لنا من إظهار أحقادهم المكتومة في صدورهم بأعمالهم وأقوالهم، ولو نشاء ـ يا رسول الله ـ لعرَّفناك بهم، ودَلَلْناك عليهم، فَلَعَرفتهم بعلامتهم تعريفاً لا يقع معه اشتباه، وإنَّك ـ يا رسول الله ـ لتعرفنَّ المنافقين فيما يُعرِّضون به من القول من تهجين أمرك وأمر المسلمين وتقبيحه والاستهزاء به، فيظهر في فلتات لسانهم ما يدل على حقيقتهم، واعملوا للحذر من المنافقين بملاحظة أقوالهم، وتتبُّع تصرُّفاتهم، لاسْتِبْطان هُويَّتهم الحقيقية، والله الذي يعلم أعمالكم يُعينكم ويهديكم، ويكشف أحقادهم لكم.

٣١ ـ ولنعاملنَّكم ـ أيها المسلمون ـ معاملةَ المُختبِر لكم، ونأمركم بالجهاد؛ حتى يتميَّز المجاهدون بأموالهم وأنفسهم بحسب درجاتهم ومراتبهم من غير المجاهدين، ويتبيَّن الصَّابرون على اختلاف درجاتهم ومراتبهم من غير الصَّابرين ذوي الهلع والجَزَع، ونُظهر أخباركم ونكشفها؛ ليتبيَّن مَنْ يأبى القتال، ولا يصبر على الجهاد.

٣٢ ـ إنَّ هؤلاء الذين كفروا مرتدِّين عن الإسلام في الباطن، وظلُّوا محافظين على انتمائهم للإسلام في الظاهر، وابتعدوا بأنفسهم عن دين الله، وعملوا على إبعاد غيرهم عنه، وخالفوا الرسول ﷺ، وناصبوه العداء، ووقفوا في شقِّ المضادِّ المحارب، من بعدما ظهر لهم أدلة الهدى وصدق الرسول ﷺ، لن يضرُّوا الله شيئاً في ذاته أو دينه أو كتابه أو رسوله، إنما يضرُّون أنفسهم بذلك، وسيُبْطل الله أعمالَهم التي عملوها في الدنيا، فلا يَرَوْن لها ثواباً في الآخرة؛ لأنها لم تكن لله تعالى، وسيُبطل ويُلغي أثر أعمالهم التي يعملونها بالمكر والكَيْد، ليحفظ دينه وكتابه ورسوله والمؤمنين الصادقين.

٣٣ ـ يا أيها الذين صدَّقوا بأركان الإيمان، واتَّبعوا رسوله أطيعوا الله وأطيعوا الرسول في أمرهما ونهيهما، ولا تُبْطلوا ثواب أعمالكم بالكفر والمعاصي.

٣٤ ـ إنَّ الذين أنكروا توحيد الله، وستروا دلائل الحقِّ، وصَدُّوا الناس عن الدخول في الإسلام، ثمَّ ماتوا وهم مُصرُّون على كفرهم، فلن يغفر الله لهم شركهم، وسيُعذِّبهم عقاباً لهم على كفرهم، ويفضحهم أمام الخلائق يوم القيامة.

٣٥ ـ فلا تضْعُفوا ـ أيها المؤمنون ـ عن جهاد الكافرين، وتجْبُنوا عن قتالهم، ولا تدعوهم إلى الصُّلح والمسالمة خَوْراً وجُبناً، وقاتلوهم حتى تكون كلمة الله هي العليا، وأنتم الغالبون لهم، والعالُون عليهم، والله تعالى معكم بالنُّصرة والمعونة، ولن يُنقصكم شيئاً من ثواب أعمالكم، وأجر جهادكم. وفي هذه الآية: دليل على مَنْع مُهَادَنة الكفَّار إلا عند الضرورة، وتحريم ترك الجهاد إلا عند العذر.

٣٦ ـ ما الحياة الدنيا إلا لَعِبٌ باطل لا ثمرة له سوى التعب، ولهوٌ قليل الجدوى شاغل عما يَعني ويَهُمّ، فكيف تمنعكم الدنيا عن طلب الآخرة، وقد علمتم أنَّ الحياة الدنيا باطلٌ وغرورٌ، وإن تؤمنوا بالله ورسوله إيماناً صحيحاً صادقاً، وتتقوا الله بامتثال أوامره، واجْتناب نواهيه، يُؤْتكم ثوابَ إيمانكم وتقواكم في الآخرة، ولا يسألْكم الله ورسوله ﷺ إخراج أموالكم كلها في الصَّدقات، إنَّما يسألكم إخراجَ بعضها، وهي شيء يسير قليل، تُرَدُّ على الفقراء، فطيبوا بإخراج الزكاة نفساً.

٣٧ ـ إن يَسْألكم الله أموالكم، فيُجهدكم، ويُلحَّ في المسألة، ويطلبها كلها، تَبْخلوا بالمال، فلا تُعطوه، ويُظهر أحقادكم وعداوتكم؛ لشدَّة محبتكم للأموال، وكراهتكم بذله في سبيل الله.

٣٨ ـ ها أنتم ـ يا هؤلاء ـ تُدعَوْن لتنفقوا في جميع وجوه البر، فمنكم الذي يَبْخَلُ بما فرض الله عليه إخراجه من الزكاة، أو نُدِبَ إلى إنفاقه من وجوه البرِّ، ومَنْ يَبْخَلْ بالصَّدقة فإنما يَبْخَلُ مُمْسكاً الخير عن نفسه، والله تعالى الغنيُّ عن صدقاتكم وطاعاتكم، وأنتم الفقراء المحتاجون إليه سبحانه، وإن تَتَولَّوا عن طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ. يُهلككم ويأتي بقوم آخرين، يكونون أطْوَعَ لله ورسوله ﷺ منكم، ثم لا يكونوا أمثالكم في التولِّي عن أمر الله، بل يطيعونه ويطيعون رسوله ﷺ، ويجاهدون في سبيله بأموالهم وأنفسهم.

سورة الفتح

سورة الفتح — ترتيبها ٤٨ — آياتها ٢٩

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾

١ ـ إنا قَضَيْنا وحَكَمنا لك ـ يا رسول الله ـ على أعدائك فتحاً جلياً واضحاً ظاهراً، بغير قتال ولا تعب، وهو صلح «الحديبية».
وقد طلب المشركون من رسول الله ﷺ المُوادَعةَ على إثر مناوشات ظهر لهم فيها أن المصلحة في الصُّلح، وتمّ على شروط تبدو في ظاهرها مُجحِفة بالمسلمين، ولكنها في الواقع كانت خيراً عظيماً لهم، وشَرّاً على الشِّرك والمشركين، فانطلقت الدعوة إلى الله بسبب هذا الصلح دون أن تقف في وجهها عوائق من مشركي قريش، ونَجَم عنه نقضُ المشركين لبعض بنوده، وسقوطهم في الغدر، الأمر الذي مكّن الرسول ﷺ من التوجُّه لهم بجيش المسلمين الذي بلغ قوامه عشرة آلاف مقاتل، ودخولهم مكة فاتحين لها.

٢، ٣ ـ فتحنا لك فتحاً مبيناً، وَغَدا النصرُ العزيز الغالب قريباً، واقْترب انتهاء وظيفتك في هذه الحياة الدنيا؛ ليغفر لك الله ما عملت من عمل كان الأَوْلى أن لا تعمله، وليغفر لك الله ما تركتَ من عمل كان الأَوْلى بك أن تعمَلَه، وعُدَّ ذلك ذنباً من إمام المرسلين، وإنْ كان من غيره يُعتبر برّاً وإحساناً، بحسب مقامه العظيم عند ربِّه، ويتمَّ نعمته عليك ـ يا رسول الله ـ بإتمام شرائع الدين وأحكامه ووصاياه، ويوفِّقك ويُسَدِّدك على متابعة سَيْرك على دين الله وأحكامه، ويثبِّتك عليه، إلى أن تلقى ربك حائزاً أسمى درجات المحسنين، وتكون في الذروة من الفردوس الأعلى، وينصُرَكَ الله بهذا الفتح المبين نصراً غالباً ذا عزّ ومَنَعة وظهور على الأعداء. وقد نصر الله رسوله نصراً عزيزاً في حياته، ففتح له حصون خيبر، ودخل مكة فاتحاً، وبعث البعوث لهدم الأصنام، ونصره الله على هوازن وثقيف في غزوة حنين، وغزا أطراف الشام في غزوة تبوك، وجاءته الوفود، ودخل الناس في دين الله أفواجاً، ونصر الله رسوله بعد أن انتقل إلى جوار ربِّه، فكُلُّ الفتوحات التي كانت للمسلمين بعد الرسول هي نصر عزيز للرسول ﷺ.

٤ ـ هو الله الذي أوجد الطمأنينة والثبات في قلوب المؤمنين الذين كانوا مع الرسول ﷺ معتمرين مُحصَرين في «الحديبية»؛ ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم السابق، وذلك أنه كلما وَرَدَ عليهم أمر أو نهي، آمنوا به، وعملوا بمقْتضاه، ولله سبحانه جنودُ السموات والأرض، يؤيِّد بها عباده المؤمنين، وكان الله عليماً بجميع جنوده الذين في السموات والأرض، حكيماً في تدبيرهم.

٥، ٦ ـ من علمه وحكمته أن سكَّن قلوب المؤمنين بصلح «الحديبية»، ووعدهم بالفتح والنصر؛ ليشكروه على نعمه تعالى، فيثيبهم ويدخلهم جنَّات تجري من تحت أشجارها وقصورها الأنهار، خالدين فيها أبداً، ويمحو عنهم سيِّئاتهم، فلا يُحاسبهم عليها، وكان ذلك الوعد بدخول المؤمنين الجنة، وتكفير سيِّئاتهم في علم الله ظفراً وربحاً عظيماً؛ لأنه منتهى ما تطمح إليه قلوب المؤمنين والمؤمنات، ويُعذِّب الله عذاباً مُعَجَّلاً في الدنيا المنافقين والمنافقات من أهل المدينة، والمشركين والمشركات من أهل مكة، الظّانِّين أنَّ الله تعالى لا ينصر محمداً ﷺ والمؤمنين، عليهم دائرة العذاب والهلاك المحيطة بهم، وغَضِبَ الله عليهم بتنكيد أمور حياتهم في أنفسهم وأموالهم وأولادهم زيادةً في تعذيبهم، وأبعدهم وطردهم عن مواطن رحمته، وهيَّأ لهم في الآخرة عذاباً مؤجلاً، جهنَّم يُعذَّبون فيها، وتكون هي مصيرهم الذي سيصيرون إليه، وساءتْ جهنم مصيراً.

٧ ـ ولِلَّهِ سبحانه جنودُ السموات والأرض، يُؤَيِّد بهم عباده المؤمنين، ويُعذِّب بهم المنافقين والكافرين. وكان الله قوياً غالباً منتقماً، لا يُردُّ بأسُه عن المنافقين والكافرين، حكيماً يضع الأشياء في مواضعها، ويختار أفضل الأشياء وأتقنَها في الأمور المختلفة لما يُعطي أفضل النتائج.

٨، ٩ ـ إنَّا أرسلناك ـ يا رسول الله ـ مُبلِّغاً رسالة ربِّك، وجميع ما أُنزل إليك لمن تستطيع أن تُبلِّغهم من الناس؛ لتشهد يوم القيامة بأنك قد بلَّغت جميع ما أُمرت بتبليغه، ومُبشِّراً لمَنْ آمن بك وأطاعك بالثواب المعجَّل والمؤجَّل، ونذيراً لمَنْ خالفك وعصى أمرك بالعقاب المعجَّل والمؤجَّل؛ لتقوموا ـ أيها الناس ـ بأربعة واجبات عظمى: **الواجب الأول**: لتؤمنوا بالله ورسوله إيماناً صحيحاً صادقاً، **والواجب الثاني**: أن تنصروا الله سبحانه بنصر دينه، وتجاهدوا في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم، **والواجب الثالث**: أن تعظِّموا الله سبحانه وتبجِّلوه بقلوبكم ونفوسكم، وتُثْنوا عليه بتمجيد صفات العظمة والجلال بألسنتكم، **والواجب الرابع**: أن تنزِّهوه وتقدِّسوه من جميع النقائص بُكرة من أول النهار إلى طلوع الشمس، وأصيلاً حين اصْفرار الشمس إلى غروبها.

إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾

١٠ - إنَّ الذين يُبايعونك - يا رسول الله - بيعة الرضوان بالحُدَيبية على أن لا يفرُّوا، إنما يُبايعون الله، ويعقدون العقد معه ابْتغاء جنَّته ورضوانه؛ لأنهم باعوا أنفسهم للَّهِ عزَّ وجل، يدُ الله فوقَ أيديهم، فهو معهم يسمع أقوالهم، ويرى مكانهم، ويعلم ضمائرهم وظواهرهم، وعَقْد الميثاق مع الرسول ﷺ كعقده مع الله، فمن نقض العهد الذي عقده مع النبيِّ ﷺ ونكث البَيْعة، فإنَّ وبال ذلك وضرَّه يرجع إليه، ولا يضرُّ إلا نفسه، ومَنْ أتمَّ العمل بكلِّ ما عاهد عليه الله في مبايعته التي بايع عليها، فسيُعطيه الله في المستقبل أجراً عظيماً في الآخرة، وهو الجنة.

١١ - سيقولُ لك - يا رسول الله - الذين تخلَّفوا من سُكَّان البادية عن الخروج معك إلى «مكة» معتمراً عام «الحديبية» إذا رجعت إليهم من عُمرتك هذه، وعاتبتهم عن التخلُّف عنك: شغلتنا أموالنا ونساؤنا وذرارينا، ولم يكن لنا مَنْ يخلُفنا فيهم، فلذا تخلَّفنا عنك، إنا مع عذرنا معترفون بالإساءة، فاسأل ربَّك أن يغفر لنا بسبب تخلُّفنا عنك، إنهم في طلب الاستغفار كاذبون؛ لأنهم لا يبالون أَسْتَغْفر لهم النبيُّ ﷺ أم لا. قل لهم - يا رسول الله -: إنَّ الذي يملك الضرَّ والنفع في الوجود هو الله، فَمَنْ يَمْلك من الله شيئاً إنْ أراد أن يُنزل بكم سوءاً، أو أراد أن يُنزل بكم نفعاً؟ فكلُّ ما يريده الله بكم نافذٌ لا محالة من ضرٍّ أو نفع. إنكم - أيها المنافقون - تتصوَّرون أنَّ كفركم ومكركم أمور مستورة لا يعلم بها غيركم، بل كان الله بما تعملون - من إظهاركم الاعتذار، وطلب الاستغفار، وإخفائكم النفاق - عالماً على سبيل الشهود والحضور، المُصَاحِب لكلِّ أجزاء العمل، ظواهره وبواطنه.

١٢ - وليس الأمر كما ادَّعيتم من انشغالكم بالأموال والأهل، بل ظننتم ظناً قوياً مستنداً إلى الظواهر السببية التي بدت في موازين القوة المنظورة، أن لن يرجع الرسول ﷺ والمؤمنون إلى أهليهم أبداً، وأنَّ العدوَّ يستأصلهم، وسينتهي أمرهم وأمر الإسلام كلُّه، وزيَّن الشيطانُ ذلك الظنَّ الذي فرحتم به ورغبتم فيه، حتى صار عقيدة راسخة في قلوبكم، بسبب كراهيتكم للرسول والمؤمنين، ورغبتكم في التخلُّص من هذا الدين، وظننتم ظناً آخر مُسْتنداً إلى عقائدكم الشركيَّة التي تبطنونها، وهو أنَّ الله لن ينصر رسوله والمؤمنين معه، لأنهم على غير الحق في محاربة مشركي قريش، وأن الله استخرجهم من «المدينة» إلى «مكة» ليقضي عليهم المشركون، وكنتم - أيها المنافقون المخلَّفون - قوماً فاسدين هالكين لا خير فيكم.

١٣ - ومَنْ لم يُؤْمن بالله ورسوله مُستقبلاً من الكافرين المجاهرين بكفرهم، أو المنافقين، فإنا هيَّأنا للكافرين ناراً مُوقَدةً ذات لهب.

١٤ - وللَّهِ - وحده - مُلك السموات والأرض، ومَنْ كان كذلك فهو المُسْتَحِقُّ وحده للعبادة، يغفر لمن يشاء بمشيئته التي لا تفارق حكمته، ويُعذِّب من يشاء بحكمته وعدله، وغفرانُه ورحمتُه أعمُّ وأشملُ وأتمُّ وأكمل، وكان الله دواماً كثير السَّتْر، دائم الرحمة، سبقت رحمتُهُ غضبَه. وفي هذه الآية إغراءٌ بالتوبة والحث عليها، فالمخلَّفون المنافقون من الأعراب كغيرهم، ما داموا في الحياة، وما دام باب التوبة مفتوحاً للعباد، فإنهم يملكون أن يتوبوا ويستغفروا ربَّهم، فإذا فعلوا ذلك وجدوا الله تواباً رحيماً.

١٥ - سيقول لك - يا رسول الله - أولئك الأعراب الذين تخلَّفوا عن «الحُدَيبية»، إذا ذهبتم - أيها المؤمنون - مُسْرعين إلى غنائم «خيبر» التي وعدكم الله بها: اتركونا نتَّبِعكم إلى «خيبر»، فنشهد معكم قتال أهلها، ونشاركَكم في الغنائم، يريدون أن يُغيِّروا مواعيد الله لأهل الحُديبية، حيث وعدهم غنيمة «خيبر» خاصَّةً لهم. قل لهم - يا رسول الله -: لن تتَّبعونا إلى «خيبر» ما دمتم على ما أنتم عليه من النفاق، كذلكم قال الله من قبل مرجعنا إليكم: أنَّ غنيمة «خيبر» لمن شهد «الحديبية»، ليس لغيرهم فيها نصيب، فسيقولون: لم يأمركم الله بذلك، بل يمنعكم الحسدُ أن نصيبَ معكم من الغنائم شيئاً، وتريدون أن تستأثروا بها لأنفسكم!! وليس الأمر كما زعموا، بل كانوا لا يفهمون من قضايا الدين إلا شيئاً قليلاً، لا يكوِّن لديهم عقيدةً صالحة، ولا إيماناً مقْبولاً، بسبب أنهم كفار باطناً.

قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ
تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ
وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ لَّيْسَ
عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ
وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ
وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾ ۞ لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ
الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ
فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ
كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ اللَّهُ
مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ
النَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا
مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا ۚ
وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا
لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ
اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾



١٦ - قل - يا رسول الله - للَّذين تخلَّفوا من الأعراب عن القتال: سَتُدْعَون مُستقبلاً إلى قتال قوم أصحاب بأس شديد في القتال، تقاتلونهم أو يُسلمون من غير قتال، فإنْ تطيعوا أمر الدعوة إلى قتال القوم أولي البأس الشديد، فتخرجوا للقتال مع المؤمنين الصَّالحين، يُؤْتكم الله أجراً حسناً مُعجّلاً في الدنيا؛ ومؤجّلاً إلى يوم الدين، مشروطاً بصحة إيمانكم وابتغائكم رضوان الله والجنة، وإن تدبروا وتبتعدوا عن الاستجابة لدعوة الجهاد كما تولَّيتم حين دعيتم للخروج مع الرسول في عُمرته عام «الحديبية»، يُعذِّبكم عذاباً أليماً في النار. وهذه الآية تدلُّ على أن باب الجهاد مفتوح للمتخلِّفين عن الخروج مع النبي ﷺ إلى الحديبية، وأنه يمكنهم أن يتلافوا ما سلف منهم من تقاعس وتثاقل. وأما القوم أولو القوة الشديدة الذين يُدعون إلى قتالهم، فهم جميع أعداء الإسلام من ثقيف وهوزان، وأهل الردة، والروم وفارس، والتتر والمغول. وفي الآية دليلٌ على صحَّة إمامة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما؛ لأنَّ أبا بكر دعاهم إلى قتال بني حنيفة، وعمر دعاهم إلى قتالِ فارس والروم.

١٧ - ليس على الأعمى إثم، ولا على الأعرج إثم، ولا على المريض إثم، في التخلُّف عن الجهاد مع المؤمنين ومَنْ في معناهم من أصحاب الأعذار المانعة عن الجهاد؛ لأنهم لا يقدرون على الكرِّ والفرِّ، ومَنْ يُطع الله ورسولَه في أمر الجهاد وغيره، يدخله جنَّات تجري من تحت قصورها وأشجارها الأنهار، ومن يدبر ويبتعد عن الطاعة، ويستمرُّ على الكفر والنفاق، ويتخلَّف عن الجهاد مع المؤمنين، يُعاقبه الله عقاباً مُؤلماً في الآخرة.

١٨، ١٩ - نؤكِّد بشدة أنَّ الله سبحانه رضيَ عن المؤمنين حين بايعوك - يا رسول الله - تحت الشجرة بَيْعَة الرضوان في «الحُديبية» على أن يُناجزوا قريشاً ولا يفرُّوا حتى الموت، فعلم سبحانه ما في قلوبهم من الصِّدق والإخلاص والوفاء، كما علم ما في قلوب المنافقين من المرض والنفاق، فأنزل الطمأنينة والأمن وسكون النفس على المؤمنين المخلصين حتى ثبتوا وبايعوك على الموت، وعلى أن لا يفرُّوا، وجازاهم وعوَّضهم عمَّا فاتهم بصلح «الحديبية» فتحاً قريباً، وهو فتح «خيبر»، ومغانم كثيرة يأخذونها من أموال يهود «خيبر»، وكان الله دواماً قوياً غالباً كامل العزَّة في انتقامه من أعدائه، حكيماً حيث حكم لكم بالغنائم، ولأعدائكم بالهلاك على أيديكم.

٢٠ - وعدكم الله - أيها المؤمنون - مَغانمَ كثيرةً تغنمونها من الفتوحات التي تُفتح لكم إلى يوم القيامة، فعجَّل لكم مغانِمَ «خيبر» التي غنمتموها، ومنع أيديَ أهل خيبر وحلفائهم عنكم بإلقاء الرُّعب في قلوبهم، فلم ينلكم سوء مما كان أعداؤكم أضمروه لكم من المحاربة والقتال، ومن أن ينالوا ممَّن تركتموهم وراءكم في «المدينة»؛ لتشكروه سبحانه على المغانم، وعلى كفِّ أيدي الناس، وحمايتكم من كيد اليهود، ولتكونَ هزيمتهم وسلامتكم وغنيمتكم علامة للمؤمنين دالَّةً على صدق الرسول ﷺ في إخباره عن الغيوب، فيزدادوا يقيناً إلى يقينهم، ويعلموا أنَّ الله هو المُتولِّي حفظهم ومؤيِّديهم وناصرهم، وليُدلَّكم ويُعينكم ويوفِّقكم على معرفة ما لم تسلكوه بعد من الصراط المستقيم، ويُسدِّدكم حتى تُلازموه في مستقبل أمركم، إذا صدقتم مع الله، وأخلصتم له العمل.

٢١ - وعدكم الله فتح بلاد أخرى لم تَقْدِروا عليها، قد حفظها لكم حتى تفتحوها، ومنعها من غيركم حتى تأخذوها، وكان الله دواماً على كلِّ شيء قديراً من فتح القرى والبلدان لكم، وغير ذلك، لا يعجزه شيء.

٢٢ - ولو قاتلكم الذين كفروا من أسد وغطفان وأهل خيبر، لانهزموا عنكم وولوكم ظهورهم، ثم لا يجدون لهم من دون الله ولياً يلي أمرهم، ولا نصيراً ينصرهم.

٢٣ - هذه طريقة الله المتَّبعة، التي مضت من قبل التي أجراها الله في القرون الماضية، وهي الانتصار لرسله وأتباعهم على مَنْ عاداهم من كفَّار الأمم، وهي سنة تربويَّة جزائية ثابتة قائمة على الحقِّ والعدل وكمال الحكمة، ولن تجد - أيُّها المتلقِّي - لطريقة الله تبديلاً، إذ لا توجد قوة في الوجود قادرة على تبديلها.

وَهُوَ ٱلَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾

٢٤ ـ وهو الذي كفَّ أيدي المشركين عنكم، وأيديَكم عنهم، بوادي «مكة»، من بعد أن مَكَّنكم منهم حتى ظفرتم بهم، (وهؤلاء المشركون هم الذين خرجوا على عسكر رسول الله ﷺ بـ«الحديبيَّة»، فأمسكهم المسلمون، ثم تركوهم ولم يقاتلوهم، وكانوا نحو ثمانين رجلاً)، وكان الله من الأزل إلى الأبد بما تعملون بصيراً، لا تخفى عليه خافية، فيجازيكم على أعمالكم.

٢٥ ـ كفار «مكة» هم الذين جَحَدوا توحيدَ الله، ومنعوكم يومَ «الحُديبية» عن المسجد الحرام، أن تطوفوا به، وحَبَسُوا الهَديَ التي ساقها رسول الله ﷺ، أن تبلغ الحرم حيث يحلُّ نحرها.

ولولا رجالٌ مؤمنون مُستضعفون، ونساء مؤمنات مُستضعفات بين أظهر هؤلاء الكافرين بـ«مكة»، يكتمون إيمانهم خيفةً على أنفسهم، لم تعرفوهم بأعيانهم؛ خشية أن تطؤوهم بجيشكم بالقتل وتوقُعوا بهم، فيلزمكم ـ بذلك القتل ـ إثمٌ ومشقة وعيب وكفارة قتلِ الخطأ بغير علم، لولا ذلك لأذِنَ لكم في دخول مكة، ولكن حالَ بينكم وبين ذلك لهذا السبب.

كان الكفُّ عن دخول مكة؛ لِيُدْخِلَ الله في دين الإسلام مَنْ يشاء من أهل مكة بعد الصُلح وقبل دخولها، لو تميَّز هؤلاء المؤمنون والمؤمنات عن كفار «مكة» وخرجوا من بينهم، لعذَّبنا الذين كفروا من أهل «مكة» عذاباً مؤلماً موجعاً بالسَّبْي والقتل.

٢٦ ـ ضع في ذاكرتك ـ أيها المتلقِّي لبياننا ـ حين جَعَل الذين كفروا من قريش في قلوبهم الأَنَفة والتكبُّر والغضب، عندما صدُّوا رسولَ الله ﷺ وأصحابه عن البيت، ومنعوا الهَدي، ومن ذلك: امتناعهم أن يكتبوا في صُلح الحديبيَّة «بسم الله الرحمٰن الرحيم»، وأبوا أن يكتبوا: «هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله»، فأنزل الله طمأنينته على رسوله، وعلى المؤمنين معه، حتى لا يدخلهم ما دخلهم من الحميَّة، فيعصون الله في قتالهم، وألزمهم الكلمة التي يُتَّقى بها الشرك والخلود في العذاب، وهي كلمة التوحيد والإخلاص «لا إله إلا الله»، وهي رأس كلِّ تقوى، وكان الرسول ﷺ وأصحابُه أحقَّ بكلمة التقوى من كفار مكة، وكانوا أهلها في علم الله تعالى، وكان الله بكلِّ شيءٍ عليماً من أمر الكفار، وما يستحقُّونه من العقوبة، وأمر المؤمنين، وما يستحقُّونه من التكريم، لا يخفى عليه شيء.

٢٧ ـ نؤكِّد بشدَّة أن الله عزَّ وجلّ صَدَق رسولَه محمداً ﷺ الرؤيا التي أراها إيَّاه بالحقّ، أنَّك ـ يا رسول الله ـ تدخلُ وأصحابَك بيتَ الله الحرام ـ إن شاء الله ـ آمنين، مُحلِّقين رؤوسَكم كلها، ومقصِّرين تأخذون بعض شعوركم، لا تخافون من عدوِّكم حالَ الإحرام، وبعد الإحرام في حال الرجوع، فعلم أنَّ الصلاح كان في الصُلح عام «الحديبية»، وتأخير الدخول إلى «مكة»، فجعل من دون فتح «مكة» الذي وُعدتم به، فتحاً قريباً، وهوصُلْح «الحديبية»، وفتح «خيبر».

وجملة: «إن شاء الله» اعتراضيَّة في أثناء كلام مُتصل في معناه، للمبادَرة إلى تعليم المؤمنين أن يقولوا في كلِّ ما يرجون وقوعه أو يريدون إيقاعه مستقبلاً: «إن شاء الله»، وتعليمهم كيف يكون إدخال هذا التعليق على مشيئة الله في كلامهم.

٢٨ ـ الله عزَّ وجلّ الذي أرسل رسوله محمداً ﷺ بالبيان الواضح ودين الإسلام؛ ليُعليَه ويقوِّيه على الأديان كلِّها، وأغنى الله حالة كونه شهيداً يشهد له أنه رسول الله ﷺ للناس أجمعين، بما أظهر له من معجزة القرآن المجيد، والآيات الخوارق التي آتاه الله إيَّاها.

ولقد حقَّق الله سبحانه وعده، فنصر نبيَّه، وأعزَّ دينه، وأظهره على كلِّ دين، فما يثبت أمامه دين آخر في ذاته وحقيقته، فأما الملل الوثنيَّة فليست في شيء في هذا المجال، وأما الرسالات السماويَّة الكتابيَّة فقد حُرِّفت وشُوِّهت وانتهت لحالٍ لا تصلح معه لشيء من قيادة الحياة، ثم إنها جاءت في تقدير الله لأمد محدود. فهذا تحقيقُ وعد الله من ناحية طبيعة هذا الدين وحقيقته، فأما من ناحية واقع الحياة، فلقد ظهر دينُ الحق، لا في الجزيرة وحدها، بل ظهر في المعمور من الأرض كلِّها في مدى قرنٍ من الزمان. وما يزال يمتدُّ بنفسه على الرُّغم من كل ما يُرصد له في أنحاء الأرض من حرب وكيد. وما من مُنصف ينظر إلى الإسلام نظرةً مجرَّدةً عن التعصُّب والهوى حتى يُقرَّ باستقامة هذا الدين مع الفطرة، وتلبيته لحاجات العقل والرُّوح، وحاجات العمران والتقدم، وقدرته على قيادة البشرية في جميع الأحوال. وكفى بالله شهيداً.

مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾

سورة الحجرات

(ترتيبها ٤٩ - آياتها ١٨)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾

٢٩ ـ مُحَمَّدٌ رسولُ الله ﷺ وأصحابُه رضي الله عنهم، أقوياء شجعان، أهلُ بأس وجهاد، مُسْتعلون بقوّتهم وبأسهم على الكفار الذين اختاروا لأنفسهم ـ بعد معرفة الحق ـ سبيل الكفر جُحوداً وعناداً، بعد اتّخاذ مختلف الوسائل لتعريفهم بالحقّ، وهدايتهم وإرشادهم، ثم إنهم بعد رفضهم للحقّ صَدُّوا الناس عن الدين، وقاوموا الدعاة الهُداة إليه، وبسبب ذلك يقف المؤمنون أمام الكفار في معاركهم الحربية أقوياء شجعان، يُقاتلونهم بكلّ بأس وتضحية وبَسَالة، وهم رحماء متعاطفون متوادُّون فيما بينهم، ومن ظواهر تراحمهم: إرادةُ الخير لكلّ المسلمين، والتعاون على البرّ والتقوى، والبذْل والعطاء، والمحبة والإخاء، وهم كثيرو الصِّلة بربِّهم والخضوع له، والتذلُّل بين يديه، إذ تراهم ـ أيها الرائي المُشَاهد لهم ـ رُكعاً سُجَّداً، يَطْلبون بنيَّاتهم وقلوبهم، وبأدعيتهم بألسنتهم أن يمنحهم خالقهم ومُربِّيهم زيادةً من عطائه وكرمه في العاجلة والآجلة، وأنْ يشملهم برضوانه الذي هو أكبرُ من كلِّ نعيم الجنة. علامةُ طاعتهم للَّهِ عزَّ وجلّ ظاهرةٌ في وجوههم من أثر السجود المتكرِّر الطويل، ذلك الذي ذُكر من نعوتهم الجليلة هو وصفهم العجيب الشأن الجاري مَجْرى الأمثال في كتاب الله التوراة المنزَّل على موسى عليه السلام.

وَوَصْف أصحاب محمد ﷺ في الإنجيل المُنزَّل على عيسى عليه السلام، في تناميهم واشتداد قوّتهم، وكثرة خيراتهم، كزرع نَبَتَ نباتاً حسناً في أخصب أرض وأحسن شروط، فأخرج أصله وفروعه من جوانبه، فأعان أصله بالقوة والحماية، فَغَلُظَ ذلك الزرع واشْتدَّ، فاعتدل ووصل إلى درجة كماله وقوته مستوياً على سوقه، يُعجب الذين زرعوا الزرع، إذ يَرَوْن البهجة منه، ومظهر العطاء الوفير؛ ليغيظ الله بأصحاب محمد الكفار الذين يغطُّون ويسترون أدلة التوحيد، وما جاء به الرسول ﷺ عن ربّه بالإنكار والجحود، وزخرف القول، إذ تتولّد في نفوسهم مشاعر ألم شديد من قوة ضاغطة عليهم، حينما يرون تنامي قوة أصحاب محمد، واشتداد بأسهم، وانتشارهم في الأرض. وعد الله الذين آمنوا إيماناً صادقاً، وعملوا الصالحات من أصحاب محمد ﷺ بأمرين: **الأمر الأول**: مغفرةٌ عظيمة لسيِّئاتهم وخطاياهم، فهم غير معصومين عن الذنوب والمعاصي، ولكن لا يُصرُّون، بل يستغفرون. **والأمر الثاني**: أجرٌ عظيم على إيمانهم وجهادهم في سبيل الله، ونشرهم لدينه، ونُصرتهم لرسوله، فهم قد حقَّقوا في واقعهم التطبيقي ما كان بشارة عنهم في خبر غيبيٍّ في التوراة والإنجيل.

سورة الحجرات

١ ـ يا أيُّها الذين صدَّقوا الله واتَّبعوا رسوله لا تُقدِّموا قولاً أو فعلاً أمام أمر الله ورسوله ولا نَهْيهما، لا في خاصَّة أنفسكم، ولا في أمور الحياة من حولكم، ولا تَسْبِقُوا إلى أمر من عند أنفسكم حتى تعلموا حكم الله فيه، على لسان رسوله ﷺ، ولا تقْضوا في أمر لا ترجعون فيه إلى قول الله، وقول رسوله ﷺ، فالله أعلم بمصلحتكم، وما كانت أنظاركم ببالغةٍ من العلم شيئاً ممَّا علمه الله، واتَّقوا الله في تضييع حقِّه بمخالفة أمره، إنَّ الله سميعٌ لأقوالكم، عليمٌ بنيَّاتكمْ وبأفعالكم.

٢ ـ يا أيُّها الذين صدَّقوا بأركان الإيمان، وعملوا بشريعة الإسلام، لا تجعلوا كلامكم مرتفعاً على كلام النبيِّ ﷺ عند مُخاطبتكم له، وبجِّلوه وفخِّموه، واجعلوا أصواتكم أخْفض من صوته، ولا تُنادوه كما ينادي بعضُكم بعضاً، فتقولوا: ـ يا محمد ـ، بل قولوا: ـ يا نبيَّ الله، يا رسول الله ـ؛ خشية أن يَبْطُل ثواب أعمالكم، وأنتم لا تعلمون بذلك أدنى علم؛ لأنَّ رفع الصوت والجهر استخفافاً، قد يؤدِّي إلى الكفر المُحبط إذا ضُمَّ إليه قصد الإهانة، وعدم المبالاة.

٣ ـ إنَّ الذين يَخْفِضون أصواتَهم عند رسول الله ﷺ ويلينونها إجلالاً وتعظيماً له، أولئك الفضلاء ذوو المنزلة الرفيعة الذين اختبر الله قلوبَهم التي هي منبع إراداتهم، فانتهى الامتحان للنتيجة التي قُرِّرت لهم، وهي التقوى، فهم قوم أثبتوا أن تقوى الله تعمر قلوبهم، إذ امتثلوا ما أمرهم الله به، وانتهوا عما نهاهم الله عنه. لهم من الله مغفرةٌ واسعةٌ لذنوبهم، وثوابٌ عظيم، وهو الجنة.

٤ ـ إنَّ الذين يُنادونك ـ يا رسول الله ـ من خلف حُجُراتك بصوتٍ مُرتفع لبعض مسائلهم، أكثرهم لا يعقلون عقلاً علمياً ما ينبغي لمقامك من التوقير والإجلال، ولا يملكون إرادات قوية حازمة تضبط نفوسهم، وتعقلها عن التسرُّع غير المحمود.

وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴿٦﴾ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ۖ فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ ۚ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا ۖ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ ۖ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾

٥ ـ ولو أنَّهم صبروا ولم يُسِيئوا الأدب، ويتعجَّلوا في خروجك، لكان الصَّبْرُ خيراً لهم عند الله من الاستعجال، لما فيه من الأدب وتعظيم الرسول ﷺ، والله واسع السَّتر، عظيم الرحمة لمن تاب منهم.

٦ ـ يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله، وعملوا بشريعته، إنْ جاءكم خارجٌ عن حدود شريعة الله بأيِّ خبر له خطر وشأن، فاطلبوا بيان الأمر وانكشاف الحقيقة، ولا تعتمدوا على قول الفاسق؛ خشية أن تُصيبوا بالقتل والسَّبي قوماً جاهلين حالَهم وحقيقةَ أمرهم، فتُصْبحوا على ما فعلتم ـ من إصابتكم الخطأ وترك التبيُّن ـ مُغتمِّين غمَّاً لازماً، تتمنَّون أنَّ هذا الأمر لم يقع منكم.

٧ ـ واعلموا ـ أيُّها المؤمنون ـ أنَّ فيكم رسولَ الله، فاتَّقوا الله أن تقولوا باطلاً أو تكذبوا، فإنَّ الله يُخبره ويُعرِّفه بحالكم فتفتضحوا، لو تابَعَ طاعتكم في كثيرٍ ممَّا تخبرونه به، فيحكم برأيكم، لأثِمْتم وهلكتم. ولكنَّ الله حَبَّبَ إليكم الإيمان، وحسَّنه وقرَّبه منكم، وأدخله في قلوبكم حتى اخترتموه، وكرَّه إليكم الكفرَ بالله، والخروج عن طاعته مما يدخل في كبائر الإثم، والمعاصي التي لا تتجاوز حدود الصغائر، أولئك المؤمنون المُحبَّب إليهم الإيمان، المُزيَّن في قلوبهم، هم المهتدون إلى مَحاسن الأعمال، ومكارم الأخلاق.

٨ ـ وهذا الخير الذي حصل لكم فَضْلاً من الله، ونعمةً عليكم، واللّهُ عليمٌ بكم وبما في قلوبكم، حكيمٌ في تدبير أمور خلقه.

٩ ـ وإنْ طائفتان من المؤمنين تقاتلوا، فأصلِحوا بينهما ـ أيُّها المؤمنون ـ بالنُّصح وإزالة الشُّبهة وأسباب الخصام، وبالدعاء إلى حكم كتاب الله، والرِّضا بما فيه لهما وعليهما، فإنْ تَعَدَّت إحدى الطائفتَيْن المُتقاتلَتيْن على الأخرى، وأبت الصُّلح والإجابة إلى حكم كتاب الله، فقاتلوا التي تعدَّت بغير حقّ، حتى ترجع عن بغيها وظلمها إلى كتاب الله الذي جعله الله حَكَماً بين خلقه، والذي يأمر بالعدل والاستقامة، فإنْ رَجَعت إلى الحقِّ، فأصلحوا بينهما بالعدل الذي يحملهما على الإنصاف والرِّضا بحكم الله، واعدلوا في كلِّ أمر، إنَّ الله يُحبُّ العادلين، فيُجازيهم أحسن الجزاء، ويدخلهم جنَّات النعيم، لأنَّ من أحبَّه الله أكرمه، وأدخله في رحمته.

١٠ ـ إنَّما المؤمنون إخوةٌ في الالتقاء الفكري على عقيدة علميَّة واحدة، وفي التقاء القلوب على عاطفة دينية وأهداف غائيَّة واحدة، والتقائهم على أحكام تشريعيَّة وقيادة واحدة، فأصلحوا بين أَخَوَيكم إذا اختلفا واقْتَتلا، واتَّقُوا الله فلا تعصوه، ولا تُخالفوا أمره؛ رجاء أن تنالوا رحمته سبحانه.

١١ ـ يا أيُّها الذين آمنوا لا يستهزىء رجالٌ من رجالٍ، بتحقيرهم واسْتصغارهم، أو تحطيم مكانتهم، أو مقاومة أفكارهم وأعمالهم بالباطل، أو للتسلية أو الضحك، عسىٰ أن يكون المُسْتَهزَىءُ بهم خيراً وأفضل من المُسْتهزئين بكثير، في إيمانهم وطهارة قلوبهم، وتقواهُم؛ لأنَّ السخرية ظلمٌ قبيحٌ من الإنسان لأخيه الإنسان، وعدوانٌ على كرامته، وإيذاءٌ لنفسه، ومن آثارها: تقطيع الروابط الاجتماعيَّة، وبذْر بذور العداوة والبغضاء، وهي لا تخلو من اعتراضٍ على الخالق في ابتلائه لعباده، إذا كانت السخرية من أمرٍ لا يملك المسخور منه تعديله، أو لتغطية نقص الساخرين وغمط كمالَ أهل الكمال، إذا كانت السخرية من الناقصين للكاملين، ولا يستهزىءُ نساءٌ مؤمنات؛ من نساء مؤمنات، عسى أن يَكُنَّ عند الله خيراً وأفْضَل من المستهزئات، ولا يَعِبْ الإنسان أخاه في وجهه بكلام ولو خفيٍّ؛ لأنكم كالجسد الواحد، فمن آذى نفس أخيه المسلم فكأنما آذى نفسه، ومن يَلْمز غيره يُعرِّض نفسه للانتقام منه باللمزِ، فهو إذْ يلمز الناس يتسبَّب في أن يلمزوه، وَرُبَّ لَمْز خفيٍّ أشدُّ من طعن صريح، لأن فيه معنى استغباء الملموز واستغفاله، فكأنه لا يتنبَّه إلى الطعن المُوجَّه ضده في رمز الكلام وحركات الوجه، ولا تدعوا الإنسانَ بغير ما سُمِّي به ممَّا يكرهه المُنادَى به، أويفيد ذمَّاً له، أو تحقيراً وتنقيصاً، أو غضَّاً من كرامته، وخَفْضاً من مكانته، بئْسَ أن يرتكب المؤمنون عملاً يطلق عليهم بسببه اسم الفسوق، بعد اتِّصافهم بالإيمان، وتحلِّيهم بهذا الاسم الذي هو أشرف الأسماء وأكملها، ومن لم يَتُبْ من السُّخرية واللمز والنَّبْز، فأولئك البعداء عن رحمة الله هم الظالمون لأنفسهم بتعريضها للعذاب على ذنوبهم ومخالفتهم، وظالمون لغيرهم بإيذائهم وإهانتهم.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ۞ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾

١٢ - يا أيُّها الذين آمنوا اجتَنبوا كثيراً من الظنّ الوهميّ، والظنّ الذي هو من مرتبة الشكّ، وكذلك الظنّ الراجح برجحان ضعيف لا يقوى على الإدانة، إنَّ بعض الظنّ بالناس المُفْضي إلى اتّهامهم بغير حقّ إثمٌ؛ لأنَّ اتّباع الظنّ الذي لا يصلح للحكم والإدانة ولا لتحصيل المعارف، يجعل الإنسان دائم السَّبْح في الظنون، سريع إصدار الأحكام بمجرَّد الظنّ، وهذا يُوقعه في كثير من الخطأ الذي يفضي به إلى الوقوع في الإثم الذي يؤاخذ عليه. على أنَّ الأمر باجتناب كثير من الظنّ يفيد أنَّ من الظنّ ما لم يأمر الله باجْتنابه، كالظنون التي تُبنى عليها أحكام قضائيَّة، ويُستنبط بها أحكام شرعية، فحكم القاضي بشاهدَيْن صحيحَي الشهادة حكمٌ بالظنّ لا باليقين، لاحتمال خطئهما ونسيانهما، واحتمال فسقهما مع ظهور عدالتهما، والاستنْباطات الظنيَّة الاجتهاديَّة من قِبَل ذوي أهليَّة اجتهادية استنباطات مقبولة شرعاً. ولا تبحثوا عن عيوب الناس وتتَّبعوا عوراتهم، وهم في خَلَواتهم، إمَّا بالنظر إليهم وهم لا يشعرون، وإما باسْتراق السمع وهم لا يعلمون، وإما بالاطِّلاع على مكتوباتهم ووثائقهم وأسرارهم وما يُخْفونه عن أعين الناس دون إذنٍ منهم، ما داموا ظاهري الاستقامة غير مجاهرين بمعاصيهم، وكان ما يُخفونه من أمورهم من السُّلوك الشخصيّ الذي يخصُّهم، أما إذا كانوا فاسقين معروفين بالفسق، أو منافقين مكشوفي النفاق، أو ما يُخْفونه من قبيل خيانة المسلمين مع عدوِّهم، فهؤلاء لا حُرمة لهم، وينبغي كشف خياناتهم، وما يكيدون المسلمين مع أعدائهم. ولا يتناول بعضكم بعضاً بظهر الغيب بما يسوؤه ويكرهه ممَّا هو متَّصف به، فإنَّ مَنْ يذمّ أخاه المؤمن، ويتحدَّث عن نقائصه ومعايبه، يُؤذيه أذىً يشبه أذى مَنْ يعضُّه ويأكل لحمه، فإذا كان ذلك في غيبته وعلى غير شعور منه، كان كمن يعضه ويأكل من لحمه وهو ميِّت لا يحسُّ ألم العضّ والأكل، أَيُحِبُّ أحدُكم أن يأكلَ لحمَ أخيه مَيْتاً؟ لا يحبُّ أحدكم أكل جيفة أخيه، كما كرهتم هذا، فاجْتنبوا ذكره بسوء غائباً، واتَّقوا الله في أمر الغِيبة، واجْتناب نواهيه؛ إنَّ الله كثير التوبة على عباده المؤمنين، دائم الرحمة بهم.

١٣ - يا أيُّها الناس إنَّا خلقْناكم من آدمَ وحواءَ، فالمجموعة البشريَّة كلُّها تلتقي على أصل واحد، وبين الناس أخوة إنسانيَّة عامة، وجعلناكم جُموعاً عظيمة وقبائلَ مُتعدِّدة؛ ليعرف بعضكم بعضاً، في قُرب النَّسب وبُعْده، لا للتفاخر بالأنساب والتعالي بالأحساب؛ إنَّ أرفعكم منزلةً عند الله في الدنيا والآخرة أتقاكم له؛ إنَّ الله عليمٌ علماً كاملاً شاملاً بظواهركم ويعلم أنسابكم، خبيرٌ على سبيل الشهود والحضور ببواطنكم، لا تخفى عليه أسراركم، فاجعلوا التقوى زادكم إلى معادكم.

١٤ - قال بعض الأعراب الذين أعلنوا انتماءهم للإسلام انتماءً قائماً على مصالح دنيوية: صدَّقنا بالله ورسوله تصديقاً كاملاً. قل لهم - يا رسول الله -: لم تُصَدِّقوا بقلوبكم، ولكن قولوا: اسْتَسْلمنا مَخافَةَ القتل والسَّبْي، ولم يدخل بعدُ الإيمانُ في قلوبكم، ويُتوقَّع ذلك منكم إن صدَّقتم تصديقاً جازماً، وأخلصتم في طاعة الله ورسوله، وإن تُطيعوا الله ورسولَه ظاهراً وباطناً، سِرّاً وعلانية، لا يُنقصكم من ثواب أعمالكم شيئاً، إنَّ الله كثير المغفرة، يستر ذنوبكم ولا يؤاخذكم بها، دائم الرحمة بكم.

١٥ - ما المؤمنون إلاَّ الذين صدَّقوا بالله ورسوله، ثمَّ لم يشكُّوا في دينهم، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، بكلِّ أنواع الجهاد، ومنه: مجاهدة النفس، وجهاد الدعوة، والإعداد والقتال، أولئك رفيعو المنزلة هم الصَّادقون في إيمانهم.

١٦ - قل - يا رسول الله - لهؤلاء الأعراب: أتُخبِّرون الله بدينكم الذي أنتم عليه؟ واللَّهُ يعلم ما في السموات وما في الأرض، لا تخفى عليه خافية، واللَّهُ بكلِّ شيءٍ عليمٌ لا يحتاج إلى إخباركم، ولا يخفى عليه ما في قلوبكم من الإيمان أو الكفر، والبر أو الفجور.

١٧ - يمُنُّ هؤلاء الأعرابُ عليك - يا رسول الله - بقولهم: أسْلمنا ولم نُحاربك. قل لهم: لا تمنُّوا عليَّ إسلامكم، بل الله يُنعم عليكم النعمة العظمىٰ، حيث هداكم للإيمان على ما زعمتم وادَّعيتم، إنْ كنتم صادقين في إيمانكم.

١٨ - إنَّ الله سبحانه يعلم كلَّ ما غاب عن العباد في السموات والأرض، ممَّا لا تصل إليه حواسُّهم وعقولهم، لا يخفى عليه شيءٌ فيهما، فكيف يخفى عليه حالكم؟ بل يعلم سرَّكم وجهركم، والله بصيرٌ بأعمالكم، وسيُجازيكم عليها.

سورة ق

بسم الله الرحمن الرحيم

قٓ وَالْقُرْءَانِ الْمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلْ عَجِبُوٓا أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ﴿٤﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴿٥﴾ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا إِلَى السَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۢ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَالنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ ﴿١١﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾

سورة ق

١ - ﴿قٓ﴾ سَبَقَ الكلام على الحروف المقطَّعة في أوَّل سورة البقرة. أُقسمُ بالقرآن الشريف الكريم، الرفيع المقام، العليِّ المنزلة، على صدق رسولي محمد، وصدق ما جاء به من أمر البعث بعد الموت إلى الحياة الأخرى، للحساب، وفصل القضاء، وتنفيذ الجزاء.

٢ - لكنَّ الذين كفروا لم تُؤثِّر فيهم معجزة القرآن، ولم يؤمنوا بالرسول، وبما أخبر به من أمر البعث بعد الموت، بلْ عَجِبَ المشركون من أهل مكة أنْ جاءهم مُنذِرٌ بَشَرٌ منهم يُخوِّفهم بعذاب الله وعقابه المُعجَّل والمُؤجَّل بعد أن أصرُّوا على جُحودهم وعِنادهم، فقال الكافرون السَّاترون للحقِّ وأدلته: هذا البعث الذي أنذر به محمد شيءٌ يُتعجَّب منه.

٣ - أإذا متنا وصِرنا تراباً، نُبعث كما يقول؟ ذلك البعث بعد الموت بعيد الوقوع.

٤ - نؤكِّد أنه سبق في علمنا قبل خلق الناس ما تنقص الأرض من لحومهم وعظامهم بالإفناء، لا يَعزُب عن علمنا شيء، وعندنا - مع علمنا بذلك - كتابٌ حافظ لكلِّ معلوم، محفوظٌ من التغيير والتبديل، وهو اللوح المحفوظ.

٥ - ليسوا في حقيقة الأمر شاكِّين، بل كذَّب هؤلاء المشركون بالقرآن حين جاءهم، دون أن يتفكَّروا أو يتعقَّلوا، فهم في أمر مُختلط مُلتبس، يقولون في القرآن مرة: سحر، ومرة: رَجَز، ومرة: مُفْتَرى!!

٦ - ألم يستعملوا ما لديهم من أدوات نظر تفكُّريٍّ، فلم ينظروا - حين كفروا بالبعث - إلى السماء العظيمة فوقهم، كيف بنيْناها بغير عَمَد، وجمَّلناها وحسَّنَّاها بالكواكب والنجوم، وما لها من شقوق وصُدوع؟

٧ - والأرضَ بسطناها ووسَّعناها، وأمددناها بالعناصر الصَّالحة لنفع الناس ورزقهم، وألقينا فيها جبالاً ثوابتَ تمنعها من المَيَدان والاضطراب، وأنبتنا فيها من كلِّ صنف من أصناف الزروع والأشجار، كريم حَسَن، يُسَرُّ به الناظر إليه.

٨ - جعلنا تلك الآيات في السماء والأرض تعليماً وتفهيماً، وتذكيراً مُتكرِّراً بما سبق أن تعلَّمه وتعرَّف عليه من آيات الله في كونه، ينتفع بهذه التبصرة والذكرى كلُّ عبدٍ يرجع إلى الله تعالى بالتدبُّر في بدائع صنعته، ودلائل قدرته.

٩ - ونزَّلنا من السُّحب مطراً كثيرَ الخير والبركة، فيه حياة كلِّ شيء، فأنبتنا بذلك الماء بساتين كثيرة الأشجار، مختلفة الثمار، وأنبتنا به حبَّ البر والشعير، وسائر الحبوب التي تُحصَد بعد نضجها.

١٠ - وأنبتنا به النخل طِوالاً مرتفعات القامات في السماء، لها ثمرٌ يطلع ويظهر، مُتراكبٌ بعضه على بعض باتِّساق جميل، ونظام بديع.

١١ - جعلنا ذلك رزقاً للعباد، وأحيَيْنا بالمطر بلدةً جَدبةً لا زرع فيها ولا نبات، فأنبتنا فيها الكَلأَ والعشب، كما أحيَيْنا بذلك الماء الأرضَ المَيْتَة نُخرجكم من قبوركم أحياء بعد الموت، للحساب، وفصل القضاء، وتنفيذ الجزاء.

١٢ - ١٤ - كذَّب بالرسل قبل هؤلاء المشركين: قومُ نوح، وأصحابُ البئر التي كانوا مقيمين حولها، وثمودُ قوم صالح، وعادٌ قوم هود، وقومُ فرعون، وإخوانُ لوط، وأصحابُ الأيْكة قومُ شعيب، وقوم تُبَّع الحِمْيَري باليمن، كلُّ هؤلاء الأقوام كذَّبوا رسلهم، فصار وعيدي السابق أمراً واقعاً محقَّقاً. فاحذروا - أيها المكذِّبون - برسالة محمد ﷺ وكتابه أن يأخذكم الله بالعذاب كما فعل بالأمم الماضية.

١٥ - أقصدنا وأردنا بدء الخلق، فَعَجَزْنا حين خلقناهم أوَّل مرة، ولم يكن لهم وجودٌ في الواقع قبله، فنَعجِز عن إعادتهم ثانياً بعد فنائهم؟ وذلك لأنهم اعترفوا بالخلق الأول، فكيف ينكرون قدرتنا على إعادة الخلق بعد فنائه على الرُّغم من مساواته للخلق الأول مساواة تامَّة!! بل هم في خلط وشبهة من أمر البعث بعد الموت بتأثير رغباتهم وشهواتهم وأهواء نفوسهم.

وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ
مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ
﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ
ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ۚ ذَٰلِكَ
يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ
كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ
﴿٢٢﴾ وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ
عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا
ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ

وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ
إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾
يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ وَأُزْلِفَتِ
ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ
﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا
بِسَلَٰمٍ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾

١٦ ـ ونؤكّد بشدَّة لكم أننا أوجدنا الإنسان بعظمة ربوبيَّتنا، ونعلمُ ما تُحَدِّثه نفسُهُ من خواطر خفيَّة، فلا تخفى علينا سرائره وضمائره، ونحن ـ لكمال علمنا وقدرتنا ـ أقرب إليه من أقرب شيءٍ إليه، وهو عرق الوريد، الذي يجري فيه الدم.

١٧ ـ حين يكتب المَلَكان الموكَّلان به في صحيفة حسناته وسيئاته كلَّ ما يصدُرُ عنه من عمل أو قول، أحدهما عن يمينه يكتب الحسنات، والآخر عن شماله يكتب السَّيِّئات، كلُّ واحد منهما قاعدٌ مُلازمٌ لا يبرح.

١٨ ـ ما يتكلَّم من كلام يخرج من فيه، وما يعمل من عمل إلا عنده مَلَكٌ حافظٌ يكتب قوله، مُعَدٌّ مهيَّأ لذلك، حاضرٌ عنده، لا يفارقه.

١٩ ـ خلقنا الإنسان، ووضعناه موضع الامتحان في الحياة الدنيا، وانتهى أجلُهُ فيها، وجاءت غَمْرَة الموت وشدَّتُه بالحقّ الثابت الذي لا مردَّ له، ذلك الموت هو ما كنت منه ـ أيها الإنسان ـ تهرب وتَفِرُّ في حياتك، فلم ينفعك منه الهرب والفرار.

٢٠ ـ ونُفخ في «القرن» نفخةَ البعث الثانية، ذلك اليوم الذي وعد الله الكفار أن يُعذّبهم فيه.

٢١ ـ وجاءت في ذلك اليوم كلُّ نفسٍ بَرَّةٍ أو فاجرة، معها سائقٌ من الملائكة يسوقُها إلى المَحشر، وشهيدٌ من الملائكة يشهد عليها بما عملت في الدنيا من خير وشر.

٢٢ ـ يقال للكافر إذا عاين ما لم يكن يُصدِّق به في الدنيا لغفلته: نؤكِّد لك أنك كُنتَ مُنْغمساً في غفلةٍ، غارقاً في متاع الحياة الدنيا وزينتها، نافراً من هذا الذي تُعاينه، فأزلنا عنك غطاءَكَ الذي كان على قلبك وسمعِك وبصرك في الدنيا، فزالت عنك الغفلة التي كانت تحجبك عن أمور المعاد، فبصرُك اليومَ قويٌّ ثابت نافذ، تُبصر به ما كنت تجحده في الدنيا.

٢٣ ـ وقال المَلَكُ المُوَكَّل بكتابة السيِّئات: هذا الذي في صحيفته من السَّيِّئات مكتوبٌ عندي مُعَدٌّ مُحضَر.

٢٤ ـ ٢٦ ـ يقول الله تعالى للمَلَكَيْن المُوَكَّلَيْن بمراقبته في الدنيا، وسَوْقه والشهادة عليه يوم الحساب: اطرحا في جهنَّم كلَّ من اتصف بصفة من هذه **الصفات الست**: **الصفة الأولى**: أنه شديد الكفر، **الصفة الثانية**: أنه مُعَانِد لله فيما أمر به، يعرف الحق ويرده بجرأة ووقاحة. **الصفة الثالثة**: أنه منَّاع للخير أن يصل إلى نفسه، أو غيره، فهو لا يُحسن إلى عباد الله بماله أو حاله أو قاله أو جاهه، **الصفة الرابعة**: أنه ظالم متجاوز للحدِّ، **الصفة الخامسة**: أنه مُشكِّك لغيره في الله وفي دينه، بوساوسه وإغوائه، **الصفة السادسة**: الذي جَعَل مع الله إلهاً آخر يعبده من دون الله، فألقياه في عذاب جهنَّم الشديد.

٢٧ ـ قال شيطانه الذي قُيِّض لهذا الكافر في الدنيا: ربَّنا ما أنا الذي جعلتُه يُجاوز الحدَّ في العصيان، حتى بلغ مُنحطّاً إلى الكفر، ولكن كان في ضلالٍ بعيد عن الحق.

٢٨ ـ فيردُّ الله تعالى على المتخاصمَيْن من كفار الإنس وقُرنائهم من شياطين الجن: لا تعتذروا عندي في دار الجزاء وموقف الحساب، وقد قدَّمتُ إليكم بالوعيد في القرآن، وأنذرتكم على لسان الرسل، وحذَّرتكم عذابي في الآخرة لمن كفرَ بي وعَصَاني.

٢٩ ـ لا يبدَّل الوعيد الذي قرَّرته على الكافرين، ولا مَطْمع لأحدٍ أن يجد معاذير يعتذر بها، وما أنا بظلَّامٍ للعبيد؛ فلا أظلم أحداً منهم أدنى ظلم، بل هم الظالمون لأنفسهم؛ إذ ارتكبوا السيئات، وهم يعلمون أنهم معاقبون عليها، ضمن قانون الجزاء الربَّاني.

٣٠ ـ اذكر يوم يقولُ الله تعالى لجهنَّم توبيخاً للكَفَرة: هل امتلأت؟ وتقول جهنَّم غضباً عليهم: هل من زيادة أستزيد بها من هؤلاء الظالمين؟

٣١ ـ ٣٣ ـ وقُرِّبَتْ الجَنَّة للمُتَّقين الذين اتَّقوا ربَّهم ـ بأداء فرائضه واجتناب معاصيه ـ في أرض المحشر على مرأى منهم ومَقْربة، يَرَون نضرتها وجمالها، ويشمُّون ريحها، يقال لهم: هذا الذي وُعدتم به ـ أيها المتَّقون ـ في الدنيا على ألسنة الأنبياء، لِكُلِّ من اتَّصف بالصفات الأربعة التالية: **الصفة الأولى**: أنه رَجَّاع عن المعصية إلى الطاعة، **الصفة الثانية**: كثير الحفظ لإيمانه وعهده لربِّه، ولتوبته من النقص والتغيير، ولجميع أوامر الله ونواهيه، **الصفة الثالثة**: مَنْ خاف الرحمنَ خوفاً مصحوباً بتعظيم وحب فأطاعه وإنْ لم يره، **والصفة الرابعة**: جاء يوم القيامة بقلب راجع إلى الله تعالى، مُخلص في طاعته.

٣٤، ٣٥ ـ ويقال لهؤلاء المتَّقين: ادخلوا الجنَّة بسلامة من العذاب والهموم، ذلك هو يوم الخلود الأبدي في الجنة؛ لأنه لا موت فيها. لأصحاب الجنة كل ما يشتهون، وكل ما يسألون الله فيها، حتى تنقطع أمانيهم، وتنتهي مسألتهم، فيزيد الله عباده من النعيم ما لم يسألوا ـ ممَّا لم يخطر على قلب بشر ـ وأعظمُه النظر إلى وجه الله الكريم.

وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ ﴿٤٠﴾ وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾

سُورَةُ الذَّارِيَاتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ﴿١﴾ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ﴿٢﴾ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ﴿٣﴾ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ﴿٤﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴿٦﴾

٣٦ ـ إننا أهلكنا قبل كفار مكة كثيراً من أهل القرون الماضية إهلاكاً جماعياً، كانوا أشدَّ منهم بأساً وقوة، فاستعملوا قواهم القادرة على البطش في البحث للوصول إلى ما يريدون في البلاد. هل كان للمُهْلَكين الأوَّلين، حين أنزل الله عليهم العذاب من مَهْرَبٍ يفرُّون إليه؟!

٣٧ ـ إنَّ في إهلاك كفَّار القرون الأولى إهلاكاً جماعياً عقابياً لذكرى مُؤثِّرة لمن كان له قلبٌ يعقل به، أو وجَّه كلَّ سمعه لتلقِّي بيانات الله، وهو مُعاينٌ آثار المُهْلكين السابقين معاينة البصير الواعي.

٣٨ ـ ونؤكِّد بشدَّة لكم أننا خلقنا السَّمواتِ والأرضَ وما بينهما من كواكب ونجوم وبحار وعوالم كثيرة جداً في مقدار ستَّة أيام، وما أصابنا من إعياءٍ وتَعَب. وفي هذه الآية ردٌّ على اليهود في قولهم: إن الله استراحَ يوم السبت.

٣٩ ـ فاصبر ـ يا رسول الله ـ على ما يقوله المُكذِّبون، واترك أمرهم إلى الله، فإنَّ الله لهم بالمرصاد، ونزِّه ربَّك تنزيهاً مُقْتَرناً بحمده ومُصَاحِباً له، قبل طلوع الشمس، وهو وقت صلاة الفجر، وما قبل غروب الشمس، وهو وقت صلاة العصر.

٤٠ ـ ونزِّه ربَّك تنزيهاً مقترناً بحمده في وقتٍ ما من الليل، وعَقِبَ الصَّلوات المكتوبة.

٤١ ـ واستمع ـ يا رسول الله ـ يوم يُنادي إسرافيل بنفخه في «القرن» من مكان قريب.

٤٢ ـ يوم يسمعون النَّفخة الثانية مُتلبِّسة بالحقِّ الثابت الذي لا شك فيه، ذلك يوم الخروج من القبور.

٤٣ ـ إنا نحن بعظيم قدرتنا نُحيي في الدنيا، ونُميت عند انقضاء الأجل، وإلى حكمنا وحدنا، وفصل قضائنا، وتنفيذ جزائنا، وإلى المكان الذي نقضي فيه مصيرُ جميع الخلائق في الآخرة بعد رحلة التخيير والتَّسخير في الدنيا.

٤٤ ـ يوم تنشقُّ الأرض عن الموتى في قبورهم، يخرجون منها سراعاً، ويُحشرون في الأرض المُخصَّصة للحشر، ذلك جمعٌ علينا هيِّن يسير.

٤٥ ـ نحن أعلم بما يقول كفار مكة في تكذيبك واتِّهامك وسِبَابك، وما أنت عليهم ـ يا رسول الله ـ بمُسَلَّط تجْبُرهم على الإيمان، بل أنت مُكلَّف أن تُبلِّغهم وتُبيِّن لهم، وتُقدِّم لهم الحُجَج والأدلة، ووسائل الترغيب والترهيب بما عند الله، فذكِّر بالقرآن مَنْ تشعر بأنه يخاف وعيد الله المُعجَّل والمُؤجَّل أقلَّ خوف، فهو مطموع باستجابته لدعوة الحق يوماً ما، فينبغي تذكيرُه بما سبق أن تبلِّغه وتفهِّمه من بلاغات القرآن وبياناته، أما مَنْ تَتيقَّن أنه لا يخاف وعيد الله، فإن التذكير لا ينفع فيه.

سُورَةُ الذَّارِيَاتِ

١ ـ أقسم الله تعالى بالرياح التي تُثير التراب وذرَّات الماء وبخاره.

٢ ـ فالرياح الحاملات للسُّحب الثِّقال بالماء.

٣ ـ فالرياح الجاريات في الجوِّ جرياً ليِّناً رفيقاً.

٤ ـ فالرياح التي تقسِّم اللقاحات على الأشجار والثمرات، وتقسِّم نُويات اللقاح على بخار الماء في السُّحب لتكوِّن حباتِ ماءٍ تنزل أمطاراً، وتقسِّم السُّحب وتُوزِّعها على البلاد، لإنزال الأمطار بقضاء الله وأمره، على وَفْق حكمته. أقسم الله تعالى بهذه الظواهر الكونية العظيمة لما فيها من الدلالات على عجيب صنعته وقدرته وحكمته في كونه.

٥ ـ إنَّ الذي تُوعَدون به ـ أيها الناس ـ بمتابعةٍ وتكرير من البعث والحساب والثواب والعقاب لوعدٌ صادق.

٦ ـ وإنَّ الحساب والجزاء على ما يكسبُهُ الموضوعون للابتلاء في الحياة الدنيا لأمرٌ واقعٌ لا مَحَالة يوم القيامة.

وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴿٧﴾ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾ قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾

٧ - ٩ - وأقسم الله تعالى بالسماء ذوات الطرق المحكمة التي تسير ضمن حدودها النجومُ والكواكب والمجرَّات بإتقان عجيب مدهش، إنَّكم - يا أهلَ مكة - لفي قول متخالف متناقض في أمره تعالى، وأمر رسوله ﷺ، وأمر الحشر، ليس لكم وحدةٌ فكريَّةٌ جامعةٌ لعقائدكم ومفهوماتكم حول الوجود والنشأة والمصير، يُصرَف عن الإيمان بما كُلِّفوا الإيمان به من صُرِف، حتى يكذِّبه.

١٠ - ١٢ - طُرِد وأُبعد من رحمة الله إبعاداً أبدياً، الكذَّابون المعتمدون على الظنون الضعيفة التوهُّميَّة في قضايا تحتاج إلى براهين وأدلة يقينيَّة، الذين هم منغمسون في غفلة وعمىً وجَهالةٍ، لاهونَ غافلون عن أمر الآخرة، يقولون تكذيباً واستهزاء: - يا محمد - متى يوم القيامة الذي يكون فيه الحساب والجزاء؟

١٣، ١٤ - إنهم سوف يتحسَّرون ويندمون، يوم هم على لهب النار يُعذَّبون عقاباً لهم على كفرهم، تقولُ لهم خَزَنة جهنم، وهم يُعذَّبون بالحريق: ذوقوا عذابكم الذي رفضتم أن تؤمنوا به، هذا الذي تذوقونه اليوم هو الذي كنتم به تستعجلون في الدنيا تكذيباً به.

١٥، ١٦ - إنَّ المتَّقين الذين أدَّوا حقوق مرتبة التقوى، وزادوا عليها من النوافل والقُربات حتى دخلوا في درجات مرتبة البر، ثم زادوا من صالحات الأعمال حتى ارتقوا إلى درجات مرتبة الإحسان، في جنَّاتٍ عظيمة، وعيونٍ كثيراتٍ من لبن، وعسل مُصفًى، وماءٍ غير آسِنٍ، وخمرٍ لذَّةٍ للشاربين، آخذين ما أعطاهم ربُّهم من الخير والكرامة؛ إنهم كانوا قبل دخولهم الجنة مُحسنين في الحياة الدنيا.

١٧، ١٨ - كانوا ينامون قليلاً من الليل، ويُصلُّون أكثره، وربما مدُّوا عبادتهم إلى وقت السَّحَر، فإذا جاءت أوقات السحر اجتهدوا في سؤال الله أن يغفر لهم سوابق ذنوبهم وتقصيرهم في العبادة.

١٩ - وفي أموالهم نصيبٌ يبذلونه للسائل المسكين الذي يسأل الناس ويطلب منهم، والفقير المحروم المُتعفِّف الذي لا يسأل الناس حياءً.

٢٠، ٢١ - وتوجد في الأرض وما فيها - من البحار والجبال والأشجار والثمار وأنواع النبات - آيات كثيرات للمُوقنين بالله الذي يعرفونه، ويستدلُّون عليه بصنائعه، وتوجد في خلق أنفسكم دلائل على قدرة الله، أفلا تُبصرون في آيات الله في الأرض وفي الأنفس، للوصول إلى العلم اليقيني المُشابَه للعلم الذي يحصل عن طريق الإدراك البصريِّ.

٢٢، ٢٣ - وفي السماء رزقكم المُقدَّر لكم، وما تُوعدون من الثواب والعقاب يوم الدين. فَوَرَبِّ السَّماء والأرض إنَّ ما ذُكر بشأن الرزق والجزاء، لَحَقٌّ لا رَيْب فيه، حالة كونه مشابهاً لنطقكم، فكما أنكم لا تشكُّون في أنكم تنطقون، حينما تريدون أن تُعبِّروا بنُطقكم عن شيء ممَّا في نفوسكم، كذلك قضينا رزقكم، وما توعدون من الجزاء.

٢٤، ٢٥ - هل أتاك - يا رسول الله - قصة الملائكة الكرام عند الله الذين جاؤوا إبراهيمَ بالبُشرى، حين دخلوا عليه في بيته، فقالوا: نُسَلِّم عليك سلاماً. قال: تحيَّتي لكم سلامٌ، أنتم قومٌ غرباء لا أعرف أشخاصكم، ولكن لكم عليَّ حقُّ ضيافتكم.

٢٦، ٢٧ - فذهب بخفَّةٍ وسرعةٍ لضيافتهم دون أن يظهر علامات إرادة إكرامهم، من شدَّة ما لديه من جودٍ وسخاء نفسٍ، فجاء بعجل سمين مشويّ، فقرَّبه إليهم، فلمَّا لم يأكلوا، قال: ألا تأكلون؟

٢٨ - فأضْمَرَ في نفسه خوفاً منهم حين رأى عليه السلام إعراضهم عن الطعام. قالوا له: لا تَخَفْ إنا رُسلٌ من الملائكة، وبشَّروه بأنَّ زوجته «سارَة» ستلد له ولداً، سيكون من أهل العلم بالله ودينه، وهو إسحاق عليه السلام.

٢٩ - فأقبلت زوجة إبراهيم «سارة» من وراء الحجاب، ودخلت عليهم في ضجَّةٍ وصَيْحةٍ، فلَطَمَتْ وجْهَهَا بكفيّها بدافع من غيْرتها أن يتزوَّج زوجةً ضَرَّةً لها، صالحةً لأن تحمل وتلد، وقالت: كيف تُبشِّرون زوجي إبراهيم بغلام حليم، وأنا عجوز عقيم لا ألد؟

٣٠ - قالت لها الملائكة: مثل ذلك الذي بشَّرناكُما به قال ربُّك، وقوله الحقُّ، إنَّك ستلدين غلاماً؛ إنه هو الكامل الحكمة، الذي يضع الأشياء في مواضعها، الكامل العلم، المحيط بكلِّ شيءٍ علماً، وبسبب كمال علمه وشموله، فهو يُصلح ما كان سبباً للعقم.

۞ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾ وَفِى مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾ وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٤٦﴾ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾

٣١ ـ قال إبراهيم عليه السلام: فما حالكم وشأنكم الخطير، الذي لأجله أُرسلتم ـ أيها المرسلون ـ سوى هذه البشرى؟

٣٢ ـ ٣٤ ـ قالوا: إنا أرسلنا من ربِّنا إلى إهلاك قوم مجرمين، يستحقُّون التعذيب والإهلاك الشامل، وهم قوم لوط؛ لنرسِلَ عليهم من السماء حجارة من طين، مُعلَّمةً عند ربِّك بعلاماتٍ لهؤلاء المتجاوزين الحدَّ في الفجور والعصيان، المتوغِّلين في فعل الجرائم والآثام، وكبائر الفواحش والمنكرات.

٣٥، ٣٦ ـ فأخرجنا من كان في قرى لوط من المؤمنين الصادقين المعلنين إسلامهم وانقيادهم، فما وجدنا فيها غير أهل بيت واحدٍ فيه مسلمون مؤمنون، وهم لوط وابنتاه، الذين نجَّيْناهم، ومنهم مسلمون ظاهراً غير مؤمنين قلباً، بل منافقون، كامرأة لوط، فهي مسلمة غير مؤمنة، فلم تشملها النجاة، إنما النجاةُ والسَّلامةُ للمؤمنين الصَّادقين.

٣٧ ـ وتركنا في مدينة قوم لوط علامةً باقيةً دالَّةً على ما أنزلنا بهم من تدميرٍ وإهلاك، وهذه الآية ينتفع بها الذين يَخافون عذاب الله الأليم.

٣٨ ـ وتركنا في إرسال موسى آيةً وعبرةً، إذ أرسلناه برسالاتنا وآياتنا العظيمة إلى فرعون مَصْحوباً بحُجَّة برهانيَّة ظاهرة، وخوارق باهرة.

٣٩ ـ فتولَّى فرعونُ مُبْتعداً مُدْبراً عن الإيمان، مغترّاً بجمعه وجنوده الذين كان يتقوَّى بهم، وقال فرعون عن موسى: هذا ساحر أو مجنون. وفي كلام فرعون تهافت ظاهر، لأنه جَمَع بين أمرَيْن مُتضادَّين، وذلك لأنَّ من شأن الساحر أن يكون كثيرَ الفطنة والذكاء والدهاء، وهذا يتنافى مع الجنون تنافياً كلياً.

٤٠ ـ فأخذنا فرعونَ وجنودَه، بتدابيرنا الحكيمة، إذْ جعلناه وجيشَه يلاحقون بني إسرائيل الخارجين من مصر، فأغرقناهم جميعاً في البحر، وقائدهم فرعون آتٍ بما يُلامُ عليه من دعوى الربوبيَّة وتكذيب الرُّسل.

٤١ ـ وفي إهلاك قبيلة «عاد» قومِ الرسول هود، آيةٌ وعبرةٌ للمعتَبرين، إذ أرسلنا عليهم الريح الشديدة التي لا خير فيها ولا بركة، فلا تُلقِّح شجراً ولا تحمل مطراً.

٤٢ ـ ما تترك من شيءٍ أتت عليه في الأرض من أنفسهم وأموالهم وأنعامهم إلا جعلته متفتِّتاً كالشيء الهالك البالي، ولستم ـ يا كفار مكة ـ أكرمَ على ربِّكم من كفار عادٍ.

٤٣، ٤٤ ـ وفي إهلاك قبيلة «ثمود» قوم الرسول صالح آيةٌ وعبرةٌ للمعتبَرين، حين قيل لهم لمَّا عَقَروا الناقة: تمتَّعوا إلى وقت انقضاء آجالكم، فتكبَّروا عن طاعة ربِّهم، فأخذتهم صاعقةُ العذاب المُهْلكة لهم، وهم يَرَوْن ذلك العذاب عياناً.

٤٥ ـ فسقطوا صرعى، وما قاموا بعد نزول العذاب بهم، ولا قدروا على النهوض، وما كانوا ممتنعين منا.

٤٦ ـ وأغرقنا قوم نوح بالطُّوفان الشامل، من قبل هؤلاء، وهم: عاد وثمود وقوم فرعون؛ إنَّهم كانوا قوماً خارجين عن الطاعة إلى دركات الكفر العِناديِّ الجحوديِّ. فاعتبروا ـ يا كفار مكة وجبابرتها ـ أن ينزل بكم ما نزل بالأقوام السابقين.

٤٧ ـ وبَنَيْنا السَّماءَ بقوةٍ وشدة، وإنا لمُوسعون فيها خلقاً وامتداداً لأرجائها وأنحائها بعد خلقها الأول مع توالي الأزمان.

٤٨ ـ وبسطنا الأرض ومهَّدناها لكم، فَنِعمَ المُسوُّون المصلحون لهذه المنبسطات من الأرض عنايةً منَّا بمصالح الناس.

٤٩ ـ ومن كلِّ شيءٍ في الكون خلقنا صنفَيْن ونوعَيْن مُختلفين في الناس، والنباتات، والكهرباء، والمغناطيس، والذرَّات؛ نبيِّن لكم هذه الحقيقة التكوينيَّة راغبين أن تضعوها في ذاكرتكم ـ أيها المُتلقُّون المتدبِّرون ـ فكلَّما اكتشفتم وجود نظام الزوجيَّة في شيءٍ كان خفيّاً عليكم تذكَّرتم هذا البيان، فعلمتم أنَّ القرآن مُنزَّل من لدنه، وعلمتم أنَّ خالق الأزواج فردٌ لا نظير له، ولا شريك معه.

٥٠ ـ أنتم ـ أيها المشركون ـ في مواقعكم الشركيَّة، يقترب منكم العذابُ شيئاً فشيئاً، على ما تمارسونه من شرك وكفر وجرائم، ففرُّوا من هذه المواقع قبل أن يفاجئكم العذاب المهلك الشامل؛ إنِّي لكم مُخوِّفٌ، بيِّنُ الرسالة بالحجَّة الظاهرة، والمعجزة الباهرة، والبرهان القاطع.

٥١ ـ وحِّدوا الله، ولا تُشركوا به شيئاً؛ إني لكم نذيرٌ مُرسلٌ من الله مُبيِّن في إنذاري وكُلِّ دعوتي، بعد تأدية الوظائف السابقة لي من تبليغ، وبيانٍ، وإقناعٍ، وتبشير.

كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٖ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٥٥﴾ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ ﴿٥٨﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبٗا مِّثۡلَ ذَنُوبِ أَصۡحَٰبِهِمۡ فَلَا يَسۡتَعۡجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن يَوۡمِهِمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾

سُورَةُ الطُّورِ

(مكية — آياتها ٤٩ — ترتيبها ٥٢)

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَٰبٖ مَّسۡطُورٖ ﴿٢﴾ فِي رَقّٖ مَّنشُورٖ ﴿٣﴾ وَٱلۡبَيۡتِ ٱلۡمَعۡمُورِ ﴿٤﴾ وَٱلسَّقۡفِ ٱلۡمَرۡفُوعِ ﴿٥﴾ وَٱلۡبَحۡرِ ٱلۡمَسۡجُورِ ﴿٦﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٞ ﴿٧﴾ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٖ ﴿٨﴾ يَوۡمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوۡرٗا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ ٱلۡجِبَالُ سَيۡرٗا ﴿١٠﴾ فَوَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي خَوۡضٖ يَلۡعَبُونَ ﴿١٢﴾ يَوۡمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾

٥٢ ـ كما كذَّبك كُبراء كفار قومِكَ ـ يا رسول الله ـ وقالوا: ساحرٌ أو مجنون، كذلك ما أتى الذين من قبل كفار مكة والأمم الخالية من رسول يدعوهم إلى الإيمان والطاعة إلا قالوا: ساحرٌ أو مجنون.

٥٣ ـ أأوصىٰ بعضُهم بعضاً بالتكذيب، وتواطؤوا عليه؟ إنهم لم يتواصَوْا بهذا القول؛ لأنهم لم يتلاقوا في زمانٍ واحد، بل جمعتهم على ذلك علَّةٌ نفسيَّة واحدة، وهي: الطغيان، وهو الحامل لهم على رفض دعوة الحقّ الربانيَّة المؤيَّدة بالبراهين القواطع.

٥٤ ـ فانصرف ـ يا رسول الله ـ عن دعوة هؤلاء المستكبرين المعاندين، فلا لَوْمَ عليك، فقد أدَّيْتَ الرسالة، وبَذَلت المجهود، وما قصَّرت فيما أُمرتَ به.

٥٥ ـ ووجِّه تذكيرك للَّذين تطمع أن ينفعهم تذكيرك، فإنَّ التذكير ينفع الذين لديهم استعدادٌ داخليٌّ لأن يؤمنوا مُستقبلاً عن طريق إرادتهم الحرة، ولم يصلوا إلى دركةٍ ميؤوس منها.

٥٦ ـ وما خَلَقتُ الجنَّ والإنسَ في الحياة الدنيا مُمتَحنين مُختَبرين، إلا لآمرهم أن يُوحِّدوني، وأدعوهم إلى عبادتي وحدي دون سواي.

٥٧ ـ ما أُريد منهم أن يُقدِّموا لي رزقاً، ولا أن يُقدِّموا لي طعاماً، كما يتوهَّم المشركون، إذ يقدِّمون القرابين والأطعمة لشركائهم.

٥٨ ـ إنَّ الله ـ وحده ـ هو الرزَّاق لجميع خلقه، القويُّ الشديد، المُقْتَدر البليغ القوة والقدرة.

٥٩ ـ فإنَّ للذين ظلموا من كفار مكة مقْداراً من العذاب المُعجَّل في الدنيا مُمَاثلاً لمقادير العذاب التي عُذِّب بها أصحابكم المُمَاثلون لكم في الظلم من الأمم السالفة، يذوقون آلامه، ويكونون به هالكين، يشبه صبَّ ذَنوبٍ من ماءٍ حميم يغلي غلياناً شديداً على المعذَّب، فيذوق آلامه الشديدة لمدّةٍ ليست طويلة، ويَعْقُبه موتُه، ويكون له بعد الموت مثل ما لسائر الكافرين. فانتظروا هذا العذاب الآتي لا مَحَالة، ولا تستعجلوا نزوله مُستهينين به.

٦٠ ـ فَهَلاكٌ وعذابٌ شديدٌ للَّذين يموتون وهم كفار، من يوم القيامة الذي يُوعدون فيه بنزول العذاب الشديد الذي يكونون خالدين فيه.

سُورَةُ الطُّورِ

١ ـ ٦ ـ أقسم الله تعالى بجبل الطُّور الذي كلَّم الله سبحانه موسى عليه، وبكتابٍ مكتوبٍ أسطراً في جلْدٍ رقيق يُكتب عليه، مبسوطٍ غير مطويٍّ، وهو التوراة قبل التحريفات التي أدخلها اليهود، وبالبيت المعمور في السماء السابعة بالملائكة الكرام الذين يطوفون به، وبالسماء المرفوعة من غير عَمَد، وبالبحر الممتلىء ماءً وعجائب من عجائب الخلق.

٧، ٨ ـ إنَّ جزاء ربِّك ـ يا رسول الله ـ بالعذاب لمُستحقِّيه سيقع لا مَحَالة، لا يُوجد دافعٌ ما يدفعه.

٩، ١٠ ـ تقعُ بدايات العذاب يوم تتحرَّكُ السماء حركة تشبه حركة الدَّوامة في البحر، وتختلف أجزاؤها بعضها من بعض، وتَضْطَرب، وتزول الجبال عن أماكنها، تمهيداً لبثِّها وتفتيتها، وجَعْلِ الأرض سطحاً مستوياً.

١١، ١٢ ـ فَشِدَّةٌ وهلاكٌ وعذابٌ شديدٌ يوم القيامة للمُكذِّبين بالبعث واليوم الآخر، الذين يخوضون في تصرُّفاتهم في الحياة الدنيا على غير هُدى، كَمَنْ يخوض في الماء فيعكِّره بالطين الراسب في القاع، فيفسد صفاء الماء، وهم في خوضهم على غير هدى يلعبون فلا يعملون أعمالاً لها نتائج نافعة، بل نتائجها ضارَّة لهم.

١٣، ١٤ ـ يوم يُدفَعون إلى أبواب نار جهنَّم لقذفهم بها دفعاً بعنف وجَفْوة، حتى إذا دَنَوْا من أبواب جهنَّم، قال لهم خَزَنتها توبيخاً لهم: هذه النَّار التي كنتم تُكذِّبون بها في الدنيا.

أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾ فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾



١٥ ـ أَفَسِحرٌ ما تُشاهدونه اليوم من العذاب، أم أنتم عُمْيٌ لا تبصرون كما كنتم عُمياً في الدنيا؟

١٦ ـ ذوقوا حرَّ النَّار، وقاسوا شدَّتها، فاصبروا على العذاب أو لا تصبروا عليه، سواءٌ عليكم الصبر والجزع، ما تُجْزَوْن إلا مطابق ما كنتم تعملون من الكفر والتكذيب في الدنيا.

١٧، ١٨ ـ إنَّ المتَّقين يقيمون دواماً في جنَّاتٍ تحتوي على أشجار وثمار وزروع وأنهار وقصور، وفي نعيم محيط بهم، مُنعَّمين فرحين مسرورين بما آتاهم ربُّهم من الخير والكرامة، يتفكَّهون بأصناف الملاذّ من مآكل ومشارب وملابس ومساكن ومناكح وغير ذلك، وتجاوز عن خطايا كثيرة قد ارتكبها بعضهم، ووقاهم ربُّهم ما كانوا يستحقُّونه من عذاب النار.

١٩ ـ يقال لهم: كُلُوا أنواع وأصناف مأكولات طيِّبات، واشربوا أنواع وأصناف مشروبات لذيذات أكلاً وشرباً سائغاً لذيذاً مأمون العاقبة من التُّخمة والسَّقَم؛ جزاءً بسبب ما كنتم تعملون في الدنيا من أعمال صالحة اعتقاديَّة وخُلقيَّة ونفسيَّة وسُلوكيَّة.

٢٠ ـ جالسين بتمكُّن على مَضْجع ذي قوائم أربعة مرفوعة عن الأرض، موضوعة على صفٍّ وخطٍّ مسْتوٍ، يُشاهد المتَّكئون بعضهم بعضاً، ويتحادثون، وهم سُعداء بما يُنعَّمون به، وزوَّجناهم بنساء بيض كبار الأعين حِسَانها.

٢١ ـ والذين آمنوا وعملوا بإيمانهم صالحات استحقُّوا بها درجات مُرتفعاتٍ في الجنة، واتَّبعتهم ذُرِّيَّتهم بإيمانٍ صحيح مقبول استحقُّوا به دخول الجنة، ولو بعد مُجازاتهم ببعض العقوبات، ألحقنا بهم ذُرِّيَّتهم المؤمنين في الجنَّة؛ ليُشاركوهم في منازلهم الواسعة، وإن لم يبلغوا بأعمالهم درجات آبائهم تكرمةً لآبائهم؛ لتقرَّ بذلك أعينهم، وما نقصنا الآباء بهذا الإلحاق من ثواب أعمالهم شيئاً، بل أعطيناهم ثوابَهم كاملاً. كلُّ امرىءٍ اجتاز رحلة امتحانِهِ في الحياة الدنيا، وكان مؤمناً قد عمل فيها أعمالاً يُجازى عليها بالعقاب، فإنَّه يوم القيامة يُحبس حتى يقضيَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ بشأنه، عقاباً أو غفراناً، فإذا عُوقب أو غَفَرَ اللَّهُ له بحكمته، أُفرج عنه، وأُدخل الجنة بفضل الله عزَّ وجلّ، فلا تتَّكلوا ـ أيها الأبناء ـ على صلاح الآباء، واعلموا أنكم مرهونون بأعمالكم، لا يحمل ذنبكم أحد.

٢٢ ـ وتابعنا إيتاءَهم زيادة عمَّا كان لهم بفاكهة، وممَّا يشتهون من أنواع اللحوم.

٢٣ ـ يتجاذبون في الجنَّة كأساً من الخمر، لا باطل فيها ولا رفَثَ ولا تَخاصُم، ولا يكون فيها ما يُؤثِّمهم، ولا يَتَّهم شاربوها بعضهم بعضاً بالإثم.

٢٤ ـ ويدور عليهم غلمانٌ مَمْلوكون لهم، مُعدُّون لخدمتهم، كأنَّهم في الحُسْن والبياض والصَّفاء لؤلؤٌ مخزون مَصُونٌ لم تعبث به أيدي العابثين، ولم يتعرَّض لما يُغيِّر صَفاءَه ونقاءَه.

٢٥ ـ ٢٧ ـ وأقبل بعضُ أهلِ الجنة، يسأل بعضهم بعضاً في مجلس محادثةٍ بينهم. قالوا: إنَّا كنَّا قبل هذا النعيم في أهلنا في الحياة الدنيا، خائفين دائمي الحَذَر من أن نُجازى على خطايانا التي ارتكبناها، وأن لا يشملنا غفران الله لها، فأنعم الله علينا بالنعمة الكبيرة بالمغفرة، وحَمَانا وصَرَف عنا عذابَ النار النافذة في المسام نفوذ الريح الحارة.

٢٨ ـ إنا كنَّا من قبل في الحياة الدنيا، نُخلص له الدعاء، فاستجاب لنا، فمنَّ علينا ووقانا عذاب السَّموم؛ إنَّه هو ذو العطاء الواسع، والفضل الجزيل، والرحمة الدائمة.

٢٩ ـ فَذكِّر ـ يا رسول الله ـ بالقرآن الذين لم يصلوا إلى حالة ميئوسٍ معها استجابتهم لدعوة الحق، فما أنتَ بسبب إنعام الله عليك بالنبوَّة والرسالة ـ كما يقول كفار مكة ـ بكاهن: تُوهم أنك تعلم الغيبَ من غير وحي، ولا مجنون: لا يعقل ما يقول.

٣٠ ـ بل، أيقول هؤلاء المشركون: هو شاعر من الشعراء نصبر عليه زمناً، وننتظر أن تنزل به حوادث الدهر المُميتة وصروفه المُهلكة، فيموت ويهلك كما هلك من كان قبله من الشعراء؟

٣١ ـ قل لهم ـ يا رسول الله ـ: انتظروا بصبرِ موتي، فإني معكم منتظرٌ بصبرٍ حتى يأتي أمر الله فيكم، وينصرني عليكم.

أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾ وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾

سُورَةُ النَّجْمِ

٣٢ - بل، أتأمر هؤلاء المُكذِّبين عقولهم الراجحة بهذا التناقض في القول، وهو قولهم: كاهنٌ وشاعر مع قولهم مجنون؟ بل هم قومٌ مُتجاوزون الحدَّ في الطغيان والكفر.

٣٣ - بل، أيقول هؤلاء المشركون: اختلَق محمدٌ القرآن من تلقاء نفسه، وادَّعى أنه كلام الله؟ ليس الأمر كما زعموا، بل عِلَّتهم النفسيَّة أنهم لا يريدون أن يؤمنوا؛ لأن الإيمان يمنعهم من اتِّباع أهوائهم وشهواتهم ورغباتهم من متاع الحياة الدنيا.

٣٤ - فَلْيأتوا بحديث مثلِ القرآن في نظْمه وحُسْنه وبيانه، إنْ كانوا صادقين - في زعمهم - أنَّ محمداً تقوَّله على ربِّه من قِبَل نفسه.

٣٥ - بل، أتحوَّل الذين ينكرون وجود خالقٍ لهذا الكون من العَدَم العامِّ المطلق دون مُوجِدٍ، فصاروا بشراً أحياء بلا خالق؟! بل أهم حين كانوا عَدَماً خلقوا أنفسهم، فحوَّلوها من العَدَم إلى الوجود؟

٣٦ - بل، أيدَّعون أنهم خَلقوا السَّمواتِ والأرض؟ ليس الأمر كذلك، بل لا يُريدون أن يوقنوا بتوحيد الله وقدرته على البعث مهما اقْتضت الحُجَجُ والبراهين العقليّة أن يوقنوا به.

٣٧ - بل، استغْنَوْا عن الإيمان بوحدانيَّة الله؛ لأنَّ خزائن ربك - أيها العاقل الرشيد - من كلِّ ما يحتاجون إليه في حياتهم هي عندهم وفي متناول أيديهم، بل، أهم الأرباب المُتسلِّطون القاهرون، فلا يكونون تحت أمرٍ ولا نهيٍ، ويفعلون ما يشاؤون؟

٣٨ - بل، ألهم مَصعَدٌ يصعدون فيه حتى يصلوا إلى مقاعد استراق السمع في السماء، وبه يعلمون أحداثاً مُستقبليَّةً يفتنون بها من يتأثَّر بهم من الناس؟ فَلْيأتِ مُسْتمعهم - إن ادعوا ذلك - بحُجَّةٍ بيِّنةٍ تُثبت صحَّة استماعه.

٣٩ - بل، أله سبحانه البنات، وهم الملائكة - كما تزعمون افتراءً عليه -، ولكم البنون كما تُحبُّون؟

٤٠ - بل، أتسألُ - يا رسول الله - هؤلاء المشركين أجراً مادياً أو معنوياً على ما جئتهم به من النبوَّة، فهم في جهد ومشقَّة من ذلك المَغْرم الذي سألتهم، فيصدُّون من أجل استثقاله عن الاستجابة لك، والإيمان برسالتك، وتصديقك فيما تُبلِّغهم عن ربِّك؟

٤١ - بل، أعندهم تدبيرُ الغيْب المُستقبلي، فهم يُقدِّرون ويُدبِّرون ما يشاؤون لأنفسهم آمنين، ويكتبون ما قدَّروا لها غير خائفين من أن يأتي قدر الله وقضاؤه على ما يكرهون، ومنه هلاكهم وتعذيبهم على كفرهم؟

٤٢ - بل، أيريدون تدبيراً خفياً بك - يا رسول الله -؛ ليُهلكوك، فليعلموا أنهم بسبب كفرهم هم المَجْزيُّون بكَيْدهم، الذي ينزل بهم أشدَّ ما يكرهون، ويُسلِّم الله دينه ورسوله والمؤمنين وينصرهم عليهم.

٤٣، ٤٤ - بل، ألهم إلهٌ غير الله يرزقهم وينصرهم ويمنحهم ما يريدون؟ تنزَّه الله عمَّا يشركون في ربوبيَّته وإلهيَّته. وإنْ يَرَوْا جرماً عظيماً ساقطاً عليهم من السماء لتعذيبهم وإهلاكهم، يقولوا لمعاندتهم: هذا سَحَابٌ مُتراكم بعضُه على بعض؛ لِسَقْينا، ولم يخطر في بالهم أنه عذابٌ من الله عزَّ وجل، هابطٌ عليهم، حتى يذوقوا عذاب الله المعجَّل الأليم.

٤٥، ٤٦ - فدع - يا رسول الله - هؤلاء المشركين حتى يستقبلوا يومهم الذي قضى الله أن يموتوا فيه. يومَ لا ينفعهم ولا يصرف عنهم كَيْدُهم شيئاً، ولا يمنعهم من العذاب مانع.

٤٧ - وإنَّ للذين ظلموا ظلماً عظيماً من دَرَكة الكفر عذاباً يَلْقَوْنه في الدنيا، ويحسُّون آلامه قبل موتهم، وهو دون عذابهم في الآخرة، ولكنَّ أكثرهم لا يعلمون أنَّ ما نزل بهم من العذاب هو عقوبةٌ لهم، بل يتصوَّرون أنه من عوارض الدهر الطبيعية.

٤٨، ٤٩ - واصبر - يا رسول الله - مُسْتَسْلماً لحُكْم ربِّك إلى أن يقع بهم العذاب الذي حكمنا عليهم به، فإنَّك بمرأى منا وحفظنا، فلا يصلون إليك بمكروه، وسبِّح ربَّك تسبيحاً مقْترناً ومتلبِّساً بحمده ومُصَاحباً له حين تقوم من مجلسك، أو من منامك، أو حين تقوم إلى الصَّلاة، ومن الليل فسبِّحه، وعند السَّحر في وقْت إدبار النجوم. قالتسبيح هو الذي يساعد على التحلِّي بالصبر، ويعالج ضيق النفس والكرب الذي يضغط عليها.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴿١١﴾ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ﴿١٨﴾ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلْإِنسَانِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ ۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ ﴿٢٦﴾

سورة النجم

١، ٢ ـ أقسم الله تعالى بالنَّجم المضيء اللامع في السماء إذا سقط مُنقضّاً من عُلْوٍ إلى سُفْل، ما ضاع صاحبُكم محمد ﷺ دون قَصْد ولا تعمُّد عن طريقِ الهدى، وما تنكَّب طريق الرُّشد عن قَصْد وتعمُّد، اتِّباعاً لهوى نفسه، وهو مَنْ تعرفون ـ لطول صحبتكم له ـ اتِّصافه بغاية الهُدى والرَّشاد.

٣ ـ ٧ ـ ولا ينطق بما ينطق به صادراً عن توجيه الهوى وتأثيره، ما القرآن إلا وحيٌ من الله يُوحَى إليه، علَّمه هذا الوحي مَلَكٌ شديدُ القُوى، ذو إحكام وإتقان وممارسةٍ وخبرة في التعليم، تعتمد على المعالجة الحكيمة، واستخدام مختلف الوسائل التعليميَّة، فوصل الرسول محمد ﷺ إلى مستوى الاستواء الكامل في التعلُّم، وقد رأى محمدٌ ﷺ جبريل على صورته الحقيقية، التي خلقه الله عليها، والحال أن جبريل ظاهر بالجهة العليا من السماء، عند مطلع الشمس.

٨ ـ ١٠ ـ وبعد مدَّةٍ متراخية قَرُبَ جبريل من الرسول ﷺ، فزاد في القُرب، فكان دنوُّه قَدر قوسين، بل أدنى من ذلك، فأوحىٰ الله تعالى إلى عبده جبريل ـ ملك الوحي الأمين ـ الوحيَ نفسَهُ الذي أوحاه جبريل إلى محمد خاتم النبيين.

١١ ـ ما كَذَبَ قلبُ محمد ﷺ فيما رأى بعينه ليلة المعراج.

١٢ ـ ألا تعجبون من أنفسكم ـ أيها الكافرون المكذِّبون لرسولنا ـ فيما يراه رُؤْية حقٍّ، فتجادلونه بالباطل حريصين على إنكار ما يرى، وتكذيبه فيه؟

١٣ ـ ١٥ ـ وأؤكد تأكيداً بليغاً أنَّ محمداً ﷺ رأى جبريل مرَّةً أخرى في صورته التي خُلِق عليها نازلاً من السماء نزلةً أخرى. عند شجرة نَبْق في السماء السابعة، ينتهي إليها ما يُعرَجُ به من الأرض، وينتهي إليها ما يُهْبَط به من فوقها، عند سِدرة المُنتهى جنَّة المأوى التي يصير إليها المُتَّقون، وتأوي إليها أرواح الشهداء.

١٦ ـ رأى محمدٌ ﷺ جبريلَ في النَّزلة الأخرى عند سدرة المنتهى حين كان يجلل سِدرةَ المُنتهى ويغطِّيها من نور الخَلاَّق والملائكة، ما لا يعلم وصفه إلا الله تعالى.

١٧ ـ ما اضطرب بصرُ النَّبيِّ ﷺ ولا انحرف في ذلك المقام، وفي تلك الحَضْرة المُقَدَّسة يميناً ولا شمالاً، وما زاد في الرؤية على الحقيقة شيئاً.

١٨ ـ أؤكِّد تأكيداً بليغاً أن رسول الله ﷺ رأىٰ ليلة المعراج رؤية حسيَّةً بصريَّة من آياتِ الله الكبرىٰ الدالَّة على عظمته وقدرته.

١٩، ٢٠ ـ أتفكَّرتم فرأيتم ـ أيُّها المشركون ـ هذه الأصنام التي تعبدونها من دون الله: اللات الأولى، والعُزَّى الأخرى الثانية، ومناة الأخيرة الثالثة، هل لها من القدرة والعَظَمة ـ التي وُصف بها ربُّ العزَّة ـ شيء؟!

٢١ ـ ٢٣ ـ أتجعلون لكم الذَّكَر الذي تحبُّونه، وتجعلون لله ـ بزعمكم ـ الأُنثى التي تكرهونها؟ تلك إذن قسمة جائرة، حيث جعلتم لربكم افتراءً عليه ما تكرهون لأنفسكم. ما هذه الأصنام إلا أسماء سمَّيْتمُوها آلهة أنتم وآباؤكم، وليس لها إلهيَّة في الحقيقة والواقع، ما أنزل الله بالأمر بعبادتها أي حجة يُحتجُّ بها، ما يتَّبع هؤلاء المشركون إلا الظنَّ الضعيف الذي لا تدعمه أدلة فكرية، ولا أدلة حسيَّة، ولا أدلة خبريَّة صحيحة، وما يتَّبع هؤلاء المشركون أيضاً إلا ما تهواه أنفسهم المنحرفة، وتميل إليه من مطالب وحاجات، ومتع ولذات وشهوات، ولقد جاءهم من ربِّهم البيان ـ بالكتاب المنزَّل والنبيِّ المرسل ـ أنَّ الأصنام ليست بآلهةٍ، وأنَّ العبادة لا تصلح إلا للهِ الواحد القَّهار، فأصرُّوا على باطلهم، ولم يتَّبعوا الهدى.

٢٤، ٢٥ ـ أيظنُّ الكافر أنَّ له ما يتمنَّى ويشتهي من شفاعة الأصنام، فللهِ مِلْكُ الآخرة بكلِّ ما فيها، ومِلْكُ الحياة الدنيا بكلِّ ما فيها، لا يملك أحدٌ منهما شيئاً أبداً إلا بإذنه.

٢٦ ـ ليس للإنسان ما تمنَّى، ولا تنفعه شفاعة آلهةٍ من دون الله، وعددٌ كثيرٌ من الملائكة في السموات السبع ممَّن يعبدهم هؤلاء المشركون، ويرجون شفاعتهم عند الله، لا تُغني شفاعتهم شيئاً، إلا من بعد أن يأذن الله لهم في الشفاعة، ويرضى أقوالهم فيمن شفعوا فيه.

إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنْثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ ۖ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴿٢٨﴾ فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّىٰ عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴿٣١﴾ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ ﴿٣٢﴾ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰ ﴿٣٤﴾ أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰ ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾

٢٧ ـ إنَّ الكفار الذين أنكروا البعث لَيُسَمُّون الملائكة بتسمية الأنثى، حيث قالوا: أنهم بنات الله.

٢٨ ـ وما لهم بما يقولون من علم، ما يتَّبعون دليلاً إلا الظنَّ التوهُّميَّ الباطل في تسمية الملائكة بالإناث، وإنَّ الظنَّ التوهُّمي لا يكفي في تقديم حُجَّة صحيحه.

٢٩ ـ فأعرض ـ يا رسول الله ـ عمَّن أدبر ونأى عن الاستجابة لدعوة كتاب الله، ولم يُرد إلا متاع الحياة الدنيا ولذاتها وزيناتها؛ لأنهم لا يؤمنون بالآخرة حتى يريدوها ويعملوا لها.

٣٠ ـ ذلك الذي لم يريدوا غيره هو الغاية التي انتهى إليها علمهم؛ إذْ رفضوا الإيمان بيوم الدين، وانحصر علمهم في حدود دائرة الحياة الدنيا؛ إنَّ ربَّك هو أعلمُ بمن ضلَّ عن سبيله، وهو أعلم بمن اهتدى، وسيُجازي الفريقين بأعمالهم.

٣١، ٣٢ ـ ولِلَّه ـ وحده ـ ما في السموات وما في الأرض خلقاً وتدبيراً ومِلْكاً لا لغيره، وقد خلق ما فيهما؛ ليجزيَ المسيئين في رحلة امتحانهم في الحياة الدنيا من عصاة المؤمنين والكافرين حتى أخسِّ دركاتهم بمقدار إساءاتهم، ويجزيَ المحسنين أهل المرتبة العليا من مراتب المؤمنين، فمن دونهم من المتقين والأبرار على تفاضل درجاتهم بالمثوبة الحُسْنى، وهي: الجنَّة، وهم الذين يبتعدون عن حدود كبائر الذنوب، وما عظُم قبحه من الأفعال والأقوال، إلا ما قلَّ وصغُر من الذنوب ممَّا يعمله الإنسان الحين بعد الحين، ولا يكون له عادةً ولا إقامة، فإنَّ هذه يعفو الله عنها، إنَّ ربَّك واسع المغفرة، هو أعلم بضعفكم في أصل تكوينكم تُجاه أهوائكم وشهواتكم، حين خلق أباكم آدم من التراب، وإذْ أنتم أجنَّةٌ في بطون أمهاتكم، فلا تمدحوا أنفسكم بحُسن الأعمال والبراءة من الآثام، ولا تصفوها بذلك، فأمر الحكم بطهارتكم من المعاصي، وتزكية أنفسكم ليس لكم، إنما هو لِلَّه، هو أعلم بمن برَّ وأطاع وأخلص العمل، فمن زكَّاه فحكم له بذلك، فهو الزكيُّ التقيُّ، لأنه سبحانه هو العليم بعباده، الحكيم في أحكامه.

٣٣ ـ ٣٥ ـ أنظرتَ فرأيتَ ـ يا رسول الله ـ هذا الذي أدبر وتولَّى مبتعداً مرتدّاً عن الإيمان؟ وأقبل في بداية أمره مُصْغياً متفكِّراً في دعوة الرسول، وبخل وشحَّ بعطاء من فكره ونفسه؛ لأن مضامين هذه الدعوة لم توافق هواه وشهواته ونزغاته وكبره، فاستحجر عطاؤه الفكري والنفسي، كالأرض الغليظة، والصخرة الشديدة التي لا ترشح بماء؟ أعنده علمُ الغيب فهو يرى ما غاب عنه عِياناً؟

٣٦ ـ ٣٨ ـ بل ألم يُخبَّر الخبر الهام بما في أسفار التوراة، ويُخبَّر بما في صُحُف إبراهيم الذي كمَّلَ وتمَّمَ ما أُمر به، فأدَّاه أداءً وافياً لم يَنْقُص منه شيئاً؟ ألاَّ تحمل نفسٌ آثمة ولا غير آثمة إثم نفسٍ أخرى، حتى تخلِّص هذه الثانية من إثمها، إنما تحمل الآثمةُ إثمَ ذنبها الذي فعلته بالمباشرة أو التسبُّب فتُعاقب عليه.

٣٩ ـ ٤١ ـ وأنْ ليس للإنسان من حقٍّ أعطاه الله له بفضله إلا ما كسبه من أعمال صالحة، وهذا لا يمنع من أن يصله شيءٌ بفضل الله دون سعي منه، كدعاء منْ يستجيب الله دعاءه له، أو شفاعة مَنْ يأذن الله له بالشفاعة، وأنَّ سعيه سوف يراه يوم الدين في كتاب عمله، ثم بعْد المحاسبة وفصل القضاء يُجزى جزاء سعيه بالعمل الصالح في الحياة الدنيا الجزاء الأتمَّ الأكمل دون نقص مع زيادة من فضل الله.

٤٢ ـ وأنَّ إلى ربِّك ـ يا رسول الله ـ مُنتهى الخلق ومصيرهم إليه في الآخرة، وهو مُجازيهم بأعمالهم.

٤٣ ـ وأنه سبحانه هو ـ وحده ـ أضْحَك وأبكى، فخلق الأسباب التي تسُرُّ، ومشاعر الفرح والسرور، وخلق الأسباب التي تُؤلم، ومشاعر الحزن والألم، وهو القادر على إيجاد الضِّدَّين في محلٍّ واحد.

٤٤ ـ وأنه سبحانه هو وحده أمات في الدنيا، وأحيا للبعث، فهو المتفرِّد سبحانه بالإحياء والإماتة.

وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ ٱلْءَازِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩ ﴿٦٢﴾

سُورَةُ القَمَر

ترتيبها ٥٤ — آياتها ٥٥

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴿٥﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ۘ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾

٤٥ ـ ٤٧ ـ وأنه سبحانه خَلق الزَّوجَيْن: الذكر والأنثى من كلِّ حيوان، من نطفةٍ إذا تُصَبُّ في الرَّحِم، وأنَّ عليه سبحانه إحداث الخَلق الثاني بعد الموت؛ التي تبدأ بالبعث إلى الحياة الأخرى؛ للحساب، وفصل القضاء، وتنفيذ الجزاء.

٤٨ ـ وأنه سبحانه هو ـ وحده ـ أغنى الناس بالأموال، وجعل لهم ما يَقْتنونه ويدَّخرونه ممَّا يحتاجون إليه مستقبلاً.

٤٩ ـ وأنَّه هو ربُّ معبودهم الشِّعرى، وهو نجمٌ مُضيء، كان بعض العرب في الجاهلية يعبدونه من دون الله. وتخصيص «الشِّعرى» من دون سائر النجوم مع أنَّ الله سبحانه هو ربُّها جميعاً ما عُلم منها وما لم يُعلم، للتنبيه على أنَّ عبادة بعض العرب للشِّعرى عبادة باطلةٌ؛ لأنَّ الله ربُّها، وليس لها من الربوبيَّة شيء. ويُقاس على الشِّعرى سائر النجوم والكواكب، ولا سيما ما عُبِد منها من دون الله.

٥٠ ـ ٥٤ ـ وأنه سبحانه أهلك عاداً الأولى، قومَ هودٍ بريح صرصر، وأهلك ثمود، قومَ صالح بالصَّيْحة، فما أبقى منهم أحداً، وأهلك قوم نوح بالغرق من قبل إهلاكه عاداً وثمودَ؛ إنَّهم كانوا هم أعظم كفراً وأشد تمرُّداً من عاد وثمود، لطول دعوة نوح إيَّاهم، وعتوِّهم على الله بالمعصية والتكذيب، وقرىٰ قوم لوط رفعها جبريل إلى السماء بأهلها المجرمين، ثم أهوى بها إلى الأرض، فنزل عليها من فوقها شيء عظيم مهولٌ سترها كلَّها، فدمَّرها تدميراً شاملاً بالحجارة المنضودة المُسوَّمة.

٥٥ ـ فبأيِّ أفعال ربِّك العجيبة، وشؤونه الغريبة تَشُكُّ أيها الإنسان الكافر بربِّك، المكذِّب لرسوله؟!!

٥٦ ـ هذا الرسول محمدٌ ﷺ بالنسبة إلى الكفرة المكذِّبين نذيرٌ بالحقِّ، من جنس النُّذر الأولى، رسلاً كانوا، أو كتباً ربَّانية، أو إنذارات جاءت في الكتب السابقة، أو على ألسنة الرسل.

٥٧، ٥٨ ـ قَرُبَتِ الساعة القريبة، ليس للساعة من غير الله وإعلامٍ منه نفسٌ كاشفة وقت حدوثها.

٥٩ ـ ٦٢ ـ أرفضتم ـ أيها المشركون ـ الحقَّ الجليَّ الذي حدَّثناكم به في القرآن، وأعلنتم إنكاركم له، فصرتم تستبعدونه وتُوهمون أنه باطلٌ بأسلوب التعجُّب، وتَضْحكون استهزاء، ولا تبكون ممَّا فيه من الوعيد، وأنتم عنه لاهون غافلون، مُتحيِّرون مُتكبِّرون، جامدون لا تتأثَّرون؟! إنَّ الذي يثير التعجُّب والضحك حقاً هو حالكم؛ إذ تعجبون وتضحكون من آيات القرآن المشتملة على حقائق وإقناعات وإرشادات، وبشارات وإنذارات فيها الخير العظيم لكم في دنياكم وأُخراكم. فاسْجُدوا ـ أيها الناس ـ لله، وأخلصوا العبادة له وحده.

سُورَةُ القَمَر

١ ـ دَنَا وقتُ انتهاء ظروف الحياة الدنيا وأنظمتها، التي يكون بعدها أحداث يوم القيامة، وانشقَّ القمر فِلْقَتَيْن؛ معجزةً كبرى للرسول ﷺ، وَقَعت بحضور المشركين، تدلُّ على صدق الرسول فيما يُخبر به عن الله تعالى، ومنه الإخبار باقتراب الساعة، وبعثِ الموتى إلى الحياة الآخرة التي يكون فيها الحساب، وفصل القضاء، وتنفيذ الجزاء.

٢ ـ وإن يَرَ الكفار آيَةً عظيمةً من آيات الله تدلُّ على صدق رسول الله ﷺ، يُعرضوا عن الإيمان بها، ولا يُصدِّقوا بدلالتها، ويقولوا: هذه الآيات سحرٌ يأتي به محمد بصفة متكررة دائمة. وفي ادعائهم أنه سحرٌ مُستمرٌ استمراراً زمنياً تعارضٌ وتهافت؛ وذلك لأنَّ من شأن السحر أن لا يكون دائماً، ومن شأن الأمور الدائمة أن لا تكون سحراً، أما أن يكون الشيء الواحد سحراً ومُستمراً معاً، فهو جمع بين أمرين متضادَّين لا يجتمعان.

٣ ـ أعرضوا عن آية انشقاق القمر ودلالتها، وكذَّبوا النَّبيَّ ﷺ، ببلاغاته عن ربِّه عزَّ وجلّ، فلم يؤمنوا بالقرآن، ورفضوا اتِّباع الرسول فيما جاءهم به، واتَّبعوا أهواءهم في القضايا الاعتقاديَّة والفكريَّة والنفسيَّة والسلوكيَّة، فهم في أمر مختلط غير متجانس ولا متوافق، وإنَّ تكذيبهم واتِّباعهم لأهوائهم لا يُغيِّرُ من أنظمة الكون وقوانينه المُستقرَّة الثابتة شيئاً، فإنهم لا يضرُّون إلا أنفسهم، ولا يستطيعون أن يمنعوا عن أنفسهم عقاب الله، ولا أن يمنعوا ظهور دين الله، ولا أن يظفروا بالانتصار أخيراً على رسول الله والذين آمنوا معه.

٤ ـ وأؤكد لكم أنه جاء كبراء كفار قريش من أخبار الأمم الماضية المكذِّبة في القرآن، ما فيه ازدجار وكفٌّ لردعهم عن كفرهم وضلالهم.

٥ ـ إيرادُ أنباء الأوَّلين وقَصصهم وما جَرى لهم من عقوبات ربانيَّة أهلكتهم إهلاكاً عاماً، حكمةٌ بالغةٌ غاية ما يمكن اتِّخاذه من وسائل إقناعيَّةٍ تربويَّةٍ ذات تأثير في النفوس المُستعدَّة للتأثُّر بالمُخيفات، فما تكفي وما تنفع هؤلاء الكفار هذه النُّذر مهما كان إرهابها وتخويفها.

٦ ـ فأدِر وَجْهَكَ ـ يا رسول الله ـ عن هؤلاء الذين مَرَدوا على الكفر، ولم تُغنهم النُّذر، وانصرف إلى دعوة غيرهم من الذين لم يصلوا إلى حالة ميؤوس منها كحالتهم، واذكر يوم ينفخ إسرافيل في «القرن» إلى شيء منكر فظيع لم يَرَوْا مثله، فينكرونه استعظاماً له.

خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾ ۞ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾

٧، ٨ ـ ذليلةً خاضعةً أبصارهم عند رؤية العذاب، يخرجون من القبور، كأنَّهم جرادٌ مُنْتَشر في كثرتهم وتجمُّعهم وتتابعهم وتصادم بعضهم في بعض، حيارى فزعين، مُسْرعين مادِّي أعناقهم، مُقْبلين إلى صوت الداعي إسرافيل. يقول الكافرون: هذا يوم صَعْبٌ شديد.

٩ ـ كَذَّبت قبل كبراء مُشركي مكة، قوم نوح، فكذَّبوا عبدنا نوحاً المتحقِّق بكمال العبوديَّة الصادقة لنا، وقالوا: هذا رجلٌ مجنون، ومُنِعَ من متابعة دعوته إلى ربِّه، وانتُهر بعنف وشدَّةٍ مصحوب بتهديد. والزَّاجرون له كُبراء قومه وأصحاب النفوذ والسلطان فيهم

١٠، ١١ ـ فدعا نوحٌ ربَّه بعد صَبْر طويل على قومه، وقال: إني مغلوب في دعوتي لقومي؛ إذْ زجرني كبراء قومي بشدَّةٍ عن الاستمرار في دعوتي، فانتقم لي منهم؛ فأجبنا دعاءه، ففتحنا أبوابَ السماء بماءٍ مُنْصَب انصباباً شديداً على مواقعها من الأرض.

١٢ ـ وجعلنا الأرض كلها عيوناً متدفقة مُنْبعثة بالماء بقوّة، فاجتمع ماءُ السماء المنهمر وماءُ الأرض المنفجر على أمر قد حُدِّد مقدار كل شيء فيه بالتقدير الدقيق الحكيم الشامل لكلِّ الدقائق والتفاصيل، وتمَّ إغراق الذين كفروا بنوح في الزمن المحدَّد له، وبالطريقة المحدَّدة له في سابق التقدير.

١٣ ـ وحملنا نوحاً على سفينة ذات ألواح ومسامير، تُشَدُّ بها ألواح الخشب.

١٤ ـ تجري السفينة محفوفةً بأكمل الحفظ والرعاية والحماية من أيِّ شيءٍ يضرُّها ويؤذيها، فعلنا ذلك من إنجاء نوح، وإغراق قومه، انتصاراً لنوح عليه السلام، وثواباً معجلاً له في الدنيا؛ لأنه كان كُفِر به وجُحِد أمره من قبل قومه.

١٥، ١٦ ـ وأؤكِّد لكم أننا أبقينا سفينة نوح، آيةً باقيةً زمناً طويلاً من بعده؛ لتكون علامة على حادثة الطوفان، وشاهداً على عقاب الله للمكذِّبين، فهل من مُتَّعظ مُتذكِّر معتبر خائف مثل عقوبتهم؟ فعلى أية حال كان عذابي لقوم نوح؟ وعلى أية حال كانت نُذُري لهم؟ لقد كان العذاب شديداً مخيفاً، وكانت النذر التي أنذر الله بها قوم نوح على لسان رسولهم نُذُراً صادقة.

١٧ ـ والله لقد سهَّلنا لفظ القرآن للتلاوة والحفظ، ومعانيه للفهم والتدبُّر، لمن أراد أن يتذكَّر ويعتبر، فهل من متَّعظ به؟

وقد وردت هذه الجملة القسميَّة أربع مرات: في آخر قصة إهلاك قوم نوح، وعاد قوم هود، وثمود قوم صالح، وقوم لوط، حثّاً على تدبُّر القرآن وتذكُّره، وتنبيهاً على أن هؤلاء الأقوام لو تلقَّوْا ما أُنزل إليهم من ربِّهم عن طريق رسلهم، وتدبَّروه، ووضعوه في ذاكرتهم، والتزموا أوامر الله لهم، ما عرَّضوا أنفسهم للهلاك الشامل المعجَّل في الدنيا، وللعذاب الخالد المؤجل إلى يوم الدين.

١٨ ـ كذَّبت عاد رسولهم هوداً فعاقبناهم، فعلى أيِّ حال كان عذابي وإنذاري لهم بالعذاب قبل وقوعه؟

١٩، ٢٠ ـ إنا أرسلنا عليهم ريحاً شديدة الهبوب والبرودة، في يوم جَهْد وضُرٍّ وعذابٍ قوي مُتكرِّر، تقلعهم الريح من مواضعهم على الأرض، ثم تطرحهم على الأرض تبدو أسافلهم قد بليَتْ بصورٍ قبيحةٍ تشمئزُّ منها النفوس، وتنفر منها العيون، كأنهم أصول نخل منقلع من أرضه، وبانقلاعه تظهر أسافله ذوات المنظر القبيح.

٢١ ـ فعلى أيِّ حال كان عذابي لقوم هود؟ وإنذاري لمن كذَّب رسلي ولم يؤمن بهم؟

٢٢ ـ والله لقد سهَّلنا لفظ القرآن للتلاوة والحفظ، ومعانيه للفهم والتدبُّر، لمن أراد أن يتذكَّر ويعتبر، فهل من متَّعظ به؟

٢٣، ٢٤ ـ كذَّبت ثمود رسولهم صالحاً بالإنذارات المُتعدِّدات التي أنذرهم بها، بعد دعوتهم إلى الإيمان والإسلام والطاعة، فقالوا: أنتَّبع بشراً واحداً من جنس البشر، ونحن جماعة كثيرون؟ إنا إذا اتَّبعناه لفي خطأ وذهاب عن الصواب في مسيرتنا وجنون في عقولنا.

٢٥ ـ أأُنزل الكتاب الربَّاني عليه من بيننا، لا عذر له فيما ادَّعاه، بل هو كذَّاب بَطِر متكبرٌ، يريد أن يتعظَّم علينا بادعائه النبوَّة؟

٢٦، ٢٧ ـ سيعلمون حين ينزل العذاب بهم في الدنيا مَن الكذَّاب المُتكبِّر؟ صالح أم مَنْ كذَّبه؟ إنا باعثو الناقة ومُخرجوها من الصخرة؛ محنةً واختباراً لهم، فانتظرهم ـ يا صالح ـ واجعلهم تحت مراقبتك وملاحظتك لما سيكون منهم، واصطبر بتكلُّف ومجاهدةٍ لنفسك على أذاهم حتى يأتي أمر الله.

وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾

٢٨ ـ وأخبرهم بهذا الخبر الهام ذي الشأن الشديد عليهم، أنَّ الماء قِسْمةٌ بين الناقة وبينهم: لها يومٌ لا يشاركونها فيه، ولهم يومٌ لا تشاركهم فيه، كلُّ نصيبٍ من الماء يحضرهُ مَنْ كانت نَوْبته.

٢٩، ٣٠ ـ فنادى كفار ثمود صاحبهم المشارك لهم في سفاهتهم، مُحرِّضين إيَّاه على التَّخلُّص من الناقة، فأسرع عقب مناداة قومه، فتناول سلاحَهُ بخفَّة، وأقبل يمشي على رؤوس أصابع رِجْلَيْه، مادّاً يدَيْه بسلاحه إلى الأعلى، وأقبل بجُرأةٍ إلى الناقة، فقطع أولاً أحد قوائمها حتى سقطت على الأرض، وعقرها ثانياً فذبحها. فعاقبْتُهم، فعلى أيِّ حالةٍ كان عقابي لهم، وإنذاري؟

٣١ ـ إنا أرسلنا عليهم صيْحةً واحدةً، صاحها بهم جبريل، فأهلَكتهم في مكان تجمُّعهم، ولم تسمح لهم بأن يتفرَّقوا، فكانوا كأكوام النَّبْتِ اليابس المتكسِّر بعضُه فوق بعض في حظيرةِ صاحب دوابٍّ، تدوسه الدوابُّ بأرجلها، وتُلقي ما تُلقي عليه من فضلاتها.

٣٢ ـ والله لقد سهَّلنا القرآن للعظة والاعتبار، فهل من مُتَّعظ به؟

٣٣، ٣٤ ـ كذَّبت قومُ لوط بإنذارات رسولهم المعجَّلة في الحياة الدنيا، والمؤجَّلة إلى يوم الدين. إنا أرسلنا عليهم ريحاً شديدة بلغت من شدَّتها أن تحمل الأحجار الصغيرة من الأرض، وترميها في الجوِّ، ثم تهوي بها على من نريد تعذيبهم، إلا لوطاً وابنتَيْه، نَجَّيْناهم من العذابِ في آخر الليل.

٣٥ ـ نجيَّنْا آل لوط نجاةً نعمةً منا عليهم، كما أنعمنا على آلِ لوط، كذلك نَجزي من شكر نعمتنا بالإيمان والطاعة.

٣٦ ـ ونؤكِّد تأكيداً بليغاً أنَّ لوطاً خوَّف قومَه بأننا سنبطش بهم بطشة انتقام كبرى، إذا لم يقلعوا عما هم فيه من كفر وفُحش، فكذَّبوا بالإنذارات التي كرَّرها عليهم لوط.

٣٧ ـ ونؤكِّد أيضاً تأكيداً بليغاً أنهم طلبوا منه أن يُسَلِّم إليهم أضيافه؛ ليفعلوا الفاحشة بهم، فصيَّرنا أعينهم كسائر الوجه، لا يُرى لهم شقٌّ، فذوقوا عذابي وما أنذركم به لوط من العذاب.

٣٨، ٣٩ ـ ونقسم مؤكِّدين أنه جاءهم في وقت الصبح عذابٌ دائم استقرَّ فيهم، حتى أفضى بهم إلى عذاب الآخرة، فتجرَّعوا عذابي وما أنذركم به لوط عليه السلام.

٤٠ ـ واللّهِ لقد سهَّلنا القرآن للعظة والاعتبار، فهل من مُتَّعظ به؟!

٤١ ـ ونقسم مؤكِّدين أنه جاء أتباعَ فرعون وقومَهُ إنذارُنا بالعقوبات المُعجَّلات في الدنيا، والمؤجَّلات إلى يوم الدين.

٤٢ ـ كذَّب فرعون وجنوده وأتباعه من شعب مصر بآياتنا ومعجزاتنا كلِّها، التي أجريناها على يد موسى عليه السلام، فأخذناهم بالعذاب أخْذَ قويٍّ غالبٍ في انتقامه، ذي قدرة بالغة على إهلاكهم.

٤٣ ـ أكفَّارُكم ـ يا معشر قريش ـ خيرٌ من كفار أهل القرون الأولى الذين أحلَلْت بهم نقمتي، مثل قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وآل فرعون؟ بل ألكُفَّاركم خلاصٌ وسلامةٌ من العذاب في الكتب المنزلة على الأنبياء، بأنه لن يصيبكم ما أصاب الأمم الخالية؟ فسنَّة الله في عباده واحدة، فلا فضل لفريق منهم على فريق آخر بعنصر، أو لون، أو لغة، أو أرض.

٤٤ ـ بل أيقول كفار مكة: نحن يدٌ واحدةٌ على مَنْ خالفنا، منتصرون ممَّن عادانا؟

٤٥ ـ لانصر لهم في الدنيا، سيُهْزَم كفار مكة، ويُوَلُّون الأدبار، وقد كان ذلك يومَ «بدر»، ولا نجاة لهم في الآخرة.

٤٦ ـ بل ساعة البعث للحساب، وفصل القضاء، وتنفيذ الجزاء، موعد عذابهم في جهنَّم، وهذا العذاب أعظم داهيةً، وأشدُّ مرارة ممَّا سيصيبهم من عذاب الدنيا.

٤٧ ـ إنَّ الذين كذَّبوا رسل ربِّهم مُنْغمسون في بُعد عن الحق، وعناءٍ وعذاب نفسيٍّ دائم، وجنون.

٤٨ ـ اذكر يومَ يُجَرُّون في النار على وجوههم، ويقال لهم: قاسوا ـ أيها المكذِّبون ـ آلام جهنَّم وتحسَّسُوا حرارتها.

٤٩ ـ إنَّا كلَّ شيءٍ خلقناه بمقدار مُحدَّد لكلِّ عنصر فيه، ولكلِّ صفة فيه، فما منْ شيءٍ صغير أو كبير إلا خلقه الله بقدرٍ محدَّدٍ معلوم.

وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَآ أَشۡيَاعَكُمۡ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَيۡءٖ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٖ وَكَبِيرٖ مُّسۡتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَنَهَرٖ ﴿٥٤﴾ فِي مَقۡعَدِ صِدۡقٍ عِندَ مَلِيكٖ مُّقۡتَدِرِۭ ﴿٥٥﴾

سُورَةُ الرَّحۡمَٰن

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلرَّحۡمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ﴿٤﴾ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ﴿٥﴾ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ﴿٦﴾ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ ﴿٩﴾ وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ ﴿١٠﴾ فِيهَا فَٰكِهَةٞ وَٱلنَّخۡلُ ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ ﴿١١﴾ وَٱلۡحَبُّ ذُو ٱلۡعَصۡفِ وَٱلرَّيۡحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ كَٱلۡفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلۡجَآنَّ مِن مَّارِجٖ مِّن نَّارٖ ﴿١٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾

٥٠ ـ وما أمرنا لشيء إذا أردنا تكوينه إلا كلمةٌ واحدة، وهي: «كن»، فيكون، لا مراجعة فيه، ولا حاجة إلى تكرير القول، ينفذ أمرنا بأسرع من لمح البصر.

٥١ ـ ونقسم مؤكِّدين أننا أهلكنا أشباهكم ونظراءكم في الكفر من الأمم السالفة، واعلموا أنكم إذا وَصلتم إلى مثل ما وصل إليه المُهلكون السابقون، فإننا سنُنزِل بكم إهلاكاً عاماً شاملاً، مُماثِلاً لما أنزلناه بالمجرمين السابقين، فهل من متذكِّر بما حلَّ بهم من العذاب، فيخاف ويعتبر؟

٥٢ ـ وكلُّ شيءٍ فعله الموضوعون في الحياة الدنيا موضع الابتلاء مكتوب ومحفوظٌ في كُتب الحَفَظة، فلا تظنُّوا أن أفعالكم متروكة منسيَّة، ليس وراءها حساب، وفصل قضاء، وتنفيذ جزاء.

٥٣ ـ وكلُّ صغير وكبير في الوجود، ما كان ومضى، وما هو كائن، وما سيكون في المستقبل، مكتوبٌ ومُسجَّل تسجيلاً ثابتاً لا يتعرَّض للتآكل والمحو مهما تطاولت الأزمان به.

٥٤، ٥٥ ـ إنَّ المُتَّقين في بساتينَ عظيمة، وأنهارٍ جارية يوم القيامة، في مكانِ إقامة مريحة مطمئنَّة، مُقرَّبين عند عظيمِ المُلك، المتصرِّف بالأمر والنهي في عباده، ذي القدرة الكاملة.

سُورَةُ الرَّحۡمَٰن

١، ٢ ـ الرَّحمنُ الذي وسعت رحمته الكون كلَّه، علَّم القرآنَ المنزَّل على الرسول محمد ﷺ، بتيسير تلاوته وحفظه وفهم معانيه، وذلك أنَّ الله عزَّ وجلَّ عدَّد مظاهر رحمته ونعمه على عباده، فقدَّم أعظمها نعمة وأعلاها رتبة، وهو القرآن العزيز.

٣، ٤ ـ خَلَق الإنسان، علَّمه النُّطق بالكلام، والإفهام بالقلم، وعن طريق البيان المنطوق والمكتوب، انتشرت العلوم والمعارف ودوِّنت، وعبَّر الناسُ عمَّا يختلج في نفوسهم وأفكارهم ومشاعرهم ممَّا يريدون إعلام الآخرين به، مهما تباعدت بينهم المسافات المكانية والزمانية.

٥ ـ الشمسُ والقمرُ مُقَدَّران في كتلتَيْهما وحركتَيْهما تقديراً غايةً في الدقَّة والإتقان، يَجْريان مُتعاقبَيْن بحساب معلوم مُقدَّر، ومنازل لا يتعدَّيانها. وهذا التقدير المُحكم الدقيق ظاهرة عامة في كلِّ المخلوقات، وإنما خصَّ البعض بالذكر ليدلَّ به على الكل.

٦ ـ والنباتُ الذي لا ساقَ له، والشجر الذي يقوم على ساقه، ينقادان لله تعالى فيما يريد بهما؛ كانقياد الساجد. فكلُّ مخلوق في هذا الوجود لا بدَّ أن يتَّجه نحو خالقه، وليس ذلك خاصاً بالنجم والشجر، وإنما اكتفى بذكر البعض هنا ليدلَّ به على الكل كما في الآية السابقة.

٧ ـ والسَّماءَ رفعها فوق الأرض بغير عمد يرونها، وأقام بناء الكون على توازن دقيق يسمح له بالبقاء والاستمرار، ووضع في الأرض العدل وأمر به؛ ليستقيم أمر العالم.

٨، ٩ ـ لئلاَّ تتجاوزوا حقوقكم إلى حقوق غيركم إذا وزنتم لأنفسكم، وأقيموا لسان الميزان بالعدل، ولا تُنْقصوا في الكَيْل والوزن إذا وَزَنتم للناس. وفي الآية: وجوب العدل في الوزن وتحريم البخس فيه.

١٠ ـ والأرضَ بَسَطها ومهَّدها للخلق الذين بثَّهم على ظهرها، وجعلها وافيةً بحاجاتهم.

١١، ١٢ ـ في الأرض أنواعٌ كثيرة من الفاكهة، والنخلِ ذات الأوعية التي فيها الثمر، وذات الليف الذي تلفُّ به النخلة، وفي الأرض الحبُّ الذي يُقْتات به، ذو الورق والتبن؛ رزقاً لكم ولأنعامكم، وفيها كل نبْت مشموم طيِّب الرائحة.

١٣ ـ فبأيِّ فِعَال ربِّكما العجيبة، ونعمه الدينية والدنيوية ـ يا معشر الجنِّ والإنس ـ تُكذِّبان؟ وكرَّر هذه الآية في السورة في واحدٍ وثلاثين موضعاً تقريراً لفعاله العجيبة، وتأكيداً في التذكير بها، وإقامةً للحجَّة عليهم عند جحودها.

١٤، ١٥ ـ خلق الله أبا الإنسان، وهو آدم من طينٍ يابس له صَلْصَلة، إذا نقرته صوَّت من يُبْسه، وهذا الصَّلصال يشبه الفخار إذا يبس، إلا أنه ليس فخاراً، لأنَّ الفخار مطبوخ بالنار، بخلاف الصَّلصال فهو طينٌ يابس غير مطبوخ بالنار، وخلق أبا الجنِّ من لَهَب النار المتموِّج المُختلط بعضه ببعض.

١٦ ـ فبأيِّ فِعال ربكما العجيبة ـ يا معشر الجنِّ والإنس ـ تُكذِّبان؟ وينبغي للعبد إذا تُليت عليه هذه الفعال العجيبة، والشؤون الغريبة، أن يجيب كما أجابت الجن حين قالوا: «لا بشيء من آلائك ربَّنا نكذِّب، فلك الحمد».

رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾ يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾ يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَـٰنٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾

١٧ ـ هو سبحانه ربُّ مشرق الشمس والقمر وما فيهما من الظهور والبيان، ومغرب الشمس والقمر وما فيهما من العتمة والظلام.

١٨ ـ فبأيِّ فِعال ربِّكما العجيبة ونعمِهِ ـ أيُّها الإنس والجنُّ ـ تُكذِّبان؟!

١٩ ـ ٢١ ـ أرسلَ الله سبحانه ماء البحرين الملحَيْن المختلفَيْن في خَصائصهما في حالَيْ ذهاب وإياب، واختلاط واضطراب، بينهما حاجز يمنع كلاً منهما أن يطغى ويتجاوز حدَّه، وهذا الحاجز هو ماء ثالث يختلف في خصائصه عن كلٍّ من البحرين المتمايزين من حيث الملوحة والحرارة والأحياء المائيَّة، وهو يتحرَّك بين البحرين المتجاورَيْن، ويخلط بعضهما ببعض ببطء شديد، ويقلب المياه العابرة من بحر إلى بحر، لتكسب المياه المنتقلة من بحر إلى آخر صفات البحر الذي ستدخل إليه، وتفقد صفات البحر الذي جاءت منه، فبأيِّ فِعال ربِّكما العجيبة ونعمِهِ ـ أيُّها الإنس والجنُّ ـ تُكذِّبان وأنتم ترون هذه القُدرة الفائقة والنعمة الكبرى في شأن هذين البحرين؛ إذ يلتقيان ولا يَبْغيان؟!

٢٢، ٢٣ ـ يخرج من البحرَيْن اللؤلؤ والمَرْجان، تتَّخذون منهما حِلْيةً تلبسونها، فبأيِّ فِعال ربِّكُما العجيبة ونعمِهِ ـ أيُّها الإنس والجنُّ ـ تُكذِّبان؟!

٢٤، ٢٥ ـ وله سبحانه السُّفُن الكبار المرفوعات الشُّرُع في البحر، كالجبال الشاهقة، فبأيِّ فِعال ربِّكما العجيبة ونعمِهِ ـ أيُّها الإنس والجنُّ ـ تُكذِّبان؟!

٢٦ ـ ٢٨ ـ كلُّ مَنْ على الأرض هالكٌ، ويبقى وَجْهُ ربِّك المتَّصف بكمال العَظمة والكبرياء والرِّفعة والمجْد، والمتَّصف بكمال الفضل والإنعام، المُكرم لأنبيائه وأوليائه وجميع خلقه بلطفه وإحسانه إليهم مع جلاله وعظمته، فبأيِّ فِعال ربِّكُما العجيبة ونعمِهِ ـ أيُّها الإنس والجنُّ ـ تُكذِّبان؟!

٢٩ ـ يَسْألُهُ مَنْ في السَّموات والأرض من مَلَك وإنس وجنّ سؤالاً مُسْتَمِرّاً بلسان المقال أو بلسان الحال، كلَّ ما يحتاجون إليه في وجودهم وبقائهم، فلا يَسْتغني عن فضله أهل السموات والأرض، كلهم مفتقرون إليه، كلَّ يوم هو في شأن: يُحيي ويميت، ويُعزُّ ويُذلُّ، ويَشفي ويُمرض، ويعطي ويمنع، إلى ما لا يُحصى من أفعاله في خلقه سبحانه.

٣٠ ـ فبأيِّ فِعال رَبِّكما العجيبة ونعمِه ـ أيُّها الإنس والجنُّ ـ تُكذِّبان؟!

٣١ ـ سَنَقْصِد لحسابكم ومُجازاتكم بأعمالكم التي عملتموها في الدنيا، أيُّها الإنس والجن. وهذا وعيدٌ وتهديد للثقلَيْن.

٣٢ ـ فبأيِّ فِعال ربِّكما العجيبة ـ أيُّها الإنس والجنُّ ـ تكذِّبان؟!

٣٣ ـ يا معشرَ الجنِّ والإنس إن استطعتم أن تَخرجوا من جوانب السَّموات والأرض وأطرافها، فتفلتوا من حساب ربِّكم، فاخرجوا، لا تقْدرون على الخروج إلا بقوةٍ وقهر وغَلَبة، وأنَّى لكم ذلك؛ لأنكم حيثما توجَّهتم كنتم في ملكي وسلطاني.

٣٤ ـ فبأيِّ فِعال رَبِّكما العجيبة ـ أيُّها الإنس والجنُّ ـ تُكذِّبان؟!

٣٥، ٣٦ ـ يُرْسَلُ عليكما لَهَبٌ من نار لا دخان فيه، ونحاسٌ مُذابٌ يُصَبُّ على رؤوسكم، فلا تمتنعان من الله، ولا يكون لكم ناصرٌ منه. فبأيِّ فِعال ربِّكما العجيبة ـ أيُّها الإنس والجنُّ ـ تُكذِّبان؟!

٣٧، ٣٨ ـ فإذا تصدَّعت السماء يوم القيامة، وتغيَّر لونها من زرقتها المعهودة إلى حُمْرة وردِيَّة، وتغيَّرت بنيتُها إلى مادة سائلة كالدُّهن الذائب، وذلك حين يَصلُها حَرُّ جهنَّم، رأيتَ ما يُذهل ويُفزع، فبأيِّ فِعال ربِّكما العجيبة ـ أيُّها الإنس والجن ـ تكذِّبان؟!

٣٩، ٤٠ ـ فيوم تنشقُّ السماء، وينتهي نظام الحياة الدنيا، لا يُسأل عن ذنبه إنسٌ ولا جانٌّ. ونفْي السؤال هنا عند انتهاء نظام الحياة الدنيا، لا يتعلَّق بالسؤال الذي يكون مقدِّمة للحساب، وفصل القضاء، تمهيداً لتحقيق الجزاء، فبأيِّ فِعال ربِّكما العجيبة ـ أيُّها الإنس والجن ـ تكذِّبان؟!

يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾

٤١ - يُعرَفُ المجرمون بسواد وجوههم، وزُرقة أجسامهم، وبما يعلوهم من الكآبة والحزن، وبما يحيط بهم من التعب والنصب، فتأخذ الملائكة بشعور مقدَّم رؤوسهم مجموعة إلى أقدامهم، فتقذفهم في النار بقوة وعنف.

٤٢ - فبأيِّ فِعَال ربِّكما العجيبة ونعمِهِ - يا معشر الإنس والجنِّ - تُكذِّبان؟!

٤٣، ٤٤ - يقال لهؤلاء المجرمين تقريعاً: هذه جهنَّم التي يُكذِّب بها الكفار في الدنيا، ولا يُصدِّقون أنهم صائرون إليها، يتردَّدون وينتقلون بين نوعين من العذاب: حرِّ نار جهنم، وبين ماءٍ شديد الحرارة، يُقطِّع الأمعاء والأحشاء، ويُصَبُّ من فوق رؤوسهم.

٤٥ - فبأيِّ فِعال ربِّكما العجيبة - يا معشر الإنس والجنِّ - تكذِّبان؟!

٤٦ - ولِمَنْ خاف عظمة الله، وقيامَ ربِّه عليه ومراقبته له في الدنيا، ومقامَهُ بين يدي ربِّه يوم القيامة للحساب، جنَّتان عظيمتان للمقرَّبين.

٤٧ - فبأيِّ فِعال ربِّكما العجيبة ونعمِهِ - يا معشَر الإنس والجنِّ - تكذِّبان؟!

٤٨ - الجنَّتان ذواتا أغصان نَضِرَة حَسَنة من الفواكه والثمار المتنوِّعة.

٤٩ - فبأيِّ فِعال ربِّكما العجيبة ونعمِهِ - يا معشرَ الإنس والجنِّ - تكذِّبان؟!

٥٠ - في هاتين الجنَّتين عَيْنان تَجْريان بالماء الزُّلال؛ إحداهما: التَّسنيم، والأخرى: السَّلْسَبيل.

٥١ - فبأيِّ فِعال ربِّكما العجيبة ونعمِهِ - يا معشر الإنس والجنِّ - تكذِّبان؟!

٥٢ - في هاتين الجنَّتين من كلِّ فاكهةٍ صنفان ونوعان.

٥٣ - فبأيِّ فِعال ربِّكما العجيبة ونعمِهِ - يا معشر الإنس والجنِّ - تكذِّبان؟!

٥٤ - مُضْطَجعين على فُرشٍ بطائنها من غليظ الدِّيباج، فكيف بظواهر هذه الفُرش؟! وثمرُ الجنَّتين قريبُ التناول، سهل القطاف، يناله القائم والقاعد والنائم.

٥٥ - فبأيِّ فِعال ربِّكما العجيبة ونعمِهِ - يا معشر الإنس والجنِّ - تكذِّبان؟!

٥٦ - في الجنَّتَيْن حُورٌ غاضَّات الأعين، قَصَرنَ أبصارهُنَّ على أزواجهنَّ، فلا ينظرن إلى غيرهم، اكتفاءً بهم، وشَغَفاً بحبهم، وهُنَّ عذارى لم يُجامعهُنَّ إنسٌ قبل أزواجهنَّ من أهل الجنَّة ولا جانٌّ، فلم تعرف الإنسيَّة إنسيّاً قبل زوجها، ولم تعرف الجنيَّة جنياً قبل زوجها.

٥٧ - فبأيِّ فِعال ربِّكما العجيبة ونعمِهِ - يا معشر الإنس والجنِّ - تكذِّبان؟!

٥٨، ٥٩ - كأنَّ هؤلاء الزوجاتِ - في صفاء اللون وحمرته - الياقوتُ في بياض المَرجان، وهو صغار اللؤلؤ وأشدُّه بياضاً. فمواطن الحمرة الجميلة فيهنَّ من أجسادهنَّ كوجناتهنَّ وشفاههنَّ يشبه لونها لون الياقوت الأحمر، ومواطن البياض الجميل في بَشَراتهنَّ كلون صغار اللؤلؤ، فبأي فعال ربِّكما العجيبة ونعمِهِ - يا معشر الإنس والجن - تكذِّبان؟!

٦٠، ٦١ - ما جزاء مَنْ أحسن في الدنيا بالإيمان والعمل الصالح إلا أن يُحسَنَ إليه في الآخرة؟ فبأيِّ فِعال ربِّكما العجيبة ونعمِهِ - يا معشر الإنس والجنِّ - تكذِّبان؟!

٦٢، ٦٣ - ومن دون الجنَّتين الأوليَيْن في رتبتهما وفضلهما جنَّتان أُخريان لأصحاب اليمين. فبأيِّ فِعال ربِّكما العجيبة ونعمِهِ - يا معشر الإنس والجنِّ - تكذِّبان؟!

٦٤، ٦٥ - هاتان الجنَّتان خَضراوان، من شدَّة ريِّهما وخُضرتهما مالتا إلى السواد، فبأيِّ فِعال ربِّكما العجيبة ونعمِهِ - يا معشر الإنس والجنِّ - تكذِّبان؟!

٦٦، ٦٧ - فيهما عينان فوَّارتان بالماء لا تنقطعان. فبأيِّ فِعال ربِّكما العجيبة ونعمِهِ - يا معشر الإنس والجنِّ - تكذِّبان؟!

فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ (٦٨) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٩) فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ (٧٠) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧١) حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ (٧٢) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٣) لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ (٧٤) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٥) مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍ (٧٦) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٧) تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ (٧٨)

سورة الواقعة

مكية — آياتها ٩٦

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ (١) لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ (٢) خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ (٣) إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا (٤) وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا (٥) فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا (٦) وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً (٧) فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ (٨) وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ (٩) وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ (١٠) أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ (١١) فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ (١٢) ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ (١٣) وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْـَٔاخِرِينَ (١٤) عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ (١٥) مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ (١٦)

٦٨ - في هاتين الجنَّتين أنواع الفواكه كلِّها، ونخلٌ ورمَّان.

٦٩ - فبأيِّ فِعال ربِّكما العجيبة ونعمِهِ - يا معشر الإنس والجنِّ - تكذِّبان؟!

٧٠ - في هاتين الجنَّتين زوجات خيِّراتُ الأخلاق، حِسَانُ الوجوه.

٧١ - فبأيِّ فِعال ربِّكما العجيبة ونعمِهِ - يا معشر الإنس والجنِّ - تكذِّبان؟!

٧٢ - حورٌ ملازمات خُدورهنَّ، مستورات في الخيام، لا يخرجنَ؛ لكرامتهنَّ وشرفهنَّ، ولا يتَطلَّعْنَ لغير أزواجهنَّ، عفةً، وعشقاً لهم، وتعلُّقاً بهم.

٧٣ - فبأيِّ فِعال ربِّكما العجيبة ونعمِهِ - يا معشر الإنس والجنِّ - تكذِّبان؟!

٧٤ - لم يَطَأْ هؤلاء الحور إنسٌ قبل أزواجهنَّ من أهل الجنَّة ولا جانٌّ.

٧٥ - فبأيِّ فِعال ربِّكما العجيبة ونعمِهِ - يا معشر الإنس والجنِّ - تكذِّبان؟!

٧٦ - مُتَّكئين على وسائد ذوات أغطية خُضْر، وطنافس حِسَانٍ عجيبة الصُّنع.

٧٧ - فبأيِّ فِعال ربِّكما العجيبة ونعمِهِ - يا معشر الإنس والجنِّ - تكذِّبان؟!

٧٨ - تعاظم وتنامىٰ وتزايد فوق كلِّ تصوُّرٍ تتصوَّره المخلوقات كلُّها، اسمُ ربِّك، المتَّصف بكمال الشرف والعظمة والرِّفعة والمجد، والمتَّصف بكمال الإكرام في عطاياه وهباته، ومنحِهِ وجوده وإحسانه.

سورة الواقعة

١ - ٣ - إذا حَدَثت الحادثة العظمىٰ، وقامت القيامةُ، ليس بعد مجيئها نفسٌ كاذبة، لأنها تكون مشهودة لجميع الخلائق، تخفض أقواماً إلى الدركات المنحطَّات في النار، وترفع أقواماً إلى الدرجات الصَّاعدات في الجنة.

٤ - ٦ - تكون هذه الواقعة الكبرى، ذات الظواهر الكونية العُظمى، إذا حُرِّكت الأرض وزُلزلت زلزالاً شديداً، وفُتِّتت الجبال إلى أجزاءٍ صغيرة جداً تفتيتاً شديداً، فصارت الجبال غباراً متفرِّقاً في الجوِّ، كالذي يُرى في شعاع الشمس إذا دخل الكُوَّة.

٧ - وصرتم - أيها الناس - جميعاً بعد فرزكم في موقف الحشر يوم الدين، أصنافاً ثلاثة: هم المؤمنون أصحاب الميمنة، والكافرون أصحاب المشأمة، والسابقون المقرَّبون ذوو الدرجات العليَّة من المؤمنين.

٨ - فأصحاب اليمين، أهل المنزلة العالية، الذين يُؤْتَونَ صحائفهم بأيمانهم، ويؤخذ بهم ذات اليمين إلى جهة الجنة، ويوضَعُون على يمين العرش، ما أعظم مكانتهم!!

٩ - وأصحاب الشمال، أهل المنزلة الدنيئة، الذين يُؤْتَوْن كتبهم بشمائلهم، ويؤخذ بهم ذات الشمال إلى جهة النار، ويوضعون على يسار العرش، ما أسوأ حالهم!!

١٠ - ١٢ - والسَّابقون إلى الخيرات في الدنيا هم السابقون إلى الدرجات في الآخرة، أولئك رفيعو المنازل هم المقرَّبون من الله في جواره، وفي ظلِّ عرشه ودار كرامته في جنَّات النعيم.

١٣، ١٤ - هؤلاء المُقرَّبون جماعة غير محصورة العدد من الأُمم الماضية من لدن آدم إلى زمن نبيِّنا محمد ﷺ، وقليلٌ من الآخرين من هذه الأمة بالنسبة إلى الأمم السابقة.

١٥، ١٦ - مُسْتقرِّين على سُرُرٍ منسوجة نسْجاً مضاعفاً، ومُطَعمَّة بالجواهر النفيسة، وخيوط الذهب وأسلاكه، جالسين بتمكُّن، على السُّرر الوثيرة في راحة وسرور، متقابلة وجوههم، زيادة في المحبة.

يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ
لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ
وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ وَحُورٌ عِينٌ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ
الْمَكْنُونِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا
تَأْثِيمًا إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ
الْيَمِينِ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ
وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا
مَمْنُوعَةٍ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً فَجَعَلْنَاهُنَّ
أَبْكَارًا عُرُبًا أَتْرَابًا لِّأَصْحَابِ الْيَمِينِ ثُلَّةٌ مِّنَ
الْأَوَّلِينَ وَثُلَّةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ
الشِّمَالِ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ لَّا بَارِدٍ
وَلَا كَرِيمٍ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ وَكَانُوا يُصِرُّونَ
عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا
وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ قُلْ إِنَّ
الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ

١٧ ـ ١٩ ـ يدور حولهم للخدمة غلمانٌ مُخلَّدون لا يموتون ولا يهرمون، ولا يتغيَّرون ولا ينتقلون من حالة إلى حالة، بأقداح لا عروة لها ولا خرطوم، وأباريق ذوات الخراطيم والعُرا، تبرُق من صفائها ونفاستها، وكأس مملوءةٍ من نهر خمر يجري في الجنة ظاهراً، يسهل التناول منه، لا تُصدَّع رؤوسهم من شربها، ولا ينفد شرابهم.

٢٠، ٢١ ـ ويطوف عليهم الولدان المُخلَّدون بفاكهة ممَّا يتخيَّرون من ثمرات أشجار الجنة، ولحم طير ممَّا يتمنَّون من أصنافها وأنواعها.

٢٢ ـ ٢٤ ـ ولهم حُورٌ بيض جميلات واسعات العيون، ألوان بشرتهنّ ونعومتها كأمثال اللؤلؤ المخزون في الصَّدف المصون الذي لم تمسَّه الأيدي، ولم تقع عليه الشمس والهواء، فيكون في نهاية الصفاء. فعلنا ذلك بهم؛ ثواباً بسبب ما كانوا يعملون في الدنيا بطاعتنا.

٢٥، ٢٦ ـ لا يسمعون في الجنّة كلاماً لا ينفع، ولا حديثاً يأثم سامعه، ولكن يقولون قولاً يسلم من اللغو والتأثيم، ويُسلِّم الله عليهم والملائكة، ويُسلِّمَ بعضهم على بعض.

٢٧ ـ وصنْفُ أصحابِ اليمين، لا يعلم أحدٌ ما جزاءُ أصحاب اليمين مما يفوق التصوُّر والتخيُّل؟

٢٨، ٢٩ ـ يكون أصحاب اليمين في جنات النعيم يوم الدين في محيط بهم من شجر النَّبق الذي لا شوك فيه، وشجر من الموز مُتراكب بعضه فوق بعض باتِّساقٍ بديع، وتراصف مُنتظم.

٣٠، ٣١ ـ وظلٌ دائم لا انقطاع له، وشامل لا تعرف له حدود، وماءٍ مَصْبوب يجري من تحت قصور أهل الجنة أنهاراً.

٣٢ ـ ٣٤ ـ وفاكهة كثيرة الأنواع والأصناف، لا مقطوعةٍ إذا جُنِيَتْ، ولا ممنوعةٍ من أحدٍ إذا أراد أخذها، بل هي مبذولة لهم دواماً، وفي متناول أيديهم، وفُرشٍ مرفوعة عالية على مواضعها من الأسرَّة النفيسة، مُهيَّأة للضجوع عليها، مع من يكنَّ عليها من الحور العين.

٣٥ ـ ٣٨ ـ إنا خلقنا نساء أهل الجنة من الآدميَّات خَلْقاً جديداً بعد الكبر والهَرَم، فجعلناهُنَّ عذارى لم تُفْتَضّ بكارتهنَّ، مُتحبِّبات إلى أزواجهنَّ، حريصات على إسعادهنَّ، مُستويات في السنِّ، أنشأناهنَّ لأصحاب اليمين، إكراماً لهم، وإنعاماً منا عليهم.

٣٩، ٤٠ ـ أصحاب اليمين جماعة كثيرة من المؤمنين قبل هذه الأمة، وجماعة كثيرة من مؤمني هذه الأمة.

٤١ ـ وصنْفُ أصحابِ الشمال الذين يُعطَون كتبهم بشمائلهم، لا يعلم أحدٌ ما هم فيه من العذاب.

٤٢ ـ ٤٤ ـ يكون أصحاب الشمال في جهنم يوم الدين في محيط من ريح حارَّة تدخل مسامَّ البدن، وتفعل فيه فعلَ السُّم، وماءٍ حار يغلي، وظلٍّ من دخانٍ شديد السَّواد، لا بارد يُسْتَروح به، ولا نافع لمنْ يأوي إليه من أذى الحر.

٤٥، ٤٦ ـ استحقُّوا ذلك العذاب؛ لأنهم كانوا قبل ذلك في رحلة ابتلائهم في الحياة الدنيا مُنعَّمين، لم يشكروا نِعَم الله عليهم في الحياة الدنيا بالإيمان به سبحانه رباً واحداً لا شريك له، وكانوا يُصَمِّمون على الإثم العظيم، وهو الكفر.

٤٧، ٤٨ ـ وكانوا يقولون إنكاراً للبعث: أإذا مِتْنا وَصِرنا بعد الموت تُراباً متفرِّقاً في الأرض، وعظاماً بالية، أإنا لعائدون إلى الحياة ثانياً؟! أنبعث نحن وآباؤنا الأقدمون الذين صاروا تراباً متفرِّقاً في الأرض؟!

٤٩، ٥٠ ـ قل ـ يا رسول الله ويا كُلَّ داعٍ إلى الله من أمته ـ لهؤلاء المكابرين: إنَّ الأوَّلين من عهد آدم حتى عصرنا الحاضر، والآخرين من عصرنا الحاضر حتى آخر إنْسان على وَجْه الأرض، لَمَبْعُوثون للحياة الأُخرى بعد موتهم، ولمجموعون في المحشر، مسوقين إلى ميقات حسابهم في يومٍ معلوم قد حدَّد الله عزَّ وجلّ زمانه ومكانه.

ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾ نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾

٥١ ـ ٥٥ ـ ثمَّ إنَّكم ـ أيها الضَّالُّون عن الهُدى، المُكذِّبون بالبعث ـ لآكلون في جهنَّم من نوع شجر، يقال له: «زقُّوم»، كريه المنظر والرائحة، فمالؤون من الأكل من ثمرها بطونكم من شدَّة الجوع، فشاربون على ما تأكلون من هذا الشجر ماءً متناهياً في الحرارة، لا يروي ظمأ، فشاربون منه بكثرة، كشرب الإبل العطاش التي لا تُروى بشرب الماء.

٥٦ ـ هذا الذي ذُكر من ألوان العذاب ضيافتهم التي يُستضافون بها في جهنم دار عذابهم.

٥٧ ـ نحن وحدنا بعظمتنا خلقناكم ـ أيها الناس ـ ولم تكونوا شيئاً، وأنتم تعلمون ذلك، فهلاَّ تُصدِّقون بالبعث بعد الموت.

٥٨، ٥٩ ـ أتفكَّرتم تفكيراً سديداً بأناةٍ وعمق، حتى أدركتم إدراكاً علمياً يشبه الرؤية البصريَّة ما تصبُّون في الأرحام من النُّطف؟ أأنتم تخلقون ما تُمنون بشراً؟ أم نحن ـ لا غيرنا ـ الخالقون؟ وخَلْق البشر من النُّطفة المنويَّة هي **الظاهرة الكونيَّة الأولى** الدالَّة على رُبوبيَّة الله لكونه، وعظيم قدرته وإتقانه.

٦٠، ٦١ ـ **الظاهرة الكونيَّة الثانية: الموت الذي لا مفرَّ لحيٍّ منه:** نحن جعلنا موت كلِّ واحدٍ منكم مُقدَّراً بالزمان والمكان، والأسباب، فلا يتأخَّر عن كلِّ حيٍّ منكم زماناً ما، ولا يتقدَّم موته زماناً ما مهما قلَّ، والمكان الذي حدَّدناه أن يموت فيه لا بدَّ أن يموت فيه. وما نحن بمغلوبين عاجزين، ولا توجد في الوجود قدرة تُغيِّر ما قدَّرناه في قضية الموت زماناً، ومكاناً، وسبباً، ولا في غير قضية الموت، بل نحن قادرون على أن نُحييكم بعد موتكم، ونجمعكم ليوم الجمع، فنبدِّل نظير صفاتكم التي كنتم عليها في الدنيا، وننشئكم فيما لا تعلمون من صفات تلك النَّشأة.

٦٢ ـ **الظاهرة الكونيَّة الثالثة: نشأة الحياة الأولى:** ولقد علمتم الخِلْقة الأولى عن طريق أشباهكم ونظرائكم، فهلاَّ تذكَّرون بأني قادرٌ على إعادتكم كما قدرت على إبدائكم أوَّل مرة.

٦٣ ـ ٦٧ ـ **الظاهرة الكونيَّة الرابعة: إتقان صنع النبات:** أفرأيتم ما تثيرون من الأرض، وتلقون فيه البذر؟ أأنتم تُنبتونه وتُنمُّونه حتى يشتدَّ ويقومَ على ساقه، ويبلغ غايته؟ أم نحن المُنبتون له؟ لو نشاء لجعلنا ذلك الزرع متكسِّراً مُتفتِّتاً لشدة يُبسه، لا نفع فيه، فدُمتم تتندَّمون، وتقولون: إنا لخاسرون بذهاب الحبِّ الذي بذرناه بغير عوض، بل نحن حُرمنا الذي كنَّا نطلبه من الرِّبح في هذا الزرع.

٦٨، ٦٩ ـ **الظاهرة الكونيَّة الخامسة: الماء وإنزاله من السحب:** أفرأيتم الماء العَذْب السَّائغ الذي تَشربون منه؟ أخبروني! أأنتم دبَّرتم نظام تصعيده من المحيطات المرَّة المالحة، وتكوينه سُحُباً في الأجواء، وإنزاله طهوراً نقياً سائغاً للشاربين؟ أم نحن المنزلون له بقدرتنا؛ رحمةً بكم؟

٧٠ ـ لو نشاء صَيَّرناه شديدَ الملوحة لا يُساغ، فهلاَّ تشكرون نعمة الله عليكم.

٧١، ٧٢ ـ **الظاهرة الكونيَّة السادسة: النار وتخزينها في الأشجار:** أفرأيتم النار التي تُوقدون؟ أأنتم خلقتم ضمن نظام الإحداث المصحوب بالتكامل المتدرِّج شَجَرتها التي تُوقَد منها النار؟ أم نحن المنشؤون لها كذلك؟

٧٣ ـ نحن جعلنا نار الدنيا تذكرةً للنار الكبرى في الآخرة، يتَّعظ بها المؤمن، وبُلغةً ومنفعةً للمسافرين النازلين في القَفْر من الأرض، إذ تكون النار متاعاً لهم، لدفئهم، وطهو طعامهم. وهي أيضاً متاع لغير المسافرين؛ لأنَّ ذكر العناية بالمسافرين ذوي الحاجات الطارئة، يدلُّ على العناية بذوي الحاجات المتكرِّرة دَوَاماً من باب أولى، وهذا من روائع الإيجاز في البيان القرآني.

٧٤ ـ وإذا قد علمت ـ أيها المُتلقِّي ـ ما عُدِّد من بدائع الصَّنعة، وجلائل النِّعم، والتي منها الظواهر الكونيَّة السِّت التي نبَّهناك عليها، فنزِّه ربَّك وقدِّسه عن كلِّ ما لا يليق به، قارناً تسبيحك باسم من أسماء ربِّك العظيم؛ لأنَّ علمَ الخلائق لا يصل إلى إدراك شيءٍ من ذات الرب سبحانه، أما أسماؤه وصفاته، فيدركون منها على مقادير استعدادهم، ما يدلُّ على كمالاته التي لا تتناهى.

٧٥، ٧٦ ـ أُقسم بمواضع النجوم وبُعدها السحيق في السماء، ومواقع سقوطها ضمن حركتها المنتظمة في مداراتها، التي لم تصل مدارك المخاطبين العلمية إلى معرفة عظمتها، وسيأتي في القرون اللاحقة مَنْ يكتشف عظمة مواقعها، وإنَّ القسم بمواقع سقوط النجوم، ومواضع بُعدها السحيق في السماء، لقَسَمٌ عظيمٌ جداً، لو تعلمون عظمته لانتفعتم به.

إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾

سُورَةُ الحَدِيدِ

(ترتيبها ٥٧ - آياتها ٢٩)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾

٧٧ - ٧٩ - إنَّ الكتاب الذي أُنزل على محمد ﷺ لَقُرآنٌ بالغ غاية الشرف، وجامع كل صفات المجد والكمال، ومُبرأً من كلِّ النقائص، في كتاب مَصُونٍ مستور عند الله تعالى في اللوح المحفوظ. لا يمسُّ ذلك الكتاب المكنون إلا الملائكة الموصوفون بالطَّهارة من الشِّرك والذنوب والأحداث، ولا يمسُّه أيضاً إلا المتطهِّرون من الشِّرك والجنابة والحدَث.

٨٠ - هذا القرآن الكريم مُنَزَّل من عند ربِّ كلِّ موجود سوى الله تبارك وتعالى على قلب نبيِّه محمد ﷺ، فهو الحق الذي لا مرية فيه.

٨١ - أتخصُّون هذا القرآن بأوصافٍ فيها اعترافٌ بعظمته وتفوُّقه، على سبيل المُداهَنة، ولكن فيها صرفٌ عن الاعتراف بكونه مُنزَّلاً من ربِّ العالمين، فتقولون: إنه سحر، أو شعر، أو مُكْتَتَبٌ من كُتب الرسل السابقين؟!

٨٢ - وتجعلون مُقابل إنعام الله عليكم بالرزق أنكم تكذِّبون بكتاب ربِّكم المعجز، بدل أن تشكروه بالإيمان والعمل بما يُرضيه؟!

٨٣ - ٨٥ - إن كنتم - أيها الجاحدون - غيرَ مربوبين لنا، ولا مقهورين بسلطاننا؛ فهلاَّ إذا بَلغت الرُّوح مَجْرى الطعام والشراب والنَّفَس، وأنتم - يا أهل الميت - تشاهدون ما يُقاسيه من هَوْل الفزع وسكرات الموت، أن تمسكوا روحه في جسده؟ لن تستطيعوا ذلك، ونحن أقربُ إلى المُحتَضَر منكم بعلمنا وقدرتنا وملائكتنا، ولكن لا تعلمون ذلك.

٨٦، ٨٧ - فهلاَّ إن كنتم - كما تزعمون - غير مُحاسبين ومَجْزيين، تردُّون رُوحَ هذا الميِّت إلى جَسَده بعدما بلغت الحلقوم، إن كنتم صادقين في دعواكم أنه لا بعثَ ولا حساب ولا إله يُجازي؟ وإذا لم يمكنكم ذلك، فاعلموا أنَّ الأمر إليَّ، فآمنوا بي.

٨٨، ٨٩ - فأمَّا إنْ كان الميِّت من صنف المُقرَّبين السَّابقين، فله راحةٌ ورحمةٌ، ورزقٌ طيِّب، وجنَّة نعيم يُفْضي إليها في الآخرة.

٩٠، ٩١ - وأمَّا إنْ كان الميت من أصحاب اليمين، فتقول له ملائكة الرحمة عقب موته: أمنٌ وطمأنينة، وتحيَّةٌ مُوَجَّهةٌ لك، حالة كونك من أصحاب اليمين.

٩٢ - ٩٤ - وأمَّا إنْ كان الميت من المُكذِّبين بالبعث، الضَّالِّين عن الهُدى، وهم أصحاب الشمال، فله ضيافةٌ أُعِدَّت له في جهنَّم من ماءٍ حار تناهَتْ حرارته، وإدخال نار عظيمة، يُحرق بها، ويُقاسي عذابها الشديد.

٩٥، ٩٦ - إنَّ هذا الذي ذكرناه في هذه السُّورة، لهو المستوى من اليقين القائم على إدراك المعلوم بمختلف الحواس، مثل يقين من دخل النار وذاق آلامها، ويقين من دخل الجنة وذاق نعيمها، فنزِّه ربَّك العظيم وقدِّسه عن كلِّ ما لا يليق به، واذكره بأسمائه الحُسنىٰ، ومجِّده بصفاته العظمى.

سُورَةُ الحَدِيدِ

١ - نزَّه الله تعالى جميع أجزاء السموات وما فيهـا مـن شمس وقمر ونجوم، وغير ذلك، وجميع ذرَّات الأرضين وما فيها من جبال وبحار وشجر ودوابّ، وغير ذلك، كلُّها مُسبِّحة خاشعةٌ خاضعةٌ لجلال عظمة الله تعالى، مُنقادَةٌ له، يتصرَّف فيها كيف يشاء، وهو الغالب الكامل القدرة الذي لا يُنازعه شيء، الحكيم الذي جميع أفعاله على وَفْق الحكمة والصواب.

٢ - له التصرُّف الكامل في السموات والأرض، الغنيُّ عن جميع خلقه، وكلُّهم محتاجونَ إليه، يُحيي الأحياء على اختلاف أنواعها ورتبها في سُلَّم الحياة، بنفخ الروح فيهـا، ويميتها بنزع الروح منهـا، وهو على كلِّ شيء يشاء إيجـادَهُ أو إعدامَهُ، أو إجراء أيِّ تصرُّف فيه، عظيم القدرة، إذا أراد شيئاً كان أسرع ما يكون.

٣ - هو **الأوَّل** قبل كلِّ شيءٍ بلا ابتداء، **والآخرُ** بعد فناء كلِّ أحد بلا انتهاء، **والظاهرُ** وجودُهُ بالأدلة الواضحة، الغالبُ على كل شيء، **والباطنُ** المُحْتَجب بكُنْهِ ذاته عن إدراك الأبصار والحواس والعقول، أقرب إلى كلِّ شيء من نفسه، بعلمه وقدرته، العالم بما خفيَ من الأمور، وهو بكلِّ شيء عليم، لا تخفى عليه معلومةٌ من كلِّ ما يُدرك بالعلم، من الواجبات، والمستحيلات، والجائزات عقلاً، وما هو موجود، وما هو معدوم.

هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۚ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٦﴾ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۙ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾

٤ ـ هو الذي خلق السَّمواتِ والأرضَ وما بينهما في ستَّة أيام، ثمَّ استوى على العرش استواءً يليق بجلاله، يعلم ما يدخل في الأرض من المياه والأحياء الكبرى والصغرى حتى «البكتريات»، وما هو أصغر منها، ويشمل الأشعة والحرارة حتى أصغر جزء منها، ويشمل القوى المختلفة، ومنها الجاذبية حتى أقلِّ مقدار منها، وما يخرجُ من الأرض من الشجر والنبات والعيون والمعادن والأموات إذا بعثوا، ويعلم سبحانه ما ينزل من السماء من المطر والثلج والبرد والشُّهب وأشعة الشمس والأنوار وأنواع البركات والملائكة، ويعلم كل ما يعرج في السماء صاعداً من الأرض، أو من إحدى السموات إلى ما فوقها، حتى آخر بُعدٍ من أبعاد السموات، من الملائكة والأرواح والدعاء وأعمال العباد، وهوسبحانه معكم بعلمه وقدرته أينما كنتم، والله بما تعملون بصير، فيجازيكم على حسب أعمالكم.

٥ ـ للَّهِ ـ وحدَهُ ـ ملك السموات والأرض، وإليه ـ وحده ـ سبحانه تُرجع أمور خلقه، وتنتهي مصائرهم.

٦ ـ يُدخل ظلمة الليل في ضوء النهار، بالتتابع شيئاً فشيئاً، فيتتابع ذهاب الليل عند تتابع حالات الشروق، فيظهر ضوء النهار، ويُدخل ضوء النهار في ظلمة الليل بالتتابع شيئاً فشيئاً، فيتتابع ذهاب النهار عند تتابع حالات الغروب، وهو سبحانه عليمٌ بالنيَّات والسرائر صاحبة الاستقرار في الصدور وداخل النفوس.

٧ ـ آمنوا بالله ورسوله محمد ﷺ إيماناً صحيحاً صادقاً، وأنفقوا في سبيل الله ابتغاء مرضاته، من المال الذي أعطاكم الله إيّاه، وجعلكم خلفاء فيه عمَّن مضى استخلافاً مؤقَّتاً، ليس لكم فيه ملك ثابت؛ ليَمْتَحِنَكُم في تصرُّفاتكم، وليختبر كيف تكون طاعتكم، فالذين آمنوا بالأركان الإيمانية الستة منكم إيماناً صحيحاً صادقاً، وأنفقوا أموالهم، طيِّبة بها نفوسهم، ابتغاء مرضاة الله، لهم ثوابٌ كبير.

٨ ـ وأيُّ عذر لكم في ترك الإيمان بالله، والرسولُ يدعُوكُم إلى الإيمان به، ويتلو عليكم الكتاب الناطق بالحُجَّة والبرهان، وقد أخذ الله ميثاقكم حين أخرجكم من ظهر أبيكم آدم عليه السلام، بأنَّ الله ربكم لا إله سواه، إن كنتم مؤمنين يوماً ما، فالآن أحرىٰ الأوقات أن تؤمنوا لقيام الحجج، والإعلام ببعثة الرسول ﷺ.

٩ ـ الله سبحانه الذي يتابع تنزيل الآيات الواضحات من القرآن على عبده محمد ﷺ في نجوم التنزيل؛ ليُخْرِجكم الله بها ـ إذا استجبتم لها، وعملتم بما جاء فيها ـ من ظلمات الشِّرك والمعاصي والمخالفات إلى نور الإيمان والطاعات والقُرُبات، وإنَّ الله لشديد الرحمة بكم، دائم الرحمة لكم.

١٠ ـ وما الباعث لكم على ترك الإنفاق في سبيل الله بعد أن آمنتم بالله واليوم الآخر، وعلمتم أنَّ الله هو الرزاق، وأن لله ميراث السموات والأرض، يرثُ كلَّ من فيهما، وأنتم ميِّتون تاركون أموالكم لغيركم؟! فالأَولىٰ أن تنفقوها فيما يُقرِّبكم إلى الله، وتستحقُّون به الثواب. لا يستوي في الفضل منكم مَنْ أنفق ماله وقاتل العدوَّ مع رسول الله ﷺ قبل فتح مكة، مع مَنْ أنفق ماله وقاتل بعد الفتح، أولئك رفيعو المنزلة المنفقون المقاتلون قبل الفتح أعظمُ درجة من الذين أنفقوا من بعد الفتح وقاتلوا، وَكِلا الفريقَيْن وَعَدَ اللَّهُ المثُوبةَ الحُسنى، وهي: الجنة، مع تفاوت درجاتهم، والله بما تعملون خبير على سبيل الحضور والشهود، المُصَاحِب لكلِّ أجزاء العمل، ظواهره وبواطنه، فيُجازي كلاً بما يستحق. وفي الآية دليل على أن فضيلة العمل على قدر رجوع منفعته إلى الإسلام والمسلمين.

١١ ـ مَنْ ذا الذي يُنفق ماله في سبيل الله صادقاً مُحتسباً بالصَّدقة، طيِّبةً بها نفسه، من غير منٍّ ولا أذى، فيعطيه ربُّه أجره على إنفاقه مُضاعفاً، وله فوق المضاعفة أجرٌ نفيس رفيع في الجنة؟ فَمَنْ يتعامل مع الله عزَّ وجلَّ بالبذْل في سبيله وابْتغاء مرضاته، كَمَنْ يعقد عقْداً ربوياً مُتحقِّق الفائدة البالغة أضعافاً مضاعفةً كثيرةً بالنسبة إلى رأس المال المبْذول. وفي الترغيب بهذا التعامل مع الله سبحانه الذي يشبه عقد الربا: استخدام أسلوب التربية بالتحويل لما يحبُّه الناس من فوائد ربويَّة لا يبذلون جهداً في الحصول عليها، بل هم يدَّخرون أموالهم بعقد الربا ضامنين السَّلامة، لتربوَ بنفسها دون كدٍّ ولا تعب في أموال الناس، وتوجيهه لجهة الله عزَّ وجلَّ المالك لكلِّ شيء، الذي لا تفنى خزائنه. وفيه أيضاً استخدام أسلوب التربية بالتصعيد عن الفوائد الهابطة التي تُؤخذ من الناس، إلى الفوائد السَّامية التي يمنحها الله بفضله في العاجلة والآجلة.

يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ هِيَ مَوْلَىٰكُمْ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ ۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْيِي ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾

١٢ - اذكر - أيها المخاطب - يومَ ترى المؤمنين والمؤمنات على الصِّراط، حالة كونهم يسعىٰ نورُهم الخاصُ بكلٍّ واحد منهم أمامهم؛ لكشف طرقاتهم، بحسب مقْدار إيمان كلٍّ منهم، وما قدَّم من عمل صالح. ووسيلة بثِّ هذا النور وتوجيهه بأيْمانهم، وتقول لهم الملائكة قبل الحساب وفَصْل القضاء: الشيء السارُّ المُفْرح الذي تُبشَّرون به في هذا اليوم جنَّاتٌ عُظمى مُعَدَّةٌ لكم تجري من تحت أشجارها وقصورها الأنهار، لا تخرجون منها أبداً، ذلك الثواب الرفيع هو - وحده - الظفر والربح العظيم.

١٣ - وضع في ذاكرتك - أيها المخاطب - يومَ يلقى المنافقون عذابهم في صورةٍ تشبه عملهم في الدنيا، فالجزاء من جنس العمل، إذ يتمثَّل لهم إسلامهم الذي تظاهروا به في الدنيا، بشيء من النور يمشون به خطوات قليلة على الصراط، حتى يظنَّ أحدهم أنه قد أمِن ونجا، فبيْنا هم كذلك ذهب الله بنورهم، وتركهم في ظلمات كفرهم ونفاقهم. يقول المنافقون والمنافقات يوم القيامة، وهم في الظلمات للذين آمنوا: انتظرونا وتمهَّلوا قليلاً من أجلنا حتى نستفيدَ من نور إيمانكم في هذا الظلام الدامس، ونسير كما كنَّا نسير معكم في الدنيا، فيقول لهم المؤمنون: ارجعوا إلى أعمالكم التي عملتموها في ماضي حياتكم في الدار الدنيا، فالتمسوا نوركم منها إن كان لكم فيها عملٌ صالح، ولكن أنَّى لكم ذلك؟ فإنكم لم تعملوا إلا ما يضاعف لكم الظلمات، فلا سبيلَ لكم إلى الاقتباس من نورنا. ففُصِل بين المؤمنين والمنافقين بحائطٍ بين الجنَّة والنار، له بابٌ لا يدخله إلا المؤمنون، وهذا السُّور له باطن وظاهر، أما باطنه وهو ما يقع في جهة المؤمنين ففيه الرحمة في دار النعيم، وأما ظاهرهُ، وهو ما يقع في جهة الكافرين والمنافقين، فيأتي من جهته العذاب في نار جهنم.

١٤ - يُنادي المنافقون من ظاهر السُّور المؤمنين وهم في باطن السُّور حين حُجِزَ بينهم وبقوا في الظلمات لا نور لهم؛ لأنهم كانوا محرومين من الإيمان الصادق في الدنيا: ألم نكن معكم في الدنيا نُصلِّي ونصوم؟ فلماذا لا نكون معكم في الآخرة؟ فيقول لهم المؤمنون: بلى، لقد كنتم معنا في ظاهر انتسابكم، ولكنكم أهلكْتُم أنفسكم بتعريضها لعقاب الله ونقمته، باختياركم الكفر باطناً، ومخادعة المؤمنين ظاهراً، وانتظرْتُم بمحمد ﷺ، وبالمؤمنين الحوادث المُهْلكة، وشكَكْتُم في نبوَّته وفيما أوعدكم به، وخدعتكم أطماعكم الفارغة، وآمالكم الكاذبة، وبقيتم على ذلك، حتى جاءكم الموت، وخدعكم الشيطان بتزييناته ووساوسه عن طريق الأفكار تشكيكاً في دين الله، أو إبطالاً، أو جحوداً به، وعن طريقِ العواطف استثارةً لها، حتى وقعتم في المعاصي والآثام، وصارت بتكرارها مقبولة مستحسنةً في الأفكار، فاستدرجكم إلى الشكِّ في أحكام الله والكفر بها.

١٥ - فاليومَ لا يُقْبل منكم - أيُّها المنافقون - عِوَضٌ وبَدَلٌ؛ بأن تفدُوا أنفسكم من العذاب، ولا من الذين كفروا بالله ورسوله كفراً صريحاً، مكانكم الذي تنزلون فيه النَّار، هي التي تتولَّى شؤونكم، وبِئْس المصير النار التي ستصيرون إليها.

١٦ - ألم يَحن الوقتُ للذين آمنوا أن تَرِقَّ قلوبهم وتلين وتخضع لذكر الله ومواعظه، وما نَزَل من القرآن؟ فقد مرَّت عليهم بعد إيمانهم مدَّة كافية، كان ينبغي أن يرتقوا فيها من دَرَجة إيمان الوجل والخوف الذي يرافقه قلق واضطراب في القلب إلى درجة إيمان الخشوع وسكون القلب. ولا يكونوا كاليهود والنصارى، فطالَ عليهم الزمن في النعمة والرفاهيَّة والقوة الماديَّة وارتكاب المعاصي، فأخلدوا إلى الأرض، وابتعدوا عن مهابط رحمة الله، فَقَسَتْ قلوبُهم، وجفَّت منابع الشفقة والرحمة والعطاء لديهم، ولم تؤثِّر فيهم المواعظ والمذكِّرات بالله واليوم الآخر، وكثيرٌ منهم خارجون عن أمر الله إلى دَرَكات الكفر بها.

١٧ - اعلموا أنَّ الله سبحانه يُحيي الأرض بالمطر بعد موتها، فيُخرج النبات بعد يبْسها، وكذلك يُحيي الله القلوب الميتة بالإيمان والعبادة والإكثار من ذكرِهِ، وتدبُّر آياته، ومراقبة علمه وعدله وفضله ورحمته، قد بيَّنا لكم الآيات الدالاَّت على وحدانيتنا وقدرتنا؛ رغبة أن تعقلوا عقلاً علمياً، وإرادياً بضبط النفس عن اتِّباع الأهواء والشهوات والانغماس في المعاصي والمحرَّمات.

١٨ - إنَّ المُتصَدِّقينَ والمُتَصدِّقات، الذين يبذلون أموالهم ابْتغاء مرضاة الله في وجوه البرِّ والإحسان، وقدَّموا مالهم في سبيل الله، خالياً من رياءٍ وحُبِّ شهرةٍ، يُضاعَف لهم ثوابُ ذلك، ولهم عند الله فوق المضاعفة أجر نفيس رفيع في أوصافه.

وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَٰبُ الْجَحِيمِ ﴿١٩﴾ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَٰلِ وَالْأَوْلَٰدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ وَمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَٰعُ الْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢١﴾ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا ءَاتَىٰكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾

١٩ ـ والذين آمنوا بالله ورسله إيماناً صحيحاً صادقاً، أولئك الفضلاء ذوو المنزلة العالية والمكانة الرفيعة هم عظيمو الصِّدق في أقوالهم وأعمالهم، وكثيرو التصديق عند الله عزَّ وجل، يحملون وظيفة تبليغ الدين، فيشهدون على الناس بتبليغ رسالات ربِّهم، ويشهدون يوم القيامة على الأمم أنَّ رسلهم قد بلغتهم. ولهم عند ربِّهم في جنَّات النعيم أجرهم الكبير، بما قاموا من واجب التبليغ وعملوا من العمل الصالح، ولهم نورهم العظيم على الصِّراط يوم القيامة. والذين كفروا وكذَّبوا بآياتنا الكونيَّة والبيانيَّة والإعجازيَّة والجزائيَّة العقابيَّة، أولئك البُعداء المنحطُّون إلى جهة الدرك الأسفل من النار الملازمون لها، المخالطون لألوان عذابها، هم فيها دائمو البقاء، لا يفارقونها أبداً، كما أنَّهم صمَّموا في دنياهم على أن يظلُّوا أبداً جاحدين لله، كافرين بصفاته، منكرين لرسالاته.

٢٠ ـ اعلموا ـ أيُّها الناس ـ إنَّ مُغريات الحياة الدنيا لمَنْ صَرَفها في غير طاعة الله منحصرة في مجالات خمسة كبرى: **الأولى**: أنها لعبٌ غير جادٍّ لا حاصلَ له سوى التعب، **والثاني**: لهوٌ شاغل عما يعني ويَهُم، ينقضي عن قريب، **والثالث**: مظهر جميل تتزيَّنون به، **والرابع**: تسابقٌ بينكم على حيازة ما به تفتخرون على غيركم، لترضوا ما في نفوسكم من واقع الكِبْر وحبِّ الاستعلاء، **والخامس**: مُبَاهاةٌ بكثرة الأموال والأولاد، ويلحق بهم الأنصار والأعوان والأجناد، وما يتعلق بزينة الحياة الدنيا مادياً كان أو معنوياً، مثلُ الحياة الدنيا كمَثَل مطر أعجَبَ الزُّرَّاع نباتُه الذي نَبَتَ بذلك المطر، ثم يَيْبَس بعد مدَّة قصيرة، فتراه مُصْفرّاً بعد خُضْرته، ثم يتحطَّم ويتكسَّر بعد يُبْسه ويفنىٰ، وبعد الحياة الدنيا تأتي الآخرة، وللناس في الآخرة ثلاثة أنواع من الجزاء: **الأول**: عذابٌ شديدٌ خالدٌ للكافرين، **والثاني**: مغفرةٌ عظيمة من الله للمتقين، **والثالث**: رضوانٌ من الله لأوليائه وأهل طاعته من الأبرار والمحسنين. وما الحياة الدنيا بما فيها من لعب ولهو وزينة وتفاخر وتكاثر في الأموال والأولاد، إلا متاع ينتفع به انتفاعاً مؤقتاً إلى حين، ثم يأتي عليه الفناء والزوال، وهي في حقيقتها غير جديرة بأن يُغْترَّ بها، فإذا اغترَّ بها الجاهل وآثرها على الدار الآخرة، وعصى الله بسببها كانت بالنسبة إليه متاع غُرور، لا متاع بلاغ يتبلَّغ به إلى يوم الخلود يوم الجزاء الأكبر.

٢١ ـ لتكن مفاخرتكم ومُكاثرتكم ـ أيها الناس ـ في غير ما أنتم عليه، بل احرَصوا على أن تكون مسابقتكم إلى ما يُوجب سَتْر ذنوبكم، وجنَّةٍ عرضها كعرض السماء والأرض، هُيِّئَتْ للذين صدَّقوا بالله ورسله، ذلك فَضْل الله وعطاؤه الواسع الذي يؤتيه من يشاء من خلقه، فلا يدخل أحدٌ الجنَّة إلا بفضله تعالى. والله ذو الفضل العظيم على عباده المؤمنين، يزيدهم من فضله عطاءً فوق مُجازاتهم على إيمانهم، ومضاعفة أجورهم على مقادير أعمالهم في جنات النعيم.

٢٢ ـ ما نزل من مصيبةٍ، ولا نزل من نعمةٍ في الأرض، ولا في أنفسكم، إلا مكتوبةٌ في اللوح المحفوظ من قبل أن تُخلق الأنفس؛ لنبلُوَكم بالمصائب والنِّعم، إنَّ إثبات ذلك في اللوح المحفوظ ـ على كثرته ـ هيِّنٌ يسيرٌ على الله عزَّ وجلَّ وليس بعسير، لأنه سبحانه إذا أراد شيئاً فإنما يقول له: كن فهو يكون بأمره التكويني.

٢٣ ـ أعلمناكم بذلك؛ لكَيْلا تحزنوا على ما فاتكم من نِعَم الدنيا، ولا تفرحوا بما أعطاكم فَرَحاً يجرُّكم إلى البَطَر والاخْتيال والفَخْر، فأنتم في حياة امتحان بالمصائب والنِّعم، فتقبَّلوا مصائب المقادير الربانيَّة بالصَّبر، وتقبَّلوا نعَم المقادير الربانيَّة بالشكر، مبتعدين عن الفرح المبطر الذي يُولِّد في النفس رذيلَتَي الاختيال والفخر، وذلك بالتكبُّر على خلق الله، وبالطغيان الذي يُولِّده الشعور بالاستغناء، واللهُ لا يُحبُّ كلَّ متكبِّر بما أُوتي من الدنيا، فخور بذلك الذي أُوتي على الناس.

٢٤ ـ هؤلاء المتكبِّرون هم الذين يَبْخلون بمالهم، ولا ينفقونه في سبيل الله ووجوه الخير، ولا يكفيهم أنهم بخلوا به حتى يأمرون الناس بالبخل، ومن يُدبر مبتعداً عن الإيمان والإنفاق، فإنَّ الله هو الغنيُّ بذاته عن عبادِهِ، له الغنى التامُّ المطلق، المحمودُ على عظيم صفاته، وجليل نعمه، المُستحقُّ بذاته للحمد والثناء، كثير الحمد لأهل طاعته.

لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ ۖ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾

٢٥ ـ نؤكِّد لكم أننا أرسلنا بعظيم ربوبيَّتنا رسُلَنا بالدلالات والآيات والحُجَج الواضحات، وأنزلنا معهم الكتابَ المتضمِّن للأحكام وشرائع الدين؛ لنبيِّن لهم طريق نجاتهم وفوزهم في رحلة امتحانهم في الحياة الدنيا، وأنزلنا معهم النظم والقواعد والوصايا والأحكام التي يُوصل اتِّباعها إلى تحقيق العدل، ليتعامل الناس فيما بينهم بالعدل الذي أمر الله به في كليَّات الدين العامة، ضمن استطاعة الناس، فهم مطالبون بتحقيق العدل، أو الاقتراب منه على مقدار الاستطاعة البشريَّة، وأنزلنا لهم الحديد فيه قوَّةٌ شديدةٌ في الجهاد في سبيل الله لإقامة العدل، وهداية الخلق إلى الحق، بغيةَ رَدْع الظالمين الآثمين المعتدين، الذين يظلمون الناس، ويقاومون الحقَّ، ويحمون أنفسهم بسلطان القوة الماديَّة، وفيه منافع للناس في السِّلم؛ لينتفعوا به في الصناعة المدنيَّة وسائر مصالحهم ومعايشهم، وليرى الله مَنْ ينصُر دينَه ورسلَه بما سمع من الأوصاف الغائبة عنه، فآمن بها، إنَّ الله قويٌّ لا يُقْهر، عزيزٌ لا يُغالب.

٢٦ ـ ونؤكِّد لكم تأكيداً بليغاً أننا أرسلنا نوحاً وإبراهيم عليهما السلام إلى قومهما، وجعلنا في أولادهما النبوَّة والكتبَ المُنزَّلة، ولا يعني جَعْل النبوَّة والكتاب في ذُرِّيَّة كلٍّ من نوح وإبراهيم، صلاح كُلِّ ذُرِّيتهما، فبعض هذه الذُّرِّية سالكون طريقَ الهداية، ومن هؤلاء المهتدين من اصطفى الله منهم أنبياء ومرسلين، وكثيرٌ من ذُرِّيَّة نوح وإبراهيم خارجون عن طاعة الله تعالى خروجاً من دركة الكفر إلى دون الكفر من المعاصي والآثام حتى أخف دركات الفسق.

٢٧ ـ ثم بعد مُدَّةٍ متراخية من الزمن أتْبعنا على آثار نوح وإبراهيم، ومَنْ مضى من الأنبياء برسُلنا؛ رسولاً بعد رسول إلى أن انتهت الرسالة إلى عيسى ابن مريم، وآتيناه الإنجيل، وجعلنا بقانوننا القَدَري في قلوب الذين اتَّبعوه على دينه عاطفةً أخصَّ من الرحمة وأشد رقةً؛ إذ لا تكاد تكون الرأفة مع الكُره، وَجَعَلنا في قلوبهم رِقَّةً وعطفاً، يرحمون بها حتى مَنْ يكرهون ويبغضون من الناس، وابْتدعوا رهبانيةً جاؤوا بها من قِبَلِ أنفسهم، وحمَّلوا أنفسهم المشاقَّ في العبادة الزائدة، وترك النكاح، واستعمال الخشن في المطعم والمشرب والملبس مع التقلُّل من ذلك، ما فرضناها نحن عليهم، لكنهم ابتدعوها طلبَ رضوان الله، فلم يَرْعَوا تلك الرهبانيَّة حقَّ رعايتها، ولم يحافظوا عليها حقَّ المحافظة، بل ضيَّعوها في جملتهم، وضمُّوا إليها التثليث والاتِّحاد، وكفروا بدين عيسى، ودخلوا في دين ملوكهم، وأقام فريقٌ منهم على دين عيسى ابن مريم عليه السلام حتى أدركوا محمداً ﷺ، فآمنوا به، فآتينا الذين ثبتوا على الدين الصحيح، وعملوا بمقتضى إيمانهم أجرهم الكبير، ولكنهم كانوا قلَّة، وكثيرٌ منهم خارجون عن طاعة الله، مُكذِّبون بمحمد ﷺ، لم يلتزموا بمقتضيات إيمانهم، فلهم جزاؤهم بالعدل.

٢٨ ـ يا أيُّها الذين صدَّقوا بالله ورسوله، واتَّبعوا شرعه: اثبتوا على التَّقوى والإيمان برسوله محمد ﷺ، يُؤْتكم نَصيبَيْن من رحمته: نصيباً على الإيمان به ﷺ، ونصيباً على الإيمان بالرسل السابقين، كما أعطى الله مؤمني أهل الكتاب نصيبَيْن من الأجر: **أحدهما**: للإيمان بالرسول محمد ﷺ، **والآخرُ**: للإيمان بالرسول السابق الذي نُسخت شريعته بالشريعة المحمديَّة، ويجعل لكم نوراً من الهداية تمشون به في الدنيا، ونوراً تمشون به يوم القيامة، ويغفر لكم ما سَلَف من ذنوبكم، واللَّهُ كثير الستر لذنوب عباده، دائم الرحمة بهم.

٢٩ ـ جعلنا الأجْرَيْن لِمَنْ آمنَ بمحمد ﷺ؛ ليعلم أهل الكتاب ـ الذين لم يؤمنوا بمحمد ﷺ، وحَسَدوا المؤمنين ـ أنه لا أجرَ ولا نصيبَ لهم من فَضْل الله، وأنَّ الفَضْل كلَّه بيد الله وحده، يُؤْتيه من يشاء من عباده، والله ذو الفَضْل العظيم، يزيدهم من فضله عطاءً فوق مجازاتهم على إيمانهم، ومضاعفة أجورهم على مقادير أعمالهم في جنات النعيم.

سورة المجادلة

بسم الله الرحمن الرحيم

قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿١﴾ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾

سورة المجادلة

١ ـ قد سمع الله قول (خَوْلة بنت ثعلبة) التي تُراجعك الكلام في أمر زوجها (أَوْس بن الصامت) الذي ظاهَرَ منها، لقوله لها: «أنت عليَّ كظهر أمي» في حرمة النكاح، وتشتكي إلى الله شدَّة حالها وفاقتها وَوَحْدتها، والله يسمع مراجعتكما الكلام، إنَّ الله سميعٌ لمن يُناجيه، ويتضرَّع إليه، بصيرٌ بمن يشكو إليه، لا تخفى عليه خافية.

٢ ـ الذين يقولون لنسائهنَّ: أنتنَّ علينا كظهور أمَّهاتنا ـ في حرمة النكاح ـ، ما الزوجات بأمَّهاتهم على الحقيقة، ما أُمَّهاتهم إلاَّ اللاتي وَلَدنَهم، وإنَّ هؤلاء المُظاهرين ليقولون منكراً من القول لا يُعرف في الشَّرع، وكَذِباً باطلاً منحرفاً عن الحقيقة، لا تُعرف صحَّته، وإنَّ الله لكثير التجاوز عنهم، كثير السَّتر لهم.

دلَّت هذه الآية على أن الظهار حرام من الكبائر؛ لأن فيه إقداماً على تبديل حكم الله بدون إذن، ومن ثمَّ وَجَبت فيه الكفارة.

٣ ـ والذين يمتنعون بلفظ الظِّهار عن جماع نسائهنَّ، ثم يعودون إلى ما قالوا بالنقض والرفع والإزالة، باستباحة الوطء والملامسة والنظر إليها بشهوة، فعلى الزوج المُظَاهِر ـ والحالة هذه ـ كفارة التحريم، وهي: إعتاق رَقَبة، عبد أو أَمَة، قبل المجامعة، فلا يحلُّ للمُظاهِر وَطءُ امرأته التي ظاهر منها ما لم يُكفِّر؛ ذلكم هو حكم الله فيمن ظاهر من زوجه تُنصحون به نُصحاً مقْروناً بما يُثير الرَّغبة والرهبة في النفس، للانتفاع بالنصح، حتى تتركوا ـ أيها المؤمنون ـ الظِّهار وقول الزور، وتكفِّروا إنْ وقعتم فيه، ولكي لا تعودوا إليه، والله سبحانه بما تعملون خبير على سبيل الحضور والشهود المُصَاحِبِ لِكلِّ أجزاء العمل، ظواهره وبواطنِهِ، لا يخفى عليه شيءٌ من أعمالكم، وهو مُجازيكم عليها.

٤ ـ فمن لم يجد رقبةً يعتقها، فكفارتُه صيامُ شهرين مُتَتَابِعَيْن من قبل أن يطأ زوجه، فمَنْ لم يستطع صيام الشهرين لهرم أو مرض مُزْمِنٍ أو شهوة مفرطة، فكفارتُه إطعامُ ستين مسكيناً ما يشبعهم. ذلك الفرض الذي فَرَضْنَاه من كفارة الظِّهار؛ لِتُصَدِّقوا الله فيما أمر به، وتُصَدِّقوا الرسول ﷺ فيما أخبر به عن الله تعالى. وتلك الأحكام المذكورة هي حدود الله أقامها ليقف الناس عندها لا يتعدَّونها، وهو يغضب على مَنْ لا يرعاها ولا يتحرَّج من تجاوزها، وللجاحدين السَّاترين دلائل الحق عذابٌ مُؤْلِمٌ في النَّار، بتعدِّيهم وعدم إيمانهم، وعدم وقوفهم عند حدود الله كالمؤمنين.

٥ ـ إنَّ الذينَ استمرُّوا يقفون موقف العداء ضدَّ دينِ الله وضدَّ رسوله، في السِّرِّ من المنافقين، ويأخذون موقفاً عند الحدِّ الآخر في مواجهة الله ورسوله، أُذلُّوا وأُخْزُوا وأُهلكوا، كما أُخزيَ مَنْ كان قبلهم من أهل النفاق في أعقاب غزوة بني المصطلق، وقد أنزلنا بشأن الذين أُخْزوا من قبلهم آياتٍ واضحات في سورة (المنافقون) التي نزلت قبل سورة (المُجادلة)، والتي فضحتهم، وأبانت أنهم كاذبون، ولا يفقهون، ولا يعلمون، ولكنهم لم يتَّعظوا بما حصل لإخوانهم، ولا بالآيات البيِّنات الواضحات المُنزَّلات بشأنهم، وللكافرين عذابٌ مُذِلٌّ مُخْزٍ، يذهب بعزِّهم وكِبْرِهم.

٦ ـ لجميع الكافرين، ومنهم المنافقون الذين يُبطنون الكفر عَذَابٌ مُذِلٌّ مُخْزٍ، يومَ يبعثهم الله جميعاً بعد موتهم؛ للحساب، وفصل القضاء، وتنفيذ الجزاء، فيُخبرهم الله عزَّ وجلَّ بما عملوا في الحياة الدنيا من القبائح والذنوب على رؤوس الأشهاد تشهيراً بحالهم، وتشديداً لعذابهم، حفظ الله عليهم أعمالهم، وأحاط بها عدداً، فلم يفته منها شيء، ونسوا ما كانوا يعملون في الحياة الدنيا، والله على كلِّ شيء شهيد مُطَّلع، حاضرٌ مراقب له مراقبةً تامةً، بعلم محيطٍ شاملٍ، مُدرك لكلِّ صفاته وأحواله وتغيُّراته، لا يخفى عن علمه شيء فليحذر من علم الله واطِّلاعه، وحضوره وشهوده الكافرون، وليطمئنَّ بحضوره وشهوده المؤمنون.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ
مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ
وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم
بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ
نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ
وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ
بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ ۚ حَسْبُهُمْ
جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ۖ فَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا
تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا
بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا النَّجْوَىٰ
مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا
إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ
آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ
اللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا
مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾

٧ - ألم تُفكِّر - أيُّها المُخَاطب - حتى ترى رؤية علميَّة، أنَّ الله يعلم جميع المعلومات؟ لا يخفى عليه شيءٌ في الأرض ولا في السماء، ما يقع مِنْ إسرار ثلاثة يُسارُّ بعضهم بعضاً بالحديث، بحيث لا يسمعه غيرهم إلا هو تعالى رابعهم بالعلم، ولا خمسة إلا هو سبحانه سادسهم، ولا أقلَّ من ثلاثة وخمسة، ولا أكثر من ذلك العدد إلا هو سبحانه معهم بالعلم والقدرة في أيِّ مكان كانوا فيه، ثم يُنبِّئُهم بما عملوا على رؤوس الأشهاد يوم القيامة، فيُجازيهم عليه؛ إنَّ الله بكلِّ شيء من أقوالهم ونيَّاتهم وإراداتهم عليم لا تخفى عليه معلومةٌ من كلِّ ما يُدرك بالعلم، من الواجبات، والمستحيلات، والجائزات عقلاً، وما هو موجود، وما هو معدوم.

٨ - ألم ترَ - يا رسول الله - ناظراً إلى اليهود والمنافقين الذين نُهُوا عن الحديث سرّاً فيما بينهم دون المؤمنين، ثمَّ يرجعون إلى المُناجاة التي نُهوا عنها، ويَتَسارُّون فيما بينهم بالمكر والكَيْد للمسلمين، وما يسُوؤُهُم، ويُوصي بعضهم بعضاً بمعصية الرسول ﷺ في أوامره الدينية والإدارية؟

وإذا جاءك - يا رسول الله - المنافقون حَيَّوْك بغير التحيَّة التي جَعَلها لك، فقالوا كما تعلَّموا من اليهود: (السَّام عليك) - أي: الموت لك -، ويقولون إذا خرجوا من عندك في أنفسهم: لو كان نبياً حقاً لعذَّبنا الله بما نقول له؟! لكنّ محمداً ليس رسولاً، وليس ما يتلوه كلاماً منزَّلاً من عند الله!! وغَفَل هؤلاء المنافقون عن سُنَّته سبحانه أنه يُمْهل ولا يُعجِّل لعباده العقاب، وأن الحياة الدنيا مرحلة امتحان، لا مرحلة جزاء، تكفيهم جهنَّم بما تشتمل عليه من عذاب حالة كونهم يدخلونها يوم الدين، ويحترقون بنارها، فَبِئْس المرجع والمآل الذي سيصيرون إليه في جهنَّم.

٩ - يا أيُّها الذين صدَّقوا بأركان الإيمان، وعملوا بشريعة الإسلام: لا تسلكوا طريق اليهود والمنافقين، إذا تحدَّثتم فيما بينكم سرّاً، فلا تتحدَّثوا بما فيه ذنب وظلم، وتجاوز للحدِّ المأذون به، ومخالفة لأمر الرسول ﷺ، وتحدَّثوا سراً - إذا أردتم أن تتناجَوْا - بالتوسُّع في أعمال الخير من نوافل الطاعات، فوق حدود الواجبات، وبالالتزام بفعل الواجبات، وترك المُحرَّمات، واتَّقُوا الله الذي إليه - وحده - تُجْمَعون بعد بعثكم؛ لتحاسبوا على ما قدَّمتم في رحلة امتحانكم في الحياة الدنيا.

١٠ - ما التحدُّث خِفْيةً بالإثم والعدوان ومعصية الرسول ﷺ إلاَّ من تزيين الشيطان؛ يُزيِّن ذلك ليُدخل الحزن على قلوب المؤمنين، وليس ذلك التناجي بمؤذي المؤمنين شيئاً إلا ما أراد الله تعالى؛ لأنَّ الله مُحبطٌ كَيْد الكافرين، ومُبْطلٌ أعمالهم. وعلى الله - وحده - فليكل المؤمنون أمرهم، ويستعيذوا به من الشيطان، بعد أن يتَّخذوا كاملَ الأسباب التي أمرهم الله بها؛ ليدفع عنهم الوساوس، ويكشف لهم أعداءهم، ويُحبط مكايدهم، فإنَّ من توكَّل على الله لا يُخَيِّبُ أمله، ولا يُبْطلُ سعيَه.

١١ - يا أيُّها الذين صدَّقوا الله ورسوله، واتَّبعوا شرعَه: إذا طُلب منكم أن يُوسِّع بعضكم لبعض في المجالس، فأوْسعوا، يُوسِّع الله لكم في المكان والرزق والقبر والجنة ومجالس النعيم فيها. وإذا طُلب منكم - أيها المؤمنون - أن تنهضوا من مجالسكم للتوسعة على المقبلين فانهضوا، يرفع الله الذين آمنوا منكم بطاعتهم لله ولرسوله، وامتثال أمره في قيامهم من مجالسهم وتوسعتهم لإخوانهم، ويرفع الله الذين أُوتوا العلم من المؤمنين بفضل علمهم وسابقتهم درجات صاعدات، على مَنْ سواهم من سائر الناس، حتى تتناسب مع مقادير العلم الذي يكتسبه كلُّ فريق منهم، فيحتلُّ الدرجة المكافئة لمستواه من العلم والمعرفة، والله بما تعملون خبير على سبيل الحضور والشهود المُصَاحِبِ لكلِّ أجزاء العمل، ظواهره وبواطنه. والآية تحضُّ على الإفساح للقادم ليجلس، كما تحضُّ على طاعة الأمر إذا قيل لجالسٍ أن يرفعَ فيرفع، وهذا الأمر يجيءُ من القائد المسؤول عن تنظيم الجماعة المؤمنة، لا من القادم. والغرضُ هو إيجاد الفُسْحة في النفس قبل إيجاد الفُسْحة في المكان، ومتى رَحُب القلب اتَّسع وتَسَامح، واستقبل الجالسُ إخوانَه بالحبِّ والسَّماحة، فأفسح لهم المكان عن رضىً وارتياح. فأما إذا رأى القائد أنَّ هناك اعتباراً من الاعتبارات يقتضي إخلاءَ المكان، فالطاعةُ يجب أن تُرعى عن طواعية نفس، ورضى خاطر، وطمأنينة بال. مع الحرص على مراعاة آداب الإسلام بعدم تخطِّي الرقاب، أو إقامة الرجُل للرجُل ليأخذ مكانه، وإنما هي السماحة والنظام يُقرِّرهما الإسلام، والأدب الواجب في كلِّ حال.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾ لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٨﴾ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾

١٢ ـ يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسولَه واتَّبعوا شرعَهُ: إذا أردتم أن تُكلِّموا رسول الله ﷺ سرّاً، فقدِّموا أمام ذلك صدقة لأهل الحاجة، إعظاماً لمناجاة الرسول ﷺ، ذلك التقديم للصدقة على المناجاة خيرٌ لكم، وأطهرُ لذنوبكم، فإن لم تجدوا ما تتصدَّقون به، فإنَّ الله كثير السَّتْر لعباده المؤمنين، دائم الرحمة بهم.

١٣ ـ أخِفْتُم العَيْلة والفَاقة إنْ قدَّمتم صدقة قبل مناجاتكم رسول الله؟ فإذْ لم تفعلوا ما أُمرتم به ـ وتَجاوزَ الله عنكم، ونسخ الصَّدقة ـ فأقيموا الصلاة المفروضة، وآتوا الزكاة الواجبة، وأطيعوا الله ورسوله فيما أمر ونهى، والله عليم بأعمالكم علماً كاملاً شاملاً، لكلِّ ظواهر الأشياء وبواطنها، علمَ حضور وشهود وتدبير.

١٤ ـ ألم تَرَ ـ أيُّها الرائي ـ رؤيةً فكريةً علميَّة شبيهةً بالمشاهَدة البصريَّة ناظراً إلى هؤلاء المنافقين المتظاهرين بالإسلام، والمُبْطنين للشرك، الذين اتّخذوا اليهود المغضوب عليهم أولياء لهم من دون المؤمنين، ينصرونهم ويستنصرون بهم، ويُوادُّونهم، وينقلون إليهم أسرار المؤمنين؟ ما هؤلاء المنافقون منكم ـ أيها المؤمنون ـ في الدين والولاء، ولا من اليهود، يصنعون الكذب، ويحلفون الأَيْمانَ الكاذبة عليه، للإغراء بتصديقهم، فيجعلون الأَيْمان أغطيةً على الكذب لسَتْر كونه كذباً، ولخداعِ المؤمنين بأنه صدق، وهم يعلمون أنهم كاذبون منافقون.

١٥ ـ أعدَّ الله لهؤلاء المنافقين عذاباً شديداً يذوقونه في جهنَّم يوم الدين؛ إنهم ساءَ ما كانوا يعملون من النفاق والحَلِف على الكذب.

١٦ ـ اتَّخذ المنافقون ـ بتكلُّف مُصْطَنع ـ أَيْمانهم الكاذبة سُتْرةً واقيةً يستترون بها نفاقهم، ويدفعون بها عن أنفسهم وأموالهم، فأَحْجَمُوا عن سلوك دين الله، وانصرفوا عنه سرّاً، وصَرَفوا غيرهم ممَّن يتأثر بهم من ضعفاء الإيمان عن سلوكه، فلهم عذابٌ مُذِلٌّ مُخزٍ في الآخرة.

١٧ ـ لن تدفعَ عن المنافقين أموالهم ولا أولادهم من عذاب الله شيئاً، إذا أراد الله أن يُنزل بهم عقابَه في الدنيا، بجائحة كونيَّة من أمره، أو مصيبة تنزل بهم على يد رسوله وأيدي المؤمنين؛ إذ يكشف من خياناتهم ما يستحقُّون عليه العقاب، أولئك البعداء عن رحمة الله، هم أهلُ النار المُلازمون لها، المخالطون لأنواع عذابها، باقون فيها دواماً لا يخرجون منها، ولا يموتون.

١٨ ـ يوم القيامة يَبْعثُ اللَّهُ المنافقين جميعاً، ويوقفون للحساب، فيحلفون له كاذبين أنهم كانوا مؤمنين، كما يحلفون لكم ـ أيها المؤمنون ـ في الحياة الدنيا، ويظنُّون أنهم ـ بأَيْمانهم الكاذبة ـ على شيءٍ ينفعهم عند الله، فيدفع عنهم عذاب الله، لكنهم يفتضحون، وتقام عليهم البيِّنات التي لا يستطيعون جُحودَها، وتشهدُ عليهم جوارحُهم، ويُدانُونَ بكفرهم ونفاقهم. تنبَّهوا وتحقَّقوا إنهم هم الكاذبون الذين جمعوا كلَّ أنواع الكذب، واستكملوا كلَّ عناصره، فلا يشاركهم في دركة هذه الخسَّة أحد.

١٩ ـ استولى عليهم الشيطان استيلاءً كاملاً، وساقهم بشدَّة، وغلبهم بوسوسته وتزيينه حتى اتَّبعوه، فأنساهم ذكر الله واستحضار عَظَمته، أولئك البُعداء عن رحمة الله، المنحطُّون في الدَّركات حزبُ الشيطان، لأنه هو قائدهم ومُوجِّههم، وواضع برامجهم، تلاقوا على مبادىء وعقائد وأهواء وأعمال جرَّهم الشيطان إلى سلوكها. تنبَّهوا وتحقَّقوا إنَّ حزبَ الشيطان هم الخاسرون في الدنيا والآخرة؛ إذْ خسروا أنفسهم، ودفعوا بها إلى العذاب الأليم الخالد في دار العذاب.

٢٠ ـ إنَّ الذين يقفون في حدِّ مُعارض ومُضادٍّ لحدِّ الله ورسوله سراً، أولئكَ البُعداء عن رحمة الله في مَجمع الأذلين المخذولين والمغلوبين؛ ليسوا مؤهّلين لأن ينتصروا، مهما اتَّخذوا من وسائل وأسباب.

٢١ ـ قضىٰ الله قَضَاءً ثابتاً في اللوح المحفوظ، لأغْلبنَّ أنا ورُسلي، والمؤمنون الصَّادقون المتَّبعون لرسلي، وهذه الغلبة تكون بظهور الحقِّ ظهوراً فكرياً بالحُجَّة والبرهان، أو بالتجربة العمليَّة، ومُمارسات الحياة التي تكشف أنَّ ما جاء من عند الله تعالى، وبلَّغه رسلُ الله عليهم السلام حقٌّ وصدقٌ، وفيه نفع وسعادةٌ للناس، وإما أنْ تكون الغَلَبةُ بظهور الحقِّ على الباطل ظهوراً فكرياً وعسكرياً معاً، فيكون لحَمَلَة رسالة الله في الأرض الظهور والفتح المبين، والسلطان والتمكين، إنَّ الله قويٌّ على نصر رسله وأوليائه، غالبٌ على أعدائه، لا يعجزه شيء.

لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾

سورة الحشر

ترتيبها ٥٩ — آياتها ٢٤

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴿٣﴾

٢٢ ـ لا تَجد ـ أيُها الباحث الصَّالح للخطاب ـ قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر إيماناً صادقاً صحيحاً، يحبُّون ويُناصحون مَنْ عادى الله ورسولَه، واختار لنفسه سبيل الكفر المناقض لسبيل الإيمان، ولو كانوا آباءهم، أوأبناءهم، أو إخوانهم، أو أقرباءهم؛ لأنَّ محبتهم تستلزم الرضى عنهم في اتِّجاهِهم، والتجاوز عن مكايدهم للإسلام والمسلمين، ومناصرتهم على باطلهم، وكلُّ ذلك يناقض الإيمان ولوازمه. أولئكَ رفيعو المنزلة عند الله، المُوالون في الله، والمعادون فيه، قوم قد آمنوا إيماناً صادقاً، وقد دخل هذا الإيمان في عُمق قلوبهم، حتى احتلَّ أعمق مراكز عواطفهم، فكتب الله كلمات الإيمان في قلوبهم بقضاء مُنْجز، فهي مؤمنةٌ مُوقنة مُخلصة، وقوَّاهم على الثبات في مواقف الإيمان، وفي المعارك بقوَّة معنويَّة خفيَّة غير منظورة، ويُدخلُهم جنَّاتٍ عظيمات تجري من تحت أشجارها وقصورها الأنهار، حالة كونهم خالدين فيها، أحلَّ الله عليهم رضوانه العظيم، فلا يسخط عليهم أبداً، ورضوا عن ربِّهم بما أعطاهم من النعيم وأرفع المراتب، أولئك ذوو المنزلة العليّة والمقام الرفيع حزبُ الله وجُنْدُه، تلاقوا على عقائد ومبادىء وصراطٍ ربَّانيٍّ واحد، ومَنْ كان من حزب الله جَعَله الله في كنفه، وأمدَّه بمددٍ من لدنه، تنبَّهوا وتحقَّقوا؛ إنَّ حزب الله هم المختصُّون بالفوز والظفر في الدنيا والآخرة.

سورة الحشر

١ ـ نزَّه اللَّهَ تعالى عمَّا لا يليق بجلاله، وعظيم سلطانه، وكمال صفاته العليا، وأسمائه الحسنى، وكمال أفعاله وتصرُّفاته، جميع أجزاء السَّموات وما فيها من شمس وقمر ونجوم ومجرَّات، وغير ذلك، وجميع ذرَّات الأرضين، وما فيها من جبال وبحار وشجر ودواب، كلُّها مُسبِّحةٌ خاشعة خاضعة لجلال عظمة الله تعالى، مُنْقادة له منذ إنشائها، يتصرَّف فيها كيف يشاء، وهو القويُّ الغالبُ الكامل القدرة الذي لا ينازعه شيء، الحكيم الذي يضع الأشياء في مواضعها، ويختار أفْضَلَ الأشياء وأتقنَها وأحسنَها في الأمور المختلفة لما يعطي أحسن النتائج.

٢ ـ هو سبحانه الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب، وهم يهود بني النَّضير، من مساكنهم التي جاوروا بها المسلمين حَوْل «المدينة»، عند أوَّل إخراج لهم من جزيرة العرب إلى مكان جمعهم في «الشام»، ما ظننتم ـ أيها المؤمنون ـ أن يخرجوا من «المدينة» بهذا الذلِّ والهوان؛ لعزَّتهم وَمَنَعَتِهم وشدَّة بأسهم، وذلك أنَّهم كانوا أهل حصون وعَقار ونخل كثير، وظنَّ بنو النَّضير ظنّاً قوياً أنَّ حصونهم تمنعهم من بأس الله؛ لفرط وثوقهم بما هم فيه، فأتاهم أمر الله وعذابه من حيث لم يخطر ببالهم، وهو أنَّ الله تعالى أمر نبيَّه ﷺ بقتالهم وإجلائهم، وكانوا لا يظنُّون ذلك، وقذف في قلوبهم الخوفَ الشديد بقتل سيِّدهم كعب بن الأشرف، يُخْربون بيوتهم بأيديهم؛ لئلا يسكنها المؤمنون، ويُخْرب المؤمنون باقيها؛ ليقضوا على تحصُّنهم، فاتَّعظوا وانظروا ما نزل بهم يا ذوي العقول الراجحة، والبصائر السليمة، إذ أيَّدكم الله بنصره، مع أنَّ قواكم لم تكن كافية لتحقيق هذا النصر الذي مكَّنكم منه، فثقوا بالله تعالى، وتوكلوا عليه.

وفي الآية حثٌّ لمن بقي من اليهود في «المدينة»، ليعتبروا أيضاً اعتبار اتِّعاظ بما شاهدوا بأبصارهم من إجلاء إخوانهم بني النضير، مع أنهم كانوا مُحصَّنين مُتمكِّنين في حصونهم، فقذف الله في قلوبهم الرُّعب، ومكَّن المؤمنين من إجلائهم.

٣ ـ ولولا أن قدَّر الله عليهم أن يعاقبهم بالخروج من ديارهم، جزاء خيانتهم، لكان عقابُهُم المعجَّل في الدنيا أشدَّ، فلعذَّبهم في الدنيا داخل حصونهم التي كانت لهم في «المدينَة» بعذابٍ من عنده، أو بعذاب ينزل بهم على أيدي المسلمين، ولهم في الآخرة على كلِّ الأحوال عذابُ النار، جزاء إصرارهم على الكفر والتكذيب برسول الله ﷺ، وبما جاء به من عند ربِّه، فالعذاب لازمٌ لهم، فإن نجوا منه في الدنيا لم ينجوا منه في الآخرة.

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤﴾ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾

٤ ـ ذلك الذي لَحِقَ ونزل ببني النَّضير؛ بسبب أنهم خالفوا أمر الله وأمر رسوله، وناصبوهما العداء، ووقفوا في شقِّ المضادِّ المحارب، ومن يُخالف اللّهَ ورسولَهُ ويُناصبهما العداء، يقف في شقِّ المُضادِّ المُحارب لهما، فإنَّ الله شديد العقاب.

٥ ـ ما قطعتم ـ أيُّها المؤمنون ـ أثناء حصار بني النضير، من نخلة، أو تركتموها قائمةً على سوقها من غير أن تتعرَّضوا لها، فبأمر الله ومشيئته؛ ولأجل إخزاء اليهود وإذلالهم أَذِنَ الله في قطعها.
وهذه الآية تدلُّ على جواز هدم دور الكفار وقطع أشجارهم إذا كان للمسلمين مصلحة في ذلك.

٦ ـ وما ردَّ الله على رسوله من أموال يهود بني النَّضير، فما أسرعتم في السَّيْر إليه بخيل ولا إبل، مقاتلين به عدوّكم، ولكنَّ الله يُسَلِّطُ رُسُلَهُ على مَنْ يشاء من أعدائه، فيسْتسلمون لهم بلا قتال، واللّهُ على كلِّ شيء يشاؤه عظيم القدرة، لا يُعجزه شيء أراده.
وفي الآية دليلٌ على أنَّ الفيء ما أُخذَ من الكفار بلا قتال، ومقاساة مشقة من إسراع خيل وإبل، والغنيمةُ ما أُخذ منهم بقتال كما تقدَّم في الآية (٤١) من سورة الأنفال.

٧ ـ ما ردَّه الله على رسوله من أموال كفار أهل القرى، من غير قتالٍ، فيُقسم خمسه على خمسة أسهم: **السهم الأول**: لِلَّهِ سبحانه وللرسول ﷺ، وهو خمس الخمس، يُصرَف في مصالح المسلمين العامَّة، **والسهم الثاني**: لذي قرابة رسول الله ﷺ، وهم بنو هاشم وبنو المطَّلب، **والسهم الثالث**: لِلْيتامى، وهم الأطفال الفقراء الذين مات آباؤهم وهم دون سنِّ البلوغ، **والسهم الرابع**: للمساكين المتعرِّضين للعطاء، الذين يسألون الصدقة، **والسهم الخامس**: لِلمسافر البعيد من ماله، وليس له ما يقطع به مسافة سفره، يُصرف خُمْس الفيء على هذه الأسهم الخمسة؛ كيلا يكون الفيءُ مُتَدَاوَلاً بين الأغنياء منكم خاصَّة، فيغلبوا عليه الفقراء والضعفاء، وما آتاكم الرسول من مال الغنيمة والفيء فخُذوه، فهو حلالٌ لكم، وما نهاكم عنه من الغلول وغيره فانتهوا. وهذا نازل في أموال الفيء خاصَّة، وهو عامٌّ في كلِّ ما أمر به النبيُّ ﷺ أو نهى عنه من قول أو عمل ـ واجب أو مندوب أو مُسْتَحب أو نهي عن مُحرَّم ـ، واتَّقوا الله بامتثال أوامره وترك نواهيه؛ إنَّ الله شديد العقاب لمن عصاه وخالف أمره ونهيه. وهذه الآية أصل في وجوب العمل بالسنة: قولاً أو فعلاً أو تقريراً.

٨ ـ وكذلك يُعطىٰ من المال الذي ردَّه الله تعالى على رسوله ﷺ من الأربعة أخماس الباقية: الفقراء المهاجرون، الذين ألجأهم كفار مكة إلى الخروج من ديارهم وأموالهم، يَطلبون ثواباً من الله وطلباً لرضاه عزَّ وجل، وينصرون دينَ الله ورسوله بالجهاد بأنفسهم وأموالهم في سبيل الله، أولئك رفيعو المنزلة هم الصَّادقون في إيمانهم وهجرتهم وجهادهم.

٩ ـ والأنصار الذين توطَّنوا «المدينة» واتَّخذوها سَكَناً، وأسلموا في ديارهم، وأخلصوا في الإيمان وتمكَّنوا فيه، من قبل هجرة المهاجرين إليهم، يُحبُّون مَنْ هَاجَر إليهم من المسلمين، ويُنزلونهم في منازلهم، ويُشاركونهم في أموالهم، ولا يجدون في صدورهم حَزازةً وغيظاً وحَسَداً ممَّا أُعطي المهاجرون من الفيء دونهم، عفَّةً منهم، وشعوراً بحقِّ المهاجرين الذين أصابهم الفقر بسبب الهجرة، ويُؤْثر الأنصارُ المهاجرين بأموالهم ومنازلهم على أنفسهم، ولو كان بهم فاقة وحاجة إلى ما يُؤْثرون به، ومَنْ يكفه الله الحالة النفسانيَّة التي تقْتضي مَنْعَ المال، حتى يُخالفها فيما يغلبُ عليها من البخل والحِرص الشديد الذي يدفع إلى ارتكاب كبائر الإثم، فينفق مَالَهُ في سبيل الله تعالى، في المصارف التي أمر الله بالإنفاق فيها، طيِّبَ النفس بذلك، فأولئك الفضلاء رفيعو الدرجة هم ـ وحدهم ـ الظافرون بكلِّ خير، الفائزون بكلِّ مطْلب في الدنيا والآخرة. وفي الآية مدح الإيثار في حظوظ النفس والدنيا.



وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا
وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا
غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٠﴾ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى
الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ
الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ
أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ
﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ
وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ ﴿١٢﴾
لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ
لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى
مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ
جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾
كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ
أَلِيمٌ ﴿١٥﴾ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ
قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾

١٠ - والذين جاؤوا من بعد المهاجرين والأنصار الأوَّلين، وهم المؤمنون التابعون لهم بإحسان إلى يوم القيامة، يقولون: ربَّنا اغفر لنا ذنوبَنا، واغفر لإخواننا في الدين الذين سبقونا بالإيمان، ولا تَجْعل في قلوبنا غِشّاً وحَسَداً وبُغْضاً للذين آمنوا، ربَّنا إنك شديد الرحمة بعبادك، دائم الرحمة لهم. وفي الآية: الحثُّ على الدعاء، والترضِّي عن الصحابة، وتصفية القلوب من بُغض أحد منهم، وفيها دليل على أن من كان في قلبه غِلٌّ أو بغضٌ لأحدٍ من أصحاب رسول الله ﷺ، ولم يترحَّم على جميعهم، فإنه ليس ممَّن عناه الله تعالى بهذه الآية.

١١ - ألم تعلم - أيُّها المُتلقِّي - علماً بيِّناً واضحاً شبيهاً بالحسِّ البصري ناظراً إلى الذين أظهروا خلافَ ما أضمَروا، وهم عبد الله بن أُبي وأصحابه، يقولون بتكرار لإخوانهم الذين كفروا من اليهود من بني النَّضير - أثناء حصارهم - ثلاث مقالات: **الأولى**: نقسمُ لكم؛ لئن أخرجكم محمد من مساكنكم في «المدينة»، وعجزتم عن المقاومة، واضْطُررتم إلى قَبول الجلاء، لَنَخْرُجَنَّ معكم منها، **المقالة الثانية**: ونحن لا نطيع في ترك موالاتكم، وعدم الخروج معكم أحداً كائناً مَنْ كان، **المقالة الثالثة**: وإن قُوتلتم من قِبَل محمد وأصحابه لَنُعينَنَّكم، ولنُقاتِلَنَّ معكم، ولنُدافعنَّ عنكم، والله يعلم عِلْمَ شهود لأحوالهم ظاهراً وباطناً إنَّ المنافقين لكاذبون فيما قالوا لإخوانهم الكافرين من يهود بني النَّضير، فلا تفتّ مقالاتهم في أعضادكم أيها المؤمنون.

١٢ - لئن أُخرجَ اليهود من «المدينة» لا يخرج المنافقون معهم، ولا يقدِّمون أيَّ شيء يُثبت ولاءَهُم لهم، وأقسم: لئن قُوتلوا لا يمنعونهم ويقاتلون معهم، وأقسم مؤكِّداً: لئن حَضَروا المعركة لنُصْرتهم لجَبُنُوا عن مواجهة المؤمنين، ولأداروا ظهورهم فارِّين مُنهزمين، ثمَّ لا يُنصر المنافقون بعد خيانتهم العظمى، بفرارهم من متابعة المؤمنين لهم، أو من نزول عقوبة الله المعجَّلة بهم في الدنيا مهما تراخى بهم الزمن.

١٣ - نؤكِّد لكم - يا معشرَ المسلمين - لأنتُم بإرهابكم لليهود في القتال أشدُّ إحداث رهبة في صدورهم من رهبتهم من عقاب الله؛ ذلك الخوف الشديد منكم بسبب أنهم قومٌ لا يفهمون حقائق الإيمان والسنن الربانيَّة فهماً سديداً عميقاً، ولو أنهم كانوا يفهمون دقائق الأمور وأعماقها لكانت رهبتهم من الله أشد من رهبتهم من أيِّ مرهوب، ولدفعتهم هذه الرهبة إلى الإيمان بمحمد ﷺ وبما جاء به عن ربِّه سبحانه.

١٤ - لا يَبْرز اليهود لقتالكم حالة كونكم مجتمعين لقتالهم، إنما يقاتلونكم مُتَحَصِّنين بالمُجَمَّعات السكنيَّة، أو من وراء جُدران يَسْتَتِرون بها. إذا وقعت معارك فيما بينهم كانوا ذوي شدَّة على بعضهم، تظنُّ - أيُّها الناظر من بُعد - اليهودَ مجتمعين، وقلوبُهُم مُتفرِّقة غير مجتمعة على رأيٍ واحد؛ ذلك التفرُّق والاختلاف بسبب أنهم قوم لا يعقلون عقلاً علمياً يميِّزون به بين الحقِّ والباطل، وليس لديهم إرادات حازمة تضبط نفوسهم عن اتِّباع أهوائهم وشهواتهم، والاستجابة للتحاسد والتباغض فيما بينهم. فلا تخشوا - أيُّها المؤمنون - من ملاقاة اليهود في قتال تكونون فيه مؤمنين حقاً، ومجتمعين على قتالهم، فإنهم لن يثْبتوا لقتالكم.

١٥ - حالُ يهودِ بني النَّضير في خيانتهم واحتمائهم بحصونهم، ثم استسلامهم، وطلبهم قَبولَ جلائهم، يُشْبه حال بني قَيْنُقاع الذي مضى قريباً، ذاقوا في الدنيا سُوءَ عاقبة كفرهم، ونالوا جزاء خيانتهم وغدرهم، على أيدي المسلمين بقيادة الرسول ﷺ، فأجلاهم الرسول ﷺ من «المدينة»، بسبب ما كان منهم من شر، ونقض للعهد والميثاق، ولهم فوق ذلك عذابٌ أليمٌ في الآخرة.

١٦ - مَثَلُ اليهودِ والمنافقين جميعاً - في تخاذلهم وتخلِّي بعضهم عن بعض - كَمَثَل الشيطان حين أغرى الإنسان بترك الإيمان، فقال له: اكفُر، فاستجاب له فكفر، وحين يأتي يومُ الحساب والجزاء، يدعو الكافرُ الشيطانَ لنصرته، فيقول الشيطان له: إنِّي بريءٌ منك، إني أخاف الله خالقَ العالمين ومالكهم وسيِّدهم ومربِّيهم، الذي أنعم عليهم فخلقهم بقُدرته، وربَّاهم بنعمته، وأمدَّهم برعايته وحفظه، وهذه العوالم العظيمة الكثيرة التي خلقها وأمدَّها بعطاءات ربوبيَّته علامات دالاَّت على خالقها وصفاته الحسْنى.

فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ خَٰلِدَيۡنِ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسۡتَوِيٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۚ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۖ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلۡمُؤۡمِنُ ٱلۡمُهَيۡمِنُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡجَبَّارُ ٱلۡمُتَكَبِّرُۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٢٤﴾

سُورَةُ المُمْتَحَنَة

ترتيبها ٦٠ — آياتها ١٣

١٧ ـ فكان مآل الشيطان، وذلك الإنسان الذي استجاب بإرادته الحرَّة لوساوسه وتسويلاته، أنَّهما في النار ماكِثَيْن فيها أبداً، وذلك الجزاء الذي ثَبَتَ لهما يثبتُ جزاءً لكلِّ الظالمين الذين يظلمون ظلماً مشابهاً لظلمهما.

١٨ ـ يا أيها الذين آمنوا بالله واليوم الآخر، اجعلوا لكم وقايةً من عذاب الله يوم الدين، بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، ولينظر أحدكم أيَّ شيء قدَّم لنفسه يوم القيامة من الأعمال: عملاً صالحاً يُنجيه، أم سيئاً يُوبقه، والتزموا تقوى الله، واجتهدوا في تقديم الأعمال الصالحة؛ إنَّ الله عليم علماً كاملاً شاملاً، لكلِّ ظواهر الأشياء، وبواطنها، علم حضور وشهود وتدبير، لا يخفى عليه شيءٌ من أعمالكم الظاهرة والباطنة، وهو مُجازيكم عليها.

١٩ ـ ولا تكونوا ـ أيها المؤمنون ـ كالذين تركوا أمر الله الذي أوْجبه عليهم، فأنساهم بسبب ذلك حظوظَ أنفسهم، حتى لم يُقدِّموا لها خيراً ينفعها عند الله، وينجيها من عذابه، أولئك البعداء عن رحمة الله هم الخارجون عن طاعة الله ورسوله.

٢٠ ـ لا يستوي أصحابُ النَّار الملازمون لها، المخالطون لألوان عذابها الدائم، وأصحابُ الجنَّة الملازمون لها، المخالطون لألوان نعيمها المقيم، أصحابُ الجنَّة هم الفائزون فوزاً عظيماً.

٢١ ـ لو أنزلنا هذا القرآن على جَبَل ـ جَعَلنا فيه تمييزاً وعقلاً كما جعلنا فيكم ـ، لرأيتَهُ ـ أيها الرائي المتفكِّر ـ على قوَّته وشدَّةِ صلابته وضخامته، ذليلاً خاضعاً مُتشقِّقاً متكسِّراً من خشية الله،لما له من قوة تأثير جعلها الله فيه؛ لأنَّ القرآن كلام الله عزَّ وجل، وهو نورٌ من نور الله، ونورُ الله إذا توجَّه لشيءٍ ما في الوجود سواءٌ كان حياً أو جماداً، خشع وتفجَّرت منه الخشية، ولكن ليس كلُّ تالٍ للقرآن يُصاحبُ تلاوتَه نورُ القرآن الربَّاني، ذلك لأنَّ نورَ القرآن يتفجَّر على مقْدار إيمان التالي لآياتِهِ، ومقدار قوَّة اتِّصاله بخالقه. وحين يقرأ القرآن إنسانٌ كافر بالله واليوم الآخر، لا يتفجَّر من نور القرآن لديْه شيء، ويكون عديم الأثر، وتلك الأمثال نَضْربها للناس؛ رغبةَ أن يتفكَّروا ويدركوا دلالات هذا المثل، ويستخدموا ما وهبهم ربُّهم من قدرات التفكُّر على عظمة هذا القرآن وخصائصه، ويقرؤوه بخشوع وتدبُّر، ويصلوا قلوبَهم بنور الكلام الربَّاني، حتى تهتزَّ قلوبهم، وتقشعرَّ جلودهم من خشية الله.

٢٢ ـ هو الله سبحانه وتعالى الذي لا معبودَ بحقٍّ إلا هو، عالمُ ما غاب عن العباد ممَّا لم يعاينوه، وعالم ما شاهدوه وعلموه، هو العظيم الرحمة الذي وَسِعَتْ رحمتُه كلَّ شيء، الدائم الرحمة.

٢٣ ـ هو الله الذي لا معبودَ بحقٍّ إلا هو، **الملك**: المُتَصرِّفُ بالأمر والنَّهي في جميع خلقه، المالك لهم، فهم تحت ملكه وقهره وإرادته، **القدوس**: الطاهر عن كلِّ عَيْب، المُنزَّه عمَّا لا يليق بجلاله، وعظمة سلطانه، وكمال أسمائه الحُسْنى، وصفاته العليا، وكمال أفعاله وتصرفاته، والمنزَّه عن أن يدركه حسٌّ، أو يحيط به عقل، **السلام**: الذي سلم من النقائص والعيوب، في ذاته وصفاته وأفعاله، والذي يُسلِّم عباده المؤمنين من المكاره، **المؤمن**: البالغ منتهى العلم اليقيني في كلِّ شيء، المُصَدِّق لرسله بإظهار المعجزات، والمُصدِّق للمؤمنين بما وعدهم به من الثواب، المُؤمِّن لهم من العذاب، **المهيمن**: الرقيبُ على كلِّ شيء، الحافظ له، **العزيز**: القويُّ الغالب الذي لا يعجزه شيء، **الجبار**: العظيم الشأن في القدرة والسلطان، إذا أراد شيئاً فعله بالجَبْر، ضدَّ أية قوةٍ لها إرادةٌ معارضة من خلقه، كثير الإصلاح للأشياء مع القهر، **المتكبِّر**: المتعظِّم الذي له جميع صفاتِ العلوِّ والعظمة، المُثْبت لنفسه أنه أكبر من كل كبير إثباتاً مُؤَكَّداً، تنزَّه الله عمَّا يصفه به المشركون.

٢٤ ـ هو الله سبحانه **الخالقُ**: المُقدِّر لما يُوجده، **البارىء**: المبْدع المخترع المُنشىء للأعيان من العَدَم إلى الوجود، في ذروة الكمال للغاية التي أُعدَّت لها، **المُصوِّر**: لما خلقه وأنشأه على صُورٍ مختلفة وأشكال مُتباينة، له سبحانه الأسماء الحسنى، يُنزِّهُهُ عن كلِّ ما لا يليق به كلُّ ما في السموات وما في الأرض، وهو **العزيز**: القويُّ الغالبُ الذي لا يُعجزه شيء، **الحكيم**: الذي يضع الأشياء في مواضعها، ويختار أفضل الأشياء وأتقنها وأحسَنَها في الأمور المختلفة لما يُعطي أحسن النتائج.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ۙ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ ۚ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٥﴾

سُورَةُ المُمْتَحَنَة

١ ـ يا أيُّها الذين آمنوا بالله ورسوله إيماناً صحيحاً صادقاً، واتَّبعوا شريعته: لا تَتَّخذوا عدوِّي وعدوَّكم أصدقاء وأنصاراً، تُلقون إليهم بأسباب المحبَّة، كما فعل حاطب بن أبي بَلْتعة تودُّداً منه لكبراء كفار قريش من أجل أهله وَرَحِمِهِ في «مكة»، وقد أصابه من أجلهم الضعف البشري، فَسَقَط في معصيته هذه، ولم يكن ذلك منه حباً للكافرين، وحال هؤلاء الأعداء الذين تتَّخذونهم أولياء، أنهم كفروا بما جاءكم من الحق، فهم مخالفون لكم في أصل العقيدة، ممَّا يمثِّل تبايُناً جذرياً بينكم، ومن مظاهر عدائهم لكم: أنهم يُخرجون الرسول ﷺ، ويُخرجونكم ـ أيها المؤمنون ـ من دياركم وأموالكم في «مكة»؛ يفعلون ذلك لإيمانكم بالله ربِّكم، فنقموا عليكم ذلك، واعتبروكم أعداء للخلاف الاعتقادي الذي خالفتموهم فيه منذ آمنتم بالله، وكفرتم بآلهتهم وعقائدهم الباطلة؛ إنْ كنتم خرجتم من دياركم ـ يوم خرجتم ـ مهاجرين فراراً بدينكم من اضطهاد مشركي مكة لكم، مجاهدين في سبيلي، وطالبين مرضاتي عنكم، فلا تتَّخذوا عدوِّي وعدوَّكم أولياء، تُسرُّون إليهم أخباره ﷺ؛ بسبب ما بينكم وبينهم من المودَّة، وأنا أعلم بما أخفيتم في قلوبكم من المودَّة للكفار، وما أظهرتم بألسنتكم منها، ومن يفعل منكم الإسرار إليهم بالنصيحة والمشاورة وإلقاء المودَّة، فقد أخطأ طريق الحقِّ والصواب.

٢ ـ إنْ يظفر بكم هؤلاء الذين تُسِرُّون إليهم بالمودَّة ويتمكَّنوا منكم، يظهروا لكم ما في قلوبهم من العداوة والغيظ والحنْق عليكم، ويمدُّوا إليكم أيديهم بالضرب والحرب، والقتل والأسر، وألسنتهم بالشَّتْم والسَّب، والطعن والتجريح، والهُزء والسخرية، وتمنَّوا لو تكونوا مثلهم كافرين، فلا يرضَوْن عنكم حتى تُشاركوهم في الكفر بالله، وتتركوا إيمانكم وإسلامكم.

٣ ـ لا تدعوَنَّكم قراباتكم وأولادكم الذين بمكة إلى خيانة رسول الله ﷺ والمؤمنين، ونَقْل أخبارهم، وموالاة أعدائهم، فإنه لا تنفعكم ـ أيُّها المؤمنون ـ قراباتكم ولا أولادكم الذين عصيْتُم الله لأجلهم، يوم القيامة يُفرِّق الله بينكم، فيُدخل أهل طاعته الجنة، وأهل معصيته النار، والله بما تعملون بصير، لا يخفى عليه شيء من أقوالكم وأعمالكم.

٤ ـ قد كانت لكم ـ أيها المؤمنون ـ قدوةٌ حسنةٌ تقْتدون بها في إبراهيم، والذين معه من أهل الإيمان، حين قالوا لقومهم المشركين: إنا بريئون منكم، ومن الآلهة التي تعبدونها من دون الله، كفرنا بأنا منكم وبأنكم منَّا، فلا ولاية بيننا وبينكم، وكفرنا بأنَّ لكم علينا حقَّ القرابة، أو المُواطنة، وكفرنا بما تؤمنون به من باطل، فلا نُبالي بكم ولا بآلهتكم، وظهر بيننا وبينكم العداوة وشدَّة الكراهية، فنحن أعداؤكم، وأنتم أعداءٌ لنا، ونحن نبغضكم بغضاً لا يزول أبداً، حتى تؤمنوا بالله ـ وحده ـ لا شريك له، وأنتم تبغضوننا لأننا نقاومُ شرككمُ، ونُحطِّم أصنامكم. لكن قول إبراهيم لأبيه: لأطلبنَّ لك المغفرة من الله ليس ممَّا يُقْتدى به؛ لأنه وعده بالاستغفار رجاءَ إسلامه، قبل أن يتبيَّن له أنَّ أباه عدوٌّ للَّهِ، فلمَّا تبيَّن له إقامته على الكفر تبرَّأ منه، وقال إبراهيم بعدما وعد أباه بالاستغفار: وما أُغني عنك، ولا أدفع عنك من عذاب الله إنْ عَصَيْتَهُ وأشْركتَ به، قولوا ـ أيها المؤمنون ـ كما قال إبراهيم وَمَنْ معه من المؤمنين: ربَّنا عليك توكلنا، وإليك رجعنا تائبين، وإلى حكمك وحدك، وفَصْل قضائك، وتنفيذ جزائك، وإلى المكان الذي تقضي فيه، مصير جميع الخلائق يوم القيامة.

٥ ـ ربَّنا لا تُعذِّبنا بأيدي الكفار ولا بعذابٍ من عندك، فيقول الكفار: لو كان هؤلاء على الحقِّ ما أصابهم ذلك العذاب، فيزدادوا كفراً، واستُر ذنوبنا يا ربَّنا، إنَّك أنت القويُّ الغالب الكامل القدرة الذي لا ينازعه شيء، الحكيم الذي يضع الأشياء في مواضعها، ويختارُ أفضل الأشياء وأتْقَنَها وأحْسَنَها في الأمور المختلفة لما يُعطي أحسنَ النتائج.

لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٦﴾ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧﴾ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾

٦ - لقد كان لكم - أيها المؤمنون - في إبراهيم ومَنْ مَعَه من أهل الإيمان قدوة حسنة، هذه القدوة لمن يُؤمِّل مترقِّباً ثواب الله، ويطمع بالسَّعادة الخالدة يوم الدين، ويخاف من العقاب فيه، ومَنْ يتولَّ مُدبراً عن الإيمان، ويُوالِ الكفار، فإنَّ الله هو الغنيُّ بذاته وصفاته عن خلقه، له الغنى التام المُطْلق، المحمود على عظيم صفاته، وجليل نعمه، كثير الحمد والثناء لأهل طاعته وأوليائه.

٧ - أرجوا الله سبحانه مُترقِّبين أن يجعل بينكم - أيها المؤمنون - وبين الذين عادَيْتُم من كفَّار مكة مَنْ يوافقكم في الدين، ويؤمن بعد الكفر؛ فيتَّصل حبلُ المودة بينكم بعد الإيمان، والله قدير على جعل المودَّة بينكم، مُتَّصف بالقدرة العامة التي يخلق بها ما يشاء، ويفعل بها ما يريد، والله كثير الستر، دائم الرحمة لمَنْ تاب منهم وأسلم. وقد حقَّق الله تعالى ذلك بأن أسلم كثيرٌ منهم، فصاروا لهم أولياء وإخواناً.

٨، ٩ - لا ينهاكم الله - أيها المؤمنون - عن الذين لم يقاتلوكم من الكفار بسبب الدين، ولم يُخرجوكم من دياركم أن تَصِلوهم وتَعدلوا فيهم بالإحسان إليهم والبرِّ بهم؛ إنَّ الله يحبُّ العادلين، ويُثيبهم على عدلهم، ويُدخلهم جنَّات النعيم؛ لأنَّ مَنْ أحبَّه الله أكرمه، وأدخله في رحمته. إنَّما ينهاكم الله - أيها المؤمنون - عن الذين قاتلوكم بسبب الدين، وأخرجوكم من دياركم، وعاونوا على إخراجكم أن تتَّخذوهم أصدقاء وأنصاراً، ومن يتَّخذهم أنصاراً على المؤمنين وأحباباً، فأولئك البُعداء عن رحمة الله هم الظالمون لأنفسهم، حيث وضعوا الولاء في غير موضعه، فعرَّضوا أنفسهم للعذاب الشديد. فموادَّة المؤمنين بالله واليوم الآخر لمعادي الله ورسوله ومُعلني الحرب على المسلمين قضية تناقض الإيمان، لأنَّ من مقتضى الإيمان معاداة مَنْ عادى الله ورسوله وحارب المسلمين. وهذه قضية غير قضية معاملة الكافرين غير المقاتلين للمسلمين بالبرِّ والقسط، إذ قد تكون معاملتهم بالبر والقسط سبباً لتأليف قلوبهم، وتحبيبهم بالإسلام، فيُسلمون حباً بدين الله، وإعجاباً بالأخلاق التي يتحلَّى بها أتباعه.

١٠ - يا أيُّها الذين صدَّقوا الله ورسولَهُ، واتَّبعوا هديَهُ: إذا جاءكم النساء المؤمنات مهاجرات من دار الكفر إلى دار الإسلام، فاختبروهُنَّ، بأن تُستَحلَف إحداهُنَّ: ما خرجت من بُغْضِ زوج، ولا رغبةً عن أرض إلى أرض، ولا التماس دنيا، وما خرجت إلا رغبةً في الإسلام، وحُبَّاً لله ولرسوله ﷺ؛ هذا الامتحانَ لتعلموا صدق إيمانهنّ، بغلبة الظن التي تُرجِّح أنهنَّ مؤمنات، والله أعلم بحقيقة إيمانهنّ؛ لأن حقيقة الإيمان كامنةٌ في القلوب لا يعلمها إلا الله، والدلائل التي تدلُّ على الإيمان بالنسبة إلى الناس لا تعدو أن تكون ظواهر مُرجِّحة، وقد يكون المكنون في القلوب على خلاف ذلك، ومع هذا فقد جعل الله نتائج هذا الإيمان التي لا تصل إلى مرتبة اليقين، وإنما تصل إلى مرتبة الظن الراجح نوعاً من العلم، الذي يصحُّ الاعتماد عليه والاستفادة منه، فإذا أقْررن بالإيمان، وظهرت لكم أمارات صدقهنَّ، فلا تردُّوهُنَّ إلى أزواجهنَّ الكفار؛ لأنَّ الله لم يُبح مؤمنة لكافر، لا المؤمنات حلالٌ لأزواجهم الكفار، فيزول النكاح، وتثبت الفرقة بإيمانهنَّ وهجرتهنَّ، ولا الأزواج الكفار يحلُّون للمؤمنات فيما يستأنف ويستقبل من النكاح، وآتوا أزواجهنَّ ما أنفقوا عليهنَّ من المهر الذي دفعوه إليهنَّ، ولا إثم عليكم أن تتزوَّجوا المؤمنات المهاجرات من دار الحرب إلى دار الإسلام، وإن كان لهنَّ أزواج كفار في دار الحرب، إذا آتيتموهنَّ مهورهنَّ، فما دفعتم لأزواجهنَّ لا يقوم مقام مهورهنَّ، ولا تُمسكوا بعقد زوجيَّة الكافرات المقيمات في دار الحرب، واطلبوا - أيها المؤمنون - إن لحقت امرأة منكم بالمشركين مرتدة، ما أنفقتم من المهر ممَّن تزوَّجها منهم، وليطلب المشركون الذين لحقت أزواجهم بكم ما أنفقوا من المهر ممَّن تزوَّجها منكم، ذلكم التشريع حكم الله، يحكم به بينكم، فلا تخالفوه، والله عليمٌ بمصالح عباده، حكيمٌ في جميع أفعاله وأقواله.

١١ - وإنْ أُفلتَ منكم - أيُها المؤمنون - بعض أزواجكم إلى الكفار، فَلَحِقْنَ بهم مُرتداتٍ، فغزوتم فغنمتم، وأصبتم من الكفار عُقْبىٰ، وهي الغنيمة، فأعطوا المسلمين الذين ذهبت أزواجهم منكم إلى الكفار مُرتدات، من الغنائم التي صارت في أيديكم مثل ما أعطوهنَّ من المهور قبل ذلك، واتَّقوا الله - بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه - الذي أنتم به مؤمنون.

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ﴿١٣﴾

سُورَةُ الصَّفِّ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٥﴾

١٢ ـ يا أيها النبيُّ الذي شرَّفناك بالنبوَّة، إذا جاءَك النساء المؤمنات بالله ورسوله يُعاهِدنك على الوفاء بهذه الشروط الستة: **الشرط الأول**: أن لا يُشركن بالله شيئاً ما في ربوبيَّته ولا في إلهيَّته، **والثاني**: لا يسرقن، **والثالث**: لا يزنين، **والرابع**: لا يقتُلن أولادهُنَّ بوأد أو إسقاطِ حملٍ بعد ظهور التخلُّق، **والخامس**: لا يأتين بأولادٍ يلتقطنَهم وينْسبنَهم كذباً إلى الأزواج، **والسادس**: لا يَعصينَكَ في كلِّ ما تأمرهُنَّ به، أو تنهاهُنَّ عنه، إذا بايعنَكَ على هذه الشُّروط فبايعهُنَّ، واطلب لهُنَّ المغفرة من الله، إنَّ الله كثير السَّتر لذنوب عباده، واسع الرحمة بهم.

١٣ ـ يا أيُّها الذين آمنوا بالله ورسوله إيماناً صحيحاً صادقاً، واتَّبعوا هديه: لا تتَّخذوا أولياءَ وأنصاراً قوماً غَضِبَ الله عليهم من اليهود، الذين عاينوا رسول الله ﷺ، وعرفوا أنه رسول الله، فكذَّبوه ولم يؤمنوا به، قد يئسوا أن يكون لهم ثواب أو خير في الآخرة، كما يئس الكفار من أصحاب القبور أن يرجعوا إليهم، أو كما يئس الكفار المقْبورون، من رحمة الله في الآخرة؛ حين شاهدوا العذاب، وعلموا علم اليقين أنَّهم لا نصيب لهم من رحمة الله عزَّ وجل.

سُورَةُ الصَّفِّ

١ ـ نزَّه اللَّهَ عن كلِّ ما لا يليق بجلاله، وعظيم سلطانه، وكمال صفاته وأسمائه الحسنى، وكمال أفعاله وتصرُّفاته، جميعُ أجزاء السموات وما فيها من شمس وقمر ونجوم ومجرَّات، وغير ذلك، وجميع ذرَّات الأرضين، وما فيها من جبال وبحار وشجر ودوابّ، كلُّها مُسبِّحة خاشعةٌ خاضعةٌ لجلال عظمة الله تعالى، منقادةٌ له منذ إنشائها، يتصرَّف فيها كيف يشاء، وهو سبحانه القويُّ الغالب الكامل القدرة الذي لا يُغالَب، الحكيمُ الذي يضع الأشياء في مواضعها، ويختار أفضل الأشياء وأتْقَنَها وأحسنَها في الأمور المختلفة لما يُعطي أحسن النتائج.

٢، ٣ ـ يا أيُّها الذين صدَّقوا بالله واتَّبعوا رسوله، لِمَ تقولون بألسنتكم ما لا تُصدِّقه أفعالكم؟ عَظُم بُغضاً عند الله، أن تقولوا بألسنتكم ما لا تفعلونه. وفي هاتين الآيتين: الحثُّ على الصِّدق والاستقامة، وأن يكون باطنُ المسلم كظاهره، وأن يُطابق فعلُهُ قولَه، في تمنِّي فريضة الجهاد وعدم النكول عنه، وفي سائر الأمور. وفيهما أيضاً: ضرورة موالاة النفس البشريَّة بالتَّقوية والتَّثبيت والتَّوجيه، وهي تُواجه التكاليف الشَّاقَّة؛ لتستقيمَ في طريقها، وتتغلَّبَ على لحظات ضعفها، كما ترشُدنا أن نتواضع في طلب التكاليف وتمنِّيها ونحن في حالة العافية، فلعلَّنا لا نقوى على ما نقترح على الله حين يُكلِّفنا إياه. وهؤلاء جماعة من المسلمين في المدينة كانوا يسألون عن أحبِّ الأعمال إلى الله ليفعلوه، فلما أمروا بالجهاد كرهوه! فَعَاتبهم الله سبحانه هذا العتاب الشديد.

٤ ـ إنَّ الله يُحبُّ الذين يصفُّون أنفسهم عند القتال في سبيل الله صفّاً، في خطة مرسومة موحَّدة جامعة للقوى، ويثبتون في الجهاد، وينفِّذون أوامر قيادتهم الحربية الواحدة، كأنَّهم بنيانٌ مُحكمٌ متلاصق قد رُصَّ بعضه ببعض، فليس فيه فُرجة ولا خَلَل.

وقد تقضي الخطة الحكيمة التي تضعها القيادة أن يقاتل بعض المقاتلين، ويتربَّص بعضهم، ويكون قسمٌ منهم في الكمائن، وأن يُداهموا العدوَّ من عدَّة جبهات مختلفات الشكل، متنوِّعات السلاح. وليس معنى وحدة صف المقاتلين أن يُواجهوا عدوَّهم على طريقة الصفِّ المُتراصِّ كتفاً بكتف؛ لأنَّ ذلك قد يُمكِّن العدوَّ من حَصْدهم بالأسلحة الناريَّة الحديثة بسرعة خاطفة. وفي الآية الحثُّ على القتال في سبيل الله لتكون كلمة الله هي العليا، وأن يواجه جنودُ الإسلام أعداءه، صفاً سويّاً راسخاً، كالبنيان الذي تتعاون لبناته وتَتَضام وتتماسك، وتؤدِّي كل لبنة دوْرها، وتسدُّ ثغرتها؛ لأن البنيان كله ينهار إذا تخلَّت منه لبنة عن مكانها، تقدَّمت أو تأخَّرت، أو تخلَّت عن أن تُمسك بأختها تحتها أو فوقها، أو على جانبيها سواء.

٥ ـ وضع في ذاكرتك ـ أيُّها المُتلقِّي لبياننا ـ حين قال موسى عليه السلام لقومه بني إسرائيل: يا قوم الذين أنتم أهلي وعشيرتي لِمَ تُؤذونني بأنواع من الأذى والتعنُّت، والعصيان والتمرُّد، وأنتم عالمون علماً قطعيّاً أني رسول الله إليكم؟ والرسولُ يوقَّر ويُعظَّم ولا يُؤذىٰ، وعلمكم بأني رسول الله يلزمكم بطاعتي والمسارعة إلى تنفيذ أمري، فلمَّا عدلوا ومالوا عن الحقِّ بإراداتهم وأعمالهم، وأصرُّوا على ذلك، أمال الله قلوبهم عن قبول الهداية؛ عقوبةً لهم على زيغهم الذي اختاروه لأنفسهم، فحكم على قلوبهم بما جرى فيها من مَيْل عن الحق، إلى المتاهات والضلالات، والله سبحانه لا يحكم لهم بالهداية، وهم قوم خارجون عن طاعته وهدايته، وهذا مقْتضىٰ الحقِّ والعدل. وفي هذه الآية تنبيهٌ على عِظَمِ إيذاء الرسل حتى إنَّ أذاهم يؤدِّي إلى الكفر، وزَيْغ القلوب عن الهُدى، والعياذ بالله تعالى.

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ ﴿١٤﴾﴾

٦ ـ وضع ـ أيها المُتلقّي لبياننا ـ في ذاكرتك حين قال عيسى ابن مريم: يا بني إسرائيل إني رسولُ الله، أُرسلت إليكم بالوصف الذي وُصفت به في التوراة، مُصَدِّقاً بأحكام التوراةِ وكُتب الله وأنبيائه جميعاً ممَّن قد تقدَّم، ومُبشِّراً برسول يأتي من بعدي اسمه «أحمد»؛ لكثرة حمده لله، وجمعه للفضائل والمحاسن والأخلاق التي يُحمد بها، فلمَّا جاءهم الرسول المُبشَّر به، محمد ﷺ بالآيات الواضحات، قالوا: هذا سحرٌ ظاهرٌ واضح.

٧ ـ ولا أحدٌ أقبح ظلماً ممَّن يدعوهُ ربُّه على لسان نبيِّه ﷺ، إلى الإسلام الذي فيه سعادةُ الدارَيْن، فيجعل مكان إجابته افتراءَ الكَذب على الله بقوله: هذا سحرٌ واضح ظاهر، واللّهُ لا يُثبت الهداية لمن افْترى عليه الكذب، وكذَّب رسوله الخاتم المبشَّر به في كتبهم، وكيف يحكم لهم بالهداية، وقد ظلموا ظلماً كثيراً، وافْتروا على الله كذباً؟!.

٨ ـ يريد الكفار، ولا سيما اليهود والنصارى مُرادات مختلفات، ويتَّخذون أسباباً متعدِّدة، يُدبِّرون بها مكايد ووسائل؛ ليقمعوا دينَ الله، ويُطفئوا نور رسالة الحقِّ التي أرسل الله بها رسوله، بأضاليلهم التي يقولونها بأفواههم، ونظرياتهم الباطلة ومغالطاتهم وأكاذيبهم؛ ليُغَشُّوا بهذه الأقوال والمغالطات والافتراءات على عقول أتباعهم، فلا يَرَوْا نور الحقِّ المبين فحالهم فيما يريدون كحالهم وهم يريدون أن يطفئوا نورَ الله الكونيّ بأفواههم، والله متمُّ نوره العظيم ومُظْهره، ومبلِّغه غايته رُغم كلِّ محاولاتهم الفاشلة، ولو كَرِهَ الكافرون ذلك، وتميَّزوا منه غيظاً.

٩ ـ الله عزَّ وجلَّ الذي أرسل رسولَهُ محمداً ﷺ هُدىً للناس، وبالإسلام دين الحقِّ؛ ليُعليه على الأديان المخالفة له، ولو كره المشركون من يهود ونصارى وغيرهم. ولقد فعل الله ذلك، فلم يبقَ دينٌ من الأديان إلا وهو مغلوبٌ ومقهورٌ بدين الإسلام.

١٠، ١١ ـ يا أيُّها الذين صدَّقوا الله ورسوله، واتبعوا شريعته: هل أُرشدكم إلى تجارةٍ عظيمة مُنْجية، تربحون فيها رضا الله عزَّ وجل، وتنالون جنَّته، وتنجون من النار؟ هذه التجارة العظيمة الرابحة هي أن تثبتوا على الإيمان بالله ورسوله، وتُجاهدون في سبيل الله جهاداً صادقاً خالصاً من شوائب أغراض الدنيا بأموالكم وأنفسكم، ذلكم ـ الذي آمركم به من الإيمان والجهاد لنُصْرةِ دين الله ـ خيرٌ لكم من أموالكم وأنفسكم، إن كنتم تعلمون أنه خيرٌ لكم، فتحبُّون الإيمان والجهاد فوق حُبِّكم أموالكم وأنفسكم.

١٢ ـ إذا آمنتم بالله إيماناً صحيحاً صادقاً، وجاهدتم في أموالكم وأنفسكم جهاداً صادقاً خالصاً، تنالون ثمرة التجارة الرابحة؛ ثواباً مؤجَّلاً ليوم الدين، وهو الثواب الأعظم الذي ينبغي أن يكون هدف المجاهدين، وثمرة هذا الثواب المؤجَّل: **أولاً**: يَسْتر عليكم ذنوبكم، **وثانياً**: يدخلكم جنَّات عظيمات تجري من تحت أشجارها وقصورها الأنهار، **وثالثاً**: يُسكنكم مساكن طاهرة زكيَّة، تسكن فيها نفوسكم، وتسكنون فيها إلى أزواجكم من الحور العين الطيِّبات الطاهرات الزاكيات، وهذه المساكن تكون في جنَّاتِ إقامة دائمة لا تنقطع، ذلك الجزاء الذي ذُكر هو الربح العظيم.

١٣ ـ ولكم أيضاً مع الثواب المؤجَّل ليوم الدين ثوابٌ آخر مُعَجَّل، في الدنيا تحبُّونه، وثمرة هذا الثواب المُعَجَّل: **أولاً**: نصرٌ من الله على أعدائكم على أيِّ وجْهٍ من وجوه النصر، بالقتال أو بغيره، **وثانياً**: فتحٌ عاجلٌ قريب يفتح الله به للمجاهدين البلاد والممالك، تظفرون فيه بالمجْد العظيم، والمغانم الكثيرة، وبشِّر ـ يا رسول الله ـ المؤمنين بالنصر في الدنيا، والجنة في الآخرة. وقد تحقَّق وعد الله، فتمَّ نصر الله للمؤمنين من أصحاب رسول الله ﷺ، وكتب لهم الفتح القريب ـ وهو فتح مكة ـ ثمَّ فتح الممالك العظمى التي كانت صاحبة السلطان في الأرض، وما يزال يتحقَّق وعد الله تعالى في كلِّ زمان ومكان.

١٤ ـ يا أيُّها الذين آمنوا، كونوا أنصاراً لدين الله، كما نَصَرَ أصفياءُ عيسى عليه السلام وخواصُّه دينَ الله، لما قال لهم عيسى عليه السلام: مَنْ الذين ينْصُرونني، ساعين إلى بلوغ مرضاة الله، بالجهاد الدعويِّ في سبيله، مُبلِّغين دينَه مهما تلقَّوا من أذىً واضْطهاد؟ قال أصفياء عيسى وخُلَّص أصحابه: نحن الذين ينصرون دينَ الله بصدقٍ وإخلاص وتضحية، فآمنت طائفةٌ من بني إسرائيل بعيسى عليه السلام، وكفرت طائفة به، فقوَّينا الذين آمنوا بعيسىٰ على عدوِّهم الذين كفروا به، فأصبحوا قاهرين لهم، ظاهرين عليهم.

سُورَةُ الجُمُعَةِ (مدنية) (آياتها ١١)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ



يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤﴾ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾

سُورَةُ الجُمُعَةِ

١ - يُنزِّه الله تعالى بدوام وتجدُّد عن كلِّ ما لا يليق بجلاله، وعظيم سلطانه، وكمال أسمائه الحسنى وصفاته العُلى، وكمال أفعاله وتصرُّفاته، جميعُ أجزاء السموات وما فيها من شمس وقمر ونجوم ومجرَّات، وغير ذلك، وجميع ذرَّات الأرضين، وما فيها من جبال وبحار وشجر ودواب، كلُّها مُسبِّحة خاشعة خاضعة لجلال عظمة الله تعالى، منقادة له، وهو - وحده - المُتصرِّف بالأمر والنهي في جميع خلقه، المالك لهم، فهم تحت ملكه وإرادته، الطاهر من كلِّ عيب، المنزَّه عن كلِّ نقص، الغالب الذي لا يُعجزه شيء، الحكيم الذي جميع أفعاله وَفْق الحكمة والصواب.

٢ - الله سبحانه الذي بَعَث في العرب الذين لا يقرؤون ولا يكتبون، رسولاً أميّاً مثلهم، يعلمون نسبه وصدقه وأمانته، يقرأ عليهم آيات الله؛ ليحفظوها ويُحسنوا أداءها، ولينقلوها إلى الأجيال من بعدهم، ويُطهِّرهم من دَنَس الشِّرك، ومن الأعمال والأخلاق السيئة، والنيات الفاسدة، والعقائد والأفكار الباطلة، ويزيدهم في الخير والفضائل على اختلاف أنواعها: النفسيَّة والفكريَّة والاعتقاديَّة والسلوكيَّة، ويُعلِّمهم معاني القرآن وحقائقه، وأحكام السنة المطهَّرة المبيِّنة والشَّارحة للكتاب، كما يرشدهم إلى وَضْع الأشياء في مواضعها، اعتقاداً، أو فكراً، أو معرفةً، أو عملاً، وإنْ كانوا من قبل إرسال محمد ﷺ لفي بُعدٍ عن الحقِّ شديد الوضوح. وتخصيص العرب بالذكر لا ينفي عموم رسالته لغيرهم، فرسالته ﷺ عامةٌ شاملة، ولكن المنَّة على العرب أبلغ وأكبر، ومسؤوليتهم عن حَمْل رسالته أعظم.

٣ - وأرسله سبحانه إلى قوم آخرين من المؤمنين، لم يُدركوا الصحابة، وجاؤوا بعدهم، وهم جميع مَنْ دخل في دين الإسلام بعد النبيِّ ﷺ إلى يوم القيامة، وهو سبحانه القويُّ الغالب، في تمكينه رجلاً أميّاً من ذلك الأمر العظيم، وتأييده عليه، الحكيم في اختياره إيَّاه من كافَّة البشر.

٤ - ذلك البعثُ للرسول ﷺ واختياره وتعليمه، فَضْلُ الله، يُعطيه مَنْ يشاء من عباده، والله ذو الإحسان العظيم، والعطاء الجزيل لخلقه، حيث أرسل فيهم رسوله محمداً ﷺ، وشرَّفهم بحمل رسالته، ونشرها، والجهاد من أجلها.

٥ - مَثَلُ اليهود الذين كُلِّفوا القيامَ بالتوراة والعمل بما فيها، ثمَّ لم يعملوا بما فيها، ولم يؤدُّوا حقَّها، وأعرضوا عن الإيمان بمحمد ﷺ، كَمَثَل الحمار المشْتهر بالبلادة والغباء يحمل الكُتبَ العِظَام من العلم، وهو لا يفْقَهُ ما فيها من دلالات، ولا يعمل بشيءٍ منها، قَبُحَ مثلاً مثلُ القوم الذين كذَّبوا بآيات التوراة؛ لأنهم كذَّبوا بها حين تركوا الإيمان بمحمد ﷺ، وما أتى به من آياتِ القرآن، والله لا يحكم بالهداية للقوم الذين ظلموا أنفسهم بتكذيبِ آيات الله وأنبيائه، وعرَّضوا أنفسهم للعذاب الأليم في نار الجحيم.

٦ - قل - يا رسول الله، ويا كلَّ داعٍ إلى الله من أمته -: يا أيها الذين صاروا يهوداً، إن ادَّعيتم - باطلاً - أنكم أحبَّاء الله من دون محمد ﷺ وأصحابه، فأحبُّوا الموتَ في قلوبكم، وأعلنوا ذلك بالدعاء به على أنفسكم، فإنَّ الموت هو الذي يُوصلكم إلى لقاء الله، وحسابه، وجزائه، إن كنتم صادقين - فيما زعمتم - أنكم أبناء الله وأحباؤه؛ لأنَّ الآخرة خيرٌ لأولياء الله من الدنيا.

٧ - ولا يتمنَّى اليهودُ الموتَ أبداً، إيثاراً للحياة الدنيا على الآخرة، وخوفاً من عقاب الله لهم؛ بسبب ما قدَّموا من الكفر والتكذيب، والله عليمٌ بالظالمين الذين أشركوا به، وتعدَّوْا على حقوق الخالق سبحانه وحقوق عباده، لا يخفى عليه شيء من ظلمهم، وسيجزيهم على أعمالهم.

٨ - قل - يا رسول الله، ويا كلَّ داعٍ إلى الله من أُمَّته -: إنَّ الموت الذي تهربون منه، ولا تَجْسروا أن تتمنَّوه خِيفَةَ أن تُؤخَذوا بوبال كفركم، فإنه آتٍ إليكم عند انقضاءِ آجالكم، لا ينفعكم الفرار منه، ثمَّ تُردُّون إلى عالِم السرِّ والعلانية، يعلم ما غاب عنكم ممَّا لا تَصِلُ إليه حواسّكم وعقولكم، وما تُشاهدونَه، فيُخبرُكم بجميع أعمالكم التي كنتم تعملونها في الدنيا، ويجازيكم عليها.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمٗاۚ قُلۡ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ مِّنَ ٱللَّهۡوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِۚ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١﴾

سُورَةُ المُنَافِقُونَ

مدنية — آياتها ١١

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشۡهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ ﴿٣﴾ ۞وَإِذَا رَأَيۡتَهُمۡ تُعۡجِبُكَ أَجۡسَامُهُمۡۖ وَإِن يَقُولُواْ تَسۡمَعۡ لِقَوۡلِهِمۡۖ كَأَنَّهُمۡ خُشُبٞ مُّسَنَّدَةٞۖ يَحۡسَبُونَ كُلَّ صَيۡحَةٍ عَلَيۡهِمۡۚ هُمُ ٱلۡعَدُوُّ فَٱحۡذَرۡهُمۡۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴿٤﴾

٩ - يا أيُّها الذين آمنوا بالله ورسوله إيماناً صحيحاً صادقاً، إذا نُودي لوقتِ الصَّلاة في يوم الجمعة، فامْضُوا بهمّة ونشاط إلى سماع الخُطبة وأداء الصلاة، واتركوا البيعَ والشراء وسائر الأعمال الدنيويّة، ذلك الذي أُمرتم به من حضور الجمعة، وترك الأعمال الدنيويّة، وأهمها: البيع والشراء، خيرٌ لكم من المُبايعة التي فيها ربحٌ من غير جهد كبير في ذلك الوقت، إن كنتم تعلمونَ مصالح أنفسكم، فأقبلوا على العبادة بهمَّة نفسيَّة، ونشاط في العمل؛ لأنَّها مُحدَّدة الوقت، معلومة المقدار، مضمونة النتيجة عند الله تعالى.

١٠ - فإذا فُرغ من صلاة الجمعة، فتفرَّقوا في الأرض للتجارة والتصرُّف في حوائجكم، ومطالب حياتكم، ومصالح دنياكم، واطلبوا رزقَ الله بأناةٍ ورفق مع صبرٍ وكدح، واذكروا الله كثيراً في جميع أحوالكم؛ رغبةً في الفوزِ بخَيري الدنيا والآخرة.

١١ - وإذا أبْصَرَ بعضُ المسلمين تجارةً أو لهواً، تفرَّقوا وذهبوا نحو التجارة واللهو، وتركوك قائماً في الخطبة للجمعة. قل لهم - يا رسول الله -: ما عند الله من الثواب والأجر على الصَّلاة، والثبات مع النبيِّ ﷺ خيرٌ ممَّا يشغلكم عن الطاعة، ومن التجارة التي تَبْتغون منها الربحَ والمنافع العاجلة، ولن يفوتكم ما قُدِّر لكم من الرزق، والله تعالى - وحده - هو خيرُ مَنْ يُعطي ويرزق؛ لأنَّ كلَّ رزق من سواه، فهو من رزقِ الله، أجراه الله على يديه، وهوالرزاق الحقيقي الذي لا رازق سواه، فإيَّاه فاسألوا، ومنه فاطلبوا، واستعينوا بطاعته على نَيْل ما عنده من خيري الدنيا والآخرة.

سُورَةُ المُنَافِقُونَ

١ - إذا جاءك - يا رسول الله - المنافقون الكاذبون في ادّعاء الإيمان قالوا بألسنتهم: نشهدُ بألسنتنا شهادةً مُطابقةً لما نعتقده ونؤمن به في قلوبنا، إنَّك لرسول الله، والله يعلم إنَّك لرسوله الذي أرسلك، والله يشهد إنَّ المنافقين لكاذبون في قولهم: نشهد إنَّك لَرَسُولُ الله؛ لأن قولهم خالف اعتقادهم.

٢ - جعلوا أيْمَانَهم الكاذبة التي يحلفونها سُتْرةً يَسْتَتِرون بها من القتل، فأعرضوا بأنفسهم عن طاعة الله ورسوله، ومنعوا الناس عن الإيمان بمحمد ﷺ، والجهاد معه، ما أشدَّ سوءَهم بسبب ما كانوا يعملون من عمل شديد السُّوء!!

٣ - ذلك الذي ذُكر من حالهم الذي دأبوا عليه؛ بسبب أنَّهم آمنوا في الظاهر، ثمَّ كفروا في السرِّ، وبعد أن استمرُّوا مدَّة فيما اختاروه لأنفسهم من نفاق، كان من نتيجة ذلك بمُقْتضى سُنن الله السببيَّة أن يُقْفل على قلوبهم إقفالاً كاملاً، ويُطْبع على هذه الأقفال بالأختام، حتى صارت غير مُستعدَّة لاستقبال واردات الهداية، فهم لا يفهمون بواطن الأمور ودقائقها، ولا يتبصّرون بالنتائج والعواقب الوخيمة للأعمال الفاسدة المفسدة، وينطلقون في جرائم نفاقهم بجُرأة ووقاحة، كأنهم هداة مصلحون غير مفسدين.

٤ - وإذا رأيتَ - يا رسول الله - المنافقين تُعجبُكَ مناظرهم الحَسَنة، وإن يقولوا تَسْمَع لأقوالهم المنمّقة، فهم يتصنَّعون الظواهر التي تخدع الأنظار، ويحسنون القول فصاحةً وبياناً وانتقاءً للمعاني، فإذا حضروا مجالس العلم والذكر مع المؤمنين اختاروا لأنفسهم الأماكن التي يسندون إليهم ظهورهم كالجُدُر والسَّواري، لأنها مُريحةٌ لهم، وذات وجاهة، لكنهم لا يعون ممَّا يقال في هذه المجالس من علم وذكر شيئاً، لانصراف أذهانهم وقلوبهم، كأنَّهم أعمدةٌ من خشب مُسَنَّدة على الجُدر، يظنُّون لخبثهم ولشدَّة حذرهم وترقُّبهم كلَّ صوت عالٍ بإنذار واقعاً عليهم بما يكرهون؛ لما في قلوبهم من الرُّعب والخوف من افتضاح أمرهم، هم وحدهم الكاملون في العداوة، الراسخون فيها؛ لمُخالطتهم ومُداخَلتهم ومصانعتهم، وتظاهرهم بالإسلام، ومعرفتهم مقاتل المسلمين، وثغرات الضعف التي يمكن أن ينفذوا إليها، فاحذرهم - يا رسول الله -، وراقب كلَّ حركة من حركاتهم، وكلَّ تصرُّف من تصرُّفاتهم، واتَّخذ كلَّ الوسائل التي تحميك والمسلمين من مكرهم ومكايدهم، ولا تَدَعْ لهم مَنْفَذاً ينفُذون منه للإضْرار بالمسلمين، وإفساد أحوالهم، ولا تأمنهم على سرِّك؛ لأنهم عيونٌ لأعدائك من الكفار، ينقلون إليهم أسرارك، لعنهم الله وطردهم من رحمته طرداً أبدياً، كيف يُصْرَفون عن الحقِّ والرُّشد إلى ما هم عليه من الكفر والضلال؟!

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٦﴾ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾

سُورَةُ التَّغَابُنِ (مدنية ٦٤ — آياتها ١٨)

٥ ـ وإذا ارتكب المنافقون ذنباً من الكبائر التي تمسُّ الرسول أو جماعة المؤمنين، تَنمُّ عن سوء طويَّتهم، وتدلُّ على عدم صدق ولائهم، ودعاهم بعض المؤمنين إلى الرسول؛ ليعتذروا ويطلبوا منه أن يستغفر لهم، أعلنوا الرفض بتلقائية، وأمالوا رؤوسهم بسرعة وعنف، رغبةً عن الاستغفار؛ ورأيتهم ـ يا رسول الله ـ يُحجمون عمَّا دُعوا إليه، ويصرفون من يتأثَّر بهم عن سلوك سبيل الله، وهم مستكبرون عن اتِّباعك وطاعتك واستغفارك لهم، والسبب في ذلك: أنهم كافرون باطناً، فهم لا يؤمنون بأنهم عصاة حتى يشعروا بالحاجة إلى أن يستغفر لهم الرسول، ويُعرضون عن كل عمل فيه مرضاة لله تعالى، أو طاعة لرسوله ﷺ، ويرون أنهم أحقُّ بالزعامة والقيادة.

٦ ـ سواءٌ على هؤلاء المنافقين، أَطَلَبْتَ لهم المغفرة من الله ـ يا رسول الله ـ أم لم تطلب لهم، لن يغفر الله لهم ما داموا كافرين باطناً؛ إنَّ الله لا يحكم بالهداية للحقِّ القومَ الخارجين على أمره، الذين سلكوا بإراداتهم الحرَّة مَسْلكَ الكفر والضلال. فالحكم بالمغفرة والهداية التي تجعل العاصي من أهل النجاةِ والهداية، إنما يكونان لأهل الإيمان فقط، أما من هبط عن أدنى درجات الإيمان، ودخل في دركات الكفر فلا حظَّ له بشيءٍ منهما.

٧ ـ هؤلاء المنافقون هم الذين يقولون لأهل المدينة من الأنصار: لا تنفقوا مِنْ أموالكم على مَنْ عند رسول الله من فقراء المؤمنين؛ كي يتفرَّقوا عنه ولا يصحبوه، ولِلَّهِ ـ وحدَه ـ مفاتيح الرزق، فهو الذي يعطي منها ويمنع من يشاء من عباده، بحسب حكمته ومشيئته، وقَضَت سنَّته أنَّ من أنفق ابتغاء مرضاة ربِّه أخلف الله عليه، وضاعف له الأجر، وأنَّ من أمسكَ أمسكَ الله عنه، أو حرمه من أن يستمتع أو ينتفع بما وهبه، ولكنَّ هذه المعاني الدقيقة لا يفقهها المنافقون؛ لأن أذهانهم وأفكارهم لا تتجاوز ظواهر الحياة الدنيا، ومصالحهم القريبة العاجلة.

٨ ـ يقول هؤلاء المنافقون وعلى رأسهم عبد الله بن أُبي الذين وافقوه على مقالته: نقسم لئن رَجَعنا من غزوة بني المُصْطلق إلى «المدينة»، ليُخرجنَّ فريقُنا الأقوى منها فريقَ المؤمنين الأضعف والأهون، ولِلَّهِ العزَّة بقهره وقوته وغلبته، ولرسوله ﷺ بإظهار دينه على الأديان كلِّها، وللمؤمنين بإمداد الله لهم بالقوة الغالبة، ونصرهم على أعدائهم، ولكنَّ المنافقين لا يعلمون هذه الحقيقة؛ لفرط جهلهم، ويحسبون أنَّ لديهم من القوَّة ما يستطيعون بها إخراج الرسول والمهاجرين مطرودين من «المدينة».

٩ ـ يا أيُّها الذين صدَّقوا بالله ورسوله، واتَّبعوا هَدْيَه: لا تشغلكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر كلِّ ما يتَّصل بالله سبحانه من عقائد إيمانيَّة، وواجباتِ أمر الله بها، ومُحرَّمات نهى عنها، كما ألهت الأموال والأولاد المنافقين، ومَنْ شَغَله مالُهُ وولدُه عن ذكر الله، فأولئكَ البُعداء عن مراتب المؤمنين هم الخاسرون في تجارتهم، الذين خسروا رأس مالهم في هذه الحياة، وهو: عمرهم المحدود، ومَنْ خسر ذاته كان هو الخاسر الأكبر. فمنْ وجَّه كلَّ همِّه في الحياة الدنيا للأموال وجمْعها وعدِّها وتنميتها، وللأولاد وحاجاتهم ومطالبهم التي لا تنتهي، اضطُر أن ينفق في ذلك كلَّ طاقات فكره ونفسه، حتى تَمَّحي من تصوُّراته عقائد الإيمان وأوامر الله التي كلَّفه بها، ويحلَّ محلها مفهومات أهل النفاق ومطالبهم من الحياة الدنيا، فيتفق في مفهوماته وسلوكه معهم.

١٠ ـ وأنفقوا ـ أيُّها المؤمنون ـ بعضَ ما رزقناكم في الحياة الدنيا، من قبل أن يرى أحدكم دلائل الموت ومقدِّماته وعلاماته، فيقول: ربِّ هَلاَّ أمهلتني في الحياة الدنيا، وأخَّرت أجلي، فأتصدَّق وأبذل مالي تقرُّباً إليك، وأكون من المؤمنين الصَّالحين. لكنه مَطْلبٌ لا يُستجاب له، فقد انتهت رحلة الامتحان عند حلول أجل الموت، وانقطع كلُّ عمل، ودخل الإنسان عتبة اليوم الآخر.

١١ ـ ولن يُؤَخِّر الله تعالى مَنْ حَضَر أجله، وانْقَضَت مُدَّته، والله خبيرٌ بما تعملون من خيرٍ أو شر، على سبيل الشُّهود والحضور المُصَاحِبِ لكلِّ أجزاء العمل، ظواهرِهِ وبواطنِهِ، وسيُجازيكم على أعمالكم.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ
وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ
وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾
يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَٱللَّهُ
عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ
فَذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ
رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ وَّٱسْتَغْنَى
ٱللَّهُ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٦﴾ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي
لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ
وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلْنَا وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ
يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ
صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا
ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾

سورة التغابن

١ ـ يُنزِّه اللَّهَ بدوام وتجدُّد عمَّا لا يليق بجلاله، وعظيم سلطانه، وكمال أسمائه الحُسنى وصفاته العليا، وكمال أفعاله وتصرُّفاته، جميعُ أجزاء السموات وما فيها من شمس وقمر، ونجوم ومجرَّات، وغير ذلك، وجميع ذرَّات الأرضين، وما فيها من جبال وبحار وشجر ودواب، كلّها مُسبِّحة خاشعة خاضعة لجلال الله تعالى منقادة له، له سبحانه التصرُّف المطلق في ملكه كيف يشاء، وله الثناءُ الحَسَن الجميل؛ لأنَّ أصول النعم كلها منه، وهو الذي يُحمد على كلِّ حال، فلا محمودَ في جميع الأحوال إلا هو، وهو سبحانه على كلِّ شيءٍ يشاؤه من المُمْكنات العقليَّة عظيم القدرة، إيجاداً أو إعداماً، أو تغييراً أو تحويلاً، لا يعجزه شيء مهما عظم، ولا يصعب عليه شيء مهما كبر.

٢ ـ هو سبحانه الذي أوجدكم وأنشأكم كما أراد، فبعضكم جاحدٌ لربوبيَّته، مشرك بإلهيَّته، وبعضكم مُصدِّق به، عامل بشرعه، فلكلِّ واحد من الفريقين إرادة حرةٌ يختار بها طريق الكفر أو الإيمان، وكان الواجب عليكم جميعاً أن تكونوا مختارين للإيمان، شاكرين الله على نعمة الخلق والإيجاد وسائر النعم، فما فعلتم ذلك مع تمكُّنكم منه، والله سبحانه بصير بأعمالكم لا يخفى عليه شيء منها، وسيحاسبكم عليها.

٣ ـ خلق الله السموات والأرض بالحكمة البالغة، وصوَّركم فأتقنَ وأحكم صُوَركم على وجه لا مثيل له في الحُسْن والمنظر، وإلى حكم الله وحده، وفصل قضائه، وتنفيذ جزائه، وإلى المكان الذي يقضي فيه، مرجع جميع الخلائق.

٤ ـ يعلم سبحانه وتعالى كلَّ ما في السموات والأرض، ويعلم ما تُخْفونه ـ أيها الناس ـ وما تُظهرونه، لا تخفى عليه خافية، والله سبحانه عليم بالنيَّات والسرائر صاحبة الاستقرار في الصُّدور، وداخل النفوس، فاتَّقوهُ واحذروه.

٥ ـ ألم يأتكم ـ أيُّها المشركون ـ خبر الأمم الخالية المكذِّبة قبلكم، كقوم نوح وهود وصالح، لَحِقهُم العذاب في الدنيا، وتجرَّعوا وبال كفرهم، وجزاء أعمالهم، ولهم عذابٌ أليم في الآخرة؟

٦ ـ ذلك الذي نَزَل بهم من العذاب في الدنيا وما سينزل بهم في الآخرة؛ بسبب أنه كانت تأتيهم رسلهم بالمعجزات الواضحات، فقالوا منكرين: أبشرٌ مثلنا يُرشدوننا؟ فجَحَدوا وأنكروا، وانصرفوا مبتعدين عن الحقِّ فلم يقبلوه، واستغنى الله عن إيمانهم وعبادتهم، والله غنيٌّ بذاته وصفاته وأفعاله عن خلقه، وجليل نعمائه، محمودٌ على عظيم صفاته، كثير الحمد لأهل طاعته والتقرُّب إليه.

٧ ـ ادَّعى الذين كفروا ـ باطلاً ـ أنَّهم لن يُبعثوا بعد الموت. قل لهم ـ يا رسول الله ـ: بلىٰ وربِّي لَتُخْرَجُنَّ من قبوركم أحياء، ثمَّ لَتُخْبَرُنَّ يوم القيامة بما عملتم في الحياة الدنيا، وأمرُ البعث والحساب يوم القيامة على الله هيِّنٌ يسير، وكلُّ شيء على الله سبحانه يسير؛ لأنه إذا أراد شيئاً يقول له: كن فهو يكون، بأمر التكوين الربَّاني.

٨ ـ وإذا كان الأمر كذلك، فآمنوا بالله ورسوله محمد ﷺ ـ أيها المشركون ـ؛ لئلاً ينزل بكم ما نزل من العذاب بالأمم المُكذِّبة، وآمنوا بالقرآن الذي أنزله على رسوله، يُهتدى به في ظلمات الضلالة كما يُهتدىٰ بالنور في الظُّلمة، والله بما تعملون خبير، علماً كاملاً شاملاً، لكلِّ ظواهر الأشياء وبواطنها، لا يخفى عليه شيء من أعمالكم، وهو مُجازيكم عليها يوم القيامة، فراقبوه وخافوه.

٩ ـ اذكروا يوم يجمعكم مَسُوقين ليوم القيامة، يجمع الله فيه الأوَّلين والآخرين، وأهل السموات وأهل الأرضين، ذلك اليوم الذي يخسر فيه الكافرون والعصاة منازلهم ومراتبهم التي كانت مُعدَّةً لهم في الجنة، وكانوا يستحقُّونها لو أنهم آمنوا وأطاعوا، فيقع عليهم الغَبْنُ الذي غبنوا به أنفسهم؛ إذ يورث الله عزَّ وجلَّ المؤمنين مراتبهم ومنازلهم فيها، وهو يومٌ تظهر فيه خسارة صفقة الكافرين خسراناً عظيماً، وربح صفقة المؤمنين ربحاً عظيماً، ومن يؤمن بالله إيماناً صحيحاً كاملاً، ويعمل صالحاً في إيمانه إلى أن يموت على ذلك، يَمْحُ عنه سيِّئاته، ويُدخِله جنَّاتٍ عظيمات تجري من تحت قصورها وأشجارها الأنهار، ماكثين فيها أبداً، ذلك الجزاءُ هو الفوز العظيم الذي لا فوز بعده.

وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٠﴾ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ۚ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٢﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾

سُورَةُ الطَّلَاقِ

ترتيبها ٦٥ — آياتها ١٢

١٠ - والذين كفروا بوحدانيَّة الله وقدرته، وكذَّبوا بآياتنا الكونيَّة والبيانيَّة والإعجازيَّة والجزائيَّة العقابيَّة، أولئك البعداء عن رحمة الله، المنحطُّون في الدركات أصحابُ النار الملازمون لها، المخالطون لألوان عذابها، خالدين فيها أبداً، وساء المرجع الذي صاروا إليه، جهنم.

١١ - ما أصاب أحداً مصيبةٌ إلا بقضاء الله وقَدَره وإرادته، ومَنْ يؤمن بالله إيماناً صحيحاً صادقاً، ويُصَدِّق أنه لا يُصيبه مصيبة إلا بقضاء الله وقدره وإذنه، يحكم الله له بهداية قلبه، ويُوفِّقه لليقين والمزيد من الهداية، حتى يعلم أنَّ ما أصابه لم يكن ليُخطِئَهُ، وما أخطأه لم يكن ليُصيبَهُ، والله بكلِّ شيء عليم.

١٢ - وأطيعوا الله تعالى فيما أمر، وأطيعوا الرسول ﷺ فيما جاء به عن الله، فإن انصرفتم مبتعدين عن إجابة الرسول فيما دعاكم إليه، فما على رسولنا إلاَّ التبْليغ الواضح الظاهر، والمُظْهِر الموضِّح لقضايا الإيمان، ولشرائع الله وأحكامه، وليس مأموراً بالقيام بوسيلةٍ من وسائل الإكراه والإلزام لإجبار الناس على الإيمان، وتحويلهم عن الكفر.

١٣ - لا معبودَ بحقٍّ ولا مقصود إلا هو سبحانه، وعلى الله - وحده - فلْيعتمد المؤمنون في كلِّ أمورهم مع قيامهم بالأسباب المستطاعة الماديّة والمعنويّة التي دعا الله تعالى إلى اتِّخاذها.

١٤ - يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسولهُ، واتَّبعوا شرعه، إنَّ من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم، يصدُّونكم عن طاعة الله، وقد يحملونكم على السَّعي في اكتساب الحرام، وارتكاب الآثام، والوقوع في المعاصي، فاحذروا أن تطيعوهم، ولا تأمنوا غوائلهم وشرَّهم، ولا يعظم في نفوسكم ويصعب عليكم مكافأتهم على إحسانكم بالإساءة والجحود ونكران الجميل، وإنْ تعفوا عنهم إذا اطَّلعتم منهم على عداوة أو تقصير ونكران للجميل، وتُعرضوا عن توبيخهم، وتستُروا ذنوبهم، فإنَّ الله يغفر لكم ذنوبكم، ويُكفِّر عنكم سيِّئاتكم، ويرحمكم؛ لأنَّه سبحانه واسع المغفرة والرحمة، وإنَّ لكم سيئات كثيرات ترتكبونها في جنْب الله، وأنتم بحاجة إلى أن يغفرها الله لكم ويرحمكم برحمات واسعات، مع أنكم مغمورون بنعمه التي لا تنقطع، فلا يعظم في نفوسكم أن تتلقوا الإساءة ممَّن تُحسنون إليهم، فأنتم تفعلون مثل ذلك في جنْب الله دائماً.

١٥ - ما أموالكم وأولادكم إلا بلاءٌ واختبارٌ وشُغْل عن الآخرة، فلا تُباشروا المعاصي بسبب أولادكم، ولا تُؤْثروهم على طاعة الله، والله عنده ثوابٌ عظيم في الجنة لمن آثر طاعته سبحانه على طاعة غيره.

١٦ - فابْذُلوا - أيها المؤمنون - في تقوى الله جهدكم، واسمعوا ما تُوعَظون به سماع تفكُّر وتدبُّر، وأطيعوا الله ورسوله فيما تُؤمرون به، وتُنهون عنه، وأنفقوا من أموالكم حقَّ الله الذي أمركم به، يكن الإنفاق خيراً لأنفسكم، ومَنْ يكفه الله بخلَ نفسه وحرصها الشديد على المال، فيفعل في ماله جميع ما أمر الله به، طيِّبَ النفس به، فأولئك الفضلاء رفيعو المنزلة هم - وحدهم - الفائزون بكلِّ خير، الظافرون بكلِّ مطلب في الدنيا والآخرة.

١٧ - إن تُنفقوا أموالكم في طاعة الله بإخلاص وطيب نفس، يُضاعف الله ثواب ما أنفقتم إلى سبعمائة ضعف، إلى ما يشاء من الزيادة، ويغفر لكم ذنوبكم، والله كثير الشكر للقليل من الأعمال، يجزي على العمل الصالح اليسير، بالجزاء الوافر الكثير، حليمٌ لا يعاجلكم بالعقوبة مع كثرة ذنوبكم، ليترك لكم أقصى أمدٍ يُرجى فيه هدايتكم. فَمَنْ يتعامل مع الله بالبذل في سبيله كمن يعقد عقد رباً مُتحقِّق الفائدة البالغة أضعافاً مضاعفة كثيرة بالنسبة إلى رأس المال المبذول، ومثل هذا العقد مع الناسِ مُحرَّم، وما يُجنى به من فائدةٍ زائدة على رأس المال سُحت، لما فيه من ظلم واستغلال لضرورة ذوي الحاجات. لكنه مع الربِّ الخالق، عمل مبرور، وعَقْد مشكور، والله عزَّ وجل لا يناله شيءٌ مما يبذل عبادُهُ في سبيله، إنما يناله التقوى، والعمل الصَّالح، وهو سبحانه يُكافىء عباده ثواباً، وهم جميعاً مُلكه، وكلُّ ما يملكونه هو ملكه سبحانه.

١٨ - هو سبحانه عالم الغيب ممَّا غاب عن ذوي الإدراك من خلقه، وعالم الشهادة من الأكوان الظاهرة التي تُدرك بالحواس، فلا يغيب عن علمِهِ شيءٌ، القويُّ الغالب الذي لا يُغالَب، الحكيم في صنعه وتدبير خلقه، الذي يضع الأشياء في مواضعها، ويختار أفضل الأشياء وأتْقَنَها وأحسَنَها في الأمور المختلفة لما يُعطي أحسن النتائج.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ۚ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ۚ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ ۚ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾ وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ ۚ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ﴿٤﴾ ذَٰلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ ۚ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا ﴿٥﴾

سورة الطلاق

١ ـ يا أيُّها النبيُّ الذي شرَّفناك بالنبوَّة قل لأُمَّتك: إذا أردتم تطليق نسائكم المدخول بهنَّ من المُعتدَّات بالحيض، فطلقوهُنَّ في وقت يستقبلن فيه عدتهنَّ، وهو الطُّهر الذي لم يقع فيه جماع، واضبطوا العِدَّة؛ للعلم ببقاء زمن الرَّجعة، ومراعاة أمر النفقة والسُّكنى، واخشَوْا الله خالقَكم ورازقَكم ومُربِّيكم بنعمه، ولا تعصوه فيما أمركم به، ونهاكم عنه، فلا تطلِّقوا إلا طلاقاً سُنياً واحداً، في طُهرٍ لم تواقعوا فيه نساءكم، وعلى الزوجة أن تقضي العدَّة في بيت الزوجيَّة في الطلقة الرجعيَّة، لعلَّ قُربهما من بعضهما يُحرِّك الشوق، ويُحدث الندامة، ويسْتر الخصام، ويعيد الوئام، لا تُخرجوا المُطلَّقات من البيوت التي يَسْكُنَّ فيها، ما لم تنقضِ عِدَّتُهُنَّ، وهي ثلاث حيْضات أو أطهار لغير الصغيرة والآيسة والحامل، ولا يجوزُ لهنَّ الخروج منها بأنفسهنَّ، إلا إذا فَعَلن فِعلةً منكرةً واضحة، ممَّا يُؤذي العرض أو الكرامة، أو يأباه العرف السليم، فيحلُّ إخراجها من منزل الزوجيَّة لتقضي عدَّتها عند أهلها؛ لأنها هي التي أساءت إلى الزوج إيذاءً شديداً، وخرجت على حدودها، فلا بدَّ أن تكون الإساءة الزوجيَّة واضحة بليغة، فلا تتوسَّعوا ـ أيُّها الأزواج ـ بعدِّ الهفوات والأخطاء اليسيرة على زوجاتكم، ولا تتشدَّدوا في احتساب كلِّ شيء عليهنَّ، ولكن ينبغي أن تكون الحياة الزوجيَّة قائمةً على كثير من التسامح، وتلك أحكام الطلاق التي شَرَعها الله لعباده، ومَنْ يتجاوز هذه الأحكام، فقد ضرَّ نفسه وظلمها، وأوردها مَوْرد الهلاك. والنهيُ عن تجاوز حدود الله نهيٌ تحريميٌّ؛ لأنه لا يدخل فيها إلا بأن يمسَّ منطقة الحرام.

لا تدري ـ أيُّها المُطلِّق ـ لعلَّ الله يُوقع في قلبك مراجعة زوجتك بعد الطلقة والطلقتين. وهذا يدلُّ على استحباب تفريق الطَّلقات، وأنْ لا تُوقع الثلاث دفعة واحدة حتى إذا نَدِمَ أمكنه المراجعة.

٢، ٣ ـ فإذا قَرُبْنَ من انقضاء عدتهنَّ، وشارفت العلاقة الزوجيَّة على الانقطاع التام، فراجعوهنَّ بنيَّة القيام بحقوقهنَّ على الوجه المستحسن شرعاً وعُرفاً، أو اتركُوهنَّ حتى تنقضيَ عدَّتهنَّ فتَبين منكم، والمفارقة بالمعروف تقتضي أن يُؤدِّيَ لها كلَّ حقوقها، وأن يعاونها إن كانت في حاجة إلى معاونته، وألاّ يذكرها إلا بخير، وأشْهِدوا على الرَّجعة، أو علـى الطَّلاق رَجُلَيْن عَدلَيْن في سلوكهم وأحكامهم وأقوالهم من المسلمين؛ وأدُّوا الشهادة ـ أيُّها الشُّهود ـ طلباً لمَرضاة الله، وقياماً بوصيَّته، ذلك الذي أمركم الله به من أحكام تتعلَّق بالطلاق والعدَّة وحقوق المطلقات يُنصح به نصحاً مقروناً بما يثير الرغبة والرهبة في النفس للانتفاع بالنصح، واتِّباع ما هدى الله إليه، مَنْ كان يؤمنُ بالله واليوم الآخر إيماناً صحيحاً صادقاً. وفي هذه الآية دليل على أهميَّة سلامة القاعدة الإيمانيَّة للاتِّعاظ بالوصايا والأحكام الربَّانيَّة.

ومن يتَّقِ الله، فيعمل بما أمره، ويَجْتنب ما نهاه عنه، يَجعَل الله له مَخْرجاً ومَخْلصاً من غموم الدنيا والآخرة، ويرزُقْهُ دواماً وييسِّر له أسباب الرزق من حيث لا يخطر على باله، ولا يكون في حسبانه. ومَنْ يَكِل أمره إلى الله فهو كافيه ما أهمَّه في الدَّارين، إنَّ الله مُنْفِذٌ أمره، ومُمْضٍ في خلقه ما قَضَاه، لا يفوته شيء، ولا يعجزه مطلوب، قد جعل الله قدراً مُحدّداً حكيماً لكلِّ ما خلق، ولكلِّ ما أمر به أمر تكليف وتشريع، ولكلِّ شيء يخضع لأمره، فأحكام الله وشرائعه وأوامره ونواهيه ذوات حدود ومقادير ينطبق عليها القانون الربَّانيُّ العام، المنضبط بسنَّة الحدود والمقادير.

٤ ـ والنِّساءُ المُطلَّقات العَجَائز اللاتي وَصَلن إلى سنِّ اليأس، وانقطع عنهنَّ دم الحيض ـ إنْ شككْتم في حُكمهنَّ ولم تدروا ما عِدَّتهنَّ ـ فعِدَّتُهُنَّ ثلاثة أشهر، والصغيرات اللاتي لم يحضْن بعد، فعدتهنَّ أيضاً ثلاثة أشهر، وذوات الحَمْل من النساء عدتهنَّ أن يضَعْنَ حَمْلهُنَّ، ولا فرق في ذلك بين المُطلَّقات والمتوفَّى عنهنَّ أزواجهنَّ، ومَنْ يتَّق الله باجتناب معاصيه، وامتثال أوامره، يُسهِّل الله عليه أمر الدنيا والآخرة، ويوفِّقه للخير.

٥ ـ ذلك الذي ذُكر من أحكام الطلاق والعدة أمرُ الله الذي أنزله إليكم، وشرعه لكم ـ أيها المؤمنون ـ لتعملوا به، ومن يتَّق الله باجتْناب معاصيه، وأداء فرائضه، يَمحُ عنه خطاياه؛ فإنَّ الحسنات يُذهبن السيئات، ويُعظم له الجزاء ويُضاعفه يوم الدين، ويدخله الجنة.

أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ ۚ وَإِن كُنَّ أُو۟لَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا۟ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۖ وَأْتَمِرُوا۟ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ۖ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ﴿٦﴾ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴿١١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾

٦ ـ أَسْكنوا المُطلَّقات من نسائكم في أثناء عدَّتهنَّ مكاناً من مسكنكم على قدر سَعَتكم وطاقتكم، ولا تُؤذوهُنَّ في مساكنهنَّ فَيَخْرُجن، وإنْ كانت نساؤكم المُطلَّقات ذوات حَمْل، فأنفقوا عليهنَّ حتى يضعن حَمْلهنَّ، فيخرجن من عدَّتهنَّ، فإنْ أرضعنَ لكم أولادكم بعد أن يضعن حَمْلهنَّ، فآتوهُنَّ أجورهنَّ على إرضاعهنَّ، وليأمر بعضكم بعضاً بما تُعورف عليه من سماحة وطيب نفس، فلا يقصِّر الرجل في حقِّ المرأة ونفقتها، ولا المرأة في حقِّ الولد ورضاعه، وإن تضايقْتم بالمُشَاحَّة في حقِّ الولد وأجرة الرَّضاع، فأبى الزوج أن يعطي المرأة أجرة رضاعها، وأبت الأم أن تُرضعه، فلا سبيل للزوج عليها، وليس له إكراهها على إرضاعه، ولكنه يستأجر لابنه مرضعةً غير أمِّه المُبانة منه.

٧ ـ لِيُنفق الزوجُ المُوسَع عليه على زوجته المطلَّقة، وعلى ولده على قدر غناه، ومن ضُيِّق عليه رزقه، فلْيُنفق على قدْر ما آتاه الله من المال وإن كان قليلاً، لا يُكلِّف الله نفساً في النفقة إلا ما آتاها من الجود والسخاء، فلا يُكلِّف الجواد الكريم مثل ما يُكلِّف الشَّحيح في النفقة، سيجعل الله بعد ضيق وشدَّة غنىً وسَعَة.

دلَّت هذه الآية على أنَّ التكليف والمسؤوليَّة على مقْدار الهبة الربَّانيَّة، وما لا قدرة للإنسان عليه، هو خارجٌ عن دائرة مسؤوليته، فمسؤولية الإنسان المفطور على نسبة عاليةٍ من الشحِّ أخف من مسؤولية الإنسان المفطور على نسبة عالية من الكرم، وكلٌّ منهما تقف حدود مسؤوليَّته عند حدودِ استطاعته مغالبة نفسه، فمتى وصل إلى المستوى الذي لا يستطيعه، فإنَّ مسؤوليَّته عندئذ ترتفع، ولكن لا ترتفع المسؤولية في تكليف عام لاحَظَ فيه الشارع حدود الاستطاعة الموجودة لدى مختلف طبائع الناس، كالزكاة والنفقة الواجبة في باب البذل والإنفاق.

٨، ٩ ـ وكثيرٌ من أهل مُجمَّعات سكنية عَصَوْا وطَغَوْا عن أمر ربِّهم، وأمر رسله، فحاسبناهم حساباً شديداً بالتدقيق والاستقصاء لكلِّ ذنوبهم، فلم نغادر منه شيئاً، وعذَّبناهم عذاباً مُنكراً فظيعاً، فتجرَّعوا سُوءَ مآل أمرهم، وجزاء كفرهم، وكان عاقبةُ أمرهم خُسراناً في الدنيا والآخرة، لأنهم باعُوا نعيم الآخرة بخسيس من الدنيا قليل.

١٠، ١١ ـ هيَّأ الله لهؤلاء الكفار، عذاباً شديداً ينزل بهم كما نَزَل بالأمم الماضية، فاتَّقُوا الله، واحذروا سخطه وعقابه، وذلك بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه ـ يا ذوي العقول الراجحة الواعية الدرَّاكة التي تعقل المعارف فتُمسك بها، وتعقل النفوس عن اتِّباع الهوى والشهوات ـ؛ الذين صدَّقوا الله واتبَّعوا رسله. قد أنزل الله إليكم ـ أيها المؤمنون ـ بما أوحى إلى رسوله ﷺ ذكراً تذكرونه آناً فآناً، وتتدبَّروا آياته، وتتفكَّروا في معانيه، وتعملوا بأحكامه ووصاياه، وأرسل إليكم رسولاً هو محمد بن عبد الله ﷺ، يتلو عليكم آيات الله حال كونها مُوضِّحات لكم الحلالَ من الحرام؛ ليُخرج الله الذين آمنوا إيماناً صحيحاً صادقاً، وعملوا الصالحات المعبِّرة عن صحَّة إيمانهم وصدقهم فيه، من ظلمات الكفر والجهل والمعاصي والمخالفات إلى نور الإيمان والعلم والطاعات والقربات، ومَنْ يُؤمن بالله إيماناً صحيحاً صادقاً، ويعمل عملاً صالحاً يدلُّ على صدق إيمانه الإراديِّ الاعتقاديِّ، يُدخله جنَّات عظيمات تجري من تحت قصورها الأنهار، ماكثين فيها أبداً، قد أحسَنَ الله للمؤمن الصالح نعيماً لا ينقطع في الجنة.

١٢ ـ الله ـ وحده ـ الذي خَلَق سبعَ سمواتٍ بعضها فوق بعض، وخَلَقَ من الأرض مثلهنَّ في التركيب والخصائص، فالعناصر التي تتكوَّن منها الأرض، مُماثلة للعناصر التي تتكوَّن منها أجرام السموات السَّبع، يجري أمر الله، وينزل قضاؤه وقدره بدءاً من أوَّل السماء حتى غاية مركز الأرض؛ لتعلموا أنَّ الله على كلِّ شيءٍ يشاء إيجادَهُ أو إعدامَهُ، أو إجراءَ أيِّ تصرُّف فيه قدير، لا يُعجزهُ شيءٌ، وأنَّ الله سبحانه عالمٌ بكلِّ شيء، لا تخفى عليه معلومةٌ من كلِّ ما يُدرك بالعلم، من الواجبات، والمستحيلات، والجائزات عقلاً، وما هو موجود، وما هو معدوم، وكلُّ الكائنات جاريةٌ تحت قدرته، داخلةٌ في علمه.

سورة التحريم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١﴾ قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٣﴾ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَعْتَذِرُوا۟ ٱلْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾

سورة التحريم

١ - يا أيُّها النبيُّ الذي شرَّفناك وكرَّمناك بالنبوَّة، لِمَ تمنعُ نفسك عن الانتفاع بما أحلَّ الله لك من ملك اليمين، تطلب إرضاء بعض زوجاتك بترك ما أحلَّ الله لك؟ والله واسع المغفرة غفر لك ذلك التحريم، شديد الرحمة بك. وسبب التحريم هو: تحريمُه ﷺ أمَتَهُ مارية القبطيَّة، التي أهداها له المقوقس، صاحب الإسكندرية بمصر، وكانت امرأة جميلة، تسرَّى بها رسول الله ﷺ، وأرسل إليها - عندما ذهبت حفصة إلى بيت أبيها - فظلَّت معه في بيت حَفْصَة، فلما رجعت وَجَدت عنده مارية، قالت: يا نبيَّ الله لقد جئت شيئاً ما جئتَ إلى أحدٍ من أزواجك بمثله، في يومي وعلى فراشي؟ قال: ألا ترضَيْن أن أحرِّمها فلا أقْربها؟ قالت: بلىٰ، فحرَّمها، وقال: لا تذكري ذلك لأحد، فذكرته لعائشة. فاعتزل رسول الله ﷺ نساءَه من أجل ذلك الحديث حين أفْشَتْهُ حفصة إلى عائشة تسعاً وعشرين ليلة، من شدَّة مَوْجدته عليهن، حين عاتبه اللَّهُ عزَّ وجلّ.

٢ - قد بيَّن الله وأوْجَبَ لكم - أيها المؤمنون - تحليلَ أيْمانكم بالكفَّارة عنها، في سورة المائدة في الآية (٨٩) وهي: إطعامُ عشرة مساكين، أو كِسْوتُهم، أو تحريرُ رقبة، فَمَنْ لم يجد فصيام ثلاثة أيام، والله متولِّي أموركم وناصركم، وهو العليم بخلقه، الحكيم فيما فَرَض من حكمه.

٣ - وضع في ذاكرتك - أيُّها المتلقِّي لبياناتنا - حين أسرَّ النبيُّ ﷺ إلى زوجته حَفْصة بنت عمر - رضي الله عنهما - من تحريم مارية القبطيّة أم ولده إبراهيم على نفسه، واستكتمها ذلك، فلما أخبرت حفصةُ عائشةَ بذلك، وأَطْلع اللَّهُ نبيَّه على قول حفصةَ لعائشة، عَرَّف حفصة بعض الحديث، وأخبرها ببعض ما كان منها، وأعرض - تكرُّماً - عن بعض، ولم يُخبرها به، فلما أخبر حفصة ممَّا أظهره الله عليه، قالت: مَنْ أخبرك بأني أفْشَيْتُ السِّر؟ قال: أخبرني به اللَّهُ العليمُ علماً كاملاً شاملاً بما تكنُّه الضمائر، الخبير على سبيل الشهود والحضور، المُصَاحِبِ لكلِّ أجزاء العمل، ظواهره وبواطنه.

٤ - إنْ ترجعا - يا عائشة وحفصة - إلى الله نادمتَيْن من التعاون على رسول الله ﷺ والإيذاء له، يُتَبْ عليكما، لأنَّ قلوبكما قد زاغَتْ ومالَتْ عن الحقّ، واستَوْجبْتُما أن تتوبا؛ وذلك بأنْ سَرَّهما ما كَرِه رسول الله ﷺ، وهو اجْتناب مارية، وإنْ تتعاونا على إيذاء النبيِّ ﷺ بما يسوؤه من الغيرة وإفشاء سرِّه، يُنصر عليكما؛ لأنَّ الله هو وليُّه وناصره، وجبريل، وصالح المؤمنين، والملائكة - بعد نصر الله وجبريلَ وصالح المؤمنين - أعوانٌ للنبيِّ ﷺ ينصرونه على مَنْ يُؤْذيه ويعاديه. والحكمة في هذا الوعيد الشديد للمتظاهرتَيْن، أنه أمر يتعلَّق ببيت رسول الله ﷺ، القدوة لبيوت المسلمين جميعاً، وما يجري فيه يستمدُّ المسلمون منه أحكام دينهم، ومناهج حياتهم الأسريَّة. فينبغي أن يُنزَّه هذا البيت من ألاعيب النساء وحيلهنَّ لكسْب قلب الزوج، وتحوُّله عن ضرائرهنَّ بدافع الغيرة النسائية.

٥ - يرجو رسول الله ﷺ ربَّه مترقباً إن طلقكنَّ - أيُّها الزوجات - أن يُبدله أزواجاً خيراً منكنَّ، متَّصفات بهذه الأوصاف السبعة: **الأولى**: خاضعات لله بالطاعة، **الصفة الثانية**: مُصدِّقات بالأركان الإيمانية الستة تصديقاً صحيحاً صادقاً، **الصفة الثالثة**: مداومات على الطاعات والاستقامة في كل زمان ومكان، وقول وعمل، **الصفة الرابعة**: تاركات للذنوب، نادمات على ما وقع منهنَّ، راجعات إلى ما يُحبُّه الله من طاعته، **الصفة الخامسة**: كثيرات العبادات لله عزَّ وجلَّ بحب وخوف وإخلاص، **الصفة السادسة**: متأملات متدبِّرات متفكِّرات في ملكوت الله وبدائع صنعه، **الصفة السابعة**: منهنَّ متزوِّجات افْترقنَ عن أزواجهنَّ بوجْه من الوجوه، ومنهنَّ غير متزوِّجات عَذارى.

٦ - يا أيها الذين أقرُّوا بوحدانيَّة الله، وصدَّقوا رسوله وعملوا بسنته، احفظوا أنفسكم بالعمل بطاعة الله، والانتهاء عن معصيته، واحفظوا أهليكم بتعليمهم وتأديبهم، وأمرهم بالخير، ونهيهم عن الشَّر، تحفظوهم ناراً حَطَبها الذي توقد به: الكفار، والأصنام المعبودة من دون الله، يقوم على تعذيب أهلها ملائكةٌ جُفَاة غلاظ الخُلق والطباع، أقوياء البدن، لم يخلق الله الرحمةَ فيهم، لا يخالفون الله فيما أمرهم به، ونهاهم عنه، لا تأخذهم رأفة في تنفيذ أوامره، والانتقام من أعدائه.

٧ - يقال للكافرين عند دخول النار: يا أيها الذين جَحَدوا وحدانية الله وكفروا به، لا تعتذروا اليوم حين تُعاينون العذاب؛ لأنه لا ينفعكم الاعتذار، وقد قُدِّم إليكم الإنذار والإعذار، ما تُجْزَوْن إلا جزاء ما كنتم تعملون في الدنيا من الأعمال السيِّئة التي ألزمتكم العذاب.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٩﴾ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ ﴿١٠﴾ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ ﴿١٢﴾

٨ ـ يا أيها الذين صدَّقوا بالله ورسوله وعملوا بشرعه، تُوبوا إلى الله توبةً صادقة خالصة، سابغة وافية، وذلك بالندم في القلب على الذنب، والاستغفار باللسان، والإقلاع بالبدن، وبالعزْم على عدم العودة إلى الذنب الذي تبتُم منه في المستقبل، ورد الحقوق لأصحابها، راجين الله ربَّكم أن يمحو عنكم سيِّئات أعمالكم تفضُّلاً وتكرُّماً منه، ويُدخلكم جنَّات عظيمات تجري من تحت قصورها الأنهار، يوم يرفع الله شأنَ النبيِّ محمد ﷺ والذين آمنوا معه، ويُعلي مكانتهم، نورُهم الخاصُّ بكلٍّ واحد منهم بحسب إيمانه وعمله الصَّالح، يسير أمامهم؛ لكشف طرقاتهم على مقادير سعيهم في طاعة الله ومراضيه في الدنيا، وهذا النور يبثُّونه ويوجِّهونه بأيْمانهم، يقولون: يا ربَّنا أتْمِمْ لنا نُورَنا بسبب ما كان منا من تَقْصيرات وذنوب ارتكبناها في الحياة الدنيا، حتى نكون مع السابقين، واسْتُر علينا ذنوبنا، إنك على كلِّ شيء تشاؤه عظيم القدرة، إذا أردتَ شيئاً كان أسرع ما يكون.

٩ ـ يا أيُّها النَّبيُّ ـ ويا كلَّ قائدٍ للأمة الإسلامية من المؤمنين ـ ابْذل جهدك في مغالبة الكفار والمنافقين بما تستطيع من مال أو علم أو دعوة أو قتال، وكن شديداً عليهم، فعاملهم بقسوة وعنف، فقد تمادَوْا فيما هم فيه، ولم تُجْدِ معهم سياسة التغاضي والتخويف بالآخرة. ومنزلُهم الذي سيصيرون إليه في الآخرة، ويقيمون فيه دواماً جهنَّم دار العذاب، وبئس المصيرُ مصيرهم إليها.

١٠ ـ بيَّن الله شَبَهاً وحالاً للذين كفروا ـ في مخالطتهم المؤمنين ومعاشرتهم لهم، وأن ذلك لا ينفعهم لكفرهم ـ بحال زوجة نبيِّ الله نوح، وزوجة نبيِّ الله لوط، كانتا في عِصْمة عَبْدَيْن من عبادنا صَالِحَيْن، فخانتاهما بالتآمر عليهما وإفشاء سرِّهما إلى قومهما، فلم يدفع هذان النبيَّان الكريمان عن امرأتيهما شيئاً من عذاب الله، وقيل للزوجتين عند هلاكهما: ادخلا النَّار مع سائر الداخلين فيها. وهذا مَثَلٌ ضربه الله تعالى لنموذجَيْن من النساء كانتا تحت نبيَّيْن كريمَيْن من أنبياء الله تعالى، فخالفتا مبادىء دعوة زوْجَيْهما، ليتقرَّر من خلال سلوك الزوجتين: أنَّ القرب من الصالحين لا ينفع من لم يهد الله قلبه للإيمان، فالعبرة بالنسب العَقَدي وبالولاء القلبي، وليس بالقرب المكاني أو النسبي.

١١ ـ وبيَّن الله شَبَهاً وحالاً للذين صدَّقوا بالله ورسوله، وعملوا بشرعه ـ وأنهم لا تضرُّهم مخالطة الكافرين في معاملتهم ـ بحال امرأتين أُخريَيْن: إحداهما: امرأة مؤمنة مجاهدة صابرة، كانت زوجة كافر طاغٍ جبّار في الأرض، هي (آسية امرأة فرعون) حين قالت: ربِّ ابن لي عندك بيتاً في الجنة، قريباً من رحمتك، وأنقذني من فرعون وعمله الخبيث، وأنقذني من القوم الظالمي أنفسهم بالكفر، وهم القبط الوثنيُّون أتباع فرعون. فكانت امرأة فرعون نموذج المرأة المترفة ذات الجاه والمكانة والمنصب، فَتَسامَتْ بعقيدتها وإيمانها على كلِّ ذلك، وتحمَّلت عذاب فرعون وزبانيته حتى لحقتْ بالرفيق الأعلى شهيدة في سبيل الله.

١٢ ـ والمرأة الثانية الصَّالحة في المثل المضْروب للنماذج الحسنة: مريم ابنة عمران، التي حَفظت فرجها، وصانته من أن يَصِلَ إليه أحدٌ، فأمرنا جبريل عليه السلام أن ينفخ في جَيْب قميصها، فأخذت النفخة طريقها، فدخلت فرجها، فحملت بعيسى عليه السلام من غير زوج، وتعرَّضت لبلاء الاتِّهام في عفتها، فصبرت واحتسبت، وصدَّقت بكلمات ربِّها التي كانت الملائكة تُبلِّغها إيَّاها، وفي مقدِّمتها كلمات جبريل لها تبليغاً من الله، وصدَّقت بشرائع الله وأحكامه ووصاياه، وكتبه المُنزَّلة على إبراهيم وموسى وداود وعيسى عليهم الصلاة والسلام، وكانت من القوم المؤمنين المطيعين المتذلِّلين لله تعالى، حتى بلغت في خضوعها وتذلُّلها لربِّها مَبْلغ الكاملين من الرجال، ولم تُشاركها في هذه المرتبة عابدةٌ من عابدات النساء في بني إسرائيل، لكن كان يوجد في بني إسرائيل رجال قانتون من دَرَجةٍ رفيعة، في مرتبةٍ عالية، فكانت جديرةً بأن تكون معهم في المرتبة والدرجة، طاعةً لله، وخضوعاً له، وعملاً بمراضيه. فالواجب على أزواج النبيِّ ﷺ أن يكُنَّ مثل هاتيْن المرأتين المؤمنتين في طاعتهما لربِّهما، وفي إخلاصهما العبادة، وفي إيثارهما الدار الباقية على الدار الفانية، وألاَّ يتَّكِلْنَ على أنهما أزواج رسول الله ﷺ. وبمثل هاتين المرأتين اللتين تتمثَّل فيهما مبادىء الرفعة والعزَّة، ومعاني العفة والطهر والحصانة، ينبغي أن يقتدي النساء، وأن تكون سيَرهنَّ منهج سلوك المرأة المسلمة.



سُورَةُ المُلْك

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴿٢﴾ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ ۖ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ﴿٥﴾ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ ۖ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١١﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾

سُورَةُ المُلْك

١ ـ تعاظَمَ وتقدَّس الله بكثرة أسمائه الحُسنى، وصفاته العليا، وبكثرة نعمائه وإفاضة برِّه وإحسانه على جميع مخلوقاته، على وجه لا ينقطع ولا يُعدُّ ولا يُحصى، الذي بيده التصرُّف التامُّ المُطْلق النافذ، وله الأمرُ والنَّهيُ والسُّلطان، فيُعزُّ من يشاء، ويذلُّ من يشاء، وهو على كلِّ شيءٍ يشاؤه من المُمْكنات العقليَّة قدير، إيجاداً أو إعداماً، أو تغييراً، أو تحويلاً. لا يُعجزهُ شيءٌ مهما عظم، ولا يصعب عليه شيء مهما كبر.

٢ ـ الذي خَلَقَ الموتَ بفصل الرُّوح عن النَّفْس، وخلق الحياةَ باتِّصال الروح بالنَّفْس؛ ليختبرَكُم ويمتحنكم ـ أيها الناس ـ فيما بين الحياة إلى الموت، ويكشف باختباركم: أيُّكم أخلص عملاً وأصْوَبُه؟ وأيكم أسوأ عملاً؟ ويُجازي كلَّ فرد منكم بحسب درجته في عمله خلال رحلة امتحانه، وهو تبارك وتعالى القويُّ الغالبُ المنتقم ممَّن عصاه، الكثير السِّتر لمن تاب إليه ورجع عن إساءته.

٣ ـ هو الذي خَلَقَ في كونه سبعَ سموات فجعلها متطابقة بعضها فوق بعض، كل كرة تحيط بالكرة الداخلة فيها إلى سبع كرات، ما ترى ـ أيُّها الناظر المدقق ـ في شيءٍ من خلق الرحمن اعوجاجاً ولا اختلافاً ولا تناقضاً عن قصوى درجات إتقانه لما خُلق له، وإن كنت في شكٍّ من ذلك، فكرِّر النظرَ ـ في خلق السموات السبع ـ: هل ترى فيها من شقوق وصدوع؟

٤ ـ ثُمَّ كَرِّر النَّظر مرَّةً، بعد مرَّةٍ، يرجع إليك البصر مُتحيِّراً من عَظَمة خَلْق الله لها، منقطعاً، وإما يرجع صاغراً ذليلاً مُحقَّراً، مُبْعَداً خائبَ المَسْعى، وأمرُك يكون بحسب حالك إنصافاً أو جحوداً.

٥ ـ ونؤكِّد لكم أننا جمَّلنا وحسَّنَّا السَّماءَ القُربى من الأرض، التي يراها الناس بكواكب كالمصابيح في الإضاءة، وجعلنا قسم الشهب منها رجوماً محرقة، يُرجم بها الشياطين، لطردهم عن استراق السمع، وهيَّأنا بعناية مُشدَّدة للشياطين ـ بعد الرَّجم في الدنيا بالنيازك المنبثَّة فوق الغلاف الغازي المحيط بالأرض ـ عذابَ النار المُوقدة، يقاسون حرَّها في الآخرة.

٦ ـ وهيَّأنا للذين كفروا بخالقهم ورازقهم ومُربِّيهم عذابُ جهنَّم، وساء المصير والحال الذي يصيرون إليه: جهنَّم.

٧ ـ إذا طُرِحَ هؤلاء الكافرون في جهنَّم، سمعوا لها صوتاً يشابه صوت الشهيق، عند أخذ جهنم الريح إلى باطنها بقوةٍ، وهو صوتٌ مخيف مُرعب يناسب حجمها وكبر جوْفها، وهي تغلي بهم غلياناً شديداً كغلي المِرجَل.

٨ ـ تكادُ جهنَّم تتقطَّع وينفصل بعضها عن بعض من شدَّة غضبها على الكفار، الذي يُحدث حركات تفجُر داخلها، كُلَّما طُرِح فيها جماعة من الكفار، سألهم الملائكة المكلَّفون بحراسة أبواب جهنم سؤال توبيخ وتقريع: ألم يأتكم رسل صادقون بالآيات والمعجزات، فبلَّغوكم، وكان آخر أمرهم معكم أن شدَّدوا في إنذاركم وتحذيركم من عذاب ربِّكم الذي أنتم فيه؟

٩ ـ قالوا: بلى، قد جاءنا رسلٌ صادقون مؤيَّدون من الله، فبلَّغونا مطلوب ربِّنا منا، وأنذرونا عقابه في هذه النار التي أُلقينا فيها، فكذَّبنا ولم نستجب لدعوتهم، وقلنا للرسل: ما نزَّل الله من شيء، ما أنتم ـ أيها الرسل ـ إلا في ذهاب كبير عن الحقِّ.

١٠ ـ وقالوا معترفين بذنوبهم: لو كُنَّا نسمعُ من الرسل ما جاؤوا به سماعاً مؤثراً، أو لو كنا نعقل نفوسنا بإرادة جازمةٍ قوية عن اتِّباع أهوائنا وشهواتنا، ما كنَّا في عداد أصحاب النار، الذين يستحقُّون الخلود فيها.

١١ ـ فاعترفوا بتكذيبهم الرسل، وقولهم: ما نزَّل الله من شيء، فَبُعداً شديداً لأهل النار عن رحمة الله.

١٢ ـ إنَّ المؤمنين الذين يخافون ربَّهم خوفاً ممْزوجاً بإعظام وإجلال، وهم مُلْتبسون بغيب حواسِّهم عنه، ويخشون العذاب في الآخرة قبل معاينته، لهم من ربِّهم مغفرةٌ عظيمة لذنوبهم، ولهم يوم الدين أجرٌ كبير في جنَّات النعيم، لا يعلم قدره إلا الله؛ جزاء أعمالهم الصَّالحة.

وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾ ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾

١٣ - وأَخْفُوا قولَكُمْ أو أعلنوه؛ إنَّ الله سبحانه عليمٌ بصاحبة الصُّدور التي تلازمها ولا تُفارقها، كالنيَّات والإرادات، لا تخفى عليه خافية.

١٤ - ألاَ يعلم الله ما في صدور مَنْ خَلَق، وهو اللطيفُ الذي ينفذ بصفاته إلى أعماق كلِّ موجود، خلقاً، وإمداداً، وعلماً، وتصاريف، على سبيل الشهود والحضور المُصَاحِب لكلِّ أجزاء العمل، ظواهره وبواطنه؟!

١٥ - الله الذي جعل لكم الأرض مُنقادةً سهلة مطوّعة، تحرثونها وتزرعونها، وتستخرجون كنوزها، وتنتفعون من طاقاتها وخصائص عناصرها، فامشوا في جوانبها وأطرافها ونواحيها، مَشْياً رفيقاً لتحصيل مطالب الحياة، وكُلُوا ممَّا خلقه الله لكم في الأرض، واكتسبوا الرزق ممَّا أحلَّ الله لكم، وتذكَّروا يوم الحساب، وإليه - وحده - تبعثون من قبوركم يوم القيامة؛ للحساب، وفصل القضاء، وتنفيذ الجزاء.

١٦، ١٧ - هل أمنتم - أيها الكفار - عقابَ مَن في السماء إنْ عَصَيْتُموه، أن يُهلككم بالتغييب في باطن الأرض، فإذا هي حين ابتلاعكم تَضْطرب وتتحرَّك، فتعلو عليكم، وأنتم تذهبون فيها إلى أسفل سافلين؟! بل هل أمنتم مَنْ في السماء أن يُرسلَ عليكم ريحاً ذات حجارة، فيعذِّبكم بها ضرباً وإهلاكاً، فستعلمون - أيها الكافرون - كيف إنذاري لكم إذا عاينتم العذاب؟ ولكن لا ينفعكم العلم.

١٨ - وأقسم لقد كذَّب الذين من قبل كفار مكة من الأمم الخالية رسلي بما بلَّغوهم عني، فعذَّبتُهم بمُهلكات ماحقات، فكيف كان إنكاري عليهم، وإنزال عذابي بهم؟ ألم يجدوا العذابَ حقاً؟

١٩ - أعَمُوا، ولم يَرَوْا ناظرين إلى الطير فوقهم باسطاتٍ أجنحتهُنَّ في الجوِّ عند طيرانها، ويضْمُمْنَ أجنحتَهُنَّ إذا ضَرَبْنَ بهنَّ جُنوبَهُنَّ بعد البَسْطِ؟ ما يُمسكُهنَّ في جوِّ السماء عن السقوط حالَ القبْض والبَسْط، إلا الرَّحمن الذي وسعت رحمتُه كلَّ شيء، وَوَهَب كلَّ شيء خاصَّتهُ؛ إنَّه بكلِّ شيء بصير، يحمي برحمته على وَفْق حكمته ما يطير في جوِّ السماء، ومَنْ تحمله المراكب الطائرة، وإذا شاء أسقط ما شاء ومَنْ شاء.

٢٠، ٢١ - بَلْ مَنْ هذا الذي هو جُندٌ لكم في زعمكم - أيها الكافرون - يمنعكم من عذاب الله إنْ أراد عذابكم؟ ما الكافرون إلا منغمسون في خديعة من الشيطان يخدعهم بأنَّ العذاب لا ينزل بهم. بَلْ مَنْ هذا الذي يرزقكم المطر إنْ أَمْسَكَهُ الله عنكم بحكمته، وأرسل بدله حاصباً من السماء؟ بل تمادَى الكافرون في تكبُّر وتجبُّر وتباعدٍ عن الحق كحالة المذعور الشَّارد.

٢٢ - أفَمَنْ مَسَخ نفسه واحداً من الدوابِّ، فصار كالذي يمشي على أربع مُنكَّساً رأسه، لا يرى طريقه، يتخبَّط في السُّبل والمتاهات على غير هُدى، ضالًّا عن الصراط المستقيم؛ أكثر هدايةً تُوصله إلى ما يتمنَّى من وجوده في الحياة، أم مَنْ أبقى لذاته إنسانيَّته العاقلة الراشدة، فهو يمشي قائماً مُعتدلاً مرفوع الرأس على طريق مُسْتوٍ لا اعوجاج فيه ولا انحراف، يُوصله إلى ما يتمنَّى من وجوده في الحياة؟! وهو المؤمن المتقي يمشي في الدنيا على طريق مستقيم نيِّر واضح، ويمشي يوم القيامة سوياً على طريق مستقيم.

٢٣ - قل لهم - يا رسول الله، ويا كلَّ حامل لرسالته من أمته -: الله - وحده - الذي أنشأكم بإحداثٍ مصحوبٍ بالتكامل المُتدرِّج في خلقكم، وجَعَل لكم وهو يُنشئكم أجهزة السمع؛ لتسمعوا بها الأصوات، وأجهزة الإبصار؛ لتُبصروا بها المرئيات، ومراكز التفكر وإدراك المعاني، فضيَّعتم هذه النِّعم الثلاثة، فاستعملتموها في غير ما خُلقت له، قليلاً ما تشكرون ربَّ هذه النعم الواهب لها.

٢٤ - قل - يا رسول الله ويا كُلَّ داعٍ إلى الله من أمته -: اللَّهُ هو الذي بثَّكم في الأرض، وكثَّركم فيها عن طريق الذريَّة والتناسل، وإليه - وحده - تُجْمَعُون يوم القيامة، وتجْزون على ما قدَّمتم في حياتكم الدنيا.

٢٥، ٢٦ - ويقول الكافرون - على وجه الاستهزاء والاستبْعاد -: متى يتحقَّق هذا الوعد بالحشر يوم القيامة، إن كنتم صادقين في ذلك، فأعلمونا بزمانه؟ قل لهم - يا رسول الله -: ما علم وقت إنهاء ظروف الحياة الدنيا، والبعث للحياة الأخرى إلا عند الله، وما أنا - بالنسبة إلى هذه المرحلة التي أصررتم فيها على رفض الاستجابة لدعوة الحق، بعد مُعالجات كثيرات لكم - إلا نذيرٌ بيِّن الإنذار، أُخوِّفكم من عذاب الله تعالى.

فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ (٢٧) قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٨) قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ (٢٩) قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ (٣٠)

سُورَةُ القَلَم

ترتيبها ٦٨ — آياتها ٥٢

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (١) مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (٢) وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ (٣) وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤) فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ (٥) بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ (٦) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ (٧) فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ (٨) وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ (٩) وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ (١٠) هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ (١١) مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (١٢) عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ (١٣) أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ (١٤) إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ (١٥)

٢٧ ـ فلمَّا رأوا العذاب في الآخرة قريباً منهم، قَبُحَتْ وُجُوهُ الذين كفروا بالسَّواد والكآبة، وقالت لهم الملائكة السائقة لهم إلى النار توبيخاً وتَقْريعاً: هذا الذي تشاهدونه هو العذاب الذي كنتم في الدنيا تكذِّبون به، وتزعمون أنه لا صحَّة للبعث بعد الموت.

٢٨ ـ قل ـ يا رسول الله ـ لمشركي مكة الذين يتمنَّون هلاكك ومَنْ معك، إما بموتكم أو التغلُّب عليكم: أتفكَّرتم تفكيراً سديداً بأناةٍ وتعمُّق، حتى أدركتم إدراكاً علمياً يشبه الرؤية البصريَّة، إنْ أماتني الله ومَنْ معيَ من المؤمنين كما تتمنَّوْن، أو رحمنا بالنصر عليكم والتمكُّن منكم، فمن ينجي الكافرين من عذاب مُؤلم مُعَدٍّ لهم في جهنم يوم الدين؟ فآمنوا هو خير لكم، ودَعُوا الأماني الكاذبة، فإنَّ الله حافظ رسوله، وناصرٌ له وللمؤمنين.

٢٩ ـ قل لهم ـ يا رسول الله ـ توبيخاً لهم وإنكاراً عليهم: الله ربُّنا هو الرَّحمن، نحن آمنا به إيماناً عظيماً متنامياً، وعبدناه، واعتمدنا عليه ـ وحده ـ في كلِّ أمورنا توكلاً عظيماً لا يتزلزل، مع قيامنا بالأسباب التي أمرنا الله باتِّخاذها، وأنتم كفرتم به، فستعلمون ـ أيُّها الكافرون ـ عند مُعَاينة العذاب: أيُّ الفريقين في ذهاب بعيد عن الحقِّ، نحن أم أنتم؟

٣٠ ـ قل ـ يا رسول الله ـ لهؤلاء المشركين: أتفكَّرتم تفكيراً سديداً بأناةٍ وتعمُّق، حتى أدركتم إدراكاً علمياً يشبه الرؤية البصريَّة، إنْ أصبَحَ ماؤكم ذاهباً في أعماق الأرض، لا تناله الأيدي ولا الدِّلاء، فمَنْ يأتيكم من دون ربِّكم بماء ظاهرٍ، تراه العيون، وتناله الأيدي والدِّلاء؟ الله ربُّ العالمين.

سُورَةُ القَلَم

١ ـ ﴿نٓ﴾ سَبَق الكلام على الحروف المقطَّعة في أوَّل سورة البقرة. أقسم الله سبحانه بالقلم الذي كتب الله به الذكر، وما يكتبه الحَفَظَة من أعمال بني آدم، وما يكتبه الكاتبون مما فيه علمٌ وخيرٌ ونفع.

٢ ـ ما أنتَ ـ يا رسول الله ـ بفضل نعمةِ الله عليك بالنبوَّة والرسالة بمجنون؛ لأنَّ مواقف رسالتك ودعوتك الحكيمة هي في أعلى درجة العلم والحكمة، فكيف يتصوَّر هذا، ويلتقي مع قولهم فيك مجنون؟!.

٣ ـ وإنَّ لك ـ يا رسول الله ـ على احتمالك الطعن، وصَبْرك على هذا القول القبيح وافترائهم عليك، لأجراً غير منقوص ولا مقطوع.

٤ ـ وإنَّك ـ يا رسول الله ـ لمُتمكِّنٌ بعلوٍّ من خُلُق عظيم، قابضٌ على ناصيته. وكان ﷺ خُلُقه القرآن، يَأْتمر بأمره، وينتهي عن نواهيه.

٥، ٦ ـ فَسَتُبْصِرُ ـ يا رسول الله ـ ويُبْصر أهل مكة ـ إذا نزل بهم العذاب في الدنيا ـ بأيِّكم المجنون؟ وهذا المصير ليس بعيداً عنهم، وعندئذ يدركون أنَّ المجنون هو الذي دفع بنفسه وبمن اتَّبعه إلى الشقاء والخسارة.

٧ ـ إنَّ ربَّك سبحانه هو العالم بالفريقين؛ الضال والمهتدي، والمجنون والعاقل.

٨ ـ ١٣ ـ فلا تُطع ـ يا رسول الله ـ مُشركي مكة، تمنَّوا وأحبوا لو تُلاينهم وتُصانعهم، فتترك بعض ما أنت عليه ممَّا لا يرضونه، فيفعلوا مثل ذلك، ويتركوا بعض ما لا ترضى، فتلين لهم ويلينون لك. ولا تطع ـ يا رسول الله ـ كلَّ كثير الحَلِف بالباطل، حقير ذليل، مُغتاب يأكل لحوم الناس بالطعن والعيب، فتَّانٍ يسعى بالنميمة؛ ليُفسِد بين الناس، بخيل بالمال، ظلوم يتعدَّى الحقَّ، فاجر يتعاطى الإثم، غليظ جافٍ، وهو ـ مع ما وصفناه به من الصفات المذمومة ـ دَعيٌّ مُلْصَق في القوم، منسوبٌ لغير أبيه، معروف بلؤمه وشرِّه.

١٤، ١٥ ـ ارتكب هذه القبائح الشنيعة مغتراً بنفسه؛ لأنه كان ذا مال وبنين، فقابل النِّعم التي أعطاها الله له بالكفر وارتكاب المعاصي والجرائم، وإذا يُتلى عليه القرآن قال: هذا أباطيل الأوَّلين وخرافاتهم؟!

سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلۡخُرۡطُومِ ﴿١٦﴾ إِنَّا بَلَوۡنَٰهُمۡ كَمَا بَلَوۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ إِذۡ أَقۡسَمُواْ لَيَصۡرِمُنَّهَا مُصۡبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسۡتَثۡنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيۡهَا طَآئِفٞ مِّن رَّبِّكَ وَهُمۡ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصۡبَحَتۡ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوۡاْ مُصۡبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغۡدُواْ عَلَىٰ حَرۡثِكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُواْ وَهُمۡ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدۡخُلَنَّهَا ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكُم مِّسۡكِينٞ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوۡاْ عَلَىٰ حَرۡدٖ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوۡهَا قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلۡ نَحۡنُ مَحۡرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوۡسَطُهُمۡ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ لَوۡلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُواْ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبۡدِلَنَا خَيۡرٗا مِّنۡهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلۡعَذَابُۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجۡعَلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ كَٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمۡ لَكُمۡ كِتَٰبٞ فِيهِ تَدۡرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمۡ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمۡ لَكُمۡ أَيۡمَٰنٌ عَلَيۡنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمۡ لَمَا تَحۡكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلۡهُمۡ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَآءُ فَلۡيَأۡتُواْ بِشُرَكَآئِهِمۡ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ ﴿٤١﴾ يَوۡمَ يُكۡشَفُ عَن سَاقٖ وَيُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾

١٦ - سنكوي أنف هذا المستكبر عن آيات الله، وعلى خلق الله بالنار؛ إهانةً له على عناده واستكباره.

١٧، ١٨ - إنا اختبرنا كُبراء مشركي مكة بعَوْن المحتاجين وإطعام الجائعين، كما اختبرنا أصحابَ الحديقة، حين تحالفوا ليلاً لتأكيد ما عَزَموا عليه: ليقطعُنَّ ثمرها إذا أصبحوا قبل أن يخرج إليهم المساكين، ولا يستثنون شيئاً للمساكين من ثمر جنَّتهم.

١٩ - ٢٢ - فدار عليها محيطاً بها، ريحٌ عاصفة، وهم نائمون، فأصبحت كالقطعة المنقطعة من الرَّمْل، وحولها البساتين والمزارع قائمة. فنادى بعضهم بعضاً لمَّا أصبحوا: أن اذهبوا مبكِّرين على الثمار والزرع والأعناب، إن كنتم قاطعين ثماركم.

٢٣، ٢٤ - فأسرعوا إلى حديقتهم وهم يتحادثون فيما بينهم بصوتٍ منخفض، يقولُ بعضهم لبعض سِراً: أنْ لا تُمكِّنوا اليومَ أحداً من المساكين من دخول جنَّتكم.

٢٥ - وساروا أوَّل النهار إلى جنَّتهم - على قصدهم السيء في منع المساكين - وهم في غاية القدرة على جنَّتهم وثمارها، لا يحول بينهم وبينها أحد.

٢٦، ٢٧ - فلمَّا رأوا جنَّتهم هالكة، قالوا: إنا لمُخطؤون الطريق عن مكان جنَّتنا، وليست هذه جنَّتنا، فلمَّا عرفوا أنها جنَّتهم، قال بعضهم: قد حُرِمنا خيرها ونفعها؛ بمنعنا المساكين من حظِّهم منها.

٢٨، ٢٩ - قال أعدلُهم وأعقلُهم وأفضلُهم: ألم أقل لكم هَلاَّ تُنزِّهون الله تعالى عن تصوُّر أنه حرمكم العطاء دون أن ترتكبوا إثماً؟ قالوا: تنزَّه الله عن الظلم فيما فعل، إنا كنَّا ظالمين بمنعنا المساكين حقوقهم.

٣٠ - ٣٢ - فأقبل بعضُهم على بعض، يلومُ كلٌّ منهم الآخر، قالوا: يا هلاكنا، إنا كنَّا متجاوزين الحدَّ في منعنا الفقراء والمساكين، عسىٰ ربُّنا أن يُعوِّضنا خيراً من جنَّتنا المُهْلَكَة، إنَّا إلى ربِّنا - وحده - راغبون طالبون الخير، راجون العفو.

٣٣ - كما فعلنا بأصحاب الجنَّة - من إهلاك حرثهم، وهم في غاية القُدرة عليه والثقة به - نفعل بمن تعدَّى حدودَنا، وخالف أمرَنا، وَلَعَذابُ الآخرة أعظمُ وأشدُّ من عذاب الدنيا لو كان العصاة والكفرة والمذنبون يعلمون كمال صفات الله تعالى، وحكمته وعدله، وما أعدَّ في الآخرة من حساب وجزاء بالعدل.

٣٤ - ٣٦ - إنَّ الذين اتقوا عقاب الله بفعل ما أمرهم به، وترْك ما نهاهم عنه، لهم عند ربِّهم في الآخرة جنَّاتِ النعيم الخالص. أنحيفُ في الحكم، فنجعلُ الذين خضعوا لنا بالطاعة والعبادة، كالذين اكتسبوا المآثم وارتكبوا المعاصي؟ ما لكم - أيها الكفار - تحكمون هذا الحكم المعوج؟

٣٧ - ٣٩ - أم لكم كتابٌ ربَّانيٌّ نَزَل من عند الله، تقرؤون فيه بأنَّ لكم ما تختارون وتشتهون من عملٍ دون أن تكونوا عرضة للمُؤَاخَذة والعقاب على ما تسيئون وتظلمون؟ أم لكم عهودٌ مؤكَّدة بالأَيْمان، ومواثيق متناهية في التوكيد، عاهدناكم عليها، فاسْتوثقتم بها منا، لا تنقطع تلك العهود والمواثيق إلى يوم القيامة، إنَّ لكم في ذلك العهد لَمَا تحكمون به لأنفسكم من الخير والكرامة عند الله عزَّ وجلّ؟

٤٠، ٤١ - سَل المشركين - يا رسول الله -: أيُّهم كفيلٌ بأنَّ لهم ما يحكمون لأنفسهم من السعادة والنجاة والفلاح؟ أم لهم شركاء من دون الله يحمونهم من عذاب الله، ويُحقِّقون لهم نجاتهم وفوزهم يوم القيامة، فلْيأتوا بشركائهم لتنفعهم وتشفع لهم، إن كانوا صادقين في دعواهم؟

٤٢ - اذكر لهم يوم يشتدُّ الأمر، ويعظُمُ الخَطْب، وهو يوم القيامة، ويُدعى الكفار والمنافقون إلى السجود - توبيخاً لهم وتحسيراً على تفريطهم في طاعة الله في الدنيا - فلا يستطيعون؛ لصيْرورة أصلابهم عظماً واحداً. وفي هذا المشهد الاختباريِّ يوم الدين، يكشفُ الله عزَّ وجلّ عن ساق، ويُدْعى أهلُ الموقف للسجود، فيسجد كلُّ مؤمن ومؤمنة، أما المنافقون فلا يستطيعون السجود لربِّهم يومئذ، إذ يكون ظهر كلٍّ منهم طَبَقاً واحداً، غير ذي فِقَرات تنْثني للسجود؟ لأنهم لم يكونوا يسجدون للّه في الدنيا لربِّهم، وإنما كانوا يسجدون نفاقاً ورياءً وسمعةً.

خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ وَقَدۡ كَانُواْ يُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمۡ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ فَذَرۡنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِۖ سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ أَجۡرٗا فَهُم مِّن مَّغۡرَمٖ مُّثۡقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمۡ عِندَهُمُ ٱلۡغَيۡبُ فَهُمۡ يَكۡتُبُونَ ﴿٤٧﴾ فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ ﴿٤٨﴾ لَّوۡلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعۡمَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ مَذۡمُومٞ ﴿٤٩﴾ فَٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزۡلِقُونَكَ بِأَبۡصَٰرِهِمۡ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكۡرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجۡنُونٞ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾

سُورَةُ الحَاقَّةِ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلۡحَآقَّةُ ﴿١﴾ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ﴿٣﴾ كَذَّبَتۡ ثَمُودُ وَعَادُۢ بِٱلۡقَارِعَةِ ﴿٤﴾ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهۡلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ وَأَمَّا عَادٞ فَأُهۡلِكُواْ بِرِيحٖ صَرۡصَرٍ عَاتِيَةٖ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيۡهِمۡ سَبۡعَ لَيَالٖ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومٗاۖ فَتَرَى ٱلۡقَوۡمَ فِيهَا صَرۡعَىٰ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٍ خَاوِيَةٖ ﴿٧﴾ فَهَلۡ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٖ ﴿٨﴾

٤٣ ـ أبصار الكافرين مُنكسرة، يغشى وجوهَهُم ذلٌ وخسران وندامة، وقد كانوا يُدعوَن في الدنيا إلى الإيمان بربِّهم والسجود له، وهم أصحَّاء قادرون على السجود فلا يفعلون.

٤٤ ـ فَدَعني ـ يا رسول الله ـ مع مَنْ يكذِّب الآن ومستقبلاً، بهذا القرآن الذي أنزَّله بأسلوب الداعي الناصح الذي يُقدِّم الإقناع بالحكمة والموعظة الحسنة، وخَلِّ بيني وبينهم، ولا تشغل قلبك بهم، فإني أكفيك إيَّاهم، سَنَسْتنزلهم إلى العذاب درجةً درجةً، بالإمهال والإحسان وإسباغ النعم؛ حتى يظنُّوا ذلك تفضيلاً لهم على المؤمنين، فيتمادَوْا في الطغيان والكفر، ثمَّ نأخذهم أخذَ عزيز مُقْتدر.

٤٥ ـ وأُمهلهم وأُطيل لهم المدَّة على كفرهم وتمرُّدهم؛ لتتكامل الحُجَّة عليهم، ولا يبقى لهم عذرٌ يعتذرون به يوم الحساب والجزاء؛ إنَّ تدبيري قويٌّ شديد لا يفلت منه أحد.

٤٦ ـ بل أتسأل ـ يا رسول الله ـ هؤلاء المشركين أجراً ما من الأجور الماديَّة على تبليغ الرسالة، فيثقل عليهم حَمْل الخسارة في أموالهم، فيثبِّطهم ذلك عن الإيمان؟!

٤٧ ـ أم عندهم علم غيب ما مضى من الأمم السَّالفة، وعلمٌ بأساطيرهم ومكتوباتهم، فهم يكتبون منها، ويستندون إليها في تكذيبهم القرآن؟!

٤٨ ـ ٥٠ ـ فاصبر ـ يا رسول الله ويا كُلَّ داعٍ إلى الله من أمته ـ مُسْتسلماً لقضاء ربِّك على أذى قومك وتكذيبهم وإعراضهم، متابعاً القيام بوظائف رسالتك، انتظاراً لحكم ربِّك فيمن عاندوا وأصرُّوا على الكفر، ولا تكن في الضَّجَر والعَجَلة كيونس بن متَّى عليه السلام، إذ ترك قومَهُ أهْلَ نينَوَىٰ مُغَاضِباً، لمَّا كذَّبوه ورفضوا الاستجابة لدعوته، قبل أن يأذن الله له بذلك، حين نادىٰ ربَّه في فم الحوت، قائلاً: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧] وهو مَمْلوءٌ غمّاً على قومه الذين رفضوا دعوته، ومعترف بذنبه إذ تركهم قبل أن يأذن الله له، لولا أن لحقته نعمة من ربِّه حين رحمه وتاب عليه، لَطُرِح من بطن الحوت بالأرض الفضاء الخالية من النبات والأشجار، وهو آتٍ بما يُلام عليه، ولكنه لم يكن مذموماً، بل كان من الأوَّابين، فاصْطَفَاه ربُّه، وردَّ عليه الوحي، وشفَّعه في قومه، فَجَعَله من النبيين الكاملين في الصلاح.

٥١ ـ وإن يكادُ الكافرون من شدَّة نَظَرهم إليك بالعَداوة والبغضاء، أن يزيلوك ـ يا رسول الله ـ عن مكانك، حين سمعوا القرآن، ويقولون: إنه لمجنون. وفي هذه الآية دليل على أنَّ العين وإصابتها وتأثيرها حقٌّ بأمر الله عزَّ وجل.

٥٢ ـ وما القرآن إلا موعظةٌ لكلِّ العالمين. وفي هذه الآية بيان عموم الرسالة المحمديَّة، وفيها إيماءٌ إلى أنَّ الذين كفروا بالقرآن من أهل مكة قليلون، بالنسبة إلى الذين سيؤمنون به من شعوب الأرض، متى أدركوا إعجازه وعظمة ما اشتمل عليه من علم وهداية.

سُورَةُ الحَاقَّةِ

١، ٢ ـ القيامة الثابتة الوقوع التي تُحقِّق فيها الأمور، فتُعرف على حقيقتها. أيُّ شيء هي القيامة الواقعة حقاً؟ إنها شيء مخيف مَهول.

٣ ـ أعظم بأمر القيامة الثابتة الوقوع إعظاماً لا تصلُ إليه درايتك مهما فكرت في تصوُّراتك لإدراك ما فيها من الأهوال، لأنك لم تُعاينها ولم تَرَها، ومهما قدَّرت حالها فهي أعظم من ذلك؟

٤ ـ ٨ ـ كذَّبت ثمود قوم صالح، وعاد قوم هود بالقيامة التي تقرع القلوبَ بأهوالها. فأمَّا ثمود فأُهلكوا بالصَّيحة الشديدة المجاوزة الحد في القوة، وأمَّا عاد فأُهلكوا بريح باردةٍ شديدة الصوت، قاتلة مدمِّرة، متجاوزةِ الحدِّ في شدَّتها، فلم يقدروا عليها مع شدَّتهم وقوَّتهم، أرسلها وسلَّطها عليهم بقضائه وقدره سبعَ ليال وثمانية أيام ذات برد وريح شديد، متتابعة متوالية في الشرِّ والتعذيب ليس لها فتور ولا انقطاع، لحسم مادتهم واستئصالهم، فترى القوم في تلك الليالي والأيام هَلكىٰ مقتولين مرميُّون تبدو أسافلهم قد بليتْ حتى غدت أجوافها خالية، كأنهم أصول نخل خالية الأجواف، بالية لا شيء فيها، فهل ترى لهؤلاء القوم ـ أيُّها الباحث عنهم في أرضهم ـ من نفسٍ باقيةٍ دون هلاك؟

وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾ فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴿١٠﴾ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾

٩ ـ وجاءَ فرعونُ، وَمَنْ قَبْلَه من الأمم الكافرة من بعد عاد وثمود، وجاء أهل قرى قوم لوط التي انقلبت بهم، بالفعلة ذات الخطأ العظيم.

١٠ ـ فعَصَتْ كلُّ أمة منهم رسولَ ربِّهم الذي أُرسل إليهم، فقبض ربُّهم عليهم بسبب ذنوبهم الكبرى لتعذيبهم وإهلاكهم قبضةً زائدةً في شدّتها وعنفها، ناميةً في مظهرها.

١١، ١٢ ـ إنَّا لمَّا عَلاَ الماءُ وارتفع، في الطُّوفان زمنَ نوح، حَمَلنا آباءكم وأنتم في أصلابهم بالسفينة التي تجري في الماء؛ لنجعل إغراق قوم نوح، ونجاة مَنْ حَمَلنا معه لكم عبرةً وموعظةً، وتحفظها أُذُنٌ تسمع وتعقِلُ عن الله ما سمعت.

١٣، ١٤ ـ فإذا نَفَخ المَلَكُ «إسرافيل» في «القرن» نفخةً واحدة، وهي نفخة الصَّعق، ورُفعت الأرض والجبال من أماكنها، فدُقّتا دقَّةً واحدة لجعل سطح الأرض مُسْتوياً، تهيئةً لظهور الأحياء المبْثوثة على سطحها ظهوراً تاماً منكشفاً.

١٥، ١٦ ـ ففي ذلك الوقت قامت القيامة، وتَصَدَّعت السماء برفع نظام الجاذبيَّة التي هي من أمره وتكوينه، وأخذت أجرامها تبتعد عن مسيراتها، فهي حين انشقاقها تكون ضعيفة التماسك، ضعيفة القدرة على الحَمْل بسبب الانشقاق الذي يحصل فيها.

١٧ ـ والملائكة واقفون على جوانب السموات وحافاتها؛ ينتظرون أمر الله لهم لينزلوا فيحيطوا بالأرض، ويحمل عرشَ ربِّك فوق رؤوسهم يوم القيامة ثمانية من الملائكة العظام.

١٨ ـ في ذلك اليوم بعد النفخة الثانية تُعرَضون ـ أيها الموضوعون في الحياة الدنيا موضع الامتحان ـ على الله للحساب، وفصل القضاء، وتنفيذ الجزاء، لا تخفى منكم يوم القيامة ما كان مخفياً في نفوسكم وصدوركم وقلوبكم، وما كنتم في الحياة الدنيا تعملون.

١٩ ـ ويُعطي الذين كانوا موضوعين في الحياة الدنيا موضع الامتحان كتب أعمالهم: فأمَّا مَنْ أُعطي كتاب أعماله بيمينه، فيقول ـ لما علم أنه من الناجين ـ لأهله وأقربائه: تعالوا اقْرؤوا كتابيه.

٢٠ ـ إني كنت في الدنيا أرجو أن أدخل الجنة بغير حساب، وأظنُّ ظناً راجحاً قوياً أنَّ ربي سيحاسبني حساباً يسيراً، فتفضَّل الله عليَّ فأدخلني الجنة بغير حساب.

٢١ ـ ٢٣ ـ فهو في حالة من العَيْش مرضيَّة؛ لأنه راضٍ بفضل الله وعطائه، يشيع الرضا في كل ما يحيط به، في جنَّة مرتفعة المكان والدرجات، ثمار أشجارها قريبة لمَنْ يتناولها قائماً وقاعداً ومُضْطجعاً، يقطفونها كيف شاؤوا.

٢٤ ـ يقال لهم: كُلوا واشربوا أكلاً وشرباً سائغاً لذيذاً غير مُنغَّص ولا مُكدَّر؛ بسبب ما قدَّمتم لآخرتكم من الأعمال الصَّالحة في أيام الدنيا الماضية.

٢٥ ـ ٢٧ ـ وأما من أُعطي كتاب أعماله بشماله، فيقول نادماً متحسِّراً ـ لما نظر في كتابه، ورأى قبائح أعماله ـ: يا ليتني لم أُعط كتابيَهْ، ولم أعلم أيُّ شيء حسابي، يا ليْتَ المَوْتَةَ التي مِتُّها في الدنيا كانت المُنْهية لحياتي إنهاءً أبدياً، فما أحيا بعدها.

٢٨، ٢٩ ـ لم يَدفع عني يَساري ومالي من العذاب شيئاً، زال عني مُلكي وقوّتي وتسلُّطي على الناس، وبقيتُ ذليلاً حقيراً فقيراً، وفَنِيَ مُبتعداً عني كلُّ ما كنت أُحاجج به وأجادل، فقد ظهر الحقُّ لِلعيان، وأسكت الواقعُ كلَّ لسان.

٣٠ ـ ٣٢ ـ يقول الله تعالى لِخَزَنَة جهنم: خُذوا هذا المجرم الأثيم، فاجعلوا طَوْق الحديد محيطاً برقبته، ثمَّ بعد أن تمرُّوا به مغلولاً مُهاناً في أرض المحشر، أدخلوه النار العظيمة الشديدة التأجُّج؛ ليقاسي حرَّها، ثم في سلْسِلة من حديد مقْدارها سبعون ذراعاً فأدخلوه.

٣٣، ٣٤ ـ إنه كان في رحلة امتحانه في الحياة الدنيا جاحداً كنوداً لا يُصدِّق بوحدانية الله وعظمته، وكان قاسيَ القلب، جاف العاطفة لا يحثُّ نفسه على إطعام المسكين، ولا يأمر أهله بذلك، فَضْلاً عن أن يُطعمه. وفي الآية دليل على تعظيم الجُرم في حقِّ المساكين؛ لأنَّ الله تعالى عطفه على الكفر، وجعله قرينه.

فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ﴿٣٧﴾ فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾

سورة المعارج

مكية — آياتها ٤٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ﴿٢﴾ مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ ﴿٣﴾ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَاهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾

٣٥ - ٣٧ - فليس لهذا الكافر في الآخرة قريبٌ ينفعه أو صديق يشفع له، ولا طعام يأكله ليسُدَّ جُوعَهُ في الجحيم إلاَّ من صديد أهل النار، وغُسالة جروحهم، لا يأكله إلا المذنبون ذنوباً من دَرَكة الكفر.

٣٨ - ٤٢ - لا فائدة مِنْ أنْ أُقسم لكم بآياتي في كوني التي تبصرونها والتي لا تُبصرونها، مع أنها تستحقُّ أن أُقسم بها؛ لأنكم بلغتم من الإصرار على المُعَاندة مبلغاً شنيعاً، فما سبق أن نزل من القرآن كافٍ لأن يمحوَ كلَّ أثرٍ للشكِّ فيه، إنه لتلاوة رسول محمود الصفات الرفيعة، جامعٍ لأنواع الخير والشرف والفضائل، وما هذا القرآن بقول رجلٍ شاعرٍ، ولا هو من ضروب الشعر ولا تركيبه، لكنكم قليلاً ما تُصدِّقون بالحقِّ الذي يُخالف أهواءكم وتقاليدكم العمياء، وليس القرآن بقول رجلٍ كاهنٍ، ولا هو من جنس الكهانة، لكنكم قليلاً ما تتَّعظون بالمذكِّرات التي تذكِّرُكم بسُنَنِ الله في عقوباتِ الجاحدين المكابرين الذين يُصرُّون على الباطل.

٤٣ - هذا القرآن الذي يتلوه عليكم محمد ﷺ، هو تنزيلٌ من خالق العالمين ومالكهم ورازقهم والممدِّ لهم بمننه وعطاياه، والمهيمن على كلِّ ما سواه بسُلطان ربوبيَّته.

٤٤ - ٤٧ - واعلموا حقيقةً أخرى تدلُّ على أنَّ القرآن تنزيلٌ من ربِّ العالمين على رسوله محمد ﷺ، وهي أنه لو كان يكذب علينا شيئاً من عند نفسه لم نَقُلْه نحن، ولم نُوحِه إليه، مع تأييدنا له بالمعجزات، لما تركناه على قيْد الحياة، بل لأخذناه بالقوَّة والقدرة، وانتقمنا منه بالحقِّ، ثم لقطعنا منه نياط القلب فنميتُه، فلا يقدر أحدٌ على دفع عقوبتنا عنه. لكنه لم يتقوَّل علينا كلمة أو حرفاً، فهو صادق أمين، معصوم، بدليل أننا لم نعاقبه، فلم نأخذ منه باليمين، ولم نقطع منه الوتين.

٤٨، ٤٩ - وإنَّ القرآن لوسيلة تذكُّرٍ بمطلوب الله من عباده ينتفع بها دواماً المتَّقون الذين اتَّقوا ربَّهم، فآمنوا به، وأسلموا له، وإنا لنعلم أنَّ منكم مكذِّبين بالقرآن.

٥٠ - ٥٢ - وإنَّ القرآن لَحَسْرةٌ وندامة عظيمة على الكافرين يوم القيامة، يندمون على ترك الإيمان به، لِمَا يَرَوْن من ثواب مَنْ آمن به، وحين يدخل المكذِّبون النار يصل علمهم بما يذوقونه من عذاب إلى مرتبة حقِّ اليقين، إذ صار بالنسبة إليهم حقيقة واقعةً يذوقونها بحواسِّهم، ويدركونها بكلِّ ما لديهم من قدرات إدراك، فنزِّه - يا رسول الله - ربَّك العظيم عمَّا لا يليق به، واذكره بأسمائه الحُسنى، ومجِّده بصفاته العظمى، واشكُره على أن جعلك أهلاً لإيحائه إليك.

سورة المعارج

١ - ٤ - طلب طالبٌ، ودَعَا داعٍ - استعجالاً على سبيل الاستهزاء - بعذابٍ واقعٍ ونازلٍ من الله بالكافرين، ليس لذلك العذاب الصَّادر من الله دافعٌ يدفعه عنهم، فوقوعه من الله ذي السموات التي تعرج فيها الملائكة وجبريل عليه السلام إلى الله عزَّ وجلَّ في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة من سني الدنيا.

٥ - فاصبر - يا رسول الله - على تكذيبهم إيَّاك واستعجالهم العذاب، صبراً جميلاً مصحوباً بالتلطُّف، وحُسْن مقابلة أذى المكذِّبين بالصَّفح والعفو والإحسان بالعطاء، وبالكلمة الطيِّبة، تأليفاً لقلوبهم، دون قلق ولا اضطراب ولا تذمُّر.

٦، ٧ - إنَّ المكذِّبين المُستهزئين يَرَوْنَ عذاب يوم الدين أمراً بعيداً على فرض أنه حقٌّ، فبين زمن وجودهم في الحياة الدنيا وزمن حصوله يوم الدين - إنْ صحَّ الخبر به - أحقاب طويلة جداً، ونراه بجلال ربوبيَّتنا وشمول علمنا قريباً، إذ ليس بين الموت والبعث الذي يحصل فيه هذا العذاب إلا فاصل البرزخ.

٨، ٩ - إن عذاب الكافرين المكذِّبين يصير قريباً جداً، يوم تكون السَّماء ذائبة رجراجة كالنحاس المُذاب، وتكون الجبال هشَّةً منتفخةً كالصُّوف المصبوغ بألوان مختلفة، فهي تحافظ على ألوانها التي كانت عليها سوداً وحمراً وبيضاً وغير ذلك.

١٠ - وحين تقوم الساعة، ويبعث الموتى، لا يسأل قريبٌ من الكفار قريبَه؛ لِهَوْل ذلك اليوم وشدَّته، وشغله بشأن نفسه.

يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّا إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ ﴿١٨﴾ ۞ إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٣٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾ فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾



١١ - ١٤ - يُعرَّفون أقرباءهم، ويرونهم بأبصارهم، فلا يسألونهم؛ لأنهم يعلمون أنهم عاجزون عن إعانتهم بشيء. يتمنَّى المشرك لو يَفْدي نفسه من عذاب يوم القيامة ببنيه أحبِّ الناس إليه، وزوجته التي كانت قرينته في الدنيا، وأخيه الذي كان نصيره في الدنيا، وعشيرته التي تضمُّه ويأوي إليها عند الشدَّة، ومَنْ في الأرض جميعاً، ثمَّ ينجيه ذلك الفداءُ من عذاب الله. فكيف وهو لا يملك شيئاً من ذلك؟

١٥، ١٦ - كلا، لا يُنجيه من عذاب الله شيء. إنها النار تتلهَّب، قلاَّعةً لجلدة الرأس وأطراف البدن، فلا تترك عليها لحماً ولا جلْداً، ثم تعود كما كانت.

١٧، ١٨ - تدعو النارُ مَنْ أدبر عن الإيمان، وتولَّى عن دعوة الحق، وتدعو مَن جَمَع المال، فوضعه في خزائنه، ولم يُؤَدِّ حقَّ الله فيه.

١٩ - ٢٣ - إنَّ الإنسان جُبِل على حُبِّ ذاته، وحبِّ لذَّاته، وما يتفرَّع عنهما من حُبِّ البقاء، والسلامة، والاستمتاع بما يستلذُّه، إذا أصابه الشرُّ كان كثيرَ الجَزَع والتضجُّر، وإذا أصابه الخير كان كثير المنع مُمْسِكاً قتوراً، إلا المؤمنين المسلمين المتَّصفين بهذه الأوصاف الثمانية: **الوصف الأول**: المصلُّون الذين يُواظبون على أداء الصلاة، ولا يتركونها في وقت من الأوقات.

٢٤، ٢٥ - **والوصف الثاني**: الذين في أموالهم نصيبٌ مُعيَّنٌ فرضه الله عليهم، وهو الزكاة التي يُخرجونها للسائل الذي يسأل الناس، والفقير المُتعفِّف عن السؤال، فيحسب غنياً فيُحرَم.

٢٦ - ٢٨ - **والوصف الثالث**: الذين يؤمنون بالبعث بعد الموت، والحشر والنَّشْر، والحساب، وفصل القضاء، وتنفيذ الجزاء يوم القيامة، فيستعدُّون له بالأعمال الصالحة، **والوصف الرابع**: الذين هم من عذاب خالقهم ورازقهم ومُمدِّهم بنعمه خائفون، إنَّ عذاب ربِّهم لا يأمنه أحد؛ لوقوع الإنسان بالتقصير في أداء الواجبات، واجتناب المحظورات.

٢٩، ٣٠ - **والوصف الخامس**: الذين هم لفروجهم حافظون ممَّا حرَّم الله من الزنى واللواط، وكل الفواحش المتعلِّقة بالفروج التي نهى الله عنها، إلا على زوجاتهم أو ما مَلَكَتْ أيْمانهم من الإماء والجواري، فإنَّهم غير مُؤَاخَذين بعدم حفظ فروجهم إذا كان على الوجه الذي أذن فيه الشرع.

٣١ - فمن التمس وطلب لقضاء شهوته غير الزوجات والجواري المَمْلوكة، فأولئك البُعداء العُصاة هم المجاوزون الحلالَ إلى الحرام.

٣٢ - **والوصف السادس**: الذين هم لأماناتهم التي ائْتُمنُوا عليها، فيما بينهم وبين الله تعالى، وفيما يكون بين العباد، حافظون غير خائنين ولا ناقضين.

٣٣ - **والوصف السابع**: الذين يقومون بشهاداتهم على الوجْه الذي أمر الله به من صدق وتأدية للشهادة على وجهها، وبُعد عن كلِّ تغيير وكتمان مُضيِّع للحقوق.

٣٤ - **والوصف الثامن**: الذين هم على صلواتهم الخمس المفروضة في كلِّ يوم وليلة يحافظون، فيؤدُّونها على أكمل الوجوه المستوفية لشروطها الفكريَّة والقلبيَّة والنفسيَّة والروحيَّة والجسديَّة.

٣٥ - أولئك الفضلاء رفيعو المكانة، المتَّصفون بتلك الأوصاف المحمودة مستقرُّون في جنَّاتٍ مُكْرمونَ فيها بكلِّ أنواع التكريم.

٣٦ - ٣٩ - فما بالُ الذين كفروا إلى جهتك - يا رسول الله - مُسْرعين مُقْبلين إليك مادِّي أعناقِهم، ومُديمي النظر إليك، مجتمعين حِلَقاً وفِرَقاً عن يمينك وعن شمالك؟ أَيَطْمَعُ كلُّ رجل منهم أن يدخل جنة النعيم، كما يدخلها المسلمون، ويتنعَّمون فيها، وهم كافرون بالله ربِّهم، وبكتابه وبرسوله، وهو الذي أعدَّ جنَّة نعيم لمَنْ آمن به وأسلم، وأعدَّ دار عذابٍ لمن كفر به؟ كلا. لا يدخلونها أبداً. إنا خلقناهم ممَّا يعلمون من الأشياء المُستقْذرة من نطْفة، ثم من علقة، ثم من مضغة، فليست لهم ميزَةٌ على غيرهم من البشر.

فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾

سُورَةُ نُوحٍ

مكية — آياتها ٢٨

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾

٤٠، ٤١ ـ لا فائدة مِنْ أن أقسم بخالق المشارق والمغارب، ولكن سيأتي مَنْ يدرك هذه الحقيقة من حقائق نظام الكون الناشئة عن حركة الأرض حَوْل نفسها في اتِّجاه الشمس؛ إذ تحدث مُتدرِّجة مُتَتابعة، فهو سبحانه المهيمن بصفات ربوبيَّتِهِ خلقاً وتدبيراً على الشروق والغروب، وعلى أمكنة وأزمنة الشروق والغروب، فلا أحدَ غير الله له ربوبيَّة في شيءٍ من ذلك، إنا لقادرون على أن نُهلكهم، وعلى أن نخلق أمثل منهم وأطوَع للَّهِ عزَّ وجل، وما نحن بمغلوبين عاجزين عن إهلاكهم، وإبدالهم بمَنْ هو خيرٌ منهم.

٤٢ ـ فَدَع ـ يا رسول الله ـ هؤلاء الكافرين المُصرِّين على عنادهم يخوضوا في أباطيلهم وجرائمهم كَمَنْ يخوض في الماء فيعكِّره بالطين الراسب بالماء، فيفسد صفاءه، ودعهم يلعبوا كما يَهْوَوْن في دنياهم، حتى يُلاقوا مصيرهم الوخيم في يوم القيامة الذي يُوعدون فيه بالحساب، وفصل القضاء، وتنفيذ الجزاء.

٤٣ ـ يوم يخرجون من القبور مُسْرعين إلى إجابة الداعي الذي يدعوهم إلى الموقف، كما كانوا يُسرعون في الدنيا متدافعين إلى أصنامهم التي كانوا يعبدونها من دون الله.

٤٤ ـ يُسرعون مُجْبَرين، ذليلةً أبصارهم خاضعةً، لا يرفعونها لما هم فيه من الخزي، يغشاهم الهوان الشديد؛ لعلمهم بمصيرهم الذي هم إليه صائرون، ذلك يوم القيامة الذي كانوا يُوعَدون به في الدنيا، وكانوا به يهزؤون ويكذِّبون.

سُورَةُ نُوحٍ

١ ـ إنا أرسلنا نُوحاً إلى قومه ليبلِّغهم دين الله، فقام بما أمره الله، يُذكِّرهم وينصحهم، فلم تُجْد فيهم وسائله طوال القرون، فكلَّفه الله بأن خَوِّف قوْمَك وحذِّرهم عاقبة كفرهم؛ من قبل أن يأتيَهُم عقابٌ مُؤلم إيلاماً شديداً، إذا أصرُّوا على عنادهم واستكبارهم.

٢، ٣ ـ قال نوح: يا قومي إنِّي لكم نذيرٌ ظاهر واضح، مُبيِّن مُوضِّح لحقائق الدين وشرائعه، أُنذركم من عذاب الله إن عَصَيْتموه، وأُبيِّن لكم أنْ اعبدوا الله، ولا تُشركوا به شيئاً، واتقوا عقابه، وأطيعونِ بالاستجابة لدعوتي إيَّاكم إلى دين ربِّكم.

٤ ـ فإن تفعلوا ذلك، يسْتر لكم بعض ذنوبكم، وهي حقوق الله عليكم، فلا يؤاخذكم عليها، ولا يُجازيكم بعذاب على اقترافها، ويُبْقي عليكم حقوق العباد، فهذه إمَّا أن تؤدُّوها، أو تؤدُّوا تعويضاً عنها، أو يُسامحكم أصحابها، ويُؤَخِّركم في الحياة الدنيا إلى أجلٍ مُسمّى مُحدَّد بتقديره وقضائه لكلِّ حيٍّ منكم، آمنوا قبل حلول أجل العقاب والإهلاك الشامل، فإنَّ أجل الله إذا جاء لا يُؤَخَّر عن وقته، أتمنى لو كنتم تعلمون تلك الحقائق التي بيَّنتها لكم، ليكون علمكم بها باعثاً على الإيمان والخوف من نقمة الله وعقابه.

٥، ٦ ـ قال نوح عليه السلام: ربِّ إني دعوتُ قومي إلى الإيمان والإسلام، وعبادتك وحدك لا شريك لك، ليلاً ونهاراً بلا كَلَلٍ ولا ملل، فلم يزدهم دعائي إلا هروباً وابتعاداً عن الإيمان.

٧ ـ وإني كلَّما دعوتهم ليؤمنوا بك؛ ليكون سبباً في غفرانك ما كان منهم من ضَلالات، جعلوا أصابعهم في آذانهم؛ لئلا يسمعوا دعوتي، وليُشعروني بأنَّ أقوالي صارت محفوظة لديهم، ونفوسهم تشمئزُّ منها، وتتقزَّز من سماعها، وغطُّوا وجوههم بثيابهم؛ لئلا يروني، وليشعروني بأني صرتُ ثقيل الظلِّ كريهاً لديهم، ولزموا بعنادٍ ما هم عليه من كفر، واستكبروا عن الإيمان بك تكبُّراً مُسْرفاً شنيعاً.

٨، ٩ ـ ثمَّ إني بعد اليأس من استخدام أسلوب العرض العادي على أفرادهم وجماعاتهم، دعوتُهم في مجامعهم خطيباً مُعلناً بأعلى صوتي، ثم بعد اليأس من دعوتهم جهاراً، اتّخذت أسلوب الإعلان والإسرار، فدعوتُ بعضهم علانيةً بالمحادثة والحوار والمجادلة، ودعوت أفراداً منهم بأسلوب الحديث السرّي، ولم أنشره وأحدِّث الناس به؛ ليكون أدعى للتأثير بهم.

١٠ ـ فقلت لقومي: اطلبوا من ربِّكم أن يغفر لكم ذنوبكم، بتوبتكم عمَّا أنتم عليه من كفر وفسوق، إنَّه كان ولم يزل كثير المغفرة لذنوب مَنْ يرجع إليه من عباده بالإيمان والطاعة.

يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا ۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ﴿٢٤﴾ مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا ﴿٢٨﴾

١١، ١٢ - إنْ تؤمنوا وتسلموا وتستغفروا ربَّكم وتتوبوا إليه، يُرسل على أرضكم وبلادكم ماء السماء كثيراً مُتتابعاً، لمنافعكم وسُقْياكم، ويكثر أموالكم وأولادكم، ويجعل لكم بساتين تنعمون بجمالها وثمارها، ويجعل لكم أنهاراً جارية؛ لإمتاع نفوسكم وأعينكم، ولسُقْيا الأشجار والزروع.

١٣، ١٤ - أيُّ شيءٍ حَصَل لكم - أيُّها القوم - فأفسد نفوسكم وعقولكم وقلوبكم، فصرفكم عن توقُّع ثواب الله وعقابه يوم الدين اللذين هما من آثار عظمته وجلاله ووقاره، والحال أنه خلقكم خلقاً مُتدرِّجاً طوْراً فطوْراً من ترابٍ إلى غذاء إلى نطفة إلى علقة إلى مضغة إلى تمام الخلق؟

١٥، ١٦ - ألم تَرَوْا كيف خلق الله سبع سموات فجعلها متطابقة بعضها فوق بعض، كل كرةٍ تحيط بالكرة الداخلة فيها إلى سبع كرات، وجعل القمر في سماء الدنيا باثاً نوراً للأرض ومَنْ فيها، وجعل الشمس مصباحاً مضيئاً، يبعث بالحرارة إلى الأرض، من أجل حياة الناس فيها.

١٧، ١٨ - واللَّهُ أنبتَ مادة بناء أجسادكم من الأرض نباتاً مُتْقناً وَفْق نظام خاصّ جارٍ ضمن تَسلسل الأطوار، فكان غذاءً، فدماً، فنُطفاً، فأجنَّةً، فأناسيَّ مُكتملة، ثمَّ يعيدكم في الأرض بعد الموت، ويُخرجكم منها يوم البعث إخراجاً كالنبات؛ للحساب، وفصل القضاء، وتنفيذ الجزاء.

١٩، ٢٠ - والله جَعَل لكم مواضع كثيرة في الأرض كالبساط، في سطوحها على دائرة كُرتها، تتقلَّبون عليها كما يتقلَّب الرجل على بساطه؛ لتدخلوا وتعبُروا من الأرض طرقاً مختلفة واسعة.

٢١ - قال نوحٌ يشكو معصية قومه له: ربِّ إنهم لم يُجيبوا دعوتي، وإنَّ جماهير قومي اتَّبعوا كبراءهم وساداتهم الذين لم تَزِدهم كثرةُ المال والولد إلا طغياناً وفساداً، زادهم عند ربِّهم خساراً فوق الخسار الذي حَصَل لهم بكفرهم، إذْ هم قد تحمَّلوا إثم ضلالهم أنفسهم، وإثم الأعمال التي أضلُّوا بها أتباعهُم.

٢٢ - واحتال الرؤساء والقادة احتيالاً كبيراً عظيماً، بتحريش السِّفلة على أذى نوح، وصدِّ الناس عن الإيمان به، والاستماع منه.

٢٣، ٢٤ - وقال هؤلاء القادةُ لأتباعهم: لا تَتْرُكُنَّ عبادة آلهتكم إلى عبادة الله وحده، ولا تَتْرُكُنَّ أعظم الأصنام الخمسة عندكم: وَدًّا، ولا سُوَاعاً، ولا يَغُوثَ، ويعُوقَ، ونَسْراً، وقد أضلَّ كبراءُ قوم نوح إضلالاً كثيراً بتأثيرهم على أتباعهم، وأضلُّوا كثيراً من الناس، وهدّدونا بالرجم، ولا تَزِدِ - يا ربنا - هؤلاء الظالمين لأنفسهم بالكفر والعناد الذين يودُّون قتلنا للتخلُّص منا إلا هلاكاً.

٢٥ - من أجل أخطائهم الشنيعة المتنوِّعة أُغرقوا بالطُّوفان، فأُدخلوا عقيب الإغراق ناراً عظيمةَ اللهب والإحراق، وبحثوا عن آلهتهم التي كانوا يعبدونها من دون الله لينصروهم، فيدفعوا عنهم عذابَ ربِّهم، فلم يجدوا لهم من غير الله أنصاراً تنصرهم وتمنعهم من العذاب. وفي الآية دليل على عذاب القبر؛ وذلك لأن الفاء تقتضي التعقيب في قوله تعالى: ﴿أُغۡرِقُوا۟ فَأُدۡخِلُوا۟ نَارًا﴾ وهذا يدل على أنه إنما حصل دخول النار عقيب الإغراق.

٢٦ - وقال نوح في دعائه لربه بعد الطُّوفان، وبعد استقراره هو والذين معه على اليابسة: بما أنَّك يا ربِّ قد قضَيْت على قومي الكافرين بالإغراق، فأهلكهم جميعاً، ولا تترك على الأرض منهم أحداً يدور في الأرض، ويذهب ويجيء، ممن لم يصل إليه ماء الطوفان ولم يغرق.

٢٧ - إنك - يا رب - إنْ تتركهم دونَ إهلاك واستئصال، يُضِلُّوا عبادك في أماكن من الأرض لم يغمرها الطُّوفان، وإنْ توالدوا فإنهم لا يلدوا إلا مولوداً يؤول أمره إلى أن يكون بعد بلوغه فاجراً مُنْبعثاً بقوَّةٍ لارتكاب الجرائم والآثام، مُبالغاً في كفره، جُحُوداً للحقِّ وتغطيةً لأدلته بالأكاذيب والمغالطات المزيَّنة بزُخْرف القول.

٢٨ - ربِّ اغْفِرْ لي ولوالديَّ ولمَنْ دَخَل داري مؤمناً، ولجميع المؤمنين بالله ورسله والمؤمنات، ولا تزد الظالمين لأنفسهم بالكفر إلا عذاباً مرافقاً لإهلاكهم.



سورة الجن

(٧٢) آياتها ٢٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا (٢) وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا (٣) وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا (٤) وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (٥) وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا (٦) وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا (٧) وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا (٨) وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا (٩) وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا (١٠) وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا (١١) وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا (١٢) وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ آمَنَّا بِهِ ۖ فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا (١٣)

سورة الجنّ

١، ٢ ـ قل ـ يا رسول الله ـ: أوحىٰ الله إليَّ أنَّ جماعةً من الجنِّ قصدوا سماع تلاوتي للقرآن مع إصغاء وإنصات، فقالوا لما رجعوا إلى قومهم: إنَّا سمعنا قرآناً بليغاً يُعجَبُ منه لبلاغته وفصاحته، يدلُّ ويرشد إلى كلِّ سلوك فكريٍّ أو نفسيٍّ أو عمليٍّ موافق للحقِّ والصواب، فآمنَّا بالقرآن، وسائر القضايا الدينيَّة التي اشتملت عليها آياته، ولن نعود في مستقبل حياتنا إلى ما كنَّا عليه من الشِّرك.

٣ ـ وأنَّه تعالى جلالُ ربِّنا وعظُمَ قدرُهُ، عن أن يتَّخِذَ زوجةً أو ولداً.

٤ ـ وأنَّه كان يقول جاهلُنا إبليس على الله قولاً بعيداً عن الحقِّ، جائراً، وهو وصفه سبحانه بالشريك والولد.

٥ ـ وأنَّا كنَّا نظنُّ ظناً توهمياً أنَّ الإنس والجنَّ صادقون في قولهم: إنَّ لله صاحبةً وولداً، وأنهم لا يكذبون على الله في ذلك، فلمَّا سمعنا القرآن علمنا أنا كنَّا مخدوعين بأقوالهم الكفريَّة الكاذبة الباطلة.

٦ ـ وأنه كان رجالٌ من الإنس يَسْتجيرونَ برجالٍ من الجنِّ؛ ليعينوهم وليعيذوهم ممَّا يخافون، فزاد الجنُّ المستعيذين بهم من الإنس سَفَهاً وحماقة، وإثماً وطغياناً.

وفي الآية تحذير من اللجوء إلى السَّحرة والمشعوذين وأمثالهم، والمنع من الرُّقى التي لا يقرُّها الشرع.

٧ ـ وأنَّ كفار الجنِّ ظنُّوا ظناً توهمياً ضعيفاً كما ظننتم ـ يا معشر الكفار من الإنس ـ أن لن يبعث الله بعد الموت أحداً، فلا حساب يومَ الدين، ولا فصل قضاء، ولا جزاء.

٨ ـ يقول الجن: وأنا طلبنا بلوغ السماء الدنيا؛ لاستماع كلام أهلها، ووصلنا إلى سطح حدودها، فوجدناها مُلِئَتْ حُرَّاساً أقوياء من الملائكة يحرسونها من استراق السمع، وشُهُباً ناريَّة تنقضُّ على مُسْترقي السمع.

٩ ـ وأننا ـ معشر الجنِّ ـ كنا نجد في السماء بعض المقاعد خاليةً من الحَرَس والشُّهب، نقعد فيها لاستراق السمع من الملائكة، ممَّا يتعلَّق بالأحداث التي تحدث في الأرض، ونلقي هذه الأخبار التي نلتقطها إلى أوليائنا من الإنس، مع أكاذيب كثيرة نضيفها إليها من عند أنفسنا، فَمَنْ يستمع الآن ـ بعد بعثة الرسول ﷺ ونزول القرآن وما يأتي من أزمانٍ لاحقات ـ يجد له شهاباً مُعَدًّا ومُهَيَّأً له؛ ليُرمىٰ به. وفي هذه الآية والتي قبلها إبطال مزاعم السَّحرة والمشعوذين، الذين يدَّعون علم الغيب، ويغرِّرون بضَعَفة العقول؛ بافتراءاتهم وأقوالهم الباطلة.

١٠ ـ وأنَّا لا ندري هل المقصود من المنع من الاستراق والرمي بالشُّهب هو شرٌّ أُريد بأهل الأرض، أم أُريد بهم صلاحٌ وخير يمنع عنهم به كهانة الكهَّان، وما تُوحي إليهم به الشياطين من بعض أخبار السماء؟ لكن دَرَيْنا بعد أن استمعنا القرآن فآمنَّا به، وذهب عنا التحيُّر، وعلمنا أنَّ الله عزَّ وجلّ قد أراد بأهل الأرض أمراً رشداً.

١١ ـ وأنَّا منَّا المؤمنون المُخلصون، ومنا دون فريق الصَّالحين مراتب ودرجات ودركات، كنَّا قبل استماع القرآن جماعاتٍ مُتفرِّقين، ومذاهب وعقائد وأديان متقطعة وأهواء مختلفة لا جامعة تجمع بينها.

١٢ ـ وأنَّا ظنَنَّا ظناً راجحاً قبل سماع القرآن ومعرفة سبب امتلاء السماء بالحرس الشديد والشُّهب أنَّ الله قادر علينا، وأننا في قبضته وسلطانه، فلن نفوته إنْ أراد بنا أمراً أينما كنا، ولن نستطيع أن نُفلت من عقابه هَرَباً، إنْ طَلَبنا.

١٣ ـ وأنَّا لمَّا سمعنا القرآن، وما اشتمل عليه من الهدى، صدَّقنا به وبمحمدٍ ﷺ تصديقاً جازماً، فقد تدرَّجنا في الاقتناع حتى بلغنا إلى اليقين، فآمنوا ـ أيها الجنُّ ـ بالربِّ إيماناً كاملاً، واسْتَسْلموا له، فَمَنْ يؤمن بربِّه إيماناً صحيحاً، فلا يخاف نقصاناً من عمله وثوابه، ولا يخاف أن يُحمَّل ما لا يُطيق.

وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾ قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴿٢٨﴾

١٤ - وأنّ قومنا بعد أن دعوناهم إلى الإسلام صاروا فرقتين: المسلمون الذين آمنوا بالنّبيّ ﷺ، والجائرون العادلون عن الحقّ، فَمَنْ استسلم لله صادقاً مخلصاً، فأولئك أصحاب المنازل الرفيعة الفضلاء قَصَدوا باهتمام واجتهاد طريق الحقّ وتوخّوْه، فكانوا من أهل الجنة، ينعّمون فيها.

١٥ - وأما الجائرون عن صراط الله المستقيم الذين اتّبعوا الغيّ، استجابةً لأهوائهم وشهواتهم، فكانوا لجهنّم يوم القيامة كالحطب الذي يُعدُّ لتوقَدَ به النار، أو ليزيدَ به وقودها، إذ هم سيُطرحون ويُكبُّون في نار جهنم كما يُطرح ويُكبُّ الحطب في النار.

١٦، ١٧ - وأنّ الشأن العظيم هو: لو استقام الجنُّ والإنس على طريقة الحقّ والإيمان والهُدى، وكانوا مؤمنين مطيعين، لوسّعنا عليهم الرزق في الدنيا، ولأسقيناهم ماءً كثيراً غزيراً، ومتّعناهم بالعيش الرغيد؛ لنختبرهم: كيف شُكْرُهُمْ فيما أعطيناهم؟ ومَنْ يُعرض عن كتاب ربّه المُنزّل على نبيّه ﷺ، بعدم التوجّه لتلقّيه وتدبُّر معانيه، ويأته أجلُهُ وهو على إعراضه يُدخله مُذيقاً إيّاه عذاباً شديداً شاقّاً، في مكان ضيّق لا يتّسع لأكثر منه، لا يزداد إلا شدّة، كما يُدْخَل السِّلك في الثَّقْب الضيّق؛ ليذوق جزاء إعراضه عن دعوة ربّه، وعدم استجابته لدين الله، واتباع كتابه.

١٨ - وأنّ السجود والمواضعَ التي بُنيت للصّلاة والعبادة وذكر الله عزّ وجل، للّه وحده، فلا تعبدوا - أيها الإنس والجن - مع الله أحداً، وأخلصوا الدعاء له.

١٩ - وأنّه لمّا قام عبد الله محمدٌ ﷺ بهمّة وعزم يُبلّغ كتاب الله، ويدعو إلى سبيل ربّه، كاد رافضو دعوته يكونون جماعات مجتمعة بكثافة ضدّه، لمقاومة دعوته، ولمنعه من أداء رسالة ربّه.

٢٠ - قل - يا رسول الله - لكفّار مكة: ما أعبد إلا ربّي وحده، ولا أُشرك به في ربوبيّته ولا في إلهيّته أحداً، وسأتابع عبادتي لربّي في تبليغ دينه، مهما جمعتم جموعكم لحربي ومقاومة دعوتي، ومهما تلبّدتم عليّ متواطئين ضدّي، وضاغطين على صدري، لإسكات لساني، وقطع أنفاسي.

٢١ - قل - يا رسول الله - لهم: إني لا أقدر على مقارعتكم بوسيلة مادية أضرُّكم بها، لأمنع تألُّبكم عليَّ وعلى الذين آمنوا بي، ولا أملك وسيلة ألزمكم بها إلزاماً إكراهياً أن تكونوا راشدين مسلمين، فأنتم مسؤولون عن اختياركم الحرّ أمام ربّكم.

٢٢، ٢٣ - قل - يا رسول الله -: لن يمنعني من عذاب الله أحدٌ إنْ لم أقم بوظائف رسالتي التي أرسلني للقيام بها، ولن أجدَ من دونه ملجأً ألجأ إليه، لكن أملك أن أُبلّغكم عن الله ما أمرني بتبليغه، ورسالته التي أرسلني بها إليكم، فذلك الذي أملكه بعون الله وتوفيقه. ومن يعصِ الله ورسوله، ولم يؤمن، فإنَّ له نار جهنم خالدين فيها أبداً.

٢٤ - أَمْهلهم - يا رسول الله - واصبر عليهم، حتى إذا رأوا ما يُوعَدون من نكبات تنزل بهم، فسيعلمون عند انتصار المؤمنين عليهم في الدنيا مَنْ أَضْعَفُ ناصراً وأقلُّ عدداً؟ أهم أم المؤمنون؟

٢٥ - قل - يا رسول الله -: ما أدري أقريبٌ وقت العذاب الذي تُوعَدون أم يجعل له ربي أجلاً وغاية تطول مُدّتها؟

٢٦، ٢٧ - هو سبحانه عالم ما غاب عن العباد، فلا يُطلع على الغيب الذي يعلمه أحداً من الناس، إلا مَنْ يصطفيه لرسالته ونبوّته، فيُظهره على ما يشاء من الغَيْب؛ حتى يكون ما يُخبر به من المغيّبات معجزة دالّةً على نبوّته، فإذا أراد سبحانه إظهاره على ما يشاء من غيبه، فإنّه يُدخل من أمام الرسول ومن خلفه حَفَظةً من الملائكة يحفظونه من الجنّ؛ لئلا يسمعوا الوحي.

٢٨ - وقد أخبرناه ﷺ بحفظنا الوحي؛ ليعلم أنَّ الرسل قبله قد أبلغوا رسالات ربّهم، وأنّ الله قد حفظهم ودفع عنهم، وأحاط الله علمه بما عند الرسل، فلا يخفى عليه شيءٌ من أمورهم، وعلم سبحانه عدد الموجودات كلها، فلم يَخْفَ عليه شيء، فكيف لا يحيط بما عند الرسل من وحيه وكلامه؟

سورة المزمل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴿٧﴾ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلًا ﴿١٤﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ﴿١٧﴾ السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ ۚ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿١٩﴾

سورة المزمل

١، ٢ ـ يا أيها المُتلفِّف المُتغطِّي بثيابه، قُم الليل للصلاة والعبادة إلاّ قليلاً تنام فيه.

٣، ٤ ـ قُم نصف الليل أو انقص من النصف قليلاً إلى الثلث، أو زد على النصف إلى الثُلثين، واقرأ القرآن بترسُّل وتمهُّل وتبيينٍ، مع حضور القلب والتأمُّل في معاني الآيات. وفي الآية: استحباب ترتيل القرآن، وأنه أفضل من سرعة القراءة.

٥ ـ إنَّا سُنلقي عليك ـ يا رسول الله ـ كلاماً عظيماً جليلاً ذا معانٍ وفيرةٍ غزيرةٍ، لا يُستطاع تفهُّمها؛ إلا بالقراءة المُرتَّلة التي فيها أناةٌ، وتمهُّلٌ، وتفكُّر، وتدبُّر.

٦ ـ إنَّ العبادة التي تنشأ بالليل هي أَشَدُّ ثباتاً في القلب ورسوخاً فيه، وأكثر غلبةً للنفس وشهواتها، وأكثر قهراً لها وتذليلاً، وأبْيَن قولاً، وأكثر استقامة وسَداداً وتوفيقاً للمعاني الجليلة؛ لحضور القلب، وهدوء الأصوات، وذلك أجمعُ للفكرة، وأبعثُ على التأمُّل والاستفادة.

٧ ـ إنَّ لك ـ يا رسول الله ـ في النهار تصرُّفاً وتقلُّباً في حوائجك ومطالب حياتك، وزماناً طويلاً للقيام بوظائف رسالتك الدعويَّة والتربويَّة، ففرِّغ نفسك ليلاً لعبادة ربِّك.

٨ ـ واذكر ـ يا رسول الله ـ مع سَبْحك في النهار بحثاً عن الرزق ومطالب الحياة، اسمَ ربِّك بالتوحيد والتعظيم والتقديس والتسبيح، وأخلص له إخلاصاً، وتفرَّغ لعبادته، وانقطع عن كلِّ شيء إلاَّ من عبادة الله وطاعته.

٩ ـ هو سبحانه ربُّ المشرق والمغرب، المُقدِّر لمواقع الأرض والشمس، وحركة الأرض حول نفسها وحول الشمس، لا معبودَ بحقٍّ إلا هو، ففوِّض أمرك إليه وتوكَّل عليه، حتى يُيَسِّر لك الأمور، ويُسهِّل لك الأسباب، ويُذلِّلُ لك العقبات.

١٠ ـ واصبر ـ يا رسول الله ـ على ما يقوله المشركون من التكذيب والأذى، واعتزلهم اعتزالاً حَسناً لا غضب فيه، ولا مخاصمة ولا عتاب، وأعرض عن مجالس شتائمهم برفق، لتعود إلى نصيحتهم وكأنك لم تسمع شيئاً يؤذيك.

١١ ـ ودعني ـ يا رسول الله ـ والمُكذِّبينَ المترفين أهل التنعُّم، ومَهِّلهم في الدنيا زماناً قليلاً.

١٢، ١٣ ـ إنَّ عندنا في الآخرة قيوداً ثقيلة، وناراً مُحرقة، وطعاماً كريهاً غير سائغ في الحَلْق، لا ينزل إلى المريء ولا يخرج إلى الفم، وعذاباً آخر فوق ذلك وجيعاً.

١٤ ـ سيكون هذا الوعيد، يوم تتزلزل الأرض، وتتحرَّك الجبال، وتكون الجبال ـ بسبب ذلك الزلزال العظيم ـ رملاً منصبّاً مندفعاً، بعد أن كانت أحجاراً صُلبة عظيمة.

١٥، ١٦ ـ إنا بعظمة ربوبيَّتنا أرسلنا إليكم ـ يا أهل مكة ـ محمداً رسولاً، مُبلِّغاً لكم كلَّ ما أمرهُ الله بتبليغه، ومُبيِّناً، وداعياً، فإذا لم تستجيبوا له فإنه يأتي يوم القيامة شاهداً عليكم بأنه بلَّغ الرسالة، وأدى الأمانة، إلا أنكم لم تستجيبوا، كما أرسلنا إلى الطاغية المستبد فرعون ملك مصر، موسى بن عمران، فعصى فرعونُ الرسولَ موسى، وكذَّب برسالته، فعاقبنا فرعون عقاباً شديداً ثقيلاً.

١٧ ـ فكيف تتَّقون ـ إن كفرتم في الدنيا ـ العذابَ يوم القيامة الذي يجعل الولدان شيوخاً من هَوْل ذلك اليوم وشدّته؟

١٨ ـ السماء ـ مع عظمها ـ تنشق بشدَّة هَوْل يوم القيامة، كان وعد الله تعالى كائناً لا مَحالة.

١٩ ـ إنَّ هذه الرسالة الإلهيَّة رسالة بيان وهداية وموعظة وإرشاد وتذكير باقٍ، فهي ليست رسالة إكراهٍ ولا إلزام، فمن شاء نجاةَ نفسه وسعادتها، بما آتاه الله من إرادةٍ حُرَّةٍ مُمكّنةٍ بخلق الله أن تشاء بحُرِّيةٍ، اتَّخذ إلى مرضاة ربِّه طريقاً، ومَنْ لم يشأ ذلك استحقَّ العقاب والعذاب، فهو الذي يتحمَّل نتائج رفضه للحقِّ وسلوكِ سبيل الهداية.

إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿٢٠﴾

سورة المدثر

مكية ٧٤ — آياتها ٥٦

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴿٥﴾ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ﴿٧﴾ فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾ ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾

٢٠ - إنَّ ربَّك - يا رسول الله - يعلمُ أنَّك تقومُ للتهجُّد زمناً أقلَّ من ثُلثي الليل، وتقوم نصفه وثلثه، ويقوم معك الليل جماعةٌ من أصحابك، والله - وحده - العالم بمقادير الليل والنهار، لا يفوته علم ما تفعلون، فيعلم القدْر الذي تقومون من الليل والذي تنامون فيه، عَلِمَ أن لن يتيسَّر لكم مستقبلاً المحافظة على القيام المطلوب منكم محافظةً تستغرق كلَّ الليالي، فرجع مُتفضِّلاً عليكم بحكم التخفيف، فاقرؤوا في صلاتكم ما تيسَّر لكم قراءته من القرآن، عَلِمَ أن سيكون منكم مرضى يضعفون عن التهجُّد بالليل، وآخرون يسافرون للتجارة من أجل معايشهم، يطلبون من رزق الله، وقومٌ آخرون يجاهدون في سبيل الله، فاقرؤوا ما تيسَّر من القرآن، وأقيموا الصَّلاة المفروضة، بالمواظبة على أدائها في أوقاتها، وأعطوا الزكاة الواجبة، وتصدَّقوا في وجوه البرِّ والإحسان من كَسْبٍ طيِّب ابتغاءَ مرضاة الله، وما تُقدِّموا لأنفسكم من عمل إراديٍّ سواء كان عملاً قلبياً أم نفسياً أم جسدياً، تلقوا أجره وثوابه عند الله، خيراً وأعظم من الذي ادَّخرتُموه ولم تُقدِّموه، واطلبوا المغفرة من الله لذنوبكم وتقصيركم في قيام الليل وجميع أحوالكم، إنَّ الله كثير السَّتر وعظيمه، دائم الرحمة وعظيمها.

سورة المدثر

١ - ٥ - يا أيُّها المُتغطِّي بثيابه، المُسْتَدفِىءُ بها، المذعور من رؤية جبريل على هيئة عظيمة بين السماء والأرض، دع الجلوس قابعاً في دارك عند أهلك، وقُمْ بالدعوة إلى سبيل ربِّك وَفْق مراحلها، تبليغاً وإقناعاً وتَبْشيراً بثواب الله العظيم يوم الدين حتى آخر مراحلها، وهي الإنذار بعذاب الله المُؤجَّل والمُعجَّل، وخُصَّ ربَّك وحده بالتكبير والتعظيم، ببيان عظيم صفاته وأسمائه الحسنى، وتوحيده في ربوبيَّته وإلهيَّته، وذكره بالقلب واللسان، وخُصَّ ثيابك بالطَّهارة عن النجاسات، ونفسك عن الذنوب والآثام، واخصُص الشِّرك بالهجر الكامل، وابتعد عن كلِّ الوثنيات والشركيات، ولا تقترب من شيء منها مطلقاً، ودُمْ على هَجْر الأصنام والأوثان.

٦، ٧ - وأنعم بالعطاء الكثير الحسن ممَّا تملك من جَسَدك ونفسك ومالك عطاءً لا يُراد منه الربْح من الناس، ولأجل ابتغاء مرضاة ربِّك - وحده - فاصبر على طاعته وأوامره، وعلى ما تلقاه من الذين تدعوهم من إعراضٍ أو أذى بأقوالهم وأعمالهم.

٨ - ١٠ - فإذا نفخ «إسرافيل» في «القرن» النفخة الثانية؛ لإعادة الأرواح إلى الأجساد، فذلك اليوم الذي تبعث فيه الأحياءُ للمحاسبة وفصل القضاء والجزاء، يومٌ شديد يعسر على الكافرين. وفي بيان كون هذا اليوم عسيراً على الكافرين دلالةٌ على أنَّ الله عزَّ وجلَّ يُيَسِّر أمر هذا اليوم العصيب على المؤمنين.

١١ - ١٥ - دعني - يا رسول الله - مع مَنْ خلقتُهُ فريداً، لا مالَ له ولا ولد، وجعلتُ له مالاً كثيراً يمدُّ بعضه بعضاً، وبنينَ حضوراً لا يغيبونَ عنه، وبَسَطْتُ له العَيْشَ وطول العمر بَسْطاً مع الجاه العريض والرياسة في قومه، ثمَّ يرجو أنْ أزيده مالاً وولداً وتمهيداً (والمراد به الوليد بن المغيرة المخزومي، ويلحق به مَنْ كان مثلُهُ في كفره وعناده، وإصراره على الباطل على الرُّغم من وضوح الحقِّ له).

١٦ - لا أفعل ولا أزيده؛ إنه كان مُعَانداً في جميع دلائل التوحيد والقدرة والبعث والنبوَّة، يعرف كل ذلك بقلبه وينكر بلسانه، وهو أقبح الكفر وأفحشه. فَدَع مواجهة هذا الصِّنف من الجاحدين المُعاندين، فلا تتصارع معه صراعاً كلامياً ولا جسدياً، بل تابع مَسيرتك في دعوتك دون أن تشغلك مصارعته عن القيام بواجبات رسالتك.

١٧ - سأُكلِّفه مشقَّةً عظيمةً من العذاب لا يطيق حملها. وهذه الآية تضمَّنت وعيداً للوليد بن المغيرة ولِمَنْ كان مثله في عناده لآيات الله بعذابٍ ذي صفة خاصَّة في جهنم، وهو تحميله ما لا يطيق صاعداً على عقبةٍ كؤود.

إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾ كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾

١٨ ـ ٢٥ ـ إنَّه أعمَل فِكْرَهُ في أمر محمد ﷺ والقرآن، وهيَّأ في نفسه ماذا يمكن أن يقول في محمد ﷺ والقرآن، فعُذِّب وطُرِد عن رحمة الله طرداً أبدياً على أيَّةِ حالٍ كان عليها تفكيره وتقديره؟ ثمَّ تريَّث وزاد في تمهُّله وتفكيره لتزيين الكفر بالقرآن، فطُرد طرداً مميتاً على أية حال كان عليها تفكيره وتقديره؟ ثم بعد تأمُّل طويل ثبَّت نظره على فكرة رجاء أن تكون مقبولةً لدى جماهير قومه، إلا أنه أدرك ضعفها وعدم كفايتها للإقناع، فظهر أثر هذا الذي اعتلج في نفسه على وجْهه، فتجهَّم ساخطاً، وظهر الشحوب في وجهه من أثر استياء نفسه، ثمَّ أدبرَ عن متابعة النظر والتفكُّر، واستكبر عن الإيمان بالقرآن، وبالرسول محمد ﷺ، فقال: ما هذا الذي يقوله محمد ويقرؤه إلاَّ سِحرٌ يُروى ويُحكى عن الأوَّلين، ما هذا إلا كلامُ المخلوقين تعلَّمه محمدٌ منهم.

٢٦ ـ ٢٨ ـ سأُدخله جهنَّم؛ ليحترقَ فيها، وأيُّ شيء أعلمك ما «سقر»؟ إنَّك لا تدري عظمة «سقر» وهول شدَّتها إلا إذا أعلمناك بذلك، إنها لا تُبقي أحداً من المُستحقِّين للعذاب إلا أخذته، ولا تَذَر من لحوم أولئك شيئاً إلا أكلته وأفْنَتْه.

٢٩، ٣٠ ـ مُغيِّرةٌ للجِلْد حتى تجعله أسوداً. يُشرف على تعذيب المعذَّبين في «سَقَر» تسعةَ عشر من الملائكة الغِلاَظ الأشدَّاء.

٣١ ـ وما جعلنا أصحابَ النار ـ الخازنين لها، الموكَّلين بعذاب أهلها ـ إلا ملائكةً عظاماً؛ ليكونوا من غير جنس المُعذَّبين، وأشدَّ منهم، وما جعلنا عددهم في القلَّة إلا اختباراً عاماً للمشركين وأهل الكتاب والمنافقين، نمتحن به نفوسهم وعقولهم؛ ليستيقن الذين أُعطوا الكتاب من اليهود والنصارى بأنَّ هذا العدد مكتوبٌ في التوراة والإنجيل مع أنَّ محمداً لم يطَّلع على كتبهم، ولم يقرأ منها شيئاً، ولكن يصدُّهم حسدُهم وتعصُّبهم عن التصديق برسالة محمد ﷺ، ويزداد الذين آمنوا إيماناً، إذْ يجدون هذا الخبرَ مُطابقاً لما في كتب أهل الكتاب من أخبار صحيحة لم تُحرَّف، ويزداد إيمانهم بعدل الله في تعذيب الكفار يوم الدين، ويزيد التزامهم بطاعة الله والعمل بمراضيه، ولا يشكَّ الذين أُعطوا الكتاب والمؤمنون مُستقبلاً في أيِّ خبر يُخبر به رسول الله ﷺ، وليقول الذين في قلوبهم شكٌّ ونفاق ومُشركو مكة ـ استغراباً منهم لهذا العدد واستبعاداً له ـ: أيَّ شيء أراد الله بذكر عدد خزنة «سقر» تسعة عشر؟! وعلى مثل تلك الحال التي عليها الناس بأقسامهم، يحكم بمشيئته على من ضلَّ بالضلالة، ويحكم بمشيئته لمن اهتدى بالهداية، وما يعلم عدد أعوان خَزَنة جهنَّم من الملائكة الذين خُلقوا لتعذيب أهل النار إلا الله تعالى، وما «سقر» التي ذكرنا صفاتها إلا لغرض أن يكون العلم بها لدى الناس مُستقرّاً في ذاكراتهم، يستدعونه عند المناسبات، فإذا تذكَّروها كانت دافعةً لهم عن طريق اختيارهم الحر إلى أن يتَّقوا الكفر والمعاصي التي تجعل مرتكبيها يستحقُّون عذابَ الله فيها.

٣٢ ـ ٣٧ ـ كلا لا يتَّعظون ولا يتذكَّرون، أقسم سبحانه بالقمر، وبالليلِ وقت إدباره، وظهور نور الفجر، وبالصُّبح وقت إسفاره وانكشاف ضوئه، إنَّ سَقَر لإحدى الأمور العظام، إنذاراً وتخويفاً للناس، لِمَنْ شاء منكم ـ أيها البشر ـ أن يتقدَّم إلى مُقْتضيات العذاب بـ «سَقَر»، بأن يكفر ويُكذِّب بما جاء عن ربِّه، غير مُكترث للإنذار، وعليه أن يتحمَّل نتائج اختياره بمشيئته الحرة خُلوداً في العذاب الأليم في «سقر»، ومَنْ شاء أن يتأخَّر إلى مواقع النجاة والسلامة بالإيمان والعمل الصالح، تأخَّر باختياره الحرّ فَسَلِمَ ونجا وظَفِر.

٣٨ ـ ٤٧ ـ كلُّ نفسٍ مكلَّفةٍ في الدنيا، كاسبة لأعمالها باختيارها الحر، محبوسة في النار حَبْساً أبدياً بكسبها، ومأخوذةٌ بعملها الذي تَسْتوجب به الخلودَ في النار، إلا المؤمنين المخلصين أصحاب اليمين، الذين يُؤْتَوْن صحف أعمالهم يوم القيامة بأيْمانهم، فإنَّهم غير محبوسين بذنوبهم في النار، فكُّوا رقاب أنفسهم بأعمالهم الصَّالحة. هم في بساتين، يسأل بعضهم بعضاً عن المجرمين، يقول المسؤولون للسائلين: قلنا للمجرمين: أيُّ شيء أدخلكم في «سَقَر»؟ قال المجرمون مجيبين لهم وهم في «سقر»: لم نكن من المؤمنين الذين يُصلُّون لربِّهم، ولم نكن نتصدَّق على المساكين المحتاجين إلى الطعام، وكنَّا نخوض في مخاضات الإثم والمعاصي، ونتلبَّس في مُحرَّمات المظالم في الأنفس والأموال والأعراض، مع الخائضين من الظالمين وقادة الشرِّ والضلال، دون خوف ولا وجل، وكنَّا نكذِّب بيوم الحساب والجزاء، حتى أتانا الموت الذي لا شكَّ فيه.

فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾

سُورَةُ القِيَامَةِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿١﴾ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾ بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ﴿٥﴾ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿٦﴾ فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾ يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾

٤٨ ـ فما تنفع المكذِّبين بيوم الدين، شفاعة الشافعين من الملائكة والنبيِّين والشُّهداء والصَّالحين وجميع المؤمنين.

٤٩ ـ ٥١ ـ فما لهؤلاء المشركين عن تذكرة القرآن الباقيةِ المشتملةِ على بيان وهداية وموعظة وإرشاد مُعرضين؟ كأنَّ هؤلاء الكفار في إعراضهم عن سطوة القرآن الفكريَّة المؤثِّرة فيهم بما فيه من حقائق وأنوار وهداية، حُمُرٌ وحشيَّةٌ نافرةٌ، هَرَبت من أسدٍ كاسر.

٥٢، ٥٣ ـ لا تقبل ادعاءاتهم في أن القرآن سحر، وأنه قول البشر، بل يريد كلُّ واحد من كفار قريش؛ لعلَّة الكبر في نفوسهم، أن يُعطى كتباً مفتوحةً غير مطويَّة، يقرؤها كلُّ من يراها. ليس الأمر كما زعموا، بل علَّتهم النفسيَّة أنهم لا يخافون عذاب الآخرة.

٥٤ ـ ٥٦ ـ ردعاً وزجْراً للمعرضين عن تذكرة القرآن؛ إنَّ القرآن بما اشتمل عليه من هداية وإرشاد تذكرة دائمة بحقائق علمية يطلب من الناس أن يعلموها أولاً، ثُمَّ يتذكَّروها دواماً عند المناسبات الداعيات لتذكُّرها، لتكون مُوَجِّهة لإرادتهم وأنواع سلوكهم، وكلُّ إنسان هو حُرٌّ بعد أن تُعرض عليه هذه التذكرة في أن يستجيب لمضمونها فيؤمن، أو يرفضها فيكفر، وما يذكرون بمشيئتهم الحُرَّة إلا أن يشاء الله أن يمنحهم القدرة على المشيئة الحرَّة، ويُسخِّر لهم الأسباب التي بها يذكرون، دون أن تتأثَّر حريتهم بجَبْر ولا قَسْر، هو سبحانه حقيقٌ بأن يتقيَهُ عباده، ويخافوا عقابه، فيؤمنوا به ويطيعوه، وهو حقيقٌ بأن يغفر لهم ما سلَفَ من كفرهم وذنوبهم.

سُورَةُ القِيَامَةِ

١، ٢ ـ أُقسم بيوم القيامة الذي يُبعث فيه الخَلْق للجزاء، ولكنه أمرٌ غيبيٌّ لا يدرك عظمَتَهُ منكرو البعث. وأُقسم بالنفس المؤمنة التقيَّة الناصحة التي تلومُ صاحبها على تقصيره، وإن اجتهدت في الطاعة، ولكن هذه النفس اللوَّامة ضامرة هزيلة داخل الإنسان منكر البعث.

٣ ـ أيظنُّ هذا الكافر المنكر للبعث ظنّاً توهمياً ضعيفاً أنَّ العِظامَ بعد تفرُّقها ورجوعها رميماً لا يمكننا جمعها مرَّة أخرى؟

٤ ـ ليس الأمر كما يحسب هذا الإنسان الكافر، بلى قادرين على جمع عظامه وتأليفها، حتى نعيد السُّلاميات على صغرها إلى أماكنها، ونؤلِّف بينها حتى تستوي الأنامل، فمَنْ يقدر على جمع العظام الصِّغار فهو على جمع كبارها أقدر.

٥، ٦ ـ ليس صحيحاً أنَّ هـذا الإنسان الكافـر شاكٌّ في قُدرة الربِّ على إحياء الموتى، بل يريد هذا الإنسان ليدوم على تدفُّقه الوقح إلى فعل الشرور والآثام فيما يستقبله من الزمان، دون أن يشعر في أعماق وجدانه بوخز من ضمير، وفي نفسه بعقبة خوف من المصير، فيسأل سؤال متعنِّت مُسْتَبْعد ليوم القيامة الذي يكون فيه الحسابُ والجزاء: متى يكون يوم القيامة هذا، وقد خلت القرون العديدة دون أن يحدث هذا اليوم الموعود به؟!

٧ ـ ١٠ ـ فإذا تحيَّر البصرُ عند الموت، فَزَعاً ودهشاً، ممَّا يرى من العجائب التي كان يُكذِّب بها في الدنيا، وأظلم القمر وذهب نوره، وانجذب القمر إلى الشمس، حتى إذا بلغها ابتلعتُه الشمس في أحد تجويفاتها العظيمة، فجُمع بينهما، يقول الإنسان الكافر المُكذِّب يوم القيامة: أين المَهْرب من العذاب؟ وأين الملجأ؟

١١، ١٢ ـ زَجْراً وردعاً، لا مَلْجأ لك ـ أيها الكافر ـ تلتجيء إليه، ولا شيء يعصمك من عذاب الله تعالى، إنَّ الحكم يوم القيامة بمكان استقرارك في جهنم الذي سوف تستقرُّ فيه خالداً مُخلَّداً هو إلى ربِّك، لا مُعقِّب لحكمه ولا رادَّ لقضائه.

١٣ ـ ١٥ ـ يُخَبَّر الإنسان يوم القيامة بكلِّ ما قدَّم قبل موته من عمل قد عمله، خيراً كان أو شراً، وبكلِّ ما لم يعمله من أعمال كان يجب عليه أن يعملها، فأخَّرها وراءه في الحياة الدنيا، حتى وافته منيَّتُه، وانتهت ظروف امتحانه، وأقبلت مرحلة حسابه ومجازاته، فينكر هذا الإنسان ويرفض الإقرار، ويحاول أن يُلقي معاذيره، بل الإنسان كثير البصر والمعرفة بمرادات نفسه وأهوائها وشهواتها ونياتها، وسائر ما يصدر عنها، ولو ألقى حُجَجَه الكاذبة، وأقواله التي يحاول بها تبرئة نفسه، وستر ذنوبه.

١٦ ـ ١٩ ـ لا تُحرِّك ـ يا رسول الله ـ بما ينزل عليك من القرآن لسانَك؛ لتعجَلَ بأخذه، إنَّ علينا جَمْعَهُ في صدرك وذاكرتك، وضَبْط لسانك على تلاوته، كما يُلقِّنك إيَّاه جبريل، فلا تكن قراءتك مقارنة لقراءة جبريل عليك، بل أنْصِتْ حتَّى يُتِمَّ جبريل ما يُوحي إليك، فإذا فرغ جبريل من القراءة، فخُذْ أنت فيها، ثُمَّ إنَّ علينا ـ بعد حفظه وضبط تلاوته ـ بيان ما يشتمل عليه القرآن من دلالات وعلوم في الأزمنة المستقبلة.

كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ ﴿٢١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾
إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾
كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْ ۜ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَالْتَفَّتِ
السَّاقُ بِالسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ
﴿٣١﴾ وَلَٰكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ ﴿٣٣﴾ أَوْلَىٰ لَكَ
فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٥﴾ أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾
أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ
الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَىٰ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾

سُورَةُ الإِنسَانِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا ﴿١﴾
إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا
بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾
إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾ إِنَّ
الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾

٢٠، ٢١ ـ ارتدعوا وازدجروا ـ أيها الناس ـ عن ادِّعاء المعاذير التي تصرفكم عن السعي للآخرة، بل أنتم تُحبُّون الدنيا العاجلة الفانية السريعة الزوال، وتُوجِّهون لها كلَّ اهتماماتكم، وتتركون الآخرة ونعيمها.

٢٢، ٢٣ ـ وجوهُ أهل السعادة يوم القيامة حسنة ناعمة مُشْرِقةٌ مُضيئة بالنعيم، إلى ربِّها سبحانه ناظرة عياناً بلا حجاب.

٢٤، ٢٥ ـ ووجوهُ الأشقياء يوم القيامة عابسة كالحة مُتغيِّرة مُسْوَدة، تظنُّ ـ وهي في موقف الحشر ـ أن يُفعل بها أمرٌ عظيم وشرٌّ كبير من العذاب؛ لبقاء أمل ضعيف بأن يجعل الله لهم مَخْرَجاً من العذاب، باستئناف رحلة امتحانهم، أو يجعلهم تراباً.

٢٦ ـ ٣٠ ـ ارتدعوا عن إيثار الدنيا التي تفارقونها، إذا بلغت الرُّوح عند خروجها من الجسد إلى العظام التي بين ثُغرة النحر والعاتق، انكشفت له حقيقة الأمر، وقال مَنْ حَضَره: هل من طبيب يرقيه ويُداويه ممَّا نزل به؟ وظنَّ المُحتَضَر أنه الخروج من الدنيا، وفراق الأهل والولد؛ لبقاء أمل ضعيف باستمرار الحياة، واجتمعت شدَّة مفارقة الدنيا مع شدَّة إقبال الآخرة، إلى حكم ربِّك ـ وحده ـ يوم القيامة مرجع العباد، يُساقون إليه؛ ليفصل بينهم.

٣١ ـ ٣٥ ـ فلا صَدَّق ذلك الذي ظنَّ أن لن نجمع عظامه بما يجب التصديق به، ولم يُصَلِّ لله تعالى، ولكن كذَّب بكلِّ ما جاء به الرسول عن ربِّه، وأدبر وابتعد نائياً، ثمَّ ذهب إلى أهله يتبختر ويختال في مِشيته، قاربك ما تكره من أنواع العذاب، فيتبعها نوع آخر، ثم يتبعه نوع ثالث من العذاب، فيتبعه نوع رابع في عذاب أبديٍّ في جهنم.

٣٦ ـ أيظنُّ هذا الإنسان المنكر للبعث أنْ يترك هَمَلاً لا يُؤمر ولا يُنهى، ولا يُكلَّف في الدنيا ولا يُحاسب في الآخرة؟!

٣٧ ـ ٤٠ ـ ألم يكن هذا الإنسان المُتكبِّر المُتمرِّد عن طاعة الله ماءً قليلاً يُصَبُّ في الرَّحم؟ ثم صار قطعةَ دم جامد بعد النطفة، فقدَّر الله خلقه وسوَّاه وعَدَله، فجعلَ من المنيِّ الذي يقذفه الرجل الصِّنْفَيْن: الذكر والأنثى، أليس ذلك الربُّ الجليل العظيم الذي فعل هذا، وأنشأ الأشياء أوَّل مرة بقادرٍ على إعادته بعد الموت؟! بلى إنه على كل شيء قدير، وهو الخلاَّق العليم.

سُورَةُ الإِنسَانِ

١ ـ هل أتى على الإنسان وقتٌ طويل من الزمان، قبل أن ينفخ فيه الرُّوح، لم يكن شيئاً يُذكر؟ نعم، لقد أتى على الإنسان حينٌ من الدهر في أغوار الزمن الماضي السحيق لم يكن شيئاً مذكوراً مطلقاً، في أفراده، ونوعه، وخصائصه التكوينيَّة. وإذا ثبتت هذه الحقيقة لزم عنها أن الإنسان لا بدَّ له من حادث يُحدثه، وخالق يخلقه، إذ العدم المحض لا يصلح بذاته أن يتحوَّل إلى الوجود.

٢ ـ إنا خلقنا الإنسان من ماءٍ مختلطٍ ممتزج من منيِّ الرجل ومنيِّ المرأة، وهي صِبْغيَّات تحمل عوامل وراثية، وخصائص وصفات مختلفات، تظهر في صفات الإنسان الجسديَّة والفكريَّة والنفسيَّة؛ لنتخبره ونمتحنه مستقبلاً حينما يبلغ مبلغ المسؤولية والتكليف، ومنحناه وسائل المعرفة، وهي: السمع والبصر؛ ليستكمل شروط الامتحان الأمثل، وذلك حتى يتعرَّف بهذه الوسائل على الأدلة التي بثَّها الله في كونه، وحتى يستطيع إدراك وصايا الشرائع والتعاليم الربَّانيَّة التي ينزلها الله للناس.

٣ ـ إنا أرشدناه إلى طريق الهدى بنصب الدلائل وبعثة الرسل وإنزال الكتب؛ ليكون بعد ظروف الامتحان: إما شاكراً مُوحِّداً طائعاً مُقرّاً معترفاً بوجوب شكر خالقه سبحانه، وإمَّا أن يكون مبالغاً في كفره جحوداً نِعَمَ الله عليه، لا يُقدِّم من الشكر مقدار ذرَّةٍ من إيمان بالله وامتثال لتكاليفه، فهو يستحقُّ الخلود في عذاب النار.

٤ ـ إنَّا هيَّأنا للكافرين في جهنَّم سلاسل يُشدُّون بها، وأغلالاً في أيديهم تُغلُّ بها إلى أعناقهم، وناراً حامية جداً شديدة الاتِّقاد، بها يُحرقون.

٥ ـ إنَّ المؤمنين الصادقين في إيمانهم المطيعين لربِّهم، المتوسِّعين في أعمال الخير، يشربون من كأسٍ فيها خمر ممزوجة بالكافور، وهو طيبٌ معروف فيه بياض وبرودة، وله رائحة طيِّبة.

عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۖ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ۖ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾

٦ ـ هذا الشراب الذي مُزج بالكافور للأبرار، هو عينٌ يشرب منها أولياء الله المُقرَّبون صِرفاً خالصاً، ويمتلئون بها رِيًّا، يُجرونها إلى حيث شاؤوا من منازلهم وقصورهم إجراءً سهلاً لا يمتنع عليهم.

٧، ٨ ـ استوجب الأبرار هذا الثواب في الآخرة؛ لأنهم كانوا في الدنيا يؤدُّون ما أوجبه الله عليهم، ويُوفون بما أوجبوا على أنفسهم من طاعة الله، ويخافون يوماً عظيماً كان شرُّه منتشراً ممتداً، ويطعمون الطعام ـ على حبِّهم للطعام وقلَّته، وتعلُّق شهوتهم به، وحاجتهم إليه ـ مسكيناً لا مال له ولا يقدر على الكسب، وصغيراً لا أب له يكتسب له ويُنفق عليه، وأسيراً بيد الأعداء أو مسجوناً من المسلمين وغيرهم.

٩، ١٠ ـ يقولون لمن أطعموه: ما نُطعمكم إلا لأجل وَجْه الله تعالى، ورجاء ثوابه، لا نُريدُ مُكافأةً ولا طلب حَمْد وثناء منكم، إنا نخاف من ربِّنا يوماً شديداً تعبس فيه الوجوه من هَوْله وشدَّته، كريهاً تتقطَّبُ الجباهُ من فظاعة أمره.

١١ ـ ١٤ ـ فوقاهم الله شرَّ ذلك اليوم الذي يخافونه، وأعطاهم بدل عبوس الكفار وحزنهم حُسْناً في وجوههم، وسروراً في قلوبهم، وجزاهم بما صبروا على طاعة الله واجتناب معاصيه جنةً عظيمة، وألبسهم حريراً ناعماً من السندس والاستبرق، مُتَّكئين في الجنَّة على السُّرر المزيَّنة بفاخر الثياب والسُّتور، لا يؤذيهم حرُّ الشمس ولا برد الزَّمهرير، وقريبةً منهم ظلال أشجار الجنة، وسُخِّرت وقُرِّبت ثمارها، فيأكلون من ثمارها قياماً وقعوداً ومُضْطجعين، ويتناولونها كيف شاؤوا، وعلى أيِّ حال أرادوا.

١٥ ـ ١٧ ـ ويدورُ عليهم خدمهم بأواني الطعام الفضيَّة، وبأكواب من فضة بيضاء في صفاء الزجاج، هذه الأكواب هي قوارير في صفائها يُرى ما في باطنها من ظاهرها، قدَّرها السُّقاة والخدم تقديراً دقيقاً محكماً في أشكالها، وحجومها، وعلى قدر ريِّ شاربيها وكفايتهم، لا تزيد ولا تنقص. ويُسقى الأبرار في الجنة كأساً مملوءة خمراً مُزِجَت بالزنجبيل، يشرب المقرَّبون من عينٍ في الجنة ويرتوون بها ريًّا كاملاً، تُسمّى هذه العين سَلْسَبيلاً؛ لأنها سَلِسَةٌ مُنقادةٌ لهم، تسيل عليهم في طرقهم ومنازلهم.

١٨ ـ ويدور على أهل الجنة غلمانٌ دائمون على حالهم من النَّضارة والجمال، لا يهرمون ولا يتغيَّرون، إذا أبصرتهم ظننتهم؛ ـ لحُسْنهم وصفاء ألوانهم وبهجة أنوارهم وانتشارهم في الخدمة ـ لؤلؤاً مُفرَّقاً مضيئاً.

١٩ ـ ٢١ ـ وإذا أبصرت ببصرك هناك في الجنَّة رأيتَ نعيماً لا تُوصَفُ عظمته، ومُلكاً كبيراً لا زوال له ولا انتقال، يعلوهم ثيابٌ بطائنها من الحرير الرقيق الأخضر، وظاهرها من الحرير الغليظ، وحُلُّوا في أيديهم أساور من فضَّة، وسقاهم ربُّهم شراباً نقياً من الشوائب بالغ الطهارة، يُطهِّر قلوبهم ونفوسهم، وهو نوع آخر يفوق النوعين السابقين: كأس الخمر الممزوجة بالكافور، وكأس الخمر الممزوجة بالزنجبيل.

٢٢ ـ يقال لأهل الجنة ـ بعد دخولهم فيها ومشاهدتهم نعيمها ـ: إنَّ هذا النعيم كان لكم جزاءً لأعمالكم، قد أعدَّه الله لكم، وكان سعيُكم محموداً مرضيّاً مقبولاً عندنا.

٢٣، ٢٤ ـ إنا نحن بعظيم ربوبيَّتنا نزَّلنا عليك ـ يا رسول الله ـ القرآن تنزيلاً مُتفرِّقاً آيةً بعد آية، فاصبر مُستسلماً لحكم ربِّك المبرم في قضائه وقدره، متابعاً القيام بمهمّات رسالتك لغاية تحقيق حكم الله في المدعوِّين، ولا تُطع من المشركين من كان مُقْدِماً على المعاصي يدعوك إلى ترك مهمّات الرسالة، أو الخروج فيها عما أمر الله به، أو جَحُوداً نِعَم ربِّه عليه.

٢٥ ـ وداوم على ذكر اسم خالقك ومالكك ومُمدِّك بعطاءات ربوبيَّته في أول النهار وآخره، وصلِّ لربِّك أول النهار صلاة الصُّبح، وبعد الزوال صلاة الظهر والعصر.

وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ وَسَبِّحۡهُ لَيۡلٗا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمۡ يَوۡمٗا ثَقِيلٗا ﴿٢٧﴾ نَّحۡنُ خَلَقۡنَٰهُمۡ وَشَدَدۡنَآ أَسۡرَهُمۡۖ وَإِذَا شِئۡنَا بَدَّلۡنَآ أَمۡثَٰلَهُمۡ تَبۡدِيلًا ﴿٢٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿٣٠﴾ يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمَۢا ﴿٣١﴾

سُورَةُ المُرۡسَلَات

(٧٧) — آياتها (٥٠)

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلۡمُرۡسَلَٰتِ عُرۡفٗا ﴿١﴾ فَٱلۡعَٰصِفَٰتِ عَصۡفٗا ﴿٢﴾ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشۡرٗا ﴿٣﴾ فَٱلۡفَٰرِقَٰتِ فَرۡقٗا ﴿٤﴾ فَٱلۡمُلۡقِيَٰتِ ذِكۡرًا ﴿٥﴾ عُذۡرًا أَوۡ نُذۡرًا ﴿٦﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٞ ﴿٧﴾ فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتۡ ﴿٨﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتۡ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ نُسِفَتۡ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتۡ ﴿١١﴾ لِأَيِّ يَوۡمٍ أُجِّلَتۡ ﴿١٢﴾ لِيَوۡمِ ٱلۡفَصۡلِ ﴿١٣﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ ﴿١٤﴾ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾ أَلَمۡ نُهۡلِكِ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتۡبِعُهُمُ ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفۡعَلُ بِٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾

٢٦ ـ ومنْ بعض الليل فَصَلِّ لربِّك صلاة المغرب والعشاء، وتهجَّد بالليل صلاة التطوُّع بعد المكتوبة زمناً طويلاً من الليل، وسبِّحه مدَّة طويلة في صلاة قيام الليل أو خارجها، فلهذا التسبيح أثر فعَّال في علاج الهموم العظيمة، والأعباء الجسيمة.

٢٧ ـ إنَّ هؤلاء الكَفَرة يُحبُّون الدنيا العاجلة، ويُوجِّهون كلَّ أعمالهم واهتماماتهم لنَيْل متاعها وشهواتها، ويدبرون ويتولَّوْن نابذين وراءهم الإيمان بيوم الدين الذي هو يوم ثقيل في شدائده وأهواله وكرباته، فلا يؤمنون به، ولا يعملون له.

٢٨ ـ نحن خلقناهم، وأحكمنا ربط مفاصلهم بالأعصاب والعروق، حتى صار لهم قوة وتماسك، وإذا شئنا بعثناهم يوم القيامة بعد موتهم، وبدَّلنا صفاتهم، وأعدناهم خلقاً جديداً.

٢٩ ـ ٣١ ـ إنَّ هذه الرسالة رسالة بيان وهداية وموعظة وإرشاد وتذكير دواماً، وليست رسالة إكراه ولا إلزام، فَمَنْ شاء بما آتاه الله من إرادةٍ حُرَّةٍ مُمَكَّنةٍ بخلق الله اتَّخذ لنفسه في الدنيا إلى رضوان ربِّه ونعيمه في جنَّته وسيلةً بالطاعة والتقرُّب إليه، ولستم تشاؤون شيئاً إلا إذا منحكم الله المشيئة الحرَّة، ومكَّنكم من استخدامها؛ لتشاؤوا بها طريق نجاتكم وسعادتكم، أو طريق هلاككم وشقائكم، لكنَّ الله ما وضعكم مَوْضع الامتحان إلا بعد أن منحكم الإرادة الحرَّة، وسائر شروط التكليف، فأنتم مسؤولون مسؤوليَّةً تامَّة عن مشيئاتكم وأعمالكم، إنَّ الله كان عليماً بأحوال خلقه وما يكون منهم، حكيماً حيث خلقهم ووضعهم موضع الامتحان بعد أن منحهم الإرادة الحرَّة، يُدخل من يشاء من عباده المؤمنين في جنَّته بفضله وإحسانه. والظالمين من دَرَكة الكفر أعدَّ الله لهم بعدله في الآخرة عذاباً مؤلماً في دار العذاب.

سُورَةُ المُرۡسَلَات

١ ـ ٧ ـ أقسم الله بنوع الرياح المُرسلات تِباعاً بيُسْر وسهولة إرسالاً معروفاً، بمبشِّراتٍ من رحمة الله وفيوض عطاءاته، فالرياح الشَّديدة الهبوب التي تحمل ما على وجه الأرض من نباتٍ يابس، والرياح اللاتي تنشر بخار الماء، ونويات اللقاح، وغبار الطَّلع، وبزور النباتات؛ لتحقيق منافع للأحياء في مواضع مختلفة من الأرض، فالرياح الفارقات بين الأشياء التي تحمِلُها عقب نشرها، فتُوزِّعها بحَسَب مُقْتضيات حكمة الربِّ جل جلاله، فالرياح ذوات الصفات المختلفات التي تُلقي في أفكار أُولي الألباب ذكراً بالله، وبصفاته الجليلة، وبأسمائه الحُسنى، وهو سبحانه بتصاريفه المتنوِّعة في الرياح يُلقي العُذْر قبل تنفيذ العقاب فيمن يستحقُّونه، فإذا أنزل بهم عقابَه بعد ذلك على كفرهم فلا يلوموا إلا أنفسهم، وهو سبحانه بما أجرى من عقاب بالريح المُدمِّرة للأمم السابقة ينذر بأنه سيُجري نظير عقوباته السابقات على المجرمين الذين يصلون إلى مثل ما وَصَل إليه المجرمون السابقون الذين أهلكهم الله بالريح المُدمِّرة، إنَّ الذي تُوعَدُونَه ـ أيها الناس ـ من بعث للحساب، وفصل القضاء، وتحقيق الجزاء في الدار الآخرة لواقع في المستقبل حتماً.

٨ ـ ١٤ ـ فإذا النجوم مُحِيَ ضوْؤها، وذهب أثرها، وإذا السماء جُعِلَ فيها منافذ منفرجة، بدل نظام التماسك وعناصره المُلتحمة، وإذا الجبال قُلِعَت من أماكنها، وإذا الرُّسل من الملائكة حُدِّدت أوقات قيامها بوظائفها المأمورة بقيامها يوم القيامة، لأيِّ يومٍ عظيم أُخِّرت؟! ليوم يفصل الرحمن فيه بين الخلائق. وما أعلمك ـ أيها الإنسان ـ بيوم الفصل وهوله وشدَّته؟

١٥ ـ هلاكٌ عظيمٌ في ذلك اليوم للمُكذِّبين بالتوحيد والنبوَّة والبعث والحساب، ومكان سحيق لتعذيبهم في جهنم. وقد تكرَّرت هذه الآية في هذه السورة عشرَ مرَّات، عقب كل آية كذَّب بها الجاحدون، إنذاراً للمكذِّبين بيوم الدين، وترهيباً من عذاب جهنَّم الذي سيُلاقونه إذا أصرُّوا على كفرهم وتكذيبهم وماتوا على ذلك دون توبة.

١٦ ـ ١٨ ـ ألم نُهلك إهلاكاً شاملاً المجرمين السابقين من الأُمم الماضية بالعذاب في الدنيا حين كذَّبوا رسلهم؟ ثمَّ نُتبعهم السالكين سبيلهم في الكفر والتكذيب. مثل ذلك الإهلاك الفظيع الشامل الذي فعلنا بالمجرمين الأولين نفعل بسائر المجرمين من الأمم اللاحقة.

١٩ ـ هلاكٌ ودمارٌ يوم القيامة للمكذِّبين بآيات الله وأنبيائه، ومكان سحيق لتعذيبهم في جهنم، هو وادي «وَيْل».

أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾ ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾

٢٠ - ٢٤ - ألم نخلقكم من ماءٍ قليلٍ ضعيفٍ حقير، وهو النُّطفة، فجعلنا هذا الماء في مكان استقرار، حيث يتمُّ تلقيحه لبييضة الأنثى، ويتمُّ علوقه بجدار الرحم، إلى تحقيق قدرٍ معلوم للَّهِ تعالى، يشملُ المقادير الزمانيةَ والمكانية والذاتية والوصفية في خلق كلِّ جنين، فأحكمنا تحديد المقادير كلها، دون زيادة ولا نقص عن مقتضى الإتقان والتَّسوية المُحكمة، فنِعْمَ القادرون المُحَدِّدون للمقادير الحكيمة نحن. هلاكٌ ودمارٌ يوم القيامة للمنكرين للبعث؛ لأنَّ القادر على الابتداء قادرٌ على إعادة الموتى إلى الحياة، للحساب، وتحقيق الجزاء.

٢٥ - ٢٧ - ألم نجعل الأرض وعاءً جامعاً لدورة الحياة والموت، يخرج منها أحياء بتقدير الله وخلقه، ويعود إليها أمواتٌ بتقدير الله وخلقه، وهذه الدورة ظاهرة في إعادة النباتات من بزورها، وفي نشأة أجيال الأحياء من النسل، تداولاً، حتى تنتهي ظروف الحياة الدنيا. وجعلنا في الأرض جبالاً راسخات عاليات؛ تُثبِّت قشرة الأرض من أن تكون عُرضة للتشقُّقات والزلازل، والتحرُّك والاضطراب، وأسقيْناكم ماءً عذباً من الأنهار الجارية، والآبار والعيون؛ تشربون منه أنتم ودوابكم، وتسقون زروعكم.

٢٨ - هلاكٌ ودمار يوم القيامة للمنكرين للبعث، ومكان سحيق لتعذيبهم في جهنم، هو وادي «ويل».

٢٩ - ٣٤ - تقول خزنة جهنم للكافرين بعد الحساب وفصل القضاء: اذهبوا سريعاً - أيُّها المُكذِّبون - إلى ما كُنتم تكذِّبون به في الدنيا من العذاب. انطلقوا إلى مكانِ ظلٍّ من دخان جهنَّم أسود، يُلقي ظلَّه على أسفل وادٍ من ودیانها في مكانٍ واسع تُحيط به ثلاثة جبال غير متلاصقة، فيها مخارج ضيِّقة، واللهب محيط بالوادي وبجباله وبشُعبه، ولا مَخرج لأهل النار إلا بأن يصعدوا على جبل من هذه الجبال يتحمَّلون به عذاباً أشد، يقتربون فيه من مصادر اللهب، أو بأن يدخلوا هذه المضايق التي هي أشدُّ حراً وعذاباً، فهم في مكان مظلم يُعْطي ظلاً من دخان لهب النَّار الموقدة، ولا يحجب عنهم حرارة اللهب. إنَّ جهنَّم تَقْذف من أعالي الجبال المحيطة بوادي «ويل» بشررٍ جَمْريٍّ مُتوهِّج، كالبناء العظيم العالي، كأنَّ شرر جهنَّم المُتطاير منها، طائفة من الجمال الصُّفر المجتمعة. هلاكٌ ودمارٌ يوم القيامة للمكذِّبين بهذا اليوم وأهواله، ومكان سحيق لتعذيبهم في جهنَّم، هو وادي «ويل».

٣٥ - ٣٧ - هذا يوم القيامة لا ينطق الكفار فيه بحجةٍ تنفعهم، ولا يكون إذنٌ واعتذار عن جرائمهم؛ لأنه قد تقدَّم الإعذار والإنذار في الدنيا. هلاكٌ ودمار يوم القيامة للمكذِّبين بهذا اليوم، ومكان سحيق لتعذيبهم في جهنَّم، هو وادي «وَيْل».

٣٨ - ٤٠ - يقال للكافرين يومئذ: هذا يومُ الفرق والتمييز بين العباد في الحقوق والمحاكمات، جمعناكم - أيُّها المُكذِّبون من هذه الأمَّة - والذين كذَّبوا أنبياءهم من الأمم الماضية، فإنْ كانت لكم حيلة تحتالون بها لأنفسكم فاحتالوا. هلاكٌ ودمارٌ يوم القيامة للمكذِّبين بهذا اليوم، إذْ لا حيلة لهم في الخلاص من العذاب.

٤١ - ٤٥ - إنَّ المتَّقين الشِّركَ والمعاصي في ظلال الأشجار والقصور، وعيون الماء الجارية، وفواكه متنوِّعة ممَّا يشتهون، يتلذَّذون بها. يقول الله تعالى لهم: كُلوا واشربوا أكلاً وشرباً خالصَ اللذة لا يشوبُه تنغيص؛ بسبب ما كنتم تعملون في الدنيا من الطاعات، إنا مِثْل ذلك الجزاء العظيم الذي نجزيه المتقين الذين هم من أهل مرتبة التقوى نجزي المحسنين الذين هم من مرتبة الإحسان العليا مع ما يفضِّلهم الله به من جزاءاتٍ خاصّةٍ بهم. هلاكٌ ودمار يوم القيامة للمكذِّبين بالجنة، لما فاتهم من النِّعم العظيمة.

٤٦، ٤٧ - يقال للكافرين المُكذِّبين في الدنيا تهديداً لهم: كُلوا وتمتَّعوا قليلاً في الدنيا إلى منتهى آجالكم؛ إنكم مشركون بالله، مُستحقُّون للعقاب، إذا بقيتم مُصرِّين على كفركم وتكذيبكم. هلاكٌ ودمار يوم القيامة للمكذِّبين بالنِّعم.

٤٨ - وإذا قيل لهؤلاء المشركين: اخضعوا لله عزَّ وجلَّ بعبادته أدنى خضوع، لم يخضعوا لله استكباراً وعناداً.

٤٩، ٥٠ - هلاكٌ ودمارٌ يوم القيامة للمُكذِّبين بأوامر الله ونواهيه، المتكبِّرين على خالقهم، فبأيِّ حديثٍ هادىءٍ كثير التأثير في النفوس البشريَّة يؤمنون بعد هذا الحديث البياني الإقناعي؟! إنَّ إصرارهم على التكذيب بعد هذا الحديث لا يكون إلا ناشئاً عن عنادٍ وإصرارٍ على الباطل، واتِّباعٍ للهوى والشهوات، وارتكاب الجرائم والآثام.

سورة النبأ

سورة النبأ — ترتيبها ٧٨ — آياتها ٤٠

بسم الله الرحمن الرحيم

عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ﴿٦﴾ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِلطَّاغِينَ مَآبًا ﴿٢٢﴾ لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَاءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾

سورة النبأ

١ - ٣ - عن أيِّ شيء يتساءل المشركون؟ يتساءلون عن الخبر العظيم الشأن، وهو البعث إلى الحياة بعد الموت. الذي هم فيه مختلفون، بين شاكّين، وبين مُستيقنين في قلوبهم جاحدين عِناداً ومكابرة.

٤، ٥ - فَلْيرتدع ولينزجر المُكذِّبون بالبعث ويوم الدين، سيعلمونَ عند نَزْع أرواحهم عاقبة تكذيبهم حين تنكشف لهم مقاعدهم في جهنم دار العذاب، ثم عند البعث سيعلمون أن ما كانوا يُكذِّبون به من أحوال الآخرة حقٌّ لا ريب فيه.

٦ - ألم نجعل الأرض مكاناً مُمَهَّداً مُوطَّأً؛ لتجدوا عليها أمكنة إقامةٍ وراحةٍ وسكن مطمئن.

٧ - أولم نجعل الجبال في الأرض كالأوتاد المثبِّتة للخيام عند نصبها، تحفظها من الاضطراب والسقوط؟ فالله سبحانه جَعَلَ الجبال مُثَبِّتات لقشرة الأرض حماية لها من أن تميد بسكانها، ومنع أن تتحرَّك وتضْطرب بهم، مع ما في الجبال من منافع كثيرة للأرض.

٨ - وأنشأناكم وجعلناكم - أيُّها الناس - ذكوراً وإناثاً؟ وأصنافاً ذوي أشكال مختلفة في ألوانكم، ووجوهكم، وحجومكم، وأطوالكم، وذكائكم مع وحدة النوع وأصول مخطط الخلق العام.

٩، ١٠ - وجعلنا نومكم قطعاً لأعمالكم؛ لتستريحوا فيه من عناء العمل طول النهار؟ وجعلنا الليل لباساً تلْبسكم ظلمته، وتغطيكم، كما يستر الثوب لابسه؟

١١، ١٢ - وجعلنا النهار سبباً للمعاش والتصرُّف في المصالح، ورفعنا فوقكم بناءً: سَبْعَ سموات قويّات مُحكَمات لا يتطرَّق إليهنَّ شقوق ولا فطور على مَمَرِّ الزمان إلى أن يأتيَ أمر الله تعالى؟

١٣ - ١٦ - وجعلنا في السماء الشمس مصباحاً زاهراً مضيئاً، بالغاً في الحرارة؟ وأنزلنا من السُّحُب الثقال التي حان أن تُمطر ماءً مدراراً مُتَتابعاً، يتلو بعضه بعضاً؛ لنُخرج بذلك الماء حبّاً مختلف الأصناف ممَّا يأكله الإنسان ويدَّخره؛ كالحنطة والشعير والأرز ونحوها، ونخرج نباتاً ممَّا تنبت الأرض من الحشيش ممَّا يأكل منه الأنعام، وبساتين مُلتفَّة بالشجر ليس بينها انْفِراج؛ لتقارب أغصانها؟

١٧، ١٨ - إنَّ يوم الفصل الذي يفصل الله فيه ويُفرِّق بين المحقِّ والمُبْطل، ويحكم لهم أو عليهم، كان موعداً مؤقَّتاً، ومكاناً مُحدّداً، يجتمع فيه الخلائق؛ ليُقضىٰ بينهم، ويكون ابتداؤه يوم ينفُخُ إسرافيل عليه السلام في «القرن» النفخة الثانية، للبعث من القبور، فتأتون - أيُّها الناس - مسرعين جماعاتٍ وأمماً من كلِّ مكانٍ للحساب.

١٩، ٢٠ - وشُقَّت السَّماء، فكانت ذات أبواب لنزول الملائكة، وسُيِّرت الجبال عن وَجْه الأرض، فكانت هباءً مُنْبثاً؛ كالسَّراب في عين الناظر.

٢١ - ٢٦ - إنَّ نار جهنَّم كانت مُعدَّةً مُهيَّأَةً ترتقب الكفار وتنتظرهم، للطَّاغين الَّذين تجاوزوا الحدَّ في العصيان حتى بلغوا الكفر مرجعاً يرجعون إليها، ويستقرُّون فيها، ماكثين في جهنَّم دهوراً مُتعاقبة لا تنقطع، لا يحسُّون ولا يطعمون فيها برودةً تُخفِّف عنهم حرَّ النار، ولا يشربون شيئاً يغنيهم عن عطش، لكن يشربون ماءً حاراً انتهى حرُّه، وصديداً منتناً يسيلُ من أهل النار، جَزَيناهم بذلك العذاب جزاءً عادلاً موافقاً لأعمالهم التي كانوا يعملونها في الدنيا، فلا ذنب أعظم من الشرك، ولا عذاب أعظم من النار.

٢٧ - ٣٠ - إنهم كانوا في الدنيا لا يتوقَّعون لقاءَ ربِّهم يوم القيامة للحساب، وفصل القضاء، وتنفيذ الجزاء، فلا يُأمِّلون ثوابنا، ولا يخشَوْن عقابنا، وكذَّبوا بآياتنا الكونيَّة والبيانيَّة والإعجازيَّة والجزائيَّة تكذيباً شديداً مُفرطاً - وكلَّ شيء من الأعمال كتبناه كتابة إحصاءٍ تامٍّ لكلِّ صغير وكبير في اللوح المحفوظ - ويقال لأهل جهنَّم: ذوقوا عذابَ الحريق فيها، وأحسُّوا بملامسته، مع أنواعِ عذابٍ غيرِه، فلن نزيدكم بعد ما أنتم فيه من عذاب إلا عذاباً فوق عذابكم.

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾ رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴿٤٠﴾

سورة النازعات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا ﴿١﴾ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا ﴿٢﴾ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا ﴿٣﴾ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا ﴿٤﴾ فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ﴿٥﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ﴿٧﴾ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ ﴿٩﴾ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾ قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾

٣١ - ٣٥ - إنَّ للَّذين اتَّقَوْا ربَّهم بطاعته واجتناب معاصيه في رحلة امتحانهم في الحياة الدنيا، نجاةً من العذاب، وفَوْزاً بما حَصَل لهم من النعيم؛ بساتينَ عظيمة وأعناباً، وجواري نواهد قد تكعَّبت أثداؤهُنَّ، مُسْتويات في السِّنِّ، متشابهات في الحُسْن، وقدحاً مملوءة خمراً، مُتابعة صافية من الشوائب، لا يسمعون في الجنَّة ما لا يُعتدُّ به من الكلام وغيره، ولا يُكذِّب بعضهم بعضاً.

٣٦، ٣٧ - يتنعَّم المتَّقون بهذا الثواب العظيم في جنات النعيم حالة كونه جزاءً من ربِّك على أعمالهم الصالحة في الدنيا، وعطاءً كافياً وافياً من غير مقابل، وهو زيادة في الجنة يزيدها الله سبحانه لِمَنْ يشاء من عباده، خالق السموات والأرض وما بينهما ومُدبِّر أمورهما، والمهيمن عليهما بصفات ربوبيَّته، الرحمنِ الذي وَسِعَت رحمتُه كلَّ شيء، لا يستطيع أحدٌ من أهل الموقف أن يخاطب الله سبحانه بشيءٍ لنفسه، أو لغيره إلا بإذنه.

٣٨ - يوم يقومُ الرُّوحُ جبريلُ عليه السلام متميِّزاً بارتفاع منزلته عند ربِّه، والملائكةُ معه مُصْطَفِّين، ساكتين صامتين، لا يشفعون إلا لِمَنْ أذِنَ له الرحمن في الشفاعة، وقال حقّاً وسداداً.

٣٩ - ذلك اليوم العظيم المنزلة الذي يقوم فيه الرُّوح والملائكة، هو - وحده - اليوم الحقُّ الثابت الوقوع لا مَحَالة، فمَنْ أراد منكم - أيها العباد - اتَّخذ إلى لقاء ربِّه مَرجعاً حَسَناً يرجع إليه، وذلك بالإيمان والعمل الصالح، أو يختار لنفسه عاقبة سيئة بكفره، فيستحق العذاب الأليم يوم الدين.

٤٠ - إنا أعلمناكم - أيُّها المكذِّبون بيوم الدين - مخوِّفين لكم عذاباً قريباً؛ لأنَّ الحياة الدنيا لكلِّ واحد منكم قصيرة، ثم إنكم بين الموت والبعث ينعدم إحساس نفوسكم بإدراك الزمن، يوم ينظرُ المرءُ ما قدَّمت يداه من خيرٍ أو شرٍّ، ويقول الكافر: يا ليتني بقيتُ تراباً بعد الموت، فلم أُبعث ولم أُحاسب.

سورة النازعات

١ - ٥ - أقسم الله تعالى بالملائكة التي تَنْزع أرواحَ الكفار من أجسادهم نَزْعاً شديداً، كما ينزع الرَّامي بقوسِهِ وَتَرَ قوسِهِ بشدَّةٍ حتى يستوفيَ غايةَ مدِّهِ، والملائكةِ التي تَجْذب أرواح المؤمنين من أجسادهم عند انتهاء آجالهم برفق وسهولة ويُسْر، والملائكةِ الذين يترقَّبون دواماً ما ينزل إليهم من أوامر ربَّانيَّة؛ ليقوموا بتنفيذها في كونِهِ، دون كللٍ ولا تعب، فالملائكة المُتقدِّمات المُسْرعات لتنفيذ أوامر الله دون تأخير ولا تباطؤ، فالملائكة المنفذِّات ما سبَقَ به تدبير الله، وتمَّ به تقديره وقضاؤه.

٦، ٧ - لتُبعثُنَّ يومَ تَضْطرب الأرض بسبب النفخة الأولى، ويموت جميع الخلائق، تلحق بها النفخة الثانية التابعة للنفخة الأولى؛ لبعث الأموات أحياء للحساب، وفصل القضاء، وتحقيق الجزاء.

٨، ٩ - حين تنفخ النفختان في الصُّور، الأولى والثانية، ويُبعث الأحياء، ويَرَوْن أهوال الموقف، تكون قلوب الكفار قلقةً مُضْطَرِبة، أبصار أصحاب هذه القلوب ذليلة؛ منكسرة تنظر إلى الأرض.

١٠، ١١ - يقولُ المنكرون للبعث إذا قيل لهم: إنكم مبعوثون بعد الموت: أَنُرَدُّ إلى أوَّل الحال وابتداء الأمر، فنصير أحياء بعد الموت؟ كيف نرجع إلى حالنا الأوَّل، وقد تحلَّلت أجسامنا وصِرنا عظاماً بالية متفرِّقة في تراب الأرض؟!!

١٢ - قال المنكرون للبعث استهزاءً واستكباراً: رَجْعتُنا بعد الموت - إنْ صحَّت - رجعة خائبة غيرُ رابحة؛ لتكذيبنا بها.

١٣، ١٤ - إنَّ الأمر لا يحتاج إلى كبير عناء، فما النفخة الأخيرة إلا صَيْحةٌ واحدةٌ، يُجمعون بها جميعاً، فإذا هم أحياء على وَجْهِ الأرض بعد ما كانوا أمواتاً في بطنها.

١٥ - استمع مُتفهِّماً - أيها المخاطب - هذا الحديث المتعلِّق بالنبيِّ موسى عليه السلام.

إِذۡ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلۡ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخۡشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَىٰهُ ٱلۡأٓيَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدۡبَرَ يَسۡعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلۡأٓخِرَةِ وَٱلۡأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةً لِّمَن يَخۡشَىٰٓ ﴿٢٦﴾ ءَأَنتُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمۡكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغۡطَشَ لَيۡلَهَا وَأَخۡرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخۡرَجَ مِنۡهَا مَآءَهَا وَمَرۡعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلۡجِبَالَ أَرۡسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ ﴿٣٣﴾ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلۡكُبۡرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوۡمَ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلۡجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلۡجَحِيمَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ ﴿٤١﴾ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكۡرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخۡشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَهَا لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوۡ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾

سُورَةُ عَبَسَ

مكية ٨٠ — آياتها ٤٢

١٦، ١٧ ـ حين ناداه ربُّه بالوادي المُطهَّر «طُوى»؛ الواقع إلى جانب جبل الطُور: اذهب إلى فرعون؛ إنه عَلاَ وتكبَّر وتجاوز الحدَّ في كفره وفساده وظلمه وعدوانه.

١٨، ١٩ ـ فقل لفرعون بغاية الرفق والتكريم : هل يطيب لك أن أدعُوكَ إلى أن تَتَطهَّر من الشِّرك والكفر، وأعرِّفك بصفاتِ ربِّك الجليلة، وأسمائه الحُسْنى، فإذا عرفت صفاته الجليلة، خشيت عقابه وانتقامه، فآمنت به رباً لا شريك له، وعبدته وحده، وأطعته طامعاً بثوابه الجزيل يوم الدين؟

٢٠ ـ ٢٢ ـ فطلب فرعونُ من موسى عليه السلام، أن يُرِيَهُ آيةً تدلُّ على أنه رسولٌ مُرسَلٌ من ربِّه، فأرى موسى فرعونَ المعجزة العُظمى: اليد البيضاء والعَصَا، علامةً واضحةً على نبوَّته وصدقه فيما جاء به عن ربِّه، فكذَّب فرعونُ بأنها من عند الله، وتمرَّد وأظهر التجبُّر، ثمَّ تولَّى مبتعداً عن الإيمان والطاعة، مُجِدّاً في إبطال أمر موسى، ومعارضة معجزاته.

٢٣، ٢٤ ـ فجمع فرعونُ قومَهُ وجنودَهُ، فنادى لما اجتمعوا، فقال: أنا ربُّكم الأعلى، لا ربَّ فوقي.

٢٥ ـ فعاقبه الله عقاباً شديداً رادعاً بإغراقه وملئه وجيشه في البحر، فجعله عبرةً لغيره، جزاء الآخرة في قوله: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾، وقوله في الأولى: ﴿مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾.

٢٦ ـ إنَّ في ذلك الذي جرى لفرعون حين كذَّب وعصىٰ لموعظةً لِمَن يتَّعظ ويخاف عقاب الله عزَّ وجل.

٢٧ ـ ٣٣ ـ أَخَلْقُكم ـ يا مَنْ أنكرتم البعث ـ بعد الموت أصعب وأشقُّ أم خلق السماء بأبعادها وما فيها من نجوم لا تُحصى؟ بناها بناءً عظيماً مُحكماً لا خَلَلَ فيه ولا نقص، وأعلى سقفها بغير عَمَد، فأتقن بناءها، فجعلها تامَّةً مُسْتوية بالغةَ الغاية المقصودة من خلقها، وأظلَمَ ليلها، وأظهر وأبرز نهارها بضياء الشمس، ودحرج الأرض بعد خلق السماء، وجعلها كرويَّة تدور حَوْل نفسها في اتِّجاه الشمس دورةً كاملةً في كلِّ يوم، يكون من أثرها ظاهرة الليل والنهار، وتدور في مدارِ حول الشمس دورة كاملة في كل سنةٍ شمسية، يكون من أثرها الفصول الأربعة، أخرج من الأرض ماءها بتفجير العيون، وإجراء الأنهار والبحار العِظام، وجميعَ ما يقْتات به الناس والدواب، والجبال أثبتها في الأرض كالأوتاد، لتثبيت قشرتها؛ كيلا تميد وتضْطرب، فعل ذلك كله منفعة لكم ولأنعامكم مدَّةً من الزمان، ثم ينتهي هذا الانتفاع المؤقَّت.

٣٤ ـ ٣٦ ـ فإذا جاءت الداهية التي لا تُستطاع، تَطُمُّ على كلِّ شيءٍ وتعلو عليه، يوم يتذكَّر الإنسان ما عمل من خيرٍ أو شرٍ كسبه باختياره الحر مدَّة امتحانه في الحياة في الدنيا، وأُظهرت جهنم إظهاراً بيِّناً لا خفاء فيه على أحد.

٣٧ ـ ٤١ ـ فأمَّا من كفر وتجاوز الحدَّ بعصيانه، وجعل كلَّ همِّه وهمَّته الحياة الدنيا، ووجَّه لها طاقات مطامعه وشراهة نفسه، وآثر الحياة الدنيا وملذَّاتها الزائلة على نعيم الآخرة إيثاراً كلياً، فإنَّ الجحيمَ هي المرجع الذي يصير إليه، وينزل فيه، ويسكنه سكوناً أبدياً. وأما من خاف عَظَمة الله عزَّ وجلّ، وقيامه سبحانه عليه ومراقبته له، والقيام بين يديه سبحانه للحساب، وفصل القضاء، وتنفيذ الجزاء العادل على المعاصي التي ارتكبها، وزَجَرَ النفس وكفَّها عن المَحَارم التي يَشْتهيها، فإنَّ الجنة هي المرجع الذي يصير إليه، والدار التي يسكنها سكوناً أبدياً، مُنعَّماً خالداً فيها.

٤٢ ـ ٤٤ ـ يسألك المكذِّبون بالبعث ويوم الدين ـ يا رسول الله ـ عن الوقت الذي يُبعث الناس من أَجْداثهم إلى الحياة الآخرة، وتنتهي فيه مسيرة هذه الحياة الدنيا، بتصاريفها المتتابعة، وتغيُّراتها المستمرَّة، كما تتوقف السفينة في الميناء، وتُلقي مَرَاسيها، وتثبتُ وتستقرُّ عنده؟ في أيِّ شيءٍ أنت ـ يا رسول الله ـ من تذكُّر وقت قيام الساعة، وأنت لا تعلم عن هذا الوقت شيئاً حتى تسأل عنه؟ إلى ربِّك ـ وحده ـ منتهى علمها، لا يعلم متى ينتهي مسير زمن الحياة الدنيا، وترسو عنده ساعة إنهاء ظروف هذه الحياة إلا الله تعالى.

٤٥، ٤٦ ـ ليس من وظيفتك أن تُبيِّن للسائلين وقت قيام الساعة وقد أخفاه ربُّك على كلِّ عباده، إنما وظيفتك أن تُنذر بعقاب الله من يخشى الساعة، كأنَّ الكفار يوم يَرَوْن مشاهدَ يوم القيامة ساعة البعث من قبورهم إلى الحياة الأخرى بعد الموت، لم يلبثوا في قبورهم أمواتاً إلا مقدار عشيَّة يوم؛ ما بين الظهر إلى غروب الشمس، أو ضحى ذلك اليوم؛ ما بين طلوع الشمس إلى نصف النهار، لأنَّ الحسَّ بالزمن مَمْسوحٌ من مراكز شعورهم وإحساسهم.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخۡشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِي صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ ﴿١٣﴾ مَّرۡفُوعَةٖ مُّطَهَّرَةِۭ ﴿١٤﴾ بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ ﴿١٥﴾ كِرَامِۭ بَرَرَةٖ ﴿١٦﴾ قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنۡ أَيِّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطۡفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقۡبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقۡضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾ فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبۡنَا ٱلۡمَآءَ صَبّٗا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقۡنَا ٱلۡأَرۡضَ شَقّٗا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا ﴿٢٨﴾ وَزَيۡتُونٗا وَنَخۡلٗا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلۡبٗا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةٗ وَأَبّٗا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ ﴿٣٢﴾ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ مُّسۡفِرَةٞ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٞ مُّسۡتَبۡشِرَةٞ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ عَلَيۡهَا غَبَرَةٞ ﴿٤٠﴾ تَرۡهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَفَرَةُ ٱلۡفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾

سورة عبس

١، ٢ ـ تغيَّر وجهُ النَّبيِّ ﷺ كارهاً، وأدار ظهره مُدبراً؛ لأجل أنَّ الأعمى عبد الله بن أم مكتوم جاءه مُسْتَرشداً، وهو لا يدري أنه مُقْبل على دعوة كبار مشركي قريش، حتى ظهرت الكراهة في وَجْه رسول الله ﷺ لقطعه كلامه.

٣، ٤ ـ وأيُّ شيء يجعلك تعلمُ من حال هذا الرجل الأعمى، أنه جاء ليشغَلَكَ بفضولٍ من المسائل، التي تصرفك عما أنت فيه من دعوة عظماء مُشركي قريش، راجياً استجابتهم لدعوتك؟ لعلَّه يتطهَّر من أرجاس الذنوب بالعمل الصالح، ويزداد معرفة وارتقاءً في أمور دينه وأخلاقه وسلوكه، أو لعلَّه يتذكَّر أمراً هو ناسٍ له أو غافل عنه من أمور دينه، فينفعه التذكُّر والتذكير؟

٥، ٦ ـ أمَّا من استغنى عن الله وعن الإيمان بما عندهُ من المال، فأنت تتعرَّض له، وتُقبل عليه، وتُصغي إلى كلامه حرصاً على إيمانه.

٧ ـ ولا حَرَج عليك أن لا يؤمن ولا يهتدي، بعد أن بلَّغته ما أمرك الله بتبليغه، ونصحته وأرشدته.

٨ ـ ١٠ ـ وأمَّا مَنْ جاءك يُسرع في طلب الخير، وهو يخاف الله عزَّ وجل، فأنت ـ يا رسول الله ـ تتشاغل وتُعرض عنه.

١١، ١٢ ـ لا تفعل بعدها مثلها، إنَّ رسالتك ـ يا رسول الله ـ رسالة بيانٍ وهدايةٍ وتذكير، ووظيفتُك وظيفة مُذكِّر، وليست وظيفة مُكْرِهٍ ولا مُغيِّر، حتى توجِّه اهتمامك الكبير لدعوة الكافرين، فالاستجابة للدعوة ينبغي أن تكون بإرادة المدعو الحرَّة، واختياره الإيمانَ بالحق، وسلوكَ صراط الهداية، لا بالإكراه والإجبار.

١٣ ـ ١٦ ـ إنَّ القرآن مكتوبٌ في صُحُفٍ مُكرَّمة عند الله، رفيعة القَدْر والمنزلة، مُطهَّرة من الدَّنَس والزيادة والنقص، هذه الصحف التي كُتِب بها القرآن بأيدي ملائكةٍ كَتَبةٍ، كرامٍ على الله، مُطيعين له، متوسِّعين في فعل القربات والأذكار تقرُّباً إلى الله عزَّ وجل.

١٧ ـ ٢٢ ـ طُرِد الكافرُ المعاند وأُبعِدَ عَنْ رحمة الله الواسعة إبعاداً أبديًّا، ما أشدَّ كفرَهُ بالله مع كثرة إحسانه إليه!! من أيِّ شيءٍ خلقه أوَّل مرة؟ من بعض ماء مَهين بدأ خلقه، فقدَّر العناصر والصفات والأخلاق في الخليَّة الأولى تقديراً تامَّ الإحكام، وقدَّره أطواراً من حال إلى حال، إلى أن تمَّ خلقُهُ وتكوينُهُ، ثمَّ بعد ولادته ونشأته يسَّره لسلوك صراط الله المستقيم، ثمَّ حكم عليه بالموت بعد أن عاش في هذه الحياة، وجعل له قبراً يُوارىٰ فيه تكريماً لجسده، ثمَّ بعد مرور زمن البرزخ الفاصل بين الموت والبعث إذا شاء أحياه بعد موته للحساب وفصل القضاء وتحقيق الجزاء. والمشيئة هنا مشيئة التنفيذ لما سبق أن تمَّ به قضاؤه وقدره.

٢٣ ـ ليس الأمر كما يقول الكافر ويفعل، لم يفعل هذا الكافر ما أمره به ربُّه، ولم يُؤدِّ ما فَرَض عليه مدَّة ابتلائه في الحياة الدنيا.

٢٤ ـ ٣٢ ـ فلينظر الإنسان نظر تفكُّر إلى طعامه: كيف قدَّره ربُّه، ويسَّره ودبَّره له، وجعله سبباً لحياته؟ أنَّا أنزلنا له الغيث من السماء إنزالاً، ثمَّ شَقَقْنا الأرض بالنبات شقاً بديعاً، فأنبتنا في الأرض المنشقَّة بذلك الماء حباً يقْتات به الإنسان ويدَّخره، وعنباً يتفكَّه به، ونباتاً يُؤكل رطباً، وزيتوناً يُعصر منه الزيت، ونخلاً، وبساتين كثيفة الأشجار، ملتفاً بعضها على بعض، وأنبتنا بهذا الماء المُنْصبِّ: فاكهة من ثمار هذه الأشجار تَنعَمون بأكلها، وعشباً تأكله أنعامكم في المَرعى، جعلنا هذا الطعام منفعةً لكم، تنتفعون به أنتم وأنعامكم مُدَّة من الزمان، ثم ينتهي هذا الانتفاع.

٣٣ ـ ٣٧ ـ فإذا جاءت صَيْحة القيامة التي تصُمُّ من هَوْلها الأسماع، ويكون بها بعث الموتى، يوم يتباعد المرء من أخيه وأمِّه وأبيه، وزوجته وبنيه؛ لشغله بنفسه، واحترازاً عن مطالبته بالحقوق. لكلِّ واحد منهم يومئذٍ شأنٌ في نفسه يشغله عن شأن غيره.

٣٨ ـ ٤٢ ـ وجوه أهل الإيمان يومئذ مُشْرقة مضيئة، ضاحكة عند الفزع من الحساب، مسرورة فَرِحة بما تنال من كرامة الله ورضوانه. ووجوه أهل الكفر يومئذ عليها سوادٌ وكآبة، تعلُوها ظلمةٌ وكسوف؛ بسبب ما هي صائرةٌ إليه من العذاب، أولئك البُعداء عن رحمة الله هم الجاحدون للحقِّ، المُنبعثون بوقاحةٍ في ارتكاب الآثام والمعاصي.

سورة التكوير ٨١ — آياتها ٢٩

بسم الله الرحمن الرحيم

إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ سُيِّرَتۡ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلۡعِشَارُ عُطِّلَتۡ ﴿٤﴾ وَإِذَا ٱلۡوُحُوشُ حُشِرَتۡ ﴿٥﴾ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ سُجِّرَتۡ ﴿٦﴾ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ ﴿٧﴾ وَإِذَا ٱلۡمَوۡءُۥدَةُ سُئِلَتۡ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنۢبٖ قُتِلَتۡ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتۡ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتۡ ﴿١١﴾ وَإِذَا ٱلۡجَحِيمُ سُعِّرَتۡ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ٱلۡجَنَّةُ أُزۡلِفَتۡ ﴿١٣﴾ عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّآ أَحۡضَرَتۡ ﴿١٤﴾ فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٖ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدۡ رَءَاهُ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ بِضَنِينٖ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٖ ﴿٢٥﴾ فَأَيۡنَ تَذۡهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾

سورة الانفطار ٨٢ — آياتها ١٩

سورة التكوير

١ ـ ٦ ـ إذا الشَّمسُ جُمعَ بعضُها إلى بعض ولُفَّت وذهب ضَوْؤها، وإذا النُّجوم خرجت عن مداراتها وطرق سَيْرها، وتناثرت من السماء، وسقطت على الأرض، وإذا الجبال سُيِّرت عن وجْه الأرض، فصارت هباءً منثوراً، وإذا النُّوق الحوامل التي أتى عليها عشرة أشهر من حَمْلها، تُركت هَمَلاً بلا راع؛ بسبب ذهول الناس بأحداث الكون الجسام قُبَيْل قيام الساعة، وإذا الوحوشُ من دوابِّ الأرض جُمِعَت من أوكارها، وإذا البحار أُحميَتْ بالنار حتى تبخَّرت مياهها، وظهرت النار في مكانها. فهذه الأحداث الستة ستكون قُبيل قيام الساعة التي يكون بها إنهاء ظروف الحياة الدنيا، والنظام الكوني المرتبط بها، وبعدها ستقع أحداث ستة أخرى بعد البعث إلى يوم الدين.

٧ ـ ١٤ ـ وإذا النفوسُ قُرِنَتْ بأمثالها ونظائرها، وإذا الطفلة المدفونة حيَّةً سُئلَت ـ ترضيةً لها، وتوبيخاً لقاتلها ـ: بأيِّ ذنب قُتلت؟ وإذا صحائفُ الأعمال تُنشر للحساب، وإذا السماء نُزِعَت وأُزيلت، وإذا نار الجحيم أُوقِدَت لأعداء الله تعالى؛ كي تستقبلهم، وإذا الجنة قُرِّبت لأولياء الله وهم في موقف الحشر؛ إيناساً لهم برؤيتها، وتمهيداً لدخولها، إذا وقعت تلك الأحداث الستة المذكورة في الآيات (١ ـ ٦) التي تكون قبيل الساعة، والأحداث الستة الأخرى المذكورة في الآيات (٧ ـ ١٣) التي تكون بعد البعث: تعلم كلُّ نفس ما أحضرت من خير أو شر كسبته باختيارها الحر في مدة امتحانها في الحياة الدنيا.

١٥، ١٦ ـ أُقسم بهذه الآيات الكونيَّة الثلاث التي لا تُدركون عظمتها، ولكن سيأتي زمان يدرك فيه علماء الكون عظمة هذه الآيات: **الآية الكونيَّة الأولى**: أقسم بالنجوم تبدو بالليل فتظهر، وتختفي بالنهار تحت ضوء الشمس؛ النجوم الجارية المُسْتترة في أبراجها كما تستتر الظِّباء بين الأشجار عن أعين طُلاَّب صَيْدها.

١٧، ١٨ ـ **الآية الكونية الثانية**: وأقسم بالليل إذا أقبل وأدبر بظلامه أول الليل وآخره، **الآية الكونية الثالثة**: وأُقسم بالصبح إذا تبلَّج وامتدَّ وبزغ ضَوْؤه، وانتشرت نسماته الباردة، شبَّه الليل بالمكروب المحزون، فإذا بدا الصبح فكأنه تخلَّص من الحزن.

١٩ ـ ٢١ ـ إنَّ القرآن تبليغ رسول كريم، هو جبريل عليه السلام، الجامع لأنواع الخير والشرف والفضائل، صاحب قوة عظيمة في تنفيذ ما يُؤمر به، وصاحب منزلة عالية ومكانة رفيعة راسخة عند الله ذي العرش، وهو مُطاع هنالك بين الملائكة العالين عند ربِّ العالمين، وهو أمين على وحي الله إلى أنبيائه، لا ينقص منه شيئاً، ولا يزيد فيه شيئاً، بل يؤدِّيه كما أوحى إليه بدقَّةٍ تامَّةٍ.

٢٢ ـ وما رسولكم ـ يا كفار مكة ـ الذي صاحبتموه، وعرفتم رَجَاحة عقله بمجنون، كما يزعم من اتَّهمه بالجنون منكم؛ فإنَّ هذا القرآن العظيم الذي أنزله الله عليه يدلُّ على أنه في ذروة الكمال العقلي والنفسي.

٢٣ ـ وأقسم مؤكِّداً أنَّ محمداً ﷺ رأى جبريلَ عليه السلام على صُورته التي خُلق عليها بالأفق الظاهر الواضح من ناحية المشرق حيث تطلع الشمس. والمراد: الرؤية الأولى الواقعة بغار حراء.

٢٤، ٢٥ ـ وما محمد ﷺ على الوحي وخبر السماء، وما أُطلع عليه ممَّا كان غائباً عنه من القصص والأنباء ببخيل به عليكم، لا يقصِّر في تبليغه ولا يكتمه عنكم، وليس القرآن المُنزَّل عليه بقول شيطان ملعون مطرود مُسْتَرِق للسمع من الملأ الأعلى حتى تقولوا: إنه كهانة! ولكنه كلام الله ووحيهُ.

٢٦ ـ ٢٩ ـ انتبهوا، ولا تذهبوا بعيداً منصرفين عن إدراك الحقيقة، فأيَّ طريق تسلكون فارِّين من حقيقة أنَّ القرآن مُنزَّل من عند الله، ودلائلُ الحقِّ تُحاصركم من كلِّ جانب؟ ما القرآن الذي يتلوه محمدٌ إلا مُوجَّه لجميع العالمين المكلَّفين الموضوعين موضع الامتحان في الحياة الدنيا، ينتفع بهذا الذكر، ويهتدي بهديه، من أراد بإرادته الحرَّة أن يستقيم على صراط الحقِّ والهُدى، وقد منحكم الله مشيئةً حرةً تستطيعون بها أن تشاؤوا طريق الخير، أو طريق الشر، ولولا ذلك لكنتم مُجبرين، ولستم تشاؤون شيئاً إلا إذا منحكم خالق الكائنات والمُهَيْمن على كلِّ ما سواه بسلطان ربوبيَّته المشيئة الحُرَّة، ومكَّنكم من استخدامها، فأنتم مسؤولون مسؤولية تامَّة عن مشيئاتكم وأعمالكم الاختياريَّة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾ يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴿٦﴾ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾

سورة المطففين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾

سورة الانفطار

١ - ٥ - إذا السماء انشقَّت أجزاؤها المتماسكة، وإذا نجوم السماء تفرَّقت على غير نظام، وخرجت عن خطوط مداراتها، وإذا البحار اندفعت بقوَّة وشدة، ببعث البراكين من باطن الأرض تحتها، فيكون من أثرها تفجُّر البحار، وتندفع مع البراكين نارٌ شديدة تجعل مياه البحار ضمن لهب نيران البراكين، ووقوداً مُضافاً إليها، وإذا القبور قُلِبَ ترابها، وأثير ما فيها من الموتى فبُعثوا أحياء، عَلمتْ نفسٌ في ذلك اليوم ما عملت من عمل طاعةٍ أو معصية فقدَّمته إلى الآخرة، وما تركت من عمل فأخَّرته، فبقي عدماً مع انصرام زمن الامتحان في الحياةِ الدنيا، فهي تستحقُّ الثواب على ما أخَّرت فلم تعمل من عملٍ فيه معصية الله، وتستحقُّ العقاب على ما أخَّرت فلم تعمل من عملٍ كان يجب عليها أن تعمله طاعة لله.

٦ - يا أيُّها الإنسان أيُّ شيءٍ خَدَعك وسوَّل لك الباطل، وما الذي أمَّنك من عقاب ربِّك الرفيع القدر، العظيم الشأن، الموصوف بالصفات الجليلة، حتى صَنَعتَ ما صَنَعتَ، وضيَّعتَ ما أوْجَبَ الله عليك؟

٧، ٨ - ربك الكريم: الذي أوْجَدك من العَدَم إلى الوجود، فَجَعَلك سويّاً سالمَ الأعضاء، بالغاً الغاية المقصودة من خلقك وصنعك، فأعطى كلَّ عضو من أعضائك الظاهرة والباطنة، وكلَّ خلية من خلاياك، حقَّه من المواد والعناصر المُكوِّنة له، حتى يبلغ الغاية المقصودة من خلقه، في أيِّ صورةٍ ما شاء ركَّبك من الصُّور المختلفة.

٩ - ١٢ - زجْراً لكم يا أيها الذين لم تنتفعوا بآيات الله فيكم، بل تُكذِّبون تكذيباً متتابعاً بيوم الحساب والجزاء، وإنَّ عليكم رقباء من الملائكة، يحفظون عليكم أعمالكم الظاهرة الجسديَّة والباطنة النفسيَّة، كراماً على الله، يكتبون أقوالكم وأعمالكم الإراديَّة، ويُسرعون في تسجيل الحسنات، ويتمهَّلون في كتابة السيئات، رجاءَ توبة المذنب واستغفاره، يعلمون ما تفعلون من خيرٍ أو شر، فليسوا مُجرَّد أدوات تسجيل لا تعلم ما تُسجِّل، بل هم يعلمون ما يُسَجِّلون؛ لأنهم يسجلون النيَّات من الأعمال، وما تكنُّه الصدور.

١٣ - إنَّ الصَّادقين في إيمانهم، القائمين بمقتضيات مرتبة التقوى بفعل الواجبات وترك المحرَّمات، وبفعل الخيرات الزائدة على واجبات مرتبة التقوى، لمنغمسون في نعيم محيطٍ بهم من كلِّ جوانبهم في الجنة يوم الدين.

١٤ - ١٦ - وإنَّ المُنْبعثين بوقاحة واتِّساع في الكفر وارتكاب الجرائم، لمنغمسون في نيران مُحرقة محيطةٍ بهم من كلِّ جوانبهم، نافذةٍ إلى مراكز إحساسهم، يدخلونها يوم الجزاء الأكبر، فتحرقهم بحرِّها وتشويهم، وما هم عن عذاب جهنم بغائبين، لا غياباً أبديّاً ولا مؤقتاً، بل هم خالدون فيها أبد الآباد.

١٧ - ١٩ - وأعظم - أيها المُتلقِّي - بيوم الحساب إعظاماً لا تصل إليه درايتك مهما فكَّرت؛ لأنه لم يمر في تصوُّراتك شيء يجعلك تقيس هذا الأمر عليه؟ ثم أعظم بيوم الحساب إعظاماً لا تصل إليه درايتك في الهَوْل والشدَّة؟ يوم لا تملك نفسٌ من نفوس كلِّ المخلوقات أن تصنع أو تفعل شيئاً لنفسٍ أخرى، ولو كانت من أحبِّ النفوس إليها، والأمرُ في ذلك اليوم لله وحده، لا سلطان لسواه؛ له الملك، وله الحكم، وله الخلق، ولهُ الأمر والنهي.

سورة المطفّفين

١ - ٣ - هلاكٌ وعذابٌ شديد من الله للَّذين ينقصون المكيال والميزان، الذين إذا اكتالوا من الناس، استوفوا لأنفسهم الكَيْل والوزن تاماً غير ناقص، وإذا كالوا لغيرهم أو وزنوا لهم، ينقصون الكيْل والوزن، فيعطونهم عن طريق التلاعب بالكيل أو الوزن أقلَّ من حقهم.

٤ - ٦ - ألا يكفي أولئك البُعداء إلى جهة أسفل سافلين الذين يأخذون لأنفسهم زيادةً، ويدفعون إلى غيرهم نقصاً، أن يظنُّوا أنهم مبعوثون بعد موتهم ليوم عظيم الهول؟ يوم يقوم الناس من قبورهم للحضور في محكمة خالق الخلائق أجمعين ومالكهم والمتصرِّف فيهم بسلطان ربوبيَّته، لمحاسبتهم ومجازاتهم؟ كأنَّهم لا يخطر ببالهم، ولا يخمِّنون تخميناً أنهم مبعوثون ليوم القيامة، ومسؤولون فيه عن مقدار الذرَّة! فإنَّ من يظنُّ ذلك ولو ظناً ضعيفاً لا يكاد يَجْترىء على بخْس الحق!؟ فكيف وقد قامت على البعث البراهين القطعيَّة التي تفيد اليقين.

كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾

٧ ـ ٩ ـ ليس الأمر على ما هم عليه من بَخْس الكَيْل والميزان، فليرتدعوا عنه، إنَّ كتاب الغلاة المسرفين في ارتكاب الآثام والجرائم الذي كُتبت فيه أعمالهم وعقوباتهم لَمُثْبت في ديوانٍ جامع، في الأرض السُّفلى، دوَّن الله فيه أعمال الكفرة من الجنِّ والإنس، وأعظم بأمر سجِّين إعظاماً لا تصل إليه درايتك، لأنه لم يمر في تصوُّراتك شيءٌ يَجْعلك تقيس هذا الأمر عليه؟ هو كتابٌ مسطور بيِّن الكتابة. أُطلق على هذا الكتاب سجِّين؛ لأنه سبب الحَبْس والتضييق في جهنم.

١٠ ـ ١٣ ـ هَلاكٌ أبديٌّ وعذابٌ شديدٌ يوم البعث والجزاء للمكذِّبين، الذين يُكذِّبون بيوم الجزاء، وما يُكذِّب بيوم الجزاء إلا كلُّ متجاوز عن نهج الحق، مُسْرف في ارتكاب الآثام والمعاصي. إذا تُتلى على هذا المعتدي الأثيم بتكرار آياتُ القرآن العظيم قال: هذا ما سطره السابقون في كتبهم من الأباطيل والخرافات. فهم يُكذِّبون بيوم الدين ليُحسِّنوا لنفوسهم سُبُل الظلم، والاستزادة بفجور من متاعات الحياة الدنيا.

١٤ ـ ليس الأمر كما زعموا، بل غلبت على قلوبهم، وأحاطت بها وغلَّفتها بنكت سوداء قذرة ما كانوا يكسبونه بتكرار من إثم وعدوانٍ، حتى أصبحت مقفلة مُغْلقة، لا تتقبَّل نفحات الهداية.

١٥ ـ ١٧ ـ ليس الأمر كما يقولون: أنَّ لهم في الآخرة خيراً، بل إنهم عن رؤية الله يوم القيامة لممنوعون، ثم إنَّهم بعد حسابهم وفصل القضاء بشأنهم لداخلون النارَ التي تشويهم بحرِّها، وبعد مدَّةٍ مُتراخية من الزمن تقول لهم الخَزَنة وهم يذوقون عذاب الحريق: هذا العذاب الذي كنتم تكذِّبون به في الدنيا، فلا تُصدِّقون رسلَ ربكم الذين كانوا ينذرونكم بعذاب يوم الدين.

١٨ ـ ٢١ ـ ليس الأمر كما يتوهَّمه الفُجَّار من إنكار البعث. إنَّ كتاب المتوسِّعين في فعل الصالحات من نوافل العبادات، وفي ترك المكروهات الذي كُتبت فيه أعمالهم ومثوباتهم لَمُثْبَت في ديوان جامع، عالٍ قدرهُ في السماء السابعة، دوَّن الله فيه أعمالَ الصالحين من الجنِّ والإنس، وأعظم بهذا الأمر إعظاماً لا تصل إليه درايتك؟ هو كتابٌ مسطور بيِّن الكتابة، يطَّلع عليه الملائكة المُقرَّبون ويحضرونه. أطلق على هذا الكتاب عليُّون؛ لأنه سبب الارتفاع إلى أعالي الدرجات في الجنة.

٢٢ ـ ٢٨ ـ إنَّ القائمين بمقتضيات مرتبة التقوى بفعل الواجبات وترك المحرمات، وبفعل الخيرات الزائدة على واجبات مرتبة التقوى الذين يتوسّعون في نوافل العبادات، وفي التَّنزُّه عن المكروهات، لمُحاطون بلذّات النعيم، يجلسون على المقاعد المُنجَّدة الوثيرة المُزيَّنة، ينظرون إلى ما أعدَّ الله لهم من نعيم الجنة، تعرف ـ أيها الرائي ـ في وجوههم حُسْناً ذا بريقٍ تظهر عليه السِّمات الدالات على أنهم سعداء بما فيه ينعَّمون. يسقيهم خدمهم من خمرٍ صافية طيِّبة بيضاء، خُتم على ذلك الشراب لشرفه ونفاسته، ومُنع أن تمسَّه الأيدي إلى أن يفكَّ ختمه الأبرار، يجد شاربو هذا الرَّحيق في آخر شربهم له رائحة المسك النفيس، وفي ذلك الشراب الرفيع فليتسابق المتسابقون، ولْيتبارى المتبارون، ومزاج الرحيق من عينٍ في الجنة تُعرف لعُلوِّها بـ«تسنيم»، تنصبُّ عليهم من غرفهم ومنازلهم في أوانيهم على قدر ملئها، حال كون تسنيم عيناً يشربُ منها ويتنعَّم بها المقرَّبون السابقون، وهو أشرف شراب أهل الجنة، يُمزج لسائر أهل الجنة، ويشربه المقرَّبون من أهل مرتبة الإحسان صِرفاً غير مخلوط.

٢٩ ـ ٣٤ ـ إنَّ الذين ارتكبوا الآثام من دركات الكفر كانوا من المؤمنين في رحلة امتحانهم في الحياة الدنيا يضحكون، إذ يتصوَّرون أنهم قد حرموا أنفسهم من كثير من متاعات الدنيا، بأوهام خوفهم من عقاب الله، وطمعهم بثوابه، وإذا مرُّوا بالمؤمنين يشيرون إليهم بالأعين استهزاءً بهم، وإذا رجع الكفار إلى أهلهم في بيوتهم، رجعوا مُتلذِّذين باستخفافهم بالمؤمنين، والسُّخرية منهم، وإذا رأى المجرمون المؤمنين، قالوا: إنَّ هؤلاء المؤمنين لتائهون عن سُبُل سعادتهم، ووسائل تحقيق متاعاتهم من دنياهم، ولمغرورون بأوهام البعث بعد الموت، وما أُرسل هؤلاء الكفار حُرَّاساً مراقبين، ليكونوا ذوي سلطان على المؤمنين بالقهر والجَبْر، حتى يلزموا المؤمنين بأن يسلكوا معهم سُبُل الضلال والإفساد في الأرض. فاليوم الذي هو يوم القيامة، يضحك المؤمنون من الكفار وهم يتقلَّبون في عذاب الجحيم، كما ضحك الكافرون منهم في الدنيا.

عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٣٦﴾

سُورَةُ الانشِقَاق (ترتيبها ٨٤ — آياتها ٢٥)

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ



إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ﴿١﴾ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلۡأَرۡضُ مُدَّتۡ ﴿٣﴾ وَأَلۡقَتۡ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتۡ ﴿٤﴾ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ ﴿٦﴾ فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوۡفَ يُحَاسَبُ حِسَابٗا يَسِيرٗا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورٗا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهۡرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوۡفَ يَدۡعُواْ ثُبُورٗا ﴿١١﴾ وَيَصۡلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰٓۚ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرٗا ﴿١٥﴾ فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ ﴿١٩﴾ فَمَا لَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقُرۡءَانُ لَا يَسۡجُدُونَ ۩ ﴿٢١﴾



بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونِۭ ﴿٢٥﴾

٣٥، ٣٦ ـ هؤلاء المؤمنون جالسون على المقاعد المُنجَّدة الوثيرة الفاخرة، ينظرون إلى المجرمين، وهم في النار يُعذَّبون؛ فيُسرُّون بذلك، ويضحكون من أعداء الله الذين كانوا يضحكون منهم في الدنيا. هل جُوزيَ الكفار بالعدل المطابق لما كانوا في الدنيا يفعلون بالمؤمنين؛ من الاستهزاء والضحك؟ نعم، لقد جوزوا بالعدل المطابق لما كانوا يفعلونه في رحلة امتحانهم في الحياة الدنيا.

سورة الانشقاق

١، ٢ ـ إذا السَّماء انشقَّت أجزاؤها المتماسكة، واستمعت لأوامر ربِّها الكونيَّة فأطاعت إطاعةً جبريَّة، ونفذت أوامره على وَفْق مشيئته.

٣ ـ ٥ ـ وإذا الأرض بُسِطَتْ بسطاً واسعاً، فصارت سطحاً مستوياً، لا عوج فيه، ولا مرتفعات ولا منخفضات، وأخرجت ما هو مُستودَعٌ فيها أو مكنون، وتخلَّت عن الاحتفاظ به، وسمعت أمر ربِّها التكويني وأطاعته إطاعة جبْريَّةً في مدِّها وإخراج ما في بطنها، وحُقَّ لها أن تطيع أمر ربِّها. عندئذ تبدأ أحداث يوم الجزاء الأكبر، بما فيه من حساب، وفصل قضاء، وتنفيذ جزاء.

٦ ـ يا أيُّها الإنسان إنَّك عامل بتكلُّف ومشقَّة ونَصَب إلى لقاء ربِّك بالموت الذي ينقطع به عملك، وبعد الموت تلاقي جَزاءَ عملك خيراً كان أو شراً.

٧ ـ ٩ ـ فأمَّا من أُوتي ديوان عمله الذي عمله في رحلة امتحانه في الحياة الدنيا بيده اليمنىٰ، فسوف يُحاسَب في محكمة العدل الربانيَّة حساباً يسيراً لا شدَّة فيه ولا مناقشة، تُعرض عليه أعماله، فيعرَّف بالطاعة والمعصية، ثم يُثاب على الطاعة، ويُتجاوز له عن المعصية، وينصرف ذاهباً إلى زوجاته من المؤمنات، والحور العين، وعشيرته وأصحاب مودَّته من أهل الإيمان، مسروراً بما أُوتي من الخير والكرامة.

١٠ ـ ١٢ ـ وأمَّا مَنْ أُوتي ديوان عمله بيده الشمال من وراء ظهره، وهو الكافر، فسوف يدعو على نفسه ـ بعد الحكم عليه بأنه من أهل النار، وسَوْقه إلى أبواب جهنم ومشاهدته دَرَكته في عذاب الجحيم ـ، بالويل والهلاك الأبدي.

١٣، ١٤ ـ إنَّ هذا الذي أُوتي كتابه وراء ظهره كان في أهله في الحياة الدنيا مسروراً باتِّباع هواه وركوب شهواته، إنه ظنَّ ظناً ضعيفاً أنْ لن يرجع إلى ربِّه حيّاً بعد الممات، ليُحاسب ويُجازى على أعماله.

١٥ ـ ليس الأمر كما ظنَّ ظنّاً توهمياً، بل يُبعث ويُحاسب، ويدخل النار ويحترق فيها؛ إنَّ ربَّه كان به بصيراً حين كان يخوض في الحياة الدنيا خَوْضَهُ عاصياً مجرماً.

١٦ ـ ١٩ ـ أُقسم بهذه الآيات الكونية الثلاث التي لا تدركون عظمتها، ولكن سيأتي زمانٌ يدرك فيه علماء الكون عظمة هذه الآيات: **الآية الكونية الأولى**: أُقسم بالحُمْرة التي تبقى في الأفق بعد غروب الشمس، **الآية الكونية الثانية**: وأُقسم بالليل وما ستر وجلَّل من أشياء بظلمته، وما جمع وضمَّ ما كان منتشراً بالنهار، **الآية الكونية الثالثة**: وأُقسم بالقمرِ إذا اجتمع وتمَّ نوره وصار بدراً مكتملاً، لتركبنَّ ـ أيها الناس ـ بما ستكتشفون من مراكب بإلهام الله لكم، تنتقلون بها في طبقات الجوِّ مُجتازين في كل طبقة تصلون إليها عن طبقة انتهيتم من عبورها.

٢٠، ٢١ ـ أيُّ شيء هو حُجَّة لهم تجعلهم يُصرُّون على كفرهم، مع توالي الوسائل الإقناعيَّة؟ وأيُّ شيءٍ هو صارفٌ لهم عن السجود لعظمة القرآن المجيد، إذ تُليتْ عليهم آياته مع تتابع قراءته على مسامعهم، وتتابع صدِّهم عنه؟

٢٢ ـ ٢٤ ـ ليس الذين كفروا أصحاب حُجَج تجعلهم لا يؤمنون، وليسوا فيما يتظاهرون به من أنهم لا يشعرون ببلاغة القرآن صادقين، بل هم يُكذِّبون تكذيباً متجدِّداً بالقرآن والبعث والنبيِّ كلما تَتَابعت عليهم براهينُ الحقِّ الرباني، ، والله أعلم من كلِّ عليم بما يجمعون في أوعية نفوسهم وصدورهم وأدمغتهم من مكتسبات إراديَّة هم فيها جحودون ظلمة بغاة، فبشِّرهم مُتهكِّماً بهم ـ يا رسول الله وكلَّ مؤمن من أمته ـ على عنادهم وجحودهم وتكذيبهم بعذاب شديد الإيلام.

٢٥ ـ لكن الذين آمنوا إيماناً صحيحاً صادقاً، وعملوا الصالحات لهم عند الله أجرٌ في الآخرة مستمرٌ بتتابع متجدِّد، غيرُ مقطوع ولا منقوص؛ إذ هو دائم مع دوام الذين آمنوا وعملوا الصالحات، خالدين في جنات النعيم يوم الدين.

سورة البروج ترتيبها ٨٥ آياتها ٢٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٨﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ﴿١١﴾ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾

سورة الطارق ترتيبها ٨٦ آياتها ١٧

سورة البروج

١ ـ ٣ ـ أُقسم بالسماء ذات المنازل التي تنزل بها الكواكب أثناء سَيْرها على قَدر معلوم، وبيوم القيامة الموعود للحساب وفصل القضاء، وتحقيق الجزاء، والقرآنِ الشاهدِ على صدق رسوله محمد ﷺ، والرسولِ محمد ﷺ المشهود له بالنبوّة والرسالة، من قِبَلِ القرآن المعجز.

٤، ٥ ـ طُردَ وأُبعد عن رَحمةِ الله إبعاداً أبديًا الطُغاة البغاة الظَّلَمة الذين شَقُّوا في الأرض شِقًّا مُستطيلاً عظيماً؛ لتعذيب المؤمنين، وأوقدوا النار الشديدة ذات الوقود، فهم يمدُّونها بالوقود اللازم لها، كلّما تقاصرت ألسنةُ لَهَبِها.

٦، ٧ ـ ضع في ذاكرتك ـ أيها المُتلقّي لآياتنا ـ شناعَةَ جريمة أصحاب الأخدود، إذْ هم على نارهم مُشْرفون جلوس. والمَلِكُ الذي خدَّ الأخدود وأصحابُه على ما يفعلون بالمؤمنين ـ منْ عرضهم على النار، وإرادتهم أن يرجعوا عن دينهم ـ حضور، يستمتعون بتعذيب المؤمنين وصُراخهم، وقتل نسائهم وأطفالهم، دون أن تمسَّ قلوبَهم مشاعرُ رحمةٍ أو شفقة، ودون أن يتحرَّك وجدانهم باستنكار ما يمارسونه من ظلم وعدوان.

٨ ـ وما علموا فيهم عَيْباً، ولا كرهوا منهم إلا إيمانهم بالله القويِّ الغالب القاهر الذي لا يُغالب ولا يُدافع، المحمود الذي يستحقُّ أن يُحمَدَ ويُثنىٰ عليه، وهو أهلٌ لذلك، والحامد الذي يحمدُ عبادَهُ على ما يكون منهم ممَّا يستحقُّ الحمد، وهو بعزَّته سينتقم من المجرمين الجبَّارين، وبمقتضى كونه محموداً بصفاته العليّة، وحامداً لمُستحقي الحمد من عباده، سَيُثيبُ عباده المؤمنين الصابرين على ما نالهم من اضْطهاد بأيدي الطغاة المجرمين.

٩ ـ الذي له ـ وحدَهُ ـ مُلك السموات والأرض، المُتصرِّف بكلِّ ما يملك، فهو المُسْتَحِقُّ للعبادة، والله على كلِّ شيء من أفعالهم حاضرٌ عليم. فما يفعله الطغاة الجبَّارون بعباده المؤمنين معلوم مشهود له سبحانه، ولا بدَّ أن يعاقب الظالمين بعدله، ويثيب المؤمنين بفضله.

١٠ ـ إنَّ الذين عذَّبوا وأحرقوا المؤمنين والمؤمنات بالنار، ثمَّ لم يرجعوا عمَّا هم عليه من الكفر، فلهم أنواع العذاب المختلفة في جهنَّم، ولهم عذابُ الحريق بمباشرة النار لأجسادهم.

١١ ـ إنَّ الذين آمنوا إيماناً صحيحاً صادقاً، وبرهنوا على صدق إيمانهم بأعمال صالحات، أُعِدَّت لهم جنَّاتٌ تجري من تحت أشجارها وقصورها ومجالس المنعَّمين فيها أنهار متنوِّعة، ذلك الظَّفَرُ والرِّبح الكبير.

١٢ ـ ١٦ ـ إنَّ أخذ ربِّك للظلمة والجبابرة أخذٌ شديد عنيف، لا يُمكن الإفلات منه، إنَّه هو ـ وحده ـ يُبدىء خلقَ الخلق في الدنيا، ثمَّ يعيدهم أحياء بعد الموت؛ ليُجازيهم بأعمالهم في القيامة، وهو كثير السَّتر لذنوب جميع المؤمنين، المحبُّ لهم، وهو جلَّ جلاله خالق العرش ومالكه، الذي هو فوق كل السموات السبع وأعظم منها، وهو العظيمُ في ذاته وصفاته، الذي له كمال الصفات العليَّة، والأسماء السنيَّة، فعَّال لما يريد، لا يُعجزه شيء، ولا يتخلَّف عن إرادته مرادٌ من أفعاله تعالى وأفعال غيره.

١٧، ١٨ ـ هل أتاك ـ أيها المتلقِّي لبياننا ـ خبرَ الجُموع القويَّة الكافرة الذين تجنَّدوا على الأنبياء؛ فرعونَ المستبدِّ في رأيه وأمره، الذي اتَّخذ نفسه رباً على قومه، وهم جميعاً تابعون له ومطيعون، وقوم ثمود الذين كذَّبوا صالحاً عليه السلام، وما حلَّ بهم من العذاب والنَّكال.

١٩، ٢٠ ـ ليس للكافرين الذين يكذِّبون الرسولَ محمداً ويفتنون المؤمنين عن دينهم عُذْرٌ فيما فعلوا، بل هم غارقون في تكذيبٍ للحقِّ، مُحاطون به من كلِّ جوانب نفوسهم وأفكارهم وقلوبهم، والله من وراء كلِّ شيءٍ فيهم محيطٌ إحاطة تامة لا تدعُ لهم مهْرباً من عذابه وانتقامه.

٢١، ٢٢ ـ ليس القرآن كما زعم المشركون أنه سحرٍ وكهانة، بل الذي كذَّبوا به قرآنٌ كريم شريف، كثير النفع والخير، مُسجَّل عند الله في السماء في لوحٍ محفوظٍ من الشياطين، ومن الزيادة والنقصان، أو التغيير والتبديل.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴿٢﴾ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴿٣﴾ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴿٩﴾ فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ﴿١٤﴾ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴿١٧﴾

سُورَةُ الأَعْلَى

مكية ٨٧ — آياتها ١٩



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَىٰ ﴿٥﴾ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴿٧﴾ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٨﴾ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى ﴿١١﴾ الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾

سُورَةُ الطَّارِقِ

١ - ٣ - أقسم الله سبحانه بالسماء البعيدة، وبالنَّجم يظهر بالليل، وأعظم بالأمر إعظاماً لا تصل إليه درايتك ما حقيقة هذا النجم مهما عظمت مناظيرك، ووسائلك التي ترصُدُ بها مشاهد النجوم؟ هو النجم المُضيء الذي، يثقب الظلام بضيائه، فينفذ فيه، دون أن يكون له انتشار ضوئيٌّ شامل.

٤ - ما كلُّ نفس مُمْتَحَنة مُكلَّفة في ظروف الحياة الدنيا إلا عليها حافظٌ من ربِّها يحفظ عملها، ويُحصي عليها ما تكسب من خير أو شر.

٥ - فلْينظر الإنسان المنكر للبعث نَظَرَ تفكُّر واعتبار من أيِّ شيء خلقه ربُّه؟

٦ - ٨ - خُلق من منيٍّ مدفوق مَصبوب في الرَّحم، يخرج الإنسان من رَحم أمِّه بين العمود الفِقْري وعظام الصَّدر، إنَّ الله الذي خلق الإنسان من هذا الماء وأخرجه من رَحِم أمِّه، لقادرٌ على إرجاعه إلى الحياة بعد موته وإفناء جسده.

٩، ١٠ - وإنه لمَبْعوثٌ حقاً إلى الحياة بعد موته، وفناء جسده، للحساب، وفصل القضاء، وتنفيذ الجزاء، يوم تُكشَفُ وتُظهر الضمائر، فيما أسرَّت القلوب من العقائد والنيَّات، وما أخْفَتْ من الأعمال. فما لهذا الإنسان المنكر البعث - حين يُجازىٰ على عمله - من قوَّة يمتنع بها من عذاب الله، ولا ناصر ينصره من الله عزَّ وجل.

١١ - والسماءِ القريبة المحيطة بالأرض بغلافها الغازي ذات الإرجاع المُتكرِّر لما يصعد إليها من المياه المُتبخِّرة فتُرجعها إلى الأرض ماءً حلواً، أو ثلجاً، أو بَرَداً، لسُقْيا الناس والدواب، ولإحياء الأرض بالنباتات المختلفة، كما أنَّ السماء تُرجع قسم الأشعة الكونيَّة المؤذية بعدم السماح لها بالنفوذ في الغلاف الجويِّ في الأرض.

١٢ - ١٤ - والأرض ذات الشَّق، تنشقُّ عن النبات والأشجار والأنهار، وكنوز الأرض من المعادن وغيرها. إنَّ البعث بعد الموت حقٌّ وجدٌّ، يفصل الله فيه بين العباد، وما هو باللعب والباطل.

١٥ - ١٧ - إنَّ المُكذِّبين بيوم الدين يتَّخذون أعمالاً وتدبيراتٍ لإدحاض دعوة الحق، وإقامة الباطل، وأُدبِّر في الخير تدبيراً أُحبط به تدبير الكافرين، فأنتقم منهم في الدنيا والآخرة، فأَنْظِر - يا رسول الله - الكافرين وترفَّق بهم، وأجِّلهم قليلاً، ولا تستعجل باتِّخاذ وسائل انتقامية ضدَّهم، وسترى ما يحلُّ بهم من العذاب والعقوبة.

سُورَةُ الأَعْلَى

١ - ٥ - نزِّه اسمَ ربِّك الأعلى بلسانك ونفسك وقلبك عمَّا لا يليق بكماله، واذكره على وَجْه الخشوع والتعظيم، الذي أبدع المخلوقات على غير مثالٍ سَبَق، فجعلها في غايةِ الكمال، والذي قدَّر المقادير في كلِّ صغير وكبير من هذا الكون، فهدى المخلوقات إلى ما يُحقِّق الغاية من خلقها، والذي أنبت العُشب وما ترعاه الأنعام، فجعل المرعى هشيماً يابساً أسود بعد الخُضْرة.

٦، ٧ - سيقرأ جبريلُ عليك القرآن بأمرنا، فلا تَنْسى ما يقرأ عليك، إلاَّ ما شاء الله أن تنساه ممَّا نُسخ تلاوته من القرآن، ورُفع من الصُّدور، لحكمةٍ يشاء الله تحقيقها، إنَّه سبحانه يعلم العلانية من القول والفعل، وما يخفى على المخلوقات منهما.

٨ - ونُهيِّئُكَ ونمدُّكَ بالعَوْن في حَمْل وظائف رسالتك التي تُبلِّغ بها الشريعة اليُسرى، دون أن تعجز عن شيء منها.

٩ - ١٣ - فذكِّر - يا رسول الله - بما سبق أن بلَّغته وبيَّنته، إنْ رأيت أنَّ من توجِّه له خطابك غير مَيْؤوس منه، ولديْك طمعٌ ما في أن ينفعه تذكيرك. سينتفع بتذكيرك مَنْ يخشى عذاب الله تعالى، ويتجنَّب الذكرى ويتباعد عنها الأشقى المُصر على الكفر والعِناد وإنكار المعاد، الذي يُعذَّب يوم الدين بالحريق في النار الكبرى، ثمَّ لا يموت في النار فيستريح بالموت، ولا يحيا حياةً طيبةً تنفعه.

١٤، ١٥ - قد فاز وظفر بالمقصود، ونجا من المكروه مَنْ تطهَّر من رِجْس الشِّرك بالإيمان، ونمَّىٰ نفسه بالأعمال الصالحة، وذكر اسم ربِّه بقلبه ولسانه معظِّماً، فصلَّىٰ الصَّلوات الخمس في أوقاتها؛ ابتغاء رضوان الله، وامتثالاً لأمره.

بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾

سُورَةُ الْغَاشِيَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ الْغَٰشِيَةِ ﴿١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ﴿٥﴾ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ﴿٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾

١٦ ـ لم تفعلوا ما يؤدّي إلى الفلاح، بل تُفضِّلون ـ أيها الناس ـ الدنيا الفانية وزينتها، على الآخرة الباقية ونعيمها.

١٧ ـ والدارُ الآخرة وما فيها من النعيم المقيم، خيرٌ من الدنيا وأبقى.

١٨، ١٩ ـ إنَّ هذا المذكور في هذه السُّورة لفي الصُّحف الربانيَّة المتقدِّمة التي نَزَلت قبل القرآن؛ صُحف إبراهيم وموسى عليهما السلام.

سُورَةُ الغَاشِيَةِ

١ ـ استمع بعناية ـ أيُّها المتلقِّي ـ هذا الحديث عن القيامة التي تغشىٰ الخلائق وتعمُّهم بأهوالها.

٢ ـ وجوهُ الكفار يوم القيامة خاضعة ذليلة منكسرة الأبصار.

٣، ٤ ـ دائبة العمل في النار مُتعَبة، تذوق عذاب الاحتراق بنارٍ حامية شديدةِ الحرارة.

٥ ـ تُسْقى سائلاً من عينٍ مُتناهية في الحرارة.

٦، ٧ ـ ليس لأصحاب النار طعامٌ إلا نباتاً من شوك من نار، وهو من شرّ الطعام وأخبثه، لا يُسْمِنُ هذا الطعام، ولا يدفع شيئاً من جوع.

٨ ـ ١٠ ـ وجوهُ المؤمنين يوم القيامة متنعِّمة نَضِرة ذات بهجة وحُسْن وكرامة؛ لأجل سعيها في رحلة الابتلاء في الدنيا بما يرضي الله عنها، راضيةٌ بثواب الله العظيم في الآخرة، مقيمين في جنَّة رفيعة المكان والمكانة.

١١ ـ لا تسمعُ في الجنة ـ أيُّها المُتلقِّي إذا كنت من أهلها ـ ما لا يُعتدُّ به من كلام وغيره مما لا فائدة منه.

١٢ ـ ١٦ ـ في هذه الجنة العالية عينٌ جاريةٌ على وَجْه الأرض من غير أُخدود، فيها سُرُرٌ مرتفعة مكاناً وقدراً، يجلسون عليها ويضْطجعون، لينظروا ما حولهم من النعيم، وأكواب كثيرة متنوعة الأشكال والمحتويات موضوعة بين أيديهم، كلَّما أرادوا الشُّرب منها وجدوها مَمْلوءة، ووسائد ومرافق مصفوفة بعضها جَنْب بعض، وبُسُط عريضة مُتفرِّقة مُوزَّعة في المجالس توزيعاً جمالياً، على اختلاف أجناسها وأنواعها وأصنافها ورسُومها.

١٧ ـ أينكرون البعثَ ويستبعدون وقوعه، فلا ينظرون نَظَر تفكُّر واعتبار إلى الإبل التي يُصاحبونها حَضَراً وسفراً، وهي من أعظم أموالهم: كيف خُلقت خلقاً بديعاً معدولاً به عن سَنن خَلْق أكثر الحيوان؛ في عظم جسمها، وعجيب هيئاتها اللائقة بتأتِّي ما سُخِّرت له من الأعمال الشاقَّة، وغريب أحوالها وصفاتها؟

١٨ ـ وإلى السماء كيف رُفعت فوق الأرض في أبعاد الفضاء بغير عَمَد تعتمد عليها؟

١٩ ـ وإلى الجبال الشامخة كيف أُعليَتْ عن سطح اليابس من الأرض لتحقيق منافع جليلة ومتنوعة لسكان الأرض عليها؟

٢٠ ـ وإلى الأرض كيف بُسِطت ومُهِّدت بحيث يستقرُّ على ظهرها كل شيء؟

٢١، ٢٢ ـ فأعِدْ ـ يا رسول الله ويا كُلَّ داعٍ إلى الله من أمته ـ ما سَبق أنْ علَّمته وأبلغتَهُ لقومك من أصول الدين الإيمانيَّة والأخلاقيَّة، وأصوله التعبديَّة، ما أنت بالنِّسبة إلى هؤلاء الذين دعوتهم، وأقمت لهم الحجج والبراهين، إلاَّ مُذكِّرٌ لهم، لستَ مُسَلَّطاً عليهم لإجبارهم وإكراههم على الإيمان والإسلام؛ إذ هم مطالبون بأن يؤمنوا ويسلموا باختيارهم وإراداتهم الحرة، بعدما قدَّمت لهم البيان الكافي.

٢٣، ٢٤ ـ لكن من تولَّى مُدْبراً مبتعداً منهم عن التذكير والموعظة، وأصرَّ على كفره بعناد، فيدخله الله يوم القيامة جهنَّم خالداً فيها أبداً، ويُعذِّبه فيها العذابَ الأكبر، وهو عذاب الحريق، الذي لا عذاب أكبر منه.

٢٥، ٢٦ ـ إنَّ إلينا رجوعَهم بعد الموت لا إلى أحد سوانا، ثم إنَّ علينا جزاءهم بعد الرجوع إلينا.

سورة الفجر

سورة الفجر — ترتيبها ٨٩ — آياتها ٣٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴿٤﴾ هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ﴿٥﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾ كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾

١ - ٣ - أقْسَمَ الله عزَّ وجلّ بالفجر، وهو الزمن المختار لإهلاك عادِ قوم هود، وثمود قوم صالح، وفرعون وجنوده، والليالي العشر من أوَّل المحرَّم حتى العاشر، وهي مُدَّة مسير موسى عليه السلام بقومه حتى نَجَوْا وعَبَروا البحر إلى سيناء، ومدّةُ لحاق فرعونَ وجنودِهِ لهم، حتى هلكوا غرقاً، والأيام الشفع الثمانية والليالي الوتر السبع، وهي المدّة التي أرسل الله عزَّ وجلّ فيها الريح الصَّرصر العاتية على عادٍ، فقطعت دابرهم.

٤، ٥ - والليل إذا يجري ويذهب بهدوء، وتعقبه أحداثُ الإهلاكِ العُظمى المدمِّره عند الفجر لمَن يريد الله إهلاكهم، هل فيما ذكرت من الأزمنة التي جَرَت فيها هذه الأحداث، بحكمة الله وقدرته وعلمه مُكتفى في القَسَم لذي عقل يتدبَّر به ويتفكّر، ويعقل أهواءَه وشهواته؟ نعم، إنَّ من تفكّر بعقل حصيف في هذه الأزمان التي أهلك الله بها الأمم السابقة، ووقعت بها هذه الأحداث العظمى، تؤكِّد صدق الخبر بحدوث أشباهها مُستقبلاً عند وجود المقتضيات المماثلات للمقْتضيات التي حدَثت بسببها الأحداث الماضية؛ لأن سنة الله القائمة على حكمته سنة دائمة، لا تتغيَّر ولا تتبدَّل.

٦ - ٨ - ألم تر رؤيةً علميةً مُشَابهة للرؤية البصرية كيف فعل ربُّك بعاد، قبيلة «إرم»، ذات القوة والأبنية المرفوعة على الأعمدة، التي لم يُخلق مثل تلك القبيلة في الطول والقوَّة، وضخامة البناء؟

٩ - وألم تر كيف فَعَل ربُّك بثمود قوم صالح، الذين قطعوا الحجر بوادي القرى، واتَّخذوا مساكنَ في الجبال وبيوتاً؟

١٠ - وألم تر كيف فَعَل ربُّك بفرعون ملك «مصر» ذي الجنود الكثيرة، والمباني العظيمة التي تشبه الجبال؟

١١، ١٢ - هؤلاء الذين تَجَاوزوا الحدَّ في الظلم والتجبُّر في بلاد الله، فأكثروا فيها الفساد بظلمهم وعدوانهم وسيئات أعمالهم.

١٣، ١٤ - فأنزل عليهم - ربُّك - باندفاع وسرعة عذاباً مُتَتَابعاً شديداً تمَّ به إهلاكهم، كضربات السياط المتواليات، بتتابع متلاحق دون فاصل زمنيٍّ بينها، حتى كأنها سَوْط واحد ذو أجزاء متتابعة، كلما أدى جزء منه وظيفته اختفى، وجاء الجزء الذي وراءه؛ إنَّ ربَّك - يا رسول الله - لبالمرصاد يراقب مراقبة تامَّة كلَّ من يفعل مثل فعل هؤلاء المُهْلَكين، وسينزل عذابه على المجرمين اللاحقين.

١٥ - فأمّا الإنسان إذا ما امتحنه ربُّه بالنعمة، فأكرمه بالصحة وكثرة المال، وهدوء البال، والأمن، وتيسير تحقيق مطالب الحياة، فيقول: ربي فضَّلني وشرَّفني بما أعطاني ووسَّع عليَّ؛ لمزيد استحقاقي له، وكوني له أهلاً.

١٦ - وأما إذا ما امتحنه بالمكاره، فضيَّق عليه رزقَهُ، فيقول: ربي أذلَّني بالفقر، ولم يُعطني ما أستحقُّه.

١٧ - ٢٠ - ليس الأمر كذلك، لم أَبْتَله بالغنى لكرامته، ولم أبْتَله بالفقر لهوانه، بل اقْتضت الحكمة ابتلاء الأول بالتوسعة، وابتلاء الآخر بالتضييق، بل أنتم بسبب الكفر الذي جفَّف منابع الرحمة في قلوبكم لا تُكرمون اليتيم الذي مات عنه أبوه دون سنِّ البلوغ، ولا تُحسنون معاملته، ولا يحثُّ بعضُكم بعضاً على إطعام المسكين، وتأكلون الميراث بِشَرَهٍ أكلاً شديداً، فتأخذون نصيبكم ونصيب غيركم، ولا تدعون شيئاً للأيتام والمساكين، ولا تقسمون شيئاً من التركة للضعفاء وذوي الحاجات، وتحبُّون المال حباً كثيراً ولو كان زائداً عن حاجاتكم ومطالب حياتكم مهما طالت أعماركم في الحياة الدنيا.

٢١ - ٢٣ - ارتدعوا عن تلك الصفات الذميمة - من الحرص على جمع المال وحُبِّه - حتى لا تتعرَّضوا بسببها لعذاب الله، فإذا حُطِّمت الأرض وكُسِرت وكُسِر كلُّ شيء عليها حتى لا يبقى على ظهرها شيء، وجاء ربُّك لفَصْل القضاء بين خلقه، وجاءت الملائكة منتظمين صفوفاً صفوفاً، وجيءَ يوم القيامة بجهنَّم حتى تكون قريبةً من الجهة التي يجتمع فيها الكافرون، الذين سيُقضى عليهم بأن يُعذَّبوا فيها عذاباً أبدياً، يوم يُجَاءُ بجهنَّم يتذكَّر الإنسان كلَّ شيء سَلَفَ في حياته، يتذكَّر النذر والمواعظ التي وُجِّهت له في الدنيا، والحجج والبيِّنات التي كانت كافية لإقناعه، إلا أنَّ هذا التذكُّر لا ينفعه في ذكرى يُغيِّر فيها نتيجته التي تقرَّرت عليه، فقد انتهى زمن الابتلاء، وجاء زمن الحساب، وفصل القضاء، وتنفيذ الجزاء.

يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي ﴿٢٤﴾ فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٞ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٞ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ﴿٢٨﴾ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ﴿٢٩﴾ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾

سُورَةُ البَلَدِ

ترتيبها ٩٠ — آياتها ٢٠

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ﴿٢﴾ وَوَالِدٖ وَمَا وَلَدَ ﴿٣﴾ لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ ﴿٤﴾ أَيَحۡسَبُ أَن لَّن يَقۡدِرَ عَلَيۡهِ أَحَدٞ ﴿٥﴾ يَقُولُ أَهۡلَكۡتُ مَالٗا لُّبَدًا ﴿٦﴾ أَيَحۡسَبُ أَن لَّمۡ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٧﴾ أَلَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ عَيۡنَيۡنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانٗا وَشَفَتَيۡنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ ﴿١٠﴾ فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوۡ إِطۡعَٰمٞ فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ ﴿١٤﴾ يَتِيمٗا ذَا مَقۡرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوۡ مِسۡكِينٗا ذَا مَتۡرَبَةٖ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡمَرۡحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيۡهِمۡ نَارٞ مُّؤۡصَدَةُۢ ﴿٢٠﴾

سُورَةُ الشَّمۡسِ

ترتيبها ٩١ — آياتها ١٥

٢٤ ـ يقول الكافر حين يرى العذاب ـ تندُّماً على تفريطه في الدنيا ـ: يا ليتني قدَّمت إيماناً صادقاً صحيحاً، وعملاً صالحاً لأجل حياتي في الآخرة التي لا مَوْت فيها حتى أكون من الناجين من عذاب النار، ومن السُّعداء في جنة النعيم.

٢٥، ٢٦ ـ ففي ذلك اليوم: لا يُعذِّب مِثْلَ عذاب الله أحَدٌ، ولا يُوثِقُ مثْلَ وَثَاقِ الله أحدٌ. فيؤْخذ بالكافر إلى دَرَكة عذابه في جهنم، يُعذَّب فيها هذا العذاب، وهو موثوقٌ فيها لا يستطيع الخروج ولا التحوُّل.

٢٧ ـ ٣٠ ـ يا أيَّتُها النفس الثابتة على الإيمان، الخاضعة لأمر الله وطاعته، الراضية بقضاء الله، المطمئنة لنتائج عملها، لا يمسُّها الخوف والقلق من سوء المصير: ارجعي إلى ما وَعَد ربُّك من الخير والثواب، راضيةً عن الله بما أعدَّ لك، مرضيَّةً من الله جلَّ جلاله، فادخلي في جملة عبادي الصَّالحين المَرضيِّين، وادخلي جنَّتي التي أعددتُها لمُسْتَحقي دخولها بفَضْلي.

سُورَةُ البَلَدِ

١ ـ ٣ ـ أُقسم بمكة البلد الحرام؛ لشرفها وحُرمتها بالبيت المعظَّم، وأنت ـ يا رسول الله ـ مُتَّخَذٌ من كفار قومك غَرَضاً لسهام إيذائهم واضطهادهم، وهم يُحرِّمون أن يقتلوا به صيْداً، ويستحلُّون قتلك وإخراجَك من البلد الحرام، فهم بهذا قد أسقطوا من نفوسهم حُرمة هذا البلد، ولم يبق لديهم من حرمته ما يستحقُّ أن يقسم الله به من أجلهم، وأقسم بكلِّ والدٍ، وكلِّ ما وَلَده من أنسالٍ في كلِّ الأحياء المتوالدة، التي لا تدركون ظواهر خلق الله العجيبة فيها، وسيأتي زمان يُدرك فيه علماء الكون كيف تتكوَّن النُّطف في الآباء والبييضات في الأمهات، وكيف تنعقد الأجنَّة في الأرحام، وتحصل الأنسال.

٤ ـ نؤكِّد تأكيداً بليغاً أننا خلقنا الإنسان في شدَّة ومشقَّة ومُعاناةٍ، منذ نشأته إلى منتهى أمره؛ للامتحان والابتلاء في الحياة الدنيا.

٥ ـ أيتوهَّم الكافر بما لديه من قوَّةٍ وما جمعه من مال أن لن يقدر على الانتقام منه أحد؟

٦، ٧ ـ يقول هذا الكافر المغترُّ بقوَّته مُتباهياً: أفنيتُ بالإنفاق مالاً كثيراً مجتمعاً بعضه على بعض في إعداد القوى من الأنصار والعتاد. أيتوهَّم الكافر أنَّ الله لم يره، ولا يُحاسبه على الصغير والكبير؟

٨ ـ ١٠ ـ ألم نجعَل له عينين يُبْصِرُ بهما، ولساناً وشفتين ينطق بهما، ويُعبِّر عما يُريد، وبيَّنا له الطريقَيْن المُرتفعَيْن الواضحين: الخير والشر؟! فالإنسان كما لديه أدوات الحسِّ الظاهر، لديه حسٌّ باطن يُدرك به طريقَي الخير والشر، وهما النَّجْدان المُمْتدان في أرض حياته الدنيا، يختار منهما لسلوكه ما يشاء، وعليه بعد ذلك أن يتحمَّل نتائج عمله واختياره.

١١، ١٢ ـ فلا فعل ما أمره الله به، فاقتحم عَقبة نفسه، وما يشقُّ عليها من مَكاره، ولا ترك ما نهاه الله عنه، فأحجم عن اتِّباع أهوائه وشهواته. وأيُّ شيءٍ أعلمك: ما مقْدار ثواب اقْتحام العَقَبة عند الله، وما يُعينُ على تَجاوُزها؟

١٣ ـ ١٦ ـ تخليصُ الرقيق من إسار الرق، أو إطعامٌ في يوم ذي مَجَاعة عامة، صغيراً مات أبوه قبل البلوغ، بينك وبينه قرابة، أو مسكيناً ذا حاجة وافتقار شديد، قد لصق بالتراب من فقره وضرِّه.

١٧ ـ ثمَّ كان مع فعلِ ما ذُكر من أعمال الخير من الذين آمنوا بالله، وبكلِّ ما أمر الله بالإيمان به، وتواصَوْا فيما بينهم بالصَّبر على أداء جميع أوامر الله والانتهاء عن نواهيه، وتواصوا بالرحمة التي تدفع لفعل المعروف، وإقامة المجتمع الإسلامي المتعاون. أرشدت هذه الآية إلى لزوم تتبُّع الخطوات الفكريَّة للتكاليف الدينية، التي يحتاج الالتزام بتعليماتها إلى اقتحام عقبة النفس، وهذه الخطوات ينتقل المتتبِّع فيها ضمن فروع شجرة الإسلام من فرع إلى فرع، حتى يصل إلى سوقها، ثم إلى جذرها الذي تتمدَّد أجزاؤه وعناصره الإيمانية داخل عُمْق الفؤاد. وأرشدت الآية أيضاً إلى أن اقتحام عقبة النفس، بأداء التكاليف والكف عن المحرمات لا بد أن يكونا مَسْبوقَيْن بقيام جماعة مؤمنة، تتلاقى على وحدة إيمانية، يتواصى أفرادها بالصبر وبالمرحمة.

١٨ ـ أولئك الذين آمنوا، وتواصَوْا بالصَّبر، وتواصَوْا بالرحمة أصحابُ اليُمْن الذي يلازمهم، وهم أصحاب اليمين الذين يأخذون كتب أعمالهم بأيْمانهم يوم الدين.

١٩، ٢٠ ـ والذين كفروا بآياتنا الكونيَّة والتنزيليَّة هم أصحاب الشُّؤْم الذي يلازمهم، وهم أصحاب الشمال الذين يأخذون صُحُف أعمالهم يوم القيامة بشمائلهم، عليهم نار مُطبقة عليهم أبوابها، فلا مَخْرج لهم منها أبداً.

سورة الشمس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴿١﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ﴿٢﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ﴿٤﴾ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ﴿٥﴾ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ﴿٦﴾ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴿١٠﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ﴿١١﴾ إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴿١٥﴾

سورة الليل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَىٰ ﴿٣﴾ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ ﴿١١﴾ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ﴿١٣﴾ فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾

سُورَةُ الشَّمْسِ

١ ـ ٤ ـ أُقسم بالشمس، وظهور كلِّ ضوئها وَقْت إشراقها، والقمر إذا تَبِعَ الشَّمسَ في نوره الذي يبثُّه نتيجة انعكاس أشعة الشمس على سطحه الموافق لها، والنَّهار إذا كشف ظُلمة الليل وأزالها بضيائه في الوقت الذي تكون المواجهة بين الشمس والجزء المواجه لها من الأرض، والليل إذا يغطِّي الشمس حين تغيب، فتظلم الآفاق في الوقت الذي يُحجب فيه ضياء الشمس بجُرْم الأرض نفسها، لانعدام المواجهة بين هذا الجزء من الأرض وبين الشمس. وفي الإقسام بالشمس توجيهٌ لظاهرة عناية الله بسكان الأرض، في إيجاد هذا الكوكب العظيم، المُمِدِّ لأهل الأرض بالطاقة وبالضوء، وبنور القمر المنعكس من أشعة الشمس المنسكبة عليه.

٥ ـ ٨ ـ وأُقسم بالسماء وببنائها العظيم العجيب، وبالأرض وبسْطها وكرويَّتها ودورانها حول نفسها، ودورانها في مدارٍ حول الشمس، وبكلِّ نفس مُمْتَحَنة مُكلَّفة من الجنّ والإنس، وما فيها من إبداع الخالق في تَسْويتها، بجعلها كاملة الصِّفات التي تُؤهِّلها لأداء وظيفتها في الحياة، فألقى الله في النفس بعد تسويته لها معرفة سُبل فجورها، ومعرفة طريق تقْواها. فحينما تتَّجه النفس إلى سلوك طريق الفجور، تتَّجه إليه وهي عارفة بأنه طريق شر، فهي بصيرة بما تعمل، وحينما تتَّجه إلى سلوك طريق التقوى، تتَّجه إليه وهي عارفة بأنه طريق خير، فهي بصيرةٌ بما تعمل.

٩، ١٠ ـ قد فاز وظفر من طَهَّر نفسه من أدناس الرذائل الخلقيَّة والسلوكيَّة، ونمَّاها بالطاعة، وقد حُرِم وخَسِر يوم الدين من أغوى نفسه وأفسدها، وهَبَط بها وغمسها في أوْحَال الكفر والفسوق والعصيان، وأخفاها عن استقبال أنوار الهداية.

١١ ـ ١٥ ـ كذَّبت ثمودُ قومُ صالح بسبب طغيانها وعدوانها، حين اندفع وأسرع ثائراً مهتاجاً أشقىٰ القوم لقتل الناقة، فقال لهم رسول الله صالح عليه السلام لما عرف منهم أنهم قد عزموا على عقرها: احذروا عَقْر ناقةِ الله، واحذروا شُرْبها الذي اختصَّها الله به في يومها، فكذَّبوا صالحاً، فقتل أشقاها الناقة، ورضوا بذلك، فكانوا مشاركين له في القتل، فدمَّر عليهم ربُّهم، وأطبق عليهم وسائل التعذيب، وأهلكهم جميعاً بسبب جرمهم، فسوَّى الأرض فوقهم، ودفنهم، حتى لم يَبْق لأجسادهم أثرٌ ظاهر، ولا يخاف الله تَبِعَة أحدٍ في هلاكهم؛ لأنَّه حقَّق فيهم عدله.

سُورَةُ اللَّيْلِ

١ ـ ٤ ـ أُقْسم بالليل حين يُظلم في الأرض بسبب غروب الشمس عنها، وبالنهار إذا بَانَ وظهر بضيائه بعد الظُّلمة، وبخَلْق الذكر والأنثى في عالم الأحياء والنباتات، وحاجةِ كلِّ زوج منهما لزوجه، إنَّ عملكم ـ أيُّها الناس ـ لمُختلفٌ ومُتفرِّق تفرُّقاً شديداً إلى حدِّ التباين والتناقض، ما بين أعلى ذُرُوات الفضائل، وأحَطِّ دَرَكات الرذائل، وهذا لا يكون إلا إذا كانوا بخلق اللَّهِ ذوي إرادات حرة.

٥ ـ ٧ ـ فأمَّا مَنْ أنفق ماله في سبيل الله، واتَّقى عذاب الله فيما أعطى، وفي كلِّ أقواله وأفعاله الإراديَّة الظاهرة والباطنة، الجسديَّة والنفسيَّة، وأيْقَن بالشريعة الحُسْنى المُفَضَّلة في الحُسْن عن كلِّ ما سواها، فسنُهَيِّئه ونعطيه من المعونات والإمدادات بالقوى الجسديَّة والنفسيَّة ما يُهَوِّنُ عليه سُلوك الصراط المستقيم الذي يستحق به الأمور اليُسرى، مما يُكافيءُ الله بها عبده المؤمن، فيناله نصيباً منها في الحياة الدنيا، وفي البرزخ، والحشر والحساب، وينال الجزاء الأوفى الخالد في جنات النعيم.

٨ ـ ١١ ـ وأمَّا مَنْ بخل بالنفقة على الفقراء والمساكين وذوي الحاجات، واستغنى بأمواله عن ربِّه، وكذب بالملَّة الحُسنى، فَسَنُهيِّئه لاختيار الأسباب والوسائل المُسخَّرة له حتى تنتهي حياته للأمور العُسْرى، التي تُورثُ الخسران في الدنيا والآخرة، جزاء له على استغنائه عن ربِّه، وعدم إنفاق ماله في الخير، وتكذيبه بالحُسنى. وأيُّ شيءٍ يُغني عنه ماله الذي بَخل به إذا هوىٰ في جهنم؟

١٢، ١٣ ـ إنَّ علينا أن نُبيِّن طريقَ الهُدى من طريق الضلالة، حتى يعرف الناس ما هو مطلوبٌ منهم في رحلة امتحانهم في الحياة الدنيا، ولا يكون لهم عذر بالجهل، وإن الآخرة والدنيا، وكلَّ ما فيهما، ومَنْ فيهما، مِلْكٌ لنا، فنحن المُمْتَحِنون في الأولىٰ، ونحن المحاسبون والمُجَازون في الأخرى.

١٤ ـ فأعلمتكم ـ أيها الناس ـ مُخوِّفاً لكم ناراً تتوهَّج وتتوقَّد من شدَّة إيقادها، وهي نار جهنَّم.

لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾

سُورَةُ الضُّحَىٰ

ترتيبها ٩٣ — آياتها ١١

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾

سُورَةُ الشَّرْحِ

ترتيبها ٩٤ — آياتها ٨

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴿٨﴾

١٥، ١٦ ـ لا يحترق بلهبها، ولا يُقاسي حرَّها إلا الأكثر شقاء بسبب كفره عناداً وإصراراً، الذي كذَّب برسالة الرسول الحُسْنىٰ، وأدبر مُبْتعداً عن الإيمان بها.

١٧ ـ ٢١ ـ وسيُبْعَد عن هذه النار الذي بَلَغ كمال التقوى، بفعل كلِّ ما أوْجَبَ الله، وتركِ كلِّ ما حرَّم الله، الذي يُعطي ماله مُخلصاً، جاهداً في تزكية نفسه وتطهيرها، يطلب به أن يكون عند الله زاكياً، لا يطلب بما ينفقه رياءً ولا سمعة، وما لأحدٍ عنده من نعمةٍ كان قد أنعَم بها عليه يُكافئُه عليها، ولكنْ يُؤْتي مالَه طَلَبَ وَجْهِ ربِّه الأعلى ومرضاته، ولَسَوْفَ يرضىٰ بما يُعطيه اللّهُ عزَّ وجلَّ في الآخرة من الجنة والخير والكرامة؛ جزاءً على ما فعل.

سُورَةُ الضُّحَىٰ

١، ٢ ـ أقسم الله سبحانه بوقْت الضُّحى من ارتفاع الشمس حتى زوالها عن كبد السماء وسط النهار، والليل إذا سَكَنَ فاستقرَّ ظلامُه، فلا يزداد بعد ذلك.

٣، ٤ ـ ما تَركك ربُّك ـ يا رسول الله ـ منذ اختارك، ولا أبغَضك منذ أحبَّك، والذي أعطاك ربُّك في الآخرة خيرٌ لك وأعظم من الذي أعطاك في الدنيا.

٥ ـ ولَسَوْفَ يُعطيك ربُّك ـ يا رسول الله ـ عطاءً عظيماً من خَيْرَي الدنيا والآخرة معاً فترضى بما أعطاك رضاً تاماً، وقد أعطاه الله في الدنيا النصر والظفر على الأعداء، وكثرة الأتباع والفتوح، وأعلى دينه، وجعل أمته خير الأمم. وأعطاه في الآخرة الشفاعة العامة والخاصَّة، ومقاماتٍ وكراماتٍ لا يحيط بها إلا المنعمُ المنَّان.

٦ ـ ألم يَجِدْك الله يتيماً صغيراً حين مات أبوك، فَجَعل لك مأوى تأوي إليه، وضمَّك إلى مَنْ قام بأمرك، وأحسن تربيتَك؟

٧، ٨ ـ وَوَجدك غافلاً عن معالم النبوَّة وأحكام الشريعة التي لا تهتدي إليها العقول وحدها، فهداك إلى مناهجها فيما أوحى إليك، وعلَّمك منها ما لم تكن تعلم؟ وَوَجدك فقيراً لا مال لك، فأغناك، وأرضاك بما أعطاك؟

٩ ـ ١١ ـ فقابل هذه النعم الثلاث التي أنعمتُ بها عليك، بالشكر الملائم لها؛ فأمَّا اليتيم فلا تُذِلَّه ولا تُؤْذِهِ بأيِّ نوع من أنواع الأذى، وأما السائل ذا الحاجة إلى مال أو علم فلا تزجره ولا تُغلظ له القول، ولا تعبس في وَجْهه، بل أَسْعفه بمطلوبه، وأما بنعمة ربِّك التي أنعم بها عليك باصطفائك للنبوَّة والرسالة، فحدِّث، بتبليغ الناس وتعليمهم وهدايتهم إلى سلوك الصراط المستقيم، شكراً لله على ما منَّ به عليك من هداية.

سُورَةُ الشَّرْحِ

١ ـ ٤ ـ قد فتحنا لك صَدرك ووسَّعناه للإيمان والنبوَّة والحكمة، وجعلناه منبسطاً راضياً، ومتحمِّلاً لأعباء حمل الرسالة وتبليغها للناس، ومُتحمِّلاً أخلاقهم، وحَطَطْنا عنك ما أثقل ظهرك من هموم كبرى لإصلاح قومك، وإنقاذ البشريَّة من خبائثها وظلمها وفسادها، فبيَّن لك وسائل التبليغ، وأساليب التربية والإصلاح، فألقى عنك كلَّ همومك، بما أوحى إليك من تعليمات وأوامر ربَّانية توضِّح لك منهج دعوتك، وأعلَيْنا لك ـ يا رسول الله ـ ذكْرك الحسن، إذ جعلتك رسولاً، واستمرَّ عطائي لك حتى إذا ذُكرتُ ذُكرتَ معي في الأذان والإقامة والتشهُّد، وغير ذلك.

٥، ٦ ـ فإنَّ مع الشدَّة التي أنت فيها ـ من جهاد المشركين ـ يُسْراً ورَخَاءً عاجلاً، بأن يُظهرك الله عليهم حتى ينقادوا للحقِّ الذي جئتهم به، إنَّ مع العسر يُسراً كثيراً كذلك. فكن على أمل بالمستقبل، وَتَلَقَّ الأحداث الحاضرة المُؤْلمة بالرضا والتسليم، وبنفس منشرحة مشحونة بالأمل فيما سيأتي، صابرة على العُسْر الواقع، فالنفس المشحونة بأمل اليُسر القادم، يضمر لديها ألم العُسْر القائم، ومنتظر الفجر القريب لا يشعر بظلمة الليل القاتم.

٧، ٨ ـ فإذا فَرَغتَ من عمل نافع مفيد يُقرِّبك إلى الله، فاجتهد في عمل نافع جديد، وأَتْعب نفسك فيه، ولا تُخلي وقتاً من أوقاتك فارغاً، ولا تركن إلى الراحة والدَّعة، وإلى ربِّك ـ وحده ـ فتضرَّع، واجْعَل رغبتك إلى الله تعالى في جميع مطالب دنياك وآخرتك، وترفَّع عما في أيدي الناس، فهو ـ وحده ـ القادر على إجابتك وإسعافك.

سُورَةُ التِّين

ترتيبها ٩٥ — آياتها ٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ﴿٧﴾ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ﴿٨﴾

سُورَةُ العَلَق

ترتيبها ٩٦ — آياتها ١٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ﴿٦﴾ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ ﴿٨﴾ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ ﴿١٠﴾ أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ ﴿١٢﴾ أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾



سُورَةُ التِّين

١ ـ ٦ ـ أقسم سبحانه بأفضل مهابط الشرائع الإلهيَّة المُباركة، مهبط نزول الوحي على عيسى عليه السلام، وإنزال الإنجيل عليه في البقعة المباركة من فلسطين التي ينبت فيها التين والزيتون المُباركَيْن، وأقسم بطور سِيْناء مهبط نزول التوراة على موسى عليه السلام، وأقسم بهذا البلد الآمن، وهو مكة المشرَّفة مهبط وحي الله لخاتم أنبيائه ورسله محمد ﷺ. لقد خلقنا الإنسان في أعدل قامة، وأحسن صُورة، ومنحناه أكمل صفات منحناها لمن خلقنا من عبادنا، فأعطيناه مصغَّرات من العلم والإرادة الحُرَّة والعقل والتمييز والمنطق، فحالُ هذا الإنسان المُكرَّم يستدعي إنزال هذه الرسالات القيِّمة المشتملة على الدين القيِّم. ثمَّ أرجعناه ـ بمقتضى القوانين الجزائية العادلة ـ عن مرتبة التفضيل إلى أحطِّ الدَّرَكات وأخسِّها في نار جهنَّم، باختياره لنفسه الجحود والكفر والطغيان. لكن الذين آمنوا إيماناً صحيحاً صادقاً بالأركان الإيمانية الستة، وعملوا الصالحات، لهم نعيم دائم غير مقطوع، يخلُدون فيه في جنَّات النعيم، بحسب إيمانهم وصالحات أعمالهم.

٧، ٨ ـ فأيُّ شيء يحملك ـ أيُّها الإنسان ـ بعد أن خَلَقك ربُّك في أحسن تقويم، على أن تُكذِّب بالحساب والجزاء؟ أليس الله بأفضل الحاكمين الذين يحكمون بالعدل على أعمال العباد، لا يترك الخلق سُدى، فلا يُحاسبهم ولا يُجازيهم؟ وهو سبحانه مُنزَّه عن العبث، واللهو واللعب.

سُورَةُ العَلَق

١ ـ ٥ ـ اقرأ ـ يا رسول الله ـ ما أنزل الله عليك، مُفْتَتِحاً ومُستعيناً باسم ربِّك على ما تتحمَّله من النبوَّة وأعباء الرسالة، الذي خَلَق جميع الخلائق، خلق كل إنسان من قطعة دم جامد متعلِّق بالرَّحم. اقرأ ـ يا رسول الله ـ وربُّك الأكرم من كلِّ كريم الذي يمدُّك بفيوض المعارف فوق حدود المعاني التي تدلُّ عليها الألفاظ المكتوبة، الذي علَّم بالقلم الخطَّ والكتابة، علَّم الإنسان من أنواع العلم والهداية والبيان ما لم يكن يعلم، كالإدراك الحسِّي للأشياء عن طريق حواسِّه الظاهرة والباطنة، والإدراك العقليِّ القائم على الأصول الفكريَّة التي فطره الله عليها.

٦ ـ ٨ ـ زَجْراً وردعاً عن رفض الاستجابة لهذه الرسالة الربَّانيَّة المُنزَّلة؛ إنَّ الإنسان ليتجاوز الحدَّ ويستكبر على ربِّه، ويُمعن في جحوده لخالقه؛ من أجل أن رأى نفسه مُمْتلكاً الأشياء التي تجعله غنياً عن غيره، غير محتاج إلى أحد، كالمال، والقوة، والسلطان، والعلم، والصحة، والأتباع والأنصار. إنَّ إلى ربِّك وحده ـ يا رسول الله ـ المرجع في الآخرة؛ للحساب، وفصل القضاء، وتنفيذ الجزاء.

٩ ـ ١٢ ـ أرأيت ـ أيها الرائي المُتفكِّر ـ هذا الطاغي الجبَّار (وهو أبو جهل وأمثاله من الطغاة الكافرين) الذي يمنع المصلِّين عن صلاتهم، ويضْطهدهم من أجل معتقداتهم!! أرأيت ـ أيها الرائي المتفكِّر ـ إن كان المنهيُّ عن الصلاة (وهو النبيُّ محمد ﷺ ومن اقتدى به من أمته) على الهدى عقيدةً وعبادةً، أو كان اضْطهاده من أجل أنه دَعَا الناس إلى الهدى، وأمرهم باتِّقاء عذاب الله بطاعته في أوامره ونواهيه؟!

١٣، ١٤ ـ أرأيت ـ أيها الرائي المتفكِّر ـ صنفاً آخر من الناس، وهو صنفٌ اقْتَصر على التكذيب بالرسالة الربانيَّة، والابْتعاد عنها، ألم يعلم بأنَّ الله يراه، ولا بدَّ أن يجازيه على تكذيبه وإدباره عن الاستجابة لدعوة الحق الربانيَّة؟!

١٥ ـ زَجْراً وردعاً لهذا الطاغي المضل؛ والله لئنْ لم ينْتَهِ عن اضْطهاد المؤمنين الذين يعبدون ربَّهم، لنُجازيَنَّهُ بالضرب على مُقدَّم رأسه، ونقبض عليها ونجْذبه منها إلى حيث نُنزل به العذاب.

١٦ ـ ١٨ ـ جهازُ الفهم والتفكُّر ومنابع الإرادات في مُقدَّم رأسه، كاذب خاطئ يأتي الذنب متعمِّداً، فلْيَدْعُ أهل مجلسه وعشيرته، وكلَّ أنصاره مُسْتَنْصراً بهم، سَنَدْعُ ملائكة العذاب الغِلاظ الشِّداد لتعذيبه.

١٩ ـ زَجْراً وردعاً لهذا الطاغي الضال المُضل. لا تطع ـ يا رسول الله ويا كلَّ مؤمن ـ مَنْ ينهاك عن إيمانك الحقِّ، وصلاتك لربِّك، وواظب على صلاتك، واسجد لله تعالى، واقْترب بسجودك منه خضوعاً وذلاً وتضرُّعاً.

سورة القدر

سورة القدر (٩٧) آياتها ٥

بسم الله الرحمن الرحيم

إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴿٥﴾

سورة البينة (٩٨) آياتها ٨

بسم الله الرحمن الرحيم

لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾

سورة القدر

١ ـ إنَّا أنزلنا القرآن العظيم جملةً واحدةً من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا في ليلة الشَّرف والفضل، وتقدير الأمور والأحكام والأرزاق والآجال التي يُظهرها الله لملائكته ويأمرهم بتنفيذها. وليلة القدر هي إحدى ليالي العشر الأواخر من رمضان، قد أخفاها الله ليجتهد المؤمنون العابدون في التماسها طوال هذه الليالي، حرصاً على اغتنام بركاتها.

٢ ـ وأيُّ شيء يبلغ درايتك قَدرها، ومبلغ فضلها؟ إنك لا تدري مهما انطلقت سابحاً في التصوُّر مبلغ مكانة هذه الليلة العظيمة، إلا إذا أعلمناك بذلك.

٣ ـ من فضل ليلة القدر أنَّ العمل الصالح فيها أكثر ثواباً، وأعظم فضلاً من العمل في ألف شهر ليس فيها ليلة القدر، لما يُنزِّل الله فيها من الخير والبركة. فَمَنْ أحيا هذه الليلة بالعبادات والقُربات والدعاء والذكر، كتب الله له من الأجر، كما لو عَبَدَ الله وتضرَّع إليه في مُدَّة تزيد على ثلاثين ألفاً من الأيام الأخرى، وهي تعادل ثلاثاً وثمانين سنة وثلث السنة، وهذا عمر قلَّ من الناس من يَبْلُغه، فكيف بمن يعبد الله فيه طوال عمره؟!

٤ ـ تتنزَّل الملائكة بشكل مُتتابع مُتلاحق على أفواج برئاسة الرُّوح العظيم الكامل جبريل عليه السلام من منازلهم في السموات العليا إلى الأرض؛ ليشهدوا موسم الخير العظيم الذي جعله الله للمؤمنين، وليقوموا بوظائفهم وأعمالهم التي يُكلَّفونها بإذن ربِّهم من كلِّ أمر من أوامر تدبير الله لخلقه.

٥ ـ أمانٌ من الشَّرِّ والسُّوء في ليلة القدر يدوم إلى مَطلع الفجر.

سورة البيّنة

١ ـ لم يكن الذين كفروا من اليهود والنصارى وَعَبَدَة الأوثان مُنتهينَ عن كفرهم وشركهم حتى تأتيَهم الحُجَّة الواضحة التي وُعدوا بها في الكتب السابقة.

٢ ـ تلك الحُجَّة الواضحة هي محمَّدٌ ﷺ؛ رسولٌ مُرسلٌ من الله تعالى بالرسالة العامة الشاملة، يقرأ كتباً مُطهَّرة من أيدي المتلاعبين من شياطين الإنس والجن، ومن التحريف والتبديل، والباطل والكذب والزُّور، والاختلاف والشبهات. وفي هذه الآية إعجازٌ من القرآن بإخبار عن أمر غيبيٍّ، وهو كتابة هذا القرآن في الصُّحف، إذ أنه لم ينزل صحفاً، بل وحياً على قلب رسول الله ﷺ، وسيبقى محفوظاً مطهَّراً من التلاعب والتغيير.

٣ ـ في تلك الصُّحف أخبارٌ صادقة، وأحكام عادلة مستقيمة، قائمة مستقلة بالحجَّة. فكلُّ سورة من سور القرآن الكريم هي كتاب قيِّم عظيم جامع ومعجز، وكلُّ عِلم جاء به، وكل عَالَم أخبر به هو كتابٌ قيِّم، وإنَّ علومه ومعارفه لا تنتهي. فهذا القرآن يشتمل على الكتب السابقة من التوراة والإنجيل والزبور، وصحف إبراهيم وموسى عليهم الصلاة والسلام، ومن ثَمَّ حُقَّ له أن يكون أكبر معجزة لرسول الله ﷺ، شاهدة له بصدق نبوَّته، وعموم رسالته لجميع العالمين، وحجة قائمة له على جميع الأمم والأجيال على مدى الأزمان إلى يوم الدين.

٤ ـ وما تفرَّق الذين أُوتوا الكتاب من اليهود والنّصارى في أمر محمد ﷺ والكتاب القرآني الجامع للكتب القيِّمة، إلا من بعدما جاءتهم الحُجَّة الواضحة في كتبهم أنه نبيٌّ مُرسل، فكانوا مجتمعين على تصديقه ﷺ، فلمَّا بُعث تفرَّقوا في أمره واختلفوا، فآمن به بعضهم، وكفر به آخرون.

٥ ـ وما أُمِرَ هؤلاء الكفار بكلِّ أوامر التكليف التي أُنزلت إليهم، وبلَّغها رسلهم إلا لأجل أن يعبدوا الله وحده، قاصدين بعبادتهم وجْهَه، مائلين عن الأديان كلِّها إلى دين الإسلام، ويقيموا الصلاة المكتوبة في أوقاتها، ويؤدُّوا الزكاة المفروضة للمستحقِّين لها، وذلك الذي أُمروا به الملَّة المستقيمة والشريعة المتبوعة.

٦ ـ إنَّ الذين كفروا من اليهود والنصارى وعَبَدة الأوثان في نار جهنَّم، ماكثين فيها، لا يخرجون منها، أولئك البعداء عن رحمة الله المنحطُّون في الدركات هم ـ وحدهم ـ أشدُّ الخلق شراً، استحقُّوا هذا الوصف بسبب كفرهم.

٧ ـ إنَّ الذين صدَّقوا تصديقاً إرادياً قلبياً حازماً بكلِّ ما أوْجَبَ الله عليهم أن يؤمنوا به من الأركان الإيمانيَّة الستة، وعبَّروا بسلوكهم الإراديِّ في أعمالٍ باطنةٍ وظاهرةٍ عن صحَّة إيمانهم وصدقهم فيه، أولئك رفيعو الدرجة والمنزلة هم أفضل الناس وأكثرهم خيريَّةً، استحقُّوا هذا الوصف بسبب إيمانهم الصحيح الصادق، وأعمالهم الصَّالحة.

٨ - جزاؤهم عند ربِّهم يوم القيامة على ما قدَّموا من الإيمان والأعمال الصالحة، جنَّات إقامةٍ خالدة في نعيم مقيم، تجري من تحت قصورها الأنهار، ماكثين فيها أبداً، رضي الله عنهم بما عملوه من الأعمال الصَّالحة، ورضوا عنه بما أعطاهم من الخير والكرامة، ذلك الجزاء والرِّضا لِمَنْ خافَ ربَّه في الدنيا وأحبَّه وعظَّمه، وانتهى عن المعاصي، والتزم أحكام دينه القويم.

سُورَةُ الزَّلْزَلَةِ

١، ٢ - إذا تحرَّكت الأرض حركةً شديدة، واضطَربت اضطراباً عنيفاً، وذلك في أوقات مختلفة، فأول زلزالها قبيل الساعة، فتُخرج ما فيها من معادن وذهب وفضة، وعند ساعة إنهاء ظروف الحياة الدنيا، التي تأتي بعدها ساعة البعث إلى الحياة الأخرى، فيأمرها الله تعالى أن تخرج الأموات من بطنها، فتنقاد لأمر الله سبحانه..

٣ - وقال الإنسان حين وقعت الزلزلة: ما لها تزلزلت هذه الزلزلة العظيمة، وأخرجت ما في بطنها؟

٤، ٥ - يوم القيامة تُحدِّث الأرض بكلِّ ما عُمِلَ على ظهرها من خير أو شر، فتشكو العاصي، وتشهد عليه، وتشكر الطائع، وتشهد له؛ بسبب أن ربَّك أمرها بالكلام، وأذِنَ لها أن تُخبر بما عمل عليها. وفي تحديث الأرض بأخبارها دليل على ثبوت شعورها، وإدراكها لما يجري على ظهرها، فهي سوف تشهدُ يوم القيامة بما عُمل على ظهرها، وهذه الشهادة لا تكون إلا عن علم ومُشاهَدَة، فلولا أنَّ لها إدراكاً وشعوراً لما علمت، ولما تحمَّلت هذه الشهادة حتى أدَّتها يوم القيامة، فإنَّ الشهادة لا تُقبل إلا ممن تحمَّل العلمَ المشهودَ به.

جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾

سُورَةُ الزَّلْزَلَةِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾

سُورَةُ الْعَادِيَاتِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ﴿٣﴾ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ﴿٤﴾ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ ۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٩﴾

٦ - يوم تقعُ هذه الزلزلة وما بعدها من الأهوال، ينصرف الناس عن موقف الحساب بعد العرض مُتفرِّقين؛ لِيُرَوْا جزاءَ أعمالهم التي عملوها في الدنيا.

٧ - فمَنْ يعمل مقدار ذرَّةٍ خيراً ظاهراً أو باطناً من عمل قلبيٍّ أو نفسيٍّ أو جسديٍّ يكسبه بإرادته في الحياة الدنيا، يَرَ كتاب أعماله مُسجَّلاً بالصُّورة والصَّوت والخواطر والنيَّات، وينال ثواب عمله الذي عمله في الدنيا، خيراً باقياً، وسعادةً خالدة، وثواباً حسناً.

٨ - ومَن يعمل مقدار ذرَّة شراً من عمل قلبيٍّ أو نفسيٍّ أو جسديٍّ يكتسبه بإرادته في الحياة الدنيا، يَرَ كتاب أعماله مُسجَّلاً بالصُّورة والصَّوت والخواطر والنيَّات، وينال عقاب عمله الذي عمله في الدنيا.

سُورَةُ الْعَادِيَاتِ

١ - أقسم الله تعالى بالخيل الجارية بسرعة في سبيله، حين يُسمع صوت أنفاسها من سُرعة عَدْوها.

٢ - فالخيل التي تُخرج شَرَر النار من الأرض بوقع حوافرها، واندفاعها في سَيْرها.

٣ - ٥ - فالخيل تَغيرُ بفُرسانها على العدوِّ عند الصَّباح لمُباغتة الأعداء في منازلهم، فأثارت الخيول العاديات بجَرْيها السريع عند إغارتها، وضرب حوافرها على الأرض، غباراً ساطعاً في الجوِّ، يسترها ويُخفي أعدادها، ويزيد إلقاء الرُّعب في قلوب القوم الذين تُغير عليهم، فَتَوسَّطْنَ بركبانهنَّ جموعَ الأعداء، ففرَّقنها وشتَّتْنَهَا.

٦ - إنَّ الإنسان لِنِعَم ربِّه وخالقه ورازقه ومُمدِّه بَعطاءاته لكفورٌ جَحودٌ، إذ سخَّرت له الخيل بكلِّ ما فيها من صفات ملائمات لنشر ديني، وإعلاء كلمتي، فاستعمل ما سخَّرتُ له في البغي والإثم والعدوان على الآمنين.

٧ - وإنَّه على كفر النعمة وجُحودها لشهيدٌ على نفسه، يُجاهر به، ويفاخر بفعله، إذ يزعم أنَّ الغزو للسلب والنهب، والاستعلاء في الأرض، حقُّ الأقوى على الأضعف.

٨ - وإنَّ الإنسان لأجل حُبِّ المال وحرصه عليه لشديدٌ قويٌّ في البغي والظلم والعدوان.

٩ - أيفعل ما يفعل من القبائح، فلا يعلم هذا الإنسان مآله إذا أُثير وأُخرج ما في القبور من الموتى، فبُعثوا للحساب، وفصل القضاء، وتنفيذ الجزاء؟

وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴿١١﴾

سُورَةُ القَارِعَة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٣﴾ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴿٥﴾ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴿١١﴾

سُورَةُ التَّكَاثُر

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴿٧﴾ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾

١٠ ـ ومُيِّز وأُبرز ما كان مُضْمَراً في الصُّدور من النيَّات والغايات والعقائد المُستقرَّة فيها من إيمان وكفر ونفاق، وماتضمره الصدور من حب وكراهية وبغض، وحقد وحسد.

١١ ـ إنَّ ربَّهم بهم يوم البعث والحساب لعليمٌ علماً كاملاً شاملاً، لكلِّ ظواهر الأشياء وبواطنها، علمَ حضور وشهود، فيُحاسبهم على أعمالهم من الخير والشر محاسبة دقيقة عادلة، وخَصَّ يوم القيامة بالذكر، وهو عالم بهم في جميع الأزمان؛ لأنَّ الجزاء يقع فيه.

سُورَةُ القَارِعَة

١ ـ ٣ ـ المصيبة العظيمة المُفاجئة التي تَقْرع القلوب بالفَزَع والشدائد، ويموت جميع الخلائق من شدَّة صوتِ نفخة إسرافيل في الصُّور، إنها فاقَتْ جميع القوارع في الهَوْل والشدَّة، وأعظم بهَوْل أحداث القارعة إعظاماً لا تَصِلُ إليه درايتُك؛ لأنها في الشدَّة بحيث لا يبلغها فهمُ أحدٍ، وكيفما قدَّرت فهي أعظم من ذلك؟

٤ ـ إنها حادثةٌ عظيمة مَهُولةٌ تنتهي بها ظروف الحياة الدنيا، يومَ يكون الناس في انتشارهم وتفرُّقهم وتطايرهم عن سطح الأرض، منبثِّين لا أوزان لهم، طائشين في كلِّ اتِّجاه، كالفراش المنتشر المتفرِّق.

٥ ـ وتكون الجبال العظيمة الصَّلدة في تفرُّق أجزائها وتطايرها كالصُّوف المُلوَّن المندوف.

٦، ٧ ـ فأمَّا من رَجَحَت موازينُ حسناته على سيِّئاته، فهو في عيشةٍ مرضيَّة هنيئة في الجنة؛ إذ ينال في الجنة كلَّ ما يطلبه من نعيم، وفوق ما يطلبه من فيوض عطاء الله، حتى يكون راضياً، غير متكدِّرٍ من حرمانٍ أو نقصانٍ عمَّا يطلب أو يتمنَّى.

٨، ٩ ـ وأمَّا من خفَّت موازينُ حسناته على سيِّئاته، فَمُستقرُّه الذي يَستقرُّ فيه، والمكان الذي يضمُّه، جهنَّم، يهوي بها على أمِّ رأسه في مهواةٍ لا يُدرك قعرها.

١٠ ـ وأعظم بالأمر إعظاماً لا تصل إليه درايتك: ما هي هذه الهاوية؟!

١١ ـ نارٌ عظيمةٌ جداً، حامية شديدة الحرارة. نعوذ بالله وعظمته منها.

سُورَةُ التَّكَاثُر

١، ٢ ـ شَغَلتكم المُفَاخَرةُ والمُباهاةُ والمُكَاثَرة بكثرةِ المالِ والأولاد والأعوان عن طاعة الله ربِّكم وما ينجيكم من سَخَطه، حتى متُّم ودُفنتم في المقابر في مدَّة حضور مؤقَّت تنتهي بالبعث إلى الحياة الأُخرى.

٣، ٤ ـ ارتدعوا وازدجروا عن الاستكثار من التكاثر في أمور دنياكم الفانية التي ألهتكم عن أمور آخرتكم الباقية، سوف تعلمون علماً جازماً مطابقاً للواقع عاقبة تكاثركم وتفاخركم إذا نَزَل بكم الموت، ثمَّ بعد مدَّة البرزخ سوف تعلمون عين اليقين تلك العاقبة في موقف الحشر بعد البعث إلى الحياة الأخرى، إذ تُحشرون إلى قرب النار، فتشاهدونها بأعينكم.

٥ ـ ما هكذا ينبغي أن يشغلكم التكاثر والتفاخر بالأموال والأولاد، لو تعلمون علماً يقيناً أنَّ الله باعثكم بعد الموت لشغلكم ما تعلمون عمَّا أنتم عليه من التكاثر والتهالك على الدنيا، ولسَعَيتُم لآخرتكم سعياً يُحقِّق لكم النجاة من عذاب الجحيم، والظفر بجنَّات النعيم.

٦، ٧ ـ أُقسم لكم ـ أيها الناس ـ وأؤكِّد، أنَّكم سترون الجحيم بأبصاركم بعد الموت، ثم أقسم لكم وأؤكِّد أنكم ستُشاهدونها في موقف الحشر عياناً دون رَيْب.

٨ ـ ثمَّ أقسم وأؤكِّد أنكم ستُسألون سؤال تحسير وتنديم، وأنتم تُعذَّبون في نار الجحيم، عن النعيم الذي يتنعَّم به أهل الجنة وهم فيها، فتزدادون حسرةً وندامةً وألماً، على ما فاتكم من السعادة الأبديَّة بسبب كفركم وتكذيبكم، وسُلوككم سُبُل المجرمين.

فالكفار منكرو عذاب النار يتحقَّق لهم العلم بما كانوا له منكرين منذ ملامستهم عَتَبة الموت، ويرافقهم طول مدَّة البرزخ، ويُسمَّى هذا العلم **علمَ اليقين**، ثم يكون العلم عن مشاهدة ومُعَايَنَة، وهذا العلم يكون في موقف الحشر؛ إذ يحشرون إلى النار فيشاهدونها، ويُسمَّى هذا العلمُ: **عينَ اليقين**، ثم يكون العلم عن طريق الإحساس الجسديِّ حين يذوقون عذاب النار في الجحيم، ويُسمَّى هذا العلمُ: **حقَّ اليقين**، لتحقُّقه في الواقع تحقُّقاً تاماً.

والتَّلويم على التكاثر من متاع الحياة الدنيا، يتناول في هذه السورة الكافرين، لأنهم هم المخاطبون بما جاء فيها، وفيه تحذيرٌ للمؤمنين من أن يُلهيَهم التكاثر من مَتَاع الحياة الدنيا، وينسيهم كثيراً من واجباتهم، ويجعلهم يقعون في المعاصي والآثام حتى الكبائر من دون دَرَكة الكفر.

سُورَةُ العَصْرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾

سُورَةُ الهُمَزَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ﴿٢﴾ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ﴿٣﴾ كَلَّا ۖ لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ ﴿٧﴾ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴿٨﴾ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ﴿٩﴾

سُورَةُ الفِيلِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾

سُورَةُ العَصْرِ

١، ٢ ـ أقسم الله سبحانه بالوقت الذي يمرُّ به عُمر الإنسان، ويجري من غَيْب المستقبل إلى غَيْب الماضي، ولا ينتفع منه إلا لحظة الحاضر إذا انتفع منه لآخرته، إنَّ الإنسان لفي خُسْران ونُقْصان، بتضييع عمره في معصية الله، واشتغاله بالدنيا واستغراقه في طلبها.

٣ ـ إلاَّ الذين استثناهم الله من عموم الإنسان الذي هو في خسر، وهم الذين تحقَّقوا بأربع صفات: **الصفة الأولى**: الذين آمنوا بالأركان الإيمانية الستة إيماناً صحيحاً صادقاً، وهذه الصفة عنوان الارتقاء الفكري، والتَّصميم الإرادي، حول القضايا الإيمانية الكبرى، **والصفة الثانية**: عملوا الصالحات التي تشمل كلَّ عمل من أعمال الخير التي يدفع إليها الإيمان، ويدعو إليها الإسلام، وهذه الصفة عنوان الارتقاء السلوكي في الحياة، **والصفة الثالثة**: أوصى بعض المؤمنين بعضاً بالتمسُّك بالحقِّ: اعتقاداً وقولاً وعملاً، وهو يشمل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والنصيحة العامة، والدعوة إلى الله. والتواصي بالحق يخدم ركن الإيمان، وما يستدعيه من كلِّ قضيَّة حق. **والصفة الرابعة**: أوصى بعضهم بعضاً بالصَّبْر على الطاعات، والصَّبْر عن المُحَرَّمات، والصَّبْر على البلاء والمصائب، وتحمُّل الأذى في سبيل الله، والثبات على ذلك. والتواصي بالصَّبر يخدم ركن العمل الصالح، وذلك لأنَّ الأعمال الصالحة لا يقوم بها الإنسان ما لم يكن عنده من الصبر ما يحمل به عبء مخالفة أهواء النفس وشهواتها.

سُورَةُ الهُمَزَةِ

١ ـ عذابٌ شديدٌ وهلاكٌ يوم الدين في وادٍ من أودية جهنم لكلِّ عيَّاب للناس طعَّان في أعراضهم.

٢ ـ والسبب في طعنه الناس وسخريته منهم: إعجابُه بما جمع من مال كثير أحصاه وكرَّر إحصاءَه مرَّاتٍ متعدِّدة؛ حباً له وشغفاً به.

٣ ـ يظنُّ ظناً ضعيفاً توهُّمياً مع كلِّ زمن يتجدَّد له في الحياة أنَّ ماله هو الذي أبقاه عزيزاً في قومه، ذا مكانة اجتماعية رفيعة.

٤ ـ لا يُخلِّدهُ مالُه، والله لَيُطْرَحَنَّ بسبب أفعاله الفاسدة في النار التي تأكلُ اللحوم وتكسِّر العظام بعنف وشدّة.

٥ ـ وأعظم بالأمر إعظاماً لا تصل إليه درايتك ـ أيها المخاطب ـ عن حقيقة هذه النار؟ إنها نارٌ ليست كسائر النيران.

٦، ٧ ـ نار الله المُسْعَرة الشديدة اللَّهب لا تَخْمُدُ أبداً، التي تأكل كل شيء حتى ينتهي ألمها ووجعها إلى داخل القلوب.

٨، ٩ ـ إنَّ النار المُوقَدَة على الكفار مُطبقةٌ مُغلقة الأبواب، لا يستطيعون الخروج منها، مشدودون إلى عَمدٍ ممدودة، فلا حركة لهم فيها، ولا خَلاَص لهم منها. وقانا الله شرَّها، وأجارنا منها.

سُورَةُ الفِيلِ

١، ٢ ـ قد رأيت ـ أيُّها الرائي ـ عن طريق العلم اليقينيّ الخَبريّ، المُمَاثل للرؤية البصريَّة كيف فعل ربُّك بأصحاب الفيل، وهم أبْرهةُ الحبشي وجيشه الذين قصدوا تدمير الكعبة المُشرَّفة؟ فاعتبر بهذا الحَدَث التاريخي المتضمِّن سُنةً من سُنن الله في عباده. ألم يجعل مكرَهُم وسعيَهُم الباطل في تضييع وخَسار وإبطال، فلم يصلوا إلى ما أرادوا من تخريب البيت، بل رجع كيدهم عليهم، فخربت كنيستهم واحترقت، وهلكوا.

٣ ـ ٥ ـ وأرسل عليهم طيراً كثيرة متفرِّقة يتبع بعضها بعضاً، تقذفهم بحجارة من طينٍ مُتَحَجِّر مُتَصلِّب، فَجَعَلَهم كزرع وتبن أكلته الدوابُّ من نباتات الأرض، ثم راثَتْه، فيبس وتفرَّقت أجزاؤه.

وفي قصة أصحاب الفيل دلالة عظيمة على قدرة الله تعالى وعلمه وحكمته، وفيها دلالة عظيمة على شرف محمد ﷺ، ومعجزة ظاهرة له، وذلك أنَّ الله تعالى إنما فعل ذلك لنصر من ارتضاه، وهو محمد ﷺ الداعي إلى توحيده، وإهلاك من سخط عليه، فكأنه قال: أنا الذي فعلتُ ما فعلتُ بأصحاب الفيل تعظيماً لك، وتشريفاً لقدومك، وإذ قد نصرتك قبل قدومك، فكيف أتركك بعد ظهورك؟

سُورَةُ قُرَيْشٍ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴿٤﴾

سُورَةُ المَاعُونِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾

سُورَةُ الكَوْثَرِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴿٣﴾

سُورَةُ قُرَيْشٍ

١، ٢ ـ لأجل إيلاف قريش التجاري الذي تعاقدوا عليه مع قادة الأمم؛ لتأمين قوافل التجار، والسِّلع التجارية، الذي يسَّرَهُ لهم ربُّ البيت، من أجل بيته وحَرَمِهِ، والذي تمكّنوا به من محبة واعتياد واتِّصال رحلَتيْهما في الشتاء إلى «اليمن» جنوباً، وفي الصيف إلى «الشام» شمالاً؛ للاتِّجار وابتغاء الرزق وتحصيل المنافع.

٣ ـ فَلْيُخْلِصُوا العبادةَ لربِّ الكعبة المشرَّفة المُطهَّرة، بيتِ اللّٰهِ الحرام، وليشكروه على دفع الضُّرِّ عنهم، وَجَلْب النفع لهم.

٤ ـ الذي أطعمهم حامياً لهم من جوع شديد، بما هيَّأ لهم من أسباب الرزق ووسائله، وآمنهم حامياً لهم من خوف وفزع عظيم، بما هيَّأ لهم من أسباب الأمن ووسائله.

سُورَةُ المَاعُونِ

١ ـ تعجَّب ـ أيها الرائي المُؤهَّل لأن يرى ويتفكَّر ـ من حال هذا الذي يُكذِّب بقانون الجزاء الربَّاني المُعجَّل منه في الدنيا، والمؤجَّل إلى يوم الدين؟

٢ ـ تجدْ من صفات الذي يكذِّب بالدين أنه يقْهر اليتيم، ويدفعه عن حقِّه وماله بعنف وغلظة.

٣ ـ ولا يُطعم الجائع المسكين، ولا يأمر غيره بإطعامه؛ لأنه يكذِّب بقانون الجزاء الربَّاني، فتُنزع من قلبه الخشية من عقاب الله، أو الطمع بثوابه، وتنمو في نفسه الأنانية الضيِّقة، ويفقد الرحمة الحانية.

٤، ٥ ـ فهلاكٌ وعذابٌ شديد للمُصَلِّين، الذين هم عنْ صلاتهم ـ التي ورثوا بعض مظاهرها عن دين إسماعيل بن إبراهيم ـ غافلون تاركون، لا يرجون ثواباً على فعلها، ولا يخافون عقاباً على تركها.

٦ ـ الذين هم يُظهرون للناس أعمالهم؛ لينالوا المنزلة في قلوبهم والثناء عليهم، إذ هم أهلُ الحرم، وسَدَنة بيت الله، وغيرها من الوظائف الدينيَّة التي تُحقِّق لهم مصالح ومنافع دنيويَّة، ولكنهم لا ينتفعون بأعمالهم الصالحة التي يراؤون بها الناس، لأنها لم تقترن بإيمان صحيح، ولم يُبْتَغَ بها وَجْه الله عزَّ وجل. وفي الآيـة: ذمُّ الرياء، والحثُّ على العارية، وهي: تمليك منفعة مؤقَّتة بلا عوض.

٧ ـ والمكذِّبون بقانون الجزاء الربَّانيِّ يمنعون بذل المعونات اليسيرات، التي لا يعبأ الناس بمقادير قيَمها وأثمانها عن ذوي الحاجات لها من جيرانهم ومعارفهم.

سُورَةُ الكَوْثَرِ

١ ـ إنا وَهَبْناك وجَعَلنا لك ـ يا رسول الله ـ الخير الكثير في الدنيا والآخرة، ومن ذلك: النبوَّة والكتابَ والحكمة، وكثرة الأتباع، والنصر على الأعداء، والحوض المورود، والمقام المحمود، وهو الشفاعة العظمى يوم القيامة، ونهر في الجنة يمدُّ حوضه الذي تشرب منه أمَّتُهُ في موقف الحشر، حافتاه خيامُ اللؤلؤ المُجوَّف، وطينه المسك، عليه خيرٌ كثير.

٢ ـ فاعبد ربَّك الذي أعطاك هذا العطاء الجزيل، والخير الكثير، وأعزَّك وشرَّفك على كافَّة الخلق، ورفع منزلتك فوقهم، فَصَلِّ لربِّك خالصاً لوجهه، واشكره على إنعامه عليك، وانحر الإبل مُتقرِّباً إليه، وتَصَدَّق بها على المحتاجين.

٣ ـ إنَّ عدوَّك ومُبْغِضَك ـ يا رسول الله ـ هو الأقلُّ الأذلُّ المنقطعُ عن كلِّ خير، وأنت الأعزُّ الأشرفُ الأعظم. فليس محمدٌ ﷺ أبْتَرَ ـ كما زعم المشركونَ ـ إذ لم يُبْقِ الله له ولداً ذكراً، يبلغ مَبْلَغ الرجال، إنما الأبتر من لا عقب له من الخير، الخالد في الشقاء الأبدي.

وهذه الآية الكريمة تدلُّ بنصِّها على أن مُبْغِضَ رسول الله ﷺ وما جاء به من الهُدى ودين الحق منقطع عن كلِّ خير، وتدلُّ بمفهومها ولازمها على أن مُحبَّه ﷺ هو متَّصل بكلِّ خيرٍ في الدنيا والآخرة.

سُورَةُ الكَافِرُون

١، ٢ - قل - يا رسول الله - بكلِّ حزم وإصرار للمشركين الذين عرضوا عليك مفاوضاتهم التوفيقيَّة بين الإيمان والكفر : يا أيُّها الكافرون الساترون أدلة الإيمان والإسلام بعد وضوحها، المُصرُّون على كفرهم بالله. لا أعبد الذي تعبدون من دون الله من الأوثان والآلهة الباطلة؛ لأن الإيمان لا يقبل التبعيض، ولأنه حقٌّ كلُّه، ولا يقبل الاختلاط والامتزاج بالباطل، ومتى امتزج بالباطل لم يعد صحيحاً مقبولاً عند الله تعالى.

٣ - ولا أنتم عابدون الذي أعبد، وهو الله - وحده - المُستحقُّ للعبادة.

٤ - ولا أنا عابدٌ في المستقبل ما تطلبونه مني من عبادة آلهتكم الباطلة.

٥ - ولا أنتم عابدون في المستقبل ما أطلبه منكم من عبادة إلهي.

٦ - لكم كفركم الذي أصررتم عليه، ولي إخلاصي وتوحيدي الذي لا أبغي غيره، ولن أستجيب لمُساوماتكم الصُّلحيَّة على حساب دينٍ ربَّانيٍّ لا يقبل التَّنصيف ولا المُساوَمَة في مبادئه وحقائقه الاعتقاديَّة.



سُورَةُ النَّصْر

١ - إذا جاءك - يا رسول الله - نصرُ الله ومعونته على مَنْ عاداك من قريشٍ، وتمَّ لك فتح «مكة».

٢ - ورأيت الكثير من الناسِ يدخلون في دين الله زُمَراً وجماعات، القبيلة بأسرها، والقوم بأجمعهم من غير قتال.

٣ - وذلك علامة اقْتراب أجلك، وقُرب لحوقِكَ بربِّك، فنزِّه ربَّك عمَّا لا يليق بجلاله وعظيم سلطانه، تنزيهاً مقترناً بالثناء على الله بصفات كماله، وقل: «سبحان الله وبحمده»، وَصَلِّ له شكراً، واطلب مغفرته لك ولأمَّتك؛ إنَّه كان كثيرَ القَبول لتوبة عباده.

وفي الآية دليلٌ على فضيلة التسبيح والتحميد والاستغفار، حيث جعل الله تعالى ذلك كافياً في أداء ما وَجَبَ عليه ﷺ من شكر نعمة النصر والفتح. وكان ﷺ كثير الحمد والاستغفار بعد نزول هذه السورة.

سُورَةُ المَسَد

١ - أهلَكَ الله عمَّ النَّبيِّ ﷺ أبا لهب، وقد هَلَك وتحقَّق خُسْرانه فيما تكسب يداه من أموال يتقوَّى بها على حرب الرسول ﷺ ومقاومة دعوته، وفيما كسبه من أولادٍ كفرةٍ مثلِهِ يتقوَّى بهم ويعتز، وخسر في كلِّ ما يكسب من أعمال بفكره، وبلسانه، وبحركات جسده، وخسر كلَّ ذاته في النار ذات اللَّهب التي هو صائرٌ إليها لا مَحَالة.

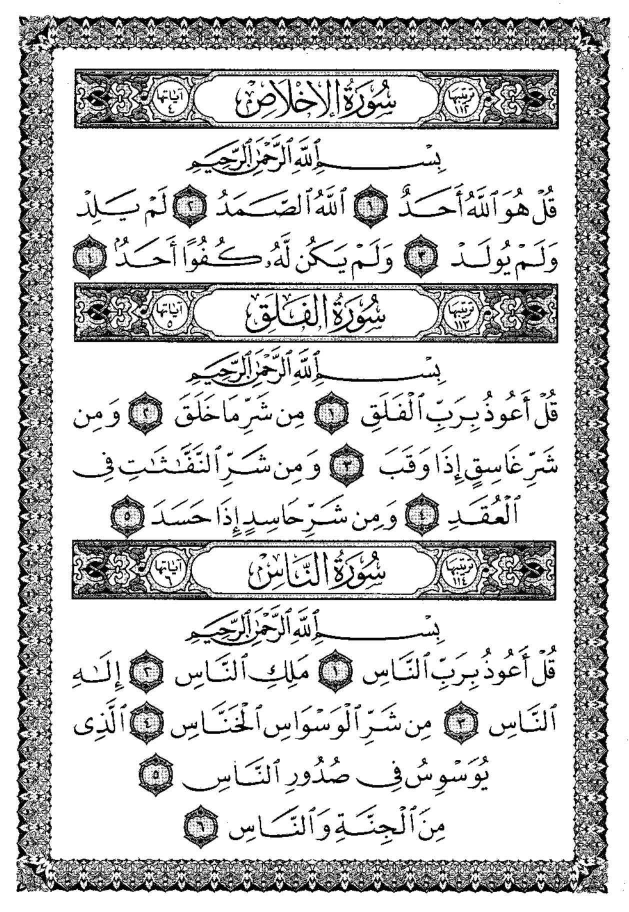
٢ - ما نفعه ماله الذي اعتزَّ به، وما نفعه ما كَسَب من أعمال، بل باء بالخَيْبة والخسران.

٣ - وإذا جاء أجلُ موته، سيُلاقي العذابَ والذلَّ والصَّغار، وسيدخل ناراً تلتهبُ عليه، تشويه بحرِّها آناً فآناً بصورة مُتكرِّرة متجدِّدة؛ بدءاً من البرزخ بين الموت والبعث، ثمَّ يكون عذابُهُ يوم الدين حريقاً بنار جهنَّم، خالداً مُخلَّداً أبداً. فلا يَخْدعنَّه من نفسه أنَّ قومَهُ رأوْا حُمرة وجهه وَوَضاءته، فكنَّوه بأبي لهَب، فإنَّ ظُلمات نفسِهِ وقلبِهِ، وكفره، وسوء عمله، ستجعل جزاءه العادل؛ العذاب بالحريق بلهب النار.

٤ - سيدخل هو وامرأته أمُّ جميلٍ بنت حرب بن أميَّة، أخت أبي سفيان، ناراً ذاتَ لهب، فهي تُعذَّب مثل عذابه؛ لأنها كانت مشاركة لزوجها في إيـذاء الرسول ﷺ، أذمُّ حمَّالة الحطب ذا الشوك الذي كانت تطرحه ليلاً في طريق النبيِّ ﷺ إيذاءً له ولأصحابه، والتي كانت تمشي بالنميمة، لِتُقْصي الناس عن الرسول ﷺ، وتقاوم دعوته.

٥ - في عُنقها حبلٌ مُحكم من ليفٍ شديد خَشِن، تُجرُّ به الدوابُ المُحتَقَرة كالحمير، فهي امرأةٌ حمقاء لا عقل لها، ولا رُشْدَ عندها، ولا تعمل إلا وَفْقَ انفعالاتها ونزَواتها الرَّعناء، كالدابَّة المُحتَقَرة التي يكفي لقيادتها حبلٌ خَشِنٌ من ليف، وسَتُطَوَّق به في نار جهنم، إهانةً وإذلالاً لها.

سُورَةُ الإِخْلاص



١ ـ قل ـ يا رسول الله ويا كلَّ مؤمن من أمّته ـ: ربِّي الذي أدعو إلى الإيمان به، وعبادتِهِ وحده، هو الله المنفرد في ذاته، وفي صفاته، وفي أفعاله، لا يشاركه فيها أحد.

٢ ـ الذي له غاية الكمال في كلِّ الصِّفات، الغنيُّ بذاته عن كلِّ شيء، المقصود ـ وحده ـ في الحوائج والمطالب.

٣ ـ لم يلد، فلم يصدر عن ذاته ذاتٌ مشتقةٌ منه، ولم يُولد، فلم تصدر ذاتُهُ عن ذاتٍ أخرى اشْتُقَّ هو منها، فهو الأولُ الذي لم يتقدَّمه والدٌ كان منه، وهو الآخر الذي لم يتأخَّر عنه ولدٌ يكون منه.

وفي هذا ردٌّ على مشركي العرب الذين زعموا أنَّ الملائكة بنات الله، وعلى النصارى الذين زعموا أن الله أبٌ لعيسى ابن مريم وأنه ابنه، وعلى مَنْ قال مثل مقالتهم.

٤ ـ ولم يكن له مِنْ خلقه مُمَاثلٌ ومُساوٍ له في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، في الماضي والحاضر والمستقبل، من الأزل إلى الأبد.

سُورَةُ الفَلَق

١ ـ قل ـ يا رسول الله ويا كُلَّ مؤمن من أمَّته ـ: ألوذُ وأعتصم مُلتجئاً بربِّ الخَلق كلِّهم، الذي يخلق خلقه وَفْق سنَّة الفَلْق، فَلَق عنها ظلمة العدم فأخرجها إلى نور الوجود. ومن خلقه: فَلْقُ الصبح؛ لأنَّ الليل ينشقُّ عن الصبح، فيظهر ضوء النهار، فالقادر على إزالة هذه الظُّلمة عن العالم قادرٌ على أن يدفع عن المُستعيذ به ما يخافه ويخشاه.

٢ ـ أستجير به سبحانه من شرِّ كلِّ ذي شرٍّ من المخلوقات التي لا يدفع شرَّها إلا خالقها.

٣ ـ ومن شرِّ ليلٍ شديدِ الظلمة إذا دَخَل وتَغَلْغَل، وما يكون فيه من الشُّرور والمُؤذيات، ومن شرِّ كلِّ شيءٍ يدخُلُ مظلماً، فينصبُّ في ثَقْبٍ، ويحمل بدخوله شراً للمدخول فيه. كالجراثيم الضارَّة المظلمة التي تدخل في مسامِّ الأجساد، وتتولَّد منها الأمراض والأسقام.

٤ ـ ومن شرِّ النفوس السَّواحر اللاتي ينفخن فيما يعقدن من عُقَدٍ بقصد السحر.

٥ ـ ومن شرِّ حاسد يتمنَّى زوال النعمة عن غيره، إذا ألحق أذىً أو ضرراً على ذي نعمة.

سُورَةُ النَّاس

١ ـ قل ـ يا رسول الله ويا كلَّ مؤمن من أمّته ـ: ألتجىءُ وأعتصمُ بخالق الناس ومُربِّيهم وَفْق نظام التربية المتدرِّج حالاً بعد حال، القادر وحده على ردِّ شرِّ الوسواس المُغري بفعل الشرور، وارتكاب المعاصي.

٢، ٣ ـ مَلِك الناس الآمر المُتصرِّف فيهم على ما يشاء، المُسْتَحِقِّ لأن يَعْبُدَهُ ـ وحده ـ جميع الناس؛ لأنه ربُّهم ومالكهم ومَلِكُهم، فلا معبودَ بحقٍّ سواه.

٤ ـ ٦ ـ أستجير به سبحانه من شرِّ الشيطان الذي يتأخَّر ويخْتفي إذا ذكر العبدُ ربَّه، فإذا غَفَل أو نسي عاد الشيطان فوسوس في صدره، الذي يُلقي في خُفْيةِ الشرَّ والشكوك في صدور الناس، من شياطين الجنِّ والإنس التي تصرف الإنسان عن سبيل الرَّشاد.

* * *

والله سبحانه أعلم بمراده وأسرار كتابه، وصلى الله وسلَّم على نبيِّنا محمد سيِّد المرسلين، وعلى آله وأصحابه، وَمَنْ دعا بدعوته، وقام بنشر سُنَّته إلى يوم الدين. هذا، وقد أتمَّ الله النعمةَ بالتوفيق لإتمام كتابة هذا التفسير المختصر في صبيحة يوم الثلاثاء ٢٩ من شهر ذي القعدة من سنة ١٤٢٢ على يد جامعه الفقير إلى الله تعالى: مَجْد بن أحمد مكّي، عفا الله عنه بمنِّه وكرمه.

ثمَّ قلَّبتُ النَّظَرَ فيه، ونقَّحتُهُ، وأعدتُ تجاربَ طباعته خمسَ مرّات، أُعدِّل في كلِّ تجربة، وأزيد وأنقص، وأغيِّر وأُبدِّل، حتى استَوْفَيْتُ العملَ بقدر الجهد البشريِّ الضعيف، سائلاً المولى سبحانه الرِّضا والقَبول، إنه أكرم مسؤول، وخيرُ مأمول. هذا، وقد انتهيتُ من تصحيح تجاربه للمرة الأخيرة في يوم الاثنين ٢٩ من شهر شعبان من سنة ١٤٢٦هـ. والحمد لله الذي بنعمته تتمُّ الصَّالحات.

الفهرس